دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله عنان

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الأول - القسم الأول

من الفتح إلى بداية عهد الناصر

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولى : 4-082-505-977

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة. ت : ٤٨٢٧٨٥١

نموذج من صفحات الجزء المخطوط من تاريخ ابن حيان المحفوظ بمكتبة جامع القرويين بفاس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تصدر اليوم الطبعة الرابعة من كتاب « دولة الإسلام فى الأندلس » ، وقد أتيح لنا بعون الله وتوفيقه ، أن نكمل تاريخ الأندلس منذ بدايته إلى نهايته ، وأن تظهر عصوره الأربعة على النحو الآتى :

العصر الأول – ويشمل تاريخ فتوح إفريقية والأندلس ، وعصر الولاة ، ثم تاريخ الدولة الأموية الأندلسية منذ قيامها فى ظل الإمارة ، ثم قيام الخلافة الأموية ، وانحلالها على يد الدولة العامرية ، ثم انهيارها وسقوطها ، وبدء قيام دول الطوائف الأندلسية : ٢٢ – ٤٥٠ هـ (٦٤٣ – ١٠٥٨ م) .

وهذا العصر ، هو الذى نقدمه اليوم إلى القارئ فى طبعته الجديدة .

العصر الثانى – « دول الطوائف » ، ويشمل تاريخ الأندلس منذ قيام دول الطوائف الأندلسية ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، حتى سقوطها على يد المرابطين فى أواخر هذا القرن : ٤٢٥ – ٥٠٢ هـ (١٠٣٣ – ١١٠٨ م) .

العصر الثالث – « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » ويشمل تاريخ هاتين الدولتين المغربيتين العظيمتين ، منذ بدايته حتى نهايته ، وتاريخ الأندلس الكبرى فى ظلهما ، ثم انهيارها عقب انهيار سلطان الموحدين فى الأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى : ٥٠٠ – ٦٦٨ هـ (١١٠٦ – ١٢٦٩ م) .

العصر الرابع – « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، ويشمل تاريخ مملكة غرناطة آخر دول الإسلام فى الأندلس ، منذ قيامها حتى سقوطها ، ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة تحت نير اسبانيا النصرانية ، بعد أن غدت طائفة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وما نزل بها من محن التنصير المغصوب ، ومختلف ضروب الاضطهاد المفجعة ، حتى إخراجها نهائياً من

الأراضى الإسبانية ، وذلك فى بداية القرن السابع عشر الميلادى : ٦٣٥ — ١٠١٩ هـ (١٢٣٧ — ١٦١٠ م) .

وقد أتيح لنا إلى جانب هذه العصور الأربعة من تاريخ الأندلس ، أن نصدر فى نفس الوقت مؤلفاً خاصاً عن الآثار والنقوش الأندلسية الباقية ، فى شبه الجزيرة الأندلسية ، وذلك بعنوان « الآثار الأندلسية الباقية ، فى اسبانيا والبرتغال » .

وتشغل هذه العصور الأربعة تسعة قرون من حياة الأمة الأندلسية ، زاخرة بالأحداث والعبر والمآسى المشجية ، لم نأل جهداً فى سردها ، وتحليلها ، وإسنادها إلى مصادرها الوثيقة .

وقد أنفقت فى كتابة هذه العصور الأربعة ، من تاريخ الأمة الأندلسية ، خمسة وعشرين عاماً ، قمت خلالها بست عشرة رحلة فى اسبانيا والمغرب ، لم أدخر خلالها وسعاً فى البحث والتنقيب ، وتقصى مختلف المصادر والوثائق ، ودراسة المخطوطات العربية ، والوثائق القشتالية ، فى مختلف مواطنها .

ولقد كان لهذا التجوال المتكرر ، فى ربوع الأندلس القديمة ، والزيارات المتعددة للقواعد الأندلسية الذاهبة ، ولاسيما القواعد الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية ، وبلنسية ، وشاطبة ، ومرسية ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وبطليوس ، وماردة ، وأشبونة ، وباجة وغرناطة ، وألمرية ، ومالقة ، وغيرها ، وهذه الدراسات المستفيضة لآثارها ونقوشها الأندلسية الباقية ، وهذه المشاهدات لطبائع الإقليم ، والبقاع ، والأوساط التى حلت فيها الأمة الأندلسية ، وعاشت عدة قرون ، ووضعت أسس حضارتها العظيمة — كان لذلك كله فى نفسى أعمق الآثار ، وقد أمدنى بكثير من الحقائق والفكر الجديدة .

وأود أن أنوه هنا ، بأنه فضلا عن استيعاب المصادر القشتالية واللاتينية القديمة ، والمصادر الغربية الحديثة ، إلى جانب المصادر العربية المختلفة العامة والخاصة ، قد أتيح لى أن أنتفع بكثير من المصادر المخطوطة الهامة ، مما عثرت عليه خلال بحوثى فى المجموعات الإسبانية (ولاسيما مجموعة الإسكوريال ومجموعة أكاديمية التاريخ) ، والمجموعات المغربية فى الرباط وفاس ، وأن أنتفع فى هذا القسم من تاريخ الأندلس ، بوجه خاص ، بثلاث قطع مخطوطة نادرة

من مؤلف ابن حيّان القيم فى تاريخ الأندلس ، وهو كتاب « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » .

القطعة الأولى — وتشمل حوادث سنى ١٨٠—٢٣٢ هـ ، أعنى عصرى الحكم ابن هشام وعبد الرحمن بن الحكم ، وتقع فى نحو مائة صفحة (ص ٨٨ — ١٨٩) من القطع الكبير ، وهى عبارة عن بداية السفر الثانى من كتاب « المقتبس » ؛ ويرجع الفضل فى انتفاعى بهذا القسم ، إلى صديقى العلامة المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، وكان قد عثر عليه فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وقد اختفى الآن هذا القسم ولا نعرف مكان وجوده .

القطعة الثانية — وهى تأتى مباشرة بعد القطعة الأولى ، وتشمل حوادث سنى ٢٣٣ — ٢٦٧ هـ ، أعنى بقية عصر عبد الرحمن بن الحكم ، ومعظم عهد ولده الأمير محمد ، والبوادر الأولى للثورة الكبرى ، وتقع فى ٩٥ لوحة أعنى مائة وتسعين صفحة من القطع الكبير ، وهى عتيقة بالية كثيرة الخروم ، متساقطة الحوافى ، مكتوبة بخط أندلسى قديم ، وقد كتب فى نهايتها « كمل السفر الثانى بحمد الله تعالى ، يتلوه الثالث ، مبتدأ نجوم عمر بن حفصون كبير الثوار بالأندلس » . وهى تحتوى على تفاصيل ومعلومات هامة عن بلاط قرطبة وأحواله فى هذ االعصر ، وعن الصقالبة والوزراء والعمال . وقد عثرت على هذه القطعة فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وحصلت منها على صورة فتوغرافية ، وانتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً ، وذلك بالرغم من صعوبة المراجعة فى هذه المخطوطة البالية[1].

ويتلو هذا القسم المخطوط الذى يشتمل على السفر الثانى من « المقتبس » ، السفر الثالث ، الذى قام بنشره المستشرق الإسبانى الأب الأوغسطينى ملشيور أنتونيا عن مخطوطة المكتبة البودلية بأكسفورد (باريس سنة ١٩٣٧) ، وهو يشتمل على عهد الأمير عبد الله بن محمد ، وحوادث الفتنة الكبرى من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٢٩٨ هـ ، قبيل عهد الناصر بعامين .

القطعة الثالثة — وهى تتعلق بأعظم اكتشاف من نوعه من كتاب « المقتبس » ،

---

(١) وقد قام صديق الدكتور محمود على مكى أخيراً بتحقيق هذه القطعة ونشرها ، وسوف تظهر قريباً .

وهو العثور على « السفر الخامس » منه المتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر .

إن هذا الاكتشاف يتعلق بأعظم قطعة مخطوطة عثر بها البحث حتى اليوم من هذا المؤلف الكبير . وقد تم العثور عليها منذ أعوام قلائل بين موجودات الخزانة الملكية بالرباط ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا الاطلاع عليها ودراسة محتوياتها دراسة وافية .

وهى عبارة عن جزء ضخم من كتاب « المقتبس » يقع فى مائة وخمسة وثمانين ورقة كبيرة تضم ٣٧٠ صفحة ، ولا يحمل المخطوط عنواناً لأنه ناقص من أوله . ولكن لا يصعب على من يعرف منهج ابن حيان التاريخى وأسلوبه النقدى ، ومصادره التى يقتبس منها ، أن يدرك لأول وهلة أنه أمام جزء كبير من المقتبس . ومن جهة أخرى ، فإنه مما يقطع بصحة هذا الاستنتاج ، ما قرأناه فى حوادث سنة ٣٢٧ هـ ، عن موقعة الخندق ، من قول المؤلف خلال حديثه عمن قتل من المسلمين فى الموقعة « وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والمحشودة ، فافترطنا فيهم إلى جدّنا حيان الأمثل طريقة أبا سعد مروان بن محمد بن حيان رحمه الله » .

ويضم هذا المجلد الضخم السفر الخامس من كتاب « المقتبس » ، وذلك حسبما ورد فى ختامه . وهو يتعلق جميعه بعصر عبد الرحمن الناصر . ومن ثم كانت أهميته البالغة ، بيد أنه مع ضخامته لا يشمل عصر الناصر كله ، وهو يبدأ من سنة ٣٠٠هـ وينتهى فى سنة ٣٥٠هـ . بل تنقص هذا السفر الخامس من « المقتبس » فى البداية نحو ستين صفحة ، وهو يبدأ بحوادث سنة « سبع وثلاثمائة » ، وينتهى بحوادث سنة ٣٣٠ هـ وإن كان يتناول أحياناً بعض الحوادث التى وقعت قبل ذلك أو بعد ذلك حتى سنة ٣٤٠ هـ .

والمخطوط قديم ، ومكتوب بخط أندلسى جميل ، ولكنه لا يحمل تاريخ كتابته[١] .

وقد قضينا فى دراسة هذا المخطوط والنقل منه فترات طويلة ، وانتفعنا

---

(١) هذا وقد كتبت عن هذا الاكتشاف بحثاً مفصلا ، نشر بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد فى المجلد الثالث عشر (سنة ١٩٦٥ — ١٩٦٦) . ثم ألقيت بعد ذلك عنه محاضرة بالإنجليزية بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن فى ربيع سنة ١٩٦٧

بمحتوياته أعظم انتفاع ، فى هذه الطبعة الرابعة من كتابنا ، وما نقلناه منه يرى الضياء لأول مرة .

وتوجد إلى جانب ذلك قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيّان فى مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة كوديرا) ، تقع فى ١٣٦ صفحة صغيرة ، وتشتمل على حوادث سنى ٣٦١ — ٣٦٤ هـ ، وهى أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وتحتوى على معلومات هامة عن الشئون المالية والإدارية فى هذا العصر .

فإذا ذكرنا بعد ذلك كله ، ما نقله الكتاب والمؤرخون اللاحقون مثل ابن بسام صاحب الذخيرة ، وابن عذارى صاحب البيان المغرب ، وابن الخطيب ، فى الإحاطة ، وأعمال الأعلام ، والمقّرى فى نفح الطيب ، من الفصول والشذور العديدة ، من تاريخ ابن حيان ، أدركنا أننا قد ظفرنا فى الواقع بقدر كبير ، وربما بمعظم محتويات هذا التاريخ العظيم الجامع ، الذى يعتبر بحق من أقيم مصادر التاريخ الأندلسى ، وأكثرها اتزاناً ، وأقواها من حيث الروح التحليلية والنقدية ، ولا سيما فيما يتعلق بحوادث سقوط الخلافة الأموية ، وأوائل عهد الطوائف ، وهو العصر الذى أدركه ابن حيان وعاش فيه ، وشهد أحداثه المثيرة ، وترك لنا عنها أبدع الصور وأقواها .

ونكتفى بهذه الإشارة إلى المصادر المخطوطة ، وهى عديدة ذكرت فى مواضعها ، وكذلك المصادر الأخرى من عربية وقشتالية وغيرها ، فقد ذكرت كذلك فى مواضعها ، وسوف نثبتها جميعاً فى نهاية الكتاب فى ثبت خاص .

وأما المصادر والنصوص والوثائق اللاتينية والقشتالية ، فقد راجعت معظمها فى مدريد ، فى المكتبة الوطنية ، وقسم المحفوظات التاريخية ، وكذلك فى مكتبة معهدنا المصرى بمدريد ، وهى تضم مجموعة نفيسة من مصادر التاريخ الأندلسى .

* * *

ولا بد لى أن أكرر هنا ما سبق أن ذكرته فى مقدمة الطبعة الأولى ، وهو أنى بذلت فى كتابة هذا المؤلف الذى يمتزج فيه تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، جهداً خاصاً لتمحيص الروايات والنصوص العربية والإفرنجية ، واستخراج الرواية الراجحة ، وتكوين الرأى المستقل مهما يكن هذا الرأى

ومما تجدر ملاحظته أن تاريخ الأندلس كتاريخ الحروب الصليبية ، يمتاز فى كثير من الأحيان بتباين واضح بين الرواية الإسلامية والرواية النصرانية ، وقد تتأثر هذه الرواية أو تلك ، بالمؤثرات القومية أو الدينية ؛ ولكن الرواية الإسلامية فيما يتعلق بتاريخ الأندلس ، تبدو على العموم أقل تحاملا ، وأكثر دقة واعتدالا . وأما الرواية النصرانية فكثيراً ما يشوبها الإغراق والتحامل ، وينقصها الإنصاف والدقة . ويرجع ذلك إلى أن الروايات النصرانية الأولى ، التى كتبت عن تاريخ اسبانيا المسلمة ، كانت من تصنيف بعض الأحبار المتعصبين ، وإلى أن مؤرخى اسبانيا المحدثين ، لبثوا حتى أواخر القرن الثامن عشر يكتبون تاريخ اسبانيا من ناحية واحدة ، ويرجعون إلى المصادر النصرانية دون غيرها ، ويجتنبون كل بحث أو تنقيب فى المصادر العربية ، وذلك بالرغم من أن تاريخ اسبانيا المسلمة يشغل أعظم مكانة فى تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ويكون صفحة من أمجد صفحاته . وقد نعى النقد الإسبانى الحديث نفسه هذا المسلك على مؤرخى اسبانيا النصرانية ، فمثلا يقول العلامة المستشرق الإسبانى جاينجوس فى مقدمة ترجمته لكتاب نفح الطيب : «إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإسبانيين تحدوهم عاطفة بغض قومى عميق ، أو نزعة تعصب دينى ، أبدوا دائماً أبلغ الإحتقار لمؤلفات العرب .. فكانوا يرفضون وسائل البحث التى تقدمها لهم الوثائق التاريخية العربية الكثيرة ، ويهملون المزايا التى قد تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية ، ويؤثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد . وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذى يطبع كتاباتهم أثر واضح . ذلك أن تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ما يزال بالرغم من كل ما أفاض عليه النقدة المحدثون ، معتركاً من الخرافة والمتناقضات» .

وقد أرسل العلامة جاينجوس هذه الصيحة منذ نحو قرن . ومع ذلك فإن فريقاً من المؤرخين والمفكرين الإسبان ، ما زال حتى عصرنا يعتبر تاريخ الأمة الأندلسية صفحة بغيضة من التاريخ القومى ، وأن القضاء على الأمة الأندلسية وعلى حضارتها إنما هو نصر قومى باهر ، وأن مطاردات ديوان التحقيق المروعة لبقايا الأمة المغلوبة ، إنما هى عمل إنقاذ وسلام . وينسى هذا الفريق أو يتناسى كل المزايا ، وكل الجهود الإنتاجية ، وكل التراث الحضارى ، وكل التقدم الإنسانى الذى

حققه المسلمون فى اسبانيا ؛ بل نجد فى العصر الحديث عالماً إسبانياً مثل المستشرق سيمونيت ، يبرر ، بل ويمجد العمل الوندلى الذى ارتكبه الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، بجمع الكتب العربية من المسلمين بعد سقوط غرناطة بقليل ، وقد بلغت زهاء مائة ألف أو تزيد ، والاحتفال بإحراقها أكداساً فى ميادين غرناطة ، لكى تحرم الأمة المغلوبة بذلك من غذائها الروحى والفكرى .

على أن البحث الغربى الحديث ، استطاع أن يستدرك كثيراً من شوائب هذا النقص ، الذى يكتنف تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، فدرست الكتب والوثائق العربية منذ أوائل القرن الماضى ، وتبوأت المصادر الإسلامية مكانها إلى جانب المصادر النصرانية ، وترجم البعض منها إلى اللغات الأوربية ، وظهرت طائفة كبيرة من الكتب والبحوث النقدية بمختلف اللغات الأوربية ومنها الإسبانية ، تكشف للغرب عن كثير من الحقائق المتعلقة بتاريخ الأندلس ، وأحوال المجتمع الإسلامى فى اسبانيا ، وتكشف بالأخص عن القسط البارز ، الذى ساهمت به المدنية الإسلامية بالأندلس ، فى بناء الحضارة الإسبانية الحديثة ، وحضارة عصر الإحياء الأوربى .

هذا وقد راعيت فى سائر فصول هذه القصة الأندلسية المشجية ، أن أسلك سبيل التبسط المعتدل ، بعيداً عن الإيجاز المخل ، بعيداً فى الوقت نفسه عن الإسهاب والتفاصيل الكثيرة ، إلا مادعت إليه المناسبات الهامة أو المواقع الحاسمة ، حريصاً خلال ذلك كله على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور فى إطارها النقدى ، الذى تدعمه الوثائق والنصوص والقرائن ، بعيداً كل البعد عن التأثر بالعاطفة أو الأهواء أو الاتجاهات القومية أو الدينية من أى نوع ، وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك ، إلى تأدية رسالة الحق والصدق والاعتدال ، فى كتابة هذه الصفحات المشرقة المؤسية معاً من تاريخ الأمة الأندلسية .

وقد حرصت إلى جانب تاريخ اسبانيا المسلمة ، أن أكتب فى نفس الوقت تاريخ اسبانيا النصرانية ، فاستعرضت منذ البداية نشأة المملكة النصرانية الأولى ، ثم تاريخ الممالك النصرانية اللاحقة ، ثم تناولت تاريخها تباعاً فى عصورها المتعاقبة ، وعنيت بعد ذلك بتتبع أحداث المعركة الأبدية المضطرمة ، التى نشبت بين الأندلس المسلمة ، وبين هاته الممالك النصرانية ، وهى التى غدت فيما بعد محور التاريخ الأندلسى

كله ، ثم تحولت من جانب اسبانيا النصرانية إلى ما يسميه المؤرخون الإسبان « معركة الاسترداد » La Reconquista ، وانتهت إلى نتيجتها الطبيعية المحتومة ، أعنى إلى القضاء على دولة الإسلام فى اسبانيا .

وهذه الطبعة الجديدة من « دولة الإسلام فى الأندلس » تتضمن بعض الإضافات والنصوص الجديدة ، التى استطعنا أن نقتبسها بالأخص من « السفر الخامس » من تاريخ ابن حيّان ، وهو الذى يتضمنه مخطوط المكتبة الملكية الذى سبق ذكره ، وقد كنا لحسن الطالع ، أول من وفق إلى مراجعته والانتفاع به . وقد نقلنا منه كثيراً من النصوص والوثائق الهامة ، ولا سيما كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة ، وكتابه عن موقعة الخندق ، وغيرهما من الوثائق الرسمية التى ترى الضياء لأول مرة فى البحوث الأندلسية . كما تتضمن هذه الطبعة فصلين جدين ينشران لأول مرة ، الأول عن نظم الحكم والأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فى عصر الإمارة والخلافة ، والثانى عن الحركة الفكرية الأندلسية .

هذا إلى ما تتضمنه هذه الطبعة أيضاً من النصوص والتعليقات الكثيرة ، المستمدة من المصادر النصرانية والقشتالية ، وهو أثر من آثار المراجعة المستمرة التى عكفت عليها فى مدريد ، خلال رحلاتى المتوالية إلى شبه الجزيرة الإسبانية .

ولقد تمنيت فى ختام مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، أن يكون صدوره « بداية مشجعة تبعث إلى اهتمام الباحثين بهذه الصفحة المجيدة من تاريخ الإسلام فى الغرب » . وإنه لما يدعو إلى الغبطة ، ما يلاحظ من تقدم الدراسات الأندلسية وانتعاشها فى العهد الأخير ، وذلك سواء فى ميدان الكتابة والتصنيف ، أو ميدان نشر الآثار الأندلسية المخطوطة ، وهو نشاط تساهم القاهرة فى قسميه بأوفى نصيب .

القاهرة فى المحرم سنة ١٣٨٩
الموافق مارس سنة ١٩٦٩

محمد عبد الله عنان

الكتاب الأول

فتوح العرب

فى إفريقية والأندلس وغاليس

وعصر الولاة فى الأندلس

٢٢ – ١٣٨ هـ : ٦٤٣ – ٧٥٥ م

الفصل الأول

فتوح العرب في إفريقية

الصراع بين الدولتين الإسلامية والرومانية . اتجاه الفتوح الإسلامية نحو الغرب . غزو برقة . جرجير حاكم إفريقية الرومانى . موقعة سبيطلة وهزيمة الروم . فتح سبيطلة عقد الصلح . إفريقية وقت الفتح الإسلامى . أحوالها فى ظل الحكم الرومانى . انتقالها إلى الدولة الشرقية . فتحها على يد الوندال . كلمة بربر مدلولها . إستعادة الدولة الشرقية لإفريقية . ضعفها وانحلالها . وقف الفتوح العربية واستئنافها على يد الدولة الأموية . موقعة حصن الأجم . إفتتاح سوسة وحصن جالولاء . ولاية عقبة بن نافع الفهرى لإفريقية . افتتاحه لأقطار المغرب . بناؤه لمدينة القيروان . ولاية أبى المهاجر الأنصارى . ولاية عقبة الثانية . مسيره ثانية إلى المغرب . ثورة البربر وقيام كسيلة بن لمزم . هزيمته للمسلمين واستيلاؤه على القيروان . ولاية زهير البلوى . زحفه على القيروان . مقتل كسيلة وافتتاح القيروان . هجوم الروم من البحر على برقة . هزيمة العرب ومقتل زهير . مسير حسان بن النعمان إلى إفريقية . غزو العرب لقرطاجنة واستيلاؤهم عليها . فقدهم إياها ثم استردادهم لها . ثورة البربر وقيام الكاهنة . القتال بين العرب والبربر . هزيمة العرب ارتدادهم إلى برقة . عود حسان إلى غزو المغرب . انصراف البربر عن الكاهنة وهزيمتها . تنظيم حكومة إفريقية وتجديد القيروان . عزل حسان وولاية موسى بن نصير . نشأة موسى وحياته الأولى . الخلاف على تاريخ توليته لإفريقية . عود البربر إلى الثورة . هزيمتهم وسحق ثورتهم . فتح موسى لطنجة . لاية طارق بن زياد لها . إنشاء موسى للأسطول . غزو العرب لجزائر البليار وصقلية وسردانية .

كان الصراع الذى نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة، وبين الدولة الرومانية الشرقية ، يضطرم حيثما تبسط الدولة الشرقية سلطانها . وكانت بسائط الشام مهاد المعارك الأولى بين الدولتين ، وكانت أول قطر غنمته الخلافة من أراضى الدولة الرومانية ؛ ثم افتتح العرب مصر بعد الشام ، وهى أيضاً ولاية رومانية ، وكان افتتاحها فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، على يد عمرو بن العاص ، وذلك فى المحرم سنة عشرين من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٤٠ م) . ولما كانت مصر تتصل من الغرب بأملاك أخرى للدولة الرومانية هى الولايات الإفريقية ، فقد كان من الطبيعى أن يتخذ العرب مصر قاعدة لافتتاح إفريقية ، توطيداً لسلطانهم فى مصر

والشام ، وإتماماً لسلسلة الفتوحات الغربية . غير أن تقدمهم نحو الغرب كان محفوفاً بمشاق وصعاب لم يألفوها فى فتوحهم الأولى ، فقضوا زهاء نصف قرن فى معارك عنيفة مع الروم (الرومان) والبربر ، وأصيبوا إلى جانب انتصاراتهم ، بأكثر من هزيمة شديدة ، وواجهوا عدة ثورات محلية عنيفة ، وانهار سلطانهم الفتىّ غير مرة ، قبل أن يستقر نهائياً فى إفريقية :

وبدأ العرب فتوحهم فى إفريقية عقب افتتاحهم لمصر مباشرة . ففى سنة اثنتين وعشرين من الهجرة ، أعنى بعد افتتاح مصر بنحو عامين ، سار عمرو ابن العاص غرباً إلى برقة ، فافتتحها وصالح أهلها على الجزية ، ثم افتتح طرابلس (أو إطرابلس) بعد أن حاصرها شهراً ولجأ سكانها إلى سفنهم فى البحر ، ولكنه تركها بعد اغتنام ما فيها[1] . وفى خلافة عثمان توغل العرب فى قفار إفريقية . وفى سنة سبع وعشرين (٦٤٧ م)[2] سار عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى خلف عمراً فى ولاية مصر إلى إفريقية فى نحو عشرين ألف مقاتل[3] ، وسارت معه حامية برقة بقيادة عقبة بن نافع ، وكان عمرو قد ولاه على تلك الأنحاء[4] . وقصد الغزاة بادئ بدء إلى طرابلس وهى يومئذ أغنى وأمنع ثغور إفريقية[5] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (طبعة لجنة ذكرى جب) ص ١٧١ ، وأبو الفداء (مصر) ج ١ ص ١٦٤ ، وابن الأثير (مصر) ج ٣ ص ١٠ .

(٢) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (ص ١٨٧) وهى أقدم رواية . ويوافقه البلاذرى ، وهو معاصر له تقريباً ، ولكنه يضيف إلى ذلك أن هناك رواية بوقوع هذه الغزوة سنة ٢٨ هـ ، وثالثة بوقوعها سنة ٢٩ (فتوح البلدان – مصر – ص ٢٢٦) . ويضع الطبرى تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٢٧ هـ متفقاً مع ابن عبد الحكم والبلاذرى (مصر ج ٥ ص ٤٨ و ٤٩) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخها فى سنة ٢٦ هـ (ج ٣ ص ٣٣) .

(٣) فتوح مصر ص ١٨٤ .

(٤) فتوح البلدان ص ٢٢٤ .

(٥) يطلق العرب اسم إفريقية على الأقطار الواقعة شمال هذه القارة دون مصر . وذكر ياقوت فى معجمه أن حد إفريقية من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً ، وعرضها من البحر إلى الرمال التى فى أول السودان (معجم البلدان فى مقال إفريقية) . وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول ، إفريقية ويمتد من حدود مصر الغربية إلى شرق الجزائر ، والثانى المغرب الأدنى ويشمل قطر الجزائر تقريباً ، والثالث المغرب الأقصى ممتداً من غرب الجزائر إلى المحيط ، ويشمل إقليم مراكش وطنجة . وكانت كلمة إفريقية تطلق أيضاً فى العصور الوسطى بمعنى أخص على إقليم تونس وما يليه .

ولكن الروم تقدموا إلى لقاء المسلمين فى مائة وعشرين ألف مقاتل[1] بقيادة جريجوريوس أو جرجير حاكم إفريقية الرومانى[2]. وتختلف الرواية الإسلامية فى أمر جرجير هذا ، ويقول البعض إنه كان من الفرنج ، وليس من الروم ، وإنه كان ملك الفرنجة فى إفريقية ما بين طرابلس وطنجة ، وإن سبيطله كانت دار ملكه . والحقيقة أن إفريقية كانت فى ذلك الحين ولاية رومانية ، تخضع لقيصر (إمبراطور) قسطنطينية ، وكان جرجير أو جريجوريوس حاكمها من قبل الإمبراطور . على أن حاكم إفريقية الرومانى ، كان يتمتع وقتئذ بكثير من الإستقلال ، نظراً لضعف السلطة المركزية فى عاصمة الدولة الشرقية . وهكذا كان شأن جرجير ، فقد كان حاكماً بأمره فى ولايته . ولما علم العرب بتحرك جرجير ، تركوا حصار طرابلس وساروا إلى لقاء الروم ، ونشبت بين الجيشين مدى أيام معارك شديدة فى ظاهر سبيطلة (سوفيتولا) بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة ، وهى عاصمة إفريقية يومئذ ، فهزم الروم هزيمة شديدة . وقتل قائدهم جريجوريوس ، وأسرت إبنته (٢٨ هـ — ٦٤٨م)[3] . ثم حاصر عبد الله سبيطلة ، وافتتحها وخربها ، وبث جيوشه فى تلك الأنحاء حتى قفصة . ثم عقد الصلح مع أهلها على أن يؤدوا الجزية . وقضى فى تلك الغزوات خمسة عشر شهراً . ولكنه لم ينشئ فى البلاد المفتوحة حكومة جديدة . ولم يتخذ بها قاعدة إسلامية . ثم عاد إلى مصر بعد أن أنشأ حامية فى برقة وأخرى فى زويلة[4] .

ويجب قبل أن نمضى فى الكلام على افتتاح إفريقية أن نذكر كلمة عما كانت عليه أحوالها وظروفها وقت الفتح الإسلامى. كانت إفريقية منذ زوال قرطاجنة القديمة ، فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن الخامس بعده ، ولاية رومانية تخضع لسلطة رومة أولا ، ثم بعد سقوطها لسلطة قسطنطينية أو الدولة

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤ — Gibbon : Roman Empire, Ch. LI,

(٢) ابن خلدون — كتاب العبر — ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) روى ابن عبد الحكم أن ابنة جريجوريوس وقعت بعد أسرها فى نصيب رجل من الأنصار ، ولكنها انتحرت أثناء الطريق (فتح مصر ص ١٨٥) .

(٤) ابن عبد الحكم ص ١٨٣ .

الرومانية الشرقية ؛ ولما غزت القبائل الجرمانية رومة واستولت على معظم أقطار الدولة الرومانية الغربية ، نفذ الوندال إلى غاليا أو غاليس (جنوبى فرنسا) ثم إلى اسبانيا ، واستقر الوندال حيناً فى جنوبى إسبانيا فى ولايات الأندلس ، التى سميت يومئذ باسمهم « ڤاندالیتا » Vandalita أو ڤاندلوسيا Vandalusia أى بلد الوندال[١] .

وكان البربر أو سكان إفريقية ، قبل الفتح الرومانى ، يدينون بالوثنية ، ولكن رومة استطاعت منذ أوائل القرن الرابع ، أن تفرض النصرانية على معظم القبائل . ويقول لنا ابن خلدون من جهة أخرى ، إن القبائل البربرية كانت وقت الفتح الإسلامى تدين باليهودية ، وإنهم تلقوها منذ أقدم العصور عن بنى إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم ، وكان من هؤلاء قبائل جبل أوراس وملكتهم الكاهنة[٢] . وكان الفتح الرومانى شديد الوطأة على القبائل المغلوبة ، وكانت النظم الإدارية والمالية التى فرضتها عليهم رومة غاية فى التعسف والشطط ، مع ما يقترن بها من اقتضاء الضرائب والمغارم الفادحة ؛ فكان البربر يتوقون إلى التخلص من نيرها ، وقد نزعوا فعلا إلى الثورة فى عهد الإمبراطور تيودوسيوس فى أواخر القرن الرابع ، ونادوا بأحد زعمائهم ملكاً عليهم ، ولكن الثورة أخفقت وأخمدت . ولما انتقلت إفريقية إلى سلطان قسطنطينية بعد سقوط رومة ، كانت قد اضمحلت ثروتها ، واضطربت نظمها ، ومزقتها الخلافات الدينية ، وضعف سلطان الدولة عليها ، وكثر الخوارج من الحكام والزعماء المحليين . وفى أوائل القرن الخامس ، عبر الوندال البحر من اسبانيا إلى إفريقية ، بقيادة ملكهم چنسريك ، وافتتحوها فى سنة ٤٢٩ م ، وعاونهم البربر[٣] حباً فى التخلص من نير رومة . ولكن الوندال عاثوا فى إفريقية أيما عيث ، وخربوا المدن والمنشآت

---

(١) سوف نفصل فى حاشية لاحقة أصول هذه التسمية وفقاً لمختلف الروايات .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) يطلق العرب كلمة « البربر » على سكان « إفريقية » أعنى من برقة إلى المحيط ، وأصل التسمية مجهول . ولكن المحقق أنها كانت موجودة قبل الفتح الإسلامى بعصور بعيدة . وترجعها الرواية اللاتينية إلى أقدم العصور . فكان يطلقها اليونانيون القدماء على الأمم ذات اللغات واللهجات المعقدة بوجه عام وحيثما وجدت ، وعلى الأمم الغريبة عن لغة اليونانيين وحضارتهم . وكان يطلقها الرومان على شعوب الإمبراطورية خلا إيطاليا وولاياتها ، ثم انتهوا إلى تحديد معنى الكلمة بإطلاقها على القبائل =

الرومانية ، واستقروا سادة فى البلاد المفتوحة مدى قرن ، عانى البربر فيه أمر ضروب العسف والطغيان . وفى سنة ٥٣٤ م بعث يوستنيان ، إمبراطور (قيصر) الدولة الشرقية قائده الشهير بليزاريوس إلى إفريقية على رأس جيش ضخم فافتتحها وحطم سلطان الوندال وأجلاهم عنها ؛ ومن ذلك الحين عادت إفريقية إلى سلطان الدولة الشرقية ، وظلت كذلك حتى الفتح الإسلامى .

وكانت إفريقية يومئذ فى حال يرثى لها من الانحلال والتفكك ، يسود الاضطراب نظمها وإدارتها ، وتمزقها الأهواء والمطامع والفتن ؛ وكانت عصور من الطغيان والجور والمصادرة قد عصفت بمواردها ، ولكن الثروات كانت مع ذلك تتكدس فى بعض الثغور والمدن ؛ وكانت الدولة الشرقية قلما تعنى بإصلاح هذه الأقطار أو إعداد وسائل الدفاع عنها ، وإنما كانت ترى فيها قبل كل شىء مورداً للكسب على نحو ما قدمنا ، فكان البربر على استعداد للتخلص من هذا النير المرهق ، ومعاونة الفاتحين الجدد .

ولكن العرب شغلوا حيناً عن متابعة الفتح حينما عصفت ريح التفرق بالخلافة الإسلامية ، ونشب الخلاف بين على بن أبى طالب ، الذى ولى الخلافة على أثر مقتل عثمان ، فى مستهل سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) ، وبين خصمه ومنافسه القوى معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، واضطرمت ثورة الخوارج التى كادت أن تزعزع أسس الدولة الإسلامية الناشئة ، وشغلت الجزيرة العربية بضعة أعوام ، بتلك الحوادث والفتن الداخلية . وكان مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى رمضان سنة ٤٠ هـ خاتمة هذا النضال المؤلم ، فآلت الخلافة إلى معاوية ، وقامت الدولة الأموية فى الشام لتفتتح فى تاريخ الإسلام عصراً جديداً .

وكانت الدولة الأموية ، تتشح إلى جانب ثوبها الخلافى ، بأثواب الملك

= المتوحشة أو المعادية خارج الإمبراطورية بأسرها . ثم حرفها العرب عند الفتح عن اللاتينية وأطلقوها على الأمم والقبائل التى تسكن إفريقية (خلا مصر) راجع (Gibbon. ibid, Chap. LI (note) ويقول ابن خلدون فى أصل هذه التسمية ، إن أحد ملوك التبابعة العرب لما غزا المغرب وإفريقية ، ورأى هذا الجيل من الأعاجم ، وسمع رطانتهم تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر . والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة (كتاب العبر ج ٦ ص ٨٩) .

الإمبراطورى ، وهكذا قدر لها أن تكون منشئة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى. وما كادت تستقر الأمور الداخلية ، حتى نشطت سياسة الفتح مرة أخرى. وكانت الخلافة فى نفس الوقت الذى تسير فيه جيوشها نحو الشمال وتقترب من عاصمة الدولة الشرقية ، تتجه ببصرها نحو الغرب ، حيث كانت فتوحها فى إفريقية ما تزال بحاجة إلى التوسع والتوطد . وهكذا وجه معاوية عنايته إلى إتمام فتح إفريقية . وكان الروم قد عادوا إلى الأرض المفتوحة عقب انسحاب العرب ، فعاد إليها الجور والإرهاق ، وأثقل كاهل البربر بما فرض عليهم من الأعباء والمغارم الجديدة ، فاتصل زعماؤهم بالعرب واستحثوهم إلى العود واستئناف الفتح . فنى سنة ٤٥ هـ (٦٦٥ م) سار معاوية بن حُديج التجيبى [1] إلى إفريقية وهزم الروم عند حصن الأجم ، وتفرق الغزاة فى مختلف الأنحاء ، فسار عبد الله ابن الزبير إلى سوسة وافتتحها ، وافتتح عبد الله بن مروان حصن جالولاء ، وافتتحت عدة أخرى من البلاد والحصون .

وفى سنة خمسين (٦٧٠ م) [2] قام العرب بأعظم فتح فى إفريقية بقيادة عقبة ابن نافع الفهرى . وكان عقبة جندياً عظيماً ، خبيراً بتلك الأنحاء والمسالك ، وكان يتولى قيادة حامية برقة منذ فتحها ، فاختاره الخليفة (معاوية) لولاية إفريقية ، وبعث إليه بعشرة آلاف مقاتل ليتم فتحها . فجاز عقبة وهاد برقة ، وتوغل غرباً حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع العواصم والثغور الإفريقية تباعاً ، وهزم جيوش الروم والبربر فى مواقع عديدة ، وتوغل فى مفاوز المغرب الأقصى ، ثم

---

(١) وذكر بعض المؤرخين أن معاوية بن حديج كان فى ذلك الحين والياً على إفريقية (ابن الأثير ج ٣ ص ١٨٤) ، وذكر البلاذرى أنه ولى بعد ذلك على مصر سنة ٥٠ هـ ، وأنه هو الذى بعث عقبة بن نافع إلى إفريقية (ص ٣٢٧) ، وذكر الطبرى أن معاوية بن حديج ولى مصر وعزله معاوية عنها سنة ٥٠ هـ (ج ٦ ص ١٣٤) . ويضع ابن الأثير تاريخ ولاية ابن حديج لمصر فى سنة ٤٧ هـ . على أن صاحب النجوم الزاهرة الذى عنى عناية خاصة بتعداد ولاة مصر يقول : إن حاكم مصر من سنة ٤٥ — ٤٨ هـ هو عقبة بن عامر الجهنى (النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٠) ، وإن الذ ليها بعده هو مسلمة بن مخلد الأنصارى ، واستمر فى ولايتها حتى سنة ٦٢ هـ ، وفى ولايته وقع فتح إفريقية الكبير .

(٢) هذه هى الرواية الراجحة ، ولكن ابن عبد الحكم يضع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٦ هـ .

أنشأ مدينة القَيْرُوان لتكون عاصمة للولاية الإسلامية الجديدة ، وحصناً للدفاع عنها ، وقاعدة لرد الروم والبربر .

ولم يمض قليل على قيام عقبة بذلك الفتح الكبير ؛ حتى عزله والى مصر مسلمة بن مخلد الذى جمع له معاوية بين حكم مصر والمغرب[١] ، وولى مكانه على إفريقية أبا المهاجر الأنصارى ، فلبث فى ولايتها عدة أعوام لم تقع فيها حوادث تذكر . ثم عزل أبو المهاجر وأعيد عقبة سنة ٦٢هـ فى بدء خلافة يزيد بن معاوية . وكانت البلاد المفتوحة ما تزال تضطرم بعوامل الخروج والثورة . وكان الروم والبربر كلاهما يترقب الفرص ، ولكن عقبة شغل عن توطيد الدولة الفتية بفتوحات جديدة ، وعاد فاخترق المغرب إلى أقصاه ، ووصل إلى ساحل المحيط هذه المرة . وهنا تقول الرواية العربية ، إن عقبة لما انتهى إلى المحيط دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره ، ، ثم قال : « اللهم إنى أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لجزت »[٢] .

فى ذلك الحين ثار البربر بقيادة زعيم لهم يدعى كسيلة بن لمزم[٣] كان قد اعتنق الإسلام وحالف العرب ثم تغير عليهم ، وانضمت إليه جموع كثيرة من الروم والبربر ، وانتهز فرصة تفرق المسلمين فى مختلف الأنحاء ، وانقض بجموعه على جيش عقبة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة هزم فيها المسلمون ، وقتل عقبة وجماعة من القادة (سنة ٦٢ هـ) وزحف كسيلة على القيروان واستولى عليها ، وارتد حاكمها زهير بن قيس البلوى بقواته القليلة إلى برقة ، وكادت بذلك تذهب دولة العرب فى إفريقية .

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ هـ) اعتزم أن يعمل لاستعادة إفريقية ، فولى عليها زهير بن قيس البلوى ، وكان منذ سقوط القيروان يتولى الدفاع عن برقة ، وأمده بجيش ضخم ، فزحف زهير على القيروان سنة ٦٩هـ (٦٨٨ م) والتقى على مقربة منها بجيش كسيلة ، فهزم البربر بعد معركة شديدة

---

(١) ويضع ابن عبد الحكم تاريخ هذا العزل فى سنة ٥١ هـ ، ويقول الطبرى إنه وقع فى سنة ٥٥ هـ (ج ٦ ص ١٣٤) .

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٩٩ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٤٢ .

(٣) هذه هى تسمية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٠) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٠٨) ولكن ابن الأثير يسميه كسيلة ابن كرم .

قتل فيها كسيلة وكثير من أصحابه ، ودخل زهير القيروان وترك فيها حامية للدفاع عنها ، وفرق جنده لإخضاع الثوار فى مختلف الأنحاء . ولكن الروم انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً ، وأمدهم قيصر قسطنطينية[1] بأسطول من صقلية ، فنزلوا فى قرطاجَنّة ثم زحفوا على برقة فى جموع عظيمة ، وعلم زهير بتلك المفاجأة ، فارتد للدفاع عن برقة ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون ، وقتل زهير ومعظم ضباطه ، وذهب المغرب من قبضة المسلمين مرة خرى .

وكان وقع هذا الخطب شديداً فى حكومة دمشق ، وكانت تشغل يومئذ بمحاربة ابن الزبير وصحبه الخوارج عليها ، فمضت أعوام أخرى قبل أن تتمكن من العناية بشئون إفريقية ، فلما انتهت الثورة وقتل ابن الزبير ، وجه عبد الملك عنايته إلى استعادة إفريقية ، فولى عليها حسان بن النعمان الغسانى سنة ٧٣ هـ[2] (٦٩٢ م) وسيره إليها فى جيش ضخم كان أعظم قوة سيرتها الخلافة إلى إفريقية ، فاخترق حسان برقة وقصد قرطاجَنة عاصمة إفريقية الرومانية ، وكانت لاتزال فى يد الروم ولم يغزها المسلمون بعد لحصانتها واتصالها بالبحر ، وقربها من صقلية حيث كانت ترسل إليها الأمداد بسرعة ، فحاصرها بشدة ثم اقتحمها واستولى عليها ، ولكن الإمبراطور سير إليها جيشاً بقيادة حاكمها يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة من القوط أرسلها ملك اسبانيا القوطى الذى أزعجه اقتراب العرب من بلاده ، فانسحب العرب وارتدوا إلى القيروان ، حتى إذا جاءتهم الأمداد أعادوا الكرة على قرطاجنة ، وهزموا الروم والقوط هزيمة شديدة ، ففروا إلى سفنهم ، وخربت قرطاجنة وهدمت حصونها القوية . ثم سار حسان غرباً وهزم الروم والبربر فى عدة مواقع ، واستعاد الإسلام سلطانه فيما بين برقة والمحيط[3] .

وعاد حسان إلى القيروان لينظم جيشه . وكان البربر والقبائل الجبلية قد

---

(١) كان إمبراطور قسطنطينية فى ذلك الحين يوستنيان الثانى ، ٦٨٥ – ٦٩٥ م .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٠٠ ؛ ولكن ابن الأثير يضع تاريخ توليته فى سنة ٧٤ هـ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٣ ، ومعجم ياقوت تحت كلمة قرطاجنة ، وكذلك : Gibbon : ibid., Chap. L

اجتمعوا منذ مقتل زعيمهم كسيلة ، فى مفاوز المغرب الأقصى ، تحت لواء امرأة من قبيلة جراوة يعتقدون فيها السحر والكهانة وتعرف بالكاهنة[1] ، وكانت تقيم ملكها فى جبل أوراس . فسار حسان لقتالها وخرجت إليه بجموعها ، فالتقيا عند نهر نيني ، ونشبت بينهما موقعة هائلة هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وقتل منهم جمع كبير ، وارتد حسان إلى برقة . وسارت الكاهنة شرقاً حتى قابس واستولت على كثير من البلاد والحصون ، وبسطت سلطانها على معظم إفريقية مدى خمسة أعوام . ولبث حسان فى برقة حتى أمده عبد الملك بالجند ، فزحف على المغرب ثانية سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) ، ولم تر الكاهنة وسيلة لوقفه إلا أن تحول البلاد إلى خراب بلقع ، فهدمت جميع المدن والحصون ، وأحرقت جميع القرى والضياع الواقعة فى طريق المسلمين ، ولكن ذلك لم يثن حساناً عن عزمه ، فتابع سيره حتى أقاصي المغرب فى وهاد ومفاوز صعبة . وكان البربر قد سئموا نير الكاهنة وعسفها ، فهرع الكثير منهم إلى حسان يطلبون حمايته ، وتفرقت جموع الكاهنة ، وأدركها المسلمون بجبل أوراس فمزقت جموعها وقتلت . واستأمن البربر على الإسلام والطاعة ، وأن يمدوا المسلمين باثنى عشر ألف مقاتل . وولى حسان جبل أوراس ابنَ الكاهنة بعد أن استوثق من طاعته ، ثم عاد إلى القيروان بعد أن سحق كل مقاومة وقضى على كل نزعة إلى الخروج والثورة[2] .

ولبث حسان بن النعمان بإفريقية حيناً ، ينظم شؤونها العسكرية والإدارية والمالية ، وينشئ الدواوين ويرتب الخراج والجزية ، ويوطد سلطان الحكم الجديد فى الثغور والنواحي . ثم جدد مدينة القيروان وأنشأ بها المسجد الجامع[3] ، ولبث

---

(١) ويسميها ابن خلدون دهيا بنت ماتية بن تيفان (ج ٦ ص ١٠٩) ويسميها بعض المؤرخين الأوربيين داميا ؛ راجع **Aschbach : Geschicchte der Omaijaden in Spanien. B. 1.21**

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ . وفى روايته من حيث التاريخ شيء من التناقض ، فهو يؤرخ غزوة حسان الأولى وفتح قرطاجنة بسنة ٧٩ هـ ثم يؤرخ حرب الكاهنة للمرة الثانية بعد أن يذكر أنها لبثت تحكم إفريقية خمسة أعوام بسنة ٧٤ هـ — ولعل هذا تحريف فى النقل أو الطبع ، إذ يقتضى ان يكون هذا التاريخ طبقاً لرواية ابن خلدون هو سنة ٨٤ هـ . ولكن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواية وثيقة يؤرخ غزوة حسان الأولى بسنة ٧٣ هـ ويؤرخها ابن الأثير بسنة ٧٤ هـ — وينقض رواية ابن عبد الحكم عن مقتل الكاهنة تاريخ هذه الواقعة (ص ٢٠١) .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ ، وابن عبد الحكم ص ٢٠١ .

فى منصبه حتى توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) فخلفه ابنه الوليد بعهد منه ، وولى عمه عبد الله بن مروان على مصر ، فعزل حساناً عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير اللخمى ، وكانت إفريقية تابعة لمصر فى شؤون الحكم والولاية كما بينا . وكانت ولاية موسى بن نصير لإفريقية سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

ويجب قبل أن نمضى فى الكلام عن حوادث إفريقية ، أن نقول كلمة عن الرجل الذى قدر أن يجوز الإسلام على يديه لأول مرة إلى القارة الأوربية ، وأن يكتب فيها صفحة من أمجد صفحاته . كان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب . ومع أن الرواية الإسلامية تتبع حياته بإفاضة منذ ولايته لحكم إفريقية ، فإنها لا تقدم إلينا عن نشأته وحياته الأولى تفاصيل شافية ، شأنها نحو كثير من زعماء الإسلام فى القرن الأول من الهجرة . بيد أننا نعرف مع ذلك أنه من التابعين ، وأنه ولد سنة ١٩ هـ فى خلافة أمير المؤمنين عمر ، فى قرية من قرى الجزيرة ، أو ببوادى القرى فى شمالى الحجاز على قول آخر . وأما عن نسبته ، فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر بن وائل ، وان أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد فى موقعة عين التمر (سنة ١٢ هـ)[١] . وقيل إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بنى لخم ، وان أباه نصيراً كان على حرس معاوية بن أبى سفيان . ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فأعتقه[٢] .

وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر الرواية سوى القليل . وكل ما نعرفه منها أنه تقلب فى بعض المناصب الحربية والإدارية الهامة ، قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقية ، وأنه قاد بعض الحملات البحرية فى عصر معاوية بن أبى سفيان ، وغزا قبرس وغيرها من الجزر القريبة[٣] . وفى بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان حينما ولى أخاه بشراً على البصرة فى سنة ٧٣ هـ ، وكان يتولى قيادة الجند

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٢ ، و « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » ص ٣ ، وأبو المحاسن فى النجوم الزاهرة (مصر) ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٧٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٠٩ ، والبلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٥ .

بمصر ، ندب موسى بن نصير لمعاونته ، وكان يومئذ بمصر فى خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه ، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر أيام ولايته للبصرة . فلما وُلىّ الحجاج حكم العراق فى سنة ٧٥ هـ ، اتهم موسى باختلاس أموال البصرة ، ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل عبد العزيز ابن مروان ، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر ، وهرع إليه موسى مستجيراً به . ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان ، ولبث بها يتبوأ لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكماً لإفريقية[1] .

وتختلف الرواية فى تاريخ ولاية موسى بن نصير لإفريقية اختلافاً بيناً ، فالبعض يقول إنها كانت فى سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ فى عهد عبد الملك ، ويقول البعض الآخر إنها كانت فى سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ فى عهد ابنه الوليد[2] ؛ ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثانى لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث فى إفريقية ، ولأن معظم الروايات تجمع على أن حسان بن النعمان والى إفريقية لبث على ولايتها حتى وفاة عبد الملك ، وقد توفى عبد الملك فى شوال سنة ٨٦ هـ . وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد توفى قبل ذلك سنة ٨٥ هـ ، وندب عبد الملك ولده عبدالله أميراً

---

(١) وردت هذه التفاصيل فى كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة . ومع أن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك ، فإن الكتاب يتضمن كثيراً من الأخبار والتفاصيل المفيدة عن رجالات الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية (راجع الكتاب المشار إليه — طبع مصر — ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها) . وقد اعتبره المستشرق الإسبانى جاينجوس **Gayangos** قديماً وصحيحاً ، وإن كان يشك فى نسبته لابن قتيبة لعدة أسباب وجيهة ؛ وانتفع به المستشرق الألمانى ڤايل **Weil** ، والمستشرق الإيطالى أمارى **Amari** . ويرى دوزى أن الكتاب غير قديم وغير صحيح ، وأنه يحتوى على أخطاء تاريخية وروايات خيالية غير معقولة ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون ابن قتيبة صاحب هذا التصنيف الضعيف ؛ ويرى المستشرق هاماكر ويوافقه دوزى أن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التاريخية الحماسية (مثل الكتب التى نسبت للواقدى) ، قد ألفت أيام الحروب الصليبية لبث الحماس فى نفوس المسلمين ، وتذكيرهم بمجد أسلافهم وبطولتهم الخارقة . راجع دوزى :

Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne au moyen âge ; V.I. p. 21

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (ص ٢٠٣) ، ويتبعه صاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٦٢) ، وابن الأبار فى الحلة السيراء (ليدن ص ٧٠) ، والحميدى فى جذوة المقتبس (مصر ص ٣١٧) ، والنجوم الزاهرة (ج ١ ص ١٨٨) ، ويقول بالثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ١٤٤ و ٢٠٦) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٧٦) . وابن عذارى فى البيان المغرب (ج ١ ص ٢٣)

على مصر ، فدخلها فى جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل . وعزل عبد الله ، حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير . وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال فى سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل ، وسيره عبد العزيز ابن مروان فى سنة ٨٤ هـ إلى برقة ، فافتتح درنة وسبى من أهلها جموعاً غفيرة . وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم ، يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت . فما كاد موسى يلى الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير فى الحكم ، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته . وسرعان ما سحقت الثورة فى كل ناحية ، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد ، ودوخ هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار إلى طنجة وهى آخر معقل اعتصم به الثوار ، ولم يكن غزاها العرب بعد ، فافتتحها ، وولى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد الليثى ، وأثخن فى مفاوز المغرب الأقصى ، وطهرها من العصاة والمتآمرين ، وأحرز فى تلك الغزوات من الغنائم والسبى ما لا يحصى . واستمال إليه وجوه القبائل ، وحشد فى جيشه آلافاً من البربر المسالمين ، واهتم بنشر الإسلام بين البربر اهتماماً عظيماً ، فأقبلوا على اعتناقه وذاع بينهم ذيوعاً كبيراً ، وهبت ريح من الأمن والسكينة على البلاد المفتوحة .

وكان الروم (الرومان) بعد أن أخفقوا فى الحرب البرية ، ويئسوا من استرداد إفريقية ، قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها ، فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة (بناء السفن) على مقربة من أطلال قرطاجنة ، وأنشأ أسطولا ضخماً لحماية الثغور . وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى فى تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام ، وسير موسى ابنه عبد الله فى السفن إلى الجزر القريبة فغزا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطى ، وافتتح مَيُورقة ومِنُورقة (٧١٠ م) ولكنه لم يكن فتحاً مستقراً[1] . وسارت

---

(١) تعرف هذه الغزوة بغزوة الأشراف لكثرة من اشترك فيها من أكابر المسلمين . وورد فى كتاب « الإمامة والسياسة » أن هذه الغزوة التى قادها عبد الله بن موسى كانت خاصة بصقلية لا بميورقة (ج ٢ ص ٧٣) .

حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت فى ثغورها ، وعادت مثقلة بالسبي والغنائم . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمالى إفريقية كله فى البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة(١) الواقع فى نهاية البحر الأبيض المتوسط شرقى طنجة ، وكانت يومئذ من أملاك اسبانيا ، ويحكمها زعيم من القوط أو الفرنج يدعى الكونت يوليان . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها ، أن ترد هجمات العرب ، رغم مجاورتهم لها من الجنوب والغرب ، وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين . على أن مشاريعه فى الفتح لم تكن تقف عند سبتة بل كانت تجاوزها إلى ما وراء ذلك البحر الشاسع ، الذى عرف العرب كثيراً عن شواطئه الشرقية والجنوبية ، ولكنهم لم يعرفوا بعد شيئاً أو لم يعرفوا سوى القليل عن شواطئه الشمالية والغربية : أجل ، كان موسى يتوق إلى افتتاح ما وراء ذلك البحر من الممالك والأمم المجهولة .

---

(١) ومقابلها الإفرنجى هو **Ceuta**

الفصل الثانى

إسبانيا قبل الفتح الإسلامى

أصل القوط . نزوحهم من الشمال إلى الجنوب . عبورهم نهر الدانوب . يهزمون الإمبراطور ديسيوس . هزيمتهم على يد الإمبراطور قسطنطين ثم الإمبراطور ڤالنس . زحف الهذن على القوط . دخولهم فى طاعة الإمبراطور . ثورة القوط فى عهد هونوريوس . زعيم القوط ألاريك . عقدهم الصلح مع الإمبراطور واندماجهم فى الجيش الرومانى . استقرارهم فى غاليس . ڤاليا أول ملوكهم . تيودريك الأول يعاون الدولة فى محاربة آتيلا . تيودريك الثانى يفتتح إسبانيا من يد الوندال . قيام مملكة القوط فى اسبانيا . اعتناقهم للنصرانية . اسبانيا وقت الفتح الإسلامى . المجتمع الإسبانى . استئثار القوط بالسيادة والثراء . نفوذ رجال الدين . بؤس الشعب وانحلال الجيش . ركون القوط إلى الرفاهة والدعة . يهود إسبانيا . اضطهاد الكنيسة لهم وإرغامهم على التنصير . محاولتهم للثورة والمبالغة فى إرهاقهم . ملك القوط وتيزا والخوارج عليه . تفرق المملكة ونشوب الثورة . مقدم العرب إلى شواطىء الجزيرة . محاصرة العرب لسبتة . زعيم الثورة ردريك . الحرب بينه وبين وتيزا . مقتل وتيزا واستيلاء ردريك على الملك . الكونت يوليان حاكم سبتة والخلاف فى شأنه . الاتفاق بينه وبين وتيزا على الاستنجاد بالعرب . قصة فلورندا إبنة الكونت يوليان . أقوال الرواية الإسلامية فى شأنها . إنكار الرواية الإسبانية لصحتها . ما يرجحها فى نظ التاريخ .

كانت اسبانيا(١) فى الوقت الذى امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطىء القريبة منها ، وإلى الجزر المجاورة لها ، خاضعة لنير القوط . وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون كإفريقية ، ولاية رومانية تخضع لسلطان رومة . فلما اضمحل سلطان رومة ، وغزتها القبائل البربرية الجرمانية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ،

---

(١) لا يستعمل العرب اسم « اسبانيا » للإشارة إلى شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم ، وإنما يطلق العرب اسم « الأندلس » على شبه الجزيرة كلها (راجع الروض المعطار — مصر — ص ١) . وفى بعض الروايات العربية أن التسمية نسبة لملك من الرومان اسمه إشبان بن طيطش غلب الأفارقة على ملك الأندلس ، وباسمه سميت إشبانية . وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فحرف وأنه هو الذى بنى إشبيلية ، وأن « اشبانية » كانت تطلق على إشبيلية التى كان ينزلها إشبان هذا . ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله ، فالعجم يسمونه إشبانية (نفح الطيب عن الرازى ج ١ ص ٦٧) ؛ وذكر ابن حيان أن الإشبانيين ينسبون إلى إشبان وفسر منشأهم بخرافة دينية (نفح الطيب ج ١ ص ٦٩) . ولم تنفرد الرواية الإسلامية بذكر « إشبان Espan » هذا ولكن تذكره أيضاً رواية ألفونسو العاشر القشتالية ، فتقول لنا انه ابن أخ للملك هرقل ، وأنه هو الذى عمر جزيرة قادس واتخذها مقراً له . راجع :

Primera Crónica General de Espana (Ed. Pidal) Vol, I. p. 10

اقتسمت هذه القبائل أملاك رومة الغربية ، واستولت على إيطاليا وفرنسا واسبانيا وكانت اسبانيا من نصيب القوط .

والقوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية . التى هبطت من شمال أوربا ، وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية . وتقول الأساطير القديمة إنهم نزحوا من اسكندناوة ، وهى رواية يؤيدها كثير من القرائن والشواهد . ويذكر المؤرخ تاسيتوس أنهم كانوا منذ ظهور النصرانية إلى أواخر القرن الثانى ، يسكنون شواطىء البلطيق الجنوبية ، وأن قبائل عديدة من الوندال كانت تسكن على ضفاف نهر «أودر» . وهنالك من المشابهات بين القوط والوندال ، فى الدين والعادات والأخلاق والتقاليد ، ما يدل على أنهما يرجعان فى الأصل إلى شعب أو جنس عظيم واحد . وفى عهد الإمبراطور اسكندر سيفروس (٢٢٢ — ٢٣٥ م) ظهرت طلائع القوط فى ولاية «داسيا»[١] الرومانية ، وأغارت على بعض مدنها ، وكان هذا نزوحهم الثانى حيث استقروا عندئذ فى إقليم « اليوكرين » . وفى عهد الإمبراطور ديسيوس عبروا نهر الدانوب وخربوا ولاية ميزيا[٢] الرومانية ، ثم تقدموا إلى قلب البلقان ، فسار ديسيوس لقتالهم ولكنه هزم ومزق جيشه (٢٥٠ م) وسار القوط إلى اليونان فعاثوا فيها وخربوها . ولم ينقطع عيثهم حتى نشط الإمبراطور قسطنطين الكبير لقتالهم ورد عدوانهم ، فحاربهم فى عدة مواقع وهزمهم هزيمة شديدة ، وردهم إلى أقاصى داسيا (سنة ٣٢٢ م) وفرض عليهم شروطاً فادحة . ثم حاربهم الإمبراطور ڤالينس قيصر قسطنطينية وهزمهم فى سنة ٣٦٩ م . وفى سنة ٣٧٥ م زحف الهون من المشرق على القوط ومزقوهم ، ففروا إلى ضفاف الدانوب واستغاثوا بالإمبراطور وطلبوا الدخول فى طاعته ، فأجابهم إلى ذلك ، واستقروا حيناً فى ولاية تراقية ، ولكنهم ثاروا مراراً من جراء قسوة الحكام الرومانيين وعسفهم[٣] .

وفى عهد الإمبراطور هونوريوس ، قام القوط بثورة أعظم وأبعد أثراً بقيادة زعيمهم « ألاريك » ، وخربوا تراقية واليونان ، ثم عبروا إلى إيطاليا

---

(١) كانت ولاية داسيا تقع فى شرق حوض الدانوب وتشغل مكان رومانيا والمجر .

(٢) كانت ولاية ميزيا تقع فى وسط البلقان وتشغل مكان بلغاريا الحديثة .

(٣) Gibbon, ibid. Chap X, XIV & XXV

وافتتحوا رومة ونهبوها (سنة ٤١٠م) . ولكن زعيمهم ألاريك توفى فى نفس هذا العام فارتدوا إلى الشمال . ثم عقدوا الصلح مع الإمبراطور ، واندمجوا فى الجيش الإمبراطورى ، وقاموا بقمع الثورات المحلية فى غاليا أو غاليس[1] (جنوبى فرنسا) وشمالى إسبانيا ، ثم استقروا فى أواسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهرى اللوار والجارون ، واتخذوا تولوز (تولوشة) عاصمة لهم . وأقطع الإمبراطور ملكهم «ڤاليا» حكم هذا القطر ، وقامت بذلك مملكة قوطية تابعة للدولة الرومانية . وعاون القوط الدولة على محاربة الوندال والآلان والسوابيين[2] ، وعاونها بالأخص ملكهم تيودريك الأول ولد ألاريك ، على هزيمة آتيلا التترى وبرابرته الهون فى موقعة شالون (سنة ٤٥١ م) . ثم عبر خلفه وأخوه تيودريك الثانى إلى اسبانيا ، لانتزاعها من الوندال والسوابيين المتغلبين عليها ، مشترطاً على الدولة أن يحتفظ بما يفتتحه من اسبانيا لنفسه ولعقبه . وحارب الوندال والسوابيين وهزمهم (سنة ٤٥٦ م) ، وافتتح اسبانيا ما عدا ركنها الشمالى الغربى (جليقية) ، الذى استعصم به الوندال حيناً . ولم تأت نهاية القرن الخامس حتى ملك القوط شبه الجزيرة كلها ، وامتد ملكهم من اللوار إلى شاطىء اسبانيا الجنوبى . ولكن الفرنج غزوهم من الشمال ، وأجلوهم عن فرنسا فى أعوام قلائل ، فاستقروا فى اسبانيا ، واتخذوا طليطلة دار ملكهم ، ووضعوا لمملكتهم الجديدة نظماً وقوانين خاصة ، تتأثر بروح الحضارة والأنظمة الرومانية ؛ وكانوا أيضاً قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع ، كما اعتنقها الوندال وغيرهم من الشعوب البربرية ، التى تقاسمت تراث رومة وأملاكها . ولبث القوط زهاء قرنين سادة لإسبانيا حتى الفتح الإسلامى[3] .

---

(١) هكذا يسميها ابن الأثير . ويسميها البكرى ، «بلاد غاليش» وهو اسمها الرومانى : La Gaule

(٢) ويبدى ابن خلدون دقة فى تسمية هؤلاء البربر ، فيسميهم «القندلس والآبيون والشوابيون» (ج ٢ ص ٢٣٥) .

(٣) يقدم المؤرخون المسلمون عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى روايات غامضة أكثرها خرافى . ولكن بعضها يقترب من التاريخ . فابن الأثير مثلا يشير فى روايته عن القوط إلى غزوهم لمقدونية ومحاربة قسطنطين الأكبر لهم . ثم يذكر زعيمهم «ألريق» (ألاريك) وكيف غزا رومة ، وكيف استقر القوط أولا فى غاليس (أى غاليا) ثم انتقلوا إلى اسبانيا . غير أنه يذكر ثبت ملوكهم —

ولنعرض بعد ذلك إلى حالة اسبانيا وقت الفتح . كانت المملكة القوطية تجوز دور انحلالها قبل ذلك بأمد طويل ، وكان المجتمع الإسبانى يعانى صنوف الشقاء والبؤس ، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار . ولم يكن القوط فى الحقيقة أمة بمعنى الكلمة ، فإنهم لم يمتزجوا بسكان الجزيرة ، ذلك الامتزاج الذى يجعل الغالب والمغلوب ، والحاكم والمحكوم ، أمة واحدة . بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة ، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة ، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف. أما سواد الشعب الأعظم ، فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال ، وزراع شبه أرقاء يلحقون بالضياع ، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة والموت . وإلى جانب السادة والأشراف ، يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ ؛ ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم ، وكان للأحبار عليهم أيما تأثير ، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم ، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية ، وفقاً لمثل الكنيسة وغاياتها . ثم استغلوا هذا النفوذ فى إحراز الضياع وتكديس الثروات ، واقتناء الزراع والأرقاء . وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجمع فى أيدى فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين ، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة ، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار .

أما الشعب فقد كان فى حالة يرثى لها من الحرمان والبؤس ، يعانى أمر ضروب الظلم والعسف والإرهاق ، ويُخص وحده دون الطبقات الممتازة ، بأعباء المغارم والضرائب الفادحة ، ومشاق العمل ، والسخرة فى ضياع الأشراف والأحبار ، وتسلبه فروض العبودية والرق ، كل شعور بالعزة والكرامة . ولم يكن الشعب كما قدمنا سوى كتلة مهيضة من طبقة فقيرة وسطى ، ومن جمهرة من الزراع شبه الأرقاء والأرقاء ، ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض والمغارم

= فى كثير من التحريف والخلط (ج ٤ ص ٢١٢ و٢١٣) . وقال ابن حيان بعد أن ذكر أصل اسم اسبانيا « وغلب على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات (الوندال) وملكهم طلويش بن بيطة وذلك من بعث المسيح . ثم دخلت عليهم أمة القوط » (نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٦٩) . وأقرب الروايات إلى الصحة هى رواية ابن خلدون ، فهو يقول متفقاً مع الرواية اللاتينية : « إن القوط قد امتلكوا القطر الأندلسى لمئين من السنين قبل الإسلام . بعد حروب كانت لهم مع اللطنيين ، حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط إلى الأندلس» (ج ٤ ص ١١٦) .

الفادحة ، عبء الحرب والدفاع عن الوطن . وكما أن الجيوش الرومانية كانت وقت ظهور الإسلام ، قد فقدت وحدتها وروحها القومى وقوتها المعنوية ، لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرتزقة ، فكذلك كان الجيش الإسبانى منذ العهد الرومانى ، قوامه الزراع شبه الأرقاء واليهود . فلما حل القوط فى اسبانيا وذاقوا نعم السلم ، بعد مشاق التجوال والغزو ، وتبوأوا مراكز الغلبة والسيادة ، اعتمدوا فى الدفاع عن ملكهم الجديد على هذا الجيش ، الذى تموج صفوفه بجماعات مضطهدة ناقمة على سادتها . « ولاريب أن شبه الأرقاء كانوا فى الجيش أكثر بكثير من الأحرار ، وهذا ما يعنى أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى أولئك الذين يؤثرون ممالأة العدو على الذود عن ظالميهم »[1] . أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ بعيد خلالهم الحربية القوية ، وركنوا إلى حياة النعماء والدعة ، وفتت فى عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجو وترف العيش ، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا رومة ، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط ، « بل كان خلفاء ألاريك يحتجبون بصخور البرنيه غارقين فى سبات السلم ، لا يعنون بتحصين مدينة ، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف »[2] .

وكان يهود الجزيرة كتلة كبيرة عاملة ، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل ، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد . وكانت الكنيسة منذ اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود ، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة . ففى عصر الملك سيزبوت[3] فرض التنصر على اليهود أو النفى أو المصادرة ، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء (سنة ٦١٦ م) . ثم توالت عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والمحن ، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة ، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون . ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤م) . وكان ذلك فى عهد الملك إجيكا ؛ فقرر أن يشتد فى معاقبتهم ، واجتمع مؤتمر الأحبار فى طليطلة للنظر فى ذلك ، وأجاب الملك إلى ما طلبه ، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يأتمرون بسلامتها ، ولأنهم ارتدوا

---

(١) Dozy: Histoire des Musulmans de L'Espagne (1932) Vol. I. p. 269

(٢) Gibbon, ibid, Chap. L1.

(٣) ويسميه ابن الأثير ، سيسفوط (ج ٤ ص ٢١٣) .

عن النصرانية التى اعتنقوها من قبل ؛ وقرر أن ينزع أملاكهم فى سائر الولايات الإسبانية ، وأن تحول إلى جانب العرش ، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدى للنصارى ، وأن يهبهم الملك عبيداً لمن شاء ، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية ، وأن يحرر أرقاؤهم من النصارى ويمنحون بعض أملاكهم ، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية ، وألا يتزوج عبد يهودى إلا بجارية نصرانية ، ولا تتزوج يهودية إلا بنصرانى(١) . وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف ، فكانوا قبيل الفتح الإسلامى ضحية ظلم لا يطاق ، وكانوا كباقى طوائف الشعب المهيضة يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر ، ويرون فى أولئك الفاتحين الذين يتركون لهم حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين(٢) .

هكذا كانت حال اسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقتربوا من شواطىء الأندلس . وكان على عرش اسبانيا يومئذ الملك وتيزا(٣) خلف الملك إچيكا وولده . وكان يحكم مملكة مزقها الخلاف وشعباً أضناه العسف . وتحمل بعض الروايات الإسبانية القديمة على وتيزا ، وتصفه بأنه كان ملكاً خليعاً فاجراً ، مغرقاً فى شهواته ، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضيع الخلال . ويقول البعض الآخر إنه كان بالعكس ملكاً فاضلا حسن السيرة ، وافر الحكمة والعدالة ، وإنه عمل على رد المظالم وإقامة العدل(٤) . والمرجح المتداول ، أنه أحسن السيرة فى بداية عهده ، ورد إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم ، ولكنه حاول أن يحد من سلطة الأشراف والأحبار ، وأن يجمع السلطة فى يد العرش ، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين ، ودبروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة ؛ ولكنه أخمدها

---

(١) راجع كتاب « تاريخ لانجدوك » **Histoire de Languedoc** ، تأليف الراهب **Dom Vissette** (الطبعة الجديدة ج ١ ص ٧٥٠ و ٧٥١) ، وهذا المؤلف موسوعة ضخمة من ستة عشر مجلدا ، ويشتمل على وثائق وتفاصيل هامة عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى ، وغزوات العرب الأولى لإسبانيا وفرنسا .

(٢) **Dozy : Hist. : V. I. p. 268**

(٣) ويسميه العرب « غيطشة » .

(٤) يقول بالرواية الأولى سبستيان الشلمنتى وردريك الطليطلى ، ويقول بالرواية الثانية إيزيدور الباجى ؛ ويوافقه فى هذا ابن عذارى المراكشى (البيان المغرب ج ٢ ص ٤) . وراجع : **Dozy : Recherches, V.1 p. 16**

جميعاً ، وهدم جميع المعاقل والحصون الداخلية لكى يحطم سلطان خصومه ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة ، فلم يزدهم البطش والهزيمة إلا ظمأً إلى الخروج والثورة . وكان فى مقدمة خصومه الذين يخشى بأسهم دوق تيودوفريد الذى نفاه أبوه الملك إجيكا إلى قرطبة ، فزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغة فى النكاية به ، وحاول أن يفعل ذلك مع بلاجيوس ولد فاڤيلا دوق كانتابريا ، ولكنه استطاع الفرار من نقمته[1] . وكان الشعب من جهة أخرى يرزح أبداً تحت نير الجور والإرهاق ، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط :

وتقول الرواية النصرانية إن الزعماء الناقمين انتهزوا فرصة اقتراب أسطول إسلامى من جنوب اسبانيا ورفعوا لواء الثورة ، وإن وتيزا استطاع أن يرد هذا الأسطول وإن تيودومير قائد الأسطول القوطى هزم المسلمين فى معركة بحرية كبيرة وذلك فى سنة ٧٠٨ م[2] . وكان العرب كما قدمنا قد طوقوا أسوار سبتة معقل القوط فى الضفة المقابلة من البحر ، وأمد وتيزاً حاكمها الكونت يوليان بأشجع جنده ، فانتهز خصومه فرصة ضعفه فى الداخل ليدبروا الثورة مرة أخرى . وقاد الثورة عندئذ زعيم جرىء هو رُدريك ابن دوق تيودوفرد الذى سمل وتيزاً عينى أبيه ، فكان يحفزه باعث الانتقام أيضاً ، وكان يتزعم حزباً قوياً ، والتف حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية ، فجمع جيشاً كبيراً ونادى بنفسه ملكاً . ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة . وهنا تختلف الرواية فيقال إن وتيزا قتل فى هذا النضال وخلص الملك لمنافسه ، وفى رواية أخرى أن رودريك ظفر به وسمل عينيه انتقاماً لأبيه ، ويقال أيضاً إنه ارتد إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته . ويختلف المؤرخون كذلك فى تاريخ ولاية رودريك الملك ، فيقول البعض ، ومنهم رودريك الطليطلى ، إنه تولى سنة ٧١١ م ، وحكم مع وتيزا قسماً من اسبانيا ، وإنه لما توفى وتيزا فى سنة ٧١٣م ، استأثر بالحكم مدى

---

(١) Dom Vissette : ibid, V. 1. p. 756

(٢) أورد هذه الرواية إيزيدور الباجى **Isidorus Pacensis** ونقلها المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ فى كتابه **Geschichte der Omajaden in Spanien** (ج ١ ص٢٦) . والظاهر أن المقصود هنا هو الحملة البحرية التى جهزها موسى بن نصير بقيادة ابنه عبد الله سنة ٨٩ ﻫ (٧٠٨م) وهى المعروفة بغزوة الأشراف . ولكن المسلمين لم يهزموا عندئذ فى أية موقعة بحرية ، وقد غزوا جزائر البليار كما قدمنا .

عام آخر حتى فتح اسبانيا ، ويقول إيزيدور الباجى ، إن ردريك ظفر بالعرش فى أواخر سنة ٧١١ م وإنه لم يحكم قبل الفتح سوى عام واحد[١] ؛ وفى الروايتين تحريف ظاهر ، ولا بد أن ردريك ولى الملك قبل سنة ٧١١ ، إذ كان فتح العرب لاسبانيا فى صيف هذا العام نفسه . وعلى أى حال فإن المعركة استمرت مدى حين بين ردريك وولدى وتيزا ، وهما إيقا وسـيزبوت يعاونهما عمهما أوباس[٢] أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة ، والتفت حولها رجال الدين وكل أنصار الحكم القديم . وكان ردريك قوى الجانب وافر الشجاعة والعزم ، فاستطاع أن يخمد الثورة فى كل ناحية ، واستتب له الأمر حيناً ، ومع ذلك فقد بقى عرش القوط مضطرباً يهتز فى يد القدر ، وكان الخطر يجثم فى ناحية أخرى :

ذلك أن خصوم ردريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة . وكان الكونت يوليان حاكم سبتة والمضيق ، محط أنظارهم ومساعيهم . وقد اختلف فى أمر الكونت يوليان اختلافاً بيناً ، فالروايات العربية القديمة كلها تشيد بذكره ، وبالدور العظيم الذى أداه فى الفتح ، وينكر وجوده بعض أكابر المؤرخين الإسبان مثل ماسدى وغيره ، لأن ذكره لم يرد لأول مرة إلا فى روايات القرن الثانى عشر . على أنه مما يعزز إجماع الرواية العربية ، إشارة إيزيدور الباجى ، صاحب أقدم رواية إسبانية عن الفتح ، إلى شريف نصرانى كان يصحب موسى فى كل غزواته . كذلك تختلف الرواية فى صفة الكونت ، فيقال إنه لم يكن تابعاً لملك القوط ، وإن سبتة كانت فى ذلك الحين ما تزال تابعة لقيصر الدولة الشرقية ، ولكن حاكمها الكونت رأى لبعدها وعزلتها أن يستظل بحماية اسبانيا[٣]. على أنه يبدو من أقوال الرواية العربية ، وهى فى نظرنا أقوى وأرجح ، أن الكونت يوليان كان قوطياً إسبانياً ، وأنه كان يرتبط ببلاط طليطلة بصلات وثيقة . وتؤيد الرواية العربية

---

(١) Dom Visette : ibid, V. 1. p. 756 وذلك نقلا عن Rodericus Toletanus و Chronicon Isidorus Pacensis

(٢) يسمى ابن القوطية أولاد وتيزا كما يأتى : المند . ورملة . ثم أرطباس . ولعل أرطباس هو أوباس . ولكن صاحب «أخبار مجموعة فى فتح الأندلس» أصح وأدق فهو يسميهما شبشرت وأبة باعتبار أنهما اثنان فقط (ص ٨) .

(٣) Dozy : Recherches : V. 1. p. 60-65, Hiet : V. 1. p. 270

بعض التواريخ النصرانية المتأخرة ، فيقول لنا ردريك الطليطلى ، ولوقا التطيلى ، إن الكونت يوليان كان حاكماً لسبتة ، وهى يومئذ من أملاك العرش القوطى ، وإنه كان رجلا شجاعاً ، ولكنه كان مغامراً منتقماً ، وإنه كان من أقارب الملك ڤامبا[١] . ويقول لنا ألفونسو العاشر فى تاريخه العام إن الكونت يوليان كان من أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط ، وإنه كان قريباً للملك وتيزا[٢]. ولما نشب الخلاف الداخلى حول العرش ، انضم الكونت إلى أنصار الحكم القديم وأنصار الملك وتيزا . وكان غنياً شديد البأس ، كثير الأتباع والجند ، يعتصم بالبحر ، بعيداً عن سلطة العرش ، ويقبض على مفتاح اسبانيا بحكمه لسبتة والمضيق . وكان من خصوم الحكم الجديد يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه . فاتصل به إبنا وتيزا وباقى الزعماء الخوارج ، واستقر الرأى على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت ، وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين يوليان وموسى ابن نصير وانتهى بفتح العرب لإسبانيا . ولكن الرواية — والرواية الإسلامية بنوع خاص — تقدم إلينا تعليلا آخر ، فتقول لنا إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصى أيضاً . فقد كانت له إبنة رائعة الحسن تدعى فلورندا أوكابا ، أرسلها إلى بلاط طليطلة جرياً على رسوم ذلك العصر ، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان ، فاستهوى جمالها الفتان قلب ردريك فاغتصبها وانتهك عفافها . وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام ، ونزع ردريك ذلك العرش الذى اغتصبه . فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردريك وخصومه ، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، ولم ير خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا .

والرواية الإسلامية تجمع على قبول هذه القصة والأخذ بها ، مع أخذها فى الوقت نفسه بالعوامل السياسية التى ذكرناها[٣]. ولكن الرواية النصرانية تردد

---

(١) Camille Julian : Histoie de la Gaule p. 727

(٢) Pr. Crónica General (Ed. Pidal) Vol. I. p. 307

(٣) يتناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور ، فنراها فى رواية ابن عبد الحكم الذى كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط (أخبار مصر وفتوحها ص ٢٠٥) . وذكرها ابن حيان مؤرخ الأندلس (نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩) ، وابن القوطية القوطى فى « افتتاح الأندلس » (ص ٨) — وهو يصف يوليان بأنه كان تاجراً من تجار العجم لا حاكما لسبتة ، ويعلل=

فى قبولها ، وتنكرها معظم الروايات الإسبانية الحديثة ، وتعتبرها أسطورة صاغتها الأغانى والقصص القديمة . وهكذا نجد ماريانا وماسدى أعظم مؤرخى اسبانيا فى مقدمة المنكرين لصحتها . ويذهب البعض الآخر مثل مونتيخار وغيره إلى أبعد من ذلك ، فينكر شخصية الكونت يوليان ذاته ، ويعتبرها شخصية خيالية ، ويعتبر القصة كلها خرافة وأسطورة فقط[1] . ويقول كوندى إن اسم كابا (فلورندا) ووصيفتها أليفا وكل أشخاص هذه الرواية تدل على أن القصة كلها إنما هى خرافة موريسكية[2] اشتقت من الأساطير والأغانى العامية التى كانت ذائعة بين المسلمين والنصارى[3] .

وإنكار الرواية الإسبانية لمثل هذه القصة معقول ظاهر الحكمة ، فهى تأبى الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على نفر من زعماء اسبانيا الأوائل ، وهى خيانة كان من أثرها أن افتتح العرب اسبانيا وحكمها الإسلام قروناً طويلة . على أننا لا نجد فى القصة ما يبعث إلى إنكارها ، فوقوعها ممكن معقول فى مثل الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا يومئذ ، من خلاف فى الرأى ، وتنازع على السلطة ، وانحلال أخلاقى واجتماعى . ولسنا من جهة أخرى نلمس فى الرواية الإسلامية أثر الاختراع . فليس ثمة ما يدعو إليه . وليس من المعقول أن تخترع الرواية الإسلامية قصة مفادها أن المسلمين لقوا فى فتح اسبانيا معاونة لم يتوقعوها ، وأن هذه المعاونة سهلت لهم سبل الفتح ، ولعلهم لم يقدموا بدونها على الاضطلاع به ، أو لعلهم كانوا يتعرضون للإخفاق والفشل . هذا إلى أن بعض الروايات الإسبانية القديمة ، ومنها ما هو قريب من الفتح ، يشترك مع الرواية العربية فى سرد قصة فلورندا والأخذ بها .

= وقوع الفتح بخروج أولاد وتيزا وخيانتهم . وكذا صاحب أخبار مجموعة (ص ٥) . وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) . وابن خلدون (ج ٢ ص ٢٣٦ وج ٤ ص ١١٧) . وعبد الواحد المراكشى فى « المعجب » (ص ٦) . وابن عذارى المراكشى فى « البيان المغرب » (ج ٢ ص ٨) . وصاحب الروض المعطار فى « وصف جزيرة الأندلس » المنشور بالقاهرة ١٩٣٧ (ص ٧) .

(١) راجع الهامش فى : **Aschbach : ibid, I. p. 28**

(٢) نسبة إلى الموريسكيين **Moriscos** أو العرب المتنصرين ، وهم بقية الأمة الأندلسية المغلوبة بعد سقوط غرناطة (١٤٩٢ م) وانتهاء دولة الإسلام فى الأندلس .

(٣) **Historia de la Dominación de los Arabes en Espana**

فمن ذلك ما ورد فى رواية إيزيدور الباجى الذى عاش فى أوائل القرن الثامن ، وما ذكره ردريك الطليطلى فى روايته ، من أن الكوست يوليان ثار لاعتداء ردريك على ابنته أو زوجه ، واعتزم أن ينتقم لنفسه بدعوة العرب إلى فتح اسبانيا ، وهى قصة رددها أيضاً التاريخ العام الذى وضع بأمر الملك ألفونسو العالم فى أواخر القرن الثالث عشر(١). فى هذه الروايات الإسبانية النصرانية كلها تأييد لهذه القصة الشهيرة . كذلك يختلف النقد الأوربى الحديث فى أمر هذه القصة ، فيرى البعض أنها أسطورة لا يصح الأخذ بها ، ويرى البعض الآخر أنها معقولة لا أثر للاختراع فيها(٢) . ونحن مع هذا الفريق نرى قصة فلورندا حادثاً طبيعياً معقولا ، ونرى فى إجماع الرواية الإسلامية على تدوينها دليلا آخر على صحتها . ومهما كان من أمر يوليان ، ومهما كان من بواعث غضبه ونقمته على مليكه ، فقد كان تدخله أكبر عامل فى تذليل فتح المسلمين لشبه الجزيرة الإسبانية ، والقضاء على مملكة القوط .

---

(١) — Pr. Crónica General; Vol. I. p. 807, C. Julian, ibid, p. 757
Gibbon, ibid. Chap. LI (Note)

(٢) قال الفيلسوف جيبون فى تعليقه على تلك القصة : « طالما كانت أهواء الملوك يطبعها الجموح والعبث . ولكن هذه القصة المعروفة ، وإن كانت روائية فى ذاتها ، لم تؤيدها الأدلة الكافية ، وتاريخ اسبانيا يقدم من بواعث المصلحة والسياسة ما هو أليق بتفكير السياسى القديم (يريد الكونت يوليان) Gibbon, ibid, LI . ويسخر ڤولتير فى تاريخه العام من القصة ويقول : « إن الاغتصاب صعب التنفيذ صعب التدليل ، فهل يتحالف الأحبار من أجل فتاة » . ولكن المؤرخ المستشرق دوز يروى القصة ويأخذ بها فى شرح حوادث الفتح Dozy : Histoire V.I.p.271 وكذا يرويها ويأخذ بها المستشرق كاردون فى كتابه : Histoire de l'Afrique etde l'Espagne p. 65.

الفصل الثالث

فتح اسبانيا

المفاوضة بين موسى بن نصير والكونت يوليان . استئذان موسى للوليد فى الفتح . فكرة يوليان وأصحابه فى استدعاء العرب . حملة تمهيدية إلى الجزيرة الخضراء . حملة الفتح . طارق بن زياد . عبوره إلى الأندلس واختراقه للجزيرة الخضراء . تأهب ردريك ملك القوط لملاقاة العرب . مكان اللقاء بينهما . موقعة شذونة أو وادى لكة . تفرق الجيش القوطى . هزيمة القوط ومقتل ردريك . الخطاب الذى ينسب إلى طارق والشك فى صحته . هل أحرق طارق سفن الحملة . اللقاء الثانى بين القوط والعرب فى إستجة . هزيمة القوط الثانية . زحف طارق على طليطلة . إفتتاح قرطبة وغرناطة ومالقة . معاونة اليهود للمسلمين . افتتاح تدمير وعقد الصلح مع أميرها . طارق يخترق الأندلس . كلمة أندلس وأصلها . استيلاء طارق على طليطلة . اختراقه قشتالة وليون وجبال أستورية . عوده إلى طليطلة . موسى وموقفه من الفتح . أوامره لطارق . يقود حملة جديدة إلى اسانيا . استيلاؤه على شذونة وقرمونة وإشبيلية . حصاره لماردة وافتتاحها . غضبه على طارق ثم عفوه عنه . مسيرهما إلى الشمال وافتتاحهما لسرقسطة وطركونة وبرشلونة . مسير طارق إلى جليقية . موسى يخترق البرنيه ويغزو سبتمانيا . إفتتاحه لأربونة وقرقشونة ووادى الرون . مشروعه فى اختراق الأمم النصرانية شرقاً إلى مقر الخلافة . إعتراض حكومة دمشق . مسيره لإخضاع جليقية . استدعاؤه وطارق إلى دمشق . بواعث هذا الاستدعاء . افتتاح عبد العزيز بن موسى لبلنسية ولبلة . معاهدته مع تيودمير . إشبيلية عاصمة الأندلس . إستخلاف موسى لولده عبد العزيز . سفره وطارق إلى المشرق . ما أصاب المسلمون من غنائم الأندلس . مصير موسى واختلاف الرواية فى شأنه . وفاته وخلاله . مصير طارق . مصير الكونت يوليان والأمراء المحالفين للعرب . سارة القوطية وحفيدها المؤرخ .

فى الوقت الذى كانت شبه الجزيرة الإسبانية تجوز فيه هذه الحوادث والأزمات الخطيرة ، كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى ، واستولوا على ثغر طنجة ، وأشرفوا على شواطىء الأندلس من الضفة الأخرى من البحر ، ولم يبق لإتمام فتح إفريقيه سوى ثغر سبتة الذى يقع مقابل طنجة فى الطرف الآخر من اللسان المغربى . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان ، أن تحبط كل محاولة لأخذها . وكان موسى بن نصير يتوق إلى افتتاح هذا الثغر المنيع ، وتطهير إفريقية من البقية الباقية من العدو . وبينا هو يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية ، إذ جاءته رسالة من الكونت يوليان نفسه يعرض فيها

تسليم معقله ، ويدعوه إلى فتح اسبانيا ،وجرت بينهما المفاوضة فى هذا المشروع الخطير . وتختلف الرواية فى أمر هذا الاتصال ، فيقال إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة ، وقيل إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية ، وإن الكونت استدعى موسى إلى سبتة ، وهنالك وقعت المفاوضة بينهما . وقيل أخيراً إنهما اجتمعا فى سفينة فى البحر[1] . وعلى أى حال فقد استجاب موسى لدعوة الكونت ، واهتم بمشروعه أعظم اهتمام ، وكان قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها وغناها ، واستطاع أن يقدر أهمية مثل هذا الفتح ، وجليل مغانمه ومزاياه ، فلما علم من يوليان وحلفائه ما تعانيه اسبانيا من الخلاف والشقاق ، وما يسودها من الانحلال والضعف ، ورأى مما يعرضه يوليان من تسليم سبتة وباقى معاقله ، وتقديم سفنه لنقل المسلمين فى البحر ، ومعاونته بجنده وإرشاده ، أن الفوز ميسور محقق ، كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ، فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا ، أعنى بالحملات الصغيرة بادىء بدء ، وألا يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر ، بيد أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمر المعارك البحرية فى هذه المياه ، وغزوا صقلية وسردانية ، ثم غزوا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) كما قدمنا ، وكان البحر الذى يفصل بين إفريقية والأندلس مجازاً ضيقاً سهل العبور .

ولبث موسى حيناً بطنجة يهيئ عُدة الفتح . والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدوا بدعوة موسى أن يمتلك العرب اسبانيا ، وأن يحكموها ، بل كان مشروعهم أن يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب وإسقاطه ، واستخلاص الملك لأنفسهم . وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم ، قفلوا إلى إفريقية . وهو فرض معقول يؤيده سير الحوادث فى اسبانيا ، فقد كان الخوارج على ردريك يقصدون إلى انتزاع الملك من يده . وتحقيق أطماعهم بالحلول مكانه . أما الفرض الآخر — وهو أنهم كانوا يقصدون بالفعل تسليم وطنهم إلى العرب — فمعناه أنهم كانوا يعملون للقضاء بأنفسهم على مشاريعهم وأطماعهم ، وهو مما يصعب قبوله وتعليله[2] ، والظاهر أن موسى بن نصير كان من جانبه

---

(١) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦ .

(٢) قدم ابن الأثير فى روايته ما يفيد صحة الفرض الأول (ج ٤ ص ٢١٤) . وكذا صاحب =

يؤكد ليوليان أنه لايقصد بالغزو سوى مجد الفتح وكسب الغنائم ، وأنه لا ينوى إنشاء دولة مسلمة فيما وراء البحر . ونزل موسى على نصح الخليفة فى اختبار الفتح الجديد بالسرايا ، وبدأ مشروعه بمحاولة صغيرة ، فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس ، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة فى أربع سفن قدمها يوليان ، إلى البقعة المقابلة التى سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة ، وذلك فى رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليه سنة ٧١٠ م) . وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان ، فأصابت كثيراً من الغنائم ، وقوبلت بالإكرام والترحيب ، وشهدت كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، ثم عادت فى أمن وسلام ، وقص قائدها على موسى نتائج رحلته ، فاستبشر بالفوز ، وجد فى أهبة الفتح .

وفى شهر رجب سنة اثنتين وتسعين (إبريل سنة ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى ، وكان يومئذ حاكماً لطنجة كما قدمنا[١] . ومن الغريب أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن فاتح الأندلس بشىء قبل ولايته لطنجة ، بل إنها لتختلف فى أصله ونسبته ، فقيل هو فارسى من همذان ، كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل إنه من سبى البربر ، وقيل أخيراً إنه بربرى من بطن من بطون نفزة ، وهذه فيما يظن أرجح رواية ، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب ، بإيراد نسبة طارق مفصلة . ويبدو منها أن طارقاً تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله ، وهو أول اسم عربى إسلامى فى نسبته ، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهى إلى نفزة ، وهى القبيلة التى ينتمى إليها[٢] .

= « أخبار مجموعة » (ص ٨) ، والمقرى (ج ١ ص ١٢٠) . ومن جهة أخرى فإن البحث الحديث يؤيده ويرجحه . راجع دوزى : Dozy : Hist, V. I. p. 272 ، وأيضاً جيبون حيث يقول : « يظهر أن الكونت لا يستحق وصمات الخيانة والخسة والغدر مطلقة ، فإن التاريخ لم يثبت أنه كان يريد تسليم بلاده للعرب . وإنما كان مشروعه أن يستعين بهم على قلب الحكومة وإسقاط ردريك حتى يكون له فى حكومة هو منشؤها مكانة أسمى » Gibbon : ibid. Chap. LI. (note)

(١) يقول صاحب البيان المغرب إن ولاية طارق لطنجة كانت فى سنة ٨٥ هـ (ج ٢ ص ٢٨) ، ولكن الظاهر أنه وليها بعد ذلك ببضعة أعوام .

(٢) راجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٦) وفيه ترد نسبة طارق هكذا : — طارق بن زياد ابن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطوفت بن نفزا ؛ وراجع أيضاً نزهة =

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية التي يسوقها إلينا صاحب كتاب « الإمامة والسياسة » وصفاً لشخص طارق خلاصته أنه كان « رجلا طويلا أشقر ، بعينيه قبل أى حول وبيده شلل »[١] . فإذا صحت هذه الرواية ، فإنها يمكن أن تقدم إلينا دليلا آخر على انتماء طارق إلى الجنس البربرى . فالبربر حسبما شهدنا من التجوال فى بعض ربوعهم بالمغرب ، يكثر بينهم الطول والشقرة .

وكان طارق جندياً عظيماً ظهر فى غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته ، وقدر موسى مواهبه ومقدرته واختاره لحكم طنجة وما يليها ، وهى يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطرباً ، ثم اختاره لفتح الأندلس . فعبر البحر من سبتة بجيشه تباعاً فى سفن يوليان القليلة ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التى ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق ، وذلك فى يوم الإثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ (٢٧ إبريل سنة ٧١١ م)[٢] . واخترق طارق المنطقة المجاورة غرباً بمعاونة يوليان وإرشاده ، وزحف على ولاية الجزيرة التى كان يحكمها تيودومير القوطى عامل ردريك واحتل قلاعها ، بعد أن هزم شراذم من القوط تصدت لوقفه . وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم . وكان ردريك يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج فى الولايات الشمالية ، فهرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر المحيق بعرشه وأمته ، وبعث قائده إديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته . ولكن طارقاً هزمه ثم اخترق بسائط « الفرنتيره »[٣] معتزماً السير صوب عاصمة القوط .

وكان رُدريك أو رذريق أو لذريق كما يسميه العرب[٤] أميراً شجاعاً وافر المقدرة والعزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء

— المشتاق للشريف الإدريسى حيث يقول إنه بربرى من زناته (طبع رومة ص ١٧٩) ، وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١١٧) ، والمقرى (نفح الطيب ج ١ ص ١١٩) .

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٤ . ونقل إلينا المقرى ما يفيد أن طارقا كان ضخم الهامة ، وفى كتفه الأيسر شامة (ج ١ ص ١٠٧) .

(٢) المقرى (ج ١ ص ١١٩) ، والبيان المغرب ؛ وهناك خلاف على الشهر الذى عبر فيه طارق .

(٣) الفرنتيره **La Frontera** ، هى المنطقة الوسطى والغربية فى المثلث الإسبانى .

(٤) ويسميه الواقدى باسم آخر هو « الأدرينوق » ؛ راجع الطبر ج ٨ ص ٨٢ .

والسخط[1] . وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف ، وكانت إسبانيا قد مزقت شيعاً وأحزاباً ، يتطلع كل منها إلى انتزاع السلطان والملك ، وكان أهم هذه الأحزاب وأقواها حزب العرش القديم الذى يلتف حول ولدى وتيزا (غيطشة) . ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد ، واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف[2] ، ويقدره مؤرخ أندلسى متأخر بتسعين ألف[3] . وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين ، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة ، فكتب إلى موسى يستنجد به ، فأمده بخمسة آلاف مقاتل ، فبلغ المسلمون اثنى عشر ألفاً ، وانضم إليهم يوليان فى قوة صغيرة من صحبه وأتباعه .

كان القوط أضعاف المسلمين ، وكان المسلمون يقاتلون فى أرض العدو فى هضاب ومفاوز شاقة ، ولكن قائدهم الجرىء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم . فكان اللقاء بين الجيشين فى سهل الفرنتيره **Frontera** على ضفاف نهر وادى لكُّه أو وادى بكه . وقد اختلف البحث الحديث فى تحديد المكان والنهر الذى يحمل هذا الاسم الذى تورده الرواية العربية . فذكر البعض أنه هو نهر «جواداليتى» **Guadalete** (وادى لكه) الذى يصب فى خليج قادس على مقربة من مدينة شريش ، وأن اللقاء حدث على ضفته الجنوبية شمالى مدينة شذونة . وذكر البعض الآخر ، وهى الرواية الراجحة فيما يرى البحث الحديث ، أن اللقاء قد حدث جنوبى بحيرة «خنَدة» **Janda** الصغيرة المتصلة بنهر بارباتى **Barbate** الصغير

---

(١) **Cardonne : ibid. p. 62**

(٢) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٤ ؛ والمقرى ج ١ ص ١٢٠ . ويقدره فى مكان آخر بسبعين ألف (ص ١١٢) . ويأخذ جيبون بهذه الرواية فيقدر جيش القوط بتسعين ألف أو مائة ألف (الفصل الحادى والخمسون) . ولكن ابن خلدون يقدره بأربعين ألف فقط ، وهو فى نظرنا أقرب إلى المعقول (ج ٤ ص ١١٧) .

(٣) هذه هى رواية على بن عبد الرحمن بن هذيل صاحب كتاب «تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس» وهو من كتاب القرن الرابع عشر الميلادى (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٥٢ دير نبورج — لوحة ٤٨) وهو مؤلف فريد فى بابه يتحدث عن الجهاد والمغازى والصوائف والفروسية وأحوالها وشروطها . وبه نبذ تاريخية مفيدة . وقد نشره المستشرق مرسييه .

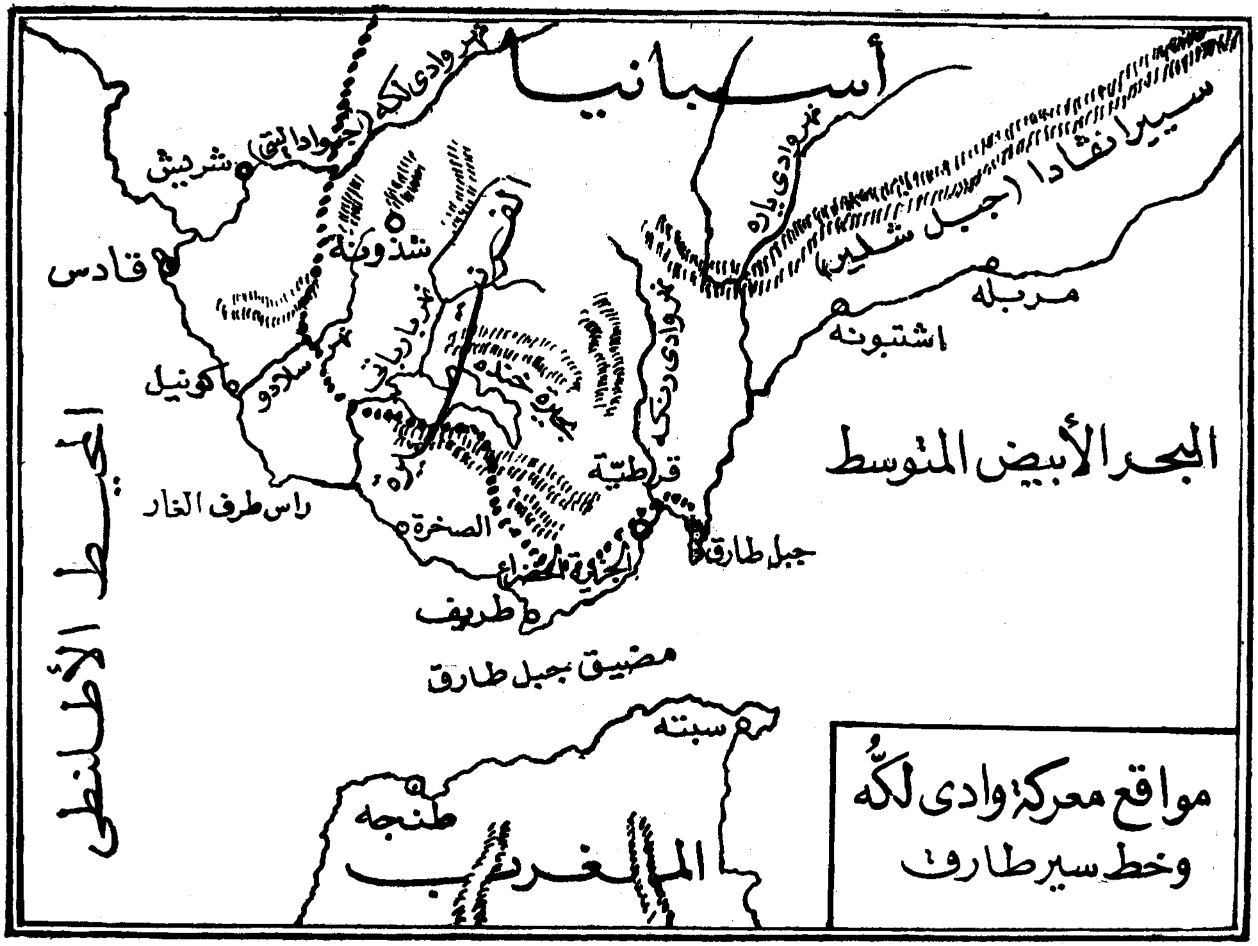

مواقع معركة وادى لكُّه
وخط سير طارق

الذى يصب فى المحيط على مقربة من رأس « طرف الغاز »(١) وأن الرواية العربية تقصد هذا النهر بما تورده من إسم وادى لكه أو وادى بكه . فى هذا السهل الصغير الذى تحده من الجنوب سلسلة من التلال العالية، وعلى ضفاف بحيرة خنده ونهر «بارباتى» تلاقى العرب والقوط ، والإسلام والنصرانية ، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ (١٧ يوليه سنة ٧١١ م)(٢) . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة . وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة . وظهر ردريك وسط الميدان فى حلل ملوكية فوق عرش تجره الخيل المطهمة ، وهو منظر يثير سخرية الفيلسوف جيبون ولاذع تهكمه إذ يقول : « ولقد يخجل ألاريك (مؤسس دولة القوط) عند رؤية خلفه (ردريك) متوجاً باللآلىء ، متشحاً بالحرير والذهب ، مضجعاً فى هودج من العاج »(٣) . واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين القوى النصرانية الضخمة ، وبين القوة المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام(٤) . ولكن الجيش القوطى كان رغم كثرته مختل النظام منحل العرى ، وكان يقود جناحيه إيفا وسيزبوت خصما ردريك(٥) ،

---

(١) يقول دوزى إن هذا النهر يحمل اليوم اسم سلادو **Salado** (ج ١ ص ٢٧٣ هامش) وهو خطأ لأن هذا الإسم يطلق على نهر آخر يقع شمالى نهر بارباتى . ويسميه ابن القوطية « وادى بكه » (ص ٧) . وراجع : الأستاذ ليڤى بروڤنسال : **Histoire de l'Espagne Musulmane (1944) p. 15 8 16.** والهوامش .

(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً على أن الموقعة كانت فى ذلك التاريخ . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يقول إنها كانت فى السابع من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ (المقرى عن ابن حيان ج ص ١١٦) ولعله ينفرد بهذا الخلاف .

(٣) تشير معظم الروايات الإسلامية إلى هذا المنظر ؛ فيقول الطبرى نقلا عن الواقدى : « فزحف الأدرينوق فى سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلة التى كان يلبسها الملوك » (ج ٨ ص ٨٢) ، والمقرى (ج ١ ص ١١٢) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٢) ، وابن عذارى (ج ٢ ص ٩) .

(٤) قال الرازى : « كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال . ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم ، ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس » (المقرى ج ١ ص ١٢١) .

(٥) أخبار مجموعة (ص ٨) .

وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الناقمين ، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر ، وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب[١] ، فكانت الخيانة تمزق جيش القوط شر ممزق . واستمال يوليان والأسقف أوپاس وهما فى صف المسلمين كثيراً من جند القوط ، وبثا بدعايتهما فى الصفوف الموالية لردريك كثيراً من عوامل الشقاق والتفرق ، فأخذ كل أمير يسعى فى سلامة نفسه . وتمكن الجيش الإسلامى على ضآلة عدده ، بجلده وثباته واتحاد كلمته ، من جيش القوط ، فلم يأت اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق وجنده ، وهزم القوط شر هزيمة ، وشتتوا ألوفاً فى كل صوب .

أما ردريك آخر ملوك القوط ، فقد اختفى عقب الموقعة ، ولم يعثر له بأثر . ويقول إيزويدور الباجى إنه بقى فى ميدان الحرب حتى قتل مدافعاً عن عرشه وأمته . وتقول بعض الروايات النصرانية الأخرى إنه فر عقب الهزيمة على ظهر جواده ، ولكنه غرق فى مياه النهر . وتميل التواريخ الإسلامية إلى تأييد هذه الرواية ، وتقول لنا إن ملك القوط مات غريقاً ، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبى ، ولم يعثر إنسان بجثته . وتزعم بعض الروايات النصرانية أيضاً أن ردريك استطاع أن يلوذ بالفرار ، ولكنه قتل بعد ذلك ، أو أنه فر إلى بعض الأديار فى البرتغال وترهب ، وعاش متنكراً حيناً من الدهر . وينفرد صاحب كتاب الإمامة والسياسة بين المشارقة برواية أخرى ، وهى أن طارقاً ظفر بجثة ردريك ، فاحتز رأسه وبعث بها إلى موسى بن نصير ، وبعث بها موسى إلى الخليفة ، ويتابعه فى هذه الرواية كاتب أندلسى هو صاحب كتاب تحفة الأنفس الذى تقدم ذكره[٢] . هذا إلى روايات كثيرة أخرى . ولكن المرجح فى هذه الروايات كلها هو أن ردريك فقد حياته فى الموقعة التى فقد فيها ملكه ، وأنه مات قتيلا أو غريقاً على الأثر[٣] .

---

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٤) والمقرى (ج ١ ص ١٢١) ودوزى (ج ١ ص ٢٧٢) .

(٢) راجع كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٥ و ٧٦ . ووردت هذه الرواية فى كتاب تحفة الأنفس فى المخطوط المتقدم ذكره (لوحة ٤٨) .

(٣) راجع فى مصير ردريك **C. Julian: Histoire de la Gaule p.750-Gibbon, ibid, Chap.LI. & notes** ، وراجع من المصادر الإسلامية : ابن الأثير حيث يقول إنه غرق فى نهاية الموقعة (ج ٤ ص ٢١٤) . والمقرى حيث يقول إنه رمى بنفسه مختارا إلى النهر ، وقد ثقلته الجراح (نفح الطيب =

هكذا كانت موقعة شذونة التى دالت فيها دولة القوط ، بعد أن لبثت زهاء ثلاثمائة عام منذ قيامها فى غاليس ، وغنم الإسلام فيها ملك إسبانيا . وتحيط الرواية الإسلامية حوادث الفتح بطائفة كبيرة من الأساطير والقصص التى لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها[1] . بيد أنه يجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر ما تعرضه الرواية من أن طارقاً خطب جنده قبيل نشوب المعركة الحاسمة ؛ كما أنه يجدر بنا أن نورد نص هذا الخطاب الشهير الذى ينسب لفاتح الأندلس ، والذى يعتبر نموذجاً بديعاً من الفصاحة والحماسة الحربية وهو :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس ، أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان .

= ج ١ ص ١٢١) . وقال ابن الأبار فى الحلة السيراء إنهم عثروا على جواد رذريك وسرجه من ذهب وزبرجد وإحدى نعليه وغاب شخصه ، فما وجد حياً ولا ميتاً (ليدن ص ٣١) . وهذه هى أيضاً رواية صاحب « أخبار مجموعة » (ص ٦) . وقال ابن عذارى إن رذريك اختفى ولم يعرف له موضع ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفضض ، فقالوا إنه غرق وقالوا إنه قتل (ج ٢ ص ١٠) ؛ وتردد بعض التواريخ الغربية هذه الرواية (كامى جوليان فى تاريخ « غاليس » ص ٧٥٨) . وتقول بعض الروايات الإسبانية إنه فر إلى مغار ناسك ، والبعض الآخر إنه ألقى حياً إلى بئر ملأى بالأفاعى حيث صاح : « وإنها تلتهم الجزء الذى ثقلته بالخطايا » (جيبون الهامش فى الفصل الحادى والخمسين) .

(١) راجع رواية ابن عبد الحكم عن فتح الأندلس (ص ٣٠٤ وما بعدها) فقد تخللها بعض هذه الأساطير ، ولكن المقرى يستوعب الكثير منها نقلا عن مختلف الروايات (نفح الطيب ج ١ ص ١١٤ وما بعدها) .

والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهــذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولىُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين . أيها الناس: ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال ، وإنى عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من المهنة والذلة ، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تفعلوا ، والله معكم ومفيدكم ، تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين ، وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى »[1] .

ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق فى قوله : « لما التقى العرب والقوط ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم فى الشهادة ، وبسط فى آمالهم » ، ثم يورد نص الخطبة[2] .

ثم تنوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر فعال فى إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم وثقتهم ، ودفعهم إلى طريق النصر والظفر .

على أنه يسوغ لنا أن نرتاب فى نسبة هذه الخطبة إلى طارق ؛ فإن معظم المؤرخين المسلمين ، ولاسيما المتقدمين منهم لا يشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم

---

(١) هذا ، ومما ينسب لطارق أيضاً من قصيدة قالها فى الفتح :

ركبنــا سفيناً بالمجــاز قصيرا   عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوســاً وأموالا وأهلا بجنــة   إذا ما اشتهينا الشىء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف ســالت نفوسنا   إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

(٢) كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس ؛ المخطوط المتقدم ذكره لوحة ٤٨ .

ولا البلاذرى ، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية ؛ ولم تشر إليها المصادر الأندلسية الأولى ، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه ؛ وهى على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين . وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى ، كانوا يخطبون جندهم فى الميدان ؛ ولكن فى لغة هذه الخطبة ، وروعة أسلوبها وعباراتها ، ما يحمل على الشك فى نسبتها إلى طارق ، وهو بربرى لم يكن عريقاً فى الإسلام والعروبة . والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين ، صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان .

وتشير الرواية الإسلامية فى هذا الموطن إلى واقعة أخرى جديرة بالتأمل والبحث ؛ وهى واقعة قد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا فى ثوب التاريخ الحق ؛ تلك هى واقعة إحراق السفن التى نقل عليها طارق جيشه من الشاطىء الإفريقى إلى شاطىء الأندلس . ونحن نعرف مما تقدم أن الكونت يوليان هو الذى قدم السفن التى ركبها العرب إلى الأندلس فى بعثهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك ، ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق . وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطىء الأندلسى ، حتى أمر بإحراق السفن التى عبر عليها جيشه ، وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت ، أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير فى التخاذل والارتداد. فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الإسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا فى موطن واحد ؛ فقد ذكر الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس ، أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس[1] ، وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسى فيما يرجح ؛ وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال إن فى الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية ،

---

(١) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (المختصر) ، طبع رومة ، ص ١٧٨ .

فطارق يستهله بقوله : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » ، وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الإفريقى ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى اسبانيا ؛ ولكنا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية ، كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب . ولو صح أن طارقاً ألقى فى جنده مثل ذلك الخطاب ، فقد نجد تفسيراً لأقوال طارق فى أن السفن كانت ملكاً للكونت يوليان ، وفى أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة فى جميع الأوقات .

ومع ذلك كله فإن رواية الشريف الإدريسى عن واقعة إحراق طارق للسفن ليست من الأمور المستحيلة ؛ وهى عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس ؛ على أنها تبقى عرضة لكثير من الريب ، فقد دونت لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى . أعنى بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون ، ولم تؤيدها أية رواية إسلامية أخرى[1] .

وعلى أثر الموقعة الحاسمة التى غلب فيها الجيش القوطى ومزق ، ساد الرعب على القوط ، فامتنعوا بالحصون والجبال ، وقصدوا إلى الهضاب والسهول . وذاعت أنباء النصر فى طنجة وسبتة وما جاورهما من أراضى العدوة ، فعبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر . وزحف طارق بجيشه شمالا . وكانت بقية الجيش القوطى قد اجتمعت عند إستجة لتحاول رد الجيش الفاتح ، فالتقى الجيشان هناك ثانية ، وهزم القوط مرة أخرى ، ولم يبق إلا أن يستولى الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأخرى .

وكان يوليان وأصحابه إلى جانب المسلمين ، يعاونهم بالنصح والإرشاد كما قدمنا ، ففى إستجة وضعت خطة السير ، وتقرر أن يسير طارق بنفسه إلى طليطلة عاصمة المملكة القوطية ؛ وأرسل طارق مغيثاً الرومى مولى الوليد بن

---

(١) يقدم لنا التاريخ الحديث مثلا بديعا للفاتح الذى يحرق السفن التى عبر عليها جيشه لكى يقطع على جنده كل تفكير فى الرجعة والارتداد ، هو مثل المكتشف الإسبانى هرناندو كورتيث فاتح المكسيك . فقد أمر هذا الفاتح الشهير ، حينما أشرف على شواطىء المكسيك مستكشفا فاتحا فى سنة ١٥١٩ م . بإحراق سفنه التى قدم عليها جيشه من اسبانيا . ومن الغريب أن يكون بطل هذا الحادث إسبانيا ، وهو ما يحملنا على الظن بأنه قد تأثر فى عمله بالمثل الذى ينسب لطارق فاتح الأندلس .

عبد الملك إلى قرطبة فى سبعمائة فارس ، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة ، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة وإلبيرة ومالقة ، فافتتحت مالقة وفر سكانها إلى الجبال ، ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى إلبيرة وغرناطة ، فحوصرت غرناطة قليلا وفتحت ، ثم فتحت إلبيرة . وكان اليهود يعاونون المسلمين فى كل هذه الفتوح ، فكان المسلمون يضمون إليهم فى كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها . ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقاً نحو ولاية مرسية ، وكانت تسمى يومئذ تيودمير (أو تدمير) باسم أميرها ، وقاعدتها مدينة أوريولة ؛ وكان تيودمير جندياً كبيراً ، وافر العزم والبأس ، فالتقى بالمسلمين ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة هلك فيها معظم رجاله ، فارتد إلى أوريولة ، وامتنع بها ، وعرض النساء ، حسبما تقول الرواية ، على الأسوار فى أثواب الرجال إيهاماً بكثرة جنده ، واستطاع بثباته وجلده ، أن يعقد الصلح مع المسلمين بشروط حسنة أنقذت بها مدينته من السبى والجزية[1] .

وسار طارق فى بقية الجيش إلى طليطلة مخترقاً هضاب الأندلس[2] وجبال

---

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) . والبيان المغرب (ج ٢ ص ١٣) . وسنورد فيما بعد نص هذه المعاهدة .

(٢) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة « الأندلس » على شبه جزيرة إيبيريا المكونة من اسبانيا والبرتغال (ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة الأندلس . والروض المعطار ص١) . وتطلق فى الرواية العربية أيضاً على اسبانيا المسلمة ، التى كانت عقب الفتح تشمل كل إسبانيا ما عدا جاهقية وولايات جبال البرنيه . ولكن « الأندلس » تطلق فى العصور المتأخرة وفى الجغرافية الحديثة على ولايات الأندلس الواقعة فى جنوبى إسبانيا بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وبين ولاية مرسيه وإشبيلية ؛ وما زالت « الأندلس » **Andalucia** تحتل فى تقسيم اسبانيا الإدارى الحاضر نفس هذه المنطقة . والرواية العربية تعلل هذه التسمية بصور مختلفة فتقول مثلا إنها سميت أندلس باسم أول من سكنها من قديم الزمان وهم قوم من الأعاجم يقال لهم أندلوش (نفح الطيب ج ١ ص ٦٧) . ويقول ابن الأثير إن النصارى يسمون الأندلس إشبانة باسم اشبانس أحد ملوكها ، وهذا هو اسمها عند بطليموس (ج ٤ ص ٢١٢) . ولكن ابن خلدون يقدم لنا تعليقاً أدق فيقول إنها سميت «الأندلس» باسم « قندلس» ولعلها قندلس ، ومن الواضح أنه يقصد الفندال أى الوندال (ج ٢ ص ٢٣٥ فى تاريخ القوط) . ويقدم لنا البكرى خلاصة دقيقة لهذه المسميات الجغرافية التاريخية فيقول فى وصفه لجزيرة الأندلس ، « إن اسمها فى القديم إباريه **Iberia** من وادى إبره ، ثم سميت بعد ذلك باطقة **Baetica** ، من وادى بيطى وهو نهر قرطبة . ثم سميت إشبانية من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه إشبان . وقيل سميت بالإشبان سكنوه فى أول الزمان على جرية النهر وما والاه . وقال قوم إن اسمها هو فى الحقيقة إشبارية **Hisperia** =

سيرّا مورينا (جبل الشارّات) التى تفصل بين الأندلس وقشتالة ، بإرشاد يوليان وأصحابه . وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم . ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى ، فاستولى طارق عليها ، وأبقى على من بقى من سكانها ، وترك لأهلها عدة كنائس ، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية ، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم ، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا . وتابع طارق زحفه شمالا ، فاخترق قشتالة ثم ليون فى وهاد ومفاوز صعبة ، وطارد فلول القوط حتى أسترقة ؛ فلجأت إلى قاصية جلّيقية واعتصمت بجبالها الشامخة . وعبر طارق جبال أشتوريش (أستورياس)[1] واستمر فى سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية (غسقونية) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته ، ورده عباب المحيط عن التقدم فعاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح . وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى اسبانيا .

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل البواعث التى حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح ؛ فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومبعوثه ، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه ، تحول إعجابه به إلى حسد وغيرة ، وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ، فكتب إليه ألا يتقدم

من إشبرش وهو الكوكب المعروف بالأحمر . وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش من الذين = سكنوها » . والأندليش هم الوندال **Vandals** . (أبو عبيد البكرى فى جغرافية بلاد افريقية والمغرب طبعة دى سلان) . وهذا هو التعليل الذى يأخذ به دانفيل **Danville** إذ يقول إن الاشتقاق مأخوذ من كلمة ڤاندالوسيا **Vandalusia** أى بلد الوندال ، (نقله جيبون عن كتاب ممالك أوربا فى هامش الفصل الحادى والخمسين) . وهذا ما يقرره الغزيرى أيضاً فى معجم مخطوطات الإسكوريال **(Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis II, p. 237)**

(١) وهنا تذكر الرواية العربية أن طارقاً انتهى إلى مدينة المائدة خلف جبال أستوريه فاستولى على مائدة سليمان بن داود ، وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها وأرجلها ثلثمائة وخمسة وستون . ويقال إن هذه المائدة غنمها الرومان من المشرق أو بيت المقدس فى بعض غزواتهم ثم نقلوها إلى رومة ، فغنمها القوط حين افتتحوا رومة ، ثم أحرزها العرب عند فتح اسبانيا . وذكر ابن الأثير أن أحد ملوك اسبانيا فى عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة (ج ٤ ص ٢١٢) . وذكر صاحب الروض المعطار ، كما ذكر بعض مؤرخى الإفرنج ، أن هذه المائدة هى من نفائس ملوك القوط ، وأن العرب عثروا بها فى كنيسة طليطلة وهو أقرب إلى المعقول . (الروض المعطار ص ٥) .

حتى يلحق به ، ويتوعده بالعقاب إذ توغل بعد بغير إذنه[١] . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به ، بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط[٢] . وهذا تعليل حسن يتفق وما أثر عن موسى من الحيطة والحذر ، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا فى أراض ومسالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضاً فى نفس موسى وفى تصرفه . وعلى أى حال فقد عبر موسى البحر إلى اسبانيا فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ، فى سفن صنعها خصيصاً لذلك ، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك فى رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونيه سنة ٧١٢ م) . وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شَذُونة[٣] ، ثم سار إلى قَرْمونة وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس ، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه . وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس . ففتحها بعد أن حاصرها شهراً . ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة ، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين فى كمين دبره النصارى . وانتهت بالتسليم فى رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين ، على أن تكون أموال الغائبين والكنائس ، غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى استقباله . فأنبه وبالغ فى إهانته ، وزجه مصفداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان ، وقيل بل هم بقتله أيضاً[٤] . ولكنه ما لبث أن عفا عنه ورده إلى منصبه[٥] .

---

(١) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٧) ، وصاحب أخبار مجموعة (ص ١٥) ، وابن القوطية (ص ٩) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٧) ، وابن حيان مؤرخ الأندلس (نفح الطيب ج ١ ص ١٢٦) ، وبغية الملتمس للضبى (ص ١١) ، والحميدى فى جذوة المقتبس (طبع مصر) ص ٥ .

(٢) البيان المغرب (ج ٢ ص ١٥ و ١٨) .

(٣) **Medina Sedonia** ، ويسميها ابن الأثير مدينة السليم (ج ٤ ص ٢١٥) . ولكن شدونة أو شذونة تسمية أكثر ذيوعاً .

(٤) ابن عبد الحكم (ص ٢٠٨) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) ، والمقرى فى نفح الطيب (ج ١ ص ١٢٧) ، والحميدى فى جذوة المقتبس (ص ٦) .

(٥) ينفرد ابن عبد الحكم برواية عن إطلاق سراح طارق ، هى أن طارقاً استجار بمغيث الرومى وكان عائداً من الأندلس إلى المشرق ، ووعده بمائة عبد إذا هو أبلغ أمره إلى الوليد بن عبد الملك ، فقام مغيث بالرسالة وبادر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يطلق سراح طارق ويتوعده إذا أساء إليه .=

ووضع الإثنان خطة لافتتاح ما بقى من إسبانيا . ثم زحفا نحو الشمال الشرقى واخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وافتتحا سرقسطة وطرّكونة وبرشلونة وغيرها من المدائن والمعاقل . ثم افترق الفاتحان ، فسار طارق نحو الغرب ليغزو جلّيقية ، وليتم القضاء على فلول القوط . وسار موسى شمالا فاخترق جبال البرنيه (جبال البرت أو البرتات أو الممرات)[1] ، وغزا ولاية لانجدوك أو سبتمانيا التى كانت تابعة إذ ذاك لملوك القوط ، واستولى على قرقشونة (كاركاسون) وأربونة (ناربون) . ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادى الرون (رذونة) حتى مدينة لوطون أو لوذون (ليون) ، فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا فى الأهبة لرد الغزاة ؛ ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت فى تلك السهول على مقربة من أربونة[2] .

وهنا فكر القائد الجرىء فى أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازياً فاتحاً ، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية ، وأن يفتتح فى طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها . وهو ما يجمله ابن خلدون فى تلك العبارة القوية : « وجمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ، ويخوض مابينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة »[3]. وكان موسى يقدر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرنيه ، يؤيده من البحر أسطول قوى ، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد[4] فى شمالى إيطاليا ، فيخترقها فاتحاً إلى رومة قاعدة النصرانية ، فيفتتحها ويقضى فيها على كرسى النصرانية . ويتابع سيره بعدئذ شرقاً إلى سهول الدانوب ،

= وحمل مغيث هذا الكتاب إلى الأندلس ، فأفرج موسى عن طارق ورده إلى منصبه (ص ٢١٠) . وذكر الطبرى أن طارقاً ترضى موسى فرضى عنه وقبل منه عذره (ج ٨ ص ٩٠) .

(١) البرت أو البرتات محرفة عن الاسبانية **Puerta** ، ومعناها الباب . وسميت الجبال بهذا الاسم لأنها تحتوى على خمسة أبواب أو ممرات طويلة كانت تستعمل للعبور والغزو . وسنعود إلى تفصيل ذلك . أما تسميتها بجبال البرانس فهو خطأ جغرافى حسبما نوضح بعد .

(٢) ابن حيان مؤرخ الأندلس (نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨) ، والبيان المغرب (ج ٢ ص ١٤) . ومعظم الروايات على أن موسى وقف فى زحفه عند أربونة .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ .

(٤) فى الجغرافية العربية بلاد النبرد أو أنكبردية .

مثخناً فى القبائل الجرمانية التى تسيطر على ضفافه ، ثم يخترق أراضى الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولى عليها ، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصداً إلى دمشق فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال ، كما اتصلت من طريق الجنوب[1] .

ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم ؛ فقد كان الإسلام يومئذ فى ذروة الفتوة والقوة والبأس ، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت . وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها الضعف والانحلال ، وكانت مملكة الفرنج وهى أضخمها وأقواها تمزقها الخلاف والتفرق ، وقد بدأ العرب غزوها بالفعل . ولم تستطع النصرانية أن توحد جهودها لرد الإسلام ، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها فى جبهة دفاعية موحدة . ولم تكن أوربا فى ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة ، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة . فكان الإسلام يستطيع غزوها وفتحها . ولم يكن حلماً وإغراقاً ما تصوره موسى بن نصير واعتزمه . ولكن سياسة الإحجام والتردد التى اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية ، والتى كادت تحول دون فتح اسبانيا ، أودت بذلك المشروع البديع ، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين فى دروب مجهولة ، ويأمره بالعود ، فارتد موسى مرغماً آسفاً ؛ ولكنه تمهل فى العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التى اعتصمت بها فلول القوط ، ويطهر اسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة ، فاخترق جليقية واستولى على معظم معاقلها ، ومزق كل قوة تصدت لمقاومته ، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو ، ولجأت إلى قاصية جليقية ؛ وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها ، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً ، ويأمرهما بتعجيل العود . ولعل أقوى البواعث التى حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمى إليه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه أن ينتهى هذا الخلاف ، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم فى تلك الأقطار

---

(١) Cardonne : ibid. V.I.p. 96—97 . ويقول الفيلسوف جيبون تعليقاً على هذا المشروع إنه تمكن مقارنته بخطة مثراديتيس ليفتتح ما بين القرم ورومة ، أو خطة قيصر ليفتتح المشرق ثم يعود من طريق الشمال . ويفوق هذه المشاريع جميعاً مشروع هانيبال الذى نفذ بنجاح عظيم (الفصل الحادى والخمسون) .

الجديدة المجهولة التى افتتحوها[1] . أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه ، فى الاستقلال بذلك الملك الجديد النائى ، وهو أفضل تعليل يقبله النقد الحديث ويرجحه . وربما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والتحف التى اغتنمت من الأندلس ، وخوفه أن تمتد إليها يد التبديد . ومهما كانت العوامل التى دفعت الوليد إلى استدعاء فاتحى الأندلس ، فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام فى اسبانيا . ذلك أن هذه الشراذم النصرانية الصغيرة التى نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية ، لم تلبث أن نمت وقويت ، وكانت منشأ المملكة النصرانية التى قامت فى الشمال ، ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام فى اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها .

وفى ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى قد افتتح منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخمد الثورة فى إشبيلية وباجة ، وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى فى معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والتسامح ، والاعتدال فى تطبيق الأحكام وفرض الضرائب . ولنا فى معاهدته مع تيودمير خير شاهد باعتدال السياسة الإسلامية ولينها وتسامحها . وإليك نص هذه المعاهدة ، حسبما نقله إلينا الغزيرى فى معجمه ، نورده نموذجاً للوثائق السياسية الإسلامية فى عصر الفتح :

« نسخة كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير عبدوش — بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه . وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبد ونصح ، وأن الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن ، أوريوالة وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرّة وأنة ولورقة . وأنه لا يأوى لنا عدواً ، ولا يخون لنا أمناً ولا يكتم خبراً علمه . وأنه عليه وعلى أصحابه ديناراً

---

(١) لم توضح الرواية الإسلامية أسباب هذا الاستدعاء . ولكن الغزيرى نقل فى معجمه عن بعض أوراق مخطوطة فى الإسكوريال فى سبب الاستدعاء هذه الفقرة : « ولما علم الوليد بن عبد الملك ما حدث لطارق بن زياد وموسى بن نصير من الخلاف بعث فيهما فانصرفا إلى المشرق » . ويعتقد الغزيرى أن الأوراق التى عثر بها ونقل منها هذه الفقرة إنما هى من تاريخ الرازى لقرائن ذكرها . راجع Casiri : ibid ; V. II p. 32.3

كل سنة ، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كتب فى أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة . شهد على ذلك ... الخ »[١] .

واتخذ موسى بن نصير أهبته للعود إلى دمشق نزولا على أوامر الخليفة . فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع ، وجعل حاضرتها إشبيلية[٢] لاتصالها بالبحر وكانت حاضرتها أيام الرومان ، واختار لولايتها ولده عبدالعزيز ، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك ، كما استخلف على إفريقية عبد الله أكبر أولاده . وفى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس ٧١٥ م) قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه ، وفى ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ، ومن أشراف السبى عدد عظيم[٣] .

---

(١) نقل الغزيرى هذا النص فى معجمه عن بعض مخطوطات الإسكوريال ، وقرنه بترجمة لاتينية **(Casiri : ibid. V II. p. 105)**

هذا وقد أورد لنا العذرى نصا آخر لهذا الأمان فى كتابه « ترصيع الأخبار وتنويع الآثار » ؛ على نفس المدن السبعة ، جاءت شروطه على النحو الآتى : « ألا يقدم ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم ، ولا يكرهون على دينهم ؛ وأنه لا يدع حفظ العهد ، ولا يحل ما انعقد ، ويصحح الذ فرضناه عليه ، وألزمناه أمره ، ولا يكتمنا خبراً علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية من ذلك على كل حر دينار .. الخ » ثم يلى ذلك شهود هذا الأمان » (راجع « نصوص عن الأندلس » وهى عبارة عن أوراق منقولة من كتاب « ترصيع الأخبار » ومنشو ة بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، وصاد، ة عن معهد الدراسات الإسلامية بمدريد — ص ٤ و ٥) .

(٢) اقتبس العرب اسم « إشبيلية » من اسمها اللاتينى « هسبالى « **Hispali** » ، ثم حرف الإسبان هذا الاسم إلى « سڤيليا « **Sevilla** » ، وهو الذ يطلق عليها فى الجغرافية الحديثة .

(٣) تفيض الرواية الإسلامية فى وصف ما أصابه المسلمون فى الأندلس من الغنائم الجليلة والسبى الذى لا يحصى . وتقول إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر ؛ منها مائدة سليمان السالفة الذكر ؛ وأما السبايا فيقال إنه حمل منها ثلاثين ألفاً ، بينهم مئات من أشراف القوط والد صفاء المختارين ، من ذو الشباب الغض والجمال الباهر ذكوراً وإناثاً . وذكر ابن القوطية أن موسى بن نصير عاد ومعه من أبناء الملوك والعجم أربعمائة ، على رؤسهم تيجان الذهب وفى أوساطهم مناطق الذهب (ص ١٠) . ونقل المقرى عن بعض المؤرخين أن العرب وجدوا فى طليطلة حين فتحوها من الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكى ، ومن الدر والياقوت أكيال ، ومن أوانى الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف (نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ و ١٣٥ و ١٣٦) .

وقد اختلفت الرواية العربية فى مصير موسى بن نصير ، واختلف الرواة فى أمر لقائه بالخليفة ؛ فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك ، وقدم إليه الأخماس والغنائم ، فأكرمه وأحسن إجازته ؛ وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبد الملك أخيه عرش الخلافة ، وأن سليمان غضب عليه ونكبه[١] . على أنه يمكن التوفيق بين القولين أعنى وفود موسى على الوليد ابن عبد الملك ثم نكبته على يد سليمان . وهنالك ما يرجح لدينا أنه لحق بالوليد قبيل وفاته ؛ فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس ، يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة الفسطاط فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين فى طريقه إلى دمشق[٢]. وقد توفى الوليد فى منتصف جمادى الآخرة من هذا العام أعنى بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف. ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تتجاوز فى هذا العصر بضعة أسابيع ، فإن الوقت كان يكفى لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته بأسابيع. على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط على فاتح الأندلس ونكبه . ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد فى مرض موته ، فكتب إليه سليمان ولى العهد أن يتمهل فى السير ، رجاء أن يموت الوليد بسرعة ، فيقدم عليه فى صدر خلافته بما يحمل من التحف والغنائم الكثيرة ، فأبى موسى وجد فى السير حتى قدم والوليد حى فسلم إليه الأخماس والغنائم . ثم توفى الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً أخاه سليمان على كرسى الخلافة . فغضب سليمان على موسى ، وزاد فى حقده عليه ، ما قدمه فى حقه طارق ومغيث من مختلف التهم[٣] . وفى الحال أمر ، بعزله واتهمه وبنيه باختلاس مقادير عظيمة من المال والتحف ، وقضى عليه بردها ، وبالغ فى إهانته وتعذيبه ، ثم ألقاه إلى ظلام السجن . واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان ، وكان من أخصائه وذوى النفوذ عنده ، فيروى أن يزيداً

---

(١) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١١) ، وصاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١) . ويقول بالرواية الثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦) ، والحميدى فى جذوة المقتبس (ص ٦) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٨) .

(٢) فتوح مصر ص ٢١١ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٢٩ .

قال له : « لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا . فقل لى كيف حصلت فى يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار ، وتيقنت بعد المرام واستصعابه ، واستخلفت بلاداً أنت اخترعتها ، وحصل فى يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك فى يد من لا يرحمك . ثم إنك علمت أن سليمان ولى عهد وأنه الولى بعد أخيه . وقد أشرف على الهلاك لامحالة ، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة ، وأحقدت مالكك ومملوكك » . وما زال يزيد بسليمان حتى عفا عن موسى ، وأعفاه من الغرامة الفادحة التى قضى بها عليه ، ويقال بل عفا عن حياته ، ولم يعفه من الغرامة ، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه ، وإن سليمان عفا عنه بعد ذلك(١) . وأقر ابنه عبد الله على إفريقية وابنه عبد العزيز على الأندلس . وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه ، حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه ، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفى فى منتهى البؤس والذلة بوادى القرى فى شمال الحجاز حيث ينسب مولده ، وذلك سنة سبع وتسعين(٢) .

بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة . والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى ، وأقاله من محنته ؛ وتوفى موسى بعد ذلك بقليل فى سنة سبع وتسعين (وقيل فى سنة تسع وتسعين) وهو فى طريقه إلى الحج مع سليمان ، وقد جاوز الثمانين من عمره .

---

(١) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١٣) . وهى رواية يؤيدها البلاذرى (فتوح البلدان ص ٢٣٠) .

(٢) يراجع فى مصير موسى بن نصير : فتوح مصر (ص ٢١١) ، وأخبار مجموعة (ص ٢٩ و ٣٠) ، وابن القوطية (ص ١٠ — ١١) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦) ، والمقرى عن ابن حيان وابن يشكوال والحجارى ، (نفح الطيب ج ١ ص ١٣٤ و ١٣٥) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١) ، وكذلك كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٨٦ ، ٨٩ و ٩٣ ، ٩٦) . هذا ويبدى المستشرق دوزى ريبه فى صحة الروايات والقصص التى قيلت عن مصير موسى بن نصير ، ويقول إنه لا يوجد ثمة ما يبررها ، لأن موسى كان يتمتع بحماية يزيد بن المهلب صديق سليمان وصاحب النفوذ لديه ، ويستشهد برواية البلاذرى التى أشرنا إليها ، وأيضاً برواية مؤرخ نصرانى معاصر هو إيزيدور الباجى **(Dozy, Hist. V. I. p. 134—135)**

هذا ما تردده الرواية الإسلامية عن مصير موسى بن نصير . ومهما كان من الأمر ، فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ، أنها لم تقدر البطولة فى هذا الموطن قدرها ، ولم تقدر عظمة الفتح الباهر الذى غنمته على يد رجلها وقائدها .

وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين فى القرن الأول للهجرة . وقد ظهرت براعته الإدارية فى جميع المناصب التى تقلدها ، كما ظهرت براعته الحربية فى جميع الحملات البرية والبحرية التى قادها . على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص فى حكمه لإفريقية ، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديد المراس ، يضطرم بعوامل الانتقاض والفتنة ، وإذا كان موسى قد أبدى فى معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة ، فقد أبدى فى الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب ، وبراعة فى سياستها وقيادتها . وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية ، غزير العلم والأدب ، متمكنا من الحديث والفقه ، عالماً بالفلك ، مجيداً للنثر والنظم . غير أن هذه المواهب والخلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش ، وشهوة الحقد والحسد(١) .

وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول فى عبور الإسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيها ، بعد أن اخفقت محاولته فى العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية . ومع أن سيل الفتح الإسلامى رد غير بعيد فى سهول بلاط الشهداء ، فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستقر فى إسبانيا قروناً ، يبهر بضوء مدنيته الزاهرة جميع الأمم الأوربية فى العصور الوسطى .

* * *

هذا ما كان من شأن موسى ومصيره ، فماذا كان مصير طارق ؟ هذا ما تمر عليه الرواية الإسلامية بالصمت . وكل ما هنالك أنها تشير إلى ما كان من نية سليمان بن عبد الملك فى تعيينه والياً للأندلس مكان موسى ، وكيف عدل عن ذلك حينما وقف من مغيث الرومى فاتح قرطبة ، على ما كان يتمتع به طارق فى الأندلس من عظيم الهيبة والنفوذ ، وذلك توجساً مما قد يجيش به من أطماع ومشاريع نحو ذلك

(١) نفح الطيب (ج ١ ص ١٣٣ و ١٣٤) .

القطر النائى من أقطار الخلافة[1] ؛ وقد كان مغيث يحقد على موسى وطارق منذ الفتح ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما ، وكان لوقيعته ومساعيه ضدهما أكبر الأثر فى استدعائهما إلى دمشق . وإذا كانت هذه الرواية لا تاتى ضوءاً كافياً على مصير طارق ، فإنها قد تسمح لنا مع ذلك أن نعتقد أن طارقاً لم يلق مثل المصير المحزن الذى لقيه موسى ، وأنه بالعكس قد استقبل فى بلاط دمشق استقبالا حسناً ، وربما أحسن الخليفة فوق ذلك إثابته ، بدليل أنه فكر فى تعيينه والياً للقطر الذى ساهم فى افتتاحه بأعظم قسط .

ولكن الرواية الإسلامية لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بشىء ، ولا تذكر لنا أين ومتى توفى ، بل تسدل على نهايته حجاباً عميقاً من الصمت[2] ؛

وليس فى وسعنا إزاء هذا الغموض الذى يحيط بسيرة طارق أن نتحدث عن صفاته وخلاله ، وكل ما نستطيعه فى هذا الموطن هو أن ننوه بخلاله العسكرية الباهرة ، التى ظهرت بوضوح فى حروب المغرب وفتح الأندلس ، وهو بهذه الخلال يتبوأ مكانته بين أعظم الفاتحين المسلمين .

أما مصير الكونت يوليان الذى مهد لفتح الأندلس ، فلم تشر إليه الرواية الإسلامية . وفى بعض الروايات أنه عاد بعد الفتح إلى سبتة وأقطع ما حولها من الأراضى ، وقُلِّد إمارتها جزاء خدماته . ولكنه بقى نصرانياً هو وبنوه الأقربون ، ثم دخل عقبه فى الإسلام بعد ذلك . وتقول الرواية الكنسية الإسبانية إنه قتل بيد مواطنيه فى معركة نشبت بينه وبينهم ، أو أنه قتل بعد ذلك بأعوام فى ولاية الحر الثقفى بيد العرب لريبة فى ولائه . وتقول هذه الرواية أيضاً إن العرب أعدموا ابنى وتيزا وأفراد أسرته لمثل هذا السبب[3] . وهذا ما تنفيه الرواية الإسلامية وتؤكد عكسه . فالمصادر الإسلامية تجمع كلها على أن العرب أحسنوا معاملة إيڤا (أو إيبا) وسيزبوت ابنى وتيزا وعمهما أوباس ؛ فأما أوباس فقد عين كما تقدم مطراناً لطليطلة ، وأقطع إيڤا وسيزبوت ما كان لأبيهما من الضياع .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) ولا نعرف مصدراً لما يقوله السيد أمير على من أن طارقاً لقى نفس المصير التعس الذى قيل إن موسى لقيه وأنه مات فى فقر وضعة : **History of the Saracens p. 122**

(٣) **Crónica General; Vol. II. p. 324. Cardonne : ibid., V. I. p. 85 — Gibbon, ibid. Ch. LI — Scott : Moorish Empire, V. I. p. 259**

ثم توفى إيقا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن إبنة تدعى سارة وولدين صغيرين ، فاغتصب سيزبوت ميراثه وضياعه ، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى دمشق ، وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها وقضى لها برد ميراث أبيها ، وبعث بذلك إلى والى الأندلس أبى الخطار الكلبى . وتزوجت سارة فى دمشق من سيد عربى يدعى عيسى بن مزاحم ، ورزقت منه بولدين هما إبراهيم وإسحاق . ثم عادت مع زوجها إلى الأندلس ، وأحرز ولداها مكانة ممتازة . وإليها ينتمى نسب ابن القوطية القرطبى المؤرخ ، نسبة إلى لقبها العربى وهو سارة « القوطية »[1] .

---

(١) تضطرب معظم الروايات العربية فى ذكر ابناء وتيزا ، فتقول إنه ترك ثلاثة بنين وتسميهم المند ورملة وارطباس . والظاهر أن الخطأ فى اعتبارها أوباس (ولعله هو أرطباس) ابنا لوتيزا . والمند هو إيقا ورملة هو سيزبوت . (راجع فتح الأندلس لابن القوطية ص ٥ و ٦) . والمقرى (ج ١ ص ١٢٥) ، ولكن صاحب « أخبار مجموعة » يقرر أنهما اثنان . ويسميهما ششبرت وأبة ، وهو تعريب حسن للاسمين (ص ٨) ، وكذا ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) .

الفصل الرابع

إسبانيا بعد الفتح الإسلامى

(١) آثار الفتح الإسلامى . سياسة العدل والتسامح . أقوال النقد الغربى الحديث فى ذلك . الحرية الدينية . المجتمع الإسلامى الجديد . عناصر الضعف فيه . العرب والبربر والمولدون . الخصومة بين اليمنية والمضرية . أسباب هذه الخصومة . رأى ابن خلدون فى تعليلها . الخصومة بين العرب والبربر . أثر دعوة الخوارج فى إذكائها . (٢) الأقاليم الأندلسية الجديدة . تفرق القبائل فى المدن المختلفة . منازل البربر فى شبه الجزيرة . ولاية عبد العزيز بن موسى . تنظيمه للحكومة الجديدة . زواجه بأرملة ردريك . التوجس من سياسته . مقتله . بواعث هذه الجريمة . ولاية أيوب ابن حبيب اللخمى . نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة . ولاية الحر الثقفى . قمعه للمنازعات والفتن . غزوه لسبتمانيا وافتتاحه لقواعدها . محاربته لثوار الشمال . الإضطراب فى قرطبة . ولاية السمح بن مالك . فصل حكومة الأندلس عن إفريقية . فكرة عمر بن عبد العزيز فى جلاء المسلمين عن الأندلس . إصلاحات السمح ومنشآته . غزوه لسبتمانيا . زحفه على تولوشة .

— ١ —

كان فتح الإسلام لاسبانيا فاتحة عصر جديد ، وبدأ تطور عظيم فى حياتها العامة وفى نظمها الاجتماعية . وقد كانت لعهد الفتح كما رأينا ترزح فى غمر مرهقة من الجور والعسف ، وكانت أقلية باغية من الأمراء والنبلاء تسود شعباً بأسره وتستغله أشنع استغلال ، وتفرض عليه رسوم الرق والعبودية ، وتستبيح منه كل الحريات والحرم . فجاء الإسلام ليقضى على ذلك كله ، وليحمل نعم العدل والحرية والمساواة إلى الناس جميعاً ، وليعطى كل ذى حق حقه ، وليقمع البغى والظلم . وبالرغم من أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد وتوسيعه ، فإنهم استطاعوا فى أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى ، وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة ، وأن يبثوا فى الجزيرة روحاً جديداً من العزم والأمل ، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة بعد ركودها ، وهبت ريح من الرخاء والدعة ، على مجتمع أضناه العسف والفاقة مدى عصور .

قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، فتنفس الشعب الصعداء ، وخف عن كاهله ما كان ينوء به من الأعباء والمغارم . وفرض المسلمون الضرائب

بالمساواة والاعتدال والعدل ، بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع ، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم . وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضائهم وقضاتهم ، واختاروا فى معظم الأحوال لهم حكاماً من أبناء جنسهم ، يعهد إليهم بسن الضرائب المطلوبة ، والإشراف على النظام والسكينة . أما فى شأن الدين وحرية العقائد والضمائر ، فقد كانت السياسة الإسلامية مثلا أعلى للتسامح. فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين أو الاعتقاد ، وكان أداء الجزية هو كل ما يفرض على الذميين من النصارى أو اليهود ، لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية عقائدهم وشعائرهم ؛ ومن دخل الإسلام منهم سقطت عنه الجزية ، وأصبح كالمسلم سواء بسواء فى جميع الحقوق والواجبات. ونرى فى هذا الموطن أن نقدم طائفة من الأقوال والآراء التى يعلق بها المؤرخون والنقدة الغربيون ، على سياسة الفتح الإسلامى وآثاره فى اسبانيا . يقول العلامة المستشرق رينهارت دوزى :

« لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح. فلم يرهقوا أحداً فى شئون الدين . ولم تكن الحكومة — إذا لم تكن مغرقة فى الدين — لتشجع إسلام النصارى ، إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيراً . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج ، وانقضى القرن الثامن كله فى سكينة ، وقلما نشبت فيه ثورة . كذلك لم يبد رجال الدين فى العصور الأولى كثيراً من التذمر ، وإن كانت لديهم أكثر البواعث لذلك . وهذا ما تؤيده روح الرواية اللاتينية التى كتبت سنة ٧٥٤ فى قرطبة ، والتى تنسب لإيزيدور الباجى ، فإن كاتبها رغم كونه من رجال الدين ، يبدى نحو المسلمين من العطف ، ما لم يبده أى كاتب إسبانى آخر قبل القرن الرابع عشر » . ويقول دوزى عن آثار الفتح الإجتماعية : « كان الفتح العربى من بعض الوجوه نعمة لإسبانيا . فقد أحدث فيها ثورة إجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد منذ قرون .. وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى ، ووزعت الأراضى توزيعاً كبيراً ، فكان ذلك حسنة سابغة ، وعاملا فى ازدهار الزراعة إبان الحكم العربى . ثم كان الفتح عاملا فى تحسين أحوال الطبقات المستعبدة ،

إذ كان الإسلام أكثر تعضيداً لتحرير الرقيق من النصرانية ، كما فهمها أحبار المملكة القوطية . وكذا حسنت أحوال أرقاء الضياع ، إذ غدوا من الزراع تقريباً ، وتمتعوا بشيء من الإستقلال والحرية »[١].

ويقول الأستاذ لاين پول : « أنشأ العرب حكومة قرطبة التى كانت أعجوبة العصور الوسطى ، بينما كانت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهل ، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية » .

« ما كان المسلمون كالبرابرة من القوط أو الوندال ، يتركون وراءهم الخراب والموت . حاشا ، فإن الأندلس لم تشهد قط أعدل وأصلح من حكمهم . ومن الصعب أن نقول أنى اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشئون الإدارية ، فقد خرجوا من الصحراء إلى الغزو ، ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه إدارة الأمم المفتوحة »[٢] .

ويقول المستشرق الإسبانى جاينجوس : « لقد سطعت فى اسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدنية ، التى نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية . وفى مدارس قرطبة وطليطلة العربية ، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء ، وحفظت بعناية . وإلى حكمة العرب ، وذكائهم ، ونشاطهم ، يرجع الفضل فى كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها »[٣] .

وقال المؤرخ الأمريكى سكوت : « فى أقل من أربعة عشر شهراً ، قضى

---

(١) Dozy : Histoire, V.II, p. 277—278 . ويذكر دوزى من جهة أخرى أن الفتح أعقبته فترة من الفوضى نهب فيها المسلمون عدة أماكن ، وأحرقوا عدة مدن وشنقوا بعض الأشراف ، وقتلوا الأطفال بالخناجر ، ولكن الحكومة العربية قمعت فى الحال هذه الفظائع (ج ٢ ص ٢٧٥) . ويندد من جهة أخرى بقضاء العرب على حرية الكنيسة ، واستئثارهم بتكوين المجالس الدينية ، وتعيين الأساقفة وعزلهم . ثم يقول إن العرب بعد أن توطد سلطانهم ، كانوا أقل احتراماً للمعاهدات المعقودة (ج ٢ ص ٢٨١) . ونقول نحن إن دوزى لم يعتمد فى سرد هذه الفظائع إلا على الرواية النصرانية وهى متحاملة مغرضة تحمل طابع المبالغة ، خصوصاً فيما يتعلق بقتل الأطفال . أما تنديده بقضاء العرب على سلطة الكنيسة فليس مما يمكن تبريره ، لأن سياسة الفتح المستنيرة ، وبواعث توطيد دعائم الدولة الجديدة ، تقضى بأن يأخذ الغالب بزمام كل السلطات فى البلد المفتوح .

(٢) Lane - Poole : The Moors in Spain, Ch. I

(٣) P. Gayangos : History of the Mohammedan Dynasties in Spain V. I. p. VII & VIII

على مملكة القوط قضاء تاماً . وفى عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنيه . ولا يقدم لنا التاريخ مثلا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت فى هذا الفتح ... وقد كان المظنون فى البداية أن الغزو إنما هو أمر مؤقت فقط . ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال البلاد دائماً . فلما استقرت الجماعات المستعمرة ، وفتحت الثغور لتجارة المشرق ، وأقيمت المساجد ، أدرك القوط فداحة الخطب الذى نزل بهم . ولكن اعتدال حكامهم الجدد خفف من ألم الهزيمة . وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة ، والأحبار يزاولون شئونهم فى سلام : أما أقوال الكتاب النصارى التى ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب ، فهى محض مبالغة أو افتراء »(١) .

أجل ، لم يك ثمة ما يدعو لأن يعتبر الفتح الإسلامى لاسبانيا كارثة قومية يفزع لها الشعب ويأسو ؛ بل كان كل ما هنالك بالعكس يدعو إلى اعتباره نذير الخلاص والأمل . ألم يكن شعار الفاتحين التسامح والعدل والمساواة ؟ لقد كان تسامح الإسلام نبراساً يشع بضوئه المنقذ فى هاتيك المجتمعات التى أضناها الإرهاق الدينى ، ولم ير الإسلام بأساً من أن يستقبل النصارى واليهود إلى جانب المسلمين فى مجتمع واحد ، يسوى فيه بينهم فى جميع الحقوق والواجبات ، ولم ير بأساً من أن تقوم الكنائس والبيع إلى جانب المساجد ، ألم يكن ذلك أبدع وأروع ما فى سياسة الفتح الإسلامى ؟ لقد كانت حرية الضمائر والعقائد والفكر ، وما زالت منذ أقدم العصور ، أثمن ما تحرص عليه الشعوب الكريمة وتذود عنه .

فإذا ذكرنا أن هذا التسامح الذى أبداه الإسلام نحو الأمم المغلوبة ، وهذا الاحترام لضمائر الناس وعقائدهم ، وهذه الحرية التى تركها لهم فى إقامة شعائرهم ، إنما جاءت بعد عصور طويلة من الاضطهاد الدينى ، اتخذت فيها مطاردة الضمائر والعقائد أشنع الأساليب والصور ، استطعنا أن نقدر ما كان لذلك الانقلاب من

---

(١) **Scott : ibid., V. I. p. 260 & 264** . وينوه باحث أمريكى حديث آخر هو الدكتور **Lea** بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى ، وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وبغض الأجناس أو التفرقة بينها . راجع : **History of the Inquisition in Spain V. I. p. 356**

أثر عميق فى نفسية الشعوب المغلوبة وعواطفها ، وما كانت تحبو به حكم الإسلام من التأييد والرضى .

ويبدى كثير من العلماء الإسبان أنفسهم مثل هذا التقدير ، والإشادة باعتدال السياسية الإسلامية وآثار مسلكها المستنير . ذلك أن العرب تركوا الشعب المغلوب دون مضايقة ، يحيا حياته الخاصة فى نظمه وتقاليده . وهذا ما يسلم به المستشرق سيمونيت ، بالرغم من كونه من أشد العلماء الإسبان تحاملا ، فهو يقول لنا « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية ، فإن النصارى الإسبان احتفظوا فى ظل الحكم الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة ، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير ؛ وفيما يتعلق بالتشريع ، فإنهم قد احتفظوا فى باب النظم الكهنوتية بقوانين الكنيسة الإسبانية القديمة ، واحتفظوا فى الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون التقاضى "Fuero Juzgo" ، يخضعون لها فى كل ما له علاقة بحكومتهم . وهى حكومة بلدية محلية ، وما لم يكن يتعارض مع القوانين والسياسة الإسلامية »[1] .

وفيما يتعلق بالناحية النظامية يقول العلامة ألتاميرا ، إن أغلبية الشعب الإسبانى الرومانى والقوطى بقيت فى ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها (وهم الأقماط أو الكونتات Condes) وقضائها وأساقفتها وكنائسها ، وبالجملة بقيت محتفظة بما يشبه استقلالها المدنى الكامل . وقنع الولاة بأن يفرضوا على النصارى المحكومين الضرائب الشرعية »[2] .

ويقول المستشرق كارديناس : « إن الفضل يرجع إلى تسامح الولاة والأمراء الأوائل ، فى أنه خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامى ، كان الشعبان — المسلمون والمستعربون (النصارى) — يعيشان جنباً إلى جنب عيشة حرة » .

« واستطاع المستعربون فى ظل الحكم الإسلامى أن يحتفظوا باستقلالهم ، ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم ، وأحياناً بأساقفتهم وكونتاتهم ، وأن يسهروا على صيانة الفنون القوطية التى كان العرب أنفسهم يقتبسون من أساليبها »[3] .

---

(١) D. Francisco J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) V. I. p. 106.

(٢) R. Altamira y Crevea : Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola (Barcelona 1900) T. I. p. 217.

(٣) O. Almagro y Cardenas: La Cultura Arabigo—Sevillana (Sevilla 1894) p. 10.

ونكتفي بما تقدم من أقوال المؤرخين والمفكرين الغربيين فى الإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وتسامحها . وفى أقوالهم أبلغ رد على ما ينسبه بعض الأحبار والعلماء المتعصبين لحكم المسلمين ، من ضروب التعصب والطغيان المدنى والدينى .

غير أن هذه الدولة الجديدة التى أنشأها الإسلام فى اسبانيا ، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف الخطر . وكان هذا المجتمع الجديد الذى جمع الإسلام شمله ومزج بين عناصره ، يجيش بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية . كانت القبائل العربية ماتزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، يبغضون قادتهم ورؤساءهم العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة ، واحتلالهم لمعظم القواعد والوديان الخصبة ، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة . وكان المسلمون الإسبان وهم « المولدون أو البلديون »[1] محدثين فى الإسلام ، يشعرون دائماً بأنهم رغم إسلامهم ، أحط من الوجهة الاجتماعية ، من سادتهم العرب . ذلك أن العرب رغم كون الإسلام يسوى بين جميع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون فى ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ، هذا إلى أن العربى فى الأقطار القاصية التى افتتحها بالسيف ، لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس ، التى كانت دائماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الإنكليزى السكسونى يعد نفسه أشرف الخليقة[2] . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر ما فى هذا المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال ، فقد كانت عصبية القبائل والبطون ، ما تزال قوية حية فى الصدور ، وكان التنافس على السلطان والرياسة بين الزعماء والقادة ، يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها فى نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستعر نار ذلك الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع إلى ماقبل الإسلام . منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الإسلام فى حمير وتُبع ، أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة ، بينما كانت مضر بدواً متأخرين يخضعون لحمير ويؤدون

---

(١) ابن القوطية – افتتاح الأندلس – ص ٣٠ .

(٢) Ameer Ali : Ibid., p. 118

الجزية لهم . وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد ، إذ كانت حمير تعمل للاحتفاظ برياستها وسلطانها ، وتجاهد مضر فى سبيل استقلالها وحريتها . ولنا فى « أيام » العرب ووقائعها المشهورة ، أمثلة رائعة من هذا التضال . قال ابن خلدون : « واستمرت الرياسة والملك فى هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً ، بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم فى بنى المنذر ، وبالشام لغسان فى بنى جفنة ، ويثرب كذلك فى الأوس والخزرج . وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية وأحياء ناجعة . وكانت فى بعضهم رياسة بدوية وراجعة فى الغالب إلى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك ، وظهرت قريش على مكة ونواحى الحجاز ، أزمنة عرفت فيها منهم ودانت الدول بتعظيمهم . ثم صبغ الإسلام أهل هذا الجيل ، فاستحالت صبغة الملك إليهم وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الله بالنبوة بهم ، فكانت فيهم الدول الإسلامية كلها ، إلا بعضاً من دولها قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيداً للدعوة »[1]. وهكذا أسفر النضال لظهور الإسلام عن تحول فى الرياسة ، إذ انتهت إلى قريش زعيمة المضرية ، بعد أن لبثت عصوراً طويلة فى اليمنية ، وانقلبت الآية ، فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمنية تجاهد فى انتزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمير ، كان أصل اللغة العربية التى اعتنقتها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبى القرشى المضرى ، فكانت اللغة من مفاخر مضر ، تغار عليها وتحافظ على سلامتها ونقائها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وتميم . وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وأياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم »[2] . أضف إلى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ .

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ٤٨٧ .

فى الطبائع والخلال ، مما كان يذكى بينها أسباب النفور والتباعد . وقد كان الإسلام مدى حين عاملا قوياً فى جمع الكلمة ، وتوطيد الصفوف ، وتلطيف أسباب الخصومة ، ولاسيما فى شبه الجزيرة العربية . ولكن ما كاد ينقضى العصر الأول ، حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدها ، وعادت تعصف بوحدة المجتمع الإسلامى ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد فى الأقطار القاصية التى افتتحها الإسلام ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة ، التى تعمل معاً تحت لوائه ، مجالا واسعاً للتنافس والتطاحن . وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الإسلامى المضطرم المتنافر ، الذى قام عقب الفتح فى اسبانيا .

وكانت إفريقية وهى أقرب قطر إسلامى لإسبانيا ، وتتبعها حكومة الأندلس من الوجهة الإدارية ، تفيض أيضاً بعناصر اضطراب خطرة . فقد نزح إليها الدعاة الخوارج منذ أواخر القرن الأول ، وذاعت مبادئ الخوارج الثورية بين البربر بسرعة ، لحداثة عهدهم بالإسلام ، وتعددت نحلهم وطوائفهم ، واشتد الخلاف والجدل فيما بينهم ، وفسد من جهة أخرى مابينهم وبين العرب من علائق الإخاء والمودة ، وكثر نزوعهم إلى الثورة . وهذا مايصفه ابن خلدون فى قوله : « ثم نبضت فيهم (أى البربر) عروق الخارجية ، فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية . وفشت هذه البدعة ، وعقدها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر ، فاختلفوا فى كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب »(1) . واشتد تحريض الخوارج على حكومة الأمويين فى إفريقية ، بعد أن أخفقوا فى مقاومتها فى العراق ، وتوالت الثورات والحروب الأهلية حيناً . وكان لذلك كله صداه فى اسبانيا ، وخصوصاً بين البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، فاضطرب أمر الحكم والنظام فى الأندلس ، وذكا الخلاف بين الزعماء والقادة على نحو ما قدمنا ، ولبثت حكومة اسبانيا العسكرية مدى حين عرضة للخروج والثورة ، وذهب ضحية الفتنة جماعة من الحكام والزعماء كما نفصل بعد .

---

(1) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

— ٢ —

عنى الفاتحون عقب الفتح بتنظيم شئون الحكم والإدارة ، فقسمت اسبانيا على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط ، فى المبدأ ، إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل منها حاكم محلى يعينه الحاكم العام ، ويُسئل أمامه مباشرة عن أعماله وشئون إدارته . أما حاكم الأندلس أو واليها العام ، فكان تعيينه فى المبدأ راجعاً إلى حاكم إفريقية يختاره بموافقة الخليفة .

وكانت الولاية الأولى تشمل إقليم الأندلس ، الممتد بين البحر المتوسط ونهر الوادى الكبير ، وما يلى هذا النهر حتى نهر وادى أنة أو وادى يانة ، وأشهر مدنها قرطبة ، وإشبيلية ، ومالقة ، وإستجة ، وجيان . وتشمل الثانية جميع اسبانيا الوسطى ، من البحر المتوسط شرقاً إلى حدود البرتغال غرباً (لوزيتانيا) ، ثم إلى نهر دويره (دورو) شمالا ، وأشهر قواعدها طليطلة ، على نهر تاجُه ، وقونقة وشقوبية ، وبلنسية ، ودانية ، ولقنت ، وقرطاجنة ، ومرسية ، ولورقة ، وبسطة . وتشمل الثالثة جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة) ، وأشهر قواعدها ماردة ، ويابرة ، وباجة ، وأشبونة ، وقلمرية ، ولك ، وأسترقة ، وشلمنقة وغيرها . وتمتد الرابعة من نهر دويره إلى جبال البرنيه (جبال البرت أو الممرات) على ضفتى نهر إبره (إيبرو) ، وغرباً إلى جليقية . وأشهر قواعدها سرقسطة ، وطرطوشة ، وطركونة ، وبرشلونة ، وأرقلة (أرجل) ، وبلد الوليد ، ووشقة ، وببشتر وغيرها . ولما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالا ، أنشئت ولاية خامسة شمالى جبال البرنيه شاملة لأربونة ، ونيمة (أونومشو) ، وقرقشونة ، وبزييه ، وأجده ، وماجويلون (أومقلون) ، ولوديف[1] .

ففى هذه الولايات والقواعد الجديدة تفرقت القبائل والعشائر المختلفة ، فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة ، وحمص بإشبيلية ولبلة وأنحائهما ، وقنسرين بجيان وأنحائها ، وفلسطين بشذونة والجزيرة وريُّه ومالقة وأنحائها ، وقبائل اليمن بطليطلة وأراضيها ، ونزل الفرس بشريش وأحوازها ، والعراقيون بكورة إلبيرة (غرناطة) ؛

---

(١) يقدم لنا أبو عبيدة البكرى فى وصفه للأندلس تفصيلا لهذا التقسيم ، ويسميه تقسيم قسطنطين . وهو يقوم على تقسيم اسبانيا إلى ست وحدات إدارية ، تقترب فى أوضاعها مما ذكر . (راجع الروض المعطار — الترجمة الفرنسية ص ٢٤٦) .

والمصريون بتدمير وماردة وأشبونة وأراضيها ، واستقر الحجازيون بالقواعد الداخلية[1] .

وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية فى نواحى ماردة وبطليوس وأراضى البرتغال ، ونواحى الثغر الأوسط شمالى طليطلة فيما وراء نهر التاجُه ، وفى بعض أنحاء الثغر الأعلى ، وفى قطاع قونقة والسهلة ، ونزلت أقليات منهم بين القبائل العربية ، بنواحى شاطبة ولقنت ، وفى أحواز شذونة وأراضى الفرنتيرة[2] .

ويلاحظ من الناحية الإقليمية ، أن القبائل العربية قد احتلت معظم البقاع والوديان الخصبة فى شبه الجزيرة ، وأن البربر نزلوا أو بعبارة أخرى أنزلوا بالعكس فى معظم الأقاليم والهضاب القاحلة ، ولم يحتلوا من البقاع الخصبة سوى القليل . وقد كان هذا التقسيم المجحف للأقاليم المفتوحة عاملا آخر فى ازدياد الشقاق بين العنصرين الفاتحين — العرب والبربر — . وسنرى فيما بعد كيف كان استقرار البربر فى تلك الأطراف الوعرة النائية ، من العوامل التى شجعتهم على تحدى السلطة المركزية ، ورفع لواء الثورة من آن لآخر .

وقد ذكرنا أن موسى بن نصير قبل رحيله إلى المشرق فى شهر ذى الحجة سنة ٩٥ ، اختار ولده عبد العزيز لولاية الأندلس ، فكان أول ولاتها من المسلمين ، وأنه استخلف ولده عبدالله فى ولاية إفريقية ، وأن سليمان بن عبد الملك أقر هذا الاختيار . فقضى عبد العزيز بن موسى فى ولايته زهاء عامين عنى فيهما بتحصين الثغور ، وقمع الخروج والعصيان ، وافتتح عدة أماكن وحصون ، وأبدى همة فى تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها ، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها ، لتوافق مشارب الرعايا الجدد ، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل ، وشجع الزواج بين العرب والإسبان ، وتزوج هو بالملكة إيجلونا[3] أرملة ردريك ملك القوط ، واختار فى إشبيلية عاصمة ، الأندلس

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

(٢) يقدم لنا ابن حزم فى كتاب « الجمهرة » بياناً مفصلا عن القبائل والبطون البربرية التى نزلت فى شبه الجزيرة ، والنواحى التى نزلت بها . راجع « جمهرة أنساب العرب » (القاهرة) ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

(٣) ويسميها العرب « إيلة » أو أم عاصم . وقال الواقدى ، ونقله ابن عبد الحكم ، إنها كانت ابنة ردريك لا زوجته (أخبار مصر ص ٢١٢) ، وكذا ورد فى البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٢) .

الجديدة ، دير « سانتا روفينا » ليكون مقاماً له ولزوجه ، وفيه أجريت أول تعديلات على الطراز العربى ، ووفد عليه المهاجرون من مصر والشأم والعراق وفارس ، فأحيوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة . ولكنه لم يستطع أن يوفق بين مختلف القبائل ، ولا أن يهدئ من فورة الجند . هذا إلى ما ثار من ريب حول مقاصده ونياته ، بانقياده إلى زوجه ، واتخاذه نوعاً من رسوم الملك ، حتى قيل إنه تنصر ، وقيل إنه كان يبغى الملك ويسعى إليه بتحريض زوجه ، ويعمل للاستقلال بإسبانيا[1] .

وهذا ما يراه المستشرق سيمونيت ، إذ يقول إن عبد العزيز بن موسى كان يدبر مشروعاً يرمى إلى الاستقلال بإسبانيا ، وإلى أن يؤسس مملكة أو إمارة مستقلة فوق أنقاض المملكة القوطية ، وقد كان مما يدفعه إلى هذا العزم ، فضلا عن طموحه الشخصى ، تحريض زوجه إيجلونا ، التى كانت تضطرم رغبة فى استرداد تاجها القديم ، وأسباب أخرى تتعلق بالسياسة العليا . ولم يكن يخفى عليه أن سلطان خلفاء المشرق ، غدا قاصراً عن أن يسيطر على هذا القطر الغربى ، الذى كان سكانه الوطنيون أقل انحطاطاً من الأمم الأخرى التى فتحها المسلمون ، والذى كان يقدم إلى الفاتحين بعدده وحضارته مزية عظيمة[2] . وبالرغم من أنه ليست لدينا أدلة حاسمة على مشروع عبد العزيز بن موسى فى الاستقلال باسبانيا ، فإنه يبدو ممكناً ومعقولا فى الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا يومئذ . وعلى أى حال ، فإن خصومه شنوا عليه وعلى تصرفاته دعاية قوية انتهت بالثورة ، فوثب به جماعه من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن أبى عبدة الفهرى ، وقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية ، وذلك فى رجب سنة ٩٧ (يناير ٧١٦م) ، وبعثوا برأسه إلى دمشق . ومن المرجح أن يد الخلافة لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة ، وأن سليمان بن عبد الملك هو روحها والمحرض عليها ، فمن المعقول أن يتوجس سليمان ريبة من عبد العزيز ومقاصده ، بعد الذى أنزله بأبيه موسى ، وأن يرى التخلص منه وسيلة لتأمين الخلافة على سلطانها فى ذلك القطر الجديد . وفى اهتمام

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٨ . وراجع C. Julian : ibid, p. 778

(٢) F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana, Vol. I, p. 147

الجناة بإرسال رأس القتيل إلى دمشق اتهام واضح للخليفة . وقد عزل سليمان ، عبد الله بن موسى بن نصير عن إفريقية ، فى نفس الوقت الذى قتل فيه عبد العزيز ، وهو ما يؤيد هذا الفرض أيضاً . والواقع أن أكثر من رواية إسلامية وثيقة يلقى تبعة هذه الجريمة على سليمان ، ويتهمه البعض صراحة بأنه مدبرها ، بل لقد ذهب بعضهم إلى القول بأن سليمان لم يكتف بأن حمل الجناة إليه رأس عبد العزيز ، وأنه عرضها على أبيه موسى زيادة فى إيلامه والتشفى منه[١] ، على أن سليمان لم يعدم من الرواة من يبرئه من ارتكاب هذه الجريمة ، فقد ذكر لنا صاحب « أخبار مجموعة » أن سليمان أسف لمقتل عبد العزيز ، أو بعبارة أخرى أنه برىء من تبعة مقتله ، وهى الرواية الوحيدة من نوعها ، وهى رواية ظاهرة الضعف[٢] .

وعلى أثر مقتل عبد العزيز ، اتفق الزعماء فى إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمى ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، وكان عاقلا صالحاً ، فهدأت الخواطر نوعاً ، ولبث فى ولايته ستة أشهر نقلت خلالها قاعدة الحكم من إشبيلية إلى قرطبة باتفاق الجماعة[٣] . ثم أقاله محمد بن يزيد الذى خلف عبد الله بن موسى فى ولاية إفريقية ، وعين لولاية الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، فقدمها فى ذى الحجة سنة ٩٧ فى جماعة كبيرة من وجوه إفريقية . وأنفق الحر صدر ولايته فى قمع الفتن والمنازعات التى كانت قائمة بين العرب والبربر ، وإصلاح الجيش ؛ ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند ، وتنظيم الإدارة وتوطيد الأمن ، وكان صارماً جائراً شديد الوطأة . ثم سار نحو الشمال فى جيش ضخم ليستعيد المدن والحصون الشمالية التى غزاها المسلمون من قبل ، فعبر جبال البرنيه واخترق ولاية سبتمانيا[٤] أو لانجدوك فى ربيع سنة ٧١٨ (٩٩هـ) ، وكانت مدن سبتمانيا قرقشونة

---

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٢ و ٢١٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٢ و ٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٨ ، وابن القوطية (ص ٤١) وهو صريح فى أن سليمان هو الذى دبر الجريمة وعهد بتنفيذها إلى جماعة معينة من الجند ، وابن خلدون وهو صريح أيضاً فى أن الجريمة تمت بتحريض سليمان (ج ٤ ص ١١٨) .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٣) وهناك رواية أخرى فى أن الذى نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة هو الحر الثقفى . راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ و ٢٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

(٤) سميت كذلك لاحتوائها على المدن السبعة أربونة وقرقشونة وأجدة وبزييه ولوديف وقيمة وماجويلون .

وأربونة وبزييه ونيمة تابعة لمملكة القوط ، وكانت تخلفت عن الطاعة بعد أن غزاها المسلمون لأول مرة بقيادة موسى بن نصير على نحو ما قدمنا . فافتتحها الحر واستولى عليها ، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون . ولكنه اضطر أن يعود أدراجه ، إذ علم أن النصارى فى منطقة نافار الجبلية (نبّره أو بلاد البشكنس) ، قد نظموا حركة مقاومة خطيرة ، وأن الأمور قد اضطربت فى قرطبة . وكان النظام قد اختل ، وعادت المنازعات والدسائس تعمل عملها ، فى تقويض الأمن والسكينة ، فأنفق الحر حيناً آخر فى قمع الفتنة ، حتى عزله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فى منتصف سنة مائة لقسوته وصرامته ، واضطراب النظام فى عهده ، فكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر ، سادت فيها القلاقل والفتن .

واختار عمربن عبدالعزيز لولاية الأندلس السَّمْح بن مالك الخولانى . وقرر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة مباشرة ، لما رآه من أهميتها واتساع شئونها ، وكانت إلى ذلك الحين تابعة لعامل إفريقية وإليه تعيين ولاتها . ويقال إن عمر بن عبد العزيز فكر فى إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين قاطبة عنها ، لانقطاعهم بها ، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقى أقطار الخلافة ، فقيل له إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا ، فعدل عن مشروعه . « قالوا وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلا أن يستنقذهم الله برحمته »(١) . وقدم السمح إلى الأندلس فى رمضان سنة مائة (إبريل سنة ٧١٩) مزوداً بنصح الخليفة فى أن يتبع الرفق والعدل ، وأن يقيم كلمة الحق والدين . وكان السمح حاكماً وافر الخبرة والحكمة والعقل . فقبض على زمام الأمور بحزم وهمة ، وبادر بقمع المنازعات والفتن ، وإصلاح الإدارة والجيش . وخمس جميع أراضى الأندلس التى فتحت عنوة ، أعنى مسحها وقرر عليها الخراج بنسبة الخمس .

ويقول لنا العلامة ألتاميرا ، فيما يتعلق بتوزيع أراضى الأندلس ما يأتى :

« وقد ترك الفاتحون للإسبان الذين أسلموا أو خضعوا ، سواء أكانوا جنداً

---

(١) أورد هذه الرواية صاحب البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥) ، ونقلها المقرى عن ابن حيان مؤرخ الأندلس (ج ٢ ص ٥٦) ، وأشار إليها ابن الأثير أيضاً (ج ٥ ص ١٨٢) .

أم نبلاء — حقوقهم فى ملكية أملاكهم كلها أو بعضها ، مع فرض ضريبة عقارية عليهم مشابهة للخراج هى (الجزية) ، على الأراضى المزرعة والأشجار المثمرة ، واتبعت هذه القاعدة نحو بعض الأديار ، كما حدث فى الامتياز الذى منح لمدينة « قُلُمرية » ، وأبيح لهؤلاء الملاك فوق ذلك حرية التصرف فى أملاكهم ، وهو حق كان وفقاً للقوانين الرومانية القديمة مقيداً أيام القوط . وأما مازاد عن الخمس فى الأراضى التى استولى عليها الفاتحون ، فقد وزع بين الرؤساء والجند ، وبين القبائل التى يتألف منها الجيش .

« وقد روعى فى توزيع الأراضى أن تخصص الولايات الشمالية ، وهى جلّيقية وليون والأسترياس للبربر ، وأن تخصص الولايات الجنوبية ، أعنى الأندلس للقبائل العربية . وكان يفرض على العمال الملازمين siervos من القوط ، الذين يشتغلون بزرع الأرض ، أن يدفعوا للسيد أو القبيلة المالكة ثلثى أو ثلاثة أخماس المحصول . وكان من أثر ذلك أن تحسنت أحوال المزارعين ، كما أنه أدى فى نفس الوقت إلى تقسيم الملكية وتمزيق الملكيات الكبيرة . كذلك تحسنت حال العبيد ، لأن المسلمين كانوا يعاملونهم بأفضل مما كان الإسبان الرومان والقوط ، ولأنه كان يكفى أن يدخل العبد فى الإسلام ليغدو حراً »(١) .

وأنشأ السمح قنطرة قرطبة الشهيرة ، على نهر الوادى الكبير ، تحقيقاً لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وأبدى فى جميع أعماله حزماً ورفقاً وعدلا ، فالتف الزعماء حوله ، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر ، واستقر النظام والأمن .

وكان السمح فوق كفايته الإدارية جندياً جريئاً وقائداً عظيماً . فلما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح ، تأهب لاستئناف الغزو ، وتوطيد سلطان الخلافة فى الولايات الجبلية ، والقواعد الشمالية ، التى لم يستطع أن يتمم إخضاعها الحر الثقفى . فزحف على لانجدوك (سبتمانيا) فى أواخر سنة ٧١٩ م فى جيش ضخم ، وفى جماعة كبيرة من وجوه الزعماء والقادة ، واخترق جبال البرنيه من الشرق من ناحية روسيون ، واستعاد أربونة وقرقشونة ومعظم قواعد سبتمانيا وحصونها ، وعاث فى تلك الأنحاء ، وشتت كل قوة تصدت لمقاومته . ووقعت هذه الغزوة

---

(١) R. Altamira. Historia de Espana. V. I. p. 217—218

الشاملة فى سنة ٧٢٠ م (١٠١ هـ) . ويقول إيزيدور الباجى إن العرب اجتاحوا يومئذ غاليس القوطية كلها وجميع قواعد سبتمانيا[١] . ثم اتجه السمح بعد ذلك نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية أو أكوتين ، وزحف تواً على قاعدتها تولوشة (تولوز)[٢] ، وبدأ بذلك النضال بين العرب والفرنج فى بسائط غاليس قوياً رائعاً .

---

(١) Dom Vissette : ibid. V. I. p. 781

(٢) ويسميها ابن عذارى طرسونة (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥) وهو تحريف ظاهر لأن طرسونة كانت من أعمال تطيلة فى شمال شرق الأندلس (راجع معجم ياقوت) .

الفصل الخامس

غاليس بين العرب والفرنج

(١) مملكة الفرنج . نزوحهم من الشمال إلى فرنسا . كلوفيس أول ملوكهم . كلوتير الثانى . داجوبرت . نمو مملكة الفرنج . ضعف سلطان العرش . الزعماء المحليون . محافظ القصر . الأسرة الكارلية . نفوذها وتقدمها فى الرياسة . المعارك الأهلية . قيام إمارة أكوتين . بيبن دى هرشتال محافظ القصر . حفيده تودڤالد يخلفه . ولده كارل مارتل ينتزع السلطة لنفسه . الدوق أودو أمير أكوتين . السمح يغزو إمارته . موقعة تولوشة ومقتل السمح . (٢) انتخاب عبد الرحمن الغافقى للرياسة . إخماده للفتنة فى الشمال . ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى . رد الأندلس إلى حكومة إفريقية . سير عنبسة إلى الشمال . غزوه لسبتمانيا . استيلاؤه على قرقشونة . غزوه لوادى الرون . تفاهم أودو مع المسلمين . أقوال إيزيدور الباجى . كمين الفرنج لعنبسة ومقتله . تتابع الولاة على الأندلس . عزرة بن عبد الله الفهرى . يحيى بن سلمة الكلبى . عثمان بن أبى نسعة الخثعمى . حذيفة بن الأحوص القيسى . الهيثم ابن عبيد الكلابى . اضطراب شؤون الأندلس . غزو الفرنج لمواقع المسلمين . اجتماع فلول القوط فى جليقيه . إصلاحات الهيثم . عبوره إلى سبتمانيا . غزوه لوادى الرون وبرجونية . ولاية محمد ابن عبد الله الأشجعى . ولاية عبد الرحمن الغافقى الثانية . مواهبه وخلاله . بوادر الثورة فى الشمال . منوسة حاكم الولايات الشمالية . غموض شخصيته . أطماعه ومشاريعه . تفاهمه مع أودو دوق اكوتين وتحالفه معه . اقترانه بلامبيجيا ابنة الدوق . ارتياب عبد الرحمن فى موقفه وتصرفاته . إرساله جيشاً إلى الشمال . فرار منوسة ومقتله وأسر زوجه . مخاوف أودو . تأهب عبد الرحمن للغزوة الكبرى . سيره إلى الشمال . زحفه على مدينة آرل واستيلاؤه عليها . اختراقه لأكوتين . موقعة الدردون وهزيمة الفرنج . استيلاء عبد الرحمن على بوردو . سيره ثانية إلى وادى الرون . استيلاؤه على ليون وبيزانصون وصانص . زحفه غرباً نحو اللوار . أقوال الفيلسوف جيبون .

— ١ —

يجدر بنا قبل أن نمضى فى تتبع الغزوات الإسلامية لتلك الأنحاء ، أن نقول كلمة عن مملكة الفرنج تمهيداً لما سيجىء من لقاء العرب والفرنج وتطور العلائق بينهما . كان الفرنج (أو الفرنك) شعبة من القبائل الجرمانية استقرت منذ أواخر القرن الخامس للميلاد ، بين نهر الرين والبحر فى إقليم فلاندر وما إليه (البلچيك الحديثة) ، ثم على ضفاف الرين الوسطى والموزل . وفى نهاية القرن الخامس كان زعيم هذه القبائل أمير شجاع مقدام يدعى كلوفيس بدأ حكمه فى مدينة «تورنى» .

وفى سنة ٤٨٦ م غزا شمال فرنسا وانتزعه من يد الحاكم الرومانى سباجريوس ، وكان قد أقام به دولة مستقلة ، ثم حارب قبائل « الألمانى » القاطنة شرق نهر الرين ، وافتتح أراضيها حتى باڤاريا . وفى سنة ٥٠٧ م حارب كلوڤيس القوط ، وكانوا قد استقروا كما قدمنا فى القسم الجنوبى من فرنسا المسمى بغاليا (أوغاليس) وقتل ملكهم ألاريك ، واستولى على الأراضى الواقعة ما بين اللوار والبرنيه ، عدا ولاية سبتمانيا (لانجدوك) التى بقيت فى يد القوط . واعتنق كلوڤيس النصرانية وأذاعها بين قبائله الوثنية ، وجعل باريس مقر ملكه الشاسع ، وبذا قامت مملكة الفرنج القوية أصل فرنسا الحديثة . وتابع أبناء كلوڤيس وخلفاؤه من بعده سياسة الفتح ، وافتتحوا برجونية وأواسط ألمانيا وشمالى إيطاليا . ثم وقعت الحرب الأهلية حيناً بين أمراء الفرنج الذين اقتسموا تراث كلوڤيس ، حتى جاء كلوتير الثانى سنة ٦١٣ م فبسط سلطانه على غاليس كلها (فرنسا) [١] ، واستأنف الفتح لإخضاع باقى الإمارات الفرنجية الواقعة شرقى الرين . وسار ولده داجوبرت فى أثره ، وجمع كلمة الفرنج تحت لواء واحد ، وغلبت سلطة الفرنج على ألمانيا الغربية ثانية ، وهذبت النصرانية التى جاهد فى إذاعتها الفرنج بين هذه القبائل المتوحشة ، كثيراً من خشونتها ، وقضت على كثير من رسومها الوثنية .

ولكن داجوبرت كان آخر ملك من الفرنج الميروڤنجيــة — أسرة كلوڤيس[٢] — استطاع أن يقبض على زمام السلطة المركزية بيد قوية . ذلك أن نظام الإقطاع والعشائر ، كان يسود هذه المملكة الشاسعة ، وكانت جمهرة من الأمراء والدوقات والكونتات تتقاسم السلطة فى مختلف الولايات والأنحاء ، وكلما ضعف سلطان العرش اشتد نفوذ أولئك الزعماء المحليين .

وكان أولئك الزعماء قد استطاعوا خلال العصور المتعاقبة ، أن يحدوا تباعاً من سلطة العرش ، وأن يحرزوا لأنفسهم كثيراً من الامتيازات والسلطات ، فلما جاء كلوڤيس استطاع بعزمه وصرامته ، أن يقبض على السلطة المركزية بيد قوية ، وأن يبسط على مملكة الفرنج كلها سلطاناً مطلقاً ، واستطاع بعض خلفائه

---

(١) تطلق كلمة غاليس فى الرواية الإسلامية على جنوبى فرنسا ، وهى تعريب حسن لكلمة La Gaule أو Gaulia (راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣) . وتسمى فرنسا أيضاً فى الجغرافية العربية بالأرض الكبيرة .

(٢) The Merovingians ، نسبة إلى مؤسس أسرتهم الملك مرڤيج جد كلوڤيس .

حتى داجوبيرت أن يبسطوا مثل هذا السلطان حيناً . ولكن خلفاء داجوبيرت كانوا رجالاً ضعاف الخلال والعزائم ، ينغمسون فى نعماء الترف والملاذ ، فضعف سلطان العرش ، وانهارت السلطة المركزية القوية التى كان يقبض عليها ، واسترد الأشراف والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم . هذا إلى أن ما استطاع العرش أن يحتفظ به من السلطات ، امتدت إليه سلطة جديدة فى القصر ذاته ، هى سلطة محافظ القصر. وكان هذا المنصب فى المبدأ متواضعاً ، ليست له أية صفة سياسية أو إدارية ، تقتصر مهامه على النظر فى شئون القصر المنزلية ، ولكنه غدا منذ أوائل القرن السابع ، أعنى منذ أخذت سلطة العرش فى الضعف ، منصباً هاماً ، يتولاه رجال أقوياء يتطلعون إلى السلطان ، وتؤازرهم عصبية الأسرة والثروة ، وأصبح بمضى الزمن أهم مناصب الدولة السياسية والإدارية ، يستأثر صاحبه بكل السلطات الحقيقية ، وإليه منتهى الأمر فى أخطر شئون الدولة ، يباشرها باسم العرش ومن ورائه ، ولا يباشر الملك إلى جانبه غير رسوم الملك الإسمية ، ويلتف حوله الزعماء والأكابر ، ويباشر فى معظم الأحيان سلطة الملك الحقيقية ، خصوصاً إذا كان الملك طفلا قاصراً ، فهو عندئذ يغدو الملك الحقيقى باسم الوصى أو النائب.

وكانت الأسرة الكارلية(١) القوية قد اختصت بهذا المنصب الخطير ، منذ عهد الملك داجوبيرت ، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية الملكية . وكانت أقوى بطون الفرنج فى أوستراسيا (مملكة الفرنج الغربية) ، تملك ضياعاً شاسعة ما بين نهرى الرين والموز وتتزعم جماعة النبلاء ، وترعاها الكنيسة لنفوذها وسلطانها ، وبمنح زعيمها محافظ القصر لقب « دوق الفرنج » ، تنويهاً برياسته وسلطانه ، الذى أصبح فوق سلطان العرش . وكان انحلال الأسرة الميروفنجية وانهيار سلطانها على هذا النحو ، سبباً فى تفرق كلمة الفرنج وانحلال الإمبراطورية الفرنجية الشاسعة ، وتطلع الزعماء إلى الاستقلال والرياسة ، أسوة بما انتهى إليه محافظ القصر ؛ فاضطرمت الحرب الأهلية حيناً بين الفرنج فى أوستراسيا والفرنج فى نوستريا (الفرنج الشرقية) ، وأسفر هذا الصراع عن استقلال ولاية أكوتين فى غاليا الجنوبية ، وكذا استقلال معظم الولايات الألمانية ، برياسة طائفة من

---

(١) **Carlovingians** أو **Carolingians** ، نسبة إلى أعظم ملوكها كارل الأكبر أو الإمبراطور شارلمان .

الأمراء الأقوياء . ثم آل منصب المحافظ فى أواخر القرن السابع إلى أمير مقدام جرىء من الأسرة الكارلية ، هو ببين دى هرشتال ، فحارب الفرنج الخوارج فى فريزيا وسكسونيا وباڤاريا وأخضعهم ، ولبث محافظاً للقصر يحكم مملكة الفرنج فى الشرق والغرب بقوة وعزم ، مدى سبعة وعشرين عاماً ، ثم توفى سنة ٧١٥ م موصياً بمنصبه لحفيده الطفل تودڤالد ، ولد ابنه جريمولد الذى قتل قبل وفاته . وكان لببين ولد آخر من زوجته « ألفايده » ابنة راتبود زعيم فريزيا الوثنى ، هو كارل (أو شارل) مارتل ، تركه أبوه فتى قوياً فى نحو الثلاثين من عمره ، وكان من الطبيعى أن يكون هو محافظ القصر بعد وفاة أخويه الكبيرين جريمولد ودروجو. ولكن ببين تأثر بتحريض زوجه الأولى « بلكترود » وأوصى بالمنصب لحفيده ، فكان محافظ القصر طفلا هو تودڤالد ، يحكم مكان الملك الميروڤنجى وهو طفل أيضاً ، بواسطة بلكترود التى عينت وصية على حفيدها . وكان أول ما فعلت بلكترود أن قبضت على كارل مارتل ، وزجته إلى السجن لتأمن شره ومنافسته . ولكن أشراف أوستريا ساءهم أن تتولى الحكم امرأة . فثاروا ونادوا بأحد زعمائهم « راجنفرد » محافظاً للقصر ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وهزم حزب بلكترود ، فارتدت مع حفيدها إلى كلونية ، وقبض راجنفرد على زمام الحكم .

وفى تلك الأثناء فر كارل مارتل من سجنه ، والتف حوله جماعة من أنصار أبيه ، وحارب النوستريين ، فاستغاث راجنفرد بالدوق أودو أمير أكوتين القوى ، فلم يغنه ذلك شيئاً ، وانتهى كارل بأن هزمه ومزق قواته ، واضطره إلى التسليم والصلح . أما بلكترود فقد عقدت الصلح أيضاً ، ونزلت عن كل حقوقها . وغدا كارل منذ سنة ٧٢٠ م محافظاً للقصر لا ينازعه منازع ، يحكم جميع الفرنج فى أوستراسيا ونوستريا(١) .

هكذا كانت مملكة الفرنج حينما عبر المسلمون إلى غاليا أو غاليس (فرنسا) لثالث مرة بقيادة السمح بن مالك ، وغزوا ولاية سبتمانيا القوطية ، واستولوا على قواعدها ، وزحفوا على مدينة تولوشة (تولوز) عاصمة أكوتين . وكان أودو

---

(١) راجع فى تاريخ مملكة الفرنج ونشأتها وعصر الأسرتين الميروڤنجية والكارلية :

Hodgkin : Charles the Great, وكذلك **Zeller : Histoire de l'Allemagne Ch. VII Ch. II & III**

دوق أكوتين أحد أعضاء الأسرة الميروفنجية ، أقوى أمراء الفرنج فى غاليا وأشدهم بأساً . وكان أثناء الاضطراب الذى ساد مملكة الفرنج ، قد استقل بأكوتين وبسط حكمه على جميع غاليس الجنوبية ، من اللوار إلى البرنيه ، والتف حوله القوط والبشكنس (الناڤاريون) ، وأخذ يطمح إلى انتزاع ملك الفرنج أو ملك أسرته ، ويعد العدة لقتال كارل مارتل المتغلب عليه . ولكنه اضطر أن يشتغل عن مشروعه برد خطر العرب الداهم .

استولى السَّمح على سبتمانيا وأقام بها حكومة إسلامية ، ووزع الأراضى بين العرب والسكان ، وفرض الجزية على النصارى ، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم ، ثم زحف نحو الغرب ليغزو أكوتين كما قدمنا ، فقاومه البشكنس والغسقونيون سكان هذه الأنحاء أشد مقاومة . ولكنه مزق جموعهم وقصد إلى تولوشة . وكان الدوق أودو قد جمع فى تلك الأثناء جيشاً ضخماً وسار لرد العرب ، وعلم السمح بذلك فارتد عن مهاجمة تولوشة ليلقى جيش الدوق رغم تفوقه على جيشه فى العدد . والتقى الفريقان بظاهر تولوشة ، ونشبت بينهما معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وكثر القتل فى الجيشين ، وأبدى المسلمون رغم قلتهم شجاعة خارقة ، وتراوح النصر حيناً بين الفريقين . ولكن السمح سقط قتيلا من فوق جواده ، فاختل نظام الفرسان المسلمين ، ووقع الاضطراب فى الجيش كله ، وارتد المسلمون إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم ، وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر ، وذلك فى التاسع من ذى الحجة سنة اثنتين ومائة (٩ يونيه سنة ٧٢١ م)[١] .

وعلى أثر مقتل السمح اختار الجيش أحد زعمائه ، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى للقيادة العامة ، فارتد عبد الرحمن إلى الجنوب توأ ، وأقرته « الجماعة » والياً للأندلس ، حتى يأتى الحاكم الجديد . فلبث فى منصبه فترة وجيزة ، ولكنه استطاع خلالها أن يخمد بوادر الخروج التى ظهرت فى الولايات الجبلية الشمالية ،

---

(١) يضع كوند وهو ينقل عن مصادر عربية إسبانية لم يبينها ، تاريخ الموقعة فى سنة ١٠٣ هـ (Conde : ibid. I. p. 72) . ولكن المصادر العربية التى بين أيدينا تجمع كلها على أن الموقعة كانت سنة ١٠٢ هـ (نفح الطيب عن ابن بشكوال وابن حيان ج ٢ ص ٥٦ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٨) . ومعظم المصادر الفرنجية على أن الموقعة كانت سنة ٧٢١ م (١٠٢ هـ) متفقة بذلك مع الرواية الإسلامية . راجع Dom Vissette : ibid ; I. p. 781 & 784

وأن يستبقى الجزية على أربونة وغيرها من قواعد سبتمانيا . ولبث يخمد الفتن ، ويصلح الأمور حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبى ، الذى اختاره بشر بن صفوان الكلبي والى إفريقية ، والياً للأندلس . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد جعل الأندلس ولاية مستقلة كما قدمنا ، تتبع الخلافة مباشرة . ولكن خلفه يزيد بن عبد الملك لم يقر هذا التعديل ، فعادت الأندلس تابعة فى إدارتها لإفريقية كما كانت . وقدم عنبسة بن سحيم الكلبي إلى الأندلس فى صفر سنة ١٠٣ . وأنفق حيناً فى تنظيم الإدارة ، وضبط النواحى ، وإصلاح الجيش ، وإعداده لغزوات جديدة . وفى أوخر سنة ١٠٥ هـ (أوائل سنة ٧٢٤ م) سار عنبسة فى الجيش إلى الشمال غازياً ، وعبر جبال البرنيه[1] مرة أخرى ، وغزا سبتمانيا التى فقد المسلمون كثيراً من معاقلها ، منذ هزيمة تولوشة ، واستولى على قرقشونة ونيمة وما بينهما من القواعد ، وارتد القوط عن محالفة الفرنج إلى محالفته . وتابع زحفه شمالا فى وادى الرون ونفذ إلى برجونية حتى مدينة أوتون فغزاها وخربها (أغسطس سنة ٧٢٥ م) ، ثم غزا مدينة صانص . وخشى أودوق أكوتين أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى ، فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم . وبسط المسلمون سلطانهم قوياً فى شرق جنوبى فرنسا . وفى ذلك يقول إيزيدور الباجى : « كان نجاح عنبسة راجعاً إلى الجرأة والبراعة ، أكثر منه إلى القوة والكثرة . وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان ، عاملا فى تقوية سلطان الإسلام فى جنوبى فرنسا » . ولكن قضى نكد الطالع أن ينكب المسلمون مرة أخرى . فإن عنبسة حين عوده إلى الجنوب ، داهمته قبل أن يجتمع إليه جميع جيشه ، جموع كبيرة من الفرنج ، فأصيب أثناء الموقعة التى نشبت بجراح بالغة توفى على أثرها ، وذلك فى شعبان سنة ١٠٧ هـ (ديسمبر سنة ٧٢٥) ، فارتد الجيش إلى الداخل ، وعاد الاضطراب إلى الجزيرة مرة أخرى .

---

(١) يحسن بنا أن نشير هنا إلى أن بعض الكتاب والباحثين يسمون جبال البرنيه خطأً بجبال « البرانس » . ذلك لأن جبال البرنيه تسمى فى الجغرافية العربية حسبما قدمنا بجبال البرت أو البرتات . أما جبال « البرانس » فهى سلسلة أخرى من الجبال الإسبانية ، تقع شرقى ماردة ، وجنوبى طليطلة ، وهى التى تعرف فى الجغرافية الحديثة بجبال المعدن **Sierra de Almaden** ، لوقوعها على مقربة من مدينة « المعدن » . وسميت فى الجغرافية العربية « بالبرانس » نسبة لقبيلة البرانس البربرية ، التى كان منزلها فى الأندلس على مقربة من هذه الجبال (راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و ١٦٣ حيث يشير إلى الحملات التى جردت لمقاتلة الثوار فى منطقة جبال البرانس) .

وتوالى على الأندلس مدى الأعوام الخمسة التى تلت وفاة عنبسة ، ستة ولاة أولهم عزرة بن عبد الله الفهرى[1] ، الذى تولى قيادة الجيش عقب وفاة عنبسة ، فلبث فى منصبه شهرين فقط . ثم يحيى بن سلمة الكلبى ، ولاه بشر بن صفوان عامل إفريقية ، فقدم الأندلس فى شوال سنة ١٠٧ ، وامتد حكمه عامين ونصف لم تقع فيهما حوادث أو غزوات تذكر . ثم توفى بشر بن صفوان ، وخلفه فى ولاية إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، فولى على الأندلس عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، فقدمها فى شعبان سنة ١١٠ ، ولبث فى منصبه ستة أشهر فقط ثم عزل ، وخلفه حذيفة بن الأحوص القيسى فلم تطل ولايته سوى أشهر أيضاً ، فخلفه الهيثم ابن عبيد الكلابى أو الكنانى ، ولاه أيضاً عبيدة السلمى عامل إفريقية ، فقدم الأندلس فى المحرم سنة ١١١ هـ . وكان تتابع الولاة على هذا النحو سبباً فى تفاقم الخلل والاضطراب فى شئون الجزيرة ، وتفاقم الخلاف بين الزعماء والقبائل . وكان تخلف المسلمين عن الغزو من جهة أخرى مشجعاً للفرنج على مهاجمة القواعد الشمالية ، مشجعاً للخوارج من القوط والبشكنس على تنظيم قواتهم . وكان أخطر أولئك الخوارج شراذم القوط التى لجأت كما أسلفنا إلى قاصية جليقية ، واجتمعت هناك حول زعيم يدعى بلايو أو بلاى ، ولم يعن الولاة بتتبعها والقضاء عليها ، إما احتقاراً لشأنها أو لوعورة الجبال التى امتنعت بها ، ففى أثناء اضطراب الشئون وانشغال الولاة ، كانت هذه الشراذم تنمو وتشتد داخل هضابها النائية ، وكانت هى نواة هذه المملكة النصرانية القوية التى نشأت سراعاً ، واشتد ساعدها ، حتى غدت قبل قرن تنافس الإسلام وتنازعه سيادة اسبانيا .

فلما ولى الهيثم حاول أن يقمع الفوضى ، وأن يرد النظام . وكان الهيثم حازماً قوى العزم ، ولكن صارماً شديد الوطأة ، فطارد الشغب والفوضى بشدة ، واضطهد معظم الزعماء والمخالفين له فى الرأى ، وبالأخص اليمنية ، وتتبع كثيرين منهم بالسجن والمطاردة ، وقاد حملة ضد « منوسة » وهو حسبما نوضح بعد زعيم بربرى غامض الشخصية ، كان حاكماً لمنطقة الأستورياس وظهرت منه أعراض التمرد ، ولكنه لم يوفق إلى القضاء عليه . ثم سار فى الجيش إلى الشمال ليقمع

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن عزرة لم يكن من ولاة الأندلس ، أو أن ولايته كانت غير رسمية (المقرى عن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦) .

أعراض الثورة التى بدأت فى الولايات الجبلية ، وليستأنف الغزو ؛ فعبر البرنيه ، واخترق سبتمانيا إلى وادى الرون وغزا ليون (لوذون) وماسون[١] وشالون الواقعة على نهر الساؤون ، واستولى على أوتون وبون ، وعاث فى أراضى برجونية الجنوبية . ولكن هذا الفتح الكبير لم يكن ثابت الأثر ، فقد أدى اختلاف القبائل وتمرد البربر إلى تفكك الجيش الفاتح ، وإلى تخلف المدن المفتوحة عن قبضة الفاتحين. فعاد الهيثم إلى الجنوب ، ولم يلبث أن توفى بعد أن حكم الأندلس مدى عامين ، فاختارت « الجماعة » مكانه محمد بن عبد الله الأشجعى حتى يعين الوالى الجديد[٢] ، فلبث فى منصبه شهرين ، حتى عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى والياً للأندلس ، عينه عبيدة بن عبد الرحمن السلمى والى إفريقية بمصادقة الخليفة هشام بن عبد الملك فى صفر سنة ١١٣ هـ (إبريل سنة ٧٣١)[٣] فكانت ولايته الثانية . وكانت ولايته الأولى سنة ١٠٣ هـ على أثر مقتل السمح كما قدمنا . وكان عبد الرحمن جندياً عظيماً ظهرت مواهبه الحربية فى غزوات غاليا ، وحاكماً قديراً بارعاً فى شئون الحكم والإدارة ، ومصلحاً كبيراً يضطرم رغبة فى الإصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعاً . وتجمع الرواية الإسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله ، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه[٤] . فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه

---

(١) لعل ماسون هى التى يسميها ابن عذارى منوسه (راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧) .

(٢) يقدم كوندى رواية أخرى عن مصير الهيثم ، فيقول إن أمر عسفه وجوره نمى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فانتدب محمد بن عبد الله الأشجعى للتحقيق معه . فلما تحقق صحة التهم المنسوبة إليه عزله وسجنه وصادر أمواله ، وأطلق الذين اعتقلهم ظلماً . ويقول كوندى أيضاً إن الأشجعى هو الذى اختار عبدالرحمن الغافقى لولاية الأندلس ، لما تحقق من شجاعته وحزمه بتفويض لديه من الخليفة .Conde ibid. V.I.p.81) . ويأخذ دوزى بهذه الرواية (Hist.V.I.p.137) . وكوندى يستقى روايته من بعض المصادر العربية الإسبانية ، ولكنه لا يعين هذه المصادر . على أن المصادر العربية التى أمامنا تجمع على أن ولاية الهيثم اختتمت بوفاته ، وأن الأشجعى خلفه باختيار الجماعة (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ عن ابن بشكوال ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩) .

(٣) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ ولاية عبد الرحمن ، فيقول الضبى إن تعيينه كان فى حدود سنة ١١٠ هـ (بغية الملتمس رقم ١٠٢١) ، وكذا ابن بشكوال (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦) . ويقول ابن عذارى إنه كان فى صفر سنة ١١٢ (ج ٢ ص ٢٨) ، وابن حيان إنه كان فى صفر سنة ١١٣ (نفح ج ٢ ص ٥٦) . وهى أرجح رواية فيما نعتقد وبها أخذنا لاتفاقها مع سير تواريخ الولاة المتقدمين .

(٤) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٦ ، ٢١٧ و وبغية الملتمس رقم ١٠٢١ ، والحميدى فى جذوة المقتبس ص ٦ و ٢٥٥ .

وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيبته كلمة القبائل ، فتراضت مضر وحمير ، وعاد الوئام نوعاً فى الإدارة والجيش ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً.

وبدأ عبدالرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة فنظم شئونها ، وعهد بإدارتها إلى ذوى الكفاية والعدل ، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضى صدر ولايته فى إصلاح الإدارة ، ومعالجة ماسرى إليها فى عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل . وعنى بإصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقاً قوية مختارة من فرسان البربر ، بإشراف نخبة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية ، وتأهب لإخماد كل نزعة إلى الخروج والثورة(١) .

وكانت الثورة فى الواقع توشك أن تنقض فى الشمال ، وبطلها فى تلك المرة زعيم مسلم هو حاكم الولايات الشمالية . فمن هو ذلك الزعيم الثائر ؟ إن الرواية الإسلامية تلزم الصمت إزاء شخصية هذا الزعيم ، وإزاء الحوادث التى اقترنت باسمه . وكل ما هنالك أن صاحب البيان المغرب يقول لنا فى حديثه عن ولاية الهيثم بن عبيد الكنانى « وهو الذى غزا منوسة »(٢). ثم يردد المقرى هذه العبارة فى قوله مشيراً أيضاً إلى الهيثم « وغزا أرض منوسة فافتتحها »(٣) . ويبدو لأول وهله من استقراء هاتين الإشارتين القصيرتين ، أن « منوسة » تنصرف فيما يرجع إلى المكان ، ومنوسة قد تكون مدينة « ماسون » وهى التى غزاها الهيثم ضمن غزواته فى أرض فرنسا . ولكن معظم الروايات النصرانية والفرنجية المعاصرة ، تحدثنا فى نفس الوقت عن شخصية زعيم مسلم يدعى **Munuza** « منوزا » أو Munez « مونز » ، وهو كما يبدو مطابق لاسم « منوسة » ، وتسرد لنا سلسلة من الحوادث الهامة التى اقترنت باسمه . وفى موطن واحد فقط تقول الرواية النصرانية إن منوسة كان زعيماً نصرانياً من زعماء منطقة الأسترياس ، وأنه كان حاكماً لمدينة خيخون(٤) . ولنسلم نحن بهذه المطابقة بين الإسمين ،

---

(١) **Conde ; ibid V. I. p. 82 & 83**

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) **Crónica General : Vol. I. p. 319 & V. II. p. 324**

فنقول إن منوسة ، كان وفقاً لأقوال هذه الروايات النصرانية والفرنجية ، زعيماً مسلماً يحكم بعض ولايات البرنيه الغربية وسبتمانيا فيما وراء البرنيه باسم حكومة الأندلس ، وذلك حوالى سنة ٧٢٥ إلى سنة ٧٣٠ م[١] . وكان الدوق أودو أمير أكوتين منذ اجتاح المسلمون أراضيه ، ورأى خطر الفتح الإسلامى يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين والتقرب من حكومة الأندلس ، ويحاول فى نفس الوقت أن يجمع الحلفاء من حوله لمقاومتها إذا اقتضى الأمر . فلما تولى منوسة حكم الولايات الشمالية . وهى تجاور أكوتين من الشرق والجنوب ، سعى الدوق إلى التفاهم معه . وكان منوسه كما تصفه الرواية النصرانية المعاصرة ، زعيماً قوى المراس ، كثير الأطماع ، نافذ الهيبة فى هاتيك الوهاد ، ولم يكن على اتفاق مع حكومة الأندلس . ذلك أنه كان من أقطاب البربر الذين عبروا الأندلس مع طارق بن زياد[٢] ؛ وقد سبق أن شرحنا عوامل الخلاف بين العرب والبربر ، وكيف حقد البربر على العرب لاستئثارهم بمغانم الفتح والرياسة . وعلى ضوء هذه التفاصيل ، نعود فنتساءل من يكون « منوسة » ؟ هل يكون هو عثمان بن أبى نسعة الخثعمى الذى ولى إمارة الأندلس قبل ذلك بثلاثة أعوام حسبما قدمنا ، ولم يطل أمد ولايته سوى أشهر قلائل ؟ وهل يكون اسم « منوسة » Munuza تحريفاً نصرانياً للقب « نسعة » العربى ؟ إذا صح أن منوسة كان زعيماً بربرياً كما تصفه الروايات النصرانية المعاصرة ، وهى وحدها مصدر التعريف عنه ، فيكون من المشكوك فيه إذن أن يكون منوسة ، هو عثمان ابن أبى نسعة الخثعمى والى الأندلس[٣] . ذلك أن عثمان بن أبى نسعة كان زعيماً

---

(١) ويقول ألتاميرا إن « منوسه » Munuza هو الحاكم البربرى الذى تركه موسى ابن نصير فى خيخون فى منطقة الأستورياس وكان حاكماً لمدينة أوفيدو ، وأنه أى منوسة قد اضطر عقب فشله فى القضاء على بلايو الزعيم القوطى ، وهزيمته فى موقعة كوفادونجا أن يخلى منطقة الأستورياس . راجع : Altamira : ibid, T. I. p. 221—223

(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وقد نقلتها بعض الروايات النصرانية المتأخرة ؛ راجع Dozy: Histoire, V.I.p. 160 et notes و Dom Viseette : ibid, V.I. p. 794 & II. p.129

(٣) كنت من قبل أعتقد كبعض الباحثين أن « منوزا » (منوسة) هو تحريف لاسم ابن أبى نسعة ؛ وأنهما اسمان لشخص واحد . وهذا ما يقوله فى الواقع يوسف كوندى (V. I. p. 80) . ولكنى أصبحت بعد الذى قرأته من مختلف التفاصيل والتعليقات التى أوردتها الروايات النصرانية المعاصرة ، وبعد مقارنتها بأقوال الرواية الإسلامية عن ابن أبى نسعة ، أشك فى صواب هذا الرأى . والمرجح كما يبدو من مختلف الشروح المتقدمة أن منوسة كان فعلا من زعماء البربر المتمردين على حكومة قرطبة .

عربياً ينتسب إلى خثعم إحدى البطون العربية العريقة[١] ، ولم يفز بإمارة الأندلس فى تلك الفترة سوى زعماء العرب ، ولم تسند إلى أحد من البربر . هذا إلى أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن مصير عثمان بن أبى نسعة رواية أخرى غير التى تقدمها إلينا الرواية النصرانية عن مصير «منوسة» ، فهى تقول لنا ان أبن ابى نسعة ولى الأندلس فى شعبان سنة ١١٠ هـ (٧٢٨م) واستمرت ولايته خمسة أشهر أو ستة ثم عزل ، وانصرف إلى القيروان فمات بها[٢] . أما « منوسة » فقد مات محارباً ، ومات قتيلا كما سنرى .

وعلى أى حال فقد تفاهم دوق أكوتين ومنوسة ، وقوت المصاهرة بينهما أواصر الصداقة والتحالف. ذلك أنه كانت للدوق ابنة رائعة الحسن تدعى لامبجيا (أو منينا أو نومبرانا على قول بعض الروايات) فرآها منوسة أثناء بعض رحلاته فى أكوتين أو أنه أسرها فى بعض غاراته عليها . تقول الرواية : « وكانت لامبجيا أجمل امرأة فى عصرها ، كما كان منوسة أقبح رجل فى عصره ، وكانت نصرانية متعصبة ، ولكن أطماع الوالد غلبت على كل شىء ، فارتضى مصاهرة الزعيم المسلم » .

وكما يحيط الغموض بشخصية منوسة ، فكذلك يحيط بشخصية لامبجيا وظروف زواجها من الزعيم المسلم ، فتقول الرواية مثلا ، إن منوسة بعد أن أسر لامبجيا ، وشغف بها حبا وتزوج بها ، حمل بتأثيرها ونفوذها على محالفة أبيها الدوق ومناوأة حكومة الأندلس ، وتقول أيضاً إن ابنة الدوق أكوتين التى تزوجها منوسة لم تكن لامبجيا التى اشتهرت بفائق حسنها ، بل كانت أختها « منينا » التى كانت من قبل زوجة لفرويلا القوطى أمير أستورية ، كما تورد لنا غير ذلك من الأنباء والتفاصيل التى يقع معظمها فى حد الأساطير[٣].

وهكذا اجتمعت عوامل الحب والسياسة لتوثيق عرى التحالف بين الزعيم المسلم وبين الدوق أودو . وكان أودو ، فضلا عما يهدده من خطر الغزو الإسلامى ، يخشى بأس خصمه القوى كارل مارتل زعيم الفرنج ، وكذا كان كارل مارتل

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) راجع خلاصة الروايات النصرانية والفرنجية فى موسوعة **Bayle V. IV.** والتعليقات .

ينقم على أودو نفوذه واستقلاله بالجنوب ، وقد غزا بالفعل أكوتين غير مرة وهزم أميرها . فكان أودو فى الواقع بين نارين ، يخشى الفرنج من الشمال ، والعرب من الجنوب . وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث فى أرضه (سنة ٧٣١) فى نفس الوقت الذى سعى فيه منوسة إلى محالفته ، والاستعانة به على تنفيذ مشروعه فى الخروج على حكومة الأندلس ، والاستقلال بحكم الولايات الشمالية . وقد رأى منوسة اكتساباً للوقت وكتماناً لحقيقة مشروعه ، أن يسبغ على محالفته مع الدوق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج ، ولكن عبد الرحمن أمير الأندلس ارتاب فى أمر الثائر ونياته ، وأبى إقرار الهدنة التى عقدها . وعندئذ كشف منوسة القناع ، وأعلن الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إلى الشمال حملة قوية بقيادة ابن زيان لتأديب الزعيم الثائر ، والتحوط لسلامة الولايات الشمالية ، فاستعصم منوسة بمواقعه الجبلية ، وتحصن فى عاصمة إقليمه « مدينة الباب »[١] ، الواقعة على منحدر جبال البرنيه ، وكان يظن أنه يستطيع أن يتحدى الجيش الإسلامى ، وأن يعتصم بالصخر ، كما اعتصم به الزعيم القوطى « بلاجيوس » (بلايو) ولكنه كان مخطئاً فى تقديره ، فقد نفذ ابن زيان بجيشه إلى مدينة الباب ، وحاصر الثائر فى عاصمته ، ففر منها إلى شعب الجبال الداخلية ، فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة ، حتى أخذ وقتل مدافعاً عن نفسه ، وتحطمت أطماعه ومشاريعه (١١٣ هـ — ٧٣١ م)[٢] ، وأسرت زوجه الحسناء لامبجيا ، وأرسلت إلى بلاط دمشق ، فاستقبلها الخليفة (هشام بن عبد الملك) بحفاوة وإكرام ، وزوجت هنالك من أمير مسلم لا تذكر لنا الرواية اسمه[٣] .

---

(١) واسمها بالقشتالية **Ciudad de la Puerta** ، وقد كانت تقع على أحد ممرات البرنيه وتسمى أحياناً « بويكاردا » .

(٢) تمر الرواية الإسلامية على هذه الحوادث كلها بالصمت كما قدمنا ، ولا تذكر لنا أى تفصيل أو لمحة تلقى الضياء على شخصية منوسة ؛ ويوافق دوزى على أن منوسة **Munuza** هو اسم للزعيم البربرى المتقدم الذكر . راجع : **Dozy : Histoire V.II. p. 129 & note,** ؛ وكذلك **Lévy-Provençal : Hist. de l'Espagne Musulmane (1944) p.43 & note.**

(٣) **Dom Vissette : ibid, I. p. 764** . وتحيط الرواية سيرة لامبجيا وزوجها بكثير من القصص الخيالية الشائقة ، التى اتخذت فيما بعد مستوى لخيال بعض الشعراء والكتاب . غير أن معظم هذه القصص لا يخرج عن حد الأساطير .

هذا ، وهناك فى شأن «منوسة» وزوجه رواية أخرى ، أوردها الحبر ماريانا كبير مؤرخى إسبانيا ، فقد ذكر أن منوسة كان زعيماً نصرانياً اختاره المسلمون لحكم المنطقة الواقعة غربى البرنيه ، ولكنه كان صارماً يشتد فى معاملة النصارى ، وأنه كانت للدون بلاجيوس زعيم جليقية القوطى أخت بارعة الحسن ، شغف بها منوسة حباً ، ولكن بلاجيوس لم يوافق على زواجها منه ، فاحتال منوسة ، وبعثه فى مهمة إلى قرطبة ، وأسر الأميرة أثناء غيبته وتزوج بها قسراً ، فأسر بلاجيوس وأخته هذه الإهانة ، ولبثا يرقبان الفرص حتى استطاعت الأميرة فراراً من أسرها وسارت مع أخيها إلى جبال جليقية حيث اعتصم بلاجيوس مع أنصاره ، وأعلن الخروج والثورة ، فأخطر منوسة حكومة قرطبة ، فأرسلت حملة لتأديب الثائر بقيادة « علقمة » . ولكن بلاجيوس استطاع مع أنصاره القلائل ، أن يعتصم بشعب الجبال ، فارتد المسلمون منهزمين ، وقتل علقمة ، وارتاع منوسة لفوز خصمه ، وخشى انتقام مواطنيه ، فحاول الفرار إلى الجنوب ، ولكنه وقع فى يد شرذمة من الفلاحين النصارى فقتلوه ، ويضع ماريانا تاريخ هذه الحوادث فى سنة ٧١٨ م(١) .

ولكن رواية ماريانا هذه ظاهرة الضعف ، أولا لأنه ليس بمعقول أن تعهد حكومة الأندلس المسلمة بحكم ولاية من ولاياتها إلى زعيم نصرانى . وثانياً لأن هذه الرواية تخالف فى مجموع تفاصيلها كل ما كتبته الروايات المعاصرة عن شخصية منوسة ، وعن مصاهرته لأمير أكوتين . وثالثاً لأن تاريخ هذه الحوادث متأخر عن التاريخ الذى يعينه ماريانا بأكثر من عشرة أعوام .

ولما قتل منوسة ، وانهارت مشاريعه ، ورأى أودو ما حل بحليفه ، واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته ، وبدأ الفرنج والقوط فى الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوشة ، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها . فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية ، لم ير بدا من السير إلى الشمال ، قبل أن يستكمل كل أهبته . على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره

---

(١) Mariana فى تاريخ إسبانيا العام — الترجمة الفرنسية ج ٣ ص ٥ وما بعدها .

المسلمون إلى غاليس (فرنسا) منذ الفتح . وفى أوائل سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقاً ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وناڤار (بلاد البشكس) وعبر البرنية من طريق بنبلونة ، ودخل فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م ، وزحف تواً على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون ، لتخلفها عن أداء الجزية ، واستولى عليها بعد معركة عنيفة ، نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو . ثم زحف غرباً وعبر نهر الجارون ، وانقض المسلمون كالسيل على ولاية أكوتين[١] ، يثخنون فى مدنها وبسائطها ، فحاول أودو أن يقف زحفهم ، والتقى الفريقان على ضفاف نهر الدردون ، فهزم الدوق هزيمة فادحة ، ومزق جيشه شر ممزق . قال إيزيدور الباجى : « والله وحده يعلم كم قتل فى تلك الموقعة من النصارى » . وطارد عبد الرحمن جيش الدوق حتى عاصمته بوردو (بردال) . واستولى عليها بعد حصار قصير[٢] ، وفر الدوق فى نفر من صحبه إلى الشمال ، وسقطت أكوتين كلها فى يد المسلمين . ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرة أخرى واخترق الجيش الإسلامى برجونية واستولى على ليون وبزانصون[٣] ، ووصلت سرياته حتى صانص ، التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط . وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج[٤] .

---

(١) كانت إمارة أكوتين فى ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقاً وخليج غسقونية (بسكونية) غرباً ، وبين نهر اللوار شمالا ونهر الجارون جنوباً ، وتشمل من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبيرجور وسانتونج وبواتو وڤنده وجزءاً من أنجو .

(٢) Dom Vissette : Ibid, I. p. 795

(٣) وهى مسقط رأس الشاعر الفرنسى الأشهر ڤكتور هوجو .

(٤) يقدم المستشرق كاردون شرحاً آخر لسير عبد الرحمن ، فيقول إنه زحف أولا على آرل وحاصرها فبادر الكونت إلى إنجادها ، فلقيه عبد الرحمن وهزمه وألجأه إلى الفرار ، ثم عبر عبد الرحمن نهر الجارون واستولى على بوردو . وكان الكونت قد جمع جيشاً جديداً وحاول رده فهزم مرة أخرى ، ثم اخترق عبد الرحمن بيرجور وسانتونج وبواتو وهو يثخن فى تلك الأنحاء حتى انتهى إلى تور Cardonne : Hist. de L'Afrique et de L'Espagne -I-129 ولكن عبد الرحمن اقتحم وادى الرون أيضاً كما بينا ، وقد شرحنا سيره طبقاً لجميع الروايات مجتمعة ، وطبقاً للمواقع الجغرافية التى تتعلق بهذه الغزوة . وقد يكون أن عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالا نحو برجونية ، ولكن الجيش الإسلامى اقتحم هذه الأنحاء بلا ريب .

وتم هذا السير ، وافتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب ، في بضعة أشهر فقط . قال إدوارد جيبون : « وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى اسكتلندا . فليس الرّين بأمنع من النيل أو الفرات ، ولعل أسطولا عربياً كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية ، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن في معاهد أكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة» .

Gibbon : ibid, Ch-LII (١)

الفصل السادس

بلاط الشهداء

معركة الإسلام والنصرانية . تحول هذه المعركة إلى سهول فرنسا . العرب والفرنج على أطلال الدولة الرومانية . حلول الفرنج فى فرنسا . خواص المجتمع الفرنجى . انحلال عصبيته بالاستقرار . تفككه وتنافره . خطر القبائل الجرمانية الوثنية . الدولة الإسلامية . انتظامها وتماسكها . تفرق الفرنج . سيل الفتح الإسلامى . عبد الرحمن الغافقى وجيشه . كيف يصوره الشاعر سوفى . اختراق عبد الرحمن لفرنسا . موقف الدوق أودو . كارل مارتل محافظ القصر . تمهله فى لقاء العرب . ما تقوله الرواية فى ذلك . التجاء أودو إلى كارل . مسير كارل للقاء العرب . اجتياح العرب لأكوتين . أين التقى العرب والفرنج . هجوم المسلمين على مدينة تور . وصول الفرنج إلى اللوار . ارتداد عبد الرحمن إلى ما وراء النهر . حالة الجيش الإسلامى . وفرة غنائمه وخطرها على نظامه . بدء القتال . المعارك المحلية . المعركة العامة . مهاجمة الفرنج لمعسكر الغنائم . ارتداد الفرسان المسلمين لحمايته . اختلال نظام المسلمين. مقتل عبد الرحمن الغافقى . الذعر فى الجيش الإسلامى . رجحان كفة الفرنج . افتراق الجيشين . الخلاف فى القيادة الإسلامية . تقرير الانسحاب . ارتداد المسلمين إلى الجنوب . توجس كارل مارتل . أقوال الرواية الكنسية . مبالغتها فى التقدير والتصوير . وصفها لحوادث اللقاء الحاسم . صمت الرواية الأندلسية . وصفها لحوادث الغزوة الإسلامية . وصفها للجيش الإسلامى . حديثها عن الموقعة الحاسمة . أقوال المستشرق كاردون . تحفظ الرواية الإسلامية ومغزى هذا التحفظ . بلاط الشهداء . لون الموقعة الدينى . أقوال المؤرخين المسلمين عنها . موقف الرواية النصرانية . مبالغتها فى تصوير هزيمة المسلمين وتقدير خسائرهم . ما يدحض هذا الإغراق . إحجام الفرنج عن مطاردة العرب . خسارة المسلمين بمقتل عبد الرحمن . النقد الحديث وبلاط الشهداء . كيف ينوه بأهميتها فى خلاص النصرانية من سلطان الإسلام . تأملات .

أجل ، كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب على وشك الوقوع . وكان اجتياح الإسلام للعالم القديم سريعاً مدهشاً ، فإنه لم يمض على وفاة النبى العربى نصف قرن ، حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة ، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية ، من الشام إلى أقاصى المغرب ، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، وامتدت شمالا حتى أواسط آسيا الصغرى . وكانت سياسة الفتح الإسلامى مذ توطدت دولة الإسلام ، ترمى إلى غاية أبعد من امتلاك الأقطار ، وبسطة السلطان والملك . فقد كان الإسلام يواجه فى الأقطار التى افتتحها من العالم القديم أنظمة

راسخة مدنية واجتماعية ، تقوم على أصول وثنية أو نصرانية . وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع . فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم ، وأن تقيم فوق أنقاضه فى الأمم المفتوحة ، نظماً جديدة تستمد روحها من الإسلام ، وأن تذلل النصرانية لصولة الإسلام ، سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة ، أو بإخضاعها من الوجهتين المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه . وكان هذا الصراع بين الإسلام والنصرانية قصير الأمد فى الشام ومصر وإفريقية ، فلم يمض نصف قرن حتى غمر الإسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه ، وقامت فيها مجتمعات إسلامية قوية شاملة ، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة . ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاصى الأناضول من المشرق ، وجازت إلى اسبانيا من المغرب . فأما فى المشرق فقد حاول الإسلام أن يعبر إلى الغرب عن طريق قسطنطينية ، وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة إلى عاصمة الدولة الشرقية مرتين ، الأولى فى عهد معاوية بن أبى سفيان فى سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) والثانية فى عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) ، وكانت قوى الخلافة فى كل مرة تبدى فى محاصرة قسطنطينية ، غاية الإصرار والعزم والجلد ، ولكنها فشلت فى المرتين ، وارتدت عن أسوار قسطنطينية منهوكة خائرة ، وأخفق مشروع الخلافة فى افتتاح الغرب من تلك الناحية ، ولقى الإسلام هزيمته الحاسمة فى المشرق أمام أسوار بيزنطية ، وقامت الدولة الشرقية فى وجه الإسلام حصناً منيعاً يحمى النصرانية من غزوه وسلطانه . ولكن جيوش الإسلام جازت إلى الغرب عن طريق اسبانيا ، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقى أمم أوربا النصرانية ، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء ، لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه فى اختراق أوربا من الغرب إلى المشرق ، والوصول إلى دار الخلافة بطريق قسطنطينية ، ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية يومئذ ضربتها القاضية ، وأن يسود الإسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب ، ولكن الفكرة غاضت فى مهدها لتوجس الخلافة وترددها .

على أن الفتوح التى قام بها ولاة الأندلس بعد ذلك فى جنوبى فرنسا ، كانت طوراً آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية . فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ ، وكانت تقوم فى الغرب بحماية النصرانية ،

على نحو ما كانت الدولة الرومانية فى الشرق ، بل كانت مهمتها فى هذه الحماية أشق وأصعب ، إذ بينما كان الإسلام يهدد النصرانية من الجنوب ، كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق . وكانت الغزوات الإسـلامية تقف فى المبدأ عند سبتمانيا ومدنها ، ولكنها امتدت بعدئذ إلى أكوتين وضفاف الجارون ، ثم امتدت إلى شمال الرون وولاية برجونية ، وشملت نصف فرنسا الجنوبى كله ، وهكذا بدا الخطر الإسلامى على مصير الفرنج والنصرانية قوياً ساطعاً ، وبدت طوالع ذلك الصراع الحاسم ، الذى يجب أن تتأهب لخوضه أمم الفرنج والنصرانية كلها .

كانت المعركة فى سهول فرنسا إذاً بين الإسلام والنصرانية ، بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية ، والمتنافسين فى اجتناء تراثها . كانت بين العرب الذين اجتاحوا أملاك الدولة الرومانية فى المشرق والجنوب . وبين الفرنج الذين حلوا فى ألمانيا وغاليس (فرنسا) . والفرنج هم شعبة من القبائل البربرية التى غزت رومة وتقاسمت تراثها ، من وندال وقوط وآلان وشوابيين . فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا ، أكثر من نزاع محلى على غزو مدينة أو ولاية بعينها : كان هذا النزاع فى الواقع أبعد ما يكون مدى وأثراً ، إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع ، الذى فاز العرب منه بأكبر غنم ، ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقى منه بأيدى منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال .

وكانت هذه السهول الشمالية ، التى قدر أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية ، تضم مجتمعاً متنافراً ، لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة . ذلك أن القبائل الجرمانية التى عبرت نهر الرين وقضت على سلطان رومة فى الأراضى المفتوحة ، كانت مزيجاً مضطرماً من الغزاة الظمأى إلى تراث رومة من الثروة والنعماء . وكان القوط قد اجتاحوا شمالى إيطاليا منذ القرن الخامس ، وحلوا فى جنوبى غاليس واسبانيا . ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار ، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا ، وانتزعوا نصفها الشمالى من يد حاكمه الرومانى المستقل بأمره ، وانتزعوا نصفها الجنوبى من القوط ، وحلت فى غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد . وكان الغزاة فى كل

مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها ، ويقتسمون السلطة فى نوع من الإقطاع ، فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم فى القطر المفتوح عدة إمارات محلية ، ولم يعن الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة ، ولم يعنوا بالأخص بأن يندمجوا برعاياهم الجدد . فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين ، الذين لبثوا قروناً يخضعون لسلطان رومة ، ماتزال تسود فيهم لغة رومة وحضارتها ، ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة ، وتكون وحدها مجتمعاً منعزلا ، لبثت تسوده الخشونة والبداوة أحقاباً ، قبل أن يتأثر بمدنية رومة وتراثها الفكرى والاجتماعى. وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عهد كلوڤيس ، أكبر عامل فى تطور هذه القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية . ثم كان استقرارها بعد حين فى الأرض المفتوحة ، وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعماء والثراء ، بعد طول المغامرة والتجوال ، وشظف العيش ، وحرصها على حياة الدعة والرخاء ، عوامل قوية فى انحلال عصبيتها الحربية وفتور شغفها بالغزو ، وإذكاء رغبتها فى الاستعمار والبقاء . وهكذا كانت القبائل الجرمانية التى عبرت الرين تحت لواء الفرنج واستقرت فى غاليس ، قد تطورت فى أوائل القرن الثامن ، إلى مجتمع مستقر متماسك نوعاً . ولم تكن غاليس قد استحالت عندئذ إلى فرنسا ، ولكن جذور فرنسا المستقبلة كانت قد وضعت ، وهيئت الأسباب والعوامل لنشوء الأمة الفرنسية . بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك، كان وقت أن نفذ العرب إلى فرنسا ، فريسة الانحلال والتفكك ، وكان الخلاف يمزقه كما قدمنا . وكانت أكوتين وباقى فرنسا الجنوبية ، فى يد جماعة من الأمراء والزعماء المحليين ، الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية ، فاستقلوا بما فى أيديهم من الأقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية ، فيما وراء الرين من جهة أخرى ، تحاول اقتحام النهر من آن لآخر ، وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ، ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية أيضاً عاملا قوياً فى هذا النضال الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر ، سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها(١) .

(١) راجع Creasy : Deelsive Battles of the World, Ch. VII (الفصل السابع)=

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجى فى أوائل القرن الثامن ، أعنى حينما انساب تيار الفتح الإسلامى من اسبانيا إلى جنوبى فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبى العربى ، إلى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢م) ، مائة عام فقط . ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن ، قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، واكتسحوا العالم القديم ، فى فيض مدهش من الظفر الباهر ، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية ، من الشأم إلى أقاصى المغرب واسبانيا ، وعبروا البرنيه إلى أواسط فرنسا ، هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية ، أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح أقطار الدولة الشمالية ، ومحاولة الاستقرار فيها . وبينما قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم ، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ، ومجتمعات إسلامية مستنيرة ، وجيوش غازية منظمة ، إذا بمعظم القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ، ما يزال إذا استثنينا مملكة الفرنج ، على حاله من البداوة والتجوال والتفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع ، الذى نشب فى سهول فرنسا ، وآذن طوره الحاسم بعبور المسلمين إلى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م . وكان سيل الفتح الإسلامى ، ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاماً ، أعنى مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتمانيا ، ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون وأكوتين غير مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية ، وتقتتل حول السلطان والرياسة ، حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وأنفق أعواماً أخرى فى توطيد سلطانه ، بينما كان خصمه ومنافسه أودو أمير أكوتين ، يتلقى وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الإسلامى ، وانساب نحو الشمال حتى برجونية ، فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى أوستراسيا ونوستريا لتذود عن سلطانها وكيانها .

وكان الخطر داهماً حقيقياً فى تلك المرة ، لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى أكبر جيش حشد ، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح . وكان على رأس الجيش الإسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والمقدرة هو عبد الرحمن الغافقى ، وهو أعظم

= ففيه استعراض حسن لأحوال المجتمع الجرمانى فى هذا العصر ، وعرض شائق لحوادث موقعة تور .
وراجع أيضاً **Zeller : Hist. de l'Allemagne, p. 67**

جندى مسلم عبر البرنيه . وكان قد ظهر ببراعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة ، حيث استطاع إنقاذ الجيش الإسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح ، والارتداد إلى سبتمانيا . وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبد الرحمن وأهبته ، فتقدره بأربعمائة ألف مقاتل ، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الأرض المفتوحة . وهو قول ظاهر المبالغة . وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل ، وهو أقرب إلى الحقيقة والمعقول . وقد أثارت هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة ، وهذا الجيش الضخم ، خيال الشاعر الأوربى الحديث ، فنرى الشاعر الإنجليزى سوذى يقول فى منظومته عن ردريك آخر ملوك القوط :

« جمع لا يحصى .
« من شأم وبربر وعرب ، وروم خوارج .
« وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة .
« يجمعها إيمان ، هائم راسخ الفتوة .
« وحمية مضطرمة ، وأخوة مروعة .
« ولم يك الزعماء ،
« أقل ثقة بالنصر ، وقد شمخوا بطول ظفر
« يتيهون بتلك القوة الخارقة ،
« التى أيقنوا أنها كما اندفعت ،
« حيثما كانوا بلا منازع ، ستندفع ظافرة إلى الأمام ،
« حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق ،
« يطأطئ الرأس إجلالا لاسم محمد ،
« وينهض الحاج من أقاصى المنجمد ،
« ليطأ بأقدام الإيمان ، الرمال المحرقة ،
« المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضى مكة الصلدة »[١] .

ونفذ عبد الرحمن فى جيشه الزاخر إلى فرنسا ، فى ربيع سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) ، واقتحم وادى الرون وولاية أكوتين ، وشتت قوى الدوق أودو ، وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف نهر اللوار . وتقول بعض الروايات

---

(١) Southy: Roderic the last of the Goths

الكنسية ، إن أودو هو الذى استدعى عبد الرحمن إلى فرنسا ، ليعاونه على محاربة خصمه كارل مارتل[١]. ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة ، لما قدمنا من أن أودو هو الذى بادر إلى مقاومة عبد الرحمن ورده ، وكانت مملكته وعاصمته أول غنم للمسلمين . وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع ، ولكن ملوك الفرنج كانوا فى ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط . وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيق ، يستأثر بكل سلطة حقيقية ، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمته . وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامى يتخذ أهبته ويحشد قواه . ولكن عبد الرحمن سار إلى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه . وترد الرواية الإسلامية هذا التمهل إلى خطة مرسومة مقصودة . فتقول فى هذا الموطن : « فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة وهذه سمة لملوكهم ، فقالت له ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب . كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم . فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر »[٢]. ونستطيع أيضاً أن نفسر تمهل كارل مارتل بأنه كان يقصد إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون إغاثة ، حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانه ، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته . وعلى أى حال فإن عبد الرحمن كان قد اقتحم أكوتين وجنوبى فرنسا كله ، حينما تأهب كارل مارتل للسير إلى لقائه . وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه ، وتمزيق

---

(١) موسوعة Bouquet : Recueil des Historiens de la Gaule et de la France. رواية القديس دنى Vol. III. p. 310 . وراجع أيضاً موسوعة : Bayle : Dictionnaire Historiqne et Critique تحت كلمة Abderame

(٢) المقرى عن الحجارى فى المسهب (نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩) . ويورد الحجارى هذه الرواية بمناسبة عبور موسى بن نصير إلى فرنسا . ولكن ظاهر من اسم قارلة (كارل) أن الأمر يتعلق بالغزوة الكبيرة التى نتحدث عنها ؛ وإليها ترجعها الرواية الكنسية اللاتينية . راجع : Gibbon : ibid, Ch. LII حيث يورد نفس هذه الفقرة فى كلامه عن موقعة تور .

قواته يطلب العون والنجدة من خصمه القديم أعنى كارل مارتل[1]. وكان كارل قد حشدجيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة ، والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين ، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، وجله جند غير نظاميين ، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم الجعدة ، فوق أكتافهم العارية . وسار زعيم الفرنجة فى هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب فى حمى الهضاب والربى ، حتى يفاجئ العدو فى مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده . وكان الجيش الإسلامى قد اجتاح عندئذ جميع أراضى أكوتين ، التى تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو ، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية ، حيثما يلتقى بثلاثة من فروعه هى « الكريز » و « القيين » و « الكلين » .

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق ، مكان ذلك اللقاء الحاسم فى تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية . ولكن المتفق عليه أنه السهل الواقع بين مدينتى بواتييه وتور ، حول نهرى كلين وقيين فرعى اللوار ، على مقربة من مدينة تور . والرواية الإسلامية مقلة موجزة فى الكلام عن تلك الموقعة العظيمة ، وليس فيما لدينا من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل ، وإنما وردت تفاصيل للرواية الإسلامية عن الموقعة ، نقلها إلينا المؤرخ الإسبانى كوندى سنعود إليها بعد . وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس فى حوادث الموقعة ، وتقدم إلينا عنها تفاصيل شائقة ، ولكن يحفها الريب وتنقصها الدقة التاريخية . وقد رأينا أن نحاول وصف الموقعة أولا مما لدينا من أقوال الروايتين ، ثم نعود بعد ذلك إلى ذكر كل منهما

انتهى الجيش الإسلامى فى زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتى بواتييه وتور كما قدمنا ، واستولى المسلمون على بواتييه ، ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة . ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى ، واستولو عليها وخربوا كنيستها أيضاً . وفى ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار ، دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادئ بدء ، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته . فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار ، لملاقاة العدو على ضفته اليمنى ، فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة . وألفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه فى

---

(١) Dom: Vissette, Ibid, V.I. p. 795

الكثرة ، فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتييه . وعبر كارل اللوار غربى تور ، وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامى بأميال قليلة ، بين نهرى كلين وڤيين فرعى اللوار .

وكان الجيش الإسلامى فى حال تدعو إلى القلق والتوجس ، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش ، وكانت تتوق إلى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة . وكان المسلمون فى الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية ، وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى ، من الذخائر والغنائم والسبى ، فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل فى صفوفهم ، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع . وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته ، وخشى مما تثيره فى نفوس الجند من الحرص والانشغال ، وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك شىء منها . ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد . وكان المسلمون من جهة أخرى ، قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة ، مذ دخلوا فرنسا ، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم ، فى كثير من القواعد والمدن المفتوحة . ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة .

وبدأ القتال فى اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك محلية مدى سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ فيها كل بمراكزه . وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة ، فاقتتلا بشدة وتعادل ، حتى دخول الليل . واستأنفا القتال فى اليوم التالى ، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الإعياء على الفرنج ، ولاح النصر فى جانب المسلمين . ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامى ، وخشى عليه من السقوط فى أيديهم ، أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول فى المراكز الإسلامية ، بأن معسكر الغنائم سوف يقع فى يد العدو . فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم ، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم ، فدب الخلل إلى صفوف المسلمين . وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدئ روع الجند ، وبينما هو يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها ، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى

بحياته ، فسقط قتيلا من فوق جواده ، وعم الذعر والاضطراب فى الجيش الإسلامى ، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين ، وكثر القتل فى صفوفهم . ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل ، وافترق الجيشان دون فصل . وكان ذلك فى اليوم الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤هـ)[١].

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامى ، واختلف الرأى وهاجت الخواطر ، وسرى التوجس والفزع . ورأى الزعماء أن كل أمل فى النصر قد غاض ، فقرروا الانسحاب على الأثر . وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم ، وارتدوا فى جوف الليل وتحت جنح الظلام ، جنوباً صوب قواعدهم فى سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنماً للعدو . وفى فجر الغد ، لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية ، فتقدما منها بحذر وإحجام ، فألفياها خاوية خالية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبحوا على الأثر . وخشى كارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو ، ولم يجرؤ على مطاردته ، وآثر العود بجيشه إلى الشمال .

هذه هى أصدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة ، طبقاً لمختلف الروايات . والآن نورد ما تقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية .

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب ، وهى تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب ، فى صور مثيرة محزنة ، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول إحداها : « لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله ، وأنه لا يستطيع الانتقام ، إذا لم يتلق النجدة من إحدى النواحى ، تحالف مع عرب اسبانيا ، ودعاهم إلى معاونته ضد الأمير شارل وضد النصرانية ، وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن ، من

---

(١) تجمع معظم الروايات الفرنجية والكنسية على أن الموقعة كانت فى أكتوبر سنة ٧٣٢ م . وهذا التاريخ يوافق بالهجرية شعبان سنة ١١٤ . بيد أن الرواية الإسلامية تختلف فى تحديد هذا التاريخ ؛ فالبعض يقول إنها كانت سنة ١١٥ هـ (ابن عبد الحكم ص ٣١٧ ، والضبى فى بغية الملتمس رقم ١٠٢١ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ج ١ ص ٣٧ ؛ ولكنه يعود فيذكر أن الموقعة كانت سنة ١١٤ هـ — ج ٢ ص ٢٨) . ولكن ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٤) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٩) والمقرى عن ابن حيان (ج ١ ص ١٠٩ و ج ٢ ص ٥٦) متفقون على أنها كانت سنة ١١٤ هـ ؛ ويقول الأخيران إنها كانت فى رمضان سنة ١١٤ هـ ، وهو أصح تعيين يتفق مع الرواية الغربية .

اسبانيا ، مع جميع نسائهم وأولادهم وعددهم وأقواتهم ، فى جموع لا تحصى ولا تقدر ، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر ، كأنما عولوا على البقاء فى أرض فرنسا ، ثم اخترقوا مقاطعة چيروند ، واقتحموا بوردو ، وقتلوا الناس ، ونهبوا الكنائس ، وخربوا كل البسائط ، وساروا حتى پواتيو... »[1].

وتقول أخرى : « ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه ، اقتحم الجبال ، ووطئ السهول بسيطها ووعرها ، وتوغل مثخناً فى بلاد الفرنج ، وسحق بسيفه كل شىء ، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزماً أمامه ، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده ، ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو ، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها ، التقى بكارل أمير فرنج أوستراسيا ، وهو رجل حرب منذ فتوته ، وكان أودو قد بادر بإخطاره . وهناك قضى الفريقان أسبوعاً فى التأهب ، واصطفا أخيراً للقتال ، ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع ، أو منطقة من الثلج لاتخترق ، وأثخنت فى العرب بحد السيف » .

« ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) ، بقوة أطرافهم الضخمة ، وبأيديهم الحديدية ، التى ترسل من الصدر تواً ضرباتها القوية ، أن يجهزوا على جموع كبيرة من العدو ، التقوا أخيراً بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته . ثم دخل الليل ففصل بين الجيشين ، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقاراً للعدو . فلما استيقظوا فى فجر الغد ، ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم ، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها . ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم ، ألفوا جموع المسلمين ، قد فرت صامتة تحت جنح الليل ، مولية شطر بلادها . على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى ، فأحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين . ولكن الغزاة كانوا قد فروا ، وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام ، عادوا مغتبطين إلى ديارهم »[2] .

---

(١) هذه هى رواية القديس دنى **Saint Denis** — وردت فى موسوعة **Bouquet** . ووردت فى هذه الموسوعة أيضاً أقوال آخرين من الرواة الأحبار .

(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وهو معاصر للموقعة . راجع **Creasy : ibid , Ch. VII** و **Hodgkin , Charles the Great ; Ch. III** ، وكذلك **Gibbon : ibid , Ch. LII** ففيها تنقل هذه التفاصيل أو تلخص .

وأما الرواية الإسلامية فهى ضنينة فى هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا . ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة ، بالصمت أو الإشارة الموجزة كما سنرى . غير أن المؤرخ الإسبانى كوندى يقدم إلينا خلاصة من أقوال ينسبها إلى الرواية الأندلسية المسلمة[1] ، عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ؛ ونحن ننقلها مترجمة فيما يلى :

« لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانية بمقتل عثمان بن أبى نسعة ، وسمعوا بضخامة الجيش الإسلامى الذى سير إليهم ، استعدوا للدفاع جهدهم ، وكتبوا إلى جيرانهم يلتمسون الغوث . وجمع الكونت وسيد هذه الأنحاء (يريد أودو) قواته وسار للقاء العرب ، ووقت بينهم معارك سجال . ولكن النصر كان إلى جانب عبد الرحمن بوجه عام ، فاستولى تباعاً على كل مدن الكونت . وكان جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر ، فلم يكونوا يرغبون إلا فى خوض المعارك ، واثقين كل الثقة فى شجاعة قائدهم وبراعته .

« وعبر المسلمون نهر الجارون ، وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه ، وخربوا جميع الضياع ، وسبوا جموعاً لا تحصى ، وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة المخربة فاجتاحها ، وأذكى اضطرام الجند ، نجاح غزواتهم ، واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم .

« ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الأنحاء ، ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته . فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها ، وسحقوا بسيوفهم الماحقة كل شىء . ومات الكونت مدافعاً عن مدينته ، واحتز الغزاة رأسه[2] . ثم ساروا مثقلين بالغنائم فى طلب انتصارات أخرى ، وارتجت بلاد

---

(١) لم نقف فى أى المصادر العربية التى بين أيدينا ، على أصل هذه التفاصيل التى يقول كوندى إنه اقتبسها من للرواية العربية ، ولم يذكر هو مصدر اقتباسه . ولعله نقلها عن بعض مخطوطات الإسكوريال أو المجموعات الخاصة وقد فقدت آثارها اليوم ، كما فقدت مخطوطات كثيرة من المجموعة الأندلسية بالإسكوريال . ولعله أيضاً نقل شيئاً منها من شذور لابن حيان وابن بشكوال كانت موجودة فى عصره ولم تصل إلينا . ويلوح لنا أن الحجارى فى كتابه « المسهب » قد تناول هذه الحوادث بالتفصيل حيث نقل المقرى عنه شذرة تفيد ذلك . (نفح ج ١ ص ١٣٩) ، ولعل كوندى وقف على شىء منها . على أننا لم نعثر خلال بحوثنا فى مجموعة الإسكوريال على أثر لمثل هذه المخطوطات أو الأوراق . راجع حديث كوندى عن مصادرة : **Conde : ibid., V.I. Prologo, p. 20 & 21.**

(٢) هذا خطأ بين ، لأن الكونت أودو لم يقتل عندئذ ، بل فر إلى الشمال ، وعاد لقتال عبد الرحمن فى تور كما قدمنا .

الفرنج كلها رعباً لاقتراب جموع المسلمين ، وهرع الفرنج إلى ملكهم قلدوس فى طلب الغوث ، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العيث والسفك ، وكأنهم فى كل مكان ، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال[١] وقتلوا الكونت . فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل . وفى سنة ١١٤ هـ سار على رأس جموع لاتحصى للقاء المسلمين . وكان المسلمون قد اقتربوا عندئذ من مدينة تور ، وهنالك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذى سيلقى . وكان جيشه قد دب إليه الخلل ، لأنه كان مثقلا بالغنائم من كل ضرب . ورأى عبد الرحمن وأولوا الحزم من زملائه ، أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال ، والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ، ولكنهم خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند ، واستسلموا لرأى الواثقين المستهترين . واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده ، وحسن طالعه المستمر . ولكن الاضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش . نعم إن الجند يحملهم ظمأ الغنم ، قد أتوا جهوداً لم يسمع بها ، فطوقوا مدينة تور ، وقاتلوا حصونها بشدة رائعة ، حتى سقطت فى أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها ، وانقض المسلمون على أهلها كالضوارى المفترسة ، وأمعنوا القتل فيهم . قالوا ، ولعل الله أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام ، وكان طالعهم قد ولى .

« وعلى ضفاف نهر « الأوار » (اللوار) اصطف رجال اللغتين ، والتقى المسلمون والنصارى ، وكلاهما جزع من الآخر ، وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفره المستمر ، هو البادئ بالهجوم ، فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة ، وقابله الفرنج بالمثل . ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل . وفرق بين الجيشين . وفى اليوم التالى استؤنف القتال منذ الفجر بشدة ، وشق بعض مقدمى المسلمين طريقهم إلى صفوف العدو وتوغلوا فيها . ولكن عبد الرحمن لاحظ والمعركة فى أوج اضطرامها ، أن جماعة كبيرة من فرسانه ، غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكدسة فى المعسكر العربى ، لأن العدو أخذ يهددها . فأحدثت هذه الحركة خللا فى صفوف المسلمين ، وخشى عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب ، فأخذ يثب من صف إلى صف يحث جنوده على القتال ، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم ، فارتد يحارب مع أشجع جنده حينما استقرت المعركة ،

---

(١) مدينة بوردو .

حتى سقط قتيلا مع جواده وقد أثخن طعاناً . وهنا ساد الخلل فى الجيش الإسلامى وارتد المسلمون فى كل ناحية ، ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل .

« وانتهز النصارى هذه الفرصة فطاردوا الجنود المنهزمة أياماً عديدة ، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحتملوا عدة هجمات ، واستمر الصراع بين مناظر مروعة حتى أربونة .

« وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين ، وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥ هـ . ثم أن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة ، ولكن المسلمين دافعوا عنها بشجاعة فائقة ، حتى أرغم على رفع الحصار ، وارتد إلى داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة »[1] .

وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى فى كلامه عن الموقعة ، فقرة ذكر أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها : « لما استولى العرب على قرقشونة خشى قارله (كارل) أن يتوغلوا فى الفتح ، فسار لقتالهم فى الأرض الكبيرة (فرنسا) فى جيش ضخم ، وعلم العرب بقدومه وهم فى لوذون (ليون) وأن جيشه يفوقهم بكثرة ، فعولوا على الارتداد . وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلقى أحداً إذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها ، فطوق هذه الجبال دون أن يدرى العرب ، ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم ، وفر الباقون إلى أربونة . فحاصر قارلة أربونة مدة ، ولم يستطيع فتحها فارتد إلى أراضيه ، وأنشأ قلعة وادى رذونة (الرون) ، ووضع فيها حامية قوية لتكون حداً بينه وبين العرب »[2] .

ونعود بعد ذلك إلى الرواية الإسلامية فنقول إن المؤرخين المسلمين يمرون على حوادث هذه الموقعة الشهيرة إما بالصمت أو الإشارة الموجزة . ويجب أن نذكر بادىء بدء أن موقعة تور ، تعرف فى التاريخ الإسلامى بواقعة البلاط أو بلاط

---

(١) **Conde : ibid , Vol. I, p. 86-88**

(٢) راجع : **Cardonne : ibid, V.I. p.129-131** . وقد بحثنا طويلا فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان فى مظان وجود هذه التفاصيل فلم نعثر بها . ولعل كاردون وقد كتب فى أواسط القرن الثامن عشر ، واستعان بمخطوطات عربية فى المكتبة الملكية فى باريس ، قد نقل عن نسخة لابن خلكان فيها زيادات عن النسخة التى بين أيدينا . ولسنا نعلم من جهة أخرى أن لابن خلكان مؤلفاً تاريخياً آخر يمكن أن يحتوى مثل هذه التفاصيل .

الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين . وفى هذه التسمية ذاتها ، وفى تحفظ الرواية الإسلامية ، وفى لهجة العبارات القليلة التى ذكرت بها الموقعة ، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين ، يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، ويقدرون فداحة الخطب الذى نزل بالإسلام فى سهول تور . ويدل على لون الموقعة الدينى ما تردده الأسطورة الإسلامية ، من أن الأذان لبث عصوراً طويلة يسمع فى بلاط الشهداء[١] . ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين فى هذا المقام ، على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول فى مصاب جلل نزل بالإسلام ، ولا أن يفيضوا فى تفاصيله المؤلمة ، فاكتفوا بالإشارة الموجزة ، ولم يكن ثمة مجال للتعليق أيضاً ، ولا التحدث عن نتائج خطب ، لاريب أنه كان ضربة للإسلام ولمطامع الخلافة ومشاريعها . وإذا استثنينا بعض الروايات الأندلسية التى كتبت عن الموقعة فى عصر متأخر ، والتى نقلناها فيما تقدم ، فإن المؤرخين المسلمين يتفقون جميعاً فى هذا الصمت والتحفظ . وهذه طائفة من أقوالهم وإشاراتهم الموجزة :

قال ابن عبد الحكم ، وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتى : « وكان عبيدة (يريد والى إفريقية) قد ولى عبد الرحمن بن عبد الله العكى على الأندلس ، وكان رجلا صالحاً فغزا عبد الرحمن إفرنجة ، وهم أقاصى عدو الأندلس ، فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . . . ثم خرج إليهم غازياً فاستشهد وعامة أصحابه ، وكان قتله فيما حدثنا يحيى عن الليث فى سنة خمسة عشر ومائة »[٢] . ولم يذكر الواقدى والبلاذرى والطبرى وهم أيضاً من أقدم رواة الفتوح شيئاً عن الموقعة . وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ثلاث عشرة ومائة مردداً لرواية ابن عبد الحكم . « ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله ، فغزا إفرنجة وتوغل فى أرضهم وغنم غنائم كثيرة . ثم خرج غازياً ببلاد الفرنج فى هذه السنة (أعنى ١١٣ هـ) ، وقيل سنة أربع عشرة ومائة وهو الصحيح ، فقتل هو ومن معه شهداء »[٣] . وينسب ابن خلدون الموقعة خطأ لابن الحبحاب والى مصر وإفريقية فيقول : « وقدم بعده (أى بعد الهيثم) محمد

---

(١) المقرى عن ابن حيان (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦) .
(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ٢١٦ ٢١٧ .
(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ .

ابن عبد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة ، وغزا إفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين »[١]. ولدينا من الرواية الأندلسية ما قاله صاحب « أخبار مجموعة » عند ذكر ولاة الأندلس وهو : « ثم (أى وليها) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء ، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن »[٢]. ونقل الضبى فى ترجمة عبد الرحمن ما ذكر ابن عبد الحكم عن الموقعة[٣]. وقال الحميدى وهو من مؤرخى الأندلس فى حديثه عن عبد الرحمن : « وعبد الرحمن الغافقى هذا من التابعين ... استشهد فى قتال الروم بالأندلس سنة خمس عشرة ومائة »[٤]. وقال ابن عذارى المراكشى : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ ، بموضع يعرف ببلاط الشهداء »[٥] وقال فى موضع آخر : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن هذا (أى الغافقى) ثانية وكان جلوسه لها فى صفر سنة ١١٢ فأقام والياً سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر ، واستشهد فى أرض العدو فى رمضان سنة ١١٤ »[٦]. وقال المقرى فيما نقل : « ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية ، فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة »[٧]. ونقل فى موضع آخر : « وذكر أنه قتل (والإشارة هنا خطأ إلى السمح بن مالك) فى الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه ، فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان ،

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ ، وفى نسبته الموقعة لمحمد بن الحبحاب خطأ بين لأن ابن الحبحاب كان عامل مصر ، ولم يندب لولاية إفريقية سوى سنة ست عشرة ومائة . ولم يل هو أو ولده الأندلس قط (راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٧) .

(٢) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٢٥ .

(٣) بغية الملتمس رقم ١٠٢٤ .

(٤) جذوة المقتبس (طبع القاهرة) ص ٢٥٦ .

(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

(٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن » . ونقل عن ابن حيان : « قال دخل الأندلس (أى عبد الرحمن) حين وليها ولايته الثانية من قبل ابن الحبحاب فى صفر سنة ثلاث عشرة ومائة ، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد ، وأصيب عسكره فى موضع يعرف ببلاط الشهداء . قال ابن بشكوال وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط »(١) .

هذه الفقرات والإشارات الموجزة ، التى تكاد تتفق جميعاً فى اللفظ والمعنى ، هى ما ارتضت الرواية الإسلامية أن تقدمه إلينا فى هذا المقام ، وإن كان فى تحفظها ذاته ما ينم عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته وبعد آثاره . وإذا كان صمت الرواية الإسلامية تمليه فداحة الخطب الذى أصاب الإسلام فى سهول تور ، فإن الرواية النصرانية تفيض بالعكس فى تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة ، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامى ، وترفع بطولة كارل مارتل إلى السماكين . وتذهب الرواية النصرانية ، ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين ، فى تصوير نكبة المسلمين إلى حد الإغراق ، فتزعم أن القتلى من المسلمين فى الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألفاً ، فى حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى ألف وخمسمائة . ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا جريجورى الثانى ، يصف فيها حوادث الموقعة وينسب النصر لنفسه ، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة ، كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها . بيد أنها ليست سوى محض خرافة ، فإن الجيش الإسلامى كله ، لم يبلغ حين دخوله فرنسا على أقصى تقدير ، أكثر من مائة ألف(٢). والجيش الإسلامى لم يهزم فى تور ولم يسحق ، بالمعنى الذى تفهم به الهزيمة الساحقة ، ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة ، يقاتل حتى المساء محتفظاً بمراكزه أمام العدو ، ولم يرتد أثناء القتال ولم يهزم . ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع فى جيش يحافظ على ثباته ومواقعه ، إلى هذه النسبة الخيالية . ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فادحة فى مثل هذه المعارك الهائلة ، وهذا ما تسلم به الرواية الإسلامية . ولكن مثل هذه

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) وهذا التقدير يأخذ به بعض المؤرخين الغربيين أيضاً ، مثال ذلك المؤرخ الفرنسى **Mezerai** . راجع التعليقات فى موسوعة **Bayle** ، تحت كلمة **Abderame** .

الخسائر لا يمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف فى جيش لم يزد على مائة ألف . وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة ، وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية ، فلو أن الجيش الإسلامى انتهى إلى أنقاض ممزقة ، لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه . ولكنه كان مايزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده[١] . على أن خسارة المسلمين كانت بالأخص فادحة فى نوعها ، تتمثل فى مقتل عبد الرحمن وجمع كبير من زعماء الجيش وقادته . بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح ما فى هذه الخسارة ، فقد كان خير ولاة الأندلس ، وكان أعظم قائد عرفه الإسلام فى الغرب ، وكان الرجل الوحيد الذى استطاع بهيبته وقوة خلاله ، أن يجمع كلمة الإسلام فى اسبانيا ، فكان لمقتله فى هذا المأزق العصيب ، ضربة شديدة لمثل الإسلام ومشاريع الخلافة فى افتتاح الغرب[٢].

ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى ، وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها فى تغيير مصاير النصرانية وأمم الغرب ، ومن ثم فى تغيير تاريخ العالم كله . وإليك طائفة مما يقوله أكبر مؤرخى الغرب ومفكريه فى هذا المقام :

قال إدوارد جيبون ، إن حوادث هذه الموقعة « أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغاليين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال رومة ، وأخرت استعباد قسطنطينيه ، وشدت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والفشل »[٣]. ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة « إحدى هاته المواقف

---

(١) قال ادوار جيبون تعليقاً على مزاعم الرواية الفرنجية « ولكن تلك القصة الخرافية يمكن ردها بحذر القائد الفرنسى (كارل مارتل) إذ توجس من شراك المطاردة ومفاجآتها ورد حلفاءه الألمان إلى أوطانهم . ان سكون الفاتح ينم عن فقد الدماء والقوة ، وأن أشنع تمزيق للعدو لا يقع حين التحام الصفوف ، وإنما حين الانسحاب وتولية الأدبار » .

(٢) راجع موسوعة **Bayle** تحت كلمة **Abderame** ، ففيها أيضاً إنكار للرواية الفرنجية عن خسائر العرب . وفى هذه الموسوعة تعليقات وملاحظات مفيدة لطائفة من المؤرخين الفرنسيين تجمع كلها على التنديد بمبالغة الرواية الفرنجية . وراجع أيضاً **Dom Vissette : ibid , V.I. p. 797** حيث يدحض مزاعم الروايات النصرانية .

(٣) **Roman Empire - Ch. LII.**

الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون »[١] . ويقول السير إدوار كريزى : « إن النصر العظيم الذى ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حداً حاسماً لفتوح العرب فى غرب أوربا ، وأنقذ النصرانية من الإسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة ، وبذور الحضارة الحديثة ، ورد التفوق القديم للأمم الهندية الأوربية على الأمم السامية »[٢]. ويقول فون شليجل فى كلامه عن الإسلام والإمبراطورية العربية : « ما كاد العرب يتمون فتح إسبانيا حتى تطلعوا إلى فتح غاليا وبرجونية . ولكن النصر الساحق الذى غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتييه وضع لتقدمهم حداً ، وسقط قائدهم عبد الرحمن فى الميدان مع زهرة جنده . وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفتاكة ، الهدامة إلى الذروة »[٣] ، ويقول رانكه : « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى إلى ما وراء الرين . فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ، ودفعها إلى بلاد جديدة »[٤] . ويقول زيلر : «كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية . وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه ، لا فى غاليا وحدها ولكن فى جرمانيا التى أشركها فى نصره »[٥]. على أن هناك فريقاً من مؤرخى الغرب لا يذهب إلى هذا الحد فى تقدير نتائج الموقعة وآثارها . ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى وميشليه ، فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل . ويقول جورج فنلى : «إن أثرة الكتاب الغالبين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا ، وصورته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج ، فى حين أن حجاباً ألقى على عبقرية ليون الثالث (إمبراطور قسطنطينية) وعزمه ، مع أنه نشأ جندياً يبحث وراء طالعه ، ولم يكد يجلس على

---

(١) History of the Roman Commonwealth

(٢) Decisive Battles of the World

(٣) Philosophie der Geschichte

(٤) History of the Reformation

(٥) Histoire de L'Allemagne

العرش حتى أحبط خطط الفتح ، التي أنفق الوليد وسليمان طويلا فى تدبيرها »[1]

ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار ، ونرى أنها كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، ففى سهول تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره ، وتغيرت مصائر العالم القديم كله ، وارتد تيار الفتح الإسلامى أمام الأمم الشمالية ، كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية ، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، واخضاع النصرانية لصولة الإسلام . ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى ، لينفذ إلى قلب أوربا فى مثل كثرته وعزمه واعتزازه ، يوم مسيره إلى بلاط الشهداء . ولكنه أصيب غير بعيد بتفرق الكلمة ، وبينما شغلت إسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية ، إذ قامت فيما وراء البرنيه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الإسلام فى الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ .

---

(١) Byzantine Empire

الفصل السابع

الأندلس بين المد والجزر

صدى بلاط الشهداء . اهتمام الخلافة بحوادث الأندلس . تعيين عبد الملك بن قطن والياً للأندلس . مسير ابن قطن إلى الشمال . محاربته للثوار فى الثغر الأعلى وبسكونية . غزوه لأكوتين . هزيمته أثناء العودة . صرامته وعزله . ولاية عقبة بن الحجاج . حزم عقبة وإصلاحاته . غزوه لجليقية . تحصينه لقواعد الثغر . غزواته فى غاليس . حوادث أكوتين . عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس يغزو آرل . تحالف مورنتوس دوق بروفانس مع العرب . غزو القوات المتحدة لبرجونية . مهاجمة الفرنج لافنيون واستيلاؤهم عليها . حصار كارل مارتل لأربونة . موقعة بين العرب والفرنج . هزيمة العرب . رفع الحصار عن أربونة . استيلاء كارل على مدن سبتمانيا وتخريبها . عوده إلى الشمال . مسير عقبة إلى سبتمانيا . استرداده لآرل . غزو الفرنج واللومبارد لبروفانس . قدوم كارل مارتل . ارتداد المسلمين . هزيمة مورنتوس وتمزيق قواته . مهاجمة البشكنس لعقبة حين عبوره الجبال . وفاة عقبة . ولاية عبد الملك ابن قطن الثانية . حوادث إفريقية . سخط البربر على العرب . ذيوع الدعوة الخارجية بين البربر موقف البربر فى اسبانيا . أقوال ابن خلدون فى ذلك . أقوال دوزى . اضطرام البربر بعوامل الثورة . إخماد الثورة فى المغرب الأقصى . ولاية إسماعيل بن عبيد الله للمغرب . عودة الثورة بزعامة ميسرة المدغرى . استيلاء الثوار على طنجة . الحرب بين العرب والبربر . مصرع مهسرة . موقعة الأشراف . ولاية كلثوم بن عياض لإفريقية . الخلاف بين زعماء العرب . مسير كلثوم إلى المغرب . استئناف الحرب بين العرب والبربر . هزيمة العرب ومقتل كلثوم . امتناع الشاميين بسبتة . ولاية حنظلة بن صفوان لإفريقية . الثورة فى إفريقية الوسطى . قتال حنظلة للثوار . هزيمة البربر ومصرع زعمائهم .

كان للخطب الجلل الذى أصاب الإسلام فى بلاط الشهداء وقع عظيم فى بلاط دمشق . وفى جميع أرجاء العالم الإسلامى ، وكان ارتداد الإسلام أمام أسوار قسطنطينية قد وقع للمرة الثانية قبل ذلك بأربعة عشر عاماً فقط ، فكانت نكبة البلاط تتمة الفشل المؤلم ، الذى أصاب مشاريع الخلافة فى افتتاح أمم الغرب . على أنها لم تكن خاتمة الفتوح الإسلامية فى فرنسا .

وأثار هذا الخطب فى نفس هشام بن عبد الملك . أيما اهتمام بشئون الأندلس ومصير الإسلام فى الغرب ، فاختار عبد الملك بن قطن الفهرى والياً للأندلس ، وأمره أن يعمل على حماية شبه الجزيرة ، وتوطيد هيبة الإسلام فى تلك الأقطار

النائية . فعبر عبد الملك إلى اسبانيا ، فى جيش منتخب من جند إفريقية ، فى أواخر سنة ١١٤ هـ[١]. وكان ثوار المقاطعات الشمالية قد انتهزوا فرصة مقتل عبد الرحمن وانحلال جيشه ، وحاولوا أن ينزعوا عنهم نير الإسلام ، فسار عبد الملك إلى الثغر الأعلى (أراجون) وهزم الثوار فى عدة مواقع . ثم عبر البرنيه إلى بسكونية (بلاد البشكنس)[٢]سنة ١١٥ هـ (٧٣٣ م) ، وكانت دائماً أشد المقاطعات الجبلية مراساً ، وأكثرها خروجاً وانتقاضاً ، فعاث فيها وشتت جندها وألجأهم إلى طلب الصلح[٣] . ثم سار إلى لانجدوك ، وكان الفرنج منذ موقعة البلاط ، يتطلعون إلى استردادها ، ويكثرون من الإغارة عليها ، فنظم حامياتها ، وحصن قواعدها . ثم أغار على أراضى أكوتين وعاث فيها ، فاعترضه الدوق أودو ورده ، ولم يخاطر عبد الملك بالتوغل فى أرض الفرنج لصغر جيشه ، فارتد إلى الجنوب ، ولكنه أثناء عبوره جبال البرنيه ، هاجمته العصابات الجبلية البسكونية ، وأصابته فى قتالها خسارة كبيرة ، فعاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من إخضاعها .

ولم يطل عهد عبد الملك بعد عوده ، فقد كان صارماً ، شديد الوطأة ، كثير الظلم والبطش[٤]. فسخط عليه الزعماء وأولو الرأى ، ودب الخلاف بين القبائل ، وبدت بوادر الفتنة . هذا إلى أنه لم يوفق إلى إخماد الثورة فى الولايات الشمالية ، وتوطيد سلطان الإسلام فيها . فعزل فى رمضان سنة ١١٦ لسنتين من ولايته . واختار عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية ، مكانه لولاية الأندلس ، عقبة بن الحجاج السلولى . فدخلها فى شوال سنة ١١٦ (أواخر سنة ٧٣٤ م) . وكان عقبة من طراز عبد الرحمن الغافقى جندياً عظيماً ، نافذ العزم والهيبة ، محمود الخلال والسيرة ، كثير العدل والتقوى[٥] . فأقام النظام والعدل ، ورد المظالم ، وقمع الرشوة

---

(١) المقرى ج ٢ ص ٥٨ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ . ولكن ابن عبد الحكم يقول إن ولاية ابن قطن كانت سنة ١١٥هـ (ص٢١٧) . وهذا يرجع إلى أنه يقول كما قدمنا بوقوع بلاط الشهداء سنة ١١٥ .

(٢) بسكونية أو بسكونس أو بلاد البشكنس بالعربية هى **Vasconia** القديمة ، وقد كانت تشمل الرقعة الممتدة فى غرب البرنيه بحذاء الشاطىء إلى شرق الأستورياس ، وكانت أهم أجزائها فى ذلك العصر ولاية نافار التى يسميها العرب أحياناً نبره ، وكانت عندئذ إمارة مستقلة يحكمها على الأرجح زعيم أو أمير قوطى ، وتشمل من مقاطعات اسبانيا الحديثة نافار وبسكاية **Vizcaya**.

(٣) المقرى ج ٢ ص ٥٨ .

(٤) المقرى ج ١ ص ١١٠ ؛ وعن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٨ .

(٥) المقرى ج ٢ ص ٥٨ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

والاختلاس ، وعزل الحكام الظلمة وألقاهم فى غيابة السجن ، وأقام مكانهم جماعة من ذوى الحزم والنزاهة ، وأنشأ كثيراً من المدارس والمساجد . فاستقرت الأحوال وخبت الفتنة ، وتراضت القبائل . واعتزم عقبة فى الوقت نفسه أن يعيد عهد الجهاد والفتوح العظيمة ، وأن يوطد سلطان الإسلام فى الولايات الشمالية ، وفى غاليس (فرنسا) . فنظم الجيش وزاد فى قواته وأهبته ، وغزا جليقية وتوغل فيها ، واستولى على كثير من مواقعها ، ولكنه لم يستطع أن يسحق بقية النصارى التى اجتمعت حول الزعيم القوطى بلاى (أوبلايو) ، وما زالت معتصمة بأقاصى الجبال فى شعب عرفت لمنعتها « بالصخرة » ، متحدية كل أمير وقائد مسلم[١] . وحصن عقبة جميع المواقع الإسلامية على ضفاف نهر الرون ، واتخذ ثغر أربونة قاعدة للجهاد والغزو ، فحصنها وبعث إليها بالجند والمؤن والذخائر . وتقول الرواية الإسلامية إن عقبة لبث طوال حكمه الذى امتد خمسة أعوام مثابراً على الجهاد والغزو ، وأنه كان يخرج للغزو كل عام ، حتى عاد نهر الرون رباط المسلمين أو معقل فتوحاتهم[٢] ، بعد أن كان الفرنج قد استردوا ما بيد المسلمين فى تلك الأنحاء . ولا تفصل الرواية الإسلامية حوادث هذه الغزوات ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة تلقى عليها شيئاً من الضياء ، وإليك ملخص الغزوات الإسلامية فى غاليس فى تلك الفترة حسبما تقصه علينا تلك الروايات :

رأى الفرنج على أثر ما أصاب المسلمين فى بلاط الشهداء ، أن الفرصة قد سنحت لإخراجهم من فرنسا . ولكن كارل مارتل شغل حيناً بمحاربة القبائل الوثنية فيما وراء الرين ، فى فريزيا وسكسونية ، وشغل أودو برد العرب حينما غزوا أكوتين مرة أخرى بقيادة ابن قطن . ثم توفى أودو فى العام التالى (سنة ٧٣٥م) ، وتخلص كارل مارتل بذلك من منافسه القوى ، وبادر إلى غزو أكوتين ودخل بوردو عاصمتها ، وأقام هونالد ولد أودو دوقاً مكان أبيه ، على أن تكون أكوتين تابعة للمملكة الفرنجية . وفى تلك الأثناء ولى الأندلس عقبة بن الحجاج ، وأخذ ينظم الأهبة لاسترداد الثغور الإسلامية الشمالية . وفى سنة ٧٣٥م (١١٧ هـ) غزا العرب مدينة آرل للمرة الثانية ، بقيادة عبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المقرى ج ٢ ص ٥٨ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

أربونة ، الموصوف بأنه « فارس الأندلس فى عصره » تنويهاً بشجاعته النائقة[١] واستولوا عليها . وكانت الولايات المجاورة لسبتمانيا الواقعة حول ضفاف الرون ، وكلها مزيج من القوط والبرجونيين ، تنزع إلى الخروج على كارل مارتل ، وتحاول التخلص من نير الفرنج ، وكان الدوق مورنتوس أو مورنت أمير بروفانس أقوى زعماء هذه المنطقة . يحكم ما بين نهر الرون وجبال الألب ، ويسعى إلى توطيد استقلاله . وتوسيع ملكه على نحو ما كان يفعل أودو فى أكوتين ، فاتصل بالعرب وتحالف معهم . وفى سنة ٧٣٦ م عبر الدوق وعبد الرحمن اللخمى الرون فى جيش مشترك ، واستوليا على مدينة أفنيون رغم حصانتها[٢] . واخترق العرب بعد ذلك إقليم دوفينه ، واستولوا على أوسيز وڤڤييه وڤالانس وڤين وليون وغيرها ، وغزوا برجونية وحصلوا على غنائم لا تحصى[٣] . وعلم كارل مارتل بذلك أثناء انشغاله بالحرب فى سكسونية ، فبعث أخاه شلدبراند فى جيش ضخم ليصد العرب . ثم لحق به جيش آخر ، وزحف الفرنج على أفنيون فى كثرة وهاجموها بشدة حتى سقطت فى أيديهم ، وقتلوا حاميتها المسلمة ، وتحصن العرب فى أربونة ، فسار إليها كارل مارتل ، وحاصرها فقاومه المسلمون أشد مقاومة . وردوا كل هجماته . وأرسل عقبة فى الحال جيشاً لإنقاذ المدينة ، فقصدها من جهة البحر . وجاز إلى الشاطئ قبل أن يشعر به الفرنج حتى صار على مقربة من أربونة . فلما علم كارل بمقدم هذا الجيش الجديد ، بادر إلى لقائه ونشبت بينه وبين العرب موقعة هائلة ، فيما بين البحر وأربونة ، هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وطاردهم الفرنج حتى الشاطئ ، فلم ينج منهم سوى شراذم قليلة لجأت إلى السفن ، وذلك فى ربيع سنة ٧٣٧م (١١٩هـ) . ومع ذلك فلم تسلم أربونة ولم يهن عزمها . فاضطر عندئذ كارل مارتل إلى رفع الحصار عنها ، وارتد إلى مهاجمة المواقع الإسلامية الأخرى ، فاستولى على بزييه وأجده وماجلونة وخرب قلاعها ومعاهدها ، وأحرق نيمة وآثارها الرومانية الفخمة ، فغدت جميعاً أطلالا دارسة ، بعد أن كانت أيام المسلمين زاهرة باسمة . وحول السهل الواقع غرب سبتمانيا وشمالها إلى قفر بلقع ليحول دون تقدم المسلمين . وهنا وصلته الأنباء بوفاة تيودريك الرابع

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٢ .

(٢) وهى فى الرواية العربية « صخرة أبنيون » (راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨) .

(٣) Dom Vissette : ibid. V.I. p. 803

ملك الفرنج الميروفنجى (سبتمبر سنة ٧٣٧) ، فارتد مسرعاً إلى عاصمة ملكه ليتقى تدابير خصومه ، ولم يقم ملكاً جديداً على العرش رغم وجود أعضاء من الأسرة الميروفنجية ، بل آثر أن يترك العرش خالياً ، حتى تمهد الظروف له أو لبنيه اعتلاءه ، وتتويج سلطان محافظ القصر الفعلى بألقاب الملك .

وفى ذلك الحين كان عقبة بن الحجاج يتأهب لاستئناف الغزو ، واسترداد ما انتزعه كارل مارتل من قواعد سبتمانيا . ففى ربيع سنة ٧٣٨ م (١٢٠ هـ) عبر عقبة جبال البرنيه فى جيش ضخم ونفذ إلى سبتمانيا ، وعبر الرون واسترد مدينة آرل للمرة الثالثة أو الرابعة . ثم استولى بمعاونة الدوق مورنتوس على أفنيون وعدة معاقل أخرى فى بروفانس . وكان كارل فى ذلك الحين قد عاد إلى محاربة السكسونيين ، فبعث لقتال العرب جيشاً بقيادة أخيه شلدبراند ، واستغاث بصهره وحليفه لوتبراند ملك اللومبارد[١] ، فغزا بروفانس من جهة الشرق ليضيق على قوات الدوق ، ثم أسرع كارل إلى الرون بجيش ثالث ، وزحفت الجيوش المتحدة على مواقع المسلمين ، فاضطر عقبة إلى إخلاء بروفانس والارتداد إلى ما وراء الرون ، واستولى الفرنج أيضاً على معظم سبتمانيا ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة ، ورقعة ضيقة من الأرض على الشاطئ بين أربونة والبرنيه ، ومزقت قوى الدوق مورنتوس ، وطارده الفرنج فى شعب الجبال ، ففر ناجياً بحياته ، واستولى الفرنج على أراضيه ، واصطدم عقبة حين عبوره البرنيه إلى الأندلس بعصابات قوية من البسكونيين والقوط ، حاولت بتحريض الفرنج أن تسد دونه ممرات الجبال ، فتكبد فى تمزيقها بعض الخسائر ، ولكنه ارتد بجيشه سالماً إلى قرطبة . وكان هذا اللقاء الأخير بين العرب والفرنج فى سهول الرون فى سنة ٧٣٩ م (١٢١ هـ)[١] .

ثم توفى عقبة بن الحجاج بعد ذلك بقليل ، وقدمت الجماعة مكانه عبد الملك ابن قَطَن ، فولى الأندلس للمرة الثانية . وقيل بل ثار ابن قطن على عقبة فى جمع

---

(١) يسمى العرب لومبارديا أنكبردة ، واللومبارد بالأنكبرد ، محرفة عن التسمية القديمة (لانجوبارد) Langobard (راجع معجم ياقوت الجغرافى ج ١ ص ٢٦٢) .

(٢) رجعنا فى تفصيل هذه الغزوات والوقائع إلى ما ورد فى موسوعة Bouquet من أقوال الرواة والمؤرخين المعاصرين من الأحبار وغيرهم . وراجع أيضاً : Dom Vissette: ibid , V.I. p. 807 & 809

كبير من أنصاره ، وكان عقبة قد ولاه على أر عزله ، قيادة الجيش فى الشمال ، فلبث يتحين الفرص للخروج والثورة . فأسر عقبة وقتل ، أو أسر حتى توفى ، وانتزع ابن قطن ولاية الأندلس لنفسه ، ووقع هذا الانقلاب سنة ١٢٢ هـ(١) ، وقيل بل سنة ١٢٣ . قال الرازى : « ثار أهل الأندلس بأميرهم عقبة فى صفر سنة ثلاث وعشرين ، فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية ، وكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفى بقرمونة فى صفر سنة ثلاث وعشرين واستقام الأمر لعبد الملك »(٢). وعلى أى حال فقد كان هذا الانقلاب بالنسبة للأندلس فاتحة عهد من الاضطراب والفتن والحرب الأهلية المتصلة كما سنرى .

ويجب لكى نعرف عوامل هذا الاضطراب ، أن نعود إلى حوادث إفريقية قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة . فى سنة ١١٦ هـ عين عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر والياً لإفريقية ، وقد بينا فيما سلف كيف كان البربر يضطرمون سخطاً على سادتهم العرب ، وشرحنا طرفاً من عوامل هذا السخط ، وبينا كيف أن دعوة الخوارج ذاعت بين البربر منذ أواخر القرن الأول ، فأقبلوا على اعتناقها لما تضمنت من مبادئ الحرية والديمقراطية ، والحث على مقاتلة الغاصبين للرياسة والحكم . كذلك رأينا كيف استبسل البربر فى الدفاع عن حرياتهم ، وانقضوا على الفاتحين غير مرة ، وحطموا سلطانهم ، وفتكوا بقادتهم وجيوشهم ، ولم يخضعوا لنير العرب إلا بعد كفاح رائع ، استطال زهاء نصف قرن . ومع أن الأمر استتب للعرب آخر الأمر ، واستطاعوا أن يفرضوا سلطانهم ودينهم على البربر ، وأن يتخذوهم جنداً لجيوش الخلافة فى الغرب ، فإن البربر لبثوا يعتبرون العرب أجانب غاصبين لحرياتهم ، ولبثت القبائل البربرية القاصية ، تضطرم دائماً بنزعات الخروج والثورة . وكانت مثل هذه العواطف تحفز البربر فى اسبانيا ، إلى مخاصمة العرب والسخط عليهم والتربص بهم ، وخصوصاً لأنهم رغم قيامهم بمعظم أعباء الفتح ، لم يفوزوا بكثير من مغانمه ، واستأثر العرب دونهم بالسلطان والحكم . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ثم نبضت فيهم (أى البربر) عروق الخارجية

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المقرى عن الرازى (نفح الطيب ج ١ ص ١١٠) . راجع أيضاً عن مصير عقبة ، نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية . وفشت هذه البدعة وعقدها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر ، فاختلوا فى كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب »[١] .

ويصف دوزى موقف البربر من العرب فيما يأتى : « اعتنق البربر سكان الأكواخ الحقيرة ، كل التعاليم بحماسة لا توصف ، ولا ريب أنهم لجهالتهم وسذاجتهم ، لم يدركوا شيئاً من تضارب المذاهب ودقائقها ، مما تدركه وتسيغه أذهان مستنيرة ، فمن العبث إذاً أن نبحث عن أى الفرق كانوا يفضلون الانضمام إليها ، وعما إذا كانوا من الحرورية أو الصفرية أو الإباضية ، فقد اختلف الرواة فى ذلك . ولكنهم كانوا يفقهون من المبادئ . ما يسمح لهم باعتناق المبادئ الثورية والديمقراطية ، ومشاطرة الآمال الخيالية التى يذيعها فقهاؤهم فى المساواة العامة ، وما يقنعهم بأن ظالميهم كانوا آثمين نصيبهم النار . ولما كان الخلفاء منذ عثمان جميعاً غاصبين غير مؤمنين . فلم يكن جريمة أن يثوروا على الظالم الذى يسلبهم أراضيهم ونساءهم . فقد كان هذا حقاً بل كان واجباً . ولما كان العرب قد أبعدوهم عن السلطة ، ولم يتركوا لهم إلا ما عجزوا عن أخذه منهم ، أعنى حكم القبائل ، فقد اعتقدوا بسهولة أن نظرية سيادة الشعب ، وهى نظرية يعتنقونها فى ظل استقلالهم الوحشى منذ غابر العصور ، إنما هى نظرية عريقة فى الإسلام عريقة فى الإيمان . وأن أقل بربرى يمكن رفعه إلى العرش برأى الجماعة . وهكذا كان هذا الشعب الذى بولغ فى ظلمه ، يثيره متعصبون أنصاف فقهاء وأنصاف جند ، وينزع إلى رفع هذا النير باسم الله وباسم النبى . وباسم هذا الكتاب المقدس (القرآن) الذى اعتمد عليه آخرون فى إقامة الطغيان الرائع »[٢] .

فلما ولى عبيد الله بن الحبحاب إفريقية ، كانت القبائل البربرية تضطرم بعوامل الثورة ولا سيما فى المغرب الأقصى ، فسير عبيد الله إلى مواطن الثورة فى قاصية المغرب جيشاً بقيادة حبيب بن أبى عبيدة الفهرى ، فأثخن فى هاتيك الأنحاء ومزق

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

(٢) Dozy : Hist. V.I. p. 149 — 150

جموع الثائرين ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبي ، وسادت السكينة حيناً فى المغرب الأقصى . وسير ابن الحبحاب حبيباً فى معظم قواته فى غزوة بحرية إلى سردانية وصقلية ، وعين ولده إسماعيل والياً للمغرب الأقصى . ولكن هذه السكينة كانت ظاهراً خلباً فقط ، فقد كان البربر يتوقون إلى الانتقام ويرقبون الفرص . وكان إسماعيل يحفزهم ويثيرهم بعسفه وسوء تصرفه . وذاع فوق ذلك أنه ينوى أن يعتبر مسلمى البربر كالنصارى فيئاً وغنيمة ، وأن يفرض الأخماس عليهم . فذكا الهياج واستفحل ، وانتهز البربر فرصة غياب الجيش والقادة فى صقلية . فأعلنوا الثورة والتفوا حول داعية من الخوارج الصفرية ، وهو سقاء يدعى ميسرة المدغرى ، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها ، وقتلوا قائدهم عمر بن عبد الله . واستولوا عليها ودعوا لميسرة بالخلافة . ثم زحفوا على السوس وهزموا إسماعيل بن عبيد الله وقتلوه ، فقويت جموعهم واستفحل شأنهم . وذاعت الدعوة الخارجية فى قفار المغرب ذيوعاً كبيراً ، واضطرب سلطان العرب فى معظم النواحى . فسير ابن الحبحاب فى الحال جيشاً إلى المغرب الأقصى بقيادة خالد بن حبيب ، واستدعى حبيب بن أبى عبيدة وجيشه من صقلية ، ووقعت بين خالد والبربر بقيادة ميسرة معارك شديدة غير حاسمة فى ظاهر طنجة . ثم ارتد ميسرة إلى طنجة حيناً ، واغتاله بعض أنصاره لأمور نقموها منه ، وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتى ، وهو من بطون زناتة . فبرز لقتال العرب ثانية ، ونشبت بين الفريقين فى مكان يعرف بوادى سلف ، معارك هائلة هزم فيها العرب ، وقتل خالد بن حبيب وجماعة كبيرة من الزعماء والقادة ، وسميت الموقعة لذلك بغزوة الأشراف (أوائل سنة ١٢٣ هـ)[(١)].

فلما رأى هشام بن عبد الملك عجز ابن الحبحاب عن ضبط الأمور ، استدعاه وأقاله ، واعتزم أن يخمد ثورة البربر بأى الوسائل . فعين لولاية إفريقية كلثوم ابن عياض القشيرى[(٢)] ، وسيره إليها فى جيش ضخم من عرب الشام ، بقيادة ابن أخيه بَلْج بن بشر القشيرى (جمادى الثانية سنة ١٢٣) واجتمعت إليه أثناء

---

(١) ابن عبد الحكم ص٢١٧ و ٢١٨ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٧٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ١١٠

(٢) هكذا يسميه ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٠) ، وابن خلدون (ج ٦ ص ١١١) ، والمقرى (ج ٢ ص ٥٨) ولكن ابن عبد الحكم يسميه كلثوم بن عياض القبسى (ص ٢١٨) . وكذا بشر ابن بلج فيسميه القيسى بدلا من القشيرى (ص ٢١٩) .

مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس ، حتى بلغ جيشه زهاء سبعين ألفاً[١]. وكان حبيب بن أبى عبيدة قد وقف بجيشه فى منتصف الطريق ، متردداً لما رآه من استفحال أمر البربر ، فاستوقفه كلثوم حتى يصل إليه . وكان حبيب وزعماء العرب فى إفريقية ، يتوجسون شراً من غلبة الشاميين ، فاستقبلوا كلثوماً وبلْجا بفتور ، وأبدى بلج بالأخص جفاء وخشونة فى معاملة أهل القيروان ، وثارت بينه وبين حبيب مناقشات عاصفة ، وكاد الخلاف يضطرم بين الفريقين ، ويرتد العرب لقتال بعضهم بعضاً لولا أن غلبت الحكمة إزاء الخطر الداهم[٢] . فسارت القوات المتحدة لقتال البربر ، وسار البربر لقتالهم من طنجة فى جموع زاخرة بقيادة خالد بن حميد الزناتى ، ونشبت بين الفريقين على مقربة من طنجة فى مكان يعرف بوادى سبسر ، معارك هائلة كان النصر فيها حليف البربر ، فمزق العرب للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم وحبيب وكثير من الزعماء والقادة[٣]. وارتدت فلول العرب إلى القيروان ، وفر بلج بن بشر ونفر من الزعماء ، منهم ثعلبة بن سلامة الجذامى وعبد الرحمن بن حبيب فى بقية من جند الشام إلى سبتة ، فامتنعوا بها واستغاثوا بوالى الأندلس عبد الملك بن قطن ، ووقعت هذه النكبة فى أواخر سنة ١٢٣ أو أوائل سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) .

عندئذ سير هشام بن عبد الملك والى مصر ، حنظلة بن صفوان الكلبى والياً لإفريقية ، فقدمها فى ربيع الثانى سنة ١٢٤ . وكانت دعوة الخوارج قد سرت أيضاً إلى إفريقية الوسطى ، بعد أن خرج المغرب الأقصى من قبضة الخلافة ، وثار البربر فى كثير من النواحى . وخرج منهم فى ناحية قابس زعيم يدعى عكاشة الفزارى . وخرج فى غرب القيروان زعيم آخر هو عبد الواحد بن يزيد الهوارى . فحشد حنظلة كل قواته ، ولقى الفزارى أولا ، وهزمه بعد معركة عنيفة ومزق جموعه . ثم التقى بجيش عبد الواحد على مقربة من القيروان بمكان يعرف بالأصنام ،

---

(١) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٨

(٢) ابن عبد الحكم (ص ٢١٩) ، وابن الأثير (ج ٥ ص ٧٠) وراجع أيضاً دوزى : **Hist, V.I. p. 245**

(٣) يتفق ابن عبد الحكم (ص ٢٢٠) وابن الأثير (ج ٥ ص ٧١) وابن خلدون (ج ٦ ص ١١١) ، على أن كلثوم بن عياض قتل فى الموقعة ، ولكن المقرى يقول نقلا عن ابن حيان إنه فر مع بلج إلى سبتة ، وعبر إلى الأندلس حيث توفى (ج ٢ ص ٥٨ — ٥٩) .

ويقال إن جموع البربر بلغت يومئذ ثلاثمائة ألف ، وبلغ العرب أربعين ألفاً فقط[١].
ونشب بين الفريقين قتال رائع ثبت فيه العرب ، ومزق البربر وقتلت منهم جموع عظيمة ، وقتل عبد الواحد وأسر الفزارى وقتل بأمر حنظلة . وكانت هذه الموقعة الشهيرة سنة ١٢٥ هـ (٨٤٢ م) .

وليس من موضوعنا أن نتتبع ما تلا من الحوادث فى إفريقية[٢] ، ويكفى أن نقول إن ثورة الخوارج لبثت على اضطرامها ، وظهر الثوار والمتغلبون فى كل ناحية ، ولبثت إفريقية عصراً آخر فريسة الاضطراب والفوضى ، واضمحلت سيادة العرب ، ثم زالت غير بعيد لتحل مكانها سيادة المستعربين من البربر والموالى .

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٧١ .

(٢) يفصل ابن خلدون هذه الحوادث فى ج ٦ ص ١١١ وما بعدها ، وكذلك ابن عبد الحكم فى أخبار مصر وفتوحها ص ٢٣٣ وما بعدها .

الفصل الثامن

الحرب الأهلية

صدى حوادث إفريقية فى الأندلس . استغاثة الشاميين بابن قطن . إعراضه عن دعوتهم . ثورة البربر فى الأندلس . مفاوضة ابن قطن لبلج زعيم الشاميين واستقدامهم . سير القوات المتحدة لمحاربة البربر . هزيمة البربر فى شذونة وقرطبة . سحق ثورتهم . مطالبة ابن قطن للشاميين بالجلاء . ثورة بلج بن بشر وادعاؤه ولاية الأندلس . مقتل ابن قطن وولاية بلج . ثورة أمية وقطن ابنى عبد الملك . الخصومة بين الشاميين والعرب المحليين . لقاء الفريقين فى ظاهر قرطبة . مصرع بلج وانتصار الشاميين . ولاية ثعلبة بن سلامة . ضعف حكومة قرطبة . خروج الزعماء فى مختلف النواحى . استئناف الحرب بين الشاميين وخصومهم . هزيمة ثعلبة ثم فوزه . مقدم أبى الخطار الوالى الجديد . قبضه على زمام السلطة . تفرقته للشاميين . ضمه لولاية تدمير إلى الأندلس . مطاردته للزعماء الخوارج . سكون الفتنة . تعصب أبى الخطار لليمنية . الصميل بن حاتم زعيم المضرية . ثورة المضرية والجذامية . الحرب بين الفريقين . هزيمة أبى الخطار . ولاية ثوابة بن سلامة . ثورة أبى الخطار . زحفه على قرطبة . فشله وهزيمته . الخلاف بين اليمنية والمضرية. ولاية عبد الرحمن اللخمى لشئون الحكم . الاتفاق على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى .

كان لهذه الفتنة التى اضطرمت فى إفريقية بين العرب والبربر . وما اقترن بها من الأحداث الخطيرة . صداها فى شئون الأندلس . وكانت الأندلس تتبع يومئذ إفريقية من الوجهة الإدارية . فكان لاضطراب الحكم فى إفريقية أثره فى اضطراب الحكم فى الأندلس ، كما كان لثورة البربر فى المغرب . أثرها فى تحريك البربر فى الضفة الأخرى من البحر . وقد سبق أن بينا كيف كان البربر فى شبه الجزيرة الإسبانية يجيشون سخطاً على العرب . لما استأثروا به دونهم من مغانم السيادة والحكم . وكيف كانت عصبية القبيل تمزق وحدة العرب أنفسهم ، وكيف كانت عوامل التنافس والتنازع ، تضطرم باستمرار بين اليمنية والمضرية . وسنرى الآن كيف كان صدى هذه العوامل المختلفة قوياً بارزاً فى حوادث الأندلس ، وفى اضطراب شئونها . وتمزيق وحدتها . وكيف انحدرت الأندلس من جرائها ، إلى معترك خطر من الفتن ، والحروب الأهلية الطاحنة . والفوضى .

تولى عبد الملك بن قطن الفهرى إمارة الأندلس للمرة الثانية على أثر وفاة عقبة بن الحجاج سنة ١٢٢ أو ١٢٣ هـ ، وثورة البربر يومئذ على أشدها فى المغرب

الأقصى . فلما هزم الجيش العربى فى مفاوز طنجة للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم ابن عياض والى إفريقية ومعظم قواده ، فر بَلْج بن بشر فى بقية من جند الشام إلى سبتة ، وامتنع بها حسبما أسلفنا ، فطاردهم البربر وشددوا الحصار عليهم حتى جهدوا وأشرفوا على الهلاك . واستغاث بلج وزملاؤه بعبد الملك بن قطن ورجوه أن يعاونهم على العبور إلى الأندلس . وكان عبد الملك مضرياً شهد موقعة الحَرَّة(١) قبل ذلك بستين عاماً ، وشهد ما ارتكبه جند يزيد فى المدينة من رائع السفك والإثم ، فكان يبغض الشاميين أشد البغض ، وكان فوق ذلك يخشى مطامعهم ومنافستهم ، فأبى إغاثتهم بادئ ذى بدء ، وعاقب بالجلد والقتل زعيما من بنى لخم ، أمدهم ببعض المؤن . ولكنه من جهة أخرى خشى عاقبة تصرفه ، وأن يتهمه الخليفة بالعمل على إهلاك جنده . ولم يمض قليل حتى اضطرته الحوادث نفسها إلى استدعاء بَلْج وأصحابه . ذلك أن ثورة البربر كان لها فى الأندلس أكبر صدى ، فتحرك البربر فى معظم الأقاليم الشمالية . وعصفت بالأندلس ريح ثورة بربرية دينية سياسية ، كتلك التى عصفت بإفريقية ، وإن كانت دونها شدة . واضطرمت الثورة بالأخص فى جليقية وماردة وقورية وطَلَبيرة ، وحشد الثوار جموعهم واختاروا لهم إماماً ، واعتزموا الزحف على طليطلة وقرطبة ثم الجزيرة ، ليمهدوا لبربر العدوة سبيل القدوم إلى اسبانيا ، ومعاونتهم على سحق العرب . واستطاع البربر ، وهم فى عنفوان ثورتهم ، أن يهزموا كل الحملات ، التى وجهها ابن قطن لإخضاعهم . وهنا ارتاع ابن قطن ، وفكر فى الحال أن يستعين بجند الشام المحصورين فى سبتة ، وهم زهاء عشرة آلاف ، فكتب إلى بلج يدعوه إلى معاونته ، واشترط عليه للعبور إلى الأندلس ، أن يغادرها متى صلحت حال جنده ، وانتهت الثورة . فقبل بَلْج وقدم الرهائن من أصحابه لتنفيذ هذا الميثاق . وعبر بَلْج وأصحابه إلى الأندلس (سنة ١٢٣ هـ) ، وقدمت إليهم المؤن والثياب . وانضموا إلى قوات ابن قطن بقيادة ولديه أمية وقطن . والتقت القوات المتحدة بالبربر أولا فى شَذُونة (مدينا سدونيا) فهزم البربر ، وأصاب الشاميون منهم غنائم كثيرة . ثم وقع القتال فى ظاهر قرطبة مع جموع البربر الزاحفة عليها ، فهزموا أيضاً بعد مقاومة

---

(١) هى ضاحية المدينة الشرقية وتعرف بحرة واقم . وكانت موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ ؛ وفيها هاجم جند يزيد بن معاوية المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، واستباحوها وقتلوا من أهلها جموعاً كبيرة ، ونهبوا الأموال ، وسبوا الذرية ، وهتكوا الأعراض ؛ وكانت من أشنع الوقائع .

شديدة ، ثم هزم البربر للمرة الثالثة ، فى وادى سليط على مقربة من طليطلة ، وكانوا قد بدأوا حصارها ، وبذلك سحقت الثورة ، ومزق البربر وطوردوا فى كل مكان ، وانتعش بلج وأصحابه وقويت نفوسهم واشتدت شوكتهم (١) .

وعندئذ طالب ابن قَطَن بتنفيذ الميثاق وجلاء الشاميين عن الأندلس متوجساً من بقائهم . ولكن بَلْجاً كانت تحدوه أطماع أخرى ، فماطل فى الجلاء وسوّف ، ثم كشف القناع فجأة ، وادعى أنه أمير الأندلس الشرعى بعهد من عمه كلثوم ، وأيده فى ذلك ثعلبة بن سلامة وغيره من الزعماء . ثم نادى الشاميون بخلع ابن قطن وتولية بلج ، وانحازت إليه اليمانية ، ووثب بلج وأصحابه على ابن قطن وهو فى قلة من جنده ، فقبضوا عليه بقصره بقرطبة ، وكان شيخاً قد أشرف على التسعين فلم يرحموا شيخوخته بل قتلوه وصلبوه ومثلوا بجثته ، فتم الأمر بذلك لبلج بن بشر القشيرى ، وتولى إمارة الأندلس فى أوائل ذى القعدة سنة ١٢٣ هـ (سبتمبر سنة ٧٤١ م) (٢) .

ولكن الفتنة لم تنته بعد . فإن أمية وقَطَن ابنى عبد الملك فرا إلى الشمال ، وحشدا جموعهما فى سرقسطة ، وآزرهما البلديون (العرب المحليون) والبربر ، وانضم إليهما جماعة من الزعماء ، الذين أنكروا فعلة بلج بعبد الملك ، مثل عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى كبير الجند ، وكان من أنصار بلج قبل الانقلاب ، وعبد الرحمن ابن علقمة اللخمى ، حاكم أربونة « فارس الأندلس فى عصره » ، وكان قوى البأس كثير الأتباع . وانقسمت الأندلس بذلك إلى معسكرين كبيرين ، معسكر الشاميين (٣) المتغلبين على الحكم ، ومعسكر العرب والبربر المحليين الذين اعتبروا الشاميين دخلاء غاصبين ، فعظمت الفتنة واشتد الاضطراب ، وسار أمية وقطن وأنصارهما إلى قرطبة لقتال الشاميين فى جيش قيل إنه بلغ نحو مائة ألف ، وتأهب بلج وأنصاره للدفاع فى نحو عشرين ألفاً ، والتقى الفريقان على مقربة من قرطبة فى شوال سنة ١٢٤ (أغسطس سنة ٧٤٢ م) ونشبت بينهما معارك

---

(١) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ و ٣١ ، وراجع أيضاً : Dozy : Hist. V. I. p. 163

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ .

(٣) ويعرف هؤلاء الجند الشاميون أيضاً « بالطالعة البلجية » نسبة إلى زعيمهم بلج (ابن الأبار فى الحلة السيراء — ليدن — (ص ٥١) .

شديدة ، وأبدى الشاميون شجاعة وجلداً . ولكن عبد الرحمن اللخمى صمم على قتل بلج . فحمل بجند أربونة على الشاميين ، وشق بينهم طريقاً إلى مكان بلج ، وأثخنه طعاناً توفى منها بعد أيام . ومع ذلك فقد انتصر الشاميون على البلديين انتصاراً باهراً فارتدوا منهزمين . وعاد الشاميون ظافرين إلى قرطبة ، وقدموا عليهم ثعلبة بن سلامة العاملى ، وكان من أصحاب بلج الذين عبروا معه إلى الأندلس كما قدمنا . فتولى إمارة الأندلس ، وقيل فى إمارته ما قيل فى إمارة بلج ، من أنه وليها بعهد من الخليفة ، أو من كلثوم والى إفريقية يليها بعد بلج ، وكانت ولايته فى شوال سنة ١٢٤[١] . فقبض ثعلبة على زمام الأمور بحزم ، وحاول أن يضبط النظام والأمن ، وأبدى كثيراً من اللين والاعتدال ، ولكن سلطان الحكومة المركزية كان قد تضعضع ، وانقسمت الأندلس إلى مناطق عديدة للنفوذ ، ولبثت الغلبة فى الأقاليم الوسطى والشمالية ، لجماعة من الزعماء الخارجين على حكومة قرطبة ، مثل أمية وقطن ابنى عبد الملك ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وعبد الرحمن اللخمى حاكم أربونة ، واستمر يؤازر هذا الفريق سواد العرب المحليين والبربر . ولم تمض أشهر قلائل حتى اضطرمت الحرب مرة أخرى بين الفريقين المتنازعين ، ونشبت بينهما مواقع عديدة على مقربة من ماردة ، فهزم الشاميون أولا واعتصم ثعلبة بقلعة ماردة ، ولكنه عاد فكر على خصومه وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر وسبى منهم جموعاً كبيرة ، وعاد ظافراً إلى قرطبة ، وقرر إعدام الأسرى ليلقى على خصومه درساً قاسياً . ولكنه قبل أن يتمكن من تنفيذ عزمه ، قدم إلى قرطبة حاكم جديد للأندلس ، هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى ، بعثه حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، إجابة لجماعة من زعماء الأندلس ، خشوا عواقب الفتنة ، وما قد تؤدى إليه من استظهار نصارى الشمال . وإغارتهم على الأراضى الإسلامية[٢] ، وقيل إن الذى اختار أبا الخطار لولاية الأندلس ، هو هشام بن عبد الملك[٣] . اختاره قبيل وفاته بقليل ، إذ توفى فى ربيع الثانى سنة ١٢٥ . وقدم أبو الخطار إلى الأندلس

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢ و ٣٣ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢١ ؛ وأخبار مجموعة ص ٤٥ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٦ ؛ وكذلك Dozy: Hist, V. I. p. 168

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ١٠٠ ؛ وابن الأبار ص ٤٨ .

فى رجب ، ولم يكن مضى على ولاية ثعلبة سوى عشرة أشهر . فقبض فى الحال على زمام السلطة . وأفرج عن جموع الأسرى والسبايا ، التى اعتزم أن يزهقها وينكل بها ثعلبة ، واهتم برد السكينة والنظام ، وإخماد شوكة الزعماء الخارجين ؛ ففرق الشاميين فى مختلف الكور تمزيقاً لعصبتهم ، وأنزل جند الشام بإلبيرة (غرناطة) ، وجند حمص بإشبيلية ولَبْلة ، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة ، وجند الأردن بريُّه . وجند قنسرين بجيان ؛ وجند مصر بعضهم فى أكشُونبة وباجة والبعض فى تدمير . ونذكر أن ولاية تدمير (مرسية) كانت قد تركت عند الفتح لصاحبها تيودمير ، وفقاً للمعاهدة التى عقدت بينه وبين عبد العزيز بن موسى[١] ، ولكن تيودمير كان قد توفى ، وخلفه فى حكم الولاية ولده أتاناجلد . واعتبر أبو الخطار أن نص المعاهدة ، كان قاصراً على تيودمير ، وأنه لا يسرى على خلفائه ، وطالب أتاناجلد بتأدية الجزية لحكومة قرطبة ، وأنزل جند مصر قسراً بقواعد تدمير ، وأقطعهم أراضيها ، وبذلك فقد القوط آخر معاقلهم الحرة فى الجنوب ، وضمت تدمير إلى باقى ولايات الأندلس ، تحت سلطان الحكومة المركزية[٢] . وتتبع أبو الخطار الزعماء الخارجين ، فقبض على ثعلبة ونفاه إلى إفريقية مع نفر من زملائه ، وأعلن أمية وقَطَن ابنا عبد الملك الطاعة ، وتفاهما مع أبى الخطار ، فولاهما الحكم فى بعض الولايات الشمالية . أما عبد الرحمن بن حبيب فاستطاع أن يتقى المطاردة وفر إلى تونس ، وهنالك أقام حيناً يرقب الحوادث ، حتى سنحت له فرصة الوثوب وانتزاع إمارة إفريقية من حنظلة ابن صفوان على ما سيجىء . وأما عبد الرحمن اللخمى فلبث مستقلا برباط الثغر فى أربونة وما جاورها .

وسلك أبو الخطار فى البداية سبيل الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل فى المعاملة ، فرضى الجميع واجتمعت الكلمة على تأييده وطاعته ، وسكنت الفتنة واستقر النظام حيناً . ولكن نزعة العصبية ما لبثت أن حملته كما حملت أسلافه من قبل ، فمال إلى قومه اليمانية ، وتنكر لخصومهم من المضرية ، واضطرمت الأحقاد

---

(١) أوردنا نص هذه المعاهدة فى ص ٥٥ و٥٦ من هذا الكتاب . وراجع فى توزيع القبائل على الكور ، ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٦ . وكذلك : Conde : ibid, V.I. p. 112

(٢) Conde: ibid, quot Isodorus, V.I. p. 112 (note) وكذلك Aschbach: ibid. V. I. p. 92

والمنافسات القديمة . وحدث أن اعتدى أبو الخطار على زعيم من زعماء المضرية بالإهانة والضرب لأنه تدخل لحماية رجل من بنى قومه . وهذا الزعيم هو الصُّمَيل ابن حاتم بن شمر الكلابى ، وجده شمر بن ذى الجوشن من أشراف الكوفة ، وكان قد اشترك فى قتل الحسين بن على فى كربلاء ، ثم نزح بأسرته إلى الشام خيفة الانتقام ، فلما ولى كلثوم بن عياض القشيرى حكم إفريقية . كان الصميل بين أشراف الشام الذين انتظموا فى جيش بلج القشيرى ، ثم جازوا معه إلى الأندلس[1] . وكان الصميل فارساً شجاعاً وزعيماً ذا نجدة ، يلتف حوله المضرية وبعض اليمنية ، من خصوم أبى الخطار ومنافسيه مثل جذام ولخم . فلما اعتدى أبو الخطار عليه بعث إلى قومه فى مختلف الأنحاء ، وأيدته المضرية وحلفاؤهم فى الخروج ، وتفاهم مع باقى الزعماء الناقمين على أبى الخطار ، ومنهم ثوابة بن سلامة الجذامى زعيم جذام . وكان يمنياً ولكنه كان يحقد على أبى الخطار . لأنه عزله عن ولاية إشبيلية . وتكفل ثوابة بمحاربة أبى الخطار ، وقدّمته المضرية ، وزحف بجموعه على قرطبة ، فلقيه أبو الخطار بقواته فى شذونة على ضفاف وادى لكه فى رجب سنة ١٢٧ . ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهت بهزيمة أبى الخطار وأسره ، ودخل ثوابة قرطبة وارتضته المضرية أميراً للأندلس مكان أبى الخطار ، ووافق عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أمير إفريقية على هذا الاختيار . وكان قد استطاع فى تلك الفترة أن ينتزع ولاية إفريقية من حنظلة بن صفوان . ولكن أبا الخطار استطاع أن يفر من سجنه بمعونة نفر من أصدقائه . فذهب إلى باجة وحشد جموعه ، وقصد إلى قرطبة ، فلقيه الصميل فى المضرية وثوابة فى أنصاره من اليمنية ، ووقعت بينهما معركة غير حاسمة . وعندئذ دعا بعض اليمنية من فريق ثوابة إلى وقف القتال ، ونعى على أنصار أبى الخطار أنهم يقاتلون ثوابة . مع أنه يمنى منهم ، وقد عفا عن أبى الخطار وعف عن دمه حين كان فى قبضته ؛ فأحدثت هذه الدعوة أثرها ، وانفض عن أبى الخطار جنده . واضطر أن يعود إلى باجة وهنالك لبث ينتظر مجرى الحوادث[2] .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى ثوابة فى أوائل سنة تسع وعشرين ومائة .

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٩ ؛ والمقرى عن ابن حيان فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) المقرى ج ٢ ص ٦٠ و ٦١ ، وابن الأثير ج ٥ ص ١٢٦ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٥ و ٣٦ .

بعد أن حكم الأندلس زهاء عام ونصف . وهنا نشب الخلاف بين الزعماء والقبائل كرة أخرى ، وأصرت اليمنية على أن يكون الأمير منهم خلفاً لأميرهم المتوفى ، وأصر الصميل أن يكون الأمير من المضرية ، واشتد النزاع بين الفريقين ، ووقعت بينهما مصادمات ومعارك عديدة ، ولبثت الأندلس بضعة أشهر دون أمير رسمى ، وتولى الأحكام فيها عندئذ عبد الرحمن بن كثير اللخمى باتفاق الفريقين . ولما تفاقم الخلاف ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تولية يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى أحد زعماء المضرية ، فولى إمارة الأندلس فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ (يناير ٧٤٧ م) دون مصادقة أو مراجعة من دمشق أو إفريقية . وكانت حكومة دمشق قد اضطربت يومئذ شئونها ، وأخذت نذر السوء تبدو فى الأفق ، وشغلت الخلافة الأموية بما يهددها من خطر داهم على سلطانها ، وضعف إشراف الحكومة المركزية على الولايات النائية ، فاستقلت إفريقية والأندلس كل بشئونها ، حتى يستبين المصير ، وتستقر الأمور .

الفصل التاسع

خاتمة عصر الولاة

أصل يوسف الفهرى . عبد الرحمن بن حبيب واستيلاؤه على إفريقية . استئثار يوسف بالسلطة . تحرك اليمنية . خروج أبى الخطار وابن حريث . التقاء المضرية واليمنية فى شقندة . هزيمة اليمنية ومقتل زعمائها . استقرار الأمر ليوسف والصميل . ولاية الصميل لسرقسطة . إصلاحات يوسف الإدارية والمالية . تقسيم اسبانيا الجديد . إصلاحه للجيش . إرساله جيشاً إلى الشمال . ثورة البشكنس والقوط . استيلاء الفرنج على المواقع الإسلامية فى سبتمانيا . اضطراب أمر الخلافة فى المشرق . سخط الزعماء على يوسف والصميل . عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس . محاولته الخروج ومصرعه . الثورة فى إشبيلية وسحقها . ثورة عروة بن الوليد فى باجة . استيلاؤه على إشبيلية . هزيمته ومصرعه . ثورة المضرية واليمنية بقيادة عامر العبدرى . فراره إلى الشمال وتحالفه مع الحباب الزهرى وتميم الفهرى . محاصرة الثوار للصميل فى سرقسطة . هزيمة الصميل واستيلاء الثوار على سرقسطة . إدعاء عامر لولاية الأندلس . ولاية الصميل لطليطلة . مسير يوسف إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . أسر زعماء الثورة ومصرعهم . اجتماع يوسف والصميل فى طليطلة . الإخطار بمقدم عبد الرحمن الأموى . مسيرهما إلى قرطبة . بين ملك الفرنج وأنزيموند أمير القوط يحاصران أربونة . القتال بين بين وأمير أكوتين . مصرع أنزيموند . خيانة النصارى فى أربونة . سقوطها فى يد الفرنج . انتهاء سيادة الإسلام فيما وراء البرنيه . نصارى الشمال . امتناعهم بهضاب جليقية . إغاراتهم على الأراضى الإسلامية . نمو المملكة النصرانية .

ويجب أن نقف قليلا عند شخصية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى هذا ، الذى اختارته « الجماعة » والياً للأندلس ، واستقل بولايتها زهاء عشرة أعوام ، وكان آخر هذا الثبت من أمرائها ، وعلى يده انتقلت إلى عهد جديد ، ودولة جديدة . فمعظم الروايات على أنه ولد عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى فاتح إفريقية . ويؤيد هذا القول من مؤرخى الأندلس ابن القوطية ، وابن حزم ، والرازى ، وابن الفرضى . ولكن ابن حيان يرتاب فى هذه النسبة ويقول لنا إنه لم يقف على ما يؤيد بنوة يوسف لعبد الرحمن بن حبيب ، أو صلته بهذا الفرع[1]. بيد أن اتفاق معظم مؤرخى الأندلس ، ولا سيما المتقدمين منهم

(١) نقل ابن الأبار فى الحلة السيراء أقوال ابن القوطية وابن حيان وابن حزم فى هذه النقطة – الحلة السيراء ص ٥٣ و ٥٤ – وراجع أقوال ابن الفرضى والرازى فى نفح الطيب ج ٢ =

على صحة هذه النسبة يجعلها فى نظرنا أقوى وأرجح . وإذن فيوسف بن عبد الرحمن خاتمة ولاة الأندلس هو ولد عبد الرحمن بن حبيب ، الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم خلال الحروب الأهلية ، التى اضطرمت منذ قدوم بلْج القشيرى إلى شبه الجزيرة . وقد أسلفنا أنه فر إلى تونس اتقاء لنقمة أبى الخطار ، وهنالك لبث يرقب الحوادث مدى حين ، فلما جاءت الأخبار إلى إفريقية بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦) ، رأى عبد الرحمن الفرصة سانحة للعمل ، فدعا أنصاره وحشد جموعه لقتال حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، وزحف على القيروان ، وخشى حنظلة عاقبة الفتنة ، فانسحب مع أصحابه إلى الشام دون قتال ، ودخل عبد الرحمن القيروان (سنة ١٢٧ هـ) وأعلن ولايته لإفريقية ، وأيدته المضرية ، وبعث إلى الثغور عمالا من أقاربه وأنصاره . ولم يختر يزيد بن الوليد ، الذى ولى الخلافة عقب مقتل أبيه ، والياً لإفريقية نزولا على حكم الواقع . فلما خلفه مروان بن محمد بعد ذلك بأشهر ، كاتبه عبد الرحمن وهاداه وأظهر له الطاعة فأقره على ولايته[1]. ولبث عبد الرحمن مستقلا بحكم إفريقية أكثر من عشرة أعوام ، وفى عهده وقعت بإفريقية ثورات وقلاقل كثيرة ، فأخمدها جميعاً وغزا صقلية وسردانية . ولما دالت دولة بنى أمية أعلن الطاعة لبنى العباس ، ودعا لهم بإفريقية . ولكنه لم يلبث أن قتل غيلة فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٨ (٧٥٥ م) . وأما ابنه يوسف فقد فر منه مغضباً لأمور نقمها عليه ، ودخل الأندلس يبحث وراء طالعه فى حوادثها ، وكان مثل أبيه فارساً هماماً وخطيباً مفوهاً[2]. فلم يلبث أن ظهر بين أنجاد المضرية وسادتهم ، ولازم الصميل وصادقه حتى عظم نفوذه ، وانتهى بأن ظفر بإمارة الأندلس فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ ، وهو يومئذ فى السابعة والخمسين من عمره .

وكانت مصاير الخلافة الأموية تهتز يومئذ فى يد القدر ، وقد شغلت بما يواجهها من خطر الفناء الداهم عن حوادث الأندلس ، فلم تحاول تدخلا أو اعتراضاً على ما يحدث فى ذلك القطر النائى ، ولم يكن يوسف بحاجة إلى مصادقة أو مراجعة .

= ص ٦١ . ويقر ابن عذارى هذه النسبة أيضاً (البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧) وكذلك صاحب أخبار مجموعة (ص ٢١) .

(١) البلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٣ .

(٢) نفح الطيب (عن الرازى) ج ٢ ص ٦١ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٥ .

وكان المتفق عليه بين اليمنية والمضرية أن يتعاقبا فى الولاية فيمكث يوسف عاماً فقط ثم يُرد الأمر إلى اليمنية(١) . ولكن المضرية وعلى رأسهم الصميل مرجع الزعامة والأمر يومئذ، لم يفكروا بلاريب فى تمكين اليمنية من الرياسة بأى الصور ، وكذلك لا ريب فى أن يوسف بن عبد الرحمن لم يفكر بعد أن ظفر بالإمارة أن ينزل عنها طائعاً مختاراً ، بل بادر منذ البداية إلى استخلاص جميع السلطات لنفسه ، فنزع ولاية ريُّه من يحيى بن حريث الجذامى أحد الزعماء اليمنية ، وكان ينافسه ويعارض إمارته ، فأقطع ريه ثمناً لموافقته . فلما نزعت منه ريه ثار قومه من اليمنية والتفوا حوله . وهنا أيضاً ظهر أبو الخطار الأمير المعزول على مسرح الحوادث ، وكان يقيم كما قدمنا فى باجة ، بغرب الأندلس . فلما علم بتولية يوسف وخروج ابن حريث ، تحرك للعمل ، وفاوضه ابن حريث ولكنهما لم يتفقا ، إذ أصر كل منهما على ترشيح نفسه للإمارة ، بيد أنهما اجتمعا على قتال يوسف ابن عبد الرحمن ، وحشد كل منهما جموعه من الفريق الذى يؤازره ، وزحفا على قرطبة . وحشد يوسف والصميل جموع المضرية ، وبالغ كل فريق فى الأهبة ، والتقيا أخيراً فى شقندة بالقرب من قرطبة (سنة ١٣٠ هـ — ٧٤٧ م) ونشبت بينهما موقعة هائلة تبالغ فى روعتها الرواية الأندلسية ، إذ تقول لنا : « إنه لم يك بالمشرق ولا بالمغرب ، حرب أصدق منها جلاداً ولا أصبر رجالا ، طال صبر بعضهم على بعض إلى أن فنى السلاح ، وتجاذبوا بالشعور ، وتلاطموا بالأيدى ، وكلّ بعضهم عن بعض »(٢) . واستمر القتال حيناً سجالا بين الفريقين ، ثم داهمت المضرية ذات يوم جموع اليمنية على غرة ، فأوقعت بها ، وأسر أبو الخطار وابن حريث وكثير من أصحابهما ، وقتلوا جميعاً بأمر الصميل ، وجردت اليمنية من زعمائها ، واستقر الأمر ليوسف ، ولكنه كان يخشى الصميل ، لأنه كان بنفوذه وكثرة عصبته ، يقبض على ناصية الموقف ، فرأى أن يبعده عن قرطبة ، وأقطعه ولاية سرقسطة وأعمالها ، فسار الصميل إلى سرقسطة واستقل يوسف بالأمر .

ونشط يوسف إلى ضبط النظام ، وإصلاح الشئون فى ظروف صعبة . وكانت السلطة المركزية قد اضمحلت ، وهبت ريح الفتنة من كل صوب .

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٣ .

(٢) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٦١ .

واستقل كثير من العمال بالنواحي ، وتحرك النصارى فى الولايات الشمالية ، وعصف القحط فوق ذلك بالأندلس سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ، واستطال زهاء عامين ، فأجدبت السهول والوديان ، وأمحلت الزراعة ، وفتك الجوع بالمدن والقرى ، وهبطت عندئذ على شواطئ الأندلس عصابات بحرية ناهبة كثيرة من أمم الشمال ، وعاثت فى الشواطىء والثغور والمدن القريبة[1]. ولكن يوسف أبدى فى مغالبة هذه الصعاب والمحن همة فائقة ، فطاف بالأقاليم وعزل الحكام العابثين ، وقمع المظالم والفوضى ما استطاع ، وأصلح الطرق الحربية ، لتكون ممهدة لحملاته حينما اضطر إلى الحرب ، وعدل نظام الضرائب فاقتضى ثلث الدخل من كل ولاية ، ولكنه أمر بمراجعة السجلات القديمة ، واستبعاد الأموات منها ، وكانت الضرائب ما تزال تجبى طبقاً للإحصاء القديم ، فكان فى ذلك إرهاق للسكان ، لأن عددهم تناقص منذ الفتح ، فقرر يوسف أن تجبى الضرائب عن الأحياء فقط ، وأسقطها عمن توفوا ، واكتسب بذلك عطف كثير من النصارى[2]. وأعاد يوسف أيضاً تنظيم الأقاليم الإدارى ، فقسم اسبانيا إلى خمس ولايات كما كانت أيام القوط ، وكما قسمت عند الفتح مع تعديل فى حدودها ، فأصبحت كما يأتى : ولاية الأندلس وهى ولاية « باطقة » Baetica القديمة ، وتقع بين نهر وادى يانة والبحر الأبيض المتوسط ، وأشهر قواعدها قرطبة ، وقرمونة ، وإستجة ، وإشبيلية ، وشَذُونة ، ولَبْلَة ، ومالقة ، وإلبيرة ، وجيّان . وولاية طليطلة ، وهى ولاية قرطاجنة القديمة ، وتمتد من جبال قرطبة فى شمال شرقى ولاية الأندلس حتى نهر دويره (الدورو) ، وجبال وادى الحجارة شمالا ، وأشهر قواعدها طُلَيطلة ، ومرسية ، ولورَقَة ، وأوريولة ، وشاطبة ، ودانية ، ولَقَنت ، وبلنسية ، وشَقُوبية ، ووادى الحجارة ، وقُونْقَة . وولاية ماردة وهى ولاية اوجدانيا أو جلّيقية القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر وادى يانة شرقاً حتى المحيط ، وأشهر قواعدها ماردة ، وباجة ، وأُشبُونة ، وأستُرقه ، وسمُّورة ، وشلمنقة . وولاية سرَقُسطة ، وهى ولاية كانتبريا القديمة ، وتمتد من منابع نهر التَّاجُه شرقاً ، على ضفتى نهر إيبرو حتى

---

(١) إيزيدور الباجى . راجع : Aschbach : ibid,V.I.p. 102 ، وكذا البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨

(٢) Conde : ibid, V.I. p. 121 - Aschbach, quot. Isidorus, ibid.V.I. p. 101

جبال البرنيه وبلاد البشكنس، وأشهر قواعدها سرقسطة،وطرّكونة، وجيرندة، وبرشلونة ، وأرقلة ، ولاردة ، وطُرطُوشة ، ووشقة . ثم ولاية أربونة وهى ولاية الثغر، وتقع شمال شرقى جبال البرنيه حتى البحر، وتشمل مصب نهر الرون ، وأشهر قواعدها أربونة ، ونيمة ، وقرقشونة ، وأجدة ، وبزييه ، وماجلونة(١).

وعنى يوسف بتنظيم الجيش وإصلاحه أشد عناية ، وحشد قوات جديدة ليستطيع قمع الثورة فى الداخل وحماية الحدود الشمالية ، وسير إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده محمد أبى الأسود ، وسليمان بن شهاب ، والحصين العقيلى . وكان النصارى قد انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلى ،وأغاروا على الأراضى الشمالية ، واستولوا على كثير من القلاع والحصون ، ووصلوا فى تقدمهم حتى ضفاف نهر دويره (الدورو) . وثار البشكنس والقوط فيما وراء البرنيه واستدعى أميرهم الكونت آنزيموند ، ملك الفرنج پپين الملقب « بالقصير » لمحاربة المسلمين ، وكان آنزيموند هذا من نبلاء القوط ، فانتهز فرصة اضطراب الحوادث فى اسبانيا ، واستولى على قواعد سبتمانيا المسلمة ، وهى نيمة وأجدة وماجلونة وبزييه وما حولها ، وأنشأ منها مملكة صغيرة ، والتف حوله السكان النصارى ، واستطاع بمؤازرة الزعماء المحليين ، أن يقضى على سلطان المسلمين فى تلك الأنحاء . ولكنه رأى أنه لا يستطيع الاحتفاظ بمملكته الصغيرة ، والعرب على مقربة منه فى أربونة أقوياء يخشى بأسهم ، وكذلك توجس شراً من جاره أمير أكوتين ، إذ كان يطمح إلى ضم هذه الأراضى إلى أملاكه ، فلم ير خيراً من الانضواء تحت لواء ملك الفرنج پپين ، واستدعائه لمعاونته(٢) .

وكان پپين قد خلف أباه كارل مارتل كمحافظ للقصر الفرنجى ، ولكنه لم يلبث أن قبض على مليكه شلدريك الثالث آخر الملوك الميروفنجية ، وزج به إلى ظلام الدير ، وانتزع العرش لنفسه (٧٥١ م) . فلما استدعاه آنزيموند ، استجاب لدعوته ، ورحب بتلك الفرصة ليتم ما بدأه أبوه من إجلاء المسلمين عن غاليس ، وغزا لانجدوك ، وهاجم المواقع الإسلامية مع حليفه آنزيموند ، وفتك بالمسلمين فى تلك الأنحاء (٧٥٣ م) . وقاومته الحاميات الإسلامية أشد مقاومة ، ولكنها لم تثبت طويلا لعزلتها ، وحرمانها من كل معاونة ومدد ، واستولى الفرنج على تلك

---

(١) سبق أن أشرنا إلى تقسيم اسبانيا الإدارى الذى أورده البكرى ، راجع الهامش فى ص ٧٠

(٢) Dom Vissette : ibid, V.I. p. 822

القواعد والمعاقل كلها خلا أربونة ، فإنها لبثت بيد المسلمين أعواماً أخرى . ولم يستطع الجيش الذى سيره يوسف إلى الشمال ، أن يحقق الغاية المنشودة ، بل رد بخسارة فادحة وقتل قائده سليمان بن شهاب ، ونجا الحصين العقيلى وفرسانه بصعوبة[1] . وترك الشمال لمصيره ، واستغرقت الثورات والحروب الداخلية اهتمام يوسف وكل نشاطه وموارده .

ذلك أن الأحقاد والمنافسات القديمة التى هدأت حيناً بتولية يوسف ، عادت فاضطرمت حين استأثر يوسف وحليفه الصميل بكل سلطة وولاية ، وكان المفهوم أن ولاية يوسف لإمارة الأندلس إنما هى حل موقت لحالة طارئة حتى يأتى الأمير الشرعى الذى يختاره الخليفة ، ولكن الخلافة الأموية لقيت مصرعها غير بعيد (١٣٢هـ — ٧٥٠م) ، وتفاقم الاضطراب الذى سرى إلى شئون إفريقية والأندلس قبل ذلك بأعوام ، وأصبح تراث الخلافة الأموية نهباً مباحاً لكل طامع ومتغلب . وكان بالأندلس عدة من الزعماء النابهين ذوى الجاه والعصبية ، ينقمون من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة ، ويرى كل منهم أنه أولى بها وأجدر ، وكان يوسف يعمل من جهة أخرى لتوطيد سلطانه فى ذلك القطر البعيد ، الذى رفعه القدر إلى ولايته ورياسته ، والذى يضارع بضخامته وأهميته ملكاً عظيماً . وكان أقوى أولئك الخصوم والزعماء المنافسين ليوسف ، عبد الرحمن بن علقمة اللخمى حاكم ثغر أربونة الملقب «بفارس الأندلس» تنوبهاً بفائق شجاعته[2] . وكان قد اشترك فى الحرب الأهلية قبل ذلك بأعوام حسبما قدمنا . ثم ارتد بجنده إلى أربونة ، واستعصم بها يرقب الحوادث والفرص . فلما تولى يوسف إمارة الأندلس ، واضطربت شئون الشمال ، أخذ يدبر العدة لعبور البرنيه ومحاربة يوسف ، ولكن لم يلبث أن اغتاله بعض أصحابه وحملوا رأسه إلى يوسف ، وتمت هذه الخيانة بوحى يوسف وتحريضه على الأرجح ، وانهارت تلك المحاولة فى مهدها[3] . وخرج على يوسف فى إشبيلية يوسف بن عمرو بن يزيد الأزرق ، وكثر جمعه وقوى أمره ، فزحف إليه يوسف وقاتله حتى هزمه وقتله . وخرج عليه فى باجة عروة بن الوليد

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٨ . وكذا Conde: ibid, V.I. p. 127 و Aschbach: ibid,V.I. p.102 ويضع صاحب أخبار مجموعة تاريخ هذه الحملة بعد ذلك بنحو عامين ص ٧٦و٧٧ .

(٢) ابن القوطية ص ٤٣ .

(٣) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٩ .

المعروف بالذمّى لتحالفه مع أهل الذمة ، والتف حوله النصارى فضلا عن أنصاره من العرب والبربر ، وسار إلى إشبيلية فاستولى عليها . واتسع نطاق الثورة فى تلك الأنحاء ، فوجه إليه يوسف جيشاً لقتاله فهزمه عروة ، فسار إليه يوسف بنفسه ، ووقعت بينهما معارك شديدة انتهت بهزيمة عروة وأسره ، ثم بقتله مع نفر من أصحابه . بيد أن ثورة أخطر وأوسع نطاقاً كانت تدبر عندئذ فى الشمال لخلع يوسف والصميل وسحق سلطانهما . وكان روح هذه الثورة ومدبرها زعيم مضرى شديد البأس والجاه ، هو عامر بن عمرو بن وهب العبدرى ، وكان عامر عريق الحسب والعصبية ، وافر الجاه والأتباع ، يتزعم مضر ويقودها خلال الحوادث ، وكان صديقاً ليوسف الفهرى قبل ظفره بالإمارة ، يتولى مثله قيادة الجيش ، فلما وُلِّى يوسف نزعها منه ، وكان كباقى الزعماء ينقم من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة واستبدادهما بالشئون . فلما اضطرمت الأندلس بالفتن واتسع نطاق الثورة ، أخذ يدبر وسائل الخروج على يوسف ، وكان يبسط نفوذهُ على الجزيرة الخضراء ، ثم انتقل إلى قرطبة يرقب الحوادث ، وكاتب الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور ، وعرض عليه أن يدعو له بالأندلس ، وأن يحكمها باسمه ، إذا بعث إليه بمرسوم إمارتها . وكان يتودد فوق ذلك إلى اليمانية ، وينعى على يوسف والصميل إسرافهما فى سفك دمائهم يوم شَقُنْدة ، فالتفت حوله اليمنية والمضرية . ولم يكن يوسف يجهل حركاته وتدابيره ، فلما هم بمطاردته والقبض عليه ، فر إلى الشمال فى كثير من أتباعه . وكان ثمة زعيمان قرشيان آخران هما الحباب بن رواحة الزهرى من بنى كلاب ، وتميم بن معبد الفهرى ، قد رفعا لواء الثورة فى ولاية سرقسطة ، فتفاهم معهما عامر وتحالف ، واجتمع إليه جيش كبير من اليمنية والمضرية والبربر ، وزحف عامر والحباب الزهرى على سرقسطة ، حيث كان الصميل ، وضيقا عليه الحصار . فاستغاث الصميل بحليفه يوسف. ولكن يوسف لم يستطع أو لم يُرد إنجاده بغية القضاء على سلطانه[1]. فاضطر الصميل أن يلقى خصومه فى أنصاره وأتباعه القلائل . ونشبت بين الفريقين مدى أشهر معارك عديدة ، انتهت بهزيمة الصميل وانسحابه من سرقسطة فى فل أنصاره ، فدخلها عامر وحليفه ، واستوليا عليها (سنة ١٣٦ هـ — ٧٥٣ م) . وعمت الثورة كورة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨ و ٤٣ .

سرقسطة وما إليها ، ودعا عامر لنفسه بولاية الأندلس ، بمرسوم زعم أنه تلقاه من أبي جعفر المنصور ، وخرج الشمال كله عن قبضة يوسف الفهرى .

أما الصميل فارتد إلى طليطلة التى أسند إليه يوسف ولايتها بدلا من سرقسطة ، وكان يوسف قد أنهكت قواه واستنفدت موارده تلك الحروب والثورات المتوالية ، فاضطر أن يلزم السكينة حيناً . وبسط عامر سلطانه زهاء عامين ، على كورة سرقسطة . وفى أواخر سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) سار يوسف إلى سرقسطة فى جيش كبير ، وحاصرها بشدة حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، ورأوا أن يتقوا مصائب الحصار ، بتسليم عامر وابنه وهب والحباب الزهرى إلى يوسف ، فحملهم يوسف معه فى الأصفاد ، وارتد صوب طليطلة ، ثم أمر بهم فقتلوا أثناء الطريق ، وتخلص يوسف بذلك من آخر الزعماء الخوارج عليه[1] . ولكنه لم يقدر أن خطراً آخر سيأتيه من خارج الجزيرة ، وينذر جميع مشاريعه وتدابيره بالانهيار . ذلك أنه ما كاد يجتمع بصديقه وحليفه الصميل فى ظاهر طليطلة ، حتى أقبل عليه رسول من قرطبة يحمل كتاباً من ولده عبد الرحمن ، خلاصته أن فتى من بنى أمية يدعى عبد الرحمن بن معاوية قد نزل بساحل الأندلس فى ثغر المُنكّب **Almuñecar** ، واجتمع إليه أشياع بنى أمية فى كورة إلبيرة (غرناطة) ، وانتشرت دعوته فى جنوب الأندلس بسرعة . وذاع الخبر فى جيش يوسف فأحدث فيه ذعراً واضطراباً ، وتفرق كثير من جنده . وقيل إن نبأ مقدم الأمير الأموى انتهى إلى يوسف أثناء سيره إلى الشمال ليقاتل نصارى جلّيقية ، بعد أن سحق الثوار فى سرقسطة[2] . وعلى أى حال فقد بادر يوسف والصميل فيمن بقى من الأشياع والجند بالسير إلى قرطبة ، ليدبرا الخطط لرد هذا الخطر الجديد ، وكان ذلك فى أواسط سنة ١٣٨ هـ (أواخر سنة ٧٥٥ م) .

وفى أثناء هذه الفتن والقلاقل المتواصلة ، استولى الفرنج كما قدمنا على جميع القواعد والأراضى الإسلامية فى سبتمانيا ولانجدوك ، وهى التى تكون ولاية الثغر أو رباط الثغر ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة . وكانت

---

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث ، ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٠ و ١٨٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ و ٤٤ ؛ وكذا فى **Dozy: Hist : V. I. p. 184 & 185**

(٢) ابن القوطية ص ٢٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٤ .

أمنع قلاع المسلمين فيما وراء جبال البرنيه ، وقد استطاعت أن ترد غزوات الفرنج أيام كارل مارتل . فلما فقدت أربونة بطلها المدافع عنها أعني عبد الرحمن اللخمي فارس الأندلس ، وسقطت أراضي الثغر كلها في يد النصارى ، زحف پپين ملك الفرنج ومعه حليفه الكونت آنزيموند القوطي أمير سبتمانيا على أربونة ، وطوقها بقوات كثيفة وضرب حولها الحصار الصارم (سنة ٧٥٥ م) . وكانت أربونة في غاية المنعة والحصانة ، فاعتزم المسلمون الدفاع عنها لآخر نسمة ، واضطر پپين خلال الحصار أيضاً ، أن يرتد عنها بقسم من جيشه لمحاربة أمير أكوتين حفيد الدوق أودو ، ورده عن الأراضي الفرنجية ، وترك آنزيموند لمتابعة الحصار . ولكن آنزيموند قتل أثناء ذلك غيلة تحت أسوار أربونة ، فعاد پپين لاستئناف الحصار وهاجم المدينة المحصورة مراراً ، ولكن المسلمين استطاعوا أن يقاوموا الفرنج ، وأن يردوا كل هجماتهم مدى أربعة أعوام ، رغم عزلتهم وانقطاع صلتهم بالأندلس ، وعدم تلقيهم أي مدد من أولي الأمر في قرطبة ، لاشتغالهم بالحرب الأهلية . وكان اتصال المدينة بالبحر يسهل على المسلمين تلقي بعض المؤن ، وتحمل ويلات الحصار . فلما رأى پپين أنه لا يستطيع أخذ المدينة بالحرب لجأ إلى الخديعة والخيانة ، وتفاهم مع أهلها القوط ، وقطع لهم عهوداً مؤكدة أنهم إذا عاونوه على أخذها ، فإنه يترك لهم حرية التمتع بقوانينهم ، ويمنحهم حقوقاً ومزايا كثيرة ، فعمل القوط على إضرام الثورة داخل المدينة ، ثم انقضوا ذات يوم على حراسها المسلمين وقتلوهم وفتحوا أبوابها ، فدخلها الفرنج وفتكوا بسكانها المسلمين إيما فتك ، وخربوا مساجدها ومعاهدها ودورها وذلك في سنة ٧٥٩ م (١٤٢ هـ)(١). وسقطت بذلك آخر المعاقل الإسلامية في غاليس في يد النصارى ، وانهارت سيادة الإسلام فيما وراء جبال البرنيه ، بعد أن استمرت هنالك زهاء نصف قرن ، وعادت قوى النصرانية ، فاحتشدت وراء تلك الآكام تتربص بالإسلام في الأندلس ، بينما كانت قوى الإسلام داخل شبه الجزيرة يمزق بعضها بعضاً .

وحذا نصارى الشمال حذو الفرنج في الاستفادة من تمزق الإسلام بالأندلس ، ونريد بنصارى الشمال تلك البقية الباقية من القوط الذين ارتدوا أمام الفتح الإسلامي

Dom Vissette : ibid., V. I. p. 827 (١)

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الأول

عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن الحكم

١٣٨ — ٢٣٨ هـ : ٧٥٦ — ٨٥٢ م

الفصل الأول

مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

اضمحلال الدولة الأموية إبان فتوتها . عوامل هذا الاضمحلال . السياسة الأموية . ما أثارته وسائلها من السخط . إستغلال الشيعة لهذه العاطفة . إضطرام العصبية والخلافات القومية . خلاف العرب والبربر . خلاف العرب فيما بينهم . وهن دعائم الدولة الأموية . العوامل الخفية التى عملت على تقويضها . الخصومة بين بنى أمية وآل البيت . تقدم الدعوة الشيعية . ظهور الشيعة فى النواحى . أئمة الشيعة بعد الحسين . محمد بن على ولد العباس . أبو مسلم الخراسانى أعظم دعاة الشيعة . إضطرام الدعوة فى خراسان . إستنجاد أميرها نصر بن سيار بالخليفة . غزو أبى مسلم الخراسانى وفرار أميرها . استيلاء أبى مسلم على خراسان وفارس . وفاة إبراهيم الإمام والدعوة لأخيه عبد الله بن محمد . غزو الشيعة العراق . نزول أبى العباس عبد الله بن محمد بالكوفة . من هو السفاح . مسير مروان الثانى لقتال الشيعة . لقاء الأموية والشيعة على ضفاف الزاب . هزيمة مروان . فراره ومصرعه . ذهاب الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

كانت الدولة الأموية دولة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، فى ظلها امتدت الفتوح الإسلامية شرقاً إلى السند وغرباً إلى المحيط الأطلنطى وإسبانيا ، ووصلت الإمبراطورية الإسلامية إلى ذروة ضخامتها وقوتها ، متماسكة الأجزاء ، وثيقة العرى ، موحدة السلطان والإدارة . ولكن الدولة الأموية لم تنعم طويلا بطور فتوتها ومنعتها ووحدتها ، ولم تأت فاتحة القرن الثانى للهجرة حتى كانت هذه الدولة الشامخة التى لم تجز بعد طور الفتوة ، قد هرمت سراعاً وأدركها الانحلال والوهن ، وتصدع صرح وحدتها الباذخ . واختتم ثبت الخلفاء الأقوياء من بنى أمية ، بالوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان (٨٦–٩٩ هـ) ثم بأخيهما هشام . ومنذ عصر هشام بن عبد الملك ، نجد عوامل الانحلال والتفكك ، تعمل عملها فى هذا الصرح العظيم ، فلم يمض طويل حتى اضطرمت الأندلس بالفتن وخرجت من حظيرة الإمبراطورية ، ولم يبق للخلافة عليها سوى سلطة إسمية ، واستقل الزعماء المتغلبون بحكم إفريقية ، بعد أن خرجت أطرافها القصوى عن قبضة الخلافة ، واضطرب سلطان الخلافة فى الولايات الشرقية النائية مثل خراسان وفارس ، وأخذ ملك بنى أمية يهتز فوق بركان مضطرم من الدعوات الخصمية ، التى لبثت قبل

ذلك بنصف قرن تعمل فى الخفاء ، ثم لاح لها أن الفرصة قد آذنت بالانفجار .

ولهذا الانحلال الذى سرى إلى الدولة الأموية ، قبل أن تستكمل أطوار نموها وتوطدها ، أسباب خاصة ، ترجع إلى الظروف التى قامت فيها ، وإلى الآثار الدينية والمعنوية ، التى أثارتها السياسة الأموية فى الجزيرة العربية ، ثم إلى نتائج تلك المعركة الخالدة التى نشبت بين مختلف العناصر والقوى ، التى اشتركت فى بناء الإمبراطورية الإسلامية . فقد استطاع بنو أمية أن ينتزعوا الخلافة والملك ، خلال معركة اعتبرها فريق كبير من الأمة العربية ، خروجاً على آل البيت ذوى الحق الشرعى فى الخلافة ، وبوسائل لم تكن دائماً نزيهة ولا عادلة . وكان لما ارتكبه بنو أمية خلال هذه المعركة من الأحداث المثيرة ، أسوأ وقع فى نفوس الأمة العربية . فقد فتك بنو أمية بآل البيت وشيعتهم أشنع فتك ، وكان مقتل الحسين ابن على فى كربلاء (سنة ٦١ هـ)[١] ، ومقتل عدة من أبنائه وأخوته أشهر حوادث الفتك بآل البيت وأروعها . ومع أن مصرع الحسين وآله ، لم يكن سوى نتيجة للصراع السياسى الذى اضطرم بين آل البيت وبين بنى أمية منذ خلافة على ، فقد كان لهذا الحادث أعظم وقع فى العالم الإسلامى . ولم يمض عامان على تلك المأساة المؤلمة ، حتى أرسل يزيد بن معاوية (سنة ٦٣ هـ) جنده إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، لمعاقبة أهلها على خروجهم عن طاعة بنى أمية ، فاقتحم الجند الأمويون مدينة الرسول ، وعاثوا فيها واستباحوا الحرم المقدسة ، وارتكبوا أشنع صنوف الكبائر والإثم[٢] ، ثم ساروا بعد ذلك إلى مكة فحاصروها ، وضربوا البيت الحرام بالمنجنيق والنار . وكان لهذه الحوادث وأمثالها أثر عميق فى الأمة الإسلامية ، وألفى الشيعة صحب آل البيت ودعاتهم ، فى تلك الأحداث المثيرة ، غذاء للتشهير بالسياسة الأموية وأساليبها ، وأصيبت هيبة الخلافة الأموية من هذه الناحية ، بصدع لم تنهض من بعده ، وذكت عوامل السخط عليها .

---

(١) كان مقتل الحسين بن على فى كربلاء فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، وهو يوم « عاشوراء » الذى اتخذته الخلافة الفاطمية بمصر يوم حزن وأسى ؛ وكانت تقام فى ذلك اليوم بمدينة القاهرة طائفة من المراسم والاحتفالات المؤثرة . (راجع كتابى الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية — الطبعة الثانية — ص ٣٥٤) .

(٢) وتعرف هذه الموقعة الشهيرة بموقعة الحرة أو حرة واقم ، وهى ضاحية المدينة الشرقية ، وقد سبقت الإشارة إليها .

واستغل الشيعة هذه العاطفة لبثّ دعوتهم وتدعيم قضيتهم ، وحشد العناصر الناقمة فى صفوفهم . وكان اضطرام العصبية والخلافات القومية من جهة أخرى ، يعمل عمله لتمزيق روابط هذه الإمبراطورية الشاسعة . ففى إفريقية كانت ثورات البربر القومية ، تستنفد قوى الخلافة ومواردها بلا انقطاع ، وكان الخلاف بين العرب والبربر فى الأندلس ، يهدد مصير الإسلام والخلافة فى ذلك القطر النائى ، ويفت فى عضد الزعماء والقادة ، ويبعث الاضطراب والوهن إلى صفوف الغزاة . وكان العرب أنفسهم قدوة سيئة فى تفرق الرأى والكلمة . فكانت المعركة الخالدة بين مضر وحمير ، وبين مختلف القبائل والبطون ، تمزق أوصال الوحدة العربية ، وتقوض دعائم هذه العصبية القومية ، التى دفعت يوم اتحادها وتماسكها ، سيل الفتوح الإسلامية إلى أقاصى المشرق والمغرب .

كانت الخلافة الأموية تسيطر على دولة عظيمة مترامية الأطراف . ولكن سلطانها الحقيقى كان محدود المدى داخل هذه الإمبراطورية الشاسعة ، وكان فوق ذلك يقوم على دعائم مضطربة . وفى ذلك ما يفسر تلك الظاهرة التى يعرضها سقوط الدولة الأموية . فبينا هى تبدو فى أوج قوتها وفتوحها ، إذ بها تنهار فجأة ، وتبدو فى الحال مظاهر ضعفها وتفككها ، ويبدو ما كان يحيط بسلطانها الشاسع من عوامل مصطنعة ، وما كان يهدده من عوامل الهدم الخفية ، المعنوية والنفسية . وكانت هذه العوامل الخفية فى الواقع أخطر ما يهدد سلطان بنى أمية ، فإن تلك الأحقاد المرة التى أثارتها السياسة الأموية فى نفوس خصومها ، كانت تسرى وتجيش ، وتحيط ملك بنى أمية بسياج خطر من الحفيظة والبغض . وكانت هذه الخصومة الخطرة التى يغذيها ظمأ الانتقام ، هى عماد الدعوة الشيعية التى لبثت تشق طريقها منذ مقتل علىّ ، ثم مقتل بنيه من بعده . ثم تأثلت هذه الخصومة وتوطدت منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة . واستطاع الشيعة أن يظهروا فى النواحى ، ولاسيما فى العراق وخراسان ، وأن يدبروا عدة ثورات محلية خطرة . وقد أخمدت هذه الحركات الأولى فى سيل من الدماء . ولكن القمع كان يذكى النضال ، وإراقة الدم تذكى ظمأ الانتقام . ولم تكن المعركة متكافئة من الوجهة المادية ، فلم يك للشيعة جيوش منظمة أو موارد يعتد بها ، ولكن خطر المعركة كان يجثم فى نواحيها المعنوية . واشتد هذا الخطر حينما ضعف أمر العمال فى

النواحى ، واتسع الأمر على الحكومة المركزية ، وانحل سلطانها فى الأنحاء النائية ، وأضحى عرضة للانتقاض والانهيار .

ولبث دعاة الشيعة زهاء نصف قرن ينظمون دعوتهم ، ويضعون لها الأصول والقواعد ، ويحشدون لها الصحب والأنصار فى سائر النواحى ، وكانت كغيرها من الدعوات السرية الثورية ، تلقى فى الخفاء تأييداً كبيراً . وليس من موضوعنا أن نتحدث عن مبادئ الشيعة ورأيهم فى الإمامة ومساقها[1] . ويكفى أن نقول إن اختلاف الشيعة فيما بينهم ، على حق الإمامة ومساقها فى ولد على ، لم يحل دون إجماعهم على خصومة بنى أمية ، ولا دون استمرار الدعوة الشيعية وتقدمها . وكانت إمامة الشيعة قد انتقلت بعد مقتل الحسين إلى أخيه ، محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية[2]. فلما توفى سنة ٨١ هـ ، قام بها ولده أبو هاشم عبد الله بوصية منه . واستمر أبو هاشم أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان قائماً بأمر الشيعة ، يفدون عليه ويؤدون له الخراج . ثم توفى مسموماً سنة ٩٨ هـ بتحريض سليمان بن عبد الملك فيما يقال ، وأوصى بالإمامة إلى ابن عمه محمد ابن على بن عبدالله بن العباس كبير علماء الشيعة يومئذ . والعباس هو ابن عبدالمطلب عم النبى . وتقدمت الدعوة الشيعية على يد محمد بن على تقدماً كبيراً ، وظفرت فى ذلك الحين بأعظم دعاتها السياسيين ، ونعنى أبا مسلم الخراسانى . وقد كان أبو مسلم شخصية عظيمة ، وكان يتمتع بمقدرة ومواهب فائقة . ولكن الغموض يحيط مع ذلك بأصله ونشأته ، وتختلف الرواية فى أمره اختلافاً كبيراً ، حتى أنها لتختلف فيما إذا كان من الأحرار أو الموالى . فيقول البعض إنه حر ، يرجع إلى أصل فارسى رفيع المنبت ، وإنه ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة ، واسمه الحقيقى إبراهيم بن عثمان بن بشار . ويقول البعض إنه من الموالى ، وأصله من أصبهان ، واسمه إبراهيم . وقيل بل كان عبداً لبكير بن ماهان أحد عمال السند ، وإنه استصحبه إلى مكة فى زيارته لإبراهيم الإمام ، فأعجب إبراهيم بذكائه وفطنته واشتراه منه . وأما تسميته بأبى مسلم ، فيقال إنه سمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ،

---

(١) أ رد ابن خلدون فى مقدمته شرحاً حسناً لمبادئ الشيعة ومساق الإمامة عند مختلف فرقهم (المقدمة ص ١٦٤ — ١٦٨) . ويتناولها الشهرستانى فى « الملل والنحل » بشىء من التفصيل ؛ وكذلك عبد القاهر البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » .

(٢) وهو أخو الحسن والحسين من الأب فقط . ويعرف بابن الحنفية نسبة لأمه خولة بنت جعفر بن قيس المعروف بالحنفية .

واتخذ كنيته أبا مسلم ، وقيل إن إبراهيم الإمام هو الذى سماه بهذا الإسم . ولعل أرجح رواية فى شأن هذا الداعية الكبير أنه كان فتى مغموراً ، ولد بمرو فى أسرة رقيقة الحال ، ونشأ بأصبهان ، واتصل منذ فتوته ببعض نقباء الشيعة فى الكوفة ، فآنسوا فيه ذكاء خارقاً ، وحماسة تضطرم لآل البيت وقضيتهم ، وسار معهم إلى محمد بن على بن عبد الله بمكة ، فأعجب بذكائه وعزمه ، واختاره داعية للشيعة فى خراسان ، موطنه وأصلح ميدان لنشاطه . ولما ظهر أبومسلم وقوى أمره ، وكثر أنصاره ، ادعى أنه من آل البيت من ولد سليط بن عبدالله بن عباس[١] . ولما توفى محمد بن على ، وخلفه فى الإمامة ولده إبراهيم الملقب بالإمام بعهد منه (سنة ١٢٦ هـ) استمر أبو مسلم فى مهمته ، يبث الدعوة ، ويحشد لها الأنصار . وكانت خراسان كما قدمنا أخصب ميدان للدعوة الشيعية لبعدها عن الحكومة المركزية ، وتعاقب الفتن فيها بين المضرية واليمنية . وكان أميرها من قبل بنى أمية نصر بن سيار فى مأزق صعب ، يستنجد عبثاً بحكومة دمشق ، ويشهد تفاقم الحوادث عاجزاً ، وحركة الشيعة تشتد ، وتجتاح خراسان بسرعة . ويروى أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد الخليفة يومئذ ، هذا الشعر الفياض بالنبوءة والنذير يستنجد به ، ويستحثه للدفاع عن عرشه وتراث أسرته :

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا لحينهم نياماً ... فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى ... على الإسلام والعرب السلام[٢]

وكان أبو مسلم رجل الموقف يدير الخطط بقوة وبراعة ، فلم يمض بعيد حتى ألفى الفرصة سانحة للعمل الحاسم ، فاعتزم أمره ووثب فى صحبه على نصر بن سيار

---

(١) راجع فى أصل أبى مسلم وسيرته ، ابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ — ٩٧ ، وابن خلكان ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٤ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٠٠ و ١١٧ — ١٢٠ .

(٢) تروى هذه الأبيات بصورة أخرى . راجع مروج الذهب للمسعودى (بولاق) ج ٢ ص ١٥٩

وقوات بنى أمية وهزمهم فى عدة معارك (سنة ١٢٩ — ١٣٠ هـ) ، واستولى على مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور ، وطرد منها عمال بنى أمية ، وفر نصر بن سيار إلى العراق . وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس ، ورفع فيهما لواء الشيعة الأسود ، ودعا لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على المعروف « بالسفاح » أخى إبراهيم الإمام وخلفه . وكان الخليفة الأموى مروان بن محمد ، قد هاله ما رأى من تغلغل الدعوة الشيعية فى النواحى ، فقبض على إبراهيم الإمام ، وهو يومئذ بإحدى قرى الشام ، وزجه إلى السجن حتى مات (سنة ١٣٢ هـ) ، وزعم أخوه عبد الله أبو العباس وأصحابه ، أنه أوصى إليه بالإمامة من بعده . فدعا له أبو مسلم فى خراسان وفارس حسبما تقدم . ثم سير أبو مسلم جيشاً إلى العراق فلقيه أميرها ابن هبيرة فى قواته ، ووقعت بين الفريقين على ضفاف الفرات معارك شديدة ، هزم فيها ابن هبيرة وفر إلى الشمال . واستولى الشيعة على العراق ، ودعوا لأبى العباس بالخلافة (ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ) ، ونزل أبو العباس عبد الله « السفاح » بالكوفة ، واستقر بها يرقب الحوادث .

وفى ذلك الحين كان مروان بن محمد أو مروان الثانى(١)، الذى ولى الخلافة سنة ١٢٧هـ ، يتأهب للدفاع عن ملك بنى أمية ، الذى تصدع صرحه سراعاً . فحشد جيشاً ضخماً، وسار شرقاً حتى وصل إلى ضفاف نهر الزّاب ، وهو فرع من دجلة يتصل به فى الضفة الشرقية جنوب شرقى الموصل ، وسار للقائه قائد المسوّدة (الشيعة) فى الشمال ، أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدى ، وأمده أبو العباس بجيش آخر بقيادة عمه عبد الله بن على . وبلغت قوات الشيعة كلها زهاء عشرين ألفاً ، وبلغت القوات الأموية زهاء مائة وعشرين ألفاً . ولكن حماسة الشيعة كانت تغنى عن الكثرة ، وكان تعاقب الظفر يذكى عزائمهم ويضاعف قواهم ، وكان الجيش الأموى على ضخامته قد خبت عزائمه ، واختلت صفوفه وغاضت قواه المعنوية . والتقى الفريقان على ضفة الزاب اليسرى ونشبت بينهما معركة شديدة حاسمة ، انتهت بهزيمة الجيش الأموى وتمزيقه ، وذلك فى الحادى عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يناير ٧٥٠ م) ، وغرق فى النهر آلاف من جند الشام ، وعدة من زعمائه وقادته ، واستولى الشيعة على أسلابه ، وفر

---

(١) يعرف مروان بن محمد أيضاً بمروان الجعد ، وحمار الجزيرة ، أو مروان الحمار .

مروان فى فل من صحبه إلى الشام ، فسار فى أثره عبد الله بن على ، وحاصر دمشق واقتحمها فى الخامس من رمضان من نفس العام . وفر مروان إلى فلسطين ثم إلى مصر . فبعث « السفاح » فى أثره جيشاً بقيادة عمه صالح بن على ، فلحق به فى مصر ، وظل يطارده من مكان إلى مكان ، حتى ظفر به فى قرية بوصير على مقربة من الجيزة . وهنالك مزقت البقية الباقية من أنصار بنى أمية ، وقتل مروان آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق ، وأرسل رأسه إلى «السفاح» وذلك فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ (٦ أغسطس سنة ٧٥٠ م) .

وهكذا انهارت دعائم الدولة الأموية بسرعة مدهشة ، وقامت على أنقاضها دولة بنى العباس . ولا ريب أن أكبر الفضل فى تحطيم ذلك الصرح الشامخ ، يرجع إلى جهود تلك الشخصية العظيمة ونعنى أبا مسلم الخراسانى . كان أبومسلم إحدى هذه العبقريات الشاملة ، التى تتفتح فى معترك الإنقلابات الحاسمة ، وتقوم على سواعدها الدول العظيمة . وكانت دعوة الشيعة وإمامة آل البيت مبعث هذا الانقلاب وروحه . ولكن بنى العباس ما كادوا يتبوأون ذلك الملك الباذخ ، حتى غلبت عليهم عصبية الأسرة ، وألفوا فى أبى مسلم منافساً تخشى عواقبه ، وفى الدعوة الشيعية خطراً يجب القضاء عليه . فلم تمض أعوام قلائل حتى قتل أبو مسلم (شعبان سنة ١٣٧ هـ)، قتله أبو جعفر المنصور أخو أبى العباس وخلفه . ثم تتبع زعماء الشيعة وولد على بن أبى طالب بالقبض والمطاردة ، حتى مزق شملهم وسحق دعوتهم . واستخلص بنو العباس تراث بنى أمية لأنفسهم . وقامت تلك الدولة العباسية الزاهرة ، تصل تاريخ الإسلام فى المشرق ، وتسير به إلى عصر جديد من العظمة والبهاء .

الفصل الثانى

بعث الدولة الأموية فى الأندلس

موقف الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . يوسف الفهرى حاكم بأمره . مطاردة بنى العباس لبنى أمية . المذبحة الرائعة . من هو السفاح . نجاة عبد الرحمن بن معاوية . فراره وظروفه المؤثرة . تجوله فى برقة وإفريقية . نجاته من قبضة عبد الرحمن بن حبيب . التجاؤه إلى المغرب الأقصى . إرساله لبدر مولاه إلى الأندلس . مفاوضة بدر للزعماء . سعى أبى عثمان وعبد الله بن خالد لتأييد عبد الرحمن . موقف الصميل بن حاتم . عبور عبد الرحمن إلى الأندلس . توجس يوسف الفهر واختلال جيشه . تقدم الدعوة الأموية . الزعماء المؤيدون لعبد الرحمن . عود يوسف والصميل إلى قرطبة . عرض يوسف على عبد الرحمن وكتابه إليه . رفض عبد الرحمن لهذا العرض . مبايعة ريه وشذونة وإشبيلية لعبد الرحمن . زحفه على قرطبة . خروج يوسف والصميل لملاقاته . لقاء الفريقين فى موقعة المسارة . هزيمة يوسف والصميل . دخول عبد الرحمن قرطبة ومبايعته بالإمارة . الموقف بعد المسارة . مهمة عبد الرحمن الفادحة . معركة الدولة والإمارات المستقلة . الأخطار التى تحيق بالأندلس . الكفاح المستمر .

بينما كانت حوادث هذا الانقلاب الحاسم فى مصاير الإسلام تجرى فى المشرق ، كانت حوادث الأندلس تؤذن بانقلاب عظيم آخر فى مصاير الإسلام فى ذلك القطر النائى . وكانت الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة التى فصلنا أخبارها ، تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تخشى عواقبه ، وتعصف تباعاً بمنعة الإسلام فى الغرب ، وتشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية ، والتوغل فى الأراضى الإسلامية . وكان من عناية القدر أن تولى أمر الأندلس فى ذلك المأزق العصيب ، رجل قوى حازم هو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . ولكن ولاية يوسف لم تكن حلانهائياً للأزمة ، لأنه تولى دون مصادقة شرعية من السلطة العليا ، ولأن منافسيه من الزعماء والخوارج لم يقروا بولايته ، ولم يخلدوا إلى السكينة ، وأخيراً لأن السلطة العليا التى يرجع إليها أمر الأندلس ، ونعنى خلافة دمشق قد انهارت غير بعيد ، وقامت على أنقاضها دولة وخلافة جديدتان . والحقيقة أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى كان حاكماً بأمره فى الأندلس . وكانت الأندلس فى ذلك الحين إمارة أو دولة مستقلة ، يتوقف مصيرها ومصير السلطات فيها على سير الظروف والحوادث . وكان للانقلاب الذى وقع فى المشرق صداه

فى الأندلس ، إذ قام بعض الخوارج على يوسف يدعو لبنى العباس ، طمعاً فى الرياسة على نحو ما بينا ، ولكنه كان صدى ضعيفاً لم يحدث أثره ، واستمر يوسف ثابتاً فى مركزه ، يناهض الخارجين عليه بقوة وعزم . ولاريب أنه كان يحرص على ذلك السلطان الذى ألقى إليه به القدر ، بل لعله كان يعمل لغاية أتم وأبعد ، هى أن يؤسس بالأندلس مملكة مستقلة قوية ، يتبوأ عرشها ، وأسرة ملوكية جديدة من بنيه وعقبه ، يلقى إليها بهذا التراث الباذخ .

على أن حوادث المشرق كانت تتمخض عن عوامل ومفاجآت أخرى. ذلك أن بنى العباس بعد أن ظفروا بملك بنى أمية ومزقوا شمل أسرتهم ، أخذوا فى تتبع من بقى من أمرائهم وزعمائهم ، حتى لا تقوم لفلهم قائمة بعد . وعهد أبو العباس عبد الله « السفاح » ، إلى عمه عبد الله بن على وهو بالشام ، تنظيم هذه المطاردة الدموية[١] . فتتبع وجوه بنى أمية ومواليهم فى كل مكان ، وأمعن فى مطاردتهم وسفك دمائهم ، وقتل منهم جماعه كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم يبق حتى على النساء والأطفال ، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء ، زعم أن أبا العباس قد ندم على ما فرط منه فى حقهم ، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه ، فخدع كثيرون منهم بهذا الوعد ، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يقتل منهم نحو سبعين رجلا أخر . وكانت مأساة هائلة ارتكبت خلالها ضروب مروعة من القسوة ، ومثل بكثير من الضحايا أشنع تمثيل ، وألقيت جثثهم للكلاب ، واستخرجت رفات الخلفاء الأمويين من مثواها وبددت ، ولم تترك جريمة مثيرة ، أو لون من العقاب أو المهانة ، إلا كان فلُّ بنى أمية لها فرائس وضحايا[٢] .

وهنا يسوغ لنا أن نتساءل ، من هو « السفاح » ؟ أهو أبو العباس عبد الله ابن محمد أول خلفاء بنى العباس ؟ أم هو هو عمه عبدالله بن على ؟ هذا ما تختلف

---

(١) وقد أشار أحد الشعراء من دعاة بنى العباس وهو سديف بن ميمون إلى هذه المطاردة فى شعر أنشده بين يدى أبى العباس وفيه يقول :

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

(٢) راجع طرفاً من فظائع هذه المطاردة فى ابن خلدون ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ ؛ وابن الأثير ج ١ ص ١٦١ .

الرواية الإسلامية فى شأنه . ويتفق معظم المؤرخين المسلمين ، مثل الطبرى ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن خلدون[١] على أن « السفاح » إنما هو لقب أبى العباس عبد الله بن محمد أول الخلفاء العباسيين . ويذكر لنا الطبرى وابن الأثير كيف أن أبا العباس ، هو الذى أطلق على نفسه هذا اللقب حينما ألقى خطابه الأول بمسجد الكوفة على أثر مبايعته بالخلافة ، إذ قال للناس فى ختام خطابه : «فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح »[٢]. ولكن هناك روايات أخرى ومنها رواية قديمة هى رواية صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » تذكر لنا أن لقب «السفاح» لم يطلق على أبى العباس ولكنه أطلق على عمه عبد الله بن على[٣]. ولهذه الرواية ظاهر من الوجاهة فيما ارتكبه عبد الله بن على من الفتك الذريع ببنى أمية ، وتتبعهم بالقتل فى سائر الأنحاء دون هوادة . ولكن من الذى يحمل فى الواقع تبعة هذه المطاردة الدموية المروعة ؟ إن الذى أوصى بمطاردة بنى أمية والفتك بهم هو أبو العباس ذاته ، وهو أول من اجتنى ثمار الجريمة ، وتلقى تراث القتلى ، ولم يكن عمه عبد الله بن على سوى منفذ لإرادته وأمره ، وعلى ذلك فهو أحق بأن يحمل ذلك اللقب الذى يتفق مع تبعاته ونتائج سياسته ، وهو لقب يخصه به جمهرة من الثقاة المؤرخين .

ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها ، وشاء القدر أن تفلت بعض فروعها من يد الجناة ، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ فى أرض أخرى . وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وأخوته ، فى قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ؛ وفيها كان مولده قبل ذلك بنحو عشرين عاماً فى سنة ١١٣ من الهجرة (٧٣١ م) ؛ وقيل بل كان مولده بالعليا من أعمال تدمير . وتوفى أبوه معاوية شاباً فى أيام أبيه هشام بن

---

(١) راجع الطبرى ج ٩ ص ١٢٣ ؛ وابن خلكان فى الوفيات ج ١ ص ٣٥٤ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٥ و ١٥٥ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٢٨ و ١٣١ و ١٧٣ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٥٥ .

(٣) راجع « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » ص ٤٨ ؛ وراجع أيضاً كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٤٨ .

عبد الملك فى سنة ١١٨ هـ ، فكفله وأخوته جدهم هشام[١]. ولما انهار صرح الخلافة الأموية ، وأمعن الظافر فى مطاردة بنى أمية ، فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات ، وحل هناك ببعض القرى واختفى بها حيناً يدبر أمره ، ولكن جند المسوّدة ما لبثت أن حلت بتلك الجهة تستقصى آثار بنى أمية ، فبادر عبد الرحمن بالفرار . وتنقل إلينا الرواية على لسانه قصة مؤثرة عن حوادث فراره ، وتصف لنا كيف أدركته خيل المطاردين على ضفة النهر مع أخيه الصبى ، فوثبا إلى النهر واستطاع عبد الرحمن أن يقطعه سباحة إلى الضفة الأخرى ، ولكن الغلام عجز عن قطعه وعاد إلى الضفة الأولى ، حيث وعده المطاردون بالأمان ، ولكنه ما كاد يقع فى أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عينى أخيه ، وقلبه يتفطر روعة وأسى[٢] . ولما أن أمن عبد الرحمن خطر مطارديه ، سار مختفياً إلى الجنوب ، قاصداً إلى المغرب . وتقول لنا الرواية أيضاً ، إن المغرب كان مقصده منذ الساعة الأولى ، وإن نفسه كانت تحدثه بما سيكون له فى الأندلس من شأن ، وإن بنى أمية كانوا قبل مصرعهم ، يهجسون بمثل هذه النبوءة ويرددونها[٣] .

واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر ، ولحق به مولياه بدر وسالم ، أنفذتهما إليه أخته أم الأصبغ بشىء من المال والجوهر ، ثم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله بنى نفزة ، وهم من برابرة طرابلس ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم طويلا يرقب الفرص . والظاهر أن محاولة الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذلك الذهن الجرىء المغامر ، وقد كانت إفريقية فى الواقع منذ ربع قرن مطمح الخوارج والمتغلبين . وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى قد انتزعها لنفسه فى سنة ١٢٧ هـ ، ولما دالت دولة بنى أمية دعا لبنى العباس كما قدمنا ، ولكن الفتى الأموى لم يجد على ما يظهر أية فرصة للعمل فى هذا السبيل . وكان عبد الرحمن ابن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بنى أمية فى إفريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، واعتقل آخرين وصادر أموالهم.

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) أورد هذه الرواية صاحب أخبار مجموعة (ص ٥١ – ٥٣) . وكذلك أوردها ابن حيان مؤرخ الأندلس ونقلها المقرى (نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣) .

(٣) أخبار مجموعة ص ٥١ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢١ .

ولما شعر بظهور عبد الرحمن الأموى حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصى ، وتجول حيناً فى تلك الأنحاء ، ولقى كثيراً من الصعاب والخطوب ، وكان يرى الموت والأسر ينذرانه فى كل خطوة . وأقام حيناً مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس ، كانت له فيما بعد لديه حظوة ، ثم نزل عند قوم من زناتة على شاطىء البحر ، ولحق حيناً بمليلة وغيرها ، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها ، ويرقب فرص العبور إليها .

وفى أواخر سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) لاحت له فرصة العمل ، وقوى أمله ما علمه من اشتداد الخلاف بين المضرية واليمنية ، فبعث بدراً مولاه إلى الأندلس ليسبر غور شئونها ، وليحاول بث دعوته بين أنصار بنى أمية وأهل الشام ، فنزل بدر بساحل إلبيرة (كورة غرناطة) وكانت منزل جند الشام كما أسلفنا ، وفيها تجتمع عصبة بنى أمية . وكانت رياسة الأمويين (أو المروانية) والشاميين يومئذ لزعيمين من موالى بنى أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله ابن خالد . فاجتمع بدر بأبى عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن ، وناشده العمل لنصرته ، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته ، ولاسيما بين اليمنية ، وهم خصوم يوسف الفهرى ومنافسوه[1] . فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة ، وكانت بينه وبين الصميل مودة وصداقة ، ففكر فى التماس عونه فى ذلك المشروع ، وسار إليه مع عبد الله بن خالد فى طليطلة ، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزماً عن سرقسطة وفى نفسه مرارة من يوسف لأنه قصر فى غوثه وإنجاده ، ففاوضاه فى أمر عبد الرحمن وطلبا منه العون والتأييد . ولكن الصميل أبدى تردداً وفتوراً ، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف ، وأن ينزل آمناً فى ظله ، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة[2] . وكان الصميل يحرص فى الواقع على أن تبقى السلطة ليوسف ،

---

(١) يروى لنا ابن حيان قصة اتصال بدر باليمانيين على النحو الآتى : قال لهم ، ما رأيكم فى رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم ، فيقيم أودكم ، ويدركم آمالكم ؛ فقالوا : ومن لنا به فى هذه الديار . فقال بدر : ما أدناه منكم ، وأنا الكفيل لكم به . ثم ذكر لهم خبر عبد الرحمن ومكان وجوده ، وأنه يقدم نفسه إليهم ، فقالوا : فجىء به أهلا ، إنا سراع إلى طاعته ، وأرسلوا بدراً بكتبهم يستدعونه (راجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٤ ؛ وابن القوطية ص ٢٣ .

لأنه مستأثر فى ظله بالنفوذ والسلطان ، ويشاركه فى تدبير الأمر وحكم الأندلس ، فعاد أبو عثمان وزميله إلى إلبيرة ونشطا إلى بث الدعوة فيها ، وحث اليمنية على القيام للأخذ بالثأر ، وبثا عمالها فى أنحاء الأندلس يدعون إلى تأييد عبد الرحمن الأموى . وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة جهزها أبو عثمان ومعه عدة من أنصار الأموية ، وأفضى إليه بنتائج رحلته ، فاستبشر عبد الرحمن ، وعبر البحر معهم إلى الأندلس ، ونزل بساحل إلبيرة فى ثغر المُنكَّب Almuñecar[١] ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) ، فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه فى طرُّش Torrox ، وهى قرية تقع غربى المنكب على مقربة من البحر ، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خططه[٢] .

وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أثناء ذلك فى الشمال يعسكر بجيشه تحت أسوار سرقسطة ، وقد استعصم بها عامر العبدرى والحباب الزهرى . فلما تم له الأمر بالاستيلاء على سرقسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما على نحو ما فصلنا ، ارتد بجيشه صوب طليطلة . وبينا هو فى الطريق على مقربة منها ، إذ أتاه رسول أوفده على جناح السرعة ولده عبد الرحمن بن يوسف ، الذى استخلفه على قرطبة ، ومعه كتاب ينبئه فيه بمقدم عبد الرحمن الأموى ، وانتشار دعوته فى جنوب الأندلس ، فذعر يوسف ، وذاع النبأ فى الجيش ، فسرى إليه الخلل ، وتسللت العناصر الناقمة ، ولم يبق منه سوى فلول يسيرة . فهرول يوسف فى بقية جنده إلى طليطلة ، ليبحث مع الصميل فى خير الوسائل لرد هذا الخطر .

وكانت الدعوة الأموية فى ذلك الحين قد اجتاحت جنوبى الأندلس ، والتف حول عبد الرحمن عدة من زعماء القبائل والجند ، منهم تمام بن علقمة اللخمى[٣] ، وقد أخذ له بيعة جند فلسطين ، ويوسف بن بخت وقد أخذ له بيعة جند الأردن ، وجدار بن عمرو المذحجى من زعماء ريُّه ، وحسان بن مالك الكلبى من زعماء

---

(١) وما تزال المنكب كما كانت ثغراً من ثغور الأندلس الجنوبية . وهى مدينة كبيرة بيضاء تقع على خليجين متجاورين كقوسين فى البحر ، وتحميها الجبال من الخلف . وربما كان موقعها الحصين من البر والبحر ، هو الذى حدا بعبد الرحمن إلى اختيارها للنزول فى شاطىء الأندلس . فضلا عن قربها لمركز دعوته .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٦ .

(٣) لعله أخ لعبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى أربونة ، المعروف بفارس الأندلس الذى فصلنا أخباره فيما تقدم .

إشبيلية ، وحشد أبو عثمان وعبد الله بن خالد حوله جموعاً كبيرة من الأموية وأهل الشام . وعاد يوسف والصميل إلى قرطبة ليدبرا الأمر معاً ، وأشار الصميل على يوسف بمصانعة عبد الرحمن وملاطفته وإغرائه بمصاهرته ، فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرّش وفداً يعرض عليه أن يزوجه ابنته ، ويقطعه كورة إلبيرة (غرناطه) أو كورة ريه أو يقطعه ما بينهما ، وبعث إليه هدية وشيئاً من المال ، وكتاباً طويلا يرغبه فيه بمحالفته . وينقل إلينا منه صاحب البيان المغرب هذه الفقرة : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمضوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيط . فإن كنت تريد المال وسعة الجناب . فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معي إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته بي ، ألا أغدرك ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره ... » . ولكن عبد الرحمن لم يخدع بوعود يوسف وعهده ، فأبى عرضه ورد رسله ، وكان يسمو بأطماعه إلى أبعد من ذلك وأرفع ، وكان سلطان الأندلس كلها مطمح آماله[1] . وكان قد آنس عندئذ ذيوع دعوته وقوة أنصاره ، فسار في صحبه من طرّش إلى ريُّه ، فبايعه عاملها عيسى بن مساور ، ثم إلى شذونة فبايعه عاملها علقمة بن غيات اللخمي ، ثم إلى إشبيليه ، فبايعه كبيرها أبو الصباح بن يحيي اليحصبي زعيم اليمنية ، وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الأنصار والجند ، واجتمع له في إشبيلية زهاء ثلاثة آلاف فارس ، وذاعت دعوته في غربي الأندلس كله ، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب ، من المضرية واليمنية وأهل الشام . ولما رأى أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف سار في قواته صوب قرطبة ، وكان ذلك في فاتحة ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ (أوائل سنة ٧٥٦ م) .

وفي ذلك الحين كان يوسف والصميل قد حشدا جموعهما ، ومعظمها من الفهرية والقيسية ، وكان جند يوسف قد وهن ، وتفرق معظمه خلال الفتن والغزوات المتوالية ، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموي فزادته تفرقاً وضعفاً .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٩ و ٨٠ .

وخرج يوسف بقواته إلى المسارّة فى ظاهر قرطبة من الغرب ، على ضفة نهر الوادى الكبير ، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية ، فى قرية مقابلة تسمى « بلّة نوبة » (ڤليا نويڤا Villanueva)(١) . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة ، وفى اليوم الرابع وهو يوم الخميس تاسع ذى الحجة ، هبط ماء النهر وانحسر فى بعض المواضع ، فتأهب الفريقان للحرب ، ولم تنجح محاولة يوسف فى سبيل عقد الصلح ، وصمم عبد الرحمن على القتال فى اليوم التالى أعنى يوم الجمعة ، وكان يوم الأضحى ، متيمنا فى ذلك بذكرى موقعة مرج راهط الشهيرة ، التى انتصر فيها جده مروان بن الحكم ، على قوات عبد الله ابن الزبير ، التى يقودها الضحاك بن قيس الفهرى ، وذلك فى يوم الأضحى — وقد كان الجمعة أيضاً — سنة ٦٤ هـ . وفى اليوم التالى دفع عبد الرحمن قواته لاقتحام النهر ، وكان أول من اقتحمه منهم جند بنى أمية ، وكان يوسف يتفوق على خصومه بكثرة فرسانه ، ولكن التفرق كان يسود جنده ، وكانت جموع عبد الرحمن تضطرم على قلتها عزماً وحماسة ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة ، فلم يأت الضحى حتى مزقت خيل يوسف ، وهزم جيشه هزيمة شديدة ، ونهبت أسلابه ، وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية(٢) . وفر يوسف صوب طليطلة ، حيث كان ولده عبد الرحمن ، وفر الصميل صوب جيان . ودخل عبد الرحمن الأموى وصحبه قرطبة دون معارضة ، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة ، وحمى أسر خصومه وحريمهم وأموالهم من العيث ، وصلى الجمعة فى الجامع ، ثم نزل بالقصر ، وبويع فى الحال بالإمارة ، وذلك فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٣ مايو سنة ٧٥٦ م)(٣) .

كان يوم المسارّة بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لاغايته ، فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يفتتح عاصمتها ، وأن ينتزع إمارتها لنفسه ، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد . وكان ثمة بينه وبين مُلْك

---

(١) ابن القوطية ص ٢٦ .

(٢) ويبالغ البعض فى تقدير عدد القتلى فيقدره بسبعين ألفاً (ابن القوطية ص ٢٧) .

(٣) يفرد صاحب أخبار مجموعة فصلا مسهباً لهذه الموقعة ، وكيفية تقسيم الجيشين المتحاربين وأسماء القادة فى كل منها (ص ٨٦ — ٩٠) . وراجع أيضاً ابن القوطية ص ٢٦ — ٢٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ و ٤٩ .

الأندلس الحقيقى مراحل بعيدة ، وكان ملك الأندلس قد غدا منذ انحلال الخلافة الأموية ، كما رأينا ، نهباً مشاعاً يتنازعه الزعماء والمتغلبون ، وكانت الفتن المتوالية قد عصفت بالسلطة العليا ، واقتصت من أطرافها ، واستقل الزعماء الأقوياء بكثير من النواحى ، وقضى يوسف الفهرى معظم ولايته فى إخماد الفتنة ، واستخلاص الرياسة ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد كل عناصر النزاع والخروج. فلما ظهر الفتى الأموى فى الميدان ، كان صرح الأندلس يهتز فوق دعائمه الواهنة ، وكان توطيده يتطلب كثيراً من العزم والعمل القوى .

وكان يوم المسارّة حاسما فى مصاير الأندلس ، وكان فاتحة عهد جديد فى تاريخها . ولكن المهمة كانت فادحة ، والمعركة شاقة مشعبة النواحى. وكما أن يوم المسارة كان فاتحة الظفر ، فقد كان فاتحة الكفاح أيضاً . ذلك أن الأندلس كانت يومئذ بسيطاً من الفتن المتأججة ، وكانت الثورة تجثم فى كل ناحية ، وانحلت عرى العصبية القديمة الشاملة ، وانتثرت فرقاً وشيعاً صغيرة ، فلم تبق الخصومة قاصرة على المضرية واليمنية فقط ، ولكن غدت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة . وكانت هذه القوى المنتثرة المستقلة برأيها وهواها ، تتمسك باستقلالها المحلى ، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة . وكان عبد الرحمن يرمى إلى إحياء دولة الإسلام فى الأندلس موحدة متماسكة ، كما كانت قبل أن تمزقها الحرب الأهلية ، فكانت المعركة فى الواقع معركة الدولة والإمارات المستقلة ، ومعركة السلطة المركزية والإقطاع المحلى : معركة الرياسة الشاملة ، والعصبية المتناثرة . وكان البربر عنصراً قوياً فى الفتنة ، يحتفظون دائماً ببغضهم القديم للعرب ، ويحرصون على ما انتزعوه منهم خلال الفتنة من النواحى والضياع . ثم كان هنالك ما هو أشد خطراً على دولة الإسلام فى الأندلس ، ونعنى اسبانيا النصرانية التى استطاعت أن تخرج سراعاً من غمر الهزيمة والفوضى ، وأن تنتظم إلى مملكة جديدة فى الشمال ، وكذلك مملكة الفرنج القوية التى استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضى الإسلامية فيما وراء البرنيه. وكان نصارى الشمال والفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس ، ويرون فى تفرقها وضعفها فرصة صالحة للعمل ، ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج ، ويمدونهم بالنصح والعون ، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم فى تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها .

كان عبد الرحمن غداة ظفره الأول ، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها ، وكان عليه أن يقارعها جميعاً ، لكي يغنم رياسة الأندلس القوية المتحدة . ولكن ذلك الأمير الفتى الذى لم يكن يجاوز السادسة والعشرين يوم ظفره ، كان رجل الموقف ، قد شحذت من عزمه الخطوب والمحن ، وأعدته لحياة النضال والمغامرة . فقضى بقية عمره — اثنين وثلاثين عاماً — فى كفاح مستمر ، لاينتهى من معركة إلا ليخوض أخرى ، ولايقمع ثورة إلا تليها ثورة ، ولا يسحق خارجاً إلا ليعقبه خارج ، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه ، ولا قبيلة إلا نازعته فى الرياسة ، ولم تبق قوة خفية أو ظاهرة إلا عملت لسحقه . فكانت الأندلس طوال عهده بركاناً يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة . ولكنه صمد لتلك الخطوب كلها ، واستطاع بكثير من الذكاء والإقدام والعزم والجلد ، أن يغالب تلك الأخطار والقوى ، وأن يقبض على مصاير الأندلس بيده القوية ، وأن يحيى سلطان أسرته المندثر ، فى ذلك القطر النائى ، ليستقر ويزدهر أكثر من قرنين . وكان تفرق خصومه أهم عامل فى ظفره ، فلم تك ثمة زعامة شاملة بعد يوسف والصميل ، يجتمع الخصوم حولها ، وكانت القوى الخصيمة منتثرة فى النواحى والمدن ، تعمل كل بمفردها حول زعيمها المحلى ، وكانت فوق ذلك يعارض بعضها بعضاً فى معظم الأحيان . وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف وأن يستغله ، فعمد إلى لقاء معارضيه فى الميدان فرادى ، واستطاع أن يخمد ثوراتهم ، وأن يحطم قواهم بالتعاقب ، وهو فى كل مرة يزداد قوة ومنعة ، ويزداد خصومه ضعفاً وتفرقاً ، حتى قضى عليهم جميعاً .

الفصل الثالث

ولاية عبد الرحمن الداخل

— ١ —

بدء المعارك الداخلية . القتال بين يوسف والصميل وبين عبد الرحمن . إذعانهما إلى طلب الصلح وعودهما إلى قرطبة . فرار يوسف وسجن الصميل . يوسف يستأنف الحرب . هزيمته وفراره . مصرعه فى طليطلة ومقتل ولده عبد الرحمن . فرار ولده محمد إلى طليطلة . هزيمته وأسره . مصرع الصميل . تأملات عن يوسف والصميل . ثورة القاسم بن يوسف فى الجزيرة الخضراء . استيلاؤه على إشبيلية . مهاجمة عبد الرحمن لإشبيلية . هزيمة القاسم وأسره . ثورة عبد الغافر اليمنى فى إشبيلية وإخمادها . استئنافها على يد حيوة بن ملامس . عبد الرحمن يقاتله ويهزمه . ثورة هشام بن عزرة الفهرى بطليطلة وامتناعه بها . ظهور العلاء بن مغيث واضطرام الثورة فى باجة . شهر الدعوة العباسية واتساع نطاق الثورة . مسير عبد الرحمن لمقاتلة العلاء وحلفائه . لقاؤهما فى قرمونة . هزيمة الثوار ومصرعهم . إرسال رؤوسهم إلى إفريقية ومكة . استئناف حصار طليطلة . تسليمها ومصرع زعمائها . ثورة المطرى بلبلة . هزيمته ومقتله . ثورة أبى الصباح فى إشبيلية . إستدراجه إلى قرطبة ومقتله . ظهور الفاطمى البربر ودعوته . ثورته فى غرب الأندلس . هزيمته لقوات عبد الرحمن . مسير عبد الرحمن لقتاله . التجاؤه إلى الجبال . خطة عبد الرحمن لتفريق جموعه . عود الثورة إلى إشبيلية ولبلة . مسير عبد الرحمن لقتال الثوار . تفرق الثوار وهزيمتهم . عود عبد الرحمن لقتال الفاطمى . التجاؤه إلى شنت برية . اغتياله وانهيار دعوته .

وكان أول ما عنى به عبد الرحمن من أدوار ذلك النضال بعد يوم المسارة ، هو أن يتعقب يوسف والصميل أقوى خصومه وأخطرهم . وكان يوسف قد فر عقب الموقعة صوب طليطلة ، وفر الصميل إلى جيان معقل قومه . وحشد يوسف فى طليطلة ونواحيها ما استطاع من أنصاره ، بمعاونة عامله عليها هشام بن عزرة الفهرى ، ووافاه الصميل بمن حشد من المضرية . ثم سارا فى قواتهما إلى جيان ثم إلى إلبيرة (غرناطة) ، واجتمع أهل هذه الأنحاء حول يوسف ، ونزل يوسف بإلبيرة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن . ولكنه ما كان يستقر فى إلبيرة ، حتى بادر عبد الرحمن بالسير إليه ، وترك حماية قرطبة لحليفه وقائده أبى عثمان . ولما علم يوسف بمسيره إليه ، بعث ابنه عبد الرحمن فى بعض قواته إلى قرطبة ، فاقتحمها وأسر أبا عثمان ونفراً من أهل عبد الرحمن وحريمه ، ثم غادرها فى الحال خشية

المفاجأة . ولكن عبد الرحمن الأموى لم يلو فى طريقه على شىء ، وقصد إلى إلبيرة توا ، وحاصر يوسف والصميل . فلما شعرا بأن المقاومة عبث ، فاوضاه فى الصلح والتسليم بالأمر له ، ونبذ كل دعوى فى الولاية والسلطة ، على أن يؤمنهما فى النفس والمال والأهل ، وأن يؤمن حلفاؤهم وأصدقاؤهم جميعاً ، وأن يسمح لهما بسكنى قرطبة تحت رعايته ورقابته ، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح على ذلك ، وعلى أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمداً أبا الأسود رهينة لديه ، يعتقلهما فى قصر قرطبة برفق وإكرام ، حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور ، وتم عقد الصلح بين الفريقين فى صفر سنة ١٣٩ هـ ، وأفرج عن أبى عثمان وباقى الأسرى الذين أسرهم ولد يوسف ، وتصافى الفريقان ، وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن إلى قرطبة ، وانفض جندهما[(١)]. ونزل يوسف بشرقى قرطبة فى قصر الحر الثقفى أحد الولاة السابقين ، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية) ، وأبدى عبد الرحمن نحوهما عطفاً وليناً ، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة ، ويحرص على تجريدهما من كل سلطة وقوة . وكان فى قرطبة فل من عصبة يوسف وأنصاره السابقين ، الذين نالوا على يديه جاهاً وحظوة ، يتطلعون إلى العهد السابق ، ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته ، ويحرضونه على استعادة مركزه وسلطانه ، وكان يوسف من جهة أخرى يشعر أنه فى شبه اعتقال ، وأن عبد الرحمن يضيق الخناق عليه ، ويؤلب عليه صنائعه ، ينازعونه فى أملاكه وأمواله لدى القضاء ، والقضاء يميل إلى غبنه وإعناته ، حتى ذهب معظم أملاكه ، وهو يشعر أن عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد[(٢)]. عندئذ عول على الفرار ، وكاتب أنصاره فى ماردة وطليطلة ، ثم فر إلى ماردة ، وكان بها معظم أهله وأصهاره (سنة ١٤١ هـ) ، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر ، حتى اجتمع له زهاء عشرين ألفاً ، وتخلف الصميل ولم يوافقه ، فقبض عليه عبد الرحمن وألقاه فى غيابة السجن بتهمة التحريض والتآمر . وبينا كان عبد الرحمن يحشد جنوده ، سار يوسف بقواته إلى إشبيلية ، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمروانى ، فحاصره فى إشبيلية حتى أتاه ولده عبد الله بالمدد ، ثم وقعت بينهما معارك شديدة

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وأخبار مجموعة ص ٩٣ و ٩٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) المقرى عن ابن حيان (نفح الطيب ح ٢ ص ٦٦) ، وأخبار مجموعة ص ٩٥ .

قتل فيها كثير من الفريقين ، وارتد يوسف منهزماً بفلوله . وكان عبد الرحمن الأموى يرابط عندئذ بقواته فى حصن المدوّر ، الواقع على مقربة من غربى قرطبة ، على نهر الوادى الكبير ، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره ، فتوقف عن مطاردته ، وسار يوسف إلى طليطلة ، ولبث يتردد فى أنحائها مدى أشهر ، وهو يحاول أن ينظم قواته مرة أخرى ، ولكن بعض الخونة من أنصاره أو مواليه ائتمروا به ، واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة ، وحملوا رأسه إلى عبد الرحمن فى قرطبة (سنة ١٤٢ هـ) . والظاهر أن هذه الجريمة لم تكن بعيدة عن وحى عبد الرحمن . وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة المضطربة ، وأمن عبد الرحمن شره وخطره ، وقتل ابنه عبد الرحمن المعتقل لديه ، ورفع رأسيهما فوق الرماح أمام القصر ليلقى الرعب فى قلوب الخوارج والمخالفين (١). أما ولد يوسف الآخر وهو محمد أبو الأسود ، فقد استطاع أن يفر من سجنه ، وقصد توّاً إلى طليطلة معقل عصبة أبيه وتحصن بها ، فبعث عبد الرحمن فى أثره جيشاً بقيادة تمام بن علقمة وعينه والياً لطليطلة ، فحاصرها حتى سلمت ، وأسر محمد بن يوسف ثانية وجىء به إلى قرطبة ، واستولت جنود عبد الرحمن على طليطلة (ذى الحجة سنة ١٤٢) ، وسحق بذلك وكر الثورة الفهرية . وزج محمد إلى السجن ثانية وادعى العمى حتى استطاع الفرار بعد محنة طويلة ، وعاد يرفع علم الثورة كما سيأتى . واستطاع أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة متنكراً قبل سقوطها . وأما الصميل ، فلبث يرسف فى سجنه مدى أسابيع أخرى حتى دس عليه عبد الرحمن من قتله داخل السجن خنقاً (أواخر سنة ١٤٢ هـ) (٢).

وهكذا انتهت بذهاب يوسف والصميل مرحلة خطيرة من الإضطراب والقلاقل . كان يوسف شخصية قوية وزعيما ممتازاً ، وقد استطاع أن يحكم الأندلس زهاء عشرة أعوام فى ظروف عصيبة ، وأن يسهر على وحدتها وسلامتها بقوة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٠ . ولكن كوندى يورد عن مصرع عبد الرحمن بن يوسف رواية أخرى هى أنه كان عند مقتل أبيه حراً طليقاً ، وقتل فى معركة دموية نشبت بينه وبين جنود تمام بن علقمة والى طليطلة (Conde : ibid., V.I. p. 174) وهى رواية ظاهرة الضعف .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

وذكاء ، وأن يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج ، ولما فقد يوسف رياسة الأندلس فى يوم المسارة ، لبث مع ذلك أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن الأموى وسلطانه ، ولبث روح الثورة والمعارضة مدى أعوام أخرى. وكان الصميل زعيماً قوى العصبية ، نافذ الرأى والكلمة ، وافر الدهاء والمكر ، يخشى بأسه وحيه . فكان ذهابهما من الميدان فوزاً لعبد الرحمن ، وخطوة كبيرة فى سبيل استقرار رياسته وتوطدها .

وقطع عبد الرحمن أعوامه التالية فى كفاح مستمر ، يتلقى وثبات الخوارج عليه من كل صوب. وكان أول الخوارج عليه بعد مصرع يوسف والصميل ، القاسم ابن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغسانى. وكان القاسم حينما فر من طليطلة كما قدمنا ، قد سار إلى الجزيرة الخضراء ، والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه ، وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرتزقة ، واستولى بمعونة حليفه على شذونة ، ثم سارا فى قواتهما إلى إشبيلية ، ولم تكن بها قوة تدافع عنها ، فاستوليا عليها دون مشقة ، فبادر عبد الرحمن الأموى فى قواته إلى إشبيلية ، ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة ، قتل فيها رزق بن النعمان ومزق جنده ، ودخل عبد الرحمن إشبيلية ظافراً ، وذلك فى أواخر سنة ١٤٣ هـ . أما القاسم فالتجأ بقواته إلى شذونة ، وبعث عبد الرحمن فى أثره تماماً والى طليطلة ، فطارده حتى أسره ومزق قواته[١] .

ولبث عبد الرحمن بإشبيلية بضعة أشهر ، ولكنه ما كاد يغادرها إلى قرطبة حتى نشبت فيها ثورة أخرى ، بقيادة عبد الغافر اليمانى زعيم اليمانية ، واستولى عبد الغافر على ما جاور قرطبة من الأنحاء ، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهدد قرطبة . فخرج عبد الرحمن لقتاله ، والتقيا بوادى قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن حلفاء عبد الغافر من البربر وانفض عنه جندهم ، واقتتل الفريقان فهزم عبد الغافر هزيمة شديدة ، وفر إلى لقنت ، وطارد عبد الرحمن جنده حتى قتل منهم ألوفاً عديدة (سنة ١٤٤ هـ) .

ورفع لواء الثورة من بعده فى إشبيلية أيضاً ، حيوة بن ملامس الحضرمى

---

(١) Conde : ibid., V. I. p. 178 ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

كبير زعمائها ، وتغلب على إشبيلية وإستجة وكثير من نواحى الغرب[١] ، والتف حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره . فسار إليه عبد الرحمن ، ونشبت بينهما معارك عنيفة مدى أيام ، ودافع الثوار عن أنفسهم بمنتهى البسالة ، حتى كادت الدائرة تدور على عبد الرحمن ، ولكن التفرق دب أخيراً إلى صفوف الثوار ، ولحقهم الإعياء والملل ، فوقعت عليهم الهزيمة ، وفر زعيمهم حيوة ، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان (سنة ١٤٤ هـ — ٧٦١ م)[٢] .

وعلى أثر ذلك نشبت الثورة فى طليطلة . وكان عبد الرحمن قد اختار لولايتها تمام بن علقمة ، ثم عينه لحجابته فكان أول حجابه ، وخلفه فى ولاية طليطلة حبيب بن عبد الملك . وكانت المدينة ماتزال تضطرم بعناصر الثورة وفيها كثير من أنصار الفهرية ، فلم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عزرة الفهرى ، ولد عزرة أمير الأندلس السابق ، وأعلن الثورة واعتصم بالمدينة . فسار إليه عبد الرحمن وحاصره مدى أشهر ، حتى اضطر إلى طلب الصلح ، وقدم ولده رهينة بحسن طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وآثر أن يهادنه مؤقتاً . ولكنه ما كاد يصل إلى قرطبة حتى عاد هشام إلى الثورة ، فارتد إليه عبد الرحمن ليعاقبه على نكثه ، وحاصره ثانية وقتل ابنه ، وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار ، ولكنه لم يظفر بحمل الثائر على التسليم ، فعاد إلى قرطبة ليضاعف أهباته ، بيد أنه لم يستطع أن يعود تواً إلى طليطلة ، إذ نمى إليه عندئذ خبر حادث داهم الخطر يتطلب كل جهوده وقواه .

ذلك أن داعية من خصوم بنى أمية هو العلاء بن مغيث اليحصبي[٣] ، وكان من وجوه باجة وله بها رياسة وعصبة ، كاتب أبا جعفر المنصور ، واتصل برسله

---

(١) كورة « الغرب » كانت تقع غربى إشبيلية ، حتى جنوبى البرتغال ما بين لبلة وولبة والمحيط ، وقد حرفت فى الإفرنجية إلى كلمة **Algarve** .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣ ، والمقرى ج ٢ ص ٧٣ . ويذكر كوندى أن حيوة من ملامس كان بالعكس صديقاً حميماً لعبد الرحمن ، وبالغ فى الاحتفاء به يوم نزوله بإشبيلية ، وأنه توفى بعد ذلك بقليل فرثاه عبد الرحمن بأبيات مؤثرة **(Conde : ibid., V.I.p. 179)** ، ولكن كوندى يخلط هنا فى الوقائع . والحقيقة أن حيوة بن ملامس كان من أصدقاء عبد الرحمن لأول مقدمه وكانت له لديه منزلة ، وينقل إلينا ابن الأبار بيتين ينسب قولهما إلى عبد الرحمن فى امتداح حيوة وجوده ووفائه (الحلة السيراء ص ٣٣ و ٣٤) . ولكنه غدا بعد من ألد خصومه ومنافسيه . وله أخبار أخرى ستجىء .

(٣) وقيل الحضرمى (أخبار مجموعة ص ١٠٧) . والجذامى (البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣) .

فى إفريقية، واستصدر منه سجلا بولايته للأندلس . ثم ارتد إلى الأندلس، وعاد إلى باجة فى قوة كبيرة ، ودعا لبنى العباس ، ورفع العلم الأسود ، وأعلن أنه قد عين أميراً للأندلس من قبل المنصور[١] (سنة ١٤٦ﻫ) . وكان الخليفة العباسى يحاول بهذه الدعوة ، أن يحطم مشاريع بنى أمية فيما وراء البحر ، وأن يبسط سلطانه الإسمى على الأندلس . وقد رأينا أن عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية ، دعا لبنى العباس حينما انهار سلطان بنى أمية ، وكاتب الخليفة العباسى فأقره على حكم إفريقية ، فكانت إفريقية تابعة لبنى العباس من الوجهة النظرية ، وهكذا كان شأن العلاء بن مغيث، فقد رأى أن يستظل فى ثورته بالدعوة العباسية، لكى يسبغ عليها لوناً من الشرعية ، ولم يكن للخليفة العباسى اعتراض على محاولة لا يتحمل تبعتها من الوجهة المادية ، وإن كان يعضدها من الناحية المعنوية ، وقد أرسل بالفعل سجلا إلى الثائر بما طلب. وكان بعض الزعماء الخوارج على يوسف ابن عبد الرحمن ، قد استظلوا بالدعوة العباسية كما قدمنا . وسنرى كيف يشهر الخوارج على عبد الرحمن الأموى هذه الدعوة فى حوادث وخطوب أخرى[٢] .

واضطرمت باجة وما حولها بنار الثورة ، وهرعت القبائل والأحزاب المختلفة إلى الانضواء تحت اللواء الأسود ، ولاسيما الفهرية واليمنية وجند مصر ، واستفحل أمر العلاء وكثر جمعه ، وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه . وأعلن غياث ابن علقمة الثورة فى شذونة محالفاً للعلاء . فخرج عبد الرحمن من قرطبة فى جميع قواته ، وبعث بدراً مولاه فى بعضها إلى شذونة ، فحاصرها حتى أذعن غياث لطلب الصلح. وسار عبد الرحمن إلى قرمونة ما بين قرطبة وإشبيلية نظراً لمناعتها ، واتخذ موقف الدفاع ، فسار إليه العلاء فى جموعه ، وهاجم قرمونة مراراً ، وحاصرها مدى أسابيع حتى وهنت قوى جنده ، وعندئذ انقلب عبد الرحمن من الدفاع إلى الهجوم ، وداهم العلاء فى صفوة جنده ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى أيام ، حتى هزم العلاء ومزق جنده ، وقتل منهم آلاف عديدة ، وكان العلاء نفسه بين القتلى ؛ وأسر ابن قطن . وجمع عبد الرحمن رؤوس الزعماء والقادة من خصومه ورقمها بأسمائهم . وحملها بعض رسله إلى القيروان ، فألقيت فى أسواقها سراً ، وأثارت هناك دهشة وارتياعاً. ووضعت رأس العلاء فى سفط ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) راجع ابن القوطية ص ٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢١٣ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢

ومعها اللواء الأسود وسجل المنصور للعلاء ، وحمله بعض التجار الثقاة إلى مكة ، حيث كان المنصور يؤدى فريضة الحج فى العام التالى (سنة ١٤٧ هـ) . وألقى أمام سرادق المنصور ، وحمل إليه فارتاع لرؤيته ، وقال ما معناه : « ما فى هذا الشيطان مطمح ، فالحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر »(١) .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يسحق هذه الدعوة الخطرة ، وكان أخطر ما فيها أنها لم تكن دعوة حزب أو قبيلة ، وإنما كانت دعوة عامة تدعمها الصبغة الشرعية ، ولم يك أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن من سائر الأحزاب والقبائل تحت لواء واحد(٢) . ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة كانت الثورة التى يثير ضرامها هشام الفهرى فى طليطلة ، قد استفحلت واتسع نطاقها . فأرسل عبد الرحمن قائديه بدراً وتمام بن علقمة فى جيش كبير إلى طليطلة ، فطوقها وشدد الحصار عليها حتى ضاق أهلها ذرعاً ، واضطروا إلى طلب الصلح ، على أن يسلموا الزعماء الثائرين ، وقبضوا على هشام وعدة من أصحابه ، فأخذوا إلى قرطبة مصفدين معذبين ، ثم صلبوا بأمر عبد الرحمن ، وتم بذلك سحق الثورة فى طليطلة إلى حين (سنة ١٤٧ هـ — ٧٦٤ م) .

وفى أوائل سنة ١٤٩ هـ — ٧٦٦م ، خرج سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى بمدينة لَبْلة ، مطالباً بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء ، فهرعت إليه اليمانية وقوى جمعه . ثم سار إلى إشبيلية فاستولى عليها ، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر المروانى لقلة جنده ، ولبث ينتظر المدد . وكانت إشبيلية مطمح كل ثائر لقربها من قرطبة ، ولأنها لبثت مدى أعوام من أهم مراكز الثورة فى الأندلس . وخرج فى الوقت نفسه غياث بن علقمة اللخمى بمدينة شذونة ناكثاً لعهده . فسار عبد الرحمن أولا إلى إشبيلية ، وانقلب المطرى إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها ، فحاصره عبد الرحمن وقطع علائقه مع بقية أنصاره ، فلما ضاق الثائر بالحصار ذرعاً ، حاول الخروج ليشق له طريقاً بين الحشد المحاصر ، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها المطرى ، وارتدت فلوله إلى القلعة ، وقدموا عليهم خليفة بن مروان ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ ؛ والمقرى ج ١ ص ١٥٦ وج ٢ ص ٦٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٢ و ١٠٣ ؛ وابن القوطية ص ٣٣ .

(٢) Dozy : Hist., V. I. p. 234

فاستمر عبد الرحمن فى محاصرة الخوارج ، حتى أذعنوا لطلب الصلح ، وسلموا إليه قائدهم فقتله ، واستولى على القلعة وهدمها ، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان .

وفى العام التالى عادت الثورة فاضطرمت فى إشبيلية ، ومدبرها وزعيمها فى تلك المرة أبو الصباح بن يحيى اليحصبى ، صديق عبد الرحمن وحليفه ، وكان أبو الصباح زعيم اليمنية فى إشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس ، فكان فى طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته ، وقاتل معه يوم المسارّة ، وغدا إلى جانب أبى عثمان وعبد الله بن خالد ، من خاصة أعوانه وأركان دولته . ولكن عبد الرحمن كان يحقد عليه ويتوجس منه ، لحديث نقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص من عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهرى ورد الأمر إلى اليمنية[١] . وكان عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية ، ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه عن قمع الفتنة ، فغضب أبو الصباح وأظهر الخلاف ، واجتمع إليه أنصاره ، ورأى عبد الرحمن أن يأخذه بالحيلة والملاطفة ، فبعث إليه تمام بن علقمة يدعوه إلى قرطبة للتفاهم ، ويبذل له ما شاء من الوعود ، فسار أبو الصباح إلى قرطبة فى أربعمائة من رجاله ، واستقبله عبد الرحمن بالقصر ، وعاتبه على ما كان منه ، فأغلظ أبو الصباح فى الجواب ، ولامه على النكث بوعوده له ، فأمر الفتيان بقتله ، فقتل طعناً بالخناجر وانفض جمعه (سنة ١٥٠ هـ) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى نشبت فتنة خطيرة من نوع جديد ، شغلت عبد الرحمن مدى الأعوام التالية ، وكان نشوبها فى شمال شرقى الأندلس بين البربر ، وزعيمها ومثير ضرامها ، داعية بربرى خطر يدعى شقنا أو شقيا بن عبد الواحد ، وأصله من بربر مكناسة ، وكان فقيهاً يعلم الصبيان ، فزعم ذات يوم أنه سليل النبى ومن ولد فاطمة والحسين ، وتسمى بعبد الله بن محمد . فذاعت دعوته بين البربر فى تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها . والخصومة بين العرب والبربر قديمة مؤثلة كما بينا ، وقد كان البربر دائماً على قدم الأهبة للثورة ضد العرب . ولما آنس الدعى الفاطمى قوة جمعه ، سار إلى شنت بريّة[٢] . فاستولى عليها وجعلها مركزه

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وابن القوطية ص ٣٠ .

(٢) شنت برية وبالإسبانية **Santaver** من الكور الأندلسية القديمة التى اندثرت ، وكان موقعها يشغل مقاطعة قونقة اليوم ، وقاعدتها شنت برية تقع شرق وادى الحجارة . وسميت كذلك عن اسمها القديم **Santebria** .

العام ، ثم سار فى جموعه غرباً واستولى على ماردة وقورية ومدلين ، وعلى جميع المنطقة الواقعة حولها بين نهرى التاجُه ووادى يانة ، فقويت دعوته وعظم أمره ، واشتد بغيه وعيثه فى تلك الأنحاء ، وأخذت العناصر المخالفة لعبد الرحمن من العرب فى التحرك أيضاً . فعهد عبد الرحمن إلى والى طليطلة أن يقمع ثورة الدعى ، فبعث إلى شنت برية جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان ، فخرج إليه الفاطمى فى قواته ، فهزمه هزيمة شديدة ، وأسر قائده سليمان وقتله ، وزاد هذا الظفر فى سلطانه وبغيه . فسار إليه عبد الرحمن بنفسه فى العام التالى (سنة ١٥٢ هـ) ، واقتحم منطقة الثورة ، ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر ، وامتنع الثائر بالجبال ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا إلى مطاردته . فارتد إلى قرطبة ، وبعث إلى شنت برية مولاه بدراً ليتابع القتال ، فاستمر الفاطمى ممتنعاً بصحبه فى الجبال ، محاذراً لقاء الجيش المهاجم . وعاد عبد الرحمن لقتاله بنفسه فى العام التالى (سنة ١٥٤ هـ) ، وشدد فى محاصرته ومطاردته ، ولكنه لم يفلح أيضاً فى حمله على مغادرة مواقعه ، ثم بعث لقتاله فى العام التالى مولاه عبيد الله بن عثمان ، فخرج الفاطمى للقائه واستمال جنده البربر ، وبث الخلاف إلى صفوفه ، فانحل عسكره وأثخن فيه الفاطمى ، ففر عبيد الله واستولى الثائر على معسكره وأسلاب جيشه ، وقتل جماعة كبيرة من وجهاء جنده (سنة ١٥٥ هـ)(١) .

وهكذا فشلت الحملات المتوالية لإخماد الثورة فى تلك المنطقة الوعرة ، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد إلى شنت برية ، ولكنه لجأ عندئذ إلى وسيلة جديدة لتمزيق شمل الثوار ، فاستقدم إليه كبير البربر فى شرقى الأندلس واسمه هلال الميديونى ، وأقره على ما بيده من الأنحاء ، وأصدر له عهداً بولاية الأنحاء التى غلب عليها الفاطمى ، وفوض إليه أمر استخلاصها منه ، وكان لتلك الحيلة أثرها فى بث الخلاف إلى صفوف البربر ، فانفض عن الفاطمى كثير من أنصاره ، واضطر أن ينسحب من شنت برية إلى الشمال ليعتصم بالجبال مرة أخرى ، وبينا عبد الرحمن يجد فى مطاردته ويقتحم معاقله وضياعه ، وينكل بأنصاره حيثما وجدوا ، إذ بلغه نشوب الثورة فى إشبيلية ولبلة وباجة ، وقوامها اليمنية من عصبة أبى الصباح

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ و ٥٧ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢٢٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ .

وأنصاره . وكان على رأس الثورة فى إشبيلية زعيمها القديم حيوة بن ملامس الحضرمى ، وفى باجة عبد الغافر اليحصبى ، وفى لبلة عمر بن طالوت ، وهما من أبناء عمومة أبى الصباح ، وانضم إليهم كثير من البربر ، فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى قرطبة فى غيبة عبد الرحمن ، وكان قد استخلف عليها مولاه بدراً (١) . فعاد عبد الرحمن إلى قرطبة مسرعاً ، ثم غادرها توآ إلى لقاء الثوار ، فالتقى بهم فى وادى منبس على نهر «بمبزار» أحد فروع الوادى الكبير ، ونشبت بين الفريقين فى المبدأ عدة معارك محلية . ثم لجأ عبد الرحمن إلى الحيلة والخديعة ، فعهد إلى جماعة من وجهاء البربر من جنده ، أن يتصلوا بزملائهم البربر من جند العدو ، وأن يقنعوهم بخطأ تصرفهم فى نصرة اليمنية ، وأنه إذا تغلب عليه العرب ، كانت العاقبة وبالا عليهم أيضاً ، فانسل الرسل إلى معسكر العدو تحت جنح الظلام ، وخاطبوا أبناء جنسهم بما تقدم ، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق . وفى اليوم التالى نشبت بين الفريقين موقعة عامة . فنكث البربر وتقاعدوا عن القتال ، فهزم الثوار شر هزيمة ، وكثر القتل فى جموعهم حتى قتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً (٢) . وهلك معظم الزعماء الثائرين ، وفر عبد الغافر وركب البحر إلى المشرق ، وقرن عبد الرحمن ظفره باجراء دموى آخر ، إذ قبض على ثلاثين من وجهاء إشبيلية ممن كانوا فى جيشه وأمر بهم فأعدموا (سنة ١٥٧ — ١٥٨ هـ) .

وفى العام التالى عاد عبد الرحمن إلى مطاردة الفاطمى ، فالتجأ الثائر إلى الجبال كعادته ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا إلى اللحاق به ، فغزا قورية وأثخن فى تلك الأنحاء ، وكان أمر الفاطمى قد ضعف خلال هذه الأعوام وتضاءل جمعه ، ولكنه لبث يسيطر على شنت برية وماردة ، ولبثت دعوته خطراً يهدد سلام الأندلس . فوجه عبد الرحمن لقتاله فى العام التالى حملة قوية أخرى بقيادة تمام ابن علقمة وعبيد الله بن عثمان ، فلقيهما الفاطمى ووقعت بينهما معارك شديدة ، رجحت فيها كفته ، ثم التجأ إلى حصن شبطران بقرب شنت برية ، فحاصره تمام وعبيد الله مدى أشهر ، ولم يظفروا منه بطائل ، فعادا إلى قرطبة ، وخرج الفاطمى على أثر عودهما إلى شنت برية ، ونزل بقرية من أعمالها تسمى قرية العيون ،

---

(١) ويقول ابن الأثير إنه كان يستخلف عليها ولده سليمان (ج ٦ ص ٣) .

(٢) ابن القوطية ص ٣١ و ٣٢ .

وهنالك ائتمر به اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد ، وانقضا عليه ذات يوم وقتلاه ، واحتزا رأسه وحملاها إلى عبد الرحمن فى قرطبة ، وبذلك انفضت جموعه ، وخبت ثورته ، بعد أن لبثت زهاء عشرة أعوام تحمل الدمار والسفك إلى شرقى الأندلس وغربيها ، وتهدد سلطان عبد الرحمن بشر العواقب ، وحققت الخيانة فى لحظة واحدة ما لم تحققه الحملات والبعوث المتعاقبة فى أعوام طويلة . ولعل هذه الضربة الناجعة لم تكن بعيدة عن أصبع عبد الرحمن أو وحيه ، وقد كانت الخيانة والجريمة من بعض أسلحته فى مقارعة خصومه ، وكانتا تحققان له فى بعض الأحيان من الظفر ما لا تحققه أى الوسائل . وكان مصرع الفاطمى وانتهاء ثورة سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م)[١] .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٧ .

الفصل الرابع

موقعة رونسڤال أو باب شزروا

الثورة فى الشمال . تحالف ابن يقظان والى برشلونة والحسين الأنصارى والى سرقسطة . هزيمة جيش عبد الرحمن وأسر قائده . سعى ابن يقظان لدى ملك الفرنج واستدعاؤه لغزو اسبانيا . تلبية شارلمان للدعوة . اتصال الزعماء الخوارج بالفرنج . سياسة الفرنج فى تشجيع الثورة فى الأندلس . صلة الخلافة العباسية بهذه السياسة . الصراع بين الأندلس والفرنج . اللون الدينى لهذا الصراع . أقوال الروايات اللاتينية فى تأييد هذه الخاصة . مسير شارلمان إلى اسبانيا . اختراقه لنافار وحصاره لبنبلونة . مقاومة البشكنس . سقوط المدينة فى يد الفرنج . مقدم سليمان وتسليمه للرهائن . زحف شارلمان على سرقسطة . مقدم بقية الجيش الفرنجى . تطور الحوادث . تحول الحسين وامتناعه بسرقسطة . فشل شارلمان فى أخذها . اعتقاله لسليمان وارتداده . بواعث هذا الارتداد الفجائى . عود شارلمان إلى مهاجمة بنبلونة وتخريبها . بدء المسير للعود . عيشون ومطروح ولدا سليمان . تحالفهما مع الحسين الأنصار . سيرهما فى قواتهما فى أثر الفرنج . مسير شارلمان إلى البرنيه . أبواب البرنيه . رونسڤال أو باب شزروا . مفاجأة الجيش الفرنجى وفصل مؤخرته . من هم الذين هاجموه . المسلمون أم البشكنس . المسلمون هم الذين دبروا الهجوم . معاونة البشكنس . وصف الرواية اللاتينية للهجوم . تمزيق مؤخرة الجيش الفرنجى . مصرع الفرسان والسادة الفرنج . أنشودة رولان وبعدها عن التاريخ الحق . مكانتها فى أدب الفروسة . لماذا لم ينتقم شارلمان لهزيمته . مقارنة بين الروايتين العربية واللاتينية .

فى ذلك الحين كانت ثمة حوادث هامة أخرى تقع فى شمال الأندلس . وقد تتبعنا ثورة الفاطمى والبربر إلى نهايتها حرصاً على صلة الحديث . ونعود الآن بضع سنين إلى الوراء . فى سنة ١٥٧ ﻫ (٧٧٤ م) ثار سليمان بن يقظان الكلبي (أو الأعرابى) والى برشلونة (أو برشنونة)[١] وجيرونة (جيرندة) ، والحسين ابن يحيي الأنصارى والى سرقسطة ، وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلعه . وكان استمرار الثورة فى الجنوب ، وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها ، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته ، مما يذكى عوامل الثورة فى الولايات الشمالية ، ويشجع مشاريع الزعماء الخوارج . وكان عبد الرحمن يشتغل يومئذ بمقاتلة الفاطمى ، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامى ، فهزمه

---

(١) وهو تعريب مطابق لأصلها اللاتينى **Barcenona**

سليمان وأسره وتفرق جيشه (١٥٨ هـ — ٧٧٥ م) [1]. واستفحل أمر الثورة فى الشمال ، ولكن زعماء الثورة وعلى رأسهم سليمان بن يقظان لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه وروعة انتقامه ، ففكروا فى الاستنصار بملك الفرنج. وسار سليمان (وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابى) مع نفر من صحبه الخوارج ، إلى لقاء شارلمان أو كارل الأكبر فى ربيع سنة ٧٧٧م (١٦٠ هـ) ؛ وكان يومئذ يقيم بلاطه فى مدينة پادربورن من أعمال وستفاليا (شمال غربى ألمانيا) ، ويعقد الجمعية الكبرى ، حيث كانت جموع السكسونيين المغلوبة تعمّد للنصرانية ، بعد أن شتت شارلمان شملهم وفر زعيمهم ڤيد وكنت ؛ فهنا وفد عليه سليمان وصحبه ، وعرض عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن ، واقترح عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية ، وتعهد بمعاونته ، وبأن يسلمه المدن التى يحكمها هو وصحبه من قبل أمير قرطبة ولاسيما سرقسطة ، وأخيراً بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد . وتضيف الرواية اللاتينية إلى ذلك أنه كان مع ابن الأعرابى ولد ليوسف الفهرى حاكم الأندلس السابق جاء ومعه صهره ليسعيا كذلك إلى خلع عبد الرحمن ؛ وتقول الرواية الإسبانية النصرانية ، إن الذى دعا شارلمان إلى غزو اسبانيا هو ألفونسو أمير إمارة ليون النصرانية (جليقية) . ولكن الروايتين العربية والفرنجية (اللاتينية) كلتاهما صريحة فى أن الدعو جاءت من سليمان بن يقظان (الأعرابى) وحلفائه . والرواية العربية تقول لنا بمنتهى الوضوح ، إن سليمان استدعى قارله (كارل أو شارلمان) ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين ، ووعده بتسليم برشلونة أو سرقسطة [2] . وتوافق الرواية اللاتينية على ذلك ، وتزيد أن سليمان

---

(١) ويقدم إلينا الرازى بعض تفاصيل عن ذلك . فيقول لنا إن سليمان بن يقظان الكلبى (وهو الأعرابى) كان من زعماء سرقسطة ، فلما ولى الثغر بدر مولى عبد الرحمن الداخل نقله إلى قرطبة ، فحرضه البعض على القيام بثأر قومه اليمانية فخرج من قرطبة إلى سرقسطة ودخلها . وخرج لمحاربة ثعلبة بن عبيد سنة أربع وستين ومائة ، ونزل مدينة طرسونة ، ووالى حربه ، واضطرب على باب سرقسطة بمعسكره ، فافترس سليمان بن يقظان غفلته ، وافتراق أهل الجيش ، فهجم عليه وأسر ثعلبة بن عبيد ، وبعث به إلى ملك الفرنج . وأهم مفارقة فى رواية الرازى هو التاريخ المتأخر الذى يقدمه إلينا عن هذه الموقعة ، وذلك حسبما يتضح بعد من سير الحوادث (وقد نقل إلينا هذه الرواية العذرى فى كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٢٥) .

(٢) أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ .

وحلفاءه أعلنوا خضوعهم لملك الفرنج وانضواءهم تحت حمايته[1].

ولبى ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق على عروضهم . وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، عنواناً للثقة والتحالف ، فسجن فى إحدى القلاع الفرنسية . وفى رواية أخرى أنه سلمه إليه عقب مقدمه إلى اسبانيا . وعلى أى حال فقد كان حصول هذا الأسير ، وهو من خاصة عبد الرحمن وأكابر وزرائه فى يد ملك الفرنج ، ضربة لعبد الرحمن ، ورهينة قيمة يمكن استغلالها . وكان سليمان زعيم أولئك الخوارج يعمل مستقلا لنفسه ، ويرمى قبل كل شىء إلى تحطيم سيادة قرطبة ، وإلى الاستقلال بما فى يده تحت حماية ملك الفرنج . ولكن ملك الفرنج كانت له مشاريع أخرى . وكانت السياسة الفرنجية ترمى إلى تعضيد روح الثورة والخلاف فى إسبانيا المسلمة ، ولاسيما منذ انهارت سيادة الإسلام فى جنوبى فرنسا وارتد المسلمون إلى ما وراء البرنيه . وبدأ تطبيق هذه السياسة منذ عهد پپين أبى شارلمان . وكان سليمان بن يقظان زعيم الثورة فى الشمال يتصل بملك الفرنج منذ سنة ٧٦٠ م ، أعنى منذ استيلائه على أربونة واتصال الحدود الفرنجية بحدود اسبانيا المسلمة ، ويسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله . وهكذا بدأت العلائق تنتظم بين الزعماء المسلمين ، الخوارج على حكومة قرطبة ، وبين الفرنج المتربصين بدولة الإسلام فى الأندلس ، فكان الزعماء الخوارج كلما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية ، اتجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم ، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوات ، ويتخذونها ذريعة للتدخل فى شئون اسبانيا المسلمة ، وإذكاء روح التفرق فيها ، وسنرى كيف استطاع ملوك الفرنج تنفيذ هذه السياسة فى فرص عديدة متعاقبة . والظاهر أن الخلافة العباسية فى المشرق لم تكن بعيدة عن تأييد هذه السياسة فى المغرب ، والتوسل بذلك إلى مناوأة بنى أمية الذين استطاعوا أن ينتزعوا هذا القطر النائى من أقطار الخلافة ، ويقيموا فيه دولتهم الذاهبة على دعائم جديدة ، فإن الرواية الفرنجية تحدثنا عن

---

(١) تراجع أقوال الرواية اللاتينية فى مؤلف العلامة الأستاذ پيدال : **Ramón Menendez Pidal: La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Espana-Calpe, Madrid 1959) p. 179 - 180** وهو مؤلف ضخم جامع، وأحدث ما أخرجه العلامة الإسبانى، وهو يتناول حوادث موقعة باب الشزرى بإفاضة شافية وتحليل ممتع . وراجع أيضاً موسوعة بوكيه **Bouquet. Vol. V.** وكذلك **p. 14, 40 & 142** **Reinaud : Invasions des Sarrazins, en France, p. 94**

علائق المنصور وپيپن وتقول لنا ، إن پيپن بعث فى سنة ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد ، ورد المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج وفدوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وقضوا حيناً فى البلاط الفرنجى فى مدينة متز(١). وسار شارلمان ولد پيپن على سياسة أبيه ، فكان بينه وبين الرشيد فيما بعد تلك المكاتبات والسفارات الشهيرة التى فصلتها الرواية الفرنجية أيضاً ، والتى نعود إليها فى مقامها المناسب. وسنرى فيما بعد ، أنه فى الوقت الذى كان فيه يعقد هذا التحالف بين ثوار الشمال وبين ملك الفرنج ، كانت ثمة محاولات تبذل لنشر الدعوة العباسية فى الأندلس حيث نزل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى فى تدمير يدعو للخلافة العباسية على نحو ما نفصل بعد.

وكانت إسبانيا المسلمة تجوز إزاء هذا الخطر الأجنبى الذى يتربص بها ظرفاً من أدق ظروفها، فقد كانت مصايرها تهتز فى يد القدر ، وكان الإسلام يجوز فيها معركة الحياة والموت، بعد أن كان قبل ذلك بحقبة يسيرة يتدفق إلى ماوراء البرنيه بقوة ، ويسود معظم أنحاء فرنسا الجنوبية . وكانت مملكة الفرنج بالعكس قد توطدت دعائمها ، وانتزعت من الإسلام كل معاقله فى فرنسا ، بعد أن لبث مدى حين يزعجها ويهدد وجودها . وبينما اجتمعت كلمة الفرنج بزعامة الأسرة القارلية القوية ، إذا بالإسلام فى اسبانيا تعصف به ريح التفرق من كل صوب وتمزقه شر ممزق ، وإذا بالأندلس تغدو بركاناً من القلاقل والحروب الأهلية . وكان كارل الأكبر (شارلمان) مذ ولى العرش (سنة ٧٦٨ م) يشغل عن التدخل فى اسبانيا المسلمة ، بمحاربة القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء الرين ليرد خطر اعتدائها على مملكته ، وليخضعها إلى سلطانه . وكانت غزوات الأسرة القارلية تتخذ فيما وراء الرين منذ عهد كارل مارتل ، جد كارل الأكبر ، لوناً دينياً عميقاً كالذى تتخذه حروب الفرنج مع العرب فى غاليس . ذلك أن حروب الفرنج فيما وراء الرين كانت تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من خطر الوثنية المتدفق من المشرق ، وكانت حروبهم فى غاليس تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من وثبات الإسلام المتدفق من الجنوب . وكانت الكنيسة روح هذه المعارك توحى بها وتذكيها ، إلى جانب شهوة الظفر والفتح . فلما ظفر الفرنج برد تيار الإسلام إلى ما وراء البرنيه ، واستولوا

---

(١) Reinaud : ibid. p. 89 & 92.

على جميع ثغوره ومعاقله فى فرنسا ، وفترت تلك النزعة الدينية العميقة ، التى جعلت غاليس مدى نصف قرن مسرحاً لصراع العرب والفرنج ، بقيت الأطماع والبواعث السياسية ، تحفز الفرنج إلى قتال الإسلام ومطاردته ، وانتزاع اسبانيا أو على الأقل ولاياتها وثغورها الشمالية من قبضته ، لتكون معقلا لدرء فورانه ووثباته من الجنوب .

وتشير الروايات اللاتينية إلى غايات السياسة الفرنجية من التدخل فى شئون اسبانيا المسلمة ، وتحدثنا عن هذا المزج بين الغايات الدينية والدنيوية . فأما عن الناحية السياسية فإن إجنهارت مؤرخ شارلمان يقول لنا إن الحملة التى نظمها الملك الفرنجى إلى اسبانيا كان يقصد بها مهاجمة قرطبة . وإنه ليبدو من ضخامة الجيش الذى حشده شارلمان ، أن الأمر لم يكن متعلقاً فقط بالاستيلاء على المدن التى وعد سليمان بن يقظان بتسليمها ، وأن شارلمان كان يرمى بالعكس إلى السيطرة على اسبانيا كلها ،أو على الأقل نصفها الشمالى . ويقول لنا «أبَدَال» وهو مؤرخ حملة شارلمان الإسبانية ، إن الأمر لم يكن متعلقاً بغاية دينية قوامها تحطيم دولة «كافرة» ولكن الحملة كانت ترمى إلى غاية سياسية قوامها أن يوضع حد لأخطار الغزوات الإسلامية لفرنسا . ويرى الأستاذ بيدال أن شارلمان لم تكن له غاية دينية خالصة فى أية حملة من حملاته ، وأن الباعث كان دائماً سياسياً ، ولكنه يبطن فى ثنيته الغاية الدينية . ذلك لأن المشكل الوحيد لإخضاع شعب « كافر » هو حمله على اعتناق النصرانية ، وهذا ما وقع بالنسبة لحملات شارلمان ضد « الأقار »(١) ، وضد « السكسونيين » .

ومن ثم فقد كان مسير شارلمان إلى اسبانيا يبطن الغاية الدينية إلى جانب الغاية السياسية ،وهذا ما تؤيده الرواية اللاتينية **Anales Mettenses** ، التى كتبت فى حياة شارلمان ، وفيها «أن كارلوس قد هزته شكاوى النصارى الإسبان الذين نكل بهم المسلمون فسار بجيشه إلى هنالك» . ويضيف الأستاذ بيدال إلى ذلك «انه وإن كان الإسلام يتسم حقاً بالتسامح ، إلا أن النصارى واليهود فى اسبانيا كانوا يعانون ضغطاً وإرهاقاً فى ظل الحكومة الإسلامية ، ومن ثم فقد كان للنصارى المستعربين

---

(١) الأقار أو الأقاريين **Avars** هم مجموعة من القبائل القوية كانت تسكن حوض نهر الدانوب الأوسط . وقد حطمهم شارلمان وانتهى الأمر بتنصيرهم (٧٩١ — ٧٩٥ م) .

أن يستقبلوا شارلمان كمحرر لهم » . وتؤيد هذه النزعة الدينية للحملة ، روايات لاتينية كثيرة أخرى معاصرة ولاحقة . بيد أن أقطع دليل على روح الحملة الدينية هو أن شارلمان قد أبلغ البابا هادريان بأمرها قبل أن يضطلع بها ، وأن البابا بارك عزيمته ووعده بإقامة الصلوات ، لكى يعود ظافراً إلى مملكته(١).

وكان كارل حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو اسبانيا ، قد انتهى من الحرب فى سكسونية ، وهزم القبائل الوثنية الجرمانية ، وأخضع زعيمها القوى «ڤيدوكنت» وألجأه إلى الفرار ، فجاءت الدعوة إليه فى وقت ملائم . وانتظر كارل حتى مضى الشتاء ، ثم سار إلى الجنوب وقضى أعياد الفصح فى أكوتين على مقربة من بوردو . وفى فاتحة ربيع سنة ٧٧٨ م ، جمع قواته المؤلفة من فرنج نوستريا ومن الجرمان واللونبارد وفرق من بريتانيا وأكوتين ، واخترق ولاية أكوتين ، وقرر أن يفتتح الغزوة الإسبانية توا حتى لا يفاجئه الشتاء ، وقسم جيشه الضخم إلى قسمين ، عبر أحدهما جبال البرنيه من الناحية الشرقية ، وعبرها القسم الثانى بقيادة كارل نفسه من الناحية الغربية ، من الطريق الرومانى القديم فوق آكام «چان دى لاپور» الشاهقة التى تشرف على مفاوز رونسڤال الوعرة ، على أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الإيبرو أمام سرقسطة حيث يلتقى شارلمان بحلفائه المسلمين . وكان عبوره لجبال البرنيه من « باب الشزرى » فى شهر أبريل على الأرجح . واخترق شارلمان بلاد البشكنس أو ناڤار الحديثة ، وحاصر عاصمتها بنبلونة ، وهى قلعة الناڤاريين ، واستولى عليها بعد قليل . وقد كان أولئك الناڤاريون دائماً شعبة خاصة من « البشكنس » ، وكانت بنبلونة دائماً مدينة البشكنس منذ أيام سترابون(٢). وقد كان البشكنس دائماً يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط ، وكثيراً ما لجأوا فى سبيل ذلك إلى الخروج والعصيان ، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة ، وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة ، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال ، ولا يودون الخضوع لأية جهة ، لا إلى الفرنج ، ولا إلى مملكة (جليقية) ، ولا إلى إمارة قرطبة الإسلامية . ومن ثم فقد اضطر شارلمان إلى محاصرة بنبلونة وأخذها بالعنف . وهنا تبرز هذه الحقيقة ، وهى

---

(١) راجع : R.M. Pidal : ibid., p. 181, 182, 183 & 184.

(٢) R. M. Pidal : ibid., p. 186

أن شارلمان بغزو بلاد البشكنس ، كان يحارب أمة من النصارى ، وهو فى ذلك لم تكن تحدوه سوى بواعث السياسة والفتح . ولم تكن النزعة الدينية خاصة بارزة فى تلك الغزوة . أما الجيش الفرنجى الذى اخترق شرقى البرنيه ، فقد كان يسير فى منطقة يسيطر عليها الفرنج ، مذ تقلص عنها سلطان المسلمين ، منذ أيام پپين والد شارلمان ، ومن ثم فقد كان يخترق بلاداً صديقة ، يرحب أهلها بمقدمه ، أملا فى عونه وحمايته .

وتقول لنا بعض الروايات اللاتينية(١) إن سليمان بن يقظان (ابن الأعرابى) ، كان يتردد عندئذ بانتظام على بنبلونة ، وإنه وفقاً لتعهداته سلم الرهائن إلى شارلمان ، وإنه قد وفد كذلك على بنبلونة أبو ثور بن قسى حاكم وشقه ، وقدم أخاه وولده رهينة ، وقد بقيت هذه الرهائن فى معسكر شارلمان حتى وقعت النكبة . بيد أنه توجد روايات أخرى مفادها أن الرهائن سلمت فيما بعد ، حين وفود شارلمان على سرقسطة . وعلى أى حال ، فقد سار شارلمان بعد استيلائه على بنبلونة ومعه سليمان إلى سرقسطة(٢) ، وهى معقد المشروع كله حسبما اتفق عليه فى پادربورن ؛ وكان القسم الآخر من الجيش ، قد اخترق فى تلك الآونة منطقة جيرندة (جيرونة) وبرشلونة ، واتجه غرباً إلى سرقسطة حيث انضم إلى القوات التى يقودها شارلمان ، وكان شارلمان ، يعتقد حينما سار إلى سرقسطة أنه سيلقى هناك حلفاءه المسلمين على أهبة لمعاونته وتحقيق رغباته فى الاستيلاء على المدينة الكبرى . ولكن الحوادث كانت تطورت عندئذ ، ودب الخلاف بين الخوارج المسلمين . وكان الحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة حليف سليمان منذ البداية ، وكان عضده فى مشروعه لاستدعاء الفرنج . وبالرغم من أنه لم يذهب إلى پادربورن ، ولا إلى بنبلونة ، فقد كان موافقاً على الحلف الذى عقده سليمان مع شارلمان ، وعلى العهود التى قطعها له . والظاهر أن الحسين نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذى اتشح به إزاء الفرنج ، فنشبت بينهما الخصومة ، أو أنه خشى عاقبة التورط فى حلف الفرنج . فعدل موقفه فى آخر لحظة حينما شعر بمسير الفرنج إلى مدينته والظاهر أيضاً أنه لم يكن فى سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجى ؛ إذ تقول

---

(١) **R. M. Pidal : Ibid., cit. Anales Breves. p. 187**

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

لنا الرواية الإسلامية ، إنه سبق إليها سليمان ، وتحصن بها ، فلما أشرف شارلمان مع حليفه سليمان على سرقسطة ، رفض الحسين أن يستقبله ، وألفى المدينة محصنة متأهبة للدفاع والمقاومة ، فعبر نهر الإيبرو إلى الضفة الأخرى ، وقدم إليه سليمان رهائن عدة من الأعيان والأكابر ، وفى مقدمتهم ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن وكان أسيراً لديه حسبما تقدم . ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لإقناع الحسين بفتح أبواب سرقسطة ، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها ، وردت المدينة المحصورة كل هجماته بشدة(١) ، وعجز سليمان أن يحقق شيئاً من وعوده فى تسليم المدن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة . ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض فى تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها ، وارتاب من جهة أخرى فى نية سليمان وموقفه ، فقبض عليه(٢) ، وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقى فى طريق العودة . وكان ذلك فى شهر يوليه سنة ٧٧٨ م (شوال سنة ١٦١ هـ) .

بيد أن هذه الوقائع ينقصها شىء من الوضوح . ذلك أنه لم تقع بين الفريقين معارك ذات شأن . فهل ارتد ملك الفرنج من تلقاء نفسه ، أم اضطر مرغماً إلى الارتداد لبواعث وأسباب لا نعلمها ؟ .

يقول الأستاذ بيدال « إن الانسحاب لا شك فيه . ولكن فشل حملة الملك الفرنجى لاتفسرها لنا هجمات المحصورين . إذ كيف يرتد هذان الجيشان الفرنجيان اللذان يضمان هذه الجموع من جند بريتانيا ونوستريا وباڤاريا ولومبارديا ؟ وكيف يرتد كارل وهو فى عنفوان قوته بهذه السهولة ؟ كيف يرتد هذا العاهل القوى وجيشه العظيم ما يزال سليما لم يمس ، دون أن يخضع الحسين ، ودون أن يفتتح أواسط إسبانيا ؟ »(٣) .

إن الروايات اللاتينية تحاول أن تلقى الضوء على ذلك الغموض ؛ فيقول لنا «أبدال» السالف الذكر ، إن شارلمان قدر أنه قد يجد نفسه وحيداً فى قلب شعب معاد ، مع صعوبة التموين لجيشه العظيم . بيد أنه يوجد تعليل آخر أقوى وأوضح ، تقدمه إلينا رواية لاتينية أخرى فى نصها الآتى : « إن السكسون المارقين حينما

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٣ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

(٣) R.M. Pidal : Ibid. ; p 188

علموا أن الملك كارلوس فى منطقة سرقسطة، قد شقوا الطاعة ، وخربوا وأحرقوا الأراضى حتى ضفاف الرين . ونمى ذلك إلى كارلوس وهو فى اسبانيا ، فلما وقف عليه عاد مسرعاً إلى فرنسا »(١) . وربما كان فى ذلك خير تفسير لانسحاب شارلمان ، وتركه سرقسطة لمصيرها .

ارتد شارلمان على رأس قواته المجتمعة وفى ركبه سليمان أسيره وعدد من الرهائن وسار شمالا نحو بلاد البشكنس . وكان الناڤاريون فى تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم ، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم التالدة ، خصوصاً وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجى ، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة ، للتعاون فى دفع العدو المشترك ؛ ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بعنف ، ولم تجد بسالة الناڤاريين وحلفائهم المسلمين شيئاً ، فتركوا المدينة ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء ؛ واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية ، وهدم حصونها وأسوارها حتى لاتعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء ، ولكى يمهد لجيشه طريق العود المأمون إلى فرنسا .

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً إلى جبال البرنيه من طريق هضاب رونسڤال المؤدية إلى باب الشزرى . فما الذى حدث عندئذ ؟ تقول الرواية العربية إن شارلمان « لما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن ، هجم مطروح وعيشون إبنا سليمان فى أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة »(٢). وفى هذه الكلمات القليلة تشير الرواية العربية إلى النكبة الهائلة التى أصابت الجيش الفرنجى أمام باب الشزرى والتى تقدم إلينا الروايات اللاتينية اللاحقة تفاصيلها .

والظاهر أيضاً من الرواية العربية أن ولدى سليمان ، حينما قبض شارلمان على أبيهما ، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج ، وجمعا فى الحال قوات أبيهما وأتباعه ، وسارا بجيشهما فى أثر ملك الفرنج يحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره . وكان شارلمان فى ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها متجهاً صوب جبال البرنيه ، ليعبرها كرة أخرى إلى فرنسا ، وكان عبوره من نفس الطريق التى أتى منها ، أعنى من مفاوز رونسڤال . ويقع ممر رونسڤال Roncesvalles ،

---

(١) R. M. Pidal : ibid ; cit. Chronicon Moissiocense ; p. 189

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

الذى يسمى بالعربية « باب شيزروا »[1]، أو باب الشزرى ، فى طرف البرنية الغربى شمال شرقى بنبلونة ، وعلى قيد عشرين كيلومتر منها ، وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنيه من الشمال أو الجنوب . وهى نفس الممرات أو الأبواب التى كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس[2] . وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون حاجزاً منيعاً يفصل بين شبه الجزيرة الإسبانية وبين غاليس ، ولا يتأتى للغزاة ، عبوره إلا خلال هذه الممرات الشهيرة . فى مفاوز رونسفال الوعرة ، وتجاه ممر البرنيه المسمى بهذا الاسم أعنى باب شيزروا ، وقعت المفاجأة الهائلة . ذلك أن الجيش الفرنجى ما كاد يبدأ عبور الجبال ، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته ، وهاجموه بشدة رائعة ، وفصلوا عنه مؤخرته ، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى ، وفيهم سليمان بن يقظان . والرواية العربية صريحة فى أن المسلمين هم الذين دبروا هذا الهجوم الفجائى ، على مؤخرة الجيش الفرنسى ، ولكن بعض الروايات اللاتينية التى تتحدث عن الموقعة ، تقول لنا إن الذين

---

(١) هذه هى تسمية الشريف الإدريسى، وهى مشتقة من الاسم الرومانى القديم **Portus Ciserei** أو **Portus Sizarae**

(٢) يقدم لنا الشريف الإدريسى وصفاً دقيقاً لجبال البرنيه التى تسمى فى الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات كما قدمنا ، وللأبواب الرومانية التى كانت بها فيقول : « وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام ، وهو جبل عال جداً صعب الصعود ، وفيه أربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس . وهذه الأبواب عراض لها مسافات وهى منحرفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذى فى ناحية برشلونة ويسمى « برت جاقة » (چاكا) ؛ والباب الثانى الذى يليه يسمى « برت أشبرة » ؛ والباب الثالث منها يسمى « برت شيزروا » **Roncesvalles** وطوله فى عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلا ؛ والباب الرابع منها يسمى « برت بيونة » . ويتصل بكل برت منها مدن فى الجهتين ، فما يلى برت شيزروا مدينة بنبلونة ؛ والباب المسمى جاقة عليه مدينة جاقة . (راجع نزهة المشتاق للشريف الإدريسى ؛ وكذا وصف الإدريسى لجغرافية الأندلس ص ٦٥ من طبعة **Saavedra**) وظاهر أن كلمة برت تعنى الباب أو الممر ، وأصلها من الإسبانية **Puerta** ، وقد سميت جبال البرنيه بالعربية البرتات نسبة إلى الأبواب والممرات المذكورة . والجغرافية الحديثة لا تختلف كثيراً عما تقدم ، وفيها أن هذه الأبواب والممرات خمسة : (١) ممر بربنيان ، بين برشلونة وأربونة (٢) ممر بوكيردا الموصل إلى شرطانية (٣) الممر بين بنبلونة وسان چان دى بييدبور (ويسميها الإدريسى شنت جوان) وهو باب شيزروا (٤) ممر تولوز (طلوشة) إلى بيونة (٥) ممر چاكا . وكانت هذه الأبواب أو الممرات تستعمل لاختراق الجبال حين الغزو إلى فرنسا ومنها فى طريق العودة .

هاجموا مؤخرة شارلمان حين ارتداده ، هم البشكنس النصارى انتقاماً لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العيث والتخريب . وإليك ما تقوله هذه الرواية : « إن شارلمان عاد من سرقسطة إلى بنبلونة ، وهدم أسوار هذه المدينة من أساسها لكي لا تستطيع الثورة عليه وقرر العودة ، وبدأ بجوز شعب البرنيه . وهنا ، وفي أرفع نقطة هجم البشكنس ، وقد كانوا يكمنون في المؤخرة ، وأوقعوا الخلل في الجيش كله ، فساده أيما اضطراب وجلبة ، وبالرغم من أن الفرنج أبدوا تفوقهم على البشكنس ، سواء في السلاح أو الروح المعنوية ، فقد بقوا هم الأضعف بسبب رداءة الموقع وعدم التكافؤ في وضع المعركة »(١) .

وهنا يحق لنا أن نتساءل إزاء هذا التناقض بين الروايتين ، من هم الذين دبروا هذا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجي ؛ أهم المسلمون وحدهم حسبما تقرر الرواية العربية ، أم هم البشكنس وحدهم حسبما تقرر الرواية الفرنجية ؟ يقول الأستاذ بيدال ، إنه لمن غير المعقول ، بل ومن المستحيل أن يقوم البشكنس وحدهم بمهاجمة مؤخرة جيش عظيم كجيش شارلمان ، والأكثر احتمالا هو أنهم يبحثون عن العون ضد المعتدي الخارجي ، وإنه لكذلك من غير المعقول أن يستطيع إبنا سليمان وحدهما انتزاع الأسرى من الجيش الفرنجي ، وذلك في الأرض المكشوفة ما بين سرقسطة وبنبلونة ، وإنه لا يمكن الاعتقاد بأي حال بأن يسمح جيش شارلمان لنفسه أن يُفاجأ مرتين في أيام قليلة ، وإذاً فلا بد أن البشكنس والمسلمين معاً قد فاجأوه في شعب البرنيه : البشكنس الذين أثارهم تخريب بنبلونة ، والمسلمون الذين يحاولون استنقاذ ابن الأعرابي والرهائن(٢) .

ثم يقول العلامة الإسباني « إنه باستعراض سائر الروايات يبدو أن هناك حقيقة تاريخية ، وهي أن المسلمين تعاونوا مع البشكنس في موقعة باب الشزرى ؛ وأن أنشودة رولان ، وهي مستمدة من أناشيد معاصرة للنكبة ، هي أصح من الرواية اللاتينية Anales Regios » . ونقول نحن إن هذا الاستعراض لمختلف الروايات يدلي بأن المسلين هم الذين دبروا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجي ، وإنه

---

(١) Anales Regios hssta 829; cit. por R.M. Pidal : ibid ; p. 191 8 192

(٢) R. M. Pidal : ibid ; p. 193&194 . وراجع أيضاً Conde : Ibid., V.I. p.201 و Dozy : Hist. V. I. p. 243 & notes . وهل أدل على أن العرب هم الذين مزقوا مؤخرة الفرنج من أنشودة رولان الشهيرة ، التي نتحدث عنها بعد .

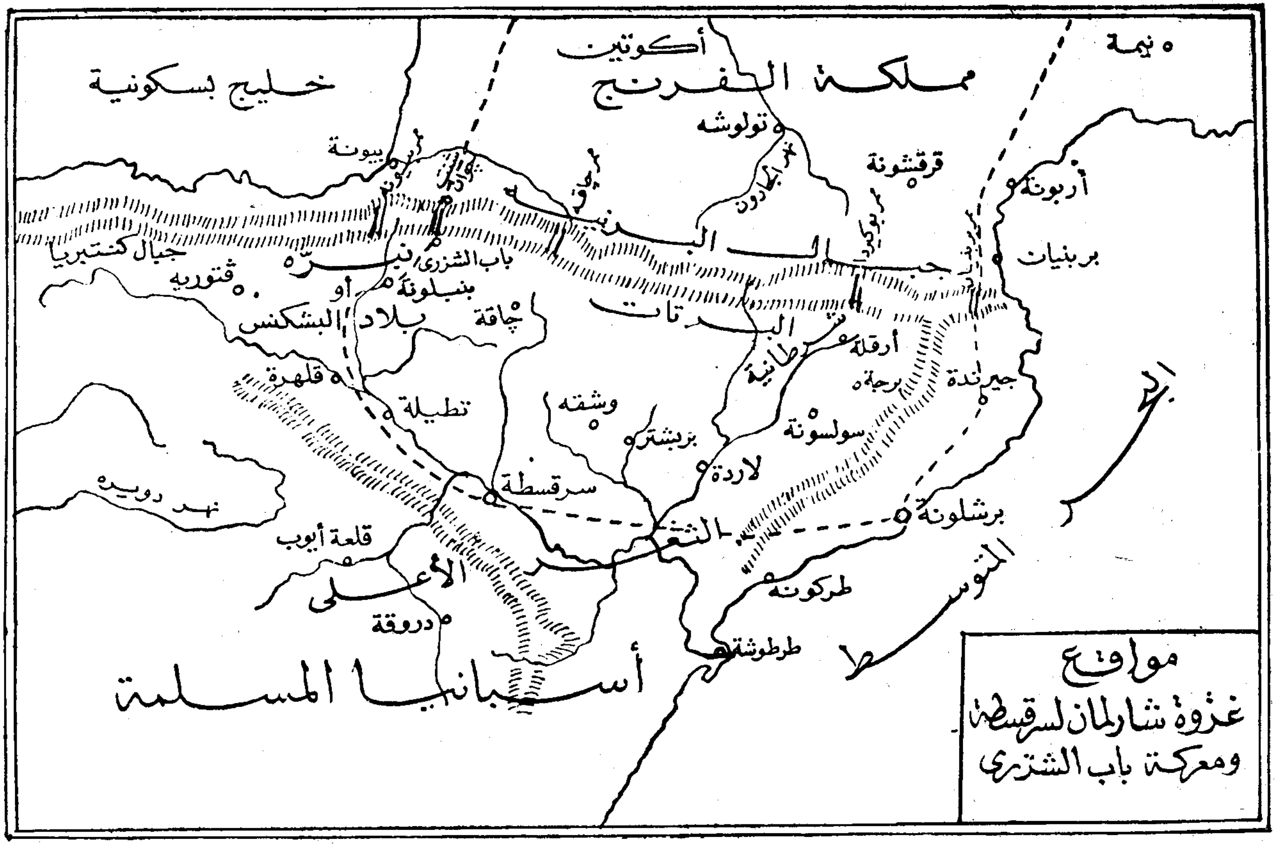

مواقع
غزوة شارلمان لسرقسطة
ومعركة باب الشزري

فيما يرجح قد اشتركت معهم جموع كبيرة من البشكنس فى هذا الهجوم ، وإن مضمون أنشودة رولان حسبما نقدمه بعد ، يؤكد هذا الاستنتاج فى إسناد الدور الرئيسى فى الموقعة إلى المسلمين .

وقد وصفت لنا إحدى هذه الروايات اللاتينية ، تعاون المسلمين والبشكنس فى الهجوم ، وفيها «أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوى الأسلحة الثقيلة وعدد مماثل من المشاة ، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل ، وأن الكمين وقع فى الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد . وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون ولاسيما مطروح وعيشون ولدى ابن الأعرابى ، وكان هذا التحالف ضرورياً ، لأن المسلمين كانوا فى حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد وهو ما يتقنه البشكنس ، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين فى التنظيم العسكرى ، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف التى ارتجت لها سائر إسبانيا »(١) .

وقع هذا الهجوم الفجائى من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجى بمعاونة البشكنس ، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها . ذلك أن الفرنج لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم فى تلك الشعاب الضيقة المنحدرة . وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجى ، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة وفى مقدمتها الخزانة الملكية ، وكذلك الرهائن ، وفى مقدمتهم سليمان ، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق ، وهلك خلال المعمعة الهائلة عدد عظيم من سادة الجيش الفرنجى وفرسانه ، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأى عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة . وكانت نكبة مروعة لبث صداها يتردد مدى عصور فى أمم الغرب والنصرانية .

وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الموقعة فى ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ (ذى القعدة سنة ١٦١ هـ)(٢). وقد رأينا فيما تقدم كيف تقنع الرواية العربية بالإشارة إليها فى

---

(١) Anales Regios, cit. por R. M. Pidal: ibid. p. 197

(٢) ولكن الرواية العربية تقدم تاريخها عن ذلك فتضعها فى سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) وهى رواية ابن الأثير (ج ٦ ص ٥) والمقرى فى نفح الطيب (ج ٢ ص ٧٣) . والظاهر من نص الرواية العربية أنها تنصرف هنا إلى بداية الحوادث لا إلى الموقعة ذاتها ، وقد وقعت فيما بعد ، وهو ما يفسر التباين بين التاريخين . ولا ريب أن الرواية الفرنجية أقرب إلى الصحة والتحقيق لأنها معاصرة قريبة من الحوادث .

عبارات موجزة ، وإن كانت مع إيجازها فى منتهى الدقة ، وكيف أن الرواية اللاتينية الفرنجية والكنسية تفيض بالعكس فى تفاصيلها إفاضة واضحة ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعض هذه الروايات التى اقتبسنا بعض نصوصها ؛ وربما كانت رواية إجنهارت (أينهارت) مؤرخ شارلمان ، عن الموقعة ، هى أدق هذه الروايات وأوثقها ، فقد كتبت فى سنة ٨٢٩ م بعد وفاة شارلمان بقليل ، واعتمد فيها على كثير من أقوال المعاصرين وشهود العيان . وهو يفصل لنا حوادثها ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة ، ومنهم إيجهارد رئيس الخاص ، وأنسلم محافظ القصر ، وهردولاند حاكم القصر البريتانى ، وكثير من الرؤساء ورجال الخاص والحاشية . وهردولاند ، هو رولان **Roland** بطل الأنشودة الشهيرة ، التى نظمت فيها بعد عن هذه الموقعة ، واستمدت من أناشيد معاصرة لها ، والتى ما زالت أثراً خالداً لقريض الفروسية فى العصور الوسطى . بيد أن أنشودة رولان تنحرف فى كثير من مناحيها إلى الأسطورة . وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعاً لقصة حربية حماسية حرفت فيها الوقائع الأصلية أيما تحريف ، ولكنها تستبقى مكان الموقعة ، وبعض أشخاص التاريخ . وقد رأينا أن نورد فيما يلى خلاصة هذه القصة أو الأنشودة الشهيرة :

« غزا شارلمان إسبانيا ، ولبث يحارب فيها سبعة أعوام ، حتى افتتح ثغورها ومدنها ، ما عدا سرقسطة ، وهى معقل الملك العربى مارسيل . وكان يعسكر بجيشه بجوار قرطبة ، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة ، بشرط أن يجلو الفرنج عن إسبانيا ، فعقد شارلمان مجلساً من البارونات ومنهم رولان ابن أخيه . وكان رولان يرى أن تستمر الحرب ، ولكن فريقاً آخر من السادة برآسة جانلون كونت مايانس ، كان يرى الصلح والمهادنة ، فغلب رأى هذا الفريق ، لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال ، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة . فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر ، واتفق معه على الغدر برولان وفريقه . ثم عاد إلى شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج ، وبذا قرر شارلمان الإنسحاب . وتولى رولان قيادة المؤخرة . وكان معه الأمراء الإثنا عشر ، وزهرة الفروسية الفرنجية . ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية رأى أوليفر أحد الأمراء ، جيشاً من العرب ، يبلغ أربعمائة ألف مقاتل .

فتضرع إلى رولان أن ينفخ فى بوقه ليدعو شارلمان إلى نجدته ، فأبى رولان ، وانقض الجيش الهاجم على مؤخرة الفرنج ، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة . واستمر رولان يأبى طلب النجدة حتى مزق جيشه ولم يبق منه سوى ستين رجلا ، وعندئذ نفخ فى بوقه يدعو شارلمان : ثم قتل بقية أصحابه ، ولم يبق سوى رولان وأوليفر واثنين آخرين . ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم ، قرروا الانسحاب . وكان زملاء رولان الثلاثة قد قتلوا ، وأثخن رولان نفسه جراحاً حتى أشرف على الموت . ولكنه استطاع أن ينفخ فى بوقه مرة أخرى قبل أن يموت ، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية ، وسمع شارلمان صوت البوق على بعد مراحل عديدة . فعاد مسرعاً وطارد جيش العدو وسحقه . ودفن الفرنج قتلاهم ، وعوقب جانلون الخائن أروع عقاب . وتوفيت ألده ، خطيبة رولان حينما علمت بموته » .

هذه هى خلاصة القصة التى ترددها أنشودة رولان الشهيرة . وهى أبعد ما يكون عن وقائع التاريخ الحق . بيد أنها تتخذ مادتها من بعض هذه الوقائع ، ومن الذكريات والروايات الشفوية المتناقلة ، والأناشيد الحربية المعاصرة . وهى نورمانية الأصل ، ظهرت لأول مرة فى القرن الحادى عشر ، أعنى بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون ، ودونت أولا فى بعض القصص اللاتينية ، ثم دونت بالنظم فى ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان «أنشودة رولان» **Chanson de Roland** ولبثت تعتبر مدى عصور من أعظم الآثار الأدبية ، ومن روائع القريض الحربى .

وكانت حوادث هذه الموقعة الشهيرة مستقى خصباً لكثير من الكتاب والشعراء ، وكانت بالأخص مستقى لقصص الفروسية والملاحم الحماسية المغرقة ، التى تملأ فراغاً كبيراً فى الأدب الفرنجى فى العصور الوسطى[1] .

ومما يلفت النظر فى حوادث الموقعة أن شارلمان ، لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى ، أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ومقتل فرسانه ، وأن يعود فيطارد تلك العصابات التى تحدته واجترأت عليه سواء من المسلمين أو البشكنس .

---

(١) راجع حوادث هذه الموقعة الشهيرة فى أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ ، وراجع أيضاً **Bouquet ; Vol. V.**
R.M. Pidal : La Chanson de Rolad. Cap. VI. p. 171 — 215;p. 14,26,42.& 208
Hodgkin : Charles the Great p. 141—152 و **Reinaud: ibid ; p. 95, 96** و

وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شيء بخطورة الأنباء التي وصلته عن تحرك السكسونيين ، وهم ألد أعداء الفرنج وأخطرهم ، فارتد أدراجه مسرعاً ليخوض معهم حرباً جديدة استطالت زهاء سبع سنين ، حتى تمت هزيمة زعيمهم ڤتكنت (أو ڤيدوكنت) نهائياً ، وأرغم على التنصير فى سنة ٧٨٥ م[1] .

ولم يبق بيد شارلمان ، بعد استنقاذ المسلمين للرهائن ، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، وقد لبث فترة أخرى معتقلا بفرنسا ، حتى تمت المفاوضة بشأنه ، وأطلق سراحه لقاء فدية كبيرة .

وهكذا اختتمت محاولة شارلمان غزو اسبانيا المسلمة والتدخل فى شئونها ، بنكبته والقضاء على زهرة جنده ، وقد أسبلت هذه النكبة مدى حين سحابة على مجده الحربى . بيد أنها لم تكن كما سنرى آخر محاولة من نوعها لعاهل الفرنج ، فإن السياسة الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة ، ترقب سير الحوادث فى الأندلس لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها .

* * *

ونستطيع بعد أن استعرضنا أدوار هذه الموقعة الشهيرة التي تركت فى عصرها أعظم صدى فى الروايات الفرنجية (اللاتينية) والكنسية المعاصرة واللاحقة ، وبعد أن سجلنا ممهداتها وحوادثها تفصيلا . أن نعود فنلقى نظرة مقارنة على موقف الروايات العربية واللاتينية إزاء الموقعة ، وكيف تعاملها كل منها .

وأول ما يلفت النظر هو حسبما قدمنا ، إيجاز الروايات العربية ، فى الوقت الذى تميل فيه الروايات اللاتينية إلى الإفاضة الواضحة . وقد كان خليقاً بالرواية العربية أن تبسط القول فى حوادث موقعة لها من الخطورة البالغة ما لموقعة « باب الشزرى » خصوصاً وقد كان التفوق فيها للجانب الإسلامى . ولكن الرواية العربية لم تنظر إلى الموقعة إلا من حيث ارتباطها بحوادث الأندلس ، ومن جهة أخرى فإنها لم تكن على علم تام بما يدور فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، فى مملكة الفرنج الشاسعة ، ولم تقف على آثار الصدى الهائل الذى أحدثه تمزيق جيش شارلمان داخل مملكة الفرنج ، وفى سائر الأمم المتصلة بها ، ولاسيما القبائل السكسونية ألد أعداء الفرنج يومئذ .

---

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 199

وثمة فرق واضح آخر بين الروايتين العربية واللاتينية ، هو أن الأولى تنوه بأن شارلمان قاد حملته إلى اسبانيا استجابة لدعوة الخوارج المسلمين ليعمل معهم ضد إمارة قرطبة ، وأن الثانية تنوه بأن حملة شارلمان إنما كانت موجهة إلى إخضاع البشكنس .

ومع ذلك فإن الرواية العربية على إيجازها تقدم إلينا ممهدات الموقعة وعناصرها الأساسية بمنتهى الدقة ، بل إن العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال ، وهو آخر من تناول حوادث هذه الموقعة من النقدة المحدثين بإفاضة ، وبأسلوبه النقدى الرائع ، يقرر لنا أن الرواية العربية هنا ، هى أرقى بكثير من الرواية اللاتينية ، وأنها فيما يتعلق بغزوة شارلمان لإسبانيا ، أبعد من أن تنحدر إلى الغموض والتناقض ، وأنها بالعكس تقدم إلينا بعض أنباء فى منتهى الأهمية والجدارة .

ويدفع الأستاذ پيدال ما يرمى به بعض الباحثين مثل باسيه وغيره ، الرواية العربية من أخطاء وسابقات تاريخية ، ويؤكد بالعكس أنه لاتناقض بين النصوص العربية واللاتينية ، وكل ماهنالك أن كلامنهما يركز اهتمامه فى نقط معينة ، وكلتاهما تتفق مع الأخرى فى الحوادث الرئيسية[١] .

---

(١) R.M. Pidal : ibid., p. 177, 178

الفصل الخامس

ولاية عبد الرحمن الداخل

— ٢ —

عبد الرحمن وحوادث الشمال . ظهور الصقلبى فى شرق الأندلس . استئنافه للدعوة العباسية . تحالفه مع ابن يقظان ثم خلافه معه . مسير عبد الرحمن إلى قتال الصقلبى . التجاؤه إلى بلنسية . مصرعه وانهيار دعوته . ثورات محلية مختلفة . حوادث الشمال . مصرع ابن يقظان . مسير عبد الرحمن إلى سرقسطة وحصارها . خضوع الحسين الأنصارى . عبد الرحمن يغزو نافار وشرطانية . قتله لعيشون ابن سليمان . عود الحسين إلى الثورة . إرسال عبد الرحمن حملة لقتاله . حصار سرقسطة وثبات الحسين . مسير عبد الرحمن إلى قتاله . هزيمته ومصرعه . تفاهم عبد الرحمن مع شارلمان وسعيه إلى مصاهرته . ائتمار الوافدين من الأموية بعبد الرحمن . صرامته فى إخماد هذه المؤامرات . حديث ينسب إليه عنها . فرار محمد بن يوسف الفهرى وثورته فى طليطلة . مسير عبد الرحمن لقتاله . موقعة قسطلونة . هزيمة محمد وفراره . استئنافه للثورة فى قورية . هزيمته ووفاته . أخوه أبو القاسم . خروجه ثم خضوعه . انتهاء الثورة . خاتمة الكفاح الرائع .

بينما كانت هذه الحوادث الخطيرة تجرى فى الشمال ، كان عبد الرحمن الأموى فى الجنوب يكافح الثورة فى مختلف الأنحاء . وكانت ثورة البربر قد شغلته واستنفدت معظم قواه أعواماً متوالية . بيد أنه ما كاد يفرغ من سحقها حتى ظهر فى شرقى الأندلس خطر جديد قوامه الدعوة العباسية . ذلك أن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أحد زعماء الفهرية ، وهو المعروف بالصقلبى نظراً لطوله وشقرته وزرقة عينيه ، عبر البحر من إفريقية إلى الأندلس فى قوة كبيرة ، ونزل بساحل تدمير (مرسية) فى شرق الأندلس ، ودعا للخليفة العباسى (سنة ١٦١ هـ) . ويجب أن نذكر أن عبدالرحمن بن حبيب هذا هو غير سميه عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية الذى فصلنا أخباره من قبل ، فقد قتل هذا المتغلب على إفريقية منذ سنة ١٤٠ هـ ، بعد أن خرج على طاعة بنى العباس[1]. ولا نعرف علاقة الصقلبى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

بيوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وربما كان من أبناء عمومته[١]. بيد أنه كان من زعماء الفهرية وزعماء الثورة على بنى أمية . وكانت حركة الصقلبي فى تدمير ، كحركة العلاء بن مغيث من قبل فى باجة ، ولكنها كانت أشد خطراً ، لأن الصقلبي سعى إلى التفاهم مع زعيم الثورة فى الشمال سليمان بن يقظان وتحالف معه[٢] . والظاهر أن هذا التحالف كان بعد عبور الفرنج إلى إسبانيا وموقعة باب شيزروا . ولكن ابن يقظان لم يف بوعده فى إمداده لقتال عبد الرحمن الأموى ، فغضب منه وسار لقتاله ، فهزمه ابن يقظان فى ظاهر برشلونة . فعاد إلى تدمير ولبث مدى أشهر ينظم قواته وأهبته ، ولكن عبد الرحمن لم ينتظر حتى يهاجمه ، بل سار بنفسه ، وهاجمه بشدة ، وأحرق سفنه الراسية بالساحل ، حتى لا يجد سبيلا إلى الفرار ، فارتد الصقلبي بفلوله إلى جبال بلنسية واستعصم بها ، وهنا لجأ عبد الرحمن إلى سلاح الاغتيال مرة أخرى ، فدس على الصقلبي بعض أصدقائه فاغتاله وحمل رأسه إليه ، وانهارت بذلك دعوته وثورته (سنة ١٦٢ و ١٦٣ هـ : ٧٧٨ — ٧٧٩ م) .

ووقعت بعد ذلك عدة ثورات محلية عنى عبد الرحمن بقمعها قبل أن يسير إلى الشمال ، فقد ثار دحية الغسانى ببعض حصون إلبيرة (غرناطة) ، وكان دحية من أصدقاء عبد الرحمن ومن قادته ، ولكنه نكث بعهده ولحق بالفاطمى ، فلما هلك الفاطمى ، فر إلى إلبيرة وأعلن بها الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إليه جيشاً ضيق عليه الحصار حتى أخذ وقتل . وثار إبراهيم بن شجرة بحصن مورور ،

---

(١) يقول دوزى إنه كان صهراً ليوسف الفهرى متزوجاً بإحدى بناته (ج ١ ص ٢٤٢) ولكنه لم يبين مصدراً لقوله ، ولم نجد فى المراجع العربية ما يؤيده .

(٢) يقدم إلينا دوزى ثورة ابن يقظان وحلفائه وعلاقة الصقلبى به فى صورة أخرى ، فيقول لنا ، إن هذا التحالف كان يضم ابن يقظان والحسين بن يحيى والصقلبى ومحمد بن يوسف الفهرى ، وانهم اتفقوا جميعاً على استدعاء الفرنج إلى اسبانيا ، وساروا جميعاً إلى لقاء شارلمان فى بادربورن ، واتفق على أن يقوم ابن يقظان بمعاونة شارلمان فى غزوته بينما يقوم الصقلبى بحشد البربر فى إفريقية ثم يعبر بهم إلى تدمير ليشغل عبد الرحمن بحركته (دوزى ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤١) . ولكننا لا نوافق دوزى على هذا التصوير أولا لأن المصادر العربية لا تشير إلى مثل هذا التحالف الرباعى ، وتتفق جميعاً فى اعتبار حركة الصقلبى حركة مستقلة لا علاقة لها بغزوة الفرنج ، ومن جهة أخرى فإنه لا يوجد فى الروايات اللاتينية المتعلقة بغزوة شارلمان لإسبانيا ما يشير إلى هذا التحالف ، وثانياً لأن محمد بن يوسف الفهرى أحد أركان هذا التحالف لم يفر من سجنه كما سنرى إلا بعد ذلك ببضعة أعوام . راجع : ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٦ .

فبعث إليه عبد الرحمن مولاه بدراً ، فهاجمه وقتله . وثار فى طليطلة القائد السلمى ، وكان من خاصة عبد الرحمن ، ثم فر من قرطبة خشية بطشه به لأمور نقمها منه ، والتفت حوله العناصر الخارجة فى تلك الأنحاء ، فسير إليه عبد الرحمن جيشاً قوياً بقيادة حبيب بن عبد الملك ، فحاصره حيناً ثم قتل . وثار فى الجزيرة الخضراء واليها الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه ، وداهمه قبل أن يستكمل أهبته ، ففر الرماحس وعبر البحر إلى المشرق (سنة ١٦٣—١٦٤)(١).

وفى العام التالى تأهب عبد الرحمن لقمع الثورة فى الشمال . وكان الخلاف قد وقع بين زعيمى الثورة بعد تفاهمهما على أثر نكبة الجيش الفرنجى فى موقعة باب الشزرى ، وتربص الحسين بن يحيى الأنصارى بزميله سليمان بن يقظان ، ودس عليه ذات يوم من قتله بالمسجد الجامع ، وانفرد بالأمر فى سرقسطة وما حولها(٢). فسار عبد الرحمن إلى سرقسطة فى جيش ضخم وضيق الحصار عليها (سنة ١٦٥ هـ — ٧٨١ م) . ووفد عليه عندئذ عيشون بن سليمان ، وكان قد فر عقب مقتل أبيه إلى أربونة ، وانضم إليه بمن معه فى مقاتلة الحسين ، فلما اشتد الحصار بالحسين طلب الصلح ، وقدم ابنه سعيداً رهينة ، فأجابه عبد الرحمن إلى ملتمسه ، وأقره والياً على سرقسطة . ثم تحول عن سرقسطة إلى الشمال الشرقى ، واخترق بلاد البشكنس (ناڤار) ليعاقب أهلها على عيثهم وعدوانهم ، وغزا عاصمتها بنبلونة ، وأثخن فيها وخرب قلاعها ، وغزا قلهرّة وبقيرة (ڤكيرا) ، واجتاح ولاية شرطانية(٣) ، وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية(٤). ثم عاد إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الحكومة المركزية فى الشمال نوعاً ، وألقى على النصارى درساً يذكرهم بأن الإسلام قد استرد منعته وسلطانه فى اسبانيا . وكان سعيد بن الحسين قد فر من معسكر الأمير أثناء الطريق ، ولما حل عبد الرحمن بقرطبة توجس شراً من عيشون بن سليمان ، وكان قد عاد فى ركابه ، فأمر به

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٢ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) يقول لنا العذرى نقلا عن الرازى أن قتل الحسين لسليمان كان بتحريض من حكومة قرطبة ، وذلك على أن يولى سرقسطة (فى كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص٢٦) .

(٣) شرطانية بالإفرنجية **Cerdagne** وبالإسبانية **Cerdana** ، وهى ولاية صغيرة فى شمال شرق إسبانيا .

(٤) أخبار مجموعة ص ١١٤ ، وابن الأثير ح ٦ ص ٢٢ .

فقتل . ولما رأى الحسين بن يحيى أن عبد الرحمن قد ارتد عنه ، وعاد إليه ولده سالماً ، نكث بعهده وعاد إلى الثورة ، وعاث فساداً فى سرقسطة وأعمالها ، فاعتزم عبد الرحمن أن يعود إلى قتاله ، وأن ينكل به وبأنصاره فى تلك المرة . فبعث إلى الشمال جيشاً كثيفاً بقيادة غالب بن تمام بن علقمة ، فخرج الحسين إلى لقائه ، ووقعت بينهما معارك شديدة هزم فيها الحسين ، وأسر ولده يحيى وعدة من صحبه ، فأرسلوا إلى قرطبة حيث أمر عبد الرحمن بإعدامهم ، وامتنع الحسين بالمدينة واستمر غالب فى حصاره . وفى العام التالى (سنة ١٦٧ هـ — ٧٨٣ م) سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقسطة وحاصرها بشدة ، وضربها بالمجانيق ضرباً عنيفاً حتى هدم أسوارها ، واقتحمها عنوة ، وقبض على الحسين وجماعة من صحبه ، وقتلهم جميعاً ، وشرد كثيراً من أهلها ، وفر سعيد ولد الحسين ، وعين عبد الرحمن قائده ثعلبة بن عبيد والياً لسرقسطة ، وكان قد افتداه من أسر الفرنج حسبما تقدم . وركدت بذلك ريح الثورة فى الشمال مدى حين(١) .

وشغل عاهل الفرنج شارلمان مدى حين عن شئون إسبانيا ، لأن القبائل السكسونية عادت فنكثت طاعته ، وعاد لقتاله خصمه القوى ڤيدوكنت ، واستمرت الحرب بينهما زهاء سبعة أعوام وانتهت بهزيمة السكسونيين ، وخضوع زعيمهم وإرغامه على التنصير (سنة ٧٨٥ م) . بيد أن عبد الرحمن رأى أن يتفاهم مع زعيم الفرنجة ، وأن يؤثر صداقته ومدارته على خصومته ، فبعث إليه يطلب عقد الصداقة معه ، ويكاشفه برغبته فى مصاهرته ، فأجابه شارلمان إلى السلم ولم تتم المصاهرة(٢). وفى بعض الروايات أن شارلمان هو الذى عرض على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته فاعتذر عبد الرحمن باعتلال صحته(٣) . واستمر السلام معقوداً بين الزعيمين حتى وفاة عبد الرحمن .

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) المقرى عن ابن حيان (ج ١ ص ١٥٥) . ولا تقدم الرواية لنا تفصيلا عن مشروع المصاهرة هذا ، ولكن الظاهر أن عبد الرحمن طلب الاقتران بإحدى بنات شارلمان ، والمرجح أنها « هروترود » كبرى بناته ، وكانت وحدها تصلح للزواج فى ذلك الحين . ويرى رينو أن المقصود بهذه الإشارة إنما هو عبد الرحمن الثانى أو عبد الرحمن الأوسط حفيد عبد الرحمن الداخل ، فقد كانت علائقه بملك الفرنج (شارل الأصلع) على ما يرام ، وكان هذا الاتصال بين الأمراء الفرنج والمسلمين دائماً (Reinaud : ibid , p. 98)

(٣) راجع : Scott : Moorish Empire, V.I. p. 40

ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة نمى إليه خبر مؤامرة خطيرة دبرت لسحقه ، بزعامة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ، وهذيل ولد الصميل بن حاتم . ولم تكن هذه أول مؤامرة من نوعها ، فقد دبرت قبل ذلك ببضعة أعوام سنة١٦٣ﻫ مؤامرة أخرى ، وعلى رأسها أيضاً اثنان من أقطاب بنى أمية ، الذين وفدوا على الأندلس حينما تألق طالع عبد الرحمن ، هما عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدى ، وهو ابن عم عبد الرحمن ، وعبيد الله بن أبان بن معاوية وهو ابن أخيه ، وذلك بمعاونة أبى عثمان كبير الدولة . وكان عبد الرحمن مذ تم له الأمر ، يسعى إلى استقدام فل بنى أمية من المنفى ، ويدعوهم إليه ليكونوا له عوناً وعصبة ، ويظلهم برعايته ،ويغدق عليهم من نعمه ، ويختارهم لمختلف المناصب . ولكن روحاً سيئاً من الحقد والحسد ، كان يحفز أولئك الأقارب لمناوأة ذلك الذى هيأت له الأقدار أن يفوز دونهم ، بتراث بنى أمية فى الأندلس . فائتمروا به غير مرة ، وشجعهم على ذلك بعض الخوارج الناقمين والمنافسين الطامعين ، ولكن عبد الرحمن كان يكتشف الخطر قبل وقوعه ، ويسحقه بكل ما أوتى من شدة وصرامة ، فلم يحجم حينما وقف على المؤامرة الأولى ، عن قتل ابن عمه عبد السلام اليزيدى وعبيد الله ابن أخيه أبان ، وعفا عن أبى عثمان لمكانته وسابق صنيعه . ولم يحجم حينما وقف على المؤامرة الثانية ، عن قتل المغيرة بن أخيه الوليد ، وزميله هذيل بن الصميل ومن معهما ، ونفى أخاه الوليد وأسرته إلى المغرب . وقد نقل إلينا مؤرخ أندلسى عن بعض موالى عبد الرحمن ، أنه دخل عليه أثناء قتله المغيرة ، ابن أخيه ، وهو مطرق شديد الغم فرفع رأسه وقال : « ما عجبى إلا من هؤلاء القوم . سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ويسر الله تعالى أسبابه ، أقبلو علينا بالسيوف . ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به ، حتى أمنوا وردت عليهم أخلاف النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحه الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا فى البرىء منهم ، وساء أيضاً ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه »(١) .

---

(١) الحجارى فى كتابه « المسهب » ؛ ونقله المقرى فى نفح الطيب (ج ٢ ص ٧٢ و ٧٣) .

وفى ذلك الحين فر أبو الأسود محمد بن يوسف الفهرى من سجنه ، ورفع لواء الثورة فى طليطلة . وكان محمد سجيناً فى قرطبة منذ مقتل أبيه ، ثم فراره وأسره ثانية فى حوادث طليطلة سنة ١٤٢ هـ كما قدمنا . وتظاهر محمد عندئذ بالعمى ، وأتقن حيلته حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه ، وأشفق عبد الرحمن عليه فأبقاه ولم يقتله كأخيه ، وأنفق محمد فى أسره أعواماً طويلة حتى أهمل شأنه ، ولم يعد يكترث أحد به ، وعرف بالأعمى . ثم سنحت له فرصة الفرار على يد بعض مواليه المتصلين به ، ففر من سجنه الواقع على النهر الكبير ، وجاز النهر سباحة ، ولحق بطليطلة سنة ١٦٨ هـ وأعلن الثورة . والتفت حوله جموع كبيرة من الفهرية والقيسية ، ومن إليهم من عناصر الخروج والثورة ، وسار فى قواته صوب جيان ، فخرج عبد الرحمن إلى قتاله ، ووقعت بينهما معارك عديدة ، كان النصر فيها لعبد الرحمن . ولكن أبا الأسود لبث حيناً محتفظاً بمراكزه وقواته . ثم نشبت بينهما على مقربة من قسطلونة فى الوادى الأحمر ، بمكان يعرف بمخاضة الفتح ، معركة شديدة حاسمة ، ولجأ عبد الرحمن إلى الخديعة ، فاتفق مع بعض قادة أبى الأسود على التقاعد والغدر ، فهزم أبو الأسود هزيمة شديدة ، وقتل من جنده عدة آلاف ، وغرق عدد كبير فى النهر ، وطارده عبد الرحمن حتى قلعة رباح ، ومزق جيشه كل ممزق (ربيع الأول سنة ١٦٨ هـ — ٧٨٤ م)[١]. ولكن محمداً لم يخضع ولم يهن عزمه ، فارتد إلى جهة الغرب ونزل بقورية ، وعاد يحشد قواته لاستئناف القتال ، وقوى أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء، فسار عبدالرحمن لقتاله ثانية ، وهاجم قورية ومزق شمل قواته (سنة ١٦٩ هـ — ٧٨٥ م) ، ففر فى نفر من صحبه إلى بعض قرى طلطلية ، وهنالك توفى لأشهر قلائل (سنة ١٧٠هـ). فقام مكانه أخوه أبو القاسم بن يوسف ، واقترن بزوجته ، وعاد ينظم الثورة فى طليطلة . فسار عبد الرحمن لقتاله قبل أن يستفحل أمره ، ولم ير أبو القاسم بدأ من الخضوع والتماس الصلح والعفو ، فأجابه الأمير إلى ملتمسه ، وصحبه معه إلى قرطبة ، ورد إليه بعض أموال أسرته[٢] ، وطويت بذلك آخر مرحلة فى ثورة

---

(١) يضع الرازى تاريخ هذه الموقعة فى أول ربيع الأول سنة ١٦٨ (ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٧) ويتبعه فى ذلك ابن الأثير فيضع تاريخها سنة ١٦٨ هـ . ولكن صاحب البيان المغرب يجعل تاريخها فى سنة ١٦٩ هـ (ج ٢ ص ٥٩) .

(٢) ابن الأبار ص ٥٦ و ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٢ و ٥٩ و ٦٠ ، ويروى ابن الأثير أن عبد الرحمن لم يبق على أبى القاسم بل قتله (ج ٦ ص ٢٦) .

الفهرية ، بل كانت آخر ثورة قام بقمعها عبد الرحمن ، ولم يعش بعدها سوى عدة أشهر .

وهكذا أنفق عبد الرحمن جميع حكمه — ثلاثة وثلاثين عاماً — فى كفاح مستمر . وكانت مهمة عظيمة دونها خطوب فادحة . أن يطمح فتى شريد ، يعمل القتل الذريع فى أسرته وعصبته ، وحيد ليس له أنصار ولا صحب ، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة والجند ، وأن يخضع ذلك القطر فى حروب لا يخمد أوارها ، وسيول من الدماء لاتنقطع ، وأن يقيم ملكاً على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والخصومة : تلك هى قصة عبد الرحمن الأموى ، وهى قصة عجيبة ليست من حوادث التاريخ العادية ، ولايقدم إلينا التاريخ كثيراً من أمثالها . ولكن عبد الرحمن كان رجل الموقف ، وكانت حوادث الجزيرة (إسبانيا) وظروفها ، وتمزق شملها ، وتطلعها إلى زعامة قوية توحد كلمتها وقواها ، وتسير بها نحو السلام والأمن ، تفسح مجال الطموح والعمل لذهن جرىء مغامر كذهن عبد الرحمن . وكان عبد الرحمن يجمع إلى فيض جرأته ، كثيراً من الذكاء والدهاء والعزم ، ولم يكن عليه أن يخاطر بأكثر من تلك الحياة التى كادت تزهق غير مرة ، وكان يحملها فى كفه أمام مطارديه خلال القفر الشاسع . ولكن الغنم كان عظيماً : كان ملكاً بأسره ، وكان بعث أسرة هوَت ومجد عريض دثر . وسنعرض فى الفصل القادم طرفاً من خلال تلك الشخصية الباهرة ، التى تتبوأ مكانها بين أسطع شخصيات التاريخ الإسلامى .

الفصل السادس

خلال عبد الرحمن ومآثره

(١) وفاة عبد الرحمن الداخل . شخصيته . أساليبه . إقدامه وجرأته وقسوته . بطشه بآله وأصدقائه . نزعته الميكافيلية . تعليقات دوزى على سياسته . خلاله الباهرة . وصفه بصقر قريش . (٢) نوع رياسته . قطعه الدعاء لبنى العباس . إحجامه عن التلقب بالخلافة . أقوال ابن خلدون فى ذلك . نظام الحكومة فى عهده . حجابه وأعوانه . استرابته بالعرب بعد الثقة فيهم . اصطناعه للموالى والبربر . سياسته نحو النصارى . مقدرته الإدارية . عنايته بالجيش والأسطول . تفكيره فى غزو الشام . منشآته بقرطبة . الرصافة . السور الكبير . المسجد الجامع . (٣) كرمه وتواضعه . نقش خاتمه . خلاله الأدبية . نثره وشعره . (٤) عناصر المجتمع الأندلسى . العرب والبربر والمولدون . النصارى المعاهدون واليهود .

— ١ —

توفى عبد الرحمن الأموى فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (٢ أكتوبر سنة ٧٨٧ م)[1] وهو فى نحو الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً ملؤها الخطوب والفتن . فخلفه ولده هشام بعهد منه لأيام قلائل من وفاته . وانتظم بذلك سلك الدولة الأموية بالأندلس بعد أن تصرم بالمشرق ، واستؤنفت حياة تلك الدولة الزاهرة ، التى بلغ الإسلام على يدها ذروة الفتح والظفر ، والتى ذهبت سراعاً كالحلم فى عنفوان قوتها .

---

(١) يختلف المؤرخون فى تاريخ وفاة عبد الرحمن . ويستفاد من أقوال صاحب أخبار مجموعة أنها وقعت فى أوائل سنة ١٧٢هـ (ص ١١٦) . ويوافقه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد على ذلك ، فيقول إنها وقعت فى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ (العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١) . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يضعها فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧١ (المقرى ج ٢ ص ٧٢) . وهذه أيضاً رواية ابن الأبار (الحلة ص٣٧) . على إننا نرجح الرواية الأولى لقدمها ، وهى أيضاً رواية ابن عذارى حيث يضع وفاة عبد الرحمن فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠) . ويضعها كل من ابن خلدون (ج ٤ ص ١٢٤) ، والمراكشى (المعجب ص ٩) فى سنة ١٧٢ هـ دون تعيين للشهر . ويضعها ابن الأثير فى ربيع الآخر سنة ١٧١ ، ولكنه يرجح وقوعها سنة ١٧٢ هـ (ج ٦ ص ٣٧) .

كان سقوط الدولة الأموية بالمشرق مأساة من أروع مآسى التاريخ الإسلامى، وكانت تلك الشخصية التى قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة، من أعظم شخصيات الحرب والسياسة. كان عبد الرحمن الأموى يتمتع بعبقرية ممتازة وخلال نادرة. وكان قرين جده العظيم معاوية بن أبى سفيان، ينشئ مثله دولة، ولكن فى ظروف أسوأ من ظروفه، ويهزم الخطوب والحوادث، ويسحق خصومه فى كل ميدان، ويؤثر مثل السياسة العملية على كل اعتبار، ويذهب تواً إلى الغاية بأى الوسائل. وكانت المحنة المروعة التى نزلت بأسرته، والظروف العصيبة التى يواجهها، والخصومات والأحقاد المستعرة التى تحيط به، تحمل خلاله القوية إلى ذروة التطرف، وتدفعه إلى التذرع بأشد الوسائل. فنراه يقرن وافر العزم بفيض من الجرأة والمغامرة واحتقار الخطر، ويقرن وافر الدهاء بنزوع إلى الخيانة والغدر والفتك، ويقرن وافر الحزم والصرامة بنزوع إلى القمع الذريع، ويذهب فى الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة. ومع ذلك فقد كان عبد الرحمن وفياً يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له، وإن لم يحجم لأقل ريب أو بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه. وقد رأينا هذه الخلال واضحة بارزة، فى كثير مما تقدم من حوادث حياته ونضاله، فرأيناه مراراً يلجأ إلى الغدر والاغتيال للتخلص من خصومه، ورأيناه فى مواطن كثيرة يزهق دون تردد، كل من وقع فى يده من أولئك الخصوم أو من ولدهم وصحبهم الأبرياء. وذهب عبد الرحمن فى صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه، الذين آزروه يوم مقدمه، شريداً لاعصبة له، وقاتلوا معه وقادوه إلى الظفر والحكم، وكان قد أولاهم فى المبدأ ثقته وجعلهم عماد دولته. ومن هؤلاء بدر مولاه الذى جاب معه القفر وخاض الغمار، وكان مثالا للشجاعة والدهاء وبعد النظر، فإنه قدر فى البداية خلاله وكفايته وولاه القيادة واختصه بأسمى المناصب والمهام، ولكنه تغير عليه فى أواخر عهده، لما أبداه من التذمر وعدم الرضى، ولما وجهه إليه من عتاب خشن تجاوز فيه حد اللياقة، فنكبه وجرده من مناصبه وأمواله، وشرده عن قرطبة إلى قاصية الثغر، ولم يستمع إلى تضرعه حتى مات فى فقر وضعة[1]. ومنهم أبو عثمان رأس أنصاره،

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ و ٧١، حيث يورد طرفاً من الرسائل التى تبادلها عبد الرحمن وبدر، والتى انتهت بنكبة بدر. وراجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣.

وأول من تلقاه وآواه يوم مقدمه ؛ فإنه جعله كبير دولته ، فلما توطد أمره جرده من نفوذه ، ولما وقعت المؤامرة التى دبرها بعض الوافدين من بنى أمية ، واتهم أبو عثمان بالاشتراك فى تدبيرها استراب به ، ولم ينقذه من بطشه إلا عظم صنيعه لديه . ولما ثار ابن أخت أبى عثمان فى بعض حصون إلبيرة ، لم يتردد عبد الرحمن فى قتله حين ظفر به . وكذا تغير عبد الرحمن على عبد الله بن خالد ، صهر أبى عثمان وزميله فى مؤازرة عبد الرحمن ونصرته ، وكان من وزرائه ، ثم اعتزل المنصب ، وتوارى لما رأى من غدر عبد الرحمن بزعيم اليمنية أبى الصباح ، وكان أبو الصباح هو الذى جمع كلمة اليمنية فى إشبيلية حول عبدالرحمن وقاتل معه بصحبه ، ثم انحرف عنه لأمور نقمها منه ، فاستدرجه عبد الرحمن إلى قرطبة وفتك به فى نفس مجلسه بالقصر ، ناكثاً لعهوده كما قدمنا[1]. بل لم يحجم عبد الرحمن عن الفتك بذويه وخاصة أسرته ، حينما نمى إليه أنهم يأتمرون به ، فقتل ابنى أخيه عبيد الله بن أبان والمغيرة بن الوليد ، وابن عمه عبد السلام اليزيدى حسبما فصلنا .

والخلاصة أن عبد الرحمن كان يلجأ فى تحقيق غاياته إلى أروع الأساليب والوسائل ، وكان طاغية مسرفاً فى البطش والسفك ، مكيافيلليا[2] بكل معانى الكلمة . ولكن تلك الخلال المثيرة التى كان يحفزها ويذكيها الخطر الداهم ، كانت عنوان قوته ووسيلة ظفره . يقول دوزى : « لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره غاليا ، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم ، الذى لاتأخذه رأفة . ولم يبق زعيم عربى أو بربرى ، يجرؤ على مواجهته صراحة ، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية . ولم يك ثمة رجل يرغب فى خدمته » . ثم يقول : « كان هم عبد الرحمن الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة ، وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام ، وقد لجأ فى تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل ، التى لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع . بيد أنه كان مصيراً محزناً ذلك الذى دفع القدر إليه اسبانيا ، وكانت مهمة محزنة تلك التى كان على خلفاء عبد الرحمن أن يضطلعوا بها . ذلك أن الطريق الذى رسمه لهم مؤسس الأسرة ، كان طريق الطغيان يؤيده السيف . ولكن من الحق أن نقول إن ملكاً لايستطيع أن يحكم العرب والبربر

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ و ٧١ .

(٢) نسبة إلى مكيافيللى صاحب المذهب السياسى المشهور ، وخلاصته أن للأمير أن يتذرع فى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ومنها الغدر والخيانة والسفك وكل ما إليها .

بغير هذه الوسيلة ، وإذا كان العنف والطغيان ثمة فى ناحية ، فى الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى »(١) .

على أن عبد الرحمن كان إلى جانب هذه الصفات المثيرة ، يتمتع بكثير من الخلال الباهرة . وقد أجمل ابن حيان مؤرخ الأندلس خلاله فى تلك العبارات القوية ، قال : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لايخلد إلى راحة ، ولايسكن إلى دعة ، ولايكل الأمور إلى غيره ، ثم لاينفرد فى إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحذر قليل الطمأنينة ، بليغاً ، مفوهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخياً، طلق اللسان »(٢) وهذا التصوير الرائع الذى يقدمه لنا ابن حيان عن خلال تلك الشخصية الممتازة ، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة ، توضحها فى جملتها وفى تفاصيلها حياة عبد الرحمن فى جميع أدوارها .

ويشبهه ابن حيان أيضاً بأبى جعفر المنصور فى قوة الشكيمة ، ومضاء العزم ، وفى القسوة والصرامة والاجتراء على الكبائر(٣).

وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معاً ، لا تحمل على الحب ، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب . بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه الشخصية الفريدة ، ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة ، التى خاض عبد الرحمن غمارها ، وتلك المحن الأليمة التى نزلت بأسرته ، وتلك الجهود الفادحة التى بذلها لاسترداد حقه وحق أسرته فى الحياة والرياسة . وكانت هذه الحياة المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة ، تحمل ألد خصوم عبدالرحمن على احترامه والإعجاب به ، حتى لقد سماه أبو جعفر المنصور « صقر قريش » فى حديث طريف تنقله إلينا الرواية ، وهو أن المنصور قال يوماً لبعض أصحابه ، « من صقر قريش من الملوك ؟ » قالوا : أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء . قال ما صنعتم شيئاً . قالوا فمعاوية ، قال ولا هذا . قالوا

(١) Dozy : Hist. V. I. p. 245, 248

(٢) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

فعبد الملك بن مروان ، قال لا . قالوا فمن يا أمير المؤمنين؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذى تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف ، يعبر القفر ، وركب البحر ، حتى دخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلل له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عزته واجتماع شيعته . ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين[١] .

هذا وأما عن شخصه ، فقد وُصف عبد الرحمن ، بأنه كان مديد القامة ، نحيف القوام ، أعور ، أخشم[٢] ، له ضفيرتان ، أصهب[٣] ، خفيف العارضين ، له خال فى وجهه[٤] .

— ٢ —

كانت الأندلس حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، ولاية من ولايات الخلافة الأموية . فلما انهار سلطان بنى أمية ، انفرد يوسف بالأمر ، وغدت الأندلس فى عهده إمارة مستقلة . وتلقى عبد الرحمن الأموى تراث الإمارة كما خلفه يوسف ، ولم ينشئ رغم كونه سليل بنى أمية ، لنفسه شيئاً جديداً من رسوم الملك . وتلقبه الرواية الإسلامية أحياناً بالأمير ، وأحياناً بالإمام[٥] ، ويلقب أيضاً بصاحب الأندلس[٦] . ويعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل لأندلس من أمراء بنى أمية وحكمها ، ويعرف أيضاً بعبد الرحمن الأول ، لأنه أول أمراء ثلاثة من بنى أمية بهذا الاسم حكموا الأندلس ، هم عبد الرحمن الداخل ،

(١) راجع أخبار مجموعة ص ١١٨ و ١١٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦١ و ٦٢ ، وبين الروايتين اختلاف يسير فى الألفاظ .

(٢) هو الذى فقد حاسة الشم .

(٣) من الصهبة والصهوبة وهى احمرار الشعر .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ .

(٥) راجع أخبار مجموعة ص ١٠٠ — ١٠٤ حتى نهاية الحديث عن عبد الرحمن ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ وما بعدها ، وص ٦٠ ، حيث ينعت عبد الرحمن بالإمام ، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ ، والروض المعطار (القاهرة ١٩٣٧) ص ١٨٦ .

(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ .

وحفيده عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم) ، ثم عبد الرحمن الناصر .

وكانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن ، وذاعت فى منابرها ، ودعى فى الخطبة لبنى العباس فى كثير من النواحى ، ثم دعى لهم فى قرطبة ذاتها ، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبى جعفر المنصور مدى أشهر ، وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه ، عملا من أعمال السياسة . ولكن جماعة من بنى أمية الذين وفدوا على الأندلس ، وعلى رأسهم عبد الملك المروانى ، اعترضوا على هذا التصرف ، ونوهوا بما أثم به بنو العباس فى حق بنى أمية ، وما زالوا بعبد الرحمن حتى قرر قطع ذكر بنى العباس من الخطبة (١٣٩ هـ) ، فقطعت من سائر منابر الأندلس[١] . ولكن عبد الرحمن لم يحاول أن يتخذ سمة الخلافة قط ، رغم كونه سليل أقيالها . ويرجع ذلك إلى اعتبارات دينية وسياسية ، يجملها ابن خلدون فى قوله ، إن بنى أمية بالأندلس « تلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك ، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية ، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم عن مهالك بنى العباس »[٢] . ويقول لنا فى موضع آخر إن عبد الرحمن لم يتخذ سمة الخلافة تأدباً منه فى حق الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب[٣] .ويقول المسعودى إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بنى أمية إلا من كان مالكاً للحرمين ، ولذلك سموا بالخلائف ، حتى بعد أن تسموا بالخلافة ولم يخاطبوا بالخلفاء[٤] . وعلى أى حال فإن بواعث السياسة العملية ، هى التى حملت عبد الرحمن على سلوك هذا المسلك ، والحرص على عدم التورط فى رسوم لم يحن الوقت لاتخاذها ، والدخول بذلك مع الخلافة العباسية القوية فى منافسة لا تؤمن عواقبها .

وأما عن نظام الحكومة ، فقد اتبع عبد الرحمن الداخل سنة أسلافه بالمشرق فى تبسيط الرسوم والنظم ، وأنشأ منصب الحجابة ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه فى القيام بمهام الحكم ، وليست لهم سمة الوزارة ، وإنما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى . واختار أعوانه فى

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء (ليدن) ص ٣٣ .

(٢) المقدمة ص ١٩٠ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ .

(٤) المسعودى فى مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ .

البداية من أصدقائه ، الذين استقبلوه يوم مقدمه ، وآزروه وقاتلوا معه ، فولى حجابته تمام بن علقمة ، ثم ولاها من بعده ليوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك ابن مروان ، ثم عبد الكريم بن مهران الغساني ، ثم عبد الرحمن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة ، وولاها في آخر أيامه لمنصور الخصى ، فلم يزل في حجابته حتى توفى . وعين لمشورته أبا عثمان عبيد الله بن عثمان كبير أنصاره ، وصهره عبد الله بن خالد ، فكانا مدى حين دعامة حكومته . وكان من أعوان حكومته أيضاً جدار بن عمرو ، وأبو عبدة حسان بن مالك زعيم إشبيلية ، وشهيد بن عيسى ابن شهيد ، وعبد السلام بن بسيل الرومى ، وهما من موالى بنى أمية ، وثعلبة ابن عبيد الجذامى الذى ولاه سرقسطة فيما بعد ، وعاصم بن مسلم الثقفى وهو من خاصة أنصاره يوم المسارّة . وولى قيادة عسكره مولاه بدراً ، وتمام بن علقمة ، وعبد الملك المروانى ، وثعلبة بن عبيد ، وغيرهم من خاصة عصبته ، وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش ، فى معظم الوقائع والحروب التى نشبت بينه وبين خصومه كما رأينا . وولى عبد الرحمن على الكور والثغور جماعة مختارة من أصدقائه ، وذوى رحمه الوافدين عليه حسبما فصلنا فى مواضعه . وعلى الجملة فقد كانت حكومة عبد الرحمن الداخل تقوم فى البداية بالأخص على العصبية والموالاة ، وكانت عربية فى بنائها وروحها ، ولكن الخصومة المستعرة التى شهرها زعماء القبائل والبطون المختلفة على عبد الرحمن ، والثورات المستمرة التى عملوا على إضرامها من حوله ، ونكثهم المتكرر بعهودهم ، حمله على الاسترابة بالعرب والحذر منهم ، فمال عنهم إلى اصطناع الموالى والبربر ، ولاسيما بربر العُدوة (المغرب) وحشد حوله من الموالى والبربر والرقيق آلافاً مؤلفة ، لتكون له وقت الحاجة عوناً يركن إليه ويثق به . وكان ذلك قاعدة للسياسة التى سار عليها خلفاء عبد الرحمن الداخل من بعده ، والتى بلغت ذروتها فى عهد عبد الرحمن الناصر ، كما نفصل فى موضعه[1] .

وأما عن سياسة عبد الرحمن نحو رعاياه النصارى (المستعربين) ، ونحو نصارى الشمال ، فقد كانت سياسة اعتدال ومهادنة . وكان من الواضح أنه نظراً لاشتغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية ، لم يفكر فى غزو أرض النصارى ، وأنه

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٦٧ .

كان يرحب بعقد السلم والمهادنة معهم . وهذا الأمان الذى يقال إن عبد الرحمن أصدره لجيرانه نصارى قشتالة يؤيد هذه السياسة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن ، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة ، ومن تبعهم من سائر البلدان . كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة ، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ، ومثلها من البغال ، مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح ، فى كل عام إلى خمس سنين ، كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعين ومائة (٧٥٩ م) »(١) .

وكان عبد الرحمن الداخل يتمتع بمواهب إدارية باهرة ، فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة ، وأن يقمع كثيراً من ضروب الفساد والبغى ، وأن يؤيد هيبة القانون والنظام . ولما توطد سلطانه وخبا ضرام الثورة نوعاً ، استطاعت الأندلس أن تتمتع فى ظل حكومته بأمن وطمأنينه ورخاء لم تعرفها منذ بعيد ، ولو لم يُشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورة والفتن الداخلية ، لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل ، أن يبعث الأندلس خلقاً جديداً ، وأن يجعل منها حديقة يانعة . على أنه ذلل الصعب ومهد الطريق لعقبة ، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة ، التى غدت على يد بنيه أعجوبة العصور الوسطى . وينوه ابن حيان مؤرخ الأندلس بمقدرة الداخل وكفاياته الإدارية فيقول إنه «دون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدته »(٢) .

وعنى عبد الرحمن بالجيش عناية خاصة ، فحشد المتطوعة والمرتزقة من كل صوب ، وبلغت قواته مائة ألف مقاتل(٣) ، هذا عدا حرسه الخاص الذى أنشأه

---

(١) أورد ابن الخطيب فى كتاب الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) نص هذا الكتاب ونقله عنه الغزيرى فى فهرسه . راجع **Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialenses Vol. II. p. 104** . بيد أننا نرتاب على الأقل فى صحة الأرقام التى وردت به لضخامتها بالنسبة لموارد النصارى فى هذا العصر .

(٢) نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ .

من الموالى والبربر والرقيق حسبما قدمنا ويبلغ زهاء أربعين ألفاً[١] . كذلك عنى عبد الرحمن فى أواخر عهده بأمر القوات البحرية ، فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور النهرية والبحرية ، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية وغيرها[٢]. ويقال إن عبد الرحمن الداخل لما توطد ملكه ، وكثرت قواته وعدته ، فكر فى استرداد ملك بنى أمية بالشام ، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته ، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس ، وأيده فى ذلك خاصة أسرته ومواليه . وكان ذلك فى سنة ١٦٣ هـ . ولكن اضطرام الثورة فى سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم ، وتوفى قبل أن تسنح فرصة لتنفيذه[٣]. وقد تكون هذه أمنية جالت بذهن عبد الرحمن ، ولكنا لانجد فى ظروف حياته التى انقضت كلها فى إخماد الفتن والثورات المحلية ، ما يسمح باعتبار مثل هذه الأمنية مشروعاً جدياً تتخذ العدة لتنفيذه .

واستطاع الداخل أيضاً أن يعنى بالحاضرة الأموية الحديدة أعنى قرطبة ، فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة . وكان أول ما أنشأ بها فى عهده منية الرُّصافة وقصرها المنيف. وكان قصر الإمارة بناء قديماً ساذجاً يرجع إلى عهد القوط ، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ ضاحية ملوكية جديدة ، تليق بحاضرة ملكه ، وتعيد ذكرى بهاء بنى أمية بالمشرق ، فأنشأ فى شمال غربى قرطبة قصراً فخماً تحيط به حدائق زاهرة ، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنوى من الشأم وإفريقية ، وسمى تلك الضاحية الحديدة بالرُّصافة تخليداً لذكرى الرصافة التى أنشأها جده هشام بالشأم ، واتخذها مقاماً ومنتزها ومركزاً للإمارة ، وكانت حدائق الرصافة أماً لحدائق الأندلس ، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية[٤]. وفى سنة ١٥٠ هـ بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة الكبير ، واستمر العمل فيه مدى أعوام[٥]. وأنشأ عبدالرحمن فى قرطبة وفى باقى مدن الأندلس مساجد محلية عديدة ، وبدأ فى أواخر أيامه (سنة ١٧٠ هـ — ٧٨٦م) بإنشاء المسجد

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) **Reinaud : ibid , p. 120**

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٧٦ .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ .

الأموى الجامع بقرطبة ، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة ، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد . ولكنه توفى قبل إتمامه ، فأتمه ولده هشام ، وزاد فيه من بعده ملوك بنى أمية ، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس ، وبلغ ما أنفقه عليه الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار (١) . وأنشأ عبد الرحمن أيضاً فى قرطبة داراً للسكة ، تضرب فيها النقود على نحو ما كانت تضرب فى دمشق أيام بنى أمية وزناً ونقشاً .

— ٣ —

وكان عبد الرحمن الأموى جواداً ، جم البساطة والتواضع ، يؤثر لبس البياض ويعتم به ، يصلى بالناس أيام الجمع والأعياد ، ويحضر الجنائز ويصلى عليها ، ويعود المرضى ، ويزور الناس ويخاطبهم ، ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية إلا فى أواخر عهده ، حينما نصحه بعض خاصته بالترفع ، استبقاء لهيبة الملك ، والحذر من بوادر العامة وشر المتآمرين (٢) . وقد كان فى نقش خاتمه « عبد الرحمن بقضاء الله راض » و « وبالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » ما ينم عن ذلك التواضع الجم (٣) ، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إليها .

بقى أن نتحدث عن ناحية أخرى من خلال عبد الرحمن البديعة ، هى الناحية الأدبية . كان عبد الرحمن شاعراً جيد النظم ، ناثراً فصيح البيان ، قوى الترسل ، عالماً بالشريعة ، وكان يعتبر من أعظم بنى مروان مكانة فى البلاغة والأدب (٤) . وقد انتهت إلينا بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته . ومن ذلك رسالة موجزة وجهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه : « أما بعد ، فدعنى من معارض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدن يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لألقين بنانها على رصف المعصية ، نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد » . ومنها رسائله إلى بدر مولاه ، يزجره عن تمرده وانحرافه وقد كتب إليه حين ألحف فى طلب العفو والمنة : « لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٧٦ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ و ٦٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ ؛ والمراكشى فى المعجب ص ١٠ .

ثقلت على العين طلعتك ، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر ... » . ومن أقواله لأصحابه يوم المسارّة يشحذ هممهم للقتال : « هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون »[١] .

وانتهى إلينا من نظم عبدالرحمن ما يدل على قوة شاعريته ورقة خياله . فمن ذلك قوله حين بلغه أن بعض أصدقائه يمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك إليه :

سعدى وحزمى والمهند والقنا ومقادير بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله خير السعادة ما حماها العاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبد الملك فى مجلس عبد الله ابن على جلاد بنى أمية ، ونعيه عليه إثمه فى حقهم وسفكه لدمائهم ، وفقده لحياته ثمناً لجرأته ، فأنشد عبد الرحمن :

شتان من قام ذا امتعاص[٢] فشال ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتا لعزم[٣] مجرداً للعداة نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً ولم يكن فى الأنام كلاّ
فبز ملكاً وشاد عزاً ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومصر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعاً حيث انتأوا أن هلم أهلا[٤]

ومن قوله فى التشوق إلى ربوع الشام ، وهو رقيق مؤثر :

أيها الركب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالكيه بأرض

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ — ٧٠ ، حيث يورد عدة من رسائل عبد الرحمن وأقواله .
(٢) يريد الغمر بن يزيد بن عبد الملك .
(٣) يريد نفسه أى عبد الرحمن الداخل .
(٤) هكذا يوردها المقرى (نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨) ؛ ولكن صاحب البيان المغرب يوردها بصورة أخرى ج ٢ ص ٦١) .

قدر البين بيننـــا فافترقنـــا وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفـــراق علينـــا فعسى باجتماعنا ســـوف يقضى

ورأى بروض الرصافة وهى الضاحية الجديدة التى أنشأها ، نخلة منفردة ، فأثار منظرها فى نفسه ذكرى وشجناً وأنشد[١] :

تبدت لنا وسط الرصافة نخـــلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبـــة فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى يسح ويستمرئ السماكين بالويل[٢]

— ٤ —

هذا ويجب أن نستعرض هنا ، وقبل اختتام الكلام على عصر عبد الرحمن الداخل ، عناصر المجتمع الأندلسى ، الذى كان خلال هذه الأحداث والخطوب التى توالت عليه منذ أيام الفتح ، قد استقر ، وأخذت جذوره فى التوطد والرسوخ ، وأخذت عناصره المختلفة ، يؤدى كل منها دوره فى غمرة الحوادث ، مستهدياً بعواطفه وأمانيه ومثله الخاصة .

وقد سبق أن أشرنا بإيجاز إلى أن المجتمع الإسلامى الذى قام فى شبه الجزيرة عقب الفتح ، كان يتألف من عناصر رئيسية ثلاثة ، هى العرب ، والبربر ، والمولدون . كما أشرنا إلى عناصر الشقاق والتفرق التى كانت تعمل فى صفوف هذا المجتمع الإسلامى الجديد .

كانت البطون العربية التى اشتركت فى الفتح ، واستقرت فى شبه الجزيرة تضطرم منذ البداية بروحها القبلى المتأصل ، ولم تستطع قط أن تتحرر من هذا

---

(١) وينسب هذا الشعر أيضاً لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان ، وكان من الداخلين إلى الأندلس (راجع الحلة السيراء ص ٣٤) .

(٢) يورد ابن الأبار فى هذا الموطن رواية يفهم منها أن هذه النخلة هى أول نخلة غرست بالأندلس ، ومنها تولد جميع النخل بالأندلس فيما بعد ، وإذاً فيكون عبد الرحمن الداخل هو أول من نقل غراس النخيل بالأندلس فيما نقل من غراس الشام إلى الرصافة (الحلة السيراء ص ٣٥) . ولكن يحق لنا أن نلاحظ أن العرب فتحوا الأندلس قبل ذلك بنحو ثمانين عاماً ، ومن قبلها فتحوا إفريقية ؛ ومن المعقول أن يكون النخل قد نقل إليها فيما نقلوا من غراس بلادهم ؛ وقد نقلوه قبل ذلك إلى مصر منذ الفتح . وإذا كان النخيل قد غرس بإفريقية عقب افتتاحها ، أفلا يكون من المرجح أنه قد نقل منها إلى الأندلس عقب افتتاحها أيضاً ؟ وقد كان أول ما عنى به العرب فى الأندلس تنظيم الزراعة وغرس الحدائق .

الروح النكد ، الذى أشاع فيما بينها عوامل الشقاق والتنابذ ، وأثار فيما بينها غير مرة ضرام الحرب الأهلية . وقد رأينا كيف عانت الأندلس فى أواخر عهد الولاة من هذه الحرب الأهلية ، التى اضطرمت بين المضرية واليمنية وبين البلديين والشاميين ، وكيف كادت تودى بسلامة الأندلس ومنعتها . ثم رأينا كيف قضى عبد الرحمن الداخل معظم عهده فى مكافحة الثورات المتعاقبة التى شهرها فى وجهه زعماء القبائل والبطون فى سبيل الاحتفاظ بسلطانهم المحلى . وهكذا كانت القبائل العربية فى الأندلس منقسمة على نفسها ، وإن كانت الرياسة قد بقيت فيها على يد الدولة الأموية الحديدة التى قامت فى شبه الجزيرة . بيد أن العرب لم يكونوا بين كتلة الأمة الأندلسية أغلبية ، بل كانوا بالعكس أقلية تتمثل بالأخص فى الأرستقراطية العربية التى استأثرت بمعظم مغانم الفتح ، واستولت حيناً على أزمة الحكم ، واحتلت فى شبه الجزيرة معظم البقاع الخصبة . وقد ذكر لنا ابن غالب فى « فرحة الأنفس » ، كثيراً من البطون العربية التى استقرت بالأندلس ، وبعض من كان ينتمى إليها من الأسر الأندلسية النابهة ، وذكر لنا من منازلها ، بلنسية وأوريولة وإشبيلية وغرناطة ووادى آش[1]. وكانت الأرستقراطية العربية تستقر بالأخص فى القواعد والمدن الكبيرة ، ولا سيما فى قرطبة ، وتترك العمل فى ضياعها الشاسعة للموالى والبربر ، وكان أمراء بنى أمية منذ عهد عبد الرحمن الداخل يعملون على مقارعة هذه الأرستقراطية القوية وإخضاعها ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر ، فقضى على سلطانها السياسى والاجتماعى ، ورفع إلى مكانها الموالى والصقالبة ، ثم جاء المنصور بن أبى عامر ، فعمل على تمزيقها وتشتيتها ، وخلق أرستقراطية جديدة من البربر تقوم مكانها ، ومن ذلك الحين تغيض الأصول العربية فى شبه الجزيرة تباعاً ، وتضمحل مكانتها وأهميتها .

ويرجع انكماش العنصر العربى فى الأمة الأندلسية ، أولا إلى كونه يمثل الطبقة الممتازة وهى تكون الأقلية دائماً ، وثانياً إلى أن الهجرة العربية إلى شبه الجزيرة لم تكن هجرة غزيرة ، وقد توقفت تقريباً منذ القرن الثالث الهجرى ، ولم يكن ما ينسب للأمراء والكبراء من كثرة النسل ، لامتلاء قصورهم بالجوارى ، ليعوض هذا النقص العنصرى .

وإلى جانب الأقلية العربية الأرستقراطية ، يجب أن نذكر طائفة الموالى التى

---

(١) نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦ و ١٣٧ .

كانت تنتمى إليها أولا وتشد بأزرها، ثم انقلبت عليها فيما بعد حينما تمكنت واشتد نفوذها . وقد نمت هذه الطائفة بمر الأيام . وظهر منها كثير من القادة والزعماء النابهين ،الذين شغلوا أعظم المناصب فى الدولة وفى الجيش ، مل بنى شُهيد ، وبنى مغيث وبنى عَبْدَة ، وبنى جهور ، وبنى بسيل ؛ وهم الذين شغلوا مناصب القيادة والحجابة أجيالا . وإلى جانب هؤلاء ، يجب أن نذكر طائفة الصقالبة الأجانب التى ظهرت أهميتها منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وبلغت ذروة تضخمها ونفوذها أيام عبد الرحمن الناصر . وقد كان بنو أمية يؤثرون اصطناع هؤلاء الموالى والإفادة من عونهم وتأييدهم . .

وأما العنصر الثانى الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية فهو عنصر البربر . وقد قام البربر حسبما رأينا بأكبر قسط فى فتح الأندلس ، وفى الغزوات التى اضطلعت بها الجيوش الإسلامية فيما وراء البرنيه . وكانوا فى معظم الأحيان أغلبية فى تلك الجيوش ، وإن كانت القيادة قد لبثت على الأغلب فى أيدى القادة والضباط العرب . وكانت هجرة القبائل البربرية إلى شبه الجزيرة أسرع وأشد كثافة من هجرة العرب ، أولا لقرب منازلهم فى العدوة من شبه الجزيرة ، وثانياً لشعورهم بما كان لهم من فضل فى أعمال الفتح ، وثالثاً لما كان يحفزهم من آمال فى البحث وراء طالعهم فى هذا القطر الجديد ، الذى كانت وديانه الخضراء تجذبهم من بواديهم المقفرة . وقد استمرت هجرة البربر على هذا المنوال أجيالا ، بينما كانت هجرة العرب من منازلهم البعيدة فى شبه الجزيرة العربية وفى الشام بطيئة محدودة أضف إلى ذلك ما عمد إليه أمراء بنى أمية ، منذ عهد عبد الرحمن الداخل من اصطناع البربر إلى جانب الموالى والصقالبة ، والاستعانة بهم فى تدعيم سلطانهم ، لاسترابتهم بالقبائل العربية . وقد بلغت هذه السياسة كما سنرى فيما بعد ذروتها فى عهد المنصور بن أبى عامر ، حيث انثالت القبائل البربرية على شبه الجزيرة ، واحتل زعماؤها معظم المناصب الكبيرة ، وأضحى سواد الجيش مؤلفاً منها . وقد كانت معظم البطون البربرية المهاجرة تنتمى بالأخص إلى زناتة ومصمودة ومكناسة ونفزة والبرانس ، واشتهرت من هـذه البطون بالأخص ، مدغرة ومديونة ومكناسة وهوارة . ومنها خرج فيما بعد أمراء كثير من القواعد والثغور ، وقامت من بينها ممالك من دول الطوائف . وقد كان البربر أكثرية فى الشمال الغربى ، وفى وسط الأندلس فى منطقة جبال المعدن (أو جبال البرانس) ، وفى أراضى السهلة

ووادى الحجارة ، ومنطقة شرقى إشبيليه والفرنتيرة ، وهى مناطق تمتاز على الأغلب بهضابها الوعرة ، وهو ما كان يشجع البربر فى أحيان كثيرة على الثورة ومقاومة الحكومة المركزية للمحافظة على استقلالهم المحلى(١) .

والعنصر الثالث الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية هو عنصر المولدين ، وهم القوط والإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، ودخلوا حظيرة المجتمع الإسلامى إلى جانب زملائهم العرب والبربر ، موثرين أن يتمتعوا فى ظل الإسلام بمزايا المساواة والثقة ، والتحرر من القيود والأعباء التى تلاحق الذميين . ويعرف أولئك المولدون فى الإسبانية بالخوارج أو المرتدين Renegados ، أى الذين ارتدوا عن دينهم القديم ، وهو النصرانية ، ويسمون أحياناً بالمسالمة أو بالأسالمة ، أو أسالمة أهل الذمة ، متى كان إسلامهم حديثاً . وكان المولدون يكونون بين السكان كتلة كبيرة ربما كانت الأغلبية ، وقد كان إسلامهم سريعاً ، ولم يأت جيل أو اثنان حتى استطاعوا الاندماج فى المجتمع الإسلامى ، وأضحى من الصعب تميزهم من المسلمين الأصليين ، وغدوا بمضى الزمن عنصرا من أهم عناصر السكان إن لم يكن أهمها جميعاً ، سواء من حيث الكثرة أو المستوى الاجتماعى والحضارى .

وإلى جانب هذه العناصر الأساسية الثلاثة ، التى كانت تتكون منها الأمة الأندلسية ، كان ثمة عنصران آخران هما المستعربون أو النصارى المعاهدون **Mozárabes** وهم النصارى الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم القديم ، ولبثوا يعيشون فى المدن والأراضى المفتوحة تحت الحكم الإسلامى ، وقد كانت منهم ثمة أقليات كبيرة فى بعض المدن مثل طليطلة وقرطبة . واليهود ، وقد رأينا كيف ساعدوا الفاتحين المسلمين وقت الفتح ، وتعاونوا معهم فى حفظ المدن المفتوحة وإدارتها ، وقد كانت منهم أقليات فى معظم المدن الأندلسية ، تتمتع بحماية الحكومات الإسلامية ورعايتها . وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد ، وظهرت منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة فى الدولة ، وغلب نفوذها فى بعض المناطق ، كما حدث فى مملكة غرناطة البربرية ، وظهرت كذلك فى ميدان العلوم والآداب ، ونبغ منها علماء نابهون مثل ابن ميمون وغيره .

تلك هى العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الأمة الأندلسية . وسوف نعود من آن لآخر إلى التحدث عن هذه العناصر فى مختلف المواطن والمناسبات .

---

(١) يحدثنا ابن حزم تفصيلا عن منازل البربر فى الأندلس . راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٦٣ — ٤٦٧ .

الفصل السابع

المملكة النصرانية الشمالية

منذ قيامها إلى ولاية ألفونسو الثانى

بعث المملكة النصرانية فى الشمال . اجتماع فلول النصارى فى الهضاب الشمالية . الدوق بتروس وبلاجيوس . نشوء المملكة النصرانية . صمت إيزيدورو الباجى عن ذكرها . أقوال الرواية الإسلامية . إمارة جليقية والصخرة . رأى لابن خلدون فى شأنها . إغفال الفاتحين لأمرها . حملات المسلمين عليها . ارتدادهم عن تلك الهضاب . اجتماع النصارى حول بلاجيوس . حملة ابن أبى نسعة على جليقية . إغارة النصارى على الأراضى الإسلامية . غزو عقبة بن الحجاج لجليقية . نمو المملكة النصرانية . وفاة بلاجيوس . ولده فافيلا . إمارة كانتابريا . تحالفها مع جليقية . اتحادهما تحت ولاية ألفونسو الأول . ألفونسو الأول أو الكاثوليكى . اجتياحه للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على أسترقة . أخوه فرويلا أمير كانيابريا . استيلاء ألفونسو على مدينة لك . حملة يوسف الفهرى لإنقاذ أربونة . القتال بينه وبين البشكنس . عبور ألفونسو لنهر دويرة . وفاة فرويلا . وفاة ألفونسو . فرويلا الأول . استيلاؤه على شلمنقة وشقوبية وسمورة وقشتالة . اختلاف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الغزوة . خطر المملكة النصرانية . عبد الرحمن الأموى يرسل حملة إلى جليقية . غزو ألبة والقلاع . ما تقوله الرواية النصرانية عن موقعة بونتومو . ثورات النصارى على فرويلا . غزوه لنافار . بطشه وسفكه . إنشاؤه لمدينة أوبييدو . وفاته . انقسام المملكة . ولاية أورليوس للولايات الشرقية . ولاية سيلو للولايات الغربية . وفاة أورليوس . ولاية سيلو على المملكة كلها . الصلح بينه وبين المسلمين . وفاة سيلو . اضطراب المملكة . قيام مورجات ولد ألفونسو الأول . فرار ألفونسو ابن فرويلا إلى ألبة . تحالف مورجات مع المسلمين . أقوال الرواية الإسلامية . وفاة مورجات . ولاية برمند الأول لجليقية . تحالفه مع ألفونسو . تخلى برمند وولاية ألفونسو على المملكة كلها . أسطورة القديس يعقوب وقيام مدينة شنت ياقب . عزلة المملكة الشمالية . خواص مجتمعها .

نقف الآن قليلا فى تتبع أخبار دولة الإسلام فى الأندلس ، لنأتى على أخبار دولة متواضعة أخرى ، قامت فى اسبانيا إلى جانب الدولة الإسلامية فى نوع من الخفاء والصمت ، ولم يشعر المسلمون بمولدها ولا نموها فى أعوامها الأول ، ولم يقدروا أهميتها حين شعروا وجودها ، ولم يعنوا بأمرها إلا حينما نمت وانتظمت إلى قوة تستطيع العدوان والمقاومة : تلك هى المملكة الإسبانية النصرانية التى يجب أن تأخذ منذ الآن مكانها فى تاريخ شبه الجزيرة ، إلى جانب دولة الإسلام فيها . ولم يكن قيام هذه المملكة الناشئة ، سوى طور جديد فى حياة تلك المملكة

القوطية التي سحقها العرب عند فتح الأندلس (٩٢ هـ — ٧١١ م) ، والتي قامت بعد ذلك تستأنف حياتها ضئيلة متواضعة ، في قاصية اسبانيا الشمالية الغربية وفيما وراء الصخر ، ثم لبثت تنمو بطيئة ولكن ثابتة ، حتى رسخت دعائمها في هاتيك الهضاب ، وبدأت بعد ذلك معركة الحياة والموت ، مع تلك المملكة الإسلامية التي قامت في الجنوب ، على أنقاض مملكة القوط القديمة ، وهي معركة تشغل منذ الآن حيزاً كبيراً في تاريخ الإسلام في اسبانيا .

وقد نشأت المملكة الإسبانية النصرانية في ظروف كالأساطير ، ونشأت في نفس الوقت الذي افتتح فيه العرب اسبانيا ، وسحقوا دولة القوط القديمة . ففي موقعة شريش التي مزق فيها جيش القوط وقتل آخر ملوكهم ردريك (لذريق) (٩٢ هـ) ، فرت شراذم قليلة من الجيش المنهزم إلى الشمال ، واختفت فيما وراء تلك الجبال الشمالية ، التي وقف عندها تيار الفتح الإسلامي ، واجتمعت بالأخص في هضاب كانتابريا (نافار وبسكونية) في الشرق ، وفي هضاب أشتوريش[١] في الغرب ، واجتمع فل النصارى في الهضاب الشرقية تحت لواء زعيم يدعى الدوق پتروس ، واجتمع فلهم في الهضاب الغربية في جليقية تحت لواء زعيم يدعى پلاجيوس أو پلايو . وكان پتروس ينتمي إلى أحد الأصول الملكية ، وكان من قادة الجيش في عهد وتيزا ملك القوط ، ثم في عهد خلفه ومغتصب ملكه ردريك . أما پلاجيوس أو پلايو فيحيط الغموض بأصله ونشأته ، ولكن يبدو مما تنسبه إليه الرواية من ألوان الوطنية والبسالة والبطولة ، أنه كان رفيع المنبت والنشأة ، وتقول بعض الروايات إنه ولد الزعيم فاڤيلا[٢] الذي قتل الملك وتيزا في هضاب جليقية ، وإنه كان لذلك من خاصة الملك ردريك وقادته . وهذا ما يردده سيمونيت إذ يقول في أصل پلاجيوس ما يأتي : « وكان الحزب المتمسك بدينه ووطنه ، المنكر لخيانة أولاد وتيزا ، قد اختار له رئيساً رفيع المواهب هو الدون پلايو بن فاڤيلا ، من سلالة القوط الملكية . ويقول البعض إنه ولد من يدعى ڤرمندو ، وحفيد للملك ردريك ، وقد حارب إلى جانب ردريك . ثم رأى فيه الأحبار والأكابر الذين التفوا حوله ، أنه جدير بالعمل على إحياء مملكة

---

(١) في الجغرافية الحديثة « أستورية » **Asturias**

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٦ ، حيث يقول « وملكوا عليهم (أي الجلالقة) بلاى ابن فافلة »

القوط»[1]. وتعرف الرواية الإسلامية پلايو وتحدثنا عنه وتسميه (بلاى) ، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك، وتنعته غالباً بأنه « علج من علوج النصارى »[2] وتتبع أخباره مع المسلمين ، ولكنها لا تلقى ضياء كثيراً على أصله أو أحوال مملكته الصغيرة . ذلك لأن المسلمين لم ينفذوا قط إلى ما وراء الهضاب الوعرة ، التى امتنع بها هذا الزعيم وفله ، والتى نشأت فيها جذور المملكة النصرانية الشمالية ، التى غدت غير بعيد خطراً على دولة الإسلام فى اسبانيا . ومن الغريب أن راوية نصرانياً كبيراً معاصراً هو إيزيدور الباجى ، وهو حبر عاصر الفتح الإسلامى ، وكتب روايته منذ منتصف القرن السابع ، ووصل فى كتابتها حتى سنة ٧٥٤ م[3]، لم يذكر لنا فى روايته شيئاً عن قيام تلك المملكة النصرانية الصغيرة فى الشمال ، ولا عن زعيمها أو ملكها پلايو ، ولا عن غزوات المسلمين لها ، مع أن إيزيدور يتتبع أخبار الغزوات الإسلامية كلها ، منذ الفتح حتى منتصف القرن الثامن ، سواء فى اسـبانيا أو فى مملكة الفرنج ، ويقدم إلينا عنها كثيراً من التفاصيل والملاحظات الهامة . وقد يرجع ذلك إلى أن إيزيدور وهو يقيم فى الجنوب فى مدينة باجة ، كان يجهل قصة هذه المملكة النصرانية الناشئة ، ولكن ما نراه من عنايته بتدوين أخبار الغزوات الإسلامية فى فرنسا ، وأخبار مملكة أكوتين ، يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن يجهل أخبار مملكة جليقية النصرانية ، وهى أقرب إليه من فرنسا ، وأن أسباباً أخرى لعلها ترجع إلى انتماء أميرها پلايو إلى حزب ردريك الذى كان يبغضه المؤرخ ، هى التى حملته على إغفال أخبارها[4].

وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية ، تذكر لنا كيف نشأت المملكة النصرانية

---

(١) F.J. Simonet cit. Saavedra ; Historia de los Mozarabes de Espana, Vol. I. p. 148. ويقول المؤرخ المستشرق كاردون إن بلاجيوس يفتمى إلى أصل ملكى ، وانه الأمير الوحيد الذى نجا من فتك العرب (راجع Cardonne : ibid , I. p. 105.) ، بيد أن كاردون لا يقول لنا من أين استقى هذه الرواية .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١١٠ .

(٣) وقد كتبت باللاتينية بعنوان Isidorus Pacensis Chronicon . ونشرت ضمن المجموعة التاريخية الكنسية الإسبانية الكبيرة المسماة Espana Sagrada تصنيف الأب P. Enrique Florez . الجزء الثامن . ونشر دوزى منها مقتطفات فى كتابه : Recherches : V.I. p. 4-14 مع تعليقات .

(٤) راجع : Aschbach : ibid, I. p. 142

الإسبانية فى الهضاب الشمالية ، بعد أن سحقت فى موقعة شريش فقد لجأت شراذم قليلة من القوط عقب الفتح إلى الجبال الشمالية ، وامتنعت فى مفاوز جبال أشتوريش (أستورية) ، وقامت إمارتان نصرانيتان صغيرتان فى كانتابريا وجلّيقية . وكانت إمارة كانتابريا التى أسسها الدوق پتروس ، لوقوعها فى الطرف الغربى من جبال البرنيه فى سهول ناڤار وبسكونية ، عرضة لاقتحام الفاتحين لها حين سيرهم إلى فرنسا وحين عودهم منها . ولكن إمارة جلّيقية Galicia ، كانت تقع فى أعماق جبال أشتوريش الوعرة ، بعيداً عن غزوات الفاتحين ، وسميت جليقية لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التى كانت تسمى بهذا الإسم . فى هذه الهضاب النائية المنيعة اجتمع پلايو وصحبه ، وعددهم لا يتجاوز بضع مئات حسبما تقول الرواية ، ولجأوا إلى مغار عظيم فى آكام كوڤادنجا ، تحيط به وديان سحيقة خطرة ، ويعرف فى الرواية الإسلامية باسم (الصخرة)[١]. ويقول لنا ابن خلدون فى الفصل الذى يخصصه (لملوك الجلالقة) ، إن هذه الإمارة الصغيرة التى كانت مهد المملكة النصرانية ، لاتمت بصلة إلى القوط ، وإن ملوك الجلالقة ليسوا من القوط ، لأن أمة القوط كانت قد بادت ودثرت لعهد الفتح الإسلامى[٢]. بيد أنه يصعب علينا أن نقبل هذا الرأى على إطلاقه ، فمن المحقق أن فلول النصارى التى لجأت إلى الشمال كانت مزيجاً من القوط والإسبان المحليين ، ولكن الظاهر مما انتهى إلينا من أقوال الروايتين المسلمة والنصرانية ، أن الزعماء ولاسيما پلاجيوس كانوا من القوط ، وأن ملوك الجلالقة يمتون إلى القوط بأكبر الصلات .

ولم يعن المسلمون لأول عهد الفتح بأمر هذه الشراذم الممزقة عناية كافية . وكان فاتحا الأندلس موسى وطارق ، قد قاد كل منهما حملة إلى جليقية لسحق البقية الباقية من فلّ القوط ، ولكنهما لم يتمكنا من تحقيق غايتهما لاستدعائهما إلى دمشق كما أسلفنا . وكان إغفال أمر هذه الفلول الباقية بعد ذلك من أعظم أخطاء الفاتحين . بيد أنه لما كثرت ثورات النصارى فى الشمال ، وبالأخص فى بسكونية (أو بلاد البشكنس) ، اهتم ولاة الأندلس بقمعها وتأمين الولايات الشمالية ،

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ ، وهو يعارض هنا رأى ابن حيان فى أن المملكة النصرانية يرجع أصلها إلى القوط .

وسير الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفى والى الأندلس فى سنة ٩٨ هـ (٧١٨ م) جيشاً إلى الشمال لإخضاع النصارى ، فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس وهضاب أشتوريش ، وأوفدوا حليفهم الأسقف أوپاس وهو أخو الملك وتيزا إلى پلايو ليقنعه بالتسليم وعبث المقاومة ، فأبى پلايو ولجأ إلى كهوفه المنيعة فى صخرة كوڤادنجا ، ونفذ المسلمون إلى أعماق الجبال وحاولوا عبثاً أن يستولو على مراكز العدو ، وحالت بينهم وبينه الوديان السحيقة والآكام الرفيعة ، وحوصر پلايو وأصحابه فى « الصخرة » مدى حين ، وقطعت عنهم المؤن ، وتساقطوا تباعاً من الجوع ، حتى لم يبق منهم على قول الرواية سوى ثلاثين رجلا وعشر نساء[١]. وتزعم بعض الروايات النصرانية أن پلايو كر على المسلمين ، وأنهم هزموا هزيمة شديدة وفقدوا ألوفاً كثيرة ، ووقع أوپاس فى أيدى مواطنيه فعاقبوه على خيانته بالموت[٢] .

وقد أتيح لنا أن نزور هذه المنطقة الوعرة — منطقة كوڤادنجا — وأن نشهد الصخرة المنيعة ، التى تقول الرواية إن پلايو وأصحابه امتنعوا فى مغارها ، والتى تثوى فى جانب منها إلى اليوم رفات پلايو . والحق أننا شهدنا من الوادى الذى تشرف عليه الصخرة ، والذى يقال إن المسلمين رابطوا فيه لمحاصرة النصارى ، أروع منظر يمكن تصوره من الصخور الوعرة ، والآكام الرفيعة المدببة ، وأدركنا كيف عجز المسلمون عن اقتحام مثل هذا المعقل المنيع .

ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة ، ارتدوا عن جلّيقية محتقرين شأن هذه الشرذمة الممزقة الجائعة . فقويت لذلك نفس پلايو وأصحابه ، وانضم إليهم كثير من النصارى فى كانتابريا وسهول جليقية ، واختاروه ملكاً عليهم لما رأوا من بسالته وبراعته وقوة عزمه ، وألفى پلايو الفرصة سانحة لتوطيد سلطانه وتوسيع أملاكه ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية الشمالية ، وبدا لحكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التى أخذت تنتظم إلى قوة يخشى بأسها . ولكن اضطراب الشئون الداخلية حال مدى حين دون مطاردتها وغزوها .

وفى سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) فى عهد أمير الأندلس الهيثم بن عبيد ، بعث حاكم ولاية البرنيه وهو يومئذ الزعيم المسلم الذى تعرفه الرواية النصرانية باسم

---

(١) أخبار مجموعة ص ٢٨ ؛ وكذلك Dozy : Hist, II. p.129

(٢) Cardonne : ibid, I. p. 109, Aschbach : ibid; I. p. 145

منوسة أو مونس – جيشاً إلى جبال أشتوريش لغزو جليقية وسحق أميرها پلايو . ولكن پلايو استطاع أن يصمد للمسلمين كرة أخرى ، وأن يهزمهم هزيمة شنيعة . ولما رأى پلايو منعة معقله وقوة عصبته ، اخترق بسكونية وهاجم قوات المسلمين فى الوقت الذى كانت تتأهب فيه للسير إليه ، ومزق بعض وحداتها ، ثم ارتد إلى هضابه فاستعصم بها . ولما اضطربت شئون الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافقى وارتداد جيشه فى بلاط الشهداء (١١٤ هـ – ٧٣٢ م) ، وشغل الولاة برد جيوش الفرنج ، عن الأراضى الإسلامية فى سبتمانيا ، كثرت غارات العصابات الجليقية على الأراضى الإسلامية فى شمال نهر دويرة (دورو) وفى منطقة أسترقة ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من عيث النصارى . ولما تولى عقبة بن الحجاج حكومة الأندلس فى سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) ، ورأى خطر العصابات الجليقية وشدة عيثها فى الأراضى الإسلامية ، سار إلى جليقية وغزاها مرة أخرى فى سنة ٧٣٥ أو ٧٣٦ م (١١٨ هـ) واستولى على بعض مواقعها ، ولكن النصارى امتنعوا كعادتهم فى الجبال ولم يبلغ عقبة منهم أمراً . ولما اضطرمت الأندلس بالفتن ونشبت الحرب الأهلية ، بين مختلف الزعماء والقبائل ، ازداد النصارى جرأة وتحرشاً بالمسلمين وعيثاً فى أراضيهم ، ولم تستطع حكومة قرطبة أن تسعفهم بالعون والمدد لاشتغالها بالشئون الداخلية . وكانت سلطة الحكومة المركزية ضعيفة فى تلك الأنحاء النائية ، وكان سكانها ومعظمهم من البربر ، يكثرون من الخروج والثورة سخطاً على العرب ، واستئثارهم بالحكم والسيادة . وكان النصارى من رعايا حكومة قرطبة ، يدسون الدسائس ويرتكبون شتى الخيانات ، ويشجعون بذلك پلايو وعصبته على الإغارة والعيث فى أراضى المسلمين ، وكانت الإمارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشتد ساعدها ، ويهرع النصارى إلى لواء پلايو من مختلف الأنحاء .

ويقول العلامة ألتاميرا : « كان كفاح پلايو وزملائه الأشراف ، يرجع إلى الرغبة فى استرداد جزء من الأراضى المفقودة ، ومن جهة أخرى فإن احترام الفاتحين لدين المغلوبين وعاداتهم ، لم يجعل فى البداية للمعركة لوناً دينياً أو عنصرياً ، بل كان مدارها من جانب الأشراف ورجال الدين . استرداد الأملاك وشىء من هيبة الملك »(١) .

(١) R. Altamira : Historia de Espana, Vol. I. p. 224

واستمر پلايو فى حكم إمارة جليقية زهاء تسعة عشر عاماً ، وتوفى سنة ٧٣٧ م . ولكن بعض الروايات النصرانية تضع تاريخ وفاته بعد ذلك ، فتقول إنه لبث حتى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهرى للأندلس (١٢٧ — ١٣٧ هـ) (٧٤٥ — ٧٥٥ م) ، وأن الموقعة التى نشبت بين منوسة وپلايو كانت بين سنتى ٧٤٦ و ٧٥١[١] ، وهى رواية ظاهرة الضعف ، لأن منوسة قتل فى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) كما قدمنا ، والرواية الإسلامية واضحة دقيقة فى ترتيب الوقائع والتواريخ فى هذا الموطن . وخلف پلايو ولده فاڤيلا ، ولكنه توفى بعد حكم لم يطل أمده سوى عامين (سنة ٧٣٩ م) . وكان الدوق پتروس أمير كانتابريا قد توفى فى ذلك الحين أيضاً ، وخلفه ولده ألفونسو دوق كانتابريا ، ونمت هذه الإمارة النصرانية الصغيرة أيضاً واشتد ساعدها ، وقويت أواصر التحالف بينها وبين جليّقية بتزوج أميرها ألفونسو من ابنة پلايو واسمها أرموزندة أو هرمزندة . فلما توفى فاڤيلا ولد پلايو ، اختار الحلالقة ألفونسو دوق كانتابريا ملكاً عليهم ، واتحدت الإمارتان ، وقامت منهما مملكة نصرانية واحدة ، هى مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليّقية فى الرواية الإسلامية ، وتمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى شاطئ المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا إلى نهر دويرة جنوباً ، وتشمل مناطق شاسعة من القفر والهضاب الوعرة ، وتحتجب وراء الجبال بعيدة عن سلطان المسلمين وغزواتهم[٢] .

ويعتبر ألفونسو دوق كانتابريا ، أو ألفونسو الأول الملقب بالكاثوليكى مؤسس المملكة النصرانية الشمالية ، وأصل ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة[٣] ، الذين لبثوا قروناً يدفعون حدودهم إلى الجنوب تباعاً فى قلب المملكة الإسلامية ، ثم انتهوا بالقضاء عليها والاستيلاء على غرناطة آخر معاقلها (١٤٩٢ م) . وحكم ألفونسو فى ظروف حسنة ، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق الأندلس ، وكان أمر الولايات الشمالية فوضى ، والضعف يسود المسلمين فى تلك الأنحاء ، وكان ثمة منطقة عظيمة من القفر والخراب تفصل بين جليقية وبين الأراضى الإسلامية ، فاجتاحها ألفونسو بجموعه ، وقتل من بها من المسلمين القلائل ، ودفع النصارى

---

(١) Aschbach : ibid , I. p. 148—149

(٢) Aschbach : ibid , I. p. 152 و Dozy : Hsit., V. II. p. 130

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ .

إلى الشمال . ولما حل القحط بالأندلس (سنة ١٣٣ هـ — ٧٥٠ م) واشتد عصفه بالولايات الشمالية الغربية ، جلا كثير من المسلمين عن تلك الأنحاء ، واشتد ساعد النصارى فيها ، ورفعوا لواء الثورة ، وفتكوا بالمسلمين ، ونادوا بألفونسو ملكاً عليهم[١] ، وانتهز ألفونسو الفرصة فغزا أسْتُرقة واستولى عليها من يد المسلمين ، واستولى على كثير من البلاد والضياع المجاورة ، وضمها لأملاكه (١٣٦ هـ — ٧٥٣ م) . وهكذا نمت تلك المملكة النصرانية التى نشأت فى ظروف كالأساطير واتسعت حدودها ، واشتد بأسها بسرعة مدهشة ، ولم يأت منتصف القرن الثامن حتى بدأت تناهض الإسلام فى الأندلس وتغالبه ، وتغير على معاقله وأراضيه .

وعهد ألفونسو بإمارة كانتابريا وهى القسم الشرقى من مملكته ، إلى أخيه فرويلا (أو فرويلة) ، فكان يغير أيضاً على الأراضى الإسلامية المجاورة ، ويعيث فيها قتلا ونهباً وسبياً ، ثم يعود مسرعاً إلى الجبال خشية أن يلحق به المسلمون . بيد أن المسلمين كانوا يومئذ فى شغل شاغل من الفتنة والحروب الداخلية ، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس يعنى يومئذ بقمع الثورة فى الشمال ، فانتهز ألفونسو تلك الفرصة وغزا مدينة لُك (لوجو) الحصينة وهى أقصى معاقل المسلمين فى الشمال الغربى وافتتحها (سنة ١٣٧ هـ — ٧٥٤ م) ، وكان يوسف قد انتهى من إخماد الثورة فى الشمال ، وأراد إنجاد المدينة المحصورة ، فجاءته الأنباء بمقدم عبد الرحمن الأموى ، فهرول إلى الجنوب وترك لُك لمصيرها . وكان أيضاً قد أرسل قبل أن يغادر الشمال قوة من جنده بقيادة الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب لإنجاد ثغر أربونة ، الذى كان يحاصره الفرنج يومئذ ، ففاجأها النصارى قبل أن تعبر البرنيه ، ونشبت بين الفريقين معركة مزق فيها المسلمون وقتل قائدهم سليمان بن شهاب ، وارتد فلهم إلى الجنوب (سنة ٧٥٦ م)[٢] . والظاهر أن الذى هاجم المسلمين فى تلك الموقعة هو فرويلا وحلفاؤه أو رعاياه البشكنس . وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) غير مرة ، وعاث فى أراضى المسلمين مراراً ، وكان يقتل كل من وقع فى يده من المسلمين ، ويسوق النصارى معه إلى الشمال . ولبث مع أخيه فرويلا كلٌ يعمل من جانبه على توسيع المملكة

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦١ و ٦٢ .

(٢) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٨ ؛ وكذلك **Aschbach : I. ibid ; I.p. 155** والهوامش .

النصرانية ، حتى توفى فرويلا سنة ٧٦٤ م (١٤٦ هـ) ، وتولى أخوه ألفونسو من بعده حكم المملكة كلها ، ولكنه لم يعش طويلا ، وتوفى فى العام التالى (٧٦٥م)[١] فخلفه ابنه فرويلا الأول . وكان عبد الرحمن الأموى يكرس كل جهوده وقواه لقمع الثورة الخطيرة التى نظمها العلاء بن مغيث باسم الدعوة العباسية ، فرأى فرويلا الفرصة سانحة لغزو الأراضى الإسلامية[٢] فعبر نهر دويرة فى جيش ضخم وغزا لُك وبُرتقال وشَلَمنقة وشَقَوبية وآبلة وسمّورة وقشتالة[٣] ، واستولى عليها من المسلمين ، وعاث فى تلك المنطقة سفكاً وتخريباً وضمها إلى أملاكه ، فصارت جزءاً من مملكة جلّيقية ، حتى استعادها المسلمون بعد ذلك بنحو قرنين فى عهد الحاجب المنصور . وتختلف الرواية الإسلامية فى تعيين تاريخ هذه الغزوة فيضعها ابن الأثير قبل ذلك بأعوام فى حوادث سنة ١٤٠ هـ (٧٥٨ م) ويقول إن الذى قام بها هو تدويلية (تدڤيليا) ابن أذفنش (ألفونسو) ، ولكن ألفونسو توفى بعد ذلك كما رأينا[٤] ، ويضعها ابن خلدون بعد سنة ١٤٢ هـ وهى التى يعينها تاريخاً لوفاة ألفونسو ، فى عهد فرويلا ، وقد تولى فرويلا الملك بعد وفاة أبيه حسبما تقول الرواية النصرانية فى سنة ٧٦٥ م (١٤٧ هـ)[٥]. وعلى أى حال فقد كانت هذه الغزوة أعظم فتح قام به النصارى يومئذ فى الأراضى الإسلامية ، بعد افتتاح الفرنج لسبتمانيا واستيلائهم على أربونة أمنع مواقع ولاية « الثغر » قبل ذلك بأعوام قلائل .

وهنا ظهر خطر المملكة النصرانية واضحاً جلياً . ولم يكن عبد الرحمن الأموى بغافل عن ذلك الخطر ، وكان رغم اشتغاله المتواصل بقمع الثورة والفتن الداخلية ، يتحين الفرص لدرئه ، ففى سنة ١٤٨ هـ (٧٦٦ م) أرسل بعض قواده إلى

---

(١) يضع ابن خلدون (ج ٤ ص ١٨٠) وفاة ألفونسو(أذفونش) فى سنة ١٤٢ هـ (٧٦٠م) .

(٢) ينسب أشباخ هذه الغزوة لفرويلا الكبير (ج ١ ص ١٥٦) معتمداً على رواية ردريك الطليطلى ، ولكن الرواية الإسلامية وهى أقدم من ذلك ، تجمع على أنها وقعت بعد ذلك فى عهد فرويلا ابن الفونسو .

(٣) تراجع الأسماء الفرنجية لهذه الأماكن فى جدول الأعلام التاريخية والجغرافية الملحق بنهاية الكتاب .

(٤) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٦ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ و ١٨٠ ؛ وكذلك المقرى عن ابن حيان فى نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ .

الشمال على رأس قوة كبيرة ، فسارت حتى حدود جليقية ، واشتبكت مع النصارى والعصاة فى عدة مواقع ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى[1]. وفى سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) بعث عبد الرحمن جيشاً بقيادة مولاه بدر إلى ألبة والقلاع [2]، وهى المنطقة الواقعة بين بلاد البشكنس وجبال كانتاريا ، على ضفاف نهر إيبرو فى الطرف الشرقى من مملكة جليقية ، فغزاها وتوغل فيها وأرغمها على أداء الجزية ، وقبض على كثير من العصاة فى تلك الأنحاء[3] . وتقص الرواية النصرانية علينا بعد ذلك نبأ موقعة كبيرة وقعت بين المسلمين والنصارى فى بونتومو من أعمال جليقية ، وتقول لنا إن عبد الرحمن أرسل فى سنة ٧٧٣ م (١٥٧ هـ) جيشاً كبيراً إلى الشمال بقيادة حاجبه عامر ، أو تمام بن علقمة على يظهر ، فلقيه النصارى بقيادة فرويلا فى بونتومو ، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة ، هزم فيها المسلمون وقتل منهم عدد عظيم تقدره الرواية بأربعة وخمسين ألفاً وأسر قائدهم[4]. ولم تشر الرواية المسلمة إلى أن موقعة بهذه الخطورة نشبت بين المسلمين والنصارى ، ولاسيما فى هذا التاريخ ، الذى كان عبد الرحمن مشتبكا فيه مع الدعى الفاطمى فى معارك تقتضى كل جهوده وموارده ، والرواية النصرانية تبدى كعادتها فى هذا الموطن مبالغة تسبغ عليها كبير ريب .

وكان فرويلا طاغية شديد البطش ، ولم يكن حكمه موفقاً ، فقد اضطرمت فى جليقية الغربية نار ثورة كبيرة أيدها المسلمون فيما يظهر ، وأخمدها فرويلا بعد جهد ، ولكنه فقد كثيراً من أرضه التى افتتحها فى تلك الأنحاء ، وعادت إلى

---

(١) Conde : ibid , I. p. 207

(٢) تطلق الرواية الإسلامية اسم «ألبة والقلاع» على ولايتى قشتالة القديمة Castile وآلفا Alava معربة عن اللاتينية القديمة Alava et Castella Vetula . وكانت « ألبة والقلاع » تشمل فى العصور الوسطى ، جميع المنطقة الواقعة بين نهر دويرة جنوباً والبحر شمالا ، وبين نافار (بلاد البشكنس) وأراجون (الثغر الأعلى) شرقاً ومملكة ليون غرباً ؛ وألبة هى فى الواقع إحدى ولايات بلاد البشكنس ، وتمتد غرباً حتى « برغش » وشمالا حتى خليج بسكونية ، وجنوباً حتى نهر إيبرو . وأما « القلاع » أو قشتالة Castella أو Castile فقد كانت تشمل باقى المنطقة من برغش شمالا إلى ما بعد نهر دويرة (الدورو) وجبال واد الرملة Guadarrama جنوباً ، وحتى موقع مدينة مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

(٤) Aschbach: ibid ; I, p. 159 والهوامش

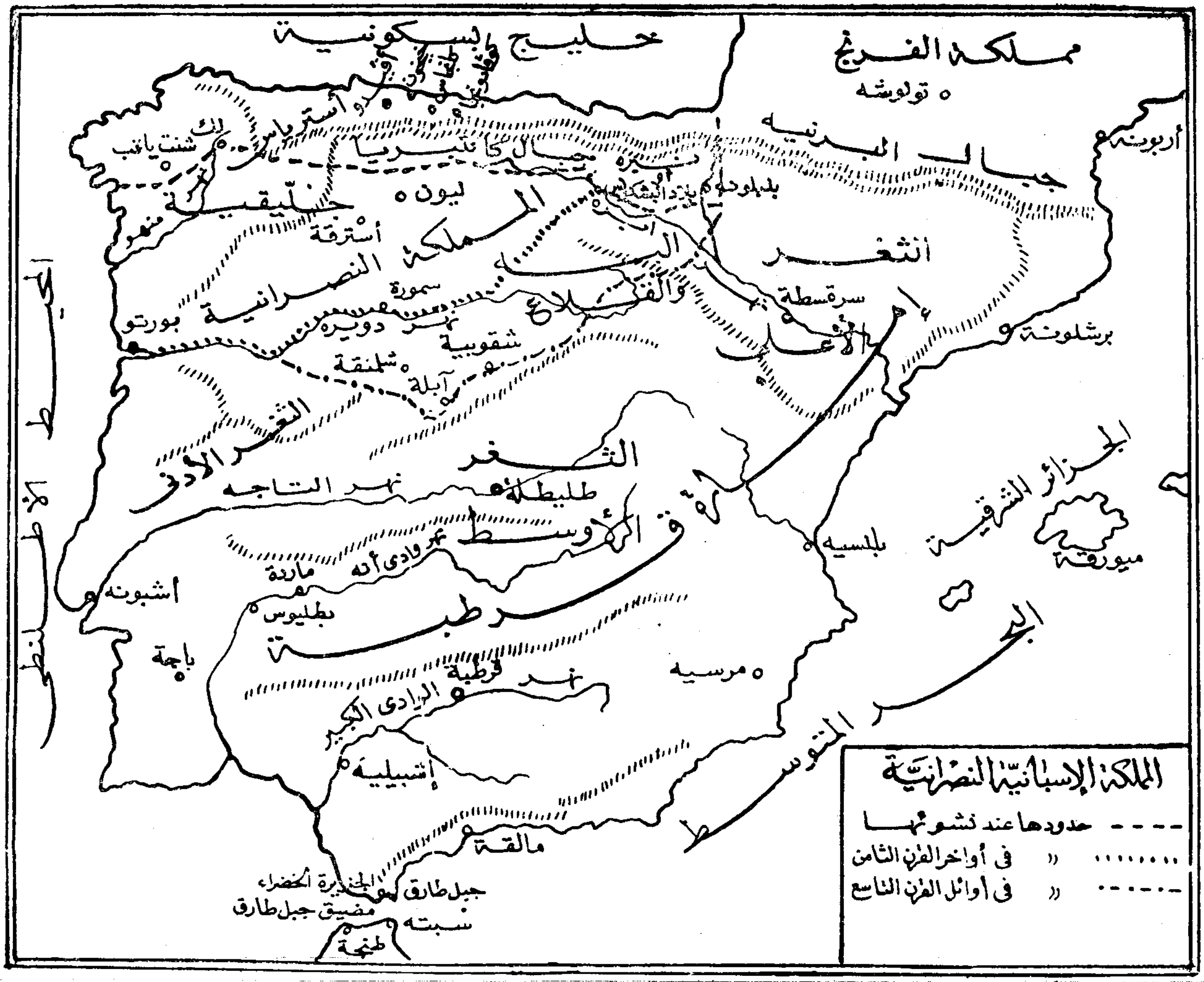
مملكة الفرنج
خليج البسكونية
تولوشه
أربونة
جبال البرنيه
جبال كانتبريا
أستورياس
ليون
جليقية
أسترقة
المملكة النصرانية
سمورة
نهر دويره
بورتو
شقوبية
شلمنقة
آبلة
الثغر الأعلى
سرقسطة
برشلونة
الثغر الأدنى
الثغر الأوسط
طليطلة
نهر التاجه
وادى آنه
ماردة
بطليوس
أشبونه
باجة
قرطبة
نهر الوادى الكبير
إشبيلية
مرسية
بلنسية
الجزائر الشرقية
ميورقة
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطي
مالقة
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
المملكة الإسبانية النصرانية
حدودها عند نشوئها
فى أواخر القرن الثامن
فى أوائل القرن التاسع

المسلمين ، ونشبت ضده فى ناڤار فى الشرق ثورة أخرى ، فأخمدها بشدة ، واجتاح ناڤار وأخضعها ، وكان من أسراه فى تلك المعارك فتاة حسناء من أسرة كريمة تدعى مونيا فأحبها وتزوجها ، ورزق منها بولده ألفونسو ، الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان مسرفاً فى الانتقام والسفك ، قتل كثيراً من أفراد أسرته وقتل أخاه بيده ، وكان الشعب يبغضه ويلتف حول « أورليوس » ابن عمه فرويلا . وأنشأ فرويلا مدينة أوبييدو التى غدت فيما بعد حاضرة جليقية ، ولكنه لم يتخذها قاعدة للحكم ، ولبث فى مدينة كانجاس حاضرتها الأولى ، حتى هلك قتيلا فى ثورة جديدة نشبت سنة ٧٧٥ م[١] .

ولما توفى فُرُويلا كان ولده من مونيا ألفونسو طفلا ، فافترقت كلمة الشعب ، وانحازت منه أغلبية كبيرة إلى أورليوس أو أورالى[٢] ولد فرويلا أخى ألفونسو الأول واختارته للملك ، ولكنه لم يحكم إلا فى الولايات الشرقية فى ناڤار وبسكونية ، حيث كان يحكم أبوه من قبل ، وانحازت جليقية الغربية إلى سيلو أو شيلون[٣] زوج أروزندا إبنة ألفونسو الأول ، وانقسمت المملكة بذلك إلى إمارتين . ولكنهما تهادنتا ولم تقع بينهما حرب ولا منافسة . وفى سنة ٧٧٨ م غزا شارلمان بلاد البشكنس فى طريقه إلى سرقسطة حسبما قدمنا ، فاضطر أورليوس أن يسعى إلى محالفة المسلمين . ولم تقع فى ذلك الحين فيما يظهر حروب بين المسلمين ومملكة جليقية ، لاشتغال كل منهما بشئونه الخاصة . وتوفى أورليوس سنة ٧٨١ م ، فاختار البشكنس مكانه سيلو لأن ألفونسو ولد فرويلا كان لايزال طفلا ، واتحدت المملكة مرة أخرى . ولبث سيلو ملكاً على جليقية المتحدة ثلاثة أعوام أخرى ، وفى عهده عقد الصلح بين المسلمين والنصارى . ولكن نشبت بعض ثورات محلية فى جليقية نجح فى إخمادها ، وتوفى بعدئذ بقليل سنة ٧٨٤م[٤] .

وتوفى سيلو دون عقب ، ولكنه أوصى بالملك لألفونسو ولد فرويلا الطفل

---

(١) يضع ابن خلدون وفاة فرويلا فى سنة ١٥٨ (٧٧٥ م) متفقاً بذلك مع الرواية النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) .

(٢) هكذا تسميه الرواية العربية وهى تعتبره ملكاً لجليقية كلها (راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٢)

(٣) وهو اسمه فى الرواية العربية . ويعتبره ابن خلدون خطأ ولد فرويلا الكبير (ج ٤ ص ١٨٠) .

(٤) يضع ابن خلدون وفاة سيلو أو شيلون سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) متفقاً أيضاً مع الرواية النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) . وكذا ابن الأثير (ج ٦ ص ٢٢) .

وبالوصاية عليه لزوجه أروزندا . ولكن الأشراف لم يرضوا عن حكم طفل وامرأة ، وانضم إليهم فريق من الشعب ، ولم تلبث جليقية أن اضطرمت بثورة قوية على رأسها زعيم يدعى مورجات — وفى الرواية العربية مورقاط — وهو ولد غير شرعى لألفونسو الأول من جارية عربية ، فاستولى على جليقية الغربية ، وانضم إليه كثير من الأشراف والزعماء الذين اشتركوا فى محاربة فرويلا خشية أن يستقر الملك لابنه فيبطش بهم فيما بعد ، ففر ألفونسو إلى ألبة حيث عصبة أمه وعشيرتها ، وقد كانت بسكونية حسبما تقدم . ورأى مورجات أن يوطد مركزه وسلطانه بالتحالف مع المسلمين ، وتحالف حزب ألفونسو مع الفرنج أعداء المسلمين ، واتخذ مورجات قاعدة حكمه فى مدينة براقيا فى قاصية جليقية . وكان رجال الدين ومن إليهم من النصارى والمتعصبين يبغضونه ويثيرون الشعب عليه ، لأنه بالغ فى التودد إلى المسلمين والتقرب إليهم ، ولأنه يمت إليهم بصلة الدم بواسطة أمه العربية . ولكنه استطاع مع ذلك أن يحكم مملكته الصغيرة حتى وفاته فى سنة ٧٨٩ م[١] .

وتشير الرواية العربية إلى طرف من هذه الحوادث ، وتقول لنا إن مورقاط (مورجات) وثب على أذفنش (ألفونسو) فقتله ، ولكن ألفونسو لم يقتل كما قدمنا . وسنرى أنه يتولى الملك ويخوض مع المسلمين فى الأعوام التالية كثيراً من الوقائع . وتقول الرواية العربية أيضاً ، إن المسلمين انتهزوا فرصة الاضطراب الذى وقع فى جليقية ، من جراء هذه الحوادث ، فسار إليها وإلى طليطلة وغزاها وأثخن فيها[٢] ، وهذا ما لا تشير إليه الرواية النصرانية . والظاهر أن المسلمين أغاروا على ألبة والقلاع ، لأنهم كانوا على وئام وتحالف مع مورقاط أمير جليقية . ووقعت هذه الغزوة حسبما تشير الرواية العربية حوالى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٦ م) أعنى فى أواخر عهد عبد الرحمن الداخل .

وكان طبيعياً بعد أن توفى مورجات عميد الثورة ومغتصب الملك ، أن يعود العرش إلى صاحبه الشرعى ، أعنى ألفونسو ولد فرويلا . ولكن الأشراف لبثوا

---

(١) Aschbach : ibid , I. p. 165—166

(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٠ ، ويسمى مورقاط هنا بسمول قاط وهو تحريف نسخ أو خطأ مطبعى على ما يظهر .

فى توجسهم من نقمة ألفونسو ، واختاروا للملك برمند (أو برمودو) ، وهو ولد لفرويلا وأخ لأروليوس ، الذى تولى إمارة البشكنس من قبل . وكان قد هجر الحياة الدنيا إلى عزلة الدير ، فتولى الملك على غضاضة منه ، ولكنه لم يحكم على ما يظهر إلا فى غربى جليقية ، حيثما كان يسود نفوذ مورجات ، ولبث ألفونسو أميراً على الأنحاء الشرقية . وفى ذلك الحين كان أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن يتأهب لغزو الشمال ، فخشى برمند خطر الإنقسام على مستقبل المملكة ، وعقد الصلح مع ألفونسو وولاه قيادة الجيش ، ولم تمض ثلاثة أعوام حتى ضاق ذرعاً بمهام الملك فتنازل عن العرش مختاراً لألفونسو ، وارتد إلى حياة الدير والعزلة ، وتولى ألفونسو الملك فى أواخر سنة ٧٩١ م (١٧٥ هـ)[1] باسم ألفونسو الثانى . وبذلك عادت المملكة النصرانية إلى اتحادها مرة أخرى .

وفى أواخر عهد ألفونسو الثانى ، الملقب « بالعفيف » el Casto ، وقع حدث دينى كان له فيما بعد أثر عميق فى توجيه مصاير المملكة النصرانية ، هو اكتشاف قبر القديس ياقب ، وهو القديس يعقوب أو يعقوب الحوارى . وتذكر الأسطورة أنه لما قتل بأمر هيرود الثانى ملك بيت المقدس ، حمل تلاميذه جثته فى مركب جاز به البحر المتوسط إلى المحيط ، ثم حملتهم الرياح شمالا حتى انتهوا إلى موضع فى قاصية جليقية ، ودفنوا جثمان القديس فى سفح تلال هنالك . ومضت العصور ، وغاض القبر ولم يعلم مكانه ، حتى كانت سنة ٨٣٥ م ، حيث زعم القس تيودمير أسقف إيريا أنه اكتشف القبر ، هداه إليه ضوء نجم ، وحمل النبأ فى الحال إلى الملك ، فأمر أن يبنى فوق هذه البقعة كنيسة ، وذاعت الأسطورة فى جميع الأنحاء ، وصدقها المؤمنون دون تردد ، وهرعوا يحجون إلى البقعة المقدسة ، وقامت حول المزار المزعوم مدينة نمت بسرعة ، وغدت مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela المقدسة ، وأنشئت فيما بعد فوق القبر مكان الكنيسة الساذجة كنيسة جامعة (كتدرائية) ، غدت من أعظم كنائس اسبانيا ضخامة وروعة وفخامة . وكان لقيام هذه المدينة المقدسة أثر كبير فى إذكاء الحماسة الدينية والعاطفية القومية فى إسبانيا ، وغدا القديس ياقب

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٠ ، وهو يتفق هنا مع الروايه النصرانية فى الوقائع والتواريخ وراجع أيضا Aschbach : I. p. 188—192

« حامى » اسبانيا كلها ، وغدا قبره من أشهر المزارات النصرانية فى أوربا .

وينوه الأستاذ ألتاميرا بأهمية هذا الحدث الدينى ، وأثره فى حضارة هذه المنطقة من اسبانيا ، فيقول : « وقد بعث هذا الاكتشاف فى النصارى أيما سرور ، وانتظمت وفود عظيمة ، جاءت لتحج إلى القبر ، لا من الأراضى الإسبانية وحدها ، ولكن من الخارج أيضاً ؛ وهكذا بدأ تيار من الزيارات والمؤثرات الأوربية فى جليقية ، وكان لها أعظم تأثير فى العادات والآداب »[١] .

وقد أتيح لنا أن نزور مدينة شنت ياقب ، وهى من أعجب وأجمل المدن الإسبانية ، ذات طابع خاص بها ، وهى أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بهذا الطابع الخاص . وطابعها القدم المشبع بالجلال والوقار ، وهى تبدو بشوارعها المعقودة ، وميادينها التى تغص بالصروح التاريخية ، مدينة قديمة عريقة حقاً . وأروع ما تقع عليه العين كنيستها العظمى ، التى تقوم فى وسطها ، وتبدو بواجهاتها الفخمة وصرحها الشامخ ، وبرجها العظيم ، أثراً من أعظم الآثار الدينية .

وقد نشأت هذه المملكة النصرانية الشمالية ، مستقلة فى ظروفها وفى خواصها ، ولبثت آماداً طويلة بعيدة عن الإتصال بالأمم النصرانية الأخرى ، ولم تنشأ بينها وبين جيرانها المسلمين علائق سياسية أو اجتماعية قوية تؤثر فى نظمها وخواصها ، فاستمرت تحتجب بوعر الجبال وعباب المحيط ، تسود فيها روح المملكة القوطية القديمة ونظمها ، واستمر الجلالقة دهراً ينتسبون إلى القوط ، ويسمون أنفسهم قوطاً ، وتسير حكوماتهم على سنن السياسة القوطية ونظمها ، فالعرش مطلق يقبض على زمام السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ولايستطيع الأشراف الحد من سلطانه إلا بالثورة ، أو باستعمال حقهم فى الانتخاب ، واستمرت خواص المجتمع القديم كما كانت أيام القوط : أقلية غنية قوية تستأثر بنعم الثروة والجاه ، وأكثرية فقيرة مستعبدة ترزخ تحت جور العرش ، واستغلال الأشراف والسادة ، بيد أن هذه الأكثرية استطاعت أن تشق طريقها إلى الحرية ، حينما اشتدت معركة الحياة والموت بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا ، واضطرت المملكة أن تلجأ إلى الأكثرية للذود عن حدودها وحياتها ، وانقلب الرقيق القديم جنداً يثور ضد

---

(١) R. Altamira: Hist. de Espana; Vol. I. p. 239

وتعرف الرواية الإسلامية هذه الأسطورة وتشير إليها . راجع الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١١٥ .

سادته ، وبرغمهم على احترامه ومصانعته . هكذا نشأت المملكة النصرانية الشمالية ، ونمت واتسعت حدودها فيما بين الجبال والقفر ، حتى أصبحت تمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن المحيط شمالا إلى ما بعد ضفاف نهر دويرة جنوباً ، وتشمل عدة مناطق وقواعد ، كانت قبل ذلك بفترة يسيرة فى قبضة الإسلام .

وهنا نقف فى تتبع أخبار المملكة النصرانية عند هذا الحد ، لنستأنفه فى مواطنه فيما سيأتى .

الفصل الثامن

هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام

(١) ولاية العهد .هشام يخلف أباه عبدالرحمن .خلاله . خروج أخويه سليمان وعبدالله . خضوع عبد الله . مطاردة سليمان وعبوره إلى المغرب . الثورة فى الشمال . إخمادها . عدوان النصارى . غزو جليقية وهزيمة النصارى . غزو المسلمين الثغر الفرنجى . موقف حكام الشمال وانحرافهم إلى الفرنج . الاستيلاء على جرندة ومحاصرة أربونة . موقعة قبل دنى بين المسلمين والفرنج . غزو جليقية ثانية . هزيمة الجلالقة . وفاة هشام . حزمه وتقواه . منشآته بقرطبة . شغفه بالجهاد . إعزازه للغة العربية . نفوذ الفقهاء فى عهده . انتشار مذهب مالك بالأندلس . (٢) الحكم بن هشام وخلاله . محاربته لنفوذ الفقهاء وسخطهم عليه . غزوة ألبة والقلاع. الثورة فى سرقسطة . عود سليمان وعبد الله عمى الحكم إلى الثورة . استنصار عبد الله بشارلمان . غزو الفرنج للثغر الأعلى ثم انسحابهم . هدوء الثورة فى الشمال . الحرب بين الحكم وعمه سليمان . هزيمة سليمان وإعدامه . خضوع عبد الله . سياسة الفرنج نحو اسبانيا المسلمة . تحرشهم بالمملكة الإسلامية . موقف الخلافة العباسية من هذه السياسة . اتحاد الغاية بينها وبين الفرنج . إنتهاز الفرنج لاضطراب الحوادث الداخلية . غزوهم للثغر الأعلى ومحاصرتهم لبرشلونة . دفاع المسلمين الباسل عنها . سقوطها فى أيدى الفرنج . إنشاء الفرنج للثغر القوطى . ائتمار الفقهاء والأعيان بالحكم . اكتشاف المؤامرة وسحقها . الثورة فى ماردة . الثورة فى طليطلة تعيين عمروس ابن يوسف حاكماً لها . واقعة الحفرة . حصار الفرنج لطرطوشة . تحرك نصارى الشمال . عيثهم فى أراضى المسلمين . مسير الحكم لمحاربتهم . غزو المسلمين لقطلونية . عقد الهدنة بين الحكم وشارلمان . بواعث هذا الصلح . الثورات المحلية . القحط فى الأندلس . غزو المسلمين لجليقية . سخط أهل قرطبة على الحكم . تحريض الفقهاء . تحرك العامة وزحفهم على القصر . واقعة الربض . إخماد الثورة وتمزيق الثوار . معاقبة أهل الربض ونفيهم . مسير الأندلسيين إلى الإسكندرية وافتتاحهم لاقريطش . بلاغ الحكم عن الثورة وشعره فيها . تحوطاته بعد إخمادها . مرض الحكم ووفاته . وصيته لولده عبد الرحمن . أخلاق الحكم وصفاته . توطيده لهيبة الملك . إصطفاؤه للصقالبة . أبهته وفخامته . شعره . رجال دولته . الحاجب عبد الكريم . قومس أهل الذمة . ازدهار العلوم والآداب . عباس بن فرناس ويحيى الغزال .

— ١ —

خلف عبد الرحمن الداخل ولدُه هشام بعهد منه ، ولم يكن أكبر ولده ، بل كان أكبرهم سليمان والى طليطلة ، ولم يك يومئذ ثمة نظام خاص لولاية العهد ، بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور ، حقاً مفوضاً للأمير أو الإمام ، يجريه وفقاً

للمصلحة العامة[١]، ولم يكن انحصاره فى ولد الأمير أو أسرته ، سوى تقليد من تقاليد السياسة والعصبية ، سارت عليه الدولة الأموية ، فوضعت بذلك فى الدول الإسلامية أسس الأسر الملوكية ، والعروش المتوارثة . وكان من الطبيعى بعد أن ظفر عبد الرحمن الأموى ، بإحياء تراث أسرته المندثر فى المشرق ، أن يصل ما انقطع ، وأن تقوم من هذا الفرع الأموى ، أسرة ملوكية جديدة تتعاقب فى العرش ، وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب .

وهكذا اختار عبد الرحمن لولاية العهد من بين بنيه الأحد عشر ، ولده هشاماً ، وآثره بهذه الاختيار لما توسمه فيه من المزايا والمواهب الخاصة . وكان مولده بقرطبة فى سنة ١٣٩هـ — ٧٥٦م[٢] . وكانت أمه — وهى « أم ولد »[٣] بارعة فى الحسن تدعى «حلل»[٤]— أحب نساء عبد الرحمن إليه ، وأكثرهم نفوذاً لديه ، وكان هشام حينما توفى أبوه مقيماً بماردة مقر ولايته ، فأخذ البيعة له أخوه عبد الله المعروف بالبلنسى ، ولكن على غضاضة منه ، لأنه مثل أخيه سليمان ، كان يرى نفسه أحق بولاية العهد من أخيه الأصغر . ودخل هشام قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، وبويع فى مستهل جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) ، وكان حينما ولى العرش فى الثالثة والثلاثين من عمره ، بيد أنه كان عاقلا حازماً وافر الشجاعة والعزم ، كثير العدل والتقوى، جم التواضع والرفق . وتشيد الرواية الإسلامية بجميل خلاله ، وتنوه بالأخص بورعه ، وتواضعه ، وحبه للخير ، فيقول لنا ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد إنه «كان أحسن الناس وجهاً ، وأشرفهم نفساً ، الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة ، الذى أخذ الزكاة على حلها ، ووضعها فى حقها ، لم يعرف عنه هفوة فى حداثته ، ولا زلة فى أيام صباه » . وقيل بلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية يسمع المظالم بنفسه ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الممطرة ، فيلقى بصرر المال فى المساجد لمن وجد فيها بغية تعميرها بالمصلين ،

---

(١) يعقد ابن خلدون فى مقدمته ، فصلا عن ولاية العهد فى الأمة الإسلامية ، (ص ١٧٥ وما بعدها) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٣٧ .

(٣) هى الجارية إذا رزقت من سيدها بولد ، وعندئذ لا يجوز بيعها ولا هبتها .

(٤) وفى رواية « حوراء » . وفى رواية أخرى « جمال » .

ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل[١]. وكان يذهب مذهب عمر بن عبد العزيز ، فى تحرى الحق والعدالة ، فكان يبعث إلى الكور بقوم من ثقاته ، للتحرى عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أسقطه واشتد فى عقابه[٢] .

وكانت ولاية هشام نذير فوره جديدة من الثورات المحلية . ذلك أن سليمان أكبر أخوته لم يقر إمارته ، ودعا لنفسه فى طليطلة وما جاورها ، وكذلك أخوه عبد الله البلنسى لم يخلد إلى الرضى ، بالرغم مما بذله هشام لاسترضائه ، ولم يلبث أن لحق بأخيه سليمان فى طليطلة ، وتحالفا على العصيان والثورة ، وسار سليمان خفية إلى قرطبة ليحاول إضرام الثورة ضد أخيه ، فلم يظفر بشيء ، وطارده الجند ، ففر إلى ماردة وحاول أن يعتصم بها ، ولكن رده عاملها . وكان هشام قد بعث جيشاً لحصار طليطلة وإخضاعها ، ففر سليمان إلى جبال بلنسية ، ولجأ إلى بعض ثغور تدمير . ولما رأى عبد الله البلنسى ما حل بأخيه من الفشل والهزيمة ، خشى عاقبة الخروج ، وارتد إلى قرطبة يلتمس الصفح من أخيه ، فعفا عنه هشام وأكرم مثواه ، وبعث جيشاً بقيادة ولده معاوية لمطاردة سليمان وصحبه ، فتوغل فى أنحاء تدمير (مرسية) واضطر سليمان إلى طلب الأمان والعفو ، فأجابه هشام إلى طلبه ، على أن يعبر بأهله وولده إلى المغرب ، وأعطاه ستين ألف دينار صلحاً على تركة أبيه . وسار معه أخوه عبد الله ، وأقاما بعدوة المغرب ، وانتهت بذلك ثورة الأخوين (سنة ١٧٤ هـ — ٧٩٠ م)[٣] .

واعتقد ثوار الشمال فى نفس الوقت أن الفرصة قد سنحت بوفاة عبد الرحمن لإضرام نار الثورة كرة أخرى ، فخرج بطرطوشة سعيد بن الحسين الأنصارى ، وكان قد التجأ إليها منذ مصرع أبيه ، والتف حوله اليمنية ، وأخرج عاملها من قبل هشام ، يوسف العبسى ، فعارضه موسى بن فرقوق فى المضرية ودعا لهشام[٤] ،

---

(١) راجع فى التنويه بخلال هشام وصفاته ، أخبار مجموعة ص ١٢٠ و ١٢١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ؛ والعقد الفريد (مصر سنة ١٩٢٨) ج ٣ ص ٢٠٢ ؛ والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ ، وأخبار المجموعة ص ١٢٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ و ٦٥ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ .

وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقظان بثغر برشلونة ، والتفت حوله جموع كبيرة ، واستولى على سرقسطة ووشقة ، وقوى أمره ، وبسط سلطانه على الولاية كلها ، فسير إليه هشام جيشا كبيراً بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فسار إلى طرطوشة وانتزعها من يد الثوار ، وحاصر سرقسطة وفيها مطروح وصحبه ، وضيق عليها الخناق حتى ضاق أهلها ذرعاً بالحصار ، وفى ذات يوم اغتال مطروحاً بعض أصحابه واحتزوا رأسه ، وقدموها إلى ابن عثمان ، فبعث بها إلى هشام ، ودخل سرقسطة ظافراً (سنة ١٧٥ هـ)[١]، وقضى بذلك على الثورة فى تلك الأنحاء .

وكان نصارى الشمال ، منذ اشتد ساعدهم ، يكثرون من الإغارة على البلاد الإسلامية والعيث فيها ، ويشتد هذا العيث والعدوان كلما اضطرمت الأندلس بالفتن الداخلية ، وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية . وكان الفرنج جرياً على سياستهم المأثورة ، يشجعون النصارى من البشكنس والجلالقة على مواصلة التحرش بالمملكة الإسلامية ، وكان هشام كأبيه يقدر خطورة هذه الدسائس الفرنجية ، وتحدوه من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو ، فما كاد ينتهى من القضاء على الثورة الداخليـــة ، حتى سير إلى الشمال جيشاً قوياً من أربعين ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فاخترق ألبة والقلاع (قشتالة القديمة) ، واجتاح جليقية ، وهزم الجلالقة بقيادة ملكهم برمودو (أو برمند) وحلفاءهم البشكنس ، ومزق جموعهم (سنة ١٧٥هـ — ٧٩١م) ، وعاد إلى قرطبة مثقلا بالغنائم والسبي . ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت إلى جليقية حملة أخرى بقيادة يوسف بن بخت ، وهزم برمودو مرة أخرى ، وقتلت جموع كبيرة من النصارى ، وعلى أثر ذلك تنازل برمودو عن العرش لألفونسو الثانى ولد فرويلا ، وأمير جليقية الشرقية ، ولجأ إلى عزلة الدير .

وفى العام التالى أعنى فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) تأهب هشام لمحاربة الفرنج ، واستئناف عهد الجهاد والغزو ، فسير إلى الشمال جيشاً كثيفاً . بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث[٢]. فعبر البرنيه من ناحية قطلونية ، واستولى

---

(١) العذرى فى كتاب «ترصيع الأخبار» (ص ٢٦ و ٢٩) .

(٢) وهو حفيد مغيث الرومى فاتح قرطبة .

أثناء سيره على مدينة چيرونة (جرندة) الحصينة فى قاصية شمال شرقى إسبانيا ، وكان الفرنج قد استولوا عليها منذ سنة ٧٨٥ م من يد مطروح بن سليمان . وكان حكام هذه الأنحاء التى لبثت تضطرم بالثورة على حكومة قرطبة ، منذ غزوة شارلمان الأولى لإسبانيا ، قد استقلوا بما فى أيديهم من المدن ، وجنحوا إلى محالفة الفرنج جيرانهم من الشمال ، والتماس حمايتهم . ومن ذلك أن أبا ثور صاحب مدينة وشقة ، الذى سبق ذكره فى حوادث باب الشزرى ، بعث رسله إلى تولوشة عاصمة أكوتين يطلب التحالف من ملكها الدوق لويس ابن شارلمان (٧٩٠م)[١]. واستولى الحاجب عبد الملك بعد ذلك على عدد آخر من المعاقل والحصون ، ثم نفذ إلى سبتمانيا ، وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامى القديم . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين افتتحوا خلال تلك الغزوة أربونة[٢] ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لاتذكر شيئاً عن ذلك الفتح ، وتذكر أن المسلمين ارتدوا عن أربونة لمناعتها إلى قرقشونة . وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بمحاربة خصومه السكسونيين بعيداً عن فرنسا ، فتأهب ولده لويس أمير أكوتين لصد العرب ، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة جيوم كونت دى تولوز ، فالتقى الفريقان فى مكان يسمى «ڤيل دنى» على ضفاف نهر أوربينا بين أربونة وقرقشونة ، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ، ارتد المسلمون على أثرها إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والسبى ، وقدرت أخماس السبى وحدها بخمسة وأربعين ألفاً من الذهب ، وأرغم الأسرى النصارى على حمل أو جر أحمال من الأحجار والتراب من سور أربونة حتى قرطبة ، وأمر هشام أن يُبنى منها جناح جديد للمسجد الجامع تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة .

وكانت منطقة رندة ، المعروفة بإقليم « تاكرنّا » ، أو « تاكرنى»[٣]، وفيها يحتشد البربر ، مهد الفتن والقلاقل المتوالية . فى سنة ١٧٨ هـ (٧٩٤ م) أثار البربر هنالك ضرام الفتنة مرة أخرى ، وخلعوا الطاعة وعاثوا فى تلك الأنحاء ، فسير إليهم هشام حملة بقيادة عبد القادر بن أبان بن عبد الله ، فأخمد الثورة دون رأفة ، وأباد جموع البربر ، وخرب بلادهم وضياعهم ، وفرقهم فى الأنحاء

---

(١) راجع **R.M. Pidal : ibid, p. 203**

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٨

(٣) راجع معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٥٣ .

والقبائل تمزيقاً لعصبتهم ، وبقيت هذه المنطقة عدة أعوام قفراً خراباً .

وفى ربيع سنة ١٧٩ ﻫ (٧٩٥ م) سير هشام إلى جليقية حملة أخرى بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، أخى الحاجب ، فاخترق المسلمون مفاوز جليقية حتى أستُرقة ، ففر السكان النصارى إلى رؤوس الجبال ، وتأهب ألفونسو ملك جليقية للقاء المسلمين ، على رأس جيش من الجلالقة وحلفائهم البشكنس ، ونشب القتال بين الفريقين فى قاصية جليقية ، فى المكان المعروف بالصخرة ، وانتصر الجلالقة فى البداية فى بعض الوقائع المحلية ، وقتل جماعة من المسلمين فى كمين دبر لهم ، ولكن النصارى هزموا فى النهاية ، وعاث المسلمون فى جليقية ، وأصابوا كثيراً من الغنائم ، ثم ارتدوا إلى الجنوب بعد أن مزقت قوى الجلالقة وسكنوا إلى حين ، وساد الأمن فى الولايات الشمالية[(١)].

وكانت هذه آخر غزوة سيرها هشام ، إذ توفى عقب ذلك بقليل فى الثالث من صفر سنة ١٨٠ ﻫ (١٨ إبريل سنة ٧٩٦ م) فى نحو الأربعين من عمره ، بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام . وكان أبيض ، أشهل ، مشرباً بالحمرة ، وبعينيه حول ، وكنيته أبو الوليد ويلقب بالرضا[(٢)]. وفى عهده ساد الأمن والاستقرار ربوع الأندلس بالرغم مما وقع خلاله من الثورات المحلية . وكان هشام إلى جانب رفقه وتواضعه ، حازماً ، صارماً فى الحق ، حريصاً على توطيد النظام والعدالة ، فلم يتردد فى القبض على ابنه الأكبر عبد الملك وزجه إلى السجن لما ثبت لديه من ائتماره به ، فبقى فى سجنه أعواماً طويلة حتى توفى بعد وفاة أبيه[(٣)]. وكان فوق شغفه بالجهاد والغزو ، محباً للإصلاح والإنشاء ، فعنى بإتمام مسجد قرطبة الجامع الذى بدأ بإنشائه أبوه وتوفى قبل إتمامه ، وأنشأ عدة مساجد أخرى ، وزين قرطبة بكثير من الأبنية والحدائق الفخمة ، وجدد قنطرة قرطبة الشهيرة التى بناها السمح بن مالك على النهر الكبير ، وأنفق فى تجديدها أموالا عظيمة ، وكان

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٦ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٧٢ . ويقول ابن الأثير إن الذى قاد هذه الحملة هو عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث (ج ٦ ص ٤٨) . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٦ ، وابن الأبار ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ .

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٤١ .

يشرف على إصلاحها بنفسه[١] ، وعلى الجملة فقد كان عهده زاهراً ، وافر الأمن والرخاء .

وكان هشام شديد الورع والتقوى ، وكان شغفه بالجهاد وإعلاء كلمة الدين من أخص مظاهر تقواه ، وكان ينفق الأموال الطائلة فى افتداء أسرى المسلمين ، حتى لم يبق فى عهده منهم فى قبضة العدو أحد ، ورتب فى ديوانه أرزاقاً لأسر الجند المتوفين فى الجهاد[٢] . وفى عصره اتخذت السياسة الأموية إجراء يشهد ببعد نظرها ، إذ جعلت العربية لغة التدريس فى معاهد النصارى واليهود . وكان لذلك الإجراء بالرغم من بساطته ، أثر عميق فى التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة ، وفى بث روح التفاهم والوئام بينها ، ولاسيما بين المسلمين والنصارى ، وكان من أثره أيضاً أن كثر اعتناق النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفاصيله ، وقربت مسافة الخلف بينهم وبين الفاتحين ، ولم يكن ذلك بعيداً فى الواقع عن غاية السياسة الأموية[٣] .

وكان هشام يؤثر مجالس العلم والأدب ولاسيما الحديث والفقه على غيرها . وفى عصره ذاع مذهب مالك[٤] . وكان الإمام مالك ، وهو معاصر لهشام ، يعجب بسيرته وخلاله ، ويشيد بعدله وتقواه ، وكانت تجمع بين الرجلين على بعد المزار عاطفة مشتركة هى بغض بنى العباس ، وكان قد رحل إلى المشرق عدة من فقهاء الأندلس ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وفى مقدمتهم زياد بن عبدالرحمن ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، ويحيى بن يحيى الليثى ، فدرسوا على مالك بالمدينة ، واستقوا من علمه واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه « الموطأ » ، وذاع مذهب مالك على يدهم فى الأندلس فى عصر هشام . وكان هشام كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك فى ذيوعه وتوطده ، وغدا مذهب أهل الأندلس الغالب ، وكانوا قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعى إمام

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٤٩ . وما تزال هذه القنطرة العربية قائمة حتى اليوم على نهر الوادى الكبير خلف الجامع الأموى ، محتفظة بعقودها القديمة ، بالرغم مما توالى عليها من ضروب الإصلاح والتجديد .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠ .

(٣) راجع **Scott : ibid, I. p. 433.**

(٤) الإمام مالك بن أنس ، أبو عبد الله ، أحد أصحاب المذاهب الأربعة الشهيرة (٩٥ — ١٧٩ هـ) وترجمته فى ابن خلكان ج ١ ص ٥٥٥ — ٥٧ .

أهل الشأم[١]. وفى عصر هشام قوى نفوذ الفقهاء ورجال الدين ، وتربعوا فى أهم المناصب ، وكثر تدخلهم فى شئون الدولة ، خلافاً لما كان عليه عبد الرحمن الداخل من إقصائهم والتحرز من تدخلهم ونفوذهم ، وكان لذلك أثر غير محمود ترتبت عليه فيما بعد نتائج سياسية واجتماعية خطيرة .

— ٢ —

وخلف هشاماً ولده الحكم بعهده منه ، وبويع عقب وفاة أبيه بأيام قلائل فى الثامن من صفر سنة ١٨٠ هـ (أبريل ٧٩٦ م) ، وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، وكان مولده بقرطبة سنة ١٥٤ هـ (٧٧١ م) ، وأمه أم ولد تدعى زخرف ، وكان طاغية ، حازماً ، شجاعاً ، شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه ، وكانت تحدوه مع ذلك نزعة إلى الإنصاف والعدالة[٢] . وهو أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، وأسرف فى تأييد هيبته ، وجدد عهد أجداده بالمشرق ببذخه وروعته ، واستكثر من المماليك والبطانة . وكان ميالا إلى اللهو ، مولعاً بالصيد ، يؤثر مجالس الندماء والشعراء ، على مجالس الفقهاء والعلماء . وآنس الفقهاء تصدع مركزهم الذى سما فى عهد أبيه هشام ، وكانت سياسة الحكم ترمى إلى الحد من نفوذهم ، وإبعادهم عن التدخل فى شئون الدولة ، وكانوا بالعكس يرمون إلى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الأمة من وراء العرش بواسطة جمهورية دينية ، فجاءت سياسة الحكم ضربة قاضية على أمانيهم ، وثارت نفوسهم سخطاً على الأمير الفتى ، وأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق المنابر ، ويوغرون عليه صدور العامة بالدس والوقيعة ، ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد ، والحض على التمسك بأحكام الدين . وكان الحكم بإسرافه فى مجالى اللهو والبذخ ، يسبغ على أقوالهم قوة ، وكانت دعايتهم قوية بالأخص بين البربر والمولدين (أو مسلمى الإسبان) ، إذ كان هؤلاء يبغضون العرب لكبريائهم واستئثارهم بالمناصب والنفوذ ، وكانوا دائماً على أهبة الخروج والعصيان كلما سنحت الفرصة . وكان لتحريض الفقهاء وسعايتهم كما سنرى آثار بعيدة المدى[٣].

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٠ ؛ والاستقصاء ج ١ ص ٦١ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٥٨ ؛ وراجع أيضاً Dozy : Hist., I. p. 286 & 287

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٥ .

(٣) راجع المعجب ص ١١ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ ، وكذلك Dozy : Hist, I. p. 238 وألتاليرا Hiat. de Espana, Vol. I. p. 227

وفى بداية عهد الحكم ، فى صيف سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) سار الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث غازياً بالصائفة إلى ألبة والقلاع ، (قشتالة القديمة) واستولى على قلعة قلهرّة الواقعة على نهر إيبرو ، وأثخن فى بلاد البشكنس (نافار) ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى . ولكن سرعان ما اضطر الحكم إلى ترك الجهاد والغزو ، ليعنى بمقاومة بوادر الخروج والثورة التى أخذت تتفتح حوله من كل صوب . وكان الثغر الأعلى (أراجون) موطن الخطر فى تلك المرة ، وكانت تؤازره وتذكيه عوامل خارجية فى منتهى الخطورة . ذلك أن الحكم ما كاد يجلس على عرش أبيه ، حتى عول عماه سليمان وعبد الله على التحرك مرة أخرى . وكانا يقيمان فى عدوة المغرب منذ أيام أخيهما هشام ، يرقبان الفرص . واتصل عبد الله بابن الأغلب صاحب إفريقية وخاطبه فى مشروعهما ، ولكنه لم يلق على ما يظهر منه تأييداً ، فاتجه الأخوان وجهة أخرى . وكانت مدائن الثغر الأعلى(١) وفى مقدمتها سرقسطة ما زالت ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل تفيض بعوامل الفتنة ، ففى سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ثار بالثغر الأعلى بهلول بن مروان المعروف بأبى الحجاج ودخل سرقسطة ، وثار حاكم مدينة وشقة فى نفس الوقت . فعبر سليمان وعبد الله سراً إلى الأندلس ، وسار عبد الله إلى الثغر الأعلى يؤلب البلاد ، ويحشد الأنصار لمقاتلة الحكم ، ثم عبر جبال البرنيه إلى بلاد الفرنج ، وسعى إلى مقابلة شارلمان (كارل الأكبر) فى مدينة إيكسلا شابيل حيث كان يعقد بلاطه يومئذ ، والتمس إليه العون والمؤازرة ، فأكرم ملك الفرنج وفادته ، واستجاب إلى دعوته ، وألفى الفرصة سانحة للتدخل فى شئون الأندلس ، وتحقيق مطامعه القديمة . وسير شارلمان جيشاً مع ولده لويس أمير أكوتين ، فعبر البرنيه واستولى على مدينة جيرونة (جيرندة) ، ثم توغل فى ولاية الثغر الأعلى ، بممالأة بعض الزعماء الخوارج ، وقيل إن الأخوين عبد الملك وعبد الكريم ابنى عبد الواحد

---

(١) قال ياقوت فى معجمه الجغرافى « الثغر » ، كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغراً ، كأنه مأخوذ عن الثغرة ، وهى الفرجة فى الحائط » . وكان رباط الثغر أيام فتح الأندلس يشمل أربونة وما حولها ، باعتبارها أقصى ولاية فى اسبانيا المسلمة ، مما يلى أرض الفرنج ، فلما سقطت أربونة فى يد النصارى ارتد « ثغر » الأندلس إلى ما وراء جبال البرنيه ؛ فأصبح « الثغر » يطلق على ولاية سرقسطة وما جاورها حتى برشلونة والبحر شرقاً ، وهذا هو « الثغر الأعلى » ، ويشمل عدا سرقسطة لاردة ، وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وطركونة وغيرها ؛ ويقابل « أراجون » من ولايات اسبانيا الحديثة . وسميت طليطلة وأعمالها « بالثغر الأوسط » لمجاورتها لمملكة ليون النصرانية (جليقية) .

ابن مغيث انضما يومئذ إلى عبدالله فى ثورته ، وأنهما سارا إلى سرقسطة ، ولكن أبا صفوان حاكمها من قبل الحكم ، استطاع أن يهزم الخوارج ، وأن يأسر زعيمهم عبد الكريم ، وأن الأخوين عادا بعد ذلك إلى الطاعة واستأمنا فى أوائل سنة ١٨٦ هـ فأمنهما الحكم ، ووفدا على قرطبة وقدما خضوعهما وإخلاصهما[1]. وقد نجد ما يؤيد هذه الرواية فى أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال هذه الأعوام الخمسة ، مع أنهما كانا دائماً فى الطليعة فى قيادة مختلف الحملات والغزوات . وعلى أى حال فقد بادر الحكم بالسير إلى الشمال لرد هذا الخطر الجديد . والظاهر أن الفرنج لم يلقوا الحوادث ممهدة فى ذلك الجزء المضطرم من الأندلس ، وخشوا من جهة أخرى من نكث حلفائهم المسلمين ، وتكرار مأساة باب الشزرى ، فارتدوا إلى الشمال بعد أن حاصروا مدينة وشقة حيناً (٧٩٧ م) ، تاركين الأمور لمصيرها . ولما رأى الزعماء الخوارج عبث المقاومة ، عادوا إلى الطاعة ، واسترد الحكم سلطانه على سرقسطة ووشقة ولاردة وغيرها .

---

(١) وردت هذه الرواية منسوبة إلى الرازى مؤرخ الأندلس ، فى أوراق مخطوطة عن تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ إلى سنة ٢٣٢ هـ عثر بها صديقى العلامة المرحوم الأستاذ « ليڤى بروفنسال » عميد كلية الجزائر والأستاذ بجامعة باريس سابقاً . وقد تفضل بإطلاعى عليها ونقلت منها . ولم نكن نعرف وقتئذ بالتحقيق من هو مؤلف هذا المخطوط ؛ ولكن تبين فيما بعد من مقارنة الروايات التى يوردها عن مؤرخى الأندلس السابقين مثل الرازى وابن القوطية وابن الفرضى ، ثم ابن حزم وأحمد ابن خالد ، كما تبين منه مما تنم به كتاباته وتعليقاته من الرزانة والدقة ، أن هذه الأوراق المخطوطة ، إنما هى قطعة من مؤلف مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، وهو المسمى « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » . وتحتوى هذه القطعة على كثير من المعلومات والتفاصيل الحسنة عن حوادث العصر الذى نتحدث عنه وعن شخصياته . وقد حصلت بعد ذلك بأعوام من مكتبة القرويين بفاس ، على نسخة مصورة من قطعة كبيرة مخطوطة من تاريخ ابن حيان المشار إليه تبين أنها تتمة الجزء المتقدم ، إذ تبدأ حوادثها من سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى فى سنة ٢٦٧ هـ ، وهى عبارة عن جزء كبير يقع فى مائة وتسعين صفحة كبيرة . وهى قديمة بالية متآكلة الحوافى . وقد انتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً حسبما يرى القارىء بعد هذا . ثم ظهرت أخيراً قطعة كبيرة من « المقتبس » تتعلق بعصر الناصر وتحفظ بالمكتبة الملكية بالرباط ، وقد أشرنا إليها وإلى محتوياتها فى مقدمة الكتاب . وقد انتفعنا بها فى هذه الطبعة الجديدة أعظم انتفاع حسبما يرى القارئ بعد . وقد نشرت من قبل قطعة أخرى من تاريخ ابن حيان بعناية المستشرق الإسبانى أنتونيا ، وهى تتعلق بالأخص بحوادث عصر الفتنة الكبرى (٢٥٠ — ٣٠٠ هـ) . وتوجد قطعة صغيرة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وهى تتعلق بأحوال الخلافة وحوادث الأندلس فى سنى ٣٦٢ — ٣٦٥ هـ أيام الحكم المستنصر .

وفى ذلك الحين كان سليمان بن عبد الرحمن قد استطاع أن يحشد أنصاره ولاسيما من البربر ، وهرع إليه أخوه عبد الله البلنسي بعد فشله فى الشمال ، وسار الخوارج إلى قرطبة يحاولون الإغارة عليها ، فالتقوا بجند الحكم على مقربة منها فى مكان يسمى « فنجيط » وذلك فى شوال سنة ١٨٢ هـ ، فهزم سليمان . ثم التقى الجمعان ثانية بالقرب من إستجّة فى صفر سنة ١٨٣ ، فهزم سليمان مرة أخرى بعد قتال عنيف ، وفر فى أصحابه متجهاً إلى ماردة ، فبعث الحكم الجند فى أثره ، فطاردته حتى قبض عليه . وجيء به إلى الحكم ، فأمر بإعدامه ، وأعدم معه عدة من زعماء الفتنة ، وأرسلت رؤوسهم إلى قرطبة حيث طيف بها (سنة ١٨٤ هـ — ٨٠٠ م) . وفر أخوه عبد الله إلى بلنسية فاختفى بها ، ولكنه لم ير فى النهاية مناصاً من طلب العفو ، فعفا عنه الحكم وأصدر له أماناً خاصاً ، وذلك على أن يبقى فى بلنسية وتجرى عليه أرزاقه ، وبعث عبد الله إلى الحكم بابنه عبيد الله فأكرمه الحكم وزوجه إحدى أخواته ، وركن عبد الله إلى السكينة طوال عهد الحكم[1] .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الحوادث التى اقترنت بثورة سليمان وأخيه عبد الله ، ولم يجن الفرنج منها كبير غنم ، ولكن ذلك لم يثن شارلمان عاهل الفرنج عن عزمه ومشاريعه . ذلك أن سياسة التدخل فى شئون إسبانيا المسلمة ، كانت أصلا من أصول السياسة الفرنجية ، وكان الفرنج ينظرون بعين التوجس ، إلى قيام هذه الإمارة الإسلامية الجديدة فيما وراء البرنيه ، وإلى توطدها ونموها ، ويخشون بالأخص أن يضطرم الإسلام بفورة جديدة من الجهاد والغزو ، فينساب تيار الفتح الإسلامى إلى غاليس كرة أخرى ، وقد حاول شارلمان ضربته الأولى فى عهد عبد الرحمن الداخل فباء بالهزيمة والفشل ، ونكب فى مفاوز رونسفال (باب الشزرى) . ولما عبر المسلمون جبال البرنيه فى عهد هشام وغزوا سبتمانيا ، تجددت مخاوف الفرنج وتجددت مشاريعهم لتأمين حدودهم الجنوبية ، وكانوا يلتمسون الفرصة كلما اضطرمت الأندلس بالثورة . وهنا يجدر بنا أن نتساءل ، هل كان لسياسة الخلافة العباسية أثر فى صوغ هذه السياسة الفرنجية نحو الأندلس أو الإيحاء بها ؟ لقد رأينا كيف كانت الخلافة العباسية تحاول بث دعوتها فى الأندلس على يد بعض الزعماء الخوارج ، وكيف كانت هذه الدعوة تحدث أثرها فى إضرام نار

---

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه لوحة ٩٠ .

الفتنة . على أن الخلافة العباسية ، كانت من جهة أخرى تتصل بالمملكة الفرنجية بصلات سياسية . وترجع الرواية الفرنجية هذه الصلة إلى عهد المنصور ، وتقول لنا إن پپين ملك الفرنج أرسل إلى المنصور سفارة رد عليها المنصور بمثلها ، وتضيف الرواية الفرنجية إلى ذلك أنه كانت ثمة بعدئذ مكاتبات وسفارات بين الرشيد وبين شارلمان ولد پپين ، ومع أن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه العلائق بين ملك الفرنج والخليفة العباسى ، فإن فى تفاصيل الرواية الفرنجية ، وفى طبيعة الحوادث التى كان يجوزها الشرق والغرب يومئذ ، مايحملنا على الاعتقاد فى صحتها[1]. وهذه العلائق ذاتها تلقى ضوءاً على موقف السياسة العباسية ، من حوادث الأندلس فى ذلك الحين . فقد كانت الخلافة العباسية ترى فى قيام إمارة قرطبة الأموية فى الغرب منافساً لها فى سيادة العالم الإسلامى ، ولم يكن يسوءها أن تتعثر هذه الإمارة الفتية فى معترك من الصعاب والفتن ، وأن تشغل بمقارعة أعدائها فى الداخل والخارج . وإذاً فقد كانت الخلافة العباسية تشاطر السياسة الفرنجية نفس الغاية التى ترمى إليها بالنسبة لإمارة قرطبة ، وهى العمل على إضعافها وتحطيمها إن أمكن ، ولما كانت الدولة العباسية لاتستطيع أن تعمل لتحقيق هذه الغاية بطريق مباشر ، فقد كان فى وسعها على الأقل أن تعمل لتأييدها بطريق الدعوة والتحريض . ولم يكن بعيداً أن يجد الخليفة العباسى ، وهو يبسط حكمه على ملايين من النصارى ، وفى أرضه يقع القبر المقدس ، وسيلة للتفاهم مع إمبراطور الفرنج وحامى النصرانية ، وأن يجد عاهل الفرنج ما يشجعه على إذكاء تحرشه بإمارة قرطبة ، فى رفق الخليفة برعاياه النصارى ، هذا فضلا عن أن السياسة الفرنجية تعمل بذلك على تحقيق غايتها الأصلية من مناوأة الإسلام فى اسبانيا وإضعاف سيادته ونفوذه ، وحماية حدود مملكة الفرنج الجنوبية . وإذاً فمن المحتمل أن يكون لهذه السفارات والمراسلات السياسية ، التى تقول الرواية الفرنجية بوقوعها بين الرشيد وشارلمان ، صلة بهذه المرحلة من تدخل الفرنج فى شئون اسبانيا المسلمة ، واعتدائهم المتكرر على أراضيها . وقد وقع الغزو الفرنجى لشمال اسبانيا فى عهد الحكم بين سنتى ١٨١ و ١٨٥ هـ ، أعنى فى أواسط عهد الرشيد

(١) تناولت موضوع العلائق بين الرشيد وشارلمان فى فصل خاص فى كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » (الطبعة الرابعة ص ٢١٨ — ٢٢٤) .

(١٧٠ – ١٩٣ هـ) . والواقع أن فى اتحاد المصلحة والغاية بين الخليفة العباسى وعاهل الفرنج ، ما يسبغ على هذا الفرض تأييداً .

ولما كانت السياسة الفرنجية ترمى قبل كل شىء إلى تأمين غاليس (جنوب فرنسا) من خطر الغزو الإسلامى ، فقد رأت أن تنشىء فى قاصية اسبانيا الشمالية الشرقية مما يلى جبال البرنيه ، ولاية فرنجية جديدة تكون سداً بين الغزاة وبين مملكة الفرنج ، وأنشئت هذه الولاية التى سميت « بالثغر القوطى » أو الثغر الإسبانى فى البداية ، من مدن چيرونة (جيرندة) وأوزونة وسولسونة ، وما حولها مما اقتطعه الفرنج من أراضى اسبانيا المسلمة ، التى كانت تابعة لرباط الثغر الإسلامى القديم . ولما عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورات الداخلية المتوالية ، ألفى الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم نحو الجنوب ، وكان شارلمان يطمح بالأخص إلى افتتاح ثغر برشلونة المنيع ليكون معقلا لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا . وعمد شارلمان قبل البدء فى تنفيذ مشروعه إلى عقد محالفة بينه وبين أمير جليقية ألفونسو الثانى (سنة ٧٩٨ م) ، لكى يكتسب ولاء البشكنس ومعاونتهم . وفى سنة ٨٠١م (١٨٥ هـ) سير شارلمان إلى اسبانيا جيشاً ضخماً لافتتاح برشلونة بقيادة ولده لويس أمير أكوتين ، وانقسم هذا الجيش إلى قسمين ، سار أحدهما بقيادة حاكم چيرونة لمحاصرة برشلونة ، وسار الآخر بقيادة جيوم كونت دى تولوز ليرابط جنوب غربى برشلونة بين لاردة وطركونة ، ليحول دون وصول أى مدد إلى المدينة المحصورة . وكان الحكم يشغل يومئذ بمطاردة الخوارج عليه وفى مقدمتهم عمه عبد الله ، وكان والى برشلونة ، سعدون الرعينى ، فى مأزق حرج ، يتطلع عبثاً إلى قدوم المدد ، وهو فى ثغره القاصى بعيداً عن كل عون ومساعدة ، ولم يكن له ما يؤمل من معاونة زملائه ولاة الثغر الأعلى ، ومعظمهم يضمر الخروج على حكومة قرطبة ، ويرى فى اضطراب الأمور ملاذاً . ومع ذلك فقد صمدت برشلونة ، وصمم واليها الشجاع على المقاومة ، ولبثت حيناً تعانى أمر ضروب الحرمان والجوع ، دون أن يأتيها المدد المنشود . ثم تفاقم الأمر وجاء جيش جديد من الفرنج بقيادة لويس ليشدد الحصار على المدينة ، فرأى سعدون الرعينى أن يحاول التماس المدد بنفسه من قرطبة ، وغادر برشلونة تحت جنح الظلام ،

وحاول أن يخترق خطوط العدو ، ولكنه ضبط وأسر ، ولم تستطع برشلونة ثباتاً بعد أن هلك ألوف من أهلها ، وفتحت ثغرات عديدة فى أسوارها ، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر . واتخذ الفرنج من برشلونة مكان جيرندة ، قاعدة للثغر القوطى الذى نما فيما بعد ، وكان الفرنج يعينون حكامه من الكونتات الذين ينتمون إلى أصل قوطى أو فرنجى . ولم يلبث أولئك الحكام ، حينما شعروا بقوتهم وبعدهم عن سلطان مملكة الفرنج ، أن أعلنوا استقلالهم ، وغدا الثغر الفرنجى إمارة نصرانية هى إمارة قطلونية ، التى اندمجت فيما بعد فى مملكة أراجون القوية ، وخسر الإسلام بفقد برشلونة أمنع ثغوره فى قاصية اسبانيا ، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى ، بعد أن كانت تجاوز جبال البرنيه(١).

وفى سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) اكتشف الحكم مؤامرة خطيرة دبرت لخلعه ، وكان من ورائها رهط الفقهاء الذين قضى الحكم على نفوذهم ، مثل يحيى بن يحيى الليثى ، وعيسى بن دينار ، وطالوت الفقيه ، وغيرهم من زعماء المالكية . وقد رأينا كيف سخط الفقهاء على الحكم لتصدع نفوذهم القديم ، وأثاروا عليه وعلى خلاله دعاية قوية ، واتهموه من فوق المنابر بالقسوة والخروج على أحكام الدين ، وكيف كان الحكم ، بمرحه وبذخه ، وشغفه باللهو والشراب ، يسبغ على دعايتهم قوة . وكان ثمة فريق آخر من أعيان قرطبة ينقم على الحكم صرامته وطغيانه . وكان هؤلاء وهؤلاء يتربصون بالحكم ويلتمسون الفرصة للإيقاع به ، وكان فى موقف الشعب القرطبى ، ما يشجعهم على تدبير مشاريعهم ، إذ كان الشعب متأثراً بدعاية الفقهاء فى حق الحكم ، وبما كان يبديه الحكم من ترفع عن الشعب ، فكان أهل قرطبة يبغضون الحكم وبلاطه . وهكذا ائتمر الفقهاء والأعيان بالحكم واتفقوا على خلعه ، وكان فى مقدمة المتآمرين مالك بن يزيد بن يحيى التجيبى ، وموسى بن سالم الخولانى ، وأبو كعب بن عبد البر وأخوه عيسى ، ويحيى ابن مضر القيسى الفقيه وغيرهم ، وكان بينهم بعض المروانية من أقارب الحكم ، ومنهم محمد بن القاسم المروانى الذى اختاره المتآمرون لرياستهم ، ووعدوه بأن

---

(١) تضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط برشلونة فى سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) متفقة بذلك مع الرواية الفرنجية ، وقد وردت عنه نبذة حسنة فى مخطوط ابن حيان الذى أشرنا إليه (ص ٩٠) . وراجع ابن الأثير ج ٦ ص ٥٥ ؛ وكذلك Scott : ibid , V. I. p. 448-452; و Altamira : Hist. de Espana : Vol. I. p. 241

يكون خلف الحكم فى الإمارة[1] ، ولكنه خشى العاقبة وبادر بإبلاغ الحكم ، واكتشفت المؤامرة قبل نضجها ، وقبض الحكم على عدد كبير من المتآمرين . واستطاع بعضهم الفرار ، مثل يحيى بن يحيى ، وعيسى بن دينار . وأعدم الحكم منهم اثنين وسبعين رجلا ، وأبدى فى إعدامهم قسوة ظاهرة ، إذ صلبهم على شاطىء النهر تجاه مشارف القصر ، وكان من بين القتلى عماه مسلمة المشهور بكليب ، وأمية ، ابنا عبد الرحمن بن معاوية ، قتلهما لارتيابه فى سلوكهما ، فأثار هذا الإجراء الدموى فى قرطبة أيما ارتياع ، وأسبغ على خلال الحكم ريباً ، وأذكى الحفيظة على الأمير فى نفوس الخاصة والعامة معاً . وشعر الحكم بخطورة هذا الأثر ، فحصن قرطبة ورمم أسوارها ، واحتفر الخنادق حولها ، وفرض على الشعب حكم إرهاب يزيد فى حفيظته . ولم تمض أشهر على ذلك حتى اضطرمت فى قرطبة فورة من السخط ، وثار العامة فى الرَّبض (الضاحية) بزعامة رجل منهم يقال له ديبل ، وكان الحكم غائباً يشرف على محاصرة الثوار فى ماردة ، فعاد مسرعاً إلى قرطبة ، وقبض على زعيم الفتنة وعدة كبيرة من أنصاره ، وصلبوا جميعاً ومثل بهم ، وسحق الهياج دون رأفة ، وهدأت العاصمة إلى حين[2] .

وفى العام التالى ، سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) ، نشبت الثورة فى ماردة بقيادة زعيمها أصبغ بن عبد الله بن وانسوس ، فسار الحكم إلى قتاله ، ولكنه ارتد عنه حينما وقف على نبأ الهياج فى قرطبة . وترددت الحملات والبعوث بعد ذلك إلى ماردة لإخماد الثورة ، واستمر زعيمها أصبغ على مقاومته بضعة أعوام ، وكان ذا وجاهة وبأس ، يلتف حوله مواطنوه البربر ، وهم كثرة فى ماردة وما حولها ، ولكنه اضطر أخيراً إزاء حزم الحكم وصرامته إلى طلب الأمان والصلح ، فاجابه الحكم إلى طلبه ، وعادت ماردة إلى الطاعة[3] .

وكانت طليطلة حاضرة القوط القديمة ، وقاعدة «الثغر الأوسط»[4] ما تزال

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٦٦ ؛ ولكن ابن القوطية يذكر أن المتآمرين بايعوا شخصاً آخر من أبناء عمومة الحكم .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٨٦ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٤ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٩ .

(٤) تسمى طليطلة وأعمالها فى الجغرافية الأندلسية « بالثغر بالأوسط » حسبما تقدم .

منذ الفتح تفيض بعوامل الهياج والثورة ، وكان بين أهلها كثرة من المولدين أو النصارى الذين دخلوا فى الإسلام ، والمستعربين أو النصارى المعاهدين . وقد سبق أن عنينا بالتعريف بهذين العنصرين ، اللذين اضلعا بأدوار خطيرة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وأوضحنا أن العرب والبربر ، وهما العنصران اللذان تعاونا فى فتح اسبانيا ، لم يكونا أغلبية بين الشعب الأندلسى الذى تكون بعد الفتح بمضى الزمن ، وكان العرب بالأخص أقلية فى معظم المدن الكبيرة ، لكن هذه الأقلية العربية كانت تستأثر بالحكم ، وخصوصاً فى الأقاليم الوسطى والجنوبية القريبة من قرطبة مركز الإمارة والسيادة . وكان البربر من جانبهم أغلبية فى بعض المناطق الغربية والشمالية ، وكانوا حيثما غلبت كثرتهم وسلطتهم ، يتحدون فى معظم الأحيان مع المولدين ، وأحياناً مع النصارى المعاهدين أنفسهم ، على مناوأة حكومة قرطبة .

أما «المولدون» فكان معظمهم حسبما أسلفنا من الإسبان والقوط الذين اعتنقوا الإسلام منذ الفتح تباعاً ، واندمجوا فى المجتمع الإسلامى ، وقد كانوا كثرة فى بعض المدن القوطية العريقة مثل طليطلة وبعض مدن الثغر الأعلى ، وقد برزت منهم بعض الأسر القوية ذات السلطان والبأس ، مثل بنى قسىّ زعماء الثغر الأعلى وبنو حفصون زعماء ريُه ،ويصفهم المستشرق سيمونيت بأنهم كانوا بعد اندماجهم فى المجتمع الإسلامى أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين الخلص أنفسهم(١) .

وأما النصارى المعاهدون أو المستعربون كما يسمون بالإسبانية Mozárabes ، فهم حسبما أشرنا من قبل النصارى الإسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم ، وبقوا فى المدن الأندلسية المفتوحة تحت الحكم الإسلامى. وبالرغم مما كانت تسبغه الحكومة الإسلامية عليهم من أسباب الرعاية ، وما كان لهم فى كثير من الأحيان من الحظوة والتمتع بثقة الأمراء ، وتولى كثير من الوظائف الهامة ، فقد كانوا على العموم عنصراً قليل الولاء للحكومة الإسلامية ، وكانوا فى المدن البعيدة فى كثير من الأحيان ، يحالفون الثوار من المسلمين والبربر والمولدين ، ويمالئونهم ، ويعملون على عقد الصلات بينهم وبين الملوك النصارى ، سعياً إلى مناوأة حكومة قرطبة وخلق الصعاب فى وجهها . وسنرى أى دور خطير يلعبه أولئك النصارى المعاهدون فى قرطبة فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، لإثارة الفتن والاضطراب فى المملكة الإسلامية .

---

(١) Simonet: Hist. de los Mozárabes, Vol.I.p. 362

هذا ، وفضلا عما كان للمولدين والنصارى المعاهدين من كثرة ظاهرة فى مدينة طليطلة ، فإن أهل طليطلة على وجه العموم ، لم ينسوا سالف عزهم ومجدهم أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط ، وكانوا يعتزون بكثرتهم وثروتهم وحصانة مدينتهم[1] ، وتحدوهم روح من التمرد والخروج المستمر على حكومة قرطبة . وقد رأينا كيف كانت طليطلة مركز الثورة ، وملاذ الزعماء الخوارج منذ عهد عبد الرحمن الداخل . وفى عهد الحكم عادت طليطلة إلى سابق سيرتها ، وثار فيها فى سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) عبيدة بن حميد ، فوجه الحكم قائده عمروس ابن يوسف لمحاربته ، وكان يقود الجيش فى طلبيرة ، فالتقى بالثوار فى عدة وقائع ، ولما رأى ثبات الثوار لجأ إلى سلاح الغيلة ، واستمال إليه بعض وجهاء المدينة بالمنح والوعود ، ودفعهم إلى اغتيال عبيدة بن حميد ، وبذا أخمدت الثورة إلى حين ، وأذعنت المدينة الثائرة لسلطان الحكم . ولكن هذا الهدوء المؤقت لم يطل أمده ، ولم تمض بضعة أعوام حتى عادت طليطلة إلى الثورة ، ولم ير الحكم وسيلة لإخضاعها سوى تعيين عمروس بن يوسف حاكماً لها . وكان عمروس « مولداً » من أهل وشقة ، ذا وجاهة وبأس ، وكان قد ظهر فى الثغر الأعلى ، وأظهر طاعة الحكم ودعا له ، خلافاً لكثير من زعماء الثغر الخوارج ، فسر الحكم بمسلكه ودعاه إلى خدمته ، واختاره للقيادة ، ثم اختاره لولاية طليطلة ليعالج المدينة الثائرة ، ويعمل على إخضاعها ، ولوحظ فى هذا الاختيار أن عمروس مولد ، وأن معظم أهل طليطلة من المولدين . وكتب الحكم إلى أهل طليطلة يقول : « إنى قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه ، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا ومن موالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم » . ودخل عمروس طليطلة ، فأنس به أهلها ، وتظاهر أمامهم ببغض بنى أمية والموافقة على خلع طاعتهم ، واستمالهم برفقه ولينه ، ثم أنشأ بموافقتهم فى ظاهر طليطلة قلعة حصينة بحجة إيواء الجند والموظفين فيها بعيداً عن أهل المدينة وحرصاً على راحتهم ، وبعث إلى الحكم يستقدم إليه الجند سراً ، فسير الحكم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن لمقاتلة نصارى الشمال فى الظاهر ، ثم عرج هذا الجيش حين العودة على طليطلة ، وخرج عمروس لملاقاة الأمير

---

(١) إن إلقاء نظرة على موقع طليطلة فوق المنحدر الصخرى الوعر المشرف على منحنى نهر التاجه ، والنهر محيط بها من كل نواحيها تقريباً ، وبقية الأسوار الهائلة التى كانت تحيط بها ، كل ذلك يدل على ما كانت عليه هذه المدينة التالدة من الحصانة فى تلك العصور .

وتحيته ، ومعه وجوه المدينة ، فأكرمهم عبد الرحمن ولاطفهم . وهنا دبرت المؤامرة التى هلك فيها وجوه طليطلة وأعيانها ، وفى بعض الروايات أن الذى دبرها وأوعز بتنفيذها هو الحكم ، فى خطاب أرسله سراً إلى عمروس مع ولده عبد الرحمن ، وفى البعض الآخر أن الذى دبر الكمين هو عمروس . وعلى أى حال فقد نفذت المؤامرة بأن أقام عمروس فى القلعة الجديدة ، وليمة حافلة دعا إليها ألوفاً من الكبراء والأعيان ، ورتب الدخول من باب والخروج من باب آخر ، منعاً للزحام ، وجعل الخدم يقتادون المدعوين إلى غرف الطعام عشرة عشرة ، وكلما دخل منهم فوج أخذوا إلى ناحية معينة ، وضربت أعناقهم ، وألقيت جثثهم إلى حفرة عظيمة ، حفرت خصيصاً فى مؤخرة القصر ، وأصوات الطبول والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم ، ولم يفطن أحد إلى الحقيقة المروعة إلا بعد أن تعالى النهار ، ولم يبد للداخلين أثر فى الخروج ، ولم يسمع لهم ضجيج ، فعندئذ فطن البعض إلى الكمين ، وتصايح القادمون ونكصوا على أعقابهم ، وهلك فى تلك المذبحة التى تعرف بواقعة « الحفرة » عدد كبير من وجوه طليطلة وأعيانها ، يقدره البعض ببضع مئين والبعض الآخر ببضعة آلاف ، وكانت ضربة شديدة للمدينة الثائرة جردتها من زعامتها ، وأضعفت من شأنها ، وقضت مدى حين على روح الثورة فيها ، وكانت وقعة الحفرة فى سنة ١٩١ هـ (٨٠٧ م)[١] .

وفى ذلك الحين غزا الفرنج بقيادة لويس ولد شارلمان[٢] ، ولاية الثغر الأعلى مرة أخرى ، وحاصروا مدينة طرطوشة (سنة ١٩٢ هـ) ، فبعث الحكم جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده عبد الرحمن ، فارتد الفرنج إلى أراضيهم ، ثم عادوا إلى حصار طرطوشة فى العام التالى بقيادة لويس أيضاً ، وعاد المسلمون إلى قتالهم بقيادة عبد الرحمن ، ومعه فى تلك المرة عمروس عامل الثغر الأوسط ،

---

(١) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ و ١٢٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٧١ و ٧٢ ، وفيه أن من هلك فى مذبحة الحفرة ، بلغ زهاء سبعمائة فقط . وجاء فى مخطوط ابن حيان السابق ذكره ، رواية عيسى بن أحمد الرازى ، أن الذى دبر الكمين هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وأنه هو الذى أولم الوليمة ، وأنه هلك فى المذبحة زهاء خمسة آلاف (ص ٩٣) . وراجع أيضاً **Dozy : Hist., I. p. 291—294.**

(٢) وتسميه الرواية العربية خطأ برذريق أو لذريق بن قارله (ابن الأثير ج ٦ ص ٦٦ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٤) .

وعبدون عامل الثغر الأعلى ، فى قواتهما ، ونشبت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع انتهت بهزيمة الفرنج وإنقاذ طرطوشة ، وذلك فى سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) .

وعمد نصارى الشمال كعادتهم إلى انتهاز كل فرصة سانحة للإغارة على أراضى المسلمين ، وشجعهم انشغال حكومة قرطبة بقمع الثورات المختلفة ، وكان ملك جليقية يومئذ ألفونسو الثانى ، الملقب بالعفيف ، أميراً شديد التعصب لدينه ووطنه ، وكانت حملاته المتوالية إلى أراضى المسلمين يطبعها لون دينى عميق ، وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) إلى أراضى المسلمين غير مرة ، وعاث فيها قتلا ونهباً وسبياً ، وكانت حملاته تتجه بالأخص إلى أطراف الثغر الأدنى ، والى المنطقة الواقعة بين نهرى دويرة والتَّاجُه ، لبعدها عن حكومة قرطبة ، وضعف وسائل الدفاع فيها ، وتوغل ألفونسو فى حملاته حتى قُلُمْرية (قلنبرية) وأشبونة ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من جراء غزوات النصارى ، وترامت إلى الحكم آلامهم واستغاثتهم ، ورفع إليه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى قصيدة يصف فيها آلام أهل الثغر ومصائبهم . فى صيف سنة ١٩٤ هـ (٨١٠ م)[١] ، سار الحكم غازياً بنفسه إلى أراضى ألبة والقلاع ، وتوغل فيها مما يلى وادى الحجارة غرباً ، وأثخن فى تلك الأنحاء ، وهزم النصارى فى عدة وقائع ، وقتل وسبى منهم جموعاً كثيرة ، واطمأنت نفوس المسلمين فى الثغر بزجر النصارى وردهم إلى داخل أراضيهم .

وسير الحكم فى العام التالى جيشاً إلى الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله البلنسى ، فغزا قطلونية ، وهاجم مدينة برشلونة ، وهزم الفرنج ، ولكنه لم يحرز فتوحاً ثابتة . وشعر الفرنج ، كما شعر المسلمون بعقم هذه الحملات المخربة ، وآثر الفريقان التفاهم والمهادنة ، ويقول لنا ابن حيان إنه كان ثمة باعث آخر على التعجيل بعقد السلم بين العاهلين ، هو استفحال أمر إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسنى بأرض العدوة (المغرب) ، وتقاطر الوفود من إفريقية والأندلس إلى بيعته ، وتوجس الحكم من مصاير هذه الحركة الجديدة بالمغرب[٢]. وهكذا عقد

(١) هذه رواية صاحب البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٥) ويضع ابن الأثير تاريخ هذه الغزوة فى سنة ١٩٦ هـ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٠ . ويسمى ابن حيان هنا ملك الفرنج باسمه الصحيح « قارله بن ببين » . وراجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧١ و ٧٢ .

السلم بين شارلمان والحكم ، واستمر معقوداً حتى وفاة شارلمان بعد ذلك بأعوام قلائل فى سنة ٨١٤ م .

ووقعت فى تلك الأثناء عدة ثورات محلية ، فثارحزم بن وهب فى باجة ، وامتد سلطانه حتى أشبونة ، فسير إليه الحكم ولده هشاماً ، فقاتل الثوار حتى أذعنوا لطلب الأمان . وعادت طليطلة إلى الثورة فى سنة ١٩٧ هـ لأعوام قلائل من واقعة الحفرة ، فرأى الحكم أن يسير إليها بنفسه ، فسار فى قواته من طريق منحرفة كأنه يقصد الشمال ، ثم تحول إليها فجأة ، ولم تكن الثورة يومئذ ، فى مثل عنفها القديم ، فلم يجد الحكم مشقة فى دخول المدينة الثائرة وإخضاعها (سنة ١٩٩ هـ) . وثارت بعد ذلك ماردة بقيادة زعيمها مروان بن يونس الجليقى ، فبعث الحكم إليها ولده عبد الرحمن فى الجند فأخضعها .

وفى سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) عصف بالولايات الشمالية قحط شديد ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من ضروب الحرمان والبؤس ، ومات منهم خلق كثير ، وعبر البحر إلى العدوة الكثير منهم ، فبادر الحكم إلى إغاثتهم ومعاونة المنكوبين منهم ، وتخفيف الويل عنهم ، وفرق الصدقات الواسعة والأموال الكثيرة فى الضعفاء والمساكين ، وأبناء السبيل ، وفى ذلك يمتدحه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى بقوله :

نكد الزمان فآمنت أيامه   من أن يكون بعصره عسر
طلع الزمان بأزمة فجلت له   تلك الكريهة جــوده الغمر

وكانت آخر غزوة قام بها الحكم فى الشمال فى سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) إذ سير الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى جلّيقية فى جيش ضخم ، وكان الجلالقة وحلفاؤهم البشكنس ما يزالون على عدوانهم وعيثهم بالأراضى الإسلامية المجاورة ، فتوغل المسلمون فى أراضى جليقية ، وأثخنوا فيها ، ونشبت بينهم وبين النصارى موقعة شديدة على ضفاف نهر أرون استمرت عدة أيام ، وانتهت بهزيمة النصارى ، وقتل منهم عدد كبير ، ووقع فى الأسر جماعة من أمرائهم وأكابرهم ، وارتد النصارى إلى الداخل ، واعتصموا بالوهاد والربى ، وعاد الحاجب إلى قرطبة ظافراً[1] .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

وفى أواخر عهد الحكم اضطرمت بقرطبة ثورة خطيرة كادت أن تزعزع عرشه ، وكان الشعب القرطبي ينقم على الأمير طغيانه وصرامته وكبرياءه ، وكان بين أهل قرطبة كثير من « المولدين » الذين يبغضون السلطة الحاكمة ، لشعورهم بنقص فى مركزهم الإجتماعى وفى حقوقهم العامة ، وكان الفقهاء من جهة أخرى ، وفى مقدمتهم جماعة من المحرضين البارعين مثل طالوت المعافرى وغيره ، يعملون على إذكاء سخط العامة على الحكم وبلاطه ، بما يرمون به الحكم من جنوح إلى المعاصى ، واقتراف للإثم ، وانهماك فى اللهو والشراب ، فكانت بين الأمير وبين أهل قرطبة وحشة تشتد على ممر الأيام ، وزاد فى سخط العامة ما فرضه الحكم على المواد الغذائية ، من عشور مرهقة ، وكان العامة يجاهرون بذم الأمير والخوض فى سيرته ، ويجتمعون فى المساجد ليلا لتجريحه والطعن عليه ، ووصلت بهم الجرأة إلى أن كانوا يتعرضون له فى الطريق ، وينعتونه علنا « بالمخمور » . وحدث ذات يوم أن خرج الأمير إلى الصيد ، وشق سوق «الربض» فتعرضوا له بالقول ، وصفقوا عليه بالأكف ، فأمر بالقبض على عشرة من زعمائهم وصلبهم . ويقول لنا ابن القوطية ، إن أولئك الذين قبض عليهم وصلبوا كانوا من زعماء مؤامرة دبرت ضد الحكم ، وكان منهم بعض أعلام القوم ، مثل يحيى بن نصر اليحصبى ، وموسى بن سالم الخولانى وولده(١) . وهنا ازداد الهياج ، وبدت أعراض الثورة ، وتحفز العامة للوثوب ، وأكثروا من التعرض لجند الأمير وحرسه والاعتداء عليهم ، وشعر الحكم بخطورة الموقف ، فحصن القصر واتخذ أهبته . وفى ذات يوم اضطرمت نار الثورة فجأة ، وذلك على أثر مشادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وبين صيقل عهد إليه بصقل سيفه ، فتباطأ الصيقل ، فقتله المملوك ، فثار العامة فى الحال ، وهرعوا إلى السلاح ، وكان أشدهم تحفزاً وهياجاً أهل «الربض» الجنوبى فى الضفة الأخرى من النهر ، وهى ضاحية قرطبة الجنوبية المسماة « شَقُندة» ، وكانت كثرتهم من الأوغاد والسفلة ، وكان ذلك فى اليوم الثالث عشر من رمضان سنة ٢٠٢ هـ (٢٥ مارس ٨١٨ م)(٢)، وزحفت

---

(١) ابن القوطية فى « افتتاح الأندلس » ص ٥٠ و ٥١ .

(٢) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الواقعة اختلافاً بينا ، فتضع معظم الروايات الأندلسية تاريخها فى سنة ٢٠٢هـ ؛ ويعين ابن الأبار اليوم والشهر الذى وقعت فيه فيقول إنها وقعت =

جموع الثوار إلى القصر من كل ناحية ، وتأهب الحكم فى حرسه وغلمانه لردها ، وبعث ابن عمه عبيد الله البلنسى صاحب الصوائف ، والحاجب عبد الكريم ، فى قوة من الفرسان والمشاة ، فاستقبلت الجموع الزاحفة ، وردتها إلى الوراء بعد أن نفذت إلى فناء القصر ، ثم شقت طريقها إلى النهر واقتحمته إلى الضاحية الثائرة ، وأضرمت النار فى عدة من أنحائها ، ونجحت هذه الوسيلة فى تفرقة شمل الثوار ، إذ ما كادت ألسنة اللهب تبدو ، حتى هرع الكثير منهم إلى دورهم يحاولون إطفاء النار وإنقاذ الأهل والولد . وهنا احتاط الجند بالثوار من كل ناحية وأمعنوا فيهم قتلا حتى أفنوا منهم خلقاً كثيراً ، وطاردوهم فى كل مكان ، ونهبت دورهم ، وأسر منهم عدد كبير ، وفر من استطاع ، ومنهم بعض الفقهاء والمحرضين مثل طالوت وغيره ، والتجأ البعض إلى طليطلة ، واستمر القتل والنهب ثلاثة أيام حتى مزقوا كل ممزق ، وصلب الحكم تجاه قصره على شاطىء النهر ثلاثمائة رجل من الثوار ، صفوفاً منكسة ، إرهاباً لأهل قرطبة . ثم كف الجند عنهم ، ونودى بالأمان وهدأت الفتنة ، وأمر الحكم بديار الثوار فهدمت عن آخرها ، ولا سيما «الربَض» القبلى الذى كان مهد الفتنة ، وقام على الهدم ربيع القومس عامل أهل الذمة وقائد الغلمان الخاصة ، فمسح أحياء الثوار مسحاً ، وغدت ألوف كثيرة منهم دون مأوى ، وأمر الحكم بخروجهم من قرطبة فى الحال ، وأن

=فى يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ (الحلة السيراء ص ٣٩) ؛ ويوافقه ابن عذارى فيضع تاريخها فى نفس العام (ج ٢ ص ٨٧) ؛ وتؤيد هذا التاريخ عدة روايات وردت فى مخطوط ابن حيان الذى بين أيدينا ، ومنها رواية الرازى (ص ١٠٣ و ١٠٤) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخ واقعة الربض فى سنة ١٩٨ هـ ، وإن كان يشير أيضاً إلى ما قيل من وقوعها فى سنة ٢٠٢ هـ (ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢) ؛ ويأخذ المشارقة بهذه الرواية ؛ فنرى المقريزى مثلا يضع مقدم الأندلسيين الذين نزحوا على أثر الواقعة إلى الإسكندرية فى سنة ١٩٩ هـ ، ويشير إلى اشتراكهم فى الحرب الأهلية التى كانت تضطرم يومئذ بها فى سنتى ٢٠٠ و ٢٠١ هـ (راجع خطط المقريزى – مصر – ج ١ ص ٢٧٨–٢٨٠) وذلك مما قد يعزز رواية ابن الأثير فى حدوث الواقعة سنة ١٩٨ هـ ؛ ويميل دوزى أيضاً إلى الأخذ بهذه الرواية (ج ١ ص ٢٩٦ – ٢٩٧) ، ويستشهد بما يرويه المقريزى من الوقائع المادية . على أننا نميل من جانبنا إلى الأخذ بالرواية الأندلسية ، لقدمها واتفاقها ، وكونها أقرب إلى ميدان الحوادث وأقرب إلى التحقيق . وأما رواية المقريزى ، فقد يحمل ما ورد فيها إلى اضطراب فى ذكر الحوادث ، خصوصاً وأن الحرب الأهلية المصرية التى يشير إلى اشتراك الأندلسيين فيها قد استمرت من سنة ١٩٩ إلى سنة ٢٠٥ هـ ، مما يمكن معه أن نوفق بين أقواله وبين حدوث واقعة الربض فى سنة ٢٠٢ هـ (وراجع النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٩ و ١٧٨) .

لا أمان لمن لديه تخلف منهم . وبدأ رحيلهم فى العشرين من رمضان (٢٠٢ هـ) فتفرقوا فى الثغور والكور ، ولجأت جموع منهم إلى طليطلة لمخالفة أهلها على الحكم يومئذ ، وعبر البحر كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واتجهت جماعة كبيرة منهم قوامها زهاء خمسة عشر ألفاً إلى المشرق فى عدة من السفن ، ورست فى مياه الإسكندرية ، وكانت مصر تضطرم يومئذ بنار الحرب الأهلية التى نشبت بين السّرى بن الحكم وبين خصومه حول ولايتها ، فنزل الأندلسيون إلى الثغر واستقروا فيه ، واشتركوا فى الحرب الأهلية ، واستمرت الفتنة بمصر ، والأندلسيون بالإسكندرية ، حتى قدم عبد الله بن طاهر إلى مصر أميراً عليها من قبل الخليفة المأمون ، فسار إلى الإسكندرية وحاصرها ، واضطر الأندلسيون إلى الإذعان والصلح ، وغادروا الإسكندرية فى سفنهم ، وساروا إلى جزيرة إقريطش (كريت) ، بقيادة زعيمهم أبى حفص عمر بن عيسى البلوطى ، وافتتحوها ، ونزلوا بها (٢١٢ هـ — ٨٢٧ م) ، وأسسوا بها دولة صغيرة زاهرة استمرت زهاء قرن وثلث ، حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) .

هكذا كانت ثورة « الربض » التى كادت أن تحمل الحكم وعرشه ، وكانت ثورة شعبية بمعنى الكلمة ، ولكنها كانت دون تنظيم ودون زعامة ، وقد أدرك الحكم خطورتها ، ولم تأخذه فى إخمادها هوادة ولا رأفة ، وأصدر عقب إخمادها كتاباً إلى الكور يشرح فيه الواقعة وظروفها . وقد رأينا أن ننقل نصه فيما يلى كوثيقة سياسية وديوانية هامة من وثائق العصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد فإن الله ذو الفضل والمن ، والطول والعدل ، إذا أراد إتمام أمر وتهميه ، لمن جعله أهله وكفيه ، سدده وأعزه ، وأنفذ قضاءه بفلحه ، ولم يجعل لأحد من خلقه قوة على عناده ودفاعه ، حتى يمضى فيه حكمه له وعليه كما شاء ، وختم فى أم الكتاب لا مبدل لكلماته عز وجل ، وإنه لما كان يوم الأربعاء لثلاث عشرة من شهر رمضان ، تداعى فسقة أهل قرطبة وسفلتهم ، وأذنبتهم من الشرطانيين ، ألد الفئة ، المعلوجى شراً وبطراً ، عن غير مكروه سيرة ، ولا قبيح أثر ، ولا نكر حادثة ، كان منا فيهم ، فأظهروا السلاح ، وتلينوا للكفاح ، وهتفوا بالخلعان ، وتأنقوا بالخلاف ، ومدوا عنقاً إلى ما لم يجعله الله له أهلا من التأمير على خلقه ، والتسور فى حكمه . فلما رأيت ذلك من

غدرهم وعدوانهم ، أمرت بشد جدار المدينة ، فشد بالرجال والأسلحة ، ثم أنهضت الأجناد خيلا ورجالا ، إلى من تداعى من الفسقة فى أرباضها ، فأقحموا الخيل فى شوارعهم وأزقتهم ، وأخذوا بفوهاتها عليهم ، ثم صدقوهم الحملات ، وكورهم بالسَّدَّات المتواليات ، فما صبر العبدان أن كشفوا السوءات ، ومنحوا أكتافهم المتواليات ، وأمكن الله منهم ذوى البصائر المؤيدات ، فأسلمهم الله بجريرتهم ، وصدعهم ببغيهم ، وأخذهم بنكثهم ، فقتلوا تقتيلا ، وعموا تدميراً ، وعروا تشويهاً وتمثيلا ، جزاء عاجلا على الذى نكثوه من بيعتنا ، ودفعوه من طاعتنا ، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد تنكيلا . فلما قتلهم الله بجرمهم فيها ، وأحسن العون عليهم لنا ، أمسكت عن نهب الأموال ، وسبى الذرية والعيال ، وعن قتل من لا ذنب له من أهل البراءة والاعتزال ، ازدلافاً إلى رضى الله ناصرى عليهم ذى العزة والجلال ، تهنأت صلحه وفلحه ، واستورعت حمده وشكره ، فاحمدوا الله ذا الآلاء والقمع ، معشرة الأولياء والرعية ، الذى أتاح لنا ولجميع المسلمين فى قتلهم وإذلالهم ، وقمعهم وإهلاكهم ، مما أعظم به علينا المنة ، وخصنا فيه بالكفاية ، وتمم علينا وعليكم به النعمة ، فقد كانوا أهل جرأة مقدم ، وذعرة ضلالة ، واستخفاف بالأئمة ، وظهير إلى المشركين ، وحطوط إليهم ، وتحنن لدولتهم . فلله الحمد المكرور ، والاعتراف المذخور ، على قطع دابرهم ، وحسم شرهم ، أحببت إعلامك بالذى كان من صنع الله عليهم لولائك بنا ، ومكانك منا ، لمشاركتنا فى نصرته ، وتحمد الله ومن قبلك من شيعتنا ومعتقدى طاعتنا ، على جميل صنعه فيه ، وتشيعوا شكره عليه إنشاء الله »[1] .

ومن نظم الحكم فى واقعة الربض قوله :

رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً ... وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغورى هل بها اليـوم ثغرة ... أبادرها مسـتنضى السـيف دارعا

(١) نقلنا هذه الوثيقة عن مخطوط ابن حيان المشار إليه (ص ١٠٣ و ١٠٤) . وتراجع حوادث واقعة الربض فى ابن الأبار (الحلة السيراء ص ٣٩ و ٤٠) ، والبيان المغرب (ج ٢ ص ٧٧ و ٧٨) ، والمعجب للمراكشى (ص ١١) ، وابن الأثير (ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢) ، وابن القوطية ص ٥١ و ٥٢ . ويورد ابن خلدون والمقرى عن الواقعة روايات محرفة متداخلة فى حوادث سابقة (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦) . ووردت فى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة منسوبة إلى الرازى وغيره (ص ١٠٣ — ١١٠) .

تنبيك أني لم أكن في قراعهم بوان وقد ما كنت بالسيف قارعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم فوافوا منايا قدرت ومصارعا
فهذي بلادي إنني قد تركتها مهاداً ولم أترك عليها منازعا
وإني إذ أجادر أجراعاً عن الردى فما كنت ذا جيد عن الموت جارعا

خرج الحكم ظافراً من تلك الثورة الشعبية بعد أن سحقها سحقاً . ومع ذلك فقد لبث أهل قرطبة على تحديهم له ، ولبثوا يتغامزون عليه ، ويقدحون في سيرته . وقد وصف لنا كاتب قريب من العصر ، موقف أهل قرطبة بعد الواقعة من الحكم في قوله : « فأكثروا الخوض ، وأطالوا الهمهمة ، وفزع رؤوسهم إلى السمر في مساجدهم بالليل ، مستخفين من السلطان ، مدبرين عليه ، وقد كان خائفاً من ثورتهم ، متهمماً لدخلتهم ، حذراً منهم ، مستعداً لهم ، مرتقباً لوثبتهم ، مرتبطاً الخيل على باب قصره ، نوباً بين غلمانه ... » . ثم إنه استكثر من العبيد والسلاح ، وعززهم بالأحرار ، يرابطون دائماً حول القصر ، واستشعر الناس من ذلك الهيبة والخوف ، وركنوا إلى السكينة ، وفرض الحكم العشور على جميع الناس بقرطبة وبالكور ، فزاد في نفورهم منه ، وبغضهم له[1].

وأثارت حوادث الربض ، واستكانة الشعب ، من جهة أخرى ، قريض الشعراء الأحرار ، من خصوم الحكم ، والناقمين على عسفه وطغيانه ، وصدرت في ذلك قصائد كثيرة تنعى مسلك أهل قرطبة واستكانتهم ، ومن ذلك قول الشاعر غريب بن عبد الله من قصيدة طويلة :

يا أهل قرطبة الذين تواكلوا جد الدفاع من التواكل أفضل
جد الدفاع لو انكم دافعتم يوم الهياج لكم أعز وأجمل
إن التواكل وهنة ومذلة والحد فيه الصنع والمتمهل
صرتم أحاديث العباد وكنتم عوناً لهم في كل هم ينزل
أمسى عبيدكم الذين ملكتم ملكوا عليكم والأمور تحول

ومرض عبد الرحمن بعد ذلك واستطالت به العلة ، فاستناب عنه في أواخر عهده عبد الرحمن أكبر أولاده لتدبير الأمور[2] ، واختاره لولاية عهده ، وأخذ له البيعة

---

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٥ و ١١٠

(٢) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٤١ .

بالفعل ، واختار أخاه المغيرة ليخلفه من بعده ، ولكن المغيرة تنازل فيما بعد عن حقه فى ولاية العهد . وكان الحكم أول أمير من أمراء بنى أمية بالأندلس أخذ البيعة فى حياته لولى عهده ، وذلك خشية وقوع الخلاف بعد موته . ثم توفى الحكم فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ (٢٢ مايو سنة ٨٢٢ م) ، وقد بلغ الثانية والخمسين من عمره ، ودفن مع آبائه فى مقبرة القصر المعروفة بالروضة . وترك من الولد تسعة عشر من الذكور واثنين وثلاثين من الإناث .

وقيل إن الحكم أبدى حين مرض موته أسفه وندمه ، لما أوقعه بأهل الربض من بالغ النكال والشدة ، وصرح بأنه كان خيراً لو لم يفعل ما فعله(١) .

ولما شعر الحكم بدنو أجله استدعى ولده عبد الرحمن ، وألقى إليه وصيته ، وفيها يقول : « إنى وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الأعداء ، وأقمت أود الخلافة ، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة ، فاجرعلى ما نهجت لك من الطريقة ، واعلم أن أولى الأمور بك ، وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ، ثم عشيرتك ، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك ، فهم أنصارك وأهل دعوتك ، ومشاركوك فى حلوك ومرك ، فبهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نعمتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك ، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم ، مستثقلين لأعبائهم ، فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهم ، واحسام أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم ، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة ، وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك رجلا لم تنهض به سابقة ، ويشف بخصلة ، وتطمح نفسه وهمته ، فأعنه واختبره ، وقدمه واصطنعه ، ولا يريبنك خمول أوله ، فان أول كل شرف خارجيته ، ولاتدع عن مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسىء بإساءته ، فإن عند التزامك لهذين ، ووضعك لهما مواضعهما ، رغب فيك ، ورهب منك . وملاك أمرك كله بالمال ، وحفظه ، بأخذه من حله ، وصرفه فى حقه ، فإنه روح الملك المدبر بجثمانه ، فلا تجعل بينك وبينه أحداً ، فى الإشراف على اجتنائه وادخاره ، والتثقيف لإنفاقه وعطائه . وختام وصيتى إياك بإحكامك فى أحكامك ، فاتق الله ما استطعت ، وإلى الله أكلك ، وإياه استحفظك ، فقد هان على الموت إذ خلفنى مثلك »(٢).

---

(١) ابن القوطية ص ٥٥

(٢) نقلنا نص هذه الوصية عن مخطوط ابن حيان . وقد وردت فيه برواية الرازى ومعاوية هشام الشبينسى فى نصين تلفين حاولنا أن ننسق بينهما .

وكان الحكم أميراً قوى النفس ، وافر العزم ، فطناً ، حسن التدبير ، واسع الحيلة ، نافذ الرأى والحزم ، صارماً يؤثر وسائل الطغيان المطلق ، شديد الاستئثار بسلطانه ، حريصاً على حمايته من كل تدخل أو نفوذ . وكان مثل جده عبد الرحمن الداخل يلتمس الغاية بأى الوسائل ، ويذهب فى صرامته وطغيانه إلى حد القسوة والقمع الذريع ، ولم يكن يحجم مثله عن الالتجاء إلى وسائل لا تقرها المبادئ الأخلاقية القويمة . وكان شغوفاً بأبهة الملك ، مسرفاً فى مظاهر البذخ الطائل ، كثير الترفع عن العامة ، ولم يكن كأبيه وجده محبباً إلى الشعب ، بل كان بالعكس مكروهاً من الكافة ، وكان الفقهاء يبثون هذا البغض فى نفوسهم بوسائلهم الخاصة ، لما عمد إليه الحكم من سحق سلطانهم ونفوذهم . ومع ذلك فقد كان الحكم بالرغم من عسفه وطغيانه ، أميراً مستنيراً ، يؤثر العدل ، ويحرص على إقامته ، ويختار لقضائه أفضل الناس ، وأكثرهم نزاهة وورعاً ، وكان يسلط قضاته على نفسه ، وعلى ولده وخاصته . وكان قاضيه محمد بن بشير من أعظم القضاة نزاهة واستقلالا فى الرأى والحكم[1] .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن الحكم كان أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، والواقع أنه أول من أنشأ بالأندلس بلاطاً إسلامياً ملوكياً بكل معانى الكلمة ، ورتب نظمه ورسومه ، وأقام له بطانة ملوكية فخمة ، فاستكثر من الموالى والحشم ، وأنشأ الحرس الخاص ، وفى عهده ظهر الصقالبة لأول مرة فى البلاط بكثرة ، وكان جده عبد الرحمن الداخل أول من وضع سياسة اصطفاء الموالى لاسترابته بالعرب كما قدمنا ، وتوسع حفيده الحكم فى تطبيق هذه السياسة ، فاستكثر من الموالى والصقالبة ، وعهد إليهم بمعظم شئون القصر والخاص . وكان هؤلاء الصقالبة[2] على الأغلب من الرقيق والخصيان ، الذين يؤتى بهم بالأخص من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللونبارد ومختلف ثغور البحر الأبيض النصرانية ، وكان يؤتى بهم أطفالا من الجنسين ويربون تربية إسلامية ، ثم يدربون على أعمال البطانة وشئون القصر ، وقد سما شأنهم فيما بعد ، وتولوا مناصب الرياسة والقيادة ،

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٠ ؛ والمعجب ص ١١ .

(٢) يرى البعض أن كلمة صقالبة قد اشتقت فى الأصل من كلمة **Esclave** الإفرنجية . ومعناها الرقيق أو الأسير . راجع **Reinaud : ibid , p. 237**

وبلغ عددهم فى عهد الحكم زهاء خمسة آلاف[١]. وكان للحكم فرقة من الحرس الخاص معظمهم من فىء أربونة ورثهم عن والده هشام ، وقد أبلوا فى الدفاع عنه يوم الربض أحسن البلاء ، فأعتقهم جميعاً ، وأغدق عليهم صلاته[٢] . وكان الحكم فارساً مجيداً ، يعشق الفروسية والصيد ، وكانت له ألفا فرس من الجياد الصافنات مرتبطة على شاطئ النهر تجاه القصر ، يشرف عليها جماعة من العرفاء البارعين[٣]. وكانت له شرطة قوية منظمة ، وله عيون يطالعونه بأحوال الناس . وعلى الجملة فقد كان الحكم أميراً عظيم السلطان والهيبة ، يسطع بلاطه ، كما تسطع خلاله ، ويثير من حوله بهاء الملك وروعته ، وقد شبهه بعضهم بأبى جعفر المنصور فى قوة الملك ، وتوطيد الدولة ، وقمع الأعداء[٤].

وكان الحكم فوق ذلك خطيباً مفوهاً ، وشاعراً مجيداً ، نظم الشعر فى مختلف المناسبات ، من أحداث الحرب والسياسة ، والفخر والغزل وغيرها . وقد أوردنا فيما تقدم شيئاً من نظمه فى واقعة الربض ، ومن قوله فى الفخر :

غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن ... من اللحن فى الأوتار واللهو والردن
إذا اختلفت زرق الأسنة والقنا ... أرتك نجوماً يطلعن من الطعن
بها يهتدى السارى وينكشف الدجى ... وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن
وإن تجد الأبطال حصناً ومعقلا ... فما لى غير السيف فى الأرض من حصن
قذفت بهم فى فضا الأرض فانزوت ... له الأرض واستولى على السهل والحزن

ومن قوله فى الغزل :

قضب من البان ماست فوق كثبان ... ولَيَّنْ عنى وقد أزمعن هجرانى
ناشدتهن بحقى فاعتزمن على الـ ... عصيان لما خلا منهن عصيانى
ملكنى ملكاً ذلت عزائمه ... للحب ذل أثير موثق عانى
من لى بمغتصبات الروح من بدنى ... يغصبننى فى الهوى عزى وسلطانى

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٥ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه (ص ١٠٦) .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٢٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ .

على أن هذه الخلال الباهرة التى كان يتمتع بها الحكم ، لم تكن دون نواح قاتمة هى دائماً مما يغلب لدى الطغاة الأقوياء ، وقد ذكر لنا ابن حزم أنه كان من المجاهرين بالمعاصى السفاكين للدماء . ويزيد ابن حزم على ذلك أن الحكم كان يخصى من اشتهر بالجمال من أبناء رعيته ، ليدخلهم إلى قصره ويصيرهم من خدمه ، ومن هؤلاء طرفة بن لقيط ، وهو من أسرة نابهة تصرف أبناؤها فى الولايات الرفيعة ، ومنهم نصر صاحب منية نصر ، وهو الذى غدا فى عهد ولده عبد الرحمن من أعظم رجالات الدولة مكانة ونفوذاً[١] .

وكان الحكم مديد القامة ، أسمر ، نحيفاً ، وكان يلقب بالحكم المنتصر ، وبالحكم الربضى ، نسبة إلى ما حدث منه فى واقعة الربض .

* * *

وكانت حكومة الحكم تضم طائفة من الشخصيات البارزة فى تاريخ الأندلس فى ذلك العصر ، فتولى حجابته (رياسة الوزارة) عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث قائد أبيه من قبل ، وكان جندياً عظيماً ، قاد عدة غزوات مظفرة إلى بلاد النصارى ، وكان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً[٢]. وخلفه فى الحجابة عبد العزيز بن أبى عبْدَة ، وكان قائداً كبيراً وسياسياً بارعاً . وكان بين قواده ووزرائه أيضاً ، إسحاق بن المنذر ، والعباس بن عبد الله . وفى عهد الحكم أنشئ بالدولة منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة (النصارى واليهود) ينعت صاحبه بالقومس[٣]، وعين فيه ربيع بن تدلف القومس ، قائد الغلمان الخاصة ومتولى قهرمة الأمير الحكم وشئونه الخاصة ، وكان طاغية ظلوماً يبغضه الجميع ، وقد أمر الحكم بقتله قبيل وفاته ، فنفذ فيه الحكم ولى العهد عبد الرحمن ، وتم إعدامه وسط الاغتباط العام . وذكر البعض أن هذا المنصب أنشئ فى عهد

(١) مخطوط ابن حيان السالف الذكر ص ١٢٨ . وراجع رسالة ابن حزم المسماة « نقط العروس » المنشورة بعناية الدكتور شوقى ضيف فى مجلة كلية الآداب (ديسمبر سنة ١٩٥١) ، ص ٧٣ . وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٧٢ .

(٣) مخطوط ابن حيان . والقومس تعريب للكلمة اللاتينية **Comes** ، وتعرب أحياناً بكلمة « قمط » ، أعنى « الكونت » **Comte** باللغة الحديثة .

عبد الرحمن الداخل[١]. ولكن الظاهر أنه لم يرتب بصورة ثابتة وتحدد اختصاصاته إلا فى عهد الحكم .

وكان عصر الحكم ، بالرغم مما غشيه من الاضطرابات والفتن ، عصراً ازدهرت فيه الآداب والعلوم ، وظهر فيه عدد جم من أكابر الكتاب والشعراء والعلماء . وكان فى مقدمتهم شاعر الحكم الأثير لديه ، وقطب الشعر فى عصره ، عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى ؛ وكان فضلاعن براعته فى الشعر والأدب ، بارعاً فى علوم اللغة ، وفى الهندسة والفلسفة والفلك ، وكانت له منزلة خاصة عند الحكم ، وله فى مدحه أشعار كثيرة . وقد ولاه الحكم قضاء الجزيرة بلده ومسقط رأسه ، ثم وليه من بعده ولده عبد الوهاب بن عباس ، وكان مثله شاعراً نابهاً ، وتوفى أواخر عهد الحكم[٢] .

وكان من أعلام عصر الحكم أبو القاسم عباس بن فرناس ، وهو فيلسوف وعلامة رياضى من نوع فذ ، وقد ولد فى مقاطعة تاكرنا من أصل بربرى ، وبرع منذ فتوته فى الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وبرع أيضاً فى الموسيقى ، وصنع آلة فلكية تعرف « بالميقاتة » لتعريف الوقت ، وله مخترعات كثيرة أخرى . وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين بهيئة مخصوصة ، وحاول الطيران من ناحية الرُّصافة ، فحلق فى الهواء ، ثم وقع فى مكان طيرانه على مسافة بعيدة ، واشتهر أمره بذلك حتى قال فيه مؤمن بن سعيد الشاعر :

يطم على العنقـــاء فى طيرانهـــا إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم

وذكر عبد الحميد بن بسيل الوزير ، قال : « أبدع عباس بن فرناس طول أمده إبداعات لطيفة واختراعات عجيبه ، وضرب بالعود ، وصاغ الألحان الحسنة ، وكان مع ذلك مجيداً للشعر ، حسن التصرف فى طريقته ، كثير المحاسن جم الفوائد » . وأثار ابن فرناس باختراعاته المدهشة ريب الجهلاء ، فكثر الطعن فى عقيدته ، واتهم بالزندقة ، ولكن القضاء لم يجد سبيلا إلى إدانته ، وعاش طويلا وعاصر من بعد الحكم ، ولده عبد الرحمن ، وتوفى فى عهد حفيده الأمير محمد بن

---

(١) ابن القوطية ص ٣٨ . ويقول إن أول من تولى « القهامة » هو ارطباس ابن وتيزا .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٢٨ و ١٢٩ . وراجع تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضى رقم ٨٨١ (طبع مصر ص ٣٤٠)

عبد الرحمن (١) ونظم كثيراً من مختار الشعر فى العهود الثلاثة . وسوف نعود إلى ذكره .

ومن أعلام عصر الحكم أيضاً ، يحيى الغزال الجيانى ، وهو أبو زكريا يحيى ابن الحكم البكرى ، نسبة إلى بكر بن وائل ، وأصله من مدينة جيَّان ، ولقب بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه ، وكان شاعراً جزلا مطبوعاً ، وبرع بالأخص فى الغزل ، وله فى النسائيات كثير من رقيق النظم ، وكان فوق ذلك عالماً بالفلك والفلسفة ، وله أرجوزة طويلة فى أبواب العلوم لم تصل إلينا ، وكان كثير التعريض بالفقهاء والحملة عليهم ، حتى سخطوا عليه ، ورموه بالزندقة ، لصراحته وحر تفكيره . وهو القائل فيهم :

لست تلقى الفقيـه إلا غنيـاً ... ليت شعرى من أين يستغنونا
تقطع البر والبحـار طلاب الـ ... ـرزق والقوم ها هنـا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غـاب عنـا ... لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وله فى ذكر النفس والروح قصيدة ، أثارت حول عقيدته شبهاً وريباً ، يقول فيها :

يا ليت شعرى أى شىء محصـل ... يرى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خـلق شبيه بمـا رأ ... ى فقل للقـلوب النائمـات عيون
وكيف يرى والعين قد مات نورها ... وواقعـه شـبه الوقـار سـكون
لئن كانت الأرواح من بعـد بينها ... بهـن إلى ما خلفهـن حـنين

وقال يمدح الحكم فى قصيدة مطلعها :

كأن الملوك الغُلْبَ عنـدك خُضَّعاً ... خواضع طير يتقى الصـقر لُبَّد
تقـلب فيهـم مقـلة حكميـة ... فتخفض أقواماً وقـوماً تُسوِّد

واشتهر الغزال فوق ذلك بأصالة الرأى ، وحسن التدبير ، واللباقة ، والدهاء وقد رشحته هذه الصفات فيما بعد ، فى عصر عبد الرحمن بن الحكم للقيام ببعض المهام الدبلوماسية الخطيرة ، وهو ما سوف نعود إليه فى موضعه .

---

(١) المخطوط السابق الذكر ص ١٣١ ؛ ١٣٢ .

الفصل السادس

عبد الرحمن بن الحكم

ولاية عبد الرحمن بن عبد الحكم . الثورة فى تدمير . شغب أهل الذمة . غزو ألبة والقلاع . وفاة الحاجب عبد الكريم . نكبة جديدة للفرنج . حوادث الثغر الأعلى . ثورة البربر فى ماردة . مغامرات محمود بن عبد الجبار وأخته جميلة العذراء . ثورة هاشم الضراب فى طليطلة . مسير الجند إليها ومصرع الضراب . محاصرة طليطلة وثبات الثوار . تعاقب الحملات إليها . حصارها للمرة الثانية وخضوعها . الصوائف . غزو عبد الرحمن لنافار . خروج والى تطيلة وتحالفه مع النصارى . بنى قسى وأصلهم . مسير عبد الرحمن إلى الشمال . زحفه على نافار واقتحامه لبنبلونة . هزيمة الثوار والنصارى . وفاة ألفونسو الثانى . النورمانيون أو المجوس . بدء ظهورهم فى المياه الإسبانية . غزوهم لثغر أشبونة . إقتحامهم للنهر حتى إشبيلية . غزوهم لها وعيثهم فيها . الحرب بين المسلمين والغزاة . هزيمة النورمانيين وانسحابهم . اهتمام حكومة قرطبة بأمر الأسطول . غزو جليقية . حوادث الثغر الأعلى . غزو ميورقة . الحملات البحرية الأندلسية إلى شواطىء فرنسا وكورسيكا وسردانية . الحرب بين المسلمين والبشكنس . مجتمع النصارى فى قرطبة . كيف يصفه المستشرق سيمونيت . حملته على الحكومة الإسلامية . الغلاة المتعصبون . بغضهم للمسلمين وتحاملهم على الإسلام . مجاهرتهم بسب النبى . عقاب المعتدين . دسائس الأحبار وتفاقم الفتنة . أقوال العلامة ألتاميرا . مجتمع الأساقفة وحزم الحكومة . قصة الفتاة فلورا . وفاة عبد الرحمن . صفاته وخلاله . روعة البلاط الأموى فى عهده . ترتيب الوزارة . وزراؤه وكتابه وقضاته . اصطفاؤه للموالى والصقالبة . الفتى نصر . نفوذ الفتيان والجوارى . منشآته . الأمن والرخاء فى عهده . أدبه وشعره . حمايته للعلوم والآداب . استقدامه لزرياب نابغة الموسيق . شغفه بجمع الكتب . سفارة قيصر قسطنطينية إليه . بواعث هذه السفارة . سفارة عبد الرحمن إلى القيصر وكتابه إليه . يحيى الغزال فى بلاط بيزنطية . سفارته إلى ملك النورمانيين .

لما توفى الحكم ، خلفه عبد الرحمن أكبر أولاده بعهد منه ، وكان ينوب عنه فى الحكم أثناء مرضه حسبما قدمنا ، وبويع فى اليوم التالى لوفاة أبيه ، فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ (مايو ٨٢٢ م) ، وأخذ له البيعة بالقصر الحاجب عبد الكريم ، وكان حينما ولى العرش فى الحادية والثلاثين من عمره ، إذ كان مولده بطليطلة فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) ، وأمه أم ولد تدعى « حلاوة » ، وكان أحب أبناء الحكم إليه ، وقد عنى بتربيته وتثقيفه عناية خاصة . وشغف عبد الرحمن ، منذ فتوته بالأدب والحكمة ، ودرس الحديث والفقه ، فكان ذهناً مستنيراً[1] ، وكان فوق ذلك أميراً رفيع الخلال والكفاية ، وافر الخبرة بشئون

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٥ .

الحرب والإدارة ، يحسن اختيار الرجال للمناصب ، فكان يحشد حوله خيرة رجال الدولة من الوزراء والقادة والولاة والقضاة(١) .

وفى فاتحة ولايته ، عاد عبد الله البلنسى ، عم أبيه ، إلى الثورة مرة أخرى ، واحتل كورة تدمير مطالباً بإقطاعها (سنة٢٠٧هـ) ، والتف حوله جمع كثير ، وكان يزمع الزحف إلى قرطبة بالرغم من ضعفه وشيخوخته ، ولكن المرض عاجله ، وتوفى فى العام التالى (سنة ٢٠٨ هـ) ، فاحتل عبد الرحمن كورة تدمير ، وتكفل بأهله وولده ، وانتهت بذلك آخر مرحلة فى فتنة طالما تكرر حدوثها منذ وفاة عبد الرحمن الداخل .

ولكن تدمير لبثت مع ذلك تضطرم بنار ثورة داخلية من نوع جديد . ذلك أن فتنة نشبت فيها بين المضرية واليمنية ، من جراء موت مضرى قتله يمانى ، واستفحل الشر بينهما ، وقتل كثير من الفريقين ، فبعث عبد الرحمن إليهم حملة بقيادة يحيى بن عبد الله ، وعينه والياً على تدمير ، ولكنه لم يفلح فى إخضاع الولاية الثائرة . واستمرت الفتنة على أشدها ، وغلب على تدمير أبو الشماخ زعيم اليمنية ، ولبث بضعة أعوام يتحدى سلطة قرطبة ، والبعوث تتردد إليه فى كل عام ، دون أن تنال منه منالا ، ولم تهدأ الفتنة إلا فى سنة ٢١٣ هـ ، حيث خضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء ، وطلبوا الأمان ، وعادوا إلى الطاعة .

وحدثت فى قرطبة عقب جلوس عبد الرحمن بأيام قلائل ، فتنة شعبية من نوع ما حدث أيام الربض . ذلك أن وفوداً من أهل الذمة وغيرهم قدمت من إلبيرة تطالب برفع المغارم التى فرضها عليهم ربيع الأسقف ، وانضم إليهم كثير من أهل قرطبة النصارى ، وساروا إلى القصر فى ضجة كبيرة ، فأرسل إليهم عبد الرحمن قوة من الفتيان لتهدئتهم فاعتدوا عليها ، فبعث عندئذ الجند إليهم ، ففتكوا بهم وقتل منهم خلق كثير ، وفر الباقون فى مختلف الأنحاء ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٢٠٧ هـ(٢).

وبدأ عبد الرحمن برنامجه فى الغزو والجهاد مبكراً ، فبعث فى صيف سنة ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) حملة إلى ألبة والقلاع بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث ، وكان ألفونسو الثانى ملك جليقية (أو ليون) قد أغار على

---

(١) مخطوط ابن حيان ص ١٣٨ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٣٠ .

مدينة سالم Medinaceli من أعمال الثغر الأعلى ، وحذت حذوه بعض القبائل الجبلية من أهل بسكونية ، فأغارت على أطراف الثغر وعاثت فيها ، فاخترق الحاجب بسائط ألبة والقلاع ، وهزم النصارى فى عدة مواقع ، وعاث فى ألبة وخرب مدينة ليون وأحرق حصونها ، واشترط على النصارى أن يدفعوا جزية كبيرة ، وأن يطلقوا أسرى المسلمين ، وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة بسكينتهم ، وعاد الحاجب إلى قرطبة مثقلا بالغنائم والسبي . وكانت هذه آخر غزوة قام بها هذا الوزير النابه والقائد المظفر ، الذى قاد معظم الغزوات الكبرى إلى أرض العدو ، منذ عهد هشام بن عبد الرحمن ، إذ توفى عقب عوده إلى قرطبة بقليل فى المحرم سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) [١] .

وفى هذا العام (٨٢٤ م) أصيب الفرنج بهزيمة ساحقة فى أحواز بنبلونة ، فى سفح جبال البرنيه ، عند باب شزروا ، حيث نكب جيش شارلمان من قبل ؛ ويبدو من أقوال الرواية الفرنجية أن المسلمين كان لهم دور كبير فى إيقاع هذه الهزيمة . ذلك أن لويس ملك الفرنج أرسل قواته بقيادة الكونتين أزنار وإبلو لمهاجمة البشكنس وإخضاعهم ، فاستغاث البشكنس بجيرانهم المسلمين ، والظاهر أن الذى لبى نداء البشكنس هم بنو موسى أو بنو قسى أصحاب تطيلة ، وأن هذه المعاونة كانت بموافقة حكومة قرطبة . وعلى أى حال فقد أحرز المسلمون والبشكنس على الفرنج نصراً ساحقاً . وأسر القائدان أزنار وإبلو ، ثم أطلق سراح الأول وأرسل الثانى إلى قرطبة حيث اعتقل بعض الوقت . وقد أثار هذا الحادث ذكريات موقعة باب شزروا الكبرى التى نكب فيها الفرنج أيام الأمير عبد الرحمن الداخل ، قبل ذلك بستة وأربعين عاماً [٢] .

وتولى قيادة الصائفة بعد الحاجب عبد الكريم [٣] ، أمية بن معاوية بن هشام ، ولكنه لم يسر إلى أرض العدو ، بل سار إلى شنت برية ، ثم إلى تدمير ليعمل على تهدئة الثورة . وكانت حوادث الشمال قد عادت تتطلب اهتمام قرطبة ، وكان

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) راجع : R.M. Pidal : ibid, Vol. I. p. 195 ، وكذلك كوندى : Conde : ibid ; Vol. I. p. 264 & 265

(٣) كانت معظم الحملات والغزوات الإسلامية الكبرى ، تنظم فى الصيف باعتباره خير الفصول للقيام بمثل هذه الغزوات ، ولهذا كانت تسمى بالصائفة والصوائف .

الفرنج فى الثغر القوطى قد تحركوا ، وأغاروا على أطراف الثغر الأعلى ، بقيادة أميرهم برنهارت صاحب برشلونة ، وهو ولد جيوم دوق تولوز ، فسير عبد الرحمن إلى الشمال جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسى ، فاخترق الثغر الأعلى إلى أراضى الفرنج (٢١٢ هـ — ٨٢٧ م) واجتاح ولاية قطلونية ، وهزم الفرنج فى عدة مواقع ، وسار حتى جِرُندة (چيرونة) ، ولكنه لم يحاول أن يحرز فتوحاً ثابتة ، فارتد إلى الجنوب بعد أن مزق شمل النصارى فى تلك الأنحاء[١] .

وشغلت عبد الرحمن فى الأعوام التالية عدة ثورات محلية خطيرة ، وكانت الفتنة تضطرم فى نفس مواطنها القديمة ، فى طليطلة ، وماردة ، حيث كانت عناصر الخروج والثورة تحتشد وتعمل بعيدة عن العاصمة ، ممتنعة بالوهاد والوعر ، قريبة من النصارى ، تتلقى منهم الوحى والعون فى أحيان كثيرة . ففى ماردة ثار البربر بقيادة زعيمين من زعمائهم هما محمود بن عبد الجبار بن راحلة ، وهو من بنى طريف من مصمودة ، وسليمان بن مرتين ، وانضم إليهم النصارى المعاهدون . وألفى لويس ملك الفرنج فرصة جديدة للدس والتحريض على حكومة قرطبة ، فبعث إلى الثوار يشجعهم ويعدهم بالمدد والعون[٢]. وكان محمود زعيما قوياً ومغامراً جريئاً ، فوثب بعامل ماردة وقتله ، وعاث فى تلك الأنحاء قتلا ونهباً وتخريباً ، وتوالت إليه بعوث عبد الرحمن ، فكان فى كل مرة يعتصم بالمدينة ، فإذا غادره الجند عاد إلى عيثه وسفكه . وفى سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) سار إليه عبد الرحمن بنفسه ، فغادر ماردة فى صحبه ومعه زميله سليمان ، وخرجت مع محمود أخته جميلة العذراء ، وهى فارسة بارعة الحسن ، اشتهرت يومئذ فى جميع أنحاء الأندلس برائع جمالها ، كما اشتهرت بالشجاعة والنجدة والفروسية ، ولقاء الفرسان ومبارزتهم[٣] ، ونزل الثوار بحصن فرنكش على ضفة نهر وادى يانة . ثم غادر سليمان زميله ، واستقل محمود بالعمل ، وزحف فى جموعه على بطليوس ، ثم على أكشونبة[٤] ثم سار إلى باجة ، فقاتلَه أهلها ، ولكنه تغلب عليهم بمعاونة أخته جميلة ، وبسط محمود سلطانه على

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ ؛ ومخطوط ابن حيان ص ١٨٠ .

(٢) Scott : ibid , Vol. I. p.482

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٦ .

(٤) بطليوس بالإسبانية Badajoz ، وأكشونبة Ocsonoba

باجة ، وهو يقاتل خصومه من حوله ، وبعوث الأمير تتردد إليه ، حتى لحقه الإعياء واليأس ، ففر مع أخته وصحبه إلى جليقية ، واستجار بملكها ألفونسو الثانى ، فرحب به وأكرم وفادته ، وأنزله بأطراف مملكته . وبعد حين رأى الثائر أن يعود إلى الطاعة فكاتب عبد الرحمن ، ووقف ألفونسو على هذه المحاولة ، فخشى إن أفلت الثائر منه أن ينقلب حرباً عليه ، فسار إليه وأحاطت به الجند من كل ناحية ، ودافع محمود عن نفسه دفاع الأبطال ، ولكنه قتل أخيراً ، وأسر أهله وصحبه ، وكانت أخته الحسناء جميلة بين الأسرى (٢٢٥ هـ — ٨٤٠ م) . ووقعت جميلة فى نصيب كبير من كبراء النصارى ، فحملها على اعتناق النصرانية وتزوج منها ، وكان من ولدها فيما بعد أسقف شنت ياقب[1] .

واضطرمت طليطلة بالثورة فى نفس الوقت ، ففى سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) ثار بها زعيم من العامة يدعى هاشم الضراب ، وكان هاشم فى طليطلة أيام واقعة الحفرة ، ثم أخذ بين الرهائن إلى قرطبة ، فاشتغل بها حداداً مدى حين وعرف بالضراب ، ثم غادرها إلى طليطلة ، وهناك اجتمع إليه عدد كبير من الأوغاد والسفلة ، فأخذ يغير بهم على الأنحاء المجاورة ، حتى اشتد بأسه وطار صيته ، وهرع إلى لوائه أهل الشر والبغى من كل صوب ، وسار إلى البربر فى شنت برية ، فأغار عليهم وأوقع بهم ، فبعث عبد الرحمن الجند لقتاله بقيادة محمد بن رستم ، عامل الثغر الأدنى ، فنشبت بينه وبين الثوار عدة وقائع غير حاسمة . وفى العام التالى بعث عبد الرحمن إلى عامله بالمدد ، فزحف على الثوار والتقى بهم على مقربة من حصن سمسطا بمجاورة رورية ، ونشبت بين الفريقين موقعة عنيفة هزم فيها الثوار ، وقتل هاشم الضراب وكثير من أصحابه ، وذلك فى سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) .

ولكن طليطلة استمرت مع ذلك على اضطرامها ، وكان على عبد الرحمن أن يخوض معارك أخرى لإخضاعها . ففى سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) أرسل إليها جيشاً بقيادة أخيه أمية بن الحكم ، فحاصرها وانتسف ما حولها من الزروع ، ولكن المدينة الثائرة لم تهن ولم تخضع ، فرحل عنها ، وأبقى بعض قواته بقيادة

---

(١) وردت هذه التفاصيل الشائقة فى مخطوط ابن حيان (ص ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٤) . وراجع ابن القوطية ص ٦٧ .

ميسرة الفتى فى قلعة رباح [1] الواقعة فى جنوبها استعداداً لمحاصرتها ، فخرج عندئذ أهل طليطلة لقتال ميسرة ، فظهر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فارتدوا إلى داخل المدينة ، وعادوا إلى الاعتصام بأسوارها المنيعة . وفى العام التالى (سنة ٢٢٠ هـ) سار إليهم عبد الرحمن بنفسه ، فثبتت فى وجهه المدينة الثائرة ، فترك الجند فى قلعة رباح ، وسار إلى الغرب فى أحواز ماردة ، ليطارد سليمان بن مرتين زعيم البربر ، وكان بعد أن تخلف عن زميله محمود بن عبد الجبار ، يتزعم الثورة فى تلك الأنحاء ، فحاصره عبد الرحمن ، وحدث أن قتل الثائر فى سقطة مميتة عن جواده ، فانفضت جموعه وخبت ثورته . وسير عبد الرحمن فى العام التالى حملة أخرى إلى طليطلة بقيادة أخيه الوليد بن الحكم ، فضرب حولها الحصار الصارم ، واستمر على حصارها حتى جهد أهلها ، وضاقوا بالحصار ذرعاً ، ثم هاجمها بعد ذلك واقتحم أسوارها ، وخضعت المدينة الثائرة ، بعد أعوام عديدة من من فتن وثورات مستمرة ، كان يغذيها خلالها روح التمرد المتأصل فى شعبها ، ودسائس البربر والنصارى من أهلها ، وتحريض الفرنج والجلالقة ، وكان خضوعها فى رجب سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م)[2] .

واستطاع عبد الرحمن بعد إخماد الثورة فى مختلف النواحى ، أن يستأنف أعمال الجهاد والغزو ، فعكف فى الأعوام التالية على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفية متعاقبة فى كل عام إلى الشمال ، تارة إلى أطراف الثغر الأعلى ، حيث تشتبك مع الفرنج ، وتثخن فى أراضيهم ، وتارة إلى ألبة والقلاع ، حيث تغير على أراضى البشكنس ، أو أطراف مملكة ليون (جليقية) ، وتولى عبد الرحمن قيادة الصائفة بنفسه إلى جليقية فى سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) . وفى سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) سار عبد الرحمن إلى الشمال ، وكان موسى بن موسى بن قسىّ والى تُطيلة[3] من أعمال الثغر الأعلى (أراجون) ، قد خرج عن طاعته وتحالف مع غرسية[4] أمير نافار ، وأوقع الإثنان بجند الأمير فى الثغر ، وعاثا فى أنحائه .

---

(١) ومقابلها بالإسبانية **Calatrava**

(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ و ١٥٠ و ١٥٣ و ١٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ .

(٣) وهى بالإسبانية **Tudela**

(٤) وهى بالإسبانية **Garcia**

وتقول الرواية فى سبب نقض موسى الطاعة ، أن عبد الرحمن كان قد ولى عبد الله بن كليب على سرقسطة ، وعامر بن كليب على تُطيلة ، فأغار عبد الله على أموال ينقة بن ونقة أخى موسى لأمه ، واعتدى عامر بن كليب على أملاك موسى وخيله ، وانتهب أمواله ، وخرب حدائقه ، فعندئذ أعلن الخروج والعصيان ، وكان ذلك فى سنة ٢٢٦ هـ(١) . فسار عبد الرحمن إلى بلاد البشكنس (ناقار) ، وتوغل فيها حتى بنبلونة ، وعاث فيها نسفاً وتخريباً ، وسبى من أهلها جموعاً كثيرة .

ولا بد لنا هنا من التعريف بهذا الزعيم الثائر موسى بن موسى ، إذ هو سوف يحتل منذ الآن فصاعداً ، هو وأبناؤه ، حيزاً كبيراً فى تاريخ الثورة على حكومة قرطبة . فهو وفقاً لابن حيان ، وابن حزم ، موسى بن موسى بن فرتون ابن قسىّ (أو القسوى) . وكان جده الأعلى ، الكونت قسىّ Kasi من أشراف القوط ، وكان وقت الفتح «قومس» Comes الثغر الأعلى ، فلما غزا المسلمون أراضيه سار إلى الشام ، واعتنق الإسلام على يدى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وذلك لكى يحتفظ فى ظل الغزاة الجدد ، بأملاكه وسلطانه الإقطاعى ، واعتبر بإسلامه على يدى الخليفة من مواليه ، وانحاز بطريق هذا الولاء إلى جانب المضرية . وعدا أولاده وأحفاده من بعده زعماء المولدين فى الثغر الأعلى . وكانوا من أنجاد الزعماء والفرسان ، يمتازون بالجرأة والإقدام والشجاعة ، ويعتزون دائماً بأصلهم القوطى النصرانى . وكانت لهم دائماً علائق مصاهرة مع جيرانهم من الأمراء النصارى ، من البشكنس وغيرهم ، وكان إسلامهم فى الواقع مظهراً سطحياً لاغتنام السلطان والنفوذ ، وكانوا لايشعرون بالولاء نحو حكومة قرطبة ، يصانعونها متى وجبت المصانعة ، احتفاظاً بمركزهم وسلطانهم فى الثغر ، ولكنهم لايحجمون عن انتهاز أية فرصة للثورة عليها ، ومحالفة أعدائها من النصارى . وسنرى فيما بعد أى دور خطير قامت به هذه الأسرة المتمردة الخطرة ، فى ثورة المولدين الكبرى على قرطبة (٢) .

---

(١) نصوص عن الأندلس للعذرى فى الأوراق المنشورة من كتاب « ترصيع الأخبار » ص٢٩

(٢) راجع المقتبس لابن حيان ، الجزء المطبوع بعناية المستشرق أنتونيا ص ١٦ و ١٧ . وكذلك جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٧ و ٤٦٨ ، حيث يقدم لنا شجرة كاملة لنسبة بنى قسى ، منذ جدهم الأعلى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى .

وفى العام التالى سار عبد الرحمن إلى الشمال مرة أخرى، ومعه ولداه المطرِّف ومحمد ، واستخلف ولده المنذر على قرطبة ، وبدأ عبد الرحمن بمحاصرة تُطيلة حتى أخضعها ، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى ، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى فى جموع كبيرة ، فهزم البشكنس وحلفاؤهم هزيمة شديدة ، وقتل منهم عدد جم ، وفر موسى وحليفه غرسيّة جريحين ، وسار عبد الرحمن إلى بنبلونة فأثخن فيها وخربها ، واضطر البشكنس إلى طلب الأمان والصلح ، وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الإسلام وحكومته فى تلك الأنحاء (٢٢٨ هـ — ٨٤٢ م)[١] . ولم يكن لهذه الغزوات فى الواقع نتائج مستقرة ، وكانت تقصد فى الغالب إلى إيقاع الرعب فى قلوب نصارى الشمال ، وتخريب بلادهم ، وإنهاك قواهم ، حتى يلزموا السكينة ، ويكفوا عن عدوانهم وعيثهم فى أراضى المسلمين .

وفى نفس هذا العام الذى سحقت فيه ناقار وخربت (٨٤٢ م) ، توفى ألفونسو الثانى الملقب بالعفيف بعد أن حكم مملكة ليون (جليقية) إحدى وخمسين عاماً ، إذ تولى الملك فى سنة ٨٩١ م ، أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وخلفه ولده راميرو الأول ، أو رذمير كما تسميه الرواية العربية . وقد اقتصرنا فيما تقدم على أن نسرد من أخباره وأخبار مملكته ، ما له صلة بسير الحوادث فى اسبانيا المسلمة ، أما أخبار مملكة ليون الداخلية ، فسنفصلها عند الكلام على تاريخ المملكة النصرانية الشمالية .

* * *

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، عرفت الأندلس لأول مرة خطراً جديداً لم يسبق لها أن عرفته أو توقعت حدوثه : ذلك هو خطر الغزوات النورمانية البحرية .

كانت سيادة البحار الشمالية منذ بداية العصور الوسطى فى يد « الڤيكنج » Vikings أو النورمانيين ، وكان أولئك النورمانيون أمة بحرية عريقة ، تمرست منذ غابر العصور فى ركوب البحر ومقارعة أهواله ، ووطنهم الأصلى هو اسكندناوة ، وربما دانيماركه ، وشواطئ ألمانيا الشمالية ، ولذا عرفوا بالنورمانيين

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٨ و ٨٩ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٦٧ و ١٧٢ و ١٨٠ ، ومخطوط ابن حيان ص ١٨٥ .

أى أهل الشمال[1] . واشتهر النورمانيون بجرأتهم فى جوب البحار الشمالية ، وبراعتهم فى مغالبة قسوة الجليد وأهوال اللجة والطبيعة ، ولم يأت القرن الثامن الميلادى حتى كانت حملاتهم البحرية الناهبة ، تثخن فى شواطئ الجزر البريطانية . وكان جدب الوطن ، وشظف العيش ، وروح المخاطرة ، تدفع بهم دائماً إلى عرض البحار ، وتجعلهم خطراً دائماً على الشواطئ والثغور المجاورة . وفى أوائل القرن التاسع وصلت حملاتهم الناهبة إلى شواطئ بلاد الفرنج (فرنسا) ، ثم نفذت جموع منهم إلى شمال فرنسا . وغزوا مصب اللوار ومصب الجارون ، وأنشأوا لهم عدة مراكز وقواعد فى تلك الأنحاء .

وهنا بدأ تطلع النورمانيين إلى اسبانيا . والأندلس بنوع خاص . وكانت نعماء الأندلس ، وما اشتهرت به من الخصب والغنى ، تثير جشع أولئك الغزاة المغامرين ، ولم تكن الأندلس تحسب حساباً لذلك الخطر الداهم المستتر معاً ، لأنها لم تعرف النورمانيين من قبل ، ولا تعرف لهم بقربها أرضاً أو مستقراً . وتطلق الرواية الإسلامية على أولئك الغزاة المجهولين إسم «المجوس» ، بيد أنها تعرفهم أيضاً «بالأردمانيين» أى النورمانيين . وقد ترجع هذه التسمية إلى أن النورمانيين كانوا فى العهد الذى عرفهم فيه عرب الأندلس لأول مرة « مجوساً » أى وثنيين لم يعتنقوا النصرانية بعد . وكان ظهور النورمانيين فى المياه الإسبانية ، لأول مرة فى سنة ٨٤٣ م . ففى تلك السنة خرج أسطول نورمانى من نهر الجارون وعاث فى شواطئ مملكة جليقية ، فبعث ملكها راميرو (رذمير) إليهم جيشاً ردهم وأحرق كثيراً من سفنهم ، فانقلب النورمانيون عندئذ إلى مياه إسبانيا الغربية والجنوبية ، يجوبونها فى طلب السبى والغنيمة ، واقتحموا شواطئ المملكة الإسلامية (الأندلس) فى غزوتهم الأولى .

وتضع الرواية الإسلامية هذه الغزوة فى سنة ٢٣٠ هـ ، وتحدثنا عنها بإفاضة ، فتقول لنا إن أسطولا مجوسياً (نورمانياً) قوامه زهاء ثمانين مركباً ، رسا فى مياه أشبونة[2] فى أواخر سنة ٢٢٩ هـ (يوليه أو أغسطس سنة ٨٤٣ م) ، فكتب عاملها وهب الله بن حزم إلى عبدالرحمن بن الحكم ينبئه بالخطر . فكتب عبد الرحمن

---

(١) وهى بالإفرنجية **Norsmen** أو **Normanen**

(٢) لشبونة **Lisboa** عاصمة البرتغال الحديثة .

إلى عمال الثغور بالتحوط والأهبة . ولبث النورمانيون فى مياه أشبونة ثلاثة عشر يوماً التحموا خلالها مع المسلمين فى عدة وقائع ، ثم ساروا بأسطولهم جنوباً إلى قادس ، ثم شذونة ، ثم اخترقوا النهر الكبير (الوادى الكبير) حتى إشبيلية . وكان ظهور هذه السفن الغازية ، وأولئك الغزاة الشقر فى قلب الأندلس ، مفاجأة مروعة ، ولم يكن للأندلس يومئذ أسطول قوى تدفع به شر الغزوات البحرية ، ولم تتخذ فى الثغور لردها أهبات خاصة . ونزل النورمانيون فى ظاهر إشبيلية فى أوائل المحرم سنة ٢٣٠ هـ (سبتمبر سنة ٨٤٣ م)[1] وكانت يومئذ دون أسوار تحميها من العدوان المفاجىء ، وكانت مفاجأة مروعة لأهلها ، الذين لم يتخذوا أية أهبة خاصة للدفاع عن أنفسهم . وعبثاً حاول المسلمون رد الغزاة . واقتحم النورمانيون إشبيلية وأمعنوا فى أهلها سفكاً ونهباً وسبياً ، وعاثوا فيها مدى سبعة أيام أشنع عيث ، ثم غادروها وعسكروا فى ظاهرها ، فى قرية طلياطة الواقعة غربى إشبيلية . وفى تلك الأثناء بعث الأمير عبد الرحمن قوات من الخيل على عجل لإنجاد إشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم ، وجعل على قوات قرطبة حاجبه عيسى بن شهيد ، وهرع المسلمون من كل صوب للجهاد ورد الغزاة . وقاد القوات المتحدة نصر الخصى ، وتلقى النورمانيون المدد فى سفن جديدة قدمت إليهم ، ونشبت بين الفريقين فى البداية بضع معارك محلية ، تفوق فيها الغزاة . وفى الخامس والعشرين من صفر سنة ٢٣٠ هـ ، نشبت بينهما معركة حاسمة تجاه قرية طلياطة ، وكان على رأس قوات المسلمين محمد بن رستم ، فهزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف وأسر نيف وأربعمائة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وكان قائدهم بين القتلى ، وارتد النورمانيون إلى سفنهم ، وتحصنوا بها ، وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم ، وصلبوا على جذوع النخل ، ثم أقلعت سفن الغزاة مرتدة إلى الجنوب ، والمسلمون من ورائهم يطاردونهم ، ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع ، وانتقم النورمانيون لأنفسهم أثناء ارتدادهم بالإغارة على لبلة وباجة ، ثم انتهوا ثانية إلى ثغر أشبونة حيث غادروا مياه الأندلس مع باقى سفنهم ، بعد أن لبثوا بضعة أسابيع يبثون فيها الرعب والروع .

---

(١) يضع ماريانا غزوة النورمانيين الأولى لإشبيلية فى سنة ٨٤٧ م (راجع تاريخه العام — الترجمة الفرنسية — ج ٢ ص ٨٤) .

واستطالت غزوة النورمانيين ، منذ نزولهم بأرض إشبيلية ، إلى أن تمت هزيمتهم وإقلاعهم ، إثنين وأربعين يوماً ، عانى فيها المسلمون محناً وشدائد كثيرة ، ارتجت لها ربوع الأندلس كلها . فلما انقشعت الغمة . بادر الأمير عبد الرحمن فبعث بالكتب إلى سائر الآفاق معلنة هذا النصر على العدو المغير ، وبعث بها بالأخص إلى أمراء العدوة ، ومعها طائفة من رؤوس أكابر النورمانيين القتلى . وأغدق الأمير ثناءه وصلاته على نصر الخصى فتاه الأثير لديه ، وكان قائد قواته العام فى تلك المعركة الكبرى[1] .

وكان لهذه المفاجأة المروعة أثرها فى حمل حكومة الأندلس على الاهتمام بأمر الأسطول والتحصينات البحرية ، فابتنى عبد الرحمن حول إشبيلية سوراً ضخماً ، وأنشأ بها داراً عظيمة للصناعة ، واهتم بصنع السفن الحربية الكبيرة ، وحشد لها المقاتلة من شواطئ الأندلس . فكانت نواة الأسطول الأندلسى الكبير الذى بلغ فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة . وعلى أى حال فقد أدرك النورمانيون أن الأندلس لم تكن فريسة هينة . وتحدثنا الرواية الإسلامية بأنهم عقب هزيمتهم فى هذه الغزوة الأولى سعوا إلى الصلح مع أمير الأندلس ، وبعثوا رسلهم فى طلب السلم والمهادنة ، وأن الأمير الأندلسى عبدالرحمن بعث كاتبه يحيى الغزال إلى ملكهم ليرد السفارة ، وهى رواية سنعود إلى تفصيلها[2] .

ولم يمض قليل على رد الغزاة النورمانيين ، حتى بادر عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير بالصائفة إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده هشام ، ومعه الوزير عيسى ابن شهيد . فاخترق قشتالة القديمة ، وسار صوب ناڤار وغزا بنبلونة ، ووافاه هناك موسى بن موسى والى تطيلة ، فقدم طاعته ، ومنح الأمان ، وأقر على ولايته . وفى العام التالى سير عبد الرحمن بالصائفة قواته مرة أخرى إلى الشمال ،

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه الغزوة ، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ ، والعذرى فى الأوراق المنشورة من « ترصيع الأخبار » ص ٩٨ – ١٠٠ ؛ وفى النويرى : نهاية الأرب (القسم الخاص بتاريخ الأندلس) وقد نقل دوزى روايته ؛ **Recherches : II; p. 337-338** وكذلك فى الملحق **Appendice 37** ؛ وفى ابن القوطية (ص ٦٣ – ٦٧) ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ . وفى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة نقلت عن محمد بن أحمد الرازى وأخيه عيسى ومعاوية بن هشام الشبينسى .

(٢) راجع رواية النويرى المشار إليها فى دوزى : **Recherches : App. 37**

بقيادة ولده محمد ، فاخترق بسائط جليقية ، وحاصر عاصمتها ليون ، ولجأ النصارى إلى الجبال ، ثم ارتد عنها بعد أن عاث فيها قتلا وتخريباً (سنة ٢٣١ هـ — ٨٤٥ م) . وعصف بالأندلس فى العام التالى قحط شديد ، وهلكت الزروع والماشية ، وقاست البلاد من ويلاته مدى أشهر .

وفى سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٧ م) ظهر بالثغر الفرنجى ، فى شمال شرقى إسبانيا ، زعيم يدعى جين دى تولوز ، وهو فيما يرجح من تسميه الرواية العربية ، غليالم بن برباط بن غليالم ، وكان قد أعلن الخروج والثورة على ملك الفرنج شارل الأصلع ، ووفد فى العام السابق على بلاط قرطبة ، يلتمس التأييد والعون ، فاستقبله عبد الرحمن بترحاب ، وأمده بعونه ، فعاد إلى الثغر وعاث فيه بقواته ، وحاصر برشلونة وخرب حصونها ، وهاجم جرندة ، وكتب عبد الرحمن إلى عامله على طرطوشة عبد الله بن يحيى ، وعامله على سرقسطة عبد الله بن كليب ، فى إمداده وتأييده فى ثورته ضد ملك الفرنج[١] . بيد أنه يبدو من أقوال الرواية الفرنجية أنه وقعت على إثر ذلك مفاوضات بين عبد الرحمن وشارل الأصلع ، انتهت بعقد الهدنة والسلم بينهما .

وفى نفس هذا العام نقض موسى بن موسى بن قسى (القسوى) العهد ، وعاد إلى الثورة ، وعاث فى أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة من أعمال الثغر الأعلى ، وظاهره أخوه لأمه فرتون إنيجز (ابن ونقة) أمير بنبلونة ، فبعث إليه عبد الرحمن جند الصائفة بقيادة عباس بن الوليد المعروف بالطبلى ، فطاردته حتى أرهق وأعلن عوده إلى الطاعة ، وقدم ولده إسماعيل رهينة كفالة بولائه ، فقبل عبد الرحمن طاعته ، وأقره على ولايته تطيلة ، ودخل معه فى هذا الصلح أخوه فرتون إنيجز[٢] .

وفى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) بعث عبد الرحمن قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتى ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزائر البليار) لغزوهما ، ومعاقبة

---

(١) وردت هذه الرواية فى قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان ، عثرت بها فى مكتبة القرويين بفاس ، وحصلت منها على نسخة مصورة حسبما أشرت إلى ذلك من قبل . وهى التى تبدأ حوادثها منذ سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى بحوادث سنة ٢٦٧ هـ ، وسوف نقتبس منها منذ الآن فصاعدا فى مختلف المواطن التى تتناول حوادثها . (لوحة ١٨٩ ب من المخطوطة المذكورة) .

(٢) لوحة ١٨٩ ب و ١٩٠ أ من المخطوط المذكور ، وهو يسمى هنا أمير بنبلونة بابن رنقة وهو تحريف ، والصواب ابن ونقة **Inequiz**

أهلهما لتعرضهم لسفن المسلمين المجاهدين والإضرار بهم ، فأخضعهما المسلمون وأثخنوا فيهما ، وأصابوا كثيراً من السبي ، وبعث أهلهما إلى الأمير يطلبون الأمان ودفع الجزية ، ويتعهدون بالولاء والطاعة ، فأجابهم إلى ما طلبوا . وكانت مياه اسبانيا الشرقية قد غدت منذ عهد هشام مركزاً للحملات البحرية المتجهة نحو الشمال والشرق ، وكان قوام هذه الحملات فى الغالب جماعات من البحارة والمجاهدين ، الذين يجوبون هذه المياه طلباً للغنيمة والسبي ، ويثخنون فى الثغور والجزر النصرانية القريبة . ففى سنة ٨٠٦ م (١٩١ ﻫ) فى عهد الحكم ، غزت إحدى هذه الجماعات البحرية الأندلسية المغامرة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، فبعث ببين ابن شارلمان ملك إيطاليا أسطولا لقتالهم ، فهزموه واستولوا على كثيرا من الغنائم والسبي . ولم يمض عامان على ذلك ، حتى عاد البحارة المسلمون إلى غزو شواطىء كورسيكا وسردانية ، ثم توالت غزواتهم لها بعد ذلك . وفى سنة ٨٣٦ م (٢٢١ ﻫ) خرج أسطول أندلسى من ثغر طرّكونة والجزائر الشرقية ، وسار إلى مياه فرنسا الجنوبية ، وهاجم المسلمون ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضى وأثخنوا فيها . وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس ابن شارلمان ، وكان ملكاً ضعيفاً عاجزاً ، فلما توفى سنة ٨٤٠ م ، اضطربت أحوال المملكة ، وضعفت حماية الثغور ، فانتهز البحارة المجاهدون هذه الفرصة ، وغزوا ولاية بروڤانس عند مصب نهر الرون ، وهاجموا مدينة آرل وخربوها ، ثم توالت غزواتهم فى تلك المياه بعد ذلك ، وكان من أثرها أن قامت مستعمرات عربية كثيرة فى بروڤانس وفى أنحاء أخرى فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا ، وسوف نعود إلى حديث هذه المستعمرات العربية النائية فى قلب أوربا .

وفى سنة ٢٣٧ ﻫ (٨٥١ م) ، اضطرمت الحرب فى الشمال بين المسلمين والغسقونيين أو الجاشقيين كما تسميهم الرواية الإسلامية وهم فرع من البشكنس ، وكان هؤلاء قد أغاروا على الأراضى الإسلامية المجاورة ، فى قاصية الثغر الأعلى ، فتصدى لردهم موسى بن موسى والى تطيلة ، وكان يومئذ على ولائه لحكومة قرطبة ، ووقعت الحرب بين المسلمين والبشكنس ، فى جنوبى بنبلونة على مقربة من بقيرة ، فهزم المسلمون أولا ، وأثخن قائدهم موسى جراحاً ، ولكنه استأنف المعركة فى اليوم التالى ، وكر على العدو بشدة ، فهزم البشكنس شر

هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، وتسمى هذه الموقعة فى الرواية الإسلامية بموقعة البيضاء ، وهى محلة صغيرة مجاورة لبقيرة(١) .

* * *

وفى أواخر عهد عبد الرحمن ، هبت على نصارى قرطبة ريح شديدة من التعصب ، ولاحت فى الأفق بوادر فتنة دينية واجتماعية خطيرة . ولم يك فى نظم الحكم الإسلامى ، ما يقصد إلى إيذاء النصارى المستظلين بلوائه ، ولم تشذ حكومة قرطبة عن سياسة التسامح الإسلامى المأثور ، ولم تحاول تدخلا فى شئون النصارى الدينية أو تعرضاً لعقائدهم أو شعائرهم ، بل كان النصارى فى قرطبة وغيرها ، أحراراً فى عقائدهم وشعائرهم ، والاحتكام إلى شرائعهم وقضاتهم ، وكثيراً ما تبوأوا مناصب الثقة والمسئولية فى الجيش وفى الإدارة ، وكثيراً ما حاربوا مع إخوانهم المسلمين جنباً إلى جنب ، وكانت أغلبية كثيرة منهم تشتغل بالتجارة فى الثغور والمدن ، ويشتغل عامتهم فى ضياع المسلمين دون إكراه ولا عنت ، وكانت منهم مجتمعات زاهرة رغدة فى قرطبة وغيرها ، بل كثيراً ما بهرتهم الفصاحة العربية فانطلقت بها ألسنتهم ووضعوا بها كتبهم ، وكثيراً ما تخلقوا بأخلاق المسلمين وعاداتهم ، ونهجوا نهجهم فى الحياة الخاصة . بيد أنه كان ثمة فريق آخر من النصارى المتعصبين الذين يرون فى سادتهم المسلمين أجانب غاصبين ، معتدين على دينهم وأوطانهم ، وكان أولئك الغلاة يبغضون إخوانهم من النصارى المعتدلين ، ويرمونهم بالمروق والخيانة ، وكان رجال الدين ، وهم فى الأصل مبعث التعصب ودعامته ، يبذرون بذور الشقاق ، ويضرمون نار الفتنة ، ويوغرون قلوب الغلاة والمتطرفين ، باسم الدين ، وكانوا يبغضون المسلمين أشد البغض ويسخرون من دينهم ونبيهم ، ويجاهرون بهذا التحامل والبغض للنبى العربى وتعاليمه ، ويعتمدون فى معرفتهم للإسلام ونبيه ، على طائفة من الخرافات والأباطيل التى يتناقلها القسس فى كل عصر ومكان . يقول دوزى : « ولم يك ثمة أيسر عليهم ، وقد كانوا يعيشون بين المسلمين من الوقوف على الحقيقة ، ولكنهم كانوا يرفضون أن يستقوا من المصادر التى كانت لديهم ، وكان يسرهم أن يعتقدوا وأن يعيدوا كل الخرافات السخيفة التى أذيعت عن نبى مكة »(٢) .

---

(١) ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٣ أ . وبقيرة هى بالإسبانية **Viguera** .

(٢) **Dozy : Hist, I.p. 317 et suiv.** ويخصص دوزى لهذا البحث حيزاً كبيراً ، وتحمله نزعة من التعصب فى إيراد الوقائع ووصفها ، وهو يعتمد هنا بالأخص على مصادر كنسية معاصرة .

ويقدم إلينا المستشرق سيمونت ، وهو عمدة العلماء الإسبان فى الكتابة عن تاريخ « النصارى المعاهدين » Los Mozárabes التفاصيل الآتية ، عما يصفه بأنه « البطولة التى تذرعت بها النصرانية فى قرطبة فى مقاومة فورات الإلحاد الإسلامى » .
ويرى سيمونيت أن قرطبة كانت من المعسكرات الرئيسية للحرب المدمرة التى شهرها الإسلام على النصرانية . وبالرغم عن أنه يعترف بأن الإسلام لبث مدى قرن يحتفظ بقدر من التسامح نحو المستعربين ، وقت أن كان فى حاجة إلى خدماتهم ومعاونتهم ، فإنه يقول إن الإسلام لما شعر بقوته ، لم يبد تسامحاً إزاء انتعاش الروح النصرانى ، الذى بدا يسيطر على فريق كبير من الشعب النصرانى . ثم يتحدث سيمونيت بعد ذلك عن « المظالم وصنوف الاضطهاد التى كان النصارى يقاسونها ، ليس فقط من عامة أهل قرطبة بل من حكومة قرطبة ذاتها » . ثم يقول : « وقد كانت هذه السياسة منافية للعهود والقوانين التى منحت للوطنيين (الإسبان) أيام الفتح . وقد كان الطغيان الإسلامى شديد الوطأة على ضمائر النصارى الوطنيين وأملاكهم وكرامتهم معاً » .

وينعى سيمونيت على أمراء قرطبة ، أنهم احتفظوا بحقوق وامتيازات ضد النصارى لإخضاعهم ، وأنهم كانوا مثل القوط يدعون لأنفسهم حق تعيين الأساقفة وعزلهم ، وحق عقد المجالس الدينية التى يمثلهم فيها بعض المسلمين أو النصارى المرتدين ، ويسندون وظائف الأساقفة فى أحيان كثيرة إلى رجال من طراز منحط ، يملقون الأمراء ويخدمونهم .

ولم يك استبداد الأمراء أقل وطأة على أملاك المستعربين وثرواتهم ، إذ كانوا حرصاً على سلامتهم يؤدون للخزانة مزايا عظيمة ، فى شكل جزية وضرائب تنبو عن طاقتهم . وقد كان تسامح المسلمين لايغتنم فى الظروف العادية إلا بالعرق والدم . ثم جاءت الأيام التى كان يقاسى فيها النصارى كل شىء ، ليحتفظوا بحرية دينهم ، وينتزع كل يوم منهم مغارم أكبر ، هذا فضلا عن الضرائب العادية ، وقد كانت فادحة فى ذاتها تفرض عليهم بمختلف الحجج والأعذار .

وقد وصلت هذه المغارم إلى ذروتها فى عصر عبد الرحمن الثانى الأمير الباذخ ، ومحمد الأول الأمير القاسى ، الذى حصل من نصارى قرطبة بواسطة الكونت سواندا على مبلغ مائة ألف « سويلدو » .

ويتحدث سيمونيت بعد ذلك عن تعصب المسلمين ، ويقول إن تعصب العرب ضد الأجانب وامتهانهم لهم ، وصل إلى الذروة فى النصف الأول من القرن التاسع ، وكذا وصل إلى الذروة تزمت البربر الوحشى ، وتزمت الإسبان المسلمين (المولدين) الذين اتخذوا الارتداد عن دينهم سبيلا إلى بلوغ الرخاء ، وكانوا لكى يمحوا ذكرى أصولهم المسيحية ، أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين أنفسهم . كان هؤلاء وهؤلاء يمعنون فى إهانة النصارى واضطهادهم بشتى المظاهر ، ولاسيما رجال الدين والقساوسة ، وكانت موجة هذا الاضطهاد تشتد كلما جاءت الأخبار بانتصار نصارى الشمال ، أو قيام المولدين فى طليطلة أو غيرها .

هكذا يتحدث سيمونيت عن « تعصب » المسلمين ضد رعاياهم وإخوانهم النصارى المعاهدين . ومع ذلك فإن سيمونيت يعترف بأن كثيراً من نصارى قرطبة ، كانوا يخدمون فى الجيش الإسلامى جنداً أو ضباطاً ، وأن كثيراً منهم وصل إلى وظائف هامة فى البلاط والقصر الملكى ، وفى قصور أكابر المسلمين .

ويصف سيمونيت تأثير المجتمع الإسلامى ، وعظمته ولغته وتقاليده ، فى نفوس النصارى فى قوله :

« هذا ، وقد كان يأسر الشباب النصرانى منظر العظمة المادية والحضارية ، التى تفوقت بها قرطبة المسلمة على قرطبة النصرانية ، وما كانت تقترن به هذه العظمة من المظاهر الأدبية والفنية ، التى بثها عبد الرحمن بحبه للشعر والفلسفة والموسيقى .

وكان من مظاهر تأثر الشباب النصرانى أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية ، محتقرين دراسة اللغة والآداب اللاتينية ، وهو أمر كان شديد الخطر على وطنيتهم ودينهم .

وفى النصف الأول من القرن التاسع ، لم تكن اللغة والآداب العربية فقط ، بل وكذلك الأفكار والتقاليد الإسلامية ، قد انتشرت بين المستعربين الإسبان . وهذا ما تشير إليه وثيقة هامة كتبها نصرانى قرطبى معاصر هو ألبرو القرطبى Alvaro Cordubense فى سنة ٨٥٤ م عنوانها Indicalo Luminoso ، وفيها يصف بقوة وبلاغة ، الذعر الذى أصاب « الأشراف الكرماء البواسل الذين كانوا يحتفظون بالعاطفة المسيحية والوطنية الإسبانية » ، وكيف أن شباناً من

النصارى يمتلئون حياة وقوة وفصاحة ، يتقنون اللغة العربية ، ويبحثون بشغف عن الكتب العربية ويدرسونها بعناية ، ويمتدحونها بحماسة ، هذا فى حين أنهم يجهلون جمال الآداب الكنسية ، ثم يبدى ألمه من أن النصارى يجهلون شريعتهم ولغتهم اللاتينية ، وينسون لغتهم القومية(١) .

وهذه التفاصيل التى يقدمها إلينا العلامة سيمونيت عن أحوال المجتمع النصرانى فى قرطبة ، هى تفاصيل مفيدة قيمة ، ولكنها تنم عن كثير من التحامل ، وتصور وجهة نظر الكنيسة بأسلوب مغرق متزمت . وهى تغضى عن تلك الحقيقة الهامة ، وهى أن النصارى المستعربين وهم من رعايا الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون تقريباً بكامل حقوق إخوانهم المسلمين ، يدينون لهذه الحكومة بالطاعة ، واحترام القانون والنظام . ولئن كانت ثمة بعض قيود لحقوقهم ، فإن سن هذه القيود لا يرجع إلى عدم التسامح ، ولكنه يرجع إلى روح العصر ذاته .

بيد أن العوامل الدينية لم تكن وحدها مبعث هذا التحامل ، الذى يضطرم به نصارى قرطبة نحو الحكومة الإسلامية ، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضاً أثرها فى إذكائه . ذلك أن القسس والمتعصبين كان يحفظهم ويثيرهم ، ما يحيط بالحكم الإسلامى من مظاهر الإعزاز والسؤدد ، وما تبديه الهيئة الحاكمة من مظاهر الأبهة والفخامة ، وماينعم به المجتمع الإسلامى ، من حياة رغدة رفيعة . وكان يذكى هذا الحقد فى نفوسهم مايعانونه من خشونة عامة قرطبة وتعريضهم وتحاملهم . وهكذا بلغ تعصب النصارى أقصاه فى عهد عبد الرحمن ، وبدا منذراً بشر العواقب . وكان فى وسع أولئك المتعصبين فى المدن البعيدة عن قرطبة مثل طليطلة وغيرها ، أن يرفعوا علم الثورة ، وأن يقاتلوا حكامهم وجهاً لوجه ، ولكن الثورة فى قرطبة كانت أمراً عسيراً . فحاولوا عندئذ أن يبثوا بذور الفتنة الطائفية والفوضى الدينية والاجتماعية ، وأن يحاولوا الاستشهاد بطريق الاشتباك والتحدى . وعمد القسس والمتعصبون إلى تحقيق غايتهم بوسيلة بسيطة خطيرة معاً ، هى المجاهرة بسب النبى العربى ودينه ، وهى جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة الموت ، وأخذ بعض الغلاة من القسس والمتعصبين الهائمين ينزلقون عامدين إلى

---

(١) راجع هذا الفصل فى مؤلف سيمونيت الضخم : Historia de los Mozarabes de Espana. Vol. I. p. 258—272

هذا المنحدر الخطر ، ويوجهون السب المثير إلى النبي العربي فى الطرقات جهراً ، فإذا أخذوا أمام القضاة كرروا سبابهم بمنتهى الإصرار والجرأة . وحاول القضاة فى البداية استعمال الرفق واللين ، وإقناع أولئك العابثين بالعدول عن أقوالهم ، ولكنهم ألفوا أنفسهم أمام سلسلة مدبرة من الجرائم المماثلة ، فلم يترددوا عندئذ فى الحكم على القاذفين بالموت ، وهكذا أزهق بتلك الطريقة عدة من القسس والمتعصبين فى فترة وجيزة من صيف سنة ٨٥١ م (٢٣٧ هـ) ، وكان الأحبار يكرمون رفات القتلى ، ويسبغون عليهم صفة الشهداء ، ويزيدون بذلك فى اضطرام الفتنة . وكان فى مقدمة المنظمين لهذه الحركة قس من قرطبة يدعى «أولوخيو» ، كان يعمل على تحريض أولئك «الشهداء» المزعومين ، ودفعهم إلى براثن الموت .

ويصف لنا العلامة المتزن ألتاميرا ، تلك المؤامرة المنظمة فيما يأتى : « اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الدينى منذ الفتح . وكان أشراف العرب يحترمون النصارى ، ولكنهم لم يستطيعوا منع الدهماء فى أوقات الحماسة المغرقة ، من إهانة القسس حينما يسيرون فى الشوارع فرادى أو فى مواكبهم . وكانت هذه الحوادث وأمثالها تثير سخط النصارى ، وأدى ذلك بمضى الزمن إلى حقد الورعين ولاسيما القساوسة . وحاول النصارى عن طريق آخر ، أن يحدثوا فورات تحطم النير الإسلامى . فطلبوا الاستشهاد بالطعن فى محمد أمام الناس والسلطات ، وأعدموا لأن القانون يعاقب بالموت على ذلك . ولم يقتصر الاندفاع فى ذلك الطريق على المدنيين ، بل اندفع فيه كذلك قساوسة عقلاء مسالمون ، وكان من هؤلاء أولوخيو وألبارو ، ولم يجد هؤلاء طريقة أفضل للاحتجاج على الإسلام من الطعن فيه ، وتقديم حياتهم قرباناً للدين الكاثوليكى »[١]. وأدرك عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ، ورأى أن يعالجه بالحزم والتفاهم معاً ، فاستدعى مجلساً من الأساقفة ، عقد فى قرطبة برآسة ريكافرد مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه أحد كتابه النصارى ، وهو جومث بن أنطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة[٢] ، وشرح للأساقفة

---

(١) R. Altamira : Hist. de Espana , Vol. I. p. 230

(٢) ويسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن يليانة وقد اعتنق الإسلام فيما بعد (ص ٨٣) . وكذلك يذكره الخشنى فى كتاب قضاة قرطبة ويسميه أيضاً قومس بن انتنيان . راجع كتاب قضاة قرطبة (القاهرة) ص ١١١ .

ما يمكن أن يترتب على أعمال المتطرفين وسبهم للنبي من العواقب الخطيرة بالنسبة للنصارى. ولم يعترض المجلس على مبدأ الاستشهاد فى ذاته ، ولكنه أصدر قراره باستهجان مسلك أولئك المتطرفين ، وتحذير النصارى المخلصين من حذو مسلكهم ، ووجوب اعتقال كل مخالف (١). ولكن قرار الأساقفة لم يكف لتسكين فورة التعصب المزبد ، وتمادى المتطرفون أنصار أولوخيو فى غيهم ، وزج إلى السجن منهم كثيرون، ومنهم أولوخيو نفسه ، وكان بين المعتقلين بضع فتيات مسلمات بمولدهن من آباء مسلمين وأمهات نصارى ، ولكن أضلهن الأمهات والقسس ، ودفعن إلى التنصر وسب النبي ، وكان منهن فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا ، عرفها أولوخيو وهام بها حباً .

وقصة هذه الفتاة حسبما يرويها سيمونيت، توضح لنا طريقة التحدى والاستثارة التى اتبعها المتطرفون لإحداث الشغب . فقد كانت فلورا ابنة مسلم من زوجه النصرانية ، وتوفى أبوها وهى ما تزال طفلة، فربتها أمها على مبادئ المسيحية . وكانت بالرغم من جمالها تبدى تحفظاً ونسكاً ، وتزور الكنائس خفية لخوفها من أخيها الأكبر ، وهو مسلم شديد التعصب. ثم فرت من دار أهلها ، وتتبعها أخوها فى كل مكان ، فعادت إلى منزلها ، وأعلنت لأخيها تمسكها بدين النصرانية ، ولم ينجع فى ردها الضرب والوعيد . فأخذها أخوها إلى القاضى ، وأبلغه بأن أخته القاصر قد ضلت واعتنقت الدين المسيحى ، وأنها تسب النبى ودينه ، واعترفت فلورا بأنها نصرانية منذ طفولتها ، ومتمسكة بدينها . ومع أن هذا الاعتراف بالردة يستحق عقوبة الموت ، فإن القاضى اكتفى بتقرير ضربها ضرباً مبرحاً ، أملا فى أن تعود إلى صوابها . فاحتملت الفتاة العقوبة بجلد ، وحملت إلى دارها منهوكة القوى ، وصبرت أياماً حتى برئت من مرضها ، ثم فرت من الدار ذات ليلة ، وسارت هائمة على وجهها ، حتى لجأت إلى دار نصرانى فى بلدة « مرتش » القريبة ، والظاهر أن القس أولوخيو رآها هنالك ، وأعجب بجمالها وحشمتها وورعها ، وشعر نحوها بحب سماوى عميق .

ثم عادت فلورا بعد حين إلى قرطبة مواجهة كل خطر ، معتزمة الاستشهاد ، ولجأت إلى كنيسة سان إثيسكولو ، وكانت قد لجأت إليها أيضاً فتاة نصرانية

---

(١) Dozy : ibid , Vol. I. p. 310

أخرى تدعى ماريا ، وكانت إبنة رجل نصرانى من لبلة ، وأم مسلمة تنصرت . وربيت ماريا فى الدير تربية دينية خالصة ، كما ربى أخوها الأكبر فيه . ولما توفى أخوها وجدت عليه وجداً شديداً ، وسارت إلى قرطبة تبغى الاستشهاد ، ولجأت إلى نفس الكنيسة التى لجأت إليها فلورا . واعتزمت الفتاتان أمرهما وذهبتا إلى دار القضاء ، وقالت فلورا للقاضى إنها إبنة مسلم ، ولكنها اعتنقت النصرانية وأخلصت لها ، وأن المسيح هو الإله الحق ، وأن النبى محمد ، هو نبى زائف ... الخ[1]. وكذلك قالت ماريا إنها تؤكد من كل قلبها أن يسوع هو الرب الحقيقى ، وأن الإسلام دين الشيطان . فأمر القاضى بإيداعهما السجن . وكان فيه بطريق الصدفة أولوخيو مقضياً بحبسه أيضاً ، فعكف على وعظ الفتاتين ، وحثهما على الاستشهاد فى سبيل المسيح .

وحاول القاضى نصح الفتاتين ، ولكنهما أصرتا على موقفهما وعلى مطاعنهما. وأخيراً أصدر القاضى حكمه بإعدامهما ، وذلك فى ٢٤ نوفبر سنة ٨٥١ ، وأخذتا إلى ساحة الإعدام، وهنالك أبدت كلتاهما إشارة الصليب ، ثم أعدمتا بقطع الرأس ، وألقيت جثتاهما إلى النهر ، واستطاع النصارى العثور على جثة ماريا وحدها، فأخذوها مع رأسى الفتاتين . ونظمت فلورا فيما بعد فى سلك القديسين[2].

هكذا يروى سيمونيت قصة فلورا وزميلتها ، ومهما كان فى أسلوبه من رواء القصة المشجية ، فإن فى وقائعها ما يلقى ضوءاً على خيوط المؤامرة التى دبرها نصارى قرطبة ، وفى مقدمتهم القسس ، لإثارة الفتنة الطائفية والإخلال بالنظام والأمن ، وهى محاولة لا يمكن لأية حكومة منظمة أن تغضى عنها .

واستمرت هذه الفتنة المضطرمة مدى حين ، وتذرعت حكومة قرطبة فى إخمادها بالحزم والشدة ، وزهق من المتعصبين عدة أخر ، ومن بينهم أولوخيو الذى نظمه النصارى فيما بعد فى ثبت « القديسين » .

وهكذا شغل عبد الرحمن فى أواخر عهده بتلك الفتنة الدينية الخطيرة ، ولكن المتعصبين لم يحققوا منها ما أملوا ، وكانت بالعكس مثار السخط والإنكار من جانب النصارى المعتدلين ، الذين يقدرون تسامح الحكومة الإسلامية ورفقها ورعايتها .

* * *

(١) لم نر مجالا لإيراد بقية المطاعن التى أوردها سيمونيت على لسان فلورا وهى مطاعن مقذعة .

(٢) Simonet : Hist. de los Mozarabes, Vol. I. p. 413—422

وتوفى عبد الرحمن بن الحكم فى الثالث من ربيع الثانى سنة ٢٣٨ ﻫ (٢٣ سبتمبر ٨٥٢ م) فى الثانية والستين من عمره ، بعد أن حكم إحدى وثلاثين عاماً وبضعة أشهر . وكان أسمر طويلا ، وسيم المحيا ، أشم ، أقنى ، أعين ، أسود العينين ، بهى الطلعة ، بهيج الزى ، كبير اللحية . نقش خاتمه : « عبد الرحمن بقضاء الله راض »[1] ، ويكنى أبا المطرّف ، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط أو الثانى ، والأول هو جده عبد الرحمن الداخل ، والثالث هو عبد الرحمن الناصر . وكان مثل أبيه الحكم ، أميراً وافر البأس والعزم ، رفيع الخلال ، يسمو بمكانته ويحتجب عن العامة ، ويعشق مظاهر البذخ والفخامة . وفى عهده وصل البلاط الأموى إلى درجة لم تسبق من البهاء والروعة ، وبدت الأرستقراطية العربية فى أبدع مظاهرها ، وسطعت الفروسية الأندلسية ، وتجلت خلالها الباهرة التى غدت فيما بعد مثلا يحتذى فى مجتمعات العصور الوسطى ، وعنها اقتبست فروسة النصرانية فيما تلا من العصور . ورتبت رسوم المملكة أبدع ترتيب ، ورفع من شأن الوظائف العامة ، وأحيطت بسياج من الهيبة والمسئولية ، وجعل « أحكام السوق » منصباً مستقلا عن ولاية المدينة ، واتبعت رسوم الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة[2] ، ووضعت خطة الوزارة المنظمة .

وتنوه الرواية الإسلامية بمقدرة عبد الرحمن ، وحسن اختياره لرجالات حكومته . فيقول لنا الرازى : « وانتقى الرجال للأعمال ، واستوزر الأكفاء ، من أهل الاكتفاء ، وقدوة الأبطال ذوى الغناء ، فظهر فى أيامه جلة الوزراء وكبار الفقهاء » . وكان من وزرائه عدة من أعظم وألمع رجالات العصر ، مثل الحاجب عبد الكريم ، والقائد عيسى بن شُهيد ، ويوسف بن بخت ، وهاشم بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن بن رستم ، وحسن بن عبد الغافر بن أبى عبده ، ومحمد بن السليم ، ومحمد بن عبد السلام بن بسيل ، وعبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى ، وغيرهم . وكان الوزراء يختلفون إلى القصر بطريقة منظمة للبحث والمداولة وإبرام الشئون فى جناح خاص ، سمى « بيت الوزارء » ، وانتهت

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وابن حيان عن الرازى ، المخطوطة الأولى ص ١١١ ؛ والثانية لوحة ١٩٤ ب

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ .

أرزاق الوزراء يومئذ إلى ثلاثمائة وخمسين ديناراً فى الشهر(١) .

وتفيض الرواية فى مناقب هذه الجمهرة من الوزراء والقادة ، الذين اجتمعوا فى بلاط عبد الرحمن بن الحكم ، وتصفهم بأنهم «عصابة من سراة الوزراء ، أولى الحلوم والنهى ، لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم» . ويتقدم هذا الثبت الحافل رجلان ، كان لهما فى تنظيم حكومة عبد الرحمن وسياسته أعظم الأثر ، أولهما الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن عبد الواحد بن مغيث حاجب أبيه الحكم من قبل ، وهو الذى يصفه الرازى بأنه «أكمل من حمل هذا الاسم ، وأجمعهم لكل جملة حسنة» . وكان عبد الكريم ، فضلا عن براعته الإدارية ، مثل جده مغيث فاتح قرطبة ، من أعظم قادة هذا العصر ، وقد قاد حسبما تقدم فى مواضعه ، عدة من الحملات الغازية المظفرة . ولما توفى فى سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) خلفه فى الحجابة سفيان بن عبد ربه وهو من البربر ، ولم تكن له نباهة سابقة ، ثم عيسى بن شهيد ، وهو ثانى الرجلين . وكان عيسى من أعيان موالى بنى أمية ، وكان أيضاً من وزراء الحكم ، أوصى به ولده عبد الرحمن ، فلما ولى الأمر قدمه على خاصته ، ثم ولاه خطة الخيل ، ثم خلع عليه رتبة الوزارة ، وعهد إليه بالنظر فى المظالم ، وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة . ثم ولاه الحجابة بعد سفيان . واشتهر عيسى بالحلم والوقار وحصافة الرأى ، والمعرفة والجزالة ، وقاد كثيراً من الصوائف المظفرة . بيد أنه استهدف لخصومة الفتى نصر الخصى المسيطر على شئون القصر ، والأثير لدى الأمير بمظاهرته لحظيته طروب ، فلبث يدس له ويعمل على إقصائه عن الحجابة ، حتى تم له ذلك ، حينما مرض عبد الرحمن وطال احتجابه . وعين مكانه للحجابة عبد الرحمن بن رستم . فلما أبل الأمير من مرضه أنكر ما وقع ، وأنحى باللائمة على نصر ، وأعاد عيسى بن شهيد إلى الحجابة ، فلم يزل على حجابته حتى توفى عبد الرحمن . قال ابن القوطية : «لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس فى أنه ما خدم ملوك بنى أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية ، ولا أكرم اصطناعاً ، ولا أدعى لذمته . ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة ، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى ،

---

(١) ابن القوطية ص ٦١ ، و ٦٢ ، وكذلك مخطوط ابن حيان ص ١٤٤ . ومخطوط القرويين لوحة ١٩٦ أ .

إلا فى باب كرم الصنيعة واستتمامها ، فلم يك تفصله درجة »[1] .

وتولى الكتابة للأمير عبد الرحمن عدة من الكتاب المبرزين ، فى مقدمتهم الحاجب عبد الكريم ، وقد كان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً جزلا ، وعبد الله بن محمد ابن أمية بن أبى حوثرة ، ومحمد بن أبى سليمان الزجالى وهو من برابرة نفزة ، وكان كاتباً بارعاً ، واشتهر بقوته فى الحفظ حتى أنه سمى « بالأصمعى » ، واشتهر أبناؤه من بعده فى ميدان الكتابة .

وكان ممن كتبوا للأمير عبدالرحمن أيضاً الأسقف جومث (قومس) بن أنطونيان عامل أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدراً ، وكان عبد الرحمن يعهد إليه بالمهام الخطيرة ، وخدم من بعده ولده الأمير محمد[2] .

واجتمعت فى عهد الأمير عبد الرحمن أيضاً جمهرة من جلة الفقهاء والقضاة ، رحل معظمهم إلى المشرق فى طلب العلم وانتقاء الرواية ، ومن هؤلاء محمد بن يوسف بن مطروح ، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبقى بن مخلد ، ومحمد بن وضاح ، ويحيى بن إبراهيم بن مدين ، وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى . وقد اشتهر بعض هؤلاء من قبل فى عهد أبيه الحكم . وكان يتقدم هذه الجمهرة من الفقهاء فى المكانة والنفوذ ، عبد الأعلى بن وهب ، ويحيى ابن يحيى ، وعبد الملك بن حبيب . وكان يحيى بن يحيى عميد الفقهاء وشيخ قرطبة الأول ، وأصله من برابرة مصمودة ، ودرس فى المشرق على مالك ، والليث بن سعد وابن وهب وغيرهم ، وتولى الفتيا بعد عيسى بن دينار ، ولبث حتى وفاته فى سنة ٢٣٤ هـ يتبوأ أسمى مكانة . وكان ممن اتهموا بالتحريض على ثورة الربض وفر عقب إخماد الثورة إلى طليطلة ، ثم استأمن الحكم فأمنه وعاد إلى قرطبة .

وخلفه فى علمه ومكانته عبد الملك بن حبيب ، وغدا أثير الأمير ، لا يقدم عليه أحداً ، ولا يعدل بمشورته أحد . وكان عبد الملك فوق براعته فى الفقه والحديث ، متقدماً فى علوم اللغة ، والعلوم القديمة ، بارعاً فى الأدب ، وكتب كتباً فى إعراب القرآن وشرح الحديث وفى الأنساب وغيرها[3] .

---

(١) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٦ أ و ب و ١٩٧ أ و ١٩٨ أ .
(٢) راجع قضاة قرطبة للخشنى ص ١١١ .
(٣) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ٢٠١ ب و ٢٠٢ أ .

ويخصص ابن حيان لذكر قضاة عبد الرحمن ، وأخبارهم ، ونوادرهم والتعريف بهم ، نبذاً طويلة رأينا أن نكتفى بالإشارة إليها(١).

وحذا عبد الرحمن حذو أبيه أيضاً ، فى اصطفاء الموالى والصقالبة ، وابتاع أنصبة أخوته من مماليك أبيه « العجم » ، وكانوا خمسة آلاف مملوك ، ثلاثة آلاف فارس يرابطون إزاء باب القصر ، فوق الرصيف ، وألفا رجل على أبواب القصر وكانوا يسمون « الخرس » لعجمتهم(٢) . وسما نفوذ الفتيان يومئذ فى البلاط ، وكان زعيمهم الفتى نصر المتصرف فى شئون القصر الخاص ، وكان يتمتع بأعظم نفوذ فى القصر والدولة ، بمؤازرة طروب جارية عبد الرحمن .

وكان نصر هذا ويكنى أبو الفتوح ، من الفتيان المختارين الذين اشتهروا بالجمال والظرف ، وأمر الحكم بخصيهم ، وأصله من أبناء الأحرار الذين حشدوا للخدمة داخل القصر ، وكان أبوه من أسالمة أهل الذمة (المولدين) من أهل قرمونة(٣) . ولما ولى عبد الرحمن ، قدّمه على سائر خاصته ، وغدا مدبر أمر داره ، ومشاركاً لأكابر وزرائه فى تصريف الشئون . وتضاعف نفوذه ومكانته بمحالفته لجارية عبد الرحمن الأثيرة طروب ، صاحبة النفوذ القوى . وكان من أشهر أعمال نصر قيادته لجيوش الأندلس التى حشدت لمقاتلة النورمانيين فى أراضى إشبيلية ، وانتصاره عليهم . واستمر نجم نصر فى صعود ، ونفوذه فى تمكن ، حتى غدا أعظم رجال الدولة ، وأمضاهم أمراً ؛ وكان مرهوب الجانب ، يخشاه الأكابر والخاصة . توفى فجأة فى أواخر سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٨ م) ، « أرقى ما كان فى غلوائه ، وأطمع ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه ، أرهب ما كان الناس له ، وأخوفهم لعدوانه ، إذ نال من أثرة مولاه الأمير عبد الرحمن واصطفائه ، فوق ما ناله خادم خاص ، مع أمير رشيد » . فتنفس الناس الصعداء ، وسروا لوفاته ، والتخلص من طغيانه(٤).

---

(١) مخطوط القرويين اللوحات ٢٠٢ أ حتى ٢١١ أ .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٤٥ .

(٣) ابن حزم فى رسالة نقط العروس ص ٧٣ . ويقول ابن حزم إن نصراً هذا هو الذى تنسب إليه « منية نصر » وهى ضاحية جميلة كانت تقع على النهر ، على مسافة قصيرة من شرقى قرطبة .

(٤) تاريخ ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩١ ب .

واستكثر عبد الرحمن أيضاً من اقتناء الجوارى الحسان ، وكان كلفاً شديد الشغف بهن ، وكان يعنى باختيارهن من أطيب العناصر والأصول ، واجتمعت لديه منهن نخبة بارعة فى الحسن والخلال ، مثل طروب أم ولده عبد الله ، ومؤمرة أم ولده المنذر ، وشفاء أم ولده المطرِّف ، وفخر ومتعة وغيرهن ، وأنجب عبد الرحمن من الولد عدداً ضخماً بلغ وفقاً لابن حزم مائة ، خمسين من الذكور ، ومثلهم من الإناث ، وذكر الرازى أن عدد أولاده من الذكور أربعون ، وسماهم واحداً واحداً ، وأن عدد بناته ثلاثة وأربعون ، ذكر أسماءهن جميعاً(١) . وبلغ الجوارى كالفتيان من النفوذ مبلغاً عظيماً . واشتهرت من بينهن طروب حظية عبد الرحمن الأثيرة لديه ، وقد اشتد نفوذها فى أواخر أيامه ، وظاهرت نصراً الفتى ، فكانت لهما الكلمة النافذة فى معظم الشئون ، وكان عبد الرحمن يشغف بها أعظم شغف ، وهو القائل فيها :

إذا ما بدت لى شمس النهـــا ر طالعـــة ذكرتنى طـــروبا

وعنى عبد الرحمن بالمنشآت العامة أعظم عناية ، فزاد فى مسجد قرطبة الجامع بهوين جديدين من جانب القبلة ، وقام على عمارته الفتى نصر . وما زال هذا الجامع الشهير قائماً إلى اليوم بسائر عقوده الإسلامية ، وأروقته ومحاريبه . ولكنه حول منذ القرن السادس عشر إلى كنيسة قرطبة العظمى (كتدرائية) ، وبالرغم من أن الهياكل قد أقيمت فى سائر عقوده الجانبية ، وأقيم فى وسطه مصلى عظيم على شكل صليب ، فإنه ما زال يحمل بالإسبانية اسمه الإسلامى القديم « المسجد الجامع » La Mezqnita Aljama ، وقد أزيلت قبابه ومعظم زخارفه الإسلامية ، لتحل مكانها الزخارف النصرانية . ولكن محاريبه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الإسلامية ، وآياتها القرآنية .

ويقع جامع قرطبة فى طرف المدينة الجنوبى وسط شبكة من الدروب الأندلسية القديمة ، على مقربة من القنطرة الرومانية العربية القائمة على نهر الوادى الكبير . ويبلغ طوله ١٨٥ متراً وعرضه ١٣٥ متراً . وله عدة أبواب كبيرة فخمة ، مازالت تحتفظ بكثير من نقوشها الإسلامية . ويعرف بابه الرئيسى المقابل لصحنه

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ، ص ٩٠ ، وابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٤ ب و ١٩٥ أ .

« بباب النخيل » Puerta de las Palmas ، ويقع صحنه فى ناحيته الشمالية ويعرف بفناء النارنج Patio de los Naranjos ، وهو صحن مستطيل شاسع يزدان بعدد من أشجار البرتقال (أو النارنج) ، وهو الآن صحن الكنيسة . وقد هدمت منارة الجامع ، وهى التى أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الصحن ، وأقيم مكانها برج الأجراس الحالى[1] .

وأنشأ عبد الرحمن أيضاً مسجد إشبيلية الجامع ، كما ابتنى سورها الكبير عقب غزو النورمانيين لها ، ووضع نظاماً جديداً للسكة وجعلها أندلسية مستقلة ، بقيم وأوزان جديدة . وكان أهل الأندلس يتعاملون من قبل بما يحمل إليهم من نقد المشرق ، أو بنقود تسك على نظامه ، فى دار السكة التى أنشأها عبد الرحمن الداخل . وأنشأ أجنحة ومشارف جديدة للقصر ، وجلب إليه الماء العذب من قنن الجبال ، وأنشأ على النهر الأعظم مما يلى سور القصر والمدينة رصيفاً عظيماً[2] . كما أنشأ بقرطبة عدة من الحدائق الغناء . وحذت جواريه حذوه ، فأنشأن فى قرطبة عدة مساجد سميت بأسمائهن .

ويشير سيمونيت إلى عظمة قرطبة فى عصر عبد الرحمن ويقول « إن عبد الرحمن كان يعشق البذخ الطائل ، وفى عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة . وقد وصف قرطبة وعظمتها فى عهده نصرانى معاصر شهير وهو سان أولوخيو ، إذ يقول إن عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته لوناً خارقاً من العظمة ، ورفع من ذكرها ، وأفاض عليها حلل المجد ، وأغدق عليها الثروات ، وملأها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدق »[3] .

وكانت أيام عبد الرحمن أيام سكينة وأمن ورخاء ، وفيها ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، وورد على الأندلس كثير من الأمتعة والسلع الفاخرة ، وزخرت الأسواق بالبضائع . وزاد الدخل زيادة عظيمة ، وبلغت الجباية وحدها

---

(١) راجع وصفاً مسهباً لجامع قرطبة وتاريخه وخواصه الأثرية فى كتابى : « الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » (الطبعة الثانية) ص ٢٠ — ٣٤ .

(٢) كان القصر الأموى القديم يقع على ضفة النهر على مقربة من الجامع ، ويحتل موقعه اليوم القصر الأسقفى والسجن المحلى ، والحدائق المجاورة التى ما زالت إلى اليوم ، تسمى حدائق القصر Huertas del Alcazar ، والمرجح أنها تقوم مكان حدائق القصر القديمة .

(٣) Simonet : ibid , Vol. I: p. 366

زهاء ألف ألف دينار فى السنة ، واستطاع الأمير أن ينفق بسخاء على تسيير الحملات الغازية ، وإقامة المنشآت المختلفة[١] .

وكان عبد الرحمن بن الحكم أديباً حسن التثقيف ، وكاتباً بليغاً مشرق البيان ، عالماً بالشريعة والحكمة (الفلسفة) ، مجيداً للنظم ، نصيراً للعلوم والآداب ، يحتشد حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء ، مثل العلامة الرياضى والفلكى عباس بن فرناس ، ويحيى الغزال ، وشاعره الخاص عبد الله بن الشمر بن نمير ، وكان صديقه مذ كان ولياً للعهد ، وكان بارعاً فى الأدب والشعر والمنطق والتنجيم ، وكان يكشف لعبد الرحمن نجمه وطالعه[٢] ، وعباس بن ناصح الجزيرى شاعر أبيه الحكم ، وعبيد الله بن قرلمان بن بدر مولى الداخل ، وكان من جلسائه وخاصته وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً مجيداً . وغيرهم . ومن نظمه قوله :

ولقد تعـــارض أوجه لأوامر   فيقودها التوفيق نحو صـــوابها
والشيخ أن يحو النهى بتجارب   فشباب رأى القوم عند شبابها

وقوله وقد خرج غازياً إلى جلّيقية :

فـكم قد تخطيت من سبسب   ولاقيت بعـــد دروب دروبا
ألاقى بوجهى ســـموم الهجـــ   ـير إذ كاد منه الحصى أن يذوبا
تدارك بى الله ديـــن الهـــدى   فأحييتـــه وأمتُّ الصـــليبا
وسرت إلى الشرك فى جحفـــل   ملأت الحزون بهـــا والسهوبا

ومن قـــوله فى الغـــزل :

قـــتلتنى بهـــواكا   وما أحب ســـواكا
من لى بسحر جفون   تديره عينـــاكا
وحمـــرة فى بيـــاض   تكسى بـــه وجنتاكا
أعطف على قليـــلا   واحينى برضـــاكا
فقد قنعت وحسبى   أن أرى من رآكا

---

(١) راجع ابن القوطية ص٦٧ ، وابن الأبار ص ٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص٩٣ و ٩٤ ، وأخبار مجموعة ص ١٣٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ و ١٦٣ ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وفى مخطوط ابن حيان عما تقدم نبذ وتفاصيل حسنة (ص ١٣٨ و ١٤٢ و ١٤٤) .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٥٦ و ١٥٧ .

واشتهر عبد الرحمن بحنوه الجم على قرابته وذوى رحمه بدرجة لم يجاره فيها أحد من أهل بيته ، فكان يوليهم وافر عطفه ، ويجرى عليهم الصلات السخية . وفى أيامه وفد من المشرق على الأندلس عدد من قرابته المروانية (بنى أمية) ، فاستقبلهم جميعاً أجمل استقبال ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأجرى عليهم الأرزاق والإقطاعات الواسعة .

وكان عبد الرحمن يعشق الفلك والتنجيم ، ويشغف بدراسته ، وكان العلامة الرياضى ابن فرناس ، وعبيد الله بن الشمر ، وعبد الواحد بن إسحاق الضبى من أساتذته فى ذلك الفن ، وكان يقربهم ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، وله معهم قصص ونوادر كثيرة . وكان أيضاً يعشق الغناء والموسيقى ، ويجمع حوله عدداً من أكابر الفنانين يجرى عليهم الأرزاق الواسعة . ووفد عليه من المشرق أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب نابغة الغناء والموسيقى ، وكان زرياب من تلاميذ الفنان الشهير إسحاق الموصلى مغنى الرشيد ، فلما ظهر نبوغه وشعر أبو إسحاق بخطورة منافسته ، تحيل فى صرفه وإبعاده ، فغادر بغداد إلى المغرب ، وكتب إلى الحكم أمير الأندلس يستأذنه فى الوفود عليه . فأذن له واستدعاه ، ولكن زرياب ما كاد يصل إلى المغرب حتى علم بوفاة الحكم ، وكاد ينثنى عن عزمه فى العبور إلى الأندلس ، لولا أن جاءه كتاب عبد الرحمن بدعوته والترحيب به ، فسار إلى قرطبة واستقبله عبد الرحمن بمنتهى الإكرام والحفاوة ، وأجرى عليه الأرزاق الواسعة ، وجعله من خاصة بطانته . وبهر زرياب أهل الأندلس ببراعتــه فى الغناء والموسيقى ، وطار صيته فى كل مكان ، وأضحى قطب الفن الذى لا يجارى ، وأخذ عنه أهل الأندلس فنونه وإبداعه ، وتشبهوا به فى مظاهر زيه وإناقته وطرائق معيشته . وتوفى فى ربيع الأول سنة ٢٣٨ ﻫ (أغسطس ٨٥٢ م) قبيل وفاة عبد الرحمن بأسابيع قلائل . وكان لزرياب وفنه أعظم الأثر فى تكوين الفن الأندلسى فى ظل الدولة الأموية ، ثم فى ظل دول الطوائف[1] .

وشغف عبد الرحمن أيضاً بجمع الكتب ، وأوفد شاعره عباس بن ناصح إلى المشرق للبحث عن الكتب القيمة واستنساخها ، فجمع له منها طائفة كبيرة ،

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلدون فى المقدمة ص ٢٥٧ .

وكان أول من عنى بجمعها من أمراء الأندلس، وكانت جهوده فى هذا السبيل نواة لإنشاء مكتبة قرطبة العظيمة .

* * *

وفى عهد عبد الرحمن سما شأن حكومة قرطبة الإسلامية ، وأخذت تتبوأ مكانتها من الهيبة والنفوذ ، بين مختلف القصور والحكومات النصرانية ، وتغدو مركز التوجيه للدبلوماسية الإسلامية فى الغرب . والظاهر أن الدولة البيزنطية ، خصيمة الدولة العباسية فى المشرق ، كانت تعتقد أنها تستطيع أن تصل بتفاهمها مع حكومة قرطبة الإسلامية ، إلى بعض النتائج العملية فى مقاومة خصيمتهما المشتركة . ففى سنة ٨٤٠ م (٢٢٥ هـ) وفد على قرطبة سفير من قبل قيصر قسطنطينية الإمبراطور تيوفيلوس (توفلس) ، يدعى قرطيوس ، ومعه كتاب وهدية فخمة ، فاستقبله عبد الرحمن بحفاوة ، وكان القيصر يتوجه فى كتابه إلى أمير الأندلس ، باسم الصداقة القديمة التى كانت قائمة بين الأوائل من خلفاء بنى أمية وقياصرة بيزنطية ، ويشكو مر الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيثهما فى أراضيه ، ويشير إليهما فى كتابه بابن مراجل وابن ماردة[1] تحقيراً وازدراء ، كما يشكو إليه من استيلاء أبى حفص البلوطى وعصبته الأندلسية على جزيرة إقريطش (كريت) وهى من أملاكه ، ويطلب إليه عقد أواصر المودة والصداقة بينهما ، ويرغبه فى ملك أجداده بالمشرق ، ويستنهض همته لاسترداده ، ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية ، وزوال سلطانها ، ويعده بنصرته فى ذلك المشروع . وقد رد عبد الرحمن على سفارة تيوفيلوس بمثلها ، وأوفد كاتبه وصديقه الشاعر يحيى الغزال إلى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب المعروف بالمنيقلة بكتاب وهدية إلى الإمبراطور . وقد سبق أن أشرنا إلى الغزال وإلى شخصيته الممتازة وإلى بارع خلاله وظرفه ، وكان الغزال قد جاوز الستين يومئذ ولكنه كان مايزال يحتفظ بكثير من إناقته وروائه . وسار الغزال وصاحبه يحيى ومعهما السفير البيزنطى إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية) ، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة، عايتوا فيها الأهوال من اضطراب البحر وروعة الموج . واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسى بحفاوة ، وقدم الغزال إليه كتاب

(١) مراجل هى أم المأمون ، وماردة هى أم المعتصم ، وكلتاهما جارية وأم ولد .

عبد الرحمن وهديته . ويرد عبد الرحمن فى كتابه على ما جاء فى كتاب الإمبراطور تفصيلا ، ويشير مثله إلى المأمون والمعتصم بابن مراجل وابن ماردة ، وإليك ما يرد به عبد الرحمن على ما يدعوه إليه الإمبراطور من وجوب العمل لاسترداد ملك أجداده بالمشرق ، وهى أهم فقرات الخطاب :

« وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قبله ، وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو فى ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونمترى حسن بلائه لدينا ، بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من أهل شأمنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف أن النقمة تنزل بهم ، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى »(١).

وأدى الغزال سفارته خير أداء ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور وبين مليكه ، وسحر البلاط البيزنطى بكياسته وظرفه ، وبديع صفاته ، وقدمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا وإلى ولده الأمير ميخائيل الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فتى يافعاً ، فأنست به الإمبراطورة وسحرته برائع جمالها ، وسحره الأمير الفتى بظرفه وبارع خلاله . وقال فيه قصيدته التى مطلعها :

وأغيد لين الأطراف رخص ... كحيل الطرف ذو عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه ... يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبنـــاء الغطارف قيصرى ... العمومة حين ينسب والخؤول

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية وروعة البلاط البيزنطى .

---

(١) ورد هذا الخطاب بنصه كاملا كما وردت تفاصيل هذه السفارة مفصلة فى مخطوط ابن حيان ص ١٦١ و١٦٢ و ١٦٣ ؛ ونشر الأستاذ ليڤى بروڤنسال قصة هذه السفارة بالفرنسية ، ومعها نص الخطاب بالعربية فى فصل خاص ، فى المجلد الثانى عشر من مجموعة **Byzantion** التى تصدر فى بروكسل بعنوان : **Echange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe.Siècle** كما نشرها أيضاً فى رسالة خاصة . وراجع أيضاً نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ ، حيث يشير إلى هذه السفارة إشارة موجزة .

هذا وقد أوفد الغزال بعد ذلك بقليل فى سفارة أخرى أغرب وأعجب ؛ وذلك أنه على أثر غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية واقتحامهم إشبيلية ، وردهم عنها ، ثم هزيمتهم ومطاردتهم ، بعث ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم فى طلب المهادنة والصلح ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة ، ويعلنه بقبول الصلح .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة . وهى رواية أديب أندلسى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، هو أبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية البلنسى ، أوردها فى كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» فى حديثه عن الغزال . وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال ، يحيى بن حبيب لمرافقته فى تلك السفارة ، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط عن طريق شلب[1] فى مركب خاص أعد لهما ، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين . ويصف لنا ما لقيه السفيران المسلمان من أهوال البحر وروعته ، وكيف أنهما جازا تلك الشدائد سالمين ووصلا إلى بلاد المجوس . ثم يصف لنا بلاد المجوس بأنها « جزيرة عظيمة فى البحر المحيط » ، وعلى مقربة منها « جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم من المجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية » .

ويبدو من وصف طريق الرحلة ، وأوصاف تلك الجزر ، أن القطر الذى قصده الغزال ورفيقه ، هو الدانماركة ، ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت فى ذلك الوقت مستقر ملك النورمان (المجوس) ، وكان ملكهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها من الجزائر ، وقسما من إسكندناوة وألمانيا الشمالية . وكان يجلس على عرش النورمان فى ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م) ملك يسمى « هوريك » . وكان النورمان يومئذ أحداثاً فى النصرانية ، حسبما تقول الرواية الإسلامية . ولقى السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحاب وعطف ، وأفرد لإقامته وزملائه منزلا حسناً . وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقى الغزال فى البلاط النورمانى كله ، كثيراً من

(١) شلب Silves هى بلدة أندلسية قديمة تقع فى جنوب غربى البرتغال على مقربة من المحيط الأطلنطى .

الإعجاب والعطف ، واستقبلته « نود » ملكة النورمان ، فراعه حسنها ، وشملته بعطفها ، ورآها بعـد ذلك مراراً ، ونظم فى حسنها شعراً رقيقاً ، يورده لنا ابن دحية ، وفيه يخاطبها بقوله :

يا نود يا رود الشـباب التى   تُطلع من أزرارها الـكوكبا

وعاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ، وكان عوده عن طريق شنت ياقب . ويقول لنا ابن دحية إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاباً إلى صاحبها ، وهو ملك جليقية وليون . والظاهر أنه كان كتاب توصية وجواز ، لكى يستطيع السفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية ، فى طريقهم إلى الأندلس . وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون ، وسار إلى طليطلة ، ومنها إلى قرطبة . والمرجح أن وصوله إلى قرطبة ، كان سنة ٢٣٢ هـ (أواخر سنة ٨٤٦ م) .

وعاش الغزال بعد ذلك زهاء عشرين عاماً أخرى ، وتوفى فى سنة ٢٥٠ هـ . وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره ، إذ كان مولده فى سنة ١٥٦ هـ[١] ، وأدرك خمسة من أمراء بنى أمية بالأندلس أولهم عبد الرحمن الداخل ، وآخرهم محمد ابن عبد الرحمن . وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة فى الشعر والأدب والحكمة ، ويتبوأ فى بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير[٢].

---

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٨٨٧

(٢) تراجع رواية ابن دحية كاملة فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » المنشور بعناية وزارة المعارف سنة ١٩٥٤ (ص ١٣٨ – ١٤٩) . ونقلها دوزى فى كتابه : Recherches, Vol. I. App, XXXIV ، وأشار إليها المقرى فى الفصل الذى أورده عن الغزال وأخباره (نفح الطيب ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها) . وقد كان البحث يتجه من قبل إلى أن رواية ابن دحية عن هذه السفارة قد تكون تكراراً أو تحريفاً للرواية الخاصة بسفارة الغزال إلى قسطنطينية ، ولكن يتضح من مراجعة رواية ابن دحية كاملة فى كتابه المنشور ، ودراسة المعالم الجغرافية التى أوردها عن طريق سفر الغزال وطريق عودته عن طريق شنت ياقب ومملكة جليقية – وعن موقع مملكة النورمان ، يتضح من ذلك كله أنه لا توجد الآن ذرة من الريب فى صحة القول بأن السفارة كانت فعلا إلى « بلاد المجوس » أو النورمان ، أو بعبارة أخرى إلى الدانماركة .

الفصل الأول

ولاية محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
وطوالع الثورة الأولى

محمد بن عبد الرحمن . ظروف توليته والتمهيد لها . الثورة فى طليطلة . مسير محمد إلى طليطلة . استعانة الثوار بملكى ليون ونافار . موقعة وادى سليط . تحريضات النصارى المتعصبين . غزوة ألبة والقلاع . عود إلى محاربة طليطلة وإخضاعها . غزوة النورمانيين . عيثهم فى جنوبى الجزيرة . ارتدادهم من طريق الشمال . غزو المسلمين لنافار وألبة والقلاع . موسى بن موسى وسيادته فى الثغر الأعلى . الحرب بينه وبين أردونيو . مصرع موسى . ولده لب ومحالفته للنصارى . أخوته الثلاثة . غزو المسلمين لألبة والقلاع . هزيمة المسلمين . عود إلى غزو ألبة . هزيمة النصارى . الثورة فى ماردة وإخمادها . احتماء بنى قسى بملك النصارى . الثورة فى قواعد الثغر الأعلى . استيلاء بنى قسى على تطيلة وسرقسطة . سير محمد إلى الثغر الأعلى . استيلاؤه على تطيلة . غزوه لنافار . زحف المنذر إلى سرقسطة . غزوه لنافار ثانية . عوده إلى غزو الثغر الأعلى . افتتاح المنذر لحصن روطة واستيلاؤه على لاردة . خضوع سرقسطة . الخلاف بين بنى قسى . خروج محمد بن لب فى سرقسطة وتحالفه مع النصارى . سير المنذر إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . الهدنة بين المسلمين والنصارى . عود ابن مروان إلى الثورة فى ماردة . سير محمد لقتاله . تحالف ابن مروان مع ملك ليون . هزيمة جيش الأندلس وأسر قائده . عيث ابن مروان بنواحى الغرب . التجاؤه إلى ملك ليون . زحف المنذر على بطليوس وإحراقها . الثورة فى شنت برية وبنو ذو النون . ظهور ابن حفصون فى جبل ببشتر . بواعث الفتنة فى كورة ريه . غزو ابن حفصون لكورة ريه . محاربة ابن حفصون وأسره . فراره واستئنافه الثورة . سير المنذر لقتاله . محاصرة الحامة . وفاة محمد بن عبد الرحمن وعود المنذر إلى قرطبة . خلال محمد . عنايته بالجيش والأسطول والمنشئات الدفاعية . نظام البلاط فى عهده . حجابه ووزراؤه . أعماله الإنشائية . المسجد الجامع ومنية الرصافة . شخصه وخلاله . أدبه وبلاغته . عطفه على العلماء والأدباء . حمايته لبقى بن مخلد . نفوذ الفقهاء فى عهده . تسامحه نحو النصارى .

ترك عبد الرحمن بن عبد الحكم ، مملكة زاهرة موطدة الأركان ، تنعم بالاستقرار والهدوء . ولكن هذا الاستقرار الظاهر ، كان يحجب كثيراً من التيارات الخفية ، التى تهدد أمن المملكة وسلامتها . ذلك أن الهزات العنيفة التى توالت على الأندلس فى عهد عبد الرحمن ، تركت آثارها العميقة فى هذا الصرح الباذخ .

وكانت الثورات المحلية المتعاقبة ، وغزوات النورمانيين ، ودسائس النصارى المتعصبين ، كلها تنذر بأن الاستقرار المؤقت الذى تنعم به المملكة ، لم يكن سوى

الكتاب الثانى

الدّولة الأمويّة فى الأندلس

القسم الثانى

عَصرُ الإمَارَة

من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد وعهد الفتنة الكبرى

٢٣٨ – ٣٠٠ هـ : ٨٥٢ – ٩١٢ م

هدنة خادعة ، حققتها سياسة قوية حازمة . وكانت عناصر الإضطراب والغدر تجثم هنالك فى صدور المنافقين والطامعين ، وتنذر حكومة قرطبة وعرش بنى أمية بأعظم الأخطار .

تولى محمد بن عبد الرحمن الملك عقب وفاة أبيه ، فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٢٤ سبتمبر سنة ٨٥٢ م) ، ودخل القصر وأبوه مسجى على سريره ، فاقتعد لفوره سرير الملك ، وأخذ له البيعة الحاجب عيسى بن شُهيد . وكان يومئذ قد جاوز الثلاثين بقليل . وكان مولده فى شهر ذى القعدة سنة ٢٠٧ هـ (إبريل سنة ٨٢٣ م) . وأمه أم ولد تدعى بهير[1]. وكانت ظروف ولايته ممهدة من قبل ، وكان والده عبد الرحمن قد استخلفه بقصر الإمارة ، حينما اعتزم أن ينيبه عنه فى سنة ٢٢٦ هـ ، وهو يومئذ فتى فى العشرين من عمره ، ثم ولاه ثغر سرقسطة ، فضبطه وأحسن إدارته ، وصحب والده إلى بنبلونة فى غزوته المظفرة سنة ٢٢٨ هـ ، وقاد ميمنة الجيش ، وأثنى عليه والده فى كتاب الفتح ، فاشتهر اسمه بين الناس ، ثم ندبه أبوه بعد ذلك لمقابلة رسل ملك الفرنج قارله (كارل) بن ببين القادمين إليه . وأخيراً كلفه بالركوب إلى البلاط بصفة منتظمة ، ليرفع إليه الكتب الواردة بعد تلخيصها بمعرفته ، وقد تم هذا الإجراء بتوصية الحاجب عيسى بن شهيد ونصحه ، وذلك لتمكين أمر محمد ومكانته ، وتوهين ما كان يحاوله نصر الخصى الأثير لدى الأمير ، وحليف حظيته طروب المتغلبة عليه ، من ترشيح ولدها عبد الله لولاية العهد ، وتمكين أمره .

ولم يكن ذلك دون اختيار وتثبت . ذلك أن عبد الرحمن ، كان حسبما يحدثنا عيسى الرازى « قد كشف عن مذاهب ولده ، ولداً ولداً ، وعجم أخلاقهم اختباراً ، فوجد محمداً راجحاً لهم بخلاله » . فاختاره ليخلفه من بعده ، وأوعز إلى وزرائه وأكابر دولته ، بأنه صاحب ولاية عهده ، والمفوض إليه الأمر من بعده ، وكلفهم جميعاً ، ومعهم القاضى وأهل الشورى ، بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع فى المسجد الجامع ، وأبدى على الجملة بما لا يدع مجالا لأى شك ، بإيثاره على جميع ولده ، وتفرده دونهم بخلافته فى ملكه .

وفضلا عن ذلك كله ، فقد كانت لمحمد عيون من الصقالبة بالقصر يطالعونه

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

بالأخبار فى وقتها . فلما توفى والده ، وافاه فى مساء نفس اليوم رسول من قبل حبيب الخصى ، يستدعيه إلى القصر بسرعة ، فبادر إلى القصر متنكراً وقد أخفى سلاحه تحت ثيابه ، خوفاً من دسائس أخيه ومنافسه عبدالله ، لتمكن نفوذ أمه داخل القصر . وكان الصقالبة قد كتموا موت الأمير ، وأغلقوا أبواب القصر ، وثارت بينهم مناقشات عنيفة حول ولاية العرش ، وانتهى الأمر بتفضيل محمد وتقرير استدعائه . وخرج محمد من غرفة أبيه المسجى إلى مجلس البيعة ، واستدعى إخوته التسعة والأربعين ، وعمومته ، وأهل بيته ، وعظماء المملكة . وأخذت له البيعة دون خلاف (يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ٢٣٨ هـ) ، ثم أخذت له بيعة الكافة فى المسجد الجامع أياماً متوالية[١] .

أوردنا هذه التفاصيل لنقف على نوع الإجراءات التى كانت تتخذ لتقرير ولاية العهد ، فى إمارة قرطبة الأموية ، ثم لنقف على الدور الذى أخذ يضطلع به الفتيان الصقالبة منذ الآن فصاعداً فى مسألة خلافة العرش ، وهو دور كان له أثره الحاسم فى كثير من المواطن .

وكان محمداً أميراً ذكياً فطناً بالأمور[٢] ، تولى والأفق الذى ظلل عصر أبيه العظيم مازال يحتفظ بلمعانه ، وملوك اسبانيا النصرانية يحسبون حسابه ، ويشعرون بأنه خلف كفء لأبيه ، وملوك العدوة القريبين من الأندلس يخطبون وده ، وملك الفرنج يسعى إلى عقد السلم معه .

وأقر محمد حاجب أبيه عيسى بن شُهيد ، ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه على خططهم ومراتبهم ؛ وصنع نظاماً جديداً للوزارة ، تتميز فيه الخطط الرفيعة على غيرها ، ويمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم والتجلة ، وقدم الوزراء من أهل الشأم على غيرهم من الأندلسيين والبربر ، وأعلاهم فى الجلوس على أرائكهم ببيت الوزارة . وكان بنفسه يشرف على أعمال الوزارة والكتاب ، ويدقق فى أعمالهم وتصرفاتهم وحساباتهم[٣] . ولما توفى عيسى بن شهيد ، خلفه فى الحجابة عيسى بن الحسن بن أبى عبدة ، وكان بالرغم من رثاثة هيئته وزيراً قوياً ،

---

(١) ابن حيان عن أحمد بن محمد الرازى ، وعيسى بن أحمد الرازى ، ومعاوية بن هشام الشبينسى ؛ مخطوط القرويين اللوحات ٢١٥ إلى ٢٢٠ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

(٣) ابن حيان عن أحمد الرازى ؛ مخطوط القرويين لوحة ٢٢٣ .

وافر الفطنة والذكاء ، صائب الرأى والتقدير . وكان هاشم بن عبد العزيز من بين وزراء الأمير محمد، أشدهم خصومة ومنافسة للحاجب ابن أبى عبدة ، وكان فى نفس الوقت أحب وزراء الأمير إليه ، وأكثرهم حظوة لديه ، فلم يلبث أن غلب نفوذه على سائر الوزراء . ويقول لنا ابن عبد البر إن هذه الحظوة التى استأثر بها الوزير هاشم لدى الأمير محمد، كان لها أثر سيئ فى تصرفات الأمير ، وأنه أى هاشم قد أفسد عليه أمره ، « فشرّهه ، وصلفه، وحمله على غير المنهج من محمود طرقه ، وعدل عن اختيار ثقات العمال ، من الشيوخ والكهول أولى النهى والأصول ، إلى الأحداث من أولى الشر والخيانة ودناءة الأصول . فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك إلى أبعد حال .. فنجمت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر فى الأرض الفساد فى المملكة»(١). وفى أقوال ابن عبد البر عن هذا التحول فى سياسة الأمير محمد وفى أساليب حكمه مبالغة ، ينقضها ما أورده صاحب البيان المغرب وغيره عن صفاته(٢). وعلى أى حال فسوف نرى أى دور خطير يلعبه الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الذى تولى الحجابة فيما بعد ، فى ميدان الحرب والسياسة فى عهد الأمير محمد .

وقد شاء القدر أن يكون عهد محمد بداية عصر من أخطر عصور التاريخ الأندلسى ، وأشدهم خطراً على ملك بنى أمية ، وعلى دولة الإسلام فى الأندلس . ذلك أنه ما كاد يتبوأ العرش ، حتى بدأت طلائع تلك الثورة الجارفة ، التى قدر له أن يضطلع بكفاحها طوال حكمه ، الذى امتد خمسة وثلاثين عاماً ، والذى يصفه ابن حيان بقوله : « والمشوب آخره بالتنكيد ، المنصرم عن فرقة الجماعة ، ونجوم النفاق بكل جهة » .

ففى منتصف ربيع الثانى سنة ٢٣٨ هـ ، يعنى لأيام قلائل فقط من وفاة عبد الرحمن ، وولايه محمد ، تحرك أهل طليطلة التى مافتئت تفيض بعوامل الثورة . وكان بها عندئذ سعيد بن الأمير محمد ، والعامل عليها حارث بن بزيع . وكان جماعة من المارقين وأهل الشر ، قد اجتمعوا فى الهضبة القريبة من المدينة المسماة « جبل الأخوين » بزعامة مسوقة بن مطرّف ، وهو أحد الزعماء الخوارج الذين فروا من قرطبة ، فلما وقفوا على وفاة الأمير عبد الرحمن ، كاتبوا أهل طليطلة وحرضوهم على الوثوب بسعيد ومن معه . فاضطرمت الثورة داخل المدينة ؛

---

(١) نقله ابن حيان ، مخطوط القرويين اللوحة ٢٢٢ أ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

وساعدهم ابن مطرف بحشوده من الخارج ، وانتهى الأمر بهزيمة جند الأمير ، واستطاع سعيد أن يغادر المدينة ، ولكن الثوار أسروا عاملها حارثاً ، ورفضوا إطلاق سراحه حتى أطلقت حكومة قرطبة رهائنهم المعتقلة هناك[١]. وفى صيف العام التالى (سنة ٢٣٩ هـ — ٨٥٣ م) بعث الأمير محمد أخاه الحكم فى جند الصائفة إلى قلعة رباح ، وكانت قد أقفرت وخربت وغادرها معظم أهلها ، عقب مهاجمة أهل طليطلة الخوارج لها ، وقتلهم كثيراً من أهلها ، فاحتلتها جند الأمير ، وقامت بإصلاح أسوارها ، واستدعى أهلها الفارون وأمنوا ؛ وفعل الحكم مثل ذلك بحصن شندلة ، الواقع على النهر المسمى بهذا الإسم **Jandula** ، وهو من أفرع الوادى الكبير ؛ وجالت جند الأمير فى تلك المنطقة تطهيراً من الثوار ، وخرجت منها حملة سارت جنوباً ، فلقيتها عصابات الخوارج من أهل طليطلة فى فحص أندوجر ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير ، وردوا بخسارة فادحة (شوال سنة ٢٣٩ هـ) . وعلى أثر ذلك خشى أهل مدينة جيّان القريبة على أنفسهم من عيث الخوارج ، فغادرها كثير منهم إلى الجبال ، وابتنى الأمير محمد لهذا السبب حصن « أندة » على مقربة جيان ، وضم إليه العرب المقيمين على الطاعة ، وسمى المكان لذلك « أندة العرب »[٢] .

وعندئذ شعر محمد بما يهدد العاصمة من الأخطار ، وأراد أن يلقى على ثوار طليطلة ، درساً عميق الأثر ، فسار إليها فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ (يونيه ٨٥٤ م) على رأس قوة كبيرة . وكانت أول حملة يقودها بنفسه بعد تبوئه الملك . وكان عماد الثورة فى طليطلة جمع كبير من المولدين والنصارى ، الذين تحركهم روايات المتعصبين ، عن الاضطهاد الذى يلقاه إخوانهم فى قرطبة ، وكانوا يتطلعون دائماً إلى عون ملك النصارى ؛ فلما استشعروا عزم محمد على قتالهم ، بادروا بالاستغاثة بأردونيو (أردن) ملك ليون ، وكذلك بملك ناڤار ؛ وأمدهم أردونيو بقوة على رأسها الكونت غاتون[٣]. وكان تدخل النصارى على هذا النحو لتأييد الثورة ضد حكومة قرطبة ، عاملا فى إذكاء حماسة المسلمين ، فهرعت جموع كبيرة إلى جيش الأمير ، ومنهم كثير من الفرسان الأشراف وذوى الحسب ، وسار محمد صوب

(١) ابن حيان عن الرازى فى مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ أ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ ب .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ . ويقول صاحب البيان إن الكونت غاتون هو أخ لملك ليون .

طليطلة فى بعض قواته ، وترك بقية جيشه الكثيف مستتراً بالتلال التى تظلل وادى سليط ، وهو الوادى الذى يخترقه النهر المسمى بهذا الإسم Guazalete، وهو أحد أفرع التاجُه الجنوبية ، فلما رأى أهل طليطلة قلة الجيش المحاصر ، خرجوا لقتاله ومعهم حلفاؤهم النصارى وهم على ثقة من الظفر ، فارتد محمد بجنوده نحو وادى سليط متظاهراً بالهزيمة ، وعندئذ برزت قوات الأندلس من مكامنها ، وأطبقت على الثوار وحلفائهم النصارى ، وكانت موقعة هائلة مزقت فيها جموع الطليطليين والإسبان فى ساعات قلائل من الصباح إلى الضحى ، وقتل منهم مقتلة عظيمة تقدرها الرواية الإسلامية بأحد عشر ألفاً ، وقيل بل عشرين ألفاً ، وأسر منهم كذلك عدد جم ، بينهم كثير من القساوسة وقد أعدموا على الفور ، ورصت رؤوس القتلى ، وأذن فوقها لصلاة الظهر . وكان نصراً عظيماً . وفى هذه الموقعة يقول شاعر العصر عباس بن فرناس :

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف ... لهـوم الفلا عبل القبائل ملتف
إذا أومضت فيه الصوارم خلتها ... بروقاً تراءى فى الغمام وتستخفى
كأن ذرى الأعلام فى ميلانها ... قراقير فى يم عجزن عن القذف
بكى جبلا وادى سليط فأعولا ... على النفر العبدان والعصبة الغلف
يقول ابن يوليس لموسى وقد ونى ... أرى الموت قدامى وتحتى ومن خلفى
قتلنـــا لهم ألفاً وألفاً ومثلهـــا ... وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألف
سوى من طواه النهر فى مستلجه ... فأغرق فيه أو تهدهد من جرف
لقد نعمت فيه غزاة نسورنا ... وسمعت الدقات قصفاً على قصف(١)

على أن الفتنة فى طليطلة لم تهدأ ولم تخمد ، فقد استمر تحريض النصارى المتعصبين فيها على أشده ، وأضحت المدينة الثائرة موئلا لطائفة من القسس المتعصبين مثل أولوخيو وصحبه ، يبثون دعاياتهم المضطرمة فى طليطلة وما جاورها من الأنحاء ، ويصورون مصير النصارى فى ظل الحكم الإسلامى بأشنع الصور ، ويدعون إلى التحرر من الاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وكان صدى هذه

---

(١) ينقل إلينا ابن حيان عن موسى الرازى تفاصيل هذه الموقعة — مخطوط القرويين لوحة ٢٦٠ أ وب و ٢٦١ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ و ١١٤ . وكذلك : Dozy Histoire, V.I. p. 355

الدعوة يتردد قوياً فى العاصمة الأندلسية ، ويبث القسس تحريضهم ودعايتهم المسمومة ، مثلما كانوا يفعلون أيام عبد الرحمن بن الحكم[١]. وكان محمد يرقب هذه الفتنة حذراً من عواقبها ، وعواقب تمرد المدينة الثائرة ، ومن ثم فقد لبث متأهباً لمقارعتها ، وشحن قلعة رباح وطلبيرة على مقربة منها بالجند والعدد .

وسير الأمير محمد كذلك الصوائف والحملات الغازية إلى الثغر الأعلى . ففى سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م) سير جيشاً بقيادة موسى بن موسى بن قسىّ والى تطيلة إلى ألبة والقلاع . وكان موسى أيام الأمير عبد الرحمن ، من زعماء الثورة فى الشمال ، وتحالف مع النصارى حسبما تقدم ، وقاتله عبد الرحمن حتى تمكن من إخضاعه . ولكنه عاد فى أواخر عهده إلى سابق مكانته من زعامة الثغر الأعلى ، واستطاع أن يوطد استقلاله فى تطيلة وما جاورها ، مع التظاهر فى نفس الوقت بالولاء لحكومة قرطبة ، اتقاء لخصومتها . فسار إلى ألبة والقلاع وعاث فيها ، وهزم النصارى فى عدة مواقع ، وافتتح بعض الحصون ، ثم عاد بعد ذلك فاتجه صوب ثغر برشلونة ، وانتزع بعض حصونه من أيدى النصارى ، وتضع بعض الروايات تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) . بيد أنه يبدو من أقوال الرازى أنها وقعت قبل سنة ٢٤١ هـ[٢] .

وفى صيف سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) سار محمد بنفسه إلى ألبة والقلاع ، وقد كتب إلى موسى بن موسى وأهل الثغور بالاحتشاد والسير فى حملته ، فعاث فى بسائط ألبة والقلاع ، وافتتح كثيراً من حصون النصارى . وفى العام التالى بعث موسى بن موسى إلى أحواز برشلونة ، فغزاها وخرب برشلونة وافتتح بعض حصونها ، وأسر بعض أمرائها[٣] .

بيد أن اهتمام الأمير لبث فى الوقت نفسه بالأخص موجهاً إلى طليطلة ، فبعث ولده المنذر إلى المدينة الثائرة فى قوة كبيرة فحاصرتها وعاثت فى أحوازها (٢٤٢هـ) ، ولم يجرأ الثوار هذه المرة على مغادرة مدينتهم . ولكنهم خرجوا فى العام التالى إلى طلبيرة لمقاتلة الحامية الأندلسية بها ، فخرج إليهم قائدها مسعود بن عبد الله ،

---

(١) يفيض دوزى فى شرح أدوار هـذه الفتنة الدينية وأعمال دعاتها : **Dozy : Hist.; V. I. p. 356—362**

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٦١ ب .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

وأوقع بهم وقتل منهم عدة مئات أرسلت رؤوسهم إلى قرطبة . وسارت جند الصائفة فى الوقت نفسه إلى طليطلة ، فنازلتها وعاثت فى أحوازها ، وانتسفت زروعها وأقواتها .

ورأى الأمير محمد أن يتابع معاقبة أهل طليطلة . فخرج إليهم بنفسه فى صيف سنة ٢٤٤هـ (٨٥٨م) ، وحاصر المدينة الثائرة ، وتأهب أهلها لقتاله بالرغم مما أصابهم من نقص فى القوى ، وشح فى الأقوات ، واعتمدوا على حصانة مدينتهم . ولجأ محمد إلى الحيلة فهدم مهندسوه قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة ثم انسحب بجنوده ؛ وهنا خرج أهل طليطلة لقتاله ، فلما احتشدوا على القنطرة سقطت بهم فى نهر التاجه وغرق منهم عدد جم[1] . ولم يترك محمد هذه المرة وسيلة رائعة إلا استعملها لسحق المدينة الثائرة ، فخرب حصونها ومعالمها ، وأوقع بأهلها قتلا وتشريداً ، حتى اضطروا إلى طلب الأمان والصلح ، وأذعنوا للخضوع والطاعة ، وهم يعتزمون النكث فى قرارة أنفسهم متى سنحت الفرص (٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) .

وهكذا لبثت طليطلة عصراً تضنى حكومة قرطبة بتمردها وثوراتها المتوالية ؛ وكانت حاضرة القوط القديمة تشعر دائماً بقوتها ومنعتها الطبيعية ، وكانت فوق ذلك مثوى التيارات النصرانية الخطرة حسبما بينا ، تنساب إليها من نصارى الشمال ، ومن النصارى المعاهدين بقرطبة ، ومن أهلها أنفسهم . والواقع أن طليطلة كانت بوعورة موقعها على المنحدر الصخرى الممتد نحو نهر التاجه ، وإحاطة النهر بهذا المنحدر الوعر ، ثم بحصونها القوية ، وأسوارها العالية الضخمة ، من أمنع مدن العصور الوسطى . وما تزال إلى اليوم حين نتأملها ونتجول فيها ، تذكرنا بموقعها الصعب ، وطرقها الصخرية الوعرة ، وبقية أسوارها وحصونها المنيعة ، بما كان لها من سابق الحصانة والقوة فيما خلا من العصور .

وهكذا أخمدت ثورة المولدين والنصارى المعاهدين فى طليطلة إلى حين ؛ وتأهب محمد فى الوقت نفسه لقمع شغب النصارى المتعصبين فى قرطبة وغيرها ،

---

(١) يقدم إلينا ابن حيان عن هدم القنطرة قصة أخرى ، فيقول إن جنود محمد حاولوا هدم القنطرة تحت أنظار أهل المدينة ، وأنهم سخروا من هذه المحاولة ، وأيقنوا بعقمها . ثم خرجوا للقتال ، واحتشد الكثير منهم فوق القنطرة ، فانهارت تحت أقدامهم وهوت بمن فوقها إلى النهر ، وهدمت صخورها عليهم من كل ناحية (مخطوط القرويين لوحة ٢٦٢ أ) .

وإخماد نزعتهم الثورية الخطيرة . وحوكم القس أولوخيو الذى أشرنا من قبل إلى دعايته وتحريضه أيام عبد الرحمن ، وكان مايزال معقد الدسائس الدينية ، وقضى بإعدامه كما قضى بإعدام صاحبته ومعاونته الفتاة ليوكريسيا (مارس سنة ٨٥٩ م) . ورأى النصارى فتنتهم تنهار فركنوا إلى السكينة ، وخبت جذوة تعصبهم ، التى لبثت أعواماً طويلة تضطرم فى قرطبة ، ولم يبق من حماستهم سوى الذكرى(١) .

ولم يكد ينتهى الأمير محمد من إخضاع طليطلة ، حتى دهم الأندلس خطر النورمانيين مرة أخرى. فى نفس هذا العام (٢٤٥هـ — ٨٥٩ م) انحدر النورمانيون (وهم الأردمانيون أو المجوس كما تسميهم الرواية الإسلامية) فى سفنهم نحو شواطئ جليقية ، وعاثوا فى شاطئ اسبانيا الغربى . وتقدر الرواية الإسلامية أسطول النورمان فى هذه المرة باثنتين وستين مركباً ؛ وطاردتهم السفن الأندلسية ، وكانت دائماً على قدم الأهبة تجوس خلال المياه الغربية بصفة مستمرة استعداداً لرد أولئك الغزاة الخطرين ، مذ فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة أيام عبد الرحمن . ووصلت بعض سفن النورمانيين جنوباً حتى تجاه مدينة باجة ، وهنالك استطاعت السفن الأندلسية أن تقضى على طلائع الغزاة ، وأن تنتزع سفينتين من سفنهم المحملة بالغنائم والسبى ، بيد أنهم انقضوا على الشواطىء الجنوبية ، ووصلوا إلى مصب نهر الوادى الكبير ، ثم انحدروا جنوباً حتى مياه الجزيرة الخضراء .

وفى تلك الأثناء كانت القوات الأندلسية قد سارت إلى الغرب بقيادة الحاجب عيسى بن أبى الحسن بن أبى عبدة ، وهرع الناس إلى جيش الأمير من كل صوب ، وتقدم الأسطول بقيادة أميرى البحر حشحاش وابن شكوح ، وقد عبىء أحسن تعبئة ، وجهز بالأنفاط وفرق الرماة الكثيفة ، ورد الغزاة أولا عن إشبيلية بعد عدة معارك برية وبحرية . ثم نشبت بين الفريقين بعد ذلك معركة بحرية شديدة تجاه شاطئ شذونة ، وغنم المسلمون فى البداية مركبين آخرين ، ولكن السفن النورمانية تكاثرت على جناح الأسطول الذى يقوده حشحاش ، وغلبت عليه ، وقتل أمير البحر المسلم فوق سفينته ، ثم انحدر النورمانيون صوب الجزيرة الخضراء واقتحموها ، وأحرقوا مسجدها الجامع ، وعاثوا فيها سفكاً ونهباً ، وسارت

---

(١) Dozy : Hist, V. I. p. 361—362

بعض سفنهم إلى شواطئ العدوة (عدوة المغرب) وعاثت فيها ، ثم نزلوا بشاطئ الأندلس الجنوبى ، وسارت سفنهم قبالتهم على ساحل تدمير حتى أوريولة ، فدخلوها ، وعاثوا فى تلك الأنحاء نهباً وسبياً ، واشتبكوا مع القوات الأندلسية فى عدة معارك برية وبحرية عنيفة ، حطمت فيها بعض سفنهم ، وقتل كثير من المسلمين ، واستمر عيث النورمانيين على هذا النحو أشهراً حتى خبت فورتهم ، وفقدوا كثيراً من سفنهم . فارتدوا نحو الشمال على طول شواطىءاسبانيا الشرقية ، ونفذت منهم قوة خلال نهر إبره إلى ناڤار ، واقتحموا عاصمتها بنبلونة وأسروا ملكها غرسية ، ولم يطلقوه إلا لقاء فدية كبيرة ، وأغارت قوات أخرى منهم على الجزائر الشرقية وشواطئ پروڤانس حيث عبروا مصب الرون ، وخربوا آرل ونيمة وڤالانس .

وهكذا لم تكن الغزوة النورمانية فى هذه المرة مفاجأة مثلما كانت الغزوة الأولى ، ولم يكن عيث الغزاة على نفس النطاق الواسع . وهذا ما يسجله لنا ابن حيان فى ختام حديثه عنها ، إذ يقول : « فلم يكن لهم فى هذه الكرّة الإنبساط فى البحر ، والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا فى السواحل مطمعاً لشدة ضبطها ، ولاقوا مع ذلك من البحر هولا عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس ، واعتلوا إلى جهة الفرنجة ، فلم يلقوا ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدتهم بالخيبة ، فلم تكن لهم بعد بالأندلس إلى اليوم عودة »[(١)] .

وفى العام التالى أعنى سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) بعث محمد حملة إلى الولايات الشمالية بقيادة حاكم طرطوشة . ويقول لنا ابن حيان إن الأمير محمد هو الذى غزا بالصائفة بنفسه فى تلك السنة . وكان غرسية ملك ناڤار ، قد تحالف عقب انطلاقه من أسر النورمان مع أردونيو ملك ليون ، وأغارت قواتهما المتحالفة على الأراضى الإسلامية . وعلى أى حال فقد زحفت القوات الأندلسية على ناڤار ، ولم تكن قد

---

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الغزوة النورمانية الثانية لشواطىء الأندلس ، فيضعه الرازى فى سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) . ويتابعه فى ذلك ابن الأثير وابن عذارى . ويضعها هشام ابن معاوية الشبينسى فى سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، وقد أخذنا بالرواية الأولى لأنها أرجح وأكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . راجع فى تفاصيل الغزوة ، ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٦٣ أ و ب و ٢٦٤ أ ، والعذرى فى « الأوراق المنثورة من ترصيع الأخبار » ص ١١٨ و ١١٩ ، وابن الأثير ج ٧ ص ٢٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ .

أفاقت بعد من ضربة النورمانيين ، وغزت بنبلونة وخربت حصونها . ولم تقو جموع غرسية على رد المسلمين ، واستمر المسلمون بضعة أسابيع يخربون بسائط ناڤار وينتسفون قراها وحصونها ، وكان من بين الأسرى فرتون ولد غرسية ، فأخذ إلى قرطبة حيث اعتقل زهاء عشرين عاماً(١) .

وفى صيف سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) سارت حملة أندلسية أخرى إلى ألبة والقلاع . وكان موسى بن موسى قد طلب إلى محمد أن يكون طريق الحملات الغازية عن غير منطقته ، نظراً لما يتجشمه فى مقارعة النصارى من جهد ، وما يصيب أراضيه من الدمار ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وسارت الحملة من طريق آخر ، وعاثت فى أراضى النصارى .

وكان موسى بن موسى بن قسىّ يومئذ ، قد بسط نفوذه على بسائط قواعد الثغر الأعلى ، وأصبح سيداً لتطيلة ووشقة وسرقسطة وأحوازها . وكان هذا الزعيم القوى الذى يرجع حسبما أسلفنا إلى أصل نصرانى ، وله مصاهرة وقرابة مع الأمراء النصارى ، ينتهز كل فرصة لتدعيم استقلاله ، وكان يتشح بلقب الإمارة ، ولم يكن يدين لحكومة قرطبة إلا بنوع من الولاء الإسمى . وكانت علائقه مع أردونيو ملك ليون جاره من الغرب ، تتردد بين الخصومة والتحالف وفقاً للظروف . وكان أردونيو ينظر إلى اتساع ولايته من ناحية الغرب بعين القلق ، وموسى من جانبه يحرص على تحصين قواعده وحدوده ؛ ففى سنة ٢٤٨هـ (٨٦٢م) سار موسى فى قواته إلى الغرب لتحصين قواعده الغربية ومعه صهره غرسية أمير ناڤار ؛ وحاول أردونيو من جانبه أن يحبط هذه الحركة ، فهاجم بعض الحصون التابعة لموسى وفى مقدمتها حصن « البلدة » الواقع على نهر إبره على مقربة من قلهرّة ، ونشبت بين الفريقين معركة جرح فيها موسى جراحاً خطيرة ، وهزمت قواته وقتل منها عدد كبير من المسلمين والنصارى ، وقتل صهره غرسية ، وهدم أردونيو حصن البلدة وغيره من الحصون التى تحمى أراضى ابن قسى ، ولم يمض سوى قليل حتى توفى موسى نفسه متأثراً بجراحه ، وكانت وفاته نذيراً بتطور الحوادث فى الثغر الأعلى .

وذلك أن موسى بن موسى كان بالرغم من استقلاله عن حكومة قرطبة ،

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ و ١٠٠ ، ومخطوط القرويين اللوحة ٢٦٣ أ .

يقف بقواعده وقواته فى الشمال الشرقى ، سداً منيعاً فى وجه النصارى . فلما توفى أعلن ولده لب خضوعه لأردونيو ملك ليون ، وتحالف معه ضد المسلمين ، وزحف على وادى الحجارة يبغى الاستيلاء عليها ، فرده عنها حاكمها ابن سالم . وأصابته خلال المعركة جراح توفى منها وهو فى طريق العودة إلى تطيلة ، وحل أخوته الثلاثة إسماعيل ومطرف وفرتون مكان أبيهم فى حكم القواعد الشمالية . وهنا رأت حكومة قرطبة أن تضاعف أهباتها لرد النصارى عن الولايات الشمالية . ففى صيف سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م) سار عبد الرحمن ابن الأمير محمد على رأس حملة كبيرة إلى ألبة والقلاع ، ومعه القائد عبد الملك بن العباس القرشى ، فجاس خلالها وخرب بسائطها . واشتبك النصارى بقيادة ملكهم أردونيو مع المسلمين فى معركة عنيفة ، وهزموا على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل عدة من قوادهم[١] . ولم يمض عامان حتى سير محمد ولده عبد الرحمن مرة أخرى ، إلى غزو ألبة والقلاع (٢٥١ هـ — ٨٦٥ م) . ويقول لنا ابن حيان إن الذى كان على رأس هذه الغزوة هو المنذر بن عبد الرحمن ، وكانت قيادة الجيش للحاجب عيسى بن الحسن بن أبى عبدة . وعلى أى حال فقد سار المسلمون بحذاء نهر إبره ، واستولوا على معظم حصون أكابر النبلاء والسادة فى تلك المنطقة . وحاول أردرنيو كعادته أن يعترض سبيل المسلمين عند العودة ، وقد كمن لهم فى موضع يسمى «بفج المركور» على مقربة من نهر إبره ، أفرغ جهده فى تحصينه ، فنشبت بينه وبين المسلمين على ضفاف النهر معركة شديدة ، كانت الدائرة فيها على النصارى ، فقتل وأسر منهم عدد كبير وغرق الكثير منهم فى النهر ، ومزقوا كل ممزق[٢] . وفى العام التالى سارت حملة أخرى إلى الشمال بقيادة الحكم بن محمد ، فعاث فى أرض النصارى ، و استولى على بعض الحصون . وكانت هذه الغزوات المتوالية قد هدت من قوى النصارى ، ومزقت شملهم وخربت بلادهم ، فركنوا إلى السكينة ، وتوفى ملكهم أردونيو فى الوقت نفسه (٨٦٦ م) فخلفه ولده ألفونسو الثالث الذى لقب فيما بعد بألفونسو الكبير .

— ٢ —

كان حرياً بعد أن هدأت ثائرة النصارى فى الشمال ، أن تتمتع حكومة قرطبة

(١) ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٦٥ أ

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٢ . ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٥ ب .

بفترة من السلام والدعة . ولكن الخطر كان يجثم فى ناحية أخرى. ذلك أن عوامل الانتقاض والثورة كانت تجتمع من جديد فى شمال غربى الأندلس ، فى المناطق الجبلية التى ألفت الثورة واتخذتها شعاراً لها . ولم تكن حكومة قرطبة بغافلة عن هذه النذر . وكانت ماردة وبها عدد من زعماء المولدين المتمردين ، فى مقدمة القواعد التى يشك فى ولائها وطاعتها . ففى سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨ م) خرج الأمير محمد على رأس جنده من قرطبة ، متظاهراً بالسير إلى طليطلة ، ولكنه عرج فى منتصف الطريق فجأة على طريق ماردة ، ودهمها قبل أن تستعد للقائه ، فتحصن بها أهلها . ثم اقتحمها محمد ، ووقع بين الفريقين قتال عنيف انتهى بسحق الثوار وإذعان المدينة ، وطلب الزعماء الثائرون الأمان وفى مقدمتهم عبد الرحمن بن مروان الجليقى، وابن شاكر ، ومكحول ، وغيرهم ، وهم من أكابر الفرسان والسادة ، فنقلهم الأمير بأموالهم وأهلهم إلى قرطبة ، وولى على ماردة سعيداً بن عباس القرشى ، وهدم حصونها وأسوارها(١) .

وكانت الحوادث تتطور فى الثغر الأعلى فى نفس الوقت تطوراً خطيراً . وكان الأمير محمد قد استطاع عقب وفاة موسى بن موسى أن يسترد سلطانه فى تلك الأنحاء ، وأن ينتزع القواعد الشمالية من أبنائه ، ويعين لها حكاماً من قبله . وكان بنو موسى أو بنو قسىّ ، نسبة إلى جدهم الأعلى الكونت قسىّ القوطى ، يرجعون كما أسلفنا إلى أصل نصرانى ، وكانت هذه الأسرة المتمردة الشديدة المراس ، كباقى الأسر القوية المولدة ، تبغض حكومة قرطبة، وتميل إلى مناوأتها والتحالف ضدها مع النصارى ، وكان بنو قسى أصهاراً لملك نافار النصرانى ، حيث كان غرسية زوجاً لابنة موسى المسماة « أوْرِية » Oria ، فلما توفى موسى وانتزعت حكومة قرطبة قواعده من يد بنيه ، لجأ هؤلاء حيناً إلى حماية ملك ليون ، حتى تسنح لهم فرصة العمل ومعاودة الجهاد . على أن حكومة قرطبة لم تلق فى حكامها الذين اختارتهم للقواعد الشمالية ما كانت تؤمل من ولاء وإخلاص . ففى سنة ٢٥٥هـ (٨٦٩ م) ثار سليمان بن عبدوس فى مدينة سُرية وهى من أعمال سرقسطة ، فسار إليه الحكم بن الأمير محمد ، وحاصر سرية وهدم أسوارها بالمجانيق ، وأرغم الثائر على الخضوع والطاعة ، وبعث به إلى قرطبة . وفى العام التالى (٢٥٦ هـ)

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٨ أ .

ثار عمروس بن عمر بن عمروس أحد زعماء الثغر ، وغدر بموسى بن غلند عامل وشقه وانتزعها منه . وعمروس هذا هو حفيد عمروس بن يوسف بطل واقعة الحفرة بطليطلة ، وقد كان بنو عمروس مثل بنى قسى مولدين من أصل نصرانى ، لا يشعرون بأى ولاء حقيقى لحكومة قرطبة . فسير عامل الثغر عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث الجند لمقاتلة الثائر ، فلما انتهت إلى وشقة فر عنها عمروس ، وأسر بها حفيده لب بن زكريا بن عمروس ، وقتل وعلق رأسه على سور المدينة . وفى سنة ٢٥٧ ﻫ (٨٧١ م) أرسل محمد حملة جديدة إلى الثغر الأعلى بقيادة عبد الغافر بن عبد العزيز ، فطارد فلول عمروس ، وقبض على ولده زكريا وأبنائه وجماعة من أهله ، وقتلهم على باب مدينة سرقسطة ، وقفل إلى قرطبة ورؤوسهم مرفوعة بين يديه[١] ، ولاح أن الثورة قد أخمدت فى الشمال

ولكن الواقع أن الثورة عادت لتضطرم فى الشمال بأقصى شدتها . ذلك أن القوات الأندلسية ما كادت تعود إلى قرطبة حتى ظهر بنوقسى فى الميدان مرة أخرى ، وزحف مطرف وأخوه إسماعيل ابنا موسى بن موسى على تطيلة ، فانتزعاها من حاكمها عبد الوهاب بن مغيث ، كما انتزعا سرقسطة من ولده محمد ابن عبد الوهاب ؛ وملك مطرف تطيلة فى صفر سنة ٢٥٨ ﻫ (٨٧١ م) ، وملك إسماعيل سرقسطة فى ربيع الأول من نفس العام . وهنا عول محمد على أن يخرج إلى الثوار بنفسه . فسار فى العام التالى على رأس جيشه (٢٥٩ ﻫ — ٨٧٢ م) وعرج فى طريقه على طليطلة ، حيث عقد لأهلها الأمان وأخذ الرهائن . ثم سار إلى الثغر الأعلى ، وزحف تواً على تطيلة واستولى عليها . وقبض فيها على مطرف ابن موسى وأبنائه . وفى رواية أخرى أن مطرفاً كان قد ملك وشقة إلى جانب تطيلة واستقر بها ، وأن عمروساً صاحب وشقه السابق استطاع أن يؤلب أهلها على مطرف ، وانتهى بأن انتزعها منه ، وقبض عليه وعلى ولده وزوجته وهى بنت غرسية ملك نافار وتزوجها . فلما قدم الأمير فى جيشه سارع عمروس بإعلان طاعته ، والتمس الأمان ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وأقره على ولاية وشقة وأعمالها ، وتسلم منه مطرفاً وأولاده[٢] . واتجه الأمير بعد ذلك إلى نافار فخرب

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٩ أ .

(٢) هذه هى رواية عيسى بن أحمد الرازى ، نقلها إلينا ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٧٠ ب .

بسائطها، ثم عاد إلى قرطبة وأمر بقتل الثائر مطرِّف وبنيه الثلاثة : ورفعت رؤوسهم على باب القصر. وفى العام التالى (٢٦٠ هـ) سير محمد إلى الشمال مع ولده المنذر جيشاً بقيادة هاشم بن عبد العزيز . فزحف المنذر إلى سرقسطة وعاث فى نواحيها ، وانتسف أشجارها وزروعها ، وجعلها قاعاً صفصفاً ، ولكنه لم يستطع انتزاعها من يد المتغلب عليها اسماعيل بن موسى . وكان أخوه فُرتون قد حل فى تطيلة مكان أخيه مطرف ، وتحالف الثائران مع ألفونسو الثالث ملك ليون ، فسار المنذر إلى وشقة ، ثم إلى بنبلونة عاصمة ناقار ، وعاث فى تلك الأنحاء ، ولكن جهوده لم تسفر عن أية نتائج مستقرة[١] .

وشغلت حوادث الشمال وثورة بنى موسى حكومة قرطبة أعواماً طويلة . فى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) سار المنذر مرة أخرى إلى الثغر الأعلى ، وعاث فى بسائط سرقسطة وتطيلة ، ولكنه لم يظفر بالاستيلاء عليهما . ثم زحف على بنباونة ، فخرب بسائطها ، وأتلف زرعها ، وقتل كثيراً من أهلها . وفى العام التالى (٢٦٥ هـ) ، عاد المنذر إلى غزو الثغر الأعلى ، وحاصر مدينة سرقسطة وسائر بلاد بنى قسىّ ، وعاث فيها إتلافاً وتخريباً . ومع ذلك فقد لبث الشمال بعيداً عن سلطان قرطبة بضعة أعوام أخرى . وكانت جنبات الأندلس الأخرى تضطرم فى الوقت نفسه بسلسلة من الثورات المدمرة حسبما نفصل بعد ، ولكن حكومة قرطبة كانت تعلق على قواعد الثغر الأعلى أهمية خاصة ، لوقوعها على حدود الممالك النصرانية . ففى سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢ م) سير الأمير محمد ولده المنذر إلى الشمال على رأس جيش ضخم ، ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز . وكان المنذر قائداً مجرباً ذا شجاعة وبأس ، وكان يعتزم هذه المرة أن يسحق الثورة وزعماءها فى الشمال . فزحف تواً على سرقسطة ، ولما لم ينجح فى اقتحامها ، تحول إلى الحصون الواقعة حولها فخربها واستولى عليها ، وافتتح حصن روطة أمنع حصونها وأسر به عبد الواحد الروطى « أشجع أهل عصره »[٢] ثم استولى على لاردة وما حولها من الأنحاء ، وانضم إليه محمد بن لب بن موسى ، وكان ساخطاً على عميه لاستئثارهما دونه بالسلطان . ولما رأى إسماعيل بن موسى صاحب سرقسطة

---

(١) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ أ .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ . وفى رواية أخرى أن هاشم بن عبد العزيز اشترى حصن روطة من صاحبه عبد الواحد ولم يفتتحه (العذرى فى كتاب « ترصيع الأخبار » ص ٣٥) .

عبث المقاومة ، أعلن خضوعه وطاعته للأمير وقدم رهائنه . وزحف المنذر بعد ذلك على ألبة واخترقها إلى قشتالة (القلاع) ، وتأهب النصارى للقائه بقيادة ملكهم ألفونسو الثالث . ولكن جرت مفاوضة بين الفريقين انتهت بعقد الهدنة ، وعاد المنذر إلى قرطبة ظافراً .

وما كاد المنذر يرتد إلى قرطبة ، حتى نشب الخلاف بين إسماعيل بن موسى وابن أخيه محمد بن لب ، وكان إسماعيل يحقد عليه لتحالفه مع المنذر . وانتهى القتال بينهما إلى انتصار محمد بن لب ، واستيلائه على سرقسطة ، وأسره لعمه إسماعيل . وحكم محمد سرقسطة باسم الأمير محمد . ولكن الأمير أراد أن ينتزع ولايتها منه ، فسخط عليه وأعلن خروجه عن طاعته ، وتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون . فبادر الأمير محمد بإرسال قواته مرة أخرى بقيادة ولده المنذر وهاشم بن عبد العزيز ، إلى الثغر الأعلى (٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م) . فسار المنذر إلى سرقسطة واستولى عليها بعد قتال عنيف ، وأخرج منها محمد بن اب . وفى رواية أخرى أن محمداً بن لب سلم سرقسطة صلحاً وفقاً لاتفاق تم بينه وبين المنذر نظير قدر كبير من المال[1] . وكان من ضباط جيش الأمير فى تلك الغزوة عمر بن حفصون الزعيم الخارج الذى سيجىء ذكره فيما بعد . ثم اخترق المنذر ألبة لمقاتلة النصارى حلفاء الثائر . ولكن المفاوضات انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين . وأرسل ألفونسو الثالث سفيراً إلى قرطبة هو القس دولثديو ليضع قواعد الصلح مع أمير الأندلس ، فنجح السفير فى مهمته وعاد إلى أوبييدو عاصمة ليون ، ومعه رفات القس أولوخيو وصاحبته ليوكريسيا ، وهما اللذان أعدما بقرطبة قبل ذلك بنحو عشرين عاماً ، ونظمهما النصارى فى سلك القديسين .

ولنترك الآن حوادث الثغر الأعلى لحظة لنستعرض ما حدث خلال هذه الأعوام المليئة بالفتنة فى أنحاء الأندلس الأخرى . فى ماردة وبطليوس عادت الثورة إلى الاضطرام . وذلك أن عبد الرحمن بن مروان الملقب بالجليقى — لانتمائه

(١) نقل إلينا هذه الرواية العذرى فى كتابه « ترصيع الأخبار » وفيها أن محمداً بن لب تقاضى نظير تسليمه سرقسطة خمسة عشر ألف دينار . وكان ذلك فى سنة ٢٦١ هـ . (الأوراق المنشورة من الكتاب المذكور ص ٣٥) . هذا وقد أورد لنا العذرى تفاصيل كثيرة عن موسى بن موسى بن قسى وأولاده وأحفاده ، وثوراتهم ، وما خاضوه من الوقائع المختلفة فى الثغر الأعلى زهاء نصف قرن (الأوراق المذكورة ص ٢٩ — ٤٠) .

إلى أسرة من المولدين أصلها من ولاية جليقية فى شمال البرتغال — استطاع أن يفر من قرطبة مع نفر من صحبه . وكان بنو الجليقى قد استقروا بماردة منذ أمد طويل ، وتولى أبوه مروان بن يونس الجليقى حكم ماردة أيام الأمير عبدالرحمن، فلما اضطرمت الثورة بماردة قتله أهلها (سنة ٢١٣ هـ) . وكان ولده عبد الرحمن طموحاً لا يشعر بالولاء نحو حكومة قرطبة ، فانتظم فى سلك الخوارج ، واشترك فى الثورة ضد الأمير محمد . فلما أخمدت الثورة وتم إخضاع ماردة فى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) قبض الأمير على عبد الرحمن الجليقى ونقله مع باقى الزعماء الثائرين إلى قرطبة حسبما تقدم . وكان فرار الجليقى من قرطبة فى أوائل سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) على أثر مشادة وقعت بينه وبين القائد هاشم بن عبدالعزيز كبير الوزراء أهانه خلالها وصفعه ؛ فغادر قرطبة خفية مع جمع من أنصاره ، واستولى على قلعة ألانية (أو قلعة الحنش)(١) فى جنوبى ماردة وتحصن بها ؛ واستولى زميله فى الخروج والعصيان مكحول ابن عمر على قلعة جلمانية(٢) القريبة منها . واجتمع إليهما جمع غفير من المارقين والمتمردين ، واشتدعيثهما فى سائر الأنحاء المجاورة . وعندئذ سار الأمير لقتال الثائرين فى قوة كبيرة . فلما علما بمقدمه استغاثا بزميلهما القديم سعدون بن عامر المعروف بالسرنباقى ، وهو أيضاً من زعماء الثوار المولدين ، وكان يعيش فى كنف ألفونسو الثالث ملك ليون فى مدينة برتقال جنوبى جليقية ، فسار إليهما فى قوة من صحبه ، وانضم إلى قوات ابن مكحول . فضرب الأمير الحصار حول القلاع الثائرة ، وقطع عنها الماء ، واشتد فى ذلك ، وجنده ترهق المحصورين كلما طلبوا الحصول على الماء والمؤن خارج الأسوار . فلما ضاقوا بالحصار ذرعاً ، اضطر عبد الرحمن الجليقى أن يستجير بعبد الله ولد الأمير ، وأن يوسطه فى الشفاعة والإذعان إلى طلب الأمان . وكان عبد الله لين العريكة محباً للسلم ، فتوسط لدى والده الأمير ، وألح حتى أسعفه بما طلب ، ووافق على منح الأمان للثائر ، على أن ينزل له عن قلعة الحنش ، وينصرف وقومه إلى بطليوس ، وكانت يومئذ خالية مجردة من الحصون فينزلون بها ، ويقومون بتعميرها . فقدم ابن مروان رهائنه وهم ولده محمد وثلاثون من أكابر قومه ، وسار إلى بطليوس وصحبه ، ونزلها وأخذ فى تعميرها

---

(١) هى بالإسبانية **Alange** .

(٢) هى بالإسبانية **Jurumena** ، وهى تقع على مقربة من غربى بطليوس .

وماكاد الأمير يرتد أدراجه إلى قرطبة ، حتى حشد ابن مروان أنصاره من كل ناحية ومعظمهم من أهل الشر والمولدين الناقمين ، وأخذ فى تحصين بطليوس ، وإعدادها للدفاع والمقاومة ، وبعث جواسيسه إلى قرطبة ، يتعرفون أخبار الأمير ويترصدون حركاته ، ويبعثون بها إليه تباعاً . ثم عقد حلفاً مع ألفونسو الثالث ملك ليون . وكان يدعو أنصاره إلى مذهب دينى جديد هو خليط من تعاليم الإسلام والنصرانية . واستمر على هذا النحو زهاء عام آخر ، وهو يغير على الأنحاء المجاورة ويرهق أهلها ، ويستلب أموالهم ومتاعهم .

فلما اشتد عيثه ، وضج المسلمون فى تلك الأنحاء من شره وعدوانه ، وجاهر هو من جانبه بالعصيان وخلع الطاعة ، اعتزم الأمير محمد أن يعاقبه ويقمع شره بطريقة حاسمة ، فجهز إليه حملة كبيرة برياسة ولده المنذر ، وجعل قيادتها لوزيره الأثير هاشم بن عبد العزيز . وسارت هذه الحملة صوب بطليوس فى شهر شعبان سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٦ م) ، فلما علم ابن مروان بمقدم جند الأمير ، وشعر بصعوبة الدفاع عن بطليوس لاتساعها ، غادرها مع قواته ، وانضم إليه كثير من المولدين من الأنحاء المجاورة ممن خشوا بطش قوات الأمير بهم ، ونزل بحصن كركى أو كركو القريب وامتنع به ، وبعث إلى سعدون السرنباقى فى طلب النجدة . وسار المنذر وهاشم إلى بطليوس ، فألفياها خالية ، فسارا فى أثره ، واحتل هاشم حصن منت سلود (منت شلوط) الواقع جنوبى بطليوس خوفاً من أن يحتله الثوار ، وضرب المنذر الحصار حول حصن كركى . وفى تلك الأثناء قدم سعدون السرنباقى فى صحبه ، ومعه قوة كبيرة من النصارى أمده بها ملك ليون ، واشتبك فى طريقه بمدينة قُلُمرية بحاميتها ، وهم قوم من البربر من بنى دانس من مصمودة ، وفتك بهم ، وكانوا على الطاعة ، فبعثوا إلى هاشم بن عبد العزيز يستغيثون به . ووقف هاشم من طلائعه على مقدم سعدون وقواته ، وما فعله بأهل قلمرية ، فخرج إلى لقائه متحمساً تواقاً إلى الانتقام ، وكان سعدون قائداً مجرباً وافر الجرأة ، وكانت لديه فرق مختارة من الفرسان والرماة ، فرتب معظم قواته وراء التلال ، وتقدم للقاء قوات هاشم ، واعتقد هاشم أنه يستطيع سحق الثوار بأيسر أمر ، والتقى الفريقان فى مخاضة النهر جنوبى بطليوس ، وفاجأت خيل سعدون قوات الأندلس وأرهقتها ، وكثر فيها القتل ، وتقدم هاشم بن عبد العزيز إلى المعمعة ،

بعيداً عن مركز قيادته ، فأصابته جراح ، وأحاطت به فرسان العدو ، وكادت تجهز عليه ، لولا أن عرفه بعضهم ، فقبض عليه ، وحمله معه سعدون أسيراً إلى حصن منت سلود ، وكانت قوات الأمير قد غادرته . وكانت هزيمة قوات الأندلس ، وأسر قائدهم على هذا النحو ، فى الثانى عشر من شهر شوال سنة ٢٦٢ هـ (يونيه سنة ٨٧٦ م) . ولما علم المنذر بن محمد بما وقع لجنده من الهزيمة وأسر هاشم ، وكان مقيماً على حصار الجليقى ، شدد فى الحصار أياماً أخر ، ثم انصرف قافلا ببقية الجيش إلى قرطبة . وسار الجليقى وسعدون ومعهما أسيرهما القائد هاشم غرباً ، وهما يعيثان فساداً فى الأرض . وحصل الجليقى أولا على هاشم ، وكان يؤمل أن يتخذه أداة للمساومة مع الأمير ، ولكن سعدون استرده منه فيما بعد ، خوفاً من غضب سيده وحاميه ملك ليون ، وتوجه به سعدون بالفعل إلى ألفونسو الثالث ، فتسلمه وحصل فى يده ، واستمر أسيراً لديه بمدينة أوبييدو زهاء عامين ، حتى تم الإفراج عنه لقاء فدية كبيرة بلغت مائة وخمسين ألف دينار (١) .

واستمر ابن مروان أعواماً وهو يسيطر على منطقة بطليوس ، ويعيث فى أنحائها فساداً ، ويخرج منها للإغارة على ناحية الغرب حتى أشبونة ، وجنوباً حتى باجة وأطراف أكشونبة ، ثم أن بعض أصحابه اختلفوا معه ، وغادروه إلى بلدهم ماردة بعد أن حصلوا على أمان من الأمير . ولما شعر بقلة جمعه ، وخشى مطاردة الأمير وانتقامه ، عول على أن يحذو حذو صاحبه سعدون فى الالتجاء إلى ملك جليقية ، فقبل الملك النصرانى ملتمسه ، وأنزله مع صحبه فى حصن بطرسة بوادى دويره على مقربة من ليون ، ولبث فى كنفه أعواماً . ثم دب الخلاف بينهما بسبب غارة قام بها ملك جليقية فى منطقة بطليوس ومعه ابن مروان ، وفيها بالغ الملك النصرانى فى قتل المسلمين ، ومعظمهم من أصحاب ابن مروان ورعاياه السابقين (سنة ٢٦٦ هـ — ٨٧٩ م) . فغادره ابن مروان مغضباً ، وعاد إلى منطقة بطليوس ، ليستأنف غاراته وعيثه فى أراضى النواحى المجاورة . وفى سنة ٢٧١ هـ (٨٨٥ م) سير إليه الأمير محمد ولده المنذر فى قوة كبيرة ، فزحف على بطليوس ، ففر منها

---

(١) لخصنا ما تقدم من رواية عيسى بن أحمد الرازى المسهبة التى نقلها إلينا ابن حيان ؛ وقد وردت فى مخطوط القرويين فى اللوحات ٢٦٧ أ و ب و ٢٧٣ أ و ب و ٢٧٤ أ و ب ، و ٢٧٦ ب و ٢٧٧ أ حتى ٢٨٠ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٤ و ١٠٥ .

ابن مروان وتحصن بجبل « أشبروغيره »[١] فأحرق المنذر بطليوس ودمر حصونها . وفى العام التالى سارت حملة أخرى بقيادة الوزير هاشم إلى « أشبروغيره » لقتال ابن مروان ، فحاصره حيناً ثم ارتد عنه دون إخضاعه . ولما أعيا الأمير أمره ، انتهى أخيراً إلى قبول شروطه فى الاستقلال بحكم بطليوس وما جاورها ، والإعفاء من المغارم والفروض[٢] .

ووقعت فى ذلك الحين ثورات محلية أخرى ، فخرج فى شنت برية[٣] مظفر ابن موسى بن ذى النون وزحف على طليطلة ، فلقيه جندها فهزمهم ، وقوى أمره فى تلك الجهة ، وأضاف إلى شنتبرية ما حولها من البلاد والحصون .

ويرجع ظهور بنى ذى النون ، وهم سادة مملكة طليطلة أيام الطوائف ، إلى ذلك العهد . وخلاصة ما تقدمه إلينا الرواية فى ذلك ، هو أن جدهم ذا النون (أو زنون) بن سليمان الهوارى ، كان زعيماً لشنت برية من أعمال قونقة ، ومر به الأمير محمد فى بعض غزواته إلى الثغر ، وقد مرض له خصى من أكابر فتيانه ، فتركه عند ذى النون حتى يحدث الله فيه أمره . فاعتنى به ذو النون حتى برئ من علته ، وصحبه بنفسه إلى الأمير بقرطبة ، فكافأه الأمير بأن أقره على ناحيته . واستقام ذو النون على الطاعة حتى توفى ، وخلفه ولده موسى ، فنبذ الطاعة ، وانتظم فى سلك الخوارج ؛ ولما توفى سار ولده مظفر على خطته ، وأضحى بنو ذو النون من زعماء الفتنة فى الثغر الأوسط[٤] . وخرج أسد بن الحرث بجهة رندة[٥] وأخذ ضرام الفتنة ينساب إلى كل ناحية ، ونشط النصارى فى الشمال ، يتربصون لإذكاء الفتنة ، وانتهاز الفرصة السانحة للإغارة على الأراضى الإسلامية .

وانبعثت من هذا الضرام شرارة فى الجبال الجنوبية ، قدر لها أن تستفحل بسرعة ، وأن تغدو أخطر ما يهدد سلام الأندلس وعرش بنى أمية . فى جبل بُبَشتر[٦] ، فيما بين رندة ومالقه ، ظهر عمر بن حفصون أعظم ثوار الأندلس ،

---

(١) واسمه بالإسبانية **Esparragosa** . وهو يقع بين نهر وادى يانة وجبال المعدن .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٥ و١٠٦ و١٠٨ . وراجع **Dozy : Hist.; V. II p. 8-11**

(٣) وهى بالإسبانية **Santaver** وهى تقع جنوب شرق وادى الحجارة . وهى غير شنتمرية الشرق .

(٤) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ ب .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ .

(٦) وبالإسبانية **Bobastro**

وأشدهم مراساً ، وأخطرهم جانباً . وكانت سلسلة الجبال الواقعة بين رندة ومالقة مأوى الأشقياء والعصاة . وكان عمر سليل أسرة من المولدين ترجع إلى أصل نصرانى قوطى . وقد سجلت لنا الرواية الأندلسية نسبته ، فجده عند الفتح هو ألفونسو القس ، وجده الرابع جعفر هو أول من اعتنق الإسلام من أسرته[1]. ونشأ بيتهم فى تاكرنّا من أعمال رندة . وكان والده حفصون ذا مال ووجاهة . ونشأ ولده عمر فاسداً سيئ السيرة ، عنيفاً يعتدى على النفس والمال ، ولم يلبث أن هجر أسرته وأطلق العنان لأهوائه وغيه ، والتف حوله جماعة من أهل الفساد والبغى ، فألف منهم عصابة معتدية ناهبة ، ونزل بمكان منيع بجبل بُبَشتر الواقع شمال شرقى جبال رندة ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٧ هـ (٨٨٠ م) . وقد وصف لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس ابن حفصون عند ذكر الخوارج فى تلك العبارة الجامعة : « إمامهم وقدوتهم عمر بن حفصون ، أعلاهم ذكراً فى الباطل ، وأضخمهم بصيرة فى الخلاف ، وأشدهم سلطاناً ، وأعظمهم كيداً ، وأبعدهم قوة »[2] .

ويشرح لنا الرازى البواعث الأولى لهذه الفتنة التى اضطرمت فى كورة ريُّه والجزيرة ، فيقول لنا إن السبب فى تحريكها يرجع إلى عنف يحيى بن عبد الله ابن يحيى عامل الأمير محمد فى كورة ريه ، فى مطالبته لأهلها ببقايا عشور تأخرت عليهم ، واشتطاطه فى ذلك وإرهاقهم ، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم ، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم ، فحشد يحيى بن عبد الله قواته لقتالهم ، واستدعى أخاه أحمد ابن عبد الله عامل كورة الجزيرة بقواته لمعاونته فى حربهم ، ونشبت بين قوات الأمير وبين الخوارج معارك عنيفة قتل فيها كثير من الفريقين ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) . وفى العام التالى سار بالصائفة إلى كورة ريه عبدالله ابن الأمير محمد ، وعلى قيادة الجيش الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكان قد أطلق سراحه من الأسر ، وعاد إلى سابق مكانته لدى الأمير محمد ، واستأنف القيادة لأول مرة ، فاشتد فى مطاردة الخوارج ، ومزق جموعهم ، وأنشأ عدة

---

(١) قال ابن خلدون عن ابن حيان إنه عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش ابن أدفونش القس (ج ٤ ص ١٣٤) . وزاد عليها صاحب البيان المغرب اسما آخر (ج ٢ ص١٠٨) .

(٢) ابن حيان فى المقتبس ، وهو السفر الثالث المطبوع بعناية المستشرق الأب ملشيور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) ص ٩ .

من الحصون لمدافعتهم ، ولكن الفتنة لم تقمع ، وظلت سحب الخروج والعصيان قائمة ، وعمت الفوضى كورة ريه بأسرها .

فى هذا الأفق المضطرم ظهر ابن حفصون ؛ وكانت حوادث ريه مقدمة هذه الفتنة الهائلة التى تزعمها فى جنوبى الأندلس ، والتى يصفها الرازى بأنها « طمت على جميع فتن الأندلس ، بعمومها وامتداد أيامها ، ودفع أهل الشرور منهم نحوها »[1]. وأخذ ابن حفصون ينتهز كل فرصة للإغارة على أطراف إقليم ريه ويوسعها تخريباً وسبياً ونهباً ، ثم يعتصم بأوكاره فى جبل ببشتر ، فلما اشتد عيثه وعدوانه، سار إليه عامل ريه، عامر بن عامر فى بعض قواته، فهزمه ابن حفصون وقوى بذلك أمره ، وهرع إلى لوائه كثير من أهل الشر والعصاة . وعزل الأمير عامل ريه المهزوم ، وبعث إليها بعامل جديد هو عبد العزيز بن عباس ، فسار إلى قتال ابن حفصون للمرة الثانية ، فامتنع الثائر بقلاعه ، ووقعت الهدنة بين الفريقين[2]. وعندئذ سير محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز إلى كورة ريه فى قوة كبيرة ، فشدد الحصار على ابن حفصون ، وجد فى أثر العصاة والخوارج ، وأسر الكثير منهم ، وما زال حتى أرغم ابن حفصون على التسليم مع سائر عصابته ، وحملهم جميعاً إلى قرطبة . فعفا محمد عن الثائر وضمه إلى جيشه ، لما آنسه من براعته وقوة مراسه . ولما سار المنذر إلى الثغر الأعلى سنة ٢٧٠ ﻫ (٨٨٣ م) لقتال محمد بن لب ، كان ابن حفصون من ضباط جيشه . بيد أنه لم يكن راضياً كل الرضى عن منصبه ، وكانت نفسه الوثابة تنزع دائماً إلى الخروج والعمل الحر ، فلم يلبث أن فر من جيش الأمير مع نفر من صحبه ، ولم يلبث أن عاد إلى معاقله فى ببشتر ، واستأنف ثورته ، ومن حوله جميع كبير من الخوارج والبغاة (٨٨٤ م) .

ولبث ابن حفصون مدى عامين يعيث فى هذه المنطقة فساداً ، ويبث من حوله الذعر والروع . وفى صيف سنة ٢٧٣ ﻫ (٨٨٦ م) ، خرج المنذر إلى كورة ريه لقتال ابن حفصون ، وبدأ الزحف على مدينة الحامّة فى شمال شرقى مالقة ، وفيها الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون ، فسارع ابن حفصون إلى إنجاد حليفه ، واجتمع الثائران بمدينة الحامة لمقاتلة جند الأمير ، فحاصر المنذر الحامة مدى

---

(١) ابن حيان عن عيسى بن أحمد الرازى . مخطوط القرويين لوحة ٢٨٣ أ و ب .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ .

شهرين ، ولما أشرفت موئن المدينة المحصورة على النفاد ، خرج ابن حفصون وحليفه فى جندهما ، واشتبكا مع جند الأمير فى معركة عنيفة ، هزم فيها الثوار وجرح ابن حفصون ، وارتد مع أصحابه ثانية إلى الحامة واستعصم بها . وبينما المنذر مقيم على حصار الحامة ، إذ جاءته الأنباء من قرطبة بوفاة أبيه الأمير محمد . وكانت وفاته فى ٢٩ صفر سنة ٢٧٣ ﻫ (أوائل أغسطس سنة ٨٨٦م) فارتد لفوره إلى قرطبة ، تاركاً الحامّة لمصيرها ، وتنفس ابن حفصون الصعداء ، وانتهز الفرصة السانحة للإغارة على معظم الحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على ريُّه ورندة وإستجّة وغيرها .

— ٣ —

كان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم من خيرة أمراء بنى أمية وأوفرهم ذكاء وفطنة(١). وقال الرازى : « ولمحمد فى سلطانه الآثار الجميلة ، والآيات الجزيلة ، والفتوح العظيمة ، والعناية بمصالح المسلمين ، والتهمم بثغورهم ، والضبط لأطرافهم ، والتوجيه لمصالحهم »(٢) ، وكان يرجو محمد أن يجرى على سنن أبيه من الإصلاح والإنشاء ، ولكن الحوادث سارت على غير ما يشتهى ، وسرت الفتنة إلى سائر أنحاء الأندلس ، واضطر أن ينفق حكمه الطويل فى غزوات متعاقبة وكفاح مستمر . وكان عليه أن يصون عرش بنى أمية ، وأن يحمى سلطان الدولة الإسلامية فى الأندلس من الانهيار . وكانت مهمة شاقة ، ولكنه أبدى فى الاضطلاع بها جلداً وبراعة ، فكانت الصوائف لغزو أرض النصارى ، والحملات التأديبية لقمع الثوار ، تتوالى دون كلل ، وذلك بالرغم مما كانت تنتهى إليه فى معظم الأحيان من النتائج السلبية . وكان الأمير محمد يعشق الجهاد والكفاح ، ويقود الجيش بنفسه كلما سنحت الفرص . وكان ولده المنذر ساعده الأيمن فى تلك المهمة الخطرة. واهتم محمد بأمر الجيش والأسطول ، وكان اهتمامه بتقوية الجيش ضرورة ، أملتها الظروف العصيبة التى كانت تجوزها المملكة يومئذ . وتلقى الأرقام التى يقدمها إلينا ابن حيان نقلا عن معاوية بن هشام ، عن عدد الفرسان الذين يحشدون فى مختلف الكور والمدن لغزوات الصوائف ، ضوءاً على مدى قوة الجيش الأندلسى

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٢٢ أ .

يومئذ ، وقد كانت هذه الأرقام ، تفرض على النواحي ، ويؤخذون بها غير منتقصين لها ، إلا لعذر قاهر أو لحدب بين . ومن ذلك كورة إلبيرة (غرناطة) ألفان وتسعمائة ، وجيّان ألفان ومئتان ، وقبرة ألف وثمانمائة ، وباغة تسعمائة ، وتاكرنا ميتان وتسعة وستون ، والجزيرة مايتان وتسعون ، وإستجة ألف ومايتان ، وقرمونة مائة وخمسة وثمانون ، وشذونة ستة آلاف وسبعمائة وتسعون ، وريُّه ألفان وستّمائة وسبعة ، وشريش ثلاثمائة واثنان وأربعون ، وفحص البلوط اربعمائة ، ومورور ألف وأربعمائة وثلاثة ، وتدمير مايتان ... أما قرطبة العاصمة فكانت تترك لاجتهادها وهمّتها ، ويحشد أبناؤها بطريق التطوع خلافاً لأهل النواحى الأخرى. وكانت هذه الفرق تسمى بفرق الفرسان المستنفرين ويجرى « استنفارهم » أوقات الصوائف ، أو كلما بدرت من العدو حركة اعتداء على أهل الثغور . فاذا ذكرنا أن هذه الأرقام تتعلق بنواحي الأندلس فقط ، وإذا ذكرنا بعد ذلك حشود المشاة المستنفرة والمتطوعة ، استطعنا أن نقدر ضخامة الجيوش التى كانت الدولة الأندلسية تستطيع تعبئتها يومئذ(١) . وأما الأسطول فقد عمل محمد ، على إنشائه ، لحماية الشواطئ الغربية ولغزو مملكة جليقية من ناحية البحر . وفى سنة ٨٦٦م (٢٥٢ هـ) سارت السفن الأندلسية بالفعل إلى شواطئ جليقية بقيادة أمير البحر عبد الحميد بن مغيث ، ووصلت إلى مصب نهر منهو . ولكنه لم يوفق إلى تحقيق بغيته ، إذ عصفت الرياح بالسفن فتفرقت وغرق معظمها فى المياه الغربية(٢) .

وعنى محمد كذلك بتحصين أطراف الثغور ، وأقام عدة من المحلات والقلاع الدفاعية ، المنيعة فابتنى حصن شنت إشتيبن لحماية مدينة سالم ، وابتنى حصن طلمنكة وحصن مجريط بمنطقة وادى الحجارة ، للدفاع عن طليطلة ، وكان شديد الاستخبار عن الثغور ، والبحث فى مصالحها .

وبالرغم مما كان يقتضيه الجهاد المتواصل من النفقات الضخمة ، فقد كان الأمير محمد يبذل وسعه لتخفيف الضرائب عن كاهل شعبه ، وقد رفع عن أهل قرطبة ضريبة « الحشود » ، واكتفى بدعوتهم إلى التطوع والجهاد فى سبيل الله ،

---

(١) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٤ ب . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٦ ، و **Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien; B. I. s. 293.**

فأقبلوا على تعضيده وتأييده[1]. وأما عن العشور فقد أبدى محمد تشدداً فى اقتضائها وقد نصح له وزيره عبد الرحمن بن غانم صاحب المدينة ، بأن يسقط العشور متى عدمت الغلات ، لأن العشور إنما تفرض على الغلات إذا وهبها الله ، فإذا لم يزرع بذر ولم يستغل زرع وجب إسقاطها ، فلم يستمع إليه محمد فى البداية وعزله ، وعين مكانه حمدون بن بسيل ، وكان فظاً ظلوماً ، فاشتط فى تحصيل العشور ، حتى ضج الناس بالدعاء عليه ، ووصل صريخهم إلى الأمير ، وتوالت فى نفس الوقت أعوام الجدب والقحط ، فاضطر الأمير أن يسقط عن الناس جملا من العشور ، حتى يتنفس مخنقهم ، ويستطيعوا مواجهة أعباء الحياة ، ومواصلة نشاطهم العمرانى ، وأعلن الناس عندئذ بشكره ومدحه الشعراء[2]. وكان الأمير محمد بارعاً فى الشئون المالية ، دقيقاً فى مراجعة الدخل والخرج ، وقد ساعده ذلك على ضبط شئون الخزانة العامة[3]. وفى عهده أصيبت الأندلس بالقحط مرتين ، الأولى بين سنتى ٢٥١ و ٢٥٥ هـ ، والثانية فى سنة ٢٦٠ هـ ، وكان قحطاً شديداً استمر بضعة أعوام ، وكثر بسببه الغلاء والموت. ولكن الأندلس استطاعت أن تصمد للمحنة ، وأن تتغلب عليها .

وفى عهده سار بلاط قرطبة على سنن الاعتدال ، ومجانبة البذخ الذى ساد فى أيام أبيه عبد الرحمن ، وضعف نفوذ الجوارى والصقالبة فى القصر ، ومع ذلك فقد استمر النظام الإدارى الذى كان قائماً فى عهد عبد الرحمن بتفاصيله تحت إشراف الأمير وتولى زمام الأمور نفس الرجال الذين تولوها من قبل ، واجتمعت السلطات فى أيدى أسرتى بنى شُهيد وبنى أبى عَبْدة ، أعظم الأسر القرطبية يومئذ ، وتولى الحجابة لمحمد فى البداية عيسى بن شهيد حاجب أبيه من قبل . وقد أشرنا من قبل إلى هذا الوزير النابه غير مرة . ثم خلفه فى الحجابة عيسى بن الحسن ابن أبى عبدة ، فكان من أرجح الوزراء عقلا وإصابة ، وكان طوال خدمته هدفاً لمنافسة هاشم بن عبد العزيز ودسائسه ، وقد خلفه هاشم بالفعل فى الحجابة ، ولبث يضطلع بها أعواماً طويلة حتى وفاة الأمير محمد ، وكان هاشم بن عبد العزيز ينتمى إلى أسرة من المولدين ، وكان من أعظم رجالات الحرب والسياسة فى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ و ١١٢ ، وأخبار مجموعة ص ١٤١ و ١٤٢ .
(٢) ابن حيان — مخطوط القرويين لوحة ٢٣٩ أ و ٢٥٥ .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٠ .

عصره ، وقد تولى القيادة الفعلية لكثير من الغزوات والحملات حسبما فصلنا ، وكان من قبل من وزراء الأمير عبد الرحمن ، فلما صار الأمر إلى ولده محمد ، غدا من بين وزرائه أكثرهم حظوة لديه ، وغدا من خاصة جلسائه وندمائه ، وكان هاشم فوق ذلك أديباً متمكناً وكاتباً بليغاً ، وشاعراً مطبوعاً ، يقرب الأدباء والشعراء ، بيد أنه كان حاد الطبع قليل التحفظ ، لا يحسن اصطناع الرجال ، حتى أنه لما نكب فى غزوة الجليق وحمل أسيراً إلى ملك ليون (سنة ٢٦٢ هـ) لم يجد كثيراً من المدافعين عنه فى محنته ، وسخط عليه الأمير محمد ، وأنحى عليه باللوم ، وكان يقول « هذا أمر جناه علينا فألحق بنا غضاضة ، واستزاد برأيه فضيع وصاتنا ، ولم يحكم تدبير ما صيرنا فى يده من أمرنا » . ولم يدافع عن هاشم ، ويستدر عطف الأمير عليه سوى صديقه الوليد بن غانم صاحب المدينة أعنى حاكم قرطبة ، وقد أقنع الأمير بأن يولى وزيره المنكوب عطفه ، وأن يستخدم ولده مكانه ، حتى يتم إطلاق سراحه . وقد لبث هاشم بن عبد العزيز أسيراً فى أو بييدو عاصمة ليون زهاء عامين ، حتى تم افتداؤه وإطلاق سراحه لقاء فدية ضخمة حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل(١) .

وكان من وزراء الأمير محمد ، أمية بن عيسى بن شهيد ، وكان من أجل وزرائه وآثرهم لديه ، وأخصهم بخدمته ؛ والوليد بن غانم المتقدم الذكر ، وكانا يتعاقبان فى منصب ولاية المدينة ، وهو من أهم مناصب الدولة يومئذ ، لما يتطلبه من الحزم وقوة الشكيمة ، والنزاهة فى نفس الوقت . ومنهم تمام بن عامر الثقفى الشاعر الأديب ، وكان مؤرخاً راوية كتب أرجوزة طويلة فى فتح الأندلس ، وقد اشتهر ببراعته فى لعبة الشطرنج ، وكانت من أسباب حظوته لدى الأمير ، وتمكن منزلته لديه ، وقد ذاعت فى أيامه ذيوعاً عظيماً . ومنهم كذلك سليمان ابن وانسوس ، وهو من أشرف البيوتات البربرية ، وكان جده رئيساً مطاعاً بماردة ، وقد ثار فيها أيام الحكم بن هشام ، وكان أديباً وافر الوجاهة ، وقد تولى خطة السوق وهو اسم ولاية الحسبة يومئذ . وكان من الوزراء الكتاب عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، وكان كاتباً بليغاً(٢) .

---

(١) ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٢٨ أ و ب و ٢٣٠ أ و ٢٣٥ ب .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٣٠ ب و ٢٣٢ أ و ٢٣٣ ب و ٢٣٥ أ .

وكانت تربط الأمير محمد بأمراء المغرب المعاصرين ولا سيما بنو رستم أمراء تاهرت ، وبنو مدرار أمراء سجلماسة وغيرهما ، علائق مودة وصداقة متينة العرى. فكانوا يستمدون منه العون والنصح فى شئونهم ، وكان هو من جانبه شديد الاهتمام بأخبارهم وأحوالهم ، وتتردد إليهم رسله وكتبه فى البحث عن أخبار بنى العباس بدار مملكتهم ، وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام وإفريقية . وكان شارل الأصلع ملك فرنسا (إفرنجة) يقدر خلاله ويتودد إليه ، وربما تبادلا المراسلة والهدايا[1]؛ والظاهر أن ملك فرنسا كان يؤثر سياسة السلم مع حكومة قرطبة خشية أن يتكرر غزو المسلمين لسبتمانيا . وكانت تربطه فى الوقت نفسه علائق مودة ببنى قسىّ سادة الثغر الأعلى، الذين ظهروا بمغامراتهم فيما وراء جبال البرنيه .

وعلى الرغم من أن وقت الأمير محمد لم يتسع كثيراً للأعمال الإنشائية ، لما زخر به من الفتن والغزوات المتوالية ، فقد قام منها بطائفة حسنة . وكان فى مقدمتها منشآته بالمسجد الجامع ، فقد عنى أولا بإتمام الزيادة التى بدأها أبوه عبد الرحمن فى وسطه وأقام فيها المقصورة ، وكان أول من اتخذها هنالك من الخلفاء ، وأصلح جناحه القديم الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل ، وجدده وأعاده إلى رونقه القديم . ولما تمت هذه الزيادات والإصلاحات ركب الأمير إلى الجامع وزاره فى موكب فخم ، وأشادت بعمله الشعراء . وأصلح محمد جامع إستجّة وجامع شذونة ، ومساجد عديدة أخرى فى مختلف الأنحاء ، وأنشأ زيادات كثيرة بالقصر وملحقاته امتازت بالجمال والإناقة . وعنى بتجديد منية الرُّصافة التى أنشأها جده الأعلى عبد الرحمن الداخل ، وجدد حدائقها ومتنزهاتها ، وزودها بالأشجار والغراس النادرة ، وجعلها منتدى نزهه وأسماره . وفى ذلك يقول عباس بن فرناس من قصيدة :

كان قصور الأرض بعد تمامه — بنواً لذرى أخفى شخوصاً من الدر
وتنتشر الأبصار منها إلى مـــدى — التنزه بالأطيار والوحش والزهر
فأعجب من أفنانها الغـــرر التى — يقيل بهن البرد فى وعوة الحر
هم بأخفى سرها غـــير كاتم صـــداها — فأخفى السر بها من الجهر
كأن الذى يخفى الحديث بنجوها — على أخفض الأصوات يشدو على وتر

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ . ويسمى ملك فرنسا هنا خطأ بفردلند .

وأنشأ محمد له كذلك منية خاصة فى مكان ضيعته المسماة «كنتش» الواقعة جنوب غربى قرطبة ، عرفت «بمنية كنتش» وعنى بتجميلها ، وجعلها كذلك موطناً لنزهه ومسراته . وهى التى يقول فيها ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد :

ألما على قصر الخليفــة فانظرا ... إلى منيــة شـيدت لأزهرا

هى الزهرة البيضاء فى الأرض ألبست ... لها الزهرة الحمراء فى الجو مغفرا[1]

وكان الأمير محمد ربع القوام ، أبيض مشرباً بحمرة ، أوقص[2] ، يخضب بالحناء . وكان كثير الأناة والحلم ، عطوفاً على أخوته وآل بيته ، وقد عنى منذ ولايته بشئون الأكابر من أخوته ، فأعدّ لهم الدور الفخمة خارج القصر ، ووهبهم الضياع المغلة ، وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، واستعمل من يصلح منهم للأعمال البعيدة . وكان فوق رجاحة عقله ، أديباً ، يشغف بالبيان ، بليغاً فى كتبه ، محسناً فى توقيعه . بيد أنه لم يكن شاعراً مثل أبيه وجده . وكان مكرماً لأعلام الناس ، وذوى العلم والحجى منهم ، يرفع مجالسهم ، ويكثر من رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك الحذر من منافستهم وتحاسدهم ، ويأبى الإصغاء لسعاياتهم . وكان يجمع حوله صفوة من الشعراء والعلماء[3] مثل عباس بن فرناس ، ومؤمن ابن سعيد ، وابن عبد ربه ، وهم من أقطاب الشعر فى عصره ؛ ومن العلماء عبد الله ابن حبيب أعظم علماء الأندلس فى عصره ، وقد توفى فى صدر ولايته ، وبقىّ بن مخلد وعيسى بن دينار ، ومحمد بن عمر بن لبابة ، ومحمد بن عبد السلام الخشنى ، وغيرهم . وقد اشتهر فى عصره بالأخص الفقيه الورع العلامة بقىّ بن مخلد ، وكان فقيهاً حر الذهن ، واسع الأفق ، نشأ فى قرطبة ، ورحل إلى إفريقية والمشرق ، ودرس دراسة مستفيضة . ولما عاد إلى الأندلس ، حقد عليه فريق من فقهائها ، لغزارة علمه ، وتفوقه عليهم ، ولاسيما فى أساليب الحديث والرواية ، وحاولوا اتهامه بالزندقة ، والإيقاع به لدى الأمير ، فاستجار بقى بالحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكتب إلى الأمير يناشده الله فى دمه ، ليرى رأيه فيه بعد سماع حجته ، فأسعفه هاشم وشرح للأمير قضيته ، وعقد له الأمير مجلساً لمناجزته خصومه فتناظروا بين يديه ، ودحض بقىّ تهم خصومه بقوة ، وألزمهم الحجة ، واستبان

---

(١) مخطوط القرويين فى اللوحات ٢٤٣ – ٢٤٧ . وراجع أيضاً البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٠ .

(٢) أعنى قصير العنق .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٤٥ .

الأمير فضله وتفوقه ، وأسبغ عليه حمايته ورعايته ، وأعلى منزلته . ولبث بقى عمدة العلماء والفقهاء والمحدثين بالأندلس حتى توفى فى سنة ٢٧٦ هـ ، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد[١] .

وكان للفقهاء فى عصر الأمير محمد نفوذ كبير فى بلاط قرطبة ، وفى صوغ سياستها نحو النصارى . وكان محمد ينحو نحو أبيه عبد الرحمن فى سياسة التسامح نحو النصارى ، وكان من أثر ذلك أن أقر الأسقف جومث قومس أهل الذمة على ولايته كما كان فى عهد أبيه ، وذلك بالرغم من اعتراض الفقهاء وسخطهم ؛ وبالرغم مما كان ينقل إليه من نعى المشارقة على بنى أمية استخدام النصارى فى بلاطهم وتوليتهم أسمى المناصب[٢] .

وترك محمد من الولد ثلاثة وثلاثين من البنين وإحدى وعشرين من البنات[٣]

---

(١) مخطوط القرويين اللوحة ٢٤٣ ب ، و٢٥٣ ب . وراجع ترجمة بقى من مخلد فى ابن الفرضى ، تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ، رقم ٢٨٣ ؛ وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ و ١١٣ .

(٢) أشار ابن القوطية إلى ذلك فى رواية أوردها عن حديث جرى بين القائد ابن أبى عبدة وبين محمد بن الكوثر أحد كتاب الأندلس ، وصف فيه ابن الكوثر « أنه من عجائب الزمان أن يكون صاحب قلم بنى أمية الأعلى وكاتبها العظيم قومس النصرانى » . وكتب إليه « أن من أعجب العجب أن يبلغ خلايف بنى العباس بالمشرق أن بنى أمية اضطروا فى كتابتهم العظمى وقلمهم الأعلى أن يولوا قومساً النصرانى ابن انتنيان ابن يليانه النصرانية » (واسمه بالإسبانية جومث بن أنتونيو ابن خوليان) — راجع افتتاح الأندلس ص ٨٢ و ٨٣ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

الفصل الثانى

ولاية المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

وبداية ثـــورة المولدين

ولاية المنذر . تأهبه لقمع الفتنة . الحاجب هاشم بن عبد العزيز . طغيانه وتوجس المنذر منه . سجنه ومصرعه . حملة إلى طليطلة والثغر الأعلى . اشتداد أمر بن حفصون وأطماعه . قضية المولدين وأثرها فى ازدياد سلطانه . خروج المنذر لمحاربته . استيلاؤه على أرشدونة وباغة . محاصرته لابن حفصون فى ببشتر . إذعان الثائر ثم نكثه . عود المنذر إلى محاصرته . مرض المنذر ووفاته . رواية عن اغتيال المنذر . رفع الحصار عن ببشتر . صفات المنذر وخلاله .

وصل المنذر بن محمد بجيشه إلى قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، عائداً من مقاتلة ابن حفصون . وفى الحال أعلنت بيعته فى الثامن من ربيع الأول سنة ٢٧٣ هـ (أغسطس سنة ٨٨٦ م) . وكان فى الرابعة والأربعين من عمره . وكان مولده فى قرطبة سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، وكان منذ فتوته أثيراً عند أبيه بين أبنائه الثلاثة والثلاثين ، مستأثراً بثقته وولايته عهده . يختاره لجلائل الأمور ، ويندبه لقيادة الجيش كلما جد الخطب . وقد أبلى المنذر حسبما رأينا بلاء حسناً ، فى مقاتلة الثوار والخوارج ؛ وحينما تولى العرش ، كانت الفتنة قد تفاقمت ، وعمت الثورة معظم الأنحاء ؛ وكان المنذر رجل الموقف فتأهب لإتمام المهمة التى بدأها ، من العمل على سحق الثورة ، وتأييد النظام والأمن ، وحماية العرش والدولة ، من كيد الخوارج والطامعين .

وعهد المنذر بحجابته إلى القائد هاشم بن عبد العزيز حاجب أبيه وقائده ، وكان هذا الوزير القوى ، فى أواخر عهد الأمير محمد ، قد استأثر بالسلطة ، وأصبح أقوى رجل فى الدولة . وكان المنذر يخشاه ويتوجس من نفوذه وسلطانه ؛ وكان خصوم هاشم يكثرون من السعاية فى حقه وإحفاظ المنذر عليه ، وتحذيره من أطماعه . فلما توفى الأمير محمد ، رأى المنذر أن يستمر هاشم فى حجابته براً منه بذكرى أبيه ، وأملا فى تحسن الأمور ؛ ولكن الظاهر أن الحاجب استمر فى طغيانه ، ولم يكترث للقوى المتألبة عليه ، وأذكت مساعى خصومه فى نفس المنذر

توجسه القديم منه ، وسخطه عليه ، فلم يمض سوى قليل حتى اعتزم المنذر أمره ، وأمر بالقبض على هاشم وأولاده وصحبه ، ثم دس عليه فى سجنه من قتله ، وهدم داره ، واستصفى أمواله ، وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ٢٧٣ ﻫ ، أعنى لشهرين فقط من ولايته . وكانت ضربة جريئة تنبىء عن قسوته وصرامته . واستمر أولاد الحاجب القتيل فى السجن ، حتى أطلقوا بعد وفاة المنذر أيام أخيه الأمير عبد الله ، وردت إليهم أموالهم[١] . وفى تلك المحنة يقول هاشم بن عبد العزيز من شعر نظمه فى سجنه :

سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى ... وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يك أمسى شامتاً بى فإنه ... سينهل فى كأسى وشيكاً ويشرب

وندب المنذر لحجابته مكان الحاجب المقتول ، عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ؛ وقد لبث بنو شهيد حسبما رأينا عصراً يستأثرون بمناصب الحجابة والكتابة .

وسير المنذر بعد ذلك بقليل حملة إلى طليطلة . وكانت قد عادت إلى الثورة ، واجتمع إلى أهلها كثير من البربر المنفيين من مدينة ترجيله أو ترجاله[٢] ، الواقعة جنوبى غربى طلبيرة ، فهزم الثوار وقتل منهم ألوف[٣] . وفى نفس هذا العام أيضاً ، غزا محمد بن لب زعيم الثغر الأعلى السابق ، ألبة والقلاع ، وقاتل النصارى وهزمهم ، وكان قد نزل عن سرقسطة حسبما تقدم وعاد إلى سابق ولائه[٤] .

على أن أعظم ما كان يشغل المنذر ، هو القضاء على ابن حفصون عماد الثورة ومثير ضرامها فى الجنوب . وكان ابن حفصون مذ بلغته وفاة الأمير محمد ورحل عنه المنذر ، قد اشتد بأسه وقويت نفسه ، وأخذ يعمل لإخضاع القواعد والحصون الجنوبية كلها ، فبسط سلطانه على كورة ريه بأسرها ، وامتد سلطانه إلى أرشدونة ومالقة وجيان وإستجة وغيرها . واجتمع إليه المغامرون والخوارج من سائر أقطار الأندلس ، وأخذ يطمح إلى الاستيلاء على الأندلس كلها ، وأظهر الدعوة لبنى العباس ، وكاتب ابن الأغلب أمير إفريقية (تونس) فى ذلك ، ولكن ابن الأغلب

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ و ١١٩ .

(٢) وهى بالإسبانية Trujillo .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ .

لم يستجب إلى دعوته[1]. ولم يكن ابن حفصون ثائراً عادياً يعتمد فقط على أساليب العنف ، ولكنه كان صاحب دعوة سياسية يدعو الكافة إلى اعتناقها . وقد كان ابن حفصون حسبما قدمنا مولّداً ، يمثل فى ثورته ، كل ما يجيش به المولدون نحو العرب الفاتحين ونحو حكومة قرطبة من الحفيظة والبغض . وقد أشرنا من قبل فى حديثنا عن عناصر الأمة الأندلسية ، إلى أولئك المولدين — وهم الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح — وبينا كيف كانوا يؤلفون عنصراً من أهم عناصرها ، من حيث الكثرة والمستوى الإجتماعى ، وقد كانوا بالرغم من اندماجهم فى المجتمع الإسلامى يحتفظون دائماً بنزعة إستقلالية واضحة ، ويبغضون العرب والبربر معاً ، وقد ظهرت هذه النزعة الاستقلالية بالأخص فى الثغر الأعلى ، حيث لبث بنو موسى ، وبنو عمروس ، وبنو الطويل ، وهم جميعاً من الأسر المولدة القوية ، عصراً يتحدون السلطة المركزية ويقاومونها . وكانت ثورة ابن حفصون زعيم المولدين فى الجنوب ، هى المرحلة الثانية لتلك النزعة الثورية التى رفع المولدون لواءها ضد حكومة قرطبة . وهكذا كان ابن حفصون يدعو المولدين ومن إليهم من عشاق الخروج والفوضى ، إلى تأييد قضية الإستقلال والحرية ، ويذكرهم بما ينالهم من عسف السلطان ، وانتزاعه لأموالهم ، وتكليفهم فوق طاقتهم ، وكيف أذلتهم العرب واستعبدتهم ، وقضت على حرياتهم واستقلالهم ؛ وأنه إنما ينهض ليأخذ بثأرهم ، ويرفع عنهم نير الطغيان والعبودية . وناهيك بما كانت تبثه هذه الدعوة المثيرة ، فى نفوس سكان هذه المناطق الجبلية من الحماسة والتعلق بقضية الحرية ، وهى لا تعنى فى نظرهم سوى التفانى فى مقاتلة حكومة قرطبة . وهكذا كانت الجموع الغفيرة تحتشد حول ابن حفصون ودعوته ، ويشتد نفوذه ويمتد سلطانه بسرعة ؛ وبالرغم من أن حكومته كانت تقوم على الخروج والثورة ، وكان معظم صحبه من أهل البغى والشر ، فقد كان الأمن يسود المناطق التى يسيطر عليها ؛ وكان صارماً فى أحكامه وعقوباته ، شديداً على كل مخالف ومستهتر ، وكان فوق ذلك كله متودداً لأصحابه ، متواضعاً يكرم الشجعان ويثيبهم ، فكانت هذه العوامل كلها مما يقوى نفوذه ويوطد سلطانه[2] .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس (القسم المطبوع) ص ٩٣

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٧ و ١١٨ .

وبلغ ابن حفصون فى زحفه إلى المنطقة الوسطى أحواز جيان ، وما يليها من الغرب ، واستولى على باغة « بريجو »(١) وأسر حاكمها ، واستولى على قبرة ، الواقعتين فى جنوبى غربى جيان ، وعلى حصن أشرس الواقع فى شمال كورة ريه . وسير المنذر بعض قواته إلى تلك الأنحاء ، فاستردت حصن أشرس وبعض القرى المجاور لقبرة . وفى ربيع العام التالى (٢٧٤ هـ — ٨٨٧ م) خرج المنذر بنفسه فى قواته معتزماً أن يسحق الثائر ، وأن يقضى على الثورة فى الجنوب ، وزحف تواً على كورة ريه ، وحاصر أرشدونة الواقعة فى جنوب غربى لوشة حتى سلمت ، وقبض على عيشون حاكمها من قبل الثائر وعلى صحبه ؛ وافتتح حصون جبل باغة (بريجو) وأسر بها بنى مطروح حلفاء الثائر ، وهم حرب وعون وطالوت ، وبعث بهم جميعاً إلى قرطبة حيث قتلوا صلباً ، وصلب مع عيشون خنزير وكلب ، إمعاناً فى التمثيل به . وكان ابن حفصون أثناء ذلك ممتنعاً بقلاعه فى ببشتر ، فطوقه المنذر بقواته وشدد فى حصاره ، وقطع كل علائقه مع الخارج . فلما ضاق الثائر ذرعاً بالحصار وشعر بنفاد أقواته ، لجأ إلى الخديعة وعرض التسليم والخضوع ، وطلب الصلح الأمان ، على أن يسير بأهله وولده إلى قرطبة ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وعقد له الأمان ، وأمده بالثياب والدواب والمؤن ؛ وطلب الثائر من الأمير مائة بغل لتحمل أهله ومتاعه فزوده بها ، وبعث بها ابن حفصون إلى قلاعه ، ورفع المنذر الحصار عن ببشتر ، وقفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن ابن حفصون فر من الجيش تحت جنح الظلام ، وعاد إلى ببشتر وامتنع بها ، بعد أن قويت نفسه بما حصل من الأمداد . فاستشاط المنذر حنقاً لتلك الخيانة المثيرة ، وارتد راجعاً بجنده إلى ببشتر ، وضرب حولها الحصار مرة أخرى ، معتزماً ألا يبرحها حتى يقبض على الثائر حياً أو ميتاً ، واستمر الحصار ثلاثة وأربعين يوماً . ومرض المنذر أثناء ذلك ، واستقدم أخاه عبد الله من قرطبة لينوب عنه فى متابعة الحصار ، ولم يأت منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ (يونيه ٨٨٨ م) حتى قضى المنذر نحبه تحت أسوار ببشتر ، بعد حكم لم يطل سوى عامين . وفى بعض الروايات أن المنذر توفى قتيلا بتدبير أخيه عبدالله ، وأن عبد الله رغبة منه فى التخلص من أخيه واعتلاء العرش مكانه ، حرض طبيبه (حجامه) على قتله ، ففصده الطبيب بمبضع مسموم

---

(١) وهى بالإسبانية **Priego** .

أثناء حصاره لببشتر ، فتوفى من أثر السم . ويؤيد هذه الرواية من مؤرخى الأندلس، ابن القوطية وابن حزم، ويرى ابن حزم بنوع خاص أنها رواية معقولة يؤيدها خلق عبد الله وسياسته الدموية . ذلك أنه قتل فيما بعد اثنين من أبنائه ، وهما محمد والد الناصر والمطرِّف ، ثم قتل أخوين له وهما هشام والقاسم ، فليس غريباً أن يكون هو مدبر جريمة يرتفع بها إلى العرش(١) .

وعلى أثر وفاة المنذر ، رفع الحصار عن بُبَشتر للمرة الثانية ، وقفل الجيش راجعاً إلى قرطبة ، وأنقذ ابن حفصون من خطر محقق ، وعاد ينظم شئونه ، ويوطد سلطانه فى الأنحاء الجنوبية .

وكان المنذر أميراً وافر العزم والحزم ، ذا شجاعة وبأس ، وكان خلال الفتنة التى ثار ضرامها فى أيام أبيه ، معقد آمال الحكومة والجيش ، وكان زعماء الفتنة يهابونه ويخشون جانبه ، لما عرف من حدته وصرامته ، وكان موته تحت أسوار ببشتر ضربة مؤلمة لحكومة قرطبة . ولو امتد به الأجل قليلا لاستطاع أن يقضى على ابن حفصون وأضرابه من زعماء الفتنة ، ولأمنت الأندلس شر تفاقمها بعد ذلك . وكان المنذر فوق ذلك يعشق مجالس الشعر والأدب ، ينشده الشعراء قصائدهم ويجزل لهم العطاء . وكان من شعراء دولته ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد والعكى وغيرهما(٢) .

وكان المنذر أسمر طويلا ، جعد الشعر ، كث اللحية ، بوجهه أثر جلدى(٣) .

(١) ابن القوطية فى افتتاح الأندلس ص ١٠٢ ، وابن حزم نقلا عن ابن حيان فى رسالة « نقط العروس » ص ٧٨و٧٩. وينقل صاحب البيان المغرب أقوال ابن حزم ج ٢ص ١٠٦و١٦١.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٣ ص ١٤٠ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥ ؛ والبيان لمغرب ج ٢ ص ١١٦ .

الفصل الثالث

ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

١ — ثورة المولدين والعـــرب

عبد الله يلي العرش في ظروف صعبة . استفحال الثورة وامتدادها إلى زعماء العرب والبربر . ابن حفصون يحاول التفاهم مع الأمير . نكثه ومسير عبد الله إلى قتاله . الثورة فى جيان . عيث ابن حفصون واشتداد غاراته . مسير عبد الله إلى قتاله . موقعة بلاى . هزيمة ابن حفصون وفراره . أهمية موقعة بلاى وأثرها الحاسم . أقوال الشعر فيها . ثورة القبائل العربية بعد المولدين . الثورة فى كورة ريه واستفحالها . سوار بن حمدون القيسى . استيلاؤه على إلبيرة وغرناطة . مصرعه . قيام سعيد بن جودى مكانه . الحرب بين العرب والمولدين . تفاهم سعيد مع الأمير . مصرعه وشاعريته . محمد بن أضحى . تفاقم الثورة بين القبائل العربية . الثورة فى جيان وتدمير . امتداد الفتنة إلى إشبيلية . بنو عبدة وبنو حجاج وبنو خلدون . رياسة بنى عبدة . ثورة كريب بن خلدون وعيثه فى أحواز إشبيلية . ثورة بنى حجاج . مصرع أمية والى إشبيلية . الإضطراب والفوضى . مسير المطرف بن عبد الله إلى إشبيلية وهزيمته للثوار . حكم إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون المدينة . مصرع كريب وانفراد إبراهيم بالحكم . خروجه على الأمير وعوده إلى الطاعة . دولة بنى حجاج فى إشبيلية وقرمونة . وفاة إبراهيم وخلاله .

خلف المنذر على العرش ، أخوه عبد الله بن محمد ، وبويع فى نفس اليوم الذى توفى فيه أخوه ، فى محلة الجيش تحت أسوار بُبشتر ، فى منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ (يونيه ٨٨٨ م) . وكان مولده بقرطبة فى نفس العام الذى ولد فيه أخوه المنذر ، أعنى فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤) وأمه أم ولد تدعى بهار ، وكان حينما تولى الملك فى السادسة والأربعين من عمره .

وعلى أثر البيعة ارتد عبد الله مع جيشه عائداً إلى قرطبة ، ومعه جثمان أخيه المنذر ، فدفن بمقبرة القصر ، واستتم عبد الله البيعة دون أن يعارضه أحد من أخوته العديدين .

وبدأ عبد الله حكمه الطويل المضنى فى ظروف قاتمة ، والخلاف يمزق أوصال المملكة ، وعرش بنى أمية يهتز تحت ضربات الخوارج والمتغلبين . ويصف لنا ابن الأثير عهد الأمير عبد الله فى هذه العبارة الجامعة : « وفى أيامه امتلأت الأندلس

بالفن ، وصار فى كل جهة متغلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته » (١).

والحقيقة أن الثورة كانت قد استفحلت ، واندلع لهيبها فى كل ناحية ، ولم تبق قاصرة على المناطق الجبلية ، بل تجاوزتها إلى القواعد والمدن الكبيرة ، مثل إشبيلية وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها ؛ ولم تبق كذلك قاصرة على زعماء المولدين الذين تحدوهم نحو حكومة قرطبة عاطفة بغض طبيعى ، ولكنها امتدت إلى زعماء القبائل العربية أنفسهم ، إذ رأوا الفرصة سانحة لاستقلالهم ، وتدعيم سلطانهم ؛ وظهر البربر فى الوقت نفسه فى الميدان ، فاستعصم كثير من زعمائهم بالحصون النائية ، ونشبت المعارك العنصرية القديمة بين العرب والمولدين حيثما التقت حشودهم ، كما حدث فى كورة ريُّه وإشبيلية ؛ ونشبت مثل هذه الخصومات بين العرب والبربر ، وفيما بين العرب أنفسهم ، واستقل زعماء العرب بإلبيرة وجيان ومنتيشة ولورقة ومدينة سالم ، واستقل زعماء المولدين بالثغر الأعلى وبطليوس وباجة وجيان ومرسية ، وغدت إشبيلية مسرحاً للتنافس الدموى بين العرب والبربر ، وبسط ابن حفصون سلطانه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية فيما بين البحر ووادى شَنيل ؛ وهكذا عمت الثورة معظم جنبات الأندلس ، ولم يبق لحكومة قرطبة سلطان حقيقى إلا فى منطقة العاصمة وأحوازها .

— ١ —

كان عبد الله يواجه هذه الخطوب كلها . وكان يرى إخماد الفتنة مسألة حياة أو موت بالنسبة لسلطان العرش ، وكانت هذه مهمته الشاقة التى كرس لها كل جهوده . وكان يرى أن الثورة فى الجنوب هى أخطر ما يواجه العرش ، وأن ابن حفصون قد غدا قوة تخشى بأسها ، وأنه يجب أن تكرس الجهود لتحطيم ثورته وسحق قواه . وكان ابن حفصون يشعر من جانبه ، بأنه يواجه قوة العرش كلها ، ومن ثم فقد حاول عقب ارتقاء الأمير عبد الله أن يحصل على هدنة يستطيع خلالها أن ينظم شئونه ويوطد سلطانه ؛ فبعث إلى قرطبة ابنه حفصاً مع جماعة من أصحابه ليعقدوا السلم باسمه مع عبد الله ، على أن يستقر فى منطقة ببشتر فى طاعة الأمير ، فاستجاب عبد الله إلى طلبه ، ورد ابنه وصحبه رداً جميلا وأجزل لهم الصلات ، وبعث معهم عبد الوهاب بن عبد الرؤوف والياً من قبله على كورة ريُّه ليكون مع

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥ .

ابن حفصون شريكاً فى حكمها ، ولكن لم تمض بضعة أشهر ، حتى نكث ابن حفصون العهد وطرد عامل الأمير ، وأغار على البلاد المجاورة ، واستولى على أرشدونة ، وعاث فساداً فى تلك المنطقة ، فسار إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) واجتاح منطقة ببشتر وخربها ، ولكنه لم ينل من الثائر مأرباً ؛ ولما ارتد إلى قرطبة خرج ابن حفصون فى أثره ، وتوغل حتى إستجة واستولى عليها ، فبعث إليه عبد الله الجند فردته عنها .

ولبثت الثورة على اضطرامها فى الجنوب . وخرج خير بن شاكر فى جيّان ، وطرد منها عامل الأمير واستولى عليها ، فسارت إليه جند الأندلس بقيادة أحمد ابن محمد بن أبى عبدة ، وحاصرته وقتلت كثيراً من أصحابه ، وخربت معظم دور جيان ، ثم عادت دون إخضاعه . وهنا بعث ابن حفصون جماعة من أصحابه إلى جيان بحجة معاونة ابن شاكر ، ولكنهم فتكوا به وحملوا رأسه إلى ابن حفصون ، فبعث بها إلى الأمير عبدالله سعياً إلى مصانعته ومطاولته[1]. ولكن الأمير لم يخدع بسعيه . وسار ابن حفصون إلى جيان فعاث فيها وانتهب أموالها ، وأذل أهلها ، وساد الذعر والفوضى فى تلك الأنحاء .

ودفع ابن حفصون غاراته شمالا حتى أحواز قرطبة ، وبلغ من جرأته أن حاول إحراق مخيم الأمير فى ضاحية شَقُندة على مقربة من العاصمة . فعندئذ عول الأمير عبدالله على أن يخرج لقتاله مرة أخرى ، فحشد ما استطاع من قواته ، واتجه نحو الجنوب إلى ناحية قبرة Cabra حيث حشد الثائر قواته فى معقل بلاى أو « بَلِيّ » (بولى)[2] ، وكان حصن بلاى من أمنع حصون قبرة الواقعة على مقربة من جنوب شرقى قرطبة . وقد افتن ابن حفصون فى تقويته وتحصينه ، وجعله مركزاً للسيطرة على كورة قبرة كلها ، والإغارة على المدن والحصون القريبة من قرطبة ، وتهديد أطراف العاصمة ذاتها . وكانت قوات الثور تبلغ زهاء ثلاثين ألفاً ، ولا تعدو قوات الأندلس ثمانية عشر ألفاً ، بل أربعة عشر ألفاً على قول

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ٩٢ و ٩٣ .

(٢) هى بالإسبانية Poley أو Polei ، وما يزال موقعها قائماً معروفاً إلى اليوم تحتله قرية أجيلار Aguilar الحديثة الواقعة جنوبى قرطبة .

ابن حيان(١). ووقع اللقاء بين الفريقين على ضفاف نهر الفوشكة أحد فروع نهر الوادى الكبير (٢) على قيد مسافة قصيرة من بلاى ، فى الثانى من صفر سنة ٢٧٨ هـ (١٦ مايو سنة ٨٩١ م) . وقاد جند الأندلس القائد عبيد الله بن محمد ابن أبى عبدة . وتولى ابن حفصون قيادة جنده بنفسه . ونجح فرسان الأندلس فى هزيمة الجناح الأيمن للثوار وتمزيقه ، فدب الذعر إلى باقى القوات الثائرة ، وركنت إلى الفرار ، وهرعت الخيل فى آثارهم فقتلت كثيراً منهم ، وفر ابن حفصون فى بعض قواته إلى حصن بلاى معولاً على الامتناع به ، ولكن هجره معظم جنده ، مؤثرين الفرار على حصار غير مأمون العاقبة ؛ فلما رأى ابن حفصون عبث المقاومة ارتد فى نفر من صحبه إلى شعب الجبال الجنوبية ، بعد أن فقد معظم قواته ، وقتل من الثوار أثناء الموقعة وخلال المطاردة ألوف عدة ، واحتل عبدالله حصن بلاى وقتل من جنده زهاء ألف ، واستولت جند الأمير على محتوياته . وكانت موقعة بلاى موقعة فاصلة فى معنى من المعانى ، وفيها أصيب ابن حفصون بضربة أليمة لم يصب بمثلها من قبل . ولم ير الأمير مطاردة الثائر جنوباً ، ولكنه آثر أن يزحف غرباً إلى إستجة التى كانت تدين بطاعته ، فحاصرها أياماً حتى سلمت والتمس أهلها العفو والأمان(٣) .

وسار الأمير بعد ذلك فى أثر ابن حفصون إلى ببشتر قاعدته الرئيسية ، وكان الثائر قد التجأ إليها عقب الهزيمة ، واجتمع إليه كثير من أنصاره من أهل الجزيرة . وعاث الأمير فى تلك المنطقة ، ولم يخرج ابن حفصون إلى لقائه ، ولكنه حينما ارتد جيش الأندلس أدراجه ، حاول مطاردته ، واشتبك مع مؤخرته فى معركة هزم فيها ورد على أعقابه (ربيع الأول سنة ٢٧٨ هـ) . وعلى أثر هذه الغزوة الموفقة ،

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ١٠٤ . ويقول ابن عبد ربه وهو معاصر للمعركة ، وربما شهدها بنفسه مع الأمير ، إن قوات الأندلس كانت ثمانية عشر ألفاً منهم أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة وأربعة آلاف من حشم الأمير ومواليه (راجع العقد الفريد ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ٤ ص ٤٩٨) .

(٢) ويسمى بالإسبانية **Las Carchenas** (لاساس كارشيناس) .

(٣) يورد لنا ابن حيان رواية ضافية وتفاصيل كثيرة عن موقعة بلاى (المقتبس ص ٩٤–١٠٥). وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ و١٢٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ . ويضع دوزى تاريخ الموقعة فى ١٥ إبريل سنة ٨٩١ م . ولكن إبريل يوافق شهر المحرم سنة ٢٧٨ هـ . وقد حدثت الموقعة فى بداية صفر . راجع : **Dozy : Hist.; V.II. p. 68-73** .

اختار الأمير عبد الله قائده البطل عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة للوزارة ، إثابة له وتكريماً ، وعرفاناً لما أسداه إلى العرش وإلى الدولة ببراعته وبطولته[1] :

وقد أشاد الشعراء بذكر موقعة بلاى وإستجة ، وما أحرزه الأمير فيها من النصر الباهر ، فمن ذلك قصيدة طويلة لابن عبد ربه يقول فيها :

نجا مستكناً تحت جنح من الدجى ... وليس يودى شكرنا أنعم الجنح
يودون أن الصبح ليل عليهم ... ونحن نود الليل لو أنه صبح
أقادح نار كان طعم وقودها ... بعينك فانظر ما أضاء لك القدح
محا السيف ما زخرفت أول وهلة ... ودونك فانظر بعد ذلك ما يمح
فكم شارب منكم صحى بعد سكرة ... وما كان لولا السيف من سكره يصحح
كأن « بلايا » والخنازير حولها ... مقطعة الأوصال أنيابها كلح
ديار الذين كذبوا رسل ربهم ... فلاقوا عذاباً كان موعده الصبح
فيا وقعة أنست وقيعة راهط ... ويا عزمة من دونها البطن والنطح
ويا ليلة أبقت لنا العز دهرنا ... وذلا على الأعداء صل به الترح
بدولة عبد الله ذى العز والتقى ... يخبر فى أدنى مقاماته المدح[2]

ولابن عبد ربه قصيدة أخرى يهنئ فيها الأمير بفتح بلاى هذا مطلعها

الحق أبلج واضح المنهاج ... والبدر يشرق فى الظلام الداج
والسيف يعدل ميل كل مخالف ... عميت بصيرته عن المنهاج

ومنها :

لما حفلن إلى « بلاى » عشية ... أقوت معاهدها من الأعلاج
فكأنما جاشت خلال ديارهم ... أسد العرين خلت بسرب نعاج
ونجى ابن حفصون ومن يكن الردى ... والسيف طالبه فليس بناج
فى ليلة أسرت به فكأنما ... خيلت لديه ليلة المعراج
هذى الفتوحات التى أذكت لنا ... فى ظلمة الآفاق نور سراج

---

(١) راجع المقتبس ص ١٠٠ .

(٢) راجع هذه القصيدة بأكلها فى المقتبس ص ٩٧ — ٩٩ .

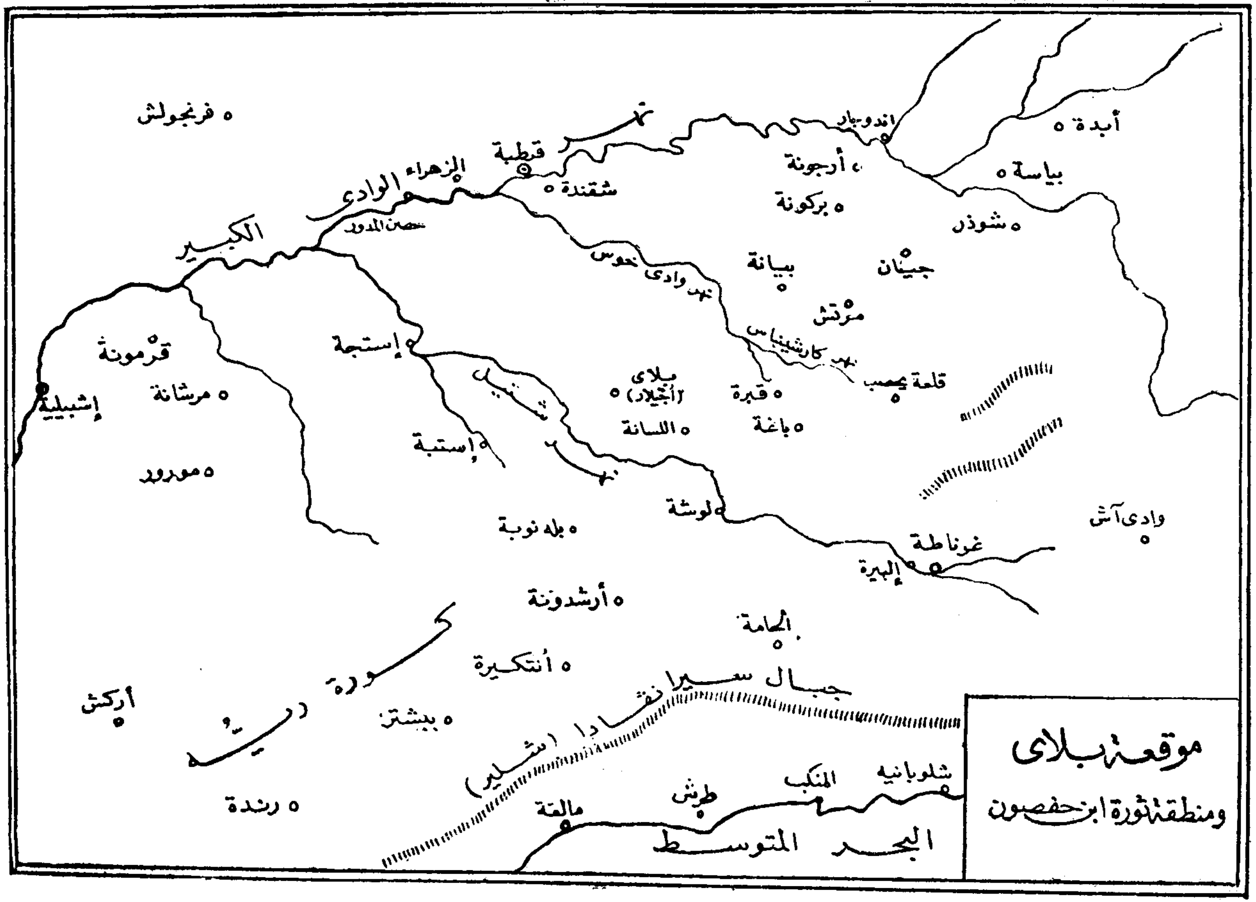
موقعة بلاى
ومنطقة ثورة ابن حفصون
أبدة
بياسة
شوذر
اندوجار
أرجونة
بركونة
جيان
بيانة
مرتش
قلعة يحصب
قبرة
باغة
بلاى (أجيلار)
اللسانة
نهر كارشيناس
نهر وادى خوس
شقندة
قرطبة
الزهراء
نهر الوادى الكبير
حصن المدور
فرنجولش
إستجة
قرمونة
إشبيلية
مرشانة
مورور
إستبة
شنيل
لوشة
غرناطة
إلبيرة
وادى آش
بلدنوبة
أرشدونة
الحامة
أنتكيرة
ببشتر
كورة رية
أركش
رندة
جبال سيرانفادا (شلير)
شلوبانيه
المنكب
طرش
مالقة
البحر المتوسط

- ٢ -

وهنا نقف قليلا فى تتبع ثورة المولدين وزعيمهم ابن حفصون ، لنعطف على أخبار الثورات التى قام بها الزعماء العرب فى الوقت نفسه ، فى مختلف القواعد والثغور .

كانت المناطق الجنوبية فى الوقت التى تجيش فيه بثورة المولدين فى الغرب ، تجيش فى الشرق بثورة أخرى عمادها القبائل العربية . وكانت سياسة اصطفاء الموالى التى جرى عليها بنو أمية فى الأندلس منذ بداية أمرهم ، قد أخذت تحدث أثرها فى نفوس القبائل العربية ، وأضحت هذه القبائل ترى فى سياسة حكومة قرطبة نوعاً من الطغيان والمهانه . ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين فى الثغر الأعلى وفى المناطق الجنوبية ، ألفت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها ، والانتصاف لعصبيتها وكرامتها . وكانت كورة إلبيرة مركز نشاطهم فى الجنوب ؛ ففى سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٩) ثار فى ناحية البراجلة من كورة إلبيرة يحيى بن صقالة القيسى ، وكان ذا وجاهة ومال ، والتفت حوله البيوتات العربية ، واشتد فى مطاردة المولدين والنصارى[١] ، فثاروا به ولم يلبث أن قتل فى بعض المواقع التى نشبت بينه وبينهم ؛ فتصدر لزعامة العرب عندئذ سوّار بن حمدون القيسى ؛ وكان سوار زعيما مجرباً . وافر الشجاعة والبأس ، فهرعت العرب إلى لوائه ، وأغار على حصون المولدين والنصارى فى تلك المنطقة ، فانتزع معظمها ، وامتدت رياسته حتى قلعة رباح ، وجعل مركزه فى حصن منت شقند[٢] على مقربة من إلبيرة ثم زحف على إلبيرة وفيها جعد بن عبد الغافر واليها من قبل الأمير ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، فهزم جعد وأسر ، وقتل كثير من أصحابه (٢٧٦ هـ) ، وتعرف هذه الموقعة بواقعة المدينة[٣] . ثم أطلق سوار جعدا فتحالف مع ابن حفصون على قتاله . وقوى أمر سوار واشتد ساعده وكثر أنصاره ، فسار إلى غرناطة واستولى عليها واتخذها قاعدة له ، ونشبت بينه وبين المولدين وزعيمهم ابن حفصون عدة معارك ، هزم فيها ابن حفصون وقتل بعض قواده . وكان سوار

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ٥٥ .

(٢) ويسميها ابن حيان منت شاقر (المقتبس ص ٥٥).

(٣) المقتبس ص ٥٥ و ٥٧ .

فوق فروسيته شاعراً جزلا فصيحاً يأسر الجموع بذلاقته . ولكن رياسته لم تطل سوى نحو عام ، إذ قتل فى كمين دبره له خصمه القديم جعد والى إلبيرة ، وحفص بن المرة قائد ابن حفصون . فقد خرج سوار ذات يوم من غرناطة إلى بعض غاراته فى نفر قليل من أصحابه ، وكان حفص قد رتب قواته فى أماكن مستورة على مقربة من المدينة ، فانقضت على سوار وفتكت به وبأصحابه ومثل بجثته . فخلفه فى رياسة العرب سعيد بن سليمان بن جودى السعدى زعيم قبيلة هوازن ، وكان مثل صديقه سوار بطلا شجاعاً وفارساً مجرباً ، وشاعراً أديباً ، وخطيباً مفوها ، قد تفقه مع فروسيته فى فنون العلم والأدب[1] ، فالتفت حوله القبائل ، واشتدت وطأته على المولدين وزعيمهم ابن حفصون وهزمه مراراً ، وأسره ابن حفصون فى بعض الوقائع ثم أطلقه لقاء فدية كبيرة . ولما رأى الأمير عبد الله غلبة العرب على كورة إلبيرة ، أقر سعيداً على ولايتها فحكمها باسم الأمير ، واستمرت زعامته بضعة أعوام حتى قتل غيلة فى دار عشيقته اليهودية ، وذلك فى أواخر سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) ، ويقال إنه قتل بتدبير الأمير عبد الله ، وكان من أهم أسباب قتله أبيات من الشعر قالها فى ذم بنى أمية جاء فيها :

يا بنى مروان جدوا فى الهرب   نجم الثائر من وادى القصب
يا بنى مروان خلوا ملكنا   إنما الملك لأبناء العرب

ولسعيد بن جودى شعر كثير ، وقد أورد لنا ابن الأبار بعض قصائده ، وهى تنم عن مقدرته وقوة شاعريته[2] .

ولما قتل سعيد بن جودى ، قام بأمر العرب من بعده فى كورة إلبيرة ، محمد ابن أضحى الهمذانى صاحب حصن الحامّة (الحمة) ، وأقره الأمير عبد الله على رياسته ، ونشبت بينه وبين ابن حفصون وقائع عديدة كانت سجالا بينهما ؛ ولبث سعيد على رياسته لتلك المنطقة ، حتى قضى عليها الناصر فى بداية عهده ، واستولى على الحامة وغيرها من النواحى الثائرة فى تلك المنطقة[3] .

---

(١) المقتبس ص ٦٠ و ٦١ .

(٢) راجع فى أخبار سوار بن حمدون وسعيد بن جودى ، ابن الأبار فى « الحلة السيراء » (ليدن) ص ٨٠ – ٨٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤١ ، والمقتبس ص ٢٩ و ٣٠ .

(٣) الحلة السيراء ص ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩ .

واتسع نطاق الثورة بين القبائل والبطون العربية والمولدين ، فخرج فى مدينة ابن السليم (شذونة)[1] منذر بن ابراهيم ، واستقل برياستها إلى أن قتله بعض أتباعه ؛ وخرج آخرون من الزعماء فى كورة جيان ، وكان أشدهم مراساً عبيد الله ابن أمية بن الشالية ، وهو من زعماء المولدين . وقد خرج فى منطقة جبل شمنتان وما يليها ، وامتد سلطانه حتى حصن قسطلونة[2] ، وقوى أمره وأنشأ له بلاطاً وجيشاً ، وحالف ابن حفصون وصاهره بأن زوج ابنته من جعفر ولد ابن حفصون . واستمر ابن الشالية ممتنعاً بمعاقله ، طوال أيام الأمير عبد الله ، ولم تنته ثورته إلا فى أوائل عهد الناصر حيث عاد إلى الطاعة ، وعينه الناصر والياً لمنطقة شمنتان . وثار سعيد بن مستنه فى باغة ، وقوى أمره ، فسار إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) عقب موقعة بلاى ، وغزا حصن كركبوليه ، الواقع بين قرطبة وجيان ، وهو معقله وأمنع حصونه ، واشتد فى حصاره حتى اضطر إلى التسليم ، وهدم الأمير جميع حصونه[3] . وثار بغربى الأندلس اثنان من زعماء المولدين أيضاً هما بكر بن يحيى بن بكر ، ثار بشنتمرية الغرب وحصنها واستقل بها ، وبسط سلطانه على ما حولها ، وتشبه بالأمراء ، فأنشأ له بلاطاً وحكومة ، وكان جواداً يأوى أبناء السبيل ويحفظ الطرق ، وفى أواخر عهد الأمير عبدالله عاد إلى الطاعة . وعبد الملك بن أبى الجواد ، وقد ثار فى باجة وميرتلة . وكان كلاهما من أتباع عبد الرحمن الجليقى وأنصاره . وثار فى لَبْلة عثمان بن عمرون وأخرج منها عامل الأمير ، وامتدت الفتنة إلى المنطقة كلها . وغلب إسحاق بن إبراهيم العقيلى المعروف بابن عطاف على حصن منتيشة من أعمال جيان وامتنع به ، مستظلا مع ذلك بطاعة الأمير . وفى شرقى الأندلس خرج ديسم بن إسحاق فى كورة تدمير وغلب على مدينتى مرسية ولورقة ، واستفحل أمره ، وكان أديباً يصل الأدباء والشعراء . وسير إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) حملة بقيادة عمه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم ، فاخترقت ولاية تدمير وعاثت فيها وهاجمت مرسية وأرغمتها على دفع الخراج ، ونشبت بينهم وبين قوات ديسم فى ظاهر لورَقة ،

---

(١) **Medina Sidonia** . وهذه تسمية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) .

(٢) جبل شمنتان هو بالإسبانية **Somontin** ، وهو يقع شمالى جيان بين مدينة ليناريس الحديثة ونهر الوادى الكبير ؛ وحصن قسطلونة هو بالإسبانية **Castalona** .

(٣) المقتبس ص ١٠٦ .

معركة هزم فيها الثوار ، بيد أنها لم تكن معركة حاسمة[1]. وقامت ثورات محلية أخرى فى بعض القواعد والحصون ، بيد أنها كانت على الأغلب ثورات قليلة الخطورة ، محدودة الأثر ، وكانت حكومة قرطبة تراها فى المحل الثانى ، ولم تكن ثورة القبائل العربية تصطبغ بتلك المرارة التى كانت تطبع ثورات المولدين والبربر . ولبث كثير من أولئك الزعماء الخوارج على رياستهم واستقلالهم حتى بداية عصر الناصر[2] .

— ٣ —

وكانت إشبيلية ، أعظم القواعد الأندلسية بعد قرطبة ، فى أثناء ذلك ، مسرحاً لفتنة دموية استطال أمدها . وكان سكان إشبيلية مزيجاً من العرب والمولدين والنصارى ، وكانت منزل عدد كبير من البيوتات العربية العريقة التى تمتاز بالثراء والعصبية . وبالرغم مما كان يسود بين هذه العناصر فى معظم الأحيان من عوامل الجفاء والشقاق ، فقد استطاعت إشبيلية أن تحافظ على سكينتها وولائها مدى حين . فلما أخذت القبائل العربية فى ولاية الأمير عبد الله تجيش بعوامل الخروج والثورة ، هبت ريح الاضطراب على إشبيلية وسرت إليها عوامل الفتنة ، وظهر الزعماء المتطلعون إلى الرياسة على مسرح الحوادث . وكان بنو أبى عبدة ، وبنو حجاج ، وبنو خلدون ، يومئذ أعظم البيوتات العربية فى إشبيلية . فأما بنو أبى عبدة فكان منهم كثير من رجال الدولة والقادة ، وكان زعيمهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبى عبدة ، وكان من وجوه القوم المقربين لدى حكومة قرطبة . وأما بنو حجاج فإنهم يرجعون بنسبتهم إلى لخم ، ويتصلون فى الوقت نفسه من ناحية الأمومة بملوك القوط ، وذلك عن طريق سارة القوطية حفيدة وتيزا ملك القوط[3] ، وكان زعيم بيتهم يومئذ عبد الله بن حجاج وأخوه إبراهيم . وأما بنو خلدون فإنهم ينتسبون إلى العرب اليمانية فى حضرموت ، وإليهم ينتسب المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون، وكان زعيم بيتهم يومئذ كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد[4].

---

(١) المقتبس ص ١١٨ .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه الثورات ، المقتبس ص ٩ — ١١ و ١٦ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩ — ١٤١ .

(٣) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٦٠ و ٦١ .

(٤) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٠ و ٣٨١ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٦ .

وكان هنالك إلى جانب هذه الأسر العربية الصميمة ، عدد من الأسر المولدة القوية الغنية . وكان التنافس بين العرب والمولدين فى النفوذ والرياسة ، من أهم أسباب الاضطراب فى المجتمع الأندلسى يومئذ .

وكانت الرياسة فى إشبيلية قديمة فى بيت أبى عبدة ، حيث كان جدهم أبو عبدة واليها من قبل عبد الرحمن الداخل ، وكان حفيده أمية بن عبد الغافر واليها فى الوقت الذى نتحدث عنه ؛ وكان الأمير عبد الله قد أرسل إلى جانب أمية ولده محمداً ، ليكون عضداً أدبياً له فى حكم المدينة . وفى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) كان بنو خلدون أول من رفع لواء الثورة فى إشبيلية ، وخرج زعيمهم كريب بن عثمان ابن خلدون فى أنصاره وحلفائه من المولدين والبربر ، الذين رأوا أن يعملوا على إذكاء المعركة بين الأسر العربية ، وتحالف مع ابن مروان الجليقى الثائر ببطليوس . وعاث كريب وأصحابه فى أحواز إشبيلية وقطعوا السبل ، ولكنه لم ينل من المدينة مأرباً . ثم ثار المولدون ضد العرب اليمانية لمقتل واحد من كبرائهم ، وتحرك بنو حجاج فى نفس الوقت . وخشى أمية العاقبة فدس على زعيمهم عبد الله ابن حجاج من قتله ، فحل فى الحال مكانه أخوه إبراهيم ، وحمى وطيس الفتنة ، واشتد بنو حجاج وأنصارهم من العرب فى قتال أمية ، وقتل أمية فى النهاية مدافعاً عن نفسه . فأرسل الأمير عبد الله إلى إشبيليه حاكماً جديداً من قبله ، هو عمه هشام ابن عبد الرحمن ، ولكنه لم ينجح فى تهدئة المدينة الثائرة ، وقتل الثوار ولده ، وسادت الفوضى ، واضطرب حبل الأمن فى إشبيلية وما جاورها ؛ فعندئذ أرسل عبد الله ولده المطرِّف ، ومعه الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية على رأس حملة قوية إلى إشبيلية (٢٨٢ هـ — ٨٩٥ م) . فلما أشرف المطرف على إشبيلية وثب بالقائد عبد الملك فقتله ، وندب للقيادة مكانه أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ، وأرسل إلى والده الأمير عبد الله محضراً يبرر فيه تصرفه ، ونشبت الموقعة بين المطرف وبين الثوار خارج المدينة ، فهزمهم وردهم إلى سور المدينة ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر إبراهيم بن حجاج وخالد بن خلدون وغيرهما من زعماء الفتنة ، ولم يطلق سراحهم حتى أذعنت المدينة الثائرة لمطالبه ، وسلمت الخراج المطلوب ، وقدم زعماء الفتنة رهائن من الولد والأهل ، واتُّفق على أن يشترك

فى حكم المدينة إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير وفى طاعته[١] . وكان كريب طاغية شديد الوطأة فنفر منه الشعب . أما إبراهيم فكان رفيقاً دمث الخلق فكثر أنصاره ، ورجحت كفته ، واستطاع فى الوقت نفسه أن يحصل من الأمير عبد الله سراً على عهد بولاية المدينة . ثم اعتزم أمره ودبر مقتل كريب ابن خلدون وأخيه خالد ، وانفرد بحكم إشبيلية (٢٨٢ هـ)[٢] ، وأقره عبد الله على ولاية إشبيلية وقرمونة . وسطع نجم بنى الحجاج وقوى أمرهم ، وطالب إبراهيم الأمير بالإفراج عن ولده عبد الرحمن ، المعتقل رهينة فى قرطبة ، فلما تباطأ الأمير فى إجابته خلع الطاعة وتحالف مع ابن حفصون[٣] ، وسار معه فى قواته لمقاتلة قوات الأندلس (٢٨٩ هـ) حسبما نفصل بعد . وقدر الأمير عبد الله خطورة هذا التحالف وتوجس من عواقبه ، وعاد فأجاب رغبة إبراهيم ، وأفرج عن ولده عبد الرحمن ورده إليه مكرماً (٢٨٩ هـ) ، فجنح إبرهيم إلى الطاعة مرة أخرى ، وارتضى أداء الجزية للأمير ، ونبذ حلف ابن حفصون ، وقنع الأمير من جانبه بهذا المظهر من الخضوع والطاعة ، واستقرت الأمور فى إشبيلية[٤] .

وأبدى إبراهيم بن حجاج فى إدارة ولايته همة وبراعة ، واتخذ سمة الملوك وأنشأ له بلاطاً ، وحرساً خاصاً قوامه خمسمائة فارس غير المشاة ، وحصن مدينة قرمونة ، وجعل بها مرابط خيله[٥] ، وفرض الضرائب وأصلح نظم الحكم والقضاء ، وعمل على توثيق أواصر المودة بينه وبين حكومة قرطبة . وكان يبعث بالأموال والهدايا إلى الأمير عبد الله ، ويمده بجنده فى بعض غزواته . وكان إبراهيم فوق ذلك رضى الخلق ، محبوباً من الشعب ، جواداً يقصده الشعراء وينشدونه مدائحهم

---

(١) يقول ابن خلدون إن كريباً انفرد أولا بحكم إشبيلية ، وسعى ابن حجاج إلى انتزاعها منه ، فتحالف مع ابن حفصون ، ثم جنح إلى مصانعة كريب فأشركه معه فى حكم المدينة (كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨١) . وراجع المقتبس ص ١١١ .

(٢) أو فى أوائل سنة ٢٨٦ هـ ، على رواية ابن حيان (المقتبس ص ٨٤) .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) المقتبس ص ١٣١ .

(٥) وما تزال مدينة قرمونة تحتفظ حتى اليوم ببعض الأبواب والأطلال الأندلسية القديمة التى تدل على حصانتها أيام المسلمين ، وما زالت بالأخص تحتفظ بباب « إشبيلية » الشهير كاملا بعقده العظيم وشرفته العربية الرائعة .

فيجزل صلاتهم ؛ وكان ممن مدحه شاعر العصر أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، ومما قاله فى مدحه :

ألا أن إبراهيم لجـــة ســـاحل من الجود أرست فوق لجة ساحل
فإشبيلية الزهراء تزهو بوجهه وقرمونة الغـــراء ذات الفضائل
إذا ما تحلت تلك من نور وجهه غدت هذه للناس فى زى عاطل

واستمر إبراهيم بن حجاج فى حكم إشبيلية وقرمونة ، حتى توفى سنة ٢٩٨ هـ (٩١٠ م)[١] فى سن الثالثة والستين ، فخلفه فى حكم إشبيلية ولده عبد الرحمن ، وفى حكم قرمونة ولده محمد حتى انتهت دولتهم فى بداية عهد الناصر[٢].

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٧ . ويضع ابن عذارى وفاته فى سنة ٢٨٨ هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٢) والرواية الأولى أرجح . وراجع أخبار ابن حجاج فى المقتبس ص ١١ — ١٤ .

(٢) راجع فى تفاصيل ثورة بنى حجاج ، ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٣٥ و ج ٧ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٢٨ — ١٣٥ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٦ و ٩٧ .

الفصل الرابع

ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

٢ — ذروه الفتنـــة الكبرى

عود إلى ثورة المولدين . ابن حفصون يعود إلى الميدان . عود الصوائف إلى غزوه . إستيلاؤه على إستجة . مسير أبان بن عبد الله لقتاله . المعارك فى الجزيرة الخضراء . تحالف ابن حفصون ومحمد ابن لب . ابن حفصون يعلن اعتناقه للنصرانية . تفرق أنصاره . التحالف بين ابن حجاج وابن حفصون . الحرب بين جند الأندلس وابن حفصون . هزيمة الثائر وانتهاء حلفه مع ابن حجاج . توالى الحملات والصوائف لقتال ابن حفصون . استقلال ابن مروان ببطليوس . ثورة ابن تاكيت فى الثغر الأدنى . محاصرة جند قرطبة لماردة . الخلاف بين ابن مروان وابن تاكيت . وفاة ابن مروان واستمرار بنيه فى حكم بطليوس . بنو ذو النون فى طليطلة . استيلاء بنى قسى عليها وحكمهم لها . سقوطها فى يد ابن الطربيشة . بنو ذو النون فى شرق طليطلة . استيلاء ابن يحيى الأنقر على سرقسطة . بنو قسى فى تطيلة وطرسونة . غزوات لب فى ليون وناڤار . وفاة لب وولاية أخيه عبد الله . ظهور محمد بن عبد الله الطويل فى الثغر الأعلى . القتال بينه وبين بنى قسى . أفول نجم بنى قسى . غزوات الطويل فى أراضى النصارى . مصرعه وذهاب دولته . الأمير عبد الله ومقارعته للثورة . انتهاز ملك ليون لمشاغل حكومة قرطبة . استيلاؤه على سمورة . ظهور ابن القط فى أحواز طليطلة . زعمه بأن هو المهدى . القتال بينه وبين ملك ليون . مصرع ابن القط وتفرق شمله . تفاهم ملك ليون مع الثوار . افتتاح الجزائر الشرقية . وفاة الأمير عبد الله . خلاله وصفاته . صرامته وعدله وتقشفه . حجابه وقواده . اصطفاؤه للموالى . أولاده . مأساة ولديه محمد والمطرف . اغتيال المطرف لأخيه محمد . حكم عبدالله بإعدام المطرف . بطشه بأخوته . أقوال ابن حزم فى صرامته وسفكه للدماء . صفة الأمير عبدالله وخلاله . أدبه وشاعريته . اصطفاؤه للعلماء والشعراء . شعراء العصر وأدباؤه وفقهاؤه .

لم تشغل ثورة القبائل العربية فى إشبيلية وباجة وإلبيرة وتدمير وغيرها، حكومة قرطبة عن متابعة الجهاد لإخماد ثورة المولدين . وقد كانت ثورة المولدين فى الواقع أخطر وأشد رسوخاً ، وأبعد أثراً . وقد استطاع زعيم ثورة المولدين فى الجنوب عمر بن حفصون ، أن يستغرق معظم جهود حكومة قرطبة منذ أواخر عهد الأمير محمد ، ولكن هزيمة الزعيم الثائر فى موقعة بلاى (بولى) سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) وما ترتب عليها من تضعضع قواته ، فلت من عزيمته ووضعت حداً موقتاً لطغيانه . بيد أن حكومة قرطبة لم تركن إلى هذه الهدنة المؤقتة ، فقد كانت تعرف

ابن حفصون وتعرف مبلغ خطره ، ومقدرته على العدوان والبغى ، وكان ابن حفصون من جانبه ، يعمل جاهداً لتنظيم قواه واستكمال أهبته ، لاستئناف صراعه المرير مرة أخرى .

ومن ثم فإنه لم يمض عامان على موقعة بلاى، حتى عادت الصوائف تتردد لغزو ابن حفصون ومطاردته . فى سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) سار المطرف بن الأمير عبدالله فى جند الأندلس إلى كورة ريه ، وحاصر ابن حفصون فى ببشتر معقله ، وعاث فى بسائطه . وآثر ابن حفصون فى البداية أن يستعصم بمعقله ، ثم خرج إلى لقاء المطرف فهزم ، وقتل فى هذه الموقعة حفص بن المرة أشجع قواد ابن حفصون وأشدهم مراساً[1]. فلما عادت جند الأمير إلى قرطبة ، عاد ابن حفصون يدبر خطط العدوان ، ثم جمع جموعه وزحف على إستجة ، واستولى عليها للمرة الثانية ، وذلك فى سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م)[2] . وإستجة تقع جنوب غربى العاصمة على مسافة غير بعيدة عنها ، فبادر الأمير عبد الله باستقدام الجند من النواحى ، وفى العام التالى (٢٨٥ هـ) سير ولده أبان لقتال ابن حفصون ومعه القائد أحمد بن أبى عبدة . واخترقت الحملة الجزيرة الخضراء ، وعكفت على مهاجمة الحصون الخارجية حتى وصلت إلى طريف ، ثم ارتدت إلى ببشتر ثم إلى أرشدونة ثم إلى إلبيرة وحصن شلوبانية ؛ ونشبت بينها وبين قوات ابن حفصون عدة معارك محلية ، ثم عادت إلى قرطبة عن طريق وادى آش[3] . ولكن هذه المعارك لم تسفر عن أية نتيجة حاسمة ، واقتنعت حكومة قرطبة بأنه لا بد من مضاعفة الأهبة لكى تستطيع أن تضع حداً لعدوان الزعيم الثائر .

وفى سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) عقد ابن حفصون ومحمد بن لب زعيم بنى قسى حلفاً متبادلا ، وأرسل محمد ولده لباً فى بعض قواته إلى ابن حفصون ليوثق هذا التحالف ؛ ولكن لباً لم يلبث أن تلقى نبأ موت أبيه أمام أسوار طليطلة ، فغادر ابن حفصون دون أن يبرم أمراً ، وهكذا فشل هذا التحالف قبل نضجه[4].

وفى سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) أعلن عمر بن حفصون اعتناقه للنصرانية هو وسائر

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٢ . وراجع Dozy : Hist. ; V. II, p. 84

(٢) المقتبس ص ١٠٨ .

(٣) المقتبس ١٢٢ .

(٤) المقتبس ص ١٢٧ .

أفراد أسرته ، واتخذ له إسما نصرانياً هو صمويل ، وكان أبوه قد فعل ذلك منذ أعوام ، ولم يخلص عمر بن حفصون للإسلام قط ، وكان يسرّ النصرانية دائماً ، ولم يمنعه من إعلانها سوى خوفه من تفرق أنصاره ؛ وقد تحقق ما كان يخشاه إذ هجره كثير من أنصاره ، وتبرأوا من فعلته ، وخرج عليه بعض قواده المسلمين ، وامتنعوا بحصونهم ، وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير ، واشتد السخط عليه فى سائر جنبات الأندلس ، ورأى المسلمون فى قتاله نوعاً من الجهاد[١] . وحاول ابن حفصون من جانبه ، أن يقوى مركزه بعقد محالفات جديدة ، ففاوض ألفونسو الثالث ملك ليون وبنى قسىّ ، كما فاوض بعض أمراء المغرب ، ولكن العون الحقيقى جاء من ناحية أخرى. ذلك أن إبراهيم بن حجاج سيد إشبيلية وقرمونة ، لما ساءت العلائق بينه وبين الأمير عبدالله بسبب رفضه إطلاق سراح ولده ، قطع الجزية ، وأعلن استقلاله ، وتحالف مع ابن حفصون (٢٨٨ هـ — ٩٠٠ م) ، وغدا الإثنان قوة يحسب حسابها[٢] .

وتوجست حكومة قرطبة شراً من هذا التحالف ، فبعث الأمير إلى ابن حفصون يعرض عليه شروطاً مغرية للصلح ، فقبل الثائر هذا العرض ، وبعث إلى قرطبة أربع رهائن من أصحابه ، منهم خازنه وحليفه سعيد بن مستنة الثائر من قبل فى باغة Priego[٣] . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى حدث خلاف فى تنفيذ الشروط بين الفريقين ، وعاد ابن حفصون فأعلن الخلاف وتأهب للحرب ، وعاونه حليفه ابن حجاج بقوة من الفرسان ، وسارت جند الأندلس بقيادة أحمد ابن أبى عبدة ، وخرج ابن حفصون من إستجة التى اتخذها قاعدة لملاقاته . واشتبك الفريقان فى «إستبة» الواقعة جنوبى إستجة ، على مقربة من نهر شنيل ، فهزم جند الأندلس فى البداية ، وقتل منهم بضع مئات ، ولكنهم عادوا فكروا على قوات ابن حفصون بعنف ، وأوقعوا بها هزيمة شديدة (٢٨٩ هـ — ٩٠٢ م) ، وعلى أثر ذلك أمر الأمير عبد الله بقتل رهائن ابن حفصون ، ما عدا ابن مستنة ، إذ افتدى حياته بالخضوع والطاعة . وخشى إبراهيم بن حجاج على

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ ، والمقتبس ص ١٢٨ . وراجع دوزى : Hist.; V. II. p. 84 & 85 . وكان ابن حفصون أيضاً يتكلم « الأعجمية » ، وهى الإسبانية القديمة أو الرومانش .

(٢) المقتبس ص ١٢٩ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزى : Hist., V. II. p. 86 .

ولده ، ففاوض الأمير فى الصلح ، فأجابه إلى طلبه ، وأطلق سراح ولده عبد الرحمن وعاد إلى سابق ولائه[1] .

وتوالت حملات الأمير بعد ذلك على ابن حفصون . فنى سنة ٢٩١هـ (٩٠٤م) سار أبان بن الأمير عبد الله ، ومعه القائد أحمد بن أبى عبدة إلى ريُّه ، فعاث فى تلك الناحية وهزم ابن حفصون فى عدة مواقع . وفى العام التالى (٩٠٥م) خرجت الصائفة لقتال ابن حفصون فاستولت على بعض حصونه ، وأوقعت بقواته هزيمة شديدة فى وادى بلون على مقربة من جيان ، وقتل كثير من جنده[2] . وفى سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) سارت جند الأندلس إلى ببشتر معقل الثائر ، وعاثت فى تلك المنطقة . وفى سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) سارت حملة قوية بقيادة أحمد بن أبى عبدة إلى كورة ريه ، واشتبكت مع قوات ابن حفصون فى عدة معارك شديدة ، ثم سارت شمالا إلى حصون إلبيرة وجيان وحاصرت منتلون حيناً ، وحاول ابن حفصون من جانبه أن يهاجم حصن جيان ، فردته جند الأندلس وطاردته . وفى العام التالى غزت جند الأندلس منطقة ببشتر مرة أخرى. ورد ابن حفصون بأن أغار وحليفه ابن مستنة ، الذى خلع الطاعة مرة أخرى ، على بسائط قبرة وبعض قرى قرطبة ، فلقيته جند الأندلس وهزمته . وسارت فى العام التالى (سنة ٢٩٩ هـ) حملة أخرى إلى ببشتر فعاثت فى بسائطها[3] ؛ وهكذا استمرت حملات الأندلس متوالية متلاحقة على ابن حفصون زهاء ثلاثين عاماً . وبالرغم من أن حكومة قرطبة استطاعت أن تعمل باستمرار على مناهضته وإحباط خططه وإنهاك قواه ، فإنها لم تفلح فى القضاء عليه ، وإخماد الحركة الثورية المضطرمة ، التى استطاع أن يحمل لواءها بقوة وجلد وعزم لا مثيل لها .

— ٢ —

وقد أشرنا من قبل ، إلى خروج عبدالرحمن بن مروان الجليقى بمدينة بطليوس منذ أيام الأمير محمد ، وكيف أن حكومة قرطبة فشلت فى إخضاعه ، وانتهى الأمر باستقلاله ببطليوس وما جاورها . ولما تولى الأمير عبد الله، لم ير مناصاً من

---

(١) راجع دوز : Hist., V. II. p. 86-88

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٤ .

(٣) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ — ١٥٣ .

إقراره على استقلاله بتلك القاعدة المنيعة ؛ وهكذا لبث ابن مروان سيد بطليوس بلا منازع . فحصنها وجملها ؛ وبسط حكمه على الأنحاء المجاورة ، وكان من حلفائه فى تلك المنطقة حسبما قدمنا يحيى بن يحيى بن بكر الثائر بمدينة شنتمرية الغرب[١] بولاية أكشونبة ، وعبد الملك بن أبى الجواد الثائر بمدينة باجة Beja . وكان يحيى زعيما مقداماً، فحصن شنتمرية ، وأقام بها حكومة منظمة ، وضبط الأمور وقمع أهل الشر[٢] . وفى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) نكث ابن مروان بعهده ، وعاون كريب بن خلدون الثائر باشبيلية ، على مهاجمة المدينة ونهب أحوازها . ولم يمض قليل على ذلك حتى ثار البربر فى الثغر الأدنى[٣] بزعامة محمد بن تاكيت المصمودى وزحف على ماردة فى شرقى بطليوس ، واستولى عليها ، فسارت إليه الجند من قرطبة ، فتقدم لإنجاده ابن مروان ، ولبث الحصار مدة ارتحلت بعدها جند الأمير خائبة . وكان بماردة جموع من العرب والبربر من قبائل كتامة ومصمودة ، فسعى ابن تاكيت فى إخراج العرب وكتامة منها ، واستقل بها مع شيعته . ولم يلبث أن ثار الخلاف بينه وبين جاره ابن مروان ، ونشبت بينهما الحرب، فهزمه ابن مروان وظهر عليه . ثم توفى عبد الرحمن بن مروان بعد قليل ، فخلفه فى حكم بطليوس ابنه مروان ، واشتد فى مطاردة البربر ، ولكن ولايته لم تدم سوى شهرين ، فخلفه على بطليوس حفيد لابن مروان يدعى عبد الله ، واستمر بنو مروان سادة بطليوس حتى انتزعها منهم عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وقضى على دولتهم[٤] .

وكانت طليطلة قاعدة الثغر الأوسط ، قد سقطت فى يد بنى ذى النون أيام المنذر . وكان بنو ذى النون من أكابر زعماء البربر فى تلك المنطقة ، وينتمون إلى قبيلة هوارة ، وكان زعيمهم موسى بن ذى النون قد ظهر فى عهد الأمير محمد ،

---

(١) Santa Maria de Algarve ، وهذا بخلاف شنتمرية الشرق أو شنتمرية ابن رزين التى اشتهرت أيام الطوائف وتعرف فى الإسبانية باسم Albarracin .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ .

(٣) هو فى جغرافية الأندلس عبارة عن المنطقة الغربية الواقعة بين نهر دويرة ونهر التاجه ومن مدنها قورية وقلمرية وشنترين وغيرها ، وأما الثغر الأعلى فهو عبارة عن سرقسطة وأعمالها من المدن الشمالية المتاخمة لحدود نافار وليون وقطلونية . ويشمل الثغر الأوسط طليطلة وأعمالها .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ و ١٣٤ .

واستقل بشنت برية حسبما ذكرنا من قبل . ثم زحف على طليطلة فى قوة كبيرة من البربر ، واستطاع بممالأة بعض زعمائها أن يستولى عليها ، وذلك فى سنة ٢٧٤هـ (٨٨٨م). وحكم بنو ذى النون طليطلة بضعة أعوام ، ثم غلبهم عليها محمد بن لب بن موسى كبير بنى قسىّ وزعيم الثغر الأعلى ، وكان بنو قسىّ قد فقدوا زعامتهم يومئذ فى الثغر الأعلى بخروج سرقسطة من أيديهم ووقوعها فى يد أبى يحي التجيبى حسبما نذكر بعد ، فتحولوا إلى الثغر الأوسط واستولوا على طليطلة سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٧ م) . وبعث محمد بن لب ولده لبًا إلى أحواز جيان ، فهاجم حصن قسطلونة واستولى عليه . والظاهر أن كانت ثمة لتلك الحملة علاقة بمشروع التحالف بين بنى قسى وابن حفصون حسبما قدمنا ، ولكن محمداً بن لب لم يلبث أن قتل بعد ذلك بعامين تحت أسوار سرقسطة ، وهو يحاول انتزاعها من التجيبيين [1]، ولم يستطع ولده لب أن يستمر فى حكم طليطلة فأبعد عنها حيناً . ولكن أهل طليطلة عادوا فدعوه إلى حكمها ، فبعث إليهم أخاه المطرِّف فتولى حكمها . ثم خرج عليه محمد بن إسماعيل بن موسى من أبناء عمومته ، فحكمها حتى مصرعه فى سنة ٢٩٣هـ (٩٠٦) قتيلا بيد أهلها . وعندئذ تولى حكم طليطلة زعيم من البربر المحليين هو ابن الطربيشة ، وهو حليف ابن ذى النون ، واستمر فى حكمها حتى انتزعها منه عبد الرحمن الناصر فى أوائل حكمه . واستمر بنو ذى النون أبناء موسى وهم الفتح ويحي ومطرف بعد وفاة أبيهم ، فى حكم المناطق الواقعة فى شرقى طليطلة ، مثل إقليش ووبذة ثم قلعة رباح [2] وغيرها ، إلى نهاية عهد الأمير عبد الله وأوائل عهد الناصر . وكان مطرِّف أشهرهم وأنجبهم ، وقد استمر معتصماً بوبذة حتى استنزله الناصر منها ، ثم ولاه عليها واستقام بها شأنه ، وحضر مع الناصر واقعة الخندق [3]. وكان لبنى ذى النون هؤلاء فيما بعد شأن ، وكانت لهم أيام الطوائف فى طليطلة دولة سطعت مدى حين .

أما لُبُّ بن محمد فاستقر فى تطيلة ، وكان النزاع يضطرم فى الثغر الأعلى منذ أعوام طويلة بين التجيبيين وبنى قسى .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) وهى بالإسبانية على التوالى : **Uclés, Huete, Calatrava** .

(٣) ابن حيان فى المقتبس ص ١٩ .

وتذكر لنا الرواية فى أصل نباهة بنى تجيب ، أنه لما ثار بنوقسى فى الثغر الأعلى ، واحتلوا قواعده ، نُوه للأمير محمد بن عبد الرحمن ، بأولاد عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر التجيبى ، فاستدعاهم ، وبنى لهم قلعة أيوب على مقربة من سرقسطة ، وعين لضبطها عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبى ، وبنى لهم قلاعاً حصينة فى شميط ودَرَوْقه ، وفُرتش ، ونصبهم لمحاربة بنى قسى ، وعقد لهم على قومهم ، وأجرى عليهم أرزاق الغزو . ولما انتزع الأمير المنذر سرقسطة من محمد بن لب بن موسى فى سنة ٢٧٠ هـ ، توالى عليها عمال الأمير ؛ وكان عليها فى بداية عهد الأمير عبد الله واليها أحمد ابن البرّاء ، فتظاهر محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز (وهو المعروف بأبى يحيى وبالأنقر) بمهاجمة والده عبد الرحمن والخروج عليه ، والتجأ إلى سرقسطة تحت كنف ابن البراء وحمايته ، وفى ذات يوم وثب بحاميه ابن البراء وقتله غيلة ، واستولى على سرقسطة ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) وفقاً لرواية العذرى ، أو فى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) وفقاً لرواية ابن حيان . وكان وثوب أبى يحيى الأنقر بابن البرّاء على هذا النحو ، فيما يبدو بتفاهم مع الأمير عبد الله ، إذ كان يشك فى ولاء حاكمه . ومن ثم فقد أقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها[1] .

وحاول محمد بن لُبّ أن ينتزع سرقسطة من أبى يحيى ، فهاجمها وحاصرها غير مرة ، حتى قتل تحت أسوارها سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) حسبما أسلفنا . قال ابن حيان : « وهوى نجم القسويين (بنى قسى) بعد مهلك محمد واعتورهم الإدبار ، وغشيتهم دولة الجماعة ، وجمع الثغر كله لأبى يحيى »[2] . ولبث أبو يحيى على استقلاله بسرقسطة ، حتى وفاته فى عهد الناصر سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) .

ولما توفى محمد بن لُبّ ، خلفه ولده لب فى تطيلة وما جاورها . والظاهر أنه آثر يومئذ مهادنة الأمير والانضواء تحت لوائه ، وأقره عبد الله على حكم تطيلة وطرسونة وما جاورها . وشغل لُب فى الأعوام التالية بغزو أراضى النصارى

(١) « نصوص عن الأندلس » . من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار للعذرى ص ٤١ . وابن حيان فى المقتبس ص ٨٥ و ٨٦ .

(٢) المقتبس ص ٨٧ .

المحاورة ، فغزا فى سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) أرض ليون واستولى على بعض حصونها ، وهزم ألفونسو الثالث فى معركة نشبت بينهما ، ثم غزا ناحية بليارش Pallars ، واستولى على حصون إيلاس ومولة وقشتيل ، وقتل بها كثيراً من النصارى . وفى العام التالى خرج لب لمحاصرة سرقسطة ، وخرب ما حولها من القرى ولكنه لم ينل منها مأرباً . وفى سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م) ، غزا لب ناقار وزحف على طريق بنبلونة ، فحشد سانشو (شانجه) ملك ناقار كل قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، هزم فيها لب وقتل كثير من جنده . وكان لب زعيماً مقداماً وافر الجرأة والشجاعة ، وتوفى شاباً فى الثانية والثلاثين من عمره ، فكانت وفاته ضربة شديدة لسلطان بنى قسىّ . وخلفه فى تُطيلة أخوه عبد الله بن محمد بن لب[١] ، وسار على أثره من الانضواء تحت لواء الأمير ، ومتابعة الإغارة على أرض النصارى . وهنا ظهر على مسرح الحوادث فى الثغر الأعلى زعيم جديد هو محمد بن عبد الملك بن شبريط المعروف بالطويل ، وسمى بذلك لطوله الفائق . وكان بنو شبريط أو بنو شبراط من أكبر أسر المولدين بالثغر : وكان منزلهم بوشقة وبربشتر[٢] وكان عميدهم شبريط قد ظهر فى أواخر المائة الثانية فى عصر الحكم بن هشام ، وتغلب حيناً على وشقة . ولكن بنى قسى غلبوا على تلك الأنحاء دهراً ، وحجبوا بنى شبريط وغيرهم من أعيان المولدين عن الظهور . فلما اضمحل شأن بنى قسى ، عاد بنو شبريط إلى الظهور ، واستطاع الطويل أن يستقر فى وشقة تراث أسرته ، وذلك منذ بداية عهد الأمير عبد الله ، ثم حاول أن يتوسع بالإغارة على بعض أملاك جيرانه بنى قسى ، فاستولى على لاردة ، ولكنه اضطر إلى إعادتها إلى محمد بن لب باشارة الأمير عبد الله ، ثم وقع الخلاف بينه وبين لب بن محمد على بعض الحصون المجاورة ، ونشب بينهما قتال هزم فيه الطويل . ومضت بعد ذلك عدة أعوام ، شغل فيها الطويل على ما يظهر بمحاربة جيرانه النصارى فى منطقة البرنيه ، فى أحواز ناقار وجاقة ، وسوبراتى وبليارش وغيرها . ولما توفى لب بن محمد ، رأى الطويل الفرصة سانحة لتنفيذ خطته ومشاريعه ، فزحف على أراضى بنى قسى مرة أخرى ، واستولى على لاردة وبربشتر وحصن منتشون[٣]

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و ١٤٥ ؛ وراجع دوزى Hist.; V. II., p. 93

(٢) ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٤ .

(٣) راجع ابن حيان فى المقتبس ص ٨٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ و ١٤٩ .

(٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م) وركد أمر بنى قسى فى الثغر من ذلك الحين . بيد أنهم استمروا فى بعض القواعد والحصون حتى قضى الناصر على دولتهم فى سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤م) . أما الطويل فقد قوى أمره واشتد بأسه ، وكان قد تزوج من دونيا سانشا الحسناء ابنة الكونت أسنار أحد سادة أراجون ، وحفيدة غرسية إنيجز ملك ناڤار . وتعرف الروايات النصرانية ، من جراء هذه المصاهرة ، محمداً الطويل معرفة حسنة ، وتذكره بإفاضة وتسميه « الملك الطويل »(١) . وعكف الطويل بعد ذلك على الإغارة على الأراضى النصرانية المجاورة ، فخرج فى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) إلى منطقة بليارش ، وعاث فيها وقتل كثيراً من النصارى ، واستولى على حصن روطة وهدمه ، ثم استولى على حصن منت بطروش . وفى العام التالى خرج الطويل إلى منطقة بليارش مرة أخرى ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى (٢) . ولما رأى عبد الله بن لب قوة الطويل واشتداد بأسه ، آثر مهادنته ، وفى أواخر سنة ٢٩٨هـ (٩١١م) تحالف الإثنان على غزو ناڤار والزحف إلى عاصمتها بنبلونة ، وسار كل منهما فى طريق مستقل ، وأغار الطويل على بعض الحصون ، وهدم الكنائس ، ولكنه ارتد حينما علم بأن سانشو ملك ناڤار يسير لقتاله . وغزا عبد الله فى طريقه حصوناً أخرى ، وقتل وسبى كثيراً من النصارى . وفى العام التالى (٩١٢ م) غزا الطويل أراضى برشلونة ونشبت بينه وبين صاحبها الكونت سنير Sunier معركة هزم فيها الكونت وقتل كثير من أصحابه(٣) ، ولكن الطويل لم يلبث أن قتل فى العام التالى (٣٠١ هـ — ٩١٣ م) . والظاهر أنه قتل خلال غزوة أخرى قام بها فى قطلونية(٤) ، فخلفه أولاده فى حكم أراضيه(٥) .

---

(١) نشر العلامة المستشرق ف . كوديرا بحثاً ضمنه سيرة الطويل حسبما تعرضها المصادر اللاتينية والعربية ، وذكر فيه تفاصيل كثيرة شائقة . راجع البحث المذكور فى مجلة أكاديمية التاريخ بمدريد : **Mohamed Atauil, rey moro de Huesca (B.R.A.H.) T. XXXVI (1900) p.316—24.**

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٩ و ١٥٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ .

(٤) يذكر لنا ابن عذارى تاريخ وفاة الطويل فى حوادث سنة ٣٠١ هـ . ولكنه لا يقول لنا أين قتل ومن الذى قتله (ج ٢ ص ١٧٠) .

(٥) يذكر لنا الأستاذ كوديرا فى بحثه السالف الذكر أسماء أبناء الطويل وهم أربعة من الذكور هم عبد الملك ، وعمروس ، وفورتونيو ، وموسى ، وابنة تسمى دونيا بلاسكيتا .

— ٣ —

وكان عهد الأمير عبد الله يدنو عندئذ من نهايته ، ولم تشهد الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل فترة كهذه ، عمت فيها الفتنة وسرى ضرامها إلى كل ولاية وقاعدة ، ولم ينكمش سلطان الدولة الأموية بالأندلس قدر انكماشه فى تلك الفترة . وكان على الأمير عبد الله أن يكافح دون هوادة لإنقاذ الدولة والعرش من خطر الانهيار ، فقضى حكمه الذى استطال خمسة وعشرين عاماً فى سلسلة لا نهاية لها من الفتن والغزوات والمعارك المستمرة ، مزقت خلالها أوصال المملكة ، واهتزت أسس الدولة إلى الأعماق ، ونضبت قواها ومواردها . وبالرغم من أن الأمير عبد الله لم يوفق إلى القضاء على الثورة فى سائر النواحى ، فإنه استطاع أن يقضى على الخطر الداهم ، وأن يمزق شمل الثوار ، وأن يستميل نفراً من أخطر زعمائهم ، وأن يبسط سلطان العرش من الناحية الإسمية على الأقل ، على بعض القواعد الهامة مثل إشبيلية وسرقسطة . وكان لهذه النتائج الأولى أثرها فيما بعد فى عهد خلفه عبد الرحمن الناصر ، فى التمهيد للقضاء على عناصر الثورة ، وتوطيد سلطان الدولة والعرش .

ويحاول الوزير المؤرخ ابن الخطيب أن يلقى ضوءاً على أسباب ذيوع الثورة فى الأندلس فى هذا العصر فى قوله : « والسبب فى كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه : الأول ، منعة البلاد وحصانة المعاقل ، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين ، فهم شوكة وحدٌ بخلاف سواهم . والثانى ، علو الهمم ، وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة ، أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض . والثالث ، الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم ، والمعقل الأعظم من ملِك النصارى ، الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض . فكان الأمراء من بنى أمية يرون أن اللجاج فى أمورهم ، يؤدى إلى الأضلولة ، وفيها فساد الأموال ، وتعذر الجباية ، وتعريض الجيوش إلى الانتكاب ، وأولياء الدولة إلى القتل . ولا يقوم السرور بغلبة الثائر ، بما يوازنه من ترحة هذه الأمور »(١) .

ولم تترك مقارعة الثورة لعبدالله فرصة للقيام بغزوات فى أراضى النصارى .

---

(١) أعمال الأعلام (طبع بيروت) ص ٣٦ .

وشغلت البعوث والصوائف كلها أعواماً متوالية ، بمحاربة الخوارج والثوار فى مختلف الأنحاء . ولم يقم النصارى من جانبهم بغزوات ذات شأن فى الأراضى الإسلامية : وشغل ألفونسو الثالث ملك ليون (جلّيقية) الذى خلف أباه أردونيو على العرش فى سنة ٨٦٦م بتنظيم مملكته وتوطيد حدودها ، منتهزاً فرصة الاضطراب الذى ساد المملكة الإسلامية . وكان من أعظم أعماله استيلاؤه على مدينة سمُّورة وهى من أمنع مدن الحدود الشمالية الغربية ، وذلك فى سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣م)[١]. وحصن ألفونسو سمورة وأسكنها النصارى ، واتخذها قاعدة للإغارة على الأراضى الإسلامية المجاورة ومعظم سكانها من البربر[٢]. ولما اشتدت الفتنة وعمت سائر النواحى ، ظهر فى أحواز طليطلة وطلبيرة ، أحمد بن معاوية المعروف بابن القط ، وهو من ولد هشام بن عبد الرحمن ، ودعا لنفسه بين البربر فى تلك الأنحاء ، وزعم أنه المهدى ، وكان عالماً ومشعوذاً وافر الذكاء والعزم ، فالتفت حوله جموع غفيرة من البربر ، وأعلن الجهاد وقصد إلى سمورة لافتتاحها ، وكتب إلى ألفونسو رسالة عنيفة يدعوه فيها إلى الإسلام وينذره بالويل إذا أبى . وكان ألفونسو يومئذ فى قواته على مقربة من سمورة ، فسار إلى لقاء المهدى وقواته ، ودارت الموقعة فى مخائض نهر دويرة أمام سمورة ، فهزم النصارى أولا وارتدوا ، وحاصر المهدى سمورة . ولكن حدث عندئذ أن انسحب زعماء البربر فى قواتهم خشـــية من تفوقه عليهم وغدره بهم . وصمد ابن القط فيمن بقى معه ، ثم نشبت بينه وبين النصارى موقعة ثانية قاتل فيها ببسالة حتى قتل ومزقت قواته ، واحتز رأسه وسمر فوق أحد أبواب سمورة . وكان ذلك فى شهر رجب سنة ٢٨٨ هـ (يوليه سنة ٩٠١ م) وبذا انهارت حركته ووطد ألفونسو سيادته فى تلك الأنحاء[٣] .

وكان ألفونسو الثالث يعمل على انتهاز كل فرصة لإذكاء الفتنة والاضطراب فى المملكة الإسلامية ، وكان يقصده الثوار وفى مقدمتهم عميدهم ابن حفصون ، للتحالف معه ضد حكومة قرطبة ؛ واستدعاه أهل طليطلة فى أواخر عهد الأمير

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) المقتبس ص ١٠٩ .

(٣) راجع تفاصيل حركة ابن القط وموقعة سمورة ، فى المقتبس ص ١٣٣ — ١٣٩ ، وكذلك فى ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ٩١ — ٩٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزى : **Hist.; V. II. p. 132—134.**

عبد الله ودفعوا إليه الجزية ،واستولى فى عودته على بعض الحصون . وكانت هذه أول غزوة للنصارى على ضفاف نهر التاجُه ، بيد أنها كانت غزوة عابرة ولم تخلف أثراً ثابتاً. وأما الثغر الأعلى فقد كان بنوقسيّ ، وفى مقدمتهم لب بن محمد بن لب ، يحاربون ألفونسو ويحاربهم من وقت إلى آخر .

وكان من الحوادث البارزة فى عهد الأمير عبد الله افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) . وقد رأينا فيما تقدم كيف أرسل عبد الرحمن بن الحكم فى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) حملة بحرية إلى ميورقة لغزوها ، ومعاقبة أهلها على تعرضهم لسفن المسلمين وكيف تعهد أهلها بالجزية والولاء . وفى أواخر عهد الأمير عبد الله فى سنة ١٩٠ هـ (٩٠٣م) سار عصام الخولانى إلى ميورقة فى قوة بحرية من المجاهدين ، فحاصرها تباعاً ، وكان عصام قد حملته الرياح قبل ذلك وهو فى طريقه إلى الحج إلى ميورقة فعرفها ، واختبر أحوال هذه الجزائر الغنية ، وأدرك سهولة فتحها وعرض مشروعه على الأمير عبد الله ، فأقره وأمده بالسفن والقطائع . ولما وفق إلى فتحها أقره الأمير على ولايتها . ومن ذلك الحين تدخل الجزائر الشرقية فى حظيرة المملكة الإسلامية(١) .

وكان أيضاً من الحوادث البارزة فى هذا العهد الحافل بالخطوب والمحن ، المجاعة الشديدة التى وقعت فى سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) والتى قاست الأندلس منها الشدائد والأهوال .

— ٤ —

وتوفى الأمير عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (أكتوبر سنة ٩١٢ م) فى الثانية والسبعين من عمره ، بعد أن حكم خمسة وعشرين عاماً ملؤها الاضطراب والفتن. وكان أميراً ورعاً جم التقشف والتواضع ، جواداً محباً للخير ، كثير البر بالفقراء وذوى الحاجات ، يفرز لهم سهماً من مال الجبايات(٢)، عالماً أديباً فصيحاً رفيع البيان ، ينظم الجيد من الشعر. وكان بالرغم مما شغله طوال حكمه من الفتن والخطوب ، شديد العناية بشئون الحكم وتوطيد أركانه ، وتعرف أحوال الشعب ورغباته ، وكان من أشد الناس حرصاً على

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) المقتبس ص ٣٣ و ٣٤ .

إقامة العدل ، وقمع الظلم والبغى ، وسحق الظلمة . وكان يجلس للفقراء يوماً فى كل أسبوع بباب أنشأه عند ركن القصر خصيصاً لذلك وسماه باب العدل ، ليقضى فى مظالم الناس بنفسه ، وليستمع إلى كل ذى حاجة ومظلمة ، وأنشأ باباً حديدياً يتمكن الناس بواسطته من تقديم شكاويهم وظلاماتهم حتى لا يحرم بذلك ضعيف من مخاطبته[1]. وكان لصرامته وشدة وطأته على الطغاة وأهل السلطان ، أثر كبير فى شيوع العدل فى عهده ، والحد من بغى ذوى الجور والظلم ، كما كان لبالغ تقواه وتواضعه ، واحتشامه وتقشفه فى حياته الخاصة ، وفى مظاهره وحياته الملوكية ، أثر كبير فى تقويم الأخلاق ودعم الفضيلة ، والاقتصاد فى اللهو والملاذ ، فى عصر كثرت فيه الخطوب والمحن .

وتولى الحجابة فى بداية عهد عبدالله ، عبد الرحمن بن أمية بن شُهيد حاجب أخيه المنذر ، ثم تولاها من بعده سعيد بن محمد بن السليم حيناً ، ثم عزله عبد الله فى أواخر عهده ، ولم يول أحداً من بعده لحجابته ، واقتصر فى تدبير شئون الدولة على الوزراء والكتاب ، وبالأخص على بدر الخصى الصقلبى وكان يؤثره ويوليه ثقته[2].

وكان من حسن الطالع أن استطاع الأمير عبدالله ، أن يعتمد فى مواجهة الفتنة الغامرة التى أحاقت بعرشه وملك أسرته ، على عون نفر من أكابر رجال الحرب والسياسة ، الذين أبدوا فى معالجة الخطوب مقدرة فائقة . وكان فى مقدمة أولئك الرجال بنو عَبْدة وهم من صميم موالى بنى أمية . وقد تولى عدة منهم الوزارة والقيادة للأمير عبد الله ، ومنهم عبيدالله محمد بن أبى عبدة ، الظافر فى موقعة بلاى ، وأحمد بن محمد بن عيسى بن أبى عبدة ، وسلمة بن على بن أبى عبدة ، وقد اضطلع كلاهما بقيادة كثير من الصوائف . وينسب أعظم الفضل إلى هؤلاء القادة فى مقارعة الفتنة ، وإنقاذ العرش والدولة[3]. وتولى القيادة والوزارة منهم أيضاً عبد الرحمن بن حمدون بن أبى عبدة ، وعبد الله بن محمد بن أبى عبدة ولد القائد الشهير[4]. وكان من وزراء الأمير عبد الله أيضاً ، عبد الملك بن عبد الله

---

(١) راجع المقتبس ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨ . وقد استعملت هذه الوسيلة فى كثير من العصور لإيقاف الأمير على مظالم رعاياه بطريقة مباشرة .

(٢) ابن حيان فى المقتبس ص ٤ .

(٣) المقتبس ص ٢٩ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ ، و ١٥٧ ، وأخبار مجموعة ص ١٥١ . وكذلك المقتبس ص ٦ .

ابن أمية ، وقد قتله ولده المطرف أثناء حملة إشبيلية حسبما أسلفنا . والزعيم البربرى سليمان بن وانسوس وزير أبيه من قبل ، وكان من أقدر وزرائه وأعقلهم ، عزله عن الوزارة ثم اضطر لإعادته للاستعانة بخبرته ونصحه[1] .

وكان الأمير عبد الله ، إلى جانب هؤلاء الوزراء والقادة ، الذين يمثلون العصبية العربية أو البربرية ، يعتمد على ولاء الموالى والفتيان ، ويقدم الموالى الشاميين على البلديين ، أسوة بما رتبه أبوه الأمير محمد ، وكان من زعماء الفتيان فى بلاطه ريّان صاحب الطراز ، وبدر الوصيف وزميله أفلح . وسنرى فيما بعد كيف نما نفوذ أولئك الفتيان فى بلاط قرطبة ، واستفحل فى عهد الناصر حتى غلب على كل نفوذ آخر[2] .

ورزق الأمير عبد الله من الولد إثنا عشر إبناً وثلاثة عشر بنتاً[3] . ووقعت داخل الأسرة الملكية فى عهده عدة حوادث محزنة أسبغت على اسمه وخلاله سحباً قاتمة . من ذلك مصرع ولديه محمد والمطرّف . وكان محمد أكبر أبنائه وولى عهده ، وكان أخوه الأصغر مطرف يحقد عليه ، ويرى أنه أحق بولاية العهد لما كان والده يحبوه به من ثقته ، ويعهد إليه به من جلائل الأمور والغزوات ، فما زال يدس فى حق أخيه ويغرى أباه عليه ويتهمه بممالأة الثوار ، والاتصال بابن حفصون ، حتى توجس منه أبوه الأمير شراً ، وأمر باعتقاله فى جناح من القصر . ولما تواترت الأدلة بعد ذلك على براءته ، واعتزم عبدالله إطلاق سراحه ، بادر مطرف إليه فى معتقله ، وأثخنه طعاناً حتى أجهز عليه . وهنا تختلف الرواية فيقال إن الأمير عبد الله حزن أشد الحزن لمصرع ولده الأكبر ، وهم بقتل أخيه وقاتله مطرف ، لولا أن ثناه عن ذلك رجال دولته ، ويقال من جهة أخرى إن مطرّفاً لم يرتكب جريمته إلا بوحى أبيه وموافقته[4] . وكان مصرع محمد فى شوال سنة ٢٧٧ هـ

---

(١) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦٦ و ٦٧ .

(٢) راجع الحلة السيراء ص ٦٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٣ .

(٣) يذكر لنا صاحب البيان المغرب أسماء أبناء الأمير عبد الله وبناته (ج ٢ ص ١٥٦) .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ و ١٥٧ و ١٦٠ و ١٦١ . ويقول صاحب البيان إن محمداً خرج بالفعل على أبيه ، وفر إلى ابن حفصون ، ثم عفا عنه أبوه وعاد إليه ، حتى انتهت وشاية أخيه باعتقاله (ص ١٥٤ و ١٥٥) . وذكر ابن الأثير أن الأمير عبد الله قتل ولده محمداً فى حد من الحدود (ج ٨ ص ٢٤) .

(٨٩١ م) وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، فتولى أبوه عبد الله كفالة ولده الرضيع عبد الرحمن ، وكان قد مضى على مولده ثلاثة أسابيع فقط ، وأسكنه معه فى قصره ، ولما بلغ أشده وظهرت نجابته ، عنى بتعليمه وتربيته ، وقربه إليه وأولاه ثقته ثم جعله كاتب سره[1]. وقد شاء القدر أن يخلف الطفل اليتيم فيما بعد جده على العرش ، وأن يغدو أعظم خلفاء الأندلس .

ولم تذهب جريمة المطرف دون عقاب . ذلك أنه لم تمض بضعة أعوام حتى ساءت العلائق بين مطرف وبين أبيه ، ولما سار المطرف على رأس الصائفة إلى إشبيلية فى سنة ٢٨٢ﻫ (٨٩٥ م) ، ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ، وثب المطرف بالوزير لعداوة بينهما وقتله ، وأتمر سعى خصوم المطرف هذه المرة ، وصُور لأبيه كما صور أخوه من قبل ، فى صورة الخارج عليه المتربص به ، فقضى بإعدامه ، وقطع رأسه وبذا كفر عن دم أخيه ودم الوزير[2] .

واستراب عبدالله أيضاً بإخوته ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما قيل من أن أخاه المنذر توفى قتيلا ، وأنه هو الذى أوحى إلى طبيبه بتدبير قتله . وبطش عبد الله بأخوين آخرين له هما هشام والقاسم ابنا محمد بن عبد الرحمن . فأما هشام فاتهم بالتآمر على أخيه ، فقبض عليه وقضى بإعدامه (٢٨٤ ﻫ) . وأما القاسم فقبض عليه وزج إلى السجن ، ثم دس عليه عبد الله من قتله بالسم . واعتقل كذلك عدة من أمراء بنى أمية وأكابر رجال الدولة ، وقتل بعضهم . وقد أسبغت هذه الوقائع الدموية سحابة قاتمة على خلال الأمير عبدالله وسيرته ، ولم ينجح فى محوها ورعه وزهده وحبه للخير . وقد نعى عليه الفيلسوف ابن حزم هذا الإسراف فى البطش فى أقوال استشهد بها ابن حيان وغيره من مؤرخى الأندلس ، وجاء فيها أن الأمير عبدالله « كان قتالا تهون عليه الدماء ، مع الذى كان يظهره من عفته ، فإنه احتال على أخيه المنذر على إيثاره إياه ، وأوطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذى فصده به وهو نازل بعسكره على ابن حفصون ، فكانت فيه منيته وتطوق دمه . ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد آخر ، محمداً والد الخليفة الناصر لدين الله ،

---

(١) المقتبس ص ٤٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ .

وأخاه عدوه المطرف؛ ثم قتل أخوين له معاً أيضاً ، قتل هشاماً بالسيف ، والقاسم أخاه بالسم ، إلى من قتله غيرهم »[١] .

وتجمل الرواية خلال الأمير عبدالله وصفاته فى العبارات الآتية : « وكانوا يعدونه من أصلح خلفاء بنى أمية بالأندلس ، وأمثلهم طريقة ، وأتمهم معرفة ، وأمتنهم ديانة ، لكنه كان منغص الحال بدوام الفتنة ، وتضييق نطاق الخطة ، ونقصان مقدار التزكية ، حتى كان يتخلله الرياء تحت قناع تقواه ، والبخل يطوقه طبيعة ليست له تحط من قدره »[٢] ويزيد ابن حيان على ذلك قوله : « وغمصوا دينه بما كان من هو ن الدماء عليه ، وإسراعه إلى سفكها ، حتى من ولديه وإخوته ومن خلفهما من صحابته ورعيته ، أخذاً لأكثرهم بالظنة ، مقوياً فى إيثامهم بالشبهة »[٣] .

وكان للأمير عبدالله بالرغم من هذا الجانب المظلم ، خلال مشرقة ، منها أدبه وفصاحته وشاعريته. وتنوه الرواية بهذه الموهبة فيقول لنا صاحب أخبار مجموعة، إن الأمير عبد الله كانت له توقيعات بليغة ، وأشعار بديعة فى الغزل والزهد ، لا يكاد أن يقع مثلها أو تنسب إلى من تقدمه نظيرها[٤] . ويقول ابن حيان « كان متصرفاً فى فنون ، متحققاً منها بلسان العرب ، بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب من الأخبار ، آخذاً من الشعر بحظ وافر »[٥]. ويقول صاحب البيان المغرب إنه كان شاعراً مطبوعاً له أشعار حسان[٦]، ومن شعره فى الغزل قوله :

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ... ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها ... بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتى به ... فى مجلس يخفى على من معك

(١) راجع نقط العروس لابن حزم ص ٨٧ و ٧٩ ، والمقتبس ص ٤١ ، وكذلك ص ١٢٢ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ و ١٦١ .

(٢) ابن حيان ، نقلا عن عيسى بن أحمد الرازى ، فى المقتبس ص ٣٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) المقتبس ص ٣٩ .

(٤) أخبار مجموعة ص ١٥٢ .

(٥) المقتبس ص ٣٤ .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٩ .

كم حاجـة أنجـزت إبرازها　　تبـارك الرحمن ما أطوعـك

وقوله :

ويحى على شـادن كحيـل　　فى مثـله يخلع العـذار
كأنمـا وجنتـاه ورد　　خالصـة النور والبهـار
قضيب بان إذا تثـنى　　يـدير طرفاً به أحوار
فصفو ودى عليـه وقف　　ما اطّـرد لليـل و النهـار

ومن قوله فى الزهد :

يا من يراوغـه الأجـل　　حتى م يلهيـك الأمـل
حتى م لا تخشى الـردى　　وكأنه بك قـد نـزل
أغفلت عن طلب النجـاة　　ولا نجـاة لمـن غفـل
هيهـات يشـغلك المـنى　　ولا يدوم لك الشـغل
فـكأن يومك لم يـكن　　وكأن نعيـك قد نزل

وكان يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويعظمهم ويقربهم ويستدعيهم ، ويرتاح لمديحهم . قال ابن حيان : « وكان مجلس الأمير عبدالله قبل الخلافة وبعدها ، أعمر مجالس للفضائل ، وأنزهها من الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعالم » . وكان فى مقدمة أصدقائه وجلاسه زعيم شعراء العصر ، أبو عمر أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ؛ وكان شاعر الدولة الأموية ، ومادح أمرائها منذ الأمير محمد حتى الناصر ؛ وموسى بن محمد بن حُدير المعروف بالزهد ؛ وسعيد بن عمرو العكى ؛ وعبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدى ، وسعيد ابن عبد ربه ابن أخى صاحب العقد ؛ وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب . وكان من أخص وزرائه فى تلك المجالس العلمية ، الوزيران العالمان الأديبان عبد الملك بن جَهور ، وعبد الملك بن شُهيد . وكان من عادته أن يلجأ إلى العلماء وأهل الرأى فى المشورة ، ويستعين بآرائهم وأحكامهم فيما يواجه من أحداث وخطوب ؛ وكان بقىّ بن مخلد فقيه العصر وأعظم علمائه أكثرهم حظوة لديه ، وكان يبجله ويزوره فى داره ، ويقتبس منه ، ويستمع لنصحه[1] .

(١) المقتبس ص ٣٤ و ٣٨ و ٤١ و ٤٢ .

ولم يتسع عهد الأمير عبد الله الفياض بالثورات والفتن للأعمال الإنشائية ، بيد أنه يمكن أن نذكر من منشآته القليلة «الساباط» الموصل بين القصر والمسجد الجامع ، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبنى فوق عقد كبير يفضى من القصر إلى الجامع ، ويتصل به على مقربة من المحراب .

وكان الأمير عبد الله بن محمد ، أبيض ، أصهب ، مشرباً بحمرة ، أزرق العينين ، أقنى الأنف ، يخضب بالسواد ، إلى الطول أميل[1]. ووصفه ابن حيان بقوله : « كان جميل الطلعة ، ضخماً ، مهيباً ، نبيلا »[2] .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ .
(٢) المقتبس ص ٣٦ .

الفصل الخامس

المملكة الإسـبانية النصرانية

خلال القرن التاسع الميلادى

ألفونسو الثانى ملك جليقية . النضال بين الأندلس وبين المملكة النصرانية . موقعة الصخرة . غزو ألفونسو للأراضى الإسلامية . غزو الحكم لجليقية . غزو المسلمين لألبة والقلاع . راميرو الأول . الحرب الأهلية فى جليقية . غزو محمد بن عبد الرحمن لجليقية . وفاة راميرو وولاية ولده أردونيو . تحالف أردونيو مع الثوار المسلمين . غزو الأمير محمد لألبة والقلاع . التحالف بين موسى بن موسى وملك ناڤار . الحرب بين أردونيو وبنى قسى . هزيمة موسى ومصرعه . تحالف لب بن موسى مع أردونيو . غزو أردونيو لأراضى المسلمين . غزوة المنذر بن محمد لناڤار . غزوات أخرى لألبة والقلاع . وفاة أردونيو وولاية ولده ألفونسو الثالث . الحرب الأهلية فى جليقية . اتساع المملكة النصرانية فى عهد الفونسو الثالث . توغله فى أراضى المسلمين . عقد السلم بينه وبين محمد بن عبد الرحمن . أحوال المملكة النصرانية . نفوذ الكنيسة فى توجيه العرش الإسبانى . معارك بين المسلمين والنصارى . الثورة ضد ألفونسو . نزوله عن العرش . وفاته وخلاله . مملكة ناڤار . أصلها ونشأتها . مدافعة البشكنس عن استقلالهم . تحالف ناڤار مع بنى قسى . المصاهرة بين الأسرتين . التنافر بين ناڤار وليون . سانشو ملك ناڤار . الحرب بين سانشو وبنى قسى .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن نشأة المملكة الإسبانية النصرانية عقب افتتاح المسلمين لاسبانيا ، وكيف نمت هذه المملكة الوليدة المحتجبة فيما وراء الجبال الشمالية ، بخطوات بطيئة ولكن ثابتة ، وكيف شغل عنها ولاة الأندلس فلم ينهضوا لسحقها ، انتقاصاً لشأنها وخطرها ، حتى غدت فى أواخر القرن الثامن عاملا يحسب حسابه ، وبدأت حكومة قرطبة تنظر إلى هذه القوة الجديدة التى توالت غزواتها للأراضى الإسلامية بعين الاهتمام والتوجس ، وتخصص لمقارعتها شطراً كبيراً من جهودها ومواردها .

وقد انتهينا فى أخبار هذه الحقبة من تاريخ المملكة الإسبانية النصرانية ، إلى عصر ألفونسو الثانى الملقب بالعفيف ، الذى تولى الملك سنة ٧٩١ م (١٧٥ هـ) .

وكان ألفونسو الثانى ملكاً حازماً مقداماً ، فضبط المملكة ونهض بها نهضة شاملة ، وحصن ثغورها وقواعدها ، وعمل على تحسين شئونها الاجتماعية ، وجعل عاصمتها مدينة «أوبييدو» Oviedo . وكانت مملكة جلّيقية أومملكة أشتوريش (أستورياس) كما كانت تسمى يومئذ ، تمتد من ولاية بسكونية شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا حتى نهر دويرة جنوباً ، ولكنها لم تكن عندئذ كما كانت أيام ألفونسو الكاثوليكى تشمل ولاية ناڤار أو بلاد البشكنس ، التى استطاعت أن تستقل بنفسها ، وقامت بها غير بعيد مملكة نصرانية مستقلة أخرى .

واستطال حكم ألفونسو الثانى زهاء نصف قرن . عاصر فيه ثلاثة من أمراء الأندلس ؛ هم هشام بن عبد الرحمن ، وولده الحكم ، وحفيده عبد الرحمن ، وتوالت فيه مراحل النضال بين الأندلس والمملكة النصرانية ، فنشبت الحرب بينهما مراراً عدة ، وتبادلا الغزو كلٌ لأراضى الآخر مراراً ؛ وكانت أهم الأحداث البارزة فى حلقات هذا النضال ، هزيمة الجلالقة والبشكنس بقيادة ألفونسو الثانى على يد المسلمين فى موقعة الصخرة فى قاصية جليقية فى سنة ٧٩٥ م (١٧٩ هـ) . وفى سنة ٨١٠ م (١٩٣ هـ) فى عهد الحكم بن هشام عبر ألفونسو الثانى بقواته نهر دويرة ، وغزا الأراضى الإسلامية ، وتوغل فى سيره حتى قُلُمرية وأشبونة ، وعاث فى تلك الأنحاء أيما عيث ، ورد الحكم على ذلك بنفسه فى صيف العام التالى غازياً إلى جليقية ، وتوغل فى منطقة وادى الحجارة ، وأثخن فى تلك الأنحاء عقاباً للنصارى وزجراً لهم على عدوانهم .

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت الجيوش الأندلسية ، بقيادة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فى سنة ٨٢٣ م (٢٠٨ هـ) ، غازية إلى ألبة والقلاع ، على أثر غزو ألفونسو الثانى للثغر الأعلى ، وإغارته على مدينة سالم ، وهزم المسلمون النصارى فى عدة مواقع ، وعاثوا فى أراضى جلّيقية ، وخربوا مدينة ليون ، وأملوا على النصارى صلحاً شديداً قاسياً[1] .

ولما توفى ألفونسو الثانى فى سنة ٨٤٢ م ، خلفه على العرش ولده راميرو الأول أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية . على أنه لم يخلفه دون نضال . ذلك أن

---

(١) راجع فى تفاصيل الحروب والغزوات المتقدمة « دولة الإسلام فى الأندلس » الفصل السابع من القسم الأول من الكتاب الثانى ص ٢٠٨ وما بعدها ، وكذلك المراجع .

راميرو حينما توفى أبوه كان فى ولاية بردوليا الشرقية ، التى عرفت فيما بعد بقشتالة (كاستيليا Castilla) نظراً لكثرة قلاعها ، يرقب حركات المسلمين . وكان عبد الرحمن بن الحكم يقوم عندئذ بغزوته الكبرى فى الثغر الأعلى ، ويثخن فى بلاد البشكنس ، وكان ألفونسو يخشى أن يتدفق هذا السيل المخرب إلى أحواز جليقية ، ولكن عبد الرحمن ارتد إلى قرطبة بعد أن غزا بنبلونة ، وخربها ، وسحق البشكنس وحلفاءهم ثوار الثغر الأعلى . وتوفى ألفونسو بعد ذلك بقليل ؛ فوثب فى أوبييدو زعيم من الأشراف يدعى الكونت ريوتيانوس واستولى على العرش ؛ وعلم راميرو بذلك وهو فى بردوليا فهرع إلى جليقية ، وجمع جيشاً فى مدينة « لك » وسار إلى أشتوريش ليقاتل المغتصب . ولقيه ريوتيانوس فى قواته على ضفاف نهر نارسياس ، وما كادت المعركة تضطرم بين الفريقين ، حتى هجر ريوتيانوس معظم جنده ، وهزم هزيمة شديدة ، وقبض عليه ، وسملت عيناه ، واعتقل بقية حياته فى أحد الأديار ؛ واسترد راميرو عرشه ، وأطاعته سائر جليقية وأشتوريش .

ولكن علاقة العرش بالأشراف لبثت على توترها ، ولم تمض أعوام قلائل حتى دبر الأشراف ثورة جديدة ضد راميرو (٨٤٥ م) . ثم تلتها فى سنة ٨٤٨م ثورة أخرى ، واستطاع راميرو فى كل مرة أن يخمد الثورة ، وقبض على معظم الزعماء والخوارج وأعدم الكثير منهم .

ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن حكومة قرطبة كانت فى معاملتها للزعماء الخوارج عليها ، تبدو أكثر اعتدالا وتسامحاً . فقد كانت تعفو أحياناً عن الثوار ، وكانت تؤثر اصطناع القادرين والأكفاء منهم ، وكانت فى عقابهم أقل قسوة ونكالا . وقد يرجع ذلك إلى ظروف الأحوال فى الأندلس ، فقد كانت الثورات شعبية أو قبلية على الأغلب . أما فى جليقية فكان زعماء الثورة من الأشراف والزعماء الإقطاعيين الأقوياء ، وكان خطرهم على العرش أشد وأدعى إلى التوجس والحذر(١) .

وشغلت المملكة النصرانية فى بداية عهد راميرو ، كما شغلت المملكة الإسلامية ، برد خطر النورمانيين الذين فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة فى سنة ٨٤٢ م حسبما

---

(١) Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien, B. I. s. 263

أسلفنا . وشغلت حكومة قرطبة بالأخص حيناً بتحصين أطراف المملكة ، وإصلاح ما تخرب من أعمالها . وما كاد أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ينتهى من ذلك ، حتى نشط إلى استئناف غزو المملكة النصرانية ورد غارات النصارى ، فسير ولده محمداً فى سنة ٨٤٧م إلى جليقية فاخترق بسائطها ، وحاصر مدينة ليون ، وعاث فى تلك المنطقة . وتقول بعض الروايات النصرانية ، إن المسلمين التقوا براميرو على مقربة من مدينة سالم ، وهزموه هزيمة شديدة ، واستولوا على عدد من الحصون ، وعلى كثير من الغنائم والأسرى . وفى رواية أخرى أن راميرو التقى بالمسلمين على مقربة من كلاڤينجو بجوار قلهرّة ، وأنه هزمهم بالرغم من قلة جنده ، وتنسب هذا النصر إلى خرافة خلاصتها أن راميرو رأى القديس ياقب فى نومه ليلة المعركة ووعده بالنصر (١). على أن الروايات الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة وهذا النصر المزعوم .

وأنفق راميرو بقية عهده القصير فى العمل على تنظيم شئون مملكته وتوطيد الأمن فيها ، وأنشأ عدداً من الكنائس والأديار ، ثم توفى فى ديسمبر سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام نحو ثمانية أعوام ، تاركاً عرش أشتوريش وبردوليا لولده أردونيو.

— ٢ —

وتولى أردونيو عرش المملكة النصرانية عقب وفاة أبيه بقليل ، وبدأ أعماله بتحصين المدن المتاخمة لحدود المسلمين ، مثل تودة وليون وأسترقة ، وأصلح باقى القلاع والحصون تأهباً للدفاع ، وأخمد الثورة فى ولاية بسكونية ، وفرض عليها سلطانه . ولما ظهرت أعراض ثورة المولدين فى الأندلس فى بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقامت طليطلة بثورتها على حكومة قرطبة ، أرسل أردونيو مدداً إلى الثوار ، ولكن جيش الأندلس هزم الثوار وحلفاءهم النصارى فى موقعة وادى سليط شر هزيمة (٨٥٤ م) . وفى العام التالى غزا الأمير محمد ألبة والقلاع وعاث فيها ، ولكن الأندلس شغلت بعد ذلك بظهور النورمانيين وغزوهم لثغور الأندلس وبسائطها القريبة ، فوقف سير الصوائف إلى الشمال بضعة أعوام .

ولكن أردونيو كان يواجه عندئذ خطر قوة جديدة ، أخذت تنمو وتشتد فى الولايات الشمالية . ذلك أن موسى بن موسى بن قسىّ ، استطاع أن يبسط سلطانه

---

(١) Aschbach : ibid , B. I. s. 259.

على الثغر الأعلى ، وأن ينشئ فيه إمارة مستقلة قوية ، واقترن غرسية أمير ناڤار بابنة موسى وتحالف معه ، ليستعين به على مقاومة المسلمين ، ومقاومة جيرانه النصارى من الغرب . وفى أوائل عهد الأمير محمد ، عبر موسى جبال البرنيه بقواته ، وغزا جنوبى فرنسا ، واضطر ملكها شارل الأصلع إلى مهادنته ومسالمته ، وأغدق عليه الهدايا والتحف. ولما رأى أردونيو نهوض قوة موسى وخطرها عليه ، اضطر أن يسعى إلى محالفته ، ولكنه ما لبث أن تركه مغضباً إذ كان موسى يؤازر البشكنس الثائرين عليه بتحريض صهره أمير ناڤار ، ولم ير أردونيو فى النهاية بدأ من مخاصمة موسى ومحاربته ، وهاجم أردونيو بعض الحصون الغربية التابعة لموسى ، فسار موسى لقتاله ومعه صهره غرسية ملك ناڤار فى قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها موسى وجرح وقتل صهره غرسية . ثم توفى موسى متأثراً بجراحه (٨٦٢ م) . وكانت ضربة شديدة أصابت سلطان بنى قسى فى الشمال . ولما شعر لب بن موسى عقب وفاة أبيه بقوة المملكة النصرانية ، وخطرها ، على سلطان أسرته ، سعى إلى مهادنة أردونيو ومحالفته على قتال المسلمين ، وردهم عن الولايات الشمالية .

وانتهز أردونيو فرصة اشتغال حكومة قرطبة بأمر النواحى الثائرة ، فعبر نهر دويرة بقواته ، وغزا مدينة قورية وأسر واليها ، ثم غزا شلمنقة ، وهزم المسلمين ، وعاث فى تلك الأنحاء[١]. فسير محمد جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فاخترق ألبة والقلاع ، وهزم النصارى فى كل موطن ، ووصل إلى بنبلونة ، وعاث فى نواحيها . وتوالت حملات الأندلس بعد ذلك على ألبة والقلاع ، ونشبت بين المسلمين وأردونيو معارك متعاقبة ، هزم فيها النصارى جميعاً حسبما فصلنا ذلك فى موضعه[٢] . وأراد محمد أن يقضى نهائياً على مملكة جليقية فسير السفن إلى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ووصل الأسطول الأندلسى بالفعل إلى مصب نهر منهو ، ولكن العواصف ثارت وحطمت السفن ، وفشل المشروع فى المهد (٨٦٦ م) .

ولزم أردونيو عقب هزائمه المتوالية السكينة بقية عهده ، ثم توفى فى شهر مايو

---

(١) Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II. p. 366.

(٢) راجع تفاصيل هذه المعارك فى أخبار أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن (ص ٢٩٤ — ٢٩٩ و ص ٣١١) .

سنة ٨٦٦م ، واختار قبيل وفاته ولده البكر ألفونسو لولاية عهده ، فخلفه على العرش باسم ألفونسو الثالث ولما يبلغ الرابعة عشر من عمره .

— ٣ —

وما كاد الملك الفتى يجلس على العرش ، حتى ثار عليه الكونت فرويلا حاكم ولاية جليقية وولد الملك برمند ، مطالباً بالعرش ، وسار فى قواته إلى أوبييدو ، ففر ألفونسو إلى ولاية ألبة ، واستولى فرويلا على القصر ، وأعلن نفسه ملكاً . ولكن الأشراف القوط الذين يرون فى العرش رمزهم وملاذهم ، لم يرقهم هذا الاغتصاب ، فثاروا على فرويلا وقاتلوه حتى قتل ، وعاد ألفونسو إلى أوبييدو ظافراً واسترد عرشه .

ولم يمض قليل على ذلك حتى دبر أخوة ألفونسو ، وهم فرويلا ونونيو وبرمند وأدڤاريوس مؤامرة لعزله وانتزاع العرش منه ، ولكن المؤامرة افتضحت قبل نضجها ، وقبض ألفونسو على أخوته وعاقبهم بسمل أعينهم واعتقالهم ، ولم ينج من بطشه سوى برمند إذ فر إلى أسترقة واستولى عليها ، واستطاع بمؤازرة المسلمين أن يستقل بحكمها بضعة أعوام(١) .

وكان حكم ألفونسو الثالث الذى استطال أربعة وأربعين عاماً ، فاتحة عهد جديد من القوة والنهوض بالنسبة للمملكة النصرانية ، وكان ألفونسو أميراً وافر العزم والكفاية ، فاستطاع خلال حكمه الطويل بالحروب والزواج أن يدفع حدود مملكته حتى جبال البرنيه شرقاً ؛ وعبر نهر دويرة إلى أراضى المسلمين مراراً ، ووصل فى غزواته إلى ضفاف التاجُه ، وغزا عدة من المدن الإسلامية المتاخمة مثل ماردة وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يضم هذا البسيط إلى مملكته ، فانه استطاع أن يشدد الضغط على الأندلس من هذه الناحية ، وأن يرد تيار الغزوات الإسلامية . وفى سنة ٨٧٨ م حاول المسلمين غزو ليون وأسترقة ، فبادر ألفونسو إلى لقائهم ، وهزمهم فى موقعتين على مقربة من سمورة ، وأرغم أخاه برمند على الفرار من أسترقه ، والالتجاء إلى المسلمين . وفى سنة ٨٨١م غزا ألفونسو أراضى المسلمين وعبر دويرة والتاجه ، ووصل فى زحفه حتى أحواز ماردة ووادى أنة ، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه . وتقول الرواية النصرانية

---

(١) Crónica General : ibid. Vol. II. p. 376 — Aschach : ibid. B. I. s. 301

أنه التقى بالمسلمين عند سفح جبل أريفر من جبال سيرّا مورينا (جبل الشارّات) وهزمهم وقتل منهم عدة آلاف وهى موقعة لم تشر إليها الروايات الإسلامية[1] .

وكانت ريح الثورة تهب يومئذ على معظم جنبات الأندلس ، وتشغل حكومة قرطبة بمقارعة بنى قسى فى الثغر الأعلى . وتحالف محمد بن لب زعيم الأسرة الثائرة مع ألفونسو الثالث ، ليستعين به على قتال المسلمين ، ولكن المسلمين نجحوا فى انتزاع سرقسطة معقل ابن لب ، وزحفوا على ألبة لمقاتلة النصارى ، وعندئذ آثر ألفونسو أن يعقد السلم مع المسلمين ، وعقدت بالفعل بينه وبين الأمير محمد بن عبد الرحمن حسبما فصلنا من قبل ، معاهدة صلح استمرت ردحاً طويلا .

ذلك أن ملك النصارى رأى بالرغم مما كان يشغل حكومة قرطبة من ثورات متعاقبة ، أن يقنع بتأمين حدوده وأراضيه من خطر الغزو الإسلامى ، وأن يتفرغ لشئون مملكته الداخلية ، وكانت هذه الشئون تستغرق جل اهتمامه ، وكانت الأزمات والقلاقل السياسية والاجتماعية تتعاقب ، لأسباب وبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصرانى وظروفه . وقد وقعت فى عهد ألفونسو عدة ثورات محلية ترجع بالأخص إلى المبالغة فى فرض الضرائب على الضياع ، وثار أصحاب الضياع لهذا الجور غير مرة فى أنحاء مختلفة ، وطالبوا بالحد من تغريمهم على هذا النحو لصالح الكنيسة ورجال الدين ، ولكن هذه الثورات الإقطاعية أخمدت تباعاً ، وصودرت معظم الضياع لصالح الكنيسة ، واستمر العرش فى الإغداق على الأديار ورجال الدين .

ومما تجدر ملاحظته أن الملوكية الإسبانية ، كانت تدين منذ نشأتها بمنتهى الولاء والطاعة للكنيسة وللكرسى الرسولى . وكانت البابوية تتمتع فى توجيهها بأعظم نفوذ . وكان العرش الإسبانى يشعر دائماً بأنه يستمد سلطانه من الكنيسة ، ويرجع إلى البابوية فى كل أمر يمس شئون السلطة الروحية . ومن ذلك أن ألفونسو الثالث كتب إلى البابا يوحنا الثامن يستأذنه فى عقد المؤتمر الكهنوتى وتعيين الأساقفة ، فأذن له ، وطلب إليه أن يبعث بفرقة من الفرسان للمعاونة فى محاربة المسلمين فى صقلية وجنوبى إيطاليا . وعقد المؤتمر الكهنوتى بالفعل فى أوبييدو سنة ٨٧١ م ونظمت فيه شئون الكنيسة الإسبانية . وكان ألفونسو الثالث ملكاً تقياً ورعاً ، وكانت

---

(١) Aschbach : ibid , B. I. s. 303

الكنيسة ورجال الدين يحظون منه بأوفر قسط من الرعاية والإغداق ، وكان هذا الجود المغرق يحمله على الإسراف فى فرض الضرائب على الطوائف المدنية ، وبذا يبث إليها بذور السخط والانتقاض(١) .

وفى أواخر عهد ألفونسو نشبت الحرب بينه وبين بنى قسىّ سادة الثغر الأعلى ، وأغار زعيمهم محمد بن لب غير مرة على أراضى المملكة النصرانية وناڤار . وكذلك نشبت الحرب بين ألفونسو وبين ابن القط المعروف بالمهدى الذى تزعم البربر فى منطقة سمورة حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . ولكن هذه المعارك التى وقعت يومئذ بين المسلمين والنصارى لم تتسم بالطابع الرسمى ، وكان يضطلع بها الزعماء الخوارج على حكومة قرطبة ، ومن ثم فقد استمر التهادن بين حكومة قرطبة وبين المملكة النصرانية طوال عهد الأمير محمد ، فإبنه الأمير المنذر ، ثم أخيه الأمير عبد الله . وبالرغم من أن ألفونسو لم يكن يترك فرصة لإذكاء الفتنة فى المملكة الإسلامية وتعضيد الخوارج عليها ، فإنه التزم عهده المعقود معها ، ولم يقم بغزوات ذات شأن فى الأراضى الخاضعة لها .

ودبرت عدة مؤامرات لخلع ألفونسو وانتزاع العرش منه . وكان المتآمرون من خاصة أسرته . وحاول المتآمرون لأول مرة تمكين أولاده وزوجه خمينا من الحكم ، ولكن ألفونسو استطاع أن يقف على المؤامرة وأن يقضى عليها . وقبض على ولده غرسية واعتقله فى قلعة أوبييدو . ولكن هذا الفشل لم يفت فى عضد المتآمرين ، فدبروا مؤامرة جديدة برياسة الملكة خمينا ، وهى امرأة ذات أطماع تهيم بالسلطان ، واشترك فى تدبيرها الكونت نونيو صاحب برغش وأولاد الملك الثلاثة وهم : أردونيو وفرويلا وجند سالڤوس ، وانضم إليهم قسم من الجيش وفريق كبير من الشعب ، وسيطروا على كثير من المعاقل . وخشى ألفونسو عاقبة الحرب الأهلية فقبل شروط الثوار ، ونزل عن العرش لولده الأكبر غرسية ، وعين أردونيو حاكماً لجليقية ، وفرويلا حاكماً لأشتوريش ، ووقع ذلك فى سنة ٩١٠م ، وبذا اختتم ألفونسو عهده الذى استطال أربعة وأربعين عاماً . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى فى شهر اكتوبر من نفس العام وقد جاوز الثامنة والخمسين من عمره(٢) .

---

(١) Aschbach : ibid, B. I. s. 346 & 352

(٢) Crónica General: ibid, Vol. II. p. 382

وتشيد الرواية بخلال ألفونسو الثالث ، وتصفه بالحزم والشجاعة ، وتقول لنا إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين شديد الوطأة فى محاربتهم ، ولكنه حينما عقد السلم مع حكومة قرطبة احترم عهده والتزم الوفاء به . وكان ألفونسو فى الوقت نفسه نصيراً للآداب والعلوم يجزل صلاته لأهل العلم ، وكان من سعة أفقه أن عهد بتربية ولده أردونيو إلى بعض العلماء المسلمين[١] ، وكان حسبما أسلفنا تقياً ورعاً يخص الكنيسة بأوفر رعايته وعطائه ، وقد أنشأ كثيراً من الكنائس والأديار ، وابتنى كنيسة شنت ياقب الشهيرة . وقد رأينا كيف حمله إسرافه فى الإغداق على الكنيسة ورجال الدين ، على المبالغة فى فرض الضرائب على الضياع ، فكان ذلك من عوامل الإنتقاض والثورة على سياسته ؛ وبذل ألفونسو جهوداً كبيرة فى تحصين مدن الحدود ، وفى مقدمتها برغش وسمورة وسيمانقة (شنت منكش) ، وزودها بالسكان والجند ، لكى تغدو سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين .

ومنذ وفاة ألفونسو تسمى المملكة الإسبانية النصرانية مملكة ليون ، بعد أن كانت تسمى مملكة أشتوريش وجلِّيقية ؛ وقد نقل ابنه وخلفه غرسية قاعدة المملكة من أوبييدو إلى مدينة ليون لتوسط موقعها بين جلِّيقية وأشتوريش ؛ وتسبغ الرواية النصرانية على ألفونسو الثالث لقب (ألفونسو الكبير El magno) ، لما امتازت به المملكة النصرانية فى عهده من القوة والنهوض والاتساع ، وما تمتعت به خلال عهده الطويل من السلم والرخاء .

— ٤ —

إلى جانب مملكة أشتوريش أو مملكة ليون الإسبانية الشمالية ، كانت تقوم فى غربى البرنيه فى بلاد البشكنس الجبلية ، إمارة أو مملكة نصرانية أخرى هى مملكة نافار (نبرّة) . ويحيط الغموض بأصل هذه المملكة الصغيرة ونشأتها . وكل ما نعرفه من ذلك هو أن قبائل البشكنس ، كانت حتى أواخر القرن الثامن الميلادى تخضع لبعض السادة الإقطاعيين التابعين لمملكة الفرنج ، وربما حكمها دوقات كانتابريا أو أمراء أشتوريش . وكانت قاعدتهم مدينة بنبلونة الحصينة ، التى حكمها المسلمون ردحاً من الزمن ، ثم فقدوها فى أواخر القرن الثامن أيام غزوات الفرنج لاسبانيا الشمالية . وكانت بلاد البشكنس أو نافار منذ الفتح ميداناً للغزوات

---

(١) Aschbach : ibid , B. I. s. 352

الإسلامية والفرنجية . وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضمها إلى المملكة النصرانية . ولكن قبائل البشكنس كانت تتفانى دائماً فى الذود عن استقلالها . ولما شغلت المملكة النصرانية بمنازعاتها الداخلية ، لبثت نافار مدى حين مقصد الصوائف الإسلامية ، واجتاحها المسلمون مراراً .

وفى نهاية القرن الثامن الميلادى فى نحو سنة ٧٩٩ م ، ظهر فى نافار زعيم من السادة يدعى أزوار وجعل نفسه أميراً مستقلا . ولما توفى سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه سانشو . ولكن أميراً آخر من الزعماء البشكنس هو غرسية إنيجيز بن إنيجو أريستا تغلب عليه وانتزع منه الإمارة . وتعرف الرواية الإسلامية إنيجو أريستا هذا وتسميه « ونقه بن شانجه ملك البشاكسة »[1]. وهنا تبدو نافار لأول مرة فى صورة المملكة المستقلة ، ويبدأ ثبت ملوكها المتعاقبين . ومما يجدر ذكره أن مملكة نافار الناشئة ، رأت أن ترتبط برباط التحالف والمصاهرة مع إمارة إسلامية مجاورة هى إمارة بنى قسىّ سادة الثغر الأعلى ، وهم حسبما قدمنا يرجعون إلى أصل نصرانى أو قوطى . وقد تزوج إنيجو أريستا رأس الأسرة النافارية بأرملة موسى بن فرتون ابن قسى ، وتزوح موسى بن موسى من إبنة غرسية إنيجز ، وتزوج غرسية وإخوته من بنات لب بن موسى بن فرتون ، وتزوج بعض إخوة موسى وأبنائه من بنات أمراء نافار[2] .

وهكذا كانت وشائج التحالف والمصاهرة تربط بين الأسرتين المسلمة والنصرانية ، وتوثقت هذه الوشائج واستطالت دهراً . وكذلك رأى غرسية إنيجيز أن يتحالف مع عمر بن حفصون زعيم الفتنة فى الأندلس . وكانت علائق نافار بجارتها المملكة النصرانية الكبيرة أو مملكة ليون يشوبها الكدر . ذلك أن مملكة نافار الصغيرة كانت دائماً تخشى مطامع ليون وغدرها ، وقد حارب غرسية إنيجيز أردونيو ملك ليون ، إلى جانب صهره موسى بن موسى ، فى موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م حسبما أسلفنا .

وخلف غرسية ولده فرتون الذى لبث أسيراً فى قرطبة ردحاً طويلا . ثم خلفه ولده سانشو غرسية . وفى رواية أن سانشو هذا لم يكن ولداً لفرتون أو لغرسية

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٨ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٨ .

ولم يكن من أمراء البيت المالك ، ولكنه متغلب من نوع آخر انتزع الملك لنفسه . وعلى أى حال فقد استقر سانشو غرسية ملكاً على ناڤار . وهو أول من تلقب من أمراء ناڤار بألقاب الملك ، وبه تبدأ مملكة ناڤار الحقيقية . وقد حكم سانشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض مع المسلمين أيام الأمير عبدالله عدة حروب ووقائع ، وشغل حيناً بقتال بنى قسى الذين تصرمت علائقهم مع مملكة ناڤار ، وهاجم لب ابن محمد بن لب زعيم بنى قسى ناڤار غير مرة ، ونشبت بينه وبين سانشو على مقربة من بنبلونة وقائع متوالية انتهت بهزيمة لب ومقتله فى سنة ٩٠٧ م ، فخلفه أخوه عبدالله فى رياسة تطيلة وما جاورها ، واستمر فى محاربة ناڤار وهزم سانشو فى سنة ٩١١ م ، وتقول الرواية الإسلامية إن شانجه بن غرسية البشكنسى صاحب بنبلونه أعنى سانشو غرسية ، غزا مدينة تطيلة فى سنة ٣٠٣ هـ (٩١٤م) ، فقتل كثيراً من المسلمين ، وأسر أميرها عبد الله بن محمد بن لب بن موسى القسوى . فدخلها أخوه مطرّف بن محمد فى اليوم التالى ، وقام مكان أخيه . وقد كان عبد الله وأخوه مطرف من أبطال الثغر الأعلى ، وكانت لهما غزوات عديدة مظفرة فى أراضى النصارى[1] . وشغل سانشو أيضاً بقتال الطويل وغيره من زعماء الثغر الأعلى حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وسنعرض فى فصل قادم إلى حروبه مع عبد الرحمن الناصر .

---

(١) المقتبس لابن حيان — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية بالرباط لوحة ١٦١ ا ، وهو الذى أشرنا فى مقدمة الكتاب إلى اكتشافه بين مخطوطات الخزانة الملكية .

فهرست الموضوعات[1]

صفحة

مقــدمة ٥

الكتاب الأول

فتوح العرب فى إفريقية والأندلس وغاليس

وعصر الولاة فى الأندلس

الفصل الأول : فتوح العرب فى إفريقية. ١٤

الفصل الثانى : إسبانيا قبل الفتح الإسلامى ٢٧

الفصل الثالث : فتح إســـبانيا ٣٨

الفصل الرابع : إسبانيا بعد الفتح الإســلامى ٦٣

الفصل الخامس : غاليس بين العرب والفرنج ٧٧

الفصل السادس : بلاط الشــهداء... ... ... ٩٢

للفصل السابع : الأندلس بين المد والجزر ١١٢

الفصل الثامن : الحــرب الأهليــة ١٢٢

الفصل التاسع : خاتمة عصر الولاة ١٢٩

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الأول ـ عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن عبد الحكم

---

(١) رأينا أن نكتفى بأن نثبت هنا فهرس الموضوعات والخرائط لهذا القسم الأول من الكتاب . أما ما عدا ذلك من الملاحق والفهارس المختلفة الأخرى ، فسوف نثبتها فى نهاية القسم الثانى من الكتاب .

صفحة

الفصل الأول : مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ١٤٠
الفصل الثانى : بعث الدولة الأموية فى الأندلس ١٤٧
الفصل الثالث : ولاية عبد الرحمن الداخل — ١ .. .. ١٥٧
الفصل الرابع : موقعة رونسفال أو باب شزروا ١٦٨
الفصل الخامس : ولاية عبد الرحمن الداخل — ٢ .. .. ١٨٥
الفصل السادس : خلال عبد الرحمن ومآثره ١٩٢
الفصل السابع : المملكة النصرانية الشمالية منذ قيامها إلى ولاية ألفونسو الثانى ٢٠٧
الفصل الثامن : هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام ٢٢٣
الفصل التاسع : عبد الرحمن بن الحكم ٢٥٤

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الثانى — عصر الإمارة

من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد

وعهد الفتنة الكبرى

الفصل الأول : ولاية محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ، وطوالع الثورة الأولى ٢٨٨
الفصل الثانى : ولاية المنذر بن محمد بن عبدالرحمن ، وبداية ثورة المولدين ٣١٧
الفصل الثالث : ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
١ — ثورة المولدين والعرب ٣٢٢
الفصل الرابع : ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
٢ — ذروة الفتنة الكبرى ٣٣٥

صفحة

الفصل الخامس : المملكة الإسبانية النصرانية. ... ...
خلال القرن التاسع الميلادى ٣٥٣

* * *

فهرست الخرائط

١ – خريطة عامة لإسبانية المسلمة (موضوعة فى فاتحة الكتاب) ... ...
٢ – موقعة وادى لكه وخط سير طارق ٤٣
٣ – مواقع غزوة شارلمان لسرقسطة ومعركة باب الشزرى ١٧٩
٤ – المملكة الإسبانية النصرانية ٢١٧
٥ – موقعة بلاى ومنطقة ثورة ابن حفصون ٣٢٧

دولة الإسلام في الأندلس

الخلافة الأموية والدولة العامرية

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الأول - القسم الثاني

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة
١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988
الترقيم الدولى : 977-505-082-4

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة، ت: ٤٨٢٧٨٥١

الكتاب الثاني

الدّولة الأمويّة في الأندلس

القسم الثالث

عبد الرحمن الناصر

وقيام الخلافة الأموية بالأندلس

٣٠٠ – ٣٥٠ هـ – ٩١٢ – ٩٦١ م

الفصل الأول

ولاية عبد الرحمن الناصر

وقيام الخلافة الأندلسية

ولاية عبد الرحمن حفيد الأمير عبد الله . نشأته وحداثته . أخذ البيعة له . حزمه فى معالجة الثورة . غزو قلعة رباح وإخضاعها . خروج عبد الرحمن لغزو الثوار . غزوة المنتلون . غزوه لمعاقل ابن حفصون فى ريه وإلبيرة . سحق الثو ة فى إشبيلية . عوده لغزو كورة ريه . محاصرته لقرمونة وإخضاعها . مولد ولى العهد الحكم . القحط بالأندلس . أقوال ابن حيان . إخضاع أوريولة ولبلة . ابن حفصون يطلب الصلح ويجاب إليه . عهد الناصر له . وفاة عمر بن حفصون . مبالغة النقد الغربى فى تصوير شخصيته . أبناؤه يخلفونه فى معاقله . مطاردتهم وإخضاع ببشتر آخر معاقلهم . استخراج جثة الثائر وصلبها . إعدام ابنته أرخنتا . كتاب الناصر عن فتح ببشتر . محاصرة طليطلة وإخضاعها . إخضاع بطليوس ونهاية بنى الجليقى . إخضاع بنى ذى النون . تمزيق الثوار فى شرق الأندلس . إسبانيا النصرانية وتربصها بالأندلس . عيث النصارى فى أراضى المسلمين . غزو أردونيو ليابرة وماردة وبطليوس . غزو المسلمين لأراضى ليون . موقعة شنت إشتيبن وهزيمة المسلمين . عود المسلمين إلى غزو ليون . موقعة مط نية وهزيمة النصارى . مسير عبد الرحمن إلى ليون . استيلاؤه على أوسمة وشنت إشتيبن . توغله فى أراضى ناڤار . موقعة جونكيرا وهزيمة النصارى . إستيلاء النصارى على بقيرة وفتكهم بالمسلمين . مسير عبد الرحمن إلى الثغر الأعلى . غزوه لناڤار واستيلاؤه على بنبلونة . هزيمة النصارى . وفاة أردونيو وولاية ولده راميرو . راميرو يشجع ثوار طليطلة . محاصرة الناصر لطليطلة . محاولة راميرو إنجادها . سقوطها فى يد الناصر . غزو الناصر لقشتالة . مسيره إلى أوسمة . التماس طوطة للصلح . غزو ألبة والقلاع . غزوة بحرية إسلامية للثغر الفرنجى . الصلح بين الناصر وراميرو . تحالف بنى هاشم أصحاب الثغر الأعلى مع النصارى . مسير عبد الرحمن إلى مقاتلة الثوار . محاصرته لسرقسطة . خروج أمية بن إسحاق والتجاؤه للنصارى . سقوط سرقسطة وخضوع محمد بن هاشم . عهد الناصر له بالأمان . غزو عبد الرحمن لناڤار وخضوع ملكتها طوطه . تأهب عبد الرحمن لمحاربة راميرو . نفوذ الصقالبة فى القصر والجيش . مسير عبد الرحمن إلى ليون . تحالف ليون وناڤار . زحف عبد الرحمن على سمورة . موقعة الخندق وهزيمة المسلمين . أقوال الروايات العربية . رواية المسعودى . رواية ابن حيان . كتاب الناصر عن الغزوة . رواية ابن الخطيب . الروايات النصرانية . رواية ألفونسو الحكيم . الروايات الأخرى . آثار الموقعة . عود المسلمين لغزو ليون . وفاة راميرو وجلوس أردونيو . الصلح بين الأندلس وليون . بعض الحوادث الداخلية . حريق قرطبة . المحل والقحط . الدعوة الفاطمية واجتياحها للمغرب . جزع حكومة قرطبة . استيلاء عبد الرحمن على سبتة . خضوع المغرب الأقصى لعبد الرحمن . خطر الفاطميين على الأندلس . السفن الفاطمية تغزو ألمرية . غزوات عبد الرحمن لشواطىء المغرب . أثر الدعوة الفاطمية فى بعث فكرة الخلافة الأندلسية . عبد الرحمن يتخذ سمة الخلافة . الوثيقة الخاصة بذلك . ابن مسرة . حركته وحقيقة أمرها . أقوال ابن حيان عنها . مطاردة منتحليها . كتاب الناصر فى شأنها .

— ١ —

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بنى أمية بالأندلس ، وتوطدت أسس الدولة الجديدة ، وأخذت تزهو وتزدهر فى عهد عبد الرحمن بن الحكم . ولكن عوامل الإنتقاض والتفكك ، سرت فجأة إلى هذا الصرح القوى ، ولبثت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بنى أمية أضحى على وشك الانهيار .

توفى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢ م) بعدحكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخلفه فى نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد ، غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبدالله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده ، فوجد عليه أخوه المطرِّف وقتله حسبما تقدم . وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل فى ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (ديسمبر سنة ٨٩٠ م) وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فنشأ الطفل اليتيم فى كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ، وأسكنه جده معه بالقصر دون ولده . وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حداثته تفوقاً فى العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ؛ ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع فى النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص فى فنون الحرب والفروسية ، وأقبل عليه جده الأمير يخصه بحبه وثقته ، ويرشحه لمختلف المهام ، ويندبه للجلوس مكانه فى بعض الأيام والأعياد لتسليم الجند عليه ؛ وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه ، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً واضحاً مقضياً ، بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده وذلك بأن برئ بخاتمه إليه ، حينما اشتد عليه المرض إشارة منه باستخلافه[1]

(١) وردت هذه التفاصيل الأخيرة فى أوراق مخطوطة عن بداية عهد الناصر ، نشرت بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال بعنوان : **Una Crônica Anónima de Abd Al-Rahman III, Al-Nasir (Madrid 1950) p. 29—30**

وما كاد الأمير عبدالله يسلم أنفاسه الأخيرة حتى بويع حفيده عد الرحمن بالملك . وجلس عبد الرحمن للبيعة ، يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول فى قاعة « المجلس الكامل » بقصر قرطبة ، فكان أول من بايعه أعمامه ، وأعمام أبيه ، وتلاهم أخوة جده ، وقد مثلوا أمامه وعليهم الأردية والظهائر البيض عنوان الحزن على الأمير الراحل ، وتكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبدالله فقال : « والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام ، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، فأسأل الله إيزاع الشكر ، وتمام النعمة ، وإلهام الحمد » . وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة والموالى ، ثم أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان ، ورؤساء البيوتات ، واستمرت بيعة الخاصة على هذا النحو حتى الظهر ؛ وعندئذ نهض الأمير الجديد فصلى على جثمان جده ، ثم واراه فى مدفنه بالروضة ، ومعه الوزراء ورجال الدولة . وجلس لتلقى البيعة فى المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير موسى بن محمد بن حُدير ، والقاضى أحمد بن زياد اللخمى ، وصاحب الشرطة العليا ابن وليد الكلبى ، وصاحب الشرطة الصغرى ، أحمد بن محمد بن حدير ، وصاحب أحكام السوق محمد بن محمد بن أبى زيد ، فاستمرت بضعة أيام . وكذلك أنفذت الكتب بأخذ البيعة إلى العمال فى سائر الكور ، وأخرج الأمناء إلى البلاد لأخذها ، وتتابعت الردود بإنجازها من جميع النواحى[1]. وساد البشر يوم البيعة فى القصر والمدينة ، وتوسم الجميع فى الأمير الفتى آيات العظمة واليمن ، وعلقوا على ولايته أكبر الآمال . وفى ذلك يقول معلمه شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ :

بدا الهلال جديداً — والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى — ما كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر — فأنت للدهر عيد
إمام عدل عليه — تاجان : بأس وجود
يوم الخميس تبدى — لنا الهلال السعيد
فكل يوم خميس — يكون للناس عيد

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة

---

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣١ .

إلى الأعماق ، وتجاذبتها الأعاصير من كل صوب ، وكان الأمير الفتى يرى أن خطة التردد والرفق التى اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطرة ، ولم تكن ناجعة ، وأنه لابد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة ، من سحق الثورة وزعمائها بأى الوسائل . ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الوزير عباس بن عبد العزيز القرشى ، فقصدت إلى منطقة قلعة رباح وكان قد ثار بها الفتح بن موسى بن ذى النون من زعماء البربر ، ومعه حليفه الرياحى المعروف بأرذبلش ، فوقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة ، هزم فيها الفتح بن موسى ، وارتد مغلولا إلى معاقله ، وقتل أرذبلش ، وبعثت رأسه إلى قرطبة ، فرفعت فوق باب السدة ، وطهرت قلعة رباح وأحوازها من الثورة ، وذلك فى شهر ربيع الآخر[1]. وسارت حملة أخرى نحو الغرب ، واستردت مدينة إستجة من أيدى العصاة أتباع ابن حفصون (جمادى الأولى) ، وهدمت أسوارها وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل ، حتى تعزل وتغدو بذلك عاجزة عن التمرد والخروج .

وفى شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار ظهور الأمير الفتى فى الصفوف حماسة الجند وأكبروا شجاعته وإقدامه . وسار عبد الرحمن أولا إلى الجنوب الشرقى ، ومعه جند كورة إلبيرة وزعماؤها ، وكان ابن حفصون قد نزعهم حصونهم ومعاقلهم ، فالتجأوا إلى الأمير ، وألقوا بطاعتهم إليه ، واتجه صوب كورة جيان فى وسط الأندلس ، حيث كانت الثورة على أشدها ، وحيث كان ابن حفصون أخطر الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية ؛ فاستولى على حصن مَرتُش الواقع فى طريق جيان ، وسير فى نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجادها ، وكان يهددها الزعيم الثائر ، فاحتلتها وأمنها . وقصد عبد الرحمن بعد استيلائه على مرتش ، إلى حصن مونت ليون (حصن المنتلون) القريب منها ، وكان يمتنع به زعيم من المولدين هو سعيد بن هذيل ، فضربه بشدة ، وهاجمه حتى اقتحمه ، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان (رمضان سنة ٣٠٠ هـ) . وتعتبر هذه الغزوة أول غزوات عبد الرحمن ، وتسمى عادة بغزوة المنتلون .

---

(١) الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ص ٣٣ .

واتجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى حصن شمنتان ، الواقع على مقربة من بياسة ، وبه عبد الله بن الشالية ، فاستسلم الثائر دون مقاومة ، وطلب الأمان ، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله . وأستولى عبد الرحمن بعد ذلك على حصن منتيشة من يد صاحبه ابن عطاف. وافتتح سائر الحصون التى كانت بيد ابن حفصون من كورة جيان ، وطهرها من آثار الخروج والعصيان . وقدم إليه سائر الزعماء الخوارج طاعتهم ، فتقبلها وعفا عنهم .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك جنوباً إلى كورة ريُّه ، فاحتل منها سائر الحصون التى تدين بالطاعة لابن حفصون ، واقتحم أمنع هذه الحصون ، وهو حصن شبليس بعد قتال عنيف ، وقتل من كان به من أصحاب الثائر ، وفر أمامه جعفر ابن حفصون ليلا ولحق بأبيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن إشتبين على مقربة من إلبيرة . واتجه بعد ذلك إلى وادى آش فاحتل حصونها ، ثم توغل فى شعب جبل الثلج (سيراً نفادا) وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون . وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة ، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه . وما زال عبد الرحمن يجول فى تلك الأنحاء يخضع حصونها وينتسف أراضيها ، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها ، وبلغ ما استولى عليه فى تلك الغزوة من الحصون زهاء سبعين حصناً من أمهات المعاقل الثائرة ، ثم ارتد عائداً إلى قرطبة فوصلها فى يوم عيد الأضحى بعد أن قضى فى غزوته زهاء ثلاثة أشهر[١] .

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير ، الذى كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع ، وتتحفز ، وعاد ابن حفصون ينظم خططه وقواته . وكانت إشبيليه فى مقدمة القواعد التى رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبد الله ، بنو حجاج حسبما تقدم ، وأنشأوا بها إمارة مستقلة . وقد كانوا بالرغم من انحدارهم من أصل عربى ينتمون إلى المولدين من ناحية الأم ، ويشاطرونهم شعور الحفيظة ضد حكومة قرطبة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين ومن يمالئهم ، وقد أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التى

---

(١) وردت تفاصيل هذه الغزوة فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣٥ – ٣٨ .

لم تدخر وسعاً فى الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل . وكان زعيم إشبيليه إبراهيم بن حجاج قد توفى ، وخلفه فى حكمها ولده عبد الرحمن ، وخلفه فى حكم قرمونة ولده محمد . ولما توفى عبد الرحمن فى المحرم سنة ٣٠١هـ ، تطلع أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده ، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول زعيم قوى آخر هو أحمد بن مسلمة وهو أيضاً من بنى حجاج وقدموه لحكمها ، وسبق محمداً إلى الاستيلاء عليها . فسار محمد إلى قرطبة ، وقدم طاعته إلى عبد الرحمن ، فتقلبها وأوفد معه الجند بقيادة الحاجب بدر ، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها فى جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ وهدم أسوارها ، وندب لها عبد الرحمن والياً من قبله ، وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين فى إشبيلية .

وفى شوال سنة ٣٠١ هـ (مايو سنة ٩١٤م) خرج عبد الرحمن فى غزوته الثانية ، وقصد إلى كورة ريه والجزيرة . وكان ابن حفصون زعيم ثورة المولدين قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء ، وعادت الثورة تضطرم فيها . وبدأ عبدالرحمن بحصار قلعة « طرُش » فى شرقى مالقة ، ثم سار إلى حصون ريه ومعاقلها يفتتحها تباعاً ؛ وهنا قدم ابن حفصون على رأس قواته والتقى بعبد الرحمن أمام قلعة طرُش ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها كثير من جند ابن حفصون وحلفائه النصارى ، وارتد الثائر بفلوله صوب الغرب ، واستطاع أسطول عبد الرحمن أن يضبط عدة سفن محملة بالمؤن كانت قادمة من عدوة المغرب لإمداد ابن حفصون وأن يحرقها . وزحف عبد الرحمن على منطقة الجزيرة الخضراء ، واقتحم حصن لورة الواقع بجوار الجزيرة ، ثم دخل الجزيرة الخضراء فى أوائل شهر ذى القعدة سنة ٣٠١ (يونيه ٩١٤ م) . وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى شذونة ثم إلى قرمونة ، وكان حاكمها حبيب بن سوادة قد ثار بها ، فحاصرها حتى سلم الثائر واستأمن ، فمنح الأمان ، وانتقل بأهله إلى قرطبة . بيد أنه نكث بعهده فيما بعد . ودخلت فى طاعته سائر المعاقل والحصون التى مر بها ؛ ثم عاد إلى قرطبة فى شهر ذى الحجة بعد أن أصاب جبهة الثورة فى تلك المرة بضربة شديدة وإن لم تكن قاضية . ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل ، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها ، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء والثوار الذين قدموا خضوعهم

وطاعتهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح[1] :

وفى سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) ، وقع حادث سعيد فى البلاط القرطبى ، هو مولد ولى العهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وقد اختلف فى تاريخ مولده ، فيقول الرازى إنه وقع فى يوم الجمعة غرة رجب من هذه السنة . ويقول محمد ابن مسعود إنه وقع فى يوم الجمعة ٢٤ من جمادى الأولى ، وأمه مرجان الرومية ، أم الولد الأثيرة ، وقد سر عبد الرحمن بولادته أيما سرور ، ونوه بها ، وأوسع الإنعام ، وتقدمت طبقات الناس إليه بالتهنئة . وأنشد الشعراء تهانيهم ، فمن ذلك قول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

هلال نماه البدر واختاره الفجر　　تلقت به شمس وأنجمه زهر
على وجهه سيما المكارم والعـلى　　فضاءت به الآمال وابتهج الشعر
سلالة أفراس وبيت خـلايف　　أكفهم بحر ونايلهم غمـر
بدا لصـلاة الظهر نجم مكارم　　تحف به العليا ويكنفه الفخـر
نماه إلى العليـاء خير خليفـة　　تتيه به الدنيا ويزهى به العصر[2]

وفى أواخر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) حل بالأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وأمر عبد الرحمن وزيره أحمد بن محمد بن زياد بالبروز بالناس للاستسقاء ، فبرز بهم يوم الإثنين ١٣ شوال (أول مايو) فنزل فيه رذاذ مملح وندى مبلل لم يكن له كبير أثر[3] ، وعمت المحنة سائر القواعد والثغور ، واستمرت خلال العام التالى (سنة ٣٠٣ هـ) ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً ، وانتشر الوباء مع القحط ، وكثر الموت ، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء ، وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصيبة ، وسعاً فى بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة . وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة ، فكان

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) لوحة ٣٢ أ ، و Dozy : Hist., Vol. II. p. 103

(٢) ابن حيان فى السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣ .

(٣) ابن حيان فى السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣

لجهودهم أثر كبير فى التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره فى تهدئة الثورة ، والفت فى عضد الثوار ، ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك متيقظاً يرقب حركاتهم بحذر وأهبة .

ويحدثنا ابن حيان عن هذه المحنة فى حوادث سنة ٣٠٣ هـ ، ويقدم إلينا عنها الصورة التالية :

« فيها كانت المجاعة بالأندلس التى شبهت بمجاعة سنة ستين ، فاشتد الغلاء ، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها ، وبلغ قفيز القمح بكيل سوق قرطبة ثلاثة دنانير ، ووقع الوباء فى الناس ، فكثر الموتان فى أهل الفاقة والحاجة ، حتى عجز عن دفنهم ، وكثرت صدقات الناصر لدين الله فى هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة ، وعلى المتعففين عن المسئلة ، وصدقات أهل الحسبة من رجاله الموتسين فيه ، فنفع الله بهم كثيراً من خلقه . وكان حاجبه بدر بن أحمد ، مدبر دولته ، أفشاهم صدقة ، وأعظمهم مواساة ، فنعش الله به أمة . وعدا أصر هذه المجاعة وضيق الأحوال ، السلطان عن تجريد صايفة وإعداد جيش ، لما بالناس من الجهد . فأخذ الناصر لدين الله فى شأنه بالوثيقة ، وعول على ضبط أطراف وتحصين بيضته ، والإرصاد لأهل الخلاف والخلعان خلال معاقلهم ، ومجال مساربهم ، إذ كانوا مع استيلاء المجاعة عليهم ، لا يفترون عن العدوان ، على من مر بهم من رفاق المسلمين ، وطالبي المعيشة ، وجالبي الميرة ، فلم يجدوا منفذاً إلى ما طمعوا فيه من إشاعة ، ونفع الله بذلك . وعاث الموتان فى هذه الأزمة ، فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمايهم وخيارهم »(١) .

وما كادت تنقشع هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير قائده أحمد بن محمد بن أبى عبدة غازياً إلى أرض النصارى . وسوف نتتبع غزوات عبد الرحمن لاسبانيا النصرانية مجتمعة فيما بعد . وسير وزيره إسحق بن محمد القرشى إلى كورتى تدمير وبلنسية ، فطارد فيهما أهل الخلاف ، وافتتح حصن أوريولة المنيع ، قاعدة تدمير التالد من يد الثوار ، ثم أخضع الثوار فى مدينة الحامة . وغزا الحاجب بدر مدينة لبلة ، وكان صاحبها الثائر عثمان بن نصر ممتنعاً بها .

---

(١) السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٥ أ

فبعث إليه الحاجب يلاطفه ويبذل الأمان له ولأصحابه ، ويعده بكل ما يحب ، ولكن الثائر رفض كل عرض ، وأصر على العصيان ، فطوق بدر المدينة ، وبرز له كثير من أهل الطاعة فأمنهم ، وأبقاهم لديه ، وجد فى مهاجمة عثمان وأصحابه إلى أن اقتحم عليه المدينة يوم ٢٠ رمضان سنة ٣٠٣ هـ (فبراير ٩١٦ م) ، وقبض على عثمان وصحبه وأرسلهم فى الأصفاد إلى قرطبة ، وأمن أهل المدينة ، ونظر فى مصالحهم . وقد نظم ابن عبد ربه فى فتح مدينة لبلة وفى مديح الناصر والحاجب بدر قصيدة يقول فيها :

خليفة الله وابن عم رسـول الله والمصطفى على رسله
منتك نعمى نمت سـوابغها كما استتم الهـلال فى كمله
وجـه ربيع أتاك باكـره يرفـل فى حليه وفى حـلله
وأقبل العيـد لاهياً جـذلا يختال فى لهوه وفى جـذله
نصر من الله تضمنـه ينهـض فى ريثه وفى عجـله
يجرى بشأو الأمام منصلتـا يسبق حضر الجياد فى مهله
قد وقف النكث والخلاف بها وقوف صب يبكى على طله(١)

وفى هذا العام ، سنة ٣٠٣ هـ ، وقع حادث داخلى هام ، هو جنوح عمر بن حفصون ، أكبر ثوار الأندلس إلى الصلح والطاعة ، فبعث إلى الناصر يخطب وده ، ويلتمس الصلح ، مستشفعاً بما كان منه فى إيواء الأمير محمد والد عبد الرحمن وحمايته ، حينما فر من أبيه الأمير عبد الله . وقام بالوساطة فى ذلك يحيى بن إسحق طبيب عبد الرحمن ، وكان صديقاً لعمر بن حفصون ، فبذل فى سبيل ذلك جهده ، وعاونه الحاجب بدر لدى الناصر ، فاستجاب الناصر لعقد الصلح مع عمر ، مع الحذر من غدره ومكره ؛ واتصل يحيى فى ذلك مع جعفر بن مقسم أسقف ببشتر ، وعبد الله بن أصبغ بن نبيل ، وودنا ابن عطاف ، وهم أكابر رجال ابن حفصون وخاصته ، وكانوا يميلون إلى عقد الصلح والدخول فى كنف الطاعة . وسار يحيى نفسه لمقابلة ابن حفصون ، ووضع معه شروط الصلح ، وعاد إلى قرطبة ، وأقر الناصر تلك الشروط ،

(١) ابن حيان فى السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٦١ ب و ٦٢ أ .

وعقد لابن حفصون على ذلك كتابة المشهور ، الذى خط فى أسفله بيده الأسطر الآتية :

« يا الله الذى لا إله إلا هو الطالب الغالب ، وجميع إيمان البيعة لازمىّ من العهود المشددة ، والأيمان المؤكدة ، والمواثيق المغلظة ، لانقضت شيئاً مما جمعه هذا الكتاب تبديله ، ولا نقصان شيء منه ، ولارضيت ذلك فى سر ولا جهر ، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمىّ ، والله شهيد علينا ، وخططنا هذه الأحرف بيدنا ، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا ، وكفانا بالله شهيداً ، ما وفى عمر بن حفصون بما نص فى هذا العهد وصحح فيه إنشاء الله ، والله المستعان » .

ويقول لنا الرازى الذى يورد لنا نص هذه الوثيقة ، إن الحصون التى دخلت فى أمان عمر بن حفصون بمقتضى هذا الصلح ، وسميت فى كتاب العهد ، مائة واثنين وستين حصناً . واغتبط عمر بن حفصون بعقد هذا العهد مع الناصر أيما غبطة ، وبذل جهده وفى المحافظة على شروطه وأوضاعه ، وسر الناصر من جانبه بما أبداه ابن حفصون فى ذلك من دقة وإخلاص ؛ وقدم ابن حفصون بهذه المناسبة إلى الناصر هدية فخمة ، فتقبلها الناصر ، وحسن موقعها لديه ، وكافأ ابن حفصون عنها بأضعافها ؛ وعظم سرور ابن حفصون بها ، واستحكمت طاعته طول حياته . وكان هذا من أعظم العوامل فى تهدئة اضطرام الثورة ، وجنوحها إلى التبدد والانهيار[1] .

وكان حبيب بن سوادة الثائر بقرمونة قد نكث بعهده ، وعاد إلى قرمونة ، وأظهر الامتناع بها ، فسير إليه عبد الرحمن الحاجب بدراً فى حملة قوية ، فحاصر بدر قرمونة وضربها بالمجانيق بشدة ، ثم دخلها عنوة ، وقبض على حبيب وولده وأرسلهما فى الأصفاد إلى قرطبة (ربيع الأول ٣٠٥ هـ)[2] .

وفى شهر ربيع الأول من العام التالى ، فى سنة ٣٠٦ هـ (سبتمبر ٩١٨ م)[3]

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس – مخطوط الخزانة الملكية – لوحة ٥٦ ب و ٥٧ أ و ب .

(٢) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٥٥ و ٥٦ .

(٣) وفى رواية الرازى التى نقلها إلينا ابن حيان ، أن وفاة ابن حفصون كانت فى شهر شعبان سنة ٣٠٥ هـ – السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية – لوحة ٦٥ أ .

وقع حادث كان له أكبر الأثر فى تفكك عرى الثورة وانحلالها . ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة الكبرى ، ومثير ضرامها فى غربى الأندلس، توفى بعد مرض طويل ، فى الثانية والسبعين من عمره . وكان ابن حفصون فى الواقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التى لا تدين بالولاء لحكومة قرطبة ، وفى مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من ضروب الرعاية والتسامح ، يضمرون لها الخصومة والكيد ، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين رعايا الحكومة الأسلامية . وقد رأينا كيف دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته فى المناطق الجنوبية الغربية ، فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلا عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى ، وكان من هؤلاء معظم أنصاره وجنده . ولم ير ابن حفصون نفسه وهو يرجع إلى أصل نصرانى ، بأساً من أن ينبذ الإسلام ويرتد إلى النصرانية لكى يذكى حماسة أنصاره . وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء ، بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

قال الرازى : « وكان أول قيامه بالفتنة ، وصدعه عصى الجماعة ، وامتناعه بقلعة ببشتر منبر المعصية ، من ثلاثين سنة ، ركب فيها من العيث فى الخلق ، والفساد فى الأرض بغير الحق ، ما لم يركبه مارق بالأندلس ، منذ دانت للمسلمين ، فعد مهلكه فاتحة الإقبال ، وطالعة السعد ، واجتثاث الفتنة »(١) .

وقد بالغت التواريخ النصرانية فى تصوير ثورة عمر بن حفصون الطويلة المدى ، واعتبارها ثورة قومية تهدف إلى غاية وطنية سامية ، وهى تحرير وطنه — إسبانيا — من نير المتغلبين عليه ، وأنه كان فى مناوأته لحكومة قرطبة الإسلامية يجيش بهذه النزعة ، ويهدف إلى هذه الغاية . وعمل النقد الحديث على إبراز هذه الصورة، وعلى اعتبار ابن حفصون بطلا قومياً ، جديراً بالتقدير والاحترام .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٦٥ ب .

وهذا ما نقرأه فى تعليقات بعض أكابر النقدة المحدثين أمثال دوزى وسيمونيت، وذلك بالرغم من كونهم لم ينسوا أن يذكروا فى نفس الوقت أن ابن حفصون قد نشأ سفاحاً وقاطعاً للطرق ، لا تحدوه أية نزعة وطنية أو غاية مثلى . بيد أن سيمونيت ، وهو مؤرخ النصارى المستعربين ، يحاول أن يبرر حسن تقديره وتصويره لحركة ابن حفصون ، بأن قيامه اتخذ فيما بعد « شكلا أكثر نبلا ، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة »[١]. ويصفه دوزى بأنه « البطل الإسبانى الذى لبث أكثر من ثلاثين عاماً يتحدى المتغلبين على وطنه ، والذى استطاع مراراً أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم » وأنه «كان بطلا خارقاً لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان »[٢] . أما نحن فنرى فى مثل هذه الآراء مبالغة وإغراقاً ، وأنها ليست إلا ثمرة نزعة من التعصب الدينى والجنسى ، الذى يطبع النقد الغربى ، فى كثير من المواطن ، وأن ابن حفصون بالرغم من صلابته وقوة عزمه ، وبراعة خططه ، لم يكن سوى قاطع طريق ، وثائر من طراز قوى عنيف . أجل إن ابن حفصون ، كان يدعو منذ اشتد ساعده ، إلى مايسميه قضية الاستقلال والحرية ، وتحرير مواطنيه من نير المسلمين ، بيد أنه لم يكن فى هذا الزعم سوى مخادع سياسى ، يسعى إلى كسب الصحب والأنصار لتقوية مركزه ، ودعم سلطانه ، ولم يكن يصدر فى مغامراته وحروبه أو فى أعماله خلال ثورته الطويلة ، عن أية نزعة نبيلة ، أو تصرف تطبعه الشهامة ، والعزة القومية ، بل كانت أعماله وتصرفاته كلها ، بغى صراح ، وإجرام فى إجرام .، وامتهان لكل المبادئ الأخلاقية ، وكل مقتضيات الشرف والمروءة والشهامة . ومن كان هذا شأنه ، فإنه من التعسف أن تُسبغ عليه صفات البطولة ، وثوب التحرير والوطنية .

وترك ابن حفصون أربعة بنين ، هم سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص ، وإبنة هى «أرخنتا» ؛ وكان له ولد آخر هو أيوب اتهمه أبوه عندما اعتل ذات مرة ، بمحاولة الفتك به وقتله[٣]. فقام سليمان فى أبّده ، وقام جعفر مكان أبيه فى ببشتر بعهد منه ، وكان أبوه قد قلده عهده فى حياته ، وأخذ له البيعة فى

---

(١) راجع : J. Simonet : Histoira de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 516 .

(٢) Dozy : Histoire ; V. II. p. 106 .

(٣) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢ ؛ ونقط العروس لابن حزم ص ٧٩ .

أواخر أيامه ، فأظهر جعفر يوم موت أبيه لجميع نصارى ببشتر أنه يعتقد دينهم ، ويدين بالنصرانية معهم ، وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره ، وجمع إلى نفسه ثقاته منهم ، مع القسيسين والرهبان دون سائر الناس ، فتولوا تجهيز والده معه ، ودفنه على سنة النصارى ، بعد أن أمر بسد باب القصبة ، وحجاب باقى الناس من نصارى وغيرهم ، ولاطف جعفر إخوته ، ووعدهم بالجميل حتى سلموا له ، قال الرازى : « وكان جعفر فى ذاته متهوراً سخيفاً ، جباناً ضعيف السيما ، ذميماً ، جسوراً حقوداً ، منافساً لمن يعمل عنده ، كنوداً لمن استرسل إليه ، موالفاً للسفال ، مستصحباً للأرذال ، لم تسم همته إلى مروءة ، ولا انطوت نيته على جميل ، ولا عرف قدر ما مهده له والده مع السلطان من فراش الصلح ، وبسط من ظلال الأمن ، بالتسجيل له على أعماله ، وإمضاء ذلك بعده لعقبه ، بل غمط النعمة عليه ، ورفض الساعين فيه لأبيه ، وعقد شهادات جماعة من السفلة والطغام ، على ابن مقسم الأسقف وابن نبيل وابن عطاف حاجبيه ، فإنهم سعوا فى الغدر بوالده عند السلطان ، وأرادوا إراحة سلطانه عن ولده بعده »[١] .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى سير عبد الرحمن قواته إلى أبدة فاقتحمتها وأسر سليمان ، وأخذ إلى قرطبة حيث عفا عنه عبد الرحمن وضمه إلى جيشه ؛ وكذا استسلم عبد الرحمن بن حفصون ، وكان ممتنعاً بحصن طُرُش ، وكان أخوه جعفر صاحب ببشتر ، قد ضايقه ، وحاول أن ينتزع منه طرش ، فالتجأ عندئذ إلى الأمير ، وأذعن للطاعة ، على أن يسلم حصنه ويمنح الأمان لنفسه وأهله ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وتسلم منه الحصن ، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى عليه الصلات ، وكان أديباً شاعراً . واستبد جعفر بحكم ببشتر وما حولها ، وآثر عبد الرحمن أن يهادنه مدى حين ، وأن يقره على أعماله . وفى سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) قتل جعفر فى ببشتر ضحية مؤامرة قيل إنها من تدبير أخيه سليمان ، وقيل من جهة أخرى إنه رأى أن يعود إلى الإسلام اكتساباً لمودة السكان والجند المسلمين ، فاغتاله نفر من جنده النصارى[٢] . فقام أخوه سليمان مكانه فى ببشتر ، وأقره عبد الرحمن

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٦٥ ب

(٢) ابن خلدون ج٤ ص١٣٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص١٨٩ ، وراجع : Dozy : Hist., Vol. II. p. 108

على ولايته ، ولكنه نكث عهد الطاعة ، فسار عبد الرحمن لقتاله وحاصره مدى حين ، وكان أصحاب سليمان بحصن طُرُّش ، قد نبذوا الطاعة مثله ، فسار عبد الرحمن إلى طرشو ، ونازلهم ، ثم ترك قوة استمرت فى حصارهم ، حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسلموا الحصن بالأمان ، وأمر عبد الرحمن بتخريبه وتسويته بالأرض . ثم سار عبد الرحمن لحصار سليمان مرة أخرى فى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، وخرب سائر المناطق التى يسيطر عليها الثائر ، وأخضع معظم حصونها ، واعتصم سليمان بجبل بُبَشتر ، فنازله عبد الرحمن ، واشتد فى محاصرته ، حتى ضاق الثائر وصحبه بالحصار ذرعاً ، وخرج عليه معظم أنصاره ، ونكل بالكثير منهم . ونازل عبد الرحمن بالأخص حصن الشط ، وكان من أمنع الحصون الثائرة ، حتى تغلب عليه وعلى ما حوله من الحصون . وأخيراً عرض عليه سليمان أن يعود إلى الطاعة ، وأن يسلم بعض حصونه ، فاستجاب عبد الرحمن إلى رغبته ، وتسلم حصن الشط ، وحصن منت ميور وغيرهما من الحصون كفالة بحسن الطاعة ، وانصرف عائداً إلى قرطبة ، وهو يتحين الفرصة الملائمة للقضاء على الثائر بصورة نهائية .

وفى سنة ٣١٣ هـ ، صُلب على الرصيف بباب قرطبة ، رجل من أصحاب ابن حفصون هو الرامى النصرانى المعروف بأبى نصر ، وكان من أحذق الرماة فى عصره ، وطار صيته أيام عمر بالحذق فى الرماية وإصابة الأغراض البعيدة ، قلما تخطئ رميته ، وقد أودى بحياة كثير من المسلمين من الجند وغيرهم ، وساد الذعر منه ، وانتهى الأمر بأسره ، وإحضاره إلى الحضرة ، فجيء به إلى باب السُّدَّة وأمر عبد الرحمن بصلبه وشكه بالسهام ، فرفع فوق جذع فى مشهد حافل من الناس ، وتعاورته الرماة بالسهام حتى مزق بدنه ، وترك داميا فوق جذعه ؛ ثم أخذت جثته بعد أيام وأحرقت[1] .

وفى أواخر سنة ٣١٤ هـ ، سير عبد الرحمن وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى ببشتر ، وخرج سليمان فى قواته إلى لقائه فهزم وقتل ، واحتز رأسه وقطعت أشلاؤه ، وأرسلت إلى قرطبة فرفعت على باب السدة (يونيه سنة ٩٢٧ م) . وقام أخوه حفص مكانه فى ببشتر ، واستمر على المقاومة حيناً . وفى ربيع الأول سنة ٣١٥ هـ ، سار عبد الرحمن بنفسه إلى ببشتر ومعه ولى عهده الحكم ،

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٨٤ ب .

وكان يومئذ صبياً فى الثانية عشرة من عمره ، ونزل على مدينة ببشتر ذاتها ، وبها حفص ، وشدد عليها الحصار ، وابتنى إزاءها حصناً للتضييق عليها ، وفرق قواته لمنازلة بقية الحصون الثائرة ، ثم ترك قوة لمتابعة الحصار . واستمر الحصار بضعة أشهر ، حتى اضطر حفص أن يذعن أخيراً إلى التسليم ؛ فسلم المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر ، وذلك فى أواخر شهر ذى القعدة سنة ٣١٥ هـ (يناير سنة ٩٢٨ م) وأخذ حفص بن عمر وأهله وأصحابه أسرى إلى قرطبة ، فعفا عبد الرحمن عنهم ، وأحسن مثواهم ، وضم حفصاً إلى جيشه .

وفى العام التالى سنة ٣١٦ هـ ، سار عبد الرحمن إلى ببشتر لتنظيم شئونها ، فخرج من قرطبة فى منتصف شهر المحرم منها (مارس سنة ٩٢٨ م) ورافقه ولده الحكم ، ووزيره أحمد بن محمد بن حُدير ، واستخلف على المدينة أحمد ابن عيسى بن أبى عبدة . وقصد إلى ببشتر بطريق أشونة ، فوصلها فى العشرين من المحرم ، ودخلها وجال فى أرجائها ، وألفاها منقطعة النظير من حيث الحصانة والمنعة . فعين لها والياً من قبله ، وعمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون، فصلى فى مسجدها الجامع ، وأمر أن تقام به الصلاة . وكان ابن حفصون فى أواخر أيامه ، قد أثار حول موقفه من تذبذبه حول إظهار الإسلام ، وجنوحه إلى النصرانية ، ريباً حول حقيقة الدين الذى كان يعتنقة . فأمر الناصر بنبش قبره ، وإخراج جثته وفحصها . فتبين من هيئتها ، وكونه ملقى على الظهر ، مشبوك الذراعين على الصدر ، ومستقبلا المشرق ، أنه دفن على دين النصرانية ، وعاين ذلك الناس من العسكر وغيرهم ، وشهد بذلك الفقهاء المرافقون ، واتفق الجميع على أنه هلك على دين النصرانية . فأمر عبد الرحمن بحمل الجثة، إلى قرطبة ، حيث علقت فى أعلى الجذوع على باب السُّدة يكتنفها أشلاء ولديه المصلوبين قبله ، وهما حكم وسليمان . واستمرت أشلاؤهم معلقة على جذوعها عبرة للناظرين حتى سنة ٣٣١ هـ ، حيث حملها مد النهر الطامى فى تلك السنة ولأحمد بن محمد الرازى فى صلب أوصال ابن حفصون قصيدة يقول فيها

تبدى لمرأى العيـن مجسماً ... وقام من الأجداث خلقاً متمما

فما كان إلا مثـل من نام نومة ... فأنبه عنها حين أغفى وهـوّما

ثوى فى الثرى حتى إذا صار رمة ... أعيد إليه جسمه فتلأما
رقى فوق جذع بالهواء معلق ... يحاول منه بالنجوم تحوما
تبارك من أبداه للخلق سامقاً ... وبوأ منه النفس قعر جهنما[1]

وأمر عبد الرحمن ، فعمرت سائر مساجد ببشتر المهجورة ، وهدمت سائر الكنائس والأديار ، التى ابتناها الثائر فى تلك المنطقة ، واستولى عبد الرحمن على سائر معاقلها وحصونها ، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة[2] . ثم أمر بعد ذلك بالقبض على « أرخنتا » ابنة عمر بن حفصون وإعدامها ، لارتدادها عن الإسلام ، وتمسكها باعتناق النصرانية ، فأعدمت فى سنة ٩٣١ م ، أو فى سنة ٩٣٧ وفقاً لرواية أخرى ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية فى سلك القديسين والشهداء[3] .

هذا ، وقد أصدر الناصر عقب فتح ببشتر واستئمان حفص ، كتاباً طويلا ينوه فيه بهدى الإسلام وفضله ، وما خصه الله به من خلافته وأمانة عباده ، ويشير إلى خروج المارقين ، وميل نفوسهم المريضة إلى الشرك ، وكيف أنه أصدر أمانة لأهل ببشتر ، ثم يقول فى خطابه ما يأتى :

« وعهدنا إلى الوزير أحمد بن محمد حدير ، بالتقدم إليهم لحضور خروجهم ، ومباشرة نزولهم ، وإكمال الأمان لهم ، وقبض الأيدى عنهم ، فنهض إلى ذلك وقصد له ، فلما صار بمدينة طلجير ، المبتناة على مدينة ببشتر ، هبت بالطاغين عنها ، فتساربوا خارجين ، وتهافتوا ذاهبين ، وتعرفوا الذى سبا إلى جوانب شتى ، فقصد كل واحد إلى منزعه ، وأم مكان طاعيته ، ولحق بمداين الطاعة ، فصاروا فى غمار الرعية ، وتمكث خلفهم عميدهم حفص بن عمر طاير الفواد ،

---

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ٨٩ أ و ب و ٩١ أ . هذا ولم نجد ذكراً لحكم من أبناء عمر بن حفصون إلا فى هذه المناسبة ، وفى رواية ابن حيان ، وفى الأوراق المخطوطة (ص ٧٧) .

(٢) تراجع تفاصيل المعارك الأخيرة بين عبد الرحمن وأبناء ابن حفصون ، وخاتمة هذه المعارك فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٢ و ٦٥ و ٦٩ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ . وكذلك فى البيان المغرب ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٣ و ١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) Dozy: Hist., Vol. II. p. 109. وكذلك R.M. Pidal: Origines del Espanol, p. 420

خافق القلب ، لم تطب نفسه على الخروج خواراً ، ولا سكن منه الأمان نفاراً ، يخشى كل يد أن تضبط عليه ، وكل شجرة أن تتعلق به ، قد خامره من الرعب ما كاد أن يربى على العطب ، فطمأن الوزير أحمد محمد بن حدير من جزعه ، وسكن من جأشه ، ووفاه من آمالنا المبسوطة ليناً وثق به واطمأن إليه ، فخرج آخر الخارجين ، ولحق بالآمنين ، فأصبحت مدينته بقعة الضلالة ، ومنبر الخلاف ، ومعدن الغواية ، مما أحاط بها من أسوارها وأبنيتها وقصابها ، وداخلها من جناتها ومصانعها ، مغوية من قطينها ، خاوية على عروشها ، كأن لم يغن بها ساكن ، ولا استوطنها قافل » .

ثم يقول إنه أمر بعد ذلك بتخريب ببشتر ، وحط أسوارها ، وإنزال جدرانها ، وهدم كل قائم فيها من قصرها ودورها ومخازنها ، وإعادتها جبلا أجرد ، على ما كانت عليه لأول خلقها . « ثم استقدمنا حفصاً اللائذ بالتوبة إلى ما تفضلنا عليه من التأمين والتمكين ، وعدنا عليه من العفو والتطمين ، وأخذنا فيه بالفضل المبين ، الذى جعلنا الله أهله ، وغلب على مذهبنا إيثاره، وجمعنا له من ذلك ما اغتبط به ، وسكن إليه ، وقرر نفسه عليه ، فاعلم ذلك ، وقف عليه ، واستشعر حمد الله ، ومر بقراءة كتابنا هذا إليك على المسلمين قبلك فى جامع موضعك ، ليحمدوا الله عز وجهه ، على عظيم ما اصطنعه إليهم ، ووهبه لهم ، وليحدثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم ، والتقرب بنوافل الحمد إليه ، ما يستدام له رضاه عز وجهه ، ويستجلب به المزيد من نعمه ، إن شاء الله وهو المستعان ، وكتب يوم الخميس لخمس من ذى الحجة سنة خمس عشرة وثلثماية » .

ويقول لنا الرازى ، إن الناصر لما خرج إلى ببشتر ، وأمر بهدمها ، أمر بالإبقاء على القصور والقصاب ، التى أبقاها لعماله وحشمه الذين ندبهم للقيام بها ، فدكت أسوارها ، وحطت أعلامها ، وإنه أى الناصر أصدر كتاباً بحوادث ببشتر ، والأمر بهدمها ، وهدم مسجدها الذى أقامه ابن حفصون ، لأنه كان ستاراً لفسقه المسلمين ، والأمر بإحراق منبره « الذى دعى فيه للخنزير الضال ، ومن خلفه من نسله الخبيث ، وأعلن عليه بدعوة الشيعة »[1] .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية لوحات ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ .

ولم يغفل عبد الرحمن فى الوقت الذى كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه فى جنوب الأندلس ، تشغل معظم عنايته ،عن مطاردة الثورة فى الأنحاء الأخرى. وكانت طليطلة من أمنع معاقل الثورة ، فسير عبد الرحمن جنده لحصارها ، وفيها لُبّ بن الطربيشة وهو من زعماء المولدين ، واستمر الحصار زهاء عامين حتى نضبت موارد المدينة ،وخبت عزائم أهلها واضطرت فى النهاية إلى التسليم والإذعان. وسار لبّ مع الأمير بقواته إلى الغزو فى أرض النصارى (سنة ٣٠٨ ﻫ) . وكانت بطليوس وأحوازها منذ أكثر من أربعين عاماً ، معقلا من معاقل ثورة المولدين . وكان بنو مروان الجليقى مايزالون يسيطرون على تلك المنطقة ، وكانوا من أخطر الخوارج وأشدهم مراساً ، يمالئون الأمراء النصارى ويحالفونهم على حكومة قرطبة . ففى سنة ٣١١ ﻫ (٩٢٣ م) ، هلك عبد الله بن محمد بن مروان الجليقى صاحب بطليوس قتيلا بيد بعض المخالفين من أصحابه ، فقام مكانه ولده عبد الرحمن ، واستبد بمدينة بطليوس وما حولها ، واستمر بضعة أعوام على خروجه وتحديه لحكومة قرطبة .

وفى ربيع الأول سنة ٣١٧ ﻫ (إبريل ٩٢٩ م) خرج الناصر من قرطبة متجهاً نحو الغرب ، ومعه ولداه الحكم والمنذر وعدة من الوزراء ، واستخلف على القصر ولده عبد العزيز . وبعث الناصر ينذر المتخلفين عن الطاعة ، بوجوب الدخول فى طاعته ، والتخلى عن العصيان ، وفى مقدمتهم صاحب بطليوس عبد الرحمن بن عبد الله الجليقى . ووصل الناصر بجيشه إلى بطليوس فى أواخر ربيع الآخر من هذه السنة وحاصر بطليوس ، وقاتل المتصدين للمقاومة حتى هزموا واقتحم أرباضهم ، وأحرقت ديارهم ، فامتنعوا داخل المدينة ؛ فعهد الناصر بقتالهم إلى القائد أحمد بن إسحق القرشى فى قوة كثيفة ، فشدد فى حصار المدينة ، واقتحم ما حولها من الحصون ، ثم ضربها بالمجانيق بشدة ، وقطع عنها كل مورد ، واشتد بأهلها الضيق ، واضطر الجليقى إلى الإذعان وطلب الأمان ، فأجابه الناصر إليه ، وأسكنه هو وأهله وأكابر رجاله بحضرة قرطبة ، وعين لبطليوس والياً جديداً هو عثمان بن عبد الله ، وكان خضوع بطليوس فى سنة ٣١٨ ﻫ (٩٣٠ م) .

ولما غادر الناصر بطليوس سار إلى مدينة باجة ، أقصى قواعد الغرب ،

وفيها الثائر عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ، فنزل عليها ، وأنذر صاحبها بالدخول فى الطاعة ، فلم يقبل النصح ، فطوقها وحاصرها بشدة ، حتى أجهد أهلها الجوع والعطش ، وتساقطوا من الإعياء ، وعندئذ اضطر صاحبها إلى الإذعان ، فمنحهم عبد الرحمن الأمان ، وأمن صاحبها وآله ، وخرجوا إليه تائبين مستسلمين ، فبعثهم إلى قرطبة . وكان افتتاح باجة فى منتصف جمادى لآخر سنة ٣١٧ هـ . ونظر الناصر فى مصالح المدينة ، ثم عين لها والياً من قبله ، هو عبد الله بن عمرو ابن مسلمة ، وزوده بحامية كافية .

وتحول عبد الرحمن بعد ذلك إلى مدينة أكشونبه على مقربة من ساحل المحيط الجنوبى ، وبها الثائر خلف بن بكر ، فبادر إلى الطاعة معتذراً ، وأقره الناصر على ولايته ، على أن يلتزم بأداء الجباية وبحسن السيرة .

وقضى الناصر فى هذه الغزوة زهاء ثلاثة أشهر ، طهر خلالها أنحاء ولاية الغرب من آثار الخروج والثورة ، ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى القصر فى منتصف رجب[1]. وكان الناصر قد سار بنفسه إلى تدمير وبلنسية ، وذلك فى سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) أثناء مسيره إلى غزوة بنبلونة الكبرى ، حسبما نفصل بعد . فطارد الخوارج والعصاة فى شرقى الأندلس ، واستولى على معاقلهم ومزق شملهم . وفى سنة ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) سير الناصر وزيره القائد عبد الحميد ابن بسيل إلى الثغر الأعلى لمقاتلة بنى ذى النون ، وكانوا قد عادوا إلى الخلاف والعصيان ، وأكثروا من الفساد والعدوان على من جاورهم من المسلمين وأهل الذمة ، فقصد إلى معقلهم شنت بَرِيَّة واقتحمها ، وقتل كبيرهم محمد بن محمد ابن ذى النون ، وعدة أخر من رجالهم ، وافتتح مدينة سُرية من مدنهم ، وولى عليها عاملا للسلطان . وخضعت شنت برية وما والاها للطاعة ، ودرت جبايتها من ذلك الحين[2] . وفى سنة ٣١٧ هـ ، افتتحت مدينة شاطبة ، واستنزل عنها صاحبها عامر بن أبى جوشن الثائر بها ، بعد أن ترددت الحملات عليه ، مدى خمسة أعوام ، وكان خضوعه على يد صاحب الشرطة العليا درّى بن

---

(١) ابن حيان فى المقتبس – السفر الخامس – لوحات ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٩ ، والأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٨١ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس – السفر الخامس – لوحة ٨٥ أ .

عبد الرحمن ، واشترط عامر عند استسلامه أن يمنح الإقامة مدة فى حصن «شنت مرية» من حصونه ، حتى ينظم شئونه ويسير فى أهله إلى قرطبة ، فأجيب إلى طلبه[1] . وهكذا أخمدت الثورة فى سائر النواحى ، بعد أن لبثت زهاء نصف قرن تستنفد قوى الأندلس ومواردها ، وتفت فى عضدها ، وتقعدها عن الكفاح ضد عدوها الحقيقى المتربص بها ، ونعنى إسبانيا النصرانية .

— ٢ —

كانت إسبانيا النصرانية فى خلال تلك الفترة التى اضطرمت فيها الأندلس بالفتن ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فى النواحى ، تسير قدماً فى سبيل القوة والتوطد، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس ، وممالأة ثوارها والعيث فى أراضيها . وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين ، هما مملكة ليون (أو مملكة جليقية) ، ومملكة نافار (نبرّه أو بلاد البشكنس) . وكانت ليون وهى الواقعة فى الشمال الغربى بين المحيط ونهر دويرة ، أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى قيادة إسبانيا النصرانية ، فى ميدان الكفاح الخالد بينها وبين إسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التى تتاخم مملكة ليون ، مثل أسترقة وسمورة وشلمنقة وشقوبية ومبراندة ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر ، لقلتهم فى تلك الأنحاء ، وكثر اعتداء النصارى عليهم ، وتوالى القحط فى تلك الربوع ، فهاجروا إلى الجنوب ، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث (أواخر القرن التاسع) ، فعاث فى تلك المنطقة ، وفتك بمن فيها من المسلمين ، ثم ارتد إلى جباله . ولبثت هذه المنطقة قفراً خالية تقريباً ، يتبادلها المسلمون والنصارى من وقت إلى آخر ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء ، وانتهز ألفونسو الثالث تلك الفرصة ، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة . واختط هنالك عدة قلاع منيعة ، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية ، واجتياح المسلمين العزل بالنار والسيف ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ ، ونهب الأموال والمتاع . وجرى ولده غرسية على هذه السياسة الدموية الغاشمة . وكانت إسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ، ومواردها

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس ، لوحة ١٠١ ب .

الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعمائها الوافرة ، وحضارتها الزاهرة ، بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة . وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها ، من هذا العدوان المخرب الذى أخذ يشتد يوماً عن يوم .

وكان عبد الرحمن حينما ولى الملك ، يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى ، لكى يكرس جهوده وقواه لقمع الثورة ، وتطهير الأندلس من عناصر الفتنة ؛ ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرصة ، وإذكاء نار الفتنة والفوضى فى الأندلس . فما كاد عبدالرحمن يلى الملك ، حتى بادر أردونيو الثانى (أرذون) ملك ليون بالإغارة على الأراضى ، الإسلامية واتجه أولا نحو منطقة الغرب لنأيها وضعف وسائل الدفاع عنها ، وقصد إلى مدينة يابُرة ، الواقعة غربى بطليوس . ويقول لنا الرازى إن أردونيو نزل على يابرة فى يوم ١٣ من المحرم سنة ٣٠١ هـ (أغسطس ٩١٣ م) وأنه كان فى جيش يقدر بثلاثين ألفاً من الخيل والرجل والرماة ، وكان على يابرة يومئذ عاملها مروان عبد الملك بن ، فبذل جهده لمدافعة الغزاة ؛ وطوق أردونيو المدينة من سائر نواحيها ، وهاجمتها قواته من كل صوب ، ودافع المسلمون عن مدينتهم من فوق الأسوار ، حتى أرغموا بفعل السهام على النزول عنها وتسلق النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة ، واضطرمت بينهم وبين المسلمين داخلها معارك شديدة ، وفنى المسلمون شيئاً فشيئاً حتى قتلوا جميعاً ، ولم تنج منهم سوى شرذمة قليلة ، فرت تحت جنح الظلام إلى مدينة باجة . وسبى النصارى سائر النساء والذرية ، وقتل مروان بن عبد الملك عامل المدينة مدافعاً عنها ، وبلغ السبى أكثر من أربعة آلاف من النساء والولدان . وترك أردونيو المدينة خراباً يبابا ، وعاد فى قواته إلى جليقية . وبث هذا الحادث الروع والفزع فى سائر قواعد الغرب ، فأخذ أهلها فى إصلاح أسوارهم ، وقام أهل بطليوس بالأخص فى ذلك بمجهود ضخم ، ودعموا أسوارهم ، وزادوا فى عرضها وارتفاعها ، بقيادة عاملهم عبد الله بن محمد الحليقى[(١)] . وفى سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) ، سار أردونيو فى قواته مرة أخرى إلى منطقة الغرب ، فى جيش تقدره الرواية الإسلامية بستين ألفاً ،

---

(١) ابن حيان عن الرازى — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٥١ أ و ب

فعبر نهر التاجُه ، واشترك فى إرشاده إثنان من الأدلاء المسلمين ، من بربر مصمودة من البرانس ، ولكنهما كانا يضمران عكس ما طلب إليهما ؛ واتجه أردونيو جنوباً صوب حصن مدلين ، وقاده الدليلان المسلمان من طريق صعبة وعرة ، فلم يخرج منها إلا وقد نهك جيشه ، فأمر بالدليلين فأعدما ، وسار حتى وصل إلى الحصن ، فاستولى عليه دون مقاومة وأصاب فيه بعض الغنائم ، ثم سار إلى قلعة الحنش (ألانية) ، الواقعة جنوبى ماردة ، وكان يسكنها يومئذ برانس كتامة ، وكانوا فى عدد وافر وعلى أتم استعداد للمقاومة ، وكان المقدم عليهم يسمى بابن راشد ؛ فهاجم النصارى الحصن ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، ولكنهم هزموا فى النهاية وقتل معظمهم ، وقتل ابن راشد فيمن قتل ، ودخل النصارى الحصن فقتلوا كل من وجدوه ، وسبوا النساء والذرية ، وهدموا الحصن . ثم سار أردونيو فى اليوم التالى إلى ماردة ، ولكنه وقف أمامها ذاهلا من حصانتها ، واعتزم الكف عن قتالها ، وبعث إليه قائد المدينة محمد بن تاجيت رسولا يستلطفه ، وأهدوا إليه فرساً رائعاً من عتاق الخيل بسرجه وعدته ، فقبله وأعجب به ، وتركهم ورحل عنهم . ولكنه عاث حين قفوله فى تلك المنطقة ، وقتل وسبى كثيراً من سكانها ، واستولى على بعض قلاعها ؛ ثم قصد إلى مدينة بطليوس ، فارتاع أهلها واسترضوه بالمال والحلى ، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقلين بالغنائم والسبى دون أن يعترض سبيلهم معترض[١] .

وبقيت يابرة خراباً نحو عام ، حتى بعث عبد الله بن محمد الجليقى ، صاحب بطليوس حليفه مسعود بن سعدون المعروف بالسرنباقى ، ومن معه من قومه الشاردين عن الجماعة إلى مدينة يابرة ، فنزلها مسعود بأهله وولده وصحبه ومن معهم ، وكان منهم كثير ممن لجأ من قبل من أهل يابرة إلى باجة وأكشونبه ؛ وابتنى لهم الجليقى أسوار المدينة ، وأمدهم بالأطعمة والدواب والكسى ؛ وعلى أثر ذلك قصد الناس إلى يابرة فاستوطنوها ، وعمرت بسكانها مرة أخرى[٢] .

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس — مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٦٠ أ و ب وابن خلدون ج ٤ ص ١٤١ .

(٢) المقتبس — السفر الخامس ، لوحة ٥٣ و ٥٤ .

وكانت هذه المنطقة التى غزاها النصارى وهى منطقة ماردة ، من المناطق الثائرة . ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع فى صميم الأراضى الإسلامية . هذا إلى أنه رأى أن يأسر قلوب الثوار ، بإنجادهم والانتقام لهم ، وأن يرد عدوان النصارى بمثله . ففى فاتحة سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) سير عبد الرحمن وزيره وقائده أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى جيش قوى ، غازياً إلى أراضى مملكة ليون ، فالتقى بالنصارى وهزمهم فى عدة وقائع محلية ، وعاث فى أراضيهم وسبى وغنم غنائم كثيرة[١] . وفى العام التالى أراد أردونيو الثانى الانتقام لهزائمه ، فعاث فى منطقة طلبيرة[٢] ، وأحرق مدنها وانتسف ضياعها ، فضج المسلمون لهذا البلاء ، وتضرعوا إلى مليكهم أن ينقذهم من هذا العدوان الصارخ .

فسير عبد الرحمن قائده أحمد بن أبى عبدة ثانية إلى أرض النصارى فى جيش ضخم من المدونين ، والمتطوعة ، وانضم إليه حين دخوله إلى الثغر (الحدود) خلق كثير ، واخترق المسلمون أراضى قشتالة ، وزحفوا إلى قلعة شنت إشتيبن الواقعة على نهر التاجُه ، وكانت تسمى أيضاً قلعة قاشترو مورش[٣] ، وهى من أمنع قلاع النصارى على الحدود ، وضربوا حولها الحصار الصارم ، ثم نازلوها بشدة ، وكادت تسقط فى أيديهم ، لولا أن هرع إلى إنجادها أردونيو فى جموع ضخمة من النصارى ؛ وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه فى الكثرة مختل النظام ، مفكك العرى ، يتألف سواده من البربر والمرتزقة الذين لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ، وكانوا يحرصون على غنائمهم أكثر من حرصهم على مقاتلة العدو ، فلما انقض أردونيو بقواته على المسلمين ، تسللت منهم وحدات كثيرة ، وارتدت أمام المهاجمين ، ودب الهرج إلى صفوف المسلمين . ولكن قائدهم الشجاع أحمد بن أبى عبدة فضل الموت على الارتداد ، فصمد فى مكانه فى نفر من أشجع ضباطه وجنده ، فقتلوا جميعاً ، وهلك معهم عدة من أكابر الفقهاء والمجاهدين . وكانت هزيمة مروعة . وكان ذلك فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩١٧ م) . وتقول

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) وهى بالإسبانية **Talavera** ، وهى تقع على نهر التاجه غربى طليطلة .

(٣) **San Esteban** أو **Castro Moros**

الرواية الإسلامية إن فلول الجيش الإسلامى ، استطاعت أن ترتد بعتادها ومتاعها سالمة إلى الأراضى الإسلامية[١] . ولكن الرواية الإسبانية تقول بالعكس إن هزيمة المسلمين كانت ساحقة ، وبلغ من روعتها أن غصت سائر التلال والسهول والغابات الممتدة جنوباً من دوبرة إلى أنتيسة[٢] ، بقتلاهم وأشلائهم[٣] .

وكان لذلك الخطب وقع عميق فى بلاط قرطبة . وكان عبد الرحمن يعتزم المبادرة إلى غزو ليون بنفسه ، لولا أن شغلته عندئذ حوادث إفريقية ، على أنه اضطر غير بعيد أن ينهض لرد اعتداء النصارى . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونيو الثانى وحليفه سانشو (شانْجُه) ملك ناڤار ، إلى غزو الأراضى الإسلامية فى منطقة الثغر الأعلى ، وذلك فى ربيع سنة ٩١٨ م . وكانت موقعة شنت إشتين قد ضاعفت من جرأة النصارى واستهتارهم ، فعاثوا فى أحواز ناجرة وتطيلة . واستولى سانشو على بلدة بلتيرة[٤] وأحرق مسجدها الجامع ونكل بأهلها . يقول ابن حيان : « وانقلب الكفرة لعنهم الله إلى بلادهم أعزة ، فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحرّكه لمجاهدة أعداء الله ، ورغبه فى الانتقام منهم بمن الله تعالى »[٥] . وكان عبد الرحمن فى الواقع يتوق إلى الانتقام لهزيمته الفادحة فى شنت اشتين ومقتل قائده الشهم ، ولم ينس أن أردونيو سمر رأسه فى جدران شنت إشتين ، فحشد جيشاً ضخماً لمقاتلة النصارى بإمرة حاجبه بدر بن أحمد ، وبعث الأوامر والكتب إلى أهل الثغور بالنهوض لتأييده ، ومعاونته على معاقبة النصارى ورد عدوانهم والإيقاع بهم . وخرج بدر فى جيشه الضخم من قرطبة فى المحرم سنة ٣٠٦ هـ (أوائل يوليه سنة ٩١٨ م) ، وهرع إليه أهل الثغور (الأطراف) من كل ناحية ، ظمئين إلى الجهاد والانتقام . وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل

---

(١) هذا قول ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس – مخطوط الخزانة الملكية، لوحة ٦٤ أ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٨ .

(٢) هى بالإسبانية **Atienza**

(٣) **Dozy : Hist , Vol. II. p. 117**

(٤) ناجرة هى بالإسبانية **Najera** ، وبلتيرة هى **Valterra** ، وكلتاهما تقع فى أحواز تطيلة .

(٥) السفر الخامس من المقتبس – لوحة ٦٦ ب .

إلى حدود ليون ، فاعتصم النصارى بالجبال لما رأوا من كثرة العدو وأهبته ؛ ولكن المسلمين هاجموهم فى مواقعهم ، ونشبت بين الفريقين موقعتين دمويتين على مقربة من مكان يسمى « مطونية » . فهزم النصارى هزيمة ساحقة ، وأمعن المسلمين فيهم قتلا وأسراً ، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة ، وكان ذلك فى الثالث والخامس من ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (١٣ و ١٥ أغسطس سنة ٩١٨ م)[1] .

على أن هذه الهزيمة الساحقة لم تفت فى عضد النصارى ، فلم يمض سوى قليل حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضى الإسلامية ، واستمر القتال سجالا بين المسلمين والنصارى مدى أشهر ، وكثر العيث والسبى فى مناطق الحدود . فاعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى مقاتلة النصارى بنفسه ، فخرج من قرطبة فى الثالث عشر من المحرم سنة ٣٠٨ هـ (أوائل يونيه ٩٢٠ م) فى جيش ضخم ، وانضم إليه أثناء سيره كثير من أهل الثغور . واخترق أراضى الثغر الأوسط من طليطلة شمالا ، حتى مدينة الفرج أو وادى الحجارة ومدينة سالم ، فوصل إليها فى الرابع والعشرين من المحرم . وفى ذلك اليوم ولى خطة الوزارة لسعيد بن منذر القرشى ، وعينه والياً لوادى الحجارة ، واتجه إلى طريق ألبة والقلاع (قشتالة) ثم عبر نهر دويرة وزحف على مدينة أوسمة (وخشمة) وأحرقها ، وفر منها النصارى ولاذوا بالجبال . ثم سار إلى قلعة شنت إشتبين (قاشترو مورش) ، وهى التى كانت مسرحاً لهزيمة المسلمين المروعة ، ففرت حاميتها النصرانية ، واستولى عليها وخربها ، وغنم ما فيها . وخرب فى تلك المنطقة كثيراً من المعاقل والأبراج والكنائس والديارات . ثم سار إلى مدينة قلونية وهى مدينة قديمة لم تبق منها اليوم سوى أطلال دارسة ، وكان أهلها قد فروا إلى الجبال ، فاجتاح تلك المنطقة كلها ، وانتسف أراضيها وخرب قلاعها ، وهدم قلونية وخرب دورها وكنائسها ، ولم يعترض سبيله أحد من النصارى . وكان أردونيو ملك ليون وسانشو (شانجه) ملك نافار قد حشدا حشودهما ، واجتمعت لهما قوات كثيرة . ولكنهما بقيا فى الشمال انتظاراً لمقدم المسلمين ، وعرج عبد الرحمن بعد ذلك على مدينة تطيلة إستجابة لصريخ أهلها ، حيث أزعجها النصارى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٠ .

باعتدائهم المتكرر ، وبعث بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسى صاحب تطيلة لاحتلال قلعة قلقرة[1] التى كان سانشو يتخذها قاعدة للإغارة عليها ، فألفوها خالية ، وزحف عبد الرحمن فى الوقت نفسه على حصن قلهرّة وكان به سانشو فى قواته ، ففر عند اقترابه ، واحتله المسلمون وغنموا كل ما فيه ثم دمروه ، وانتسفوا الأراضى المحيطة به ، ولجأ سانشو إلى حصن أرنيط (أورنيدو) الواقع جنوب غربى قلهرة . والظاهر أن النصارى اعتزموا ألا يعترضوا سبيل المسلمين فى تلك المنطقة كلها ، وفقاً لخطة وضعوها لاستدراج المسلمين . فلما عبر عبد الرحمن بقواته نهر إيبرو (إبرة) فاجأه سانشو فى قواته ، وهاجم مقدمة المسلمين ، ولكن عبد الرحمن كان يقظاً متأهباً ، فتعاون الفرسان والرماة المسلمون على النصارى ، وأثخنوا فيهم ، فارتدوا إلى شعب الجبال واعتصموا بها . ولجأ سانشو إلى حليفه أردونيو ملك ليون ، وجمع الملكان قواتهما من سائر النواحى وتربصا للقاء المسلمين فى مواقع منيعة ، وعلم عبد الرحمن باجتماع القوات النصرانية على هذا النحو ، فأمر بإحكام التعبئة ، ومضاعفة الاستعداد ، فلما نفذ الجيش الإسلامى إلى شعب الجبال ، انحدر النصارى لمهاجمته واشتبكوا بمؤخرته وأحدثوا بها اضطراباً وخسائر ، فشعر عبد الرحمن بخطر المأزق ، وبادر بالخروج من الشعب الضيقة إلى السهل المنبسط . وهنالك عسكر بجيشه فى مكان يسمى «خونكيرا» **Junquera** على مقربة من غربى بنبلونة ، واستعد للقاء النصارى . وهنا طمع النصارى فى محاربة المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا فى حمى الجبال ، ولكنهم دفعوا ثمن جرأتهم هزيمة فادحة ، وأمعن المسلمون فيهم قتلا وأسراً ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، وقتل وأسر كثير من أكابر فرسانهم وزعمائهم ، ومن بينهم أسقفان هما دولثديو أسقف شلمنقة وأرمخيو أسقف توى ، وقد كانا يحاربان كجنديين ، ولجأ نحو ألف من النصارى ، أو أزيد من خمسمائة على قول آخر ، إلى قلعة مويش القريبة ، فاقتحمها المسلمون ، واستخرج جميع النصارى الذين بها ، ومنهم عدد من القوامس ووجوه الفرسان ، فأمر عبد الرحمن بإعدامهم جميعاً ، ومزق النصارى كل ممزق ، وانهارت كل مقاومة ،

---

(١) وهى بالإسبانية **Carcar** وهى تقع على مقربة من شمالى قلهرة .

وقضى عبد الرحمن أربعة أيام بجمع الأسلاب والنعم ، ويهدم الديار ويقطع الأشجار. وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم . وحدثت هـــذه الوقيعة الساحقة على النصارى ، فى اليوم السادس من شهر ربيع الأول سنة ٣٠٨ هـ (٢٦ يوليه ٩٢٠ م) . وهدم عبد الرحمن حصون العدو ، وأصلح حصون المسلمين ، وفى مقدمتها حصن بقيرة Viguera المشرف على حدود ناڤار ، وزودها بالعتاد والمؤن .

وفى اليوم السابع والعشرين من ربيع الأول ، قفل عبد الرحمن عائداً إلى قرطبة ، وتوقف فى طريقه يوماً بمدينة أنتيسة على مقربة من مدينة سالم ، وفرق الأموال والكسى فى أهل الثغر ، وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم ، ووصل إلى قصر قرطبة فى يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٣٠٨ هـ (أواخر سبتمبر سنة ٩٢٠ م) بعد أن قطع فى غزوته هذه ثلاثة أشهر ، وكانت غزوته الأولى فى مقاتلة النصارى ، وكان ممن شهدها معه سليمان بن عمر بن حفصون المستأمن إليه ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، وبها ارتفع شأوه ، وتوطدت سمعته(١) .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر فى ردع النصارى ووقف عدوانهم . ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار أردونيو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة ، وكان يتولى الدفاع عنها عبد الله بن محمد بن لب ، ومعه نفر من زعماء بنى لب وبنى ذى النون وغيرهم من الوجوه الأكابر ، فحاصرها سانشو واستولى عليها ، وأسر من فيها من الزعماء وحملهم إلى بنبلونه ثم قتلهم ، ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى ابن ذى النون حيث استطاع الفرار من سجنه . فضجت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لتلك الفعلة البشعة ، ووجهت سهام اللوم إلى عبد الرحمن لقصوره أو تقصيره ، فى حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة ، ولم يك ثمة مناص من العمل على تهدئة الخواطر ، والانتقام لذلك الاجتراء . وسير عبد الرحمن مولاه ووزيره

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس – مخطوط الخزانة الملكية – لوحة ٧١ ب – ٧٤ أ وب ، و الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٣ و ٦٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٧ – ١٨٩ ، وكذلك Dozy : Hist., V. II. p. 114 & 143, Crónica General ; ibid. Vol. II. p. 386 .

عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى فى جيش قوى ، ريثما يتم هو أهبته (ربيع سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م) ، فقصد إلى تطيلة وجازمنها إلى أراضى نبرّة (ناڤار) ، وعاث فيها ، وقاتل سانشو وهزمه فى عدة وقائع . ولم تمض بضعة أشهر أخرى ، حتى أتم عبد الرحمن أهبته ، ولم يصبر على انتظار الربيع وهو موعد الصوائف ، بل غادر قرطبة فى السادس عشر من المحرم سنة ٣١٢ هـ (١٧ إبريل سنة ٩٢٤ م) فى قوى جرارة ، وهو يعتزم التنكيل بالنصارى ، والانتقام الذريع لجناية بقيرة ، وترك فى القصر إبنه الأكبر وولى عهده الحكم ، وهو صبى فى نحو العاشرة من عمره ، وإلى جانبه الوزير أحمد بن محمد بن حدير ، وسلك الناصر إلى الثغر طريق المشرق ، مخترقاً كورة تدمير ، فكورة بلنسية ، ونازل فى طريقه مدينة لورَقة ، وكان يمتنع بها زعيمها الثائر عبد الرحمن بن وضاح ، فأخضعه بالأمان ، وبعثه مع أهله إلى قرطبة . ثم تقدم منها إلى مدينة مرسية ، فاستنزل بها يعقوب بن أبى خالد التوزرى وزملاءه العصاة ، وأخضع بعض حصون أخرى فى قطاع بلنسية ، ثم سار إلى طرطوشة ونظر فى شئونها ، وتقدم بعد ذلك صوب سرقسطة ، وهنالك انضم إليه التجيبيون وحلفاؤهم . ولما وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغر بقواتهم ، وهم فى جموع وافرة وتعبية محكمة ، ودخل أراضى ناڤار فى أوائل ربيع الآخر (يوليه) . فساد الذعر بين النصارى ، وترك العدو معظم قلاعه وحصونه دون دفاع ، وكان أول ما استولى عليه المسلمون حصن قلهرّة وكان سانشو قد أخلاه ، فأمر عبد الرحمن بهدمه وإحراق ما فيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن قلقرة ، ومحلة بيطرالته (بيرالتا)[1] الواقعة شمال شرقى قلهرة وما حولها من الحصون ، وقتل وسبى كل من وجد بها من النصارى ؛ ثم سار إلى حصن بالحش القريب منها وأحرقه ، وخرب ما حوله من الضياع والزروع ، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال (كاركاستيلو) فى وادى أراجون شرقى بيرالته ، وشمال شرقى تطيلة ، وهدم سائر القلاع فى تلك المنطقة أو أحرقها . ثم نفذ عبد الرحمن إلى قلب ناڤار وزحف على عاصمتها بنبلونة ، وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه فى شعب الجبال ، فكان يرد فى كل مرة بخسارة فادحة . ودخل

---

(١) يبدو أن بيطرالته هو المكان الذى يسميه ابن حيان « قنطرة ألبة » .

عبد الرحمن بنبلونة ، وقد فر سكانها رعباً ، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ، وجد سانشو فى جمع قواته ووافته الأمداد من قشتالة ، وحاول لقاء المسلمين فى مناوز ناڤار الوعرة مرتين ، الأولى على مقربة من شنت إشتيبن ، والثانية على مقربة من قلهرّة ، ولكن عبد الرحمن كان على حذر ، وكان يعرف تلك المفاجآت الخطرة ، فهزم النصارى فى كلتا الموقعتين ومزقوا شر ممزق ، وانهارت كل مقاومة ، وبذلك تم إخضاع ناڤار وسحق قواتها (ربيع الثانى ٣١٢ هـ — أغسطس ٩٢٤ م) .

ثم سار عبد الرحمن جنوباً إلى حصن مسرة ، وهو أول حصون المسلمين على حدود نبرّة ، فعهد إلى من فيه بادخار الأطعمة ، وفرق فيهم الأموال . ورحل بعد ذلك إلى مدينة تطيلة ، فوصلها فى اليوم السابع والعشرين من ربيع الثانى ، ثم قفل منها راجعاً إلى الحضرة ، وتوقف خلال الطريق بمدينة شنت برية مقر بنى ذى النون ، وكان زعيمهم يحيى بن موسى بن ذى النون قد خلع الطاعة ، والتزم العصيان مستقلا بسلطانه ، فلما أشرف الناصر على معقله ، خرج إليه نادماً مستغفراً منضوياً فى ظل طاعته ، فتقبل الناصر توبته ، ودخل الناصر قصر قرطبة فى يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣١٢ هـ ، وقد أنفق فى غزوته أربعة أشهر ، وهى تعرف فى الرواية الإسلامية « بغزوة بنبلونة »(١) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى أردونيو الثانى ملك ليون (سنة ٩٢٥ م) ، فخلفه فى الملك أخوه «فرويلا» ، فلم يحكم سوى عام ثم توفى ؛ فتنازع العرش سانشو وألفونسو ولدا أردونيو ، وشغلت ليون بحرب أهلية استمرت بضعة أعوام ، وانتهى طورها الأول بوفاة سانشو . ثم نشبت ثانية بين ألفونسو وأخيه راميرو ، وانتهت بفوز راميرو ، وجلوسه على عرش ليون باسم راميرو الثانى ، وذلك سنة ٩٣٢ م .

ولم يتدخل عبد الرحمن فى تلك الحرب الأهلية ، فترك النصارى يمزق بعضهم بعضاً ، وانتهز الفرصة ليتم سحق الثورة ، وتوطيد السكينة داخل مملكته ، حسبما

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٨٠ — ٨٣ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ — ٢٠١ ؛ وكذلك **Dozy : Hist, V. II. p. 144—145** .

فصلنا فى موضعه ، وليقضى على دعوة الفاطميين فى المغرب الأقصى :

وكان راميرو الثانى أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد البأس. فما كاد يلى العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين ، وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة فى المملكة الإسلامية هو خير السبل إلى تبديد قوى المسلمين ؛ وكانت مدينة طليطلة قد عادت تضطرم بعوامل الفتنة والثورة ، وشجع راميرو بدسائسه ووعوده ، زعماءها على التمادى فى غيهم ، فأرسل إليهم عبد الرحمن وفداً من العلماء يخطب ودهم ويحثهم على الخضوع والطاعة ، فرفضوا نصحه بكبرياء وصلف ، معتمدين على مؤازرة ملك ليون . فبادر الناصر [1] بالسير إلى طليطلة فى قوات ضخمة ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٣١٨ هـ (مايو سنة ٩٣٠ م) وضرب حولها الحصار وانتسف ما حولها من المروج ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع ، وترك لحصارها بعض قواته ، ثم عاد فسار إليها بعد ذلك بعامين فى صيف سنة ٣٢٠ هـ (يونيه سنة ٩٣٢ م) معتزماً فى هذه المرة أن ينزل بها الضربة القاضية . وهنا حاول راميرو أن يسعى إلى إنقاذ المدينة المحصورة ، استجابة لنداء أهلها ، فسار لإنجادها فى بعض قواته ، واستولى فى طريقه على حصن مجريط [2] . ولكن القوات الإسلامية استطاعت أن ترده قبل أن يصل إلى طليطلة ، فاضطر أن يترك المدينة الثائرة لمصيرها ، وفقد الثوار بذلك كل أمل فى المقاومة ، وأضنتهم مصائب الحصار ، فاضطروا فى النهاية إلى الإذعان والتسليم ، ودخل الناصر طليطلة ظافراً (رجب سنة ٣٢٠ هـ) ، وشهد مبلغ منعتها وكثافة أسوارها ، وأمر بهدم حصونها ، وفقدت الثورة فى الأندلس بسقوط طليطلة أمنع معاقلها .

وفى العام التالى ، سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) ، سار ملك ليون إلى مدينة أوسمة (وخشمة) التى كان يهددها المسلمون ، فردهم عنها واحتلها ، وكانت أوسمة ، وهى تقع شرقى شنت إشتيبن على مقربة من دويرة ، وعلى خط الحصون الفاصل بين الأراضى الإسلامية وقشتالة القديمة ، من القواعد الدفاعية الهامة ، ومن ثم فقد اعتزم الناصر أن يسير لاستردادها بنفسه ، فخرج بالصائفة

---

(١) كان عبد الرحمن قد اتخذ سمة الخلافة وتلقب بالناصر لدين الله منذ سنة ٣١٧هـ حسبما نبين بعد .

(٢) هو حصن ومحلة منيعة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) على ضفة نهر منثارس ضمن منطقة الحصون الدفاعية بين الأندلس ومملكة ليون . وقد استمرت تؤدى دورها الدفاعى حتى سقطت أخيراً فى يد القشتاليين سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) ، وعلى موقعها أقيمت مدينة مدريد الحديثة .

من قرطبة فى منتصف جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ (مايو ٩٣٤ م) ، فى جيش كثيف حسن الأهبة ، وكانت قواته فى هذه المرة ترفع أعلام العقاب المصورة ، التى كان أول من استعملها ، وكان معه ولده الأكبر وولى عهده الحكم ، واستخلف فى القصر ولده عبيد الله . وقصد الناصر إلى دار الحرب (أراضى النصارى) من طريق مدينة الفرج أو وادى الحجارة ، وذلك لكى يضع حداً لما أبداه محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة ، من أعراض الخلاف ، والتوقف عن اللحاق به حسبما أوعز إليه ، فتحول نحو أراضيه مما يلى غرب الثغر الأعلى ، واحتل حصن ماومده من حصونه ، بعد أن بادر أهله بالطاعة ، ثم تقدم إلى حصن روطة اليهود على مقربة من سرقسطة ، وكان به أخوه يحيى بن هاشم ، وافتتحه قسراً . ثم سار إلى سرقسطة ، وطوقها ببعض قواته ، وبعث قوات أخرى إلى تطيلة وطرسونة . ولكنه رأى بعد ذلك أن يتحول بقواته إلى غزو أراضى النصارى ، وكان أقربها إليه أراضى نبرّة (ناڤار) . وهنا وفدت عليه رسل تيودا (طوطة) إبنة شنير ملكة ناڤار ، التى قامت بالأمر بعد وفاة زوجها سانشو ملك ناڤار وصية على ولدها غرسية ، ترجو عقد الصداقة ، والسلم . فرحب الناصر بطلبها ، ووفدت عليه فى وجوه مملكتها وقواميسها وأساقفتها ، وهو بمحلة قلهرّة ، فاستقبلها الناصر ومن حوله جيوشه الكثيفة ، العظيمة الأهبة ، وأكرم منزلتها ، وتعهدت لديه بالطاعة ، والابتعاد عن محالفة أى ملك أو أمير نصرانى ، وكف الأذى عن المسلمين ، ومعاونة قواد الثغر الأعلى فى محاربة كل من خرج على الطاعة ، وأخيراً أن تخلى سبيل وجوه بنى ذى النون الذين فى اعتقالها . وسجل الناصر ذلك وأشهد عليه ، وأقر الناصر من جانبه ولدها غرسية ، ملكاً على بنبلونة وأعمالها (بلاد البشكنس) ، وانصرفت مع رجالها مزودة بالهدايا والكسى الفاخرة ، وفى وفود طوطة على الناصر يقول الشاعر إسماعيل بن بدر :

وقيدت زعيمتهم إليه ... كبلقيس تحف به الجنود
تلفت لا ترى إلا شهاباً ... به يرمى وتختطف العديد
فبادرت السجود لنور وجه ... له رحب التواضع والسجود
فأوسعها بفضل العفو أمناً ... وقد كادت بمهجتها تجود

فدام يســوسنا ما دام شـــبه له فى الأرض طالعه السعود

وسار الناصر بعد ذلك إلى أراضى ألبة والقلاع ، وتوغل فيها ، ففر النصارى من السهول ، واعتصموا بالجبال ، وكان أول ما استولى عليه من حصون العدو ، حصن المنار ، وهو من أعظم حصون ألبة ، فدمره المسلمون ، ودمروا حدائقه ، ولم تبق منها قائمة . وتردد المسلمون بعد ذلك فى مختلف الأنحاء ، وهم يدمرون فى طريقهم كل شىء ، حتى وصلوا إلى حصن أنة ، فهدموه ، وأتلفوا حدائقه ومصانعه ، وكان ضمن أبنيته كنيسة فخمة ، وضمن سكانه ثلاثمائة راهب . واجتاح الناصر سائر بقاع ألبة . ثم نزل على قلونية فى شهر رمضان ؛ وكان الناصر يود أن يلتقى براميرو ملك ليون فى موقعة ما ، ولكنه حاول عبثاً أن يحمله على مغادرة قلاعه ، والاشتباك مع المسلمين فى معركة فاصلة ، وكان راميرو يرى ما ينزله المسلمون تباعاً بأراضى مملكته من صنوف التدمير والتخريب ، وهو عاجز عن أن يقوم بأية حركة لوقف هذا السيل المخرب . وأخيراً اجتمع النصارى ، ومعهم ملكهم راميرو فى قلعة مزورته الواقعة فوق ربوة وافرة الحصانة ، على مقربة من قلونية ، واستعدوا للقاء المسلمين ؛ فعبأ المسلمون صفوفهم ، واشتبكوا مع النصارى فى معركة حامية ، قتل فيها عدة من أكابر الفرسان النصارى ، واستشهد عدد من المسلمين ، وحاول المسلمون بعد ذلك استدراج النصارى إلى السهل . فلما عبروا وادى أوسمة حاول النصارى الهجوم ، فردهم المسلمون وقتلوا منهم جملة ؛ ثم رحل المسلمون بعد ذلك إلى حصن غرماج (Gormaz) على مقربة من ليون . ورأى الناصر أن التقدم بعد ذلك فى السهول القفرة يعرض جيشه لمتاعب شديدة ، فارتد بقواته شرقاً ، وهو يعيث فى أراضى قشتالة . ثم زحف على مدينة برغش عاصمة قشتالة وخربها ، وقتل على مقربتها عدداً كبيراً من أحبار الأديار المجاورة (سنة ٩٣٤ م) ثم قفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة ، وقد قطع فى غزوته هذه زهاء أربعة أشهر . وذكر الناصر فى كتاب الفتح الصادر عن هذه الغزوة ، الجهات والمدن التى غزاها من بلاد ألبة والقلاع ، فكان منها مدينة أوسمة ، وحصن القصر ، وحصن أنة والدير المنسوب إليه ، ومدينة برغش وقصبتها المنيعة وبسيطها ، وحصن بلنسية وبسيطه ، وحصن اشكفيرش وبسيطه والأديار المتصلة به ، ومدينة لزمة

العظيمة الشأن وبسيطها ، ونظم الشعراء قصائدهم فى تهنئة الناصر بما أصابه فى هذه الغزوة من الظفر(١) .

وتقص علينا الرواية الإسلامية خبر غزوة بحرية قام بها أسطول الناصر فى تلك السنة (٣٢٣ هـ) . وخلاصة ذلك أن أسطولا بقيادة أمير البحر عبدالملك ابن سعيد بن أبى حمامة ، قوامه أربعون مركباً منها عشرون من الحرافات التى تحمل النفط والآلات البحرية ، وعشرون تحمل الرجال المقاتلة ، وعدة ركابه من الجند ألف رجل ومن البحريين ألفين ، خرج من ثغر ألمرية فى شهر رجب (مايو ٩٣٥ م) فسار أولا إلى جزيرة ميورقة الإسلامية ، ثم خرج منها متجهاً نحو شاطىء الثغر الفرنجى ، وقصد أولا إلى مدينة بالش وهاجمها ، ووقعت بينه وبين أهلها معركة عنيفة هزم فيها الفرنج ، وقتل منهم ثلاثمائة رجل ؛ ثم سار الأسطول إلى مدينة إينش ، وأحدق بها المسلمون براً وبحراً وأحرقوا المراكب فى مرساها وقتلوا من أهلها نحو أربعمائة رجل ؛ وبعث ابن حمامة من سفنه خمسة عشر سارت شمالا إلى بلدة مسّنيط ثم سار خلفها ببقية الأسطول ، وغزا الأسطول قرى كثيرة على الشاطىء ، وحقق غنائم كثيرة ، وخرج الافرنج لقتاله ، فهزموا وقتل قائدهم . ثم تقدم الأسطول بعد ذلك من مدينة برشلونة ، عاصمة الثغر الفرنجى ، فاجتمع الفرنج لمقاومته بقيادة زعيمهم بليط ، فهزموا وقتل قائدهم ، وأغلقت المدينة أبوابها ودافع أهلها من فوق الأسوار ، فتحول الأسطول إلى الساحل الجنوبى ، ودارت بينه وبين الفرنج المجتمعين على الشاطىء معركة شديدة هزم فيها الفرنج . ثم قفل الأسطول الإسلامى بعد ذلك عائداً إلى ثغر طرطوشة الإسلامى ، مثقلا بالسبى والغنائم ، وهنالك تلقى قائده أبا حمامة كتاب الناصر ، بالنهوص إلى سبتة وطنجة لمحاربة من انتقض هنالك من أهلها فصدع القائد بالأمر ، وسار بسفنه نحو الجنوب ، ولبث متردداً بين مراسى العدوة حتى شتاء العام التالى ، ثم عاد إلى مراسيه فى ألمرية فى صفر سنة ٣٢٤ هـ(٢) .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس – السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية ، لوحات ١٣١ - ١٣٥ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ؛ وكذلك : Dozy : Hist. · Vol. II. p. 148

(٢) ابن حيان فى المقتبس – السفر الخامس – لوحة ١٤٤ ب و ١٤٥ أ .

وفى هذه السنة أيضاً (٣٢٣ هـ) ، عقد السلم بين الناصر لدين الله وراميرو ملك ليون . وكان راميرو ، على أثر الغزوة المخربة التى قام بها المسلمون فى أراضيه ، قد بعث رسله إلى الناصر فى التماس الصلح ، فبعث إليه الناصر وزيره يحيى بن يحيى بن إسحاق سفيراً ، فاجتمع فى ليون مع راميرو ، وعقد معه شروط الصلح . ووقع الناصر هذه المعاهدة فى منتصف ربيع الثانى من هذه السنة (مارس ٩٣٥ م) ، فى يوم مشهود . وكان الناصر يرمى بعقد هذا الصلح إلى أبعاد ملك ليون عن التفاهم مع محمد بن هاشم صاحب سرقسطة ومعاونته . بيد أن هذا الصلح لم يدم طويلا ، لما كان يجيش به راميرو من رغبة ملحة فى النكث والتفاهم مع الخارجين على حكومة قرطبة[1] .

ذلك أن بذور الثورة كانت تختمر فى الثغر الأعلى ، وكان النصارى إلى جانب ذلك يتحينون الفرصة للنهوض والانتقام . وكانت طوطة ملكة نبرّة الوصية على ولدها غرسية ، قد لزمت السكينة حيناً وفقاً لمعاهدة السلم التى عقدتها مع الناصر ، ثم تحرك البشكنس بعد ذلك وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية (٩٣٧ م) . وظهرت فى الوقت نفسه فى الولايات الشمالية أعراض فتنة خطيرة . ذلك أن بنى هاشم التجيبين سادة سرقسطة ، لم يكونوا دائماً على وفاق مع حكومة قرطبة ، وكانت تحدوهم أطماع كثيرة . وكانوا يخشون عواقب السياسة التى يتبعها الناصر فى إخضاع الولاة المحليين ، وسحق سلطان الأسر القديمة ، وكان وجودهم فى الشمال بين الممالك النصرانية يفسح لهم مجال التآمر والخروج . وكان أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبى ، حينما توفى فى سنة ٣١٢ هـ ، قد خلفه ولده هاشم بمصادقة الناصر ، وحكم سرقسطة ، وضبط الثغر ، واشترك فى الغزو مع الناصر ، وتوفى فى سنة ٣١٨ هـ . فطلب ولده محمد بن هاشم التجيبى إلى الناصر أن يقره على ولاية سرقسطة ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار محمد إلى قرطبة مؤكداً لولائه ، فصدر الأمر بتوليته فى رجب سنة ٣١٩ هـ ، والتزم بأن يورد قسما من الجباية . ولما سار الناصر فى سنة ٣٢٢ هـ إلى الغزو بعث إلى أهل الثغور لموافاته ، فقدم إليه التجيبيون ، فى رجالهم ، وتخلف محمد بن هاشم عنهم ، وسار الناصر لقتاله ، ولكنه تحول

---

(١) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٤٣ أ

عنه إلى قتال النصارى حسبما تقدم(١) . ومن ثم فإنه لما اضطرمت نار الحرب بين ملك ليون وبين الناصر ، رأى التجيبيون الفرصة سانحة لتنفيذ مشاريعهم ، وكان راميرو ملك ليون بالرغم من ارتباطه بعهد السلم مع الناصر ، يرقب الفرصة للنكث واستئناف الحرب ضد المسلمين ، فلما استجاش به محمد بن هاشم ، رأى الفرصة سانحة ، فنكث عن السلم وعقد الحلف المنشود مع محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، وقريبه مطرّف بن منذر التجيبي صاحب قلعة أيوب(٢) ، وتعهد محمد لراميرو أن يعترف بطاعته ، نظير معاونته إياه فى الخروج على عبد الرحمن الناصر ومحاربته ، بل يقال إن هذا الحلف كان قد عقد قبل ذلك سراً ، وإن آثاره ظهرت منذ سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٤ م) ، حينما كان الناصر يغزو أراضى ليون ، ولم يتقدم بنوهشام لمعاونته ، بل بالعكس جاهر محمد بالخروج عليه وخلع طاعته ، ثم اعترف بسيادة ليون على سرقسطة وأحوازها ، ولما أبى بعض قواد الحصون مجاراته فى خيانته ، سار إليهم راميرو وأخضعهم ، وسلم قلاعهم إلى الزعيم الثائر ، ثم عقد محمد وراميرو محالفة مع طوطة ملكة ناڤار ، وغزا البشكنس الأراضى الإسلامية حسبما قدمنا ، وبذا تحالف الشمال كله ضد عبد الرحمن .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، خبر معركة ، نشبت فى ذلك الوقت فى الثغر الأعلى بين المسلمين والنصارى . وذلك أن الفرنج فى برشلونة وحلفاءهم فى الثغر ،حاولوا انتهاز الفرصة ، وغزوا الأراضى الإسلامية ، فخرج إليهم أحمد بن محمد بن إلياس قائد القوات السلطانية المرابطة فى الثغر على مقربة من سرقسطة ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة شديدة على ضفاف نهر إبرُه ، فهزم النصارى هزيمة شديدة وقتل وغرق منهم عدد جم . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه الموقعة فى آخر شوال سنة ٣٢٤ هـ (سبتمبر ٩٣٦ م)(٣) .

وبعث الناصر فى نفس الوقت جيشاً كثيفاً إلى الثغر الأعلى بقيادة الوزير عبد الحميد بن بسيل ، ليقوم بالتضييق على سرقسطة وبنى هاشم ، وليدعم

---

(١) العذرى فى كتاب ترصيع الأخبار ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) Calatayud وهى تقع جنوب غربى سرقسطة فى منتصف الطريق بينها وبين مدينة سالم .

(٣) المقتبس – السفر الخامس – لوحة ١٤٨ ب و ١٤٩ أ

للقوى السلطانية المرابطة على مقربة منها ، وذلك ريثما يستطيع السير بنفسه إلى الشمال . ثم أتبعه بجيش آخر ، بعثه إلى الثغر أيضاً بقيادة الوزير سعيد بن المنذر القرشى ، ليقوم بالمعاونة فى التضييق على سرقسطة .

وفى نفس هذا العام (٣٢٤ هـ) حاول نصارى ليون مرة أخرى الاستيلاء على قلعة مجريط أهم قلاع الثغر الأدنى ، فهاجمتها قوة كبيرة ، ولكن الحامية الإسلامية بقيادة أبى عمر بن أبى عمر استطاعت أن تصد هذا الهجوم ، وأن تنقذ القلعة(١) .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك يتأهب إلى الغزوة المرتقبة إلى الشمال . ففى منتصف شهر رجب سنة ٣٢٥ هـ (مايو سنة ٩٣٧ م) ، خرج من قرطبة إلى مقاتلة أعدائه فى جيش ضخم ، وكان بروزه يوماً مشهوداً ، تبدت فيه روعة أهباته ، وفى ذلك يقول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

يوم من العز مجموع له الناس ... يختال فى عقوتيه الجود والباس

وعلم عبد الرحمن أثناء سيره ، أن النصارى فى الوقت الذى يحتشدون فيه بأطراف الثغر الأعلى ، لمناصرة حليفهم الخارج محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة ، يحاولون فى نفس الوقت أن يزحفوا صوب طليطلة لإثارة الثورة فيها . فسار بجيشه إلى طليطلة كيما يؤمن أهلها ، ويرهب النصارى ، ونزل عليها ، فلما علم النصارى بمقدمه ارتدوا مذعورين إلى الشمال . وفى خلال ذلك وافاه كتاب من أحمد بن محمد بن إلياس قائد الثغر بظفره بالعصاة فى مدينة وشقة ، وكتاب آخر بإخماد ثورة أهل طلبيرة غربى طليطلة .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى الثغر الأعلى من طريق وادى الحجارة ، وأبقى قوة من جيشه فى منطقة طليطلة بقيادة مولاه درّى ، للسهر على النظام فى تلك المنطقة ؛ ورأى أن يبدأ بقلعة أيوب ، وكان قد امتنع بها مطرّف بن منذر التجيبى المعروف بأبى شوريب ، وكان راميرو قد بعث لإنجاده فرقة من فرسان ألبة والقلاع . فحاصر عبد الرحمن القلعة ، وبعث يدعوه إلى الطاعة ، ويؤكد له الأمان بخطه ، فرفض مطرف أن يستجيب إلى هذه الدعوة ، فهاجم عبد الرحمن القلعة ، وبرز إليه مطرف وحلفاؤه ، ونشبت بين الطرفين معركة

---

(١) المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٤٩ ب .

شديدة ، هزم على أثرها مطرف ، وقتل ، ولجأ أخوه حكم بن منذر فى فلوله ومن معه من فرسان ألبة إلى القصبة ، وامتنعوا بها ، فاستمر الهجوم عليهم ، وكثر القتل فى المدافعين ، حتى اضطر حكم أن يطلب الأمان لنفسه ولحلفائه النصارى ، ليعودوا إلى بلادهم ، ويلحق هو وأهله بالحضرة ، فقبل الناصر ونزل حكم ومن معه من القصبة ، وأعفى عن النصارى المستأمنين وقتل الباقون . ووقع فتح قلعة أيوب على هذا النحو فى التاسع عشر من شهر رمضان من هذه السنة .

وكان فتح قلعة أيوب أول صدع خطير فى ثورة بنى تجيب ، وكان بها ، فضلا عن مناعتها الطبيعية ، عدة كبيرة من فرسان سرقسطة الأكابر ، وخمسمائة من الفرسان النصارى لم ينج منهم سوى الخمسين الذين أمنوا ، وقد أفاضت الشعراء فى تهنئة الناصر بهذا الفتح ، ومن ذلك قصيدة لابن عبد ربه هذا مطلعها :

يا ابن الخلايف والصيد الصناديد   ألقت إليك الرعايا بالمقاليد

ورأى الناصر ، قبل أن يسير إلى سرقسطة ، أن يقوم بجولة فى أرض النصارى . فاتجه إلى أراضى ألبة والقلاع ، فافتتح عدة كبيرة من حصونها تبلغ السبعة والثلاثين حصناً . واعتزم بعد ذلك أن يعاقب البشكنس على عدوانهم ، فسار إلى بسيط بنبلونة ، وخرب معاهدها وحصونها ، ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومة ، وبعث فرقاً من جيشه إلى مختلف الأنحاء المجاورة فعاثت فيها وأصاب المسلمون غنائم كثيرة . وساد الرعب على البشكنس ؛ وهرعت إليه طوطة ، ملكة نبرّة تقدم إليه خضوعها وتوبتها ، فقبل الناصر اعتذارها وأقر ولدها غرسية ملكاً على نبرّة فى طاعته وتحت حمايته ؛ وكان ذلك فى أواخر رمضان وأوائل شوال من سنة ٣٢٥ هـ (أغسطس ٩٣٧ م)[١].

وسار الناصر بعد ذلك إلى تطيلة ، ثم سار منها إلى سرقسطة ، فنزل عليها فى الثانى عشر من شهر شوال ، وابتنى حولها المنازل والدور بمحلته ، وعهد بحصارها إلى أحمد بن إسحاق القرشى قائد الفرسان ، وهو من قرابته ، وعينه حاكماً للثغر . ولكنه تهاون فى الحصار وتوانى لمرض فى قلبه ، ولأطماع كانت تجيش بها نفسه ، فأنبه عبد الرحمن وعزله ، فاتفق مع أخيه أمية على التآمر

---

(١) ابن حيان فى المقتبس – السفر الخامس – لوحات ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٦ أ .

والخروج ، فوقف عبد الرحمن على أمرهما واكتفى بنفيهما من الأندلس . فسار أمية إلى مدينة شنترين[1] فى ناحية الغرب ، واستولى عليها ورفع بها علم الثورة ، وتحالف مع ملك ليون . فأمر الناصر القائد أحمد بن محمد بن إلياس ، وكان مقيما فى بطليوس ليرصد حركات أمية بن إسحاق ، أن يغزو أرض العدو ، فسار إلى أراضى ليون واشتبك مع الجلالقه فى معركة ، هزم فيها الجلالقة ، وقتل منهم عدد جم ، ولا سيما من أهل سمورة (جمادى الأولى سنة ٣٢٦ هـ) ، ثم أمر الناصر بعد ذلك القائد عبد الحميد بن بسيل ، أن ينضم فى قواته إلى أحمد ابن محمد بن إلياس ، وأن يسيرا معاً إلى غزو ليون . فصدعا بالأمر ، ووصلا بقواتهما إلى أرض النصارى وعاثا فى جنباتها ، وفى نفس الوقت تحركت بعض السفن من نهر الوادى الكبير وسارت نحو الغرب لغزو أهل شنترين الذين يناصرون أمية بن إسحاق . وانتهى الأمر بأن قام أحد الزعماء المحليين الذين يدينون بطاعة الأمير ، واستطاع أن ينتزع شنترين من أمية ، فالتجأ أمية إلى راميرو . أما أخوه أحمد فحاول أن يتصل بعمال الفاطميين فى عدوة المغرب ، وأن يأتمر معهم على حكومة قرطبة ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه ثم أمر بإعدامه[2] ، ولكن سنرى أن مغامرات بنى إسحاق لم تنته عند هذا الحد .

واستمر حصار سرقسطة مدى أشهر ، والناصر يشدد عليها الخناق شيئاً فشيئاً . وأخيراً اضطر محمد بن هاشم أن يبعث رسله فى طلب الأمان والصلح ، على أن يقره الناصر على حاله ، فأبدى الناصر قبوله وتسامحه ، وطلب أن يخرج إليه إخوة محمد ووجوه أهل سرقسطة لعقد الصلح . فخرج إليه وجوه سرقسطة ، ومن بينهم إخوة محمد ، يحيى وعبد الرحمن وهذيل ، وعدة من ذوى الشوكة . وهنا ثابت للناصر فكرة فى انتهاز الفرصة ، والقبض على تلك الصفوة المختارة من أهل سرقسطة ، ليسدد إلى المدينة الثائرة ضربة مميتة ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً واعتقالهم داخل سرادقه ، فلما علم محمد بن هاشم بما تم سُقط فى يده ، وشعر بوقع هذه الضربة التى حرمته من كبار معاونيه ، ولكنه استمر صامداً ممتنعاً ، ورسل الناصر تتردد إليه بالإعذار والإنذار دون جدوى . وأخيراً بعث

(١) وهى بالإفرنجية **Santarem** .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

إليه الناصر بوزيره ومولاه محمد بن عبد الملك بن أبى عبدة ، فاطمأن الثائر إليه ، وأذعن إلى التوبة والإنابة وطلب الأمان والصلح ، وكان ذلك خلال عيد الأضحى سنة ٣٢٥ هـ .

فاستجاب الناصر إلى طلب محمد بن هاشم ، وعقـد له الأمان بأوثق عقد ، وشهـد الملأ من أهل العسكر وأهل الثغور ، وشهدت نسخته فى الناس عامة ، وذلك فى شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ (نوفمبر ٩٣٧ م) . وكان مضمونه « أن يمنح الأمان لمحمد بن هاشم وإخوته وجميع أهله وأصحابه من مدينة سرقسطة ، وجميع من يتصل بهم من أهلها ، للمدة التى يرضاها الناصر ، وأن يملكه سرقسطة تمليكاً يدخل فيها من يشاء ، وإلى العدد الذى يرضاه من رجاله ، ويكون أهل مدينة سرقسطة ومن يبقيه محمد بن هاشم منهم من أهله وأتباعه آمنين بأمان الله ، محفوظين بعهد الملة . مستمسكين بمثل أمان محمد بن هاشم ، غير معتقبين فى أنفسهم ، ولا مأخوذين بذنب سلف ، وأن يخرج محمد بن هاشم من سرقسطة بنفسه ، ومن أحب إخراجه معه من خواص أهله وولده ، إلى مدينة تطيلة أو غيرها من مدن الثغر ، وحصوله مسجلا على الموضع الذى يتخيره ، ويبقى بسرقسطة من أحب منهم ، ويختلف عليهم . وعلى المُولّى بسرقسطة بعده ، إحسان صحبتهم ، وعليه أن يباعد منزله عنهم ، لا يقربه شيء من دور محمد ابن هاشم ، أو ينزل القصر القديم بعد خروج محمد بن هاشم عنه بجميع ماله فيه . وعلى أن يسجل الناصر لدين الله ، لأخيه يحيى بن هاشم على ما كان بيده من مدينة لاردة وأحوازها . فإن انقضت المدة التى يضربها الناصر لمحمد ، توجـه إلى الحضرة ، وأقام فيها ثلثين يوماً أو نحوها ، مظهراً لصدق طاعته ، ماحياً لكل ما انتثر فى أقطار الأرض من معصيته ، وهو فى توجهـه إليه آمن فى طريقه ، ومدة مقامه ومنصرفه ، غير مقطوع ولا معترض دون الانصراف ، إذ انقضت المدة التى وضعت له . وله على السلطان إذا وفى بما عقد عليه من الشخوص إلى باب سُدّته أن يكتب له عهداً على مدينة سرقسطة ، ويصرفه إليها عاملا وقايداً ، ويعزل عنها عامله وقايده ، بعد أن يناله من كرامته ، ويظهر عليه من آثار نعمته ، ما يعود معه إلى أحسن الأحوال التى كان عليها قبل هفوته » .

وقد اشترط عهد الأمان أيضاً أن يقدم محمد بن هاشم إلى الناصر رهائن من

ولده وإخوته وصحبه وكاتبه ، وأن يكون جماعتهم لدى الناصر بحال حفظ وتكرمة ، وأمان فى المسير والمقام ، يديلهم ستة أشهر ، باكفائهم ونظرائهم من إخوتهم خاصة ، إلى أن يظهر لأمير المؤمنين براءة محمد بن هاشم من ممالأة المشركين ، وتصحيحه طاعة أمير المؤمنين ، وعلى أن يقطع محمد بن هاشم من المشركين فى ظاهره وباطنه ، من حدّ بلد برشلونة إلى شرطانية إلى بنبلونة إلى ألبة والقلاع وإلى جليقية ، ولا يكاتبهم ولا يداخلهم ، ولا يصالحهم على طرف من أطراف الثغر إلا عن إذن أمير المؤمنين ، وأن يورد جباية بلده لمحلها ، بعد أن يسقط عنه جباية عام ، وألا يتقبل حراً نازعاً ، ولا عبداً آبقاً لأمير المؤمنين ، ولا لأحد من رعيته ، وأن يوثق من ظفر به من هذه الطبقة ويصرفه إلى مكانه ، وألا يتعقب أحداً ممن سجل له عليه ، أو يسجل بعد ، ممن حاربه مع أمير المؤمنين وفارقه إليه أيام الطاعة ، وأن يجدد البيعة لأمير المؤمنين ويلتزم شروطها ، وأن يغزو مع أمير المؤمنين ، ويعادى من عاداه ويحارب من حاربه ، ويسالم من سالمه من أهل الملوك وغيرهم ، ويقطع نصيبه من كل من أخرج يده عن طاعته ، وإن كان ابنه أو أخاه ، يلتزم كل ما ألزمه أمير المؤمنين من ظاهر القول وباطن الإرادة ، لا ينقص تناول البغية ، ولا يحرف عن التصحيح بالعلة ، فقد التزم أمير المؤمنين فى عقده ، مثل ما سأله محمد فى ذلك وأوجبه على نفسه مع دركه لهذه المنن ، إن صدق الطاعة ، أن يوليه مدينة سرقسطة ، وما وقع فى سجله معها ولاية مستمرة ، ولا يعزله طول أيامه عنها ، ثم لا يؤاخذه بذنب ، ولا يعدد عليه اقتراف خطأ ولا عمد ، ولا تقبل فيه مقالة كاشح ولا طعن حاسد ، ويصير ذلك له وصية فيمن بعده ، يلزمهم الوقوف عندها على سبيل الخلفاء فى خالدات عهودهم إن شاء الله ، ووقعت الأيمان فى هذا الأمان من الناصر لدين الله مستوفاة مغلظة ، أخذ على محمد بن هاشم أشد منها ، فحلف فى مقطع الحق بمسجد سرقسطة الجامع خمسين يميناً منسوقة بمحضر قاضى الجماعة بقرطبة والفقهاء وأعلام العسكر ، والملأ من أهل بيت محمد بن هاشم ، ووجوه أهل الثغر ، على التزام ما عقد على نفسه منه واعتداده إياه ديانته » . ثم أشهد الناصر لدين الله على نفسه فيه جميع أهل عسكره ، فكان أول من شهد عليه أولاده الحاضرون ، ثم أعمامهم ثم الوزراء وأصحاب الخطط ، ثم الفقهاء ، ثم

وجوه أهل سرقسطة ومن حضر من أهل الثغر(١).

سقطت سرقسطة وسائر الحصون المجاورة لها فى يد الناصر ، وكذلك سقط فى يده حصن روطة أمنع حصونها فى الغرب ، وبذا انهارت ثورة التجيبيين فى الشمال ، وكانت من أخطر الثورات التى واجهها الناصر ، لأنها كانت مركزاً لتجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة ، من الخوارج والأمراء النصارى . أما عفو الناصر عن محمد بن هشام ، ومنحه الأمان له ، واستصناعه بالرغم من فداحة جرمه ، فيرجع إلى ما كان يتمتع به محمد من مقدرة إدارية فائقة ، ولما كان لبنى هاشم فى الشمال من مركز قوى مؤثل ، ولما كان لهم من العصبة والأنصار . وقد رأينا الناصر فى غير موطن ، يعفو عن الثوار العتاة ، ويحسن إليهم ، وينظمهم فى جيشه . وقد كانت هذه سياسة مستنيرة من الخليفة القادر ، للاستفادة من هذه العناصر المنحرفة القوية معاً ، متى استقرت توبتها ، وحسن ولاؤها .

ودخل الناصر بجيشه مدينة سرقسطة وفقاً للسلم المعقود فى يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٣٢٦ هـ (٢٢ نوفمبر ٩٣٧ م) ، وشهد منعتها وحصانة أسوارها ، فأمر بهدم الأسوار حتى لا تعود منعتها فتشجع الخوارج على الثورة ، وشحنها برجاله ، ونظر فى مصالحها ، فساد بها الهدوء والأمن ، وبعث الناصر أثناء مقامه بسرقسطة ، قوة من جيشه بقيادة نجدة بن حسين الصقلبى لتقوم ببعض الغزوات فى أرض العدو ، وأمر محمد بن هاشم أن يرافقه فى أصحابه امتحاناً لوفائه ، فصدع بالأمر . وسار المسلمون بالرغم من اشتداد البرد وانهمار الثلوج صوب ناحية شنت إشتبين ، وتفرقوا إلى ثلاث فرق ، أخذت كل فرقة منها بشن الغارات فى قطاع معين ، ثم اجتمعت عند حصن شنت إشتبين ، وهنا حاول النصارى اعتراض المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى . وتوغل المسلمون بعد ذلك فى أراضى ألبة ، وانتسفوا الزروع

(١) أورد لنا ابن حيان حوادث فتح سرقسطة ، وعهد الأمان الذى أصدره الناصر لمحمد ابن هاشم نقلا عن عيسى بن أحمد الرازى . وقد أورد لنا أيضاً أسماء الشهود الذين وقعوا هذا الأمان من الأمراء والوزراء وأصحاب الخطط والموالى والفقهاء وغيرهم ، وشغل ذلك أكثر من صفحة . المقتبس فى السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية لوحات ١٥٦ ب إلى ١٥٩ أ .

وخربوا الكنائس والديارات ، ثم عادوا مثقلين بالغنائم إلى سرقسطة . وكان الناصر قد استتم خلال ذلك النظر فى شئون الثغر ، وحفظ أطرافه ، وتزويده بالحماة والمقاتلة ، وكل ما يضمن سلامته ، ثم خرج بجيشه من سرقسطة قافلا إلى الحضرة فى الرابع عشر من صفر ، فوصل إلى قصر الخلافة فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٦ هـ (أواخر يناير ٩٣٧ م) ، وذلك بعد أن قضى فى غزوته زهاء ثمانية أشهر[١] .

ووفد محمد بن هاشم التجيبى بعد ذلك على قرطبة . فأكرم الناصر وفادته ، وأقام فى كنفه مدة فى رغد وإيثار ، وهو يحضر مجالس الخليفة ، ثم غادر قرطبة فى رجب بعد أن ولاه الناصر سرقسطة ، وعقد له عليها وعلى الجهات التابعة لها ، وولاه القيادة فى نفس الوقت ، وبذا رد إلى سابق مناصبه ومكانته .

* * *

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر ، وأن يخضع الشمال الشرقى من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته ؛ ولم يبق عليه إلا أن يحطم خصمه القوى العنيد راميرو الثانى ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقى . فلم يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون . فحشد جيشاً ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف ، وعهد بقيادته إلى نجدة بن حسين الصقلبى . وكان الأجانب والصقالبة قد تبوأوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ فى بلاط قرطبة ، وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة فى القصر والجيش . وكان لهذه السياسة التى أسرف الناصر فى اتباعها ، أسوأ الأثر فى نفوس الزعماء العرب ، وفى انحلال قوى الجيش المعنوية . وفى صيف سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم ، وعبر نهر التاجُه من عند طليطلة ، ثم عبر نهر دويرة متجهاً نحو قلعة شنت منكش ، أو شنت مانك (سيمانقة) دون أن يفطن إلى ما يفت فى عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية ؛ وكان راميرو الثانى يرابط على مقربة منها فى حشود عظيمة ، متأهباً لقتال المسلمين بكل ما وسع ، وزوده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة ،

(١) المقتبس فى السفر الخامس – لوحة ١٦٣ أ و ب .

وانضمت إليه طوطة ملكة نافار ناكثة لعهدها ، وبذا اتحدت قوى اسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً فى شأن الموقعة التى نشبت بين المسلمين والنصارى ؛ وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة المغرقة أحياناً ، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والغموض والتحفظ ؛ وبالرغم من أن الرواية الأندلسية تشير إليها فى غير موضع وتصفها « بغزاة القدرة » تنوهاً بأهميتها ، وما كان يعلق عليها من رغبة فى سحق المملكة النصرانية ، وتسميها بموقعة « الخندق » وهو نفس الإسم الذى تقدمه الرواية الفرنجية ، فإنها لا تقدم إلينا أى تفصيل شاف عن مكانها وظروفها[1] . وسوف نستعرض أقوال الرواية الإسلامية أولا ، ثم نتلوها بأقوال الرواية النصرانية، حتى نستطيع بالتمحيص والمقارنة ، أن نخرج بفكرة واضحة عن حقائق هذه الموقعة التى تعتبر من كوارث التاريخ الأندلسى .

ويقدم إلينا المسعودى عن الموقعة رواية يطبعها لون القصة . فيقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمورة عاصمتها ، وكانت فى غاية المناعة ، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان ، قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتمى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين وهزموا هزيمة شديدة ، وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً ، وكان ذلك فى شوال سنة ٣٢٧ هـ (يوليه ٩٣٩ م) . وسميت الموقعة بموقعة الخندق لنشوبها على خنادق سمورة[2] .

على أن الرواية الأندلسية أكثر وضوحاً ودقة ، فى شرح تفاصيل هذه

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٦ ؛ ويشير ابن خلدون إلى الموقعة إشارات عابرة (ج ٤ ص ١٣٧ و ١٤٠) . وكذا ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ . ولم يذكرها ابن عذارى فى البيان المغرب .

(٢) مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ ؛ ونقلها المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

الكارثة . ولدينا من ذلك روايتان ، تمتاز كلتاهما بنوع من الوضوح فى تحديد مكان الموقعة وظروفها ، هما رواية مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، ورواية الوزير ابن الخطيب .

أما رواية ابن حيان ، وهى التى ينقلها فى المقتبس عن عيسى بن أحمد الرازى ، فخلاصتها ، هو أن الناصر لما عزم على غزو أهل جلّيقية (مملكة ليون) ، جد فى الاستعداد والحشد ، وبعث كتبه إلى الثغور ، واستكثر من الآلات والسلاح ، وخرج فى حشوده إلى الغزو فى يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٣٢٧ هـ الموافق لأول شهر يونيه العجمى (سنة ٩٢٩ م) . وكان الناصر قد سير قبل خروجه الوزير القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى بعض قواته إلى جهة الغرب احتياطاً على أهله ، وحماية لهم أثناء قيامه بالغزو .

ووصل الناصر فى قواته إلى طليطلة فى يوم ٢٣ رمضان ، ثم خرج منها إلى أرض العدو (قشتالة) فى الخامس من شوال ، فعاث فيها أياماً ، وألفى النصارى قد أخلوا معظم بلاد هذه المنطقة ، وكانت غاصة بالنعم والأقوات ، فاستولى المسلمون عليها ، ثم تقدموا إلى حصن أشكر ، وخربوه وانتسفوا ما حوله . ثم ساروا إلى حصن أطلة ، فحصن برتيل ، وذلك فى يوم ١٣ شوال .

وكان محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة قد تقدم فى قواته ، فى الوقت نفسه ، فعبر نهر شنت مانكش (سيمانقا) ، فارتد العدو بقواته وراء النهر ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولا ، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين ، وسقط محمد بن هاشم عن فرسه خلال القتال فأسر ، وهزم المسلمون على باب شنت مانكش هزيمة شديدة ، وقتل منهم كثيرون وارتدوا فى تراجعهم إلى خندق عميق ، وهو الذى تنسب إليه الموقعة ، فتردى فيه منهم خلق كثير ، فتقدم الناصر مضطراً بقواته ، وترك محلته ، فملكها العدو فى الحال ، واحتل الناصر أعلى النهر بقواته ، وقد عجز النصارى عن اتباعه ، فلبث هناك يومه ، وقد ساد الخلل فى الجيش . وأيقن الناصر بتمحيص الله للمسلمين ، ثم رحل قافلا حتى وصل إلى مدينة وادى الحجارة ، ثم سار منها إلى قرطبة .

هذا ملحص ما نقله ابن حيان عن عيسى بن أحمد عن موقعة الخندق ، ويزيد ابن حيان على ذلك ، أن هذه الوقيعة التى اشتهر حديثها بالأندلس قد نالت

السلطان (الخليفة) والمسلمين فيها محنة عظيمة ، وقتل وأسر فيها خلق كثير . واستولى العدو على محلة السلطان وسرادقه وآلاته السلطانية ، وفيها مصحفه الخاص ودرعه الأثير لديه . وشملت الهزيمة سائر الكافة ، فلم ينج من نجا منها إلا على متون الدواب . وأصاب القتل والأسر بالأخص أهل البلاد والمطوعة . وأما الجند فقد نجا معظمهم ، وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة .

ويقول لنا ابن حيان ، إنه كان بين ضحايا المعركة جده أبو سعد مروان بن حيان بن محمد بن حيان . ومن الحقائق المؤلمة التى ينقلها إلينا ابن حيان ، أنه قد بدا فى هذا اليوم ، من قوم من وجوه الجند « النفاق لأضغان احتملوها على السلطان فقبعوا للصفوف ، وسارعوا فى الهرب ، وجروا على المسلمين الهزيمة وأوبقوهم . وكان أسبقهم إلى ذلك وأكشفهم لما فى نفسه الخاين « ابن فرتون بن محمد الطويل » وقد بعث الناصر خلفه برسول استطاع القبض عليه ، فثقف وحمل إلى قرطبة ، وهنالك صلب على باب السُّدة يوم وصول الناصر من غزاته ، وألحق به نفر من أشكاله ممن عملوا عمله ، ولحقهم وزره .

ويصف لنا عيسى بن أحمد ، طريق العودة الذى سلكه الناصر بجيشه عقب الموقعة ، فيقول إن الناصر ، قصد أولا إلى مدينة الفرج (وادى الحجارة) ، ثم غادرها فى يوم الخميس الحادى عشر من ذى العقدة ، وسار إلى جربيرة ، ومنها إلى شبطران ، ومنها إلى محارس ، ومنها إلى مدينة طليطلة ، فلبث بها أربعة أيام ، ورحل منها يوم الخميس إلى فج سراج ، ومنها إلى ملقون ، ثم احتل بالبركة ، ومنها إلى منزل رند ، ثم إلى قنالش على وادى أربيشر ، ومنها إلى طير برتيطة ، ومنها إلى قليانة ، فأرملاط ، ومنها إلى منية نصر على باب قرطبة بعدوة النهر بالربض . وهنالك قضى الليل . ثم سار إلى قصر قرطبة فى الغد ، وقد نفذ أمره بصلب فرتون بن محمد الطويل ، على باب السُّدة الأكبر من أبواب القصر .

هذا ، وقد نقل إلينا ابن حيان نص الكتاب الذى صدر باسم الناصر عن الموقعة ، وهو من إنشاء الوزير الكاتب عيسى بن فطيس . وهو كتاب طويل ، يحاول فيه كاتبه أن يصف أدوار الموقعة ، وروعة القتال الذى نشب بين المسلمين والنصارى ؛ ويستخلص منه أن المعركة بدأت فى صالح المسلمين ، وأنهم استطاعوا فى البداية أن يردوا النصارى ، وأن يفضوا جموعهم ، حتى سقط محمد بن هاشم التجيبى

قائد الطليعة عن فرسه ، وأسره النصارى ، فعندئذ ارتد المسلمون إلى خطوطهم ، وذلك بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من أعلام النصارى ، وقوامسهم وفرسانهم . ثم استؤنف القتال فى اليوم الثالث ، وقد تضخمت حشود النصارى بما ورد إليهم من الأمداد « من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع ، وأهل قشتيلة إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم » ، واضطرمت المعركة بين الفريقين ، وانتهت هذه المعركة الثانية بهزيمة النصارى وقتل عدد من أعلامهم ، وارتد المسلمون إلى خطوطهم ظافرين . وفى اليوم التالى بادر النصارى بالهجوم ، فلقيهم المسلمون بعنف وشدة ، واحتدم القتال ، وسقط « عظيم من عظماء النصارى » فاستداروا حوله ، وقد لحقتهم الهزيمة ، وهنا يقول الكتاب « وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل ، وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقة جيشه ، لما توقع خروج الكفرة فى أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل » .

وسار الناصر ، حسبما ينبئنا الكتاب ، بعد ذلك صوب نهر دويرة ، فى اتجاه حصن شنت منكش ، وهو يهدم الحصون ، وينتسف الزروع فى طريقه . وكان الناصر ، يزمع السير شرقاً بحذاء دويرة ، حتى حصن شنت إشتبين ، ولكنه عدل عن ذلك ، وأزمع السير إلى حصن أنتيشة . وهنا يحدثنا الكتاب عن المرحلة الحاسمة من الموقعة . ذلك أن الناصر ، أشرف فى سيره على « خنادق ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون ، وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يتراءى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة ، وترادف الأثقال ؛ فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ، ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها ؛ فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال ، وانحطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل

من الأرض ، لما أنكر مثله مثله ، عند مقارعة الرجال ، وتصرف الأحوال ، وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق ، وخلص من مضايقه ، حتى أسهلوا ، وأصبح لأمير المؤمنين جيوشه ، وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفى ذلك دليل للسامع عن الموقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون ، اظفروا به فيها عن مساواة أو كثرة ، ولكن ضيق المسالك ، ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التى لا تصرف ، ومحنه التى لم يزل يمتحن بها أولياءه ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين شاكر لله تعالى عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به فى حب طاعته ، ضارع إلى الله تعالى فى التقبل لقوله وفعله » .

وقد أرخ هذا الكتاب فى اليوم الثامن من ذى القعدة سنة ٣٢٧ هـ ، أعنى عقب الموقعة بأربعة أسابيع ، وحينما وصل الناصر فى ارتداده إلى وادى الحجارة ، وذلك ليكون إيضاحاً للناس ومعذرة من الخليفة ، عما أصابه من هزيمة . على أن هذه العبارات الرفيقة التى صيغ فيها الخطاب ، وهذه التأكيدات الجريئة ، بأن أمير المؤمنين ، عقب جواز الخندق ، قد انتظمت جيوشه ، وسلم الله رجاله ، ولم يصب منهم أحد ، لا يمكن أن تنفى شيئاً من الحقائق المؤلمة ، التى تشهد كلها بفداحه النكبة التى نزلت بجيش الناصر على خندق شنت منكش ، والتى يفصل لنا ابن حيان بعض نتائجها وآثارها فيما تقدم .

ونقل إلينا ابن حيان كذلك رواية موجزة عن الموقعة عن عريب بن مسعود جاء فيها : « غزا الناصر لدين الله سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالصوائف إلى مدينة شنت مانكش بلد ألبة ، وبارز الكفرة ، فوقعت حرب عظيمة انهزم المسلمون عنها ، واستمسك الناصر لدين الله فى رجال الحقيقة بعد أن هلك فى [الموقعة] عالم من المسلمين ، وقتل منهم كثير ، وأسر كثير ، وكان ممن أسر محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة . وذلك فى شهر رمضان منها » .

وكان القائد الباسل محمد بن هاشم التجيبى ، قد لبث فى أسر راميرو (رذمير) ملك ليون ، مدة استطالت أكثر من عامين ، والناصر يسعى إلى افتكاكه ، ويضاعف له الفدية ، حتى أفرج عنه أخيراً ، وحضر إلى قرطبة فى

شهر صفر سنة ٣٣٠ هـ ، بعد عامين وثلاثة أشهر من أسره [١] .

وأما رواية ابن الخطيب ، فهى بالرغم من إيجازها أقرب الروايات الإسلامية إلى الدقة والحقائق التاريخية ؛ فهو يحدد تاريخ الموقعة ، ومكانها بدقة ، ويصفها « بالوقيعة الشهيرة التى ابتلى الله بها عبد الرحمن ومحصه ، والتى أوقعه بها عدو الله رذمير ابن أردون » . فأما تاريخ الموقعة فهو يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ (أول أغسطس سنة ٩٣٩ م) ، وقد وقعت على باب شانت منكش [٢] ، بعد قتال استمر أياماً ، تراوحت فيه المغالبة بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه . ثم كانت للعدو الكرة ، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله ، وألجأ العدو المسلمين إلى التراجع إلى خندق عميق ، هو الذى تنسب إليه الموقعة (فهى تسمى موقعة الخندق) [٣] . فتساقط فيه المسلمون حتى ساووا بين ضفتيه ، وانكشف الناصر ، واستولى العدو على محلاته ، وما فيها من عدة ومتاع ، وضاع فيها مصحفه ودرعه [٤] .

ولدينا من الرواية النصرانية أولا رواية ألفونسو الحكيم فى تاريخه العام ، وهى رواية موجزة مغرقة معاً ، وخلاصتها أن عبد الرحمن ملك قرطبة وابن يحيى ملك سرقسطة ، قدما فى جيش ضخم إلى أرض الملك راميرو ، ووصلا فى جيشهما حتى بلدة سيت مانكاس . فلما علم بذلك الملك راميرو خرج لقتالهم وقاتلهم حتى هزم المسلمون ، وقتل منهم ثمانون ألفاً ، وكان هذا اليوم يوم القديس يوستى والقديس باستور . ويقول لوقا التوجى إنه كان يوم الإثنين . وأسر ابن يحيى . وهرع المسلمون الآخرون إلى حصن يسمى « الخندق » **Alfondiga** وتركوا كثيراً من قتلاهم فى الميدان . وحاصرهم الملك راميرو فى هذا الحصن ، وفر منه

---

(١) نقلنا رواية ابن حيان عن موقعة الخندق والكتاب الذى صدر عن الناصر عقب وقوعها من السفر الخامس من المقتبس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحات ١٦٧ إلى ١٧٢ أ . هذا وقد نشرنا نص كتاب الناصر كاملا فى نهاية الكتاب .

(٢) شنت مانكش هى بالإسبانية **Simancas** (سيمانقة) . وهى تقع على مقربة من نهر دويرة شرقى مدينة سمورة وجنوب غربى بلد الوليد . وما تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم بصورتها النصرانية المجددة . وهى اليوم مقر دار المحفوظات الإسبانية .

(٣) وتعرف الموقعة بالإسبانية **Alhandega** محرفة عن كلمة « الخندق » .

(٤) أعمال الأعلام ص ٣٦ و ٣٧ .

عبد الرحمن ناجياً بنفسه فى نفر من صحبه ، وعاد الملك راميرو فى جيشه ومعهم غنائم كثيرة من الذهب والفضة والأحجار النفيسة وأشياء كثيرة أخرى ، وأخذ معه ابن يحيي أسيراً(١) .

بيد أن هنالك روايات نصرانية أخرى أكثر دقة ووضوحاً . وخلاصة هذه الروايات هو أن عبد الرحمن سار بجيشه فى اتجاه سيمانقة الواقعة على مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة ، فلقيه راميرو وحليفته طوطة فى قواتهما ، ونشبت بين الفريقين موقعة فى ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر العربية فى القتال فتوراً وتراجعوا أمام النصارى . ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون : ذلك أن النصارى طاردوهم وألحوا فى قتالهم ، فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربى ، حتى محلة صغيرة فى جنوبى مدينة شملنقة تسمى ألاندجا (الخندق) ، ثم وقفوا وكروا على النصارى بفتور وتخاذل ، وهجم النصارى عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة ، وأمعن النصارى فيهم قتلا وأسراً . فساد الخلل فى الجيش الإسلامى ، ومزقت منه فرق برمتها ، وقتل قائده نجدة الصقلبى ، وأسر محمد بن هاشم حاكم سرقسطة ومزق جيشه ، وكان يحارب إلى جانب عبد الرحمن فى هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثخن عبد الرحمن نفسه جراحاً ، ولم ينج من الموت والأسر إلا بأعجوبة ، فولى شطر قرطبة فى نفر من الفرسان(٢) . ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين . ويقال إن الذى منعه من مطاردتهم هو أمية بن اسحاق إذ حذره من الكمين ورغبه فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة . ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامى بأسره(٣) . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم فى أوربا وفى العالم الإسلامى ، بيد أن الموقعة على روعتها لم تكن بعيدة الأثر فى قوة الأندلس ومنعتها ، ولم يدخر عبد الرحمن منذ عوده إلى قرطبة جهداً فى تنظيم الجيش وإصلاحه ، وتطهيره من العوامل الخطيرة التى أدت إلى هذه الكارثة . ويحاول ابن الخطيب أن يوضح لنا أسباب هذه الكارثة فى قوله : « وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر

---

(١) **Crónica General, ibid, Vol. II. p. 396**

(٢) **Dozy : Hist.; Vol. II. p. 155—156** وكذلك : **Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien. B. II. p. 50** حيث يورد الروايات النصرانية .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

لدين الله حسدته ما هيأ الله من الصنع ، ولم تناصحه فى الحرب حق النصح ، فجالت ثانية للأعنة ، واختل مصاف القتال » . ثم يقول لنا إن الناصر ، قرر أن يبطش بأولئك الخونة المتهاونين ، فأمر قبيل وصوله إلى قرطبة ، أن تقام المصالب على ضفة نهرها ، وما كاد يصل إلى قرطبة ، حتى قبض على نحو ثلاثمائه من الفرسان ، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاء من غش الإسلام ، وكاد أهله ، وأخل بمصاف الجهاد»[1]. بيد أن موقعة الخندق كانت خاتمة أعمال الناصر الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه .

وفى ذلك يقول ابن حيان : « إنه قد اشتدت على الناصر نكبته فى غزوته هذه ، فاتهم سعده ، واعتكر بكره ، حتى خاف على نفسه ، فأشير عليه بعكس همه . فالتفت إلى البنيان يعالج به همه وأساه ، فأنشأ مدينة الزهراء ، وأقصر من ذلك الوقت عن الغزو بنفسه ، ووكل إلى حزمة قواده وشجعانهم ، يجردهم بالصوائف كل عام » . ومن جهة أخرى فقد رأى عبد الرحمن أن يتبع نحو أمراء الثغر الأعلى سياسة جديدة . وذلك أنه ، وفقاً لقول ابن حيان قد « اقتصر فى تقليد شئون الثغر الأعلى المانعة للدروب على أكابر ساكنيها ورّاثها عن الأجداد والآباء صلابة البأس ، آل تجيب ، وآل ذى النون ، وآل زروال ، وآل غزوان ، وآل الطويل ، وآل رزين ، وأسبابهم المؤمرين قديماً بثغورهم ، الذابين عن حريمهم ، فضم بلادهم بينهم حصصاً ، وجدد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام ، ثم لا يغبنهم بالصلات إذا وفدوا وطلبوا ، وبالهدايا إن بعدوا » ، وقد ترتب على ذلك أن كان هؤلاء الزعماء يقومون بدفاع النصارى ، وكان الناصر يزودهم كل عام بالعدد والسلاح ، والمستنفرة والمطوعة إلى الثغر تعضيداً لجهودهم[2] .

واستأمن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن ، فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه . وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن حسبما تقدم إلى افتداء محمد بن هشام ، فأفرج عنه النصارى بعد أن لبث فى سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام ، وغمره الناصر بعطفه

---

(١) أعمال الأعلام ص ٣٧ .

(٢) ابن حيان فى السفر الخامس لوحة ١٦٨ ب .

فأسبغ عليه لقب الوزارة ، وجعله قائداً للثغر ، وعاد إلى سرقسطة ، وكان يزور قرطبة من آن لآخر ، واستمر والياً لسرقسطة حتى توفى فى سنة ٣٣٨ هـ . فعين الناصر ولده يحيى مكانه فى الولاية والقيادة . وشغل النصارى مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية ، واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها .

وجنح راميرو ملك ليون إلى السلم مرة أخرى ، وبعث إلى الناصر يطلب عقد الصلح ، فأجابه الناصر عن كتابه بالقبول ، وبعث إليه سفيراً ليعقد معه شروط السلم . ولكنه كان كالعادة سلماً قصير الأمد .

وعقد الناصر من جهة أخرى السلم مع صاحب برشلونة الإفرنجى شنير بن منفريد ، وبعث إليه كاتبه حسداى بن إسحاق الإسرائيلى ، لينظم معه عقد السلم وفقاً للشروط التى ارتضاها الناصر ، وخلاصتها أن يتخلى شنير عن إمداد جميع النصارى الذين ليسوا فى سلم الناصر ، وأن يلتزم طاعته ، وأن يحل المصاهرة التى بينه وبين غرسية بن شانجه صاحب بنبلونة (نبرّة) ، وكان شنير قد زوجه ابنته فألغى زواجها وفقاً لرغبة الناصر . وأصدر الناصر أوامره إلى قادة الأسطول وعمال السواحل بتحامى أعماله ومسالمة أهل بلاده . ودعا حسداى أمراء الثغر الفرنجى إلى طاعة الناصر ، فأجابه منهم ، إلى جانب شنير ، إنجه صاحب جيرنده ، وبعث إلى قرطبة سفارة يطلب تأمين تجار أراضيه الذين يجوبون ربوع الأندلس ، فأجيب إلى طلبه ، وصدرت الأوامر إلى جميع عمال الجزائر الشرقية والمراسى الساحلية ، بتأمين سائر رعايا إنجه على أنفسهم وأموالهم[1] .

ولم يحترم ملك ليون عهد السلم طويلا ، وعادت بعوثه تعيث فى الأراضى الإسلامية . ومن ثم فإن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع فى الأعوام التالية . ففى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) غزا المسلمون أراضى ليون وعاثوا فيها ؛ وفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) عنى الناصر بتجديد مدينة سالم[2] وهى أقصى مدن الأندلس الشمالية الغربية على حدود ليون ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدد ،

---

(١) المقتبس — السفر الخامس — لوحات ١٧٣ — ١٧٥ .

(٢) هى بالإسبانية **Medinaceli** وترجع تسميتها بذلك الاسم إلى أنها كانت منزل بنى سالم ، وهم بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية (راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم — القاهرة — ص ٤٦١) .

وكانت قد خربت من جراء غزوات العدو المتكررة . وتوالت غزوات المسلمين لأراضى ليون فى الأعوام التالية . وفى أواخر سنة ٣٣٩ هـ (يناير ٩٥٠ م) ، توفى راميرو الثانى ملك ليون ، فثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو ، وانتهز المسلمون هذه الفرصة فعاثوا فى أراضى ليون غير مرة ، وانتهى الأمر بفوز أردونيو وجلوسه على العرش . ورأى أردونيو أن يعقد الصلح مع الناصر ، فأرسل إليه سفيراً يخطب وده ، فاستجاب الناصر إلى دعوته ، وعقد معه معاهدة صلح تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر (سنة ٩٥٥ م) ، ولكن أخاه سانشو رفض هذه المعاهدة وحال دون تنفيذها . فاضطر الناصر إلى استئناف الحرب ، وسير قائده أحمد ابن يَعلى فى جيش إلى ليون ، فهزم النصارى وعقد الصلح بين الفريقين مرة أخرى ، واستقرت بينهما علائق السلم مدى حين .

* * *

ونعود الآن قليلا إلى الوراء لنستعرض بعض الحوادث الداخلية ، ومنها بالأخص ما حدث من محن المحل والمجاعة بالأندلس . فنى سنة ٣١٧هـ (٩٢٩ م) ، وقع المحل بالأندلس واحتبس الغيث ، واضمحلت الزروع ، وعزت الأقوات ، وغلت الأسعار على نحو ما حدث فى سنة ٣٠٣ هـ ، فأمر الناصر خطيب المسجد الجامع بالحضرة ، بالاستسقاء ، فبدأ بذلك فى خطبة الجمعة التالية ، ثم برز بالناس إلى مصلى الربض يوم الإثنين الثامن من شهر صفر (٢٣ مارس) ، فلم يسقط الغيث ، واستمر المحل والقحط ، وجهدت الناس . وخرجت كتب الناصر إلى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء ، وكان الكتاب إلى جميع العمال بنفس النص على النحو الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله عز وجل ، إذا بسط رزقه وأغدق نعمته ، وأجزل بركاته ، أحب أن يشكر عليها ، وإذا رواها وقبضها ، أحب أن يسئلها ، ويضرع إليه فيها ، وهو الرزاق ، ذو القوة المتين ، والتواب الرحيم ، الذى يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد ، فأوجبت به الرغبة ، عز وجهه فيه ، والخشوع لعزته ، والاستكانة له ، والإلحاح فى المسئلة

فيما احتبس به ، والتوبة من الأعمال المنكرة التى توجب سخطه منه ، وتبذل نقمته ، وتستروحه رضاه ، تعالى جده . وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء فى المسجد الجامع يوم الجمعة ، والجمعة الثانية التى تليه ، إن أبطأت السقيا ، والبروز يوم الإثنين بعدها لجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاتهم ، أو يأتى الله قبل ذلك بغيثه المغنى عنه ، ورحمته المنتظرة منه ، المرجوة عنده ، فرالخطيب بموضعك أن يحتمل على مثل ذلك ، ويأخذ به من قبله من المسلمين ، وليحملهم بذلك المحمل ، ولتكن ضراعتهم إلى الله تعالى ، ضراعة من قد اعترف بذنبه ، ورجا رحمة الله ، والله غفور رحيم ، وهو المستعان لا شريك له إن شاء الله»(١).

وفى سنة ٣٢٤ هـ ، وقع بالأندلس محل جديد لم يعهد فيها بمثله من قبل ، فاحتبس المطر ، وجفت الزروع . ومع ذلك فلم يترك هذا المحل وراءه كثيراً من الآثار المخربة ، ويقول لنا ابن حيان ، إن البركات والخيرات استمرت ذائعة بين الناس فى سائر الجهات . وبذل الناصر لمعونة الناس ما جبر النقص فى المحل . وانهمل الغيث فى العام التالى ، وقد نظم الشاعر عبد الله بن يحيي بن إدريس فى ذلك قصيدة فى مديح الناصر هذا مطلعها :

نعم الشفيع إلى الرحمن فى المطر مستنزل الغيث بالأعذار والنذر(٢)

وعاد المحل والقحط يعصف بالأندلس فى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) ، وتوقف المطر ، وعم الجفاف ، وشرع قاضى الجماعة ، وصاحب الصلاة محمد بن أبى عبد الله بن عيسى فى إقامة صلاة الاستسقاء فى يوم الجمعة الثانى من ربيع الآخر. ولكن المحل تمادى ، وبرز الناس إلى مصلى الربض مراراً وتكراراً . وفى الثانى عشر من جمادى الأولى (أول فبراير) ، بدا نوء غليظ وسحاب كثيف ونزل الثلج طوال اليوم وغطى الأرض ، ثم نزل المطر والثلج ، وانقطع دون أن يروى الأرض . فعاد القاضى إلى الاستسقاء حتى استجاب الله لعباده بعد أيام قلائل ، وبدأ الناس فى الزرع ، وتوالى نزول الغيث ، واستسقى الناس سقيا وافياً ، ورويت الأراضى والمزارع ، وهبطت الأسعار وعاد الرخاء(٣) .

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس — لوحة ١٠٢ أ و ب .

(٢) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٥٠ أ .

(٣) ابن حيان السفر الخامس — لوحة ١٨١ .

هذا ، ومما ذكره لنا ابن حيان من الحوادث الداخلية فى سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) ، وقوع الحريق العظيم بمدينة قرطبة . ففى أوائل شهر شعبان من هذه السنة ، شبت النار بسوق قرطبة ، فأحرقت جميع مجالس الحصاد ، واتصل الحريق بحى الصرافين ، وما جاور مسجد أبى هرون ، فاحترق وتداعى المسجد . ثم اتصلت النار بسوق العطارين ، وما جاوره من الأسواق والأحياء ، واتسع نطاقها بصورة مرعبة . وكان حريقاً شنيعاً مروع الآثار . وقد أمر الناصر بعد انتهائه ، وانجلاء آثاره ، أن يعاد بناء مسجد أبى هرون ، فأعيد على أحسن حال . وأمر الناصر كذلك بإعادة بناء ما تهدم من الدور والصروح العامة(١).

— ٣ —

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة ، أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التى اجتاحت شمالى إفريقية ، وامتدت بسرعة إلى عُدوة المغرب وإلى سبتة ، وأخذت تهدد شواطىء الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج دينى وسياسى معاً . وكانت فى قوتها وعنفوانها تهدد طرفى إفريقية أعنى مصر والمغرب . فمنذ عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، تتردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها فى تونس نحو مصر والمغرب ، غازية . وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً ، قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول . وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدوة ، ويفاوضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس ، فكان على عبد الرحمن أن يغالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . ففى سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولا قوياً يتكون من مائة وعشرين سفينة ، ما بين حربية وناقلة ، وسبعة آلاف رجل منهم خمسة آلاف من البحارة وألف من الحشم ، وانضم إليه عدة من وجوه ألمرية وبجانة تطوعا فى مراكبهم ، وكان تحت قيادة أميرى البحر أحمد بن محمد بن إلياس وسعيد بن يونس بن سعديل . فخرج هذا الأسطول من الجزيرة آخر جمادى الأولى من هذه السنة ، واستولى على سبتة من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين ، وطلب الناصر إلى صاحب طنجة

(١) ابن حيان السفر الخامس — لوحة ١٥٠ أ .

أبى العيش الحسنى أن ينزل له عنها لتكمل له بذلك السيطرة على رأس العدوة ، فأبى ، فحاصره الأسطول وضيق عليه حتى أذعن ، وأجاب الناصر إلى ما طلب ، وانتقل مع إخوته وبنى عمه من الأدارسة إلى مدينة البصرة وثغر أصيلا تحت طاعة الناصر [1] .

وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزنانة إلى طاعة الناصر ومهادنته ، وامتدت دعوته إلى فاس . وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول فى طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى رغبته ، وأمده بالأموال والهدايا ، وقوى أمره فى المغرب . وفى سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) استطاع موسى أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمى لغزو المغرب ، والقضاء على دعوة الناصر ، بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت . ثم توفى عبيد الله فى العام التالى . وفى سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى ، بقيادة ميسور الصقلبى ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء ، واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين على مملكته .

وبعث الناصر لإنجاده إلى شواطىء العدوة أسطولا قوامه أربعون سفينة بقيادة أمير البحر عبد الملك بن أبى حمامة ، سار إلى سبتة ، ثم تقدم إلى مليلة فافتتحها ، ثم افتتح نكور وجراوة ، فقويت نفس موسى ، واستقل نوعاً من عثرته ، وانسحب الفاطميون إلى الداخل ، وقضى الأسطول فى غزواته هذه ستة أشهر ، ثم عاد إلى قواعده فى المرية .

وجازت جيوش عبد الرحمن وأساطيله بعد ذلك مراراً إلى المغرب ، لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر ، واضطر الأدارسة فى النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته (٣٣٢ هـ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هنالك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم ، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المحالفين له .

ولما تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين الملك ، وبدت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها فى إفريقية ، وأخذت أساطيلها القوية تزعج الدولة البيزنطية ، بغزو

---

(١) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٢٥ أ و ب ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٥ .

شواطىء قلورية[١] فى جنوبى إيطاليا ، كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً فى الأفق . والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية. وفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر ألمرية ، وأحرقت ما فيه من السفن ، وعاثت فى ألمرية . فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب ، إلى شواطىء إفريقية (تونس) ، فعاثت فيها ، وأمر عبد الرحمن فى الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس . ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام ، فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى ، تهديداً للقوات الفاطمية ، التى زحفت بقيادة جوهر الصقلى حذاء الشاطىء إلى عدوة المغرب ، وكان المعز قد سير قائده جوهراً فى سنة ٣٤٧ هـ ، فى جيش عظيم إلى المغرب الأقصى ، ومعه زعيم صنهاجة زيرى بن مناد فى قواته ، فاجتاح شمالى المغرب كله حتى المحيط ، ونازل فاس واقتحمها عنوة . وكان الناصر يرقب تقدم الفاطميين على هذا النحو فى أراضى العدوة بجزع ، ويجعل أساطيله على أهبة دائمة . وعبرت فى نفس الوقت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ، ولبثت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدارجهم[٢] .

ويقدم إلينا ابن حيان بقلمه البليغ تلك الصورة عن تقدير الناصر لأهمية عدوة المغرب فى الدفاع عن الأندلس ، ومقاومة الدعوة الفاطمية :

« لم تزل نفس الخليفة الناصر لدين الله ، منذ استولى على أمر الملك ، واعين النصر ، وسلط على أهل الخلاف ، دروباً على ما سخر له من ذلك ، ظموءا إلى درك اقصاره ، متخطياً موسطته إلى نهايته ، معملا فيه روئيته ، موقظاً له فكرته ، تأمل هذا الفرج فى ساحل البحر الرومى . . . مجاورة جبل البرابر الحالّين بلاد المغرب الملكّهم لعدوتهم الراكبة لعدوة بلد الأندلس ، تكاد عدوتهما تتراءى لضيق بحر الزقاق الحاجز بينهما ، وسهولة مرامه أى أوقات الزمان روئى

---

(١) وهى بالإفرنجية **Calabria** .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و ١٤١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ ، ٢٣٨ ؛ وراجع **Dozy: Hist., Vol. II.p. 164 & 165**

ركوبه . فمنه طرقت الأندلس فى الزمان الخالية ، واكتسب أهلها المخافة ، فدعته همته العلية ، وفكرته المصيبة ، إلى التوقل إلى تلك الباغية المرهوبة ، والسمو لتلك العورة المكشوفة ، وذلك عند ما كشف عند يكنف ذلك الساحل الغربى من طنجة الفتنة ، وضع ما كان أوهته من صدع الفرقة ، وملك مفتاح الجزيرة الخضراء فرضة الأندلس الدنيا ، الراكبة فتح ذلك البحر المرهوب ، المحاضية لضرتها مدينة سبتة فرضة المجاز من بلد العدوة . فأذكى نظر عينه ما كان منبثاً بخاطره من الرهبة ، فأرهف العزم ، وألطف الحيلة ، وابتدئ ففتح ذلك بمخاضة من تقدمت له بأسلافه ملوك بنى أمية من أمراء تلك البلاد وصلة أو سلفت بينهم أصرة ، يستثير وصايلهم ، ويصل أحبلهم ، ويستدعى ولايتهم ، ويسبب ذلك ما شاء مهاداتهم ، واكرام أسبابهم ، وقضاء حوائجهم ، فلم يلبث أن هويت إليه أفئدة كثير منهم ، وزعمايهم بين مصحح فى ولايته ، مستجيب لدعوته ، مغتنم لعطيته . مستعين بقوته على مدافعة من قد هد ركنه من بنى عبيد الله إمام الشيعة المقتحم أرضه عليه ودونه ، وبين منافق مقيم لسوقه بينه وبين تلك الشيعة ، منذ بدت بينها العداوة ، مايل مع الدولة ، مجتلب لعاجل ما استمسك به من الرشوة .

« استوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدعوته ، ورفعوا فوق أعلامه ، وعاطوا مضطهدا ، عبيد الله الشيعى صاحب إفريقية بدعوته ، وقلبوا مجانهم إليه ، ونصبوا الحرب لرجاله ، فكفكفوهم عن الإيغال فى بلدتهم من قاصية المغرب ، يهطنونهم بالكيد والمكر ، فتمكنت بذلك قدم الناصر لدين الله ، فيما حازه من مدينة سبتة والقطعة التى استضمها إليها من أرض العدوة ، واجتذب من أجله كثيراً من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته ، استعان بهم فى حروبه ، وتمكن من ذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادى البربر ، واستنتاجهم الفاضل لبراذين الأندلس ، فتمت بذلك أسباب ملكه ، وجل مقداره ، وبعد صيته ، وهابته ملوك الأمم حوله ، وظهرت نتيجة ما عاناه من مواصلة أمراء البربر ، وسعى لهم سعيه لصدر دولته الفاضلة ، سنة سبع عشرة وثلث مايه وما يليها ، إذ ترددت فيها عليه كتب محمد بن خزر عظيم أمراء زنانة فى وقته ، وأنفرهم عن عبيد الله الشيعى ، وأدناهم من داره ، وأول من تناوله الناصر

لمدين الله من جماعتهم بمكاتبته ، واجتذبه بوصلته »[1] .

— ٤ —

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر ، وانسياب دعوتها إلى المغرب الأقصى ، على مقربة من شواطىء الأندلس، فى مقدمة البواعث التى حدت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحى ، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس ، وكان مؤسسها عبدالرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبنى العباس، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة واكتفى بلقب الإمارة . وسار بنوه على أثره . وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غير مرة ، أن تستعيد مجدها السالف ، فى عهد الحكم بن هشام وولده عبدالرحمن الأوسط ، فإن أمراء بنى أمية لم يفكروا فى الإقدام على منافسة بنى العباس فى ألقاب الخلافة . وقيل فى تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، ويدركون قصورهم عن ذلك « بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية » وأنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين[2]. بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة ، والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية . فلما ظهرت الدعوة الفاطمية فى إفريقية ، ونمت بسرعة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى ، عما انتهت إليه الدولة العباسية فى المشرق من الإضطراب والفوضى ، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمة الخلافة ، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحى ، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها ، أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة . ونفذ الأمر بذلك فى يوم الجمعة مستهل ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ ، حيث قام صاحب الصلاة القاضى أحمد بن أحمد بن بقى بن مخلد بالدعاء له بالخلافة ، على منبر المسجد الجامع بقرطبة[3]. وإليك نص الوثيقة الرسمية التى صدرت بذلك وهو :

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس لوحة ١٠٣ ب و ١٠٤ ا

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠ ؛ والمسعودى فى مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٩ .

(٣) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٩٩ أ .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد فإنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه ، فنحن للذى فضلنا الله به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا ، وأعلى فى البلاد من أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بما أظلهم من دولتنا إنشاء الله ، فالحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك — إذ كل مدعو بهذا الإسم غيرنا ، منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الخطيب بموضعك ، أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ »(١) .

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة عن يقين بأفضليته ، وأولوية حقه وحق أسرته ، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وذلك فى الثانى من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير سنة ٩٢٩ م) فكان أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بأمير المؤمنين . وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبنى أمية بألقاب الخلافة فى الأندلس والمغرب الأقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة . ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة فى سنة (٣٢٧ هـ) أى بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام ، وهو تحريف واضح تنقضه وثيقة الدعوة الرسمية(٢) .

— ٥ —

وكان من أبرز الحوادث الداخلية فى عصر الناصر ، حركة الفيلسوف المتصوف ابن مَسَرَّة الجبلى ، واهتمام الناصر بمقاومتها وقمعها ، وذلك حتى بعد أن توفى زعيمها بأعوام طويلة ، وإصدار كتابه الشهير فى شأنها .

---

(١) يضع ابن حيان اتخاذ الناصر لسمة الخلافة فى حوادث سنة ٣١٦ هـ والدعاء له بها ، حسبما تقدم فى مستهل ذى الحجة من هذه ، السنة ويلخص فى كلامه نص الوثيقة (السفر الخامس — لوحة ٩٩ أ) . وقد اعتمدنا فى نقل الوثيقة الخلافية على ما ورد فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ، ص ٧٨ و ٧٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٧) . والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التى أثبتنا نصها .

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مَسَرَّة من أهل قرطبة ، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس على أبيه وعلى ابن وضاح والخشنى وغيرهم ، ولكنه جاهر ببعض الآراء الدينية المغرقة فى التأويل والقدر وإنفاذ الوعيد وغيرها ، فاتهم بالزندقة ، فغادر الأندلس فاراً إلى المشرق ، وأنفق هنالك بضعة أعوام ، وتفقه على يد المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس ، وهو يخفى آراءه ونحلته الحقيقية تحت ستار من النسك والورع ، وكان ذلك فى بداية عهد الناصر ، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه ، وسحر بيانه ، ومنطقه الخلاب ، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصحب والأتباع ، أضحت تكون مدرسة خاصة من الآراء الدينية والكلامية المتطرفة . واختلف الناس فى أمر ابن مسرة ، فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة فى العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع ، والانحراف عن مبادىء الدين الصحيحة . وتوفى ابن مسرة بقرطبة فى شوال سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م)[١] . ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة بين تلاميذه وأتباعه ، وتكونت من حولها فرقة سرية ، اتهمت بالمروق والإلحاد ، تتابع دعايته ، وتعمل على بث تعاليمه ، حتى برم بهم المتزمتون من أهل السنة ، وأخذوا يسعون لدى السلطات المختصة ، لتعمل على قمع هذه الجماعة ، والقضاء على تعاليمها .

وإليك كيف يصور لنا ابن حيان بقلمه البارع خطة ابن مسرة فى بث تعاليمه ، واستهواء أتباعه . قال :

« كان مذهب الظنين ، المرتب المرائى بالعبادة ، المنطوى على دخل السريرة ، محمد بن عبد الله بن مسرة ، الرابض للفتنة ، دب فى الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله ، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد ، وأبدى من الورع .

« وكان يستهوى العقول ، ويصور الأفئدة . وكان من شأنه أن يلقى أول من يأتيه ، مقتبساً من أهل السلامة ، بالمساهلة ، إلى أن يحيله عن رأيه بالمفاضلة ، فإذا أصغى إلى عذوبة منطقه ، وعلق فى شرك حجاجه ، غره رفقاً بباطله من

---

(١) ابن الفرضى فى « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » (القاهرة) ج ٢ رقم ١٢٠٤ . وكذلك الحميدى فى « جذوة المقتبس » (القاهرة) ص ٥٨ و ٥٩ . والتكملة لابن الأبار (القاهرة) رقم ٧٦٥ و ٩٩١ .

الطاير فرخه ، فلا يبعد أن يلفته عن رأيه ، ويشككه فى اعتقاده . . . ومحصله فى اتباعه ، فاستهوى خلقاً من الناس ، صدّهم عن سبيل الله ، وأوحشهم من الجماعة ، واتخذ من رأى غيهم فى مذهبه واعة دخل فى عرضهم رجال من ذوى الفهم . ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق فى الكتمان إلا من الثقات الوثاق العقدة ، فاكتتم بذلك شأنه ، إلى أن عاقصته منيته ، صدر دولة الناصر لدين الله ، أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة . فرفع الله بموته عن الناس فتنة ، ولم يلبث دعاته مع انتشارهم فى البلاد أن تلبسوا بعده بما أودعه من مكنون علمه ، فكثر القول فى شأنه ، وشيم أهل الخلاف من تلقايه ، فذعر له أهل السنة من أهل قرطبة ، وتوقعوا منه البلية ، ففزع فقهاؤهم وكبراؤهم بها إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا ... »(١) .

ومضت أعوام طويلة ، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى المسئولين ، ولم يصدر قرار السلطة العليا فى شأنه وشأن تعاليمه ، إلا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته ، مما يدل على أن دعوته وتعاليمه لبثت حية ذائعة . قال ابن حيان :

« وفى يوم الجمعة لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاث مائة ، قرئ على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين ، قرطبة والزهراء ، كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر ، بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون ، وشذ فيه الخارجون ، من رأى الجماعة المنتمون إلى صحبة محمد بن عبد الله بن مسرة ، وانتحلوه فى الديانة ، فافتتن العوام بما أظهره من التقشف والشظف فى المعيشة ، واستتروا لبدعهم بسكنى الأطراف البعيدة ، حتى استمالوا بفعلتهم عصابة . . . وفرقة ، فتنت بمذاهبهم ، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين ، ففحص عليه ، وعلم صحته ، فتعاظمه ، واستوحش من اجتراء تلك الطايفة الخبيثة عليه ، فأوعز إلى وزيره ومتولى أحكامه ومدينته ، تتبع هذه الطائفة ، وإخافتها والبسط عليها ، والقبض على من عثر عليه منها ، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين » .

وأورد لنا ابن حيان بعد ذلك ، نص الكتاب الذى صدر باسم الخليفة

---

(١) مخطوط ابن حيان (السفر الخامس من المقتبس) المحفوظ بالخزانة الملكية . وقد حالت خروم المخطوط دون ظهور بعض الكلمات .

الناصر لدين الله ، فى الحملة على تلك الطائفة ، والتبرؤ منها ، وهو من إنشاء كاتبه ووزيره عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى .

ويبدأ الكتاب بالتنويه بشأن الإسلام ، وأفضليته على سائر الأديان ، وبرسالة محمد خاتم النبيين ، الذى اصطفاه الله ، وأرسله إلى الناس ، وكرم به أمته على سائر الأمم ، وما نبه به الإسلام من إقامة الدين ، وعدم افتراق الكلمة . وانه لما شملت النعمة ، وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، « وأبدت كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم » واستولى عليهم الشيطان بخيله ورجله ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيئسوا ، وآيسوا من روح الله ، وأكثروا الجدل فى آيات الله ، وحرموا التأويل فى حديث رسول الله ، فبريت منهم الذمة ، ووعدهم الله ببالغ نكاله ، لما انطوت عليه قلوبهم من الزيغ ، ولما كذبوا من التوبة ، وأبطلوا من الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، والقدح فى الحديث ، والقول بمكروه فى السلف الصالح ، فشذوا عن مذهب الجماعة ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين ، وقالوا بالاعتزال عن العامة . ولما فشى غيهم ، وشاع جهلهم ، واتصل بأمير المؤمنين ، من قدحهم فى الديانة ، وخروجهم عن الجادة ، أغلظ فى الأخذ فوق أيديهم ، وأنذرهم إنذاراً فظيعاً ، واعتزم أن يوقع بهم العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة ، ليفزع قلب الجاهل ، ويضطر الغواة إلى الآثار الصحيحة التى يتقبلها الله منهم ، وأن يقرأ هذا الكتاب فى سائر الأقطار والكور ، وفى البدو والحضر ، وأن ينفذ عهده بذلك إلى سائر قواده ، وجميع عماله . لكى يقوموا بمطاردة هذه « الطغمة الخبيثة ، التى اجترأت على تبديل السنة ، والاعتداء على القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين » . ويختتم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون ، وتتبع أولئك المارقين ، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، حتى يحملوا إلى باب سدته ، وينكلوا بحضرته[1] .

---

(١) ورد نص هذا الكتاب فى اللوحات ١٧ و ١٨ و ١٩ من مخطوط المقتبس السالف الذكر . وسوف ننشر نص الكتاب كاملا فى نهاية الكتاب .

قال ابن حيان : « وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرِّية ، والإخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر لدين الله » .

وهنا ولأول مرة نجد شرحاً وافياً ، بقلم ابن حيان القوى الناقد ، لتلك الحركة الدينية الخطيرة ، حركة ابن مسرَّة وتلاميذه ، وهى التى استحالت أيام الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار . فهل كانت حقاً ، كما يصورها ابن حيان ، وكما تصورها لنا الوثيقة الخلافية ، التى ينقلها إلينا ، جمعية مارقة ملحدة ، تهدد العقائد والنظام والأمن ؟ أم هل كانت حركة تفكير فلسفى حر ، لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر ، وكانت كمعظم الحركات المماثلة ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين من الفقهاء والحكام ، يدافعون بسحقها عن نفوذهم وسلطانهم المطلق ؟ .

الفصل الثانى

خلال الناصر ومآثره

عصر الناصر أعظم عصور الإسلام بالأندلس . منشآت الناصر . مشروع بناء الزهراء . البدء فى إنشائها . قصر الزهراء وفخامته وروعته . منشآت الزهراء الأخرى . بعض أوصاف وأرقام عن الزهراء . نهاية الزهراء كقاعدة ملوكية . تخريبها أيام الثورة . بعض ما قيل فى رثائها . أطلال الزهراء واختفاؤها . جهود العلماء الإسبان للكشف عن مواقعها . وصف لما ظهر من آثارها ومعالمها . منشآت الناصر بالمسجد الجامع . تنظيم الناصر للجيش والأسطول . الأحوال المالية فى عهد الناصر . غنى الدولة الأموية وبذخها . إنشاء دار السكة بقرطبة . قرطبة وعظمتها . اصطفاء الدولة الأموية للموالى والصقالبة . حرص الناصر على السلطان المطلق . الصقالبة ونفوذهم . أثر هذا الاصطفاء . قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية . تقدم الصلات الدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية . سفارة قيصر قسطنطينية إلى الناصر . حفل استقبال السفراء وروعته . هدايا قيصر إلى الناصر . خطاب القاضى منذر بن سعيد . سفارات ملوك النصرانية . سفارة إمبراطور ألمانيا . سفارة الناصر إلى الإمبراطور . موضوع المفاوضات بين العاهلين . رأى الناصر فى نظام الحكم . سفارات نصرانية أخرى إلى الناصر . مرض الناصر ووفاته . خلاله وصفاته . حجابه ووزراؤه وقواده . الوزراء وأصحاب الخطط . تنويه الشعر بعظمة عصره . صفة الناصر . أبناؤه . إشادة النقد الحديث بمناقبه .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحى عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورخاء ومجد ، بل كان فى الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، ولاسيما من نواحيه المعنوية والحضارية . وإذا كانت الأندلس قد بلغت فيما بعد فى عصر المنصور بن أبى عامر ، ذروة تفوقها السياسى والحربى فى شبه الجزيرة الإسبانية ، فإن الدولة الأموية بالأندلس بلغت فى عهد الناصر ذروة القوة والبهاء ؛ وكان هذا العهد حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومراحل انحلالها وسقوطها .

ولم تحل مهام الحروب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ،وكان فى مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد منافستها فى المشرق بهاء وفخامه . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر

وهو مقام الملك ، قصراً جديداً سماه دار الروضة ، جلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ فى ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة . ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر ، من استكمال الفخامة الملوكية ، والقصور والميادين والرياض الشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، حيث أنشأ الرصافة فى ظاهرها لتكون له منزلا ومتنزها ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة . فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه ، وسحق أعدائه فى الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى فى أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة ، فأنشأ مدينة الزهراء . ولإنشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التى ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذى رآه قسطنطين ، وأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذى أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هى جاريته وحظيته «الزهراء» وأنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيراً ، فأمر أن يخصص لافتداء الأسرى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسرى من يفتدى ، فأوحت إليه «الزهراء» بأن ينشئ بهذا المال ، مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها(١) . بيد إنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك ، والترفع بمظاهره وخصائصه ، عن المظاهر العامة ، لعاصمة مكتظة زاخرة .

والظاهر أيضاً أن شغفا خاصاً بالعمارة والبناء ، كان يحفز الناصر ويذكى رغبته فى إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ ، والسلطان المؤثل ، وقد نسبت إلى الناصر فى ذلك أبيات قالها فى هذا المعنى :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... مُلْك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

وهكذا اختطت الزهراء فى ساحة تقع شمال غربى قرطبة ، على قيد خمسة أميال أو ستة منها ، فى سفح جبل يسمى جبل العروس[1] . وكان البدء فى بنائها فى فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر إلى ولده وولى عهده الحكم ، بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة[2] ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية[3] . وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من ألمرية وريُّه ، ومن قرطاجنة إفريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية، وجلب إليها من سوارى الرخام أربعة آلاف وثلاثمائة أربعة وعشرين سارية[4] . وكان يشتغل فى بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة فى اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر ، أعنى مدى خمسة وعشرين عاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها فى عهد ولده الحكم[5] . وابتنى الناصر فى حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً فى تنميقه وزخرفته ، حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ، وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلا سمى بقصر الخلافة ، صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة ، وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة[6] . وزود الناصر مقامه فى قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير المنقوش بالذهب ، الذى أهدى إليه من قيصر

---

(١) مختصر نزهة المشتاق للادريسى (طبع رومة) ص ١٩٣ ؛ والمسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٨ . ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٧ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

قسطنطينية ، والذى جلبه من هنالك إلى قرطبة ، ربيع الأسقف . وجلب إليه الوزير أحمد بن حزم من الشام حوضاً ثانياً رائعاً ، يقوم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالجواهر ، وهى تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من أفواهها إلى الحوض[1] . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة ، التى تشبه أوصاف قصور ألف ليلة وليلة المسحورة ، عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يبن فى أمم الإسلام مثله فى الروعة والإناقة والبهاء[2] .

وأنشأ الناصر فى الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً ، تم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوماً. وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزوده بعمد وقباب فخمة ، ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية فى الفخامة والجمال[3] . وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلى[4] . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ ، وصولة السلطان المؤثل ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

واستمر العمل فى منشآت الزهراء طوال عهد الناصر ، أعنى حتى وفاته فى سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة[5] ؛ ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت (إلى جانب قرطبة) أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة ، تنبىء عما كانت عليه من الضخامة . فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٦٥ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

رومة ، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم فى اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم ، سوى الدجاج والحجل وغيرها[1] . وقد لا نجد فى المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة ، سوى القصر البابوى أو قصر الفاتيكان الشهير برومة ، وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال ، فإن هذا المقام الكنسى الملوكى الفخم ، يحتوى على أربعة آلاف غرفة ، وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ويحدثنا الرحالة البغدادى ابن حوقل عن الزهراء — وقد زارها أيام الحكم ولد الناصر — فيصف موقعها ، ويقول «إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وإن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلدة (قرطبة) فى المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتذال لجيد الثياب والكسى ، وفراهة الكراع وكثرة التحلى ، وإن لم يكن لها فى عيون كثير من الناس حسن بارع »[2] .

ولكن الزهراء لم تعمر طويلا كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، مذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع فى سلطان بنى أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع الوزير محمد بن أبى عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة وأن يحجر على الخليفة هشام المؤيد ولد الحكم حسبما نفصل بعد ؛ ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها لنفسه بجوار قرطبة (سنة ٣٦٨ هـ) على نهر الوادى الكبير وسماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودور الحكومة ، واتخذ لنفسه سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) المسالك والممالك ص ٧٨ .

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا فى عهد مؤسسها ، وعهد خلفه الذى أكمل بناءها ؛ وكان قيام الحاجب المنصور فى الواقع خاتمة لسلطان بنى أمية ، ولم يبق بعد ذلك من دولتهم سوى الإسم . وقد بقيت الزهراء حيناً مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه — هشام المؤيد — ولكنها فقدت من ذلك الحين أهميتها السياسية وهيبتها الملوكية .

ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً ، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية . ففى ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) زحفت قوات البربر ومعها سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من الخليفة هشام المؤيد ، والفتى واضح الحاجب المتغلب عليه ، واقتحموا فى طريقهم مدينة الزهراء ، وفتكوا بحاميتها وسكانها ، وعاثوا فى معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ، ولبثوا بها بضعة أشهر . والظاهر أن الضربة كانت قاضية فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة بعد أن غادروها سوى أطلال دارسة . ولا يكاد اسم الزهراء ، يذكر بعد ذلك فى التاريخ الأندلسي ، إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ، وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها ، وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد أشاد بجمالها وفخامتها ، جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك فى مقطوعات مؤثرة . ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء عصر الطوائف ، يشيد بالزهراء ، وروائع ذكرياتها :

خليلى لا فطر يسرّ ولا أضحى ... فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل ... أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معاهد لذات وأوطان صبوة ... أجلت المعلى فى الأمانى بها قدحا
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح ... تقضت مبانيها مدامعه نزحا
مقاصير ملك أشرقت جنباتها ... فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا
يمثل قرطيها لى الوهم جهرة ... فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه ... إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحا

هناك الحمام الزرق تندى خفافها   ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها   صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا[١]

ونقل إلينا الشيخ محيي الدين بن عربى[٢] أبياتاً ، قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء فى المدينة الشهيرة وهى :

ديار بأكناف الملاعب تلمع   وما إن بها من ساكن وهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب   فيصمت أحياناً وحيناً يرجع
فخاطبت منها طائراً متغرداً   له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى   فقال على دهر مضى ليس يرجع

ورثى الفتح بن خاقان معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض الكبراء فى تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها ، وانقراض أطرابها ، والوهى بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيأوا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجناتها ، ونبهوا الآمال من سناتها ، وراعوا الليوث فى آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعى تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نؤى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم شبابها ؛ وقد يلين الحديد ، ويبلى على طيه الجديد ... »[٣] .

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر) . وقد ذكرها الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى الذى وضعه فى منتصف القرن السادس الهجرى (منتصف القرن الثانى عشر) ، وذكر أن بينها وبين قرطبة خمسة أميال[٤] ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموى فى معجمه الجغرافى الذى

(١) راجع قصيدة ابن زيدون برمتها فى ترجمته فى « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان ص ٧٢ .
(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، وقد نقل إلينا هذه الرواية والأبيات فى كتابه الشهير « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » .
(٣) راجع قلائد العقيان فى ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠ .
(٤) راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومة — ص ١٩٣ .

وضعه فى أوائل القرن السابع الهجرى[1] . وفى شوال سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) كانت نكبة الأندلس ونكبة الإسلام ، بسقوط قرطبة فى أيدى الإسبان ؛ فطويت بذلك أسطع صحف الإسلام وصحف الخلافة فى الأندلس . وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها الخلافية القديمة . ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة فى أيدى الإسبان عصراً يصعب تحديده ، غير أن قرطبة فقدت فى ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة ، ولم يبق اليوم من آثارها وصروحها الإسلامية سوى مسجدها الجامع ، الذى ما يزال بالرغم من تحويله إلى كنيسة جامعة ، يحتفظ إلى اليوم بكثير من روعته الإسلامية السالفة .

* * *

هذا وما زالت سيرة مدينة الزهراء وذكريات فخامتها الذاهبة ، تحتل المقام الأول فى تاريخ إسبانيا المسلمة الأثرى والفنى . وقد اهتم العلماء الإسبان منذ نحو قرن بالكشف عن معالمها وأطلالها ، لما يلقيه ذلك الكشف من أضواء هامة على أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الإدارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسى فى أزهى عصوره . وعنيت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى ، بإجراء الحفريات الأثرية للكشف عن صروح المدينة الخلافية . وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة التى اضطلعت بهذا العمل ، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ، فقد استطاع الأثريون الإسبان أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء ، ومواقع صروحها ، وأبهائها الملوكية .

وقد أتيح لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة ، خلال زياراتنا لعاصمة الخلافة القديمة[2] . وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة على بعد نحو سبعة أميال منها ، وشمالى نهر الوادى الكبير على قيد ميلين ، وتحتل منحدراً صخرياً وعراً يقع أسفل الأكمة التى يحتلها دير سان خيرنمو San Jeronimo الشهير ، الذى يقال إنه بنى بأنقاض قصر الزهراء . وتسمى هذه المنطقة التى تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة » Córdoba la vieja .

---

(١) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١ .

(٢) قمنا بزيارة أطلال الزهراء لآخر مرة فى مايو سنة ١٩٦٣ .

وتشمل الحفريات الأثرية التى يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ منطقة واسعة ، تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب و ٧٤٥ متراً من الشمال إلى الجنوب . ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها التى مازال بعضها قائماً فى بعض الجدران ، والتى تتمثل بالأخص فى مئات القطع الرخامية الزخرفية التى وجدت ، يكفى لتكوين فكرة عامة ،عن هندسة المدينة الملوكية ومنعتها وفخامة صروحها الذاهبة .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث ، مدرجة من أعلى إلى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخليفى والمقام الخاص . وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة، وهى الواقعة أسفل الربوة ، فى بسيط معتدل من الأرض ، أربعة أفنية كبيرة عالية ، هى التى يجرى اليوم ضمها وإعادتها تشكيلها ، فيما يظن أنه البهو العظيم الذى كان مخصصاً لاستقبال الملوك وأكابر السفراء .

وقد تم الكشف عن هذا البهو الذى يعتبر أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء فى سنة ١٩٤٤ ، ووجدت سائر حطامه وزخارفه مدفونة تحت الأنقاض . ويعكف الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة الصرح وتنسيقه ، مما وجد من أنقاضه وأعمدته وزخارفه . وقد أقيم حتى اليوم فى وسطه ما اصطلح على تسميته « بهو السفراء » أو باسمه التاريخى « المجلس المؤنس » ، وهو عبارة عن أربعة أفنية متلاصقة تبلغ واجهتها نحو أربعين متراً ، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاث أروقة مستطيلة ، يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين. ويقوم كل فناء منها على خمسة عقود ، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس وقواعد رخامية مزخرفة ، وفى وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضى إلى بهو داخلى ، زين جانباه بالزخارف الرخامية . ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو ثمانية أمتار . وقد صنعت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التى وجدت. وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار .

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال تقع أعلى هذه الأبهاء من اليسار ، وهى عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهو مستطيل :

وهى لا تفترق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهى المجموعة الوحيدة التى وجد بها أثر الدهان واضحاً . وقد تبين أن لون الدهان الذى كان مستعملا فى هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر ، يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر ، وتبين كذلك أن البلاط المستعمل فى تغطية أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون ، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحدة منها أربعين سنتمتراً . وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة فى أسفل البناء ، هى أحجار كبيرة بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً وعرضه ٤٠ سنتيمتراً .

وإلى جانب هذه المجموعات الجديدة من أطلال الزهراء ، توجد المجموعات القديمة ، وهى تشمل موقع القصر الخليفى والجدار الشمالى ، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر ، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء ، ومجموعة من مساكن الحرس . وترجع منطقة الجدار الشمالى إلى عصر الناصر ذاته ، وهى من منشآته فى المرحلة الأولى من بناء الزهراء ، وقد أصلحت على امتداد سبعين متراً . وهذا الجزء من الجدار أمتن وأحكم صنعاً ، من قسمه الذى بنى فيما بعد فى عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمين ، فيقع أولها على بعد ثمانية أمتار أسفل القصر الخليفى ، ويشتمل كل منهما على بهو كامل ، وهناك ما يدل على أن كلا منهما كان يحتوى على مجموعة من المساكن المتماثلة المخصصة لسكنى طائفة هامة من البطانة أو الجند . ويشغل الفناء الغربى رقعة ضخمة مربعة تقريباً تبلغ مساحتها نحو خمسمائة متر ، وبه أيضاً بقايا أبنية سكنية . بيد أنه لم يكتشف فى هذه المنطقة أبواب أو مداخل تكشف عن حقيقة نوع هذه الأبنية ، والظاهر أن الفناء الشرقى كان موقع مسكن « للحريم » ، أو بعبارة أخرى كان جناحاً للقصر الذى تسكنه النساء والأولاد حسبما تدل على ذلك آثار أبنيته ومرافقه .

وعثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعات الضخمة من أطلال المدينة الخليفية ، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية والعقود والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية ، ومئات من القطع والأوانى الزخرفية والبللورية ، وقد جمعت كلها فى متحف خاص أقيم عند مدخل « مدينة الزهراء » ، وعرضت فيه بعض القطع

والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش ، وبعض الأوانى الخزفية والبللورية المصححة ، وهذا إلى ما يوجد من تحف الزاهراء ونقوشها الزخرفية بمتحف قرطبة الأثرى ، وفى مقدمتها الوعل البرونزى الشهير الذى يعتبر من أروع القطع الفنية .

نقول ، ولعل حفائر الزهراء المستقبلة تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى من ضروب الفخامة والجلال ، التى كانت تتسم بها المدينة الخلافية ، والتى تحدثنا عنها الروايات المعاصرة[1] .

هذا ولم ينس الناصر أن يشمل المسجد الجامع بعنايته ، أسوة بسائر أسلافه من بنى أمية ، فجدد واجهته ، وزاد فيه زيادات كبيرة (٣٤٦ هـ — ٩٥٧ م) . وكان قبل ذلك قد هدم منارته القديمة ، وأنشأ مكانها المنارة العظمى ، وذلك فى سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) . وكانت منارة الناصر تمتاز بفخامتها وارتفاعها الشاهق ، وكانت مربعة الواجهات ، ولها أربعة عشرة شباكاً ذات عقود ، وتحتوى على سلمين أحدهما للصعود ، والآخر للنزول ، وقد ركب فى قمتها ثلاث تفاحات كبيرة ، إثنتان منها من الذهب ، والثالثة من الفضة[2] ، وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها ، تكاد تخطف الأبصار ببريقها . وقد أزال الإسبان فيما بعد ، تلك المنارة العظيمة ، تتمة لبرنامجهم فى تشويه المسجد الجامع ، وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالى .

وما زالت اللوحة التى تنوه بما قام به الناصر من تجديد واجهة الجامع قائمة إلى اليوم ، فى مكانها فى الجانب الأيمن من بابه الرئيسى المسمى «باب النخيل»[3] وقد كتب بها ما يأتى بخط كوفى جميل :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاءه ، ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيما لشعائر الله ،

---

(١) رجعنا فى هذا الاستعراض لأطلال الزهراء إلى مشاهداتنا الخاصة . وكذلك إلى البحوث الأثرية الآتية :

Medina Azzahra y Alamiriya, por D.R. Velazquez Bosco (Madrid 1912)

Excavaciónes del Plan nacional en Medina Azzahra (Córdoba), Campana de 1943. por R. Castéjon y Martinez de Arizala (Madrid 1945)

Nuevas Excavaciónes en Medinat Al-Zahra : El Salon de Abd Al-Rahman III por R. Castéjon (Al-Andalus, Vol. X (1945) Fsc. I.

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٣) وبالإسبانية **Puerta de las Palmas**

ومحافظة على حرمة بيوته ، التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ، وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر ، وحسن الذكر ، فتم ذلك بعون الله ، فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب»[1] .

— ٢ —

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مواردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها فى الداخل والخارج ، فى سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصولتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء .

ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذى أضناه الكفاح ضد الثورة ، وحشد له الجند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف . وكان إقدام الأمير على تولى القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن فى الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه ، فأنشأ له وحدات جديدة قوية . وكانت ألمرية عندئذ مركز الأسطول الأندلسى الرئيسى ، وبها أكبر دار للصناعة . وبلغ الأسطول فى عهد الناصر زهاء مائتى سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا الأسطول المخصص لشئون المغرب البحرية ، وقد كان يضم كذلك عدداً كبيراً من السفن . وهكذا كان أسطول الأندلس فى ذلك العهد من أقوى الأساطيل يومئذ ، وكان بضخامته وأهباته ، يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية ، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربى من البحر المتوسط .

وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات ، كما قدمنا عهد رخاء ويسر ، توطدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة ، وزاد الخراج والدخل زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن ، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيما احتوته الزهراء من القصور

---

(١) راجع الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان (الطبعة الثانية) ص ٢٠ و ٢١ و ٣٠

والمنشآت الباذخة ، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة ، لما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس فى عهد الناصر من القوة والضخامة والغنى . وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم التى لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند وفاته فى بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار . وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ، وثلث يدخر للطوارئ[١]. ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن العلامة دوزى ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب[٢]. ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة فى هذا العهد ، إن الناصر كان أغنى ملوك عصره ، وإنه وبنى حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر[٣]. وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وغناها الطائل فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه غزواته ، أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة .

هذا ، وقد كان مما عنى به الناصر تنظيم العملة ، وتثبيتها ، فأمر فى سنة ٣١٦هـ، باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم ، فاتخذت هناك على رسمه ، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير ، وذلك فى ١٧ من شهر رمضان من هذه السنة ، فقام بالضرب فيها من هذا التاريخ ، من خالص الذهب والفضة ، وبذل جهده فى الاحتراس من المدلسين ، فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً . وقد كان ضرب النقد معطلا قبل الناصر ، وكان لهذا الإجراء أثره فى تثبيت العملة واستقرار التعامل[٤].

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 178

(٣) ابن حوقل ، المسالك والممالك ص ٧٧ .

(٤) ابن حيان – السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية لوحة ٩٩ ب .

وبلغت الأندلس فى عهد الناصر ذروة الرخاء والنعماء والأمن والعزة ، وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة ، ورخصت كلفة العيش . ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ، ومنازلها أكثر من مائة ألف ، وحماماتها العامة ثلاثمائة ، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية وعشرين ، هذا عدا المدينة الوسطى ، وكان لقرطبة يومئذ سبعة أبواب : باب القنطرة ، وباب اليهود ، وباب عامر ، وباب العطارين ، وباب طليطلة ، وباب عبد الجبار ، وباب الجوند . وكان للقصر الأموى ستة أبواب : باب السُّدة ، وباب الجنان ، وباب العدل ، وباب الصناعة ، وباب الملك ، وباب الساباط ، وهو فى المسجد الجامع . وازدانت قرطبة بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة ، ودوت شهرتها فى الآفاق ، ووصلت إلى قاصية الشمال ، حتى أن الراهبة السكسونية هروسوڤيتا التى اشتهرت بنظمها فى أواخر القرن العاشر ، أشادت فى قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « زينة الدنيا »(١) .

— ٣ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير الظروف العصيبة التى أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الجمة التى أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاسترابة بالعرب ، واصطناع البربر والموالى الذين آزروه وقت المحنة ، ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته . وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة فى جوهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر (١٨٨ — ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالى والصقالبة يشتد فى البلاط وفى الدولة . وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك والباذخ ، فغص البلاط الأموى فى عهده بالخدم والحشم ، من المماليك والصقالبة ، بيد أن نفوذهم لبث مدى حين بعيداً عن شئون الدولة العليا ، قاصراً على شئون القصر والخاص .

واقتفى عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل ، فى الاسترابة بالقبائل

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 174

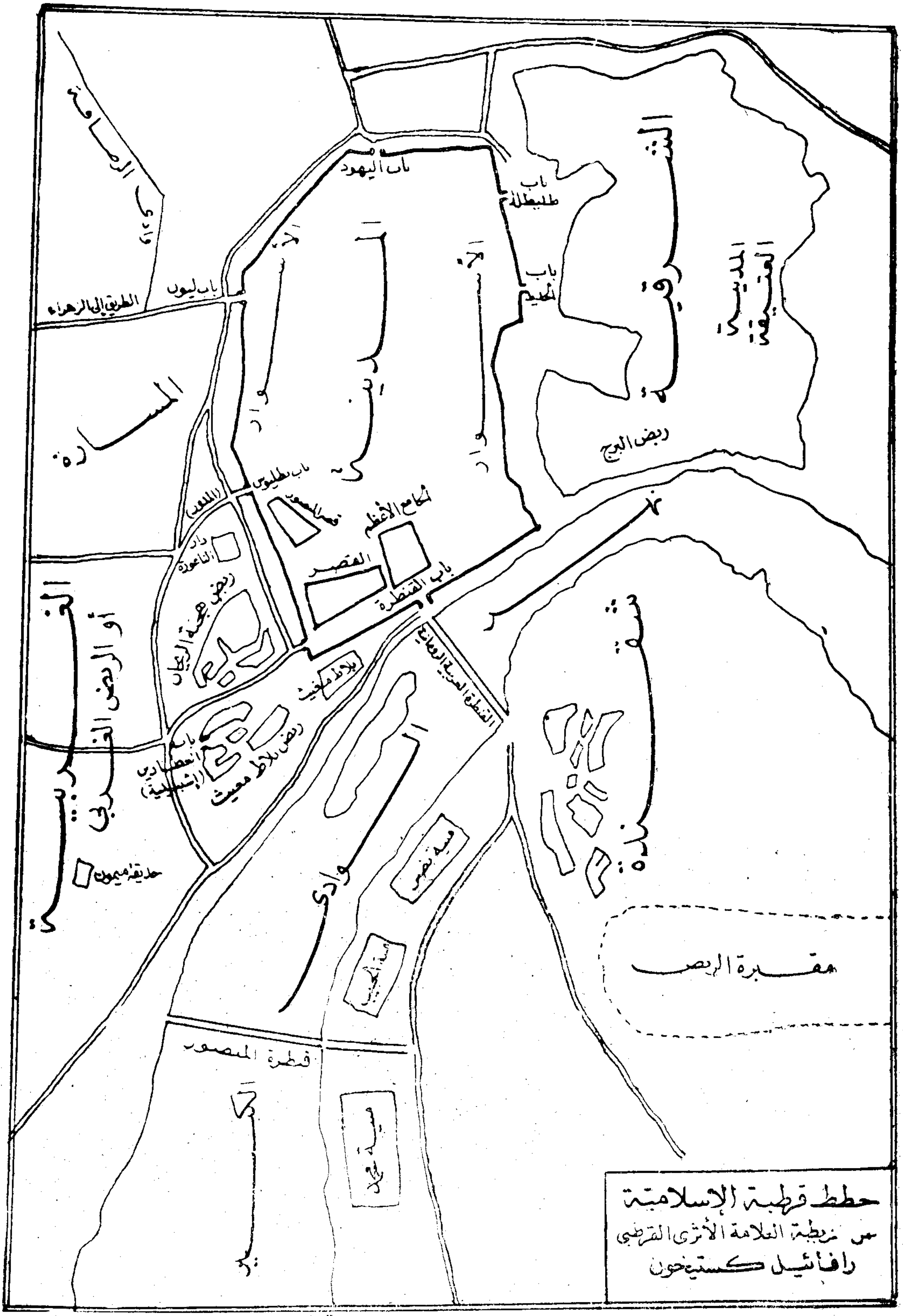

خطط قرطبة الإسلامية

من خريطة العلامة الأثري القرطبي

رافائيل كستيخون

العربية ذات البأس والعصبية ، وفى إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ؛ واستأثر بكل سلطة حقيقية فى الدولة ، وجمع مقاليد الحكم كلها فى يده ، فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير . وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق ، لاينى عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف فى سبيله ، ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نمى إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة ، لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون ، وأن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة ، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه ، وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان ذلك فى سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) . وكان عبد الله من أفضل أبناء الناصر علماً وعقلا وبصراً بالأمور ؛ وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض أبناء عمومته وأخيه القاضى ابن محمد حين قامت الأدلة على ائتمارهم به[١] .

وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالى المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ، وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ، ويوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم[٢] .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق فى الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يعملون فى البطانة وفى القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من الجليقيين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارد والإيطاليين[٣] ، وكان معظمهم يؤتى بهم أطفالا بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادىء الإسلام ، وقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد . ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة فى شئون الإدارة والحكم ، فضلا عن القصر والخاص ، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى فى القصر والإدارة والجيش ؛ وما لبث أن سما شأنهم وتوطد سلطانهم ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ، وفاق عددهم فى عهد الناصر أى عهد آخر ، حتى قدر بعض المؤرخين عددهم

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٥ ؛ وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 153

يومئذ فى القصر والبطانة ، بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا فى رواية أخرى سبعة آلاف وثمانين . ويقول لنا ابن الخطيب إن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء كان عند وفاة الناصر ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين ، تجرى عليهم جميعاً رواتب الطعام بسائر صنوفه[1] . وعلى أى حال فقد كان من أولئك الصقالبة الحرس الخليفى ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم فى السلطان والنفوذ ، ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ، ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم[2]. بل كان منهم فى عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ، ودرّى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص[3]. وكان لهذه السياسة غير بعيد ، أسوأ الأثر فى انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية ، لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب ، من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ، وكانت هزيمة الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة (ألانديجا) (٣٢٧ هـ) ، ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوى ، الذى سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية[4] .

— ٤ —

كانت الأندلس بما اجتمع لها فى عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان ، قد تبوأت مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها فى المشرق ، قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية فى العالم الإسلامى ، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية فى طلب المودة ، وعقد العلائق الدبلوماسية ؛ وكانت قسطنطينية مركز هذه الجاذبية الدبلوماسية بين أمم النصرانية حتى القرن الثامن . ثم نافستها فى ذلك مملكة الفرنج القوية مدى حين ، فلما اضمحل شأن المملكة

---

(١) أعمال الأعلام ص ٤٠ و ٤١ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 153 . وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .

(٤) Dozy : Hist. V. II. p. 153

الفرنجية ، استردت قسطنطينية زعامتها الدبلوماسية فى النصرانية . ولما قامت الإمبراطورية الجرمانية فى القرن العاشر ، استطاعت أن تبسط زعامتها السياسية على أواسط أوربا وغربها ، وهكذا كانت زعامة النصرانية تتردد فى هذه الحقبة بين شرقى أوربا وغربها . هذا بينما لبثت قرطبة تستأثر وحدها بزعامة الإسلام فى الغرب حتى نهاية القرن العاشر .

وقد كان هذا العصر الذى اجتمعت فيه تلك الزعامات الدينية والسياسية القوية ، أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية . فكانت ثمة معاهدات وسفارات ومراسلات وعلائق دبلوماسية ، بين قرطبة وبين معظم الأمم النصرانية ، وقد بلغت هذه الصلات ذروتها فى عصر الناصر لدين الله ، وتوالت وفود الأمم النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ، تنشد الحلف والصداقة والمهادنة ، من زعيم الإسلام فى الغرب .

وكان بلاط قسطنطينية بالرغم من نأيه عن مقر الخلافة الأندلسية ، وعدم اتصاله بها ، بأية حدود أو صلات جغرافية مشتركة ، فى مقدمة الساعين إلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة . فى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م)(١) ، وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف «ببورفيروچنتوس»(٢) ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة . وتقدم إلينا الرواية الأندلسية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، تلقى ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية فى هذا العصر ، فتقول لنا إن الناصر بعث رسله للقاء السفراء البيزنطيين حين وصولهم إلى الشاطىء لإرشادهم وخدمتهم ، ولما وصل الركب إلى مقربة من قرطبة ، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم ، ثم بعث الفتيين ياسراً وتماماً فصحباهم إلى دار الضيافة ، بقصر ولى العهد الحكم ، فى ربض قرطبة ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة ، ورتب لخدمتهم طائفة من الموالى والحشم . وفى اليوم الحادى عشر من

---

(١) هذه هى رواية ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٢) . وفى رواية أخرى أنها وقعت سنة ٣٣٨ هـ (نفح الطيب ج ١ ص ١٧١) . وذكر الطبيب الأندلسى ابن جلجل وقد عاش قريباً من عصر الناصر ، أنها وقعت فى سنة ٣٣٧ هـ (راجع طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة – طبعة ميللر – ج ٢ ص ٤٧) . وذكر صاحب البيان المغرب أنها وقعت فى سنة ٣٣٤ هـ (ج ٢ ص ٢٣٩) . ولم نعثر فى تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة ، ولكن الرواية الإسلامية واضحة جلية .

(٢) ومعناها الأرجوانى .

ربيع الأول من السنة المذكورة ، خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم ، وجلس فى بهو المجلس الزاهر ، وكان يوماً مشهوداً من أيام الأندلس . فركبت الجند بالسلاح فى أكمل شكل ، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحفل السرير الخلافى بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة ، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولى عهده الحكم ، وجلس باقى أولاده يميناً وشمالا ، ورتب الوزراء فى مراتبهم ، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب . ودخل سفراء ملك الروم ، فبهرهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا الهدايا التى يحملونها . وذكر لنا الطبيب الأندلسى أبو داود سليمان بن حسان المعروف «بابن جُلجل» الذى عاش فى عصر هشام المؤيد حفيد الناصر ، أنه كان فى مقدمة هدايا أرمانيوس ملك الروم إلى الناصر سفران جليلان من كتب الأقدمين ، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس[١] عن الحشائش ، مكتوبة بلغة مؤلفها أى باليونانية ؛ والثانى نسخة من تاريخ أورسيوس (هروسيس)[٢] مكتوبة باللاتينية ، وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم ، وأقاصيص الملوك السابقين[٣]. وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع ، وقد كتب فى رق ذى لون سماوى باللغة اليونانية ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة ، فيها وصف لهدايا الإمبراطور ، وعلى الكتاب طابع ذهبى ، على إحدى وجهيه صورة للمسيح ، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين ، مصنوعة من الزجاج الملون البديع . وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه : « قسطنطين ورومانين

---

(١) ديسقوريدس **Dioscorides** طبيب وكيمائى يونانى . أصله من كليكية بآسيا الصغرى . وقد عاش فى القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية . وهو ما يزال يعتبر ذا قيمة علمية حتى عصرنا ، وكان يعتبر حتى القرن السابع عشر أثمن مرشد لخواص الأعشاب الطبية .

(٢) باولوس أورسيوس **Paulus Orosius** حبر ومؤرخ إسبانى (قوطى) عاش فى القرن الخامس الميلادى ووضع باللاتينية تاريخاً للخليقة فى عصره . وقد اشتهر تاريخه بالرغم من ركاكته وكثرة خرافاته ، وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين . وعرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون فى مواضع عديدة من تاريخه ، وتعرفه الرواية الإسلامية بهروسيس أو هرشيوش .

(٣) راجع رواية ابن جلجل منصلة فى كتاب طبقات الأطباء ، فى ترجمة ابن جلجل (ج ٢ ص ٤٤٧) .

المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم »[1]، وفى سطر آخر صيغة التوجيه : « العظيم الإستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه » . وذكر لنا ابن جُلجل أن ملك الروم كتب إلى الناصر فى شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية ، وأنه لم يكن فى قرطبة يومئذ من يحسن هذه اللغة ، وأن الناصر كتب فى خطابه إلى « أرمانيوس» فيما بعد ، أن يرسل إليه برجل يتكلم اليونانية واللاتينية، فبعث إليه براهب يدعى نيقولا ، فحظى عند الناصر ، وتوفر على تفسير كتاب ديسقوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة . وأما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان فى بلاط قرطبة من يجيدها[2] . وكان الناصر قد أمر أن يخطب الأعلام فى ذلك الحفل ، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة ، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه ، وإعزاز كلمته ، وذلة أعدائه ، واستعد بعض الخطباء لذلك ، ولكن بهرهم هول المجلس فوجموا وأرتج عليهم القول ، وكان منهم اللغوى الكبير أبو على القالى وافد العراق وضيف الخليفة — وكان قد وفد على الأندلس فى سنة ٣٣٠ هـ — ، ندبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته ، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه ، حتى بهت وتلعثم ثم صمت ؛ فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطى دون استعداد ولا سابق توقع ، وارتجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره ، ثم أعقبه بقصيدة فى نفس المعنى[3] ، فأثار بذلاقته وثبت

---

(١) رومانين هو رومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع ، وقد حكم بعد أبيه من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ م . وتسميه الرواية الإسلامية « أرمانيوس » .

(٢) راجع رواية ابن جلجل المشار إليها فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ .

(٣) نقل المقرى عن ابن حيان وغيره ، نص الخطاب الذى ألقاه منذر بن سعيد فى ذلك الحفل . وإنه ليصعب علينا متى تأملنا عباراته المنمقة ، وسجعاته المرتبة ، وما يتخلله من ضروب البيان والبديع ، أن نصدق أنه خطاب مرتجل ألقى عفو الساعة . ولعله صورة منقحة منمقة للخطاب الأصلى . وقد رأينا أن ننقل فقرات من ذلك الخطاب تتناول عهد الناصر بشىء من الوصف والتحليل .

جاء فى الخطاب بعد الديباجة ما يأتى :

« وإنى أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التى لمت شعثكم ، وأمنت سربكم ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم ، فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال ، ونكد العيش والتقتير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية ، بعد استيطان البلاء . أناشدكم بالله معشر الملأ =

جنانه ، أيما إعجاب ، وأكبر الناصر همته وعلمه ، وكان هذا الخطاب المرتجل فاتحة مجده ، فأغدق عليه الناصر عطفه ، وولاه القضاء ، وأصبح من رجال الدولة المشهورين .

ومن شعر منذر بن سعيد فى وصف ذلك الحفل المشهود قوله :

مقالى كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطـل
بقلب ذكى ترتمى جمـراته ... كبارق رعد عند رعش الأنامل
فما دحضت رجلى ولا زل مقولى ... ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولى عيون أخالها ... كمثل سهام أثبتت فى المقـاتل
لخـير إمام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو فى العصـور الأوائل
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه ... وكلهم ما بين راج وآمـل
وفود ملوك الروم وسـط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لنـائل
فعش سالماً أقصى حيـاة مؤملا ... فأنت رجاء الكل حاف وناعـل
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل[1]

= ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ، ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها » .

ثم قال : « فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق »

ثم قال : « فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم ، فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود ... فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، وقد علمتم ما أحاط بكم ، فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين ، الساعين فى شق عصاكم ، وتفريق ملأكم الآخذين فى مخاذلة دينكم وتوهين دعوة نبيكم ... الخ .

راجع خطاب ابن سعيد بأكمله فى نفح الطيب ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

[1] (١) وقد نقل إلينا المقرى عن المغرب لابن سعيد وغيره نبذة فى ترجمة القاضى منذر بن سعيد البلوطى ، وفيها أنه ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وبرع فى علوم القرآن والسنة ، وظهر بفصاحته وذلاقته وجزالة شعره ، وكان الخطاب الذى ارتجله فى مجلس الناصر لمناسبة استقباله لرسل ملك الروم بدأ ظهوره وشهرته ، فولاه الناصر الصلاة والخطابة فى مسجد الزهراء ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة . وتوفى سنة ٣٥٥ هـ . (راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥ وكذلك قضاة قرطبة للخشنى ص ١٧٥ و ١٧٦) .

ولما انصرف رسل قسطنطين ، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة ، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة وقسطنطينية ، فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ، وعادت معه رسل قسطنطين[١] .

وتفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة ، ولكنها لا تلقى كبير ضوء على موضوعها وغايتها الحقيقية ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس ، وتوطيداً للصداقة القديمة التى رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم[٢] لتكون شبه تحالف ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة . وربما كانت ترمى فى الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة بين الدولتين ، لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية ، التى بدأت تزعج البيزنطيين فى أواسط البحر المتوسط ، وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى .

ثم توالت سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس[٣] ، فاحتفل بقدومهم كذلك وبعث معهم ربيعاً (ريفا) الأسقف سفيراً إلى ملكهم ؛ ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع فى طلب الصداقة والمودة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ ، هى سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا ، وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية ، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة فى غموض وإيجاز ، وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك « اللهان » وتسميه « هوتوا » أو « هوتو »[٤]، ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية فى تاريخ هذه السفارة وهو سنة ٣٤٤ هـ الموافقة سنة ٩٥٦ م . ففى ذلك العام وفد على قرطبة سفير ، وهو حبر يدعى يوحنا الجورزينى نسبة إلى الدير الذى ينتمى إليه فى جورزنى على مقربة من متز ، وكان يوحنا من أكابر

---

(١) راجع فى أخبار هذه السفارة البيزنطية : ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٧٠ – ١٧٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ . وراجع Aschbach : ibid, B. I. p. 95—100

(٢) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » القسم الأول ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

(٣) هو بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا وقد كان يومئذ يعرف بملك الصقالبة .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .

العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت فعلا قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن الناصر قد عرض فى بعض رسائله بالنصرانية وتعاليمها ، فألفى أوتو الفرصة سانحة لأن يدافع سفيره العلامة الذلق عن قضية النصرانية لدى خليفة قرطبة(١) . بيد أنه يبدو من أقوال الروايات الكنسية أن هذه المهمة الجدلية ،لم تكن إلا مهمة ثانوية إلى جانب موضوع سفارته الأصلية ، وأن مهمته الحقيقية كانت تتعلق بشأن توغل المستعمرات العربية المغامرة ، فى جنوبى فرنسا وفى ليجوريا وسويسرة ، وعيثها فى تلك الأنحاء ، بصورة تبث الرعب والروع إلى كثير من المدن والجماعات النصرانية ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذى تنتمى إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية ، لوقف عدوانها وتوغلها(٢) . وقدم يوحنا إلى قرطبة عن طريق الرون وقطلونية برفقة راهب آخر ، ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة ، فاستقبل بحفاوة ، وأنزل فى إحدى الدور الرسمية . ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ، ولم يقبل بالأخص أن تكون المسائل الدينية موضوع جدل بينهما . ولما ألح يوحنا فى طلب المقابلة والمحادثة ، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولا أسقفاً إلى أوتو فاعتقله مدى ثلاثة أعوام ،وأنه سيعتقله أى يوحنا ، أضعاف هذه المدة ، لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية . وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان رسولا آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ،وأن يبقى يوحنا معتقلا حتى يعود السفير . واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة هو ربيع أو ريفا الأسقف ، وكان عالماً متمكناً يشغل فى البلاط منصباً هاماً ، ويحبوه الناصر بعطفه وتقديره ، لعلمه وجليل خدماته(٣) ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ، ومثل لدى الإمبراطور أوتو فى تورنجن ، حيث كان ينفق معظم أوقاته . وكان أوتو يجوز يومئذ بعض المتاعب الداخلية من جراء ثورة ولده عليه ، فأبدى تساهلا فى قبول وجهات نظر الخليفة ، وأكرم مثوى سفيره ، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة ، بعد سنتين من سفره (٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م) . فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن برؤية يوحنا سفير

---

(١) Reinaud: Invasions des Sarrazins en France p. 187

(٢) تناولنا قصة هذه المستعمرات فى الفصل التالى .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ . وهو ربيع بن زيد من زعماء النصارى المعاهدين ، وكان يجيد العربية واللاتينية .

الإمبراطور ، واستقبله بقصر قرطبة فى احتفال فخم ، ظهرت فيه روعة البلاط الأموى ، وأفضى إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها ، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها . ولكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة لسفير الإمبراطور ، فيما يتعلق بأمر المستعمرات العربية المغامرة ، وغزواتها فى غاليس وشمالى إيطاليا وسويسرة ، أنها ليست لها علاقة بتلك المستعمرات ، وأنها لاتتحمل تبعة أعمالها ، ولاتستطيع أن تتدخل فى شأنها ، أو تبذل نصحها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها ، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس ، لم تكن ذات علائق رسمية بها ، ولم تكن تعنى بأمرها ، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها وتوغلها فى الأراضى النصرانية ، بعين العطف والرضى . ولكن لوتبراند وهو مؤرخ كنسى معاصر ، يؤكد لنا أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ، ويمدها بالتشجيع والعون[1] .

بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر فى نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعى السائد فى ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين فى ظل هذا النظام ، من الاستقلال الداخلى ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام ، قائلا إن ملككم أمير حكيم ماهر ، ولكن فى سياسته شيئاً لا أستسيغه ، وهو أنه بدلا من أن يقبض بيديه على جميع السلطات ، ينزل عن بعضها لأتباعه ، ويترك لهم بعض ولاياته ، معتقداً أنه يكسب بذلك ، وهذا خطأ فادح ، فإن مداراة العظماء لايمكن إلا أن تزيد فى كبريائهم ، وتذكى رغبتهم فى الثورة[2] . وفى ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر فى الحكم المطلق ، وسياسته فى سحق أولى الشأن والعصبية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين .

تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة التى تبادلها أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر ، زعيما النصرانية والإسلام فى عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات

---

(١) Reinaud : Ibid, p. 193

(٢) Dozy : Hist. V. II. p. 153

الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية . فقد تلقى الناصر كذلك فى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه ؛ وأرسل فى السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون ، فعقد مع أردونيو معاهدة صادق عليها ، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونيو . وفى سنة ٣٤٧هـ (٩٥٨م) وفدت طوطة ملكة ناڤار بنفسها إلى قرطبة ، ومعها ولدها غرسية وسانشو أمير ليون ، وطائفة من الأحبار والعظماء النصارى ، فاستقبلهم الناصر فى قصره بالزهراء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على ناڤار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه . ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثانى عشر فى طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا[1] ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح فى الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامى . وفى أخبار هذه السفارات المتبادلة بين زعيم الإسلام وملوك النصرانية ، وفى تفاصيلها الشائقة ، ما يلقى كبير ضوء على طبيعة التقاليد والرسوم الدبلوماسية فى العصور الوسطى .

— ٥ —

فى أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه ، واحتجب حيناً ، وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً ، وعاد إلى الجلوس فى القصر ، ولكنه أصيب بنكسة ، وعاد إلى احتجابه ، ولبث أشهراً تشتد به العلة حيناً ، وتخف حيناً ، حتى وافاه القدر المحتوم ، فى الثانى من شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م) . وكانت وفاته بقصر الزهراء فى الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً ، وهى أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام ، إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمى بمصر .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام فى عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة . ولم تصل الدولة الإسلامية فى الغرب ، إلى ما وصلت إليه فى عصر الناصر ، من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ . وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع فى شخصية واحدة ، سياسية وعسكرية وإدارية . وكان يشبه فى

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

حزمه وصرامته وبعد نظره ، بجده الأكبر عبد الرحمن الداخل[1] . ويجمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره فى تلك العبارة : « وظهر لأول ولايته من يمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، وإقبال دولته ، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ، مما تعجز عن تصوره الأوهام »[2] . وتولى حجابته لأول ولايته مولاه بدر بن أحمد ، وما لبث أن اصطفاه وأولاه كل ثقته ، وفوض إليه الأمر والنهى ، وجعله على حد قول المؤرخ «شمساً لملكه وبدراً »[3]. وولى أبناءه الثلاثة عبد الرحمن وعبد الله وإسماعيل مناصب فى القصر والخاص . ولما توفى بدر بن أحمد فى شهر رجب سنة ٣٠٩هـ ، ولى الناصر مكانه فى الحجابة موسى بن محمد بن حُدير . وتولى وزارته عدة من أنبه رجال العصر ، منهم أحمد بن محمد بن حُدير ، وجَهْوَر بن عبد الملك ، وعبد الله بن محمد الزجّالى . وتولى إدارة الشئون المالية عبد الملك بن جهور ، وأحمد بن عبد الملك بن شُهَيد[4]. وأهدى ابن شهيد إلى الناصر هديته المشهورة ، التى أفاض فى وصفها مؤرخو الأندلس ، وكان منها خمسمائة ألف مثقال من الذهب ، ومائتا أوقية من المسك والعنبر ، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب ، ومائة فرس مسرجة ، وعشرون بغلا عالية الركاب ، وأربعون وصيفاً ، وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن ، وأصناف عديدة أخرى . قال ابن خلدون « وهى مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها » . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم تقدم هدية فى قدرها ونفاستها إلى ملك من ملوك الأندلس . قدمها ابن شهيد إلى الناصر فى سنة ٣٢٧ هـ ، ومعها خطاب رقيق يشيد فيه بعظمة الناصر ومآثره ، فوقعت لديه أحسن موقع ، وزاده حظوة واختصاصاً ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين ، فكان أول من حظى بهذا اللقب من وزراء الأندلس ، وضاعف له رزق الوزارة ، وجعله ثمانين ألف دينار فى العام[5] . وولى قيادة الجيش لأول عهد الناصر أحمد بن محمد

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٣ .
(٢) الحلة السيراء (ليدن) ص ٩٩ — ١٠٠ .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ .
(٤) البيان المغرب ج ص ١٦٤ .
(٥) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧ و ١٧٧ نقلا عن ابن حيان وابن الفرضى وغيرهما .

ابن أبى عبدة ، سليل الأسرة الشهيرة ، التى تولى زعماؤها قيادة الجيوش الأندلسية خلال الفتنة الكبرى . وكذلك وليها الحاجب بدر غير مرة ، ووليها الفتيان الصقالبة مثل نجدة وميسور وغيرهما . وقد رأينا كيف انتهت سياسة عبد الرحمن فى إيثار الصقالبة بالقيادة إلى كارثة الخندق . وممن ولى القضاء فى عهد الناصر أحمد بن محمد بن زياد ، وأسلم بن عبد العزيز بن هشام ، ومنذر بن سعيد البلوطى(١) .

وقد أورد لنا ابن حيان ثبتاً طويلا من الوزراء وأصحاب الخطط والموالى الذين تولوا المناصب الكبرى فى عهد الناصر .

فمن الوزراء : محمد بن سليمان بن وانسوس . سعيد بن المنذر القرشى . عبد الحميد بن بسيل ، خالد بن أمية بن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبى عبدة . جهور بن عبد الملك البختى ، أحمد بن محمد بن إلياس .

ومن أصحاب الخطط : محمد بن سعيد بن المنذر القايد . عيسى بن فطيس الكاتب . عبد الله بن بدر بن أحمد صاحب الشرطة . محمد بن قاسم بن طملس صاحب المظالم . محمد بن عبد الله بن موسى الخازن . إسماعيل بن بدر بن اسماعيل العارض .

ومن الموالى : جهور بن عبيد الله بن محمد بن أبى عبده . أحمد بن خالد ابن أمية بن عيسى بن شهيد . محمد بن جهور بن عبد الملك البختى . مروان بن جهور بن عبد الملك البختى ، أحمد بن سهل بن محمد . عبد الله بن أحمد بن محمد ابن عيسى . محمد بن عباس بن محمد بن أبى عبدة . عبيد الله بن عباس بن أحمد ابن أبى عبده ، عبد الله بن يحيى بن أدريس . عبد الوهاب بن محمد بن بسيل . محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل . عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا بن عاصم . محمد بن أحمد بن قابوس . أحمد بن محمد بن عيسى . محمد بن عبد السلام بن كليب بن ثعلبة(٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) نقلنا هذا الثبت عن ابن حيان أورده فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة . وأورد لنا ابن حيان أيضاً ثبتاً طويلا بأسماء عمال الكور فى عهد الناصر استغرق صفحة كاملة (لوحة ١٥٣ أ) . ولكننا لم نجد محلا لإيراده .

وذكر لنا ابن حيان ، فى حوادث سنة ٣٢٤ هـ ، أن الوزراء فى هذه السنة كانوا عشرة ، وهم : سعيد بن المنذر القرشي المرواني . أحمد بن محمد بن حدير . عبد الحميد بن بسيل . أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف . خالد بن أمية ابن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبى عبدة . عبد الملك بن جهور . فطيس بن أصبغ بن فطيس . أحمد بن محمد بن إلياس . يحيى بن إسحق .

وذكر لنا فى حوادث سنة ٣٢٥ هـ ، أنه قد عزل عن الوزارة يحيى بن إسحق ، ووليها أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالى ، وأن الوزراء بلغ عددهم فى هذه السنة واحداً وعشرين وزيراً ، منهم تسعة من العشرة الذين سبق ذكرهم عدا يحيى بن إسحق[١] .

وكان عبد الرحمن الناصر عالماً أديباً ، يهوى الشعر وينظمه ، ويقرب الأدباء والشعراء ؛ وكان فى مقدمة دولته وأكثرهم حظوة لديه ، الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وشاعر الدولة المروانية منذ محمد بن عبد الرحمن . ويفيض ابن عبد ربه فى مناقب الناصر ، ويستعرض غزواته منذ ولايته حتى سنة ٣٢٢هـ ، فى أرجوزة طويلة رتبت وفق السنين[٢] . ومن شعره فى وصف عصر الناصر ، واعتزاز الإسلام بدولته قوله :

قد أوضح الله للإسلام منهاجا — والناس قد دخلوا فى الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها — كأنها ألبست وشياً وديباجا
يا ابن الخلائف إن المزن لو علمت — نداك ما كان منها الماء ثجاجا
والحرب لو علمت بأساً تصول به — ما هيجت من حمياك الذى اهتاجا
مات النفاق وأعطى الكفر رمته — وذلت الخيل إلجاماً وإسراجا
وأصبح النصر معقوداً بألوية — تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا
أدخلت فى قبة الإسلام بارقة — أخرجتها من ديار الشرك إخراجا
بجحفل تشرق الأرض الفضاء به — كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا
يقوده البدر يسرى فى كواكبه — عرمرماً كسواد الليل رجراجا

---

(١) وردت الفقرة الأولى فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٥٣ أ ، ووردت الفقرة الثانية فى لوحة ١٦٢ أ .

(٢) راجع هذه الأرجوزة فى كتاب العقد الفريد (طبعة المطبعة الأزهرية) ج ٣ ص ٢٠٩ إلى ٢٢٧ .

إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت | حتى عقدت لها فى رأسك التاجا[1]

ومما ينسب إلى الناصر من النظم ، قوله :

لا يضر الصغير حدثان سن | إنما الشأن فى سعود الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم | لم تنله بالركض كف مغير[2]

وكان الناصر سمحاً وافر الجود . ويصفه ابن الأثير بأنه كان « أبيض ، أشهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم ، قصير الساقين[3] » وترك الناصر من البنين أحد عشر ولداً منهم ولى عهده وخلفه الحكم المستنصر بالله .

وقال الوزير جعفر بن عثمان المُصْحفى فى رثاء الناصر :

إلا إن أياماً هفت بإمامها | لجائرة مشتطة فى احتكامها
فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها | وأحداثها إلا قلوب عظامها
تأمل فهل من طالع غير آفل | لهن وهل من قاعد لقيامها
وعاين فهل من عائش برضاعها | من الناس إلا ميت بفطامها
كأن نفوس الناس كانت بنفسه | فلما توارى أيقنت بحمامها
فطار بها يأس الأسى وتقاصرت | يد الصبر عن أعوالها واحتدامها

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة : وربما كان أبلغ ما قيل فى ذلك تلك العبارات القوية التى يختتم بها العلامة دوزى حديثه عن عصر عبد الرحمن الناصر : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكنا نجد إذا ما درسنا ذلك العصر الزاهر ، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة ، بأكثر مما يثيرهما المصنوع : تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التى لم يفلت شىء منها ، والتى كانت تدعو إلى الإعجاب فى تصرفها نحو الصغائر ، كما تدعو إليه فى أسمى الأمور » إن ذلك الرجل الحكيم النابه ، الذى استأثر بمقاليد الحكم ، وأسس وحدة الأمة ، ووحدة السلطة معاً ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسى ، والذى اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين ، لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى »[4].

---

(١) وقيل إن هذه القصيدة وجهت إلى الناصر لمناسبة عوده ظافراً من أول غزوة قام بها ضد الثوار فى مستهل حكمه .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧ .

(٤) Dozy : Hist, V. II. p. 175

الفصل الثالث

غزوات المسلمين

فى غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة

توقف الغزو الإسلامى عقب بلاط الشهداء . استئناف الغزو فى عهد هشام . غزو الفرنج لشمالى الأندلس . الغزوات الإسلامية المغامرة . صمت الرواية الإسلامية عن ذكرها . غزو قورسقة وشواطىء فرنسا الجنوبية . غزو مرسيليا وبروفانس . غزو موسى بن موسى لسبتمانيا . غزو جزيرة كامارج . اضطراب الأحوال فى جنوبى فرنسا . غزو المسلمين لشواطىء سان تروپيه . معاقلهم فى تلك الأنحاء . تدخلهم بين النصارى . اختراق الغزاة لدوفينه . عبورهم مون سنى . احتلالهم لممرات الألب . جوازهم إلى سهول پيمون . عودهم إلى غزو بروفانس . غزوهم لمرسيليا وإيكس . غلقهم لممرات الألب . تقدمهم إلى ليجوريا . غزوهم لمنطقة ڤاليه وساڤوا . وصولهم إلى قلب سويسرة وشرقها . غزوهم لثغر فريجوس . اتحاد الأمراء النصارى على مقاومتهم . استنجادهم بقيصر قسطنطينية . مهاجمة المسلمين وتمزيقهم . الصلح بينهم وبين ملك بروفانس . احتلالهم لممر سان برنار . استيلاؤهم على جرينوبل . غاراتهم فى بيمون . الحرب بينهم وبين المجر . وصولهم إلى سان جالن . قتالهم وهزيمتهم . صدى الغزوات الإسلامية فى جنوبى أوربا . سعى البابوية وإمبراطور ألمانيا لوقفها . محاربة الغزاة فى دوفينه وبروفانس . هزيمتهم وارتدادهم إلى الجنوب . سقوط حصن فراكسنيه . سقوط المستعمرات الإسلامية فى الألب . غزوات بحرية إسلامية لشواطىء فرنسا . غزو قورسقة وسردانية . ظروف هذه الغزوات الإسلامية . خواصها وبواعثها . آثارها المادية والأدبية . أثر العرب فى تقدم الزراعة فى الأنحاء المفتوحة . نقلهم لكثير من المحاصيل والغراس . أثرهم فى تحسين سلالة الخيل . الآثار الاجتماعية . أقوال النقد الحديث .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن غزوات العرب فى غاليس (جنوبى فرنسا) منذ الفتح ، ورأينا كيف وضع ارتداد العرب فى موقعة بلاط الشهداء فى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) حداً لغزواتهم فى غاليس ، وكيف فقدوا تباعاً قواعدهم فى لانجدوك وسبتمانيا ، حتى انتهت رياستهم فيما وراء البرنيه بسقوط ثغر أربونة ، آخر قواعدهم فى سبتمانيا ، فى يد الفرنج فى سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م)[1] .

وكانت الأندلس خلال هذه الفترة تضطرم بالفتن الداخلية والحرب الأهلية . ولما استطاع عبد الرحمن الأموى أن ينتزع الرياسة لنفسه من غمر الفتنة ، وأن يعيد

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » القسم الأول ص ١٣٧ .

ملك الدولة الأموية بالأندلس ، لبث بقية عهده يعمل على توطيد ملكه الفتى ، وحمايته من الثوار والخوارج ، ولم تتح له فرصة للتفكير فى الغزوات الخارجية . بل لقد اضطر أن يقف موقف المدافع من مملكة الفرنج ومن عاهلها شارلمان ، الذى حاول أن يغزو الولايات الإسلامية ، بمؤازرة الزعماء الخوارج فى الثغر الأعلى ، واضطر أن يغضى مدى حين عن غزوات المملكة النصرانية الناشئة ، لأراضى الأندلس وقواعدها الشمالية .

فلما تولى ولده هشام الملك ، واستطاع أن يقضى على ثورة أخويه سليمان وعبد الله ، وجه عنايته إلى مقارعة المملكة الفرنجية ، ورد خطرها عن الأندلس ، وبعث إلى الشمال فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بجيش كثيف بقيادة حاجبه عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث ، فعبر جبال البرنيه ، ونشبت بين المسلمين والفرنج فى بسائط سبتمانيا عدة معارك كانت سجالا ، وجدد بذلك عهد الغزو والجهاد فيما وراء البرنيه .

وعاد الفرنج فى عهد الحكم بن هشام ، فعبروا جبال البرنيه فى سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) وغزوا الثغر الأعلى وافتتحوا ثغر برشلونة ، واقتطعوا بذلك جزءاً من الأندلس الشمالية . ولم تمض بضعة أعوام أخرى ، حتى عبر الفرنج البرنيه للمرة الثانية (١٩٣ هـ — ٨٠٩ م) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة ، ولكن المسلمين استطاعوا إنقاذها .

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت حملة بحرية أندلسية لغزو الجزائر الشرقية . وقد رأينا فيما تقدم كيف غدت مياه الأندلس الشرقية مركزاً لحملات البحارة المسلمين ، يسيرون منها نحو الشمال والشرق إلى الشواطئ والجزائر القريبة ، ينقضون عليها طلباً للغنيمة والسبى ، وكيف بدأت من ذلك الحين محاولات المجاهدين المسلمين ، لغزو شواطىء فرنسا الجنوبية وأحواز مصب الرون .

وقد فصلنا فيما تقدم من كتابنا أخبار الغزوات الأندلسية الرسمية فيما وراء البرنيه ، وأشرنا بإيجاز إلى بداية عهد الحملات البحرية الأندلسية الخاصة[1]. سنحاول فى هذا الفصل أن نستعرض لمحة من أخبار هذه الحملات والغزوات الإسلامية غير الرسمية البحرية والبرية ، إلى شواطئ فرنسا الجنوبية ، وما يجاورها

---

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٦٥ و ٢٦٦ .

من سهول ليجوريا وهضاب سويسرة ، ومما يجدر ذكره أن الرواية الإسلامية قلما تشير إلى هذه الغزوات بكلمة ؛ وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة هذه الغزوات والمغامرات غير الرسمية ، التى كانت تنظمها جماعات خاصة من المجاهدين لا تربطها بحكومة قرطبة صلة رسمية ، ولا تعتمد إلا على جهودها ومواردها الخاصة .

بدأت هذه الغزوات الأندلسية للشواطئ والثغور الفرنجية منذ أوائل القرن التاسع . وكان معظمها حملات بحرية ، قوامها جماعات من المجاهدين والزعماء المغامرين . فى سنة ٨٠٦ م غزت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، وهزمت الأسطول الفرنجى الذى بعثه ببين ابن شارلمان ملك إيطاليا لقتالهم ، وعادت بكثير من الغنائم والسبى . وتوالت بعد ذلك غزوات البحارة الأندلسيين لشواطىء كورسيكا وسردانية ، وهما يومئذ أغنى جزر البحر المتوسط . وكذلك توالت غارات البحارة المسلمين على شواطىء فرنسا الجنوبية . وتعنى الرواية الكنسية والفرنجية المعاصرة بتدوين هذه الغزوات الإسلامية ، وتصف عصفها وعيثها ، وما كانت تحدثه من الرعب بين السكان النصارى ، وتقول لنا إن البحارة المسلمين ، ذهبوا فى الجرأة إلى حد التجول فى مياه الأطلنطيق ، والإغارة على شواطىء فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت فى ذلك الحين مياه الأطلنطيق حتى مصب نهر اللوار[1] .

وفى سنة ٨٣٨ م سار أسطول أندلسى من مياه طركونة ومياه الجزائر الشرقية إلى مياه پروڤانس ، وغزا ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضى ، وأثخن فيها ، وحمل الغزاة كثيراً من الغنائم والسبى . ولم يستطع ملك فرنسا الضعيف لويس ابن شارلمان مقاتلة الغزاة . ثم عاد البحارة المسلمون وغزوا شواطىء پروڤانس مرة أخرى ، ونفذوا إلى مصب نهر الرون ، واقتحموا مدينة آرل وخربوا كنائسها . وتوالت بعد ذلك غزواتهم لهذه المنطقة . وفى سنة ٨٥٠م فى أواخر عهد عبد الرحمن ابن الحكم ، عبر موسى بن موسى بن قسى صاحب سرقسطة وزعيم الثغر الأعلى ، جبال البرنيه ، وغزا سبتمانيا وأثخن فى نواحيها ، واضطر شارل الأصلع ملك فرنسا أن يهادنه ، وأن يعقد الصلح معه ، وأن يسترضيه بالهدايا والتحف . ومن

---

(١) جمعت أقوال الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، عن هذه الغزوات الإسلامية ، فى موسوعة Bouquet التى سبقت الإشارة إليها غير مرة ، بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وقد عتمدنا عليها فى كثير من حوادث هذا الفصل .

المرجح أن هذه الغزوة لم تكن ذات طابع رسمى ، ولم تكن لها صلة بحكومة قرطبة . ذلك أن بنى قسىّ زعماء الثغر الأعلى فى ذلك الحين ، كانوا يتمتعون باستقلال محلى ، ولا يدينون بالولاء لحكومة قرطبة ، وكانوا بالعكس ينزعون إلى مقاومتها والخروج عليها . وفى سنة ٨٦٩م هاجمت جماعة من البحارة والمجاهدين المسلمين شواطىء پروڤانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كاماراج الواقعة فى مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذى كان يقيم بها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى .

— ٢ —

وأذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية ، فى نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمى الأندلس وإفريقية ، حب التوغل فى هاتيك الأنحاء ، ورغبة فى استعمارها والاستقرار فيها . وكانت أحوال غاليس (جنوبى فرنسا) قد اضطربت يومئذ ، وغلب سيد من سادة هذه الأنحاء يدعى بوسون على ولايتى دوفينه وپروڤانس ، وتلقب بملك آرل . وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حرب أهلية (نحو سنة ٨٩٠ م) . ففى تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين ، فى خليج جريمو أو خليج سان تروپيه ، ونزلوا إلى الشاطئ ولجأوا إلى غابة كثيفة ، تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم من البر والبحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا إخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم ، وأرسلوا فى طلب العون والتأييد من حكومات الأندلس والمغرب ، فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل . ولم تمض أعوام قلائل ، حتى استقروا فى ذلك المكان ، وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون ، أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة ، اسم (فراكسنتم) Fraxinetum . والمظنون أنه هو المكان الذى تقوم عليه اليوم قرية (جارد فرينيه) Garde-Frinet الواقعة فى سفح جبال الألب[1]. وما زالت ثمة آثار تدل على قيام معاقل قديمة فى ذلك المكان . ولما كثر جمعهم ، واشتد ساعدهم ، اخذوا فى الإغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة تخشى بأسها . وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم ، بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

---

(١) Reinaud : Invasions des Sarrazins en France. p. 160

وانتزعوا من بعض السادة أراضيهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة فى الأنحاء المغلوبة ، وبثوا الذعر والروع فى جنوب پروڤانس ، حتى وصفهم كاتب معاصر « بأن واحداً منهم يهزم ألفاً ، واثنين يهزمان ألفين »[1] .

وكانت هذه أول خطوة فى استعمار المسلمين لجنوبى فرنسا . وفى خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون المسلمون خطوة أخرى ، فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالا . وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب إلى إيطاليا ليحارب إلى جانب حلفائه فهزم هنالك وأسر ، وتركت مملكته بلا دفاع ، وساد الإنحلال والفوضى غاليس كلها . فانتهز المسلمون تلك الفرصة واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سنى » أهم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير نوڤاليس الشهير الواقع فى وادى «سيس» على حدود پييمون ، وفر الأحبار إلى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) . وأغار المسلمون على القرى والضياع المجاورة ونهبوها ، وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا إلى تورينو بإيطاليا وسجنوا فى ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا النار فى الدير وفى المدينة ، وفروا عائدين إلى زملائهم ؛ واشتد بأس المسلمين فى تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة بين فرنسا وإيطاليا ، ثم انحدروا من آكام الألب إلى سهول بييمون ، وأغاروا على بعض مناطقها .

وفى سنة ٩٠٨ م نزلت سرية قوية من البحارة المسلمين فى شاطىء پروڤانس على مقربة من « إيج مورت » ونهبت دير بالمودى ، وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة ، لما كانت تغص به من الذخائر والأموال ؛ وانتشر المسلمون بعد ذلك فى جميع الأنحاء المجاورة ، واجتاحوا كل ما فى طريقهم من البسائط ، وهاجموا مرسيليا ، وهدموا كنيستها ، وغزوا إيكس ، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم إليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء ، وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم ، والتجأوا إلى الداخل خشية القتل والأسر ، وأغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا ، وكان يمر بها كل عام ألوف من الحجاج الذين يقصدون إلى رومة ، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور .

---

(١) Reinaud : ibid, p. 161

— ٣ —

ثم اتخذ المسلمون خطوة جديدة فى سبيل التقدم إلى أواسط أوربا ، فدفعوا غزواتهم إلى بييمون ومونفراتو . وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا فى أوائل القرن العاشر إلى حدود ليجوريا على شاطىء خليج جنوة . ويروى لوتبراند ، وهو كاتب معاصر ، أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ ، مدينة « آكى » من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهى على مقربة من تورينو) ، ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى (ساجيتوس) ولكنهم هزموا ومزقوا . وفى هذا الوقت أيضاً نزلت جماعة قوية من البحارة الإفريقيين بساحل جنوة ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال .

وفى سنة ٩٣٩ م غزا المسلمون منطقة « ڤاليه » فى جنوب سويسرة ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا فى الوقت نفسه منطقة « تارانتيز » من أعمال ساڤوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « ڤاليه » قاعدة للإغارة على الأراضى المجاورة فى سويسرة وإيطاليا ، ونفذوا منها إلى أواسط سويسرة ، ثم إلى « جريزون » فى شرق سويسرة ، ونهبوا دير ديزنتى أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفى بعض الروايات أيضاً أن المسلمين وصلوا فى غزواتهم إلى بحيرة جنيف ، وجاوزوا إلى مفاوز جورا الواقعة فى شمالها ، وكانت سويسرة يومئذ من أقاليم بورجونية وملكتها يومئذ الملكة « برت » الوصية على ولدها الطفل كونراد ، فارتدت حين اقتراب العرب إلى حصن ناء فى جهة نيو شاتل .

وفى سنة ٩٣٠ م غزا العرب فريجوس وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ، وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان إلى الجبال ، وعاث المسلمون فى تلك الأنحاء ، وخربوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس.

ولما اشتدت وطأة المسلمين فى جنوبى فرنسا ، وبلغ السخط من غزواتهم وعيثهم ذروته ، اعتزم سادة الجنوب ، وعلى رأسهم هوج ملك بروڤانس أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لسحق ذلك العدو المزعج . ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فراكسنيه (فراكسنتم) الذى يمتنع به المسلمون ، ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وإفريقية ، وقاعدة للإغارة على الداخل ، وكتب إلى صهره إمبراطور

قسطنطينية ، يطلب منه أسطولا من قاذفات النار اليونانية ، حتى يستطيع مهاجمة المسلمين من البر والبحر معاً . فلبى نداءه . وفى سنة ٩٤٣ م رسا أسطول بيزنطى فى مياه سان تروپيه ، وزحف هوج فى نفس الوقت بجيشه على فراكسنيه ، وهوجم المسلمون من البر والبحر بمنتهى الشدة ، وأحرقت سفنهم ، ونفذ هوج إلى الحصن بعد قتال رائع ، وفر المسلمون إلى الآكام والربى ، وكاد يسحق سلطانهم فى تلك الأنحاء . ولكن حدث بعد ذلك أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجيه ، قد عاد إلى إيطاليا لينازعه فى انتزاع عرشها فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع المسلمين ، بشرط أن يبقوا فى رؤوس الألب وممراتها ، وأن يغلقوا الطريق إلى إيطاليا فى وجه خصمه ، وبذلك استعاد المسلمون قلاعهم وسيادتهم فى جنوبى پروڤانس .

واحتل المسلمون آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير ، الموصل بين سويسرة وإيطاليا ، وغيره من الممرات والمعاقل الجبلية ، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة ، وأن يبثوا فيها الذعر والروع ، واستقرت منهم جموع فى السهول والضياع القريبة من معاقلهم ، وتزوجوا النساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أمراء هذه النواحى بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب . ونفذ المسلمون أيضاً إلى منطقة نيس ذاتها ، وما يزال فى نيس إلى اليوم حى يعرف بحى العرب **Canton des Sarrazins**

وأخيراً نفذ المسلمون إلى قلب ولاية دوفينه ، وغزوا جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا واديها الخصيب «جريزيڤودان» الذى يجرى فيه نهر الإيزر فرع الرون ، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه إلى الشمال حاملين رفات قديسيهم [١] .

— ٣ —

وهكذا انتشرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادى فى پروڤانس وساڤوا وپييمون وسويسرة ، وبسط المسلمون سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسرة ، وبلغوا فى تقدمهم فى غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا فى سويسرة ولاية ڤاليه ومفاوز چورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا فى إيطاليا الشمالية ، ولاية

---

(١) Reinaud : ibid , p. 180 & 181

ليجوريا : وكانت معاقلهم فى پروڤانس ولا سيما حصن «فراكسنيه» ، قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة فى سهول بييمون ، فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية ، لتكون مركز غزواتهم فى بلاد اللونبارد وفى سويسرة ، فإن الرواية الكنسية التى كتبها حبر معاصر من دير نوڤاليس ، تذكر لنا اسم حصن إسلامى فى تلك الأنحاء وتسميه «فراشنديلوم» Fraschendellum ، والمظنون أنه هو المكان الذى تعرفه الجغرافية الحديثة باسم «فراسنيتو» ، وهو الواقع فى لومبارديا على مقربة من نهر « پو » . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانيا من سادة تلك الأنحاء يدعو إيمون دفعه شغف المغامرة والكسب ، إلى محالفة المسلمين فانضم إليهم ، واشترك فى غاراتهم الناهبة ؛ وفى ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً مسلماً استحسنها وانتزعها منه قسراً ، فغضب إيمون والتجأ إلى كونت روتبالدرس حاكم بروڤانس العليا ، وفاوضه سراً فى محاربة المسلمين ، وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة ، وهوجم المسلمون فى بييمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم فى أيدى النصارى ، وذهب سلطانهم فى تلك الأنحاء . وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك برجونية لإهلاك المسلمين النازلين فى أملاكه فى چورا وعلى حدود برجونية ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الإغارة والعيث فى تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى المسلمين يستحثهم على قتال منافسيهم المجر ، وانتزاع ما بيدهم من الأراضى والضياع الخصبة ، وكتب مثل ذلك إلى المجر يستحثهم لقتال المسلمين والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء الفريقين ، فالتقت الجموع المتنافسة من المسلمين والمجر ، ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بجموعه ، ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلا وأسراً ، وتضع الرواية تاريخ هذه الموقعة فى سنة ٩٥٢ م ، ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها(١) .

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك المسلمين المستعمرين المغامرين فى الأفول ، وتضمحل سيادتهم فى تلك الأنحاء . بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك

---

(١) Bouquet : T, IX, p. 6., Reinaud : ibid , p.128

يحتلون كثيراً من مواقع سافوا ، ويجوبون أنحاء سويسرة كلها فى طلب الغنيمة والسبي ، وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها ، وبلغوا فى توغلهم فى سويسرة مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس ، وأنشأوا ثمة كثيرا من القلاع والأبراج ، التى مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً فى سان جالن حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا المسلمين فى جوف الليل ، ومزقوهم قتلا وأسراً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات الإسلامية فى شمال سويسرة .

واستمرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية فى دوفينه وبروڤانس ، وبعض جهات الألب ، وكان قربها من «فراكسنيه» أمنع المعاقل الإسلامية يمدها بأسباب الجرأة والعون ، ويمدها قربها من البحر دائماً بأمداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وإفريقية .

وكان لاستقرار هذه المستعمرات الإسلامية فى جنوبى أوربا ، وعيشها المستمر فى الأنحاء والسهول المجاورة ، وقع عميق فى الحكومات الأوربية ، وكان صريخ البابوية يتردد لدى أمراء أوربا ، بالسعى إلى مكافحة هذا الخطر الداهم ، وكان أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا وأعظم أمراء النصرانية يومئذ ، أشد هؤلاء الأمراء اهتماماً بالقضاء على خطر المستعمرات الإسلامية ، لأنه يدنو من أملاكه ويصيبها بشره . ولهذا رأى أن يبذل فى هذا السبيل سعيه ، لدى عبد الرحمن الناصر عاهل الأندلس وزعيم الإسلام الروحى والزمنى ، وأوفد إليه فى سنة ٩٥٦ م سفارته الشهيرة التى أتينا على ذكرها . وبحث سفيره يوحنا الجورزينى مع الخليفة مسألة اعتداء المستعمرات الإسلامية على الأراضى النصرانية ، والتمس إليه أن يعاون بنصحه ونفوذه على قمع هذا العدوان . ولكن هذا المسعى لم يسفر عن أية نتائج عملية ، إذ اعتذر الخليفة حسبما فصلنا من قبل ، بأن هذه المستعمرات الإسلامية لا تخضع له ولا تأتمر بأوامره ، وأنها تعمل مستقلة بعيدة عن حكومة قرطبة . على أن لوتبراند، وهو مؤرخ كنسى معاصر ، يؤكد أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون[1] .

— ٤ —

ولم يمض قليل على ذلك حتى أخرج المسلمون من معاقلهم فى آكام سان برنار

(١) Reinaud : ibid, p. 193

(فى نحو سنة ٩٦٩ م)؛ ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث، ولكن المحقق أن المسلمين أبدوا كعادتهم منتهى البسالة فى الدفاع عن مواقعهم؛ والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذى سميت هذه الآكام باسمه، كان من أبطال الموقعة التى نشبت وانتهت بجلاء المسلمين؛

واستمر المسلمون فى دوفينه وبروڤانس، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء. ولما غزا الإمبراطور أوتو بلاد اللونبارد، وأخرج منها ملكها برانجيه، التجأ ولده أدلبرت إلى عرب «فراكسنيه»، ليعاونوه فى استعادة ملكه، وكان هذا التحالف بين السادة والمسلمين، يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما أذنت بالانهيار. بيد أن هذه السيادة قد أخذت فى الاضمحلال، مذ فقد العرب معاقلهم فى جبال الألب. وفى سنة ٩٦٥ م أخرج المسلمون من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصب (جريزيفودان) وطوردوا فى تلك النواحى، وساءت أحوالهم، وأعلن الإمبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة وهو يومئذ فى إيطاليا، أنه سيتولى طرد المسلمين من الأراضى النصرانية، ولكنه توفى دون القيام بمشروعه.

ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة: وحدث فى ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت، وهو سان مايول أسقف دير كلونى من أعمال برجونية، حج إلى رومة، ولما عاد من طريق دوفينه أسره المسلمون المرابطون فى الجبال مع جماعة كبيرة من الحجاج، واشترطوا عليهم فدى فادحة، فدفعت بعد عناء، وأطلق سراح سان ميبل وزملاؤه، وأذكى الحادث حماستهم وسخطهم، وذاعت قصة أسرهم، وما يعانيه الحجاج من شر المسلمين وعدوانهم. فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوبون، (أو بيفون)، وانتهز فرصة الحماسة العامة وجمع حوله كثيراً من المقاتلة، وبنى حصناً فى سترون على مقربة من حصن كان يملكه المسلمون، ولبث يتحين الفرصة لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب، فتمت الخيانة، وباغت النصارى المسلمين فى حصنهم، وقضوا عليهم قتلا وأسراً (سنة ٩٧٢ م) ٥

وفى الوقت نفسه التف النصارى فى دوفينه حول زعيم يدعى جيوم، وهاجموا المسلمين فى جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم فى كل ناحية، وبذا انهارت سيادتهم فى دوفينه، ولم تبق إلا فى بروڤانس؛ ولما قوى جيوم وكثر جمعه، بسط نفوذه

على پروفانس وتلقب بألقاب الإمارة ، واعتزم أن يخرج المسلمين نهائياً من تلك الأرض . فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى المسلمون أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام إلى البسيط فى صفوف متراصة ، ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة فى « تورتور » فهزم المسلمون وارتدوا إلى قلاعهم ، ولاسيما «فراكسنيه» التى غدت ملاذهم الأخير . فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ، فحاولوا الفرار تحت جنح الليل إلى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وأبقى على من استسلم وعلى المسالمين الذين كانوا يحترفون الزرع فى الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقى نسلهم فى تلك الأرض زمناً طويلا .

وهكذا سقط حصن فراكسنتم أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م ، بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية فى غاليس ، وقسمت أسلاب العرب وأراضيهم بين السادة والجند ، الذين اشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب فى تلك الأنحاء .

أما المستعمرات الإسلامية التى كانت مبعثرة فى آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت فى نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية . ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت فى معاقلها نحو جيل آخر حتى تولى مطاردتها زعيم يدعى جيرولدوس . وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة المسلمين فى غاليس وسويسرة ، ولم يجب أحد فى إفريقية والأندلس صريخ الغوث ، الذى وجهه أولئك المستعمرون البواسل إلى إخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون .

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية فى تلك المياه . ففى سنة ١٠٠٣ م سارت حملة بحرية من مسلمى الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب فى جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضى المجاورة . وفى سنة ١٠١٩ م نزلت حملة مسلمة أخرى فى ظاهر أربونة وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفى سنة ١٠٤٧ م هاجمت حملة أخرى جزيرة لېران الواقعة إلى الغرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر فى ذلك الحين زعيم أندلسى جرىء هو مجاهد العامرى

أحد أمراء الطوائف ، وصاحب ثغر دانية والجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار فى أسطوله إلى مياه قورسقة وسردانية ، وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها (سنة ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م) ، ولكن النصارى استردوها بعد قليل[1] . ولبث مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية «موسيتو » أو موجيتوس » مدى حين سيد هذه المياه ، يبث فيها بحملاته الرعب والروع .

تلك هى قصة الغزوات الإسلامية فى غاليس وبلاد اللونبارد وسويسرة ؛ وهى قصة تغفل الرواية الإسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ، ولكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة . وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ، ولكنا نستطيع مع ذلك أن نتبين منها ، أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون ، فى تلك الوهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور .

— ٥ —

والآن فلنحاول أن نستعرض طرفاً من العوامل والظروف التى أحاطت بتلك الغزوات الإسلامية النائية ، وطرفاً من الآثار التى خلفتها فى البلاد والأمم التى كانت ميداناً لها .

ينكر بعض مؤرخى الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والإسلامية بوجه عام ، خاصة الاستقرار والإنشاء ، ويقولون إنها كانت فى الغالب حملات ناهبة ، تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم . ولاريب أن ظمأ المغنم وشغف المغامرة ، وما إليها من لذة الاستكشاف والسيادة ، كانت من أهم العوامل التى قامت عليها هذه الغزوات ، وتلك هى العوامل الخالدة التى تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور . ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل ، كانت تحفزهم الحماسة الدينية ، وفكرة الجهاد فى سبيل الله . وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل فى الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف

---

(١) ابن خلدون ؛ المقدمة ص ٢١٢ .

الحكومات والأمم الإسلامية التى تنتمى إليها . وكانت تؤدى إلى تلك الحكومات خدمات جليلة ، بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية ، وإضعاف جيوشها ومواردها . ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والإنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعمارى القوى الذى دفع الأمم الغربية فى العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها[1]. وقد استقروا بالفعل واستعمروا ، حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبيل البقاء ، كما فعلوا فى إقريطش (كريت) ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ — ٩٦١م) ، ونشروا بها الإسلام والحضارة الإسلامية . وكذلك استقروا مدى حين فى بارى وفى تارنت من ثغور إيطاليا الجنوبية وفى راجوزا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ؛ وكان لهم على شواطىء قلورية (جنوبى إيطاليا) مستعمرة زاهرة لبثت تستطع فى هذه المياه عصراً :

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً ، فى تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الإسلامية ، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك . ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب ، لم تكن خاصة بالغزوات الإسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ، ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضى الإسلامية أقل عنفاً وسفكاً . ويكفى أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التى لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الإسلامية أروع صنوف الدمار والسفك ، بل يكفى أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعوث الإستعمارية الحديثة ، الإسبانية والإنجليزية والفرنسية ، فى الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوربية « المتمدنة » من الجرائم المروعة فى إفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار .

* * *

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الإسلامية فى هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لاتكاد ترى اليوم ، ولايشعر بها إلا الباحث المنقب . ويلاحظ أولا أن الفتوحات العربية الأولى فى غاليس وأكوتين لم يطل أمدها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الإسلامية فى اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التى فصلنا أخبارها ، والتى كانت

(١) Finlay : Byzantine Empire, Ch. III—I

أقرب إلى المغامرة المؤقتة ، منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الإستقرار والعمل السلمى ، لأنهم كانوا فى مراكزهم النائية متفرقين ، يشتغلون قبل كل شىء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة وهذه المستعمرات الإسلامية النائية ، خلفت وراءها فى الأراضى المفتوحة بعض الآثار المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضى على شواطىء خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التى كانت قائمة فى تلك الأرض ، والتى ما تزال قائمة فى بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهى تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة فى فن التحصينات والمنشآت الحربية . وهناك فى جنوب فرنسا وفى بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية . ويرى البعض أن هذه الأبراج هى آثار عربية من مخلفات الغزاة كانت تبنى لعقد حلقات الاتصال ، وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم : ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى فى سبتمانيا أعنى منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون فى الأراضى المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى «بالرباط» : بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ، ليستعينوا بها على رد الغزاة .

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المداليات) فى أنحاء كثيرة من لانجدوك وپروڤانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب والمسلمين ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسما ولا تاريخاً ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع إلى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً فى العهد الأخير فى منطقة توراسيوف ودروع قيل إنها عربية ، من مخلفات الموقعة الشهيرة التى نشبت فى تلك السهول بين العرب والفرنج فى سنة ٧٣٢ م (موقعة بلاط الشهداء) .

ومن الحقائق التى لاشك فيها أثر المسلمين فى الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم ، واستقروا فى تلك الأرض وزرعوها ، ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجدبة ، إلى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا

إليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة . وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون إلى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الأنحاء . ويقال إن « القمح الأسمر » الذى هو الآن من أهم محاصيل فرنسا إنما هومن مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره ، وكانوا أول من زرعه بفرنسا ؛ والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فسائل النخيل من اسبانيا وإفريقية إلى شواطىء الريفيرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج «القطران» الذى تطلى به قاع السفن وبحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروفانس ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة ، وما زال اسمه الفرنسى Quitran ينم عن أصله العربى .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً ، فضل العرب فى تحسين نسل الخيول فى تلك الأنحاء ، وما يزال فى جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما فى «كاماراج » فى مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ، ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الجميلة ، إنما هى من سلالة الخيول العربية ، التى أحضرها الفرسان المسلمون معهم إلى تلك الأنحاء .

ولا ننسى ما للدم العربى من أثر فى بعض أنحاء جنوب فرنسا . فقد رأينا أن المسلمين أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية ، وتزوجوا من نساء تلك الأراضى وتناسلوا فيها . ولما تغلب عليهم النصارى وأخرجوا نهائياً من تلك الأراضى تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر ، وقد لبث أبناء أولئك المسلمين المتنصرين عصوراً فى تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا فى المجتمع النصرانى ، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية والإسلامية .

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فانه يلاحظ فى بعض جهات پروفانس التى استقر فيها المسلمون مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص يظن أنها ترجع إلى أصل عربى . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية فى جنوب فرنسا ، يبدو فى تطور الحركة الفكرية فى العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم فى تكوين النزعة الشعرية فى الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً فى الحركة الأدبية التى تعرف بحركة «التروبادور» Troubadour التى ظهرت فى جنوبى فرنسا ، وفى شمال إسبانيا وشمال إيطاليا ، منذ القرن الحادى عشر

الميلادى ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون . أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية فى سير الحضارة الأوربية ، لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين مسلمى الأندلس والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية فى تطورها العقلى والاجتماعى أعظم الآثار .

وقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية فى فرنسا ، تثير مدى القرن الثامن فى نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها الرواية الكنسية المعاصرة فى أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيثهم وسفكهم أهوالا لا تذكر بجانبها أهوال الغزوات الإسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب وأضحت تقترن بكل ما هو عظيم ضخم [1] ، وفى ذلك يقول المستشرق رينو : « إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لا توجد إلا فى الكتب . ولكن ما السر فى أن ذكرى العرب ما زالت ماثلة فى جميع الأذهان . لقد ظهر العرب فى فرنسا قبل النورمان والمجر ، واستطالت إقامتهم بعد الغزوات النورمانية والمجرية ، وإن غزوات العرب الأولى ليطبعها طابع من العظمة ، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك لأن العرب [2] دون النورمانيين والمجر ، ساروا مدى آماد فى طليعة الحضارة ، ثم إنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا موضع الروع فى شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك التى اضطلعوا بها أيام الصليبيين فى اسبانيا وإفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً ، بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفى لتعليل المكانة العظيمة التى يتبوأها الاسم العربى فى أوربا وفى أذهان المجتمع الأوربى . أما السبب الحقيقى لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية فى العصور الوسطى ، وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا » [3] .

---

(١) Reinaud : ibid , p. 310

(٢) يلاحظ أن كلمة « العرب » هنا يجب أن تفهم بأوسع معانيها ، فالمقصود بها هنا « الغزاة المسلمون » . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى تغيض الصبغة العربية عن هذه الفتوحات ، وتغدو فتوحات إسلامية ، ينضوى تحت لوائها العرب وغيرهم من أبناء المجتمعات الإسلامية ، التى قامت فى إفريقية واسبانيا .

(٣) Reinaud : ibid; p. 311 — 312 . وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة فى كثير من هذه الملاحظات الخاصة بآثار العرب (المسلمين) فى جنوب فرنسا .

الكتاب الثانى

الدّولة الأمويّة فى الأندلس

القسم الرابع

ربيع الخلافة الأندلسيّة

٣٥٠ – ٣٧٠ هـ : ٩٦١ – ٩٨٠ م

الفصل الأول

الحكم المستنصر بالله

خلافة الحكم المستنصر . تنظيم البيعة له . عنايته بتوسيع المسجد الجامع . تحرك أمير قشتالة . وفود أردونيو الرابع على الحكم . وصف لحفل استقباله . سفارة سانشو . وفاة أردونيو . تحالف الملوك النصارى . خروج الحكم إلى الغزو . استيلاء المسلمين على شنت إشتيبن . إفتتاح قلهرة . استرداد حصن غرماج . عناية الحكم بتعزيز الأسطول . ظهور النورمان فى المياه الغربية . مقاومة المسلمين وارتداد النورمان . عود النورمان إلى المياه الغربية ثم انسحابهم . قرطبة تغدو مركز التوجيه فى شبه الجزيرة . وفود الملوك النصارى وسفاراتهم على قرطبة . حوادث المغرب . انحلال دولة الأدارسة . أميرهم الحسن بن كنون . طاعته للناصر والحكم . مسير بلكين نائب المعز الفاطمى إلى قتال زناتة . ولاء زناتة لبنى أمية . غزو بلكين لأراضيهم . هزيمة زناتة . نكث الحسن بن كنون . الحكم يرسل جيوشه إلى المغرب . هزيمة الحسن وفراره . عوده إلى القتال . هزيمة جند الأندلس . الحسن يطلب الصلح . الحكم يرسل كبير قواده غالباً فى جيش ضخم . غالب يطارد الحسن ويرغمه على التسليم . التجاء الحسن إلى قرطبة . وصف لموكب القائد غالب . وصف لصفات الحسن . مغادرته قرطبة إلى مصر . اعتداء صاحب قشتالة على الأراضى الإسلامية . نكبة جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون . اصطناع الحكم للبربر . مولد ولى العهد هشام . الحكم العالم . شغفه باقتناء الكتب . المكتبة الأموية الكبرى ودور الحكم فى إنشائها . ذيوع الشغف باقتناء الكتب . جامعة قرطبة . تشجيع الحكم للعلماء . تقدير النقد الحديث لهذه النزعة العلمية . المكتبات العامة بالأندلس . أخذ البيعة لولى العهد الطفل . تعليق ابن حيان على ذلك . وفاة الحكم . ورعه وخلاله . الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى . هديته إلى الحكم . القائد غالب الناصرى . الحكم الشاعر . أبهة بلاط قرطبة فى عهد الحكم . تكوين المجتمع الأندلسى فى هذا العصر . الأرستقراطية الأندلسية . المولدون . طبقة الرقيق . النصارى المعاهدون . اليهود . نفوذهم وازدهارهم العلمى .

طويت بوفاة عبد الرحمن الناصر ، ألمع صفحة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الخلافة الأندلسية .

استقرت الخلافة الأندلسية فى عهد الناصر ، على أسس ثابتة ، وسحقت ثورة المولدين والعرب ، بعد أن كادت تقضى على ملك بنى أمية ، وعلى صرح الدولة الأندلسية كلها ، ورد النصارى الإسبان إلى عقر دارهم ، فسكنوا وجلين منتظرين ، وتمتعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء ، لم تعرفه من قبل ، ووصلت رقعة الوطن الأندلسى إلى أعظم ما وصلت إليه ، إذا استثنينا عهد الفتح الأول . وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس ، ذروة عصورها ، قوة وعظمة ومجداً .

وخلف الناصر أكبر ولده الحكم المستنصر بالله بعهد منه ، وكان الناصر قد آثره منذ حداثته على سائر إخوته وولاه عهده[١]. وقيل إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يجاوز الثامنة . وبويع الحكم فى اليوم التالى لوفاة أبيه ، فى الثالث من رمضان سنة ٣٥٠هـ (١٦ أكتوبر ٩٦١م) ، وكان الحكم يومئذ فى نحو الثامنة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده حسبما تقدم بقرطبة فى ٢٤ من جمادى الأولى وقيل فى غرة رجب سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م)[٢] وأمه أم ولد تدعى مرجان . وأخذت البيعة للخليفة الجديد فى قصر الزهراء . وجلس الحكم على سرير الملك فى البهو الأوسط الذهبى ، واجتمع إخوته ، وسائر الوزراء ورجال الدولة ، وأكابر الفتيان الصقالبة ، ومن دونهم من رجال الخاص ، وأهل الخدمة ، وأكابر الجند ، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم فى المجلسين الشرقى والغربى ، وفى مختلف الأروقة ، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الجند ، فيما وراء باب السُّدة ، صفوفاً متصلة حتى باب المدينة . ولما تمت البيعة ، أذن للناس فى الانصراف ، إلا الإخوة والوزراء ورجال الخاصة ، فإنهم لبثوا بالقصر ، حتى احتمل جسد الخليفة الذاهب (الناصر) إلى قصر قرطبة ليدفن هنالك فى مقبرة القصر[٣] .

ولم يكن الحكم حين ولايته ، محدثاً فى شئون الملك ، بل لقد مارسها فى حياة أبيه ، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة المهام والشئون الخطيرة ، فكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة .

واستهل الحكم عهده بالنظر فى توسيع المسجد الجامع ، وأصدر بذلك مرسومه فى اليوم التالى لجلوسه . وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بجموع المصلين ، فتقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب إلى الشمال حتى صحنه . وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع ، فتضاعف بذلك حجمه . وابتنى الحكم محرابه الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة زخرفت

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (المطبوع ببيروت سنة ١٩٥٦) ص ٤١ .

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٧ ، والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٠٢ . وراجع ص ٢٧٨ من هذا الكتاب .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ .

بالفسيفساء البديعة . وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثانى إلى الحكم منها قدراً كبيراً ، كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفسيفساء . وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البيزنطى . وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكم فى الجامع اليوم قسمه الأوسط ، الواقع بين الجناح القديم ، الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وزاد فيه عبد الرحمن الأوسط — والجناح الذى أنشأه الحاجب المنصور ، وهو يشغل نحو ثلث المسجد من الناحية الشرقية[١] .

ولم يمض سوى قليل ، حتى بدت من الأمراء النصارى نزعة إلى العدوان . وكان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (شانجُه) ملك ليون ابن أردونيو الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه ، وفر ابن عمه ومنافسه أردونيو الرابع مهزوماً إلى برغش (سنة ٩٦٠ م) ، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون ، أن يهدم النصارى بعض حصون الحدود ، وأن يسلموا عدداً آخر منها إلى المسلمين . فلما توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، نكث سانشو بالعهد ، وأبى تنفيذ ما وعد . ومن جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد فى عدوان النصارى . وذلك أن قشتالة ، وقد كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون ، كانت تنزع إلى الاستقلال ، وكان زعيمها الكونت (القومس) فرنان كونثالث[٢] رجلا مقداماً يلتف حوله مواطنوه ، فثار على سانشو ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً عليها ، وأخذ يغير على أراضى المسلمين المجاورة ، وهى مما يلى غرب الثغر الأعلى ، وشمال الثغر الأوسط ، وانضم إليه كثير من النصارى المتعصبين . فنما بذلك جيشه واشتد بأسه . وكان الكونت يطمح إلى توسيع أملاكه ، ويعتمد على مناعة قلاعه الواقعة على الحدود . وقد أغضى الحكم فى البداية عن هذا العدوان مؤثراً الاعتصام بالسلم ، ولكنه لما رأى تمادى النصارى فى بغيهم ، أخذ فى التأهب للحرب ، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقواد ، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد فى سبيل الله .

وكان أردونيو الرابع الملك المخلوع ، قد لجأ إلى الحكم ليعاونه على استرداد

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٢) ويسميه ابن خلدون « فردلند القومس » (ج ٤ ص ١٤٤) وفى مكان آخر فرلند بن غند شلب (ج ٤ ص ١٨٠) وورد اسمه فى أعمال الأعلام « فران غنصالص » وهو أكثر مطابقة للاسم القشتالى (ص ٣٧٥) .

عرشه . وتفيض الرواية الإسلامية فى وصف مقدمه على قرطبة ، ومثوله بين يدى الخليفة ، فتقول لنا إن أردونيو وفد على قرطبة فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، ومعهم غالب الناصرى مولى الحكم وصاحب مدينة سالم ، وذلك فى آخر صفر سنة ٣٥١هـ (٣٠ مارس ٩٦٢م) . وتلقاهم الوزير هشام المصحفى فى قوات كثيفة من الجند . فلما دخلوا قصر قرطبة ، ووصل أردونيو إلى ما بين باب السُّدة وباب الجنان ، سأل عن مكان مدفن الناصر ، فأشير إليه فى الروضة بداخل القصر ، فسار إليه وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعاً . وأنزل أردونيو وصحبه فى دار الناعورة الفخمة ، وبولغ فى إكرامهم . وبعد يومين استدعاهم الحكم إلى قصر الزهراء ، وقد حشدت قوات عظيمة من الجند ، وبولغ فى الاحتفال بالزينات ، وإظهار الأسلحة والعُدَد . وجلس الحكم فوق سرير الملك فى المجلس الشرقى ، ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر ، وجىء بأردونيو وأصحابه ، ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس . فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة وقد بهروا بما رأوا ، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة ، وأجلسوا برهة فى بهو الانتظار ، ثم استدعوا للمثول بين يدى الخليفة ، فسار أردونيو ومن ورائه أصحابه ، فلما وصل إلى المجلس الخلافى كشف رأسه وخلع برنسه . ولما دنا من سرير الحكم سجد أمامه ثم قبل يده . ثم ارتد راجعاً إلى كرسى من الديباج المثقل بالذهب . وتولى الترجمة بين أردونيو والخليفة ، وليد بن خيزون قاضى الذمة بقرطبة ، وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردونيو ، ووعده برعايته . وبسط أردونيو قضيته ، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو ، مع أن الشعب كان قد آثره باختياره ، ولكن خصمه لجأ إلى الخليفة الراحل واستجار به ، فأغاثه ونصره عليه ، ومع ذلك فقد قصر فى الوفاء بعهوده ، وأنه يضع نفسه وبلاده وشعبه تحت رعاية الخليفة ، وأنه يتعهد بمحالفة الإسلام ، ومقاطعة صهره فردلند القومس أمير قشتالة ، ويقدم ولده غرسيه رهينة بصدق وفائه[1] . وهنا وعده الخليفة بعونه ونصرته فى تمليكه ما كان له . وانصرف أردونيو بعد الشكر والتحية ، وخرج من المجلس ، وقد بهره وأذهله ما رأى من آيات الفخامة والسلطان . وقدم إليه الحاجب جعفر الهدايا التى أمر بها الخليفة له ولأصحابه . وألقى الخطباء والشعراء

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

خطبهم وقصائدهم ، منوهين بروعة هذا اليوم المشهود . فمن ذلك قول عبد الملك ابن سعيد المرادى من قصيدة :

ملك الخليفة آية الإقبال   وسعوده موصولة بنوال
والمسلمون بعزة وبرفعة   والمشركون بذلة وسفال
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه   متوقعين لصولة الرئبال
هذا أميرهم أتاه آخذاً   منه أواصر ذمة وحبال
متواضعاً لجلاله متخشعاً   متبرعاً لما يرع بقتال[1]

فلما نمى إلى سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه ، خشى عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم وفداً من الأكابر والأحبار ، يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن يقوم بتنفيذ ماتعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود وهدم البعض الآخر[2]. ولكن أردونيو ما لبث أن توفى ، وعاد سانشو إلى نكثه بعد أن أمن شر منافسه . وهنا شعر الأمراء النصارى بخطورة أهبة المسلمين العسكرية ، وأدركوا أن لا بد لهم من الاتحاد جميعاً ، لكى يستطيعوا مواجهتهم . وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون ، وخصمه الكونت فرنان أمير قشتالة ، وغرسية سانشيز ملك نافار ، وكونت برشلونة ، وتأهب الجميع لمدافعة المسلمين .

وفى صيف سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) خرج الحكم إلى الغزو ، معلناً الجهاد ، واجتمعت إليه الجيوش فى طليطلة ، فسار مخترقاً جبال وادى الرملة إلى أراضى قشتالة ، وأشرف على قلعة شنت إشتيبن المنيعة[3] فحاصرها المسلمون ، واستولوا عليها . وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثالث ، أن يقف فى سبيل المسلمين ، واجتاح المسلمون أراضيه ، ومزقوا قواته ، حتى أذعن إلى طلب الصلح ، ولكنه نكث عهده ، فهاجمه المسلمون كرة أخرى ، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة[4].

---

(١) أورد لنا المقرى (عن ابن حيان) عن هذه الزيارة تفاصيل مسهبة (راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ — ١٨٤) . ولخصها ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٥) . وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ . وأنتيسة هى **Atienza** .

وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحي بن محمد التجيبي حاكم سرقسطة فى اتجاه نافار . وكان ملكها غرسية سانشيز ، قد أغار على الأراضي الإسلامية ناكثاً لعهده ، وهرع حليفه سانشو ملك ليون فى قواته لإنجاده ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها النصارى وامتنعوا بالجبال . وفى نفس الوقت سار القائد غالب مولى الحكم فى جيش قوى إلى مدينة قلهرّة ، من قواعد نافار الغربية ، فافتتحها ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدة ، وكان فتحاً عظيماً . وسار حاكم مدينة وشقة فى قواته شمالا نحو أراضى نافار مما يلى جبال البرنيه ، واستولى على حصن يبه[١] واجتاح تلك المنطقة ، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية[٢]. واستغرقت هذه الفتوح والغزوات العظيمة ، الصائفة فى سنى ٣٥٢ و ٣٥٣هـ (٩٦٣ — ٩٦٤) .

ويروى لنا ابن خلدون قصة غزوة إسلامية أخرى فى أراضى قشتالة — فيقول لنا إن غالباً سار إلى بلاد ألبة ، ومعه يحي بن محمد التجيبي ، وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فاستولى على حصن غرماج Gormaz . ويضع ابن خلدون تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وتقع قاعدة « غرماج » الحصينة على نهر دويرة على مقربة من شنت إشتبين . وكان الناصر قد انتزعها من النصارى فى سنة ٩٤٠ م . والظاهر أن القشتاليين بقيادة فرنان كونثالث ، كانوا قد استولوا عليها فيما استولوا عليه من قواعد الحدود ، قبل أن يخرج الحكم إلى الغزو ، فاستردها المسلمون فى صائفة سنة ٣٥٣ هـ ، أو فى الصائفة التالية ، وقاموا بتحصينها لمدافعة القشتاليين فى هذه المنطقة[٣] .

وتشير الرواية الإسلامية فوق ذلك إلى غزوات ناجحة أخرى ، قام بها المسلمون فى أراضى قشتالة فى سنتى ٣٥٥ و ٣٥٦ هـ ، بيد أنها لا تقدم إلينا شيئاً عن تفاصيل تلك الغزوات[٤] .

وفى سنة ٣٥٣ هـ وقعت بالعاصمة الخلافية مجاعة عظيمة ، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين فى سائر أرباض قرطبة والزهراء ، من النفقة ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم.

---

(١) وبالإسبانية Yerba .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

وكانت حوادث المغرب الأقصى (وسوف نتحدث عنها بعد) ، وما يتهدد الأندلس من جراء مشاريع الفاطميين وأشياعهم فى تلك المنطقة ، مما يشغل حكومة قرطبة ، ويحفزها دائماً إلى اليقظة والتأهب ، وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم فى شهر رجب سنة ٣٥٣ إلى ثغر ألمرية (سبتمبر سنة ٩٦٤) فى جماعة كبيرة من الرؤساء والقادة ، ليشرف بنفسه على أعمال التحصين الجارية فيها ، وليتخذ ما يجب لتجديد الأسطول وتعزيزه . وكانت ألمرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسى ، وكانت سفنه الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة[1] .

بيد أنه لم يمض قليل ، حتى جاء الخطر يتهدد الأندلس من ناحية أخرى : ففى أواخر سنة ٣٥٥ هـ[2] (أواخر سنة ٩٦٧ م) ظهرت سفن النورمان أو المجوس فى مياه الشاطىء الغربى قبالة ولاية الغرب .

وكان النورمان قد ظهروا فى مياه الأندلس لأول مرة فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣م) أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة أهبتها البحرية من ذلك الحين . وكان أولئك الغزاة النورمان فى هذه المرة من أهل دانماركة المجوس ، ويقودهم رتشارد الأول دوق نورماندى ، وحفيد زعيمهم الكبير رولو . وكانت عدة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً . ونزل الغزاة على مقربة من بلدة قصر أبى دانس[3] ، وعاثوا فى تلك المنطقة ، ثم زحفوا شمالا إلى بسائط أشبونة الغنية اليانعة ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً ، واجتمع المسلمون فى تلك المنطقة لقتالهم . ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين . وفى تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادى الكبير بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس ، وسار على عجل إلى شاطىء البرتغال الجنوبى ، وكان الغزاة قد انحدروا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطىء ، ووقع اللقاء بين سفنهم وبين سفن المسلمين عند مصب نهر شِلْب . فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة ، وأنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، وقتل كثير من النورمان ، وارتدوا منهزمين عن تلك المياه ، بيد أن سفنهم لبثت تجوس خلال المياه الغربية ، والمسلمون لهم بالمرصاد أينما ظهروا . وأمر الحكم زيادة فى التحوط أن تحشد بعض

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٦ .

(٢) ويذكر ابن خلدون أنها كانت سنة ٣٥٤ هـ (ج ٤ ص ١٤٥) .

(٣) وهى بالإفرنجية Alcacer do Sal ، وهى ثغر برتغالى صغير يقع جنوب شرقى اشبونة .

سفن الأسطول الصغرى فى نهر الوادى الكبير تجاه قرطبة ، وترتيبها على هيئة مراكب النورمان[١]، وذلك خشية أن يتسرب الغزاة بطريق النهر إلى العاصمة ، كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية فى غزوتهم الأولى .

ولم تمض بضعة أعوام على ذلك ، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال المياه الغربية (٣٦٠ هـ — ٩٧١ م) مرة أخرى ، وتهدد شواطىء ولاية الغرب الغنية .

ويقدم إلينا ابن حيان عن هذه الغزوة الثانية للنورمان لشواطىء الأندلس بعض تفاصيل ملخصها أن الحكم عهد إلى أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بتسيير الأسطول من ألمرية وإشبيلية ، واجتماع قوى الأندلس البحرية كلها لمواجهة الغزاة ، كما عهد إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن بأن يشرف على القوات البرية والبحرية التى أعدت لمدافعة أولئك الغزاة ، وأمر صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح بإخراج السلاح والعدة ، وحشد قوة مختارة من الجند .

بيد أنه لم تقع فيما يبدو ، أية معارك هامة بين المسلمين والغزاة ، ولم يحدثنا ابن حيان عن وقوع مثل هذه المعارك . والظاهر أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم لما رأوا من تفوق قوى المسلمين[٢] .

وفى خلال ذلك كانت قرطبة تغدو شيئاً فشيئاً ، مركز التوجيه فى شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، وتغدو كعبة لملوك اسبانيا النصرانية ، يفدون إليها تباعاً ، يقدمون إليها عهود الطاعة ، ويلتمسون منها الصداقة والعون . وقد بدأ تقاطر هذه الوفود والسفارات من سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) واستمر عدة أعوام . ويجدر بنا قبل التحدث عنها ، أن نشير إلى ما وقع من تغييرات فى الإمارات والممالك النصرانية . فقد توفى سانشو ملك ليون مسموماً فى سنه ٩٦٦ م . وخلفه ولده الطفل راميرو الثالث ، تحت وصاية عمته الراهبة إلبيرة ، وكان من أثر ذلك أن وقع التفكك . فى مملكة ليون ، وأعلن عدة من الزعماء المحليين استقلالهم . وتوفى الكونت

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٧ . وابن حيان فى المقتبس — مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة كوديرا) المنشور بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن على الحجى (بيروت ١٩٦٥) ص ٢٣ — ٢٦ وبه بيانات وتفاصيل هامة عن حوادث الأعوام الخمسة من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٤هـ . وسوف نرجع إليه بكثرة فيما يتعلق بأحداث هذه الأعوام وأحوالها .

فرنان كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م ، وخلفه ولده غرسيه فرناندز . وتولى عرش نافار سانشو غرسية الثانى ، بعد وفاة أبيه غرسية سانشيز .

وكان أول الوافدين على قرطبة من أمراء النصارى أمير جليقية ، وأمير أشتوريش ، (الأستورياس) . ثم وفدت رسل سانشو غرسية ملك نافار ، وهم جماعة من القوامس والأساقفة يسألون الصلح ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا .

ووفدت فى شعبان سنة ٣٦٠ هـ (يونيه ٩٧١ م) سفارة من أمير برشلونة الكونت بوريل ابن شونير Saunier على رأسها مبعوثه القومس بون فلى لتجديد المودة والصداقة ، ومعهم ثلاثون أسيراً من المسلمين الذين كانوا محجوزين بالإمارة ، تقرباً من الخليفة . فاستقبلهم الحكم بالمجلس الشرقى من قصر الزهراء مرتين ، الأولى فى الرابع من رمضان سنة ٣٦٠ هـ ، والثانية فى الثانى من شوال ، واستمع إلى رسالتهم بالقبول والرضى ، وصرفهم بجزيل الصلات وفاخر الكسى [١]. وفى السادس من ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ (أكتوبر ٩٧١ م) وفدت الراهبة إلبيرة عمة ملك ليون راميرو الثالث والوصية عليه — ويسميها ابن حيان حلويرة وأحياناً حلورية [٢]— ، فقوبلت فى قرطبة بمظاهر الترحاب والتكريم ، واحتفل الحكم باستقبالها بقصر الزهراء فى يوم مشهود ، وعقد السلم للملك ليون تحقيقاً لرغبتها ، وأغدق عليها الهدايا والصلات « وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثلقين بالذهب وملحفة ديباج » [٣]. ومما هو جدير بالذكر أنه قام بالترجمة يومئذ بين الخليفة الحكم ، وبين سفراء أولئك الأمراء والملوك النصارى ، قاضى النصارى وأسقفهم بقرطبة ، عيسى بن منصور ، وقومس أهل الذمة ، معاوية بن لب ، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم . وكانت لغة النصارى

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر ص ٢١ و ٣٢ .

(٢) راجع ابن حيان فى المقتبس — القطعة السالفة الذكر ص ٦٣ و ١٤٦ و ٢٣٥ و ٢٤١ . ويلاحظ أن ابن حيان لم يتحدث عن قدومها بنفسها إلى قرطبة وإنما يتحدث عن قدوم رسل من قبلها . بيد أننا أخذنا هنا برواية ابن خلدون بالرغم من كونها تنصرف إلى اسم سيده نصرانية أخرى . والرواية الإسبانية تؤيد هذا التفصيل .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ . وراجع المقتبس لابن حيان (قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر) ص ٦٤ .

الإسبان يومئذ هى اللغة الرومانية (الرومانشى) Romance أو « اللاتينية » ، وهى التى تطورت فيما بعد إلى اللغة القشتالية[1] .

ووفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة ، وفرنان لينيز كونت شلمنقة وغيرهما . وفى سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) وفدت سفارة جديدة من سانشو غرسية ملك نافار ، ومن الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون . وكان جل هذه الزيارات والسفارات من أمراء اسبانيا النصرانية ، يقصد إلى عقد السلم والمودة مع خليفة الأندلس ، وأحياناً إلى تقديم الطاعة وطلب العون .

هذا وقد وردت إلى الخليفة رسالة ودية من يوحنا زيمسكى (الدمستق) قيصر قسطنطينية على يد رسوله قسطنطين الملقى ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م)[2] ، ورسالة أخرى فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) من إمبراطور ألمانيا أوتو الثانى الذى خلف أباه أوتو الأول ، وفيها يجدد علائق المودة التى كانت بين أبيه وبين الناصر . ووردت فى نفس العام سفارة جديدة من الكونت بوريل أمير برشلونة يطلب تجديد المودة والصداقة .

ويعلق العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال على ذلك بقوله : « وصلت الخلافة الأندلسية فى ذلك العصر إلى أوج روعتها ، وبسطت سيادتها السلمية على سائر اسبانيا ، وكفلت بذلك السكينة العامة » .

وفى هذا العام ، سنة ٣٦١ هـ ، فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، أمر الخليفة الحكم صاحب مدينة الزهراء ، محمد بن أفلح ، بمطاردة الشعراء الهجائيين والقبض عليهم ، صوناً لأعراض الناس من لاذع ألسنتهم ومقذع هجائهم وكان منهم عيسى بن قرلمان الملقب بالزبراكة ، ومؤنس الكاتب ، وأحمد بن الأسعد ، ويوسف بن هارون البطليوسى وغيرهم . فظفر صاحب المدينة بمعظمهم وأودعهم السجن ، واختفى البطليوسى حيناً ، ولكنه لما شعر بوطأة المطاردة ،

---

(٢) R. M. Pidal : Origenes del Espanol p. 421

(٣) راجع المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧١ و ٧٢ . وكان يوحنا زيمسكى . وهو كبير الجيش البيزنطى قد ائتمر بعمه القيصر نيقفور الثانى مع زوجه الحسناء ثيوفانو وانتهى بقتله وذلك فى العاشر من ديسمبر سنة ٩٦٩ م ، واعتلى العرش فى الحال مكانه ، وحكم حتى وفاته فى العاشر من يناير سنة ٩٧٩ م .

قدم نفسه لصاحب المدينة ، فزج إلى السجن . ورفع أمره إلى الخليفة ، فرق لمحنتهم ، وأمر بالإفراج عنهم ، فأطلق سراحهم فى أواخر شعبان من هذه السنة[1] وفى هذا الإجراء ما يشهد برفيع خلال الحكم ، ورقة شعوره ، وموفور احتشامه .

* * *

وفى ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر ، حوادث هامة ، شغلت الحكم ، وكدرت صفو السلام السائد فى مملكته . وقد سبق أن أشرنا إلى غزو الناصر لدين الله لثغر سبتة ، وعبور جيوشه إلى المغرب لمقاومة جهود الفاطميين فى السيطرة عليه ، ومحاربة الأدارسة أمراء المغرب وحلفاء الفاطميين ، ومطاردتهم . حتى أذعنوا فى النهاية إلى طلب الصلح ، والاعتراف بطاعة الناصر (سنة ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م) ، وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ ذلك الحين .

وكانت دولة الأدارسة ، قد تقلصت فى ذلك الحين ، عن معظم أنحاء المغرب الجنوبية والوسطى ، وارتدت إلى منطقة الريف الشمالية ، ما بين غربى بحر الزقاق والمحيط ، وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم فى فاس ، فى قلعة حجر النسر المنيعة ، الواقعة فى جنوبى تطوان . ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى الكلمة ، إذ كانت تنضوى تحت لواء المتغلب على المغرب ، سواء من العبيديين (الفاطميين) أصحاب إفريقية ، أو الأمويين أصحاب الأندلس . وكان أمير الأدارسة فى أواخر عهد الناصر ، الحسن بن كنّون (أو قنون) ، وهو القاسم بن محمد ابن القاسم بن إدريس ، الذى قدر أن تنقضى على يده دولة الأدارسة بالمغرب ، وكان قد بايع العبيديين ، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلى على المغرب ، ناكثاً بذلك عهده للناصر . فلما انصرف جوهر إلى إفريقية فى أواخر سنة ٤٤٩ هـ (٩٦٠ م) عاد الحسن إلى طاعته لبنى أمية . ولما توفى الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم المستنصر . ولم يكن ذلك سوى مصانعة ورياء ، إذ كان الأدارسة يبغضون بنى أمية ، ويترقبون فرص الخروج عليهم ، ولم تكن طاعتهم لهم إلا خوفاً من بطشهم ، لوقوع مملكتهم فى شمال العدوة على مقربة من الأندلس .

---

(١) راجع المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ المشار إليها — ص ٧٣ — ٧٥ .

وفى أوائل سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) سار بُلُكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، من إفريقية غازياً إلى المغرب ، ليعيد هنالك سلطان الشيعة ، ولينتقم من قبيلة زناته لمقتل أبيه زيرى بن مناد . وكان زيرى عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب ، وكانت زناتة من القبائل المغربية القوية المخالفة للشيعة ، والمنضوية تحت لواء الأمويين . وكان من أشد خصوم الشيعة أيضاً ، جعفر ويحيى إبنا على بن حمدون المعروف بالأندلسى[1] ، وكان الأندلسى هذا قد استقر فى «المسيلة» فى المغرب الأوسط ، وبسط حكمه على تلك الناحية ، وخلفه ولده جعفر فى إقطاعه ، ولكنه خشى سطوة الشيعة ، وسطوة عاملهم زيرى ، ففر وأخوه يحيى مع الأهل والمال إلى المغرب الأقصى ، ولجأ إلى بنى خزر أمراء زناتة الأقوياء ، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة . وكان رسل الحكم يروجون الدعوة فى زناتة وحلفائهم لمحاربة الشيعة ، ويمدونهم بالمال لحشد الرجال والعدة ، فاجتمعت قوات بنى خزر وجعفر ويحيى على قتال زيرى ، ودارت بينهما الحرب فى وادى ملوية عند مشارف المغرب الأقصى ، وانهزم الشيعة ، وقتل زيرى ومعظم رجاله بعد معركة طاحنة ، واحتوى الزناتيون على معسكره ، وانهار بذلك سلطان الشيعة فى المغرب ، وكان ذلك فى العاشر من رمضان سنة ٣٦٠ هـ (يوليه ٩٧١ م) . واحتز الظافرون رأس زيرى ورؤوس عدة من أكابر صحبه . وحملها جعفر ويحيى وأصحابهما إلى الأندلس ، وقدموها إلى الحكم ، فحظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته[2] .

---

(١) ذكر ابن حيان نقلا عن محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق أن جعفراً وأخاه هما من أصل أندلسى ، وهما ابنا على بن حمدون بن سماك بن سعيد بن إبراهيم . وكان منزلهم بالأندلس بكورة إلبيرة على مقربة من قلعة يحصب . وانتقل جدهما حمدون إلى إفريقية وتزوج من كتامة ، ثم سافر إلى الحج ، وتعرف هناك بأبى عبد الله الشيعى ودخل فى مذهبه . ولما ظهر الشيعى بإفريقية واحتوى على ملك بنى الأغلب حظى لديه ، وحظى أبناؤه لدى الخلفاء الفاطميين ، واستقروا مدى حين حكاماً للمسيلة . ثم اتهم زعيمهم جعفر بالاتصال ببنى خزر ، وتوعده الخليفة المعز بشر النكال ففر وأخوه فى الأهل والمال إلى بنى خزر أمراء زناته (راجع المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ – ص ٣٣ – ٣٦

(٢) يقدم إلينا ابن حيان تفاصيل ضافية عن استقبال جعفر وأخيه يحيى حين مقدمها إلى الأندلس برؤوس زيرى وأصحابه ، ودخولها قرطبة فى ركب فخم برفقة صاحب السكة والمواريث وقاضى إشبيلية محمد بن أبى عامر ، ثم استقبال الخليفة لها ومن معهما من أعيان بنى خزر ، وذلك بالمجلس القبلى من قصر الزهراء ، فى حفل فخم رتبت فيه صفوف الجند وأهل الخدمة بأنواعهم =

وكان لهذه النكبة التى حلت بجيش الشيعة وصنهاجة ، وقع عميق فى الخلافة الفاطمية . فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيرى بن مناد ، المسمى بُلُكّين (بلقين) أن يسير فى الجيوش إلى المغرب جسما تقدم . فسار بلكين ، وهو ينزل ضرباته المتوالية بأتباع زناتة حيثما وجدوا فى طريقه ، وكانت منهم جموع غفيرة فى المغرب الأوسط فى بجاية ، والمسيلة ، وبسكرة ، وتاهرت وغيرها ، فمزقهم شر ممزق . ووصل بلكين فى قواته ، إلى المغرب الأقصى ، فى ربيع الثانى سنة ٣٦١ هـ ، واستعد بنو خزر وسائر أمراء زناتة للقائه ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، فهزمت زناتة شر هزيمة ، وانتحر أميرها محمد بن الخير بن خزر وذلك بأن اتكأ على سيفه فذبح نفسه ، حتى لا يقع فى يد عدوه ، ومزق بلكين زناتة كل ممزق ، وهدم مدينة البصرة ، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب ، وقطع دعوة الأمويين ، وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملا[1] .

وسارع الحسن بن كنون ، القلّب مع كل تطور جديد ، إلى بيعة بلكين ، والانضواء تحت لوائه ، أو بعبارة أخرى ، تحت لواء سادته الشيعة . ولكن بلكين لم يمكث طويلا بالمغرب . إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز — وكان يتخذ يومئذ أهبته للسفر إلى مصر ، مقر ملكه الجديد — فارتد عائداً بقواته إلى إفريقية .

ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب ، فأزعجه ذلك وأهمه ، وبادر

= الزاهية ، وقد رفعت رؤوس القتلى وعددها مائة وفى مقدمتها رأس زيرى على القنوات . وكان دخولهم على الخليفة ، فى أواخر ذى القعدة سنة ٣٦٠ هـ . واستقبلهم الخليفة بالبشر والرضى ، وامتدح موقفهم وانصرافهم عن حزب الشيعة إلى مؤازرة حزبه . وعلى أثر انتهاء المقابلة ، انزلوا فى الدور التى خصصت لهم بقرطبة ، ورتب الخليفة لكل من جعفر وأخيه يحيى نفقة شهرية قدرها ألف دينار ، ورتب لمرافقيهم من بنى خزر ، كل ما يكفيه من النفقة والطعام. يقول ابن حيان بعد أن أورد لنا هذه التفاصيل الشائقة بإعجاب لا مزيد عليه : « فكان يوم جعفر بن على ومن ورد معه من أحد الأيام المقدم بقرطبة ، فى اكتمال حسنه وجلالة قدره ، خلد حديثه زمناً فى أهلها ، قاضياً من عجب الجلالة ، وكل شىء فإلى انقضاء ، إلا إله الأرض والسماء ، تعالى جده » (المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٤٤ — ٥٣ وص ٥٧) .

(١) راجع مجموعة « نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى » المنتخبه من كتاب « مفاخر البربر » لمؤلف مجهول ، والمنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٦ — ٨ ، ويرجع الكاتب هذه الموقعة إلى سنة ٣٦٠ هـ . وراجع أيضاً المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٣٦ و ٣٨ .

باعداد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، لغزو المغرب ، ومقاتلة الحسن بن كنون ، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طملس ، كما أمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بحشد الأسطول . وعبر محمد بن القاسم فى قواته من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، فى شوال سنة ٣٦١ﻫ (يوليه ٩٧٢ م) ، وكان الحسن بن كنون عندئذ فى طنجة ، فخرج فى جموع البربر لقتال جيش الحكم ، فوقعت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه ، وفر هارباً تاركاً أمواله وعتاده بطنجة ، واستسلم أهل طنجة إلى محمد بن القاسم ، وأعلنوا طاعتهم للحكم ؛ ودخل محمد طنجة واحتلها ، وبعث إلى الحكم بفتحها . ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى ثغر أصيلا ، ودخلها .

وفى تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله ، وأعاد تنظيم قوانه ، وسار إلى لقاء جيش الحكم مرة أخرى ، فالتقى الجمعان فى مكان يعرف بفحص مهران ؛ وهنا حالف الحسن حسن الطالع ، فدارت الدائرة على جند الأندلس ، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة ، وفى مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم ، وبلغ القتلى من الفرسان وفق تقدير الرازى خمسمائة ومن الرجالة ألفاً ، وكان ذلك فى الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٢ ﻫ ، وفرت فلول الأندلسيين إلى سبتة فامتنعوا بها ، وبعثوا إلى الحكم يطلبون الإنجاد والغوث (١) .

وأراد الحسن فى نفس الوقت أن يستغل نصره بطلب الصلح ، وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن ، وبعث أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بذلك إلى الحكم ، فكتب الحكم إليه ومن معه من القادة يوصيهم بالاستمرار فى مجاهدة الملحد ، ومجاهدة من معه ، حتى يفتح الله عز وجل فيه وفيهم . وكان مما قاله فى كتابه : « أن أفضل ما احتمل عليه ، وعمل به ، استشعار الحزم ، وادراع التحفظ ، واستنصاح الاتهام ، وإذكاء العيون ، وبث الجواسيس ، والاستكثار منهم ، ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن — أهلكه الله — حركة ، ولا يتوارى له مذهب » .

ومما كتبه الحكم إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل قائد ثغر أصيلا ،

---

(١) راجع مجموعة « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » التى سبق ذكرها ص ٨ . وابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٦ .

رداً على ما أبداه الحسن من رغبة فى الإنابة والصلح : « وكيف يذهب الآن هذا المذهب وهو فى طغيانه مستمر ، وفى دينه مستبصر ، ولكم فى كل أيامه محارب ، هذا هو الضلال ، والمحال عين المحال ، وسبب الخبال ، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره ، وغير من أصر إصراره ، وتمادى تماديه ، إلى أن يحكم الله عليه ، ويفتح فيه »(١) .

وبادر الحكم فى نفس الوقت بحشد جيش جديد ، ندب لقيادته مولاه ووزيره وكبير قواده غالباً بن عبد الرحمن « البعيد الصيت المعروف بالشهامة » . وأمده عدا الجند الكثيف ، والعتاد الضخم ، بأموال جليلة لاستمالة القبائل ، وأمره أن يشتد فى قتال الأدارسة ، وأن يستأصل شأفتهم ، وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوئة لبنى أمية . وقال له : « سر ياغالب مسير من لا إذن له فى الرجوع إلا حياً منصوراً ، أو ميتاً معذوراً ، وابسط يدك فى الإنفاق ، فان أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال »(٢) . فخرج غالب فى قواته الجرارة من قرطبة ، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة (أو القصر الصغير) وذلك فى الحادى عشر من رمضان سنة ٣٦٢ هـ . وعلم الحسن بمقدمه ، وعظيم أهبته ، فغادر مدينة البصرة ، الواقعة فى الجنوب حيث كان يقيم ، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره إلى قلعة حجر النسر ، الواقعة شمالها . ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحكم ، ونشب القتال بين الفريقين أياماً ، وبث غالب فى رؤساء البربر من غمارة وغيرهم من جند الحسن ، الأموال والهدايا ، فانفصلوا عنه ، واضطر الحسن أن يمتنع بمن بقى معه فى قلعة حجر النسر ، فطارده غالب وضرب الحصار حول القلعة . وفى أوائل شوال بعث الحكم ثقته محمد بن أبى عامر إلى العدوة بأحمال من المال والحلى والخلع لتوزيعها على أكابر البربر الذين يمكن استمالتهم إلى جانب الخلافة . وأصدر الحكم فى نفس الوقت مرسومه بتعيين ابن أبى عامر

---

(١) ابن حيان – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٧ و ٩٨ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ ، وكذلك « نبذ تاريخية فى تاريخ البربر » ص ٩ . وقد وردت هذه العبارة بصورة أخرى فى كتاب نقله إلينا ابن حيان ، وأرسله الحكم إلى غالب وهو بالعدوة ردا على كتاب منه وجاء ، فى خاتمته هذه العبارة : « فاستقبل نظرك استقبال من استشعر مذهب أمير المؤمنين ووطن فيه على أن لا مرجع إلا بما يحب أو يموت فيعذر » . راجع المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ – ١٣١ .

قاضياً لقضاة العدوة ، إلى ما يتقلده من خطتى الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء إشبيلية[١] . ووصلت إلى غالب من الأندلس بعد ذلك أمداد جديدة ، بقيادة الوزير يحي بن محمد التجيبي وإخوته ، يوسف ومحمد وهاشم وهذيل ، ومعه جملة من المال (المحرم سنة ٣٦٣ هـ) ونزل يحي وجنده بطنجة ، وانضموا إلى قوات القائد الأعلى غالب . وشدد غالب الحصار على الحسن ، وقطع سائر علائقه وموارده ، وبث قواته فى سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة ، واستئصال شأفتهم . ونشبت بين جند الحكم وبينهم معارك عديدة ، قتل فيها الكثير منهم ؛ وفى صفر سنة ٣٦٣ هـ استولى غالب على مدينة البصرة ، وسلمها إليه أهلها ، بعد أن قتلوا نائبها الحسنى . وكان ضمن حاشية غالب الشاعر محمد بن حسين التميمى المعروف بالطبنى ، بعثه إليه الحكم تحقيقاً لرغبته لكى يساعده بنظمه على اكتساب ولاء المنشقين على الحسن[٢] . وفى تلك الأثناء ، كان الحسن قد أجهده الحصار ، وأشرف على الهلاك ، ومن معه من أهله ورجاله ، فاضطر فى النهاية إلى طلب الأمان والتسليم ، وأعلن طاعته للحكم (جمادى الآخرة سنة ٣٦٣هـ) ، ودخل غالب قلعة حجر النسر ، ودعى فى مسجدها للحكم . ووصلت هذه الأنباء السارة إلى الحكم ، وأعلنها الحكم فى جامع قرطبة ، بعد ذلك بأيام قلائل ؛ وتتبع غالب سائر من بقى من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفتهم ، وقضى على دولتهم . وسار إلى مدينة فاس ودخلها ، وعين لها حاكماً من قبله ، وتم بذلك إخضاع المغرب للدعوة الأموية .

وكان قد وصل من العدوة قبل هزيمة الحسن ، عدد كبير من القبائل والبطون البربرية الخارجة عليه ، الجانحة إلى طاعة الحكم . وكان بين هؤلاء عدد كبير من فرسان قبائل كتامة يبلغون زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس ، ورئيسهم أبو العيش بن أيوب ، وقد عقد له الحكم على قومه ، وأصدر له بذلك سجلا من إنشاء صاحب المواريث جعفر بن عثمان ، يبين فيه واجباته وسلطاته ولا سيما فى شئون الجباية ، وأصدر الحكم سجلات مماثلة لزعماء القبائل والبطون البربرية الأخرى ، وقد ذكرها لنا ابن حيان ، وذكر أسماء زعمائها[٣] .

---

(١) ابن حيان – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٢٣ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٩ .

(٣) ابن حيان فى المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ١١٠ – ١١٥ .

وفى أواخر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ ، عبر القائد الأعلى غالب البحر إلى الجزيرة الخضراء ، تاركاً شئون العدوة للقائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبى تحقيقاً لرغبة الحكم ؛ وكان فى ركب القائد الأعلى المظفر ، الحسن بن كنون وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة ومعهم الأهل والولد . وصدر قبيل ذلك فى قرطبة ، عن أمر الخليفة الحكم ، كتاب طويل من إنشاء الوزير جعفر ابن عثمان قرئ على سائر منابر الأندلس ، وفيه ينوه بما من الله على خليفته من كفالة أمر المسلمين ، وقمع عدوان النصارى بالأندلس ، ثم مطاردة الشيعة أهل البدع بالعدوة ، وما منحه الله من النصر على المخالفين « حتى استوسقت الطاعة فى جميع بلاد المغرب وقامت الدعوة بمنابر قواعده »[1]. وأشرف غالب فى ركبه الحافل على قرطبة فى أوائل المحرم سنة ٣٦٤ هـ ، وأنزل الأشراف الحسنيون المرافقون له فى الدور التى أعدت لهم بقرطبة وأرباضها . وخرج الجند من مدينة الزهراء فى صبيحة يوم الخميس الخامس من محرم لتلقى القائد المظفر ، والمسير بين يديه ، وعلى رأسهم عدة من الفتيان ورؤساء الخدمة ، ودخل غالب قرطبة فى عسكره ، وفى ركبه الأشراف الأدارسة ، ونزل بفحص الناعورة ؛ ويصف لنا ابن حيان فى تفصيل شاف موكب القائد غالب ، وركبه المظفر الفخم ، ومن كان يحف به أو يتبعه من الفرسان المدرعين وأهل الخدمة والصقالبة ، والعبيد الرماة وغيرهم من أصحاب الطبول والقرون والبنود والرايات . ودخل غالب فى موكبه الفخم مدينة الزهراء من باب السُّدة ، ونفذ إلى القصر ، وأنزل الأدارسة الذين معه فى المجالس القبلية بدار الجند . وكان الخليفة الحكم قد جلس لاستقباله فى المجلس الشرقى المشرف على الرياض ، وقد حف به الإخوة ، وجلس من بعدهم الوزراء والحجاب وأصحاب الشرطة والمدينة والقضاة وسائر أهل الخدمة ، كل فى مكانه المعهود . واستقبل الخليفة زعماء الأدارسة ، وشيخهم حنون بن أحمد بن عيسى ، وشكر طاعتهم ، وعفا عن الحسن ، ووعدهم بالإحسان ، وأجزل لهم الأرزاق والصلات[2] . وعين من حاشيتهم فى ديوانه ، سبعمائة من أنجادهم . واستمر الحسن وذووه على ذلك زهاء عامين . ثم وقعت

---

(١) راجع الكتاب المذكور فى المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧٨ – ١٨٢ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩٤ – ٢٠٠ .

النفرة بينه وبين الحكم لأسباب منها ، «سوء خلق الحسن ولجاجته» . قال المؤرخ : «وكان الحسن بن قنون هذا جاهلا متهوراً فظاً ، شديد الجرأة ، قاسى القلب» . ولم ينس الحكم ما كان من قسوته وفظاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما ، حيث كان الحسن يلقى بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعته الشامخة فيصلون إلى الأرض إرباً[1] . وهكذا ثقل وجوده وذووه فى قرطبة . ومن جهة أخرى فقد كان الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحفى يتوجس شراً من وجود الحسن وصحبه ، ويستثقل نفقاتهم ، وينصح بإخراجهم من الأندلس . فرأى الحكم أن يقصيهم عن مملكته ، وأن يتخاص من نفقاتهم الباهظة ، وأن يبعث بهم إلى المشرق . وهكذا أخرج الحسن وعشيرته من قرطبة ، وركبوا البحر من ألمرية إلى تونس سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، ثم ساروا إلى مصر ، حيث نزلوا فى كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله ، فأكرم وفادتهم ، ووعدهم بنصرة قضيتهم . واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام ، حتى سنة ٣٧٣ هـ ، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه ، إلى بلكين بن زيرى بن مناد بالقيروان ، يطلب إليه إمداده وعونه ، على تنفيذ مشاريعه ، إلى أن كان من أمره ما سيجىء[2] .

وكان غرسية فرناندز ، ولد فرنان كنثالث ، صاحب قشتالة وألبة ، قد خلف أباه فى الحكم ، منذ وفاته فى سنة ٩٧٠ م . وكان مثله يتبع سياسة النفاق والمصانعة ، فى إظهار رغبته فى السلم ، ثم يقوم فى الوقت نفسه بالإغارة على الأراضى الإسلامية ، كلما سنحت الفرص . فلما شغل الحكم بحوادث المغرب ، وعبرت الجيوش الأندلسية وقوادها الأكابر ، إلى العدوة ، بعث غرسية قواته ، فأغارت على أراضى المسلمين ، واقتحمت حصن دسة الواقع شمال شرقى مدينة سالم ، والذى يتوسط أراضى بنى عمريل بن تيملت الثغرى . ووقع هذا الاعتداء فى شهر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ (صيف سنة ٩٧٤ م) ، وأحرق النصارى الزروع واستاقوا الماشية ؛ فخرج فى أثرهم زروال ومضاء ، ولدا عمريل ، واليا هذه

(١) «نبذ تاريخية فى أخبار البربر» ص ١٠ و ١٤ .

(٢) راجع فى سرد هذه الحوادث المغربية : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦١ – ٢٦٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢١٦ – ٢١٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٦ – ٨٨ . و «نبذ تاريخية فى أخبار البربر» ص ٦ – ١٢ .

المنطقة ، فى أصحابها ، واستنقذوا الماشية ، وقتلوا عدداً من النصارى ؛ ولكن النصارى تكاثروا عليهم بعد ذلك ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها زروال . ومن الغريب أن غرسية فرناندز ، كان قبل هذا الاعتداء بقليل ، قد بعث رسله إلى قرطبة ، فى طلب السلم والمهادنة ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا ؛ وما كادوا ينصرفون من قرطبة ، حتى جاءت الأنباء بما حدث من اعتداء القشتاليين ، فبعث الحكم لفوره أفلح صاحب الخيل ، فى سرية من وجوه الجند ، للقبض على السفراء القشتاليين ، فهرعت فى أثرهم واستطاعت أن تظفر بهم ، وأعيدوا إلى قرطبة حيث زجوا إلى السجن .

ووفد على الحكم فى العام التالى ، أبناء عمريل الخمسة بعد وفاة أبيهم ، وشهد القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن ، بحزمهم وحسن طاعتهم ، وأوصى بتقليدهم عمل والدهم ، فقسمت بينهم الأراضى والحصون ، على رضا منهم ، وغمرهم الحكم بالخلع والصلات[١] .

وكان من الأحداث البارزة فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، ما وقع من نكبة جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون الأندلسى . وكانا قد استقرا فى قرطبة ، فى كنف الحكم وتحت سابغ رعايته . وكان الحكم قد ابتاع منهما عبيدهما الذين استعفوا من خدمتهما ، ودفع الثمن إليهما ، وتم فصل العبيد عنهما ، وضمهم الحكم إلى جنده لما كانوا يتصفون به من الشجاعة والبأس ، وكان لذلك فيما يبدو أثر سيئ فى نفسيهما ، فقيل إنهما تكلما فى حق الخليفة بما لا يحمد ، وجاهرا بامتداح خلفاء الشيعة ، سادتهم الأوائل ، ونمى ذلك إلى الحكم ، فأمر فى الحال بالقبض عليهما ، وزجا مكبولين إلى سجن الزهراء . وكان ذلك فى شوال سنة ٣٦٣ هـ ، ولبثا فى المطبق بضعة أشهر ، حتى عاد الخليفة فعفا عنهما ، وأمر بإطلاق سراحهما ، وذلك فى رجب من العام التالى ، فأقرا بالذنب وطلبا الإنابة والصفح ، فأسعفهما الخليفة بما طلبا ، وغمرهما بصلاته[٢] .

---

(١) راجع ابن حيان فى « المقتبس » قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ (ص ٧٣ و١٨٨ و١٨٩) . وراجع بحثاً فى ذلك الموضوع للعلامة كوديرا عنوانه :

Embajodores de Castilla encarcelados en Córdoba de los ultimos anos de Alhakam II (B. R. A. H. Tom. XIV, 1889).

(٢) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧١ — ١٧٤ .

وعمد الحكم فى نفس الوقت إلى اصطناع البربر وفرسانهم ، لما لقيه منهم فى حربه ضد الحسنيين الأدارسة ، من المجالدة ووفرة البأس والشجاعة ، فأكرم وفادتهم ، وألحقهم بجنده ، وأجزل لهم العطاء . وكان فى مقدمة هؤلاء بنو برزال الذين أبلوا من قبل فى محاربة زيرى بن مناد الصنهاجى ، وكانوا قد عبروا إلى الأندلس ، وأغضى الحكم عن انحيازهم إلى مبادئ الخوارج الإباضية . وهكذا اجتمعت للحكم من عبيد جعفر ويحيى ومن داخلهم من أحرار البربر الوافدين ، قوة عسكرية بربرية تضم نحو سبعمائة فارس من خيرة الشجعان[١] .

وفى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٤ هـ أصدر الحكم أوامره بإسقاط سدس المغرم (الضرائب) الواجب أداؤه على سائر الرعايا عن هذه السنة ، وأنفذ بذلك مرسومه إلى سائر القواد والعمال بمختلف الكور ، وقرر أن يكون هذا السدس شائعاً فى الناس يستوى فى معرفته العالم منهم والجاهل ، وذلك ترفيهاً لهم وتحقيقاً لمصالحهم[٢] .

وفى شهر رجب من هذه السنة ، بعث الحكم ، نظراً لما بدا من تحركات النصارى فى مختلف الأنحاء ، عدداً من أكابر رجال المملكة إلى كور الأندلس لحث أهلها على ارتباط الخيل ، والاستعداد لمؤازرة جيش الصائفة ، وكان ممن بعث من رجالاته صاحب الشرطة العليا ، يحيى بن عبيد الله بن يحيى ، بعثه إلى كور الجوف ، وبعث قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس إلى كور الشرق ، وبعث أحمد بن محمد بن سعد الجعفرى إلى الغرب ، نحو شنترين وما إليها ، وبعث آخرين لنفس الغرض[٣] .

وفى أوائل شعبان سنة ٣٦٤ هـ (ابريل ٩٧٥ م) هاجم جيش مشترك من الجلالقة والقشتاليين والبشكنس ، حصن غرماج الواقع على نهر دويرة على مقربة

---

(١) ابن حيان – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩١ و ١٩٢ .

(٢) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٠٨ . وقد أورد لنا ابن حيان نص هذا المرسوم كاملا (ص ٢٠٧ و ٢٠٨) وفيه يقرر الحكم أنه أصدر مرسومه المذكور « لما تظاهرت آلاء الله تعالى عليه ، وحسن بلائه عنده » وأنه « رأى أن يجدد له الشكر » ويمترى منه المزيد بإسقاط سدس جميع مغرم الحشود الواجب تقاضيها منهم لسنة أربع وستين وثلاثمائة ، تخفيفاً عن رعيته وإحساناً إلى أهل مملكته .

(٣) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٦ .

من مدينة سالم ، ونشب بينه وبين حاميته الإسلامية قتال عنيف . وشجع النصارى على انتهاك السلم المعقود بينهم وبين الخليفة ، اعتقادهم بأن قوى الأندلس كلها ما تزال مشغولة بحروب العدوة . وانقلب النصارى إزاء بسالة الحامية الإسلامية إلى محاصرة الحصن ، ووافتهم أمداد أخرى جاءت لتشد أزرهم . وما كاد الحكم يقف على هذه الأنباء حتى بعث كبير قواده غالباً بن عبد الرحمن فى قوة مختارة غادرت قرطبة على عجل . وبعث الحكم فى أثرها أحمال المال للإنفاق على الصائفة . واستمر حصار النصارى لغرماج حتى شوال من تلك السنة . وجاءت للنصارى أمداد جديدة من جند ليون ، سيرتها الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون ، ناكثة بذلك عهدها فى التهادن والسلم . وفى منتصف شوال ، هاجم النصارى الحصن ، وهم فى أكثر من ستين ألفاً ، محاولين اقتحامه ، ونشبت بينهم وبين الحامية الإسلامية معركة طاحنة انتهت بهزيمة النصارى وتبديد شملهم ، فبادرت صفوفهم بالارتداد عن الحصن بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وعتادهم ، وطاردهم المسلمون ، فقتلوا منهم جموعاً أخرى ، وأحرزوا غنائم جمة . وبعث المسلمون إلى الوزير غالب ، وهو مقترب منهم لنصرتهم ، بنبأ هذا الظفر ، فأنفذه من فوره إلى الخليفة ، وسار إلى الحصن ونزل به ، ثم خرج فى قواته ، فعاث حيناً فى أراضى قشتالة ، وانتسف الزروع ، وخرب القرى . وتقدمت قوة بعث بها غرسية فرنانديز صاحب قشتالة لمدافعة المسلمين ، فهزمت وردت إلى أعقابها(١) .

* * *

تولى الحكم المستنصر الملك ، حسبما أسلفنا ، وهو كهل فى الثامنة والأربعين من عمره ، ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولداً ، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه ، إذ كان يتوق أن يكون له وريث فى الملك . ومن ثم فقد سر أيما سرور حينما ولدت له حظيته « جعفر » أو صبح الناڤارية ، ولداً سماه عبد الرحمن (سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م) ، وكان مولده حادثاً خطيراً ، نوهت به الشعراء والأدباء . ولكن هذا الولد توفى طفلا ، فحزن الحكم لفقده أيما حزن . على أن القدر لم يلبث

(١) المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٣٤ — ٢٣٧ .

أن حباه مرة أخرى ، إذ ولدت «جعفر» ولداً آخر سماه أبوه هشاماً وكنيته أبو الوليد ، فكان ولى عهده الملقب بالمؤيد . « فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه »(١). وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى وقت البشارة بولادته ، وأنشد هذه الأبيات :

أطلع البـــدر فى سحابه وأطرف السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعـــالى ليثبت الملك فى نصـــابه
بشرنا ســيد الــبرايا بنعمـــة الله فى كتـــابه

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م) ، وكان مؤدبه مذ بلغ الثامنة من عمره الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف القسطلى ، وقد أمر الحكم بأن تعد لتعليمه الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء ، وأن تزود بجميع ما يحتاج إليه لذلك . وكان قعود هشام مع مؤدبه فى المجلس الشرقى منها فى رمضان سنة ٣٦١هـ . وندب الحكم وصيفه الفتى ذكاء ناظراً للأمير متكفلا بشئونه(٢). وفى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ندب الخليفة العلامة النحوى أبا بكر الزبيدى الإشبيلى ليقوم بتدريس العربية وعلومها لولى العهد . وفى العام التالى ندب الفقيه المحدث يحيى بن عبدالله ابن يحيى ليقوم بإسماعه الحديث . وكان يومئذ عمدة المحدثين بقرطبة(٣) . وسنرى أى دور عظيم تلعبه فيما بعد ، أم هشام جعفر أو صبح النافارية ، على مسرح الحوادث .

وأما عن شخص الحكم ، فقد كان حسبما تصفه الرواية ، أبيض مشرباً بحمرة ، أعين ، أقنى ، جهير الصوت ، قصير الساقين ، ضخم الجسم ، غليظ العنق ، عظيم السواعد ، أفقم(٤) .

* * *

يمتاز عصر الحكم المستنصر بظاهرة ، من ألمع الظواهر فى تاريخ الدولة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٣ .
(٢) ابن حيان فى المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ و ٧٧ .
(٣) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٣٣ و ٢١٦ .
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ . والأعين هو ذو العينين السوداوين النجلاوين ، والأقنى ذو الأنف المرتفع الأعلى والمحدودب الوسط ، والأفقم أى الأعرج .

الأندلسية ، هى ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار ، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة ، التى كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها ، من أعظم مكتبات العصور الوسطى .

ويرجع ذلك قبل كل شىء إلى شخصية الحكم نفسه ، وإلى صفاته العلمية الممتازة ، التى نوه بها أكثر من مؤرخ أندلسى ، وإلى شغفه العظيم بجمع الكتب ، وهو شغف كان له أكبر الأثر فى ملء خزائن الأندلس بنفائس الكتب ، من كل فن ومن كل قطر ، من أقطار العالم الإسلامى .

وقد أشاد ابن حيان مؤرخ الأندلس — وقد عاش قريباً من عصر الحكم — بصفات الحكم العلمية ، وتقدمه فى العلوم الشرعية ، وعنايته بتحقيق الأنساب وتأليف قبائل العرب ، واستدعاء رواة الحديث من جميع الآفاق ، وإيثار مجالس العلماء ، وشغفه بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها[1] . ويشاطره معاصره الفيلسوف ابن حزم ، هذا الإعجاب بصفات الحكم العلمية ، ويذكر لنا فى أكثر من موضع من مؤلفه الجامع فى الأنساب ، أنه ينقل من خط الحكم[2] . ويجمل ابن الخطيب هذه الصفات فى قوله : « وكان رحمه الله (أى الحكم) عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً فى معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جماعاً للكتب ، مميزاً للرجال من كل عالم وجيل ، وفى كل مصر وأوان ، تجرد لذلك ، وتهمم به ، فكان حجة وقدوة ، وأصلا يوقف عنده »[3] .

وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذى قام به الحكم فى إنشاء المكتبة الأموية الكبرى . وكانت هذه النزعة الأموية ، إلى تشجيع العلوم والآداب وجمع الكتب ، قد بدت منذ عصر عبد الرحمن الداخل . وفى عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن كانت المكتبة الأموية بالقصر ، أعظم مكتبات قرطبة . وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق ، حتى أن قيصر

---

(١) الحلة السيراء ، نقلا عن ابن حيان ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٩٢ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٨٤ ، ٣٩٨ . وقد وضع الحكم بالفعل كتاباً فى « أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب » (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤١ .

قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة ، حرص على أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس .

ولما توفى الناصر ، عنى ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها ، لتكون بداية طيبة للمكتبة الأموية العظيمة ، التى أنفق بقية عمره فى جمعها وتنسيقها(١) .

ويقول لنا ابن حيان فى دهشة وإعجاب إنه « لم يسمع فى الإسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها . أفاد على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه ووصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية » . وكان الحكم يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر ، بالصلات الجزيلة ، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم . ومن ذلك أنه بعث إلى أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب العين ، ليحصل منه على نسخة من كتابه «الأغانى» . فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليه أحد فى العراق أو ينسخه أحد منهم ، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً — وهو ممن ينتمون إلى المروانية بنى أمية — كتاباً ألفه فى أنساب قومه بنى أمية ، يشيد فيه بمجدهم ومآثرهم ، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة(٢) . وفعل الحكم مثله ذلك مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى ، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الأولى من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم . وأسبغ الحكم رعايته على اللغوى الكبير أبى على القالى ، الذى وفد من العراق على أبيه الناصر ، وقربه إليه ، وألف كتبه تحت كنفه ، وأورث أهل الأندلس علمه(٣) . وأهدى إليه أبو عبد الله الخشنى بعض كتبه ومنها كتاب «القضاة» أو «قضاة قرطبة»(٤) ؛ وأهدى إليه مطرف ابن عيسى الغسانى ، كتابه المسمى بالمعارف فى « أخبار كورة إلبيرة » ، كما أهدى إليه كثير من علماء العصر مؤلفاتهم ، تيمناً برعايته للعلم والعلماء . وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد ، ولاسيما فى بغداد والقاهرة ودمشق ، ينقبون له عن الكتب ، ويحصلون منها على النفيس والنادر ، كما كانت له فى بلاطه طائفة

---

(١) J. Ribera : Disertaciones y Opusculos (Madrid 1928) p. 191 & 192

(٢) الحلة السيراء — عن ابن حيان ص ١٠٢ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

(٤) راجع كتاب قضاة قرطبة للخشنى (المقدمة) .

أخرى ، من البارعين فى نسخ الكتب ، وتحقيقها ، وتجليدها ، وتصنيفها . وبذل فى هذا السبيل من الجهود والأموال ما لم يسمع به ، واجتمع لديه من نفائس الكتب فى مختلف العلوم ، ما لم يجتمع لأحد قبله . ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفى ، عن استيعاب العدد العظيم ، من الكتب الواردة إليها باستمرار ، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة ، افتن المهندسون فى ترتيبه وتنسيقه ، وإنارة أبهائه . قال ابن حزم « ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم » وذكر لنا أن تليداً الفتى — وكان على خزانة العلوم بقصر بنى أمية بالأندلس — أخبره أن عدد الفهارس التى كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط (١).

وعهد الحكم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة إلى أخيه عبد العزيز . وعهد بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها إلى أخيه المنذر . وكان يقضى معظم أوقاته بمدينة الزهراء ، فى أبهائها المنيفة وظلالها الهادئة ، معتكفاً على القراءة والدرس برفقة صفيه محمد بن يوسف الحجارى ، الذى كتب له تاريخ الأندلس والمغرب ، وتواريخ أخرى لبعض المدن . وكان من أصفيائه فى تلك المجالس أيضا ، الفتى سابور الفارسى ، الذى قدم بدعوته إلى قرطبة ، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له ، وكان من أعلم أهل عصره (٢) .

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب ، فى عصر الحكم ، قاصراً على الأمير ، فقد عنى كثير من كبراء العصر وعلمائه ، بانشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب . وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب ، وإنشاء المكتبات ، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم ، وكانت من أبرع نساء عصرها ، علماً وأدباً وشعراً ، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة . وكانت سوق الكتب فى قرطبة ، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة . بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم ، وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية ، ويتذوقون ثمرات التفكير العربى من أدب وشعر وفلسفة وغيرها . وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودى حسداى ، طبيب الحكم الخاص ، وفى

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٩٢ . ونقلها ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٠٣ .

(٢) Modesto Lafuente : Historia General de Espana ; T. III, p. 337.

ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية ، وألفوا بها مختلف الكتب ؛ وكان من أشهر المكتبات الأندلسية الخاصة فيما بعد ، مكتبة يوسف بن إسماعيل ابن نغرالة اليهودى ، وزير باديس أمير غرناطة[١] .

وإلى جانب هذا الشغف بالكتب والثقافة العالية ، كان التعليم العام فى عهد الحكم يجوز نهضة عظيمة ، وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة ، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة فى أوربا — خلا رجال الدين — لا يعرفو ن. وأسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً . أما جامعة قرطبة ، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم ، وكان مركزها فى المسجد الجامع ، وتدرس فى حلقاتها مختلف العلوم ، وكان يدرس الحديث أبو بكر ابن معاوية القرشى ، ويملى أبو على القالى ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وكان ابن القوطية يدرس النحو ، وكان يدرس باقى العلوم أساتذة من أعلام العصر ، وكان الطلبة يعدون بالآلاف[٢] .

وكان الحكم يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل والنحل ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين . ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريثموندو الإلبيرى ، المسمى باسمه العربى ، ربيع بن زيد ، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته ، لتبحره فى علم الفلك ، والعلوم الفلسفية ، وهى من الدراسات التى كان يعنى بها الحكم . وكان هذا الحبر القرطبى عالماً مبرزاً ، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه ، ويحبوه بعطفه ورعايته بالرغم من نصرانيته ، وكان يشغل مكانة هامة فى القصر[٣] .

يقول العلامة دوزى : « وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان والأجانب لم يعرف حداً ، وقد كانوا يهرعون إلى بلاطه . وكان المليك يشجعهم ويوليهم رعايته ، حتى الفلاسفة استطاعوا فى ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون

---

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (القاهرة) ج ٢ ص ٦٥٤ ، وكذلك J. Ribera : ibid., p. 199—202

(٢) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, Vol. II, p. 184 & 185

(٣) F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897), p. 607 & 612.

خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون »[1]..

ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه بتلك النزعة العلمية التى امتاز بها الحكم ، والتى سادت كل عصره . فمثلا يقول لنا المؤرخ الإسبانى موديستولافونتى :

« كانت دولة الحكم الثانى دولة الآداب والحضارة ، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء . وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر ؛ فهل نغضى نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموى المستنير من الصفات الباهرة ، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً؟ إن ذلك يعنى أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراچان وأدريان وماركوس أوريليوس ، لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى . إن السلم الذى وطده أكتاڤيوس فى اسبانيا الرومانية ، قد وطده الحكم فى اسبانيا العربية ؛ وقد قدم الحكم ، كما قدم أكتاڤيوس من قبل ، الأدلة على أن الرغبة فى السلم ، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر ، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض ، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح ، وإكليل الجامعات الحقيقى على إكليل الحروب الدموى .

لقد أعيد عصر أوغسطوس فى اسبانيا بعد ألف عام فى صورة جديدة ، وقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة ، وأغدق على ثمرات العبقرية فيض الإغداق والكرم الرائع ، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة ، ومدى الصبر ، والمثابرة ، والنفقات التى أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة ، من أربعمائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط ، هى محتويات مكتبة قصر بنى مروان » .

ثم يشير موديستو لافونتى بعد ذلك إلى أن هذا المستودع الزاخر من ثمرات العقل ، وتلك الحضارة التى وصل إليها العرب فى عصر الحكم ، كانت قد وضعت بذورها من قبل ، وتعاقب أمراء بنى أمية منذ عبد الرحمن الداخل فى تعهدها بالغرس والنماء ، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم والأدب ، ومن حماة العلوم والآداب . ثم يختتم تعليقه على عصر الحكم بقوله :

« لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذى يعشق الآداب فى عهد سعيد من السلم ، ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل ، فقد تفتحت فى ظل رعايته ، وازدهر

---

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne ; Vol. II, p. 189.

الغرس ازدهاراً عظيماً ، حتى أنه بعد الحرث الكثير ، والمطر الغزير ، بدت شمس وضاءة رائعة منعشة »(١) .

وقد اختلف فى تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة ، التى أنشأها الحكم المستنصر ، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد ، وقدرها البعض الآخر بستمائة ألف(٢). وكانت توجد فى قواعد الأندلس الأخرى ، عدا مكتبة قرطبة العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى(٣). وهذا وحده يكفى للدلالة على مدى التقدم العظيم ، الذى بلغته الحركة الفكرية والأدبية فى الأندلس ، فى هذا العصر الزاهر. ولبثت المكتبة الأموية العظيمة قائمة بقصر قرطبة ، حتى وقعت الفتنة الكبرى فى سنة ٤٠٠ هـ ، وحاصر البربر قرطبة ، فأخرجت معظم الكتب من خزائنها خلال الحصار ، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن أبى عامر ، ثم نهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة ، حسبما نذكر بعد(٤) .

* * *

وشعر الحكم فى أواخر عهده ، بأعراض الضعف والمرض تدب إليه ، فانتقل من قصر الزهراء وفقاً لنصح أطبائه ، لغلبة برد الجبل عليه ، وقضى حيناً فى منية ناصح ، ومنية الناعورة ، ثم انتقل إلى قصر قرطبة . وعقد العزم على تأمين ولاية العهد لولده الطفل هشام . وتم ذلك فى شهر جمادى الثانية سنة ٣٦٥ هـ (٥ فبراير سنة ٩٧٦ م) حيث جلس الحكم بقصر قرطبة ، وأعلن عزمه فى تقليد ولده عهد الخلافة من بعده ، وأخذت البيعة بالفعل من الحاضرين ، وأخرجت كتبها لسائر الخاصة والعامة . وتولى أخذها على الناس وفق مراتبهم ، محمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث ، وكان من قبل كافلا لهشام ، وميسور الفتى الكاتب مولى صبح ، ثم دعى لهشام فى الخطبة بالأندلس والمغرب ، ونقش اسمه فى السكة .

---

(١) Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Barcelona 1889), Tom. II ; p. 364 - 367.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

(٣) Prescott : Ferdinand and Isabella of Spain, p. 187.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

وينعى ابن حيان على الحكم هذه السياسة فى اختيار ولده الطفل لولاية العهد ، فيقول إنه أى الحكم على ما وصف من رجاحة «كان ممن استهواهم حب الولد ، وأفرط فيه ، وخالف الحزم فى توريثه الملك بعده ، فى سن الصبا دون مشيخة الأخوة ، وفتيان العشيرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرط هوى ، ووهلة انتقدها الناس على الحكم ، وعدوها الحانية على دولته . وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله » .

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل ، بشلل أقعده عن الخروج والحركة ، ويقول لنا ابن حيان إن الحكم كان يعانى من هذه «العلة الفالجية » ولا يكاد يستفيق منها(1) فلزم فراشه ، وتولى تدبير الشئون خلال مرضه ، وزيره جعفر بن عثمان المصحفى . ثم توفى بعد ذلك بأشهر قلائل ، فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ ﻫ (٣٠ سبتمبر سنة ٩٧٦ م)(2) .

* * *

وكان الحكم المستنصر من خيرة أمراء بنى أمية خلقاً وعلماً وعدلا . وتنوه الرواية الإسلامية فى غير موطن بجميل خلاله وصفاته . فيقول لنا ابن الأبار : « وكان حسن السيرة ، فاضلا عادلا ، مشغوفاً بالعلوم »(3) . ويقول لنا ابن الخطيب : « وإليه انتهت الأبهة والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية »(4). وكان الحكم من ذوى الورع والتقوى ، تشهد بذلك عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع ، وتوسعته وإنشاء منبره الجديد ، وتزويده بالماء بطريقة هندسية بديعة ، وما بذله فى سبيل ذلك من النفقات الطائلة ، ويشهد بذلك أيضاً تشدده فى محاربة الخمر وإراقتها(5). وكان محباً للعدل معنياً بإقامته ، شديداً فى محاسبة الطغاة من العمال والحكام، يؤيد ذلك ما رواه صاحب

---

(١) المقتبس — قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ ص ٢١١ .

(٢) تضع معظم الروايات وفاة الحكم فى هذا التاريخ (الحلة السيراء ص ١٠١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٥ ، وابن الخطيب عن ابن حيان ، فى أعمال الأعلام ص ٥٦) . ولكن صاحب البيان المغرب ينفرد بالقول بأن وفاته كانت فى الثالث من رمضان سنة ٣٦٦ ﻫ .

(٣) الحلة السيراء ص ١٠١ .

(٤) أعمال الأعلام ص ٤٩ .

(٥) الحلة السيراء ص ١٠٣ .

البيان المغرب من أنه أرسل غير مرة إلى الحكام الظلمة ، يحذرهم من سطوته ، وإلى القواد والعمال ، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب[١] .

وكان من أعمال الحكم الإنشائية أيضاً إصلاح قنطرة قرطبة العظيمة على نهر الوادى الكبير ، وتقوية دعائمها التى وهنت بمضى الزمن (سنة ٣٦١ هـ) ، وإشرافه على ذلك بنفسه[٢] .

وكان الحكم عارفاً بأقدار الرجال ، مميزاً للنابهين منهم ، وقد جمع فى حكومته وبلاطه جمهرة من أعاظم رجال العصر وألمعهم . وكان فى مقدمة هؤلاء ، كبيرهم وزعيمهم الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفى . وكان جعفر ينتمى إلى بطن من بطون البربر من بلنسية ، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم ، وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة ، فلما أسندت إليه ولاية العهد ، قدم جعفر فى الأعمال واستخدمه فى الكتابة ، ثم ولاه الناصر بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة . ولما ولى الحكم الخلافة استوزره وأمضاه على كتابة الخاصة ، وضم إليه بعد ذلك ولاية الشرطة ، ثم تولى بعد ذلك منصب الحجابة أى رياسة الوزارة ، خلفاً للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى ، وأصبح أول رجل فى الدولة ، واجتمعت لديه سائر السلطات ، ولما رزق الحكم بولده هشام اختار جعفر كافلا له ، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته . وكان المصحفى من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن ، أورد لنا منه ابن الأبار مختارات رقيقة مشرقة تدل على تمكنه[٣] .

وكان من أشهر أعمال المصحفى فى بداية عهد الحكم أن قدم إليه هديته الباذخة ، التى حاول أن يبز فيها هدية الوزير ابن شهيد إلى الناصر . وقد أورد لنا ابن حيان فى المقتبس وصفاً لمحتويات هذه الهدية الشهيرة وهى : مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو العدة والسلاح ، وثلاثمائة وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون خوذة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس – قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ السابق الإشارة إليها ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) راجع ترجمة جعفر المصحفى ومختارات من شعره ، فى «الحلة السيراء» ص ١٤١–١٤٧ .

حبشية من حبشيات الإفرنجة ، وثلثمائة حربة إفرنجية ، ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس[١].
وكانت هدية المصحفى للحكم ، من أشهر الحوادث الاجتماعية فى هذا العصر .

وكان من أكابر دولة الحكم أيضاً ، القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى صاحب مدينة سالم ، وكان مولى لأبيه الناصر . وكان غالب ، فضلاعن كونه من نصحاء الحكم ، ومستشاريه المقربين ، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها فى هذا العصر ، وكان الحكم ، عرفاناً منه بقدر هذا القائد المظفر ، قد أسند إليه القيادة العليا ، وأصدر مرسومه بذلك إليه فى سنة ٣٦١ ﻫ ، وذلك « لغنائه وجميل مقامه » . ثم عاد على أثر انتصاره فى موقعة حصن غرماج فى سنة ٣٦٤ ﻫ ، فقلده سيفين مذهبين من ذخائر سيوفه ، وسماه « ذا السيفين » ،[٢] وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبى ، والقائد سعيد بن الحكم الجعفرى ، وكلاهما من أعظم الوزراء والقادة ، وقد برز كلاهما فى غزوات الصوائف ، وحوادث المغرب الأقصى .

وكان من كتاب الحكم عيسى بن فطيس ، ومن قضاته منذر بن سعيد البلوطى كبير القضاة فى عهد أبيه الناصر ، ثم أبو بكر محمد بن السليم .

وكان الحكم ، بالرغم مما كان يسود الممالك الإسبانية النصرانية فى عهده من جنوح إلى المهادنة والسلم ، يرقب حركاتها وتصرفاتها بعناية ، وقد رتب لذلك بعض عماله المهرة المخلصين المعروفين بصدق الخدمة ، وفى مقدمتهم ابن أبى عمروس العريف ، وصاحبه سعيد ، للسفارة بينه وبين ملوك جليقية ، ولقاء قواميسها ، والتردد عليهم « للتعرف على أخبارهم ، والتجسس لأنبائهم » وحمل الكتب إليهم فى كل وقت ، وصرفها عنهم ، وهو ما يفصح عن بعض الوسائل التى كان يلجأ إليها بلاط قرطبة للإحاطة بأخبار الممالك النصرانية ونياتها[٣].

وكان الحكم شاعراً مطبوعاً ينظم القريض الرقيق ؛ ومما ينسب إليه قوله :

إلى الله أشكو من شمائل مسرف   علىّ ظلوم لا يدين بما دنت

---

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٤ .
(٢) راجع المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٦٩ و ٢٢٠
(٣) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ .

نأت عنه داری فاستزاد صدوده ... وإنی علی وجدی القدیم کما کنت
ولو کنت أدری أن شوقی بالغ ... من الوجد ما بلغته لم أکن بنت

وقوله :

عجبت وقد ودعتها کیف لم أمت ... وکیف انثنت بعد الوداع یدی معی
فیامقلتی العبرا علیها اسکبی دماً ... ویا کبدی الحرا علیها تقطعی

* * *

ونلاحظ أخیراً أن بلاط قرطبة ، کان فی أیام الحکم المستنصر ، یبدو فی بهی أثوابه الملوکیة والخلافیة ، وکان جلوس الحکم فی أیام الأعیاد أو لاستقبال الوافدین والسفراء من أیام قرطبة المشهودة . وقد أفاض ابن حیان فی وصف هذه الأیام والحفلات الباذخة . ویبدو مما کتبه أن الخلیفة الحکم ، کان یؤثر الجلوس فی هذه الأیام بالمجلس الشرقی من قصر الزهراء ، ویجلس عن یمینه ویساره إخوته بترتیب السن ؛ ثم یلیهم فی ترتیب الجلوس ، الوزراء ، یجلسون بعد فرجتین ، إلی الیمین وإلی الیسار ، ویلی ذلك صاحب المدینة بقرطبة ، ویجلس إلی الیمین ، وإلی جانبه صاحب المدینة بالزهراء ، ثم یجلس من بعدهم صاحب الحشم ، فصاحب الخیل ، فأصحاب الشرطة العلیا والوسطی ، وسائر طبقات أهل الخدمة وفق مراتبهم ، وقاضی الجماعة ، والحکام وأصحاب الشرطة الصغری ، وأسباط الخلاف ، وجلة قریش ، ثم وجوه الموالی ، ثم قضاة الکور والفقهاء المشاورون والعــدول ، وأعیان قرطبة . ویصطف الجند فی أثوابهم الزاهیة ، منذ مداخل القصر حتی الممر المفضی إلی مجلس الخلیفة ، وقد أورد لنا ابن حیان وصف هذا النظام فی مختلف المناسبات الرسمیة ، مما یدل علی أنه هو نظام البروتوکول (المراسیم) الثابت الذی کان یتبعه بلاط قرطبة فی هذا العهد عند جلوس الخلیفة للمناسبات الرسمیة الکبری (١) .

ویجب أن نلاحظ من ذلك الوقت التطور العظیم ، الذی حدث فی تکوین المجتمع الأندلسی . فقبل عهد الناصر کانت الریاسة والأرستقراطیة ، تنحصر فی القبائل العربیة . وکان البربر یحتلون مقاماً أدنی . وکانت المعارك یضطرم لظاها

---

(١) ابن حیان فی المقتبس — قطعة أکادیمیة التاریخ ص ٢٩ و ٤٩ و ٥٠ و ٥٧ و ٨١ و ٩٤ و ١٩٤ و ١٩٥ .

باستمرار بين السلطة المركزية أعنى بين الإماوة وبين العصبية العربية ، التى تحاول دائماً أن تقيم رياستها فى الثغور والمدن على أساس الاستقلال المحلى . وقد استمرت هذه المعارك عصوراً ، منذ عبد الرحمن الداخل ، حتى جاء الناصر ، فشدد فى مطاردة العصبية العربية وتحطيمها ، وآثر أن يعهد بالرياسة والسلطات المحليه إلى طوائف الصقالبة حسبما شرحنا ذلك من قبل . وفى عهد الحكم المستنصر كانت الأرستقراطية العربية ، قد اضمحلت ، وغاض نفوذها ، واختفت كقوة سياسية واجتماعية تخشاها السلطة المركزية ، وإن كانت قد بقيت كطبقة من الطبقات ، وحلت محلها أرستقراطية من نوع جديد ، قوامها القادة والرؤساء العسكريون ، من الموالى والصقالبة ، فكانت بذلك أرستقراطية سيف ، وليست أرستقراطية قبيل أو عصبية ، وبلغ الفتيان الصقالبة أيام الحكم ، ذروة القوة والفوذ والثراء ، مثلما كانوا أيام أبيه الناصر . ويكفى أن نذكر هنا دليلا على ضخامة ثراء هؤلاء القوم ، أن أحدهم وهو الفتى الكبير درّى الخازن ، قام بإهداء مولاه الخليفة الحكم ، منيته الغراء بوادى الرمان من ضواحى قرطبة ، وكان قد أنشأها مغنى ومتنزهاً ، وأفاض عليها أروع صنوف البذخ والبهاء ، وجعلها برياضها ومنشآتها جنة حقة . وقد قبل الحكم هدية فتاه ، وقام بزيارة هذه المنية مع ولى عهده هشام وحاشيته ، وأنفق فيها يوم استجمام ومسرة . وقد أجمع الخليفة ومرافقوه على أنهم « لم يشاهدوا فى المتنزهات السلطانية أكمل ولا أعذب ولا أعم من صنيع درّى هذا »(١) . هذا وأما الطبقة الوسطى فقد انحصرت فى التجار ورجال الصناعة وغيرهم ممن استطاعوا أن يحرزوا بالتجارة والفنون فى مختلف القواعد ثروات عظيمة . ويأتى بعد الطبقة الوسطى ، طبقات الشعب الكادحة ، وكانت على نحو ما يحدث فى كل زمان ومكان ، تبغض الطوائف الميسورة ، وتنقم عليها نعماء العيش .

وكانت ثمة طبقة أخرى ، ذات مميزات خاصة ، هى طبقة المولدين أو بعبارة أخرى مسلمو الإسبان ، وكانت تحتل مكانها بين الطبقات المتوسطة والميسورة . وكان بينها الكثيرون ممن أحرزوا الجاه والنفوذ والثراء . بيد أن المولدين بالرغم من إسلامهم ، كانوا يعتبرون أقل مكانة من المسلمين الأصليين . وكان المعروف

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٧ .

من أصولهم دائماً ، أنهم كانوا على الأغلب عبيداً أو مسترقين من القوط ، دخلوا فى الإسلام اجتناء للحرية . وقد زاد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ عهد عبدالرحمن ابن الحكم ، حيث دخل كثير من النصارى المعاهدين فى الإسلام ، حينما اشتدت وطأة حكومة قرطبة عليهم ، أيام الفتن التى حاولوا إثارتها لإشاعة الإضطراب والفوضى ، حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وبذلك ازداد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، وغدوا فى ظل الخلافة أيام الناصر وولده الحكم ، يمثلون أقلية كبيرة بين الأمة الأندلسية .

وأما الطبقة المسترقة أو طبقة العبيد ، فكانت فى تلك العصور تتألف من العمال العبيد ، الذين يلحقون فى الغالب بالضياع . وكان هذا النظام موجوداً منذ أيام القوط ، ولكنه طبق أيام المسلمين ، بصورة أفضل بكثير مما كان عليه ، ومنح هؤلاء العمال حقوقاً إجتماعية وإنسانية ، رفعت عنهم كثيراً من صور العبودية القديمة ، التى كانت تعطى للسيد عليهم حق الحياة والموت ، والبيع والشراء . ويلحق بغير الأحرار أيضاً طبقة الصقالبة والخصيان . بيد أن هذه الطبقة كانت تحتل مكانة ملحوظة فى المجتمع ، وكان لها فى الحكومة والقصر ، إيما نفوذ ، وقد ظهر منها زعماء وقادة وصلوا إلى مراكز عظيمة ، وكان لهم فيما بعد شأن يذكر ، فى تطور الحوادث التى أعقبت انهيار الخلافة الأندلسية .

وإلى جانب هذه الطبقات المختلفة ، التى تتألف منها الأمة الأندلسية ، كانت توجد دائماً طبقة النصارى المعاهدين ، الذين يعيشون فى ظل الحكم الإسلامى ، وكانت تجتمع فى القواعد الأندلسية فى أقليات كبيرة . وكانت تحتل فى العاصمة وفى بعض المدن الأخرى مكانة خاصة ، ويشغل كثير من أفرادها مراكز هامة فى الحكومة والجيش ، وقد تحدثنا من قبل عن بعض أحوال هذه الطبقة وظروفها . ويجب أخيراً ألا ننسى الأقلية اليهودية . فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية ، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية ، فى ظل ذلك التسامح الإسلامى المأثور ، ووصلوا فى قرطبة فى ظل الخلافة ، إلى ذروة النفوذ والرخاء . وفى أيام الناصر تولى أحدهم ، وهو العلامة حسداى بن شبروت ، الإشراف على الخزانة العامة ، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية ، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية ، من اليونانية إلى العربية ،

وهو الكتاب الذى الذى قيصر منه نسخة إلى الناصر . وفى ظل هذه الرعاية ، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة ، أيام الناصر وولده الحكم ، وقامت فى ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية ، ومؤسسها الرابى موسى بن حنوش ، وازدهرت فى ظلها البحوث التلمودية ، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث . واستمرت الخلافة الأموية ، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها ، وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى ، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية ، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة (١).

---

(١) راجع : R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola, Vol. I, p. 250-252.

الفصل الثانى

هشـــام المؤيد بالله

مؤامرة الفتيان الصقالبة لإبعاد هشام وترشيح المغيرة بن الناصر . الحاجب جعفر يناهض مشروعهم . محمد بن أبى عامر يتولى قتل المغيرة . معسكر الصقالبة ومعسكر الأحرار . أخذ البيعة لهشام . وصف ابن الخطيب لأحوال الخلافة الأندلسية يومئذ . اجتماع السلطة فى يدى الحاجب جعفر وابن أبى عامر . صبح البشكنسية أم المؤيد . ظهورها فى بلاط قرطبة وتمكن نفوذها من الحكم . حظوة الحاجب جعفر لديها . محمد بن أبى عامر . أصله ونشأته . خلاله وطموحه . حظوته لدى صبح . طبيعة العلائق بينهما . مصانعته للحاجب جعفر . نفوذه لدى صبح . جعفر المصحفى يتولى الحجابة وابن أبى عامر الوزارة . الصراع الخفى بين الرجلين . الخليفة الصبى هشام . شغفه باللهو واللعب . حجبه والحجر عليه . دور ابن أبى عامر فى ذلك . طموحه فى الاستئثار بالسلطة . الفتيان الصقالبة . تفاهم الحاجب وابن أبى عامر على سحقهم . ابن أبى عامر يتولى قيادة الجيش ويغزو أرض النصارى . الخلاف بين الحاجب والقائد غالب . مسير ابن أبى عامر وغالب إلى الغزو . ذيوع شهرة ابن أبى عامر . الصراع بينه وبين المصحفى . محاولة المصحفى التفاهم مع غالب . ابن أبى عامر يحبط خطته . مسير ابن أبى عامر وغالب ثانية إلى الغزو . زواج ابن أبى عامر من أسماء ابنه القائد . تولية غالب منصب الحجابة . تضاءل مكانة المصحفى . إقالته والقبض عليه وعلى أهله . اشتداد ابن أبى عامر فى مطاردته . وفاة المصحفى أو قتله فى سجنه . شعر له فى محنته . ابن أبى عامر يسحق خصومه ومنافسيه . اهتمامه بتنظيم الجيش . اصطناعه للبربر واضطهاده للعرب .

لما توفى الحكم المستنصر بالله ، فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، حرص خادماه الخصيان ، الفتيان فائق وجؤذر ، على كتمان خبر موته ، وقاما بضبط القصر ، واتخاذ التدابير اللازمة ، لتسيير الأمور وفق الخطة التى وضعاها . وكانت هذه الخطة ، تنحصر فى تنحية ولى العهد الصبى هشام عن العرش ، واختيار عمه أخى المستنصر ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، لولاية العرش ، وكان الفتيان الصقالبة داخل القصر ، زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ، وفى يدهم الحرس الخليفى ومعظمه من الصقالبة والمرتزقة . فكانوا بذلك قوة يخشى بأسها .

استدعى فائق وجؤذر ، الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحفى ، ونبآه بموت الخليفة وعرضا عليه مشروعهما ، فى تولية المغيرة ، فتظاهر الحاجب بالاستحسان والموافقة ، ووعدهما بالعمل وفق خطتهما ، وتنفيذ ما يشيران به . ثم خرج ،

فبادر إلى ضبط أبواب القصر ، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم ، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم ، وقاسم بن محمد ، ومحمد بن أبى عامر ، وهشام بن محمد بن عثمان وغيرهم . واستدعى فى نفس الوقت عصبته وأشياعه من زعماء البربر ، مثل بنى برزال ، كما استدعى سائر القادة الأحرار ، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف ضخمة . فنعى لهم الخليفة ، وعرض عليهم مشروع الفتيان الصقالبة ، فى تنحية هشام وتولية المغيرة ، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم ، وأنه إذا ولى المغيرة ، واستبد الصقالبة بالأمر ، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم ، ونكل بهم المغيرة والصقالبة . والأمر بالعكس إذا ولى هشام ولى العهد الشرعى ، فإنهم يستبقون سلطانهم ونفوذهم ، وتغدو الدولة دولتهم ، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم . فاقترح بعض أصحابه أن يقتل المغيرة ، فيؤمن بذلك شره فى الحال والاستقبال ، وتطوع محمد بن أبى عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية ، حفظاً للوئام والوحدة ؛ فبعث جعفر معه سرية من الجند الأحرار الموثوق فيهم ، وسار معه بدر القائد مولى الحكم ، فى سرية من غلمان الخليفة . وأحاط الجند بدار المغيرة ، ثم نفذ محمد بن أبى عامر فى نفر من أصحابه ، ونبأه بموت الخليفة وجلوس ابنه هشام ، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه ، فذعر المغيرة وأكد لابن أبى عامر ، أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر ، وتضرع إليه أن يحقن دمه ، وأن يراجع القوم فى أمره . ولكن الرد كان قاطعاً فى وجوب التخلص من المغيرة ، فدفع إليه ابن أبى عامر عدة من رجاله ، فقتلوه خنقاً أمام زوجته ، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ، ودفن فى نفس مجلسه ، وكان سنه يوم قتل سبعاً وعشرين سنة . ووقع ذلك كله فى يوم واحد فقط .

ولما وقف الفتيان فائق وجوذر على ما وقع ، تملكهما السخط والروع ، وبادرا إلى الحاجب جعفر ، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع ، واعتذرا له عما سبق أن اقترحا عليه ، وأخذ الفريقان من ذلك الحين ، يتوجس كل من صاحبه ويتربص به ، وانقسم أهل القصر إلى معسكرين ، معسكر الصقالبة يتزعمه فائق وجوذر ، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد بن أبى عامر[1]

---

(١) نقل إلينا ابن بسام فى الذخيرة هذه التفاصيل عن ابن حيان (الذخيرة — القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٠ و ٤١) . ونقلها أيضاً صاحب البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨٠ .

وسنرى فيما بعد ، كيف تطورت هذه المعركة الخفية بين المعسكرين .

* * *

وهكذا وقع الاتفاق على تولية هشام ، وأخذت له البيعة فى صبيحة اليوم التالى لوفاة أبيه الحكم ، وهو يوم الإثنين الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) . فأجلس الخليفة الصبى هشام ، فى كرسى الخلافة ، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره . وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر ومحمد ابن أبى عامر ، ولم يعترض أحد على توليته . واستمر أخذ البيعة أياماً ، وكتب بها إلى الأقطار ، فلم يردها أحد . وينقل إلينا ابن الخطيب ، عن ابن حيان ، مئات من أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر ، من مختلف الطبقات ، الذين أخذوا البيعة لهشام ، ومنهم كثيرون ، ممن اشتركوا فى أخذ البيعة له بولاية العهد ، فى حياة أبيه(١) .

ويصف لنا ابن الخطيب حالة الخلافة الأندلسية ، وأحوال الأندلس ، عند ولاية هشام ، فيما يأتى : « بويع ولى عهده (أى الحكم) هشام الملقب بالمؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ، فكانت كمامة ثم زهرة بسّامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شهية ؛ وكان بكرسى العامرية مجلاها ، ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الحظوط من أعلاها ، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه ، والملك تعوذ بالله ، أن لا يصيبه عائنهُ الذى يعاينه ، والمبانى قد بلغت السماء سمواً ، وزاحمت الكواكب علواً ، والبلاد وقد بلغ فيها إلى أقاصى الاهتمام ، وفرغت بناتها من لبنات التمام ، والآثار الصالحة قد تخلدت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان فى بسطة الإسلام قد تبلدت ، ورسم الخلاف قد أمحى ، والدولة المراونية قد بركت وسط المرعى ، والدعوة قد انتشرت فى المغرب الأقصى »(٢) .

* * *

وهكذا تمت البيعة لهشام المؤيد ، بين يوم وليلة ، وقضى على كل معارضة ، وتوارى الأعمام وبنو العم ، واجتمعت مقاليد السلطة فى أيدى رجلين ، هما الحاجب

(١) أعمال الأعلام ص ٤٨ . وقد شغلت أسماء الذين أخذوا البيعة لهشام تسع صفحات كاملة . (٤٨ – ٥٧) .

(٢) أعمال الأعلام ص ٤٣ و ٤٤ .

جعفر بن عثمان المصحفى ، ومحمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة ، ومتولى خطة المواريث ، وناظر الحشم . بيد أنه من الخطأ أن يقال إن السلطة قد خلصت لهذين الرجلين وحدهما ؛ فقد كان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان من وراء ستار . تلك هى « صبح » البشكنسية حظية الحكم وأم ولده هشام الخليفة الصبى ، وكانت قد منحت الوصاية على ولدها ، واكتسبت بذلك صفة شرعية فى الاشتراك فى الحكم وتدبير الشئون .

فمن ذلك كانت تلك المرأة ، التى لبثت ردحاً طويلا من الزمن ، تسيطر بسحرها ونفوذها ، على خلافة قرطبة ، وتشترك فى تدبير شئونها ، فى السلام والحرب ، مع أعظم رجالات الأندلس ؟ لسنا نعرف الكثير عن نشأتها وحياتها الأولى . وكل ماتقدمه إلينا الرواية الإسلامية فى ذلك ، هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية أى ناقارية . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر فى بعض المواقع ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ؛ وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة Aurora الفرنجية ، ومعناها الفجر أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر[1] . وظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر ، وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه ، وسماها «بجعفر»[2] ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . ثم ازداد هذا النفوذ توطداً وتمكناً ، حينما رزق منها الحكم بولده عبد الرحمن ثم بولده هشام حسبما تقدم . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية ، ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر ، بعد أن كانت جارية وحظية . ولكن هنالك مايدل ، على أن صبحاً ، كانت تتمتع فى البلاط والحكومة بما يشبه مركز الملكة الشرعية . فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد[3] أو السيدة أم هشام . وتصفها التواريخ الإفرنجية «بالسلطانة صبح»[4]. بيد أن

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ . وكذلك Dozy : Hist. Vol, II. p. 100

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٣ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ و ٢٨٢ .

(٤) Conde : Dominacion, V I. p. 480 & 493 ; Dozy : Hist. Vol, II. p. 190 & 195.

هناك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية « وأم ولد » فقط ، وأن الحكم توفى عنها دون تغيير فى مركزها الشرعى[1] .

استمرت صبح أيام الحكم ، تتمتع فى البلاط والحكومة ، بنفوذ لا حد له . وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمع لرأيها فى معظم الشئون . وكانت كلمتها هى العليا ، فى تعيين الوزراء ورجال البطانة ، وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، يجتهد فى خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت فى الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط فى توجيه مصاير الأندلس . تلك هى شخصية محمد بن أبى عامر الذى تقدم ذكره غير مرة ، والذى رأيناه فى أواخر عهد الحكم يشغل منصب مدير الشرطة وناظر الخاص .

كان محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ، يرجع إلى أصل من أعرق الأصول العربية . وكان جده عبد الملك بن عامر المعافرى ، أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق ، وظهر فى الفتح بشجاعته وحسن بلائه . ونزلت أسرة بنى عامر بالجزيرة الخضراء ، وأقطعت حصن طُرُّش الواقع على نهر وادى يارُه ، الذى يصب على مقربة من جبل طارق ، وظهرت بالعلم والوجاهة ، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاء والإدارة ؛ وولد محمد بن أبى عامر بحصن طرُّش وأنفق فيه حداثته . وكان أبوه عبد الله ، المكنى بأبى حفص من أهل العلم والتقى ، عالماً بالحديث والشريعة ، وكانت أمه بريهة بنت يحيى تنتمى إلى بنى تميم . ونشأ محمد على تقاليد أسرته ، مؤثراً حياة الدرس ، ووفد على قرطبة حدَثاً ، ودرس فى معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع فى الأدب والشريعة ، وكان من أساتذته العلامة اللغوى أبو على القالى البغدادى ، وأبو بكر بن القوطية ، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشى ؛ وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال . وتنوه بهذا الطموح المدهش معظم الروايات المعاصرة واللاحقة[2] : وكان محمد بن أبى عامر فى نحو

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ . والمعجب للمراكشى ص ٧٤ .

(٢) الحلة السيراء ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٤٣ . والإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٧٤ .

السابعة والعشرين من عمره ، حينما أراد الخليفة الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب جعفر فيمن رشح لتولى هذا المنصب ، وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه ، وظرف شمائله ، فاختارته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً فى الشهر ، وذلك فى أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)[١] ؛ ولما توفى عبد الرحمن طفلا ، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه هشام ؛ وتقدم فى وظائف الدولة بسرعة . فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة . وعلى أمانة دار السكة ، ثم عين للنظر على خطة المواريث (٣٥٨ هـ) ، فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة . ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى (٣٦١ هـ) ؛ وفى أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (الخاص) . ويقدم إلينا ابن حيان وظائف ابن أبى عامر فى أواخر أيام الحكم على النحو الآتى : صاحب الشرطة الوسطى ، والمواريث ، وقاضى إشبيلية ، ووكيل الأمير أبى الوليد هشام ، وكان عندئذ يلقب « بفتى الدولة »[٢] ؛

وهكذا وصل محمد بن أبى عامر إلى أرفع وظائف الدولة والقصر فى أعوام قلائل . ويرجع الفضل فى تقدمه بتلك السرعة ، أولا إلى مواهبه وكفاياته الباهرة ، ثم يرجع بالأخص إلى عطف صبح وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية ؛ كانت صبح امرأة حسناء ، لا تزال فى زهرة العمر ، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين ، وهدمه الإعياء والمرض ؛ أما ابن أبى عامر فقد كان فتى فى نضرة الشباب ، وسيم المحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان من جهة أخرى يفتن فى خدمة صبح وإرضائها ، ولاينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة ، بديع الصنع والزخرف ، أنفق عليه مالا عظيماً ، ولم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمل من دار ابن أبى عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب اللب ، وبثوا

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . وينقل إلينا المقرى رواية أخرى عن اتصال ابن أبى عامر بصبح ، خلاصتها أنه كان يجلس فى دكان عند باب القصر ، ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان ، إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها ، فعرفها به بعض من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر : فاستحسنت كتابته ، وعينته أميناً لبعض شئونها (نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧) .

(٢) المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ — ص ١٠٦ .

يتحدثون بشأنه حيناً ؛ فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ؛ وتزيدها عطفاً على ابن أبى عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد هذا السحر الذى ينفثه ابن أبى عامر إلى حظيته ، وإلى نساء القصر جميعاً ، ويعجب له . ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن ، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب ، وإنى خائف على ما بيده »[1] .

ولم تلبث علائق صبح وابن أبى عامر أن ذاعت ، وغدت حديث أهل قرطبة ، ولم يك ثمة ريب فى أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب الحكم فى طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى فى نكبة ابن أبى عامر ، وسعى لديه بعض خصومه ، واتهمه بأنه يبدد الأموال العامة ، التى عين للنظر عليها ، فى شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ، ليتحقق من سلامتها ، وقد كان بالخزانة فى الواقع عجز كبير ، فهرع ابن أبى عامر إلى صديقه الوزير ابن حُدير ، وكان وافر الوجاهة والثراء ، فأغاثه وأعانه بماله على تدارك هذا العجز ، وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ، فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه .

واستمر ابن أبى عامر متمتعاً بنفوذه وسلطانه ، يندبه الحكم لعظائم المهام والشئون ، وكان آخرها ما عهد إليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولده هشام حسبما تقدم ؛ وابن أبى عامر خلال ذلك كله ، يحرص على عطف صبح ،ويستزيده ويصانع الحاجب جعفر ، ويجتهد فى إرضائه وكسب ثقته ؛ وكان بين الرجلين تباين يفيد منه ابن أبى عامر ، فقد كان الحاجب جعفر على ما يديه من التواضع والبشر والترفق بالناس ، قليل الجود ، مؤثراً لجمع المال . وكان ابن أبى عامر على نقيضه فى ذلك ، فكان واسع البذل والجود ، حريصاً على اصطناع الرجال ، وكانت داره الفخمة بضاحية الرُّصافة ، مقصد الناس من كل صوب ، وكانت مائدته معدة دائماً ، وكان بذلك كله يخلق جواً من الحب والإعجاب ، ويجتذب الصحب والأنصار ، بسحر خلاله ، ووافر بذله ومروءته ، وبارع وسائله وأساليبه[2] .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٢) الذخيرة — القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥ .

فلما توفى الحكم المستنصر ، وأسندت الخلافة إلى ولده الطفل هشام ، اتخذت الأمور وضعاً جديداً ، ينذر بتطورات جديدة . وقد رأينا أى دور قام به ابن أبى عامر عندئذ ، من الانضمام إلى الحاجب جعفر فى معارضة الفتيان الصقالبة ، ومقتل مرشحهم للخلافة ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر .

* * *

وهكذا تحقق مشروع الحكم بجلوس ولده هشام ، وتحقق مشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً كذلك أن يؤازر ابن أبى عامر صاحبته المحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه . أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام ، إذ كان يخشى من تولية المغيرة ، وأوليائه الصقالبة ، على نفسه وعلى سلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة ، الذين قدر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية . ولكن هذا التحالف الذى أملته الضرورة المؤقتة ، لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر ، ومنافسه القوى محمد بن أبى عامر . وكانت العلائق بين صبح وابن أبى عامر ، تزداد كل يوم توثقاً ، ولا سيما منذ وفاة الحكم . وكان ابن أبى عامر ، يرى فى تلك المرأة ، التى تجتمع فى يدها السلطة الشرعية ، بوصايتها على ولدها الطفل ، أداة صالحة هينة ، يستطيع أن يخضعها لإرادته ، ويسخرها لمعاونته ، على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى . وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها ، على هذا الرجل القوى الذى سحرها بخلاله ، وقوة نفسه ، وباهر كفاياته ، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام ، حتى عين حاجب أبيه جعفراً المصحفى حاجباً له ، ورقى فى نفس الوقت ابن أبى عامر من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة ، وجعله معاوناً للمصحفى فى تدبير دولته[1] . وبذلك أشرك ابن أبى عامر ، فى تولى السلطة المباشرة مع المصحفى ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار ، سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى فى هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ، ونكراناً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً . وكان يرى فى ابن أبى عامر بالأخص منافساً يخشى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

بأسه ، وبرتاب فى نياته وأطماعه . ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك فى نتيجته . وكان ابن أبى عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه ، أو بموازرة صبح له . ولم تكن هذه الموازرة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم ، الذى تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى ، ولكنها كانت أيضاً ترجع إلى ثقة صبح فى مقدرته وبراعته ، وفى أنه هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحمى ملك ولدها الفتى ، وأن يوطد الأمن والسلام فى المملكة . كان ابن أبى عامر فى الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة ، تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الخليفة الفتى هشام المؤيد بالله ، ميالا بطبيعته وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شىء من تلك الخلال الرفيعة ، التى تهيء الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضى كل أوقاته فى اللهو واللعب ، بين الخصيان وآلات الطرب ؛ وكان ابن أبى عامر وصبح يشجعان هذه الميول السيئة فى نفس الأمير ، ويريانها ملائمة لمقاصدهما[١]. ومذ ولى هشام ، حجر عليه ابن أبى عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه ، على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين . وفى ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسى : « حجر المنصور ابن أبى عامر على هشام المؤيد ، بحيث لم يره أحد مذ ولى الحجابة ، وربما أركبه بعض سنين ، وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »[٢]. ويقدم إلينا ابن الخطيب تلك الصورة عن الخليفة هشام : « ولما كان هشام مندرجاً فى طى كافله الحاجب المنصور ، بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، إذ كان فى نفسه وأصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولا بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات ، وفى الكبر بمجالسة النساء ومحادثة الإماء ، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات »[٣] . وفى الفرص النادرة ، التى كان يسمح فيها للأمير بالخروج ، كان ابن أبى عامر يتخذ أشد

(١) Dozy : Hist. Vol. II. p. 227

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٥٨ .

التحوطات ، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة ، بصفوف كثيفة من الجند ، تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان حجب هشام على هذا النحو ، عماد ذلك الانقلاب العظيم الذى اعتزم ابن أبى عامر ، أن يحدثه فى نظم الدولة ، لتمكين سلطانه وجمع سلطات الخلافة كلها فى يده .

وكان لابد لتحقيق هذه الغاية الكبرى ، أن يسحق ابن أبى عامر كل سلطة أخرى تعترض سبيله . وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف ، لايزالون قوة يحسب حسابها ، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، مايزال بحكم منصبه وتأييد عصبته ، مسيطراً على السلطة العليا . وكانت الوحشة ماتزال قائمة بين الحاجب وبين الصقالبة ، مذ تسبب فى فشل مشروعهم لتولية المغيرة بن عبد الرحمن ، وحصد شوكتهم بتوليته هشام . وكان الحاجب يخشى غدرهم ودسائسهم . وبلغه أن فريقاً من زعمائهم ، وعلى رأسهم الفتيان جؤذر وفائق ، يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فاتخذ بعض التحوطات ، ووضع الفتيان تحت الرقابة ، وأغلق باب الحديد ، الذى كان مخصصاً بدخولهم ودخول أصحابهم إلى القصر ، وقصر دخولهم مع بقية الناس على باب السُّدة ، وفصل الغلمان من أصحاب جؤذر وفائق ، وتفاهم مع ابن أبى عامر على إلحاقهم بحاشيته ، وكانوا زهاء خمسمائة ، فقبل ابن أبى عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه ، ثم انحاز إليه بنو برزال ، وكانوا قبلا من أصحاب الحاجب جعفر ، فقوى بهم أمره ، ولم يمض سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتى جؤذر ، وشعر الصقالبة بأن نجمهم قد أفل ، وسلطانهم قد انهار ، فسرى بينهم التذمر ، واجتمع المتمردون حول فتى من زعمائهم يدعى درّى . فتفاهم الحاجب وابن أبى عامر على إزالته ، فدعى إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه وإلى عماله من رعيته فى بياسة ؛ ولما قدم درى ورأى كثرة الجند ، شعر بالشر ، وأراد العودة فمنعه ابن أبى عامر ، فهجم عليه وأراد أن يبطش به ، فصاح ابن أبى عامر بالجند ، فهرع إليه بنو برزال وانهالوا عليه ضرباً ، ثم حمل إلى داره وقتل فى نفس المساء . ورأى ابن أبى عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة ، فأمر كبيرهم فائقاً وباقى زعمائهم بالتزام دورهم ، وفرق بذلك شملهم . ثم جد فى مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وفشى فيهم القتل والنفى ، حتى هلك الكثير منهم ، وأبعد الفتى فائق فى النهاية إلى

ميورقة فمات هناك ، وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وزميله ابن أبى عامر شرهم ، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والحُرم بدلا منهم :

ويبدى ابن حيان ارتياحه لسحق الصقالبة واستئصال شأفتهم على هذا النحو . وقد كان الصقالبة فى البداية زينة للدولة والبلاط ، وكان ظهورهم بجموعهم المتألقة وأزيائهم الفخمة ، يسبغ على القصر ، وعلى مواكب الخلافة ، طابعاً من الأبهة والعظمة . ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة ، وبسطوا سلطانهم على القصر والدولة ، اشتد طغيانهم ، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة ، وعلى الشعب قاطبة[1] .

وسنحت بعد ذلك بقليل فرصة أخرى ، لكى يوطد ابن أبى عامر قدمه فى السلطة ، ويبسط نفوذه على الجيش عصب كل سلطان حقيقى . وذلك أن القشتاليين ، كانوا قد انتهزوا فرصة مرض الحكم ، وانشغال المسلمين عقب وفاته ، فدفعوا غاراتهم جنوباً ، ووصلوا إلى مقربة من العاصمة ذاتها ، ولم يبد الحاجب فى ذلك ، ما كان واجباً من الهمة والنجدة ، فاهتم ابن أبى عامر ، وأشار إلى الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد ؛ ولكن الحاجب لم يجد من القادة من يعهد إليه بتلك المهمة ، فتقدم ابن أبى عامر للاضطلاع بها ، وجهز المال والجند ، وأشرف بنفسه على اختيار الجند . وخرج من قرطبة فى رجب سنة ٣٦٦هـ (فبراير ٩٧٧ م) ، وسار شمالا إلى أراضى قشتالة ، ثم عطف غرباً حتى أحواز شلمنقة ، وحاصر حصن الحامة ، ومكانه اليوم محلة تسمى بالإسبانية « لوس بانيوس » Los Baños (الحمامات) ، وتقع فى جنوب بلدة (بخار) فى السفح الغربى لجبال جريدوس ، ثم استولى على الحصن وربضه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، مثقلا بالأسرى والغنائم ، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه إلى الغزو[2] .

وكان لهذا الظفر الحربى الأول ، الذى حقق على يد ابن أبى عامر ، أكبر الأثر فى نفوس الجند ، ونفوس الشعوب قاطبة ، فقد رأى الجند فيه قائدهم المظفر ، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه ، ورأى فيه الشعب حامى المملكة والمدافع عنها ، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة المدى .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى تأهب ابن أبى عامر للسير إلى غزوته

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ و ٢٨١ . والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٤ .

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٥ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٢ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 208.

الثانية ؛ وكانت قد وقعت ثمة ظروف جديدة زادت فى توطيد مركزه ، وفى إضعاف مركز الحاجب جعفر . وكان بين الحاجب ، وبين القائد غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم ، وأعظم فرسان الأندلس ، عداء مستحكم ، زاده ما تقوّل به الحاجب على غالب ، من تقصيره فى الدفاع عن الحدود الشمالية ، وعجزه عن رد النصارى ، فانتهز ابن أبى عامر هذه الفرصة ليضم غالباً إلى جانبه ، وسعى إلى خدمته والدفاع عنه لدى صبح ، وولدى الخليفة ، حتى خرج المرسوم برفعه إلى خطة «ذى الوزارتين» ، وبأن يندب لقيادة جيش الثغر ، وأن يندب ابن أبى عامر لقيادة جيش الحضرة . وخرج ابن أبى عامر على أثر ذلك بالجيش إلى غزوته الثانية ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٣٦٦ هـ (مايو ٩٧٧ م) ، فالتقى بغالب وجيشه فى محلة مجريط [١] على طريق وادى الحجارة ، واخترق الجيشان معاً أراضى قشتالة القديمة ، واستولى المسلمون على حصن مولة ، وأصابوا كثيراً من الغنائم والسبى . وكان لجيش غالب التفوق فى الأعمال الحربية فى تلك المنطقة ، ولكن غالباً تنحى عن ذلك لابن أبى عامر ، وارتد بجيشه إلى الثغر ، بعد أن توثق بينهما التحالف ، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك ؛ وقفل ابن أبى عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبى ، وقد نسب إليه فخر الظفر على الأعداء ، فزاد صيته ، وارتفعت هيبته ، وتمكنت منزلته لدى الخليفة ، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً [٢].

وهنا بدت طلائع المعركة الحاسمة بين ابن أبى عامر وجعفر المصحفى . فما كاد ابن أبى عامر يصل إلى قرطبة ، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر ولد الحاجب عن حكمها ، وتقليده لابن أبى عامر ، وبذلك تم لابن أبى عامر السيطرة على المدينة والجيش معاً . وكانت قرطبة تعانى قبل توليه حكمها من اضطراب الأمور ، واختلال الأمن ، وذيوع الفساد والفسق ، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة ، فساد بها الهدوء والأمن . ثم استخلف ابن أبى عامر على حكم المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبى عامر . فسار على طريقته ، فى

---

(١) هى محلة وقلعة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن فوق سفح جبال وادى الرملة على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى . ولبثت تؤدى مهمتها الدفاعية ، حتى سقطت فى أيدى النصارى فى سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣م) . وعلى موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد الحديثة .

(٢) الذخيرة — القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٣ .

انتهاج الحزم والشدة فى ضبط الأمور ، ومطاردة أهل البغى والعدوان . كل ذلك والحاجب جعفر ، يشهد سلطانه يغيض شيئاً فشيئاً ، وسلطان ابن أبى عامر فى صعود وتمكن مستمر ، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه ، ويشعر فى قرارة نفسه بدنو الخاتمة المحتومة .

وخطر للحاجب جعفر أن يقف هذا التحول الخطر ، باستمالة القائد غالب ومصالحته ، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد ، فاستجاب غالب إلى طلبه ، وكادت تتم المصاهرة ، ولكن سرعان ما علم ابن أبى عامر بذلك المشروع ، فثارت نفسه ، وكتب إلى غالب يناشده الولاء ، ويخطب ابنته لنفسه ، وعضده فى ذلك أهل القصر ، فنزل غالب على تلك الرغبة ، وعدل إلى مصاهرة ابن أبى عامر ، وتم العقد فى أوائل المحرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) . ولم يمض قليل على ذلك حتى خرج ابن أبى عامر إلى غزوته الثالثة ، فسار إلى طليطلة فى أوائل صفر ، حيث التقى مع صهره غالب . وسار الإثنان فى قواتهما شمالا ، وافتتحا فى طريقهما بعض الحصون ، ثم قصدا إلى مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غربى مملكة ليون فافتتحاها ، وعاثا فى أرباضها ، واستوليا على كثير من الغنائم والسبى ؛ وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه ، ومعه عدد عظيم من رؤوس النصارى . فاغتبط الخليفة بصنعه ، ورفعه إلى خطة الوزارتين أسوة بصهره غالب ، ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً فى الشهر ، وهو راتب الحجابة فى ذلك العصر .

وما كاد ابن أبى عامر يستقر فى قرطبة ، حتى اتخذت الأهبة لإتمام زفافه . فأحضرت أسماء إلى العاصمة فى موكب فخم ، وكانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهن ثقافة وسحراً ، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حُدير أيام الحكم ، ثم طلقت منه . وزفت أسماء إلى ابن أبى عامر ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ، ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ، وبإشراف أمه صبح ، وأغدقت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف . وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة[1] ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره حسبما نفصل بعد .

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً Dozy : Hist. Vol. II. p. 214 & 215.

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر ، وقلده خطة الحجابة إلى جانب جعفر ، فكانت ضربة جديدة للحاجب . ولكن جعفراً لم يسعه إلا الإذعان والسكوت ، وقد أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به ، وبأنه لم يبق له من الحجابة سوى الاسم ، ولم ينخدع بما كان يبديه نحوه ابن أبى عامر من التلطف والمصانعة ، وهو يقبض دونه على كل شىء فى القصر والدولة .

وأخيراً وقعت النكبة المرتقبة ، فنى الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٧ هـ ، أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، والقبض عليه وعلى ولده وآله ، والتحفظ على أموالهم . وبادر ابن أبى عامر إلى محاسبتهم واستصفاء أموالهم ، وشدد فى مطاردتهم ، حتى مزقهم كل ممزق ، وعوجل هشام ابن أخى الحاجب فقتل فى مطبقه ، وكان من أشد الناس عداوة لابن أبى عامر ، وزج جعفر إلى ظلام السجن ، يعتقل فيه حيناً ، ثم يعتقل حيناً فى داره ، واضطر إزاء التشدد فى مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرُّصافة ، وكانت من أعظم دور قرطبة ، وأمعن ابن أبى عامر فى نكايته ، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء ؛ واستطالت محنة المُصْحفى أعواماً ، عانى خلالها أروع آلام المهانة والذلة ، وهو يستعطف ابن أبى عامر فلا يرحمه ؛ واستمر سجيناً فى مطبق الزهراء حتى توفى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) . وقيل إنه قتل خنقاً فى مطبقه ، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته .

وكان المصحفى حسبما تقدم شاعراً جزلا ، وقد أذكت المحنة شاعريته ، وصدر عنه فى مطبقه كثير من القصائد المؤثرة . ومن ذلك قوله :

صبرت على الأيام لمـــا تولت ... وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
فياعجباً للقلب كيف اصطباره ... وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن طمعت تاقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة ... فلما رأت صبرى على الذل ذلت
وقلت لها يانفس موتى كريمة ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ويعلق ابن حيان على محنة المصحفى بقوله : « وكانت لله عند جعفر ، فى إيثاره هشاماً بخلافته ، واتباع شهوة نفسه وحظ دنياه ، وتسرعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة ، دون قصاص جريرة استدركته دون إملاء ، فسلط

عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه »[١].

وهكذا سار ابن أبى عامر إلى غايته بسرعة مدهشة ، ولجأ فى تحقيقها إلى أذكى الوسائل وأشدها ، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه ، أن يسحق كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . ويجمل ابن خلدون معركة ابن أبى عامر مع خصومه فى تلك العبارة القوية : « ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جموعهم »[٢] ؛ ولم يكن مهلك المصحفى ، بعد سحق الصقالبة ، سوى حلقة جديدة فى سلسلة المطاردة الشاملة التى نظمها ابن أبى عامر لاستئصال شأفة خصومه ومنافسيه . ذلك أنه جد فى نفس الوقت ، فى مطاردة كل من يخشى بأسه من بنى أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة ، ومزقهم فى البلاد شر ممزق ، كل ذلك تحت شعار حمايته للمؤيد وللعرش ، وفى ذلك يقول شاعر من شعراء العصر :

أبنى أميــة أين أقمــار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منــكم عن غابهــا ... فلذاك حاز الملك هــذا الثعلب

ولما خلا الجو لابن أبى عامر من أولياء الخلافة ، والمرشحين للرياسة ، اهتم بتنظيم الجيش . فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زناتة وصنهاجه وغيرهما من قبائل البربر ، ومن الجند النصارى من ليون وقشتالة وناقار ، وبذل لهم الأجور السخية ، واجتذب قلوبهم بعدله ورفقه وجوده . وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وأخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم ، وفرق جند القبيلة الواحدة فى صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون فى صف واحد . وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت فى قبائلهم حتى أيام الناصر ، ما تزال فتية قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، وإضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبى عامر فألفى الميدان ممهداً لخططه ، فلم تلق سياسته الجديدة كبير معارضة[٣] .

---

(١) راجع فى محنة المصحفى ، الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٨ و ٤٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٨ ، والحلة السيراء ص ١٤٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، ونفح الطيب ج ص ١٣٧ . وراجع : Dozy : Hist. Vol. II. p. 232 & 233

الكتاب الثالث

الدولة العامرية

٣٦٨ - ٣٩٩ هـ : ٩٧٨ - ١٠٠٩ م

الفصل الأول

الحاجب المنصـــــور

ابن أبي عامر يطمح إلى حلل الملك . إنشاؤه لمدينة الزاهرة وانتقاله إليها . يؤلف حرسه من الصقالبة والبربر . تشدده فى الحجر على هشام . موقف صبح من ذلك . ذيوع علاقتها مع ابن أبى عامر . تحولها إلى خصومته والتشهير به . تفاهمها مع القائد غالب . التفاف المعارضين حوله . جعفر بن حمدون الأندلسى يتولى الوزارة . تقاطر البربر من العدوة . الوحشة بين ابن أبى عامر وغالب . نهوض غالب لمحاربته . استعانته بملك ليون . القتال بين غالب وابن أبى عامر . مصرع غالب وهزيمة قواته . الموقعة حسبما يصفها ابن حزم . غزوات ابن أبى عامر . غايته من القيام بها . مسيره إلى ليون ومحاصرته لسمورة . هزيمته للنصارى فى شنت منكش . توغله فى ليون ثم عوده إلى قرطبة . إتخاذه لسمة الملك وتسميه بالحاجب المنصور . غدره بجعفر الأندلسى . الحرب الأهلية فى ليون . اعتراف برمودو بطاعة المنصور . مسير المنصور إلى الغزو . يخترق شرق الأندلس ويغزو قطلونية . اقتحامه لبرشلونة وتدميرها . حوادث المغرب . مسير الحسن بن كنون إلى غزو المغرب . المنصور يرسل جيشاً لقتاله . مطاردة الحسن وإرغامه على طلب الأمان . مسيره إلى قرطبة واغتياله . ندب الوزير السلمى لحكم المغرب . إجتماع قبائل البربر حوله . مسير زيرى زعيم مغراوة إلى قرطبة . القتال بين السلمى وبنى يفرن . مقتله وولاية زيرى حكم المغرب . مسير زيرى ثانية إلى قرطبة . عوده وخيبة أمله . غزو بنى يفرن لفاس واحتلالها . القتال بين مغراوة وبنى يفرن . اشتداد ساعد زيرى . إنشاؤه لمدينة وجدة . غزو المنصور لليون واستيلاؤه على قلمرية . غزوه لنافار . ما تزعمه الرواية النصرانية . عود المنصور إلى غزو ليون . اقتحامه لمدينة ليون وتدميرها . استيلاؤه على سمورة . حوادث الثغر الأعلى . عبد الله ولد المنصور . تآمره مع عبد الرحمن التجيبى والى سرقسطة وآخرين . وقوف المنصور على المؤامرة فى خروجه إلى الغزو . اعتقاله لعبد الرحمن التجيبى . فرار عبدالله والتجاؤه إلى غرسية أمير قشتالة . غزو المنصور لقشتالة وهزيمة أميرها . غرسية يرسل عبدالله استجابة لطلب المنصور . إعدامه . تأملات عن هذا الحادث . سانشو ابن غرسية يخرج عليه بتحريض المنصور . المنصور يغزو قشتالة ويستولى على شنت إشتيبن وكلونية . قصة الأيل الذى أهداه صاعد إلى المنصور . مسير المنصور إلى غزو ليون . إذعان برمودو وتعهده بأداء الجزية . المنصور يرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ويوليه الحجابة . اقتصاره على التسمى « بالمنصور » . اختصاصه بألقاب السيادة . إحجامه عن المساس بالخلافة . عوامل هذا الإحجام . موقف صبح أم المؤيد . اتصالها بزيرى حاكم المغرب . تحوطات المنصور . تفاهمه مع هشام وموكبهما المشترك . يأس صبح ووفاتها . الوحشة بين المنصور وزيرى . مسير عبد الملك إلى العدوة لمحاربة زيرى . هزيمة البربر وسقوط فاس . عبد الملك يولى حكم المغرب . الصلح بين زيرى والمنصور . المنصور يغزو جليقية . اختراقه لأراضى البرتغال . استيلاؤه على بازو وقلمرية . توغله فى جليقية ومسيره إلى شنت ياقب . يهدم أسوارها وكنيستها العظمى . مسيره شمالا حتى ثغر لاكرونيه . عوده من طريق لاميجو إلى قرطبة . ملك ليون يطلب

الصلح . غزوة أخرى لقشتالة . موقعة صخرة جربيرة . اقتحام المنصور لمدينة برغش . غزوه لنافار . آخر غزوات المنصور . ما تقوله الرواية الإسلامية . موقعة قلعة النسور . ما تقوله عنها الرواية النصرانية . آراء البحث الحديث فى شأنها . مرض المنصور ووفاته . قبره بمدينة سالم .

أضحى ابن أبى عامر ، بعد أن قضى على كل خصومه ومنافسيه ، وحده ، سيد الميدان ، وأضحى بعد أن وضع يده على الجيش ، صاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد ، بعد ذلك ، سوى أداة لينة فى يد المتغلب القوى ، يوجهها كيف يشاء .

على أن ابن أبى عامر لم يقنع بما حققه لنفسه من الاستئثار بالسلطة الفعلية . وعلى الرغم من أنه لم يفكر يومئذ فى الافتئات على شيء من رسوم الخلافة الشرعية ، فإنه اتجه إلى أن يتشح بحلل الملك فى صورة من صوره ، فتكون له ثوباً خلاباً ، يتوج سلطانه الفعلى ، بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية .

ولم يكن اتجاه ابن أبى عامر يقف عند تحقيق المظهر دون غيره ، ولكن كانت لديه أسباب عملية قوية ، تدعو إلى التحوط من أخطار التآمر والغيلة ، وقد أصبح يخشى على نفسه من الوجود فى قصر الزهراء ، ومما قد يضمره بعض الحاقدين المتربصين (١) ، ورأى أن يتخذ له مركزاً مستقلا للإدارة والحكم ، يجمع بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة . فوضع أسس مدينة ملوكية جديدة أسماها الزاهرة (٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م) . وقد اختلف فى الموقع الذى كانت تحتله الزاهرة لأن البحوث الأثرية الحديثة لم تكشف شيئاً من معالمها ، مثلما فعلت بالنسبة لمدينة الزهراء . ويقول البعض إنها كانت تحتل بسيطاً يقع جنوب شرقى قرطبة فى منحنى نهر الوادى الكبير ، وعلى قيد أميال قليلة منها . ويقول البعض الآخر إنها كانت تحتل بقعة على مقربة من شرقى قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادى الكبير (٢) . وأنشأ المنصور بالزاهرة قصراً ملوكياً فخماً ، ومسجداً ، ودواوين للإدارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سوراً ضخماً ، ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ؛ وتم بناء المدينة الجديدة فى نحو عامين ، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة ، وأكابر رجال الدولة ، فابتنوا الدور العظيمة ، وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٤ ، وأعمال الأعلام ٦٢ .

(٢) وهذا يستفاد من أقوال ابن حزم فى « طوق الحمامة » ص ١١٠ .

وأضحت تنافس المدينة الخليفية فى الضخامة والرونق .

وفى أوائل سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) ، انتقل محمد بن أبى عامر إلى مدينة الزاهرة ، واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر ، وأحاط قصره الجديد بالحراس والحاشية ، يرقبون كل حركة وسكنة فى الداخل والخارج ، وأقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفية ، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة ، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعى ؛ وأنشأ ابن أبى عامر فى نفس الوقت حول القصر الخليفى سوراً وخندقاً ، وأحكم غلق أبوابه ، ووكل بها من يمنع دخول أى شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه . وبث عيونه على هشام وحاشيته ، وأشاع أنه قد فوض إليه النظر فى سائر شئون المملكة ، لكى يتفرغ لشئون العبادة . وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتى ، وقطعت سائر علائقه مع الخارج ، ولبث محجوباً فى أعماق قصره ، يغمره الخمول والنسيان(١) .

ماذا كان موقف صبح إزاء هذا الانقلاب الحاسم فى مركز ولدها ومركز الخلافة ؟ لاريب أنها كانت بموقفها وتصرفها ، أكبر معين لابن أبى عامر على إحداثه ، وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ، يدفعها دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه ، وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطيرة التى يسعى إلى تحقيقها ، هذا إذا لم نفترض أن تلك البشكنسية المضطرمة الجوانح ، كانت تذهب فى حبها إلى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبى عامر قد انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة ، وتناولها بلاذع التعليق والهجو ، وظهرت بهذه المناسبة قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، فى التشهير بحجر ابن أبى عامر على هشام وعلائقه بصبح ، فمن ذلك ما قيل على لسان هشام فى الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شىء فى يديه(٢)

ومن ذلك ما قيل فى هشام وأمه صبح ، وقاضيه ابن السليم :

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ والحلة السيراء ص ١٤٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ .

(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسى .

اقترب الوعـد وحان الهـلاك وكل ما تحـذره قد أتـاك
خليفـة يلعب فى مكتب أمه حبـلى وقاض . . .(١)

وهذه الأناشيد اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها ، من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية فى الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية التى استطال أمدها ، بين صبح وابن أبى عامر ، وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ، ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة أوردها المقرى لكاتب مغربى يدافع فيها عن ابن أبى عامر ، ويدفع عن صبح تهمة شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب (٢).

على أنه يبدو أن الحوادث قد بدأت تتطور من ذلك الحين ، وأن موقف صبح قد بدأ يتخذ وجهة أخرى. فقد أدركت صبح أخيراً ما يرمى إليه ابن أبى عامر ، وأدركت خطورته على مستقبل ولدها ، ومستقبل الأسرة والخلافة ، فثارت نفسها سخطاً . وكانت صبح قد جاوزت الأربعين يومئذ ، وقد تصرم ذلك الحب القديم ، الذى شغفها بابن أبى عامر دهراً ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها ، وسلبها كل نفوذ وسلطة ، ومن ذلك الحين تنقلب صبح إلى خصومة ابن أبى عامر ومقاومته . وقد كان من الصعب ، إزاء عزم ابن ابى عامر ويقظته ، وسلطانه الشامل ، ان تستطيع صبح القيام بأية عمل مباشر ، فلجأت عندئذ إلى العمل المستتر ، وأخذت تبث فى نفس ولدها هشام ، بغض ابن أبى عامر والسعى إلى مناوأته واسترداد سلطانه منه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ، وشهرت بواسطة أعوانها من الناقمين ، على ابن أبى عامر ، دعاية شديدة ، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . والظاهر أن صبحاً لم تقف عند هذا الحد من المقاومة الأدبية ، وأنها حاولت فى نفس الوقت ، أن تقوم بمحاولة عملية لمقاومة ابن أبى عامر وإسقاطه .

وربما كان لتدبير صبح وتحريضها ، أثر فيما وقع يومئذ بين ابن أبى عامر وصهره القائد غالب ، صاحب مدينة سالم . وكان غالب بالرغم من تقلده خطة الوزارة ، يقيم بالثغر بعيداً عن قرطبة . وكان يتمتع فى قرطبة وسائر مدن الأندلس

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢ .

بسمعة عالية فى ميدان الفروسية والقيادة ، وهو ما كان ينقمه ابن أبى عامر على صهره . وكان المعارضون يرون فيه الرجل الوحيد ، الذى يستطيع أن يقارع ابن أبى عامر ويقاومه . فرأى ابن أبى عامر أن يرفع إلى مرتبة الوزارة جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى ، وكان من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناته ، وكان مقيما بالعدوة ، فعبر البحر إلى الأندلس ، واستقر فى الوزارة ، يكنفه ابن أبى عامر بحبه وثقته ، ويستعين به على تأليف البربر وكسب محبتهم ، ولاسيما بعد أن غدوا يؤلفون معظم حرسه وحاشيته . وتقاطر البربر من العدوة ، وابن أبى عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل والإحسان ، ويقوى بهم صفوفه وبطانته . وكان غالب يستشعر الوحشة والريبة من تصرفات صهره ، ويتوقع منها سوء العاقبة . ولم يمض قليل حتى ساء التفاهم بين غالب وصهره ، فعمد غالب إلى مصانعة ابن أبى عامر ، ودعاه أثناء غزوه بالصائفة فى أراضى قشتالة ، إلى وليمة أقامها بمدينة أنتيسة(١) ، إحدى مدن الثغر التى تحت ولايته ، وجاء ابن أبى عامر إلى القلعة حيث أقيمت الوليمة ، فى بعض أصحابه ، فانفرد به غالب وشرع فى عتابه . ثم اشتد بينهما النقاش ، فشهر غالب سيفه على صهره فجأة ، فأصابه فى بعض أنامله وصدغه ، واستطاع ابن أبى عامر أن يفر ناجياً بنفسه ، من مأزق بالغ الخطورة . وامتنع غالب بالقلعة ، بينما سار ابن أبى عامر لفوره إلى مدينة سالم ، حيث دار غالب وأهله ، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه ، وفرقها فى الجيش ، وعاد إلى الحضرة ، وهو يضمر لغالب أسوأ النيات .

وكان غالب أعظم قادة الأندلس وأبرعهم فى ذلك العصر ، وكانت لديه فى الثغر قوات يعتد بها ، فنهض لقتال قوات ابن أبى عامر ، وغلب عليها ، فى البداية غير مرة . ثم رأى أن يستعين براميرو الثالث ملك ليون ، فأمده ببعض قواته . وسار ابن أبى عامر لمقارعة خصمه فى معركة حاسمة . ووقع اللقاء بين الفريقين أمام حصن شنت بجنت San Vicente على مقربة من أنتيسة ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، أبلى فيها غالب وقواته بلاء حسناً وكاد يحرز النصر فى البداية ، ولكنه ما لبث أن سقط ميتاً عن جواده خلال المعمعة ، ولم يعرف سبب مصرعه لأنه لم يقتل بيد أحد ، وحملت رأسه فى الحال إلى ابن أبى عامر ، فدب الوهن

---

(١) وهى بالإسبانية **Atienza** . وهى تقع شمال وادى الحجارة ، على مقربة من غربى مدينة سالم .

والذعر إلى قوانه ، وطاردتها قوات الأندلس ، وأمعنت فيها قتلا وأسراً ، وهلك من الجند النصارى الذين كانوا يقاتلون إلى جانب غالب عدد جم . وكان بين القتلى أمير نصرانى هو راميرو ابن سانشو أباركا من أمراء البشكنس[١] . وقتل كذلك فى المعركة عدة من الكبراء والقادة المسلمين ، الذين كانوا مثل غالب يعارضون سياسة ابن أبى عامر . وكان ذلك فى الرابع من محرم سنة ٣٧١ هـ (أغسطس سنة ٩٨١ م)[٢] .

وقد روى الفيلسوف ابن حزم عن أبيه الوزير ابن حزم ، وزير ابن أبى عامر ، وكان ممن صحبه فى تلك الموقعة ، تفاصيل الموقعة حسبما شهدها . وهو يصف لنا هيئة القائد غالب خلال الموقعة فى قوله : « وهو شيخ كبير قد قارب الثمانين عاماً وهو على فرسه ، وفى رأسه طرطور عال ، وقد عصب حاجبيه بعصابة » قال : وكان قد جمع جموعاً عظيمة من المسلمين والنصارى ، فبدأ بالهجوم على الميمنة ، وفيها جعفر بن على وأخوه يحيى والبربر ، وحمل عليهم حملة ، أزاحتهم عن مواقعهم ، ومزقت صفوفهم ؛ ثم حمل على الميسرة ، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء ، ففعل بها كما فعل بالأولى . ثم أخذ يتأهب لمهاجمة القلب ، وهو تحت قيادة ابن أبى عامر نفسه ، وهو يقول : « اللهم إن كنت أصلح للمسلمين من ابن أبى عامر فانصرنى ، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره » . ثم يصف لنا ابن حزم مصرع غالب على النحو الآتى ، قال : « ثم هز فرسه ، وترك جهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان فى جانب عسكره ، فظن أصحابه أنه يريد الخلاء ، فلما أبطأ عليهم ركبت طائفة منهم نحوه ، فوجدوه قد سقط إلى الأرض ميتاً ، وقد فارق الدنيا بلا ضربة ولا رمية ولا أثر ، وفرسه واقف بجانبه يعلك لجامه ، ولا يعلم أحد سبب موته . فلما أدرك أصحابه سقط فى أيديهم ، وطلبوا حظ أنفسهم ، فبادر مبادر منهم بالبشرى إلى ابن أبى عامر ، فلم يصدق حتى وافى مواف بخاتمه ، ووافاه آخر بيده ، ووافاه آخر برأسه » .

هذا وقد بلغت القسوة بابن أبى عامر ، أن أمر بالتمثيل بجثمان خصمه الصريع

---

(١) وهو الذى تسميه الرواية العربية برذمير بن شانجه ويعرف « براى قرجة » .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ و ٦٣ . وكذلك **Dozy : Hist. Vol. II. p. 233 & 234**

الباسل ، فحشى جلده بالقطن ، وصلب على باب القصر بقرطبة ، وصلب رأسه على باب الزاهرة ، ولبث كذلك دهراً ، حتى أدركه الفيلسوف ابن حزم نفسه ، وهو فتى ، وذلك عند إنزاله يوم هدم الزاهرة فى سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م)[١].

* * *

وهنا تبدأ سلسلة هذه الغزوات الشهيرة العديدة ، التى شهرها ابن أبى عامر على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستمر يضطلع بها باستمرار ودون هوادة ، والتى خرج منها جميعاً متوجاً بغار الظفر ، ولم يهزم فى أية واحدة منها .

وتتحدث معظم الروايات الإسلامية عن حروب ابن أبى عامر وغزواته بإفاضة ، وتعددها بأكثر من خمسين غزوة . ولكنها لا تقدم إلينا عنها تفاصيل واضحة ، ولاسيما عن الزمان والمكان[٢] ، ويجمل ابن خلدون ذكرها فى قوله : « وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا اثنين وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية »[٣] .

وتجمل الرواية الإسلامية بواعث هذه الغزوات المستمرة فى نزعة الجهاد . ولكن الحقيقة هى أن ابن أبى عامر ، كان باضطلاعه بتلك الغزوات المتعاقبة يرمى إلى غاية سياسية بعيدة المدى ، لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الأندلس ، أو لم يجد لديه وسيلة أو مقدرة لتنفيذها . ذلك أنه فكر فى أن يسحق الممالك الإسبانية النصرانية سحقاً تاماً ، وأن يقضى على استقلالها القومى ، وأن يخضعها جميعاً إلى سلطة الخلافة . وقد خالف ابن أبى عامر فى غزواته ، سنن أسلافه من الأمراء والقادة ، فقد كان هؤلاء يحاربون فى معظم الأحيان للدفاع ورد غارات النصارى ، ولكن ابن أبى عامر كان هو البادئ بالحرب دائماً ، ولم يقبل من أعدائه قط صلحاً أو مهادنة ، ولم يقنع إلا بالنصر الكامل .

---

(١) راجع رواية ابن حزم فى رسالة « نقط العروس » (المنشورة فى مجلة كلية الآداب بالقاهرة فى عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ٨١ و ٨٢ .

(٢) ذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء أن المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان قد استوعب هذه الغزوات وفصلها فى كتابه الكبير الذى ألفه فى أخبار الدولة العامرية . ولكن هذا المؤلف لم يصل بعد إلينا (ص ١٤٩) .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ . وكذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ و ج ٩ ص ١٢ .

ولكن سوف نرى أن غزوات المنصور ، بالرغم من تحرى هذه الغاية البعيدة المدى ، وبالرغم مما كان يحالفها من الظفر المستمر ، لم تخرج فى مجموعها عن أساليب الصوائف والغزوات الإسلامية المأثورة ، ولم تتجه بالفعل إلى تحرى هذه الغاية الكبرى .

سار ابن أبى عامر عقب الفراغ من أمر صهره غالب ، إلى مملكة ليون ، ليعاقب ملكها راميرو الثالث على معاونته لخصمه غالب ، وتدخله على هذا النحو فى شئون الأندلس ، وقصد إلى مدينة سمورة الحصينة الواقعة شمالى شلمنقة ، وضرب حولها الحصار (أوائل سنة ٣٧١ هـ الموافقة ٩٨١ م) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة ، فتركها وعاث فيما حولها من السهول ، وأمعنت قواته فى التخريب والقتل ، وأحرقت مئات القرى والضياع ، وهام النصارى على وجوههم فى الجبال والوديان ألوفاً مؤلفة . وهرع راميرو الثالث إلى غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، وسانشو ملك نافار ، وعقد الثلاثة تحالفاً لمحاربة ابن أبى عامر ، وسارت قواتهم المشتركة للقائه . ونشب القتال بين الفريقين فى ظاهر بلدة « روضة » فى جنوب غربى « شنت منكش »[1] ، فهزم النصارى وقتل منهم عدد كبير ، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكس الشهيرة ؛ ثم زحف ابن أبى عامر بعد ذلك شمالا إلى مدينة ليون عاصمة المملكة ، وهنالك وقف راميرو فى قواته محاولا اعتراضه ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ووصلوا فى هجومهم بالفعل إلى أبوابها ، ولكن الشتاء كان قد دخل ، وغمرهم البرد والثلوج ، فاضطروا إلى وقف القتال ، وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر[2] .

وعلى أثر هذا النصر ، وفى أواسط سنة ٣٧١ هـ (أواخر ٩٨١ م) اتخذ ابن أبى عامر سمة الملك ، فتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن « الحاجب المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر » ونقش اسمه فى السكة ، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده ، عند المثول لديه ، واجتمعت حول شخصه ، وحول داره ، مظاهر الجلالة الملكية ، وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى

---

(١) روضة هى بالإسبانية **Rueda** ، وشنت منكش هى **Simancas** .

(٢) **Dozy : Hist. Vol. II. p. 234—235 ; Recherches (3ème ed.) Vol. I. p. 180—181**

الاسم [1]. هذا وسوف نجرى منذ الآن فصاعداً على تسمية ابن أبى عامر باسمه الملكى : المنصور .

وكان المنصور حين استقدم جعفراً بن على الأندلسى ، ورفعه إلى خطة الوزارة ليعارض به نفوذ القائد غالب ، وليوثق بوجوده مودة البربر وتأييدهم ، يتوجس مع ذلك من وجوده وسلطانه ، ويخشى أطماعه ومشاريعه ، فى الناحية الأخرى من البحر ، فلما كاد ينتهى من أمر غالب ، ومن ترتيب رسومه الملكية ، حتى قرر أمره ، فدعاه ذات مساء إلى مأدبة حافلة ، وأغرى به السقاة حتى فقد وعيه ، ثم دس عليه فى طريقه إلى منزله من قتله ، وحمل إليه رأسه سراً (٣٧٢ هـ) . فتظاهر المنصور بالحزن على ضحيته ، وكانت هذه الجريمة المثيرة ، عنواناً لبعض النواحى القاتمة ، فى خلاله وفى وسائله السياسية [2] .

وفى ذلك الحين كانت الأحوال قد اضطربت فى ليون ، وفقد راميرو الثالث من جراء هزائمه المتوالية كل عطف وتأييد ، وزاد الشعب نقمة عليه ، محاولاته فى توسيع سلطانه ، وتمكين حكمه المطلق . وما لبثت جليقية أهم ولاياته ، أن اضطرمت بالثورة ، وقرر أشرافها خلع راميرو ، وتولية ابن عمه برمودو (أو برمند) ملكاً مكانه . وفى أكتوبر سنة ٩٨٢ م ، توج هذا الأمير ملكاً على ليون فى مدينة شنت ياقب . فسار راميرو إلى محاربته ونشبت بينهما موقعة شديدة غير حاسمة ، فى بلدة بورتليا دى أريناس ، على حدود ليون وجليقية ، ثم عاد برمودو إلى جمع قواته ، وسار لمحاربة خصمه مرة أخرى ، فهزمه واستولى على مدينة ليون فى مارس سنة ٩٨٤ . فالتجأ راميرو إلى مدينة أسترقة ، والتمس مساعدة المنصور ، على أن يعترف بطاعته ؛ ولكنه توفى بعد ذلك بأشهر قلائل ؛ وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور ، فأبى المنصور أن يستمع إليها وأدرك برمودو من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين لحكمه إلا بمعاونة المسلمين ، فتقدم إلى المنصور ، وعرض أن يعترف بطاعته ، فقبل المنصور وأمده بجيش ، استطاع ان يخضع به سائر المملكة ، وأن يوطد حكمه . وبقيت بعد ذلك فى مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين :

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، و ٣٠٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٥ .

وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية لأول مرة ، ولاية تابعة لحكومة قرطبة ، تؤدى لها الجزية ، وتأتمر بأوامرها ، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة الغزو المنظم ، التى سار عليها المنصور .

وتحول اهتمام المنصور بعد ذلك إلى شمال شرقى الأندلس ، فحشد جيشاً ضخماً استعداداً لغزوة هامة ، لم تخطر من قبل لأحد من أمراء الأندلس . وخرج فى قواته من قرطبة فى ذى الحجة سنة ٣٧٤ هـ (مايو ٩٨٥ م) ، ومعه عدة من الكتاب والشعراء ، يجتمعون فى مجلسه خلال السير . وتوصف غزوة المنصور هذه بأنها الثالثة والعشرون . وسار المنصور جنوباً صوب إلبيرة (غرناطة) ، ثم اتجه شرقاً إلى بسطة ، فلورقة ، فتدمير ، فمرسية ، وأقام فى مرسية ثلاثة وعشرين يوماً فى ضيافة أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب وولده أبى الأصبغ موسى . وكان ابن خطاب من أعظم رجالات الأندلس وجاهة وثراء وجوداً ؛ ومن المدهش حقاً ، ما تنقله إلينا الرواية ، من أنه استضاف المنصور وسائر حاشيته وجيشه خلال هذه المدة ، وتكفل بسائر النفقات ، وأبدى من ضروب الجود والبذخ ما يفوق قصص ألف ليلة وليلة ، وغدا بذلك من أعظم أصدقاء المنصور وأكثرهم حظوة لديه[1] .

وسار المنصور فى جيشه بعد ذلك شمالا . وكان يقصد ثغر برشلونة العظيم . وقد لبثت برشلونة منذ الفتح فى أيدى المسلمين نحو قرن من الزمان ، وكانت أعظم ثغور الأندلس الشمالية الشرقية ، ثم افتتحها عاهل الفرنج شارلمان أو كارل الأكبر فى سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) أيام الحكم بن هشام ، بعد حصار طويل ، وبعد أن دافع المسلمون عنها أروع دفاع . واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة لولاية « الثغر القوطى » ، الذى نما فيما بعد ، واستطاع حكامه الكونتات القوط مع الزمن ، أن ينتزعوه من يد الفرنج ، وأن يجعلوا منه إمارة مستقلة ، هى إمارة قطلونية ، التى

---

(١) الحلة السيراء عن ابن حيان وابن الفياض ص ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣ . هذا ويقدم إلينا العذرى نسبة ابن خطاب كاملة ، فهو أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار الداخل . ويقول لنا إنه استضاف المنصور وجميع عسكره أياماً ، وصنع له فيما صنع حماماً كان ماء الحمام من ماء الورد الطيب الغاية وأهدى له قناطر من الفضة الخالصة . (العذرى فى كتاب ترصيع الأخبار السابق ذكره ص ١٥) .

حافظت عصراً على استقلالها ، ثم اندمجت بعد ذلك فى مملكة أراجون القوية[1]. واخترق المنصور بجيشه قطلونية ، وهزم قوات أميرها الكونت بوريل ، فى أواخر شهر يونيه ، وأشرف على ظاهر برشلونة فى اليوم الأول من يوليه ، ولم تمض أيام قلائل حتى اقتحم المسلمون المدينة ، ودخلوها فى يوم الاثنين منتصف صفر ، سنة ٣٧٥ هـ ، الموافق سادس يوليه سنة ٩٨٥ م[2] . ودمر المسلمون المدينة وأحرقوها ، وقتلوا معظم أهلها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكان بين الأسرى أودلرادو نائب كونت برشلونة ، فاقتيد إلى قرطبة ، حيث قضى فى الأسر أعواماً طويلة . والظاهر أن المنصور لم يحاول الاحتفاظ ببرشلونة ، ولم تكن لديه نية افتتاحها بصورة دائمة ، ولكنه قصد أن يدمر قوى النصارى فى هذا الطرف النائى من شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

وما كاد المنصور يرتد بجيشه إلى قرطبة ، حتى استغرقت حوادث المغرب جل اهتمامه . وقد فصلنا فيما تقدم عند الكلام على عهد عبد الرحمن الناصر ، ثم عهد ولده الحكم المستنصر ، أدوار الصراع الذى نشب فى المغرب الأقصى ، بين الفاطميين مذ قامت دولتهم فى إفريقية ، وبين بنى أمية ، ورأينا كيف استطاع الحكم المستنصر ، بعد سلسلة من الأحداث المثيرة ، والمعارك الطاحنة ، بينه وبين الفاطميين وحلفائهم الأدارسة بالمغرب ، أن يقضى على قوى الشيعة والأدارسة ، وكيف استسلم إليه الأدارسة وكبير زعمائهم الحسن بن كنون فى سنة ٣٦٣ هـ ، واستقروا حيناً فى كنفه فى قرطبة ، ثم خرجوا منها بعد ذلك بعامين ، وساروا إلى مصر حيث استقروا بها فى كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله .

وكان العزيز قد شغل فى أوائل ولايته ، برد خطر القرامطة عن مصر والشأم ؛ فلما تمت هزيمة القرامطة ، وزال خطرهم (٣٦٨ هـ) ، عاد إلى الاهتمام بشئون المغرب ، وثاب له رأى فى العمل على استعادة سلطان الدعوة الفاطمية ، وسحق

---

(١) راجع تفاصيل ذلك فى القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٣٤ — ٢٣٦ .

(٢) تتفق الروايات النصرانية مع الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ دخول المسلمين لبرشلونة على هذا النحو . راجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة) ج ٢ ص/ ٧١ . وكذلك **Dozy : Hist. Vol. II. p. 239** والمراجع .

الدعوة المروانية فى المغرب الأقصى ، فأوعز إلى نائبه على إفريقية (تونس) بُلُكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، أن يسير فى قواته إلى المغرب ؛ فبدأ بلكين زحفه على المغرب سنة ٣٦٩ هـ ، فاستولى على مدينة فاس ، وهزم سائر الأمراء الذين تصدوا لمقاومته من زناتة وغيرهم ، وفر أولئك الأمراء المعارضون جميعاً إلى الشمال ، واعتصموا بسبتة ، وبعثوا إلى المنصور يستغيثون به . فعهد المنصور يومئذ ، إلى جعفر بن على بن حمدون المعروف بالأندلسى ، وهو من زعماء زناته بمحاربة بلكين ، وأمده بالجند والمال ، والتف حوله باقى الزعماء . ولكن بلكين استمر فى تقدمه ، رغم كل معارضة ، حتى استولى على المغرب كله ، ولم يبق منه بيد خصوم الشيعة سوى القطا الشمالى .

وفى سنة ٣٧٣هـ (٩٨٣م) بعث العزيز بالله ، الحسن بن كنُّون زعيم الأدارسة ، من مصر إلى المغرب تحقيقاً لملتمسه ، ليسعى إلى استرجاع ملكه ، وقلده عهده ، وأمر نائبه على المغرب بلكين أن يمده بالقوات اللازمة ؛ وكان العزيز ، ووزيره ابن كلِّس تخالجهما ايضاً رغبة فى التخلص من الحسن وصحبه ، والتخفف من مؤنتهم[1]. فسار الحسن إلى المغرب ، فى جيش صغير أمده به بلكين ، ودعا لنفسه ، فالتف حوله كثير من البربر ، ولاسيما بنى يفرن ، وجاهروا بطاعته ؛ وعلم المنصور بخبره ، فبعث ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجة ، فى جيش كثيف ، إلى المغرب ، لقتاله والقضاء على دعوته ؛ فعبر البحر إلى سبتة لقتال الحسن ، وانضم إليه زعماء مغراوة فى قواتهم ، وفى مقدمتهم كبيرهم زيرى بن عطية بن خزر ، ثم بعث المنصور لإمداده جيشاً آخر إلى المغرب بقيادة ولده عبد الملك . وطارد عسكلاجة الحسن ، ثم أحاطه بقواته ، وحاصره حتى أرهقه الحصار ، ولم ير بداً من طلب الأمان والتسليم ، على أن يسير إلى الأندلس كسابق عهده ، فأجيب إلى طلبه ، وأرسل على عجل إلى قرطبة تحقيقاً لرغبة المنصور . ولما علم المنصور بمقدم الحسن ، آثر أن ينقض الأمان الذى منحه ابن عمه ، وأن يقضى على حياة ذلك الخصم العنيد ، الذى تكرر خروجه على حكومة قرطبة ، فأنفذ إليه من قتله فى الطريق وأتاه برأسه ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ (أواخر سنة ٩٨٥ م) وانهارت بذلك دعوة الأدارسة

---

(١) « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٩ .

بالمغرب الأقصى ، وتفرق أنصارهم ، وركدت ريحهم .

وعلى أثر ذلك ندب المنصور لحكم المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ، ومنحه السلطان المطلق ، وأمره أن يعمل على استمالة البربر فى تلك الأقطار ، إذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور ظهيراً ، وعوناً على إخضاع القبائل العربية بالأندلس ، ومنهم اتخذ المنصور حاشيته وجنده ، وكثيراً من رجالات حكومته وجيشه . فسار الوزير إلى المغرب (٣٧٦ هـ) ونزل بفاس ، وضبط شئون البلاد ، واجتمعت إليه أمراء زناته ومغراوة ، واتخذ من زعيم مغراوة زيرى بن عطية عوناً وحليفاً ، لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية وتأييدها . واستدعى المنصور زيرى للوفود عليه ، فسار إلى قرطبة ، واحتفى المنصور بمقدمه ، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم ، وأوعز إليه بمقاتلة بنى يفرن أولياء الفاطميين ؛ فلما عاد زيرى إلى المغرب سار مع الوزير الحسن إلى قتال بنى يفرن وزعيمهم يدّو بن يَعلى ، ولكنه هزم ، وجرح الوزير الحسن ، ثم توفى متأثراً بجراحه (سنة ٣٨١ هـ) . فلما علم المنصور بذلك عقد لزيرى على المغرب ، وندبه لحكمه ، وأمره بضبط الأمور ، والتعاون مع جيش الخلافة ، وأصحاب الحسن ، فاضطلع زيرى بمهام الحكم بمقدرة وكفاية ، وكان حازماً ، قوى النفس والعزم ، فقوى أمره وتوطد سلطانه ، ولكنه لبث مشغولا بأمر خصومه من بنى يفرن وغيرهم ، ولبثت الحرب سجالا بينهم مدى حين[1] .

وفى سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) استدعى المنصور زيرى بن عطية ، للقدوم عليه للمرة الثانية ، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز ، وسار إلى قرطبة ، وقدم إلى المنصور هدية عظيمة منها طيور نادرة ، وحيوانات غريبة ، وأسود ؛ فأكرم المنصور وفادته ، وأنزله بقصر المصحفى ، وغمره بالمال والصلات ، ومنحه لقب الوزارة ، وجدد له عهده على المغرب ، وعلى جميع ما غلب عليه ؛ ولكن زيرى لم يبتهج بلقب الوزارة ، بل بالعكس ساءه ذلك ، إذ كان يعتبر نفسه فى مرتبة الإمارة ، فعبر البحر إلى العدوة وفى نفسه مرارة وخيبة أمل . وما كاد يصل إلى طنجة حتى نمى إليه أن خصومه الألداء بنى يفرن وأميرهم يدّو

---

(١) راجع فى حوادث المغرب الأقصى ، ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨ – ٣٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٨ – ٩٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٧ – ٢١ .

ابن يعلى ، قد انتهزوا فرصة غيبته ، فزحفوا على فاس واستولوا عليها ، وقتلوا بها كثيراً من رجال مغراوة . فأسرع بالسير إلى فاس ، وهناك جمع قواته ، ونشبت بين مغراوة وبنى يفرن معارك عديدة متوالية ، قتل فيها كثير من الطائفتين وانتهت بهزيمة بنى يفرن ومقتل أميرهم يدّو ، وبعث زيرى برأسه إلى المنصور (٣٨٣ هـ) .

وأصبح زيرى بعد هزيمة بنى يفرن وركود أمرهم ، أعظم أمراء الغرب قوة وبأساً ، واستقر سلطانه فى سائر أنحاء المغرب ، واستمر فى الظاهر على ولائه للمنصور ، وللدعوة الأموية . ولكن نفسه كانت تجيش بمشاريع أخرى . ولما كانت فاس بموقعها فى الطرف الغربى للمغرب ، وعلى مقربة من مواطن القبائل الخصيمة ، أصبحت لا تصلح لمشاريعه ، فقد اعتزم أن ينشئ لنفسه قاعدة جديدة ، فأنشأ مدينة وجدة الواقعة جنوبى شرقى مليلة ، وعلى مقربة من جنوب غربى تلمسان ، وابتنى بها قصبة منيعة وقصراً ، وأحاطها بأسوار ضخمة ، ونقل إليها أمواله وذخائره ، وسكنها بأهله وحشمه ، واتخذها قاعدة الحكم (سنة ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م) لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى (١) .

* * *

ولنقف الآن قليلا فى تتبع حوادث المغرب ، لنعود إلى تتبع حوادث الأندلس ؛ ذلك أن المنصور سار على سنته من المضى فى غزو الممالك النصرانية . وكانت الأحوال فى ليون ما تزال بعيدة عن الإستقرار ، نظراً لما كان يضطرم بين حامية ليون المسلمة ، وبين النصارى من الشغب المستمر . وكان برمودو ملك ليون ، بعد أن استتب له الأمر ، يرقب الفرص لإخراج المسلمين من مملكته ، فجد فى جمع قواته ، وانقض ذات يوم على المسلمين ، وطاردهم إلى خارج حدوده ، فاضطر المنصور أن يرد بغزو ليون ؛ فسار فى قواته نحو الشمال مخترقاً أراضى ليون ، ثم سار غرباً إلى مدينة قُلُمرية ، الواقعة فى شمال البرتغال على مقربة من المحيط ، واستولى عليها فى يونيه سنة ٩٨٧ م (٣٧٨ هـ) ، وأمعن فى تخريبها حتى لبثت قاعاً صفصفاً مدى سبعة أعوام . وفى خلال ذلك كان البشكنس أو النافاريون قد أغاروا بقيادة ملكهم سانشو على أراضى الثغر الشمالى ، فسار المنصور إلى

(١) الإستقصاء ج ١ ص ٩٢ .

قتالهم وطاردهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة ناڤار ؛ وهنا تقول الرواية النصرانية إن البشكنس انقلبوا إلى الهجوم ، وهزموا المسلمين (أواخر ٩٨٧ م) . ثم تزيد على ذلك أن جيشاً من الفرنسيين ، قد سار فى نفس الوقت إلى برشلونة ، تعاونه سفن من البحر ، فاستولى عليها ، ولم تلبث طويلا فى يد المسلمين . وقد رأينا فيما تقدم أن المسلمين حين غزوا برشلونة ، لم يقصدوا إلى الاحتفاظ بها ، بل اكتفوا بتخريبها وإحراقها .

على أن الرواية الإسلامية تحدثنا عن غزوة ناڤار هذه ، دون أن تشير أية إشارة إلى هزيمة المسلمين ، وهى تسميها بغزاة البياض ، وتضع تاريخها فى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ، وتقول لنا إن المنصور عاد بجيشه إلى سرقسطة ، حيث التقى هنالك بولده عبد الملك أثر عوده من حروب المغرب [١].

وما كادت تمضى أشهر قلائل ، حتى عاد المنصور لاستئناف الغزو ؛ فخرج فى ربيع سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) فى جيش ضخم ، وعبر نهر دويرة ، واخترق أراضى ليون شمالا ، فرابط برمودو فى معظم قواته بمدينة سمُّورة ، اعتقاداً منه أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور سار توا إلى مدينة ليون ، فقاومته حيناً لمناعة قلاعها ، ولكنه اقتحم أسوارها ، بعد قتال رائع ، قتل فيه قائدها الكونت جونزالڤو كونثالث ، ودخلها المسلمون فخربوا صروحها ، وأبادوا سكانها ، وغادروها أطلالا دارسة . وسار المنصور بعد ذلك جنوباً إلى سمورة ، وأحرق فى طريقه عدداً من الأديار ومنها ديرى إسلونزا وسهاجون العظيمين ، وضرب الحصار حول المدينة ، فغادرها برمودو سراً ، واضطر السكان إلى تسليمها إلى المنصور ، فأمر بنهبها ، واضطر معظم نبلاء المملكة (الكونتات) إلى الاعتراف بطاعته ، ولم يبق بيد برمودو من مملكته ، سوى الرقعة الجبلية الشمالية الغربية من جليقية [٢] .

وفى العام التالى وقعت بالثغر الأعلى حوادث هامة . وكان الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، لوقوعه فى أقصى الشمال بعيداً عن قرطبة ، يغدو فى فرص

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وكذلك **Crónica General ; ibid ; Vol. II. p. 446** و **Dozy : Hist. Vol. II. p. 244 & 245**

كثيرة مهداً للقلاقل والثورات المتعاقبة . وكان حكامه بنو هشام التجيبيون الذين غلبوا على بنى قسىّ ، وانتزعوا سرقسطة لأنفسهم ، منذ أيام الأمير عبد الله ، يتمتعون بنوع من الإستقلال المحلى ، ويحرصون على سلطانهم ، بالرغم من اعترافهم الإسمى بسلطان الحكومة المركزية . وكان حاكم الثغر الأعلى وهو يومئذ عبد الرحمن بن مطرّف التجيبى ، يرقب سياسة المنصور ، فى القضاء على سلطان الحكام المحليين ، بتوجس وحذر ، ويلتمس السبل لحماية سلطانه ، ولم يكن بعيداً عن التفكير فى التحالف مع جيرانه من النصارى ، فى نافار ، وقشتالة ، كما فعل أسلافه أيام الناصر ؛ ولكن تطور الحوادث جعله يتجه اتجاهاً آخر . ذلك أن عبد الله ابن المنصور بن أبى عامر ، كان ناقماً على أبيه لأنه يؤثر أخاه عبد الملك عليه ويصطفيه دونه ، ويوليه كل عطفه وثقته . وكان عبد الله يومئذ فتى فى الحادية والعشرين من عمره ، وكان يشعر أنه يتفوق فى الشجاعة والخلال على أخيه الأكبر ، ولكن المنصور كان يشك فى بنوة ولده عبد الله ، ويضن عليه بحبه وثقته ، ويخشى نياته ومشاريعه[1] . وكان عبد الله قد ذهب إلى سرقسطة ، ونزل عند صاحبها عبد الرحمن ، وهو متغير النفس على أبيه . فانتهز التجيبى الفرصة ، واستمال عبدالله إليه ، وأذكى حقده على أبيه ، وائتمر الإثنان على الوثوب بالمنصور فى أول فرصة والقضاء عليه ، على أن يقتسما ملك الأندلس ، فيستولى عبدالله على قرطبة وما والاها ، ويستولى عبد الرحمن على الثغر وأحوازه ، وانضم إليهما فى تلك المؤامرة بعض أكابر الجند ورجال الدولة ، من المعارضين للمنصور والناقمين عليه ، وفى مقدمتهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المروانى حاكم طليطلة المعروف بالربضى .

وترامت أخبار هذه المؤامرة الخطيرة إلى المنصور قبل نضجها ، فأعمل الحيلة فى استدعاء ولده عبد الله من سرقسطة ، وأبدى له كثيراً من الرفق والعطف ، وصرف الوزير المروانى عن حكم طليطلة صرفاً جميلا ، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة ، واعتقله بداره . ثم خرج بالصائفة غازياً إلى أراضى قشتالة ، واستدعى أمداد الثغور ، فتوافدت إلى لقائه ، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجاله . واجتمعت الحشود بقوات قرطبة فى مدينة وادى الحجارة . وهناك أجمع أهل

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

الثغور بوحي المنصور ، على الشكوى من عبد الرحمن بدعوى احتباسه لأرزاقهم ، فقرر المنصور إقالته ، ولكنه رأى استمالة لبنى هاشم ، أن يعين مكانه فى حكم سرقسطة ، ولده يحيي الملقب «بسماحة» (نهاية صفر ٣٧٩ هـ) . ولم تمض على ذلك أيام قلائل ، حتى أمر المنصور بالقبض على عبد الرحمن ، ومحاسبته ، ثم أعدم بأمره فيما بعد إثر عوده إلى الزاهرة[١] .

واستدعى المنصور فى نفس الوقت ولده عبد الله إلى معسكره خشية مما قد يقع منه . ثم سار فى قواته شمالا إلى شنت إشتيبن ، وبينما هو مشغول بحصارها ، إذ فر ولده عبد الله فى نفر من غلمانه ، ولحق بغرسية فرناندیز كونت قشتالة ، فوعده بحمايته وتأييده . فطالب المنصور غرسية بتسليم ولده ، وأقسم ألا يكف عن قتاله ، حتى ينزل على رغبته ، فأبى غرسية ، واضطرم القتال بين الفريقين ، وسار المنصور شرقاً ، واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية إسلامية ، ثم استولى على « القبة » بعد ذلك بقليل ، وتوالت الهزائم على غرسية ، حتى اضطر أخيراً إلى أن يتضرع إلى المنصور أن يكف عنه ، وتعهد بإجابته إلى سائر مطالبه ؛ فقبل المنصور ضراعته ، وبعث غرسية عبد الله ، فى جماعة من القشتاليين ، فاستقباله سعد الخادم ، مع جماعة من الفرسان ، وقبل يده ولاطفه ، ثم تركه مع بعضهم ، فأنزلوه عن بغله ، وأخطروه أن يتأهب للموت ، فترجل عبد الله ، وقدم نفسه للموت هادئاً ، ثبت الجنان رائع الشجاعة ، فضرب عنقه عند غروب الشمس من يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ (٩ سبتمبر ٩٩٠ م) وأنفذ برأسه فى الحال إلى والده المنصور ، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح إلى الخليفة ، ودفن شلوه فى مكان مصرعه ، وكان عمره يوم إعدامه ثلاثة وعشرين عاماً . وكانت غزوة المنصور التى وقعت خلالها تلك الحوادث هى غزوته الخامسة والأربعون[٢].

وقد يبدو لنا المنصور ، بإقدامه على إزهاق ولده ، فى أشنع الصور وأروعها. ولكن يجب علينا أن نذكر الظروف التى اضطر فيها المنصور ، إلى اتخاذ تلك الخطوة المؤلمة ؛ فقد كان ائتمار عبد الله بأبيه ، وتحالفه أولا مع التجيبيين سادة الثغر ، وخصوم الحكومة المركزية منذ بعيد ، ثم التجاؤه بعد ذلك إلى أمير قشتالة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ . وكذلك Dozy Hist.: Vol. II. p. 247 & 248

من أقطع الدلائل على مرض نفسه ، وخطورة مقصده ؛ ولو نجحت المؤامرة ، لقضى على سلطان المنصور ، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية العظيمة ، التى نجح المنصور فى إقامتها وتوطيدها ، ولكان المنصور نفسه حسبما كان يعتقد ، من أول ضحاياها[1] ، فما كان عبدالله ليتردد عندئذ فى إزهاق أبيه ليفسح المجال لنفسه ؛ ولقد كان تصرف المنصور قبل كل شىء تصرفاً سياسياً صارماً ، خلواً من كل عاطفة ، إلا عاطفة الاحتفاظ بالنفس والسلطان ، وكان للمنصور فى تصرفه المثير أسوة فى كل عصر ، وفى كل قطر ، بل كانت له أسوة فى بنى أمية أنفسهم من أمراء وخلفاء ، فقد قام عبد الرحمن الداخل بإزهاق ابن أخيه وأبناء عمومته ، وأقدم الأمير عبدالله على إزهاق إخوته الثلاثة ، وإزهاق ولديه ، ثم جاء الناصر لدين الله ، فأقدم على إزهاق ولده وأبناء عمومته ، كل ذلك بتهمة التآمر ، وحرصاً على السلطان . وقد كان القتل ، ومازال على كر العصور ، سلاح الطغاة الأقوياء ، يجعلونه سياجاً لطغيانهم ودولتهم ؛ وهكذا جعل المنصور مقتل ولده سياجاً لطغيانه فاهتز له الناس ، وملئوا وحشة وروعاً[2] .

هذا وأما عبدالله بن عبد العزيز المروانى ، أحد أركان المؤامرة ، فقد استطاع الفرار فى الوقت المناسب ، والتجأ إلى حماية برمودو ملك ليون .

وكان من ذيول المؤامرة أن قرر المنصور أن يعاقب غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، على ما ارتكبه فى حقه ، باغراء ولده عبد الله وحمايته ، فحرض ولده سانشو على الثورة عليه ، وأيده عدد كبير من الأشراف ، وانتهى سانشو بأن أعلن الحرب على أبيه ، وجاهر المنصور بتأييده ، ثم انتهز فرصة اضطرام هذه الحرب الأهلية ، وسار لمحاربة الكونت ، واستولى على شنت إشتبين وكلونية . ثم ترك جزءاً من قواته لمتابعة الصائفة وعاد إلى قرطبة .

وهنا تقدم الرواية الإسلامية إلينا قصة حادث مدهش ، يعتبر من أغرب موافقات القدر ، وهو أن شاعر المنصور أبا العلاء صاعدا بن الحسن البغدادى ، أهدى إليه أيّلا فى عنقه حبل ، وسماه غرسية باسم كونت قشتاله ، وبعث به إلى القصر يوم السبت منتصف ربيع الثانى سنة ٣٨٥ هـ ، ومعه أبيات جاء فيها :

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ .

يا حرز كل مخوف وأمان كل ... مشرد ومعز كل مذلل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من ... مقداره أهدى إليك بأيل
سميته غرسية وبعثته ... فى حبله ليتاح فيه تفاؤلى

فكان من عجائب القدر ، أن تحققت نبوءة الشاعر . فنى نفس اليوم الذى قدم فيه الأيل والقصيدة إلى المنصور ، تمت الهزيمة على الكونت غرسية فرنانديز ، وجرح وأسر على ضفاف نهر دويرة ، على مقربة من بلدة «القصر» ، وذلك فى يوم ٢٥ مايو سنة ٩٩٥ (منتصف ربيع الثانى ٣٨٥ هـ) . ثم توفى الكونت بعد أيام قلائل متأثراً بجراحه ، وتم الأمر لولده سانشو ، ولكنه اضطر أن يؤدى الجزية للمسلمين[١].

وفى خريف هذا العام سار المنصور إلى غزو ليون ومعاقبة ملكها برمودو على حمايته لعبد الله بن عبد العزيز المروانى . وكانت الأحوال قد ساءت فى ليون ، واستولى الأشراف الإقطاعيون على سائر أراضيها وضياعها ، ولم يبق لملكها سوى الاسم ، واضطر برمودو أن يغادر مدينة ليون عاصمة ملكه ، وأن يتخذ أسترقة عاصمة مكانها . فلما أرهقه المنصور بالحرب غادر أسترقه ، والتمس الصلح من المنصور ، وسلمه المتآمر عبد الله ، وتعهد بدفع الجزية ، فأجابه المنصور إلى ما طلب . واستولى فيما بعد على مدينة سمورة ، وأسكن بها المسلمين ، وولى عليها عاملا من قبله هو أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى . وهكذا عادت قشتالة وليون إلى دفع الجزية لحكومة قرطبة[٢] . وأما عبد الله المروانى ، فقد ألقى به المنصور إلى السجن مصفداً ، وتركه يرزح فى أصفاده ، بالرغم مما رفعه إليه من القصائد المؤثرة فى طلب العفو والمغفرة[٣] .

* * *

وقد تقدم أن ابن أبى عامر اتخذ سمة الملك منذ سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) ، وتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، وكانت هذه أول خطوة فى اتخاذه ألقاب الملك بصفة رسمية ، بعد أن استأثر بكل سلطة فعلية .

---

(١) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٢٢ و ٢٣ ، وأعمال الأعلام ص ٦٨ و ٦٩ ، والمعجب لعبد الواحد (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وراجع **Dozy : Hist. Vol. II. p. 249**

(٣) راجع الحلة السيراء ص ١١٣ و ١١٤ .

وفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أى بعد ذلك بعشرة أعوام ، اتخذ المنصور خطوة أخرى فى سبيل تدعيم صفته الملوكية . فرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ، وهو فتى لم يجاوز الثامنة عشرة ، ونزل له عن خطة الحجابة والقيادة العليا ، وسائر الخطط الأخرى التى كان يتقلدها ، واقتصر على التسمى بالمنصور ، وأن تنفذ الكتب عنه « باسم المنصور أبى عامر وفقه الله » كما قلد ولده عبد الرحمن خطة الوزارة .

ثم كانت الخطوة الثالثة بعد ذلك بخمسة أعوام ، حينما أصدر المنصور فى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) أمره ، بأن يخص بألقاب السيادة من بين سائر الناس فى المخاطبات ، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة ، ونفذت الكتب بذلك ، وخوطب المنصور من ذلك الوقت « بالملك الكريم » ، وبولغ فى تكريمه وتعظيمه فى سائر المخاطبات ، واستمر ذلك بقية حياته(١) .

ولم يك ثمة شك فيما يرمى إليه ابن أبى عامر ، من وراء هذه الخطوات المتعاقبة فى سبيل الاتشاح بألقاب الملك والسيادة . فهو قد حقق من الناحية العملية أمنيته الجوهرية ، بالاستيلاء على الدولة والاستئثار بكل سلطة فعلية . ولكنه كان يرمى إلى أبعد من ذلك . فهو قد أصبح أعظم وأقوى رجل فى الدولة ، وقد جمع بين يديه سائر السلطات السياسية والعسكرية . وكان الجيش وهو عماد السلطان والدولة ، يتكون معظمه من البربر والنصارى المرتزقة ، ويدين للمنصور بمنتهى الولاء والإخلاص ، وهو الذى عنى بإنشائه وتنظيمه ، وقاده إلى ميادين النصر عشرين عاماً . وإذاً فقد كان يبدو من هذه الظروف كلها ، أنه لم يك ثمة ما يحول دون أن يحقق المنصور غايته الأخيرة ، فيتوج حكمه بالصفة الشرعية ، وينتزع لنفسه ما بقى من رسوم الملك والخلافة ، ويؤسس بذلك لنفسه ولعقبه دولة جديدة ، تحل مكان الدولة الأموية المحتضرة .

وهنالك ما يدل على أن المنصور ، كان يعتزم بالفعل أن يتخذ سمة الخلافة ؛ وهذا ما يقرره الفيلسوف ابن حزم ، ويروى تفاصيله نقلا عن أبيه الوزير ابن حزم وزير المنصور . وملخص روايته أن المنصور جمع للمشورة فى ذلك الأمر قوماً من خواصه منهم ابن حزم ، وابن عياش ، وابن فطيس من الوزراء ، وبعض الفقهاء ؛ وقد صوّب رأيه ابن عياش وابن فطيس ، ولكن ابن حزم

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

عارض فيه ، وأعرب عن خوفه من أن يحرك ذلك ساكن الأحوال ، وأن المنصور ليس فى حاجة إلى مثله ، وبيده سائر الأمور ؛ وتردد رأى الفقهاء بين الاعتراض والموافقة[1] .

على أنه يبدو من جهة أخرى ، من تريث المنصور وتمهله فى اتخاذ الخطوات المذكورة ، أنه كان يخشى نتائج العنف والتسرع . فما الذى كان يخشاه المنصور إذاً ، وقد اجتمعت فى يده كل السلطات ، وأضحى يسيطر على سائر القوى ؟ لقد كان نهوض المنصور وتقدمه فى سبيل السلطان ، مقترناً بظروف لا تساعد على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص . فقد وقع عن طريق اتصاله بصبح ، بالمرأة التى كانت تسيطر على الدولة ، والتى كانت علائقه بها تثير كثيراً من الهمس والتعليق اللاذع ، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل هشام المؤيد ، الذى استلب ابن أبى عامر سلطانه وحقوقه تباعاً ، ثم حجر عليه بطريقة قاسية تشبه الموت المدنى ، وقطع علائقه مع العالم ، ولم يكن يسمح له بمقابلة أحد ، أو بالخروج من القصر ؛ وفى الفرص النادرة التى كان يسمح بخروجه فيها ، كان يسير فى موكبه وعليه برنس يخفى شخصه ، ومن حوله صفوف كثيفة من الجند ، فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه[2] . وكان الشعب القرطبى يشهد أطوار هذه المأساة المؤلمة واجماً ناقماً ، ويعتبر الخليفة الشرعى ضحية وشهيداً ، يستحق كل عطفه ورثائه . ولم يكف كل ما حققه المنصور من مظاهر السلطان والمجد ، وما أحرزه من الظفر المتوالى ، وما أسبغه حكمه على الأندلس من أسباب السكينة والعزة والأمن والرخاء ، لم يكف ذلك كله لحمل الشعب على نسيان قضية خليفته الشرعى. أضف إلى ذلك كله ، تلك الوسائل الدموية المثيرة ، التى لجأ إليها ابن أبى عامر للتخلص من خصومه ومنافسيه ، فقد كانت تباعد بينه وبين الشعب ؛ ولم يكن الشعب ، إزاء هذه الظروف والعوامل كلها ، ليمنح ابن أبى عامر حبه وولاءه ، وإن كان من جهة أخرى يخشاه ويرهبه ، بل ويعجب بحزمه وعزمه وعبقريته فى تسيير الأمور ، وفى تأمين البلاد ، وإذلال العدو .

ومن ثم كان تريث ابن أبى عامر وتحوطه . فإنه لم يكن واثقاً من إغضاء

---

(١) راجع نقط العروس لابن حزم ص ٧٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

الشعب ، عن انقلاب حاسم يقضى به على آخر مظاهر الخلافة الشرعية ، وينتزع به تراث بنى أمية . ومن جهة أخرى ، فقد كانت هناك صبح أم الخليفة المعتقل ، المحروم من كل حقوقه وسلطانه ؛ وكانت صبح قد غدت بمضى الزمن ألد خصوم ابن أبى عامر وأخطرهم . وقد رأينا كيف بدأت تعمل لمقاومته ، مذ شعرت بخطورة مشاريعه ، على مركز ولدها ، وتحاول أن تجمع من حولها كلمة الناقمين والمعارضين لابن أبى عامر ، باسم حماية الخليفة الشرعى ، وإنقاذه من نير المتغلب ، وكيف وقعت أول محاولة حقيقية لمقاومة ابن أبى عامر ، فى انقلاب صهره القائد غالب عليه ومحاربته إياه ، ولم تبذل من ذلك الحين أية محاولة أخرى فى هذا السبيل . هذا وسلطان المنصور على كر الأعوام يتوطد ، ومركز هشام المؤيد يزداد سوءاً وانحلالا ، وتغيض ذكريات الخلافة ورسومها شيئاً فشيئاً .

فلما عمد المنصور أخيراً إلى اتخاذ ألقاب السيادة والملك ، شعرت صبح بأن الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع ، واعتزمت ان تضاعف العمل فى سبيل حماية ولدها ، وتحريره من قبضة المتغلب . فكررت ضد المنصور دعايتها القديمة ، واتهمته على يد دعاتها وأعوانها ، باغتصاب سلطان الخلافة ، ومقاومة رغبة الخليفة فى تولى الحكم بنفسه ؛ وخطر لها فى نفس الوقت أن تتصل بزيرى ابن عطية حاكم المغرب ، وأن تدفعه إلى مناوأة المنصور ، فبعثت إليه رسلها ، وأنفذت إليه الأموال سراً ، ليحشد الجند ويتأهب للعبور إلى الأندلس . وكان زيرى من أولياء بنى أمية ومن أشد المخلصين لقضيتهم ، وكان ينقم على المنصور سياسته فى الحجر على هشام ؛ وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور ، لما أساء به فى حقه حين زيارته إلى قرطبه ؛ وإذاً فقد لبى زيرى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته ، وحجره على الخليفة ، ويدعو إلى مقاومته ، ورد الأمر إلى الخليفة الشرعى(١) .

وكان المنصور يقظاً ، فلم يفته شىء من خطط صبح وأعوانها . وكان أول همه أن يرفع يدها عن الأموال ، التى أخذت تفتن فى تهريبها بواسطة فتيان القصر ، وكان المنصور مريضاً ، فبعث ولده عبد الملك فى قوة من الجيش إلى قصر الخلافة بقرطبة ، ومعه جمهرة من الفقهاء والوزراء ، ثم دخل بهم إلى مجلس الخليفة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٢٧ .

وخاطبه فى الأمر ، فأنكر هشام ذلك ، وتبرأ من خصومة المنصور ، ووافق على نقل المال ، فنقل فوراً إلى الزاهرة ، ولم يبق منه فى خزائن القصر شىء ، ولم تجد توسلات صبح ، ولا وعيدها ، وتطاولها على عبد الملك شيئاً ، ويقال إن ما حمله المنصور يومئذ من المال بلغ عدة ملايين[1] .

ولما أبل المنصور من مرضه بعد ذلك بقليل ، سار إلى قصر قرطبة مع ابنه عبد الملك وسائر عظماء الدولة ، وانفرد بالخليفة فى مجلسه ، فاعترف له هشام بالفضل ، وحمد اضطلاعه بشئون الدولة ، وأقره على سياسته . ثم عمد المنصور إلى اتخاذ خطوة جريئة أخرى ، فأخرج هشاماً من القصر ، وأركبه فى زى الخلافة فى موكب عظيم ، وركب إلى جانبه ، وأمامه ولده عبد الملك ، وسار الجيش أمام الموكب ومن خلفه ، وتبع الموكب جموع عظيمة من طوائف الجند والفتيان الصقالبة . وشق هذا الموكب الخليفى شوارع قرطبة ، بين جموع حاشدة مستبشرة من الشعب ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً ، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته[2] .

وهكذا فشلت صبح فى محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور ، وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح فى الواقع أهلا لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له فى كل شىء ، ولم يبق للخليفة الأموى من السلطان سوى الاسم . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدى ، لجأت إلى السكينة والعزلة ، فلا نسمع عنها بعد ذلك فى سير الحوادث ، ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ، ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور أو بعدها ؛ وكل ما تقوله الرواية الإسلامية فى ذلك ، هو أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام . والظاهر أنها توفيت بعد ذلك بقليل قبل وفاة المنصور ، حوالى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لا نعثر باسمها بعد ذلك فى حوادث الأندلس . وقد نظم شاعر العصر أبو عمر محمد ابن دراج القسطلى ، قصيدة مؤثرة يرثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » ، ومما جاء فيها :

---

(١) الذخيرة (عن ابن حيان) المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٢ – ٥٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٤ .

هل الملك يملك ريب المنو ... ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم تر كيف استباحت يدا ... ه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الملو ... ك مصاباً وأودى بحسن العزاء
لبيض أياديك فى الصالحا ... ت تمساك وجه الضحى بالضياء
فتلك مآثرها فى التقى ... وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاك بأعمالك الزاكيا ... ت خيرُ المجازين خيرَ الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح ... نسيم النعيم وطيب الثواء[1]

هذا وأما عن موقف زيرى بن عطية ، وتطاوله على المنصور ، فقد رد المنصور بأن قطع عنه رزق الوزارة ، ومحا اسمه من ديوانه ، واعتبره خارجاً عاصياً ؛ ورد زيرى على ذلك بأن قطع ذكر المنصور من الخطبة ، وطرد عماله بالمغرب ، وأعلن الخروج والثورة . فجهز المنصور لقتاله جيشاً عظيماً بإمرة مولاه الفتى واضح ، وأمده بالأموال والذخائر ؛ وعبر واضح البحر فى قواته إلى طنجة ، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر غمارة وصنهاجة ، وحالفته على قتال زيرى . وخرج زيرى فى قواته والتقى الجمعان بوادى زارات جنوبى طنجة ، ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر ، ثم انتهت بهزيمة واضح وتمزيق جيشه ، ففر فى فله إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور يستصرخ به .

فخرج المنصور من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ، وتوافدت إليه الجيوش ، ثم أجاز ابنه عبد الملك بمعظم قوات الأندلس وقوادها ، وأمره بالتشدد فى محاربة زيرى والقضاء عليه ؛ فعبر عبد الملك البحر فى قواته إلى سبتة ، واتصل خبره بزيرى فتأهب للقائه ، وبعث إلى جميع بطون زناتة يستصرخهم لنصرته ، فهرعت إليه الوفود والقوات من سائر النواحى ، وسار لقتال عبد الملك فى جموع عظيمة . وزحف عبد الملك من طنجة ، ومعه الفتى واضح فى قوات لا تحصى ، والتقى الفريقان بوادى منى من أحواز طنجة ، ونشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر فى نهايتها شر هزيمة ، وقتل منهم عدد ضخم ، وجرح زيرى واستولى عبد الملك على معسكره ، ثم طارده حتى مكناسة ، ففر إلى الصحراء مع نفر من أصحابه ؛

(١) وردت هذه القصيدة بأكملها فى ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (ص ١١٩ — ١٢٣) ووردت كذلك فى يتيمة الدهر (القاهرة ١٩٤٧) ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ .

وقد أشاد شاعر العصر ابن دراج القسطلى بعبقرية المنصور وأهباته العسكرية ضد زيرى بن عطية فى قصيدة طويلة هذا مطلعها :

لك الله بالنصر العزيز كفيـــل ... أجـــد مقام أم أجـــد رحيل
هو الفتح أما يومـــه فمعجـــل ... إليك وأما صـــنعه فجـــزيل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل ... بهن عمايات الضـــلال تزول
سيوف تثير الحق أنى انتضيتها ... وخيل يجول النصر حيث تجول

ومنهـــا :

لئن صديت الباب قوم ببغيهـــم ... فسيف الهدى فى راحتيك صقيل
فإن يحي فيهم بغى جالوت جدهم ... فأحجار داود لديك مثـــول
هدًى وتقى يؤدى الظلام لديهما ... وحق بدفع المبطلين كفيـــل
بجمع له منه قائد النصر عاجل ... إليه ومن حسن اليقين دليـــل
تحمل منه البحر بحـــراً من القنا ... يروع بهـــا أمواجه ويهـــول
بكل معـــالاة الشراع كأنها ... وقد حملت أسد الحقائق غيل(١)

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً ، فى نهاية شوال سنة ٣٨٧ هـ (نوفمبر ٩٩٧ م) وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح ، فكتب إليه بعهده على المغرب ، وعاد واضح بالجيش إلى قرطبة . ولبث عبدالملك والياً للمغرب ستة أشهر فقط ، نظم خلالها شئونه ، ووطد أمره ، ثم عاد إلى الأندلس ، وخلفه على المغرب عيسى ابن سعيد صاحب الشرطة ، فلبث فى ولايته حتى وائل سنة ٣٨٩ هـ . ثم أقيل وخلفه الفتى واضح .

وفى تلك الأثناء كان زيرى بن عطية قد جمع فلوله من قوات زناتة ، ووافته جموع كثيرة من مغراوة ، وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها ، فانتهز زيرى هذه الفرصة وزحف شرقاً على بلاد صنهاجة ، وأوغل فيها ، واستولى على تاهرت وتلمسان وبعض بلاد الزاب ، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد وللمنصور ، ثم كتب إلى المنصور يتقرب إليه ويسترضيه ، ويؤكد حسن طاعته من جديد ، فعفا عنه المنصور ، وأعاده لولاية المغرب ، بيد أنه لم يعش طويلا فتوفى فى سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١ م) ، متأثراً بجراحه التى أصابته فى موقعة وادى منى . وخلفه فى

---

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن دراج المشار إليه (ص ٣ – ٩) .

الولاية ولده المعز : فأقره المنصور ، ولبث المعز والياً للمنصور ، مقيما على دعوة بنى أمية ، يعمل على توطيدها بالمغرب ، إلى أن اضطرب حبل الخلافة بالأندلس[1].

* * *

وبينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتم إخضاع زيرى وشيعته ، كان المنصور يتخذ الأهبة لأعظم غزاته . وكانت منطقة جلّيقية فى قاصية اسبانيا الغربية ، تعتبر لنأيها ووعورتها ، أمنع مناطق اسبانيا النصرانية ، وأبعدها عن متناول الفاتحين . ولم يفكر أحد من الغزاة المسلمين ، منذ أيام طارق أن يقصد إلى تلك المنطقة الجبلية الوعرة ، لما يعترض الوصول إليها من الصعاب الهائلة . ولكن المنصور اعتزم أن يسير إلى جليقية لسببين : الأول أنها كانت ملاذاً وملجأ لملوك ليون ، يمتنعون به كلما أرهقتهم الغزوات الإسلامية ، والثانى أنها كانت مستقراً لمدينة شنتياقب (أو شنت ياقب) الدينية ، كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها المقدس ، ورمز زعامتها الروحية . وقد سبق أن عرضنا إلى نشأة هذه المدينة المقدسة ، وإلى أسطورة القديس ياقب (أو يعقوب الحوارى) التى اتخذت أساساً لإنشائها ، وكيف زعمت الأسطورة أن قبر القديس يعقوب ، قد اكتشف بمعجزة وقعت فى هذه المنطقة ، فأنشئت فوقه كنيسة ، وأنشئت حول الكنيسة مدينة مقدسة ، سميت باسم القديس ، وغدت عاصمة اسبانيا الدينية ، ومزاراً شهيراً يقصده النصارى من سائر الأنحاء[2]. وقد شاء المنصور أن يضرب اسبانيا النصرانية فى صميم معقلها القاصى ، وفى صميم زعامتها الروحية ، بغزو جليقية ، واقتحام مدينتها المقدسة . فخرج من قرطبة فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ (٣ يوليه ٩٩٧ م) على رأس قوى الفرسان ، وفى الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسى ، الذى أعده المنصور لهذه الغزوة الكبرى ، من مرساه أمام قصر أبى دانس Alcacer do Sal فى مياه البرتغال الغربية ، شمالا بحذاء الشاطىء البرتغالى ، يحمل المشاة والأقوات والذخيرة ؛ واخترق المنصور اسبانيا الغربية شمالا ، وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تباعاً ، حتى وصل إلى مدينة

---

(١) راجع حوادث المغرب فى البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٣ و ٩٤ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٣٠ – ٣٥ .

(٢) راجع تفاصيل ذلك فى القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

قورية ؛ ثم زحف نحو الشمال الغربى ، واستولى فى طريقه على مدينتى بازو وقلمرية[(١)]. وهنا وفد على المنصور ، عدد كبير من القوامس (الكونتات) النصارى المعترفين بطاعته ، وهم الواقعة أملاكهم فى أراضى البرتغال ما بين نهرى دويرة ومنيو ، وانضموا مع قواتهم إلى جيشه . ثم سار المنصور شمالا حتى وصل إلى نهر دويرة ، وهنالك وافاه الأسطول ، مخترقاً النهر من مصبه عند ثغر بورتو ، فجعل منه جسراً مريحاً لعبور جيشه وعدده وأقواته ، واتجه الجيش الإسلامى بعد ذلك صوب جليقية ، وهو يقتحم السهل والوعر فى شعب الجبال ، ثم عبر نهر منيو (منهو) ، وسار بحذاء شاطىء المحيط ، واستولى فى طريقه على بعض الحصون ، وخرب عدداً من الأديرة التاريخية فى تلك المنطقة . وكانت جموع كبيرة من النصارى ، قد فرت إلى الجزائر المقابلة للشاطىء ، فعبر المسلمون إليهم من بعض المخائض وأسروا معظمهم ، واخترقوا مفاوز الجبال المحاورة للمحيط ، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى ، واستصفوا غنائمها ؛ ثم اقتحموا الجبال إلى السهل ، وخربوا بلدة إيليا (إيريا) ونهبوها ، وهى أيضاً من المزارات الدينية الشهيرة . وأشرف المسلمون على مدينة شنت ياقب فى يوم الأربعاء الثانى من شعبان (١١ اغسطس) ، فوجدوها خالية من أهلها ، وكانوا قد غادروها حين اقتراب الغزاة ، فدخلها المسلمون ، وهدموا أسوارها وصروحها التاريخية ، وكنيستها العظمى ، واستولوا على سائر ما فيها من الذخائر والتحف ، وأمر المنصور بصون قبر القديس ياقب القائم وسط الكنيسة العظمى ، والمحافظة عليه . ولم يجد المنصور بالكنيسة إلا شيخاً من الرهبان يجلس على القبر فسأله عن مقامه ، فقال أوائنس يعقوب ، فتركه وأمر بالكف عنه . وأخذ المسلمون أبواب المدينة ، ونواقيس الكنيسة العظمى ، وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة ، فوضعت الأبواب فيما بعد ، فى سقف الزيادة التى أنشأها المنصور بالمسجد الجامع ، وعلقت به النواقيس رؤوساً للثريات الكبرى[(٢)].

وسار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضى برمودو التى امتنع بها وعاث فيها.

---

(١) هما بالإفرنجية على التوالى **Viseu** و **Coimbra**

(٢) تتبعنا حوادث هذه الغزوة حسبما أوردها ابن عذارى فى البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ — ٣١٩ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٧ و ٦٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٣ — ١٩٥ . وكذلك **Crónica Ceneral ; ibid; Vol. II. p. 448 & 449**

ولم يستطع أحد أن يقف فى سبيله ، ووصل إلى شاطىء المحيط على مقربة من بلدة كرونية (قرجيطة) . ثم انحدر جنوباً حتى وصل إلى أراضى الزعماء النصارى (القوامس) الموالين له ، والذين صحبوه فى غزوته ، فأمر بالكف عنها ، وتابع سيره حتى وصل إلى مدينة لاميجو فى شمال البرتغال الحديثة (وتسميها الرواية الإسلامية لميقة) ، وهنالك وزع الهدايا والكسى الفاخرة على الزعماء النصارى ، وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح إلى دار الخلافة ، ثم عبر نهر دويرة على النحو الذى تقدم وصفه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، وفى ركبه عدد كبير من الأسرى ، ومقادير عظيمة من الغنائم . وكانت غزوة عظيمة ، استبشر بها المسلمون ، وقرت نفوسهم ، واهتزت لها اسبانيا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها ، ولبث أثرها العميق أعواماً بعيدة ، وكانت غزوة المنصور الثامنة والأربعون .

ونظم ابن دارج القسطلى فى تهنئة المنصور بغزوة « شنتياقُه » (شنت ياقب) قصيدة طويلة هذا مطامها :

اليوم أنكص إبليسٌ على عقبه	مُبرِّءاً سبَبُ الغاوين من سببه
واستيقنت شيع الكفار حيث نأت	فى الشرق والغرب أن الشرك من كذبه
بشنتياقة لما أن دلفتَ له	بالبيض كالبدر يسرى فى سنا شهبه
وجلة الدين والإسلام عاطفة	عليك كالفَلَك الجارى على قُطُبه[1]

وعلى أثر غزوة شنت ياقب اضطر برمودو ملك ليون ، بعد الذى أصاب بلاده من الهزائم والمحن ، أن يسعى إلى طلب الصلح ، فبعث ولده بلايو صحبة معن بن عبد العزيز حاكم سمّورة المسلم ، إلى قرطبة طالباً عقد الصلح ، فأجابه المنصور إلى ما طلب ، وانصرف راجعاً إلى أبيه[2] . ولم يعش برمودو طويلا بعد ذلك ، فتوفى سنة ٩٩٩ م : وخلفه فى الملك ولده الطفل ألفونسو الخامس ، تحت وصاية أحد الأشراف ، ولزم مكانه فى قاصية جلّيقية .

وقام المنصور بعد ذلك بعدة غزوات أخرى فى أراضى النصارى ، بيد أننا لا نظفر فى شأنها بتفاصيل دقيقة واضحة . والظاهر من إشارة أوردها صاحب

---

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن دراج المتقدم ذكره (ص ٤٤٠ — ٤٤٣) . ويلاحظ أنه قد ورد بها اسم « شنت ياقب » ، « شنتياقة » وهو أقرب إلى رسمه الإسبانى **Santiago**

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

البيان المغرب ، أن المنصور قام بغزوة إلى نافار فى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م)[١] . وفى العام التالى أعنى فى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) سار المنصور إلى أراضى قشتالة فى جيش ضخم : وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى « من حيز بنبلونة إلى أسترقة » ، اتفقوا جميعاً بزعامة سانشو غرسية كونت قشتالة ، على مقاومة المنصور والتفانى فى قتاله ، وحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم ، وجمع سانشو غرسية سائر قواته فى وسط قشتالة ، فى وادى دويرة الأدنى خلف الحاجز الجبلى الوعر المسمى « صخرة جربيرة » Peña Cervera ، وتعاهد الملوك والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار . ورأى المنصور كعادته أن يبادر أعداءه بالقتال ، فسار فى قواته تواً إلى مدينة سالم ، ونفذ شمالا إلى أراضى قشتالة حيث يرابط أعداؤه ، فلما أشرف على صخرة جربيرة ، هاله ما رأى من وعورتها ، وحصانة المراكز التى يحتلها العدو ، ووفرة جموعه وعدده . ورأى سانشو أن يعجل بمهاجمة المسلمين ، قبل أن يوطدوا مراكزهم ، فاندفع النصارى فى هجوم عنيف خاطف على المسلمين ، فاضطربت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، ودب الخلل إليهم ، وعمد إلى الفرار كثير منهم ، وكادت تدور عليهم الدائرة . ولكن القلب ، وكان يقوده ابنا المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ، ويتألف معظمه من فرق البربر القوية الباسلة ، صمد أمام الموجة الهائلة ، وهرع المنصور إلى رابية مشرفة على الموقعة ، ومن ورائه خاصته وحاشيته ، وهو يحث رجاله وقادته على الثبات ، فلم يمض سوى قليل حتى انقلبت الآية ، وارتد العدو فى غير نظام ، وتمكن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات بنى غومس[٢] وجاء برأسه ؛ فضاعف المسلمون جهودهم ، وشددوا الوطأة على النصارى ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وطاردوهم إلى عدة مراحل حتى مزقوهم شر ممزق . وكانت هذه الوقيعة فى اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٣٩٠ هـ (٣٠ يوليه سنة ١٠٠٠ م) . وخسر المسلمون فى الموقعة أكثر من سبعمائة قتيل .

وتابع المنصور زحفه فى أراضى قشتالة ، وهو يدمر كل شىء فى طريقه ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) بنى غومس يسمون كذلك فى الرواية العربية ، وهم أبناء غومس دياث **Gomez Diaz** أحد زعماء ليون . وقد تزوج ابنة كونت قشتالة فرنان كونثالث ، وأصبحوا خلفاء له ، وكانت أملاكهم فى سالدانيا وكريون وسمورة .

حتى اقتحم عاصمتها « برغش » وذلك فى يوم عيد الفطر (٤ سبتمبر) ، ثم واصل سيره إلى سرقسطة ، وقام من هنالك بغزوة فى أراضى ناڤار ، حتى أشرف على عاصمتها بنبلونة . وكل ذلك دون أن يجرأ أحد من النصارى على الوقوف فى سبيله. ثم عاد إلى قرطبة وقد أنفق فى هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام . ووجه على أثر عوده إلى قواده ، كتاباً ليقرأوه فى الجيش . وفيه ينحى المنصور باللائمة على جنده، لما بدا منهم من التخاذل والنكوص، ويذكرهم بأنه لولا شجاعة فئة قليلة ، منهم ، عاونت بثباتها على إحراز النصر ومحو العار ، لانتهى بإقالتهم جميعاً(١) .

وكان لهذه الغزوة، وما لابسها من الظروف الدقيقة ، أعظم وقع فى الأندلس . وكان لنصر جربيرة مغزى أعمق من أى نصر أحرزه المنصور . وفيه يقول صاعد شاعر المنصور مهنئاً ، من قصيدة تعتبر من غرر قصائده :

جددت شكرى للهوى المتجدد	وعهدت عندك منه ما لم يعهد
اليوم عاش الدين وابتـــدأ الهدى	غضاً وعاد الملك عذب المورد
ووقفت فى ثانى حنين وقفـــة	فرأيت صنع الله يؤخذ باليـــد
من فاته بدر وأدرك عمـــره	جربير فهو من الرحيل الأسعد
حملت ميامنهم عليك نشـــيجة	كالسيل يحطم جلمداً عن جلمد
ما ناجزوك وفى الجوانح موضع	لتصـــبر ومكانة لتجـــلد
طال الشـــقاء عليهم وتبرمـــوا	بالجيش فى الذل المقيم المقعد
فتحالفوا لمحنث وتجمعـــوا	لمفـــرق وتألفـــوا لمبـــدد

وفى ربيع سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) خرج المنصور إلى الغزو لآخر مرة ، فاخترق أراضى قشتالة شمالا ، ووصل فى زحفه حتى بلدة قناليش الواقعة جنوبى ناجرة ، ثم سار غرباً فى اتجاه برغش وعاث فى تلك المنطقة(٢). ولا تقدم الرواية الإسلامية عن هذه الغزوة تفاصيل أخرى ، ولا تحدثنا بالأخص عن أية موقعة حاسمة ، وقعت بين المسلمين والنصارى . ولكن بعض الروايات النصرانية الإسبانية القديمة ، تذكر لنا فى هذا الموطن ، أن القوات النصرانية المتحدة ، المكونة من جيوش برمودو ملك ليون ، وغرسى فرناندز كونت قشتالة ،

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه الموقعة للتمهيرة : أعمال الأعلام ص ٦٩ – ٧٢ .

(٢) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٧٢ .

وغرسية سانشيز ملك نافار، وقفت فى وجه المنصور فى ظاهر بلدة صغيرة تسمى «قلعة النسور»[1] ، وتقع فى غربى مدينة سرية ، وأنه وقعت بين المسلمين والنصارى ، موقعة هزم فيها المسلمون ، وقتل منهم عدة آلاف ، وأن المنصور انسحب فى قواته تحت جنح الظلام ، ثم توفى بعد ذلك بقليل حزناً وغماً ، أو من الجراح التى أصابته فى الموقعة[2] .

ولا بأس من أن نقدم هنا خلاصة لما تذكره الرواية النصرانية من تفاصيل الموقعة ، وإليك ما يقوله فى ذلك المؤرخ لافونتى . ومما هو جدير بالذكر أنه يرجع بداية حوادثها إلى سنة ١٠٠١ م ، وفى هذا الوقت كان ملك ليون ألفونسو الخامس الطفل ولد برمودو الثانى ، وكان تحت وصاية مننلو كونثالث كونت جليقية وزوجته دونيا مايور ؛ وكان يحكم قشتالة الكونت سانشو غرسيس ولد غرسى فرناندز ، ويحكم نافار الملك سانشو غرسيس الكبير .

يقول لافونتى : إنه فى هذه السنة أعنى سنة ١٠٠١ م ، بدت فى قلب اسبانيا المسلمة طلائع استعدادات عظيمة ، وجمع ولاة شنترين وبطليوس وماردة كل قواتهم ، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر إلى الجزيرة ، وكانت هى الأمداد التى وعد بإرسالها المعز بن زيرى من المغرب إلى المنصور ، واجتمعت جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسامة فى طليطلة ، فهل كان المنصور يزمع أن يضرب قشتالة التى أتعبته مقاومتها الضربة الأخيرة ؟ لقد تفاهم سانشو أمير قشتالة مع قريبيه ملكى ليون ونافار على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامى العظيم ، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف . واجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة فى السهل الواقع جنوب مدينة سرية عند منابع دويرة ، قريباً من مدينة نوماثيا Numacia القديمة ؛ وكان يقود جيوش ليون وجلّيقية والأسترياس الكونت مننلدو وصى الملك الطفل ألفونسو الخامس ، ويقود قوات قشتالة ونافار ، كل ملكها .

وقدم المسلمون ، وقد انقسمت قواتهم إلى شطرين ، قوات الأندلس وقوات البربر ؛ وساروا تواً نحو ضفاف نهر دويرة ، حتى التقوا بالنصارى فى

---

(١) وهى بالإسبانية Calatanazor

(٢) Crónica General ; Ibid ; Vol. II. p. 449

مكان يسمى « قلعة النسور » . ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدم الليل ، وفى فجر اليوم التالى تأهب كل فريق ، وحشد قواته ، واختلط ضجيج المسلمين بصيحات النصارى ، وأصوات المزمار بدوى الطبول . واشتبك الفريقان بعنف ، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم . وكان المنصور يثب هنا وهنالك كأنه نمر ، وقد شقت فرسانه صفوف القشتاليين ، وساءه ما لقى من مقاومة ، فاندفعت قواته إلى الهجوم بعنف ، واستمر القتال تحت جو قاتم من الغبار المتصاعد ، حتى دخل الليل ، فانفصل الجيشان دون أن يكتب النصر لأحدهما .

وأصيب المنصور خلال القتال بجراح عديدة ، فأوى إلى خيمته ، وقد علم أن كثيراً من قادته قتلوا ، وأدرك مبلغ الخسارة الفادحة التى حاقت بجيشه ؛ فأصدر أوامره قبل الصبح بالارتداد . وعبر نهر دويرة ، وهو على أهبة الحرب حتى لا يفكر النصارى فى مطاردته . ثم شعر المنصور خلال السير بالإعياء والخور ، ولم يستطع أن يستمر فوق صهوة جواده لخطورة جراحه ، فحمل فى محفة إلى مدينة سالم .

ثم يقول لافونتى : إن بعض مؤرخينا ومنهم ماريانا يحاول أن يرد هذه الموقعة إلى ما قبل ذلك بثلاثة أعوام، وأنه يوجد منهم من يقرنها بأخطاء ومغامرات خرافية بل مضحكة .

تلك هى خلاصة التفاصيل التى تسبغها الرواية النصرانية على موقعة قلعة النسور . ويلاحظ أن هذه الرواية ترجع الموقعة إلى سنة ١٠٠١ م ، وأن المؤرخ يتحدث هنا عن طبقة جديدة من الملوك النصارى ، وهم خلفاء أولئك الذين تزعم الروايات النصرانية الأخرى تحالفهم على قتال المنصور(١) .

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ، مثل ساقدرا وكوديرا التدليل على صحة هذه الرواية وقبولها . ولكن فريقاً آخر من أقطاب البحث الحديث وفى مقدمتهم دوزى ، يرون بطلان هذه الرواية ، ومخالفتها للحقائق التاريخية الثابتة . ذلك أن برمودو ملك ليون كان قد توفى فى سنة ٩٩٩ م ، وتوفى غرسية فرناندز كونت قشتالة فى سنة ٩٩٥ م ، وتوفى غرسية سانشيز ملك ناڤار فى سنة ١٠٠٠ م ،

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana. T, III. P. 24-26

فكيف تتحدث الرواية هنا عن تحالف الملوك الثلاثة ، وقد ماتوا جميعاً قبل الموقعة المزعومة ؟ هذا ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة ، وهى لا تضن علينا فى مواطن كثيرة بالتحدث عن هزائم المسلمين ، وصمتها فى هذا الموطن قرينة ، على أنه لم يك ثمة موقعة ولا هزيمة(١) . ويعلل مؤرخ إسبانى معاصر هو الأستاذ مننديث پيدال ، أصل هذه الأسطورة بكونه إنما يرجع إلى ما أحرزه سانشو غرسية كونت قشتالة ، من نجاح جزئى فى بعض الوقائع ، وقد حرصت الأساطير القشتالية على تسجيل هذا النجاح ، وعمدت إلى المبالغة فيه شيئاً فشيئاً(٢) .

وعلى أثر اختتام الغزوة ، ارتد المنصور بجيشه جنوباً ، وقد لحقه الإعياء ، واشتد به المرض ، فترك جواده ، وسار نحو أسبوعين محمولا على محفة ، حتى وصل إلى مدينة سالم ، وهى معقل الثغر المنيع ؛ وكان من أعز أمانى المنصور أن تدركه منيته خلال الغزو ، مجاهداً فى سبيل الله ، وكان دائماً يحمل معه أكفانه حيثما سار إلى الغزو ، وهى أكفان صنعت من غزل بناته ، واشتريت من خالص ماله الموروث . وقد استجاب الله دعاءه ، فما كاد يحل بمدينة سالم ، حتى شعر بدنو أجله ، فاستدعى ولده عبد الملك ، وألقى إليه نصائحه الأخيرة . وفى ليلة الإثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ ، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢ ، توفى المنصور محمد بن أبى عامر ، ودفن كرغبته فى صحن قصر مدينة سالم ، وذلك لسبعة وعشرين عاماً من حكمه ، وعمره أربعة وستون عاماً ، إذ كان مولده فى سنة ٣٢٨ هـ ، ونقش على شاهد قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله ... أبداً ولا يحمى الثغور سواه(٣)

ولبث قبر المنصور بمدينة سالم عصوراً ، مزاراً معروفاً ، وذلك بالرغم من

---

(١) راجع : **Dozy : Recherches : Vol. I, p. 198-202 ; Hist. V. II. p. 263**
وقد لخص العلامة المستشرق كونثالث بالانثيا آراء الفريقين فى كتابه :
Historia de la Espana Musulmana (4a Ed.) p. 57 & 58.

(٢) **R.M. Pidal : Historia y Epopya p. 21**

(٣) الحلة السيراء ص ١٥١ .

استيلاء النصارى على المدينة ، منذ أواخر القرن الحادى عشر. ويروى لنا ابن الخطيب ، أنه عهد إلى بعض رسله ممن وجههم إلى قشتالة ، لتأكيد عقد الصلح مع ملكها ، بأن يزور فى طريقه مدينة سالم ، وأن يشاهد قبر المنصور ، وأن هذا الرسول قد أخبره عند عوده ، أن القبر ما يزال قائماً فى مكانه إلا أن رسومه من شعر منقوش ، وتاريخ مثبوت ، قد عفت ومحيت آثارها ، وقد كان ذلك فيما يبلو فى وزارة ابن الخطيب الثانية فيما بين سنتى ١٣٦١ و ١٣٧٠ م[١].

---

(١) أعمال الأعلام ص ٨١ .

الفصل الثانى

خلال المنصور ومآثره

الناصر والمنصور . المنصور يشق طريقه إلى السلطان . وسائله فى ذلك . جيش المنصور وأهباته . شغفه بالجهاد . نتائج غزواته . الصوائف الإسلامية . عقمها وأثرها فى إنهاك الجيوش الإسلامية . عبقرية المنصور الإدارية . استقرار الأمن والرخاء فى عهدة . وزراء المنصور وكتابه . أعماله الإنشائية . توسيعه للمسجد الجامع . تجديده لقنطرة قرطبة وإنشاؤه لقنطرة إستجة . جوده وبذله . مفاخرته بنشأته المتواضعة . صرامته فى إقامة العدل . شغفه بالشراب . براعته العلمية والأدبية . رعايته للعلماء والأدباء . صاعد البغدادى شاعر المنصور . ديوان الندماء . مجالس المنصور الأدبية . شغفه بجمع الكتب . مقته للفلسفة والتنجيم . شعره ونثره . وصيته لابنه عبد الملك . وصيته لغلمانه . علائقه الدبلوماسية . مصاهرته لسانشو غرسية ملك ناقار . وفود سانشو إلى الزاهرة . عبد الرحمن ولد المنصور وحفيد سانشو . إشادة الروايات الإسلامية بعظمة المنصور وخلاله . إشادة النقد الغربى بعبقريته السياسية والعسكرية .

كان المنصور بن أبى عامر عبقرية فذة ، تمثل ذروة النبوغ الشعبى ، والطموح الفردى ؛ فقد خرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى ، وشق طريقه بساعده وهمته إلى السلطان والرياسة ، ولم تسعفه فى ذلك نشأة ملوكية ، أو انقلاب عنيف ، ولم يكن عزمه فى بلوغ ذلك أقل شأناً من تألق طالعه ، وقد وصل المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة ، لم يصل إليها أحد قبله من أعاظم أمراء الأندلس حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه . ويمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، من النواحى السياسية والحضارية ، فإن عهد المنصور لايقل عنه لمعاناً وتألقاً ، بل ربما امتاز على عهد الناصر ، بما أحرزته اسبانيا المسلمة خلاله ، من تفوق عظيم فى السلطان والقوى العسكرية ، فى شبه الجزيرة الإسبانية . فقد استطاعت إسبانيا النصرانية فى عهد الناصر ، أن تنتهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس ، وأن توطد قواها العسكرية ، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة ، وقد لقى الناصر على يد النصارى غير هزيمة فادحة ؛ أما فى عهد المنصور ، فقد انتهت اسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف ، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة

المتوالية . وقد وصل المنصور فى غزواته فى شبه الجزيرة الإسبانية ، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل .

بدأ المنصور حياته فى حلبة العلم والدرس ، ولكن سرعان ما تفتحت مواهبه الإدارية والسياسية ، فجاز مراتب المناصب السلطانية بسرعة ، وظهر فى كل منها بفائق كفايته وحزمه . وما كاد يختفى الحكم المستنصر من الميدان ويقوم ولده الطفل هشام فى الخلافة ، حتى تبلورت مطامع المنصور ، واتجهت تواً إلى غايتها البعيدة ، فكان الصراع مع الفتيان الصقالبة ، ثم مع الحاجب جعفر ، ولم يتح بعد ذلك لأية قوة معارضة أن تقف فى سبيله . ولما اجتمعت سائر السلطات فى يده ، اتشح بثوب الحاكم المطلق ، الذى لايطيق أية مشاركة فى سلطانه أو أى اعتراض لرأيه ، ولم يدخر وسعاً فى أن يخمد أية نزعة للخروج أو الثورة على حكمه . وهنا تبرز النواحى القاتمة فى عبقرية المنصور ، فنراه يلجأ فى تدعيم سلطانه وحمايته إلى نفس الوسائل المكياڤيللية التى يلجأ إليها الطغاة دائماً فى كل قطر ، وفى كل عصر : إلى القتل ، والغيلة ، والخديعة ، وكل ضروب العنف المثير ، ونراه يسير إلى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ولايعف فى ذلك السبيل عن ظلم يقع ، أو دم يسفك ، حتى ولو كان دم ولده بالذات .

على أن هذه الوسائل المثيرة التى كانت سياجاً لسلطان المنصور ، ودعامة لدولته ، والتى هى دائماً من لوازم الحكم المطلق ، يجب ألا تحول أنظارنا عن حقيقة ناصعة أخرى ، وهى أن المنصور لم يستخدم هذا السلطان إلا لخير دينه ، وخير الأمة التى نصب نفسه حاكماً عليها ، ومشرفاً على مصايرها ؛ ولعل الإسلام فى شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد فى بطولة المنصور ، وتفانيه فى الذود عن دينه ، وإعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيماً أخلص فى خدمتها ، وكرس جهوده ومواهبه فى بناء قوتها وعظمتها ، وسحق عدوها ، وتحقيق أمنها ورخائها .

وقد أدرك المنصور منذ البداية ، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها ، وردع الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر ، أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، تكفى لإرهاب عدوها ، وإعزاز دينها ، ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسى ، وتقويته ، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة . وقد رأى

المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص، لما كانوا يتصفون به من البداوة والشجاعة، فاستقدمهم من العدوة، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء[١]. وكذلك استخدم المرتزقة من النصارى الإسبان، ومنحهم الأجور والجرايات السخية؛ وكان يجمع فى جيشه الكثير منهم، ومعظمهم من المستعربين، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم، ومعاملتهم بالمساواة والرفق[٢]. واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد، أن ينشىء للأندلس قوة عسكرية عظيمة، لم تعرفها فى أية عهد آخر. وكانت هذه القوة فضلا عن كونها دعامة سلطانه وحكمه، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو. ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسى وكفايته أيام المنصور، متى ذكرنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن، يقود قواته إلى الغزو المستمر، فى أراضى الممالك النصرانية، كل ربيع وكل صيف، وأنه فى نفس الوقت كان يبعث الحملات العسكرية العظيمة إلى المغرب، لتخوض سلسلة من الحروب الطاحنة. وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها، أن أصدر المنصور فى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨ م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو، اكتفاء بعدد الجيش المرابط، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس، إثر قراءة كتب الفتح، وعرفوا فيه « بأن من تطوع خيراً، فهو خير، ومن خف إليه، فمبرور ومأجور، ومن تثاقل فمعذور »[٣].

وقد أورد لنا ابن الخطيب (عن التيجانى) بعض الإحصاءات الهامة عن جيش المنصور، فذكر لنا أن الجيش المرابط (الثابت) بلغ فى عهده من الفرسان اثنى عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات، جميعهم مرتزقون فى الديوان، يصرف لهم السلاح والنفقة والعلوفة. وكان عدد الحرس الخاص ستمائة فارس غير الأتباع. وانتهى عدد الرجالة فى الجيش المرابط إلى ستة وعشرين ألف راجل.

وكان عدد الجيش المرابط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة. وقد بلغ عدد الفرسان فى بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً، وكان عدد المشاة يتضاعف كذلك، وقد يبلغ المائة ألف أو تزيد.

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣١٥ و ٣١٦ .

(٢) **Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 630**

(٣) أعمال الأعلام ص ٦٨ .

وأورد لنا ابن الخطيب أيضاً بيانات مفصلة عما كان يقتنيه المنصور من عتاق الخيل برسم الجهاد ، ومطايا الركوب ، ودواب الحمل ، وقد بلغت وحدها أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأثقال .

وأما عن عُدة الحرب ، فقد كان المنصور يحتفظ بكميات عظيمة من الخيام والسهام والدروع ، والتراس ، وعدد من المجانيق وغيرها من آلات الحصار (١) .

وكان المنصور يضطرم شغفاً بالجهاد فى سبيل الله ، وكانت غزواته التى زادت على الخمسين ، فضلا عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر ، ترمى إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة ، هى تحطيم قوى اسبانيا النصرانية ، وردعها بذلك عن العدوان على أراضى المسلمين . وقد تحققت هذه الغاية فى أواخر عهد المنصور على أكمل وجه . وقد عنى مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان — وقد عاش قريباً من ذلك العصر — بتفصيل هذه الغزوات فى مؤلف ضخم سماه « بالمآثر العامرية » واستخرجه من تاريخه الكبير « المقتبس » (٢) . وكان من نتائج هذه الغزوات أن امتلأت الأندلس فى عصر المنصور بالغنائم والسبى من بنات الإسبان وأولادهم ونسائهم ، وتغالى الناس فى تجهيز بناتهم بالثياب والحلى والمال ، وذلك لرخص بنات الإفرنج وركود سوق الزواج (٣) .

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد ، أنه كان يتولى القيادة بنفسه فى سائر غزواته الصائفة والشاتية ، ولم يقعده شىء عن القيادة ، والإشتراك الفعلى فى كثير من المعارك ، حتى أننا نراه فى آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه ، ويسير محمولا على محفة ، ثم يقضى نحبه عقب الغزو ، بين يدى جنده وفى معقل الثغر ، بعيداً عن قصوره ، ومهاد راحته ونعمائه . وكان يحرص فى سائر غزواته ، على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار ، أثناء المعارك التى يخوضها ، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة ، كان يحملها معه دائماً ، حتى

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٩ و ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جذوة المقتبس للحميدى (القاهرة ١٩٥٢) ص ٧٤ ، والحلة السيراء ص ١٤٩ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢١ . وذكر لنا ابن الخطيب اسم هذا المؤلف كاملا وهو : « أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » كما ذكر لنا أنه يحتوى على أكثر من مائة سفر (أعمال الأعلام ص ٩٨) .

(٣) المعجب ص ٢١ .

إذا وافته المنية ضمت إلى أكفانه ، ودفنت معه تنفيذاً لوصيته(١) .

ومما يؤثر عن علائق المنصور بجيشه ، أنه كان لقوة ذاكرته ، يعرف كثيراً من جنده بالإسم ؛ أو يعرف على الأقل كثيراً ممن امتاز منهم خلال المعارك بالإقدام والشجاعة ، ويدعوهم إلى مائدته فى المآدب الكبيرة ، التى اعتاد أن يقيمها لجنده عقب كل انتصار .

بيد أننا نستطيع أن نلاحظ بعد كل ذلك ، أن سياسة المنصور العسكرية وغزواته المتوالية المظفرة ، وإن كانت فى الأصل تنطوى على غاية عسكرية وسياسية بعيدة المدى ، هى سحق اسبانيا النصرانية ، لم تؤت ثمارها إلا فى حيز ضيق ، هو ردع اسبانيا النصرانية ، وكف عدوانها عن الأراضى الإسلامية ، ولم تقصد بالفعل إلى الغاية الحاسمة ، وهى القضاء على قوة اسبانيا النصرانية وسحقها بصورة نهائية ، وهى غاية قصرت سياسة اسبانيا المسلمة عن العمل لها منذ البداية ، ومن ثم فقد استطاعت الممالك الإسبانية النصرانية ، أن تعيش ، وأن تنمو قواها تباعاً ، وأن تغدو بمضى الزمن ، مناوئاً خطراً لاسبانيا المسلمة ، يستغرق قواها باستمرار ، ويشغلها فى كفاح مدمر مستمر .

وهنا ، وعلى ضوء هذا الكفاح العقيم الذى استمر أجيالا بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية ، لانرى مندوحة ، من أن نحكم على سياسة الصوائف أو الغزوات الإسلامية العارضة ، التى كانت تقليداً عسكرياً إسلامياً ، فى معظم الدول الإسلامية المتاخمة للدول النصرانية ، فنقول إنها كانت من الناحية العسكرية تقوم على أسلوب خاطئ ، وقد كانت تنهك الجيوش الإسلامية بقدر ما تنهك جيوش العدو ، ولم يكن لها غاية محدودة مستقرة . وليس أدل على ذلك من تاريخ الصوائف أو الغزوات الإسلامية الموسمية أيام الدولة العباسية فى أراضى الدولة البيزنطية ، فقد كان معظمها حملات غازية تقصد إلى العيث فى أرض العدو ، وإلى إحراز الغنائم المؤقتة الإقليمية وغيرها ، ولم تنجح فى تحطيم قوى الدولة البيزنطية أو سحقها . وقد كان عقم هذه الغزوات العارضة أشد وأوضح فى الأندلس ، حيث لبثت الدولة الأندلسية ، إبان قوتها وتفوقها ، عصوراً ، تقتصر على الصوائف وما إليها من الغزوات الموسمية برسم الجهاد أو الانتقام من العدو ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، والمعجب ص ٢١ .

وتنهك بذلك قوى الجيوش الإسلامية ومواردها بصورة مستمرة ، وذلك دون أن تحقق غاية ثابتة مستقرة ، أو توفق إلى القضاء على القوى الخصيمة بصورة حاسمة .

ولقد اجتمعت لاسبانيا المسلمة فى عصر المنصور أعظم القوى والموارد العسكرية التى اجتمعت لها فى أى عصر سابق أو لاحق ، وكانت هذه القوى الزاخرة ، التى كان رائدها المنصور ، وهو أعظم شخصية سياسية وعسكرية ، أتيح لها أن تقود الأندلس ، وأن تسهر على مصايرها — كانت هذه القوى كفيلة بسحق الممالك الإسبانية النصرانية لو أنها وجهت نحو هذه الغاية توجيهاً صائباً . ويقدر النقد الإسبانى الحديث نفسه هذه الحقيقة ، فيقول لنا إن غزوات المنصور ودفعه حدود النصارى إلى ما وراء نهر دويرة ، وافتتاحه لقلمرية وسمورة وليون وشنت ياقب وكويانسا وشنت منكش وأوسمة وبرشلونة ، دفع اسبانيا النصرانية إلى حافة الخراب تقريباً ، وقضى هذا البعث لقوة الإسلام على كل أمل فى « الإسترداد » La Reconquista [1] .

ولكن غزوات المنصور على كثرتها ، وعلى ما أسبغ عليها من طابع النصر المستمر ، لم تخرج كثيراً عن حيز الصوائف والغزوات الإسلامية العارضة ، التى تحقق أية غاية مستقرة ثابتة .

وأما عن مقدرة المنصور فى الإدارة والحكم ، فإن الكلام فيها حرى بأن يطول ، فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية مدهشة ، وظهر فى سائر المناصب التى أسندت إليه ، مذ تولى وكالة هشام ولى العهد ، فأمانة دار السكة والخزانة ، ثم خطة المواريث ، فخطة القضاء ، ثم الشرطة ، فالإشراف على الحشم والخاص ؛ ظهر فيها جميعاً ببراعته وحصافته ، وحسن تصريفه ؛ ثم ظهرت هذه المقدرة على أتمها مذ ولى الحجابة ، واستأثر بسائر السلطات ، واحتمل فوق كاهله سائر المسئوليات الكبرى . فقد غدا المنصور زعيم الأندلس ، وحاكمها الأوحد ، والمشرف على مصايرها فى الحرب والسلم ؛ وقد أبدى المنصور فى اضطلاعه بتلك المهمة العظمى ، مقدرة فائقة ، لم يبدها أحد من أسلافه . فلم تر الأندلس من قبل استقراراً كالذى رأته فى عهد المنصور ، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به فى عهد المنصور ، من الأمن والطمأنينة والدعة . وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها

(١) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana; p. 629

أيام فخار وظفر ورخاء ورغد ، لم تعان خلالها من غزوات العدو المخربة ، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن ، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة ؛ وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب ، وعم الخصب والرخاء فى جنبات الأندلس ، وفاضت خزائن قرطبة بالإموال ، ووصل محصل الجباية يومئذ إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم المواريث ، وسوى مال السبي والغنائم ، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع إلى قانون . وكانت النفقات السلطانية تبلغ فى الشهر نحو مائتى ألف دينار ، فاذا دخل شهر يونيه ، وحلت الصائفة ، تضاعفت النفقة بسبب الاستعداد للغزو ، ووصلت إلى خمسمائة ألف فى الشهر أو أكثر(١).

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس فى هذا العصر ما بين وزراء وكتاب. وكان من وزرائه ، أبو مروان عبدالملك بن شهيد ، ومحمد بن جَهور ، وعيسى بن فُطيس وأبو ،عبدالله بن عياش ، وأحمد بن محمد ابن حدير ، ومحمد بن حفص بن جابر ، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير ، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه ، وكان المنصور قد استوزره قبل سائر أصحابه فى سنة ٣٨١ هـ ، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة فى أوقات معينة ، ويعهد إليه بخاتمه ؛ والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ والسلطان ، شمخ بأنفه ، وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد ، فتغير عليه المنصور ، وأقصاه عن خدمة الوزارة ، وبعثه إلى كورة الغرب لينظر فى شئونها ، ثم عاد بعد قليل فأعاده إلى حسن رأيه ، ورده إلى منصبه فى الوزارة ، وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم والبلاغة(٢). وكان من كتاب المنصور عيسى بن سعيد القطاع ، وهو من أقدم كتابه ، وكان من أنصاره ومعاونيه منذ أيام الحكم ، فبلغ فى ظله وتحت كنفه أرفع مكانة ، وكان فوق ذلك من أخصائه ورفاقه فى مجالس أنسه ترتفع بينهما الكلفة ؛ وكان منهم ، أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولانى ، وخلف ابن حسين بن حيان والد المؤرخ ، وغيرهم . وكانت هذه الصفوة من الوزراء والكتاب ، الذين ينتمى معظمهم إلى أسر عريقة تعاقب أبناؤها فى الوزارة ، مثل آل شُهيد ، وآل عبدة ، وآل جَهور ، وآل فُطيس ، وآل حُدير وغيرهم ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٢) كتاب « إعتاب الكتاب » لابن الأبار – مخطوط الإسكوريال – لوحة ٥٣ و ٥٤ .

ممن حملوا عمد الدولة الأموية ، وعملوا على توطيد دعائمها ، تعمل مع المنصور على تسيير دفة الحكم بمقدرة فائقة . وكان من هؤلاء الوزراء من يتصل بالمنصور برباط المودة الشخصية الوثيقة ، ويشاطره شغفه بالشعر والأدب ، ويغشى مجالس أنسه وشرابه ، مثل عبد الملك بن شهيد ، وأبى عبد الله بن عياش ، وعيسى ابن سعيد . هذا وكان ممن اشترك مع المنصور فى الحجابة فى بداية عهده ، بعد المصحفى ، جعفر بن على بن حمدون الأندلسى ، والقائد غالب بن عبد الرحمن ، الذى جمع بين القيادة والحجابة حيناً ، وقد رأينا كيف لقى كل منهما مصرعه بعد ذلك على النحو الذى تقدم ذكره[1] .

* * *

ولم يحل انشغال المنصور طوال عهده بالغزو المستمر ، عن القيام بأعمال الإنشاء العظيمة . فقد أنشأ مدينة الزاهرة ، وقصورها المنيفة ، وحدائقها الغناء ، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم . ثم ابتنى إلى جانبها منية جميلة ذات قصر وحدائق رائعة ، يرتادها للاستجمام والتنزه ، وسماها «بالعامرية» . وقد كان جمال هاتين الضاحيتين العامريتين ، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية الرائعة . ومما قيل فى العامرية أبيات لعمرو بن أبى الحباب أنشدها ، وقد دخل يوماً على المنصور بقصر المنية ، والروض قد تفتحت أزهاره :

لا يوم كاليوم من أيامك الأول ... بالعامرية ذات المـاء والظلل
هواؤها فى جميع الدهر معتـدل ... طيباً وأن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتـل ساحتها ... بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل
كأنما غرست فى ساعة وبدا السـ ... ـوسان من حينه فيها على عجل[2]

وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع . وكانت قرطبة قد اتسعت رقعتها اتساعاً عظيماً منذ أيام الناصر ، واضطرد هذا الاتساع فى أيام المنصور حتى بلغت مبلغاً عظيماً ، وبلغت أرباض المدينة أعنى أحياؤها يومئذ

---

(١) راجع فى ذكر وزراء المنصور : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، والذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٧ و ٥٦ .

(٢) راجع بعض هذه القصائد والأوصاف فى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ و ٢٩٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

إحدى وعشرين ربضاً «كل ربض فيها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس» . وقد ذكر ابن الخطيب لنا أسماءها ومواقعها تفصيلا ، وبلغ خندقها المحيط بها ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسمائة ذراع أى ستة عشر ميلا[1] ، وزاد سكانها فى نفس الوقت زيادة كبيرة ، ولاسيما منذ مقدم طوائف البربر الكثيرة عليها ، فى بداية عهد المنصور ، وضاقت رحبات المسجد الجامع برواده ، ولاسيما فى أيام الجمع . فرأى المنصور أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً جديداً ، لأن ناحيته الغربية كانت متصلة بالقصور الملكية . وشرع فى إنشاء هذا الجناح فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٨٧ م) ، فأقيم بحذاء الجامع من شماله إلى جنوبه ، على رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية ، وروعيت فى إنشائه البساطة والمتانة قبل الزخرفة ، كما روعى التماثل والمطابقة للصرح القديم ؛ ونزعت من أجل ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن والدور ، حرص المنصور على أن ينصف أصحابها فيما يستحقونه من ثمن أو معاوضة . وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه الزيادة ، وأضحى يحتل رقعة عظيمة شاسعة تبلغ فى الطول مائة وثمانين متراً ، وفى العرض مائة وخمسة وثلاثين متراً . وكان يشتغل فيه عدد كبير من الأسرى النصارى ، الذين أخذوا فى مختلف المعارك . وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً فى أعمال البناء . وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة ، ألف وأربعمائة وسبعة عشرة ، وبلغت ثرياته مابين صغيرة وكبيرة مائتان وثمانون ، وبلغ عدد المكلفين بالخدمة به فى عهد المنصور ، مابين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم مائة وخمسون شخصاً ، وكان الجامع وما حوله يعتبر وحده ربضاً مستقلا يتولاه عريفه وحراسه على حدة[2]. ومازال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى اليوم ، قائماً بسائر رحابه وعقوده وسواريه ، وذلك بالرغم من تحويل عقوده الجانبية إلى كنائس وهياكل ، ويعرفه الأثريون «بمسجد المنصور»[3] .

وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادى الكبير ، وراء المسجد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٣) راجع فى زيادة المنصور للمسجد الجامع ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ — ٣٠٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٥٧ . وراجع كتابى «الآثار الأندلسية الباقية» حيث يوصف جامع قرطبة بحالته الحاضرة تفصيلا الطبعة الثانية (ص ٢٠ — ٣١) .

الجامع ، وكانت فى الأصل قنطرة رومانية ، فجددها السمح بن مالك أمير الأندلس ثم جاء المنصور فجددها ، وأعاد بناءها ، وذلك فى سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨ م) ، وتم بناؤها فى سنة ونصف ، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار ، وعظم بها نفع القرطبيين .

وابتنى المنصور كذلك قنطرة إستجة على نهر شنيل ، فرع الوادى الكبير ، واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة ، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة ، فى مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الغربية والجنوبية(١) .

• • •

وكان المنصور ، على الرغم من صرامته ، وما لجأ إليه لتوطيد حكمه من الوسائل المثيرة ، يتسم بصفات عديدة مؤثرة ؛ فقد كان جواداً وافر الجود والبذل ، يغدق صلاته على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به ، وعلى الفقراء وذوى الحاجات ، وله فى ذلك حكايات كثيرة .

وكان يفاخر بنشأته المتواضعة ، ويقلل من شأن نفسه . وذكر المؤرخ ابن حيان فى كتابه فى «أخبار الدولة العامرية » عن والده خلف بن حيان كاتب المنصور ، أن المنصور لامه ذات يوم لأمر من الأمور ، فبدا عليه الفزع ، فأشفق عليه المنصور وهدأ من روعه ، ثم خلا به بعد أيام وقال له : « رأيت من ذعرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله برئ من الحول ، والقوة لله ، وإنما أنا آلة من آلاته أسطو بقدرته ، وأعمل عن إذنه ، ولا أملك لنفسى إلا ما أملك ، ... فطأمن جأشك ، فإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بثمن غزلها ، أغدو به إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ما تراه ، ومن أنا عند الله لولا عطفى على المستضعف المظلوم ، وسيرى لجهاد الطاغية »(٢) .

وكان ورعاً ، شديد الإيمان واليقين ، يخشى ربه ، ويزدجر إذا ذكر الله وعقابه . وكانت هذه أعجب الخلال فى رجل كالمنصور ، لم يعف عن سفك الدماء فى سبيل تحقيق أطماعه . ولكنها حقيقة تنوه بها الرواية الإسلامية وتؤكدها ، ومن دلائلها أن المنصور ، كان يحمل معه فى سائر غزواته وأسفاره مصحفاً

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩١ ، وأعمال الأعلام ص ٧٦

(٢) إعتاب الكتاب لابن الأبار — مخطوط الإسكوريال — لوحة ٥٦ .

خطه بيده ، يقرأ فيه ويتبرك به فى كل مناسبة[١].

وكذلك تنوه الرواية بعدالة المنصور ، وصرامته فى إحقاق الحق ، والانتصاف لذوى المظالم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب عدة أمثلة رفعت فيها الظلامات إلى المنصور ضد بعض أكابر خدمه وحاشيته ، ممن كانوا يظنون أن مراكزهم تحميهم من إجراء العدالة ، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوى الظلامات . وكان يقترن بهذه الصفة ، خلة محمودة أخرى ، هى تذرعه بالحلم والصبر ، وضبط النفس فى أمور كثيرة ، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرهبة والسلطان[٢].

ولكن الرواية تنعى على المنصور خلة سيئة ، هى شغفه بمعاقرة الخمر ، وقد لازمته هذه الرذيلة طوال حياته ، ولم يقلع عنها إلا قبل وفاته بعامين . ويصف لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل فى العمل يومه بليله ، وهو عاكف على الشراب ، فى تلك الفقرة البليغة : « وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره ، فينفذ الأمور ، والكأس تدور ، والجبال للطرب تمور »[٣].

* * *

بقيت من خلال المنصور ناحية ربما كانت ألمع خلاله جميعاً ، وتلك هى الناحية العلمية .

نشأ المنصور حسبما رأينا فى بيت علم وأدب ، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة ، وبرع فى الشريعة والأدب ، وكان حرياً به أن يتبوأ مكانه بين علماء عصره ، لولا أن شاءت الأقدار أن تدفع به إلى معترك السياسة والسلطان .

على أن المنصور لبث بالرغم من مشاغل هذا المعترك السياسى الخضم ، يحتفظ طول حياته بشغفه بالعلم والأدب ، ويوثق صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء ويؤثرهم بحبه وعطفه ، ويجمعهم حوله فى أوقات فراغه وسويعات لهوه وأنسه ، ويساجلهم البحث والمناظرة ، ويطارحهم قرض الشعر ، ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً ، وله نظم حسن سوف نورد شيئاً منه .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١٢ ، والحلة السيراء ص ١٥١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، وأعمال الأعلام ص ٧٥ .

وكان من أخص جلسائه الأدباء ، الكاتب البغدادى ، أبو العلا صاعد ابن الحسن . وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ ، والمنصور فى أوج سلطانه ، فأراد المنصور أن يجعل منه قريناً لأبى على القالى ، الوافد من قبل على الناصر والحكم ، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة ، يملى كتابه المسمى « بالفصوص » على أدباء قرطبة ، وهو كتاب فى الآداب والأخبار والأشعار ، ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه ، وكذبوه فى كثير مما يلقيه ، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية(١). ومع ذلك فقد كان صاعد أديباً بارعاً ، خفيف الروح ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، وكان يأتى بكثير من غريب الشعر بداهة ، فأعجب به المنصور ، وأولاه رعايته ، وألحقه بديوان الندماء ، وأجرى عليه راتباً حسناً ؛ وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطبنى ، وابن العريف ، وابن التيانى ، وغيرهم . وغدا صاعد شاعر المنصور ينظم له المدائح والطرف ، ويصطحبه المنصور فى نزهاته برياض الزاهرة ، وينظمه فى مجالس أدبه وأنسه . وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً لهذه المجالس الأدبية ، التى يجتمع فيها المنصور بخلانه وندمائه ومنهم صاعد ، وأورد لنا كثيراً مما قيل فيها من النظم . وقد كان بعض الفتيان الصقالبة من بطانة المنصور ، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب ، ويغشى مجالس المنصور الأدبية ويشترك فى المطارحات الشعرية ، وكان من أشهرهم الفتى فاتن ، وكان من أبرع العارفين منهم باللغة والأدب . وقد كان للفتيان الصقالبة فى الواقع تراث من الشعر والأدب ، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة ،وأصدر أحدهم فى ذلك كتاباً سماه « الإستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة » ، ضمنه كثيراً من أشعارهم ونوادر أخبارهم (٢).

ولبث صاعد على مكانته حتى وفاة المنصور ، ومن بعده حتى نهاية الدولة العامرية ، ثم أفل نجمه بعد ذلك ، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة ، فغادر الأندلس متخفياً فى سنة ٤٠٣ هـ ، وجاز البحر إلى صقلية ، واتصل بأميرها فأولاه رعايته ، وحسنت حاله ، وكانت وفاته بها فى سنة ٤١٠ هـ .

---

(١) الصلة لابن بشكوال (طبعة القاهرة) رقم ٤٠ .

(٢) راجع الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٧ — ٢٢ ، والمعجب ص ١٦ و ١٧ .

وكان للمنصور ، فضلا عن مجالس الأدب والأنس العابرة ، مجلس أسبوعى يعقده للبحث والمناظرة ، ويشهده كثير من العلماء والأدباء[1] . وكان فى غزواته يستصحب بعض العلماء والأدباء من أصدقائه ، إذ كان شغف البحث والمناظرة ، يلازمه دائماً حتى فى ميدان الحرب ؛ وإلى جانب هذا الشغف الشخصى بالحياة العقلية ، كان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب ، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقرطبة ، وبالغ فى الإنفاق عليها ، وكان يزور المدارس والمساجد ، ويجالس الطلاب أحياناً ، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها .

وإلى جانب هذا الشغف بالآداب والعلوم ونشر الحياة العقلية ، كان المنصور يشغف أيضاً بجمع الكتب ، وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم ، على نحو ما كان متبعاً أيام الحكم ، ومن ذلك أن صاعداً البغدادى أهدى إليه كتاب « الفصوص » المتقدم ذكره ، فأثابه عنه بخمسمائة دينار[2].

وكان المنصور يمقت الفلسفة وما إليها ، ويرى أنها مخالفة للدين ، ويكره التنجيم والمنجمين ، وقد أمر بأن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة (مكتبة الحكم المستنصر) سائر كتب الفلاسفة والدهريين ، وأن تحرق بمحضر من كبار العلماء ، وفى مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان ، وأبو بكر الزبيدى ، والأصيلى وغيرهم ، وكان ذلك بلا ريب عملا غير موفق ، وكان خسارة علمية فادحة . وينعى المستشرق سيمونيت على المنصور هذا التصرف ، فيقول : إنه إذا كان الحكم الثانى قد استطاع لنزعته العلمية والأدبية أن يحمى الفلاسفة ، فقد جاء المنصور من بعده فقام بحرق كتب الفلسفة التى كانت بمكتبة الحكم ، وذلك لكى يرضى الفقهاء والدهماء »[3]. واشتد المنصور أيضاً فى مطاردة المنجمين ، وبلغه أن أحدهم وهو محمد بن أبى جمعة ، يهجس فى تنبؤاته بانقراض دولته ، فأمر بقطع لسانه وقتله ، فخرست ألسن المنجمين جميعاً[4] .

---

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ ، والمعجب ص ٢٠ .

(٢) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠ .

(٣) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana ; p. 351

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٧٧ .

وللمنصور شعر جيد ، نظمه فى مختلف مناسبات حياته ، ومن ذلك قوله فى الفخر :

رميت بنفسى هول كل عظيمة   وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبي إلا جنـان مشيع   وأسمـر خطى وأبيض بـاتر
وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى   أسـود تلاقيها أسود خوادر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة   وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنياناً ولكن زيادة   على ما بنى عبد المليـك وعامر
رفعنـا العوالى بالعوالى مثلهـا   وأورثناها فى القـديم معـافر

وقوله يتهدد الفاطميين بمصر ، ويمنى نفسه بفتح مصر والشأم :

منع العـين أن تذوق المنـاما   حبا أن ترى الصـفاء والمقاما
لى ديون بالشرق عنـد أناس   قد أحلوا بالمشعـرين الحراما
إن قضـوها نالوا الأمانى وإلا   جعـلوا دونها رقاباً وهـاما
عن قريب ترى خيول هشـام   يبلغ النيـل خطوها والشـاما

وأما عن نثر المنصور ، فقد رأينا أن نورد نموذجاً له ، وصيته لولده عبدالملك حينما حضرته الوفاة ، وقد نقلها إلينا ابن حيان عن أبيه خلف بن حسين ، وهذا نصها :

« يا بنى : لست تجد أنصح لك ، ولا أشفق عليك منى ، فلا تعدين وصيتى ، فقد جردت لك رأيى ورويتى ، على حين اجتماع من ذهنى ، فاجعلها مثالا بين عينيك . وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الإنفاق ، ولا تقبض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة ، فاقصد فى أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ، والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لين الجنبة . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع

قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه . فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث في يمين البيعة ، إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة . والمال المخزون عند والدتك ، هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التى لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك . ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة . وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه فى حياتى ما رجوت أنى قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثى ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لئلا يجد العدو مساغاً بينكما فى خلاف وصيتى ، فيسرع ذلك فى نقض أمرى ، ويجلب الفاقرة على دولتى . وقد كفيتك الحيرة فيه ، فأكفه الحيف منك عليه ، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم ، بحسب مما قدرت به خلاصى من مال الله الذى فى يدى . وخلافتك بعدى أجدى عليهم مما صرفته ، فلا تضيع أمر جميعهم ، والحظهم بعينى فإنك أبوهم بعدى. فان انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وإن اعتاصت عليك ، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تبطر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من توثب عليك منهم ، فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلمانك ، إلى بعض الأطراف التى حصنتها لك ، واختبر غدك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك فى يد مروانى ما طاوعتك بنانك ، فإنى أعرف ذنبى إليهم » .

وهذه وصيته لغلمانه نقلها إلينا أيضاً ابن حيان عن أبيه :

«تنهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم ، فى طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم ولا تغرنكم بوارق بنى أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ، وقدروا ما فى قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس برأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدى . وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فإنه لا يفل فيكم »[1] .

(١) نقل إلينا ابن بسام (عن ابن حيان) هذين النصين فى الذخيرة ـ القسم الرابع المجلد الأول ص ٥٦ – ٥٨ . ونقلهما ابن الخطيب أيضاً فى أعمال الأعلام ص ٨١ و ٨٢ .

وفى وصية المنصور لولده وغلمانه ، يرتسم برنامج سياسته كلها ، وتبدو بالأخص نواحى توجسه وتخوفه ، فهو لم يكن يأمن جانب بنى أمية قط ، وقد لبث يتوقع الشر منهم حتى وفاته . ثم توفى وهو يتوقع الشر منهم لبنيه ودولته ؛ وقد كان المنصور فى ذلك صائب التقدير ، بعيد النظر .

* * *

هذا وأما علائق المنصور الدبلوماسية فإنه لم يتح له عقد الكثير منها ، ولم تفد إليه سفارات من ملوك النصارى على نحو ما حدث أيام الناصر والحكم المستنصر. ذلك لأن عهد المنصور كان كله عهد حروب مستمرة ، بين الأندلس وبين اسبانيا النصرانية ، ولم يقع بين الفريقين تهادن أو سلم طويل الأمد .

وكل ما نستطيع أن نسجله من ذلك حادثان متشابهان ، أولهما قدوم برمودو الثانى ملك ليون إلى قرطبة فى سنة ٩٨٥ م ، مستجيراً بالمنصور ليعاونه على مقاومة الأشراف الخارجين عليه وتوطيد عرشه . وقد أجابه المنصور إلى طلبه وبادر بمعونته . ومما هو جدير بالذكر أن برمودو قدم ابنته تريسا Teresa بعد ذلك إلى المنصور عروساً له ، فقبلها المنصور وتزوجها أو اتخذها سرية له [١].

والثانى ، وهو من أشهر الحوادث الشائقة التى وقعت أيام المنصور ، هو مقدم سانشو غرسية ملك نافار على المنصور ، معتذراً إليه ، لائذاً بعفوه ومهادنته . والوجه الشائق فى ذلك هو أن سانشو غرسية هذا كان صهراً للمنصور ، وكان تقرباً من المنصور ، واكتساباً لمودته قد قدم ابنته عروساً إليه (٩٨١ م) فتزوجها المنصور ، واعتنقت الإسلام ، وسميت باسم « عبدة » ، وكانت من أحظى نسائه لديه ، ورزق منها بولده عبد الرحمن الذى سمى أيضاً « شنجول » أو «سانشول» أى شانجُه (سانشو) الصغير نسبة لجده ملك نافار . ثم ساءت العلائق بين المنصور وصهره ، وتابع المنصور غزو نافار مرة بعد مرة ، حتى اضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وسار إلى قرطبة مستصرخاً المنصور ولائذاً بعفوه . ووصل سانشو إلى قرطبة فى الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ م) فسر المنصور بمقدمه سروراً عظيماً ، وبعث القواد والكبراء وطوائف الجند فى موكب فخم ، وعلى رأسهم ولده عبد الرحمن وهو طفل فى مهده ، لاستقباله ومرافقته

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid (Madrid 1947) p. 71

إلى قصر الزاهرة ، فلما وقعت عين سانشو على حفيده ، ترجل وقبل يده ورجله ؛ ثم رافق الركب إلى الزاهرة ، وقد اصطفت الجند على طول الطريق فى صفوف كثيفة زاهية كاملة السلاح والعدة ، واصطف الوصفاء والصقالبة من باب القصر إلى الداخل صفين. وسار سانشو ، وقد بهره كل ما رأى ، حتى وصل إلى مجلس المنصور فى عصر ذلك اليوم ، وقد جلس المنصور فى هيئة فخمة ، ومن حوله الوزراء وأعاظم رجال الدولة ؛ فلما أبصره سانشو هوى إلى الأرض فقبلها مرات متوالية ، ثم قبل يدى المنصور ورجليه ، فأمره بالجلوس على كرسى مذهب خصص له ، ثم انصرف الناس واختلى الملك النصرانى بالمنصور ، وأفضى كل إلى صاحبه بما أراد ، ثم خرج سانشو وفى أثره الخلع السلطانية ، وما انفض المجلس إلا عند دخول الليل .

وكان مقدم سانشو غرسية إلى قرطبة ، واستقباله بها ، من أيام الأندلس المشهودة ، وقد أعاد بروعته وما اقترن به من مغزى عميق بظفر الإسلام على أعدائه ، ذكرى أيام الناصر فى وفود الملوك النصارى عليه ، ملتمسين منه الصلح والمودة(1) .

* * *

وقد أجمعت الرواية الإسلامية ، الأندلسية والمشرقية ، على الإشادة بخلال المنصور وباهر صفاته . وهى جميعاً سواء أوجزت القول أو أفاضت ، تنم عن عميق التقدير والإعجاب : ثم هى مع ذلك لم تغفل التنويه بالجوانب القاتمة فى تلك العبقرية الفذة ، على أنها على العموم أكثر ميلا إلى إبراز محاسن المنصور ومواهبه ، والإشادة بما أسبغته على الأمة الأندلسية من ضروب العظمة والبهاء .

قال ابن الأثير يصف المنصور : « وكان شجاعاً ، قوى النفس ، حسن التدبير ، وكان عالماً محباً للعلماء ، يكثر مجالستهم ويناظرهم ، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه ، وصنفوا لها تصانيف كثيرة »(2). وقال ابن خلدون : « وكان ذا عقل ورأى وشجاعة ، وبصر بالحروب ، ودين متين »(3) . ويصفه الفتح ابن خاقان فى «المطمح» فى تلك العبارات الشعرية : « وكان أمضاهم (يعنى من

---

(1) أورد لنا ابن الخطيب فى «أعمال الأعلام» وصفاً شائقاً لهذا الحادث . ص ٦٦ و٧٣ و٧٤ .

(2) ابن الأثير ج ٩ ص ٦١ .

(3) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

تقدمه) وأذكاهم جناناً ، وأتمهم جلالا ، وأعظمهم استقلالا . قام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة . وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن فى كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق . وملك الأندلس بضعاً وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة ، ولم تزخر لمكروه بها لجة ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام »(١) .

ويجمل ابن حيان حياة المنصور فى تلك الفقرة : « وامتثل رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم فى عصره . فنال بغيته ، وتهنأ معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، عن غير اقتدار عليه ، بجند خاص ، ولا صيال بعشيرة ، ولا مكابرة بمال وعدة ، بل رمى الدولة من كنانها ، وعدا عليها بأعضادها ، وانتضلها بمشاقصها ، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها ، حتى حولها إليه وسبكها فى قالبه ، وسلخ رجالها برجاله ، وعفى رسومها بما أوضح من رسومه »(٢) .

هذا ، وقد أشاد ابن الخطيب بخلال المنصور فى مواطن وفقرات عديدة نقتطف منها ما يلى :

قال مشيراً إلى ولاية هشام : « فاستقر الأمر لهشام ، يكنفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً ، وأشهرهم بأساً ونداً ، وأبعدهم فى حسن الذكر مداً ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف ، معود الإقبال ، ومبلغ الآمال ، الذى صحبته ألطاف الله الخفية فى الأزمات ، واضطرد له النصر العزيز فى نحو سبع وخمسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالتى المحيا والممات » .

وقال : « فقد أجمع الشيخة أنه نهض بجد لا كفاء له ، وأصحب سعداً لا نحس يخالطه ، وأعطى إقبالا لا إدبار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره ...

« وكان مهيباً وقوراً ، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلساً ، وأبرهم بمن يحضر منادماً ومؤانساً ، وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة ، والامتنان ،

---

(١) نقله البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٢ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٨٩ .
(٢) نقله صاحب الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ .

لا يغفرها زلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح فى نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحداً ، من ولد ولا ذى خاصة ، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف » .

« وكانت الجزالة والرجولة ، ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره ، الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على لذة تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره »(١) .

ولم يكن النقد الغربى أقل تقديراً لعظمة المنصور ، وقد أشاد بعبقريته ومواهبه كثير من المؤرخين والنقدة الغربيين ، وهذه نماذج من أقوالهم :

قال المؤرخ الإسبانى اليسوعى ماسديه مشيراً إلى المنصور : « وكان سياسياً كبيراً ، وقائداً عظيماً ، فقد أخمد نار الثورات التى كانت تعصف بالمملكة ، واكتسب حب الشعب بجميع طبقاته ، وتفوق فى شهرته وهيبته على أكبر القواد ، بما اجتمع فى أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو ، وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ، ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسىء معاملة مدينة سلمت طوعاً »(٢) .

ويقول المؤرخ الإسبانى المعاصر الأستاذ مننديث پيدال معلقاً على عصر المنصور : « عاش الإسلام فى اسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائماً مقرونة بالمحن ، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية »(٣) .

ويلاحظ الأستاذ پيدال فى نفس الوقت أن عبقرية المنصور العسكرية والسياسية كانت من عوامل القضاء على الروح القومية النصرانية المستعربة ، وذلك لما أغدقه المنصور من عطفه ورعايته على كثير من النصارى والمستعربين(٤) .

ويختتم العلامة دوزى كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية : « وعلى الجملة ، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التى لجأ إليها المنصور فى اغتصاب السلطة ، فمن

---

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٧٤ و ٧٥ .

(٢) J. F. Masdeu : Historia critica de Espana y de la Cultura Espanola

(٣) R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 72

(٤) R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 423

الواجب أيضاً أن نعترف بأنه استخدمها بطريقة شريفة . وما كنا لنسرف فى لومه لو أن القدر خلقه على أريكة العرش ، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكنه خلق فى القرية ، واضطر لتحقيق أطماعه ، أن يشق لنفسه طريقاً تكتنفه آلاف الصعاب . ومن الأسف أنه من أجل تذليلها ، قلما راعى شرعية الواسطة . لقد كان المنصور رجلا عظيماً من وجوه كثيرة ، ولكن يستحيل علينا ، متى رجعنا إلى مبادئ الأخلاق الخالدة أن نحبه ، ومن الصعب أن نعجب به »[1] .

Dozy : Hist. Vol. II. p. 275 (١)

الفصل الثالث

الممالك النصرانية الإســبانية

خلال القرن العاشر الميــلادى

نهوض اسبانيا النصرانية فى عهد الفتنة الأندلسية . وفاة أردونيو الثانى . الحرب الأهلية فى ليون . استقرار راميرو فى الملك . ولاية قشتالة . جهادها فى سبيل الاستقلال . الكونت فرنان كونثالث. ثورته ضد راميرو الثانى . هزيمته وأسره . ثورة قشتالة . الإفراج عن الكونت . طاعته الملك ليون . استمراره فى العمل لاستقلال قشتالة . وفاة راميرو . الحرب الأهلية بين ولديه أردنيو وسانشو . معاونة فرنان كونثالث لسانشو . انتصار أردونيو وفوزه بالملك . يعقد الصلح مع الناصر . وفاته وجلوس سانشو . موقف فرنان كونثالث . اضطراب الأحوال فى ليون . فرار سانشو وجلوس أردونيو الرابع . التجاء سانشو وجدته طوطة إلى الناصر . سانشو يسترد العرش بمعونة الناصر . نكثه لعهوده . فرنان كونثالث يعلن استقلال قشتالة . التجاء أردونيو إلى الحكم . اتحاد الأمراء النصارى . غزو الحكم لقشتالة ونافار . اضطرارهما لعقد الصلح . بداية الكفاح بين قشتالة والمملكة الإسلامية . الحكم يأذن بنقل رفات القديس بلايو . الثورة فى جليقية . مصرع سانشو وجلوس ولده راميرو . وفاة فرنان كونثالث وصفاته . وفود الأمراء النصارى وسفاراتهم على قرطبة . عدوان النصارى على أراضى المسلمين وردهم . النزاع بين راميرو وبرمودو على العرش . تدخل المنصور فى ذلك . غزو المنصور لشنت ياقب . برمودو يلتمس الصلح . وفاته وجلوس ولده ألفونسو . مملكة نافار . غرسية سانشيز وأمه طوطة . ولده سانشو غرسية . غزو المنصور لنافار . وفاة سانشو وجلوس ولده غرسية سانشيز . ولده سانشو الكبير . عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية . طبقة الأشراف والفرسان والملاك والزراع الأحرار . طبقة الأرقاء . رقيق الضياع . التنظيم السياسى للمملكة النصرانية . السلطة الملكية . الأشراف . القضاء واشتراك الأشراف فى مزاولته . رجال الدين وسلطانهم الإقطاعى . مقارنة بين هذا النظام ونظام المملكة الإسلامية .

لما بلغت الثورات والفتن الداخلية بالأندلس ، ذروتها فى النصف الأخير ، من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فيما اصطلح على تسميته بالفتنة الكبرى ، وبددت قوى الأندلس ومواردها فى ذلك الصراع الداخلى المدمر ، أخذت اسبانيا النصرانية ، وقد أمنت شر الغزوات الإسلامية طوال هذه الفترة ، تتنفس الصعداء ، فاشتد ساعدها ، ونمت مواردها ، وتوطدت حكوماتها . ولم تأت فاتحة القرن العاشر الميلادى ، حتى كانت مملكة ليون ، التى خلفت مملكة جلّيقية ، وبسطت سلطانها على ولاية قشتالة ، فى أواسط اسبانيا الشمالية ، قد

بلغت مستوى من القوة والبأس ، يتيح لها أن تخوض مع المملكة الإسلامية صراعاً عنيفاً .

وقد رأينا كيف بلغ هذا الصراع ذروته فى عهد الناصر ، وكيف أنه بالرغم مما حققه الناصر من إخماد الفتنة ، وإحياء قوة الأندلس ، استطاع النصارى بقيادة ملكهم أردونيو الثانى ، أن يحرزوا على المسلمين نصرهم الخطير ، فى موقعة شنت إشتيبن فى سنة ٩١٧ م .

وكانت موقعة شنت إشتيبن ، وما تلاها من تكرر غزو النصارى للأراضى الإسلامية ، نذيراً خطيراً لحكومة قرطبة . ولكن وفاة أردونيو الثانى فى سنة ٩٢٥ م وضع حداً مؤقتاً لتلك الفورة القومية ، التى جاشت بها اسبانيا النصرانية . ذلك أن أخاه وخلفه فرويلا ، لم يحكم سوى عام واحد ، ثم توفى ، فاضطرم النزاع على العرش بين سانشو وألفونسو ولدى أردونيو ، وانتهى بأن فاز ألفونسو بالعرش بمعاونة صهره وحميه سانشو ملك نافار . ولكن سانشو لم ييأس ، فجمع جيشاً جديداً ، وتوج نفسه ملكاً فى شنت ياقب فى أقاصى جليقية ، ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها ، وارتقى العرش مكان أخيه . فعاد ملك نافار إلى مؤازرة ألفونسو ومعاونته ، حتى استطاع أن يهزم أخاه ، وأن يستولى على مدينة ليون مرة أخرى . بيد أن أخاه سانشو لبث محتفظاً بجليقية ، مصراً على دعواه فى الملك .

واستمرت الحرب الأهلية بين النصارى أعواماً ، وانتهى طورها الأول ، حينما توفى سانشو ابن أردونيو فى سنة ٩٢٩ م ، واستقر الملك لأخيه ألفونسو الرابع دون منازع . ثم بدأ طورها الثانى فى سنة ٩٣١ م ، ففى تلك السنة توفيت زوجة ألفونسو ، فحزن لفقدها أيما حزن ، وغلب عليه اليأس والزهد ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو ثانى ملوك ليون بهذا الإسم ، ولجأ إلى دير ساهاجون واعتنق الرهبانية ، ولكنه عافها بعد قليل ، فترك عزلة الدير ، ونادى بنفسه ملكاً فى حصن شنت منكش Simancas ، وكان عمله فى نظر الرهبان عاراً كبيراً ، فأثاروا عليه دعاية شديدة ، حتى اضطر أن يعود إلى الرهبانية . وقد كان ألفونسو فى الواقع « أميراً أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك ، وأشد شغفاً بالمقدس منه بميدان الحرب » ، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى نجدة

ثوار طليطلة ، فغادر الدير ، وزحف فى بعض أنصاره على مدينة ليون واستولى عليها ، فعاد راميرو مسرعاً ، وحاصر أخاه فى ليون واستولى عليها بلوره . ثم أراد أن يضع حداً لمساعى ألفونسو ومحاولته فسمل عينيه ، وسمل كذلك أعين أبناء عمه الثلاثة ، وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا فى الثورة عليه .

ويعلق النقد الإسبانى الحديث على تلك القسوة بقوله : « وإنه ليروعنا ذكرى العقوبة التى أنزلها راميرو الثانى بأخيه ألفونسو ، وبأبناء عمه الثلاثة ، وإنه لن يكفى مر القرون لمحو ذكرى عقوبة سمل العينين التى ورثت عن التشريع القوطى ، قبل أن نراها تطبق بكثرة من جانب ملوكنا نحو ذوى قرباهم »(١) .

وهكذا استقر الملك لراميرو بعد صراع عائلى عنيف. وكان راميرو الثانى أو ردمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً شجاعاً مقداماً ، نذر نفسه للكفاح ضد المسلمين ، ومقارعتهم بكل الوسائل ، فتارة يغير على الأراضى الإسلامية ، وتارة يحرض الثوار على حكومة قرطبة ، أو يسير إلى إنجادهم بالفعل، كما حدث حينما سار لمعاونة طليطلة على مقاومة الناصر (٩٣٠ م) ، وتارة يشتبك مع المسلمين فى معارك طاحنة . وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف ، الذى اضطرم بين راميرو وبين الناصر ، والذى بلغ ذروته فى موقعة الخندق المشئومة ، التى دارت فيها الدائرة على المسلمين ، تحت أسوار مدينة سمورة فى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) .

١ — نشأة مملـــكة قشتالة

لم يكن اضطراب الأمور فى مملكة ليون ، قاصراً على قسمها الغربى فى جليقية ، حيث كان الزعماء (الكونتات) الجلالقة ،يثورون على العرش من آن لآخر ، بغية توطيد سلطانهم المحلى ، بل كان يشمل أيضا قسمها الشرقى ، فى منطقة قشتالة ، التى كانت تسمى يومئذ « بردوليا » ثم سميت فيما بعد « قشتالة Castilla »(٢) ، وذلك لكثرة الحصون التى كانت تقام بها . وكانت هذه المنطقة، التى استحالت فيما بعد إلى مملكة قشتالة ، تمتد شرقاً حتى هضاب نافار ، ومن

---

(١) M. Lafuente : Historia general de Espana (Barcelona 1889) T. II.p.360

(٢) كلمة Castillo الإسبانية معناها الحصن . وقد كانت تسمى فى الجغرافية العربية القلاع قبل أن تنتظم إلى مملكة قشتالة . وتسمى بالإضافة إلى ولاية « ألبة » Alava « ألبة والقلاع » .

ولاية ريوخا جنوباً ، حتى الأراضى التى سميت فيما بعد أراجون وسوبرابى ، وكان سكانها الأصليون من البشكنس وأهل ألبة . وكان ملوك الجلالقة أو ملوك أوبييلو قد غزوها وأضافوها إلى أملاكهم ، وكانت عاصمتها يومئذ مدينة برغش . وأبدى زعماء قشتالة منذ البداية ، مقاومة عنيفة للملوك الجلالقة ، وبذلوا جهدهم للمحافظة على استقلالهم المحلى ، وثاروا بالفعل فى عهد أردونيو الثانى فى أوائل القرن العاشر . فحاربهم أردونيو وأخضعهم ، وقبض على كثير منهم وأعدمهم ،واضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته ، وكانوا يتمتعون بسلطات محدودة تحت سلطان زعيم محلى ، مقره فى « برغش » . وهو يخضع بدوره لملك ليون . ولكن هذا النظام المهين ، لم يرق لكونتات قشتالة ، فلبثوا يتحينون الفرص للثورة ، وتحقيق استقلالهم المنشود .

وعرضت هذه الفرصة ، وألفت قشتالة بطل ثورتها التحريرية ، فى شخص زعيمها الكونت فرنان كونثالث (وفى الرواية الإسلامية فرّان غنصالس) ، الذى غدت حياته مستقى للملاحم الشعرية ، والقصص الإسبانى فى العصور الوسطى ، فحشد الكونت أنصاره وقواته ، وأعلن الحرب على راميرو الثانى ملك ليون ، وولد أردونيو ؛ وكان راميرو يومئذ فى أوج قوته ، بعد انتصاره على المسلمين فى موقعة الخندق ، فلم يلق مشقة فى هزيمة الكونت وسحق قواته ، وأسر فرنان كونثالث ، وزجه راميرو إلى ظلام السجن فى مدينة ليون ، وعين لحكم قشتالة آسور فرناندز كونت مونزون ، ثم عين بعد ذلك لحكمها ولده سانشو ، وأمره أن يعامل القشتاليين بالرفق والحسنى ؛ ولكن ذلك لم يخمد جذوة الوطنية القشتالية . ولبث القشتاليون مخلصين لأميرهم المأسور ، واستمروا فى الثورة والقتال ، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون ، فخشى راميرو العاقبة ، وأطلق سراح فرنان كونثالث ، ولكن بشروط فادحة ، هى أن يقسم يمين الطاعة لملك ليون ،وأن يتنازل عن كل أملاكه ،وأن يزوج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر . وقبل فرنان كونثالث هذه الشروط مرغماً . وظل أهل قشتالة على بغضهم لملك ليون ،وولائهم لأميرهم . وفقد راميرو بذلك عون الزعماء القشتاليين ومساهمتهم المخلصة فى الدفاع عن البلاد ، واستطاع المسلمون خلال ذلك الإغارة مرراً على أراضى ليون والعيث فيها ، وقام الناصر بتجديد مدينة سالم ، ثغر

الحدود بين أراضى قشتالة والأراضى الإسلامية ، وتحصينها (سنة ٩٤٦ م) . واضطر راميرو أن يلتزم خطة الدفاع ، إزاء الغزوات الإسلامية المتوالية .

وكان فرنان كونثالث ، يعمل أثناء ذلك ، على توطيد مركزه ، وضم كونتيات قشتالة كلها تحت لوائه ، ليجعل منها وحدة سياسية ، أو بالحرى إمارة مستقلة ، يغدو عرشها من بعده وراثياً فى أسرته . وقد استطاع غير بعيد أن يحقق هذه الغاية[1] .

٢ — مملـكة ليون

وفى أوائل سنة ٩٥٠ م توفى راميرو الثانى ملك ليون ، فنشبت الحرب الأهلية مرة أخرى بسبب وراثة العرش . وذلك أن راميرو ترك ولدين أولهم أردونيو ، وهو ولد زوجه الأولى تاراسيا ، وسانشو وهو ولد زوجه الثانية أوراكا أخت غرسية ملك نافار . فادعى أردونيو أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الأخوين ، ولكن سانشو نازعه فى ذلك ، معتمداً على عون أخواله النافاريين ، وجدته طوطة ملكة نافار ، وكذلك على عون الكونت فرنان كونثالث وأهل قشتالة . وكان الكونت غير ميال إلى معاونة أردونيو ، بالرغم من كونه زوج ابنته ، إذ كان قد أرغم على تلك المصاهرة كما تقدم ، وقد آثر أن يقف إلى جانب سانشو ، إذ وعده بأن يرد إليه أملاكه ، وأن يحقق أمانيه فى الاستقلال ، ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يعمل على إضعاف مملكة ليون لكى يدعم بذلك استقلاله . وهكذا نشبت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحد من قوات سانشو ، ونافار ، وقشتالة . ولكن أردونيو هزم أعداءه ، وأخضع سائر الخارجين عليه واستقر فى العرش ، ورأى انتقاماً لخيانة فرنان كونثالث أن يطلق زوجه الملكة إبنة الكونت ، وبذلك كفرت هذه الأميرة عن خصومة أبيها لمملكة ليون .

وانتهز المسلمون فرصة الحرب الأهلية ، فتوالت غزواتهم لأراضى ليون ؛ ومن جهة أخرى فقد كان أشراف ليون فى تمرد مستمر على ملكهم ؛ وخشى أردونيو العاقبة ، فبعث سفيراً إلى قرطبة فى أوائل سنة ٩٥٥م يطلب عقد الصلح مع الناصر ، فأجابه الناصر إلى طلبه ، وبعث إليه سفيره محمد بن الحسين ، فعقد معه

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid p. 70 ; Altamira : Hisroria de Espana, Vol. I. p. 244—245.

معاهدة صلح ، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر . ثم توفى أردونيو بعد ذلك بقليل ، وخلفه أخوه سانشو فى الملك ؛ وكان أول ما عمل أن رفض تنفيذ المعاهدة التى عقدها أخوه مع الناصر ، فاضطر الناصر إلى إعلان الحرب ، وبعث حاكم طليطلة أحمد بن يعلى فى الجيش إلى ليون ، فغزاها ، وتوغل فى أراضيها ، واضطر سانشو أن يعقد الصلح ، وأن يقر ما سبق أن تعهد به أخوه . وبذلك استقرت علائق السلم بين الفريقين .

ومن جهة أخرى فإن فرنان كونثالث لم يتحول عن سياسة العداء نحو ليون ؛ وقد كان قبل أن يرتقى سانشو العرش ، يؤازره ويناصره ضد أخيه أردونيو ، فلما تولى أردونيو عرش ليون ، انقلب إلى خصومته وفقاً لسياسته المأثورة ضد ليون ، وكان يبغى فى الوقت نفسه أن تعود ابنته أوراكا مطلقة أردونيو الثالث إلى العرش ، بعد أن تزوجت من ابن عمه الأمير أردونيو ، وقد عاونه القدر غير بعيد على تحقيق بغيته .

ذلك أن الأحوال ما لبثت أن ساءت فى مملكة ليون ، فقد ثار الأشراف بسانشو ونزعوه عن العرش ، واحتجوا لخلعه بهزيمته أمام المسلمين فى بعض المعارك التى خاضها ، وبأن بدانته الفائقة تمنعه من ركوب الخيل ، ومن تولى القيادة ، ففر سانشو إلى بنبلونة ، إلى جانب جدته طوطة ملكة نافار ، وقام الأشراف فى ليون وقشتالة ، باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع ، وهو ابن ألفونسو الرابع ، عم الملك المخلوع وصهر الكونت فرنان كونثالث ، وكان أحدباً دميماً سيىء الخلال ، حتى لقب بالردىء El Malo . ولجأ سانشوا إلى عون الناصر ، فأرسل إليه طبيباً يهودياً من قرطبة ، يتولى علاجه من بدانته ؛ وفى سنة ٩٥٨ م (٣٤٧ هـ) قصدت طوطة إلى قرطبة ، ومعها ولدها الفتى غرسية سانشيز ، الذى كانت تحكم نافار باسمه ، وسانشو ملك ليون المخلوع ، فاستقبلهم الناصر استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ، وذلك مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ؛ ثم أمده الناصر بالمال والجند ، فغزا ليون ، وغزا النافاريون فى الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق ، وانتهت هذه الحرب الأهلية الجديدة ، بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرة أخرى ، وفر أردونيو إلى برغش ٥

ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، وأبى تنفيذ ما تعهد به ، ثم توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، ولزمت ليون وناقار السكينة حيناً . ولكن فرنان كونثالث اتجه وجهة أخرى . وكان قد انتهز فرصة الحرب الأهلية ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً مستقلا عليها ، وأخذ يسعى إلى توسيع أملاكه بالإغارة على الأراضى الإسلامية . وكان يرى فى نزول ميدان الكفاح ضد المسلمين ، وسيلة لتدعيم هيبته فى نفوس النصارى المتعصبين ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية مرة بعد أخرى .

وكان فرنان كونثالث ، على قول المؤرخ الإسبانى « ذا عبقرية تمازجها الغطرسة ، وروح تمازجها العجرفة ، معتداً بنفسه ، وعالماً بما يمكن أن يجنيه من قلبه وساعده ، محباً للاستقلال ، تملؤه فكرة تحرير بلاده قشتالة من نير ليون ، وأن يقيم لها سيادة خاصة »(١) .

وقد رأينا فيما تقدم ، كيف لجأ أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع إلى الحكم ، وكيف استقبله الخليفة بقصر الزهراء فى حفل مشهود ، ووعده بأن يعاونه على استرداد عرشه ، لقاء عهود قطعها على نفسه ، وكيف خشى سانشو عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن ينفذ ما تعهد به للناصر ، وكيف عاد بعد ذلك إلى نكثه السابق حينما توفى خصمه أردونيو .

وعندئذ لم يجد الحكم بداً من الحرب ، ولم يجد الأمراء النصارى بداً من الاتحاد . وقد فصلنا فيما تقدم كيف اجتاحت الجيوش الإسلامية ، أراضى قشتالة ، ومزقت جيوش أميرها فرنان كونثالث ، فى موقعة شنت إشتبين ، وأرغمته هو وحليفه سانشو ملك ليون على طلب الصلح ، وكيف اجتاحت غربى ناقار عقاباً لأميرها غرسية سانشيز على نكثه ، وإغارته على أراضى المسلمين ، وكيف توالت غزوات المسلمين لأراضى قشتالة ، ما بين سنتى ٩٦٣ و ٩٦٧ م .

وهنا نقف قليلا أمام تلك الحقيقة التاريخية الهامة ، وهى أننا نجد قشتالة إحدى ولايات مملكة ليون القديمة ، تحارب المسلمين لأول مرة كإمارة مستقلة . ومن ذلك التاريخ تحتل قشتالة مكانتها فى تاريخ الكفاح ، بين اسبانيا النصرانية

---

(١) Modesto Lafuente : ibid ; T. II. p. 361

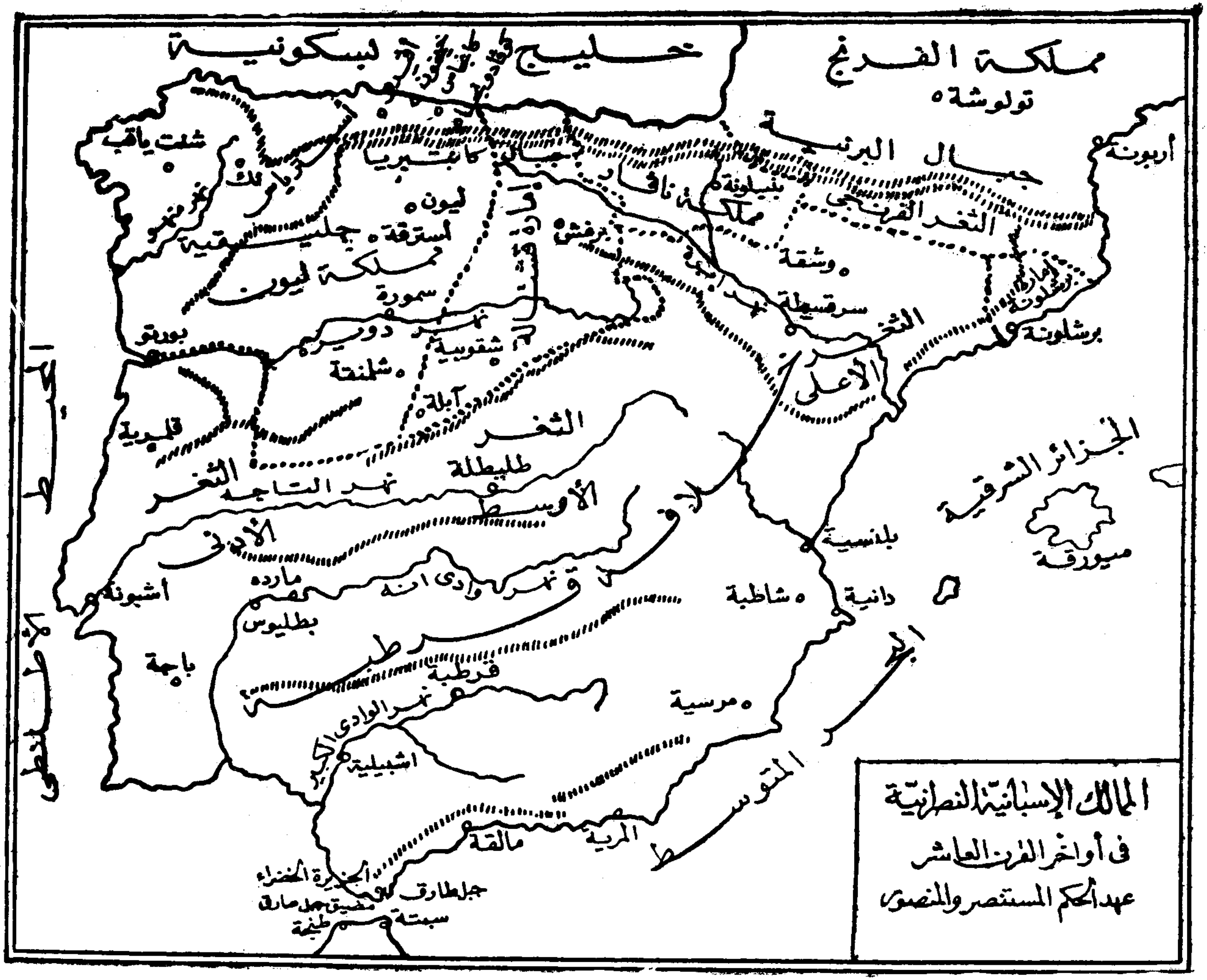
الممالك الإسبانية النصرانية
فى أواخر القرن العاشر
عهد الحكم المستنصر والمنصور
مملكة الفرنج
تولوشة
خليج بسكونية
جبال البرنيه
أربونة
جبال كانتبريا
شنت ياقب
مملكة ليون
ليون
استرقة
جليقية
سمورة
بورتو
نهر دويره
شقوبية
شلمنقة
آبلة
قلمبرية
مملكة نافار
بنبلونة
وشقة
سرقسطة
نهر ابرة
الثغر الفرنجي
برشلونة
الثغر الأعلى
الثغر الأوسط
طليطلة
نهر التاجه
الثغر الأدنى
اشبونة
ماردة
بطليوس
نهر وادى انه
قرطبة
نهر الوادى الكبير
اشبيلية
باجة
شاطبة
بلنسية
دانية
مرسية
المرية
مالقة
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
الجزائر الشرقية
ميورقة
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطى

واسبانيا المسلمة ، وتغدو بالرغم من نشأتها المتواضعة شيئاً فشيئاً ، أعظم الممالك النصرانية رقعة ، وأوفرها قوة ومنعة ، وأشدها مراساً فى محاربة المسلمين، وإنهاك قوى المملكة الإسلامية .

واستمر سانشو حيناً يحكم فى ظروف صعبة من جراء ثورات الزعماء والأشراف الخارجين عليه ، وكان بعد أن عقد الصلح مع الحكم ، قد أرسل إليه تحقيقاً لرغبة زوجه تريسا ، وأخته الراهبة إلبيرة ، سفارة يطلب إليه الإذن بنقل رفات القديس بلايو إلى ليون . وكان نصارى قرطبة قد عنوا بنقل رفات هذا القديس من الوادى الكبير ، فأجاب الخليفة سؤله ، ونقلت الرفات فى العام التالى فى حفل فخم ، وأودعت ليون بكنيسة خاصة أقامها الملك ، وسماها دير سان بلايو . ولم يحضر سانشو هذا الحفل لانشغاله بمقاومة الخوارج عليه . وكان من أشد خصومه والمحرضين عليه الحبر سسناندو أسقف شنت ياقب ؛ وكان هذا الأسقف قد حصن مدينته وقصره الأسقفى ، بحجة حمايتها وحماية مزار القديس ياقب من غارات النورمان ، ولكنه أعلن العصيان ، وعبثاً حاول سانشو استرضاءه ، بيد أنه اضطر أخيراً أن يفتح مدينته للملك حينما رأى فشل الزعماء الخارجين فى مقاومته .

وكان بين الزعماء الخارجين عليه من الأشراف وأشدهم مراساً ، الكونت جوندسالڤو (غندشلب) سانشيز حاكم جليقية ، وكان قد استطاع أن يوطد استقلاله فى المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة ، وأن يبسط حكمه على لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء دويرة شمالى ولاية البرتغال ، فسار سانشو لقتاله ، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته ، ألفى رسل الزعيم الثائر يعرضون عليه التسليم والطاعة ، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت ، فقبل سانشو . وكان الكونت قد دبر مشروعاً دنيئاً لاغتياله . فدعاه إلى مأدبة أقامها وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامره الريب ، وسرعان ما شعر بدبيب الموت يسرى إلى أحشائه ، فحمل فى الحال إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ودفن بها تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك فى سنة ٩٦٦ م[1] .

وهكذا توفى سانشو ملك ليون مسموماً ، بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة ، فخلفه ولده راميرو الثالث ، طفلا فى الخامسة من عمره تحت وصاية عمته الراهبة

---

(١) Modesto Lafuente ; ibid, T. II. p 341—342

إلبيرة . ولكن معظم الأشراف أبوا الاعتراف بسلطانه . ونشبت في ليون طائفة من الثورات المحلية ، ولاسيما فى ولايات جليقية ، وحاول كثير من الزعماء الأقوياء الانفصال عن العرش ، وتوطيد سلطانهم المحلى . وكان مثل فرنان كونثالث فى الاستقلال بولاية قشتالة ، أقوى مشجع لهم ، ولبثت أخطر حركة من ذلك النوع ، هى ثورة جوندسالڤو سانشيز (قاتل مليكه) حيث استمر على استقلاله يحكم المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة ، وحكم القواعد الثلاثة الهامة لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء نهر دويرة .

وفى خلال ذلك ، توفى الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م وخلفه فى الإمارة ولده غرسية فرناندز ، كما توفى غرسية سانشيز ملك ناڤار وخلفه ولده سانشو غرسية الثانى .

ويعلق المؤرخ لافونتى على عمل فرنان كونثالث مؤسس استقلال قشتالة وسياسته بقوله : « إن جميع الوسائل التى تذرع بها الكونت لتحقيق غايته لا تبدو مستحسنة فى نظرنا ، فإن معاملته للملوك ليون راميرو الثانى ، وأردونيو الثالث ، وسانشو الأول ، وأردونيو الردىء ، وكذلك معاملته لغرسية ملك ناڤار ، حليفاً وخصما بالتوالى لهؤلاء وهؤلاء ، وساعياً فى تولية وعزل هؤلاء وهؤلاء ، ومقسما للولاء وناقضاً له ، ولقد كانت مقتضيات السياسة وملابساتها فى صالحه ، وإن كان ذلك لايطابق حكم الأخلاق الصارم . بيد أننا نلاحظ أنه من مفاخر الكونت أنه لم يحالف المسلمين قط ، ولم يتهادن قط مع أعداء وطنه أو دينه . أما عن بدء عهد استقلال قشتالة ، فيمكن أن نضعه فى منتصف القرن العاشر (الميلادى) ، وهو الوقت الذى رأينا فيه الكونت يعمل لحسابه دون خضوع لملوك ليون »(١).

وأدركت الممالك النصرانية يومئذ ، وفى مقدمتها مملكة ليون ، التى شغلت بحوادثها الداخلية ، أنه لا مجال للعدوان على أراضى المسلمين ، ولزمت السكينة حيناً .

واتجه الملوك والأمراء النصارى إلى تحسين علائقهم مع بلاط قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يسألون الصلح والمهادنة . وكان من الوافدين بأنفسهم على قرطبة أمير جلّيقية ، والراهبة إلبيرة الوصية على عرش ليون . وقد فصلنا من قبل قصة هذه الزيارات والسفارات فى موضعها .

(١) Madesto Lafuente : Ibid., T. II. p. 361

ولما توفى الحكم المستنصر ، وشــغل المسلمون بعض الوقت بشئونهم الداخلية ، اعتقد النصارى أن الفرصة قد عرضت مرة أخرى لغزو أراضى المسلمين ، فأغار القشتاليون على الأراضى الإسلامية ، وتوغلوا فيها جنوباً وعاثوا فيها ؛ وهنا نهض محمد بن أبى عامر لرد عدوانهم ، فغزا أراضى قشتالة فى أوائل سنة ٩٧٧ م (٣٦٦ هـ) ثم غزاها ثانية ، واقتحم مدينة شلمنقة فى العام التالى . وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية ، التى شهرها المنصور بن أبى عامر ، على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستغرقت طيلة حياته ، والتى فصلنا أخبارها فيما تقدم .

ونستطيع أن نشير هنا فيما يتعلق بمملكة ليون ، إلى ما وقع من إقدام راميرو الثالث ملك ليون ، على معاونة القائد غالب الناصرى ببعض قواته ، فى حربه مع المنصور ، فلما سار المنصور بعد ذلك لمحاربة راميرو ومعاقبته على هذا التحدى ، استغاث راميرو بغرسية فرناندز أمير قشتالة ، وسانشو غرسية ملك نافار ، فسار المنصور ، لمقاتلة القوات النصرانية المتحدة ، وهزمها فى موقعة شنت منكش فى سنة ٩٨١ م (٣٧١ هـ) .

وعلى أثر ذلك ، رأى أشراف ليون ، أن راميرو لم يعد صالحاً لحكم المملكة ، فقرروا خلعه ، وتولية ابن عمه برمودو ملكاً عليهم (٩٨٢ م) . ولكن راميرو لم يذعن لهذا القرار ، فجمع أنصاره واستعد للحرب ، واضطرمت بين برمودو وراميرو حرب أهلية ، انتهت بهزيمة راميرو ، وفراره إلى مدينة أسترقة ، وامتناعه بها . وحاول راميرو بعد ذلك ، أن يلجأ إلى المنصور ، وأن يستمد عونه لاسترداد عرشه . ولكنه توفى بعد ذلك بقليل ، وتخلص برمودو بذلك من منافسته .

بيد أن برمودو ، لم يشعر مع ذلك بالطمأنينة . فقد لبث فريق كبير من الأشراف على معارضتهم لحكمه ، ولبث النضال الداخلى مؤذناً بالخطر . وعندئذ قرر برمودو أن يلجأ إلى المنصور ، فالتمس منه التأييد والعون ، على أن يعترف بطاعته ، فأجابه المنصور إلى طلبه ، وبعث إليه بقوة من جنده ، حلت بمدينة ليون عاصمة المملكة ، وبذلك أصبحت ليون مملكة تابعة تؤدى الجزية .

ولكن برمودو حينما شعر بتوطد مركزه ، واشتداد ساعده ، قرر أن يتخلص

من نير المنصور ، فهاجم الحامية الإسلامية ، واستخلص مدينة ليون من يدها ، فنهض المنصور لمحاربته ، وسار إلى مدينة ليون فاقتحمها وخربها ، ومزق قوى النصارى ، ثم استمر يغزو أراضى ليون تباعاً ، ويوقع الهزائم المتوالية ببرمودو ، حتى اضطر برمودو إلى طلب الصلح ، والعودة إلى الاعتراف بالطاعة (٩٩٥ م) ؛

وقد رأينا كيف سار المنصور بعد ذلك ، إلى غزو مدينة شنت ياقب عاصمة إسبانيا النصرانية الروحية (٩٩٧ م) ، وكيف انضم إليه فى تلك الغزوة معظم أشراف جليقية . وعندئذ لم ير برمودو مناصاً فى النهاية ، من العود إلى التماس الصلح ، والاعتراف بالطاعة ، ونبذ كل مقاومة . فأجابه المنصور إلى طلبه . وعاش برمودو بعد ذلك عامين آخرين ، قضاهما فى إصلاح الكنائس والأديار والقلاع ، التى هدمت خلال الحرب . ثم توفى سنة ٩٩٩ م ، فخلفه ولده ألفونسو الخامس طفلا . وقام بالوصاية عليه الكونت منند يث كونثالث أحد أشراف المملكة[١] .

٣ — مملكة نافار

أشرنا فيما تقدم إلى نشأة مملكة نافار المستقلة ، فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، وكيف تولى عرشها سانشو غرسية (الأول) ، عقب اعتزال أخيه فرتون الملك فى سنة ٩٠٥ م . وقد عمل سانشو على توسيع أطراف مملكته الصغيرة ، واستطاع أن يدفع حدودها جنوباً حتى ناجرة ، وخاض مع المسلمين حروباً عديدة ، أيام الأمير عبد الله ، وفى أوائل عهد الناصر . وقد غزا الناصر نافار سنة ٩٢٠ م ، ثم بعد ذلك فى صائفة ٩٢٤ م ، ودخل عاصمتها بنبلونة وخربها ، وسحق قوى نافار ، وقضى على كل مقاومة من جانبها وكل نزعة للعدوان .

ولما توفى سانشو فى سنة ٩١٦ م ، خلفه ولده غرسية سانشيز طفلا ، وحكم أولا تحت وصاية عمه خمينو غرسيس ، ثم بعد ذلك تحت وصاية أمه الملكة طوطة ، التى لبثت تحكم باسمه طويلا ، حتى بعد أن بلغ سن الفتوة والنضج . وكانت نافار خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة ، مع المملكتين النصرانيتين الأخريين . فقد كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجاً من أوراكا إبنة الملكة طوطة وأخت غرسية . وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجاً من إبنة أخرى لطوطة هى

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨١ ؛ وكذلك Altamira : ibid, Vol. I. p. 246

ضانشا . وكانت طوطة تحتل بذلك مقاماً ملحوظاً فى الممالك الثلاث . ولما توفى راميرو الثانى ملك ليون فى سنة ٩٥٠ م ، واضطرمت الحرب الأهلية حول وراثة العرش بين ولديه أردونيو وسانشو ، وقفت نافار إلى جانب سانشو ، ولد الملكة أوراكا النافارية ، ثم وقفت بعد ذلك إلى جانبه مرة أخرى ، بعد أن تولى العرش عقب وفاة أخيه ، وقام أشراف ليون بخلعه ، ولجأت الملكة طوطة فى معاونته إلى الناصر حسبما تقدم .

ثم اضطربت العلائق بين نافار وبين جارتها قشتالة ، ونشبت الحرب بينهما ، فهزم الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة ، وأسر فى موقعة نشبت بين الفريقين على مقربة من ناجرة ، واعتقل فى نافار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة قشتالة ولزمت السكينة حيناً .

ولما توفى الناصر ، وتولى مكانه ولده الحكم المستنصر ، طالب ملك ليون بتسليم الحصون التى تعهد بتسليمها إلى أبيه ، وطالب ملك نافار بأن يسلمه أسيره فرنان كونثالث أمير قشتالة ، فرفض الملكان مطالب الحكم ، وأطلق غرسية أسيره فرنان كونثالث ، فهرع إلى برغش عاصمته ، وقبض على صهره أردونيو الرابع ، وأرسله مخفوراً إلى الحدود الإسلامية ، وهنالك التجأ إلى القائد غالب حاكم الثغر ، ثم سار معه إلى الحكم مستجيراً به ، واستقبله الحكم كما تقدم فى احتفال مشهود .

واستطال حكم غرسية سانشيز حتى سنة ٩٧٠ م ، واستمرت أمه الملكة العجوز طوطة ، محتفظة بإشرافها عليه ، ومشاركتها الفعلية فى الحكم ، حتى وفاتها فى سنة ٩٦٠ م .

ولما توفى غرسية سانشيز ، خلفه فى عرش نافار ولده سانشو غرسية الثانى ، وكانت مملكة نافار قد اتسعت رقعتها عندئذ ، وأصبحت تشمل عدا ولاية نافار الأصلية ، ولايات كانتبريا ، وسوبرابى ، ورباجورسا ، ونمت مواردها وقواها حتى أن سانشو لم يحجم عن الإغارة على الأراضى الإسلامية ، ورد المنصور على هذه الجرأة ، فغزا نافار ، وتوغل فيها حتى اقتحم عاصمتها بنبلونة ، وذلك فى سنة ٩٨٧ م .

وخلف سانشو فى الحكم ولده غرسية سانشيز الثالث ، فلم يدم حكمه سوى

خمسة أعوام ، وفى عهده غزا المنصور نافار مرة أخرى (٩٩٩ م) . ثم توفى غرسية فى العام التالى ، فخلفه ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير .

٤ — عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية

سبق أن تحدثنا فيما تقدم عن عناصر المجتمع فى اسبانيا المسلمة ، ويجدر بنا أن نتحدث هنا عن عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية .

لم يكن فى اسبانيا النصرانية بعد الفتح الإسلامى ، ما يمكن أن يسمى بالحياة القومية العامة . وكانت كل ولاية أو مملكة ، تعيش وفق ظروفها ونظمها الخاصة ، وكان هذا التباين ذاته ، يقوم فى الداخل ، ويتفاقم أحياناً بما يحدث إلى جانبه من خلافات أخرى ، تصيب النظم والحياة الإجتماعية .

وقد بقى تكوين المجتمع النصرانى الإسبانى عقب الفتح ، على ما كان عليه أيام القوط ، فكان يتكون من عنصرين رئيسيين ، هما الأحرار ، والعبيد ؛ وكان الأحرار وهم الذين يستطيعون التصرف فى أشخاصهم ، والتنقل بحرية من مكان إلى آخر ، ينقسمون بدورهم إلى أشراف وعامة .

وكانت طبقة الأشراف ، تتكون أولا من الحكام ومن خاصة الملك ، وتتوقف فى تكوينها على الملك ، يمنحها الألقاب والأراضى والوظائف . ويلحق بهذه الطائفة كبار الملاك ، الذين يحصلون على أملاكهم سواء بالميراث أو الهبة . وكان للأشراف امتيازات كثيرة ، سواء بالنسبة لأشخاصهم أو أملاكهم ، فكانوا داخل أراضيهم سادة بكل معنى الكلمة ، لهم مطلق الحرية والتصرف ، بل كان لهم أن يتركوا خدمة الملك ، وأن ينتقلوا إلى مملكة أخرى ، إذا غضبوا منه لسبب من الأسباب . وكان من جراء ذلك ، أن كثيراً من الأشراف النصارى ، كانوا ينتقلون إلى الأراضى الإسلامية ، وينضوون تحت لواء الأمراء والخلفاء ، ويحاربون معهم ضد مواطنيهم وأبناء دينهم .

وكان هؤلاء الأشراف يعفون من الضرائب ، خلافاً لما كان عليه الأمراء فى عهد القوط ، وكانوا ملزمين فقط بمساعدة الملك وقت الحرب ، فينتظمون مع أتباعهم فى الجيش المحارب على نفقة الملك .

وكان يلحق بهذه الطبقة من الأشراف ، بعض طوائف أخرى أقل أهمية من الناحية الاجتماعية ، مثل الفرسان والمحاربين ، وهم الأشخاص الذين يستطيعون

أن يقتنوا لأنفسهم خيلا وسلاحاً ، ليشتركوا فى الحرب ، ثم يمنحون نظير هذا الاشتراك بعض الإمتيازات . وقد نمت هذه الطبقة فيما بعد . وكذلك كان ينتمى إلى الأشراف ، وينضوى تحت حمايتهم ، بعض الطوائف الميسورة ، مثل صغار الملاك ، وأصحاب الصناعات . ولم تكن هذه الحماية تقف عند الأشخاص أو الأسر المعينة فقط ، ولكنها كانت تشمل أحياناً بعض القرى والضياع ، فينضوى أهل القرية أو الضيعة ، تحت حماية الشريف بشروط معينة ، وكان هؤلاء يقدمون جزءاً من أملاكهم إلى السيد المتولى حمايتهم ، ويؤدون إليه إتاوات معينة ، وأعطية شخصية . بيد أنهم كانوا فى حل من تركه إذا قصر فى حمايتهم ، والانضواء تحت حماية سيد آخر .

ويلحق أخيراً بهذه الطبقة الشعبية الزراع الأحرار ، وهم الأشخاص الأحرار الذين لا يملكون أرضاً ، ولكن يتلقون من الملاك أرضاً لزرعها . وكذلك الأحرار الذين كانوا من قبل رقيقاً ، ثم وفقوا إلى تحقيق حرياتهم ، وكان هؤلاء عليهم أن يؤدوا إلى السيد أو المالك ضرائب وإتاوات عينية فادحة ، بيد أنه كان فى وسعهم أن يتركوه متى شاءوا .

إلى جانب هذه الطبقات الحرة من المجتمع النصرانى ، كانت توجد الطبقة المستعبدة أو طبقة الأرقاء ، وقد بقيت أحوالها على ما كانت عليه أيام القوط تقريباً . وكانت تتكون من عناصر عدة ، فمنهم عبيد الدولة ، وعبيد الملك ، وعبيد الكنيسة والأديار (عبيد رجال الدين) ، ثم عبيد الأفراد وعبيد الأرض الملحقين بها . وكان عبيد الأفراد على الأغلب من أسرى الحرب ، ومنهم الأسرى المسلمون . وقد استمرت هذه الطوائف من الرقيق ، قائمة حتى القرن الثانى عشر ، ثم اندمجت بعد ذلك فى طائفة واحدة من الأرقاء ، هم رقيق الضياع .

وكان رقيق الضياع يعتبرون من مرافق الأرض ، وينتقلون معها بانتقال الملكية . وكانوا يزرعون الأرض على نفقتهم ، ويؤدون إلى السيد ، سواء أكان هو الملك ، أو الأشراف أو الكنيسة ، جزءاً من المحصول ، وإتاوات أخرى ، ويقدمون إلى جانب ذلك خدمات شخصية كثيرة ، مثل القيام بحرث أرض السيد ، أو ضم محاصيله وعصر نبيذه وزيته ، أو المعاونة فى بناء داره ، وتنحصر حقوقهم فى التمتع بالسكن ، والعيش فى الضيعة . وكان بيع الضيعة يغدو فى معظم

الأحيان بالنسبة لهم محنة أليمة ، إذ يفرق أحياناً بين الرجل وزوجه ، أو بينه وبين أولاده .

وكانت هذه الطبقة من الأرقاء تتكون من أبناء العبيد ، ومن المحكوم عليهم بالرق ، فى قضية مدنية أو جنائية ، ومن أسرى الحرب ، وقد كانوا أسوأ طوائف الرقيق حظاً .

وكان تحرير الرقيق ، يقع إما بالعتق أو بالفرار أو الثورة . على أن ثورات العبيد كانت قليلة ، وكان الأغلب أن يظفر العبيد بحرياتهم ، فى أعقاب الثورات التى يشتركون فيها . أما العتق فكان يجرى وفقاً لتعاليم الكنيسة . على أن هذه الطائفة من المتحررين ، لم تكن تتمتع بكامل حقوق الطوائف الحرة الأخرى ، فكان السيد يحتفظ لنفسه أحياناً قبل المعتوقين ببعض الخدمات أو الإتاوات .

وقد استمرت الطبقة الوسطى ، تنمو على كر الزمن ، بزيادة عدد المعتوقين أو الأحرار الأصائل ، حتى إذا كان القرن العاشر ، كانت هذه الطبقة ، تكون الجزء الأعظم من السكان ، وتتمتع بظروف وأحوال أفضل بكثير مما كانت عليه من قبل[1] .

٥ — تنظيم السلطات السياسية

أما من حيث التنظيم الأساسى ، وتوزيع السلطات السياسية ، فى الممالك الإسبانية النصرانية ، فقد كانت هذه السلطات موزعة ، بين ثلاث جهات رئيسية ، هى الملك ، والأشراف ، ورجال الدين .

وقد كان المفروض أن تكون السلطة الملكية ، هى أعلى السلطات وأشملها ، وقد كانت كذلك من الوجهة النظرية . فقد كان الملك ، هو رئيس الدولة الأعلى ، وله الولاية على كل فرد تضمه أرض المملكة . وكان الملك مصدر التشريع ، ومنه وباسمه تصدر القوانين العامة ، وكذا كان له حق الموافقة على القوانين المحلية ، التى يصدرها الأشراف بالنسبة للمنتمين إليهم ، وله أن يدعو رعاياه إلى الحرب ، وأن يرغمهم على الخدمة فيها ، وأن يصدر السكة ، وأن يباشر العدالة . وهو الذى يعين الأساقفة ويقيلهم ، ويوئس الكنائس والأديار ، وهو الذى يقود الجيش ، وعلى الجملة فهو الذى يتولى سائر الوظائف السياسية والعسكرية والدينية والمدنية .

---

(1) Altamira : ibid ; Vol. I. p. 287-293

على أن هذه السلطات لم تكن متساوية فى جميع الأحوال والعصور ، وقد تعدلت بمضى الزمن ، وانتقصت أطرافها ، أحياناً بطريق التنازل من جانب الملوك ، وبخاصة لأن الملك لم يكن يزاول هذه السلطات بطريق مباشر :

وكان الأشراف يتمتعون داخل أملاكهم ، بقدر كبير من الاستقلال ، ويبسطون حكمهم على طائفة كبيرة من الأراضى والقرى والضياع والحصون ؛ وكان السيد يعيش فى حصنه ، وهو يقع عادة فى موقع إستراتيجى حصين ، ويحيط به عدد من المساكن المحصنة ، ويخضع لسلطته سائر سكان المنطقة ، بعضهم كعبيد ، والبعض الآخر من المشمولين بحمايته . وكان يجبى منهم الضرائب ، والإتاوات العينية ، ويدعوهم للخدمة العسكرية متى دعاه الملك إلى الحرب ، ويباشر القضاء بينهم ، وله أن يوقع عليهم بعض الأحكام الجنائية التى تتصل بالقانون العام . وعلى الجملة فقد كان للشريف على سكان منطقته ، السيادة المطلقة ، وهو الذى يوزع بينهم مختلف المناصب والأعمال .

وأما القضاء قِبل الأشراف أنفسهم ، فقد كان يزاوله بالنسبة للسيد ، أشراف من طبقته ، ولايزاوله قضاة الملك ، لأنهم لم يكونوا من الأشراف . وكان للشريف أن يشهر الحرب على زملائه الأشراف ، إذا أصابه منهم حيف أو إهانة ، وله أن يترك خدمة الملك دون أن يخسر شيئاً من أملاكه ، بل كان له أن يشهر الثورة ضد الملك . ولم يكن يحد من هذه السلطة ، التى يمنحها الملك إياه سوى أمرين ، الأول الخيانة ، وفى هذه الحالة يجرد الشريف من أملاكه وامتيازاته ، والثانى متى ضمت لأملاكه أراض جديدة ، فإنه لا يستطيع أن يبسط عليها سلطته وامتيازاته إلا بموافقة الملك .

وكان الأشراف يشاركون فى مزاولة القضاء مشاركة فعلية ؛ فقد كانوا يؤلفون جزءاً من المحاكم العادية ، ويشتركون فى تشكيل المحاكم الملكية كلما اجتمعت ، ويحتلون كذلك بعض المناصب الإدارية الهامة : وكان لهذه المساهمة الخطيرة ، أثرها فى إذكاء شهوتهم إلى الاستئثار بالسلطة ، وتوطيد استقلالهم المحلى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الثورة ، لفرض إرادتهم على العرش ، أو يتدخلون فى وراثة العرش بالقوة القاهرة .

ومع ذلك فقد كان الملوك ، يعمدون إلى الإغضاء فى أحيان كثيرة ، ولوكان

فى ذلك إضرار بالسلطة الملكية . ذلك أن ضعف الملوكية ، وضرورات الحرب ، ثم الحاجة إلى معاونة الأشراف أيام الحرب الأهلية حول وراثة العرش ، كانت ترغم الملوك على التسامح ، بل وأحياناً على زيادة المنح والامتيازات للأشراف ، وذلك حرصاً على استتباب الأمن والسكينة ، إذ كان الأشراف فى تلك العصور قوة يخشى بأسها .

وقد كانت طائفة الأشراف هذه ، بالرغم من مركزها الاجتماعى الممتاز ، تنطوى على عيوب ومثالب كثيرة ، فقد كانت تجنح إلى استغلال الرعايا ، وانتزاع ما فى أيديهم ، بل وقد كانت ترتكب الجرائم جهاراً ، فتعمد إلى نهب التجار والمسافرين ، وكان الأشراف يقتتلون فيما بينهم للفوز بثمار أمثال هذه الجرائم . وقد استمر هذا النظام الإجرامى الجائر عصوراً ، بالرغم من تدخل الملك والأساقفة ، لحفظ الأمن فى كثير من الأحيان .

وإلى جانب الأشراف ، كان رجال الدين من الأساقفة والرهبان ومن إليهم ، يتمتعون كذلك فى أراضيهم بسلطان مستقل . وكان للكنائس والأديار أراض شاسعة خاصة ، ترجع إلى الهبات والنذور وغيرها ، وفيها تزاول السلطة بطريق مطلق ، وفقاً لروح هذا العصر الإقطاعى . وكان لها أيضاً كثير من العبيد والزراع تتمتع قبلهم كالأشراف ، بالحق فى تحصيل الجباية والمحاصيل وغيرها . وكان الملوك فى أحيان كثيرة يهبون بدافع الورع والحماسة الدينية ، إلى الكنائس والأديار ، رقاعاً شاسعة من الأرض ، فتبسط سلطانها على سكان المنطقة ، وتحصل منهم الإتاوات ، وتزاول بينهم القضاء . وكانت الكنائس والأديار ، تدفع هذه السلطات أحياناً إلى حدود مرهقة ، اجتناباً لافتئات الأشراف المجاورين . وكان رجال الدين ، على مثل الأشراف ، يلبون دعوة الملك إلى الحرب هم ورجالهم ، ويحشدون الصفوف من بين رعاياهم من الأحرار والزراع والأرقاء ، أو يعهدون بذلك إلى رئيس من غير رجال الدين . والخلاصة أن الأساقفة والرهبان كانوا كالأشراف ، سادة بكل معانى الكلمة ، وكانوا يمتازون فى ذلك على الأشراف ، بأن كان الملك يصدر الوثائق والمراسيم المكتوبة بامتيازاتهم ، وكان يتبع الكنيسة أحياناً مناطق كثيفة من السكان ، كما كان الشأن فى شنت ياقب ، حيث قامت حول الكنيسة مدينة عظيمة ، صارت تابعة لها هى وما حولها من الأراضى الشاسعة .

وكانت سلطة الأسقف تتخذ فى أحيان كثيرة صورة مطلقة فى المدينة وفى الحقل ، يزاولها على يد كونتات وموظفين وغيرهم . وكان له جيشه أو جنده الخاص ، يحمون أراضيه من الأجانب أو الأشراف المغيرين[١] .

ونلاحظ أن هذا التنظيم السياسى ، الذى تطبعه روح إقطاعية عميقة ، والذى ينطوى على توزيع السلطة بين مختلف الطوائف والعصبيات ، بصورة تجعل دولا عديدة داخل الدولة ، يتنافى فى جملته وتفاصيله مع التنظيم السياسى للدولة الأندلسية الإسلامية . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف كان العرش يحرص منذ البداية على سلامة السلطة المركزية ، وكيف بذل أمراء بنى أمية ، منذ عبد الرحمن الداخل جهودهم ، لإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم رياستها ؛ ثم جاء الناصر فحطم العصبية العربية ، وقضى على رياسة القبائل العربية بصورة نهائية ، واستخلص السلطة كلها للعرش ، ولم يكن العرش يتسامح بعد ذلك ، مع أية رياسة محلية تنزع إلى الاستقلال ، إلا ما كان بالنسبة لبعض الثغور النائية ، مثل طليطلة وسرقسطة ، وذلك لأسباب عملية واستراتيجية .

(١) R. Altamira : ibid, Vol. I. p. 293-299

الفصل الرابع

عبد الملك المظفر بالله

عبد الملك بن المنصور يتولى الحجابة وتدبير المملكة . إشادة الرواية الإسلامية بعهده وبخلاله . يحذو حذو أبيه فى سياسته نحو المغرب . يتابع سنته فى الغزو . خروجه إلى الغزو ومسيره إلى الثغر الأعلى . عيثه فى أراضى برشلونة . عوده إلى قرطبة واستقبال هشام له . جلوسه فى الزاهرة . سفارة أمير برشلونة . إحتكام أميرى قشتالة وجليقية إليه . غضب سانشو غرسية وعدوانه . مسير عبد الملك لغزو قشتالة . غزوه لمملكة ليون . غزوة بنبلونة . استقباله لسفير القيصر فى مدينة سالم . غزوة قلونية أو غزاة النصر . إتخاذ عبد الملك لقب المظفر بالله . قصة هذا اللقب ومرسومه . استئنافه الغزو واختراقه لقشتالة . الغزوة السابعة أو غزاة العلة . مرضه وتفرق جيشه . وفاته . ما قيل عن اغتياله بالسم . موقفه من الخليفة هشام . إنهماكه فى الشراب واعتماده على الغلمان والوزراء . الوزير عيسى ابن القطاع . المنافسة بينه وبين الفتيان . تغلب الفتى طرفة واستئثاره بالسلطة . تغير عبد الملك عليه . القبض عليه وإعدامه . ابن القطاع يسترد نفوذه وسلطانه . كبرياؤه وتعسفه . الوقيعة فى حقه . استظهار عبد الملك بالصقالبة والبربر . سخط الأسر العربية لذلك . تآمر ابن القطاع على إزالة بنى عامر . وقوف عبد الملك على المؤامرة . بطشه بالوزير وأصحابه . استرداده لسائر السلطات . صفات عبد الملك وخلاله .

لما توفى المنصور بن أبى عامر بمدينة سالم ، فى السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، بعد أن ألقى إلى ولده عبد الملك، وصيته ونصائحه الأخيرة ، بادر عبد الملك بالعودة إلى قرطبة ، تاركاً لأخيه الأصغر عبد الرحمن ، أمر العناية بمواراة أبيه ، والعودة بالجيش . وما كاد يصل إلى العاصمة ، حتى بادر برؤية الخليفة هشام المؤيد ، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة ، وجلس فى الحكم مكان أبيه بالزاهرة . وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع ، وأنفذت الكتب إلى الجهات ، وإلى عدوة المغرب ، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبد الملك تدبير المملكة مكانه . وكان لوفاة المنصور وقع عظيم بقرطبة ، فحزن الناس لفقده أيما حزن ، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام وبالأندلس . واعتقد فريق من الفتيان المروانيين بالقصر ، وبعض الناقمين من العناصر الأخرى ، أن الفرصة قد سنحت ، للتحرر من نير الحكم القائم ، والعود إلى النظام الخلافى ، ولكن السلطات العامرية كانت ساهرة . فقبض فى الحال على عدد من المحرضين ،

وأبعدوا إلى العدوة ، واستتب الأمر لعبد الملك ، دون ما جهد أو اضطراب ، واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى .

وكان عبد الملك ، حينما خلف أباه المنصور فى الحكم ، فى الثامنة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة فى سنة ٣٦٤ هـ ، ويكنى أبا مروان ويلقب بسيف الدولة وبالمظفر بالله ، وأمه حرة تدعى الذلفاء ؛ وقد رأينا كيف تمرس عبد الملك فى شئون الحكم أيام أبيه ، وكيف تولى القيادة ، واشترك معه فى كثير من غزواته ، ومن ثم فقد قبض عبد الملك على زمام الأمور بحزم وكفاية ، واعتزم أن يسير على خطى أبيه ، سواء فى تدبير الشئون الداخلية ، أو الاستمرار فى غزو الممالك النصرانية .

وتشيد الرواية الإسلامية بعهد عبد الملك على قصره ، وما بلغته الأندلس فيه من الرخاء والنعماء ، وتقدمه إلينا فى صور طيبة لامعة . فيقول لنا ابن حيان فى قوة وحماسة : « انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً ، ما عهد مثله فى دولة . وسكن الناس منه إلى عفاف ، ونزاهة ، ونقى سريرة ، ووثوق فى بعد همته ، اطمأنوا بها إلى جنبه ، فى السر والعلانية ، فباحوا بالنعم ، واستثاروا الكنوز ، وتناهوا فى الأحوال ، وتناغوا فى المكاسب ، وتحاسدوا فى اقتناء الأصول ، وابتناء القصور ، وغالوا فى الفرش والأمتعة ، واستفرهوا المراكب والغلمان ، وغالوا فى الجوارى والقيان ، فسمت أثمان ذلك فى تلك المدة ، وبلغت الأندلس فيها الحد الذى فاق الكمال ؛ فهد تلك الدولة فى احتشاد النعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ... فى كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه. ولم يدهنوا فى طاعته ، ورضى بالعافية منهم ، وآتوه إياها فصفى عيشه ، وانشرح قلبه ، وخلصه الله من الفتنة » .

ويشيد ابن حيان بعد ذلك ، بعفة عبد الملك ، وورعه وتواضعه وشجاعته وحيائه ، وتورعه عما يشين الملك من المجون والاستهتار ، وبره بوالديه ، وثباته على عهد أبيه . كل ذلك فى عبارات تنم عن عميق تأثره وإعجابه[1].

بيد أن هذه الصور المشرقة التى تقدم إلينا عن خلال عبد الملك ، تغشاها

---

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٨٤ و ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

من الناحية الأخرى خلة قاتمة ، هي شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه في لذاته[١].

افتتح عبد الملك المنصور عهده ، بإجراء كان له في نفوس الناس أطيب وقع ؛ وذلك أنه أسقط سدس الجباية عن سائر الناس ، في سائر بلاد الأندلس . فكان لذلك أثره في التخفيف عن الناس ، والرفق بهم ، وبث شعور الرضى والاستبشار بالعهد الجديد .

وحذا عبد الملك حذو أبيه المنصور نحو المغرب ، في تأييد زناتة ومغراوة ، والإبقاء على ولائهم . وكان المنصور حينما توفى زيرى بن عطية زعيم مغراوة ، في سنة ٣٩١ هـ ، قد أقر ولده المعز حاكماً على المغرب حسبما قدمنا . فلما تولى عبد الملك الحجابة ، أعلن المعز طاعته له ، ودعى له على منابر المغرب ، فكتب إليه عبد الملك بعهده ، على سائر ما يملكه من أقطار المغرب (سنة ٣٩٣ هـ) على أن يؤدى إلى حكومة قرطبة ، مقادير معينة من المال والخيل والدرق . واستمر المعز على الوفاء بعهوده ، أيام عبد الملك وأخيه عبد الرحمن من بعده[٢].

واعتزم عبد الملك أن يسير على سنن أبيه في متابعة غزو الممالك النصرانية ، وألا يترك لها فرصة لتذوق السلم والدعة . وكان الملوك النصارى قد تنفسوا الصعداء عند وفاة المنصور ، واعتقدوا أن الظروف قد تتغير ، وأن أخطار الغزوات الإسلامية قد تخبو ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل . ذلك أنه لم تمض أشهر قلائل على تولية عبد الملك ، حتى اتخذ الأهبة لغزوته الأولى ، واستعد لها استعداداً خاصاً ، ووفدت على قرطبة طوائف كبيرة ، من الزعماء والمتطوعة من العدوة ، للاشتراك فيها ، وأجزل لهم عبد الملك الصلات والأرزاق ؛ ووزع فيهم ما كان مخزوناً من السلاح .

وخرج عبد الملك بالجيش من مدينة الزاهرة ، في شعبان سنة ٣٩٣ هـ (يونيه ١٠٠٣ م) . وتصف لنا الرواية مشهد خروجه فتقول لنا إنه « خرج على الناس شاكى السلاح ، في درع جديد سابغة ، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمنة الشكل مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان الخاصة ، في أحسن تعبئة ، فساروا أمامه ، وقد تكنفه الوزراء الغازون معه»[٣]. وسار عبد الملك

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٩٨ ، والاستقصاء ج ١ ص ٩٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٥ .

أولا إلى مدينة طليطلة ، ثم ارتد منها إلى مدينة سالم ، وهنالك انضم إليه الفتى واضح فى قواته ، ووفد عليه فى نفس الوقت قوة من النصارى ، أرسلها الكونت سانشو غرسية أمير قشتالة ، وفقاً لمعاهدته مع المنصور .

وتابع الحاجب عبد الملك سيره بعد ذلك نحو الثغر الأعلى ، واستراح أياماً فى سرقسطة ، ثم غادرها قاصداً إلى الثغر الإسبانى أو بعبارة أخرى إلى إمارة برشلونة التى بدت من أمرائها منذ أيام المنصور نزعة إلى العدوان ؛ وأشرف على سلسلة من الحصون القوية الواقعة جنوبى جبال مونسيش ، واستولت قوات الفتى واضح على حصن مدنيش(١) ، وحاصر الحاجب بقواته حصن ممقصر أو ممقصره(٢) ، واستولى عليه بعد قتال عنيف ، وأباد حاميته ، وعاث المسلمون بعد ذلك فى بسائط برشلونة ، وخربوا كثيراً من حصون العدو ، واستولوا على كثير من الغنائم والسبى .

وقضى الحاجب وجيشه عيد الفطر فى بسائط برشلونة ، واحتفل بالعيد احتفالا فخماً ، واستقبل طبقات الأجناد مهنئين ومسلمين . وبعث من معسكره رسالتين إلى قرطبة من إنشاء كاتبه أحمد بن برد يصف فيهما الفتح ، إحداهما برسم الخليفة هشام المؤيد ، والثانية لتقرأ على الكافة فى جامع قرطبة .

ثم قفل عبد الملك بجيشه عن طريق مدينة لاردة . واخترق الثغر الأعلى جنوبياً إلى قرطبة ، فدخلها فى الخامس من ذى القعدة . وهنالك تلقاه الأكابر والعلماء مهنئين مستبشرين ؛ وقصد الحاجب من فوره إلى الخليفة هشام ، فاستقبله أحسن استقبال ، وأكرم منزله ، وخلع عليه من ثيابه وسلاحه ، فشكره الحاجب وقبل يده . وفى اليوم التالى جلس بقصر الزاهرة ، واستقبل مختلف الوفود ، وكان يوماً مشهوداً(٣) .

وقد نظم ابن دراج القسطلى فى التهنئة بهذه الغزوة قصيدة هذا مطلعها :

بدا ريح السعد واستقبل النجح   فبالله فاستفتح فقد جاءك الفتح

---

(١) هو باسمه الإسبانى حصن **Meya** .

(٢) هو باسمه الإسبانى حصن **Monmagastre** ؛ ويسميه ابن الخطيب حصن منقص (أعمال الأعلام ص ٨٧) .

(٣) راجع فى أخبار هذه الغزوة : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥ – ٩ ، وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

وقد قدّم النصر العـزيز لواءه ... وقبل طلوع الشمس ينبلج الصبح
فقـد فى سبيل الله جيشاً كأنه ... من الليل قطع طبق الأرض أوجنح
كتائب فى أقدامها النجح والهدى ... وألوية فى عقدها اليمن والنجح[١]

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل الثالث ، سفارة إلى قرطبة يطلب عقد الصلح والمهادنة ، فاستقبل السفراء الفرنج استقبالا حافلا ، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى . وكانت هذه آخر فرصة من نوعها أبديت فيها أبهة الخلافة وفخامتها[٢] .

وكان من أثر هيبة عبد الملك فى نفوس الملوك النصارى ، أن احتكم إليه أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية ، ومننديث كونثالث زعيم جليقية ، والوصى على ملك ليون الطفل . وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس ، يومئذ ما يزال حدثاً فى العاشرة من عمره ، وكانت أمه إلبيرة أختاً لسانشو غرسية ، وكان سانشو يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل ، من مننديث كونثالث. فلما احتكم الطرفان إلى عبد الملك ، ندب قاضى النصارى أصبغ بن سلمة ، لبحث النزاع والفصل فيه ، فقضى لمننديث كونثالث بأحقيته للوصاية ، واستمر بالفعل وصياً على ملك ليون حتى قتل غيلة فى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) [٣].

والظاهر أن سانشو غرسية لم يرضه هذا الحكم ، فبدت منه أعراض العدوان على أرض المسلمين ، أو هو قد اعتدى عليها بالفعل . ومن ثم فإنا نجد عبد الملك يخرج بقواته فى صيف سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ويقصد إلى أراضى قشتالة ويعيث فيها ، ولم يبد سانشو أية مقاومة ، فقفل عبد الملك إلى قرطبة ، واضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وقصد بنفسه إلى قرطبة ، فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال ، وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين ، وتعهد سانشو أن يعاون عبد الملك فى غزواته ضد مملكة ليون ، وضد خصومه من بنى غومس وغيرهم .

وفى العام التالى (٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م) خرج عبد الملك فى قواته وسار

---

(١) تراجع هذه القصيدة بأكلها فى ديوان ابن دراج القسطلى الذى سبقت الإشارة إليه ص ٤٦٦ و ٤٦٧ .

(٢) الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٠ .

صوب طليطلة ؛ وهنالك لحق به الفتى واضح وسانشو غرسية فى بعض قواته ، ثم سار شمالا نحو أراضي ليون ، وبعث واضحاً فى قواته إلى مدينة سمورة ، وكانت قد خربت منذ أيام المنصور ، وليس بها سوى قليل من النصارى يقيمون فى بعض أبراجها ، فقتل الرجال ، وسبى النساء . وعاث عبد الملك بعد ذلك فى أراضي ليون ، وإلى جانبه سانشو غرسية ، واقتحم أملاك بنى غومس ، ووصل فى زحفه فى جلّيقية ، إلى بلدة لونة الحصينة ، واستولى فى هذه الغزوات على كثير من الغنائم والسبي . ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن[1] .

وفى أواخر سنة ٣٩٦ هـ (صيف سنة ١٠٠٦ م) خرج عبد الملك إلى غزوته الرابعة . وتصف الرواية الإسلامية هذه الغزوة بأنها غزوة « بنبلونة » ، وبعبارة أخرى « بنبلونة » عاصمة نافار . وتقول لنا إن عبد الملك سار بجيشه إلى سرقسطة ثم إلى وشقة ، ثم إلى بربشتر ، ومنها نفذ إلى أرض العدو . ولكن هذا الإتجاه الذى اتخذه الجيش الإسلامى ، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد إلى نافار أو بلاد البشكنس ، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالا إلى أراضي ولاية « ريباجرسا » الصغيرة الواقعة شمال شرقى بربشتر ، وهى إحدى ولايات البرنيه الفرنجية . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين اقتحموا فى هذه الغزوة بسيط أبنيونش وشنت يوانش ، (سان خوان) وعاثوا فى أرض العدو قتلا وسبياً وحرقاً ، ثم تقول لنا إن الجيش الإسلامى قد انقضت عليه يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق ومطر غزير . تخللها قصف مفزع وبرد قارس ، وخشى أن تكون سبباً فى نكبته . ولكن تداركه لطف الله . وقفل عبد الملك راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن الشعب لم يبد فى استقباله شيئاً من الحماسة ، لضآلة النتائج التى ترتبت على هذه الغزوة ، ولكونها لم تسفر عن شيء من الغنائم والسبي ، التى كانت تملأ أسواق قرطبة أيام أبيه المنصور[2] .

ومما يتصل بأخبار هذه الغزوة ، أن عبد الملك عرج فى طريق العودة على مدينة سالم ، وقضى بها عيد الأضحى ، وهنالك وافاه سفير من قبل قيصر

---

(١) راجع أخبار هذه الغزوة فى الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٥ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١ و ١٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ و ١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

قسطنطينية ، الإمبراطور بسيل الثانى ، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطاب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة ، التى كانت قائمة بين ملوك بنى أمية ، وبين القياصرة ، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا فى أطراف الجزائر التابعة لقيصر ، فسر عبد الملك لذلك ، وصرف السفير أجمل صرف[١].

ونمى إلى عبد الملك فى تلك الأثناء ، ما كان يجيش به أمير قشتالة سانشو غرسية من قصد إلى العدوان ، فرأى أن يعالجه بالغزو . فخرج من قرطبة فى صيف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) فى غزوته الخامسة ، وهى المعروفة بغزوة قلونية ، أو غزوة النصر ، وسار مخترقاً أراضى قشتالة . ويبدو من أقوال الرواية الإسلامية أن عبد الملك لم يكن يواجه يومئذ أمير قشتالة فحسب ، ولكنه كان يواجه جبهة متحالفة من الملوك النصارى ، يشترك فيها سانشو غرسية ، وألفونسو الخامس ملك ليون ، وسانشو الثالث ملك نافار ، وعدد من الزعماء النصارى فى مقدمتهم بنو غومس[٢] . ويشير صاحب البيان المغرب إلى هذه الغزوة بقوله «غزاة النصر التى لقى فيها (أى عبد الملك) شانجه بجميع النصرانية على اختلافها »[٣]. ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية بعد ذلك شيئاً من التفاصيل ، سوى قولها إن الحاجب عبد الملك ، قد هزم النصارى فى تلك الموقعة هزيمة عظيمة فى ظاهر مدينة قلونية (كلونية) ، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت إشتيبن ، وأحرز عليهم نصراً مبيناً ، وافتتح الحصن صلحاً . ووصل كتاب الفتح إلى قرطبة ، وقرئ على الكافة كالعادة ، فكان له وقع عظيم ، وكان أهل قرطبة يخشون سوء العاقبة من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين. وقفل عبد الملك بالجيش إلى قرطبة ، فوصل إليها فى أواخر ذى الحجة من تلك السنة ، واتخذ على أثر ذلك لقبه « المظفر بالله » تنويهاً بما أحرزه من النصر العظيم[٤] .

وقد ساق لنا المؤرخ الفقيه أبو المطرف ابن عون الله ، وهو من معاصرى هذه الحوادث ، قصة هذا اللقب ، فذكر أن عبد الملك كان مثل أبيه يسمو إلى

---

(١) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٥ و ٦٦ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤ ؛ والذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٦ .

الألقاب السلطانية ، فتقدم إلى الخليفة هشام ، على أثر عوده من غزوة قلونية ، والتمس إليه إخراج الأمر له ، بأن يتسمى « بالمظفر » وهو اللقب الذى اختاره وآثره ، وأن يكنى فى سائر ما يذكر عنه « بأبى مراون » ، وأن ينعم على ابنه الغلام محمد ، الذى منح لقب الوزارة ، باقب « ذى الوزارتين » ، ويعلى بذلك مرتبته على سائر الوزراء ، وأن يكنى بأبى عامر ، كنية جده ، وكان الخليفة يقيم يومئذ عند الحاجب بقصر الزاهرة ، فى الجناح الفخم الذى أنشىء وقتها . فنى منتصف المحرم سنة ٣٩٨ ﻫ ، تحرك الخليفة خفية إلى قصر ناصح من قصور الزاهرة ، واستدعى حاجبه ، وفاوضه فيما أراد . ولما انصرف من لدنه ، اتبعه فى الحال بمرسوم التكريم الذى التمسه ، فأذاع عبد الملك نص المرسوم ، وبعث بالكتب للعمل به ، وإليك نص هذا المرسوم ، وقد زعم البعض أنه كان بخط الخليفة هشام نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، أتم الله عليك نعمه ، وألبسك عفوه وعافيته ، إنا أريناك ... من صنع الله الجسيم ، وفضله العظيم ، لنا عليك ما شفى الصدور ، وأقر العيون ، فاستخرنا الله سبحانه فى أن سميناك المظفر ؛ فنسأل الله تعالى سؤال إلحاف وضراعة وابتهال ، أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم ، ويحليك معناه ، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين ، فضل ما حملت منه ، وأن يخير لنا ولهم فى جميع أقضيته ، ويقرنه بيمنه وسعادته ، بمنه وخفى لطفه ، وكذلك أنحنا التكنى فى مجالسنا ومحافلنا ، وفى الكتب الجارية منك وإليك ، فى أعمال سلطاننا ، وسائر ما يجرى فيه اسمك معنا ودوننا ، إنافة بمحلك لدينا ، ودلالة على مكانك منا ، وكذلك ما شرفنا به فتاك أبا عامر ، محمد ابن المظفر تلادنا ، أسعده الله ، بالإنهاض إلى خطة الوزارتين ، وجمعناه بها فى التكنى على المشيخة والترتيب ، وآثرك فى الدولة ، وأنت الحتيق منا بذلك كله ، وبجميل المزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، وولى دعوتنا ، ونشىء نعمتنا ، وخريج أدبنا ، فأظهر ما حددناه لك فى الموالى ، وأهل الخدمة ، واكتب بها إلى أقطار المملكة ، وتصدقه بشكر النعمة ، أحسن الله توفيقك ، وأمتعنا طويلا بمعافاتك ، وآنسنا ملياً بدوام سلامتك ، إنه ولى قادر عزيز قاهر » .

وكانت الكتب تخرج من قبل عبد الملك على النحو الآتى : « من الحاجب

المظفر سيف الدولة أبى مروان عبد الملك بن المنصور» . فكان بذلك أول من اجتمع له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس[١] . وكان صدور هذا المرسوم حادثاً مشهوداً ، أطلق عبد الملك على أثره الصلات والكسى ، وكثرت تهانى الشعراء ومدائحهم .

والظاهر أن عبد الملك لم يجن من هذا النصر ما كان يؤمل من إرغام أمير قشتالة على التزام السلم والهدوء ، وأن سانشو غرسية بالعكس استمر فى عدوانه . ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، حتى تأهب عبد الملك لاستئناف الغزو ، فخرج من قرطبة فى أوائل شهر صفر سنة ٣٩٨ هـ (أكتوبر ١٠٠٧ م) واخترق قشتالة الوسطى ، حتى ضفاف نهر دويرة ، وقصد إلى حصن شنت مرتين المنيع ، الواقع على مقربة من غربى قلونية على الضفة اليمنى من النهر ، فحاول النصارى فى البداية أن يردوا المسلمين فى ظاهر الحصن ، ولكن المسلمين صدوهم بعنف ، فالتجأوا إلى الحصن ، وحاولوا الدفاع من وراء الأسوار ، فهاجم المسلمون الحصن بشدة وثلموا أسواره بالمجانيق والنار ، واضطر النصارى إلى التسليم ، فأمر عبد الملك بقتل الجند وسبى النساء والذرية ، وإصلاح ما تهدم من الحصن ، وقفل راجعاً إلى قرطبة فوصلها فى أوائل شهر ربيع الآخر .

وفى شوال من نفس العام (صيف ١٠٠٨ م) ، خرج عبد الملك بالجيش ، وكانت غزوته السابعة والأخيرة ، وتعرف «بغزاة العلة» . ذلك أنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض ، فاستقر بها حيناً يرقب البرء . وفى أثناء ذلك دب الخلل إلى الجيش ، وتفرق عنه أكثر المتطوعة ، وأخفق مشروع الغزو ، واضطر عبد الملك أن يعود أدراجه إلى قرطبة ، عليلا ضعيفاً ، وذلك فى منتصف المحرم سنة ٣٩٩ هـ . ومع ذلك فما كاد عبد الملك يشعر بقليل من التحسن ، حتى عقد العزم على التأهب لاستئناف الغزو ، وخرج بالفعل من قرطبة فى منتصف شهر صفر ، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة ، صحبتها نوبة سعال عنيف ، فحمل إلى قصر الزاهرة فى محفة ، ومن حوله خاصة غلمانه ، وتوفى على الأثر ، وكان أخوه عبد الرحمن حاضراً مع أكابر رجال الدولة ، وقيل إنه توفى مسموماً من شربة دست له بتحريض أخيه عبد الرحمن . وكانت وفاته فى ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥ – ١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٨ و ٨٩ .

(٢١ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م)[١]، ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

* * *

حكم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها فى متابعة الغزو ، ولم يكن لديه سعة من الوقت ليتناول تدبير الأمور بنفسه . وكانت الدولة قد توطدت منذ أيام أبيه المنصور ، ولم يقع تبدل فى طرق الحكم ، فكان الخليفة هشام ، كعهده أيام المنصور محجوباً فى قصره ، وكان عبد الملك يحرص على حجبه وإخفائه بين صفوف الجند ، كلما سنحت فرصة خروجه فى موكبه ، بيد أنه يبدو أن عبدالملك كان أكثر تودداً للخليفة ، ورفقاً به من أبيه ، فقد كان يدعوه إلى قصوره بالزاهرة للتريض والاستجمام ، وكان هشام ينفق أوقاتاً فى ضيافته[٢].

وكان عبد الملك لانهماكه فى الشراب واللهو ، قد اعتمد فى تدبير شئون الدولة ، على خاصته من أكابر الفتيان العامريين أمثال طرفة ، وواضح ، وزهير ، وخيران ، ومجاهد ، وعلى عيسى بن سعيد اليحصبى المعروف بابن القطاع ، وزيره ووزير أبيه من قبل . وكان عبد الملك لأول ولايته ، قد فوض أمره إليه ومنحه سائر السلطات العليا ، ثقة منه بإخلاصه ، واعتماداً على كفايته . ووطد حسن ظنه فيه ، ما أبداه عيسى من البراعة والحزم فى تدبير الأمور ، وتوطيد النظام والأمن . وكان الفتيان الصقالبة ، ولاسيما زعيمهم طرفة ، خادم عبد الملك الأكبر ، ينقمون على عيسى ، حظوته واستئثاره بالسلطة ، ويعملون ما وسعوا للنيل من مكانته . واضطرمت المنافسة بالأخص بينه وبين طُرفة ، وبذل طرفة جهوداً عنيفة لإفساد الجو بينه وبين الحاجب ، واستطاع مع استمرار الوقيعة والدس أن يزعزع ثقة عبد الملك فيه ، وأن يصرفه عن الاعتماد عليه ، وانتهى الأمر بأن تغلب طرفة على الوزير ، وحل محله فى تدبير الأمور ، واجتمعت السلطة فى يده شيئاً فشيئاً ، حتى غدا كل شىء فى القصر وفى الدولة ، وسما شأن الفتيان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٦٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ . وذكر المقرى أن وفاة عبد الملك كانت فى المحرم سنة ٣٩٩ (ج ١ ص ١٩٨) . ويؤيد ابن الأثير رواية وفاة عبد الملك بالسم ويقول لنا إن أخاه عبد الرحمن سمه فى تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخاه مما يلى الجانب المسموم ، وأخذ مما يلى الجانب الصحيح فأكله بحضرته ، فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات (ج ٨ ص ٢٢٥) .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦ .

الصقالبة ، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب. ومرض الحاجب فى أوائل سنة ٣٩٦ هـ ، واستبد طرفة بالأمر ، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته ، وأبدى كثيراً من الاستهتار والتبذل والطيش ، فلما أبل الحاجب من مرضه ، كانت نفسه قد تغيرت على طرفة ، ولما خرج إلى الغزو فى شهر رمضان من هذا العام ، خرج معه الوزير عيسى ، واستطاع خلال الطريق أن يقنع عبد الملك بسوء مسلك طرفة وخطر مشاريعه ، وكان من المقرر أن يلتقى طرفة بسيده فى سرقسطة ، فقدم إليها فى بعض القوات فى نفس اليوم الذى وصل فيه الحاجب مع جيشه ؛ وما كاد يدخل إلى عبد الملك فى قصره ، حتى قُبض عليه ، وصُفد بالأغلال ، وحمل إلى إحدى جزر الشاطىء ، واعتقل حتى انتهى عبد الملك من غزوته ، فأمر بقتله ، وهو فى طريق العودة ، وأمر الحاجب فى نفس الوقت بقتل عبد الملك بن إدريس الجزيرى الكاتب البليغ أمين البلاط ، وكان من خاصة طرفة ، وكان الوزير عيسى قد حذر عبد الملك من ممالأته لطرفة ومعاونته على إفساد أمور الدولة(١).

وأضحى عيسى بن سعيد ، بعد قتل طرفة ، رجل الدولة الأول ، واسترد كامل حظوته وسلطانه ، على أنه لم ينعم طويلا بظفره . وكان هذا الوزير قد تقلب فى مناصب الدولة منذ أيام المنصور ، وحظى لديه ، وسما شأنه ، حسبما رأينا ، ثم تضاعف شأنه ، واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبد الملك ، وجمع الأموال الطائلة ، وزاد فى توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب ،حيث تزوج ابنه عبد الملك المكنى أبا عامر ، أخت عبد الملك الصغرى ، إحدى بنات المنصور . وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة ، وكثر بذلك حساده والوشاة فى حقه . وكان عيسى يذكى من حوله عواطف الخصومة والنقمة . بما كان يجنح إليه من الصلف والخشونة والكبرياء ، والنكول عن قضاء حاجات الناس ، والنظر فى مظالمهم ، والتعالى عليهم ، وكان حجابه وعماله ، على شاكلته من الغلظة والتعسف فى معاملة الناس . فكان ذلك كله سبباً فى تسمم الجو حول الوزير ، وحول تصرفاته . أضف إلى ذلك أن الوزير ، لم يكن يشارك الحاجب فى مجالس شرابه وأنسه إلا فى القليل النادر ، لأنه كان مقلا للشراب ، فكان تخلفه يمهد

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤ — ٢٦ .

لخصومه المقربين من الحاجب ، سبل الدس والوقيعة فى حقه . وقد كانت الذلفاء والدة الحاجب فى الوقت نفسه تبغض الوزير ، لأنه أيد ولدها عبد الملك فى الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها ، وكانت تعارضه فى ذلك . والخلاصة أن عبد الملك أخذ يفقد ثقته فى وزيره بسرعة ، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر بالوشاية ، سريع التقلب والغدر ، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص فى حظوته ويتوجس من عواقبه .

والظاهر أن عيسى بن سعيد ، كانت تحدوه فى نفس الوقت أطماع ومشاريع أخرى . فقد كان يشعر أنه غدا باجتماع سائر السلطات فى يده ، ومشايعة رؤساء الجند له ، أقوى رجل فى الدولة ، وأنه يستطيع أن يقف فى وجه بنى عامر ، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم . والواقع أن حكم العامريين كانت تشتد وطأته على الناس يوماً بعد يوم . وكان عبد الملك جرياً على سنة أبيه المنصور ، قد مضى فى الاستظهار بالفتيان الصقالبة والبربر ، وبلغ الفتيان فى عهده نحو ألفى غلام ، ووفد عليه كثير من البربر ؛ وكان أهم من وفد إليه من زعمائهم زاوى بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، عم أبى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وزعيم الفرقة الخارجة عليه ، وفد عليه مع إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك ، وغمرهم بصلاته ، واستمروا بقرطبة حتى وقعت الفتنة ، وكان لهم فى حوادثها شأن يذكر (١) . وفى رواية أخرى أن وفود زاوى وقومه على الأندلس ، كان فى أواخر أيام المنصور ، وأنه هو الذى أذن لهم فى الجواز (٢) . وكانت الأرستقراطية العربية تمقت هذا الإيثار للصقالبة والبربر ، والاستظهار بهم ، وترى فيه افتئاتاً على حقوقها ومكانتها ، وكان كثير من الأسر العربية الكبيرة مثل آل حدير ، وآل فطيس ، وآل شهيد ، وغيرهم ، يتوقون إلى انتهاء حكم العامريين ، ورد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عيسى بن سعيد ، وهو أيضاً من البطون العربية ، يعتنق فكرتهم ، ويعتقد أنه يستطيع أن يعمل على تحقيقها .

واعتزم عيسى بالفعل أن يعمل فى هذا السبيل ، واتجه ببصره إلى سليل من

---

(١) الذخيرة عن ابن حيان القسم الرابع المجلد الأول ص ٦١ .

(٢) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

المروانية هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان بينهما مودة وصداقة . وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه ، فى إزالة بنى عامر ، وإزالة الخليفة هشام المؤيد لعجزه وعقمه ، وإقامته مكانه فى الخلافة ، ورد الأمر بذلك إلى بنى أمية . فاستجاب هشام إلى دعوته ، وجرت بينهما المفاوضة بمنتهى التكتم والحذر . وكانت خطة عيسى ، تتلخص فى أن يدعو عبد الملك وأخاه عبد الرحمن وصحبه ، إلى حفل عظيم يقيمه بالمنية التى وهبه عبد الملك إياها بقرب قصر الزاهرة ، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبد الملك بن عيسى ، وأن يحيط المنية بطوائف من رجاله المسلحين ، فإذا حضر عبد الملك وأخوه وصحبه ، انقض عليهم أولئك الرجال وقضوا عليهم جميعاً ، وعندئذ يسير عيسى بصاحبه هشام إلى قصر الزاهرة فيجلسه فيه ، ويأخذ له البيعة بالخلافة ، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته إلى عبد الملك فقبل الدعوة ، وحدد بالفعل يوم الحفل .

ولكن سرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبد الملك ، نقله رجل من ثقات عيسى إلى نظيف الفتى الصقلبى ، فأبلغه فوراً إلى سيده . وفى رواية أن عبد المللك بادر فى الحال فقتل عيسى . ولكن الرواية الراجحة هى أن عبد الملك وأخاه عبد الرحمن اتفقا على تدبير قتله ، فى مجلس شراب ينظم لهذا الغرض ، ونظم المجلس بالفعل فى بهو القصر الكبير المشرف على النهر ، وذلك فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ . واستدعى الحاجب وزيره عيسى إليه ؛ ومن غرائب القدر أن كان الوزير أيضاً يجلس مع بعض خاصته على الشراب ، ومنهم الكاتب أبو حفص ابن برد ، فبادر عيسى بالركوب إلى عبد الملك ، ومعه بعض خاصته ، فاستقبله عبد الملك بظاهر من الجفاوة . ثم أخذ بعد قليل فى عتابه ومحاسبته على ما عزى إليه ، ثم أغلظ له القول ، وعيسى يعتذر ويحتج ببطلان ما نسب إليه ، ويشدد القسم على ذلك ، ويناشد حقن دمه . وفجأة جذب عبد الملك سيفه من جانب الفراش وشهره على عيسى ، وطعنه فى وجهه ، فسقط على الأرض ، فانهال عليه الجماعة طعناً بسيوفهم ، ثم احتز رأسه ووضع جانباً ؛ وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف ابن خليفة ، وحسن بن فتح ، وألقيت جثث الثلاثة فى النهر ، بعد أن وضعت فى زنابيل مثقلة بالحجارة ، وأمر عبد الملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة الزاهرة ، عبرة للناس . وتركت معلقة فى مكانها حتى انقضت الدولة العامرية ،

ونفذ الجند فى الحال إلى منازل عيسى وأصحابه ، وصودر ما فيها ، وقبض على أبناء عيسى وزجوا إلى السجن ، وأرغم ولده عبد الملك على طلاق زوجته أخت الحاجب ؛ وجدت الشرطة فى أثر هشام بن عبد الجبار ، حتى قبض عليه ، ثم حمل إلى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله فى سجن أعد له ، وهناك قتل خفية ، ولم يسمع له خبر بعد ذلك قط .

وكان لمقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع فى قرطبة ، لما كان له من رفيع المنزلة والسلطان ، ولبثت الوفود أياماً تحضر إلى الزاهرة لمشاهدة رأسه[١] .

وثاب المظفر بعد مقتل وزيره إلى نفسه ، وعمل على جمع السلطة فى يده ، والحد من سلطة الوزراء والكتاب ، ومراقبتهم ومحاسبتهم ، وواظب على الجلوس بنفسه ، وهجر اللهو والراحة ؛ وكانت الأحوال المالية قد ساءت ، مما أسرف فيه من النفقة والصلات ، ومما أسقطه للناس من سدس الجباية ، فاقتصد فى النفقة ، واجتهد فى توفير المال ، وتنمية الموارد ، فنجحت المحاولة ، وتحسنت الأحوال المالية فى أواخر عهده[٢]

وقد أشرنا من قبل إلى طرف من اخلاق عبد الملك ، وما جمعت من الصفات المشرقة والقاتمة معاً . ونزيد هنا ما رواه صاحب الذخيرة عن ابن حيان ، من أن عبد الملك كان عرياً عن العلم والمعرفة والأدب ، ولم يكن يجتمع فى مجالسه سوى الأعاجم من الحلالقة والبربر ومن إليهم ، ولم يكن يؤمها أحد من أهل المعرفة ، من الأدباء والعلماء . بيد أنه مع ذلك لبث يسبغ رعايته على من كان يتصل منهم بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم ، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت أيام أبيه[٣] . وكان يستمع إلى الشعر ، ويصل الشعراء ، وقد أبقى بالأخص على شاعر أبيه صاعد البغدادى ، وجعله شاعراً ونديماً له . وكان من خواص شعرائه أيضاً أبو عمر بن درّاج القسطلى ، والكاتب الشاعر أبو حفص ابن برد . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذاً من الشعر ، نظمها صاعد وابن دراج تحقيقاً لرغبة

---

(١) راجع تفاصيل هذه المؤامرة وذيولها فى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ١٠٣ — ١٠٧ ، والبيان المغرب ج ١ ص ٢٧ — ٣٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٣) الذخيرة — القسم الأول المجلد الأول ص ٦٠ .

المظفر ، فى وصف مختلف صنوف الزهر ، من الآس ، والنرجس ، والبنفسج ، والورد والسوسن . ومما جاء فى قصيدة ابن دراج فى وصف السوسن ومديح الحاجب عبد الملك تلك الأبيات[1] :

إن كان وجه الربيع مبتسما   فالسوسن المجتـــلى ثناياه
ياحسنه بين ضاحك عبــق   يطيب ريح الحبيب ريّاه
ياحاجباً مذ براه خالقــه   توّجــه بالعــلى وحــلاه
إذا رآه الزمـــان مبتهجاً   فقــد رأى كل ما تمنــاه
وإن رآه الهـــلال مطلــعاً   يقــول ربى وربــك الله

ونظم بعضهم فى وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية :

زمان جــديد وصنع جــديد   ودنيــا تروق ونعمى تزيد
وغيث يصوب وعيش يطيب   وعــز يدوم وعيــد يعود
ودهــر ينير بعبــد المليك   كشمس الضحى ساعدتها السعود

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨ — ٢١ . وكذلك الروض المعطار ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

عبد الرحمن بن المنصور

وسقوط الدولة العامرية

نظام الطغيان العامرى . كيف كانت تلطفه عبقرية المنصور . ظهور مثالبه فى عهد عبد الملك . عبد الرحمن المنصور يخلف أخاه . يتقلد الحجابة . تلقيبه بشنجول أو شانجه الصغير . إنحرافه وسوء خلاله . تودده للخليفة هشام . تلقبه بالمأمون وناصر الدولة . شروعه فى اغتصاب ولاية العهد . ضغطه على هشام لتحقيق ذلك . مرسوم ولاية العهد ونصه . جلوس عبد الرحمن فى الزاهرة . عكوفه على الشراب واللهو . إرغامه الكبراء على لبس العمامة . خروجه إلى الغزو . يخترق أراضى ليون . إعتصام النصارى بالجبال . إرتداد عبد الرحمن . أنباء الانقلاب فى قرطبة . الاضطراب فى الجيش . سيره إلى قلعة رباح . سخط أهل قرطبة على بنى عامر . المؤامرة وعناصرها . الذلفاء والدة عبد الملك ودورها . ترشيح محمد بن هشام للخلافة . نضج المؤامرة وتهيؤ الظروف لتنفيذها . مهاجمة المتآمرين للقصر . مصرع عبد الله بن أبى عامر . موقف الخليفة هشام وتصرفه . إقتحام العامة للقصر . الزاهرة وتسليمها . إقتحام الجموع لها ونهبها . إستيلاء المهدى على أموالها ونفائسها ثم تدميرها . نبوءة المنصور بخراب الزاهرة . وقوف شنجول على خبر الانقلاب وحيرته . يناشد أهل الثغر تأييد هشام . تخلى زعماء الجند عن نصرته . شنجول وصديقه ابن غومس . مسيره صوب قرطبة . فرار البربر تحت جنح الظلام . مسيره إلى أرملاط . التجاؤه وابن غومس إلى الدير . وقوعهما فى يد فرسان المهدى . القبض على حشم شنجول ونسائه . مقتل شنجول وابن غومس . ما يقوله شاهد عيان عن هذه الحوادث . تأملات عن انهيار الدولة العامرية .

كانت وفاة عبد الملك المظفر ، فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسى وأشدها غموضاً واضطراباً ، وكانت نذيراً بانقلاب من أعنف ماعرفت الأندلس وأشدها تقويضاً لبنائها وسلامها ورخائها .

مضت خمسة وثلاثون عاماً على حكم الطغيان المطبق ، الذى فرضه المنصور ابن أبى عامر على الشعب الأندلسى ، وقضى فى ظله على سلطان الخليفة الشرعى ، ومحيت رسوم الخلافة ، وسحقت العصبية العربية ، وطوقت أعناق الشعب بأغلال خانقة . وبالرغم مما نعمت به الأندلس أيام المنصور من الاستقرار والعزة والرخاء ، فإن الشعب لم يكن يرى فى المنصور ، سوى مغتصب للسلطة الشرعية ، وكان يتوق إلى التحرر من هذا الطغيان الذريع ، والتخلص من وطأة الصقالبة والبربر ، والعود

إلى الأوضاع الطبيعية المألوفة. وكانت شخصية المنصور العظيمة ، وعزمه الصارم ، وهمته البعيدة ، وخلاله الرفيعة ، وتفانيه فى الجهاد ، والعمل على إعزاز الأندلس وإسعادها : كانت تفرض نفسها على الناس ، وتخفف نوعاً من وطأة النظام وحدته ، وتبث فى نفوس الشعب نوعاً من الإعجاب المقرون بالإغضاء والتسامح . فلما توفى المنصور ، ونهض ولده عبد الملك بأعباء الحكم ، بدأ ينقشع هذا الشعور الملطف ، وبدت مثالب الحكم المطلق على أشدها ، وزاد إحساس الشعب بمايعانيه من ضروب الإرهاق والضغط ، وظهرت شخصية عبدالملك ضئيلة باهتة بالنسبة لشخصية أبيه العظيم ، وبدت بالرغم مما اضطلع به من الغزوات ، وما تمتعت به البلاد فى ظله من السلام والرخاء ، لا تحمل سوى الأوزار الظاهرة ، من عكوف على الشراب ، وانهماك فى الملاذ ، والمضى فى اغتصاب السلطة الشرعية ، وتمكين لنفر الصقالبة والبربر ، والتطلع إلى ألقاب الملك ، بصورة تكشف عما وراءها من الأطماع الخطرة .

وجاء عبد الرحمن ابن المنصور إثر أخيه عبد الملك ، وقد كان أضعف منه شخصية ، وأسوأ خلالا ، ليتابع حكم الإرهاب والطغيان ، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة ، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه ، فى السابع عشر من صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) . ومثل فى نفس اليوم لدى الخليفة هشام ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، وقلده الحجابة ، ثم أقبل إليه الأكابر والأعيان بقصر الزاهرة ، مهنئين مبايعين .

وكان عبد الرحمن وكنيته أبو المطرّف ، حينما تولى الحكم ، فتى فى الخامسة والعشرين من عمره . وكان يلقب منذ حداثته « بشنجول » (سانشول) أو شانجُه الصغير ، وذلك لأنه حسبما تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك نافار ، وكانت أمه الأميرة النافارية ، حينما تزوجت المنصور ، قد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم « عبدة » ، وكان ولدها عبد الرحمن « أشبه الناس بجده » . وكان لهذه الأرومة الفرنجية الواضحة ، أثرها فى انصراف الناس عن محبته والعطف عليه ، وكان يزيد فى هذه الوحشة بين عبد الرحمن وبين الشعب ، إنحرافه وخلاله السيئة ، فقد كان فاجراً كثير الإستهتار والمجون ، يقضى معظم وقته فى الشراب واللهو ، يخرج من منية إلى منية ، ومن متنزه إلى متنزه ، مع الخياليين والمغنين

والمضحكين ، مجاهراً بالفتك ، وشرب الخمر »[١] .

وجرى عبد الرحمن على سنة أبيه وأخيه ، فى الحجر على الخليفة هشام وحجبه ، وفى الاستبداد بالرأى والحكم[٢] ، ولكنه نهج فى معاملة الخليفة نهجاً جديداً ، فأكثر من الإتصال به ، والتقرب إليه ، وبالغ فى إرضائه وإرضاء حاشيته ، وتحقيق رغباتهم ؛ هذا فى حين أن المنصور كان يقتصر فى الاتصال بالخليفة على المواقف الضرورية ، ويقتصد فى رؤيته ، ويؤثر التظاهر بتوقيره مع البعد عنه ، ويحرص على عدم تدليله ، وكبح جماح حاشيته ؛ وجرى ولده المظفر على هذه السياسة . ولكن عبد الرحمن بالغ فى التودد لهشام ومخالطته ؛ ومن ذلك أنه استأذنه فى أن يقوم بالتنزه مع أهله فى قصور الملك بقرطبة ، ويكون الخليفة هنالك مع خاصته وجواريه . فأذن هشام بذلك ، وخرج مع الحاجب فى موكبه مستخفياً ، وقد ارتدى برنساً كالذى يرتديه الجوارى ، حتى لا يعرفه أحد ، واخترق الموكب شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الجند ، ونزل بقصر ناصح . وهنالك عرض عليه الحاجب شئون المملكة ، والتمس إليه أن يأذن له فى التلقب بالمأمون ، وأن يضاف إلى اسمه ناصر الدولة ؛ فخرجت رقعة الخليفة بذلك إلى الوزير الكاتب جهور بن محمد ، وتسمية عنوانها « الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف حفظه الله » وأبلغت بعد ذلك إلى الجهات والكافة . وكان ذلك لعشرة أيام فقط من ولاية عبد الرحمن . فعجب الناس لهذه الجرأة ، وأنكر الناس على الحاجب هذا التسمى بألقاب الملك والخلافة ، واعتبروها افتئاتاً وغروراً ، ممن لا تؤهله خلاله لمثل هذا التكريم . ولكن سوف نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر وأبعد أثراً[٣] .

ذلك أنه لم تمض على هذا الإجراء فترة يسيرة ، حتى غادر الخليفة هشام قصر ناصح بقرطبة ، إلى القصر الخليفى بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته ، يتقدم موكبه الحاجب عبد الرحمن ، ونزل عبد الرحمن بمدينة الزاهرة . وأقام الخليفة بالزهراء يومين . وفى اليوم الثالث الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ، غادر القصر الخليفى فى أهله ، إلى منية جعفر المجاورة ، ومعه الحاجب . وكان عبد الرحمن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ — ٤٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٠ .

بعد أن حصل على ألقاب الملك ، يجيش بمشروع ضخم ، هو أن ينتزع ولاية العهد من الخليفة الضعيف الساذج ، وأن يقضى بذلك نهائياً على تراث بنى أمية ، وينقل رسوم الخلافة جملة إلى أسرة بنى عامر ، فتخلف أسرة بنى أمية فى ملك الأندلس . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن أباه المنصور ، بالرغم من قوة نفسه ، وعريض سلطانه ، كان ينأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة ، لأنه كان يدرك بذكائه ، وبعد نظره ، أنها تنطوى على أخطر العواقب ، وأنه لم يقدم على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول روية وأناة ، وأنه كان أبداً حريصاً على الإبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها . وقد حذا ولده عبد الملك المظفر حذوه فى حرصه وتعقله . ولكن عبد الرحمن لم يكن إلا فتى طائشاً ، متعجلا ، كثير الغرور ، قصير النظر . وقد وصف لنا ابن حيان موقفه من المشروع فى تلك العبارات القوية : « وقد تقدم القول فى سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر فى عاقبة ، بل جرها بالعجلة »[١] .

وخلا عبد الرحمن بالخليفة ، وأطال التقرب منه ، وعرض عليه مشروعه ، ويقال إنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخؤولة ، إذ ولد كلاهما من أم بشكنسية (نافارية)[٢]. ويقال من جهة أخرى ، إن عبد الرحمن دس إلى الخليفة من هدده بالويل ، وأنذره بأن عبد الرحمن قد اعتزم الفتك به ، إذا لم يمنحه ولاية عهده[٣]. ويقال أيضاً إن هشاماً استفتى فى ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها ، فأقروه على ما طلب . وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن ، قاضى الجماعة أبو العباس ابن ذكوان ، وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد[٤] . وعلى أى حال فقد استجاب هشام المؤيد إلى طلب عبد الرحمن . وخرج أصحابه عشية ذلك اليوم ، يذيعون الخبر على الملأ ، ويقولون إن الخليفة قد اختاره ولياً لعهده ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وكثر الإرجاف لذلك .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ .

وفى صباح اليوم التالى ، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ (نوفمبر ١٠٠٨ م) ، أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الجند ، وأخرج عبد الرحمن هشاماً ، وأجلسه فى الساحة الكبرى ، وجلس من حوله الوزراء والقضاة والقادة وأكابر رجال الدولة ، فكان يوماً مشهوداً ، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل أبى حفص أحمد بن برد ، وذيل بشهادة قاضى الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً ، ويليهم شهادة مائة وثمانين رجلا ، من أكابر أهل الدولة والحكام ، والفقهاء ، وغيرهم . وإليك نص هذا المرسوم الشهير :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله — أطال الله بقاءه — إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، وخصه به من إمرة المؤمنين ، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء ، بما لا يصرف ، وخشى أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، ولم يوردها ملجأ تنعطف عليه ، أن يكون يلقى الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونفض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرهم ، ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول فى القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، بعد اطراح الهوادة ، والتبرئ من الهوى ، والتحرى للحق ، والزلفى إلى الله عز وجل بما يرضيه . وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه النظر فى أمر الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف همته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر فى شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً فى الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعية إلى أرفع منازل الطاعة ، وينمو بعينيه إلى أعلا درج النصيحة ،

أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ فى سبيل الخير مداه ، ويحوى من حلل المجد ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولى عهده القحطانى ، الذى حدّث عنه عبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأن يتحقق به ما أسنده أبو هريرة إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ، ولا إلى غيره معدلا ، خرج إليه من تدبير الأمر فى حياته ، وفوض إليه النظر فى الخلافة بعد مماته ، طائعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل له بهواه ، ولا مترك نصح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله ، عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازه ، وبتله ، لم يشترط فيه مثنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك فى سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وذمة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ولا يغير ، ولا يحول ولا يتأول . وأشهد على ذلك الله وملائكته ، وكفى بالله شهيداً . وأشهد عليه من أوقع اسمه فى هذا الكتاب . وهو — أعزه الله — جائز الأمر ، ماضى القول والفعل ، بمحضر من ولى عهده المأمون ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور — وفقه الله — وقبوله لما قلده ، والتزامه ما ألزمه ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ »[١]

• • •

وعلى أثر صدور هذا المرسوم الفذ فى تاريخ الخلافة الإسلامية ، خرج عبد الرحمن فى موكب عظيم من الوزراء والقادة وأكابر أهل الدولة ، إلى قصر الزاهرة وهو «يختال فى ثوب الخلافة ، يحسب أنها له نحلة ، وأنه مستحق لها ، وخليق بها »[٢] . وأقبل عليه المهنئون من الوزراء ورجال الدولة ، يتكلفون البشر ، والدعاء له بما أكرمه الله به ، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً ، وأنفذت

---

(١) ورد نص هذا المرسوم فى أعمال الأعلام ص ٩١ — ٩٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٨ و١٩٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ — ٤٦ ؛ وقد اتبعنا نحن بالأخص النص الوارد فى أعمال الأعلام لأنه أوفاها وأصحها .

(٢) البيان المغرب عن ابن عون الله ج ٣ ص ٤٦ .

الكتب فى الحال إلى سائر نواحي الأندلس والعدوة ، بوجوب إذاعة المرسوم ، والدعاء لولى العهد على المنابر بعد الخليفة .

وفى اليوم التالى جلس عبد الرحمن بقصر الزاهرة فى هيئة الملك ، واصطف من حوله رجال الدولة وفق مراتبهم ، وأقبل وجوه قرطبة لتهنئته ، وفى مقدمتهم طائفة من المروانية المبعدين عن الخلافة ، وغيرهم من بطون قريش . يقول المؤرخ : « وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذوْوبة عليه ، موقدة ببغضه » . وبادر الشعراء وفى مقدمتهم أبو العلاء صاعد البغدادى ، برفع قصائد التهانى . وقد أورد لنا ابن حيان طرفاً مما قاله الشعراء فى ذلك[1] .

بيد أن شاعراً آخر ، هو ابن أبى يزيد المصرى ، نظم فى ذم ابن ذكوان وابن برد وهما المسئولان عن تحرير مرسوم البيعة هذين البيتين :

إن ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شنجهُ ولى عهد[2]

وذهب عبد الرحمن فى غروره واختياله إلى أبعد مدى ، فعين ابنه الطفل عبد العزيز فى خطة الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة ، وهو لقب عمه المظفر . واعتقد عبد الرحمن أنه حقق بذلك مشروعه العظيم ، فى تخليد ملك الدولة العامرية ، وأن الأمور قد دانت كلها له ، فأطلق العنان لأهوائه ، وانكب على لهوه وشرابه ، يحيط به نفر من البطانة السيئة ، والندماء الأسافل ، يصورون له الأحوال فى أبدع الصور وأحبها إلى نفسه .

وكان من الحوادث البارزة فى تلك الآونة ، حادث ظاهر البساطة فى ذاته ، ولكنه أذكى موجة جديدة من السخط . وذلك أن عبدالرحمن أصدر أمره إلى رجال الدولة وأكابر أهل الخدمة ، بأن يتركوا قلانسهم الطويلة ، المرقشة الملونة ، التى كانوا يضعونها على رؤوسهم ، ويمتازون بها على باقى الطوائف ، وأن يستبدلوها فوراً بالعمائم . وقد كانت العمائم هى غطاء الرأس عند البربر . فأنف الكبراء لذلك ، ولكنهم رضخوا للأمر كارهين ، وحضروا إلى قصر الزاهرة بالعمائم لأول مرة فى يوم ١٤ جمادى الأولى ، وعلق جمهور الشعب على ذلك بمختلف الأقوال والتأويلات .

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦و٤٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٤ — ٩٦.

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك قد فكر فى أن يشغل الناس بحديث الغزو أسوة بأبيه وأخيه ، وكان سانشو غرسية أمير قشتالة من جهة أخرى قد أبدى أنه لايزمع احترام السلم المعقود ، وأخذ بالفعل يغير على الحدود الإسلامية . ولم تكن أخبار قرطبة ، وما يسودها من اضطراب الأحوال ، خافية على الملوك النصارى . واعتزم عبدالرحمن أن يسير إلى الغزو ، وأن يقصد إلى جلِّيقية ، فاعترضه كبير الفتيان الصقالبة ، وحذره من مغادرة قرطبة فى هذا الوقت ، وأوضح له أن المروانية (بنى أمية) يأتمرون به ، ويدبرون انقلاباً ينتزعون به الحكم ، وأن كثيراً من الجند يميلون إليهم ، فلم يصغ إلى قوله ، وأمر بالخروج إلى الغزو[1] ، وعهد بإدارة الحكومة فى غيبته إلى ابن عم أبيه عبدالله بن أبى عامر المعروف بعسكلاجة . وكان خروجه من قرطبة فى ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (يناير سنة ١٠٠٩ م) أعنى فى أعماق الشتاء ، وسار بالجيش صوب طايطلية فى طريقه إلى جليقية والأمطار تنهمر والبرد يهرأ الأجسام ، وهو على سجيته من اللهو والشراب . ثم اخترق حدود مملكة ليون ، ودخل جليقية . ولكن ملك ليون ألفونسو الخامس تحصن بقواته فى رؤوس الجبال ، ولم يتقدم لقتال المسلمين ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا لقتاله لفيضان الأنهار وكثرة الثلوج ، فقرر العودة بجيشه ، فارتد راجعاً أدراجه . وبالرغم من أنه لم يحقق فى غزوته هذه أية نتائج ذات شأن ، فقد نظم ابن دراج القسطلى ، على سجيته ، فى تلك الغزوة قصيدة طويلة ، يشيد فيها بعبد الرحمن ، وهذا مطلعها :

هو البدر فى فلك المجد دارا ... فما غسق الخطب إلا أنارا
تجلى لنا فأرتنا السعود ... غيوب المنى فى سناه جهارا
وأوفى فكادت صوادى القلوب ... تفوت العيون إليه بدارا
وحل فحلت جسام الفتو ... ح تبأى اختيالا وتزهى افتخارا[2]

وما كاد عبد الرحمن يصل إلى طليطلة ، حتى وافته الأنباء بأن انقلاباً حدث فى قرطبة ، وأن الثوار قد استولوا على مدينة الزاهرة ، ونهبوا ذخائرها ، وأضرموا النار فى صروحها . وتسربت الأنباء إلى الجند ، فوقع الاضطراب فى الجيش ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٦ .
(٢) وردت هذه القصيدة كاملة فى ديوان ابن دراج (ص ٤٥٩ – ٤٦٣) .

واضطر عبد الرحمن أن يسير لفوره بالجيش إلى قلعة رباح ، فى طريقه إلى قرطبة .

— ٢ —

لم يكن ذلك الهدوء الظاهر ، الذى ساد قرطبة خلال هذه الأشهر القلائل التى اضطلع فيها عبد الرحمن بالأمر ، سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة . وكان حكم الطغيان الذى فرضه بنو عامر على الأندلس قد أخذ منذ أيام عبد الملك ، يحدث آثاره المادية والأدبية ، فى نفوس الشعب ، ويبدو لهم بغيضاً مرهقاً . ولم يكن يستر هذه الآثار سوى سياج خفيف من الحذر والترقب . ذلك أن سلطان بنى عامر كان يستند دائماً إلى قوة عسكرية يخشى بأسها ، قوامها البربر والصقالبة ؛ فلما جاء عبد الرحمن ، وكشف عن نيته فى الاستئثار برسوم الملك ، واغتصاب ولاية العهد ، ألفت العناصر الناقمة ، وفى مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية الشرعية ، فى ذلك مادة جديدة ، للتنديد بحكم بنى عامر وطغيانهم واجترائهم ، وفى تلمس الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم ؛ وكانت شخصية عبد الرحمن الهزيلة ، وأرومته الأجنبية ، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون ، تذكى عاطفة السخط عليه ، سواء بين الخاصة أو الكافة ، وتمهد السبيل إلى الانقلاب المنشود .

وكانت خيوط المؤامرة التى اجتمعت حولها العناصر الناقمة ، تتوثق شيئاً فشيئاً ، وكان أهم مدبريها شخصيتين ، الأولى الذلفاء والدة عبد الملك المصور ، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن ولدها قد توفى غيلة بالسم ، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمن ، وكانت لذلك تتوق إلى الانتقام ، والثانية هى شخصية فتى من بنى أمية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقـــدم .

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم ، كثيرة المال والوجاهة ، وكانت بالرغم مما أسبغه عبدالرحمن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبدالملك ، من ضروب الرعاية والإكرام ، تسعى دائبة للإيقاع به . فلما شعرت بأن الجو قد تهيأ للسعى ، مما ثار حول تصرفات عبد الرحمن من ضروب الإنكار والسخط ، اتصلت بوجوه بنى أمية ، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم ، والانتقام من بنى عامر ، وكان صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامريين يدعى بشرى

وكان من قبل من فتيان المراونة ، ثم انتقل إلى العامريين فيمن انتقل من فتيان القصر ، ولكنه بقى على ولائه لسادته الأقدمين . وتعهدت الذلفاء بأن تعاون المتآمرين بالمال والتدبير ؛ وسرعان ما استجاب بنو أمية للدعوة واختاروا من بينهم زعيماً هو محمد بن هشام بن عبد الجبار . وكان فتى جريئاً مغامراً فى الثالثة والثلاثين من عمره إذ كان مولده فى سنة ٣٦٦ هـ ، وأمه أم ولد تدعى مزنة[١]، وكان مذ قتل أبوه هشام ، يتحرز على نفسه ، ويختفى فى أحواز قرطبة وكهوفها ، ويجتمع حوله الصحب من المغامرين . فلما أجمع بنو أمية أمرهم على اختياره ، بايعوه سراً بالولاية والخلافة ، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من المروانية وغيرهم ، يدعون له ؛ واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره . وكان خروج عبد الرحمن المنصور أو شنجول إلى الغزو فرصة سانحة للعمل ، فأخذ محمد بن هشام يحشد أنصاره ، ويجتمع بهم سراً فى كهوف جبل قرطبة . وكثر إرجاف دعاته فى المدينة أن دولة بنى عامر قد قضى عليها ، وأن الأمر سيعود إلى المروانية ، وكثر تشهيرهم بعبد الرحمن وقبيح تصرفاته . وكانت هذه الدعاية تجد لدى جمهور الكافة أذناً صاغية ، لما وقر فى نفوسهم من بغض عبد الرحمن وازدرائه . وإليك كيف يصف لنا ابن الخطيب موقف الشعب القرطبى ، وحالته النفسية إزاء العامريين ، وإزاء عبد الرحمن :

« وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بذوى أمرها ، والإرجاف بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة ، تؤثر عنهم فى العامريين نوادر حارة ، واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، ويأمرهم بإنهاء وعيده ، ويشافههم بإنكاره ، ولايزال حكامه يبلغون فى تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألسنة . فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الخرق ، كثر الحمل وشهرت البغضة »[٢] .

ولم يكن المروانية ، وحدهم فى هذا التدبير الذى قصد به إلى سحق نير العامريين ودولتهم ، فقد كان إلى جانبهم سائر العناصر الناقمة من قريش ، ومن المضرية

---

(١) جذوة المقتبس ص ١٩ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٩٠ .

واليمنية ، أو بعبارة أخرى من البيوت العربية ، التى عمل المنصور وآله على سحق رياستها ومكانتها الاجتماعية ، وإخضاعها لنفوذ البربر والصقالبة . وقد رأينا فيما تقدم أن هذه لم تكن أول مؤامرة أو محاولة من نوعها لتحطيم نير بنى عامر ، وأن المنصور وولده عبد الملك ، استطاعا أن يقضيا على بعض المؤامرات الخطيرة ، التى دبرت لتحقيق هذه الغاية .

كانت الظروف قد تهيأت إذاً أمام المتآمرين للعمل . فقد خرجت معظم وحدات الجيش مع عبد الرحمن إلى الغزو ، ولم يبق منه سوى فرق قليلة ترابط فى قرطبة والزاهرة ، وجمهور الشعب متأهب بعواطفه ونفسيته الضجرة المتذمرة لتأييد أى انقلاب .

ولما نضجت المؤامرة ، واتسع نطاق الدعوة لمحمد بن هشام ، وكثر الإرجاف بالانقلاب المنشود ، شعر الوزراء العامريون بالخطر ، وضاعفوا الأهبة والحرس حول قصور الزاهرة . وكان محمد بن هشام وأعوانه خلال ذلك يجتمعون سراً وينظمون خطتهم الأخيرة . وكان محمد هذا الذى اختاره بنو أمية زعيماً لهم ، قد فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة ، لا يخالط سوى الزعانف والأشرار . وقد وصفه ابن الخطيب فى قوله : « جرار جسور ، ثائر مخاطر ، خليع ، مداخل للصقورة والفتاك ، لا يدرى فى أى واد يهلك »[1] .

وفى يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م) جاءت الأنباء إلى قصر الزاهرة بأن عبد الرحمن قد عبر بجيشه إلى أرض النصارى ، فأدرك المتآمرون فى الحال أن الفرصة قد سنحت للعمل ، واعتزم محمد بن هشام لفوره أن ينزل الضربة المنشودة . وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة ، وقد تسلحوا تحت ثيابهم خفية . فى عصر هذا اليوم ، كان محمد يكمن فى الضفة الأخرى من النهر (نهر الوادى الكبير) قبالة القصر . وكانت خطة المتآمرين أن يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة ، وهو يومئذ المقام الشتوى للخليفة هشام المؤيد ، وحوله قلة من الحرس ، ولأن ظروف العمل فى قرطبة ، كانت أدعى إلى النجاح نظراً لعطف الكافة والدهماء وتأييدهم . وفى الوقت المحدد عبر محمد النهر ، والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتى ، منهم طرسوس المجوسى ، وهو أشدهم

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٩ ؛ وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢ .

جرأة وفتكاً ؛ فساروا حذرين حتى باب القصر ، ثم شهر طرسوس سيفه ، وهجم فى الحال على صاحب المدينة عبدالله بن أبى عامر (عسكلاجة) وانتزعه من مجلسه ، وكان يحتسى الخمر مع قينتين من جواريه ، وجىء به مخموراً إلى محمد بن هشام ، فأمر بضرب عنقه ، ورفع رأسه على رمح ، فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً ، هرعت إلى محمد بن هشام ، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء ، فقويت بذلك عصبته ، ثم بادر باقتحام سجن العامرية ، وأفرج عمن فيه من القتلة واللصوص ، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب ، واستنهضوا الناس لنصرته ، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة .

ونمى الخبر إلى الخليفة هشام المؤيد ، فأمر بإغلاق أبواب القصر ، وصعد إلى السطح ، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً ، وحاول مخاطبة العامة ، فأسكتوه وأغلظوا له القول ، فانصرف عنهم إلى داخل القصر ، وأمر الخدم بالكف عن كل مقاومة حتى يقضى الله أمره . فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار القصر ، واقتحام أبوابه ، وبذل العامة فى ذلك جهوداً فادحة ، وأتوا بالسلالم ، وصعدوا إلى أعلا الأسوار ، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر ، وارتد الخدم أمامهم ، ووصلوا إلى خزائن السلاح فنهبوها واشتد ساعدهم . ولما سمع الخليفة بذلك ، خشى البادرة على نفسه وأهله ، فبعث إلى محمد بن هشام يعرض عليه أن يقصى بنى عامر عن الحكم ، وأن يشركه فى أمره ، فرفض محمد ذلك ، وطلب إلى فاتن محافظ القصر أن يفتح الأبواب ، فأذعن ودخل محمد القصر ، واحتل مجلسه ، ومن حوله خاصة أصحابه ، واعتزم أن يقضى ليله بين الشموع المضيئة . ثم قام بطرد العامة عن القصر وأجلاهم عن سطحه ، وكفهم عن انتهاك حرمه ، وعين ابن عمه محمداً بن المغيرة فى كرسى الشرطة ، وابن عمه الآخر عبد الجبار بن المغيرة فى خطة الحجابة ، ودعا سليمان بن هشام من قرابته فسماه ولى عهده ، وبعث إلى الخليفة هشام يعاتبه على إيثار بنى عامر ، ويدعوه إلى خلع نفسه ، منذراً مهدداً ، فارتاع هشام وبادر بالقبول ، واستدعى محمد فى الحال بنى عمومته ، وأكابر بيته ، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة فى جوف الليل ، وأعلن هشام خلع نفسه بمحضر من بعضهم ، وقدم إلى محمد بعض حلله الخلافية الفاخرة ، فتم الخلع ، وذلك بعد أن مكث هشام فى الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً

وبضعة أشهر ، وآلت الخلافة فى تلك الليلة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمهدى. وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) .

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة إلى محمد بن هشام ، ملتفة حوله ، مؤيدة لبيعته ، واعتبروه بطلا منقذاً ، إذ كان أول من استطاع أن يثور فى وجه بنى عامر ، وأن يعمل لإزالة ملكهم ، وشعروا أن كابوس الإرهاب العامرى قد تقلص ، وأن عهداً جديداً سوف يبدأ ، ولم يخطر ببالهم قط ، أن هذا التحول كان نذير المحنة الغامرة ، التى سوف تطيح بكل مانعموا به فى ظل الدولة العامرية من السكينة والأمن والرخاء .

وفى الوقت نفسه كانت مدينة الزاهرة ، معقل بنى عامر ، عرضة لهجوم مماثل . وكان القائمون على أمرها قد نمى إليهم ما وقع بقرطبة ، وبادر محافظ الزاهرة عبد الله بن مسامة إلى ضبط أسوارها وأبوابها ، وحشد ما لديه من الجند ، فبلغوا سبعمائة ، وتأهب للدفاع وبعث محمد بن هشام إلى الزاهرة جمهوراً غفيراً من العامة مع طائفة من أصحابه . فأحاطوا بها وحاولوا اقتحامها ، ولكن نظيفاً الخادم ، ونصراً المظفرى ، وهما من الفتيان العامريين ، استطاعوا فى قوة من الغلمان إجلاء العامة عن الأسوار ، ثم دخل الليل فحال بين الفريقين .

وفى صباح اليوم التالى ، ١٨ جمادى الأولى ، ندب محمد بن هشام أو الخليفة المهدى ، ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة لمهاجمة الزاهرة ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة من العامة ، الذين أقبلوا على التطوع فرساناً ومشاة ، ووزعت عليهم الأسلحة ، وأمامهم رأس عبدالله بن أبى عامر مرفوعاً فوق رمح ، وهاجموا قصر عبد الملك المظفر ، وكان خارج الأسوار ، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء ، فنهبوه وتخاطفوا متاعه وذخائره ، وذلك بالرغم من أن الذلفاء هى التى أمدت محمداً بن هشام بعونها ومالها . فلما شعر أهل الزاهرة ، بأنه من العبث مقاومة هذه الجموع الهائلة ، عرضوا التسليم على أن يصدر لهم المهدى الأمان ، فبعث إليهم المهدى الأمان المنشود مكتوباً بخطه ، وكان ذلك وقت الظهر ، ففتحوا أبواب المدينة وسلموها ، ودخل عبد الجبار لفوره قصر الزاهرة ، واقتحمته الجموع ، ونهبت منه من المتاع والنفائس ما لا يقدر ولا يوصف ، واستأثر عبد الجبار

وصحبه المقربين من ذلك بأعظم نصيب ، واستولت العامة على خزائن الكسوة والمتاع والسلاح والحلى ، ولم يكف النهب إلا فى مساء اليوم التالى . وحرص عبد الجبار على أن يحيط بقواته بيوت الحُرم والمال وخاص المتاع والجوهر ، وأن يبعد العامة عنها ، وقد استولى المهدى على جميع محتوياتها ونقلها إلى قصر الخلافة بقرطبة . ويقال إنه حصل من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف وخمسمائة ألف دينار من النقود ، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف ؛ وأطلق المهدى الحرائر من بنى عامر ، واصطفى الجوارى لنفسه ، ووهب منهن لوزرائه وأصحابه ، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة ولدها عبد الملك وولده الصغير محمد ، مطلقة السراح إلى دورها بالمدينة ، وكانت لحرصها قد نقلت إليها معظم خزائن المال والمتاع .

ولم يكتف المهدى بذلك كله ، بل عمد بعد أن استصفى سائر ما فى الزاهرة من الخزائن والأموال الطائلة ، إلى هدم صروحها وأسوارها ، واستطالت الأيدى إلى كل نفيس من مرمر قصورها وطرائفها وأنقاضها وأبوابها ، فلم تمض أيام قلائل على ذلك السيل المدمر ، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعالمها الضاحكة ، وغدت أطلالا دارسة ، وخرائب موحشة . وكان المهدى يتعجل إزالة رسوم بنى عامر بكل ما وسع ، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور ، قبل أن يتم إحكام ضربته وتوطيد مركزه .

وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور بن أبى عامر ، كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة ، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر ، ويفضى به إلى خاصته ؛ وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم ، والد الفيلسوف الشهير ، أن المنصور كان يقول : « ويحاً لك يازاهرة الحسن ، لقد حسن مرآك ، وعبق ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعذب شربك ، فياليت شعرى من الذى يهدمك ، ويوهن جسمك ويعدمك » ، وأنه كان يؤكد لأصحابه صحة هذه النبوءة فى مناسبات كثيرة(١) .

— ٣ —

لما وصلت أنباء هذا الإنقلاب الخطير الذى وقع فى قرطبة ، إلى عبد الرحمن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥ .

المنصور أو شنجول ، وهو فى طيلطلة ، بادر بالسير فى قواته إلى قلعة رباح ؛ والحيرة تغلب عليه ، والاضطراب يسود صفوف الجنود ، وهنالك تمهل قليلا ، وأعلن فى الحال أنه ينزل عن ولاية العهد ، ويقتصر على الحجابة ، وبعث كتبه بذلك إلى طليطلة وأعمالها ، وفيها يناشد الناس أن يهرعوا إلى نصرة الخليفة المظلوم هشام ، وإلى التمسك بطاعته ، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدى ودهماء قرطبة من العيث والسفك . فلم يعبأ أحد بدعوته ، وكان أول الخارجين عليه الفتى واضح مولى أبيه ، وهو يومئذ والى طليطلة . وحاول شنجول فى الوقت نفسه ، أن يأخذ العهد على زعماء الجند بنصرته والقتال معه ، ولا سيما زعماء البربر الذين يؤلفون سواد الجيش ، فتظاهروا بموافقته ، ولكنهم تعاهدوا فيما بينهم ، وعلى رأسهم كبيرهم محمد بن يعلى الزناتى زعيم زناتة ، أن يتخلوا عن شنجول وألا يغامروا بمحاربة أهل قرطبة ، وفيها أسرهم وأموالهم ، وخصوصاً بعد الذى ترامى إليهم عن التفاف الناس حول محمد بن هشام ، وتفانيهم فى نصرته ؛ وقوى هذا العزم لديهم ما أفضى إليهم القاضى أبو العباس بن ذكوان — وكان قد صحب شنجول فى غزاته — من أنه يتبرأ من شنجول ويقضى بفسقه ، وينكر عليه ما يدعو إليه من قتال المسلمين بقرطبة ، وفيهم العلماء والصالحون ، والنسوة والأطفال . ومما تجدر ملاحظته أن القاضى ابن ذكوان هذا ، كان من قبل من أخص رجال الدولة العامرية ، وكان من أشد المعاونين لعبد الرحمن المنصور على انتزاع ولاية العهد من هشام .

وكان إلى جانب شنجول فى معسكره ، زعيم من زعماء بنى غومس سادة مقاطعة كريون فى جلّيقية ، وكان قد صحبه يرجو عونه على بعض خصومه من الزعماء المجاورين ، فلما رأى اضطراب أحوال الجند ، نصح شنجول بأن يعدل عن السير إلى قرطبة ، وأن يعود فى أصحابه إلى طليطلة فيتفق مع واضح ، فأبى شنجول نصحه ، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة ، سارع الناس إلى نصرته . وقد بقى هذا الزعيم النصرانى إلى جانب شنجول حتى النهاية [1].

وعلى أى حال فقد سار شنجول فى قواته صوب قرطبة ، حتى انتهى إلى «منزل هانى» ، وهى أقرب محلاته إلى المدينة . وما كاد الليل يرخى سدوله ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٠ .

حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جنح الظلام ، وأسفر الصبح وهو صبح نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (نهاية فبراير سنة ١٠٩٩ م) فلم يبق إلى جانب عبد الرحمن سوى خاصته وحرمه وحشمه وجمع يسير من غلمانه ، وابن غومس فى نفر من أصحابه ، وغادر المعسكر تباعاً زعماء البربر ، والفتيان الصقالبة ووجوه الأندلسيين ، وهنا نصحه ابن غومس مرة أخرى بأن ينجو بنفسه وصحبه ، فأبى .

وسار شنجول فى أهله حتى وصل إلى أرملاط من مشارف قرطبة ، وقد تركه النفر القليل الذى بقى معه ، فاستولى عليه اليأس ، وأدخل حرمه قصر أرملاط ، ثم خرج مودعاً والصراخ يتبعه ، وسار ومعه ابن غومس ، وقد عول على الفرار ، فالتجأ ليلا إلى الدير القريب. وكان محمد بن هشام فى تلك الأثناء يتتبع أخباره وحركاته ، فلما نمى إليه أنه يزمع الفرار ، بعث فى الحال الحاجب ابن ذرى فى طائفة من الفرسان ، فصار مسرعاً إلى أرملاط ودهم الدير ، وقبض على شنجول وابن غومس . وأخذ نساء شنجول من القصر ، وهن سبعون جارية ، فبعث بهن إلى قرطبة . ولما شعر شنجول بأنه هالك أعلن أمام معتقله أنه يعترف بطاعة المهدى ، فاستاقه ابن ذرى هو وابن غومس ، ثم أمر بتوثيق يديه بالرغم من احتجاجه ، وفى خلال الطريق طلب شنجول أن يفك وثاق يديه قليلا ليستريح ، فأجيب إلى طلبه ، وعندئذ أخرج من خفه سكيناً بسرعة البرق ، وحاول أن يغمده فى صدره ، فتداركه الجند ، وأوثقوا يديه ، وأمر الحاجب بقتله ، فذبح فى الحال ، وفصل رأسه عن جسمه ، وقتل ابن غومس ، وحمل رأس شنجول إلى المهدى فى نفس المساء ، وحمل جسده معروضاً على بغل ، وأمر المهدى فحنطت الجثة ، وركب عليها الرأس ، وألبست كسوتها ، ونصبت على خشبة طويلة على باب السدة ، ونصبت رأس ابن غومس على سارية إلى جانبها . وكان مقتل عبد الرحمن المنصور فى اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩ هـ (٣ مارس سنة ١٠٠٩ م) .

وقد انتهت إلينا من تعليقات المعاصرين على تلك الحوادث المتوالية المدهشة تعليق شاهد عيان يقول فيه :

« ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا ، أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء

لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء ثتمة الشهر ، وفى مثل ساعته فتح مدينة قرطبة ، وهدم مدينة الزاهرة ، وخلع خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحكم ، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد ، ولا وقع عليه اختيار ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وزوال دولة آل عامر ، وكرور دولة بنى أمية ، وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة ، ونكوب وزراء جلة ، ونصب ضدادهم ، تقتحمهم العين هجنة وقماءة . وجرى هذا كله على يدى بضعة عشر رجلا من أراذل العامة ، حجامين وخرازين ، وكنافين ، وزبالين ، تجاسروا عليه ، وقد تكفل المقدور بوقوعه ، فتم منه ما لم يكن فى حسبان مخلوق تمامه »[1] .

• • •

وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مدهشة لم يكن يتوقعها أحد ؛ فقد تولى عبد الرحمن المنصور الحكم عقب وفاة أخيه عبد الملك فى ١٧ صفر سنة ٣٩٩هـ والدولة محكمة النظام ، موطدة الدعائم ، والجيش على ولائه للدولة العامرية ، فلم تمض سوى ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ ، الذى شاده المنصور ابن أبى عامر ، والذى لبث خمسة وثلاثين عاماً معقد النظام والسلامة والأمن والرخاء للأندلس ، واستطاعت جموع يسيرة من الدهماء ، أن تحقق بسرعة البرق ما لم يجرؤ على تصوره أو محاولته من قبل ، أحد من أكابر خصوم الدولة العامرية والمتربصين بها . ومن الواضح أن الأسباب الجوهرية لمثل هذا الانقلاب الصاعق ، ترجع قبل كل شىء إلى العوامل الأدبية والنفسية ، فقد كان نظام الطغيان المطبق الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، بالرغم من كل ما حققه للأندلس من السؤدد والرخاء ، يبدو كالكابوس المرهق ، وكان الشعب يتوق إلى التخلص من هذا النير ، الذى سلبه كل مظاهر الحرية . فلما تولى عبد الرحمن المنصور ، كانت النفوس قد أشبعت ببغض هذا النظام والرغبة فى زواله ، وكان سلوك عبد الرحمن وتصرفاته ومجونه واستهتاره ، عاملا جديداً فى إذكاء هذا البغض وهذه الرغبة . وكان لاجترائه على اغتصاب ولاية العهد ، أسوأ وقع فى نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية . فلما خرج عبد الرحمن إلى الغزو ، كان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٤ .

الشعب يضطرم سخطاً وبغضاً وازدراء ، وكان يرقب أول بادرة للانفجار . فلما وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام ، لبى الشعب لفوره دعوة الخروج والثورة ، ولم يفكر فى شىء من العواقب ، ولم يفكر إلا فى تحطيم هذا النير البغيض — نير بنى عامر — بأية وسيلة . وكان له ما أراد ، وقد حقق رغبته بأيسر أمر .

على أن الأمة الأندلسية لم تجن خيراً من هذا الانقلاب ، الذى حققه الشعب القرطبى دون تدبر ودون تحوط. ذلك لأنه لم يقف عند القضاء على دولة بنى عامر ، بل بالعكس كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن ، اللذين تمتعت بهما الأندلس فى ظل الدولة المنقضية ، ودفع الأمة الأندلسية إلى معترك مروع من الفتن المضطرمة ، والفوضى الشاملة ، التى انتهت بانهيار حكومتها المركزية ، وتمزيق وحدتها ، ومواجهتها لأخطر مصير عرفته منذ قيامها فى شبه الجزيرة .

الكتاب الرابع

سُقوط الخلافة الأندلسيّة
ودولة بني حمود

٣٩٩ – ٤٢٢ هـ : ١٠٠٩ – ١٠٣١ م

الفصل الأول

الخلافة فى معترك الفتنة والفوضى

غداة الانقلاب . اقتسام السلطان . الشعب القرطبى . شخصية المهدى . اضطهاده البربر . تحامل العامة عليهم . نفى المهدى للفتيان العامريين . إخفاؤه للخليفة هشام وادعاؤه بوفاته . عيثه وطغيانه . هشام بن سليمان . سعيه إلى خلع المهدى . القتال بين الفريقين . هزيمة هشام ومصرعه . تحريض المهدى على البربر والفتك بهم . مسيرهم إلى قلعة رباح . يرشحون سليمان بن الحكم للخلافة . استنصارهم بسانشو غرسية أمير قشتالة . الحرب بينهم وبين الفتى واضح . هزيمته وفراره . تأهب المهدى للدفاع . مسير البربر وحلفائهم النصارى إلى قرطبة . موقعة قنتش . هزيمة القرطبيين وتمزيق جموعهم . المهدى يظهر الخليفة هشام . فشل محاولته وفراره . مبايعة سليمان بن الحكم . المهدى وواضح يدبران محاولة جديدة . استنصارهما بأميرى برشلونة وأورقلة . مسير المهدى وحلفائه الفرنج إلى قرطبة . اللقاء بينهم وبين البربر . هزيمة البربر وفرار سليمان . تجديد البيعة للمهدى. مسيره لمطاردة البربر . هزيمته وارتداده إلى قرطبة . استعداده للدفاع . الوحشة بينه وبين واضح . ائتمار الفتيان به ومقتله . عود هشام المؤيد إلى الخلافة . واضح يتولى الحجابة . تمسك البربر بولاية سليمان . مسير البربر إلى الزهراء واحتلالها . عيثهم بأراضى قرطبة . هشام يقدم الحصون الأمامية لأمير قشتالة . حصار البربر لقرطبة . واضح يحاول الفرار . ضبطه ومقتله . ابن وداعة وابن مناو . هشام يحاول استرضاء البربر وسليمان . فشل المحاولة . اشتداد الحصار على قرطبة . مقتل حباسة بن ماكسن . هياج البربر . القتال بينهم وبين أهل قرطبة . هزيمة القرطبيين . اقتحام البربر للمدينة والفتك بأهلها . سليمان المستعين يسترد الخلافة . مصير هشام المؤيد . سليمان يتلقب بالظافر . تفكك عرى الدولة . توزيع الكور بين زعماء البربر . خلال سليمان وشعره .

تربع محمد بن هشام الملقب بالمهدى على كرسى الخلافة ، مكان الخليفة هشام المؤيد ، فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩م) ، وانقضى عهد السلطة الثنائية – سلطة الخليفة الشرعى الإسمية ، وسلطة حاجبه والمتغلب عليه الفعلية – ليفسح مجالا لعود السلطة الموحدة . ولكن الظروف التى وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم ، الذى أودى بين عشية وضحاها ، بسلطان دولة من أعظم الدول الأندلسية ، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وأن تستقر ؛ فقد كان الخليفة الجديد ، شخصية مغامرة رخوة ، تحركها النزعات الوضيعة ، ولا تحدوها أية غاية مثلى ، وقد أطلقت سائر الأهواء المتوثبة من عقالها ، وأخذ كل حزب وكل فريق وكل طائفة ، تحاول أن تحصل نصيبها من

أسلاب الدولة المنهارة . فقد كان هناك المروانية أو بنو أمية ، يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية ، وأصحاب التراث المتخلف عن مغتصبيها ، بنى عامر ؛ وكان هناك الفتيان العامريون ، وأنصارهم من الصقالبة ، ومن إليهم من الجند المرتزقة ، وقد كانوا أولياء الدولة العامرية ، وكانوا من حيث العدد والعصبية قوة يعتد بها ؛ وكان هناك البربر ، وقد كانوا عماد الجيش العامرى ، وكان عددهم قد تضاعف فى أواخر أيام المنصور وبنيه ، وتوافد كثير من زعمائهم إلى شبه الجزيرة ؛ ثم كان هناك أخيراً الشعب القرطبى ، أو بعبارة أخرى كتلة العامة والدهماء الذين آزروا الخليفة الجديد والتفوا حوله ، وقد كانوا قوة خطرة متقلبة ، كثيرة الأهواء والنزعات ، لا تؤمن عواقبها .

استقبل الشعب القرطبى ، ولاية الخليفة الجديد ، بمظاهر السرور والرضى ، وأقاموا الحفلات والولائم ، وظنوا أنهم قد أفلتوا من أغلال النظام العامرى المرهق ، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً ، وأوسع آفاقاً ، وما دروا أن القدر يتربص بهم ، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة ، عهداً مليئاً بالمحن والأحداث المؤلمة .

والواقع أن الخليفة الجديد لم يكن رجل الموقف ، ولم تكن جرأته التى تذرع بها لانتزاع السلطة من هشام المؤيد ، والقضاء على سلطان بنى عامر ، جرأة زعيم مقدام يقدر المسئوليات التى أخذها على عاتقه ، ولكن جرأة مغامر متهور ، وزعيم عصابة غير مسئولة ، التفت حوله جموع الدهماء الصاخبة ، دون وعى ولا تدبر ، شأنها دائماً فى كل انقلاب وكل حدث جديد . ومن ثم فإنه ما كاد يشعر باستقرار أمره ، وتمكن سلطانه ، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه ، وجمع حوله بطانة سوء ، أخذت تتنكر للناس ، وتضطهدهم ، وتسومهم سوء الخسف ؛ وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة ، وكان المهدى ورجاله يخصون البربر بالبغض والزراية ، لأنهم كانوا عضد المنصور ، وسند نظامه الحديدى ، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدى فى هذه العاطفة ضد البربر ، وينظرون إليهم شزراً .

وبدا سخط المهدى نحو البربر فى سوء معاملتهم ، والتشدد فى دخولهم القصر ، فكانوا يمنعون من الركوب عند الدخول ، وينزع سلاحهم ، ويوجه إليهم قارص

الكلام ، ولم يفرق فى ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم ، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة صنهاجة ، زاوى بن زيرى بن مناد ، عند مقدمه إلى القصر ، مع جماعة من رجاله ، ردوا عند الباب بفظاظة ، وأهينوا ، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً .

وسرت إلى العامة عندئذ ، موجة من التحامل ضد البربر ، فهاجمت بعض جموعهم دور البربر فى ضاحية الرُّصافة ، ونهبوا بعضها ، وبادر صاحب المدينة بضبط الحال ورد الغوغاء ، وقتل ثلاثة منهم . وأسرع زاوى بن زيرى ، وحبوس بن ماكسن ، وأبو الفتوح بن ناصر ، وغيرهم من زعماء البربر بالدخول على محمد بن هشام ، وأخبروه بما وقع ، فاعتذر لهم ، ووعدهم برد ما نهب ، وقتل عدد من الغوغاء ، ولكن البربر لم تهدأ ثائرتهم ، وبقيت نفوسهم على اضطرامها .

وكان من أعمال العنف التى قام بها محمد بن هشام ، أن نفى عدداً من الفتيان الصقالبة العامريين . فغادروا قرطبة ، ولجأوا إلى أطراف الأندلس الشرقية ، وكان من تملكهم لبعض نواحيها ومدنها ما سنذكر فى موضعه . ولم يقبل منهم على مسالمة محمد بن هشام ومصادقته ، سوى الفتى واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط ، فإنه بعث إليه كتاباً يؤكد فيه طاعته ، ويبدى ابتهاجه بمصرع عبد الرحمن المنصور ، فرد عليه المهدى بالشكر ، وبعث إليه أموالا ومتاعاً ، ومرسوماً بولاية الثغر كله .

وعمد محمد بن هشام بعد ذلك إلى مطاردة الخليفة هشام المؤيد ، فحبسه فى القصر أولا ، وأخرج جواريه وفتيانه ، ودوابه المحبوبة ؛ ثم أخرجه بعد ذلك من القصر ، وأخفاه فى بعض منازل قرطبة . وتوفى فى ذلك الوقت رجل نصرانى أو يهودى ، قيل إنه كان يشبه هشاماً شبهاً قوياً ، فأعلن محمد بن هشام وفاة الخليفة ، وأحضر الوزراء والفقهاء فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حتماً . ودفن هذا الخليفة المزعوم فى اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ[1] .

ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له ، أطلق العنان لأهوائه وشهواته الوضيعة ، وانكب على معاقرة الخمر ، وبالغ فى الاستهتار والمجون ، والمجاهرة بالفسق والفجور ، بصورة مثيرة أفقدته عطف الكثيرين واحترامهم ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٧ ؛ و ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢ .

وبطش بكثير من الناس ، وفى مقدمتهم ولى عهده سليمان بن هشام ، فقد سجنه وسجن معه جماعة من قريش ، وأخرج من الجيش نحو سبعة آلاف جندى ، أقيلوا وقطعت أرزاقهم ، وأضحوا عنصراً من عناصر التوتر والشغب ؛ وزاد فى التحامل على البربر ، والتعريض بهم والطعن فيهم ، فى كل فرصة وموطن ، حتى أصبح بغضه لهم ، وتربصه بهم ، من الأمور الذائعة ، وأخذ كل فريق يحترز من صاحبه ، ويتوقع منه الشر والغدر .

وكان هشام بن سليمان بن الناصر ، وهو والد سليمان ولى العهد المعتقل ، قد وجد على محمد بن هشام من جراء انحرافه وطغيانه ومجونه ، وخشى سوء العاقبة على بنى أمية ، وانهيار أمرهم ، فأخذ يسعى فى خلع محمد بن هشام ، وانضم إليه جماعة من الناقمين عليه ، وفى مقدمتهم جماعة العبيد العامريين ، وطوائف البربر ، ومن تغيرت نفوسهم على محمد بن هشام ، وحاصر الثوار محمد بن هشام فى قصره ، فبعث إلى هشام القاضى ابن ذكوان ، وأبا عمر بن حزم ، يعاتبانه على تصرفه ، وأمر بالإفراج عن سليمان بن هشام ، ووقع بين الرسولين وبين هشام حوار شديد ، أعلن فيه أنه أحق من محمد بالعرش ، فانصرفا عنه . والتفت العامة من الربض الغربى حول محمد ؛ وخرج محمد المهدى فى جموعه لمقاتلة خصومه ، ودار القتال بينهما يومين متواليين ، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه من البربر والعامريين ، وأسر هشام وابنه وأخوه أبو بكر ونفر من الزعماء ، قتلهم المهدى جميعاً (١) . وانثالت الدهماء على دور البربر ، فأعملت فيها التدمير والنهب حتى دخل الليل ، وكان ذلك فى أواخر شوال سنة ٣٩٩ هـ (يونيه سنة ١٠٠٩ م) .

ودافع البربر عن أنفسهم ، ثم انسحب معظمهم إلى أرملاط (٢) ضاحية قرطبة ، ووقع القتال بقرطبة بين من تبقى منهم وبين العامة ، وحرض المهدى على قتلهم ، وجعل لرؤوسهم أثماناً ، ففتك العامة بكثير منهم ، ومن بينهم عدة من الزعماء ، ونهبوا دورهم ، واغتصبوا النساء وسبوهن ، كل ذلك فى مناظر مثيرة من السفك والاعتداء الغاشم ؛ واختفى كثير من زعمائهم . وتوجس المهدى من العواقب ، فأصدر للبربر أماناً ، ونادى الكف عنهم ، ونصحهم بتغيير زيهم اتقاء

---

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) وهى بالإسبانية Guadimellato

الأذى ، وكتب إلى البربر فى أرملاط أماناً ، فلم يلتفتوا إليه ، وغادروا أرملاط وساروا شمالا إلى قلعة رباح ، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم ويتدبرون أمرهم .

وكان ممن فر من بنى أمية عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه ، ولد أخيه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وكان إماماً للبربر ، فسار معهم ، ورشحوه منذ البداية لتولى الأمر مكان المهدى ، ولقبوه بالمستعين. وكان سانشو غرسية أمير قشتالة يرقب تطور الحوادث فى قرطبة باهتمام ، متأهباً لمظاهرة الفريق الخارج على الآخر ، ففاوضه سليمان وزعماء البربر فى طليطلة على أن يمدهم بالجند ، وتعهدوا إليه بتسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود ، فقبل معاونتهم ؛ وفى أثناء ذلك حاول الفتى واضح صاحب مدينة سالم أن يعرقل مسير البربر ، فأمر مدن الثغر أن تمنع المؤن عن البربر ، ولقوا من جراء ذلك شدة وإرهاقاً . وأمده المهدى ببعض قواته بصحبة غلامه بليق ، فجمع جموعه وسار لقتال البربر ، ولجأ البربر من جانبهم إلى حليفهم سانشو ، فأمدهم بالجند والمؤن الوفيرة . والتقى البربر وجيش واضح فى مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية Alcalá de Henares فهزم واضح هزيمة شنيعة ، واستولى البربر على محلته وسلاحه ، وفرت فلوله صوب قرطبة . وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ (١).

وارتاع المهدى لتلك الهزيمة ، وأخذ فى تحصين قرطبة ، وحفر حول فحص السرادق ، وهو محلة البربر خندقاً ، ورتب الرجال على الأبواب والأسوار ، وأخذ ينظم قواته النظامية ومن العامة . وكان واضح قد أتاه منهزماً فى أربعمائة فارس من الثغر ، انضمت إلى قواته . وسار سليمان بن الحكم من جهة أخرى فى جموع البربر ، ومعها القوات القشتالية بقيادة سانشو غرسية ، صوب قرطبة ، وعسكروا بشرقها فى سفح جبل يعرف بجبل قنتج أو قنتش وذلك فى يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ . وبرز واضح فى جموعه من أهل قرطبة والثغر ، واشتبك الفريقان فى القتال يوم السبت ١٣ ربيع الأول (٥ نوفمبر ١٠٠٩ م) ، واضطرمت بينهما معركة شديدة ، وسرعان ما دب الخلل إلى جيش قرطبة ، فارتد منهزماً إلى الوادى ، وتبعه البربر بعنف . فضاقت بهم المسالك ، وقتل منهم عدد جم

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٧ .

يقدره البعض بعشرة آلاف ، بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة ، وقتل النصارى وحدهم نيفاً وثلاثة آلاف رجل ، وثبت واضح فى رجاله حتى دخل الليل ، فانسل تحت جنح الظلام وفر هارباً إلى الثغر (١) .

ولما رأى المهدى هزيمة جنده ، سقط فى يده ، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة سخيفة ، يدفع بها دعوى سليمان ، فأظهر الخليفة هشاماً المؤيد ، وكان قد أخفاه حسبما تقدم ، وزعم أنه مات ، وأجلسه فى مكان بارز فى شرفة القصر ، وبعث القاضي ابن ذكوان إلى البربر ، يخبرهم أن الخليفة هشاماً ما زال على قيد الحياة ، وأنه الإمام الشرعى ، وليس المهدى سوى نائبه وصاحبه ، فرده البربر بجفاء وسخرية ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان . ولم ير المهدى أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته ، فغادر القصر سراً ، واخترق قرطبة متنكراً ، ولحق بطليطلة . ودخل زاوى بن زيرى زعيم البربر القصر ، ودخل سليمان بن الحكم فى أثره فى يوم الإثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربعمائة ، وبايعه الناس بالخلافة ، وتلقب بالمستعين بالله ، واستقبله الشعب القرطبي القُلَّب بحماسة ، شأنه مع كل متغلب وظافر (٢) . ووكل سليمان بعض الفتيان الصقالبة بالمحافظة على هشام المؤيد فى بعض أجنحة القصر ، ونزل البربر فى الزهراء اتقاء للاحتكاك مع العامة . ومع ذلك فقد كانت حوادث الاعتداء تتوالى عليهم فى دروب قرطبة وأزقتها . وكان من أول أعمال سليمان أن أمر بإنزال جثة عبد الرحمن بن المنصور عن خشبتها ، فغسلت ودفن فى دار أبيه ؛ ووفد سانشو غرسية إلى القصر ، فاستقبل بحفاوة وخلع عليه وعلى أصحابه ، ثم عاد إلى معسكره ، ووعده البربر بتسليم الحصون التى تعهدوا بتسليمها متى استقر سلطانهم ، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك من جنده مائة أنزلوا فى ربض منية العقاب .

أما محمد المهدى فما كاد يصل إلى طليطلة ، حتى أخذ يدبر أمره من جديد ، وكانت الثغور ما تزال باقية على طاعته ودعوته ، وانضم إليه واضح وأخذ الأمر بيده . ولما علم سليمان بما يدبره المهدى وواضح ، خرج فى قواته من قرطبة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ ؛ ويقول ابن الخطيب إن النصارى قتلوا من أهل قرطبة ثلاثين ألفاً ، وهو رقم يحمل طابع المبالغة (أعمال الأعلام ص ١١٣) .

(٢) الذخيرة لابن بسام . المجلد الأول القسم الأول ، ص ٣٠ و ٣١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٨٩ و ٩٠ .

وصار صوب طليطلة ، ثم دعا أهلها إلى طاعته ، فأبوا . وانصرف سليمان بقواته إلى مدينة سالم ، فلقى نفس الفشل فى استمالة أهلها ، فارتد عندئذ إلى قرطبة اتقاء لأهوال الشتاء (أواخر شعبان سنة ٤٠٠ هـ) . وفى خلال ذلك كله كان الفتى واضح قد سار إلى طرطوشة من ثغور الثغر الأعلى ، واتصل بأمير برشلونة الكونت رامون بوريل وزميله أمير أورقلة الكونت أرمنجو ، واتفق معهما على أن يمداه بجيش لمقاتلة البربر فى قرطبة ، فقبلا معاونته بشروط باهظة ، من تقديم الطعام والشراب ، وأن يتناول كل منهما فى اليوم مائة دينار ، وأن يتناول كل جندى دينارين فى اليوم ، وأن يستولى الجند النصارى على ما يغنمونه من سلاح البربر وأموالهم ، وأخيراً أن يستولوا على مدينة سالم ، وقد احتلوها بالفعل فى طريقهم إلى طليطلة ، بعد أن أخلاها واضح من المسلمين[١] .

وسار الجيش الفرنجى برفقة واضح إلى طليطلة ، حيث انضم إليه المهدى فى قواته ، وسارت القوات المتحدة صوب قرطبة . وكان سليمان المستعين قد وقف على أهبة خصومه ، ووفرة القوات الزاحفة عليه ، فاستنفر الناس لنصرته ، فلقيت دعوته فتوراً ، فحشد ما استطاع من جموعه ، وخرج مع البربر لملاقاة خصومه . وكان اللقاء على قيد نحو عشرين كيلومتراً من شمالى قرطبة فى مكان يعرف « بعقبة البقر » ، وذلك فى منتصف شوال سنة ٤٠٠ هـ (أواخر مايو سنة ١٠١٠ م) ، واحتل البربر بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى المقدمة ، ورابط سليمان بقواته فى المؤخرة . واقتتل البربر مع الفرنج قتالا شديداً ، قتل فيه كثير منهم ، وفى مقدمتهم الكونت أرمنجو (وتسميه الرواية العربية أرمقند) ، ولكن جانباً من فرسان الفرنج اخترقوا صفوف البربر ، فظن سليمان أن الهزيمة وقعت بهم فارتد منهزماً وكشف بذلك مؤخرة البربر ، فلما رأى البربر فرار سليمان بقواته ، ارتدوا لفورهم نحو الزهراء ، فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها إلى الجنوب مسرعين ، وفر سليمان فى بقية من صحبه شرقاً صوب شاطبة . وفى اليوم التالى دخل واضح ومحمد المهدى قرطبة ، وجدد المهدى البيعة لنفسه وعين واضحاً لحجابته[٢] .

واعتزم المهدى أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعته . فجمع الأموال

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ ؛ والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٢ .

من أهل قرطبة ، وأعطى الفرنج أعطياتهم ، وحشد كل ما استطاع من قواته ، وخرج لمطاردة البربر . وكان البربر قد وصلوا عندئذ إلى « وادى آره » أو وادى يارو[١] . على مقربة من مربلة فى طريقهم إلى الجزيرة الخضراء . وكان جيش المهدى يتكون من نحو ثلاثين ألف من المسلمين ، وتسعة آلاف من الفرنج . وهناك التقى الجمعان ، واشتبكا فى معركة طاحنة ، دارت فيها الهزيمة على المهدى وحلفائه ، وقتل من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد جم ، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم ومتاعهم[٢] ، ووقعت هذه الموقعة ، فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ (يونيه ١٠١٠ م) ، وعلى أثرها ارتد المهدى إلى قرطبة ، وهنالك غادره حلفاؤه النصارى عائدين إلى بلادهم . وسار البربر جنوباً إلى ناحية ريُّه ، وهنالك لحق بهم سليمان المستعين بمن معه . وأخذ الفريقان يدبران معاً استئناف الصراع للاستيلاء على قرطبة .

وعكف المهدى على تحصين قرطبة ، وحفر حولها خندقاً ، أقيم وراءه سور ، وأخذ يستعد للدفاع ، ويحشد الجند توقعاً لمعاودة البربر الكرة . وكانت جموع من البربر فى أثناء ذلك تغير على نواحى قرطبة من آن لآخر . وفى أثناء ذلك كان واضح قد ضاق ذرعاً بتصرفات المهدى وحماقاته ، وسوء خلقه من عكوف على الشراب والمجون . وكان الفتيان العامريون وفى مقدمتهم واضح جميعاً ينقمون على المهدى ما فعله بهشام المؤيد ، وبنى عامر ؛ وكان قد وصل إلى قرطبة جملة منهم من شاطبة ، وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر ، فأتمروا على الغدر بالمهدى ، وأخرجوا هشاماً من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ونادوا بولايته ، وأتوا بالمهدى بين يديه ، فضرب عنقه ، واحتز رأسه ، وألقى بجسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها فى الشوارع ، ووقعت هذه الجريمة فى الثامن من ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ (٢٣ يوليه ١٠١٠ م)[٣] .

وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة ، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث المثيرة ، وكان يومئذ كهلا فى نحو السابعة والأربعين من عمره ، وكان قد مضى

---

(١) وبالإسبانية Ouadiaro

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٣ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦ ؛ والذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٠ .

عليه مذ ولى الخلافة صبياً لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً ، وفى تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الجسام ، لم تشهد مثلها من قبل : شهدت قيام الحاجب المنصور ودولته العامرية ، واختفاء سلطة الخلافة ، فى ظل نظام الطغيان المرهق الذى فرضه بنو عامر ، ثم شهدت الثورة الغامرة التى أطاحت بالدولة العامرية وعود الخلافة الأموية فى ثوبها الباهت المهلهل ، على يد مغامرين مثل محمد بن هشام المهدى ، وسليمان المستعين ، وشهدت وفاة هشام المزعومة ، ثم بعثه ، وعوده إلى تولى الخلافة ، شبحاً من أشباح الماضى ، وألعوبة فى يد واضح وزملائه الفتيان العامريين ، أصحاب الحول والسلطان ، بعد ابتعاد البربر ومصرع المهدى .

وتولى واضح بالطبع منصب الحجابة للخليفة الذى اصطنعه ، وسكنت الفتنة ، وهدأت الخواطر نوعاً ، وبعث الخليفة برأس المهدى إلى سليمان المستعين وحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته ، وأخذ يظهر فى شوارع قرطبة خلافاً لما كان عليه فيما مضى ، إظهاراً لهيبة الخلافة وسلطانها . ولكن البربر لم يقبلوا دعوته ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان ، وكان البربر فى الواقع يضطرمون حقداً على أهل قرطبة لما أصابهم منهم من أنواع النكال ، ويزمعون الانتقام منهم بكل وسيلة . وحاول سليمان والبربر أن يحصلوا مرة أخرى على معاونة سانشو غرسيه أمير قشتالة ، وعرضوا أن يسلموه سائر الحصون الأمامية التى افتتحها الحكم والمنصور ، إذا ارتضى محالفتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة ، وخلع المؤيد ، ولكن سانشو لم يصغ إليهم فى تلك المرة ، معتزماً أن يوجه مطالبه إلى الخليفة القائم . وعندئذ عول البربر على السير إلى قرطبة ، فسارت جموعهم حتى وصلت إلى الزهراء غربى قرطبة ، فهاجموها وقتلوا معظم الجند الذين بها ، واحتلوها وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، واستمروا بها بضعة أشهر حتى أواخر شعبان من تلك السنة ، ثم زحفت جموعهم على أرباض قرطبة ، يعيثون فيها تخريباً ونهباً وقتلا ، ويجتنبون الاشتباك مع جند واضح ، وضج أهل قرطبة لهذا الاعتداء ، وزادت نفوسهم حقداً على البربر ، وتحرقاً للانتقام منهم ، وانتشرت جموع البربر فى نفس الوقت جنوباً ، حتى وصلت إلى أحواز غرناطة ومالقة وهى تنشر الخراب والدمار أينما حلت .

وفى تلك الأثناء وصل سفراء سانشو غرسية أمير قشتالة إلى قرطبة ، يطالبون بالحصون الواقعة على الحدود ، والتى افتتحها المسلمون منذ أيام الحكم حتى نهاية عهد بنى عامر . ولم ير هشام وواضح بداً من إجابة سانشو إلى طلبه ، اتقاء لعدوانه من جهة ، واتقاء لتحالفه مع البربر من جهة أخرى . وعقد مجلس من الفقهاء والقضاة ، وكتب محضر رسمى بتسليم عدد كبير من الحصون إلى النصارى ، يقال إنها أربت على المائتين[1] ، ومنها معاقل هامة ، كانت قواعد أمامية للمسلمين ، مثل شنت إشتيبن ، وقلونية ، وأوسمة ، وغرماج وغيرها ، وخسرت الأندلس بذلك خط دفاعها الأول ، وتركت حدودها الشمالية مفتوحة لغزوات النصارى .

واستمر البربر على حصارهم لقرطبة ، وعيثهم فى أرباضها الخارجية ، وكانت الحالة تسوء من يوم إلى يوم ، وكان الناس فى قرطبة ، جيشاً وشعباً ، يزمعون مقارعة البربر ، والقضاء عليهم بكل ما وسعوا ، ويرفضون كل رأى أو مسعى يتجه إلى مسالمتهم أو التفاهم معهم ، ولم يجد المؤيد وواضح بداً من الانسياق مع التيار العام ، واتخاذ كل وسيلة ممكنة للدفاع عن المدينة ، ولكن الموارد كانت تقل يوماً عن يوم ، حتى اضطر المؤيد إلى إخراج سائر نفائس القصر وتحفه ورياشه ، ليقتنى بثمنها الخيل والسلاح ، وفضلا عن ذلك فقد أرهق القرطبيون بالمطالب والمغارم حتى ضاقوا ذرعاً ؛ وأخيراً شعر واضح بأنه يواجه حالة مستحيلة ، واعتزم أن يغادر قرطبة سراً ، إلى بعض نواحى الثغر ، ولكن بعض أكابر الجند وقفوا على مشروعه ، فنهض أحدهم ، وهو على بن وداعة مع نفر من زملائه ، فعاتبوه على ما بدد من الأموال ، وما أساء من تصرف ، ثم قتلوه واحتزوا رأسه ، وطيف بها فى الشوارع ، ونهبت دوره ودور أصحابه ، فوجد بها مال كثير معبأ كان يعتزم الفرار به . وهكذا كفر واضح بدمه عن جريمته فى اغتيال المهدى ، وهكذا أضحت الجريمة وسيلة ذائعة فى بلاط قرطبة ، لاقتناص السلطان أو التخلص من صاحبه[2] .

وعلى أثر ذلك ولى المؤيد ابن وداعة شرطة المدينة ، فاستعمل الحزم والشدة ، فى قمع الشغب وصون النظام والأمن ، فهابته العامة ، وقلت حوادث الشغب ، وتولى تدبير الأمور للمؤيد رجل من موالى العامريين يسمى ابن مناو ؛ ثم جاءت

---

(١) أعمال الأعلام ص ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٣ و ١٠٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٧ و ١١٨ .

إلى قرطبة كتب من أهل الثغور يعتذرون فيها عن عجزهم عن إرسال الأمداد ، وينصحون المؤيد إما بمصالحة البربر ، أو التفاوض مع أمير قشتالة ؛ فكتب هشام إلى زاوى بن زيرى يحثه على عقد الصلح ، ويعده بما شاء من مال أو ولاية ، فرد زاوى بأنه لايستطيع مخالفة أصحابه ، وأنه مع ذلك لايدخر وسعاً فى العمل لتأليف كلمة المسلمين وحقن الدماء[1] .

ثم بذلت محاولة مماثلة لدى سليمان بن الحكم والبربر ، إذ كتب أهل قرطبة على لسان هشام وابن مناو كتابين ، وجه أحدهما من هشام إلى سليمان ، وفيه يرجو العمل على إخماد الفتنة ، وتسليم الأمر إليه ، وعلى أن يغدو سليمان ولى عهده والقائم بأعباء الخلافة عنه ، ووجه الثانى من وزراء قرطبة إلى وزراء البربر ، فلم يحفل سليمان بكتاب هشام ، وقال للرسل بل إنه هو أمير المؤمنين والخليفة ، وأنه لا يعترف لهشام بصفة ما .

كل ذلك والأمر يشتد على أهل قرطبة . ودخل الوزراء ووجوه الجند والفتيان على هشام ، وكشفوا له خطورة الحالة ، واشتداد ضغط البربر على المدينة وأرباضها ، وتفاقم الضيق والغلاء ، وقصور الثغور عن إنجاد المدينة ، وكون الشعب منقسم على نفسه ما بين راغب فى الكفاح ، وراغب فى الصلح ، فبكى هشام فيما قيل ، واعتذر لعجزه وقصوره ، وقال لهم افعلوا ما ترون .

وعجل باضطرام النار حادث وقع فى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٢ هـ ، إذ تقدم جماعه من وجوه البربر وفى مقدمتهم حباسة بن ماكسن ابن أخى زاوى ، وكان من أشجع قادة البربر ، ومعه جماعة قليلة من الفرسان ، ونزلوا فى بقعه قريبة من الأسوار ، فرآهم أهل قرطبة من وراء الخندق ، فاجتمع منهم عدد عظيم ، وانقضوا على حباسة وصحبه ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً ، ولكنهم غلبوا فى النهاية على أمرهم ، وأسر حباسة ، فلماعرفه القوم قتلوه بوحشية ، وقطعوا جسده إرباً لعظيم حقدهم عليه ، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته ، فلما وقف أخوه حبوس وعمه زاوى على الخبر ، اضطرب البربر ، واستعدوا للقتال ، وفى اليوم التالى اشتبكوا مع أهل قرطبة فى عدة معارك ، وفتكوا بكثير منهم ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧ و ١٠٨ .

واستمرت المعارك من ذلك الحين بين الفريقين سجالا ، وأهل قرطبة يخرجون من المدينة مرة بعد أخرى ، ويقاتلون البربر محاولين تحطيم الحصار المرهق ، والبربر من جانبهم ينزلون بهم أشد الضربات . وفى ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣ م) نشبت بين الفريقين معركة عامة ، وقاتل أهل قرطبة قتالا شديداً ، ولكنهم هزموا بعد معارك طاحنة ، وقتل منهم عدد جم ، وساد الاضطراب أرجاء المدينة ، وفتحت أبوابها ؛ وخرج القاضى ابن ذكوان مع جماعة من الفقهاء وساروا إلى معسكر البربر ، وطلبوا الأمان من سليمان وزعماء القبائل البربرية ، فمنح الأمان لقاء مبالغ عظيمة فرضت على المدينة ، ودخل البربر المدينة دخول الوحوش المفترسة ، فقتلوا كثيراً من سكانها ، ولم يفروا الأطفال والشيوخ ، وأوقعوا بها السلب والنهب ، وأحرقوا الدور ، واغتصبوا النساء والبنات ، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم ، وكانت محنة من أروع ما قاسته عاصمة الخلافة .

وفى اليوم التالى دخل سليمان المستعين قصر قرطبة ، واستدعى هشاماً المؤيد وعنفه على موقفه ، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره . وهنا تختلف الرواية فى مصير هشام ، فالبعض يقول إن سليمان أخفاه حيناً ، ثم قتله ولده محمد بن سليمان ، والبعض الآخر بأنه فر من محبسه ، وقصد إلى ألمرية حيث عاش حيناً فى خمول وبؤس حتى توفى . بيد أننا نرجح الرواية الأولى ، وإن كان اسم هشام سوف يظهر بعد ذلك على مسرح الحوادث .

ولما استتب الأمر لسليمان ، وهدأت الخواطر نوعاً ، تلقب بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين ، وانتقل إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواد البربر وجندهم ، فاحتلوها وما حولها ؛ ونزل على والقاسم ابنا حمود قائدا فرقة العلوية بشقندة ضاحية قرطبة ، وأخذ سليمان ينظم شئون الحكومة المضطربة . وكانت الفوضى قد سرت إلى جميع النواحى ، وتفككت عرى الدولة ، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها ، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش ، على السلطة الحقيقية ، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة ، وسائر المناصب الهامة ؛ ورأى سليمان إرضاء لهم من جهة ، وإبعاداً عن قرطبة من جهة أخرى ، أن

---

(١) راجع فى سقوط قرطبة ومصير هشام ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١ ؛ وابن الأثير ، ج ٩ ص ٧٥ والمراكشى ص ٢٢ – ٢٥ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١٢ و ١١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٨ – ١٢٠ .

يقطعهم كور الأندلس ، وكانوا ست قبائل رئيسية ، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعماؤها بنى زيرى ، ولاية إلبيرة (غرناطة) ، وأعطى مغراوة جوفى البلاد ، وبنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها ، وبنى دُمَّر وازداجة منطقة شذونة ومورور ؛ وأقر المنذر بن يحيى التجيبى على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان قد انضم إلى سليمان ، وحارب مع البربر من أجل قضيته ، وولى بنى حمود الأدارسة ثغور المغرب ، فولى علياً بن حمود على ثغر سبتة ، وأخاه القاسم بن حمود على ثغور الجزيرة الخضراء ، وطنجة وأصيلا ، وهكذا سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى ، وأخذوا يحتلون فى شئونها مكانة لها خطرها(١) .

وكان الفتيان العامريون لما رأوا غلبة البربر على حكومة قرطبة الجديدة ، قد توجسوا من غدرهم ، وفر معظمهم إلى شرقى الأندلس ، بعيداً عن سلطان الحكومة المركزية ، وأنشأوا هنالك فى القواعد الشرقية ، حكومات محلية حسبما نذكر بعد .

وقضى سليمان المستعين فى الحكم للمرة الثانية نحو ثلاثة أعوام ، استمرت خلالها حال الاضطراب والفوضى فى قرطبة وسائر أنحاء الأندلس . ولم تهدأ الخواطر ولم تطمئن النفوس . وغلب سلطان البربر ، واشتد طغيانهم وتحكمهم ، ولبثت الأهواء المتوثبة تجيش فى صدور الطامعين من زعمائهم ، حتى تمخضت غير بعيد عن انقلاب جديد فى مصاير الخلافة .

وكان من أبرز صفات سليمان ، مواهبه الأدبية الرفيعة ، فقد كان أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، قال فيه ابن بسام إنه «أحد من شَرَّف الشعر باسمه ، وتصرف على حكمه» وأورد له القصيدة الآتية ، وهى الوحيدة التى عثر بها من نظمه ، وفيها يعارض قطعة الرشيد «ملك الثلاث الآنسات عنانى» وفيها تبدو براعته ورقة خياله :

عجباً يهاب الليث حدّ سنانى	وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيباً	منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى	زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لُحن لناظرى	من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال ، وتلك بنت المشترى	حسناً وهذى أخت غصن البان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ — ١١٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٩ .

حاكمت فيهن السلو إلى الصبا ... فقضى بسلطان على سلطانى
فأبحن من قلبى الحمى وتركننى ... فى عز ملكى كالأسير العانى
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ... ذل الهوى عزٌّ وملك ثانى
ما ضر أنى عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفاً بهن فلست من مروان
وإذا الكريم أحب أمّن إلفه ... خطب القلى وحوادث السلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهل الهوى ... عاش الهوى فى غبطة وأمان[١]

(١) ابن بسام فى الذخيرة . المجلد الأول القسم الأول ص ٣٣ و ٣٤ ؛ والمراكشى ص ٢٥ .

الفصل الثاني

دولة بنى حمـــود

ظهور البربر فى الميدان . على والقاسم ابنا حمود . بنو حمود ونسبتهم . ولاية الثغور بين البربر والفتيان العامريين . استيلاء البربر على قرطبة باسم سليمان . خيران العامرى ينتزع المرية ويدعو للمؤيد . على بن حمود يزعم أنه تلقى ولاية العهد من هشام . تحالفه مع خيران وعبوره إلى الجزيرة . مسير القوات المتحالفة إلى قرطبة . القتال بينها وبين البربر . هزيمة البربر وسليمان . على بن حمود يدخل القصر . اشتداده فى معاملة البربر . خيران يخرج عليه ويدعو لعبد الرحمن المرتضى . انضمام الثغور الشرقية وسرقسطة لهذه الدعوة . القتال بين المرتضى وصنهاجة . انتصار البربر ومقتل المرتضى . اضطهاد على لأهل قرطبة . مصرعه . أخوه القاسم يخلفه . جنوحه إلى سياسة اللين والتفاهم . غلبة البربر عليه . خروج يحيى بن على واستيلاؤه على الخلافة . التجاء القاسم إلى إشبيلية . خلع المعتلى وعود القاسم . اصطفاؤه للبربر . سخط أهل قرطبة . محاربتهم وهزيمتهم للبربر . مسير القاسم إلى إشبيلية ثم إلى شريش . يحيى المعتلى يطارده ويأسره . إستقرار المعتلى فى الثغور الجنوبية . رد الأمر لبنى أمية . خلافة عبد الرحمن المستظهر . وصف ابن حيان لبلاطه . عطفه على البربر . فتك القرطبيين بهم . فرار المستظهر ومصرعه . خلافة المستكفى . إضطهاده للزعماء . خلعه وفراره . يحيى بن حمود يحتل قرطبة . فتك القرطبيين بالحامية البربرية . رد الأمر لبنى أمية . بيعة هشام المعتد بالله . وزيره حكم بن سعيد . سوء مسلكه ومصرعه . خلع هشام ومصيره . الإجماع على إبطال الخلافة والتخلص من بنى أمية . استيلاء يحيى المعتلى على قرمونة . الحرب بينه وبين ابن عباد . هزيمة يحيى ومصرعه . خلافة إدريس المتأيد بالله . غزو إدريس وحلفائه لأحواز إشبيلية . الحرب بين زهير العامرى وباديس أمير غرناطة . مصرع زهير . الحرب بين ابن عباد والبربر . هزيمة ابن عباد ومقتل ولده إسماعيل . وفاة إدريس وخلافة ولده يحيى . خروج حسن بن يحيى ومبايعته بالخلافة . مقتل الوزير ابن بقنه . مصرع حسن . محاولة الحاجب نجا ومصرعه . خلافة إدريس العالى . الثورة عليه وخلعه . خلافه محمد بن إدريس المهدى . طغيانه والسخط عليه . مصرعه . خلافة إدريس السامى . عودة إدريس العالى . خلافة المستعلى . إستيلاء باديس على مالقة . حكومة بنى القاسم بن حمود بالجزيرة . إستيلاء ابن عباد على الجزيرة . إنقراض دولة بنى حمود . تفكك الأندلس وانقسامها .

لما قضى على دولة الأدرسة بالمغرب الأقصى أيام الحكم المستنصر ، ثم بعد ذلك أيام المنصور بن أبى عامر ، وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع لحكومة قرطبة ، تفرق كثير من زعمائه فى مختلف الجهات ، ولاذوا بالاختفاء ، بعيداً عن بطش السلطة الجديدة ، وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم ؛ وهاجر

عدد كبير منهم إلى الأندلس ، من البربر والمغاربة ، وانضووا تحت لواء الدولة العامرية فى أواخر عهدها ، وعاونوا فى توطيد سلطانها وتدعيم جيشها .

ولما انهارت الدولة العامرية ، وعم الاضطراب والفوضى فى قرطبة ، ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة ، التى اضطرمت حول السلطان والخلافة ؛ ولما نجح بنو أمية فى تحقيق ضربتهم الأولى على يد محمد بن هشام المهدى ، انحاز البربر للفريق المعارض ، لما نالهم من مطاردته واضطهاده ، وكانت الخصومة تضطرم فى الواقع منذ بعيد بين الأمويين والبربر ، لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عضد للمنصور ، فى اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بنى أمية . ولما فشل البربر فى محاولتهم الأولى للقضاء على رياسة المهدى ، التفوا حول خصيمه سليمان المستعين ، ليكون مرشحهم الشرعى ، ووسيلتهم إلى انتزاع السلطة ، وانتهى الصراع بين الفريقين ، آخر الأمر بانتصار البربر ، واستيلاء مرشحهم سليمان على الخلافة ، وحصولهم على نصيبهم من أسلاب السلطة ، بتولى رياسة الولايات والثغور الجنوبية .

وكان من بين الزعماء المغاربة ، الذين قادوا جموع البربر فى معركة قرطبة المظفرة ، رجلان من عقب الأدارسة ، هما على والقاسم ابنا حمُّود بن ميمون ابن حمود . ونحن نعرف أن الأدارسة يرجعون نسبتهم إلى الحسن بن على بن أبى طالب ؛ وإذاً ، فقد كان على والقاسم ، وفقاً لهذا القول ، علويين من سلالة آل البيت . وهذا ما يقوله العلامة النسابة ابن حزم ، إذ يرجع نسبة على والقاسم ، إلى إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على[1] ، ويقوله أيضاً عبد الواحد المراكشى وابن عذارى ، وابن الخطيب[2] .

بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، وهذه الأرومة العربية العريقة ، التى ينتحلها بنو حمود ، فإنهم ، إذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً ، كانوا ينتمون فى الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير ، إلى البربر ، وكان الطابع البربرى غالباً عليهم ، حتى أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ، وإنما كانوا يتكلمون باللهجة البربرية ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك فى حديثه عن على بن حمود[3] .

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٢٤ ؛ وابن عذارى فى البيان المغرب ج ٣ ص ١١٩ ؛ وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٢٨ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

وقد رأينا أن سليمان المستعين حينما استرد الخلافة ، عقب انتصار البربر على أهل قرطبة ، خص علياً والقاسم ، بولاية الثغور المغربية ، وندب علياً لحكم سبتة ، وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وذلك فى أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .

وفى الوقت الذى استولى فيه البربر ، على الولايات والثغور الجنوبية ، كان الفتيان العامريون ، منذ اضطرام الفتنة ، قد استقروا بشرقى الأندلس ، واستولى كثير منهم على الثغور الشرقية ، وفى مقدمتهم مجاهد الذى استولى على دانية والجزائر الشرقية فيما بعد ، وخيران ، الذى استولى على ألمرية ومرسية . وكان خيران حينما استولى محمد بن هشام المهدى على الخلافة للمرة الثانية ، بمؤازرة واضح والجند النصارى ، وتولى واضح منصب حجابته ، قد عاد إلى قرطبة مع نفر من الفتيان العامريين ، وانضموا إلى واضح ثم اشتركوا معه فى تدبير اغتيال المهدى ، وإعادة هشام المؤيد إلى كرسى الخلافة حسبما تقدم . وكان أولئك الفتيان يعتبرون هشاماً إمام دولتهم بعد ذهاب المنصور . فلما قتل واضح واستولى البربر على قرطبة ، وانتزع سليمان المستعين الخلافة من هشام المؤيد ، غادر خيران ومعه عدة كبيرة من الفتيان قرطبة ، اتقاء بطش البربر ، وسار إلى شرقى الأندلس ، وانضم إليه حال سيره كثير من الناقمين من بنى أمية وغيرهم ، ثم زحف على ألمرية ، وكانت بيد أفلح الصقلبى ، فانتزعها منه ، واستولى على كثير من الأماكن المجاورة ، واشتد بأسه فى تلك الناحية ، ودعا لهشام المؤيد .

وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة ، وانتثار السلطة بين الأمويين والبربر ، والفتيان العامريين ، مما يفسح المجال لأطماع الطامعين والمتغلبين ، وكانت تلك الأطماع تجيش فى الواقع ، فى صدور أولئك الذين رأوا فى ضعف السلطة المركزية ، وذيوع الخلاف والفوضى ، فرصة يمكن انتهازها . وكان على ابن حمُّود الحسنى ، قد ولى حكم سبتة ، وولى أخوه الأكبر القاسم ، حكم الجزيرة الخضراء ، لا يفصلهما سوى مضيق جبل طارق . وكان على يطمح إلى أكثر من حكم مدينة ، ويتطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية . وكان يرى فى الفتيان العامريين خصوم سليمان المستعين حلفاءه الطبيعيين ، فكاتب كبيرهم خيران صاحب ألمرية ، وأظهر كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد يوليه

فيه ولاية عهده ، ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان ؛ ويقول لنا ابن حيان ، إن هشاماً المؤيد لما رأى اضطراب أمره وتصرم دولته ، قد منح على ابن حمود ولاية عهده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده ، وأرسل إليه ذلك بسبتة سراً ، وولاه طلب دمه ، واستكتمه السر حتى يحين الأوان لذلك[1] . فذاعت دعوة على ، ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل ، عامر بن فتوح الفائقى مولى الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد ، وكان يومئذ حاكماً لمالقة . وكتب إليه خيران أن يعبر إليهم . فعبر على من سبتة إلى الجزيرة الخضراء فى أواخر سنة ٤٠٦هـ (١٠١٦ م) وسار فى أشياعه من البربر إلى مالقة ، فسلمها إليه عامر ابن فتوح ، ودعا له بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حياً ، وسار خيران فى قواته والتقى بعلى فى ثغر المنكب الصغير ، ما بين مالقة وألمرية ، فجمع الزعيمان قواتهما ونظما خطتهما للزحف على قرطبة ، وبويع على بن حمود على طاعة المؤيد . ثم سارت القوات المتحدة صوب قرطبة ، وانضم إليها خلال السير زاوى بن زيرى وحبوس الصنهاجى فى قوة من بربر غرناطة . وكان سليمان المستعين ، قد ترامت إليه أنباء أولئك الخوارج عليه ، وزحفهم لقتاله ، فخرج من قرطبة للقائهم فى جند البربر ، والتقى الفريقان فى ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، انتهت بهزيمة سليمان ، وقتل عدد جم من أنصاره ، وكان سليمان وأبوه الحكم ، وأخوه عبد الرحمن ، بين الأسرى .

ودخل على بن حمود قصر قرطبة فى الثامن والعشرين من محرم سنة ٤٠٧ هـ (أول يوليه سنة ١٠١٦ م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ، وكان الاعتقاد سائداً بأن سليمان أخفاه ولم يقتله ، فلما علم بأنه قُتِل ، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه انتقاماً للمؤيد . ثم أعلن وفاة المؤيد ، ودعا إلى البيعة لنفسه ، فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافة سليمان الثانية مذ دخل قرطبة إلى أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكانت أمه أوم لد تدعى ظبية ومولده فى سنة ٣٥٤ هـ[2] .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٤ و ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٢٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ وج ٤ ص ١٥٣ ؛ والمراكشى ص ٢٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٢٤ ، وجذوة المقتبس ص ٢٠ .

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً ، وانهارت دعائم الخلافة الأموية نهائياً ، بعد أن لبثت منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ، ستاراً للمتغلبين من بنى عامر ، ثم شبحاً هزيلا يضطرب فى غمر الفتنة والفوضى .

ولما قبض على بن حمود على زمام الحكم ، اشتد فى معاملة البربر ، وإخماد تمردهم وشغبهم ،وحماية السلطة المركزية من عدوانهم ، فهابوه ولزموا السكينة ، وقضى بمنتهى الشدة على كل نزعة إلى الخروج والعصيان ، وفتك بالمعارضين له ، سواء فى ذلك العرب أو البربر ، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة . وحاول من جهة أخرى أن يحسن معاملة القرطبيين ، وأن يقيم العدل ، ويقمع الفوضى ، وكان من معاونيه فى الحكم ، جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبى الحزم بن جهور ، وأحمد بن برد وغيرهما .

على أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن خيران العامرى ، لما دخل قرطبة مع على بن حمود ولم يجد الخليفة هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، خشى سطوة الناصر وغدره ، فغادر قرطبة ، معلناً الخلاف ، وسار إلى شرق الأندلس حيث يحتشد معظم الزعماء العامريين وأنصارهم ، وأعاد الدعوة لبنى أمية فى شخص مرشح جديد منهم ، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، باعتباره أصلح من بقى منهم ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فاستدعاه خيران وبايعه وجمع كبير من أصحابه بالخلافة ، ولقبوه بالمرتضى ، وانضم إليهم فى تلك الحركة المنذر بن يحيى التجيبى والى سرقسطة والثغر الأعلى ومعه قوة من المرتزقة النصارى ، وكذلك ولاة شاطبة وبلنسية وطرطوشة وألبونت وغيرها . وأعلن المرتضى الخلاف على الناصر ، وسار فى جموعه أولا إلى غرناطة ليحارب جيش صنهاجة القوى ، فلقيه أميرها زاوى بن زيرى فى قواته ونشبت بينهما معركة طاحنة استمرت أياماً ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل المرتضى ، وتمزق جموعه ، وسقوط معسكره فى أيدى البربر . وفى رواية أخرى أن المرتضى استطاع الفرار ناجياً بحياته ، فبعث خيران فى أثره بعض أعوانه فقتلوه على مقربة من وادى آش ، وحملوا رأسه إلى خيران . وكان خيران والمنذر قد حقدا عليه لما رأيا من حدته وصرامة نفسه ، وخشيا من غدره[1] .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ .

وسار خيران وللمنذر فيمن بقى من أصحابهما ولحقا بألمرية . وسار الإفرنج المرتزقة حلفاء المنذر إلى الشمال . قال ابن حيان « فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ماقبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأقروا بالإدبار ، وباؤا بالصغار » واستطاع أخ للمرتضى ، وهو أبو بكر هشام بن محمد ، أن ينجو من الموقعة ، فى بعض أصحابه إلى ألبونت ، حيث دعا لنفسه بالخلافة ، وأقام بها يرقب الحوادث[1] .

وتغفل معظم الروايات الإسلامية تاريخ هذه الموقعة ، ولكن الظاهر من سياق الحوادث ، ومما ذكره صاحب البيان المغرب ، أن سير المرتضى من شرقى الأندلس صوب قرطبة ، كان فى سنة ٤٠٩ هـ[2] ، وأن الموقعة حدثت فى أواسط هذا العام ، وفى خلافة القاسم بن حمود ، بعد مقتل أخيه على حسبما يجىء .

وكان على بن حمود ، حينما ترامت إليه أنباء خروج المرتضى ومسيره لقتاله ، قد انقلب على أهل قرطبة خشية من غدرهم ، ولما آنسه من ميلهم إلى المرتضى ، وعاد فأطلق يد البربر ، واشتد على أهل قرطبة ، ونزع سلاحهم ، واعتقل كثيراً من أعيانهم ، وفى مقدمتهم وزيره أبو الحزم بن جهور ، وصادر أموالهم ، وهبت على القرطبيين ريح من الإرهاب والروع فلزموا السكينة حيناً[3] .

ولكن القدر كان يتربص بعلى بن حمود ؛ ذلك أنه بينما كان يتأهب لقتال خصومه ، المجتمعين يومئذ فى منطقة جيان حول راية المرتضى ، إذ ائتمر به نفر من فتيان القصر الصقالبة من موالى بنى أمية ، وتسلل ثلاثة منهم إليه وهو فى الحمام وقتلوه ، وذلك فى الثانى من ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ (٢٣ مارس سنة ١٠١٨ م) ، وكان سنه وقت مقتله خمس وخمسون سنة ، ولم يمكث فى الخلافة سوى عام وتسعة أشهر .

فبعث زعماء زناتة إلى أخيه القاسم بنبأ موته ، وكان يكبره ببضعة أعوام ، وكان يومئذ والياً لإشبيلية ، فحضر مسرعاً ، وبويع بالخلافة فى الثامن من ذى القعدة ، أعنى لستة أيام من مقتل أخيه ، وتلقب بالمأمون ، وقبض على الفتيان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ . وذكر ابن الخطيب وحده أن الموقعة حدثت بالفعل فى سنة ٤٠٩ هـ (أعمال الأعلام ص ١٣١) .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ .

الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته . وكان يحيى بن على ، ولد الخليفة القتيل والياً على سبتة ، وولده الآخر إدريس والياً على مالقة ، فاختلف البربر فى البداية على مسألة الخلافة ، ولكن أكثرهم انضم إلى جانب القاسم لأنه غبن أولا ، وقدم عليه أخوه الأصغر .

وهكذا استتب الأمر للقاسم ، فعدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين والمسالمة ، وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان وبراءة الذمة ممن تسور على أحد ، وأسقط كثيراً من المكوس . فهدأت الخواطر ، واطمأن الناس نوعاً ، وكانت حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك إلى ذروتها ، ووقعت الحرب بين جموع المرتضى وحليفه خيران والمنذر بن يحيى التجيبى ، وبين قوى صنهاجة على مقربة من غرناطة ، وانهزم أهل الأندلس وقتل المرتضى ، وبعث زاوى بن زيرى إلى القاسم بما وقع مع سهمه من الغنائم ، ومنها سرادق المرتضى ، فسر القاسم لذلك ، وعرض سرادق المرتضى على نهر قرطبة ليراه الناس[1]. وعمد القاسم إلى استمالة خيران واستعطافه ، ولكنه بقى معتصما بألمرية ، وأقطع زميله زهيراً العامرى ولاية جيان وقلعة رباح ، محاولا بذلك أن يعقد السلم مع الفتيان العامريين ، وأن يأمن خصومتهم وكيدهم .

واتخذ القاسم بطانة من السود ، وأسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة ، ولكنه لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه ، فضعف أمره وتكاثرت الصعاب من حوله . وكان ابن أخيه يحيى بن على والى سبتة ، يرقب الفرصة للخروج عليه ، فاتفق مع أخيه إدريس والى مالقة ، على أن يتركها له ، لتكون قاعدة للعمل ، وأن يستقر إدريس مكانه فى سبتة . وأخذ يحيى يحشد أنصاره تباعاً فى مالقة حتى اجتمع له جيش قوى . وفى أثناء ذلك كان عمه القاسم يشكو أمره إلى زعماء البربر ، ولكنهم عجزوا عن التوفيق بينهما ؛ وزحف يحيى فى قواته على قرطبة ، وخشى القاسم العاقبة فآثر الانسحاب على الحرب ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية فى ٢٣ ربيع الثانى سنة ٤١٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٢٢ م) ، وضبط البربر القصر حتى مقدم أخيه يحيى .

ودخل يحيى بن على بن حمود قرطبة بعد ذلك بأيام قلائل ، فى مستهل جمادى

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٣١ .

الأولى سنة ٤١٢ هـ . وبويع بالخلافة ، وتلقب بالمعتلي بالله ، وكان في الثانية والأربعين من عمره . واستقبل البربر والأندلسيون معاً رياسته بالاستبشار والرضى . وكان المعتلي فارساً بارعاً يتحلى بخلال الفروسية ، ويجانب العصبية ، ويؤثر العدل ، ويجزل العطاء لمن وفد عليه ، أو مدحه بشعره ، فأحبه الناس ؛ وكان من وزرائه أبو العباس أحمد بن برد ، والكاتب محمد بن الفرضي ، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم ، فاستبدوا به ، وضيقوا عليه .

وكان القاسم بن حمود أثناء ذلك قد استقر في إشبيلية ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالمستعلي ، وأخذ يرقب سير الحوادث . ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه يحيى ، تهادنا واتفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه . ويعلق الفيلسوف ابن حزم على ذلك بأنه لم يسمع بخليفتين تصالحا « وهو أمر ، لم يسمع في الدنيا بأشنع منه ، ولا أدل على إدبار الأمور »(١) .

على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلا . ذلك أن البربر أعلنوا خلع يحيى المعتلي في الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى عام ونصف ، فبادر يحيى بمغادرة قرطبة إلى مالقة . وفي الحال تحرك عمه القاسم من إشبيلية تلبية لدعوة البربر ، ودخل قرطبة في الثامن عشر من ذي القعدة المذكور ، وجددت له البيعة وتسمى بأمير المؤمنين ؛

ولكن القاسم لم يوفق في سياسته أيضاً في تلك المرة . ذلك أنه اصطفى البربر ، ومكنهم من أهل قرطبة ، فاشتدوا في معاملتهم ومطاردتهم ، وضاق أهل قرطبة في النهاية ذرعاً بتلك الحالة ، فثاروا بالبربر ، واستعدوا لقتالهم ، وأعلنوا خلع القاسم ، واستمرت المعارك حيناً حتى استطاع القرطبيون إرغام القاسم على مغادرة القصر ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٢٣ م) . فانقلب البربر إلى محاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها . واستمر الحصار خمسين يوماً ، والمعارك في كل يوم تتجدد ، وأخيراً خرج القرطبيون واشتبكوا مع البربر في معركة كبيرة حاسمة ، وقاتلوا قتال اليائسين ، حتى هزموا البربر ومزقوا جموعهم ، وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم ، فسار القاسم في نفر من صحبه إلى إشبيلية ، وكان بها إبناه محمد والحسن ، فأغلقت المدينة أبوابها دونه ،

---

(١) راجع نقط العروس ص ٨٠ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

وأخرج منها إبناه ومن معهم من البربر ، وقام أعيان المدينة ، وعلى رأسهم قاضيها محمد بن إسماعيل بن عباد ، بضبط الأمور فيها ، وسار القاسم وصحبه إلى بلدة شريش[١].

وفى تلك الأثناء كان يحيى المعتلى ، قد سار من مالقة إلى الجزيرة الخضراء ، وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرته فاستولى عليها ، واستولى أخوه إدريس والى سبتة ، على ثغر طنجة ، وكانت أيضاً من أعمال القاسم ، وكان يعدها ملجأ له وملاذاً يحتمى به إذا ما ذهب سلطانه بقرطبة ؛ ولما انقلب القاسم فى فلوله إلى شريش سار يحيى المعتلى لقتاله ، وحاصر شريش حتى سلمت ، وقبض على عمه وبنيه ، وحملهم فى الأصفاد إلى مالقة ، وهناك أودعهم السجن ، وانفرد يحيى برياسة البربر ، وبسط سيادته على شريش ومالقة ، وسبتة وطنجة من ثغور المغرب ، وبايعه البربر بالخلافة ، وسموه المعتلى بالله ، وبقى القاسم يرسف فى سجنه ردحاً طويلا من الزمن ، حتى قتل خنقاً فى سنة ٤٣١ هـ ، وهو فى نحو الثمانين من عمره[٢].

وكان أهل قرطبة قد سئموا عندئذ حكم البربر وأشياعهم ، وأجمعوا على رد الأمر إلى بنى أمية . وكان ثمة ثلاثة من المرشحين الذين اعتبروا أصلح من بقى من بنى أمية لتولى الخلافة ، هم سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقى ، وعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ، فقرر القرطبيون أن يختاروا أحدهم بطريق الشورى ، وعقدت لذلك جلسة كبرى بالمسجد الجامع ، حضرها الوزراء والأكابر والخاصة والعامة . وحضر سليمان المرتضى ومحمد العراقى فى البداية ، وكاد الاختيار يقع على أولهما ، وبدئ بالفعل فى تحرير مرسوم البيعة ، لولا أن حضر عندئذ عبد الرحمن بن هشام فى كبكبة عظيمة ، ومن حوله طائفة كبيرة من الجند شاهرة السلاح ، فدخل المقصورة ، وعقدت له البيعة فى الحال ، بين دهشة الحضور واضطرابهم ، وذلك فى السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٢٣ م) . ثم خرج من المسجد إلى القصر وقد اصطحب معه ابنى عمه سليمان والعراقى ، فاعتقلهما لديه . ويصف لنا ابن حيان هذا الحفل الشهير ، وكان من شهوده ، بإفاضة ممتعة[٣] .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٤ و ١٣٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٣ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ و ١٤٤ ؛ والمراكشى ص ٢٩ .

(٣) راجع الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٣٥ و ٣٦ . ويقول لنا ابن حيان إن الحفل عقد فى الرابع من رمضان ، والظاهر أن هناك تحريفاً ، لأنه يقول لنا بعد ذلك عند مقتل=

واتخذ عبد الرحمن لقب المستظهر بالله، وكان يوم جلوسه فتى فى الثالثة والعشرين من عمره ، وندب للوزارة بعض القدامى من وزراء بنى أمية السابقين مثل أحمد ابن برد ، وجماعة من الفتيان الطامحين الأغمار ، مثل أبى عامر بن شهيد ، وأبى محمد ابن حزم (وهو الفيلسوف المستقبل) ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم، وقد كانا على قول ابن حيان «من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة، ونفاذاً فى العلوم الرفيعة » . فقدمهم على سائر رجاله، وأولاهم منتهى النفوذ والثقة ؛ ويورد لنا ابن حيان ثبت المناصب الوزارية والرئيسية يومئذ على النحو الآتى :

خدمة المدينتين، الزهراء والزاهرة، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة، وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناض والطعام ، وخدمة مواريث الخاصة ، وخدمة الطراز . وخدمة المبانى ، وخدمة الأسلحة وما يجرى مجراها، وخدمة الخزانة القبض والنفقة . وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة . وخدمة الأنزال والنزائل ، وخدمة أحكام السوق .

ثم يعلق ابن حيان على ذلك بقوله : « وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يتحلوا منها بنائل، ولاقبضوا منها مرتزقاً ، ولا نالوا بها مرتفقاً ، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل معصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صبابة ، مستغل جوف المدينة، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمقه، ويفرق جملته على من تكنفه من جنده ودائرته، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته، فلم يلبث الأمر أن تفرّى به فسُفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته »(١) .

تلك هى الصورة القوية التى يقدمها إلينا المؤرخ الأندلسى المعاصر عن بلاط المستظهر ، وظروف ولايته . والواقع أن هذا الخليفة الفتى كان يتمتع بخلال باهرة ، وكان ممكناً أن يكون معقد الآمال ، لو أتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طاب ، ولكن الظروف عاجلته وغلبته على أمره؛ وكان قد بدأ ولايته بأن أرسل إلى المدن والثغور يدعو إلى تأييد بيعته، فلم تثمر دعوته أو لم يتسع

= المستظهر إن خلافته كانت سبعة وأربعين يوماً ، ومقتله فى الثالث من ذى القعدة . وهو ما يرد تاريخ البيعة إلى السادس عشر من رمضان (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥) .

(١) نقله فى الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦ و ٣٧ .

الوقت لذلك ، وقبض على عدد من الوزراء والأكابر وصادر أموالهم ، وكان يرجو بإزالتهم تمكين نفوذه وسلطانه ، ثم قبض على عدد من أبناء عمه المروانية ، واعتقلهم بالقصر مع ابنى عمه سليمان والعراقى ، وكانت هذه البوادر المكدرة تقضى على هيبته بسرعة ، وتذكى السخط عليه فى صدور الخاصة والعامة معاً .
ثم وقع حادث كان نذير الاضطرام . وذلك أنه استقبل عدة من الفرسان البربر فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر ، فغضب لذلك الكبراء ، وأوغروا صدور العامة قائلين لهم : إننا حاربنا البربر وقهرناهم ، وهذا الرجل يسعى فى ردهم إلينا ، وتمكينهم من أمرنا . فهاجت العامة ، وزحفت جموعهم على القصر ، واقتحموه على غرة ، وقتلوا البربر حيث وجدوا ، وفتحوا المطبق وأخرجوا من كان به من المعتقلين ، ووثبوا إلى جناح الحرم ، وأدرك عبدالرحمن المستظهر أنه هالك ، فاختبأ فى أتون الحمام ، واعتدى الثوار على آل عبد الرحمن وحريمه ، وسبوا أكثرهن ، وكانت مناظر شنيعة مروعة[1] .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر ، وكان مختفياً خشية البطش به ، فأخذ إلى القصر ، وأجلس فى مجلس الملك ، وبويع بالخلافة فى اليوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤١٤هـ (١٧ يناير ١٠٢٤ م) ، وتلقب بالمستكفى بالله . وبحث عن المستظهر حتى عثر به فى أتون الحمام فى حالة مزرية ، فأخذ إلى حضرة الخليفة الجديد ، وأعدم أمامه ، وكانت إمارته مذ ولى حتى قتل سبعة وأربعين يوماً ، لم يحدث فيها حدث هام ، ولم يجاوز سلطانه مدينة قرطبة .

وكان عبد الرحمن المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية الرفيعة ، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة[2] .

ومن شعره من قصيدة طويلة قالها فى ذكر ابنة عمه أم الحكم بنت المستعين أيام خطبته لها :

حمامة بنت العبشميين رفرفت ... فطرت إليها من سراتهم صقرا
تقل الثريا أن تكون لها يدا ... ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص٣٨ و٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص١٤٨ و١٣٩ .
(٢) راجع الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠ — ٤٣ .

وإنى لطعان إذا الخيـــل أقبلت جوانبها حتى ترى جونها شقرا
ومكرم ضيفى حين ينزل ساحتى وجاعل وفدى عند سائله وفرا

وكان المستكفى يوم ولايته فى الثانية والأربعين من عمره إذ كان مولده فى سنة ٣٦٦هـ ، وأمه أم ولد تسمى حوراء . وكان عاطلا من الخلال الحسنة ، ميالا إلى البطالة ، شغوفاً بالمجون والشراب ، عاجزاً سيئ الرأى ، وقد شبهه ابن حزم ، فى سوء خلاله ، وفى مجونه وفسقه ، وفى خضوعه لغانية خبيثة ، بسميه المستكفى العباسى ، وقد كان كلاهما فى نفس السن ، وحكم كل منهما نحو سنة وخمسة أشهر(١) .

ولم تقع خلال ولاية المستكفى القصيرة ، أحداث ذات شأن . وكان مما عمله أن أمر بخنق ابن عمه محمد العراقى ، ونعاه للناس ، وندب لولاية عهده ابن عمه سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر . وفى أيامه هدمت القصور الناصرية ، وخربت قصور المنصور بالزاهرة ، فسادتها الوحشة والخراب .

واضطهد المستكفى معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء ، ومن المفكرين ، وغادر كثير منهم قرطبة ، ولجأوا إلى بلاط يحيى بن حمود بمالقة ، وكان من هؤلاء الوزير السابق والشاعر اللامع أبو عامر بن شهيد ؛ ووصف هؤلاء ليحيى ابن حمود سوء الأحوال فى قرطبة . ومع أن يحيى لم يكن متحمساً لفكرة السير إلى قرطبة ، فإن الأنباء ترامت إلى القرطبيين بأنه يتخذ أهباته لاسترداد عاصمة الخلافة ؛ وعلى أى حال فقد سئم القرطبيون ولاية المستكفى العاطلة الماجنة الفاسدة ونادوا بخلعه . فدخل عليه الوزراء والكبراء ، وأغلظوا له فى القول ، وطلبوا إليه التخلى ، فاستعطفهم بلين القول ، ثم غادر قرطبة فى نفس اليوم متنكراً فى زى امرأة . وكان ذلك فى اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦هـ (مايو سنة ١٠٢٥ م) . وسار المستكفى صوب الثغر فى نفر من صحبه ، ووصل إلى إقليج من أحواز قرطبة ، وهنالك اغتاله بعض مرافقيه ، لاعتقادهم أنه يحمل مالا . وكان مقتله لسبعة عشر يوماً فقط من خلعه(٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١ ، وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ و ١٤٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .
ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن عبد الرحمن المستكفى هو والد الأديبة والشاعرة الأندلسية الكبيرة « ولادة » التى اشتهرت بروعة أدبها وشعرها ، والتى أوحت إلى الوزير الشاعر ابن زيدون =

ومضت بضعة أشهر ؛ والحكومة فى قرطبة فوضى لا ضابط لها . وأخيراً قرر يحيي بن حمود أن يسير إلى العاصمة ، فقصد إليها فى قواته ودخل القصر فى الخامس عشر من رمضان من نفس العام (٩ نوفمبر سنة ١٠٢٥ م) ، وبقى بها إلى نهاية هذا العام ، ثم غادرها فى أوائل المحرم سنة ٤١٧ هـ قاصداً إلى مالقة ، وترك بها وزيريه أحمد بن موسى ، ودوناس بن أبى روح ، يدبران شئونها ، ومعهما حامية صغيرة من البربر ، بيد أنه لم يمض زهاء شهرين حتى تجهمت الحوادث كرة أخرى .

ذلك أن خيران وزهير الفتيين العامريين ، قصدا إلى قرطبة ، وأوعزا إلى القرطبيين بالتخلص من البربر ، فثار القرطبيون فجأة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، وكانت زهاء ألف رجل ، وفر أحمد بن موسى وزميله دوناس إلى مالقة ، وكان ذلك فى العشرين من ربيع الأول من سنة ٤١٧ هـ .

وأجمع القرطبيون على أثر ذلك على رد الأمر لبنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور ، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أخى عبد الرحمن المرتضى . وكان عند مقتل أخيه فى سنة ٤٠٩ هـ ، قد فر من قرطبة فى نفر من صحبه ، ولجأ إلى مدينة ألبونت فى شمال شرقى الأندلس ، واستظل من ذلك الحين بحماية واليها عبد الله بن قاسم الفهرى . وبعث إليه أهل قرطبة بالبيعة ، وهو بمقره بحصن ألبونت ، فتلقاها فى ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وتلقب بالمعتد بالله ، وبقى بمقره بألبونت مدة سنتين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له بقرطبة ، ثم قدم إليها فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ[1] فجددت له البيعة ، واستمر فى كرسى الخلافة عامين آخرين . وسر القرطبيون لمقدمه فى البداية ، ولكنه ألقى زمام الأمور إلى رجل من الموالى يسمى حكم بن سعيد القزاز ، فاستأثر بكل سلطة ، وأطلقت يده فى الأموال ، وكان أخرق عسوفاً ، فجمع حوله نفراً من السفهاء العاطلين عن كل إخلاص وحزم ، وأطلق العنان لغواياته وأهوائه ، فاضطربت الشئون وامتعض العقلاء ،

= المتيم بها طائفة من غرر قصائده . وقد لبثت ولادة عصراً تخلب بجمالها وأدبها وشعرها ألباب المجتمع القرطبى الرفيع . وتوفيت فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) (راجع الصلة لابن بشكوال رقم ١٥٤٠ ؛ وقلائد العقيان ص ٧٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤٧ – ٤٤٩) .

(١) جذوة المقتبس ص ٢٦ و ٢٧ .

وزعماء البيوتات الكبيرة ، وشعروا بما نالهم على يده من ضروب الإهانة والنيل ؛ وأحاط هذا الوزير المستبد الماجن الخليفة برجاله ، وأبعد عنه الصحب وذوى الحجى ، ودفعه بالرغم من شيخوخته ، إلى تيار الشراب والمجون ، حتى ساءت الأمور إلى الذروة ، وفقدت الخلافة والحكومة ، كل عطف وهيبة ، وتهامس الناس فى وجوب إزالة هذه الحالة ، والتخلص من أوزارها وعواقبها . والتفت جماعة الناقمين حول فتى من أبناء عمومة هشام ، هو أمية بن عبد الرحمن العراقى ، من أحفاد الناصر ، وكان فتى شديد التهور والجهالة ، ولكن بعيد الأطماع ؛ وفى ذات يوم تربصت تلك الجماعة الناقمة بالوزير حكم بن سعيد وفتكت به ، وطافت برأسه فى المدينة ، وتركوا جثته فى العراء (ذو القعدة سنة ٤٢٢ هـ — نوفمبر سنة ١٠٣١ م) . ثم سار أمية فى جموعه إلى القصر ، والخليفة هشام عاكف على شرابه ونسائه ، فنهبت العامة بعض أجنحة القصر ، ولولا أن زجرهم الوزير الشيخ ابن جهور ونصحهم بالكف عنه ، لما أبقوا على شىء . وخشى هشام المعتد على نفسه ، فبادر إلى الخروج من القصر مع ولده ونسائه ، وهو يناشد الجماعة أن يحقنوا دمه ، ولجأ إلى ساباط الجامع واجتمع رأى الناس جميعاً كباراً وصغاراً على خلعه ، والتخلص جملة من بنى أمية ، وإبطال رسم الخلافة ، وعلى نفى بنى أمية وإجلائهم جميعاً عن المدينة ، وكان رائد الجماعة وناصحهم فى ذلك أبو الحزم ابن جهور ، وكان هذا الوزير النابه يستأثر نظراً لماضيه التالد ، وأسرته العريقة ، ورأيه الناضج ، بمحبة الشعب وثقته وتأييده ، وسنرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه ابن جهور فى مصاير قرطبة .

وانتهى القوم إلى خلع هشام المعتد ، وإبعاده وأهله إلى أحد الحصون القريبة ، ثم غادره بعد أيام قلائل ، وسار إلى الثغر ، حيث التجأ إلى سليمان بن هود صاحب لاردة من أعمال الثغر الأعلى ، وقضى هنالك بقية أيامه حتى توفى فى سنة ٤٢٨ هـ دون عقب ؛ وأبعد أمية بن عبد الرحمن عن القصر ، وكان يهجس بتولى كرسى الخلافة مكان المعتد ، فلما رأى وعيد القوم ، اختفى وغادر قرطبة إلى حيث لا يعلم أحد . ونودى فى سائر أحياء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بنى أمية ، ولا يأويهم أحد ، وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم ، حتى أجلاهم عن المدينة ومحا رسومهم (١) .

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٥ — ١٥٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٨ — ١٤٠ .

وبخلع هشام المعتد ، تنتهى رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية ، وينقطع ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى .

• • •

ولنعد الآن قليلا إلى الوراء لنتتبع مصاير دولة بنى حمود فى جنوبى الأندلس ، وقد رأينا أن يحيى بن على بن حمود الملقب بيحيى المعتلى ، بعد أن خلع عمه القاسم من الخلافة ، وأرغم على مغادرة قرطبة فى سنة ٤١٤هـ ، سار إلى بلدة شريش ، فسار يحيى فى أثره ، وما زال به حتى هزمه وقبض عليه ، ثم قتل فى سجنه فيما بعد ، واستولى يحيى على سائر ما كان بيده من البلاد والثغور ، وانفرد برياسة البربر فى الأندلس . ثم عاد فدخل قرطبة مرة أخرى على أثر خلع المستكفى فى سنة ٤١٦هـ . ولكنه غادرها بعد ذلك إلى مالقة ، التى غدت من ذلك الحين معقله وعاصمة ملكه ، فى أوائل سنة ٤١٧ هـ ، واستمر بها مدى حين .

وكان يحيى المعتلى يخشى بالأخص على مملكته الفتية ، من مطامع القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، الذى استقل برياسة إشبيلية ، حسبما تقدم . فسار بقواته إلى قرمونة حصن إشبيلية من الشمال الشرقى ، وانتزعها من يد حاكمها محمد ابن عبد الله البرزالى كبير بنى برزال ، واستقر بها يرقب الفرصة للوثوب بابن عباد وتحطيمه ، فسار البرزالى إلى ابن عباد وتحالف معه على قتال يحيى . وكان يحيى قد استسلم إلى لهوه وملاذه ، وعكف على معاقرة الشراب والمجون المستمر ، وجنوده تغير على إشبيلية من آن لآخر . ورأى القاضى ابن عباد أن يدحض دعوى المعتلى فى الخلافة أولا ، فأظهر فى أواخر سنة ٤٢٦هـ شخصاً زعم أنه هشام المؤيد ، وأنه كان مختفياً ولم يمت ، وبايعه بالخلافة ، ودعا الناس إلى الدخول فى طاعته . ثم سير ابن عباد إلى قرمونة بعض قواته مع ابنه إسماعيل ، ومعها طائفة من قوات البربر المتحالفة معه ، فطوقت المدينة ليلا ، وكمن معظمها فى أماكن مستورة ، ووقف يحيى على الخبر فخرج فى قواته وهو ثمل ، واشتبك مع الهاجمين فى معركة حامية وكاد يوقع بهم الهزيمة ، لولا أن ظهرت قوات ابن عباد من كمينها ، وأطبقت عليه ، فانهزم أصحابه ، وقتل فى المعمعة واحتز رأسه ، وحمل سريعاً إلى ابن عباد فى إشبيلية (المحرم سنة ٤٢٧هـ — نوفمبر سنة ١٠٣٥م) ، واستمر فتك جند ابن عباد بالبربر أمام أسوار قرمونة ، ولم يقف إلا حينما تدخل محمد بن عبد الله

البرزالى ، وقد ساءه هذا الفتك الذريع بقومه ، فكف ابن عباد مرغماً ، ودخل البرزالى قرمونة ، واستولى على ما فيها من مال ومتاع ، وسبى نساء يحيى وجواريه(١) .

ولما قتل يحيى المعتلى على هذا النحو ، سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلبى ، وأبو جعفر أحمد بن موسى بن بقنّة البربرى ، باستدعاء أخيه إدريس لتولى الملك مكانه ، وكان واليا لسبتة . وكان ليحيى ولدان حدثان هما إدريس وحسن ؛ وفى رواية أنه كان قد أوصى بولاية عهده لولده حسن ، ولكن حداثة سنه حالت دون ولايته . وهكذا بويع إدريس بالخلافة فى مالقة ، قاعدة المملكة الحمودية وتلقب بالمتأيد بالله ، وعين ابن أخيه حسناً لحكم سبتة وأعمالها ، وندب لمعاونته الحاجب نجا ، واقترنت بولايته رندة والجزيرة ، وكان من حلفائه المعترفين ببيعته الفتى زهير العامرى صاحب ألمرية ، وحبوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة ؛ وقد سارا فى قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد ، وانضم إليهما البرزالى صاحب قرمونة . وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٦م) سارت القوات المتحالفة إلى أحواز إشبيلية وعاثت فيها ، واحتلوا قرية طشّانة ، ثم احتلوا «القلعة» ، الواقعة شرقى إشبيلية ، وأحرقوا طَريانة الواقعة فى جنوبها ، ثم احتلوا حصن القصر ، وانصرف زهير بعد ذلك إلى ألمرية .

وفى العام التالى توفى حبوس بن ماكسن ، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ، وبعث باديس وأخوه بُلُقّين إلى زهير يطلبان تجديد التحالف الذى كان بينه وبين أبيهما ، ولكن زهيراً سار فى قواته إلى غرناطة ، والتقى بباديس وأخيه فى قرية من أحواز غرناطة تسمى «ألفنت»(٢) . والظاهر أنه وقع بين الفريقين نوع من سوء التفاهم ، واعتبر باديس أن زهيراً توغل فى أرضه بقواته أكثر مما يجب ؛ أو أن باديس وأخاه بلقين ، قد وضعا خطة للغدر بزهير . وعلى أى حال فقد عمل باديس على قطع طريق الرجعة على زهير ، ووضع له الكمائن فى المضايق . ووقع القتال بين زهير والبربر ، فهزم زهير وقتل ، ولم يعثر على جثته ، واحتوى باديس على معسكره ، واستولى على غنائم هائلة من الخيل والسلاح والمتاع ، وقبض باديس على كاتب

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٧ .

(٢) وهى بالإسبانية Dalfontes ، وهى تقع على قيد نحو خمسة كيلو مترات من شمالى غرناطة .

زهير أحمد بن عباس ثم قتله بعد ذلك . وحدثت هذه الواقعة فى أواخر سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م)[١] .

وكان القاضى ابن عباد ، المتغلب على إشبيلية ، بعد قتل منافسه يحيى المعتلى قد خلا له الجو ، واشتد بأسه ، وأخذ يطمح إلى التغلب على ما يجاور إشبيلية من المدن والمقاطعات . فبدأ بأن سير ولده إسماعيل فى جيش زحف على قرمونة حصن إشبيلية ، من الشمال الشرقى ، وكان بها محمد بن عبد الله البرزالى ، فاستولى عليها ، واستولى كذلك على إستجة الواقعة فى شرقها . فاستغاث البرزالى بإدريس المتأيد ، وباديس أمير غرناطة ، وهرعت الجند البربر من مالقة وغرناطة استجابة لدعوته . ونشبت بين البربر وبين جند ابن عباد الأندلسيين وقائع عديدة ، انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل إسماعيل بن عباد ، وذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م)[٢] .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى توفى إدريس المتأيد فى قلعة ببشتر ، وكان قد نقل إليها مريضاً من مالقة . وكانت وفاته فى السادس عشر من محرم سنة ٤٣١ هـ .

وعلى أثر وفاته بويع ولده يحيى بالخلافة فى مالقة ، وذلك بترتيب وزيره أبى جعفر ابن بقنّة وسعيه . وتلقب يحيى بالقاسم بأمر الله ، وكان فتى حدَثاً قليل الخبرة والحزم ، ولكن ابن بقنّة سارع برفعه إلى العرش استبقاء لسلطانه الذى تأثل فى ظل أبيه . بيد أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن نجا الحاجب الصقلبى ، وكان يومئذ بسبتة ، لم يرقه هذا الاختيار ، فبادر بالدعوة إلى حسن بن يحيى المعتلى (ابن أخى إدريس) . وكان إدريس قد اختاره لولاية عهده ، وكان وقت وفاة عمه حاكماً لسبتة والثغور المغربية ، فبويع حسن بالخلافة ، وجهز الحاجب جيشاً ، وسار بقواته مع حسن فى أسطول يمم شطر مالقة ، ونزلت القوات إلى البر ، وحاصرت مالقة من البر والبحر ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى اضطر يحيى إلى التسليم والتنازل عن الخلافة ، ثم سار إلى قمارش ، وأقام بها .

---

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث : البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩١ و ٢٩٣ ، والإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٢٦٩ و ٥٢٧ و ٥٢٨ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ .

وبويع حسن بن يحيى بالخلافة فى مالقة فى جمادى الثانية سنة ٤٣١ هـ ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واعترفت بطاعته غرناطة وغيرها ، وعهد بتدبير الأمور إلى الوزير أبى جعفر بن بقنة ، وعهد إلى الحاجب نجا بحكم الثغور المغربية . وكان حسن أميراً حازماً ، قوى النفس ، فنظم الإدارة ، واستكثر من الجند ، وجبى الأموال . واستراب بوزيره أبى جعفر ، وكان يسر له نصرته ليحيى ، فدبر مقتله ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٤٣٣ هـ (١) ، ثم أمر بقتل يحيى القاسم ، فقتل فى ربيع الثانى سنة ٤٣٤ هـ . وكانت أخته زوجة للمستنصر ، فما لبثت أن دبرت مقتله انتقاماً لأخيها ، وهلك حسن بالسم فى جمادى الأولى سنة ٤٣٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٤٢ م) .

والروايات بعد ذلك متضاربة ، فمنها ما يقول بأن الحسن لم يعقب ذرية (٢) ومنها ما يقول إنه ترك ولداً صغيراً بسبتة . وعلى أى فقد نهض الحاجب نجا على أثر وفاة المستنصر ، وعبر البحر فى قواته من سبتة إلى الجزيرة ؛ وهنا يقال إنه نهض ليؤيد دعوة ولد الخليفة المتوفى ، ويقال من جهة أخرى إنه نهض ليستخلص تراث الحموديين لنفسه ، بعد أن اضطربت شئونهم . وسار نجا إلى الجزيرة وفيها ابنا القاسم بن حمود ، فخرجت إليه أمهما سبيعة ، وعنفته على مسلكه وعدم ولائه لسادته ، فاستحى منها ، وغادر الجزيرة ميمماً شطر مالقة . وكان معظم جنده من قبيلة برغواطة البربرية ، أخوال حسن بن يحيى ، فاسترابوا منه ومن مقاصده وائتمروا به ، وقتلوه فى الطريق . ثم ساروا إلى مالقة ، وكان حسن بن يحيى أيام خلافته قد قبض على أخيه إدريس ، وزجه إلى السجن ليأمن منافسته . فأخرجه الجند من سجنه وبويع بالخلافة . وتلقب بالعالى ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤٣٤ هـ (يناير سنة ١٠٤٣ م) ، وأطاعته البربر فى غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها . وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة ، التى نظمها عبد الرحمن بن مُقانا القبذاقى الأشبونى فى مدحه ومطلعها :

أَلِبرقٍ لائحٍ من أندرينْ ذرفتْ عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية كمخاريق بأيدى اللاعبين

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٠ ؛ والمراكشى ص ٣٦ .
(٢) المراكشى ص ٣٧ .

واصوت الرعد زجر وحنين　　　وبقلبي زفرات وأنين
وأناجي فى الدجى عاذلتى　　　ويك لا أسمع قول العاذلين[1]

ومنها :

عيرتنى بسقام وضنى　　　إن هذين لدين العاشقين
قد بدا لى وضح الصبح المبين　　　فاسقنيها قبل تكبير الأذين
إسقنيها مرة مشمولة　　　لبثت فى دنها بضع سنين
مع فتيان كرام نجب　　　يتهادون رياحين المجون[1]

وكان العالى أميراً رقيق الخلال ، جواداً كثير الصلات ، أديباً ينظم الشعر ؛ ومع ذلك فقد كان يجمع حوله بطانة سيئة ، وصحاباً من أراذل القوم . وكان ضعيف الرأى ، متهاوناً فى شئون الحكم ، فسرى التفكك إلى سلطانه ، وفى أواخر سنة ٤٣٨هـ (١٠٤٦م) ، ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود ، فخرج إدريس فى صحبه من مالقة إلى حصن ببشتر ، وعاونه باديس بن حبوس أمير غرناطة بجنده ليسترد سلطانه . فغزا مالقة ولكنه لم يفز بطائل ، فارتد مع أهله وصحبه إلى سبتة .

وبويع محمد بن إدريس فى شعبان سنة ٤٣٨هـ . وتلقب بالمهدى ، وتوطد أمره بمالقة ؛ ولكن بعض النواحى نكلت عن تأييده ، ولا سيما غرناطة ؛ وكان أميرها باديس من أشد معارضيه . وكان يشعر أنه أحق من غيره بزعامة البربر ؛ وأبدى المهدى عزماً فى تنظيم الحكومة وإصلاح الأمور ، ولكنه كان طاغية سفاكاً للدماء يسرف فى قتل مواطنيه البربر ، حتى كرهه معظمهم ، واجتمع رأى معارضيه من الزعماء وعلى رأسهم باديس على وجوب خلعه ، والاعتراف بطاعة محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء ، واتفق رأى البعض الآخر ومنهم أبو نور بن أبى قرة اليفرنى صاحب رندة ، على الاعتراف بطاعة إدريس بن يحيى العالى . وهكذا ادعى الخلافة ثلاثة من أمراء بنى حمود فى وقت واحد ، وفى مناطق صغيرة متقاربة ، وهذا إلى الخليفة المزعوم الذى أقامه ابن عباد صاحب إشبيلية باسم هشام المؤيد ؛ ويستعرض الفيلسوف ابن حزم هذه الحالة وهو معاصر لها فى مرارة وتهكم ، ويصفها بأنها « فضيحة لم يقع فى العالم

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

إلى يومنا مثلها: أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يتسمى بأمير المؤمنين ، ويخطب لهم فى زمن واحد »(١) .

واستمر محمد بن إدريس المهدى فى كرسى الخلافة زهاء ستة أعوام . ولما لم يرخصوه وسيلة للتغلب عليه، لجأوا إلى الغيلة ، فدسوا عليه من قتله بالسم ، و ذلك فى أواخر سنة ٤٤٤ هـ (أوائل سنة ١٠٥٣ م) .

فبويع من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن على بن حمود ، وتلقب بالسامى ، وأقام حيناً بمالقة ، ثم أصابته فيما يظهر لوثة ، فغادر مالقة ، وهام على وجهه فى صفة تاجر ، وغادر البحر إلى شاطئ العدوة ، فأخذ إلى سبتة ، حيث قتله حاكمها سواجات البرغواطى(٢) .

وكان إدريس بن يحيى العالى ، قد لجأ على أثر خلعه إلى سبتة ، فأقام بها فى كنف سواجات ، وأقام كذلك حيناً فى رندة، فى كنف حاكمها أبى نور بن أبى قرة ، فلما هلك السامى، سار إلى مالقة واستقبله أهلها بحماسة ، ودعى له بالخلافة مرة أخرى ، واستمر فى الحكم حتى توفى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) بعد أن عهد بالخلافة لابنه محمد .

فخلفه ولده محمد ، وتلقب بالمستعلى ، وأقرت بيعته ألمرية ورندة، ولكن معظم الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة نكلوا عن طاعته . وفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧م) ، سار باديس فى قواته إلى مالقة ، واستولى عليها وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلى ، وسار إلى ألمرية ، ثم عبر منها البحر إلى مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم ،واستمر بها حتى توفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤م) والمستعلى هو آخر من حكم فى مالقة من أمراء بنى حمود .

وفى أثناء ذلك كان رأى الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة وإسحاق بن محمد بن عبدالله البرزالى صاحب قرمونة ، ومحمد بن نوح صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، قد اجتمع على البيعة لبنى محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء . وكان يحيى المعتلى حينما خلع

---

(١) ابن حزم فى رسالته « نقط العروس » ص ٨٣ . وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٧ و ٢٤٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢ .

عمه القاسم بن حمود، قد قبض على ولديه محمد وحسن، واعتقلهما بالجزيرة، فلما توفى يحيى، أفرج عنهما. وتولى محمد حكم الجزيرة، وذلك فى الوقت الذى قامت فيه دولة المهدى فى مالقة. ثم حاول محمد أن ينتزع الخلافة لنفسه، فسار فى أنصاره إلى مالقة يحاول انتزاعها من يد المهدى، ولكنه أخفق فى محاولته، فارتد إلى الجزيرة، وتوفى بها فى سنة ٤٤٠ هـ.

فخلفه محمد ولده وحكم الجزيرة فترة قصيرة؛ ثم خلفه ولده القاسم، وتلقب بالواثق، وكانت خلافته هزيلة ضيقة الرقعة والموارد، ولم يتح لها من البقاء سوى فترة يسيرة. ذلك أن ابن عباد صاحب إشبيلية اعتزم أن يقضى على خلافة الحموديين بصفة نهائية، فبعث قواته إلى الجزيرة الخضراء فطوقتها من البر والبحر واضطر القاسم سراعاً إلى التسليم، وغادر الجزيرة بالأمان مع أهله وصحبه (٤٤٦هـ — ١٠٥٥م) وسار إلى ألمرية حيث التجأ الى حماية صاحبها المعتصم ابن صمادح، ولبث بها حتى توفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م).

وفى نفس الوقت كان باديس أمير غرناطة قد استولى على مالقة من يد المستعلى (٤٤٩هـ)، وانهار بها سلطان الحموديين، وهكذا انقرضت دولة بنى حمود من مالقة والجزيرة معاً، وانتهى بذلك سلطانهم بالأندلس بعد أن حكموا المثلث الإسبانى الجنوبى، وثغور العدوة الشمالية، زهاء نصف قرن[1].

* * *

وهكذا انحدرت إسبانيا المسلمة، فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة العامرية، إلى معترك مروع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة، تمتد من ضفاف دويرة شمالا إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شاطئ البحر المتوسط منذ طركونة شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلنطى غرباً، إلى أشلاء ممزقة، ورقاع متناثرة، وولايات ومدن متباعدة متخاصمة، يسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار،

(١) راجع فى تفاصيل الحوادث المتقدمة، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨ و ٢٩١ و ٢٩٢؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ و ٩٧؛ والمراكشى ص ٣٧ — ٣٩، وأعمال الأعلام ص ١٤٢ و ١٤٣. وراجع بحثا بالإسبانية للأستاذ المستشرق الغرناطى ميكودى لوثينا عن دولة بنى حمود عنوانه: **Los Hammudles, Senores de Málaga y Algeciras, p. 47-53**

أو متغلب من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوى السلطان السابق ، أو زعيم أسرة محلى من ذوى الجاه والعصبية . وسيطر البربر من جانبهم على أراضى المثلث الإسبانى الجنوبى ، وما كان منه بيد الدولة الحمودية ، وأنشأوا هنالك إمارات عدة ، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام ، الذى شمل هذه المنطقة . وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هى دول «الطوائف» ، وذلك منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس ، حتى الفتح المرابطى ، زهاء سبعين عاماً ، قضتها جميعاً فى سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة ، والخصومات والحروب الأهلية الانتحارية ، وكادت بتنابذها وتفرقها ومنافساتها ، تمهد لسقوط الأندلس النهائى . وقد كان من رحمة القدر ، أن اسبانيا النصرانية ، كانت فى نفس الوقت الذى انتثرت فيه وحدة الأندلس على هذا النحو الخطر ، تعانى من انقسام الكلمة ، وتعصف بها ريح الخلاف والتفرق ، فلم تتح لها فرصة للوثوب بالأندلس الممزقة ، إلى أن كان الوقت الذى بلغ فيه تنابذ الطوائف ذروته ، واشتد ساعد اسبانيا النصرانية كرة أخرى ، واستطاعت أن تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة ، أول قاعدة إسلامية كبيرة (٤٧٨هـ — ١٠٨٥ م) ؛ وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس الجريح ، فى توجسها وانزعاجها ، إلى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر ، بعدوة المغرب ، تستدعيهم لنصرتها . وكان أن تدفقت الجيوش المرابطية من المغرب على شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أن أنقذت دولة الإسلام فى الأندلس .

الكتاب الخامس

النظم الإداريّة والحركة الفكريّة
فى عصرى الإمارة والخلافة

الفصل الأول

نظم الحكم

والأوضاع السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية

فى عصرى الإمارة والخلافة

— ١ —

تعاقبت خلال هذه الفترة الطويلة التى سردناها من تاريخ الأندلس ، على الأمة الأندلسية ، أنواع من نظم الحكم ، ومن الأوضاع السياسية والإدارية ، كانت تسير طوراً بعد طور مع مختلف الحوادث ، والحروب والانقلابات المتوالية . وبالرغم من أنه لم يفتنا أن نشير فى مختلف المواطن إلى تلك التغييرات المتوالية ، التى شهدتها الأمة الأندلسية ، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً ، وأن نقدم منها إلى القارئ صورة مجتمعة متماسكة .

كانت الأندلس عقب الفتح ولاية تتبع إفريقية ، ويقوم باختيار حاكمها والى إفريقية . وقد استمر هذا الوضع نحو ثمانية أعوام فقط ، تعاقب فيها على ولاية الأندلس ثلاثة من الولاة هم عبد العزيز بن موسى ، وأيوب بن حبيب اللخمى ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى . غير أنه كان من الواضح أن هذا النظام لم يكن يلائم قطراً ضخماً كالقطر الأندلسى ، وخصوصاً بعد ما بدأت الغزوات الإسلامية لغاليس (جنوب فرنسا) ، وبدأت الأندلس تخوض الصراع مع مملكة الفرنج فيما وراء البرنيه ، ومع نصارى الشمال . ومن ثم فقد رأت خلافة دمشق أن تكون الأندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة ، ويقوم الخليفة بتعيين واليها . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز هو الذى أصدر هذا القرار شعوراً منه بأهمية الأندلس السياسية والعسكرية والاجتماعية .

وكان أول ولاة الأندلس من قبل الخلافة ، هو السمح بن مالك الخولانى ، وقد ندبه عمر بن عبد العزيز لولايتها فى سنة مائة من الهجرة (٧١٩م) . بيد أنه

لما توفى عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) عاد الأمر فى تعيين ولاة الأندلس إلى ولاة إفريقية ، ولكن بمصادقة الخليفة . وكان الوالى عادة هو قائد الجيش العام، وإليه يرجع أمر الغزو فى الشمال . ولما وقعت نكبة بلاط الشهداء فى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) ، أخذت الخلافة مرة أخرى بيدها تعيين والى الأندلس، واختار الخليفة هشام بن عبد الملك لولايتها عبد الملك بن قطن . واستمر الأمر بعد ذلك حيناً يرجع إلى والى إفريقية ، وأحياناً إلى اختيار الجماعة ، أعنى جماعة الزعماء والقادة فى شبه الجزيرة ، وكان ذلك يحدث بالأخص حين تضطرب الأمور ، ويقع الخلاف بين مختلف القبائل والزعامات . ولما اضطرمت الفتنة بين الشاميين والبلديين ، وأخذ الفريقان يتبادلان الرياسة ، ضعف أمر السلطة المركزية ، ولم تهدأ الأمور حتى عين أبو الخطار الكلبي والياً للأندلس (١٢٥ هـ) . ولكن أبا الخطار كان يمنياً فمال إلى اليمنية، واضطرمت الفتنة بين اليمنية والمضرية، ولما تفاقم الأمر ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تعيين يوسف بن عبدالرحمن الفهرى من المضرية للولاية، وذلك دون موافقة أو مصادقة لا من والى إفريقية ، ولا من الخلافة ، وكان ذلك فى سنة ١٢٩هـ (٧٤٧م) .

واستمر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والياً للأندلس زهاء عشرة أعوام، وهو يزاول سلطة شبه مطلقة . وقد استطاع بعزمه وحزمه، أن يعيد إلى الأندلس نوعاً من الاستقرار والسكينة . ولكن القدر كان يدخر للأندلس مصيراً آخر ، فى ظل سلطة أخرى، لم تكن تخطر ليوسف أو غيره من الزعماء المتطلعين إلى الرياسة . وذلك أن عبد الرحمن الأموى عبر إلى الأندلس فى ربيع الآخر سنة ١٣٨هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) ، وهرع فى الحال إلى لوائه جمع من الصحب والأنصار ، ووقع الحدث الحسم فى موقعة المسارة فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ (١٣ مايو سنة ٧٥٦م) فهزم يوسف الفهرى وصحبه ، وأنتهت رياسته للسلطة ، وكتب النصر لسليل بنى أمية ، فبويع عبد الرحمن الأموى فى الحال بالإمارة ، وبعثت من ذلك التاريخ دولة بنى أمية بالأندلس، بعد أن سقطت بالمشرق قبل ذلك ببضعة أعوام .

ومن ذلك التاريخ تقوم الدولة الأموية فى الأندلس، وتستقر قواعدها تباعاً، بعد معارك طويلة متعددة، بينها وبين الزعامات المحلية والعناصر الثائرة . وقد

بقيت الدولة الأموية عصراً تتشح بثوب الإمارة ، وذلك وفقاً لما قرره مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وبالرغم من أن بلاط قرطبة ، بلغ فى عصر أمراء مثل الحكم ابن هشام ، وولده عبد الرحمن ، مبلغاً عظيماً من القوة والبهاء ، وأضحى ينافس بلاط بنى العباس فى الأخذ بزعامة الإسلام ، فإن أمراء بنى أمية لبثوا على مبدئهم من الاكتفاء بلقب الإمارة ، إلى أن كان عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) فعندئذ تغيرت أوضاع الغرب الإسلامى بقيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر ، على مقربة من الأندلس . وكان هذا الحدث الخطير فى ذاته أول حافز للناصر على اتخاذ سمة الخلافة ، وصدر مرسومه بذلك فى اليوم الثانى من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير ٩٢٩م) وبذا تحولت الدولة الأموية من إمارة إلى خلافة ، وكان عبد الرحمن الناصر أول من تلقب من أمرائها « بأمير المؤمنين » .

وقد تميزت الخلافة الأمويه بعدة خصائص ، أولها الاعتماد فى توطيد سلطانها على الموالى والصقالبة ، وهى سياسة بدأت فى عهد الإمارة منذ عبد الرحمن الداخل ، ووصلت إلى ذروتها فى عهد الناصر ، وذلك حسبما فصلناه فى موضعه ، وثانيها الاسترابة بالقبائل والزعامات العربية ، والعمل المستمر على إخضاعها ، والقضاء على سلطانها ونفوذها ، وذلك لما لقيه بنو أمية منذ البداية من معارضة هذه القبائل والزعامات ، وانتقاضها المتوالى ، وثوراتها المتعددة ، وثالثاً عطفها الواضح على أهل الذمة وهم النصارى واليهود ، وكفالة حرياتهم الدينية والاجتماعية ، وهذه السياسة أيضاً ترجع إلى عصر الإمارة ، حيث أنشىء منذ عهد الحكم بن هشام أو قبله بقرطبة ، منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة يعرف صاحبه « بالقومس » ، وقد كان للنصارى المعاهدين ، فوق ذلك قاض خاص ، وقد يكون أسقفهم فى نفس الوقت ؛ وعين بعد ذلك للنصارى مطران خاص ، مركزه بمدينة إشبيلية . وقد استمر هذا التسامح نحو النصارى المعاهدين عصوراً ، وذلك بالرغم مما كانوا يدبرونه فى بعض الأحيان ضد الحكومة المسلمة من الدسائس والمؤامرات ويعقدون من الصلات المريبة مع نصارى الشمال .

وبلغت الخلافة الأموية بالأندلس ذروة قوتها ونفوذها السياسى والأدبى فى عهد الناصر وولده الحكم المستنصر . بيد أنه بوفاة المستنصر (٣٦٦ — ٩٧٦م) وولاية ولده الحدث الضعيف هشام المؤيد ، تبدو طلائع ذلك الانقلاب الحاسم

الذى كان يدخره القدر لمصير الخلافة الأموية . ذلك أن محمد بن أبى عامر ، الذى أخذ يبزغ نجمه منذ أواخر أيام الحكم ، ما كاد يلى منصب الوزارة ، حتى أخذ يستجمع أزمة السلطة فى يده تباعاً ، ويحطم كل معارضة لسلطانه ، وانتهى الأمر بأن فرض ابن أبى عامر نفسه حاكماً مطلقاً للأندلس ، وأنشأ مدينة الزاهرة ، لتكون له قاعدة جديدة للحكم ، واتخذ سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور (٣٧١هـ — ٩٨١م) ، وبالرغم من أنه لم يتعرض بشىء للخلافة الأموية أو رسومها ، فإن الخلافة لم تكن فى ظل حكمه سوى شبح باهت ، واسم بلا مسمى . وهكذا قامت الدولة العامرية واستمرت فى ظل المنصور ، ثم ولده عبد الملك المظفر ، فأخيه عبد الرحمن زهاء ثلاثين عاماً ، ثم انتهت بمصرع عبد الرحمن المنصور فى رجب سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) .

وهنا استعادت الخلافة الأموية سلطانها بتميام محمد بن هشام الملقب بالمهدى ، وتربعه فى كرسى الخلافة مكان الخليفة هشام المؤيد ، وانتهى بذلك عهد السلطة الثنائية ، سلطة الخلافة الأموية الإسمية ، وسلطة بنى عامر الفعلية ، ولكن عودة الخلافة الأموية على هذا النحو لم يكن سوى بداية مأساة مروعة ، استمرت زهاء أربعين عاماً ، اضطرمت الأندلس فيها بالفتن المدمرة ، وغدت الخلافة الإسمية ، والسلطة الفعلية ، غنماً متداولا بين بنى أمية ، والفتيان العامريين ، والبربر ، وبنى حمود ؛ وانتحل بنو حمود ألقاب الخلافة ، وقامت فى وقت واحد بالأندلس أكثر من خلافة فى قرطبة ، ومالقة ، وإشبيلية ، وغدت قرطبة والأندلس كلها مسرحاً لمعارك وحروب أهلية متوالية ، ودمرت خلال ذلك مدينة الزهراء الخلافية ، وعدة من أحياء قرطبة ، وسادت الفوضى كل جنبات الأندلس ، واستمرت هذه المحنة زهاء أربعين عاماً ، ثم تمخضت فى النهاية عن مأساة جديدة . وهى تمزق الأندلس إلى ولايات ومدن عديدة مستقلة ، يحكم كل منها زعيم أو أمير مستقل ، وبدأ بذلك عهد الطوائف .

تلك خلاصة وجيزة للأوضاع النظامية ، وأنواع الحكم المتوالية ، التى عاشت فى ظلها الأمة الأندلسية زهاء ثلاثة قرون منذ فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ (٧١١م) حتى قيام دول الطوائف ، فى الربع الثانى من القرن الرابع الهجرى.

— ٢ —

الحجابة والوزارة

كانت حكومة الأندلس فى عصر الولاة ، هيئة إدارية محلية قوامها الحاكم (الوالى) وقادة الجيش . ولم تك ثمة مناصب وزارية بالمعنى المعروف ، إذ لم يكن الوالى سوى رئيس موقت لإدارة الإقليم ، وقد كان الوالى فى معظم الأحيان هو قائد الجيش العام . ولم تظهر المناصب الوزارية إلا فى بداية عصر الإمارة منذ قامت الدولة الأموية بالأندلس ، على يد مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وقد اقتبس الداخل لنظام حكومته ، من أنظمة الحكومة الأموية بالمشرق ، وأنشأ منصب الحجابة ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل اكتفى بتعيين نفر من أخلص أنصاره كمعاونين ومستشارين ، يعاونونه فى القيام بأعباء الحكم ، ويبذلون له النصح فى مهام الأمور . وعين للجيش أيضا قائده العام . بيد أنه كان يقود الجيش بنفسه فى مواطن كثيرة . وقد امتازت حكومة الداخل بالاعتماد على الموالى والاسترابة بالعرب ، لما لقيه الداخل من خصومتهم ومناوأتهم . وقد غدت هذه الظاهرة فيما بعد ، ظاهرة الاسترابة بالعرب ، من مميزات الحكومة الأموية بالأندلس ، سواء فى عهد الإمارة أو عهد الخلافة ، واتخذت أسطع مظاهرها فى عهد عبد الرحمن الناصر .

واتجهت الحكومة الأموية ، إلى جانب الاعتماد على الموالى ، إلى اصطناع الصقالبة ، واتخذ هذا الاتجاه طابعه القوى منذ عهد الحكم بن هشام ، وظهر الصقالبة لأول مرة بكثرة فى البلاط الأموى ، واحتلوا معظم مناصب القصر والخاص . غير أن الاعتماد على الصقالبة لم يمنع قيام الحجابة والوزارات القوية . فكان منصب الحجابة فى الواقع هو أهم المناصب التنفيذية ، وكان يليه فى معظم الأحيان رجال من الطراز الأول ، أحياناً من رجال السيف ، مثل عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث وعبد العزيز بن أبى عبدة حاجبا الحكم ، وأحياناً من رجال القلم مثل عيسى بن شهيد حاجب عبد الرحمن بن الحكم ، والحاجب جعفر المصحفى ، حاجب الحكم المستنصر ، وأحياناً يجمع الحاجب بين السيف والقلم مثل الحاجب عبد الكريم ، وهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وكان يعاون الحاجب، وهو بمثابة رئيس الوزارة ، عدة من الوزراء ، يتولون مختلف المناصف الوزارية . وقد بلغت الوزارة فى ظل الحكومة الأموية الأندلسية شأواً بعيداً ، وتعاقب فى ولايتها جمهرة من أعظم الرجال ، وألمعهم خلالا ، وكانت تضم عدة من أخطر مناصب الدولة ، مثل منصب كبير الخاص. وكان يشغله على الأغلب فتيان الصقالبة . وخطة الخيل . وخطة الكتابة أو الكتابة العليا ، وكان يتولاها وزير من الكتاب النابهين . وخطة صاحب المدينة أو حاكم قرطبة ، وصاحب المدينة بالزهراء ، وكانتا من أهم المناصب الوزارية . وخطة المظالم ، وكانت قبل عهد الناصر خطة مفردة تتضمن العرض والمظالم ، ولكنها فى عهد الناصر ، قسمت إلى خطتين (٣٢٥هـ) ، وجعل العرض خطة مستقلة بذاتها ، وكذلك المظالم أضحت خطة مستقلة، وكان أول من وليها مستقلة محمد بن قلمسم بن طملس ، وكان يتولى المظالم وزير، وقد وليها قبله أيام الناصر جماعة من الوزراء النابهين مثل أحمد بن حدير ، وعبد الملك بن جهور . وخطة الشئون المالية . وخطة الشرطة ، وكانت من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن ، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين : الشرطة العليا ، والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة ٣١٧ هـ فى عهد الناصر لدين الله ، قسمت بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب : الشرطة العليا ، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى ؛ وقد رتب رزق الشرطة الوسطى، وسطاً بين رزقى العليا والصغرى، وكان أول من تقلدها سعيد بن سعيد بن حدير . وخطة القضاء ، وتتبعها خطة المواريث ، وكذلك خطة السوق أو الحسبة . وخطة الشورى ، وكانت من الخطط العارضة ، ومن المناصب ذات النفوذ العلمى والأدبى قبل كل شيء ، وتسند عادة إلى من يعتبر فى وقته عميد العلماء وشيوخهم، وكان أشهر من وليها رجال مثل بقى بن مخلد . وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، كان ثمة ديوان يسمى ديوان الندماء، كان يلحق به كل أديب وشاعر ممن يؤثرهم الأمير بصحبته ومجالسته . وفى أواخر الدولة العامرية، غلب الصقالبة فى تولى الخطط الكبرى من حجابة ووزارة ، وبدأ ذلك بنوع خاص فى عهد عبد الملك المنصور . ولما انهارت الدولة العامرية استمرت هذه الظاهرة حيناً ، وتولى أولئك الفتيان الحجابة للخلفاء الأخيرين من بنى أمية، وغلبوهم على أمرهم ، ثم استبدوا فيما

بعد ، عند انهيار الدولة ، برياسة طائفة من المدن والولايات ، وكان من هؤلاء أمراء للطوائف ، مثل مجاهد العامرى صاحب دانية ، وخيران العامرى صاحب ألمرية . وظهرت فى الدولة العامرية بدعة أخرى ، هى إسناد منصب الحجابة إلى الأطفال. فقد استصدر عبد الملك المنصور من الخليفة المحجور هشام المؤيد، مرسوماً بتعيين ولده الطفل محمد فى منصب الحجابة ، ولقب بذى الوزارتين، وعين عبد الرحمن المنصور ولده الطفل عبد العزيز فى منصب الحجابة، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة . وكانت هذه المهازل وأمثالها دليلا على تصدع ذلك الصرح الإدارى المحكم الذى شاده الأمراء والخلفاء من بنى أمية ، خلال قرنين من الجهود المتوالية . وفى أيام الخليفة المستظهر العابرة (رمضان — ذو القعدة ٤١٤ هـ) استحدث بالوزارة عدة خطط جديدة مثل : خطة خدمة المدينتين الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة مواريث الخاصة ، وخدمة الطراز ، وخدمة المعالى ، وخدمة الأسلحة ، وخدمة الخزانة ، وخدمة الوثائق ، ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة أحكام السوق ، وهى خطط يصفها ابن حيان بأنها عبث وزخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل .

— ٣ —

الجيش ، نظامه وتكوينه

كان أول جيش إسلامى عبر إلى شبه الجزيرة لفتح الأندلس، مكوناً من العرب والبربر ، وكان قائد الجيش الفاتح ، طارق بن زياد، فيما يرجح بربرياً من قبيلة نفزة . وقد لعب البربر منذ البداية فى تكوين قوى الأندلس الغازية والدفاعية أعظم دور ، وكان تدفقهم من الضفة الأخرى من البحر — من المغرب على شبه الجزيرة أسرع وأغزر من تدفق المتطوعة العرب ، وكانوا يؤلفون الكثرة فى جيش الغزو . ولما نظم عبد الرحمن الغافقى جيشه الضخم لغزو بلاد الفرنج ، كان البربر من عناصره المختارة الغالبة ، وكانت القيادة دائماً بيد الضباط العرب ، وكان الخلاف الذى اضطرم منذ بداية الفتح بين العرب والبربر ، يعمل عمله المقوض بين صفوف الجيش ، وقد بدأ تكوين الجيوش الغازية الضخمة ، منذ عهد السمح بن مالك الخولانى والى الأندلس، وكان أعظم هذه

الجيوش ، الجيش الضخم الذى حشده عبدالرحمن الغافقى لغزو مملكة الفرنج . وبالرغم من أن البربر كان لهم فى إنجاح معظم الغزوات الشمالية أثر فعال ، فإنهم كانوا أيضاً فى بعض الأحيان عنصراً خطراً على سلامة الجيش ، لما كان يسودهم فى بعض الأحيان من البغض وعدم التعاون لقادتهم العرب . وكان أسطع مثل لذلك الخلاف المدمر ، ما حدث فى موقعة بلاط الشهداء (١١٤هـ — ٧٣٢ م) من تخاذل البربر وتخلفهم عن القتال أمام الفرنج ، وإرغامهم هيئة الجيش على الانسحاب بعد مقتل قائده البطل عبد الرحمن الغافقى . ولما قامت ثورة البربر فى المغرب ، وهزم العرب فى منطقة طنجة ، وعبرت فلول الجيش المنهزم وهم من الشاميين بقيادة بلج بن بشر القشيرى إلى الأندلس ، وذلك بدعوة الوالى ابن قطن ، ليستعين بهم على مغالبة البربر فى الأندلس ، رجحت كفة العناصر العربية فى الجيش مدى حين . ولكن جيش الأندلس ما لبث أن انقسم إلى قسمين ، معسكر الشاميين وهم أنصار بلج ، ومعسكر العرب والبربر المحليين . ولبثت الحرب الأهلية تضطرم حيناً ، حتى قام يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فاستقر فى ولاية الأندلس ، وقام بإصلاح الجيش وتنظيمه ، ليعود كما كان جيشاً أندلسياً ، يضطلع بالغزو ورد هجمات نصارى الشمال .

وعنى عبد الرحمن الداخل بتنظيم الجيش أشد عناية ، وحشد له المتطوعة والمرتزقة من سائر الطوائف . وبلغت قواته يومئذ نحو مائة ألف مقاتل . وهذا عدا الحرس الخاص ، الذى يتكون من الموالى والبربر والرقيق ، وقد بلغت قواته نحو أربعين ألفاً . ووضع عبد الرحمن الداخل أيضاً نواة الأسطول الأندلسى بما أنشأ من قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور النهرية والبحرية . ولكن بداية قيام الأسطول الأندلسى الفعلية ترجع إلى ما بعد ذلك بنحو نصف قرن ، حينما فاجأ النورمانيون الأندلس بغزو الثغور الغربية ، ثم بغزو إشبيلية ، والفتك بأهلها . وكان ذلك فى سنة ٢٣٠هـ (٨٤٣م) فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، فعندئذ أدركت الحكومة الأندلسية وجوب العناية بأمر الأسطول والتحصينات البحرية وبدئ بإنشاء السفن الحربية . وكانت أكبر دور الصناعة لإنشاء السفن فى مياه الوادى الكبير تجاه إشبيلية . ومن ذلك الحين يقوم الأسطول الأندلسى بدوره فى شئون

الغزو والدفاع ، وقد بلغت وحداته فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة .

ومما تجدر ملاحظته أن الجيش الأندلسى ، قد تلقى خلال عهد الفتنة الكبرى التى شملت سائر نواحى الأندلس ، ولاسيما المنطقة الجنوبية ، واستمرت تضطرم زهاء ستين عاما ، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨–٢٧٣هـ) كثيراً من الدربة والتجارب المريرة فى معاركه المستمرة مع جيوش الثوار ، وأضحى فى أواخر هذه الحقبة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، من حيث العدد والكفاية قوة لها خطرها . وقد بذل الناصر جهوداً عظيمة لإصلاح الجيش وتقويته ، ومده بالأسلحة والعتاد الوفير . وعنى فى الوقت نفسه بأمر الأسطول ، فأنشأ له وحدات جديدة ، وجعل مركزه الرئيسى ثغر ألمرية ، وأنشأ بها أعظم دار للصناعة ، وبلغ الأسطول الأندلسى فى عهد الناصر ، حسبما تقدم ، زهاء مائتى سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية ، وكان الأسطول الأندلسى يومئذ من أقوى الأساطيل ، وكان يسيطر على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية .

وفى عهد المنصور بن أبى عامر ، بلغ الجيش الأندلسى المرابط ذروة القوة والضخامة ، وقد رأى المنصور أن يعتمد بالأخص فى تكوين الجيش على حشود البربر ، فاستقدمهم من العدوة ، وبذل لهم الأعطية السخية ، وكذلك حشد فى جيشه كثيراً من المرتزقة النصارى ، ومعظمهم من المستعربين رعايا الحكومة الأندلسية ، واستطاع المنصور ، بما بذله من جهود عنيفة متوالية ، ومن أموال وفيرة ، أن ينشىء للأندلس قوة عسكرية هائلة لم تعرفها الأندلس فى أى عصر سابق ، أو لاحق . وقد نقلت إلينا الرواية بعض أرقام عن الجيش الأندلسى المرابط فى عهد المنصور ، من ذلك أن الفرسان بلغ عددهم إثنى عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، تصرف لهم النفقة والسلاح والعلافة ، وبلغ عدد الرجالة (المشاة) فى الجيش المرابط ستة وعشرين ألف مقاتل . وكان عدد الجيش المرابط ، يتضاعف وقت الصوائف مراراً بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة ، وقد بلغ عدد الفرسان فى بعض الصوائف ، ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف أيضاً ، وقد يعدو المائة ألف أو تزيد .

— ٤ —

الموارد الاقتصادية

وصنوف الجباية

لما افتتح المسلمون الأندلس ، كان الشعب الإسبانى المغلوب ، ما يزال يعيش فى ظل بقايا النظم الرومانية ، التى اتخذها القوط أساساً لتشريعاتهم ونظمهم الإدارية . وكان عبء الضرائب يقع معظمه على طبقات الشعب الدنيا ، ولا يكاد يقع شىء منه على عاتق الأشراف ورجال الدين ، ومن إليهم من الطبقات الممتازة . فلما افتتح المسلمون شبه الجزيرة ، فرضت الضرائب على قاعدة المساواة دون تمييز بين طبقة وأخرى ، وفرضت الجزية على من لم يعتنق الإسلام من أبناء الشعب المغلوب . وفى خلال الحقبة الأولى ، التى تميزت باستمرار الغزوات الإسلامية ، وما تقتضيه من حشد الجيوش المستمرة ، لم تكن موارد القطر المفتوح قد حققت كلها واستغلت . وقد كان من الواضح منذ البداية أن القطر المفتوح قطر زراعى قبل كل شىء . وكان خراج الأرض الزراعية ، والجزية ، وأخماس الغنائم ، هى المصادر الرئيسية للدخل ، وقد ازدهرت الزراعة بالأخص عقب الفتح لما حدث من توزيع أفضل للأرض ، وتحسين أحوال العاملين فيها . وكان يوسف الفهرى آخر الولاة ، أول من عدل نظام الضرائب القديم ، ففرض على كل ولاية ، أن تقدم ثلث الدخل ، ورفع الجزية عمن توفوا من النصارى ، وقسم الأندلس من الناحية الإدارية إلى خمس ولايات حسبما أسلفنا ذلك فى موضعه . وكانت حكومة قرطبة الإسلامية تسيطر على أخصب وأغنى وديان شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أهم المحاصيل الزراعية هى القمح والزيتون والفاكهة وغابات الأشجار الخشبية ، وما تزال هذه المحاصيل إلى اليوم هى أهم موارد اسبانيا الزراعية . وكذا كان تربية الماشية مورداً من أهم موارد الدخل القومى .

ولما استقرت الأمور ، واستطاع الفاتحون أن يضعوا أيديهم على موارد البلاد وثرواتها الطبيعية ، وأن يستغلوها بمقدرة وذكاء ، لم تبق الزراعة هى المورد الوحيد ، وإن لبثت دائماً هى المورد الرئيسى . ذلك أن شبه الجزيرة الإسبانية ، تضم ثروات متنوعة من المعادن ، كانت تستغل منذ أيام الرومان ، فكان يستخرج

بها الفضة والرصاص والحديد والذهب والزئبق ، والقصدير من أنحاء مختلفة ، فى الشمال والجنوب ، فكانت الفضة والنحاس تستخرج فى الشمال ، وفى جهة قرطبة ، وكورة تدمير ، وكان الزئبق يستخرج من جبال البرانس ، والقصدير بجهة أكشونبة من ولاية الغرب ، وكان البللور يستخرج فى منطقة لورقة ، والرخام من جبل قرطبة وباغة ومن جبال سيرّا مورينا . وكانت تقوم إلى جانب الزراعة صناعات هامة ، مثل صناعة النسيج والملابس والأثاث والفخار والزجاج والورق[1] ، وكانت التجارة تزدهر فى نفس الوقت داخل شبه الجزيرة ، وخلال موانيها الشرقية والجنوبية ولاسيما مالقة وألمرية ، وتجبى الدولة من المكوس التجارية ، سواء على التجارة الداخلية أو الخارجية أو على السفن الصادرة والواردة مقادير عظيمة .

ولم تأت أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فى عصر عبد الرحمن ابن الحكم ، حتى كانت إسبانيا المسلمة ، قد بلغت مبلغاً عظيماً من الرخاء ، وتضاعفت مواردها من الدخل القومى ، وبلغت حصيلة الجباية من المكوس وحدها زهاء ألف ألف دينار فى السنة ، وبلغت فى عهد عبد الرحمن الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار . وبلغت من المستخلص (وهى الأملاك السلطانية) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وقد ذكرنا فيما تقدم ، فى موضعه ، أن الناصر خلف عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب ، هذا عدا ما أنفقه من الأموال الطائلة فى مختلف الغزوات ، وفى مختلف المنشآت الباذخة التى أقامها ، وفى مقدمتها مدينة الزهراء الملوكية ، وهى مما يدل على ضخامة الموارد المالية للأندلس فى عصر الخلافة .

وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، فى أواخر عصر الخلافة ، حققت موارد الدخل زيادة عظيمة ، ووصل محصل الجباية وحده إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) ، سوى رسوم المواريث وسوى مال السبى والغنائم ، واستمرت هذه الزيادة فى عهد ولده عبد الملك . ثم كان انهيار الدولة العامرية ، وانهيار الخلافة الأموية ، واضطرام الفتنة فى كل مكان ، فتحطمت موارد الدخل ، وكسدت التجارة والصناعة ، وغاضت أسباب الرخاء .

---

(١) راجع كتاب الأستاذ ليڤى بروفنسال **L'Espagne Musulmane aux xème Siècle; p. 176, 183 & 184** ، وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ٧٨ و ٩٣ .

الفصل الثانى

الحركة الفكرية الأندلسية

فى عصرى الإمارة والخلافة

— ١ —

لبثت الأندلس عقب الفتح ، ردحاً من الزمن ، بعيدة عن أن تكون مهداً لنشوء الحركة الفكرية . ذلك أنه خلال عصر الولاية ، لم تكن الأمور قد استقرت بعد ، ولم تترك مشاغل الغزو ، والخلافات الحزبية ، والانقلابات المتوالية فى الرياسة ، كبير مجال لاتجاه الأذهان إلى التفكير والأدب ، ومن ثم فإنا لا نجد فى هذا العصر كتاباً أوشعراء أو مفكرين ذوى خطر ، وإن كنا نجد بعض الآثار الشعرية القليلة ، التى ترد على ألسنة بعض الولاة أو الزعماء .

ويمكننا أن نرجع الحركة الفكرية الأندلسية ، إلى عصر عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ . ذلك أن هذا الأمير القوى اللامع ، منشئ الدولة الأموية بالأندلس ، كان أول شخصية بارزة ظهرت فى ميدان التفكير والأدب والشعر ، ويمكن أن نعتبره بحق رائد النهضة الأدبية النثرية والشعرية ، التى تفتحت فيما بعد ، وازدهرت فى عهد خلفائه ، ولنا فيما أوردناه من نماذج قليلة ، من نثره ، ومن نظمه، ما يدل على براعته وتفوقه فى هذا الميدان .

ومن بين أمراء بنى أمية بالأندلس ، كان الرواد الأوائل فى الحديث والفقه ، فقد كان الداخل ، فوق براعته الأدبية عالماً بالشريعة ، وكان ولده هشام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) مبرزاً فى الحديث والفقه . وفى عصر هذا الأمير ظهرت طلائع النهضة الأولى فى ميدان التفكير والأدب ، وكان يغلب على هذه النهضة فى البداية ، الطابع الدينى قبل كل شىء ، وكان قد رحل فى عصر الداخل جماعة من فقهاء الأندلس إلى المشرق ، ودرسوا بالمدينة على الإمام مالك وغيره من أقطاب المشرق ، واستقوا من علم مالك واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه (الموطأ) ، وكان فى مقدمة هؤلاء فقهاء مبرزون، مثل زياد بن عبد الرحمن ،

وعيسى بن دينار ، ويحيي بن يحيي الليثى ، وكان زياد بن عبد الرحمن عميد فقهاء الأندلس فى وقته ، وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن يوقره ويجله لعلمه وورعه وزهده ، وتوفى فى سنة ٢٠٤ هـ[1] . وكذا كان عيسى بن دينار ، وأصله من طليطلة ، وسكن قرطبة ، عالماً راسخاً ، وكان أستاذ الفتيا فى وقته لا يتقدمه فيها أحد ، وكان ممن اتجهت إليهم الريبة فى ثورة الربض فهرب واستخفى حيناً ، ثم عفا عنه الأمير الحكم وأمّنه ، فعاد إلى قرطبة وتوفى سنة ٢١٢ هـ[2] . وأما يحيي بن يحيي الليثى فقد رحل كزميله إلى المشرق ، وسمع من مالك ، والليث ابن سعد ، وعبد الله بن وهب وغيرهم ، وعاد إلى الأندلس ليشغل بين فقهائها مركز الصدارة ، وكان ذهناً حراً يعتز بحريته واستقلاله ، فلم يل قضاءً ، ورفض كل دعوة إلى توليه، وتوفى فى سنة ٢٣٤ هـ[3]. وعلى يد أولئك الفقهاء والرواد، ذاع مذهب مالك بالأندلس منذ عصر هشام . وكان هشام نفسه كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك فى ذيوع المذهب ، وفى تمكين مكانته بالأندلس . وكان هذا بداية لنفوذ الفقهاء فى شئون الدولة ، وهو نفوذ اشتد فيما بعد ، وكان له أثر عميق فى تحريك القوى المعارضة ، التى انتهت باضطرام ثورة الربض ضد الحكم بن هشام ، فى سنة ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) ، وذلك حسبما أوضحنا فى موضعه .

وفى عصر الحكم بالذات ، تتخذ الحركة الفكرية طابعاً أوسع أفقاً ، وتظهر طوالع النزعة الأدبية إلى جانب العلوم الدينية ، ويظهر الأدباء والشعراء إلى جانب الفقهاء والمحدثين . وكان فى مقدمة من ظهروا فى تلك الفترة عبد الملك ابن حبيب بن سليمان السلمى ، وأصله من إلبيرة وسكن قرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وسمع الكثير من علمائه . ولما عاد إلى الأندلس عمل مشاوراً مع يحيي ابن يحيي ، وسعيد بن حسان ، وكان حافظاً للفقه على مذهب المدنيين ، بيد أنه كان إلى جانب الفقه ، بارعاً فى النحو والعروض والشعر ، حافظاً للأخبار والأنساب والأشعار ، متصرفاً فى عدة فنون . وكتب عدة مؤلفات فى الفقه والتاريخ منها « الواضحة » و « الجوامع » وكتاب فى « فضائل الصحابة » ، وكتاب فى « غريب الحديث » ، وكتاب « حروب الإسلام » ، وكتاب « طبقات

---

(١) راجع علماء الأندلس لابن الفرضى (مصر) رقم ٤٥٨ .

(٢) راجع علماء الأندلس رقم ٩٧٥ .

(٣) جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٩٠٨ .

الفقهاء والتابعين » و « مصابيح الهدى » وغيرها ، وكان محمد بن عمر بن لُبابة يقول فيه : عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس ، ويحيي بن يحيي عاقلها ، وعيسى ابن دينار فقيهها . وتوفى عبد الملك بن حبيب فى سنة ٢٣٨ هـ[١] .

وفى عصر الحكم بن هشام تتخذ الحركة الفكرية ، التى غلب عليها الطابع الدينى ، حتى ذلك الوقت ، طابعاً أدبياً واضحاً ، ويبدأ ظهور الكتّاب والشعراء المبرزين ، وكان الحكم نفسه فى مقدمة شعراء عصره وأدبائه ، وكان له نظم بارع أوردنا فيما تقدم طرفاً منه . ومن شعراء هذا العصر ، عباس بن ناصح الجزيرى المصمودى ، وهو من أهل الجزيرة ، وقد رحل إلى مصر والحجاز والعراق ، وتلقى على علمائها ، ودرس الفقه ، ولقى الأصمعى وغيره ببغداد ، ثم عاد إلى الأندلس ، ومدح الأمير الحكم فندبه لقضاء الجزيرة ، وكان بارعاً فى اللغة وشاعراً جزلا ، يسلك فى شعره مسلك العرب القديمة ، وكان له أيضاً حظ من الفقه[٢] . وكان ولده عبد الوهاب بن عباس بن ناصح أيضاً ، فقيهاً وشاعراً محسناً[٣] ، وكان من الكتاب والشعراء أيضاً حاجب الحكم وقائده عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث ، ومؤمن بن سعيد . وكان مؤمن شاعراً مبرزاً كثير الشعر . وكان حاد النكتة والنادرة ، ومن شعره قوله :

حرمتك ما عدا نظراً مضراً ... بقلب بين أضلاعى مقـــيم
فعينى منك فى جنات عدن ... مخلدة وقلبى فى الجحيم[٤]

وبلغ الشعر فى عصر الحكم ذروته ، على يد شاعرين كبيرين ، هما العلامة عباس بن فرناس ويحيي الغزال الجيّانى . وكان أولهما عالماً بالفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية والموسيقى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مخترعاته العلمية ، وإلى محاولته اختراع طريقة لطيران الإنسان . وكان ثانيهما كذلك عالماً بالفلسفة والفلك ، وقد عاش كلاهما طويلا بعد عصر الحكم ، وفيما أوردناه فيما تقدم من شعرهما دليل على براعتهما فى هذا الميدان .

---

(١) راجع ابن الفرضى ، علماء الأندلس ، رقم ٨١٦ .

(٢) راجع ابن الفرضى رقم ٨٨١ .

(٣) ابن الفرضى رقم ٨٨١ .

(٤) راجع جذوة المقتبس للحميـدى رقم ٨٢٦ ، وقضاة قرطبة للخشنى (مصر) ص ١٠٣ و ١٠٥ .

وفى عصر عبد الرحمن بن الحكم، بلغت الحركة الفكرية الأندلسية الأولى ذروتها ، فنى ميدان الكتابة احتشد فى بلاط الحكم عدة من أكابر الكتاب المبرزين ، وفى مقدمتهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، ومحمد ابن سليمان الزجالى ، وفى ميدان العلوم الدينية ظهر فى عهد عبد الرحمن، جمهرة من أكابر الفقهاء ، مثل محمد بن يوسف بن مطروح، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبقىّ بن مخلد ، ومحمد بن وضاح ، وغيرهم، وكان عميد هذه الجمهرة من الفقهاء بقى بن مخلد، وهو من أهل قرطبة، ودرس على علماء الأندلس وإفريقية، وبرع فى الحديث والرواية، ويمكننا أن نعتبره رائد علم الحديث فى الأندلس . وقد أنكر عليه بعض خصومه ما أدخله من كتب الاختلاف وغريب الحديث بالأندلس، ووشوا به للأمير محمد بن عبد الرحمن . وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما كان من مناظرته لخصومه ، وإلزامهم الحجة، وإلى ما حباه به الأمير من عطفه وحمايته، وقد كان ذلك من أسباب انتشار الحديث بالأندلس . ولبقى بن مخلد عدة مؤلفات فقهية . وله تفسير للقرآن ومسند للنبى ، وينوه العلامة ابن حزم فى رسالته بعلم بقى وأهمية كتبه، ويقول لنا إن تفسيره للقرآن لم يؤلف فى الإسلام مثله(١) . وسمع على بقى جمهرة من فقهاء الأندلس، وكان ورعاً زاهداً ، وتوفى سنة ٢٧٦ هـ(٢) .

وكان من أعلام الفقهاء فى هذا العصر، محمد بن عبد السلام الخشنى وهو من أهل قرطبة ، ورحل إلى المشرق وسمع ، فى البصرة وبغداد ومصر ، وكان فصيحاً جزل البيان، بارعاً فى اللغة ، ورواية الحديث، وكان أنوفاً منقبضاً عن السلطان ، وقد رفض أن يتولى القضاء للأمير محمد بن عبد الرحمن ، وتوفى فى سنة ٢٨٦ هـ(٣) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به الأمير عبد الرحمن بن الحكم من المواهب الأدبية والشعرية ، وأوردنا فيما تقدم طرفاً من شعره. وكان من ألمع شعراء عصره، صديقه وشاعره عبد الله بن الشمر بن نمير ، وهو من أهل وشقة، وكان

---

(١) راجع رسالة ابن حزم عن علماء الأندلس فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) راجع ابن الفرضى رقم ٢٨٣ .

(٣) ترجمته فى ابن الفرضى رقم ١١٣٤ . وهو غير محمد بن حارث الخشنى صاحب « قضاة قرطبة » المتوفى سنة ٣٦١ هـ

عالماً متمكناً وشاعراً محسناً . وله شعر جيد كثير وقد أخذ الناس من شعره[1].

وكان من أبرز الظواهر الأدبية فى هذا العصر ، انتشار اللغة العربية وآدابها بين طائفة المستعربين أو النصارى المعاهدين ، ونبوغ الكثير منهم فيها ، وبلوغهم مرتبة البراعة فى كتابتها ، ويمكننا أن نذكر من كتابهم المبرزين فى هذا العصر ، الأسقف جومث بن أنتنيان، قومس أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدراً ، ومن كتاب الأمير عبد الرحمن .

وكانت الفتنة الكبرى فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٢٨ — ٢٧٣ هـ) وولده الأمير عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) عاملا هاماً فى اضطرام النهضة الأدبية، والشعرية بنوع خاص . وكان من أبرز شعراء عهد الفتنة الأول عباس ابن فرناس، وقد أوردنا قصيدته فى موقعة طليطلة ، التى سحق فيها الثوار . وفى أواسط عهد الفتنة ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، وأديب من أعظم أدبائها، هو الفقيه أبو عمر أحمد بن عبد ربه (٢٤٦ — ٣٢٨ هـ) صاحب كتاب « العقد الفريد » الذى يعتبر من أعظم آثار الأدب الأندلسى . ويمكننا أن نعتبر ابن عبد ربه شاعر الدولة المروانية، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى عهد عبد الرحمن الناصر ، وقد ظهر بشعره فى موقعة إستجة التى سحق فيها الثائر عمر بن حفصون ، وذلك فى سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) ، وظهر بمدائحه للأمير عبد الله، ثم حفيده عبدالرحمن الناصر ، وقد كان معلمه فى صباه، وبأرجوزته فى غزوات الناصر ومآثره . وقد أوردنا من نظمه فيما تقدم عدة من قصائده . وأما كتابه « العقد الفريد » فإنه يعتبر بمحتوياته وتنوعه ، من أمتع الكتب فى الأدب العربى ، وبالرغم من أن موضوعاته ، يغلب عليها طابع الأدب المشرقى ، فإنه يعتبر عنواناً بارزاً للأدب الأندلسى فى مرحلته الأولى . وقد انتقد بعضهم العقد الفريد لأنه « لم يجعل فضائل بلده ، واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة ملكه »[2] ويعتبر العقدالفريد بطابعه المشرقى ، على النقيض من كتاب « الذخيرة » لابن بسام الشنترينى ، المتوفى سنة٥٤٢هـ ، والذى يعتبر بمحتوياته وروحه، مثلا ساطعاً للأدب الأندلسى .

---

(١) ابن الفرضى رقم ٦٩١ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٢٦ .

ومن شعراء عهد الفتنة وأدبائها البارزين سوّار بن حمدون القيسى ، وسعيد ابن سليمان بن جودى ، وهما من زعماء الفتنة العرب ، وكان كلاهما إلى جانب فروسيته من أعلام البيان والنظم فى وقته، وقد نقل إلينا ابن الأبار نماذج من نظمهما[1] .

وكان من أعلام الأدب فى تلك الفترة أيضاً محمد بن أضحى الهمدانى ، وهو من زعماء العرب بكورة إلبيرة . وكان بارعاً فى الأدب، خطيباً مفوهاً ، يخطب بين يدى الأمراء فى المحافل ، وكان خلال الفتنة قد انضوى تحت لواء الأمير عبد الله ، ثم انضوى بعد ذلك تحت طاعة الناصر فيمن خضع من ثوار النواحى[2].

وكان الأمير عبد الله نفسه من ألمع شعراء عصره . وكان بارعاً فى العربية، حافظاً للغريب من الأخبار ، وقد نوه المؤرخ ابن حيان بشاعريته ، ورفيع أدبه ، وأوردنا نحن فيما تقدم نماذج رقيقة من شعره .

— ٢ —

وكان عصر عبد الرحمن الناصر ، من ألمع عصور الدولة الأموية بالأندلس ، وفيه زهت العلوم والآداب ،وظهرت جمهرة من أكابر الشعراء والعلماء . وكان من أعلام تلك الفترة ، إلى جانب عميدهم ابن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، محمد بن عمر بن لُبابة ، وهو من أهل قرطبة . وكان إماماً فى الفقه ، متمكناً من حفظ الرأى ، والبصر بالفتيا ، وكان مشاوراً أيام الأمير عبد الله ، ثم انفرد بالفتيا أيام الناصر ، فلم يكن يشاركه أحد فى الرياسة والقيام بالشورى ، وكان حافظاً لأخبار الأندلس ، وله حظ من النحو والشعر . وقد وُلى الصلاة بالمسجد الجامع ، وتوفى فى سنة ٣١٤هـ . ومن مؤلفاته كتاب المنتخب فى روايات مذهب مالك[3].

وقد حدثنا ابن حيان فى المقتبس عن شعراء عصر الناصر الذين التفوا حول بلاطه ، وأشادوا بمدحه ، فقال: إن « فى مقدمتهم معلمه فى الصبا أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس، وعبد الملك بن سعيد المرادى ، وإسمعيل بن بدر ، وأغلب بن شعيب ، وحسان بن

---

(١) راجع الحلة السيراء (طبعة دوزى) ص ٨٠ - ٨٧ .

(٢) الحلة السيراء ص ٩٨ .

(٣) ابن الفرضى رقم ١١٨٩ .

حسان [السناط] وغيره ؛ ومن كبار الطارئين عليه من المشرق ، طاهر بن محمد المهند البغدادى ، ومحمد بن حسين الطبنى الإفريقى ، وغيرهما ، أسافوا فى الناصر لدين الله إحساناً كثيراً .

فمن قول أبى عثمان عبيد الله يحيى بن إدريس فى الناصر لدين الله ، وقد غزا الروم فى شهر رمضان ، وأدركه الفطر فى بلاد العدو ، فلم يتورع ، وصمد إلى لقايهم ، وقد اجتمعوا :

يهنى الخلافة سعى خير إمام ... لله مسعاه وللإسلام
ملك تمكن فى المكارم والعلى ... كتمكن الأرواح فى الأجسام
عزم الرحيل مصمماً فى عيده ... لشفاء غلة سيفه الصمصام
يصل الترحل بالترحل دائبا ... فى الحل يحكمه وفى الإبرام
ليعز دين الله فى كنف العلى ... ويذب عن حرم الهدى ويحام
مستنجزاً وعد الإله بنصره ... فى شيعة الإشراك والإحرام

وقوله حينما نزل الناصر بجيوشه طايطلة ، وارتياع الجلالقة لمقدمه ، من قصيدة :

على أى فتح تقدما أتت ... لك فتوح الثغر فذاً وتوءما
تباشر تترى من فتوح تواترت ... كما تابع النثر الجمان المنظما

ومن نظم أبى الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفى كاتب ولى العهد الحكم بن الناصر لدين الله ، السامى المحل فى الاشتمال على متن البلاغة ، من النثر والنظم بالتبريز ، ما نظمه وقت انتقال الناصر لدين الله عن سرقسطة :

على أيمن الأوقات كان ارتحالك ... وفى أيمن الساعات كان احتلالكا
تنقلت عن دار الشقاق مظفراً ... وقد صال بالمخذول فيها صيالكا
وحاربت ذا السيف العريض بميتة ... أرت مستجيش الشرك كيف اغتيالكا
وأقفلت عنهم والمنايا صوايب ... تسيل بها فى ساحتيهم سجالكا
إذا ماالقرى رام اغتلاق جفونهم ... فخطفه بالخوف عنها خيالكا
وإن ذهبوا للسير فى الأرض مذهبا ... تراءى لهم فى كل أفق مثالكا
هل الأجل المرهوب إلا صيالكا ... أم الأمل المرغوب إلا نوالكا
بقيت أمير المؤمنين مملكاً ... فما الروضة الزهراء إلا جلالكا

وقال إسمعيل بن بدر فى مديح الناصر وذكر غزوته للجزيرة الخضراء :

تطوى المراحل إدلاجاً وتنجيرا مشمراً فى رضى الرحمن شميرا

بدر الملوك الذى إشراق سنته تجلو عن الدين والدنيا الدياجيرا

من قد قضى الله فى ماضى شبيبته لا يزال على الأعداء منصورا

قال ابن حيان : « والشعر فى الناصر لدين الله رحمة الله عليه، كثير جداً ، محمول عن فحول يقدمهم ابن عبدربه، وابن إدريس، ومهند والطبنى ونمطهم... فى تجويد صناعتهم بفضل ما ألفوا لديه من التوسعة عليهم، والإحسان إليهم ، فكل منهم كمل فيما صاغه فيه ديواناً بذاته ، عفى رسومها، وغيض معينها من الليالى وانصرام الدولة، وتسلط الفتن البربرية، والمطاولة على التواريخ الملوكية، التى كانت له قاصمة وجامعة ، حتى مزقت كل ممزق بأيدى الجهال، فهل من باقية »[1] .

وكان بين وزراء الناصر وحجابه، عدة من أكابر الكتاب والأدباء، مثل الحاجب موسى بن محمد بن حدير ، وقد كان من أهل الأدب والشعر، فضلا عن كونه من بيت رياسة وجلالة[2] وعبد الملك بن جهور ، وقد كان وزيراً جليلا ، وأديباً وشاعراً محسناً ، ومن شعره :

إن كانت الأبـدان نائمـة فنفوس أهل الظرف تأتلف

يارب مفترقـين قد جمعت قلبيهما الأقـلام والصحف[3]

وكان من أعلام تلك الفترة أيضاً القاضى منذر بن سعيد البلوطى (٢٦٥ — ٣٥٥هـ) ، وكان بارعاً فى علوم القرآن والسنة ، وظهر فوق ذلك بفصاحته وجزالة شعره . وقد أشرنا فيما تقدم إلى موقفه الخطابى الرائع ، فى حفل استقبال سفارة قيصر الروم ، وما حباه به الناصر من أجل ذلك ، من عطف ، وتقدير ، وتوليه للخطابة والقضاء . ومن مؤلفاته «كتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة » .

وفى عصر الناصر ظهرت حركة دينية ، على رأسها أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرّة الجبلى من أهل قرطبة . وكان مولده بها فى سنة ٢٦٩ هـ . وقد

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحات ٢٧ و ٣١ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٧٨٧ .

(٣) جذوة المقتبس رقم ٦٢٦ .

برع ابن مسرة فى العلوم الدينية ، ولكنه جاهر ببعض الآراء المغرقة ، فى التأويل والقدر وغيرها ، فاتهم بالزندقة وغادر الأندلس . فاراً إلى المشرق وذلك فى سنة ٢٩٨ هـ ، ودرس هنالك على أيدى المعتزلة ، والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس وهو يخفى نحلته وآراءه الحقيقية ، تحت ستار من النسك والزهد . وكان يتخذ لنفسه غاراً يتعبد فيه على مقربة من جبل قرطبة ، حتى سمى بالجبلى . واختلف إليه الطلاب من كل صوب . وكان يستهويهم بغزير علمه وجزالة بيانه ، حتى ذاعت شهرته ، وتبعه الكثيرون من الصحب و التلاميذ . وقد اختلف فى أمر ابن مسرة ، فبعضهم يسمو به إلى مرتبة الإمامة فى العلم و الزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع . وتوفى ابن مسرة بقرطبة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١م)[١] . على أن تعاليم ابن مسرة لبثت بعد ذلك حية ذائعة ، طوال عهد الناصر ، وقام جمهرة من أهل السنة ، بمعارضة تعاليمه وإنكارها ، ووصل صوتهم فى ذلك إلى الخلافة ، واضطر الناصر إلى أن يصدر باسمه بياناً فى سنة ٣٤٠هـ ، يستنكر فيه تعاليم ابن مسرة وتلاميذه ، ويرميهم بالمروق ، والخروج عن تعاليم السنة الحقيقية ، وقد أورد لنا ابن حيان هذا البيان الفريد فى المقتبس[٢] ، وقد تحدثنا فيما تقدم عن ابن مسرة وحركته ، ولخصنا كتاب الناصر فى شأنها .

وفى عصر الناصر بالذات ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى الإشبيلى ، وقد ولد بإشبيلية فى سنة ٣٢٦ هـ ، وظهر منذ حداثته ببراعة شعره وروعة افتنانه ، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة . فغادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمى بالمهدية ، والخليفة المعز لدين الله يتأهب عندئذ لفتح مصر ، فأغدق عليه المعز عطفه ورعايته . ولما سار المعز إلى مصر ، سار ابن هانىء للحاق به ، ولكنه توفى فى طريقه فى سنة ٣٦٢ هـ . وقد شُبه ابن هانىء بالمتنبى فى رصانة شعره ، وروعة افتنائه ، ومن أشهر قصائده قصيدته التى يصف فيها جيش المعز الذاهب إلى فتح مصر ، بقيادة جوهر الصقلى ، والتى يقول فيها :

---

(١) ابن الفرضى رقم ٦٦٢ .

(٢) وذلك فى النسخة الخطية من السفر الخامس من المقتبس المحفوظة بخزانة القصر الملكى بالرباط بالمغرب وقد نقلناه منه ، ونشرناه فى آخر الكتاب .

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كان الأفق سد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل فى أرض بناها مدائنـا وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت المـال حيث محـله وجم العطايا والرواق المرفـع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة بأيمن فأل فى الذى أنت تجمـع
فإن يك فى مصر ظمأ لمـورد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
ويممهم من لا يغـار بنعمـة فيسلبهم لـكن يزيد فيوسـع

وكان من أعلام الشعر فى عصر الناصر أيضاً الوزير جعفر بن عثمان المصحفى، الذى تولى الحجابة فيما بعد لولده الحكم المستنصر، وتوفى فى سنة ٣٧٢هـ فى سجن الزهراء، ضحية لمنافسه القوى محمد بن أبى عامر المنصور. وقد أوردنا من شعره فيما تقدم فى غير موطن.

وظهر فى عصر الناصر عدد من أكابر الكتاب البلغاء، فى مقدمتهم كاتب الناصر الأثير عبد الله بن محمد الزجّالى، وهو الذى أنشأ عن لسانه البيان الخاص بمروق ابن مسرة الذى سبقت الإشارة إليه.

وكان الناصر نفسه عالماً أديباً، يهوى الشعر وينظمه، ويقرب الأدباء والشعراء. وكان فى مقدمة شعراء دولته وآثرهم لديه الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وذلك حسبما أشرنا فى موضعه.

وظهر فى عهد الناصر عدة من أعلام المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية الأندلسية. أولهم أحمد بن محمد بن موسى الرازى، وقد ولد الرازى سنة ٢٧٤ هـ وتوفى سنة ٣٤٤هـ. ومن تصانيفه «أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم»، وكتاب «الإستيعاب فى أنساب أهل الأندلس»، وكتاب فى «صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها». وقد كانت رواية الرازى مستقى خصباً لمؤرخى الأندلس، وفى مقدمتهم عميدهم ابن حيان.

وظهر قرينه ومعاصره ابن القوطية، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم؛ ويعرف بابن القوطية لانتسابه بطريق النسب إلى

سارة القوطية إبنة وتيزا ملك القوط . وقد ولد بقرطبة وتوفى بها سنة ٣٦٧ ﻫ (٩٧٧م) ، وكان راوية متمكناً حافظاً لأخبار الأندلس . وسير أمرائها وأخبار علمائها وفقهائها وشعرائها . وقد كتب تاريخه المسمى « تاريخ افتتاح الأندلس » . وكان فوق ذلك من أئمة عصره فى اللغة والنحو ، وله فى ذلك مؤلفات قيمة ، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه ، وتؤخذ عنه .

ومن أعلام المؤرخين فى ذلك العصر أيضاً أحمد بن موسى العروى المتوفى سنة ٣٨٨ ﻫ ، وقد ألف كتاباً عنوانه « تاريخ الأندلس » .

واستمرت النهضة الفكرية ، التى ازدهرت فى عصر الناصر ، وفى عهد ولده الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ ﻫ) وازدادت قوة وازدهاراً . وكان الحكم ، وهو الخليفة الأديب العالم ، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة . وكان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة ، واحتشاد أكابر الأستاتذة بين عقودها ، وإنشاء المكتبة الأموية الكبرى ، التى بذل الحكم فى إنشائها من الجهود العظيمة والأموال الزاخرة ما لم يسمع بمثله ، حتى بلغت محتويات هذه المكتبة الفريدة زهاء أربعمائة ألف مجلد ، من مختلف أصناف العلوم والفنون . وكثرت المكتبات العامة والخاصة ، وبلغ شغف اقتناء الكتب أشده فى ذلك العصر ، واحتشد حول بلاط الحكم ، جمهرة من أكابر العلماء ، فى مقدمتهم الحافظ أبو بكر بن معاوية القرشى ، وأبو على القالى ضيف الأندلس يومئذ ، والأديب المؤرخ محمد بن يوسف الحجارى ، وإمام النحو والرواية ابن القوطية ، وربيع بن زيد الفيلسوف والعلامة الفلكى النصرانى ، وغيرهم .

وظهر فى تلك الفترة جمهرة من الشعراء المبرزين ، وكان فى مقدمتهم طاهر ابن محمد البغدادى ، الوافد من المشرق إلى الأندلس ، وكان يعرف بالمهند . وكان شاعراً محسناً ، مدح الحكم المستنصر ، ثم مدح المنصور بن أبى عامر بعد ذلك ، وحظى لديه ، وقد اتهم بالغلو فى بعض الآراء الدينية . ومن شعره قوله :

متى أشكر النُّعمى التى هى جنتى ... فنى ظلها أمسى وفى ضوئها أضحى
إذا قلت قد جازيت بالشكر نعمة ... شفعت بأخرى منك دائمة السفح
فحمدى لا ينأى وفضلك لا ينى ... وأرضى لا تصدى وأفقك لا يضحى (١)

ومنهم محمد بن مطرف بن شخيص ، وكان من أهل الأدب البارع ، ومن

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٥١٥ ، وبغية الملتمس رقم ٨٥٩ .

أعيان الشعراء المجيدين، كان متصرفاً فى القول، متقناً لأساليب الجد والهزل، وكان من أخص شعراء بلاط الحكم، وله شعر كثير، ومن شعره فى تهنئة الحكم بوفود جعفر ويحيى ابنى حمدون، وتقديم طاعتهم إليه، قصيدة طويلة، هذا مطلعها :

بأيمن إقبال وأسعد طائر ... تباشير محتوم من الأمر واقع
توافت بملك من معدٍّ مقوض ... لملك إلى مهدى مروان راجع
فيا لك من بشرى سرور تضمنت ... بلوغ الأمانى عن سعود الطوالع

ومن قوله فى الغزل :

فهل من شفيع عند ليلى إلى الكرى ... لعلى إذا ما نمت ألقى خيالها
يقولون لى صبراً على مطل وعدها ... وما عدت ليلى فأشكو مطالها
وما كان ذنبى غير حفظ عهودها ... وطى هواها واحتمالى دلالها[١]

ومنهم محمد بن الحسين التميمى الطبنى، أصله من طبنة، بلد بأرض الزاب بالمغرب، وكان شاعراً محسناً، وأديباً بارعاً من بيت أدب وجلالة ورياسة، وكان من شعراء الحكم الأثيرين. ومن شعره يهنىء الحكم بحلول عيد الأضحى :

بخلت بجوهر لفظها أن يلقطا ... لما رأته من الجواهر أبسطا
يا أيها الملك المتوج بالهدى ... نوراً على غسق الظلام مسلطا
صل عيدك البهيج السنا فى غبطة ... وازدد من الأعياد ألفا مغبطا[٢]

ومنهم يحيى بن هذيل، وكان من أهل العلم والأدب والشعر الجيد؛ وتوفى سنة ٣٨٦ هـ، ومن شعره :

لم يرحلوا إلا وفوق رحالهم ... غيم حكى غبش الظلام المقبل
وعلت مطارفهم مجاجات الندى ... فكأنما مطرت بدرٍّ مرسل
لما تحركت الحمول تناثرت من ... فوقهم فى الأرض تحت الأرجل
فبكيت لو عرفوا دموعى بينها ... لكنها اختلطت بشكل مشكل[٣]

ومنهم، ومن أشهرهم يوسف بن هارون الرمادى القرطبى المعروف بأبى جنيش، كان من أشهر شعراء الأندلس فى وقته، واشتهر بالأخص بشعره

---

(١) جذوة المقتبس رقم ١٤٤ . وبغية الملتمس رقم ٢٧٦ ، والمقتبس، قطعة أكاديمية التاريخ ص ٥٤ و ٦٠ .
(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٨ ، والمقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٤ .
(٣) جذوة المقتبس رقم ٩٠٧ ، وبغية الملتمس رقم ١٤٩٤ .

الهجائى ، وكان سريع البديهة مشهوراً عند العامة والخاصة ، لسلوكه فى فنون مختلفة من المنظوم . ومدح الرمادى الحكم المستنصر ، ولكنه وقع تحت طائلة غضبه لما صدر منه من شعر قاذف فى حقه ، وأمر باعتقاله مع باقى الشعراء الهجائين ، حماية للناس من ألسنتهم ، وزج الرمادى إلى السجن مدة ، وكتب خلال اعتقاله كتاباً سماه « كتاب الطير » وصف فيه كل طائر معروف . ثم عفا عنه الحكم وأطلقه مع باقى إخوانه . وتوفى الرمادى فقيراً معدماً أيام الفتنة فى سنة ٤٠٣ هـ . ومن شعره قوله :

لا تنكروا غرر الدموع فكل ما ... ينحل من جسمي يصير دموعا
والعبد قد يعصي وأحلف أنني ... ما كنت إلا سامعاً ومطيعـا
قولوا لمن أخذ الفؤاد مسـلماً ... يمنن على برده مصـدوعـا(١)

ونبغ فى تلك الفترة عالم من أعظم علماء اللغة بالأندلس ، هو أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدى النحوى الإشبيلى . وقد وضع فى اللغة والنحو عدة كتب مشهورة منها « الواضح » و « لحن العامة » « وأخبار النحويين » ، كما وضع مختصراً لكتاب « العين » ، إلى غير ذلك . وكان فى نفس الوقت أديباً بارعاً ، وشاعراً محسناً ، وقد أورد لنا الحميدى شيئاً من نظمه ، وندبه الخليفة الحكم ، حسبما أسلفنا فى موضعه لتدريس اللغة لولده هشام ، وألزمه بالبقاء فى قرطبة ، ولم يأذن له بالرجوع إلى وطنه إشبيلية . وتوفى الزبيدى قرابة سنة ٣٨٠ هـ .(٢)

وكان الخليفة الحكم المستنصر نفسه ، فوق تمكنه من العلوم الشرعية وتحقيق الأنساب ، أديباً ينظم الشعر الرائق . وقد أوردنا من قبل فى موضعه شيئاً من نظمه.

ثم كان الانقلاب العظيم ، فى مصاير الخلافة الأموية ، وتغلب محمد بن أبى عامر أو الحاجب المنصور على الدولة ، وكان من حسن الطالع أن المنصور بنشأته وخلاله العلمية اللامعة ، كان من أعظم رواد الحركة الفكرية ، وكان المنصور عالماً متمكناً من الشريعة والأدب ، بارعاً فى النثر والنظم ، وقد ذكرنا فيما تقدم شيئاً من نثره ونظمه . وكان يعشق مجالس العلماء والأدباء ، حتى أنه كان خلال الغزو ، يصطحب معه طائفة من الكتاب والشعراء ، ينتظمون فى مجلسه خلال

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١ ، وجذوة المقتبس رقم ٨٧٨ .
(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٤ .

السير ، وكان شاعره الأثير أبو العلاء صاعد بن حسن البغدادى المتوفى سنة ٤١٧ هـ ، وكان قد وفد من المشرق على الأندلس ، فى أوائل عهد المنصور ، وكان عالماً باللغة والأدب والتواريخ ، فقربه المنصور ، وأغدق عليه عطفه ، وجمع له صاعد كتاباً سماه « بالفصوص فى الآداب والأشعار والأخبار » فأثابه عنه المنصور بخمسة آلاف دينار ، وأمر أن يقرأه على الناس بمسجد الزاهرة(١) .

بيد أن المنصور ، بالرغم من شغفه بالعلم والأدب ، لم يبد تسامحاً إزاء الفلسفة والفلاسفة ، أو بعبارة أخرى إزاء الأفكار الحرة . وقد كانت هذه النزعة الضيقة الأفق ، تمثل نفس التيار الذى يندفع فيه كل حاكم مطلق . وقد رأينا فيما تقدم كيف طورد عباس بن فرناس ، فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، واتهم بالزندقة لما أبداه من براعة علمية وفنية خارقة ، وكيف طورد تلاميذ ابن مسرة وطوردت تعاليمه فى عهد الناصر ، وأصدر الناصر منشوره بتكفيره وتكفير تلاميذه ، وقد استمر هذا التيار الرجعى فيما بعد فى عهد الطوائف ، حيث أحرقت كتب ابن حزم ، وفيما تلا بعد ذلك من عهود ، وذلك حسبما نذكره فى موضعه .

وكان من أعظم شعراء الأندلس فى عصر المنصور أبو عمر أحمد بن محمد ابن درّاج القسطلى . وكان كاتباً بليغاً من كتاب ديوان الإنشاء ، وشاعراً لامعاً فى نفس الوقت . وقد نبغ فى ميدان الشعر نبوغاً جعله عمدة شعراء عصره . وكان من شعراء المنصور المقربين ، وله فيه مدائح رائعة ، نقلنا بعضها فيما تقدم . ولما توفى المنصور فى سنة ٣٩٢ هـ ، تجول ابن دراج فى أنحاء الأندلس ، ومدح بعض أمراء الطوائف ، مثل خيران العامرى صاحب ألمرية ، ومبارك ومظفر صاحبا بلنسية ، والمنذر بن هود صاحب سرقسطة . وقد قال العلامة ابن حزم فى حقه ، إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج ، وتوفى ابن دراج فى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م)(٢) .

وكان من أكابر الفقهاء والحفاظ فى عصر المنصور ، عبد الرحمن بن فطيس قاضى الجماعة بقرطبة ، وكان من أئمة المحدثين وكبار العلماء ، حافظاً متمكناً من الحديث ، عارفاً بأسماء الرجال ، وله مشاركة فى مختلف العلوم ، وتقدم فى

---

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (مصر) رقم ٥٤٠ .

(٢) راجع جذوة المقتبس للحميدى رقم ١٨٦ ، وبغية الملتمس للضبى رقم ٣٤٢ .

معرفة الآثار والسير والأخبار ، وكان جمّاعة للكتب ، وقد جمع منها ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس . تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ ، مقروناً بولاية الصلاة والخطبة ، وذلك إلى جانب عمله فى الوزارة ، وذلك أيام المظفر عبد الملك المنصور ، وكان مشهوراً فى أحكامه بالنزاهة والصلابة فى الحق ، ونصرة المظلوم ، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « أسباب نزول القرآن » و « كتاب فى فضائل الصحابة » و « أعلام النبوة ودلالات الرسالة » و « مسند حديث محمد بن فطيس » وغيرها ، وتوفى ابن فطيس أثناء الفتنة البربرية فى سنة ٤٠٢ هـ (١) .

* * *

ولما انقضى عهد الدولة العامرية ، وانهارت الخلافة الأموية ، واضطرمت الفتنة بالأندلس ، انكمشت الحركة الفكرية ، وشغلت الأمة الأندلسية بما دهاها من أمر الفتن المتوالية ، وتعاقب الرياسات ، ومع ذلك فى غضون الفتنة ، نجد من الخلفاء من يتذوق الشعر وينظمه . فقد كان الخليفة سليمان المستعين ، أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، أشاد ابن بسام بأدبه وشاعريته . وقد أوردنا له فيما تقدم قصيدته الرائعة التى يعارض فيها شعر الخليفة الرشيد . وكذلك كان الخليفة المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية ، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة .

وحتى فى ظل الخلافة الحمودية البربرية ، كان للأدب والشعر دولة ومكانة ، وكان الخليفة العالى خليفة مالقة أديباً ينظم الشعر . وكان من شعراء دولته الشاعر الكبير ، عبد الرحمن بن مقانا الأشبونى ، وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً متقناً ، وهو الذى مدح العالى بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

ألبرق لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين

ونكتفى بتلك الصورة الموجزة ، عن سير الحركة الفكرية الأندلسية ، فى عهد الإمارة ، وعهد الخلافة . وقد ذكرنا فيما تقدم أثناء استعراضنا لتاريخ هذين العهدين كثيراً من تفاصيلها ، وأشرنا إلى كثير من أعلام الفكر والأدب ، ممن لم نر أن نعود إلى ذكره فى هذا الفصل .

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٨٢ .

الوثائق والملحقات

وثائق تاريخيــــة

— ١ —

كتاب الخليفة الناصر لدين الله

بشـــأن حـــركة ابن مسرة

(منقول من السفر الخامس من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط لوحات ١٣ و ١٤ و ١٥) .

« وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق مملكته بشأن هؤلاء المبتدعة (يعنى تلاميذ ابن مسرة) كتاباً طويلا قرئ عليهم بأمصارهم ، من إنشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالى ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تعالى جده ، وعز ذكره ، جعل دين الإسلام أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ، ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى منهم سواه ، فقال فى محكم تنزيله : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ... » الآية ، وقضى فى محتوم أمره ، ونفاذ حكمه ، أن تنسخ به الديانات ، ويختتم برسالته الرسالات ، فبعث محمداً خاتم النبيين ، وأكرم الأكرمين ، وأعز الخلايق على رب العالمين ، بأن كتب الصلاة والسلام عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وأرسله بأفضل دين سماه حنيفاً إلىّ خير أمة اختارها ... كما قال عز من قائل ، إذ عرّفنا فضل ما هدانا إليه من الدين ، وكرمنا به على ساير الأمم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ... الآية » . فله جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ، الشكر على خصايص هذه الفضيلة ، والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى ، فأحسن الهداية ، وأبان الحجة ، وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ، ونظم زمام الأمة ، وجمع وجوه السعادة العاجلة ، والنجاة الآجلة فى تأليف الجماعة ، واجتبا فيهم رعاية الفرقة ، حيث يقول عز وجهه ، لنبيه صلى الله عليه وسلم .. به وبعباده المخصوص بهداه ، ورأفة بسطها على خير.. وإعلاما لهم...بتواصل الدين من قبله لأنبيائه... وكراهته لاختلافهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا

إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... الآية » . فخوف وحذر ، ونهى عن افتراق الكلمة ، ونبه على البعد ، ونفى الله الخبيث عنها ، وفضلها على سائر البلدان ، واستقر فيها الدين ، كهيئته يوم أكمله الله لعباده . ولما استوسقت الطاعة ، وشملت النعمة ، وعم الأقطار ، بعدل أمير المؤمنين ،السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، ومن ضعف آرائهم ، ومن خشونة الأوغاد ، كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا ، وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان ، وأحال عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ، ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيئسوا ، وآيسوا من روح الله ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وأكثروا الجدل فى آيات الله ، وحرموا التأويل فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبريت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه : « ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب ، وما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يُسجرون . فهذا أبلغ الوعيد ، وأفظع النكال ، لمن جادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه : ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ... » ثم تجاوزوا فى البهتان ، وسلوا على أنفسهم ألوان الغفران ، فأكذبوا التوبة ، وأبطلوا الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، وغامض متن التأويل ، بتقدير عقولهم : فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب . فصاروا بجهل الآثار ، وسوء حمل الأخبار إلى القدح فى الحديث ، وترك نجح السبيل ، فأساءوا الفهم عن العوام ، وأقدموا بمكروه القول فى السلف الصالح ، واستبدلوا على نقلة الحديث ، ووضعوا من الكتب لوضعها ، وتابعوا شهواتهم فيها ،وتتابعوا فيما...وورطهم ،ورأوا لتخضع وحشة بحتهالازم الضلالة ، وداعية الهلكة ، والشذوذ عن مذهب الجماعة ، من غير نظر نافذ فى دين ، ولا رسوخ فى علم ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين . خلافاً على أدب الله تعالى ، وقوله جل جلاله : وإذا حييتم

بتحية ، فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، وقالوا بالاعتزال عن العامة وشذوا ... وكشفوا بتكررهم الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فلجوا فى جهالتهم ، وتاهوا فى غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقداً على الأمة الحنيفة ، واعتقاداً لبغضتها ، واستحلالا لدمائها ، وزرعاً إلى انتهاك حرمها ، وسبى ذراريها ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، لولا أن سيف أمير المؤمنين من ورائهم ، ونظره محيط . ولما صار غيهم فاشيا ، وجهلهم شايعا ، واتصل بأمير المؤمنين من قدحهم فى الديانة ، وخروجهم عن الجادة ، فأشغل نفسه ، وأقض مضجعه ، وأسهد ليله ، أغلظ أمير المؤمنين فى الأخذ فوق أيديهم ، وأوعز إيعازاً شديداً ، وأنذر إنذاراً فظيعاً ، وعهد عهداً مؤكداً شافياً كافياً ، نظر به لوجهه تبارك اسمه ، وقدم فيه بين يدى العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليفزع قلب الجاهل ، ويفت كبد المستهتر الحاير ، وينقض عزم العاند المعاجل ، ويضطر الغواة إلى الإثابة الصحيحة ، التى يتقبلها الله منهم ، أو يكشف عن الأذهان سرايرهم فيكون عليهم شهيداً ، ويأتيهم عذاب غير مردود . ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ، ويرسله فى بدوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده إليك ، وإلى ساير قواده ، وجميع عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ، ولا يحرم القاصى ما عم الدانى من تطهير هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهته وفتنته ، فلم يحل الديار ، ولا تعقب الآثار ، ولا استحق البلا على قوم ، ولا أهلك الله أمة من الأمم ، إلا بمثل ما تكشف هذه الطغمة الخبيثة ، من التبدبل للسنة ، والاعتداء فى القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات الله عليه وسلم ، هذا عند وروده عليك فى قبلك ، ونشره فى سماع رعيتك ، وتتبع هذه الطايفة بجميع أعمالك ، وابثث فيهم عيونك ، وطالب فيهم غورهم جهدك ، فمن تحلى منهم بما انتسب إليهم ، وقامت عليه البينات بذلك عندك ، فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، ونصوص شهاداتهم ، لنعهد باستجلابهم إلى باب سدته ، لينكلوا بحضرته ، فيذهب غيظ نفسه ، ويشفى حنين صدره ، وإياك أن تهون من أهل الريبة ، وتتخطاهم إلى ذوى السلامة والأحوال الصالحة ، فإن فرطت فى أحد الأمرين أو كليهما . فقد برى الله منك ، وأحل دمك ، ومالك ، فاعلمه ، واعتد به إنشاء الله تعالى » .

— ٢ —

كتاب الخليفة الناصر لدين الله
عن غـــزوة الخنـــدق

(منقول من السفر الخامس من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط ، فى حوادث سنة ٣٢٧ هـ) .

قال ابن حيان : وأما لفظ كتاب الفتح الوارد من قبل الناصر لدين الله إلى الحضرة بخبر هذه الغزوة من إنشاء عيسى بن فطيس الكاتب ، فإن الفصل الذى رفع فيه خبر هذه الوقعة ، وقع كما أثبته هاهنا :

« واستعزم الله أمير المؤمنين ليلته ، واستخاره عن رحمته فى النهوض إلى مدينة شنت مانكش دار الكفرة ومجمع النصرانية ، إلى إليها استركن عدو الله ، وضاقت الحيل عليهم ، ووثقوا بحصانته ، ليعلمهم أن كلمة الله هى إظهار دينه ، ونصر أوليائه ، وإعزاز خلفايه ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولو كره المشركون ، فضم صاحب المقدمة عمال الثغور عندهم وفرسانهم وخيلهم ، واكتنف الجمع فى مجنبتى العسكر مع من والاهم ، وجرد الرجالة من الخيول بأسلحتهم ، وصمد لجمع المشركين ، فاستقبلهم بنية صادقة ، ونفس صابرة ، وجموع كثيفة ، وكتايب تملأ الفضا ، ومغانب تضيق عنها الشعاب ، ويصير فى سهل الأرض كالآكام ، تتألق عليهم سوابغ الدروع ، فإذا تداعوا ، قلت موج تراكم ، وإذا وقفوا فكأنما النقع عليهم ليل مظلم . فلما قربت العساكر من محل الخنازير ، ثابوا فيما بينهم ، وثاروا إلى خيولهم ، وعلوا الشراقين ، ينظرون إلى كتايب دين الله ، بقلوب قد خلعها الذعر ، وقبضهم عن التقدم الوجل ، وجعلوا بينهم وبين المسلمين وادى بشررقه ، ثقة بوعورته ، وقلة مخاوضه ، فلم ترعهم إلا مقدمة الجيش وراءه ، قد سهل الله عليهم جوازه ، وتبعتهم الأثقال ، وتحيز أمير المؤمنين كدية سامية ، يتطلع منها على عسكر المسلمين ، فأمر بالاضطراب فيها للعسكر ، وتقدمت الخيول بين يديه ، وقد تلاحقت جموع الكفرة ، وقدموا صلبانهم ، ووثقوا بشيطانهم الذى غرهم . وكان المسلمون على نشطة إلى لقائهم ، فلم ينتظر أولهم إلى أن توافى آخرهم ، ولا فارسهم أن يتمتعد براجلهم ، وتخطوا

الرماح إلى السيوف ، والطعن إلى الضرب ، وكروا فى حومة المنايا ، كرّ من يحمى حليله ، ويخشى بعد ساعة أن تسبي ذريته ، فلم ير المسلمون حرباً مثلها ، ولا شهدوا يوم وغى أطول من يومهم ذاك . ونصر الله تعالى يهون عليهم ما هم فيه ، حتى فضوا جموع المشركين (لوحة ١٤٣ أ) ، وزلزلوا ردؤهم التى كانت أكاليل الجبال ، وردم الشعاب ، وضمهم إلى معسكرهم ، وأثارت سنابك الخيل من القتام ، ما غيب من كان فى القلب عمن يليه من يمين الحرب ويسارها . وكان محمد بن هاشم فى وقدتها حائناً سعيره قد طال به مدامها ، واستدارت حوله رحامها ، فكبا به فرسه ، ولم يعلم أحد بمصرعه ، فصار فى أيدى الخنازير أسيراً ، فاستشفوا به الحياة بعد اليأس منها ، فجالدوا بنفوس قد عاودتها رمقها ، وانحاز المسلمون إلى معسكرهم ، قد قتلوا من أعلام المشركين وقوامسهم وأهل البأس من فرسان الحرب ، ومن صبر لوقع السيف ، فكانت مصيبتهم بمن قتل منهم عظيمة ، فلما أصبح أمير المؤمنين لمحلته ، أمر بحمل من عقر فرسه ، وصلة من أغنى فى حربه ، وتعرض المشركون للحرب تعرض من قد تنخل لعدو قد أصابهم ، ونكايته قد فلقت قلوبهم . فلما كان فى اليوم الثالث من احتلاله ، عهد أمير المؤمنين إلى صاحب العسكر بمصاحبتهم بالحرب ، وقد تلاحقت بهم المدود من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع ، وأهل قشتيلة ، إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم ، وهتف على المسلمين بالخروج تحت راياتهم ، والتأهب للقاء عدوهم ، وأغدوا فى نهوضهم ، ونزل صاحب العسكر ، فرتب تعبينهم ، فكثف الردوء ، وضم إليها الرجال ، وألزم القلب بنفسه ، وميز فيه خيل الميمنة والميسرة ، وقدم إليهم المقاتلة ، وأقام بين يديه جملة الخيل عدة ، فإذا رأى فى جهة من جهات الحرب خللا سده واستدركه ، أو فتقا رتقه ، حتى كانت أيدى المسلمين فى الماقط عالية ، فتلظت الحرب واحتدمت ، وكأن المنايا إنما قصدت فيها أعلام الكفرة وقوامسهم ، فصرع قومس غرماج ، وابن أخى الخنزير ابن فرذلند ، وشيخ النصرانية وعميدها ابن دخبر ، إلى العدد الجم من فرسانهم ، وأهل الصبر منهم ، وانجلت الحرب عن هزيمتهم ، وانكشاف أجبل قد كانوا علوها ، وسدوا بالخيل والرجال ما بينها ، وظنوا أن لا غالب لهم ، فزلزلوا زلزالا شديداً ، وانصرف المسلمون بعد الظفر والسلامة فى المنقلب ،

فباتوا بأنعم بال ، وأسكن حال . فلما ظن أعداء الله أن قد ملوا حربهم ، وتجددت لهم مدودهم ، رفعوا معسكرهم ، وقدموا صلبانهم ، وخرجوا بفارسهم وراجلهم فألقوا إلى ما يلي منهم العسكر ، سراع خيولهم ، فبادر المسلمون إليهم تبادر الأسود الضارة ، فغادروا موقفهم ، وجالدوا بسيوفهم ، حتى انفرج الموقف عن قتل عظيم من عظمائهم ، أعولوا عليه ، واستداروا حواليه ، وانصرفوا قد أذلهم الله ، ووهنهم ، وهون عليهم جمعهم ، ووفور مددهم ، فى ضبط المعيشة ، وقلة التبسط ، ومصابحة الحرب ومماساتها ، حتى كأنهم أهل حصن حوصروا فيه ، أو فل جيش لا يستطيعون الرجوع إليه . وأقام أمير المؤمنين ومن معه من جيوشه وحشده ، وأهل البصاير والحفايظ ، وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقة جيشه لما توقع خروج الكفرة فى أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل ، ونهض يطأ بلادهم وطأة متثاقل ، حتى انصرف إلى نهر دويرة ، واستقبل عمارته من حصن مانكش التى اتصلت بنكاية أهله ، فلم يدع فى جليقية حصناً إلا هدمه ، ولا معاشاً إلا انتسفه ، حتى انتهى إلى مدينة روضة ، وهى خالية على عروشها ، فأقام على هدمها ، وهدم حصن دبيلش معها ، يومين كانا أطول على أعداء الله من عامين ، لما غير فيهما من نعمهم ، وهدم من مساكنهم ، وقطع من شجرهم . وكان أمير المؤمنين يرى التقدم على نهر دويرة إلى شنت إشتبين وغرماج لنقص الزروع لديه وضيق (١٤٣ ب) العلف بإفساده . فرفع إليه من حضره من أهل مدينة الفرج وحصونها ، يشكون ما يلقونه من مشركى وادى أبينه ، ومعاقلها ، وترددوا عليه ضارعين إليه ، أن يجعل ممر الجيش المؤيد على حصونهم وعماراتهم ، وذكروا أن ذلك أنفع لهم ولأهل الثغور معهم ، من الإيغال فى بلد المشركين ، ونكاية من لا ينالهم بغارة ، ولا ينهض إليهم بقوة ، فصرف الجيوش عند ذلك إلى وادى أبينه ، فلم يدع فيها حصناً إلا هدم ، ولا قرية إلا هدمت ، ولا معاشاً إلا استقصى جميعه . فلما صار فى آخره ولم يبق موضع يقوم الجيش بالتردد عليه ، أمر الأدلاء بالكشف عن أفضل الطرق إلى حصن أنتيشه ، وأرفقها بالمسلمين فى منصرفهم برازح ظهرهم ، وأحوط عليهم فى

طريقهم ، وأجمعوا على قصد حصن قشترب ، وأيأسوا من الخروج على غيره ، فلما استقبل أمير المؤمنين لامه ، وقطع بعض محلته ، استقبل شَعْراء لا يتخللها المتفرد بحمده ، ولا يتخلص منها المخف ، لو لم يكن أحد يعترضه . ثم أشرف على خنادق قفرة ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يتراء الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولاكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة وترادف الأثقال ، فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها . فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال ، وانحطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل من الأرض ، لما أنكر مثله عند مقارعة الرجال ، وتصرف الأحوال . وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق وخلص من مضايقة ، حتى أسهلوا ، واجتمع لأمير المؤمنين جيوشه وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفى ذلك دليل للسامع عن الوقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون أظفروا به فيها عن مساواة ولا كثرة ، ولكن ضيق المسالك ، ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التى لا تصرف ، ومحنه التى لم يزل يمتحن بها أولياءه ، ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين ، شاكر لله تعالى على عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به فى حب طاعته ، ضارع إلى الله فى التقبل لقوله وفعله . وكتابه إليك ، وهو قافل بالمسلمين على أحسن أحوالهم ، وأسهل طريقهم ، وأجمعه بمعايشهم ، إن شاء الله . فأمر بقراءة كتاب أمير المؤمنين على الناس قبلك أثر صلاة الجمعة لبشكروا الله على ما أنعم به من نصر إمامهم ، وسلامة إخوانهم ، والصنيع الذى عمهم ، فإنه يحب الشاكرين ، ويزيد الحامدين . واعهد نسخه إلى عمال الكور حولك إنشاء الله تعالى ، والله المستعان . وكتب يوم الإثنين لثمان خلون من ذى القعدة سنة سبع وعشرين وثلاث ماية » .

ثبت المراجـــع

١ – مراجع أندلسية وإسلامية عامة

تاريخ ابن خلدون المسمى « كتاب العبر » (بولاق) .

تاريخ الكامل لابن الأثير (الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ) .

تاريخ الطبرى المسمى « تاريخ الأمم والملوك » (الطبعة الأهلية) .

تاريخ أبى الفدا المسمى « المختصر فى أخبار البشر » (الطبعة الأهلية) .

فتوح البلدان للبلاذرى (القاهرة ١٩٣٢) .

مروج الذهب للمسعودى (بولاق) .

نهاية الأرب للنويرى (القسم التاريخى ومعظمه ما زال مخطوطاً) .

وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .

كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى (الطبعة الأهلية ١٣٢٤ هـ) .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) .

فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم المصرى (طبع لجنة ذكرى جب) .

يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر للثعالبى (القاهرة ١٩٤٧) .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤلف مجهول (مدريد ١٨٦٧) .

تاريخ افتتاح الأندلس لأبى بكر بن القوطية (مدريد ١٨٦٨) .

البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى (الجزء الأول الخاص بإفريقية والثانى الخاص بالأندلس المنشوران بعناية العلامة دوزى (ليدن ١٨٤٨– ١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال .

بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبى (ضمن المكتبة الأندلسية) .

كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية ، والقاهرة سنة ١٩٥٥)

قضاة قرطبة لأبى عبدالله الخشنى المنشور بعناية الأستاذ ربيرا (مدريد ١٩١٤).

المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس لابن حيان ، السفر الثالث المنشور بعناية الأب ملشور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى (المجلدات الثلاثة المطبوعة بعناية جامعة القاهرة) .

الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى (القسم المطبوع بعناية العلامة دوزى) ؛

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة ١٣٣٢ هـ) ؛

جذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) .

العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى (طبع القاهرة ١٩٢٨ ، وكذلك طبعة لجنة التأليف والترجمة) .

المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية البلنسى (المطبوع بعناية وزارة التربية المصرية) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .

نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى (الرباط ١٩٣٤) .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .

رسالة نقط العروس لابن حزم (المنشور بمجلة كلية الآداب بالقاهرة فى عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) .

نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن عمر العذرى (منشور بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى — مدريد سنة ١٩٦٥) ؛

طوق الحمامة لابن حزم (دمشق ١٣٤٩ هـ) .

معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ) .

الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى (القاهرة ١٩٤٨) .

مختصر نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الإدريسى (طبع رومة ١٥٩٢) .

وصف الأندلس للإدريسى (المطبوع بعناية المستشرق ساڤدرا) .

المسالك والممالك لابن حوقل (المكتبة الجغرافية) .

المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى والمنشور بعناية المستشرق دى سلان .

مصـــادر مخطوطة

تاريخ ابن حيان : « المقتبس فى تاريخ أهل الأندلس » ، مجموعة أوراق مخطوطة من « السفر الأول» تشمل حوادث سنة ١٨٠ —٢٣١هـ ، عثر بها المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال ، ونقلت منها وقد ضاعت الآن .

تاريخ ابن حيان : « السفر الثانى » من المقتبس وهو يشمل حوادث سنى ٢٣٣ — ٢٦٧ هـ قطعة مخطوطة محفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس .

قطعة ثالثة مخطوطة من تاريخ ابن حيان محفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد تتعلق بحوادث سنة ٣٦٠— ٣٦٤هـ . وقد نشرت أخيراً ببيروت (١٩٦٥) بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى .

السفر الخامس من « المقتبس » وهو مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ويتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر ، ويسرد حوادث الأندلس من سنة ٣٠٢ إلى سنة ٣٢٩هـ ويحمل رقم 87.

إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم١٧٣١ الغزيرى) .

كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلى عبد الرحمن الهذيل (مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٥٢ الغزيرى) .

شذور مخطوطة لابن حزم نشرها الأستاذ ميجل آسين بلاثيوس فى مجلة الأندلس (سنة ١٩٣٤) .

٢ – المراجع الأوربية

رجعنا فيما يتعلق بالروايات الإسبانية اللاتينية إلى موسوعة الأب Enrique Florez الكنسية الكبرى وهى :

España Sagrada (Madrid 1747—1886, 51 Tomos)

وقد تضمنت الروايات التاريخية الآتية :

Isidorus Pacensis Crónicon — رواية إيزيدور الباجى

Chrónicon Compostellanum — رواية كومبستيلا (اشنت ياقب)

Annales Toledanes — الأخبار الطليطلية

Chronicon Lusitanum — الرواية اللوستيانية البرتغالية

Chronicon Adefonsi — الرواية الأدفونشية

Rodericus Toletanus : Historia Arabum. — رواية ردريك الطليطلى (تاريخ العرب)

Lucas Tudensis : Chronicon Mundi. — رواية لوقا التطيلى (تاريخ العرب)

Crónica General de España- (Ed. Pidal) — تاريخ أسبانيا العام لألفونسو العالم

Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid 1855).

Conde : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana.

F.J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1897).

Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Barcelona 1889).

Julian Ribera : Disertaciónes y Opúsculos (Madrid 1928).

R. Altamira : Historia de España y de la Civilización Espanola (Barcelona 1900).

R.M. Pidal : La España del Cid (Madrid 1947).

„ „ „ : La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Madrid 1959).

„ „ „ : Origenes del Espanol.

„ „ „ : Historia y Epopya.

Una Crónica anonima de Abd Al-Rahman Al-Nasir (Madrid-Granada 1950).

F. Codera : Embajadas de Principes cristianos en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.H. XIII, 1886).

F. Codera : Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.N., XIV, 1887).

A.G. Palencia : Historia de la España Musulmana.

L.S. de Lucena : Los Hammudies Senores de Málaga y Algeciras. (Málaga 1955).

Cardonne : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des Arabes.

Camille Julian : Histoire de la Gaule.

Dom Vissette : Histoire de Languedoc.

Reinaud : Histoire des Invasions des Sarrazins en France,

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Coquête des Almoravides (Ed. Lévy-Provençal 1932).

Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge. (3e Ed).

Zeller : Histoire de l'Allemagne.

Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.

Schlegel : Philosophie der Geschichte.

Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire.

Lane-Poole : The Moors in Spain.

Scott : Moorish Empire in Europe.

H. Ch. Lea : History of the Inquisition of Spain.

Creasy : Decisive Battles of the World.

Finlay : Byzantine Empire.

Hodgkin : Charles the Great.

Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

Encyclopédie de l'Islam.

Bayle : Dictionnaire Historique et Critique.

Bouquet : Receuil des Historiens de la Gauie et de la France.

فهرست الوثائق التاريخية

للقسمين الأول والثاني

	صفحة
الخطبة المنسوبة لطارق بن زياد..	٤٦
معاهدة الصلح بين عبد العزيز بن موسى وتيودمير..	٥٥
خطاب يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن الأموى	١٥٣
الأمان الذى أصدره عبد الرحمن الداخل للنصارى...	١٩٩
كتاب الحكم بن هشام عن ثورة الربض...	٢٤٥
وصية الحكم بن هشام لابنه عبد الرحمن...	٢٤٨
كتاب عبد الرحمن بن الحكم إلى قيصر قسطنطينية...	٢٨٣
عهد الناصرلا بن حفصون...	٣٨١
كتاب الناصر عن فتح ببشتر...	٣٨٧
أمان الناصر لمحمد بن هاشم التجيبي..	٤١٠
كتاب الناصر عن اتخاذه سمة الخلافة	٤٣٠
كتاب الناصر عن موقعة الخندق	٤١٦ و٧١١
كتاب الناصر إلى العمال بعمل الاستسقاء..	٤٢٣
كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة	٤٣٣ و٧٠٨
كتاب القيصر قسطنطين السابع إلى الناصر	٤٥٣
كتاب الحكم المستنصر عن انتصاره على الأدارسة...	٤٩٨
وصية المنصور بن أبى عامر لابنه عبد الملك	٥٨١
وصية المنصور بن أبى عامر لغلمانه...	٥٨٢
مرسوم الخليفة هشام المؤيد لعبد الملك المنصور بتسميته بالمظفر	٦١٤
مرسوم الخليفة هشام المؤيد بالله إلى عبد الرحمن المنصور بولاية عهده...	٦٢٦

فهرست الشعر والشعراء

صفحة

نصر بن سيار	
أرى تحت الرماد وميض نار	١٤٤
عبد الرحمن بن أمية (الداخل)	
سعدى وحزمى والمهند والقنا	٢٠٢
شتان من قام ذا امتعاض	٢٠٢
أيها الركب الميمم أرضى	٢٠٢
تبدت لنا وسط الرُّصافة نخلة	٢٠٣
عباس بن ناصح الجزيرى	
نكد الزمان فآمنت أيامه	٢٤٢
الحكم بن هشام	
رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً	٢٤٦
غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن	٢٥٠
قضب من البان ماست فوق كثبان	٢٥٠
غريب بن عبد الله	
يا أهل قرطبة الذين تواكلوا	٢٤٧
مؤمن بن سعيد	
يطم على العنقاء فى طيرانها	٢٥٢
حرمتك ما عدا نظرا مضرا	٦٩٣
يحيى الغزال الجيانى	
لست تلقى الفتيه إلا غنيا	٢٥٣
ياليت شعرى أى شىء محصل	٢٥٣
كأن الملوك الغلب عندك خضعاً	٢٥٣
وأغيد لين الأطراف رخص	٢٨٣
يانود يارود الشباب التى	٢٨٥

	صفحة
عبد الرحمن بن الحكم	
إذا ما بدت لى شمس النهار	٢٧٨
ولقد تعارض أوجه لأوامر	٢٨٠
فكم قد تخطيت من سبسب	٢٨٠
قتلتنى بهواكا	٢٨٠
عباس بن فرناس	
ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف	٢٩٣
كأن قصور الأرض بعد تمامه	٣١٤
أبو عمر ابن عبد ربه	
ألما على قصر الخليفة فانظرا	٣١٥
نجا مستكناً تحت جنح من الدجى	٣٢٦
ألا إن إبراهيم لجة ساحل	٣٣٤
بدا الهـلال جديداً	٣٧٤
هلال نماه البدر واختاره الفجر	٣٧٨
خليفة الله وابن عم رسول الله	٣٨٠
يا ابن الخلايف والصيد الصناديد	٤٠٨
قد أوضح الله للإسلام منهاجاً	٤٦٢
هاشم بن عبد العزيز	
سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى	٣١٨
سعيد بن جودى	
يابنى مروان جدوا فى الهرب	٣٢٩
الأمير عبد الله بن محمد	
يامهجة المشتاق ما أوجعك	٣٥٠
ويحى على شادن كحل	٣٥١
يا من يراوغه الأجل	٣٥١

	صفحة
أحمد بن محمد الرازى	
تبدى لمرأى العين مجسماً	٣٨٦
إسماعيل بن بدر	
وقيدت زعيمهم إليه	٤٠٢
تطوى المراحل إدلاجاً وتنحيراً	٦٩٨
أبو عثمان عبيد الله بن يحيى بن إدريس	
نعم الشفيع إلى الرحمن فى المطر	٤٢٤
يهى الخلافة سعى خير إمام	٦٩٧
على أى فتح بعد فتح تقدما	٦٩٧
عبد الرحمن الناصر	
همم الملوك إذا ما أرادوا ذكرها	٤٣٦
أبو الوليد بن زيدون	
خليلى لا فطر يسر ولا أضحى	٤٤٠
محيى الدين بن عربى (نقلا عنه)	
ديار بأكناف الملاعب تلمع	٤٤١
منذر بن سعيد البلوطى	
مقالى كحد السيف وسط المحافل	٤٥٥
عبد الملك بن سعيد المرادى	
ملك الخليفة آية الإقبال	٤٨٦
جعفر بن عثمان المصحفى	
إلا أن أياماً هفت بإمامها	٤٦٣
أطلع البدر فى سحابه	٥٠٣
صبرت على الأيام لما تولت	٥٣٠
على أيمن الأوقات كان ارتحالك	٦٩٧
الحكم المستنصر	
إلى الله أشكو من شمائل مسرف	٥١٢
عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت	٥١٣

	صفحة
. . . .	
أبنى أمية أين أقمار الدجى	٥٣١
. . . .	
أليس من العجائب أن مثلى	٥٣٦
. . . .	
اقترب الوعد وحان الهلاك	٥٣٧
أبو العلا صاعد بن حسن البغدادى	
يا حرز كل مخوف وأمان كل	٥٥٢
جددت شكرى للهوى المتجدد	٥٦٣
أبو عمر بن دراج القسطلى	
هل الملك يملك ريب المنون	٥٥٧
لك الله بالنصر العزيز كفيل	٥٥٨
اليوم أنكص أبليس على عقبه	٥٦١
بدا ريح السعد واستقبل النجح	٦١٠
إن كان وجه الربيع مبتسما	٦٢١
هو البدر فى فلك المجد دارا	٦٢٩
ما نقش على قبر المنصور	
آثاره تنبيك عن أخباره	٥٦٦
عمرو بن أبى الحباب	
لا يوم كاليوم من أيامك الأول	٥٧٥
المنصور بن أبى عامر	
رميت بنفسى هول كل عظيمة	٥٨١
منع العين أن تذوق المناما	٥٨١
. . . .	
زمان جديد وصنع جديد	٦٢١
ابن أبى يزيد المصرى	
إن ابن ذكوان وابن برد	٦٢٨

صفحة

سليمان المستعين
عجباً يهاب الليث حد سنانى ٦٥٤
عبد الرحمن بن مقانا
البرق لائح من أندرين ٦٧٣
عبد الملك بن جهور
إن كانت الأبدان نائمة ٦٩٨
محمد بن هانئ الإشبيلى
رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ٧٠٠
طاهر بن محمد البغـــدادى
متى أشكر النعمى التى هى جنتى ٧٠١
محمد بن مطرف بن شخيص
بأيمن إقبال وأسعد طائر ٧٠٢
فهل من شفيع عند ليلى إلى الكرى ٧٠٢
محمد بن الحسين التميمى الطبنى
بخلت بجوهر لفظها أن يلقطا ٧٠٢
يحيى بن هـــذيل
لم يرحلوا إلا وفوق رحالهم ٧٠٢
يوسف بن هارون الرمادى
لا تنكروا غزر الدموع فكل ما ٧٠٣

فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية
ومقابلها الإفرنجى

ألبـــة	Alava
ألبة والقلاع	Àlava et Castella Vetula
البسيط	Albacete
شنتمرية الشرق شنتمرية ابن رزين	Albarracin
قصر أبي دانس	Alcacer do Sal
قلعة النهر	Alcalá de Henares
القنطرة	Alcántra
القصر	Alcázar
أدفنش بن رمند	Alfonso Raimundez
كورة الغرب	Algarve
الجزيرة الخضراء	Algeciras
لقنت	Alicante
ألمرية	Almeria
المدوّر	Almodavar
حصن المدور	Almodavar del Rio
المرابطون	Almoravides
المنكّب	Almunecar
أدفنش ، أذفنش ، ألفنش	Alphonso - Alfonso
البشرّات البشرة	Alpujurras Alpuxarras

أكوتين	Aquitaine
بلاد أرغن . أرغن . الثغر الأعلى	Aragon
أسترقة	Astorga
أشتوريش	Asturias
ابن باجة	Avenpace
صخرة أبنيون	Avignon
آبلـــة	Avila
بطليوس	Badajoz
بياســـة	Baeza
الجزائر الشرقية	Baleares
برشلونة — برشنونة	Barcelona
باجة	Beja
بربشتر	Berbastro
برمنـــد	Bermudo
بسكونية — بسكونس	Bicsay – Viscaya
ببشـــتر	Bobastro
برغش	Burgos
قبرة	Cabra
قلهرّة	Calahorra
قلعة أيوب	Calatayud
	Calatrava

Calatanazor	قلعة النسور
Carcassone	قرقشونة
Carmona	قرمونة
Carthage	قرطاجنة القديمة
Cartagena	قرطاجنة الأندلس
Castellon	قسطلونة
Castile— Castilla	قشتالة
Catalonia Cataluna	قطلونية
Cardegna— Cerdana	شرطانيه
Ceuta	سبتة
Charlemagne Karl— Charles	قارله — شارلمان
Cintra	شنترة
Coimbra	قُلُمرية — قلنبرية
Cordova Córdoba	قرطبة
Coria	قورية
Corsica	قورسقة
Cuenca	قونقة — كونكة
Daroca	دروقة
Denia	دانية
Duero·Douro	نهر دويرة
Ebro	نهر إبره
Ecija	إستجة
Elvira	إلبيرة
Evora	يابرة — يافورة
Favila	فاقلـــة
Fernando · Ferdinand	فرذلند
Fernan Gonzales	فرنان غنصالص
Froila	فرويلة
La Frontera	ألفرنتيره
Galicia	جلِّيقية
Garcia	غرسية
Gaule	غاليس
Gerona	جيرندة
Gilbraltar	جبل طارق — جبل الفتح
Goths- Godos	القوط — الغوط
Granada	غرناطة
Gregorius	جرجير
Guadalajara	وادى الحجارة
Guadalete	وادى لكُّه
Guadalquivir	الوادى الكبير — النهر الأعظم
Guadarrama	وادى الرملة
Guadiana	وادى يانة — وداى أنة
Guadix	وادى آش
Huesca	وشقة
Ivica-Ibiza	جزيرة يابسة
Jaca	جاقة
Jaen	جيّان
Jódar	شوذر
Lamigo	لميقة
Lausitania	البرتغال القديمة
León	ليون (جليقية)

Lerida لاردة
Lisbon-Lisboa أشبونة — لشبونة
Lombardy
بلاد اللنبرد — أنكبردية
Lopez لب
Lorca اورقة
Lugo لُك
Lyon اوذون — لوطون
Madelin حصن مادلين
Magerit مجريط
Majorca-Mallorca جزيرة ميورقة
Málaga مالقة
Martos مرتش
Mauretania المغرب الأقصى
Medinaceli مدينة سالم
Medina-Sidonia شذونة
Mérida ماردة
Mertola مارتلة — ميرتلة
Minorca جزيرة منورقة
Monzon منتشون
Montimayor منتميور
Montileon منتلون
Morón مورور
Mozárabes
المستعربون أو النصارى المعاهدون
Mula مولة
Murcia مرسية
Narbonne أربونة

Navarra بلاد البشكنس — نبرة
Niebla لبلة
Normans الأردمانيون — المجوس
Ocsonoba أكشونبة
Orelius أورالى
Oria أورْية
Orihuela أوريوله
Pallares بليارش
Pamplona بنبلونة
Pedro بِطْرُه
Pelagius-Pelayo بلاى — بلايو
Priego باغة
Pyrenees Pirineos جبال البرنيه أو البرت أو البرتات
Poley بلاى — بلى
Rejio ريُّه (كورة)
Ramiro ردمير — رذمير
Ramon Berenguer رمند
Rhône نهر (وادى) رذونة
Roderic لذريق — رذريق
Roncesvalles
باب شزروا — باب الشزرى
Ronda رندة
Rueda حصن روطة
Salmanca شلمنقة
Sancho شانجه
San Esteban شنت إشتيبن
Santa Maria de Algarve
شنتمرية الغرب

Santarein-Santarem	شنترين	Toulouse	تولوشة
Santaver	شنت برية	Trujilllo	تَرجالُه
Santiago	شنت ياقب	Tudela	تُطيلة
Saragossa-Zaragoza	سرقسطة	Tudmir	تدمير
Sardegna	جزيرة سردانية	Ubeda	أبّدة
Sicilia	صقلية	Urgel	أرقلة
Ségovia	شَقوبية	Vacasorra	بقسرّة
Seville-Sevilla	إشبيلية	Valencia	بلنسية
Sierra de Almaden	جبال البرانس	Valtierra	بلتيرة
Sierra Morena	جبل الشارّات	Valladolid	بلد الوليد
Sierra Nevada	جبل شلير—جبل الثلج	Viguera	بقيرة
Tagus-Tajo	نهر التاجه أو التاجو	Villanueva	بلّة نوبه
Tanger — Tangier	طنجة	Viseu	بازو
Tarifa	جزيرة طريف — طريف	Xativa-Jativa	شاطبة
Tarragona	طرّكونة	Xenil-Genil	نهر شنيل
Toledo	طليطلة	Xeres-Jerez	شريش
Torrox	طرّش	Xecunda	شقندة
Tortosa	طرطوشة	Zamora	سمّورة

فهرست الموضوعات

(للقسم الثانى من الكتاب)

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الثالث — عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية

الفصل الأول : ولاية عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية.. ... ٣٧٢

الفصل الثانى : خلال الناصر ومآثره ٤٣٥

الفصل الثالث : غزوات المسلمين فى غاليس وشمال إيطاليا وسويسره... ٤٦٤

الكتاب الثانى

الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الرابع — ربيع الخلافة الأندلسية

الفصل الأول : الحكم المستنصر بالله. ٤٨٢

الفصل الثانى : هشام المؤيد بالله ٥١٧

الكتاب الثالث

الدولة العامرية

الفصل الأول : الحاجب المنصور ٥٣٤

الفصل الثانى : خلال المنصور ومآثره ٥٦٨

الفصل الثالث : الممالك النصرانية الإسبانية خلال القرن العاشر الميلادى... ٥٨٨

١ — نشأة مملكة قشتالة ٥٩٠

٢ — مملكة ليون ٥٩٢

٣ — مملكة نافار ٥٩٩

صفحة

٤ – عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية.. ... ... ٦٠١
٥ – تنظيم السلطات السياسية ٦٠٣
الفصل الرابع : عبد الملك المظفر بالله. ٦٠٧
الفصل الخامس: عبد الرحمن بن المنصور وسقوط الدولة العامرية ٦٢٢

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية ودولة بنى حمّود

الفصل الأول : الخلافة فى معترك الفتنة والفوضى ٦٤٢
الفصل الثانى : دولة بنى حمود ٦٥٦

الكتاب الخامس

النظم الإدارية والحركة الفكرية فى عصرى الإمارة والخلافة

الفصل الأول : النظم الدستورية والعسكرية الاقتصادية فى عصرى الإمارة والخلافة ٦٨٠
الفصل الثانى : الحركة الفكرية الأندلسية فى عصرى الإمارة والخلافة... ٦٩١

وثائق تاريخية

١ – كتاب الناصر بشأن فتنة ابن مسرة... ... ... ٧٠٨
٢ – كتاب الناصر عن موقعة الخندق ٧١١
ثبت المراجع ٧١٥
فهرست الوثائق التاريخية ٧٢٠
فهرست الشعر والشعراء ٧٢١
فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ٧٢٦

فهرست الخرائط

١ – خريطة قرطبة الإسلامية ٤٤٩
٢ – الممالك الإسبانية النصرانية فى القرن الحادى عشر الميلادى ٥٩٥

فهرست الكتب

الإحاطة فى أخبا غرناطة ، لابن الخطيب ؛ ٩
أخبار كورة البيرة لمطرف بن عيسى الغسانى ؛ ٥٠٥
أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم لأحمد بن موسى الرازى ؛ ٧٠٠
أخبار النحويين لأبى بكر الزبيدى ؛ ٧٠٣
أسباب نزول القرآن لعبد الرحمن بن فطيس ؛ ٧٠٥
الاستظهار المغالبة ، على من أنكر فضل الصقالبة ؛ ٥٧٩
الإستيعاب فى أنساب أهل الأندلس لأحمد بن موسى الرازى ؛ ٧٠٠
أعلام النبوة ودلالات الرسالة ، لعبد الرحمن بن فطيس ؛ ٧٠٥
أعمال الأعلام لابن الخطيب — ٩ ؛ ٤١٩
الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينو، — ٢٤
أنساب بنى أمية لأبى الفرج الأصفهانى ؛ ٥٠٥
أنشودة رولان ؛ ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢
البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ؛ ٩ ، ٨٥ ، ٥١١ ، ٥٧٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٠ ، ٦٦١
تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ؛ ٧٠١
تاريخ الأندلس لأحمد بن موسى العروى ؛ ٧٠١
تاريخ أورسيوس ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
تاريخ ألفونسو الحكيم ؛ ٤١٩
تاريخ النصارى المعاهدين للمستشرق سيمونيت ؛ ٢٦٨ ، ٣٨٣
تفسير القرآن لبقى بن مخلد ؛ ٦٩٤
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم القرطبى ؛ ٥٠٤
الجوامع — حروب الإسلام — غريب الحديث — فضائل الصحابة — طبقات الفقهاء والمحدثين — مصابيح الهدى — الواضحة ؛ لعبد الله بن حبيب السلمى ؛ ٦٩٢
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ؛ ٩ ، ٦٢٠ ، ٦٩٥
رواية إيزيدور الباجى ؛ ٣٤ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٢٠٩
الرواية — الروايات اللاتينية — ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥- ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٣
صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان فيها ، لأحمد ابن موسى الرازى ؛ ٧٠٠
العقد الفريد ، لأبى عمر بن عبد ربه ٢٢٤ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٥١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠
كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى — ٥٠٥
كتاب الحشائش الطبية ، لديسقوريدس — ٤٢٣ ، ٤٥٤
كتاب الحكم المستنصر فى الأنساب — ٥٠٤
كتاب الطير ليوسف بن هارون الرمادى ؛ ٧٠٣
كتاب «الفصوص» فى الآداب والأشعار والأخبار لصاعد بن الحسن البغدادى ؛ ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٧٠٤
كتاب فى فضائل الصحابة لعبد الرحمن بن فطيس ؛ ٧٠٥
كتاب قضاة قرطبة ، لابى عبد الله الخشنى ؛ ٥٠٥
المآثر العامرية ، أو أخبار الدولة العامرية ، لابن حيان ؛ ٥٧١ ، ٥٧٧
مختصر ابن عبد الحكم ، للقاضى الأبهرى ؛ ٦٠٥
لحن العامة لأبى بكر الزبيدى ؛ ٧٠٣
مسند النبى لبقى بن مخلد ؛ ٦٩٤
مسند حديث محمد بن فطيس ؛ ٧٠٥
المنتخب فى روايات مذهب مالك لمحمد بن عمر بن لبابة ؛ ٦٩٦
مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ؛ ٥٠٤
المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، لابن حيان ؛ ٧ ، ٨ ، ٤١٥ ، ٥١١ ، ٥٧١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩
منظومة الشاعر سوذىعن رودريك ؛ ٩٧
موطأ مالك ؛ ٢٢٩
نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق، الإدريسى ؛ ٤٨
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — ٩ ، ١٠
الواضح لأبى بكر الزبيدى ؛ ٧٠٣

فهرست القبائل والطوائف والدول

ا ـ ب ـ ت

الإباضية ؛ ٦٩ ، ١١٨ ، ٥٠١

الأدارسة ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ – ٤٩٨ ، ٥٠١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧

الأردمانيون ؛ انظر النورمانيون

الأسالمة ، المسالمة ؛ انظر النصارى المعاهدون

الإسبان ؛ ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ، ٤٤٢

الأسرة الكارلية ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ١٧١

الأسرة الميروفنجية ؛ ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١١٦

الإسلام ؛ ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧–٦٩ ، ٨٣ ، ٩٢ – ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٨ – ١١٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٧٠–١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٧٣ ، ٣٠٥ ، ٣٣٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٤٥٠ – ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ – ٤٥٩ ، ٤٧٢ ، ٤٨٥ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧

الأشراف ؛ ٦٠١ – ٦٠٥

الأقار ؛ ١٧٢

إفرنجه ؛ انظر الفرنج

الآلان ؛ ٢٩ ، ٩٤

آل البيت ؛ ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ٤٢٩ ، ٦٥٧

الألمان ؛ ٤٥٠

الألماني ، قبائل ؛ ٧٨

إمارة جليقية ؛ انظر مملكة جليقية

إمارة قرطبة ؛ ١٨٤ ، ٢١٤ ، ٢٩٠ ، وانظر الخلافة الأندلسية

الإمامية ؛ ١٤٢

إمارة قطلونية (وبرشلونة) ؛ ٥٤٣ ، ٦٠٩

الإمبراطورية الجرمانية ؛ ٤٥٠

الإمبراطورية الرومانية ؛ انظر الدولة الرومانية

الأمويون ؛ انظر بنو أمية

الأندلسيون ، ٢٤٥ ، ٢٩٠ ، ٤٩٥ ، ٦٦٣

الأوس ؛ ٦٨

إياد ؛ ٦٨

الإيطاليون ؛ ٤٥٠

البابوية ؛ ٣٥٩ ، ٤٧٢

البرانس ، قبيلة ؛ ٢٠٥ ، ٣٩٣

البربر ؛ ١٧ – ٢٢ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١١٧ – ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ – ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٧ – ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٧٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٤٢٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠١ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٨ ، ٥٣١ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧٦ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ – ٦٥٧ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ – ٦٧٤ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ – ٦٨٨

البرجونيون ؛ ١١٥

برغواطة ؛ ٦٧٣

البريطانيون ؛ ١٠٩
البشكنس ؛ ٨٣ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٥٠١ ، ٥٣٩ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٩١ ،
البلديون ؛ ٦٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢٠٤ ، ٦٨١ ، وانظر المولدون
البيزنطيون ؛ ٢٤٥ ، ٤٥٦
بنو أبي عبدة ؛ ٢٠٥ ، ٣١٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٧ ، ٥٧٤
بنو أسد ؛ ٦٨
بنو إسرائيل ، انظر اليهود
بنو أمية ؛ ٦٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ – ١٤٦ ، ١٤٨ – ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ – ١٩٨ ، ٢٠٠ – ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٣ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٨٢ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٣١ ، ٥٤٤ ، ٥٥١ ، ٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٦٠٦ ، ٦١٣ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٣ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٨١ – ٦٨٦ ، ٦٩١
بنو برزال ؛ ٥٠١ ، ٥١٨ ، ٥٢٦ ، ٦٥٤ ، ٦٧٠
بنو بسيل ؛ ٢٠٥
بنو تجيب ؛ انظر بنو هاشم
بنو جفنة ؛ ٦٨
بنو الجليق ؛ ٣٠٤ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩
بنو جهور ؛ ٢٠٥ ، ٥٧٤
بنو حجاج ؛ ٣٣١ – ٣٣٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧
بنو حدير ؛ ٥٧٤ ، ٦١٨
بنو حفصون ؛ ٣٢٠
بنو حمدان ؛ ٤٤٧
بنو هود ؛ ٦٥٤ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٨٣
بنو خزر ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤
بنو خلدون ؛ ٣٣١ ، ٣٣٢
بنو دانس ؛ ٣٠٥
بنو دمر ؛ ٦٥٤
بنو ذو النون ؛ ٣٠٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٣٦
بنو رزين ؛ ٤٢٦
بنو رستم ؛ ٣١٤
بنو زروال ؛ ٤٢٦
بنو شبريط (بنو الطويل) ؛ ٣١٩ ، ٣٤٢ ، ٤٢٦
بنو شهيد ؛ ٢٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٥٧٤ ، ٦١٨
بنو عامر ؛ ٦٣٠ ، ٦٣٢ – ٦٣٤ ، ٦٣٩ ، ٦٤٣ ، ٦٤٩ – ٦٥١ ، ٦٦٠ ، ٦٨٣
بنو العباس ؛ ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢٢٩ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٤٢٩ ، ٦٨٢
بنو عصام ؛ ٤٢٥
بنو عمروس ؛ ٣٠١ ، ٣١٩
بنو عمريل بن تيملت ؛ ٤٩٩
بنو غزوال ؛ ٤٢٦
بنو غومس ؛ ٥٦٢ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٣٦
بنو فطيس ؛ ٥٧٤ ، ٦١٨
بنو قسي ؛ ٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٣٠٠ – ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ – ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٤٦٧ ، ٥٤٥
بنو كلاب ؛ ١٣٥
بنو كنانة ؛ ٦٨
بنو لخم ؛ انظر لخم
بنو مدرار ؛ ٣١٤
بنو مطروح ؛ ٣٢٠
بنو مغيث ؛ ٢٠٥
بنو المنذر ؛ ٦٨
بنو هاشم التجيبيون ؛ ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠

بنو يفرن ؛ ٥٤٥ — ٥٤٧ ، ٦٥٤
التابعون ؛ ٥٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧
تبع ؛ ٦٨
التروبادور ؛ ٤٧٨
تميم ؛ ٦٨ ، ٥٧٧
ثقيف ؛ ٦٨

ج — ز

جذام ؛ ٦٨
جراوة ؛ ٢٢
الجرمان ؛ ٦٣ ، ١٧٣
الجلالقة ؛ ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٥٩ ، ٣٥٤ ، ٤٠٩ ، ٤٥٠ ، ٥٠١ ، ٦٢٠ ، ٦٩٧
الحبشة (الأحباش) ؛ ٦٨
الحجازيون ؛ ٧١
الحرورية ؛ ١١٨
حمير ؛ ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ١٤٢
خثعم ؛ ٨٧
خزاعة ؛ ٦٨
الخزرج ؛ ٦٨
الخلافة (العامة) ؛ ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٥٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤٦ ، ٥٥٥ ، ٦١٧ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٤ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٦٩
الخلافة الأموية ؛ ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٩٦ ، ٤٢٩ ، ٤٤٠ ، ٥١٦ ، ٥٢٤ ، ٥٤١ ، ٦٥٠ ، ٦٦٠ ، ٦٧٦ ، ٦٨٠ ، ٦٨٢ — ٦٨٤ ، ٦٩٠
الخلافة الأندلسية ؛ ٤١٢ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ، ٤٨٢ ، ٤٩١ ، ٥١٥ ، ٥١٩
الخلافة العباسية ؛ ١٧٠ ، ١٩٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
الخلافة الفاطمية ؛ ٤٢٩ ، ٤٩٤ ، ٦٨٢
الخوارج ؛ ٦٩ ، ١١٧
الدولة الأموية ؛ ١٤٠ — ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٤ ، ٢٨١ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ ، ٤٤٠ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٥١٩ ، ٥٧٥ ، ٦٣٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٨١ — ٦٨٤ ، ٦٩١ ، ٦٩٥
الدولة البيزنطية ؛ ٥٤ ، ٢٨٢ ، ٤٢٦ ، ٤٥٦ ، ٥٧٢ .
الدولة الرومانية الشرقية ؛ ١٤ ، ١٦ — ١٩ ، ٢٩ ، ٩٣
الدولة الرومانية الغربية ؛ ١٧ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦
الدولة العامرية ؛ ٤٤٠ ، ٥٧٩ ، ٦١٩ ، ٦٢٨ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ — ٦٣٨ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠ ، ٦٥٧ ، ٦٧٦ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠ .
الدولة العباسية ؛ ١٤٦ ، ٢٣٤ ، ٢٨٢ ، ٤٢٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٥٧٢ .
الدولة الفاطمية ؛ ٤٢٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٦
دولة الفرس ؛ ٩٢
الذميون ؛ ٢٠٦
ربيعة ؛ ٦٨
الرقيق ؛ ٦٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٨٧
الروم ؛ ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٦٨ ، ١٠٧ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ — وانظر الرومان .
الرومان ؛ ٥١ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٩٥ ، ١٧٧ ، ٣٨٣ ، ٦٨٩
زناتة ، قبيلة ؛ ٢٥ ، ١١٩ ، ١٥١ ، ٢٠٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦٠٩ ، ٦٣٦ ، ٦٦١
زويلة ، قبيلة ؛ ١٦

س — غ

السكسون ؛ ١١٦ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٨
السوابيون ؛ ٢٩ ، ٩٤
الشاميون ؛ ١٢٠ ، ١٢٣ — ١٢٦ ، ١٥١ ، ٢٠٤ ، ٦٨١ ، ٦٨٧
الشيعة ؛ ١٤١ — ١٤٦ ، ٣٨٨ ، ٤٢٧ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
الصفرية ؛ ٦٩ ، ١١٨
الصقالبة ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٩ ،

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٤١٣ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٨٣ ، ٤٩٨ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ، ٥٣٦ ، ٥٥٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦١٨ ، ٦٢٢ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٤٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥

الصليبيون ؛ ٤٧٩

صنهاجة ؛ ٢٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٣١ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦٤٤ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢ ، ٦٧١

الطوائف ، ملوك ودول ؛ ٢٠٥ ، ٢٨١ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٤٧٥ ، ٥١٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤

العبيديون ؛ أنظر الفاطميون

العجم ؛ ٦٨

العراقيون ؛ ٧٠

العرب ؛ ١٤ — ١٦ ، ٢٠ — ٢٢ ، ٢٥ — ٢٧ ، ٣٣ — ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ — ٤٩ ، ٥٢ — ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ — ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ — ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٩ — ١١١ ، ١١٤ — ١١٩ ، ١٢١ — ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ — ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٩١ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٤٦٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٣١ ، ٦٦٠ ، ٦٨٤ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٩٦

الغاليون ؛ ٩٥ ، ١٠٩

غسان ؛ ٦٨

الغسقونيون ؛ ٢٦٦

غطفان ؛ ٦٨

غمارة ، قبيلة ؛ ٤٩٦ ، ٥٥٧

ف — ق — ك

الفاطميون ؛ ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ — ٤٢٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٦

الفتيان الصقالبة (والعامريون) ؛ ٣٤٨ ، ٤٣٩ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٦٢ ، ٦٧٧ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥

الفرس ؛ ٦٨ ، ٧٠

الفروسية الأندلسية ؛ ٢٧٤

الفرنج ؛ ٢٩ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٧٦ — ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٣ — ٩٦ ، ٩٨ — ١٠٤ ، ١٠٦ — ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٣ — ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٧٠ — ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٣٦١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٦٤٨ ، ٦٨٧

الفرنسيون ؛ ٤٥٠ ، ٥٤٨

الفهرية ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١

الفيكنج ؛ ٢٦١

القرامطة ؛ ٥٤٤

قريش ؛ ٦٨ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٤٥

القشتاليون ؛ ٤٨٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٢٧ ، ٥٦٥ ، ٥٩١ ، ٥٩٨

قضاعة ؛ ٦٨

القوط ؛ ٢١ ، ٢٦ — ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ — ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ — ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢١ ، ٢٣٧ — ٢٣٩ ، ٢٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ٥١٥ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٨٩

القيسية ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٩٠

كتامة ؛ ٣٣٩ ، ٤٩٧

الكرسى الرسولى ؛ ٣٥٩
الكلاميون ؛ ٤٣١

ل — ى

لخم ؛ ٢٣ ، ٢٧ ، ١٢٣ ، ٣٣١
اللومبارد ؛ ١١٦ ، ١٧٣ ، ٤٥٠
المجر ؛ ٤٧١ ، ٤٧٩
المجوس ؛ انظر النورمان
مدغرة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
مديونة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
المروانية ؛ انظر بنو أمية
المستعربون ؛ انظر النصارى المعاهدون
المسلمون ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ — ٧٥ ، ٨٠ — ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ — ١٠٨ ، ١١٤ — ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦ — ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ — ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ — ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ — ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ — ٤٠١ ، ٤٠٣ — ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ — ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ — ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ — ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٩٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٦ ، ٦٢٩ ، ٦٤٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٨٩
المصريون ؛ ٧٤
مصمودة ؛ ٣٥٧ ، ٢٧٦ ، ٣٠٥ ، ٣٣٩ ، ٣٩٣
مصر ، المصرية ؛ ٦٨ ، ٨٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٦٣١ ، ٦٨١
المعتزلة ؛ ٤٣١
مغراوة ، قبيلة ؛ ٥٤٥ — ٥٤٧ ، ٥٥٨ ، ٦٠٩ ، ٦٥٤
مكناسة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
مملكة أراجون ؛ ٢٣٦ ، ٥٤٤
مملكة آرل ؛ ٤٦٨
المملكة الإسبانية النصرانية ؛ ٥٥ ، ٨٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ — ٢١٥ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٦١ ، ٣٥٣ — ٣٥٨ ، ٣٦٠ — ٣٦٢ ، ٤٦٥
مملكة أشتوريش ؛ ٣٦١
مملكة أكوتين ؛ ٢٠٩
مملكة جليقية ؛ ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٣١١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٨٨
مملكة غرناطة البربرية ؛ ٢٠٦
مملكة الفرنج ؛ ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ٢٠٩ ، ٢٣٤ ، ٣٦١ ، ٤٥١ ، ٤٦٥ ، ٦٨٠
المملكة القوطية ؛ ٣٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٢٠٨
مملكة ليون ؛ ٢٦١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤١٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٩ ، ٥٢٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٨ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٢٩
مملكة نافار (نبره) ؛ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩١ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
الموالى ؛ ١٢١ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٩ ، ٣٢٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦١ ، ٥١٤ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧
المولدون ؛ ٦٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ — ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٤٥٨ ، ٤٨٢ ، ٥١٤ ،
٥١٥
الناقاريون ؛ ١٧٣ ، ١٧٦ ، ٥٩٣
النصارى ؛ ٢٥ ، ٣٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ،
٦٢ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١٠٥ ،
١١٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢١١ — ٢١٦ ، ٢٢١ ،
٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ ،
٢٤٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ —
٢٧٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ — ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٢ ،
٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،
٣٥٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ — ٣٨٤ ، ٣٩١ —
٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ — ٤٠٧ ، ٤١٢ ،
٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ — ٤٢٥ ،
٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ،
٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ —
٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ،
٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٦٠ ،
٥٦٣ — ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٣ ،
٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٨ ، ٦١٣ ، ٦١٦ ،
٦٤٩ ، ٦٥١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٩ ، ٦٩٧
نصارى الشمال ؛ ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ،
٢٦١ ، ٢٩٥ ، ٦٨٠ ، ٦٨٧
النصارى المعاهدون ؛ ٦٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ،
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٨ — ٢٧٠ ، ٢٩٥ ،
٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٥١٥ ، ٥٧٠ ، ٦٨٢ ،
٦٨٨ ، ٦٩٥
النصرانية ؛ ١٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٤ ،
٦٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٦ ،
١١٠ ، ١١١ ، ١٣٧ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،
٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٤ ، ٢٦٧ ، ٣٠٥ ،
٣٣٧ ، ٣٨١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٧ — ٤٥٩ ،
٤٧٤
نفزة ، قبيلة ؛ ١٥٠ ، ٢٠٥ ، ٢٧٦
النورمان ؛ ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ،
٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ — ٢٩٨ ،
٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،
٥٩٥ ، ٦٨٧
هوارة ، قبيلة ؛ ٢٠٥ ، ٣٣٩
هوازن ، قبيلة ؛ ٣٢٩
الهون ؛ ٢٨
الوثنية ؛ ١٧
الوندال ؛ ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٤ ، ٩٤
يثرب ؛ ٦٨
اليمنية ؛ ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ،
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ،
١٥١ — ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ،
١٦٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ،
٣٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٨١
اليهود ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٥ ،
٢٠٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٩ ، ٥٠٦ ، ٥١٥ ،
٥١٦ ، ٦٨٢
اليهودية ؛ ١٧ ، ٣٢

فهرست البلدان والأماكن

— ا —

أبدة ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٤
آبلة ؛ ٢١٥
ابنيونش ؛ ٦١٢
أجدة ؛ ٧٠ ، ١١٥ ، ١٣٣
أراجون ؛ ٥٩١ ، وانظر الثغر الأعلى
أربونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٤ — ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٥٠ ، ٤٦٤ ، ٤٧٤
الأردن ؛ ١٢٦
أرشدونة ؛ ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٦
أرقلة ؛ ٧٠ ، ١٣٣
أركش ؛ ٦٧٥
آرل ؛ ٩٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ٢٩٧ ، ٤٦٦
أرملاط ؛ ٤١٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦
إسبانيا ؛ ١٧ ، ٢١ ، ٢٦ — ٣٩ ، ٤٦ ، ٥١ — ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٦ — ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ — ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦٢ ، ٢٩٠ ، ٣٥٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ — ٤٢٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٠٨ ، ٥٤٤ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٨ — ٥٧٣ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٦٠١ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٩
إسبانيا المسلمة ؛ ١١١ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦١ ، ٣٩١ ، ٤٤٢ ، ٤٨٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٨ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠١ ، ٦٧٦ ، ٦٩٠
إستبة ؛ ٣٣٧
إستجة ؛ ٤٩ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٦٣ ، ٢٣٣ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٥
أسترقة ؛ ٥١ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٥٤٢ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ ، ٥٩٨
أستورياس (اشتوريش) ؛ ٥١ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ — ٢١٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٥٦٤
إسكتلندا ؛ ٩١
الإسكندرية ؛ ٢٤٥
اسكندناوة ؛ ٢٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨٤
آسيا الصغرى ؛ ٥٤ ، ٩٢ ، ٩٣
أشبونة ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ، ٤٨٨
إشبيلية ؛ ٣٤ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٧١ — ٧٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ — ١٦٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٥٢٢ ، ٦٦١ — ٦٦٣ ، ٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٦ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٧ ، ٧٠٣
أشبونة ؛ ٣٨٦
أصبهان ؛ ١٤٣ ، ١٤٤
الأصنام ؛ ١٢٠
أصيلا ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٥ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨
إفريقية ؛ ١٥ — ٢٠ ، ٢٢ — ٢٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٩ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٧ — ١٢٣ ، ١٢٦ — ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ،

١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٣١ ،
٢٤١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٩٥ ،
٤٢٥ — ٤٢٨ ، ٤٥٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ،
٤٧٩ ، ٤٩٢ — ٤٩٤ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ،
٥٦٤ ، ٦١٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٩٤
آفنيون ؛ ١١٥ ، ١١٦
إقريطش ؛ ٢٤٢ ، ٢٨٢ ، ٤٧٦
إفليش ؛ ٣٤٠
آكشونبة ؛ ١٢٦ ، ٢٥٧ ، ٣٠٦ ، ٣٣٩ ،
٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٦٩٠
آكسفورد ؛ ٩١
آكوتين ؛ ٧٦ ، ٧٩ — ٨١ ، ٨٦ ، ٨٨ ،
٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ — ٩٨ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢٧ ،
٤٧٦
آكى ؛ ٤٦٩
آلانديجا ؛ انظر الخندق ، وموقعة الخندق
آلبة والقلاع ؛ ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ،
٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩٤ ،
٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ —
٣٥٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ،
٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٧ ، ٤٨٧
آلبونت ؛ ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٨
إلبيرة ، وكورة ؛ ٥٠ ، ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ،
١٣٦ ، ١٥١ — ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،
١٨٦ ، ١٩٤ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ،
٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٧٥ ،
٣٧٦ ، ٥٠٢ ، ٥٤٣ ، ٦٥٤ ، ٦٩٢ ، ٦٩٦
آلحامة ؛ ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٩ ، ٣٧٩
آلفونت ؛ ٦٧١
آلمانيا ؛ ٧٨ ، ٩٤ ، ٢٦١ ، ٢٨٤ ، ٤٥٦ —
٤٥٨
آلمرية ؛ ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٧ ، ٤٤٦ ،
٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٩ ، ٦٥٣ ، ٦٥٨ ،
٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ،
٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٧٠٤
آنتيب ؛ ٤٧٤
آنتيسة وحصن ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤١٧ ، ٤٨٦ ،
٥٣٨
الأندلس ؛ ١٧ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
٤٩ — ٥٢ ، ٥٥ — ٦١ ، ٦٤ ، ٦٩ ،
٧٠ ، ٧٣ — ٧٥ ، ٨١ — ٨٤ ، ٨٦ ،
٨٧ ، ٩٨ ، ١٠٦ — ١٠٩ ، ١١٢ ،
١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ — ١٢٥ ،
١٢٧ — ١٣٠ ، ١٣٤ — ١٣٨ ، ١٤٠ ،
١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ — ١٥٣ ،
١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٣ —
١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ —
٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ —
٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ — ٢٣٤ ،
٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،
٢٥٧ ، ٢٦١ — ٢٦٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ،
٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،
٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ،
٣٠٩ — ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ،
٣٢١ — ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،
٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ — ٣٥٩ ،
٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ — ٣٨٠ ،
٣٨٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ ،
٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ — ٤٣١ ،
٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦ — ٤٤٨ ،
٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ،
٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٧٤ ،
٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ،
٤٩٧ — ٤٩٩ ، ٥٠١ — ٥٠٦ ، ٥٠٩ ،
٥١٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ،
٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ،
٥٥٤ — ٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٨ —
٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٥٨٨ ،
٥٨٩ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ،
٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ،
٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ،
٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٧٠ ،
٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٠ — ٦٨٤ ، ٦٨٦ —
٦٨٩ ، ٦٩١ — ٦٩٦ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٤
آنة ؛ ٥٥
آنيسون ؛ ١٠٥

أوبيدو ؛ ٢١٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٥٩١
أوتون ؛ ٨٢ ، ٨٤
أوربا ؛ ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٩٣ ، ١١٠ ، ٢٦٦ ، ٤٢٠ ، ٤٥٢ ، ٤٧٢ ، ٤٧٩
أوريولة ؛ ٥٠ ، ٥٥ ، ١٣٢ ، ٢٠٤ ، ٢٩٧
أوزونه ؛ ٢٣٥
أوستراسيا ؛ ٧٩ ، ٩٦ ، ١٠٢
أوستريا ؛ ٨٠
أوسمة ، ووادى ؛ ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٥٥٠ ، ٥٧٣ ، ٦٥١
أوسيز ؛ ١١٥
إج مورت ؛ ٤٦٨
إيريا ؛ ٢٢٠ ، ٥٦٠
إيطاليا ؛ ٢٨ ، ٥٣ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ١١٠ ، ٢٦٦ ، ٤٢٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ — ٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ — ٤٧٩
إيكس ؛ ٤٦٨
إيكسلا شابيل ؛ ٢٣١

ب — ت — ث

باب الجنان ؛ ٤٤٨ ، ٤٨٥
باب الجوند ؛ ٤٤٨
باب الزاهرة : ٥٤٠
باب الساباط ؛ ٤٤٨
باب السدة ؛ ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤١٦ ، ٤٤٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٨ ، ٥٢٦ ، ٦٣٧
باب شيزروا (الشزرى) ؛ ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٦
باب الشزرى ، موقعة ؛ ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٥٦
باب الصناعة ؛ ٤٤٨
باب طليطلة ؛ ٤٤٨
باب عامر ؛ ٤٤٨
باب عبد الجبار ؛ ٤٤٨
باب العدل ؛ ٤٤٨
باب العطارين ؛ ٤٤٨
باب قرطبة ؛ ٣٨٥
باب القنطرة ؛ ٤٤٨
باب الملك ؛ ٤٤٨
باب النخيل ؛ ٢٧٩ ، ٤٤٥
باب اليهود ؛ ٤٤٨
باجة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٦ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
بادربورن ؛ ١٦٩ ، ١٧٤
بارى ؛ ٤٧٦
باريس ؛ ٧٨ ، ٩٠
بازو ؛ ٣٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
باطقة ؛ ١٣٢
باغة ؛ ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٦٩٠
باقاريا ؛ ٧٨ ، ٨٠
بالش ؛ ٤٠٤
ببشتر ؛ ٣٠٩ ، ٣٢٠ — ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ — ٣٨٨
بجاية ؛ ٤٩٤
بحر الزقاق ؛ ٤٢٧ ، ٤٩٢
البحيرة ؛ ٢٩٧
بحيرة چنيڤ ؛ ٤٦٩
بحيرة خندة ؛ ٤٢ ، ٤٤
بحيرة كونستانس ؛ ٤٧٢
البراجلة ؛ ٣٢٨
براڤيا ؛ ٢١٩
بربشتر ؛ ٣٤٢ ، ٦١٢
البرتغال (وبرتقال) ؛ ٤٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٢١٥ ، ٣٠٤ ، ٤٨٨ ، ٥٤٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦٤ ، ٥٩٦
برجة ؛ ٢٦٥
برجونية ؛ ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ٤٦٩ — ٤٧١ ، ٤٧٣
بردال ؛ انظر بوردو
بردوليا ؛ ٣٥٥ ، ٣٥٦
برشلونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٨٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ،
٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤ ،
٣٤٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤٢٢ ،
٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ٦١٠
برغش ؛ ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٤٠٣ ، ٤٨٤ ،
٥٦٣ ، ٥٧٣ ، ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٦٠٠
البرنيه ؛ انظر جبال البرنيه
بروڤانس ؛ ١١٥ ، ١٦٦ ، ٢٦٦ ، ٢٩٧ ،
٤٦٦ — ٤٦٨ ، ٤٧٠ — ٤٧٤ ، ٤٧٧ ،
٤٧٨
بريتانيا ؛ ١٧٣ ، ١٧٥
بريجور ؛ ٩٩
بزيه ؛ ٧٠ ، ٧٤ ، ١١٥ ، ١٣٣
بسطة ؛ ٧٠ ، ٥٤٣
بسكرة ؛ ٤٩٤
بسكونية ؛ انظر بلاد البشكنس
البصرة (بالعراق) ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٦٩٤
البصرة (بالمغرب) ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ،
٤٩٧
بطليوس ؛ ٧١ ، ٢٥٧ ، ٣٠٣ — ٣٠٧ ،
٣٢٣ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ،
٣٩٣ ، ٤٠٩ ، ٥٦٤
بغداد ؛ ١٧١ ، ٢٨١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٥٠٥ ،
٦٩٣
بقسرة ؛ ٥٥
بقيرة ؛ ١٨٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
بلاد البشكنس ؛ ٧٤ ، ١١٣ ، ١٣٣ ، ١٧٣ ،
١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢١٠ — ٢١٣ ،
٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٥٤ — ٣٥٦ ،
بلاد الفرنج ؛ انظر فرنسا
بلاد اللونبارد ؛ ٢٤٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ،
٤٧٣ ، ٤٧٥
بلاد المجوس ؛ ٢٨٤
بلاط الشهداء ، موقعة ؛ ٥٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ — ١١٤ ، ٢١٢ ،
٤٦٤ ، ٤٧٧ ، ٦٨١ ، ٦٨٧
بلاى ، موقعة ؛ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ،
٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧

بلتيرة ؛ ٣٩٥
بلد الوليد ؛ ٧٠
البلدة ، موقعة ؛ ٣٦٢
البلقان ؛ ٢٧
بلنتلة ؛ ٥٥
بلنسية ، وكورة ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٣ ،
٢٠٤ ، ٢٣٣ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ،
٦٦٠ ، ٧٠٤
بله نوبه ؛ ١٥٤
البليار ؛ انظر الجزائر الشرقية
بليارش ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣
بنبلونة ؛ ٩٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ —
١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ،
٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ،
٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ،
٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،
٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ،
٤١٧ ، ٥٤٨ ، ٥٦٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٩ ،
٦٠٠
البهو الذهبى ؛ ٤٨٣
بواتو ؛ ٩٩
بواتييه ؛ ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١١
بورتو ؛ ٥٦٠
بورتيلادى آرناس ؛ ٥٤٢
بوردو ؛ ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٧٣
بوصير ؛ ١٤٦
بولونيا ؛ ٩١
بون : ٨٤
بونتومو ، موقعة ؛ ٢١٦
بياسة ؛ ٣٧٦ ، ٥٢٦
البيت الحرام ؛ ١٤١
بيت المقدس ؛ ٢٢٠
بيزانصون ؛ ٩٠
بيزنطية ؛ ٩٣ ، ٢٨٢
البيضاء ، موقعة ؛ ٢٦٧
بيطرالتة ؛ ٣٩٩
بييمون ؛ ٤٦٨ — ٤٧١
تارنت ؛ ٤٧٦
تارانتير ؛ ٤٦٩

تاكرونا ؛ ٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٣٠٨ ، ٣١١
تاهرت ؛ ٣١٤ ، ٤٢٦ ، ٤٩٤ ، ٥٥٨
تدمير ، الأندلس ، وولاية ؛ ٥٠ ، ٧١ ، ١٢٦ ، ١٨٦ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ، ٥٤٣ ، ٦٩٠
تدمير الشام ؛ ١٤٩
تراقية ؛ ٢٨ ، ٢٩
ترجاله ؛ ٣١٨
تطيلة ؛ ٢٥٦ ، ٢٥٩ — ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ٤١٠
تطوان ؛ ٤٩٢
تلمسان ؛ ٥٤٧ ، ٥٥٨
تودة ؛ ٣٥٦
تور ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٤٧٧
تور ، موقعة ؛ انظر موقعة بلاط الشهداء
تورتور ؛ ٤٧٤
تورنجن ؛ ٤٥٧
تورنى ؛ ٧٧
تورينو ؛ ٤٦٩
تولوشة (تولوز) ؛ ٢٩ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٩ ، ١٠٤ ، ٢٢٧
تولوشة ، موقعة ؛ ٨٢ ، ٩٧
تونس ؛ ١٢٦ ، ١٣٠ ، ٤٢٥ ، ٤٣٧ ، ٤٩٩
الثغر الأدنى ؛ ٢٤١ ، ٢٥٨ ، ٣٣٩ ، ٤٠٧
الثغر الأعلى ؛ ٧١ ، ٨٩ ، ١١٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ — ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٣ ، ٣٩٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٤ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٧ — ٥٤٩ ، ٦١٠ ، ٦٤٨ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ، ٦٦٩
الثغر الأوسط ؛ ٧١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٣٠٧ ، ٣٣٩ ، ٣٩٦ ، ٤٨٤ ، ٦٤٤
الثغر القوطى (الفرنجى) ؛ ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٤٠٤ ، ٤٢٢ ، ٥٤٣

ج — خ

جارد فرينيه ؛ ٤٦٧
چاقة ؛ ٣٤٢
جامع إستجة ؛ ٣٠٤
جامع إشبيلية ؛ ٢٧٩
جامع الزهراء ؛ ٤٣٢
جامع شذونة ؛ ٣١٤
جامع قرطبة ؛ ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٤ ، ٣٥٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥٦٠ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦٦٤ ، ٦٦٩ ، ٦٩٦
جامع القيروان ؛ ٢٢
جامعة قرطبة ؛ ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ١٠٧
چان دی لابور ؛ ١٧٣
جبال الألب ؛ ١١٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ — ٤٧٤ ، ٤٧٧
جبال البرنيه ؛ ٣١ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ — ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٦ ، ٣١٤ ، ٣٤٢ ، ٢٥٧ ، ٣٥٨ ، ٤٦٤ — ٤٦٦ ، ٤٨٧ ، ٦١٢
جبال بلنسية ؛ ١٨٦ ، ٢٢٥
جبال چورا ؛ ٤٦٩ — ٤٧١
جبال رندة ؛ ٣٠٨

جبال كانتبريا ؛ ٢١٦
جبال المعدن ؛ ٢٠٥
جبال مونشيس ؛ ٦١٠
جبال وادى الحجارة ؛ ١٣٢
جبال وادى الرملة ؛ ٤٨٦
جبل الأخوين ؛ ٢٩١
جبل أشيروغرة ؛ ٣٠٧
جبل أوراس ؛ ١٧ ، ٢٢
جبل بيشتر ؛ ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣٨٥
جبل الشارات ؛ ٥١ ، ٣٥٩ ، ٦٩٠
جبل شمنتان ؛ ٣٣٠
جبل طارق والمضيق ؛ ٤١ ، ٩١ ، ٥٢١ ، ٦٥٨ ، ٦٧٦
جبل العروس ؛ ٣٧
جبل قرطبة ؛ ١٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٩٠
جبل قنتش ؛ ٦٤٦
جراوة ؛ ٤٢٦
جربيره ؛ ٤١٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣
جرمانيا ؛ ١١٠
جرزون ؛ ٤٦٩
جرزيفودان ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٣
جرينوبل ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٣
الجزائر الشرقية ؛ ٢٥ ، ٣٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٧ ، ٣٤٦ ، ٤٢٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٧٥ ، ٦٥٨
الجزر البريطانية ؛ ٢٦٢
الجزيرة (العراق) ؛ ٢٣ ، ٤٤٧ ، ٦٩٣
الجزيرة ؛ ٢٩٧
الجزيرة الخضراء ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٧٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٢١ ، ٥٥٧ ، ٥٦٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ — ٦٧٥ ، ٦٩٨
جزيرة طريف ؛ ٤٠
الجزيرة العربية ؛ ١٨ ، ٢٠٥
جزيرة كاماراج ؛ ٤٦٧
جزيرة ليران ؛ ٤٧٤
جزيرة ميورقة ؛ ٤٠٤
جليقية ؛ ٢٩ ، ٥١ ، ٥٣ — ٥٥ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ — ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٩ — ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ — ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ — ٣٦٢ ، ٣٩٢ ، ٤٠٥ ، ٤١١ ، ٥١٢ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨ ، ٥٥٩ — ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٦١٢
جليقية الغربية ؛ ٢١٨ ، ٢١٩
جنوة ؛ ٤٦٩
جوررنى ؛ ٤٥٦
جويان ؛ ٩٩
جيان ، وكورة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٢٥٣ ، ٢٩٢ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ — ٦٦٢ ، ٦٧٣
جيرندة (چيرونه) ؛ ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٤٢٢
چيروند ، مقاطعة ؛ ١٠٢
الجيزة ؛ ١٤٦
الحجاز ؛ ٢٣ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٤٢٩ ، ٦٩٣
الحرة ، موقعة ؛ ١٢٣
الحرمين ؛ ١٩٧ ، ٤٢٩
حصن الأجم ؛ ١٩
حصن أرنيط ؛ ٣٩٧
حصن أشرس ؛ ٣٢٠
حصن أشكر ؛ ٤١٥
حصن أشكفيرش ؛ ٤٠٣
حصن أطلة ؛ ٤١٥
حصن أنتيسة ؛ ١٤٧
حصن أندة ؛ ٢٩٢
حصن أنة ؛ ٤٠٣
حصن أوريولة ؛ ٣٧٩
حصن إيلاس ؛ ٣٤٢
حصن بالجش ؛ ٣٩٩
حصن بيشتر ؛ ٦٧٤

حصن برتيل ؛ ٤١٥
حصن بطرسة ؛ ٣٠٦
حصن بقيرة ؛ ٢٩٨
حصن بلاى ؛ ٣٢٤
حصن البلدة ؛ ٢٩٢
حصن حالولاء ؛ ١٩
حصن ألحامة ؛ ٥٢٧
حصن دسة ؛ ٤٩٩
حصن روطة ؛ ٣٠٢ ، ٣٤٣ ، ٤٠٢ ، ٤١٢
حصن سمسطا : ٢٥٨
حصن شبطران ؛ ١٦٦ ، ٤١٦
حصن الشط ؛ ٣٨٥
حصن شلوبانية ؛ ٣٣٦
حصن شمنتان ؛ ٣٧٦
حصن شنت إشتيبن ، وقلعة ؛ ٣١١ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ – ٣٩٦ ، ٤٠٠ – ٤٠٢ ، ٤١٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٦١٣ ، ٦٥١
حصن شنت بجنت ؛ ٥٣٨
حصن شنت برية ؛ ٣٩١
حصن شنت مرتين ؛ ٦١٥
حصن شنت منكش ؛ ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٥٨٩
حصن شندلة ؛ ٣٩٢
حصن طرش ؛ ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٥٢١
حصن طلمنكة ؛ ٣١١
حصن غرمانج ؛ ٤٠٣ ، ٤٨٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٦٥١
حصن فراكسنيه ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٩ – ٤٧٤
حصن فرانكش ؛ ٢٥٧
حصن قرقشتال ؛ ٣٩٩
حصن قسطلونة ؛ ٣٣٠ ، ٣٤٠
حصن قشتيل ؛ ٣٤٢
حصن القصر ؛ ٤٠٣ ، ٦٧١
حصن قلقرة (وقلعة) ؛ ٣٩٧ ، ٣٩٩
حصن قلهرة ؛ ٣٩٩
حصن كركبوليه ؛ ٣٣٠
حصن كركى ؛ ٣٠٥
حصن لورة ؛ ٣٧٧
حصن ماومندة ؛ ٤٠٢
حصن مجريط ، وقلعة ؛ ١٦١ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٥٢٨
حصن مدلين ؛ ٣٩٣
حصن مدنيش ؛ ٦١٠
حصن المدور ؛ ١٥٩
حصن مرتش ؛ ٢٧٢ ، ٣٧٥
حصن مسرة ؛ ٤٠٠
حصن المنار ؛ ٤٠٣
حصن منت بطروش ؛ ٣٤٣
حصن مقصر ؛ ٦١٠
حصن منت سلود ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦
حصن منت شقند ؛ ٣٢٨
حصن منتشون ؛ ٣٤٢
حصن المنتلون ؛ ٣٣٨ ، ٣٧٥
حصن منتيشة ؛ ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٦٧
حصن مورور ؛ ١٨٦
حصن موله ؛ ٥٥ ، ٣٤٢ ، ٥٢٨
حصن مونت ميور ؛ ٣٨٥
حصن يبة ؛ ٤٨٧
حضرموت ؛ ٣٣١
الحضرة ، موقعة ؛ ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٣٠١
حلب ؛ ٤٤٧
حمص ؛ ٧٠ ، ١٢٦
الحيرة ؛ ٦٨
حى العرب ؛ ٤٧٠
خراسان ؛ ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥
خليج بسكونية ؛ ٥١ ، ٢١٣
خليج سانت تروبيه ؛ ٤٦٧ ، ٤٧٠
خليج قادس ؛ ٤٢
الخندق ، موقعة ؛ ٣٤٠ ، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٩، ٤٤٢ – ٤٥١ ، ٤٦٠ ، ٥٩٠ ، ٥٩١
خندق شنت منكش ؛ ٤١٧ – ٤٢٠
خونكيرا ؛ ٣٩٧
خيخون ؛ ٥١ ، ٨٥

د — ز

دار الروضة ؛ ٤٣٦
دار السكة ؛ ٤٤٧
دار الناعورة ؛ ٤٨٥
داسيا ؛ ٢٨

الدانماركة ؛ ٢٨٤ ، ٤٨٨
دانية ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٤٧٥ ، ٦٥٨ ، ٦٨٦
درنة ؛ ٢٤
دروقة ؛ ٣٤١
دمشق ؛ ٢١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ، ٢١٠ ، ٥٠٥
دوفينه ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣
دير أجون ؛ ٤٦٩
دير إسلونزا ؛ ٥٤٨
دير بالمودى ؛ ٤٦٨
دير ديزنتى ؛ ٤٦٩
دير خنان ؛ ١٤٩
دير سانتا روفينا ؛ ٧٢
دير سان خيرنمو ؛ ٤٤٢
دير ساهاجون ؛ ٥٤٨ ، ٥٨٩
دير كلونى ؛ ٤٧٣
دير نوفاليس ؛ ٤٦٨ ، ٤٧١
ريباجورسا ؛ ٦٠٠ ، ٦١٢
رباط الثغر ؛ ٢٣٥
الربض ، قمة ؛ ٢٤٥ — ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥
ربض قرطبة ، الربض ؛ ١٥٨ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٤٥٢
الرصافة ؛ ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٣١٤ ، ٤٣٦ ، ٥٢٣ ، ٥٣٠ ، ٦٤٤
رندة ؛ ٢٢٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٨٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٥
رورية ؛ ٢٥٨
روسيون ؛ ٧٥
روضة ؛ ٥٤١
رومة ؛ ١٧ ، ٢٧ — ٢٩ ، ٣١ ، ٥٣ ، ٩٤ — ٩٦ ، ١٠٨ ، ٤٣٩ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣
رونسفال ؛ ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧
الريف ، بلاد ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٧
الريفييرا ؛ ٤٧٨
ريه ، وكورة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٣٨ ، ٣٠٨ — ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٣٠ ، ٦٤٩
ريوخا ؛ ٥٩١
الزاب ، بلاد ؛ ٥٥٧
الزاهرة ؛ ٤٣٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤٠ ، ٥٥٦ ، ٥٧٥ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢٤ ، ٦٢٩ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٨٣
الزهراء ، مدينة ؛ ٤٣٥ — ٤٤٦ ، ٤٥١ ، ٤٩٨ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٦٢٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠
زويلة ؛ ١٦

س — غ

الساباط ؛ ٣٥٢
سافوا ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢
سان برنار ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٢
سانتونج ؛ ٩٩
سان جالن ؛ ٤٧٢
سبتمانيا ؛ ٥٣ ، ٧٤ — ٧٨ ، ٨٠ — ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١١٥ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٣١٤ ، ٤٦٤ — ٤٦٦ ، ٤٧٧
سبتة ؛ ٢٦ ، ٣٣ — ٣٥ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ٤٠٤ ، ٤٢٥ — ٤٢٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٥٤٥ ، ٥٥٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ — ٦٧٥
سبيطلة ؛ ١٦
سجلماسة ؛ ٣١٤
سردانية ؛ ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٥
سرقسطة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٤ — ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٨ ،

٣٤٠ – ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ – ٤١٣ ، ٤١٨ ، ٤٢٢ ، ٤٦٦ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٣ ، ٦٠٦ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ، ٦٩٧ ، ٧٠٤

سرية ؛ ٣٠٠ ، ٣٢٨ ، ٣٩٠ ، ٥٦٤

سكسونية ؛ ٨٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٧٣

سمرقند ؛ ١٤٥

سمورة ؛ ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٤٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٩١ ، ٤١٤ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦١ ، ٥٧٣ ، ٥٩٠ ، ٦١٢

السند ؛ ٩٢ ، ٩٦ ، ١٤٠ ، ١٤٣

السوس ؛ ١١٩

سوسة : ١٩

سوق العطارين ؛ ٤٢٥

سولسونة ؛ ٢٣٥

السهلة ؛ ٧١ ، ٢٠٥

سوبرابي ؛ ٣٤٢ ، ٥٩١ ، ٦٠٠

سويسرة ؛ ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٥ ، ٤٦٩ – ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥

سيرا مورينا ؛ انظر جبل الشارات

سيرا نفادا ؛ ٣٧٦

شاطبة ؛ ٧١ ، ١٣٢ ، ٣٩٠ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٦٠

شالون ، موقعة ؛ ٢٩ ، ٨٤

الشام ؛ ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٥٧ ، ٧٢ ، ٩٣ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٣٠ ، ٢٦٠ ، ٣١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٥٤٤

شبه الجزيرة الإسبانية ، انظر إسبانيا

شبه الجزيرة العربية ؛ ٦٩ ، ١٤١ ، ٢٠٥

شذونة ؛ ٤٢ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٢ – ١٦٤ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٦٥٤

شذونة ، موقعة ؛ ٤٦

شرطانية ؛ ١٨٦ ، ٤١٧

الشرق ؛ ٩٩ ، ١١١ ، ٢٣٤

شرنبة ؛ ٦٤٦

شريش ؛ ٤٣ ، ٧٠ ، ٣١١ ، ٦٦٤ ، ٦٧٠

شريش ، موقعة ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠

شقندة ؛ ١٣١ ، ١٣٥ ، ٢٤٣ ، ٣٢٤ ، ٦٥٣

شقوبية ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٩١

شلب ؛ ٢٨٤

شلمنقة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٤٢٠ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٤١ ، ٥٩٨

شميط ؛ ٣٤١

شنت إشتيبن ، موقعة ؛ ٣٩٥ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤

شنت برية ؛ ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٣٩٠ ، ٤٠٠

شنترين ؛ ٤٠٩ ، ٥٠٣ ، ٥٦٤

شنتمرية الغرب ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٩

شنت منكش ، وموقعة ؛ ٣٦١ ، ٤١٨ – ٤٢٠ ، ٥٤١ ، ٥٧٣ ، ٥٩٨

شنت ياقب ؛ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ، ٥٤٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٧٣ ، ٥٨٩ ، ٥٩٩ ، ٦٠٥

شنت ياقب ، غزوة ؛ ٥٦١

شنت يوانش ؛ ٦١٢

صانص ؛ ٨٢ ، ٩٠

الصخرة ؛ ١١٤ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٨

الصخرة ، موقعة ؛ ٣٥٤

صقلية ؛ ٢١ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ٣٥٩

طبنة ؛ ٧٠٢

طرابلس ؛ ١٥ ، ١٦ ، ١١٩ ، ١٥٠

طرسونة ؛ ٢٦٥ ، ٣٤١ ، ٤٠٢

طرش ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٣٧٧

طرطوشة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ٢٠٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٦٥ ، ٢٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٦٥ ، ٦٤٨ ، ٦٦٠

طرف الغار ؛ ٤٤

طركونة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ٢٠٠ ، ٢٣٥ ، ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٦٧٦

طريانة ؛ ٦٧١

طشانة ؛ ٦٧١

طلبيرة ؛ ١٢٣ ، ٢٣٩ ، ٢٩٤ ، ٣١٨ ، ٣٤٥ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧

طنجير ؛ ٣٨٧
طلياطة ؛ ٢٦٣
طليطلة ؛ ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٥٠ — ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ — ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ — ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ — ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٨٦ ، ٥٢٩ ، ٥٤٩ ، ٥٦٤ ، ٥٩٠ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٢ ، ٦٢٩ ، ٦٣٦ ، ٦٤٦ — ٦٤٨ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٩٢ ، ٦٩٧
طنجة ؛ ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ٤٠٤ ، ٤٢٥ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٥٤٦ ، ٥٥٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٦٤ ، ٦٨٧
طولون ؛ ٤٦٩
العامرية ؛ ٥٧٥
عدوة المغرب ، العدوة ؛ ٢٣١ ، ٢٤٥ ، ٢٦٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٧٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ — ٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥٣٨ ، ٥٤٦ ، ٥٧٠ ، ٦٠٧ — ٦٠٩ ، ٦٢٨ ، ٦٧٥ — ٦٧٧ ، ٦٨٨
العراق ؛ ٢٤ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ١١٨ ، ١٤٥ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤
عقبة البقر ؛ ٦٤٨
العليا ؛ ١٤٩
عين التمر ، موقعة ؛ ٢٣
غاليس (غاليا) ؛ ١٧ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ — ٤٧٦ ، ٦٨٠
الغرب ؛ ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٦١ ، ١٩٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٣٠٦ ، ٣٢٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩ ،
الغرب ، ولاية ؛ ٤٨٨ ، ٤٨٩
غرناطة ؛ ٥٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٧٦ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦

ف ـ ك ـ ق

فارس ؛ ٧٢ ، ١٤٠ ، ١٤٥
فاس ؛ ٤٢٧ ، ٤٩٢ ، ٤٩٧ ، ٥٤٥ — ٥٤٧ ، ٥٥٨
ڤالانس ؛ ١١٥ ، ٢٩٧
ڤاليه ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠
فج سراج ؛ ٤١٦
فج المركور ؛ ٢٩٩
فحص أندوجر ؛ ٢٩٢
فحص البلوط ؛ ٣١١
فحص سراج ؛ ٤١٦
فحص السرادق ؛ ٦٤٦
فحص مهران ؛ ٤٩٥
فحص الناعورة ؛ ٥٩٨
فراشنديلوم ؛ ٤٧١
فرتش ؛ ٣٤١
فرنسا ؛ ١٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ — ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٥٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ — ٤٧٩
الفرنتيرة ؛ ٤١ ، ٤٢ ، ٧١ ، ٢٠٦
فريجوس ؛ ٤٦٩
فريزيا ؛ ٨٠ ، ١١٤
الفسطاط ؛ ٥٧
ڤڤييه ؛ ١١٥
ڤلاندر ؛ ٧٧
فلسطين ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٤٦ ، ١٥٠
فناء النارنج ؛ ٢٧٩
فنجيط ؛ ٢٣٣
ڤيل دني ؛ ٢٢٧
قابس ؛ ٢٢ ، ١٢٠
قادس ؛ ٢٦٣

قاسترو مورش ؛ انظر حصن شنت اشتبين
القاهرة ؛ ٥٠٥
قبرس ؛ ٢٣
القبر المقدس ؛ ٢٣٤
قبر القديس ياقب ؛ ٥٦٠
قبر المنصور ؛ ٥٦٧
قبره ؛ ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨
قرجيطة ؛ ٥٦١
قرطاجة القديمة : ١٦ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٤٣٧
قرطاجنة الأندلس ؛ ١٠ ، ١٣٢ ، ٢٠٠
قرطبة ؛ ٣٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٣ ،
٦٤ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ١١٣ ،
١١٦ ، ١٢٣ — ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ،
١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ —
١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،
٢٠٦ ، ٢٢٤ — ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،
٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ — ٢٤٤ ،
٢٤٧ ، ٢٥٥ — ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
٢٦٧ — ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ،
٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ —
٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ — ٣٠٥ ،
٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ —
٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ —
٣٣٩ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ — ٣٨٦ ، ٣٨٩ —
٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ،
٤٢٠ — ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،
٤٣٥ — ٤٣٨ ، ٤٤٠ — ٤٤٢ ، ٤٤٧ ،
٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،
٤٥٩ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٥ ،
٤٨٧ ، ٤٨٨ — ٤٩٠ ، ٤٩٨ — ٥٠٠ ،
٥٠٢ — ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ — ٥١٦ ،
٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٥ —
٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ،
٥٥٢ ، ٥٥٥ — ٥٥٧ ، ٥٥٩ — ٥٦١ ،
٥٦٧ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٠ ،
٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦٠٧ —
٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٤ ،
٦٢٥ ، ٦٢٩ — ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ —
٦٣٨ ، ٦٤٣ — ٦٥٤ ، ٦٥٧ — ٦٦٤ ،
٦٦٧ — ٦٧٠ ، ٦٨٢ — ٦٨٥ ، ٦٨٩ —
٦٩٤ ، ٦٩٦ — ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٣
قرطبة القديمة ؛ ٤٤٢
قرقشونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ،
١٠٤ ، ١٣٣ ، ٢٢٧
قرمونة ؛ ٥٢ ، ١١٦ ، ١٦٢ ، ٢٧٧ ،
٣١١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ،
٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥
قسطلونة ؛ ١٩٠
قسطنطينية ؛ ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٥٤ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ٩٣ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ،
٢٨٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،
٤٥٦ ، ٤٥٧
قشتالة ؛ ٥١ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٦٤ ،
٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤١٥ ،
٤١٧ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٩ ،
٥٠٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ ،
٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ — ٥٦٤ ، ٥٦٧ ،
٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ — ٥٩٤ ،
٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦١٥
قصر أبي دانس ؛ ٤٨٨ ، ٥٥٩
القصر الزاهر ؛ ٤٣٥
قصر الزاهرة ؛ ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٨٤ ، ٦١٠ ،
٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٩ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ، ٦٣٢
قصر الزهراء ؛ ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ،
٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٠ ،
٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ،
٥٩٤
قصر الفاتيكان ؛ ٤٣٩
قصر قرطبة ؛ ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ٢٤٤ ،
٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٣٣ ، ٣٥٢ ،
٣٧٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤١٣ ،
٤١٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ ،
٤٨٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ،
٥١٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٤٠ ،

٥٥٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٥٣ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩
قصر مدينة سالم : ٥٦٦
قصر مصمودة ؛ ٤٩٦
القصر المؤنس ؛ ٤٤٣
قصر ناصح ؛ ٦١٤ ، ٦٢٤
قطاونية : ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٣٤٣ ، ٤٥٧ ، ٥٤٤
قفصة ؛ ١٦
قلعة ألانية (الحنش) ؛ ٣٠٤ ، ٣٩٣
قلعة أوبيدو ؛ ٣٥٩
قلعة أيوب ؛ ٣٤١ ، ٤٠٦ — ٤٠٨
قلعة بيشتر ؛ ٦٧٢
قلعة جلمانية ؛ ٣٠٤
قلعة حجر النسر ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧
قلعة رباح ؛ ١٩٠ ، ٢٥٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٧٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٦ ، ٦٤٦ ، ٦٦٢
قلعة رعواق ؛ ١٦٣
قلعة شنت منكش ؛ ٥٤١
قلعة ماردة ؛ ١٢٥
قلعة مزورتة ؛ ٤٠٣
قلعة مويش ؛ ٣٩٧
قلعة النسور ، ومورقة ؛ ٥٦٤ ، ٥٦٥
قلعة هنارس ؛ ٦٤٦
قلمرية ؛ ٧٠ ، ٧٥ ، ٢٤١ ، ٣٠٥ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٤١٧ ، ٥٤٧ ، ٥٦٠ ، ٥٧٣ ، ٥٩٧
قلهرة ؛ ٢٣١ ، ٢٩٨ ، ٣٥٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٨٧
قلورية ؛ ٤٢٧
قلونية ؛ ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٥٥١ ، ٦١٥ ، ٦٥١
قليانة ؛ ٤١٦
قمارش ؛ ٦٧٢
قناليش ؛ ٥٦٣
قنسرين ؛ ٧٠ ، ١٤٩
قنطرة استجة ؛ ٥٧٧
قنطرة قرطبة ؛ ٧٥ ، ٢٢٨ ، ٢٧٨ ، ٥١١ ، ٥٧٦
قورسقة ؛ ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٥
قورية ؛ ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٩٠ ، ٢٥٧ ، ٣٥٨ ، ٥٦٠
قونقة ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ٣٠٧
القيروان ؛ ٢٠ — ٢٢ ، ٨٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٦٢ ، ٤٩٩
كاماراج ؛ ٤٧٨
كانتابريا ؛ ١٣٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٣٦١ ، ٧٠٠
كانجاس ؛ ٢١٨
كتدرائية شنت ياقب ؛ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٣٦١ ، ٥٦٠
كربلاء ؛ ١٢٧
كرونية ؛ ٥٦١
كلاڤينجو ؛ ٣٥٦
كلونية ؛ ٨٠
كوفادنجا ؛ ٢١٠ ، ٢١١
الكوفة ؛ ١٢٧ ، ١٤٣ — ١٤٥
كويانسا ؛ ٥٧٣

ل — ى

لاردة ؛ ١٣٣ ، ٢٣٥ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٤١٠ ، ٦١٠ ، ٦٦٨
لامبجو ؛ ٥٦١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
لبلة ؛ ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٣٣٠ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٥٢٢ ، ٦٦٩
لزمة ؛ ٤٠٣
لقنت ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ١٦٠
لك ؛ ٧٠ ، ٢١٥ ، ٣٥٥
لوجدانيا ؛ ١٣٢
لوديف ؛ ٧٠
لورقة ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٩٩ ، ٥٤٣ ، ٦٩٠
لوزيتانيا ؛ ٧٠ ، وانظر البرتغال
لوس بانيوس ؛ ٥٢٧
لوشة ؛ ٣٢٠
لوطون (ليون فرنسا) ؛ ٥٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ١٠٥ ، ١١٥
لونة ؛ ٦١٢
ليجوريا ؛ ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧١
ليون ، مدينة ؛ ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،

٣٦١ ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨ ،
٥٥٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ، ٥٨٩ ،
٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ،
ليون ، القطر ؛ ٥١ ، ٧٥ ، ١٦٩ ، ٢٦٥ ،
٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ،
٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٥٩ ،
٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ،
٥٩٧
ماجلون ؛ ٧٠ ، ١١٥ ، ١٣٣
ماردة ؛ ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،
١٣٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨٢ ،
٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٣٩ ، ٣٥٨ ،
٣٩٣ ، ٥٦٤
ماسون ؛ ٨٤ ، ٨٥
مالقة ؛ ٥٠ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٠٧ ،
٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ،
٦٦٢ — ٦٦٤ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ ،
٦٧١ ، ٦٧٢ — ٦٧٦ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠
متز ؛ ١٧١
المجلس الزاهر ؛ ٤٥٣
المجلس الشرقي ؛ ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥١٣
مخارس ؛ ٤١٦
مخاضة الفتح ؛ ١٩٠
مدلين ؛ ١٦٥
مدينة الباب ؛ ٨٨
المدينة ، موقعة ؛ ٣٢٨
مدينة سالم ؛ ٢٥٦ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٥٤ ،
٣٥٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٢٢ ، ٤٨٥ ،
٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٢٨ ، ٥٣٧ ،
٥٣٨ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ — ٥٦٧ ، ٦٠٧ ،
٦٠٩ ، ٦١٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨
مدينة الفرج ؛ انظر وادى الحجارة
المدينة المنورة ؛ ١٤١ ، ٢٢٩
مربلة ؛ ٦٤٩
مرتش ؛ ٢٧٢
مرج راهط ، موقعة ؛ ١٥٤
مرسيليا ؛ ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤
مرسية ؛ ٥٠ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣٩٩ ،
٤٣٠ ، ٥٤٣ ، ٦٥٨
مرو ؛ ١٤٤ ، ١٤٥
المسارة ، موقعة ؛ ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،
١٦٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٦٨١
مسجد أبي هرون ؛ ٤٢٥
مسجد بيشتر ؛ ٣٨٦
مسجد الزاهرة ؛ ٥٣٥ ، ٥٧٩ ، ٧٠٤
مسجد الزهراء ؛ ٤٣٨ — ٤٤٠
مسجد سرقسطة ؛ ٤١١
مسنيط ؛ ٤٠٤
المسيلة ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤
المشرق ؛ ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٢ ،
٩٣ ، ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ — ١٤٨ ،
١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ،
٢٣٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ — ٢٨٣ ؛
٣١٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٧٨ ، ٤٩٩ ،
٥٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٤ ، ٦٩٢ ، ٦٩٤ ،
٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٤
مصر ؛ ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ — ٢٥ ؛
٧٢ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ،
١٤٦ ، ١٥٠ ، ٢٤٥ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩ ،
٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٩
مطونية ؛ ٣٩٦
المغرب ؛ ٢٠ — ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤١ ،
٥٤ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٣١ ،
١٤٢ ، ١٥٠ ، ٩٧٠ ، ٢٤١ ، ٢٨١ ،
٣١٤ ، ٣٣٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،
٤٣٩ ، ٤٩٢ — ٤٩٤ ، ٤٩٦ — ٤٩٩ ،
٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥٤٤ — ٥٤٨ ، ٥٥٥ ،
٥٥٧ — ٥٥٩ ، ٥٧٠ ، ٦٠٩ ، ٦٥٦ ،
٦٦٤ ، ٦٧٧ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٧٠٢
المغرب الأقصى ؛ ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٨ ،
٤١ ، ٦٦ ، ١١٨ — ١٢٠ ، ١٥١ ،
٤٠١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٥٦ ، ٤٨٨ ،
٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٤٤ —
٥٤٧ ، ٦٥٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠
المغرب الأوسط ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٤٧
المكتبة الأموية ؛ ٢٨٢ ، ٥٠٤ — ٥٠٦ ،
٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٨٠ ، ٧٠١
مكناسة ؛ ١٦٤ ، ٥٥٧
مكة ؛ ٦٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٣
ملقون ؛ ٤١٦

مليلة ؛ ٤٢٦ ، ٥٤٧ ، ٦٧٥
منزل هانئ ؛ ٦٣٦
المنكب ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٦٥٩
منورقة ، جزيرة ؛ ٢٥ ، ٢٦٢
منية جعفر ؛ ٦٢٤
منية العقاب ؛ ٦٤٧
منية كنتش ؛ ٣١٥
منية ناصح ؛ ٥٠٩
منية الناعورة ؛ ٥٠٩
منية نصر ؛ ٤١٦
مورور ؛ ٣١١ ، ٦٥٤
الموصل ؛ ١٤٥
مون سنى ؛ ٤٦٨
مونسراتو ؛ ٤٦٩
المهدية : ٦٩٩
ميرانده ؛ ٣٩١
ميرتلة ؛ ٣٣٠
ميزيا ؛ ٢٨
ميورقة ، جزيرة ؛ ٢٥ ، ٢٦٥ ، ٥١١
ناجرة ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٥٦٣ ، ٥٩٩
نافار (نبرة) ؛ ٧٤ ، ٢١٠ ، ٣٠١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٥٣١ . ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٨٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦١٢
نكور ؛ ٤٢٦
نهر أرون ؛ ٢٤٢
نهر الإيزر ؛ ٤٧٠
نهر بارباتى ؛ ٤٢ ، ٤٤
نهر بارسياس ؛ ٣٥٥
نهر بو ؛ ٤٧١
نهر التاجه ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٢٤١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩٣ ، ٤١٣
نهر التيمز ؛ ٩١
نهر الجارون ؛ ٢٩ ، ٧٤ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٦٢
نهر الدانوب ؛ ٢٨ ، ٣٠ ، ٥٣ ، ٢٤٩
نهر دجلة ؛ ١٤٥
نهر دويرة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢١٣ — ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٤١ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٨٧ ، ٥٠١ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٧٣ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦٧٦
نهر الرون ؛ ٥٣ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٣ ، ٢٩٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ — ٤٦٧
نهر الرين ؛ ٧٧ ، ٧٨ ، ٩١ ، ١٦٥ ، ١٧١ ، ١٧٦
نهر الزاب ؛ ١٤٥
نهر شلب ؛ ٤٨٨
نهر شنت مانكش ؛ ٤١٥
نهر شنيل ؛ ٣٢٣ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧
نهر الفرات ؛ ٩١ ، ١٤٥ ، ١٥٠
نهر الفوشكة ؛ ٣٢٥
نهر الڤين ؛ ٩٩ ، ١٠٠
نهر الكريز ؛ ٩٩
نهر الكاين ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٥
نهر اللوار ؛ ٢٩ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ٢٦٢ ، ٤٦٦
نهر الموزل ؛ ٧٧
نهر منهو ؛ ٣١١ ، ٥٦٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
نهر النيل ؛ ٩١
نهر نيبى ؛ ٢٢
نهر الوادى الكبير ؛ ٧٠ ، ٧٥ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٩٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٢٥ ، ٤٤٢ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥١١ ، ٥٣٥ ، ٥٧٦ ، ٦٣٢ ، ٦٨٧
نهر وادى لكه ؛ ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٢٧
نهر وادى ياره ؛ ٥٢١ ، ٦٤٩
نهر وادى يانة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٦٥٨
نوسترﻳﺎ ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦
نيس ؛ ٤٧٠
نيسابور ؛ ١٤٥
نوماثيا ؛ ٥٦٤
نيمة ؛ ٧٠ ، ٧٤ ، ١١٥ ، ١٣٣ ، ٦٩٧
همذان ؛ ٤٠

وادى الأحمر ؛ ١٩٠

وادى آش ؛ ٢٠٤ ، ٣٣٦ ، ٣٧٦ ، ٦٦٠

وادى بلون ؛ ٣٣٨

وادى الحجارة ؛ ١٣٢ ، ٢٠٦ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ، ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٥٢٨ ، ٥٤٩

وادى الرون ؛ ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٠٥

وادى زارات ؛ ٥٥٧

وادى سبسر ؛ ١٢٠

وادى سلف ؛ ١١٩

وادى سليط ، وموقة ؛ ١٢٤ ، ٢٩٣ ، ٣٥٦

وادى قيس ؛ ١٦٠

وادى ملوية ؛ ٤٩٣

وادى منبس ؛ ١٦٦

وادى منى ؛ ٥٥٧ ، ٥٥٨

وبذة ؛ ٣٤٠

وجدة ؛ ٥٤٧

وشقة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٤٠٧ ، ٤٨٧ ، ٦١٢

وستفاليا ؛ ١٦٩

يابرة ؛ ٧٠ ، ٣٩٢

اليمن ؛ ٧٠

اليتركرين ؛ ٢٨

اليونان ؛ ٢٨

فهرست الأعلام

— ا —

أبان بن عبد الله ؛ ٣٣٦ ، ٣٣٨
أبدال ؛ ١٧٢ ، ١٧٥
إبراهيم الإمام ؛ ١٤٣ — ١٤٥
إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٣١ — ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧
إبراهيم بن شجرة ؛ ١٨٦
إبراهيم بن عثمان بن بشار ؛ انظر أبو مسلم .
أبلو ، الكونت ؛ ٢٥٦
ابن الأبار القضاعي ؛ ٤٦٠ ، ٥١١ ، ٦٩٦
ابن أبي عمروس العريف ؛ ٥١٢
ابن أبي يزيد المصر ؛ ٦٢٨
ابن الأثير ؛ ٤٨ ، ١٠٦ ، ١٤٩ ، ٢١٥ ، ٣٢٢ ، ٤٦٣ ، ٥٨٤
ابن الأغلب ؛ ٢٣١ ، ٣١٨
ابن التيانى النديم ؛ ٥٧٩
ابن الحبحاب ، عبيد الله ؛ ١٠٦ — ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٧ — ١١٩
ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ٣٤٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ ، ٥١٩ ، ٥٢٥ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٨٥ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٥٧
ابن الزبير ، عبد الله ؛ ١٩ ، ٢١ ، ١٥٤
ابن الطربيشة ؛ ٣٤٠
ابن العراف النديم ؛ ٥٧٩
ابن الفرضى ؛ ١٢٩
ابن القط ، أحمد بن معاوية ؛ ٣٤٥ ، ٣٦٠
ابن القوطية ، أبو بكر ؛ ٦١ ، ١٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٧٥ ، ٣٢١ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، **٧٠٠** ، ٧٠١
ابن بسام ؛ ٦٥٤ ، ٦٦٦ ، **٦٩٥**
ابن بشكوال ؛ ١٠٨
ابن بقنة ، أبو جعفر ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣
ابن جلجل ، سليمان بن حسان ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
ابن حزم ، أحمد بن سعيد الوزير ؛ ٤٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٥٣ ، **٥٧٤** ، ٦٣٥
ابن حزم ، الفيلسوف ؛ ١٢٩ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٣٢١ ، **٣٤٩** ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٥٣ ، ٦٥٧ ، **٦٦٣** ، ٦٦٥ ، ٦٦٧ ، ٦٩٤ ، ٧٠٤
ابن حمدون ؛ ٣٠٩
ابن حوقل ؛ ٤٣٩ ، ٤٤٧
ابن حيان ؛ ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٩٩ ، ٢٤١ ، ٢٦٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٢٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ — ٣٥١ ، ٣٧٨ ، **٣٩٥** ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٧١ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٥ ، ٦٠٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٨٦
ابن خطاب (أحمد بن عبد الرحمن) ؛ ٥٤٣
ابن خلدون ؛ ١٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٦٨٩ ، ٦٩ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٤٩ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٣٣١ ، ٤٦١ ، ٤٨٧ ، ٥٣١ ، ٥٤٠
ابن خلكان ؛ ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٤٩
ابن دحية البلنسي ؛ ٢٨٤ ، ٢٨٥
ابن دراج القسطلي ؛ ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٦١٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٩ ، ٧٠٤
ابن ذكوان ، أبو العباس ؛ ٥٨٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٦ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ ، ٦٥٣
ابن راشد ؛ ٣٩٣
ابن ذرى الحاجب ؛ ٦٣٧
ابن زيان ؛ ٨٨
ابن زيدون ؛ ٤٤٠

ابن سالم ؛ ٢٩٩
ابن شاكر ؛ ٣٠٠
ابن شكوح ، أمير البحر ؛ ٢٩٦
ابن عبد البر ؛ ٢٩١
ابن عبد الحكم ؛ ٤٧ ، ٥٧ ، ٣٠٧
ابن عبد ربه ، أبو عمر ؛ ٢٢٤ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٦٢ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠
ابن عربي ، محيي الدين ؛ ٤٤١
ابن عذارى المراكشي ؛ ١٠٧ ، ٦٥٧
ابن عطاف ؛ ٣٧٦
ابن عياش ، أبو عبد الله ؛ ٥٥٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥
ابن غالب ؛ ٢٠٤
ابن غومس ؛ ٦٣٧
ابن محمد القاضي ؛ ٤٥٠
ابن مسرة الجبلي ؛ ٤٣٠–٤٣٢،٤٣٤،٦٩٨ – ٧٠٠ ، ٧٠٤
ابن مناو ؛ ٦٥١ ، ٦٥٢
ابن ميمون ؛ ٢٠٦
ابن هبيرة ؛ ١٤٥
ابن وضاح ؛ ٤٣١
ابن وليد الكلبي ؛ ٤٧٤
ابن يحيى أمير سرقسطة ؛ ٤١٩ ، ٤٢٠
ابن يصل ؛ ٤٢٦
أبو الاصبغ موسى بن خطاب ؛ ٥٤٣
أبو الخطار الكلبي (حسام بن ضرار) ؛ ٦١ ، ١٢٥ – ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٦٨١
أبو الشماخ زعيم اليمنية ؛ ٢٥٤
أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ؛ ١٥٣ ، ١٦٤ – ١٦٦ ، ١٩٤
أبو العيش بن أيوب ؛ ٤٩٧
أبو العيش الحسني ؛ ٤٢٦
أبو الفتوح بن ناصر ؛ ٦٤٤
أبو الفرج الأصفهاني ؛ ٥٠٥
أبو القاسم بن يوسف الفهري ؛ ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٩٠
أبو المطرف بن عون الله ؛ ٦١٣
أبو المهاجر الأنصاري ؛ ٢٠
أبو بكر الأبهري ؛ ٥٠٥
أبو بكر الزبيدي : ٥٠٣ ، ٥٨٠
أبو بكر بن معاوية القرشي ؛ ٥٠٧،٥٢١،٧٠١
أبو ثور بن قسي ؛ ١٧٤ ، ٢٢٧
أبو جعفر المنصور ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٦١ – ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٣٤ ، ٢٥٠
أبو حفص البلوطي : ٢٤٥ ، ٢٨٢
أبو صفوان ، حاكم سرقسطة ؛ ٢٣٢
أبو عامر بن شهيد ؛ ٦٦٥
أبو عثمان : أنظر عبيد الله بن عثمان
أبو علي القالي ؛ ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٥٧٩ ، ٧٠١
أبو عمر بن أبي عمر ؛ ٤٠٧
أبو عون عبد الملك بن يزيد ؛ ١٤٥
أبو كعب بن عبد البر ؛ ٢٣٦
أبو مسلم الخراساني ؛ ١٤٣ – ١٤٦
أبو نصر الرامي ؛ ٣٨٥
أبو نور بن أبي قرة اليفرني ؛ ٦٧٤ ، ٦٧٥
أبو هاشم عبد الله ؛ ١٤٣
أبو يحيى التجيبي (الأنقر) : ٣٤٠ ، ٣٤١
أناناجلد بن تيودمير ؛ ١٢٦
أتيلا التتري ؛ ٢٩
أجنهارت ؛ ١٧٢ ، ١٨١
أچيكا ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
أحمد بن أحمد بن بقي بن مخلد ؛ ٤٢٩
أحمد بن اسحاق القرشي ؛ ٣٨٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩
أحمد بن الأسعد ؛ ٤٩١
أحمد بن البراء ؛ ٣٤١
أحمد بن برد (أبوحفص) ؛ ٦١٠ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦٣ ، ٦٦٥
أحمد بن خالد بن أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٤٦١
أحمد بن زياد اللخمي ؛ ٣٧٤
أحمد بن سهل بن محمد ؛ ٤٦١
أحمد بن عباس ؛ ٦٧٢
أحمد بن عبد الله (عم الناصر) ؛ ٣٨٤
أحمد بن عبد الله (عامل ريه) ؛ ٣٠٨

أحمد بن عبد ربه ؛ أنظر ابن عبد ربه
أحمد بن عبد الملك بن شهيد ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٥١١
أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ؛ ٤٦٢
أحمد بن عيسى بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧ ، ٣٨٦
أحمد بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٢٤ ، ٣٣٦ — ٣٣٨ ، ٣٧٩ ، ٣٩٤ ، ٤١٥ ، ٤٦٠
أحمد بن محمد بن إلياس ؛ ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
أحمد بن محمد بن حدير ؛ ٣٧٤ ، ٣٨٦ — ٣٨٨ ، ٣٩٩ ، ٤٤٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٩ ، ٥٧٤ ، ٦٨٥
أحمد بن محمد الرازي ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٧٠٠
أحمد بن محمد بن زياد ؛ ٣٧٨ ، ٤٦١
أحمد بن محمد ين عيسى ؛ ٤٦١
أحمد بن محمد القسطلي ؛ ٥٠٣
أحمد بن مسلمة ؛ ٣٧٧
أحمد بن موسى ؛ ٦٦٨
أحمد بن موسى العروى ، ٧٠١
أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ؛ ٣٣٢ ، ٣٣٨
أحمد بن يعلى ؛ ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٥٩٣
أدريان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
إدريس بن إدريس الحسنى ؛ ٢٤١
إدريس بن عبد الله بن الحسن ؛ ٦٥٧
إدريس بن على بن حمود المتأيد ؛ ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٢
إدريس بن يحيى المعتلى (العالى) ٦٧١، ٦٧٣—٦٧٥
إدريس بن يحيى بن أدريس (السامى) ؛ ٦٧٥
الإدريسى ، الشريف ؛ ٤٨ ، ٤٩ ، ٤٤١
أدلبرت ؛ ٤٧٣
إديكو ؛ ٤١
أرخنتا بنت عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٢٨٧
أردونيو الأول (ملك ليون) ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٧ — ٢٩٩ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢
أردونيو الثانى ؛ ٢٩٢ — ٢٩٨ ، ٤٠٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩١
أردونيو الثالث ؛ ٤٥٩ ، ٤٨٤ — ٤٨٦ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
أرد نيو الرابع ؛ ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧
أرذبلش الوياحى ؛ ٣٧٥
أرمانيوس (ومانوس) ، القيصر ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
أرموزندة ؛ ٢١٣
أرمنجو ، الكونت ؛ ٦٤٨
أرميخو الأسقف ؛ ٣٩٧
أرنولد ؛ ١١٠
أروزندا ؛ ٢١٨ ، ٢١٩
أزنار ؛ ٢٥٦
ازوار ؛ ٣٦٢
اسحاق الموصلى ؛ ٢٨١
اسحاق بن إبراهيم ؛ ٣٣٠
اسحاق بن محمد البرزالى ؛ ٦٧٥
اسحاق بن محمد القرشى ؛ ٣٧٩
اسحاق بن المنذر ؛ ٢٥١
أسد بن الحرث ؛ ٣٠٧
اسكندر سيڤروس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
أسلم بن عبد العزيز بن هشام ؛ ٤٦١
أسماء بنت غالب ؛ ٥٢٩
إسماعيل بن بدر ؛ ٤٠٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٨
إسماعيل بن الحبحاب ؛ ١١٩
إسماعيل بن عباد ؛ ٦٧٠ ، ٦٧٢
إسماعيل بن عبيد الله ؛ ١١٩
إسماعيل بن لب ؛ ٢٩٩
إسماعيل بن موسى بن ذي النون ؛ ٢٦٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ — ٣٠٣
أسنار ، الكونت ؛ ٣٤٣
آسورفرناندز ؛ ٥٩١
اصبغ بن سلمة ؛ ٦١١
أصبغ بن عبد الله بن وانسوس ؛ ٢٣٧
الأصمعى ؛ ٦٩٣
الأصيلى ؛ ٥٨٠
أغلب بن شعيب ؛ ٦٩٦
أفلح الصقلبى ، الوصيف ؛ ٣٤٨
أفلح صاحب الخيل ؛ ٤٥١ ، ٥٠٠
أفلح الفتى ، حاكم المرية ؛ ٦٥٨
ألاريك ؛ ٢٨ — ٣٠ ، ٤٤ ، ٧٨
ألبرو القرطبى ؛ ٢٦٩ ، ٢٧١
إلبيرة ، الراهبة ؛ ٤٨٩ — ٤٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧

إلبيرة ، والدة ألفونسو الخامس ؛ ٢١١
ألتاميرا ، افائيل ؛ ٦٦ ، ٧٤ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٧٠
ألفايدة ؛ ٨٠
ألفونسو ، أمير ليون ؛ ١٦٩
ألفونسو الأ ل ، دوق كانتبريا ؛ ١٣٨ ، ١٦٩ ، ٢١٣ — ٢١٥ ، ٢١٨ — ٢٢٠ ، ٣٥٤
ألفونسو الثانى ، العفيف ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٣٥٣ — ٣٥٥
ألفونسو الثالث الكبير ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٢ — ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ — ٣٦١ ، ٣٩١
ألفونسو الرابع ؛ ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣
ألفونسو الخامس ؛ ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٩٩ ، ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦٢٩
ألفونسو العالم (العاشر) ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٩٩
ألفونسو القس (جد ابن حفصون) ٣٠٨
الإقطاع ؛ ١٩٤
أم الأصبغ أخت عبد الرحمن ؛ ١٥٠
أم الحكم بنت المستعين : ٦٦٦
أمية بن اسحاق ؛ ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢١
أمية بن الحكم ؛ ٢٥٨
أمية بن عبد الرحمن ؛ ٢٣٧
أمية بن عبد الرحمن العراق ؛ ٦٦٩
أمية بن عبد الغافر بن أبى عبدة ؛ ٣٣١ ، ٣٣٢
أمية بن عبد الملك بن قطن ؛ ١٢٣ — ١٢٦ ، ١٦٢
أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٣١٣
أمية بن معاوية بن هشام ؛ ٢٥٦
آنزيموند ، الكونت ؛ ١٣٣ ، ١٣٧
أنسلم ؛ ١٨١
أنشودة رولان ؛ ١٧٨ ، ١٨٠ — ١٨٢
أنجه الفرنجى ؛ ٤٢١
أنجو أريستا ؛ ٣٦٢
أوباس ؛ ٣٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٢١١
أوتو الأكبر ؛ ٤٥٦ — ٤٥٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٩١
أوتو الثانى ؛ ٤٩١
أودارادو ؛ ٥٤٤
أودو ، أمير أكوتين ؛ ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ — ٩٠ ، ٩٦ — ٩٨ ، ١٠١ — ١٠٣ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٣ — ١١٥ ، ١٣٧
أوراكا ابنة طوطة ملكة نافار ؛ ٥٩٢ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
أوراكا بنت فرنان كونثالث ؛ ٥٩١ ، ٥٩٣
أورسيوس المؤرخ ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥
أورليوس ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠
أورية بنت موسى القسوى ؛ ٣٠٠
الاوزاعى ، الإمام ؛ ٢٢٩
أوغسطوس ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
أوليڤر ؛ ١٨١ ، ١٨٢
أولولنخيو ، سان ؛ ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣
إيجلونا ؛ ٧١ ، ٧٢
ايجهارد ؛ ١٨١
إيزيدور الباجى ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٢٠٩
إيڤا ؛ ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٦١
إيمون ؛ ٤٧١
أيوب بن حبيب اللخمى ؛ ٧٣ ، ٦٨٠
أيوب بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣

ب — ت — ث

باديس بن حبوس ؛ ٥٠٧ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٤ — ٦٧٦
باسيه ، المستشرق ؛ ١٨٢
ببين القصير ، الملك ؛ ١٣٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٦٦
ببين دى هرشتال ، محافظ القصر ؛ ٨٠
ببين بن شارلمان ؛ ٤٦٦
بتروس ، الدوق ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣
بدر الصقلبى ؛ ٣٤٧
بدو القائد ؛ ٢١٨
بدر مولى عبد الرحمن الداخل ؛ ١٥٠ — ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٦

بدر بن أحمد الحاجب ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦١
برت ، ملكة برجونية ؛ ٤٦٥
برمودو بن فرويلا ؛ ٢٢٠ ، ٢٢٦
برمودو الثانى ؛ ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ — ٥٦٥ ، ٥٨٣ ، ٥٩٨
برنار ، القديس ؛ ٤٧٣
برنهارت ؛ ٢٥٧
بريهة بنت يحيى ، أم المنصور ؛ ٥٢١
بسيل الثانى ، القيصر ؛ ٦١٣
بشر بن صفوان الكلبى ؛ ٨٢ ، ٨٣
بشر بن مروان ؛ ٢٣ ، ٢٤
بشرى العامرى ، الفتى ؛ ٦٣٠
بطرس ، ملك الصقالبة ؛ ٤٥٦
بقى بن مخلد ؛ ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٥١ ، ٦٨٥ ، ٦٩٤
بكر بن وائل ؛ ٢٣
بكر بن يحيى بن بكر ؛ ٣٣٠
بكير بن ماهان ؛ ١٤٣
بلاجيوس ، دوق كانتبريا ؛ ٣٣
البلاذرى ؛ ٤٨ ، ١٠٦
بلايو (أو بلاجيوس) ؛ ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ — ٢١٣
بلايو بن برمودو ؛ ٥٦١
بلايو ، القديس ؛ ٥٩٦
بلج بن بشر القشيرى ؛ ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ٦٨٧
بلقين بن جيوس ؛ ٦٧١
بلكترود ؛ ٨٠
بلكين بن زيرى بن مناد ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩ ، ٥٤٥
بليزاريوس ؛ ١٨
بليط الفرنجى ؛ ٤٠٤
بليق الغلام ؛ ٦٤٦
بهار ، الجارية ؛ ٣٢٢
بهلول بن مروان ؛ ٢٣١
بهير ، الجارية ؛ ٢٨٩
بوبون ؛ ٤٧٣
بوريل بن سونير ، الكونت ؛ ٤٩١ ، ٤٩١ ، ٥٤٤
بوسون ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٨
بون فيلى ؛ ٤٩٢
بيدال ، المؤرخ ؛ ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ٤٩١ ، ٥٦٥ ، ٥٨٦
بيرانجيه ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٣
تاسيتوس : ٢٨
تدفيليا بن أدفونش ؛ ٢١٥
تراچان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
التروبادور ؛ ٤٧٨
تريسا بنت برمودو زوجة المنصور ؛ ٥٨٣
تريسا زوجة سانشو ملك ليون ؛ ٥٩٦
تليد الفتى ؛ ٥٠٦
تمام الفتى ؛ ٤٥١ ، ٤٥٢
تمام بن عامر الثقفى ؛ ٣١٣
تمام بن علقمة اللخمى ؛ ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٩٨ ، ٢١٦
تميم بن معبد الفهرى ؛ ١٣٥
تود ڤالد ؛ ٨٠
التيجانى ؛ ٥٧٠
تيودورا ، القيصرة ؛ ٢٨٣
تيودريك الأول ؛ ٢٩
تيودويك الثانى ؛ ٢٩
تيودريك الرابع ؛ ٩٨
تيودوفرد ، دوق ؛ ٣٣
تيودمير القوطى ؛ ٣٣ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ١٢٦
تيودمير ، أسقف إيريا ؛ ٢٤٠
تيودوسيوس ، الإمبراطور ؛ ١٧
تيوفيلوس ، القيصر ؛ ٢٨٢
ثعلبة بن سلامة الجذامى ؛ ١٢٠ ، ١٢٤ — ١٢٦
ثعلبة بن عبيد الجذامى ؛ ١٦٨ — ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩٨
ثوابة بن سلامة الجذامى ؛ ١٢٧

ج — ح — خ

جانلون ؛ ١٨١ ، ١٨٢
جاينجوس ، المستشرق ؛ ١٠ ، ٦٤

جدار بن عمرو المذحجى ؛ ١٥٢ ، ١٩٨
جريجورى الثانى ، البابا ؛ ١٠٨
جريجوريوس (جرجير) ؛ ١٦
جريمولد ؛ ٨٠
الجزية ؛ ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠
جعد بن عبد الغافر ؛ ٣٢٨ ، ٣٢٩
جعفر ، أم المؤيد ؛ راجع صبح أم المؤيد
جعفر بن دميان ؛ ٣٠٨
جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى ؛ ٥١١
جعفر بن عثمان المصحفى ؛ ٤٦٣ ، ٤٩٧ — ٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ — ٥١٢ ، ٥١٧ — ٥٢٣ ، ٥٢٦ — ٥٣١ ، ٥٦٩ ، ٦٨٤ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠
جعفر بن على بن حمدون الأندلسى ؛ ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ ، ٥٧٥ ، ٧٠٢
جعفر بن عمر بن حفصون ؛ ٣٣٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤
جعفر بن مقسم ؛ ٣٨٠
جميلة العذراء ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٨
جند سالفوس بن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠
جنسريك ؛ ١٧
جهور بن عبد الله بن أبى عبدة ؛ ٤٦١
جهور بن عبد الملك البختى ؛ ٤٦٠ ، ٤٦١
جهور بن محمد بن جهور ، أبو الحزم ؛ ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٨ ، ٦١٩
جوذر الفتى ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦
جومث بن أنطونيان ؛ ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٣١٦ ، ٦٩٥
جوند سالفوسانشيز ؛ ٥٩٦ ، ٥٩٧
جونزالفو كونثالث ؛ ٥٤٨
جوهر الصقلى ؛ ٤٩٢ ، ٦٩٩
جيبون ، إدوارد ؛ ٤٤ ، ٩١ ، ١٠٩
جيرولدوس ؛ ٤٧٣
جيوم ؛ ٤٧٣
جيوم دى تولوز ؛ ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٧
جيين دى تولوز ؛ ٢٦٥
الحاجب المنصور ؛ أنظر محمد بن أبى عامر
حارث بن بزيغ ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢

الحباب بن رواحة الزهرى ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٢
حباسة بن ماكسن ؛ ٦٥٢
حبوس بن ماكسن ؛ ٦٤٤ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ، ٦٧٣
حبيب الخصى ؛ ٢٩٠
حبيب بن أبى عبدة الفهرى ؛ ٧٢ ، ١١٨ — ١٢٠ ، ١٢٩
حبيب بن سوادة ؛ ٣٧٧ ، ٣٨١
حبيب بن عبد الملك ، ١٦١ ، ١٨٧
الحجاج الثقفى ؛ ٢٤
حذيفة بن الأحوص القيسى ؛ ٨٣
الحر بن عبد الرحمن الثقفى ؛ ٦٠ ، ٧٣ — ٧٥ ، ١٥٨ ، ٢١١ ، ٦٨٠
حزم بن وهب ؛ ٢٤٢
حسان بن حسان ؛ ٦٩٦
حسان بن مالك الكلبى ؛ ١٥٢ ، ١٩٨
حسان بن النعمان الغسانى ؛ ٢١ — ٢٥
حسداى بن اسحاق ؛ ٤٢٢
حسداى بن شبروت ؛ ٥٠٦ ، ٥١٥
الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى ؛ ٥٤٦
حسن بن عبد الغافر بن أبى عبدة ؛ ٢٧٤
الحسن بن القاسم بن حمود ؛ ٦٦٣ ، ٦٧٦
الحسن بن كنون ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ — ٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
الحسن بن على بن أبى طالب ؛ ٦٥٧
حسن بن فتح ؛ ٦١٩
حسن بن يحيى المعتلى ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ،
الحسين بن على بن أبى طالب ؛ ١٢٧ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٤
الحسين بن يحيى الأنصارى ؛ ١٧٤ — ١٧٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨
حشحاش ، أمير البحر ؛ ٢٩٦
الحصين العقيلى ؛ ١٣٣ ، ١٣٤
الحصين بن الدجن ؛ ٢١٤
حفص بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٥ — ٣٨٨
حفص بن المرة ؛ ٣٢٩ ، ٣٣٦
حكم بن حفصون ؛ ٣٨٦
حكم بن سعيد القزاز ؛ ٦٦٨ ، ٦٦٩

الحكم بن محمد ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠
الحكم بن عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٢٩٢
الحكم المستنصر ؛ ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٣ — ٤٩٠ ، ٤٩٢ — ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٢ — ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٤٤ ، ٥٦٩ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٦ ٦٨٢ — ٦٨٤ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ — ٧٠٣
حكم بن منذر ؛ ٤٠٨
الحكم بن هشام ؛ ٢٣٠ — ٢٣٣ ، ٢٣٥ — ٢٣٧ ، ٢٣٩ — ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ — ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٣١٣ ، ٣٥٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣
حلاوة ، الجارية ؛ ٢٥٤
حلل ، الجارية ؛ ٢٢٤
حلويرة أو حاورية ؛ أنظر إلبيرة الراهبة
حمدون بن بسيل ؛ ٣١٢
الحميدى ، أبو عبد الله ؛ ١٠٧
حنظلة بن صفوان الكلبى ؛ ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠
حنون بن أحمد بن عيسى ؛ ٤٩٨
حيوة بن ملامس الحضرمى ؛ ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦
خالد بن أمية بن شهيد ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢
خالد بن حبيب ؛ ١١٩
خالد بن حميد الزناتى ؛ ١١٩
خالد بن عثمان بن خلدون ؛ ٣٣١ — ٣٣٣
خالد بن الوليد ؛ ٢٣
الخشنى ، أبو عبد الله ؛ ٣١٥ ، ٤٣١ ، ٥٠٥
خلف بن بكر ؛ ٣٩٠
خلف بن حسين بن حيان ؛ ٥٧٤ ، ٥٨١
خلف بن خليفة ؛ ٦١٩
خليفة بن مروان ؛ ١٦٣
خمينا ، الملكة ؛ ٣٦٠
خمينو غرسيس ؛ ٥٩٩
خير بن شاكر ؛ ٣٢٤
خيران العامرى ؛ ٦١٦ ، ٦٤٩ ، ٦٥٨ — ٦٦٢ ، ٦٦٨ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤

د — ز

داجوبيرت ؛ ٧٨ ، ٧٩
داود بن هلال ؛ ١٦٧
دحية الغسانى ؛ ١٦٨
درى بن عبد الرحمن الصقلبى ؛ ٣٩٠ ، ٤٠٧ ، ٤٥١ ، ٥١٤ ، ٥٢٦
دوزى ، المستشرق ، ٦٣ ، ١١٨ ، ١٩٤ ، ٢٦٧ ، ٣٨٣ ، ٤٤٧ ، ٤٦٣ ، ٥٠٧ ، ٥٦٥ ، ٥٨٦
دوامديو الأسقف ؛ ٣٩٧
دوناس بن أبى روح ؛ ٦٦٨
ديل الزعيم الشعبى ؛ ٢٣٧
ديسقوريدس ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٥
ديسم بن إسحاق ؛ ٣٣٠
ديسيوس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
ذكاء الفتى ؛ ٥٠٣
الذلفاء ، أم عبدالملك المنصور ؛ ٦٠٨ ، ٦١٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥
ذو النون بن سليمان الهوارى ؛ ٣٠٧
راتبود ، زعيم فريزيا ؛ ٧٩
راجنفرد ؛ ٨٠
الرازى ، عيسى بن أحمد ؛ ١١٧ ، ١٢٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٩٤ ، ٣١٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩٢ ، ٤١٥ ، ٤١٦
رامون بوريل الثالث ؛ ٦١١ ، ٦٤٨
راميرو الأول (رذمير) ؛ ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٣٥٤ — ٣٥٦
راميرو الثانى ؛ ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ — ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٨ — ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠
راميرو الثالث ؛ ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٣٨ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨
راميرو أباركا ؛ ٥٣٩

واتكة المؤرخ ؛ ١١٠
ربيع بن تدلف القومس ؛ ٢٥١
ربيع بن زيد الأسقف ؛ ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٤٣٨ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٥٠٧
رتشارد ملك النورمان ؛ ٤٨٨
رذريك ملك القوط ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧١ ، ٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
ردريك الطليطلى ؛ ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧
رزق بن النعمان الغسانى ؛ ١٦
الرشيد ، هارون ؛ ١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٨٩
الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ؛ ١٨٧
روتبالدس الكونت ؛ ٤٧٠
رولان ؛ ١٨١ ، ١٨٢
رولو ملك النورمان ، ٤٨٨
رومانوس الثانى ، القيصر ؛ ٤٨٤
ريان الفتى ؛ ٣٤٨
الرياحى (اوذبلش) ؛ ٣٧٥
ريشموندو الإلبيرى ؛ أنظر ربيع بن زيد
ريكافرد ؛ ٢٧١
رينو ، المستشرق ؛ ٤٧٩
ريوتيانوس ، الكونت ؛ ٣٥٥
زاوى بن زيرى بن مناد ؛ ٦١٨ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢
زخرف ، الجارية ؛ ٢٣٠
زروال بن عمريل ؛ ٤٩٩ ، ٥٠١
زرياب (أبو الحسن على بن نافع) ؛ ٢٨١
زكريا بن عمروس ؛ ٣٠١
الزهراء (جارية الناصر) ؛ ٤٣٦
زهير العامرى ؛ ٦١٦ ، ٦٦٢ ، ٦٦٨ ، ٦٧١ ، ٦٧٢
زهير بن قيس البلوى ؛ ٢٠ ، ٢١
زياد بن أفلح ؛ ٤٨٩ ، ٥٩٧
زياد بن عبد الرحمن ؛ ٢٢٩ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
زيادة الله بن مضر الطبنى ؛ ٥٧٩
زيرى بن عطية ؛ ٥٤٥–٥٤٧ ، ٥٥٧ – ٥٥٩ ، ٦٠٩
زيرى بن مناد الصنهاجى ؛ ٤٩٣ ، ٥٠١
زيلير ، المؤرخ ؛ ١١٠

س — ط

سابور الفتى ؛ ٥٠٧
ساجيتوس ؛ ٤٦٨
سارة القوطية ؛ ٦١ ، ٣٣١ ، ٧٠٠
سافدرا ، المستشرق ؛ ٥٦٥
سالم ، مولى عبد الرحمن ؛ ١٥٠
سانشا ، دونيا ؛ ٣٤٣
سانشا ابنة طوطة ملكة نافار ؛ ٦٠٠
سانشو زعيم نفار ؛ ٣٦٢
سانشو الأول ملك نفار ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ — ٤٠٠ ، ٤٠٢
سانشو الثانى ملك نافار ؛ ٥٤١ ، ٥٤٧
سانشو الكبير ، ملك نافار ؛ ٦٠١
سانشو الأول ملك ليون ؛ ٤٢٣ ، ٤٥٩ ، ٤٨٤ — ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠
سانشو غرسية بن فرتون ؛ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٥٩٩
سانشو غرسية ملك نافار ؛ ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٢٣
سانشو غرسية ، أمير قشتالة ؛ ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٦١٠ — ٦١٣ ، ٥١٥ ، ٦٢٩ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٥٠ ، ٦٥١
سانشو غرسيس ملك نافار ؛ ٥٦٤
سباجريوس ؛ ٧٧
سترابون الجغرافى ؛ ١٧٣
سبيعة ، زوجة القاسم بن حمود ؛ ٦٧٣
السرى بن الحكم ؛ ٢٤٥
سسموند ، المؤرخ ؛ ١١٠
سساندو ، الأسقف ؛ ٥٩٦
سعد الخادم ؛ ٥٥٠
سعد بن عبادة ؛ ١٦٨
سعدون الرعينى ؛ ٢٣٥

سعدون بن عامر السرنباق ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
٣٠٦
سعيد بن أبي هند ؛ ٢٢٩
سعيد اليحصبي (المطرى) ؛ ١٦٣
سعيد بن الحسين الأنصارى ؛ ١٨٧ ، ١٨٨ ،
٢٢٥
سعيد بن الحكم الجعفرى ؛ ٥١٢
سعيد بن أيوب ؛ ٤٤٦
سعيد بن حسان ؛ ٦٩٢
سعيد بن سعيد بن حدير ؛ ٦٨٥
سعيد بن سليمان بن جودى ؛ ٣٢٩ ، ٦٩٦
سعيد بن عباس القرشي ؛ ٣٠٠
سعيد بن عبد ربه ؛ ٣٥١
سعيد بن عمرو العكى ؛ ٣٥١
سعيد بن الأمير محمد ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢
سعيد بن محمد بن أبي السليم ؛ ٣٤٧
سعيد بن مستنة ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
سعيد بن المنذر القرشي ؛ ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠٧ ،
٤٦١ ، ٤٦٢
سعيد بن هذيل ؛ ٣٧٥
سعيد بن يونس بن سعديل ؛ ٤٢٤
السفاح ؛ أنظر عبد الله بن محمد بن على
سفيان بن عبد ربه ؛ ٢٧٥
سكوت ، المؤرخ ؛ ٦٤
سلمة بن على بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧
السلمى القائد ؛ ١٨٧
سليط بن عبد الله بن عباس ؛ ١٤٤
سليمان بن الحكم المستعين ؛ ٤٤٠ ، ٦٤٦ —
٦٥٠ ، ٦٥٢ — ٦٥٤ ، ٦٥٧ — ٦٥٩
سليمان بن المرتضى ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٦
سليمان بن شهاب ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢١٤
سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية ؛ ٢٠٠ ،
٢٢٣ — ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٤٦٥
سليمان بن عبد الملك ؛ ٥٧ — ٥٩ ، ٧١ — ٧٣ ،
٩٣ ، ١١١ ، ١٤٠ ، ١٤٣
سليمان بن عبدوس ؛ ٣٠٠
سليمان بن عثمان ؛ ١٦٥
سليمان بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ — ٣٨٦ ،
٣٩٨
سليمان بن مرتين ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٩
سليمان بن هشام ؛ ٦٣٣ ، ٦٤٥
سليمان بن هشام بن عبد الله بن الناصر ؛ ٦٦٧
سليمان بن هود ؛ ٦٦٩
سليمان بن وانسوس ؛ ٣١٣ ، ٣٤٧
سليمان بن يقظان الكلبي ؛ ١٦٨ — ١٧٠ ،
١٧٢ ، ١٧٤ — ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ،
١٨٧
السمح بن مالك الخولانى ؛ ٧٤ — ٧٦ ، ٨١ ،
٨٤ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٢٢٨ ، ٥٧٧ ، ٦٨٠ ،
٦٨٦
سواجات البرغواطى ؛ ٦٧٥
سوار بن حمدون القيسى ؛ ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٦٩٦
سوذى الشاعر ؛ ٥٧
سيزيوت ابن وتيزا ؛ ٣١ ، ٣٤ ، ٤٤ ،
٦٠ ، ٦١
سيلو ، ملك جليقية ؛ ٢١٨
سيمونيت ، المستشرق ؛ ٦٦ ، ٧١ ، ٢٠٨ ،
٢٣٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،
٢٧٩ ، ٣٨٣ ، ٥٧٠
شارل الأصلع ؛ ٢٦٥ ، ٣١٤ ، ٣٥٧ ، ٤٦٦
شارلمان (كارل الأكبر) ؛ ١٧١ — ١٧٦ ،
١٧٨ ، ١٨٠ — ١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢١٨ ،
٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ — ٢٣٥ ، ٢٤٣ ،
٢٥٦ ، ٤٦٥
شبريط ؛ ٣٤٢
شفاء ، الجارية ؛ ٢٧٨
شقنا بن عبد الواحد (الفاطمى) ؛ ١٦٤ ،
١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨
شلدبراند ؛ ١١٥ ، ١١٦
شلدريك الثالث ؛ ١٣٣
شمر بن ذى الجوشن ؛ ١٢٧
شنجول ؛ أنظر عبد الرحمن المنصور
شنير ، الكنت ؛ ٣٤٣
شنير بن منفرد ؛ ٤٢٣
شهيد بن عيسى بن شهيد ؛ ١٩٨
صاعد بن الحسن البغدادى ؛ ٥٥١ ، ٥٥٣ ،
٥٦٣ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ٧٠٤
صالح بن على ؛ ١٤٦
صبح أم المؤيد ؛ ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٢٠ — ٥٢٥ ،

٥٢٩ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٥٤ — ٥٥٦
صقر قريش ؛ ١٩٥ ، ١٩٦
صمويل ، اسم ابن حفصون النصرانى ؛ ٣٣٧
الصميل بن حاتم ؛ ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٣٤ — ١٣٦ ، ١٥١ — ١٥٤ ،
١٥٦ — ١٦٠
الضبى ، أحمد بن يحيى ؛ ١٠٧
الضحاك بن قيس الفهر ؛ ١٥٤
طارق بن زياد الليثى ؛ ٢٥ ، ٤٠ — ٤٢ ،
٤٥ — ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٦ ،
٢١٠ ، ٥٢١ ، ٥٥٩ ، ٦٨٦
طالوت المعافرى ؛ ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
طاهر بن محمد البغدادى ؛ ٦٩٧ ، ٦٩٨
الطبرى ؛ ١٠٦
طرسوس المجوسى ؛ ٦٣٣
طرفة الفتى ؛ ٦١٦ ، ٦١٧
طرفة بن لقيط ؛ ٢٥١
طروب الجارية ؛ ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩
طريف بن مالك ؛ ٤٠ ، ٤٨
طوطة ملكة نافار ؛ ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٥٩ ، ٥٩٢ ،
٥٩٣ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠

ع — غ

عاصم بن مسلم الثقفى ؛ ١٩٨
عامر بن أبى جوشن ؛ ٣٩٠ ، ٣٩١
عامر بن عامر ؛ ٣٠٩
عامر بن عمرو العبدوى ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٢
عامر بن فتوح الفائق ؛ ٦٥٩
عامر بن كليب ؛ ٢٦٠
عائشة بنت أحمد بن قادم ؛ ٥١٦
عباس بن الوليد ؛ ٢٦٥
عباس بن عبد العزيز القرشى ؛ ٣٧٥
العباس بن عبد الله ؛ ٢٥١
العباس بن عبد المطلب ؛ ١٤٣
عباس بن فرناس ؛ ٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٧٠٤
عباس بن ناصح الجزيرى ؛ ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٦٩٣
عبد الأعلى بن وهب ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٤
عبد الجبار بن المغيرة ؛ ٦٣٣ — ٦٣٥
عبد الحميد بن بسيل ؛ ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ،
٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٣٦١ ، ٤٦٢
عبد الحميد بن مغيث ؛ ٣١١
عبد الرحمن الناصر ؛ ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ،
٢٩٥ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣٢٩ —
٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ — ٣٤١ ، ٣٤٣ ،
٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ —
٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ — ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،
٣٩٤ ، ٣٩٤ — ٣٩٦ ، ٣٩٩ — ٤٠٨ ،
٤٠٩ — ٤١٢ ، ٤١٧ — ٤٢٩ ، ٤٣١ —
٤٣٩ ، ٤٤٦ — ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦٣ ،
٤٧٢ ، ٤٨٢ — ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ،
٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١١ — ٥١٦ ، ٥٣١ ،
٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٧٩ ، ٥٨٣ ،
٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ — ٥٩٣ ، ٥٩٩ ،
٦٠٠ ، ٦٠٦ ، ٦٦٩ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ،
٦٨٥ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥ — ٧٠١
عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٣٤ ،
٣٣٨ ، ٣٧٧
عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا ؛ ٤٦١
عبد الرحمن بن بدر ؛ ٤٦٠
عبد الرحمن بن الحكم ؛ ١٩٧ ، ٢٣٨ — ٢٤٠ ،
٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ — ٢٥٥ ، ٢٥٧ —
٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ — ٢٨٤ ،
٢٨٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
٣٠٤ ، ٣١٢ — ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٤٦ ،
٣٥٤ — ٣٥٦ ، ٣٧٣ ، ٤٢٩ ، ٤٥٦ ،
٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٥١٥ ،
٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠ ، ٦٩٤ ،
٦٩٥ ، ٧٠٤
عبد الرحمن بن الحكم المستنصر (الطفل) ؛ ٥٠٢ ،
٥٢٠ ، ٥٢١
عبد الرحمن بن المنصور ؛ ٥٥٣ ، ٥٦٢ ، ٥٨٣ ،
٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٥ ، ٥١٩ ، ٦٢٣ —
٦٣٢ ، ٦٣٥ — ٦٣٨ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ،
٦٨٣ ، ٦٨٦
عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ؛ ٣١٨ ، ٣٤٧
عبد الرحمن بن حبيب الفهر ؛ ١٢٠ ، ١٢٤ —

١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٥٠، ١٦٢، ١٧١
عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ؛ ١٢٩
عبد الرحمن بن حبيب الصقلبي ؛ ١٨٥، ١٨٦
عبد الرحمن بن حفصون ؛ ٣٨٣، ٣٨٤
عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧
عبد الرحمن بن رستم ؛ ٢٧٤، ٢٧٥
عبد الرحمن بن رماحس ؛ ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٥، ٥٠١
عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ؛ ٣٩٠
عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبي ؛ ٣٤١
عبد الرحمن بن عبد الله الجليقي ؛ ٣٨٩
عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي ؛ ٤٦٢
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ؛ ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٨ — ٩٠، ٩٦ — ١١٠، ١١٣، ٢١٢، ٦٨٦، ٦٨٧
عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ؛ ١١٤، ١١٥، ١٢٤ — ١٢٦، ١٣٤، ١٣٧
عبد الرحمن بن غانم ؛ ٣١٢
عبد الرحمن بن فطيس ؛ ٧٠٤
عبد الرحمن بن كثير اللخمي ؛ ١٢٨
عبد الرحمن بن الأمير محمد ؛ ٢٩٩
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الناصر ؛ أنظر المرتضى بالله
عبد الرحمن بن مروان الجليقي ؛ ٣٠٠، ٣٠٣ — ٣٠٧، ٣١٣، ٣٣٠، ٣٣٨، ٣٣٩
عبد الرحمن بن مطرف التجيبي ؛ ٥٤٩، ٥٥٠
عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ؛ ١٣٦، ١٤٩ — ١٧٠، ١٨٥ — ٢٠٥، ٢١٤ — ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٣ — ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٥، ٣١٤، ٣٣٢، ٣٤٤، ٤٢٩، ٤٣٦، ٤٤٨، ٤٦٠، ٤٦٤، ٤٨٤، ٥٠٤، ٥٠٨، ٥١٤، ٥٥١، ٦٠٦، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٤، ٦٨٧، ٦٩٠
عبد الرحمن بن مغيث ؛ ١٩٨
عبد الرحمن بن متانا ؛ ٦٧٣، ٧٠٥
عبد الرحمن بن هاشم ؛ ٤٠٩
عبد الرحمن بن هشام (المستظهر) ؛ ٦٦٤، ٦٦٥
عبد الرحمن بن وضاح ؛ ٣٩٩
عبد الرحمن بن يوسف الفهري ؛ ١٣٦، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٨، ١٥٩، ٢١٣
عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل ؛ ٤٩٥
عبد السلام بن بسيل الرومي ؛ ١٩٨
عبد السلام بن يزيد بن هشام ؛ ١٨٩، ١٩٤
عبد العزيز بن أبي عبدة ؛ ٢٥١، ٦٨٤
عبد العزيز بن الناصر ؛ ٥٠٦
عبد العزيز بن عباس ؛ ٣٠٩
عبد العزيز بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ٣٤١
عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ؛ ٦٢٧، ٦٨٦
عبد العزيز بن مروان ؛ ٢٣، ٢٤، ٢٥
عبد العزيز بن موسى بن نصير ؛ ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٧١ — ٧٣، ١٢٦
عبد الغافر اليماني ؛ ١٦٠
عبد الغافر اليحصبي ؛ ١٦٦
عبد الغافر بن عبد العزيز ؛ ٣٠١
عبد القادر بن أبان ؛ ٢٢٧
عبد الكريم بن مهران الغساني ؛ ١٥٨
عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ؛ ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٥٤ — ٢٥٦، ٢٧٤ — ٢٧٦، ٣٥٤، ٦٨٤، ٦٩٣، ٦٩٤
عبد الله بن أبي عامر ؛ ٥٠٥، ٦٢٩، ٦٣٣، ٦٣٤
عبد الله بن أحمد بن محمد بن عيسى ؛ ٤٦١
عبد الله بن أصبغ ؛ ٣٨٠
عبد الله البلنسي ؛ ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٥٥، ٤٦٥
عبد الله بن الشمر بن نمير ؛ ٢٨٠، ٢٨١، ٦٩٤
عبد الله بن بدر ؛ ٤٦٠، ٤٦١
عبد الله بن حبيب ؛ ٣١٥
عبد الله بن حجاج ؛ ٣٣١، ٣٣٢
عبد الله بن خالد ؛ ١٥١، ١٥٣، ١٦٤، ١٩٨
عبد الله بن سعد بن أبي سرح ؛ ١٥، ١٦
عبد الله بن طاهر ؛ ٢٤٥
عبد الله بن عباس بن أحمد بن أبي عبدة ؛ ٤٦١

عبد الله بن الأمير عبد الرحمن ؛ ٢٨٩ ، ٢٩٠
عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ؛ ٤٠٢ ، ٤٥٠
عبد الله بن عبد العزيز المرواني ؛ ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٢
عبد الله بن عبد الملك بن مروان ؛ ١٩ ، ٢٣
عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ ٦٢٧
عبد الله بن عمرو بن مسلمة ؛ ٣٩٠
عبد الله بن قاسم الفهري ؛ ٦٦٨
عبد الله بن قرلمان بن بدر ؛ ٢٨٠
عبد الله بن كليب ؛ ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥
عبد الله بن محمد ، الأمير ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ — ٣٢٢ ، ٣٢٤ — ٣٢٦ ، ٣٢٩ — ٣٣٣ ، ٣٣٦ — ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ — ٣٥١ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٩٢ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٩٩ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦
عبد الله بن محمد بن أبي حوثرة ؛ ٢٧٦
عبد الله بن محمد بن أمية ؛ ٢٧٦
عبد الله بن محمد الزجالي ؛ ٤٦٠ ، ٧٠٠
عبد الله بن محمد بن علي (السفاح) ؛ ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٢
عبد الله بن محمد بن لب ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٩٨
عبد الله بن محمد بن مروان الجليقي ؛ ٣٤٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
عبد الله بن مروان ؛ ١٩ ، ٢٣
عبد الله بن مسلمة ؛ ٦٣٤
عبد الله بن المنصور ؛ ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١
عبد الله بن موسى بن نصير ؛ ٢٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٧٣
عبد الله بن وهب ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٢
عبد الله بن يحيى : ٢٦٥
عبد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي ؛ ٣٥١ ، ٤٢٤ ، ٤٦١
عبد الملك بن أبي الجواد ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٩
عبد الملك بن إدريس الجزيري ؛ ٦١٧
عبد الملك بن إدريس الخولاني ؛ ٥٧٤
عبد الملك بن جهور ؛ ٣٥١ ، ٤٦٢ ، ٦٠٥ ، ٦٩٨
عبد الملك بن حبيب ؛ ٢٧٦
عبد الملك بن حبيب السلمي ؛ ٦٩٢ ، ٦٩٣
عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة ؛ ٤٠٤ ، ٤٢٦
عبد الملك بن سعيد المرادي ؛ ٤٨٦ ، ٦٩٦
عبد الملك بن شهيد ؛ ٣٥١ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥
عبد الملك بن عامر المعافري ؛ ٥٢١
عبد الملك بن العباس القرشي ؛ ٢٩٩
عبد الملك بن عبد الله بن أمية ؛ ٣١٣ ، ٣٣٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩
عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ؛ ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٤٦٥
عبد الملك بن عمر بن مروان (المرواني) ؛ ١٥٨ ، ١٦٣
عبد الملك بن عيسى بن سعيد ؛ ٦١٧ ، ٦٢٠
عبد الملك بن قطن الفهري ؛ ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ — ١٢٤ ، ٦٨١ ، ٦٨٧
عبد الملك بن مروان ؛ ٢٠ — ٢٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
عبد الملك بن المنصور (المظفر) ؛ ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ — ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٥٨١ ، ٦٠٧ — ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦١٦ — ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٩٠
عبد الملك بن موسى بن نصير ؛ ٥٦
عبد الملك بن هشام ؛ ٢٢٨
عبد الملك بن يزيد الأزدي ، أنظر أبو عون
عبد الواحد الروطي ؛ ٣٠٢
عبد الواحد المراكشي ؛ ٦٥٧
عبد الواحد بن اسحاق الضبي ؛ ٢٨١
عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ؛ ٢٧٤
عبد الواحد بن يزيد الهوار ؛ ١٢٠ ، ١٢١
عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث ؛ ٣٠١
عبد الوهاب بن حزم ؛ ٦٦٥
عبد الوهاب بن عباس ؛ ٢٥٢ ، ٦٩٣
عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ؛ ٣٢٣
عبد الوهاب بن محمد بن بسيل ؛ ٤٦١
عبدون عامل الثغر ؛ ٢٤١
عبدون بن خزرون ؛ ٦٧٥

عبده النفارية ، زوجة المنصور ؛ ٥٨٣ ، ٦٢٣
عبيد الله المهدى ؛ ٤٢٥ ، ٤٢٦
عبيد الله بن أبان بن معاوية ؛ ١٨٩ ، ١٩٤
عبيد الله بن أحمد الزجالى ؛ ٤٦٠
عبيد الله بن عبد الله البلنسى ؛ ٢٣٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧
عبيد الله بن عثمان ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٤ – ١٦٦ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٢٦
عبيد الله بن قاسم ؛ ٤٩٠
عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة ؛ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٧
عبيد الله بن يحيى بن إدريس ؛ ٦٩٦ – ٦٩٨
عبيدة ، والى إفريقية ؛ ١٠٦
عبيدة بن حميد ؛ ٢٣٩
عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ؛ ٨٣ ، ٨٤
عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ؛ ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٣
عثمان بن عفان ؛ ١٥ ، ١٨ ، ١١٨ ، ١٩٦
عثمان بن عمرون ؛ ٣٣٠
عثمان بن نصر ؛ ٣٧٩ ، ٣٨٠
عثمان بن نصر المصحفى ؛ ٥١١
العذرى ، أحمد بن عمر ؛ ٣٤١
عروة بن الوليد الذمى ؛ ١٣٤ ، ١٣٥
عزرة بن عبد الله الفهرى ؛ ٨٣
العزيز بالله الفاطمى ؛ ٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
عصام الخولانى ؛ ٣٤٦
عقبة بن الحجاج السلولى ؛ ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ٢١٢
عقبة بن نافع الفهرى ؛ ١٥ ، ١٩ ، ٢٠
عكاشة الفزارى ؛ ١٢٠ ، ١٢١
العلاء بن مغيث اليحصبى ؛ ١٦١ – ١٦٣ ، ١٨٦ ، ٢١٥
على بن أبى طالب ؛ ١٨ ، ١٤١ – ١٤٣
على بن حمود ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ – ٦٦١
على بن وداعة ؛ ٦٥١
عمر بن حفصون ؛ ٣٠٣ ، ٣٠٧ – ٣١٠ ، ٣١٧ – ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ – ٣٢٥ ، ٣٢٨ – ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ – ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ، ٦٩٥
عمر بن الخطاب ؛ ١٤ ، ٢٣ ، ١٩٦
عمر بن طالوت ؛ ١٦٦
عمر بن عبد العزيز ؛ ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٢٢٥ ، ٦٨٠ ، ٦٨١
عمر بن عبد الله ؛ ١١٩
عمرو بن العاص ؛ ١٤ ، ١٥
عمرو بن أبى الحباب ؛ ٥٧٥
عمر بن عبد الله بن أبى عامر (عسكلاجة) ؛ ٥٢٨ ، ٥٤٥
عمروس بن عمرو بن عمروس ؛ ٣٠١
عمروس بن يوسف ؛ ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٠١
عمريل بن تيمات ؛ ٥٠٠
عنبر العامرى ؛ ٦٤٩
عنبسة بن سحيم الكلبى ؛ ٨٢ ، ٨٣
عيسى بن أحمد بن أبى عبدة ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢
عيسى بن أحمد الرازى ؛ ٢٨٩
عيسى بن الحسن بن أبى عبدة ؛ ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣١٢
عيسى بن دينار ؛ ٢١٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧٦ ، ٣١٥ ٦٩٢ ، ٦٩٣
عيسى بن سعيد (ابن القطاع) ؛ ٥٥٨ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٦١٦ – ٦٢٠ ، ٦٣٠
عيسى بن شهيد ؛ ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٦٨٤
عيسى بن فطيس ؛ ٤١٦ ، ٤٦١ ، ٥١٢ ، ٥٥٣ ، ٥٧٤
عيسى بن قرلمان ؛ ٤٩١
عيسى بن مزاحم ؛ ٦١
عيسى بن مساور ؛ ١٥٣
عيسى بن منصور ؛ ٤٩٠
عيشون بن سليمان بن يقظان ؛ ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٧
عيشون حاكم أرشدونة ؛ ٣٢٠
غاتون ، الكونت ؛ ٢٩٢
غالب ، أمير البحر ؛ ٤٢٧

غالب بن تمام بن علقمة ؛ ١٩٨
غالب بن عبد الرحمن الناصرى؛ ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٦ — ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٢٨ — ٥٣٠ ، ٥٣٧ — ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٥٥ ، ٥٧٥ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠
غرسى فرناندز ؛ ٥٦٣
غرسية ، أمير نافار ؛ ٢٥٩ ، ٢٦١
غرسية إنجيز ؛ ٣٤٣ ، ٣٦٢
غرسية الأول ملك نافار ؛ ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٥٧
غرسية الثانى ملك نافار ؛ ٤٠٢ ، ٤٢٢ ، ٤٥٩
غرسية ابن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠ ، ٣٦١
غرسية ملك ليون ؛ ٣٩١
غرسية سانشيز ، ملك نافار ؛ ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
غرسية سانشيز الثانى ، أمير قشتالة ؛ ٦٠٠
غرسية سانشير الثالث ، أمير قشتالة ؛ ٦٠٠ ، ٦٠١
غرسية سانشير الثالث ملك نافار ؛ ٦٠٠ ، ٦٠١
غرسية فرنانديز ، أمير قشتالة ؛ ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥٤١ ، ٥٥٠ — ٥٥٢ ، ٥٦٥ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨
غريب بن عبد الله ؛ ٢٤٧
غريب بن مسعود ؛ ٤١٨
غزاة البياض ؛ ٥٤٨
غزاة العلة ؛ ٦١٥
غزوة بنبلونة (الناصر) ؛ ٤٠٠
غزوة بنبلونة (عبد الملك المنصور) ؛ ٦١٢
غزوة شنت ياقب ؛ ٥٦١
غزوة قلونية (عبدالملك المنصور) ؛ ٦١٣ ، ٦١٤
الغزيرى ، ميخائيل ؛ ٥٥
الغمر بن يزيد بن عبد الملك ؛ ٢٠٢
غياث بن علقمة ، اللخمى؛ ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٣

ف — ق — ك

فاتن ، الفتى ؛ ٥٧٩ ، ٦٣٣
فاطمة بنت الرسول ؛ ١٦٤
الفاطمى ؛ أنظر شقنا بن عبد الواحد
فاڤيلا ابن بلايو ؛ ١٣٨ ، ٢١٣
ڤافيلا والد بلايو ؛ ٢٠٧
ڤاليا ، ملك القوط ؛ ٢٩
ڤالينس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
ڤاميا ، ملك القوط ؛ ٣٤
فائق الفتى ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦
الفتح بن خاقان ؛ ٤٤١ ، ٥٨٤
الفتح بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٤٠ ، ٣٧٥
فخر الجارية ؛ ٢٧٨
فرتون إنيجيز ؛ ٢٦٥
فرتون بن لب بن موسى ؛ ٢٩٩
فرتون بن غرسية ؛ ٢٩٨ ، ٣٦٢ ، ٥٩٩
فرتون بن محمد الطويل ؛ ٤١٦
فرتون بن موسى القوى ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٢
فرنان كونثالث (فردلند القومس) ؛ ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٥٠ ، ٥٩١ — ٥٩٤ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
فرنان لينيز ؛ ٤٩١
فرويلا ، أمير استورية ؛ ٨٧
فرويلا ، أمير كانتابريا ؛ ٢١٤ ، ٢١٥
فرويلا ، الكونت ؛ ٣٥٨
فرويلا ابن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠
فرويلا الأول ؛ ٢١٥ — ٢١٨ ، ٢١٩
فرويلا ، ملك ليون ، ٤٠٠
فرويلا بن برمند ؛ ٣٥٨
فطيس بن اصبغ بن فطيس ؛ ٤٦٢
فلورا ، الفتاة المتنصرة ؛ ٢٧٢ ، ٢٧٣
فلورندا القوطية ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
فنلى ، جورج ؛ ١١٠
فون شليجل ؛ ١١٠
ڤيدوكنت ؛ ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٨٨
قارله ، قلدوس ؛ أنظر كارل الأكبر
قارله بن بين ؛ ٢٨٩
القاسم بن حمود ، المستعلى ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦١ — ٦٦٤ ، ٦٧٠ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦
قاسم بن حمد ؛ ٥١٨
القاسم بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٤٩ ، ٣٥٠
القاسم بن محمد (الواثق) ؛ ٦٧٦

قاسم بن مطرف بن ذى النون ؛ ٤٨٧
القاسم بن المنذر ؛ ٢٣١
القاسم بن يوسف الفهرى ؛ ١٥٩ ، ١٦٠
القائم الفاطمى ؛ ٤٢٦
قسطنطين الأكبر ؛ ٢٨
قسطنطين السابع ؛ ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦
قسطنطين الملكى ؛ ٤٩١
قمى ، الكونت ؛ ٢٦٠
قطن بن عبد الملك بن قطن ؛ ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦
كابا ، وصيفة فلورندا ؛ ٣٦
كاردون ، المستشرق ؛ ١٠٥
كاردِناس ، المستشرق ؛ ٦٦
كارل مارتل ؛ ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٦ — ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٤ — ١١٦ ، ١٣٧ ، ١٧١
كارل الأكبر ؛ أنظر شارلمان
الكاهنة ؛ ١٧ ، ٢٢
الكرسى الرسولى ؛ ٢٥٩
كريب بن عثمان بن خلدون ؛ ٣٣١ — ٣٣٣ ، ٣٣٩
كريزى ، إدوارد ؛ ١١٠
كسيلة بن لمزم ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢
كلثوم بن عياض القشيرى ؛ ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ — ١٢٦
كانوتير الثانى ؛ ٧٨
كلوفيس ؛ ٧٧ ، ٩٥
كنانة بن سعيد ؛ ١٦٧
كوديرا ، المستشرق ؛ ٥٦٥
كوندى ، يوسف ؛ ٣٦ ، ٩٩ ، ١٠٢
كونراد ، ملك برخونة ؛ ٤٦٩

ل — م

لا فونتى ، موديستو ؛ ٥٠٨ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٩٧
لامبجيا ؛ ٨٧ ، ٨٨
لاين بول ؛ ٦٤
لب بن الطربيشة ، ٣٨٩
لب بن زكريا بن عمروس ؛ ٣٠١
لب بن محمد بن لب ؛ ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٦٣
لب بن موسى بن فرتون ؛ ٣٦٢
لب بن موسى بن موسى ؛ ٢٩٩
الليث بن سعد ؛ ١٠٦ ، ٢٧٦ ، ٦٩٢
لوتبراند ، ملك اللومبارد ؛ ١١٦
لوتبراند ، المؤرخ ؛ ٤٥٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢
لوقا التطيل ؛ ٣٥
لوقا التوجى ؛ ٤١٩
لويس بن شارلمان ؛ ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٤٦٦
لويس الرابع ؛ ٤٥٦
ليوكريسيا ؛ ٢٩٦ ، ٣٠٣
ليون الثالث ، البابا ؛ ١١٠
ماردة أم المعتصم ؛ ٢٨٢
ماسدى ، المؤرخ ؛ ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٨٦
ماركوس أوريليوس ؛ ٥٠٨
ماريا ، فتاة قرطبة ؛ ٢٧٣
ماريا ، والدة الناصر ؛ ٣٧٣
مارياتا ، المؤرخ ؛ ٣٦ ، ٨٩ ، ٥٦٥
مالك بن أنس ، الإمام ؛ ٢٢٩ ، ٢٧٦ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
مالك بن يزيد التجيبى ؛ ٢٣٦
المأمون العباسى ؛ ٢٤٥ ، ٢٨٢ ، ٧٨٣
مايبل ، القديس ؛ ٤٧٣
مايور ، دونيا ؛ ٥٦٤
متعة ، الجرية ؛ ٢٧٨
المتبنى ؛ ٦٩٩
مجاهد العامرى ؛ ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٦١٦ ، ٦٥٨
محافظ القصر ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦
محمد ، النبى العربى ؛ ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ٢٧٠ — ٢٧٣
محمد بن الحسين ؛ ٤٥٩ ، ٥٩٢
محمد بن الحنفية ؛ ١٤٣
محمد بن الخير بن خزر ؛ ٤٢٨ ، ٤٩٤
محمد بن السالم ؛ ٢٧٤
محمد بن السليم ، أبو بكر ؛ ٥١٢
محمد العراق ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٧
محمد بن الفرضى ؛ ٦٦٣
محمد بن القاسم المروانى ؛ ٢٣٦

محمد بن إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٢٤
محمد بن أبي جمعة ؛ ٥٨٠
محمد بن أبي سليمان الزجالي ؛ ٢٧٦
محمد بن أبي عامر (المنصور) ؛ ٢٠٥ ، ٢١٥ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٦ ، ٥١٨ — ٥٣١ ، ٥٣٥ — ٥٦٦ ، ٥٦٨ — ٥٧٦ ، ٥٧٨ — ٥٨١ ، ٥٨٤ — ٥٨٧ ، ٥٩٨ — ٦٠١ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ — ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٦ — ٦١٨ ، ٦٢٢ — ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢ ، ٦٥٠ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨ ، ٦٦٧ ، ٦٨٣ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤
محمد بن أبي عبد الله بن عيسى ؛ ٤٢٤
محمد بن أحمد بن قابوس : ٤٦١
محمد بن إدريس المستعلي ؛ ٦٧٥ ، ٦٧٦
محمد بن إدريس ، المهدي ؛ ٦٧٤ — ٦٧٦
محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ ٦٦٤ ، ٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦
محمد بن إسماعيل بن موسى ؛ ٣٤٠
محمد بن أضحى الهمذاني ؛ ٣٢٩ ، ٦٩٦
محمد بن أفلح ؛ ٤٩١
محمد بن بشير ؛ ٢٤٩
محمد بن تاجيت ؛ ٣٩٢
محمد بن تاكيت المصمودي ؛ ٣٣٩
محمد بن جعفر المصحفي ؛ ٥٢٨ ، ٥٢٩
محمد بن جهور بن عبد الملك البختي ؛ ٤٦١ ، ٥٧٤
محمد بن حارث ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٤
محمد بن الحسن الزبيدي ؛ ٧٠٣
محمد بن حسين الطبني ؛ ٤٩٧ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٧٠١ ، ٧٠٢
محمد بن حفص بن جابر ؛ ٥٧٤
محمد بن رستم ؛ ٢٥٨ ، ٢٦٣
محمد بن سليمان الزجالي ؛ ٦٩٤
محمد بن سليمان بن وانسوس ؛ ٤٦١
محمد بن سعيد بن المنذر ؛ ٤٦١
محمد بن عباس بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٦١
محمد بن عبد الرحمن ، الأمير ؛ ٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ — ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٤٦٢ ، ٥٠٤ ، ٦٨٤ ، ٦٨٨ ، ٦٦٤ ، ٦٩٥
محمد بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ٤٠٥
محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ؛ ٦٦٦
محمد بن عبد السلام بن بسيل ؛ ٢٧٤
محمد بن عبد السلام بن كليب ؛ ٤٦١
محمد بن عبد السلام الخشني ؛ ٦٩٤
محمد بن الأمير عبد الله ؛ ٣٢١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠
محمد بن عبد الله الأشجعي ؛ ٨٤
محمد بن عبد الله البرازلي ؛ ٦٧٠ — ٦٧٢
محمد بن عبد الله بن موسى ، ٤٦١
محمد بن عبد الملك المنصور ؛ ٦٣٥
محمد بن عبد الملك بن أبي عبده ؛ ٤١٠
محمد بن عبد الملك بن شبريط (الطويل) ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣
محمد بن عبد الوهاب ؛ ٣٠١
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ؛ ١٤٣ ، ١٤٤
محمد بن عمر بن لبابة ؛ ٣١٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٦
محمد بن القاسم بن حمود ؛ ٦٧٤ — ٦٧٦
محمد بن القاسم بن طملس ؛ ٤٦١ ، ٤٩٥ ، ٦٨٥
محمد بن لب بن موسى ؛ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ — ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٩٧
محمد بن محمد التجيبي ؛ ٤٩٧
محمد بن محمد بن أبي زيد ؛ ٣٧٤
محمد بن محمد بن ذي النون ؛ ٣٩٠
محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل ؛ ٤٦١
محمد بن مسعود ؛ ٣٨٧
محمد بن مطرف بن شخيص ؛ ٧٠١
محمد بن المغيرة ؛ ٦٣٣
محمد بن نوح ؛ ٦٧٥
محمد بن هاشم التجيبي ؛ ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١
محمد بن هانىء الأزدي ؛ ٦٩٩
محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي) ؛ ٦٣٠ — ٦٣٩ ، ٦٤٢ — ٦٥١ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٨٣

محمد بن ضماح ؛ ٢٧٦
محمد بن يزيد ؛ ٧٣
محمد بن يعلى الزناتى ؛ ٦٣٦
محمد بن يوسف الحجار ؛ ٥٠٦ ، ٧٠١
محمد بن يوسف الفهرى ، أبو الأسود ؛ ١٣٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٠
محمد بن يوسف بن مطروح ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٤
محمود بن عبد الجبار ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٨
مراجل أم المأمون ؛ ٢٨٢
المرتضى بالله ، عبد الرحمن ؛ ٦٦٠ — ٦٦٢
مرجان الرومية ؛ ٣٧٨ ، ٣٨٣
مروان بن جهور بن عبد الملك البختى ؛ ٤٦١
مروان بن الحكم ؛ ١٥٤
مروان بن حيان ، أبو سعد ؛ ٤١٦
مروان بن عبد الرحمن الجليقى ، ٣٣٩
مروان بن عبد الملك ؛ ٣٩٢
مروان بن محمد ؛ ١٣٠ ، ١٤٤ — ١٤٦
مروان بن يونس الجليقى ؛ ٢٤٢ ، ٣٠٤
المستظهر بالله ؛ ٦٨٦
المستكفى بالله الأموى ؛ ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٧٠
المستكفى بالله العباسى ؛ ٦٦٧
المستنصر بالله الفاطمى ؛ ٤٥٩
المسعودى ، المؤرخ ؛ ١٩٧ ، ٤١٤
مسعود بن سعدون السرنباق ؛ ٣٩٣
مسعود بن عبد الله ؛ ٢٩٤
مسلم بن عقبة المرى ؛ ١٤١
مسلمة بن عبد الرحمن الأموى ؛ ٢٣٧
مسلمة بن مخلد ؛ ٢٠
مسرة بن مطرف ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢
المسيح ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
مضاء بن عمريل ؛ ٤٩٩
المطرف بن عبد الرحمن ؛ ٢٦١ ، ٢٧٨
المطرف بن الأمير عبد الله ؛ ٣٢١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣
مطرف بن عيسى الغسانى ؛ ٥٠٥
مطرف بن لب بن موسى ؛ ٢٩٩ ، ٣٤٠
المطرف بن محمد بن لب ؛ ٣٤١ ، ٣٦٣
مطرف بن مندف التجيبى ؛ ٤٠٦ — ٤٠٨
مطرف بن موسى القسوى ؛ ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢
المطرف بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٤٠ ، ٣٩٨
مطروح بن سليمان بن يقظان ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
مظفر بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٠٧
معاوية بن أبى سفيان ؛ ١٨ — ٢٠ ، ٢٣ ، ٩٣ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٠
معاوية بن حديج ؛ ١٩
معاوية بن لب ؛ ٤٩٠
معاوية بن هشام ؛ ٢٢٥
معاوية بن هشام ، المؤرخ ؛ ٣١٠
المعتصم العباسى ، ٢٨٢ ، ٢٨٣
المعتصم بن صمادح ؛ ٦٧٦
المعز لدين الله الفاطمى ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٦٩٩
المعز بن باديس ؛ ٦١٨
المعز بن زيرى بن عطية ؛ ٥٤٦ ، ٥٥٩
معن بن عبد العزيز التجيبى ؛ ٥٥٢ ، ٥٦١ ، ٦٠٩
المغيرة بن الحكم ؛ ٢٤٨
المغيرة بن الوليد بن معاوية ؛ ١٨٩ ، ١٩٤
المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠
مغيث الرومى ؛ ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٧٥
المقرى ، المؤرخ ؛ ٤٨ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ٥٣٧
مكحول بن عمر ؛ ٣٠٠ ، ٣٠٤
المنذر بن الناصر ؛ ٥٠٦
منذر بن إبراهيم ؛ ٣٣٠
منذر بن سعيد البلوطى ؛ ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٦١ ، ٥١٢ ، ٦٩٨
المنذر بن عبد الرحمن ؛ ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩ ، ٣١٠
المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠
المنذر بن يحيى التجيبى ؛ ٦٥٤ ، ٦٦٠ — ٦٦٢
المنصور بن أبى عامر ؛ انظر محمد بن أبى عامر
المنصور العباسى ، أنظر أبو جعفر المنصور
منصور الخصى ؛ ١٩٨

منندو كونثالث ؛ ٥٦٤ ، ٥٩٩ ، ٦١٠
منوسة ؛ ٨٥ — ٨٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣
منينا ؛ ٨٧
مووجات ؛ ٢١٩ ، ٢٢٠
مورنتوس ، الدوق ؛ ١١٥ ، ١١٦
موسى بن أبى العافية ؛ ٣١٦
موسى بن حنوش ؛ ٥١٦
موسى بن ذى النون ؛ ٣٠٧ ، ٣٣٩
موسى بن سالم الخولانى ؛ ٢٣٦ ، ٢٤٣
موسى بن غلند ؛ ٣٠١
موسى بن فرتون بن قسى ؛ ٣٦٢
موسى بن فرقوق ؛ ٢٢٥
موسى بن محمد بن حدير ؛ ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٤٦٠ ، ٦٩٨
موسى بن موسى بن قسى ؛ ٢٥٩ — ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٥٧
موسى بن نصير اللخمى ؛ ٢٣ — ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٨ — ٤٢ ، ٤٥ ، ٥١ — ٦٠ ، ٧١ — ٧٣
موسيتو ، موجيتوس ؛ أنظر مجاهد العامرى
مؤمرة الجارية ؛ ٢٧٨
مؤمن بن سعيد ؛ ٢٥٢ ، ٣١٥ ، ٦٩٣
مونتيخار ؛ ٣٦
مؤنس الكاتب ؛ ٤٩١
مونيا ؛ ٢١٨
ميسرة المدغرى ؛ ١١٩
ميسرة الفتى الصقلبى ؛ ٢٥٩
ميسور الصقلبى ؛ ٤٢٦ ، ٤٦١ ، ٥٠٩
ميخائيل ، القيصر ؛ ٢٨٣
ميشليه ، المؤرخ ؛ ١١٠

ن — ى

نجا الصقلبى ، أبو الفوز ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣
نجدة بن حسين الصقلبى ؛ ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٤٦١
نصر الخصى ؛ ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٩
نصر بن سيار ؛ ١٤٤ ، ١٤٥
نصير اللخمى ؛ ٢٣
نصر المظفرى ؛ ٦٣٤
نظيف الفتى ؛ ٦١٩ ، ٦٣٤
نود ، ملكة النورمان ؛ ٢٨٥
نونيو ، الكونت ؛ ٣٦٠
هادريان ، البابا ؛ ١٧٣
هاشم الضراب ؛ ٢٥٨
هاشم بن عبد العزيز ؛ ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٣٠٢ — ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٦٨٤
هاشم بن محمد التجيبى ؛ ٤٩٧
هذيل بن الصميل ؛ ١٨٩
هذيل بن محمد التجيبى ؛ ٤٩٧
هرودلاند ، أنظر رولان
هروسوڤيتا ؛ ٤٤٨
هشام الفهرى ؛ ١٦٣
هشام المصحفى ؛ ٤٨٥ ، ٥٣٠
هشام ، المعتد بالله ؛ ٦٦٨ — ٦٧٠
هشام ، المؤيد بالله ؛ ٤٤٠ ، ٤٥٣ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٧ — ٥٢٠ ، ٥٢٢ — ٥٢٦ ، ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٥٤ — ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٨٥ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦٢٣ — ٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢ — ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ — ٦٥٣ ، ٦٥٨ — ٦٦٠ ، ٦٧٠ ، ٦٧٤ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٧٠٣
هشام بن الحكم ؛ ٢٤٢
هشام بن سليمان بن الناصر ؛ ٦٤٥ ، ٦٤٦
هشام بن عبد الجبار بن الناصر ؛ ؛ ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٣٠ ، ٦٣١
هشام بن عبد الرحمن الأموى ؛ ٢٢٠ ، ٢٢٣ — ٢٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٤٦٥ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
هشام بن عبدالرحمن بن الحكم ؛ ٢٦٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢
هشام بن عبدالملك ، ٦١ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، ٦٨١
هشام بن عزرة الفهرى ؛ ١٥٧ ، ٦٦١ ، ١٦٣

هشام بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٤٩
هشام بن محمد بن عثمان ؛ ٥١٨
هشام بن المنذر ؛ ٣٢١
هشام بن هذيل ؛ ٤٥٦
هلال الميديونى ؛ ١٦٥
هوج ، ملك بروفانس ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠
هوريك ، ملك النورمان ؛ ٢٨٤
هونالد ، دوق أكوتين : ١١٤
هونوريوس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
الهيثم بن عبيد الكلابى ؛ ٨٣ — ٨٥ ، ٢١١
هيرود ؛ ٢٢٠
واضح الفتى ؛ ٤٤٠ ، ٥٠٩ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٦ ، ٦٣٦ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ — ٦٥١ ، ٦٥٨
الواقدى ، المؤرخ ؛ ١٠٦
وانسوس البربرى ؛ ١٥١
وتيزا ، ملك القوط ؛ ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٢٠٨
ودنا بن عطاف ؛ ٣٨٠
الوليد بن الحكم ؛ ٢٥٩
وليد بن خيزون ؛ ٤٨٥
الوليد بن عبد الملك ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٤٠ ، ١٤٣
وليد بن غانم ؛ ٣١٣
وليد بن معاوية ؛ ١٨٩
الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ ١٣٠
ونقة بن شانجه ؛ أنظر إنيجواريستا
وهب بن عامر ؛ ١٣٦
وهب الله بن حزم ؛ ٢٦٢
ياسر ، الفتى ؛ ٤٥١ ، ٤٥٢
ياقب ، القديس ؛ ٢٢٠ ، ٥٥٩ ، ٥٩٦
ياقوت الحموى ؛ ٤٤١
يحيى الغزال (يحيى بن الحكم) ؛ ٢٥٣ ، ٢٦٤ ، ٢٨٢ — ٢٨٥ ، ٦٩٣
يحيى بن إبراهيم بن مدين ؛ ٢٧٦
يحيى بن إدريس المتأيد ؛ ٦٧٢ ، ٦٧٣
يحيى بن إسحاق ؛ ٣٨٠ ، ٤٦٢
يحيى بن حبيب ؛ ٢٨٤
يحيى بن حريث الجذامى ؛ ١٣١
يحيى بن الحسين الأنصارى ؛ ١٨٨
يحيى بن سلمة الكلبى ؛ ٨٣
يحيى بن صقالة القيسى ؛ ٣٢٨
يحيى بن عبد الرحمن التجيبى ؛ ٥٥٠
يحيى بن عبد الله ؛ ٢٥٥
يحيى بن عبد الله بن يحيى ؛ ٥٠٣
يحيى بن على بن حمدون الأندلسى ؛ ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٩ ، ٧٠٢
يحيى بن على بن حمود (المعتلى) ؛ ٦٦٢ — ٦٦٤ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٥
يحيى بن محمد التجيبى ؛ ٤٨٧ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥١٢
يحيى بن نصر القيسى ؛ ٢٣٦
يحى بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٤٠ ، ٤٠٠
يحيى بن نصر اليحصبى ؛ ٢٤٣
يحيى بن هاشم ؛ ٤٠٢ ، ٤١٠ ، ٤٢٢
يحيى بن هذيل ؛ ٧٠٢
يحيى بن يحيى بن إسحاق ؛ ٤٠٥
يحيى بن يحيى بن بكر ؛ ٣٣٩
يحيى بن يحيى الليثى ؛ ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧٦ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣
يدو بن يعلى ؛ ٥٤٦ ، ٥٤٧
يزيد بن الوليد ؛ ١٣٠
يزيد بن عبد الملك ؛ ٨٢
يزيد بن معاوية ؛ ٢٠ ، ١٢٣
يزيد بن المهلب ؛ ٥٧ ، ٥٨
يعقوب الحوارى : أنظر ياقب القديس
يعقوب بن أبى خالد التوزرى ؛ ٣٩٩
يعقوب بن كلس ؛ ٥٣٥
ينقة بن ونقة ؛ ٢٦٠
يوحنا ، حاكم قرطاجنة ؛ ٢١
يوحنا الجورزينى ؛ ٤٥٦ — ٤٥٨ ، ٤٧٢
يوحنا الثامن ، البابا ؛ ٣٥٩
يوحنا الثانى عشر ، البابا ؛ ٤٥٩
يوحنا زمسكى ، القيصر ؛ ٤٩١
يوستنيان ، الإمبراطور ؛ ١٨

يوسف العبسى ؛ ٢٢٥
يوسف بن إسماعيل بن نغرالة ؛ ٥٠٧
يوسف بن بخت ؛ ١٥٢ ، ١٩٨ ، ٢٢٦ ، ٢٧٤
يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ؛ ١٢٩ — ١٣٢ ، ١٣٤ — ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ — ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ٢١٤ ، ٦٨١ ، ٦٨٧ ، ٦٨٩
يوسف بن عمر الأزرق ؛ ١٣٤
يوسف بن محمد التميمى ؛ ٤٩٧
يوسف بن هارون البطليوسى ؛ ٤٩١
يوسف بن هارون الرمادى ؛ ٧٠٢ ، ٨٠٣
يوليان ، الكونت ؛ ٢٦ ، ٣٣ — ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٠

موسوعة الأندلس

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

تشتمل على سبعة مجلدات هى الآتية :

دولة الإسلام فى الأندلس المجلدان الأول والثانى (الطبعة الرابعة)

دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى (الطبعة الثانية)

عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (مجلدان)

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (الطبعة الثالثة)

الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال (الطبعة الثانية)

ويلحق بهذه المجموعة كتاب :

لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكرى

دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الثاني

دول الطوائف

منذ قيامها حتى الفتح المرابطي

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولى : 4-082-505-977

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

إن عصر الطوائف من بين عصور التاريخ الأندلسى ، أكثرها تشعباً وأوفرها تبايناً واضطراباً ، لاتكاد تجمع بين وحداته المتناثرة جامعة مشتركة ، ولكل وحدة منها ظروفها وسيرتها الخاصة ، ومن ثم كانت الإحاطة بأحداث هذا العصر ، وتنسيقها وربط حلقاتها ، واستخراج خواصها ، من أشق المهام التاريخية .

وهـذا المجلد من «دولة الإسلام فى الأندلس» يتضمن تاريخ هـذا العصر المضطرب — عصر الطوائف — ، وهو يكون «العصر الثانى» من تاريخ الأندلس . وإنه ليسعدنى أن أضعه اليوم بين أيدى القراء ، بعد هذه الأعوام العديدة ، التى انقضت منذ ظهور العصر الأول . على أن هذه الأعوام لم تذهب بحمد الله سدى ، فقد أخرج خلالها العصر الرابع والأخير من «دولة الإسلام فى الأندلس» باسم «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين» ، ولم يبق علينا لاستكمال هذه الموسوعة من التاريخ الأندلسى إلا أن ننجز العصر الثالث منها ، وهو المتضمن «تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين» .

ويشغل عصر الطوائف من تاريخ اسبانيا المسلمة زهاء سبعين أو ثمانين عاماً ، منذ انهيار الخلافة الأندلسية ، على إثر انهيار الدولة العامرية (سنة ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩ م) وتفكك الدولة الأندلسية الكبرى ، وانقسامها إلى وحدات متعددة ، تقوم فى كل وحدة منها دولة أو مملكة من ممالك «الطوائف» ، تزعم لنفسها الاستقلال والرياسة المطلقة ، ولا تربطها بجاراتها أوزميلاتها ، أية رابطة ، إلا أن تكون المنافسة ، أو الحرب الأهلية فى سبيل الغنم والتوسع . وهذا البحر الخضم من المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية الإنتحارية ، هو قوام عصر الطوائف .

وقد مضينا فى تتبع أحداث هذه الحقبة المؤلمة من تاريخ الأندلس ، حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، استجابة لصريخ الطوائف ، ونصرة للأندلس ، وإنقاذاً لها من خطر الفناء الداهم ، الذى لاح لها قوياً منذراً ، ولاسيما بعد سقوط

طليطلة فى أيدى النصارى ، ثم تحول حملات الإنقاذ المرابطية بعد ذلك إلى حملات غازية ، واستيلاء المرابطين على الأندلس تباعاً ، وضمها إلى الإمبراطورية المغربية الكبرى ، وذلك فيما بين سنتى ٤٨٣ — ٥٠٢ هـ (١٠٩٠ — ١١٠٨ م) .

وقد راعينا فى كتابة تاريخ هذا العصر ، أن نتناول ممالك الطوائف ، كل على حدتها ، وأن نستكمل سيرتها منذ قيامها حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، ثم سقوطها فى أيديهم ، ورأينا أن هذه الطريقة تحقق من الدقة والوضوح والاستيعاب ، ما لا يحققه الأسلوب المشترك ، الذى سار على نهجه بعض الكتاب الغربيين . وقد اقتضت هذه الطريقة ، فى بعض الأحيان ، شيئاً من التكرار ، فى هذا الفصل أو ذاك ، ولكنه تكرار بسيط وغير ممل ، فضلا عن ضرورته لاستكمال السياق .

وأود أن أذكر هنا أننى قد زرت سائر قواعد الطوائف ومدنها ، خلال رحلاتى المتوالية فى شبه الجزيرة الإسبانية ، ودرست مواقعها وخواصها ومواصلاتها . وقد كان لهذه الدراسة الإقليمية ، أكبر الأثر فى تيسير فهم طبيعة الحروب الأهلية التى كانت تقوم بين ممالك الطوائف ، ودوافعها الجغرافية ، وتحديد مواقعها ، وكذلك فى تيسير مهمة الكتابة عنها ، واستيعاب بواعثها وتفاصيلها .

وقد رجعت فى كتابة هذا القسم من تاريخ الأندلس إلى مادة غزيرة منوعة . ومن حسن الحظ أن قد انتهت إلينا من كتابات المعاصرين عدة آثار هامة ، فى مقدمتها تاريخ ابن حيان معاصر فتنة الطوائف ومؤرخها قبل كل شىء ؛ وإذا لم يكن هذا التاريخ قد وصل إلينا كله بالذات ، فان ما نقل إلينا منه عن طريق الكتاب اللاحقين ، ولاسيما ابن بسام وابن عذارى يحمل إلينا منه مادة قيمة . وكذلك الفيلسوف ابن حزم ، وهو مثل ابن حيان معاصر للفتنة ، ومتتبع لأدوارها ، ودارس لظواهرها وتطوراتها ، وقد انتهت إلينا منه نبذ تاريخية ، وملاحظات نقدية عديدة عن خواص عصر الطوائف ، تمتاز بدقتها وعميق نظراتها . ويلحق بهذين الكاتبين المعاصرين اثنان آخران عاشا فى أواخر عصر الطوائف ، وشهدا خواتيمه ، هما ابن بسام الشنترينى ، والفتح بن خاقان . ويقدم لنا ابن بسام فى مؤلفه الجامع «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» ، فضلا عما ينقله إلينا من الشذور التاريخية العديدة عن ابن حيان وغيره ، وما يقدمه إلينا من نبذ تاريخية بقلمه ، أروع صور لتاريخ عصر الطوائف الأدبى والاجتماعى ، ومجموعة حافلة

من تراجم أمرائه وأعيانه ووزرائه وكتابه وشعرائه ، ومختارات عديدة من رسائلهم ، ومنثورهم ومنظومهم . وقد كان كتاب «الذخيرة» سواء بما نشر منه ، أو بأجزائه المخطوطة ، من أقيم مصادرنا وأغزرها ، ولاسيما قسمه الثالث ، وهو المتعلق «بالجانب الشرقى من جزيرة الأندلس» . وقد رجعنا فى هذا القسم — وهو ما يزال مخطوطاً — إلى نسخته المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس) . أما الفتح بن خاقان ، فيقدم لنا فى كتابه «قلائد العقيان» تراجم طائفة كبيرة من أمراء عصر الطوائف ووزرائه وفقهائه ، وهو يقدمها إلينا فى أسلوب مسجع متكلف ، بيد أنه ينطوى من آن لآخر ، على بعض المعلومات والحقائق التاريخية ؛ كما يقدم إلينا فى كتابه «المطمح» بضعة تراجم أخرى من تراجم رجالات الطوائف .

ونكتفى فيما يتعلق بالمصادر ، بهذه الإشارة إلى المصادر المعاصرة . وأما المصادر العديدة الأخرى ، التى رجعنا إليها ، من عربية وأجنبية ، ومن مخطوطة ومطبوعة ، فقد سجلناها فى أماكنها ، ثم أثبتناها مجتمعة فى نهاية الكتاب . ونود أن نشير بهذه المناسبة إلى أنه قد أتيح لنا خلال بحوثنا بمكتبة الإسكوريال ، أن نراجع بعض المصادر المخطوطة ، وفى مقدمتها كتاب الحلة السيراء لابن الأبار ، وقد راجعنا فيه سائر التراجم المخطوطة التى حذفها دوزى من النسخة المطبوعة ، وضمنها مصنفه عن بنى عبـاد Historia Abbadidarum ، كما أتيح لنا أن نقف على بعض النصوص والوثائق الهامة ، وذلك بالأخص فى مجموعتين مخطوطتين ، تحمل أولاهما رقم ٤٨٨ الغزيرى ، وهى مجموعة ناقصة من أولها وليس لها عنوان معين ، والثانية رقم ٥٣٨ الغزيرى وعنوانها «مجموعة رسائل تاريخية وأدبية» . وقد انتفعنا بالأخص فى المجموعة الأولى بعدة رسائل مرابطية هامة وردت بها ، وفى مقدمتها رسالة يوسف بن تاشفين عن موقعة الزلاّقة ، وكذلك بعض رسائل أخرى تتعلق بالطوائف ، وبها تصحيحات لبعض الوقائع والحوادث التاريخية . وقد أثبتنا بعض هذه الرسائل فى نهاية الكتاب فى باب الوثائق .

وقد عنيت وفقاً لما سرت عليه فى العصر الأول «من دولة الإسلام فى الأندلس» بكتابة تاريخ اسبانيا النصرانية ، خصوصاً وقد اجتازت فى عصر الطوائف ، عدة تطورات هامة ، وشغلت مركز الصدارة والغلبة ، وبدأت تنفذ

سياسة « الإسترداد » La Reconquista بقوة، ولا سيما بعد استيلائها على مدينة طليطلة، أولى القواعد الأندلسية العظيمة الذاهبة.

كما عنيت بأن أثبت بعض الخرائط التاريخية الموضحة للتطورات الجغرافية، التى جازتها شبه الجزيرة الإسبانية فى عصر الطوائف، وخريطة للإمبراطورية المرابطية الكبرى بعد افتتاح الأندلس.

وإنى لأرجو وأنا أقدم إلى قراء العربية هذا العصر الجديد من « دولة الإسلام فى الأندلس »، أن يتاح لى أن أنجز بعون الله فى المستقبل القريب، عصره الثالث، وهو عصر المرابطين والموحدين، وبذلك تكمل هذه الموسوعة التاريخية الأندلسية بسائر عصورها (١).

القاهرة فى ربيع الأول سنة ١٣٨٠
الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٠

محمد عبد الله عنان

---

(١) وقد ظهر كتاب «عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس» بالفعل فى مجلدين كبيرين (سنة ١٩٦٥)، وبذلك تمت الموسوعة الأندلسية بسائر عصورها.

تصـــدير

مضت عدة أعوام منذ صدرت الطبعة الأولى من كتاب «دول الطوائف» فى سنة ١٩٦٠ متضمناً للعصر الثانى من «دولة الإسلام فى الأندلس»، وشغلت خلال هذه الأعوام بإخراج العصر الثالث من هذه السلسلة ، وهو «عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » وتمت بظهوره بحمـد الله وعونه ، موسوعة الأندلس بعصورها الأربعة .

واليوم نقدم الطبعة الثانية من «دول الطوائف» . وبالرغم من أننا كنا قد استوفينا فى الطبعة الأولى ، سائر ما قصدنا إليه من استيعاب تاريخ هذه الدويلات الأندلسية ،استيعاباً مفصلا ودقيقاً ، فإنه عرضت لنا ، خلال الأعوام الأخيرة طائفة من التعديلات والإضافات رأيناها جديرة بالتدوين ، ومعظمها مستقى من المصادر المخطوطة . وقد تمت هذه الإضافات بالأخص بالنسبة للفصل الثالث من الكتاب الثالث المتعلق بتاريخ مملكة دانية والجزائر ، وبالنسبة للفصل المتعلق بخواص الطوائف السياسية والاجتماعية والحضارية (الخاتمة) . وقد ألحقنا بباب الوثائق وثيقة جديدة هامة ، هى رسالة أبى عامر بن غرسية الشهيرة فى تفضيل العجم على العرب ، وذلك بعد أن ناقشنا محتوياتها ، وأوردنا طائفة من الآراء والتعليقات الخاصة بها ، وذلك فى موضعها عند الكلام على تاريخ مملكة دانية .

وفى اعتقادنا أن الكتاب بصورته الجديدة ، وبما أدخل عليه من الزيادات ، يلقى أضواء جديدة على تاريخ دول الطوائف ، وتاريخ رجالات هذا العصر وأحواله ، وكل ضوء يلقى على تاريخ هذا العصر ، يمهد لنا السبيل لدراسة العصر اللاحق ، وهو عصر الفتح المرابطى والرياسة المرابطية للأندلس .

وقد علمت خلال قيامى بإعداد هذه الطبعة ، من صديقى العلامة المستشرق الإسبانى الكبير الأستاذ أمبروسيو هويثى ميرانده ، أنه يعتزم أن يترجم هذا الكتاب

إلى اللغة الإسبانية ؛ ليتيح للباحثين الإسبان فرصة الاطلاع بلغتهم على النصوص والمصادر العربية ، وعلى وجهات النظر الأخرى . لكى تتسم بحوثهم فى هذا الميدان بالانصاف وسعة الأفق .

وانى لأرجو لصديقى العلامة الكبير التوفيق فى مهمته الجليلة . كما أرجو أن يجد القراء فى هذه الطبعة الجديدة . مزيداً من الضوء على تاريخ الطوائف وأحوال دولهم وعصرهم .

القاهرة فى رجب سنة ١٣٨٩
الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٩

محمد عبد الله عنان

صفحتان من القسم الثالث من كتاب الذخيرة لابن بسام من النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس)

صفحتان من رسالة ابن غرسية الموجودة بالمخطوط رقم ٥٣٨ الغزيري المحفوظ بمكتبة الإسكوريال

تمهيد

نذر الانحلال والتفكك

— ١ —

فى فترة قصيرة لا تتجاوز نصف القرن ، تقلبت الأندلس بين مرحلتين متباينتين كل التباين . فهى فى منتصف القرن الرابع الهجرى وحتى أواخر هذا القرن ، تبلغ ذروة القوة والتماسك ، فى ظل رجال عظام مثل عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، والحاجب المنصور ؛ ثم هى منذ أوائل القرن الخامس ، تنحدر فجأة إلى معترك لامثيل له ، من الاضطراب والفتنة والحرب الأهلية المدمرة ، لتخرج من هذه الغمار بعد فترة قصيرة ، أشلاء لا تربطها أية رابطة مشتركة .

وإنه لمنظر مروع مؤس معاً ، ذلك الذى تقدمه إلينا الأندلس فى تلك الفترة العصيبة من تاريخها ، منظر القواعد والمدن الأندلسية ، التى كانت من قبل تلتئم فى عقد منتظم واسطته مدينة قرطبة العظيمة ، وتسطع فى ظل حكومة الخلافة القوية ، وتلتف حول عرش الخلفاء المؤثل ، وهى تغدو حبات متفرقة منفردة حائرة ، تقوم فى كل منها حكومة محلية هزيلة ، على رأسها متغلب من أهل العصبية أو الرياسة ، يسيطر على أقدارها لحساب نفسه . ثم هى بعد ذلك كله ، تخوض غمار سلسلة لا نهاية لها من الفتن والحروب الأهلية الصغيرة ، وتنسى فى خلال هذه الفترة الخطيرة المؤسية من حياتها أو تتناسى ، قضية الأندلس الكبرى ، قضية الحياة والموت ، أو بعبارة أخرى قضية الصراع ضد العدو الخالد — أعنى اسبانيا النصرانية .

بيد أن انتثار شمل الأندلس على هذا النحو ، لم يكن سوى نتيجة طبيعية للعوامل السياسية والاجتماعية التى توالت فى الحقبة السابقة . بل نستطيع أن نرجع هذه العوامل إلى بداية قيام الدولة الأموية ذاتها ، أعنى إلى عهد عبد الرحمن الداخل . فقد رأينا هذا الزعيم القوى ، بعد أن استولى على تراث الأندلس ، واستتب له الأمر ، يعمل بكل ما وسع للاستئثار بالسلطة ، وإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم الزعامات والرياسات العربية المحلية . وقد حذا خلفاؤه من أمراء بنى أمية حذوه

فى تتبع العصبية العربية والقضاء عليها . وقد بلغ هذا الصراع بين السلطة المركزية ، وبين المتنزين عليها ، ذروته فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، إبان اضطرام الفتنة الكبرى ، وتفاقم ثورة المولدين والعرب ، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) ، حينما اندلع لهيب الثورة ، فى كل ناحية من نواحى الأندلس ، وظهر الزعماء العرب والبربر فى معظم النواحى ، واستقلت معظم الكور والمدن الكبيرة عن قرطبة . وقد استطاع عبد الله أن يخمد الثورة فى كثير من النواحى ، وأن ينقذ سلطان بنى أمية من الخطر الداهم . ثم جاء من بعده عبد الرحمن الناصر ، فأتم المهمة ، وقضى على جذور الفتنة من أساسها ، وعمل على تدعيم سلطانه بكل الوسائل ، فاشتد فى مطاردة القبائل والأسر العربية ذات البأس والعصبية ، وقضى على رياستها وزعامتها المحلية ، ومال إلى اصطناع الموالى والصقالبة ، وأولاهم النفوذ والثقة ، فاستأثروا فى عهده بأرفع المناصب فى القصر وفى الحكومة والجيش ، وكان من جراء ذلك أن انصرفت القبائل العربية عن الولاء له ، وكان تخاذلها فى نصرته يوم موقعة الخندق الشهيرة (٣٢٧ هـ) ، يرجع من وجوه كثيرة ، إلى سخط الزعماء العرب لسياسته ، فى إذلالهم وسحق نفوذهم ومكانتهم .

ولم يحد المنصور بن أبى عامر ، حين استولى على السلطان ، عن هذه السياسة فى تدعيم الحكومة المركزية ، وسحق كل سلطة محلية . وبالرغم من أنه ينتمى إلى بيت من أكرم البيوتات العربية ، فإنه عمل على سحق العصبية العربية ، وعمل فى نفس الوقت على سحق عصبية الفتيان الصقالبة ، ولم يستبق منهم إلا أقلية مخلصة . وآثر أن يعتمد فى الحملة على ولاء البربر ، فكان منهم معظم قادة الجيش ، وكان منهم خلفاء المنصور وعماله فى المغرب . وفضلا عن ذلك فقد كان من جراء نظام الطغيان المطلق الذى فرضه المنصور على الأندلس ، قرابة ثلاثين عاماً ، أن توارت معظم الزعامات والعناصر النابهة فى المجتمع الأندلسى من الميدان ، ولكنها لبثت فى مكامنها وعزلتها ، ترقب فرص الظهور والعمل .

ومن جهة أخرى فقد كان هذا النظام المطلق ، الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، يخفى فى ثنياته كثيراً من عوامل الهدم والانتقاض . فقد كانت سائر العناصر التى تعاونت فى إقامته وتدعيمه ، يتربص بعضها ببعض ، ويخشى كل منها على مركزه وسلطانه . وكانت ثمة معارك خفية تجرى بين البربر

وخصومهم من الصقالبة ، في القصر وفي الحكومة . وكان بنو أمية يميلون إلى الصقالبة مواليهم القدماء ، ويكرهون البربر ، إذ كانوا سنداً للمنصور في استلاب سلطانهم ، وكانت البطون العربية تكره هؤلاء وهؤلاء ، ولكنها ترى في البربر خصمها الأساسي ، وهو من آثار الخصومة القديمة ، التي لبثت تضطرم بين العنصرين منذ عصر الفتح .

وهكذا اجتمعت هذه العوامل لتحدث أثرها في الوقت الملائم ، واجتمعت في ظلها العناصر الناقمة من سائر الطبقات . فلما وقع الانفجار ، وانهارت دعائم الطغيان العامري ، ظهرت في ميدان النضال ثلاث قوى : بنو أمية يلتفون حول علم خلافتهم وتراث بيتهم المغصوب . وطوائف البربر تحاول الاحتفاظ برياستها وامتيازاتها . والأسر العربية التي اضطهدت وأبعدت عن الميدان ، تحاول استرداد مكانتها وزعامتها القديمة . وظهرت إلى جانب هذه القوى الثلاث ، طائفة أقل شأناً ، ولكنها استطاعت أن تنتزع نصيبها من أسلاب السلطة ، وهي طائفة الفتيان الصقالبة أو الفتيان العامريين .

ولم يصمد بنو أمية في ميدان النضال طويلا . ذلك انه لم تكن لهم ، بعد العوامل الأدبية ، التي جمعت بعض طوائف الشعب تحت لوائهم ، قوة مادية يعتد بها ، ومن ثم فإنه لم تمض بضعة أعوام (٣٩٩ — ٤٠٧ هـ) تولى الخلافة خلالها محمد ابن هشام المهدي ، فسليمان المستعين ، فهشام المؤيد ، ثم سليمان للمرة الثانية ، حتى استطاع بنو حمود البربر أن ينتزعوا الخلافة ، وأن يتزعموا حكومة قرطبة لفترة قصيرة . ثم تطورت الحوادث بسرعة ، وعاد بنو أمية فاستردوا الخلافة ، وحكموا في قرطبة عدة أعوام أخرى (٤١٤ — ٤٢٢ هـ) ، وتولى الخلافة منهم المرتضى . فالمستظهر . فالمستكفي بالله . فهشام المعتد بالله ، وهو آخرهم . وبخلعه في أواخر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ، تختتم الدولة الأموية رياستها في الأندلس بصورة نهائية ، بعد أن دامت منذ قيام عبد الرحمن الداخل في سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦م) مائتين وأربعة وثمانين عاماً .

وهكذا اختفت القوة الأولى — أعني بني أمية — من ميدان النضال بسرعة ، وقد كان واضحاً منذ البداية ، أنها لم تكن قوة ذات شأن ، ولم تكن سوى رمز تحيط به هالة باهتة من الجلال القديم ، ومن الاعتبارات الشرعية والأدبية . ولم تحقق ظفرها القصير المضطرب ، إلا بالاعتماد على قوى وعناصر أخرى ، ذات

ولاء مريب قلّب . وتركت بعد اختفائها من المَيدان القوتين الأخريين ، وهما البربر والعصبية العربية ، وجهاً لوجه .

واستطاع البربر بزعامة بنى حمود ، أن يسيطروا زهاء ثلث قرن ، على المثلث الجنوبى فى شبة الجزيرة الإسبانية ، وأن يقيموا لهم ملكاً وخلافة ، آناً بقرطبة وإشبيلية ، ثم بمالقة والجزيرة . وكانت إمارة باديس بن حبوس الصنهاجى بغرناطة ، تحمى الجناح الشمالى الغربى ، لتلك الخلافة البربرية ، فلما انتهت دولة بنى حمود سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) كان البربر أثناء ذلك ، وبعد أن خسروا معركة قرطبة ، قد بسطوا سلطانهم على معظم القواعد الواقعة جنوبى نهر الوادى الكبير ، وامتداده لنهر شنيل ، مثل قرمونة وإستجة ومورور ، وأركش ، ورندة ، ومالقة ، وأن ينتزعوا الرياسة فى نفس الوقت ، فى بعض المناطق الشرقية والغربية الشمالية ، على نحو ما نفصل بعد .

وأسفر النضال بين هذه القوى الخصيمة ، بعد فوز البربر برياسة المناطق التى سبق ذكرها ، عن فوز الأسر العربية ، بمعظم القواعد الأندلسية الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وألمرية . واستطاع الفتيان العامريون أن يبسطوا سلطانهم على معظم المناطق الشرقية وعلى ألمرية لفترة قصيرة .

— ٢ —

وأضحت الأندلس فى أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، تقدم إلينا ذلك المنظر المدهش الذى أشرنا إليه فيما تقدم : منظر الصرح الشامخ ، الذى انهارت أسسه ، وتصدع بنيانه ، وقد اقتصت أطرافها ، وتناثرت أشلاؤها ، وتعددت الرياسات فى أنحائها ، لا تربطها رابطة ، ولا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة ؛ لكن تفرق بينها بالعكس ، منافسات وأطماع شخصية وضيعة ، وتضطرم بينها حروب أهلية صغيرة ، والأندلس خلال ذلك كله تفقد مواردها وقواها القديمة تباعاً ، ويحدق بها خطر الفناء من كل صوب .

هذه الدول الصغيرة ، المتخاصمة المتنابذة ، التى قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى ، تعرف بدول الطوائف ، ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف وهم ما بين وزير سابق ، وقائد من ذوى النفوذ والصحب ، وحاكم لإحدى المدن ، وشيخ للقضاء ، وزعيم من ذوى المال والحسب . وقد ظهروا جميعاً إبان

الفتنة ، وبسط كل سلطانه ، على ما أتيح له من المدن والأراضى ، وأخذ يعمل على تدعيم ذلك السلطان وتوسيعه ، وتأسيس الملك لبنيه .

وليس أبلغ تعبيراً فى وصف حال الأندلس عقب الفتنة وقيام دول الطوائف من تلك النبذة التى يقدمها إلينا ابن الخطيب حين يقول :

«وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق ، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطة المجاورة لعبّاد الصليب ، ليس لأحدهم فى الخلافة إرث ، ولا فى الإمارة سبب ، ولا فى الفروسية نسب ، ولا فى شروط الإمامة مكتسب . اقتطعوا الأقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العمالات والأمصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الألقاب ، وكتبت عنهم الكتاب الأعلام ، وأنشدهم الشعراء ، ودونت بأسمائهم الدواوين ، وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بأبوابهم العلماء ، وتوسلت إليهم الفضلاء . وهم ما بين مجبوب ، وبربرى مجلوب ، ومجند غير محبوب ، وغفل ليس فى السراة بمحسوب ، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائراً ، ولا لحزب الحق مغايراً ، وقصارى أحدهم يقول : «أقيم على ما بيدى ، حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه» ، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ، ولا لقى خيراً لديه . ولكنهم استوفوا فى ذلك آجالا وأعماراً ، وخلفوا آثاراً ، وإن كانوا لم يبالوا اغتراراً ، من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكفٍ ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل ، كما قال الشاعر :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخاً صَوْرَةَ الأسد(١)

وما أشار به ابن حيان ، معاصر الفتنة التى أسفرت عن قيام دولهم ومؤرخها ، إلى تلك الفتنة ، وإلى هاته الدول بأسلوبه القوى اللاذع ، إذ يقول فى مقدمة تاريخه الكبير :

«فركبت سنن من تقدمنى ، فيما جمعت من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ، ونظمته وكشفت عنه ، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياستهم المنفرة ،

---

(١) أعمال الأعلام (طبع بيروت) ص ١٤٤ . وقائل هذين البيتين هو أبو الحسن بن رشيق القيروانى . وتروى الشطرة الثانية من البيت الأول بصورة أخرى هى : «أسماء مقتدر فيها ومعتضد» (المعجب للمراكشى ص ٤) .

وأسباب كبار الأمراء المنتزين فى البلاد عليهم ، وسبب انتقاض دولهم ، حال فحال بأيديهم ، ومشهور سيرتهم وأخبارهم ، وما جرى فى مددهم وأعصارهم ، من الحروب والطوائل ، والوقائع والملاحم ، إلى ذكر مقاتل الأعلام والفرسان ، ووفاة العلماء والأشراف ، حسب ما انتهت إليه معرفتى ونالته طاقتى »(١) .

ونستطيع القول بأن تمزق الأندلس على هذا النحو ، كان ضربة ، لم تنهض الأندلس من آثارها قط ، بل كان بداية عهد الانحلال الطويل الذى لبثت تتقاب فيه بعد ذلك زهاء أربعة قرون أخرى . وبالرغم من أن عهد الطوائف الحقيقى ، لم يطل أكثر من سبعين عاماً ، وبالرغم من أن الأندلس ، قد التأم شملها بعد ذلك فى ظل المرابطين ثم الموحدين من بعدهم ، وبالرغم من أنها استطاعت أن تسترد تفوقها العسكرى القديم فى شبه الجزيرة الإسبانية فى فترات قصيرة : بالرغم من ذلك كله ، فإن الأندلس لم تستطع أن تسترد وحدتها الإقليمية القديمة ، ولا تماسكها القديم قط ، بل لبثت بالعكس ، خلال صراعها الطويل مع اسبانيا النصرانية ، تفقد قواها ومواردها تباعاً ، وتنكمش رقعتها الإقليمية تدريجياً . حتى إذا كان منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، رأينا رقعة الوطن الأندلسى ، ترتد إلى ما وراء نهر الوادى الكبير ، وتنحصر فى مملكة غرناطة الصغيرة ، ورأينا قواعد الأندلس القديمة الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وغيرها ، تغدو مدناً إسبانية نصرانية ، ويغدو ميزان القوى فى شبه الجزيرة الإسبانية بيد مملكة قشتالة الكبرى .

— ٣ —

والواقع أن تاريخ الطوائف ، يبدأ منذ سقوط الدولة العامرية ، فى نهاية المائة الرابعة . ذلك أن قيام الخلافة الأموية ، خلال الفترة القصيرة التى عاشتها فى أعقاب الفتنة ، لم يكن سوى حادثاً محلياً ، ولم يتعد أثره الفعلى قرطبة وأرباضها . وقد رأينا كيف استطاعت الدولة الحمودية ، أن تقيم سلطانها فى نفس الوقت فى قرطبة وإشبيلية ثم فى مالقة والجزيرة ، وكيف قامت كذلك دولة بنى مناد البربرية فى غرناطة ، وسيطرت عناصر أخرى من البربر ، فى معظم القواعد الأندلسية الواقعة جنوبى الوادى الكبير . وإلى جانب هذه الدول البربرية ، التى قامت منذ أوائل المائة

(١) نقله ابن بسام فى الذخيرة (القسم الأول – المجلد الثانى ص ٨٨) .

الخامسة ، كانت ثمة دول أو دويلات عديدة أخرى ، تتكون تباعاً فى معظم قواعد الأندلس الأخرى الشرقية والغربية والوسطى ، فى الوقت الذى كانت تقوم فيه خلافة قرطبة ، بيد أنها لم تنزع ولاءها الرسمى للحكومة المركزية ، ولم تتخذ طابعاً واضحاً من الاستقلال المحلى ، إلا بعد سقوط الخلافة النهائى .

ونحن إذا ألقينا نظرة على الخريطة ، ألفينا رقعة الوطن الأندلسى الكبرى ، وقد انقسمت عقب الفتنة من الناحية الإقليمية إلى ست مناطق رئيسية : الأولى منطقة العاصمة القديمة قرطبة وما إليها من المدن والأراضى الوسطى ، والثانية منطقة طليطلة أو الثغر الأوسط ، والثالثة إشبيلية وغربى الأندلس وما إليها من الأراضى حتى المحيط الأطلنطى ، والرابعة غرناطة وريُّه والفرنتيرة ، والخامسة منطقة شرقى الأندلس أو منطقة بلنسية وما إليها شمالا وجنوباً ، والسادسة منطقة سرقسطة والثغر الأعلى . وهذا كله إلى عدد كبير من المدن والقواعد الأندلسية التى استقلت بنفسها ، واعتبرت إمارات قائمة بذاتها داخل منطقة ، أو أخرى ، ثم اختفت تباعاً بالانضمام أو الخضوع إلى إحدى الإمارات الأخرى .

وهكذا نجد أن كل منطقة من المناطق المشار إليها ، تضم من الناحية الإقليمية إمارة أو أكثر من إمارات الطوائف ، وتختلف من حيث الرقعة ، والأهمية السياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية .

وإذا لم تكن قرطبة ، من حيث رقعتها الإقليمية ، ومواردها الاقتصادية والعسكرية ، أهم دول الطوائف ، فقد كانت من الناحية الأدبية بين دول الطوائف ذات أهمية خاصة ، نظراً إلى كونها كانت مقر الخلافة ، وقاعدة الحكومة المركزية ؛ وفى وسعها من الناحية الأدبية أيضاً ، أن تدعى الولاية — الاسمية على الأقل — على باقى الإمارات والمدن الأندلسية الأخرى ، وهو ما ادعته حكومة قرطبة المحلية بالفعل . ومن ثم فقد رأينا لهذه الاعتبارات الأدبية والتاريخية ، أن نبدأ الحديث عن دول الطوائف بالكلام عن إمارة قرطبة .

الكتاب الأول

قرطبة

ودول الطوائف فى الأندلس الغربية والوسطى

الفصل الأول

دولة بنى جهــور فى قرطبة

نهاية الخلافة الأموية ، أبو الحزم بن جهور واختياره لرياسة الحكومة . نشأته ونباهة بيته . ولايته قرطبة . حكومة الجماعة . أوضاعها ورسومها . مثيلاتها فى الجمهوريات الإيطالية ، سياسة ابن جهور وإجراءاته الإدارية والمالية . موقفه من أسطورة ظهور هشام المؤيد . وفاته وقيام ولده أبى الوليد مكانه . وزراؤه . ابن حيان وابن زيدون . محنة ابن زيدون وفراره . ابن السقاء يتولى الأمور . مصرعه . الخلاف بين عبد الملك وعبد الرحمن ولدى أبى الوليد . المأمون بن ذى النون يحاول غزو قرطبة . استنصار عبد الملك بابن عباد . غدر ابن عباد واستيلاء جنده على المدينة . نهاية الدولة الجهورية . موقف المؤرخ ابن حيان وتعليق ابن بسام عليه .

حدثنا فيما تقدم ، فى الفصل الثانى من الكتاب الرابع من « دولة الإسلام فى الأندلس» ، عما حدث من تقلب خلافة قرطبة بين أعقاب بنى أمية ، وبين المتغلبين من بنى حمود . وكيف أنه عندما غادر علىّ بن حمود قرطبة فى المحرم سنة ٤١٧ هـ إلى مالقة ، ثار القرطبيون وفتكوا بالحامية البربرية ، وأجمعوا على رد الأمر لبنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور .

وفى ظل هذا التحول ، بويع بالخلافة هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر (ربيع الأول ٤١٨ هـ) ، وتلقب بالمعتد بالله ، وقدم من منفاه فى ألبونت إلى قرطبة فى أواخر سنة ٤٢٠ هـ ، ولبث فى الخلافة زهاء عامين ، أساء فيهما السيرة ، حتى سخط عليه أهل قرطبة وقرروا خلعه ، فغادر المدينة ناجياً بنفسه وولده (ذو القعدة ٤٢٢ هـ) . وأجمع القرطبيون بعد فشل هذه التجربة الأخيرة ، على إلغاء الخلافة والتخلص نهائياً من بنى أمية ، وإجلائهم جميعاً عن المدينة . وكان عميدهم ورائدهم فى ذلك هو أيضاً أبو الحزم بن جهور ، وكان هذا الوزير القوى النابه ، يستأثر نظراً لماضيه التالد ، ورفيع مكانته ، ووفرة حزمه ونضجه ، بمحبة الشعب وثقته وتأييده .

وغدت قرطبة على أثر ذلك دون خلافة ودون حكومة . وكانت الأنظار كلها تتطلع إلى ذلك الزعيم ، الذى عاون غير مرة برأيه وحسن تدبيره ، فى

مواجهة الأزمات وصون المدينة من شر الدمار والفوضى ، ليتولى الحكم وتدبير الأمور فى تلك الآونة العصيبة . وهكذا اختير ابن جهور ، باجماع الرأى ، للاضطلاع بتلك المهمة الدقيقة .

وينتمى ابن جهور إلى بيت من أعرق بيوتات الموالى الأندلسية . وهو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن أحمد بن محمد ، وكان جدهم الداخل إلى الأندلس ، يوسف بن بخت بن أبى عبدة الفارسى ، مولى عبدالملك بن مروان . دخل فى كنف الطالعة البلجية ، وكان من أنصار عبد الرحمن الداخل ، ثم ولاه عبد الرحمن حجابته ، ثم تولى القيادة فى عهد ولده هشام . وتولى أبناؤه بعد ذلك مناصب الوزارة والقيادة تباعاً فى ظل امراء بنى أمية وخلفائهم . فتولى حفيده عبد الملك بن جهور الوزارة للأمير عبد الله بن محمد ، ثم كان من وزراء الناصر لدين الله . وتولى ولده جهور بن عبد الملك البختى أيضاً الوزارة فى عهد الناصر . ووليها كذلك فى أواخر عهد الناصر ، ولداه مروان بن جهور بن عبد الملك ، ومحمد بن جهور بن عبد الملك . ومحمد هذا ، وهو أبو الوليد ، هو والد أبى الحزم جهور ، وقد تولى الوزارة أيضا ، فى عهد المنصور بن أبى عامر . ثم تولى ولده أبو الحزم جهور الكتابة لعبد الرحمن المنصور فى نهاية المائة الرابعة ، حتى كانت الفتنة وانهيار الدولة العامرية ، وعاصر الحوادث والانقلابات العاصفة ، التى شهدتها عاصمة الخلافة من ذلك الحين . وتولى خلال ذلك الوزارة لعلى بن حمود مؤسس الدولة الحمودية . وقد نقم عليه واعتقله وصادر أمواله . ولما ثار أهل قرطبة بعد ذلك ببنى حمود وأنصارهم من البربر ، كان عميدهم فى ذلك حسبما تقدم هو أبو الحزم جهور . وكان جهور خلال ذلك كله يتمتع بمكانة بارزة فى الزعامة الشعبية ، حتى غدا فى نهاية الأمر «شيخ الجماعة» وزعيم المدينة الحقيقى . وكان كثيراً ما يؤثر برأيه فى تطور الشئون والأحوال ، فى تلك الأعوام الأخيرة ، التى كانت تحتضر فيها خلافة قرطبة ، وتسير سراعاً إلى نهايتها المحتومة .

وألفى جهور نفسه ، بعد أن أجمع الشعب على اختياره ، رئيساً لحكومة قرطبة الجديدة . وكانت هذه الحكومة التى قامت على أنقاض الخلافة الأموية ، تبسط سلطانها على رقعة متوسطة من الأندلس ، تمتد شمالا حتى جبل الشارات (سيرا مورينا) ، وشرقاً حتى منابع نهر الوادى الكبير . وغرباً حتى قرب إستجة

وجنوباً حتى حدود ولاية غرناطة ، وتشمل من المدن عدا قرطبة ، جيان وأبّدة وبيّاسة والمدور وأرجونة وأندوجر .

بيد أن جهور كان رئيس حكومة من نوع خاص ، فانه لم ينفرد بالرياسة ولم يستأثر بتدبير الأمور والبت فيها ، ولكنه جمع حوله صفوة الزعماء والقادة ، يتحدث باسمهم ، أو باسم «الجماعة» ، ويرجع إليهم فى الأمور ، ويصدر القرارات باسمهم ؛ فاذا طُلب منه مال أو مضاء أمر من الأمور ، قال ليس لى عطاء ولا منع إنما هو «للجماعة» وأنا أمينهم ، وإذا رابه أمر عظيم ، أو اعتزم تدبير مسألة خطيرة ، استدعاهم وشاورهم ، وإذا خوطب بكتاب ، لاينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء وهكذا كان جهور يتحدث فى كل أمر ، ويمضى كل أمر لا باسمه ، ولكن باسم الجماعة . وقرن جهور ذلك كله باجراء بارع آخر ، هو أنه لم يفارق رسم الوزارة ولم ينتقل من داره إلى قصور الخلفاء ، واكتفى بأن رتب عليها الحجاب والحشم ، على ما كانت عليه أيام الخلافة ، وجعل نفسه ممسكا للموضع إلى أن يجىء مستحق يتفق عليه فيسلم إليه ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليه (١) ، ولم يتخذ أى عنوان أو إجراء يبرز رياسته ، أو يحيط نفسه بأى مظهر من مظاهر الأبهة والفخامة ، بل لبث على سابق رسمه ، من الانزواء والتواضع ، والقناعة وخفض الجناح ، ومعاملة الجميع بالرفق والحسنى .

وقد عُرفت هذه الحكومة الفريدة فى صحف التاريخ الإسلامى «بحكومة الجماعة» . وسواء أكان الباعث لدى الوزير جهور فى إقامتها على هذا النحو ، يرجع إلى ضرب من بعد النظر والدهاء البارع ، يحاول به جمع الكلمة ، واتقاء منافسة الزعماء الأقوياء ، أم كان راجعاً حقاً إلى محبته للشورى والتضامن ؛ فإنها كانت بلا ريب نموذجاً بديعاً من حكم الشورى أو حكم الأقلية الأرستقراطية ، فى عصر سادت فيه نزعة الرياسة الفردية والحكم المطلق . وكان من أبرز مزاياها أن يستطيع الرئيس أن يتنصل من المسئولية ، وأن يستظل بلواء الجماعة ، إذا ما ساءت الأمور ، وأن يحرز الثناء وجميل الذكر ، إذا حسنت العواقب .

ويمكننا أن نتبين ملامح هذا النوع من حكم «الجماعة» أو حكم الأقلية الأرستقراطية الذى ابتدعه أبو الحزم بن جهور ، فى بعض الحكومات التى قامت

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) ص ٢٧ .

فيما بعد ، فى بعض الولايات الإيطالية أيام عصر الإحياء مثل حكومة «الكومونى» فى چنوة ، وحكومة «السنيوريا» فى فلورنس أيام حكم آل مديتشى . وقد كان هذا النظام فى الواقع أقرب النظم إلى حكومة الجماعة ، فقد كان آل مديتشى ، يحكمون وفق إرادتهم حكماً مطلقاً ، ولكن يحتجبون فى نفس الوقت وراء هيئة منتخبة من النبلاء أو الزعماء الذين يعملون بوحيهم تسمى Balie أو Signoria أى جماعة الحكام أو السادة . ولسنا نود أن نقول إن هذه الحكومات الإيطالية ، كانت مأخوذة أو مقتبسة من حكومة الجماعة القرطبية ، فليس ثمة دليل على ذلك ، ولكنا نود أن نقول إنها قامت فى ظروف مشابهة ، ولمثل البواعث التى أوحت بقيامها فى قرطبة .

وسلك جهور فى حكومته مسلك الأصالة والحزم ، وكان أول همه أن يقمع الشغب ، وأن يوطد دعائم النظام والأمن ، فصانع زعماء البربر واستمالهم بالرفق وخفض الجناح ، اتقاء لدسائسهم وتهدئة لثورات أطماعهم ، فحصل على محبتهم وسلمهم ، وجعل أهل الأسواق جنداً ، وفرق السلاح فيهم ، وفى البيوت ، حتى إذا دهم أمر فى الليل أو النهار ، استطاع أهل المدينة الدفاع عن أنفسهم ، وأصلح القضاء ، وعمل على حفظ العدالة بين الناس ، وقضى على كل مظاهر البذخ والإسراف ، وخفف أعباء المكوس ، وعمل على حفظ الأموال العامة ، ولا سيما الأموال السلطانية ، حيث عهد بتحصيلها وحفظها ، إلى رجال ثقاة يشرف عليهم بنفسه ، وعمل على تشجيع المعاملات والتجارة ، ومن ذلك أن فرق الأموال على التجار لتكون بيدهم دينا عليهم ، يستغلونها ويحصلون على ربحها فقط ، وتحفظ لديهم ، ويحاسبون عليها من وقت إلى آخر . وكان من نتائج هذه الإجراءات ، أن حل الرخاء مكان الكساد ، وازدهرت الأسواق وتحسنت الأسعار ، وغلت الدور ، ونمت الموارد . ويبدى ابن حيان ، وقد كان من شهود هذا التحول ، دهشته من تحقق الأمن والنظام والرخاء على هذا النحو فى قوله : «فعجب ذو التحصيل للذى أرى الله فى صلاح الناس من القوة ، ولما تعتدل حال ، أو يهلك عدو ، أو تقو جباية ، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون» . ومع ذلك فإن ابن حيان يلاحظ أن جهوراً لم يفته خلال ذلك كله أن يستغل الظروف ، وأن يعمل على جمع المال «حتى تضاعف ثراؤه وصار لا تقع العين على أغنى منه» ، وإن كان

يقرن ذلك «بالبخل الشديد ، والمنع الخالص ، الذى لولاهما ما وجد عائبه فيه طعناً ، ولكمل لو أن بشراً يكمل» (١) .

واستمرت حكومة الجماعة هذه برياسة أبى الحزم جهور تدبر الأمور فى قرطبة وأراضيها ، زهاء اثنى عشرة عاماً ، وقد سادت بها السكينة والدعة والأمن ، وجهور لا يتحول عن خطته فى التزام المسالمة والتواضع والتقشف ، والشعب القرطبى يؤيده بطاعته ومحبته . وكانت قرطبة فى أيامه ملاذ الزعماء اللاجئين والرؤساء المخلوعين ، وكان من هؤلاء عبد الله بن سابور صاحب أشبونة من أعمال الغرب . حينما انتزعها منه ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فإنه لجأ إلى قرطبة ، وأقام بها آمناً فى كنف جهور ، وكذلك عبد العزيز البكرى صاحب ولبة وجزيرة شلطيش ، فانه التجأ إليها فيما بعد ، حينما حاصره ابن عباد ونزعه سلطانه ، والتجأ إليها كذلك القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء حين استولى عليها ابن عباد(٢) .

وكان للرئيس جهور موقف خاص من أسطورة ظهور هشام المؤيد بالله وإعلانها على يد القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية . ذلك أن ابن عباد ، حينما شعر بخطورة مطامع بنى حمود فى رياسة جنوبى الأندلس ، واتشاحهم بثوب الخلافة ، وحينما أرهقه يحيى بن على بن حمود (المعتلى) بغاراته المتوالية ، رأى أن يدحض دعاوى أولئك الحموديين ، فأعلن فى سنة ٤٢٦ هـ ، أن الخليفة هشام المؤيد ، حى لم يمت ، وأظهر بالفعل شخصاً يشبه هشاماً كل الشبه ، وبايعه بالخلافة ودعا الناس للدخول فى طاعته ، وبعث بذلك إلى رؤساء الأندلس ، فاستجاب بعضهم للدعوة ، وكان منهم عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، ومجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية ، والوزير أبو الحزم بن جهور رئيس قرطبة . وعقدت البيعة فى قرطبة بالفعل لهشام المؤيد . والظاهر أن جهوراً لم يكن يؤمن حقاً بصحة هذه الدعوى ، ولكنه استجاب لها ، وأقرها لنفس البواعث التى حملت ابن عباد على انتحالها ، وهو العمل على دفع خطر الحموديين . ويقال إن جهوراً فوق ذلك ، قد اصطنع شهادات لتأييد صحتها . بيد أنه ندم على ذلك فيما بعد ، حينما طلب إليه ابن عباد أن يدخل فى طاعته ، وأعلن تبرؤه من ذلك الدعى(٣) .

(١) الذخيرة القسم الأول – المجلد الثانى ص ١١٦ و ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٣ و ٢٣٧ و ٣٤٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩٨ و ٢١٠ .

وتوفى الرئيس أبو الحزم جهور بن محمد فى المحرم سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٤ م) وقرطبة رافلة فى حلل السلم والرخاء . فخلفه فى الرياسة ابنه أبو الوليد محمد ابن جهور ، فحاول فى البداية أن يقتفى سياسة أبيه ، وأقر الحكام وأرباب المراتب فى مناصبهم ، وكان من معاونيه فى ديوان السلطان المؤرخ الكبير أبو مروان بن حيان ، حسبما يذكر لنا فى حديثه عن الدولة الجَهْورية ، وكان من محاسن الدولة الجهورية أيضاً ، أن وزرلها الكاتب والشاعر الكبير أبو الوليد بن زيدون . وكان فى بداية عهده بالخدمة قد وقع له حادث اصطدم فيه بأحد حكام قرطبة ، فقضى عليه بالسجن ، فاستغاث بأبى الوليد فى حياة والده أبى الحزم ، فشفع له وأقاله من عثرته . فلما ولى أبو الوليد الأمر بعد والده قرب إليه الشاعر ، وعهد إليه بالنظر على أهل الذمة لبعض الأمور العارضة . ثم رفع مكانته وضاعف جرايته ، وعهد إليه بالسفارة بينه وبين رؤساء الأندلس . والترسل إليهم . فلمع فى منصبه ، واشتهر ببارع رسائله ومحاوراته ، كما اشتهر بروائع نظمه . والظاهر أن ابن زيدون كان يحيا حياة مضطربة تثير من حوله الشبهات ، فهو من جهة قد هام بحب ولادة ابنة الخليفة الأموى السابق المستكفى ، وكانت قد ظهرت فى مجتمع قرطبة بهوها الأدبى ، الذى يزينه جمالها وشعرها الرائق ، وأحدث هيامه بها وشعره المتيم فيها ، حول سيرته الوزارية نوعاً من الفضيحة الغرامية ، ومن جهة أخرى فانه يبدو أن خصوم ابن زيدون فى الحكومة وفى المجتمع ، قد استطاعوا أن يصوروه لدى بنى جهور ، رجلا ناقص الولاء يجيش بمشاريع لا تتفق مع أهدافهم ، وعلى أى حال فقد سخط الوزير أبو الوليد على وزيره الشاعر وألقاه إلى السجن . وأنفق ابن زيدون فى ظلمات السجن عاماً وبعض عام ، وهو يستعطف الوزير بقصائد ورسائل تذيب الجماد دون أن يتأثر بها . وفى النهاية حزم أمره على الفرار ، وفر من سجنه بمعاونة بعض أصدقائه الأوفياء ، وقصد إلى إشبيلية (سنة ٤٤١ هـ — ١٠٤٩ م) والتجأ إلى أميرها المعتضد بن عباد ، فولاه وزارته . وألقى إليه مقاليد الأمور ، حسبما نذكر بعد فى موضعه (١) .

(١) إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٥٩ و ٦١ . وراجع الذخيرة المجلد الأول من القسم الأول ص(٢٩٠ و ٢٩١ و ٣٥٧) حيث يورد أقوال ابن حيان فى علاقة ابن زيدون بدولة الجهاورة وهى أقوال غامضة لا تتضح منها حقيقة أدوار هذه العلاقة . ولم يشر ابن حيان من جهة أخرى إلى نكبة ابن زيدون التى ألقى بسببها إلى السجن ولا إلى فراره . ولكن الفتح يشير إلى ذلك صراحة فى القلائد (ص ٧١) وقد أورد ابن بسام كثيراً من قصائده التى وجهها فى محنته إلى ابن جهور .

وكان ابن زيدون أيام تمتعه بثقة بنى جهور . قد أنشأ فى مديحهم عدة من غرر قصائده ، ومنها الأبيات الآتية :

لولا بنو جهور ما أشرقت بهم ... غيد السوالف فى أجيادها تلمع
قوم متى تحتفل فى وصف سؤددهم ... لا يأخذ الوصف إلا بعض ما يدع
أبو الوليد قد استوفى فى مناقبهم ... فللتفاريق منها فيه مجتمع
من مهذب أخلصته أوليته ... كالسيف بالغ فى أخلاصه الصنع
إن السيوف إذا طاب جوهرها ... فى أول الطبع لم يعلق بها الطبع

واستمرت الأحوال على انتظامها حيناً ، ولكن أبا الوليد ما لبث أن تنكب عن سياسة أبيه ، فقدم على الناس ولده عبد الملك ، وأخذ عليهم العهد له ، فأساء عبد الملك السيرة ، واستبد بالسلطة . وأفسح المجال للأوغاد ، وأهمل الشئون ، وتسمى بذى السيادتين المنصور بالله . الظافر بفضل الله . وخطب له على المنابر ، وذلك خلافاً لما جرى عليه أبوه وجده من قبل ، من الاعتصام بالحلم والتواضع ، والزهد فى مظاهر السلطان . وفى سنة ٤٤٠ هـ ، فوض عبد الملك النظر فى الأمور إلى وزير أبيه إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السقاء ، فضبطها وأصلحها ، وعمل على تهدئة الأحوال ، وتوطيد الأمن والنظام ، واستمر ابن السقاء فى النظر مدة طويلة . وكان المعتضد ابن عباد أمير إشبيلية يشعر بأن استمرار هذا الوزير القوى على هذا النحو فى رياسة حكومة قرطبة ، يحول دون تحقيق مشاريعه فى الاستيلاء عليها ، فسعى لدى عبد الملك فى حق ابن السقاء ، وحذره من أطماعه واستئثاره بالسلطة وأغراه بقتله . وكان عبد الملك سيىء الرأى والتقدير ، فاستمع لتحريض ابن عباد ، وقتل وزيره فى كمين دبره (٤٥٥ هـ — ١٠٦٣ م)(١) .

وهنا بدأت عوامل الفساد تدب إلى جهاز الحكم ، وزاد فى سوء الحال ما حدث من التنافس بين عبد الملك وأخيه الأكبر عبد الرحمن . وكان أبو الوليد يؤثر ولده الأصغر عبد الملك بمحبته ، وكان عبد الرحمن من جانبه يدعى أنه أحق بالولاية من أخيه ، فوقع التنافس بين الأخوين . وأخذ كل منهما يستميل طائفة من الجند . ويؤلف الأحزاب لمناصرته ، فلما تفاقم الأمر . وخشى أبو الوليد العواقب ، عمد

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٢ و ٢٥١ و ٢٥٦ ، وأعمال الأعلام ص ١٤٩ .
(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١١٨ .

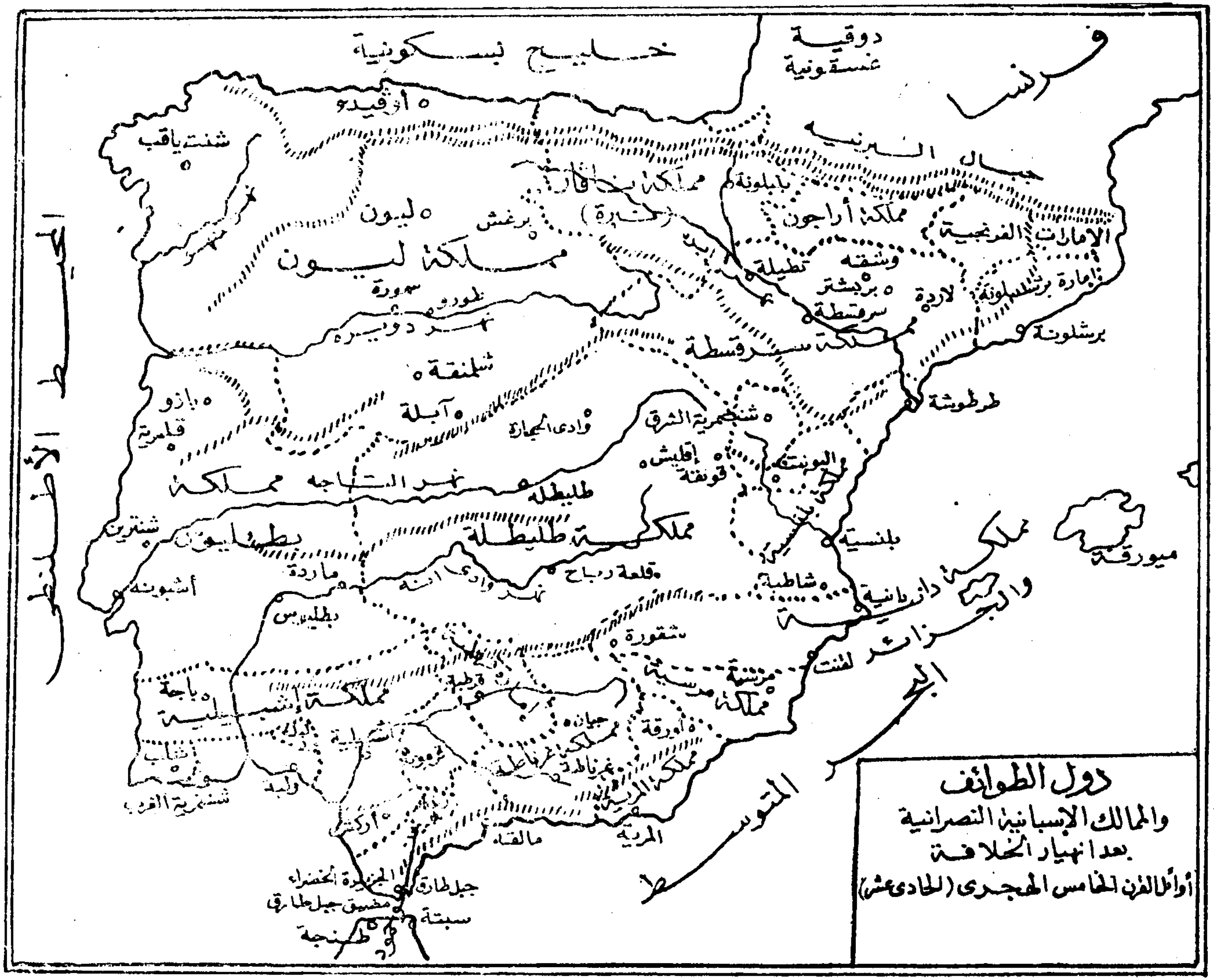

دول الطوائف

والممالك الإسبانية النصرانية
بعد انهيار الخلافة
أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر)

إلى تقسيم السلطة بين ولديه . فخص أكبرهما عبد الرحمن بالنظر فى أمر الجباية ، والإشراف على أهل الخدمة ، وفى التوقيع فى الصكوك السلطانية ، والدخل والخرج وجميع أبواب النفقات ؛ وخص عبد الملك بالنظر فى شئون الجند . والإشراف على أعطياتهم ، وتجريدهم فى البعوث وجميع ما يخصهم ، وارتضى الأخوان هذا الحل .

بيد أن عبد الملك لم يلبث أن غلب على أخيه عبد الرحمن ، وسجنه فى منزله واستبد بالأمر دونه ؛ وخلا الجو لعبد الملك ، وأطلق العنان لسلطانه وأهوائه ، واستولى صحبه من الأوغاد والسفلة ، على أزمة الحكم ، وبدأ الشعب القرطبي ينصرف عن آل جهور . كل ذلك والرئيس الشيخ أبو الوليد ملتزم داره لشلل أقعده . وكان عبد الملك يعتمد فى مشاريعه وتحقيق خططه ، على مصادقة ابن عباد وتشجيعه ، وقد زاره فى إشبيلية ، فبالغ ابن عباد فى إكرامه والتودد إليه ، وكان عبد الملك يظن أنه يستطيع الاعتماد على صداقته ومحالفته ، ضد أطماع بنى ذى النون أصحاب طليطلة ، ومشاريعهم للاستيلاء على قرطبة ، ولم يكن يدور بخلده أن بنى عباد يضمرون ضده مثل هذه المشاريع .

وأخيراً تكشفت الأمور ، وخرج المأمون يحيى بن ذى النون فى قواته من طليطلة ، قاصداً غزو قرطبة ، واستولى فى طريقه على حصن المدوّر الواقع غربى قرطبة . وكان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية قد توفى سنة ٤٦١ هـ ، وخلفه ولده المعتمد ، فسار على سياسة أبيه من إبداء المودة والتحالف لبنى جهور . فلما شعر عبد الملك بالخطر الداهم ، استغاث بحليفه ابن عباد ، فبعث إليه المعتمد بالمدد من الفرسان تحت إمرة قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، فنزلا بالربض الشرقى من قرطبة . وأشرف ابن ذى النون بجنده على المدينة ، فألفاها قد استعدت لقتاله بقوات لا قبل له بها ، فارتد أدراجه محنقاً ، بعد قتال يسير . وكان قد وقع الاتصال أثناء ذلك بين قائدى جيش إشبيلية وبين بعض الناقمين من زعماء قرطبة . فى التخلص من بنى جهـــور ، والانضواء تحت ظل بنى عباد ؛ والظاهر أيضاً أن كانت لدى القائدين أوامر سرية بتدبير الخطة للاستيلاء على المدينة ؛ وعلى أى حال فإنه ما كاد ابن ذى النون يرتد بقواته ، حتى تظاهر القائدان بأنهما يزمعان العودة ، وسارا فى بعض قواتهما إلى وداع عبد الملك بباب المدينة ، وعندئذ

اقتحم العباديون الأبواب وملكوها ، ودخلوا المدينة واحتلوها ، وعاثوا فى أنحائها نهباً وهتكاً وسبياً ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) . وأدرك عبد الملك مبلغ خديعته ، وأيقن أن النهاية قد حلت ، فطلب الأمان لنفسه وذويه ، فاعتقل وأخوه عبد الرحمن وسائر الأهل والولد ، وأرسلوا فى الحال إلى إشبيلية ، ثم اعتقل أبوهما الشيخ المريض المقعد أبو الوليد بن جهور ومن معه ، ونفى الجميع إلى جزيرة شلطيش ، الواقعة فى مصب نهر أراد تجاه ولبة ، وهناك توفى ابن جهور الشيخ لأربعين يوماً فقط من نكبته وسقوط دولته .

وهكذا انتهت دولة بنى جهور بقرطبة ، بعد أن لبثت أربعين عاماً . وكانت أول دولة تسقط من بين دول الطوائف الرئيسية . وكانت دولة نموذجية ، ولا سيما فى عهد مؤسسها الوزير أبى الحزم بن جهور . وكانت تتمتع بين دول الطوائف بمركز أدبى خاص ، وتتخذ فى أحيان كثيرة مركز الوسيط والحكم ، وتعمل بهيبتها وهيبة رئيسها الوزير المحنك ، على فض المنازعات وإقرار السلم بين الأمراء . ومن ذلك ما بذله أبو الحزم من المساعى المتكررة لحسم النزاع بين المعتضد ابن عباد والمظفر بن الأفطس ، حينما نشب القتال بينهما بشأن لبلة التى هاجمها ابن عباد ، واستغاث صاحبها ابن يحيى بصديقه المظفر ، وقد كاد الأمر بينهما يتطور إلى فتنة هوجاء لولا تدخل أبى الحزم ونصحه المتكرر [١] .

وندب المعتمد بن عباد ولده الفتى عباداً الملقب بالظافر وسراج الدولة لحكم قرطبة ، التى يتصل تاريخها من ذلك الحين بتاريخ مملكة إشبيلية .

وقد تناول ابن حيان ، وكان حسبما تقدم من وزراء عبد الملك بن جهور ، وشهد بنفسه سائر هذه الحوادث ، مأساة سقوط الدولة الجهورية ، فى كتاب خاص سماه «البطشة الكبرى» يمتاز بقوته وبلاغته [٢] .

ولما فشل مشروع المأمون بن ذى النون فى افتتاح قرطبة ، واستولت عليها

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٥١ : والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١٠ . وراجع فى أخبار دولة بنى جهور : الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١١٤ — ١٢٦ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٥ — ١٨٧ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢٥٩ — ٢٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٤٥ — ١٥١ ، والحلة السيراء (ليدن) ص ١٦٨ — ١٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٩ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١٢٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٥١ .

جنود ابن عباد ، وتولى حكمها ولده سراج الدولة ، وجه ابن حيان إلى المعتمد رسالة تهنئة يقول فيها : «لو أن فتحاً اعتلى عن تهنئة ممنوحة بارتفاع قدر ، أو جلالة صنع ، أو فرط انتقام مستأصل ، أو تنزل حكم من الرحمن فاصل ، لكان فتحه هذا لك ، على عدو أسود الكيد ، مظاهر البغى على الحسد ، طالما استحييته لا من خجل ، وتنكبته لا عن وهل ، فأبى رأيه الفائل ، وجده العاثر ، وحينه المجلوب ، وضربه المكبوب ، إلا اكتساب العار ، ومماتنة محصد الأقدار» . ثم يحمل ابن حيان بعد ذلك على المأمون بن ذى النون ، وينوه بتوفيق ابن عباد ويمنه فى هزيمته ورد مكيدته ، وذلك فى عبارات ملتهبة لاذعة (١) .

وإنه لما يلفت النظر فى ذلك حقاً أن ابن حيان ، يهدى مؤلفه التاريخى العظيم فى مقدمته إلى المأمون بن ذى النون ، ويصفه «بالأمير المؤثل الإمارة ذى المجدين ، الكريم الطرفين» (٢) . وقد انتهز ابن بسام هذه الفرصة للحملة على ابن حيان ، والتنويه بمواقفه المتناقضة فى تاريخه لملوك الطوائف . وفى رأيه أن هذا التاريخ ، بالرغم مما لقيه لدى بعض أولئك الملوك من ترحاب وتقدير ، وما أجزلوه عنه من صلات ، فإن ابن حيان «قد أخطأ التوفيق ، وما أصاب» ، إذ جاءت معظم أقواله كالسهام المرسلة ، من قدح مغرض فى الأحساب والأعراض ، وطمس للمعالم والأنوار ، وأنه قد ارتكب بذلك إثماً وظلماً ، وإن كان قد سلم من لسانه «أمير بلده ، وأكبر أهل زمانه» أبو الحزم بن جهور ، وابنه من بعده ، فقد جرى لهما «بأيمن طائر ، ولم يعرض لذكرهما إلا بخير» (٣) .

(١) تراجع هذه الرسالة فى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٩ – ٩١ .

(٢) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٨ .

(٣) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٤ و ٨٥ و ١١٣ و ١١٤ .

الفصل الثانى

بنو عباد ومملكة إشبيلية

القسم الأول

ظهور القاضى ابن عباد فى إشبيلية . بنو عباد وأصلهم ونشأتهم . القاضى اسماعيل بن عباد ينتزع الرياسة فى إشبيلية . بنوحمود وسلطانهم على إشبيلية . صد المستعلى بن حمود عن دخولها . تقديم القاضى ابن عباد عليها . حكمه وأهباته . ولده أبو القاسم محمد . الخلاف بين أبى القاسم بن عباد وابن الأفطس والحرب بينهما . البرزالى صاحب قرمونة . تعليق ابن حيان على عصابات البربر . استيلاء المعتلى ابن حمود على قرمونة . إعلان القاسم بن عباد ظهور هشام المؤيد . قصة هشام والغموض حول مصيره . استرداد ابن عباد لقرمونة ومصرع المعتلى . استيلاؤه عليها وعلى إستجه . الحرب بين ابن عباد والبربر. هزيمة جند ابن عباد ومصرع ولده اسماعيل . وفاة أبى القاسم محمد بن عباد ، وقيام ولده المعتضد مكانه . المعتضد بن عباد حسبما يصوره ابن حيان . خلة ابن بسام عليه . قسوته وصرامته . إمارات الطوائف فى غربى الأندلس . إمارة لبلة ومهاجمة المعتضد لها . تدخل ابن الأفطس والحرب بينه وبين المعتضد . استيلاء المعتضد على لبلة . لبلة وأسوارها الأندلسية . إمارة ولبة وجزيرة شلطيش . استيلاء المعتضد عليها . استيلاؤه على شنتمرية الغرب . استيلاؤه على باجة . إمارة شلب واستيلاؤه عليها . الإمارات البربرية . خطة ابن عباد فى الاستيلاء عليها . كين المعتضد للأمراء البربر وإهلاكهم . استيلاؤه على أركش ومورور . استيلاؤه على رندة ثم قرمونة . استيلاؤه على الجزيرة الخضراء. اتساع مملكة إشبيلية . ضغط ملك قشتالة على الطوائف . المعتضد وزملاؤه يؤدون له الجزية . خروج اسماعيل بن المعتضد على أبيه . اعتقاله وإعدامه . رسالة المعتضد عن الحادث لرؤساء الأندلس . قطع المعتضد الدعوة لهشام المؤيد . تهكم ابن حيان على قصة هشام . شخصية المعتضد وخلاله وسياسته . قسوته المروعة . قصة الرؤوس المحنطة . قصور بنى عباد . صفة المعتضد . شغفه بالنساء . أدبه وشاعريته . وزراؤه وكتابه الأعلام . ابن زيدون وابن عبد البر والبزليانى . وزيره ششنند .

كانت مملكة إشبيلية أو غربى الأندلس ، من حيث الرقعة الإقليمية ، والزعامة السياسية ، والقوة العسكرية ، أهم دول الطوائف وأعظمها شأناً ، وفضلا عن هذا التفوق الإقليمى والسياسى ، فقد سطعت مملكة إشبيلية بين دول الطوائف زهاء نصف قرن ، بفخامة بلاطها ، وروعة رسومها ، وكان للأدب والشعر بها دولة زاهرة ، طبعت هذه الحقبة القصيرة من تاريخها ، بطابعها الخالد .

وإذا كنا سوف نخص مملكة إشبيلية بالحديث فيما يلى ، فإن هذا الحديث سوف يكون مشعباً متعدد النواحى ، وسوف يمتد إلى إمارات ودول أخرى ، ليس فقط داخل منطقة الغرب أو غربى الأندلس ، التى كانت تسيطر عليها مملكة إشبيلية ، ولكن إلى مناطق وممالك رئيسية أخرى .

— ١ —

بدأت جذور مملكة إشبيلية مبكرة ، منذ انهيار الدولة العامرية فى نهاية المائة الرابعة . وفى الوقت الذى كانت تضطرم فيه عاصمة الخلافة قرطبة ، بالفتن والانقلابات المتعاقبة ، كان قاضى إشبيلية أبو الوليد اسماعيل بن عباد ، يعمل فى هدوء وصمت ، على جمع خيوط الرياسة فى يده ، وعلى الاستئثار بحكم المدينة العظيمة ، التى تركت كباقى القواعد الأخرى لمصيرها .

كان اسماعيل بن عباد يتولى خطة القضاء بإشبيلية منذ أيام المنصور بن أبى عامر ، وكان فضلا عما يمتاز به من العلم والحكمة والورع ، ينتمى إلى بيت من أعظم البيوتات العربية الأندلسية . فلما وقعت الفتنة وسادت الفوضى كل ناحية من نواحى الأندلس ، استمر إسماعيل فى خطة القضاء ، وأخذ فى نفس الوقت يعمل على حفظ النظام ، وضبط الأمور فى المدينة . وكان على بن حمود حينما دخل قرطبة وتولى الحكم بها سنة ٤٠٧ هـ ، تولى أخوه القاسم حكم إشبيلية ، وبقى ابن عباد على حاله فى منصب القضاء . ولما قتل على بن حمود ، تولى أخوه القاسم مكانه فى الخلافة فى قرطبة ، وخلا الجو ثانية لابن عباد . وكان فى خلال الفترة التى كانت فيها خلافة الحموديين تتردد بين قرطبة وإشبيلية ، وما تخللها من الأحداث المتوالية ، يعمل على توطيد مركزه وتدعيم رياسته ، ويعمل بالأخص على حماية المدينة من أطماع البربر وعيثهم ، ويجمع حوله كلمة الزعماء حتى لا تغدو إشبيلية كما غدت قرطبة مسرحاً للفتنة ، ومرتعاً لأطماع البربر . وقد وفق فى خطته كما سنرى أعظم توفيق .

ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن عهد بنى عباد أمراء إشبيلية ، أن نذكر كلمة عن أصلهم ، وأوليتهم .

كان بنو عباد ، وفقاً لأقوال علماء النسب ، ينتمون إلى لخم . ومؤسس دولتهم ومنشىء مجدهم ، هو القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد

ابن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عِطاف بن نعيم . وعطاف هو جدهم الداخل إلى الأندلس فى طالعة بَلْج بن بشر القشيرى . وأصله من أهل حمص الشام، لخمى النسب صريحاً . ولما دخل إلى الأندلس نزل بقرية «يومين» بقرب بلدة طشانة Tocina من أعمال إشبيلية ، وهى واقعة على ضفة نهر الوادى الكبير . ونحن نعرف أن جند الشام قد نزلوا لأول الفتح باشبيلية أو حمص كما سموها يومئذ ، نظراً لما بينها وبين حمص الشام من شبه قوى فى الطبيعة والإقليم . وفى رواية أخرى أن بنى عباد هم من ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وبذلك كانوا يفخرون ويمدحون ، وهذا ما يؤيده قول شاعرهم ابن اللبانة :

من بنى المنذر بن ما السماء وهو انتساب زاد فى فخره بنو عباد
نبتة لم تلد سواها المعالى والمعالى قليلة الأولاد

وتألق نجم بنى عباد ، فى أعقاب الفتنة ، على يد جدهم أبى الوليد اسماعيل قاضى إشبيلية ، وكان قد تقلب قبل انهيار الخلافة فى عدة من الوظائف الكبرى ، فولى الشرطة لهشام المؤيد ، ثم ولى خطة الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم ، ثم ولى قضاء إشبيلية . ولما اضطرمت الفتنة ، وتجهمت الظروف ، استطاع بحزمه ودهائه ، ووجاهته وبذله ، أن يستغل ظروف الفتنة على أكمل وجه ، وأن يجمع فى يده أزمة الرياسة والحكم شيئاً فشيئاً ، معتمداً فى ذلك على عراقة بيته ، ورفيع مكانته ، وواسع ثرائه ، ومعاونة الزعماء والأكابر الذين استمالهم إلى جانبه ، بلينه وجوده ولباقته ؛ ويصفه ابن حيان بأنه «رجل الغرب (أى غرب الأندلس) قاطبة، المتصل الرياسة فى الجماعة والفتنة» ، وينوه بوفور عقله وسبوغ علمه ، وركانته ودهائه وبعد نظره ، ويقول لنا إنه كان «أيسر من بالأندلس وقته ، ينفق من ماله وغلاته ، لم يجمع درهماً قط من مال السلطان ولا خدمه» .

ولما شعر القاضى ابن عباد بأنه حقق بغيته ، من توطيد قدمه فى الرياسة ، وأثقلته السنون ، وكف بصره أو كاد ، ندب ولده أبا القاسم محمد ليشغل مكانه خطة القضاء . وكان سلطان بنى حمود ما يزال ثمة يتردد بين قرطبة وإشبيلية ، ويخفق علم خلافتهم هنا وهناك . وقد رأينا أن القاسم بن حمود قد تولى الخلافة فى قرطبة عقب مقتل أخيه على (أواخر سنة ٤٠٨ هـ) . وفى أوائل سنة ٤١٢ هـ ، ثار عليه ابن أخيه يحيى بن على ، وزحف بقواته على قرطبة ، فغادرها القاسم فى نفر من صحبه ، وقصد إلى إشبيلية ، وهناك تسمى بالخلافة وتلقب بالمستعلى .

بيد أنه ما لبث أن استدعى ثانية إلى قرطبة ، على أثر خلع ابن أخيه يحيى ، وهنالك جددت له البيعة (ذو الحجة سنة ٤١٣ هـ) . وكان المستعلى حينما استقر بإشبيلية قد اصطنع أبا القاسم بن عباد بعد موت أبيه اسماعيل ، وقربه إليه ، وأقره فى ولاية القضاء . وكان أبو القاسم يشعر من جانبه أن استمرار سلطان الحمّوديين ، يهدد رياستهم وينذر بالقضاء عليها . فلما استدعى المستعلى ليتولى الخلافة ثانية فى قرطبة ، اجتمع رأى أهل إشبيلية على ثلاثة من الزعماء هم القاضى اسماعيل بن عباد ، والفقيه أبو عبد الله الزبيدى ، والوزير أبو محمد عبد الله بن مريم ، يتولون حكمها وضبط الشئون فيها ، فكانوا يحكمون بالنهار فى القصر . وتنفذ الكتب تحت أختامهم الثلاثة ، ومع ذلك فقد كان القاضى ابن عباد ، بمركزه ووفرة ثرائه ووجاهته ، أقواهم سلطاناً ، وأعلاهم يدا . فعكف على العمل على توطيد سلطانه ، وعلى إضعاف سلطة البربر فى المدينة . ولما عاد المستعلى بعد قليل لاجئاً مع فلوله إلى إشبيلية ، بعد أن خلعه القرطبيون ، وطلب أن تخلى له ولأصحابه الدور ، اتفق زعماء المدينة ، وعلى رأسهم أبو القاسم على إغلاق أبوابها ، وصد المستعلى وصحبه البربر عن الدخول إليها ، وأخرج من كان بها من ولد المستعلى وأهله ، ومن زعماء البربر وأكابرهم . واتفق أهل إشبيلية ، اتقاء لعدوان المستعلى وأشياعه من البربر ، على أن يؤدوا له قدراً من المال ، وينصرف عنهم ، وتكون له الخطبة والدعوة ، ولا يدخل بلدهم ، ولكن يقدم عليهم من يحكمهم ويفصل بينهم ، فقدم عليهم القاضى أبا القاسم بن عباد ، ورضى به الناس ، وبذا انفرد ابن عباد أيضاً بالرياسة الشرعية ، وقد كان منفرداً بها من الناحية الفعلية ؛ وكان ذلك فى أواخر سنة ٤١٤هـ (١٠٢٣ م) وبذلك انتهت رياسة البربر فى إشبيلية ، كما انتهت من قبل فى قرطبة[1] .

---

(١) راجع فى أصل بنى عباد وظهورهم : ابن الأبار فى الحلة السيراء (مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٥٤) لوحة ٦٥ أ ، ونقله دوزى فى كتابه : Scriptorum Arabum loci de Abbaditis (الكتابات العربية المتعلقة ببنى عباد) ، والمسمى أيضاً Historia Abbadidarum (تاريخ بنى عباد) (ليدن سنة ١٨٤٦-١٨٦٣ فى ثلاثة مجلدات) ج ١ ص ٢٢٠ و ٢٢١ . وراجع ا لسيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٣٤ — ٣٨ . وراجع أيضاً جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهره) ص ٣٩٨ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٩٤ — ١٩٦ و ٣١٤ و ٣١٥ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت) ص ١٥٢ و ١٥٣ .

ونود أن نلاحظ بهذه المناسبة أن العلامة رينهارت دوزى قد عمد إلى تمزيق كتاب «الحلة السيراء» ، فاستخرج منه تراجم عديدة نشرها فى كتابه Hist. Abbadidarum (تاريخ بنى عباد) ، ونشر بعضها فى كتابه : Recherches ، ثم نشر معظم ما تبقى بعد ذلك من التراجم فى مجلد —

ونظم ذو الوزارتين أبو القاسم بن عباد حكم المدينة ، بعد أن غدا قاضيها وحاكمها السياسى معاً ، معتمداً فى ذلك على تأييد زعماء البيوتات العربية ومعاونتهم ، وعلى تأييد الشعب والتفافه من حوله . وكان بالرغم من استئثاره بالسلطة ، يبدى فى أحكامه وتصرفاته كثيراً من اللين والرفق ، وكان يعمل فى هدوء وأناة على التخلص من سائر منافسيه ، والقضاء عليهم واحداً بعد الآخر . وعمد فى نفس الوقت إلى شراء العبيد ، وحشد الرجال ، واقتناء السلاح ، ولم يكن يخفى عليه أن الحمّوديين ، وشيعتهم من البربر يتربصون به ، ويطمحون إلى امتلاك إشبيلية . وكان بنو حمود من جانبهم يخشون بأسه وأطماعه على مملكتهم ، ومن جهة أخرى فإن أطماع ابن عباد لم تكن تقف عند حكم إشبيلية وحدها ، بل كانت تتجه إلى التوسع ، ولاسيما فى ناحية الغرب ، التى كانت بطبيعتها الإقليمية تتبع إشبيلية ، وكانت من جهة أخرى خالية من المنافسين الأقوياء .

وكان أول صدام عسكرى خطير اشترك فيه أبو القاسم بن عباد ، قتاله مع بنى الأفطس أصحاب بَطَلْيوس ، وهم جيرانه من الشمال . ومما يجدر ذكره أن ابن عباد مع خصومته للبربر ، كان يعتمد على محالفة محمد بن عبد الله البرزالى البربرى صاحب قرمونة ، أولا لأن قرمونة كانت حصن إشبيلية من الشرق ، وثانياً لأن البرزالى كان يخشى سطوة بنى حمود وأطماعهم فى المدينة ، ومن ثم فقد كانت تجمعه مع ابن عباد مصلحة جوهرية مشتركة ؛ ولما وقعت الخصومة بين ابن عباد ، والمنصور بن الأفطس صاحب بطليوس ، بشأن الاستيلاء على مدينة باجة ، التى وقع الخلاف بين أهلها على الرياسة ، بعث ابن عباد لقتاله ولده اسماعيل

= بعنوان : Extraits de l'Ouvrage intitulé Al-Hollato, S'Syiara. « نبذ من الكتاب المسمى الحلة السيراء » (ليدن ١٨٤٧ – ١٨٥١) باعتباره يضم تراجم «الإسبانيين» أى الأندلسيين وليس المغاربة . ولم يكتف دوزى بذلك ، بل عمد إلى تمزيق كثير من التراجم ، فنشر أقساماً منها فى .Hist. Abbad وكذلك فى Recherches ، ونشر باقيها فى المجموعة المشار إليها . وفى اعتقادنا أن ذلك لم يكن عملا سليماً من الناحية العلمية ، إذ ترتب عليه تمزيق الكتاب وبعثرة محتوياته ومن ثم فقد اضطررنا فى الطبعة الأولى أن نرجع أحياناً إلى الأصل المخطوط ، وأحياناً إلى أجزائه المطبوعة المبعثرة هنا وهناك .

هذا ومما يدعو إلى الغبطة أن كتاب الحلة السيراء قد صدر أخيراً فى طبعة كاملة محققة فى مجلدين كبيرين (القاهرة سنة ١٩٦٤) بعناية الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . ومن ثم فقد رأينا أن نرد المراجع التى أثبتناها مخطوطة فى الطبعة الأولى ، خلال الكتاب ، إلى هذه النسخة الجديدة المطبوعة .

على رأس نخبة من جنده ، واشترك معه البرزالى بقواته ، وحاصرت القوات المشتركة مدينة باجة التى احتلتها قوات ابن الأفطس ، وقتلت وأسرت معظمهم ، وكان بين الأسرى ولد ابن الأفطس ، فاعتقل لدى البرزالى حيناً بقرمونة ثم أطلق سراحه ، وكذلك كان منهم أخ لابن طيفور صاحب ميرتلة وقد صلب بإشبيلية (٤٢١ هـ) .

ثم عادت الحرب فاضطرمت بين الفريقين بعد ذلك بأربعة أعوام . وكان ابن الأفطس وهو من الأصول البربرية ، يعتمد أيضاً فى جيشه على فريق من البربر ؛ وسارت قوات إشبيلية بقيادة إسماعيل بن عباد شمالا إلى أراضى ابن الأفطس وتوغلت فيها ، ولكنه حين العودة فاجأته قوات كثيفة لابن الأفطس ، ومزقت عسكره ، ففر مع فلوله إلى مدينة أشبونة ، وامتنع بها حيناً ، وكانت هزيمة ساحقة لبنى عباد (٤٢٥ هـ — ١٠٣٤ م) .

وكان محمد بن عبد الله البرزالى صاحب قرمونة ، من أكبر محرضى ابن عباد ومعاونيه فى تلك المعارك . ويصفه ابن حيان «بقطب رحى الفتنة» وينوه بفتكه وعيثه وقبح آثاره فى تلك المنطقة ، وأنه كان من خصوم الخلافة ، لا يروم قيامها بقرطبة بأى وجه «رسوخاً فى الخارجية ودفعاً لأمر الله» ، وأنه كان يقطع السبل على قرطبة ، ويضيق عليها الحصار ، حتى اضطر وزراء قرطبة إلى الاستعانة ضده بفريق من بربربنى برزال بشذونة ، واعتضدوا بهم مدة . واعتضد ابن الأفطس بطائفة أخرى منهم . ويقول ابن حيان معلقاً على تلك الحالة فى تسرب البربر إلى سائر الجهات : «فكان فى كل بلد جملة منها ، سالت عن أهل البلاد سيول بها ، وخلطوا الشر بين رؤسائها ، واستخرجوا بذلك ما أظهروه من دنانيرهم وخلعهم ، وجاحوا ذات أيديهم وعلموهم كيف يوكل الكتف ، فطال العجب عندنا بقرطبة وغيرها من صعاليك ، قليل عددهم ، منقطع مددهم ، اقتسموا قواعد الأرض فى وقت معاً ، مضربين بين ملوكها ، راتعين فى كلاها ، باقرين على فلذتها ، حلوا محل الملح فى الطعام بأسهم الشديد ، وقاموا مقام الفولاذ فى الحديد ، فلا يقتل الأعداء إلا بهم ، ولا تعمر الأرض إلا فى جوارهم ، فطائفة عند ابن الأفطس تقاوم أصحابها قبل ابن عباد ، وطائفة عندنا بقرطبة تحيز أهلها عن الأضداد ، فسبحان الذى أظهرهم ، ومكن فى الأرض لهم ، إلى وقت وميعاد»(١) .

(١) نقلها دوزى عن الذخيرة : راجع : Historia Abbadidarum V. I. p. 221

وكان من أشهر أعمال القاضي ابن عباد فى تلك الفترة ، إعلانه لظهور هشام المؤيد ، وإقامته خليفة بإشبيلية ، وكان يحيي بن حمود الملقب بالمعتلى ، قد استقر فى مالقة حسبما أسلفنا ، وجعلها مقر ملكه ، وبسط حكمه على معظم قواعد الأندلس الغربية الجنوبية . وكان يخشى مشاريع ابن عباد ، ويرى فيه خصمه الحقيقى . فلما توثقت عرى التحالف بين البرزالى صاحب قرمونة وابن عباد ، أخذ يتوجس شراً ، ومن ثم فقد انتهز أول فرصة ، وسار إلى قرْمونة ، وانتزعها من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى ، فلجأ محمد إلى إشبيلية واستغاث بحليفه ابن عباد . ولما شعر ابن عباد بخطورة الموقف ، وأخذ يحيي المعتلى يرهقه بغاراته المتوالية على أراضى إشبيلية ، ويردد النذير بوجوب استردادها باعتبارها من أملاك الحمّوديين ، أعلن ذات يوم أن هشاماً المؤيد قد ظهر ، وأنه كان مختفياً ولم يمت (أواخر ٤٢٦ هـ — ١٠٣٥ م) ، وذلك لكى يدحض دعوى الحموديين فى الخلافة بظهور الخليفة الشرعى . وقد ساقت إلينا التواريخ المعاصرة تفاصيل هذه القصة أو بالحرى هذه الأسطورة . ونحن نعرف مما تقدم أن سليمان المستعين حينما دخل قصر قرطبة فى أواخر سنة ٤٠٣ هـ ، قبض على هشام المؤيد وأخفاه . وأن الرواية تختلف بعد ذلك فى مصيره ، فيقال إنه قتل بعد ذلك بيد محمد بن سليمان ، ويقال من جهة أخرى ، إنه فر من محبسه ، وعاش حيناً فى ألمرية حتى توفى . وعلى أى حال فقد استمر هذا الغموض الذى يحيط بمصير هشام مدة طويلة ، ومختلف الروايات والقصص تنسج من حوله ، يذيعها بنو عمه المروانية ، وفتيان القصر وجواريه السابقين ، ومؤداها أن هشاماً لم يمت ، وأنه مختف وسوف يظهر فى الوقت المناسب . وعلى أساس هذه الروايات ، أظهر ابن عباد شخصاً زعم أنه هشام المؤيد ، وجمع حوله نفراً من خدم القصر السابقين ، فأيدوا روايته وشهدوا بصدق زعمه ، ويقال إن هذا الشخص كان بالفعل يشبه هشاماً شبهاً كبيراً . وكان هذا الرجل يعمل مؤذناً بمسجد فى قرية من قرى إشبيلية ، فاستقبل عند خروجه من المسجد ، وألبس الثياب الخلافية ، وقبل ابن عباد وولده وصحبه الأرض بين يديه ، وخوطب بألقاب الخلافة ، ثم أخذ إلى القصر ، حيث أقبل الناس أفواجاً لبيعته ، وهو يخاطبهم من وراء حجاب ، ويخبرهم بأنه قد عهد بحجابته إلى إسماعيل بن عباد . ويقول لنا ابن القطان إن هذا الدعى كان يسمى خلف الحصرى ، وإنه كان يشبه هشاماً ، وإنه حينما أتى به إلى إشبيلية ، نودى فى

الناس ، أن اشكروا الله على ما أنعم عليكم به ، فهذا مولاكم أمير المؤمنين هشام قد صرفه الله عليكم ، وجعل الخلافة ببلدكم لمكانه فيكم ، ونقلها من قرطبة إليكم ، فاشكروا الله على ذلك (١) .

وذاعت قصة ظهور هشام فى سائر الأنحاء ، وبعث ابن عباد بكتبه إلى سائر قواعد الأندلس ، يطلب من رؤسائها الاعتراف والبيعة لهشام المؤيد . فلم يعترف بها سوى بعض الفتيان العامرين السابقين ، واعترف بها الوزير أبو الحزم بن جهور لنفس البواعث ، التى حملت ابن عباد على اختراعها ، وهو العمل على دفع دعاوى الحموديين ومطامعهم حسبما سبقت الإشارة إليه .

ويندد الفيلسوف ابن حزم بقصة هذا الخليفة المزعوم ، ويصفها بأنها «أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها» . ثم يقول إنها لفضيحة لم يقع فى العالم إلى يومنا مثلها ، أن يقوم أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين ، ويخطب لهم فى زمن واحد ، وهم : خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم ، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بن على بن حمود بمالقة ، وإدريس بن يحيى بن حمود ببشتر (٢) .

وعلى إثر ذلك استعد ابن عباد لاسترداد قَرْمونة من يد يحيى المعتلى ، فسير بعض قواته مع ولده إسماعيل ، ومعها طائفة من البربر المتحالفين معه . فطوق قسم منها المدينة ليلا ، وكمن القسم الثانى فى أماكن مستترة . وكان يحيى المعتلى داخل المدينة ، وهو عاكف على لهوه وشرابه ، فلما وقف على الخبر ، خرج مع قواته وهو ثمل ، واشتبك مع المهاجمين فى معركة حامية ، وعندئذ ظهرت قوات ابن عباد من مكمنها وأطبقت عليه ، فمزقت قواته وقتل خلال المعركة ، واحتز رأسه وحمل إلى القاضى ابن عباد (المحرم سنة ٤٢٧ هـ) ورد ابن عباد قرمونة إلى صاحبها السابق ، حليفه محمد بن عبد الله البرزالى .

بيد أنه لم تمض على ذلك أعوام قلائل حتى ساء التفاهم بين ابن عباد والبرزالى . وكان ابن عباد يرى أن قرمونة ، وهى حصن إشبيلية من الشرق يجب أن تكون فى حوزته ، فسير ولده إسماعيل فى حملة قوية إلى قرمونة فاستولى عليها . ثم استولى بعد ذلك على مدينة إستجة الواقعة فى شرقها وكذلك على مدينة أشونة الواقعة

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ و ٢٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ١٥٤ .

(٢) نقط العروس لابن حزم (المنشور بمجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٥١) ص ٨٣ و ٨٤ .

جنوبى إستجة ، فاستغاث البرزالى بزملائه من الزعماء البربر ، وهرع إلى نصرته إدريس المتأيد صاحب مالقة ، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وكان كلاهما يتوجس من مشاريع ابن عباد وأطماعه ، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية عدة معارك عنيفة ، واستطاع البربر أن يخترقوا أراضى إشبيلية حتى قلعة جابر (١) حصنها من الشرق ، وانتهى الأمر بأن هزم الإشبيليون ، وقتل أميرهم إسماعيل ابن عباد ، واحتز رأسه وحمل إلى باديس ، وذلك أسوة بما حدث ليحيى المعتلى ، وكان ذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) (٢) .

فكان لتلك النكبة أسوأ وقع فى نفس القاضى ابن عباد ، فندب ولده الثانى عباداً لتدبير الشئون ، وقيادة الجيش ، فأبدى قوة وحزماً ، ولبث زهاء عامين مضطلعاً بمهمته ، حتى توفى أبوه فى نهاية جمادى الأولى سنة ٤٣٣هـ (يناير ١٠٤٢م).

وكان القاضى ابن عباد عالماً أديباً ، وشاعراً مطبوعاً ، ومن قوله فى الفخر :

ولابد يوماً أن أسود على الورى　　ولو رد عمرو للزمان وعامر
فما المجد إلا فى ضلوعى كامن　　ولا الجود إلا فى يمينى ثابر
بجيش العلى بين جنبى جايل　　وبحر الندى أسير كفى زاخر

ويمكننا أن نعتبر القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، مؤسس دولة بنى عباد الحقيقى ، ومنشىء ملكهم ورسوم مملكتهم ، وعلى يده اتخذ سلطان بنى عباد ألوانه الملوكية المدعمة بالقوى العسكرية ، وإن لم يصل بعد إلى غايته من الروعة والضخامة ، وأصبح ملوكية وراثية راسخة ، بعد أن كان يتخذ فقط صورة الزعامة ، والرياسة القبلية .

— ٢ —

فولى الأمر من بعده ولده أبوعمرو عباد بن محمد بن إسماعيل ، وتلقب أولا بفخر الدولة ، ثم بالمعتضد بالله ، وكان يوم ولايته فتى فى السادسة والعشرين ، وكان مولده فى صفر سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) . وقد أجمعت الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، على الإشادة بخلال المعتضد الباهرة ، وصفاته المثيرة معاً . ويصفه ابن حيان ، وهو معاصره ، ومتتبع لأحداث حياته وحروبه ، بأنه «زعيم جماعة أمراء الأندلس فى وقته ، أسد الملوك ، وشهاب الفتنة ، وداحض العار ، ومدرك الأوتار ،

(١) هى بالإسبانية Alcalà de Guadaira ، وما تزال أطلالها قائمة حتى اليوم .
(٢) جذوة المقتبس ص ٢٩ و ٣٠ .

وذو الأنباء البديعة ، والجرائر الشنيعة ، والوقائع المثيرة ، والهمم العلية ، والسطوة الأبية» . وابن حيان أميل إلى تزكية المعتضد منه إلى الحكم عليه ، حسبما يبدو ذلك من قوله «فلقد حمل عليه على ممر الأيام فى باب فرط القسوة ، وتجاوز الحدود والابلاغ فى المثلة ، والأخذ بالظنة ، والإحتقار للذمة ، حكايات شنيعة لم يبد فى أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها ، فالقول ينساق فى ذكرها ، ومهما برىء من مغيبها فلم يبرأ من فظاعة السطوة ، وشدة القسوة ، وسوء الاتهام على الطاعة ، سجايا من جبلّته لم يحاش فيهن ذو رحم واشجة» . بيد أن ابن بسام، وقد عاش قريباً من عصر المعتضد ، يبدو أشد قسوة فى الحكم عليه إذ يصفه فيما يلى : «قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فرس الطلى وهو رابض ، متهور تتحاماه الدهاة ، وجبان لا تأمنه الكماة ، متعسف اهتدى ، ومنبت قطع فما أبقى ، ثار والناس حرب ، وكل شىء عليه ألب ، فكفى أقرانه وهم غير واحد ، وضبط شأنه بين قائم وقاعد ، حتّى طالت يده ، واتسع بلده ، وكثر عديده وعدده ، حربه سم لا يبطىء ، وسهم لا يخطىء، وسلمه شر غير مأمون ، ومتاع إلى أدنى حين» (١) .

وافتتح المعتضد عهده بأمور كشفت عن صرامته وعنف وسائله ، منها قتل حبيب وزير أبيه ، ومنها اضطهاد الزعماء القدماء ونكبتهم ، وقد كان فى مقدمة هؤلاء الفقيه أبو عبد الله الزبيدى ، وأبو محمد عبد الله بن مريم زميلا جده القاضى ابن عباد فى الرياسة ، وذلك حتّى لا يقوم لأحد من ذوى العصبيات القوية قائمة . ثم وضع خطته الشاملة للاستيلاء على قواعد الغرب من أمرائها الأصاغر ، حتّى يخلص الغرب كله من الوادى الكبير إلى المحيط لسلطان بنى عباد .

إمارات غربى الأندلس

وكانت أولى هذه القواعد مدينة لبلة الواقعة غربى إشبيلية ، وشمال شرق ثغرولبة ، وكان قد ثار بها أيام الفتنة ، أبو العباس أحمد بن يحيى اليحصى المعروف باللبلى ، أحد كبرائها ، وضبطها ، وبايعه أهلها (سنة ٤١٤ هـ) وبسط سلطانه

(١) أورده ابن بسام فى ترجمة المعتضد فى الذخيرة، وأورده دوزى فى Historia Abbadidarum, V. I. p. 241 & 242 وأورده ابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٤٠ و ٤١ .

على ماحولها من الأراضي ومنها «جبل العيون»(١)، واستمر فى حكم دولته الصغيرة زهاء عشرين عاماً ، ثم توفى سنة ٤٣٤ هـ ، وأوصى بالحكم من بعده لأخيه أبى عبد الله محمد بن يحيى اليحصبى الملقب بعز الدولة، فمضى فى حكمها على ما كان عليه من النظام والرخاء والأمن، حتى بدأ المعتضد بن عباد يرهقه بمطالبه وغاراته، ثم كشف المعتضد القناع ، وهاجم لَبلة بقواته . فاستغاث ابن يحيى بصديقه المظفر ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فلبى نداءه وسار إلى نجدته بقواته ، وحرك فى نفس الوقت بعض حلفائه البربر إلى مهاجمة إشـبيلية . ولما وقف الوزير أبو الوليد بن جهور على تلك الحركة أهمته ، وتوجس من عواقبها ، فأرسل إلى الزعماء المتخاصمين رسله ينصحهم بوجوب التريث ، والتمسك بأهداب التفاهم والسلم ، ويحذرهم من عواقب الفتنة ، فلم يصغ إليه أحد منهم ، وبادر المعتضد ، فى الوقت الذى سارت فيه قوات ابن الأفطس إلى إنجاد ابن يحيى ، فأرسل قواته لمهاجمة أراضى ابن الأفطس ، فعاثت فيها وخربتها ، ثم سار المعتضد بنفسه إلى لبلة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، هزم فيها ابن الأفطس أولا ، ثم دارت الدائرة بعد ذلك على المعتضد ، وقتل عدد كبير من جنده (٤٣٩ هـ — ١٠٤٧ م) . وسارت بعض طوائف البربر فى نفس الوقت ، وعاثت فى شرقى إشبيلية ، وقطعت الطرق ، وفتكت بالسابلة ، وساءت الأحوال فى المنطقة كلها .

والظاهر أن ابن يحيى ، رأى فى النهاية أن يتفاهم مع المعتضد بعد الذى نزل ببلاده من الخراب والعيث، فعقد معه الصلح . ولكن ذلك لم يرض المظفر بن الأفطس ، فأبى أن يرد إلى ابن يحيى ودائعه وأمواله ، التى أودعها عنده حينما هاجمه المعتضد ، ثم أرسل قواته لمهاجمة لبلة ، فاستغاث ابن يحيى بالمعتضد فأرسل إليه الأمداد ، واستمرت المعارك بين الفريقين حيناً .

ثم عادت الحرب فاضطرمت بين المعتضد وابن الأفطس فى سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) وعاث المعتضد فى أراضى ابن الأفطس ، وافتتح منها عدة حصون ضمها إلى مملكته ، وأتلف الزروع وخرب كثيراً من القرى ، وقتل الكثير من جند ابن الأفطس ، ونضبت موارده ، فانتهى إلى الاعتصام بحاضرته بطليوس وذلك على ما نفصله فيما بعد فى أخبار مملكة بطليوس . وأخيراً تدخل الوزير

---

(١) وهى بالإسبانية Gibraléon

ابن جهور بين الفريقين ، واستمر فى مساعيه الحثيثة حتى عقد الصلح بين المعتضد وابن الأفطس فى ربيع الأول سنة ٤٤٣ ﻫ (١٠٥١ م) .

والتفت المعتضد بعد ذلك إلى لَبلة فضيق الخناق عليها ، وفى النهاية اضطر أميرها عز الدولة أن يتنازل عن حكمها لابن أخيه أبى نصر فتح بن خلف اليحصبى الملقب بناصر الدولة ، على أن يعقد السلم مع المعتضد ، وأن يؤدى له جزية سنوية . وانتقل بأهله وأمواله إلى قرطبة ، ليعيش هناك فى كنف الوزير أبى الوليد بن جهور وذلك فى أواخر سنة ٤٤٣ ﻫ .

على أن المعتضد لم يقنع بهذا الحل ، ولم يمض سوى القليل حتى نقض السلم المعقود ، وبعث قواته فهاجمت لبلة ، واضطر ناصر الدولة أن يدافع عن نفسه ، واستمرت الحرب بينهما حيناً ، حتى خربت بسائط لبلة وقتل كثير من جندها ، وسبى كثير من أهلها ، وذلك بالرغم مما بذله ناصر الدولة من جهود يائسة للدفاع عن ملكه ، وما قام به من غارات متعددة على أراضى إشبيلية . وفى النهاية اضطر ناصر الدولة أن ينزل على حكم القوة القاهرة ، وأن يسلم لبلة إلى خصمه القوى ، وأن يغادرها إلى قرطبة ، ليعيش هناك إلى جانب عمه . وكان سقوط لبلة فى يد المعتضد بن عباد سنة ٤٤٥ ﻫ (١٠٥٣ م) (١) .

هذا وربما كانت لبلة هى الوحيدة بين مدن الأندلس المسلمة، التى ما زالت تحتفظ حتى اليوم بأسوارها الأندلسية كاملة . وقد زرناها وشهدنا أسوارها العتيقة الضخمة التى تحيط بها من كل ناحية إلا من ناحيتها الشرقية على النهر المسمى «النهر الأحمر» Rio Tinto . وتمثل هذه الأسوار ، التى جددها الموحدون فى القرن الثانى عشر ، منعة لبلة الأندلسية وموقعها الحصين فوق الربوة العالية التى تحتلها ، وهو منظر رائع حقاً لا يدانيه فى روعته سوى أسوار مدينة آبلة الرومانية العربية . وثمة خاصة أخرى تمتاز بها لبلة ، وهى أنه لم يطرأ على خططها الأندلسية القديمة كثير من التغيير ، فهى ما زالت تحتفظ داخل الأسوار بطابعها الأندلسى المحض.

وعنى المعتضد فى الوقت نفسه بالاستيلاء على إمارتين صغيرتين أخريين من

---

(١) راجع ما نقله ابن بسام فى الذخيرة (عن ابن حيان) فى دوزى : Historia Abbadi-darum V. I. p. 244—252 ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ و ٢٣٤ و ٢٤٠ و ٢٩٩ و ٣٠٠ و ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ١٥٦ ، وابن حيان (نقله ابن بسام فى الذخيرة) القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦٠ .

إمارات ولاية الغرب ، أولهما إمارة ولبة وجزيرة شلطيش ، الواقعة جنوب غربى لبلة ، وإمارة شنتمرية الغرب فى غربها .

فأما إمارة ولبة وجزيرة شلطيش الواقعة تجاهها فى المحيط فى مصب نهر أوديل فقد آلت فى أعقاب الفتنة إلى أبى زيد عبد العزيز البكرى — كبير زعمائها — وبويع بها فى سنة ٤٠٣ هـ ، واستمر مضطلعاً بحكمها مدة طويلة ، والسلام يرفرف على أرجائها . فلما قوى سلطان بنى عباد بإشبيلية ، واتجهت أطماعهم إلى الاستيلاء على إمارات الغرب ، أخذ المعتضد يضيق الخناق على ثغر ولبة ، ويرهقه بغاراته ، ويقطع السبل إليه . فساءت أحوال الإمارة الصغيرة ، ولم يجد البكرى سبيلا إلا مفاوضة ابن عباد فى عقد الصلح على أن يسلم إليه ثغر ولبة ، ويكتفى هو بجزيرة شلطيش ، فوافق ابن عباد على ذلك ، ولكنه ما لبث أن أخذ فى مضايقة البكرى فى جزيرته ، وفرض عليه نوعاً من الحصار . وعندئذ اضطر البكرى أن يفاوضه مرة أخرى فى التنازل عن جزيرة شلطيش ، وانتهى إلى أن باعه أملاكه وسفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال من الذهب ، وغادر الجزيرة ، بأهله وأمواله ، إلى قرطبة ليعيش هناك فى كنف ابن جهور أسوة بزميله ابن يحيى أمير لبلة (٤٤٣ هـ — ١٠٥١ م) . وفى رواية أخرى أن البكرى سار إلى إشبيلية وعاش بها فى كنف ابن عباد إلى أن توفى بها فى سنة ٤٥٠ هـ . بيد أننا نؤثر الرواية الأولى وهى رواية ابن حيان ، معاصر هذه الحوادث ومدونها بطريق العلم والتحقيق (١) .

هذا وقد اختفت جزيرة شلطيش من مصب نهر أوديل ولم يبق لها اليوم وجود .

وأما إمارة شنتمرية الغرب الصغيرة الواقعة على المحيط فى جنوبى البرتغال ، فقد بويع بها أبو عبد الله محمد بن سعيد بن هارون سنة ٤٣٣ هـ خلفاً لأبيه سعيد ابن هارون ، ولبث فى حكمها بضعة أعوام إلى أن بدأ المعتضد فى مضايقته ومحاربته . وألفى ابن هارون أن لا قبل له بمقاومة هذا الأمير الباغى ، فنزل له عن ثغره ، وخرج بأهله وصحبه إلى إشبيلية (٤٤٣ هـ — ١٠٥١ م) وهناك توفى بعد أشهر قلائل . وقيل إن خروج ابن هارون من شنتمرية كان فى سنة ٤٤٩ هـ (٢) . وتقوم اليوم مدينة فارو البرتغالية فوق موقع شنتمرية الأندلسية .

ولم يبق من إمارات الغرب بعد ذلك سوى إمارة شلب ، وكانت فى الواقع

---

(١) ابن حيان ، ونقله دوزى فى : Hist. Abbadidarum V. I. p. 252—253

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٥ و ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

أهم إمارات الغرب بعد إشبيلية، وكانت تشمل فضلا عن كورة شِلْب[١]، وهى الواقعة فى قاصية جنوبى البرتغال، كورة باجة. وكان الحاجب عيسى بن محمد قد تغلب فى أعقاب الفتنة على هذه المنطقة النائية، وأقام بها دولة، واستمر مسيطراً عليها حتى توفى فى سنة ٤٣٢ هـ. فخلفه فى حكمها ولده محمد بن عيسى الملقب بعميد الدولة، واضطر اتقاء لعدوان ابن عباد أن ينزل له عند مدينة باجة وأن يكتفى بحكم شلب. وكان ابن عباد قد استولى قبل ذلك على ميرتلة قاعدتها الجنوبية من يد صاحبها ابن طيفور فى سنة ٤٣٦ هـ، وأصبحت باجة تحت رحمته. واستمر عميد الدولة فى حكم شلب حتى توفى سنة ٤٤٠ هـ. وعندئذ ثار بها القاضى عيسى بن أبى بكر بن مُزَيْن فبايعه أهلها، وبسط حكمه عليها، وتلقب بالمظفر واستمر حكمه خمسة أعوام، وابن عباد دائب على مهاجمته وشن الغارات عليه، وهو يرده ما استطاع، حتى قتل فى أواخر سنة ٤٤٥ هـ، مدافعاً عن مدينته. فخلفه ولده محمد بن عيسى وتلقب بالناصر، وحكم حتى توفى سنة ٤٥٠ هـ، فخلفه ولده عيسى وتلقب بالمظفر، وسار فى الحكم على نهج أبيه وجده، من ضبط الأمور، وإقامة العدل. بيد أن المعتضد ما لبث أن كرر حملاته على شلب، ثم ضرب الحصار حولها، وقطع عنها سائر الأمداد، حتى اشتد الأمر على أهلها، وانتهى بأن اقتحمها بعد أن هدم أسوارها، ودخل القصر وقتل عيسى المظفر، وذلك فى شوال سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م)، وبذلك انتهت دولة بنى مُزَيْن[٢].

الإمارات البربرية

وهكذا استطاع المعتضد بن عباد، فى نحو عشرين عاماً، أن يقضى على سائر إمارات الغرب الصغيرة، وأن يبسط سلطانه عليها، وأصبحت مملكة بنى عباد، تشمل سائر الأراضى الممتدة من شاطىء نهر الوادى الكبير غرباً حتى المحيط الأطلنطى، هذا عدا رقعة تقع شرقى الوادى الكبير. على أن المعتضد لم يقنع بهذا التوسع الكبير فى اتجاه الغرب، وإنما كان يضع الخطط فى نفس الوقت للقضاء على الإمارات البربرية الصغيرة القائمة فى شرقى الوادى الكبير فى جنوبى الأندلس، حتى يقضى على خططهم وأطماعهم، وحتى يؤمن جناحه الدفاعى فى تلك الناحية، ويغدو حراً فى العمل والحركة فى اتجاه الشمال والشرق.

---

(١) وهى بالبرتغالية Silves

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٢ و ٢٩٦ — ٢٩٨. والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٨٦.

وكانت هذه الإمارات البربرية التى استولى عليها وضبطها الزعماء البربر ، المتخلفون من عصبة المنصور بن أبى عامر ، فضلا عن مملكة بنى حمود فى مالقة والجزيرة ، ومملكة باديس بن حبوس فى غرناطة ، تنحصر فى أربعة وهى إمارة بنى يفرن فى رندة ، وإمارة بنى دمَّر فى مورور ، وإمارة بنى خزرون فى شذونة وأركش ، وإمارة بنى برزال فى قرمونة . وكان بنو عباد فى بداية أمرهم ، يخطبون ود هؤلاء الزعماء البربر ، ويعتمدون أحياناً على محالفتهم كما حدث عندما تحالف القاضى ابن عباد مع أمير قرمونة على قتال بنى الأفطس ، ثم على قتال يحيى بن حمود فيما بعد . ثم كان بين أبى نور هلال بن أبى قرة اليفرنى صاحب رندة ، وبين المعتضد بن عباد صداقة ومودة وثيقة العرى ، وكان المعتضد يبعث إليه ، وإلى باقى الأمراء البربر ، بالهدايا والصلات الجزيلة ، وكل ذلك لكى يكسب حيادهم ومودتهم ، وهو فى أعماق نفسه يضمر لهم غاية الكيد والشر ، ويتحين الفرص للإيقاع بهم .

وفى سنة ٤٤٥ هـ ، دبر المعتضد كمينه لأولئك الأمراء ، فدعاهم إلى زيارته بإشبيلية ، فلبى الدعوة ثلاثة منهم هم أبو نور بن أبى قرة صاحب رندة ، ومحمد بن نوح الدمَّرى صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، وقد ساروا إلى إشبيلية فى أحسن زى ، وأفخم مظهر ، ومعهم نحو مائتى فارس من رؤساء قبائلهم . فاستقبلهم المعتضد أحسن استقبال ، وأنزل الأمراء بقصر من قصوره ، وفى اليوم الثالث استدعاهم إلى مجلسه ، وأخذ يؤنبهم على تقصيرهم فى محاربة أعدائه ، ولما هموا بالرد أمر بالقبض عليهم ، وتكبيلهم بالأغلال ، ووضعهم فى السجن فرادى ، واستولى على سائر متاعهم وخيلهم وسلاحهم ؛ وبعد مدة من اعتقالهم ، أمر بادخالهم فى الحمام ، وبناء منافذه ، وإضرام النار فيه حتى هلكوا ؛ ويقال إنه أطلق ابن أبى قرة ، وهلك صاحباه فقط فى الحمام ، وهما محمد بن نوح ، وعبدون بن خزرون . وكان لغدر ابن عباد بالزعماء البربر على هذا النحو ، أسوأ وقع فى القبائل البربرية ، وفى إذكاء سخطها على ابن عباد وتوجسها منه ومن مشاريعه .

واستمر المعتضد بعد ذلك فى سعيه للاستيلاء على أملاك أولئك الأمراء ؛ فأما أركش فقد حل فى حكمها محمد بن خزرون مكان أخيه عبدون ، فابتنى

ابن عباد قلعة حصينة على مقربة منها ، وأخذ رجاله يغيرون منها على أركش ويرهقون أهلها ، فسار بنو يرنيان ، وهو اسم قبيلة البربر النازلة بها ، إلى كبيرهم باديس فى غرناطة ، واتفقوا معه على أن يسلموه أركش على أن يفسح لهم مقاماً فى مملكته ينزلون به ، وخرجوا من أركش بأموالهم ومتاعهم وحريمهم ، وسلموها إلى جند باديس ، فلما بعدوا عنها بمسافة نحو عشرين ميلا ، تعرضت لهم جند ابن عباد ووقع القتال بينهم وبينه ، ودافع البربر عن أنفسهم دفاعاً شديداً ، حتى أبيد أكثرهم ، وقتل زعيمهم محمد بن خزرون ، وقتل قائد باديس الذى كان معهم ، وملك ابن عباد أركش وشذونة وسائر هذه المنطقة ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م)(١) .

وأما مورور أو مورون ، وهى منزل بنى دمَّر ، فإنه بعد أن هلك أميرها محمد بن نوح فى سنة ٤٤٥ هـ ، أو على قول آخر فى سنة ٤٤٩ هـ ، فى حبس ابن عباد ، خلفه ولده مناد بن محمد بن نوح الملقب بعماد الدولة ، وضبط مورور وحسنت سيرته ، وقصد إليه البربر من إشبيلية ومن إستجة وغيرهما ، فكثر جمعه ، هـذا والمعتضد يتربص الفرصة للإيقاع به ، ويرسل جنده للإغارة عليه ، وانتساف زروعه ، وحرق قراه ، وأخيراً حاصرت جند ابن عباد مورور حصاراً شديداً ، وضيقت عليها المسالك ، حتى اضطر عماد الدولة أن يذعن إلى التسليم ، على أن يعيش فى إشبيلية ، فى كنف المعتمد وتحت حمايته ، فأجابه المعتضد إلى طلبه ، وسلم إليه المدينة (٤٥٨ هـ) وقصد إلى إشبيلية بأهله وماله ، وعاش بها حتى توفى فى سنة ٤٦٨ هـ(٢) .

وأما رندة ، وهى أهم هذه الإمارات الجنوبية وأمنعها ، فكانت منزل بنى يفرن . ولما وقع أميرها أبو نور هلال بن أبى قرة اليفرنى فى اعتقال المعتضد سنة ٤٤٥ هـ ، قام ولده باديس مكانه فى رندة ، ولكنه كان فاجراً سفاكاً ، فسطا على الأموال والأعراض ، وعاث رجاله فى المدينة سبياً ونهباً ، ولم يعف عن الاعتداء على أقرب الناس إليه . فلما أفرج عن أبيه ، عاد إلى رندة ، وقتل ولده الفاسق (٤٤٩ هـ) ، ولكنه لم يعش بعده سوى أشهر قلائل وتوفى فى نفس العام ، فخلفه ولده أبو نصر فتوح ، وبويع له فى رندة ، وفى سائر بلاد ريُّه ، وكان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ .

محسناً عادلا ، ولكنه كان شغوفاً بالشراب ، مخلداً إلى الراحة ، فدس عليه المعتضد رجلا من أقرب صحبه يدعى ابن يعقوب ، فهجم عليه فى أصحابه ذات يوم ، وهو يصيح بشعار ابن عباد ، فألقى أبو نصر نفسه من أعلى القصبة فمات ، ولم يبد أهل المدينة أية مقاومة ، وخلصت رندة وأعمالها على هذا النحو ، إلى المعتضد ، وذلك فى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) (١) .

وأما قَرْمونة فكانت حسبما تقدم فى يد بنى برزال . وتقع قرمونة على مقربة من شمالى شرقى إشبيلية ، وتعتبر لمنعتها الفائقة حصن إشبيلية من الشرق ، وما يزال يقوم بها حتى اليوم ، بابها الغربى المواجه لطريق إشبيلية ، والمسمى حتى اليوم باسمه الأندلسى باب إشبيلية ، وهو يعتبر بعقده الشاهق وواجهته العظيمة ، من أمنع الأبواب الأندلسية الباقية . وكان أمير قرمونة أيام القاضى ابن عباد ، محمد بن عبد الله البرزالى ، الذى سبق أن أشرنا إلى قصة تحالفه مع ابن عباد ضد بنى الأفطس وضد يحيى بن حمود . واستمر فى حكم قرمونة وأعمالها مثل إستجة ومرشانة حتى توفى سنة ٤٣٤ هـ ، فخلفه ولده عزيز الملقب بالمستظهر ، وانتظمت الأحوال وعم السلم والرخاء فى عهده ، إلى أن بدأ المعتضد فى مضايقته وغزو أراضيه . ولم تزل الحرب بينهما بضعة أعوام حتى خربت البلاد ، وفنى كثير من البربر ، واضطر المستظهر أن يذعن إلى التسليم ، فخرج من قرمونة وسلمها إلى ابن عباد ، وذلك فى سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) ، وتوفى بعد قليل فى إشبيلية (٢) .

هذا وسوف نعود إلى تناول هذه الإمارات البربرية فى فصل خاص بها .

وكان المعتضد قد استولى قبل ذلك على الجزيرة الخضراء . وكان أميرها القاسم بن محمد بن حمود ، قد خلف أباه فى حكمها فى سنة ٤٤٠ هـ ، وكان المعتضد يسعى إلى القضاء على سلطان الحمّوديين وخلافتهم . ومن جهة أخرى فقد كان يهمه الاستيلاء على الجزيرة ، وهى باب الأندلس من الجنوب ، فبعث قواته إليها فطوقتها من البر والبحر ، وضيقت عليها الحصار ، حتى اضطر القاسم إلى طلب الأمان والتسليم إلى قائد المعتضد عبد الله بن سلام ، فأجابه إلى مطلبه . وخرج

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٨ و ٢١٢ و ٣١٣ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢ .

القاسم بأهله وأمواله فى مركب أعده له ابن سلام ، وسار إلى ألمرية حيث التجأ إلى أميرها المعتصم بن صمادح ، وعاش بها حتى توفى . وكان استيلاء ابن عباد على الجزيرة الخضراء فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) (١) .

وهكذا أضحت مملكة إشبيلية أو مملكة بنى عباد تضم من أراضى الأندلس القديمة رقعة شاسعة تشمل المثلث الجنوبى من شبه الجزيرة ، وأرض الفرنتيرة شمالاً حتى شواطىء الوادى الكبير ، ثم تمتد بعد ذلك من عند منحنى الوادى الكبير ، غرباً حتى جنوبى البرتغال وشاطىء المحيط الأطلنطى ، وبذلك أضحت أعظم ممالك الطوائف ، وأغناها من حيث الموارد الطبيعية ، وأقواها من حيث الطاقة الحربية .

ولم يكن يغشى هذه المكانة التى بلغتها إشبيلية من الضخامة والقوة والغنى ، سوى ناحية قاتمة واحدة ، هى موقفها من ملك قشتالة فرناندو الأول (٢) . ذلك أن هذا الملك القوى كان يطمح إلى أن يبسط سيادته على اسبانيا كلها ، وكان يرى فى ممالك الطوائف ، وما يسودها من الخلاف والتفرق ، فرائس هينة . ففى سنة ١٠٦٢ م (٤٤٤ هـ) ، خرج من قشتالة بجيش كبير من الفرسان والرماة ، وغزا مملكة طليطلة ، وعاث فيها وخرب سهولها وزورعها ، حتى اضطر ملكها المأمون ابن ذى النون ، أن يطلب الصلح ، وأن يتعهد بدفع الجزية . وفى العام التالى ، سنة ١٠٦٣ م (٤٥٥ هـ) عاد فغزا أراضى مملكتى بطليوس وإشبيلية ، واضطر المعتضد بن عباد ، أن يحذو حذو المأمون ، فى طلب الصلح والتعهد بدفع الجزية ، وقصد المعتضد بنفسه إلى معسكر ملك قشتالة ، وقدم إليه عهوده شخصياً ، وطلب إليه ملك قشتالة بهذه المناسبة أن يسلمه رفات القديسة «خوستا» شهيدة إشبيلية ، فوعده بتحقيق رغبته . ولما توفى فرناندو بعد ذلك بثلاثة أعوام وخلفه ولده سانشو (شانجه) فى حكم مملكة جليقية ، كان المعتضد يؤدى إليه الجزية أسوة بأبيه ، واستمر فى تأديتها حتى وفاته (٢) .

— ٣ —

وحدثت خلال هذه الفترة التى قضاها المعتضد بن عباد فى افتتاح الإمارات

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٢ و ٢٤٣ .

(٢) ويسمى فى الرواية العربية فرذلند أو فرانده .

(٣) راجع : R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p. 135 & 140

الغربية ، والإمارات البربرية ، عدة حوادث داخلية هامة ، كان فى مقدمتها بطش المعتضد بولده اسماعيل .

وقد ساق إلينا ابن حيان قصة هذه المأساة ، وكان معاصراً لها ، متتبعاً لحوادثها ، فى خبر طويل ، خلاصته أنه فى سنة ٤٥٠ هـ ، تواترت الأنباء فى قرطبة بأن المعتضد قد دبر نزول قواته بمدينة الزهراء ضاحية قرطبة الغربية تمهيداً لافتتاحها ، وندب ولده وولى عهده إسماعيل الملقب بالمنصور للقيام بهذه المهمة . ولكن إسماعيل لم يشأ أن يقوم بهذه المهمة ، لأنه وفقاً لبعض الروايات كان يحقد على أبيه ويستوحش منه لأسباب خاصة ، أو لأنه وفقاً لرواية أخرى كان يرى أن مهاجمة قرطبة على هذا النحو مغامرة خطيرة يرجح فشلها ، ولاسيما لما كان بين آل جهور سادة قرطبة ، وبين باديس أمير غرناطة من محالفة وثيقة العرى . ومن ثم فقد راجع إسماعيل أباه وحذره من العواقب ، فأغلظ له أبوه فى القول ، وألزمه المسير ، وأنذره بالقتل إذا نكل ، فعندئذ ثارت نفس إسماعيل ، وعول على الفرار مع بعض خواصه . ويقال إن الذى شجعه على ذلك وزير أبيه وكاتبه ، أبوعبد الله محمد بن أحمد البزليانى ، حينما شكا إليه ما يلقاه من غلظة والده وقسوته ، فحسن له العقوق والعصيان ، والسير إلى أطراف المملكة ، حيث ينفرد بنفسه ، وعندئذ دبر إسماعيل أمره ، وانتهز فرصة غياب أبيه إلى مكان متنزه فى حصن الزاهر ، فى الضفة الأخرى من النهر ، فحزم قدراً كبيراً من المال والذخائر والمتاع ، وأخذ أمه وحرمه ، وخرج من إشبيلية تحت جنح الليل ، ومعه الوزير البزليانى ، وثلة من نحو ثلاثين فارساً ، وسار فى طريق الجزيرة الخضراء ؛ وعلم أبوه بالخبر بعد وقت ، فبادر باخراج عدة من فرسانه فى أثره ، وبعث ينذر قواد الحصون . وكان إسماعيل قد وصل خلال ذلك إلى قلعة من قلاع كورة شذونة ، وطلب إلى حاكمها ابن أبى حصاد ، أن يجيره ، فاستقبله وأنزله بالقلعة هو ومن معه ، وبادر فكتب إلى المعتضد بحصول إسماعيل فى يده ، وأنه نادم على ما فعل ، ورجاه فى العفو عنه ، فسر المعتضد ، واستجاب إسماعيل لدعوة أبيه إليه بالعودة ، ودخل إشبيلية بسائر ماله ومتاعه ، فاعتقله أبوه فى بعض الدور ، واسترد المال والمتاع ، وعجل بإعدام الوزير البزليانى لفرط حنقه عليه ، وقتل معه نفراً من خواص إسماعيل ، فلم يشك إسماعيل عندئذ فى مصيره . ودبر مع بعض الموكلين به مؤامرة لدخول القصر والفتك بأبيه والجلوس مكانه ، واستطاع بالفعل أن يدخل

القصر ليلا مع بعض أعوانه ، ولكنه سقط مرة أخرى فى يد أبيه الساهر الحذر . وعندئذ قرر المعتضد قتل ولده ، وقتله بنفسه ، وأخفى جثته ، فلم يقف أحد على أثره ، وعذب شركاءه أشنع عذاب ، وقطع أطرافهم ، ثم أعدمهم ، وأعدم كذلك نفراً من حرمه ونسائه ، حتى قطع دابر كل من كانت له بولده علاقة أو صلة ، وكانت مأساة مروعة ، وكان لها فى قواعد الأندلس أعمق صدى[1] .

وقد أورد لنا ابن بسام فى الذخيرة صورة كتاب أمر المعتضد بكتابته عن المأساة إلى رؤساء الأندلس يصف فيه أطوار الحادث ويبرر تصرفه فى إزهاق ولده «الخائن الغادر» حسبما يصفه . وقام بإنشاء هذه الرسالة ابن عبد البر كاتب المعتضد ، وذلك ارتجالا ، بين يدى المعتضد ، وبمحضر من الوزراء والكتاب ، فجاءت قطعة من البلاغة الرفيعة ، وإليك بعض ما ورد فيها :

«إن الغوى اللعين ، العاق الشاق ، إسماعيل ابنى بالولاد ، لا بالوداد ، ونجلى بالمناسب لا بالمذاهب ، كنت قد ملت بهواى إليه ، وقدمته على من هو أسنى منه ، وحبك الشيء يعمى ويصم ، والهوا يطمس عين الرائى ، إذ يلم ، فآثرته بأرفع الأسماء والأحوال ، ووسعت عليه فى خطيرات الذخائر والأموال ، وأخضعت له أكابر رقاب الجند ووجوه الرجال ، ودربته فى مباشرة الحروب ، وأجريته على مقارعة الخطوب ، ولم يكن مما أحسبه أنى إنما أشحذ على نفسى منه الشفرة ، وأوفد بالتدريب والتخريج تحت حصى الجمرة ، وما كنت خصصته بالإيثار ، واستعملته بالمكافحة والقرار ، إلا لجزالة كنت أتوسمها فيه ، كانت عينى بها قريرة ، وشهامة كنت أتوهمها فيه كانت نفسى بها مسرورة ، فإذا الجزالة جهالة ، والشهامة شرة وكهامة ، وقد تفتن الآباء بالأبناء ، وينطوى عنهم ماينطوون عليه من الأسواء ، مع أن الآراء قد تنشأ وتحدث ، والنفوس قد تطيب وتخبث ، بقرين يصلح أو يفسد ، وخليط يغوى أو يرشد ، كما أن داء العرق قد يعدى ، كذلك قرين السوء قد يردى ، ومن اتخذ الغاوى خديناً ، عاد غاوياً ظنيناً ، ومن يكن الشيطان له قريناً ، فساء قرينا» .

ويصف الكتاب بعد ذلك أدوار المؤامرة التى دبرها إسماعيل منذ فراره وعوده ، وعفو والده عنه ، ويقول «فإذا به كالحية لا تغنى مداراتها ، والعقرب لا تسالم

---

(١) راجع رواية ابن حيان فى دوزى Historia Abbadidarum, V. I. P. 256 — 259 وكذلك البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٤ و ٢٤٨ و ٢٤٩ .

شبابها ، وكأنه قد استصغر ما أتى ، واستحقر ما جنى ، فزرا وسرا ما صارت به الصغرى ، التى كانت العظمى» . ثم يصف ائتماره بأبيه وتسوره القصر ليلا ، وفشل المؤامرة ، والقبض على المتآمرين ، «حتى أظفر الله بهم ، وأقمت حدود الله تعالى على الجميع منهم ، وأنفذت حكم العدل فيهم » .

ثم يحاول أن يبرر تصرفه فيما يلى : «فاعجب يا سيدى لأبناء الزمن ، وأنباء الفتن ، وانقلاب عين الإبن المقرب الودود ، إلى حال الواتر المحسود ، والثائر الحقود ، واعتبر فى ورد المساءة ، من موطن المسرة ، وطلوع المحنة . وقد أربت هذه الحال على كل ما جر عليه عقوق من الأبناء والبنين ، من السلف المتقدمين ، فلم يكن أكثر مما وجدناه من ذلك فى الأخبار والآثار ، استيحاشاً وشروداً ، ونبوا ونددوا ، إلا ما شذ لأحد ملوك الفرس ، وآخر من بنى العباس . وجمع هذا اللعين فى إرادته ومحاولته ، بين الشاذ والنادر ، والمنكر الدائر ، وزاد إلى استيحاشه الذم ، التعرض لإباحة الحرم ، وإلى ما رام من إتلاف المهجات ، السافح فيها كان يجرى على العورات المصونات ، وهو زمان فتنة ، وشمول إحنة ودمنة ، والناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وأصدق من هذا قوله تعالى : «إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ، فاحذروهم» نفثت يا سيدى نفثة مصدور ، وأطلت فى الشرح والتفسير ، خروجاً إليك عن هذا الخطب الخطير ، والملم الكبير ؛ وهو خبر فيه معتبر» (١) .

ونحن نعرف أن فتك المعتضد بن عباد بولده لم يكن هو أول مثل من نوعه فى تاريخ الأندلس . فقبل سبعين عاما ، قتل المنصور بن أبى عامر ولده عبد الله ، ومن قبل ذلك قتل الناصر لدين الله ولده عبد الله أيضاً ، وكلاهما فى مثل هذه الظروف ، ولمثل هذه الأسباب ، أعنى لتطلعه إلى انتزاع السلطان من يد أبيه ، وائتماره بحياته . بيد أن المعتضد هو أول أمير من هؤلاء يعنى بشرح موقفه وظروفه ، وتبرير تصرفه الدموى ، فى هذه الوثيقة أو هذه الرسالة ، التى وجهها إلى ز ملائه أمراء الأندلس . وقد كان من الطبيعى أن يتوجس أمير مستبد ، صارم عنيف الأهواء ، مثل المعتضد بن عباد ،

---

(١) راجع دوزى Historia Abbadidarum, V. I. p. 253—256 ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٥ و ٢٤٨ .

من تصرف ولده الحاقد الناقم ، المتربص به ، ولا سيما إذا صحت الوقائع التى تسوقها إلينا الرواية المعاصرة عن ائتماره بأبيه ، وتسوره القصر ليلا للفتك به ، وهى رواية مؤرخ معاصر محايد معاً ، هو ابن حيان القرطبي .

وفى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، قطع المعتضد بن عباد الدعوة لهشام المؤيد فى سائر أنحاء مملكة إشبيلية ، وقد كان يدعى له بها منذ نحو خمسة وعشرين عاماً ، أعنى منذ زعم القاضى ابن عباد فى سنة ٤٢٦ هـ ، أنه عثر بهشام المؤيد حياً ، وبايعه ودعا له . وقيل فى ذلك إن المعتضد دعا وجوه دولته إلى مجلسه ، ونعى لهم هشاماً ، وأنه قد مات بالفعل قبل ذلك من علة مزمنة ، ولكن لم يعلن وفاته يومئذ ، لاشتداد الفتنة ، واضطرام النضال بينه وبين الأمراء المتألبين عليه ، فلما سكنت الفتنة وجب التصريح بالحق . ومن ذلك الحين يصبح هشام فى ذمة التاريخ ، وينقطع ذكره بصفة نهائية . ويعلق ابن حيان على ذلك متهكماً فى قوله : «وصارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة ، وعساها أن تكون إن شاء الله الصادقة ، فكم قتل وكم مات ، ثم انتفض من التراب ، ومزق الكفن قبل نفخة الصور» .

وقد قال بعضهم فى ذلك :

ذاك الذى مات مراراً ودفن … فانتفض الترب ومزق الكفن

فقد أعلنت وفاته لأول مرة على يد منتزع عرشه محمد بن هشام المهدى ، ودفن بمحضر من العلماء والفقهاء فى شعبان سنة ٣٩٩ هـ ، ونشر بعد نحو عام على يد الفتى واضح ، وتولى الخلافة ؛ وتوفى للمرة الثانية قتيلا بيد سليمان المستعين أو ولده محمد بن سليمان فى سنة ٤٠٣ هـ ، ودفن خفية ؛ ولما دخل على بن حمود قرطبة ، وكان الاعتقاد سائداً بأن هشاماً لم يمت وأنه قد اختفى ، ولم يجد هشاماً بعد البحث عنه ، أعلن وفاته ودعا لنفسه بالخلافة (٤٠٧ هـ) . ثم جاء القاضى ابن عباد بعد ذلك فى سنة ٤٢٦ هـ ، فأعلن ظهور هشام ، ودعا له ، احتماء بظل الخلافة ، ودفعاً لدعاوى بنى حمود (١) .

— ٤ —

وقد أشرنا من قبل فى بداية حديثنا عن المعتضد بن عباد إلى ما نسب إليه من

(١) راجع رواية ابن حيان وتعليقاته على ذلك فى دوزى : Historia Abbadidarum V.I. p. 250 ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٩ .

الصفات الباهرة المثيرة معاً ، ونود هنا أن نستعرض فى شىء من التفصيل خواص هذه الشخصية القوية العنيفة .

كان المعتضد بن عباد ، بلامراء ، أعظم ملوك الطوائف فى عصره ، وأوفرهم عزماً ودهاء ، وأبعدهم مطامع . وتقدمه إلينا الروايات المعاصرة فى صور قاتمة ، يتجلى فيها عنفه ، وقسوته وغدره ، والتجاؤه إلى أى الوسائل لتحقيق غاياته ، مهما كانت مجافية لمبادىء الأخلاق والشهامة والفروسية . وقد رأينا فيما تقدم فى تطبيق سياسته ، وفى حروبه ، وفى تصرفاته ، ما يؤيد هذه الصفات المثيرة . ويقول لنا ابن حيان إن المعتضد كان يتخذ سيرة سميه الخليفة المعتضد بالله العباسى قدوة له (١) ، ويهتدى بأخباره السياسية «التى أضحت عند أهل النظر أمثلة هادية إلى الاحتواء على أمد الرياسة ، فى صلابة العصا ، وشناعة السطا ، فجاء منها بمهولات تذعر من سمع بها ، فضلا عمن عاينها» . ثم يستدرك فيقول : «نسبوا إلى هذا الأمير الشهم عباد أمثالها من غير دلالة» (٢) . وقد رأينا فيما تقدم أن ابن حيان يميل أحياناً إلى الدفاع عن المعتضد ، بالرغم مما يقصه من أخبار بطشه وقسوته المروعة .

وقد أنفق المعتضد بن عباد معظم حكمه فى محاربة جيرانه من أمراء الطوائف ، وكشف فى محاربتهم عن قوة عزمه ، وضخامة عدته ، وإحكام خططه ، ولكنه كشف فى نفس الوقت عن قسوته وغدره ، وروعة وسائله . وعلى أى حال فقد استطاع المعتضد بهذه الوسائل المثيرة أن يحقق أطماعه ، وأن ينشىء مملكة إشبيلية الكبرى ، أعظم ممالك الطوائف ، وأن يوطد بها ملك أسرته ، وأن يسبغ عليها نوعاً من الزعامة السياسية والأدبية لاسبانيا المسلمة كلها .

ويبدى ابن حيان حماسة فى وصف سياسة المعتضد إذ يقول : «وسياسته أعيت على أنداده من أملاك الأندلس ، فخرج منهم رجالا مساعير حرب أباد بهم أقتاله ، ومن نادر أخباره المتناهية الغرابة ، أن نال بغيته ، وأهلك تلك الأمم العاتية ، وإنه لغائب عن مشاهدتها ، مترفه عن مكابدتها ، مدبر فوق أريكته ، منفذ

---

(١) قال ابن الأثير فى وصف الخليفة المعتضد العباسى ما يأتى : «وكان شهماً شجاعاً مقداماً ذا عزم ، وكان فيه شح ، وكان مهيباً عند أصحابه ، يتقون سطوته ، ويكفون عن الظلم خوفاً منه» (ج ٧ ص ١٦٩ و ١٧٠) .

(٢) ابن حيان ، ونقله دوزى فى Hist. Abbadidarum, V. I. p, 243

لحيلها ، من جوف قصره ، ما مشى إلى عدو أو مغلوب من أقتاله غير مرة أو مرتين ، ثم لزم عريسته يدبر داخلها أموره ، جرد نهاره لإبرام التدبير ، وأخلص ليله لتملي السرور ، ... وهو واصل نعم ليله ، بإجابة كيده ، ومبتدع نشاط لهوه بقوة أيده ، له في كل شيء شوين ، وعلى كل قلب سمع وعين . ما أن سبر أحد من دهاة رجاله غوره ، ولا أدرك قعره ، ولا أمن مكره ، لم يزل هذا دأبه منذ ابتدائه إلى انتهائه » [١] .

وقال ابن القطان : «كان ذا سطوة كالمعتضد العباسي ببغداد ، وكان ذا سياسة ورأي يدبر ملكه من داره . وكان يغلب عليه الجود ، فلم يعلم في نظرائه أبذل منه للمال» [٢] .

ووصفه ابن الخطيب بأنه : «كان شديد الجرأة ، قوي المنة ، عظيم الجلادة ، مستهيناً بالدماء» [٣] .

وقد انتهت إلينا عن قسوة المعتضد بن عباد قصة مروعة ، هي قصة حديقة الرؤوس المحنطة ، رؤوس أعدائه الذين سقطوا في ساحة الحرب ، أو قتلوا غيلة ، وحملت إليه رؤوسهم . ويقول لنا ابن حيان ، إن المعتضد كان له بهذه الحديقة التي تملأ قلوب البشر ذعراً ، مباهاة أكرم لديه من خزانة جواهر مكنونة ، وقد أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه ، منها رأس محمد بن عبد الله البرزالي ، ورؤوس الحجاب ابن خزرون ، وابن نوح ، وغيرهم ممن قرن رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن علي بن حمود ، فخص رؤوسهم بالصون بعد إزالة جسومهم الممزقة ، وبالغ في تطييبها وتنظيفها ، وأودعها المصاون الحافظة لها ، فبقيت عنده ثارية تجيب سائلها اعتباراً . ثم يقول لنا إن هذه الرؤوس الفانية كانت تحمل إلى المعتضد في ليالي أنسه وسروره ، يشاهدها وهو يترع كؤوس الراح ، فترتاح نفسه لمعاينتها ، والخلق يذعرون من التماحها [٤] . ويضيف

---

(١) ابن حيان ، ونقله دوزي في : Hist. Abbad. V. I. p. 243—244

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٥٦ .

(٤) ابن حيان ونقله دوزي في Hist, Abbadidarum, V. I, p. 243—244 ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٥ و٢٥٦ .

ابن بسام إلى ذلك أنه لما افتتحت إشبيلية ، وخلع المعتمد بن عباد ، عثر المرابطون بهذه الرؤوس فى جوالق وأوعية ، ظن فى البداية أن بها أموال أو جواهر ، فهالهم الأمر ، وسلم كل رأس منها لمن بقى من عقب أصحابها (١) .

على أن هذه النواحى القاتمة لم تكن كل شىء فى شخصية المعتضد ، فقد كانت ثمة فى هذه الشخصية نواح أخرى لامعة عنى ابن حيان أيضاً بالإشارة إليها . من ذلك ما سمت إليه همته من إنشاء القصور الباذخة ، والرباع العظيمة المغلة ، وما عنى به من تنظيم بلاط بنى عباد ، وتجهيزه بالعدد والمظاهر الملوكية الفخمة ، ونفيس المتاع والرياش ، حتى غدا أعظم وأفخم بلاط بين قصور الطوائف .

وقد اشتهرت قصور بنى عباد فى التاريخ والشعر ، وقد كانت منها بمدينة إشبيلية قاعدة ملكهم عدة ، منها قصر الإمارة وهو «القصر المبارك » ، وقد كان يقع فى شرقى نهر الوادى الكبير ، فى المكان الذى يشغله اليوم قصر إشبيلية الشهير El Alcàzar . والظاهر أنه كان من إنشاء المعتضد بن عباد ، أو أنه هو الذى زاد فيه وأسبغ عليه رونقه وفخامته التى اشتهر بها . وقد كان ثمة أيضاً قصر الزاهى ، وهو القصر الذى كان يتخذه المعتضد ، ومن بعده ولده المعتمد ، مكاناً للهو والقصف ، وقد كان يقع على الضفة الأخرى من النهر ، وتحيط به حدائق غناء (٢) . وقد ذكر لنا ابن زيدون فى شعره ، وذكر لنا المقرى أسماء قصور أخرى تتصل بعصر المعتضد ، وهى على الأغلب من إنشائه ، ومن ثم فإنا نرجىء ذكرها إلى موضعها . وقد اقتنى المعتضد كثيراً من الجياد الصافنات ، والغلمان والحشم ، وأنشأ له جيشاً منتخباً من أبرع الفرسان والمقاتلة ، وبذل لهم الصلات الوفيرة ، فكان له ما شاء من التفوق العسكرى على أنداده وخصومه ، وكان جواداً «يبارى جوده السحاب» .

وأما عن شخص المعتضد ، فقد ترك لنا عنه معاصره ابن حيان تلك الصورة الرائعة ، قال : « وكان عباد قد أوتى من جمال الصورة ، وتمام الخلقة ، وفخامة الهيئة ، وسباطة البيان ، وثقود الذهن ، وحضور الخاطر ، ما فاق

---

(١) ابن بسام فى الذخيرة ونقله نفس المصدر ص ٢٤٠ . والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٥ و ٢٠٦ .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٤ .

به أيضاً على نظرائه» . وقد اشتهر المعتضد بشغفه بالنساء ، فكان إلى جانب زوجه الحسناء الأثيرة لديه ، إبنة مجاهد العامرى ، وأخت ولده على إقبال الدولة صاحب دانية ، يقتنى فى قصوره الفخمة ، عدداً كبيراً من الجوارى البارعات فى الحسن والسحر ، من سائر الأجناس والملل ، بلغ عددهن حسبما قيل ، نحواً من السبعين ، وكان له من الولد الذكور نحو العشرين ، وكذلك مثلهم من الإناث(١) .

بقيت من صفات المعتضد ، خلة لامعة ، تبعث إلى الإعجاب والعطف فى تلك الشخصية التى لا توحى معظم صفاتها إلا شعور المقت والروع ، تلك هى أدبه الرفيع ونظمه الرائق . وهنا أيضاً نستعير قلم ابن حيان إذ يقول : «ونظر مع ذلك فى الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان ، أدنى نظر ، بأذكى طبع حصل منه لثقوب ذهنه ، على قطعة وافرة علقها من غير تعهد لها ، ولا إمعان فى غمارها ، ولا إكثار من مطالعتها ، ولا منافسة فى اقتناء صحائفها ، أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام ، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة ، فى معان أمدته فيها الطبيعة ، وبلغ فيها الإرادة ، واقتبسها الأدباء للبراعة» (٢) .

وقال الحميدى : «كان أبو عمرو بن عباد صاحب إشبيلية ، من أهل الأدب البارع ، والشعر الرائع ، والمحبة لذوى المعارف . وقد رأيت له سفراً صغيراً فى نحو ستين ورقة من شعر نفسه» (٣) .

وقال ابن القطان : «وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة ، وله فى ذلك همة عالية ، ألف له الأعلم أديب عصره ، ولغوى زمانه ، شرح الأشعار الستة ، وشرح الحماسة ، وألف له غيره دواوين وتصانيف لم تخرج إلى الناس »(٤) .

والأدب والشعر من محاسن الأسرة العبادية ومآثرها العريقة ، فقد نبغ معظم رجالاتها فى النثر والنظم ، ولم تكن براعة المعتضد فى الشعر إلا قبساً من تراث أسرته ؛ ولقد بلغ ولده المعتمد ، فيما بعد ، فى عالم الشعر أسمى مراتبه ، وكان من أعظم شعراء الأندلس فى عصره . وذكر لنا ابن بسام أن شعر المعتضد قد جمع بعناية ولد أخيه اسماعيل فى ديوان أطلع عليه(٥) ، واختار منه ما اختار فى الذخيرة

(١) ابن حيان ، ونقله دوزى فى المصدر السابق ص ٢٤٥ . وفى الحلة السيراء (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣ .
(٢) ابن حيان ، ونقله دوزى فى المصدر السابق ص ٢٤٥ . وفى الحلة السيراء ج ٢ ص ٤٢ .
(٣) فى جذوة المقتبس رقم ٦٧٢ ، ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٥ .
(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٤ .
(٥) وهذا ما ذكره أيضاً ابن الأبار فى الحلة السيراء (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣ .

من المقطوعات . وهذه المقطوعات منوعة بين الفخر والغزل والوصف وغيرها ، وكلها تدل على افتتان المعتضد ، ومقدرته الشعرية الممتازة . فمن قوله فى الفخر :

حميت ذمار المجد بالبيض والسمر وقصرت أعمار العداة على قسر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة لأشياء فى العلياء ضاق بها صدرى
فلا مجد للإنسان ما كان ضده يشاركه فى الدهر بالنهى والأمر

ومن قوله حين استولى على رندة ، وهو مما يتفق مع عنفه وصرامته :

لقد حصلت يارندة فصرت لملكنا عقدة
سأفنى مدة الأعداء إن طالت بى المدة
وتبلى بى ضلالتهم ليزداد الهوى جدة
فكم من عدة قتلت منهم بعدها عدة
نظمت رؤوسهم عقدا فحلت لبة السدة (١)

وربما كان لهذه السجية الأدبية أكبر أثر فى أن المعتضد قد نظم فى سلك وزرائه جماعة من أعظم شعراء العصر وكتابه . وكان فى مقدمة هؤلاء أبو الوليد بن زيدون إمام الشعر وقطبه ، وكان قد انتظم من قبل فى وزارة بنى جهور بقرطبة ، ثم ساءت أحواله فغادر قرطبة إلى إشبيلية فى سنة ٤٤١ هـ ، فأكرم المعتضد وفادته ، وعينه فى وزارته ، وغمره بثقته وعطفه ، وما زال متمتعاً برفيع مكانه ونفوذه حتى وفاة المعتضد . بيد أنه يبدو أنه لم يكن مطمئناً على نفسه فى خدمة هذا الطاغية الخطر ، حتى أنه لما توفى المعتضد نظم هذين البيتين ابتهاجاً بذهابه ، ولم يظهرهما يومئذ «لأنه كان غير مأمون على الدماء ، ولا حافظاً لحرية الأولياء» .

لقد سرنى أن النعى موكل بطاغية قد حم منه حمام
تجانب صوب الغيث عن ذلك الصدا ومر عليه المزن وهو جهام (٢)

ومنهم أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر ولد أبى عمر ، صاحب كتاب «بهجة المجالس وأنس المجالس» . نظمه المعتضد فى سلك وزرائه ، وكان كاتبه

(١) تراجع مقطوعات أخرى من شعر المعتضد فيما أورده ابن بسام فى الذخيرة ونقله دوزى فى : Hist. Abbadidarum V. II. p. 48 -60 وكذلك فى الحلة السيراء (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣ — ٤٩ .

(٢) راجع ما أورده ابن بسام ، ونقله دوزى فى Hist. Abbadidarum, V. II. p.48 وراجع قلائد العقيان ص ٧١ .

ولسانه لدى الرؤساء ، وقد اشتهر برائق نثره وروعة أسلوبه . وقد رأينا نموذجاً من نثره فيما اخترناه من مقتطفات رسالته ، عن مصرع إسماعيل ابن المعتضد . بيد أنه لم يكن أيضاً سعيداً ولا مطمئناً ، لخوفه المستمر من أن يبطش به المعتضد ، ومن ثم فقد عول فى النهاية على الفرار ، وغادر إشبيلية ناجياً بنفسه (١) .

ومنهم أيضاً الكاتب البارع أبو عبد الله البزليانى الذى يصفه ابن بسام بأنه «أحد شيوخ الكتاب ، وجهابذة أهل الأدب» . وقد رأينا كيف ساق سوء الطالع هذا الوزير الكاتب إلى الاشتراك مع إسماعيل ولد المعتضد فى مؤامرته وفراره ، وكيف قبض عليه المعتضد وأعدمه لفوره .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان بين وزراء المعتضد أو معاونيه ، رجل من النصارى المستعربين ، هو سسنندو داڤيدس (أوششنند) الذى اشتهر فيما بعد فى قصور الطوائف . وأصله من مقاطعة بيرة فى شمالى البرتغال ، وأسر حدثاً فى غارة قام بها القاضى ابن عباد فى منطقة قُلُمرية ، ثم أخذ إلى إشبيلية وربى مع «فتيان» القصر ، واشتغل فى شئون الخاص . ولما تولى المعتضد ، قدر مواهبه ، ومعرفته بشئون الجزيرة ، فنظمه بين وزرائه أو معاونيه ، فنال ثقته ، وتمكن نفوذه ، وعلت مكانته فى البلاط العبادى بسرعة . ولكنه لم يلبث أن تعرض لخصومة بعض رجال البلاط وسعايتهم ، فخشى العاقبة ، وفر من إشبيلية إلى الشمال ، ولجأ إلى بلاط فرناندو ملك قشتالة ، فرحب به ، ونظمه بين مستشاريه ، وكان له فيما بعد أكبر أثر فى تكييف سياسته نحو ملوك الطوائف (٢) .

وتوفى المعتضد بن عباد فى الثانى من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة (مارس ١٠٦٩ م) . ويقول لنا ابن حيان إن وفاته كانت بسبب ذبحة قصيرة الأمد ، ترتبت على الإجهاد ، وكانت شبه البغت . وكانت ولايته زهاء ثمانية وعشرين عاماً .

---

(١) راجع قلائد العقيان ص ١٨١ و ١٨٣ .

(٢) الذخيرة ، القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ وكذلك : Isidro de las Cagigas Los Mozarabes (Madrid 1947) p. 456—457.

الفصل الثالث

بنو عباد ومملكة إشبيلية

القسم الثانى

المعتمد بن عباد . شخصيته وخلاله . ذكرياته بشلب . استيلاؤه على قرطبة . النضال بين بنى عباد والبربر . عوامل الخصومة بينهما . محاربة المعتمد لغرناطة واستيلاؤه على جيان . اتفاقه مع ألفونسو السادس على فتح غرناطة . الوزير ابن عمار . نشأته وشاعريته . مقدرته ودهاؤه . سعيه إلى فتح مرسية . اتفاقه مع أمير برشلونة على غزوها . فشل هذه المحاولة . استعانته بابن رشيق فى فتحها . محاولته الاستقلال بحكمها . تغلب ابن رشيق عليها . فرار ابن عمار والتجاؤه إلى بنى هود . محاولته فتح حصن شقورة . سقوطه فى يد صاحب الحصن . تسليمه لابن عباد . اعتماد الرميكية وابن عباد . تغدو ملكة إشبيلية . الوحشة بينها وبين ابن عمار . هجاء ابن عمار للمعتمد والرميكية . استعطاف ابن عمار للمعتمد وشعره فى ذلك . قسوة المعتمد وقتله لوزيره . تعليقات على الحادث . ابن عمار وعبقريته . مقدرته الأدبية والشعرية . غزو المعتمد لأراضى طليطلة . يؤدى الجزية لملك قشتالة . يعقد حلفاً معه . موضوع هذا الحلف . مطالبة ألفونسو للمعتمد بالجزية . والخلاف على قيمها . تنكيل ابن عباد برسل ألفونسو . غزو ألفونسو لأراضى إشبيلية . خطته فى إضعاف الطوائف والقضاء عليهم . إدراك المعتمد لخطته وتفكيره فى الاستعانة بالمرابطين . وعيد ألفونسو له ورد المعتمد عليه . ذيوع فكرة استدعاء المرابطين بين أمراء الأندلس وشعوبها . سفارة أمراء الأندلس لعاهل المرابطين . الإتجاهات المختلفة والآراء المعارضة . ما ينسب لابن عباد من رسائل وجهها إلى أمير المسلمين . استجابة أمير المسلمين لنداء الأندلس . عبوره إلى شبه الجزيرة الإسبانية .

— ١ —

لما توفى المعتضد بن عباد ، خلفه يوم وفاته ولده ، محمد بن عباد ، الملقب بالظافر ، والمؤيد بالله ، والمعتمد على الله ، وهو اللقب الذى غلب عليه واشتهر به طول حياته .

وكان المعتمد يوم جلوسه على عرش مملكة إشبيلية ، فتى فى الثلاثين من عمره ، وكان مولده بمدينة باجة فى سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠ م) وقيل بل فى ربيع الأول سنة ٤٣٢ هـ (١) . وكان مثل أبيه ، فى حسن القوام ، وروعة المظهر ، وعنفوان

---

(١) يقول بالرواية الأولى النويرى ، وبالرواية الثانية ابن زيدون وابن اللبانة شاعرا المعتمد . راجع دوزى : Historia Abbadidarum V. II, p. 61 & 131 ، وكذلك ابن الأبار فى الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٣ .

الصبا ، ولكن لم يكن مثله فى الصرامة والقسوة والاستهتار بالدماء ، بل كان بالعكس وديعاً ، يعف عن الدماء ، بعيداً عن قبول السعايات .

ويقول لنا ابن الأبار فى وصف المعتمد ما يأتى : « وكان المعتمد من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين ، عفيف السيف والذيل مخالفاً لأبيه فى القهر والسفك ، والأخذ بأدنى سعاية ، رد جماعة ممن نفى أبوه ، وسكن وما نفر ، وأحسن السيرة ، وملك فأسجح ، إلا أنه كان مولعاً بالخمر ، منغمساً فى اللذات ، عاكفاً على البطالة ، مخلداً إلى الراحة ، فكان ذلك سبب عطبه ، واصل هلاكه » (١) .

وقد خاض المعتمد مثل أبيه ، سلسلة طويلة من الحروب والأحداث ، وتقلب فى غمار الخطوب والجدود ، وكان عهده عهد الحسم فى تاريخ دول الطوائف ، وفى تاريخ الأندلس قاطبة ؛ ولكنه لم يشتهر فى ميدان الحرب والسياسة ، قدر ما اشتهر فى ميدان الأدب والشعر ، والفروسية ، والجود . ومهما كانت وجوه الضعف الشخصية التى كان ينطوى عليها ، من عكوف على الشراب ، وانغماس فى مجالى اللهو والترف ، ومهما كانت أخطاؤه السياسية الفادحة ، التى ترتبت عليها محنة الأندلس ، ثم محنته الخاصة : مهما كان من هذه الصفات القاتمة فإن شخصية المعتمد بن عباد ، تبرز لنا من خلال هذه الغمار ، ومن الناحية الأخرى ، مشرقة وضاءة ، تتوجها عبقريته الأدبية والشعرية ، وتزينها صفاته الإنسانية الرقيقة وتطبعها محنته المؤلمة ، بالرغم من كل أوزاره وأخطائه ، بطابع الاستشهاد المؤثر .

وكان المعتمد أثناء حياة أبيه المعتضد ، والياً لمدينة شلب ، وليها عقب استيلاء بنى عباد عليها فى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وكان يعاونه خلال تلك الفترة فى إدارة ولاية شلب وزيره أو أمينه أبو بكر بن عمار ، الذى تولى وزارته بإشبيلية فيما بعد ، واشتهر ذكره ، واضطلع له بأخطر المهام السياسية والعسكرية .

وقد تركت حياة المعتمد فى شلب ، تلك المدينة البرتغالية الجميلة النائية ، وهو يومئذ فى عنفوان فتوته ، يتقلب خلالها فى مجالى اللهو والأنس ، فى نفسه ذكريات لا تمحى ، صورها لنا فيما بعد ، فى بعض قصائده . ومن ذلك قوله مخاطباً وزيره ابن عمار حين وجهه إلى شلب ليتفقد أعمالها :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

---

(١) فى الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٤ .

وسلم على قصر الشراجيب من فتى ... له أبداً شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم ... فناهيك من غيل وناهيك من خدر
فكم ليلة قد بت أنعم جنحها ... بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتى ... فعال الصفاح البيض والأسُل السمر
وليل بسدّ النهر لهواً قطعته ... بذات سور مثل منعطف البدر
نضت بردَها عن غصن بان منعم ... نضير كما انشقت الكمام عن الزهر
وباتت تسقينى المدام بلحظها ... فمن كأسها حينا وحيناً من الثغر

وكان أول عمل قام به المعتمد عقب ولايته ، هو تدخله فى حوادث قرطبة ، حينما هددها المأمون بن ذى النون بقواته ، فبعث إليه عبد الملك بن جَهْور يستنجد به ، فوجه إليه الأمداد مع قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، وانتهى الإمر باستيلاء قوات إشبيلية على قرطبة ، وفقاً لخطة سرية وضعت من قبل ، وبالقضاء عل دولة بنى جهور ، وضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية (٤٦٢ هـ — ١٠٧٠ م) . وندب المعتمد ولده عباداً الملقب بسراج الدولة لحكم المدينة . وقد فصلنا عند الكلام عن دولة بنى ذى النون ، كيف دبر المأمون بن ذى النون استرداد قرطبة على يد ابن عكاشة ، وكيف قتل سراج الدولة ولد المعتمد مدافعاً عنها ، ثم دخلها المأمون فى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ثم توفى بها بعد ذلك بأشهر قلائل ، وأخيراً كيف عاد المعتمد ، فسار على أثر ذلك إلى قرطبة فى قواته ، واستولى عليها ، وقتل ابن عكاشة انتقاماً لولده ، وبذلك عادت قرطبة إلى مملكة إشبيلية .

على أن أهم ما شغل به المعتمد ، فى تلك الفترة الأولى من ولايته ، هو النضال ضد مملكة غرناطة البربرية . ونحن نعرف أن الخصومة بين بنى عباد وبين الإمارات البربرية قد بدأت فى عصر مبكر ، وقد فصلنا من قبل كيف اشتبك القاضى ابن عباد مع يحيى بن حمود المعتلى حول قرمونة ، فى معركة دموية قتل فيها المعتلى ، واستولى ابن عباد على قرمونة ، وأعطاها لصاحبها البرزالى حليفه يومئذ ، وكيف نشبت الخصومة فيما بعد بين ابن عباد والبرزالى ، فلما أراد ابن عباد استرداد قرمونة باعتبارها حصن إشبيلية من الشرق ، وسير إليها قواته ، استغاث البرزالى بإدريس المتأيد صاحب مالقة ، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية معارك طاحنة هزم فيها الإشبيليون ، وقتل أميرهم إسماعيل بن عباد ، وذلك فى أوائل سنة ٤٣١ هـ .

ولما تولى المعتضد بن عباد ، عقب وفاة والده القاضى محمد بن اسماعيل ابن عباد فى سنة ٤٣٣ هـ ، كان من أبرز أعماله القضاء على مختلف الولايات البربرية الشرقية ، والجنوبية الشرقية ، وهى مورون وأركش ورندة . واستولى على الجزيرة الخضراء من يد أميرها القاسم بن حمود (٤٤٦ هـ) ، ثم استولى على قرمونة وأعمالها فى سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) .

وبذلك تم القضاء على سائر الإمارات البربرية المتاخمة لإشبيلية من الشرق والجنوب الشرقى ، وتم تأمين جناحها الدفاعى من هذه الناحية ، ولم يبق فى جنوبى الأندلس من الإمارات البربرية ، سوى مملكة باديس فى غرناطة ومالقة .

وحاول المعتضد فى نفس الوقت أن ينتزع مالقة من باديس ، وسير إليها قواته بالفعل تحت إمرة ولديه جابر والمعتمد ، وكادت مالقة تسقط بالفعل فى أيدى الهاجمين ، ولكن باديس قدم فى قواته مسرعاً ، فانقلبت الآية وهزم جند إشبيلية هزيمة شديدة ، وفشلت المحاولة (٤٥٨ هـ) [1] .

وكان المعتمد بن عباد يتابع سياسة أبيه وجده فى التوجس من البربر والقضاء على سلطانهم . وكان يخشى أن تغدو مملكة غرناطة البربرية ، مهبطاً للقبائل والقوات البربرية ، التى تفد من وراء البحر باحثة عن طالعها وأرزاقها . هذا من ناحية العوامل المادية ، وأما من ناحية العوامل الأدبية ، فنستطيع أن نشير بهذه المناسبة ، إلى ما كان بين العرب والبربر من خصومة قديمة مؤثلة ترجع إلى عصر الفتح ذاته ، وقد شرحنا عوامل هذه الخصومة فى «العصر الأول» من كتابنا . ونزيد هنا أن بنى عباد ، كانوا حسبما أشرنا من قبل ، ينتمون إلى لخم ، من أكرم وأشرف القبائل العربية ، وكانوا من أهل العلم والأدب المؤثل ، حماة للعلوم والآداب والفنون ، يغص بلاطهم بأقطاب العصر وشعرائه ، وتتمتع فى ظلهم مملكة إشبيلية بحضارة زاهرة ، وثقافة رفيعة . أما القبائل البربرية فلم تكن راسخة فى تعاليم الإسلام ، وكانت بعيدة عن العربية وثقافتها وتراثها ، يؤثرون التمسك بعجمتهم وبداوتهم ، وكانت قصورهم عاطلة عن ذلك الجو الفكرى والأدبى ، الذى تزدان به قصور الأصول العربية ، وكان هذا التباين يبدو بالأخص بين بلاط غرناطة البربرى ، وبين بلاط إشبيلية العربى .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٤ و ٢٧٥ .

اجتمعت هذه العوامل المادية والأدبية ، لتذكى ضرام النضال بين مملكة غرناطة ، حصن البربر فى الجنوب ، وبين مملكة إشبيلية . وكانت مملكة غرناطة قد بلغت ذروة قوتها فى عهد ملكها باديس بن حبوس الصنهاجى ، وكان باديس قد رشح ولده بُلُقّين للأمر من بعده ولقبه سيف الدولة، ولكنه توفى بالسم فى حادث غامض . وفى خلال ذلك كان النضال مستمراً بين المعتضد بن عباد وبين البربر ، وقوة باديس تضعف شيئاً فشيئاً . فلما توفى باديس فى سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) ، خلفه فى حكم غرناطة حفيده عبد الله بن بُلُقّين ، وفى حكم مالقة حفيده تميم ، ولم يمض على وفاته سوى عام، حتى سار المعتمد بن عباد فى قواته إلى جيان ، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية واستولى عليها (٤٦٦ هـ — ١٠٧٤ م) ولم يبق من مملكة غرناطة سوى العاصمة ورباضها . وعندئذ فكر أمير غرناطة فى الإستعانة بالنصارى ، وتوصل بواسطة المأمون بن ذى النون ، إلى أن يعقد مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ، معاهدة صداقة وتحالف ، يتعهد فيها بدفع الجزية . وحدث فى نفس الوقت أن ظفر المأمون بن ذى النون ، بانتزاع قرطبة من ابن عباد (٤٦٧ هـ) ، فكانت هزيمة المعتمد ، سبباً فى انقشاع الخطر نوعاً عن غرناطة .

وخرج عبدالله بن بُلُقّين بعد ذلك فى قواته ومعه سرية من حلفائه النصارى ، وأغار على أراضى ابن عباد ، وعاث فيها ، واستطاع أن يسترد حصن قبرة القريب من جيان [١] .

بيد أن المعتمد لم يقف مكتوفاً إزاء هذه الحركة ، فاتجه بدوره إلى النصارى ، وأرسل وزيره الشهير أبا بكر بن عمار إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس ، فعقد معه حلفاً دفع مقابل عقده خمسين ألف دينار . ويقضى هذا الحلف بأن يتعاون المعتمد وألفونسو السادس ، على افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة ذاتها للمعتمد ، وأن تكون ذخائر القلعة الحمراء لألفونسو . وظهر أثر هذه المعاهدة على الفور ، إذ عمد النصارى إلى تخريب بسائط غرناطة ، ولاسيما أراضى مرجها الشهير La Vega [٢] .

---

(١) R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p, 257 & 260

(٢) R. M. Pidal : ibid ; p, 257

ولا بد لنا قبل أن نمضى فى تتبع أخبار المعتمد ، أن نتحدث عن الوزير ابن عمار ، وهو الذى اضطلع بأخطر دور فى تنفيذ مشاريع المعتمد . فهو أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى ، وأصله من قرية من أرباض شلب تسمى «شنبوس» (١) ، ولد بها سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ، فى أسرة متواضعة لم يكن لها فى الظهور شأن ، ووفد على مدينة شلب فنشأ بها وتلقى دراسته الأولى ، ثم رحل إلى قرطبة ، فأكمل دراسته على جماعة من شيوخ العصر ، وبرع فى الأدب ، ونظم الشعر فتى ، واتخذه وسيلة للتكسب ، فكان يمدح كل من وصله ، مهما كانت مكانته أو مركزه . ثم قصد إشبيلية ومدح المعتضد ، فنظمه فى سلك شعرائه وأمنائه ، ولما ندب المعتضد ولده المعتمد لحكم شلب على أثر افتتاحها ، اتصل به ابن عمار وألفى المعتمد فى صفاته وأدبه ورقيق نظمه ما حببه إليه ، فعهد إليه بوزارته ، وتوثقت بينهما علائق المودة والصفاء ، حتى غدا أثير المعتمد ، ينظمه فى مجالس أنسه ، ولا يصبر على فراقه ، وكانت براعة ابن عمار فى النظم هى أحب صفاته لأميره الشاعر . ولما توفى المعتضد ، وخلفه ولده المعتمد فى الملك ، عين ابن عمار أولا والياً لبلده شلب ، ولكن مقامه بها لم يطل ، إذ لم يصبر المعتمد على فراقه ، فاستدعاه إلى إشبيلية وولاه وزارته . فظهر ابن عمار يومئذ بمقدرته ودهائه ، فكان المعتمد يعهد إليه بمهام الأمور ويندبه إلى سفاراته ، وتنفيذ مشاريعه الخطيرة ، فيؤديها ابن عمار على أحسن وجه . واستمر ابن عمار على حظوته ومكانته لدى المعتمد أعواماً طويلة ، إلى أن فسد الجو بينهما ، بتدخل اعتماد الرميكية زوجة المعتمد ، فكان ذلك إيذاناً بنكبته على ما نذكره بعد .

وكان من أهم المشاريع التى اضطلع بها ابن عمار يومئذ ، استيلاؤه على مدينة مرسية باسم ابن عباد . وهنالك ما يدل على أن مملكة إشبيلية كانت تمتد فى ذلك الوقت حتى لورقة وشقورة (٢) على مقربة من مرسية . وكانت مرسية بعد أن غادرها خيران العامرى ، قد تغلب عليها أبو بكر بن طاهر ، ثم ولده أبو عبد الرحمن بن طاهر من أعيانها ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد العناصر الناقمة ، فكتب بعض هؤلاء إلى المعتمد بن عباد يستدعونه لفتحها ، وشرحوا له ضعف ابن طاهر وقلة أهباته الدفاعية ، فعهد المعتمد إلى ابن عمار بوضع الخطة اللازمة لتحقيق

---

(١) وهى اليوم بلدة Estombar البرتغالية الواقعة جنوبى شلب .

(٢) قلائد العقيان ص ٩ ، ودوزى فى : Hist. Abbadidarum, V, II, p, 86

هذه الغاية ، فسار ابن عمار ، وعقد مع الكونت رامون برنجار أمير برشلونة صفقة ، يتعهد فيها بأن يعاونه بفرسانه على فتح مرسية ، مقابل عشرة آلاف مثقال من الذهب تدفع إليه ، واتفق الطرفان ، أن يقدم كل منهما رهينة إلى الآخر ضماناً بالوفاء ، فقدم المعتمد ولده الرشيد ، وقدم الكونت ابن أخيه ، وبعث المعتمد بقواته ، وعلى رأسها ابن عمار ، ولحقت بها قوات الكونت ، وحاصرت القوات المتحالفة مدينة مرسية ، ولكن ابن عباد تأخر فى أداء المال ، واعتقد الكونت أنه قد غرر به ، فقبض على ابن عمار وعلى الرشيد ، وارتد بقواته عن المدينة . وعلم ابن عباد بالأمر ، وهو على رأس قواته على ضفاف نهر الوادى الكبير على مقربة من شَقُورة ، وبادر بأداء المال ، وبعث معه رهينة الكونت ، وأفرج عن الرشيد وابن عمار ، وأخفقت هذه الحملة الأولى فى فتح مرسية ، وجهز المعتمد بإشارة وزيره حملة أخرى على رأسها ابن عمار ، واتصل ابن عمار فى طريقه بقائد حصن بَلَج أو بُليج ، Vélez Rubio وهو يومئذ عبد الرحمن بن رشيق ، فسار معه ، وندبه للقيادة ، وحاصر ابن رشيق مرسية ، واستمر فى إرهاقها ، وفى تحريض أهلها على القيام ضد ابن طاهر ، حتى تم له الأمر ، وفتحت المدينة أبوابها بطريق الخيانة ، ودخلها جند ابن عباد ، وقبض على ابن طاهر ، واعتقل حتى أذن ابن عباد بتسريحه ، فلحق ببلنسية ، وكان افتتاح مرسية على هذا النحو فى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨) (١) .

على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن ابن عمار سولت له نفسه ، أن يستقل بحكم هذه المدينة النائية ، بعيداً عن سلطان مليكه ، وعمد بالفعل إلى حكمها حكم أمير مستقل ، وتجاهل أوامر ابن عباد ورغباته ، وأخذ يدس الدسائس بين أمراء هذه الناحية ، ولكن هذه المغامرة لم يطل أمدها ؛ ذلك أن ابن رشيق ، وهو فاتح المدينة الحقيقى ، كان يتربص بابن عمار ، ويتحين فرصته ، وفى ذات يوم غادر ابن عمار مرسيه لتفقد بعض الحصون الخارجية ، فوثب ابن رشيق واستولى على المدينة ، وأغلق أبوابها فى وجه ابن عمار ، فكانت تلك الضربة خير جزاء له على خيانته .

(١) راجع فى فتح مرسية : أعمال الأعلام ص ١٦٠ ، والمراكشى فى المعجب ص ٦٥ ، ودوزى عن الشلبى فى : Hjst. Abbadidarum, V. II. p, 86 — 87 وكذلك R.Menedez Pidal : Piles Ibars : Murcia Arabe, V. I. p. 189 - 191, La Espana del Cid p. 259 & 281

ولم ير ابن عمار أمامه سوى الفرار ، فسار صوب الشرق وقضى وقتاً قصيراً فى بلاط ألفونسو السادس ، فلم يلق منه عوناً ، ثم قصد إلى سرقسطة ، والتجأ إلى أميرها المقتدر بن هود ، فأكرم وفادته ، واستخدمه فى شئونه ، ولكنه توفى بعد قليل فى سنة ٤٧٥ هـ (أواخر ١٠٨١ م) وقسمت مملكته بين أولاده، فاختص المؤتمن بسرقسطة ، وبقى ابن عمار معه على ما كان عليه . ولم يطل مكث ابن عمار حتى أغراه على سجيته ، بفتح حصن شَقُورة ، وهو يومئذ من أعمال دانية ، وقصد ابن عمار إلى ذلك الحصن ، فى جماعة قليلة من أصحابه ، وكان حاكمه رجل وافر الدهاء يدعى ابن مبارك ، فدعا ابن عمار وصحبه إلى الدخول ، وهش لاستقباله ، فخدع ابن عمار بموقفه ، وما كاد يستقر فى الحصن ، حتى هوجم وقبض عليه ، ووضعت فى يده الأغلال ، وزج إلى ظلام السجن ، وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ (يوليه ١٠٨٤ م) .

ووقف ابن عباد على ذلك الخبر ، فبعث إلى ابن مبارك يطلب إليه تسليم ابن عمار وبعث إليه مالا وخيلا ، فاستجاب لدعوته ، وسلم ابن عمار لرسله ، وعلى رأسهم ولده يزيد الراضى ، فأخذ أولا إلى قرطبة حيث كان المعتمد يومئذ ، وأدخل إليها مكبولا فى هيئة زرية ، وقد احتشد الألوف من أهلها لرؤيته ، وقد كانت تهتز لموكبه حين كان يدخلها أيام عزه . ثم أخذ بعد أيام قلائل إلى إشبيلية ، فأودعه المعتمد مكاناً خاملا فى قصره ، وكان يستحضره من آن لآخر ، ويبالغ فى عتبه وتأنيبه ، وابن عمار يمعن فى استعطافه واسترحامه . ويقال إن المعتمد تأثر فى النهاية بمحنته، ووعده بصفحه، ولكن عاد فنقم عليه لأنه نقل إلى بعضهم ذلك الوعد ، أو على قول راجح ، لأن خصوم ابن عمار الساعين فى هلاكه ، وفى مقدمتهم الوزير أبو بكر بن زيدون وهو ولد الشاعر ، ضاعفوا سعايتهم ، وأبرزوا للمعتمد ، أبياتاً بخط ابن عمار ، نظمها أيام أن كان بمرسيه ، وفيها يتعرض بالهجو اللاذع لبنى عباد ، ولاعتماد الرُّميكية زوجة المعتمد(١) .

وقد أشرنا من قبل إلى ما كان بين اعتماد الرميكية ، وبين ابن عمار من

---

(١) راجع دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II, p. 90, 91, 100-104 ، وابن الابار فى الحلة السيراء ج ٢ ص ١٥٠ و ١٥١ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، والمراكشى فى المعجب ص٦٦ ، وقلائد العقيان ص ٨٣ و ٩٠ و ٩١ و ٩٧ و كذلك R. Menendez Pidal : La Espana del Cid. p.289

وحشة كانت تزداد على مر الأيام . وكانت الرميكية ، وهى ملكة إشبيلية الأثيرة ، تحتل مكانة بارزة فى حياة المعتمد ، وفى بلاط إشبيلية . ولزواج المعتمد بهذه المرأة الموهوبة اللامعة ، التى شاطرته أيام عزه ومجده وأيام محنته ، وأنجبت له أولاده الملوك ، قصة تتردد بين التاريخ والأسطورة . فأما التاريخ فتقول لنا الرواية ، إن المعتمد حينما كان ولياً للعهد ، أيام والده المعتضد ، رأى اعتماداً ذات يوم صحبة مولاها رُميك وهو من وجهاء إشبيلية ، فراقت لديه ، فاشتراها منه وهام بها حباً ، وتزوجها . بيد أن هناك رواية أخرى أكثر طرافة ، وأقرب إلى لون الأسطورة ، وهى أن المعتمد كان يتنزه ذات يوم مع وزيره ابن عمار فى نهر إشبيلية ، وهو نهر الوادى الكبير ، وهما يتبادلان طرائف الشعر ، وكانت الريح قد جعلت ماء النهر أشبه بالزرد ، فنظم المعتمد هذه الشطرة :

«صنع الريح من الماء زرد»

وطلب إلى ابن عمار أن يكملها ، فعجز الوزير الشاعر ، وكانت ترقبهما فتاة حسناء ممن يغسلن ثيابهن فى النهر ، فردت على الفور :

«أى درع لقتال لو جمد»

فدهش المعتمد ، وأعجب ببراعة الفتاة وسرعة خاطرها ، كما أعجب بحسنها وخفة روحها ، وسألها إن كان لها زوج ، فأجابت بالنفى ، فعندئذ استدعاها إلى قصره وتزوجها(١) .

وهكذا شاء القدر أن تغدو اعتماد الرُّميكية زوجة للمعتمد بن عباد ، وأن تغدو سيدة قصر إشبيلية . ولما تولى المعتمد الملك ، كانت الرميكية تحتل مكانة بارزة فى البلاط ، وفى الشئون ، وكانت لسمو مكانتها ، وتمكن نفوذها يطلق عليها لقب «السيدة الكبرى»(٢) ، وكانت تشاطر زوجها هوى الشعر ونظمه ، وكانت تعيش فى هذا الأفق الأدبى الرفيع الذى يسيطر على بلاط إشبيلية ، ويجتمع فى ظله أعظم شعراء العصر ، وتشترك فى كثير من الأحيان فى مجالس الشعر والأدب ، التى كان يشغف بعقدها المعتمد ، وتزدان فى أحيان كثيرة بحضور زوجه الحسناء الساحرة ؛ وكانت اعتماد فوق ذلك بنفوذها وحظوتها لدى المعتمد تشترك فى توجيه الشئون . وكان الوزير ابن عمار ، وهو يومئذ فى إبان مجده

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥١ .

(٢) المعجب ص ٧٧ . وكان هذا اللقب يطلق على والدة المعتمد ابنة مجاهد العامرى .

ونفوذه ، من أساطين هذه المجالس الأدبية ، وكان يستأثر لدى المعتمد بثقته ويملك عليه كل حبه وعطفه ، وكانت الرُّميكية تنظر إلى مكانته وتمكن نفوذه بعين السخط ، وكان ابن عمار من جانبه يحقد عليها ويخشى بأسها وسعايتها ؛ واستمرت معركة الدسائس والمنافسة حيناً بين اعتماد وابن عمار ، لتسفر عن نتيجتها الطبيعية، وهى هزيمة الوزير وتغير مليكه عليه. ويقال إن الأبيات الطاعنة التى نسبت إلى ابن عمار ، قد نظمها فى ذلك الوقت سراً فى هجو الرميكية ، ونمى خبرها إلى المعتمد ، ويقال من جهة أخرى إن ابن عمار نظمها أيام وجوده فى مرسية ، ونجح خصمه أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية فى الحصول على أصولها مكتوبة بخطه وبعثها إلى المعتمد .

وقد أورد لنا ابن الأبار فى ترجمته لابن عمار ، تلك القصيدة التى قيل إنها كانت سبباً فى نكبة ابن عمار ومصرعه ومطلعها :

ألا حىِّ بالغرب حياً حلالا أناخوا جمالا وحازوا جَمالا
وعرِّج بيومين أم القرى ونم فعسى أن تراها خيالا
لتسأل عن ساكنيها الرماد ولم تر للنار فيها اشتعالا

ويومين قرية من قرى إشبيلية ومنها كانت أوّلية بنى عباد .

ومنها فى هجو الرميكية :

تخيرتها من بنات الهجين رميكية ما تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار لئيم النجادين عمًّا وخالا
قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قروناً طوالا

ثم يشير إلى أيام شبابه مع المعتمد إشارات بذيئة ويخاطبه بقوله :

سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً وأهتك ستّرك حالا فحالا(١)

وعلى أى حال فقد اجتمعت العوامل السياسية والشخصية ، لتؤكد محنة ابن عمار . وقد وجه ابن عمار من سجنه إلى المعتمد قصائد فى الاستعطاف تذيب الجماد ، أو على قول ابن الخطيب «تعالج بمرامها جراح القلوب ، وتُعفِّى على هضبات الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب ، والأجل المحسوب» ، ومن أشهرها تلك القصيدة المؤثرة التى تهز أوتار القلوب ، والتى مطلعها :

(١) الحلة السيراء (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٧٤ و ١٠٢ ، وراجع دوزى : Hist. Abbadidarum V. II. p. 117 وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥١ و ٤٥٢ .

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح / وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية / فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لا تطع / عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا

ومنهـــا :

أقلنى بما بينى وبينك من رضى / له نحو روح الله باب مفتح
وعفِّ على آثار جرم سلكتها / بهبة رحمى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم / كل إناء بالذى فيـــه يرشح

ومنهـــا :

إلا أن بطشاً للمؤيد يرتمى / ولكن حلماً للمؤيد يرجح
وبين ضلوعى من هواة تميمة / ستشفع لو أن الحمام مجلح
سلام عليه كيف داربه الهوى / إلى فيـــدنو أو على فينزح
ليهنئه إن مت السلوُّ فإننى / أموت ولى شوق إليه مبرِّح (١)

على أن تضرع ابن عمار لم يؤثر فى مليكه الصارم ، ولم تجد الرحمة سبيلا إلى قلبه ؛ ويقال إنه مما قضى على عطف المعتمد ، وحفزه إلى التعجيل بالقضاء على وزيره ، هو أن ابن عمار ، حينما وعده المعتمد بصفحه ، حدّث بذلك ولده الرشيد ، وذاعت القصة بعد ذلك ، ونقلها أبو بكر بن زيدون عدو ابن عمار الألد إلى المعتمد ، فاضطرم سخطاً على ابن عمار ، ونهض من فوره ، وفى يده طبرزين(٢) كان قد أهداه إليه ألفونسو ملك قشتالة ، وذهب إلى حيث كان ابن عمار يرسف فى أغلاله ، ففزع ابن عمار لرؤيته ، وارتمى على رجليه يقبلهما ويبللهما بدموعه ، ولكن المعتمد أخذ يضربه بتلك الآلة حتى أجهز عليه ، ولم يتركه إلا جثة هامدة تضرجها الدماء ، ثم أمر به فغسل وكفن ، ودفن فى ركن من « القصر المبارك » . وكان مصرع ابن عمار على هذا النحو المؤسى فى أواخر سنة ٤٧٧ هـ (أوائل ١٠٨٥ م)(٣) .

(١) وردت هذه القصيدة فى قلائد العقيان ص ٩٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٦١ ، وفى المعجب ص ٦٧ و ٦٨ .

(٢) هو آلة أشبه بالبلطة .

(٣) راجع دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 118-119 ، والمعجب ص ٦٨ و ٦٩ . ويقول لنا المراكشى إن مصرع ابن عمار وقع فى سنة ٤٧٩ هـ . وراجع ترجمة ابن عمار وأحداث حياته كلها مفصلة فى الحلة السيراء ج ٢ ص ١٣١ – ١٦٥ . ونقلها دوزى بنصها فى : Hist. Abbad. (ص ٨٨ – ١٢٣) .

وهكذا قتل المعتمد بن عباد بيده ، وزيره الشاعر المبرز ، رفيق صباه ، ويده اليمنى فى كثير من المشاريع الخطيرة ، فى بادرة من الحقد المضطرم ، والقسوة التى لا تخبو ، وكانت هذه الضربة الدموية من أفدح أخطائه ؛ ويقال إن المعتمد ندم فيما بعد على تسرعه ، ونغصت عليه هذه الفعلة صفاء حياته . ويحاول الأمير عبد الله بن بُلُقّين أمير غرناطة وهو معاصر للحادث وعليم بظروفه، أن يوضح لنا سبب حقد المعتمد على وزيره فى الفقرة الآتية : « وكانت العداوة الواقعة بينه (أى ابن عمار) وبين المعتمد على يد الرشيد ابنه ، فإنه بفسوقه كان يتكبر على أولاده ، ويضيق عليهم ، ويسىء الصنيعة مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ، والمعتمد فى هذا كله يصبر له ، ولأنه قد استمال النصارى ، واندخل معهم بحيلته ، فتى ما دهم أمر من قبلهم ، وجهه إليهم ، فيتجلى من أمرهم ما يضيق الصدر به ، وكل ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه ، وهو بجهله يعتقد أن ذلك لا يتهيأ إلا بسببه ، ويرد الحس كله إلى نفسه ؛ وكانت هذه المعانى مما أحنق عليه المعتمد ، حتى عقب عليه بما كان جديراً به ، وأمكنه الله منه ، وجازاه بما لم يكون له منه بد ، ولا رآه لغيره أهلا» (١) .

ويعلق ابن الخطيب، على ذلك وقد كان أيضاً من الوزراء الذين عرفوا نزعات الملوك ونقمتهم بقوله : «وسبحان الذى جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد فى أزمة حب التشفى ، وطلب الإنصاف ، فلا تتوقف فى مطاوعته ، وذلك لأنها نفوس غير مقهورة بالرياضة والملكات ، ولا مرغمة بفراق الشهوات ، إلا القليل النادر ، ممن كانت نفسه متصفة بالرحمة فى أصل جبلتها ، فهى ساكنة الفورة»(٢) .

وكان ابن عمار من أعظم رجالات الأندلس فى عهد الطوائف ، فكان وزيراً نابهاً، وقائداً مجرباً يقود الحملات العسكرية الناجحة ، وسياسياً بارعاً، ومفاوضاً لا نظير له ، يعقد الصلات البعيدة المنال ، ويذلل المشكلات الصعبة ، وقد ذاع صيته فى سائر بلاد الأندلس ، وكذلك فى ممالك اسبانيا النصرانية ، حتى كان ألفونسو السادس ملك قشتالة ، إذا ذكر عنده ابن عمار ، قال «هو رجل الجزيرة» (٣) . بيد أنه كان فى نفس الوقت ، سياسياً مغامراً ، قليل الولاء

---

(١) كتاب البيان أو مذكرات الأمير عبد الله المنشورة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٥٥) ص ٨١ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٢ .

(٣) المعجب ص ٦٣ .

والوفاء ، مكيافيليًّا ، يسعى إلى تحقيق غايته بأى الوسائل ، دون اعتبار لخلق أو مبدأ .

وكانت مواهبه الأدبية والشعرية ، ألمع ما فى خلاله ، وقد كان ابن عمار بلا ريب من أعظم شعراء الأندلس فى عصره ، وكان هذا العصر الذى سطعت فيه قصور الطوائف عصراً ، اجتمع فيه بالأندلس من أكابر الشعراء ، جمهرة لم تجتمع فى أى عصر آخر ، ويكفى أن نذكر من هؤلاء بنو عباد، وفى مقدمتهم المعتمد، وابن زيدون، وولادة بنت المستكفى، وأبو بكر بن اللبانة، والمعتصم ابن صمادح وولده رفيع الدولة، وبنو القبطرنة، وابن عبدون . وكان ابن عمار فى طليعة هذه الجمهرة الشاعرة، وقد ملأ الأندلس بروائع شعره، كما ملأها بذكر أعماله ومغامراته. وقد جمع شعر ابن عمار، ورتبه فى ديوان خاص، أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى(١)، وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة طائفة كبيرة من أخبار ابن عمار، كما وضع تأليفاً خاصاً فى تاريخه(٢) وكذلك وضع ابو بكر ابن قاسم الشلبي مجموعاً فى تاريخ ابن عمار(٣) . وهذه العناية بسيرة ابن عمار وتراثه الشعرى من معاصريه، ومن إليهم ، تنبئ عن أهمية هذه الشخصية البارزة فى تاريخ الطوائف ، وعن رفيع مكانتها السياسية والأدبية .

— ٢ —

إلى ذلك الحين استطاع المعتمد بن عباد أن يؤسس أعظم مملكة للطوائف، تمتد فى قلب النصف الجنوبى من شبه الجزيرة، من غرب ولاية تدمير شرقاً، حتى المحيط الأطلنطى، ومن ضفاف وادى يانة جنوباً حتى أرض الفرنتيرة. وكان المعتمد قد استطاع فى الواقع فى أواخر أيام الملك العاجز الضعيف القادر ابن ذى النون، أن يستولى على معظم أراضى مملكة طليطلة الجنوبية الشرقية، من المعدن شرقاً حتى مدينة قونقة. ولعل المعتمد كان يفكر فى غزوات وفتوح أخرى، ينتزع فيها ما استطاع من أراضى جيرانه، لولا أن أيقظه سقوط طليطلة من غمار أحلامه وأطماعه. أجل، لم يكن خافياً على المعتمد ، وعلى أمراء

(١) دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 89
(٢) دوزى Hist. Abbadidarum, V. II. p. 105
(٣) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٧٣ .

الطوائف جميعاً، أن مملكة طليطلة ، كانت بظروفها وارتماء ملكها الضعيف فى أحضان النصارى، صائرة حتما إلى الفناء، وأن عاصمتها التالدة — طليطلة — سوف تسقط حتما فى يد ملك قشتاله، وكان ابن عباد يشهد تطور هذه المأساة جامداً، بما ينسب إليه من عهود قطعها فى ذلك لملك قشتاله. وربما كان هذا التصرف من المعتمد نحو قضية طليطلة من بين أخطائه السياسية العديدة ، أخطرها جريرة ، وأبلغها دلالة على استهتاره وتهاونه نحو أمته ودينه. ولكن طليطلة ما كادت تسقط فى أيدى القشتاليين، حتى أدرك المعتمد فداحة الخطأ الذى ارتكبه فى سياسته ، وشعر أن هذه النكبة، ليست إلا نذيراً قوياً له، ولسائر ملوك الطوائف .

وقد سبق أن ذكرنا فيما تقدم أن المعتضد بن عباد تعهد بأداء الجزية لفرناندو ملك قشتالة منذ سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣ م)، وأنه كان يؤدى إليه هذه الجزية بانتظام حتى وفاته فى سنة ١٠٦٥ م، ثم بعد ذلك إلى ولده سانشو ملك جلِّيقية . ولما استطاع ألفونسو التغلب على أخويه، وأضحى ملكاً لقشتالة ، كان المعتمد ابن عباد يؤدى إليه الجزية التى كان يدفعها أبوه. وكان ألفونسو يرسل فى كل عام رسله لقبضها من المعتمد. ومما هو جدير بالذكر أن رسول ألفونسو إلى المعتمد بقبض الجزية فى سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩ م) لم يكن سوى الفارس القشتالى الشهير ردريجو بيبار الملقب بالسيد الكمبيادور، أو السيد الكنبيطور كما تسميه الرواية العربية. ولما وفد السيد عندئذ إلى إشبيلية ، كانت قوات ملك غرناطة البربرية تغير على أراضى إشبيلية مع سرية من الفرسان النصارى ، فطلب السيد من مواطنيه الكف عن هذا العدوان تحقيقاً لمقتضيات الصداقة والرعاية ، التى يكنها الملك ألفونسو لصديقه ملك إشبيلية، ولما لم يصغ المغيرون إليه خرج إلى قتالهم فى بعض القوات القليلة التى كانت معه، واستطاع أن يوقع بهم الهزيمة ، فسر المعتمد من تصرفه ، وأدى إليه عدا الجزية ، طائفة كبيرة من التحف والهدايا برسم ملك قشتالة (١) .

وهكذا فإن المعتمد، على الرغم من ضخامة ملكه، واتساع موارده، لم يستطع أن ينجو من ذلك النير المرهق، الذى استطاع ألفونسو السادس أن يفرضه على سائر ملوك الطوائف، ونعنى تأدية الجزية، بل يبدو أن المعتمد رأى فوق ذلك، أنه لن

---

(١) R. Menendez, Pidal : La Espana del Cid. p. 250,259-261

يستطيع أن يمضى فى حكم مملكته آمناً إلا بتوثيق أواصر المودة مع ألفونسو ومحالفته.
وتقدم إلينا الرواية القشتالية موضوع ذلك الحلف ولكنها لا تقدم إلينا تاريخه ، وتقول لنا إن الوزير ابن عمار ذهب إلى ليون وتولى المفاوضة فى عقده. وخلاصة ماتم الانفاق عليه، هو أن يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمد فى حروبه ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين ، وأن يؤدى إليه المعتمد جزية سنوية كبيرة ، وأن يقوم بغزو أراضى مملكة طليطلة الجنوبية ،وأن يسلم منها إلى ملك قشتالة الأراضى الواقعة شمال جبال سيرا مورينا (جبل الشارّات) . وتزيدالروايات القشتاليه على ذلك بأن المعتمد قدم فى هذه المناسبة (أو فى مناسبة لاحقة) إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة، وهى التى تعرفها الروايات القشتالية باسم «زائده» ، وهى قصة سوف نتناولها فى موضعها المناسب(١) .

بيد أن الأمور لم تسر حسبما كان يرجو المعتمد ، ففى سنة٤٧٥هـ (١٠٨٢م) وجه ألفونسو السادس سفارته المعتادة إلى المعتمد بطلب الجزية، وعلى رأسها يهودى يدعى ابن شاليب ، وعسكر رسل ملك قشتالة فى ظاهر المدينة ، فأرسل إليهم المعتمد المال مع بعض أشياخ المدينة، وفى مقدمتهم الوزير ابن زيدون . فلما شاهد ابن شاليب المال والسبائك ، رفض تسلمها بغلظة ،بحجة أنها من عيار زائف ، وهدد بأنه إذا لم يقدم له المال من عيار حسن ، فسوف تحتل مدائن مملكة إشبيلية ، حتى يتم الدفع على الوجه المرغوب . فلما وقف المعتمد على ذلك بعث رجاله فقبضوا على ابن شاليب ، ومن معه من الفرسان القشتاليين ، وأمر باليهودى ، فصلب ، وألقى الفرسان النصارى إلى السجن . ولما علم ملك قشتالة بما وقع لسفرائه ، اضطر أن يرد حصن المدوّر القريب من قرطبة إلى المعتمد ، ثمناً لإطلاق سراحهم ، بيد أنه أقسم أن ينتقم من المعتمد ، أروع انتقام ، وأن يخرب أراضى مملكة إشبيلية كلها حتى المجاز ، ثم بادر تنفيذاً لوعيده ، فحشد جيشاً ضخماً من الجلالقة ، والقشتاليين ، والبشكنس ، وبعث سرياته فعاثت فى أحواز باجة ولبلة، وسار هو إلى أراضى إشبيلية ، وهو يحرق القرى ، وينتسف الزروع ، ويسبى كل من وقع فى يده من المسلمين ، ثم حاصر إشبيلية نفسها مدى ثلاثة أيام، ثم عاث فى أراضى شذونة، وانحدر جنوباً ، وهو يخرب كل

(١) Modesto Lafuente: Historia general de Espana (Madrid 1881) V. II p. 404

ما يقع فى طريقه، حتى وصل إلى مدينة طريف ،فوقف على شاطئ بحر الزقاق، والموج يضرب قوائم فرسه ، والمعتمد طيلة هذه العاصفة الهوجاء يلتزم الدفاع(١)

وكانت خطة ألفونسو السادس فى إضعاف ملوك الطوائف، تقوم أولا على استصفاء أموالهم باقتضاء الجزية،وقد انتهى إلى أن فرض الجزية عليهم جميعاً، ثم على تخريب أراضيهم، وانتساف زروعهم وأقواتهم ومحاصيلهم ، بالغارات المخربة الناهبة، وأخيراً على اقتطاع حصونهم وأرضيهم كلما سنحت الفرص ، وقد نجحت خطته فى ذلك كل النجاح،وبدا ضعف ملوك الطوائف إزاء قوته وعدوانه المنظم، واضحاً ملموساً. وكان لاعتداده بقوته وسلطانه ، ويقينه من تفرق الطوائف وتخاذلهم، يخاطبهم بلغة السيد، ويتسمى فى خطاباته إليهم بالإمبراطور ملك الملتين ،ويجاهر باحتقارهم، والاستهانة بهم. ومما يروى فى ذلك، أنه قال لسفير المعتمد إليه، وهو يهودى يدعى بابن مشعل «كيف أترك قوماً مجانين . تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم، المعتضد ، والمعتمد ، والمعتصم ، والمتوكل ، والمستعين ، والمقتدر ، والأمين ، والمأمون ، وكل واحد منهم لا يسل فى الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفاً ، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغانى والعيدان ، وكيف يحل البشر أن يقر منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم سُدًى» (٢) .

وهنا أدرك المعتمد ، فداحة الأخطاء التى تردى فيها بمصانعة ألفونسوا ومحالفته واستعدائه على زملائه أمراء الطوائف ، ولاحت له طوالع المصير المروع الذى سوف ينحدر إليه ،إذا لم تتداركه يد العناية بعون أو نجدة غير منتظرة ، والظاهر أنه فكر عندئذ ولأول مرة ،أن يستنصر بإخوانه المسلمين فيما وراء البحر، فى عدوة المغرب ، فكتب إلى عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ينبئه بما آلت إليه أحوال الأندلس من الخطورة ، وما رزئت به من فقد قواعدها وثغورها ، ويلتمس إليه الإنجاد والعون(٣) . وقد تطورت هذه الفكرة فيما بعد إلى خطة عملية التف حولها سائر ملوك الطوائف وشعب الأندلس كله حسبما نوضح فى موضعه.

---

(١) الحلل الموشية ص٢٥ و ٢٦ . ودوزى Hist. Abbadidarum V. II. p. 174, 187, 188-231 ، وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ .

(٢) دوزى عن كتاب « الاكتفاء» فى Hist. Abbadidarum : V II. p. 20 . وراجع R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p. 259, 318 & 319

(٣) روض القرطاس (طبعة أبسالة ١٨٤٣) ص ٩٢ .

وكان استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة معقد نجاحه، وذروة ظفره ، فما كاد يدخل عاصمة القوط القديمة، حتى لاح له أن نهاية الطوائف كلها قد دنت ، وأنه سوف يتبع نصراً بنصر، ويلتهم مدينة بعد أخرى، ومن ثم فقد بدأ يضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية ، وذلك بالاستيلاء على مملكة إشبيلية ، أهم دول الطوائف ، وأقواها يومئذ. فوجه إلى المعتمد بن عباد ، رسالة ملؤها الوعيد والنذير ، يطالبه بتسليم أعماله ، ويحذره من مثل طليطلة ومحنتها ، وهى فيما يبدو من إنشاء بعض النصارى المعاهدين أو اليهود الذين يخدمون فى بلاط قشتالة، وقد نقل إلينا صاحب الحلل الموشية، نص هذه الرسالة، كما نقل إلينا رد المعتمد عليها، وإليك نص هاتين الرسالتين، اللتين تنمان عن روح العصر ، وأساليبه :

قال ألفونسو فى رسالته : « من الإنبيطور ذى الملتين ، الملك المفضل ، أذفنش بن شانجه ، إلى المعتمد بالله، سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد ، سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى ، ونبتت فى ربعه المنى ، باغترار الرمح بعامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم بطليطلة نزال أقطارها ، وما حاق بأهلها حين حصارها. فأسلمتم إخوانكم ، وعطلتم بالدعة زمانكم ، والحذر من أيقظ باله ، قبل الوقوع فى الحبالة ، ولولا عهد سلف ، بيننا نحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الأقدار تقطع بالأعذار، ولا يعجل إلا من خاف الفوت فيما يرومه ، وخشى الغلبة على ما يسومه ، وقد حملنا الرسالة إليك القرمط البرهانس ؛ وعنده من التسديد الذى تلقى بأمثالك ، والعقل الذى تدبر بلادك به ورجالك ، مما أوجب استنابته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل ، وأنت عند ما تأتيه من آرائك ، والنظر بعد هذا من ورائك ، والسلام عليك ، يسعى بيمينك وبين يديك » .

وأجاب المعتمد على رسالة ملك النصارى بالرسالة الآتية : « من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله أبى عمر وابن عباد، إلى الطاغية الباغية أذفنش بن شانجه، الذى لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذى الملتين، قطع الله بدعواه، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فان أول ما يبدأ من دعواه أنه ذو الملتين، والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأن الذى تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم

الاستعداد، ومجيى المملكة ، لا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملتكم ، وانما كانت سنة سعد، أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة، قلت فى أثنائها ليس ، ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنا لنعجب من استعجالك برأى لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار ، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، وتعلم أنا فى العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كماة الفرسان، وحيل الإنسان، وحماة الشجعان، يوم تلتقى الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا القبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وينعاهم المنام فى القفار، يريدون رحى النون بحركات العزائم ، ويشفون من خيط الجنون بخواتم العزائم، قد أعدوا لك ولقومك جلاداً رتبه الاتفاق، وشفاراً حداداً شحذها الإصفاق، وقد يأتى المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشروه، نبهت من غفلة طال زمانها ، وأيقظت من نومة تجدد إيمانها ، ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين ، يد صاعدة أو وقفة متساعدة، إلا ذل تعلم مقداره ، وتتحقق مثاره، والذى جرأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمر ، لا يقاتلونكم جميعاً، إلا فى قرى محصنة ، أو من وراء جدر ، ظنوا المعاقل تعقل ، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ، ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله المغفرة فيما أتيناه فى أنفسنا ؛ وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم، والحمد الله الذى جعل عقوبتنا ، توبيخك وتقريعك ، بما الموت دونه، وبالله نستعين عليك ، ولا نستبطئ فى مسيرنا إليك، والله ينصر دينه، والسلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل وخدعه »(١) .

— ٣ —

وعلى أثر هذا النذير ، جد المعتمد فى حشد رجاله، وتقوية جيشة، وإصلاح حصونه، واتخاذ كل ما يستطاع من الأهبات الدفاعية .على أنه كان يوقن، كما

(١) أورد نص هاتين الرسالتين صاحب «الحلل الموشية» . وقد اعتمدنا فى نقلهما على النص الذى نقله دوزى عن مخطوطات باريس ، وليدن، وجاينجوس (مدريد) ، وهو فيما يبدو أصح وأدق من النص الذى ورد فى طبعة تونس . راجع : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 185, 186 & 187
وفى طبعة تونس (ص ٢٣ — ٢٥) .

يوقن زملاؤه ملوك الطوائف، أن ملك قشتالة يعتزم العمل على إبادتهم جميعاً ، وأنهم بقواتهم ومواردهم المحدودة، وصفوفهم الممزقة، لن يستطيعوا له دفعاً .

فى هذه الآونة العصيبة، قرر المعتمد أن ينفذ فكرته فى الاستنصار بإخوانه فيما وراء البحر ، فى عدوة المغرب ، وهم يومئذ المرابطون ، وعاهلهم يوسف ابن تاشفين. وكانت هذه الفكرة قد خطرت لأكثر من أمير من أمراء الطوائف ، وخطرت لكثيرين من زعماء الأندلس وعلمائها . ويقول لنا الأمير عبد الله بن بلقين إن أخاه تميماً أمير مالقة ، كان أول من فكر فى الاستنصار بالمرابطين لينتقم منه[1]، ولكن فكرة الاستنصار بالمرابطين لمقاتلة النصارى كانت أعم وأخطر ، وكانت قد شاعت فى الأندلس على أثر سقوط طليطلة، وما أشاعته تلك النكبة فى الناس من ذعر ويأس، وذاعت بعد الأمراء ، بين سائر الزعماء والفقهاء وطبقات الكافة. وعقد عندئذ فى قرطبة اجتماع كبير من الزعماء والفقهاء، واجتمع رأيهم على وجوب الاستنصار بالمرابطين ، وقدم ابن عباد على أثر ذلك إلى المدينة، وأقر ما ارتأته «الجماعة» . وانضم إلى المعتمد فى ذلك عدة من زملائه رؤساء الطوائف ، ولاسيما أميرى بطليوس وغرناطة . واتفق الرأى على أن ترسل إلى عاهل المرابطين سفارة مشتركة من قضاة قرطبة وبطليوس وغرناطة ، ومعهم أبو بكر بن القصيرة الكاتب (وفى رواية أخرى الوزير أبو بكر بن زيدون) . وهنا تختلف الرواية فى التفاصيل فتقول إحداها إن سفارة الأندلس عبرت البحر ، ولقيت أمير المسلمين بسبتة، وكان قد وصل إليها إثر افتتاح جيشه لها ، من يد واليها يحيى بن سكوت البرغواطى، وشرح له السفراء ما يلقاه أهل الأندلس من الإرهاق والذلة على يد النصارى، وما يهددهم به ملك قشتالة من أخذ بلادهم، وإبادتهم، وأنهم يعتمدون على نصرته وحسن بلائه، فى دفع هذا الخطر عن الأندلس المسلمة. وفى رواية أخرى أن المعتمد بن عباد نفسه، قد عبر البحر فى جماعة من الزعماء، وسار إلى سبتة أو إلى فاس لمقابلة أمير المسلمين، وأنه هو الذى استنصره بنفسه للجهاد وإنقاذ الأندلس[2] .

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ .

(٢) راجع فى ذلك ما نقله دوزى عن النويرى : Hist. Abbadidarum: V. II. p. 143 وما ورد فى الإستقصاء للسلاوى ج ١ ص ١١١ ، ومذكرات الأمير عبد الله ص١٠٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ . وقد أشار ابن الأبار إلى ذلك أيضاً (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٨٦) .

ومن جهة أخرى، فإنه يقال لنا إن المعتمد كان يعارضه فى هذا الاتجاه ولده الرشيد وجماعة من زعماء إشبيلية، وأنه حين خاطب الزعماء فى أمر استدعاء المرابطين أشاروا عليه بأن الأفضل، أن يسعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة، وأن يعقد معه الصلح والمهادنة، بأى وسيلة، وكيفما كان الأمر. ولما خلا بولده الرشيد، أفضى إليه بمخاوفه من سطوة ملك قشتالة، وأنه بعد أن استولى على طليطلة وعادت دار كفر، قد رفع رأسه، وأخذ يتجه إلى أخذ إشبيلية، وأنهم فى هذه الجزيرة لا ناصر لهم، وليس فى ملوك الطوائف نفع ولا عون يرتجى، وأنه لا مناص من استدعاء المرابطين لردع ملك قشتالة، فاعترض الرشيد على رأيه وقال له: «ياأبت أتدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا»، فقال المعتمد لولده: «أى بنى والله لا يسمع عنى أبداً أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم اللعنة على فى الإسلام؛ مثل ما قامت على غيرى. حرز الجمال عندى والله خير من حرز الخنازير». وانتهى الرشيد بأن فوض لأبيه الرأى فيما يجب عمله(١).

وأما عن أمراء الأندلس، فقد كان يتفق فى الرأى مع المعتمد، على استدعاء المرابطين حسبما رأينا، عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، وقد أوفد رسله مع رسل ابن عباد إلى أمير المسلمين، وكذلك عمر المتوكل أمير بطليوس، فقد كان فى مقدمة المؤيدين، لوقوع بلاده فى منطقة الخطر، ولاشتداد ملك قشتالة فى إرهاقه. وأما ابن صمادح أمير ألمرية، فلم يكن من المتحمسين لهذا الاستدعاء(٢)، وكانت ثمة آراء معارضة أخرى، شعارها التوجس من مقدم المرابطين وأطماعهم.

وقد أورد لنا صاحب الحلل الموشية نصوص رسائل، قيل أن المعتمد بن عباد بعثها إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، بعضها من إنشائه، وبعضها من إنشاء وزرائه، ومنها رسالة مؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٤٧٨هـ، أعنى بعد سقوط طليطلة بأشهر قلائل، وفيها يصف له حال الأندلس، وما أصاب أهلها من الخلاف والتمزق، وما دهاها من عدوان النصارى وإرهاقهم. بيد أنه قد

---

(١) الحلل الموشية ص٢٧ و٢٨ ونقلت فى دوزى: Hist. Abbadidarum: V. II. p. 188-189

(٢) راجع مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٣ و ١٠٤ .

وردت من بينها رسالة، نشك كل الشك فى أنها صادرة من المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين، لأنها قد صدرت بنصها، بعد ذلك بنحو قرنين من محمد الفقيه (ابن الأحمر) ملك غرناطة، إلى السلطان أبى يوسف المرينى ملك المغرب، يستنصره ويستنجد به على النصارى[١].

وقد تتبعنا هنا فكرة استنصار الأندلس بالمريطين بالأخص من ناحية ارتباطها بالمعتمد بن عباد وسياسته. وسوف نعود إلى تتبع مراحلها من الناحية الأخرى، ناحية ارتباطها بتاريخ المرابطين.

وعلى أى حال فقد استجاب زعيم المرابطين، بعد مشاورات ومباحثات طويلة مع الزعماء والفقهاء، لدعوة أمراء الأندلس، واعتبر الصريخ، دعوة إلى المشاركة فى الجهاد، والذود عن الدين المشترك، بيد أنه عملا بنصح وزيره عبد الرحمن بن أسبط، وهو أندلسى من أهل ألمريه، خبير بشئون الجزيرة، اشترط لإجابة الدعوة، وعبوره إلى الأندلس، أن يسلم إليه ثغر الجزيرة الخضراء، ليكون قاعدة لعبوره فى الذهاب والإياب. فنزل المعتمد عند هذه الرغبة بالرغم من معارضة ولده الرشيد، وكان حاكم الجزيرة يومئذ هو ولده يزيد الراضى، فأمره باخلائها والانتقال عنها، لكى تحتلها جنود أمير المسلمين[٢].

وفى تلك الأثناء كان زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين يحشد جنده وعدده، ويرسلها تباعاً إلى الشمال. فلما تكاملت الحشود، بعث يوسف بقوة من الفرسان تحت إمرة قائده داود بن عائشة، فعبرت البحر، واحتلت ثغر الجزيرة الخضراء وفقاً لما تعهد به المعتمد. وفى شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩هـ (أغسطس ١٠٨٦م) بدأت الجيوش المرابطية وعلى رأسها زعيمها البطل الشيخ، تعبر البحر من سبتة تباعاً إلى ثغر الجزيرة، وما كادت السفن تتوسط ماء المضيق (مضيق جبل طارق) تتقدمها سفينة يوسف، حتى نهض الزعيم المرابطى، وبسط يديه نحو السماء

---

(١) راجع الحلل الموشية ص٣٠ و ٣١، ودوزى Hist. Abbad. V. II. p. 190-191 . وقد وردت الرسالة بنفسها منسوبة إلى محمد بن الأحمر فى «الذخيرة السنية» ص ١٥٩ – ١٦١ . وراجع نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٩٨ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٢ و ٣٣ . وكذلك فى دوزى Hist. Abb. V. II. p. 192-193، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٥٩ .

قائلا : «اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازى هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين ، فسهل على جواز هذا البحر ،وأن كان غير ذلك فصعبه على حتى لا أجوزه» . ويروى أن البحر قد هدأ على أثر هذا الدعاء ، وسارت السفن فى ريح طيبة ، حتى رست على الشاطئ،وما كاد يوسف يعبر إلى أرض الأندلس ، حتى صلى لله شكراً[1] ، ثم نزل بالجزيرة الخضراء،وشرع فى تحصينها وإصلاح خططها.

هذا وسوف نتتبع ما تلا ذلك من الحوادث فيما سيأتى بعد،فى حديثنا عن موقعة الزلاّقة .

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٣ . وهذا ما رواه يوسف نفسه فى رسالته التى بعث بها عقب انتصاره فى موقعة الزلاقة ، الى المعز بن باديس أمير تونس والتى ، نشرناها فى آخر الكتاب .

الفصل الرابع

بنو الأفطس ومملكة بطليوس

مملكة بطليوس. الفتى سابور الفارسي وتغلبه على تلك المنطقة. وزيره عبد الله بن مسلمة يخلفه فى الحكم. بنو الأفطس وأصلهم. ابن الأفطس وابن عباد. الحرب بينهما حول باجة وبعدها. انشغال ابن عباد بقتال البربر. الثورة فى أشبونة وإخمادها. المظفر بن الأفطس. حروبه مع المعتضد بن عباد. موقعة يابرة وهزيمة المظفر. توسط ابن جهور وعقد الصلح بين الفريقين. غزو ملك قشتالة لشمالى مملكة بطليوس. استيلاؤه على بازو ومليقة. غزوه لمدينة شنترين. إذعان المظفر لدفع الجزية. مسير فرناندو لفتح قلمرية. اقتحامها وأسر حاميتها. وفاة فرناندو ملك قشتالة. وفاة المظفر. مقدرته الشعرية والأدبية. المنصور بن الأفطس. وفاته وقيام أخيه عمر المتوكل مكانه. المتوكل وشهرته فى عالم الشعر والأدب. وزراؤه الشعراء. سيادة الأمن والرخاء فى عهده. وزيره ابن الحضرمى. طغيانه وعزله. حوادث مملكة طليطلة. اضطلاع المتوكل بحكمها. محاولة المتوكل إنجاد طليطلة. سقوط طليطلة. تجبر ألفونسو ووعيده. رد المتوكل عليه. اتفاق ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين

كان يجاور مملكة إشبيلية من الشمال، مملكة بطليوس، تفصلها عنها جبال الشارّات الكبرى (سيرّا مورينا). وكانت مملكة بَطَلْيوس، تشمل رقعة كبيرة تمتد من غرب مملكة طليطلة، عند مثلث نهر وادى يانة، غرباً حتى المحيط الأطلنطى، وتشمل أراضى البرتغال[1] كلها تقريباً حتى مدينة باجة فى الجنوب، وكانت العاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة الكبيرة التى تشمل عدا العاصمة، عدة مدن هامة أخرى مثل ماردة، ويابرة، وأشبونة، وشنترين، وشنترة، وقُلُمرية، وبازو، وغيرها.

كان بنو مسلمة، أو بنو الأفطس، كما اشتهر اسمهم، سادة هذه المملكة الشاسعة، حكموها نيفاً وسبعين عاماً، وسطع بلاطهم أيام الطوائف. وكان استيلاؤهم على حكمها من المصادفات المحضة. ذلك أن هذه المنطقة، وهى النصف الشمالى، من ولاية الغرب الأندلسية، كان يحكمها عند اضطرام الفتنة، واليها الفتى سابور الفارسى، أحد صبيان فائق الخادم مولى الحكم المستنصر، وقد استبد بحكمها

---

(١) ويسميها ابن الخطيب أرض «برتقال» (أعمال الأعلام ص ١٨٣).

منذ انهيار الخلافة، واستمر قائماً بأمرها ثلاث عشرة عاماً. وكان فارساً شجاعاً، ولكن عاطلا عن المعرفة والخبرة بشئون الحكم، فكان يعاونه فى تدبير الشئون وزيره عبد الله بن محمد بن مسلمة، وكان من قبل والياً لماردة، وكان هو الحاكم الحقيقى. وتوفى سابور فى سنة ٤١٣هـ (١٠٢٢ م)، وترك ولدين حدثين هما عبد الملك وعبد العزيز، وأوصى أن يستمر وزيره فى الحكم، حتى يبلغا أشدهما. فاستولى عبد الله على الأمور وضبط المملكة، واحتوى على تراث سابور لنفسه، وتلقب بالمنصور، وأضحى سيد المملكة الحقيقى.

وينتمى أبو محمد عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، إلى قبيلة من قبائل مكناسة المغربية، وأصله من بلدة فحص البلوط من ولاية قرطبة، من أسرة متواضعة لم يكن لها نصيب فى النباهة والمعرفة. بيد أن بنى الأفطس كانوا بالرغم من ذلك يرجعون نسبتهم إلى تجيب، وقد مدحتهم الشعراء بهذا الصفة، وهذا ما يثير تعجب ابن حيان، وما يصفه «بالغريب النادر» (١).

وكان عبد الله بن الأفطس مع ذلك رجلا كثير المعرفة والدهاء، بعيد النظر، وافر الحزم والسياسة، فلما استولى على حكم هذه المنطقة الشاسعة بعد وفاة سابور، أبدى فى ضبطها وإدارتها مقدرة وبراعة. بيد أنه كان يرقب حركات جاره من الجنوب القاضى أبى القاسم بن عباد ونمو قوته، فى حذر وتوجس. ذلك أنه كان بالرغم من مناعة حاضرته بطليوس، ومناعة أسوارها وقصبتها الضخمة، فإن اتساع رقعة مملكته، وتباعد قواعدها الأخرى فى الجنوب والشرق، كان يجعل من الصعب عليه الدفاع عنها إزاء أطماع جاره القوى. وسرعان ما بدأت تتحقق مخاوفه. ذلك أن القاضى ابن عباد انتهز قيام ثورة محلية فى مدينة باجة، وقعت بين أهلها بسبب الرياسة، وسير إليها حملة بقيادة ولده إسماعيل، ومعه قوة من جند حليفه البرزالى صاحب قرمونة. وكان ابن الأفطس قد استطاع خلال تلك الفترة أن يحتل باجة بجنده، إذ هى أقرب إليه، وأكثر اتصالا بمنطقته من منطقة بنى عباد، فهاجمت قوات إشبيلية المشتركة مدينة باجة، وحاصرت قوات ابن الأفطس، ووقع بينهما قتال عنيف انتهى بتمزيق قوات ابن الأفطس وأسر معظمها، وكان محمد بن الأفطس ولد المنصور بين الأسرى، فاعتقل حيناً لدى

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء (المخطوط) لوحة ٨٥ أ. وفى المطبوع ج ٢ ص ٩٧.

البرزالى فى قرمونة حتى أطلق سراحه (سنة ٤٢١ هـ) ، وعاد إلى بطليوس وقد صقلته المحنة ، وشحذت عزمه ، لمقاومة بنى عباد ومحاربتهم .

ثم عادت الحرب فاضطرمت بعد ذلك ببضعة أعوام بين ابن عباد وابن الأفطس ، ذلك أن حملة جديدة بقيادة إسماعيل بن عباد ، توغلت شمالا فى أراضى ابن الأفطس وعاثت فيها ، وعندما سار فى طريق العودة ، خرج عليه ابن الأفطس فى قوة كثيفة ، وطارده بشدة ، ففر إسماعيل فى قلة من فلوله ، وأسر معظم عسكره ، وفتك ابن الأفطس بهم كما فتك النصارى بكثير منهم ، وكانت محنة شنيعة لبنى عباد (٤٢٥ هـ – ١٠٣٤ م) .

وشغل أبو القاسم بن عباد فى الأعوام التالية ، عن محاربة الأفطس بمحاربة البربر ، فاشتبك أولا مع يحيى المعتلى ، وانتزع منه قرمونة (٤٢٧ هـ) ، ليردها إلى صاحبها حليفه محمد بن عبد الله البرزالى . بيد أنه عاد فسير قواته إلى قرمونة واستولى عليها. وعندئذ هرع البربر لنصرة البرزالى ، وفى مقدمتهم إدريس المتأيد صاحب مالقة ، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية موقعة دموية ، هزم فيها الإشبيليون وقتل أميرهم إسماعيل بن عباد (٤٣١هـ) وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى أخبار الدولة العبادية .

وأما ابن الأفطس ، فقد شغل بقيام الثورة فى أشبونة . أقصى ثغور مملكته . ذلك أن عبد الملك وعبد العزيز ابنى سابور ، حينما توفى والدهما ، واستولى ابن الأفطس على تراثه ، غادرا بطليوس ولجآ إلى ثغر أشبونة ، ثم ثار عبد العزيز واستولى على حكم المدينة ، واستمر فى حكمها بضعة أعوام. ولما توفى حل أخوه عبد الملك مكانه ، ولكنه كان سيئ الحكم والإدارة ، فاختل النظام ، وغلبت الفوضى ، وكتب أهل أشبونة سراً الى ابن الأفطس ، أن يرسل إليهم والياً من عنده ، فسير إليهم ولده محمداً فى قوة كثيفة ، ودخل محمد أشبونة دون صعوبة ، ورأى عبد الملك بن سابور أن يذعن إلى التسليم ، على أن يؤمن فى نفسه وأهله وماله ؛ فمنح ما طلب ، وسمح له بأن يسير إلى حيث شاء ، فقصد إلى مدينة قرطبة ، واستأذن الوزير ابن جهور فى الالتجاء إليها ، فأذن له ودخلها بأهله وأمواله ، ونزل دار أبيه سابور ، وعاش هناك حتى توفى (١) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٧ .

وكان عبد الله بن الأفطس المنصور، خلال ذلك يمضى فى تنظيم مملكته الشاسعة وفى تحصينها، وفى تقوية جيوشة وأهباته، وذلك كله توقعا لعدوان بنى عباد، ولا سيما بعد أن خلف المعتضد بن عباد أباه القاضى أبا القاسم فى الحكم، وظهرت إمارات توثبه ونياته العدوانية. ثم توفى المنصور فى جمادى الأولى سنة ٤٣٧ هـ (١٠٤٥ م).

فخلفه ولده محمد بن عبد الله بن الأفطس وتلقب بالمظفر. وكان عالماً وفارساً شجاعاً، وقد عركته خطوب الحرب والأسر الذى عاناه. فسار فى الحكم سيرة أبيه من العمل على ضبط النظام، والدفاع عن الثغور. وكان مثل أبيه يرى فى بنى عباد خصومه الأوائل، ويعمل على تقوية أهباته الدفاعية لاتقاء عدوانهم. وقد رأينا فيما تقدم، كيف دبر المعتضد بن عباد خطته للاستيلاء على إمارات الغرب الصغرى، وبدأ فى ذلك بمهاجمة مدينة لبلة، وكيف أن المظفر بن الأفطس هرع إلى نجدة صاحبها ابن يحيى، وبعث بعض قواته من البربر لمهاجمة إشبيلية، وكيف حاول الوزير ابن جهور عبثاً أن يحول بتدخله، ونصحه للفريقين، دون نشوب الحرب بينهما. وهكذا اضطرم القتال بين المعتضد وابن الأفطس، وعاث كل منهما فى أراضى الآخر، وهزم ابن الأفطس أولا، ولكنه استأنف الكرة، واستطاع أن يوقع بالمعتضد هزيمة شديدة قتل فيها كثير من جنده (٤٣٩ هـ — ١٠٤٧ م).

ثم تطورت الحوادث وساء التفاهم بين ابن يحيى وابن الأفطس، حيث أبى أن يرد إلى حليفه القديم، ما ائتمنه عليه من أمواله وذخائره أيام الحرب، ولم يكتف ابن الأفطس بذلك بل أرسل قواته من الفرسان لمهاجمة لبلة، فاستغاث ابن يحيى بالمعتضد، فلبى دعوته وأرسل قواته، فاشتبكت مع خيل ابن الأفطس فمزقتهم وأفنتهم، واحتزت من رؤوسهم، نحو مائه وخمسين. وجهز المعتضد بعد ذلك قوة كبيرة على رأسها ولده إسماعيل ووزيره ابن سلام، وعبرت القوات العبادية نهر وادى يانة، وتوغلت فى أراضى ابن الأفطس شمالا، حتى مدينة يابُرة، وحشد ابن الأفطس فى الوقت نفسه سائر قواته، واستعان بقوة بعثها إليه حليفه إسحق بن عبد الله البرزالى تحت قيادة ولده المعز، والتقى الفريقان دون أهبة ولا نظام على مقربة من يابرة، فهزم ابن الأفطس وفشا القتل فى جنده، وقتل المعز بن إسحق، وحز رأسه وأرسل إلى إشبيلية، وقتل عم لابن الأفطس

وأرسل رأسه كذلك ، ولجأ ابن الأفطس فى بقية فرسانه إلى يابرة ، تحت كنف صاحبها عبيدالله الخراز . وكانت موقعة دموية شنيعة قدر فيها عدد القتلى بأكثر من ثلاثة آلاف ، وكان وقوعها فى سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) .

واستمرت الحرب بين الفريقين بعد ذلك عدة شهور أخرى، استطاع المعتضد خلالها أن يوقع بقوات ابن الأفطس غير مرة وأن يعيث فى أراضيه، وأن يفتح منها عدة حصون . وتفاقمت الحال ، بما أصاب مملكة بطليوس من تخريب الزروع ،وهلاك الأقوات ونضوب الموارد ، ووقوع القحط ، واضطر المظفر بن الأفطس فى النهاية ، أن يعتصم بقاعدته بطليوس،بعد ما نكل سائر أصدقائه عن معونته .ولم ينقذه من عدوان المعتضد سوى تدخل الوزير أبى الوليد ابن جهور ، حيث لبث موالياً لسعيه فى درء الفتنة،وحقن الدماء ، حتى كلل سعيه فى النهاية بالنجاح ، وعقد الصلح بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس فى ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) [١] :

وكان المظفر فى نفس الوقت عرضة لمضايقة المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة وعدوانه.وقد أغارالمأمون مراراً على أراضى ابن الأفطس،ووقعت بينهما معارك محلية كثيرة.ولم نعثر على تاريخ هذه المعارك بطريقة قاطعة . ولكن الظاهر أنها وقعت بعد الصلح بين ابن عباد وابن الأفطس ، أعنى بعد سنة ٤٤٣ هـ[٢] .

على أن المظفر ماكاد يفيق من تلك الحروب المدمرة،حتى بدأت الحوادث والأزمات الخطيرة فى أطراف مملكته الغربية والشمالية . وكان خصومه فى تلك المرة هم النصارى،جيرانه من الشمال . وكان فرناندو الأول (فرديناند أوفرذلند) ولد سانشو الكبير ،بعد أن استتب له ملك قشتالة وليون ، يرقب تطور الحوادث لدى جيرانه المسلمين باهتمام ، ويتحين فرص العمل ، وكانت أطراف مملكة بطليوس الشمالية الواقعة فيما بين نهر التاجُه ونهردويرة ، تشمل منطقة نائية مجردة من وسائل الدفاع القوية،وتكاد تكون قواعدها المنعزلة المستقلة معتمدة فى الدفاع على نفسها . فاتجهت أنظار فرناندو ،إلى تلك المنطقة ، ولم يلبث أن اخترقها بقواته وذلك فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) واستولى أولا على مدينتى لاميجو (مليقة)

(١) راجع مانقل فى الذخيرة عن ابن حيان،المجلد الأول للقسم الأول ص ٣٦١ — ٣٦٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١١ — ٢١٣ و ٢٣٤ و ٢٣٥ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٢ و ٢٨٣ .

وبازو الواقعتين فى شمال البرتغال ، واللتين عمرهما المسلمون منذ أيام المنصور ؛ ولم يلق الغزاة دفاعاً يذكر، ولم يتحرك ابن الأفطس ليقينه من عقم المحاولة . واسترق فرناندو ، سكان المدينتين الإسلاميتين ، وأسكن بهما النصارى .

ولم تمض بضعة أعوام أخرى حتى بعث فرناندو بحملة قوية إلى تلك المنطقة تقدر بعشرة آلاف فارس ، وكان ابن الأفطس قد رفض أداء الجزية لملك قشتالة، فسارت قوة من الفرسان النصارى جنوباً، صوب مدينة شنترين الواقعة على نهر التاجُه، وهى من أهم قواعد مملكة بطليوس البرتغالية، وكان ابن الأفطس على علم بتحرك النصارى، فهرعت قواته إلى شنترين قبل أن يصلوا إليها . ولما أشرف عليها النصارى بعث قائدهم « القومس » إلى ابن الأفطس للمفاوضة ، فاجتمع الاثنان فى نهر التاجُه ، وانتهت المفاوضة بينهما على عقد الهدنة ، وعلى أن يدفع ابن الأفطس لملك قشتالة جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف دينار .

على أن أعظم خطب نزل بالمسلمين وبمملكة بطليوس يومئذ، هو فقد مدينة قُلُمرية أعظم مدن البرتغال الشمالية ، وكان قد افتتحها المنصور بن أبى عامر منذ ثمانين عاماً فى سنة ٣٧٥هـ.وكانت يومئذ تحت حكم مولى من موالى ابن الأفطس يدعى راندة، ولديه للدفاع عن المدينة نحو خمسة آلاف جندى.ويقال إن الذى أشار على فرناندو بغزو قلمرية هو مستشاره المستعرب سسنندو الذى سبق ذكره، وكان فى الأصل من أهل هذه الناحية.وسار فرناندو بنفسه إلى قلمرية فى قوات كثيفة وضرب حولها الحصار، واستمر الحصار زهاء ستة أشهر، والضيق يشتد بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم.وفى النهاية تفاهم راندة مع فرناندو سراً على أن يخرج من المدينة آمناً على نفسه وأهله ، وأصبح أهل المدينة فلم يجدوا قائدهم ، فعرضوا التسليم على أن يمنحوا الأمان ، فرفض فرناندو واستمر فى الحصار ، حتى فتك الضيق ونفاد الأقوات بالحامية وأهل المدينة ، وأخيراً اقتحم النصارى المدينة عنوة ، فسلمت الحامية ، واعتبر جنودها أسرى ، وسبى الكثير من أهلها نساء ورجالا.وخرج منها من استطاع منهم تاركين متاعهم وأموالهم ، ووقعت هذه الحادثة بالمسلمين فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤ م) . وعين فرناندو مستشاره سسنندو حاكما لقلمرية وأعمالها ، ومنحه عندئذ لقب « الكونت» أو « الوزير» . ثم عمد فرناندو بعد ذلك إلى إخراج السكان المسلمين من سائر الأراضى الواقعة

بين نهرى دويرة ومنيو (منديجو) وذلك تنفيذاً لخطته فى إجلاء المسلمين عن الأراضى المتاخمة لمملكته شيئاً فشيئاً .

ولما سقطت قلمرية فى يد العدو ، قصد واليها السابق راندة إلى بطليوس ، وكان قد لجأ إلى المعسكر النصرانى ، ثم غادره طمعاً فى عفوسيده ، فاستقبله ابن الأفطس بجفاء وأنبه على شنيع مسلكه ، ثم أمر بضرب عنقه جزاء خيانته(١) .

هذا وسوف نعود إلى تفصيل حوادث سقوط قلمرية فى أخبار فرناندو ملك قشتالة .

وهدأ ضغط النصارى على أراضى ابن الأفطس بوفاة فرناندو ملك قشتالة بعد ذلك بنحو عامين فى سنة ١٠٦٥م .ووقعت بين أبنائه الثلاثة حرب استمرت بضعة أعوام ،شغل خلالها النصارى عن عدوانهم على أراضى المسلمين. ولما خلص عرش قشتالة وليون بعد ذلك إلى ولده ألفونسو ، تحولت دفة هذا العدوان إلى مملكتى طليطلة ، وإشبيلية ، حسبما نفصل بعد .

وتوفى المظفر بن الأفطس فى سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨ م) ، فخلفه ولده يحيى الملقب بالمنصور .

ولابد لنا قبل أن نترك الكلام على المظفر بن الأفطس ، أن نذكر ذلك الجانب اللامع الوضاء فى حياته ،ونعنى الناحية الفكرية . فقد كان المظفر من أعلم أهل عصره ، وكان شغوفاً بالشعر والأدب ، وكان ينكر الشعر على قائله فى زمانه ، ويقول : « من لم يكن شعره مثل شعر المتنبى أو المعرى فليسكت » ،ولا يرضى بدون ذلك . وقد اشتهر فى عالم الأدب بكتابه الضخم الموسوم « بالمظفرى » نسبة إلى اسمه ، وهو موسوعة أدبية وتاريخية عظيمة تحتوى على كثير من الأخبار والسير والنبذ المختارة ،والطرائف المستملحة ،والغرائب الملوكية ،والنوادر اللغوية .وأنفق المظفر فى تصنيفه أعواماً ،وانتفع فى تصنيفه بسائر ما تحتويه خزائنه الزاخرة بنفائس الكتب ،ولم يستعن فى وضعه إلا بكاتبه أبى عثمان سعيد بن خيره .وقيل إن « المظفرى » كان يحتوى على خمسين مجلداً ،وقيل بل على عشرة أجزاء ضخمة وقد لبث هذا المصنف الكبير عصوراً ، معروفاً متداولا ، تذكره التواريخ

---

(١) راجع فى سقوط قلمريه وما تقدمه من حوادث : البيان المغرب ج ج ٣ ص٢٣٨ و٢٣٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٤ ، ودوزى فى **Hist. des Musulmans d' Espagne, V. III. p. 67-77**

الأندلسية، بيد أنه قد غاض ودثر فى النهاية، ولم تصل إلينا منه سوى شذور قليلة[١] .

وما كاد المنصور بن الأفطس يبدأ حكمه حتى ثار به أخوه عمر، وكان يرى نفسه أحق منه بالملك والحكم. وكان عند وفاة والده المظفر حاكماً لمدينة يابرة وما إليها، فنهض لمناوأة أخيه . واستمر النزاع بينهما بضعة أعوام حتى تفاقم . ولجأ عمر إلى معاونة المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، واتجه المنصور إلى معاونة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، واضطرمت الفتنة، وكادت تدمر كل شئ ، لولا أن توفى يحيى المنصور فجأة سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) ، فخمدت الفتنة ودخل عمر بطليوس، وتولى الحكم مكان أخيه دون منازع ، وتلقب بالمتوكل على الله ، وندب ابنه العباس حاكماً ليابرة .

وكان المتوكل بن الأفطس من أشهر ملوك الطوائف وأبقاهم ذكراً، وهو لم يشتهر بحروبه وأعماله السياسية ، وإنما اشتهر بعلمه وأدبه وشعره ، وبلاطه الزاهر، الذى كان جامعة أدبية أكثر منه قصراً ملوكياً . وقد وصفه لنا معاصره الفتح بن خاقان فى تلك العبارات الشعرية : « ملك جند الكتائب والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وأمر الأيام فائتمرت، وطافت بكعبته الآمال واعتمرت إلى لسن وفصاحة ، ورحب جناب للوافد وساحة ، ونظم يزرى بالدر النظيم، ونثر تسرى رقته سرى النسيم ، وأيام كأنها من حسنها جمع ، وليال كان فيها على الأنس حضور مجتمع ، راقت إشراقاً وتبلجاً، وسالت مكارمه أنهاراً وخلجاً »[٢]

وقال ابن الخطيب : « وكان المتوكل ملكاً عالى القدر، مشهور الفضل ، مثلا فى الجلالة والسرو ، من أهل الرأى والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطليوس فى مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم » .

ونقل إلينا ابن الخطيب تلك التحفة الأدبية من نظم المتوكل، رواها وزيره أبو طالب ابن غانم قال: كتب إلى المتوكل بهذين البيتين فى ورقة كرنب من بعض البساتين :

انهض أبا طالب إلينا   واسقط سقوط الندى علينا
فنحن عقد بغير وسطى   ما لم تكن حاضراً لدينا[٣]

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٦، ٢٣٧ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٣ ، ١٨٤ والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) قلائد العقيان ص ٣٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٨٥ .

وحسبك أن تعلم أنه كان من بين وزراء المتوكل، الكاتب والشاعر الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون «عظيم ملكهم، ونظيم سلكهم» حسبما يصفه صاحب القلائد، وصاحب مرثيتهم الرائعة التى نشير إليها فيما بعد، وهو من أبناء مدينة يابرة، وبنو القبطرنة وهم الشاعر المبدع أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى، وأخواه أبو محمد وأبو الحسن، وكلاهما أيضاً شاعر رائق النظم.

وفى عهد المتوكل على الله تمتعت مملكة بطليوس بفترة من السلام والأمن والرخاء، وسطع بلاطها فى ظل أميرها الحكيم العالم. والواقع أن مملكة بطليوس كانت بالرغم مما نزل بها من الأحداث والخطوب، فى عهد المظفر بن الأفطس، تتفوق من حيث انتظام الأحوال وسيادة الأمن والرخاء، على كثير من دول الطوائف الأخرى. وفى ذلك يقول المؤرخ «وكانت أيام بنى المظفر (يقصد بنى الأفطس) بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الأدب، خلدت فيهم، ولهم قصائد شادت مآثرهم، وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم» (١).

وكان معاونه فى الحكم الوزير ابن الحضرمى، قد أساء السيرة، وتجبر وطغى وتعسف فى معاملة الناس فأقاله، وأبعده عن خدمته. فكتب إليه الوزير يستعطفه فراجعه المتوكل بخطاب جاء فيه: «ياسيدى وأكرم عددى، الشاكى ما جنته يده لا يدى، ومن أسأل الله التوفيق فى ذاته إذ حرمه فى ذاتى ... نعم فإنى رأيت الأمر قد ضاع، والإهمال قد انتشر وذاع، فأشفقت من التلف، وعدلت إلى ما يعقب إن شاء الله الخلف، وأقبلت استدفع من مواقع أنسى، وأشاهد ما ضيعته بنفسى، فلم أر إلا لججاً قد توسطتها، وغمرات قد تورطتها، فشمرت عن الساق للججها، وخدمت النفس بمهجتها، حتى خضت البحر الذى أدخلنى فيه رأيك، ووطئت الساحل الذى كان يبعدنى عنه سعيك .... وقد أطمعت فى العدو ولبست لأهل دهرى الاستكبار والعتو، واستهنت بجيرانك، وتوهمت أن المروءة فى التزام زهوك، وتعظيم شأنك، حتى أخرجت النفوس على وعليك، فانجذب مكروه ذلك إليك، ومع ذلك فليس لك عندى إلا حفظ الحاشية وإكرام الغاشية» (٢).

ووقعت أيام المتوكل فى جارته مملكة طليطلة أحداث كان لها صدى فى مملكته.

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ٤٢.

(٢) قلائد العقيان ص ٤١.

ذلك أن يحيي بن ذى النون صاحب طليطلة الملقب بالقادر بالله ، كان أميراً ضعيفاً سيئ الخلال، وكانت تناهضه عصبة قوية من الأعيان . وفى سنة ٤٧٢ﻫ قامت ثورة فى طليطلة أضرمها أولئك الخصوم الناقمون، وحاولوا الاعتداء عليه، ففر من المدينة ناجياً بنفسه، ولجأ إلى بعض حصونه الخارجية، وخشى أعيان المدينة انهيار النظام ، وذيوع الفوضى ، فاتجهوا إلى المتوكل، واستدعوه لضبط المدينة، فأجابهم كارهاً، وغادر بطليوس إلى طليطلة ، وأقام بها زهاء عشرة أشهر يدبر شئونها ، حتى تهيأت لأميرها المنفى سبل العودة ، فغادرها المتوكل ، وقد حصل من أسلاب ابن ذى النون وذخائره على قسط وافر[1] .

وكان ألفونسو السادس خلال ذلك يشدد الضغط على مملكة طليطلة، ويرهقها بغاراته المتوالية ،وينتسف زروعها وأقواتها، تمهيداً لمشروعه الضخم فى الاستيلاء عليها . وكان القادر بن ذى النون يدافع العدو ما استطاع ، ويتطلع حوله للاستنجاد بجيرانه المسلمين ، فلا يجد سميعاً أو منجدا.ولم يتقدم لإغاثته سوى المتوكل بن الأفطس، فقد سار بجنده لمدافعة جند قشتاله. بيد أن ألفونسو السادس لم يشأ الدخول فى معارك عقيمة ،وآثر الانسحاب مؤقتاً،حتى تحين الفرصة المنشودة .

بيد أنه لم تمض على ذلك بضعة أعوام، حتى حلت النكبة بمملكة بنى ذى النون، واستولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة، وذلك فى المحرم من سنة ٤٨٧ﻫ (١٠٨٥ م) حسبما نفصل فى موضعه. وشعر ملك قشتالة على أثر إنزال هذه الضربة الفادحة بالمسلمين، أنه أضحى قادراً على تحدى دول الطوائف جميعاً، والقضاء عليها ، واحدة بعد أخرى. وكان من أثر ذلك أن أرسل إلى المتوكل يطلب إليه تسليم بعض قلاعه وحصونه ، وأن يؤدى له الجزية، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض ،ولم يك ثمة شك فى خطورة هذا الوعيد، بعد أن سقطت طليطلة حصن الأندلس على نهر التاجُه، وعبر النصارى نهر التاجُه لأول مرة، ومع ذلك أبى المتوكل أن يستجيب إلى الوعيد ، ورد على ملك قشتالة برسالة قوية حازمة ، تفيض شجاعة وإباء ونبلا يقول فيها :

«وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع فى المقادير وأحكام العزيز القدير ، يرعد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٨٠ .

ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويلدد بجنوده الوافرة، وأحواله المتظافرة، ولو علم أن لله جنوداً أعز بهم الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون ...

أما تعييرك للمسلمين فيما وهى من أحوالهم، فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك، علمت أى مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك تتجرعه، فلم نزل نذيقها من الحمام ضروب الآلام شؤماً تراه وتسمعه، وإذا المال تتورعه. وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك، أهدى ابنته إليه مع الذخائر التى كانت تفد كل عام عليه، وأما نحن إن قلت أعدادنا، وعدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولا صعب نروضه، إلا السيوف تشهد بحدها رقاب قومك، وجلاد تبصره فى ليلك ويومك، وبالله تعالى وملائكته المسومين، فنقوى عليك ونستعين ... وما تتربصون بنا إحدى الحسنيين، نصر عليكم فيالها من نعمة ومنة، أو شهادة فى سبيل الله، فيالها من جنة، وفى الله العوض مما به هددت، وفرج يفتر بما مددت، ويقطع بك فيما أعددت »[١].

وندب المتوكل قاضيه العلامة والفقيه الأجل، أبا الوليد الباجى، ليطوف بحواضر الأندلس، ويتصل بالرؤساء، ويدعوهم إلى لم الشعث، وتوحيد الكلمة ومدافعة العدو، فقام بالمهمة، واتصل بسائر الرؤساء، ولم يدخر وسعاً فى نصحهم ووعظهم[٢].

ومع ذلك فان المتوكل لم يجد من زملائه المسلمين من يستنصر به، وقد روعهم جميعاً ماحل بطليطلة، وكان ملك قشتالة قد استولى منذ سنة ١٠٨٠ م (٤٧٣ هـ) على مدينة قورية وقلاعها، وهى من أطراف مملكة بطليوس الشمالية وحصنها على نهر التاجه، وأضحى السبيل بذلك أمامه ممهداً لكى يجتاح أراضيها بسهولة. وكان المعتمد بن عباد قد تلقى منه مثل المطالب والنذر التى تلقاها المتوكل، ورد عليه بمثل رد المتوكل أو أشد. وكان أن تطورت الحوادث بسرعة، واعتبر ملوك الطوائف بالخطب الداهم، وانتهى بهم الأمر إلى ذلك القرار الخطير، الذى شاء القدر أن يكون نقطة تحول فى حياة الأندلس وفى تاريخها، ونعنى استدعاء المرابطين.

---

(١) تراجع هذه الرسالة فى الحلل الموشية (تونس ١٣٢٩ هـ) ص ٢٠ – ٢٢.

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٩٨.

وقد كان عمر المتوكل، إلى جانب زميله المعتمد بن عباد ، وكلاهما يومئذ هدف لأخطر عدوان مباشر من جانب ملك قشتالة ، فى مقدمة المؤيدين لهذه الخطوة، وقد كتب إلى أمير المسلمين ، كما كتب المعتمد ، يلتمس عونه وغوثه. والظاهر أن المتوكل وجه صريخه لأمير المسلمين قبل سقوط طليطلة ، حسبما يبدو ذلك من رواية صاحب الحلل الموشية[1]، وقد انتهت الينا من قلم هذا الأمير العالم تلك الرسالة البليغة المؤثرة يصف فيها لأمير المسلمين محنة الأندلس ، وما دهاها من التفرق والانحلال ، ويستنصره إلى الجهاد ، والإنجاد العاجل :

« لما كان نور الهدى، أيدك الله ، دليلك ، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت فى الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعى ، لما أعضل الداء ، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها «أهلكهم الله»[2]، عند إفراط تسلطها واعتدائها[3]، وشدة كلبها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة[4] ، ولم يزل دأبها التشطط والعناد ، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى نفد[5] الطارف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، وأيقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت أطماعهم فى افتتاح المدن ، واضطرمت فى كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم ، فإنما هم بأيديهم أسارا وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب ، فيالله ويا للمسلمين ، أيسطوا هكذا بالحق الإفك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الإيمان الكفر ، ولا يكشف هذه البلية النصر ، ألا ناصر لهذا الدين المهتضم ، ألا حامى لما استبيح من الحرم ، وأنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التى ليس فيها عزاء، والبلية التى ليس مثلها بلاء . ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك، أعزك الله، بالنازلة فى مدينة قورية ، أعادها الله ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلا ، ومن فيها من المسلمين بالجلا ، ثم مازال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند ، حتى تخلصت

(١) الحلل الموشية ص ٢٠ . (٢) الزيادة من البيان المغرب (الأوراق المخطوطة)

(٣) البيان المغرب «واعتزازها» (٤) البيان المغرب «نفيسة» . (٥) البيان المغرب «استصفى» .

القضية ، وتضاعفت البلية ، وتمحصات فى يد العدو مدينة سُرية ، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع ، فى الحصانة والامتناع ، وهى من المدينة كنقطة الدائرة « وواسطة القلادة » تدركها من جميع نواحيها ، ويستوى فى الأرض بها قاصيها ودانيها ، وماهو إلا نفس خافت ، وزمر داهق ، استولى عليه عدو مشرك ، وطاغية منافق ، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالا ، وتتداركوها ركباناً ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافاً وثقالا ، وما أحضكم على الجهاد بما فى كتاب الله ؛ فإنكم له أتلى ، ولا بما فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إلى معرفته أهدى ، وكتابى إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ ، يفصلها ويشرحها ، ومشتمل على نكتة هو يبينها ويوضحها ، فإنه لما توجه نحوك احتساباً ، وتكلف المشقة إلياك طالباً ثواباً ، عولت على بيانه ، ووثقت بفصاحة لسانه والسلام »(١) .

والظاهر أن المتوكل ، تلقى كما تلقى ابن عباد من أمير المسلمين ، كتاباً يعده فيه بالجواز والإنجاد .

ونحن نقف فى سرد أخبار المتوكل ومملكة بطليوس عند ذلك الحد ، إذ هى تندمج عندئذ فى تيار الحوادث العامة ، الذى جرف الأندلس وملوك الطوائف جميعاً ، وهو ما سنعنى بتفصيله فى موضعه .

---

(١) البيان المغرب – فى الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها فى مكتبة القرويين .

الفصل الخامس

مملكة بنى ذى النون فى طليطلة

مملكة طليطلة وأهمية موقعها . بنو ذى النون . أصلهم وظهورهم . عبد الرحمن بن ذى النون وولده إسماعيل . أحوال طليطلة عقب الفتنة . استدعاء أهلها لإسماعيل . ولايته لطليطلة ، وتلقبه بالظافر . كبير الجماعة أبو بكر الحديدى . وفاة إسماعيل وقيام ولده المأمون . الحرب بين المأمون وابن هود . هزيمة المأمون وارتداده . استعانته بفرناندو ملك قشتالة . عيث النصارى فى أراضى ابن هود . التحالف بين المأمون وابن عباد . استعانة ابن هود بملك قشتالة وعيثه فى أراضى طليطلة . تحالف المأمون مع غرسية ملك نافار . عيث النصارى فى أراضى طليطلة وسرقسطة . سعى أهل طليطلة للصلح . مهاجمة ابن هود لمدينة سالم . غزو القشتاليين لأراضى طليطلة . غزو النافاريين لأراضى سرقسطة . وفاة ابن هود وانتهاء الفتنة . النزاع بين المأمون وبين ابن الأفطس . إغارة ملك قشتالة على أراضى طليطلة . تعهد المأمون له بالجزية . استيلاء المأمون على بلنسية . مختلف الروايات فى ذلك . وفاة فرناندو ملك قشتالة والنزاع بين أولاده . فرار ألفونسو . التجاؤه إلى المأمون . محاولة المأمون غزو قرطبة وفشله . مؤامرة ابن عكاشة . استيلاؤه على قرطبة واستدعاؤه للمأمون . مقتل سراج الدولة ابن المعتمد . دخول المأمون قرطبة ثم وفاته . زحف ابن عباد على قرطبة واقتحامه إياها . مصرع ابن عكاشة . المأمون وخلاله . ثراؤه وقصوره الباذخة . ما ينسب إليه من البخل . ابن حيان يهدى إليه كتابه . يحيى القادر حفيد المأمون وخلفه . الوزيران ابن الفرج وابن الحديدى . بطش القادر بابن الحديدى . القلاقل والمؤامرات ضد القادر . ضغط ابن هود عليه . يلتمس حماية ملك قشتالة ويعترف بطاعته . الثورة فى طليطلة وفرار القادر . المتوكل بن الأفطس يتولى حكم طليطلة . استعانة القادر بألفونسو واسترداده لعرشه . مشروع ألفونسو لغزو طليطلة . المعتمد بن عباد يعقد حلفاً مع ألفونسو . خضوع ملوك الطوائف لملك قشتالة . اختلاف أهل طليطلة . الحزب الموالى للنصارى . تخريب ألفونسو لأراضى طليطلة . انصراف ملوك الطوائف عن غوثها . أبو الوليد الباجى ودعايته . عمر المتوكل يحاول إنجادها . حصار ألفونسو لطليطلة . القادر وموقفه المريب . تفاقم الخطب . محاولة أهل المدينة التفاهم مع ألفونسو . إصرار ألفونسو على التسليم . عروض التسليم وشروطه . ألفونسو السادس يدخل طليطلة . مغادرة القادر إياها . سقوط طليطلة وآثاره المادية والأدبية . طليطلة حاضرة قشتالة . أثر النكبة فى موقف الطوائف . فجيعة الشعر الأندلسى .

لم تكن أهمية مملكة بنى ذى النون فى طليطلة وأعمالها ، فى ضخامة رقعتها ، وإن كانت أيضاً من أكبر دول الطوائف رقعة ، ولكن فى موقعها الحربى (الاستراتيجى) على مشارف الأندلس الشمالية الوسطى . ونحن نعرف أن طليطلة وأعمالها ، كانت منذ قيام الدولة الإسلامية بالأندلس تعرف بالثغر الأوسط

لمتاخمة حدودها للممالك الإسبانية النصرانية ، واعتبارها بذلك حاجز الدولة الإسلامية وجناحها الشمالى الأوسط ، ضد عدوان النصارى .

ولم يتغير هذا الوضع بقيام دولة بنى ذى النون، على أثر انهيار الخلافة ، وتمزق الأندلس ، فى تلك المنطقة ، ومن ثم كانت أهمية مملكة طليطلة. وكانت هذه المملكة تشمل رقعة كبيرة فى قلب الأندلس ، تمتد شرقى مملكة بطليوس، من قورية وترجالُه نحو الشمال الشرقى ، حتى قلعة أيوب وشنتمرية الشرق، جنوب غربى مملكة بنى هود فى الثغر الأعلى ، وتمتد شمالا بشرق فيما وراء نهر التاجُه متاخمة لقشتالة القديمة ، وجنوباً بغرب حتى حدود مملكة قرطبة ، عند مدينتى المعدن والمدور ، وتتوسطها عاصمتها طليطلة . ومن أعمالها مدينة سالم ووادى الحجارة وقونقة ووبذة وإقليش وورة وطلبيرة وترجالُه وغيرها .

كانت هذه المنطقة الشاسعة الهامة وقت الفتنة غنما لبنى ذى النون ، أقاموا بها مملكة لامعة زاهية ، ولكن سيئة الطالع ، قصيرة الأمد . وقد كان بنو ذى النون من أصول البربر ، من قبائل هوارة، ويقال إن أصل لقبهم هو زنون ، فتطور بمضى الزمن إلى رسمه المعروف ، أعنى ذى النون ، وقد ظهروا وفقاً لأقوال الرواية ، منذ أيام الدولة الأموية ، حيث كان جدهم الأعلى ذو النون بن سليمان حاكما لحصن إقليش، منذ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن. وظهر جدهم ذو النون هذا ، ونال عطف الأمير محمد عن طريق حادث عارض ، خلاصته أن الأمير محمدا، عند اجتيازه فى بعض غزواته لأرض شنت برية (١) ، موطن ذى النون اعتل له خصى من أكابر خصيانه، وهو فى طريق العودة من غزاته ، فتركه عند ذى النون حتى يبرأ من علته أو يموت ، فاعتنى به ذو النون عناية فائقة حتى برئ ، ثم أخذه بنفسه إلى قرطبة ، فسر الأمير محمد بمروءته ، وكافأه على صنيعه بأن أهدى له سجلا بولايته على ناحيته ، واعتباره زعيم قومه ، وارتهن بعض أولاده كفالة بحسن طاعته، ومن ذلك الحين يظهر اسم بنى ذى النون على مسرح الحوادث . ومنها أن موسى بن ذى النون ، اشترك أيام الفتنة فى الخلاف

---

(١) شنت برية وبالإسبانية Santaver ، هى بلدة حصية كانت تقع شمالى غربى قونقة ، وجنوبى شرقى وادى الحجارة على مقربة من منابع نهر التاجه، وقد كانت قاعدة للكورة الأندلسية التى تسمى بهذا الاسم ، والتى تشغل منطقة قونقة وإقليش حتى شرقى طليطلة .

وخرج عن الطاعة ، وذلك فى سنة ٢٦٠ هـ ، وأخضعه الأمير محمد [١] . ومن ذلك أيضاً أن ابنه الفتح بن موسى ، خرج فى مستهل عهد الناصر بقلعة رباح وأحوازها ، فبعث إليه الناصر بحملة طاردته وانتهت بإخضاعه .

ويقول لنا ابن الخطيب إن بنى ذى النون لم يكن لهم رياسة ولانباهة إلا فى دولة المنصور بن أبى عامر ، ولكن ابن حيان يذكر لنا من جهة أخرى «أنه فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٣ هـ فى عهد الحكم المستنصر بالله سجل لمطرف بن اسماعيل ابن عامر ذى النون على وبذة »[٢] وحصنه ، وأضيفت اليه أكثر حصون شنت برية وقراها[٣] . ويقع حصن وبذة هذا على مقربة من شمال حصن إقليش معقل بنى ذى النون فيما بعد . وعلى أى حال ففى أيام المنصور، ظهر عبد الرحمن ابن ذى النون وولده إسماعيل، وخدم فى ظل المنصور، والظاهر أن عبد الرحمن هذا هو ولد مطرف بن إسماعيل بن ذى النون السابق ذكره . فلما انقرضت الدولة العامرية، لحق بالثغر، واجتمع إليه بنو عمه ، ومنحه سليمان الظافر حكم إقليش. ولما مات الفتى واضح العامرى حاكم قلعة قونقة ، استولى عليها إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون، وضبطها حتى يجىء بزعمه من يولى عليها . وأخذ إسماعيل يستولى على الأنحاء المجاورة شيئاً فشيئاً، حتى بسط حكمه على كورة شنتبرية كلها . وأولاه سليمان الظافر عطفه ، فمنحه رتبة الوزارة، ولقبه بناصر الدولة . ونحن نعرف أن البربر كانت لهم فى أيام سليمان الغلبة والكلمة العليا ، فلما اضطرمت الفتنة وانهارت السلطة المركزية ، أعلن إسماعيل استقلاله بما فى يده من الأراضى ، وجبى الأموال ، واتسعت أعماله . وينوه ابن حيان ، ببخله وإمساكه فى النفقة، ثم يصفه فيما يلى : « ولم يرغب فى صنيعة ، ولا سارع إلى حسنة ، ولا جاد بمعروف ، ولا عرّج عليه أديب ولا شاعر ، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ، ولا استخرج من يده درهم فى حق ولا باطل، ولا حظى أحد منه بطائل ، وكان

---

(١) نقل إلينا ابن حيان هذه المعلومات عن عيسى بن أحمد الرازى ، ووردت فى القطعة المخطوطة من تاريخ ابن حيان المحفوظة بمكتبة جامع القرويين (لوحة ٢٧٢ ب) .

(٢) وهى بالأسبانية Huete

(٣) ورد ذلك فى المقتبس لابن حيان – قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد المنشورة بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى (بيروت ١٩٦٥) ص ١٥٠ .

مع ذلك سعيد الجد ، تنقاد إليه دنياه ، وتصحبه سعادته ، فينال صعاب الأمور بأهون سعيه ، وهو كان فرط الملوك فى إيثار الفرقة ، فاقتدى به من بعده ، وأموا فى الخلافة نهجه، فصار جرثومة النفاق ،ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن » وهكذا كان مؤسس مملكة بنى ذى النون [١] .

وكانت طليطلة حينما اضطرمت الفتنة،وانهار سلطان الحكومة المركزية،قد قام بالأمر فيها وضبطها قاضيها أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى. بيد أنه يبدو أنه لم يكن منفرداً بالرياسة ، وأنه كان يحكم معه جماعة من الرؤساء على نحو ما كانت الجماعة فى بدايتها بقرطبة،وكان من هؤلاء ابن مسرّة، وعبد الرحمن ابن متيوه . ثم وقع الخلاف بين الجماعة ، وعزل القاضى ابن يعيش ، وسار إلى قلعة أيوب وتوفى بها فى سنة ٤١٨ هـ [٢] . ولما توفى عبد الرحمن بن متيوه ، خلفه فى الحكم ولده عبد الملك ، وأساء السيرة ، واضطربت الأمور ، فرأى أهل طليطلة أن يتخلصوا من أولئك الزعماء جملة ، وبعثوا رسلهم إلى عبد الرحمن ابن ذى النون فى شنتبرية يستدعونه لتولى الرياسة ، فوجه إليهم ولده إسماعيل، وكان ذلك فى سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) .

وهكذا تولى إسماعيل بن ذى النون حكم طليطلة وأعمالها ، وتلقب بالظافر وامتدت رياسته شرقاً حتى قونقة وجنجالة ، واعتمد فى تدبير الأمور على كبير الجماعة بطليطلة أبى بكر بن الحديدى ، وكان عالماً وافر العقل والدهاء ، يحظى بتأييد الكثرة الغالبة من أهل المدينة،فكان إسماعيل لا يقطع أمراً دون رأيه ومشورته . ولم يطل أمد اسماعيل فى الملك أكثر من بضعة أعوام ، إذ توفى فى سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) . وفى عهده ذاعت قصة ظهور هشام المؤيد ، وكان هشام المزعوم هذا بقلعة رباح من أعمال مملكته ، فأخرج منها وأخذ إلى إشبيلية ، حيث أظهره القاضى ابن عباد ، وأخذ له البيعة وأعلن خلافته ، حسبما ذكرنا ذلك فى موضعه .

فخلفه ولده يحيى بن إسماعيل ، وتلقب بالمأمون ، وسار على سنة أبيه فى

---

(١) راجع فى أصل بنى ذى النون ونشأتهم : الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١١٠ و ١١١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٦ و ١٧٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ .

(٢) ابن بشكوال فى الصلة رقم ١٥٢٠ .

تقديم وزيره ابن الحديدى ، والاعتماد على رأيه فى مهام الشئون . وكان ثمة إلى جانب ابن الحديدى ثلاثة وزراء آخرين ، أوصى أبوه إسماعيل بأن يشركهم فى رأيه ، ويعتمد على عونهم ، وهم الحاج بن محقور ، وابن لبون ، وابن سعيد ابن الفرج[1]. وفى عهد المأمون اتسعت حدود مملكة طليطلة، وترامت شرقاً حتى بلنسية ، وأضحت من أعظم دول الطوائف رقعة وموارد ، وساد بها الأمن والرخاء .

بيد أن عهد المأمون الذى استطال ثلاثة وثلاثين عاماً، كان فى الوقت نفسه مليئاً بالحروب والخصومات ، التى اضطرمت بين المأمون ، وبين منافسيه القويين ابن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى ، وابن عباد صاحب إشبيلية . ووقع النزاع بادئ بدء بين المأمون، وبين ابن هود جاره من الناحيه الشمالية الشرقية . وكانت سلسلة المدن والقلاع الحصينة التى تمتد بين الثغر الأعلى ، وبين مملكة طليطلة، منذ قلعة أيوب حتى وادى الحجارة ، موضع الاحتكاك بين الفريقين ، وكانت مدينة وادى الحجارة بالأخص مثار نزاع بينهما. وبالرغم من أنها كانت من أعمال مملكة طليطلة، إلا أن فريقاً من أهلها كانوا ينزعون إلى الانضواء تحت سلطان سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، وكان سليمان يعمل على بث الاضطراب فيها، على يد رسله وأعوانه ، فلما نضجت دعوته أرسل إليها قوة من جيشه بقيادة ولده وولى عهده أحمد فنازلتها ، ثم دخلتها بمعاونة بعض أهلها الضالعين معه (٤٣٦هـ — ١٠٤٤ م) . وما كاد المأمون بن ذى النون يقف على هذا الاعتداء، حتى هرع فى قواته إلى وادى الحجارة ، ونشبت بينه وبين أحمد بن هود معارك كانت الغلبة فيها لابن هود ، فارتد بقواته ، وابن هود يطارده حتى حصره فى مدينة طلبيرة ، الواقعة على نهر التاجه غربى طليطلة ؛ وشدد ابن هود فى الضغط على المأمون ومضايقته، ثم كتب إلى أبيه يخبره بما تهيأ له ،فكتب إليه أبوه أن يرفع الحصار عن طلبيرة ، وأن يترك المأمون وشأنه ، فصدع بالأمر ، وارتد بقواته عائداً إلى سرقسطة ، ونجا المأمون من مأزق شديد الحرج .

ولم يشأ المأمون أن يقف عند هذا الحد، بل صمم على متابعة الحرب والانتقام من ابن هود ، ففاوض فرناندو الأول ملك قشتالة ، وطلب عونه ، وتعهد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٧٧ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١١٣ .

بأن يقر بسيادته ، وأن يؤدى له الجزيه[١] ، فاستجاب فرناندو لدعوته؛ وبعث سريات من جنده ، فعاثت فى أراضى ابن هود المتاخمة لقشتالة، وأمعنت فيها تخريباً ، وكان ذلك فى أوان الصيف والزروع على وشك الحصاد، فقام الجند النصارى بحصدها ، ونقلها إلى بلادهم ، وجردت المنطقة من سائر الزروع والأقوات ، وقتل النصارى ، وسبوا ما استطاعوا ، ثم عادوا إلى بلادهم ؛ كل ذلك وابن هود ممتنع فى حصونه مجتنب للاشتباك مع المعتدين . وانتهز المأمون هذه الفرصة ، فأغار بدوره على أراضى ابن هود المتاخمة له وعاث فيها :

ورأى المأمون فى نفس الوقت أن يقوى أواصر الصداقة مع المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ، طمعاً فى عونه ونصرته على ابن هود ، فوعده ابن عباد بما طلب ، وأسفرت المفاوضات بينهما ، عن اعتراف المأمون بالدعوة الهشامية ، التى احتضنها ابن عباد ، ورفضها فى البداية إسماعيل بن ذى النون ، وأخذت البيعة لهشام المؤيد فى طليطلة ، ودعى له على منابرها[٢] . بيد أن ابن عباد ما لبث أن شغل بحروبه مع ابن الأفطس ، ولم ينل المأمون من عونه شيئاً .

وأما ابن هود فإنه مالبث أن انحدر إلى نفس الطريق الذى انحدر إليه المأمون وسعى بدوره إلى محالفة النصارى ، واستعدائهم على خصمه ابن ذى النون ؛ وبعث إلى فرناندو أموالا وتحفاً طائلة ، على أن يغير على أراضى ابن ذى النون ، فاستجاب فرناندو إلى دعوته ، وبعث سرياته فاخترقت أراضى طليطلة شمالا ، حتى وادى الحجارة ، وقلعة النهر (قلعة هنارس) ، وأمعنت فيها عيثاً وتخريباً ، فاستشاط المأمون غيظاً ، والتمس محالفة غرسية ملك ناقار أخى فرناندو ملك قشتالة ، وبعث إليه بالأموال والتحف ، فأغار بقواته على أراضى ابن هود المتاخمة له ، فيما بين تطيلة ووشقة وعاث فيها ، وافتتح منها قلعة قلهرّة (٤٣٧هـ — ١٠٤٥ م) ، وكانت مما افتتحه المنصور بن أبى عامر من أعمال ناقار الجنوبية ، وقام فرناندو ملك قشتالة مرة أخرى بالإغارة على أحواز طليطلة وتخريبها . وهكذا استباح النصارى أراضى المملكتين الإسلاميتين ، بمساعى ابن هود وابن ذى النون الذميمة ، وانهارت فيها خطوط الدفاع ، وساءت أحوال المسلمين إلى

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٨ ، وكذلك : P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p.53

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٠ .

أبعد حد. واضطر أهل طليطلة أن يبعثوا إلى سليمان بن هود بعض كبرائهم، سعياً إلى طلب الصلح والمهادنة، فقصدوا إليه فى سرقسطة فناشدوه السلم، وحذروه من العواقب، ومما تهيأ للنصارى من الظفر، فتظاهر بالقبول، وكذلك أبدى ابن ذى النون ميله إلى المهادنة والصلح، وصرف حلفاءه النصارى إلى بلادهم.

على أن ابن هود لم يكف عن خطته، فخرج بقواته مع سرية من حلفائه النصارى وهاجم مدينة سالم، وهى نهاية أعمال طليطلة المتاخمة له، وقتل معظم المدافعين عنها، ثم استولى على سائر الحصون التى كان قد انتزعها منه المأمون، وكان معه فى تلك الغزوة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذى النون، أخو المأمون الثائر عليه يدله على عوراته وثغراته. وهرع المأمون بقواته إلى مدينة سالم للدفاع عنها، وانتهز النصارى من حلفاء ابن هود هذه الفرصة، فعاثوا فى أراضى طليطلة كرة أخرى، واشتد الخراب والكرب بأهل طليطلة، فبعثوا إلى فرناندو يسألونه الصلح والمهادنة، فطالب منهم أموالا كثيرة، واشترط شروطاً فادحة، عجزوا عن قبولها، وبعثوا يقولون له، لو كانت لدينا هذه الأموال، لأنفقناها على البربر، واستدعيناهم للدفاع عنا، فرد عليهم فرناندو بما يأتى، وهى أقوال تمثل سياسة اسبانيا النصرانية نحو الأندلس أصدق تمثيل:

« أما استدعاؤكم البرابرة، فأمر تكثرون به علينا، وتهددونا به، ولا تقدرون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالى من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديماً فى أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضى لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم، واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم، أو يحكم الله بيننا وبينكم » (١).

وفى الوقت نفسه كانت قوات غرسية ملك ناڤار، حليف ابن ذى النون، تغير على أراضى ابن هود، وتعيث فيها. وهكذا استمرت الفتنة والنضال بين « هذين الأميرين المشئومين على المسلمين » ثلاثة أعوام من سنة ٤٣٥ إلى آخر سنة ٤٣٨ هـ، ولم تنقطع إلا بموت سليمان بن هود فى العام ذاته، وكانت فتنة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٢.

وضيعة كبيرة ، ونموذجاً صارخاً لتلك الحروب والمنافسات الإنتحارية المدمرة التى انحدر إليها ملوك الطوائف (١) .

وتنفس المأمون بن ذى النون الصعداء لوفاة خصمه الألد ، وهدأت الأمور فى الثغر الأعلى ، إذ قسمت مملكة ابن هود بين أولاده الخمسة كما سيجئ ، بيد أن المأمون لم يلتزم السلم والهدوء طويلا ، بل اتجه إلى مخاصمة بنى الأفطس جيرانه من الغرب ، ونشبت بينه وبين المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس ساسلة من المعارك المحلية ، لم تسفر عن أية نتائج ذات شأن . وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن هذه المعارك ، قد نشبت بين الفريقين على الأرجح بعد سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م).

وكان فرناندو ملك قشتالة ، قد عاد فى تلك الآونة إلى الإغارة على أراضى مملكة طليطلة ، ولكن فى تلك المرة لحسابه الخاص ، وكان هذا الملك القوى ، يطمح إلى إخضاع ممالك الطوائف الضعيفة المتخاصمة ، أو على الأقل إلى أن يرهقها بمطالبه فى أداء الجزية ، ثم يتوصل باستصفاء أموالها إلى إضعافها. ففى سنة ١٠٦٢م (٤٥٤ هـ) خرج فى جيش قوى من الفرسان والرماة ، وانقض على أراضى مملكة طليطلة الشمالية ، فخربها وعاث فيها عيثاً شديداً ، ولم يجد المأمون فى النهاية بداً من أن يذعن إلى طلب الصلح ، وأن يتعهد بأداء الجزية .

وكان من أهم أعمال المأمون بعد ذلك ، استيلاؤه على بلنسية وأعمالها. وكانت بلنسية يومئذ تحت حكم عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر ، وهو حفيد للمنصور وكان قد ولى حكمها على أثر وفاة أبيه عبد العزيز فى آخر سنة ٤٥٢ هـ ، وكان صهراً للمأمون بن ذى النون ، تزوج ابنته عقب وفاة أخيه زوجها الأول ، فأهانها وأساء عشرتها ، لما كان عليه من ذميم الصفات ، والخلاعة ، والانهماك فى الشراب ، والانحطاط فى مهاوى اللذات الوضيعة . فحقد عليه المأمون وأضمر له الشر ، وكانت ثمة أسباب سياسية أخرى لغضب المأمون على صهره ، خلاصتها أنه طلب إليه أن يعاونه بالجند فاعتذر عبد الملك بأنه لا يستطيع بذل مثل هذه المعاونة ، نظراً لتحالف الفتيان العامريين أمراء قسطلونة وشاطبة ومربيطر ضده ، وتربصهم به . فاعتزم المأمون أمره ضد صهره ، وهنالك فى استيلاء

(٢) راجع فى حروب المأمون وابن هود، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٨-٢٧٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٨ . وراجع دوزى: Hist. des Musulmans d' Espagne V. III. p. 74—75

المأمون على بلنسية روايتان الأولى ، أنه قدم إلى بلنسية زائراً لصهره ، فاستقبله عبد الملك هو وغلمانه وعبيده بقصره ، فأقام لديه أياماً ، ثم دبر له فى ذات ليلة كميناً ، فقبض عليه وعلى ابنه ، وأخرجهما ليلا إلى بلدة شنت برية ، واستولى بذلك على بلنسية بأيسر أمر .

وأما الرواية الثانية فتقول لنا إن المأمون استعد سراً لغزو بلنسية، واستعان بفرقة من الجند النصارى أمده بها حليفه فرناندو الأول وصاحب السيادة الاسمية عليه ، وأن القوات المتحالفة دهمت بلنسية ، والبلنسيون مثل أميرهم غافلون غارقون فى اللهو واللعب، فلم يستطع البلنسيون دفاعاً، ومزقت قواتهم، وقتل منهم عدد جم، وأسر عبد الملك بن أبى عامر وآله ، ولم ينقذ حياته سوى تدخل زوجه ابنة المأمون . وتسمى الرواية هذه الموقعة بموقعة بطرنة ، وهى بلدة من ضواحى بلنسية، وتنسب وقوعها إلى سنة ٤٥٥ هـ أو ٤٥٧ هـ أو ٤٥٨ هـ ، بيد أن المرجح أنها وقعت فى ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ (أكتوبر سنة ١٠٦٥ م) . وتختلف الرواية فى مصير عبد الملك بن أبى عامر ، فيقال إن صهره المأمون اعتقله فى شنت برية أو قلعة إقليش ، أو قلعة قونقة(١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى فرناندو ملك قشتالة (ديسمبر ١٠٦٥)، وثارت بين أولاده الثلاثه سانشو ملك قشتالة ، وألفونسو ملك ليون ، وغرسية ملك جليقية ، حرب أهلية استمرت أعواماً ، وانتهت مرحلتها الأولى فى سنة ١٠٧١ م ، بانتصار سانشو واغتصابه ملك أخويه ، والتجأ غرسية إلى حماية ابن عباد ملك إشبيلية ، والتجأ ألفونسو إلى حماية المأمون بن ذى النون ، وعاش فى بلاط طليطلة زهاء تسعة أشهر معززاً مكرماً ، حتى توفى أخوه سانشو قتيلا تحت أسوار سمورة ، حينما أراد انتزاعها من يد أخته أوراكا ، فغادر طليطلة إلى ليون واسترد عرشه . ويقال إنه حينما وصل إليه نبأ وفاة أخيه وهو بطليطلة أخفاه ، وأراد أن يغادرها سراً ، ففطن المأمون إلى ذلك ، وحاول اعتقاله ، ولكنه استطاع الفرار . وعلى أى حال ، فإن ألفونسو ، استطاع خلال إقامته بطليطلة فى ضيافة صديقه وحاميه المأمون ، أن يدرس أحوالها وأحوال بلاطها،

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٢ و٢٥٣ و٢٦١ و٢٦٧ و٣٠٣ ، ودوزى : Hist. des Musulmans d' Espagne V. III. p. 79 وراجع أيضاً اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨) ص ٤٩ .

ومواطن ضعفها ، وأن يستغل ذلك فيما بعد ، فى تدبير القضاء على مملكة المحسن إليه[١] .

وقد أشرنا من قبل عند الكلام على دولة بنى جهور بقرطبة ، إلى ماحدث من محاولة المأمون بن ذى النون غزو قرطبة ، وانتزاعها من يد الجهاورة ، وكيف استغاث عبد الملك بن جهور بصديقه ابن عباد ، فبعث إليه بالمدد تحت إمرة قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، ورد المأمون عن المدينة ، ولكن قوات ابن عباد استولت عليها بطريقة غادرة ، وفقاً لخطة سرية وضعها المعتمد ابن عباد من قبل، وانتهى الأمر بالقضاء على دولة الجهاورة (٤٦٢ هـ — ١٠٧٠ م) وندب المعتمد لحكمها ولده الحاجب سراج الدولة عباداً بن محمد بن عباد ، وأبقى معه حامية بقيادة ابن مرتين .

ولكن المأمون بن ذى النون لم يقف عند هذا الحد ، ولبث يتحين الفرصة لتنفيذ مشروعه فى الاستيلاء على قرطبة ، وهنا لجأ إلى سلاح التآمر والدس، فاتصل برجل من رجاله يدعى حكم بن عكاشة ، وكان مغامراً وافر الجرأة ، وكان من قبل من معاونى ابن السقاء ، وزير بنى جهور ، فلما قتل ابن السقاء ، قبض عليه فيمن قبض عليهم ، وزج إلى السجن ، ففر من محبسه ولحق بالمأمون ابن ذى النون ، فاستخدمه وولاه أحد الحصون القريبة من قرطبة ،وكان «شهماً صارماً » . وتفاهم المأمون مع ابن عكاشة ، على تدبير مؤامرة للفتك بالعباديين وأميرهم ، والاستيلاء على قرطبة . فوضع ابن عكاشة خطته ، ولبث يدبر أمره،وحشد إلى جانبه من استطاع من المغامرين،وفى ذات ليلة دخل المدينة فى جمع من شيعته بواسطة رجال من أنصاره فتحوا له الأبواب،ولم يفطن قائد العباديين ابن مرتين إلى ما يحدث من حوله ، وكان رجلا متهاوناً ، عاكفاً على لهوه وشرابه . وقصد المغيرون دار ابن جهور حيث كان يقيم سراج الدولة ، ودهموه على غرة ، فلقيهم فى نفر من رجاله ، وقتل مدافعاً عن نفسه . ثم قصدوا بعد ذلك إلى دار ابن مرتين ، وكان منكباً على لهوه ، فلما وقف على الخبر ، فر تحت جنح الظلام ، ولكنه أخذ بعد أيام قلائل وقتل . وفى صباح اليوم التالى

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٢ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٤ ، وكذلك : P.y Vives : Los Reyes de Taifas p. 53

كانت خطة ابن عكاشة قد كللت بالنجاح ، فبسط حكمه على المدينة ، وانضم إليه كثيرون من الدهماء ، ودعا الناس إلى بيعة المأمون بن ذى النون وطاعته ، وبعث إليه برأس سراج الدولة . وكان المأمون يقيم يومئذ فى بلنسية ، فقدم على عجل ، ودخل قرطبة فى موكب عظيم ، وذلك فى أواخر جمادى الآخرة سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) . ولكنه لم يلبث طويلا حتى مرض وتوفى بعد ذلك بأشهر قلائل ، فى أواخر ذى القعدة من نفس العام . واحتمل جثمانه إلى طليطلة ودفن بها . ويقال إنه توفى مسموماً . وتولى ابن عكاشة من بعده حكم قرطبة ، نائباً عن يحيى القادر بن ذى النون حفيد المأمون وخلفه فى حكم طليطلة . وكانت وفاة المأمون إيذاناً بتطور الحوادث . ذلك أن المعتمد بن عباد ، مذ قتل ولده وضاعت قرطبة ، كان يضطرم رغبة فى استرداد المدينة والانتقام لولده ، وكان جماعة من أهل قرطبة قد بعثوا إليه يدعونه للقدوم ، فما كاد المأمون يختفى من الميدان ، حتى زحف على قرطبة فى قواته ، وأدرك ابن عكاشة أن لا طاقة له بالمقاومة ، ففر من المدينة ، ودخلها جند ابن عباد على الأثر ، وبعث المعتمد فى أثر ابن عكاشة سرية من الفرسان طاردته حتى ظفرت به وقتلته ، وجىء به فصلب مع كلب إمعاناً فى الزراية به ، وفر ولده حريز بن عكاشة إلى طليطلة ، فولاه يحيى بن ذى النون حاكماً لقلعة رباح (١) ، وكان حريز هذا شاعراً مطبوعاً ذكره الفتح فى « مطمح الأنفس » (٢) .

وكان المأمون بن ذى النون من أعظم ملوك الطوائف ، وأطولهم عهداً ، إذ حكم ثلاثة وثلاثين عاماً ، وامتدت رقعة مملكة طليطلة فى عهده حتى وصلت شرقاً إلى بلنسية ، وازدهرت وعمها الرخاء . وجمع المأمون ثروات طائلة ، وابتنى بعاصمته قصوراً باذخة اشتهرت فى ذلك العصر بروعتها وفخامتها . وكان منها مجلسه الشهير المسمى « المكرم » كان آية فى الروعة والبهاء . وقد نقل إلينا ابن حيان عن ابن جابر ، وقد كان من شهوده فى حفلة من حفلات المأمون الباذخة ، بعض أوصافه . قال : « وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ، وأغرب ما قيد لحظى

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٥٨ و ١٥٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وراجع دوزى :
Hist. Abbadidarum V. II. p. 122 — 126

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ١٩٦ . والقاهرة ج ٢ ص ١٧٩ .

من بهى زخرفه ، الذى كاد يحبس عينى عن الترقى عنه ، إلى ما فوقه ، إزاره الرائع الدائر بأسّه حيث دار ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون ، الزارية صفحاته بالعاج فى صدق الملاسة ، ونصاعة التلوين ، قد خرمت فى جثمانه صور البهائم وأطيار وأشجار ذات ثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما فيها من أفنان أشجار وأشكال الثمر . وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها ، متميزة من شكلها ، تكاد تقيد البصر عن التعلى إلى ما فوقها . قد فصل هذا الإزار عما فوقه كتاب نقش عريض التقدير ، مخرم محفور ، دائر بالمجلس الجليل من داخله ، مرقوم كله بأشعار حسان ، قد تخيرت فى أماديح مخترعه المأمون . وفوق هذا الكتاب الفاصل فى هذا المجلس ، بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار ، وصور أنعام وأشجار ، يذهل الألباب ويقيد الأبصار . وأرض هذه البحار مدحوة من أوراق الذهب الإبريز ، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير ، وأبدع تقدير ».

ثم قال : « ولهذه الدار بحيرتان ، قد نصت على أركانهما صور أسود مصنوعة من الذهب الإبريز ، أحكم صياغة تتخيل لمتأملها ، كالحة الوجوه ، فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء ، هوناً كرشيش القطر أو سحالة اللجين . وقد وضع فى قعر كل بحيرة منها حوض رخام يسمى المذبح ، محفور من رفيع المرمر ، كبير الجرم ، غريب الشكل ، بديع النقش ، قد أبرزت فى جنباته ، صور حيوان وأطيار وأشجار ... » .

وذكر ابن بدرون أن المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة ، بنى بها قصراً تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل على القبة حواليها محيطاً بها ، متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب لا يفتر ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شئ ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل(١) .

(١) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٣ . وراجع «سراج الملوك» للطرطوشى (القاهرة) ص ٤٥ .

ونقل إلينا ابن حيان أيضا ، عن ابن جابر أوصاف ذلك الحفل الباهر الذى أقامه المأمون ، احتفالا بختان حفيده يحيى ، الذى تولى الحكم فيما بعد باسم القادر ، وفيه من صور البذخ والإغداق والسعة ما ينم عن الغنى الطائل ، الذى حققه بنو ذو النون، واتسم به بلاطهم. بيد أن المأمون كان بالرغم من ذلك ينسب إلى التقتير والشح ، وكان قليل من الشعراء يقصدون إليه للمديح « لقلة نائله ، وتفاهة طائله » على حد قول ابن بسام (١) .

والواقع أنه لم يكن ببلاط بنى ذى النون للشعر والأدب دولة زاهرة، كما كان الشأن فى إشبيلية وألمرية وبطليوس . بيد أننا نجد مع ذلك أكابر شعراء العصر وعلمائه يعيشون فى ظل المأمون، وكان من هؤلاء شاعره ابن أرفع رأس، صاحب الموشحات المشهورة، والعلامة الرياضى ابن سعيد مؤلف تاريخ العلوم المسمى «طبقات الأمم»، وكان يلقى دروسه فى المسجد الجامع، والعلامة النباتى ابن بصّال الطليطلى .

وقد رأينا فيما تقدم كيف ينوه ابن حيان أيضا، بما جبل عليه مؤسس دولة بنى ذى النون اسماعيل ، من البخل والتقتير، ومع ذلك فإنه مما يلفت النظر حقاً، أن ابن حيان لم يجد من يهدى إليه مؤلفه التاريخى الضخم ، سوى المأمون بن ذى النون، إذ يقول لنا فى مقدمته إنه كان بعد تأليفه ينوى الاستئثار به لنفسه ، وأن يخبئه لولده ضناً بفوائده الجمة على من تنكب إحماده به إلى ذمه ومنقصته ، ثم يقول : « إلى أن رأيت زفافه إلى ذى خطبة سنية ، أتتنى على بعد الدار ، أكرم خاطب ، وأسنى ذى همة ، الأمير المؤثل الإمارة ، المأمون ذى المجدين ، الكريم الطرفين يحيى بن ذى النون »(٢) .

— ٢ —

وخلف المأمون حفيده يحيى بن ذى النون الملقب بالقادر. ذلك أن هشاماً ولد المأمون، توفى قبل وفاته أو أنه قد حكم بضعة أشهر فقط ثم توفى (٣) . وكان القادر

---

(١) راجع ما نقله ابن بسام فى الذخيرة عن ابن حيان ، فى أوصاف الحفلات والقصور المأمونية ، القسم الرابع المجلد الأول ص ٩٩ — ١٠٤ و ١١٤ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٨ .

(٣) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧١ . وكذلك :
P. y Vives: Los Reyes de Taifas (Cit. Cronica general p. 54, nota)

فتى حدثاً ، قليل الخبرة والتجارب قد ربى فى أحجار النساء، ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فغلب على أمره العبيد والموالى . وكان يحكم مملكة عظيمة ولكن مفككة . وكان المأمون قد قسم الأعمال بين وزيريه الأثيرين ، وهما ابن الفرج والفقيه أبو بكر بن الحديدى ، وكان الأول يختص بتدبير الأجناد ، والنظر فى طبقات القواد ، والشئون السلطانية ، والأعمال الديوانية ، ويختص الثانى بالنظر فى الشئون المالية وشئون الرعية ، وإبداء الرأى والمشورة . وأوصى المأمون قبل وفاته حفيده ، بأنه متى اضطلع بالحكم ، أن يعتمد على عون ابن الحديدى ونصحه ، وأن يأخذ رأيه فى كل أمر ، واتخذ العهود الوثيقة على ابن الحديدى ، أن يخلص النصح لحفيده ، وأن يشد أزره بكل ما وسع . بيد أنه لم يمض سوى قليل ، حتى بدأ نفر من خاصة القادر يسعون لديه فى حق ابن الحديدى ، ويوغرون صدره عليه ، ويقنعونه بأنه لا يمكن أن يحكم بصورة حقيقية، حتى يتخلص من نير ابن الحديدى وطغيانه ؛ وكان المأمون قد قبض من قبل بإيعاز ابن الحديدى على جماعة من أعيان طليطلة ، واعتقلهم بالمعتقل خشية انتقاضهم فرأى القادر بعد أن استقرت لديه فكرة التخلص من ابن الحديدى ، أن يستظهر بهم عليه ، فأطلقهم واستدعاهم إلى مجلسه ، فلما حضر ابن الحديدى ورآهم ، استشعر الخطر ، وحاول أن يلوذ بحماية القادر ، فغادر القادر المكان ، وفتك الحضور بابن الحديدى ، ونهبت دوره ، وكان ذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) .

ولم يلبث القادر أن أدرك سقطته ؛ وأخذ يجنى ثمار جريمته . فقد وهم أنه تخلص من نير ابن الحديدى ، ولكنه وقع فى براثن تلك الطغمة التى آزرته فى الجريمة ، وبدأ أولئك الأعيان الحاقدون ، خصوم جده القدماء ، يحيكون له الدسائس ، ويضعون الصعاب فى طريقه ، ويثيرون الشعب ضده ، حتى ضعف سلطانه ، وبدأت أعراض الثورة تبدو فى النواحى . وكان ابن هود صاحب سرقسطة ، يرهقه بمطالبه وغاراته ، ويستعين ضده بالجند النصارى ، حتى انتهى بأن انتزع منه مدينة شنتبرية . ومن جهة أخرى فقد ثار أبو بكر بن عبد العزيز ببلنسية وخلع طاعة بنى ذى النون ، ونادى بنفسه أميراً مستقلا ، فداخله ابن هود وخطب إليه ابنته أملا فى أن يستطيع بذلك التغلب على بلنسية . وكادت مدينة

قونقة تسقط فى يد سانشو راميرز ملك أراجون ، لولا أن افتداها أهلها بمبلغ كبير من المال . وحاول القادر أن يرد خصومه ، فبعث جنده تحت إمرة الفتى بشير لمقاتلة ابن هود وراميرز ، ولكنهما انصرفا دون قتال . وعندئذ اضطر القادر أن يتجه ببصره إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأن يلتمس عونه وحمايته . وكان المأمون قد اعترف بطاعته من قبل ، وقبل تأدية الجزية . وحذا القادر بالطبع حذوه ، ولكن ملك قشتالة أخذ عندئذ يشتط فى مطالبه ، ويطالب القادر بالمال تباعاً ، وبتسليم بعض حصونه القريبة من الحدود ، وقد تسلم منها بالفعل حصون سرية وقتورية وقنالش ، كل ذلك والقادر عاجز عن رده ، مرغم على إرضائه ، حتى كادت خزائنه تنضب ، وكان خصومه فى الداخل من جهة أخرى يدبرون السعى لإسقاطه . وأخيراً اضطرمت طليطلة بالثورة ، فاضطر القادر أن يلوذ بالفرار ، وأن يلجأ مع أهله وولده إلى حصن من حصونه الشرقية ، هو حصن وبذة (٤٧٢ هـ) وألفى أهل طليطلة أنفسهم بلا أمير ، ولا حكومة تقى المدينة شر الفوضى ، فرأى جماعة منهم أن يستدعوا المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس ، ليتولى أمرهم ، وقبل المتوكل هذه المهمة كارهاً ، وقدم إلى طليطلة ، وقام بالأمر فيها .

وفى تلك الأثناء سار القادر بن ذى النون من ملجئه إلى مدينة قونقة ، وكتب إلى ألفونسو ملك قشتالة يذكره بسالف الود بينه وبين جده المأمون ، وما كان للمأمون من فضل فى عونه وإغاثته ، ويطلب منه العون فى محنته . فاستجاب ألفونسو لدعوته ، وهو يزمع فى قرارة نفسه ، أن ينتهز كل فرصة سانحة ، وسار معه إلى طليطلة فى سَرِيَّة من فرسانه . وكان المتوكل بن الأفطس خلال ذلك يجد فى اقتناص كل ما يستطيع اقتناصه من أسلاب القادر ، من أثاث وفراش وآنية وسلاح وكتب وغيرها ، حتى بعث منها إلى بطليوس المقادير الجمة . فلما شعر بحركة ألفونسو ومقدم القادر ، غادر طليطلة مسرعا إلى حاضرته ، وذلك بعد أن قضى فى حكمها زهاء عشرة أشهر ، ويقال إن ألفونسو حاصر طليطلة بقواته ، واضطر ابن الأفطس أن يغادرها بطريق الفرار (إبريل ١٠٨٠)[١].

---

(١) ابن الخزرجى فى كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، ونقله دوزى فى : Hist. Abbadidarum V. II. p. 16

ودخل القادر طليطلة فى حمى ألفونسو وجنده النصارى ، بعد أن تصدى له أهلها وحاولوا رده بالقوه ، فنكلت بهم الجند النصارى ، ومزقوهم شرممزق ، وجلس القادر مرة أخرى على عرشه المضطرب الواهى ، والفوضى تسود المدينة ، وأهلها فى كدر ووجوم ، يتوقعون من تلك الحال سوء المصير ، وكان ذلك فى آخر سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م)(١) .

— ٣ —

والواقع أن كل شىء كان ينذر بوقوع النكبة المرتقبة . ذلك أن ألفونسو السادس ملك قشتالة كان يدبر خطته الكبرى للاستيلاء على طليطلة ، وكانت وهى فى يد ملكها الضعيف المتخاذل ، تبدو له ثمرة دانية القطوف ، بعد أن غدا القادر فى يده شبه أسيره . وتقول لنا الروايات القشتالية إن القادر كان حينما طلب من ألفونسو معاونته على استرداد المدينة ، قد تعهد له بأن يحكمها باسمه ، وأن يسلمها إليه متى شاء ، على أن يعاونه على استرداد بلنسية لتكون مقر إمارته . بيد أن الحوادث التالية ، وموقف القادر فى الدفاع عن مدينته ، يجعلنا نشك فى أنه قطع مثل هذا العهد . وعلى أى حال فإن سقوط طليطلة فى يد القشتاليين ، لم يحدث دون ممهدات ووقائع عنيفة .

وكان ألفونسو إلى جانب خططه العسكرية ، قد مهد لمشروعه بأعمال السياسة . وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، لما رأى من استفحال قوة ألفونسو ، وتغلبه على سائر ممالك الطوائف المتاخمة لمملكته ، قد خشى أن ينساب تيار الغزو إلى أراضيه ، ورأى أن عقد المهادنة والصلح مع ملك قشتالة ، هو خير ضمان لاتقاء شره ، وسلامة مملكته . فبعث وزيره البارع ابن عمار إلى ليون ليفاوض ملك قشتالة ، وانتهى ابن عمار إلى أن عقد معه معاهدة ، يتعهد فيها ملك قشتالة بأن يعاون ابن عباد بالجند المرتزقة ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك ، بأن يؤدى إلى ملك قشتالة جزية كبيرة ، ويتعهد بالأخص بما هو أهم ، وهو أن يتركه حراً طليقاً فى أعماله ضد طليطلة ، وألا يعترض مشروعه فى الاستيلاء عليها . وربما كان فى الرسالة التى بعث بها المعتمد فيما بعد إلى

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٤ — ١٢٧ .

ألفونسو السادس ما يؤيد هذه الرواية، حيث يعرب المعتمد عن ندمه لمسالمة ملك قشتالة، وقعوده عن نصرة إخوانه . وتزيد الروايات القشتالية على ذلك أن المعتمد ابن عباد قدم فى هذه المناسبة أو فى مناسبة لاحقة ، إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة ، وهى التى تعرفها التواريخ القشتالية « بزائدة » وذلك لكى يكون مهرها ما استولى عليه من أراضى طليطلة ، حتى لاينزع النصارى منه هذه الأراضى ، وهى قصة سوف نتناولها فى موضعها ، عند الكلام على الفتح المرابطى لمملكة إشبيلية .

وفى هذا الوقت كان معظم ملوك الطوائف ، قد خضعوا أو عبيد ملك قشتالة، وتعهدوا بأن يؤدوا له الجزية ، إلا ملك بطليوس الشهم عمر المتوكل ، حسبما ذكرنا ذلك فى موضعه، فكان ألفونسو السادس بذلك على يقين من أن الجو قد أضحى ممهداً لتنفيذ مشروعه ، وأنه لن يجرأ أحد أن يقف فى طريقه . وكان مما يقوى أمله أن أهل طليطلة ، لم يكونوا على وفاق فيما بين أنفسهم ، وأن حزباً قوياً منهم يناصر سياسته وأطماعه ، ويشجعه على العمل ، وكانت الغزوات والحملات المتوالية ، التى شنها ألفونسو على أراضى طليطلة ، حتى ذلك الحين ، سواء لحسابه الخاص ، أو بحجة معاونة القادر ضد الثوار عليه، قد نالت من هاتيك السهول ، وخربت كثيراً من ربوعها النضرة ، وأشاعت فيها الضيق والحاجة ، وأخذت العاصمة طليطلة ، تتأثر بهذا الضغط على مواردها ، بيد أن ألفونسو كان يزمع أن يستمر فى حملاته المخربة حتى يتم تجريد المدينة العظمى من سائر مواردها . وقد بدأت هذه الحملات الجديدة منذ سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م)، أى منذ عاد القادر إلى عرشه ، واستمرت أربع سنوات كاملة ، وكانت تنظم بتواطىء الحزب الموالى من أهل طليطلة، وهو الحزب الذى تصفه الرواية القشتالية بالحزب « المدجّن » أى الموالى لملك النصارى، وفى كل عام يجتاح ألفونسو بقواته أراضى طليطلة من سائر جنباتها ، ويخرب الضياع ، ويقطع الأشجار ، ويبيد الزروع ، ويسبى الذرية ، ولا يجد أمامه من يرده عن ذلك العيث . وكان من الواضح أن هذه الأعمال المدمرة ، سوف تنتهى بالقضاء على كل موارد طليطلة ، وبتجريدها من وسائل الدفاع ، وهو ما كان يرمى إليه ملك النصارى .

وكان موقف ملوك الطوائف فى تلك الآونة العصيبة من حياة اسبانيا المسلمة،

موقفاً يثير الألم والحسرة معاً .فقد كان أعظمهم وأقواهم المعتمد بن عباد ، بعد أن تفاهم مع ألفونسو السادس ، على تركه وشأنه فى مشاريعه نحو طليطلة ، مشغولا بمحاربة عبد الله بن بلقين بن باديس صاحب غرناطة .وكان المقتدر بن هود أقوى الأمراء المتاخمين لمملكة طليطلة من ناحية الشمال والشرق ، مشغولا بنضاله المستمر ضد هجمات ملك أراجون وأمراء برشلونة . وكانت دول الطوائف الشرقية والجنوبية ، بعيدة عن ميدان الخطر ، لاتستطيع حتى إذا شاءت ، لبعد الشقة ، أن تقوم بإنجاد طليطلة بصورة ناجعة . وهكذا عدمت طليطلة كل مصدر للعون الحقيقى .كل ذلك والموقف يتحرج ، وألفونسو السادس ماض فى غزواته المدمرة ، حتى أضحت سهول طليطلة كلها خراباً يباباً . ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين أن الموقف عصيب ، وأن سقوط طليطلة إحدى قواعد الأندلس العظمى فى يد قشتالة ، إنما هو نذير السقوط النهائى ، وأن انهيار الحجر الأول فى صرح الدولة الإسلامية ، إنما هو بداية انهيار الصرح كله ، فبادر جماعة منهم إلى الحث على الاتحاد واجتماع الكلمة إزاء الخطر المشترك ، ونهض القاضى العلامة أبو الوليد الباجى ، بإشارة المتوكل بن الأفطس ، حسبما تقدم ، فطاف بالولايات والقواعد الأندلسية صائحاً منذراً ، محذراً من عواقب التفرق ، وهو يهيب بملوك الطوائف وشعوبها ، أن يبادروا إلى نجدة طليطلة ، مؤكداً أن ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها ، واحدة بعد الأخرى . ولكن جهود أولئك الرسل العقلاء الذين كانوا يستشفون ببصرهم الثاقب ، ما يضمره المستقبل من ويل ، ذهبت كلها سدى ، وغلبت الأطماع والأهواء الشخصية ، على كل تفكير سليم ومبدأ حكيم ، ولبث ملك إشبيلية وهو أولى وأقرب من تقع عليه تبعة الإنجاد ، يشهد تفاقم الخطب جامداً معرضاً ، وكل همه أن يحتفظ بما انتزعه من أراضى مملكة طليطلة الجنوبية ، ولم يتقدم لإنجاد القادر وإنجاد أهل طليطلة ، سوى أمير بطليوس الشهم عمر المتوكل بن الأفطس ، فقد نزل إلى ميدان النضال ضد ألفونسو السادس ، وحاول مدافعته ، فبعث ولده الفضل والى ماردة فى جيش قوى ، ليحاول رد ألفونسو عن طليطلة . ولكنه لم يستطع مغالبة قوى النصارى المتفوقة عليه فى العدد والعدة ، فارتد آسفاً بعد أن خاض معارك دامية . وكان المتوكل قد بذل مثل هذه المحاولة قبل ذلك ببضعة أعوام فى سنة ٤٧١ هـ ، وتغلب عليه

أيضاً ألفونسو السادس ، وانتزع منه مدينة قورية من أملاكه الشمالية المجاورة لأراضى طليطلة .

وهكذا تركت المدينة المنكوبة لمصيرها . وفى خريف سنة ٤٧٧هـ (١٠٨٤م) اقترب ألفونسو السادس بقواته من المدينة ، ونزل بالمنية المسورة الواقعة فى منحنى نهر التاجُه ، وهى المنية الشهيرة التى كان المأمون بن ذى النون قد زودها بالقصور الفخمة والبساتين اليانعة ، وجعل منها جنة يخلد إليها أيام أنسه ولهوه ، وهى التى تعرفها الرواية القشتالية ببستان الملك Huerta del Rey . ويقول ابن بسام فى وصفها « المنية المسورة ، التى كان المأمون يحشد إليها كل حسن ، ويباهى بها جنة عدن »(١) . وضرب ألفونسو الحصار حول طليطلة. ثم دخل الشتاء، وشحت الأقوات ، واشتد الأمر بأهل المدينة . وكان موقف القادر بن ذى النون مريباً ، ولم يكن دون شك متفقاً فى الشعور مع الحزب المناوىء لملك قشتالة المتشدد فى مقاومته ، وكان جماعة من هؤلاء يعملون بكل ما وسعوا لإطالة أمد المقاومة ، عسى أن يمل ملك قشتالة ويخبو عزمه ، أو أن يتقدم لإنجادهم أحد . وكان الأمر يشتد بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم ، حتى تحرج الموقف، واضطر الزعماء والقادة بالاتفاق مع القادر أن يرسلوا إلى ملك قشتالة وفداً للتحدث فى أمر الصلح ، فأبى أن يستقبلهم ، واستقبلهم وزيره سسندو (ششنند) . وكان هذا الوزير فى الأصل من النصارى المستعربين ، أسر حدثاً وربى فى بلاط إشبيلية ، وظهر أيام المعتضد بن عباد ، وسفر بينه وبين فرناندو ملك قشتالة ، ثم نزح إلى جلِّيقية ، وخدم فرناندو ، ثم من بعده ولده ألفونسو ، وكان داهية ذا براعة فائقة ، فانتهى بأن وطد صولة ألفونسو لدى معظم ملوك الطوائف ، والتزموا بأداء الجزية . فلما قصد إليه وفد طليطلة استمع إليهم ، وأبدى أنه لا فائدة من المفاوضة ، وأنه لا أمل بأن يتزحزح الملك النصرانى عن موقفه قيد شعرة ، وأنه لابد من تسليم المدينة . ويقول لنا ابن بسام فى هذه المناسبة إن سسندو أدخل زعماء طليطلة لدى مليكه ، وأن ألفونسو حين أفضوا إليه أنهم ينتظرون العون والإنجاد من بعض ملوك الطوائف ، أنبهم وسخر منهم ، واستدعى من خيامه

---

(١) ابن بسام فى الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٨ . ويقوم اليوم مكانها حصن سان سرفاندو San Servando

سفراء ملوك الطوائف ، وقد كانوا جميعا يومئذ لديه يسعون إلى خطب وده ، ويقدمون إليه الأموال ، وأن زعماء طليطلة خرجوا من لدنه ، يتعثرون فى أذيالهم ، وقد فقدوا كل أمل وأيقنوا بسوء المصير[1] .

وكان قد مضى على حصار القشتاليين للمدينة يومئذ زهاء تسعة أشهر ، وقد تفاقم الخطب ، وبلغت الشدة بالمحصورين أقصاها ، وتحطمت كل محاولة لعقد الصلح مع ملك قشتالة ، سواء من جانب القادر للاعتراف بطاعته والحكم باسمه ، أو من جانب زعماء المدينة ، ولم تجد صلابة أولئك الذين تمسكوا بالمقاومة والدفاع حتى الموت شيئاً ، وغلب صوت العامة الذين أضناهم الجوع والحرمان . ولم تمض ثلاثة أيام على تلك المقابلة ، حتى عرضت المدينة التسليم لملك قشتالة. ويلخص الأب ماريانا ، وهو من أقدم المؤرخين الذين كتبوا عن سقوط طليطلة شروط التسليم فيما يلى : « أن يسلم القصر وأبواب المدينة والقناطر وحديقة الملك (وقد كانت حديقة نضرة غناء على ضفة التاجه) إلى الملك ألونسو (ألفونسو) ، وأن يذهب الملك المسلم حراً إلى مدينة بلنسية وفقاً لرغبته ، وأن يسمح بالحرية لمن شاء أن يتبعه من المسلمين ، وأن يأخذوا معهم أموالهم . وأما الذين يقيمون فى المدينة ، فلا تؤخذ منهم أمتعتهم ولا أملاكهم ، وأن يبقى المسجد الجامع بأيدى المسلمين يقيمون فيه شعائرهم ، وألا تفرض عليهم ضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم ، وأن تجرى عليهم أحكام شريعتهم ، وعلى يد قضاتهم المسلمين دون غيرهم ، وأن يقسم الطرفان كل وفق تقاليده على احترام هذه العهود ، وأخيراً أن يقدم أهل المدينة لفيفاً من أعيانهم كرهائن » . على أن هذا النص الذى يقدمه ماريانا ينقصه شىء من الدقة فى بعض تفاصيله . والمتفق عليه ، أن شروط تسليم طليطلة قد صيغت على النحو الآتى : أن يؤمن أهل المدينة فى النفس والمال ، وأن يغادرها من شاء منهم حاملين أموالهم ، وأن يسمح لمن عاد منهم باسترداد أملاكهم ، وأن يؤدى المقيمون بها إلى ملك قشتالة ما كانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب والمكوس ، وأن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع ، وأن يتمتعوا أحرارا بإقامة شعائرهم وأن يحتفظوا بقضاتهم وشريعتهم ، وأن يسلموا إلى ملك قشتالة سائر القلاع

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠ .

والحصون والقصر الملكي ، والمنية المسورة التي كان ينزل بها ملكهم . وأما بالنسبة للقادر فقد تكفل ملك قشتالة بأن يمكنه من الاستيلاء على بلنسية ، وقيل بل عرض عليه أيضاً أن يحصل له على دانية وشنتمرية الشرق ، إذ كان يعرف جيداً أنها إذا خلصت للقادر ، فستكون في الواقع ملكاً له ورهن تصرفه ، وأن القواعد الشرقية كلها سوف تخضع له عن طريق ملكها الإسمي الضعيف ، أعني القادر(١)

تلك هي الشروط التي اتفق عليها لتسليم طليطلة . وتظاهر ملك قشتالة بقبولها ، وتعهد باحترامها وعدم النكث بها . وكان ذلك في اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٠٨٥ م . ومضى على ذلك زهاء أسبوعين آخرين ، كان يستعد خلالها القادر لتهيئة أسباب الرحيل ، وإخلاء المدينة . وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من مايو (فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ) دخل ألفونسو السادس مدينة طليطلة ظافراً ، ونزل في الحال بقصرها المشهور ، وهو الذي كان ينزل به أيام محنته في ضيافة المأمون ، وعهد بحكم المدينة إلى سسنندو ، فسلك مع أهلها مسلك المودة واللين ، وبذل جهده ليخفف عنهم وقع هذا التبديل في مصايرهم ، فاستمال قلوب الكثيرين منهم ، وأقبل بعض العامة على التنصر ، ونصح سسنندو إلى مليكه أن يلتزم الاعتدال والروية في معاملة المدينة المفتوحة ، وأن يقف مؤقتا عند هذا الحد ، وألا يلح على ملوك الطوائف خوفاً من أن تنقلب الآية ، فيتجهوا بأبصارهم إلى وجهة أخرى(٢) .

واستتبع استيلاء ألفونسو على طليطلة استيلاؤه على سائر أراضي مملكة طليطلة ، الباقية بعد الذي استولى عليه منها ابن عباد صاحب إشبيلية ، أعني قسمها الواقع شمال نهر التاجه من طلبيرة غرباً حتى وادي الحجارة وشنتبرية شرقاً ، وهي تتضمن ثمانين موضعاً بها مساجد ، هذا عدا القرى والضياع(٣) .

أما الملك المنكود يحيى القادر بن ذي النون ، فقد غادر طليطلة بأهله وأمواله ، ومعه جماعة كبيرة من الكبراء والأشراف الذين آثروا مغادرة المدينة المفتوحة

---

(١) Mariana : Historia general de Espana (Cap .16) . وكذلك :
R. Menendez Pidal : La Espana del Cid (Madrid 1947) p. 306

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١ .

(٣) كتاب الإكتفاء للخزرجي ، ونقله دوزي في : Hist. Abbadidarum V. II. p. 29

قاصداً إلى بلنسية ، واستقر أياماً بمحلة ملك قشتالة واضعاً نفسه تحت حمايته ، وكان ملك قشتالة قد وعده بأنه إذا تعذر تحقيق غايته فى الحصول على بلنسية بطريقة سلمية ، فإنه سوف يبعث لمعاونته قائده الشهير ألبرهانيس . وقد ظهر للقادر بالفعل ، خلال مسيره من موقف الحصون المختلفة ، أنها جميعاً تقف ضده ولم يبق على ولائه منها سوى حصن قونقة ، فنزل به القادر وصحبه ، حتى تتهيأ له ظروف العمل . وسوف نعود إلى تتبع أخباره فيما بعد .

ويصف لنا ابن بسام خروج القادر من طليطلة فى تلك العبارات اللاذعة : « وخرج ابن ذى النون خائباً مما تمناه ، شرقاً بعقبى ما جناه ، والأرض تضج من مقامه وتستأذن فى انتقامه ، والسماء تود لو لم تُطلع نجماً إلا كدرته عليه حتفاً مبيداً ، ولم تنشىء عارضاً ، إلا مطرته فيه عذاباً شديداً ، واستقر بمحلة أذفنش ، مخفور الذمة ، مذال الحرمة ، ليس دونه باب ، ولا دونه حرمه ستر ولا حجاب »(١) .

ويبدى ابن الخطيب شماتته فى القادر وفى أهل طليطلة حين يقول : « واقتضاه الطاغية الوعد ، وسلبه الله النصر والسعد . وهلكت الذمم ، واستؤصلت الرمم ، ونفذ عقاب الله فى أهلها جاحدى الحقوق ، ومتعودى العقوق ، ومقيمى أسواق الشقاق والنفاق ، والمثل السائر فى الآفاق »(٢) .

* * *

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى ، وخرجت من قبضة الإسلام إلى الأبد ، وارتدت إلى النصرانية حظيرتها القديمة ، بعد أن حكمها الإسلام ثلاثمائة وسبعين عاماً . ومن ذلك الحين تغدو طليطلة حاضرة لمملكة قشتالة ، ويغدو « قصرها » منزلا للبلاط القشتالى ، بعد أن كان منزلا للولاة المسلمين . وقد كانت بمنعتها المأثورة ، وموقعها الدفاعى الفذ ، فى منحنى نهر التاجه ، حصن الأندلس الشمالى ، وسدها المنيع الذى يرد عنها عادية النصرانية ، فجاء سقوطها ضربة شديدة لمنعة الأندلس وسلامتها . وانقلب ميزان القوى القديم ، فبدأت قوى الإسلام تفقد تفوقها فى شبه الجزيرة ، بعد أن استطاعت أن تحافظ

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣٠ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٨١ .

عليه زهاء أربعة قرون ، وأضحى تفوق القوى النصرانية أمراً لاشك فيه . ومن ذلك الحين تدخل سياسة الإسترداد الإسبانية « لاريكونكستا La Reconquista » فى طور جديد قوى ، وتتقاطر الجيوش القشتالية لأول مرة ، منذ الفتح الإسلامى، عبر نهر التاجه ، إلى أراضى الأندلس ، تحمل إليها أعلام الدمار والموت، وتقتطع أشلاءها تباعاً ، فى سلسلة لاتنقطع من الغزوات والحروب .

وكان لظفر ألفونسو السادس بالاستيلاء على طليطلة ، فضلا عن آثاره المادية الخطيرة ، وقع أدبى عميق فى سائر ممالك اسبانيا النصرانية ، فقد كانت طليطلة عاصمة المملكة القوطية القديمة ، وكانت إلى جانب ذلك حاضرة اسبانيا الدينية ، وقد وطد استيلاء ملك قشتالة عليها ، مركز الصدارة الذى يتمتع به بين زملائه ملوك اسبانيا النصرانية ، ووطد هيبته الملوكية والإمبراطورية ، فأضحوا جميعاً يقرون له بلقب الإمبراطور ، الذى اتخذه لنفسه . ومن جهة أخرى ، فقد كان لتلك النكبة التى حلت بالإسلام فى اسبانيا ، أعظم وقع فى جنبات الأندلس ، وفى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وقد ارتاع لها ملوك الطوائف جميعاً ، وأدركوا بعد فوات الوقت ، أنها نذير بالقضاء عليهم واحداً بعد الآخر ، وأدرك المعتمد بن عباد بالأخص ، وهو أشد ملوك الطوائف مسئولية عما حدث ، أنه لن يمضى وقت طويل حتى يواجه نفس الخطر الداهم . بيد أن النكبة كانت فى نفس الوقت نقطة تحول عظيم فى تفكير أولئك الأمراء المتخاصمين المتنابذين ، ملوك الطوائف ، وفى روحهم ، فجنحوا جميعاً ولأول مرة إلى اجتماع الكلمة ، ونبذ الشقاق ، واتجهوا بأنظارهم جميعاً ، إلى ماوراء البحر يلتمسون غوث إخوانهم فى الدين ، إلى أولئك البربر المرابطين ، الذين كان لتدخلهم فى سير الحوادث بالأندلس، أعظم الآثار(١) .

واذكى رزء الأندلس بفقد طليطلة ، فجيعة الشعر الأندلسى ، ونظمت فى بكائها القصائد الرائعة . وكان من أشهرها هذه القصيدة الرائية الكبرى ، التى مطلعها :

(١) راجع فى حوادث سقوط طليطلة : الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٧ – ١٣٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٨١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٢ و٥٢٣ ، وراجع أيضا R.Menendez Pidal : La Espana del Cid p. 303-307 ، ودوزى Hist. des Musulmans de l'Espagne, V. III. p. 120 et suiv. وكذلك P. y Vives : Los Reyes des Taifas p. 54&56

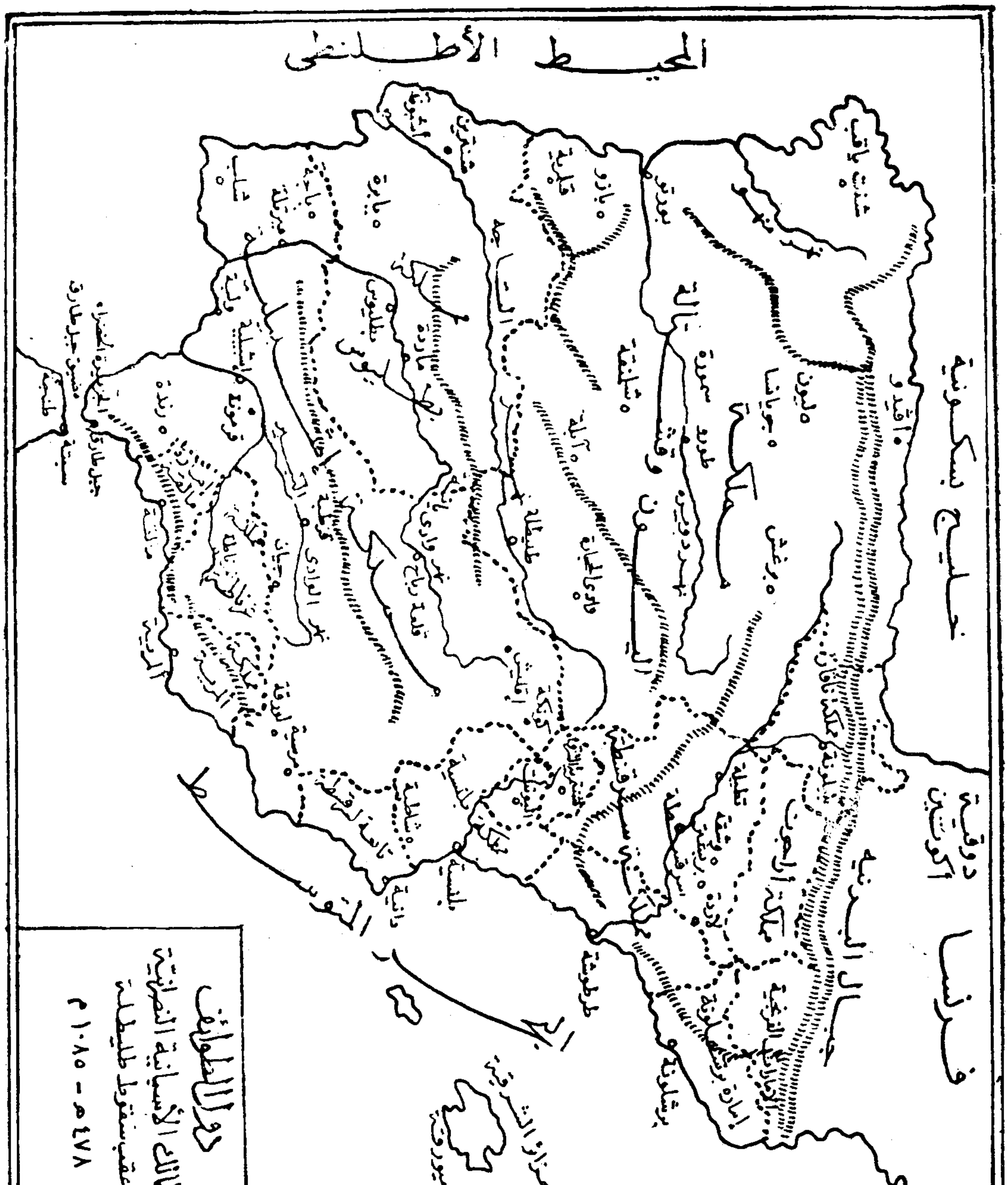
المحيط الأطلنطي
خليج بسكونية
فرنسا
دوقية أكوتين
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
بلنسية
سرقسطة
برشلونة
طرطوشة
دانية
ميورقة
الجزائر الشرقية
البحر المتوسط
دول الطوائف
والممالك الأسبانية النصرانية
عقب سقوط طليطلة
٤٧٨هـ - ١٠٨٥م

لثكلك كيف تبتسم الثغور ... سرورا بعد ما يئست ثغور
أما وأبي مصاب هد منه ... ثبير الدين فاتصل الثبور

ومنها :

طليطلة أباح الكفر منها ... حماها إن ذا نبأ كبير
فليس مثالها إيوان كسرى ... ولا منها الخورنق والسدير
محصنة محسنة بعيد ... تناولها ومطلبها عسير
ألم تك للدين صعباً ... فذلله كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعاً ... فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار إيمان وعلم ... معالمها التي طمست تنير
مساجدها كنائس أي قلب ... على هذا يقر ولا يطير
فيا أسفاه يا أسفاه حزنا ... يكرر ماتكررت الدهور

ومنها :

كفى حزناً بأن الناس قالوا ... إلى أين التحول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنها ... وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنا ... نباكرها فيعجبنا البكور
لقد ذهب اليقين فلا يقين ... وغر القوم بالله الغرور
فلا دين ولا دنيا ولكن ... غرور بالمعيشة ما غرور
رضوا بالرق يالله ماذا ... رآه وما أشار به مشير
مضى الإسلام فابك دماً عليه ... فما ينفى الجوى الدمع الغزير
ونح واندب رفاقاً فى فلاة ... حيارى لاتحط ولا تسير
ولا تجنح إلى سلم وحارب ... عسى أن يجبر العظم الكسير(١)

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٣ وما بعدها حيث يورد القصيدة بأكملها، وهى فى أكثر من سبعين بيتاً

الكتاب الثاني

الدّول البربريّة

في جنوبي الأندلس

الفصل الأول

دولة بنى منـــاد البربرية

فى غرناطـــة ومالقـــة

البربر ونصيبهم من أنقاض الخلافة . بنو مناد . الخلاف بين باديس المنصور وقومه . هجرة زادى بن زيرى إلى الأندلس . انضواؤهم تحت لواء المنصور . اشتراك البربر فى معركة الخلافة . محاصرتهم لقرطبة وظفر مرشحهم سليمان بالخلافة . تفريق سليمان لهم . نزول زاوى وقومه بالبيرة . إنشاء مدينة غرناطة ونزولهم بها. الحرب بين المرتضى وصنهاجة.هزيمة أهل الأندلس ومصرع المرتضى . توجس زيرى من البقاء فى الأندلس . رحيله إلى إفريقية . استيلاء حبوس بن ماكسن على غرناطة . حكمه وصفاته . ولده باديس يخلفه . ائتمار ابن عمه يدير به . فشل المؤامرة . الخلاف بين باديس وزهير العامرى . مسير زهير إلى غرناطة . الحرب بينه وبين باديس . هزيمته ومصرعه . مصرع وزيره ابن عباس . استيلاء باديس على جيان . الحرب بين باديس وابن عباد . تدخل باديس فى شئون مالقة ثم استيلاؤه عليها . مهاجمة ابن عباد لمالقة وفشله . استيلاؤه على أركش . الوزير اسماعيل بن نغرالة اليهودى . صفاته وكفاياته . ولده يوسف . بغض بلقين ولد باديس له وسعيه إلى إسقاطه . يوسف يدبر مصرعه بالسم . الخصومة بين يوسف والناية . تغير باديس على يوسف . اتجاه يوسف إلى ابن صمادح . سخط صنهاجة على يوسف وسعيهم إلى إسقاطه . سخط أهل غرناطة على اليهود . قصيدة الإلبيرى فى التحريض على اليهود . افتضاح مؤامرة يوسف ومصرعه . مذبحة اليهود فى غرناطة . استرداد باديس لوادى آش . حوادث جيان . تولى الناية الوزارة . إئتمار الوزراء به ومصرعه . وفاة باديس . أعماله ومنشآته . عمله لتوطيد زعامة البربر . النزعة العنصرية بين البربر وأهل الأندلس . صفات باديس وخلاله . ولاية حفيده عبد الله بن بلقين . استيلاء ابن عباد على جيان. إغارته على غرناطة ورده . تحالف عبد الله مع ألفونسو السادس . اتفاق ابن عباد وألفونسو على فتح غرناطة . فشل المحاولة . تعهد عبد الله بتأدية الجزية لألفونسو . عبد الله والشئون الداخلية . الخلاف بين عبد الله وأخيه تميم صاحب مالقة . الصلح بين عبد الله وابن عباد . سقوط طليطلة وتأثيره . اتفاق عبد الله مع ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين . حملة ابن الخطيب على عبد الله .

كان انهيار الخلافة الأموية ، والسلطة المركزية ، وما اقترن بذلك من الفوضى الغامرة ، فرصة سانحة لظهور الزعامات البربرية ، فى ميدان النفوذ والسلطان . وقد ظهر البربر فى الواقع ، منذ أيام المنصور بن أبى عامر ، واحتلوا مراكز الصدارة فى الجيوش الأندلسية ، واتخذهم المنصور له عضداً وسنداً ، وآزر المنصور القبائل الموالية فى المغرب لبنى أمية ، ضد أولياء الدعوة الفاطمية ،

وشد أزرهم بالمال والجند ، واستطاع أن يجعل من المغرب ولاية أندلسية . فلما انهار صرح الخلافة الأموية ، بعد انهيار صرح الدولة العامرية ، وتواثب الزعماء والخوارج الطامحون ، إلى انتزاع أشلائها ، واقتسام سلطانها ، استطاع الزعماء البربر أن يظفروا من ذلك بنصيب وافر . فقامت منهم دولة بنى حمّود فى جنوبى الأندلس ، وأنشأت خلافة جديدة ، أحياناً فى قرطبة ، وأحياناً فى إشبيلية ومالقة ، وقامت خلالها ومن بعدها ، عدة دول بربرية محلية ، فى غَرناطة ، وفى رندة ، وفى مورور وشذونة ، وفى قرمونة ، وقامت دولة بنى ذى النون فى طليطلة ، وحيناً فى شرق الأندلس ، وقامت كذلك دولة بربرية صغيرة فى أرض السهلة فى شنتمرية الشرق ، وإذا نحن اعتبرنا دولة بنى الأفطس فى بَطَلْيوس من الدول البربرية ، وإنها لكذلك على أرجح الآراء ، استطعنا أن نقدر المدى العظيم ، الذى وصل إليه سلطان القبائل البربرية بالأندلس فى عصر الطوائف .

وقد أتينا فيما تقدم على أخبار دولة بنى حمود ، وأخبار الدويلات البربرية ، التى قامت فى المنطقة الوسطى والجنوبية ، على أنقاض دولة بنى حمود ، وبينا كيف استطاع المعتضد بن عباد ، أن يقضى على هذه الدويلات واحدة بعد الأخرى ، وأن يضمها جميعاً إلى مملكة إشبيلية الكبرى . وبقى علينا أن نتناول فى هذا الفصل ، أخبار دولة بنى مناد فى غرناطة ، وقد كانت بعد دولة بنى حمود ، أقوى الدول البربرية فى الجنوب .

— ١ —

إن بنى مناد يرجعون فى الأصل إلى قبيلة صَنْهاجة البربرية الشهيرة ، وهى بطن من بطون قبيلة البرانس الكبرى ، وكان منزلهم بأواسط المغرب . فلما غلب العبيديون (الفاطميون) على إفريقية ، وقامت دولتهم بها ، انحاز بنى مناد إليهم ، وحاربوا إلى جانبهم الخوارج عليهم . وكان زعيمهم زيرى بن مناد من أعظم أمراء البربر ، وقد حارب قبائل المغرب المخالفة للعبيديين مع جوهر قائدهم ، وقتل فى بعض المعارك ، فخلفه ولده بُلُكّين . ولما سار المعز لدين الله فى سنة ٣٦٢ هـ إلى مصر ، بعد افتتاحها على يد جوهر ، اختار بلكين لولاية إفريقية ، ثم خلفه على ولايتها ولده المنصور ، ثم خلف المنصور ولده باديس . وفى خلال ذلك ، كانت المعارك تضطرم فى ربوع المغرب باستمرار ، بين أمراء صنهاجة هؤلاء ،

وبين خصومهم من أمراء زناتة وغيرها ، من القبائل الموالية لبنى أمية خلفاء قرطبة . وقد تتبعنا فيما تقدم أدوار تلك المعركة ، التى نشبت فى المغرب ، بين الدعوة الفاطمية ، وبين الخلافة الأندلسية ، منذ أيام الناصر لدين الله ، واستعر لظاها بالأخص أيام الحكم المستنصر ، ثم المنصور بن أبى عامر ، وكانت صنهاجة تحمل دائما ، وعلى يد بنى مناد ولاة إفريقية، علم الدعوة الفاطمية ،وتحمل زناتة وحلفاؤها علم الخلافة الأندلسية .وقد انتهت هذه المعركة أيام المنصور ، حسبما رأينا ، إلى هزيمة صنهاجة ، وتوطيد سلطان الدعوة المروانية بالمغرب .

وقد حدث أيام ولاية باديس بن المنصور على إفريقية ، حادث كان له فيما بعد أكبر صدى ، فى حوادث الأندلس . ذلك أن باديس استبد بقومه آل مناد ، ووقعت بينه وبين أعمامه وأعمام أبيه ، فتن ومعارك ، قتل فى أثنائها ، عم أبيه ماكسن بن زيرى بن مناد ، فاستوحش الباقون من عاديته ، وعولوا على مغادرة إفريقية ، وكتب شيخهم زاوى بن زيرى إلى المنصور بن أبى عامر ، يستأذنه الجواز بقومه إلى الأندلس ، للجهاد فى سبيل الله ، فأذن لهم ، وعبر زاوى ابن زيرى ومعه أبناء أخيه ماكسن المقتول ،حُباسة وحَبُّوس وماكْسَن فى أهلهم وأموالهم إلى الأندلس سنة ٣٩١ هـ ، فأكرمهم المنصور وأنزلهم منزلا حسناً (١)، واتخذهم له بطانة وعوناً ، ونظمهم مع زناتة ، وسائر بطون البربر الأخرى ، وقويت شوكتهم فى أواخر أيام المنصور ، ثم فى أيام ولديه عبد الملك ، وعبد الرحمن ، ورجحت كفتهم فى الجيش ، وغدوا للدولة عضداً . وقد كان إذن المنصور لزيرى وقومه ، وهم من صنهاجة ألد خصوم الدعوة المروانية والدولة العامرية ، بالجواز إلى الأندلس ، عملا من أعمال السياسة المستنيرة ، وكان غنما مادياً وأدبياً للدولة العامرية .

---

(١) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧ ، وابن خلدون فى كتاب العبر ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ . ولكن هناك رواية أخرى تقول إن زاوى وقومه وفدوا على عبد الملك المظفر بن المنصور ، وأنه هو الذى أذن لهم بالجواز . وهذه هى رواية ابن حيان التى أوردها صاحب الذخيرة (المجلد الأول القسم الرابع ص ٦١) ، ويتابعه فيها صاحب البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٣) وكذلك ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة) ج ١ ص ٤٤٠ و ٥٢١ . وقد أخذنا نحن بالرواية الأولى ، أولا لأنها رواية عبد الله بن بلكين ، وهو حفيد ماكسن أخى زاوى ، وأدرى بتاريخ أسرته ، وثانياً لأن ابن خلدون ، وهو حجتنا الأولى فى تاريخ البربر ، يأخذ بها ، ويحدد لنا سنة الجواز فى سنة ٣٩١ هـ ، أعنى قبل وفاة المنصور بنحو عامين .

بيد أن الدولة العامرية لم تعمر طويلا ، فكان السقوط ، وكان انهيار السلطة المركزية ، وبداية عهد الفتنة والفوضى ، وقام محمد بن هشام الملقب بالمهدى ، باغتصاب الخلافة من هشام المؤيد سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) . ومن ذلك الحين يأخذ البربر بقسط بارز فى تلك المعركة المضطرمة المشعبة ، التى تدور حول عرش الخلافة . وكان أول باعث لإقحام البربر فى تلك المعارك ، ما خصهم به المهدى من الاضطهاد وسوء المعاملة ، ثم تحريض عامة قرطبة على مطاردتهم ، والتف البربر عندئذ حول سليمان بن الحكم خصم المهدى ومنافسه ، وتوالت الخطوب والمعارك ، وفتك أهل قرطبة خلال ذلك بحباسة بن ماكسن ابن أخى زيرى ، فازدادوا نقمة واضطراماً ، وحاصر البربر قرطبة ، وفتكوا بأهلها ، ثم دخلوها فى مناظر مروعة من العيث والسفك ، وانتهى الأمر بجلوس مرشحهم سليمان على عرش الخلافة ، وتلقب بالمستعين ، وذلك فى شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣م) ، وقبض البربر ، وهم الذين عاونوه ونصروه ، على سائر السلطات فى القصر وفى الحكومة .

وعندئذ رأى سليمان المستعين ، أن يعمل على تفريق البربر فى الكور والثغور ، إرضاء لهم من جهة ، وتفريقاً لشملهم وإبعاداً لهم عن قرطبة ، من جهة أخرى ، فأقطع قبيلة صنهاجة وزعماءها بنى زيرى بن مناد ولاية إلبيرة (غرناطة) ، وأقطع بنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ، وبنى دمر وإزداجة منطقة مورور وشذونة ، وأقطع آل حمود الأدارسة ثغور المغرب ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى مواضعه ، فى أخبار سقوط الخلافة الأندلسية(١) .

ويقول لنا الأمير عبد الله بن بلكين فى مذكراته ، إن صنهاجة حينما رأت تفكك الدولة ، واستقلال كل أمير ببلده ، اعتزموا الرحيل عن الأندلس ، ولكن أهل إلبيرة ، وقد كانت ولايتهم تتمتع بسعة الرقعة والخصب والنماء ، ولم يكن لهم من يدافع عنهم ، لجأوا إلى زاوى بن زيرى ، ودعوه وقومه إلى الإقامة بأرضهم ومشاركتهم فى خيراتهم ونعائمهم ، والدفاع عنهم ، وقبل زيرى وقومه دعوتهم ، واستبشروا بالنزول فى تلك الأرض ، وطابت لهم ربوعها ، وأجمعوا على الدفاع عنها .

(١) راجع الفصل الأول من الكتاب الرابع من «دولة الإسلام فى الأندلس» .

وأنهم بعد أن نزلوا بأرض إلبيرة ، رأوا أنها بموقعها لاتصلح للدفاع ، واتفق رأيهم على أن يبتنوا فى البسيط الواقع على مقربة منها ، فى وادى شَنّيل المنحدر من جبل شُلَّير[١]، وهو البسيط الذى يحجبه الجبل ، مدينة جديدة ينزلون بها ، وتكون معقلهم، فشرعوا فى بنيانها . وهكذا قامت مدينة غَرناطة ، وكان قيامها نذيراً بخراب إلبيرة ، فعفت منازلها بسرعة ، وأسبل عليها النسيان ذيله ، وأخذت غرناطة تنمو بسرعة وتحتل مكانها[٢] .

استقر بنو مناد إذاً فى كورة غرناطة ، لكنهم لم يكونوا بمعزل عن حوادث قرطبة . ذلك أن علياً بن حمود الإدريسى ، لما استولى على عرش الخلافة فى المحرم سنة ٤٠٧ هـ (يوليه ١٠١٦ م) ، وقتل سليمان آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس ، نهض خيران العامرى ، فأعلن الخلاف ، وأعاد الدعوة لبنى أمية فى شخص عبد الرحمن بن محمد من أحفاد الناصر ، ولقبه بالمرتضى ، وانضم إليه فى تلك الحركة منذر بن يحيى التجيبى أمير الثغر ، وعدة من ولاة شرقى الأندلس، وسار فى جموع كبيرة لمقاتلة الحمّوديين ، ولكنه عرج فى جموعه أولا على غرناطة لمقاتلة جيش صَنهاجة القوى ، فلقيه أميرها زاوى بن زيرى فى قواته ، ونشبت بينهما معركة شديدة استمرت أياما ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس وتمزيق جموعهم ، ومقتل خليفتهم المرتضى ، وكان ذلك فى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩ م) .

على أن هذه المعركة كان لها أثر عميق فى نفس زاوى ، فبدلا من أن يرى فى كسبها دليل التفوق والاستقرار ، شعر بالعكس مما آنسه من مرارة القتال وروعته أن هذا النصر إن كان بداية طيبة ، فقد تعقبه نكسات ومحن لايستطيعون الصمود لها ، وأن أهل الأندلس لن يتركوا مقارعة البربر ، حتى يفوزوا بالقضاء عليهم. وقال زيرى لقومه ، حسبما يروى لنا الأمير عبد الله : « وقد علمت وأيقنت أن هذا يكون دأبهم أبداً (أى أهل الأندلس) ، وإن كنا قد منحنا الظفر فى أول صفقة ، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا فى كل حين ، وهم إن قتل منهم واحد خلفه ألف ، مع ميل جنسيتهم من الرعايا إليهم » . وهو مايورده ابن حيان على لسان زيرى على النحو الآتى : « إن انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا ، إنما جره مع القضاء ، غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا . فإنى عرفت ذلك من يوم

---

(١) هو بالإسبانية Sierra Nevada أو جبل الثلج .

(٢) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٨ — ٢٢ .

نزولهم ، ولذلك ماكنت أقوى نفوسكم ، وقد نجانا منهم برحمته ، ومضى القوم ولم يعدموا إلا رئيسهم ، واستخلافه هين عليهم ، ولست آمن عودهم حملة إليكم فيما بعد ، فلا يكون لنا قوام بهم » . هذا ومن جهة أخرى فقد كان زاوى يخشى من غدر بربر زناتة أعدائهم الحقيقيين ، ويخشى بالأخص أن يتحالفوا ضدهم مع أهل الأندلس ، فتكون الطامة الكبرى عليهم . وأخيراً فقد كان زاوى يرى بعد وفاة باديس بن المنصور أمير إفريقية ، الذى اضطهده وقومه ، وولاية ولده الطفل المعز حفيد أخيه بلكين ، أن الجو قد تهيأ لعودته ، واحتلال مكانته فى وطنه . ومن ثم فقد اعتزم زاوى أن يغادر الأندلس إلى إفريقية ، وقال لقومه : « فالرأى الخروج عن أرضهم ، واغتنام السلامة مع إحراز الغنيمة ، والرجوع إلى الحملة التى انفصلنا عنها »(١) .

وهكذا قرر زاوى بن زيرى العودة إلى إفريقية بالرغم من معارضة ولده ووجوه قومه . وخرج عن غرناطة فى أهله وأمواله ، مستخلفاً عليها بعض شيوخ قومه ، وركب البحر من المنكب ، ومعه الكثير من الأموال والذخائر . وكان خروجه من الأندلس فى سنة ٤١٠ هـ (١٠٢٠ م) . واستقبله حافد أخيه المعز ابن باديس صاحب إفريقية وبنو عمه أجمل استقبال ، وأنزل فى القيروان أجمل منزل ، وكان بعد مهلك الشيخة من بنى عمه وذوى قرابته زعيم القوم ، وكان النساء من محارمهم نحو ألف امرأة لا يحتجبن عنه . بيد أنه لم يلق بالقيروان فى ظل المعز ، ماكان يؤمل من رياسة وسلطان(٢) .

قال ابن الخطيب : « وكان زاوى كبش الحروب ، وكاشف الكروب ، خدم قومه ، شهير الذكر أصيل المجد ، المثل المضروب فى الدهاء ، والرأى ، والشجاعة والأنفة والحزم »(٣) .

وعلى أثر ارتحال زاوى سعى الفقيه ابن ابى زمنين قاضى غرناطة ، فى أن يعين لولايتها حبوس بن ماكسن ابن أخى زيرى ، فلحق به فى حصن أشتر على مقربة

---

(١) راجع التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ٢٤ و ٢٥ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠٢ و ٤٠٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٢٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ .

(٢) الذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ص ٤٠٢ ، والإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٥ .

(٣) الإحاطة ج ١ ص ٥٢٢ .

من وادى آش . وكان يرابط هنالك مترقباً رحيل عمه . فبادر بالسير إلى غرناطة، ودخلها فى موكبه وطبوله ، واحتلها فلم يعارضه أحد من قومه ، وتربع فى رياستها من وقته . وقيل إن عمه زاوى اختاره ليخلفه قبل رحيله . وقيل من جهة أخرى إن نزاعاً حدث بسبب ذلك ، بينه وبين ابن عمه جلالى بن زاوى، ولكنه انتهى برحيل جلالى ولحاقه بأبيه ، وخلصت له الرياسة ، ومن ذلك الحين تبدأ بغرناطة دولة بنى زيرى بن مناد(١) .

وبدأت ولاية حبّوس لغرناطة فى سنة ٤١١ هـ ، حسبما تقدم فى أخبار الفتنة، فسار حبوس سيرة حسنة ، وضبط النظام والأمن ، وقسم الأعمال بين أقاربه وبنى عمه ، واتسعت رقعة مملكته ، فغلب على قبره ونواحيها وعلى مدينة جيان ، وأتم بناء غرناطة ، وحشد الجند ونظم الجيش ، وكان يشرك بنى عمه فى الرأى ، ويجرى فى حكمه على طريق الشورى . ووطد حبوس ملك قومه بغرناطة ، وأقام له بلاطاً فخماً ، وعقد علائق المودة والتحالف مع سائر جيرانه من رؤساء البربر وفى مقدمتهم بنى حمود أصحاب مالقة ، وعقد الصداقة أيضاً مع زهير الفتى العامرى صاحب ألمرية . ولما قتل يحيي بن حمود (المعتلى) أمام أسوار قرمونة سنة ٤٢٧هـ على يد القاضى ابن عباد ، وخلفه فى الملك ولده إدريس المتأيد بالله ، كان حبوس وحليفه زهير العامرى من المعترفين ببيعته ، وقد سارا لمعاونته على محاربة ابن عباد، وسار معهما البرزالى صاحب قرمونة فى قواته ، وزحفت القوات المتحدة على إشبيلية ، وعاثت فى بسائطها ، ثم عاد كل إلى قواعده ، وذلك فى أواخر سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) . وفى العام التالى (٤٢٨ هـ) توفى حبوس بن ماكسن، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس(٢) .

ويشيد ابن حيان ، وقد عاصر هذا العهد ، بخلال حبّوس ، فيقول لنا إنه كان أحد نائبى برابرة الأندلس الذين يعتد بهم ، وإنه كان على قسوته «يصغى إلى الأدب ، وينتمى فى العرب ، للأثر المقفو فى قومه صنهاجة . وكان وقوراً حليماً فظاً مهيباً ، نزر الكلام ، قليل الضحك ، كثير الفكر ، شديد الغضب ،

---

(١) الذخيرة المجلد الأول القسم الأول ص ٤٠٣ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٨٥ .

(٢) راجع فى أخبار حبوس بن ماكسن : التبيان ص ٢٥ و ٢٦ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٨٥ والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٤

شجاعاً ، حسن الفروسية ، جبارا متكبراً ، داهية واسع الحيلة ، كامل الرجولة ، له فى كل ذلك أخبار مأثورة »(١) .

— ٢ —

فخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ، الذى قدر له أن يكون أقوى ملوك البربر فى جنوبى الأندلس ، وأعظمهم شأناً ، فى تلك الفترة التى كثرت فيها الممالك والرياسات ، ولم ينازعه فى الملك أخوه بُلُقِّين بن حبوس ، ولكن كان له فى الملك منافس من قومه ، هو ابن عمه يدّير بن حُباسة بن ماكسن . وكان يدير ومن ورائه بعض شيوخ غرناطة يحاول منذ أيام عمه حبوس ، أن ينتزع السلطة لنفسه ، فلما فشل أيام حبوس ، حاول أن يعيد الكرة فى أوائل عهد باديس . وكان من مشجعيه ومحرضيه الكاتب أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى ، وهو من علماء المشرق الذين وفدوا على الأندلس أيام الفتنة ، ولحق بغرناطة . وكان فضلا عن أدبه الغزير ، يعنى بدراسة الفلك والحكمة ، ويلقى بنبوءاته فى روع يدير ، أنه سوف يظفر بعرش غرناطة ، ويحكمها ثلاثين عاماً(٢) .

وكان لأبى العباس كاتب حبوس ، مساعد من اليهود يدعى أبو إبراهيم يوسف ابن اسماعيل بن نغرالة كان يتولى جمع المال ، وكان رجلا متواضعاً حسن السيرة ، فلما توفى أبو العباس تقدم مكانه ، وعلت منزلته ، ولما ولى باديس زادت حظوته وظهرت همته فى جمع الأموال . فلما دبر القوم مؤامرتهم لانتزاع السلطة من باديس وإجلاس يدير مكانه ، لجأوا إلى أبى إبراهيم ، وحاولوا ضمه إليهم ، فتظاهر بالقبول ، وأخطر مولاه باديس ودبر اجتماعهم بمنزلة ، وحضور باديس ليسمع بنفسه مشاوراتهم من مكان معين ، ومن ذلك الحين غدا ذلك اليهودى أثيراً عند باديس ، وصار ناصحه الأول ، لا يبرم أمراً دون رأيه .

وكان المتآمرون قد اعتزموا أمرهم لقتل باديس ، أثناء تنزهه ، بمكان بالضاحية يعرف بالرملة ، وكان ممن رشوه لذلك شيخ من صنهاجة يدعى فرقان . فأفضى بالأمر لباديس وحذره فى الوقت المناسب ، وعلم المتآمرون بافتضاح تدبيرهم ، ففروا إلى خارج غرناطة ، وفى مقدمتهم يدير بن حباسة والكاتب أبو الفتوح

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠٤ .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ٤٦٣ و ٤٦٥ .

الجرجانى ، وقد فرا معاً إلى إشبيلية . ووقف باديس على أسماء كثير ممن شاركوا فى المؤامرة من شيوخ صنهاجة ورجالها ، وهم بقتلهم جميعاً ، فرده أبو إبراهيم عن عزمه ، وحذره من اتساع نطاق الفتنة ، لأنهم رجاله وجنده وأولى أن يلاينهم وأن يغمرهم بالعطايا ، وأن يضرب بعضهم ببعض ، فنزل عند نصحه ، واستتب له الأمر دون منازع[١] .

وكان أول حادث خطير واجه باديس ، هو حربه مع زهير العامرى صاحب ألمرية . وكان زهير من أخص الفتيان العامريين الذين تفرقوا عقب الفتنة ، واحتلوا معظم القواعد الشرقية ، وكان قد ولى حكم ألمرية بعد وفاة صاحبها الفتى خيران فى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، وامتد سلطانه شرقاً حتى شاطبة ، وشمالا حتى بيّاسة وقرطبة . وكان يرتبط بعلائق المودة بجيرانه الأقربين بنى حمود أصحاب مالقة ، وبنى زيرى أصحاب غرناطة . وقد رأينا كيف تحالف زهير مع حبوس ابن ماكسن على قتال ابن عباد ، فلما توفى حبوس وخلفه باديس ، بدأت العلائق بين زهير وباديس فى الفتور ، وذلك لما عمد إليه زهير من إيواء عدو باديس الألد محمد بن عبد الله زعيم زناتة وحمايته ، وأرسل باديس إلى زهير رسوله يعاتبه ، ويطلب إليه تجديد المحالفة التى كانت بينه وبين أبيه حبوس[٢] ، ولم يمض قليل على ذلك ، حتى خرج زهير من ألمرية فى قواته ومعه كاتبه ومستشاره الأثير أحمد ابن عباس ، وسار متجهاً صوب غرناطة . ولم توضح لنا الرواية غرض زهير من تلك الحركة . ولكن الأمير عبد الله بن بلقين حفيد باديس ، يقول لنا فى مذكراته ، إن زهيراً « أدركه الطمع فى عرناطة » عقب موت حبوس[٣] . وإذاً فقد كان زهير يرمى إلى غزو غرناطة ، وافتتاحها . وعلى أى حال فقد استمر زهير فى السير بقواته ، واخترق أراضى غرناطة من شرقها حتى وصل إلى قرية ألفنت[٤] الواقعة على مقربة من شمال غرناطة . وكان باديس فى أثناء ذلك قد عبأ قواته وقد ملأته الدهشة والريب ، لاقتحام زهير أراضيه على هذا النحو ، وشعر أنه قد غدا

---

(١) فصل لنا الأمير عبد الله أدوار هذه المؤامرة بإفاضة (التبيان ص ٣١ — ٣٤) .

(٢) ابن حيان فى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ١٦٦ ، ونقلها البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٩ .

(٣) كتاب التبيان ص ٣٤ .

(٤) هى بالإسبانية Daifontes وهى تقع على قيد عشرين كيلوا متراً شمالى غرناطة .

فى قبضته وتحت رحمته . ولكنه بدأه بالجميل والمودة، وزوده هو ورجاله بالصلات والقِرى ، ثم لقيه ووقعت بينهما المناظرة ، ومن حول كل رجال دولته ، فاشتط زهير ، وأغلظ لباديس فى القول ، وكان كاتبه أحمد بن عباس هو الذى أشار عليه بهذا المسلك ، فغادره باديس مغضباً ، وقد عول على الحرب ، ووافقه قومه شيوخ صنهاجة . وكان باديس قد حشد قواته ورتبها ترتيباً محكماً ، وهدم رجاله قنطرة فى مؤخرة القوات الهاجمة ، قطعاً لخط رجعتها ، ورتب من ورائها الكمائن فى المفاوز المستترة . كل ذلك وزهير فى غروره وعجبه ، لايشعر بما يدبره خصومه . وفى صباح اليوم التالى ، فاجأت قوات صنهاجة جيش زهير بهجومها العنيف ، وكان يقودها بلقين بن ماكسن أخو باديس، فلقيها زهير بعزم وثبات ، ودفع لردها قائده هذيلا الصقلبي فى خيرة قواته من الفتيان العامريين والصقالبة ، ووقعت بين الفريقين معركة هائلة ، صدمت فيها قوات الصقالبة وأسر قائدهم هذيل، وقتل فى الحال بأمر باديس ، فدب الخلل فى قوات زهير ، ونكصت على أعقابها ، والبربر من ورائها يحصدونها حصداً ، وفر زهير فيمن فر من أصحابه إلى شعب الجبال المجاورة ، ولكنه أخذ وقتل ، ولم يعثر بجثته ، وأبيد معظم قواته قتلا وأسراً ، وظفر البربر بغنائم هائلة من المال والسلاح والعدة والغلمان والخيام ، وأمر باديس بقتل القواد والفرسان من الأسرى ، وكان من بين الأسرى عدة من الكتاب فى مقدمتهم أحمد بن عباس وابن حزم والد الفيلسوف وأبو عمر الباجي وغيرهم ، فأطلق باديس سراحهم جميعاً ماعدا ابن عباس وعدة آخرين من الأسرى ، فقد زجهم فى الأصفاد إلى المعتقل . وتمت هذه الوقيعة الساحقة على زهير العامرى وأصحابه ، فى آخر يوم من شوال سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨ م)(١)

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى قتل ابن عباس فى معتقله بالقصبة . قتله باديس بيده تشفياً منه ، لتيقنه من أنه هو ناصح زهير والمحرض له على غزوه . ولم ينقذه ماعرضه لافتداء نفسه من المبالغ الضخمة ، ولم تنجح شفاعة الوزير ابن جهور عميد قرطبة لدى باديس للإبقاء على حياته . وكان ابن عباس من أعلام كتاب عصره ، وافر المعرفة والأدب ، عظيم الوجاهة ، والسراوة ،

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١٦٦ – ١٦٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٩ ١٧٣ ، والإحاطة ج ١ ص ٥٢٦ – ٥٢٨ ، والتبيان ص ٣٤ و ٣٥ .

وكان له فى حكومة ألمرية ، فى ظل صاحبها زهير ، أعظم نفوذ وسلطان(١) .

وكان من أثر مصرع زهير، وانهيار حكومته على هذا النحو ، أن استولى باديس على القسم الغربى من أراضى مملكة ألمرية المتاخمة لمملكته ، وهى تشمل مدينة جيّان وأعمالها ، وكذلك جزءاً من أراضى ولاية قرطبة الجنوبية .

* * *

وكان لهذا النصر الباهر الذى أحرزه باديس فى بداية حكمه ، أعظم أثر فى توطيد سلطانه وإذاعة ذكره . وكان باديس ، مثل معظم أمراء البربر فى جنوبى الأندلس ، يتوجس من أطماع القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية ومشاريعه . وكانت المعركة الحقيقية ، تدور فى هذا القسم من اسبانيا المسلمة ، بين بنى عباد والبربر ، وقد بدأت منذ الساعة الأولى بين بنى عباد وبنى حمود ، الذين يمثلون زعامة البربر . ومن ثم فقد كان باديس ، ومن قبله والده حبوس ، ينضوى تحت لواء الحموديين ، ويشد أزرهم كلما دعت الظروف ، وقد أشرنا من قبل إلى ما كان من مسير حبوس فى قوات صنهاجة لمعاونة إدريس المتأيد بالله على محاربة ابن عباد (٤٢٧ هـ) . ولما سير القاضى ابن عباد قواته تحت إمرة ولده إسماعيل لغزو مدينة قرمونة ، وانتزاعها من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى ، استعان البرزالى بإدريس المتأيد وباديس ، فهرعا إلى إنجاده ، وكانت قرمونة قد سقطت بالفعل فى يد إسماعيل بن عباد ، ونشبت بين قوى العباديين وبين البربر على مقربة من إستجة معارك شديدة انتهت بهزيمة جيش ابن عباد ، ومقتل قائدهم إسماعيل ، وذلك فى المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م)(٢) . وهكذا أكد باديس مرة أخرى تفوقه وتفوق قومه صنهاجة على قوات الأندلس المناوئة للبربر .

ومما هو جدير بالذكر أنه على أثر انتهاء المعركة ، ووجود باديس تحت أسوار إستجة ، وفد على مخيمه فجأة الكاتب أبو الفتوح الجرجانى ، وكان قد فر حسبما تقدم عند اتهامه بالتآمر مع يدّير لى إشبيلية ، وهنالك علم أن باديس أمر بالقبض

---

(١) راجع فى ترجمة أحمد بن عباس : الإحاطة ج ١ ص ٢٦٧ — ٢٧٠ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١٧٥ — ١٨٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ ، والمعجب للمراكشى ص ٥٠ .

على زوجه وأولاده ونفيهم إلى المنكب . وكانت زوجه أندلسية بارعة الحسن ، وله منها ولدان ، وكان يعبدها حباً . فلما اقترب باديس من إشبيلية هرع أبو الفتوح إليه يستأمنه ويستجير به . ولكن باديس استقبله بجفاء ، وبعث به مخفوراً إلى غرناطة ، وهناك شُهر وعذب ثم اعتقل أياماً ، دخل من بعدها باديس إلى مطبقه ، وأخذ فى تأنيبه وسبه ، ثم قتله بيده ، واحتز رأسه (آخر المحرم سنة ٤٣١ هـ)(١) .

ولما اضمحل شأن بنى حمود وافترقت كلمتهم ، بدأ باديس بالتدخل فى شئون مملكة مالقة ، تحيناً للفرصة فى أخذها . ومن ذلك أنه حينما ثار على إدريس ابن يحيى العالى ، ابن عمه محمد بن إدريس فى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، واستطاع أن ينتزع منه الملك ، تقدم باديس لمعاونة الملك المخلوع ، وسار معه فى بعض قواته إلى مالقة ، ولكنهما لم يفوزا بطائل ، فلجأ إدريس عندئذ إلى سبتة ، وبويع محمد بن إدريس وتلقب بالمهدى ، ولكنه لم يفز عندئذ بإجماع الزعماء البربر على مبايعته ، وكان باديس أشدهم معارضة فى إقامته ، ذلك لأنه كان يشعر عندئذ ، وبعد أن ضعف شأن بنى حمود ، أنه أحق برياسة البربر فى الأندلس ، وأخذ من ذلك الحين يتحين الفرصة لتسديد الضربة القاضية لرياسة بنى حمود ، وذلك بانتزاع مالقة مقر سلطانهم .

وتم له ذلك فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، وذلك بعد أن ارتقى عرش مالقة ، بعد محمد بن إدريس المهدى ، ثلاثة أخر من بنى حمود ، وهم إدريس ابن يحيى الملقب بالسامى ، ثم إدريس بن يحيى العالى ، ثم ولده محمد المستعلى . فلما تولى المستعلى نكل الزعماء البربر عن مبايعته ، وفى الحال سار باديس فى قواته إلى مالقة واستولى عليها ، وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلى وعبر البحر إلى المغرب ، وانتهت بذلك مملكة بنى حمود فى مالقة ، وبقيت بعد ذلك فى الجزيرة الخضراء فترة قصيرة أخرى ، حتى بعث ابن عباد قواته إلى الجزيرة فطوقتها ، من البر والبحر ، واضطر صاحبها القاسم بن حمود أن يغادرها بالأمان مع أهله وصحبه ، وذلك فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٥ م) ، وبذلك انتهت دولة بنى حمود فى الجزيرة أيضاً ، وطويت صفحتهم بالأندلس .

ولما استولى باديس على مالقة ، عنى بتحصينها ، وشيد قصبتها على أجمل

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٦٥ و ٤٦٦ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٩٦ .

طراز وأمنعه ، حماية لها من أطماع الطامعين من أمراء الأندلس ، ولاسيما بنى عباد . وقد كان أهل مالقة بالفعل قد سئموا حكم البربر ، وتاقت نفوسهم للتخلص منه ، فبعثوا إلى المعتضد بن عباد رسلهم سراً يستحثونه على افتتاح مالقة ، واستجاب المعتضد لدعوتهم ،وسير إليها حملة بقيادة ولديه جابر والمعتمد، فزحفت على مالقة وطوقتها ، وكادت المدينة تسقط فى أيديهم ، لولا أن اعتصمت حاميتها من البربر والسود بقصبتها المنيعة ، ودافعت دفاعاً شديداً ، بقيادة قائدها الشجاع مخلوف بن ملول ، وهرع باديس فى قواته إليها ، ونشبت بينه وبين المهاجمين معركة شديدة مزق فيها جند إشبيلية ، وقتل وأسر منهم عدد جم ، وأسرع جابر والمعتمد ابنا عباد بالفرار فى فل جندهما إلى رندة [١] . وكان ذلك فى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) . وبعث محمد بن عباد (المعتمد) إلى والده المعتضد من رندة ، قصيدته الشهيرة ، يستعطفه فيها ويعزيه فى مصابه وهذا مطلعها :

سكن فؤادك لاتذهب بك الفكر ماذا يعيد عليك البثُّ والحذر
وازجر جفونك لاترض البكاء لها واصبر فقد كنت عند الخطب تصبر
فان يكن قَدَرٌ قد عاق عن وطر فلا مرد لما يأتى به القــدر
وإن تكن خيبة فى الدهر واحدة فكم غزوت ومن أشياعك الظفر [٢]

وكان من مظاهر هذه المعركة ، التى اضطرمت بين باديس وبنى عباد ، ماحدث فى نفس هذا العام ، من التجاء بنى برزنيان وأميرهم محمد بن خزرون أصحاب أركش ، حينما أرهقهم ابن عباد بغاراته ، إلى باديس ليتسلم هو قاعدة أركش ، ويعطيهم بدلا منها،مكاناً ينزلون به فى أراضى غرناطة ،وقد استجاب باديس لرغبتهم وتسلم منهم أركش ، وخرجوا عنها باهلهم وأموالهم ومتاعهم ، فدهمتهم قوات ابن عباد فى الطريق ومزقتهم ، وانتزعت حصن أركش من يد قائد باديس ، وسيطر ابن عباد بذلك على سائر منطقة شذونة ، وكانت من قبل تحت سيطرة البربر [٣] .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٤ و ٢٧٥ . وراجع كتاب التبيان ص ٤٣ .
(٢) وهى طويلة . وقد أوردها ابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦ — ٥٨ .
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

— ٣ —

وكان باديس قد قطع إلى ذلك الحين ثلاثين عاماً فى الحكم ، وكانت مملكته تمتد يومئذ من بسطة شرقاً ، حتى رندة غرباً ، ومن جيّان شمالاً إلى البحر جنوباً ، وكان قد شاخ وأخلد إلى الراحة ، وانهمك فى الشراب ، وترك مقاليد الأمور كلها لوزيره اليهودى يوسف بن نغرالة(١) ، وكان يوسف قد حل فى المنصب مكان أبيه اسماعيل بن نغرالة وزير حبوس ثم باديس ، وكان هذا الوزير اليهودى قد استأثر بعطف باديس وثقته ، فرفعه فوق سائر كتابه ووزرائه ، وفوضه فى جميع أموره ، وعين معظم المتصرفين والعمال من اليهود ، واستطاع بمهارته وحنكته أن يملأ خزائن باديس بالمال ، وأن يمكنه من الإنفاق على جيشه ، ومن تحقيق مشاريعه الإنشائية . وكان اسماعيل فوق ذلك من أهل الأدب والشعر ، وكان حسن السيرة رضى الأخلاق ، وافر الأناة والحلم ، فلم يثر من حوله خصومة ولا منافسة . ويقدم إلينا ابن حيان ، وهو المؤرخ المعاصر عن ابن نغرالة ، الصورة الآتية : « وكان هذا اللعين فى ذاته ، على مازوى الله عنه من هدايته ، من أكمل الرجال علماً وحلماً وفهماً ، وذكاء ودماثة ، ورصانة ودهاء ، ومكراً وملكاً لنفسه ، وبسطاً من خلقه ، ومعرفة بزمانه ، ومداراة لعدوه ، واستسلالا لحقودهم بحلمه » . ثم يقول لنا إنه كان بارعاً فى الآداب العبرية والعربية ، وإنه شغف بالعربية ونظر فيها ، وقرأ كتبها ، وألف فيها ، وكتب رسائل يشيد فيها بالإسلام وفضائله ، ودرس الرياضة والفلك والهندسة والمنطق ، وكتب كتاب « السجيح فى علوم الأوائل الرياضية » . وأخيراً إنه كان بارعاً فى الجدل يتفوق فيه على سائر الناس ، قليل الكلام ، ماقتاً للسباب ، دائم التفكر ، جماعة للكتب(٢) . وقد ساعدته هذه الصفات كلها ، بلاريب ، على الاستئثار بعطف الأمير وإعجابه وثقته وخلقت من حوله جوا من العطف بين سائر ممن يتصلون به أو يتعامل معهم . واستمر ابن نغرالة عن مكانته حتى توفى ، فندب باديس ولده يوسف للاطلاع بمنصبه . وكان يوسف فتى جميلا غض الإهاب ، وافر الذكاء والبراعة ، فقام بالأعمال خير قيام ، واستعمل اليهود كذلك على الأعمال ، وأبدى فى جمع المال همة مضاعفة ، فتمكنت منزلته لدى باديس ، واجتمعت فى يده السلطات شيئاً فشيئاً

(١) كتاب التبيان ص ٤٢ .

(٢) الإحاطة عن ابن حيان ج ١ ص ٤٤٦ و ٤٤٧ .

حتى غدا كأبيه من قبل ، أول رجل فى الدولة ، وأمضاهم تصرفاً فى شئونها .

وكان بُلُقّين ولد باديس الأكبر الملقب بسيف الدولة ، والمرشح من بعده لولاية عهده ، ينظر إلى استئثار الوزير اليهودى بزمام الأمور ، واستئثار بنى جنسه بالتصرف فى الأعمال ، وسيطرتهم التامة على الدولة ، ينظر إلى ذلك كله بعين السخط والحسد ، وكان يجاهر ببغضه لابن نغرالة ، وسعيه إلى إسقاطه ، ويفضى أحياناً إلى خاصته برغبته فى إزالته وقتله ، وكان يذكى فيه هذا الشعور تحريض وزراء الدولة ، ولاسيما على وعبد الله ابنا إبراهيم الشيخ ، وإلقاؤهم فى روعه أنه أحق بهذا النفوذ ، وهذه الأموال التى يتمتع بها اليهود ، وأنه قد أخمله وأخمل سائر رجال الدولة بسيطرته عليها(١) .

وكان يوسف من جانبه ، يضع عيونه وجواسيسه من خاصة باديس فى القصر وفى الحريم ، فلا يكاد باديس يأتى بحركة أو تصدر عنه كلمة ، حتى يقف عليها لفوره ، وكان فى نفس الوقت يحيط بلقين بعيونه ، ويتقصى سائر حركاته وسكناته ، ويقف على نياته نحوه . وكان بلقين مع بغضه ليوسف ، يبدى له المودة ويتردد على داره ، ويشاطره الشراب ، وكان منهمكاً مدمناً . فاعتزم يوسف أن يتلخص من بلقين ، قبل أن يقضى هو عليه ، ودعاه ذات يوم مع خاصته وصحبه ، إلى مجلس شراب حافل ، ودس له السم فى كأسه ، فما كاد يغادر مجلسه حتى ملكه قىء شديد ، وما كاد يصل إلى داره ، حتى لزم فراشه ، ثم توفى بعد يومين . فروع باديس لمهلك ولده ، على هذا النحو المفاجئ ، واستطاع يوسف أن يقنعه باتهام بعض فتيان ولده وجواريه وقرابته ، فقتل منهم باديس عدة ، وفر الباقون . وكان مصرع بلقين بن باديس فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤ م)(٢)

وكان هذا الحادث مقدمة لحادث أخطر وأوسع مدى ، وهو الذى اتسم به عهد باديس قبل كل شىء . ذلك أن باديس ترك المجال لوزيره يوسف ، وزاد بفقد ولده انطواؤه على نفسه ، وزاد يوسف بذلك استئثارا وسيطرة على الدولة ، وبُسط على غرناطة وأعمالها نوع من الطغيان اليهودى المرهق ، واستسلم سائر الوزراء والشيوخ إلى هذا السلطان . ولم يكن يناوئ يوسف ويحاول مقاومته سوى « الناية » وهو شخصية غامضة ، وأصله من عبيد المعتضد بن عباد ،

---

(١) التبيان ص٣٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص٢٦٥ ، والتبيان ص٤٠ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص٢٣١ .

وكان متهماً فى المؤامرة التى دبرها ضده ولده اسماعيل ، ففر من إشبيلية ، والتجأ إلى باديس وخدمه وحظى عنده ، وعهد إليه ببعض المهام الخطيرة . ثم وقع التنافس بينه وبين يوسف ، وكان النابة يحرض على قتله ، ويفضى إلى الأمير بذلك كلما سنحت الفرص . وشعر يوسف بتغير الأمير عليه ، وبأن منزلته أخذت فى الضعف ، ففكر فى التفاهم مع أبى يحيى بن صمادح صاحب ألمرية ، واستدعائه للاستيلاء على غرناطة . وكانت تربط ابن صمادح وباديس علائق مودة قديمة ، إذ كان باديس قد وقف إلى جانبه حينما أراد ابن أبى عامر محاربته واسترداد ألمرية منه ، ومهد يوسف لمشروعه بأن عمل على تعيين زعماء صنهاجة ،الذين يخشى بأسهم ، فى الأعمال البعيدة ، واستطاع ابن صمادح بالفعل أن ينتزع وادى آش ، الواقعة شمال شرقى غرناطة ، وأن يشحنها برجاله ، ومضى يوسف فى مفاوضته وهو محجم متهيب من تنفيذ المشروع .كل ذلك وباديس غارق فى لهوه، منكب على لذاته(١) ، وخصوم يوسف من صنهاجة ، وسائر أهل غرناطة ،يضطرمون سخطاً على الطاغية اليهودى ، ويترقبون الفرص لإسقاطه . ولقى سخط الشعب الغرناطى على اليهود فى تلك الآونة ، متنفسه فى الشعر ، ونظم الفقيه الورع الزاهد أبو إسحاق الإلبيرى(٢) قصيدته الشهيرة فى التحريض على سحق اليهود ، والتخلص من طغيانهم ، وإليك بعض ماورد فى تلك القصيدة التى ذاعت يومئذ ذيوع النار فى الهشيم ، وألهبت مشاعر الشعب الغرناطى ، وكانت كالشرارة التى أضرمت الحريق ، وأثارت الانفجار :

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بدور الزمان وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة	تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً	ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا	وتاهوا وكانوا من الأرذلين

---

(١) راجع كتاب التبيان ص ٤٦ و٤٧ و٥٠ — ٥٣ .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبى الإلبيرى. كان فقيهاً ومحدثاً وأديباً وشاعراً . سعى به الوزير يوسف بن نغرالة لأمور نقمها منه لدى سلطانه باديس ، فأبعده عن غرناطة فسكن إلبيرة القريبة منها ، وانقطع إلى العبادة والزهد . ولكنه لبث يحرض صنهاجة على اليهود فى شعره ووعظه ، حتى وقع الانفجار ، وتم الفتك بهم . وتوفى الإلبيرى فى أواخر سنة ٤٥٩، بعد أن شهد آثار تحريضه فى بطش صنهاجة باليهود .

ونالوا منــاهم وحازوا المدى ⁂ وقد جــاز ذاك وما يشعرون

ومنهــا :

أباديس أنت امرء حــاذق ⁂ تصيب بظنك مرمى اليقــين
فكيف تحب فــراخ الزنا ⁂ وقد بغضــوك إلى العالمين
وكيف استنمت إلى فاســق ⁂ وقارنته وهو بئس القرين
وقد أنزل الله فى وحيــه ⁂ يحــذر من صحبة الفاسقين
فلا تتخــذ منهم خادمــاً ⁂ وذرهم إلى لعنــة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم ⁂ وكادت تميــد بنا أجمعين
وكيف انفردت بتقــريبهم ⁂ وهم فى البلاد من المبعــدين
وإنى احتللت بغرناطة ⁂ فكنت أراهم بهــا عابثين
وقد قسموها وأعمالها ⁂ فنهم بكل مكان لعــين
وهم يقبضون جبــاياتهــا ⁂ وهم يخصمون وهم يقصمــون
وهم يلبســون رفيع الكسا ⁂ وأنتم لأوضــاعها لابســون
وهم أمنــاكم على سركم ⁂ وكيف يكون أمينــاً خؤون
وقد لابســوكم بأسحارهم ⁂ فما تسمعــون ولا تبصرون

ومنها فى التحريض على ابن نغرالة وقومه :

فبادر إلى ذبحــه قــربة ⁂ وضح به فهــو كبش سمين
ولاترفع الضغط عن رهطه ⁂ فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عــراهم وخــذ مالهم ⁂ فأنتم أحــق بما يجمعــون
ولا تحسبن قتلهم غــدرة ⁂ بل الغــدر فى تركهم يعبثون
فقد نكثوا عهــدنا عندهم ⁂ فكيف تلام على النــاكثين
فلا ترض فينــا بأفعالهم ⁂ فأنت رهين بمــا يفعلــون
وراقب إلهــك فى حزبه ⁂ فحــزب الإله هم المفلحون(١)

ووقع الانفجار فى مساء يوم السبت العاشر من شهر صفر سنة ٤٥٩ هـ

(١) نشر ابن الخطيب فى أعمال الأعلام هذه القصيدة بأكلها وهى فى ثلاثة وأربعين بيتاً ص ٢٣١ — ٢٣٣ ، ونشرها دوزى فى كتابه Recherches; V, I. App. XXVI

(٣٠ ديسمبر ١٠٦٦ م) . فى تلك الليلة اجتمع يوسف بن نغرالة بالقصبة على الشراب مع طائفة من صحبه من الضالعين معه من عبيد باديس وخاصته. والظاهر أن مشروعه لاستدعاء ابن صمادح إلى غرناطة كان قد نضج ، وأن ابن صمادح كان يكمن مع نفر من صحبه فى مكان قريب من المدينة ، ينتظر النذير باستدعائه. وكان ثمة فى نفس الوقت جماعة من صنهاجة ، ممن يرتابون فى مشاريع يوسف ونياته ، وينقمون على أميرهم تهاونه وتخاذله ، يرقبون حركات اليهودى وسكناته . فحدث والمتآمرون فى مجلسهم ، أن وقعت مشادة بين عبد من الحضور ، وبين حاشية اليهودى ، فانطلق العبد إلى خارج القصبة ، وهو يصيح : لقد غدر اليهودى ودخل ابن صمادح البلدة . وفى الحال هرع الناس وهم يتصايحون ، وفى مقدمتهم رهط صنهاجة المناوئين لليهودى ، واقتحموا القصبة ، فاستغاث يوسف لفوره بباديس ، وحاول الأمير عبثاً أن يهدىء الهاجمين ، فهرب يوسف إلى داخل القصر ، ومن ورائه مطاردوه ، حتى عثروا به فى بعض خزائن الفحم وقد تنكر وصبغ وجهه بالسواد فعرفوه وقتلوه ، وأخذوه وصلبوه على باب غرناطة . وكان الجند والمدينة بأسرها ، قد ماجت عندئذ ، وتخاطف الناس السلاح ، وهجموا على بيوت اليهود فى كل مكان ، وأمعنوا فيهم تقتيلا وتعذيباً ، ونهبوا دار يوسف ، وكانت غاصة بالنفائس والذخائر ، ووجدت له فيما وجد خزانة جليلة من كتب العلوم الإسلامية ، ونهبوا سائر دور اليهود وحوانيتهم ، وطاردوهم وفتكوا بهم فى كل مكان ، واستولوا من أموالهم على مقادير هائلة . وهلك من اليهود أكثر من ثلاثة آلاف أو أكثر من أربعة آلاف على قول آخر ، فى تلك المذبحة التى يصفها ابن بسام بأنها ، « ملحمة من ملاحم بنى اسرائيل ، باءوا بذلها ، وطال عهدهم بمثلها » . وعاد ابن صمادح أدراجه بعد أن انهار مشروعه (١) .

قال ابن الخطيب : « وقبره اليوم (أى قبر يوسف) وقبر أبيه يعرف أصلا من اليهود ، ينقلونه بتواتر عندهم أمام باب إلبيرة ، على غلوة يعترض الطريق ،

---

(١) راجع أخبار هذه المذبحة فى التبيان ص ٥٤ ، وفى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٧١ و ٢٧٢ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٤٧ و ٤٤٨ ، وفى أعمال الأعلام ص ٢٣٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٦ و ٢٧٥ و ٢٧٦ وقد اتبعنا ما ورد من التفاصيل فى التبيان والذخيرة . وجاء فى المصادر الأخرى أن اجتماع ابن نغرالة بأصحابه كان فى داره ، وأنه هوجم وقتل بها .

ومكانه من الترفــه والترف ، والظرف والأدب ، معروف »[١] .

— ٤ —

وأفاق باديس بعد هذا الحادث من خموله وتهاونه، ونهض لاسترداد وادى آش من يد ابن صمادح ، فسار إليها فى قواته ، واستنصر بالمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، فوافاه فى بعض قواته على مقربة منها . وضرب باديس الحصار حول وادى آش ، وشدد فى إرهاقها ، وكان بها فضلا عن الحامية ، بعض وزراء ابن صمادح وأكابر دولته ، ولما اشتد الضيق بالمحصورين بعث زعماؤهم إلى المأمون يرجونه أن يتوسط لهم لدى باديس فى تسليم المدينة ،والخروج بالأمان، ففعل وأخلى جند ابن صمادح المدينة ، وسلمت إلى باديس ، واقتطع المأمون من باديس مدينة بسطة ثمناً لمؤازرته ، وبعث ابن صمادح إلى باديس يستسمحه ويعتذر عن تصرفه ، ثم وافاه إلى غرناطة ، وعاد الوئام بين الرجلين[٢] .

وكانت مدينة جيان قد خرجت عن الطاعة،وكان قد لجأ إليها ماكْسَن الابن الأصغر لباديس حينما سخط عليه أبوه ونفاه من غرناطة،لارتيابه فى ولائه وتوجسه من مشاريعه[٣] . فنزل فى جيان فى كنف حاكمها مسكن بن حبوس،واستبد مسكن بحكم المدينة ، ولم يجد ماكسن سبيلا إلى منافسته ،وقنع بالسلامة والدعة، وأخيراً تمكن باديس من إغراء الحامية بالمال والوعود ، فثارت على مسكن وماكسن معاً ، ونادت بالطاعة لباديس، ففر كلاهما من المدينة ناجياً بنفسه،وقصد ماكسن إلى طليطلة، حيث لجأ إلى ابن ذى النون وخدم فى جيشه ، وعادت جيان بذلك إلى سلطان باديس .

وكان باديس بعد مقتل وزيره ابن نغرالة ، قد استوزر الناية ، فعلا سلطانه بسرعة ، وانتهى إلى الاستئثار بالأمور على نحو ماكان ابن نغرالة . وقدّم الناية بنى برزال ، وأخر صنهاجة وأهلهم ، فسخطوا عليه ، وأخذوا يترقبون الفرص لإهلاكه . وكان من مشاريع الناية أن يفتتح مدينة بياسة القريبة من جيان ،وكانت عندئذ من أملاك إقبال الدولة على بن مجاهد العامرى ، ووافق باديس على مشروع

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٨ ، وباب إلبيرة ما يزال إلى اليوم قائماً بمدينة غرناطة .

(٢) التبيان ص ٥٥ — ٥٧ .

(٣) التبيان ص ٤٩ .

وزيره كارهاً ؛ وانتهى النابة بالاستيلاء على بياسة بعد جهود ونفقات طائلة ، وازدادت بذلك مكانته لدى باديس توطداً . وهنا شعر وزراء الدولة ،وحكام المدن،أن سلطان النابة يكاد يحجب سلطان باديس ذاته . وخشوا عاقبة تمكنه ، وأذاعوا أنه طامع فى الرياسة بالائتمار مع بنى برزال ؛ ودبروا مؤامرة لقتله والتخلص منه ؛ واتفق على أن يقوم واصل حاكم وادى آش وهو صديق النابة وموضع ثقته بتنفيذ الجريمة ، ووعدوه بالوزارة . ولم يمض سوى قليل ، حتى وفد النابة على وادى آش لتحقيق بعض الأمور السلطانية ، ونزل عند واصل، فانتهز واصل الفرصة السانحة . وقتل ضيفه بالليل وهو سكران .وطار الخبر إلى غرناطة ، فانزعج باديس ؛ وأوضح له رجال الدولة أن الجريمة تمت لخيره ، وإنقاذه من استبداد وزيره . فتظاهر بالاقتناع مرغماً ؛ وعهد إلى واصل بمنصب قائد الفرسان .

واستطال حكم باديس بضعة أعوام أخرى ، وتوفى فى العشرين من شوال سنة ٤٦٥ هـ (يونيه ١٠٧٣ م)(١) بعد حكم دام سبعاً وثلاثين سنة .

وكان باديس بن حبوس أعظم ملوك البربر فى عصر الطوائف وأقواهم جانباً، وكانت مملكته من أكبر ممالك الطوائف رقعة، إذكانت تمتد من بسطة شرقاً حتى إستجة ورندة غربا ؛ ومن بياسة وجيان شمالا حتى البحر جنوباً . وباديس هوالذى مصّر مدينة غرناطة ، وغدت منذ عهده من أهم قواعد الأندلس الجنوبية،وأنشأ قصبة غرناطة فوق أنقاض قلعتها القديمة ، وسميت باسمها القديم « القلعةالحمراء» وهو الاسم الذى خلد على كر العصور ؛ وغدا فيما بعد علماً على حمراء غرناطة ، وأقام داخل القصبة قصره ومسجده الذى دفن فيه ، وأنشأ سوراً ضخماً حول الربوة التى تقع عليها القصبة(٢) . وأنشأ حسبما قدمنا قصبة مالقة المنيعة ، التى مازالت آثارها باقية إلى اليوم ؛ وأنشأ له جيشاً قوياً مرابطاً من قومه صنهاجة وغيرهم ، وبذل له المال الوفير ؛ ووطد الدولة ، ونظم مراتبها وعمالاتها . بيد أن بلاطه لم يسطع كما سطعت قصور ملوك الطوائف الأخرى ، ولم يسطع بالأخص، كما سطعت دولة بنى ذى النون البربرية فى الشمال، ولم يجتمع حوله

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٥٠. وفى ابن خلدون أنه توفى سنة ٤٦٧هـ (ج ٤ ص ١٦١) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ .وراجع كتابى « نهاية الأندلس » الطبعة الثالثة ص ٢٨٩ .

الكتاب والشعراء كما اجتمعوا فى قصور الطوائف الأخرى ، ذلك أن بلاط غرناطة البربرى . لبث محتفظاً بطابع البداوة والخشونة ، الذى كان يغلب على دولة آل زيرى ، ولم تعرف دولتهم تلك الخواص الحضارية والأدبية الرفيعة ، التى امتازت بها دول الطوائف الأخرى .

ومما هو جدير بالذكر أن سياسة باديس ، كانت متأثرة بالروح العنصرى ، وكانت ترمى قبل كل شىء إلى تأييد زعامة البربر وسلطانهم فى جنوبى الأندلس. وكان يقابل هذا الاتجاه لدى الأمراء الأندلسيين اتجاه مماثل ، فقد كانوا جميعاً يداً واحدة ضد البربر ، فى تلك المعركة التى اضطرمت زهاء نصف قرن ، منذ استطاع بنو حمود أن يقيموا سلطانهم وخلافتهم فى جنوبى الأندلس. ولما تضاءل سلطان بنى حمود ، تولى باديس زعامة البربر ، وأخذ يقود نفس المعركة القديمة ضد أمراء الأندلس . وقد كان هؤلاء الأندلسيون ، على قول ابن حيان ، معاصر هذه الأحداث ، « نمطاً واحداً متظاهرين على عظيم البرابرة يومئذ باديس ابن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة ، ومن تميز معه من البربر ، وكانوا متعاضدين متناصرين على من يباينهم من الأمراء سواهم ، على اختلافهم فى الرأى والدعوة» . ويسوق لنا ابن حيان دليل هذا التحزب فى موقف الأندلسيين والبربر من الخلاف ، فقد كان أمراء الأندلس يدعون للخليفة هشام الذى نصبه ابن عباد فى إشبيلية ، وكان باديس ومن والاه من أمراء البربر يدعون لإمامهم بمالقة ، وهو إدريس بن يحيى بن حمود .

وكانت هذه النزعة العنصرية تحمل باديس فى بعض الأحيان ، على أخطر القرارات والمشاريع . ومن ذلك ما حدث حينما قام أحد الفرسان باغتيال أمير رندة البربرى أبى نصر بن أبى نور وذلك بتحريض من المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية. فقد ثار باديس لذلك الحادث ايما ثورة ، وجال بخاطره أن يفتك برعاياه الأندلسيين فى غرناطة ، وأن يزهقهم جميعاً تخلصاً من شرهم ومؤامراتهم ، ورتب الخطة لتنفيذ هذا العزم الدموى ، وذلك حين اجتماع الغرناطيين بالمسجد الجامع يوم الجمعة ، ولم يقتنع بنصح وزيره اليهودى اسماعيل بن نغرالة وتحذيره من عواقب عمله ، وحشد الجند للتنفيذ ، ولكن ابن نغرالة سبقه ، فدس بعض النساء إلى دور زعماء الأندلسيين وغيرهم ، لتحذيرهم من الحضور إلى المسجد ، وهكذا

فشل تدبيره ، ثم عدل عنه بعد ذلك حينما أيد نصح وزيره بعض شيوخ صنهاجة(١)

وتشيد الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، بما كان عليه باديس من القوة والطغيان والجبروت . فيقول لنا عنه معاصره ابن حيان: « إنه أرفع أملاك البرابرة فى هذا الوقت شأناً ، وأشدهم سلطاناً ، وأكثرهم رجالا ، وأوسعهم أعمالا أملى النصر العزيز على الأعداء إملاء واختياراً ، فابسه بغياً واستكباراً ، وأساء الانتقام ، ولم يقل العثرة ، وأخذ بالظنة ، وأسرف فى العقوبة ، وشدّ يداً بالعصبية وتقلد الحمية الجاهلية ، واستأثر بالقسوة والجبرية ، فأسلف فى ذلك كله أخباراً مأثورة »(٢) . ويقول لنا الفتح فى القلائد بعبارته المسجعة المنمقة : « كان باديس ابن حبوس بغرناطة ، عاتياً فى فريقه ، عادلا عن سنن العدل وطريقه ، يجترى على الله غير مراقب ، ويسرى إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب ، قد حجب سنانه لسانه ، وسبقت إساءته إحسانه ، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم ، ولم يشرب الماء إلا من قلب دم . أحزم من كاد ومكر ، وأجرم من راح وابتكر ، ومازال متقداً فى مناحيه ، مفتقداً لنواحيه ، لايرام بريث ولا عجل ، ولا يبيت له جار إلا على وجل »(٣) .

ويقدم إلينا عنه ابن الخطيب تلك الصورة القوية الجامعة : « كان رئيساً يبساً ، طاغية جباراً شجاعاً ، داهية ، حازماً ، جلداً شديد الأمر ، سديد الرأى ، بعيد الهمة ، مأثور الإقدام ، شره السيف ، وارى زناد الشر ، جماعة للمال ، ضخمت به الدولة ، ونبهت الألقاب ، وأمنت لحمايته الرعايا ، وطم تحت جناح سيفه العمران ، واتسع بطاعته المرهبة الجوانب بيأسه النظر ، وانفسخ الملك ، وكان ميمون الطائر ، مطعم الظفر ، مصنوعاً له فى الأعداء ، يقنع أقتاله بسلمه ، ولا يطمع أعداؤه فى حربة »(٤) .

على أن حفيده الأمير عبد الله بن بلقين ، يحاول أن يقدمه إلينا فى صورة أقل جفاء ، وأكثر إشراقاً حين يقول : « وكان باديس بن حبوس — جدنا رحمه الله ، كبير النفس ، عالى الهمة ، حاد المزاج ، لايستطيع أحد أن يمخرق عليه فى أمر

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٥ و ٤٤٦ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣١٤ .
(٢) نقله أعمال الأعلام ص ٢٣٠ .
(٣) قلائد العقيان ص ١٨ .
(٤) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٣ .

من الأمور ، ولا ينكسر لأحد من بنى عمه ، ثقة منه بسعادته ،وأن الانخضاع والتمريض فى القول لايعنيه .ولا يزيد فى أيامه . وكان ذلك كله منه فى حزم وروية ، لايفسد جانباً حتى يصلح آخر ، ويضرب بعضهم ببعض ، فوجست أنفس البعض منه ،وأشربوا هيبته ومخافته »[١] .

والخلاصة أن باديس كان طاغية من أقوى الطغاة البربر ، الذين عرفتهم الأندلس ، ومن أشدهم دهاء وقسوة وإقداماً ، ومن أكثرهم ظفراً فى الحروب .

وكان أسوة بسائر ملوك الطوائف ، قد اتخذ ألقاب الملك ، وتلقب بالمظفر بالله ، الناصر لدين الله .

— ٥ —

ولما توفى باديس المظفر بالله، اتفق رجال الدوله وشيوخ صنهاجة على تولية حفيده عبد الله بن بُلُقِّين مكانه ، وكان صبياً حدثاً . وكان أخوه الأكبر تميماً يتولى حكم مالقة منذ أيام جده . أما ماكسن ولد باديس ، فقد كان خارجاً على أبيه حسبما ذكرنا من قبل ، وكان قد عاد إلى مدينة جيان ، وامتنع بها ، وكان سيئ الخلال والسيرة ، فلم يلتفت إليه ، ولم يقم أحد بدعوته ، وتولى تدبير الدولة ورعاية الملك الصبى ، الوزير سماجة أحد شيوخ صنهاجة ، وكان هذا الوزير رجلا حازماً ، قوى العزم ، شديد السطوة ، مرهوب الجانب ، فضبط الدولة ، واستأثر بالسلطة ، وأحسن السيرة .

وكان المعتمد بن عباد يرقب سير الحوادث فى غرناطة . فلما توفى باديس ، وخلفه حافده الصبى ، أدرك أن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشاريعه ،فسار فى قواته إلى مدينة جيان، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية ،واستولى عليها (٤٦٦ هـ — ١٠٧٤ م) . ثم سار بعد ذلك إلى غرناطة فى قوات كبيرة ، وابتنى بعض الحصون على مقربة منها ، لكى يستطيع بواسطتها إرهاق المدينة . فحشد الوزير سماجة قوات صنهاجة ، وأبدى منتهى العزم فى مقاومة المغيرين ، فاضطر ابن عباد أن يعود أدراجه دون طائل[٢] . ورأى الأمير عبد الله بتوجيه وزيره سماجة ، أن يعقد مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ، على نسق معظم أمراء الطوائف، معاهدة

(١) كتاب التبيان ص ٢٧ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٤ .

حلف وصداقة ، يتعهد فيها بتأدية جزية قدرها عشرون ألف دينار . وعلى أثر ذلك سار عبد الله فى قوات صنهاجة ، ومعها سرية من الجند النصارى أمده بها ألفونسو السادس ، وأغار على أراضى إشبيلية المجاورة ، واستطاع أن يسترد حصن قبرة الواقع فى جنوب غربى جيان .

وفى العام التالى سار ألفونسو إلى إشبيلية وغرناطة ، ومعه وزيره ومستشاره النصرانى المستعرب الكونت سسنندو (ششنند) ، وهو الذى سبق ذكره فى حوادث سقوط طليطلة ، ليطالب بأداء الجزية المفروضة . ويقول لنا الأمير عبد الله فى مذكراته ، إنه أبى أن يدفع تلك الجزية ، وإنه لم يخش يومئذ ضراً من ألفونسو ، وذلك أسوة بما فعل غيره من ملوك الطوائف(١) . وهنا يقوم المعتمد بن عباد بدوره المأثور فى انتهاز الفرصة ، وفى استعداء ملك قشتالة . ذلك أنه بعث وزيره ابن عمار إلى ألفونسو السادس ، فعقد معه اتفاقا وحلفاً ، خلاصته أن يتعاون الفريقان فى افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة ذاتها لابن عباد ، وأن يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة ، وأن يؤدى ابن عباد إليه فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار(٢) .

وأمد ملك قشتالة ابن عمار بسرية من جنده ، وبدأ بتنفيذ الخطة بإنشاء حصن على مقربة من غرناطة ، شحنه بالجند لإرهاق المدينة . وحاول ابن عباد أن يؤثر بواسطة هذا الحصن فى أهل المدينة ، ولكنه لم ينل منها مأربا بالرغم مما أحاق بها من الضيق . ولما منى ابن عباد بالهزيمة فى قرطبة على يد ابن ذى النون (٤٦٧ هـ) اضطر أن يخلى الحصن ، فاحتلته جنود غرناطة .

ثم عاد ابن عمار فحرض ألفونسو السادس على غزو أراضى غرناطة ، وزين له سهولة افتتاحها ، وعندئذ رأى عبد الله بن بلقين أن يتفاهم مع الملك النصرانى ، فسار إليه بنفسه ، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهد عبد الله بأن يؤدى جزية سنوية قدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب ، وأن يسلم بعض الحصون الواقعة جنوب غربى جيان ، وهذه باعها الملك النصرانى إلى ابن عباد .

وينقل إلينا الأمير عبد الله بهذه المناسبة ، ما سمعه من أقوال الكونت سسنندو (ويسميه ششلاند) مستشار ألفونسو ، شرحاً لسياسة مليكه فى الاستيلاء

---

(١) كتاب التبيان ص ٦٩ .

(٢) التبيان ص ٧٠ .

على الأندلس ، على النحو الآتى ، قال : « وإنما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر ، حتى غلب عليهم العرب ، وألحقوهم بأخس البقاع ، جليقية ، فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم ، فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة ، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف(١) » .

والتفت عبد الله للشئون الداخلية ، فعمل أولا على إزالة وزيره سماجة ، وكان هذا الوزير قد غلا فى الاستئثار بالسلطة ، والاستبداد بالأمور ، حتى شعر عبد الله بأنه لم يبق له سلطان إلى جانبه . ومن جهة أخرى ، فقد كان هذا الاستبداد يثير سخط رجال الدولة وطوائف الشعب عليه ، حسبما يحدثنا بذلك الأمير فى مذكراته ، ومن ثم فقد عمل عبد الله على إقالة وزيره بالحسنى ، وسمح له أن يسير فى أهله وأمواله الطائلة إلى ألمرية ، حيث نزل بها فى كنف صاحبها ابن صمادح ، واستقر هناك بحال ثروة وغناء (٢) .

وحاول عبد الله أن يعمل فى نفس الوقت على تنظيم الإدارة ، وعزل الحكام الظلمة ، وبدأ فى ذلك بوادى آش ، فعزل حاكمها ابن أبى جوش واعتقله ، ثم عزل حاكم المنكب وعين حكاما آخرين يظن فيهم العدل وحسن السيرة . وعقد الصلح والمودة مع ابن صمادح صاحب ألمرية ، بعد أن سوى النزاع بينهما على حصون الحدود مما يلى فنيانه (٣) .

وكان تميم بن بلقين أخو عبد الله ، قد استقل فى تلك الأثناء بحكم مالقة وأعمالها ، وتلقب بالمنتصر بالله ، واستبد وساء فى حكمه السيرة ، وأخذ يغير على نواحى المنكب وغيرها مما هو واقع تحت حكم أخيه . فسار إليه عبد الله فى بعض قواته ، واستولى على بعض حصون مالقة الأمامية ، ثم وقع القتال بين قوات الأخوين أمام مالقة وهزم عبد الله أولا ، ولكنه عاد فهزم جند مالقة ، وضيق على المدينة ، فبعث إليه أخوه يستعطفه ، وتدخلت والدتهما فى الأمر ، وخشى عبد الله من جهة أخرى أن يتحول أخوه إذا اشتد عليه ، إلى محالفة ابن عباد ، فمال إلى مهادنته ، وترك له حكم مالقة ونواحى الغربية أى غربى مالقة .

---

(١) كتاب التبيان ص ٧٣ .

(٢) كتاب التبيان ص ٨٧ و ٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٥ .

(٣) كتاب التبيان ص ٨٩ و ٩٠ .

وثار فى نفس الوقت كباب بن تميت حاكم أرشدونة (أرجدونة) وأنتقيرة وعاث فساداً فى تلك المنطقة ، فسار إليه عبد الله ، وضيق عليه ، حتى خضع ، وأخرج بالأمان .

وأخيراً تم عقد الصلح والمهادنة بين عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عباد ، ولم يتيسر ذلك إلا بعد مصرع ابن عمار وزير المعتمد ، وهو الذى يصفه عبد الله « بالفاسق » ، وبأنه كان أس الفتنة ، وسويت بين الفريقين سائر وجوه النزاع ، من حدود وغيرها (أواخر سنة ٤٧٧ هـ) .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك ، حتى وقع الحادث بسقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وذلك فى فاتحة صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٤ مايو سنة ١٠٨٥ م) ، فاهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، وأفاق ملوك الطوائف لأول مرة من تلك الغمرة التى خدرت مشاعرهم ، وأعمت بصائرهم مدى نصف قرن ، سادت فيه بينهم الفتن والحروب الأهلية ، ولبثوا يمزقون بعضهم بعضاً ، والعدو الخالد يضرب بينهم ، ويؤلب بعضهم على بعض ويتربص الفرصة لانتزاع كل ما يمكن انتزاعه من أراضى ذلك الوطن الذى نسوا قضيته ، وضحوا بمصلحته العليا ، استبقاء لمصالحهم الخاصة ، وأطماعهم الدنيا .

كان سقوط الحاضرة الأندلسية الكبرى — طليطلة — إذن نذير الخطر العام فنهض المعتمد بن عباد — وقد كان يحمل فى وقوع تلك المحنة أكبر الأوزار — ونهض زملاؤه أمراء الطوائف ، يحاولون جمع الكلمة ، ويزمعون الاستنجاد باخوانهم فيما وراء البحر ، ويبعثون بصريخهم ، إلى عاهل المرابطين الأمير يوسف ابن تاشفين ، حسبما فصلنا ذلك من قبل فى أخبار مملكة إشبيلية .

ويقول لنا الأمير عبد الله فى مذكراته ، إن أول من خطر له الاستنصار بالمرابطين من أمراء الأندلس ، هو أخوه الأمير تميم والى مالقة ، وأنه أراد أن يستعين بهم ضده ليستدرك ما فاته من مملكة جده باديس ، ولكن أمير المسلمين لم يلتفت إلى دعوته (١) .

وقد كان عبد الله على اتفاق مع زملائه أمراء الطوائف فى استدعاء المرابطين ، وقد أرسل رسله مع رسل ابن عباد إلى أمير المسلمين ، وتم الاتفاق فيما بين

(١) كتاب التبيان ص ١٠٢.

أمراء الأندلس ، وبين أمير المسلمين على أن يتحدوا جميعاً بمعونته على غزو قشتالة ، وعلى أنه لايعرض لأحدهم فى بلده ، ولايشجع أحداً ممن يروم الخروج عليه(١) .

ويحمل ابن الخطيب على الأمير عبد الله، ويقول إنه كان جباناً مغتمد السيف متكاسلا عن الخيل ، زاهداً فى النساء ، موصوفاً بالضعف ، لكنه يكتب ويشعر ويتحدث فيما يتحدث فيه الطلبة، ثم يقول لنا إنه وقف خلال زيارته لبلده أغمات على ديوان لعبد الله بخطه « ألفه بعد خلعه ، وقرر فيه أحواله والحادثة عليه ، مما يستظرف من مثله » مشيراً بذلك إلى مذكراته ، وهى التى رجعنا إليها فى مختلف المواطن(٢) .

ونستطيع أن نستشف من هذه المذكرات التى تركها لنا الأمير عبد الله بعنوان «كتاب التبيان » والتى كتبها فيما بعد خلال إقامته فى منفاه بأغمات ، وسرد فيها تاريخ آبائه ، وأحوال حكمه ، وحوادث الأندلس فى عصره : نستطيع أن نستشف منها مايؤيد قول ابن الخطيب فى جنوح الأمير عبد الله إلى السلم والملاينة والدعة ، وفى مجانبته للإقدام ، وتخوفه من الحروب وعواقب النضال ، وحبه للسلامة والعافية، وإنه ليشكر الله فى آخر مذكراته أن نجا من المصير الذى حل بابن الأفطس ، حيث فقد حياته مدافعاً عن نفسه ضد المرابطين(٣) .

---

(١) التبيان ص ١٠٣ .
(٢) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٥ .
(٣) كتاب التبيان ص ١٧٦ .

الفصل الثاني

الإمارات البربرية الأخرى
فى جنــوبى الأندلس

الإمارات البربرية فى الجنوب. خواصها وتكتلها. إمارة قرمونة. بنو برزال وجوازهم إلى الأندلس. ولاية عبد الله البرزالى لقرمونة. استبداده بها. حكمه وسيرته. التحالف بين البرزالى وابن عباد. انقلاب ابن عباد عليه. الحرب بين ابن عباد والبربر. وفاة البرزالى وولاية ولده إسحاق. ولاية عزيز المستظهر. إرهاق ابن عباد له. نزوله عن قرمونة لابن ذى النون. نزول ابن ذى النون عنها إلى ابن عباد. بنو يفرن وجوازهم إلى الأندلس. نزولهم أيام الفتنة برندة. زعيمهم أبو نور هلال. مصانعة ابن عباد للبربر ثم غدره بهم. باديس ولد أبى النور. عود أبى النور إلى رندة ووفاته. ولده أبو نصر فتوح ومصرعه. استيلاء ابن عباد على رندة. بنو دمر وهجرتهم إلى الأندلس. نزولهم بمورور. أبو تزيرى الدمرى وولده نوح. محمد بن نوح ومصرعه فى كمين ابن عباد. ولده مناد يخلفه. غارات المعتمد على مورور. إذعان مناد ونزوله عنها إلى ابن عباد. بنو خزرون وتغلبهم على أركش. محمد بن خزرون وخلفاؤه. غارات ابن عباد على أركش. تخلى بنى خزرون عنها وخروجهم منها. مداهمة ابن عباد لهم. استيلاء ابن عباد على أركش وأراضيها. انتهاء الدول البربرية فى تلك المنطقة.

إلى جانب دولة بنى مناد أو بنى زيرى فى غرناطة، كانت تقوم ثمة عدة إمارات بربرية أخرى فى هذه المنطقة الجنوبية من الأندلس، منطقة المثلث الإسبانى الواقع جنوب نهر الوادى الكبير، والممتد من غربى مملكة غرناطة شرقاً، حتى مصب الوادى الكبير غرباً، ومن الوادى الكبير شمالا، حتى ثغر مربلة وأرض الفرنتيرة جنوباً.

ومن الواضح أن اجتماع هذه الممالك البربرية الصغيرة فى هذه المنطقة، يرجع إلى عوامل جغرافية وعسكرية. ذلك أن المثلث الإسبانى هو أقرب مناطق شبه الجزيرة إلى المغرب، بحيث تغدو مغادرة الأندلس وقت الخطر أو عند الضرورة أمراً ميسوراً، وكذلك تستطيع الأمداد من أقوامها أن تعبر البحر من المغرب إلى الأندلس بسرعة وسهولة. ومن جهة أخرى فإن اجتماع هذه الإمارات فى هذه المنطقة جنباً إلى جنب، كان يحمل معنى التكتل القبلى أو العنصرى بصورة واضحة، ويمكنها وقت الخطر من توحيد الصفوف، والتعاون على رد العدو

المهاجم . وهذا مارأينا ينطبق بصورة عملية فى المعارك التى لبثت طوال أيام الطوائف، تضطرم فى هذه المنطقة بين البربر وبين خصومهم الألداء بنى عباد، وهم أقوى الممالك الأندلسية المناهضة لهم فى معظم النواحى .

وقد قامت هذة الممالك البربرية الصغيرة إلى جانب شقيقتها الكبرى ، دولة بنى مناد فى غرناطة، وفى مثل الظروف التى قامت فيها ، وكانت مملكةغرناطة تتولى حمايتها والدفاع عنها كلما دهمها خطر بنى عباد ، وكانت هى تلتف فى نفس الوقت حول غرناطة ، كلما دعت إلى ذلك ضرورة سياسية أو عسكرية .

ولم تكن هذه الإمارات البربرية تملك مقومات الدولة الراسخة المستقرة، ولكنها كانت فى الواقع أقرب إلى سيادة العصبة القبلية، أو رياسة الأسرة ذات البأس والجاه ، ولم يكن لها حكومات أوجيوش منظمة بالمعنى الصحيح،وإنما كانت تستند فى سلطانها إلى حشود القبيلة أو الأسرة المسيطرة ، وكانت تجرى فى الحكم على قاعدة الإستبداد المطلق ، وأصول العرف البدوى الساذج ، ومن ثم فإنها لم تكن محبوبة من رعاياها الأندلسيين . الذين عرفوا منذ بعيد مزايا الحكم المنظم ، ورفاهة العيش المتحضر .

وكانت ثمة من هذه الإمارات — غير مملكة غرناطة — أربع تقوم من حولها وهى إمارة قرمونة ،وإمارة رندة ،وإمارة مورور ، وإمارة شذونةوأركش .

١ — دولة بنى برزال فى قرمونة

وكان أهم هذه الإمارات ، إمارة قرمونة الواقعة فى منحنى الوادى الكبير ، بين إمارة قرطبة شرقاً ، ومملكة إشبيلية غرباً ، وقاعدتها مدينة قرمونة الحصينة الواقعة شمال شرقى إشبيلية . وكانت تشمل غير قرمونة ، مدينة إستجة الواقعة فى شرقها . ومدينة المدَوّر الواقعة غربى قرطبة على نهر الوادى الكبير .

وكانت مدينة قرمونة منذأيام هشام المؤيد ، وقبل انهيار الدولة العامرية ، بيد حاكمها الحاجب أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن برزال المعروف بأبى عبد الله البرزالى، وكان بنو برزال هؤلاء ينتمون إلى بطن من بطون زناتة من بنى يفرن، وكانوا يقطنون بالمغرب بأرض المسيلة والزاب الأسفل . ونحن نعرف أن زناتة كانت أيام الدولة الأموية من القبائل المشايعة لها بالمغرب ضد خصومها الشيعة العبيديين أو الفاطميين ، وكان من خصوم الشيعة فى نفس الوقت جعفر ويحيى

ابنا على بن حمدون الأندلسى ، صاحب المسيلة وما جاورها من أراضى المغرب الأوسط . فلما اضطرمت الحرب بين بنى زيرى زعماء صنهاجة وأولياء العبيديين . وبين زناتة وحلفائها ، ومنهم جعفر ويحيى ابنا حمدون ، فى أواخر أيام الحكم المستنصر ، وهزمت صنهاجة وقتل كبيرهم زيرى بن مناد (سنة ٣٦٠ هـ) ، هاجر جعفر ويحيى فى الأهل والصحب والمال إلى الأندلس ، خوفاً من انتقام صنهاجة ، وخدما الحكم المستنصر ، وحظيا فى دولته ، وذلك حسبما ذكرنا من قبل فى أخبار الحكم .

ولما استطالت صنهاجة على المغرب الأوسط ، شعر بنو برزال الزناتيين باشتداد وطأتها ، فكتبوا إلى جعفر بن على الأندلسى ، أن يسعى فى جوازهم إلى الأندلس لدى الخليفة الحكم ، فعمل جعفر على تحقيق رغبتهم ، ووصفهم لدى الحكم بالشجاعة والإنقياد إلى الطاعة ، فأذن لهم بالجواز ، وانتظموا فى خدمة الجيش تحت يد جعفر ، واستمروا كذلك أيام الحكم ثم المنصور ، حتى ندب كبيرهم الحاجب أبوعبد الله محمد بن عبدالله بن برزالى أو البرزالى لحكم مدينة قرمونة فى أواخر الدولة العامرية ، واستقر أهله وصحبه هنالك فى كنفه ، إلى أن وقعت الفتنة ، فخاض بنو برزال غمارها إلى جانب أضرابهم من البطون البربرية الأخرى ، ولما انتثر عقد الأندلس ، واحتفظ كل رئيس بمدينته ، دعا أبو عبد الله لنفسه فى قرمونة ، وذلك فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) ، واستبد بحكمها ، وضبط شئونها ، ورتب جندها[١] . وفى بعض الروايات المتعلقة بالطوائف أن أبا عبد الله سار فى حكمه سيرة حسنة ، وعامل الرعية بالرفق والعدل فمالت إليه النفوس ، وعمرت قرمونة ، وسادها الأمن ، وبايعته مدينة إستجة ثم أشونة والمدور وغيرها من البلاد[٢] ، وغدت قرمونة بذلك إمارة لها خطرها وأهميتها فى تلك المنطقة ، وغدت بعد غرناطة ، ثانى الإمارات البربرية .

ولكن ابن حيان ، وهو المؤرخ المعاصر ، يحمل على أبى عبد الله البرزالى ويصفه « بقطب رحى الفتنة » وبنوه بفتكه وعيثه ، وقبح آثاره فى تلك المنطقة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٧ و ٢٦٨ : ونبذ تاريخية فى أخبار البربر (الرباط ١٩٣٤) ص ٤٤ .

(٢) نشرت هذه الرواية المتعلقة بالطوائف ، وهى لكاتب مجهول فى نهاية الجزء الثالث من البيان المغرب . راجع منها ص ٣١١ و ٣١٢ .

وقطعه للسبل إلى آخر ماجاء فى أقواله ، مما سبق أن ذكرناه فى موضعه من قبل[١] .
وعلى أى حال فإنه يبدو أن البرزالى ، كان زعيما قوياً ، وافر الإقدام والعزم والشجاعة . وهذا ما يقرره لنا ابن الخطيب ، إذ يصفه بأنه كان يلى باديس فى جلالة الشأن ، وقوة السلطان ، « بقية أمراء البربر المسلطين فى هذه الفتنة ، وأعظمهم شأناً فى الدهاء والرجولة ، وأبصرهم بتدبير العساكر ، وأربطهم جأشاً على الخطوب المقلقة »[٢] .

وقد رأينا من قبل كيف كان القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية ، يعتمد فى البداية على محالفة البرزالى ضد خصومه ، وكيف كان البرزالى من جانبه يرحب بهذه المحالفة ، اتقاء لشر بنى حمود وأطماعهم فى إمارته . وكان من آثار هذا التحالف أن حارب البرزالى إلى جانب ابن عباد ضد بنى الأفطس أصحاب بطليوس، فى حملته ضد باجة سنة ٤٢١ هـ ،وكان من آثاره أيضاً أن توجس يحيى ابن حمود المعتلى صاحب مالقة شراً من مشاريع ابن عباد ، فسار فى قواته إلى قرمونة وانتزعها من يد البرزالى ، فاستغاث البرزالى بحليفه ابن عباد ، وبعث ابن عباد قواته مع ولده إسماعيل ، ونشبت بينه وبين المعتلى معركة قتل فيها المعتلى ، واستردت قرمونة وأعيدت إلى البرزالى ، وذلك فى المحرم سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٦ م) .

ولكن ابن عباد كانت له نحو قرمونة مشاريع أخرى ، فقد كانت قرمونة حصن إشبيلية من الشرق، وكان وجودها بيد هذا الزعيم البربرى أمرلا يحتمل ، ومن ثم فقد تحول ابن عباد فجأة إلى مخاصمة البرزالى ، وسير إليه قواته فاستولت على إستجة ، ثم استولت بعد ذلك على مدينة قرمونة، وعندئذ استغاث البرزالى ، بزملائه البربر ، وهرع إلى نصرته باديس صاحب غرناطة ، وإدريس المتأيد صاحب مالقة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، انتهت بانتصار البربر وهزيمة الإشبيليين ومقتل أميرهم إسماعيل بن عباد ، واسترداد قرمونة، وذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) .

وتوفى أبو عبد الله محمد البرزالى بعد ذلك بثلاثة أعوام سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) بعد أن حكم قرمونة وأعمالها ثلاثين عاماً .

---

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الكتاب . وراجع البيان المغرب ص ٢٠٦ .
(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

فخلفه والده الأكبر إسحق بن محمد ، وهو فى سن الكهولة . ويصفه ابن حيان بأنه كان رئيساً حازماً وافر الكفاية والبأس والفروسية ، ولكن دون أبيه محمد فى القسوة والفظاظة « وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة ، والبعد عن آفات الملوك الشائنة »(١) . والظاهر أنه لم يحكم طويلا . بل إن صاحب الرواية الخاصة بالطوائف ، التى سبقت الإشارة إليها ، يغفل ذكره تماماً ، ويقول لنا إن الذى خلف أبا عبد الله البرزالى ، هو ولده عزيز الملقب بالمستظهر وإن أخاه إسحق بايعه ، وتم له الأمر(٢) .

وسار المستظهر فى حكمه سيرة حسنة ، وبايعت له البلاد التى كانت تحت حكم أبيه ، وساد الأمن والرخاء فى أيامه ، بيد أنه لم يلبث أن بدأ المعتضد بن عباد فى مضايقته وإرهاقه بغزو أراضيه وانتساف زروعه ، واستمرت المعارك بينهما أعواماً ، وهلك فى ذلك النضال كثير من البربر ، واضطربت الأحوال فى مملكة قرمونة ، وعندئذ بعث عزيز المستظهر إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، يعرض عليه أن يسلمه قرمونة ، نكاية فى ابن عباد ، على أن يعوضه عنها ابن ذى النون قسما من أراضيه الجوفية ، فقبل المأمون هذا العرض ، وانتقل عزيز بأهله وأمواله إلى حصن المدور شمالى إستجة من أراضيه ، وعاش هنالك حتى توفى . وفى أثناء ذلك وقعت المفاوضة بين ابن عباد ، والمأمون ، وتفاهما على أن ينزل المأمون للمعتضد عن قرمونة لقربها من أراضيه ، وأن يتعاون الاثنان على افتتاح قرطبة ، واستلم ابن عباد قرمونة ولكنه لم يف للمأمون بشىء من عهوده(٣) .

وفى رواية أخرى ، أن المستظهر اضطر فى النهاية أن ينزل مباشرة عن قرمونة إلى ابن عباد ، بعد ما يئس من القدرة على الاحتفاظ بها ، وأنه سار بأمان ابن عباد إلى إشبيلية ، وهنالك توفى بعد قليل . وكان استيلاء ابن عباد على قرمونة فى سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) . وبذلك انتهت دولة بنى برزال فى هذا القطاع من المثلث الأندلسى ، واختفت واحدة من الإمارات البربرية(٤) .

---

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٢٣٧ .

(٢) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢ .

(٣) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٨ .

(٤) راجع فى أخبار مملكة قرمونة ، أعمال الأعلام ص ٢٣٦ — ٢٣٨ ، وذيل البيان المغرب ص ٣١١ و ٣١٢ . وكذلك : P. y Vives : Historia de los Reyes de Taifas; p.23

٢ — دولة بنى يفرن فى رندة

وبنو يفرن هم أيضاً بطن من بطون زناتة، وكانوا بالمغرب من أولياء الدعوة الفاطمية، وقد اشتركوا فى الحرب التى وقعت بالمغرب أيام المنصور بن أبى عامر، وقاتلهم زيرى بن عطية أمير مغراوة وعامل المنصور على المغرب، حتى هزمهم بعد معارك هائلة، وهلك أميرهم يدُّو بن يعلى وذلك فى سنة ٣٨٣ هـ. وعلى أثر ذلك افترقوا إلى شقين، وجنحت منهم شيعة إلى الانحياز إلى الدعوة المروانية، واستأذنوا المنصور فى الجواز إلى الأندلس، فأذن لهم وخدموا فى الدولة والجيش أسوة بباقى الوافدين من القبائل البربرية. ولما انتهت الدولة العامرية، واضطربت نار الفتنة، وتفرقت القبائل البربرية فى النواحى، استقر بنو يفرن فى ولاية تاكرونّا، واتخذوا من قلعتها رندة مركزاً لرياستهم[١]، وكان زعيمهم يومئذ هو أبو نور هلال بن أبى قرة بن دوناس اليفرنى. وكان زعيما «جسوراً جشعاً، مقداماً، عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة رحاله، وحصانة قلاعه»، ولكنه كان فى نفس الوقت عاطلا عن كل فضيلة وكل خلة حسنة. وبدأ هلال رياسته لمنطقة تاكرونّا، حسبما يقول لنا صاحب الرواية المتعلقة بتاريخ الطوائف، عقب وفاة إدريس بن على بن حمود فى سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م)[٢]، وكانت تشمل أراضى ولاية ريُّه، ما بين نهر وادى لكه والبحر، وكانت قاعدتها رندة من أمنع معاقل الأندلس الجنوبية. وقد رأينا القاضى ابن عباد يخطب منذ البداية ود أولئك الأمراء البربر الذين يحتلون أراضى القطاع الأندلسى الجنوبى المتاخم لأراضيه. وجرى ولده المعتضد على سياسته فى توثيق أواصر المودة معهم. بيد أن سياسة بنى عباد، لم تكن تقوم فى ذلك حسبما رأينا، على الصدق والولاء، وإنما كانت تقوم على الخديعة والمصانعة، وقد تجلت حقيقتها فى حوادث مملكة قرمونة. وهكذا كان المعتضد يبدى مودته لأبى نور زعيم بنى يفرن، وزملائه أمراء بنى دمر أصحاب ولاية مورو، وبنى خزرون أصحاب ولاية شذونة وأركش،

---

(١) نبذ تاريخية فى تاريخ البربر ص ٤٥.

(٢) راجع ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢. ويقول صاحب الرواية إن هلالا قد بويع له بعد موت إدريس بن على بن حمود سنة ست وأربعمائة وهو تحريف. فقد توفى إدريس سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٩م).

وكان يستميلهم بالصلات والدعوات الودية . وفى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م وجه المعتضد دعوته لأبى نور ، ولمحمد بن نوح الدمرى صاحب مورور ، والقائم ابن محمد بن خزرون أمير بنى أرنيان وصاحب شذونة وأركش ، لزيارته فى إشبيلية ، فساروا إليه فى صحبهم وفرسانهم فى أحسن زى وأكمل هيئة ، وكان المعتضد قد دبر كمينه لاغتيالهم حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة بنى عباد ، وانتهت هذه الدعوة الغادرة بالقبض على أولئك الأمراء وصحبهم وتكبيلهم بالأغلال ثم هلاك اثنين منهم ، وهما ابن نوح وابن خزرون ، فى الحمام ، وأفلت منهم هلال أبو نور ، حيث أطلق المعتضد سراحه وأخلى سبيله .

وفى خلال ذلك كان باديس ولد هلال أبى نور ، قد قام بالرياسة فى غيبته أثناء اعتقاله بإشبيلية ، وكان « فاسقاً مجرماً » فاستبد بالأمر ، وأرهق الناس ببغيه وطغيانه، وأطلق العنان لشهواته الدنيئة، فاستباح الحرم وسطا على الأعراض هو وصحبه ، فكانوا يأخذون الزوجات من أزواجهن ، والبنات من آبائهن ، ولم يفر حتى أقرب الناس إليه من خاصة محارمه . فلما تخلص أبو نور من الأسر، وعاد إلى رندة، وعلم بما وقع من ولده من العظائم، أمر فى الحال بالقبض عليه وإعدامه وذلك فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) . انه لم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى توفى أبو نور نفسه، وخلفه فى الإمارة ولده أبو نصر فتوح بن أبى نور [١] .

واستطال حكم أبى نصر زهاء ثمانية أعوام . وكان عادلا حسن السيرة . بيد أنه كان ميالا إلى الدعة منهمكاً فى الشراب . وكان المعتضد بن عباد من جهة أخرى يتربص به ويترقب الفرصة لهلاكه ، وانتهى بأن دس عليه رجلا من دعاته برندة يدعى ابن يعقوب ، وكان فارساً مقداماً ، فدهم أبا نصر ذات يوم فى جماعة من صحبه ، وهو فى إحدى شرفات القصبة العليا ، وصاحوا بشعار بنى عباد ، فحاول أبو نصر الفرار ، ووثب من الشرفة فهوى إلى أسفل ، فارتطم بالصخر وزهق على الأثر ، ولم يأبه الناس لما حدث ، ولم يتعرض للقتلة أحد ، وانتهت بذلك دولة بنى يفرن ، واستولى ابن عباد على رندة وأعمالها بأيسر أمر ، وكان ذلك فى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) [٢] . ونظم المعتضد بهذه المناسبة قصيدته التى مطلعها

لقد حصلت يارندة   فصرت لملكنا عقدة

---

(١) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٣ .

(٢) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٣ و ٣١٤ .

٣ — دولة بنى دمّر فى مورون

وكانت ثالثة الإمارات البربرية فى تلك المنطقة من الأندلس الجنوبية ، هى إمارة بنى دمر فى مورور أو مورون(١) . وكانت تشغل رقعة صغيرة تمتد حول مدينة مورور ، وجنوباً حتى وادى لكه . وقام بها أيام الفتنة نوح بن أبى تزيرى الدمّرى زعيم بنى دمّر . وقد كان بنو دمر من بربر تونس ومن بطون زناتة ، وهم خوارج إباضية . وفد جدهم أبو تزيرى إلى الأندلس أيام المنصور ، وخدم كسائر زملائه الزعماء البرابرة فى الجيش ، وانحاز منذ أيام الفتنة إلى تلك المنطقة ، واستقر بها وبسط عليها سلطانه . ولما توفى فى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) خلفه ولده نوح بن أبى تزيرى ، واستمر فى حكمها زهاء ثلاثين عاماً ، ثم توفى سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) فخلفه ولده محمد بن نوح . وكان محمد فتى غرا ، وجندياً جاهلا ، خلواً من الفضائل . بيد أنه كان مقداماً جسوراً ، « وافر العنف والفتاك »(٢) . وكان حديث عهد بالإمارة ، فاستبد وبغى وتلقب بعز الدولة ، واستطاع بجرأته وصرامته ، أن يحافظ على سلطانه وعلى أراضيه . وكان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ينظر بعين السخط إلى قيام تلك الإمارات الصغيرة بجوار مملكته القوية الشاسعة ، ويعمل الفكرة فى إزالتها ، وكان حسبما تقدم يصانع أولئك الأمراء البربر أحياناً ويهاجمهم أحياناً أخرى ، وقد ذكر لنا صاحب الذخيرة أنه استغل هذه السياسة المزدوجة تجاه إمارة مورور الصغيرة ، فأغارت قواته على أراضى مورور ، واستقبل محمد بن نوح هذا العدوان بالحلم والصبر ، ولم يقابله بمثله(٣) . وجنح المعتضد بعد ذلك إلى مصانعة ابن نوح ، واستمالته بالصلات والهدايا ، كما فعل ذلك مع زميليه ، أبى نور صاحب رندة ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، ثم دعاهم وصحبهم كما تقدم إلى زيارته فى إشبيلية ، ثم قبض عليهم وغدر بهم ، وهلك فى ذلك الكمين الخائن الذى رتبه المعتضد فى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) محمد بن نوح وابن خزرون . وفى رواية أخرى أن محمداً بن نوح لبث فى

---

(١) وهى بالإسبانية Morón .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٩ ، وذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٣) نقله صاحب البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٤ .

معتقل المعتضـــد حتى توفى فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) .

فخلفه فى الإمارة ولده مناد بن محمد بن نوح ، وتلقب بعماد الدولة ، وسار على سنة أبيه من الصرامة والحزم ، وقصده البربر من إشبيلية وإستجة وزادت جموعه ، واستمر محافظاً على سلطانه ، والمعتضد بن عباد يكرر الإغارة على أراضيه ، ويحرق بلاده وزروعه ، ويرهقه بطريقة قاسية منظمة . فلما ضاق بهذا العدوان المستمر ، ولما شعر فى النهاية أنه عاجز عن الدفاع عن إمارته ، كتب إلى المعتضد ، يسأله الأمان والمسالمة على أن يسلمه أراضيه ، ويخرج إلى إشبيلية ، يعيش فيها تحت كنفه ، فأجابه المعتضد إلى رغبته ، وسلم إليه عماد الدولة حصن مورور ، وما يتبعه من حصون وأعمال ، وذلك فى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ، وانتهت بذلك مملكة بنى دمّر الصغيرة ، وأضيفت إلى أعمال مملكة إشبيلية الشاسعة. وسار عماد الدولة إلى إشبيلية فى أهله وأمواله ، وبالغ المعتضد فى إكرامه والتوسعة عليه ، وعاش هناك حتى توفى فى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥م) .

٤ — دولة بنى خزرون فى أركش

وكانت دولة بنى خزرون هى رابعة الإمارات البربرية الصغيرة فى تلك المنطقة . وبنو خزرون هم من أبناء قبيلة يرنيان أو إرنيان من زناتة ، وكان زعيمهم أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزرى ، وهو كغيره من زعماء البربر الوافدين على الأندلس أيام الدولة العامرية ، قد ظهر أيام الفتنة بمدينة قلشانة بكورة شذونة على مقربة من أركش ، وذلك فى سنة اثنتين وأربعمائة. ثم تغلب على مدينة أركش المنيعة ، وأقام بها حكومة مستقلة تشمل الأنحاء المجاورة ، وتلقب بعماد الدولة ، وكان زعيما جسورا مقداما ، سفاكاً للدماء ، فهابه الناس واستمر يحكم تلك المنطقة حتى توفى فى سنة ٤٢٠هـ (١٠٢٩م) . فخلفه ولده عبدون ابن خزرون ، وبايعته البلاد المجاورة لأركش وقلشانة وشريش ، واستمر حكمه زهاء خمسة وعشرين عاماً ، إلى أن هلك بإشبيلية فى الكمين الشائن ، الذى استدرجه إليه المعتضد بن عباد هو وزميلاه محمد بن نوح الدمرى ، وأبو نور بن أبى قرة ، حسبما أشرنا إلى ذلك غير مرة ، وكان ذلك فى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) .

فتولى الأمر من بعده أخوه محمد بن خزرون وتلقب بالقائم ، وأخذ يحصن بلاده ، ويتأهب لمقاومة ابن عباد بعد الذى بدا من غدره . والواقع أن

ابن عباد ما فتىء يترقب الفرصة للاستيلاء على هذه المنطقة التى تجاوره من الجنوب الشرقى، وتفصله عن إمارة رندة ، وهى التى كان يطمع إلى أخذها فى نفس الوقت ، فعمد إلى الإغارة عليها، وتخريب أراضيها وإرهاقها بكل الوسائل وابتنى حصناً على مقربة من أركش وشحنه بالمقاتلة لمضايقتها بطريقة منظمة ، والقائم صامد يدافع عن أراضيه ما استطاع . وأخيراً ألفى القائم أنه لا يستطيع مدافعة ابن عباد إلى النهاية ، فلجأ إلى باديس بن حبوس أمير غرناطة ، واتفق معه على أن يعطيه قلعة أركش وسائر البلاد التى تحت حكمه ، على أن يعطيهم أرضاً من بلاده ينزلون بها ويقيمون فيها ، وبعث باديس بقوة كبيرة من جنده ليعاونهم على الجلاء . وخرج بنو إرنيان من أركش بأهلهم وأموالهم، يقصدون إلى أرض غرناطة . وكان ابن عباد قد رتب الكمائن لاعتراضهم ، فما كادوا يبتعدون بأحمالهم عن القلعة حتى خرجت كمائن ابن عباد ، ونشب بين الفريقين قتال مرير ، دافع فيه بنو إرنيان عن أنفسهم وعن أموالهم وحريمهم أشد دفاع ، بيد أنهم مزقوا فى النهاية ، وقتل أميرهم محمد بن خزرون وقتل معه قائد جند باديس ، وأبيد معظمهم . ومما يذكر أن محمداً بن خزرون لما شعر بالهلاك أمر غلامه أن يقتل زوجته وكانت رائعة الحسن ، وكذلك أخته ، حتى لا تقعا فى أيدى العدو ، واكتفى ابن عباد بتمزيق بنى إرنيان وترك فلولهم دون مطاردة ، ودخل أركش واستولى على سائر البلاد التابعة لها، وذلك فى سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م)(١)

وهكذا سقطت الإمارات البربرية الصغيرة الأربع ، التى تقع فى منطقة المثلث الإسبانى الجنوبى ، وضمت كلها تباعاً إلى مملكة إشبيلية القوية ، وذلك خلال أعوام قلائل فقط ، رندة فى سنة ٤٥٧ هـ ، ومورور سنة ٤٥٨ هـ ، وقرمونة سنة ٤٥٩ هـ ، وأركش فى سنة ٤٦١ هـ .

وأضحت مملكة إشبيلية ، بعد الاستيلاء على تراث هذه الإمارات ، تمتد من ولاية تدمير شرقاً ، حتى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن وسط الأندلس ، من شرقى مملكة طليطلة ، وغربى مملكة قرطبة شمالا ، حتى أرض الفرنتيرة ، وثغر الجزيرة جنوباً ، وإذا استثنينا مملكتى ألمرية وغرناطة ، فان مملكة إشبيلية كانت تضم معظم تراث الدولة الأموية الذاهبة فى وسط الأندلس وفى جنوبها .

---

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٩ و ٢٤٠ ، والبيان المغرب ج ٤ ص ٢٧١ و ٢٧٢ وذيله ج ٣ ص ٢٩٤ و ٢٩٥ .

الكتاب الثالث

دول الفتيان الصقالبة وخلفائهم

فى شرقى الأندلس

الفصل الأول

مملكة ألمرية

الفتيان الصقالبة . اشتراكهم فى حوادث قرطبة . نزوحهم إلى شرق الأندلس . استيلاء خيران العامرى على أوريولة ومرسية وألمرية . يؤيد خلافة المرتضى . اختيار الفتيان لعبد العزيز المنصور زعيماً لهم . خيران يبايع محمد بن عبد الملك ثم يختلف معه . حكم خيران فى ألمرية ومنشآته . شجاعته وإقدامه. وفاته وولاية زهير العامرى مكانه. صفاته. وزيره أحمدبن عباس. حملته إلى غرناطة ومصرعه استيلاء عبد العزيز بن أبى عامر على ألمرية . استخلافه لوزيره ابن صمادح عليها . تغلب ابن صمادح على ألمرية . بنو صمادح وزعيمهم أبى يحيى عامل وشقة. ولده ممن يتولى الوزارة لصهره عبد العزيز ثم ينتزع منه ألمرية . وفاته وقيام ولده أبى يحيى المعتصم مكانه. صداقته لباديس صاحب غرناطة . خلافه مع عبد العزيز صاحب بلنسية . الثورة فى لورقة . تأييد عبد العزيز لها . الحرب بينه وبين المعتصم وباديس. استقلال الثوار بحكم لورقة . الخلاف بين المعتصم وباديس . استيلاء المعتصم على أراضى غرناطة الشرقية . استيلاؤه على جيان . الخلاف بين المعتصم وعبد الله صاحب غرناطة والصلح بينهما . أدب المعتصم وشاعريته . أقوال ابن بسام . سقوط طليطلة وموقف المعتصم من استدعاء المرابطين . تنافسه مع ابن عباد لدى أمير المسلمين . مساهمة جنده فى موقعة الزلاقة . مساهمته فى حصار حصن لييط . وفاته وما يروى حولها . ولده معز الدولة . فراره من ألمرية عند مقدم المرابطين .

١ — عهد الفتيان العامريين

لما وقعت الفتنة ، وانتهت الدولة العامرية ، بتربع محمد بن هشام المهدى على كرسى الخلافة ، فى جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (فبراير ١٠٠٩ م) ، ومقتل عبد الرحمن بن المنصور ، بعد ذلك بأيام قلائل ، غادر معظم الفتيان الصقالبة قرطبة ، فراراً من اضطهاد العهد الجديد ، وقصدوا إلى شرق الأندلس ، حيث كانت الأحوال أهدأ وأكثر استقراراً ، وجو العمل والمغامرة أكثر انفساحاً . وكان منهم عدة من الفتيان الفحول والخصيان الأذكياء ، ذوى الإقدام والعزم ، مثل مجاهد ، وقد غلب على مدينة دانية والجزائر الشرقية ، ولبيب وقد غلب على طرطوشة . ومظفر ومبارك وقد غلبا على بلنسية ، ونبيل وقد غلب على شاطبة ، وخيران ، وقد غلب على ألمرية ومرسية وأوريولة .

وإنما يهمنا هنا ، من هذه الجمهرة من الفتيان الصقالبة، خيران العامرى ،

وقد كان من أقواهم عزماً ،وأنشطهم إلى خوض غمار الحوادث ، التى تلت سقوط الدولة العامرية . ونحن نعرف أن محمداً بن هشام المهدى حينما تولى الخلافة ثار عليه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر فى أنصاره ومرشحيه من البربر ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة حول قرطبة وفى الزهراء ،هزم فيها سليمان وحزبه فى البداية . وكان الفتيان العامريون ينقمون على المهدى ما فعله بهشام المؤيد من حبسه بالقصر واضطهاده ، وما فعله بعبد الرحمن المنصور وبنى عامر ، فائتمروا به وقتلوه ، وكان من بين مدبرى هذه المؤامرة الحاجب واضح الفتى ، وزميلاه عنبر وخيران ، وكانا قد قدما من شرقى الأندلس إلى قرطبة مع عدد آخر منهم ، ليشتركوا فى حوادث قرطبة ، وليبحثوا عن طالعهم فيها .

ورفع الفتيان الصقالبة ، هشاماً المؤيد إلى كرسى الخلافة مرة أخرى،وتولى واضح حجابته . ولكن البربر تمسكوا بموقفهم وبمرشحهم سليمان ، واستأنفوا هجومهم على قرطبة وحاصروها ، وقاتلوا أهلها بمنتهى الشدة ، ودافع القرطبيون عن أنفسهم بمنتهى البسالة ، ولكنهم ضاقوا بالحصار والعدوان ذرعاً ، ووجه اللوم فى ذلك إلى الحاجب واضح ، فقتله زملاؤه ، وفى النهاية تغلب البربر على كل مقاومة ، واعتلى سليمان كرسى الخلافة باسم المستعين،وذلك فى شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو ١٠١٣ م) .

وكان الفتيان العامريون قد خشوا العاقبة بعد مقتل واضح،وهالهم فى نفس الوقت، ما ارتكبه سليمان وصحبه البربرمن العيث والسفك ، وجرح الكثير منهم خلال القتال ومنهم خيران ، فغادروا قرطبة ناجين بأرواحهم ، وقصدوا إلى شرقى الأندلس مرة أخرى .

وسار خيران أولا إلى أوريولة فى شرقى الأندلس فاستولى عليها ، ثم وثب منها على مدينة مرسية عاصمة تدمير ، فأخضعها لسلطانه (٤٠٣ هـ) ، وخرج منها بعدئذ بقواته إلى ثغر ألمرية . وكان عليها أفلح الصقلبى ، وهو حسبما تصفه الرواية غر جلف ، قد ذهب به العجب كل مذهب ، وكان يدل على زملائه الفتيان الصقالبة بقدمه وشيخوخته ، فهاجمه خيران ، وقتله هو وولده ، وانتزع منه ألمرية ، وذلك فى المحرم سنة ٤٠٥ هـ (يوليه ١٠١٤ م) وغدت ألمرية من ذلك الحين قاعدته الرئيسية،ومستودع أمواله وعدته ، كما غدت مركز الدعوة

لإمامة هشام المؤيد ، وهو الذى كان يعتبره فتيان الصقالبة إمامهم ومولاهم .

وقد رأينا فيما تقدم من أخبار الدولة الحمودية، كيف ادعى على بن حمود الحسنى حاكم سبتة أيام الفتنة ، أنه تلقى عهد هشام ، وكيف تحالف معه خيران ثم عاونه بقواته ، كما عاونه بربر غرناطة ، وانتهى الأمر بأن زحفت القوات المتحدة على قرطبة ، وكتب النصر لعلى بن حمود ، ودخل قرطبة ، ولما لم يعثر على هشام المؤيد بالقصر ، دعا لنفسه بالخلافة، وبدأت بذلك دولة بنى حمود (سنة ٤٠٧ هـ) .

ثم رأينا كيف غادر خيران قرطبة مغضباً متوجساً من غدر على بن حمود، وقصد إلى جيان ، ودعا أصحابه بالخلافة لعبد الرحمن المرتضى ، وأيده فى تلك الحركة عدة من ولاة الثغور ، ثم وقعت الحرب بين قوات المرتضى وبربر غرناطة ، فهزم المرتضى ثم قتل ، وعندئذ سار خيران فى أصحابه ، وقصد إلى ألمرية مرة أخرى ، وكان ذلك فى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩ م) .

والظاهر أن خيران ، بالرغم من اتخاذه ألمرية قاعدته الرئيسية ، قد لعب فى حوادث شرقى الأندلس دوراً ملحوظاً . ذلك أن الفتيان العامريين فى شرقى الأندلس ، قد اتفق رأيهم على أن يتخذوا لهم رئيساً من سلالة مولاهم العظيم ، المنصور بن أبى عامر ، ينضوون جميعاً تحت لوائه من الناحية الأدبية ، فوقع اختيارهم فى ذلك على عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، وكان فتى حدثاً ونحن نذكر أنه كان أيام أبيه عبد الرحمن المنصور طفلا ، ومع ذلك فلقد أسبغ عليه والده لقب الحجابة ، ولقبه بسيف الدولة ، وكان منذ مصرع أبيه قد غادر قرطبة سراً ، وسار إلى سرقسطة ، وأقام بها فى كنف صاحبها منذر ابن يحيى التجيبى ، فلما اختاره الفتيان العامريون زعيماً لهم ، غادر سرقسطة ، ولحق بشاطبة ، حيث أعلنت بيعته، وذلك فى سنة ٤١١هـ (١٠٢١ م) . وفى رواية أخرى أن سليمان بن الحكم المستعين ، حينما ولى الخلافة لأول مرة ، عمل على رد اعتبار بنى عامر ، فدفن شلو عبد الرحمن المنصور بالتكريم ، وآوى ولده الطفل عبد العزيز ، وابن عمه الطفل محمداً بن عبد الملك تحت رعايته، فبقيا فى كنفه وقتاً قصيراً ، حتى خلع ، واسترد محمد بن هشام الخلافة . فعندئذ غادر الطفلان قرطبة (١) . ولسنا نعرف ماهو الدور الذى أداه خيران فى اختيار عبد العزيز

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٣ .

للزعامة ، وهل كان من مؤيديه أم من خصومه . ذلك أنه لم يمض قليل على ذلك حتى اختلف خيران مع عبد العزيز ، وأعلن الخروج عليه ، وسار من ألمرية إلى مرسية ، وهنالك بايع بالزعامة محمداً بن عبد الملك بن المنصور، وهو ابن عم عبد العزيز ، وكان قد غادر قرطبة ولجأ إليه ، فقدمه وصحبه إلى مرسية ،وثار فى نفس الوقت أهل شاطبة بعبد العزيز فغادرها سراً إلى بلنسية .وتسمى محمد بالمؤتمن ، ثم بالمعتصم . ثم تنكر له خيران ، وأخرجه من مرسيه ، واستولى الفتيان على أمواله ، فسار إلى غرب الأندلس ، وعاش هنالك حتى توفى (١)

وهكذا لم يكن خيران ، وهو فى عمالته فى شرقى الأندلس ، دائما على وفاق مع أصحابه الفتيان العامريين ، وكانت علائقه بالأخص سيئة مع مجاهد صاحب دانية ، وكانت تقع بينهما المناوشات والمعارك من آن لآخر.

* * *

ولنتبع بعد ذلك حكم خيران فى ألمرية ، بعد أن فصلنا الحوادث التى خاضها منذ اضطرام الفتنة ، والتى تدل فى مجموعها على ماكان يتمتع به هذا الزعيم الصقلبى من الحصافة ، والإقدام ، وقوة العزم .

استقر خيران فى ألمرية ، وبسط حكمه على أعمالها ، وكانت إمارة ألمرية تشمل يومئذ المنطقة الممتدة من شاطىء اسبانيا الشرقى الجنوبى ، على هيئة مثلث كبير ، غرباً حتى وادى آش وحدود مملكة غرناطة ، وشمالا حتى بسطة وجيان ، وقد كانا أهم قواعدها بعد ألمرية ، وهذا عدا أوريولة ومرسية ، وقد كان يحكمهما بالنيابة زهير العامرى .وأبدى خيران فى ضبط ألمرية وتنظيمها همة فائقة ، وحصن ألمرية ، وأصلح قصبتها الشهيرة ، وزاد فيها حتى غدت من أعظم القصبات الأندلسية ، وأودعها أمواله وذخائره ، ومازالت أطلالها الماثلة إلى اليوم تشهد بما كانت عليه من الروعة والحصانة . وزاد خيران فى قبلة جامع ألمرية زيادة اتسع لها الجامع ، وبنى السور الهابط من الجبل إلى البحر ، وجعل له أربعة أبواب منها باب يخرج منه إلى بجانة(٢) ونظم خيران جيشه ، واستوزر

(١) يراجع فى هذه الحوادث أعمال الأعلام ص ٢١٠ و ٢١١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٤ . وكذلك : Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p. 96-98.

(٢) كتاب ترصيع الأخبار للعذرى (نصوص عن الأندلس نشرت منه بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى) (مدريد ١٩٦٥) ص ٨٣ .

الكاتب البليغ أحمد بن عباس بن أبى زكريا ، وعامل رعيته بالرفق والعدل ، وفى أيامه بلغت المرية منتهى العمران والرخاء ، وغدت من أمنع وأجمل ثغور الأندلس .

وكان خيران رئيساً وافر الدهاء والشجاعة ، والحصافة ، وحسن التدبير ، وكان بصيراً بالحروب ومكايدها ، وقد جرت بينه وبين جيرانه البربر أصحاب غرناطة ، وقائع أبدى فيها قوته وصرامته ، فهابوه ، ولم يفكروا فى مناوأته . وكان فوق ذلك كله متواضعاً زاهداً فى الألقاب ، فلم يتسم بشىء من تلك الألقاب الضخمة ، التى اتسم بها سائر أمراء الطوائف فى عهده ، واكتفى بما كان يوصف به من « الخليفة » و« الفتى الكبير »(١) .

وقد مدحه شاعر العصر الكبير ، أبو عمرو أحمد بن درّاج القسطلى ، بقصيدته الشهيرة ، التى مطلعها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران ... وبشراك قد وافاك عزٌ وسلطان
هو النجم لا يدعي إلى الصبح شاهد ... هو النور لا يُبغى على الشمس برهان
إليك شحنّا الفلك تهوى كأنها ... وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان
على لجج خضر إذا هبت الصبا ... ترامى بنا فيها ثبير وثهلان(٢)

وتوفى خيران العامرى بالمرية فى جمادى الآخرة سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، فاجتمع فى الحال رجال الدولة ، وعلى رأسهم الوزير أحمد بن عباس ، ونبأهم بأن خيران ، قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه أخوه زهير العامرى ، واتفق الجميع بذلك على تولية زهير . وكان خيران حينما شعر بدنو أجله قد بعث بالفعل يستدعى زهيراً ، نائبه فى مرسية وجيان ، فقدم زهير على عجل ، وأدرك خيران قبيل وفاته ، فلما توفى قام فى الحال مكانه ، وتسلم زمام السلطان ، ورضى به الناس ورجال الدولة(٣) .

وكان زهير ويكنى أبا القاسم ، من أهم الفتيان العامريين ، وأشدهم بأساً ، « وكان شهماً داهية » بعيد النظر ، وقد لعب فى حوادث الفتنة بقرطبة أدواراً أشرنا إليها فى مواضعها ، ولما تولى حكم المرية اقتفى أثر صاحبه خيران فى حسن

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢١٢ .

(٢) وردت هذه القصيدة بأكملها فى ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (دمشق ١٩٦١) ص ٨٦ – ٨٨ ، ووردت فى الذخيرة (القسم الأول المجلد الأول ص ٧٤ – ٧٨) ، وكذلك ابن الخطيب فى أعمال الأعلام (ص ٢١٢ – ٢١٥) وهى طويلة جداً .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ .

السيرة وحفظ النظام ، وهو الذى زاد فى المسجد الجامع بألمرية من غربيه وشرقيه وجوفيه ، وعظم المسجد بذلك . وبنى السقاية ، وكثر الماء فى ألمرية . وكان يكرم الفقهاء ويشاورهم فى الأمر .

وكانت مملكة ألمرية وقت أن تولى حكمها زهير ، تمتد من ألمرية حتى شاطبة ، شرقاً ، وتمتد شمالا حتى جيّان وبيّاسة ، وحتى أعمال طليطلة ، ولو أن زهيراً استمع إلى صوت العقل والحكمة ، وقنع بتدبير مملكته الكبيرة ، لكان له فى تاريخ الطوائف شأن آخر ، ولكنه كان يقع تحت نفوذ وزيره الكاتب أحمد بن عباس ، وقد كان هذا الوزير ، بالرغم من صفاته العلمية والأدبية اللامعة ، ميالا إلى التهور والمغامرة ، وكان يلقى فى روع أميره مشاريع خطيرة ، ويحرك أطماعه بتحريضه وسيئ نصحه ، والظاهر أنه هو الذى بعث إليه فكرة غزو غرناطة ، على أثر موت أميرها حبوس بن ماكسن ، وتولى ولده باديس الحكم مكانه فى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) . فنظم زهير حملته المشئومة إلى غرناطة ، ولم يلتفت إلى ما طلبه إليه باديس وأخوه بُلُقّين ، من تجديد أواصر المودة والصداقة التى كانت معقودة بينه وبين أبيهما حبوس ، ثم سار إليها فى قواته الكبيرة ، وقد أخذه الغرور والعجب ، حسبما فصلناه فى أخبار غرناطة . وهنالك التقى بقوات باديس فى ظاهر قرية ألفنت القريبة من غرناطة ، وذلك فى آخر شوال سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨ م) ونشبت بينهما الموقعة الهائلة التى انتهت بهزيمة زهير ومصرعه وتمزيق قواته ، وأسر أكابر رجاله ، وفى مقدمتهم وزيره ابن عباس ، وقد قتله باديس أيضاً بعد ذلك بأسابيع قلائل(١) .

فكانت هذه النكبة ضربة أليمة لمملكة ألمرية ، وكان من أثرها أن استولى باديس على الجزء الشمالى الغربى من أراضى ألمرية ، وفيها مدينة جيان أكبر قواعدها الشمالية .

ولما فقدت ألمرية أميرها ووزيرها على هذا النحو ، اجتمع أهلها ، وأسندوا رياستهم إلى شيخ الجماعة أبى بكر الرميمى ، فتولى شئونها ، وضبط النظام والأمن . ثم كتب أهل ألمرية إلى عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية يستدعونه لحكم مدينتهم . وكان عبد العزيز يعتبر أنه صاحب الحق الشرعى فى تراث الفتيان العامريين ، وذلك بحق الميراث والولاء باعتبارهم موالى أسرته ، وكان مذ هلك

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٨ – ١٧٢ .

زهير ، قد بعث وزيره ابن صمادح إلى باديس ، يلح عليه فى إعدام أكابر الأسرى من زعماء ألمرية الذين وقعوا فى يده ، ولاسيما الوزير ابن عباس ، حتى لايعارضه منهم أحد بعد فى امتلاك ألمرية ، وبادر عبد العزيز على أثر ذلك إلى ألمرية ، فبايعه أهلها ودخلها فى آخر ذى القعدة سنة ٤٢٩هـ ، ووجد بيت مالها مليئاً بالمال المضروب والذخائر فنقلها جميعا إلى بلنسية[١] ، وترك عليها والياً من قبله هو صهره ووزيره أبو الاحوص معن بن صمادح التجيبى ، فكانت ولايته إيذاناً بتطور مصاير مملكة ألمرية .

٢ – عهد بنى صمادح التجيبيين

ذلك أن عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، لم يكد يفرغ من شئون ألمرية ، حتى جاءته الأنباء بأن منافسه وخصيمه مجاهد العامرى صاحب دانية وجزائر البليار ، قد تحرك لغزو أراضيه . وكان مجاهد يرقب تقدم عبد العزيز واتساع ملكه بعين الحسد ، فلما شغل بما آل إليه من تراث الفتيان فى ألمرية ، خرج مجاهد فى قواته صوب بلنسية ، فهرع عبد العزيز إلى مدافعته ، وترك صهره ووزيره أبا الأحوص معن بن صمادح ليرعى شئون ألمرية . وكان معن رجلا قليل الولاء كثير المطامع ، فما كاد عبد العزيز يغادر ألمرية ، حتى وضع مشروعه للاستئثار بالسلطة ، والاستيلاء على مملكة ألمرية ، وما زال يوطد الأمر لنفسه حتى جاهر بخلع الطاعة ، ودعا لنفسه واستجاب الناس لدعوته ، واستولى على ألمرية وأعمالها وذلك فى سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) ، وكان من مؤيديه ومعضديه فى هذا الانقلاب باديس صاحب غرناطة . ودخلت مملكة ألمرية بذلك فى عهد جديد من تاريخها .

وكان هذا الرئيس الجديد الذى سيطر على أقدار ألمرية ، ينتمى إلى بيت من أعرق البيوتات العربية ، وكان حسبما يوصف من أهل الدهاء والفضل والعلم والأدب[٢] . وهو معن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن صمادح ، وبه عرف بيتهم . وصمادح هذا هو ولد عبد الرحمن بن عبد الله

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، وأعمال الأعلام ص ٢١٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٢ وراجع دوزى : Hist. ; V. III ; p.28

(٢) العذرى فى « نصوص عن الأندلس » من كتاب ترصيع الأخبار ص ٨٤ .

ابن المهاجر بن عميرة ، وهو جدهم الداخل إلى الأندلس . وفى عبد الرحمن ابن عبد الله يجتمعون مع بنى هاشم التجيبيين أصحاب سرقسطة، فهم مثلهم ينتمون إلى تجيب(١) . وكان والده أبو يحيى محمد بن أحمد بن صمادح حاكم مدينة وشقة وأعمالها منذ أواخر أيام هشام المؤيد بالله . ولما تولى سليمان الظافر الخلافة فى سنة ٤٠٣ هـ أقره على ولايته ، وكانت بينه وبين ابن عمه منذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة فى البداية علائق مودة وسلام ، فلما انتهت أيام سليمان ، واغتصب بنو حمود الخلافة القرطبية فى سنة ٤٠٧ هـ ، وعادت الأمور إلى اضطرابها ، ساءت العلائق بين منذر وأبى يحيى ، وسار منذر إلى وشقة فى قواته واستولى عليها ، وفر أبو يحيى فى أهله وولده ناجياً بنفسه . فكان على قول ابن حيان « أول ساقط من الثوار لم يتملأ سلطانه ولا أورثه من بعده » .وكان أبو يحيى مع رياسته عالما محدثا من أهل الفضل والأدب ، روى عنه ابنه أبو الأحوص معن ، وله مختصر قيم فى غريب القرآن . وقد اشتهرت وصيته لابنيه معن وصمادح بأسلوبها البارع ، ومحتوياتها الجامعة لمعظم آداب الدنيا والدين، ودلالتها على وفور علمه ، وجلالة معارفه ، وسمو نفسه(٢) . ووصف لنا ابن بسام فى الذخيرة أبا يحيى بأنه كان فارساً مقداماً، وكان أديباً ذلقاً حسن البيان، ولكنه كان منكود الطالع ، فلم تدم رياسته طويلا(٣) .

ولجأ أبو يحيى إلى عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، فأكرم وفادته وتوثقت علاقتهما بالمصاهرة ، إذ تزوج ولداه معن أبو الأحوص ، وصمادح أبو عتيبة بأختى عبد العزيز . ثم أراد أبو يحيى اللحاق بالمشرق ، فمات غرقاً فى البحر . وذكر لنا ابن حيان أنه هلك غرقا فى البحر الرومى، فيما بين جزيرة يابسة

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء (مخطوط الإسكوريال) فى ترجمة المعتصم بن صمادح ، لوحة ٨٠ و ٨١ ، ونقلها دوزى مقتضبة فى كتابه : Recherches, V. II. App. XX. وذكر ابن الخطيب أن صمادح إنما هو اسم امرأة هى صمادح بنت عبد الرحمن بن عبد الله إلى آخر نسبتهم، وأنهم عرفوا باسم أمهم المذكورة (أعمال الأعلام ص ١٨٩) . ولكنا لم نجد تأييداً لهذه الرواية . وبالعكس فان النسابة ابن حزم يقرر أن صمادح هو جدهم (جمهرة أنساب العرب ص ٤٠٥) . ويوافقه ابن الأبار حسبما تقدم . وراجع الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٧٨ — ٨١ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشى فى «الذيل والتكملة» — الجزء الأول — مخطوط مكتبة باريس الوطنية .

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٦ .

وشاطىء الأندلس ، وكان قد ركبه من ثغر دانية ، فى مركب تأنق فى صنعه واستجادة آلته وعدته ، مع نفر عديد من صحبه ، فغرق معظمهم ، ولم ينج منهم سوى القليل، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ[١] وبقى ابنه معن فى كنف صهره عبد العزيز ، وقد ولاه وزارته ، فلما قتل زهير العامرى ، واستولى عبد العزيز على ألمرية ، استخلف عليها وزيره معن . قال ابن حيان : « فكان شر خليفة استخلف . لم يكد يواري وجهه عبد العزيز عنه ، حتى خان الأمانة ، وطرده من الإمارة ، ونصب له الحرب، فغرّب فى اللؤم ما شاء . وتنكب ابن أبى عامر التوفيق لاسترعائه الذئب الأزل على ثلته ، ومسترعى الذئب أظلم ، وكان من العجب أن تملاها ابن صمادح ، وخلفها ميراثا فى عقبه »[٢] ، وانتهى الأمر باستيلاء معن على ألمرية والدعاء بها لنفسه حسبما تقدم . واستمر معن فى حكم ألمرية وأعمالها زهاء عشرة أعوام . وكانت بينه وبين باديس صاحب غرناطة علائق مودة وصداقة . وتوفى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) بعد أن وطد رياسته ، ومهد الملك لعقبه .

فخلفه ولده أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح بإجماع القرابة ورجال الدولة، ولما يستكمل الثامنة عشرة من عمره ؛ وكان أبوه قد أخذ له البيعة بولاية عهده ، بعد أن عرضها على أخيه صمادح أبى عتبة ، فاعتذر عن قبولها ، واتخذ من الألقاب الملوكية لقبين ، هما المعتصم بالله والواثق بفضل الله ، والرشيد على قول آخر ، وتوطدت فى بداية حكمه علائق المودة بينه وبين باديس صاحب غرناطة ،على ماكانت بينه وبين أبيه[٣] . ولكن الخلاف لبث بالعكس مستحكما بينه وبين خاله عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، وكان باديس يعمل على إذكاء هذا الخلاف وتقويته كلما بدت بوادره . ذلك أنه كان باعتباره زعيم البربر يكره الجبهة الأندلسية، ويحاول دائماً أن يعمل على إضعافها، وكان من أبرز الحوادث المتصلة بهذا الخلاف ثورة ابن شبيب صاحب لورقة على المعتصم وذلك فى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) . وكان من الواضح أن هذه الثورة لم تكن بعيدة عن وحى

---

(١) ابن عبد الملك المراكشى فى «الذيل والتكملة» — ج ١ من مخطوط مكتبة باريس الوطنية .

(٢) الذخيرة القسم الأول من المجلد الثانى ص ٢٣٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٤ وأعمال الأعلام ص ١٩٠ .

(٣) كتاب التبيان ص ٤٥ .

عبد العزيز . ذلك أن لورقة،وهى آخر قواعد مملكة ألمرية الشمالية الشرقية،تقع على حدود مملكة بلنسية ، وقد استنصر الثائر بعبد العزيز ، فبادر بتلبية دعوته ، وأمده ببعض قواته ، وزحف المعتصم فى جيشه على لورقة ، وأمده باديس من جانبه بقواته ، ونشبت بين الفريقين معارك انتهت بهزيمة ابن شبيب واستيلاء المعتصم على حصون لورقة ، وعودتها إلى حظيرة مملكة ألمرية[١] . بيد أنه يبدو أن ابن شبيب قد استأنف الثورة بعد ذلك ، واستطاع أن يستقل بحكم لورقة ، وخلفه إخوته الثلاثة فى حكمها بالتعاقب ، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد صاحب إشبيلية ، واستمر على حكمها باسمه ، حتى سقطت إشبيلية فى يد المرابطين فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)[٢] . فلما توفى عبد العزيز فى سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) ، وخلفه فى حكم بلنسية ، ولده عبد الملك الملقب بالمظفر، بعث المعتصم بن صمادح بعض قواته فأغارت على بعض حصونه فى تدمير، وساعده فى تلك الحركة أيضا باديس ، ولكنه باء بالفشل ، وردت جنده على أعقابها[٣] .

ثم تطورت العلائق بعد ذلك بين المعتصم وباديس ، وثابت للمعتصم أطماع فى الاستيلاء على أراضى غرناطة المجاورة لمملكته . والظاهر حسبما يحدثنا الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة فى مذكراته ، أن الذى كان يوحى إليه بتلك الأطماع ويشجعها ، هو يوسف بن نغرالة اليهودى ، وزير باديس ، بل يقول لنا الأمير إن مشروع ابن نغرالة كان يرمى إلى تمكين المعتصم من الاستيلاء على غرناطة ذاتها[٤] . وعلى أى حال فقد استطاع المعتصم أن يستولى على بعض أراضى غرناطة الشرقية وعلى حصن وادى آش . وقد رأينا فيما تقدم من أخبار باديس أنه ركن إلى الدعة فى أواخر عهده ، ووقع التفكك فى مملكته . وهو قد استرد وادى آش من ابن صمادح فيما بعد ، ولكن الظاهر أنه فقد جيان فى أواخر عهده ، واستولى عليها المعتصم بمداخلة الخوارج فيها . وكانت مملكة ألمرية تشمل

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

(٢) Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. 105

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٤ .

(٤) كتاب التبيان ص ٥٣ .

عندئذ من القواعد الهامة غير ألمرية ، لورقة ، وجيان ، وبياسة(١) التى استطاع المعتصم أن ينترعها من أملاك على بن مجاهد العامرى صاحب دانية ، بيد أنه لم يحتفظ طويلا بمدينة جيان التى استولى عليها المعتمد بن عباد فيما بعد .

ولما توفى باديس وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين ، وقعت بين المعتصم وعبد الله منازعات كثيرة بسبب الحصون الغرناطية الواقعة على الحدود مما يلى فنيانة ، وانتهى الأمر بأن أرغم عبد الله على هدم تلك الحصون استبقاء للمهادنة والسلم بينه وبين أمير ألمرية(٢) .

وبذل المعتصم جهوداً عظيمة ، فى توسيع قصبة ألمرية وتجميلها ، وأنشأ بها قصره الكبير الممتد حتى الجبل ، وإلى جانبه بستانه العظيم ، وأنشأ مجلسا رحبا مفروشاً بالرخام الأبيض ، ومجلسا آخر مقرنساً بالرفوف المذهبة ، ويليه من الجهة القبلية أبواب عليها شراجب يمكن منها أن يرى جميع مدينة ألمرية ، وبحرها ، وإقبال السفن إلى مرساها وخروجها منه. وجلب المعتصم الماء إلى المدينة ووصلها إلى جامع ألمرية ، وجلب منها فرعا إلى ما وراء القصبة ، ونظم وصول الماء إلى الرياض الملحقة بالقصر ، كما ابتنى بخارج ألمرية قصوراً فخمة ، وإلى جوارها بساتين تغص بغرائب الأشجار والثمار ، وفى إحداها بحيرة عظيمة عليها مجالس مفتوحة ، مفروشة بالرخام الأبيض ، وكان ذلك البستان الفخم يسمى « بالصمادحية » وهو قريب من ألمرية(٣) .

على أن أهم ما يشتهر به المعتصم بن صمادح هو أدبه وشعره ، وحمايته لدولة الشعر والأدب . وقد كان بلاطه الصغير بألمرية ، ينافس فى مجالسه الأدبية وفى رعايته للأدباء والشعراء ، بلاط إشبيلية .

وكان بلاط المعتصم منتدى لطائفة من أكابر شعراء العصر ، فقد كان وزيره أبو الأصبغ عبد العزيز بن أرقم شاعراً مقتدراً يجيد الوصف والمديح ، وكان من شعرائه المختصين به ، أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، إمام الموشحات ، وأبو الفضل جعفر بن شرف ، وهو من أهل برجة ، وكانت

---

(١) A. R Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 167

(٢) كتاب التبيان ص ٨٩ و ٩٠ .

(٣) العذرى فى كتاب « ترصيع الأخبار » ص ٨٥ .

مدائحه للمعتصم تمتاز بطرافتها ، وبديع تصويرها ، وأبو القاسم خلف بن فرج المعروف بالميسر ، أصله من إلبيرة ، وكان يجيد شعر التهكم اللاذع ؛ وابن الحداد الوادى آشي ، وقد قضى معظم حياته فى بلاط المعتصم ، ولكن غضب عليه المعتصم ذات يوم لزلة ارتكبها فى شعره ، فغادر ألمرية ، ولجأ حيناً إلى بلاط المقتدرين بن هود بسرقسطة ، ثم عاد إلى ألمرية ، وكان فضلا عن شاعريته التى تبدو فى مدائحه الكثيرة للمعتصم ، عالماً بالفلسفة . ومن مديحه للمعتصم قوله من قصيدة طويلة :

لعلك بالوادى المقدس شاطىء ... فكالعنبر الهندى ما أنا واطىء
وإنى فى رؤياك واجد ريحهم ... فروح الهوى بين الجوانح ناشىء
ولى فى السُّرى من نارهم ومنارهم ... هداة حداة والنجوم طوافىء
لذلك ماحنت ركابى وحمحمت ... عرابى وأوحى سيرها المتباطىء[١]

وقد نوهت الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، بحماية المعتصم لدولة الشعر والأدب . فمثلا يقول لنا ابن بسام : « ولم يكن أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة ، أخلد إلى الدعة ، واكتفى بالضيق من السعة ، واقتصر على قصر يبنيه ، وعلق يقتنيه ، وميدان من اللذة يستولى عليه ويبرز فيه . غير أنه كان رحب اللقاء ، جزل العطاء ، حليما عن الدماء والدهماء ، طافت به الآمال ، واتسع فى مدحه المقال ، وأعملت إلى حضرته الرحال ، ولزمته جملة من فحول شعراء الوقت كأبى عبد الله بن الحداد ، وابن عبادة ، وابن الشهيد وغيرهم .. » .

ويزيد ابن بسام على ذلك ، أن ما خاضه المعتصم من الفتن والحروب مع خصومه من ملوك الطوائف ، لم يكن مما يتفق وطبيعته الوادعة ، وإنما استدرج إليها ، وأكره عليها إكراهاً[٢] .

وقد كان المعتصم فى الواقع يؤثر العيش الهادىء بقصره الأنيق المشرف على البحر والمسمى « بالصمادحية » وينفق كثيراً من وقته فى المجالس الشعرية والأدبية .

---

(١) أوردها ابن بسام فى الذخيرة — القسم الأول المجلد الثانى ص ٢١٨ ، وأورد من بعدها قصائد أخرى من مدائحه للمعتصم (ص ٢١٨ — ٢٣٣) وراجع أيضاً نفس المصدر ص ٢٤١ و ٢٤٢ و ص ٣٧٢ — ٣٨٠ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٩ ، والحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٢ ، (والقاهرة) ج ٢ ص ٨٢ و ٨٣ ، وقلائد العقيان ص ٤٧ .

ولم تقتصر حماية المعتصم ورعايته على دولة الشعر والأدب ، ولكن بلاطه كان فى نفس الوقت مقصد المفكرين والعلماء من كل ضرب ، ومن هؤلاء أبو عبيد عبد الله البكرى أعظم جغرافى الأندلس ، وصاحب المعجم الجغرافى اللغوى الشهير ، فقد عاش حيناً فى ألمرية فى كنف المعتصم ، وكان صديقه الأثير ، وأغدق عليه المعتصم فيض رعايته وصلاته .

وكان بنو صمادح أنفسهم جميعاً من نجوم الشعر والأدب ، فقد كان المعتصم ، وبنوه معز الدولة ورفيع الدولة ورشيد الدولة من شعراء العصر . ولهم جميعاً آثار شعرية انتهى إلينا الكثير منها . وكانت أم الكرام بنت المعتصم كذلك شاعرة عصرها(١)

وكان المعتصم فوق ذلك كله ، معنياً بشئون الدين ، وإقامة أحكام الشريعة ، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوماً فى كل أسبوع للفقهاء والخواص ، يتناظرون بين يديه فى كتب التفسير والحديث(٢) .

واشتهر المعتصم بن صمادح بشعره وطرائفه الأدبية ، وقد أورد لنا صاحب الذخيرة ضمن ما أورده من بعض قصائده ، الأبيات الغزلية الآتية :

وتحت الغلائل معنى غريب ... شفاء الغليل وبرء العليل

فهل لى من نيله نائل ... ولابن السبيل إليه سبيل

فما لى إلا الهوى متجر ... فغير الغوانى متاع قليل

فيا ربة الحسن فى غاية ... وعصر الشباب وظل المقيل

ذرينى أعانق منك القضيب ... وأرشف من ثغرك السلسبيل (٣)

ولما تطورت الحوادث ، وأدت الفتن والحروب بين ملوك الطوائف ، إلى عاقبتها المحتومة ، واستأسد عليهم ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأخذ يضرب بعضهم ببعض ، حتى ظفر بالاستيلاء على طليطلة (صفر ٤٧٨ هـ) ، واتجه ملوك الطوائف وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد ، إلى الاستنصار بأمير المسلمين يوسف

---

(١) نقل إلينا ابن بسام فى الذخيرة كثيرا من قصائدهم (القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٤١ — ٢٤٤) . وكذلك فى المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٠٣ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء (المخطوط) لوحات ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ .

(٢) الحلة السيراء (القاهرة) ج٢ ص ٨٢

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٤١ .

ابن تاشفين المرابطى ، لم يكن المعتصم فيما يبدو من المتحمسين لتلك الفكرة . ذلك أنه نظراً لموقع مملكته فى الطرف الجنوبى فى شبه الجزيرة ، لم يكن قد آنس بعد خطر النصارى الداهم ، كما آنسه ابن عباد وابن الأفطس ، وكان فضلا عن ذلك يشعر كما يشعر معظم أمراء الطوائف بما يقترن بمقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة من الاحتمالات الخطيرة(١) . ومع ذلك فإن المعتصم ، حينما عبر أمير المسلمين إلى الأندلس فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) لم يتقاعس عن المساهمة فى القوات الأندلسية التى حشدت للتعاون مع الجيش المرابطى ، وذلك حسبما نفصل بعد فى موضعه ، ثم إنه بعد ذلك تقرب من أمير المسلمين يوسف بالهدايا والتحف الجليلة ، والتلطف فى خدمته ، حتى قربه إليه وأغدق عليه عطفه. وكان يوسف يبدى عطفه وتقديره بالأخص لرجلين من أمراء الطوائف هما المعتصم والمعتمد بن عباد، وكان يقول عنهما لأصحابه إنهما رجلا الجزيرة . ويقول لنا عبد الواحد المراكشى ، إن المعتصم وابن عباد كان يشعر كل منهما نحو الآخر بعاطفة من المرارة والتحاسد ، وأنهما حاولا غير مرة أن يتصافيا باللقاء، وأن المعتمد زار المعتصم بقصره بالمرية، واحتفل المعتصم بإكرامه أعظم احتفال ،ومع ذلك فقد لبث الضغن كامناً فى نفسيهما . فلما شعر المعتصم بتمكن منزلته لدى أمير المسلمين فيما بعد ، أخذ يدس لديه فى حق المعتمد ، ويحاول أن يغير نفسه عليه ، وقد كان فى ذلك فاسد التدبير قصير النظر ، حسبما أثبتت الحوادث فيما بعد(٢) .

ولم يشهد المعتصم موقعة الزلاّقة، معتذراً لدى أمير المسلمين بضعفه وكبر سنه ، ولكن قواته ساهمت فيها بقيادة ولده معز الدولة .واستمر المعتصم بعد ذلك فى الحكم بضعة أعوام أخرى . وكان ألفونسو السادس بعد هزيمته المروعة فى الزلاّقة ، قد استطاع أن ينهض من عثارها بسرعة ، وتحول عدوانه عندئذ إلى شرق الأندلس ، حيث كان الضعف يسود الإمارات الأندلسية الصغيرة . وكانت القوات القشتالية، قد رابطت فى حصن لييط(٣) المنيع الواقع فيما بين مرسية ولورقة ، وأخذت ترهق الأنحاء القريبة بغاراتها المتوالية ، وكان أمير المسلمين قد

---

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٠٤ . وراجع كذلك دوزى : Hist., V. III. p. 124

(٢) راجع المعجب ص ٧٣ و ٧٤ .

(٣) هو بالإسبانية Alédo ، ومازالت أطلال هذا الحصن قائمة حتى اليوم .

عاد على أثر موقعة الزلاقة إلى المغرب ، فلما وقف على اضطراب شئون الأندلس وتفككها بعد رحيله ، واشتداد عدوان النصارى فى المنطقة الشرقية ، عاد فعبر البحر إلى الأندلس فى قواته (٤٨١ هـ) ، وتعاونت القوات الأندلسية مع القوات المرابطية فى حصار حصن لييط ، وكان المعتصم فى مقدمة الأمراء الذين هرعوا إلى المساهمة فى ذلك الحصار ، وخصوصاً لقرب ذلك الحصن من أراضيه ، وتعرضها بذلك لعيث النصارى . وطال الحصار مدى أربعة أشهر ، ولم ينجح المسلمون فى اقتحام لييط ، بالرغم من وفرة قواتهم وعددهم ، واضطروا إلى ترك الحصار ، بعد أن فنيت معظم حاميته ، واضطر ألفونسو بعد ذلك إلى إخلائه لعقم الدفاع عنه .

وتوفى المعتصم بن صمادح فى ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) بعد أن حكم إحدى وأربعين عاماً . بيد أنه شهد قبل أن يثوى إلى قبره نذر الخاتمة المشئومة تبدو فى الأفق . ذلك أن يوسف بن تاشفين عبر البحر للمرة الثالثة (٤٨٣ هـ) لا لينجد أمراء الأندلس هذه المرة ، ولكن ليقضى عليهم وعلى دولهم المنحلة المفككة ، وبدأ فى ذلك بإمارة غرناطة واستولى عليها ، ثم بعث قواته إلى إشبيلية لتقضى هنالك على دولة بنى عباد . وهنالك روايتان فيما يتعلق بسقوط المرية ، الأولى أن المرابطين حاصروها بالفعل ، وامتلكوا معظم حصونها ، وضيقوا على المعتصم ، وهو ملازم سريره يعانى مرض موته ، وأنه ألقى عندئذ عبارته المشهورة : « نُغص علينا كل شىء حتى الموت » . وحينما ألفى جاريته تبكى عند رأسه قال هذا البيت :

ترفق بدمعـــك لا تفنه ❊ فبين يديك بكاء طويل(١)

ومما قاله أيضاً حينما شعر بدنو أجله :

تمتعت بالنعماء حتى مللتهـــا ❊ وقد أضجرت عينىّ ممـــا سئمتها

فيا عجباً لما قضيت قضاءها ❊ وملّيتُها عمرى تصرم وقتهـــا

وأما الرواية الثانية فتقول بأن المعتصم توفى قبل مقدم المرابطين ، وأنه أوصى

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٤٠ و ٢٤١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٩٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

قبل وفاته ولده معز الدولة أحمد ، بأنه متى علم بسقوط إشبيلية وخلع أميرها المعتمد وهو قطب الجزيرة ، أن يعبر البحر فى أهله وأمواله إلى أمراء بنى حماد أصحاب القلعة بشرقى العدوة ، وأن معز الدولة تولى حكم ألمرية بعد وفاة أبيه بضعة أشهر . فلما سقطت إشبيلية ، وأسر أميرها المعتمد ، وذلك فى رجب سنة ٤٨٤ هـ ، بادر معز الدولة باتخاذ أهبة الفرار ، ثم ركب البحر فى أهله وأمواله فى ثلاث سفن أعدها لذلك ، وأحرق السفن الباقية خشية المطاردة ، واستطاع أن يغادر ألمرية قبل أن يطوقها المرابطون وذلك فى رمضان سنة٤٨٤ هـ (١٠٩١م) ونزل على آل حماد أمراء القلعة على مقربة من بجاية ، فأكرمت وفادته ، وعاش هناك حتى توفى (١)

---

(١) أورد هذه الرواية صاحب الحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٤ والقاهرة ج٢ ص٨٩ و ٩٠ وراجع روض القرطاس (طبعة أبسالة ١٨٤٣) ص ١٠١ .

الفصل الثاني

مملكة مرسية

مدينة مرسية وانشاؤها. تغلب خيران العامرى عليها أيام الفتنة. اختياره محمد بن عبد الملك للزعامة ثم تنكره له. زهير العامرى يتولى حكم مرسية وأوريولة. إمارته لألمرية. نائبه أبو بكر بن طاهر بمرسية. عراقة ابن طاهر وأدبه. مصرع زهير وقيام عبد العزيز المنصور مكانه فى ألمريه. إقراره لولاية ابن طاهر لمرسية. حزم ابن طاهر وسراوته. ولده أبو عبدالرحمن يخلفه. استيلاء ابن ذى النون على بلنسية وعزل صاحبها عبد العزيز المنصور. استقلال ابى عبد الرحمن بمرسية. خلاله وعلمه وأدبه. مطامع ابن عباد فى مرسية. اتفاق وزيره ابن عمار وأمير برشلونة على افتتاحها. فشل المحاولة. ابن عباد يستأنف الكرة. ابن رشيق يفتتح مرسية. القبض على ابن طاهر ثم الإفراج عنه. ندب ابن عمار لحكمها. طمعه فى الاستقلال بها. تحريضه لأمراء النواحى. تحريضه لأهل بلنسية على الثورة. قصيدته فى ذلك. متاعب ابن عمار فى مرسية. غدر ابن رشيق به واستيلاؤه على المدينة. فرار ابن عمار والتجاؤه إلى سرقسطة. محاولته فتح حصن شقورة. القبض عليه وتسليمه لابن عباد ثم مصرعه. استبداد ابن رشيق بمرسية. يشترك مع المرابطين فى حصار حصن لييط. اتهامه لدى أمير المسلمين بالخيانة. تسليمه لابن عباد ثم فراره. استيلاء المرابطين على مرسية. حياة ابن طاهر فى بلنسية ثم وفاته بها.

إن مدينة مُرْسِية، قاعدة ولاية مرسية أو ولاية تدمير القديمة الواقعة فى شرق الأندلس، هى مدينة أندلسية محضة، نشأت وترعرعت فى ظل الأندلس المسلمة، ولم يكن لها وجود عند الفتح. وكانت قاعدة ولاية تدمير عند الفتح هى مدينة أوريولة. وفى سنة ٢١٦هـ (٨٣١ م)، أنشأ الأمير عبد الرحمن بن الحكم مدينة مرسية لتكون عاصمة لتدمير، ومقراً للعمال والقواد، وقام على إنشائها عامله مالك بن جابر بن لبيد، وسميت فى البداية بتدمير، على نسق تدمير الشام[١]. وكان إنشاء مرسية فى بسيط أخضر من الأرض، يقع فى منحنى نهر شقورة، على مسافة قريبة من جنوب غربى أوريولة، الواقعة على نفس النهر، قبيل مصبه فى البحر الأبيض المتوسط، ومازالت مرسية حتى اليوم تحتفظ بطابع أندلسى عميق.

---

(١) الروض المعطار، صفه جزيرة الأندلس، (القاهرة) ص ١٨١، بقيت فى معجم البلدان تحت كلمة مرسية.

ولما انهارت الدولة العامرية ، واضطرمت الفتنة فى نهاية المائة الرابعة ، وشعر الفتيان العامريون ، أنه لاأمل لهم فى النهوض والسلطان،خلال الفوضى الشاملة ، التى غمرت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، سار معظمهم إلى شرقى الأندلس . وكان من هؤلاء كبيرهم خيران العامرى ، فسار أولا إلى أوريولة ، وهى أمنع قواعد ولاية تدمير ، وبسط عليها سلطانه ، ثم سار منها إلى مرسية واستولى عليها ، وذلك فى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) . واستخلف عليها نائبه ، وزميله زهيراً العامرى، ثم سار منها فى قواته إلى ألمرية ، وانتزعها من صاحبها أفلح الصقلبى ، على نحو ماذكرنا فى موضعه ، وغدت ألمرية من ذلك الحين قاعدته الرئيسية ، تتبعها مرسية وأوريولة من شرقى الأندلس .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، كيف أجمع الفتيان العامريون ، الذين تغلبوا على شرقى الأندلس ، على أن يتخذوا لهم زعيما ، من بيت مولاهم العظيم المنصور ابن أبى عامر،وكيف وقع اختيارهم فى ذلك علىعبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، فتمت بيعته فى شاطبة ، ثم لحق بعد ذلك ببلنسية ، وبسط سلطانه عليها بتأييد الفتيان ، وتسمى بالمنصور ، وذلك فى سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) .

ثم أشرنا إلى موقف الخصومة ، الذى وقفه خيران بعد ذلك من زعامة عبد العزيز المنصور ،وإلى ما عمد إليه من ترشيح ابن عمه محمد بن عبد الملك المظفر بن المنصور للزعامة مكانه ، واستقدامه إلى شرقى الأندلس ، ونزوله له عن رياسة مرسية وأوريولة . وتلقب محمد بالمعتصم ، بيد أن أمد رياسته لم يطل، إذ تنكر له خيران ، كما تنكر من قبل لابن عمه عبد العزيز المنصور ،ثم سار إليه فى قواته ، وضيق عليه ، حتى اضطر إلى مغادرة مرسية،ولجأ إلى أوريولة ، فشدد خيران فى مطاردته حتى فر منها ، وسار إلى دانية ، فعاش حيناً فى كنف أميرها مجاهد العامرى : ثم غادرها إلى غربى الأندلس ، وهنالك عاش بقية حياته ، وتوفى فى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م)[١] .

وعاد زهير العامرى نائباً لخيران على مرسية وأوريولة : واستقر خيران بألمرية أميراً عليها ، حتى توفى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م).

وعندئذ خلفه فى حكم مملكة ألمرية ، وفى حكم مرسية وأوريولة بالأصالة ،

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٣ و ١٩٤ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

زهير العامرى ، واستمر حكمه عليها حتى مصرعه فى حربه مع باديس بن حبوس صاحب غرناطة فى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) .

— ١ —

وكان يتولى حكم مرسية وقت أن كان زهير أميراً لألمرية ، نائبه أبوبكر أحمد بن إسحاق بن طاهر . وكان بنوطاهر هؤلاء ، من أعيان ولاية تدمير وسراتها ، وينتمون إلى قيس ، وكان منزلهم بمرسية ، وقد اشتهروا بالعلم والوجاهة . ولما توفى خيران العامرى ، وغادر نائبه زهير مرسية ليتولى مكانه إمارة ألمرية ، كان رئيس الجماعة بمرسية أبوعامر بن خطاب ، فخشى زهير ، إن تركه خلفه بمرسية ، أن يثور بها وينتزعها منه ، فصحبه معه إلى ألمرية ، وأسكنه بها حافظاً عليه مكانته ونعمته . والظاهر أن أبا عامر هذا هو حفيد أبى عمر أحمد بن خطاب كبير أعيان مرسية وسراتها أيام المنصور بن أبى عامر ، وهو الذى استضاف المنصور وجيشه عند مروره بمرسية سنة ٣٧٤ هـ ، فى طريقه إلى غزوة برشلونة ، وأبدى يومئذ من وافر الشهامة والجود ، ما غدا مضرب الأمثال [١] . واستخلف زهير على ألمرية أبا بكر بن طاهر ، ند أبى عامر وخصيمه لثقته بولائه وأمانته ، وكان قد استطاع يومئذ أن يفتدى نفسه من أسر مجاهد العامرى صاحب دانية ، وأن يعود إلى مرسية[٢] . والظاهر أن ابن طاهر وقع فى الأسر حينما غزا مجاهد مرسية ، على أثر وفاة صاحبها خيران ، وتوجسه من مشاريع خليفته زهير ، وكان ابن طاهر عندئذ حاكماً لمرسية حسبما يبدو ذلك من إشارة لابن الأبار ، من أنه بعد عوده من الأسر « عاد إلى حاله ونعمته ، وأعانه زهير على لم شعثه ، ووفى بعهده »[٣] .

وضبط أبوبكر بن طاهر مرسية ، وسار فى حكمها سيرة حسنة . وكان فضلا عن عراقة بيته ، وأرومته العربية المؤثلة ، وثرائه الواسع ، من أكابر علماء عصره ومن أغزرهم أدباً ، وأبلغهم بياناً ، وكان الشعب المرسى يحيطه بتقديره وحبه ، لما كان يراه من نبيل صفاته ، ووفرة حزمه ولينه وصيانته . وبالرغم من أنه كان

---

(١) الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٥١ و ٢٥٢ . (والقاهرة) ج ٢ ص ٣١١ و ٣١٢

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٧ . (والقاهرة) ج ٢ ص ١١٧

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٧ .

يستأثر بسائر السلطات ، فإنه لم يتخذ شيئاً من مظاهر السلطان والإمارة ، ولم يتخذ لقباً من الألقاب الملوكية التى كان يشغف بها أضرابه من رؤساء الطوائف ، وإنما كان يسمى فقط بالرئيس [١] .

ولما توفى زهير العامرى قتيلا فى حربه مع باديس بن حبوس صاحب غرناطة فى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) ، واستطاع عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية ، أن يخلفه فى إمارة ألمرية ، كانت مرسية وأوريولة من البلاد التابعة لها . وقدر عبد العزيز حزم ابن طاهر ، ورسوخ مكانته ، فلم يتعرض له بشىء ، وأقره على حكم مرسية . وكان ابن طاهر ، مع ولائه الظاهر لعبد العزيز المنصور ، يسير فى رياسته وحكمه على قاعدة الاستقلال التام ، ولا ينفذ من أوامر عبد العزيز إلا مايراه متفقاً مع رأيه وظروف بلده ، ويرسل إلى بلنسية فائض الدخل ، ويقوم بالنفقة على من ينزل طرفه من الجند ، وكان عبد العزيز يقنع منه بهذا المسلك المتسم بالحزم والكرامة والاحترام المتبادل . وفى خلال حكمه الطويل الذى استمر نحو ستة وثلاثين عاماً ، ازدهرت أحوال مرسية ، وعمها الأمن والرخاء ، وذاعت بها العلوم والآداب لقدوة أميرها الأديب العالم ، واجتمعت له محبة الشعب وتقديره ، وهو ماكان يندر يومئذ فى دول الطوائف . وأضحى ابن طاهر فى أواخر أيامه من أقوى الرؤساء جانباً ، ومن أغنى سراة الأندلس ، حتى لقد كان يمتلك وحده نصف أراضى بلده ، وكان يعاونه فى الحكم والإدارة ولده النابه أبو عبد الرحمن محمد ، ولاسيما فى أواخر عهده حيث أصيب بالفالج ، وطالت علته أعواماً ، وتوفى فى شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) [٢] .

فخلفه فى حكم مرسية ولده أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وكان عبد العزيز المنصور قد توفى قبل ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦١ م) ، وخلفه فى حكم بلنسية ولده عبد الملك الملقب بالمظفر ، فأقر عبد الرحمن مكان أبيه على حكم مرسية . وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر ، صنو أبيه فى المراوة والحزم والهيبة ، فسار فى الحكم سيرته ، مستقلا عن حكومة بلنسية ، معترفاً بطاعتها فى نفس الوقت . ونحن نعرف أنه لم يمض على ولاية عبد الملك المظفر لبلنسية أعوام قلائل ، حتى زحف فرناندو ملك قشتالة فى قواته على بلنسية وحاصرها ، ثم

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ .

(٢) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٧ و ١٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠١ .

هزم البلنسيين هزيمة شديدة فى موقعة بطرنة (٤٥٧ هـ — ١٠٦٥ م) ، وعلى أثر ذلك نفذ المأمون بن ذى النون مشروعه لانتزاع بلنسية من صهره ، زوج ابنته عبد الملك المظفر ، فدخل بلنسية على أثر ارتحال القشتاليين عنها ، وقبض على عبد الملك وولده ، ونفاهما إلى إحدى قلاعه ، وضمت بلنسية عندئذ إلى مملكة طليطلة .

وهنا ألفى أبوعبد الرحمن بن طاهر ، الفرصة سانحة للاستقلال التام عن حكومة بلنسية وإنهاء ولائه الاسمى لها ، وسار فى حكم مرسية وأعمالها أميراً مطلقاً لها . وكانت إمارة مرسية تشمل عندئذ مدينة أوريولة المنيعة ، الواقعة فى شمالها الشرقى ، وكذلك بلدة مولة الواقعة فى شمالها الغربى تجاة أوريولة ، وإلش وكتندة . بيد أنها لم تكن تشمل لورقة الواقعة فى جنوبها الغربى ، وقد كانت لورقة مثل مرسية فى البداية تابعة لمملكة ألمرية ، بيد أنها انفصلت عن ألمرية على يد ابن شبيب الثائر بها فى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) ، وحكمها ابن شبيب المذكور ، واخوته الثلاثة من بعده ، بالتعاقب ، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد صاحب إشبيلية ، حسبما ذكرنا فى موضعه ، واستمرت لورقة بذلك طوال هذه المدة منفصلة عن حكومة مرسية (١) .

وكما أن أبا عبد الرحمن ، كان قرين أبيه فى الصراوة والقوة والحزم، فكذلك كان قرينه فى العلم والأدب ، بل كان يفوقه فى ذلك المضمار . وقد كان أبو عبد الرحمن بن طاهر فى الواقع من أعظم علماء الأندلس وكتابها فى عصره ، وقد أشاد معاصره ابن بسام بذكره وذكر أدبه فى الذخيرة ، وشبهه فى أسلوبه بالصاحب بن عباد بالمشرق ، ونوه بروعة رسائله ونبلها ، ولاسيما رسائله الهزلية ، فإنه يتقدم فيها على الجماعة ، ثم وضع عنه كتاباً ضمنه رسائله فى أعلام رؤساء الأندلس بخلاصه من محنة اعتقاله (حسبما نذكر بعد)، وشكر ابن عبدالعزيز صاحب بلنسية على السعى فى إنقاذه منها ، وهى عدة من الرسائل البارعة ، ضمها ابن بسام مع سواها من رسائله فى كتاب عنوانه «سلك الجواهر من نوادر وترسيل ابن طاهر» . ويشير إليه ابن عبد الملك فى ترجمته بقوله : «وكان أحد المتقدمين فى البلاغة ، بارع الكتابة ، فصيحا ، خطيبا ، وكانت أيامه أيام عدل وأفضال ،

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص١٦٢ ، وراجع : Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 105

ودفع باس ، وتسويغ آمال » . ويقول لنا ابن الأبار ، إنه كان من أهل العلم والأدب البارع ، يتقدم رؤساء عصره فى البيان والبلاغة (١) .

ويصفه ابن الخطيب بقوله : « وكان صدر زمانه ، والمثل السائر فى بلاغته وبيانه » . وكان أسلوب ابن طاهر يميل إلى الدعابة . « وأجود رسائله ما اشتمل على الهزل لميل طبعه إليه » : وكان بلاط مرسية فى عهده منتجع الأدباء والشعراء ، يقصدون إليه ، ويلتفون حوله ، ويغمرونه بمدائحهم ، فيغمرهم برعايته وصلاته . وكان ممن وفد عليه بمرسية الوزير الشاعر ابن عمار ، وزير المعتمد ، وفد عليه أيام خموله ، فأثابه ، ودرس ابن عمار يومئذ أحوال مرسية ، ووقف على قصور معداتها الدفاعية ، ثم دبر مشروعه لافتتاحها فيما بعد (٢) .

— ٢ —

واستمر أبوعبد الرحمن بن طاهر أميراً على مرسية زهاء خمسة عشر عاماً ، يتسم عهده بالسلم والرخاء . بيد أنه كان ثمة بعض العناصر الناقمة من خصوم ابن طاهر يسعون إلى نكبته وإسقاطه . وكانت حدود مملكة إشبيلية الكبرى قد امتدت يومئذ ، بعد استيلاء أميرها المعتمد بن عباد على قرطبة وجيان ، حتى نهر شقورة ومدينة لورقة القريبة من مرسية . وكان زعيم لورقة ابن شبيب قد اعترف بطاعة المعتمد ، وأضحى سلطان المعتمد فى هذه الأنحاء يهدد مملكة مرسية بطريق مباشر ، فكتب الناقمون من أهل مرسية إلى ابن عباد يدعونه لافتتاحها (٣) ، ويؤكدون له ضعف وسائلها الدفاعية ، وهذا إيضاح لمشروع المعتمد فى فتح مرسية . وهناك إيضاح آخر خلاصته أن صاحب هذا المشروع هو أبوبكر ابن عمار وزير المعتمد ، وأنه كان يضطرم برغبة خفية فى الحصول على السلطان والإمارة ، أو على حد قول ابن بسام : « كان يطلب سلطاناً ينثر فى يديه سلكه ، وملكاً يخلع على عطفيه ملكه » . ويؤيد ابن الأبار هذه الرواية ويقول لنا إن ابن عمار

---

(١) ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » — المجلد الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس . وابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث — المخطوط — لوحة ٩٥ ، والحلة السيراء ص ١٨٨ و ١٨٩ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠١ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٦٠ .

قد أشار على المعتمد بفتح مرسية[١] . وعلى أى حال فقد اعتزم المعتمد أن يسعى إلى فتح مرسية ، وعهد إلى وزيره القوى الماكر ابن عمار ، أن يقوم بتنفيذ المشروع . واتباعاً للخطة التى كانت سائدة يومئذ بين ملوك الطوائف فى الاستعانة بالأمراء النصارى ، على مشاريعهم الباغية ، بعث المعتمد وزيره ابن عمار، إلى الكونت رامون برنجير أمير برشلونة،ومر الوزير الماكر فى طريقه بمرسية،فأكرم ابن طاهر منزله . والظاهر أن ابن عمار كان يرمى من وراء هذه الزيارة إلى دراسة أحوال مرسية الدفاعية ، وإلى الاتصال سراً ببعض الزعماء الناقمين خصوم ابن طاهر . ولما وصل ابن عمار إلى برشلونة عقد مع أميرها الكونت برنجير اتفاقاً على أن يؤدى له المعتمد عشرة آلاف مثقال من الذهب ، لقاء معاونته على فتح مرسية ، وأن يقدم كل من الطرفين إلى الآخر رهينة بالوفاء . وتنفيذاً لهذا الاتفاق قدم المعتمد ولده الرشيد، وقدم الكونت ابن أخيه ،وبعث المعتمد بقسم من قواته صوب مرسية بقيادة ابن عمار ، ولحقت بها قوة جهزها الكونت برنجير ، وطوقت القوات المتحدة مدينة مرسية، ولكن ابن عباد لم يسعف برنجير بأداء المال المطلوب ، فارتاب فى الأمر ، واعتقد أنه قد غرر به ، وانسحب بقواته عن المدينة المحصورة، بعد أن قبض على ابن عمار ، وعلى الرشيد ولد المعتمد .

وكان المعتمد بن عباد يسير عندئذ بقواته صوب مرسية ، وكان قد وصل إلى مقربة من شقورة ، حينما وفد إليه رسل ابن عمار مع بعض الهاربين من جنده من حملة مرسية ، وأعلموه بما حدث ، فارتد بقواته إلى جيان ، ووضع ابن أخى الكونت برنجير ، المودع لديه رهينة ، فى الأصفاد ، ثم وقعت المفاوضات بين الفريقين، وانتهى المعتمد بأداء المال المطلوب للكونت ، وأفرج عن ابن عمار والرشيد ، وأفرج المعتمد من جانبه عن ابن أخى الكونت .

بيد أن إخفاق هذه الحملة الأولى على مرسية لم يثن ابن عمار عن عزمه ، فما زال بالمعتمد يحثه على إعداد حملة ثانية ، ويؤكد له أنه تلقى رسائل كثيرة من أهل مرسية يدعونه لافتتاحها ، حتى نزل المعتمد أخيراً على رغبته ،وجهز له حملة قوية ، وعينه حاكماً لمرسية ، وسائر البلاد التى يفتتحها .

وسار ابن عمار فى قواته إلى مرسية ، واصطحب معه حين مروره بقرطبة،

---

(١) الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ١٤٠ .

سَرية من الفرسان ، أمده بها حاكمها الفتح ولد المعتمد ، ومر فى طريقه بحصن بلج ، فاحتفى به حاكمه عبد الرحمن بن رشيق ، وصحبه فى قواته إلى مرسية ، فندبه ابن عمار للقيادة ، وعاد إلى إشبيلية . وكان ابن رشيق رجلا وافر الدهاء ، والمقدرة ، وكانت له أطماع دفينة يخفيها تحت ثوب من الرياء والخديعة . وطوقت جند ابن عباد مرسية ، وشددت الحصار عليها . واستطاع ابن رشيق أن يحقق نجاحه الأول ، بالاستيلاء على بلدة مولة الواقعة فى شمالها الغربى ، والتى كانت تمدها بالأقوات والمؤن . وعندئذ انهار خط مرسية الدفاعى ، واشتد بداخلها الضيق والحرمان ، واستمر ابن رشيق فى إرهاقه للمدينة المحصورة ، وفى تحريض أهلها على الوثوب بابن طاهر ، وأخيراً عاونه بعض الخونة من أوليائه على فتح بعض أبواب المدينة ، وانتهى الأمر بسقوطها على هذا النحو فى أيدى جند ابن عباد ، وذلك فى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) (١) .

ودخل ابن رشيق مرسية ، وقبض على أبى عبد الرحمن بن طاهر وألقاه إلى السجن ، وأعلن بيعة المعتمد ، وكتب إلى بن عمار بالفتح . فسار ابن عمار من فوره إلى المدينة المفتوحة ، التى عين حاكماً لها من قبل ، وتقرب من أهلها بالهدايا ولين القول . بيد أنه جنح غير بعيد إلى تحقيق فكرة كانت تخالجه من قبل ، وهو أن يستأثر بحكم هذه المدينة النائية ، البعيدة عن متناول أميره ، ويغدو كباقى الرؤساء أميراً مستقلا ، وأخذ بالفعل فى تنفيذ فكرته ، فتجاهل رغبات ابن عباد وأوامره ، وتصرف فى سائر الأمور تصرف الحاكم المستقل ، وبدا نداً لأميره السابق ، أو على قول ابن بسام : « وقعد له مقعد الرؤساء ، وخاطب سلطانه مخاطبة الأكفاء ، مستظهراً بجر الأذيال ، وإفساد قلوب الرجال ، معتقداً أن الرياسة كأس يشربها ، وفلاة ينتجعها » . وأخذ فضلا عن ذلك يدس لأمراء تلك النواحى ، ويوقع بينهم ، ويحرض أهل بلنسية بنوع خاص ، على الوثوب

---

(١) راجع فى حوادث فتح مرسية : أعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، وعبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ٦٥ ، ودوزى عن الشلبى فى : Hist. Abbadidarum. V. II. p. 86 & 87
و Hist. des Musulmans d' Espagne; V. III. p. 108-109
وكذلك : M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 109-110
و R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 259 & 281
و A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 189-191

بالوزير أبى بكر بن عبد العزيز المتغلب عليها يومئذ . وكان قد شفع لدى المعتمد فى أمر ابن طاهر حينما قبض عليه ، فأذن بتسريحه ، وسار إلى بلنسية ، ملتجئاً إلى حمايته . وفى رواية أخرى أن ابن طاهر ، نجح فى الفرار من سجنه بمعاونة ابن عبد العزيز ، وسار خفية إلى بلنسية . وقد كان لفوز ابن طاهر باسترداد حريته ، وقع طيب فى مختلف الدوائر الرفيعة ، ولاسيما دوائر العلم والأدب . وفى ذلك يقول أبو جعفر البتى من قصيدة :

أترضى عن الدنيا فقد تتشوف ... لعمر المعالى أنها بك تكلف
يقولون ليث الغاب فارق غيله ... فقلت لهم أنتم له الآن أخوف
ولن ترهبوا الصمصام إلا إذا ... غدا لكم بارزا من غمده وهو مرهف
إذا غضبت أقلامه قالت القنى ... فديناك إنا بالمفاصل أعرف
فتكشف عن سر الكتيبة مثل ما ... رأيناك عن سر البلاغة تكشف
رويداً قليلا يازمان فإنه ... يغصك منه بالذى أنت تعرف (١)

هذا ، وقد أسر ابن عمار لأبى بكر بن عبد العزيز ، هذا المسعى الجميل فى العمل على تسريح ابن طاهر ، وأخذ يكيد له ويحرض أهل بلنسية عليه ، وقد وجه إليهم فى ذلك قصيدة ملتهبة من نظمه يقول فيها :

بشر بلنسية وكانت جنة ... أن قد تدلت فى سواء النار
جاروا بنى عبد العزيز فإنهم ... جروا إليكم أسوأ الأقدار
ثوروا بهم متأولين وقلدوا ... ملكاً يقوم على العدو بثار
هذا محمد أو فهذا أحمد ... وكلاهما أهل لتلك الدار
جاء الوزير بها يكشف ذيلها ... عن سوأة سوءى وعار عار
نكث اليمين وحاد عن سنن العلا ... وقضى على الإقبال بالإدبار
آوى لينصر من نأى المثوى به ... ودهاه خذلان من الأنصار
ماكنتم إلا كأمة صالح ... فرميتم من طاهر بقدار
هذا وخصكم بأشأم طائر ... ورمى دياركم بألأم جار

(١) أوردها ابن عبد الملك فى ترجمة ابن طاهر فى «الذيل والتكملة» — الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس . ووردت أيضا فى « قلائد العقيان » ص ٦١ .

بر اليمين ولم يعرض نفســه ونفوسكم لمصارع الفجــار
لابد من مسح الجبين فإنمــا لطمته عذراً غير ذات سوار

ثم يقول فى ختامها :

وأنا النصيح فإن قبلتم فاتركوا آثارها خبراً من الأخبــار
قوموا إلى الدار الخبيثة فانهبوا تلك الذخائر من خبايا الدار
وتعوضوا من صفرة حبشية بأغر وضاح الجبين نضار(١)

ومضى ابن عمار فى خطته من تحدى ابن عباد ، والاستئثار بشئون مرسية ، واستعمل عبيده على الحصون وأقطعهم الضياع ، وانهمك فى الشراب واللذات ، وأعرض عن كل نصح(٢) . وكان ابن رشيق ، وهو قائد الجند وفاتح المدينة الحقيقى ، يرقب الموقف ، ويتحين الفرص . وكان أبو بكر بن عبد العزيز ، انتقاماً من ابن عمار ، يحرضه على الوثوب به ،وانتزاع حكم المدينة منه ،وفضلا عن ذلك فقد استطاع أبو بكر أن يحصل بواسطة يهودى من عملائه فى مرسية ، على النسخة الأصلية من قصيدة هجاء مقذع ، وضعها ابن عمار طعناً فى ابن عباد وزوجه اعتماد الرميكية ، وأن يرسلها إلى ابن عباد فى إشبيلية . وقد سبق أن أشرنا إلى هذه القصيدة فى أخبار مملكة إشبيلية ، وأوردنا بعض محتوياتها اللاذعة . وهكذا كان الجو يظلم حول ابن عمار من كل ناحية ، وزاد الموقف خطورة ، حينما بدأ الجند بتحريض ابن رشيق فى المطالبة بأجورهم المتأخرة ، واشتطوا فى ذلك ، وابن عمار عاجز عن تهدئتهم . فعندئذ خشى ابن عمار البادرة على نفسه ، وخرج من مرسية ، بحجة تفقد الحصون الخارجية ، فانتهز ابن رشيق الفرصة لفوره ، واستولى على القصر وضبط المدينة وأغلق أبوابها . ولم ير ابن عمار أمامه سبيلا سوى الفرار .

وهكذا لقى ابن عمار جزاء غدره ، من غادر مثله . ويصف لنا ابن بسام هذه الضربة الغادرة من ابن رشيق بقوله : « فقيض له (أى ابن عمار) من عبد الرحمن بن رشيق عدواً فى ثياب صديق ، من رجل قلدة خنتر ، وجزيل خديعة ومكر ، فلم يزل يطلع عليه من الثنايا والشعاب ، حتى أخرجه من

(١) نشرت القصيدة بأكملها فى قلائد العقيان ص ٦١ و ٦٢ .
(٢) ابن الأبار عن ابن بسام فى الحلة السيراء ج ٢ ص ١٤٢ .

مرسية كالشهاب » . وطوحت الخطوب عندئذ بابن عمار ، فقصد إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وقضى حيناً فى بلاطه ، ثم قصد بعد ذلك إلى سرقسطة ، والتجأ إلى أميرها المقتدر بن هود ، فأكرم وفادته ، واستخدمه فى بعض شئونه ، ولكنه توفى بعد قليل فى سنة ٤٧٥ (١٠٨١ م) . فلبث فى خدمة ولده المؤتمن فترة أخرى ، ولم يهدأ له بال حتى أغراه على سجيته بافتتاح حصن شقورة الواقع شمال غربى مرسية ، وهو من أعمال دانية ، فبعث معه المؤتمن سرية من جنده ، ولما وصل ابن عمار إلى شقورة ، احتال عليه صاحبها ابن مبارك ، وكان رجلا وافر الدهاء ، واستقبله داخل حصنه بترحاب ومودة ، ثم قبض عليه وزجه إلى السجن . وما كاد ابن عباد يقف على ذلك الخبر ، حتى فاوض ابن مبارك فى تسليم ابن عمار ، وانتهى الأمر بحصوله فى يده ، ثم حمله المعتمد إلى إشبيلية ، واعتقله بقصره ، ومازال يمعن فى تأنيبه وتقريعه حتى انتهى إلى قتله بيده ، على النحو المؤسى الذى فصلناه من قبل فى أخباره ، وذلك فى أواخر سنة ٤٧٧ هـ (أوائل سنة ١٠٨٥ م)[١] .

وخلصت مرسية لابن رشيق ، واستبد بحكمها وأعان خلع طاعة المعتمد ، واستمر يحكمها وأعمالها أعواماً بقوة وحزم ، حتى كان عبور المرابطين إلى اسبانيا وانتصار الجيوش المرابطية والأندلسية المتحدة فى موقعة الزلاقة على الجيوش النصرانية المتحدة ، وذلك فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) ، وكان شرقى الأندلس يومئذ مايزال بمعزل عن حوادث الغرب . ولما شعر ألفونسو السادس ملك قشتالة بانهيار قواه ومشاريعه العسكرية فى غربى الأندلس ، رأى أن يتحرك إلى شرقى الأندلس ، حيث كان يسوده الاضطراب والتفرق والضعف. وكان المعتمد بن عباد يتوق إلى استرداد مرسية ، وتوطيد سلطانه فى هذا القطاع النائى من مملكته . وهناك فيما يتعلق بمصير مرسية روايتان الأولى : هى أن ابن عباد حرض صاحب لورقة القائد أبا الحسن بن اليسع ، وكان قد اعترف ببيعته ، والتجأ إلى حمايته ، على مهاجمة مرسية ، وأنه نجح فى انتزاعها من ابن رشيق ،

---

(١) راجع فى محنة ابن عمار ومصرعه : أعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، والمراكشى فى المعجب ص ٦٦ ، وقلائد العقيان ص ٨٣ و ٩٠ و ٩١ و ٩٧ . وكذلك دوزى Hist. Abbadidarum V. II. p.90, 91, 100 & 101.
وكذلك R. M Pidal : La Espana del Cid, p. 244

وحكمها باسم المعتمد وموافقته، واستمر فى حكمها حتى استولى عليها المرابطون(١) والثانية، هى أنه لما عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، استجابة لصريخ أمراء الطوائف ، ولاسيما أصحاب القواعد الشرقية ، لقمع غارات النصارى فى شرق الأندلس ، والقضاء على مركز عدوانهم فى حصن لييط (أليدو) الواقع بين مرسية ولورقة،وتعاونت القوات الأندلسية مع القوات المرابطية فى محاصرة الحصن المذكور ، كان ابن رشيق ضمن الأمراء الذين اشتركوا فى الحصار بقواتهم . ولما انتهى هذا الحصار بالفشل ، وهمت الجيوش الأندلسية بالعودة إلى بلادها ، شكى المعتمد ابن رشيق إلى أمير المسلمين يوسف ، واتهمه بالتحالف سراً مع النصارى ، ومعاونتهم على الصمود فى الحصن ، هذا فضلا عن كونه كان مغتصبا لولاية مرسية منه ، وطلب تسليمه إليه ، لمعاقبته ، واستشار يوسف الفقهاء فى الأمر ، فوافقوا على طلب ابن عباد ، وأمر يوسف بتسليمه ابن رشيق مع اشتراط الإبقاء على حياته ، وارتدت القوات المرسية غاضبة إلى بلدها . وحمل ابن عباد معه ابن رشيق إلى إشبيلية ، واعتقله هناك ، ولكنه فر غير بعيد من سجنه ،وعاد إلى مرسية ، وعاش بها حتى توفى . واستولى المرابطون على مرسية فى شوال سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر ١٠٩١ م) . واستولوا فى نفس العام على معظم أعمالها (٢) . وهنا يقدم لنا ابن الخطيب رواية أخرى ، هى أن ابن رشيق نزل من تلقاء نفسه عن مرسية لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، حين جوازه الثانى إلى الأندلس وهو مايدلى بأن ابن رشيق كان عندئذ هو المتولى حكمها (٣) . وكان القائد ابن عائشة أول حاكم لمرسية من المرابطين . وكانت مرسية قاعدة لتحركات الجيوش المرابطية ، التى حشدت لمقاومة عدوان السيد الكمبيادور ، واسترداد بلنسية من قبضته ، حسبما فصلنا ذلك فى موضعه .

أما ابن طاهر صاحب مرسية السابق ، فإنه كان قد استقر عقب فراره حيناً

---

(١) راجع المغرب فى حلى المغرب (القاهرة ١٩٥٥) ج ٢ ص ٢٤٨ و ٢٥٠ .

(٢) راجع روض القرطاس لابن أبى زرع (طبعة أوبسالة ١٨٤٣) ص ١٠١ ، وكذلك دوزى :
M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. و Hist.; Vol. III. p. 132—133 136 & 140,

(٣) أعمال الأعلام ص ١٦٠ .

ببلنسية ، فى كنف الوزير أبى بكر بن عبد العزيز . ثم فى كنف ولده أبى عمرو عثمان . ولما استولى القادر بن ذى النون على المدينة ، تقرب إليه ، واستمر على حاله من الكرامة والدعة . فلما ثار القاضى ابن جحاف ، وقتل القادر ، واستولى على الحكم ، لم يكن ابن طاهر من أنصار هذا الانقلاب ، وكان يأخذ بالأخص على ابن جحاف أنه سفك دم القادر ، وله فى ذلك أبيات يقول فيها :

أيها الأخيف مهـــلا فلقـــد جئت عويصا
إذ قتلت الملك يحيي وتقمصـــــت القميصا
رب يوم فيه تجـــزى لم تجـــد عنـــه محيصا

ومن ثم فقد كان ابن جحاف يتوجس منه ، ويخشى مناوأته ، ويتهمه بالاتصال بالسيد والقشتاليين ، والتآمر معهم ضده . وقد كانت هذه التهمة باطلة . ذلك أنه لما دخل السيد وجنده القشتاليون بلنسية فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، لم يستطع ابن طاهر أن يروض نفسه على البقاء فيها ، فغادرها فيمن غادرها من الأكابر . وفى رواية أنه كان ضمن من قبض عليهم السيد من أكابر المدينة ثم أفرج عنه بعد ذلك فسار إلى شاطبة ، واستقر بها حيناً ، حتى تطورت الحوادث ، ومات السيد ، واستولى المرابطون على بلنسية ، وعادت إليها سلطة الإسلام ، فعندئذ عاد إليها ابن طاهر ، وقد أثقلته السنون ، وهدمه الإعياء والمرض ، فعاش بها أعواماً أخرى فى عزلة واعتكاف ، ثم توفى فى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) ، وقد أربى على التسعين (١) .

ويلخص ابن بسام المرحلة الأخيرة من حياة ابن طاهر فى الفقرة الآتية : « ومد لأبى عبد الرحمن بن طاهر فى البقاء ، حتى تجاوز مصارع الرؤساء ، وشهد محنة المسلمين ببلنسية على يد الطاغية الكنبيطور قصمه الله ، وجعل بذلك الثغر فى قبضته سنة ثمانية وثمانين » (٢) .

---

(١) راجع فى ترجمة أبى عبد الرحمن بن طاهر : الحلة السيراء — ليدن — ص ١٨٦ — ١٨٩ ، (والقاهرة) ج ٢ ص ١١٦—١٢٨ ، وقلائد العقيان ص ٥٦ ومابعدها . وقد أورد له كثيراً من الرسائل البليغة . وكذلك المغرب فى حلى المغرب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٠ .

(٢) الذخيرة — القسم الثالث المخطوط لوحة ٥ أ

الفصل الثالث

مملكة دانيـــة والجزائر

مدينة دانية وخواص موقعها . مجاهد العامرى . أصله ونشأته . نزوحه إلى شرق الأندلس . تغلبه على دانية والجزائر الشرقية . الفقيه أبو عبد الله المعيطى . مشروع مجاهد لغزو سردانية . استعداداته البحرية.أسطوله الغازى.سردانية وغزوات المسلمين.مسير مجاهد إلى سردانية واقتحامها . المعارك داخل الجزيرة وافتتاحها . حلف البابوية وجنوة وبيزة لطرد المسلمين . الحرب الصليبية . مقاومة مجاهد ومتاعبه.هزيمته وتحطيم أسطوله.أسر ولده وحريمه.غزوات مجاهد للشواطىء الإيطالية والفرنسية . الفقيه المعيطى وعزله ونفيه . مجاهد يفتدى زوجه وبناته . استطالة أسر ولده على ثم افتداؤه . عجمته وعوده إلى الإسلام. تثقيفه وإعداده لولاية العهد . تأييد مجاهد للخليفة المرتضى . اشتراكه فى محاربة البربر . اشتراكه فى حكم بلنسية ثم انفراده به.اختيار عبد العزيز المنصور لإمارة بلنسية . غزو مجاهد لمرسية وأسره لا بن طاهر . محاربته لعبد العزيز صاحب بلنسية . وفاة مجاهد . عبقريته ومآثره العلمية . التفاف العلماء حوله . قصته مع أبى غالب النحوى. تفوقه فى الفروسية . براعته البحرية. ولده على إقبال الدولة يخلفه . الخلاف بينه وبين أخيه حسن. محاولته اغتيال بناته ومصاهراته .حكمه وصلاته.شئون الجزائر وحكامها.استجابة على لنداء المستنصر الفاطمى ورسالته إليه . تسامحه نحو النصارى . ابن غرسية ورسالته ضد العرب . بعض الآراء والتعليقات حولها . أطماع المقتدر بن هود فى دانية . خلافه مع صهره على . مسيره لافتتاح دانية واستيلاؤه عليها . اعتقال على ثم فراره إلى العدوة . ولده سراج الدولة . على ومواهبه وخلاله . الجزائر الشرقية واستقلال حاكمها المرتضى . خلفه مبشر بن سليمان . حكمه الزاهر . غارات البحارة المسلمين فى عهده . إغارة النرويج على الجزائر . بيزة ومشروعها لفتح الجزائر . أسطول الغزو النصرانى يهاجمها.استعداد مبشر للدفاع .استغاثته بعلى بن تاشفين.وفاة مبشر وولاية أبى ربيع . خروجه من الجزيرة وأسره.دخول النصارى مدينة ميورقة وفتكهم بأهلها.مقدم الأسطول المرابطى . انسحاب النصارى واستيلاء المرابطين على الجزائر .

تقع مدينة دانية فى شمال اللسان المثلث ، الممتد من ولاية لقَنت فى البحر الأبيض المتوسط ،وتبدو برقعتها الصغيرة ،وشوارعها القصيرة العريضة ،التى تظللها أشجار التوت الوارفة ، مدينة متواضعة هادئة ، لايتبادر إلى ذهنك ، وأنت تجوب أحياءها القليلة الصامتة، أنها كانت ذات يوم عاصمة لدولة أندلسية بحرية كبيرة .

أجل قامت فى دانية ، أيام الطوائف ، مملكة تمتاز بصفتها الخاصة ،التى تميزها عن غيرها من ممالك الطوائف الأخرى . فقدكانت أولا تمتاز بموقعها المنعزل

فى شرق الأندلس ، وتمتد رياستها عبر البحر إلى الجزائر الشرقية ، فكانت بذلك تغلب صفتها البحرية على صفتها البرية . ثم كانت بهذا الموقع المنعزل الحصين أبعد من أن تنزلق إلى معترك الحرب الأهلية، التى كانت تنحدر إليه ممالك الطوائف الأخرى ، وأبعد عن عدوان مملكة قشتالة ، الذى كان يهدد سائر الطوائف . ومن ثم فإن تاريخ مملكة دانية يتخذ طابعاً آخر ، غير ذلك الطابع الذى رأيناه يغلب على تاريخ ممالك الطوائف الأخرى .

وكانت دانية مثل معظم القواعد الأندلسية الشرقية ، عند اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة ، من نصيب الفتيان العامريين . تغلب عليها منهم مجاهد العامرى فى أوائل عهد الفتنة . وقد كان مجاهد هذا من أكابر زعماء العامريين . وكان وفقاً لأرجح الروايات من فحول الموالى أو الفتيان العامريين . وقد كان معظم أولئك الفتيان من الصقالبة ، من أصول إفرنجية كالألمان واللنبارد والإيطاليين والجلالقة وأهل البلقان وغيرهم ، يؤتى بهم أطفالا ويربون فى البلاط تربية عربية إسلامية . وكان منهم الفحول والخصيان . وكان مجاهد ينتمى إلى الفريق الأول أعنى إلى الفتيان الفحول ، وقد نشأ وربى فى عهد المنصور بن أبى عامر .وفى رواية أخرى أن مجاهداً ينتمى إلى طائفة الموالى العامريين ، وقد رباه المنصور وعلمه ، وقيل أيضاً إنه كان مولى لعبد الرحمن المنصور ، أو أن أباه يوسف كان معتوقاً لعبد الرحمن [1] . وقيل من جهة أخرى إن مجاهداً كان «رومى» الأصل، أعنى من الفتيان الصقالبة[2] . ويعتقد العلامة المستشرق أمارى بالاستناد إلى هذه الإشارة أن مجاهداً يرجع إلى أصل إسبانى محلى [3] . بيد أنه مما يؤيد الرواية الأولى ، وهى نسبة مجاهد إلى الموالى ، وليس إلى الفتيان الصقالبة ، اسمه وكنيته ، فهو أبو الجيوش مجاهد بن يوسف بن على ، ويؤيدها أيضاً ما كانت تتمتع به شخصية مجاهد من عروبة قوية ، ومن تضلع فى علوم القرآن واللغة ، حسبما نبين بعد[4] .

---

(١) جذوة المقتبس (مصر) ص ٣٣١ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٤١ .

(٣) M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1868) V. III. p. 4

(٤) ابن خلدون ج ٣ ص ١٦٤ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٦ . ويقدم إلينا ابن الابار مجاهداً بأنه أبو الجيش مجاهد بن عبدالله العامرى (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٢٨) .

وعلى أى حال فقد كان مجاهد عند اضطرام الفتنة، إلى جانب واضح وخيران وزهير ، وغيرهم من أكابر الفتيان أو الزعماء العامريين ، اندمج فى زمرتهم ، واشترك معهم فى بعض الأحداث التى أعقبت الفتنة ، وشاطرهم خطتهم فى النزوح إلى شرقى الأندلس . ويقول لنا ابن خلدون إن مجاهداً غادر قرطبة عند مقتل الخليفة محمد بن هشام المهدى فى أواخر سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) ، وإنه سار عندئذ إلى طرطوشة ، فتملكها ، ثم سار منها إلى دانية . وكان مجاهد كباقى الفتيان العامريين ، من شيعة الخليفة المؤيد بالله ، والخلافة الأموية بوجه عام ، وقد حارب معهم إلى جانب الخليفة المرتضى بالله ضد البربر والقاسم بن حمود ، فى الموقعة التى هزم فيها المرتضى ولقى مصرعه ، وذلك فى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٩م)(١) .

بيد أنه توجد رواية أخرى عن تغلب مجاهد على دانية خلاصتها ، أنه كان عند انهيار الخلافة واضطرام الفتنة ، والياً على الجزائر الشرقية ، وكان يشغل هذا المنصب منذ أيام المنصور بن أبى عامر ، فلما تمخضت الفتنة عن تمزق الأندلس ، سار من الجزائر إلى دانية ، وتملكها ، وأقام بها دولته (٢) .

وتقول بعض الروايات أيضاً إن مجاهداً ، كان وقت اضطرام الفتنة قائماً بشئون بلنسية ، فثاربه عبدان من العبيد أو الفتيان العامريين ، هما مبارك ومظفر ، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة ، فخرج مجاهد من بلنسية إلى دانية وتغلب عليها .

والظاهر من مقارنة الروايات المختلفة أن مجاهداً نزل أولا فى دانية ، وغلب عليها ، ثم وثب منها على الجزائر الشرقية (جزائر البليار) وتملكها ، وذلك فى أواخر سنة ٤٠٥ هـ (أوائل ١٠١٥ م) . وتتكون الجزائر الشرقية من أربع جزائر هى مِنُورقة ، وميورقة وهى أكبرها ، وبها مدينة ميورقة وهى عاصمة الجزائر كلها ، ويابسة ، وفرمنتيرا ، وهى أصغرها . وهنا وقبل أن نتتبع أخبار مجاهد ، يجب أن نذكر واقعة تدعو إلى التأمل ، وهو أن مجاهداً ندب إلى معاونته فى الحكم فقيهاً ورعاً هو أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد ويعرف بالمعيطى ، وكان المعيطى هذا ينتمى إلى بنى أمية ، وهو من أشراف قرطبة وفقهائها البارزين ، وكان ممن أزعجته الفتنة ، فغادرها إلى شرقى الأندلس . والظاهر أن مجاهداً كان

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥ .

بحيط هذا الفقيه بنوع من التقدير والإجلال . ذلك أنه نصبه «خليفة» بدانية والجزائر وسائر أعماله ، وأخذ له البيعة على الناس ، وسماه بأمير المؤمنين المستنصر بالله ، ونقش اسمه فى سكته وفى أعلامه ، وذلك فى جمادى الآخرة من سنة ٤٠٥ هـ [١] . ويقال إن مجاهداً صحب معه المعيطى فى حملته إلى الجزائر الشرقية ، وإنه كان ساعده الأيمن فى الاستيلاء عليها . بل يقال إنه هو الذى أوعز إليه بغزو سردانية .

— ١ —

وبينما كانت دول الطوائف الأخرى ، سواء فى شرقى الأندلس ، أو فى غربها ، تخوض غمار المنازعات والحروب المحلية الصغيرة ، كان مجاهد العامرى يفكر فى مشروع ضخم ، ربما كان أعظم مشروع فكر فيه أمير من أمراء الطوائف ، ذلك هو غزو جزيرة سردانية وافتتاحها . وقد كان مجاهد ، زعيما قوى النفس ، وكان فيما يبدو بحاراً مجرباً ، وكان يرى أن مملكته الساحلية ، وأملاكه البحرية ، تقتضى أن يكون اعتمادها فى القتال على الأساطيل قبل كل شىء ،ومن ثم فقد اقتضت همته أن يجدد دار الصناعة القديمة (دار صناعة السفن) التى كانت بدانية ، وأن يضاعف طاقتها لتمده بالسفن المقاتلة والناقلة من مختلف الأحجام ، واستكثر من السفن والمعدات الحربية ، واستطاع فى فترة قصيرة أن ينشىء أسطولا كبيراً يرابط فى مياه دانية والجزائر ، وغدت دانية فيما بعد ، فى عصره ، وعصر ولده على ، أعظم مركز للأساطيل الأندلسية . وكان مجاهد يتطلع بعيداً من جزائره الشرقية إلى ما وراء هذه المياه من الجزائر الكبيرة الغنية ولاسيما جزيرة سردانية العظيمة ، التى عرفها البحارة المسلمون من قبل ، فى كثير من الغزوات المتعاقبة .

وضع مجاهد خطته لغزو هذه الجزيرة الكبيرة ، فحشد أسطولا قوامه مائة وعشرين سفينة ، وقوة من ألف فارس ، وأقلعت السفن الغازية من دانية والجزائر فى ربيع الأول سنة ٤٠٦ هـ (أغسطس ١٠١٥ م) ، وعلى الأسطول قائده أمير البحر أبو خروب . وكانت المسافة بين مياه دانية والجزائر وبين سردانية ، يومئذ تستغرق ثمانية أيام . وكانت جزيرة سردانية موضع اهتمام

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٠ .

الغزاة العرب منذ فتح الأندلس ، وقد غزاها العرب لأول مرة فى سنة ٧١١ م ، أيام موسى بن نصير . ثم توالت غزوات البحارة المسلمين لسردانية ، فغزوها فى سنة ٧٥٢ م ، ثم فى سنى ٨١٣ و٨١٦ و٨١٧ و٨٣٨ م . بيد أن هذه كانت كلها من الغزوات العارضة ، التى يقنع الغزاة فيها بالسبى والغنائم ، وكانت المقاومة العنيفة التى يلقونها من أهل الجزيرة تحول دون احتلالها والاستقرار فيها . وكانت سردانية فى البداية تحت حكم الدولة البيزنطية ، فلما ضعف سلطانها فى تلك المياه ، وقعت سردانية تحت حكم اللونبارد ، ثم تحت حكم الفرنج . بيد أن هذه لم تكن سوى حماية اسمية . وكان يحكم الجزيرة منذ القرن الثامن قضاة أو أمراء محليون . وكانت طبيعتها الوعرة ، وشجاعة أهلها الجبليين ، واعتزازهم بحرياتهم ، مما يعاون فى دفع الغزاة ، ورد الحملات الغازية العارضة .

بيد أن هذه الحملة ، التى سيرها مجاهد العامرى إلى الجزيرة ، كانت تمتاز بضخامتها ، وضخامة عُددها ، وتمتاز بالأخص بما يقترن بها من عزم راسخ على الفتح والاستقرار . ومن ثم فإنه ما كادت السفن الغازية ترسو على شواطىء الجزيرة — والظاهر أنها رست فى خليج كاليارى فى جنوبى الجزيرة — حتى شق الغزاة طريقهم إلى الداخل بمنتهى العنف ، ووقعت بينهم وبين أهل الجزيرة معارك دموية هائلة قتل فيها عدد جم ، وكان قائدهم مالوتو فى مقدمة القتلى ، وأسر الغزاة جموعاً غفيرة ، وسبوا كثيراً من النساء والأطفال . واستطاع الغزاة أن يحتلوا معظم أراضى الجزيرة ، بالرغم من المقاومة العنيفة التى لقوها ، وأن يسيطروا على معظم حصونها [١] .

وهكذا فتحت سردانية على يد مجاهد العامرى ، وذلك فى شهر أغسطس أو سبتمبر سنة ١٠١٥ م (ربيع الثانى سنة ٤٠٦ هـ) [٢] . وكان أول فتح إسلامى لهذه الجزيرة الكبيرة . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن مجاهداً غلب على معظم أنحاء سردانية وافتتح معاقلها ، ثم قرر البقاء فى الجزيرة، حتى يوطد مركزه بها ، واختط بها بالفعل مدينة واسعة شرع فى بنائها ، وانتقل إليها بأهله وولده ، وأنه أحرز من الغنائم والسبى مالا يأخذه الحصر ، حتى كسد السبى فى زمانه ،

---

(١) Amari : ibid., V. III. p. 6 & 7

(٢) وفى جذوة المقتبس أن الفتح وقع سنة ٤٠٦ أو ٤٠٧ هـ (ص ٣٢١) .

وانحطت أثمانه (١) . ومن المحقق على أى حال أن مجاهداً لبث فى سردانية حتى نهاية سنة ٤٠٦ هـ ، أعنى نحو عشرة أشهر . وفى خلال ذلك كانت البابوية والدول الإيطالية القريبة ، قد اهتزت لهذا الحادث الخطير ، وزاد فى روعها وسخطها ما عمد إليه مجاهد من الإغارة بسفنه على الشاطىء الممتد بين چنوة وبيزة واقتحام مدينة لونى ونهبها ، وكانت چنوة وبيزة يومئذ هما أقوى الدول البحرية فى هذه المياه ، ولكلتاهما مصالح تجارية عظيمة تحرص على حمايتها . وفى الحال أعلن البابا ، وهو يومئذ بندكتوس الثامن ، الحرب الصليبية ضد المسلمين ، وعقد تحالفاً مع چنوة وبيزة على محاربة المسلمين وطردهم من الجزيرة . ومما يروى بهذه المناسبة ، أن مجاهداً العامرى أرسل إلى البابا كيساً مملوءاً بحبات القسطل ، معلناً أنه سوف يعود بعددها ، وأن البابا رد بأن بعث إليه كيساً مملوءاً بالحشائش الرفيعة ، قائلا إنه سوف يلقى بعددها ممن يرتدون الخوذات . وهكذا عقدت الدول الإيطالية بزعامة البابا ، العزم على تحطيم الغزاة المسلمين ، ورد خطرهم عن هذه المياه .

وهنا يحيط الغموض بالفترة القصيرة ، التى قضاها مجاهد العامرى فى سردانية . ففى بعض الروايات أن مجاهداً عاد بعد هذه الحملة الأولى إلى دانية وجهز حملة ثانية إلى سردانية، فى صيف العام التالى أعنى فى سنة ٤٠٧هـ (١٠١٦م) وذلك لكى يقضى على كل مقاومة فى الجزيرة ، وهذه رواية يصعب تصديقها ، وليس فى سير الحوادث ما يؤيدها . والحقيقة هى أن مجاهداً لبث بعد غزو الجزيرة ، يبذل جهده فى تحصينها ، وفى الاستعداد للدفاع عنها ، واستمر طوال الوقت فى كفاح دائم مع أهل الجزيرة . ولما قدمت السفن الچنوبية والبيزية والسفن النصرانية الأخرى من مختلف الأمم ، ودخلت مياه كاليارى ، استعد مجاهد للمعركة الحاسمة ، ولكن مقاومة أهل الجزيرة من الداخل ، وتمرد الجند المرتزقة النصارى فى أسطوله ، وتوالى العواصف القاصفة ، كانت كلها عوامل فتت فى عضده ، وحطمت خطط دفاعه ، فلم يقو طويلا على المقاومة ، وأصابته السفن النصرانية بهزيمة فادحة . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن أمير البحر أباخروب حذر مجاهداً من دخول مياه كالياري بسفنه ، ولكنه لم يأخذ بهذا

---

(١) إعمال الأعلام ص ٢١٩ . وجذوة المقتبس ص ٣٣١ .

النصح ، وكانت الريح تقذف بمراكبه تباعاً ، والروم لا عمل لهم سوى قتل المسلمين وأسرهم ، ومجاهد خلال ذلك يبكى (١) . وهكذا تحطمت معظم سفنه وأسرت أو أغرقت ، وقتل معظم أصحابه . واستولى العدو على سائر غنائمه وسبيه ، وعلى أهله وحريمه وولده وفيهن نساؤه وبناته ، وعلىّ ولده ، وجود أمه النصرانية ، ولم ينج من أسطوله الضخم سوى بضع سفن ، شقت به عرض البحر مسرعة . ووقعت هذه الهزيمة الساحقة على مجاهد العامرى فى شهر يونيه أو يوليه سنة ١٠١٦ م .

ويقدم إلينا العلامة المستشرق أمارى رواية أخرى خلاصتها أن مجاهداً لبث فى سردانية عاماً آخر حتى مايو سنة ١٠١٧ م ، وأنه حينما سمع بأمر الأساطيل الضخمة التى جهزت لقتاله ، أنشأ بالجزيرة قلعة يستعين بها على الدفاع . ولكن جنده كانوا خلال ذلك، قد سئموا المقام بالجزيرة لقلة الغنائم ورداءة الطقس، وساد بينهم التذمر . وفى شهر مايو سنة ١٠١٧ م ، أقبل أسطول البيزيين والجنويين الضخم ، وعول مجاهد على الانسحاب . ولكنه حينما خرج بأسطوله وذلك فى شهر يونيه ، اصطدم بالأساطيل الإيطالية ، وفاجأته فى نفس الوقت عاصفة شديدة ، أغرقت كثيراً من سفنه ، واصطدم الكثير منها بالشاطىء ، فسار فى فلول أسطوله صوب دانية تاركاً فى الأسر ولده وأخاه وزوجه (٢) .

وهكذا تحطم هذا المشروع الضخم، ولم يتح للمسلمين أن يستقروا فى سردانية كما أتيح لهم من قبل أن يستقروا فى صقلية . ولو نجح مجاهد العامرى فى مشروعه، واستقر المسلمون فى سردانية ، لكان مرجحاً أن تزدهر بها حضارة إسلامية ، كتلك التى ازدهرت فى صقلية ، بل وكان مرجحاً أن يطول عهد الإسلام فى صقلية ، وأن يتأخر سقوطها فى أيدى النورمان عصوراً أخرى . ولكن المشروع كان فى الواقع أضخم من مقدرة أمير من أمراء الطوائف ، وكانت الدول النصرانية كلها تتحفز لحماية هذه الجزائر ، كى تمنع انسياب الأساطيل الإسلامية إلى المياه الإيطالية ، وكان فى تفوق الجمهوريات الإيطالية البحرى ، فى هذه العصور ، ما يكفل تحقيق هذه الغاية (٣) .

---

(١) راجع جذوة المقتبس ص ٣٣١ .

(٢) Amari : ibid.; V. III. p. 9

(٣) راجع أعمال الأعلام ص ٢١٩ و ٢٢٠، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ ، وابن خلدون =

على أن غزو مجاهد الجرىء لسردانية ، وغاراته المتكررة بعد ذلك على الشواطىء الإيطالية وشواطىء بروفانس ، جعلت منه شخصية خيالية مروعة ، وتفيض الروايات النصرانية المعاصرة ، من إيطالية ولاتينية ، فى غزوات مجاهد وغاراته البحرية ، وتعرفه باسم موجيتوس Mogetus أو موسيتو Museto وتحيطه بهالة من البطولة والروع .

وفى بعض الروايات أن المسلمين غزوا سردانية بعد ذلك مرتين أخريين ، فى سنة ١٠١٩ م ، ثم فى سنة ١٠٤٩ م ، وذلك بقيادة مجاهد العامرى أيضاً ، وأن مجاهداً سقط أخيراً فى أيدى النصارى ، وهى رواية لا سند لها . ثم إنه يروى أيضاً أن البحارة المغامرين أو القراصنة حسبما يسمونهم ، من دانية والجزائر ، لبثت تتكرر غاراتهم على الشواطىء الغربية للبحر المتوسط مدة طويلة ، يظللها دائماً اسم «موجيتو» أى مجاهد ، على أنه ملك إفريقية . وإذا كان لنا أن نستخلص من ذلك شيئاً ، فهو الروع الذى كان يبثه اسم هذا البحار الجرىء — مجاهد العامرى — فى ثغور البحر المتوسط الغربية ، فى ذلك العصر .

ومن الأسف أن الرواية الإسلامية تنقصها الإحاطة فى هذا الجانب الشائق من حياة مجاهد ، وهى حياته كبحار من أعظم بحارى العصر ، فهى لا تقدم لنا عنه سوى نبذة يسيرة متناقضة ، وهى أكثر اهتماماً بنواحيه العلمية والأدبية .

وعاد مجاهد العامرى من غزوته المنكوبة لسردانية ، ليلقى الأمور فى دانية قد اضطربت وتعقدت . ذلك أن الفقيه أبا عبد الله المعيطى ، لم يحفظ العهد ، ولم يرع الأمانة ، فاستبد بالحكم ، واغتصب السلطة لنفسه ، ومحا اسم مجاهد ورسومه ، وكثرت مظالمه وعيثه ، وابتزازه للأموال ، ومجاهرته بالمعاصى . وما كاد مجاهد يقف على ذلك ، حتى بادر بالقبض على المعيطى ، ونزعه كل سلطة وصفة ، واشتد فى تأنيبه وتعنيفه ، ثم أرسله مخفوراً إلى العدوة فى سفينة أنزلته فى بجاية ، وهنالك لجأ إلى البربر ، وعاش مغموراً حتى توفى [1] .

— ج ٤ ص ١٦٤ ، والمقدمة ص ٢١٢ . وراجع بحثاً بالإسبانية عن مجاهد العامرى وعلى ابنه : Roque Chabas : Mochahid ijo de Yusuf y Ali ijo de Mochahid en (Estudios de Erudición Oriental) Homenaje a Fr. Codera p. 4—14 . وراجع أيضا : Amari : ibid., V. III

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٠ .

وعمد مجاهد إلى تنظيم شئون مملكته ، والعمل على النهوض من عثرته . وكانت أعوص محنه يومئذ أسر ولده وأهله فى سردانية ، وقد استطاع أن يفتدى زوجته وبناته وإخوته فى مدة قريبة . ورفضت أمه وكانت نصرانية العود إليه ، وكذلك أختها ، وآثرتا العيش فى أرض نصرانية ، فأعرض عنهما . وبقيت مشكلة ولده على . وكان وقت أسره فى سردانية طفلا فى السابعة من عمره ، وكان وحيده يومئذ ، وكانت أمه نصرانية كذلك . وقد رفض السرادنة كل عرض لافتدائه ، وأخفق كل مجهود بذله مجاهد لرده . ومضت الأعوام والغلام يعيش فى الأسر بين النصارى ، يربى على دين النصرانية ، ويتحدث لغة القوم . وأخيراً وفق مجاهد إلى إقناع السرادنة بقبول افتدائه وإطلاق سراحه ، وذلك بعد عشرة أعوام من أسره . وكانت وجهة نظر السرادنة فى احتجاز الغلام على هذا النحو ، هى استبقاؤه رهينة ثمينة ، لمنع مجاهد من القيام بأية مغامرة أخرى ، ولم يرتضوا إطلاق سراحه ، إلا بعد أن دفع لهم مجاهد فدية هائلة ، وقطع على نفسه أوثق العهود بأن يتركهم فى سلام ، وألا يعود إلى إزعاجهم بأية صورة . وخرج على من الأسر ، وهو فتى يتكلم بلسان «الروم» الذى ربى بينهم ، ويتزيا بزيهم ، ويعتنق دينهم . فلما وصل إلى دانية عرض عليه أبوه الإسلام ، فقبله ، وحسن إسلامه ، وعنى مجاهد بتأديبه وتثقيفه . وكان قبل افتدائه من الأسر ، قد اختار لولاية عهده ولده الأصغر حسناً الملقب بسعد الدولة ، ولكنه عدل عن هذا الاختيار لما آنسه فى ولده الأكبر على من مخايل الشجاعة والذكاء والعزم ، فقدمه على أخيه الأصغر ، وعينه لولاية عهده ، وعهد إليه بقيادة الجيش . وكان لذلك فيما بعد أثره فى توتر العلائق بين الأخوين (١) .

— ٢ —

كانت غزوة سردانية أعظم أعمال مجاهد العامرى ، وهى ألمع صفحة فى تاريخه . بيد أنه مذ عاد إلى دانية ، قدر له أن يخوض سلسلة من الحوادث والأعمال الأخرى .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٧ . وبحث الأستاذ Chabas السالف الذكر . ويقول لنا ابن بسام إن الذى افتدى علياً من الأسر ، هو أحد آل حماد أمراء بنى مناد بالمغرب الأوسط ، وأنه أسدى بذلك إلى والده يداً بيضاء (راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦) .

ففي سنة ٤٠٨ هـ ، اجتمع رأى الفتيان العامريين، وعلى رأسهم زعيمهم خيران صاحب ألمرية ، على معارضة خلافة على بن حمود الناصر فى قرطبة ، والدعوة لخلافة مرشح أموى جديد هو عبد الرحمن بن محمد بن عبـــد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فأعلن خيران بيعته ، وأيده فى بيعته المنذر التجيبي صاحب سرقسطة ، وولاة بلنسية ودانية وطرطوشة وألبونت وغيرها ، وكان ذلك فى مؤتمر عقد فى بلنسية ، وتلقب الخليفة الجديد بالمرتضى ، وأعلن الخلاف على الناصر ، وسار على رأس جيش متحد من حلفائه ومؤيديه ، ومنهم مجاهد العامرى. والتقى جيش الفتيان وحلفائهم فى ظاهر غرناطة بجيش البربر ، بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى ، فهزم جند الأندلس هزيمة فادحة ، وقتل المرتضى خلال فراره (٤٠٩ هـ) ، وانهارت بذلك حركة الفتيان لمعارضة خلافة البربر ، وعاد مجاهد إلى دانية .

وفى خلال ذلك تطورت الحوادث فى بلنسية ، وكانت تحت حكم الفتيين العامريين مظفر ومبارك ، فتوفى مظفر أولا ثم تبعه مبارك فى حادث قتل فيه ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٤٠٨ هـ حسبما فصلنا من قبل فى موضعه . فعندئذ خلفه فى حكم بلنسية الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة ، ثم شاركه فى حكمها مجاهد العامرى ، وكانت الخطبة تصدر باسميهما ، ثم وقع الخلاف بينهما ، وسخط أهل بلنسية على لبيب ، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة النصرانى، ففر لبيب إلى طرطوشة، وانفرد مجاهد بحكم بلنسية ، إلى جانب مملكته فى دانية ، واستمر على ذلك زهاء عامين ، حتى اجتمع الفتيان العامريون مرة أخرى، وعقدوا البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ، وندبوه أميراً لبلنسية ، وذلك فى سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) ، وعندئذ تخلى مجاهد عن حكمها .

ولسنا نجد بعد ذلك تفصيلا شافياً لأعمال مجاهد فى الأعوام التالية ، بيد أن هنالك واقعتين واضحتين ، الأولى أن مجاهداً غزا مرسية ، والثانية أنه خاض حرباً مع عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية . فأما عن الواقعة الأولى ، فإنه يبدو من إشارة لابن الأبار ، أن مجاهداً سار إلى غزو مرسية ، وقت أن كان عليها أبو بكر بن طاهر نائباً عن زهير العامرى صاحب ألمرية . ولا توضح لنا الرواية أسباب هذا الغزو ، ولا تاريخه بالضبط ، ولكن الظاهر أنه وقع حوالى سنة

٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) فى أوائل ولاية زهير لألمرية ومرسية عقب وفاة خيران العامري . وقد كان النزاع قائماً داخل مرسية حول حكمها بين بنى طاهر ، وبنى خطاب ، وكان مجاهد فيما يبدو من مؤيدى بنى خطاب ، فلما غلب بنو طاهر على المدينة سار مجاهد لغزوها ، وأسر أبا بكر بن طاهر ، وحمله معه إلى دانية ، ولم يطلقه إلا لقاء فدية طائلة ، بيد أنه ليس هنالك مايدل على أن مجاهداً حكم مرسية أو استقر بها طويلا . وعندئذ ندب زهير أبا بكر بن طاهر لحكم المدينة واصطحب معه خصمه ومنافسه أبا عمرو بن خطاب إلى ألمرية حسما للنزاع ، وضماناً للسكينة والسلام فى مرسية (١) .

ولما توفى زهير العامرى فى سنة ٤٢٩ هـ ، قتيلا فى حربه مع باديس صاحب غرناطة ، واستولى عبد العزيز المنصور من بعده على ألمرية وأعمالها ، وعلى مرسية وأوريولة ، شعر مجاهد بأن تضخم مملكة بلنسية على هذا النحو سوف يغدو خطراً على مملكته ، فساءت بينهما العلائق بسرعة وانتهت إلى الحرب . وسار مجاهد فى قواته من دانية ، واخترق أراضى مملكة بلنسية الوسطى من شاطبة إلى لورقة . وكان عبد العزيز المنصور يومئذ فى ألمرية ، فغادرها فى قواته ، وكانت شاطبة ولورقة وشوذر(٢) من أعمال مملكته ، قد خرجت كلها عليه وانضمت إلى مجاهد . ووقعت الحرب بين الفريقين (٤٣٣ هـ — ١٠٤١ م) وانتصر عبد العزيز فى النهاية على خصومه ، واستعان فى محاربته لمجاهد ببعض سريات من المزتزقة النصارى أمده بها ملك قشتالة ، وعاد مجاهد إلى دانية ، دون أن يفوز بشيء .

وولىّ مجاهد حكم ميورقة (الجزائر الشرقية) ابن أخ له يدعى عبد الله . وكانت الجزائر الشرقية من أهم أعمال مجاهد ، وبها كانت مرافىء معظم أساطيله ، لأن مياه دانية لاتصلح لرسو السفن الكبيرة . واستمر عبد الله على ميورقة خمسة عشر عاماً حتى عزل فى سنة ٤٢٨ هـ ، وندب مجاهد لحكمها مولاه الأغلب فاستمر فى منصبه بقية عهد مجاهد ، وقسما من عهد ولده على(٣) .

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٧ ، وطبعة القاهرة ج ٢ ص ١١٦ و ١١٧ . وكذلك الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٢ .

(٢) وهى بالإسبانية Jódar

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

وتوفى مجاهد العامرى سنة ٤٣٦هـ (١٠٤٤م) بعد أن حكم مملكة دانية والجزائر زهاء ثلاثين عاماً ، ساد فيها النظام والأمن والرخاء .

وقد أشادت التواريخ المعاصرة واللاحقة ، بخلال مجاهد العامرى ، وعبقريته الحربية والسياسية ، ومآثره العلمية والأدبية ، وكان أكبرهم تنويها بشأنه، معاصره المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان ، وإليك نبذة مما قاله فى ذلك ، نقلها إلينا ابن بسام فى الذخيرة ، قال : «كان مجاهد فتى أمراء دهره ، وأديب ملوك عصره ، لمشاركته فى علم اللسان ، ونفوذه فى علم القرآن ، عنى بذلك من صباه ، وابتداء حاله إلى حين اكتهاله ، ولم يشغله عن التزيد ، عظيم ما مر به فى الحروب براً وبحراً ، حتى صار فى المعرفة نسيج وحده ، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة ، وكانت دولته أكثر الدول خاصة ، وأسراها صحابة ؛ لانتحالهم الفهم والعلم ، فأمه جلة العلماء وأنسوا بمكانه ، وخيموا فى ظل سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها ، جملة وافرة ، وجلة ظاهرة، إلا أنه كان مع أدبه من أزهد الناس فى الشعراء، وأحرمهم لأهله ، وأنكرهم على منشده فأقصر الشعراء عن مدحه ، وخلا الشعر من ذكره »[١] .

وذكر لنا فى نبذة أخرى نقلها إلينا ابن الخطيب ، أنه كان بين أعلام العصر الذين يلتفون حول مجاهد ، أبو عمرو بن سعيد الدانى صاحب القراءات، وأبو عمر ابن عبد البر ، وابن مغمر اللغوى ، وابن سيده صاحب كتاب المحكم وغيرهم[٢]. وكان منهم أيضاً الفقيه الكاتب أبو العباس أحمد بن رشيق ، وكان يحتل فى دولة مجاهد أرفع منزلة ؛ وقد ولاه ميورقة فحكمها بالسياسة والعدل ، واشتغل هناك بالحديث والفقه[٣] وكان بعض هؤلاء العلماء منقطعاً إليه ، متفرغاً للعمل فى كنفه ، مثل ابن سيده الذى ألف معظم كتبه تحت رعايته ، ولازمه حتى توفى ، ثم غادر دانية بعد وفاته خوفا من سطوة ولده على[٤] . « فشاع العلم فى حضرته

(١) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ٥ أ. ونقلها صاحب البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٦ .

(٢) توفى أبو عمرو الدانى سنة ٤٤٤ هـ ، وابن عبد البر سنة ٤٦٣ هـ ، وابن سيده سنة ٤٥٨ هـ.

(٣) هذا قول ابن الأبار (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٢٨) ولا نعرف متى كانت هذه التولية . ولعلها كانت فى أوائل عهد مجاهد . وقد توفى ابن رشيق بعد سنة ٤٤٠ هـ .

(٤) المقرى عن المطمح فى نفح الطيب ج ٢ ص ٣٥٧ .

حتى فشا فى جواريه وغلمانه ، فكان له من المصنفين عدة ، يقومون على قراءة القرآن ، ويشاركون فى فنون من العلم ، يحملونه بها ويشرفون دولته ، .

ومما يذكر عن علائق مجاهد بعلماء عصره ، قصته مع إمام اللغة والنحو فى عصره ، أبى غالب بن غالب المعروف بابن التيانى المرسى . فإن مجاهداً أثناء تغلبه على مرسية ، وأبو غالب إذ ذاك بها ، أرسل إليه ألف دينار ، على أن يزيد فى ترجمة كتابه « الموعب » أنه ألفه لأبى الجيش مجاهد . فرد عليه المال ، وأنف من ذلك قائلا ، « والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما فعلت ، ولا استجزت الكذب ، فانى لم أجمعه لك خاصة ، وإنما جمعته لكل طالب علم »(١) .

ولم تقف إشادة المؤرخ المعاصر بخلال مجاهد عند مآثره العلمية ، ولكنه ينوه فى نفس الوقت بخلاله كفارس من أعظم فرسان عصره . ويقول لنا ابن حيان إنه «كان بهمة ، وأكثر الناس علما بالثقافة ، فلا يضم من الفرسان إلا الأبطال الشجعان ، وإنه لم يكن فى ملوك الزمان فارس يعدله شكلا ولباقة ورواء وهيبة ، وحسن عمل فى السلاح ، وتقليباً له ، إلى حذق بأبواب الثقافة والرماية ، وتدقيق لمعانيها »(٢) .

كذلك فإنه يبدو أن مجاهداً كان من أذكى ملوك الطوائف وأحذقهم بالشئون المالية والتجارية . وكان نشاطه التجارى الواسع ، المترتب على نشاط سفنه التجارية الكثيرة فى مياه غربى البحر المتوسط ، يحقق له ثروات طائلة ، وكانت مملكة دانية فى الواقع من أغنى ممالك الطوائف ، وأكثرها تمتعا بالرخاء .

وقد رأينا مما ذكرناه فى غزوة ميورقة ، وغارات مجاهد البحرية على الشواطىء الفرنسية والإيطالية ، أن مجاهداً كان كذلك بحاراً من أعظم بحارة عصره ، وكان من أكثرهم تمرساً بالحروب والغارات البحرية . ويصفه دوزى ، بأنه كان أعظم « القراصنة » فى عصره ، وبأنه قد اشتهر بغزواته لسردانية وشواطئ إيطاليا وكذلك بحمايته للأدباء(٣) .

ومع كل ما تقدم فإن ابن حيان لم يفر مجاهداً من نقده اللاذع ، إذ يبدو أنه

---

(١) راجع الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٢ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ٥ أ . وأعمال الأعلام ص ٢١٨ .

(٣) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne, V. III. p. 3

جنح فى أواخر عهده إلى نوع من التناقض والاستهتار ، فتارة يبدو ناسكاً ، معتكفاً متبرئاً من كل باطل ، وطوراً يعود خليعاً فاتكاً لا يساتر بلهو ولا لذة ، ولا يستفيق من شراب وبطالة ، شأنه فى ذلك شأن سائر ملوك الطوائف[١] .

وكان مجاهد العامرى يكنى حسبما قدمنا بأبى الجيوش ، وفى بعض الروايات بأبى الحسن[٢] ، ويلقب من الألقاب الملوكية بالموفق .

— ٣ —

وخلف مجاهد العامرى فى مملكة دانية والجزائر ، ولده على الملقب بإقبال الدولة . وقد سبق أن أشرنا إلى قصة أسره ، وهو صبى ، فى غزوة سردانية ، وعوده من الأسر بعد أعوام طويلة ، فتى تغلب عليه صفات الروم ولسانهم ، وكيف عنى أبوه مجاهد برده إلى حظيرة الإسلام ، وبتثقيفه وإعداده ليخلفه فى الملك .

وكان مجاهد ، قبل عود ولده على ، قد رشح أخاه الأصغر حسناً الملقب بسعد الدولة لولاية عهده ، فلما صار الأمر بعد ذلك إلى أخيه على ، تحطمت آماله ، وشعر نحو أخيه الأكبر ، بعاطفة بغض قوى ، ورغبة جامحة فى إزالته . وهناك فى الواقع بعض الغموض فيما يتعلق بمركز حسن من مسألة الحكم وولاية العهد ، ذلك أنه توجد قطع من النقود التى ضربت فى دانية سنة ٤٣٢ هـ ، وعليها اسم حسن سعد الدولة ، كما توجد نقود ضربت فى دانية وميورقة فى سنتى ٤٣٥ ، و٤٣٦ هـ ، تحمل اسمه واسم أخيه على وأبيهما مجاهد . وفى ذلك ما يدل على أن حسناً ، ربما ولى الحكم بالفعل خلال حياة أبيه نائباً عنه ، أو أنه كان مشاركاً لأخيه على فى ولاية العهد ، أو نحو ذلك[٣] . وعلى أى حال فقد سار حسن مغضباً إلى صهره ، وزوج أخته المعتضد بن عباد فى إشبيلية ، وأفضى إليه بمشروعه فى الوثوب على أخيه ، واسترداد حقه فى الملك ، فشجعه المعتضد ، وهو من عرفنا من الجرأة والإقدام على الكبائر ، ولعله كان يرى فى معاونته على تنفيذ مشروعه ، سبيلا إلى بسط حمايته فيما بعد على مملكة دانية . وبعث معه إلى دانية غلاماً فتاكاً من غلمانه ، ووضع حسن والغلام العبادى خطتهما لاغتيال على ،

---

(١) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٥ أ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠ ، وراجع معجم ياقوت الجغرافى تحت كلمة « دانية »

(٣) P. y Vives : Los Reyes de Taifas ; p. 36

واتفقا على أن يكون ذلك يوم جمعة عقب خروج على من الصلاة . وكان من عادة على ، عقب الخروج من الصلاة ، أن يتنزه قليلا على شاطىء البحر ، وكان إذا ركب ، كان أخوه حسن وراءه فى الموكب ، فلما انتهى على فى ذلك اليوم من نزهته ، وسار عائداً إلى قصره ، انتهز حسن والغلام العبادى فرصة مروره فى زقاق ضيق ، وانقض حسن عليه بخنجره ، فأصابه فى يده ، ثم حاول أن يثنى الطعنة فلم يوفق ورده على ، وعندئذ حاول الغلام العبادى أن يطعن علياً بالرمح الذى يحمله ، فنشب الرمح فى الحائط لضيق الزقاق ، وانقض رجال علىّ على الغلام العبادى فقتلوه ، وفر حسن ناجياً بنفسه ، وسار مسرعاً إلى بلنسية ، حيث لجأ إلى صهره ، وزوج أخته الآخر ، عبد الملك بن عبد العزيز ، وهناك عاش فى كنف أخته مغموراً حتى توفى[1] .

وهكذا فشلت هذه المحاولة الغادرة فى اغتيال على بن مجاهد ، وبرىء على من جراحه واستقر فى ملكه ، واتفق الجميع على طاعته وتأييده . وحذا على حذو أبيه فى اتباع سياسة الحيدة والمودة مع جيرانه ، وحاول مثل أبيه أن يوثق علائقه مع ملوك عصره بالمصاهرة ، وكانت له بنات حسان يصفهن صاحب الذخيرة بأنهن كن « أحسن من الشموس ، وافتن من الطواويس » ويقول لنا إن ملوك الطوائف تنافسوا فى الزواج منهن ، وجعلهن والدهن على عيوناً له على أزواجهن ، معتمداً على ما تحققه له المصاهرة وصلة الرحم ، من الرعاية والحماية[2] ، فزوج إحداهن للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وأخرى إلى المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، وتزوج هو من ابنة أحمد بن هود المقتدر بالله ، بيد أنه كان من غرائب القدر أن هذه السياسة ذاتها ، وهى سياسة المصاهرة ، كانت أيضاً هى السبب فى سقوط على وضياع ملكه .

ولم نعثر على أية تفاصيل شافية عن الأحداث التى مرت بمملكة دانية أيام على ابن مجاهد ، ولا عن أعمال على ذاته ، وكل ما نستخلصه من الإشارات القليلة المتعلقة بحكمه ، أنه جرى على نفس سياسة أبيه فى مخاصمة بنى طاهر أصحاب مرسية ، وأنه كان متحالفاً مع أصحاب بلنسية ومربيطر وشنتمرية الشرق . وأما عن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٧ و ١٥٨ .
(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦ .

علائقه مع الملوك النصارى ، فإنه كان على علائق المودة والصداقة مع ملك قشتالة ، أسوة بالمأمون صاحب طليطلة ، ولكن على مبدأ الاستقلال لا الخضوع ، إذ كانت مملكة دانية ، حسبما بينا من قبل ، بموقعها النائى الحصين ، بعيدة عن متناول عدوان قشتالة . وكذا كان يرتبط بمثل هذه العلائق الودية مع كونتات برشلونة ، وهم أمراء آل بربخير .

وكان على يولى شئون الجزائر منتهى عنايته ، وكان يشعر دائما أنها أهم أقسام مملكته . وكان حاكمها وقت ولاية على ، هو الأغلب مولى أبيه مجاهد ، وكان قد ولى حكمها منذ سنة ٤٢٨ هـ . وكان جندياً وبحاراً مجرباً ، وكان دائب الإغارة بسفنه على الشواطىء النصرانية فى قطلونية وبروڤانس[١] . ولما توفى مجاهد ، استأذن الأغلب علياً بعد ولايته بقليل ، أن يسير إلى الحج ، فأذن له ، وندب لحكم الجزائر صهره سليمان بن مشكيان ، فاستمر فى حكمها خمسة أعوام أخرى حتى وفاته فى سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) ، فولى على مكانه عبد الله المرتضى فحكمها مدة طويلة . ولما سقطت دانية فى يد ابن هود ، وانقضت دولة على ، حسبما يجىء ، أعلن المرتضى استقلاله بحكم الجزائر ، واستمر فى حكمها أميراً مستقلا حتى وفاته فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٢ م) ، فخلفه فى حكمها مبشر بن سليمان الملقب بناصر الدولة حسبما نذكره فى موضعه[٢] .

وكان من أبرز أعمال على بن مجاهد ، استجابته لنداء المستنصر بالله خليفة مصر الفاطمى ، أيام الشدة العظمى ، التى نكبت فيها مصر بالوباء والمجاعة الغامرة ، حيث دعاه إلى المساهمة فى إغاثة أهل مصر بالغلال والمؤن ، فبادر على إلى الاستجابة ، وبعث إلى الإسكندرية مركباً كبيراً مشحوناً بالمؤن والأطعمة ، (٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م) ، فردها إليه المستنصر مشحونة بالتحف والذخائر ، وتبالغ بعض الروايات فتقول إنه أرسلها إليه مشحونة « بالأموال والذخائر ، أو بالياقوت والجواهر والذهب »[٣] .

وبعث على إلى المستنصر رسالة شكر تفيض بلاغة وإجلالا ، مكتوبة بقلم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

(٢) راجع : A. P. Ibars: Valencia Arabe, p 171 & p172

(٣) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

وزيره أبي الأصبغ بن أرقم ، يشيد فيها بمقام الخلافة الفاطمية وجلالها ، ومقام المستنصر بالله . وقد نقل إلينا ابن بسام نص الرسالة المذكورة ، ومما جاء فيها على لسان علي :

« فالآن استمد المريد ، واستقر الضمير ، فتبسم مولى الحضره رياضاً عطرآ، وراد روضها زهراً ، وشام برقها ممطراً ، واستوضح هلالها مبدراً ، وارتشف ماءها حضراً ، فما الشكر وإن جزل ، يوف ثنايا ذلك الإفضال والإنعام » ولا اللسان وإن جفل يتعاطى ذلك الشأو ، ولا الأقلام ، ولا الطوق يقوم بأعبائها حق القيام . وأي وسع يباري البحر وهو طام ، وأي طوق يطيق ركنى شمام . ولو كانت للمولى بالقدر يدان وساعده إمكان ، وساعفه زمان ، لأم بشخصه كعبة الآمال ، واستقبل بقصده قبلة السعة والإقبال ، واستلم بيده ركن الإنعام والإفضال .. »(١)

وكان علي يتبع سياسة المودة والتسامح المطلق نحو النصارى ، ونحو أمانيهم الدينية ، وربما كان ذلك راجعاً من بعض الوجوه إلى ظروف حياته ، وإلى نشأته خلال أسره الطويل ، بين نصارى سردانية ، واعتناق دينهم قبل أن يعود إلى الإسلام . ولدينا في ذلك وثيقتان صادرتان منه ، الأولى بوضع سائر الكنائس والبيع التي بمملكة دانية والجزائر تحت رعاية أسقف برشلونة ، وأن يتولى هو تعيين سائر رجال الدين الذين يعملون بهذه الكنائس، والثانية بأن يسمح للنصارى المعاهدين في أعمال مملكته ، بأن يذكروا اسم أسقفهم في خطبهم ومواعظهم . ولدينا بالأخص النص العربي للوثيقة الثانية ، وقد جاء فيه : «أشهده إقبال الدولة ، أيده الله ، على أنه أجاب غلبرت الأسقف ببرشلونة . إلى أن يكون مذكوراً في خطب النصارى في بيعهم بجميع أعماله، وهو مما انعقد بالخط الأعلى ، وذلك في شوال سنة تسع وأربعين وأربعمائة » ، ثم يلي ذلك أسماء الشهود (٢) .

---

(١) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط ، لوحة ٦٥ ب وما بعدها ، وهي طويلة .

(٢) تحفظ هذه الوثيقة بمحفوظات مكتبة الفاتيكان بروما . وراجع نصها الكامل في بحث الأستاذ شاباس السالف الذكر عن مجاهد وابنه علي في كتاب : **Estudios de Erudición Oriental, Homenaje a Fr. Codera**

وراجع أيضاً في هذا الموضوع **A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 175—176.**

وكان من أثر هذه الحرية الدينية المطلقة ، أن تحققت فى نفس الوقت حرية فكرية شاملة ، وانطلقت الأقلام بما شاءت . وفى هذا الجو المشبع بالتسامح والحرية ، كتب أبو عامر أحمد بن غرسية ، وهو مولد من كتاب شرقى الأندلس ، يرجع إلى أصل نصرانى بشكنسى ، سبى من ماردة صغيراً ، ونشأ فى بلاط دانية ، فى كنف مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر (٤٠٠—٤٣٦هـ) ، وولده على إقبال الدولة (٤٣٦ — ٤٦٨ هـ)[١] : كتب رسالته الشهيرة فى تفضيل العجم على العرب ، وهى رسالة قوية عجيبة ، تفيض تحاملا ضد الجنس العربى ، وتنوه بوضاعة منبته ، وخسيس صفاته ، وحقارة عيشه وميوله ، وانغماسه فى شهوات الجنس ، وتشيد بالعكس بصفات العجم (والمقصود بها مختلف أجناس الفرنج) ، وترفعهم عن الشهوات الدنية ، وفروسيتهم ، ونجدتهم ، وتبحرهم فى العلوم ، وغير ذلك . وقد وجه ابن غرسية هذه الرسالة إلى صديقه الكاتب الشاعر أبى عبد الله بن الحداد ، يعاتبه فيها ، لأنه يخص ابن صمادح دون مجاهد وولده على بمدائحه ، وصاغها فى أسلوب عنيف مقذع ، ينبىء بما كان يضمره هذا الكاتب المولد للجنس العربى من المقت والحقد والكراهية . ولا تحمل هذه الرسالة تاريخاً ما . ولكنا نعرف مما تقدم أن ابن الحداد ، الذى وجهت إليه ، كان شاعراً فى بلاط المعتصم بن صمادح أمير ألمرية ، الذى حكم من سنة ٤٣٣ — ٤٨٤هـ[٢] . والمرجح أنها وجهت إليه حوالى سنة ٤٥٠ إلى سنة ٤٦٠هـ ، وابن غرسية يقيم بدانية فى كنف على إقبال الدولة ، وإليك بعض ما جاء فى هذه الرسالة فى التنوية بفضائل العجم ، ونقائص العرب :

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (القاهرة ١٩٥٥) ج ٢ ص ٤٠٦ و ٤٠٧ ، وأبو الحجاج البلوى فى كتاب الف با (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ج ١ ص ٣٥٣ . وابن الأبار فى المعجم رقم ٢٨٢ فى ترجمة أبى العباس الجزيرى حيث يقول عنه «وكان بها (أى بدانية) يؤدب أبا جعفر أحمد بن غرسية الكاتب».

(٢) ان اسم ابن الحداد الذى وجه إليه ابن غرسية رسالته ، هو الذى ورد فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى الآتى ذكره . ولكن ورد فى الذخيرة لابن بسام (الجزء الثالث مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد) وكذلك فى كتاب الذيل والتكلة لابن عبد الملك المراكشى (مخطوط باريس السالف الذكر) أن الذى وجهت إليه الرسالة هو أبو جعفر الجزار ، وهو باسمه الكامل أحمد بن محمد بن سهل السرقسطى ، وأنه كان من شعراء بنى هود ، وكان عالماً أديباً شاعراً ، وكان قد هبط من سرقسطة يريد ألمرية ليلحق بالمعتصم بن صمادح وقد عدل عن الورود إلى دانية ، والالتجاء إلى أميرها على بن مجاهد . بيد أننا نؤثر الأخذ بما ورد فى مخطوط الإسكوريال.

« أأحسبك أزريت ، وبهذا الجيل البجيل ازدريت ، وما دريت أنهم الصهب الشهب، ليسوا بعرب ذوى أينق جرب ، أساورة أكاسرة ، مُجد ، نُجد، بُهم، لارعاة شويهات ، ولاتهم ، شغلوا بالمذى والمرّان ، عن رعى البعران، وبجلب العز عن حلب المعز ، جبابرة ، قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع المروع ، حماة السروح ، نماة الصروح، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة الحرصان ، لكنهم خطبة بالحرصان ، شعر .

ما ضرهم أن شهدوا مجـــادا أوكافحوا يوم الوغى الأندادا
أن لايكون لونهم سوادا

« شرهوا برنات السيوف ، لابربات الشنوف ، وبركوب السروج الكلب والفرُّوج ، وبالنفير عن النقير ، وبالجنائب عن الحبايب ، وبالحب عن الحب ، وبالشليل عن السليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الحمروالزمر ، وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان، طياتهم خطياتهم ، وغلاتهم آلاتهم ، وحصونهم حصنهم ، أقيال آباؤهم من بين الأنام أقتال .

أولئك قومى أن بنوا شيدوا البناء وان حاربوا جدوا وان عقدوا شدوا

حُلُم عُلم ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية كحملة الاسترلوميقى ، والموسيقى والعلمة بالأرتماطيقى ، والجومطريقى ، والقومة بالألوطيقى والبوطيقى ، ما شئت من تدقيق، وتحقيق ، حبسوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية لاعلى وصف الناقة الفدنية ، فعلمهم ليس بالسفساف كفعل نائلة وأساف ، أصغر بشأنكم ، إذ بزقخر باع الكعبة أبو غبشانكم، وإذ أبور غالكم قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستئصالكم .

أزيدك أم كفاك وذاك أنى رأيتك فى انتحالك كنت أحمق

فلا فخر معشر العربان الغربان ، بالقديم المفرى للأديم ، ولكن الفخر يابن عمنا ، الذى بالبركة عمنا ، الإبراهيمى النسب ، الإسماعيلى الحسب الذى انتشلنا الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية ، أما نحن فمن أهل التثليث وعبادة الصلبان ، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان ، ولاغرو أن كان منكم حبره وسبره ، فى الرغام يلقى تبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنطاف العذاب مستودعات بمسك العزال :

لله ماقد برا صــــــفوة وصــفوة الخلق بنو هاشم
وصفوة الصفوة من بينهم محمد النور أبو القاسم

بهذا النبي الأمى ، أفاخر من تفخر ، وأكابر من تقدم وتأخر ، الشريف السلفين ، والكريم الطرفين ، الملتقى بالرسالة ، والمنتقى للأداء والدلالة ، أصلى عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك أصلى على واصلى جناحه ، سيوفه ورماحه ، أصحابه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام » .

وقد أثارت رسالة ابن غرسية مرارة فى الأوساط الأدبية المعاصرة، ورد عليه من العلماء القريبين من عصره فى رسائل شديدة ، انتهى إلينا بعضها . ومن هؤلاء أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسى ، وقد عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وكان معاصراً لابن بسام ، وأورد لنا ابن بسام رده على ابن غرسية فى الذخيرة . ومنهم أبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله القروى المتوفى سنة٤٩٣ هـ ، وقد ورد رده فى الذخيرة أيضاً ، وفى مخطوط الإسكوريال ، فى رسالة عنوانها : «حديقة البلاغة ، ودوحة البراعة ، بذكر المآثر العربية ونشر المفاخر الإسلامية» . ومنهم الوزير الكاتب أبو عبد الله بن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ ، وقد رد على ابن غرسية فى رسالة يوردها لنا صاحب الذخيرة ، وعنوانها : « خطف البارق ، وقذف المارق فى الرد على ابن غرسية الفاسق ». ومنهم الفقيه أبو يحيى ابن مسعدة من فقهاء الموحدين ، وقد عاش فيما يبدو فى النصف الثانى من القرن السادس ، فى رسالة طويلة وردت فى مخطوط الإسكوريال ، ومنهم أخيراً أبو مروان عبد الملك بن محمد الأوسى فى رسالة « الاستدلال بالحق فى تفصيل العرب على جميع الخلق »(١)

---

(١) توجد رسالة ابن غرسية ضمن مجموعة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال لا عنوان لها ، وتحمل رقم ٥٣٨ الغزيرى ، وتحتوى على عدة رسائل تاريخية منوعة ، وتشغل بها اللوحات ٢٦–٢٩ وتليها رسالة ابى يحيى بن مسعدة فى الرد عليها وتشغل اللوحات من ٢٩ – ٤١ ، ثم يليها رسالة ثانية فى الرد على ابن غرسيه ، ثم رد ابى جعفر أحمد بن الدودين البلنسى ويشمل اللوحات ٥٣ – ٥٤ . وأورد لنا ابن يسام فى الذخيرة (القسم الثالث المخطوط المحفوظ بأكاديمية التاريخ بمدريد) رسالة ابن غرسيه ثم رد ابى جعفر أحمد بن الدودين ، ورد ابن عبد الله القروى . وقد نشر العلامة المستشرق جولد سيهر رسالة ابن غرسيه ما عدا الفقرة الأخيرة منها ضمن بحث له بالألمانية عنوانه : «الشعوبية عند مسلمى اسبانيا » = Die Su'ubijja unter den Mohammedanern in Spanien

وقد استمر صدى السخط على رسالة ابن غرسية عصوراً حتى أننا نجد كاتبا أندلسياً عاش بعد ذلك بقرنين هو أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى ، يتناول هذه القضية ، فى كتابه « ألف با » ، ويعقد فصلا خاصا عن « فضل العرب » يردد فيه ما قيل فى ذلك ، وما ينسب للعرب من الفروسية، والشجاعة ، وحب الحرية ، والإباء والجود ، وفصاحة اللسان والشاعرية ، وغير ذلك من الخلال المأثورة ثم يعطف على رسالة أبى عامر بن غرسية « البشكنسى الأصل » ، ويقول إنه قد « فسق فى رسالته وبدع ، وسب بسببها وجدع » ، ويعدد لنا من تصدوا للرد عليه ، ممن سبق ذكرهم وذكر رسائلهم، ثم يبدى دهشته من تسامح أهل العصر، وتركهم لابن غرسية وأمثاله دون عقاب ويقول : « والعجب من أهل ذلك الزمن ، كيف استقروا على هذه الفتن ، وأقروا هذا المجترى على هذا الاجتراء ، وما جاء به من الافتراء ، أم كيف أبلغوه ريقه ، وأوسعوا له طريقه ولم يهلكوه وفريقه »(١)

وقد عنى البحث الحديث بدراسة رسالة ابن غرسية والتعليق عليها ،وتناولها العلامة جولدسيهر فى بحثه « الشعوبية عند مسلمى اسبانيا » الذى سبقت الإشارة إليه . ويلاحظ جولدسيهر ، أنه يوجد بين عظماء الأمة الأندلسية كثيرون ممن يرجعون إلى أصول غير عربية وبخاصة المولدين ، ومن هؤلاء أئمة من المفكرين مثل بقى بن مخلد ، والعلامة ابن حزم ، وإمام اللغة ، أبومروان عبدالملك ابن السراج ، وغيرهم ، وكذلك كان الشأن فى عنصر الصقالبة ، الذى ازدهر، فى ظل أمراء بنى أمية ، وشغل منه الكثيرون أرفع المناصب من قيادة ووزارة وغيرهما . بيد أن عنصر المولدين، كان أهم العناصر غير العربية فى الأمة الأندلسية وكانت النزعة الشعوبية أكثر تمكنا لديهم من أى عنصر آخر . وتعتبر رسالة ابن غرسية من أبرز نماذج الشعوبية الأندلسية ، فقد كان مؤلفها مولدا يرجع إلى أصل نصرانى ، وهو يردد فى رسالته ما تضمنه أدب الشعوبية فى الشرق الإسلامى من الأسباب والمبادىء . بيد أن رسالةابن غرسية تمتاز بأنها فى تفضيل

— نشر بمجلة جمعية المستشرقين الألمانية (Z. der D. Morg. Gesell.) سنة ١٨٩٩ ص٦٠١—٦٢٠ ونشرها الأستاذ مختار العبادى ضمن بحث له عن «الصقالبة فى اسبانيا» (مدريد ١٩٥٣) ونشرها أخيراً ، ونشر معها الردود التى سبقت الإشارة إليها الأستاذ عبد السلام هارون فى مجموعة نوادر المخطوطات، (المجموعة الثالثة) (القاهرة ١٣٧٣ هـ) . وقد نشرناها نحن فى نهاية الكتاب .

(١) أبو الحجاج البلوى فى كتابه «ألف با» ص ٣٤٧ — ٣٥٣ .

العجم على العرب ، تعنى قبل كل شىء بالإشادة بفضائل الروم أو بنى الأصفر أى النصارى ، فى حين أن معظم رسائل الشعوبية المشرقية تعنى بالمفاضلة بين العرب والعجم (أى الفرس) .

أما ماكتبه ابن غرسية فى نهاية رسالته من تمجيد النبى العربى ، والإشادة بمآثره ، ورسالته الروحية ، فيصفه جولدسيهر بأنه حجاب للتمويه ، وفى رأى ابن غرسية أن العروبة ليست مفخرة النبى ، « فى الرغام يلقى تبره ، والمسك بعض دم الغزال »(١) .

واستمر على إقبال الدولة فى حكم مملكته زهاء ثلاثين عاماً ، ثم ساءت العلائق بينه وبين صهره ، حميه أحمد بن سليمان بن هود المقتدر صاحب سرقسطة . وكان المقتدر أميراً صارماً وافر الأطماع ، فحارب أخوته واستولى على بعض أعمالهم ، وانتزع طرطوشة من صاحبها الفتى العامرى مقاتل ، وحاول أن ينتزع لاردة من أخيه المظفر . ثم اتجهت أبصاره إلى مملكة دانية ، وأخذ يكيد لعلى ويشتد فى مضايقته . وكانت أهم الأسباب التى انتحلها لخصومته ، هو أنه أى على قد استقبل بدانية بعض الأسر القوية ، التى فرت من لاردة بلد المظفر أخى المقتدر وخصيمه ، ولجأت إلى حمايته . وذكر لنا ابن بسام سبباً آخر لذلك ، وهو أن المقتدر طالب علياً ببعض القلاع الشمالية الواقعة فى مملكته ، والتى كان يريد أن يلحقها بثغر طرطوشة ، وأن علياً ، خشية من صولته ، سلم إليه تلك القلاع ، بيد أنه ضبط فيما بعد كتباً أرسلها على إلى أصحاب تلك القلاع يحثهم فيها على التحصن والمقاومة(٢) . وأخيراً سار المقتدر فى قواته إلى دانية ، وحاصرها ، وشعر على أنه عاجز عن مقاومته ، فعرض عليه أن يسلمه المدينة والقصر بما فيه ، على أن يؤمنه فى نفسه وأهله ، فوافق المقتدر ، ودخل دانية واستولى عليها ، وذلك فى شعبان سنة ٤٦٨ هـ (إبريل ١٠٧٦ م) . وانتهت بذلك الدولة المجاهدية. وجلس المقتدر بالقصر ، وبايعه الناس خاصتهم وعامتهم ، وأقام بدانية وقتاً ينظم فيه شئونها ، ثم غادرها . وأخذ المقتدر معه صهره علياً وأهله ، إلى سرقسطة ، وأنزله فى كنفه ، فعاش هنالك محجوراً عليه حتى توفى ، وذلك فى

(١) I. Goldziher: Die Su'ubijja unter den Mohammedanern in Spanien (Z. der. Morg. Gesell.) B. 53 (1899) s. 607-615.

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٧ .

سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) . وفى رواية أخرى ، أنه استطاع الفرار من اعتقال المقتدر ، ولحق بالعدوة ، والتجأ إلى بنى حماد أصحاب بجاية وهنالك توفى[١] .

وحاول ابنه سراج الدولة ، وكان وقت سقوط دانية ، حاكماً لحصن شقورة ، أن يسعى إلى استرداد ملك أبيه ، فسار إلى برشلونة ، واستغاث بصاحبها الكونت برنجير ، فاستجاب إليه بشروط وأمده ببعض قواته ، واستطاع بالفعل أن يسترد بعض الحصون ، ولكن المقتدر كان له بالمرصاد . ويقال إن المقتدر استطاع أن يدس عليه من اغتاله بالسم ، فتوفى فى سنة ٤٦٩ هـ ، لنحو عام من خلع أبيه[٢] .

وكان على بن مجاهد أميرا فاضلا ، رفيع الخلال والمواهب ، وكان مثل أبيه من حماة العلوم والآداب ، وكان لطول إقامته بسردانية يتحدث ويكتب بالفرنسية والقشتالية ، وينظم الشعر بهما[٣] . وكان ميالا إلى السلم والدعة ، بعيداً عن أحداث السياسة وتقلباتها ، مؤثراً لجمع المال ، والاشتغال بالمشاريع التجارية[٤] وفى عهده ساد السلام والرخاء فى مملكة دانية ، وازدهرت أحوالها وتجارتها . وقد أشاد بذكره عبد الواحد المراكشى فى تلك العبارة المؤثرة : « ثم ملكها (أى دانية) بعده ابنه على بن مجاهد وتلقب بالموفق ، لا أعلم فى المتغلبين على جهات الأندلس أصون منه نفساً ، ولا أطهر عرضاً ، ولا أنقى ساحة ، كان لا يشرب الخمر ، ولا يقرب من يشربها ، وكان مؤثراً للعلوم الشرعية ، مكرماً لأهلها »[٥]

— ٤ —

ويجدر بنا قبل أن نختتم الكلام على مملكة دانية ، أن نتبع مصاير ولاية ميورقة أو الجزائر الشرقية ، التى كانت تؤلف أهم وحدة فيها .

وقد رأينا أنه كان على حكمها وقت أن سقطت دانية فى يد المقتدر بن هود فى سنة ٤٦٨ هـ ، عبد الله المرتضى الذى ندب لحكمها منذ سنة ٤٤٢ هـ . وعندئذ أعلن المرتضى استقلاله ، واستبد بحكم الجزائر ، وبعث إلى دانية ليستقدم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

(٣) A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 170, Note 3

(٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦ .

(٥) المعجب ص ٤١ . وذكره أن علياً تلقب بالموفق من باب السهو ، إذ هو لقب والده مجاهد.

أسرة سيده المخلوع على ، فأرسلت إليه ، وعاشت فى كنفه معززه مكرمة[1] . واستمر المرتضى بعد ذلك فى حكم الجزائر أعواماً طويلة أخرى ، حتى توفى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .

فخلفه فى الإمارة مساعده مبشر بن سليمان . ويقول لنا ابن خلدون إن مبشراً هذا ، قد ولى على الجزائر فى أوائل عهد على إقبال الدولة فى سنة ٤٤٢ هـ ، وإنه كان من شرقى الأندلس ، وأسره النصارى صغيراً وجبوه ، وإن مجاهداً وقع عليه بين أسرى سردانية ، فأعجب بمواهبه ، وقربه واصطفاه ، وترقى فى خدمته[2] . وفى هذه الرواية غموض وتحريف . والحقيقة فى أمر مبشر أنه كان من أهل قلعة حمير من أعمال لاردة ، وأسره النصارى فى صباه وجبوه ، وعاش فى برشلونة ، حتى تعرف عليه ذات يوم سفير المرتضى حاكم الجزائر ، وكان قد وفد مبعوثاً إلى الأمير برنجير فى بعض الشئون ، فأعجب بمواهب مبشر ، وافتداه من الأسر ، وأخذه إلى ميورقة وقدمه إلى المرتضى ، فسر بخلاله ومواهبه ، وأولاه ثقته ، واستعان به فى تصريف شئون الحكم ، واستمر على ذلك حتى توفى المرتضى ، فخلفه فى الإمارة حسبما تقدم .

وضبط مبشر شئون ميورقة (الجزائر) بحزم وكفاية ، واتخذ لقب ناصر الدولة . وفى تلك الأثناء كان المرابطون ، بعد أن أحرزوا نصرهم فى الزلاّقة ، قد استولوا على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية ، ثم زحفت جيوشهم نحو شرقى الأندلس ، واستولت على مرسية ثم بلنسية وذلك فى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، كل ذلك ومبشر ماض فى حكمه للجزائر ، يرقب سير الحوادث حذراً متأهباً .

والظاهر أن الجزائر تمتعت فى عهده بفترة من الأمن والرخاء ، واشتهر أمر مبشر ، وقصده الأدباء والشعراء ، ووفد إليه بميورقة أبو بكر بن اللبانة المعروف بالدانى شاعر المعتمد بن عباد ووزيره من قبل ، وامتدحه بقصيدة هذا مطلعها :

ملك يروعك فى حلى ريعانه   راقت برونقه صفات زمانه

وكانت حملات البحارة المجاهدين فى عهده ، وهم الذين تنعتهم التواريخ

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وهو ينسب هذا التصرف إلى مبشر خلف المرتضى .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

الفرنجية بالقراصنة ، تخرج من ثغور الجزائر المختلفة ، وتغير من آن لآخر على شواطىء قطلونية ، وبروفانس وليجوريا ، وكانت سفن النورمان والبيزيين والقطلان من جانبها تغير على شواطىء الجزائر وتعيث فيها . وكان من الحوادث الشهيرة فى هذا العهد أن طائفة من السفن النرويجية جاءت بقيادة الملك سيجورد ملك النرويج ، وعاثت فى شواطىء اسبانيا الغربية ، ثم عبرت مضيق جبل طارق ، وسارت إلى الجزائر الشرقية ، وهاجمت جزيرة فورمنتيرا الصغيرة المنيعة الواقعة جنوبى جزيرة يابسة ، وكانت قد أودعت بها أموال وذخائر كثيرة للمسلمين ، تقوم على حراستها حامية صغيرة ، فاقتحم سيجورد الجزيرة ، وأضرم فيها النار ، واستولى على ما فيها من الأموال ، ومات سائر المسلمين المدافعين عنها(١)

وكانت جمهورية بيزة الإيطالية أشد البلاد اهتماماً بالاستيلاء على الجزائر الشرقية ، ووضع حد لغاراتها المتكررة على الشواطىء الإيطالية ، وكان البابا يشجع هذا المشروع ويباركه . وعقدت بيزة من أجل ذلك حلفاً مع أمير برشلونة رامون برنجير الثالث . وفى صيف سنة ١١١٤ م (أوائل ٥٠٨ هـ) خرج من مياه بيزة أسطول الغزو وقوامه نحو ثلاثمائة سفينة ، ومعه وحدات بحرية أخرى من برشلونة ومن فرنسا ، وعرج الأسطول أولا على مياه الجزائر ، ونزلت بعض وحداته فى إحدى الجزر الصغيرة . ولما علم بذلك مبشر ، بعث رسله يعرض الصلح على الغزاة ، ويعرض تسليم الأسرى ، وأن يؤدى تعويضاً عن نفقات الحملة ، فرفض الغزاة ، وسارت سفنهم فرست فى مياه قطلوانية حتى اقترب الربيع ، ثم سارت بعد ذلك صوب جزيرة يابسة ، وكانت سفن الغزاة ، قد غدت يومئذ نحو خمسمائة سفينة ، ومع ذلك فقد عقد مبشر عزمه على المقاومة ، فحصن ميورقة ، وبذل جهده فى إعداد وسائل الدفاع . واستولى الغزاة على يابسة بسهولة ، ثم اتجهوا نحو ميورقة كبرى الجزائر ، ونزلوا فيها ، وضربوا الحصار حول مدينة ميورقة عاصمتها .

واستعد مبشر لحصار طويل الأمد ، وبعث فى الحال صريخه إلى أمير المسلمين

---

(١) راجع : Dozy : Recherches; V. II p. 323-326 . وكذلك A. Campaner y Fuentes : Bosquejo Historico de la Dominación Islamica en las Islas Baleares (Palma 1888) p. 44-96

على بن تاشفين ، يطلب إليه الغوث قبل أن تسقط الجزائر فى أيدى النصارى . وكان المرابطون قد استولوا عندئذ على شرقى الأندلس كله، وأحرزوا انتصارهم الحاسم على القشتاليين فى موقعة إقليش (٥٠١ هـ — ١١٠٨ م) ثم استولوا فى العام التالى على سرقسطة (٥٠٢ هـ) ، وقضوا على ملك بنى هود ، وأضحوا يهددون منها مملكة برشلونة النصرانية . وقدر أمير المسلمين أهمية ميورقة ، وأمر بتجهيز الأساطيل لإنجادها ، ورأى المرابطون أن يضغطوا فى نفس الوقت على مملكة برشلونة التى كان أميرها برنجير الثالث يشترك بأسطوله فى حصار ميورقة ، فسارت قواتهم شمالا ، واخترقت أراضى قطلونية وعاثت فيها . ولكن الكونت برنجير ، اضطر إزاء ضغط حلفائه ، أن يبقى معهم حتى النهاية فى مياه ميورقة .

واشتد الحصار على ميورقة ، وطوقها النصارى بنطاق محكم من الآلات الضخمة وقطعوا عنها كل معونة ونجدة ، وقاسى المسلمون أهوالا من الجوع والحرمان ، ولكنهم صمموا أن يموتوا دفاعاً عن أرضهم ، وتوفى خلال ذلك الأمير مبشر ابن سليمان ، فخلفه فى الحكم أبو الربيع سليمان ، وصمم أن يمضى فى المقاومة ، وحاول أن يغادر الجزيرة مع بعض صحبه فى مركب صغيرة ، ليسعى إلى طلب النجدة، فأسره النصارى. واستطاع النصارى أن يقتحموا السور الأول فى فبراير سنة ١١١٦ م (أواخر سنة ٥٠٨ هـ) ثم اقتحموا بقية الأسوار تباعاً . وفى أواخر مارس دخل النصارى مدينة ميورقة ، واحتلوا قصر المُدَينة قصر الحكم ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً وسبياً ، ثم أضرموا فيها النار ، ولم يكن بها عندئذ سوى الشيوخ والنساء والأطفال ، بعد أن هلك معظم المدافعين عنها فى الحصار ، فقتل النصارى منهم جملة كبيرة ، وكان الكونت برنجير صاحب برشلونة ، قد اضطر قبيل سقوط المدينة ، أن يعود إلى مملكته حين علم باشتداد ضغط المرابطين عليها ، وحصارهم لبرشلونة عاصمتها .

وفى أثناء ذلك كان أمير المسلمين على بن تاشفين ، قد تلقى صريخ مبشر على يد بحار جرىء هو عبد الله بن ميمون ، وكان قد استطاع أن يخترق الحصار بسفينته تحت جنح الظلام ، وأن يعبر البحر إلى المغرب . وبادر أمير المسلمين فجهز أسطولا ضخماً من خمسمائة سفينة ، وأقلعت السفن المرابطية بسرعة صوب الجزائر بقيادة أمير البحر ابن تفرتاش . وعلم البيزيون وحلفاؤهم بذلك ، فأدركوا

أنه لامحل لأن يخوضوا مع هذه القوات البحرية الضخمة ، معركة غير مأمونة العواقب ، فأقلعوا مثقلين بالسبى والغنائم ، بعد أن استصفوا ثروات الجزيرة ، وغادروها قاعاً صفصفاً . ودخل المرابطون على أثرهم ميورقة، وذلك فى أواخر سنة ١١١٦م (٥٠٩ هـ) ، وفى الحال شرعوا فى تعميرها ، وعاد إليها الفارون من سكانها، وكانت قد لجأت منهم إلى الجبال جموع غفيرة ، وعين أمير المسلمين حاكماً على الجزائر يدعى وانور بن أبى بكر اللمتونى ، ومن ذلك التاريخ تدخل الجزائر الشرقية أوميورقة فى حظيرة الإمبراطورية المرابطية الكبرى ،وهى التى كانت قد اشتملت يومئذ على سائر ممالك الطوائف الأندلسية(١) .

---

(١) تراجع أخبار غزو النصارى لميورقة واستردادها على يد المرابطين ، فى ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٠٥ ، والروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٨ وكذلك ، A. Campaner y Fuentes : ibid ; p. 105—135 و P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 41

الكتاب الرابع

دول الطوائف

فى منطقة بلنسية

الفصل الأول

مملكة بلنسية

١ – عهد الصقالبة وبنى عامر وبنى ذى النون

الصقالبة وشرق الأندلس . العبدان مظفر ومبارك . تغلبهما على بلنسية . اشتراكهما وامتزاجهما . تغلب مبارك على شاطبة . أحوال بلنسية فى عهدهما . وفود الصقالبة والموالى إليها . الحرب بين مبارك والمنذر التجيبى . وفاة مظفر . مصرع مبارك . بلاطهما ووزراؤهما . مديح الشعر لهما . لبيب العامرى ومجاهد يخلفان مبارك . اختلافهما وفرار لبيب إلى طرطوشة . مبايعة الفتيان العامريين لعبد العزيز المنصور بالزعامة . توليه إمارة بلنسية . خيران العامرى يقدم للزعامة محمد بن عبد الملك المنصور . توليه إمارة مرسية وأوريولة . تنكر خيران له ومغادرته لمرسية . عبد العزيز المنصور ووزراؤه . وفاة خيران وخلافة زهير له فى المرية . مصرع زهير . مبايعة أهل المرية لعبد العزيز . اتساع مملكة بلنسية وموقف مجاهد العامرى . عبد العزيز يعهد بشئون المرية إلى ابن صمادح . غدره واستيلاؤه على المرية . الحرب بين عبدالعزيز والفتيان العامريين . عبد العزيز وعلائقه بالملوك النصارى. وفاة عبدالعزيز وقيام ولده عبد الملك . وزيره ابن رويش . موقف المأمون بن ذى النون . مشروعه للاستيلاء على بلنسية . استيلاؤه عليها واعتقاله لصهره عبد الملك . مختلف الروايات فى ذلك . مهاجمة القشتاليين لبلنسية . موقعة بطرنة . مقدم المأمون بحجة إنجاد صهره . دخوله بلنسية واستيلاؤه عليها . وفاة ابن رويش وقيام ولده أبى بكر بن عبد العزيز . استبداده بحكم بلنسية . استيلاء المؤتمن بن هود على دانية . توجس ابن عبد العزيز والتجاؤه لألفونسو السادس . محاولة المؤتمن الاستيلاء على بلنسية وفشله . التفاهم بين أبى بكر والمؤتمن . وفاة أبى بكر وقيام ولده عثمان مكانه . تطاور الحوادث . سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس . وعده لصاحبها القادر باسترداد بلنسية . مسير القادر إلى بلنسية مع الجند النصارى . موقف أهل بلنسية . إعلان الجماعة خلع عثمان ومبايعة القادر . دخول القادر بلنسية واستيلاؤه عليها . استبداده واضطراب الأحوال فى عهده . مقدم المرابطين إلى الأندلس . رحيل القشتاليين عن بلنسية . أطماع المنذر بن هود فى بلنسية . مسيره إليها ومحاصرتها بمعونة الجند القطلان . موقف القادر واستغاثته بألفونسو السادس والمستعين بن هود . المستعين بن هود ومشروعه فى الاستيلاء على بلنسية .

كانت دول الطوائف التى قامت فى شرق الأندلس ، تمتاز بغلبة العنصر الصقلبى ، وتفوقه فى سيادتها ، وفى تكييف أحداثها ، وكانت هذه العناصر الصقلبية التى ألفت فى شرق الأندلس ، ميدانا لنشاطها وأطماعها ، هى نفس العناصر التى ظهرت بادىء ذى بدء فى ميدان الفتنة القرطبية ، وساهمت فى أحداثها

بقسط بارز ، ثم غادرت قرطبة ، حينما غلبت هنالك على أمرها ، وألفت ملاذها فى ذلك الركن النائى من الأندلس ، بعيداً عن موجة الطغيان البربرية التى اجتاحت قرطبة ، وجنوبى الأندلس .

وكانت بلنسية ، وهى أعظم القواعد الشرقية ، مركز التجاذب فى معركة السلطان التى اضطرم لظاها فى تلك المنطقة ، وكانت هذه المعركة فى البداية متواضعة محدودة المدى ، ثم لم تلبث أن انسابت إلى شرقى الأندلس كله ، من طركونة شمالا حتى مرسية ولورقة جنوباً ؛ بيد أنها فيما عدا بعض اتصالات محدودة بأحداث المنطقة الغربية، حافظت على سيرها المستقل ، وطابعها الخاص .

وذلك أنه لما اضطرمت الفتنة ، وانهارت الدولة العامرية فى أوائل سنة ٣٩٩ (١٠٠٩ م) ، واستطاع محمد بن عبد الجبار المهدى أن ينتزع الخلافة لنفسه من هشام المؤيد ، كان على بلنسية — وفقاً لبعض الروايات — فتى من الفتيان العامريين هو مجاهد العامرى ؛ فثار به عبدان من العبيد العامريين أيضاً هما مبارك ومظفر ، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة ، فغادر مجاهد بلنسية إلى دانية ، وتربع العبدان — ويسميهما ابن الخطيب بالأميرين — مكانه فى حكم المدينة . ويقدم إلينا ابن حيان رواية أخرى عن تغلب مبارك ومظفر على بلنسية، خلاصتها أنهما كانا يتوليان وكالة الساقية بالمدينة ، أيام ولاية عبد الرحمن ابن يسار عليها ، ثم ضرب الدهر ضرباته ؛ وشاء القدر أن ينتزع الإمارة مبارك . ويصف ابن حيان الحادث بأنه « من غرائب الليالى والأيام ، اللاعبة بالأنام » . ثم يقول لنا إن العبدين مبارك ومظفر توليا هما حكم بلنسية، وامتزجا فى ذلك امتزاج الإخوة وعشاق الأحبة ، ونزلا فى قصر الإمارة مختلطين « تجمعهما فى أكثر الأوقات مائدة واحدة ، ولا يتميز أحدهما عن الآخر فى عظيم ما يستعملانه من كسوة وحلية وفرش ومركوب وآلة ؛ لاينفردان إلا فى الحرم خاصة ؛ على أن جماعة حرمهما كن مختلطات فى منازل القصر ، ومستويات فى سائر الأمر » . وكان لمبارك مع ذلك التقدم فى المخاطبة ورسوم الإمارة لصرامته وشدته ، ولدماثة مظفر وانصياعه لزميله فى سائر الأمور .

وذكر فى بعض الروايات أن مظفراً ومباركاً كانا يقتسمان فيما بينهما حكم الولاية ، فكان مظفر يختص بحكم بلنسية ، ومبارك بحكم شاطبة(١) . وذكر لنا

(١) A. P. Ibars : Valencia Arabe, V. I. p. 152

ابن الخطيب من جهة أخرى، أن شاطبة كان يتولى حكمها منذ انقراض الدولة العامرية ، الفتى خيرة الصقلبي ، وتوطد بها أمره ، وكان مبارك يتوق إلى إزالته عنها ، فنى ذات يوم زار خيرة بلنسية، واستضافه مبارك ودس له السم فى الطعام فهلك بعد أيام قلائل ، وتولى نائبه عبد العزيز بن أفلح حكم شاطبة مكانه تحت رعاية مبارك ، وتركه مبارك على حاله إلى أن استولى عليها مجاهد العامرى(١). وعلى أى حال ، فإنه يبدو ، أن مظفراً ومباركاً كانا وفقاً لرواية ابن حيان المتقدمة ، يحكمان معاً مدينة بلنسية بصفة فعلية .

وبلغت جباية بلنسية فى عهدهما مائة وعشرين ألف دينار فى الشهر ، سبعون منها من بلنسية ذاتها ، وخمسون من شاطبة التابعة لعمالتها ، وكانا يشتدان فى تحصيل هذه الأموال ، حتى أرهقت الرعية وأثقل كاهلها .

على أن هذين العبدين لم يقصرا فى تحصين بلنسية وصيانتها ، فابتنيا سورها وزود بأبواب حصينة ، فارتفع طمع الطامعين عنها ، ووفد إليها الناس بأموالهم ، واستقروا بها ، وابتنوا المنازل والقصور الفخمة ، والرياض الزاهرة ، وكان مبارك ومظفر قدوة فى ذلك فأنشآ القصور الفخمة ، واقتنيا نفيس المتاع والرياش والآلات . وكان موكبهما إلى المسجد الجامع ببلنسية ، يذكر الناس بفخامته وأناقته ، وفاخر ما يرتديانه من اللباس ، بمواكب مولاهما عبد الملك المظفر ابن المنصور نفسه .

ووفد على بلنسية فى ظل مبارك ومظفر ، كثير من الموالى والصقالبة من الإفرنج والبشكنس وغيرهم ، من طائفهم وعشيرتهم ، وكثير من العبيد الآبقين من مختلف نواحى الأندلس ، وكان من هؤلاء الصقالبة ، الوافدين المشردين ، كثير من الفرسان الشجعان ، وانتسب معظمهم إلى ولاء بنى عامر ، واكتسبوا بذلك نفوذاً ، ووفد على المدينة أيضاً كثير من أرباب المهن والحرف ، وكان لذلك كله أثره فى تقدم العمران والرخاء بالمدينة(٢) .

وكان من أهم أعمال مبارك العسكرية محاربته لمنذر بن يحيى التجيبى صاحب

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٦ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — اللوحة ٣ أ و ب و ٤ أ . وراجع أيضاً البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٨ — ١٦١ .

سرقسطة . وذلك أن الفتى لبيباً العامرى كان يحكم طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى، فثابت لمنذر رغبة فى الاستيلاء عليها ، وهاجمها ، ففر عنها لبيب وسار إلى بلنسية واستغاث بمبارك ، فخرج معه فى خمسمائة من خيرة فرسانه ، ولقيهم منذر فغلبوا عليه وهزموه هزيمة شنيعة ، وعاد مبارك إلى بلنسية ظافراً ، واستفحل أمره ، ودانت له جماعة الموالى(١) .

واستمر مبارك ومظفر فى حكم بلنسية بضعة أعوام ، ثم توفى مظفر ،واستمر مبارك من بعده ، فترة يسيرة . وفى ذات يوم خرج للنزهة فحدث حين عبوره فوق قنطرة النهر ، أن عثرت به فرسه ، فسقط منها ، واصطدم ببعض أخشاب خرجت من القنطرة فشج وجهه وبطنه ومات لساعته ، وكان مصرعه فى شهر ذى الحجة سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧) م(٢) .

ومن الغريب أن مباركاً ومظفراً بالرغم من جهلهما، وبعدهما عن ميدان التفكير والأدب ، كانا يستخدمان فى بلاطهما طائفة من كتاب العصر النابهين مثل ابن التاكرنى ، وابن مهلب،وابن طالوت ، وكانا يرتبان هؤلاء الكتاب فى دولتهم على نسق مشيخة الوزراء فى قرطبة، ويرجعان إلى رأيهم ومشورتهم فى معظم الأمور ، وكانا يعملان فى حكم بلنسية مستقلين تمام الاستقلال ، لايعترفان فى ذلك برياسة قرطبة أوغيرها .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن مباركاً ومظفراً كان لهما نصيب من مديح الشعر المعاصر ، وقد مدحهما شاعر العصر ، أبو عمر بن دراج القسطلى بقصيدة رائعة هذا مطلعها :

أنورك أم أوقدت بالليل نارك ... لباغ قراك أم لبــاغ جوارك
ورياك أم عرف المجامر أشعلت ... بعــود الكباء والألوة نارك
ومبسمك الوضاح أم ضوء بارق ... حداه دعائى أن يجــود ديارك
وطرة صبح أم جبينك سافراً ... أعرت الصباح نوره أم أعارك(٣)

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٢ . ويقول لنا ابن الخطيب إن مظفراً توفى بعد مبارك وإنه على أثر مصرع مبارك ، ثار العامة ونهبوا القصر وقتلوا مظفراً (أعمال الأعلام ص ٢٢٥) .

(٣) نقل ابن الخطيب فى أعمال الأعلام أقوال ابن حيان التى نقلها صاحب البيان المغرب ، ورجعنا إليها ، وقد نشر جزءاً كبيراً من قصيدة ابن دراج القسطلى (راجع ص ٢٢٢ —٢٢٥) . وردت القصيدة كلها بديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (دمشق ١٩٦١) ص ١٠١ — ١٠٨ ، وهى من غرر قصائده .

ولما توفى مبارك ، خلفه فى حكم بلنسية الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة ثم شاركه فى حكمها مجاهد العامرى ، وكانت الخطبة تصدر باسميهما معاً ، ثم وقع الخلاف بينهما ، ففر لبيب إلى طرطوشة واستأنف رياسته بها ، وانفرد مجاهد بحكم بلنسية مع حكمه لدانية فى نفس الوقت . بيد أنه لم يمض سوى قليل ، حتى خرج عليه الفتيان العامريون ، وعقدوا البيعة لسيدهم وحفيد مولاهم ، عبد العزيز ابن عبد الرحمن المنصور ، وذلك فى سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) .

وقد سبق أن أشرنا إلى تعلق الفتيان الصقالبة بتراث الدولة العامرية ، وولائهم لإمامة هشام المؤيد بالله ، وإلى الدور الذى قام به زعماؤهم مثل واضح وخيران ، فى تطورات الخلافة القرطبية ، وقد كانت بيعتهم لعبد العزيز المنصور أثراً من آثار هذا الولاء الراسخ لبنى عامر . وكان عبد العزيز وقت مبايعته ، فتى حدثاً فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، إذ كان مولده سنة ٣٩٧ هـ[١] ، وكان حينما نزلت النكبة بأسرته قد حمل سراً إلى سرقسطة ، وهنالك عاش فى كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبى ، فلما استدعاه الفتيان العامريون لبيعته لحق بشاطبة ، وهنالك تمت بيعته أميراً لبلنسية ، وزعيما لبنى عامر.

على أن هذه البيعة لم تلبث طويلا دون منازع . ذلك أن خيران العامرى ، وكبير الفتيان العامريين ، وصاحب ألمرية ومرسية وأوريولة ، لم يكن على وفاق مع عبد العزيز . والظاهر أنه خشى على سلطانه فى مرسية ، وأوريولة ، من هذه الزعامة الجديدة ، أو أنه لم يحصل على ماكان يرجوه فى ظلها من نفوذ . ومن ثم فإنه قدم للزعامة فى شرق الأندلس ، مرشحاً جديداً من بنى عامر ، هو محمد ابن عبد الملك المظفر بن المنصور ، وهو ابن عم عبد العزيز ، وكان يومئذ فتى فى نحو العشرين من عمره ، وكان قد فر من قرطبة فى عهد القاسم بن حمود ، ومعه أموال جليلة كانت لأمه ، ولجأ إلى حماية خيران ، فلما وقع الخلاف بين خيران وعبد العزيز ، نادى خيران بزعامة محمد ، ونزل له عن حكم مرسية وأوريولة ، ولقبه بالمؤتمن ثم بالمعتصم . بيد أنه لم يمض طويل على ذلك حتى اضطربت الأمور فى تلك المنطقة ، فثارت شاطبة ضد عبد العزيز ، واضطر أن يغادرها إلى بلنسية ، وتنكر خيران فى الوقت نفسه لمرشحه الجديد محمد المعتصم ، وغادره

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠١ .

مغضباً إلى ألمرية ، ثم عاد فى قواته إلى مرسية ، وضيق على المعتصم حتى اضطره إلى الخروج عنها،وذلك فى ربيع الأول سنة ٤١٣هـ (١٠٢٢ م)،واستولى الفتيان على سائر أمواله ، ولجأ المعتصم إلى أوريولة فطارده خيران ، وألح عليه ، ففر منها ، ولحق بدانية ، والتجأ حيناً إلى أميرها مجاهد العامرى ، ثم غادرها، وسار إلى غربى الأندلس ، وهناك عاش بضعة أعوام أخرى حتى توفى فى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م)(١) .

— ١ —

واستقر عبد العزيز المنصور فى حكم بلنسية دون منازع . وكانت له فى بداية حكمه علائق مودة متبادلة مع القاسم بن حمود الخليفة بقرطبة ، كذلك انضوى تحت لوائه مجاهد العامرى حيناً ، ثم اختلفا وناصبه العداء، وأخذ مجاهد يتربص الفرص لمهاجمته والإيقاع به . وعمل عبد العزيز على جمع المشردين من أهل بيته ، فآواهم ، وأولاهم صادق المحبة ، وأغدق عليهم الأرزاق الوفيرة ، حتى غدا فى ذلك أجمل قدوة لأمراء عصره ، واستخدم فى ديوانه أربعة من أشهر كتاب عصره ، كانوا يعرفون بالطبائع الأربع ، وهم ابن طالوت ، وابن عباس ، وابن عبد العزيز ، وابن التاكرنى كاتب رسائله . ولما أعلن القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية فى سنة ٤٢٦هـ (١٠٣٥ م) ظهور هشام المؤيد ودعا لخلافته ، كان عبد العزيز المنصور فى مقدمة الأمراء الذين بايعوه ، واعترفوا بخلافته(٢) .

وكانت تطورات الحوادث فى مملكة ألمرية ، أهم ميدان لجهود عبد العزيز السياسية والعسكرية . ونحن نعرف أن مملكة ألمرية ، كانت وقت أن ظفر عبد العزيز برياسة بلنسية ، تحت حكم الفتى خيران العامرى ، وهو فى نفس الوقت صاحب مرسية وأوريولة ، فلما توفى خيران فى سنة ٤١٩ هـ ، خلفه فى رياسة مملكة ألمرية ، نائبه وزميله الفتى زهير العامرى ، وقد كان مثل خيران من أكابر الفتيان العامريين ، وأكثرهم إقداماً وعزماً . ونحن نعرف كيف

(١) راجع فى هذه الحوادث : ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٩٣ و ١٩٤ . وكذلك : Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p.97&98

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ٤٩ ب ، وأعمال الأعلام ص ١٩٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٤ و ١٦٥ .

حدثت زهير نفسه بالسير إلى غرناطة لافتتاحها ، وكيف لقى مصرعه فى المعركة التى نشبت بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وذلك فى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨ م) . وهنا لاحت لعبد العزيز المنصور ، الفرصة السانحة لتوسيع مملكته ، وكتب إليه أهل ألمرية يدعونه لرياستهم ، وبعث وزيره وصهره زوج أخته معن بن صمادح إلى باديس يحثه على إعدام الأسرى من وزراء زهير وقواده وفى مقدمتهم كاتبه أحمد بن عباس، خشية أن يعود أحد منهم إلى مناوأته فى حكم ألمرية . فكان له ما أراد ، وخلصت له ألمرية أولا لمبايعة أهلها له، وثانيا لأنها باعتبارها من أملاك الفتيان العامريين موالى أبيه وجده ، تعتبر له ميراثاً شرعياً . وهكذا استولى عبد العزيز على ألمرية وأعمالها ، ماعدا ولاية جيان التى انتزعها باديس لنفسه عقب مصرع زهير .

وغدت مملكة بلنسية بإضافة ألمرية إليها من أعظم ممالك الطوائف .وهنا شعر مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية ، بخطر هذه المملكة القوية الجديدة على سلطانه ، فنهض لمهاجمتها ومحاربتها ، وزحف عليها بقواته ،واجتاح رقعتها الوسطى من شاطبة إلى لورقة ، وثارت حصون شاطبة ولورقة وشوذر على عبد العزيز . وكان عبد العزيز عندئذ فى ألمرية ينظم شئونها مع وزيره معن ابن صمادح ، فبادر بمغادرة ألمرية للدفاع عن أرضه ، وندب وزيره معناً ليسهر على شئون ألمرية ، فكان أن خان ابن صمادح عهد أميره ، وانتزع لنفسه رياسة ألمرية حسبما فصلناه فى أخباره .

وخرج عبد العزيز من ألمرية فى سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) لملاقاة خصومه ، وزحف توا على شاطبة ، فخرج إليه العبيد العامريون،وهزموه فى أول موقعة نشبت بينهما ، ولكنه جمع فلوله وعاد فكرّ عليهم ، وظفر بهم، وقتل منهم جملة كبيرة ، ودخل شاطبة(١) . وكانت مدينة مرسية تابعة حسبما تقدم لمملكة بلنسية، وكان عليها من قبل زهير ،نائبه أبوبكر أحمد بن إسحاق بن طاهر ،وكان حسبما تقدم رجلا وافر العلم والوجاهة والسراوة ، فضبط المدينة وحكمها بحزم وبراعة ، دون أن يتخذ ألقاباً أويبدو فى ثوب الإمارة ، فأقره عبد العزيز على ولايته .

وكان عبد العزيز على علائق طيبة مع ملوك اسبانيا النصرانية ، ولاسيما

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٢ ، وراجع دوزى : Hist. V. III. p. 30

فرناندو الأول ملك قشتالة ، وقد استعان عبد العزيز فى محاربة خصمه مجاهد العامرى ببعض سريات من المرتزقة النصارى . ولم تصب أراضى بلنسية فى عهده بشىء من الغزوات المخربة ، التى كانت تجتاح ولايات الأندلس الغربية والوسطى . وربما كان ذلك راجعا من بعض النواحى إلى أرومته وقرابته عن طريق جدته ، إلى الملوك النصارى(١)

واستطالت إمارة عبد العزيز المنصور لبلنسية زهاء أربعين عاماً . ثم توفى فى شهر ذى الحجة سنة ٤٥٢ هـ (يناير ١٠٦١ م) .

فخلفه ولده عبد الملك بإجماع أهل الدولة ، وبويع فى بلنسية وشاطبة ، واستقر فى بلنسية ، ولقب بنظام الدولة ، وبالمظفر . وكان حدثاً يافعاً ، فتولى تدبير الدولة ، وزير أبيه أبو عبد الله محمد بن مروان بن عبد العزيز القرطبى المشهور بابن رويش ، وكان رجلا وافر العلم والحنكة ، فأحسن تدبير الأمور ، واستقر على يديه النظام والأمن ، بالرغم مما كانت تعانيه بلنسية من نقص فى المواد والرجال ، وفساد فى الأعمال . وكان يولى المأمون بن ذى النون صاحب طايطلة القوى مكانة خاصة ، إذ كان صهر عبد الملك وحماه ، وكان يبدى نحوه عطفاً واهتماماً بمعاونته والدفاع عنه ، وكان عقب وفاة عبد العزيز ، قد سار فى بعض قواته إلى قلعة قونقة القريبة من بلنسية ، ليكون قريباً من صهره ، ثم أوفد إلى بلنسية أحد قواده فى جماعه قوية من الجند ، وكاتبه ابن مثنى ، ليكونوا إلى جانب عبد الملك ، بحجة معاونته وشد أزره ، والمحافظة على السكينة والنظام(٢) .

بيد أن المأمون كان يضمر نحو صهره ونحو بلنسية نيات أخرى ، وكان يُسر له بالأخص أنه يسىء معاملة ابنته ، ويبالغ فى إهانتها وإيلامها . وكان عبد الملك حسبما يخبرنا ابن حيان « منهمكاً فى الشراب ، غارباً عن الخصال المحمودة مع رقة الديانة ونقص المروءة ، وكثرة الاستمهال ، والانحطاط فى مهاوى اللذات »(٣) ثم كان يُسر له أيضاً أنه يأوى فى بلنسية بعض خصومه من السياسيين الفارين من طليطلة ، وأخيراً فقد طلب المأمون إلى صهره أن يعاونه بجنده فى حملته ضد ابن عباد ، فأبى عليه ذلك وفقاً لنصح وزيره ، واعتذر بأنه يخشى عدوان أمير

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٥ .
(٢) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٤٩ ب ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٥ و ١٦٦ .
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٣ .

دانية ومن يحالفه من الفتيان أصحاب المدن القريبة . كل ذلك حمل المأمون على أن يضع مشروعه للاستيلاء على بلنسية .

وقد سبق أن ذكرنا فى أخبار مملكة طليطلة ، خلاصة الروايتين المتعلقتين باستيلاء المأمون على بلنسية ، وأولاهما أن المأمون سار إلى بلنسية فى بعض قواته بحجة زيارة صهره ، وأنه خلال إقامته بالقصر ، دبر كميناً لصهره ، وقبض عليه ، وأرسله إلى شنتبرية ، وسيطر بذلك على بلنسية . والثانية أنه زحف على بلنسية بمعاونة الجند القشتاليين ، ودهم المدينة وهى فى غفلة ، فاقتحمها ، وأسر صهره عبد الملك وآله ، وهم بقتله لولا أن شفعت فيه زوجه ابنة المأمون ، فبعث به إلى إحدى قلاعه فى قونقة ، أو إقليش ، واعتقله هناك(١) .

ونود أن نعرض الوقائع مفصلة وعلى ضوء الروايات القشتالية التى تقدمها إلينا بصورة أخرى .

ذلك أن فرناندو الأول ملك قشتالة خرج بقواته فى أوائل سنة ١٠٦٥ م ، (٤٥٧ هـ) متجهاً صوب أراضى مملكة سرقسطة لمعاقبة أميرها المقتدر بن هود ، لتخلفه عن دفع الجزية التى كان متعهداً بأدائها ، ولأنه من جهة أخرى قد وقع الاعتداء على النصارى فى سرقسطة وغيرها من بلاد مملكته ، وقتلت منهم جموع غفيرة ، وعاث فرناندو فى أراضى مملكة سرقسطة الجنوبية ، وخربها بشدة وأحرق المزارع والقرى ، واجتاح على هذا النحو سائر الرقاع والوديان الواقعة خارج الحصون والقلاع المسورة ، وأشرف فى غزوته المخربة على ظاهر بلنسية فى الربيع ، وضرب القشتاليون الحصار حول المدينة ، وروع البلنسيون ، وروع ملكهم الضعيف عبد الملك داخل الأسوار ، وتأهبوا للدفاع عن مدينتهم . ولما رأى القشتاليون مناعة الأسوار ، وأهبة أهل المدينة لجأوا إلى الحيلة ، فتركوا الحصار ، وتظاهروا بالارتداد نحو الشمال إلى بلدة تسمى «بطرنة» ، واعتقد أهل بلنسية أن القشتاليين قد ارتدوا عن مدينتهم خائبين ، فخرجوا وعلى رأسهم أميرهم عبد الملك ، لمطاردة الفارين فى ثياب فخمة وكأنهم فى عيد ، وعندئذ فاجأهم القشتاليون وهاجموهم بشدة ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، فارتدوا إلى مدينتهم والقتل يعمل فيهم ، واستطاع عبد الملك أن ينجو بحياته ، وعاد القشتاليون إلى محاصرة المدينة .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٦ و ٢٦٧ و ٣٠٣ .

وفى تلك الأثناء كان المأمون بن ذى النون قد هرع بقواته لإنجاد صهره والدفاع عن المدينة المحصورة ، وذلك بالرغم من أنه كان مقراً بسيادة فرناندو ، ويؤدى له الجزية ، وكان فرناندو قد شعر وهو تحت أسوار المدينة بالمرض يدهمه ، فآثر الارتداد بقواته إلى ليون ، وهناك توفى بعد قليل فى ديسمبر سنة ١٠٦٥ م .

وهنا رأى المأمون بن ذى النون أن يحقق مشروعه القديم فى الاستيلاء على بلنسية . وكان يدفعه إلى ذلك أسباب عديدة سبق أن أشرنا إليها ، فدخلها فاتحاً لا منقذاً ، وعزل صهره عبد الملك ، ثم قبض عليه وعلى ولده ، ونفاهما إلى قلعة إقليش أو قونقة . وفى رواية أنه أشفق عليه ، وعينه والياً لقصبة شلبة الواقعة شمال غربى بلنسية ، وضمت بلنسية وأعمالها بذلك إلى مملكة طليطلة ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ (نوفمبر سنة ١٠٦٥ م)(١) .

وعهد المأمون بتدبير شئون بلنسية إلى أبى بكر محمد بن عبدالعزيز (ابن رويش) وكان ابن عبد العزيز قد توفى قبل هذه الحوادث بقليل فى أوائل سنة ٤٥٦ هـ . ويقول لنا عنه معاصره المؤرخ ابن حيان « إنه كان على خمول أهله فى الجماعة من أرجح كبار الكتاب الطالعين فى رمس هذه الفتنة المدلهمة ، وذوى السداد من وزراء ملوكنا ، ذا حنكة ومعرفة وارتياض وتجربة وهدى وقوام سيرة ، إلى ثرى وصيانة » . وفى بعض الروايات أن هذا الوزير النابه توفى منتحراً لما توقعه من سوء العواقب . فخلفه فى الوزارة ولده أبو بكر بن عبد العزيز ، ولم يمكث فى منصبه طويلا حتى سقطت بلنسية فى يد المأمون ، ويقال إنه غدر بأميره عبد الملك ، وعاون المأمون فى أخذها ، فكافأه المأمون عن خيانته بأن عينه نائباً عنه فى حكم المدينة . وكان أبو بكر مثل أبيه عالماً حازماً ، فضبط بلنسية ، وسار فى حكمها سيرة حسنة ، واتبع الرفق والعدل ، وأجزل العطاء للعمال والجند . وشغل عنه المأمون بمغامراته فى سبيل فتح قرطبة ، وانتزاعها من يد بنى عباد المتغلبين عليها . واستمر فى محاولاته حتى انتهى أخيراً إلى تحقيق مشروعه فى الاستيلاء على عاصمة

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث Modesto Lafuente : Historia general de Espana (Madrid, 1861) V. II. p. 390
و A. P. Ibars : Valencia Arabe, V. I. p. 178—180
و R. M. Pidal : La Espana del Cid V. I. p. 151
وكذلك : P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 41

الخلافة القديمة ، ودخلها ظافراً وذلك فى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) . بيد أنه لم يلبث أن مرض وتوفى بعد ذلك بأشهر قلائل فى أواخر ذى القعدة من نفس هذا العام . وانتهز أبو بكر بن عبد العزيز هذه الفرصة ، فأعلن استقلاله بحكم بلنسية ، وأصلح أسوارها ، ودانت له المدينة بالطاعة ، واستمر فى حكمها دون منازع .

ولما غزا المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى مدينة دانية، واستولى عليها من صاحبها على إقبال الدولة بن مجاهد العامرى فى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م)، توجس أبو بكر من سطوته وطمعه فى بلنسية ، فخاطب ألفونسو السادس وانضوى تحت حمايته ، وتعهد له بأداء الجزية . وكان المؤتمن ولد المقتدر يتطلع بالفعل إلى امتلاك بلنسية ، يدفعه إلى ذلك صحبه ومستشاروه، وذلك لأهمية موقعها ووفور غلاتها ، فخاطب بدوره ملك قشتالة، ودفع إليه مائة ألف دينار ليعاونه على فتحها ، وزحف فرناندو بالفعل على بلنسية ، فخرج إليه أبو بكر بنفسه ، وخاطبه برقة ولباقة ، وأقنعه بعقم محاولته ، فانصرف عنه ، ووعده بحمايته وفشلت محاولة المؤتمن . وكان ملك قشتالة يقدر أبا بكر ويعجب بخلاله ، وكان يقول فى مختلف المناسبات ، رجال الأندلس ثلاثة : أبو بكر بن عبد العزيز ، وأبو بكر بن عمار ، وششناندو(١) .

وعندئذ رأى أبوبكر أن يلتمس حماية المؤتمن نفسه ، ففاوضه ، وقدم إليه ابنته عروساً لابنه أحمد المستعين. فوافقه المؤتمن، ورأى من جانبه أن هذه المصاهرة قد تكون سبيلا لضم المملكتين سرقسطة وبلنسية فى مملكة قوية موحدة. واحتفل بعقد هذا الزواج بسرقسطة فى حفلات شائقة كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء (رمضان ٤٧٧ هـ — فبراير ١٠٨٥ م) . ولم يعش أبوبكر طويلا بعد ذلك ، إذ توفى فى السابع من صفر سنة ٤٧٨ هـ (يونيه ١٠٨٥ م) بعد أن حكم عشرة أعوام(٢) .

---

(١) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ٩ أ و ب

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٣ و ٣٠٤ . وقد وهم ابن عذارى فى حقيقة شخصية أبى بكر بن عبد العزيز ، فذكر أنه أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن المنصور بن أبى عامر ، ونسبه بذلك إلى بنى عامر ، وهو خطأ واضح . وراجع فى هذه الحوادث : R.M.Pidal; ibid; V.I.p.310 وكذلك : A.P. Ibars : Valencia Arabe; و P. y Vives : Los Reyes de Taifas p.57 p. 187 & 188

— ٣ —

فخلفه فى حكم بلنسية وأعمالها ولده أبو عمرو عثمان بن أبى بكر. وبويع فى التاسع من صفر ، لأيام قلائل فقط من سقوط مدينة طليطلة ، فى يد القشتاليين فى فاتحة صفر ٤٧٨ ﻫ . وكان هذا الحادث الجلل الذى هز الأندلس من أقصاها إلى أقصاها نذير تطورات خطيرة فى شرقى الأندلس ، وفى مصاير مملكة بلنسية بوجه خاص .

وقد كان ألفونسو السادس ، حينما استولى على طليطلة من يد صاحبها القادر ابن ذى النون، حفيد المأمون، قد تعهد له أو وعده، ضمن عهوده لقاء الاستيلاء على المدينة ، أن يمكنه من استرداد بلنسية التى خرجت عن طاعته ، بل قيل إنه وعده بمعاونته، على افتتاح دانية وشنتمرية الشرق ، إذ كان يعلم أنه بتمكين القادر من الاستيلاء على هذه المدن، فإنها تغدو فى الواقع تحت حمايته، ويغدو شرقى الأندلس كله ، واقعاً تحت سيادته ، عن طريق القادر. وخرج القادر فى آله وصحبه ومتاعه قاصداً إلى بلنسية ، وصدته خلال الطريق سائر القلاع القديمة ، التى كانت تحت حكمه وأغلقت أبوابها دونه ، ماعدا قلعة قونقة (كونكة) ، فقد لبثت على طاعته ، ورحب به صاحبها ابن الفرج ، وأكرم منزله . ورأى القادر أولا أن يسبر غور الأحوال فى بلنسية ، فبعث إليها ابن الفرج ليداخل صاحبها عثمان ابن عبد العزيز ، وحاول ابن الفرج أن يروج لقضية سيده ، وهو حاكم المدينة الشرعى ، فكثر الجدل وافترق الرأى ، ورأى فريق من الشعب أن تنضوى بلنسية تحت حماية المستعين بن هود ، وانحاز فريق آخر إلى القادر ، وسرت الفوضى إلى المدينة . وفى خلال ذلك عاد ابن الفرج إلى قونقة ، ودعا القادر إلى السير إلى بلنسية ، لانتهاز الفرصة السانحة ، فسار القادر إلى المدينة ومعه سرية قوية من الجند النصارى أمده بها ألفونسو السادس، تحت إمرة قائده ألبار هانيس الذى تسميه الرواية الإسلامية ألبرهانس . ولما وصل القادر فى ركبه إلى المدينة ، بعث إلى أهلها رسوله برسالة ، يتودد فيها إليهم ، ويقدم إليهم أطيب الوعود ، فاجتمع أهل المدينة ، وتشاوروا فى الأمر . ورأى « الجماعة » قبول مطالب القادر ، باعتباره صاحب الولاية الشرعية من قبل ، واستبعاد مطالب ابن هود ، وإن كان ابن هود لم ينقطع عن المجاهرة بها ، والترويج لها ، وخشية من أن تتعرض المدينة لهجوم القشتاليين ، أعلنت « الجماعة » خلع عثمان بن

عبد العزيز ، وكان قد قضى فى منصبه تسعة أشهر فقط ، وبعث إلى القادر توافق على مقدمه وتسلمه للمدينة . فسار القادر فى موكبه إلى بلنسية، ودخلها فى مظاهر حافلة ، وتسلم القصر من القاضى ابن لبون ، ونزل فرسانه فى بيوت المدينة ، ونزل ألبارهانيس وجنده القشتاليون فى ضاحية الرُّصافة على مقربة منها ، وكان ذلك فى شوال سنة ٤٧٨ هـ (فبراير ١٠٨٦ م)[١] .

وهكذا استولى يحيى القادر على بلنسية ، وقامت دولة بنى ذى النون ، مرة أخرى فى شرقى الأندلس ، بعد أن درست فى طليطلة ، وقامت على يد ملكها الشريد الخانع — القادر — فى مثل الظروف التى كانت عليها فى أواخر أيامها بطليطلة ، دولة ضعيفة تابعة ، تدين بوجودها لملك قشتالة ، ولحراب الجند النصارى . وما لبث القادر أن أبدى صولة الضعيف إذا تحكم ، ففرض على المدينة حكم طغيان شامل ، وتولى القاضى ابن لبون حجابته ، وغدا يده اليمنى ، وتقرب إليه الأعيان والقضاة بالأموال والهدايا . وثقلت وطأة القشتاليين على المدينة فى نفس الوقت ، وأرهقوها بمؤنهم ومغارمهم ، وفرضت لذلك ضريبة خاصة على سائر الناس ، وعاث النصارى فى المدينة وضواحيها ، فاشتد السخط على القادر ، وعلى شيعته القشتاليين ، واضطرب حبل النظام والأمن . ومع ذلك فقد مضى القادر فى عسفه وطغيانه ، فمال على الأعيان والأكابر ، يطاردهم بطلب المال سداداً لمطالب القشتاليين ، وقبض على بعضهم من أجل ذلك ، واعتقل ولدى ابن عبد العزيز وغيرهم ، وحشد حوله كثيراً من أوباش الجند المرتزقة يعيثون فى المدينة ، ويعتدون على الأموال والأنفس ، وغدت السيادة الحقيقية على المدينة لألبارهانيس وجنده ، وغادر كثير من الأعيان والأكابر ، بلنسية فراراً من هذا الطغيان المرهق[٢] .

وفى خلال ذلك كانت تجرى فى جنوب الجزيرة حوادث هامة ، فقد عبر المرابطون بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس فى ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ (أغسطس ١٠٨٦ م) غياثاً لأمرائها ، وللإسلام ، وأخذ ملك قشتالة يجمع الجند من كل ناحية ، لرد هذا السيل المنهمر ، وغادر ألبارهانيس وجنده بلنسية

(١) الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط لوحة ١٨ ب . وراجع R.M. Pidal : ibid; V.I p. 306 & 310-312 وكذلك: P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 57

(٢) R. M. Pidal : ibid; V. I. p. 313-316

ليخوضوا المعركة إلى جانبه ، وكان أن كتب النصر الباهر لجيوش الإسلام على جيوش النصرانية فى موقعه الزلاّقة وذلك فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦ م).

وتنفس أهل بلنسية الصعداء لرحيل القشتاليين ، وانتعشت نفوسهم لانتصار المسلمين ، وتحطيم قوى ملك قشتالة ، وبادر القادر من جانبه ، فبعث إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، يلتمس صداقته ومحالفته ، أسوة بباقى أمراء الأندلس . بيد أن هذه المحالفة النظرية ، لم تفده بشىء لأن أمير المسلمين ، كان ما يزال فى شغل شاغل عن الالتفات إلى شئون شرقى الأندلس .

سرى الاضطراب إلى بلنسية ، وبدأ حكام الحصون المختلفة ، فى التحرك والعصيان ، وشعر القادر أنه عاجز عن أن يملك زمام الموقف ، وأن الأمور سوف تنتهى به إلى أسوأ العواقب ، إذا تركت بلنسية إلى مصيرها ، وقد كانت بلنسية فى الواقع فى هذه المحاولة التى افتقدت فيها كل زعامة قوية ، وكل إدارة حازمة ، تضطرم حولها الأطماع من كل صوب .

ذلك أن المنذر بن هود صاحب لاردة وطرطوشة ، كان يرقب فرص الاستيلاء على بلنسية ، وخصوصاً منذ استطاع أبوه أن يتغلب على مملكة دانية ، وأن يضمها إلى أراضيه وذلك فى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وبذلك امتدت مملكته من لاردة شمالا حتى دانية وأعمالها جنوبا ، وكانت بلنسية بذلك تشطر مملكته إلى شطرين ، وتحول دون وحدة أراضيها . فلما رأى المنذر اضطراب الأحوال فى بلنسية ، شعر أن الفرصة المنشودة قد سنحت ، فسار فى قواته صوب بلنسية ، ومعه سرية من المرتزقة القطلان ، وضرب الحصار حول المدينة (١٠٨٨ م) ، وكان يؤازره فى داخلها كثير من الأنصار ، كانوا يؤيدون قضيته ، ويودون أن تسلم إليه .

وهنا استولى الاضطراب والذعر على القادر ، وفكر بالفعل فى تسليم المدينة ، لولا أن نصحه ابن طاهر صاحب مرسية السابق ، وكان قد لجأ إلى بلنسية مذ غلب عليه ابن عمار وزير المعتمد ، بالتريث وشجعه على الصمود والدفاع . وبعث القادر فى نفس الوقت إلى ألفونسو ملك قشتالة يستغيث به ، وبعث بنفس الصريخ إلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وخصيم المنذر . وكان المستعين يتوق إلى افتتاح بلنسية ، ويشعر دائما بالأسف والألم لفشل محاولة

أبيه المؤتمن فى هذا السبيل ، وضياع الأموال الطائلة التى دفعها من أجل ذلك لملك قشتالة ، وكان له بسبب مصاهرته لأبى بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية السابق ، داخل المدينة حزب يناصره ، ويود أن تنضم بلنسية إلى مملكة سرقسطة ، فلما تلقى صريخ القادر ، بادر بالإستجابة ، وهرع إلى بلنسية فى بعض قواته ، فتظاهر بالسير إلى إنجادها ، وهو يبطن نية الاستيلاء عليها(١) .

---

(١) R. M Pidal : ibid ; V. I. p. 351

الفصل الثاني

مملكة بلنسيـــــة

٢ — السيد إلكمبيادور وعهد السيادة القشتالية

السيد إلكمبيادور . أصله ونشأته . بدء حياته الحربية . وسول ألفونسو السادس إلى ابن عباد . تغير ألفونسو عليه وإبعاده عن قشتالة . ملوك الطوائف واستعانتهم بالجند النصارى . مسير السيد إلى شمال شرق الأندلس . التحاقه بخدمة المقتدر بن هود . وفاة المقتدر . الحرب الأهلية بين ولديه المؤتمن والمنذر . إنضمام السيد إلى المؤتمن ونفوذه لديه . وفاة المؤتمن وقيام ولده المستعين . التحاق السيد بخدمته . حملة ابن بسام على بنى هود . مسير المستعين والسيد إلى بلنسية . يعقدان ميثاقا بشأنها . مقدمهما فى قواتهما إلى بلنسية . انسحاب المنذر بن هود عنها . موقف القادر بن ذى النون ومساعيه السرية . المستعين يكشف للسيد عن حقيقة مشروعه . موقف السيد ومطله . السيد يبدو على حقيقته . مخادعاته ومفاوضاته السرية. مسيره إلى قشتالة وتفاهمه مع ألفونسو. وقوف المستعين على غدر السيد ومقاطعته. تحالفه مع الكونت برنجير . عود السيد ونزوله بأراضى السهلة . يخضع ابن رزين لأداء الجزية . السيد يغدو قائد عصابة ناهبة . السيد والكونت برنجير . مسير السيد إلى بلنسية . إخضاعه لمربيطر ونزوله فى الكدية . القادر يضع نفسه تحت حمايته ويمده بالأموال الوفيرة . قصة أموال القادر . خروج السيد إلى ألبونت وإرغامه صاحبها على أداء الجزية . فرضه الجزية على سائر النواحى المجاورة . صدى أعمال السيد فى قشتالة . تغير ألفونسو عليه . تطور الأمور فى الثغر الأعلى . توجس المستعين ابن هود من المرابطين . عوده إلى الاستعانة بالسيد . مقدم السيد إلى سرقسطة وتحالفه مع الملوك المجاورين . تعليق ابن بسام . شروع ألفونسو السادس لغزو بلنسية وتحطيم نفوذ السيد . تحالفه مع جنوه وبيزه . مسيره إلى بلنسية . رسالة السيد إلى ألفونسو . حرج موقف ألفونسو وتركه لحصار بلنسية . عيث السيد فى أراضى قشتالة . عود ألفونسو إلى مصانعته والعفو عنه . الاضطراب فى بلنسية . القاضى ابن جحاف يتزعم الثورة ضد القادر والسيد . مفاوضته للمرابطين . دخول قوة مرابطية بلنسية . ابن جحاف يقتحم القصر بجموعة . مقتل القادر واستيلاء ابن جحاف على ذخائره . اختيار ابن جحاف لحكم المدينة . استعداده للطوارىء . مسير السيد إلى بلنسية ومحاصرتها . المفاوضة بين ابن جحاف والسيد . شروط الإتفاق بينهما . نكث السيد وغدره . مطالبه المرهقة لابن جحاف والخلاف بينهما . ابن جحاف يغلق المدينة . استغاثته بالمرابطين وغيرهم . اشتداد السيد فى محاصرة المدينة وعيثه فى أحوازها . عصف الحصار بأهل بلنسية . المفاوضة بين أهل بلنسية والسيد . شروط الهدنة والتسليم . انتهاء الهدنة وتوقيع عهد التسليم . دخول السيد بلنسية . وعوده الخلابة . تسلمه أموال القادر من ابن جحاف . مطالبته له بباقيها واستحلافه عليها . حلف ابن جحاف بالنبى . اكتشاف السيد لمخبأ الأموال والحلى . قبضه على ابن جحاف وإحراقه . أقوال ابن بسام . إحراق بعض أعلام بلنسية . طغيان السيد وعسفه . شعر فى محنة بلنسية . صدى سقوط بلنسية فى الأندلس والمغرب . اعتزام

أمير المسلمين العمل لاسترادادها . إرساله حملة ألى الأندلس . مسير المرابطين إلى بلنسية . الذعر بين النصارى فى بلنسية . حصار المرابطين لها . مفاجأة السيد للمحاصرين . استغاثة السيد بملك أراجون وألفونسو السادس . المعارك بين السيد وبين المرابطين . غزو المرابطين لأراضى طليطلة وقونقة . مرض السيد ووفاته . زوجه خمينا تتولى الدفاع عن المدينة . استغاثتها بألفونسو . قدوم ألفونسو فى قواته إلى بلنسية . اجتماع القوات المرابطية بقيادة المزدلى . توجس ألفونسو واعتزامه الانسحاب . مغادرة خمينا المدينة ومعها أموال القادر . انسحاب ألفونسو وجنده . إحراقه للمدينة . دخول المرابطين بلنسية وانتهاء مغامرات النصارى . السيد وشخصيته . اختلاف الآراء فى تصويره وتقديره . مبالغة الرواية القشتالية فى تصوير بطولته . الأساطير القشتالية حولها . السيد فى الشعر وفى الأغانى . حقيقة السيد . السيد جندى قدير . أوصاف ابن بسام للسيد. السيد مغامر لا ذمام له ولا مبدأ . نزعته المكيافيللية . السيد ليس بطلا قومياً . السيد والتفكير الغربى . رأى دوزى ورينان . رأى منندث بيدال . السيد فى الرواية العربية . تاريخ بلنسية لابن علقمة .

لم يسر المستعين بن هود وحده إلى إنجاد بلنسية ؛ بل كان معه جيش آخر ، يسير أيضاً لإنجاد بلنسية فى الظاهر ، وكان على رأس هذا الجيش صديق المستعين وحليفه . وصديق أبيه المؤتمن ، وجده المقتدر من قبل ؛ الفارس القشتالى الأشهر ، السيد إلكمبيادور.

إن قصة السيد الكمبيادور ، تملأ فراغاً كبيراً فى الروايات والتواريخ القشتالية ، ونجد كذلك صداها فى التواريخ العربية . وقد اقترنت سيرة السيد بالأخص بمغامراته فى بلنسية ؛ وافتتاحه إياها ، وسيطرته عليها بضعة أعوام ؛ ثم وفاته ، مدافعاً عنها ضد المرابطين . فهذه الأحداث هى ألمع صفحة فى تاريخ السيد ، وهى التى اتخذت منها التواريخ القشتالية عناصر بطولته ، بل هى التى رفعته فى نظر التواريخ والأساطير القشتالية إلى مرتبة بطل اسبانيا القومى ؛ ومن ثم فإنه يجدر بنا قبل أن نمضى فى تسطير هذه الأحداث ، أن نقول كلمة موجزة فى نشأة السيد وحياته الأولى .

إن السيد ، هو فارس قشتالى ، واسمه الأصلى رودريجو أو روى دياث دى بيبار ، أما تلقبه « بالسيد » El Cid فهو تحريف لكلمة « السيد » العربية ، وقد أطلقها عليه المسلمون الذين كان يخدم بينهم ، ويحارب معهم ، وأما وصفه بالكمبيادور ، El Campeador ، فمعناها المحارب الباسل ؛ وقد أطلقت عليه لشجاعته وجرأته وشغفه بالقتال(١) . وقد ولد « السيد » فى مدينة

(١) ويعرف السيد الكمبيادور فى الرواية العربية «بالقنبيطور» (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧) ويسميه ابن بسام رذريق الكنبيطور ، وهو أدق تعبير للاسم القشتالى ، « رودريجو إلكمبادور » =

برغش على ما يرجح فى سنة ١٠٤٣ م ، وكان أبوه لايان كالفو قاضى قشتالة فى عهد الملك فرويلا الثانى . ولايعرف التاريخ شيئاً عن حياته الأولى ، بل كل ما فيها يرجع إلى الأسطورة والقصة . وكان بدء ظهوره فى ميدان الحوادث ، عقب وفاة فرناندو الأول ملك قشتالة وليون فى أواخر سنة ١٠٦٥ م ، ونشوب الخلاف بين أولاده، فقد انضم «السيد» يومئذ إلى ولده سانشو (شانجه) وسار مع قوات حليفه أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، لمحاربة رامیرو ملك أرجوان ، وقد هزم فى جرادوس سنة ١٠٦٨م . ثم كان إلى جانب أخيه سانشو سنة ١٠٧١م ، حينما نشبت الحرب ، بينه وبين أخيه ألفونسو ملك ليون، وقد هزم سانشو فى البداية، ولكنه عاد وجمع فلوله تحت جنح الظلام ، ودهم أخاه بإرشاد « السيد » وهزمه وأسره .

ولبث « السيد » يحارب إلى جانب سانشو ملك قشتالة ، حتى قتل هذا الملك أمام أسوار سمورة فى العام التالى (١٠٧٢م) . فانتقل إلى خدمة أخيه ألفونسو . الذى تولى عرش قشتالة أيضاً بعد مصرع أخيه . ولما اشتد بأس ألفونسو على ملوك الطوائف ، وأخذ يرهقهم بمطالبه فى الجزية ، كان رسوله إلى ابن عباد صاحب إشبيلية فى سنة ١٠٧٩ م هو « السيد » نفسه ، وقد اشترك « السيد » يومئذ مع قوات ابن عباد ، فى معركة وقعت بينه وبين الأمير عبد الله صاحب غرناطة ، وقد كان يغير على أراضيه مع سرية من الفرسان النصارى ، فهزم عبد الله ، وسر المعتمد لذلك ، وأدى الجزية المطلوبة مع طائفة كبيرة من التحف والهدايا برسم ملك قشتالة(١) .

وقضى السيد فى بلاط ملك قشتالة ، عامين آخرين . ولكن الظاهر أن الدسائس كانت تعمل ضده حتى قيل إنه احتجز لنفسه الهدايا والتحف ، التى تلقاها من المعتمد برسم مليكه . هذا إلى أن الملك ألفونسو لم ينس له قط وقوفه ضده إلى جانب أخيه سانشو ، وانتصاره عليه ، وقد كان يشعر من ذلك الحين

— (الذخيرة القسم الثالث — المخطوط لوحة ١٩ أ) . وكذا يسميه ابن الأبار بالكنبيطور (الحلة السيراء ، دوزى ص ١٨٩ ، والقاهرة ج ٢ ص ١٢٥) ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٠٣ . ويقول لنا ابن عذارى إن كلمة «القنبيطور» معناها « صاحب الفحص » ج ٣ ص ٣٠٥ .

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 256 & 261

بعاطفة من الحسد إزاء هذا الفارس المظفر ، لازمته طول حياته[1]، ومن ثم فقد انتهى إلى إبعاد « السيد » عن بلاطه ، وعن سائر أراضيه ،وذلك فى سنة١٠٨١م .

وهنا يبدأ الفصل الروائى حقاً فى حياة السيد إلكمبيادور ، فيبدو مغامراً يبحث وراء طالعه ، ويخرج على كل اعتبار دينى أو قومى ، فيؤجر نفسه وصحبه ، تارة للأمراء المسلمين وتارة للأمراء النصارى ، ويندس إلى كل ثورة تنشب أو حرب تضطرم هنا وهنالك ، ويطالب الغنم والسلطان ، حيثما استطاع ، وبأى الوسائل . وكانت ظروف اسبانيا المسلمة ، يومئذ مما يفسح المجال لأطماع ، جندى مغامر كالسيد . فهناك الحروب الأهلية المستمرة ، وهناك الرغبة المستمرة فى الاستعانة بالجند النصارى ، وإغداق الأموال عليهم ، وقد رأينا فى أخبار دول الطوائف ، وأخبار ملوكهم ، ما يؤيد هذه الحقيقة المؤلمة كل التأييد .وكانت هذه الحروب الإنتحارية تجرى يومئذ فى سائر أنحاء الأندلس ، وكانت فى الوقت الذى خرج فيه السيد بعصابته من قشتالة تضطرم بنوع خاص فى الإمارات الشمالية ، التى استقر فيها بنوهود ، فيما بين سرقسطة ، وثغور الشاطىء ، وفيما بينها وبين بلنسية . فإلى هذا الميدان المضطرم ، هبط السيد وجنوده المرتزقة ، والتحق أولا بخدمة المقتدر بن هود أمير سرقسطة ، وكان المقتدر قد استعان على محاربة أخيه المظفر صاحب لاردة ، بجنود من البشكنس والقطلان حتى هزمه أخيراً وأسره ، فكان المظفر أسيراً وقت أن حل السيد ببلاط المقتدر . ثم توفى المقتدر بعد قليل سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) بعد أن قسم مملكته بين ولديه ، فخص ولده المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وأخاه المنذر بدانية وطرطوشة ولاردة. ثم وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، فاستعان المنذر بسانشو رامبرز ملك أراجون وكونت برشلونة ، وحارب السيد إلى جانب المؤتمن ، ولد حاميه والمحسن إليه ، وانتهى الأمر بهزيمة المنذر ، وعاد السيد إلى سرقسطة ظافراً ، فاحتفى به أهلها أيما احتفاء ، وبالغ المؤتمن فى إكرامه وإثابته . وكان المؤتمن يعتز بصداقة السيد ومحالفته ، ويعلى من شأنه ويأخذ بنصحه فى معظم الأمور ، ولايرى فى ذلك غضاضة وانحرافاً ، وكان المنذر من جهة أخرى يبغض السيد أشد البغض ، ويستعين فى محاربته بالأمراء القطلان أصحاب برشلونة . ولما توفى

---

(1) R. M. Pidal : Ibid; p. 261, 580 & 590

المؤتمن فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، خلفه فى سرقسطة وأعمالها ولده المستعين ، والتحق السيد بخدمته أيضاً ، واستمر على نفوذه ومكانته فى المملكة . ويحمل ابن بسام على حماية بنى هود للسيد ، واستخدامهم إياه ، وإعلائهم لشأنه فى قوله : « وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه (أعنى السيد) من الخمول ، مستظهرين به على بغيهم الطويل ، وسلطوه على أقطار الجزيرة ، يضع قدمه على صفحات أنجادها ، ويركز علمه فى أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره ، وعم أقاصيها ودانيها شره »[1] .

ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال السيد فى خدمة المستعين فى بضعة الأعوام التالية . بيد أننا نرى السيد والمستعين فى سنة ١٠٨٨م ، كلاهما يسير فى قواته صوب بلنسية . وهناك رواية خلاصتها أن المستعين والسيد ، حينما ورد صريخ القادر ، عقدا ميثاقاً سرياً على غزو بلنسية وافتتاحها ، نص فيه على أن تكون الأسلاب كلها من نصيب السيد ورجاله ، وأن تكون المدينة ذاتها من نصيب المستعين[2] . وهناك رواية أخرى ، هى أن المستعين دعا السيد إلى مرافقته فى جيشه لإغاثة بلنسية ، دون أن يفضى اليه بنيته فى الاستيلاء على المدينة ، وقدم إليه أموالا جليلة لكى يحشد بها القوات اللازمة ، وكان السيد فى هذا الوقت بالذات يدعو الجند إلى رايته ، للمحاربة مع المسلمين ، وقد اجتمع له منهم ، حسبما يخبرنا ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية عدد كبير ، وكانت قوة المستعين لاتعدو أربعمائة فارس ، أما جيش السيد فكان يضم ثلاثة آلاف فارس ، وهى قوة ضخمة وفقاً لمقاييس العصر .

وهكذا أشرف المستعين والسيد فى قواتهما على بلنسية ، إجابة لصريخ مليكها وإنجاداً له فى الظاهر ، وكلاهما يضطرم فى الواقع بنيات ومشاريع أخرى . وكان المنذر صاحب لاردة وطرطوشة ، ما يزال مرابطاً بقواته حول المدينة ، فلما علم بمقدم السيد ، وابن أخيه المستعين ، أدرك أنه لاطائل من الانتظار وعول على الانسحاب[3] ، وبعث إلى القادر يعرض عليه صداقته ومحالفته ، واستعداده

---

(١) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ١٨ ب .

(٢) وردت هذه الرواية فى كتاب «الاستكفاء» لا بن الكردبوس . ونقله دوزى فى : Recherches ; V. II App. II.

(٣) رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر .

لمعاونته ضد ملك سرقسطة ، فأجابه القادر إلى عقد الحلف المنشود ، ولكنه لما رأى المنذر بعد ذلك يبتعد بقواته عن بلنسية فى طريق العودة إلى بلاده ، أدرك أنه لا مفر من الالتجاء إلى القشتاليين ، وأنهم هم وحدهم الذين يستطيعون إنجاده وإنقاذه .

ودارت عندئذ سلسلة من المفاوضات والمواثيق السرية ، بين أولئك الزعماء المخادعين المخاتلين ، فبعث القادر إلى السيد خفية عندما اقترب من بلنسية ، يرجوه عقد المودة والتحالف بينهما سراً ، ودون علم المستعين ، وبعث إليه فى الوقت نفسه طائفة من الأموال والتحف الجليلة . ولما وصل السيد والمستعين إلى بلنسية ،أفضى إليه المستعين بحقيقة نياته ، وأنه إنما قدم إلى بلنسية لا لإنجادها ولكن لافتتاحها ، وطلب إليه النصح والعون ، ولكن السيد ماطل فى مهاجمة المدينة بحجة أن القادر مستظل بحماية ألفونسو ، وأن المدينة فى الواقع هى من أملاك ألفونسو وقد أعطاها للقادر ، فأية محاولة لافتتاحها تعتبر اعتداء على حقوق الملك ألفونسو نفسه ، وأنه لابد قبل إجراء مثل هذه المحاولة ، أن يأذن الملك ألفونسو نفسه بذلك ، وأخيراً أنه لايستطيع أن يقوم بعمل ضد مليكه وسيده الطبيعى ، أعنى ملك قشتالة .

وهنا يبدو السيد على حقيقته ، ويكشف عن خلاله الأصيلة ، خلال مغامر لا ذمام له يبيع العدو والصديق معا ، وينتهز الفرصة بأى ثمن ، فهو ينصح القادر سراً بألا يسلم المدينة لأحد ، وهو يعد القادر والمستعين كل بمعزل عن الآخر أنه سوف يعاونه على تحقيق بغيته فى الوقت الملائم ، ويؤكد للمستعين أنه على أهبة لأن يساعده على أخذ بلنسية ، إذا حصل على موافقة الملك ألفونسو ، ثم يعتزم السيد أن يقطع علائقه القديمة مع صديقه وحاميه المستعين ، ويبعث سراً إلى عمه وخصيمه المنذر بن هود ، يعقد معه اتفاقاً بالصداقة والتحالف ، وأخيراً يبعث السيد إلى ألفونسو ملك قشتالة ، يؤكد له أنه فيما يعمله ويغنمه ، إنما هو تابع له ، وأن أولئك الفرسان الذين يقودهم فى أراضى المسلمين ، دون أية نفقة من الملك — إنما هم تحت تصرف الملك ، ينزلون ضرباتهم « بالكفرة » ، وفى وسعهم أن يحصلوا على شرقى الأندلس بسهولة . وقد وافق ألفونسو على

رسالة السيد ، وأذن له أن يجول بفرسانه حيث شاء فى أراضى المسلمين(١) .

ولم يكتف السيد بذلك ، بل رأى بعد أن قام بعدة غارات ناهبة فى الأنحاء القريبة ، ودرس طبيعتها وأحوالها ، أن يذهب بنفسه إلى الملك ألفونسو ، ليعقد معه الإتفاق اللازم لإخضاع هذه المناطق ، فسار إلى قشتالة ، واستطاع أن يحصل من الملك ألفونسو على وثيقة الموافقة ، وفيها يصرح للسيد ويؤكد ، بأن كل الأراضى والحصون التى يستطيع السيد أن ينتزعها من المسلمين ، تغدو ملكاً خاصاً له ، ثم لأولاده وبناته وسائر عقبه من بعده ، ميراثاً شرعياً .

وأدرك المستعين خلال ذلك ، مدى نفاق السيد وغدره ، وانصرافه إلى العمل لصالحه وصالح قشتالة ، فقطع علائقه معه ، واتجه إلى محالفة برنجير كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء السيد ، وعقدت بينهما ، أواصر التحالف ، وقدم المستعين إلى الكونت أموالا جزيلة ، وبعثه إلى محاصرة بلنسية . ولكن القادر اعتزم أن يصمد لهذا الحصار الجديد ، حتى يعود السيد من قشتالة . وأخيراً عاد السيد من قشتالة ومعه سبعة آلاف مقاتل ، ونزل بجيشه فى أراضى السهلة ، التابعة لابن رزين صاحب شنتمرية الشرق (مايو ١٠٨٩م) فخرج إليه ابن رزين ، وتعهد من جديد بأداء الجزية للملك قشتالة ، وكان يؤديها قبل موقعة الزلاّقة ، واتفق على أن تكون الجزية عشرة آلاف دينار فى العام ، فقبل السيد عهده ، وغادر أراضى السهلة وسار بجيشه صوب بلنسية .

وغدا السيد عندئذ قائد جيش خطير من المرتزقة ، أو بالحرى رئيس عصابة ناهبة ، تجوب أنحاء الولايات الشرقية طلباً للغنيمة والسلب ، وهابه سائر الأمراء والحكام فى تلك النواحى ، وأخذوا جميعاً يترقبون الفرص لمقاومته وسحقه . وكان أشدهم نشاطاً فى ذلك خصمه القديم الكونت برنجير أمير برشلونة ، وكان الكونت يحاصر بلنسية بقواته منذ حين ، والظاهر أنه حين اقترب السيد بقواته من بلنسية ، وقعت بينه وبين الكونت معركة هزم فيها الكونت ، وأسر مع نفر من بطانته ، ولم يطلقهم السيد إلا لقاء فدية كبيرة ، ثم انتهى الأمر بينهما إلى التفاهم ، ورفع الكونت الحصار عن بلنسية ، وعاد بجيشه شمالا إلى برشلونة .

---

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 352-354 . وقد نقل الأستاذ بيدال هذه الفقرة الأخيرة المتعلقة برسالة السيد إلى الملك الفونسو ، من أقوال ابن علقمة صاحب تاريخ بلنسية المفقود ، الذى نقلت منه شذور كثيرة فى التواريخ القشتالية .

وكان السيد قد عسكر بقواته أولا تجاه مربيطر شمالى بلنسية ، ثم سار بعد ذلك جنوباً إلى بلنسية ، وأخضع فى طريقه مربيطر ، وأرغم صاحبها ابن لبُّون على أن يؤدى له جزية سنوية قدرها ثمانية آلاف دينار . ونزل أخيراً بجنده فى « الكُدية » ضاحية بلنسية الشمالية التى يفصلها عن المدينة نهر « طوريا » ، فنى الحال بعث إليه القادر بالأموال والتحف ، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته ، ويؤدى له الجزية ، واتفق على أن يدفع له فى كل أسبوع ألف دينار ، على أن يقوم بحمايته من سائر أعدائه . وقيل إن الجزية التى ارتضى القادر أن يؤديها للسيد مقابل حمايته بلغت مائة ألف دينار فى العام ، وهو مبلغ طائل فى هذا العصر[١] .

وهنا يسوغ لنا أن نتساءل عن مصدر هذه الأموال الوفيرة التى كان يغدقها القادر فى كل مناسبة على السيد وغيره ، ممن كان يستصرخهم لحمايته . والجواب عن ذلك أن القادر ورث عن جده المأمون صاحب طليطلة أموالا طائلة ، وطائفة عظيمة من الحلى والجواهر والتحف . وكان ألفونسو ملك قشتالة حينما عاون القادر على استرداد عرشه فى طليطلة ، عند ما أقصته الثورة عنه ، يرهق القادر بمطالبه المالية المتوالية ، لما كان يعلمه من غناه الطائل ، وكانت سياسة ألفونسو ترمى إلى استصفاء أموال ملوك الطوائف بطريقة إرغامهم على دفع الجزية ، وغيرها من أنواع الإبتزاز السياسى والعسكرى ، وقد رأيناهم جميعاً يسارعون إلى الأداء ، ويجمع ملك قشتالة منهم الأموال الوفيرة . وكان القادر من أكثرهم ثراء واقتداراً . وكان يخفى أموالا طائلة حملها معه حينما سار منفياً إلى بلنسية ، بعد أن فقد ملكه فى طليطلة ، وهناك أخفاها بمنتهى الحيطة والحذر ، وقد أثارت هذه الأموال الدفينة فيما بعد شره السيد ، واستطاع أن يحصل عليها عقب دخوله بلنسية حسبما نفصل بعد .

وخرج السيد من مقره فى « الكدية » إلى جبال ألبونت القريبة ، حيث كان يحكم عبد الله بن قاسم ، وعاث فى أراضية ، وأرغمه على أن يدفع له جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، ثم عاد جنوباً وعسكر فى بلدة « ركّانة » الواقعة غربى بلنسية . وهكذا أخضع السيد لصولته سائر إمارات هذه المنطقة :

---

(١) هذا ما ذكره ابن الكردبوس فى روايته السالفة الذكر : Recherches; V.II. App. II.

بلنسية ومربيطر ، وألبونت وشنتمرية الشرق ، وفرض عليها جميعاً الإتاوات الفادحة ، واستقر بقواته على مقربة منها تتردد بعوثه فى أراضيها ، وتشعرها بصفة مستمرة أنها رهينة سلطانه ورحمته .

فى ذلك الحين تطورت الأمور فى قشتالة ، وكان لهذا النجاح الضخم الذى أحرزه السيد على هذا النحو فى شرق الأندلس صداه السيء فى نفس الملك « الإمبراطور » ألفونسو السادس(١) ، وكان السيد قد تخلف عن معاونة ألفونسو فى معركة حصن لييط « أليدو » التى نشبت بينه وبين المرابطين سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) ، وانتهز خصوم السيد فى البلاط هذه الفرصة ، فأثاروا نفس الملك عليه ، وصوروا له تصرفه بالعقوق والخيانة ، وأوعزوا إليه بمعاقبته. وفعلا أمر الملك بإخلاء سائر الحصون والدور الخاصة بالسيد ، وبالقبض على زوجه وأولاده الصغار ، وذلك لأن القانون القديم كان ينص على تضامن الأسرة فى الأمور الجنائية ، ولايسمح بذرة من التهاون أو الرأفة فى تهمة الخيانة(٢) .

وتطورت الأمور أيضاً فى الثغر الأعلى، وشعر المستعين بن هود ملك سرقسطة بأن المرابطين بعد استيلائهم على مرسية وحصن لييط ، أضحوا على مقربة منه ، وأضحوا يهددون سلامته وملكه ، فعندئذ استغاث بالسيد مرة أخرى ، وعقد معه صلحاً وحلفاً جديداً . وسار السيد فى جيشه إلى سرقسطة ، وعسكر على مقربة منها على ضفة النهر الأخرى ، وهنالك عقد محالفة مع ملك أراجون وأخرى مع ملك نافار ، وكان الغرض من هذه الأحلاف جميعاً هو التعاون على دفع خطر المرابطين الداهم ، وإنقاذ شرق الأندلس من سلطانهم . ولبث السيد حيناً فى سرقسطة ينظم شئونها وخططها الدفاعية . وهذا ما يشير إليه ابن بسام فى الذخيرة بقوله المسجع : « ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة ، بعساكر أمير المسلمين تنسل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلباً من أكلب الجلالقة ، يسمى بلذريق ويدعى بالكنبيطور ، وكان عقالا ، وداء عضالا له فى الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكاره إطلاعات ومطالع »(٣) .

---

(١) R. M. Pidal : ibid. p. 360

(٢) R. M. Pidal : ibid, p. 367 & 368

(٣) الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط ، لوحة ٨ ب و ٩ ا . وراجع :
R. M. Pidal : ibid; p. 415 & 416

ولم يجد ألفونسو ملك قشتاله لمعاقبة السيد، على مطله وغدره وخيانته، وتحطيم نفوذه البالغ، الذى أخذ يزعجه ويثير حفيظته، خيراً من أن يفتتح بلنسية، التى كان السيد فى الواقع سيدها الحقيقى، وكانت أمنع معقل لسيادته ونفوذه، وأخصب مصدر لموارده، فعقد حلفاً مع جمهوريتى چنوه وبيزه، لكى يعاونانه بأساطيلهما من البحر على أخذها، ثم سار فى قواته إلى بلنسية، وعسكر فى جُبالة أو «كبولا» من ضواحيها، وطلب من أصحاب القواعد والحصون المجاورة أن يؤدوا إليه الجزية التى كانوا يدفعونها للسيد، وبعث إلى القادر بأن يحجز الجزية وسائر الإيرادات التى كان يتلقاها السيد. فلما علم السيد بذلك وهو فى ظاهر سرقسطة، وبأن ملك قشتالة جاء لينتزع نفس المنطقة التى أعطاه إياها، اعتزم أن يقابل القوة بالقوة، وبعث إلى ألفونسو يعرب له عن دهشته واستنكاره وعن ثقته بالله، وينذره بأنه لن يصبر على تلك الإهانة بل سينتقم لها، وبأنه سوف يرى كيف أسيء نصحه وتوجيهه[١].

والواقع أنه لم يمض قليل على ذلك حتى شعر ألفونسو بحرج موقفه. وذلك أن السفن الجنوية والبيزية لم تأت حسبما تقرر، وقد قلت المؤن فى عسكره، وأخذ يعانى الصعاب، فعندئذ أمر برفع الحصار، وغادر بلنسية لدهشة قواده وصحبه، وارتد راجعاً إلى قشتالة. وماكاد يبتعد عنها حتى أشرفت السفن الحليفة وكانت نحو أربعمائة. بيد أنها لم تستطع أن تعمل شيئاً. فغادرت بلنسية وسارت إلى طرطوشة، ولكنها استطاعت أن تصمد لها. وفضلا عن ذلك فقد أراد السيد أن ينتقم من الملك ومستشاريه، فسار نحو قلهرّة ولوجرنيو، وضرب الأراضى التابعة لرجال البلاط من خصومه، وعاث فى أحواز قشتالة، واجتاح منها منطقة شاسعة، وأمعن فيها قتلا وتخريباً[٢]. فعندئذ رأى ألفونسو أن يعود إلى سياسة اللين، وأصدر عفوه عن السيد، وكتب إليه بذلك، وبأنه قد رفع الحظر عن أملاكه، وسمح له بأن يعود إلى قشتالة متى شاء، فكتب إليه السيد يشكره ويرجوه ألا يصغى لنصحاء السوء. وكان ذلك فى أوائل سنة ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ).

* * *

(١) R. M. Pidal : ibid, p. 418

(٢) رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر فى : Recherches; V. II. App. II

وفى ذلك الحين اشتد الاضطراب فى بلنسية ، واعتزم البلنسيون أن يحطموا ذلك النير المرهق الذى فرضه السيد على المدينة . وكان قاضى المدينة أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحّاف المعافرى ، يتزعم أقوى الأحزاب فى المدينة ، وهو الحزب المناوئ للسيد والقشتاليين بوجه عام ، ويناهض الحزب « الإسبانى » أو الحزب الذى يلتف حول القادر ، وكان يثير فى الجموع روح الثورة ، ويتطلع إلى انتزاع السلطة ، وكان المرابطون قد اقتربوا فى ذلك الوقت من بلنسية ، باستيلائهم على مرسية ودانية ، ففاوض ابن جحاف قائد المرابطين ابن عائشة، ووعده بتسليم بلنسية إذا ساعده على محاربة القادر والسيد ،فاستجاب ابن عائشة لدعوته ، وبعث إليه سرية من الجند المرابطين بقيادة أبى ناصر المرابطى ، فما كادت تدخل بلنسية حتى اشتد بها الهرج والاضطراب، وقاد ابن جحاف جموع الثائرين ، وقبض على ابن الفرج مندوب « السيد » فى المدينة ، واقتحم القصر ، وبحث عن القادر حتى عثر به ، وكان قد اختفى فى بعض حمامات القصر، ومعه صندوق من الحلى والجواهر الخاصة بزوجه السلطانة زبيدة.فقتل فى الحال ، وحملت رأسه على رمح وطيف بها فى شوارع بلنيسة ، وذلك فى اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة ٤٨٥ هـ (٢٨ أكتوبر سنة ١٠٩٢) . واحتوى ابن جحاف على طائفة عظيمة من الأموال والذخائر والتحف التى كان يحتفظ بها القادر . وآلت السلطة بذلك إلى « الجماعة » . وفى اليوم التالى ، الرابع والعشرين من رمضان ، اختير ابن جحاف رئيساً للجماعة ، فتولى زمام الأمور ، وأخذ يحشد الجند ، ويحصن أطراف المدينة ، ويستعد للطوارئ .(١)

ولما علم السيد بهذه التطورات المزعجة ، سار فى الحال فى قواته صوب بلنسية ، وفرض المغارم والأقوات على سائر الحصون الواقعة فى طريقه ، ونزل فى « جبالة » (كبولا) ، وهنالك اجتمع إليه أنصار الملك المقتول (أواخر سنة ١٠٩٢ م) . وفى الحال ضرب الحصار حول المدينة ، بعد أن أحرق ما حولها من الضياع والمروج ، واستولى على معظم الأنحاء القريبة ، واقتحم « الكدية » ضاحية المدينة الشمالية ، وفرض عليها سلطانه . وأنشأ ابن جحاف داخل المدينة فرقة من ثلاثمائة فارس من المرابطين وغيرهم ، لتقاوم الحملات المخربة التى كان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ . و R. M. Pidal : ibid ; p. 434

يشنها السيد على أحواز المدينة . وكثر الجدل فى الداخل بين مختلف الأحزاب والطوائف . وبعث السيد سراً إلى ابن جحاف يطلب إليه طرد المرابطين ، ويتعهد له بأن يتركه ملك بلنسية الوحيد ، وأن يمده بالعون والحماية ، فجنح ابن جحاف إلى التفاهم ، وأخذ يدبر الأمر ، وآثر البلنسيون كذلك التفاهم والصلح ، وانتهت المفاوضات بين السيد وأهل بلنسية على ما يأتى : أن يغادر المرابطون المدينة آمنين ، وأن يعطى ابن جحاف إلى السيد ثمن ماكان مودعاً بمخازنه من المؤن وقت مقتل القادر ، وأن تؤدى له الجزية السابق تقريرها ، ومقدارها ألف دينار فى الأسبوع مع متأخراتها ، من وقت أن بدأت الحرب ، وأن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد ، وأن يرتد الجيش القشتالى إلى « جبالة » ويبقى هنالك ومعه السيد . وهكذا عقدت شروط التسليم ، وعادت بلنسية بمقتضاها ، كما كانت بلداً خاضعاً يؤدى الجزية كما كان أيام القادر[1] .

ولم يمانع المرابطون فى عقد الصلح على هذا النحو ، لما تولاهم من السأم فى بلد لا تهدأ له ثائرة ، وغادروا المدينة بسلام . وعاد السيد فرابط بقواته فى « جبالة » . ولكن سرعان ما نقض عهوده ، شيمته التى تلازمه فى كل عمل وكل موطن ، وأخذ يتردد فى جنده على ضواحى المدينة ويعيث فيها ، ويرهق ابن جحاف بمطالبه المالية ، التى لايرتوى منها شرهه قط ، وابن جحاف يعانى فى نفس الوقت من الاضطراب الداخلى ، ومن مناوأة الزعماء المحليين ، ولاسيما بنى طاهر أصحاب مرسية السابقين النازلين ببلنسية ، وكان هؤلاء يتصلون سراً بالسيد ، ويتآمرون معه على ابن جحاف . ثم طلب السيد من ابن جحاف أن يأذن له بالنزول مع بعض صحبه فى قصر وحدائق « بله نوبه » وهى ضاحية بلنسية فى الشمال الشرقى ، وينزل باقى جنده فى « ريوسا » فى جنوبها الغربى تجاه الرصافة ، فوافق ابن جحاف مرغماً ، وكان السيد يرمى بذلك إلى إحكام تطويق المدينة ، لاسيما وهو يحتكم من قبل على ضاحية الكدية . وعاد السيد بعد ذلك فاشتط فى مطالبه ، وطلب إلى ابن جحاف أن يسلم كل موارد المدينة ، وأن يقدم إليه ابنه رهينة بولائه . فعندئذ رفض ابن جحاف ، وأغلق أبواب المدينة ، وكتب إلى ابن عائشة قائد المرابطين يستغيث به ، وبعث بنفس الصريخ إلى المستعين ملك

(١) R. M. Pidal : ibid ; p. 449

سرقسطة ، فأرسل إليه يعده خيراً ، وكتب كذلك إلى ألفونسو السادس ، فبعث إليه يعده بالعون . واعتزم ابن جحاف مقاومة السيد إلى آخر لحظة ، واستؤنفت الأعمال العدوانية بين الفريقين ، وضرب السيد حول المدينة حصاراً صارماً ، وعاث فى الأنحاء المجاورة ، ولم يدخر وسعاً فى قطع الأقوات عن المدينة المحصورة خوفاً من أن تصمد له حتى يدهمه المرابطون ، واستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهراً ، حتى بلغ الضيق بالبلنسيين المنتهى ، وفتك بهم الجوع أيما فتك ، « وأكلوا الفيران والكلاب والجيف » وغدوا كالأشباح هزالا[1] . وقد وصف المؤرخ البلنسى المعاصر ، محمد بن علقمة فى تاريخه الذى سوف نشير إليه فيما بعد ، بعض ما قاساه البلنسيون من المحن فى تلك الآونة العصيبة ، فذكر « أن رطل القمح بلغ ثمنه مثقال ونصف ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة الدجاجة بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم بستة دنانير . وفى ربيع الأول (٤٨٦ هـ) عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى فى عدم القوت الفقراء والأغنياء ، فأمر ابن جحاف اقتحام الدور بحثاً عن القوت . وأعاد استصراخ ابن هود ، ورغبه فى المال والبلد مع الأجر فى استنقاذ المسلمين من القتل والأسر . وترمق ساير الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفيرة والقطط وجيف بنى آدم . وهجم على نصرانى وقع فى الحفير فأخذ باليد ، ووزع لحمه . وجد الطاغية فى حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ليلا يخرج الضعفاء ، ويتوفر القوت على الأغنياء . وبان على الناس الإحراق بالنار ، فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم على صوامع الأرباض وبواسق الأشجار . ودخل جمادى الأولى وعدمت الأقوات بالجملة ، وهلك الناس ، ولم يبق من ذلك الجم إلا النزر اليسير ، وتوالى اليبس واستحكم الوباء . ولما بلغ الأمر إلى هذا القدر ، وابن هود يخاطب بالتسويف والمطل ، اجتمع الناس إلى الفقيه أبى الوليد الوقشى فى التكلم لابن جحاف[2] وعندئذ اجتمع أعيان المدينة ، وأرغموا ابن جحاف على مفاوضة السيد فى التسليم وعقد الصلح ، فأذعن وترك لهم المفاوضة ، فذهب وفد منهم لمفاوضة السيد ، وتم الاتفاق على أن يبعث البلنسيون رسلهم إلى ملك سرقسطة ،

---

(١) الذخيرة لابن بسام ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ١٩ ب ، والبيان المغرب ج ٣ الملحق ص ٣٠٥ .

(٢) من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف بخزانة جامع القرويين بفاس .

وإلى ابن عائشة قائد المرابطين فى مرسية، فى طلب الغوث والإنجاد ، وذلك فى مدة خمسة عشر يوماً ، وأن يقوم ابن عديس خلال ذلك بالإشراف على المدينة ، وأن تسلم الأبواب ليحتلها الروم المحليون، فإذا لم يحضر أحد للنجدة فى خلال المدة الممنوحة سلمت بلنسية بالشروط الآتية :

« أن يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها ، وأن يؤمن فى نفسه وماله وأهله ، وأن يؤمن السكان فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يتولى مندوب السيد الإشراف على تحصيل الضرائب ، وأن تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين (المستعربين) الذين يعيشون بين المسلمين ، وأن يرابط السيد بجيشه فى « جبالة » (كبولا) وألا يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها » .

عقدت الهدنة على هذه الشروط ، وسافر الرسل فى طلب النجدة ، ولكن مضت الخمسة عشر يوماً دون أن يعود أحد منهم . فى صباح اليوم التالى، وهو يوم الخميس ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤م (٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ)[١]، خرج ابن جحاف ومعه عدد من أعيان المسلمين والنصارى ، ووقعوا عهداً بتسليم المدينة ، على أن يؤمن سكانها فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يسلم ابن جحاف إلى السيد سائر أموال القادر . وفى الظهر فتحت بلنسية أبوابها للسيد إلكمبيادور وجنده ، واحتشد البلنسيون ، وهم كالأشباح هزالا ، أوكأنهم كالموتى خرجوا يوم الحشر من القبور ليمثلوا أمام الخالق[٢] ، ليشهدوا دخول القشتاليين الظافرين بلدهم .

ودخل السيد وجنده بلنسية ، وفى الحال احتلوا أبراجها خلافاً لشروط المعاهدة ، ونزل السيد بالقصر ، ثم جمع أشراف المدينة وألقى فيهم خطاباً وعد

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ دخول السيد بلنسية . فيقول ابن بسام وهو معاصر الحادث أنه وقع فى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) — الذخيرة القسم الثالث — المخطوط لوحة ١٩ ب . ويوافقه صاحب الذيل فى البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٦ . ولكن ابن الأبار يقول لنا إن دخول السيد بلنسية كان فى سنة ٤٨٧ هـ — ١٠٩٤ م (الحلة السيراء دوزى ص ١٨٩ والقاهرة ج ٢ ص ١٢٥) . وهذه أيضاً رواية ابن الكردبوس فى « كتاب الاكتفاء » Recherches, V, II. App. II . وهذا التاريخ هو الأرجح ، وهو يوافق الرواية القشتالية ، وبه يأخذ الأستاذ منندیث بيدال مؤرخ السيد ، فيقول إن دخول السيد بلنسية كان فى ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤ م . (Pidal : ibid; p. 485)

(٢) وهو تصوير ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية ، وقد نقلت روايته المفقودة فى التواريخ القشتالية (Pidal : ibid; p. 484) .

فيه أن يسير شئون المدينة بالعدل ، وأن يستمع لظلامات أهلها ، وأن يحميهم ، وأن يرد إلى كل ذى حق حقه ، إلى غير ذلك من الوعود الخلابة . ومع ذلك فقد احتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها ، ولم يستمع أحد إلى تذمر أو ظلامة ، وتسلم السيد من ابن جحاف أموال القادر وذخائره ، وأبقاه فى منصبه قاضياً للمدينة ، ولكنه شدد عليه فى السؤال عما إذا كان قد بقى لديه شىء منها ، وطلب إليه الحلف أمام أعيان الشهود من الملتين ، فحلف ابن جحاف بأنه لم يخف شيئاً وليس لديه شىء منها . وأنذره السيد بأنه إن وجد لديه شيئاً مما تقدم ، فإنه سوف يستبيح دمه ، ووافق على هذا العهد أعيان الملتين ، المسلمون والنصارى . وشاءت الأقدار أن يقع السيد بعد ذلك بقليل على مخبأ الحلى والذخائر التى انتزعها ابن جحاف من القادر حين مقتله، فكان ذلك نذيراً بنكبته المروعة ، التى ترك لنا عنها المؤرخ البلنسى المعاصر، وشاهد العيان السابق ذكره أبو العباس بن علمقة ، صوراً مؤسية مبكية .

ذلك أن السيد أمر فى الحال بالقبض على ابن جحاف وأفراد أسرته ،وعذبه عذاباً شديداً ، ثم أمر بإعدامه حرقاً ، فأقيمت له وقدة كبيرة فى ساحة المدينة وأحرق فيها بصورة مروعة ، ولقى هذا القاضى المجاهد مصيره بشجاعة مؤثرة . قال ابن علقمة، وكان من شهود المأساة « إن القنبيطور أمر بتعذيبه أى ابن جحاف فعذب عذاباً شديداً ، ثم أمر به فجمع له حطب كثير ، وحفرت له حفرة وأقيم فيها ، وأصير الحطب حوله ، وأوقدت فيه النار فكان يضم النار إليه بيديه ليكون ذلك أسرع لخروج روحه »(١) . وقال ابن بسام، بعد أن ذكر واقعة إحراق ابن جحاف : « أخبرنى من رآه فى ذلك المقام،وقد حفر له إلى مرفقيه ، وأضرمت النار حوله ، وهو يضم ما بعد من الحطب بيديه ، ليكون أسرع إلى ذهابه ، وأقصر لمدة عذابه ، كتبها الله له فى صحيفة حسناته، ومحا به سالف سيئاته ، وهم الطاغية يومئذ بتحريق زوجه وبناته ، فكلمه فيهن بعض طغاته ، فبعد لأى ما لفته عن رأيه ، وتخلصهن من يدى نكرائه . وأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذ ناراً ، وجلل سائر طبقاتها حزناً وعاراً »(٢) .

---

(١) أورده البيان المغرب فى الذيل ج ٣ ص ٣٠٦ .

(٢) الذخيرة – القسم الثالث المخطوط لوحة ١٩ ب .

وأمر السيد كذلك بإحراق جماعة من أعلام بلنسية ، ومنهم أبو جعفر البتى الشاعر المشهور[١] ، وبدا السيد عندئذ فى ثوبه الحقيقى ، ثوب الفاتح المتجبر والطاغية المنتقم ، فمال على البلنسيين ، وأذلهم ، واشتط فى إرهاقهم بصنوف المظالم والمغارم . وكان من الظواهر المؤلمة يومئذ ، أن التف حول السيد رهط من الخونة المسلمين ، ومعظمهم من الأشرار والسفلة ، انضووا تحت لوائه ، وأخذوا يعيثون فى المدينة فساداً ، ويعتلون على إخوانهم ، يقتلون الرجال ، ويسبون النساء والأطفال ، وقد ارتد عن الإسلام جماعة منهم ، وكان يطلق يومئذ على تلك العصابات المجرمة اسم « الدوائر »[٢] ، وغادر بلنسية كثير من أهلها المسلمين ، واحتل النصارى دورهم وأحياءهم ، وغدا السيد ، وهو يزاول سلطانه بالقصر ، كأنه ملك متوج ، وسيد مملكة عظيمة ، وغدا باستيلائه على بلنسية سيد شرق الأندلس كله .

وفى محنة بلنسية يومئذ يقول الشاعر المعاصر أبو إسحاق بن خفاجه :

عاثت بساحتك العـــدا يا دار ... ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد فى جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستعبـــار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمحصت بخرابهـــا الأقدار
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها ... لا أنت أنت ولا الديار ديار

وروعت الأندلس لسقوط بلنسية فى أيدى النصارى ، كما روعت من قبل بسقوط طليطلة ، وتوالى على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صريخ الأندلس ، ورسائل أعيانها ، تصف ما أصاب بلنسية وشرق الأندلس من الدمار ، وتقطيع الأوصال ، والذل على يد النصارى . قال ابن بسام : « وتجرد أمير المسلمين عندما بلغه هذا النبأ الفظيع ، واتصل به هذا الرزء الشنيع ، فكانت قذى أجفانه وجماع شأنه ، وشغل يده ولسانه » . واعتزم أمير المسلمين أن يسترد المدينة الأندلسية العظيمة ، فسار إلى سبتة وحشد الجند ، وندب ابن أخيه محمداً بن تاشفين ليقود الحملة ، وكتب إلى حاكم غرناطة المرابطى ، وإلى أمراء شرق

---

(١) وهو أحمد بن عبد المولى البتى نسبة إلى بتة من قرى بلنسية . وكان من أكابر الأدباء وعلماء اللغة .

(٢) راجع رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر : Recherches; V. II. App. II

الأندلس ، أصحاب شنتمرية الشرق ، والبونت ، ولاردة ، وطرطوشة ، أن يجمعوا الجند للسير إلى استنقاذ بلنسية . وعبرت الجند المرابطية إلى الجزيرة فى سبتمبر سنة ١٠٩٤م ، أعنى لثلاثة أشهر فقط من سقوط بلنسية ، واجتمعت الحشود الأندلسية ، وسارت القوات المتحدة صوب بلنسية ، فوصلت إلى « كوارت » ثم إلى « مسلاته » ، الواقعتين غربى بلنسية جنوبى النهر ، فى شهر أكتوبر (رمضان ٤٨٨ هـ) ، وصلوا صلاة الفطر فى مسلاتة ، ثم بدأ الهجوم على بلنسية .

وكانت الأنباء قد وصلت إلى بلنسية بمقدم الجيش المرابطى . فشاع الذعر بين النصارى ، وأمر السيد بأن يجمع من أهل بلنسية ، سائر السلاح والقطع الحديدية ، وأخرج من المدينة سائر المسلمين الذين يشك فى ولائهم . وتكررت هجمات المرابطين على المدينة بشدة ، ولما رأى محمد بن تاشفين مناعة المدينة وصمودها الراسخ ، ضرب حولها الحصار المطبق . ولم تمض أيام قلائل ، حتى خرج السيد فى قواته بالليل ، وفاجأ المعسكر الإسلامى ، وهاجمه بشدة ، فأوقع فيه الاضطراب والذعر ، واستولى على غنائم عظيمة من الخيل والسلاح والعتاد والمؤن ، وقتل من المسلمين عدد جم ، ثم عاد فامتنع داخل المدينة .

واستمر الحصار طويلا . وبعث السيد إلى بيدرو الأول ملك أراجون يستصرخه للغوث ، وعقدت بينهما محالفة ضد المسلمين ، وكتب أيضاً إلى ألفونسو السادس . وتجددت المعارك بين المرابطين والقشتاليين فى أحواز بلنسية ، واستولى السيد خلالها على مربيطر ، وعلى عدد آخر من الحصون . وفى يناير سنة ١٠٩٧ م وقعت بين قوات السيد وحليفه بيدرو ملك أراجون ، وبين المسلمين ، معركة شديدة عند جبل « « منذير » ، هزم فيها المسلمون ، وعاد بيدرو إلى بلاده ، وعاد السيد إلى بلنسية .

وفى تلك الأثناء كان جيش مرابطى قد سار من الجنوب نحو أراضى طليطلة وعاث فيها ، وهزم قوات ألفونسو السادس عند « كونسوبجرا » ، وفى تلك الموقعة قتل دون دبجو ابن السيد الوحيد . وفى نفس الوقت سار ابن عائشة حاكم مرسية فى جيش ضخم إلى أحواز قونقة ، وهزم القشتاليين بقيادة ألبارهانيس ثم اخترق أراضى مملكة بلنسية حتى « الجزيرة » ، وهنالك التقى بفرقة من جنود السيد ، فأبادها تقريباً ولم ينج منها إلا عدد يسير فروا عائدين إلى بلنسية .

وكان السيد قد اشتد عليه المرض يومئذ ، وهدمه الإعياء ، وأدمى قلبه مصرع ولده الوحيد، فتوفى غماً وألماً، وذلك فى يوليه سنة ١٠٩٩ . فتولت مكانه زوجه خمينا الدفاع عن المدينة ، واستطاعت أن تصمد أمام هجمات المرابطين ، زهاء عامين آخرين . وأخيراً بعثت إلى ألفونسو السادس تستصرخ به، وتعرض تسليم المدينة إليه ، فهرع ألفونسو إلى بلنسية فى بعض قواته ، ودخل بلنسية فى مارس سنة ١١٠٢ م . وكانت القوات المرابطية قد اجتمعت قبل ذلك ببضعة أشهر ، تحت إمرة قائدها الأمير أبى محمد المزدلى ، تستعد للوثبة الحاسمة ، فلما قدم ألفونسو بقواته ، اجتنبت لقاءه ، وعسكرت فى كوليرا الواقعة على البحر بين بلنسية وشاطبة . وقضى ألفونسو شهراً فى بلنسية ، ثم خرج إلى أحواز كوليرا ، وانتسف زروعها ، وهالته ضخامة الجيش المرابطى ، فارتد إلى المدينة وهو عازم على إخلائها ، ولم يشأ أن يغامر بجيشه مع العدو القوى فى مواقع نائية . وغادر بلنسية سكانها النصارى ، يحملون أمتعتهم وأموالهم ، وخرجت خمينا زوجة السيد ، ومعها ذخائر القادر بن ذى النون ، والأموال العظيمة التى انتهبها السيد خلال غزواته ومغامراته ، وقد استولى ألفونسو فيما بعد على معظمها ، ثم خرج ألفونسو وجنده ، وخرج معه فرسان السيد يحملون رفات زعيمهم لتدفن فى أراضى قشتالة (٤ مايو سنة ١١٠٢ م) . بيد أنه أمر قبل خروجه بإحراق المدينة ، ولم يغادرها إلا بعد أن غدا معظمها أطلالا دارسة .

وفى اليوم التالى ، الخامس من شهر مايو سنة ١١٠٢ م ، الموافق شعبان سنة ٤٩٥ هـ(١) ، دخل المرابطون بلنسية وعاد الثغر العظيم بذلك إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى ، وعاد السلم يخيم على تلك الربوع ، وانهار باختفاء السيد ، أكبر عامل فى بث الروع والاضطراب إلى شرقى الأندلس ، ووقفت مغامرات النصارى فى تلك الأنحاء مدى حين(٢) .

* * *

(١) يقول صاحب الذخيرة إن استرداد المرابطين لبلنسية كان فى رمضان سنة ٤٩٥ هـ ، ولكنا باحتساب التوافق بين التاريخين الميلادى والهجرى ، نجد أن شهر مايو سنة ١١٠٢ م يوافق شعبان سنة ٤٨٥ هـ . ويأخذ ابن خلدون بنفس التاريخ ، فيضع استرداد بلنسية فى سنة ٤٩٥ هـ (ج ٤ ص ١٦٢) .

(٢) يراجع فيما تقدم ، الذخيرة لابن بسام — القسم الثالث المخطوط — لوحة ٢٦ أ و ب وكذلك : R. M. Pidal : ibid; p.508, 533, 538, 539 & 581

والآن وقد انتهينا من تتبع حوادث مملكة بلنسية منذ قيامها فى ظل الطوائف وفصلنا بهذه المناسبة أخبار السيد إلكمبيادور ، منذ ظهر فى كنف بنى هود أصحاب سرقسطة ، حتى غلب على شرقى الأندلس ، ثم افتتح بلنسية ، وحكمها حتى وفاته بضعة أعوام ، نود أن نقول الآن كلمة عن شخصية السيد ، وعن خلاله .

لقد اختلفت الآراء فى تصوير السيد وتقدير بطولته . فالآداب النصرانية ، والآداب القشتالية ، بوجه خاص، تحاول أن تجعل منه مثلا أعلى للبطولة القومية، وتحيط تاريخه بطائفة من الأساطير المغرقة ، وتذهب فى بعض الأحيان إلى اعتباره ، فضلا عن كونه بطلا قومياً لإسبانيا النصرانية ، قديساً يحيط الجلال بسيرته ، وتروى لنا أن الناس كانوا على هذا الاعتبار ، يحجون إلى مزاره ، ويلتمسون البركة من رفاته . وكان قد دفن أولا فى دير سان پيدرو دىكاردينا على مقربة من برغش ، ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى بناء بلدية برغش . ومما يروى فى ذلك أن تابوت السيد فتح فى أيام الإمبراطور شارلكان،فى سنة ١٥٤١،فانتشرت منه رائحة ذكية ، ووجدت الجثة ملفوفة فى رداء عربى ، ومعها سيف ورمح ، وكان الشرق عظيما فى تلك الآونة ، فما فتح التابوت حتى هطل مطر غزير ، روى جميع أرجاء قشتالة . وأشد ماتبدو هذه الأساطير فى الشعر ، وفى الملاحم والأغانى القشتالية ، التى وضع معظمها بعد وفاة السيد بنحو قرون . ففيها يصور السيد ، بأنه الفارس الكامل ، الشهم ، الذى لايقهر فى الحرب ، وبأنه مثل الوطنية الحقة،وزهرة الخلال والفضائل النصرانية . ومن أشهر الملاحم التى وضعت عن السيد،وأقربها إلى عهده، قصيدة أوملحمة، Mio Cid (سيدى) الشهيرة ، التى كتبت بأراضى مدينة سالم بعد وفاة السيد بنحو أربعين عاماً فقط ، وهى فضلا عما تحتويه من مختلف صور العصر وحوادثه وعاداته ، تقدم لنا صورة كاملة لخلال السيد ، وتشيد بوطنيته وإخلاصه ، بالرغم من جور مليكه ، كما تصف رفقه ولينه ، وهو الظافر ، نحو المسلمين المغلوبين،وما ينطوى عليه قلبه ، وهو الفارس الأمثل ، من الحب العائلى ، حتى انه كان خلال المعارك ، يتصور أعين زوجته خمينا وبناته ، متطلعات إليه ، إلى غير ذلك من الصور والنعوت[١] .

---

(١) راجع كتاب الأستاذ پيدال ، R. M. Pidal : ibid; p. 8

بيد أننا إذا جردنا السيد من إغراق الأسطورة، ومن أضواء الملاحم والأغانى، وإذا أردنا أن نحكم على شخصيته من حوادث حياته ، فإن الرأى المنزه المجرد من المؤثرات القومية والدينية ، يحملنا فى الحال على الحكم عليه ، وعلى خلاله بأقسى النعوت الأخلاقية والأدبية . لقد كان السيد جنديا عظيما ، وقائداً بارعاً ، ما فى ذلك من ريب، ولقد أشادت الرواية الإسلامية المعاصرة ذاتها بخلاله كفارس وقائد مظفر ، فيقول لنا ابن بسام مثلا فى وصفه ما يأتى : « وكان هذا البائقة وقته ، فى درب شهامته ، واجتماع حزامته ، وتناهى صرامته ، آية من آيات ربه ... وكان — لعنه الله — منصور العلم ، مظفراً على طرائق العجم ، لقى زعماءهم ، ففل حد جنودهم ، وقتل بعدده اليسير ، كثير عديدهم ، وكانت تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب ، وطفق يعجب منها ويعجب » . ويزيد ابن بسام على ذلك أنه بلغه أن السيد كان يقول ، وقد طما طمعه ولح به جشعه : « على لذريق فتحت الأندلس ، ولذريق يستنقذها »[1] . ولكن من الحق أيضاً أن نذكر أن السيد ، كان إلى جانب هذه الجرأة ، والبراعة العسكرية والمغامرات المظفرة ، يتصف بكثير من الرذائل والصفات الذميمة التى تأباها خلال الفروسة ، فهو حسبما رأينا من وقائع حياته التى استقيناها من أوثق المصادر ، ولاسيما من أعظم مؤرخيه المعاصرين الأستاذ مننديث پيدال ، يبدو مغامراً لا مبدأ له ولاذمام ، يسعى إلى الكسب أينما كان، وهو يبدأ حياته فى خدمة الملوك المسلمين أعداء أمته ودينه ثم يخرج عليهم ، ويتنكر لهم ، وهو يقطع مختلف العهود ، ثم ينقضها ، متى رآها عقبة فى سبيل أهوائه ، وهو يبيع العدو والصديق لكسب المال ، ويبدو فى معظم حملاته العسكرية ، قاطع طريق ، ورئيس عصابة ناهبة ، أكثر منه قائد جيش مجاهد منظم ، وهو جشع لاقتناء المال ، لايخبو له فى سبيل ذلك ظمأ ، وهو يناوىء مليكه وأمته ، ويخرج عليه غير مرة ، ويعيث فى أراضى بلاده، وينتهك حرماتها ، تحقيقاً لمآربه الشخصية ، وأغراضه المادية . وعلى العموم ، فهو يبدو مغامراً ، يجمع فى شخصه كل رذائل عصره ، وهو بذلك أبعد من أن يبدو بطلا قومياً مثالياً ، وأشد بعداً من أن يبدو قديساً خارقاً .

---

(١) الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط لوحة ١٩ أ و ب .

والتفكير الغربي نفسه يختلف فى تقدير السيد ومنزلته من البطولة، فالعلامة المستشرق دوزى مثلا يخصص لحوادث حياته كتابا[١] ، وينتهى فيه إلى أن السيد ليس إلا جندياً مغامراً يبحث وراء طالعه ، ويجمع فى شخصه من رذائل عصره أكثر مما يجمع من فضائله. ويجاريه فى هذا الرأى العلامة الفرنسى رينان ، ويقول « إنه لم يفقد بطل بخروجه من حيز الأسطورة إلى حيز التاريخ قدرما فقد السيد » . ولكن العلامة منندیث پیدال ، مؤرخ السيد ، يخالف كل هذه الآراء ، ويبالغ فى تقدير السيد ، ويخصص لتقدير بطولته شذوراً طويلة ، ويقول « إن الشعر والتاريخ يتفقان فى شأنه ، وأنه بالعكس لايوجد بطل ملاحم أكثر لمعاناً فى ظل التاريخ »[٢] .

ويخصص ابن بسام ، وهو معاصر لمعظم الأحداث التى خاضها السيد ، لشخصية السيد وأعماله ، شذوراً كثيرة . بيد أنه قد كتبت عن السيد ، وعن مأساة بلنسية بالأخص وثيقة عربية مؤثرة ، كتبها مؤرخ بلنسى ، وشاهد عيان للحوادث، هو أبو عبد الله محمد بن خلف الصدفى المعروف بابن علقمة. وقد ولد ابن علقمة ببلنسية فى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧م)، وتوفى بها سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م) وكان أديباً شاعراً . وقد هزته الحوادث والخطوب المفجعة التى مرت بوطنه بلنسية ، والتى شهدها عن كثب ، فألف تاريخاً لحوادث عصره ، ولاسيما تغلب السيد على بلنسية ، وما اقترن به من المآسى ، أوكما يقول ابن الأبار ، إنه « ألف تاريخاً فى تغلب الروم على بلنسية، سماه « البيان الواضح فى الملم الفادح » ، وذلك قبل سنة ٥٠٠ هـ[٣] . وقد نوه بتاريخ بلنسية هذا ، الذى ضاع ولم يصلنا ، فضلا عن ابن الأبار ، وهو بلنسى أيضاً ، كثير من المؤرخين اللاحقين ، ومنهم صاحب رواية الطوائف الواردة بذيل البيان المغرب ، حيث يقول : « وقد

---

(١) كتاب دوزى المشار إليه «هو » : Le Cid d'aprés de nouveaux documents (Leyde 1860)
وقد نشر بتمامة فى الطبعة الثالثة من كتاب دوزى : Recherches; V. II. p. 1—233

(٢) R. M. Pidal : La Espana del Cid; V. II. p 593 - 604

(٣) راجع « التكملة » لابن الأبار ج ١ رقم ٥١٤ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥و٣٠٦ ، وابن الخطيب فى «الإحاطة» (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٩١ . وراجع أيضاً : Pons Boigues Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo-Espanoles ; (Madrid 1898) p. 175

ألف ابن علقمة كتاباً فى أمرها وحصارها(أى بلنسية) يبكى القارئ ويذهل العاقل » ، ثم ينقل عنه قصة القاضى ابن جحاف[١] . وكذلك ابن الخطيب فإنه يذكره فى مقدمة « الإحاطة » ضمن تواريخ المدن الخاصة[٢] . هذا وقد أثبت البحث الحديث أن التواريخ القشتالية المعاصرة واللاحقة، قد نقلت كثيراً مما ورد فى تاريخ ابن علقمة ، ولاسيما تاريخ ألفونسو العالم Crònica General عن السيد وعن حوادث بلنسية[٣] .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

(٢) كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٩١ .

(٣) يراجع فى تاريخ السيد وحوادث بلنسية : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٣ و ٢٠٤ . والذخيرة ، القسم الثالث المخطوط، اللوحات ١٩أ إلى ٢٦ب . وكذلك : دوزى فى كتابه المشار إليه : "Le Cid" و Recherches sur l'Histoire et Littéiature d'Espagne au moyen Age. (V. II. App. I-XVIII) وكتاب الأستاذ بيدال السابق ذكره ، وهو مؤلف ضخم فى نحو ألف صفحة .

وأخيراً يراجع كتاب A. P. Ibara. : Valencia Arabe; Vol. I. p. 227-332

الفصل الثالث

إمارة شنتمرية الشرق

بنو رزين . نزولهم بأرض السهلة . كبيرهم هذيل بن عبد الملك.قيامه بشنتمرية وتلقبه بالحاجب عز الدولة . الخصومة بين هذيل ومنذر التجيبي . هذيل واتباعه لسياسة الحياد . صفاته وبذخه . جواريه وجلساته الفنية.وفاته وقيام ولده أبي عبد الملك مروان مكانه . تلقبه بالحاجب جبرالدولة.حكمه الطويل وصموده للحوادث . صفاته بين الذم والمديح . تأديته الجزية لألفونسو السادس . نكوله عقب موقعة الزلاقة . السيد يغير على أراضيه ويعيث فيها . اتفاقه مع السيد وعوده إلى دفع الجزية . ابن لبون صاحب مربيطر يلتجىء إلى حماية عبد الملك ويسلمه حصنه . شروط هذا التسليم ونكث عبد الملك بعهوده . مشاريع عبد الملك نحو بلنسية . إغارة السيد على أراضيه . خضوعه وعوده إلى دفع الجزية . صهره يحاول اغتياله . نجاته ثم وفاته . عبد الملك والشعر . يحيى بن عبد الملك الملقب بحسام الدولة . مصانعته لملك قشتالة وهديته إليه . استيلاء المرابطين على بلنسية . زحفهم نحو الثغر الأعلى . استيلاؤهم على شنتمرية الشرق وخلعهم لأميرها يحيى . انتهاء دولة بنى رزين .

كانت هذه الإمارة الصغيرة — إمارة شنتمرية أوشنتمرية ابن رزين(١) — تقع فى بسيط سهل خصيب من الأرض ، يقع فى جنوبى الثغر الأعلى ، وفى شمال شرقى الثغر الأوسط ، عند منابع نهر خالون فرع إبرة ، وتحدها من الشرق سلسلة من الجبال تسمى بنفس الاسم، أى جبال بنى رزين، وقد عرف بنو رَزين هؤلاء أصحاب شنتمرية الشرق ، باسم جدهم الأعلى رزين البرنسى ، أحد أكابر رجال البربر الداخلين إلى الأندلس فى جيش طارق بن زياد ، وهو ينتمى إلى هوارة إحدى بطون قبيلة البرانس البربرية الكبرى ، وكان منزل بنى رزين بقرطبة ، ولجدهم رزين بها آثار كثيرة(٢) ، ثم نزحوا إلى الثغر ، ونزلوا بأراضى السهلة ، وهى التى تتوسطها شنتمرية ، واستقروا هنالك سادة وحكاماً .

ولما انتثر عقد الأندلس الكبرى إبان اضطرام الفتنة ، تطلع كبيرهم يومئذ أبو محمد هذيل بن عبد الملك بن خلف بن لب بن رَزين المعروف بابن الأصلع

(١) سميت شنتمرية الشرق تمييزاً لها من شنتمرية الغرب ، وهى الواقعة فى جنوب غربى ولاية الغرب الأندلسية على المحيط الأطلنطى ، وتشغل مكانها اليوم مدينة فارو البرتغالية ، وتعرف شنتمرية الشرق الإسبانية بمدينة Albarracin وهو تحريف لاسم بنى رزين أمرائها أيام الطوائف .

(٢) تاريخ ابن حيان — مخطوط مكتبة القرويين — لوحة ٢٤٥ ب .

إلى الاستقلال بما فى يده من الأراضى ، أسوة بما فعله جاره اسماعيل بن ذى النون ، فأعلن استقلاله عن حكومة قرطبة ، واستبد بحكم شنتمرية وأعمالها ، وذلك فى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، وتلقب بالحاجب عز الدولة . واعترف فى نفس الوقت بطاعة الخليفة سليمان المستعين الاسمية ، وقنع منه سليمان بذلك ، وأقره على ما بيده من الأعمال ، وحاول الحاجب منذر بن يحيى التجيبى صاحب الثغر الأعلى ، أن يخضعه لصولته ، أسوة بما تم له نحو بعض أصاغر أمراء الثغر ، فأبى هذيل ووقف فى سبيل أطماعه . واضطرمت بينهما الخصومة ، وامتنع هذيل بعاصمته المنيعة ، وتحالف مع الموالى العامريين أعداء منذر ، واعترف معهم بدعوة هشام المخلوع ، وقطع دعوة سليمان ، واستطاع بيقظته ، وموقع بلده البعيد عن متناول العدوان ، أن يجتنب عوامل الشر ، وأن يسير فى حكم إمارته آمنا مطمئناً .

وكان له فى خصب أراضيه ، وانتظام عمارتها ، موارد طيبة للجباية ، فكثرت أمواله ، وغدا ينافس فى ذلك جاره إسماعيل بن ذى النون ، وكان مثله فى طغيانه وصرامته ، وشدة بخله ، وكان يتبع سياسة الحيدة المطلقة ، ولا يتدخل فى أى نزاع أو حلف ، مما ينساق إليه زملاؤه أمراء الطوائف ، وقد استطاع بهذه الوسيلة أن يحافظ على سلام مملكته ، واستطاع بالأخص أن ينجو من ضغط قشتالة ومطالبها فى اقتضاء الجزية .

وكما أن الرواية تشيد بطغيان هذيل ، وجبروته ، وجهله وفظاظته ، حتى زعموا أنه قتل والدته بيده ، فهى كذلك تقدمه إلينا فى صورة أخرى أكثر بهجة وإشراقاً ، فتقول لنا إنه كان فتى بارع الجمال ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، ظاهر المروءة ، لم ير فى الأمراء أبهى منه منظراً ، ثم تشيد بطلاقة لسانه ، وحسن توصله بالكلام إلى حاجته دون معرفة . وقد اشتهر هذيل بالأخص بحياته المترفة الناعمة ، ورفيع ذوقه فى الفنون ، وشغفه باقتناء أجمل وأروع الجوارى والقينات فى عصره ، حتى لقد ذكروا أنه اشترى جارية الطبيب أبى عبد الله الكنانى بعد أن أحجمت عنها الملوك لغلاء ثمنها ، ودفع فيها ثلاثة آلاف دينار ، وكانت وحيدة عصرها . وقد وصف لنا ابن حيان فى تاريخه تلك القينة الشهيرة فقال : « لم ير فى زمانها ، أخف منها روحاً ، ولا أسرع حركة ؛ ولا ألين عطافاً ،

ولا أطيب صوتاً ، ولا أحسن غناء ، ولا أجود كتابة ، ولا أبدع أدباً ، ولا أحضر شاهداً ، مع السلامة من اللحن فى كتبها وغنائها ، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض ، إلى المعرفة بالطب وعلم الطبائع والتشريح وغير ذلك، مما يقصر عنه علماء الزمان ، وكانت محسنة فى صناعة الثقاف ، والمجادلة بالتراس ، واللعب بالرماح والسيوف أو الخناجر المرهفة ، لم يسمع لها فى ذلك بنظير »(١) ، وكان هذيل يقتنى أروع مجموعة فى عصره من الجوارى والقينات البارعات فى الحسن ، وفى الغناء والموسيقى ، وكانت « ستارته » أعنى جلساته الفنية أشهر ستائر ملوك الأندلس . وقيل عنه اجتمعت لديه منهن مائة وخمسون، وكان لديه من الوصفاء الصقالبة ستون وصيفاً ، لم تجتمع عند أحد من نظائره . وكان إلى جانب ذلك ، وافر الجود والكرم ، فسيح الجناب للقصاد ، وعلى الجملة فقد كان هذيل من أحب أمراء عصره إلى شعبه ، وقد استمر فى حكم إمارته الصغيرة ثلاثة وثلاثين عاماً ، مرت كلها فى أمن وسلام ورخاء ، وتوفى بالسهلة فى سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٥ م)(٢) .

فخلفه فى الإمارة ولده أبو مروان عبدالملك بن هذيل بن رزّين ، وكان فى حياة أبيه يسمى حسام الدولة ، وتلقب عند ولايته بذى الرياستين الحاجب جبر الدولة . وقد حكم أبومروان مملكة شنتمرية الشرق زهاء ستين عاماً ، وشهد طائفة كبيرة من الأحداث تجتاح هذه المنطقة ، ولاسيا فى الثغر الأعلى وفى مملكة بلنسية ، وشاء حسن الطالع أن يصمد للأحداث ، وأن يبقى فى رياسته ، بل أن يوسع نطاقها . وقد اختلف الرأى فى تصوير أبى مروان وخلاله ، فنرى معاصره ابن حيان ، يحمل عليه بشدة ، وفى عبارات لاذعة ، ويقول لنا إنه « كان سيئة الدهر ، وعار العصر ، جاهلا لامتجاهلا ، وخاملا لامتخاملا ، قليل النباهة ، شديد الإعجاب بنفسه ، بعيد الذهبة بأمره ، زاريا على أهل عصره ، إن ذكرت الحيل فزيدها ، أوالدهاة فسعدها وسعيدها ، أو الشعراء

---

(١) الذخيرة ، القسم الثالث، المخطوط لوحة ٢١ أ و ب و ٢٢ أ و ب . ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ١٨١ — ١٨٤ .

(٢) راجع فى أخبار هذيل بن رزين : الحلة السيراء (دوزى) ص١٧٩—١٨٢، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨١ — ١٨٣ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٥ و ٢٠٦ . وكلها مشتقة من أقوال ابن حيان على اختلاف فى النقل والتلخيص .

فجريرها وأسيدها ، أو الأمراء فزيادها ويزيدها ، أو الكتاب فيه فبديع همذان ، أو الخطابة فقس سحبان ، أو النقد فقدامة العلم ، أو العلم فليس منه ولا كرامة ، خلى من المعارف ، وشعره أهتف من كل هاتف»(١) . هذا بينما يقدم لنا عنه ابن الأبار صورة أفضل ، مما سمعه من الرواة ، فيقول لنا « إن أبا مروان هذا كانت له نجدة وصرامة وإقدام ، قرب جنده من نفسه ، وتحبب إليهم ، واختلط بهم ، حتى كان لايمتاز عنهم فى مركب ولاملبس ، ووقائعه فى الثغر مشهورة »(٢) .

ويغرق الفتح بن خاقان كعادته فى مدحه ومديح دولته ، ويقول لنا إنه كان منتهى فخار قومه ، وقطب مدارهم ، وإنه رجل « اتخذته البسالة قلباً ، وضمت عليه شغافاً وخلباً ، لايعرف جبناً ولا خوراً ، ولايتلو غير سور الندى سوراً . وكانت دولته موقف البيان ، ومقذف الأعيان ، ترتضع فيه المكارم أخلاف ، وتدار بها للأمانى سلاف » . إلى غير ذلك من العبارات الرنانة(٣) . ويشاطره ابن بسام بعض هذا المديح فيقول لنا إن أبا مروان « كان له طبع يدعوه فيجيب ، ويرمى بغرة الصواب عن قوسه فيصيب ، على ازدراء كان منه بالأمة ، وقلة إستجداء لمن عنى بالأخذ عنه من الأئمة » . ويزيد ابن بسام على ذلك أنه كان شاعراً مجيداً(٤) .

ولم نعثر فى مختلف المصادر ، على كثير من التفاصيل ، المتعلقة بأخبار عبد الملك بن هذيل وأعماله ، خلال حكمه الطويل ، وكل ما وقفنا عليه من ذلك يتلخص فى أنه استمر فى حكم مملكته ، بعيداً عن الأحداث والعواصف التى هزت ممالك الطوائف الأخرى . بيد أنه اضطر عقب سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس فى سنة ٤٧٨ هـ ، أن يؤدى له الجزية أسوة بسائر ممالك الطوائف فلما وقعت الهزيمة الساحقة على ألفونسو فى الزلاّقة ، فى العام التالى ، وهيض جناحه نوعاً ، نكل عبد الملك عن دفع الجزية . وفى تلك الأثناء كانت أعمال السيد إلكمبيادور ومغامراته فى منطقة بلنسية ، تزعج سائر الإمارات الإسلامية

---

(١) نقله ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٩ .
(٢) الحلة السيراء ص ١٨٥ .
(٣) قلائد العقيان ص ٥١ .
(٤) الذخيرة ، ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ .

المجاورة . ونحن نعرف أن السيد سار إلى قشتالة ليسوى شئونه مع الملك ألفونسو السادس ، وليحصل منه على حق فتح بلنسية ، وأنه خرج من قشتالة فى ربيع سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) ، عائداً إلى شرق الأندلس ، ومعه سبعة آلاف مقاتل واخترق فى طريقه أراضى السهلة (شنتمرية) ، وعسكر فى « كالاموشا » فى شمالها الشرقى ، ولبث حيناً فى تلك الوديان النضرة ، يجمع محاصيلها ، وأقواتها . ولما شعر أبو مروان بما يهدد مملكته من الخراب والإمحال ، قصد بنفسه إلى معسكر السيد ، واتفق معه على أن يتركه فى سلام ، على أن يؤدى الجزية للملك ألفونسو كما كان الشأن قبل موقعة الزلاّقة ، وأن يدفع فى الحال إلى السيد بصفته نائباً عن الملك مبلغ عشرة آلاف دينار . وعندئذ رفع السيد معسكره ، وغادر أراضى السهة إلى بلنسية[١] .

ولما اشتدت وطأة السيد على بلنسية والأنحاء المجاورة لها ، شعر القائد أبو عيسى بن لبّون صاحب مربيطر (ساجنتو) ، أنه لايستطيع الصمود لهذا الإرهاق ، وأنف من مفاوضة السيد ، وآثر أن ينتمى إلى حماية أبى مروان عبد الملك ، وأن يسلمه حصنه ، فقبل عبد الملك هذا العرض ، وتعهد لابن لبون ، بحمايته ورعايته وأن يجرى عليه رزقاً كافياً ، وتسلم منه حصن مربيطر فى نوفمبر سنة ١٠٩٢ م (أواخر ٤٨٦ هـ) ، ثم سار إلى السيد ، وفاوضه فى عقد المودة والإبقاء على الحصن ، على أن تكون سائر الحصون الواقعة فى أراضيه مفتوحة للبيع والشراء ، وأن تقدم إلى جنود السيد ما يحتاجونه من المؤن . وسار ابن لبون بعد ذلك فى أهله وأمواله صحبة عبد الملك إلى عاصمته ونزل فى كنفه . بيد أنه لم يمض سوى قليل حتى تنكر له عبد الملك ، وأخذ فى مضايقته والتقتير عليه ، وقاسى ابن لبون من ذلك حتى كره البقاء ، ومما نظمه يومئذ فى محنته :

نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها ... إليك عنى فما فى الحق أغتبن
من كسر بيتى لى روض ومن كتبى ... جليس صدق على الأسرار مؤتمن
أدرى به ماجرى فى الدهر من خبر ... فعنده الحق مسطور ومختزن
وما مصابى سوى موتى ويدفننى ... قوم وما لهم علم بمن دفنوا

ولما استولى عبد الملك على مربيطر ، ورأى اضطراب الأحوال فى بلنسية ،

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 357—359

ثابت له فكرة فى محاولة الاستيلاء عليها ، فنكل عن أداء الجزية المتفق عليها إلى السيد ، وفاوض بيدرو (بطره) ملك أراجون فى معاونته على تحقيق مشروعه ، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال ، فلما وقف السيد على هذه التطورات انقض بقواته على أرض السهلة ، وعاث فيها ، وانتسف الزروع واستاق الماشية ، وسبى جموعاً كبيرة ، وبعث الجميع إلى « جُبالة » على مقربة من بلنسية حيث كان معسكره الرئيسى ، وعندئذ اضطر عبد الملك مرة أخرى إلى الخضوع اجتناباً لهذا السيل المدمر ، وصوناً لأراضيه ورعيته (١٠٩٣ م — ٤٨٦ هـ)(١) .

وفى أواخر حكمه ، وقد شاخ يومئذ ، وقع عليه حادث اغتيال كاد يودى بحياته . وذلك أن صهره ، زوج أخته ، عبيد الله حاكم إذكون الواقعة شمال شرقى العاصمة ، كان يضمر له الشر ، ويود إزالته ليحكم مكانه ، فدعاه ذات يوم إلى حفل عقده بحصنه ، فحضر ومعه جماعة منهم ابن لبون ، فلما تمكن الشراب من عبد الملك ، وثب به عبيد الله وصحبه فطعنوه بسيوفهم ، واتفق أن كانت أخته حاضرة ، وهى زوج عبيد الله القاتل ، فصعدت إلى شرفة عالية ، وصاحت واقتيلاه ، فهرع الناس إلى مكان الجريمة ، وألفوا عبد الملك وقد أثخن جراحاً ، وبه رمق ، فأرادوا الفتك بقاتله ، فأمرهم بالقبض فقط على عبيد الله وابنه ، ثم برىء عبد الملك من جراحه ، وخرج دميا مشوها ، فأمر بصهره فقطعت يداه ورجلاه ، وسملت عيناه ، ثم صلب ، وقطعت رجل ابنه . وتوفى عبد الملك بعد ذلك بقليل فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) بعد أن حكم نحو ستين عاماً(٢) .

وكان عبد الملك بن رزين ينظم الشعر ، وكان حسبما يصفه ابن بسام شاعراً مجيداً ، وهو وصف يأباه عليه ابن حيان ، إذ يصف شعره بأنه « أهتف من كل هاتف » . ويقول لنا ابن الأبار « إن ضعيف منظومه أكثر من قويه » . وكان على الرغم من أدبه وشعره ، متعسفاً مع الشعراء مقصراً فى إجازتهم . ومن نظمه فى الفخر وهو ما يصفه ابن حيان بالسخف :

أنا ملك تجمع فىّ خمس ... هى للأنام محيٍ مميت
هى ذهن وحكمة ومضاء ... وكلام فى وقته وسكوت

---

(١) R. M. Pidl; ibid; p. 453—455

(٢) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٥ و ١٨٦ . والقاهرة ج ٢ ص ١١٤ و ١١٥ .

وقوله :

يارب ليل أطال الهجر مدته ... فأيأس القلب عن إدراك منتصفه
ليل تطاول حتى قد تبين لى ... عند التأمل أن الدهر من سدفه

وقوله فى الغزل :

أترى الزمان يسرنا بتلاقى ... ويضم مشتاقاً إلى مشـتاق
وتعض تفاح الخدود شفاهنا ... ونرى منى الإحداق بالأحداق
وتعود أنفسنا إلى أجسامها ... فلطالما شردت على الآفاق[١]

وخلف عبد الملك بن رزين ولده يحيى الملقب بحسام الدولة ، وكان أميراً عاجزاً ضعيف العقل ، مدمنا للشراب ، وكان يسعى إلى مصانعة ملك قشتالة ألفونسو السادس ، والتماس مودته ، واجتناب سطوته ، فبعث إليه بهدية حافلة من الحلى والخيل والبغال ، ومختلف التحف النادرة ، فكافأه عنها ألفونسو بأن بعث إليه قرداً هدية منه إليه . فكان يحيى لسخفه وسقم عقله ، يفخر باقتناء هذا القرد ، ويفخر بأن هاداه ملك قشتالة[٢] . والواقع أن مُلك بنى رزين كان يدنو عندئذ من نهايته بسرعة . ذلك أن المرابطين كانوا قد اجتاحوا يومئذ شرق الأندلس كله ، وتوجوا سلطانهم فى تلك المنطقة بالاستيلاء على بلنسية فى شعبان سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م) ، وأخذوا يضعون خططهم للاستيلاء على قواعد الثغر الأعلى . وكان عبد الملك بن رزين ، قد أعلن قبيل وفاته طاعته لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[٣] ، ولكن هذا الاعتراف لم يكن كافيا لتحقيق خطة المرابطين فى القضاء على سائر دول الطوائف . ومن ثم فقد تابع المرابطون زحفهم نحو الشمال ، وفى اليوم الثامن من رجب سنة ٤٩٧هـ (إبريل ١١٠٤ م) دخل المرابطون مدينة شنتمرية ، وخلعوا أميرها يحيى بن عبدالملك بن رزين ، وانتهت بذلك دولة بنى رزين الصغيرة بعد أن عاشت زهاء تسعين عاماً ، ولم يبق من بعدها من دول الطوائف العديدة سوى مملكة سرقسطة ، وقد كانت هى الأخرى تدنو سراعاً من الخاتمة المحتومة .

---

(١) راجع الذخيرة – القسم الثالث – المخطوط لوحة ٢١ أ و ب ، والحلة السيراء ص ١٨٢ و ١٨٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ و ٣٠٩ و ٣١٠ ، وقلائد العقيان ص ٥٣ – ٥٦ ، وقد وردبها الكثيرمن شعر ابن رزين .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١١ . وينسب دوزى هذه الواقعة إلى عبدالملك بن هذيل ، ويقول لنا إنه حمل هديته بنفسه إلى ألفونسو وهو مشرف على أخذ طليطلة : Hist. V. III. p. 121

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٢ . والقاهرة ج ٢ ص ١١٠ .

الفصل الرابع

إمارة ألبونت

ألبونت وموقعها . قيام عبد الله بن قاسم بها . انضواؤه تحت لواء الخلافة الأموية . إيواؤه المرتضى وأخيه المعتد بالله قبل توليهما الخلافة . وفاة عبد الله وقيام ولده محمد مكانه . تلقبه بيمن الدولة . ولده أحمد بن محمد الملقب بعز الدولة . وفاته وولاية ولده الطفل . خلع الأمير الطفل وولاية عمه عبد الله بن محمد . حكمه الطويل . زحف السيد على ألبونت . خضوع عبد الله واعترافه بطاعة ملك قشتالة وأداؤه الجزية . استيلاء المرابطين على ألبونت. عبد الله بن محمد ومواهبه الأدبية والشعرية .

على مقربة من شنتمرية الشرق ، وإلى الجنوب الشرقى منها، كانت تقع إمارة صغيرة أخرى من إمارات الطوائف ، هى إمارة ألبونت أو ألبنت . وتقع مدينة ألبونت[1] هذه ، فى وسط الطريق بين قسطلونة وقونقة ، على مقربة من نهر طورية فى حمى الجبال . وقد قام بها منذ بداية الفتنة عبد الله بن قاسم الفهرى ، وهو من زعماء البيوت العربية فى تلك المنطقة ، فحكمها واستقل بها وبما حولها من الأراضى . وقد كان بنو قاسم هؤلاء من نسل عبد الملك بن قطن الفهرى ، الذى ولى إمارة الأندلس عقب موقعة بلاط الشهداء ، ومقتل أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقى ، وذلك فى أواخر سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م)[2] . ولم يشترك عبد الله فى شىء من الحوادث ، التى كانت تجرى يومئذ ، فى شرقى الأندلس أو جنوبه ، نظراً لبعد إمارته عن مسرح الحوادث . بيد أنه كان من أنصار الخلافة الأموية ، يعترف بطاعتها ويدعو لها ، مع طائفة الفتيان العامريين. وكانت بلدة ألبونت منزل عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر ، وأخيه هشام ، يعيشان فى كنفه ، وتحت رعايته ، ومن ألبونت خرج عبد الرحمن حينما رشحه خيران وزملاؤه الفتيان العامريون للخلافة ، باسم المرتضى . ولما قتل المرتضى فى المعركة التى نشبت بين أنصاره ، وبين البربر أمام غرناطة ، فى سنة ٤٠٩ هـ ، لجأ أخوه هشام إلى حماية عبد الله بن قاسم ، ولبث فى ألبونت

---

(١) وهى بالإسبانية Alpuente

(٢) المقرى نقلا عن الحجارى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ .

حتى اختاره أهل قرطبة للخلافة ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وعندئذ تلقب بالمعتد بالله ، ولبث مقيما فى ألبونت مدة عامين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له فى قرطبة . ثم سار بعدئذ إلى قرطبة ، ودخلها فى ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ ، حيث جددت له البيعة ، واستمر فى كرسى الخلافة عامين آخرين(١) .

واستمر عبد الله بن قاسم فى حكم إمارته الصغيرة ، حتى توفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) ، فخلفه ولده محمد بن عبد الله الملقب بيمن الدولة ، وحكم ألبونت زهاء اثنتى عشرة عاما . ولم تدون لنا الرواية أية حوادث وقعت فى عهده . ولما توفى فى سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) ، خلفه فى الحكم ولده أحمد بن محمد بن عبد الله الملقب بعز الدولة ، وحكم حتى وفاته فى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) ، فأقام بعض أصحابه للحكم مكانه ولده الطفل محمداً ، وكان فى نحو السابعة من عمره ، وقام بالوصاية عليه جده لأمه المدعو قاسم ، وهو الذى دبر ولاية الأمير الطفل . ولكن هذا العمل لم يرق فى نظر عبد الله بن محمد عم الأمير الطفل ، وأخى والده أحمد ، وكان يرى نفسه أحق بالولاية ، وتؤازره فى ذلك جماعة قوية من الأنصار ، فدبروا أمرهم ووثبوا بالوصى قاسم واعتقلوه ، وصرف الأمير الصبى إلى حجر أمه ، ولما يمض على حكمه بضعة أشهر ، وتسلم عبد الله مقاليد الحكم وتلقب بجناح الدولة ، أو نظام الدولة وفقاً لرواية أخرى ، وتزوج من والدة الصبى أرملة أخيه اتقاء لأطماعها ودسائسها ، وسار فى حكم الإمارة دون منازع .

واستمر عبد الله بن محمد فى حكم إمارة البونت أكثر من أربعين عاماً ، ولم تقع فى عهده الطويل حوادث ذات شأن ، إلا حينما غدت هذه المنطقة كلها فريسة لعدوان السيد إلكمبيادور ومغامراته ، حسبما فصلنا ذلك من قبل فى تاريخ مملكة بلنسية . ففى سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) زحف السيد بقواته على إمارة ألبونت وعاث فيها وخرب أراضيها ، واضطر صاحبها عبد الله بن محمد إلى الاعتراف بطاعة ملك قشتالة ، وإلى أن يؤدى جزية قدرها عشرة آلاف دينار ، وذلك أسوة بما فرض على جاره أبى مروان بن زرين صاحب شنتمرية الشرق . ولما استولى المرابطون على بلنسية فى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، استولوا

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ و ١٤٥ .

بسرعة على معظم القواعد والحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ومنها ألبونت . وفى رواية أخرى أن آل قاسم أصحاب ألبونت استمروا فى حكمها حتى سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م)[١] . ولكن الرواية الأولى أرجح فيما يبدو ، لأن المرابطين استولوا على شنتمرية الشرق فى سنة ٤٩٧ هـ ، وأغلب الظن أنهم استولوا قبل ذلك على ألبونت الواقعة فى جنوبها ، وذلك فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م)[٢] .

وكان الأمير عبد الله بن محمد قاسم أديباً شاعراً جيد النثر والنظم ، وقد أورد له الحجارى صاحب « المسهب » هذه الأبيات :

خلعت عن الملك لكننى ... عن الصبر والمجد لا أخلع
رمانى الزمـــان بأرزائه ... وغيرى من خطبه يجزع
فليس فؤادى بالملتظى ... ولا مقلتى حسرة تدمع
ولى أمل ليتـــه لم يكن ... فكم ذا يغر وكم يخـــدع

ومن قوله من قصيدة :

أما لكل نبيه فى العلا حيل ... تفضى الحقوق بها والمرء منقبض
كن كيف شئت فمن دأبى محافظة ... على الذمام وعهد ليس ينتقض
وهمة لم تضق ذرعاً بحادثة ... إن الكريم على العلات ينتهض
والحر حر وصنع الله منتظر ... والذكر يبقى وعمر المرء ينقرض[٣]

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٥ .

(٢) راجع فى أخبار إمارة ألبونت : البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ و ١٤٥ و ٢١٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٠٨ . وكذلك : R. M. Pidal; ibid. p.360 & 448

(٣) راجع فى رسائل عبد الله وقصائده : قلائد العقيان ص ١٢٧ — ١٣٢ ؛ والمغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٣٩٦ — ٣٩٨ .

الكتاب الخامس

دول الطوائف في الثغر الأعلى

الفصل الأول

مملكة سرقسطة

حتى نهاية عصر المقتدر بن هود

١ – عهد بنى تجيب

مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى . بنو تجيب وتغلبهم عليه . مؤامرة عبد الرحمن التجيبى ضد المنصور وفشلها . ولده يحيى . المنذر بن يحيى وإمارته الثغر . تأييده الخلافة الأموية . محاربته مع الفتيان العامريين . تدخله فى حوادث بلنسية . مسالمته الملوك النصارى . بذخه وأبهته . مديح ابن دراج له . ولده يحيى . منذر بن يحيى الحاجب . مصرعه على يد سليمان بن حكيم . الفتنة فى سرقسطة . سليمان بن هود . استيلاؤه على سرقسطة وبداية عهد بنى هود. تلقبه بالمستعين. حروبه مع المأمون بن ذى النون. استغاثته بملك قشتالة . استعانة المأمون بملك نافار . تفاقم العدوان بين الفريقين . وفاة المستعين . تقسيمه لمملكته بين أولاده . الحرب الأهلية بينهم . أحمد بن هود المقتدر . الصراع بينه وبين أخيه المظفر . كينه لقوات أخيه وفتكه بها . إستيلاء المقتدر على طرطوشة . طرطوشة تحت حكم الفتيان العامريين. غزوة النورمانيين لبربشتر . أصل هذه الحملة وظروفها. صفتها الصليبية. حصار النورمانيين لبربشتر واقتحامهم لها . فظائع النورمانيين وفتكهم بأهلها. رواية ابن حيان. فداحة الغنائم والسبايا . تأملات ابن حيان عن الحادث . نظراته وتكهناته البعيدة . صدى النكبة فى الأندلس . نهوض المقتدر لاسترداد بربشتر وتقاطر المجاهدين إليها . استيلاء المقتدر على المدينة . الفتك بالنصارى وإبادتهم . إعتداء فرناندو ملك قشتالة على أعمال سرقسطة . خضوع المقتدر لأداء الجزية . المقتدر وعلاقته بالملوك النصارى. استعانته بهم . مشاريعه العسكرية . المقتدر وأخوه يوسف المظفر . السيد إلكمبيادور فى خدمة المقتدر . استيلاء المقتدر على مملكة دانية . وفاة المقتدر . تقسيمه المملكة بين ولديه . صفات المقتدر بن هود وخلاله . شغفه بالعلوم الرياضية . فخامة بلاطه . إنشاؤه لقصر الجعفرية ومجلس الذهب .

كانت مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى أعظم ممالك الطوائف وأهمها ، ليس فقط بضخامة رقعتها ، ولكن كذلك بموقعها الدقيق الخطر ، بين الدول الإسبانية النصرانية ، بين قطلونية من الشرق ، ونافارا أو نبرّه من الشمال الغربى ، وقشتالة من الجنوب والغرب ، وكانت فى الوقت نفسه أقدم الدول الأندلسية المستقلة ، وأرسخها جذوراً فى الاستقلال . ذلك أنها كانت بموقعها المنعزل النائى فى شمال شرق الجزيرة ، وابتعادها بذلك عن مجموعة الدول الأندلسية

الأخرى ، تضطر دائماً إلى مضاعفة الجهود للذود عن حياتها ، والدفاع عن استقلالها ضد مختلف الأطماع المضطرمة من حولها .

وكانت مملكة سرقسطة ، قبل اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة ، وقبل أن تنتظم فى سلك ممالك الطوائف ، تعرف بولاية الثغر الأعلى ، وهو يشمل فى الجغرافية الأندلسية ، مدينة سرقسطة وأعمالها ، تطيلة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولاردة ، وأفراغة ، وطرّكونة ، وطرطوشة ، ويشغل المنطقة الواسعة الخصبة التى يخترقها نهر إيبرو (إبرُه) من مصبه عند مدينة طرطوشة، حتى مدخله عند مدينة قلهرّة فى ولاية نافار ، ويخترقها فرعه الشمالى الكبير نهر سجرى والأفرع الصغيرة الممتدة منه نحو بربشتر ووشقة، وفرعه الجنوبى خالون حتى قلعة أيوب ودَروقة : فى هذه المنطقة الشاسعة التى تكثر فيها الوديان اليانعة والمواقع الاستراتيجية ، كانت تقوم مملكة سرقسطة مكان ولاية الثغر الأعلى القديمة ، مشتملة على سائر نواحيها .

وقد لبثت ولاية الثغر الأعلى خلال القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) مسرحاً لمغامرات بنى قسىّ زعماء الثغر المولدين ، حسبما فصلنا ذلك فى مواضعه من العصر الأول(١) .

وفى أواخر هذا القرن ، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، استطاع بنو تجيب أصحاب دروقة وقلعة أيوب من أعمال الثغر الجنوبية ، الاستيلاء على مدينة سرقسطة ، وذلك على يد زعيمهم أبى يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبى المعروف بالأنقر . وأقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها اكتساباً لولائه ، وكان بنو تجيب هؤلاء من زعماء البيوتات العربية العريقة فى الثغر ، واستمر بنو تجيب فى سرقسطة ، والمنتزون من زعماء المولدين فى باقى قواعد الثغر مثل تطيلة ووشقة ، أحياناً على ولائهم لحكومة قرطبة ، وأحياناً يخرجون على طاعتها ، حتى استطاع الناصر أن يقضى على ثوراتهم ، وأن يرغمهم على الخضوع والطاعة ، بيد أنه عفا عن بنى تجيب ، ورد زعيمهم محمد ابن هشام التجيبى إلى منصبه حاكما لسرقسطة ، لما كان يتمتع به من مقدرة إدارية ، ولما كان لبنى تجيب فى الشمال من العصبة والأنصار.

---

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » (العصر الأول) .

وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، شعر بنو تجيب بما يهدد سيادتهم فى الثغر من اتجاه المنصور إلى القضاء على سلطان الأسر العربية ، وزعامتها المحلية ، فحاول زعيمهم يومئذ وهو عبد الرحمن بن مطرّف التجيبى ، صاحب سرقسطة أن يسعى إلى إزالة المنصور بالتآمر مع ولده عبد الله . وقد فصلنا أخبار هذه المؤامرة فيما تقدم من أخبار الدولة العامرية[1] ، وبينا كيف استطاع المنصور أن يقبض على عبد الرحمن التجيبى ، وعلى عبد الله ، ثم قضى بإعدامهما ، بيد أنه مع ذلك ندب لحكم سرقسطة ، يحيى بن عبد الرحمن التجيبى استبقاء لولاء الأسرة جرياً على سياسة أسلافه ، وذلك فى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩م) .

واستمر يحيى التجيبى فى حكم سرقسطة وأعمالها حتى وفاته فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م)، وشهد قبل وفاته اضطرام الفتنة ، وانهيار الخلافة ، وتمزق الأندلس، وكان جل عنايته فى تلك الآونة العصيبة أن يحافظ على بلاده من عدوان النصارى ، وأن يوطد سلطانه فى مملكته النائية المنعزلة عن مسرح الحوادث . ولما توفى ، خلفه ولده المنذر بن يحيى التجيبى .

ويمكننا أن نعتبر المنذر بن يحيى التجيبى أول أمير للثغر فى عهد الطوائف. فحكم سرقسطة وأعمالها ، وتسمى بالحاجب ذى الرياستين ، وتلقب من الألقاب السلطانية بالمنصور ، ولما تطورت الحوادث فى قرطبة ودخلها على بن حمود بحجة إنقاذ الخليفة هشام المؤيد ، ودعا لنفسه بالخلافة ، كان المنذر بن يحيى إلى جانب خيران وزملائه الفتيان العامريين فى معارضته ومقاومته . ولما رشح هؤلاء للخلافة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمرتضى ، وساروا معه هم وأنصارهم فى قواتهم لمقاتلة البربر ، وخلع على بن حمود ، سار معهم المنذر بن يحيى فى بعض قواته ، ومعه فرقة من المرتزقة النصارى بقيادة حليفه الكونت رامون أمير برشلونة ، وكان من ضباطه فى تلك الحملة رجل كان له فيما بعد أكبر شأن فى تطور الحوادث فى الثغر الأعلى هو سليمان بن هود . ونحن نعرف ما أسفرت عنه المعركة التى اضطرمت يومئذ فى ظاهر غرناطة بين القوات الأندلسية ، وجيش البربر بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى ، وكيف

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » (العصر الأول) .

انتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل مرشحهم الخليفة المرتضى (٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م)[١] .

وعاد المنذر وحلفاؤه النصارى إلى الشمال، وقد أيقن أنه يؤازر قضية خاسرة ، وكانت حوادث بلنسية تؤذن يومئذ بأن تفتح ميداناً جديداً لنشاط المنذر . ذلك أنه لما توفى أميرها الفتى مبارك فى أواخر سنة ٤٠٨ هـ ، وخلفه فى حكمها الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة بدعوة من أهلها ، ثم شاركه فى حكمها مجاهد العامرى صاحب دانية حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، عاد أهل بلنسية فسخطوا على لبيب ، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة الكونت رامون برنجير ، وإفساحه له مجال التدخل فى شئونها بصورة ظاهرة ، وثاروا عليه ، ففر لبيب إلى طرطوشة ، واستمر مجاهد فى حكم المدينة بالإضافة لحكم دانية . ولكن أهل بلنسية لم يقنعوا بذلك ، واستدعوا لحكم المدينة المنذر بن يحيى ، فسار فى بعض قواته صوب بلنسية ، واستعد مجاهد للقائه، ووقعت بينهما بعض معارك خشى الناس عواقبها ، ولم ينقذ ذلك الموقف إلا ما عمد إليه الفتيان العامريون من الاجتماع ، وعقد البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن المنصور ، وتعيينه أميراً لبلنسية ، وذلك فى سنة ٤١١هـ (١٠٢١م) وعندئذ انسحب مجاهد إلى دانية ، وعاد المنذر إلى سرقسطة[٢] .

واستمر المنذر فى حكم مملكة سرقسطة ثلاثة أعوام أخر حتى توفى فى سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) . وكانت تربط المنذر بجيرانه الأمراء النصارى، ولاسيما رامون بوريل أمير برشلونة علائق مودة وثيقة ، وكذلك كانت تربطه مثل هذه العلائق بسانشو الكبير (شانجه) ملك نافار وولده فرناندو الأول ملك قشتالة، وألفونسو الخامس ملك ليون . وقد بالغ المنذر فيما يبدو فى صداقته لأولئك الملوك النصارى ، حتى أنه نظم فى قصره بسرقسطة ، حفلا لعقد المصاهرة بين أميرين من أولئك الأمراء ، هما سانشو ملك نافار ورامون بوريل أمير برشلونة ، حضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين ، فسخط عليه الناس من أجل ذلك ، ورموه بألسنة حداد ، بيد أنه قد حقق بهذه السياسة لنفسه مسالمة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٦ و ١٢٧ . وراجع Dozy : Hist. V. II. p 315—318

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٣ و ١٦٤ .

أولئك الملوك النصارى ، وكف عاديتهم عن بلاده ، بل لقد استطاع أن يحملهم على اتباع سياسة الموادعة والسلم مع جيرانهم من الملوك المسلمين . ومن ثم فقد تمتعت سرقسطة فى عهده القصير بفترة من الدعة والرخاء، وغدت باتساع عمرانها وتقدم أحوالها، شبيهة بحضرة قرطبة الكبرى أيام الجماعة، وأدرك الناس بعد وفاته، بعد نظره وحسن تقديره للعواقب(١) .

وكان المنذر فوق ذلك يعشق الأبهة والبذخ ، فملأ قصره الفخم بالجوارى والغلمان والحشم ، ونفيس الذخائر والتحف ، وكان يتحف أصدقاءه ملوك النصارى بالهدايا الفاخرة ، ويؤكد بذلك مودتهم ورضاهم وكان بين وزرائه بعض أكابر كتاب العصر ، مثل أبى العباس بن مروس من تدمير ، وأبى عامر ابن أزرق ، وابن واجب وغيرهم .

وأنشأ شاعر العصر أبو عمر بن دراج القسطلى فى مديح المنذر حينما وفد عليه قصيدته المشهورة التى مطلعها :

بشراك من طول الترحل والسُّرى　　صبح بروح السَّفر لاح فأسفرا
من حاجب الشمس الذى حجب الدجى　　فجرا بأنهار الندى متفجرا

ومنهـــا :

فلئن تركت الليل فوقى داجياً　　فلقد لقيت الصبح بعدك أزهرا
وحللت أرضاً بُدلت حصباؤها　　ذهباً يرف لناظرىّ وجوهرا
ضربوا قِداحهم علىّ ففاز بى　　من كان بالقِدْح المعلّى أجدرا(٢)

ولما توفى المنذر ، خلفه ولده يحيى ، وتلقب بالمظفر ، وحكم سرقسطة وأعمالها بضعة أعوام أخرى ، وتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) . والظاهر أنه لم يحكم سياسة الصداقة التى كان يتبعها أبوه مع جيرانه أمراء برشلونة ، حيث أغار صاحبها الكونت رامون بوريل على بعض أطراف مملكته ، واضطر أن ينزل له عن بعض القلاع والحصون .

وخلفه فى الملك ولده المنذر بن يحيى ، وتلقب بالحاجب معز الدولة . ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال هذا الأمير فى المدة التى حكمها ، وهى نحو عشرة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٦ و ١٧٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وراجع دوزى Recherches, V. I. App. XIV & XVII

(٢) وهى قصيدة طويلة رائعة . وقد وردت فى ديوان ابن دراج الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٢٤ — ١٣٠ . وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة منها مقتطفات طويلة (الذخيرة — القسم الأول المجلد الأول — ص ٥٦ — ٥٨) .

أعوام . بيد أن لدينا تفاصيل مقتله ، وذهاب ملك بنى تجيب على يده . وكان ذلك فى غرة ذى الحجة سنة ٤٣٠ هـ (أغسطس ١٠٣٩ م) حينما نفذ إلى قصره فى ذلك اليوم رجل من بنى عمومته وقواده يدعى عبد الله بن حكيم ، جاء بزعم السلام عليه ، وكان يضمر له السوء منذ بعيد . وكان المنذر يجلس بين نفر قليل من خدمه الصقالبة ، وليس عليه إلا غلالة ، وهو يقرأ فى كتاب فى يده ، فانقض عليه وطعنه فى عنقه بسكين كان قد أعده ، فقطع أوداجه ، وفر الخدم فى الحال ولم يبق منهم إلا خادم واحد شهم حاول الدفاع عن سيده ، فصرعه عبد الله بخنجره ثم أجهز على منذر ، واحتز رأسه ، وأبرزها من شرفة فى القصر مرفوعة على عصا ، وهو يصيح هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشاماً ، يريد بذلك الدعى الذى نصبه القاضى ابن عباد فى إشبيلية ، وزعم أنه الخليفة هشاماً المؤيد ، وذلك فى سنة ٤٢٦هـ (١٠٣٥ م) ، واعترف بخلافته عدد من أمراء الطوائف ، ورفض يحيى التجيبى يومئذ الاعتراف به ، وتابعه فى ذلك ولده المنذر . ولما شهد الناس رأس منذر بهتوا وعقد الذعر ألسنتهم ، وأرسل القاتل فى الحال إلى القاضى والأعيان، فحضروا إلى القصر والقاتل جالس على فراش قتيله ، وجثة منذر مضرجة بدمائها ملقاة إلى جانبه ، فأعلن لهم أنه فعل ما فعل فى سبيل الإصلاح العام ، ودعا بالحكم لسليمان بن هود، وقيل بل دعا لنفسه واختاره بنو عمه للولاية فانصرف الناس ، وقد بيتوا القضاء عليه .

وفى تلك الأثناء كان نبأ مصرع المنذر بن يحيى التجيبى قد ذاع فى كل مكان ، وهرع خاله إسماعيل بن ذى النون صاحب طليطلة إلى سرقسطة لتدارك الأمر ، واشتد الهرج فى سرقسطة ، وكادت تعصف بها الفتنة ، وهجم الناس على القصر لانتزاع القاتل ومعاقبته ، فتحصن بالقصبة ، وصمم على الدفاع عن نفسه ، بيد أنه لما أيقن أنه سوف يقع فى أيدى مهاجميه لامحالة ، جمع ما استطاع من ذخائر القصر وتحفه ، وخرج هارباً من باب خلفى فى القصر ، ولحق بقلعة روطة أحد معاقل سرقسطة المنيعة ، وكان قد أعدها لذلك بمعاونة نفر من صحبه ، وحمل معه فى نفس الوقت أخوين للمنذر ، وبعض أعيان منهم وزيره أبو المغيرة بن حزم ، فى الأصفهاد ليكونوا رهائن لديه، واقتحم العامة قصر سرقسطة ونهبوه وخربوه، وعم الهرج والفوضى .

وفى تلك الآونة ظهر فى الميدان رجل ، كانت تدخره الأقدار ليقمع الفتنة ، وينتزع مقاليد الحكم . ذلك الرجل هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى ، وهو كبنى تجيب ينتمى إلى بيت عربى عريق ، وجدهم الأعلى هو هود وهو الداخل إلى الأندلس وينتسب إلى الأزد . وكان سليمان وقت وقوع الفتنة من كبار الجند بالثغر الأعلى ، فغلب على مدينة لاردة ، وقتل صاحبها يومئذ ، وهو أبو المطرِّف التجيبى ، ثم غلب على تُطيلة من أطراف الثغر ، وكان بها فى جمع من صحبه وقت مقتل المنذر التجيبى ، فلما وقف على ما حدث بسرقسطة ، هرع إليها فى صحبه ، وقيل بل كان وقت وقوع الحادث بمدينة لاردة ، وأن أهل سرقسطة هم الذين استدعوه للحضور . ويقدم لنا ابن خلدون رواية أخرى خلاصتها أن سليمان بن هود هو الذى ارتكب جريمة سرقسطة ، وأن الملك القتيل لم يكن هو المنذر معز الدولة ، وإنما كان أبوه يحيى المظفر ، وهو الذى كان يحكم يومئذ ، ويضع تاريخ هذا الحادث فى سنة ٤٣١ هـ(١) .

ولم يذكر ابن الخطيب واقعة القتل ، ويقول لنا إن أهل سرقسطة هم الذين ثاروا بيحيى بن المنذر بن يحيى ، وصرفوا طاعتها إلى سليمان بن هود(٢) . بيد أن هاتين الروايتين تنقضهما رواية ابن حيان المعاصرة ، وهى التى اتبعناها فيما تقدم ، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب(٣) .

وعلى أى حال فقد هرع سليمان بن هود فى صحبه إلى سرقسطة ، واستولى عليها فى غرة المحرم سنة ٤٣١هـ (٢٣سبتمبر سنة ١٠٣٩ م) وسواء أكان استيلاؤه عليها نتيجة لدعوة أهلها ، واختيارهم إياه لولايتها ، أم كان عملا من أعمال القوة وهو الأرجح ، فإن الواقع أنه استولى على مقاليد الحكم دون منازع ، وبذلك انتهت رياسة التجيبيين للثغر الأعلى ، بعد أن لبثت زهاء قرن ونصف ، وبدأت فى سرقسطة والثغر الأعلى رياسة أسرة جديدة هى أسرة بنى هود ، التى يخصها ابن الأبار دون غيرها من أسر الطوائف ، بغلبة الشجاعة والشهامة عليها(٤)

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣.

(٢) أعمال الأعلام ص ١٧٠ .

(٣) راجع رواية ابن حيان مفصلة فى البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٨ — ١٨١ ، وقد عاد صاحب البيان فأورد رواية مماثلة : ج ٣ ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

(٤) الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٢٤ . والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٦ .

والتى لعبت فى عصر الطوائف ، ولاسيما فى حوادث الثغر الأعلى وشرقى الأندلس ، أعظم دور .

٢ — عهد بنى هود

جلس سليمان بن محمد بن هود على عرش سرقسطة فى غرة المحرم سنة ٤٣١ هـ وحكم الثغر الأعلى ما عدا طرطوشة ، التى كانت بيد بعض الفتيان العامريين ، واتخذ من الألقاب السلطانية لقب المستعين بالله ، وظهر منذ البداية بقوة عزمه وشدة بأسه ، فاشتهر أمره ، وتوطد ملكه بسرعة ، واستمر فى حكم مملكته الجديدة ثمانية أعوام . وكان أهم ما وقع فيها حروبه مع المأمون بن ذى النون . وكانت المنطقة الواقعة بين المملكتين ، من ناحية الجنوب الغربى من مملكة سرقسطة وناحية الشمال الشرقى من مملكة طليطلة ، موضع الاحتكاك بين الفريقين . وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن بنى ذى النون كانوا خؤولة للمنذر بن يحيى آخر أمراء سرقسطة من بنى تجيب ، وهو الذى احتل سليمان بن هود عرشه ، فكان ذلك عاملا آخر فى اشتداد هذه الخصومة . ووقعت المعارك بين الطرفين أولا حول مدينة وادى الحجارة ، وقد كانت من أعمال طليطلة ، فبعث إليها سليمان بن هود ولده أحمد فى جيش قوى فنازلها واحتلها ، وذلك فى سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤ م) ، وهرع إليها المأمون بن ذى النون فى قواته ، ونشبت بين الجيشين معارك هزم فيها ابن ذى النون ، فارتد فى قواته إلى طلبيرة ، وابن هود يطارده ، ويشدد الضغط عليه ، ولم ينج المأمون من هذا المأزق إلا حينما أمر سليمان ولده أحمد بتركه وشأنه .

وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار مملكة طليطلة حوادث هذا النزاع ، وبينا كيف لجأ المأمون على أثر هزيمته إلى فرناندو الأول ملك قشتالة ، فاستغاث به واعترف بطاعته ، وكيف أمده فرناندو بجنده ، فعاثت فى أراضى مملكة سرقسطة وخربتها ، وعندئذ التجأ ابن هود بدوره إلى الاستعانة بملك قشتالة ، وبذل له أموالا وتحفاً جليلة ، فبعث فرناندو جنوده فعاثت فى أراضى طليطلة حتى وادى الحجارة وقلعة النهر (قلعة هنارس) . ورد المأمون على ذلك بأن التجأ إلى غرسية ملك نافار واستماله بالأموال الجليلة ، فأغار على أراضى مملكة سرقسطة المجاورة له ورد ملك قشتالة على ذلك بالإغارة على أراضى طليطلة مرة أخرى . وهكذا تفاقمت هذه الحرب الأهلية المدمرة بين ابن هود والمأمون « الأميرين المشئومين

على المسلمين » وفقاً لقول ابن حيان ، وضج لها سائر أهل الأندلس . واستمر ملكا قشتالة ، ونافار ، يعملان بكل ما وسعا على إذكاء هذه الفتنة ، فيغير الأول على أراضي طليطلة لحساب ابن هود ، ويغير الثانى على أراضى سرقسطة لحساب ابن ذى النون ، ولم تخمد هذه المعركة الانتحارية بين الأميرين المسلمين إلا بوفاة ابن هود وذلك فى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل(١) .

وقسم سليمان بن هود قبيل وفاته أعمال مملكته بين أولاده الخمسة ، فاختص أحمد بولاية سرقسطة عاصمة المملكة، ويوسف بولاية لاردة، ولب بولاية وشقة، والمنذر بولاية تُطيلة ، ومحمد بولاية قلعة أيوب(٢) ، واستقل كل بحكم مدينته ، وأعمالها . بيد أن تقسيم المملكة على هذا النحو لم يكن عملا سليما ، وكان بالعكس نذيراً بالخلاف والحرب الأهلية . وكان أحمد صاحب سرقسطة وهو الملقب بالمقتدر من بين إخوته الخمسة أشدهم أطماعاً ، وأنشطهم سعياً إلى انتزاع ما فى أيديهم . وقد استطاع بالفعل أن يحتال على ثلاثة من أخوته بالوعيد والختل ،وهم لب صاحب وشقة ، والمنذر صاحب تطيلة ، ومحمد صاحب قلعة أيوب ، وأن يستولى على مدنهم ، ثم سجنهم، وبلغت به القسوة أن سمل أعينهم . بيد أن أخاه يوسف صاحب لاردة ، وهو الملقب بحسام الدولة وبالمظفر، كان له نداً ، وكان بطلا شهما ، وهو الذى استطاع وحده أن يقف فى سبيل أطماعه ، وأن يحبط محاولاته ودسائسه .

وهنا وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، وكان أهل الثغر حينما رأوا ما صنعه أحمد بأخوته ، وما لجأ إليه من الوسائل الغاشمة فى اغتصاب ولاياتهم . قد سخطوا عليه ونادوا بخلعه ، وخرجت معظم القواعد عن طاعته ، وانضمت إلى أخيه ، ولم يتبق له سوى سرقسطة . فأخذ يرقب فرصة للتنكيل بأخيه ، وسنحت هذه الفرصة غير بعيد . ذلك أن مدينة تطيلة ، وهى من القواعد التى انضمت إلى يوسف المظفر ، دهمتها المجاعة والغلاء ، فاستغاث به أهلها ،فدعا أهل الثغور إلى جمع الأطعمة والمؤن، فاجتمع منها قدر عظيم، ورأى يوسف

(١) راجع فى أدوار تلك المعركة البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٧ – ٢٨٣ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٨ . وكذلك Dozy : Histoire V III., p. 74 & 75

(٢) تسمى وشقة بالإسبانية Huesca ، وتطيلة Tudela ، وقلعة أيوب Calatayud

أنه لايستطيع إرسال هذه الأمداد إلى تطيلة عن طريق سرقسطة خوفاً من غدر أخيه ، ففاوض غرسية ملك نافار ، وبعث إليه مالا لكى يسمح بمرور هذه المؤن عبر أراضيه إلى تطيلة، فأجابه إلى طلبه . وعلم أحمد بذلك فبعث سراً إلى غرسية ، يبذل له ضعف الأموال التى بعثها إليه أخوه، على أن يمكنه من الفتك بقافلة المؤن حين مرورها داخل أرضه ، فاستجاب الملك النصرانى إلى ذلك الإغراء الدنىء ، وتم ما دبره أحمد . ذلك أن قافلة المؤن ، وكانت تتكون من بضع آلاف من الجند ، وعدد كبير من الخيل والدواب ، ماكادت تجوز أراضى نافار ، شمالى شرقى تطيلة ، حتى دهمتها قوات أحمد المقتدر التى رتبها بممالأة غرسية ، وفتكت بها ، وأبيد معظم رجالها قتلا وأسراً ، واستولى النصارى على أسلابهم ، وماكان معهم من المؤن ، ولم ينج منهم سوى القليل ، وكانت واقعة شنيعة تنىء عما كانت تنطوى عليه طبيعة أحمد المقتدر من صفات الغدر والاستهتار . وكان من أثرها ، أن ضعف أمر يوسف ، وتوطد سلطان أحمد ، واشتد بأسه ، وهابه الناس ، واسترد القواعد التى كانت تحت يده[1] .

وكانت ضربة المقتدر التالية ، استيلاؤه على ثغر طرطوشة . وكان هذا الثغر الذى يعتبر مخرج سرقسطة إلى البحر ، إذا استثنينا ثغر طرّكونة الواقع على حدود إمارة برشلونة ، والذى كان من أعمال لاردة ، كان منذ عهد الفتنة بيد بعض الفتيان العامريين. وكان أول من استولى عليها منهم وحكمها لبيب العامرى ، وكان حازماً قوى البأس ، وحاول المنذر بن يحيى التجيبى أن ينتزعها منه فاستغاث بمبارك صاحب بلنسية فأمده بجنده ، وردعنها المنذر ، ولما توفى مبارك فى سنة ٤٠٨ هـ ، خلفه لبيب فى حكم بلنسية بدعوة من أهلها ، ولما اختلف على ذلك مع زميله مجاهد العامرى ، عاد إلى طرطوشة واستمر فى حكمها حتى توفى فى ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) ، فخلفه فى الحكم فتى آخر من الصقالبة العامريين يدعى مقاتل ، وتلقب بسيف الملك ، واستمر فى حكمها حتى وفاته فى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) . فخلفه الفتى يعلى من موالى العامريين أيضاً ، ثم حكمها من بعده الفتى نبيل . وكان المقتدر بن هود أثناء ذلك ينظر إلى سيطرة أولئك الفتيان الصقالبة على طرطوشة بعين السخط ، ويتحين الفرص لانتزاع هذا الثغر .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ .

الهام من أعمال مملكته . وأخيراً سنحت هذه الفرصة ، حينما اضطرمت طرطوشة ضد الفتى نبيل بالثورة وزحف عليها المقتدر فى قواته فسلمها إليه نبيل فى الحال وخرج عنها ، وانتهت بذلك دولة الفتيان الصقالبة بها (٤٥٢ هـ - ١٠٦٠ م)(١).

* * *

على أن أعظمُ حادث أوبعبارة أخرى أعظم محنة نزلت بالمسلمين فى عهد المقتدر بن هود ، هو غزو النورمانيين لمدينة بربشتر(٢) ، وفتكهم بأهلها بأشنع وأفظع ما سجلت صحف التاريخ . وقد دون لنا ابن حيان ، وكان يعيش فى قرطبة وقت وقوع هذه المحنة ، تفاصيلها بإسهاب ، وبعبارات مؤثرة مبكية . ذلك أن حملة كبيرة من النورمانيين (أو الأردمانيين فى الرواية العربية) تقدرها الرواية بعشرة آلاف فارس، بقيادة جيوم دى مونرى ، نزلت بشاطىء قطلونية وسارت نحو الشرق مخترقة أراضى مملكة سرقسطة الشمالية . وقد اختلفت الرواية فى تكييف ظروف هذه الحملة وفى مصدر قدومها ، وفيمن نظمها وقادها . بيد أنه يستخلص من مختلف الروايات الخاصة بها ، أنها حشدت فى ولاية نورمانديا الفرنسية، حيث كان النورمان قد استقروا بها قبل ذلك العصر بموافقة ملك فرنسا، وأن أولئك النورمان خرجوا عندئذ فى طلب المغامرة والكسب ومعهم جموع كبيرة من الفرسان الفرنسيين . أما قائد الحملة فهو الفارس جيوم دى مونرى . وكان جيوم دى مونرى هذا من أكابر فرسان عصره ، وقد وفد قبل ذلك على إيطاليا فى أواسط القرن الحادى عشر ، وخدم الكرسى الرسولى حتى أصبح قائد الجيوش الرومانية والبابوية . أما بواعث قيادته لهذه الحملة ، ولماذا قصدت إلى شاطىء قطلونية ، فما يحيط به الغموض . على أنه يبدو من جميع الظروف أنها كانت من الحملات الناهبة التى تستتر بالصفة الصليبية ، والتى تقصد العيث والنكاية ، والغنم والسبى فى أراضى المسلمين أينما كانت . ويؤيد البحث الحديث هذه الصفة الصليبية للحملة ، ويقول لنا إن الذى دفع إلى إعدادها هو البابا اسكندر الثانى (٣). والرواية الإسلامية صريحة واضحة فى أن هذه الحملة قد قدمت

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٠ و ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وكذلك : P. y Vives : Los Reyes de Taifas ; p. 38 & 39

(٢) هى بالإسبانية : Berbastro

(٣) I. de las Cagigas : Los Mozarabes p. 453

من فرنسا . فهى تقول لنا « إن الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أى فرنسا) إلى الأندلس فى جموع كبيرة ليس لها حد ، ولا يحصى لها عدد إلا الله ، وانتشروا على ثغور سرقسطة »(١) . ثم إنه ليس من الواضح أيضاً ما إذا كانت هذه الحملة قد عبرت إلى اسبانيا من طريق جبال البرنيه ، أم جازت إلى قطلونية بطريق البحر . وعلى أى حال فقد نزل أولئك النورمان فى قطلونية واجتازوا إلى أراضى مملكة سرقسطة ، إذ كانت تحمى مؤخرتها أرض نصرانية هى مملكة برشلونة . وقصدوا أولا إلى مدينة وشقة إحدى قواعد سرقسطة الرئيسية ، فنازلوها أياماً ، ولما لم ينالوا منها مأرباً غادروها وساروا شرقاً حتى مدينة بربشتر ، وهى لا تقل عن وشقة أهمية وحصانة .

وتقع مدينة بربشتر على فرع صغير من أفرع نهر إبره بين مدينتى لاردة ووشقة ، فى الشمال الشرقى لسرقسطة ، وكانت يومئذ من أمنع القواعد الإسلامية الشمالية . فنزل عليها النورمان ، وضربوا حولها الحصار ، وذلك فى أوائل سنة ٤٥٦ هـ (ربيع سنة ١٠٦٤ م) . ولم يبادر المقتدر لإنجاد المدينة المحصورة ، إذ كانت من أعمال أخيه يوسف المظفر ، فكان ذلك منه جبناً ونذالة ، أدرك عواقبهما فيما بعد ، ولم يستطع يوسف نفسه إنجادها ، فتركها لمصيرها . واستمر الحصار أربعين يوماً ، والمسلمون صامدون داخل مدينتهم الحصينة ، وكانت حاميتها تخرج من آن لآخر ، وتخوض مع الأعداء معارك شديدة ، ثم ترتد إلى الداخل . ولما اشتد الضيق بالمدينة المحصورة ، وعزت الأقوات ، وقع الهرج والتنازع بين أهلها ، وعلم النورمان بذلك ، فشددوا قبضتهم وضاعفوا جهودهم ، واستطاعوا بعد قتال عنيف أن يقتحموا المدينة الخارجية ، واحتلها منهم نحو خمسة آلاف دارع ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، وقتلوا من المهاجمين نحو خمسمائة ، ثم تحصنوا بالقصبة والمدينة الداخلية معولين على الدفاع عن أنفسهم لآخر لحظة ، لولا أن حدث حادث عجل بوقوع الكارثة . ذلك أن القصبة كان يمدها بالماء سرب داخلى تحت الأرض متصل بالنهر ، فوقف النورمان على سره من أحد الخونة فهدموه وألقوا فيه صخرة عظيمة ، وانقطع

(١) الحلل الموشية ص ٥٤ . وراجع أيضاً الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٤٠ حيث يقول لنا فى كلامه عن بربشتر : « وقد غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعدة ، أهل غاليش والروذمانون » . وغاليش هى فرنسا ، والروذمانون هم النورمان .

الماء عن المحصورين ، واشتد بهم الظمأ وبدا لهم شبح الموت جاثماً ، فبعثوا إلى النورمان يعرضون التسليم على أن يؤمنوا فى أنفسهم وأولادهم، وأن يخرجوا من المدينة دون مال ، فوافق النورمان على ذلك . وفى رواية أخرى أن النورمان أبوا ذلك ، واضطر المسلمون إلى مدافعتهم ، حتى اقتحموا عليهم المدينة .وعلى أى حال فقد دخل النورمان المدينة دخول الوحوش المفترسة ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وسبياً ، ولم يطلقوا منها غير قائدها ابن الطويل ، وقاضيها ابن عيسى ، ونفر قليل من الأعيان .

وهنا تبسط الرواية الإسلامية القول فيما ارتكبه النورمان من الفظائع ، وتقدر عدد القتلى والأسرى من أهل المدينة بأربعين ألفاً(١) أو بخمسين ألفاً ، بل بمائة ألف فى رواية أخرى ، وهلك عدد كبير من النساء ، حينما تطارحن على الماء لإرواء ظمئهن، فكبسهم العدو للأذقان موتاً . ولما خرجت الجموع من المدينة فى ظل الأمان المقطوع ، ورأى قائد النصارى كثرتهم، هاله ذلك ،وخشى أن تأخذ الجموع الحمية ، فيهبوا لاستنقاذ أنفسهم ،فأمر ببذل السيف فيهم ليخفف من أعدادهم ، فقتل منهم عندئذ مايزيد على ستة آلاف . ومات خلال الزحام كثير من الشيوخ والأطفال، وتدلى كثير من الأسوار اتقاء الزحمة،وامتنع نحو سبعمائة رجل بالقصبة ، فمات معظمهم عطشاً . على أن ذلك لم يكن أشنع ما نزل بالمسلمين بل كانت تنتظرهم فظائع أخرى لايخلق ارتكابها إلا بأخس المحاربين وأنذلهم ، ونحن نترك القول هنا لابن حيان ، يصف لنا بقلمه البليغ طرفاً من تلك المناظر البشعة المؤسية :

« ولما برز جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها بعد من خفف منهم بالقتل ، وهلك فى الزحمة ، ظلوا قياماً ذاهلين ، منتظرين نزول القضاء فيهم ، نودى فيهم بأن يرجع كل ذى دار إلى داره وموطنه بأهله ، وأزعجوا لذلك ، فنالهم من الازدحام ، قريباً مما نالهم فى الخروج عنها . ولما استقروا بالدور مع عيالهم وذرياتهم،اقتسمهم المشركون ، فأمر سلطانهم ، فكل من صارت فى حصته دار حازها ، وحازمافيها من أهل وولد ومال . فيحكم كل علج منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منهم ، يأخذ كل ما أظهره إليه ،

(١) الحلل الموشية ص ٥٤ .

ويقرره عليه فيما أخفى ، ويعذبه أشد العذاب ، وربما زهقت نفس المسلم من دون ذلك فاستراح ، وربما أنذره أجله إلى أسوأ من مقامه بذلك . فإن عداة الله يومئذ ، كانوا يتولعون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم ، وعلى أعينهم إبلاغاً فى نكايتهم ، يغشون الثيب ، ويفتضون البكر ، وزوج تلك ، وأبو هذه ، موثق بقيد أسره ، ناظر إلى سخنة عينيه ، فعينه تدمع ، ونفسه يتقطع . ومن لم يرض ذلك منهم أن يفعله ، أعطى من خوله وغلمانه يعبثون فيهم عبثته ، فبلغ الكفرة منهم يومئذ مالاتلحقه الصفة على الحقيقة ، والحول والقوة لله العظيم » .

واستولى النصارى على مقادير هائلة من السبي والغنائم ، ولاسيما النساء والأطفال . يقول ابن حيان « زعموا أنه صار لأكبرهم قائد خيل رومة فى حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة حمل» ثم يقول بعد ذلك « ولما عزم ملك الروم (يريد قائد النورمان) على القفول يومئذ من بربشتر إلى بلده ، تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبكار والثيب ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الأيفاع ، والخود الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه » . ويقول لنا صاحب الروض المعطار ، إنه قد أهدى من أبكار الجوارى المسلمين وأهل الحسن منهن إلى صاحب قسطنطينية خمسة آلاف ، ويقدرهن ياقوت بسبعة آلاف « بكر منتخبة »(١) .

وربما كان فى تلك الأرقام — أرقام القتلى والأسرى والسبايا — مبالغة . ولكنها تدل على أى حال ، مع ما اقترن بها من الأعمال الوحشية المروعة التى وصفها لنا المؤرخ المعاصر ، على فداحة الخطب الذى نزل بأهل بربشتر ، وعلى مبلغ تجرد أولئك الغزاة النورمان من أبسط الصفات الإنسانية ، وهو خطب كان حسبما يصفه ابن حيان « أعظم من أن يوصف أو يتقصى » . ولما وصلت أنباؤه إلى قرطبة فى أوائل رمضان (٤٥٦ هـ) ، حيث كان يقيم المؤرخ ، وذاعت فى مختلف الأنحاء اهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، وسادها الاشمئزاز والروع لتلك الفظائع والشناعات التى لم يسمع بمثلها .

وقد كانت هذه المحنة مادة خصبة لتأملات ابن حيان ، ونظراته النقدية الصائبة ، وإليك من أقواله تلك الفقرة التى تدلى بالنذير والنبوءة الصادقة ، وتفيض

(١) راجع الروض المعطار ص ٤٠ . وراجع معجم البلدان لياقوت تحت كلمة بربشتر .

بالتوجع لأحوال عصره . قال : « قد استوفينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولاشك عند أولى الألباب ، ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لامحالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ماعهدنا فى القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك مالحق الذى قبله ، فمثل دهرنا هذا — لاقدس — بهيم الشبه، ما إن يباهى بعرجه، فضلاعن نزوح خيره ، قد غربل ضمائرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا فى سبيل الرشد بأتقياء ، ولا على معالى الغى بأقوياء . نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل على فرط جهلهم ، اغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجج عراص دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم، لهاة عن بثهم ، ما إن يسمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا ، مذكر لهم أوداع ، فضلا عن نافر إليهم أوماش لهم ، حتى كأنهم ليسوا منا ، أو كأن فتقهم ليس بمفض إلينا ، قد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا بالقناء ، عجائب فاتت التقدير ، وعرضت للتغيير ، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير »(١) .

ولما غادر الغزاة النورمان بربشتر بعد اقتحامها، والفتك بأهلها ، والاحتواء على أموالها ، تركوا لحمايتها ألفاً وخمسمائة من الفرسان وألفين من الرجالة ، وقيل بل تركوا ألف فارس وأربعة آلاف راجل ، واستقدموا إليها كثيراً من أهلهم وأقاربهم ومواطنيهم ، وساروا عائدين إلى بلادهم ، وفى ركبهم ألوف من سبى المسلمين نساء ورجالا ، ومقادير هائلة من الأموال والغنائم المختلفة .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى وقعت المعجزة . وكان صدى النكبة قد نفذ

---

(١) نقلنا هذه الفقرة وما قبلها من أقوال ابن حيان وتفاصيل نكبة بربشتر ، عن الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحات ٣٤ ب إلى ٣٦ ب . وراجع فى ذلك أيضاً البيان المغرب ومعظمه أيضاً من أقوال ابن حيان السالفة الذكر ج ٣ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، وأعمال الأعلام ص ١٧١ . وكذلك Dozy : Histoire V. III. p. 78 & 79 - Recherches; -3eme Ed. V. II. p. 335-353 وهو يترجم أيضاً رواية ابن حيان المشار إليها .

إلى الأعماق ، واهتز لها أمراءالأندلس قاطبة ، وفى مقدمتهم المقتدر بن هود ، وهو الذى شهدها عن كثب ، ولحقه من جرائها أكبر وزر ، واتجه إليه أشد اللوم لتقصيره فى إنجاد المدينة المنكوبة والدفاع عنها ، وهى من أخص قواعد ثغره . واستنفر الناس للجهاد ، واجتمع من مختلف بلاد الأندلس عدد جم من المتطوعة والرماة ، ساروا إلى الثغر جهاداً فى سبيل الله ، وبعث المعتمد بن عباد نجدة من خمسمائة فارس ، وسار المقتدر بن هود فى قواته ، وقوات الأمداد المختلفة إلى بربشتر ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ (ربيع سنة ١٠٦٥ م) وضربوا حولها الحصار ، وامتنع النصارى داخل المدينة ، لما رأوه من كثرة جموع المسلمين ، وعالج المسلمون نقب أسوارها المنيعة العالية تحت حماية الرماة ، ونجحوا فى إحداث ثغرة كبيرة فيها ، ثم اقتحموا المدينة بشدة، فغادرها النصارى من الناحية الأخرى ، وحملوا على محلة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة مزق فيها النصارى وهلك معظمهم ، وأسر من كان بالمدينة من أهلهم وأبنائهم ، وتقدر الرواية من قتل منهم بنحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فى حين أنه لم يقتل من المسلمين وفقاً لتقديرها سوى خمسين رجلا وهى مبالغة واضحة ، بيد أنه لم يكن ثمة شك على ضوء الظروف المتقدمة فى أن خسائر النصارى كانت فادحة ، وأن خسائر المسلمين كانت يسيرة ، وقيل فوق ذلك إنه حمل من سبايا النصارى إلى سرقسطة نحو خمسة آلاف ، كما حمل إليها ألف فرس وعدة وسلاح وأموال كثيرة . وكان استرداد بربشتر فى الثامن من جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ ، بعد أن احتلها النصارى تسعة أشهر[١] . وبذلك جبر الصدع ، ورفعت المعرة ، وأثلجت صدور المسلمين . وعلى أثر هذا الفتح الجليل اتخذ بطله ابن هود لقب المقتدر بالله[٢] .

* * *

وشغل المقتدر بن هود فى الوقت نفسه بسلسلة من الوقائع التى اضطرمت بينه وبين جيرانه النصارى . وكانت مملكة سرقسطة لوقوعها بين الممالك الإسبانية النصرانية الثلاث ، أراجون ونافار وقشتالة ، هدفاً مستمراً لأطماع الملوك

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٤١ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٣٦ ب و ٣٧ أ . والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

النصارى ، يبتزون منها الأموال طوراً باسم الجزية ، وطوراً يقتطعون بعض أطرافها . وفى خلال ذلك ، يعمل بنو هود على الاستعانة من آن لآخر بالجند النصارى ، وفقاً لمختلف الظروف والأحوال . وكان فرناندو الأول ملك قشتالة فى سنة ١٠٦٠م (٤٥٢ هـ) قد زحف على حدود مملكة سرقسطة الجنوبية الغربية ، واقتطع منها حصن غرماج ، وبعض حصون أخرى ، فاضطر المقتدر أن يذعن لدفع الجزية . ولما توفى فرناندو فى سنة ١٠٦٥ ، وخلفه ولده سانشو فى ملك قشتالة ، وفى حقوق الجزية على سرقسطة ، حاول أن يتدخل فى شئون سرقسطة وبعث إليها بقواته فى سنة ١٠٦٧ فحاصرتها ، اقتضاء للجزية المطلوبة ، وكان يقود الجيش القشتالى يومئذ الفارس ردريجو دياث أو السيد إلكمبيادور ، الذى احتل فيما بعد مكانة بارزة فى حوادث شرقى الأندلس ، فاضطر المقتدر أن يبعث إليه مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والأقمشة الفاخرة ، أداء للجزية المطلوبة ، وأن يبعث برهائنه فى الوقت نفسه ، وبذا رفع الحصار عن سرقسطة(١) .

وكان المقتدر فى الوقت الذى تصفو فيه علائقه مع جيرانه النصارى ، يستمد العون منهم فى مشاريعه العسكرية ، وقد يستمد عون أحدهما على الآخر ، كما حدث فى سنة ١٠٦٣ م حينما غزا راميرو الأول ملك أراجون أراضى مملكة سرقسطة ، فاستغاث المقتدر بفرناندو ملك قشتالة ، فبعث إليه ولده سانشو فى بعض قواته ، ووقعت بين الفريقين تحت أسوار جرادوس موقعة هزم فيها راميرو وقتل ، وكان ردريجو دياث — السيد فيما بعد — يومئذ من ضباط الجيش القشتالى .

ولما خلص عرش قشتالة لألفونسو السادس بعد مقتل أخيه سانشو ، عاد يطالب سرقسطة بالجزية التى كانت لأخيه ، وكان يطالب بها فى نفس الوقت سانشو راميرز ملك أراجون ونافار ، بعد أن ورث عرش نافار ، وكان المقتدر يؤدى الجزية من قبل إلى سانشو ملك نافار . وكان يستعين فى محاربة أخيه يوسف المظفر صاحب لاردة بجنود من البشكنس (النافاريين) والقطلان ، واستمرت بينهما المعارك حتى انتهت أخيراً بهزيمة يوسف وأسره .

وقد وقفنا على نص رسالة مخطوطة ، كتب بها المقتدر إلى صديقه المعتمد

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٩ ، وكذلك R. M Pidal : ibid; p. 159 & 160

ابن عباد—وقد كانت بينهما فيما يبدو من لهجة الرسالة صلات ودية وثيقة — يخبره فيها بقصته مع أخيه المظفر، ويرميه فيها بالظلم والحسد، ومجانبة العدل والإنصاف، ويقول إنه حاول أن يسلك معه سبيل المودة والتفاهم، فأبى، واضطر إلى مقاتلته حتى ظفر به واستولى على قاعدته لاردة وألزمه البقاء فى قصبة منتشون. ثم يقول معتذراً عن مسلكه: « وللنفس يعلم الله مما حمانى عليه ارتماض وإشفاق، ولما يؤثره الرحم من ذلك إزعاج وإقلاق، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلا، ولاجعلنى إلى سواه محيلا، وكان فيما يأتيه أعق، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده أحق »[١] والظاهر أن الحوادث التى يشير إليها المقتدر فى رسالته قد وقعت فى سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م). وفى بعض الروايات القشتالية، أن المقتدر بعد أن استولى على أملاك أخيه اعتقله بقلعة روطة، وهنالك استمر فى اعتقاله حتى توفى بعد ذلك بثلاثة أعوام (٤٧٥ هـ)، بيد أنه من الواضح أن الصحيح هوما يرويه المقتدر نفسه فى رسالته.

ولما أعيت المقتدر الحيل فى إرضاء أولئك الملوك المطالبين بالجزية، انتهى رأيه إلى الاستعانة بخدمات ذلك الفارس القشتالى، الذى عرفه من قبل بين ضباط قشتالة محارباً بارعاً، وهو ردريجو دياث دى بيبار، وكان يومئذ قد ساءت علائقه مع مليكه ألفونسو السادس وأقصاه عن بلاطه، فخرج يبحث عن طالعه، وهكذا عقدت العلاقة بين « السيد » وبين المقتدر، وكان المقتدر أول من أولاه رعايته واستخدمه من الملوك المسلمين، وكان ذلك فى سنة ١٠٨٠ م قبيل وفاة المقتدر بقليل[٢].

ويجب أن نذكر هنا أيضاً بين أعمال المقتدر العظيمة، استيلاءه على مملكة دانية من صهره، زوج ابنته على إقبال الدولة فى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) حسبما فصلنا ذلك من قبل فى أخبار مملكة دانية. وقد غدت مملكة سرقسطة بهذا الفتح الكبير تمتد إلى شرقى الأندلس، وغدت من أعظم ممالك الطوائف رقعة، بل ربما أعظمها جميعاً. وقد مهد لها هذا الامتداد إلى شرقى الأندلس، سبيل التطاع إلى مملكة بلنسية

---

(١) وردت هذه الرسالة فى المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال (لوحة ١١٨ و ١١٩).

(٢) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ١٨ ب. وكذلك : R. M. Pidal : ibid ; p. 282 & 283

والتدخل فى شئونها ، حسبما سبق شرحه فى موضعه فى أخبار مملكة بلنسية ،
وتوفى أحمد بن سليمان بن هود المقتدر بالله فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) من كَلَب شديد أصابه من عضة كلب، بعد أن حكم مملكة سرقسطة خمسة وثلاثين عاماً ، وكان قبيل وفاته قد ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه أبوه بتقسيم مملكته بين ولديه ، فخص ولده الأكبر وهو يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وخص ولده الأصغر المنذر بلاردة ومنتشون وطرطوشة ودانية .

ومما هو جدير بالذكر أن مملكة سرقسطة كانت فى ظل بنى هود ، لظروفها المترتبة على وقوعها بين الممالك النصرانية ، واضطرارها إلى مهادنتها ومصانعتها ، تؤثر سياسة التسامح الدينى ، وكان النصارى يعيشون فى ظل بنى هود ، فى ظروف حسنة ، ويتمتعون بسائر الحريات الفكرية والدينية، وقد شجع هذا التسامح الذى أثر عن بنى هود نحو رعاياهم النصارى ، راهبا فرنسيا ، على أن يكتب إلى المقتدر بن هود رسالة يدعوه فيها إلى اعتناق النصرانية، وبعث رسالته المذكورة مع راهبين من زملائه ليشرحا للمقتدر تعاليم الدين المسيحى ومزاياه(١) ، فاستقبل المقتدر الرسولين برفق وكياسة ، ولم يثر لما تضمنته رسالة الراهب من جرأة وتهجم صارخ، بل عهد إلى العلامة الفقيه أبى الوليد الباجى ، وكان يومئذ يعيش فى سرقسطة فى كنفه وتحت رعايته، بأن يكتب عن لسانه إلى الراهب ردا ، يفند فيه دعاوى الراهب فى رسالته ، ويبين ما تنطوى عليه هذه الدعاوى من بطلان وتناقض . فكتب الباجى رده المشهور على هذه الرسالة، وهو رد مسهب، يفيض منطقاً وبلاغة ، وفيه يفند الباجى مزاعم الدين المسيحى ، وألوهية المسيح وغيرها ، بقوة ، ويشرح تعاليم الإسلام بوضوح ، ويدعو الراهب بالعكس إلى اعتناق الإسلام ، وينوه بمعجزة القرآن وروعته ، ويدلل ببراعة على بطلان التعاليم المسيحية وتناقضها .

وكان المقتدر بن هود من أعظم ملوك الطوائف . ويصفه الحجارى فى المسهب بأنه « عميد بنى هود وعظيمهم ، ورئيسهم وكريمهم » . وكان فضلا عن

---

(١) وردت رسالة الراهب الفرنسى فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى ، عقب رسالة ابن غرسية والرد عليها ، ودونت من بعدها رسالة أبى الوليد الباجى فى الرد على الراهب المذكور ، وهو رد طويل يملأ خمس عشرة صفحة ، وقد نشر الأستاذ دنلوب D. M. Dunlop نص الرسالتين فى مجلة الأندلس Al-Andalus Vol. XVII, 1952، وقرنهما بترجمة انجليزية .

مقدرته السياسية والعسكرية التى رأيناها تبدو فى كثير من أعماله ومشاريعه ، وبالرغم مما كانت تنطوى عليه هذه المشاريع والأعمال أحياناً من صفات سيئة ، يتمتع بكثير من الخلال البديعة ، فقد كان أميراً عظيما يحيط نفسه بجو من المهابة والروعة ، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأفخمها ، وكان يحيط نفسه بطائفة من أشهر العلماء والكتاب فى عصره ، ومن هؤلاء العلامة الفقيه أبو الوليد الباجى ، ووزيره أبو المطرف بن الدباغ ، ووزيره الكاتب اليهودى المسلم أبو الفضل ابن حسداى السرقسطى ، وكان كلاهما من أعلام عصره فى البلاغة والأدب . بل كان المقتدر نفسه من علماء عصره ، وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضة والفلك ، وقد كتب كتباً فى الفلسفة والرياضة(١) . وكان قصر المقتدر وهو المسمى بقصر « الجعفرية » نسبة إلى كنيته ، وهى « أبو جعفر » ، من أعظم وأفخر القصور الملكية فى تلك العصور ، وقد اشتهر فى تاريخ الفن الإسلامى باسم « دار السرور » ، وكان أروع ما فيه بهوه الرائع الذى زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة ، والذى كان يسمى لذلك بالبهو الذهبى ، أو مجلس الذهب.

وفيه يقول منشؤه المقتدر :

قصر السرور ومجلس الذهب ... بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يحز ملكى خلافكما ... لكان لدى كفاية الأرب

ولما سقطت سرقسطة فى يد الإسبان شوهت معالم هذا القصر البديع ، وأدخلت فيه تعديلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وزخارفه العربية . ومازالت بقاياه الدارسة تقوم حتى اليوم فى قلب مدينة سرقسطة باسم قصر الجعفرية Palacio Aljafería ، وقد شهدناه خلال زيارتنا لسرقسطة ، ولم يبق من بنائه الإسلامى سوى بقية مشوهة من مسجده السابق .

وكان المقتدر ، فوق شغفه بالعلوم ، أديباً ينظم الشعر ، وقد نسب إليه الحجارى صاحب المسهب قوله :

لست لدى خالقى وجيهاً ... هذا مدى دهرى واعتقادى
لو كنت وجهاً لما برانى ... فى عالم الكون والفساد (٢)

(١) Dozy : Histoire ; Vol. III. p. 163-R. M. Pidal : ibid, p. 282

(٢) راجع المغرب فى حلى المغرب (القاهرة) ج ١ ص ٤٣٧ .

الفصل الثاني

مملكة سرقسطة

منذ عصر المؤتمن حتى سقوطها فى أيدى المرابطين

الصراع بين المؤتمن والمنذر . معركة قلعة المنار . حاكم روطة وكينه للنصارى . موقف السيد الكمبيادور . تحالف المنذر وسانشو راميرز . السيد ونفوذه لدى المؤتمن . حملة ابن بسام على بنى هود . وفاة المؤتمن . صفاته العلمية . ولده أحمد المستعين . مسير الفونسو السادس إلى سرقسطة ومحاصرته إياها . يرفع الحصار عند مقدم المرابطين . حروب المستعين . تطلعه إلى امتلاك بلنسية وفشل مشروعه . الخطر على مملكة سرقسطة . استيلاء ملك أراجون على منتشون . تهديده لوشقة . إتجاه المستعين إلى الاستنجاد بالمرابطين . سفارته لأمير المسلمين . استعانته بملك قشتالة . محاصرة سانشو راميرز لوشقة . وفاته ومتابعة ولده بيدرو للحصار . مسير المستعين وحلفاؤه لإنجادها . موقعة الكرازة . هزيمة المستعين وسقوط وشقة . إستيلاء المرابطين على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية . استيلاؤهم على شرق الأندلس . استنصار المستعين بالسيد . انشغال السيد فى بلنسية . إتجاه المستعين إلى المرابطين . سفارته الثانية لأمير المسلمين . وفاة بيدرو ملك أراجون وقيام أخيه ألفونسو مكانه . مسيره إلى تطيلة . مسير المستعين لإنجادها . سقوط تطيلة ومقتل المستعين . ولده عبد الملك عماد الدولة . دعوة أهل سرقسطة أمير المسلمين لخلع بنى هود . استصراخ عماد الدولة لأمير المسلمين . زحف المرابطين على سرقسطة واستيلاؤهم عليها . انتهاء حكم بنى هود . التجاء عماد الدولة إلى حصن روطة . خضوعه لحماية ملك أراجون . ولده سيف الدولة . نزوله عن روطة لألفونسو ريمونديز . سرقسطة أيام بنى هود . اشتهارها بالدراسات الرياضية والفلسفية . ابن باجة وحياته العلمية . أبو بكر الطرطوشى وكتابه سراج الملوك . نظريته فى عصبية الدولة ورد ابن خلدون عليها . سرقسطة ومساهمتها فى الحركة الأدبية . دورها فى التبادل الحضارى والثقافى . دورها فى التبادل التجارى .

عادت الحرب الأهلية القديمة التى اضطرمت من قبل بين المقتدر وإخوته الأربعة من جراء تقسيم المملكة ، تضطرم من جديد بين يوسف المؤتمن صاحب سرقسطة ، وأخيه الحاجب المنذر صاحب لاردة .

وقد استعان كلا الأخوين فى تلك الحرب الانتحارية بالنصارى ، فكان المؤتمن يستعين بصديق أبيه وحليفه من قبل « السيد » وجيشه من المرتزقة القشتاليين وكان المنذر وهو منذ البداية من ألد أعداء السيد ، يستعين بسانشو راميرز ملك أراجون ، ورامون برنجير أمير برشلونة .

ووقعت أول معركة بين قوات الأخوين عند قلعة المنار على مقربة من لاردة، وكان المؤتمن قد حصن هذه القلعة ، وشحنها بالمقاتلة ، ولما شعر أخوه المنذر بخطرها على أملاكه سار فى قوة مشتركة من حلفائه ، أمير برشلونة وبعض صغار الأمراء الإفرنج فى شمال قطلونية ، وحاصر هذه القلعة ، فسار المؤتمن والسيد فى قواتهما لإنجادها ، ووقعت بين الفريقين معركة هزم فيها المنذر ، وأسر أمير برشلونة رامون برنجير (١٠٨٢ م) .

ووقع فى ذلك الحين حادث كاد يقطع السيد من جرائه علائقه ببلاط سرقسطة. ذلك أن حاكم قلعة روطة التى كان معتقلا بها المظفر ، اعتزم الخروج والثورة بالتفاهم مع سجينه ، وأرسل إلى ألفونسو ملك قشتالة يطلب عونه ويعده بتسليم القلعة ، فسار ألفونسو إلى روطة فى بعض قواته ، وكان المظفر قد توفى عندئذ فجأة ، فعدل الحاكم عن مشروعه واعتزم أمراً آخر ، وبعث ألفونسو بعض أكابر ضباطه ، وعلى رأسهم الإنفانت راميرو أمير نافار لتسلم القلعة ، وما كادوا يجوزون إلى الداخل، حتى انهال عليهم وابل من الصخور، فقتلوا جميعاً (١٠٨٢م) وعاد ألفونسو ، وهو يضطرم أسى وتحرقاً إلى الانتقام .

وكان السيد عندئذ فى تطيلة ، فلما وقف على هذا الحادث المحزن ، هرع فى صحبه إلى ألفونسو يقدم عزاءه، ويلتمس العفو ، والإذن بالعود ، فعفا عنه الملك وصحبه معه إلى قشتالة . ولكن مقامه بها لم يطل . ذلك أن ألفونسو عادت إليه هواجسه القديمة نحو السيد ، وشعر السيد بتغيره عليه ، فغادر قشتالة وعاد إلى سرقسطة ، واستقبله المؤتمن بترحاب ومودة . ويحاول الأستاذ پيدال أن يستدل بتصرف السيد فى هذا الحادث على أنه لم يكن فى خدماته لبلاط سرقسطة جندياً أجيراً ، وإنما كانت هذه الخدمات بالعكس نوعاً من السياسة والتدخل على الطريقة القشتالية(١) .

وعاد السيد إلى مهمته القديمة فى محاربة أعداء المؤتمن ، وخرج مع المؤتمن فى قواته ، وعاثا فى أراضى أراجون ، ثم عادا إلى حصن مونتشون . ورد سانشو راميرز ملك أراجون على ذلك بالاستيلاء على جرادوس. وغيرها من حصون الحدود (ابريل ١٠٨٣ م) . ثم تحالف المنذر أخو المؤتمن مع سانشو راميرز ،

---

(١) R. M. Pidal : ibid; p. 290

وسارا فى قواتهما لمحاربة السيد ، والتقى الفريقان فى أحواز موريلا على مقربة من طرطوشة ، فهزم المنذر وحليفه، واستولى السيد على معسكرهما، وعلى كثير من الأسرى . واستقبل السيد عند عوده المظفر إلى سرقسطة أحفل استقبال .

وعلا شأن السيد فى بلاط سرقسطة،وتوطدت مكانته ، واشتد نفوذه على المؤتمن . فكان لايبرم أمراً من أعمال الحرب أو السياسة دون مشاورته ، وغدا بجيشه الصغير قوة يحسب حسابها ، بل غدا كأنه يفرض بحلفه ومعاونته على سرقسطة نوعاً من الحماية . وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار مملكة بلنسية إلى هذه المكانة الممتازة التى أحرزها السيد فى بلاط سرقسطة ، وإلى الحملة اللاذعة التى شهرها ابن بسام من أجل ذلك على بنى هود[1] ، كما أشرنا إلى ماكان يجيش به المؤتمن من الأطماع نحو مملكة بلنسية ، وما قدمه من المال إلى ملك قشتالة لأجل معاونته فى هذا المشروع وكيف استطاع أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية بلباقته أن يحبط هذا المشروع وأن يعقد صلات الود والمصاهرة مع المؤتمن بتزويج ابنته من ولد المؤتمن ، أحمد المستعين .

ولم يدم حكم المؤتمن أكثر من أربعة أعوام ، إذ توفى فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . وكانت وفاته السريعة ضربة قاضية لمشاريعه ، فخلفه فى حكم سرقسطة وأعمالها ، ولده أحمد ، وتلقب بالمستعين ، وبقى الشق الآخر من مملكة سرقسطة بيد عمه المنذر .

وقد اشتهر يوسف المؤتمن بصفاته العلمية ، أكثر من اشتهاره بصفاته الملوكية فكان مثل أبيه المقتدر عالماً رياضياً، وفلكياً ممتازاً، وكتب فى العلوم الرياضية ، رسالته المسماة « الإستكمال »[2] ، التى ترجمت إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، والتى توصف بأنها ترتفع من حيث قيمتها العلمية إلى مستوى إقليدس والمجسطى. بيد أن هذه الرسالة الملوكية لم تصل إلينا مع الأسف بأصلها العربى.

خلف المؤتمن ولده أحمد المستعين ،ويعرف بالمستعين الأصغر . وماكاد يبدأ حكمه حتى ألفى نفسه أمام حدث خطير . ذلك أن ألفونسو السادس ماكاد ينتهى من الاستيلاء على طليطلة وتنظيم شئونها ، وذلك فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥م)

---

(١) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ١٨ ب .
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ .

حتى اعتزم العمل لانتزاع سرقسطة ، فسار إليها فى قواته ، وضرب حولها الحصار ، وأقسم أنه لن يبرحها حتى تؤول إليه أو يموت .وحاول المستعين أن يرده عن عزمه ، وأن يقنعه برفع الحصار ، فعرض عليه أموالا جليلة فرفض ألفونسو ، وأصر على أخذ المدينة[١] ، وأذاع عماله فى سكان الأراضى المجاورة أنه سوف يطبق أحكام القرآن ، ولن يقتضى منهم من الضرائب إلا ما يجيزه الشرع ، وأنهم سوف يكونون مثل إخوانهم مسلمى طليطلة موضع عنايته ورعايته. واستمر ألفونسو على حصار سرقسطة حتى جاءته الأنباء فى أواخر صيف ١٠٨٦م (أوائل ٤٧٩ هـ) بمقدم المرابطين ، وأنهم عبروا إلى الأندلس ، فحاول عندئذ خديعة المستعين ، معتقداً أنه لم يعلم بالنبأ العظيم ، وبعث إليه يقول إنه يقبل الجزية التى عرضها ، فأجاب المستعين ، وكان على علم به ، أنه لن يدفع إليه درهما واحداً [٢] .

وعندئذ اضطر ألفونسو أن يرفع الحصار ، وأن يهرع فى قواته إلى الجنوب ، بعد أن بعث بصريخه إلى أمراء الثغر النصارى ليلحقوا به فى قواتهم .

ثم كانت واقعة الزلاّقة ، وهزيمة ألفونسو الساحقة ، أمام القوات المرابطية والأندلسية المتحدة فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦) ، فضعف أمر قشتالة والملوك النصارى ، وانصرف المستعين حينا إلى محاربة عمه المنذر صاحب لاردة ودانية طوراً ، ومحاربة ملك أراجون طورا آخر . بيد أنه لم يظفر من وراء هذه المعارك بطائل ، وكانت الهزيمة نصيبه فى معظم الأحيان .

وأخذ المستعين بعد ذلك يتطلع إلى الاستيلاء على بلنسية ، منافساً فى ذلك لعمه المنذر . وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار بلنسية مشاريع المستعين ومحاولاته فى هذا السبيل ، ومغامرات حليفه « السيد » ، وكيف تظاهر فى البداية بمعاونته على تحقيق مشروعه ، ثم أضناه بعد ذلك بمخادعاته وأساليب غدره ، وكيف حاول بعد ذلك أن يستعين بمحالفة برنجير كونت برشلونة على محاصرة بلنسية وأخذها ، وقد فشلت أيضاً هذه المحاولة ، وانتهى الأمر بأن غدا السيد وحده هو المسيطر على هذا الميدان، وهو المستأثر بتتبع الحوادث فى بلنسية ، وترقب فرص الاستيلاء عليها ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلا شافياً .

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣ .

(٢) R. M. Pidal : ibid; p. 331

وماكاد المستعين ينتهى من هذه المشاريع الفاشلة ، حتى بدا الخطر على مملكة سرقسطة داهماً من ناحيتين : ناحية جيرانها النصارى من الشمال ، وناحية المرابطين من الجنوب . فأما عن الشمال ، فقد بدأ سانشو رامبرز ملك أراجون بالاستيلاء على منتشون فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، واضطر المستعين عندئذ أن ينضوى تحت حماية ألفونسو ملك قشتالة ، وأن يتعهد بأداء الجزية التى أباها من قبل . ولم تمض بضعة أعوام على ذلك حتى بدت مشاريع ملك أراجون أكثر خطورة . وذلك أنه قصد إلى مدينة وشقة ، وهى ثانى مدينة فى مملكة سرقسطة ، وابتنى إزاءها حصناً ، وكان من الواضح أنه يبغى الاستيلاء على هذه المدينة الهامة . والظاهر أن المستعين قد أدرك عندئذ أن الاعتماد على معاونة النصارى لايحقق له ما يطمح إليه من السلامة ، ورأى أن الاتجاه إلى معاونة المرابطين وهم أبناء دينه قد يغدو أنجع ، ولو أنه كان يتوجس من نياتهم ومشاريعهم نحو سرقسطة . ومن ثم فقد أرسل ولده عبد الملك إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمغرب ومعه هدية جليلة ، وبعث إليه يطلب العون والإنجاد على مدافعة النصارى ، وإنقاذ وشقة ، وهى جناح سرقسطة الدفاعى ، ودرعها من الشمال . والظاهر أن أمير المسلمين قد أدرك من جانبه أهمية الاستجابة لصريخ المستعين ، ومنعه بذلك من الارتماء فى أحضان النصارى ومحالفتهم فى النهاية ضد المرابطين ، وأدرك فى نفس الوقت حكمة الإبقاء على سرقسطة وإنجادها لتبقى بذلك حاجزاً بين المرابطين وبين النصارى ، فاستقبل عبد الملك بترحاب ، وصرفه صرفاً جميلا ، ورد على المستعين بخطاب رقيق ، وبعث إلى ولاته فى شرق الأندلس بإرسال المدد المنشود ، وكان يتألف من ألف فارس وستة آلاف راجل من المرابطين . ولم ير المستعين فى نفس الوقت بأساً من الاستعانة بملك قشتالة ، فأمده بفرقة من جنده بقيادة الكونت غرسية أردونس الذى تجاور ولايته مملكة سرقسطة .

وفى تلك الأثناء كان سانشو رامبرز قد سار إلى مدينة وشقة وضرب حولها الحصار ، مصمماً على ألا يبرحها حتى تسقط فى يده . وكانت وشقة من أمنع قلاع الثغر الأعلى ، فصمدت للحصار بعزم وشدة ، ثم توفى سانشو رامبرز فجأة ، وذلك فى شهر يونيه سنة ١٠٩٤م (جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ) ، فاستمر فى متابعة الحصار ولده بيدرو الأول . وتوالت الأشهر ، ووشقة صامدة كالصخرة .

وبعث أهل وشقة فى نفس الوقت بصريخهم إلى ملكهم أحمد بن هود المستعين ، فجهز حشودا عظيمة ، وأعد لها قوافل المبرة الضخمة ، وأمده حليفه ملك قشتالة بفرقة من الجند النصارى . وسار المستعين فى قواته حتى اقترب من وشقة، وكان يظن أن العدو متى رأى حشوده . وآنس وفرتها وحسن استعدادها، يعمد إلى المهادنة ويترك المدينة المحصورة وشأنها ، ولكن پيدرو عول بالعكس على خوض المعركة ، فترك الحصار، وسار فى قواته لملاقاة المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، فى « الكرازة » الواقعة على مقربة من وشقة، استمرت من طلوع الشمس إلى غروبها ، واشتد فيها الطعان من الجانبين ، وكثر القتل بين المسلمين وحلفائهم ، وهزم المستعين فى النهاية هزيمة شديدة . وقتل من المسلمين عدد جم تقدره الرواية باثنتى عشر ألفا أو نحوها ،وكان بين القتلى غرسية أردونس قائد جند قشتالة . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه المعركة فى يوم الأربعاء أواخر ذى القعدة سنة ٤٨٩ هـ ، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ فى ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٦ م ، وهو يوافق بالفعل شهر ذى القعدة ، الذى تحدده الرواية الإسلامية . وتقول الرواية الإسلامية . إن أهل وشقة لما عاينوا هزيمة المسلمين، يئسوا من النصرة ، والإنقاذ . ولم تمض على ذلك ثلاثة أيام حتى حصلوا على الأمان . وسلمت وشقة للنصارى بعد حصار دام ثلاثين شهراً ، ودخلها پيدرو فى موكبه الظافر ، وفى الحال صير مسجدها الجامع كنيسة ، وجعلها عاصمة لمملكة أراجون(١)

هذا عن حوادث الشمال ، وأما عن حوادث الجنوب ، فقد عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) وقام بالاشتراك مع قوات الأندلس بمحاصرة حصن لييط . وانتهى بالاستيلاء عليه . ثم عاد فعبر إلى الأندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) ،وفى تلك المرة استولى على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية، غرناطة،وإشبيلية،وألمرية، ثم

---

(١) نقلنا أقوال الرواية الإسلامية عن معركة وشقه من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثرنا بها فى خزانة القرويين بفاس . وراجع فى حوادث سقوط وشقة وما تقدمها : أعمال الأعلام ص ١٧٣ ، والحلل الموشية ص ٥٣ – ٥٥ ، وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمد عبد الله عنان (ص ١٠٤ و ١٠٥) وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وراجع أيضاً P. y Vives : و Los Reyes de Taifas p. 49 و R. M. Pidal : ibid, p. 526 & 527

بطليوس ، واستولت الجنود المرابطية كذلك على مرسية ، وأوريولة . كل ذلك فيما بين سنتي ٤٨٤ و٤٨٨ هـ . وفى أثناء ذلك كان المنذر بن هود صاحب لاردة ودانية ، قد توفى فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وخلفه فى الملك ولده الطفل سليمان الملقب بسعد الدولة ، تحت وصاية بنى بيطر وهى أسرة قوية ذات نفوذ . وفى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) سار جيش مرابطى بقيادة الأمير ابن عائشة ، واستولى على دانية . وشاطبة وشقورة . والظاهر أنه استولى أيضاً على طرطوشة ولاردة بعد ذلك بقليل .

وهنا شعر المستعين بخطر المرابطين الداهم على مملكته ، فاتجه إلى حليفه القديم السيد إلكمبيادور ، واستغاث به ، وكان السيد قد غدا يومئذ قوة تحسب حسابها فى شرقى الأندلس ، وأضحى من جانبه يشعر بنفس الخطر : أى خطر المرابطين على مركزه فى تلك المنطقة . فاستجاب إلى دعوة المستعين ، وعقد بينهما حلف جديد ، وسار السيد بقواته إلى سرقسطة ، وعسكر على ضفة النهر الأخرى ، وهنالك عقد حلفاً آخر مع ملكى أراجون وناڤار . وكان الغرض من عقد هذه المحالفات كلها ، التعاون لدفع خطر المرابطين عن هذا الركن من شبه الجزيرة .

ونحن نعرف أن السيد قد عاد بعد ذلك إلى الجنوب ، واستمر فى مغامراته فى منطقة بلنسية ، حتى تم له الاستيلاء عليها فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (يونيه ١٠٩٤ م) ، وأن الجيوش المرابطية لبثت تتحين الفرص لاسترداد هذا الثغر الإسلامى العظيم ، حتى تم لها تحقيق مشروعها ، ودخلت بلنسية بقيادة الأمير أبى محمد المزدلى فى شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو سنة ١١٠٢ م) .

وكانت حوادث الشمال قد تطورت فى تلك الأثناء ، وظهرت نيات سانشو راميرز ملك أراجون واضحة نحو القضاء على مملكة سرقسطة ، وبدأ حصاره لمدينة وشقة ، وكان المستعين من جهة أخرى قد أدرك أنه لا يستطيع الاعتماد على محالفة السيد وعونه ، ولاسيما بعد استيلائه على بلنسية ، وانشغاله بالمحافظة عليها ، والدفاع عنها ، فاتجه إلى المرابطين ، وبعث ولده عبد الملك إلى المغرب يطلب العون من أمير المسلمين ، حسبما فصلنا من قبل . وقد رأينا كيف هزم المستعين وسقطت وشقة بالرغم مما تلقاه المستعين من عون حلفائه .

يقول ابن عذارى ، إنه على أثر سقوط مدينة وشقة « سما بصر العدو إلى منازلة سرقسطة ، حضرة ابن هود ، فخاطب الطاغية ، أذفونش بن فرذلند

(ألفونسو السادس) فواطأه على منازلتها ، فنزل عليها فى جموع لا ترام ، فجعل صاحبها يصعد ويصوب فى إعمال الحيلة ، وتجنيب تلك الجماعة ، ورام تخذيل الأذفونش ، فأرغبه فى المال فأبى وأقسم ألا يبرح عنها حتى يدخلها »[١] . ولكنا لم نجد فى الرواية النصرانية مايؤيد أن ملك قشتالة قام فى هذا التاريخ (سنة ١٠٩٧ م — ٤٩٠ هـ) بمهاجمة سرقسطة أو حصارها .

والواقع أن المستعين أخذ يشعر من ذلك الحين بأن مصير سرقسطة قد أضحى رهناً بخطط المرابطين وغاياتهم ، ولاسيما بعد أن أصبحوا على مقربة من أراضيه ، ومن ثم فقد رأى فى النهاية أن يستبقى مودتهم ، وأن يستمر فى التقرب منهم ، والتماس عونهم وحمايتهم . وفى سبيل هذه الغاية بعث ابنه عبد الملك إلى أمير المسلمين مرة أخرى (٤٩٦ هـ) ، ومعه هدية جليلة من جملتها أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة . وكان أمير المسلمين يومئذ بقرطبة ، يعد العدة لإعلان البيعة لولده على بولاية عهده . فقبل الهدية ، وأمر بأن تضرب هذه الآنية الفضية قراريط مرابطية ، فرقت فى أطباق على رؤساء قومه ليلة عيد الأضحى ، وحضر عبد الملك حفل البيعة ، ثم عاد إلى سرقسطة[٢] .

وشعر المستعين بشىء من الطمأنينة ، واعتزم أن يخصص جهوده لمقارعة ملك أراجون ومشاريعه العدوانية ، وكان بيدور ملك أراجون قد توفى يومئذ وخلفه فى الملك أخوه ألفونسو الذى عرف فيما بعد بالمحارب . وهو الذى تسميه الرواية الإسلامية «بابن ردمير» . وكان أميراً مقداما شديد البأس . ولم يكن قد بقى من قواعد مملكة سرقسطة الهامة بعد وشقة ، سوى مدينة تطيلة ، فسار إليها فى قواته ، وخف المستعين لإنجادها . ووقعت بين الفريقين معركة شديدة عند بلد تدعى بلتيرة (ڤالتيرا) ، فهزم المسلمون ، وقتل المستعين ، وذلك فى رجب سنة ٥٠٣ هـ (يناير سنة ١١١٠ م)[٣] .

---

(١) هذا ما ورد فى الأوراق المخطوطة من البيان المغرب التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٢٥ ، والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٤ .

(٣) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١٤٠ ؛ وكذلك P. y Vives : Los Reyes de Taifas p. 49 . ويورد ابن الخطيب هذه الواقعة بصورة أخرى فيقول لنا إن المستعين خرج إلى الجهاد فى سنة ٥٠١ هـ ، وتوغل حتى تطيلة وأرنيط (أرنيدو) وافتتحها ، ثم أدركه النصارى عند العودة وهاجموه بشدة ، فهزم وقتل (أعمال الأعلام ص ١٧٤) .

فخلفه ولده عبد الملك وتلقب بعماد الدولة، وبايعه أهل سرقسطة على شرط أن يترك محالفة النصارى ، وأن يخرجهم من جيشه ، وتعهد لهم عبد الملك بتحقيق رغبتهم ، ولكنه لم ينفذ وعده . وكانت الحوادث تسير عندئذ بسرعة ، وحسن الطالع يؤاتى المرابطين تباعاً ، ولاسيما مذ أحرزوا نصرهم الحاسم بقيادة الأمير تميم ابن يوسف بن تاشفين على جيوش قشتالة فى موقعة إقليش فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ، وهى الموقعة التى أبيدت فيها القوات القشتالية ، وقتل الإنفانت الطفل سانشو ولد ألفونسو السادس من حظيته زائدة الأندلسية . ولما رأى أهل سرقسطة أن أميرهم عماد الدولة لايستجيب إلى شروطهم بتسريح قواته من النصارى ، كتبوا إلى أمير المسلمين على بن تاشفين ، وهو فى مراكش ، يناشدونه خلع بنى هود ، وتسلم سرقسطة ، فاستفتى على فقهاءه ، فأفتوه بوجوب تحقيق هذه الرغبة ، وبعث إلى قائده محمد بن الحاج والى بلنسية ، أن يسير إلى سرقسطة. ولما علم عماد الدولة بذلك ، أرسل إلى أمير المسلمين خطاباً مؤثراً يستصرخه فيه ، ويذكره بما كان بين والديهما من أواصر المودة ، وأنه لم يصدر منه فى حقه أية إساءة ، وأنه من الخير أن يترك سرقسطة على حالها حاجزاً بينه وبين النصارى ، فرق على لملتمسه ، وكتب إلى قائده أن يكف عنه[١] . ولكن الأمر كان قد قضى عندئذ . ذلك أن عماد الدولة لما شعر بمقدم المرابطين ، غادر سرقسطة فى أهله وأمواله إلى حصن روطة المنيع ، واستقر به ينتظر الحوادث[٢] . وفى رواية أخرى أن ابن الحاج حينما زحف على سرقسطة ، تأهب عبد الملك لمقاومته ، واستنصر بألفونسو ملك أراجون ، وأنه وقع بين الفريقين قتال هزم فيه ابن الحاج وقتل ، ثم إن أهل سرقسطة أخرجوا عبد الملك ، واستدعوا عامل أمير المسلمين ، فاستولى على سرقسطة وذلك فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ[٣] . وفى روض القرطاس أن ابن الحاج سار من بلنسية إلى سرقسطة، ودخلها فى سنة ٥٠٢ هـ ، وأخرج منها بنى هود وملكها[٤] .

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٢ .
(٢) راجع : Dozy : Histoire, Vol. III. p. 154
(٣) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٧٥ .
(٤) روض القرطاس ص ١٠٤ .

وهكذا انتهى حكم بنى هود فى سرقسطة ، بعد أن دانت لحكمهم أكثر من سبعين عاماً ، منذ انتزع عميدهم ومؤسس دولتهم سليمان بن هود الحكم من آل تجيب فى سنة ٤٣٠ هـ . وقد عاشت ولاية سرقسطة أو الثغر الأعلى فى الواقع ، كوحدة سياسية وعسكرية مستقلة عن الحكومة المركزية أكثر من قرنين ، إذا احتسبنا عهد بنى تجيب بها . وهكذا كانت سرقسطة آخر دولة من دول الطوائف تسقط فى أيدى المرابطين . وتاريخها فى الأعوام القليلة القادمة حتى سقوطها فى يد ألفونسو الأول ملك أراجون فى سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) يرتبط بتاريخ المرابطين.

على أن سقوط سرقسطة، لم يكن آخر العهد ببنى هود . ذلك أن عماد الدولة عبد الملك بن المستعين ، استقر بقاعدة روطة الحصينة(١) ، الواقعة على نهر خالون أحد أفرع إبرُه « الإيبرو » الجنوبية . وكان بنو هود قد أعدوا هذه القاعدة وحصنوها ، وزودوها بالأبنية الفخمة ، لتكون لهم عند الضرورة ملجأ ومثوى ، كلما نزلت بهم نازلة . واستمر عماد الدولة مقيما بروطة ، وهو يشهد الصراع المضطرم بين المرابطين والنصارى حول امتلاك سرقسطة . فلما سقطت فى يد النصارى وضع نفسه تحت حماية سيدها الجديد ألفونسو ملك أراجون (ابن رذمير) واستمر على حاله ، حتى توفى بروطة فى شعبان سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) . فخلفه فى الإمارة ولده أبو جعفر أحمد بن عبد الملك وتلقب بسيف الدولة المستنصر بالله ، وكذلك بالمستعين بالله ، واستدر فى حكمه لروطة ، وما حولها من الحصون والأراضى ، حتى حمله ألفونسو ريموند يز ملك قشتالة ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بأدفونش بن رمند وبالسليطين ، على التنازل عنها ، وعوضه عنها بقسم من مدينة طليطلة ، نزل فيه بأهله وأمواله ، أو ببعض أملاك بجوار طليطلة أقطعه إياها ، وذلك فى سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م)(٢) ، وهى حوادث نستوفيها فيما بعد فى تاريخ المرابطين فى شبه الجزيره .

* * *

(١) هى بالإسبانية Rueda

(٢) هذه هى رواية ابن الأبار فى الحلة السيراء ، ص ٢٢٥ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ؛ وروايته مضطربة تنقصها الدقة سواء فى الوقائع أو التواريخ . ويضع ابن الأثير تاريخ تسليم المستنصر بالله حصن روطة فى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) (ج ١١ ص ١٣) . راجع كذلك : P. y Vives : ibid; p. 50

وقد كانت سرقسطة فى عهد بنى هود، كما كانت إشبيلية فى عهد بنى عباد ، مركزاً لحركة علمية وأدبية زاهرة ، وكان بنو هود من حماة العلوم والآداب ، وقد نبغ بعضهم فى ميدان التفكير ، ولاسيما أبو جعفر المقتدر ، وولده يوسف المؤتمن ، وقد كان كلاهما من أكابر علماء عصره، فى الفلسفة والرياضة والفلك ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل . وقد اشتهرت سرقسطة فى هذا العصر بنوع خاص ، أعنى فى القرن الحادى عشر الميلادى بالدراسات الفلسفية والرياضية . وكان من أعلام أبنائها فى هذا العصر ، فيلسوف من أعظم فلاسفة الإسلام وعلمائه ، هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة، والذى يعرف فى الغرب باسمه اللاتينى Avempace . وقد نشأ ابن باجة فى أواخر القرن الحادى عشر بسرقسطة ودرس بها ، وعاش فيها حتى مطلع شبابه قبل أن تسقط فى أيدى الإسبان ونبغ فى الرياضة و الفلك والطبيعة والفلسفة، هذا فضلا عن براعته فى الشعر والأدب . ولما ولى الأمير أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى حكم سرقسطة من قبل المرابطين ، ندب ابن باجة لوزارته ، واختص به ، وأغدق عليه عطفه ورعايته ، بالرغم مما كان يرمى به الفيلسوف من الميول والآراء الإلحادية . ولما سقطت سرقسطة فى أيدى الإسبان (١١١٨ م) غادرها ابن باجة إلى إشبيلية ، ثم إلى شاطبة ، ثم نزح من الأندلس إلى المغرب ، وعاش هناك حتى توفى فى سنة ١١٣٨ م . وقد كتب ابن باجة زهاء خمسة وعشرين كتاباً لم يصلنا منها سوى القليل ، وترك لنا عدداً من القصائد الرصينة الجزلة التى تنم عن روعة خياله ورائق نظمه . وهو يعتبر على العموم من أعظم المفكرين والفلاسفة الأندلسيين ، وقد كان لآرائه ونظرياته تأثير كبير فى تفكير الفيلسوف أبى الوليد بن رشد الحفيد(١) .

ونبغ فى سرقسطة أيام بنى هود فى عهد المستعين بن المؤتمن، المفكر والفيلسوف السياسى أبو بكر الطرطوشى ، نسبة إلى طرطوشة ثغر سرقسطة ، وهو صاحب كتاب « سراج الملوك » الذى يعتبر بموضوعه ونظرياته المبتكرة، من الكتب التى وضعت أسس السياسة الملوكية فى التفكير الإسلامى . ويشير ابن خلدون إلى هذا الكتاب فى مقدمته ويعتبره من الكتب التى سبقته فى موضوعه(٢) . وقد وضع الطرطوشى كتابه أثناء إقامته بمصر أيام الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، وأهداه

---

(١) راجع الإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ٤١٤ – ٤١٦ .

(٢) ابن خلدون فى المقدمة (بولاق) ص ٣٣ .

فى مقدمته إلى خلفه المأمون البطائحى ، وتأثر فى كتابته بتفكير فيلسوف العصر ، العلامة ابن حزم القرطبى ، وتوفى الطرطوشى بالإسكندرية سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦ م) .

وقد أوحت ظروف مملكة سرقسطة وأحوالها السياسية والاجتماعية يومئذ ، إلى الطرطوشى بكثير من نظرياته الاجتماعية ، ومنها نظرية عصبية الدولة ، فإن الطرطوشى يرى أن عصبية الدولة أو قوتها الحامية، إنما تقوم « على الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة » أى الجند المرتزقة الذين يتناولون أجورهم كل شهر. ويعارض ابن خلدون هذه النظرية ، ويقول إنها لاتنطبق على الدول فى أولها ، وإنما تنطبق على الدولة فى نهاية عهدها ، بعد التمهيد واستقرار الملك ، واستحكام الصبغة لأهله ، وأن الطرطوشى قد أدرك الدولة الهودية عند هرمها ورجوعها إلى الاستظهار بالموالى والصنائع ، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة، وأدرك دول الطوائف ، وذلك عند اختلال الدولة الأموية ، وانقراض عصبيتها من العرب ، واستبداد كل أمير بقطره ، وعاش فى ظل المستعين بن هود بسرقسطة ، ولم يكن بقى لهم من أمر العصبية شىء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ، ولم ير إلا سلطاناً استبد بالملك عن عشائره ، وقد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة ، وبقية العصبية ، فهو يستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة[1] . والظاهر أن الطرطوشى قد تأثر تأثراً شديداً بما شهده من اعتماد بنى هود فى حماية ملكهم على معاونة الجند النصارى ، ولاسيما أيام السيد إلكمبيادور ، وسعيهم إلى شراء هذه المعونة بالمال أينما استطاعوا ، منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها . وقد كان ذلك فى نفس الوقت شأن كثير من ملوك الطوائف الآخرين ، حسبما ذكرنا فى أخبارهم .

وكانت سرقسطة إلى جانب كونها مركزاً للعلوم الرياضية والفلسفية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، كباقى عواصم الطوائف الأخرى ، مركزاً لحركة أدبية قوية ، وقد نبغ بها فى ذلك العصر كثير من الأدباء والشعراء مثل ابن الدباغ ، وابن حسداى ، وأبى عمر بن القلاس ، وغيرهم ، ممن ذكرهم صاحب الذخيرة ، وأورد لنا الكثير من نظمهم ورسائلهم .

---

(١) راجع سراج الملوك للطرطوشى (القاهرة ١٩٣٥) ص ٢٢٩ و ٢٣١ ، ومقدمة ابن خلدون (بولاق) ص ١٣٠ و ١٣١ . وكذلك R. M. Pidal : ibid; p. 284 & 285

ولعبت سرقسطة بالأخص دوراً كبيراً فى التبادل الثقافى والحضارى بين الأندلس وبين الدول الإسبانية المجاورة ، والدول الفرنجية الشمالية ، وقد هيأ لها موقعها بين الممالك الإسبانية على مقربة من جبال البرنيه ، أن تضطلع بهذا الدور الحضارى الخطير . ومما هو جدير بالذكر أنها كانت فى ذلك العصر ، مهبط الفرسان النصارى من كل جنس ، يجدون فى بنى هود وفى بلاطها الباذخ ، ساحة رحبة ، وكانت مركزاً لأشعار الفروسية والشعر الغنائى ، الذى كان ينتشر يومئذ فى أرجاء قطلونية وأراجون ونافار ، ومنها كانت تنقل المقطوعات الغنائية الأندلسية إلى المجتمعات النصرانية المجاورة ، فتؤثر فى الملاحم والأناشيد القومية . وقد انتقلت هذه المؤثرات ، فيما بعد بمضى الزمن عبر جبال البرنيه إلى جنوبى فرنسا ، ثم إلى غيرها من المجتمعات النصرانية .

ويجب أخيراً ألا ننسى دور سرقسطة المسلمة ، فى ترويج التبادل التجارى والمهنى بين الشرق والغرب ، فقد كانت مملكة سرقسطة بسيطرتها على جزء كبير من البحر المتوسط ، وثغريها الكبيرين طرّكونة ، وطرطوشة ، تستقبل شطراً كبيراً من تجارة المشرق وتجارة الأندلس والمغرب ، وتعمل على تصريفها إلى الأمم الأوربية عن طريق ثغور فرنسا الجنوبية ، وثغور إيطاليا . وكان بنوهود يجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، سواء من المكوس أو الوساطة التجارية ، وقد كانوا فى الواقع من أغنى ملوك عصرهم ، وكان بلاطهم من أفخم قصور الطوائف ، وأكثرها روعة وبذخاً ، وإن لم تكن لهم شهرة فى الجود والبذل ، وقد استطاعوا بهذا الغنى الطائل ، أن يجتذبوا الفرسان والمرتزقة النصارى لخدمة سياستهم ، واستطاعوا بدفع الإتاوات الوفيرة للملوك النصارى ، أن يتقوا عدوانهم أطول وقت ممكن ، ومن ثم فقد لبثت سرقسطة عصراً طويلا بمنجاة من تلك الغزوات المخربة ، التى كانت تنكب بها دول الطوائف الأخرى .

الكتاب السادس

موقعة الزلاّقة والفتح المرابطى

الفصل الأول

نشــأة المرابطين

وقيام الدولة المرابطيــة بالمغرب

أصل المرابطين . قبيلة لمتونة وحياتها فى القفر . دخولها فى الإسلام . أول ملوكها . افتراق كلمتها . الأمير ابن تيفاوت اللمتونى . مصرعه وقيام الأمير يحيى الجدالى مكانه . رحيله إلى المشرق . لقاؤه بالفقيه أبى عمران الفاسى . عبد الله بن ياسين . رحيله مع الأمير إلى الصحراء . بثه لتعاليم الإسلام بين أهلها . صرامته وانصرافهم عنه . مغادرته لهم مع أصحابه وانقطاعه للعبادة . وفود أعيان صنهاجة إليه . قيام جماعة المرابطين . أطماع عبد الله الدفينة . تكاثر تلاميذه . يدعوهم إلى الجهاد . دعوته إلى اتباع أحكام الدين . مقاتلته لقبائل صنهاجة وإخضاعها . سلطانه الروحى على القبائل . يحيى بن ابراهيم الكدالى يتولى السلطة الزمنية . وفاته وقيام يحيى بن عمر اللمتونى مكانه . ورعه وفتوحه فى الصحراء . صدى حركة المرابطين فى المغرب . أحوال المغرب فى ذلك العهد . استدعاء فقهاء درعة وسجلماسة للمرابطين . مسير المرابطين إلى درعة والاستيلاء عليها . استيلاؤهم على سجلماسة . عبد الله بن ياسين يأمر بإزالة المنكرات . وفاة الأمير يحيى وقيام أخيه أبى بكر مكانه . مسير المرابطين إلى بلاد السوس . يوسف بن تاشفين يقود الجيش . افتتاحه لقواعد السوس . الطائفة البجلية وسحقها . مسير المرابطين إلى الأطلس . افتتاحهم لأغمات . استيلاؤهم على تادلا . قبائل برغواطة ومذهبها الوثنى . مطاردتهم ومحاربتهم على يد بلكين بن زيرى والفتى واضح . مسير المرابطين لقتالهم . إصابة عبد الله بن ياسين ووفاته . قيام أبى بكر اللمتونى مكانه . بدء الدولة المرابطية . متابعة حرب برغواطة . افتتاح مكناسة ولواتة . أنباء الخلاف فى الصحراء . أبو بكر ينتدب يوسف بن تاشفين للرياسة ويسير إلى الصحراء . تقسيم القوات المرابطية بين الزعيمين . أبو بكر يصلح شئون الصحراء . يوسف بن تاشفين ينظم افتتاح باقى المغرب . نجاحه واشتداد بأسه . اختطاطه لمدينة مراكش حاضرة المغرب . تنظيم يوسف للجيش . افتتاحه لمدينة فاس . مسيره إلى بلاد غمارة . فقد فاس واستردادها . عود أبى بكر من الصحراء إلى المغرب . تأثره بعظمة شأن يوسف وضخامة ملكه . لقاء الرجلين . زينب زوجة يوسف ودورها فى ذلك . انصراف أبى بكر إلى الصحراء . يوسف يتم فتح المغرب . افتتاحه لطنجة . افتتاحه للمغرب الأوسط . قيام الدولة المرابطية الكبرى . يوسف بن تاشفين . نشأته وخلاله . يحكم أعظم إمبراطورية إسلامية فى الغرب . ألقابه وانضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية . يوسف وشئون الأندلس . صريخ ملوك الطوائف إليه . ظروف هذا الصريخ واختلاف الرواية فى شأنه . أصل الفكرة ومبعثها . الإعتراض عليها . سقوط طليطلة وأثره فى إذكائها . سفارة الأندلس إلى يوسف . العهود المتبادلة . مطالبة يوسف بثغر الجزيرة . يوسف يلبى نداء الطوائف . مسير الجيوش المرابطية إلى سبتة . جوازها إلى شبه الجزيرة . دعاء يوسف خلال الجواز .

يجدر بنا أن نقف الآن قليلا لنلقي بعض الضوء على أصل أولئك المرابطين، الذين شملت دولتهم الكبرى، فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، سائر أنحاء المغرب من لوبية إلى المحيط غرباً، وإلى السودان جنوباً، والذين استجابوا إلى صريخ ملوك الطوائف، وعبروا البحر إلى شبه الجزيرة الإسبانية نصرة للإسلام وبنيه.

إن المرابطين هم من قبيلة لمتونة، ولمتونة هذه بطن من بطون صنهاجة، أعظم القبائل البربرية، وهى بدورها فرع من فروع قبيلة البرانس الكبرى. وينتمى إلى صنهاجة، عدا لمتونة، عدد كبير من القبائل البربرية مثل مسوفة، ومسراتة، ومداسة، وكدالة، ووتريكة، ولمطة وغيرها. وقد لعب الكثير منها فى تاريخ المغرب أدواراً ملحوظة. وفى بعض الروايات أن صنهاجة، وهى الأم الكبرى لهذه القبائل ترجع نسبتها إلى العرب اليمانية، وأنها فخذ من ولد عبدشمس ابن وائل بن حمير، وهى كسائر الروايات المماثلة فى أنساب البطون البربرية رواية ضعيفة، تقوم على القصص والأسطورة[1].

وكانت لمتونة تسكن منذ عصور بعيدة قبل الإسلام فى قلب الصحراء، ما بين جنوبى المغرب والسودان، فى تلك المنطقة التى كانت تسمى منذ أيام الرومان إقليم «موريتانيا». وكانت تؤثر حياة القفر على أية حياة أخرى «انتباذاً عن العمران، واستئناساً بالانفراد، وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر»، وكانوا يعتمدون فى قوتهم على لحم الإبل ولبنها، ولايعرفون حرثاً ولاثماراً، ولا يأكلون الخبز[2]. وكان شعارهم «اللثام» ومن ثم فقد عرفوا «بالملثمين». وقيل فى سبب ذلك إنهم كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب، أو لأنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات، حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال[3]، وقيل بل كانوا يقلدون فى ذلك قبيلة حمير التى يدعون الانتساب إليها.

وذكر لنا أبوعبيد البكرى، فى معجمه «المسالك والممالك»، فيما يتعلق بأمر اللثام الذى يلتزمه المرابطون، أن جميع قبائل الصحراء يلتزمون، النقاب، وهو

(١) راجع روض القرطاس ص ٧٥.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١، وروض القرطاس ص ٧٦.

(٣) راجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (١٣٠٦ هـ) ج ١ ص ٩٨ و ٩٩.

فوق اللثام ، حتى لايبدو منه إلا محاجر عينيه ، ولا يفارقون ذلك فى حال من الأحوال ، ولا يميز رجل من وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب . وكذلك فى المعارك إذا قتل منهم القتيل ، ونزل قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع ، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم ،وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم(١)

وكانت لمتونة ، كسائر القبائل البربرية ، تدين بالمجوسية ، واستمروا على ذلك حتى ذاع بينهم الإسلام عقب فتح الأندلس ، وبدأت رياستهم من ذلك الحين تتخذ نوعاً من الملك . وفى أيام عبد الرحمن الداخل ، أعنى فى أواسط القرن الثانى الهجرى ، كان ملكهم يدعى تيولوثان بن تيكلان الصنهاجى اللمتونى ، فبسط سلطانه على سائر نواحى الصحراء ، وحارب القبائل الوثنية ، ونشر الإسلام بين كثير منها ، وفرض الجزية على سائر ملوك السودان المجاورين ، وكانت مملكته بالصحراء مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها .ولما توفى فى سنة ٢٢٢ ه ، خلفه فى الرياسة حفيده الآثر بن بطين بن تيولوثان(٢) ، واستطال حكمه زهاء خمسة وستين عاماً ، حتى وفاته فى سنة ٢٨٧ ه ، فخلفه ولده تميم ، واستمر فى الحكم إلى أن ثار عليه فى سنة ٣٠٦ ه أشياخ قبيلة صنهاجة وقتلوه . وعندئذ افترقت كلمة الجماعة ، وانقسموا شيعاً ، واستمروا دون رياسة جامعة زهاء مائة وعشرين عاماً ، إلى أن قام فيهم الأمير أبوعبد الله محمد بن تيفاوت اللمتونى المعروف بتارسنا ، فالتفوا حوله ، واجتمعوا على رياسته . وكان أميراً فاضلا ورعاً ، شغوفاً بالجهاد ، فلم يطل أمد حكمه سوى ثلاثة أعوام ، إذ استشهد فى غزوة من غزواته ضد بعض قبائل السودان الوثنية . فولى من بعده صهره الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالى ، زعيم قبيلة جدالة أوكدالة ، وهى شقيقة لمتونة يجمعهما أب واحد ، واستمر على رياسته لصنهاجة ، وقيادتها فى حروبها ضد أعدائها ، حتى سنة ٤٢٧ه (١٠٣٥ م)(٣)، ثم استخلف فى الرياسة ولده إبراهيم

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى والمنشور بعناية المستشرق البارون دى سلان (الطبعة الثانية) ص ١٧٠ .

(٢) وردت هذه التسمية فى روض القرطاس ص ٧٦ . ولكن ابن خلدون يسميه يلتان (ج ٦ ص ١٨٢) .

(٣) هذه رواية ابن أبى زرع (ص ٧٧) ، ويوافقه صاحب الاستقصاء (ج ١ ص ٩٩) ، ولكن ابن خلدون يضع نهاية رياسة يحيى فى سنة ٤٤٠ ه (ج ٦ ص ١٨٢) .

ابن يحيي ، ورحل إلى المشرق مع طائفة من زعماء قومه، ليقضى فريضة الحج .

والظاهر أيضاً أن يحيي الكدالى كانت تحدوه فى تلك الرحلة مُثُل أخرى، فهو قد رأى ماكان عليه قومه من التأخر والجهل بتعاليم الإسلام وأصوله ، فرحل إلى المشرق يطلب العلم إلى جانب قضاء الفريضة . ولما عاد من المشرق ، عرج فى طريقه على مدينة القيروان ، وهنالك التقى وصحبه بالفقيه أبى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى يومئذ ، وتأثروا بوعظه وعلمه . وشكا إليه يحيي من جهل قومه ، وطلب إليه أن يختار له فقيهاً من تلاميذه ، يتولى تعليم قومه وتثقيفهم بتعاليم الإسلام الصحيحة ، ولما لم يجد أبو عمران من تلاميذه بالقيروان من يقبل تلبية هذه الدعوة ، بعث معه كتاباً إلى تلميذ من تلاميذه بالسوس الأقصى يدعى أبو محمد واجاج بن زلوا اللمطى ، وكان فقيهاً ورعاً يدرس العلم لتلاميذه فى رباط خاص أنشأه لذلك ، فلما مثل لديه يحيي قرأ خطاب الشيخ أبى عمران على تلاميذه ، فاستجاب للدعوة منهم رجل يدعى عبد الله بن ياسين الجزولى، وكان من أنبه تلاميذه وأكثرهم علما وورعاً . وكان قد رحل إلى الأندلس ، وأنفق فيها بضع سنين يدرس فى ظل الطوائف ، فزاد علما وتجربة . فسار مع يحيي إلى الصحراء، فاغتبطت بمقدمه لمتونة وكدالة، واستقبلوه بمنتهى الحفاوة والتكريم(١) .

— ١ —

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع ، والغيرة على تعاليم الإسلام ، وكان فوق ذلك خطيباً موهوباً قوى التأثير ، فأخذ يبث تعاليم الدين بين أولئك البدو الصحريين ، ويبصرهم بأحكام الإسلام ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . بيد أنه اشتد فى مؤاخذتهم، ومطالبتهم بالإقلاع عن تقاليدهم المنافية للإسلام مثل الزواج بأكثر من أربع ، وكان من الأمور الشائعة بينهم ، وغير ذلك من التقاليد المغرقة ، فأخذوا ينصرفون عنه ، ويعرضون عن تعاليمه ، لما رأوا من صرامته ، وما تكبدهم تعاليمه من المشقة والضيق . وعندئذ عول عبد الله ، وتلميذه وصديقه الوفى يحيي بن ابراهيم ، على انتباذ أولئك البدو الجهلة ، والانقطاع إلى العبادة والزهد ، فى أحد المواضع النائية ، وانضم إليه فى ذلك سبعة نفر من كدالة

(١) روض القرطاس ص ٧٧ و ٧٨ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٢ . وراجع الحلل الموشية ص ٩ .

ويحيي بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة . ويقول لنا ابن خلدون إن عبد الله ابن ياسين وأصحابه انقطعوا للعبادة فى جزيرة يحيط بها بحر النيل من سائر جهاتها، وهو قول لا يمكن أن ينصرف إلى نهر النيل المعروف لنا، لبعد النيل عن صحراء المغرب الجنوبية بمسافات شاسعة، ولكن تفسير هذا الغموض يرجع إلى أن « نهر النيجر » كان يظن يومئذ أنه امتداد أو فرع لنهر النيل العظيم ، يخترق الأقطار السودانية الغربية . ومن ثم فقد كان نهر النيجر يعرف يومئذ بنهر النيل أو النهر الأعظم ، وبهذا الاسم يسميه الرحالة ابن بطوطة فى أقواله عن رحلته فى مملكة مالى السوداء[١]. وإذاً فإن الموضع الذى انقطع فيه عبدالله بن ياسين وأصحابه للعبادة كان فيما يرجح جزيرة تقع فى منحنى نهر « النيجر » ، على مقربة من تنبكتو ، وهذا ما يؤيده وصف صاحب روض القرطاس[٢] .

وعلى أى حال فقد انقطع عبد الله وصحبه للعبادة فى هذا الموضع ،وابتنوا به رابطة للصلاة والعبادة ، وما لبث أن اشتهر أمره ، ووفد عليه كثير من أشراف صنهاجة ممن آثروا الزهد والعبادة ، فعكف عبد الله على تثقيفهم ووعظهم ، وسماهم « بالمرابطين » للزومهم رابطته ، وأخذ يعلمهم أحكام الكتاب والسنة والصلاة والزكاة ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويشوقهم إلى الجنة ، ويحذرهم عذاب النار ، ويلهب حماستهم للجهاد فى سبيل الله ، ومقاتلة المخالفين لأحكام كتابه . وكان عبد الله بن ياسين ، حسبما أسلفنا واعظاً موهوباً ،وخطيباً ذلقاً مؤثراً ، وكان هذا الفقيه الورع ، يضطرم فى أعماق نفسه بمشاريع وأطماع دفينة أخرى ، غير تلقين أحكام الدين، وبث الورع والخشوع فى نفوس أصحابه. ذلك أنه ماكاد يرى كثرة تلاميذه — فقد بلغوا الألف عندئذ — ويوقن بولائهم، وانقيادهم لأوامره، حتى دعاهم إلى الجهاد بصورة عملية ، وبعثهم إلى أقوامهم، لينذروهم ، ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات ، واتباع أحكام الدين الصحيح ، ففعلوا ما أمروا به ، ودعا كل قومه إلى الرشد والهدى ، ومجانبة التقاليد المنافية للدين ، فلم يصغ لهم أحد من أقوامهم ، فخرج إليهم عبد الله ابن ياسين بنفسه ، واستدعى أشياخ القبائل ووعظهم ، وحذرهم عقاب الله ،

(١) راجع رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٣٢٢ هـ) ج ٢ ص ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٠٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٧٩ .

ونصحهم باتباع أحكامه ، فلم يلق منهم سوى الإعراض والتحدى، فعندئذ قرر عبد الله وصحبه إعلان الحرب على أولئك المخالفين ، وكان صحبه يزداد عديدهم كل يوم ، حتى بلغوا بضعة آلاف .

وخرج عبدالله بن ياسين لقتال كدالة ، فغزاهم فى نحو ثلاثة آلاف، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأسلم الباقون من جديد إسلاماً صحيحاً (٤٣٤ هـ — ١٠٤٢م). ثم سار لقتال لمتونة، وضيق عليهم حتى أذعنوا للطاعة، وبايعوه على الكتاب والسنة . وسار بعد ذلك لقتال مسوفة فحذوا فى الطاعة والبيعة حذو لمتونة. وهكذا تعاقب خضوع قبائل صنهاجة واحدة بعد الأخرى ، حتى خضعوا جميعاً . وكان من تعاليمه أن يضرب التائب مائة سوط حتى يطهر ، ثم يلقن تعاليم القرآن وأحكام الشرع . وبسط عبد الله بن ياسين سلطانه الروحى على سائر قبائل تلك الصحارى ، وجعل السلطة الزمنية ليحيى بن ابراهيم الكدالى ، وإن كان هو المستأثر فى الواقع بكل سلطة وإليه الأمر والنهى ، وجبى عبد الله الأموال من الزكاة والعشور والفىء ، واقتنى الخيل والسلاح ، واشتد بأسه ، واشتهر أمره فى سائر جنبات الصحراء ، وفى المغرب والسودان . ولما توفى الأمير يحيى بن إبراهيم ، ندب عبد الله مكانه للرياسة الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتونى ليتولى شئون الحرب والجهاد(١) .

وكان يحيى بن عمر اللمتونى أميراً ورعاً زاهداً ، وكان كثير الولاء والطاعة لعبد الله بن ياسين . ومما يروى فى ذلك أن عبدالله ضربه ذات يوم عشرين سوطاً لأنه باشر القتال بنفسه مع جنده ، ولأن الأمير يجب ألا يعرض نفسه للمخاطر ، وأن يقتصر على حث جنده وتقوية نفوسهم ، وحياة الأمير هى حياة عسكره وفى موته فناء جيوشه . وقاد الأمير يحيى عدة حملات ، وافتتح جميع جهات الصحراء، وغزا بلاد السودان وافتتح كثيراً من أنحائها . وكانت حركة المرابطين وأعمال زعيمهم عبد الله بن ياسين قد أخذت تحدث صداها فى قواعد المغرب . وكان المغرب يومئذ ، قد انقسم بعد انقضاء أمر الأدارسة، وبعد أن لبث منذ منتصف القرن الرابع مسرحاً لحروب الشيعة وخلفاء قرطبة الأمويين ، إلى ممالك

---

(١) روض القرطاس ص ٨٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠١ .

وإمارات عدة ، تسودها مختلف القبائل البربرية ، ولاسيما صنهاجة وزناته ومغراوة ، وكانت أعظم ممالكهم مملكة زيرى بن عطية الزناتيين وبنيه بعده ، وقد استطالت منذ أيام المنصور بفاس ، ومعظم أعمال المغرب الشمالى،حتى أوائل القرن الخامس ، واستقر بنو يفرن بأعمال الشاطىء فى سلا وما يليها ، واستقر بنو خزرون المغراويون بدرعة وسجلماسة وأعمالها ، وبأنحاء أخرى فى أواسط المغرب . واستقرت برغواطة جنوباً بشاطىء المحيط . وهكذا كان المغرب يقدم يومئذ بظروفه وإماراته الصغيرة المتفرقة، فرصة طيبة للطامعين والمتوثبين.وكانت العناصر الناقمة فى تلك الإمارات المستبدة ، تتطلع إلى أولئك القوم الجدد ، الذين يضطرمون بالحماسة الدينية وينادون بالإصلاح ، والتزام أحكام القرآن والسنة . ففى سنة ٤٤٤ هـ بعث فقهاء درعة وفقهاء سجلماسة بكتبهم إلى عبد الله ابن ياسين ، وإلى الأمير يحيى اللمتونى وأشياخ المرابطين، يشكون مما يقع فى بلادهم من ضروب الظلم والعسف ، والخروج على أحكام الدين، ويدعونهم إلى إنقاذ المسلمين من هذا النير المرهق . وكانت درعة وسجلماسة يومئذ تحت حكم بنى وانودين من زعماء مغراوة ، وأميرهم يومئذ هو مسعود بن وانودين ،فجمع عبد الله بن ياسين أشياخ المرابطين وشاورهم فى الأمر ، فرأوا وجوب قبول الدعوة والسير إلى غوث أهل المدينتين . ففى سنة ٤٤٥ هـ خرج المرابطون من الصحراء على خيولهم فى حشد ضخم ، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ويحيى اللمتونى ، وقصدوا أولا إلى مدينة درعة فأخرجوا عنها عاملها ، واستولوا عليها واستولوا فى أرباضها على خمسين ألف من الإبل من أموال أميرها مسعود، ونهض مسعود بن وانودين لرد الغزاة والدفاع عن أراضيه ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، قتل فيها مسعود ، وأبيد معظم جنده ،واستولى المرابطون على دوابهم وأسلابهم . ثم ساروا إلى سجلماسة ، فاقتحموها ، وقتل من كان بها من جند مغراوة . وأمر عبد الله بن ياسين بإزالة المنكرات ورفع المكوس الجائرة ، وتفريق الأخماس على المرابطين وفقهاء البلدين ، وتطبيق أحكام الدين ،وندب لحكم سجلماسة عاملا من اللمتونيين ، وكانت هذه بداية الفتح المرابطى للمغرب[١] .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ . ويضع ابن أبى زرع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٤٧ هـ (روض القرطاس ص ٨١) . وراجع السلاوى فى الإستقصاء ج ١ ص ١٠٢ .

وهنا يذكر لنا أبو عبيد البكرى ، ان عبد الله بن ياسين بعد أن أتم فتح سجلماسة ، سار جنوبا وغزا فى سنة ٤٤٦ هـ ، مدينة أودغست ، وهى من أعمال مملكة غانة السوداء ، وبينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين ، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة خمسة عشر يوما . وكان يسكن هذه المدينة خليط من زناتة والعرب ، فدخلها المرابطون واستباحوها ، وجعلوا جميع ماأصابوا فيها فيئاً(١) .

وفى سنة ٤٤٧ هـ توفى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى ، فعين عبد الله بن ياسين مكانه للقيادة أخاه أبا بكر بن عمر .وكانت الخطوة الثانية فى افتتاح المغرب ، هى غزو بلاد السوس ، ففى ربيع الثانى سنة ٤٤٨ هـ ، سار المرابطون نحو جنوب غربى المغرب قاصدين بلاد السوس ، وجعل الأمير أبوبكر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى ، وهى أول مرة تقدم إلينا الرواية فيها ، عاهل المرابطين العظيم فيما بعد . وبدأ بغزو بلاد جزولة ثم فتح ماسة ، ثم سار إلى مدينة تارودنت قاعدة بلاد السوس فافتتحها . وكان بتارودنت طائفة من الرافضة تسمى البجلية نسبة إلى مؤسسها ، على بن عبد الله البجلى الرافضى ، وكان قد قدم إلى تلك الأنحاء أيام عبد الله الشيعى (أواخر القرن الثالث الهجرى) ، ونشر بها مذهبه ، وهو يتضمن كثيراً من التعاليم المثيرة ، فقتل المرابطون أولئك الروافض وارتد من بقى منهم إلى السنة ، ودوخ المرابطون بلاد السوس ، واستولوا على سائر نواحيها ، وعين عبد الله بن ياسين لها عمالا من المرابطين ، وأمرهم باتباع العدل والسنة ، والاكتفاء بتحصيل الزكاة والأعشار ، وإسقاط ما عدا ذلك من المغارم الجائرة .

وعبر المرابطون بعد ذلك جبال الأطلس ، وقصدوا إلى بلاد المصامدة ، وتوغلوا فى جبال درن ، وفتحوا وردة وشفشاوة ونفيس ، وسائر بلاد منطقة جدميوه ، وبايعتهم قبائل تلك الناحية . ثم ساروا إلى مدينة أغمات ، وكانت يومئذ لمغراوة ، وأميرها لقوط بن يوسف بن على المغراوى ، فضربوا حولها الحصار ، ودافع لقوط عن مدينته أشد دفاع ، ولكنه لما رأى عبث المقاومة ، فر منها فى أهله وحشمه تحت جنح الظلام ، والتجأ إلى حماية بنى يفرن أمراء تادلا . ودخل عبد الله بن ياسين وجنده المرابطون أغمات فى سنة ٤٤٩ هـ ، وأقام

---

(١) كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج منه كتاب « المسالك والممالك » والمنشور بعناية البارون دى سلان (الطبعة الثانية) ص ١٦٨ .

بها نحو شهرين حتى استراح جنده . ثم قصد إلى بلاد بنى يفرن وهاجم قاعدتهم تادلا واقتحمها ، وقتل من بها من بنى يفرن ، وظفر بلقوط المغراوى فقتله ، وكانت زوجه زينب بنت إسحاق النفزاوية قد اشتهرت بحسنها ونبلها ، فتزوجها الأمير أبوبكر اللمتونى . وبعد أن نظم عبد الله بن ياسين شئون هذه المنطقة سار إلى تامسنا لمقاتلة قبائل برغواطة .

وكانت هذه القبائل تدين بمذهب تنافى تعاليمه الإباحية أحكام الإسلام ، أسسه رجل يهودى الأصل يدعى صالح بن طريف البرناطى نسبة إلى برناط ، وهو حصن من أعمال شذونة بالأندلس ، ووفد على منطقة تامسنا منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة ونشر مذهبه بين أهلها ، وهم قوم تسودهم البداوة والجهالة المطلقة ، فادعى النبوة وأنه قد نزل عليه قرآن جديد ، كان يتلو بعض سوره ، وزعم أنه المهدى الذى يخرج فى آخر الزمان ، وجعل الصلوات خمساً فى النهار وخمساً فى الليل ، والصوم فى شهر رجب ، وأباح لهم الزواج بأى عدد من النساء إلى غير ذلك . وكثر عدد أنصاره بمضى الزمن حتى أصبحوا أمة كبيرة يطلق عليها برغواطة . وفى بعض الروايات أن برغواطة تنتمى إلى قبيلة زناتة الشهيرة . ويقول ابن خلدون إنهم من المصامدة من حيث الموطن والجوار ، وهم قبائل شتى لا يجمعهم أصل واحد ، وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى مذهب صالح بن طريف[1] . وأقام هذا الدعى صالح بن طريف لنفسه رياسة وملكاً فى تلك المنطقة ، منطقة تامسنا ، وشاطىء المحيط الممتد من شمالى أزمور جنوباً حتى آسفى ، وتوارث أعقابه وقرابته الملك من بعده . واشتهر منهم فى أواخر القرن الثالث أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح ، واشتدت شوكته وعظم أمره ، وكانت له فى البربر وقائع مشهوره . وحارب ملوك العدوتين المغرب والأندلس ، من الأدارسة وبنى أمية والشيعة ، قبائل برغواطة ، وحاربهم بلكين بن زيرى زعيم صنهاجة ، حينما غزا المغرب سنة ٣٦٨ هـ ، ولقيه أميرهم أبو منصور عيسى بن أبى الأنصارى فى قومه ، فهزم وقتل ، وأمعن بلكين فيهم تقتيلا . ثم حاربهم المنصور بن أبى عامر ، وبعث لقتالهم الفتى واضح ،

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٣ .

فأثخن فيهم . وحاربهم بنو يفرن . وهكذا استمرت قبائل برغواطة ، هدفاً للعداء والنقمة ، حتى كان ظهور المرابطين فى أوائل القرن الخامس .

وكان من الطبيعى أن يتجه المرابطون إلى قتال هؤلاء الأقوام الكفرة الوثنيين . ومن ثم فقد سار عبد الله بن ياسين ، وقائده أبو بكر اللمتونى فى جموع المرابطين إلى أرض برغواطه ، وكان الأمير عليهم يومئذ أبو حفص بن عبد الله بن أبى غفير ابن محمد بن معاذ ، المتقدم الذكر . ونشبت بين المرابطين وبين البرغواطيين وقائع شديدة ، أصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولى إمام المرابطين ، ومنشىء طائفتهم ، بجراح بالغة توفى منها فى نفس اليوم . وجمع قبيل وفاته أشياخ المرابطين وحثهم على الثبات فى القتال ، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد فى طلب الرياسة . وكان مصرعه فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ودفن فى مكان يعرف بكريفلة أو كريفلت على مقربة من تامسنا ، وأقيم على قبره فيما بعد مسجد ، وما يزال مزاره قائماً معروفاً حتى اليوم . وفى الحال اتفق رأى المرابطين على اختيار قائدهم أبى بكر بن عمر اللمتونى للرياسة مكان إمامهم المتوفى ، وهو اختيار أوصى به عبد الله قبل أن يلفظ النفس الأخير (١)

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع والتقشف ، ولكن شديد الحمية والتعصب لمذهبه ، وقد ألفى فى تلك القبائل الصحرية الساذجة ، مادة طيبة لبث تعاليمه ، واستطاع أن يذكى فى نفوس أولئك المرابطين — أتباعه — تلك الحماسة الدينية البالغة ، التى حملتهم من الصحراء إلى ربوع المغرب ، وعاونتهم على انتزاعها تباعاً من أيدى القبائل الخصيمة . بيد أن عبد الله كان مع شديد ورعه ، مشغوفاً بالنساء ، يتزوج فى كل شهر عدداً منهن ويطلقهن ، ويسعى إلى خطبة الحسان أينما وجدن . وكان يأخذ ثلث الأموال المختلفة ، وهو إجراء يصفه المؤرخ بالشذوذ (٢) .

وقد ذكر لنا أبو عبيد البكرى فى معجمه « المسالك والممالك » بعض الأحكام الشاذة التى كان يطبقها عبد الله بن ياسين على المرابطين المنضوين

---

(١) روض القرطاس ص ٨٤ . ويضع ابن خلدون تاريخ وفاة عبد الله بن ياسين فى سنة ٤٥٠ هـ (ج ٦ ص ٢٠٩) .

(٢) روض القرطاس ص ٨٤ .

تحت إمامته، وفى مقدمتها أخذه الثلث من مختلف الأموال بحجة أن ذلك يطيب باقيها ، وهو مالا تسوغه الشريعة ، من أى مذهب ، ومنها أن الرجل إذا دخل فى دعوتهم ، وأبدى توبته على سالف ذنوبه ، قيل له أنك ارتكبت فى سالف شبابك ذنوبا كثيرة ، ويجب أن يقام عليك حدودها ، وتطهر من إثمها ، فيضرب حد الزانى مائة سوط ، وحد المفترى ثمانين سوطا ، وحد الشارب مثلها . وكذلك يفعل المرابطون بمن تغلبوا عليه ، وأدخلوه قسراً فى رباطهم ، وإن علموا أنه قتل قتلوه ، سواء أتاهم تايبا طائعا ، أو غلبوا عليه مجاهراً عاصيا . ومن تخلف عن شهود الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطا ، وغير ذلك من الأحكام القاسية التى لا تطبعها سماحة الإسلام الحقيقى(١) .

— ٢ —

ونستطيع أن نقول إنه بوفاة عبد الله بن ياسين ، وقيام أبى بكر اللمتونى مكانه فى الرياسة ، تبدأ الدولة اللمتونية أو الدولة المرابطية . وهو أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين بن واياقطين . وكان أول ما عنى به بعد دفن الإمام ، هو متابعة حرب برغواطة ، فحشد سائر قواته ، وجد فى قتالهم ، وأثخن فيهم ، حتى مزق طوائفهم ، وقتل وسبى منهم جموعاً كبيرة ، حتى أذعنوا إلى الطاعة وأسلموا إسلاماً جديداً ، ونبذوا تقاليدهم الوثنية المثيرة . وجمع ما استولى عليه من الأموال والغنائم ، وقسمها بين المرابطين ، ثم عاد إلى مدينة أغمات ، وأقام بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) . ثم غادرها فى قوات ضخمة من صنهاجة وجزولة ، والمصامدة ، وافتتح بلاد فازاز ومكناسة ، وسائر أراضى زناتة ، ثم سار إلى مدينة لواتة ، وكانت بيد بنى يفرن فاقتحمها عنوة وخربها وقتل بها خلقاً كثيراً ، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٥٢ هـ ، وعاد بعدئذ إلى أغمات.

ولبث أبوبكر فى أغمات بضعة أشهر أخرى، وعندئذ وفد إليه رسول من بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء ، ونبأه باختلاف المرابطين هناك، ووقوع الخلاف

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، المستخرج من كتاب المسالك والممالك ، والمنشور بعناية البارون دى سلان ص ١٦٩ .

بين لمتونة ومسوفة ، فخشى أبوبكر أن يتفاقم الأمر هناك بين القبائل الشقيقة، وقد كانت الصحراء منبع أمرهم ، ومطلع سلطانهم ، فقرر أن يعود إلى قومه، ليجبر الصدع ويوحد الكلمة . فوكل شئون المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين ونزل له عن زوجته الحسناء زينب بنت إسحاق النفزاوية ، بعد أن طلقها ، حتى لا تشاطره خشونة الحياة الصحراوية، فتزوجها يوسف فيما بعد، وأمره بمتابعة قتال مغراوة وبنى يفرن وزناتة ، ووافق أشياخ المرابطين على هذا الاختيار ، لما يعلمونه عن يوسف «من دينه وفضله وشجاعته وحزمه و ؛ لدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته »[١] .

وقسمت القوات المرابطية عندئذ إلى جيشين ، تولى يوسف إمرة أحدهما ليتم به إخضاع المغرب، وتولى أبوبكر إمرة الآخر. وخرج أبوبكر فى جيشه فى شهر ذى القعدة سنة ٤٥٣هـ (ديسمبر ١٠٦١م) واخترق بلاد تادلا وسجلماسة، ثم سار جنوباً إلى الصحراء ، وهناك قام بإصلاح شئونها ، والقضاء على أسباب الخلاف بين أقوامها ، وتوحيد كلمتهم . ثم حشد قوات جديدة ، وسار فى جيشه الضخم إلى بلاد السودان ، فغزا الكثير من نواحيه ، وتوغل فى أراضيه إلى مسيرة ثلاثة أشهر . وفى تلك الأثناء كان يوسف بن تاشفين ، يؤدى مهمته العظيمة فى افتتاح باقى أقطار المغرب ، فبدأ بذلك بأن قسم الجيش المرابطى ، وقد بلغ يومئذ أربعين ألف مقاتل ، إلى أربعة أقسام ، اختارلها أربعة من أقدر قواده ، وهم سير بن أبى بكر اللمتونى ، ومحمد بن تميم الكدالى ، وعمر بن سليمان المسوفى، ومدرك التلكانى ، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف ، وجعلهم فى مقدمة قواته ، وبعث بهم إلى مختلف أنحاء المعرب، وتولى هو قياد بقية الجيش يسير به فى ا رهم . وأخذت تلك الجيوش المرابطية فى محاربة القبائل الخصيمة ، ولاسيما مغراوة وزناتة وبنى يفرن، ودوختها وغلبت على سائر أراضيها، وهرعت القبائل يجنح بعضها إلى المقاومة حتى يهزم ويغلب، ويجنح البعض الآخر إلى الاستسلام والطاعة . ولم تمض بضعة أشهر حتى كان يوسف قد غلب على معظم نواحى المغرب الجنوبية والوسطى ، فعاد من غزاته المظفرة إلى أغمات فى أواخر سنة ٤٥٤ هـ ، وقد عظم أمره ، واشتد بأسه ، وذاع صيته فى سائر أنحاء المغرب .

(١) روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ .

وفكر يوسف عندئذ أن يختط لنفسه محلة ، تكون قاعدة لجيوشه ، ومستودعاً لذخائره ، ووقع اختياره فى ذلك على أرض تقع شمال غربى مدينة أغمات . وكانت لبعض المصامدة ، فاشتراها يوسف واختط بها قصبة ومسجداً ، وكان يعمل فى بناء المسجد بنفسه مع الفعلة ، فكان ذلك مولد مدينة مَرَّاكُش الشهيرة (سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م) . وكان هذا الاسم يطلق على هذا المكان ، ومعناه بلغة المصامدة « إمش مسرعاً » . إذ كان مأوى اللصوص وقطاع الطريق . واختار يوسف أن تكون قاعدته فى قلب بلاد المصامدة ، إذ كانوا أشد قبائل المغرب قوة وأكثرهم جمعاً ، وكانوا قوام جيوشه ، ومن جهة أخرى فقد كانت القاعدة الجديدة تقع فى حمى جبل درن من شعب الأطلس . ونزل يوسف فى محلته بالخيام أولا ودون أن تبنى أسوارها ، ثم أقيمت بها القصور والأبنية فيما بعد ، واختط بها الناس وحفرت بها الآبار . على أن مراكش لم يكمل بناؤها وتتسع رقعتها ، ويقام سورها العظيم ، إلا فى عهد على بن تاشفين ولد يوسف . وذلك فى سنة ٥٢٦ هـ . وقد كان القسم الذى أنشأه يوسف من مدينة مراكش العظيمة ، يشمل القسم الذى يعرف بسور الحجر فيما بينه وبين جامع الكتبيين ، وهو الذى يعرف اليوم بالسجينة . وقد غدت مراكش فى فترة يسيرة من أعظم المدن المغربية وأجلها ، وغدت من ذلك التاريخ : قاعدة الدول المغربية العظيمة ، ماعدا دولة بنى مرين ، ولعبت فى تاريخ المغرب أعظم دور . وما زالت تحتفظ حتى اليوم بكثير من روعتها وجلالها القديم[1] .

وعمل يوسف فى ذلك الحين على تقوية جيشه وحرسه ، فاقتنى من العبيد نحو ألفين ، وبعث إلى الأندلس فاشترى عدداً كبيراً من العلوج أو الأرقاء النصارى ، وأنشأ منهم فرقة قوية من الفرسان برسم حرسه وحجابته ؛ اشتهرت فيما بعد ببلائها فى مواقع كثيرة ، واستعان يوسف على نفقاته العسكرية بما فرضه يومئذ على اليهود من ضرائب فادحة اجتمع له منها مال كثير[2] .

وماكاد يوسف ينتهى من إنشاء حاضرته ، وتنظيم جيشه ؛ حتى تأهب لفتح مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة ، وأعظم مدائنه يومئذ . وكانت الجيوش

(١) راجع فى إنشاء مراكش : روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٧ . وراجع ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة مراكش .

(٢) الحلل الموشية ص ١٣ .

المرابطية ، قد تضخمت فى تلك الأثناء ، وعنى يوسف بتنظيمها ، وتجهيزها بالرماة والعدة ، والبنود والطبول . ويقال إنها بلغت يومئذ أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة ، وجزولة ، وزناتة ، والمصامدة . وفى أواخر سنة ٤٥٤ هـ سار يوسف لافتتاح مدينة فاس ، فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة ومغيلة ومديونة وغيرها ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، انهزمت فيها تلك القبائل ، وامتنعت بصدينة ، فاقتحمها يوسف ، وقتل بها عدة آلاف . ثم سار إلى فاس ، ونازل أولا قلعة فازاز وهى من حصونها الأمامية ، ثم زحف على فاس ذاتها ، وبها صاحبها معنصر المغراوى ، وافتتح حصونها تباعاً ، ثم اقتحمها ، وذلك فى سنة ٤٥٥ هـ ، واستعمل عليها عاملا من لمتونة . وسار بعد ذلك إلى بلاد غمارة ، وغلب على كثير من نواحيها ، حتى أشرف على طنجة . وفى خلال ذلك عاد بنو معنصر المغراوى إلى فاس ، فاقتحموها وقتلوا عامل يوسف ، واحتلوها ، واضطر يوسف أن يعود لمنازلتها ، فسار إليها فى جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار بشدة ، ثم اقتحمها عنوة ، وقتل بها كثيراً من مغراوة وبنى يفرن ، وذلك فى أوائل سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) .

— ٣ —

ويجب قبل أن نتم الكلام عن فتوح يوسف ، أن نعطف على واقعة كان لها أثرها الحاسم فى حياة يوسف ، وفى مصاير دولة المرابطين . وذلك أن الأمير أبا بكر اللمتونى بعد أن نظم شئون الصحراء ، وقضى فى غزواته بضعة أعوام ، نمى إليه ما وفق إليه ابن عمه يوسف من الفتوح العظيمة ، ومن ضخامة السلطان واستقراره ، فقرر أن يعود إلى المغرب ليسبر غور الأمور ، وربما جال بخاطره أن يعزل يوسف ، وأن يسترد هو سلطانه ، باعتباره أمير المرابطين الشرعى . ويقول لنا صاحب الحلل الموشية إن مقدم أبى بكر من الصحراء إلى المغرب كان فى سنة ٤٦٥ هـ ، وإنه نزل بمحلته خارج مدينة أغمات ، فهرع صحبه إلى مراكش العاصمة الجديدة ، لرؤيتها والسلام على يوسف ، واستقبلهم يوسف بالترحاب ، وأغدق عليهم الهدايا والصلات[1] . وأدرك أبوبكر مبلغ ما انتهى إليه يوسف من الضخامة والتوطد ، وما يتمتع به من المحبة والنفوذ بين طائفته ، وأنه لم يبق

(١) الحلل الموشية ص ١٣ و ١٤ .

له أمل فى انتزاع شىء مما فى يده . بيد أنه يبدو لنا على ضوء رواية ابن أبى زرع وابن خلدون أن مقدم أبى بكر إلى المغرب كان قبل ذلك بقليل . ذلك أن زينب النفزاوية زوجة يوسف ، لعبت دوراً فى لقاء الرجلين . وقد توفيت زينب فى سنة ٤٦٤ هـ . وخلاصة هذه الرواية أن يوسف شعر عند مقدم أبى بكر بدقة الموقف، وما يتهدد سلطانه ، فاستشار زوجه زينب النفزاوية فى الأمر، وكانت إلى جانب جمالها من أعقل نساء زمانها ، وأبعدهن نظراً ، وكان مذ تزوجها يرجع إليها فى عظائم الأمور، ويعتمد على نصحها ، وذكائها ، وحسن سياستها فأشارت عليه بأن يستقبل أبا بكر بالجفاء والغلظة ، ويشعره بقوة السلطان والاستبداد، ويلاطفه مع ذلك بالهدايا والطعام والخلع بما يصلح للصحراء . وسار يوسف للقاء أبى بكر ، فالتقيا بموضع بين أغمات ومراكش . وشعر أبو بكر مما أبداه يوسف ، ومن تعاليه فى السلام عليه وهو راكب فرسه ، أنه حريص على سلطانه ، مستعد للدفاع عنه ، وزهد فى التنافس والقتال ، وأوصى يوسف باتباع العدل والرفق ، ثم ودعه وعاد إلى الصحراء ، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة ، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب ، والجوارى والثياب الفاخرة والمؤن والدواب، وهنالك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل فى بعض غزواته وذلك فى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م)(١) .

وقضى يوسف أعواماً أخرى فى إتمام فتح المغرب ، حتى سيطر على معظم نواحيه ، ودوخ سائر قبائله . وفى سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) نراه وقد أشرف على طنجة ، وانتزعها من يد صاحبها الحاجب سكوت (أوسواجات) البراغوطى وهو فى نفس الوقت صاحب سبتة . وكان سكوت من موالى بنى حمود ، وقد ولى حكم سبتة فى أواخر أيامهم ، ثم استولى على طنجة ، وقوى أمره فى ذلك الركن المنعزل من المغرب ، وأطاعته قبائل غمارة ، واستمرت ولايته زهاء عشرين عاماً . فلما زحفت الجيوش المرابطية إلى تلك الناحية ، اعتزم سكوت الدفاع عن ملكه ، وكان شيخاً فى التسعين من عمره ، ولكنه كان فارساً مقداماً . فالتقى بالمرابطين فى وادى منى على مقربة من طنجة ، وقاتل حتى قتل ومزق جيشه ، وسقطت طنجة فى أيدى المرابطين ، واعتصم ولده يحيى بن سكوت

(١) روض القرطاس ص ٨٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٦

بسبتة . وفى سنة ٤٧٤ هـ زحف يوسف على المغرب الأوسط ، واستولى على مدينة وجدة ، ثم استولى على تلمسان ووهران ، واستمر فى سيره المظفر حتى تونس فافتتحها ، واستولى بذلك على سائر شواطىء المغرب وثغوره الشمالية ، وقضى على سلطان سائر الأمراء المحليين الذين كانوا يقتسمون المدن والثغور يومئذ ، وشمل سلطانه جميع الأقطار المغربية ، حتى تونس شرقاً وحتى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن البحر المتوسط شمالا حتى حدود السودان جنوباً[1] .

وهكذا قامت الدولة المرابطية الكبرى ، وأقامتها عبقرية رجل واحد ، وهو يوسف بن تاشفين ، بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متعصب هو عبد الله ابن ياسين ، واستحالت بسرعة على يد أبى بكر اللمتونى ثم يوسف من بعده ، من زعامة دينية محلية ، إلى ملك سياسى ضخم . وقد ذكرت لنا الرواية عن هذا الزعيم الموهوب والجندى العظيم بعض معلومات خلاصتها ، أنه أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة ابن أمية الحميرى الصنهاجى اللمتونى ، فهى بذلك تنسبه إلى حمير ، وأمه حرة لمتونية اسمها فاطمة بنت سير بن يحيى . وقد ولد بالصحراء فى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) . بيد أننا لانعرف شيئاً عن حياته ونشأته الأولى ، وتذكره لنا الرواية لأول مرة فى سنة ٤٤٨ هـ ، حينما ندبه الأمير أبو بكر اللمتونى ليكون قائداً لجيش المرابطين الزاحف لغزو المغرب . وكان يوسف يومئذ فى الثامنة والأربعين من عمره . ومن ذلك التاريخ فقط ، تتبع الرواية أعمال يوسف وفتوحه العظيمة المتعاقبة ، وهى التى فصلناها فيما تقدم . وتنوه الرواية بورع يوسف وزهده ، وبساطته وتواضعه ، فقد كان بالرغم مما أتاه الله من بسطة فى الملك والنعم ، آية فى التقشف ، يرتدى الصوف طول حياته ، ولايرتدى سواه قط ، ولايأكل سوى الشعير ولحوم الإبل وألبانها . وكان بطلا شجاعاً حازماً ، مهيباً ، دائب التفقد لبلاده وثغوره ، وأحوال رعيته ، مجاهداً لايفتر عن متابعة الجهاد ، منصوراً مظفراً فى معظم الوقائع التى خاضها ، جواداً كريماً ، عادلا رفيقاً ، ينأى عن إرهاق رعيته بالمغارم المحرمة ، ولايفرض منها إلا ما يجيزه الشرع ، من الزكاة والأخماس والأعشار ، وجزية أهل الذمة . وأما عن شخصه ،

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣ ، والاستقصاء ج ١ ص ١١٠ .

فقد كان معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، أكحل العينين ، أقنى الأنف ، جعد الشعر ، رقيق الصوت[١] .

وقد حكم يوسف بن تاشفين ، أعظم امبراطورية إسلامية قامت فى الغرب الإسلامى ، فهو فضلا عن إنشاء الإمبراطورية المغربية الكبرى ، ممتدة فيما بين تونس والمحيط ، وما بين البحر وحدود السودان ، قد انتهى بعد ظفره فى موقعة الزلاّقة على جيوش اسبانيا النصرانية حسبما نفصل بعد ، إلى افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية ، وبسط سيادة الدولة المرابطية المغربية على اسبانيا المسلمة ، وبذا كانت تمتد امبراطوريته عبر البحر شمالا حتى سرقسطة فى شمال شرقى اسبانيا ، وحتى شنترين وأشبونة فى قلب البرتغال .

وكان يوسف بن تاشفين فى بداية أمره يلقب بالأمير ، فلما فتح المغرب وترامت حدود مملكته ، أراد بعض أشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخاذ سمة الخلافة ، فأبى واكتفى باتخاذ لقب أمير المسلمين ، وناصر الدين ، وأصدر مرسومه ، بأن يدعى له بذلك اللقب ، وذلك فى سنة ٤٦٦ هـ[٢] . وفى أواخر عهده ، بعد أن ملك الأندلس ، نصح له الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة ، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله العباسى ببغداد ، سفيراً ومعه هدية جليلة ، وكتاب بما فتح الله عليه من الملك ، وما أولاه من النصر ، وطلب تقليده الولاية ، فبعث إليه الخليفة بمرسوم الولاية ، والخلع والتشاريف[٣] ومما يؤكد لنا انضواء يوسف تحت لواء الخلافة العباسية ، ذكره فى سكته لاسم الخليفة العباسى[٤] .

— ٤ —

نتتقل الآن إلى تلك المرحلة الأخرى من حياة يوسف ، وهى مرحلة تدخله فى حوادث شبه الجزيرة الإسبانية ، وهى مرحلة تتخذ فى البداية طابع الجهاد فى سبيل الله ، ثم تنقلب بعد ذلك ، إلى موجة جديدة من الفتح المرابطى .

(١) روض القرطاس ص ٨٧ و ٨٨ ، والحلل الموشية ص ١٢ .
(٢) الحلل الموشية ص ١٦ و ١٧ ، وقد أورد لنا نص هذا المرسوم .
(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٤٥ .
(٤) روض القرطاس ص ٨٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ .

وقد سبق أن ذكرنا فى أخبار مملكتى إشبيلية وبطليوس ، ما انتهى إليه رؤساء الطوائف ، عقب استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة ومملكة بنى ذى النون فى سنة ٤٧٨ هـ . وتهديده لهم جميعاً بالويل والفناء ، من وجوب الاستنصار بإخوانهم فى عدوة المغرب ، وإرسالهم بصريخهم المتوالى إلى يوسف بن تاشفين ، لينهض إلى نجدتهم وإغاثتهم . وقد اختلفت الرواية فى تفصيل مقدمات هذا الصريخ وظروفه .والقول المشهور فى ذلك ، هو أن سقوط طليطلة ، كان هو العامل الجوهرى ، الذى حمل ملوك الطوائف ، على أن يتجهوا إلى الاستنصار بالمرابطين . بيد أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذا الاتجاه يرجع إلى ما قبل سقوط طليطلة بعامين أو ثلاثة . فقد سقطت طليطلة فى يد ملك قشتالة فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥ م) ، ولكنا نجد صريخ الأندلس يتوالى على بلاط مراكش منذ سنة ٤٧٤ هـ ، فقد وفد فى ذلك العام على يوسف جماعة من أهل الأندلس . وشكوا إليه ماحل بهم من عدوان النصارى وطلبوا إليه النجدة والعون ، فوعدهم بتحقيق أمنيتهم[1] . ثم توالى صريخهم بعد ذلك . ويحدثنا يوسف بن تاشفين نفسه عما تلقاه من صريخ الأندلس المتوالى فى رسالته التى بعث بها عقب موقعة الزلاقة إلى المعز بن باديس أمير إفريقية ، فيقول : « ولما بلغنا من استحواز النصارى ، — دمرهم الله — على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والتزام الجزية لرؤسائها ، واستيصال أقالمها ، وإيطائهم البلاد داراً داراً ، لايتخوفون عسكراً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان ، فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار »[2] . ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية ، ويوردها بصورة أخرى ، فيقول لنا إن المعتمد بن عباد خاطب أمير المسلمين يوسف ، ملتمساً إنجاز وعده فى إنجاد الإسلام فى الأندلس ، وكاتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة ، فاهتز أمير المسلمين للجهاد ، وبعث ابنه المعز فى عساكر المرابطين إلى سبتة فنازلها براً ، وطافت بها سفن ابن عبـــاد بحراً ، ثم اقتحموها عنوة فى ربيع الآخر

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٠ .

(٢) راجع رسالة يوسف عن موقعة الزلاقة ، وقد نشرناها فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب .

سنة ٤٧٦هـ ، وأسر صاحبها يحي بن سكوت ثم قتل . وجاز ابن عباد بعد ذلك ، وقصد إلى أمير المسلمين ، ولقيه بفاس مستنفراً له فى الجهاد، ونزل له عن ثغر الجزيرة ليكون رباطا لجهاده(١) . ويقول لنا ابن أبى زرع ، إن أمير المسلمين لما عاد إلى مركش فى سنة ٤٧٥ هـ عقب فتحه لوهران وتونس ،ورد عليه كتاب المعتمد بن عباد ، يعلمه بحال الأندلس ، وما آل إليه أمرها من تغلب العدو على معظم ثغورها ، ويسأله الإنجاد والعون ، فأجابه يوسف بأنه إذا فتح الله عليه سبتة فإنه سوف يتصل بهم ،ثم يحدثنا بعد ذلك عن الغزوة التى قام بها ألفونسو فى نفس العام ، فى أراضى إشبيلية وكيف اخترقها بقواته حتى وصل إلى طريف ، وخاض الماء بفرسه قائلا ، هذا آخر الأندلس قد وطأته ، وأنه لما استولى على طليطلة اتفق أمراء الأندلس وكبراؤها على الاستنصار بيوسف وكتبوا إليه جميعاً يلتمسون منه الغوث ، وأنهم سوف يكونون معه يداً واحدة فى جهاد العدو . فلما توالت كتب الأندلس على يوسف بعث ابنه المعز لافتتاح سبتة ، فحاصرها وافتتحها فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ ،فسر بذلك أمير المسلمين ، وسار فى الحال بقواته نحو الشمال ليجوز منها إلى الأندلس(٢) . وفى أقوال ابن أبى زرع شىء من الغموض والتناقض فى التواريخ . ولكنه مع ذلك يؤيد الواقعة الجوهرية ، وهى أن اتجاه أمراء الطوائف إلى الاستنصار بأمير المسلمين ، حدث قبل سقوط طليطلة ببضعة أعوام ،وأن سقوط طليطلة لم يكن إلا عاملا جديداً فى تقوية هذا الاتجاه وإذكائه .

وإنه ليلوح لنا أن فكرة استدعاء المرابطين لإنجاد الأندلس ، قد خطرت لأول مرة للمعتمد بن عباد حينما اشتد ألفونسو فى إرهاقه بطلب الجزية ، وأرسل إليه ابن شاليب اليهودى فى اقتضائها ، وذلك فى سنة ٤٧٥هـ وقع عندئذ ما وقع من بطش ابن عباد برسل ألفونسو ، وخروج ملك قشتالة فى قواته للانتقام من ابن عباد ، واجتياحه لمملكته ، وتخريبه لمدنها ومروجها ، من إشبيلية جنوباً حتى مدينة طريف ، وذلك حسبما فصلناه فى موضعه من أخبار مملكة إشبيلية . والظاهر أن المعتمد قد أدرك عندئذ ، وإن يكن متأخراً ، فداحة الخطأ الذى

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ . وقد وهم ابن خلدون فى واقعة عبور المعتمد إلى المغرب وزيارته لأمير المسلمين . والواقع أن هذه الزيارة تمت بعد موقعة الزلاقة .

(٢) روض القرطاس ص ٩٢ و ٩٣ .

ارتكبه ، بخضوعه لملك قشتالة ومحالفته ، وأدرك مدى ما تنطوى عليه سياسة هذا الملك القوى من الخديعة والغدر ، واعتزم عندئذ أمره فى استدعاء المرابطين.

وليس معنى ذلك أن ابن عباد كان ينفرد بهذا التفكير وهذا العزم ، فلا شك أن معظم أمراء الطوائف قد جالت بخواطرهم تلك الفكرة ، فقد كانوا جميعاً يشعرون بنفس الخطر ، وكانوا جميعاً يعانون ضغط ملك قشتالة ، وتخريبه لأراضيهم ، وجشعه فى استصفاء أموالهم باسم الجزية ، بيد أن ابن عباد ، وقد كان كبير ملوك الطوائف ، وكان يواجه فى نفس الوقت أعظم الأخطار المباشرة من عدوان ملك قشتالة ، كان حرياً بأن يتقدمهم فى اعتناق هذه الفكرة وتنفيذها . على أن فكرة الاستنصار بالمرابطين لم تكن دون معارضة ، فقد كان ثمة بين ملوك الطوائف من يخشى عواقبها ويحذر ابن عباد من مغبة سياسته ، وقد أجابهم ابن عباد بكلمته المأثورة « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » ، يقصد بذلك أن خير له أن يغدو أسيراً لدى أمير المسلمين يرعى جماله ، من أن يغدو أسيراً لملك قشتالة النصرانى(١) .

ثم كان سقوط طليطلة بعد ذلك بعامين ، فكان نذيراً لاشك فى خطورته . وإذا كانت فكرة الاستنصار بالمرابطين ، قد بدت من قبل لأمراء الطوائف أملا يداعبهم ، فقد بدت عندئذ ضرورة ماسة ، وبدت بالنسبة للأندلس مسألة حياة أو موت ، ومن ثم فإن الصريخ الذى كان يتخذ من قبل صورة الكتب والدعوات الخاصة ، يتخذ عندئذ صورته الرسمية ، وتشاطر الأندلس كلها ، أمراؤها وفقهاؤها وكافتها هذا الاتجاه ، ويبعث ابن عباد وزميلاه المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، سفارتهم الرسمية إلى أمير المسلمين ، على يد أبى بكر عبيد الله بن أدهم قاضى قرطبة ، وأبى إسحق بن مُقانا قاضى بطليوس ، وأبى جعفر القليعى قاضى غرناطة ، وأبى بكر بن زيدون وزير المعتمد(٢) . وعبر سفراء الأندلس البحر إلى المغرب وقصدوا إلى أمير المسلمين فى مراكش ، وكانت وفود الأندلس تتوالى من قبل

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٨٥ .

(٢) راجع الحلة السيراء ج ٢ ص ٩٩ ، والروض المعطار ص ٨٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٦ . وراجع دوزى : Histoire; Vol. III p. 124

ذلك على يوسف مستعطفة باكية ، ترجوه الغوث والإنجاد ، فيستمع إلى قولهم ، ويعدهم خيراً . والظاهر أن سفارة الأندلس الرسمية لم تأت لكى تلتمس العون ، دون قيد ولاشرط . وقد وقعت بينها وبين أمير المسلمين مفاوضات أسفرت عن عهود متبادلة ، خلاصتها أن يتعاون أمير المسلمين وأمراء الطوائف فى محاربة النصارى ، وأن يؤمن أمراء الطوائف فى ممالكهم ، وألا تحرض رعيتهم على شىء من الفساد . ومن جهة أخرى فقد طلب أمير المسلمين عملا بنصح وزيره الأندلسى عبد الرحمن بن أسبط أن يُسلم إليه ثغر الجزيرة ، وقد كان يومئذ من أملاك ابن عباد ، لكى يكون قاعدة أمينة لعبور جيشه ، وقد نزل ابن عباد عند هذه الرغبة ، وأمر حاكم الجزيرة ولده يزيد الراضى بإخلائها ، لتكون رهن تصرف أمير المسلمين(١) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما عمد إليه ملك قشتالة عقب استيلائه على طليطلة ، من الكتابة إلى ابن عباد يطالبه بتسليم بلاده ، وينذره بسوء المصير ، وما كتب به كذلك إلى المتوكل بن الأفطس فى هذا المعنى ، وإلى مارد به كل من الأميرين المسلمين ، على الملك النصرانى ، وذلك فى أخبار مملكتى إشبيلية وبطليوس .

* * *

وهكذا اعتزم أمير المسلمين أمره ، بعد استشارة قومه وفقهائه ، وقرر أن يلبى صريخ أهل لأندلس ، وأن يبادر إلى غوثهم ، ولم يك ثمة شك فى أن يوسف وقومه المرابطين ، كانت تحدوهم نزعة الجهاد فى سبيل الله ، بيد أن أولئك الجند الصحراويين الذين نشأوا فى غمار القفر والبداوة ، كانت تحدوهم فى نفس الوقت رغبة فى رؤية الأندلس ، وما اشتهرت به من الخصب والنعماء ، وأن يبلوا حرب النصارى(٢) . ومن الصعب علينا فى هذا الموطن ، أن نستشف نيات يوسف التى كشف عنها فيما بعد ، فى افتتاح الأندلس وامتلاكها ، بيد أنا نرجح أنه لم يكن يجيش بمثل هذه النية فى البداية ، وأنها خطرت له فيما بعد ، بعد أن درس أحوال الأندلس ، وأحوال أمرائها . واستنفر يوسف سائر قواته وحشوده للجهاد ،

---

(١) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ و ١٠٣ ، والحلل الموشية ص ٣٢ و ٣٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣١ .

وكان قد تم له يومئذ فتح سبتة ، فسار إليها ، والجيوش تتلاحق فى أثره من الصحراء ، وبلاد الزاب ، ومختلف نواحى المغرب ، وأصلح مرافئها وحشد السفن لعبور قواته ، وكان أول ما عبر منها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة ؛ عبرت إلى ثغر الجزيرة الخضراء ، واحتلته وفقاً لما تم الاتفاق عليه ، ثم أخذت الجيوش المرابطية تعبر تباعاً ، حتى تم عبورها جميعاً إلى شبه الجزيرة . وفى ضحى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيه ١٠٨٦ م) عبر البطل الشيخ فى بقية قواته . وماكادت السفن العابرة تمخر عباب المضيق ، حتى اضطرب البحر وتعالت الأمواج ، فنهض الزعيم المرابطى حسبما يحدثنا بنفسه وسط سفينته ، وبسط يديه بالدعاء نحو السماء قائلا : « اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا خيرة للمسلمين ، فسهل علينا جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » . ثم يقول لنا ، إنه ماكاد يتم كلامه حتى « سهل الله المركب ، وقرب المطلب » . وشاء ربك أن تعبر السفن المرابطية ، فى ريح طيبة وبحر هادىء ، وأن تصل إلى ثغر الجزيرة فى سلام(١)

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣ . وهذا ما ذكره يوسف بن تاشفين نفسه فى خطابه بالفتح إلى المعز بن باديس . (ويراجع الخطاب المذكور فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب) .

الفصل الثاني

موقعة الزلاقة

مسير يوسف بن تاشفين وجيشه إلى إشبيلية . المعتمد بن عباد يقدم الضيافات والمؤن . لقاء الملكين . زيارة يوسف لإشبيلية . كتبه إلى ملوك الطوائف للمشاركة فى الجهاد . مقدم أميرى غرناطة ومالقة ومعز الدولة بن صمادح فى قواتهم . مسير الجيوش المرابطية والأندلسية إلى بطليوس . مسيرها إلى سهل الزلاقة . ألفونسو السادس ومبادرته إلى التأهب للقاء المرابطين . استعانته بسائر ملوك النصارى . مسيره إلى الجنوب للقاء المسلمين . مواقع الفريقين . عدد قوات المسلمين والنصارى . الجيش الإسلامى وأقسامه . كتاب يوسف إلى ألفونسو . رد ألفونسو ورد يوسف عليه . بداية المعركة . عنف هجوم النصارى . ثبات المعتمد بن عباد وجند إشبيلية . مهاجمة ألفونسو للمرابطين . اندفاع المرابطين لإنجاد اخوانهم . تغير وجه المعركة . مهاجمة النصارى لمعسكر المرابطين . تطويق قوات لمتونة وصنهاجة للنصارى . المعركة الهائلة . تمزق صفوف القشتاليين . اشتداد هجوم المرابطين من الناحيتين . كثرة القتل بين النصارى . نزول حرس يوسف الأسود إلى المعركة . جرح ألفونسو وفراره . تقدير خسائر الفريقين . مسير ألفونسو فى فلوله إلى طليطلة . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقدير خسائر النصارى . ذيوع أنباء النصر فى الأندلس والمغرب . رسالة يوسف عن الفتح . لقب أمير المسلمين وهل اتخذه يوسف عقب الزلاقة . إحجام يوسف عن مطاردة النصارى وبواعثه . عود الجيوش الأندلسية إلى قواعدها . الثناء على المعتمد بن عباد وثباته . تنويه أمير المسلمين ببطولته . يوسف يتلقى نبأ وفاة ولده . إسراعه بالعود إلى المغرب . ما يقال فى بواعث هذه الحركة . نصر الزلاقة وطابعه . المعنى الصليبى الذى ينطوى عليه لقاء المسلمين والنصارى . دعوة ألفونسو عقب هزيمته إلى إنشاء جبهة نصرانية . شعور المؤرخين المسلمين بخطورة الموقعة وصبغتها الصليبية . ما قيل حولها من الأساطير . أثر الزلاقة ونتائجها الحاسمة . انتعاش قوى الأندلس . تحرر ملوك الطوائف من نير قشتالة . ارتداد سيل الجيوش النصرانية عن الأندلس . الإسلام يغنم فى اسبانيا حياة جديدة .

نزل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ثغر الجزيرة الخضراء ، فى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيه ١٠٨٦ م) ، وجيوشه الجرارة تحيط بها من كل صوب . وماكاد يطأ بقدميه أرض الأندلس ، حتى سجد لله شكراً ، ثم أخذ فى تحصين الجزيرة ، وإصلاح أسوارها وأبراجها ، ورتب لها حامية خاصة من جنده ، ثم سار فى قواته صوب إشبيلية .

وبعث المعتمد بن عباد ولده عبد الله لاستقبال يوسف بالجزيرة ، ورتب تقديم المؤن والأطعمة والضيافات للجيش المرابطى ، على طول الطريق إلى

إشبيلية ، واستعد لذلك استعداداً عظيما سر به يوسف . ولما اقترب يوسف من إشبيلية خرج المعتمد إلى لقائه فى وجوه أصحابه وفرسانه ، وتعانق الملكان ، وأبدى كل منهما لأخيه منتهى المودة والإخلاص ، وتضرعا إلى الله أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه، وقدم ابن عباد إلى أمير المسلمين جليل الهدايا والتحف، وقدم المؤن والضيافات الكافية لسائر الجيش القادم ، وقرت عينه بما رآه من ضخامته وروعة استعداده ، وأيقن ببلوغ النصر المنشود . وفى اليوم التالى سار أمير المسلمين إلى إشبيلية ، تلاحقه قواته ، وأقام هناك ثلاثة أيام . وكان يوسف قد كتب فى أثناء ذلك إلى سائر ملوك الطوائف ، يدعوهم إلى اللحاق به ، والمشاركة فى الجهاد فى سبيل الله، وكان أول من لبى دعوته منهم عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة. واعتذر المعتصم بن صمادح صاحب المرية بضعفه وكبر سنه ، وتوجسه من عدوان النصارى فى حصن لييط (أليدو)، وبعث ابنه معز الدولة فى فرقة من جنده . ثم سار أمير المسلمين فى جيوشه الجرارة ، ومعه ابن عباد فى قوات إشبيلية ، وقرطبة ، وقصدوا إلى بطليوس ، فلقيهم أميرها عمر المتوكل على مقربة منها ، وقدم لهم المؤن والضيافات الواسعة ، وأنفق أمير المسلمين أياماً فى بطليوس ينتظر وفود الرؤساء من سائر أقطار الأندلس ، بعد أن علم وتأكد لديه أن كل واحد منهم مشغول بمدافعة النصارى(١). ولم يلحق به منهم سوى عبد الله وأخيه تميم ومعز الدولة . وانتظمت القوات الأندلسية إلى وحدة قائمة بذاتها يتولى قيادتها ابن عباد ، واحتلت المقدمة ، واحتلت الجيوش المرابطية المؤخرة ، وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة فى سيرها إلى سهل يقع شمالى بطليوس على مقربة من حدود البرتغال الحالية ، ويمتد مصعداً نحو قورية ، وتسميه الرواية العربية بالزلاّقة(٢) .

وكانت أنباء عبور المرابطين إلى شبه الجزيرة ، قد وصلت إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وهو محاصر لسرقسطة ، وذلك فى أواخر يوليه أو أوائل أغسطس ١٠٨٦ م (جمادى الأولى سنة ٤٧٩) ، فترك الحصار على عجل ،

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر .

(٢) راجع الحلل الموشية ص٣٣ و ٣٤، والروض المعطار ص ٨٧ — ٩٠ ، وسهل الزلاقة يعرف بالإسبانية Sagrajas ، وهو يقع على قيد ثلاثة مراحل من شمال بطليوس إلى يسار نهر جريرو ، أحد أفرع وادى يانة .

وتنفس مخنق المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وبعث ألفونسو إلى سانشو راميرز ملك أراجون يستدعيه لإنجاده ، وكان يومئذ قائماً بحصار طرطوشة ، وبعث كذلك إلى أمراء ما وراء البرنيه ، وحشد كل ما استطاع حشده من قوات جليقية وأشتوريش وبسكونية (نافار)، واستدعى قائده ألبار هانيس بقواته من بلنسية ، وتقاطر إليه سيل من الفرسان المتطوعة من جنوبى فرنسا وإيطاليا . واعتزم ألفونسو أن يلقى الأعداء فى أرضهم حتى لا تخرب بلاده إذا وقعت به الهزيمة ، وسار على رأس القوات النصرانية المتحدة إلى الجنوب للقاء المسلمين ، وهو واثق من تفوق قواته فى العدد والعدة ، والكفاية الفنية ، ولم تصله أنباء دقيقة عن حالة الجيش الإسلامى(١) .

واستقرت الجيوش النصرانية ، فى مكان يبعد نحو ثلاثة أميال عن المعسكر الإسلامى ، يفصل بينها وبين المسلمين فرع وادى يانة الممتد شمالا فى اتجاه نهر « التاجُه » والذى يسمى اليوم « جريرو » . وجعل أنفونسو على مقدمة جيشه ، قائده ألبار هانيس ، وكانت تتألف فى معظمها من جنود أراجون ، والمتطوعة . وقد اختلفتَ الرواية فى تقدير قوات المسلمين والنصارى . وتقدر بعض الروايات العربية جيش النصارى بثمانين ألف مقاتل ، ويقدرها البعض الآخر بخمسين ألفاً أو أربعين ألفاً . وأما الجيش الإسلامى ، فيقدره البعض بثمانية وأربعين ألفاً ، والبعض الآخر بعشرين ألفاً ، على أنه يبدو من الروايات المختلفة أن النصارى كانوا يفوقون المسلمين فى العدد(٢) . وكان الجيش الإسلامى ، ينقسم حسبما قدمنا إلى وحدتين كبيرتين : قوات الأندلس ، وتحتل المقدمة ويقودها المعتمد بن عباد ، ويقود منها المتوكل بن الأفطس قوات الميمنة ،ويشغل أهل شرقى الأندلس الميسرة . وأما القوات المرابطية ، فكانت تحتل المؤخرة ، وتنقسم إلى قسمين ، يضم الأول فرسان البربر من سائر القبائل ، ويتولى قيادته داود بن عائشة أبرع قواد البربر ، ويتولى يوسف قيادة الجيش الإحتياطى المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرهما من القبائل البربرية .

ولبث الجيشان الخصمان ، كل منهما تجاه الآخر لا يفصلهما سوى النهر ،

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 331 & 332

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٣٨ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٨ ، والمعجب للمراكشى ص ٧١ .

مدى أيام ثلاثة ، والرسل تتجاوب بينهما . وكتب يوسف قبيل المعركة إلى ملك قشتالة ، عملا بأحكام السنة كتاباً يعرض عليه فيه الدخول فى الإسلام ، أو الجزية أوالحرب[١] ، ومما جاء فيه : « بلغنا يا أدفونش ، أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

فاستشاط ألفونسو لذلك الخطاب غضباً ، ورد على أمير المسلمين بكتاب غليظ يفيض بالوعيد ، فاكتفى يوسف بأن رد إليه كتابه ممهوراً بتلك العبارة ، « الذى يكون ستراه »[٢] .

وحاول ألفونسو خديعة المسلمين فى تحديد يوم الموقعة ، فكتب إلى المعتمد ابن عباد ، يوم الخميس ، يقول له إن غدا يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، وبعده السبت يوم اليهود ، وهم كثير فى محلتنا ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فيكون اللقاء بيننا يوم الاثنين ، فأدرك ابن عباد ويوسف خديعته ، وجاءت طلائع المعتمد فى الليل تنبىء أن معسكر النصارى فى حركة وضوضاء وجلبة أسلحة ، مما يدل على استعداد القوم لبدء القتال . ومن ثم فقد لبث المسلمون على أهبتهم حذرين متحفزين[٣] .

وقد حدث فى الواقع ما توقعه المسلمون ، فإنه ماكاد يتنفس صبح اليوم التالى ، وهو يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م)[٤] ،

---

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٨ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢

(٣) الحلل الموشية ص ٣٩ ، والروض المعطار ص ٩٢ . وهذا ما يقرره يوسف نفسه فى خطابه عن الموقعة إلى المغرب (راجع روض القرطاس ص ٩٧) .

(٤) تختلف الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ المعركة ، فيقول ابن خلكان (نقلا عن البياسى) إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ (ج٢ ص ٤٨٤) ويتفق ابن الأثير معه فى السنة ، ولكنه يقول إنها كانت فى أوائل رمضان (ج ١٠ ص ٥٣) . ويقول المراكشى إنها كانت فى رمضان سنة ٤٨٠ هـ (ص ٧٢) . ولكن ورد فى روض القرطاس (ص ٩٦) ، وفى الحلل الموشية (ص ٤٠ و ٤١) أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ . وهذا هو التاريخ الصحيح ، وهو الذى يذكره يوسف بن تاشفين فى خطابه بالفتح إلى عدوة المغرب ، حيث يقول فى ختامه « وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة الثانى عشر لرجب سنة تسع وسبعين وربعمائة =

حتى زحف النصارى وابتدأ القتال ، واشتبك الجيشان فى معركة عامة ، فهجمت مقدمة القشتاليين والأرجونيين التى يقودها ألبارهانيس ، على مقدمة المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية ، والتى يقودها ابن عباد . وكان هجوماً عنيفاً ردها عن مواقعها ، واختل نظامها فارتد معظمها نحو بطليوس . ولم يثبت فى وجه المهاجمين سوى المعتمد وفرسان إشبيلية ،فقاتلوا النصارى بشدة ، وأثخن أميرهم الباسل جراحاً ، وتفرق معظمهم من حوله ، وكثر القتل فى جند الأندلس ، وكادت تدور عليهم الدائرة ، دون أن يتقدم لإنجادهم أحد . وفى الوقت نفسه كان ألفونسو قد هاجم مقدمة المرابطين ، التى يقودها داود بن عائشة ، وردها أيضاً عن مواقعها . فى تلك الآونة العصيبة ، دفع يوسف بقوات البربر التى يقودها أبرع قواده ، وهو سير بن أبى بكر اللمتونى لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معاً ، ونفذ بقواته إلى قلب النصارى بشدة ، وسرعان ما تغير وجه المعركة ، واسترد الأندلسيون والمرابطون ثباتهم ، وعاد الفارون إلى صفوفهم . واضطرمت المعركة فى هذا الجناح رائعة ، ترجح بها كفة المسلمين ، وكان ألفونسو ، فى ذلك الوقت قد تقدم فى هجومه ، حتى صار أمام خيام المرابطين ، واقتحم الخندق الذى يحميها . ولكن حدث فى نفس الوقت ، أن لجأ يوسف إلى خطة مبتكرة ، إذ تقدم فى قواته الاحتياطية من لمتونة وصنهاجة ، وتجاوز النصارى المهاجمين ، وقصد إلى المعسكر النصرانى ذاته ، وهاجمه بشدة ، وكانت تحرسه قوة ضعيفة ، ففتك بها ، ووثب إلى مؤخرة القشتاليين ، وأثخن فيهم من الوراء ، وطبوله تضرب حول جيشه فيشق دويها الفضاء ، ثم أضرم النار فى محلة القشتاليين ، فارتفعت ألسنتها فى الهواء ، فلما علم ألفونسو ما حل بمعسكره ، ارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك ، فاصطدم بمؤخرة المرابطين ، ووقعت بين قوات العاهلين معركة هائلة ، مزقت فيها صفوف القشتاليين ولم يستطع الملك النصرانى أن يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة ، وهنالك استؤنفت المعركة ، ويوسف فوق فرسه يصول ويجول ، ويحث جنده على

= موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمى (روض القرطاس ص ٩٨) . وهذا التاريخ نفسه أعنى ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ ، هو الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة . والظاهر أن أصحاب التواريخ المخالفة لم يطلعوا على كتاب يوسف بالفتح .

وراجع أيضاً : Dozy : Histoire, V. III. p. 129 & notes

الثبات ، ويرغبهم فى الاستشهاد، ودوى الطبول من حوله يصم الآذان . وينوه الأستاذ پيدال بتأثير وقع الطبول وضجيجها فى اضطراب القشتاليين ، ويقول إنه لم يسبق من قبل أن عرفت الجيوش الإسبانية ، مثل هذا الضجيج الذى تهتز له الأرض ، ومن جهة أخرى ، فقد عمد المرابطون إلى القتال فى صفوف متراصة متناسقة ثابتة ، وهى أيضاً خطة جديدة لهم فى القتال ، ولم يكن للفرسان النصارى عهد بمثلها ، إذ كانوا معتادين على القتال الفردى . ومن ثم فقد ألفوا أنفسهم بالرغم من تفوقهم فى السلاح ، عاجزين عن مناهضة هذه الصفوف المتراصة التى تفوقهم بكثافتها وعديدها(١) .

واشتد هجوم المرابطين فى نفس الوقت بقيادة سير بن أبى بكر على مقدمة القشتاليين التى يقودها ألبارهانيس ، واستردت جيوش الأندلس كل إقدامها وشجاعتها ، وكثر القتل من الجانبين فى صفوف القشتاليين . وكانت الضربة الأخيرة أن دفع يوسف بحرسه الأسود ، وقوامه أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمعة ، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ، وأن يطعنه بخنجره فى فخذه طعنة نافذة . وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب ، وأدرك ألفونسو وقادته وفرسانه أنهم يواجهون الموت ، إذا استمروا فى موقفهم، وعندئذ بادر ألفونسو فى فل من صحبه وأشرافه إلى التراجع ، والاعتصام بتل قريب حتى دخل الليل، فسار وصحبه تحت جنح الظلام ، وتقدر الرواية من أفلت مع ملك قشتالة بنحو أربعمائة أوخمسمائة فارس ، معظمهم جرحى . وكانت صفوف النصارى قد مزقت عندئذ فى كل ناحية شر تمزيق ، وتعالت أكوام الأشلاء والجرحى ، وطورد الفارون فى كل مكان ، وهلك كثيرون منهم أثناء المطاردة ، ولم ينقذ البقية الباقية من النصارى سوى دخول الظلام ، وأمر يوسف بوقف المطاردة .

وأمضى المسلمون الليل فى ميدان الحرب ، يرقبون حركات النصارى ، وفى صباح اليوم التالى أخذت فرسانهم فى مطاردة المتخلفين ، وعمدت قوة أخرى إلى جمع الأسلاب وكانت عظيمة وافرة . ويشير يوسف فى رسالته بالفتح إلى المعز بن باديس، إلى وفرة الغنائم من الخيل والبغال والحمير والثياب والأوبار

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٥ ، والحلل الموشية ص ٤٢ ، وراجع أيضاً :
R. M. Pidal : ibid., p. 335 & 339

ويقول لنا إن الفارس الواحد كان يربط معه خمسة أفراس أو أزيد .

وتقول الرواية الإسلامية ، إنه لم ينج من الجيش النصرانى سوى خمسمائة فارس أو أقل ، هم الذين فروا مع ملك قشتالة . وتابع ملك قشتالة فراره مع فلوله ولم يتوقف إلا عند قورية ، على بعد عشرين مرحلة من ميدان الموقعة . وتضيف الرواية إلى ذلك أن معظم أولئك الفرسان الفارين كانوا مثخنين بالجراح ، فمات معظمهم فى الطريق ، ولم يصل منهم إلى طليطلة مع مليكهم سوى مائة[1] . وهذا هو نفس ما يقرره يوسف فى خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به إلى المغرب حيث يقول : « وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليطلة إلا فى مائة فارس »[2] . بيد أنه فى رسالته التى بعث بها إلى المعز بن باديس ، والتى يصف لنا فيها معركة الزلاّقة تفصيلا ولاسيما الدور الذى قام به مع جنده ، يقول لنا ، إنه علم أن الذى انقطع به ألفونسو من عسكره يبلغون نحو ألفى رجل ، قد أثخن معظمها جراحة ، وأنهم انتظروا حتى دخول الليل ، ثم لجأوا إلى الفرار . ثم تقول الرواية الإسلامية أيضاً إن المسلمين لم يخسروا فى المعركة سوى نحو ثلاثة آلاف[3] ، ويقول لنا يوسف فى رسالته إنه قُتل من أكابره نحو العشرين ، هذا فى حين أن النصارى قد هلك معظمهم . وتذهب فى تقدير خسائر النصارى إلى حد قولها إنهم بلغوا نحو ثلاثمائة ألف[4] . بيد أن هناك أقوالا أكثر اعتدالا ، فيروى مثلا أن أمير المسلمين أمر بقطع رؤوس القتلى من النصارى فقطعت وجمعت ، فاجتمع منها تل عظيم ، أذن من فوقه للصلاة ، واجتمع منها بين يدى المعتمد بن عباد أربعة وعشرين ألفاً ، وأن رؤوس القتلى التى وزعت على قواعد الأندلس بلغت أربعين ألفاً ، وأنه أرسل إلى المغرب أربعين ألفاً أخرى ، لتوزع على قواعده . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الروم (القشتاليين) وكانوا ثمانين ألف فارس ، ومائتى ألف راجل ، فقتلوا أجمعين ولم ينج منهم إلا ألفنش فى مائة فارس ، ومن الغريب أن هذه الأرقام نفسها هى التى وردت

---

(١) روض القرطاس ص ٩٦ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٦ .

(٤) الحلل الموشية ص ٤٣ .

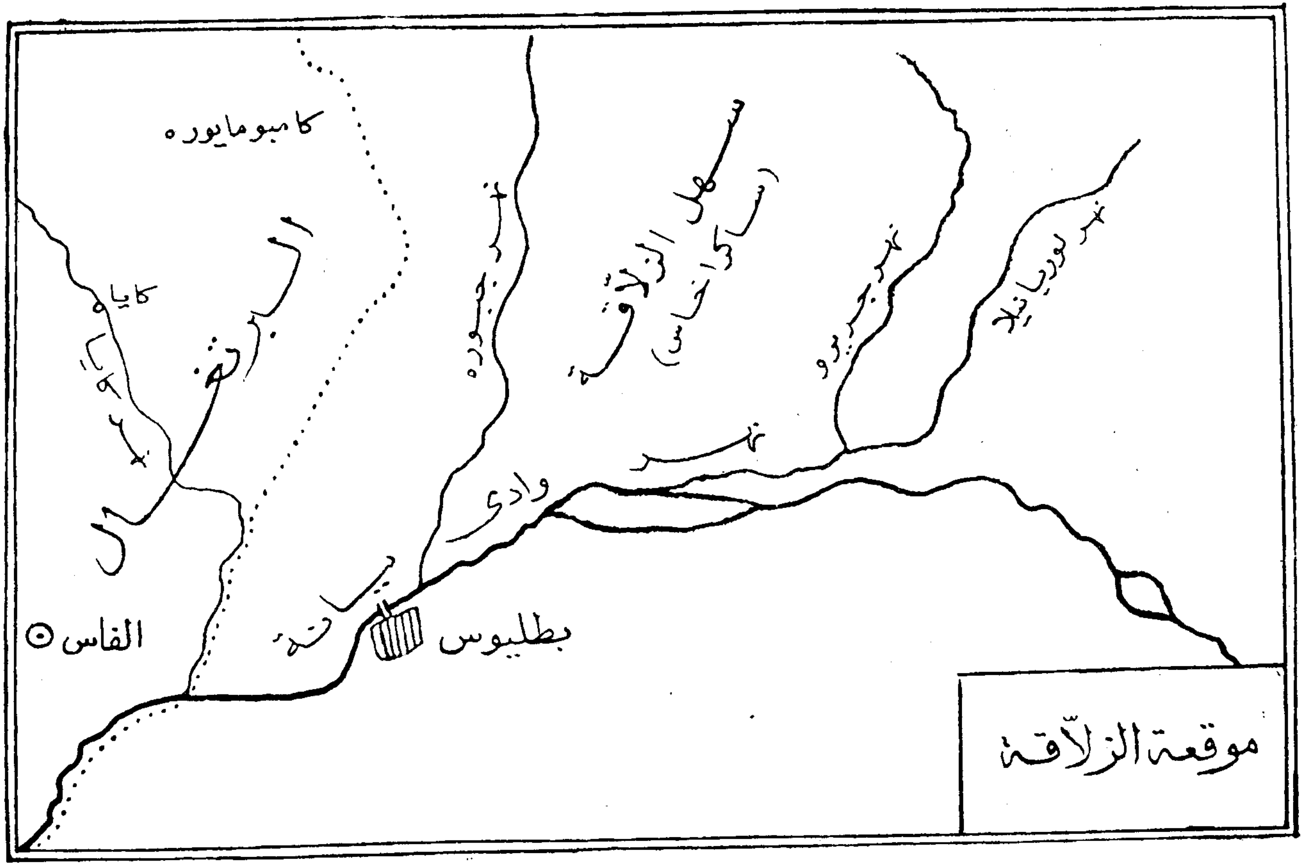
موقعة الزلاقة
كامبومايوره
البرتغال
نهر كايا
القاس
بطليوس
وادي
يانه
نهر
نهر جيبوره
سهل الزلاقة
(ساكراخاس)
نهر جيريرو
نهر لوريانيلا

فى خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به يوسف إلى المغرب(١) . وهذه كلها أقوال تحمل طابع المبالغة بلا ريب ، وإن كانت الرواية النصرانية تجمع على أن الموقعة كانت هائلة ، وأن خسائر النصارى كانت فيها ذريعة فادحة . ولا ريب أيضاً أن خسائر المسلمين كانت عظيمة ، وإن كانت أقل بكثير من خسائر النصارى ؛ وليس من المعقول أن تقتصر على ثلاثة آلاف فى مثل هذه الحشود الضخمة . ذلك أنه فى معركة ؛ يطبعها من الشدة والتفانى والحماسة الدينية ، ما طبعت به موقعة الزلاّقة . لابد أن تكون الخسائر فيها فادحة من الجانبين ، الظافر والمغلوب .

وذاعت أنباء النصر فى الحال فى سائر جنبات الأندلس ، وطيرت إلى سائر القواعد الأندلسية . واستبشر المسلمون فى شبه الجزيرة بما آتاهم الله من عزيز نصره . وكتب يوسف بأنباء الواقعة أو بالفتح حسبما يوسم خطابه إلى بلاد العدوة ، وكتب رسالته المسهبة عن الموقعة وأوصافها إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وهى التى أشرنا إليها فيما تقدم غير مرة . وتجاوبت أصداء النصر فى سائر مدن المغرب وإفريقية ، وعم الفرح والبشر سائر الناس ، فأخرجوا الصدقات ، وأعتقوا الرقاب . وقيل إن يوسف اتخذ لقبه «أمير المسلمين» عقب نصر الزلاّقة(٢) وأن أمراء الأندلس ، حينما هنأوه بالنصر أسبغوا عليه هذا اللقب ، ولكنا رأينا فيما تقدم ، أنه اتخذ هذا اللقب بالمغرب قبل ذلك بأعوام عديدة . بيد أنه مما يلفت النظر أن أمير المسلمين وحلفاءه الأندلسيين ، لم يحاولوا استغلال نصرهم بمطاردة العدو داخل بلاده ، والزحف إلى أراضى قشتالة ، بل ولم يحاولوا السير إلى طليطلة لاستردادها ، وهى كانت معقد المحنة التى دفعت ملوك الطوائف إلى الاستغاثة بالمرابطين . ولو بذل المرابطون هذه المحاولة ، فى الوقت الذى حطم فيه جيش قشتالة وفتحت حدودها ، لكللت بالنجاح بلا ريب .

وقد قيل لنا فى ذلك إن ابن عباد نصح لأمير المسلمين بمطاردة ملك قشتالة والقضاء على فلوله ، فاعتذر يوسف عن ذلك بحجة أنه يجب انتظار ورود

---

(١) روض القرطاس ص ٩٦ و ٩٧ . وراجع أيضاً أقوال الروايات الإسلامية الأخرى عن خسائر النصارى فى الموقعة ، فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٦ .

الفارين من المسلمين أولا ، حتى لا يهلكهم النصارى . ونسبت فى ذلك إلى كلا الرجلين نيات مريبة(١) .

وعلى أى حال فقد وقف نصر المسلمين عند هذا الحد ، وتفرق الجيش الإسلامى ، فارتد أمراء الأندلس كل إلى بلاده . ونلاحظ فيما يتعلق بأمراء الأندلس، وموقف كل منهم خلال المعركة، أن الرواية الإسلامية تخص المعتمد ابن عباد بتقديرها وثنائها . فقد انكشفت سائر القوات الأندلسية الأخرى فى بداية المعركة : قوات بطليوس وغرناطة وألمرية ، وارتدت منهزمة صوب بطليوس، ولم تعد إلى الميدان إلا حينما لاحت طوالع النصر . ولكن المعتمد ثبت أمام القشتاليين حسبما أسلفنا ، وأبلى وجنده الإشبيليون خير البلاء ، وأثخن جراحاً ولم يغادر ميدان المعركة ، حتى تداركته النجدات المرابطية(٢) . وينوه أمير المسلمين بثبات المعتمد وبطولته فى ذلك اليوم فى خطابه بالفتح إلى المغرب إذ يقول : « ولم يثبت فيهم (أى رؤساء الأندلس) غير زعيم الرؤساء والقواد أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهنأه بالفتح الجليل والصنع الجميل »(٣) . وينوه بذلك أيضاً فى رسالته إلى المعز بن باديس ويذكر المعتمد فيها بعطف وإجلال ، ويثنى عليه الثناء الجم . بيد أنه مما كدر صفو هذا النصر ، أن تلقى أمير المسلمين فى نفس هذا اليوم ذاته ، نبأ وفاة ولده وولى العهد الأمير أبى بكر ، وكان قد استخلفه فى مراكش وتركه مريضاً بسبتة ، فقرر العودة فوراً إلى المغرب ، ويؤكد لنا صاحب روض القرطاس أنه لولا ذلك المصاب ما عاد يوسف بمثل هذه السرعة(٤) . بيد أنه قيل فى ذلك إن إسراع يوسف بالعود ، لم يكن راجعاً إلى وفاة ولده ، بل كان يرجع بالأخص إلى استيائه وتبرمه بما شهده من أحوال أمراء الأندلس، وخلافاتهم فيما بين أنفسهم وفيما بينهم وبين شعوبهم(٥) . ومن ثم فقد عاد أمير المسلمين فى قواته إلى إشبيلية فاستراح بظاهرها أياماً ، ثم قفل راجعاً إلى المغرب، تاركاً من جنده ثلاثة آلاف رهن تصرف المعتمد .

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٩٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٥ ، والحلل الموشية ص ٤٢ ؛ والروض المعطار ص ٩٢ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٧ .

(٤) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٥) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٧ .

ويعلق العلامة المستشرق الأستاذ كوديرا على ذلك بقوله : « إنه كان من حسن الطالع بالنسبة للنصارى أن يوسف الظافر فى الزلاقة ، قد تلقى عقب نصره نبأ وفاة ولده الأمير أبى بكر سير ، واضطر أن يعود إلى مراكش تاركاً فكرة مطاردة الجيش المنهزم ، واجتناء الثمرة التى يمكن أن تجنى من مثل هذا النصر العظيم، وهى الاستيلاء على طليطلة . وهى فكرة كانت تبدو طبيعية ولكنها لم تكن قد استقرت فى ذهنه بصورة عملية ، وذلك بالرغم مما يقوله لنا المؤرخون العرب من أنه لولا موت ابنه لما غادر الأندلس بهذه السرعة . وبالرغم من أن المؤرخين يؤكدون أن هزيمة ألفونسو السادس كانت مروعة . وأنه استطاع الفرار بمنتهى المشقة ، مع نفر قليل من صحبه، فإن قواته لم تتضعضع ، كما يتصور ، بدليل أنه لم يمض سوى قليل ، حتى غدا فى ظروف تسمح له بالهجوم ، ولكن الحظ كان ضده دائماً»(١) .

* * *

وقد كان يوم الزلاقة من أيام الإسلام المشهودة فى انتصاره على النصرانية . ومن الواضح أن لقاء الإسلام والنصرانية فى سهول الزلاقة، إنما هو صفحة من سيرة الحروب الصليبية التى كانت اسبانيا أول مهاد لها . والتى اضطرمت بعد ذلك بقليل فى المشرق، فى الوقت الذى كانت تضطرم فيه فى اسبانيا . فموقعة الزلاقة تعنى فى الواقع أكثر من هزيمة لملك قشتالة ، وأكثر من ظفر للمرابطين وحلفائهم الطوائف . ذلك أن فورة المرابطين الدينية ، التى اجتاحت بوادى المغرب ومدنه فى فترة قصيرة ، ثم عبرت البحر إلى اسبانيا لنصرة الدول الإسلامية بادىء ذى بدء ، وانتزعتها من الطوائف بعد ذلك، كانت عنيفة رائعة، توجست النصرانية منها ، واستشفت فى اضطرامها ذلك الخطر الداهم الذى كان غير مرة ينذر بمناهضة النصرانية فيما وراء اسبانيا . وقد جاشت اسبانيا المسلمة بمثل هذه الفورة بعد موقعة بلاط الشهداء وخلاص النصرانية على يد كارل مارتل (سنة ٧٣٢ م) مرتين : الأولى فى عهد الناصر لدين الله، والثانية فى عهد الحاجب المنصور ، وفى كلتا المرتين ، رُدت اسبانيا النصرانية إلى ما وراء الجبال الشمالية ونفذ الإسلام إلى قاصية اسبانيا .

---

(١) F. Codera : Decadencia y Desparicion de los Almoravides en Espana (Zaragoza 1899) p. 243

وإن تصرف ألفونسو ملك قشتالة عقب الموقعة ، ليؤكد هذا المعنى الصليبي ، الذى ينطوى عليه لقاء الزلاقة . فهو قد شعر بأن ذلك التحالف بين الإسلام فى إفريقية والأندلس ، يوشك أن يقضى على اسبانيا النصرانية ، وأنه لابد أن يقابله حلف بين قوى النصرانية ، ومن ثم فقد بعث برسله وكتبه إلى الملوك والأمراء النصارى فيما وراء البرنيه ، يهيب بهم ويحذرهم من الخطر الداهم ، وينذرهم بأنهم إذا لم يتداركوه بالعون ، فإنه سوف يضطر إلى الصلح مع المسلمين ، وسوف يتركهم أحراراً فى عبور البرنيه . وقد ألفت صيحة ألفونسو صداها فى فرنسا ، وفى مختلف الإمارات الفرنجية التى حولها ، وبادر أمير برجونية الدوق أودو ، وهو صهر ألفونسو ، إذ كانت عمته الملكة كونستانس ، بحشد الأمداد ، وشاركه فى ذلك الكونت دى سان چيل أمير تولوشة . وهرع إلى التطوع فرسان من نورماندى وبواتو ، ومن سائر أنحاء فرنسا . وسارت بالفعل قوى الأمداد صوب اسبانيا . ولكن ألفونسو حين علم بأن يوسف بن تاشفين قد عبر البحر فى معظم قواته عائداً إلى المغرب ، بعث إلى الأمراء الفرنج يشكرهم ، وينبئهم برحيل المرابطين ، وأنه لم تعد ثمة ضرورة لمقدمهم[١] .

واقتصرت الحرب الصليبية عندئذ على منطقة الثغر الأعلى ، حيث كان بنوهود أمراء سرقسطة ، يواجهون عدوان سانشو راميرز ملك أرجوان ، ومحاولاته المتوالية للاستيلاء على تُطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وكانت طوائف المتطوعة من الفرنج تهرع إلى تلك الحملات الغازية ، لتشترك فيها .

ويشعر المؤرخون المسلمون أنفسهم بخطورة موقعة الزلاّقة ، وصبغتها الصليبية ، فيحيطون حوادثها بطائفة من الأساطير الدينية . من ذلك ما قصه علينا يوسف نفسه فى رسالته لمناسبة عبوره البحر ، من المغرب إلى الأندلس ، وما دعا به ربه حينما ثارت العواصف فى وجه سفنه ، وما تلا ذلك من هدوء العواصف والموج ، وذلك حسبما فصلناه فيما تقدم[٢] . ومن ذلك أن ملك قشتالة حينما كان يتأهب لمحاربة المسلمين ، توالت عليه الأحلام المرعبة ، فرأى ذات يوم أنه يركب فيلا ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مرعباً كلما قرعه ، وأن فقيهاً مسلماً من أهل طليطلة ، فسر له ذلك الحلم بأنه نذير بهزيمته الساحقة ،

(١) R. M. Pidal : ibid., p. 310

(٢) روض القرطاس ص ٩٢ .

مشهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة وقد كان يركب الفيل أيضاً(١). ومنه مبالغات الرواية الإسلامية فى فداحة خسائر النصارى ، ومبالغتها فى نفس الوقت فى قلة خسائر المسلمين مما تقدم ذكره ، إلى غير ذلك .

على أن هذه الأساطير والمبالغات لا يمكن أن تثير ذرة من الريب حول أهمية هذه الموقعة الشهيرة ، ولا تنتقص من شأن نتائجها الحاسمة . فقد كان من النتائج العملية المباشرة لنصر الزلاّقة ، أن عادت إلى اسبانيا المسلمة روح الثقة والأمل ، وأخذت قواها المتخاذلة فى الانتعاش والنهوض من عثارها ، وأن عادت إلى الشعب الأندلسى روح الحماسة الدينية ، التى كاد يقضى عليها أمراء الطوائف بتصرفاتهم المشينة ، وترامبهم على أعتاب الملوك النصارى ، وتحرر أمراء الطوائف من ذلك الخزى الذى لحقهم عصراً بالخضوع لملك قشتالة ، ونكلوا عن دفع المغارم التى كانت يقتضيها منهم برسم الجزية . بيد أن هذه النتائج المحلية الخاصة ، لا تعد شيئاً إذا قيست بالنتائج العامة البعيدة المدى ، التى ترتبت على هذا النصر الباهر . فنى سهول الزلاّقة ارتد سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة ، بعد أن كان ينذرها بالمحو والفناء العاجل ، وغنم الإسلام حياة جديدة فى اسبانيا ، امتدت إلى أربعة قرون أخرى ، ومهدت السبل لسيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة ، ومن بعدهم لخلفائهم الموحدين ، وجعلت الأندلس ، ولاية مغربية زهاء مائة وخمسين عاماً . وبالرغم من أن حياة اسبانيا المسلمة ، لم تكن من ذلك الحين سوى صراع دائم بينها وبين اسبانيا النصرانية ، فإنها قد استطاعت أن تتابع نشاطها المنتج ، وتقدمها الحضارى الباهر .

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٦ .

(٢) راجع فى تفاصيل موقعة الزلاقة : روض القرطاس ص ٩٣ — ٩٨ ، والحلل الموشية ص ٣٣ — ٤٦ ، والمعجب للمراكشى ص ٧٠ — ٧٣ . والروض المعطار ص ٧٦ — ٩٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ — ٥٣١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨١ وما بعدها ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢—٥٣ . وراجع أيضاً **Dozy : Histoire, V. III. p. 129—130** ، وكذلك : **R. M. Pidal** **ibid., p. 331—340**

الفصل الثالث

الفتـــح المرابطى

القسم الأول

صريخ أهل شرق الأندلس إلى يوسف . النصارى يتخذون حصن لييط قاعدة للعدوان . مسير المعتمد إلى مرسية وفشله فى استردادها . عبور ابن عباد إلى العدوة واستنصاره بيوسف . عبور يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية . كتبه إلى الرؤساء ومسيره إلى شرق الأندلس . محاصرة القوات المرابطية والأندلسية لحصن لييط . صمود النصارى وعجز المحاصرين عن اقتحامه . الخلاف بين أمراء الطوائف وشكاويهم المتبادلة . القبض على ابن رشيق وتسليمه لابن عباد . غضب جند مرسية وأثره فى المعسكر المحاصر . مقدم ملك قشتالة لإنجاد الحصن . إنسحاب المسلمين وعودة يوسف إلى المغرب . مقدم يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة . مشروعه فى الاستيلاء على الأندلس . بواعث هذا المشروع . موقف ملوك الطوائف . محالفة بعضهم لملك قشتالة . فتاوى الفقهاء فى شأنهم . طمع المرابطين فى خصب الأندلس . العامل الدفاعى وأثره . مسير يوسف إلى طليطلة وارتداده عنها . مسيره إلى غرناطة . عبد الله بن بلقين ومحالفته السرية مع ملك قشتالة . محاصرة المرابطين لغرناطة . سوء الأحوال داخل المدينة . خروج عبد الله وتسليمه لأمير المسلمين . دخول المرابطين غرناطة . استيلاؤهم على مالقة . القبض على عبد الله وأخيه تميم وإرسالهما إلى العدوة . مقدم ابن عباد وابن الأفطس وجفاء يوسف نحوهما . الوحشة بينهما وبين يوسف . تأهب الجيوش المرابطية لافتتاح قواعد الأندلس . خطة يوسف لافتتاح إشبيلية . فتاوى الفقهاء ضد المعتمد . المعتمد وملك قشتالة . أهباته الدفاعية . استيلاء سير ابن أبى بكر على طريف . زحف الجيوش المرابطية على رندة وجيان وقرطبة . سقوط جيان . مهاجمة قرطبة واقتحامها . مقتل حاكمها الفتح بن عباد . قصة زائدة الأندلسية . الأسطورة النصرانية حولها . الزعم بكونها ابنة المعتمد وزواجها من ألفونسو السادس . التفسير الحقيقى للأسطورة . حقيقة شخصية زائدة . نصوص تاريخية قاطعة .

عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المغرب عقب موقعة الزلاّقة فى شعبان سنة ٤٧٩ هـ ، حسبما أسلفنا ، ولبث فى حضرته مراكش حتى أوائل العام التالى ، ثم خرج منها ليطوف بالعمالات ، ويتفقد أحوال البلاد ، وكانت شئون الأندلس خلال ذلك مازالت تلاحقه ، وكان أهل الأندلس ، قد أيقنوا عقب موقعة الزلاّقة ، أنه لاسبيل لنجاتهم ، وخلاصهم من إرهاق النصارى ، سوى الالتجاء إلى عاهل المغرب وأنجاده المرابطين ، ومن ثم فقد عادت كتب

أهل الأندلس ووفودهم تترى على يوسف ، وتستجير به من عدوان النصارى . وكان الصريخ هذه المرة آتياً بالأخص من أهل بلنسية ومرسية ولورقة ، وكانت شئون شرقى الأندلس يومئذ قد سادها الاضطراب ، من جراء تدخل القشتاليين فى شئون بلنسية ، وسيطرتهم عليها عن طريق صنيعتهم القادر بن ذى النون ، وما تلا ذلك من مغامرات السيد إلكمبيادور فى تلك المنطقة . بيد أنه كان ثمة مصدر آخر للعدوان المباشر فى منطقة مرسية ولورقة وبسطة ، هو حصن أليدو Aledo (وتسميه الرواية العربية حصن لييط) ؛ وكان ألفونسو السادس قد بعث فى ربيع سنة ١٠٨٥ م ، على أثر استيلائه على طليطلة ، قواته بقيادة غرسيه خمينس إلى الأندلس الشرقية ، لتغير عليها ، وتعيث فى أراضيها ، فاجتاحت المنطقة الواقعة بين مرسية ولورقة . ثم عمد القشتاليون ، لكى يبسطوا قبضتهم على تلك المنطقة، إلى إنشاء حصن ضخم ، وافر المناعة ، فى مكان يسمى أليدو (لييط) يقع بين مرسية ولورقة ، وهو أقرب إلى لورقة ، وشحنوه بالسلاح والمقاتلة ، واتخذوه قاعدة للإغارة على أراضى مرسية وألمرية ، وبثوا فيها الرعب والروع ، وعجزت القوات الأندلسية المحلية عن رد عدوانهم ، حتى ضج أهل هذه الأنحاء مما ينزل بهم من صنوف الضر والأذى، وكثر صريخهم واستغاثاتهم ، وتوالت كتبهم ورسلهم على أمير المسلمين فى طلب الإنجاد والغوث[١] .

وكان المعتمد بن عباد ، وهو صاحب السيادة الشرعية على مرسية ولورقة ، أشد الناس اهتماماً بإنقاذ تلك المنطقة من عدوان القشتاليين. وكان ألفونسو عقب هزيمة الزلاقة قد عزز حامية لييط وضاعفها ، وأوعز إلى قائده غرسيه خمينس بأن يشدد الضغط والتنكيل بأراضى لورقة ومرسية انتقاماً من المعتمد ، لكونه قد خرج عليه ، وعمل على استدعاء المرابطين[٢] ؛ وبلغت حامية هذا الحصن الضخم يومئذ ثلاثة عشر ألف مقاتل منهم ألف فارس ؛ وكان يشاطر المعتمد هذا الاهتمام ، المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، لما كان ينزل بأراضيه من عيث نصارى أليدو (لييط) ؛ وكان المعتمد يتوق فى نفس الوقت إلى استرداد سلطانه الحقيقى فى مرسية ؛ وهى يومئذ تحت حكم ابن رشيق الفعلى ، فحشد حملة من جنده ، ومن المرابطين الذين تركهم يوسف ، وسار أولا إلى لورقة ، فامتنعت

---

(١) الحلل الموشية ص ٤٧ و ٤٨ ، وراجع : R. M. Pidal : ibid., p.319

(٢) روض القرطاس ص٩٨ ، وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 361

عليه ، فغادرها إلى مرسية ، وضرب حولها الحصار ، ولكن ابن رشيق استطاع أن يكسب المرابطين ، وأن يقنعهم بأن يتركوه فى سلام . وهكذا فشلت الحملة وعاد ابن عباد إلى إشبيلية دون أن يحقق أى نجاح[١] .

فاعتزم المعتمد أمره فى استدعاء يوسف ، للمعاونة فى قمع شر حامية أليدو النصرانية ، وعبر البحر بنفسه إلى المغرب مع بعض خاصته ، فلقى أمير المسلمين بوادى سبو ، وأفضى إليه بملتمسه ، وشرح له ما يلقاه المسلمون فى منطقة مرسية ولورقة وغيرهما ، من عسف النصارى وغاراتهم ، وشنيع عيثهم ، فوعده يوسف بإجابة ملتمسه ، وكان قد تلقى قبل زيارة ابن عباد كثيراً من الكتب ، من فقهاء الأندلس وأعيانها ، يلحفون فى رجاء الإنجاد والغوث ، لقمع بغى القشتاليين ، والاستيلاء على أليدو مركز بغيهم ، وعاد ابن عباد إلى إشبيلية بعد أن اطمأن لوعد يوسف وتأكيداته ، وأخذ فى إعداد السلاح وآلات الحصار[٢] .

— ١ —

وأوفى يوسف بوعده ، وعبر البحر إلى الأندلس فى قواته فى شهر ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ (يوليه سنة ١٠٨٨) . فتلقاه ابن عباد فى الجزيرة الخضراء بالمؤن الوفيرة ، وبعث أمير المسلمين بكتبه إلى ملوك الطوائف ورؤسائهم يستدعيهم جميعاً للجهاد ، وأن يوافوه بقواتهم عند حصن لييط . وكان يوسف يبغى بعد الاستيلاء على حصن أليدو ، أن يعمل للقضاء على سلطان « السيد » فى منطقة بلنسية ، ومن ثم فقد اتجه يوسف عن طريق مالقة صوب شرقى الأندلس ، ومعه المعتمد فى قواته ، وانضم إليه فى الطريق تميم بن بلقين صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، كل فى قواته . ولما وصل إلى ظاهر حصن أليدو ، وافاه هناك ابن رشيق صاحب مرسية فى قواته ، وعدة من رؤساء الأندلس من شقورة وبسطة وجيان وغيرها . وضرب المسلمون الحصار حول الحصن ، وكان فضلا عن حاميته الضخمة ، التى تضم ثلاثة عشر ألف مقاتل ، يضم جماعات كبيرة من نصارى هذه المنطقة الذين التجأوا إليه . وسلط المسلمون آلات الحصار الضخمة على الحصن ،

---

(١) Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. 134

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ ، والحلل الموشية ص ٤٨ .

وضربوه بشدة ، ولكن الحصن كان فى منتهى المناعة ، فلم تنجح الآلات الضخمة فى هدمه أو ثلم أسواره ، ورد المدافعون كل محاولة للمحاصرين بمنتهى العنف والشدة ، وامتنعوا داخل حصنهم . وطال الحصار زهاء أربعة أشهر ، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه ، كل جماعة بدورها ، والنصارى صامدون ، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء . وشعر أمير المسلمين من جراء ذلك بخيبة أمل مرة ، بيد أنه شعر كذلك باستياء بالغ لما شهده من أحوال أمراء الأندلس المشاركين فى الحصار ، فقد كان الخلاف والوقيعة على أشدهما بين أولئك الأمراء الطامعين المتنابذين ، فكان تميم صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، يشكو كل منهما الآخر ، ويتهمه باغتصاب حقوقه فى الميراث والسيادة ، وكان ابن عباد والمعتصم بن صمادح يوقع كل منهما فى حق صاحبه لدى أمير المسلمين ، ويتهمه بمختلف التهم . وبرز من بين هذه الخصومات بالأخص خلاف المعتمد وابن رشيق ، فقد شكا ابن عباد ابن رشيق لأمير المسلمين ، واتهمه باغتصاب الولاية منه على مرسية ، واتهمه بما هو شر من ذلك ، وهو أنه متفاهم مع ملك قشتالة سراً ، وقد دفع إليه جباية مرسية ، وأنه يعاون حامية الحصن فى الخفاء ، واهتم أمير المسلمين لتلك التهم ، ومال إلى تصديقها ، واستفتى الفقهاء فى أمر ابن رشيق ، فأفتوا بإدانته ، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته . وكان هذا الحادث أسوأ الأثر فى المعسكر المحاصر ، فإن قادة مرسية ومعظمهم من أقارب ابن رشيق ورجاله ، غادروا المعسكر فى جندهم غاضبين ، وقطعوا المؤن التى كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية وأحوازها ، فاختل أمر المعسكر ، ولحق به الضيق والغلاء ، وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة يسير فى قوة كبيرة لإنجاد الحصن ، فآثر الانسحاب وعدم الاشتباك مع القشتاليين فى معركة غير مجدية . وقدم ألفونسو إلى الحصن ، فلم يجد بداخله من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل ، ولما رأى أنه لافائدة من الاحتفاظ به ، وأنه يقتضى لذلك حامية كبيرة ، قرر إخلاءه وتقويض أسواره وأبراجه ، وعاد أدراجه ، وذلك فى سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) . واحتل ابن عباد أطلال الحصن بعد أن غادره النصارى .

ولم ير يوسف بعد هذا الإخفاق مجالا لمحاولات أخرى ، فاتجه نحو لورقة ،

بعد أن ترك جيشاً مرابطياً من أربعة آلاف فارس تحت إمرة داود بن عائشة ليعمل فى منطقة مرسية وبلنسية ، وتحرك أمراء الأندلس كل إلى بلده ؛ وسار يوسف إلى المرية فالجزيرة ، ثم عبر البحر عائداً إلى المغرب ، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس[١] .

— ٢ —

ولم يمض عام آخر ، حتى أعد يوسف بن تاشفين عدته ؛ للجواز إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) . ولم يكن جوازه فى تلك المرة تلبية لدعوة أو استغاثة من أحد ، من أمراء الأندلس ، كما حدث فى المرتين السابقتين ، ولكنه عبر عندئذ إلى شبه الجزيرة ، وقد انتهى إلى قرار بالغ الخطورة ، هو الاستيلاء على الأندلس .

وقد اختلفت الروايات فى تصوير البواعث ، التى حملت يوسف على اتخاذ هذا القرار . بيد أنه يبدو على ضوء مختلف الروايات ، أن يوسف قد تأثر منذ البداية بما شهده من اختلال أحوال أمراء الطوائف ، وضعف عقيدتهم الدينية ، وانهماكهم فى مجالى الترف والعيش الناعم ، وما يقتضيه ذلك من إرهاق لشعوبهم بالمغارم الجائرة ، وأدرك أن هذه الحياة الناعمة ، التى انغمس فيها رؤساء الأندلس وشعوبهم اقتداء بهم ، هى التى قوضت منعتهم ، وفتت فى رجولتهم وعزائمهم ، وأضعفت هممهم عن متابعة الجهاد ، ومدافعة العدو المتربص بهم ، وأن الشقاق الذى استحكم بينهم ، ولم ينقطع بعد الزلاقة ، سوف يقضى عليهم جميعاً ، إذا تركت الأمور فى مجراها ، وسوف يمهد لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء شبه الجزيرة فى أقرب وقت . ومن ثم فقد اعتزم أمير المسلمين أمره نحو الأندلس ونحو أمرائها العابثين المترفين[٢] .

ذلك هو التصوير العام ، للبواعث التى حملت يوسف بن تاشفين ؛ على افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية ، بيد أنه توجد إلى جانب ذلك بواعث معينة أخرى ، منها أن ملوك الطوائف لما شعروا بتغير يوسف عليهم ، توافقوا على

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٨ و ٩٩ ، والحلل الموشية ص ٤٧ — ٥٠ . وراجع : R. M. Pidal : ibid., p. 364 & 365 وكذلك ، Dozy : Histoire, V. III. p. 139 & 140

(٢) راجع المراكشى فى المعجب ص ٨٩ .

قطع المدد والمؤن عن عساكره ومحلاته التى تركها بالأندلس ، فساءه ذلك[١] ، ومنها ما وقف عليه يوسف ، من رجوع بعض رؤساء الطوائف إلى مصادقة ألفونسو ملك قشتالة وممالأته ، بل واستعدائه على محاربة يوسف نفسه ، وإمداده لذلك بالأموال والهدايا ، وكان هذا بالذات موقف عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة[٢]، ثم كان فيما بعد موقف المعتمد بن عباد ، وقد عمد كلاهما فى الواقع إلى تحصين بلاده والاستعداد للدفاع عنها[٣] .

والظاهر أيضاً أن أمير المسلمين لم يتخذ قراره الخطير بافتتاح الأندلس فجأة ، ولكنه عمد إلى دراسته ومشاورة الزعماء والفقهاء فى أمره ، وقد تلقى فى ذلك فتاوى الفقهاء من المغرب والأندلس ، بوجوب خلع ملوك الطوائف ، وانتزاع الأمر من أيديهم ، بل لقد تلقى مثل هذا الرأى من أكابر فقهاء المشرق ، وفى مقدمتهم أعلام كالإمام الغزالى ، وأبى بكر الطرطوشى نزيل مصر يومئذ وغيرهما[٤] . وإذاً فقد التمس أمير المسلمين لتنفيذ مشروعه ، سند أحكام الشرع ، وتأييد أهل الرأى ، قبل الإقدام عليه .

ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم ، ذلك الباعث الطبيعى ، الذى يضطرم به كل زعيم قوى وكل متغلب ، ونعنى شهوة الفتح والتوسع ، فلا ريب أن يوسف بن تاشفين وصحبه ، وهم أولئك البدو الصحراويون ، قد راقهم ما شهدوه من خصب الأندلس ونعمائها ، وطيب هوائها . ومن ثم فإن الرواية تحدثنا بصراحة عن « طمع يوسف فى الجزيرة وتشوفه إلى مملكتها » وتذكر لنا أنه قال يوماً لبعض ثقاته ؛ «كنت أظن أنى قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد (الأندلس) صغرت فى عينى مملكتى »[٥] .

اجتمعت هذه البواعث كلها ، لتحمل يوسف على فتح الأندلس ، وهى بواعث فوق وضوحها ، تسجلها لنا الرواية جميعاً . بيد أننا نستطيع أن نستشف

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٩ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ . وراجع : R. M. Pidal ibid., p. 394

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٤٧ .

(٥) المعجب ص ٧٤ . وراجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٣ .

من قرار يوسف باعثاً آخر ، لم تفطن إليه الرواية الإسلامية ، ولعله من البواعث الهامة ، فى مشروع عاهل المرابطين ، وهو العامل الدفاعى والاستراتيجى. ذلك أن يوسف أدرك لأول وهلة ، أن دول الطوائف الضعيفة المتخاذلة ، لاتستطيع فى ظل أمرائها المترفين الخانعين دفاعاً عن نفسها ، وأنه إن تخلى عنها ، فسوف تسقط حتماً فى يد ملك قشتالة القوى . ولم تغب عن يوسف ، وهو ذلك الجندى العظيم ، أهمية الصلة الدفاعية والاستراتيجية الوثيقة ، التى تربط بين ضفتى العدوة والأندلس ، المتقابلتين على طرفى المضيق ، ولم يفته أن يدرك أن سقوط الأندلس ، فى أيدى النصارى ، معناه سقوط جناح المغرب الدفاعى من الشمال ، ومعناه تهديد اسبانيا النصرانية لسلامة المغرب ، متى اجتمعت قواها ، وتوفرت لديها وسائل العدوان ، ومن ثم فقد قرر أن يبادر إلى احتلال رقعة الوطن الأندلسى ، لينقذ الأندلس من هذا الخطر الداهم ، وليدعمها ، ويضاعف أهباتها الدفاعية ، ويمكنها من تأدية مهمتها الاستراتيجية فى رد عادية العدوان ، لا عن نفسها فقط ، ولكن عن المغرب أيضاً . ولم ينس أمير المسلمين فى ذلك ، أن ملك قشتالة استطاع عقب استيلائه على طليطلة ، أن يجتاح أراضى الأندلس الوسطى كلها ، منذ نهر التاجه جنوباً حتى أرض الفرنتيرة ، وأن يصل إلى ثغر طريف قبالة العدوة ، دون أن يقف فى سبيله أحد من ملوك الطوائف ، وكان فى ذلك من بوادر الخطر على أرض العدوة القريبة ما فيه .

— ٣ —

عبر أمير المسلمين إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة فى أوائل سنة ٤٨٣ هـ ، حسبما قدمنا . وكان أبلغ ما أهمه عندئذ ما تواتر إليه من أخبار عن الاتفاقات السرية التى يعقدها المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس ، وعبد الله بن بلقين ، مع ألفونسو السادس ملك قشتالة للتعاون فى رد المرابطين . واتسمت حملة يوسف فى البداية بطابع الجهاد ، حيث سار توا إلى طليطلة ، واجتاح فى طريقه أراضى قشتالة . ولم يتقدم أحد من أمراء الطوائف يومئذ لمعاونته أو السير معه . وربما كان يوسف يرجو أن يسترد طليطلة ، فيشفى بذلك جرح الأندلس الدامى ، ويكتسب عطف أهل الأندلس جميعاً . وعاث المرابطون فى أحواز طليطلة وخربوا ضياعها ، وانتسفوا زروعها ، ثم ضربوا الحصار حول العاصمة القوطية القديمة

وعاصمة قشتالة يومئذ ، وكان بداخلها ألفونسو السادس وحليفه سانشو راميرز يقومان بالدفاع عنها ، بيد أن المرابطين أيقنوا بعد أن شهدوا أسوارها العالية ، وحصانتها الفائقة ، بعبث المحاولة ، فتركوا الحصار ، وارتد يوسف بقواته إلى الجنوب(١) .

وعرج يوسف بجيشه على فحص غرناطة ، وكان قد قرر أمره نحو غرناطة وصاحبها عبد الله بن بلقين ، بل ونحو أمراء الطوائف جميعاً . وكان عبد الله فى الواقع مذ عاد من حصار أليدو ، ولما شعر به من تغير يوسف ، قد عاد إلى استئناف صلاته بألفونسو السادس ، عن طريق قائده ومبعوثه فى تلك المنطقة ألبار هانيس ، وعقد معه فيما يبدو محالفة سرية لمقاومة المرابطين . ويعترف الأمير عبد الله فى مذكراته بهذه الصلات ، ولكنه يقول لنا إنها لم تكن سوى التزام منه بدفع الجزية لألفونسو ، وتعهد من ألفونسو بألا يعترض له بلداً ولا يغدر به(٢). ويقول لنا ابن عذارى من جهة أخرى إن عبد الله بن بلقين كان أول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين ، فنظر فى اختيار الآلات وألحق الرماة والرجال ، وأعلا الأبراج ، وبنا الأسوار ، ونصب الرعادات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدّ فى ضرب السهام ، ونقل المال والذخيرة ؛ وخرج المتاع والآنية إلى قصبة المنكب لكونها فى غاية المنعة ، وعلى ضفة البحر ، وعمد إلى مال كثير ، وثياب نفيسة ، وتحف جليلة ، وأعلاق دقيقه ، فوجه بها إلى أذفونش ، وكتب إليه متطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه ان البلد بلده وأن فيه قايده ، فاهتز لذلك الأذفونش ، وقبل المال والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ، أن يشد اليد عليه فى ملكه ، ولا يتركه لضيم ولا خصيمة ، وأن ينهض إليه بنفسه ، ويبذل جهده فى نصره ، فقويت نفس حفيد باديس بذلك . وفى ذلك يقول صفيه وأثيره السمسرى :

صانع أذفونش والنصارى ... فانظـــر إلى رأيه الوبير
وشاد بنيانه خـــلافا ... لطاعة الله والأمـــير
يبنى على نفسه سـفاها ... كأنه دودة الحـــرير

---

(١) روض القرطاس ص ٩٩ . وكذلك R. M. Pidal : ibid,, p. 394 & 395
(٢) كتاب التبيان ص ١٢٥ . وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

دعوه يبنى فسوف يدرى إذا أتت قدرة القدير[1]

على أن ما استقر فى ذهن يوسف ، وما نهضت عليه الأدلة ، وأكده رسله يومئذ ، هو أن المعتمد بن عباد ، وعبد الله بن بلقين وغيرهما من أمراء الطوائف، قد عقدوا مع ملك قشتالة اتفاقات سرية ، يتعهدون فيها بالامتناع عن معاونة المرابطين بالمال والمؤن ، وبالانضواء تحت لواء ألفونسو وحمايته . وكان بعض حشم عبد الله ولاسيما مؤمل مولى جدّه باديس ، قد اتصلوا بأمير المسلمين ، وأكدوا له مداخلة عبد الله لملك قشتالة ، واهتمامه بتجديد الأسوار وتحصين المدينة . ومن جهة أخرى فقد أصدر فقهاء غرناطة فتوى بخلع عبد الله وأخيه تميم صاحب مالقة ، لما يرتكبانه من المظالم والخروج على أحكام الدين ، وأهابوا بيوسف أن يرغم أمراء الطوائف على اتباع أحكام الشرع وإلغاء المكوس ، والمغارم الجائرة ، التى يفرضونها على رعيتهم تعسفاً وظلماً .

وفرض أمير المسلمين على غرناطة شبه حصار ، وقام عسكره بحراسة حصونها الخارجية ، حتى لايأتيها مدد من النصارى ،وطلب المؤن والعلوفات ، فبادر عبد الله بتقديمها . وكانت الأحوال فى غرناطة قد ساءت ، وشاع الخلاف والتمرد بين سائر الطوائف ، وأدرك عبد الله أنه لاسبيل إلى المقاومة ،وأرسل إلى أمير المسلمين رسله ومعهم بعض المال، فعادوا إليه بأمان يوسف « فى النفس والأهل دون المال » ، كما عرض عليه يوسف أن يختار بلداً آخر لإقامته غير غرناطة . فتمهل عبد الله وقتاً . والظاهر أنه كان ينتظر عوناً من القشتاليين لم يتحقق . وفى خلال ذلك كانت أمه وخاصته يلحون عليه فى الخروج إلى أمير المسلمين ، والانقياد لأمره ، كأفضل حل للموقف . ولما اقترب أمير المسلمين بمحلته من المدينة ، واشتد بها الهياج ، رأى عبد الله أنه لامناص من اتباع هذا النصح ، فسار إلى محلة يوسف ، وقدم إليه نفسه ، فأصدر له أماناً فى نفسه وأهله ، وأمر باعتقاله ؛ حتى يتم ضبط أمواله ، وكانت لدى عبد الله وأمه أموال طائلة ، مكدسة منذ أيام جده باديس، وعلى أثر ذلك أقبل الفقهاء والأعيان إلى محلة يوسف وبايعوه بالطاعة . ودخل يوسف مع قادته وجنده مدينة غرناطة ونزل بقصرها ، واستولى على ما فيه من الأموال والتحف الجليلة ، وأذاع فى

(١) نقلت من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف فى خزانة القرويين بفاس .

الناس ، أنه سوف يحكم بالعدل والرفق وفقاً لأحكام الشرع ، ويعمل على إقامة الخير بينهم ، والذب عن حوزتهم ، وأنه سوف يرفع عنهم سائر المغارم الجائرة ، ولا يفرض عليهم من التكاليف والالتزامات إلا ما يجيزه الشرع . وكان خلع عبد الله بن بلقين بن باديس فى اليوم العاشر من شهر رجب سنة ٤٨٣ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩٠)[١] .

وبعث أمير المسلمين فى الوقت نفسه سرية من جنده إلى مالقة ، فقبضت على صاحبها تميم بن بلقين أخى عبد الله ، وحمل مكبلا إلى العدوة ، ثم أرسل إلى السوس . وكان الفقهاء قد اتهموه بطائفة من المظالم الشنيعة وطالبوا بخلعه[٢] .

وأخذ عبد الله وأهله أولا إلى الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوا إلى سبتة ، فكناسة وأخذوا أخيراً إلى مدينة أغمات ، حيث تقرر إقامتهم ، وأنزلوا هنالك دارا حسنة ، وعوملوا برفق ورعاية ، وعاش عبد الله بأغمات حتى توفى . وكتب فيها مذكراته الموسومة بكتاب «التبيان» ، وهى التى رجعنا إليها فى غير موضع . وعفا أمير المسلمين فيما بعد عن أخيه تميم ، فسكن مراكش حتى توفى بها فى سنة ٤٨٨ هـ[٣] .

وهكذا سقطت أول دولة من دول الطوائف فى أيدى المرابطين ، وكان سقوطها نذيراً باضطرام العاصفة ، التى قدر لها أن تجتاح الطوائف جميعاً . وشعر المعتمد بن عباد بخطورة هذا النذير ، بيد أنه كان من جهة أخرى ، مايزال يعلل نفسه بمختلف الآمال الغامضة ، وكان قد استقبل يوسف عند مقدمه بالجزيرة الخضراء ، وقدم إليه المؤن والضيافات المعتادة ، ويقال إن يوسف وعده عندئذ بغرناطة متى استولى عليها[٤] . فلما ظفر يوسف بامتلاكها ، سار المعتمد ومعه زميله المتوكل بن الأفطس إلى غرناطة ، فقدما التهنئة لأمير المسلمين بهذا الفتح . وظن المعتمد عندئذ أن يوسف سوف ينجز وعده بالنزول له عن غرناطة ، مقابل

---

(١) يراجع فى حوادث سقوط غرناطة فى أيدى المرابطين : كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٧ — ١٦٠ ، وروض القرطاس ص ٩٩ و ١٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً : Dozy : Hist. V. III. p. 141—144 ، وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 394 — 396

(٢) كتاب التبيان ص ١٦٢ و ١٦٣ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

(٣) كتبان التبيان ص ١٧١ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

(٤) كتاب التبيان ص ١٦٤ .

استيلائه على ثغر الجزيرة ، ولكن يوسف استقبلهما بجفاء ، فانصرفا عنه ، وقد أدركا الحقيقة المروعة ، وشعرا بأن النهاية المحتومة ، قد أضحت على وشك الوقوع . وعاد المعتمد إلى إشبيلية ، وهو يعتزم الدفاع عن مملكته جهد الاستطاعة وأخذ فى التأهب ، وإقامة التحصينات والأسوار ، وساءت العلائق بينه وبين أمير المسلمين بسرعة ، وكثرت بينهما الوقيعة والسعايات ، ودعا أمير المسلمين المعتمد إلى لقائه فرفض ، وطلب إليه أن يتبع أحكام الشرع ، وأن يلغى المكوس الجائرة ، وأن يلتزم الرباط ومدافعة النصارى ، فلم يجبه إلى شىء[١] .

وغادر أمير المسلمين غرناطة ، وجاز إلى العدوة فى شهر رمضان سنة ٤٨٣ هـ ، وفوض إلى قائده الأكبر سير بن أبى بكر اللمتونى شئون الأندلس . وهنا تختلف الرواية ، فيقال إنه لم يأمر قائده فى أمر ابن عباد بشىء ، وقيل من جهة أخرى ، إنه أمره بمحاصرة ابن عباد فى إشبيلية ، وأنه متى انتهى من أمر إشبيلية ، فليتقدم إلى بلاد ابن الأفطس[٢] . وقدم أمير المسلمين قائده ابن الحاج على جيش آخر ، وعهد إليه بمنازلة قرطبة ، وعليها ولد المعتمد الفتح الملقب بالمأمون ، وقدم أبا زكريا بن واسنو على جيش ثالث ، وعهد إليه بمحاصرة المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، وقدم جروراً الحبشى على عسكر رابع وعهد إليه بمنازلة يزيد الراضى ولد المعتمد برندة . وأقام أمير المسلمين بسبتة يجهز الجيوش والأمداد ، ويترقب نتائج أعمال جيوشه فى شبه الجزيرة .

— ٤ —

كان من الواضح ، على ضوء هذه الأهبات الضخمة ، التى اتخذت لمهاجمة قواعد مملكة إشبيلية فى وقت واحد ، أن يوسف بن تاشفين ، كان يرى فى مملكة إشبيلية واسطة عقد الأندلس ، وفى أميرها المعتمد بن عباد ، عميد الطوائف ، فإذا سقطت فى يده إشبيلية ، كان له ملك الأندلس .

ولم يكن أمير المسلمين تعوزه المبررات فى قتال ابن عباد ، فقد كان لديه المبررات المادية والشرعية الكافية . ذلك أنه احتاط للأمر ، واستصدر الفتاوى الشرعية اللازمة ، من فقهاء المغرب والأندلس ، بأن مسلك المعتمد فى مصانعة

(١) الحلل الموشية ص ٥١ و ٥٢ ، وروض القرطاس ص ١٠٠ ، وكتاب التبيان ص ١٦٩ .
(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ ، والحلل الموشية ص ٥٢ .

النصارى ، وتسليمهم البلاد ، والاحتماء بهم ، ومسلكه إزاء شعبه فى اقتضاء المكوس الجائرة ، وغير ذلك مما يخالف أحكام الشرع ، ومجاهرته بالمعاصى ، كل ذلك مما يفقده أهليته لحكم المسلمين ، ويوجب محاربته وخلعه[١] . أما عن المبررات المادية ، فقد وقعت فى يد يوسف بعض المراسلات السرية الموجهة من ابن عباد إلى ملك قشتالة ، يستغيث به ويطلب معونته[٢] وكان المعتمد بعد أن رأى جنود قشتالة تجتاح بلاده ، وتمعن فى تخريبها ، دون أن يستطيع دفعاً لهم ، وشعر من جهة أخرى بما يضمره المرابطون نحوه من النيات الخطرة ، قد أيقن أنه لامعدى له عن الالتجاء إلى ملك قشتالة ، والتفاهم معه على دفع المرابطين عن الأندلس .

وبينما كان المعتمد منهمكاً فى أهباته الدفاعية بإشبيلية ، كان قائد المرابطين سير بن أبى بكر ، يضع خططه النهائية للانقضاض على قواعد مملكة إشبيلية ، وقد بدأ فى ذلك بالاستيلاء على طريف أقصى ثغورها الجنوبة ، وذلك فى شوال سنة ٤٨٣ هـ (ديسمبر ١٠٩٠ م) ونادى فيها بدعوة أمير المسلمين[٣] ، ثم اتجه نحو الشمال قاصداً إشبيلية ، بينما زحفت الجيوش المرابطية الفرعية على رندة وجيان وقرطبة . فأما رندة فقد حاصرها القائد جرور المرابطى بقواته ، وكان يضطلع بالدفاع عنها يزيد الراضى ولد المعتمد . وكانت رندة من أمنع القواعد الجنوبية ، فصمد بها الراضى ، واضطر جرور أن يقنع بالحصار منتظراً سير الحوادث . وأما جيان ، فقد زحف عليها جيش مرابطى بقيادة بطى بن اسماعيل وضرب حولها الحصار . وهنا يقول لنا ابن الخطيب إن جيشاً من القشتاليين قدم لإنجاد جيان ، تنفيذاً للحلف المعقود بين ابن عباد وملك قشتالة ، وإنه نشبت بين المرابطين والنصارى موقعة أبيد فيها المرابطون[٤] . بيد أن ابن أبى زرع يقول لنا بالعكس إن بطى حاصر جيان حتى دخلها صلحاً ، وكتب سير بالفتح إلى أمير المسلمين ، وأمر بطى بالسير بقواته إلى قرطبة[٥] . وقد ذكرنا من

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ .

(٢) كتاب التبيان ص ١٦٩ .

(٣) المعجب ص ٧٥ . وكذلك : R M. Pidal : ibid, p: 398

(٤) أعمال الأعلام ص ١٦٣ .

(٥) روض القرطاس ص ١٠٠ .

قبل وفقاً لرواية صاحب الحلل الموشية، أن القوات المرابطية التى سارت لمنازلة قرطبة كانت بقيادة ابن الحاج . وعلى أى حال فقد زحف المرابطون على قرطبة، وبها حاكمها ولد المعتمد ، الفتح الملقب بالمأمون ، وكان قد اتخذ كل الأهبات الدفاعية الممكنة ، وأرسل زوجه وأولاده وأمواله تحوطاً إلى حصن المدور[١] ، الواقع جنوب غربى قرطبة على ضفة نهر الوادى الكبير ، لكى تبقى بمنجاة من الخطر ، وحتى تستطيع أن تلوذ عند الضرورة بحماية ملك قشتالة ، وقد كان هذا الإجراء فيما يبدو بإشارة المعتمد أو بموافقته . والواقع أن قرطبة لم تصمد طويلا ، فقد اقتحمها المرابطون بعنف ، وقتل الفتح بن عباد خلال الهجوم مدافعاً عنها ، ورفع المرابطون رأسه على رمح . وكان افتتاح المرابطين لقرطبة فى اليوم الثالث من صفر سنة ٤٨٤ هـ (٢٦ مارس سنة ١٠٩١ م)[٢] .

* * *

وهنا يجب أن نقف قليلا ، لنتناول مسألة تاريخية هامة ، غمرتها الأسطورة مدى عصور ، ثم ألقى عليها البحث الحديث ضوءه المقنع ، تلك هى قصة زائدة الأندلسية .

لقد ذكرت الروايات الإسبانية النصرانية ، المعاصرة واللاحقة ، أن ألفونسو السادس قد تزوج من ابنة للمعتمد بن عباد تسمى « زائدة » أو أنه قد اتخذها خليلة ، وأنجب منها ولده الوحيد سانشو . وتزيد على ذلك أن المعتمد نفسه ، حينما شعر بخطر المرابطين الداهم على مملكته ، واستغاث بألفونسو لمعاونته على دفعه ، هو الذى قدم ابنته المذكورة للملك النصرانى ، وأنه نزل له عن مواضع معينة من أراضى مملكة طليطلة ، كان قد افتتحها، لتكون مهراً لابنته المذكورة ، وترجع بعض الروايات المتأخرة هذا التصرف من جانب ابن عباد إلى فرصة سابقة على مقدم المرابطين ، وتقول إنه كان ضمن مغريات الحلف الذى عقده المعتمد مع ألفونسو عن طريق وزيره ابن عمار ، وأخيراً أن هذا التصرف قد أثار فضيحة كبيرة فى الأندلس ، واتهم ابن عباد بالتفريط فى عرضه ودينه[٣] .

---

(١) وهى بالإسبانية Almodavar del Rio

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ ، وراجع : R. M. Pidal: ibid. p. 405

(٣) وردت هذه القصة ضمن رواية Pelayo de Oviedo المعاصرة ، وقد نشرت ضمن

وقد استمرت التواريخ النصرانية تتناقل هذه الأسطورة عصوراً كأنها حقيقة لاريب فيها ، وتتحدث دائماً عن « زائدة الأندلسية » Zaida la Mora أو Ceida وعن ذريتها النصرانية . ونقول نحن إنه لاتوجد بين هذه التفاصيل المغرقة ، سوى حقيقة واحدة هى شخصية زائدة المذكورة ، وأنها كانت حقيقة زوجة أو خليلة لألفونسو السادس ، وقد أنجب منها ولده سانشو الذى قتل طفلا فى موقعة إقليش (٥٠١ هـ — ١١٠٨ م) . ولكنها لم تكن ابنة للمعتمد بن عباد ، ولم يقدمها المعتمد لألفونسو ثمناً لحلفه ، وهذا هو اب الأسطورة كلها . وهذا هو وجه الإغراق والتحريف . ذلك أنه مما لايسيغه العقل أن يرضى أمير عظيم مسلم كالمعتمد بن عباد ، أن يزوج ابنته من أمير نصرانى أو أن يقدمها له جارية وحظية ، ومهما كان من استهتار المعتمد وتسامحه الدينى ، وإذا فرضنا أنه لم يكن يقيم فى مثل هذا التصرف الشائن ، وزناً للاعتبارات الدينية والشرعية ، وهو فى ذاته مما لايقبله العقل ، فمن المستحيل عليه ألا يحسب أعظم حساب لنتائجه السياسية ، وخصوصاً فى مثل هذه الظروف الدقيقة التى كانت تجوزها اسبانيا المسلمة يومئذ ، وأقلها أن يضطرم شعبه المسلم بالثورة عليه ، وأن يسحقه ويسحق أسرته : ومن جهة أخرى فإن المعتمد كان يرمى من جانب خصومه فى الدخل وفى الخارج بألسنة حداد من أجل استهتاره وتهاونه الدينى ، ولم يكن من المعقول أن يقدم بمثل هذا التصرف إلى خصومه سلاحاً جديداً يضعه فى صف المارقين والخوارج على الدين .

أما التفسير الحقيقى لهذه القصة ، وهو ما كشفت عنه البحوث والنصوص الوثيقة ، فهو أن زائدة هذه كانت حسبما تقدم زوجة للفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون حاكم قرطبة ، وأن المأمون حينما هاجم المرابطون المدينة ، أرسل زوجته وولده وأمواله إلى حصن المدور ، أو أنه حينما اقتحم المرابطون المدينة وقتل الفتح ، استطاعت زائدة أن تلوذ مع أولادها بالفرار ، وأن تلجأ إلى حصن المدور ،

مجموعة Espana Sagrada للأب Flores (الجزء الرابع عشر) . وذكرها رودريك الطليطلى فى روايته التى وردت فى : De Rabis Hispaniea ، وكذلك لوقا التطيلى فى روايته Cronicon Mundi على اختلاف فى بعض التفاصيل ، وذكرها الأب فلوريس فى تاريخه Flores : Reynas Catolicas ومن المؤرخين المحدثين Modesto Lafuente فى تاريخه : Historia general de Espana وراجع أيضاً R: M. Pidal : ibid., p. 760-764 حيث يلخص سائر الروايات المتقدمة .

ثم التجأت إلى حماية ملك قشتالة، حينما اشتد خطر المرابطين على سائر تلك الأنحاء وربما كان ذلك بموافقة المعتمد . ولما كانت زائدة على جانب كبير من الجمال ، وكان الملك النصرانى من جهة أخرى مزواجاً ، كلفاً بالنساء ، فقد انتهز فرصة التجائها إليه ، واتخذها خليلة ثم تزوجها . وتقول الروايات القشتالية فى هذا الموطن ، إن زائدة كانت تحب الملك النصرانى « بالسماع » ، وتتوق إلى الزواج منه ، وأن المعتمد (بزعم أن زائدة كانت ابنته) قد نزل لملك قشتالة فى هذه المناسبة عن قونقة ،ووبذة وإقليش وأوكانيا وكونسوبجرا وغيرها من الأماكن ، وهى التى كان قد افتتحها من مملكة طليطلة أيام بنى ذى النون ،وذلك كمهر لزائدة . وقد يكون المعتمد قد نزل حقاً عن هذه الأماكن وغيرها لملك قشتالة ، ولكن ذلك لم يكن سوى بعض ما تعهد به لملك قشتالة كثمن لحلفه وعونه . ومتى تقرر أن زائدة ، لم تكن ابنته، فإنه لامحل أن يقرن هذا التنازل من جانب المعتمد بقصة زواج زائدة من الملك النصرانى. ونقول تتمة لقصة زائدة إنها غدت خليلة أو زوجة لملك قشتالة ، على الأرجح عقب سقوط قرطبة بقليل ، فى أوائل سنة ١٠٩٢م ، وأنها بهذه المناسبة اعتنقت النصرانية وتسمت باسم « إيسابيل » ، وفى رواية باسم ماريا ، ونصر أولادها من الفتح ، ومن كان معها من الحشم ، ورزق منها ألفونسو بولده الوحيد سانشو ، وتوفيت زائدة عند مولد ولدها سانشو، ودفنت بدير سأهاجون وذلك فى سنة ١٠٩٧، أو١٠٩٨ م . ولما اجتاح المرابطون أراضى قشتالة ، فى أوائل عهد الأمير على بن تاشفين،وسارالقشتاليون لمحاربتهم تحت أسوار قلعة إقليش ، بعث ألفونسو بولده الصبى سانشو على رأس الجيش لكى يثير حماسة الجند ، فقتل فى الموقعة التى نشبت بين الفريقين ، وقتل معه معظم أكابر الجيش وقادته ، وذلك فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) . وتوفى ألفونسو على أثر ذلك غما وحزناً[١] .

ولم تذكر لنا الرواية الإسلامية اسم زائدة ، ولاشيئاً من قصتها بطريق مباشر ، ولكنها مع ذلك تقدم إلينا الدليل القاطع على حقيقة شخصيتها وصفتها ، ولدينا فى ذلك نصان كلاهما حاسم فى تقرير هذه الحقيقة .

أولها ما ورد فى تاريخ ابن عذارى « البيان المغرب » فى أخبار سنة ٥٠١ هـ

(١) راجع R. M. Pidal : ibid., p.495, 496 & 760-764

وهى الموافقة لسنة (١١٠٨ م) عن الحملة التى أرسلها ألفونسو السادس ضد المرابطين لإنجاد قلعة إقليش ، وقد جاء فيه : « وفى خلال ذلك وصل إليه (إلى حصن إقليش) ولد أذفونش شانجه من زوج المأمون بن (عباد) التى كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس »[١] .

والثانى نص أورده الونشريشى فى كتابه : « المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » وقد جاء فيه عن موضوع الخوف على الأبضاع والفروج ما يلى : « ومنها الخوف من الفتنة على الأبضاع والفروج ، ومتى يأمن ذو زوجة أو ابنة أو قريبة وضيئة أن يعثر عليها وضىء من كلاب الأعداء وخنازير البعداء ، فيغرها فى نفسها ويغرها فى دينها ، ويستولى عليها وتطاوعه ، ويحال بينها وبين وليها بالارتداد فى الدين ، كما عرض لكنَّة المعتمد بن عباد ومن لها من الأولاد ، أعاذنا الله من البلاء وشماتة الأعداء »[٢] .

تلك هى الحقيقة حول أسطورة زائدة « ابنة » المعتمد بن عباد ، وتقديم أبيها المعتمد إياها زوجة لألفونسو السادس ، اكتساباً لمحالفته وعونه ضد المرابطين ، وهى أسطورة لبثت عصوراً تمثل فى الروايات الإسبانية الكنسية وغيرها كأنها حقيقة لاريب فيها . وقد زاد من غموضها صمت الرواية الإسلامية المعاصرة واللاحقة . والظاهر أن المؤرخين المسلمين قد شعروا بما يكتنف هذه القصة من دقة وإيلام للنفوس الكريمة ، فآثروا الإغضاء عنها ، باعتبارها حادثاً لا أهمية له من الناحية التاريخية .

---

(١) وقع على هذا النص العلامة المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال فى أوراق مخطوطة من البيان المغرب لم تنشر ، عثر بها فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، ونشر عنه مقالا عنوانه Zaida la Mora فى مجلة (1934) Hispéris XVIII فكان ضوءاً جديداً قيماً على هذه الأسطورة .

(٢) وردت هذه الفقرة ضمن فتاوى الونشريشى فى كتابه السالف الذكر طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ . ويوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال رقم ١١٤٦ الغزيرى . وقد نشرت أيضاً بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية المصرى بمدريد (المجلد الخامس ص ١٨٩) .

الفصل الرابع

الفتـــح المرابطى

القسم الثانى

استيلاء المرابطين على أبدة وبياسة وقلعة رباح . استيلاؤهم على قرمونة . زحف سير بن أبى بكر على إشبيلية . يدعو المعتمد إلى الطاعة . محاصرته لإشبيلية . تأهب المعتمد للدفاع . استغاثته بملك قشتالة . مسير الجند القشتاليين لإنجاده . القتال بين المرابطين والقشتاليين . هزيمة النصارى وارتدادهم . استماتة المعتمد فى الدفاع . خصوم المعتمد فى الداخل وتفاهمهم مع المرابطين . نجاح المرابطين فى ثلم السور . محاولتهم الدخول وردهم . حرق أسطول إشبيلية النهرى . هجوم المرابطين على المدينة واقتحامها . المعارك داخل المدينة . بسالة المعتمد فى الدفاع . استيلاء المرابطين على المدينة . أسر المعتمد ونهب قصوره . إرغامه على الكتابة إلى ولديه بتسليم رندة وميرتلة . تسليم رندة ومقتل حاكمها الراضى ولد المعتمد . رواية فى تسليم إشبيلية بالأمان . ما ينقض هذه الرواية . أقوال ابن اللبانة والفتح بن خاقان . شعر المعتمد فى ذلك . حياته المعتمد بعد سقوطه . محنة اعتقاله . مسيره إلى المنفى . نزوله بطنجة . مسيره إلى أغمات. حياته المؤلمة فى المعتقل . قسوة أمير المسلمين فى معاملته . وفاة اعتماد زوجة المعتمد. قول فى صفاتها . شعر المعتمد فى محنته . محنته تذكى الشعر بالأندلس . تصفيده بالأغلال . وفاته ودفنه بأغمات . ذكراه فى المغرب والأندلس . قبره يغدو مزاراً . زيارة ابن الخطيب لقبره وشعره فى ذلك . وصف لأطلال قبره . محنة المعتمد وصداها فى الرواية الإسلامية . حملة ابن الأثير على أمير المسلمين . تعليقات دوزى. قسوة أمير المسلمين وما ينتحل لها من الأعذار. المعتمد وما له وما عليه . البواعث التى دفعت يوسف إلى فتح الأندلس . تأملات حول معاملته للأمراء المنزوعين . مسير المرابطين إلى المرية . الروايات المختلفة فى شأن سقوطها . استيلاء المرابطين على بلنسية . استيلاؤهم على شنتمرية الشرق . استيلاؤهم على سرقسطة. حركاتهم فى غرب الأندلس . إغاراتهم على أراضى بطليوس. ابن الأفطس واستغاثته بألفونسو السادس . مسير المرابطين إلى بطليوس وافتتاحها . مصرع المتوكل ابن الأفطس وولديه . انتهاء مملكة بطليوس . مرثية ابن عبدون لبنى الأفطس . استيلاء المرابطين على أشبونة . جواز أمير المسلمين الرابع إلى الأندلس . غزو المرابطين لقشتالة وهزيمتهم للنصارى . يوسف يعقد ولاية العهد لولده على فى قرطبة . مرض يوسف ووفاته . وصيته لولده على .

على أثر سقوط قرطبة ، استولى المرابطون على أبدة وبياسة وشقورة ، فى شرقى قرطبة ، وعلى حصن البلاط والمدور فى غربها . وبعث فاتح قرطبة القائد بطى بن اسماعيل إلى قلعة رباح ، وهى قاصية أراضى المسلمين ، حملة من ألف فارس ، فاحتلتها . وهكذا سيطر المرابطون على سائر أراضى الوادى الكبير ،

وعلى سائر قواعد مملكة إشبيلية ، ما عدا رندة وقرمونة وإشبيلية . وفى أوائل شهر ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ ، نجد قائد المرابطين العام، سير بن أبى بكر أمام أبواب قرمونة . وكانت قرمونة أمنع قواعد مملكة إشبيلية الشمالية ، وهى حصن إشبيلية من الشرق ، فنازلها سير ، ودخلها عنوة فى السابع عشر من ربيع الأول (١٠ مايو سنة ١٠٩١ م) . وأخذ يستعد لمنازلة إشبيلية .

ويقول لنا ابن أبى زرع فى هذا الموطن، إن سير بن أبى بكر ، حينما أشرف على إشبيلية ، وقبل الزحف على قرطبة ، كان يعتقد أن المعتمد ، سوف يخرج إليه ، ويتلقاه كعادته بالمعاونة والضيافات ، ولكنه تحصن بالمدينة ولم يعن بشأنه ، فكتب إليه سير ، يطلب إليه تسليم البلاد ، والدخول فى الطاعة ، فرد المعتمد بالرفض، فضرب سير الحصار حول المدينة ، وأخذ فى منازلتها ومقاتلة ابن عباد . ويقدم إلينا ابن خلكان رواية مماثلة ، إذ يقول إن يوسف أمر سيراً أن يعرض على ابن عباد أن يتحول إلى بر العدوة بأهله وماله ، فإن قبل فيها ونعمت ، وإن أبى فينازله ، فلما عرض سير ذلك ، لم يعطه ابن عباد جواباً ، فنازله ، وحاصره أشهراً (١) .

حاصر المرابطون إشبيلية بقوات ضخمة ، ولم يشك المعتمد منذ البداية ، أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت ، فتأهب للدفاع عن ملكه وحاضرته بكل ما وسع ، واستغاث بحليفه ألفونسو السادس ملك قشتالة . وكان ألفونسو قد اهتز لاجتياح المرابطين مملكة إشبيلية على هذا النحو الصاعق ، وأدرك من جانبه أن المسألة لم تعد تتعلق فقط بمملكة إشبيلية، ولا ملوك الطوائف وحدهم ، وإنما أضحت مشكلة شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، ومسألة خطر اجتياح المرابطين لها واحتلالهم إياها . وكانت تجمعه فى ذلك مع ابن عباد قضية واحدة ، هى قضية دفع خطر المرابطين عن الوطن المشترك ، ومن ثم فقد بادر من فوره بإرساله حملة قوية بقيادة ألبار هانيس أكبر قواده وأبرعهم ، لإنجاد ابن عباد . وتقول الرواية الإسلامية إن هذه الحملة كانت تتألف من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل (٢) ، وتقول الرواية النصرانية إنها كانت تتألف فقط من

---

(١) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ .

ألفي وخمسمائة فارس . وبعث سير بن أبي بكر لقتال القشتاليين حملة من عشرة آلاف فارس ، بقيادة ابراهيم بن إسحاق اللمتوني ، وهي حملة تقدرها الرواية النصرانية بخمسة عشر ألفاً . والتقى القشتاليون والمرابطون على مقربة من حصن المدور ، وفي رواية أخرى أن اللقاء كان في بلمة من أحواز إشبيلية(١) ، ونشبت بينهما معركة عنيفة ، قتلت فيها جموع كبيرة من الفريقين ، وانتهت بنصر المرابطين وارتداد القشتاليين ، وقد أثخن قائدهم ألبار هانيس جراحاً(٢) ، وانهار بذلك آخر أمل كان يعلقه ابن عباد على معاونة حلفائه القشتاليين .

واستمر حصار المرابطين لإشبيلية زهاء أربعة أشهر ، ودافع المعتمد وجنده عن حاضرتهم أشد دفاع ، وصمدت المدينة لهجمات المرابطين ومحاولاتهم ، حتى أنه ينسب لقائدهم سير بن أبي بكر أنه قال « لو أني أقصد مدينة الشرك لم تمتنع هذا الامتناع »(٣) .

وفي خلال ذلك حاول جماعة من أهل المدينة من خصوم بني عباد، أن يضرموا الثورة داخل المدينة ، حتى يضطرب أمر الدفاع ، ويمهد السبيل لدخول المرابطين ، ووقف المعتمد على أمرهم ، ولكنه أبى أن يقوم بإعدامهم وفقاً لنصح قادته ، واكتفى بمراقبتهم والتحوط لسعيهم . وأخيراً استطاع المرابطون بمداخلة بعض أولئك الخونة ، أن يحدثوا ثلمة في السور ، عند باب الفرج على مقربة من النهر (يوم ٥ رجب) . ووقف المعتمد على الخبر فبادر لتوه في ثلة من فرسانه ، لرد الداخلين من جند العدو ، وهو دون درع أوعدة ، وليس عليه سوى قميص يشف عن بدنه ، وتلقى المعتمد خلال المعركة التي نشبت طعنة تحت إبطه من فارس مرابطي ، فوثب المعتمد يطاعنه فشقه بسيفه ، ومزقت تلك الثلة من المرابطين ، وأصلحت الثلمة على الأثر . بيد أنه حدث في عصر ذلك اليوم ذاته ، أن تمكن بعض المرابطين من الوصول إلى أسطول إشبيلية الراسي في الوادي الكبير ، وأضرموا النار فيه ، فهلكت معظم سفنه ، وأدرك الناس عندئذ أن خطط الدفاع عن المدينة ، أخذت في الانهيار ، وسرى بينهم الرعب ، وبادر كثيرون إلى الفرار ، بعضهم عن طريق النهر ، والبعض الآخر بالترامي

---

(١) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٦٣ .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١ ؛ وكذلك: R. M. Pidal : ibid., p. 407 & 408

(٣) كتاب التبيان ص ١٧٠ .

من شرفات الأسوار ، أو الالتجاء إلى القنوات والمغائر ، وسيطرت الفوضى على المدينة ، وبدت طوالع النهاية منذرة مروعة .

وفى خلال ذلك كان سير بن أبى بكر ، يحشد قواته وينظم الضربة الأخيرة . ووقعت الضربة الحاسمة فى يوم الأحد الثانى والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ (٧ سبتمبر سنة ١٠٩١ م)(١) ، حيث هاجم المرابطون إشبيلية بشدة. واقتحموها من ناحية الوادى الكبير ، وانقضوا عليها كالسيل الجارف ، يمعنون فيها سفكاً وتخريباً . ونشبت بينهم وبين المدافعين عن المدينة معارك محلية عنيفة ، وهجمت فرقة من المرابطين على القصر الملكى ، فاستقبلهم المعتمد على باب قصره فى ثلة من فرسانه وخاصته، يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ، أشد دفاع وأروعه ، ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً ، وانتهى المرابطون بالاستيلاء على المدينة، وعلى القصور الملكية ، وأسروا المعتمد وآله، وقتلوا ابنه مالكا الملقب بفخر الدولة بين يديه ، ونهبوا قصوره — على قول المؤرخ « نهباً قبيحاً » — واحتووا على سائر ذخائره وأمواله ، وساد القتل والعيث والنهب فى المدينة الغنية التالدة . وكانت محنة مروعة .

وأصدر سير بن أبى بكر أماناً للمعتمد « فى النفس والأهل والولد »(٢) ولكنه أرغمه على مخاطبة ولديه يزيد الراضى وأبى بكر المعتد ، ينصحهما بالخضوع والتسليم ، وكان الأول حسبما تقدم ممتنعاً برندة ، والثانى ممتنعاً بميرتلة (أو مارتلة) فى جنوبى البرتغال. وكانت رندة بالأخص ما تزال صعبة المنال، نظراً لحصانتها الفائقة ، وقد يطول صمودها . وانضمت « السيدة الكبرى» أعنى اعتماد الرميكية أم الأميرين إلى زوجها المعتمد ، فى حثهما على التسليم واستعطافهما رحمة بوالديهما . فأذعن الأميران للرجاء . فأما يزيد الراضى المدافع عن رندة ، فقد قبل التسليم بعد أن قطع له جرور القائد المرابطى عهده

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٧٠ ، وهى رواية معاصرة حيث يضع هذا التاريخ لسقوط إشبيلية . ويوافقه فى ذلك ابن أبى زرع (روض القرطاس ص ١٠١) . ولكن عبد الواحد المراكشى يضع لذلك يوم الأحد ٢١ رجب ٤٨٤ هـ (المعجب ص ٧٦) . ويقول ابن الخطيب إن سقوط إشبيلية كان فى يوم الأحد ٢٠ رجب سنة ٤٨٤ هـ (أعمال الأعلام ص ١٦٤) . ومن المحقق أن الرواية الأولى هى الراجحة ؛ وتوافقها التواريخ النصرانية ، وهى تضع لذلك يوم ٧ سبتمبر الموافق للتاريخ الهجرى .

(٢) روض القرطاس ص ١٠١ .

بالأمان ، بيد أنه ماكادت تفتح أبواب المدينة ، ويدخلها المرابطون ، حتى أمر جرور بالقبض على الراضى وإعدامه ، وانتهاب أمواله ، ناكثاً بذلك بعهده أشنع نكث ، وأمر بقتل كل من ظفر به من الأحرار والجند المدافعين (رمضان سنة ٤٨٤ هـ) . وأما فى ميرتلة ، فقد أبقى المرابطون على حياة المعتد ، وقنعوا بنهب أمواله[١] . وتم للمرابطين بذلك الاستيلاء على سائر قواعد مملكة إشبيلية .

وكان يزيد الراضى ، ويكنى أبا خالد ، أنبه أبناء المعتمد فى ميدان الشعر والأدب ، وكان شاعر بنى عباد بعد أبيه ، وقرينه فى نظم القريض الفائق . وكان فوق ذلك عالما أديبا ، حافظاً للشريعة ، خبيراً بأنساب العرب ولغاتها . ومن شعره قوله :

يحل زمان المرء ما هو عاقد ... ويسهر فى إهلاكه وهو راقد
ويغرى بأهل الفضل حتى كأنهم ... جناةُ ذنوبٍ وهو للكل حاقد
سينهدُ مبنىٌ ويقفر عـــامرٌ ... ويصفر مملوء ، ويخمد واقد
ويفترق الألاّف من بعد صحبة ... وكم شهدت مما ذكرت الفراقد[٢]

* * *

وهكذا سقطت مملكة بنى عباد فى أشهر قلائل ، وخبا نجمها الذى سطع حيناً فى سماء الأندلس وضاء عالياً ، ولكنها سقطت أبية كريمة ، فى مناظر من الفروسية الرائعة تخلق بالأنى شادوها . ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد عميدها الباسل . وقد يبدو من رواية « روض القرطاس » أن المعتمد سلم عاصمته للمرابطين بالأمان مختاراً[٣] . والحقيقة التى تجمع عليها سائر الروايات ، هو أن المرابطين اقتحموا إشبيلية ، كما تقدم ، وأخذوها عنوة فى مناظر رائعة من السفك والتخريب ، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة فى الدفاع عن نفسه وعاصمته ، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة ، وحتى

(١) المراكشى فى المعجب ص ٧٧ ، وكتاب التبيان ص ١٧١ . ونحن نذكر ان اثنين من أبناء المعتمد هما عباد بن محمد والفتح الملقب بالمأمون قد قتلا بالتعاقب فى حوادث قرطبة ، وكان هؤلاء جميعاً أبناؤه من حظيته اعتماد الرميكية . وكان له منها أبناء آخرون ، منهم أبو الحسين الملقب بالرشيد الذى عبر معه إلى العدوة (راجع الحلة السيراء ج ٢ ص ٦٢) .

(٢) الحلة السيراء ج ٢ ص ٧١ و ٧٤ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ .

اقتحم الأعداء قصره وأسروه . وقد انتهت إلينا فى ذلك رواية شاهد عيان ، هو أبو بكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانة ، فهو يصف لنا فى كتابه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك فى أخبار الدولة العبادية » ، مناظر سقوط إشبيلية حسبما شهدها بنفسه فى قوله : « إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب ، فعظم الخطب فى الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه ، وترامیه على الموت بنفسه ، ما لامزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ، فشنت الغارة فى البلد ، ولم يبق فيها على سبد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى »(١) .

ويصف لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف ، ومعاصرهم تقريباً ، منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه فى عبارته المسجعة فيما يلى : « ولما انتشر الداخلون فى البلد ، وأوهنوا القوى والجلد ، خرج (أى المعتمد) والموت يتسعر فى ألحاظه ، ويتصور من ألفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقيهم فى رحبة القصر وقد ضاق به فضاؤها ، وتضعضعت من رجتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقاً ، وملأتهم فرقاً ، ومازال يوالى عليهم الكر المعاد ، حتى أوردهم النهر ، وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد إلى قصره واستمسك يومه وليلته ، مانعاً لحوزته ، دافعاً للذل عن عزته ... »(٢)

وأخيراً يقول لنا ابن الخطيب : « وكان دخول إشبيلية على المعتمد دخول القهر والغلبة يوم الأحد لعشر بقين من رجب ، وشملت الغارة ، واقتحمت الدور ، وخرج ابن عباد وابنه مالك للدفاع ، فقتل مالك الملقب بفخر الدولة ، وأرهقت ابن عباد الخيل ، فدخل القصر ملقيا بيده »(٣) .

---

(١) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٣ .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٢ فى ترجمة المعتمد بن عباد . وقد كتب الفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية بنحو ثلاثين عاماً .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٣١٩ هـ) ج ٢ ص ٨٢ .

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه فى وصف صراعه مع أعدائه فى ذلك اليوم المشهود :

إن يسلب القــوم العدا ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعــه لم تُســلم القلب الضلوع
قد رُمْت يوم نزالهــم ألاّ تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تسـيل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخــر لم يكن بهــواى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتـــال وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنــا منهــم والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح ، إن المعتمد لما التجأ إلى قصره ، بعد سقوط حاضرته ، وتفرق جيشه ، وفقد كل أمل فى النجاة ، فكر فى أن يقضى على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه المتين ، فاستسلم إلى هوان الأسر ، وقبض عليه المرابطون وعلى سائر آله وولده ونسائه (١).

— ٢ —

ويجدر بنا قبل أن نتم الكلام على فتوح المرابطين لممالك الطوائف ، أن نتتبع مصير المعتمد بن عباد حتى نهايته .

إن هذه المرحلة الأخيرة من حياة المعتمد ، وهى مرحلة مؤسية تنفطر لها القلوب الكريمة ، تنتمى إلى الأدب أكثر من انتمائها إلى التاريخ ، بما تحفل به من الآثار الشعرية الرائعة ، التى نظمها المعتمد عن محنته وآلامه فى المنفى . وقد شغلت هذه المرحلة على قصرها ، من صحف التاريخ والأدب ، فراغاً كبيراً لم تشغل مثله حياة المعتمد الملوكية كلها .

(١) راجع فى سقوط إشبيلية : روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١ ، وقلائد العقيان ص ٢١ و ٢٢ ، وكتاب التبيان ص ١٧٠ و ١٧١ ، والمعجب ص ٧٦ و ٧٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ وأعمال الأعلام ص ١٦٣ و ١٦٤ ، والمقرى ج ٢ ص ٤٥٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ و ٤١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ . وراجع أيضاً : R. M. Pidal : ibid., p. 407 & 408 ، وكذلك Dozy : Hist. V. III. p. 144

وإنه لما يثير الدهشة حقاً ما انتهى إليه أمير المسلمين من التحول من تقدير المعتمد بن عباد، وإكباره والثناء البالغ على شجاعته ونجدته ومروءته ؛ فى كتبه الرسمية بالفتح ، إلى المبالغة فى خصومته ، والعمل على سحقه ، ومعاملته بأقصى ما يعامل به عدو . ويقال فى ذلك ، إنه فضلا عن البواعث السياسية والعسكرية ، فقد لعبت السعاية والوشاية فى علائق الرجلين دوراً لا يحمد، وأثارت فى قلب يوسف أمر ضروب السخط والبغض ضد المعتمد .

لم يكن سقوط إشبيلية ، وسقوط المعتمد وآله أسرى فى أيدى الظافرين خاتمة المحنة ، بل كان بداية محنة أفظع وأبلغ إيلاماً للنفس ، هى محنة الاعتقال والأغلال والذل والمنفى المروع . وكان أمير المسلمين قد قرر مصير بنى عباد ، كما قرر مصير عبد الله وأخيه تميم صاحبي غرناطة ومالقة ، وقد قتل المرابطون من أبناء المعتمد أربعة ، هم الفتح المأمون ، ويزيد الراضى ، والمعتد بالله ، ومالك ، ولكنهم أبقوا على حياة المعتمد ، وذلك فيما يبدو بإشارة أمير المسلمين ذاته ، وربما كانت لدى الظافر فى الإبقاء على حياته بواعث غير الرأفة به ، فما كان المعتمد بن عباد من أولئك الذين يتهيبون الموت أو يخشونه ، بل لقد كان يطلبه ويسعى إليه ، حسبما رأينا . وربما أراد عاهل المرابطين بذلك ، أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها ، وأن يمرغ فى التراب ، ذلك الذى كان يعتبره قطب الفتنة فى الأندلس ، وحليف النصارى الخانع ، المذنب فى حق دينه ووطنه ، وأن يذيقه من العذاب المعنوى أروع ألوانه .

وهكذا انتزع المعتمد بن عباد وآله من قصر إشبيلية المنيف ، وأخذوا جميعاً إلى السفن التى أعدت لنقلهم إلى المنفى ، وسارت السفن من إشبيلية فى نهر الوادى الكبير فى طريقها إلى العُدوة ، فى مناظر تذيب القلب حزناً وأسى ، وضجت جموع الشعب الغفيرة التى احتشدت على ضفتى النهر لوداع المعتمد بالبكاء والنواح حينما شهدت سيدها وراعيها بالأمس تحيق به وجميع آله ، أغلال الاعتقال والذلة ، ويغادر موطن سلطانه وعزه إلى مصيره المجهول . وفى ذلك يقول شاعر المعتمد أبو بكر ابن اللبانة ، وقد كان من شهود ذلك اليوم من قصيدة طويلة :

نسيت إلا غداة النهر كونهم ... فى المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد

حط القنـاع فلم تستر مخدرة | ومزقت أوجه تمزيق أبـراد
حان الوداع فضجت كل صارخة | وصارخ من مفـداة ومن فادى
سارت سفائنهم والنوح يتبعها | كأنها إبل يحدو بها الحـادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت | تلك القطائع من قطعات أكباد(١)

وأنزل المعتمد وآله بطنجة ، واعتقلوا فيها أياماً. وهنالك زاره الحصرى الضرير الشاعر ، وألحق فى طلب الصلة ، ورفع إليه أبياتاً مدحه فيها ولم يراع فى ذلك حرج الموقف ؛ وأبت على المعتمد أريحيته الملوكية أن يرده ، فبعث إليه بستة وثلاثين مثقالا ، وشعراً يعتذر فيه عن ضآلة الهبة ، فكانت آخر صلاته الملوكية . ثم أخذوا بعد ذلك إلى مكناسة حيث التقوا بعبد الله بن بلقين وأخيه تميم ، وكانا ينتظران أمر السفر إلى مقرهما الأخير(٢) ؛ وهنالك قضيا بضعة أشهر ، قبل أن يرسلوا إلى مقرهم النهائى .

وأخيراً صدر الأمر بتسييرهم جميعاً إلى أغمات ، وهى مدينة صغيرة حصينة تقع على قيد نحو أربعين كيلومترا من جنوب شرقى مراكش، على مقربة من جبال الأطلس ، التى تظلل آكامها الثلوج . وقد كانت حسبما نذكر عاصمة المرابطين الأولى . وحل المعتمد وآله فى أغمات فى أواخر سنة ٤٨٤ هـ أو أوائل سنة ٤٨٥ هـ . وبينما أنزل عبد الله بن بلقين وأسرته داراً حسنة وعوملوا برفق ورعاية ، إذ زج المعتمد وآله إلى قلعة أغمات المنيعة . وهنالك قضى المعتمد بضعة أعوام فى أغلال الأسر ؛ يتجرع غصص المهانة والذلة ، ويلقى عذاب الشهيد المعنَّى . ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلا عادياً ؛ بل كان سجناً شنيعا بكل معانى الكلمة . ضيق فيه على المعتمد وآله أشد التضييق ، ولم يكن يطلق لهم ما يكفيهم من النفقة ، فكان المعتمد ، وزوجه اعتماد الرميكية التى كانت تسطع فى الأندلس بجمالها وخلالها البارعة ، وأبناؤه الأمراء وبناته الأقمار ، يرتدون الثياب الخشنة(٣) . وكان بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليعلن والدهن وأسرتهن .

(١) راجع هذه القصيدة فى قلائد العقيان ص ٢٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٢ و٤٥٣ ، والمعجب ص ٧٩ و ٨٠ .

(٢) كتاب التبيان ص ١٧١ .

(٣) كان للمعتمد بن عباد عدد كبير من الولد بنين وبنات . ومن أولاده الذين تذكرهم الرواية : الرشيد والمأمون والراضى والمعتد وعبد الله ومالك وأبوهاشم وعبد الجبار وغيرهم ممن لم تصلنا أسماؤهم . أما بناته فلم تذكر لنا الرواية شيئاً عن عددهن وأسمائهن سوى بثينة ، فقد ذكرها لنا المقرى بين شاعرات الأندلس (نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩) .

وهنالك فى شعر المعتمد ما يدل على أنه كان مصفداً فى قدميه بالأغلال ، على الأقل فى أواخر أيام أسره . ولم تكن هذه المعاملة الشنيعة لأعظم ملوك الطوائف عفواً ، بل كانت مقصودة ، بلا ريب ، وكانت قسوة لامبرر لها من الظافر ، ولم تكن تتفق فى شىء مع ما أثر عن يوسف بن تاشفين ، من الفروسية والخلال الحسنة . وسنرى فيما بعد كيف يفسر هذا الموقف من جانب أمير المسلمين وكيف تلتمس له الأعذار .

واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوجة المعتمد ، ولم تقو طويلا على مغالبة المحنة ، فذوت نضارتها بسرعة ثم توفيت ، فدفنت فى ظاهر أغمات على مقربة من معتقل زوجها وأولادها ، فحزن المعتمد لوفاتها أيما حزن ، واشتد به الضنى والأسى .

وقد سبق أن أشرنا إلى ماكانت تتمتع به اعتماد الرميكية أيام مجدها وعزها فى بلاط إشبيلية من منزلة عالية ، وأشرنا إلى صفاتها اللامعة من الجمال والسحر والشاعرية ، والمشاطرة فى مجالس الشعر والأدب . على أن هذه الصفات الممتازة التى كانت تتمتع بها الرميكية ، وهذه الحياة السافرة اللامعة فى أعظم بلاط لملوك الطوائف ، كانت من جهة أخرى مدعاة للطعن فى تصرفها وأخلاقها . فمثلا ينقل إلينا التيجانى الأندلسى عن الحجارى فى حق الرميكية ما يأتى : «وهى التى ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة، حتى كتب أهل إشبيلية عليه بذلك ، وبتعطيل صلوات الجمع ، عقوداً ، ورفعوها إلى أمير المسلمين ، فكان من أمره معه ماكان ، وسجن المعتمد بأغمات ، وسجنت الرميكية معه ، فماتت هنالك قبله»[1] .

(١) نقلنا هذه الفقرة عن المخطوط رقم ٥٦٢ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال والمسمى «تحفة العروس» لأبى عبدالله التيجانى الأندلسى المالكى (لوحة ٢٠٠) . ويقدم إلينا التيجانى بهذه المناسبة ملخصاً لقصة بثينة ابنة المعتمد والرميكية، فيقول لنا إن بثينة هذه كانت مثل أمها فى الجمال والذكاء ونظم الشعر . ولما سقطت إشبيلية ، ونهبت قصور المعتمد، كانت ابنته ضمن السبايا ، ولم يعثر لها على خبر ، إلى أن كتبت إليهما بأغمات شعراً تقص فيه ما حدث لها ، وهو أنها وقعت فى يد تاجر اشتراها على أنها سرية ، فامتنعت عليه ، وعرفته بحقيقة أمرها ، وطلبت إليه أن يتزوجها زواجاً شرعياً ، وكتبت إلى والديها بأغمات الشعر المشهور المتداول، ترجوفيه منهما الموافقة على زواجها منه . فسر المعتمد والرميكية بوجودها على قيد الحياة ، وكتبا إليها ، بالموافقة على رغبتها . (المخطوط السالف الذكر لوحة ٢٠١) . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩ و ٤٩٠ .

وأذكت المحنة شاعرية المعتمد، وكان القريض عندئذ عزاءه وغذاءه الروحى، فصدرت عنه فى معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسية ، وكلها تلهف على سابق مجده ، وبكاء على ماضيه ، ورثاء لمحنته ، فمن ذلك قوله :

أنبــاء أسرك قد طبقن آفاقا ... بل قدعممن جهات الأرض إطلاقا
سارت من الغرب لاتطوى لها قدم ... حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة ... وأغرق الدمع آماقاً وأحــداقا
قد ضاق صدر المعالى إذ نعيت لها ... وقيل إن عليك القيد قد ضــاقا

وقوله :

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكى عليــه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا ... وينهــل دمع بينهن غزير
مضى زمن والملك مستأنس به ... وأصبح منه اليــوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد ... متى صلحت للمصلحين دهور
أذل بنى ماء السماء زمانهم ... وذل بنى ماء السماء كبير
فيا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... أمامى وخلفى روضــة وغدير
بمنبته الزيتون مورثة العــلا ... يغنى حمام أو تدن طيــور
بزاهرها[1] السامى الذرى جاده الحيـ ... ـا تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهى[1] وسعد سعوده ... غفورين والصب المحب غيور
تراه عســيراً أو يسيراً مناله ... ألا كل ماشاء الإله يســير

وقوله فى أول عيد له بأغمات ، وقد أبكاه منظر أولاده وبناته :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة ... يغزلن للناس مايملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت فى العيد لاعادت إساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك أن تأمره ممتثلا ... فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به ... فإنما بات بالأحلام مغــرورا

(١) الزاهر والزاهى من قصور بنى عباد باشبيلية .

وقوله وقد رأى سرباً من القطا يمر بمعتقله :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن به ... سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيد حسادة ... ولكن حنيناً إن شكلي لها شكل
فأسرع فلا شمل صديع ولا الحشى ... وجيع ولا عينان يبكيهما ثكل

وقوله فى لوم أمير المسلمين على ظلمه :

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما ... وأن يمحو الذنب الذى كان قدّما
وأن يتلقى وجه عتبى وجهه ... بعذر يغشى صفحتيه التذمما
ستعلم بعدى من تكون سيوفه ... إلى كل صعب من مراقيك سلما
سترجع إن حاولت دونى فتكة ... بأخجل من خد المبارز أحجما

وأذكت مأساة بنى عباد فى الوقت نفسه دولة الشعر فى الأندلس ، ونظم أكابر شعراء العصر فى رثاء دولتهم ، والتوجع على أيامهم ، طائفة من القصائد المؤثرة ، التى مازالت تحتفظ حتى اليوم بكل روعتها وحياتها . وكان أغزرهم فى ذلك مادة ، أبو بكر بن اللبانة ، شاعر المعتمد المتقدم ذكره ، فقد بقى على صلاته ووفائه للمعتمد ، وزاره فى سجنه بأغمات ، ونظم فى دولته وأيامه ، وفى محنته وأسره ، عدة من قصائده الرنانة ، يضمها كتاب وضعه فى تاريخ بنى عباد ، وأسماه : « كتاب نظم السلوك فى مواعظ الملوك »[١] .

واستطال أسر المعتمد وسجنه حتى سنة ٤٨٨ هـ ، بيد أنه استطاع فى غمر المحنة والبؤس الطاحن ، أن يحتفظ بكثير من جلاله السابق ، فكان هذا الجلال يشع فى ظلمات سجنه ، كما يشع ضوء الشمس إذا أحدق به الغمام[٢] . وفى أواخر أيامه صدرت أوامر أمير المسلمين بالتضييق عليه وتصفيده بالإغلال ، بسبب ثورة محلية قام بها ولده عبد الجبار فى بعض حصون إشبيلية ، وكان ممن أفلت عند سقوطها وذلك حسبما نذكر بعد . وفى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ هـ (أواخر أكتوبر ١٠٩٥ م)، توفى المعتمد فى سجنه بقلعة أغمات بعد

---

(١) يراجع بعض هذه القصائد فى قلائد العقيان ص ٢٩ و ٣٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤١ وما بعدها ، وفى نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٧ و ٤٥٨ . وكذلك فى الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٩ — ٦٧ . هذا وقد كتب ابن قاسم الشلبى مجموعاً فى أخبار المعتمد ابن عباد أشار إليه ابن الابار (الحلة ج ٢ ص ١٣٦) .

(٢) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ (الطبعة الثانية) ص ٩٧ .

اعتقال دام زهاء أربعة أعوام[1]، وكان سنه عند وفاته سبعاً وخمسين سنة وبضعة أشهر . ودفن بظاهر أغمات إلى جانب زوجه اعتماد الرميكية . ومما قاله فى رثاء نفسه قبل وفاته ، وأوصى بأن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى ... حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت ... بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا ... بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم ... بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر ... من السماء فوافانى لميعـــاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ... إن الجبال تهادى فوق أعـــواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم ... رواك كل قطوب البرق رعاد

ويقدم إلينا صاحب البيان المغرب بعض تفاصيل عن ثورة عبد الجبار بن المعتمد وهى الثورة التى اتخذت ذريعة للتنكيل بأبيه وتصفيده فى سجنه بأغمات ، وذلك أن عبد الجبار امتنع بحصن أركش ، الواقعة جنوبى إشبيلية وشرقى شريش ، فى جمع كبير من أصحابه . وبعث إلى ألفونسو السادس يطلب عونه ؛ وعلم الأمير سير اللمتونى فاتح إشبيلية بذلك ، فسار إلى أركش ، وبعث إلى أمير المسلمين يخطره بالأمر ، فبعث إليه مدداً من الخيل والرجالة ، فضخمت الحملة ، وأحدقت بالحصن ، وضيقت على من فيه ، واتصلت الحرب بين الفريقين ، وابن عباد يخرج فى قواته من آن لآخر ويشتبك بالمرابطين فى معارك دامية ، وأصحابه يتساقطون من حوله تباعا . وفى ذات يوم أصاب ابن عباد سهم رماه به أحد الرماة المرابطين ، فاحتمله أصحابه جريحاً ، وتوفى لأيام قلائل ، فكتم أصحابه موته . وكان قد مضى على هذه المعارك نحو ستة أشهر ، وفنى كثير من حامية الحصن ، واشتد بها الضيق ، وعندئذ حاول القادة الأندلسيون الحصول على الأمان ، فرفض الأمير سير ، واقتحم الحصن أخيراً ، وقتل معظم حاميته ، واستخرج جثة عبد الجبار من قبرها ، واحتز رأسه ورؤوس أصحابه ، وحملت

---

(١) ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن وفاة المعتمد كانت فى شهر ذى الحجة سنة ٤٨٨ (الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها) . ويقول ابن الابار إنها كانت فى ربيع الأول سنة ٤٨٨ هـ (الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٥) .

إلى مدينة إشبيلية ، وعلقت على أسوارها ، ووقعت حوادث هذه الحملة فى سنة ٤٩٠ ﻫ (١٠٩٧ م)(١) .

وهكذا اختتم المعتمد بن عباد حياته الباهرة ، فى غمر المحنة وظلمات العدم ، وتفرق من بعده ولده وآله فى مختلف الأنحاء . ولكن ذكراه لبثت طويلا حية فى المغرب والأندلس ، ولبثت محنته وخاتمته مضرب الأمثال فى تقلب الجدود وعبر الدهر . وبعد وفاته بقليل وفد على أغمات أبوبحر بن عبد الصمد ، وقد كان من شعراء دولته وخاصة المتصلين به ، وذهب يوم العيد إلى قبره فخر أمامه ، وغمره بقبلاته وبلله بدموعه ، وأنشد بين الجماهير التى احتشدت من حوله ، مرثيته الغراء فى المعتمد ، ومطلعها هذه الأبيات :

ملك الملوك أسامع فأنادى | أم قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن | فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً | وتخذت قبرك موضع الإنشاد
قد كنت أحسب أن تبرد أدمعى | نيران حزن أضرمت بفؤادى
فإذا بدمعى كلما أجريتـه | زادت علىّ حرارة الأكبـاد

فبكى الناس لسماعه أحر بكاء ، وهم يطوفون بالقبر طواف الحجيج ، وكان منظراً يفتت الأكباد(٢) .

* * *

وقد أسبغت هذه البقعة التى يرقد فيها ملك إشبيلية، وأمير الشعر فى عصره، رقدته الأبدية ، شهرة مؤثرة على مدينة أغمات . ولما ذهبت دولة المرابطين بعد ذلك بنحو خمسين عاماً، غدا قبر المعتمد بن عباد وزوجه الرميكية فى أغمات مزاراً يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس ، واستمر كذلك عصوراً . وفى سنة ٧٦١ ﻫ (١٣٦٠ م) زاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب عند زيارته لمدينة أغمات ، وهو يصفه لنا فى كتابه « نفاضة الجراب » فى قوله : « وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبى القاسم محمد بن عباد أمير حمص

---

(١) البيان المغرب من أوراق مخطوطة ، عثرنا بها فى خزانة القرويين بفاس ، وسبقت الإشارة إليها .

(٢) راجع قلائد العقيان ص ٣٠ و ٣١ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٥ — ١٧٠ حيث يورد القصيدة كلها .

وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك الصقع الغربى رحمه الله . وهو بالمقبرة القبلية على يسار الخارج من البلد ، قد توقل نشزا غير سام ، وإلى جانبه ، قبر الحرة حظيته ، وسكن نفسه ، اعتماد ، إشراكاً لاسمها فى حروف لقبه المنسوب إلى رميك ، المتولعة بشأنه معها أخبار القصاص ، وحكايات الأسمار ، إلى أجداث من ولدهما فترحمنا عليه ، وأنشدته »(١) . ويعود ابن الخطيب بعد ذلك فى كتابه « أعمال الأعلام » . فيصف لنا زيارته للقبر فى تلك العبارات المؤثرة : « وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض ، وقد حفت به سدرة ، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته ، مولاة رميك ، وعليها وحشة التغرب ومعاناة الخمول بعد الملك ، فلاتملك العين دمعها عند رؤيتها » ، وقد أنشد على القبر أبياتاً يقول فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ... رأيت ذلك من أولى المهمات
ولم لا أزورك يا أندى الملوك يداً ... وياضياء الليالى المدلهمات
أناف قبرك فى هضب يميزه ... فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا ... فأنت سلطان أحياء وأموات
ماريء مثلك فى ماض ومعتقدى ... أن لايرى الدهر فى حال ولا آت(٢)

وزاره المقرى مؤرخ الأندلس فى سنة ١٠١٠ هـ (١٦٠٢ م) ورآه كما ذكر ابن الخطيب فوق ربوة فى مكان يغمره النسيان ، فوقف أمامه خاشعاً متأثراً(٣) .

وقد انتهزت فرصة وجودى بمدينة مراكش فى خريف سنة ١٩٥٦ ، فزرت أغمات . وقد غدت مدينة أغمات هذه ، التى اشتهرت فى التاريخ وفى الأدب لاحتوائها على قبر المعتمد بن عباد ، اليوم قرية متواضعة ، تقع على مقربة من مراكش ، ومن آكام جبال الأطلس الثلجية ، وتحيط بها غراس الزيتون والتين البرى ، ولايعدو سكانها ثلاثة آلاف نسمة . وأما قبر المعتمد ، فيقع فى ظاهرها فى طلل خرب يحيط به سور قصير ، وفى داخله حظيرتان ، فى إحداهما قبر المعتمد ، وقد خرب تماماً ونمت به الأشواك البرية ، وعليه كومة من الأحجار الصغيرة . وأما الحظيرة الأخرى فالمفهوم أنها تحتوى على قبر زوجه اعتماد الرميكية . وقد ذكرت وأنا أتأمل هذا الطلل الموحش المؤثر ، ما ذكره

---

(١) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب . مخطوط الإسكوريال رقم ١٧٥٥ الغزيرى .
(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٤ و ١٦٥ .
(٣) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩ .

ابن الخطيب والمقرى من قبل، من غلبة الخمول والعفاء عليه ، وشعرت بمثل ما شعر به كل منهما من الألم والخشوع.

* * *

كانت مأساة المعتمدبن عباد مأساة من أروع المآسى الملوكية ، ومازالت محنة هذا الأمير ، تحتفظ إلى يومنا ، بالرغم من كر العصور ، بألوانها المشجية ، وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف بنوع خاص فى روايات مؤرخى الأندلس والمشرق ، وفى كثير منها يُصور المعتمد شهيد القسوة والعسف ، ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ، ويصمه بأقسى الصفات . فمثلا يقول لنا ابن الأثير فى التعليق على أسر بنى عباد ومعاملتهم : « وفعل أمير المسلمين بهم فعالا لم يسلكها أحد من قبله ، ولايفعلها أحد ممن يأتى بعده ، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة ... وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره »(١) .

ويقول العلامة دوزى معلقاً على ذلك : « ومهما كانت فضائل يوسف ، فإن الشهامة إزاء المغلوبين لم تكن منها ، فقدكان تصرفه مع الأمراء الأندلسيين الذين أسرهم قاسياً وبغيضاً » . ثم يقول، إن المعتمد لم يكن بلا ريب ملكاً عظيما ، بيد أنه ينوه بدقة حساسيته وفيض شاعريته ، التى تنعكس عليها أقل الحوادث فى حياته ، بل إنا لنستطيع أن نسجل حياة المعتمد وخلجات نفسه ، من قصائده ، ثم يقول : « ثم إنه ، أى المعتمد كان لحسن طالعه آخر ملك أندلسى ، يمثل بجدارة وروعة ، قومية وحضارة عقلية سقطتا تحت نير البربرالذين فتحوا البلاد . ولقد لزمه نوع من الإيثار باعتباره آخر فرع لتلك الأسرة العديدة من الأمراء الشعراء ، الذين حكموا الأندلس . وإنا لنأسوا له أكثر مما نأسوا لأى شخص آخر ، بل ودون أى شخص آخر ، كما تثير آخر زهرة فى الموسم ، وآخر أيام الخريف الحلوة ، وآخر أشعة الشمس الغاربة ، فى نفوسنا أسى »(٢) .

وقد أسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ، ونحو المعتمد بنوع خاص . على سيرته وعلى خلاله سحباً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله .

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ .

(٢) Dozy : Hist. V. III. p. 178—179

وتتلخص هذه الأعذار فى أن المعتمد كان بسياسته وتصرفه نحو شئون الأندلس ، ومحالفته للنصارى على اخوته فى الدين ، وتعريضه مسقبل الإسلام للخطر ، تحقيقاً لمطامعه الشخصية ، يستحق أعظم اللوم ، وأنه عوقب بما تقتضيه فداحة ذنبه . وقد أدرك المعتمد ، عقب سقوط طليطلة ، فداحة أخطائه ، وأبدى صريح ندمه لما أثم[1] . على أنه إذا كان حقاً أن المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات جسام ، فإنه من الحق أيضاً أنه حينما استفحل الخطب ، وظهر شبح الخطر على الأندلس المسلمة ، كان أول الداعين إلى الوحدة ، وإلى طلب الغوث من المرابطين ، وأنه لم يبخل فى ذلك السبيل بتضحية حصونه التى طلبها يوسف قبل عبوره إلى الأندلس ، وأنه أبلى فى موقعة الزلاّقة أعظم البلاء ، وعاون فى نيل النصر أعظم معاونة . كذلك لاريب أن البواعث التى دفعت يوسف إلى افتتاح الأندلس وامتلاكها ، لم تكن دينية فقط ، ولم تكن بعد الزلاقة وحصار أليذو ، مجرد جهاد فى سبيل الله ، بل كانت دنيوية قبل كل شىء ، ولم يك ثمة شك فى أن الأندلس قد أغرت المرابطين وأميرهم بخصبها وغنائها ونعمائها . وإنه ليحق لنا بعد ذلك كله أن نتساءل ، أى ضرورة بل أى حكمة اقتضت أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، وأن يمعنوا فيهم قتلا وتعذيباً ، على النحو الذى اتبعوه ، بعد أن استولوا على أملاكهم وأراضيهم[2] وأى ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين ، المعتمد بن عباد وآله بهذه القسوة المروعة ، بعد أن غدوا فى يده أسرى لاحول لهم ولاقوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه ، أن تمتد هذه القسوة إلى الولد الضعاف والنساء والبنات ؟ لقد كان المعتمد مثقلا بتبعات أعماله وأخطائه كأمير ، وملك من ملوك الطوائف ، أفلم يكن يكفيه فقد ملكه وسلطانه ، وأسره واعتقاله ، للتكفير عما أثم يسابق تصرفه ؟ وماذا كان يضير الظافر لو عامله بشىء مما يقتضيه سابق مكانته من الرفق والرعاية ؟

---

(١) راجع ما ورد فى رسالة ابن عباد لألفونسو السادس (ص ٧٦ من هذا الكتاب) .

(٢) قتل المرابطون ثلاثة من أبناء المعتمد بن عباد ، هم المأمون والراضى ومالك ، وقتلوا المتوكل بن الأفطس وولديه الفضل والعباس ، وقتلوا كثيراً غيرهم من الوزراء والكبراء ، فى مناظر من القسوة المثيرة .

هذه تأملات تثيرها فى النفس محنة المعتمد بن عباد . ولاريب أن هذه الخاتمة المؤسية التى قدر للمعتمد أن يعانى آلامها المروعة المادية والمعنوية، لحرية بأن تسبغ عليه ثوب شهيد ، يستحق عطف التاريخ ، وصفح الأجيال .

— ٣ —

ذكرنا فيما تقدم أن أمير المسلمين حينما نظم جيوشه لافتتاح إمارات الطوائف، بعث إلى ألمرية جيشاً بقيادة أبى زكريا بن واسنو (وقيل بل محمد بن عائشة) لمحاصرتها وافتتاحها . وهنا تختلف الرواية ، فيقال إن المرابطين أشرفوا على ألمرية ، وحاصروها ، وأميرها المعتصم بن صمادح عليل يعانى مرض موته ؛ وأنه ألقى بهذه المناسبة كلمته المأثورة « نغص علينا كل شىء حتى الموت » ، ثم توفى أثناء الحصار فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)[1] . وفى رواية أخرى أن المعتصم توفى قبل مقدم المرابطين ، وأنه كان قد أوصى ولده معز الدولة قبيل وفاته ، بأن يترقب مصير إشبيلية ، فتى سقطت فى أيدى المرابطين ، وخلع أميرها المعتمد بن عباد ، فعليه أن يغادر ألمرية فوراً ، ويعبر البحر فى أهله وأمواله ، إلى العدوة ، ويلتجىء إلى حماية بنى حماد أمراء القلعة . وقد نفذ معز الدولة وصية أبيه ، واستطاع أن ينجو بأهله وأمواله ، وأن يغادر ألمرية فى آخر لحظة ، قبل أن يطوقها المرابطون ، وأن يعبر البحر إلى العدوة (رمضان سنة ٤٨٤ هـ) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة ألمرية[2]. ودخل المرابطون ألمرية على الأثر واحتلوها ، فكانت ألمرية بعد غرناطة وإشبيلية ، ثالثة مملكة من ممالك الطوائف تسقط فى أيدى المرابطين .

وقد ذكرنا فيما تقدم كيف احتل المرابطون مدينة مرسية بقيادة ابن عائشة وذلك فى شوال سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٠٩١ م) ، ثم استولوا فى العام التالى (٤٨٥ هـ) على شاطبة وشقورة ودانية .

ونحن نعرف مما تقدم من أخبار مملكة بلنسية، أن المرابطين بدأوا يتدخلون فى حوادث بلنسية ، ويبذلون جهودهم لتحطيم مغامرات « السيد » فى هذه المنطقة ، وذلك منذ سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) . وقد قام الجيش الذى يقوده

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٢ . والطبعة الجديدة ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٤ ، وروض القرطاس ص ١٠١ .

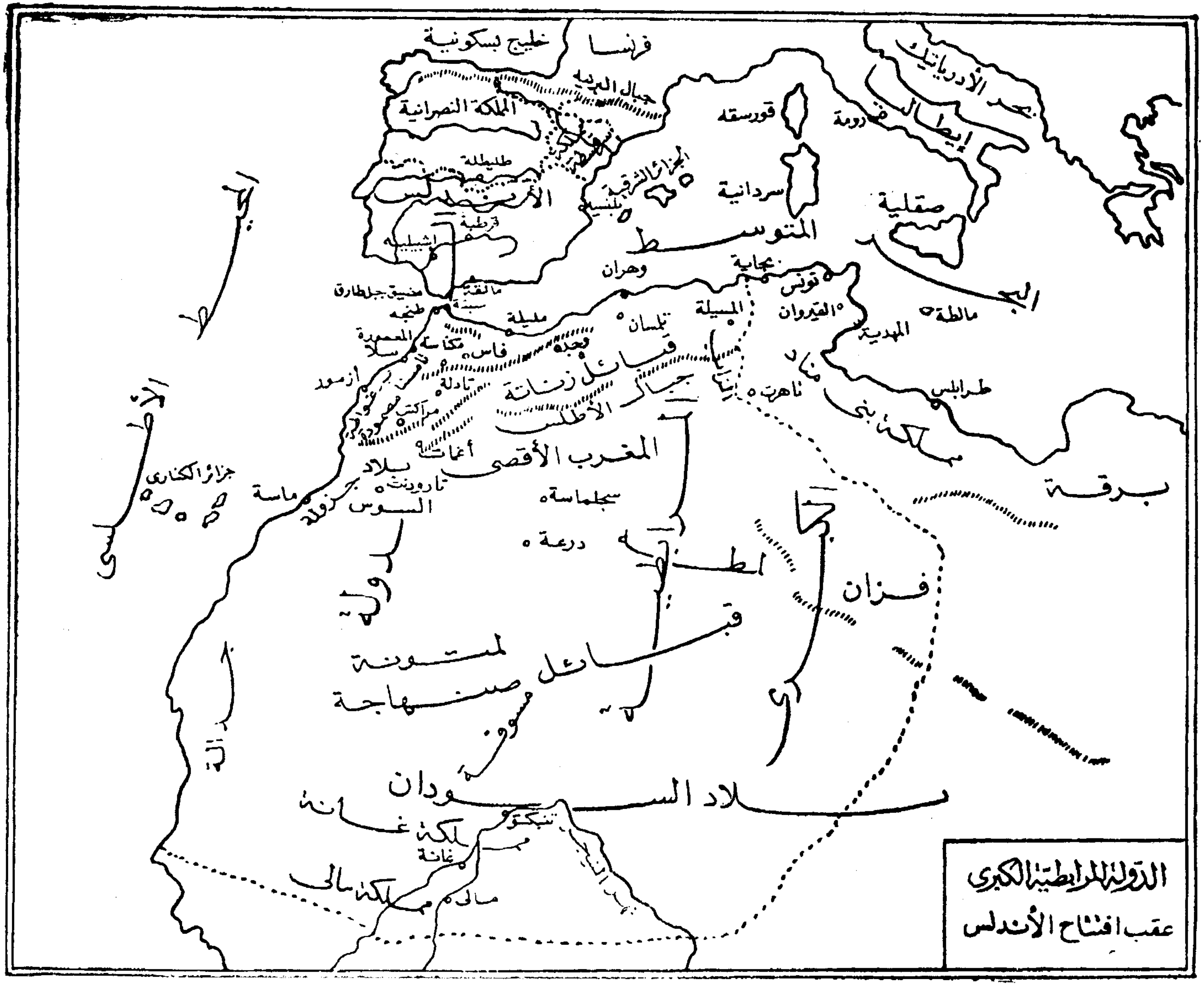

الدولة المرابطية الكبرى
عقب افتتاح الأندلس

ابن عائشة بدوره فى ذلك . ثم قدم إلى شرق الأندلس جيش مرابطى آخر ، أوفر عدة وعدداً ، بقيادة محمد بن تاشفين ابن أخى يوسف ، وحاصر بلنسية ، وفى داخلها السيد ، وذلك فى أواخر سنة ٤٨٨ هـ . ولكن مقاومة السيد ، ومن بعد وفاته مقاومة القشتاليين ، استطالت بضعة أعوام ، ولم يتمكن المرابطون من دخول بلنسية إلا فى شهر شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو سنة ١١٠٢ م) وذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلا شافياً فى أخبار مملكة بلنسية .

واستمرت الجيوش المرابطية فى تقدمها شمالى بلنسية ، نحو أراضى الثغر الأعلى ، واستولت على إمارة شنتمرية الشرق فى رجب سنة ٤٩٧ هـ (إبريل ١١٠٤ م) ، وكانت قد استولت قبل ذلك على إمارة ألبونت الصغيرة . وفى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) ، وعقب انتصار المرابطين فى موقعة إقليش ، سار جيش مرابطى بقيادة أبى عبد الله بن الحاج والى بلنسية ، شمالا صوب سرقسطة ، فدخلها ، وأخرج منها بنى هود ، وبذلك تم للمرابطين فتح شرق الأندلس والثغر الأعلى ، وانتهت إمارات الطوائف كلها فى تلك الأنحاء .

وأما فى غربى الأندلس ، فإن المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، شعر عقب استيلاء المرابطين على إشبيلية ، أن الدائرة سوف تدور عليه ، وكان قبل ذلك قد تقرب من عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وبعث اليه برسالته المؤثرة التى أوردناها من قبل ، يدعوه فيها لنصرة الأندلس . ولما استولى المرابطون على غرناطة ذهب مع المعتمد بن عباد لتهنئة أمير المسلمين ، فاستقبلهما بجفاء ، وانصرفا من لديه وقد شعر كلاهما بالخطر الداهم على مملكته . على أنه يبدو أن ابن الأفطس استطاع بعد ذلك أن يعمل على توثيق أواصر المودة مع المرابطين وكبيرهم الأمير سير بن أبى بكر فاتح إشبيلية وحاكمها . واستمرت هذه العلائق الودية قائمة نحو ثلاثة أعوام . ثم بدأ المرابطون الإغارة على أراضى مملكة بطليوس ، وشعر المتوكل بتغير المرابطين نحوه واتجاههم إلى إزالته ، ولم يجد أمامه إزاء هذا الخطر الداهم ، طريقاً يسلكه سوى نفس الطريق الذى سلكه ابن عباد من قبل ، وهو الاستغاثة بألفونسو السادس ملك قشتالة . وبذل ابن الأفطس لملك قشتالة ثمناً لحلفه ومعاونته ، ثلاث مدن هامة من أملاكه ، هى أشبونة ، وشنترة ، وشنترين . وقد كان لهذا التصرف وقع سيء ، إذ ، انحرف

أهل بطليوس عن المتوكل ، وكتب أعيانهم إلى المرابطين يستدعونهم . وفى أوائل سنة ٤٨٨ هـ (أوائل ١٠٩٥م) ، بعث حاكم إشبيلية الأمير سير بن أبى بكر جيشاً إلى بطليوس لافتتاحها ، فاخترق أراضى بطليوس بسرعة ، ولم يتمكن ملك قشتالة من تقديم أية معاونة لحليفة المسلم ، واضطر ابن الأفطس أن يمتنع بقصبة بطليوس المنيعة الضخمة . ولكن المرابطين اقتحموها بعنف ، وقبضوا على المتوكل وولديه الفضل والعباس ، واستولوا على أمواله المدفونة بالقصبة ، بعد أن عذبوه لكشف مخابئها . واحتل المرابطون بطليوس ، وأخذوا المتوكل وولديه بحجة تسييرهم إلى إشبيلية ، ثم أعدموهم فى الطريق(١) . وكان للمتوكل ولد آخر هو المنصور ، وكان قد بعثه ومعه معظم ذخائره إلى حصن منتانجش على مقربة من حدود قشتالة ، يمتنع فيه ، فلما علم بما وقع لأبيه وإخوته ، سار فى أهله وأمواله إلى ملك قشتالة ، والتجأ إلى حمايته ، وأقام بأرضه ، واعتنق النصرانية وفقاً لبعض الروايات(٢) . وهكذا انتهت مملكة بطليوس بعد أن عاشت فى ظل بنى الأفطس خمسة وسبعين عاماً ، وتم للمرابطين فتح غربى الأندلس كله ، كما تم لهم من الناحية الأخرى فتح شرقى الأندلس .

وقد أذكت محنة بنى الأفطس ، كما أذكت محنة بنى عباد من قبل ، فجيعة الشعر الأندلسى ، ونظم فى رثائهم ورثاء دولتهم وأيامهم ، وزيرهم الكاتب والشاعر المبدع ، أبومحمد عبد المجيد بن عبدون ، مرثيته الشهيرة ، التى تعتبر من أجل المراثى الأندلسية وأروعها ، وهذا مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر

ومنهـا :

فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى أقال الله عثرتنـا ... من الليـالى وخانتها يد الغير
فى كل حين لها فى كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن النظر

(١) المعجب ص ٤٢ ، وأعمال الأعلام ص١٨٦ ، وراجع : Dozy : Hist. V. III. p. 152 وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 504

(٢) هذه رواية ابن عذارى فى الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها بخزانة القرويين . وراجع أيضاً أعمال الأعلام ص ١٨٦ .

تسر بالشيء لكن كي تغر به ... كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر

ومنها فى رثاء بنى الأفطس :

بنى المظفر والأيام لا نزلت ... مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت ... بمثلــه ليلة فى غابر العمر
من للأسرة أو من للأعنة أو ... من للأسنة يهديها إلى الثغر
من للبراعة أو من لليراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر

ومنها :

أين الجلال الذى غضت مهابته ... قلوبنــا وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذين أرسوا قواعده ... على دعائم من عز ومن ظفــر
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه ... فلم يرد أحــد منها على كدر
كانوا رواسى أرض الله منذ مضوا ... عنهــا استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت ... هذه الخليقة يا ألله فى سدر[١]

هذا وقد أجمل لنا مأساة الطوائف شاعر معاصر هو أبوالحسن جعفربن ابراهيم المعروف بابن الحاج اللورقى فى تلك الأبيات الثلاثة :

كم بالمغارب من أشلاء مخترم ... وعاثر الجد مصبور على الهون
أبناء معن ، وعباد ، ومسلمة ... والحميريين باديس وذى النون
راحوا لهم فى هضاب العز أبنية ... وأصبحوا بين مقهور ومسجون[٢]

وعلى أثر الاستيلاء على بطليوس ، سارت حملة مرابطية إلى ثغر أشبونة ، وكانت تحتله مذ نزل عنه المتوكل ، حامية قشتالية بقيادة الكونت ريمون البرجونى صهر ألفونسو السادس ، وهاجم المرابطون أشبونة بشدة واقتحموها ، وقتلوا وأسروا معظم حاميتها النصرانية : وأعيد بذلك هذا الثغر الهام إلى حظيرة المملكة الإسلامية (نوفمبر سنة ١٠٩٤ م)[٣] .

---

(١) تراجع القصيدة بأكملها فى المعجب ص ٤٢ — ٤٦ ، ونشرت ناقصة فى أعمال الأعلام ص ١٨٦ — ١٨٩ .

(٢) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٣) راجع الحلل الموشية ص ٥٥ وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 502

ورد ملك قشتالة على ذلك بالقيام بغزوة جديدة لأراضى الأندلس . فى سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) حشد ألفونسو السادس حملة ضخمة ، وسار نحو قرطبة ، فلما علم أن المرابطين هناك على أهبة شديدة لمدافعته ، تحول عنها وسار إلى قرمونة وهى حصن إشبيلية الشرقى ، فهاجمها واقتحم بسائطها فيما بينها وبين إستجة ، واستولى على غنائم وفيرة وسبى جموعاً عظيمة ، ثم اتجه صوب إشبيلية ، وعاث فى بسائطها ، فامتنع أهل إشبيلية بمدينتهم ولم يخرجوا إلى قتاله حسبما كان يتوقع ، فلما يئس من الاشتباك مع المسلمين ، سارا فى قواته وغنائمه صوب بطليوس ثم جاز إلى أراضى قشتالة عائداً إلى قواعده[1] .

— ٤ —

لبث أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حيناً فى سبتة ، يعنى بإمداد جيوشه الغازية فى شبه الجزيرة ، ويتلقى أنباء الفتوح المتوالية لقواعد الأندلس ، ثم غادرها إلى مراكش ، بعد أن اطمأن إلى نتائج أعمال البعوث والحملات المختلفة ، وعهد بشئون الأندلس ، إلى كبير قادته الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى .

ولم يعد يوسف إلى شبه الجزيرة إلا بعد ذلك بعدة أعوام فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) حيث جاز إليها جوازه الرابع . وفى رواية أخرى أن هذا الجواز الرابع وقع فى سنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ)[2] وفى رواية ثالثة ، وهى رواية ابن عذارى أنه وقع فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) . وكانت ممالك الطوائف كلها قد سقطت يومئذ فى أيدى المرابطين ، ماعدا سرقسطة ، التى استولى عليها المرابطون بعد ذلك بأعوام قلائل ، وآلت اسبانيا المسلمة كلها بذلك إلى سلطان البربر وغدت ولاية مغربية ، وانهار سلطان العصبيات والأسر الأندلسية إلى حين ، وتوارت العناصر والزعامات المتغلبة ، لكى تظهر فيما بعد ، وتضطلع ضد المرابطين بمختلف الحركات والثورات القومية الأندلسية .

واتخذ جواز أمير المسلمين هذه المرة طابع الجهاد من جديد ، فجهز جيشاً قوياً من المرابطين والأندلسيين بقيادة محمد بن الحاج . وسار هذا الجيش صوب

---

(١) البيان المغرب من الأوراق المخطوطة التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) R. M. Pidal : ibid., p. 535

طليطلة مخترقاً أراضى قشتالة ، والتقى بالقشتاليين بقيادة ملكهم ألفونسو على مقربة من كونسويجرا ، فهزم النصارى هزيمة فادحة ، وفر ألفونسو فى فلوله نحو كونسويجرا والتجأ إليها ، فحاصره المرابطون بها بضعة أيام ثم انصرفوا (أغسطس سنة ١٠٩٧ م).

وقصد يوسف إلى قرطبة ، لينجز المهمة التى قدم فى الواقع من أجلها إلى الأندلس ، وهى أخذ البيعة لولده أبى الحسن على . وكان قد استقدمه معه هو وأخوه الأكبر أبو الطاهر تميم[1] . وكان يوسف قد آثر ولده علياً بولاية عهده ، لما آنسه فيه من الورع والنباهة والحزم ، وأصدر له عهده بذلك فى سنة ٤٩٥ هـ . وفى شهر ذى الحجة من سنة ٤٩٦ هـ جمع يوسف بقرطبة أمراء لمتونة وأشياخ المرابطين والفقهاء . وأخذ البيعة عليهم جميعاً لولده على ، وكان من شروط تقديم على لولاية العهد ، أن ينشىء بالأندلس جيشاً مرابطياً ثابتاً قوامه سبعة عشر ألف فارس ، موزعة على قواعد الأندلس : منها سبعة آلاف بإشبيلية ، وألف بكل من قرطبة وغرناطة ، وأربعة آلاف فى شرق الأندلس ، ويوزع الباقى على الثغور[2] . وكان من الواضح أن اختيار يوسف قرطبة لأخذ البيعة بها لولده ، يمت بصلة وثيقة إلى صفة عاصمة الخلافة القديمة ، وزعامتها الأدبية السالفة لقواعد الأندلس .

وفى أواخر سنة ٤٩٨ هـ ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بقصره بحضره مراكش ، واستمر عليلا زهاء عام وشهرين ، حتى توفى فى مستهل شهر محرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر ١١٠٦ م)[3] . وقيل بل توفى فى ربيع الآخر سنة خمسمائة . وكانت وفاته بقصره بمراكش ، ومن حوله ولداه أبو الحسن على وأبو الطاهر تميم ، وأكابر لمتونة ، ودفن بالقصر ، وأوصى ولده عليا قبيل وفاته بثلاثة أمور : الأول ألا يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة ، والثانى أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلا بينه وبين النصارى ، والثالث أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عمن أساء منهم[4] .

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٥ . ويقول ابن أبى زرع إن علياً كان عندئذ بسبتة حيث نشأ (روض القرطاس ص ١٠١) .

(٢) الحلل الموشية ص ٥٨ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ ويقول ابن خلكان إنه توفى فى الثالث من المحرم سنة ٥٠٠ هـ (ج ٢ ص ٤٤٨) .

(٤) الحلل الموشية ٦٠ .

وهكذا اختتمت حياة البطل المغربى العظيم ، بعد أن عاش زهاء مائة عام ، وقضى فى الزعامة والكفاح زهاء نصف قرن ، منذ ندبه ابن عمه الأمير أبو بكر اللمتونى لقيادة الجيش المرابطى ، وقضى فى حكم الدولة المرابطية الكبرى بالمغرب منذ دخل مدينة فاس فى سنة ٤٦٢ ﻫ ، نحو أربعين عاماً ، وحكم الإمبراطورية المغربية الأندلسية الكبرى نحو خمسة عشر عاماً ، واضطلع فى المغرب بحروب ومعارك لاحصر لها ، وقاد الجيوش المرابطية بالأندلس مراراً من أجل الجهاد فى سبيل الله، وأحرز أعظم انتصاراته فى معركة الزلاّقة الحاسمة ، وهى بلا ريب ألمع صفحات جهاده وأنصعها .

وقد تناولنا خلال يوسف وصفاته فيما تقدم من سيرته ، ونزيد هنا أنه لم يصم حياة يوسف المديدة ، ولم يثر سحباً حول خلاله العظيمة ، سوى ما جنح إليه من قسوة بالغة فى معاملة أمراء الأندلس ، وهو ما سبق أن عرضنا إليه .

الكتاب السابع

الممالك الإسبانية النصرانيّة

خلال القرن الحادى عشر الميلادىّ

الفصل الأول

المملكة الإسبانية الكبرى

فى عهد سانشو الكبير وولده فرناندو الأول

الممالك الإسبانية فى أواخر القرن العاشر . ناڤار وليون وقشتالة . سانشو الكبير يحتل قشتالة . ولده فرناندو أول ملوكها . ألفونسو الخامس ملك ليون . ولده برمودو الثالث . استيلاء سانشو الكبير على ليون . مصرع برمودو الثالث . استيلاء فرناندو على ليون . تقسيم المملكة النصرانية بعد وفاة سانشو. الحرب بين راميرو ملك أراجون وأخيه غرسية ملك ناڤار . غرسية يحاول اغتيال فرناندو ملك قشتالة . إنتقام فرناندو. الحرب بين الأخوين . هزيمة غرسية ومقتله . تعيين ولده سانشو مكانه . إنهيار الأندلس الكبرى وقيام الطوائف. تحول ميزان القوى فى شبه الجزيرة . ضعف دول الطوائف . تنافسها فى استعداء الملوك النصارى. تفوق اسبانيا النصرانية ونهوض سياسة الإسترداد . غزو فرناندو الأول لولاية البرتغال . حصار بازو وسقوطها . سقوط لاميجو. تهديد شنترين . غزو فرناندو لمنطقة وادى الحجارة . المأمون بن ذى النون يسترضيه بالمال والخضوع . غزو فرناندو لمملكة إشبيلية . خضوع ابن عباد وتعهده بالجزية . موافقته على نقل رفات القديسين النصارى . مسير فرناندو لغزو قلمرية . حصارها وسقوطها . الكونت سسندو يتولى حكمها . مسير فرناندو إلى بلنسية وموقعة بطرنة . مرض فرناندو ووفاته . تلقبه بالإمبراطور . أعماله الإنشائية . مجلس جويانسا . قوانينه الكنسية والدستورية . تنويه الرواية النصرانية بخلال فرناندو وعظمته .

مضينا فيما تقدم ، فى تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية ، حتى نهاية القرن العاشر الميلادى ، أعنى حتى نهاية عهد المنصور بن أبى عامر ، ونحاول الآن أن نتتبع تاريخ هذه الممالك خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، أعنى خلال الحقبة التى شهدت سقوط الخلافة الأندلسية ، وانهيار الأندلس الكبرى ، وانتثارها إلى دول الطوائف ، ثم سيرة الطوائف منذ قيامها حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، وانهيار هذه الدول الإسلامية الصغيرة .

كانت الممالك الإسبانية النصرانية فى أواخر القرن العاشر الميلادى ثلاثاً : وهى ناڤار (نبرّة) ، ويحكمها غرسية سانشيز ، ولد سانشو غرسية الثانى . وكانت ناڤار يومئذ أكبر الممالك النصرانية رقعة ، إذ كانت تشمل فضلا عن الوطن الأصلى ناڤار ، ولايات كنتبريا ، وسوبرابى ، ورباجورسا . ولما توفى

غرسية سانشيز، فى سنة ١٠٠٠ م ، بعد حكم دام خمسة أعوام ، خلفه فى الحكم ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير.

ومملكة ليون ، وكان يحكمها برمودو الثانى منذ سنة ٩٨٢ م ، واستمر فى حكمها بالرغم من مناوأة أخيه راميرو ، ومحاربته له ، حتى توفى فى سنة ٩٩٩م، وخلفه فى الحكم ولده ألفونسو طفلا ، وتولى الوصاية عليه الكونت مننديث كونثالث ، أحد أشراف المملكة .

ومملكة قشتالة . وكانت ماتزال فى مرتبة « الكونتية » أو الإمارة ، وكان على حكمها غرسية فرناندز ولد بطلها ومحررها فرنان كونثالث[١] . ولما توفى فى سنة ٩٩٥ م ، خلفه ولده سانشو غرسية فحكم حتى سنة ١٠٢١ م ، ثم خلفه ولده غرسية . وحدث أن قصد غرسية إلى ليون ليتم عقد زواجه بأخت ملكها برمودو الثالث . فقتل غيلة خلال وجوده بالكنيسة أثناء مراسيم الزواج (١٠٢٨م) وقتله أبناء الكونت ڤيلا ، وهو أحد أشراف قشتالة الذى نزعهم غرسية أملاكهم . وبمصرع غرسية انقطع نسل أسرته . وترتب على ذلك تغييرات عظيمة فى مصاير الممالك الإسبانية .

ذلك أن سانشو الكبير ملك ناڤار كان متزوجاً من إلبيرة أخت غرسية ، ابنة سانشو غرسية أمير (أوكونت) قشتالة ، فلما لقى الكونت غرسية مصرعه فى ليون ، بادر سانشو إلى قشتالة ، فاحتلها بصفته وارثاً لعرشها عن طريق زوجته ، وندب لحكمها ولده فرناندو ، وأسبغ عليه لقب الملك ، فكان أول ملوك قشتالة . وتلقب هو بملك اسبانيا ، وانتقم من آل ڤيلا قتلة غرسية ، فأحرقهم أحياء ، بالرغم من كونه قد جنى ثمار جريمتهم بامتلاك قشتالة .

وحكم ألفونسو الخامس مملكة ليون حتى وفاته فى سنة ١٠٢٧ م ، وغزا أراضى المسلمين المجاورة فى شمالى البرتغال ، وافتتح بعض نواحيها ، وحاصر مدينة بازو ، وأصيب خلال ذلك بسهم مسموم قذفه به أحد الرماة المسلمين ، فتوفى متأثراً بجراحه . وكان أشهر أعماله عقد المجلس الدستورى فى سنة ١٠٢٥ م ، وفيه وضعت قوانين المملكة التأسيسية ، وأصبح العرش وراثياً . ولما توفى خلفه ولده برمودو الثالث . وكان فرناندو ملك قشتالة ، قد تزوج من ابنة ألفونسو

(١) ويسميه ابن الخطيب فى الفصل الذى يخصصه لتاريخ ملوك اسبانيا النصرانية ، دون شانجه قمز قشتالة (أعمال الأعلام ص ٣٢٩) .

أخت برمودو ، بيد أن هذه المصاهرة لم تفعل شيئاً لتوثيق علائق المملكتين. وبالعكس فإن سانشو الكبير وولده فرناندو ، كانا يريان : تلك المصاهرة وسيلة لانتزاع عرش ليون . على أن سانشو لم ينتظر سير الحوادث لتحقيق هذا الاحتمال ، بل سار فى قواته إلى ليون وافتتحها ، وأعلن نفسه ملكاً عليها ، وفر برمودو ليرقب الفرص لاسترداد عرشه .

ولما توفى سانشو الكبير ملك نافار ، أوملك اسبانيا ، فى سنة ١٠٣٥ م ، استطاع برمودو أن يسترد جزءاً من أملاكه وأن يقيم بلاطه ، وثارت بينه وبين صهره فرناندو ملك قشتالة الحرب ، واستمرت مدى عامين ، ثم كان اللقاء الحاسم بينهما فى موقعة تامارون فى سنة ١٠٣٧ م وفيها لقى برمودو مصرعه . ونظراً لوفاته دون عقب ، فقد استولى فرناندو على مملكة ليون بحكم المصاهرة والوراثة ، وغدا ملكاً على مملكة قشتالة وليون الموحدة . وانتهى بمقتل برمودو الثالث نسل ملوك اسبانيا النصرانية ، منذ أيام القوط ، ومذ قامت مملكة أشتوريش وجليقية وليون فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، كما انتهى من قبل نسل أمراء قشتالة .

— ١ —

وكان سانشو الكبير ، قد قسم المملكة قبيل وفاته ، بين أبنائه الأربعة ، فخص فرناندو كما هو بملك قشتالة وليون وجليقية ، وغرسية أكبر أولاده بالوطن الأصلى نافار ، ممتداً من غرب البرنيه إلى منابع الإيبرو ، وخص ولده غير الشرعى ، راميرو ، برقعة ضيقة تمتد بحذاء نافار من باب شيزروا جنوباً ، وتسمى بمملكة أراجون ، وولده كونزالو ، بمنطقة صغيرة أخرى فى أواسط البرنيه ، وهى ولاية سوبرابى ورباجرسا . وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية ، بهذا التقسيم أربعاً ، وهذا عدا إمارة برشلونة الفرنجية الواقعة فى شمال شرقى إسبانيا ، وقد كان يحكمها رامون برنجير الأول عميد آل برنجير.

وكان من جراء هذا التقسيم أن بدأت سلسلة جديدة من الحروب الأهلية بين الملوك الإخوة ، وبدأت الحوادث باختفاء مملكة سوبرابى الصغيرة . ذلك أن أميرها كونزالو قتل غيلة أثناء عوده من الصيد (١٠٣٨ م) ،فاختار

أهل سوبرابى أخاه راميرو أمير أراجوان ، ليخلفه فى حكم الولاية ، وبذا اتحدت الإمارتان فى مملكة واحدة ، ولم يعارض راميرو أحد من إخوته ، إذ كان فرناندو ملك قشتالة مشغولا بتنظيم مملكته الكبيرة وتقويتها ، وكان غرسية ملك نافار ، غائباً يحج إلى رومة ، وفضلا عن ذلك فقد كان شعب سوبرابى هو الذى اختار راميرو وآثره .

يقول المؤرخ لافونتى : « وكأنما كان روح الطمع والحسد والمنافسة ، متأصلا فى أسرنا الملوكية ، ولم يفعل سانشو الكبير بتقسيم المملكة سوى أن زاد جراثيم الشقاق والموت »(١) .

ذلك أن راميرو لم يقنع بالاستيلاء على ولاية سوبرابى ، بل أخذ يطمح إلى الاستيلاء على مملكة نافار نفسها . ولما كانت موارده وأهباته قاصرة عن تحقيق مشروعه الكبير ، فقد عقد مع جاره المسلم ابن هود أمير سرقسطة ، حلفاً أمده بمقتضاه ببعض قواته ، ثم زحف راميرو فى قواته المتحدة من النصارى والمسلمين إلى نافار ، واقتحم حدودها فجأة ، ولكن قلعة تافالا اعترضت سيره المظفر . ولم يكن غرسية يتوقع من أخيه مثل هذا الاجتراء ، فحشد قواته على عجل ، خلال الوقت الذى استغرقه حصار القلعة ، وسار إلى تافالا ، فانقض بقواته على الجيش المغير تحت جنح الظلام ، وكانت مفاجأة أخذ بها الأرجونيون ، فساد بينهم الاضطراب ، ومزقت صفوفهم قبل أن يستعدوا للقتال ولم يتمكن راميرو من الخلاص إلا بصعوبة ففر ناجياً بنفسه مع نفر من صحبه ، وأبيد معظم جيشه قتلا وأسراً ، وقتل كذلك معظم حلفائه المسلمين ، ووقعت هذه الموقعة الحاسمة فيما يبدو سنة ١٠٤٢ م .

ولجأ راميرو إلى شعب الجبال الوعرة فى سوبرابى خشية المطاردة ، بيد أن غرسية قنع فيما يبدو بنصره والقضاء على جيش أخيه ، ولم يحاول مطاردته داخل بلاده ، وأنفق راميرو بضعة أعوام فى تنظيم شئونه ، والنهوض من عثرته ، وأنشأ جيشاً جديداً ، وسوف نراه فيما بعد يخوض معترك الحوادث مرة أخرى .

ثم اتخذت الحوادث وجهة أخرى ، وانتقل ميدان الصراع إلى الجانب الآخر من اسبانيا النصرانية بين نافار وقشتالة . وكان غرسية ملك نافار ، وهو أكبر

---

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana (Madrid 1861) V. II. p. 433

إخوته ، ينظر بعين الغيرة والحسد إلى فوز أخيه الأصغر فرناندو بحكم هذه المملكة العظيمة الشاسعة ، مملكة قشتالة وليون ، ويرى أنه أحق بملكها وأجدر ، وكان يعول فى تحقيق أمنيته على وسائل الغدر والغيلة ، ولم يكن فرناندو فى البداية يشك فى ولاء أخيه أوصدق نياته ، لاسيما وقد حارب إلى جانبه فى معركة تامارون ضد برمودو ملك ليون ، ومن ثم فقد وضع غرسية ، مشروعه لاغتيال أخيه ، وذلك بأن تظاهر بالمرض ، وبعث إلى أخيه يبلغه أنه مريض على فراش الموت . وأنه يرجو رؤيته للمرة الأخيرة ، فبادر فرناندو إلى تلبية هذه الرغبة ، بيد أنه قد نمى إليه خلال سيره ، حقيقة الكمين الذى دبر لاغتياله ، فارتد مسرعاً إلى برغش ، وقد أضمر لأخيه الغادر أسوأ النيات . ولم يفطن غرسية إلى أن أخاه قد وقف على حقيقة أمره . ثم جاء دور فرناندو فى تدبير الانتقام من أخيه ، فدعاه إلى زيارته فى برغش بعد ذلك بأعوام قلائل ، فسار إليه غرسية دون أية ريبة ، ولكنه ما كاد يصل إلى أراضى قشتالة ، حتى قبض عليه وزج إلى إحدى القلاع ، بيد أنه لم يفقد شجاعته ، ولم يلبث أن استطاع الفرار من معتقله ، فعاد إلى ناڤار ، معولا على الانتقام .

وهنا لم يكن مناص من وقوع الحرب بين الأخوين ، وقد بدأ غرسية بالفعل بالإغارة على أراضى قشتالة ولم يلتفت إلى تحذير أخيه . ثم اعتزم أن يحاول الضربة الحاسمة . فعقد حلفاً مع أخيه وعدوه القديم راميرو وحشد كل ما استطاع من الجند والعدة ، وأمده حليفه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بفرقة من جنده . ونفذ بجيشه القوى إلى أراضى قشتالة ، واثقاً فى شجاعة جيشه . وكان أخوه فرناندو فى تلك الأثناء يحشد من جانبه سائر قواته من قشتالة وليون . واستمر غرسية فى سيره حتى وصل إلى سهل أتابوركا ، الواقع على مقربة من شرقى برغش ، وحاول فرناندو مرة أخرى أن يجتنب الحرب مع أخيه ، فبعث إليه اثنين من كبار الأحبار ، يحاولان إقناعه بعقد الصلح وحقن الدماء ، فصرفهما غرسية بخشونة . وفى فجر اليوم الأول من سبتمبر سنة ١٠٥٤ م ، اشتبك الجيشان فى معركة عنيفة ، وقاتل غرسية بشجاعة فائقة ، بيد أن الخلل ما لبث أن دب إلى جيشه ، إذ غادرته عدة كبيرة من الفرسان الناقمين إلى المعسكر الآخر ، وشن فرسان ليون فى نفس الوقت على الناڤاريين هجوماً عنيفاً ، وأصابت غرسية ،

وهو يقاتل فى قلب المعمعة طعنة قاتلة ، فسقط من جواده وأسلم الروح فى الحال بين يدى كاهنه ، فانتثر شمل النافاريين ، وركنوا إلى الفرار ، وأغضى فرناندو عن مطاردتهم ، وقصر أمر المطاردة على حلفائهم المسلمين ، فمزقوا قتلا وأسراً. وأمر فرناندو بأن يحمل جثمان أخيه بمنتهى التكريم ، وأن يدفن فى ناجرة فى الكنيسة التى أنشأها هناك ، وأعلن فى الحال اختيار ولده الصبى سانشو مكانه ملكاً على نافار ، وأعلن الملك الجديد من جانبه طاعته لعمه الظافر ، الذى شاء أن يبقى له على تراث أبيه ، ولم يقتطع فرناندو شيئاً من أراضى نافار سوى بعض النواحى الواقعة على ضفة الإيبرو اليمنى (١) .

— ٢ —

فى الوقت الذى كانت فيه الممالك الإسبانية النصرانية تضطرم على هذا النحو بنار الحرب الأهلية، ويسقط ملوكها الأصهار والإخوة صرعى خلافهم وأطماعهم، كانت اسبانيا المسلمة من جانبها قد استحالت إلى أشلاء ممزقة ، وقامت بها أكثر من عشرين دولة من دول الطوائف . وبينما كانت الخلافة تحتضر فى قرطبة وتتردد أنفاسها الأخيرة بين الشريدين من بنى أمية ، وبين المتوثبين من بنى حمود، كان أمراء الطوائف ومعظمهم حديث عهد بالرياسة والسلطان ، يضطرمون بأطماعهم الوضيعة ، ويجعلون بمنازعاتهم وحروبهم الأهلية الصغيرة ، من الأندلس مسرحاً لفتنة غامرة لا تخبو أوارها ولا يستقر قرارها . والواقع أن المصير الذى تردت فيه الأندلس الكبرى على يد الطوائف وحروبهم الانتحارية ، كان أتعس بكثير مما انحدرت إليه اسبانيا النصرانية من حروب أهلية محدودة النطاق والمدى ، ولم تلبث أن أسفرت عن تماسك المملكة النصرانية ، ووحدتها ونهوضها . ولقد كان من رحمة القدر فقط ، أن أتيح لهذه الدويلات الإسلامية الصغيرة أن تحتفظ بحياتها ، وأن شغلت عدوتها الخالدة اسبانيا النصرانية عن مطاردتها والقضاء عليها ، بخلافاتها وحروبها الداخلية فى تلك الفترة ، أعنى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى .

منذ بداية هذا القرن ، حدث فى شبه الجزيرة انقلاب حاسم فى ميزان

(١) راجع فى تفاصيل هذه الحوادث : M. Lafuente : ibid; V. II. p. 382—383
وكذلك R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 122—123

القوى السياسية والعسكرية ، فبعد أن كانت اسبانيا المسلمة ، منذ أيام الناصر حتى نهاية عهد المنصور ، تحتفظ بتفوقها العظيم على اسبانيا النصرانية ، وتكاد تخضعها لصولتها ، ويترامى ملوكها على أعتاب الخلافة القرطبية ، ويؤدون لها الجزية فى معظم الأحيان ، إذا بها بعد انهيار الخلافة ، وقيام دول الطوائف الهزيلة المتنابذة ، تفقد كل منعة وكل مقدرة حقيقية على الدفاع ، ويتسابق ملوكها إلى خطب ود الملوك النصارى ، والالتجاء إليهم ، واستعدائهم على محاربة بعضهم البعض . وقد كان الملوك النصارى ، يبادرون إلى انتهاز هذه الفرص ، حتى فى فترات ضعفهم وتفرقهم ، ويتخذونها وسيلة للتفوق العسكرى ، والغنم المادى . وقد بدأت سياسة الاستعداء هذه للملوك النصارى منذ بداية الفتنة ذاتها ، حيث نرى الأحزاب المتنافسة على اجتناء سلطان الخلافة ، تستمد عون النصارى ، على نحو مافعل الفتى واضح ومحمد بن هشام المهدى فى الاستنصار بأمير برشلونة ، وسليمان بن الحكم والبربر ، فى استدعاء سانشو غرسية أمير قشتالة . على أن هذا التنافس فى استعداء الملوك النصارى ، والاستعانة بهم ، يتسع نطاقه تباعاً ، ويغدو على يد ملوك الطوائف ، حسبما رأينا فى أخبارهم ، ضرورة سياسية وعسكرية يلجأون إليها بطريقة مستمرة منتظمة . وقد استغل الملوك النصارى هذه الظاهرة أعظم استغلال ، حتى غدا ملوك الطوائف ، فى الواقع آلات مسخرة فى أيديهم ، ووصل هذا الإذلال إلى ذروته ، حسبما رأينا ، على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة .

على أن ذلك لم يكن دون تمهيد من جانب القوة المادية ، فقد استطاعت إسبانيا النصرانية ، أن تمهد لتفوقها السياسى والعسكرى فى شبه الجزيرة ، منذ أواسط القرن الحادى عشر ، بسلسلة من الغزوات والفتوحات العظيمة ، التى تبلورت على أثرها سياسة الاسترداد الإسبانية La Reconquista ، وغدت ظاهرة قوية وعاملا حاسماً ، فى ميدان الصراع بين اسبانيا المسلمة وبين اسبانيا النصرانية .

وقد بدأت هذه السياسة على يد فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بفرذلند ، فإنه ماكاد ينتهى من الصراع الداخلى الذى نشب بينه وبين إخوته ، حتى تأهب لغزو أراضى المسلمين . وفى سنة ١٠٥٧ م ، عبر فى قواته نهرى دويرة وتورمس ، ونفذ إلى ولاية لوزيتانيا

(شمالى البرتغال) ، وهى قاصية أراضى المسلمين من الشمال الغربى ، وكانت هذه المنطقة المنعزلة النائية تابعة لمملكة بطليوس ، بيد أنها كانت لبعدها تكاد تكون مستقلة بشئونها ، وتعتمد فى الدفاع على نفسها ، فاجتاحها فرناندو وعاث فيها ، واستولى على بعض الحصون ، ثم قصد إلى مدينة بازو Vizeu ، وضرب حولها الحصار . فدافع عنها أهلها المسلمون أشد دفاع وأعنفه ، وأبدى الرماة المسلمون ، كما أبدوا من قبل أيام أن حاصرها ألفونسو الخامس ، براعة عظيمة فى إصابة العدو ، حتى اضطر النصارى إلى ارتداء دروع مثلثة ، واضطر فرناندو إلى إنشاء فرقة من حملة المقالع ، وانتهى القشتاليون بأن اقتحموا المدينة عنتهى العنف ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وأسراً . وكان من بين الأسرى ، ذلك الرامى الماهر ، الذى أصاب بسهمه المسموم ألفونسو الخامس من قبل ذلك بثلاثين عاماً ، فأمر فرناندو به فسملت عيناه وقطعت يداه ورجلاه ، وعذب حتى أسلم الروح . ثم سار فرناندو بعد ذلك إلى لاميجو (مليقة) الواقعة شمال بازو ، وكانت حصينة عالية الأسوار ، فاقتحمها واستولى عليها بعد ذلك ببضعة أشهر ، وقتل معظم أهلها وأسرهم ، واسترق الأسرى من أهل المدينتين ، وأسكن بهما النصارى . ولم يتحرك ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وهو صاحب السيادة على تلك الأنحاء ، ليقينه باستحالة الدفاع عنها ، وذلك حسبما أشرنا إليه من قبل فى أخبار مملكة بطليوس .

وقد سبق أن أشرنا كذلك فيما تقدم إلى الحملة التى بعث بها فرناندو ضد مدينة شنترين الواقعة فى شمالى أشبونة على نهر التاجه ، وكيف اضطر ابن الأفطس عندئذ إلى أن يتعهد بأن يدفع إلى قشتالة جزية قدرها خمسة آلاف دينار .

وكان فرناندو يطمح إلى أن يخضع ملوك الطوائف جميعاً ، ولاسيما ابن عباد ، وابن ذى النون ، وهما يومئذ أقوى أولئك الملوك وأعظمهم شأناً . ومن ثم فقد خرج فى جيشه فى سنة ١٠٦٢ م ، إلى انحاء مملكة طليطلة الشمالية الشرقية ، وأغار على مدينة سالم ، وأوسيدا ، وطلمنكة ، ووادى الحجارة ، وقلعة النهر (ألكالادى هنارس) وعاث فى بسائطها تخريباً وسبياً . فاستغاث أهل هذه الأنحاء بالمأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة ، وجمع المأمون مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة ، وسار بنفسه إلى معسكر الملك النصرانى ، وقدم إليه الهدايا ،

وأعلن اعترافه بطاعته ، وتعهده بأداء الجزية ، فقبل فرناندو المال والعهد ، وعاد مثقلا بالغنائم والتحف.

وفى العام التالى ، خرج فرناندو فأغار على أراضى مملكة إشبيلية ، وخرب بسائطها ، واضطر المعتضد بن عباد ، أن يحذو حذو المأمون ، وأن يقصد إلى فرناندو ومعه هدية جليلة من الأموال والتحف ، يناشده المودة والسلم ، على أن يؤدى له الجزية ، فأجابه فرناندو إلى رغبته ، وطلب إليه أن يمكنه من نقل رفات القديسة خوستا ، وكانت هذه القديسة قد استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودفنت فى إشبيلية ، فوعد ابن عباد بتحقيق رغبته ، وأرسل فرناندو إلى إشبيلية بعثة من أكابر رجال الدين للقيام بهذه المهمة ، ولكنها لم تستطع الاهتداء إلى قبر هذه القديسة ، وعندئذ زعم أحد أعضائها ، وهو الأسقف ألفيتو ، أنه قد ظهر له القديس إسيدورو ، وقد كان من أساقفة إشبيلية أيام القوط ، وقال له إن رفات القديسة خوستا يجب أن تبقى فى مكانها لحماية إشبيلية ، وعرض أن تحمل رفاته هو ، وكشف من مكان وجودها ، ووجدت بالفعل رفات هذا القديس فى المكان المحدد ، فحملت إلى ليون ودفنت هنالك باحتفال فخم ، فى الكنيسة التى سميت من ذلك التاريخ باسمه ، أعنى بكنيسة سان إسيدورو ، وكان ذلك فى أوائل ديسمبر سنة ١٠٦٥ م(١).

وكان فرناندو على أثر إخضاعه للملوك بطليوس وطليطلة وإشبيلية لصولته ، وإرغامهم على دفع الجزية ، قد وضع خطته للاستيلاء على مدينة قُلُمرية ، وهى أعظم القواعد الإسلامية ، فى شمال غربى الأندلس ، بيد أنه رأى قبل مسيره أن يستمد العون والبركة ، من القديس ياقب ، فقصد إلى مزاره بشنت ياقب ، وقضى به ثلاثة أيام فى صلوات ودعوات وخشوع ، ثم سار إلى قلمرية فى جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار (يناير سنة ١٠٦٤ م). وقد سبق أن عرضنا إلى حصار قلمرية ، وأشرنا إلى ما تقصه الرواية الإسلامية ، من أن راندة ، قائد الحامية الإسلامية ، غادر المدينة سراً مع أهله بتفاهم مع فرناندو ، وأن ابن الأفطس قضى فيما بعد بإعدامه جزاء له على خيانته ، وترك ابن الأفطس قلمرية إلى مصيرها كما فعل بالنسبة لبازو. بيد أن أهل قلمرية دافعوا عن أنفسهم

---

(١) راجع : M. Lafuente : ibid; V. II. p. 388&389
وكذلك R. M. Pdal : ibid; p. 135

أشد دفاع . واستمر الحصار حولها زهاء ستة أشهر ، حتى نضبت أقوات الجيش المحاصر نفسه ، وكاد يرفع الحصار . ولكن رهبان دير لورڤان القريب ، أمدوه بمؤنهم المخزونة فى الجبال . وأخيراً نجح القشتاليون فى إحداث عدة ثغرات فى أسوار المدينة ، واضطر قائد المدينة إلى طلب الأمان ، واتفق على أن يسمح لأهلها بأن يخرجوا مع نسائهم وأولادهم ، تاركين أموالهم للفاتح ، ولكن الجند المدافعين رفضوا هذا الاتفاق ، واستمروا فى الدفاع حتى نفدت سائر الأقوات ، وعندئذ اقتحم القشتاليون المدينة ، وأسروا من المدافعين ، ومن أهل المدينة ، أكثر من خمسة آلاف ، ودخل فرناندو قلمرية فى اليوم الحادى عشر من يوليه ، ومعه الملكة دونيا سانشا ، ورهط من الأساقفة ورجال الدين[1] . وعهد بحكم المدينة إلى رجل كان له فيما بعد شأن فى صوغ السياسة القشتالية نحو الطوائف ، هو الكونت المستعرب سسنندو داڤيدس، الذى تعرفه الرواية الإسلامية بششنند. وكان حسبما أسلفنا فى أخبار مملكة إشبيلية من أهل هذه المنطقة، وأسر فى حداثته فى غارة قام بها القاضى ابن عباد ضد ابن الأفطس، وربى فى البلاط العبادى وأعجب المعتضد فيما بعد بمواهبه ، وقربه واستخدمه فى السفارة بينه وبين فرناندو، ثم غادر إشبيلية بعد ذلك ، والتحق بخدمة البلاط القشتالى[2] ، وقربه فرناندو وأولاه رعايته لما كان عليه من معرفة تامة باللغة العربية ، والدين الإسلامى ، وأحوال المسلمين وعاداتهم . فحكم سسنندو قلمرية بكفاية ، ونال احترام النصارى ، والمسلمين على السواء ، وكان يلقب عندئذ « بالوزير » على النمط الإسلامى ، وفى عهده نمت قلمرية ، وأنشئت بها عدة صروح فخمة . وفى بعض الروايات أن سسنندو لم يعين حاكماً لطليطلة على أثر افتتاحها، حسبما تقدم ذكره فى موضعه ، وأنه بالعكس استمر حاكماً لإقليم قلمرية حتى توفى سنة ١٠٩١ م[3] .

وتضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط قلمرية فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) متفقة فى ذلك مع الرواية النصرانية ، بيد أنها تختلف معها فى بعض التفاصيل . وقد سبق أن عرضنا فيما تقدم من أخبار مملكة بطليوس ، إلى أقوال الرواية

(١) راجع فى حوادث فتح قلمرية M. Lafuente : ibid; V. II. p. 384 & 385
وكذلك R. M. Pidal : ibid; p. 145&149

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ .

(٣) I. de las Cagigas : Los Mozarabes, p. 461

الإسلامية(١) وأشرنا إلى ماعمد إليه فرناندو من إجلاء سائر المسلمين عن الأراضى الواقعة فى شمالى البرتغال بين نهرى منهو ودويرة .

ونحن نعرف مما تقدم فى أخبار مملكة بلنسية ، أن فرناندو ، خرج فى قواته فى أوائل سنة ١٠٦٥ م ، أعنى بعد استيلائه على قلمرية ببضعة أشهر ، قاصداً إلى بلنسية ، يبغى افتتاحها ، وأنه اخترق فى طريقه أراضى مملكة سرقسطة الجنوبية ، وعاث فيها معاقبة لأميرها المقتدر بن هود لتخلفه عن دفع الجزية ، ثم ضرب الحصار حول بلنسية . ولكنه لما رأى صعوبة الاستيلاء عليها نظراً لمناعة أسوارها ، وأهبة أهلها ، تظاهر بمغادرتها ، وانسحب بقواته إلى مكان قريب منها . وعندئذ خرج البلنسيون دون تحوط ، وفاجأهم القشتاليون فى بطرنة وهزموهم هزيمة شنيعة حسبما فصلنا ذلك فى موضعه .

وكان فرناندو قد شعر حينئذ بالمرض ، فآثر العودة إلى ليون ، وهنالك احتفل بدفن رفات القديس إسيدورو فى أوائل ديسمبر . وكان فى الواقع مرض موته ، ذلك أنه لم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى توفى فى السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٠٦٥ ، ودفن فى نفس الكنيسة التى دفن فيها القديس ، والتى غدت من ذلك الحين مدفناً لملوك قشتالة .

وكان فرناندو الأول من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، وفى عهده أحرزت اسبانيا النصرانية تفوقها الواضح على اسبانيا المسلمة ، ومهد حكمه الملىء بالوقائع المظفرة لمجد الملوك اللاحقين . وقد أسبغت عليه الرواية لقب الكبير **El Magno** ، وكان سمى نفسه بالإمبراطور ، ويدعى لنفسه مركز التفوق والسيادة على ملكى نافار وأراجون . وفى عهده اتسعت رقعة مملكة قشتالة اتساعاً عظيما ، ودفعت حدودها إلى الجنوب وإلى الشرق والغرب على حساب المملكة الإسلامية ، واقتطعت منها كثيراً من البلاد والحصون . وقد كانت غزواته ، بالرغم مما ينسب إليه من التقى والورع ، تتسم بنزعة دموية مروعة ، تبدو واضحة فى قسوته وفظاعته فى معاملته المدنيين من أهل البلاد الإسلامية المفتوحة ، وسفك دمائهم دون تمييز ولاحرج ، واسترقاقهم جملة . وقد اشتهر فضلا عن غزواته وفتوحه المظفرة ، بأعماله الإنشائية والدستورية ، فقد جدد مدينتى ليون وسمورة ،

(١) راجع سقوط قلمرية فى البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٤ .

وكانتا قد خربتا منذ غزوات المنصور بن أبى عامر ، وأنشأ فى ليون عدة صروح وكنائس فخمة ، مازالت تزدان بها حتى اليوم . وفى سنة ١٠٥٠ م ، دعا إلى عقد اجتماع كنسى تأسيسى فى « جويانسا » اعتبر فى نفس الوقت مجلساً نيابياً « كورتيس » ، وشهدته الملكة والأشرف والأساقفة . وصدرت عنه عدة أصول كنسية ودستورية ، كان لها أكبر الأثر فى صوغ النظم التأسيسية لمملكة قشتالة فيما بعد . ومنها أن يُعمل فى جميع الكنائس والأديار بدعوة القديس بندكت ، وأن يحرم على رجال الدين حمل السلاح والزواج ، أو شهود مآدب الزواج . وحصلت الكنيسة على امتيازات كثيرة ، منها أنه لايمكن الاستيلاء على أملاكها بالتقادم ، وأن المتهم بجريمة ما ، إذا صار على قيد ثلاثين خطوة من عتبة الكنيسة ، أضحى تحت حماية القضاء الكنسى ، وهو أثر من آثار التشريعات القوطية القديمة ، وأن القوامس (الكونتات) يجب عليهم هم ونوابهم فى القضاء الجنائى ، أن يحرصوا على تحرى العدالة والحق ، وفقاً لأحكام الشرائع القوطية ، وأن تطبق فى مملكة ليون قوانين ألفونسو الخامس المسماة Buenos Fueros (القوانين الطيبة) وفى مملكة قشتالة لوائح سانشو المسماة Benefactorias ، وأن يقضى على المجرمين والعصاة بفقد الشرف والمناصب وبالنفى من الكنسية ، وصدرت كذلك عدة لوائح للتمييز بين النصارى والمسلمين واليهود الذين يقيمون فى المملكة[١] .

وتنوه التواريخ الإسبانية بخلال فرناندو ، وعظمة عهده ، ومقدرته كسياسى ومحارب ، وتنوه بالأخص بتقواه وورعه . وفائق رعايته للكنيسة ، وشغفه بإنشاء الكنائس والأديار وتجميلها ، والإغداق عليها ، واهتمامه بنقل رفات القديسين من أراضى المسلمين إلى الأراضى النصرانية ، وهى ترى على العموم أن مملكة قشتالة وليون المتحدة ، قد وصلت فى عهده إلى درجة من الاستقرار والأهمية والتفوق ، لم تصل إليها من قبل قط[٢] .

---

(١) راجع تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (ترجمة محمد عبد الله عنان) الطبعة الثانية ص ١٣ و ١٤ .

(٢) M. Lafuente : ibid, Vol. II. p. 485—488

الفصل الثاني

إسبانيا النصرانية عقب وفاة فرناندو الأول

ألفونسو السادس وبداية عهد الإسترداد

تقسيم فرناندو للمملكة بين أولاده . غزو سانشو ملك قشتالة لناڤار وهزيمته . غزوه لمملكة ليون . الحرب بينه وبين أخيه ألفونسو . هزيمة ألفونسو وأسره . فراره والتجاؤه إلى المأمون ملك طليطلة . المأمون يرحب به ويكرم وفادته . أقوال الرواية النصرانية فى ذلك . ألفونسو يدرس خطط الاستيلاء على المدينة . تطور الحوادث . غرسية ملك جليقية واضطراب مملكته . استيلاء سانشو على جليقية والتجاء غرسية إلى ملك إشبيلية . استيلاء سانشو على تورو مدينة أخته إلبيرة . محاولته انتزاع سمورة من أخته أوراكا . مصرعه تحت أسوارها . استدعاء الأشراف لأخيه ألفونسو . مغادرة ألفونسو لطليطلة ، عهده للمأمون بمسالمته وولده . تنويه الرواية النصرانية بكرم المأمون ونبله نحو مضيفه . مسير ألفونسو إلى برغش . حلفه ببراءته من مقتل أخيه . يغدو ملك قشتالة وليون وجليقية . يدبر كيناً لأخيه غرسية . مساعدة ألفونسو للمأمون ضد ابن عباد . وفاة المأمون وولاية حفيده القادر . ألفونسو يتحلل من عهوده ويضع الخطة للاستيلاء على طليطلة . إغارته على أراضيها وتخريبها . القادر يلتجىء لحماية ألفونسو ويؤدى له الجزية . قيام الثورة فى طليطلة . فرار القادر . وعوده بمعاونة ألفونسو. المعتمد بن عباد وتحالفه مع ألفونسو . مضى ألفونسو فى إرهاق طليطلة وافتتاحها . الطابع الصليبى لهذا الفتح . طليطلة حاضرة اسبانيا النصرانية . الأسقف برنار عميد الكنيسة الإسبانية . مؤامرته لإزالة المسجد الجامع . تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة . سقوط طليطلة وأثره فى ميزان القوى . أثره فى تحول ملوك الطوائف . موقعة الزلاقة وما بعدها . عود الطوائف إلى تفرق الكلمة . عدوان السيد والقشتاليين . عبور أمير المسلمين للمرة الثانية . حصار حصن لييط وما اقترن به من حوادث . إنسحاب المرابطين . محاولة ألفونسو الاستيلاء على بلنسية وفشله . انتصارات المرابطين فى منطقة بلنسية . وفاة السيد واستيلاء المرابطين على بلنسية . إستيلاء ألفونسو على شنترين . موقعة إقليش . هزيمة القشتاليين ومقتل سانشو ولد ألفونسو . البابوية وتدخلها فى اسبانيا. سعيها إلى فرض سيادتها الروحية . الأسقف برنار ودوره فى ذلك . إسبانيا والحروب الصليبية . صفة الملك الوراثية . نظام الإقطاع وخواصه . تنظيم ألفونسو لأسس التشريع . ألفونسو ووراثة عرشه . مجلس ليون وقراراته فى ذلك . مملكة أراجون . مملكة ناڤار . سانشو ملك ناڤار ومصرعه . سانشو راميرز ملك أراجون . استيلاؤه على منتشون وحصاره لوشقة . وفاته وقيام ولده بيدرو مكانه . سقوط وشقة . بيدرو الأول وصفاته . وفاته وقيام أخيه ألفونسو مكانه . إمارة برشلونة . الكونتات الفرنج . آل بوريل أمراء برشلونة . خلفاؤهم آل برنجير . رامون برنجير الكبير وأعماله . الصلات بين بنى هود وآل برنجير . المستعين بن هود والكونت برنجير . رامون برنجير الثالث .

— ١ —

عمد فرناندو قبيل وفاته إلى تقسيم مملكته الكبيرة بين أولاده الثلاثة ، فاستدعى لذلك الغرض مجلساً من الأساقفة والأشراف (١٠٦٤ م) وانتهى فيه إلى تقسيم المملكة على النحو الآتى غير معتبر فى ذلك بما حدث من قبل حينما قسمت المملكة على يد أبيه سانشو الكبير.

فخص سانشو ولده الكبير بقشتالة ، وحقوق الجزية على مملكة سرقسطة ، وخص ألفونسو بليون وأشتوريش،وحقوق الجزية على مملكة طليطلة ، وخص أصغرهم غرسية ، بجليقية والبرتغال ، وقد ضما إلى مملكة واحدة ، وحق الجزية على مملكتى إشبيلية ، وبطليوس ، وأعطى حق الإشراف على الأديار فى سائر المملكة لابنتيه دونيا أورّاكا ، ودونيا إلبيرة ، وخصت أوراكا بمدينة سمورة الحصينة ، وخصت إلبيرة بمدينة تورو وأماكن أخرى على نهر دويرة .

ومن المحقق أن تقسيم المملكة الإسبانية على هذا النحو ، بعد اتحادها فى عهد فرناندو ، كان عملا خاطئاً ، وكان نذيراً بعود الحرب الأهلية . وقد استمر الوئام المكبوت بين الإخوة فى ظل الملكة سانشا عامين آخرين ، فلما توفيت فى سنة ١٠٦٧ م ، بدت نذر الصراع الجديد واضحة فى الأفق .

وكان سانشو ، قبل أن تضطرم المعركة بينه وبين إخوته ، قد وجه اهتمامه إلى ميدان آخر . وكان يحكم نافار يومئذ سانشو ابن عمه غرسية ، ويحكم أراجون سانشو ابن عمه راميرو ، ففكر سانشو ملك قشتالة أن يحاول الاستيلاء على مملكة نافار ، أو ينتزع على الأقل أعمالها الواقعة على ضفة الإيبرو العليا . ولكن ملكا نافار وأراجون شعوراً منهماً بنياته العدوانية ، عقداً حلفاً لمقاومته . فلما سار لمحاربتهما ، رداه بنجاح وهزماه فى موقعة ڤيانا (سنة ١٠٦٧ م) . وكان من جراء ذلك أن فقد سانشو أراضى نافار التى كان قد أحرزها أبوه فى موقعة أتابوركا . وفى العام التالى عقب وفاة الملكة سانشا ، سار سانشو فى قواته وهاجم أراضى مملكة ليون ، فسار أخوه ألفونسو لرده، والتقى الاثنان فى بلادنتادا على نهر بسيرجا (يوليه سنة ١٠٦٨ م) فهزم ألفونسو،وارتد مسرعاً إلى ليون، واضطر أن ينزل لسانشو عن بعض الأراضى المجاورة لقشتالة .

ثم عاد سانشو فغزا مملكة ليون واخترقها حتى الغرب ، ووقع اللقاء بين الأخوين هذه المرة فى جولنجار أوجلبياريس الواقعة على نهر كريون ، فهزم

القشتاليون . وفروا تاركين خيامهم . وأغذى ألفونسو عن مطاردتهم حقنا للدماء . وكاد سانشو يرتد أدراجه ، لولا أن تقدم منه أحد فرسانه . ونصح له بأن يجمع جنده ، ويعيد الكرة ، فى الفجر تحت جنح الظلام ، بعد أن اطمأن الليونيون إلى نصرهم ، وخبت همتهم ، وكان صاحب هذا النصح هو الفارس ردريجو دياث . الذى عرف فيما بعد بالسيد . وهى أول مناسبة يردد التاريخ فيها اسمه . واستجاب سانشو لهذا النصح ، فاستجمع جنده ، وهجم فى الفجر على الليونيين وهم نيام . فدب إليهم الاضطراب والذعر ، وقتل الكثير منهم أثناء النوم . وفر ألفونسو . والتجأ إلى كنيسة بلدة كريون ، فقبض عليه وزج إلى حصن برغش . ودخل سانشو بجيشه ظافراً إلى مدينة ليون (يوليه سنة ١٠٧١م)

وهنا تدخلت دونيا أوراكا ، وكانت تحب أخاها ألفونسو ، وسعت إلى إنقاذه من الأسر . فاستجاب سانشو إلى رجائها ، وقبل الإفراج عن ألفونسو ، بشرط أن يرتدى حلة الرهبان ، وأن يقيم فى دير ساهاجون ، فاضطر ألفونسو إلى القبول . ولجأ إلى الدير ، وهنا دبرت أخته أوراكا فراره من الدير ، فسار إلى طليطلة والتجأ إلى ملكها ، المأمون بن ذى النون(١) . فاستقبله المأمون بمنتهى الترحاب والإكرام ، وعامله كأخيه حسبما تقول الرواية النصرانية ، وأنزله داراً بجوار قصره ، وأعد كل ما يلزم لراحته ، وخصص له داراً أخرى خارج المدينة ذات رياض وحدائق للتنزه فيها ، والاجتماع بصحبه النصارى ، ولاسيما مستشاره فرناندو أنسوريز ، وكان يعيش معهم فى أحسن الظروف وأكرمها(٢) .

وإليك كيف يصف الأستاذ پيدال استقبال المأمون لضيفه : « استقبل المأمون الملك المغلوب بإكرام ، بعد أن قطع له العهود اللازمة لسلامته ، وأنزله داراً لحقة بالقصر الملكى ذاته ، تشرف على تحصينات المدينة تجاه قنطرة « القنطرة » . وهكذا كان الملك المنفى يعيش بعيداً عن ضجيج المدينة المسلمة ، وكان بوسعه أن يتريض فى حدائق الملك الشاسعة الواقعة فى الناحية الأخرى من القنطرة داخل المنحنى الكبير الذى يحتضنه نهر التاجُه » .

(١) لم يفت الرواية الإسلامية الإشارة إلى هذه الحوادث ، وهى تسمى دير ساهاجون « بسفقند » . راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٠ .

(٢) M. Lafuente; ibid; Vol. II. p, 396

ويشير الأستاذ پيدال بعد ذلك إلى أقوال الرواية العربية عن فخامة قصر المأمون ، وزخارفه البديعة وحدائقه الغناء ، وروعة الحفلات التى تقام به ، ومجالس العلماء الأعلام التى كانت تعقد به ، وتجعل من طليطلة يومئذ مركزاً من أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، ثم يقول : « إن النفى الذى كان يعانيه ألفونسو بين هذه الفخامات كان كأنه مقصود من العناية، حسبما يقول لنا مؤلف « تاريخ سيلوس». كان ملك ليون المخلوع يختلط بالسكان المسلمين ، ويتريض فى جنبات المدينة الحصينة، ويفكر من أى الأماكن، وبأى نوع من أدوات الحرب يمكن اقتحامها»(١)

حرصنا على إيراد هذه الأقوال ، لنستطيع أن نتأمل على ضوئها فيما بعد ، تصرف ألفونسو السادس ، نحو ولد حاميه والمحسن إليه ، ونحو مملكة طليطلة .

ومما له مغزى عميق ، ما يقصه علينا صاحب رواية دير سيلوس السالفة الذكر من أن ألفونسو ، استمع ذات يوم ، وهو متظاهر بالنوم ، إلى حديث المأمون مع وزرائه فى كيفية الدفاع عن طليطلة ، واحتمال مهاجمة النصارى لها واستيلائهم عليها، وكيف يمكن ذلك وبأية وسيلة . وقد أجاب بعضهم أن النصارى لا يستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة ، إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل ، فى تخريب أحوازها وانتساف مؤنها ، ويضيف صاحب هذه الرواية ، أن ألفونسو انتفع بوقته فى دراسة خطط المدينة والاحتمالات التى تمكنه من تنفيذ مشروعه العظيم فى الاستيلاء عليها(٢) .

وقضى ألفونسو فى منفاه ، ببلاط الملك المسلم ، تسعة أشهر من يناير حتى أكتوبر سنة ١٠٧٢ م ، وهو مغمور بكرم مضيفه ورعايته ؛ إلى أن شاءت الأقدار أن تتطور الحوادث فى قشتالة ، وأن يتألق نجمه مرة أخرى .

ذلك أن سانشو لم يقنع بما تم له من الاستيلاء على مملكة ليون ، بل أراد أن ينزع أخاه الصغير غرسية مُلْك جليقية ، وكان سير الحوادث فى جليقية ، مما يعاون على تحقيق غايته . ذلك أن غرسية أساء السيرة ، وبالغ فى إرهاق الشعب بالضرائب ، وانصاع فى ذلك لتوجيه وزيره وصفيه برتولا ، وفوض إليه كل شىء فى الدولة . فسخط الأشراف لذلك ، ودبروا مقتل الوزير الطاغية بحضرة مليكه ذاته ، فاستشاط غرسية غضباً ، واشتد عسفه وكثرت

(١) R. M. Pidal : ibid; p.176&177

(٢) M. Lafuente : ibid; Vol. II. p. 397

مظالمه حتى ضاق به الشعب ذرعاً ، فلماسار سانشو فى قواته إلى جليقية ، ألفى غرسية نفسه فى مأزق حرج ، ولم يستطع أن يحشد سوى قوة صغيرة ، وأبى جيرانه المسلمون معاونته . والتقى بجيشه الصغير مع أخيه قرب شنترين ، فهزم هزيمة شديدة ، وقتل معظم أصحابه ، ووقع أسيراً فى يد أخيه ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أقسم بالخضوع والطاعة ، وعندئذ سار فى نفر من صحبه إلى إشبيلية ، والتجأ إلى أميرها (أواخر سنة ١٠٧١ م) .

ولم يبق بعد ذلك خارجاً عن سلطان سانشو ، سوى مدينتى سمورة ، وتورو اللتين تحكمهما أختاه أورّاكا وإلبيرة . وكان سانشو يحقد على أختيه لعطفهما على أخيه ألفونسو ، ويخشى دسائسهما ومساعيهما الخفية ، فعول على الاستيلاء على المدينتين ، وحاول فى البداية أن يحقق غرضه بالمفاوضة ، فعرض على أختيه أن يعوضهما عن المدينتين بأملاك أخرى ، فرفضتا ولم تحفلا بوعيده . وعندئذ سار فى قواته ، واستولى أولا على قلعة تورو ، ولم تبد صاحبتها إلبيرة كبير مقاومة ، ولكن أوراكا صممت على الدفاع عن سمورة ، معتمدة فى ذلك على مناعة المدينة ، وعلى معاونة طائفة قليلة من الجند المخلصين ، وعلى رأسهم الفارس الباسل آرياس كونثالث . وحاول سانشو أن يقتحم المدينة أولا ، ولكنها امتنعت عليه ، فضرب حولها الحصار ، واستمر حينا ،وهو يهاجمها من آن لآخر . وفى ذات يوم نفد إلى معسكره فارس،وطلب مقابلته لينبئه عن أحوال المدينة المحصورة . وماكاد الفارس يراه حتى طعنه بحربته وأرداه مضرجاً بدمائه ، وفر إلى المدينة هارباً . ولم تكن هذه الجريمة بعيدة عن تدبير أخته الجريئة أوراكا، وكان ذلك فى ٦ أكتوبر سنة ١٠٧٢ م .

وفى الحال سرى الذعر إلى المعسكر القشتالى ، وانفض عنه الجند الليونيون والجلالقة ، إذكانوا يقاتلون رغماً عنهم، وحمل القشتاليون جثمان مليكهم القتيل ، ودفنوه فى دير « أونيا » ، وهكذا سقط سانشو صريع أطماعه وبغيه ، بعد أن حكم ثمانية أعوام فقط ، وقد سمى بالقوى **El Fuerte** لجرأته وشجاعته .

واجتمع الأشراف فى برغش ، وأجمعوا على استدعاء ألفونسو ليتولى الحكم مكان أخيه ، بشرط واحد هو أن يقسم بأنه لم يشترك بأى حال فى تدبير مقتل أخيه سانشو ، وبعثوا إليه رسلهم فى طليطلة . وبعثت إليه كذلك أخته

أورآكا ، رسلها على عجل، بالخبر سراً ، قبل أن يقف عليه المأمون بن ذى النون. وهنا تختلف الرواية ، فيقال إن ألفونسو حينما وقف على النبأ أخفاه عن المأمون، وحاول أن يغادر طليطلة خلسة ، خشية أن يرغمه المأمون على أن يقطع عهوداً ضارة ، ففطن المأمون إلى محاولته وأراد اعتقاله ، ولكنه نجح فى الفرار، وهذه رواية ضعيفة . والحقيقة ، وهى ماتؤيده الروايات الوثيقة ، هو أن ألفونسو أبلغ النبأ فى الحال إلى المأمون ، فأعرب له المأمون عن سروره وغبطته ، وأبدى له استعداده لإمداده بكل ما يرغب من مال وخيل أو غيرها ، ولم يطلب إليه سوى صداقته ، وأن يقطع له عهداً بأن يحترم مملكته ، وأن يعاونه ضد خصومه المسلمين ، وأن يسرى هذا العهد بعد وفاته بالنسبة لولده الأكبر ، فقطع له ألفونسو ما شاء من عهود ، وقدم المأمون إليه طائفة من الهدايا الجليلة ، وصحبه مع أكابر مملكته فى موكب فخم حتى وصل إلى حدود بلاده(١) .

يقول المؤرخ لافونتى : « وكان للمأمون ولد آخر أصغر من أخيه لم يشمله هذا العهد ، لسبب لانعرفه » . ثم يعلق فيما بعد على تصرف المأمون نحو ضيفه بقوله : « إن ما أغدقه المأمون على ألفونسو من ضروب الرعاية والإكرام وقت محنته ، يباين كل التباين تصرف أخيه سانشو نحوه ، فهذا يسجن أخاه فى حصن أو دير . وهذا الأمير المسلم ، يتلقاه فى قصره ، ويعامله كولده ، ويخصص بستانه لرياضته . ولما خلا عرش قشتالة بممالكه الثلاث ، عاون ألفونسو بكل سخاء وإكرام ، ليسير إلى تلقى العروش التى كانت فى انتظاره ، ولم يطلب منه لقاء ذلك شيئاً سوى صداقته . إن تصرف المأمون على هذا النحو يكشف لنا عن العواطف الكريمة التى يجيش بها هذا الجنس العربى »(٢) .

— ٢ —

سار ألفونسو إلى سمورة حيث اجتمع بأخته أورآكا ، ومن وافاه هنالك من الأساقفة والأشراف من ليون وجليقية ، وبحث الوسائل التى تكفل له اعتلاء عرش قشتالة دون صعوبة . ذلك أن معظم الأشراف وأغلبية الشعب ، كانت تنسب مقتل سانشو جهاراً إلى أورآكا ، ناصحة ألفونسو ، وملهمته . ومن ثم فإنه

(١) راجع : M. Lafuente : ibid; Vol. II. p. 398—400

وكذلك : R. M. Pidal : ibid; p. 189 & 190

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 438

لما وصل ألفونسو إلى برغش ، واجتمع بأشراف المملكة وكبرائها ، طلبوا إليه أن يقسم بأنه لم يشترك بأية صورة فى تدبير مقتل أخيه سانشو . فنزل ألفونسو عند رغبتهم . بيد أنه لما انتظم الجمع فى الكنيسة التى تقرر أداء القسم فيها ، لم يجرأ أحد من الأشراف أن يتولى تحليف الملك . وعندئذ تقدم منه الفارس ردريجو دياث (السيد فيما بعد) ، قائد أخيه سانشو ومستشاره ، وتولى تحليفه اليمين بنفسه ، فلما أداها ، عقب ردريجو بقوله ، إنه يطلب إلى الله ، إن كان ألفونسو كاذباً ، أن يسلط عليه خائناً يقتله كذلك الذى اغتال أخيه سانشو . وقد خلفت جرأة « السيد » هذه فى نفس ألفونسو أثراً لا يمحى ، ولم يصف قلبه لهذا الفارس فيما بعد قط ، حسبما بينا من قبل فى حياة السيد ، وعلائقه مع مليكه ألفونسو(١) .

وهكذا غدا ألفونسو ملك قشتالة ، كما غدا من قبل ملك ليون وجليقية (ديسمبر سنة ١٠٧٢م)، وعادت المملكة الإسبانية الكبرى إلى تماسكها ووحدتها كما كانت فى عهد أبيه فرناندو . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى عاد أخوه غرسية ملك جليقية السابق من منفاه فى إشبيلية معللا النفس ، بعوده إلى العرش ، فدعاه ألفونسو بإشارة أختهما الماكرة أوراكا ، إلى مقابلته للتفهم ، ولكنه ما كاد يصل إلى مكان اللقاء حتى قبض عليه ، وزج إلى حصن « لونا » (فبراير سنة ١٠٧٣م) وهناك أنفق بقية حياته ، سبعة عشر عاماً ، حتى توفى سنة ١٠٩٠ م .

وتحدثنا الرواية النصرانية ، بأن ألفونسو ماكاد يعتلى العرش ، حتى أراد أن يعرب عن عرفانه للمأمون بن ذى النون ، وذلك بأن أعانه فى حربه ضد ابن عباد ، وأمده ببعض قواته ، وسار معه إلى قرطبة وعاث فى أحوازها ، واستطاع المأمون بذلك أن يستولى على قرطبة . وربما كان ألفونسو قد أعان المأمون ببعض قواته فى غاراته على قرطبة ، ولكن المأمون استولى على قرطبة بطريقة أخرى دبرها مبعوثه حكم بن عكاشة (١٠٧٥ م) حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، ولم يشترك القشتاليون فى شىء من تلك الحوادث .

ولم تمض بضعة أشهر على ذلك حتى مرض المأمون وتوفى ، فخلفه فى حكم طليطلة ، حسبما تقول الرواية النصرانية ، ولده هشام القادر ، والظاهر أن هشاماً هذا لم يحكم سوى بضعة أشهر ثم توفى ، أو أنه خلع لشدة ولائه للنصارى ، بيد أن

---

(١) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 404 و R. M. Pidal ; p. 193 & 198

الرواية العربية ، وهى أرجح فى نظرنا ، تقول إن الذى خلف المأمون ، هو حفيده الملقب بالقادر(١)، وهو ما يدل على أن هشاماً توفى قبيل وفاة أبيه المأمون : وعلى أى حال فإن الرواية النصرانية ، تحاول أن تلتمس من ذلك عذراً يقيل ألفونسو من العهد الذى قطعه لحاميه والمحسن إليه ، بأن يصون مملكته وألا يعتدى عليها ، لأن هذا العهد كان قاصراً على المأمون وابنه الأكبر . أما القادر فهو حفيده ، وهو لم يدخل فى ذلك العهد(٢) .

والواقع أن ألفونسو السادس ، لم يعد له شغل شاغل ، مذ توفى المأمون ، سوى غزو طليطلة ، والاستيلاء عليها ، بل إن هذا المشروع ، يرجع حسبما تؤكده لنا ذلك رواية رهبان سياوس ، التى سبق ذكرها ، إلى وقت إقامته بطليطلة ، وانتهازه تلك الفرصة لدراسة خطط المدينة ، ومواقع الضعف فى تحصيناتها ، وطرق مهاجمتها ، وهى إقامة تقول لنا الرواية المذكورة كأنما اختارتها العناية .

ومن ثم فإن ألفونسو لم يتورع عن تنفيذ خطته ، فى غزو مملكة طليطلة وإرهاقها ، فنراه منذ سنة ١٠٧٨ م يحشد العدة والمؤن ، ويغير على أراضى طليطلة ويعيث فيها سفكاً وتخريباً ، وينتسف خضراءها وزروعها ، وقد استمر على هذه الغزوات المخربة فى الأعوام التالية ، واستولى خلال ذلك على مدينة طلبيرة ، ثم استولى على سائر المنطقة الواقعة بين طلبيرة ومجريط .

وفى خلال ذلك كان القادر يعانى فى حكم مملكته صعاباً ، ويسود الاضطراب فى مدينة طليطلة ، وتتوالى فيها الأحداث المزعجة على نحو ما فصلنا من قبل فى أخبار مملكة طليطلة . ولما شعر القادر بأنه عاجز عن أن يواجه سيل هذه الغزوات المخربة ، اضطر أن يلوذ بحماية ألفونسو ، وأن يؤدى له الجزية ، وأن يسلمه عدداً من الحصون القريبة من الحدود . كل ذلك وملك قشتالة مستمر فى إرهاقه بطلب المال والأراضى ، والقادر يواجه داخل طليطلة سخط شعبه وتبرمه . وأخيراً اضطرمت طليطلة بالثورة ، واضطر القادر أن يلوذ بالفرار ، وأن يلتمس غوث ألفونسو وعونه على رده إلى عرشه ،فأجابه ألفونسو إلى ما طاب تمكيناً

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٩ .

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 404

لقبضته منه ، وأمده بقوة من جنده ، وأخضعت المدينة الثائرة ، وجلس القادر على عرشها مرة أخرى ، تحت ظلال الحراب النصرانية ، وذلك فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م).

وهنا نضجت خطة ألفونسو فى الاستيلاء على طليطلة ، وأخذ يعد معداته الأخيرة . وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ؛ لما رأى اشتداد ساعد ألفونسو وغزواته الكاسحة نحو الجنوب ، وخشى أن يتحول نحوه هذا التيار المخرب ، وأن ينتزعه ألفونسو ، ما استولى عليه من أراضى طليطلة الجنوبية ، قد عقد معه حلفه المشهور الذى يتعهد فيه بأداء الجزية ، وبأن يترك ألفونسو حراً فى مشروعه ضد طليطلة ، ويتعهد ألفونسو من جانبه بأن يساعده على سائر أعدائه المسلمين ، وهو الحلف الذى زعمت التواريخ النصرانية ، بأن المعتمد قد رأى أن يدعمه بتقديم ابنته « زائدة » زوجاً لألفونسو . وهى قصة أثبتنا بطلانها وسخفها فيما تقدم من أخبار المعتمد .

وشعر ألفونسو بحق أن طليطلة قد أضحت تحت رحمته ، ولم يبق عليه الا أن يتم خطته التمهيدية من تخريب أراضيها وإعدام أقواتها ، وقد استمر على تنفيذ هذه الخطة المدمرة زهاء أربعة أعوام ، مذ عاد القادر إلى عرشه فى سنة ١٠٨١ م ، كل ذلك وملوك الطوائف جميعاً إلا واحداً منهم هوأمير بطليوس الشهم ، يشهدون اقتراب النكبة جامدين ، إما بدافع الأثرة والخوف أو عدم الاهتمام والتخاذل ، حتى حم القضاء ، وسقطت المدينة الأندلسية التالدة فى يد ألفونسو السادس فى فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٥ مايو ١٠٨٥ م) . وقد سبق أن تناولنا حوادث سقوط طليطلة وما تلاه ، مفصلة فى أخبار مملكة بنى ذى النون ، فلا حاجة بنا إلى التكرار ، وإنما نود فقط أن ننوه هنا بالطابع الصليبى لحصار طليطلة وافتتاحها ، فقد اشترك فيه إلى جانب جنود قشتالة وليون ، جند من أراجون ، ومتطوعون ومغامرون من فرنسا وغيرها ، قدموا للاشتراك فى مشروع يهم النصرانية كلها .

وقد عادت طليطلة منذ افتتاحها عاصمة لإسبانيا النصرانية ، كما كانت أيام القوط ، وردت إليها صفتها القديمة كمركز رئيسى للكنسية الإسبانية ، وهى ماتزال تحتفظ حتى يومنا بهذه الصفة ، وعين لرياستها الأسقف برنار الفرنسى ، عميد دير

ساهاجون . وذلك بنفوذ الملكة كونستانس ، وهى فرنسية بورجونية الأصل . وكان لتعين هذا الراهب لرياسة الكنيسة الإسبانية ، تأثير شديد فى تطور طقوسها وتقاليدها .

وكان من أول الأعمال التى دلت على بغيه وتعصبه ، اعتداؤه على مسجد طليطلة الجامع . وكان من عهود التسليم التى قطعها ألفونسو على نفسه ، أن يحتفظ المسلمون بمسجدهم الجامع لأداء شعائرهم إلى الأبد . بيد أنه ما كاد يمضى شهران على التسليم ، حتى دبر هذا القس بتحريض الملكة كونستانس المتعصبة مؤامرته لإزالة الجامع . وكان رجال الدين من النصارى يغصون بالأخص بعظمة الجامع وروعته ، هذا بينما كانت كنائس المدينة كلها صغيرة متواضعة . وعبثاً حاول الكونت ششنندو حاكم المدينة أن يثنى القس عن غيه ، وأن يبين له سوء العاقبة فى مخالفة العهود المقطوعة على هذا النحو . وانتهز برنار فرصة غياب الملك فى ليون ، واقتحم الجامع فى جمع من الفرسان وحطم المحراب ، وأمر بإقامة الهياكل . وفى اليوم التالى عقد بالجامع قداساً حافلا ، فهاج المسلمون وماجوا ، ولولا وجود حامية قشتالية كبيرة بالمدينة لاستحال هياجهم إلى ثورة مدمرة . وعلم الملك بذلك الحادث ، فارتد من ليون على عجل ، وهو يضطرم غيظاً وسخطاً ، إذ كان من سياسته أن يحترم العهود المقطوعة ولو إلى حين ، تفادياً من سخط المسلمين ، واضطرام القلاقل . وتظاهر الملك بأنه سوف يعاقب القس والملكة بالحرق ، وعندئذ تدخل المسلمون والتمسوا إليه العفو عنهما ، ولعلهم كانوا يأملون بذلك أن يستردوا جامعهم . ولكن هذا الأمل الخلاب لم يتحقق ، واستمر العمل فى تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة . وفى يوم الأحد ١٨ ديسمبر سنة ١٠٨٥ (١٥ شعبان سنة ٤٧٨ هـ) دشنت الكنيسة الجديدة فى حفل ضخم شهده الملك والأشراف ورجال الدين ، وانتخب فيه برنار مطراناً(١) .

---

(١) ورد تاريخ تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة فى أوراق مخطوطة لم تنشر من كتاب البيان المغرب لابن عذارى ، عثر بها الأستاذ ليڤى بروفنسال ونقله العلامة الأستاذ بيدال فى كتابه La Espana del Cid (ص ٣٠٧ و ٣٠٨) . وقد تناول ابن بسام حادث تحويل الجامع إلى كنيسة فى عبارته المسجعة (الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١و١٣٢) ، ولكنه وهم فى تاريخ الحادث فجعله فى ربيع الأول سنة ٤٩٨ — ١١٠٤ م ، وربما كان ذلك راجعاً إلى تحريف فى المخطوط إذ وضعت عبارة سنة «ثمان وتسعين وأربعمائة» وهى فى الحقيقة «ثمان وسبعين» .

— ٣ —

كان الاستيلاء على طليطلة بلا مراء أعظم أعمال ألفونسو السادس ، بل كان أعظم عمل قام به ملك نصرانى ، مذ قامت المملكة الإسبانية النصرانية فى شبه الجزيرة فى أواخر القرن الثامن الميلادى .

وقد كان لسقوط طليطلة أعمق الآثار فى ميزان القوى فى شبه الجزيرة ، وبه توج تفوق اسبانيا النصرانية السياسى والعسكرى ، واتخذ ملك قشتالة على أثره لقب الإمبراطور ، ودخلت سياسة الإسترداد Reconquista فى طور جديد يبدأ من الناحية الأخرى من نهر التاجُه . بيد أنه كان من آثاره أيضاً أن استيقظت اسبانيا المسلمة من سباتها ، وأدرك ملوك الطوائف ، حقيقة موقفهم ، وعاقبة بغيهم واستهتارهم ، وخطورة تنابذهم وتفرقهم ، وشعروا بخطر الفناء يهدد مصايرهم جميعاً ، وجنحوا عندئذ إلى الاستعانة بإخوانهم فيما وراء البحر ، وكان أن استجاب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى صريخهم ،وعبر إلى شبه الجزيرة فى جيوشه المرابطية . وفى ذلك الوقت بالذات كان ألفونسو ، عقب استيلائه على طليطلة ، قد سار إلى سرقسطة وحاصرها ، ليرغم أميرها المستعين بن هود على دفع الجزية ، فلما سمع بمقدم المرابطين ، غادرها مسرعاً إلى الأندلس ليلقى أعداءه الجدد . ثم كانت موقعة الزلاَّقة (رجب ٤٧٩ هـ — أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) وإحراز الجيوش الإسلامية المتحدة لنصرها الباهر على الجيوش النصرانية المتحدة، وسحق قوات ألفونسو السادس ، وانسحابه فى فلوله القليلة مهيضاً مغلوباً ، وذلك كله حسبما فصلناه فى مواضعه بإفاضة .

بيد أن يوسف اضطر عقب الموقعة أن يغادر الأندلس إلى المغرب لوفاة ولده وخلفه الأمير سير . وتنفس ألفونسو الصعداء حيناً ، وأخذ يجمع أشتات جيشه من جديد ، ووفد عليه عندئذ سيل من المتطوعة النصارى النورمان والفرنسيين وغيرهم ، شعوراً منهم بطابع المعركة الصليبى ، ولم يمض سوى قليل ، حتى استرد ألفونسو ثقته بنفسه ،وشعر أنه يستطيع لقاء أعدائه فى الميدان من جديد ، وكان ابن عباد وغيره من أمراء الطوائف قد انتعشوا عقب نصر الزلاقة ، وأغار المعتمد بقواته على أراضى طليطلة ، وانتزع منها عدة أماكن . بيد أن أمراء الطوائف لبثوا مع ذلك على تنابذهم وتفرقهم ، يتربص كل بأخيه ،

ولم يستطيعوا أن يؤلفوا من أنفسهم جبهة متحدة ضد النصارى . ومن ثم فقد استمر السيد إلكمبيادور فى عيثه ومغامراته فى منطقة بلنسية. واستمر القشتاليون من قاعدتهم المنيعة فى حصن ليبط (أليدو) الواقع بين مرسية ولورقة، وهو الذى ابتنوه قبل ذلك ببضعة أعوام، يرهقون هذه المنطقة بغاراتهم المتوالية . وعلى ذلك فقد استصرخ أمراء الطوائف ، أمير المسلمين للعبور إليهم وإنجادهم مرة أخرى .
وعبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٤٨١ ﻫ (١٠٨٩ م) ، وانضم إليه ابن عباد صاحب إشبيلية ؛ والمعتصم صاحب ألمرية ، وتميم بن بلقين ، صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، وابن رشيق صاحب مرسية ، كل فى قواته ، وهم الذى تقع أملاكهم جميعاً فى شرق الأندلس(١) وتعرض لعدوان القشتاليين فى تلك المنطقة . وضرب المسلمون الحصار حول حصن ليبط ، وكان يدافع عنه ألف فارس واثنا عشر ألف راجل من النصارى، ولكن الحصن كان فى منتهى المناعة ، فلم تنجح آلات الحصار الضخمة فى هدمه أو ثلم أسواره ، وطال الحصار زهاء أربعة أشهر ، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه ، كل جماعة بدورها ، والنصارى صامدون ، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء . وفى أثناء ذلك كان الخلاف والوقيعة على أشدها بين أمراء الأندلس المشاركين فى الحصار ، ولاسيما بين ابن عباد وابن رشيق ، فقد شكا ابن عباد ، ابن رشيق لأمير المسلمين ، واتهمه باغتصاب ولاية مرسية منه ، وأنه تفاهم سراً مع ألفونسو ، ودفع جبايتها إليه . واقتنع أمير المسلمين بوجاهة هذه الشكوى ، واستفتى الفقهاء فى أمر ابن رشيق ، فأفتوا بإدانته ، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى المعسكر المحاصر ، فإن قادة مرسية ، ومعظمهم من قرابة ابن رشيق وصحبه ، غادروا المحلة فى جندهم غاضبين ، وقطعوا المؤن التى كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية وأحوازها ، فاختل أمر المعسكر ، وعمه الضيق والغلاء . وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة ، يسير فى قوة كبيرة لإنجاد حصن ليبط ، فآثر الانسحاب وعدم التعرض للقشتاليين . وقدم ألفونسو إلى الحصن ، فلم يجد به من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل قد برح بهم الجوع ، ولما رأى

(١) يلاحظ أن المعتمد ابن عباد كان يدعى حق السيادة على مدينة مرسية منذ افتتحها ابن عمار وابن رشيق باسمه وبمعاونة جنده .

أنه لا فائدة من الاحتفاظ به ، وأنه يقتضي لذلك حامية كبيرة ، أخلاه وقوض أسواره وعاد أدراجه ، وذلك فى سنة ١٠٨٩م (٤٨٢ هـ) . وترك أمير المسلمين فى شرق الأندلس قوة كبيرة ، بقيادة ولده الأمير ابن عائشة ، ليقوم بافتتاح مرسية وبلنسية ، والقضاء على سلطان « السيد » فى تلك المنطقة ، وعاد إلى المغرب ، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس ، لما رآه من اختلال أحوالهم ، وسوء تصرفاتهم ، ووضيع أهوائهم وأطماعهم(١) .

وخاض ألفونسو بعد ذلك ضد المسلمين عدة وقائع أخرى ، ففكر فى الاستيلاء على بلنسية لكى يحرم « السيد » من الاستيلاء عليها ، وسار إليها بالفعل وحاصرها فى سنة ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ) ، معتمداً فى ذلك على معاونة سفن جنوة وبيزة اللتين عقد معهما حلفاً لهذا الغرض ، ولكنه فشل فى مشروعه ، وأرغم على ترك الحصار حينما عاث السيد فى أراضى قشتالة . ثم استولى السيد بعد ذلك على بلنسية (١٠٩٤م) ، ولم يمض سوى قليل حتى سار المرابطون لإنقاذها وضربوا حولها الحصار ، وسار جيش مرابطى آخر إلى أحواز طليطلة وعاث فيها وهزم القشتاليين ، وسار جيش ثالث إلى قونقة وهزم قوات ألفونسو التى يقودها ألبارهانيس . فى خلال هذه الوقائع التى رجحت فيها كفة المرابطين على قوات ألفونسو السادس ، توفى « السيد » خلال حصار بلنسية ، واستغاثت زوجه خمينا بألفونسو ، فسار إلى بلنسية ودخلها فى مارس سنة ١١٠٢ ، ولم يعترض المرابطون سبيله استعداداً للموقعة الحاسمة . ولكنه لما رأى ضخامة الجيوش المرابطية ، خشى العاقبة ، وغادر بلنسية مع خمينا وسائر القوات النصرانية ، ودخلها المرابطون فى شهر مايو سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة بلنسية .

وسار ألفونسو فى قواته إلى مدينة شنترين من أعمال ولاية الغرب واستولى عليها سنة ١٠٩٣ م (٤٨٦ هـ) . وقد وقع ذلك فيما يبدو خلال غزو المرابطين لمملكة بطليوس ، التى كانت شنترين من أعمالها ، ونحن نعرف أن بطليوس سقطت فى أيدى المرابطين فى صفر سنة ٤٨٧ هـ (مارس ١٠٩٤ م) .

---

(١) راجع فى حصار حصن لييط ، الحلل الموشية ص ٤٩ و ٥٠ ، وروض القرطاس ص ٩٩ ، وكتاب التبيان للأمير عبد الله ص ١١٠ — ١١٣ ، وأعمال الأعلام ص ٢٤٧ . وراجع أيضاً Dozy: Histoire; V. III. p. 139 &140 ، وكذلك R.M. Pidal: ibid; p. 364, 365 &409

وكانت آخر معركة هامة خاضها ألفونسو السادس مع المسلمين هى موقعة إقليش ، وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قد توفى يومئذ (سنة ٥٠٠ هـ) وخلفه ولده على . وقد عبر على عقب توليته إلى شبه الجزيرة الإسبانية فى أوائل سنة ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) معتزماً أن يستأنف الجهاد ضد النصارى ، وعهد بالقيادة إلى أخيه الأكبر تميم أبى الطاهر ، فسار الأمير تميم فى جيش ضخم ، واخترق أراضى قشتالة،ولكن حالت دون تقدمه قلعة إقليش Uclés المنيعة ، فضرب حولها الحصار فى الحال ، فبعث ألفونسو ، وقد عاقته الشيخوخة عن أن يقود جيشه بنفسه ، قواته لإنجادها ، وبعث معها ولده الوحيد سانشو وهو الذى رزق به من «زائدة» حظيته أو زوجه المسلمة المتنصرة، لكى يثير حماسة الجند ، وكان صبياً فى الحادية عشرة من عمره . ووقعت بين المرابطين وبين القشتاليين أمام حصن إقليش موقعة شديدة ، حدث خلالها أن ازدلف الأمير الصبى إلى قلب المعمعة ، وشاء القدر أن تصيبه طعنة قاتلة ، وقتل معه مؤدبه الكونت غرسية دى قبره مدافعاً عنه ، فدب الخلل إلى الجيش القشتالى وركن إلى الفرار ، وقتل المرابطون منه مقتلة عظيمة ، يقدر من زهق فيها بنحو عشرين ألفاً (٢٩ مايو سنة ١١٠٩ م)[١] . وكان نصراً عظيما أعاد ذكريات الزلاّقة ، وكان أشد ما فيها وقعاً فى نفس الملك النصرانى ، فقده لولده الوحيد وولى عهده وانقطاع نسله بذلك . والواقع أن ألفونسو لم يعش طويلا بعد هذه الصدمة المؤلمة ، فتوفى فى ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩ م ، بعد أن حكم المملكة النصرانية المتحدة سبعة وثلاثين عاماً ، وحوادث المرحلة الأخيرة من حياته أكثر ارتباطاً بتاريخ المرابطين ، ولكننا حرصنا على استعراضها بإيجاز ، استكمالا لسياق الحوادث .

ولابد لنا قبل أن نختتم الكلام على عهد ألفونسو السادس ، أن نتحدث عن أعماله وإصلاحاته الداخلية ، وقد شملت هذه الإصلاحات جوانب هامة فى بناء المملكة النصرانية والمجتمع الإسبانى ، وذلك من الناحيتين الدينية والدنيوية .

ففى أواخر القرن الحادى عشر ، وفى عهد ألفونسو السادس بالذات توضع الأسس الأولى ، لنفوذ البابوية وسلطانها على اسبانيا والملوكية الإسبانية ، وهو سلطان تأثل بمضى الزمن ، ومازال يحتفظ حتى اليوم بكثير من رسوخه

(١) راجع روض القرطاس ص ١٠٤ . وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١١٧ و ١١٨ .

وقوته . وقد توالت بعثات الكرسي الرسولي إلى الملوك الإسبان في هذا العهد ، تسعى إلى فرض سيادته الروحية ، وإلى إلغاء الطقوس القوطية المنسوبة للقديس إسيدورو واستبدالها بالطقوس الرومانية . وبذل دير ساهاجون البندكتى ، ورئيسه الراهب برنار الفرنسي عندئذ ، أعظم الجهود لتحقيق أغراض البابوية . وقد سبق أن أشرنا إلى الدور الذى قامت به الملكة كونستانس زوجة ألفونسو الأولى ، وهي فرنسية من بيت برجونية ، في تأييد الراهب برنار واختياره مطراناً للكنيسة الإسبانية ، عقب افتتاح طليطلة . وحصل برنار بعد ذلك على مرسوم بابوى بتعيينه في ذلك المنصب الخطير ، ووضع في معظم الأسقفيات رجالا من مواطنيه ، وملأ دير ساهاجون بالرهبان الفرنسيين ، وذلك رغم مناوأة الأحبار الإسبان وسخطهم . وهكذا استطاعت البابوية أن تفرض رياستها الروحية على اسبانيا ، وبالرغم من أن الفونسو ، كان يعارض كثيراً من الرغبات البابوية ، فإنه كان يجل الكرسي الرسولى ويوليه أعظم مقام .

وفي عهد ألفونسو أيضاً وقعت حوادث الحرب الصليبية الأولى بالمشرق ، ولكن البابا أوربان الثانى أصدر مرسوماً يحرم على الإسبان أن يشتركوا في هذه الحرب الصليبية ، لأن أعداء النصرانية ، أعنى المسلمين ، يهددونهم داخل أرضهم ، ولأن لديهم في شبه الجزيرة وقوداً كافياً لإضرام نار الحرب المقدسة ، وكانت ظروف الحرب المستمرة بين النصارى والمسلمين ، قد حملت رجال الدين أنفسهم على أن ينزلوا هذا الميدان ، فكان شأنهم شأن الأشراف والكونتات يسيرون في معظم الأحيان مع الملك ، ويقاتلون في الصفوف ، بل ويقودون الحملات أحياناً .

وقد كان الملك وراثياً في قشتالة فقط . أما في باقى الممالك النصرانية ، فكان المفروض أن يختار الأشراف مليكهم ، وكان الملك في سائر الممالك الإسبانية ، يجمع بين سلطات الحرب والسلم ، وقيادة الجيوش ، ورياسة القضاء ، يعاونه في ذلك رهط من رجال الخاص Palatini ، وكانت أسماء المناصب معظمها مشتق من النظم القوطية .

وكان نظام الإقطاع ما يزال عندئذ متغلغلا في تكوين المجتمع الإسبانى ، ويقوم على مراتب متعددة ، أرفعها مرتبة الدوق أو الوالى ، وهو الذى يُقطع

ولاية بأسرها مثل جليقية أو أشتورية . وتليها مرتبة الكونت أو القومس ، وهو الذى يُقطع منطقة معينة ، ثم أصحاب المنح الصغيرة ، وهم البارونات أتباع القومس. وكان هذا النظام عسكرياً ، فى جوهره ، تقترن مراتبه المدنية بالرتب العسكرية ، فالدوق يتولى قيادة جيش الولاية ، ويقود القومس فرقته ، وتتكون من البارونات فرق الفرسان ، والفارس هو أدنى مراتب النبل ، بيد أن الفرسان كانوا قوام الجيش ، وعليهم تتوقف مصاير الحرب ، وكان الجند المشاة يتكونون من أتباع البارونات ، ومن حشم الدوقات والقوامس .

وكان العرش يخوض معارك دائمة مع أولئك النبلاء الإقطاعيين ، وكان يضطر فى أحيان كثيرة إلى مهادنتهم والإذعان لمطالبهم ، فكانوا بذلك يفوزون بالولايات والرياسات رغم إرادة العرش .

وإلى جانب ذلك كان يقوم هيكل الإقطاع الزراعى على نفس الأسلوب المتدرج ، فيقطع كبار الملاك المزارعين الأحرار ، أجزاء من الأرض يزرعونها. على أن يؤدوا للمالك نصف الدخل أو ثلثه على الأقل ، ولم تكن هذه المنح الزراعية تحدد بوقت معين ، بل كان الزارع يعتبر نفسه مالكاً للأرض ، ثم تؤول من بعد وفاته إلى أولاده يزرعونها بنفس الطريقة ، بيد أنه كان ملزماً بالإقامة فيها ، فاذا غادرها إلى ناحية أخرى فقد الحق فى استغلالها .

وكان عدد الأرقاء فى ذلك العصر ، الذى كثرت فيه الحروب ، وكثر فيه السبي والأسر كبيراً ، وكانت هذه الجماهير الغفيرة من المسلمين الذين يؤسرون فى الغارات أو الحروب المختلفة التى تشنها الجيوش النصرانية على الممالك الأندلسية ، يقضى عليهم دائماً بالرق ، ويلزمون بأشق الأعمال الزراعية وغيرها ، ولا يمنحون الحرية إلا باعتناق النصرانية .

وأما عن التشريع ، فقد نظم ألفونسو السادس العدالة ، وألغى حق « القوة » وهو العرف الذى كان يسمح للقوى بأن يقتضى بنفسه وبالعنف ما يزعم أنه حق له وفرض على الدوقات والقوامس ، أن يعاقبوا مرتكبي الجرائم ، فوضع بذلك حداً لجرائم الفرسان الناهبين ، وعيث القتلة واللصوص فى سائر أنحاء المملكة .

وكان يشترك فى وضع القوانين عظماء المملكة وأكابر رجال الدين والأشراف ، وتعقد اجتماعاتهم عندئذ فى صفة هيئة تشريعية أو برلمان « كورتيس » Cortes ،

تحت رياسة الملك ، وكان القانون العام المطبق فى ذلك العصر هو القانون القوطى (قانون ألاريك) معدلا بما صدر من تشريعات جديدة كانت تعرف « بالقوانين الطيبة » Buenos Fueros . وكان من المقرر أن كل إنسان حر فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء ، وله أن يختار محامياً أو وكيلا للدفاع عنه . أما اليهود فلم يكن لهم حق الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم ، وفقاً لقانون أصدره ألفونسو . وأخيراً فقد كان الميراث يجرى أيضاً وفقاً للقانون القوطى ، وهو يسوى فى الحقوق بين البنين والبنات .

وكانت وراثة العرش أهم مشكلة واجهت ألفونسو قبل موته ، فهو لم ينجب من زوجاته المتواليات من البنين سوى ولده سانشو ، ولد زوجته أوحظيته زائدة المسلمة التى تنصرت باسم ماريا أو اليزابيث ، والتى أتينا على قصتها فيما تقدم من أخبار بنى عباد ، وقد قتل هذا الإبن حسبما أسلفنا فى موقعة إقليش ، فعندئذ اعتزم ألفونسو أن يسند وراثة عرشه إلى ابنته أوراّكا ، التى كان قد رزق بها من زوجته الملكة كونستانس الفرنسية ، وزوجت بالكونت ريموند البرجونى عند مقدمه إلى اسبانيا . ثم توفى وترك لها ولداً ، هو ألفونسو ريمونديس . ولكنه رأى أن يقوى جانب العرش ، ووحدة المملكة ، بتزويجها من ألفونسو الأول ملك أراجون وناڤار ، فاستدعى نواب المملكة (الكورتيس) إلى الاجتماع فى ليون ، ومثل فيه الأشراف والأساقفة وحكام الولايات ورجال الدين والفرسان ، وأصدر قرارا ته بشأن وراثة العرش ، وخلاصتها أن تكون أوراكا وارثة لعرش قشتالة وليون وأشتوريش ، وأن يمنح ولدها ألفونسو ريموننديس مملكة جليقية ، مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى صهر ألفونسو إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة ، فاذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون ، فإن المملكة كلها تؤول إلى ولدها ألفونسو ريمونديس أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس . وعهد بتربية الطفل الملكى إلى عمه أسقف ڤين ، والكونت تراڤا ، ومنح إمارة جليقية ، تحت وصايتهما ، على أن تكون له دون نقض أو رجوع .

---

(١) رجعنا فى تلخيص أعمال ألفونسو وإصلاحاته الداخلية إلى « تاريخ المرابطين والموحدين » لأشباخ (ص ١٢٠ – ١٣٥) .

نافار وأراجـــون

رأينا فى بداية هذا الفصل كيف هلك غرسية ملك نافار فى موقعة أتابوركا التى نشبت بينه وبين أخيه فرناندو (سنة ١٠٥٤ م) . وكيف اختار فرناندو مع ذلك سانشو ولد أخيه الملك القتيل ليخلفه على عرش نافار ، على أن يكون تحت طاعته .

وكان يحكم أراجون فى ذلك الوقت ، الملك راميرو بن سانشو الكبير ، وكان فى بداية حكمه قد حاول غزو مملكة نافار وانتزاعها من يد أخيه غرسيه ، ولكنه هزم كما رأينا ، ومزق جيشه ، واضطر أن يلجأ إلى السكينة حيناً ليعنى بتنظيم شئونه والنهوض من عثاره . ولما قتل أخوه غرسية ، وتولى ولده سانشو الحكم مكانه ، لبث محافظاً على حياده وسكينته نحو جارته نافار ، ولكنه وجه عدوانه نحو مملكة سرقسطة ، وحاول غزوها ، فاستنصر أميرها المقتدر بن هود ، بفرناندو ملك قشتالة ، فأمده ببعض قواته ، ونشبت بين الفريقين فى جرادوس معركة هزم فيها راميرو وقتل (١٠٦٣ م) .

فخلفه على عرش أراجون ولده سانشو ، المعروف بسانشو راميرز . ولما توفى فرناندو ملك قشتالة حاول ولده سانشو أن يستولى على مملكة نافار ، وكان سانشو ملك نافار ، شعوراً منه بأطماع ملك قشتالة ، قد عقد حلفاً مع جاره سانشو راميرز ، فلما سار سانشو لمحاربتهما ، استطاعا أن يقفا فى وجهه ، وأن يهزماه فى موقعة ڤيانا (١٠٦٧ م) .

واستمر سانشو ملكاً على نافار اثنين وعشرين عاماً ، وفى عهده توطد مركز نافار بين جيرانها ، وأقر المقتدر بن هود صاحب سرقسطة لها بدفع الجزية فى سنة ١٠٦٩ م ، وعقد مع سانشو حلفاً لمعاونته فى حربه ضد خصومه سواء من المسلمين أو النصارى . وجدد هذا التحالف فى سنة ١٠٧٣ م . ولم يمض قليل على ذلك حتى قتل سانشو فى كمين دبره أخوه ريموند وأخته أرمزندة ، وذلك فى سنة ١٠٧٦ م ، فسخط الشعب النافارى لتلك الجريمة أيما سخط ، واستدعى سانشو راميرز ليعتلى عرش نافار . ولكن ريموند استغاث بألفونسو ملك قشتالة ، فسار إلى نافار من ناحيتها الغربية ، وسار إليها سانشو را ميرز من ناحيتها الشرقية ، وتفاهم الملكان على اقتسامها ، بالرغم من وجود ولدى الملك القتيل القاصرين .

فاستولى سانشو على الجزء الواقع فى منطقة البرنيه ، وفيه العاصمة بنبلونة ، واستولى ألفونسو على القسم المحاذى لنهرإيبرو ، وبذلك اختفت مملكة نافار المستقلة إلى حين ، بعد أن استطاعت أن تذود عن استقلالها عصوراً بإصرار وبسالة ، ونمت مملكة أراجون ، واتسعت رقعتها اتساعاً كبيراً ، وبدأت تلعب دورها العظيم فى شمال شرقى الجزيرة الإسبانية .

واتجهت أطماع سانشو راميرز بالأخص إلى جارته الإسلامية الجنوبية ، أعنى مملكة سرقسطة ، فقام بمحاصرة مونتشون وأخذها فى سنة ١٠٨٩ م ، ثم سار لحصار وشقة أمنع قواعد مملكة سرقسطة الشمالية وحاصرها ، ولكنه توفى بعد قليل تحت أسوارها ، فتابع ولده وخلفه پيدرو الأول الحصار ، واستغاث المستعين بملك قشتالة فأمده ببعض قواته ، وسار لإنجاد المدينة المحصورة ، ووقعت بينه وبين پيدرو معركة شديدة فى الكرازة ، فهزم المستعين وحلفاؤه القشتاليون هزيمة شديدة ، وسقطت وشقة بعد ذلك بأيام قلائل فى نوفمبر سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) حسبما فصلنا ذلك من قبل فى موضعه من أخبار مملكة سرقسطة .

وفى العام التالى سار پيدرو فى قواته لمعاونة حليفه السيد إلكمبيادور ضد المرابطين ، ووقعت الهزيمة على المرابطين فى « منديز » قرب بلنسية .

واستمر پيدرو الأول على عرش أرجون حتى وفاته سنة ١١٠٥ م ، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً ، وهو الذى مهد بافتتاحه لوشقة وبربشتر إلى القضاء على مملكة سرقسطة ، وسقوطها فيما بعد فى يد أخيه وخلفه ألفونسو ، وكان ورعاً متعصباً ، لايكاد يفتح مدينة إسلامية ، حتى يحول فى الحال مساجدها إلى كنائس ، ويغدق الصلات الوفيرة على الكنائس والأديار . ولما كان ولده الوحيد قد توفى قبل وفاته ، فقد خلفه على عرش أراجون أخوه ألفونسو الأول الأرجونى المعروف بالمحارب ، وهو الذى قدر له ، فيما بعد بزواجه من أورّاكا أبنة ألفونسو السادس ملك قشتالة ، أن يحكم سائر الممالك الإسبانية ، وأن يغدو من أعظم ملوك اسبانيا .

إمارة برشلونة

إلى جانب الممالك الإسبانية النصرانية ، التى تقوم فى النصف الشمالى من شبه الجزيرة الإسبانية ، كانت تقوم فى الركن الشمالى الشرقى مما يلى جبال البرنيه ،

إمارة نصرانية أخرى ، هى إمارة أوكونتية برشاونة . ونحن نعرف أن برشاونة كانت أول ثغر عظيم يفقده المسلمون فى شمالى شبه الجزيرة ، وقد افتتحها شارلمان (كارل الأكبر) فى سنة ١٩٥ هـ (٨٠١ م) أيام الحكم بن هشام ، وجعلها قاعدة الثغر القوطى أو الثغر الإسبانى ، الذى أنشأه فيما وراء البرنيه ، حماية لحدود فرنسا الجنوبية . وكان ملوك الفرنج يعينون حكام هذا الثغر فى البداية من الأشراف أو الكونتات الذى ينتمون إلى أصل قوطى أو فرنجى . ولما ضعفت مملكة الفرنج وتخلت عن حماية الثغر وإمداده ، وشعر أولئك الكونتات بقوتهم ، ونأيهم عن الحكومة المركزية ، أعلنوا استقلالهم ، وانقسم الثغر إلى عدة إمارات أوكونتيات صغيرة كان أهمها إمارة برشلونة. وكان يحكمها فى أواخر القرن العاشر آل بوريل، وفى عهدهم غزاها المنصور بن أبى عامر ، واقتحمها وخربها ، وذلك فى سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥ م)، ولكنه لم يحاول الاحتفاظ بها . ولما سقطت الدولة العامرية واضطرمت الفتنة فى قرطبة ، سعى واضح الصقلبى فى الاستعانة بأمير برشلونة الكونت رامون بوريل ، وزميله كونت أرقلة، فسار معه لمقاتلة البربر لقاء أموال جزيلة، واشترك إلى جانب المهدى محمد بن هشام فى المعارك التى وقعت يومئذ (٤٠٠هـ — ١٠١٠م) . ومنذ أوائل القرن الحادى عشر نرى برشلونة تحت حكم آل برنجير ، وقد حكمها مؤسس هذه الأسرة الكونت رامون برنجير الكبير من سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠٧٦ م ، وفى عهده اتسعت رقعة الإمارة ، وضمت إليها أرقلة وشرطانية(١) ، ثم ضم إليها ولاية قرقشونة الفرنجية ، فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه، وذلك بشرائها من ابنتى صاحبها الكونت روجر الثالث . وكان لضم هذا الجزء من أراضى لانجدوك إلى إمارة برشلونة نتيجة هامة ، هى إعادة الصلة بين الثغر القوطى القديم ، وجنوبى فرنسا ، والتمهيد بذلك لنزوح الفرسان الفرنج المغامرين ، الذين تحدوهم روح صليبية ، ويحدوهم البحث وراء طالعهم ، والتحاق جموع كبيرة منهم بالجيوش النصرانية التى تقاتل المسلمين فى شبه الجزيرة .

وكان من أهم أعمال الكونت برنجير الأول ، هى إصلاحاته القضائية ، فقد استدعى فى سنة ١٠٦٨ م جمعية من الكبراء فى برشلونة ، وأصدر هذا البرلمان قانوناً جديداً سمى « بعرف برشلونة » Usages de Barcelona ليطبق إلى جانب القانون القوطى القديم .

---

(١) أرقلة هى بالإسبانية Urgel ، وشرطانية هى : Cerdana

ولما توفى رامون برنجير الأول خلفه ولداه برنجير ورامون فى حكم الإماره معاً وفقاً لوصيته . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بينهما ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن يتسمى كل منهما بكونت برشلونة، وأن يتناوبا الحكم كل ستة أشهر : وفى سنة ١٠٨٢ م ، قتل رامون غيلة ، واتجهت الشبهة فى ذلك إلى أخيه . وقام برنجير بحكم الإمارة منفرداً بالأصالة عن نفسه ، وبصفته وصياً على ولد أخيه القاصر رامون الثالث .

وكان بنو هود أمراء سرقسطة ، وهم جيران إمارة برشلونة ، يعتقدون فى مقدرة الفرسان القطلان أبناء هذه الولاية ، ويحصلون على معاونة آل برنجير من آن لآخر . وقد لعب أمراء برشلونة فى ذلك الوقت الدور الذى لعبه معظم الملوك النصارى ، فى معاونة الأمراء المسلمين ، سواء ضد أبناء دينهم المسلمين أوضد النصارى أنفسهم . وقد أشرنا إلى ما وقع من ذلك فى كثير من المواطن فى أخبار مملكة سرقسطة ومملكة بلنسية. وكان أبرز دور قام به آل برنجير فى ذلك هو استعانة المستعين بن هود بالكونت برنجير فى مشروعه لافتتاح بلنسية. وكان الكونت يضطرم بغضاً نحو « السيد » ومشاريعه . فسار فى قواته لمحاصرة بلنسية ، ولبث على حصارها وقتاً ، حتى اقترب « السيد » بقواته من المدينة ، وتبادل السيد والكونت بعض رسائل التحدى المهينة ، وأخيراً وقعت الحرب بينهما ، فهزم الكونت وأسر ، ولم يطلقه السيد إلا لقاء فدية كبيرة ، ثم وقع التفاهم بينهما ، وترك الكونت حصار المدينة وعاد بقواته (١٠٩٠ م) .

ومما هو جدير بالذكر أن الكونت برنجير ، اشترك قبل ذلك بقليل مع قوات ألفونسو السادس ، فى موقعة الزلاقة (١٠٨٦ م) إلى جانب باقى الملوك النصارى ، إيماناً منهم جميعاً ، بأنهم يقاتلون فى معركة صليبية عامة .

واستمر الكونت برنجير فى حكم إمارة قطلونية حتى سنة ١٠٩٢ م ، ثم ترك الحكم لابن أخيه الفتى رامون برنجير الثالث ، وسافر حاجاً إلى المشرق ، فحكم رامون الإمارة بكفاية ، وقاوم غزوات المرابطين فيما بعد بنجاح .

الفصل الثالث

النصارى المعاهـــدون

النصارى المعاهدون . مركزهم وأحوالهم فى ظل الحكومة الإسلامية . أحوالهم فى ظل الطوائف . مصانعة أمراء الطوائف لهم . تمتعهم بالتسامح فى شرق الأندلس . أحوالهم فى مملكة سرقسطة . عدم ولائهم للحكومات المسلمة . مداخلتهم للملوك النصارى ومعاونتهم ضد المسلمين . صدى هذا الموقف فى دول الطوائف . استدعاؤهم ألفونسو الأرجونى لغزو الأندلس . قيامه بالغزوة المنشودة . فتوى الفقهاء بخيانة المعاهدين ووجوب تغريبهم . ظهور مجتمع المدجنين فى القواعد الإسلامية المفتوحة .

يجدر بنا بعد أن تحدثنا من تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية ، أن نعرض فى شىء من التفصيل إلى موقف النصارى المعاهدين وأحوالهم فى عصر الطوائف ، وهو العصر الذى سرى فيه الانحلال السياسى والعسكرى إلى اسبانيا المسلمة ، ومزقتها الحروب الأهلية ، وتطاولت عليها الممالك الإسبانية النصرانية . ونحن نعرف أن النصارى المعاهدين ، كانوا منذ عهد الإمارة يكونون أقليات ذات شأن فى القواعد الأندلسية الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وبلنسية وسرقسطة . وكانت هذه الأقليات النصرانية تعيش آمنة مطمئنة ، فى ظل الحكومة الإسلامية ، تزاول نشاطها وشعائرها بمنتهى الحرية ، ويتمتع النابهون من أبنائها بعطف الخلفاء وثقتهم وتقديرهم ، ويشغل الكثير منهم مناصب هامة فى الإدارة وفى القصر . وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار الأمراء والخلفاء إلى كثير من أولئك النصارى البارزين . وكانوا إلى جانب اللغة العربية التى يتقنها الكثير منهم ، يتكلمون لغتهم الرومانية الأصلية Romance ، وهى اللغة التى كانت سائدة يومئذ فى الممالك الإسبانية النصرانية ، وكان يعرفها كثير من أكابر الصقالبة فى البلاط الأندلسى ، وبعض أكابر المسلمين من الوزراء والكتاب . وكانت هذه اللغة هى لغة النصارى المعاهدين المكتوبة ، التى يستعملونها فى مخاطباتهم ومعاملاتهم داخل المجتمع الإسلامى ، الذى يعيشون فيه . وكان المسلمون يستعملون أحياناً بعض عبارات هذه اللغة الرومانية ، وهى التى يسمونها « اللطينية » ولاسيما فى بعض المسائل العلمية(١) .

---

(١) R. M. Pidal : Origines del Espanol, p. 418 & 421

فلما انهارت الخلافة، وانهارت معها الحكومة المركزية ، وقامت دول الطوائف ، طرأ تغير ملحوظ على أحوال النصارى المعاهدين . وبالرغم من أن هذا التغير لم يكن دائماً ضد مصالحهم أو حرياتهم، فإن مصايرهم وأحوالهم أضحت فى كل دولة من دول الطوائف ، تتوقف على ظروف تلك الدولة، وعلى سياسة حكومتها المحلية . ونستطيع أن نقول إن النصارى المعاهدين لقوا على وجه العموم فى مختلف دول الطوائف نفس المعاملة الكريمة التى كانوا يلقونها فى ظل حكومة الخلفاء ، بل لقد كان فى ظروف بعض هذه الدول ، ما يحملها على اتباع سياسة خاصة ، تتسم باللين والمصانعة نحو رعاياها النصارى ، ولما عصفت ريح الحرب الأهلية بقرطبة ، عقب انهيار الخلافة اضطربت أحوال المعاهدين بها ، وقد كانوا يعطفون على الجبهة العامرية، ويخشون من عسف البربر وطغيانهم، فلما بسط البربر سلطانهم على عاصمة الخلافة ، أخذت جموع كبيرة منهم تغادر قرطبة فى أثر الفتيان العامريين إلى شرقى الأندلس . ولما قامت دولة بنى جهور فى قرطبة، بذلت حكومة الجماعة جهدها لتأمين المعاهدين وحمايتهم ، وندب أبو الوليد ابن جهور وزيره الشاعر الكبير ابن زيدون، « للنظر فى شئون أهل الذمة فى بعض الأمور المعترضة »(١) .

ولم تقتصر هذه العناية بشئون النصارى المعاهدين على حكومة قرطبة ، بل لقد كانت معظم دول الطوائف الأخرى ، تبذل جهوداً خاصة لتأمين المعاهدين وحمايتهم ، وكسب مودتهم . وكانت بواعث هذه السياسة الودية واضحة ، فى الظروف التى كانت تجوزها دول الطوائف يومئذ . فقد كانت مملكة قشتالة النصرانية تملك زمام التفوق العسكرى ، وكان ملك قشتالة ألفونسو السادس ، يرهق دول الطوائف بإغاراته المتوالية ، ومطالبه المالية المغرقة ، وكان ملوك الطوائف يتسابقون إلى خطب مودته ، واتقاء شره ، وكان منهم من يستعديه على جيرانه المسلمين . وكانت الأقليات النصرانية فى القواعد الأندلسية ، فى مثل هذه الظروف تعتبر مكامن للخطر والدسائس، وكان ملوك الطوائف يحملون بذلك على مصانعتها ومداراتها . وكان بنو عباد فى مقدمة أولئك الملوك الذين عملوا على حماية المعاهدين وكسب مودتهم ، وقد كانوا أشد ملوك الطوائف سعياً

---

(١) فى « إعتاب الكتاب » لابن الأبار (مخطوط الإسكوريال) اللوحة — ١٦ .

إلى محالفة ملك قشتالة ، واتقاء عاديته ، وكان للنصارى المعاهدين فى بلاطهم مكانة وظهور . ومنهم شعراء مثل ابن المرجرى الإشبيلى ، وابن مرتين . وكان قائد ابن عباد فى فتح قرطبة ، وهو محمد بن مرتين ، من أصل نصرانى ، وبنو عباد هم الذين احتضنوا الكونت سسنندو فى حداثته، وساعدوه على الظهور ورفعوا مكانته فى بلاطهم ، وأولوه ثقتهم ، واستخدموه فى أخص مهامهم السياسة(١) . وكان بنومناد البربر ملوك غرناطة يصطنعون اليهود فى البداية ، فلما اشتدت وطأتهم على صنهاجة ، وانتهت إلى البطش بهم (سنة ٤٥٩ هـ — ١٠٦٦ م) ، جنح أمير غرناطة عبد الله بن بلقين حفيد باديس ، إلى اصطناع النصارى ، واضطر بضغط الظروف إلى محالفة ملك قشتالة ، أو بعبارة أخرى إلى الانضواء تحت حمايته وتأدية الجزية له ؛ وتمتع المعاهدون فى غرناطة بالحماية والرعاية ، وازدهرت أحوالهم واشتد ساعدهم ، واتخذ الأمير عبد الله فى بطانته ، عدة من أكابر النصارى القشتاليين ، يعاونونه فى شئون الحرب والإدارة ومنهم عدة من أكابر الفرسان(٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به النصارى المعاهدون فى شرق الأندلس ولاسيما فى مملكة دانية من ضروب الرعاية والتسامح . وقد كان الفتيان الصقالبة الذين سيطروا على شرقى الأندلس من أشد الرؤساء تسامحا نحو المعاهدين . وكان مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر ، ثم ولده على إقبال الدولة من بعده ، كلاهما يبدى نحو رعاياه النصارى منتهى العطف والتسامح ، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى ما يقال عن « أصل مجاهد النصرانى » وإلى أن زوجته كانت نصرانية ، وكذلك ولده على ، فقد نشأ فى حداثته بين نصارى سردانية ، وتخلق بأخلاقهم واعتنق دينهم ، قبل أن يعتنق الإسلام بعد عوده من الأسر ، بيد أنه يجب أن نلاحظ إلى جانب ذلك ، أن هذا التسامح نحو النصارى كان حسبما بينا فى موضعه ، سياسة مقررة لحكومة مجاهد وولده على ، وأنهما استطاعا بواسطة هذه السياسة المستنيرة ، أن يجتنبا عدوان الملوك النصارى ، وأن تتمتع مملكة دانية فى ظلهما بفترات طويلة من السلام والرخاء .

وثمة مملكة أخرى من ممالك الطوائف ، كانت ظروفها تدعو إلى مزيد من

(١) Isidro de las Cagigas : Los Mozarbes (Madrid 1947) T. II. p. 427

(٢) Is. de las Cagihas : ibid; T. II. p. 493

التسامح نحو رعاياها النصارى : تلك هى مملكة سرقسطة ، فقد كانت بموقعها بين الممالك النصرانية الأربع ، قشتالة ونافار ، وأراجون وبرشلونة ، وكونها تعتبر بهذا الموقع حاجزاً بين اسبانيا المسلمة ، والممالك النصرانية من ناحية الشمال الشرقى ، ثم بكونها تضم بين سكانها أقليات نصرانية كثيفة ، كانت لذلك كله تجد نفسها مدفوعة بحكم الواقع والظروف إلى اتباع سياسة الاعتدال والتسامح نحو رعاياها النصارى ، وقد كانت هذه المنطقة فى الواقع وهى منطقة الثغر الأعلى منذ أيام بنى قسىّ وبنى الطويل وغيرهم من زعماء المولدين ، ميداناً خصباً لالتقاء العناصر المسلمة والنصرانية وامتزاجها بقوة ، وكانت بذلك مهدا لظهور المعاهدين ، ومشاركتهم بقسط بارز فى الحياة السياسية والاجتماعية . وكان بنو تجيب حكام الثغر الأعلى، ومن بعدهم بنو هود أصحاب مملكة سرقسطة يبسطون رعايتهم وحمايتهم على النصارى المعاهدين . وكان بنو هود بالأخص يشعرون بدقة مركزهم بين الممالك النصرانية ، وتحفز هذه الممالك دائماً إلى التدخل فى شئون مملكتهم وضغطها عليهم لاقتضاء الجزية ، أو لاقتطاع بعض مدنهم وحصونهم ، ويحاولون بسياسة التسامح المطلق نحو رعاياهم النصارى ، أن يجتنبوا الدسائس والاضطرابات الداخلية ، وأن يغنموا حياد الملوك النصارى وجنوحهم إلى المهادنة . وكان المقتدر بن هود . وهو أعظم ملوك سرقسطة من أشد أنصار هذا التسامح ، وكان بين وزرائه المقربين وزير نصرانى هو أبو عامر بن غند شلب Gundisalvo ، وكان أديباً شاعراً . أجل وقعت فى سرقسطة فى سنة ١٠٦٥ م فى عهد المقتدر مذبحة للنصارى ، وذلك على أثر عدوان النورمان الشنيع على مسلمى بربشتر ، وكان فيه من الروع والاستثارة ما فيه . بيد أنه كان حادثاً مستقلا ، ولم يلبث أن استدركت عواقبه . وقد رأينا من جهة أخرى كيف كان بنو هود ، يعتمدون على محالفة جيرانهم من الملوك النصارى ، ويحشدون المرتزقة النصارى فى جيوشهم بصفة مستمرة ، وكيف كانوا أول من استخدم السيد إلكمبيادور ، واعتمدوا على محالفته زمنا(١) .

بيد أن هناك حقيقة يجب التنويه بها ، وهو أن النصارى المعاهدين ، بالرغم من هذه الرعاية والحماية ، وهذا التسامح ، التى كان يتبعها نحوهم ملوك الطوائف ،

---

(١) Is. de las Cagigas : ibid., T. II. p. 448, 451, 452, 454, 462 & 463

سواء لبواعث كانت ترغمهم على اتباعها، أو لسياسة مستتنيرة كانوا يؤثرونها، لم يشعروا قط بعاطفة من الولاء نحو تلك الحكومات المسلمة ، التى كانت تبذل وسعها لحمايتهم واسترضائهم ، بل لبثوا دائماً على ضغنهم وخصومتهم لها وتربصهم بها . ينتهزون أية فرصة للإيقاع بها ، وممالأة الملوك النصارى ، ومعونتهم بكل وسيلة على محاربتها، وتسهيل مهمتهم فى غزوها والتنكيل بها . ولدينا فى تاريخ الطوائف من ذلك أمثلة لاحصر لها . ففى حصار قلمرية وافتتاحها (٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م) لعب النصارى المعاهدون — وقد كانوا كثرة هذه المنطقة — دوراً بارزاً فى معاونة الجيش القشتالى المحاصر ، وعاونه رهبان دير لورڤان القريب من قلمرية بمؤنهم المختزنة ، وسهلوا له بذلك الصمود ، حتى اضطرت المدينة المحصورة إلى التسليم(١) . ودأب النصارى المعاهدون فى طليطلة أيام القادر بن ذى النون على تدبير الدسائس ، وبث الفتن والاضطرابات داخل المدينة ، والاتصال المستمر بألفونسو السادس وأعوانه ، ومؤازرة الناقمين من المسلمين ضد الحكومة القائمة ، والعمل بذلك على تحطيم كل جبهة للمقاومة الحقيقية، وانتهى الأمر بتذليل السبيل لألفونسو السادس لمحاصرة المدينة المفتوحة . ولعب النصارى المعاهدون فى بلنسية مثل هذا الدور داخل بلنسية ، لمعاونة السيد فى مغامراته المتوالية لمحاصرة المدينة والاستيلاء عليها . وهكذا كان النصارى المعاهدون ، فى كل موطن وكل فرصة ، يعملون ماوسعوا لتحطيم تلك الممالك الإسلامية التى تقوم بحمايتهم ورعايتهم ، والتمهيد بذلك للقضاء عليها وسقوطها فى أيدى الملوك النصارى . وهذا ما يعبر عنه الأستاذ پيدال بقوله : « إن نجم المعاهدين قد بزغ ثانية عقب انحلال الدولة الأندلسية وقيام دول الطوائف الضعيفة ، واستطاعوا أن يؤدوا خدمات جليلة لقضية النصرانية والاسترداد النصرانى(٢) .

ومن ثم فإنا نجد ، عقب سقوط طليطلة ، واشتداد روح العدوان من جانب إسبانيا النصرانية ، شعور التقاطع والريب ، ينمو ويشتد ضد جماعات النصارى المعاهدين فى مختلف القواعد الأندلسية ، وترتفع أصوات الفقهاء بالاشتداد فى معاملتهم ، وتجريدهم من كثير من ضروب الحرية والتسامح ، التى كانوا يتمتعون بها من قبل . ومن ذلك مثلا ما دعا إليه ابن عبدون فى رسالته عن الحسبة وهى

---

(١) راجع : Is. de las Cagigas : ibid; T. II. p. 455

(٢) R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 424

التى وضعت فى بداية العهد المرابطى، من أنه « يجب أن يقطع ببلاد الإسلام ضرب النواقيس » وأنه نظرا لفساد أخلاق القساوسة ، يجب أن يؤمروا بالزواج كما فى ديار المشرق ، ويجب ألا يترك فى دار القسيس امرأة ولاعجوز ولاغيرها ، كما يجب أن تمتنع النساء الإفرنجيات من الدخول إلى الكنيسة إلا فى يوم فضل أو عيد، ويجب ألا يباع من اليهود أوالنصارى كتاب علم إلا ماكان من شريعتهم، لأنهم يترجمون كتب العلوم ، وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم ، وهى من تواليف المسلمين ، كما يجب أن يمنع الأطباء اليهود أو النصارى من معالجة المسلمين[1] . فهذه الدعوات وأمثالها ، إلى التشدد فى معاملة المعاهدين ، لم تكن إلا صدى لمواقفهم المتسمة بالعدوان والخيانة . وكانت تلقى فى ظل الحكم المرابطى ، المتسم بروح التزمت الدينى قبولا . وقد بلغ اجتراء المعاهدين وخيانتهم ذروتها ، حينما عملوا على استدعاء ألفونسو المحارب ملك أراجون ، لغزو الأندلس ، ووعدوه بأن ينضموا ألوفاً إلى جيشه متى اخترق الأندلس . وقام ألفونسو بالفعل بالغزوة المنشودة ، فخرج من سرقسطة فى سبتمبر سنة ١١٢٥ م(٥١٩ هـ) ، فى عهد أمير المسلمين على بن يوسف ، واخترق الأندلس ، من الجانب الشرقى ماراً بقرب بلنسية ودانية ومرسية ، وهو يعيث فى بسائطها، والمعاهدون يحشدون فى جيشه من كل صوب ، واستمر فى سيره حتى وادى آش ، ووصل إلى ظاهر غرناطة فى شهر يناير من العام التالى (١١٢٦ م) ، ولكنه أدرك أنه لايستطيع أن ينال منها مأرباً . وهنالك بعث إلى زعيم المعاهدين بغرناطة يلومه لتقصيرهم فى معاونته ، فردوا عليه بأنه هو الذى أضاع الوقت فى زحفه الطويل سدى ، ثم أخذت القوات المرابطية بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم تلاحقه وترهقه باستمرار ، وهو يتجول بقواته فى شمال غرناطة ، ووقعت بينه وبين المرابطين فى مارس (١١٢٦ م) فى فحص الرنيسول موقعة هزم فيها المرابطون . بيد أنه لم يستطع الاستفادة من نصره ، فاستمر فى زحفه جنوباً ، واخترق هضاب البشرات حتى شاطىء البحر المتوسط ، ثم عاد إلى الشمال ، وقد خسر كثيراً من جنده بسبب الإعياء والوباء .

وكان من أثر هذا العدوان الجسيم ، أن قرر أمير المسلمين ، وفقاً لفتاوى

---

(١) رسالة ابن عبدون فى الحسبة ص ٥٥ و ٥٧ .

الفقهاء ، تغريب النصارى المعاهدين ، لأنهم نقضوا العهد وخرجوا عن الذمة . وأبعدت منهم بناء على ذلك عن الأندلس ألوف عديدة ، فرقت فى مختلف أنحاء إفريقية(١) .

وثمة ظاهرة أخرى برزت فى أواخر عهد الطوائف ، وترتبت على سقوط طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة فى يد القشتاليين ، ثم سقوط سرقسطة وأعمالها بعد ذلك بقليل فى يد ملك أراجون (٥١٢ هـ — ١١١٨ م) . فإلى ذلك الحين كانت المشكلة العنصرية والدينية تنحصر فى جانب واحد ، وهو أقليات النصارى المعاهدين التى تعيش فى القواعد الأندلسية تحت الحكم الإسلامى . ولكن تبرز من ذلك الحين مشكلة عنصرية دينية مقابلة ، هى مشكلة الأقليات المسلمة التى بقيت فى القواعد الأندلسية المفتوحة تحت الحكم النصرانى ، وأولئك هم المدجّنون ، (وبالإسبانية Mudéjares) الذين يبدأ ذكرهم فى التواريخ الأندلسية ، منذ أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ؛ والذين تزداد جموعهم تباعاً كلما سقطت قاعدة أندلسية جديدة فى أيدى النصارى(٢) .

---

(١) راجع الحلل الموشية ص ٧٠ و ٧١ . كذلك R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 425 و F. Codera : Decadencia y Disparicòn de los Almoravides, p. 15 & 16

(٢) تحدثنا عن أحوال المدجنين بإفاضة فى كتابنا «نهاية الأندلس» وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام فى الأندلس (الطبعة الثالثة) ص ٥٥ — ٦٧ .

خاتمة

خواص عصر الطوائف

السياسية والاجتماعية والحضارية

— ١ —

الخـــواص السـياسية

الآن وقد انتهينا من أخبار ممالك الطوائف ، واستعراض الأحداث التى مرت بها ، منذ إنشائها حتى سقوطها ، وتقديم زعمائها وملوكها ، فى صورهم السياسية والأدبية ، ووصف قصورهم وخططهم، نرى لزاماً علينا أن نستعرض خواص هذه الحقبة من تاريخ اسبانيا المسلمة ، وهى حقبة فياضة بالأحداث والمحن المثيرة ، وأن نستعرض خواص مجتمع الطوائف ، وأحواله المادية والأدبية والاجتماعية .

لقد شغل عصر الطوائف من حياة الأمة الأندلسية نحو ثمانين عاماً ، وكان عصر تفكك وانحلال سياسى واجتماعى شامل ، بالرغم مما كان يبدو فى بعض نواحيه من جوانب براقة . والواقع أن هذه الدول الصغيرة ، التى قامت على أنقاض الأندلس الكبرى ، والتى كانت تتسم بسمة الملك ، وتزعم لنفسها الاستقلال بشئونها ، كانت تنقصها من الناحية النظامية ، عناصر الدولة المستقرة ، ولم تكن — إذا استثنينا القليل منها — سواء برقاعها الإقليمة، ومواردها المادية ، تستطيع الحياة بمفردها ، أو تستطيع الاستقلال بشئونها السياسية أو العسكرية ، وإنما كانت دول الطوائف أقرب منها إلى وحدات الإقطاع ، وإلى عصبة الأسرة القوية ذات العصبية ؛ أو الجماعة القبلية فى حالة الإمارات البربرية ، ومن ثم فإنه لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح، تكون مهمتها الأساسية ، أن تعمل لخير الشعب ورخائه ، وصون الأمن والنظام ، وإنما كانت بها أسر أو زعامات ، تعمل قبل كل شىء لمصلحتها الخاصة ، ولرفعة شأنها ، وتنمية ثرواتها ، وتدعيم سلطانها وبذخها . وكان الشعب فى ظل هذه الأسر أو الزعامات القوية ، لاحساب له ، وليس عليه إلا أن يخضع لما يفرض عليه من مختلف المغارم والفروض ، التى يستخدمها الأمير لإقامة بلاطه الفخم أولا ، ثم لحشد الجند الذين هم سياج ملكه

وسلطانه ، وأخيراً لتنفيذ مشاريعه السياسية والعسكرية ، وهى لا تخرج غالباً عن مهاجمة زميله وجاره الأضعف منه ، وانتزاع ما فى يده ، وقلما تتجه إلى القضية الكبرى ، قضية الدفاع عن الأندلس ضد عدوها الخالد ، الدائب لمقارعتها وتحطيمها ، ونعنى اسبانيا النصرانية .

ولقد كان ملوك الطوائف فى ذلك أسوأ قدوة . كانوا ملوكاً ضعافاً فى وطنيتهم ، ضعافاً فى دينهم ، غلبت عليهم الأثرة والأهواء الشخصية إلى أبعد الحدود ، ونسوا فى غمارها وطنهم ، ودينهم ، بل نسوا حتى اعتبارات الكرامة الشخصية ، واستساغوا لأنفسهم أن يترامو على أعتاب الملوك النصارى ، وأن يستعدوهم بعضهم على بعض ، لا فى سبيل قضية محترمة ، ولكن لاقتطاع بلدة أو حصن من مملكة شقيقة ، أو التنكيل بأحد الأمراء المجاورين وقد انتهى أمراء الطوائف فى ذلك إلى درك ، يستحق أن يوصف بأقسى النعوت ، ويكفى أن نستعرض فى ذلك ، موقف ملوك الطوائف إزاء نكبة طليطلة ، وتخاذلهم جميعاً عن إنجادها وقت أن حاصرها ملك قشتالة وصمم على أخذها ، وهم جميعاً — إلا واحداً منهم هو أمير بطليوس الشهم — ينظرون إلى استشهاد المدينة المسلمة ، جامدين لا يطمعون إلا فى رضاء ملك قشتالة ، وفى سلامة أنفسهم . وقد كان ملك قشتالة يعاملهم حسبما رأينا فى غير موطن ، معاملة الأتباع ، ويبتز منهم الأموال الطائلة ، باسم الجزية ، ويعامل رسلهم وسفراءهم معاملة الخدم ، ويكفى أن نتلو فى ذلك ما سطره ابن بسام فى الذخيرة ، من وصف مثول سفراء ملوك الطوائف لدى ملك قشتالة ، وقت نزوله أمام طليطلة ، وهى على وشك التسليم إليه ، وما كان يتسم به موقفهم من المذلة والخنوع ، وفقد كل كرامة قومية(١) .

ولم يكن ملوك الطوائف فى سياستهم الداخلية ، وإزاء شعوبهم ، أفضل موقفاً ، ولا أكرم تصرفاً . فقد كانوا طغاة قساة على رعيتهم ، يسومونهم الخسف ، ويثقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائنهم وتحقيق ترفهم وبذخهم ، ولم يكن يردعهم فى ذلك رادع ، لا من الدين ، ولا من الأخلاق . وقد كانت سياستهم الداخلية هذه ، مثل سياستهم الخارجية ، موضع السخط من شعوبهم ، والطعن المر من معاصريهم من الكتاب والمفكرين . وقد صدرت

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠ .

للفيلسوف ابن حزم، وهو من أعظم مفكرى عصر الطوائف، عن فتنة الطوائف، ودولها ، وأمرائها المستهترين ، ومجتمعها المنحل ، وحكوماتها الباغية ، طائفة من الأقوال والأحكام الصادقة، وردت فى رسالته المعنونة « التلخيص لوجوه التخليص »(١) . وهى عبارة عن ردود على بعض أسئلة فى شئون دينية وفقهية ، وجهت إليه من بعض أصدقائه ، ومنها سؤال يتعلق بأمر الفتنة ، وآخر عن وجه السلامة فى المطعم والملبس والمكسب ، وتتضمن هذه الأقوال من النظرات الثاقبة ، والأحكام القاطعة ، ما يدمغ مجتمع الطوائف بشدة وقسوة ، وهى مع سلامة منطقها ، وعدالتها ، مما يبعث إلى النفس أشد ضروب الأسى والألم ، فهو يصف لنا فتنة الطوائف وتصرفات ملوكها على النحو الآتى :

« وأما ما سألتم من أمر هذه الفتنة ، وملابسة الناس بها ، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض ، فهذا أمر امتحنا به ، نسأل الله السلامة ، وهى فتنة سوء ، أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى، من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله ، وساع فى الأرض بفساد . والذى ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية ، والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله ، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم ، فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزيفون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم »(١) .

وقد كان الفقهاء فى الواقع ، فى هذا العصر الذى ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية ، أكبر عضد لأمراء الطوائف فى تبرير طغيانهم وظلمهم ،

---

(١) نشر الأستاذ ميجيل آسين بلا ثيوس M. Asin Palacios بعض مقتطفات من هذه الرسالة فى مجلة الأندلس Al-Andalus (ano 1934), p. 35-37 . ثم نشرت الرسالة بعد ذلك كاملة ضمن مجموعة رسائل أخرى لابن حزم بعنوان « الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى » (القاهرة سنة ١٩٦٠) ، ص ١٣٩ — ١٨٥

وتزكية تصرفاتهم، وابتزازهم لأموال الرعية ، وقد كانوا يأكلون على كل مائدة، ويتقلبون فى خدمات كل قصر ، ليحرزوا النفوذ والمال ، ويضعون خدماتهم الدينية والفقهية لتأييد الظلم والجور ، وخديعة الناس باسم الشرع ، وقد انفسح لهم بالأخص فى ظل دول الطوائف مجال العمل والاستغلال والدس ، واحتضنهم الأمراء الطغاة ، وأغدقوا عليهم العطاء . ولم يفت مؤرخ العصر أبومروان ابن حيان، أن ينوه بهذا التآلف والتضامن بين الأمراء والفقهاء : فى تأييد الظلم والفساد ، والخروج على أحكام الدين ، وإليك مايقوله لنا فى ذلك :

« ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا فى صنفين كالملح : فيهم الأمراء والفقهاء قل ما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لاكفاية له ، ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون ، قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، وخابط فى أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذاً بالتقية فى صدقهم »(١) .

وقد قاسى الشعب الأندلسى فى ظل طغيان الطوائف ، كثيراً من ضروب الاضطهاد والظلم ، ولم يكن ذلك قاصراً على متاعب الفوضى الاجتماعية الشاملة ، التى كان يعيش فى غمارها ، وانقلاب الأوضاع فى سائر مناحى الحياة ، وتوالى الفتن والحروب الداخلية ، ولكنه كان يقاسى فى نفس الوقت من جشع أولئك الأمراء الطغاة ، الذين كانوا يجعلون من ممالكهم ضياعاً خاصة ، يستغلونها بأقسى الوسائل وأشنعها ، ويجعلون من شعوبهم عبيداً يستصفون ثرواتهم ، وثمار كدهم ، إرضاء لشهواتهم فى إنشاء القصور الباذخة ، واقتناء الجوارى والعبيد، والانهماك فى حياة الترف الناعم ، والإغداق على الصحب والمنافقين ، هذا فضلا عن حشد الجند ، لإقامة نيرهم ، وتدعيم طغيانهم . وقد ترتب على ذلك أن انهارت المعايير الأخلاقية ، واختلط الحق بالباطل، والحلال بالحرام ، ولم يعد الناس يعتدون بالوسيلة ، بل يذهبون إلى اقتضاء الغاية ، وتحقيق الكسب بأى الوسائل . وقد شرح لنا الفيلسوف ابن حزم طرفاً من هذه الفوضى الاجتماعية

(١) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط لوحة ٣٤ ب . ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٤ .

والأخلاقية ، ووصف لنا إلى أى حد كان يذهب أمراء الطوائف ، فى إرهاق شعوبهم بالمغارم الفادحة ، وإليك ما يقوله فى ذلك :

« وأما الباب الثانى : فهو باب قبول المتشابه ، وهو فى غير زماننا هذا باب جديد لايؤثم صاحبه ، ولايؤجر ، وليس على الناس أن يبحثوا عن أصول ما يحتاجون إليه فى أقواتهم ومكاسبهم ، إذ كان الأغلب هوالحلال ، وكان الحرام مغموراً . وأما فى زماننا هذا وبلادنا هذه : فإنما هو باب أغلق عينيك ، واضرب بيديك ، ولك ما تخرجه إما تمرة وإما جمرة . وإنما فرقت بين زماننا هذا والزمان الذى قبله ، لأن الغارات فى أيام الهدنة لم تكن غالبة ظاهرة كما هى اليوم ، والمغارم التى كان يقبضها السلاطين ، فإنما كانت على الأرضين خاصة ، فكانت تقرب مما فرض عُمر على الأرض . وأما اليوم فإنما هى جزية على رؤوس المسلمين ، يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شىء ما ، وقبالات ما يؤدى على كل ما يباع فى الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين فى بعض البلاد ، هذا كله ما يقبضه المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الأستار ، ونقض شرائع الإسلام ، وحل عراه عروة عروة ، وإحداث دين جديد ، والتخلى من الله عز وجل » .

ويحمل ابن حزم بعنف ، على استهتار أمراء الطوائف بأحكام الدين ، وما اتسموا به من ضعف الإيمان والعقيدة ، ويؤكد لنا أنهم لو وجدوا فى اعتناق النصرانية ، وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم ، لما ترددوا فى اعتناقها ، ونحن نقتبس هنا عباراته اللاذعة المؤسية معاً :

« والله لو علموا أن فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى ، فيمكنونهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ورجالهم ، يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحشرهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً ، فأخلوها من الإسلام ، وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه »[1] .

---

(١) راجع أقوال ابن حزم التى نشرت بعناية الأستاذ بلاثيوس فى مجلة «الأندلس» : Al-Andalus, (ano 1934) p. 37 وفى الرسالة التى سبقت الإشارة إليها ص ١٧٣ — ١٧٧ .

ونحن لانستطيع أن نتهم ابن حزم، وهو فيلسوف عصره المتزن، البعيد النظر، النافذ الملاحظة ، بالمبالغة والتحامل ، وهو قد شهد بنفسه أحداث العصر ، وفضائح ملوك الطوائف ، وأصدر عليها تلك الأحكام القاسية ، التى نراها ماثلة فى غير موضع من تعليقاته على حوادث عصره[1] . وقد توفى ابن حزم فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) ، وممالك الطوائف فى إبان قوتها وعنفوانها ، وقبل أن تنحدر إلى ما انحدرت إليه فيما بعد من الإنحلال المعنوى الشامل ، وقبل أن يتهالك أمراؤها فى الترامى على أعتاب ملك قشتالة ، وينحدرون على يديه إلى أسفل درك من الذلة والمهانة . ولو شهد الفيلسوف هذه المرحلة الأخيرة من انحلال ممالك الطوائف ، لكان بلا ريب فى تعليقاته وأحكامه أشد قسوة وعنفاً .

— ٢ —

الخواص العلمية والأدبية

على أنه لما يلفت النظر حقاً ، أن ممالك الطوائف ، كانت خلال هذا الانحلال الشامل، تبدو فى أثواب لامعة زاهية . وإذا لم يكن يسودها النظام والاستقرار دائماً، فقد كانت فى الفترات القليلة التى تجانب فيها الحرب الأهلية ، تتمتع بقسط لابأس به من الرخاء ، وتغمرها الحركة والنشاط . وكان ملوك الطوائف ، بالرغم من طغيانهم المطبق ، ومن الصفات المثيرة التى كان يتصف بها الكثير منهم ، من حماة العلوم والآداب . وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف ، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء، وأن تكون قصورهم منتديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون ، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسى ، والفكر الإسلامى بصفة عامة .

ولنبدأ الحديث فى ذلك عن قصور عصر الطوائف وأمرائه . فلقد كانت هذه القصور المنتثرة فى رقعة الوطن الأندلسى الكبرى ، وكل منها يدعى السيادة على مدن ورقاع محدودة ، تسطع ليس فقط بفخامتها وروعتها وبذخها ، ولكن كذلك بأمرائها ووزرائها وكتابها ، الأدباء والشعراء . وقد ازدهر الشعر الأندلسى

(١) تراجع تعليقات ابن حزم على بعض فضائح عصره فى « نقط العروس » ص ٨٣ و ٨٤ و ٨٩ .

بالأخص فى عصر الطوائف ، وبلغ فى ذلك مدى لم يبلغه فى أى آخر عصر. ويعلل الأستاذ نيكل ذلك بأنه يرجع بالأخص إلى ما كان يتسم به هذا العصر من حريات ، ترتب عليها الإغضاء عن كثير من القيود الدينية ، ولاسيما ماتعلق منها بتحريم الخمر ، وحجب المرأة ، وإلى ذيوع العلاقات الغرامية بين الجنسين(١) كان ملوك الطوائف حسبما تقدم ، يتسمون بضعف الإيمان والعقيدة ، والاستهتار بأحكام الدين ، وكان الكثير منهم يجاهرون بالمعاصى ، وارتكاب الأمور المحرمة ، وهو ما يسجله عليهم الفيلسوف ابن حزم فيما تقدم من أقواله . وقد كانت قصورهم المترفة الأنيقة ، كما تزدان بمجالس الشعر والأدب ، تحفل فى الوقت نفسه بمجالس الأنس والطرب ، والنساء والغلمان والخمر ، وهى أمور تشغل حيزاً كبيراً فى آداب العصر وشعره . وكانت مجتمعات الطوائف المرهقة المنحلة ، تتأثر بهذه الروح الإباحية ، وتجنح إلى اجتناء المتعة المادية والملاذ الحسية بمختلف ضروبها . وكان هذا الانحلال الشامل يجتاح يومئذ سائر طبقات المجتمع الأندلسى.

على أن النهضة الأدبية والفكرية التى امتاز بها عصر الطوائف ، ترتفع مع ذلك فوق مستوى هذا الانحلال وتبرز قوية وضاءة . ولقد كانت هذه القصور المترفة المرحة نفسها ، أكبر مبعث لهذه النهضة، وكان أولئك الملوك المستهترون أنفسهم دعاتها وحماتها ، وكانت قصور الطوائف تتنافس فى هذا الميدان وتتسابق ، شعوراً منها بما تجتنيه من وراء ذلك من فخار ومجد ، وما تسجله روائع المنظوم والمنثور من ذخر وذكر . وكان من بين هذه القصور ثلاثة امتازت بنوع خاص ، بمشاركتها فى النهضة الأدبية والشعرية ، هى بلاط بنى عباد بإشبيلية ، وبلاط بنى الأفطس ببطليوس ، وبلاط بنى صمادح بألمرية .

كان بنو عباد ، وهم كما رأينا ، أعظم ملوك الطوائف قوة وجاها وملكاً ، من أعظم رواد هذه النهضة الأدبية والفكرية التى سادت هذا العصر ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما امتازت به هذه الأسرة النابهة من نبوغ فى ميدان الشعر والأدب ، وقد برز منهم بالأخص المعتضد بن عباد ، وولده المعتمد ، وترك لنا كلاهما طائفة كبيرة من روائع نظمه . ويمتاز شعر المعتضد بنزعة إلى الفخر والمجد وشهرة

---

(١) الشعر الأندلسى : A. R. Nykl : Hispano-Arabic Poetry : (Baltimore 1946, p. 72

الجود . أما المعتمد بن عباد فقد كان بلا ريب من أعظم شعراء عصر الطوائف ، إن لم يكن أعظمهم جميعاً . ويرى الأستاذ نكل أنه « أبرز ممثل للشعراء الأندلسيين العرب فى النصف الثانى للقرن الحادى عشر » وأنه « يتزعم هذا العصر بشخصيته المتسمة بالفروسية ، ويعتبر أسطع نجم فى باقة النجوم الكبرى لملوك الطوائف الآخرين »(١) . وقد ترك لنا المعتمد بنوع خاص طائفة من أروع القصائد التى نظمها أيام مجده ، ثم بعد ذلك خلال محنته ، فى التلهف على ماضيه والبكاء على مصيره ، وقد أوردنا فيما تقدم مقتطفات من شعره ، فى مختلف المناسبات والأحداث .

وكان بنو عباد فضلا عن مواهبهم الأدبية والشعرية الرفيعة ، يجمعون فى بلاطهم ، وهو أزهى قصور الطوائف فى هذا المضمار ، جمهرة من أكابر شعراء العصر وكتابه ، سواء برسم الوزارة أو الكتابة أو الانتظام بين صحب الأمير ومستشاريه ، أو لمجرد الرعاية والحماية . وكان من هؤلاء حسبما أسلفنا شعراء عظام مثل أبى بكر بن عمار الشاعر الذكى المبدع ، وقد أتينا على أحداث حياته فيما تقدم ، وأبى الوليد بن زيدون الذى يصفه الأستاذ نكل بأنه « شاعر عظيم للحب » ، ويعتبره مثلا « لأبدع نموذج للأسلوب العربى الكلاسيكى ، وفى وسعنا أن نقارنه بالمتنبى والبحترى » .

وقد قارن العلامة دوزى ، ابن زيدون فى حياته الغرامية بالشاعر اللاتينى تيبولوس فى حبه « لدِليا » ، ولكن الأستاذ نكل لا يقر هذه المقارنة إلا من حيث الناحية الغرامية ، وعنده أن المظاهر الشعرية تختلف بين الشاعرين الأندلسى واللاتينى ، « كما تختلف الأزهار لوناً وعطراً »(٢) . والواقع أن حب ابن زيدون لولادة بنت الخليفة المستكفى(٣) ، كان أعظم حدث فى حياته ، وكان أعظم وحى لروائع شعره . وكانت ولادة ابنة جارية نصرانية ، وكانت ناصعة المحيا ، زرقاء العينين ، حمراء الشعر ، رائعة الحسن . ويصفها ابن بسام بقوله : « وكانت فى

(١) A. R. Nykl : Ibid., p. 72 & 130

(٢) A. R. Nykl : ibid · p. 109

(٣) وهو محمد بن عبد الله بن الناصر لدين الله . تولى الخلافة فى ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ باسم المستكفى بالله ، ثم خلع وفر من قرطبة فى ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) واغتاله فى الطريق بعض أصحابه .

نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب . على أنها ، سمح الله لها وتغمد زللها ، طرحت التحصيل ، وأوجدت للقول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها »[١] . وهام ابن زيدون فى شبابه بولادة أيام خدمته لبنى جهور ، وتوثقت علائقه بها مدة من الزمن ، ونظم فى حبها طائفة من أروع قصائده ، ثم ساءت العلائق بينهما ، وهجرته ولادة وهو يستعطفها بقصائد مؤثرة . وكان ينافسه فى ودها رجل من سراة قرطبة يدعى أبو عامر بن عبدوس تزوجته ولادة فيما بعد ؛ وانتهى الأمر بأن زج ابن زيدون إلى السجن إما لريبة علقت بولائه لابن جهور ، أو نتيجة لمكيدة دبرها له خصمه ومنافسه ابن عبدوس . وقد وجه ابن زيدون إلى منافسه وخصمه ابن عبدوس هذا ، رسالة ، لوم وتقريع ، تفيض بألوان مؤلمة من التهكم والتشبيهات ، والمقارنات ، وينعته فى أولها « بالمصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره » . ثم يفيض فى وصفه وتشبيهه بأسلوب ساخر مقذع ، وقد اشتهرت رسالة ابن زيدون هذه ، واعتبرت من الطرائف الأدبية وعملت لها شروح عديدة[٢] . ثم فر ابن زيدون من محنه ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية وذلك فى سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) والتحق ببلاط المعتضد بن عباد ، وخدمه وعلت مكانته لديه . ولما توفى المعتضد استمر فى خدمة ولده المعتمد ، وتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . وقد ترك لنا ابن زيدون ثروة كبيرة منوعة من نظمه الرائق ، ومنها قصائد تعتبر من أروع ما يحتويه الشعر الأندلسى[٣] ، وفيها يبلغ النسيب ذروة الإبداع الروحى والحسى ،

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٧٦

(٢) ومنها شرح مخطوط لابن نباته المصرى عنوانه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » يحفظ بالمتحف البريطانى برقم Or. 8578 وقد طبع هذا الشرح بمصر غير مرة .

(٣) راجع فى حياة ابن زيدون وشعره : الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٢٨٩ — ٣٧٦ ، وقلائد العقيان ص ٧٠ — ٨٣ .

وكان لحبه لولادة بلا ريب أعمق تأثير فى نفسه وروحه ، وهو تأثير يشيد به النقد الحديث . يقول الأستاذ نكل « وبغير هذا التأثير كان شعر ابن زيدون يبقى ناقصاً بعضاً من أثمن جواهره »(١) .

وإلى جانب هذين الشاعرين العظيمين ، ابن عمار وابن زيدون ، كان بلاط إشبيلية يضم طائفة أخرى من أكابر شعراء العصر ، منهم أبوبكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانه وأصله من دانية ، كما يدل على ذلك اسمه؛ وبرع فى الشعر منذ صباه، واتخذه وسيلة للتكسب والعيش، وتجول بين قصور الطوائف يمتدح ملوكهم . ثم اتصل ببلاط إشبيلية، وغدا شاعر المعتمد الأثير لديه ، وقد نظم فى مديحه كثيراً من قصائده . ولما ذهبت دولة المعتمد ، ونفى أسيراً إلى المغرب ، زاره أبو بكر بأغمات ، وله فى دولة المعتمد وأيامه ، وفى محنته وأسره ، قصائد كثيرة ، وله كتاب فى تاريخ بنى عباد سبقت الإشارة إليه . ولحق فى أواخر أيامه بجزيرة ميورقة ،ومدح صاحبها مبشر العامرى وحظى لديه. ومنهم عبد الجليل بن وهبون ، وهو صديق ابن عمار ومرثيه ؛ وأبو الحسن الحصرى ، وأصله من القيروان ، وقد خدم المعتضد ثم المعتمد ، وتوفى بطنجة سنة ٤٨٨ هـ . ومنهم شاعر فذ من الوافدين على الأندلس ، هو عبد الجبار ابن أبى بكر بن محمد الأزدى الصقلى المعروف بابن حمديس، وقد ولد بسرقوسة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، ولما غزا النورمان صقلية فى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨م) سار إلى تونس ثم إلى إشبيلية والتحق ببلاط المعتمد ، ونظم فى مديحه كثيراً من القصائد ، وظهر بروعة افتنانه ولاسيما فى شعره الوصفى . ولما أسر المعتمد زاره فى أغمات وأقام لديه مدة، ثم سار ابن حمديس بعد ذلك إلى المهدية وخدم ملكها وتوفى سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) .

وأما عن الكتاب الذين خدموا فى بلاط إشبيلية، وازدهروا فى ظل بنى عباد، فقد أشرنا إلى الكثير منهم ، خلال حديثنا عن أخبار مملكة إشبيلية ، وإنما أردنا أن نخص الشعراء بالذكر هنا لما كان لبنى عباد فى هذا الميدان من رياسة ومواهب عالية ، ولما كان لدولة الشعر فى ظلهم من رعاية خاصة ، وقد كان بنو عباد

(١) A. R. Nykl : ibid; p. 119

أوفر أمراء الطوائف عناية بالحركة الأدبية وإمدادها بالبذل الوفير [١] . ولم يكن يجاريهم فى ذلك أى بلاط آخر من قصور الطوائف.

وكان بنو الأفطس ، ملوك بطليوس ، كذلك من حماة الشعر والأدب ، وكان بلاطهم ولاسيما فى عهد عميدهم المظفر ، وولده عمر المتوكل ، ملاذاً لطائفة من أعظم شعراء العصر ، وفى مقدمتهم وزيرهم الشاعر والكاتب الكبير أبومحمد عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ (١١٢٦ م) ، وبنو القبطرنة الثلاثة أبوبكر وأبومحمد وأبوالحسن أبناء عبد العزيز البطليوسى ، وقد كانوا أيضاً من وزراء بنى الأفطس ، ومن شعرائهم المجيدين . وقد ذكرهم ابن بسام فى الذخيرة ووصفهم بأنهم من « أسرة أصالة ، وبيت جلالة ، أخذوا العلم أولا عن آخر ، وورثوه كابراً عن كابر ، ثلاثة كهقعة الجوزاء ، وان أربوا عن الشهر فى السنا والسناء » ووصفهم ابن الخطيب بأنهم «كانوا عيونا من عيون الأدب بالأندلس ، ممن اشتهروا بالظرف والشرف والجلالة » . وقد برع ثلاثتهم فى النظم والكتابة ، وكتبوا بعد بنى الأفطس لعاهل لمتونة ، يوسف بن تاشفين . ومن نظم أبى محمد قوله :

هلم إلى روضنا يا زهـــير ولح فى سماء المنى يا قمــر
وفوّق إلى الأنس سهم الأخـا ء فقد عطلت قوسه والوتر
إذا لم تكن عنـدنا حاضرا فـما بغصـون الأمانى ثمـر
وقعتَ من القلب وقـع المنى وحُزت من العين حسن الحوَر

ومن شعر أبى بكر قوله :

يا أخى قم تر النسيم عليـــلا باكر الروض والمـدام شمولا
فى رياض تعانق الزهر فيهـــا مثل ما عانق الخليل خليـــلا
لا تنم واغتـنم مسرة يوم إن تحت التراب نوما طويلا [٢]

وأما ابن عبدون فقد اشتهر بالأخص بمرثيته الشهيرة لبنى الأفطس عقب ذهاب دولتهم ؛ وهى قصيدته المعروفة «بالعبدونية » ، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم . ويصفها الأستاذ نكل بأنها « مزيج مدهش من الشعور العميق ، والمتانة

(١) نفح الطيب (عن رسالة الشقندى) ج ٢ ص ١٤٠ .
(٢) راجع كتاب « الإحاطة فى اخبار غرناطة » (القاهرة ١٩٥٦) ص ٥٢٧ — ٥٣٠ .

التاريخية » . وكان المظفر بن الأفطس نفسه من أكبر أدباء عصره وأغزرهم مادة، وقد اشتهر بكتابه أو مصنفه الأدبي والتاريخي الكبير المسمى « بالمظفرى » والذى قيل إنه كان يحتوى على مائة مجلد مليئة بالإخبار والفنون الأدبية(١) . وكذا كان ولده عمر المتوكل عالماً وشاعراً كبيراً .

وكان يجتمع فى بلاط ألمرية حول بنى صمادح ، جمهرة من أقطاب الشعر والأدب ، فى مقدمتهم أبوعبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، وأبو الفضل جعفر بن شرف ، وابن الحداد الوادى آشي وغيرهم ، ممن سبق أن ذكرناهم فى أخبار مملكة ألمرية . وقد كان ابن القزاز من أهل مالقة وكان أبرع الوشاحين فى عصر الطوائف. ووصفه ابن بسام « بأنه من مشاهير الأدباء والشعراء ، وأكثر ماذكرا اسمه وحفظ نظمه فى أوزان الموشحات » . وقيل فى حقه « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز» . ومن أشهر موشحاته :

بـــدر تم　شمـــس ضحـــا　غصـــن نقا　مســـك شم
ما أتم　مـــا أوضـــحا　مـــا أورقـــا　مـــا أتـــم
لا جرم　مـــن لمحـــا　قد عشـــقا　قد حرم(٢)

وأما ابن شرف ، فهو جعفر بن محمد بن سعيد بن شرف الجذامى القيروانى ، أصله من القيروان وبها ولد سنة ٤٤٤ هـ . ولما اضطرمت فتنة العرب فى إفريقية غادرها إلى الأندلس واستوطن برجة . وكان من أعظم شعراء عصر الطوائف ، وكان فوق ذلك أديبا موهوبا وله مؤلفات فى الأمثال والأخبار والآداب . وتوفى سنة ٥٣٤هـ(٣) . وأما ابن الحداد ، فهو أبوعبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسى . وكان من أكابر الشعراء ، وقد قضى معظم حياته فى بلاط ألمرية حسبما تقدم ذكره . وهو الذى وجه إليه ابن غرسية رسالته الشهيرة فى تفضيل العجم على العرب .وكان بنو صمادح ، كبنى عباد أسرة شاعرة موهوبة ، وكان المعتصم من أكبر شعراء عصره،وكذلك كان ولداه يحيي الملقب برفيع الدولة ،وأبوجعفر الملقب برشيد الدولة ، وإبنته أم الكرام ، من الشعراء الموهوبين . واشتهر منهم

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٦ و ١٤١ .

(٢) ابن خلدون فى المقدمة (بولاق) ص ٥١٩ ، والذخيرة القسم للثانى من المجلد الأول ص ٢٩٩ .

(٣) ترجمته فى الصلة رقم ٢٩٨ .

بالأخص رفيع الدولة ، وكان أشعرهم جميعاً(١) . ويجب ألا ننسى أن العلامة اللغوى والجغرافى الكبير ، أبوعبيد البكرى قد عاش حيناً فى ألمرية ، تحت كنف المعتصم ورعايته ، ووضع فى ظل هذه الرعاية موسوعته الجغرافية الشهيرة وبعض كتبه الأخرى . وهو أبو عبيد عبدالله بن أبى مصعب عبدالعزيز بن أبى زيد محمد ابن أيوب بن عمرو البكرى . وهو سليل أسرة من الأمراء حكمت ولبة ، وجزيرة شلطيش حيناً ، واستمرت رياسة أبيه بها حتى سنة ٤٤٣ هـ ، حينما أجلاه عنها المعتضد بن عباد . ودرس أبو عبيد على ابن حيان ، والحافظ ابن عبد البر ، وأبى العباس العذرى وغيرهم من أقطاب العصر . وله عدة مؤلفات قيمة فى مقدمتها موسوعته الجغرافية المسماة المسالك والممالك، وكتاب معجم ما استعجم، وهو قاموس لغوى جغرافى ، وكتاب اللآلىء فى شرح أمالى القالى ، وكتاب أعلام نبوة نبينا محمد . وكان البكرى من أقطاب الأدب فى عصره، وكان آية فى التبحر واللغة ومن أساتذة الأنساب والأخبار ، وأهل الضبط . وتوفى البكرى فى سنة ٤٨٧ هـ(٢)

وقال ابن الأبار : « وكان أبو عبيد البكرى من مفاخر الأندلس ، وهو أحد الرؤساء الأعلام ، وتواليفه قلائد فى أجياد الأيام »(٣)

بيد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الرعاية لدولة الشعر والأدب ، لم تبلغ فى القصور البربرية مبلغاً كبيراً ، فلم تزدهر النهضة الأدبية فى ظل بنى ذى النون بطليطلة ولم تجتمع فى بلاطهم سوى قلة من الأدباء والشعراء ، وإن كان قد نبغ فى ظلهم بعض العلماء البارزين فى الفلك والزراعة . وكذلك لم تشهد غرناطة فى ظل بنى مناد البربر أية نهضة أدبية ذات شأن .

أما قصور الطوائف فى شرق الأندلس ، وفى سرقسطة ، فكان لها شأن خاص فى رعاية الحركة الأدبية والفكرية بوجه عام . وكان بلاط سرقسطة ، شأنه شأن بقية قصور الطوائف يسبغ رعايته على عدد من أكابر الشعراء والكتاب ، وكان فى مقدمة هؤلاء ، أبو عمر أحمد بن محمد درّاج القسطلى ، وهو من أبرز شعراء عهد انهيار الخلافة وبداية عهد الطوائف . ولد بقسطلة الغرب سنة ٣٤٧ هـ من أصل بربرى وتوفى سنة ٤٢١ هـ، وكان فى شبابه من كتاب المنصور بن أبى عامر

---

(١) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٦ . والقاهرة ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) ترجمته فى الصلة رقم ٦٣٢ .

(٣) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٨٥ .

وشعرائه ، وذاع اسمه بين ألمع شعراء الطوائف ، ومدح عدداً من أمرائهم ، ولا سيما الفتيان العامريين أمثال مجاهد ومظفر ومبارك وخيران ، ثم التحق ببلاط سرقسطة ، ومدح المنذر بن هود ثم ابنه يحيى . وقد وصفه الثعالبي فى يتيمة الدهر ، بأنه كان بين شعراء الأندلس ، كالمتنبي بين شعراء المشرق ، وقد ترك لنا ابن درّاج ديوان شعر ضخم يضم عدداً كبيراً من أروع القصائد فى مختلف الأغراض[1] . وقد اشتهر ابن دراج كذلك ببلاغته فى الترسل ، وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة طائفة من رسائله إلى جانب ما أورده من منظومه . وقد أوردنا نحن فيما تقدم شيئاً من نظمه . وكان من بين أمراء سرقسطة فى الوقت نفسه ، بعض الأدباء والعلماء البارزين ، وهؤلاء سوف نذكرهم خلال حديثنا فيما يلى عن النهضة الفكرية العامة فى عصر الطوائف.

— ٣ —

إلى جانب هذه النهضة الأدبية والشعرية الزاهرة، يمتاز عصر الطوائف بنبوغ جماعة من العلماء الأفذاذ الذين يرتفعون إلى الذروة ، فى تفكيرهم ومستواهم العلمى الرفيع ، وفى مقدمة هؤلاء العلامة الفيلسوف أبومحمد على بن حزم ، وقد كان آية عصره فى نضوج الذهن ودقة البحث ، وعمق التفكير . ولد بقرطبة فى سنة ٣٨٣ هـ (٩٨٤ م) فى أواخر عهد المنصور ، وكان أبوه أحمد بن حزم من وزراء المنصور المقربين ، ثم وزر من بعده لابنه عبد الملك . وقضى ابن حزم حداثته أيام الفتنة بقرطبة ، ثم تجول حيناً فى ألمرية وبلنسية فى كنف الفتيان العامريين ، وكان مثلهم يؤيد قضية الخلافة الأموية ، ولما هدأت الأحوال نوعاً عاد إلى قرطبة ، وتابع دراسته فى المسجد الجامع . وبرع ابن حزم بالأخص فى الفقه والعلوم الدينية والشرعية ، وأصول المذاهب والنحل، وفى المنطق والفلسفة واللغة، والمعرفة بالسير والأخبار. وتولى الوزارة فى شبابه للخليفة المستظهر الأموى، ثم نزح إلى شاطبة ، وهنالك كتب كتابه «طوق الحمامة» ، وهو دراسة نفسية تحليلية بديعة للحب وبواعثه وأشكاله، ومنه نعرف فضلا عن ذلك ، الكثير عن حياة الفيلسوف،

---

(١) نشر هذا الديوان بدمشق سنة ١٩٦١ بتحقيق الدكتور محمود على مكى . وتراجع ترجمة ابن دراج فى ابن خلكان ج ١ ص ٥١ ، وفى بغية الملتمس . الترجمة رقم ٣٤٢ . وأورد له الدكتور مكى فى صدر الديوان ترجمة طويلة (ص ٢١ — ٨٠) .

وعن منازل أسرته وعن خطط قرطبة المعاصرة . وكتب بعد ذلك عشرات من الكتب والرسائل فى مختلف الموضوعات الفقهية والفلسفية والتاريخية منها كتاب « الإحكام لأصول الأحكام » ، وكتاب فى الإجماع ومسائله على أبواب الفقه ، وكتاب فى مراتب العلوم ، وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، ومنها كتاب « جوامع السيرة » ، وهو عرض لسيرة الرسول وغزواته وذكر أصحابه ، ومن روى عنه ، وذكر نبذ من فتوح الإسلام بعد الرسول ، و « جمهرة أنساب العرب » وهو وثيقة جامعة لأصول القبائل العربية وأنسابها ، ومن نزل منها بالأندلس ، « ونقط العروس » وهو يتضمن سلسلة من النوادر والحوادث ، والمقارنات والنظائر التاريخية الفريدة . وإذا كان ابن حزم يصف لنا التاريخ بأنه « علم الأخبار » ، ويعتبر علم النسب جزءا من علم الخبر ، فإنه يحق لنا بعد الذى تقدم من ذكر كتبه ، أن نعتبره مؤرخا بكل معانى الكلمة . على أن ابن حزم لم يكن مع ذلك مؤرخا عاديا ، بل كان بالعكس مؤرخا من طراز خاص ، بل ومن طراز نادر ، من طراز أولئك المؤرخين الذين تعتبر كلماتهم ، عن حوادث عصرهم وشخصياته ، أحكاماً لاتقبل الجدل . وقد عاش ابن حزم فى عصر فياض بالاضطرابات والأحداث المثيرة ، هو عصر انحلال الخلافة الأندلسية ، وقيام دول الطوائف ، وشهد الكثير من أحوال هذا العصر وتقلباته ، ومن تصرفات أمراء الطوائف ، ومثالبهم ، وبغيهم ، واستهتارهم ، وهزت هذه الأحداث مشاعره إلى الأعماق ، ومن ثم كانت أقواله وأحكامه الصادقة التى أصدرها فى حق الطوائف ، والتى نقلناها فيما تقدم . بيد أن ابن حزم يشتهر بنوع خاص سواء فى الشرق أو فى الغرب ، بكتابه الجامع « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » . ويشيد البحث الحديث بابن حزم ، وروعة علمه وتفكيره ، ويخصص له العلامة الإسبانى آسين بلاثيوس كتاباً يتناول فيه حياته وكتابه « الفصل » ويعتبره « مفكراً وعالماً لاهوتياً ، ومؤرخا ناقداً للأديان والمدارس الفلسفية الدينية »(١) . ويعتبره الأستاذ نكل « أديباً وشاعراً وفقيهاً ، ومؤرخاً سياسياً وعالماً أخلاقياً »(٢).

---

(١) A. Asin Palacios : Abenhàzm de Córdoba y su Historia de las Ideas religiosas.

(٢) A. R. Nykl : ibid., p. 73

وكان ابن حزم بالأخص داعية من أشد دعاة المذهب الظاهرى ، وقد غلبت هذه النزعة على سائر بحوثه الفقهية والكلامية ، واعتبر حجة هذا المذهب وإمامه فى عصره . وكان يتشدد كل التشدد فى تطبيقه على العقائد ، والأحكام ، وهو لايأخذ فى تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين فى صوغ الأحكام . وقد اشتهر باعتناقه لهذا المذهب حتى أن أنصاره سموا فيما بعد « بالحزمية » نسبة إليه . وقضى ابن حزم حياة فكرية عميقة خصبة . وأثار فى الوقت نفسه ، بآرائه ونظرياته الأصولية والدينية من حوله خصومات كثيرة ، واتهمه البعض بالمروق والزندقة ، وأحرقت كتبه فى إشبيلية بأمر المعتضد ابن عباد[1]. ونزح فى أواخر حياته إلى دار أسرته بقرية منت ليشم من أعمال لبلة ، وهنالك توفى فى شعبان سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م)[2] .

وكان من أقران ابن حزم الذين طرقوا مثل ميدانه فى التفكير الدينى والشرعى ، العلامة أبو الوليد الباجى ، وهو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب التجيبى الباجى الحافظ . ولد بمدينة بطليوس غربى الأندلس سنة ٤٠٣هـ ودرس فى قرطبة ، ثم سافر إلى المشرق ودرس حيناً بمكة ثم فى بغداد . ولما عاد إلى الأندلس عاش حيناً فى بلاط ميورقة ، وحيناً آخر فى كنف المقتدر بن هود ، واشتهر بردوده على ابن حزم ، وكان قرينه فى غزارة العلم وسعة المعرفة . وقد وصف بأنه من أئمة المسلمين . وتوفى فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) . ومن شعره :

إذا كنت أعلم علما يقينا　　بأن جميع حياتى كساعة
فلم لا أكون ضنينا بها　　وأجعلها فى صلاح وطاعة [3]

ونبغ إلى جانب ابن حزم عالم ومفكر جبار آخر ، هو العلامة اللغوى الأعمى أبو الحسن على بن سيده ، المتوفى فى سنة ٤٥٨ (١٠٦٦م) . وكان آية فى الحفظ

---

(١) ترجمته فى جذوة المقتبس ص ٢٩٠ – ٢٩٣ ، وفى وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٨ – ٤٣١ .

(٢) فى شهر مايو (من ١٢ – ١٨ منه سنة ١٩٦٣) نظم بمدينة قرطبة مهرجان رسمى فخم للاحتفال بذكرى مرور تسعمائة عام على وفاة العلامة ابن حزم « القرطبى » وأقامت له بلدية قرطبة تمثالا بالحجم الطبيعى أمام باب إشبيلية على مقربة من الجامع . وأقيمت كذلك لوحة تذكارية لابن حزم بالإسبانية ، أمام مدخل كنيسة سان لورنتسو التى أقيمت مكان الجامع الذى كان يتوسط بلاط مغيث وهو الحى الذى عاش فيه ابن حزم . ونظمت بهذه المناسبة عدة ندوات دراسية ، وطائفة من الحفلات الفخمة . وقد كان مؤلف هذا الكتاب من شهود هذا المهرجان التاريخى العظيم .

(٣) ترجمته فى الصلة رقم ٤٥٣ .

وقوة الذاكرة، وقد عاش بدانية فى كنف أميرها العالم مجاهد العامرى ، وانقطع إليه ، ولما توفى مجاهد ، توجس من ولده على إقبال الدولة ، فغادر دانية إلى بعض الأنحاء المجاورة . واشتهر ابن سيده بكتابه « المحكم » وهو قاموس لغوى ضخم ، وكتاب « السماء » .

وكان من كتاب الموسوعات أيضاً العلامة اللغوى الجغرافى أبو عبيد البكرى الذى سبق ذكره . وقد اشتهر بمعجمه اللغوى الجغرافى المسمى « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » ، وهو مؤلف انتفع به الملك ألفونسو العالم فى تاريخه العام Crónica General

ويخص العلامة الأستاذ مننديث پيدال كتابى « الفصل » لابن حزم و « المحكم » لابن سيده بالذكر ، وينوه بنفاستهما ، ويقول : « إن النضوج العقلى اللازم لإخراج كتاب فى تاريخ الأديان ، أو قاموس للفكر المتشابهة ، على مثل النمط الذى كتبت به هذه المصنفات الإسبانية الإسلامية ، لم تصل إليه أوربا حتى القرن التاسع عشر »(١)

ومن أولئك العلماء الممتازين أيضاً العلامة ابن عبد البر ، وهو أبو عمر يوسف ابن عبد الله النمرى القرطبى ، ولد سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) ، وقضى شطراً من حياته فى دانية وبلنسية وشاطبة ، ثم لحق أخيراً ببلاط بنى الأفطس ببطليوس وعينه المظفر بن الأفطس قاضياً لأشبونة ، ثم شنترين ، وتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . وكان من أوفر كتاب عصره علماً ومعرفة ، وأشهر مؤلفاته كتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس » ويمتاز شعره بالرصانة والأنفة . وقد خدم ولده أبو محمد عبد الله بن عبد البر فى بلاط بنى عباد ، حسبما تقدم ذكره فى موضعه(٢)

ويمكننا أن نذكر ضمن هذا الثبت من العلماء الأعلام ، أميرين من أمراء الطوائف ، هما مجاهد العامرى صاحب دانية ، وأبو عبد الرحمن محمد بن أحمد ابن طاهر صاحب مرسية . وكان مجاهد من أكابر علماء عصره فى اللغة وعلوم القرآن ، وكان بلاطه مجمعاً لطائفة من أشهر علماء العصر ، وفى مقدمتهم ابن عبد البر ، وابن سيده وذلك حسبما تقدم ذكره . وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر

---

(١) R. M. Pidal : ibid., p. 81

(٢) نفح الطيب (عن رساله ابن حزم فى ذكر علماء الأندلس) ج ٢ ص ١٣١ .

كذلك من أعظم علماء الأندلس وكتابها أيام الطوائف ، ويشيد معاصره ابن بسام حسبما تقدم بذكره وذكر أدبه فى الذخيرة، وينوه بجمال رسائله وروعتها . وقد وقفنا على نص صك من إنشائه بتقديم صاحب أحكام على بعض جهات مرسية أيام رياسته لها يقول فيه : « قلدت فلانا وفقه الله النظر فى أحكام فلانة ، وتخيرته لها بعد ما خبرته ، واستخلفته واثقا بدينه ، راجيا لتحصنه ، لأنه احتاط فعلم ، وإن أضاع فأثم ، فليقم الحق على أركانه ، وليضع العدل ، وليسر بين خصومه ، وليأخذ من الظالم لمظلومه ، فعف فى الحكم عند اشتباهه ، وبعده عند اتجاهه ، ولا تقبل غير المرضى فى شهادته ، ولاتعرف سوى الاشتغال من علاته ، ولتعلم أن الله مطلع على خفياته ، وسلام يوم علاماته »(١)

هذا وقد كان عصر الطوائف ، فضلا عن هذه النهضة الأدبية والفكرية الشاملة ، يمتاز كذلك بازدهار الدراسات العلمية الممتازة . وقد نبغت فيه طائفة من أكابر الرياضيين والفلكيين ، الذين كانت بحوثهم فيما بعدمستقى خصباً لاقتباس الغرب . وكان من هؤلاء أبو اسحق ابن اهيم بن يحيي الزرقالى القرطبي صاحب الجداول الفلكية الشهيرة أصله من طليطلة ، ويعرف فى الغرب باسم Azarquiel وقد ذاعت جداوله الفلكية ، ذيوعا عظيما ، وكانت فى كثير من المواطن أصح من غيرها من الجداول القديمة ، وتوفى الزرقالى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) . وأبو القاسم أصبغ بن السمح الغرناطى المتوفى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٣٨ م) ، وكان بارعاً فى الهندسة والفلك ، وله كتب قيمة فى الهندسة وزيج فلكى . وأبو الوليد هشام الوقشى ، وكان أبرع علماء عصره فى الهندسة والفلسفة والنحو واللغة ؛ وتلميذه أبو القاسم سعيد بن أحمد الطليطلى صاحب كتاب « طبقات الأمم » وهو تاريخ للعلوم . وقد كانت الجداول الفلكية التى وضعها أولئك العلماء المسلمون فيما بعد ، أقيم مرجع لألفونسو ملك قشتالة فى اقتباس جداوله . وقد اشتهر ألفونسو العالم بالأخص باعتماده على مصادر العلوم الأندلسية ، ولاسيما فى عصر الطوائف، واقتباسه تقاليد العلماء الأندلسيين فى هذا العصر ، الذى سبقه بنحو قرنين . وكانت سرقسطة ، وطليطلة ، وقرطبة ، من أعظم مراكز

(١) أورده ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » — الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس .

الدراسات الفلسفية والرياضية فى القرن الحادى عشر الميلادى . وكان المقتدر بن هود وولده المؤتمن ، من العلماء المبرزين فى الفلسفة والرياضيات والفلك . وكتب المؤتمن رسالته « الإستكمال » فى الرياضية . وأثارت بحوث هذين الأميرين العالمين إعجاب الدوائر العلمية فى العصور الوسطى(١) .

كانت هذه الجمهرة الحاشدة من الأدباء والشعراء والعلماء ، التى حفل بها عصر الطوائف تملأ قصور الطوائف ، وتعيش فى كنف أمرائها ، سواء بطريق الخدمة فى الوزارة أو الكتابة أو القضاء أو غيرها ، أو فى ظل الصحبة والرعاية المجردة لأولئك الأمراء . وكان أولئك العلماء والأدباء ، ينتقل معظمهم من دولة إلى أخرى ، ومن قصر إلى قصر ، وفقاً للأحوال والظروف ، إذ كانت هذه القصور جميعاً تتنافس فى اجتذاب أعلام الكتاب والأدباء إليها ، وفى رعايتهم والإغداق عليهم ، وكان بعضهم ينقطع إلى أمير بذاته ، ويعيش فى كنفه وتحت رعايته ، وكان بعضهم يستحوذ على سياسة الدولة ، ويسيرها وفق رأيه ، أو يخوض غمار الدسائس والفتن فيذهب ضحية تدخله . وقد كان ابن عباس وزير زهير العامرى ، وأبو عبد الله البزليانى وزير المعتضد بن عباد ، وابن عمار وزير ولده المعتمد ، أسطع أمثلة لأولئك الوزراء المغامرين ، وقد دفع كل منهم حياته ثمناً لمغامراته .

وكان من آثار ازدهار الحركة الفكرية فى عصر الطوائف ، ذيوع المكتبات العامة والخاصة ذيوعاً يلفت النظر . ذلك أن كل مدينة أندلسية غدت عاصمة لمملكة كبيرة أو صغيرة . وكان أمراء الطوائف يتنافسون فى اقتناء الكتب النفيسة والنادرة ، وقد كانت تنهال على شبه الجزيرة من سائر أنحاء العالم الإسلامى . وقد لبثت قرطبة بالرغم مما أصابها من آثار الفتن والحروب الأهلية ، مركز العلوم والدراسات الممتازة ، وبقيت بالرغم مما أصاب المكتبة الأموية الكبرى من التبديد المؤلم ، مثوى لكثير من المجموعات النفيسة الخاصة . وكانت إشبيلية ، حاضرة بنى عباد ، هى الثانية بعد قرطبة ، فى تقدم العلوم والثقافة ، وكانت تحتوى ، فضلا عن مكتبة بنى عباد الملوكية العظيمة ، على عدد كبير من المكتبات الخاصة . وكانت ألمرية أيضاً من الحواضر التى اشتهرت بمكتباتها القيمة . وكان

(١) يراجع فى تفاصيل النهضة الفكرية فى عصر الطوائف رسالة ابن حزم عن الحركة العلمية بالأندلس ، وقد نشرت فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٦ وما بعدها ، ورسالة الشقندى وقد نشرت أيضاً فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ وما بعدها . ويراجع أيضاً . R. M. Pidal : ibid., p. 79-84

الوزير أحمد بن عباس وزير زهير العامرى ، فضلا عن علمه الغزير ، من أعظم هواة الكتب. ، ويقال إن مكتبته العظيمة كانت تضم أربعمائة ألف مجلد . واشتهرت بطليوس فى ظل بنى الأفطس بتقدمها العلمي والثقافى . وكذا كانت طليطلة فى ظل بنى ذى النون مركزاً عظيما للبحوث العلمية . واشتهر بنو ذى النون كذلك بجمع الكتب ، وكانت لديهم مكتبة عظيمة . وكانت توجد غير المكتبات الملكية ، مكتبات كثيرة أخرى خاصة وعامة ، فى سائر القواعد الأندلسية . وكان لهذه الثروات المكتبية، تأثيرها بلا ريب ، فى تقدم الحركة الفكرية والثقافية ، فى عهد الطوائف(١) .

وقد امتدت هذة النهضة الفكرية والأدبية التى ازدهرت فى عصر الطوائف إلى عهد المرابطين . وقد كان أولئك المرابطون يتسمون بالخشونة والبداوة ، ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة، ويمقتون مظاهر الحضارة الأندلسية الرفيعة، فركدت فى ظلهم دولة التفكير والأدب ، وانفرط عقد الحلقات الأدبية الزاهرة ، التى كانت تحفل بها قصور الطوائف ، ومع ذلك فقد بزغت فى عهدهم بعض أضواء مستمدة من تراث عصر الطوائف، وظهرت فيه عدة من الشخصيات اللامعة، مثل أبى القاسم خلف بن عباس القرطبي الطبيب الأشهر المتوفى سنة٥٦٦هـ (١١٢٢ م)، وابن باجّة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٣٣ هـ (١١٢٩ م) . وأبو بكر الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م)، والفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، وابن بسام الشنترينى المتوفى سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧ م) . بيد أن ظهور هؤلاء العلماء والأدباء الأعلام فى هذه الفترة لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية فى عصر الطوائف.

* * *

وقد حظى عصر الطوائف ، بعدة من أكابر العلماء والأدباء والمؤرخين الذين عنوا بتاريخه وتدوين حوادثه وخواصه ، وتاريخ أعلامه . وفى مقدمة هؤلاء الفيلسوف ابن حزم . وبالرغم من أن ابن حزم لم يكن مؤرخا بالمعنى الصحيح لعصر

---

(١) راجع فى ذلك فصلا للأستاذ خوليان ريبرا عنوانه : Bibliofilos y Bibliotecas فى كتابه Disertaciônes y Opûsculos en la Espana Musulmana . وراجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ، ج ١ ص ٢٦٧ .

الطوائف ، إلا أنه يقدم لنا فى رسالته المسماة « نقط العروس » ، وفى بعض رسائله الأخرى ، طائفة من الوقائع والملاحظات الصادقة عن عصر الطوائف وشخصياته ، أشرنا إليها واقتبسنا منها فيما تقدم . ثم المؤرخ الكبير أبو مروان حيان بن خلف ابن حيان ، وقد ولد بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) وتوفى بها سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وكان أبوه خلف بن حيان من وزراء المنصور بن أبى عامر . وبرع ابن حيان فى الأدب والرواية حتى غدا من إعلامها وخاصة محققيها ، وكانت نشأته الأرستقراطية ، وعلائق أسرته بالأوساط العليا ، تتيح له حسن الاطلاع والوقوف على شئون الدولة ، ودراسة مختلف التيارات السياسية . وشهد ابن حيان فى شبابه سقوط الدولة العامرية ، وما تلاه من ترنح الخلافة الأموية ثم سقوطها ، وقيام دول الطوائف فى بداية القرن الخامس الهجرى ، وتولى هو الوزارة لبنى جهور ، وشهد سقوط دولتهم ، وخصص لها كتابا من كتبه . ولاريب أن هذه الأحداث المثيرة ، التى مزقت وحدة الوطن الأندلسى ، قد أذكت مخيلة ابن حيان ، وصقلت قلمه ، وأمدته بكثير من التعليقات الصائبة ، والملاحظات النقدية القوية ، التى نراها ماثلة فى معظم ماكتبه عن حوادث عصره . وأعظم آثار ابن حيان كتابه « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » وهو تاريخ ضخم للأندلس حتى عصره أى عصر الطوائف . وقد انتهت الينامنه عدة قطع مخطوطة[1] . وقد ضمنه ابن حيان ، عن عصر الطوائف وأحداثه التى شهد الكثير منها بنفسه ، أقيم الروايات وأنفسها ، وأحفلها بالتعليقات النقدية . وكتب ابن حيان غير المقتبس ، كتابه « المتين » وهو أيضاً تاريخ للأندلس تبالغ الرواية فى ضخامته ، ولكن لم يصل إلينا شىء منه ، وكتاب المآثر العامرية ، وهو أيضاً كتاب ضخم يقص فيه ابن حيان سيرة المنصور ابن أبى عامر وغزواته ، ولكنه لم يصل كذلك الينا . وأسلوبه التاريخى يتسم بروح علمى ونقدى بارز . ويشيد ابن بسام بمجهوده التاريخى ، وينقل عنه شذوراً ضافية ، ولكنه يحمل عليه لمواقفه المتناقضة أحياناً

(١) يوجد منه جزء كبير مخطوط عن عهد عبد الرحمن الناصر بالخزانة الملكية بالرباط ، وقطعتان مخطوطتان أخريان بخزانة القرويين الكبرى بفاس ، وقطعة صغيرة مخطوطة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد . وهذا عدا الجزء الذى نشره المستشرق الإسبانى الأب ملشيور انتونيا (باريس سنة ١٩٣٧) . (راجع فى ذلك كتابى دولة الاسلام فى الأندلس — الطبعة الرابعة ص ٧ — ٩) .

بين المديح والذم ، والتقدير والانتقاص ، وذلك حسبما أشرنا إليه فى موضعه فى أخبار دولة بنى جهور[١] . وجاء بعد ابن حيان تلميذه أبو عبد الله الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ؛ وقد عنى فى معجم تراجمه[٢] ، بترجمة كثير من العلماء والأدباء ، والفقهاء والمحدثين ، فى عصر الطوائف . وكتب المؤرخ والأديب الكبير أبو الحسن على بن بسام الشنترينى معجمه التاريخى والأدبى الضخم بقرطبة ، عقب انتهاء عهد الطوائف بقليل ، فى سنتى ٥٠٢ و ٥٠٣ هـ . وقد عاصر ابن بسام ، قبل أن يغادر موطنه مدينة شنترين البرتغالية نحو سنة ٤٨٠ هـ ، قبيل استيلاء النصارى عليها بأعوام قلائل[٣] ، أواخر عهد الطوائف ، وأوائل عهد المرابطين ، وعاش وقتاً فى إشبيلية ، ثم غادرها إلى قرطبة ، حيث كتب مؤلفه . ويعتبر كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » وهو مؤلف ضخم يحتوى على أربعة مجلدات أو أقسام كبيرة ، من أقيم وأنفس مصادرنا عن الطوائف سواء من النواحى التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية . وبالرغم من أن الصفة الأدبية تغلب عليه ، بما يورده من تراجم أكابر الأدباء والكتاب والشعراء ، ومن منثورهم ومنظومهم ، فإنه مع ذلك يتضمن طائفة كبيرة من الفصول والشذور التاريخية ، المنقولة عن ابن حيان وغيره من المؤرخين المعاصرين ، أو المكتوبة بقلم ابن بسام ذاته . ويصارحنا ابن بسام فى مقدمته بالدافع النفسى الذى دفعه إلى تصنيف « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره إلى أدب المشرق والتزود منه والإعجاب به ، وإهمال أدب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة ، وجميع ما تضمنه ، من رائق المنثور والمنظوم ، أن يبصر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأن الإحسان ليس مقصورا على أهل المشرق. ومن الواضح أيضاً أن ابن بسام أراد أن يعارض بكتابه فى محاسن أهل الجزيرة أى جزيرة الأندلس ، أديب المشرق الكبير أبى منصور الثعالبى صاحب

---

(١) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٤ و ٨٥ و ١١٣ .

(٢) وهو المسمى «جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس» . وقد صدرت منه طبعة جديدة بالقاهرة فى سنة ١٣٧٢ هـ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٨ . وقد سقطت شنترين فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .

« يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » ، فالذخيرة واليتيمة بذلك صنوان يدعو كل منهما إلى تذوق محاسن قطره .

ونجد إلى جانب ابن بسام كاتباً أديباً ومؤرخاً آخر ، هو الفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤م) صاحب كتابى « القلائد » و« المطمح ». وقد أورد لنا فى « القلائد »(١) تاريخ طائفة كبيرة من أمراء الطوائف ووزرائهم من الكتاب والشعراء والقضاة ، يقدمهم إلينا فى أسلوب مسجع ، يغلب عليه التكلف ، ويتضمن مع ذلك نبذاً وحقائق تاريخية هامة ، وكذا فى المطمح أو« مطمح الأنفس ومسرح التأنس » فقد تحدث عن طائفة من الأعيان الذين تناولهم فى القلائد ، وتحدث عن غيرهم بنفس الأسلوب المسجع . ونجد أخيراً شاعراً وكاتباً كبيراً ، هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، وزير بنى الأفطس والراثى لدولتهم ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وهو الذى سبق ذكره ، يقدم لنا فى رسالته عن« القضاء والحسبة » صوراً هامة عن شئون القضاء والحسبة ، وما يتعلق بها من أحوال الناس والمجتمع فى عهد الطوائف ، تبدو فيها روح النقد والتشاؤم ، وهو ينوه فى رسالته بما كان يجرى فى إشبيلية ، حيث كان يقيم ، من ضروب الفساد ، ويدعو إلى الكف عن أمور كانت تجرى فى عهده ، منها ألا يدخل النساء المسلمات الكنائس المشفوعة تحوطاً من فسق القساوسة ، وألا تقرع النواقيس فى بلاد المسلمين ، إذ هى لاتضرب إلا ببلاد النصارى ، وألا يبيع النصارى واليهود كتب العلوم الإسلامية لأنهم يترجمونها وينسبونها إلى أعيانهم ، وألا يتولى الأطباء اليهود والنصارى علاج المسلمين . إلى غير ذلك مما سبق أن أشرنا إليه . ومما جاء فى ختام رسالته قوله : « وبالجملة فإن الناس قد فسدت أديانهم وإنما ... الدنيا الفانية والزمان على آخره . وخلاف هذه الأشياء ، هو ابتداء الهرج ، وداعية الفساد ، وانقضاء العالم . ولا يصلح ذلك إلا نبى بإذن الله . فإن لم يكن زمن نبى ، فالقاضى مسئول عن ذلك كله ، ومن كان فى عون المسلمين ، كان الله فى عونه ، فعليه أن يصرح بالحق ، ويجرى إلى الإصلاح والعدل

---

(١) هو كتاب « قلائد العقيان » وقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ .

والتخلص ، وينظر لنفسه ، فعسى يتخلص ، والله بعزته يسدده ، ويوفقه للخير ... »[1] .

— ٣ —

الخواص الفنيـــة

وكما ازدهرت العلوم والآداب فى عصر الطوائف، فكذلك ازدهرت الفنون والصناعات ، وكانت قصور الطوائف مثوى للفنون الجميلة ، ومظهراً حياً لكل ما تمخض عنه ذلك العصر من زخرف وترف وإناقة ، وكانت بالأخص منتديات زاهرة للموسيقى ، وما يتبعها من الغناء . وكان معظم أمراء الطوائف من عشاق الموسيقى يتنافسون فى اقتناء القينات الحسان البارعات فى العزف والغناء، ويبذلون فى ذلك الأموال الطائلة ، حتى لقد بذل أحدهم ، وهو هذيل بن رزين صاحب شنتمرية الشرق ثلاثة آلاف دينار ثمناً لإحدى هؤلاء القينات ، وكان فى قصورهم منهن أسراب وأسراب ، ولاسيما فى قصور بنى عباد بإشبيلية ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وكان المعتمد بن عباد يعشق الموسيقى ، ويصحب الموسيقيين معه أثناء حملاته الحربية .

وكذلك ازدهرت الزراعة بالأندلس فى عصر الطوائف . ونحن نعرف ما امتاز به أهل الأندلس من البراعة فى الفنون الزراعية ، وكيف حولوا وديان الأندلس إلى مهاد ورياض نضرة ، وكيف اتخذت فنون الزراعة على أيديهم طابعاً علمياً واضحاً . وقد كان أهل الأندلس فى الواقع من أنبغ الشعوب فى فلاحة الأرض وتربية الماشية ، وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الرى والصرف، ومعرفة أحوال الجو، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم، مضرب الأمثال فى الجودة والتنسيق والنماء . ويرجع ازدهار الزراعة فى عصر الطوائف إلى شغف ملوك الطوائف بإنشاء الحدائق والبساتين اليانعة، وتربية الغراس والزهور النادرة . وقد ظهر فى عصر الطوائف ، عدة من علماء النبات

---

(١) نشرت رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة ضمن مجموعة تتضمن ثلاث رسائل فى الحسبة ، نشرت بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، وصدرت ضمن مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة .

والزراعة ، ولاسيما فى طليطلة وإشبيلية ، حيث كانت حدائق بنى ذى النون فى الأولى ، وحدائق بنى عباد فى الثانية ، تشغل مساحات واسعة ، وتتطلب عناية الخبراء الممتازين . وكان من علماء النبات والفلاحة البارعين فى طليطلة ابن وافد الطبيب المشهور ، وكان يشرف على حدائق بنى ذى النون . وأبو عبد الله بن بصّال العالم الزراعى، الذى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . وقد اشتهر ابن بصال بتجاربه العلمية الناجحة فى توليد الغراس ، ومكافحة الآفات الزراعية ، وكتابه « الفلاحة » الذى انتهى إلينا ، وهو المشتق من دراساته وتجاربه العملية ، يشهد ببراعته وتفوقه فى هذا الميدان . ولما سقطت طليطلة فى أيدى النصارى ، غادر ابن بصال طليطلة إلى إشبيلية ، وعهد إليه هنالك بالإشراف على بساتين بنى عباد . وكان من هؤلاء العلماء أيضاً أبوعمر أحمد بن محمد بن حجاج ، وقد عاش فى إشبيلية ، وألف كتاباً فى الزراعة اسمه « المقنع » لم يصل إلينا . وأبو عبد الله محمد ابن مالك الطغنرى ، وهو غرناطى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر ، وتتلمذ على ابن بصال ، ووضع كتاباً فى الفلاحة سماه « زهر البستان ونزهة الأذهان » . وكان منهم بقرطبة ابن لونكو الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وكان أيضاً من تلاميذ تلك المدرسة الزراعية الزاهرة . وقد توفى فى سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤)[١] .

وأما عن الصناعات ، فقد كانت كذلك فى عصر الطوائف رائجة زاهرة ، وكانت تشمل كثيراً من الصناعات الهامة مثل صناعات الحديد والنحاس والزجاج والنسيج . وكانت صناعة النسيج بالأخص ، من أهم وأشهر الصناعات أيام الطوائف ، وكان بمدينة ألمرية وحدها ، خمسة آلاف منسج ، تنتج أفخم وأجمل أنواع الأقمشة . وكانت السفن من مختلف ثغور المشرق ، ومن الثغور الإيطالية ، تقصد إلى ألمرية وغيرها من الثغور الأندلسية محملة بالسلع من كل ضرب ، ثم تعود محملة بالسلع الأندلسية . وكانت دول الطوائف ذات الثغور ، مثل إشبيلية وألمرية ، وبلنسية ودانية وسرقسطة ، تجنى من التجارة الخارجية أرباحاً طائلة .

(١) راجع مقدمة كتاب الفلاحة لابن بصال المنشور بعناية المستشرق الإسبانى Millas Vallicrosa الأستاذ محمد عزيمان (تطوان ١٩٥٥) .

والخلاصة أن دول الطوائف تقدم إلينا ذلك المزيج المدهش من الضعف والقوة ، ضعف البناء السياسي والعسكرى ، وقوة التراث المادى والحضارى ، ومن الانحلال الاجتماعى الشامل ، والتقدم الفكرى اللامع . وقد كان أبرز ما فى ذلك المزيج المتناقض ، ضعف الروح الدينية والوطنية ، بصورة لم تعرفها الأمة الأندلسية فى تاريخها من قبل قط ، بل ولم تعرفها فيما بعد ، حتى فى أسوأ عصور الفتنة ، والتفكك السياسى والعسكرى ، التى كان يقابلها من الناحية الأخرى فترات قوة وتفوق من جانب الممالك الإسبانية النصرانية . ولكن الأندلس لم تبد قط فى أية فترة من هذه الفترات تجاه اسبانيا النصرانية ، مثل ما أبدته أيام الطوائف من التخاذل والاستسلام ، ومن ضعف العقيدة الدينية والوطنية ، ومن إهدار لمقتضيات الكرامة القومية ، فعصر الطوائف وحده هو الذى يقدم إلينا تلك الخواص المؤلمة ، التى تتناقض فى مجموعها وفى تفاصيلها ، مع طبيعة الأمة الأندلسية ، ومع ما اتصفت به طوال تاريخها ، من الشجاعة والشهامة والإباء ، والتفانى فى الذود عن الدين والوطن .

وفى وسعنا أن نلمح فى تاريخ الإمارات والجمهوريات الإيطالية فى عصر الإحياء ، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كثيراً من آثار تلك الخواص التى غلبت على عصر الطوائف بالأندلس . فهنالك الأمراء الطغاة ، والحروب الأهلية الطاحنة ، تمزق وحدتها وتفرق كلمتها . وهنالك استعداء العدو الخارجى كل منها على الأخرى ، ثم التخاذل فى الدفاع عن الوطن . وهنالك الانحلال الدينى والأخلاقى والاجتماعى الشامل . ونجد إلى جانب ذلك كله نهضة علمية وأدبية وفنية زاهرة ، من أروع ما عرفته إيطاليا فى تاريخها ، يرعاها الأمراء الطغاة ، ويمدونها بالبذل الوفير . وهنالك أخيراً تجارة وصناعات رائجة ، ورخاء شامل ، وحياة كلها متعة واستهتار . ولاريب أن هذا التماثل فى الخواص بين العصرين ، يرجع إلى حد كبير ، إلى التماثل بين ما كان يحوزه كل منهما من الظروف السياسية والاجتماعية .

الوثائق والملحقات

رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية . يصف فيها بلاد الغرب ، وجوازه للأندلس للجهاد بها ، وهزيمته للأذفونش أمير النصارى فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٤٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال (Fol. 49R. –53V.) وهو مخطوط ناقص من أوله ولا عنوان له) .

« الحمد لله الذى من علينا بالإسلام ، وفضلنا بمحمد عليه السلام ، أحمده حمداً يوجب المزيد من آلايه ، والسبوغ من سر الله ونعمائه . كان من قضايه جل شأوه ، وتقدمت أسماؤه ، لما أراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم فى بلاد المغرب ، سبّب لنا إليهم المطلب ، فقفونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين ، فقومنا الدّين ، ومهدنا بها المسلمين ، فصفت لنا ضمائرهم ، وخلصت إلى الله تعالى نياتهم ، وسرايرهم ، حتى وصلنا طنجة الركاب ، وأذقنا برغواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبها ، وهو خير الفاتحين ، وأسرع الحاسبين ، لا إله غيره وهو أرحم الراحمين . ولما بلغنا من استحواذ النصارى ، دمرهم الله ، على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والزام الجزية لرؤسائهم ، واستيصال أقالمها ، وإيطايهم البلاد داراً داراً ، لا يتخوفون عسكراً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان . فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز ، المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز باباً ، ولا لدخول البحر أسبابا ، فانضم لنا منهم الريس الأجل المعتمد على الله ، المولا بنصر الله ، أحسن الله فى كل الأمور عونه ، وأقر بكل صالحة عينه ، فعزمنا على الغزو ، وجوزنا للعدو أسوداً ضارية ، وسباعاً عادية ، شيباً وشبانا ، بسواعد قوية ، وقلوب فى سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجربوها ، فهى المهم وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزءرون إليها زءر الأسود ، فشحنا بهم القوارب ،

وأوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا فى مرسى الجزيرة الخضراء من دياره ، وفقه الله ، ففزع الناس من كل أفق إليهم ، ووفدوا من كل قطر إليهم ، متعجبين من هيأتهم ، محتقرين لزيهم ونغماتهم ، لا يروعهم منهم حاشى الخيل والدرق ، وهم مع ذلك لا ينالون إلا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقدروا أنهم طعم للسيوف ، وغرض للحتوف ، وسعد للأرماح ، ونهب للسلاح ، فكل استصغرهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم ، وتنتهى إلينا أفعالهم ، ثم اتبعناهم جيشاً بعد جيش ، بخيول كالفحول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمرد ، على أجرد ، يتسابقون إلى اللقاء فى الفضاء ، تسابق الحين والقضاء . ومع هذا كله إن أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا ، وإزاحة غمتهم بسببنا ، وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان آخر من جاز منا ومعنا ، قطعة من صنهاجة بنى عمى ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت فيه الأمواج ، فاستصرخنا البارى تعالى جده ، وعظم اسمه ، إن كان فى جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامى ، حتى سهل الله المركب ، وقرب المطلب . فخرجنا من الحين فى مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة ، والتأم شعبتنا مع من جاز من عسكرنا ، فعملنا على السير ، وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأدفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، نعطوه المراكب ، ونسلموا إليه الشوانى والقوارب ، ليرد علينا ويقاتلنا فى مأمننا ، فلم نلتفت إليه ، ولا عرجنا عليه . ووصلنا أيدينا بالريس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق ، وبنينا معه على اللحاق بهم ، والورود عليهم ، ونحن فى ذلك كله لما نقل إلينا ، وورد علينا من رؤساء الأندلس ، مستبطئين سريرة المخبتين ، لا بسين قسوة الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا إشبيلية حضرته ، عمرت ببقايه ، وقد تجمع له من جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ، فصرنا إلى مدينة بطليوس ، وأقمنا بها أياماً منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار الأندلس ، فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى ، قد تغلبوهم على حصونهم ، وأذلوهم فى بلادهم ، وأضعفوهم ، وشجعوهم على مرادهم ، فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المراد ، واستنقاذ

العباد . فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه ، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله ، فسمع بنا ، وقصدنا قصدنا ، وورد ورودنا ، واحتل بفنائها منتظراً لنا ، فبعثنا إليه نحضه على الإسلام ، ودخوله فى ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعالى ، وبين لنا فى كتابه ؛ من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون ، فأبا وتمرد ، وكفر ونخر ، وعمل على الإقبال علينا ، وحث فى الورود علينا ، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ ، فلما كان بعد ذلك ، برزنا عليه أياماً ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقوا ، ونحن نخرج الطلايع إليه ، ونتابع الوثوب عليه ، وبنينا على لقايه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة . فلما كان يوم الجمعة ثانية ، ورد علينا بكتايب قد ملأت الآفاق ؛ وتقلبت تقلب الحتوف للأحداق ؛ قد استلموا الدروع للكفاح ، وربطوا فى سوقهم الألواح ، وبطونهم ملأ من الخمور ، يقدرون أن الدائرة علينا تدور ، ونحن فى أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل منا ساه وجميعنا لاه ، فقصد أشدهم شوكة ، وأصلبهم عوداً ، وأنجدهم عديداً ، محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم ، لايقدرون عسكراً إلا عسكره ، ولا رجال إلا رجاله ، ولا عديداً إلا عديده ، وداود من أصحابنا منا إلى إزايه ، فهبطوا إليه لفيفاً واحداً ، كهبوط السيل ، بسوابق الخيل ، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات ، الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع ، استكت آذانهم ، واضطربت أضلاعهم ، ودهشت أيديهم ، وزلزلت أقدامهم ، وطارت قلوبهم ، وصاروا كركب الحمير ، فرّوا يطلبون معقلا يعصمهم ، ولا عاصم إلا الله ، ولا هارباً منه إلا إليه ، فلحقوا من بطليوس بالكرامات ، لما عاينوا من الأمور المعضلات ، وأسلموه أيده الله ، وحده فى طرف الأخبية ، مع عدد كثير من الرجالة والرماة ، قد استسلموا للقضاء ، فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرايس ، يعظمون الكنايس ، فحبسهم حيناً وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم الأرض ، ولم يبق من الكل إلا البعض ، ولجأ فى الأخبية ، بعد أن عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته فى المسلمين وبلغه أمنيته ، بعد أن وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يرد عليه ، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه ، لايروعه أحد منهم فيهزم ، ولا يهابهم فيسأم ،

ثم قصدت كتيبته سوداً كالجبل العظيم أو الليل البهيم ، عسكر داود وأخبيته ، فجالوا فيها جولاناً ، وقتلوا من الخلق ألواناً ، واستشهد الكل بحمد الله وصاروا إلى رضوان الله ، ونحن فى ذلك كله غافلون ؛ حتى ورد علينا وارد ، وقصد إلينا قاصد ، فخرجنا من وراء الشعب ، كقطع اللهب ، بجميع من معنا ، على الخيل المسومة العراب ، يتسابقن الطعن والضراب . فلما رأونا ، ووقعت أعينهم علينا ، ظنوا أن الدائرة فينا ولدينا ، وأنا طعم أسيافهم ولقاء رماحهم ، فكبرنا وكبر الكل معنا ، مبتهلين لله وحده لا شريك له ، ونهضنا للمنون الذى لا بد منه ولا محيص لأحد عنه ، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا ، فلنموتوا شهداء ، فحملوا علينا كالسهام ، فثبت الله أقدامنا ، وقوى أفئدتنا ، والملائكة معنا ، والله تعالى ولى النصر لنا ، فولوا هاربين ، وفروا ذاهبين ، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تثخنه ؛ وأضعف الرعب أيديهم ، فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالإبر ، وضاقت بهم الأرض بما رحبت ، حتى أن هاربهم لا يرى غير شىء إلا ظنه رجلا ، وفتكت فيهم السيوف ، على رغم الأنوف ، فو الله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها ، وعلى البيضات فتبريها ، وزرقوا الرجالة منا على خيلهم الرماح ، فشكوهم بها فرمحت بهم ، فما كنت ترى منهم فارساً إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار ، الكل يجر عنانه ، كأنه معقل بعقاله ، ونحن راكبون على الجواد الميمون ، العربى المصون ، السابق اللاحق ، المعد للحقائق ، وما منا إلا من له جرناز فيه سيفان ، وبيدنا الثالث ، عسى أن يحدث من حادث ، فصاروا فى الأرض مجدلين ، موتى معفرين ، وقد تراجع الناس بعد الفرار ، وأمنوا من العثار ، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم ، يقطعون رؤوسهم ، وينقلون بإزاء المحلات ، حتى علت كالجبال الراسيات ، عدد لا يقدر ، ومدد لا يحزر ، والتجريد فيهم ، والأيدى متعاودة لبطونهم ، واستأصلنا أكابرهم ، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون . وانقطع من عسكرهم نحو ألفى رجل أو أقل ، والأذفونش فيهم على ما أخبرنا ، قد أثخنوا جراحاً بإزاء محلاتهم ، يرتادون الظلام للهروب فى المقام ، والله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم ، ويعثرون فى أخبيتهم ، وينتهبون أزودتهم وهم ينظرون شزراً نظر التيوس إلى شفار الجازرين ، إلى أن جن الليل وأرخى

مدوله، ولواهاربين ، وأسلموا رحايلهم صاغرين ، فكم من دِلاص على البقاع ساقطة،وخيول على البقاع رابضة ، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد . وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك . وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأوبار عدد ليلهم ، ولا يكلون فى الانتقال ، ولا يسئمون من تشريط الأموال ، ولحقوا قورية ومنها حيث ألقت رحلها أم قشعم ، فصححنا ضمائرنا، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا ، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين ، لم يستشهد منا إلا الفرقة التى قدر الله عليها بذلك ، وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى ، وتراميهم للشهادة ، قدس الله أرواحهم ، وكرم مثواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعاداً بيننا وبينهم ،وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن شهدت نجدته فى المغرب ، وانقلبت خير منقلب . ولحقنا إشبيلية حضرته عمرت ببقايه ، وأقمنا عنده أياماً ، ورفعنا عنه مودعين لا تودع قاطع ، ولا يمنعنا منه متى أحب مانع ؛ولحقنا الجزيرة الخضراء ، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها ، وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهم متنفس ، وأرجح إلى أحدهم نفس ، يذكرون ما لقوا ، ويتذاكرون ما بقوا ، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم أن كيدى متين ، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حى ، ولا يحس منهم أنسى . والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخول وأعطى ، وهذا كله منّاً منه علينا لا منّاً عليه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين إلى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين ، وسلم تسليما ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته » .

بعض « فصول » الكتاب الذى بعث به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدوة عقب موقعة الزلاّقة .

(منقولة عن كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس – طبعة أو بسالة ص ٩٦ – ٩٨) .

« أما بعد حمد الله ، المتكفل بنصر أهل دينه الذى ارتضاه ، والصلاة على سيدنا محمد أفضل رسله ، وأكرم خلقه وأسره ، فإن العدو الطاغية ، لعنه الله ، لما قربنا من حماه ، وتوافقنا بإزائه، بلغناه الدعوة ، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب ، فاختار الحرب ، فوقع الاتفاق بيننا وبينه ، على الملاقات فى يوم الاثنين الخامس عشر لرجب ، وقال الجمعة عيد المسلمين ، والسبت عيد اليهود ، وفى عسكرنا منهم خلق كثير ، والأحد عيدنا نحن ، فافترقنا على ذلك وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه ، وعلمنا أنهم أهل خدع ، ونقض عهود ، فأخذنا أهبة الحرب لهم ، وجعلنا عليهم العيون ، ليرفعوا إلينا أحوالهم ، فأتتنا الأنباء فى سحر يوم الجمعة الثانى عشر من رجب المذكور أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين ، يرا أنه قد اغتنم فرصته فى ذلك الحين ، فنبذت إليه أبطال المسلمين ، وفرسان المجاهدين، فتغشته قبل أن يتغشاها ، وتعدته قبل أن يتعداها ، وانقضت جيوش المسلمين فى جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته ، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ، وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة فى سائر المشهدة المنتشرة ، ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفنش ، فلما أبصر النصارى رايتنا المشتهدة المنتشرة ، ونظروا إلى مواكبنا المنتظمة المظفرة ، وأغشتهم بروق الصفاح ، وأضلتهم سحائب الرماح ، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح ، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفنش،وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة ، وهمم عالية ، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب ، وطاحت المهج ، وأقبل سيل الدماء فى هرج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج ، وولى ألفنش مطعوناً فى إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه فى خمس مائة فارس من ثمانين

ألف فارس ومائتى ألف راجل ، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل ، وتخلص لعنه الله إلى جبل هنالك، ونظروا النهب والنيران فى محلته من كل جانب ، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً ، ويحيد عنها صبراً ، ولا يستطيع عنها دفعاً ، ولا لها نصراً ، فأخذ يدعو بالثبور والويل ، ويرجو النجاة فى ظلام الليل ، وأمير المسلمين محمد الله قد ثبت فى وسط مواكبه المظفرة ، تحت ظلال بنوده المنتشرة ، منصور الجهاد ، مرفوع الأعداد ، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ، فقد سرح الغارات فى محلاتهم تهدم بناءها ، وتصطلم ذخائرها وأسبابها ، وتريه رأى العين دمارها ونهبها ، والفنش ينظر إليها نظر المغشى عليه ، ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه ، فتتابعت البهرجة الفرار رؤساء الأندلس المنهزمين نحو بطليوس والغار ، فتراجعوا حذاراً من العار ، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد ، أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى إلى أمير المؤمنين ، وهو مهيض الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهنأه بالفتح الجليل ، والصنع الجميل ، وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربع مائة فلم يدخل طليطلة إلا فى مائة فارس ، والحمد لله على ذلك كثيراً . وكانت هذه النعمة العظيمة ، والمنة الحسيمة ، يوم الجمعة الثانى عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربع مائة ، موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمى » .

رسالة لابن (إسحق) عن المقتدر بالله إلى ابن عباد يعرفه بأمر أخيه صاحب لاردة.

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال Fot. 118V-119R)

« سيدى ، وأعلى عددى ، وأقوى عمدى ، وأزكى ذخرى لأبدى ، ونعمة الله المستطيلة بيدى ، المناهضة بعضدى ، ومن أطال الله بقاه فى عز رفيع المراتب ، وحرز منيع الجوانب ، إذ أحكام الفتن ، وحوادث الزمن ، لاتزال تحل على كل ما لايقع بإيثار ، ولا يجرى على حكم واختيار ، فرب كريهة لا يلقى المرء عن اقتحامها معدلا ، ومساءة لا يزال عن التزامها مرحلا ، وقديماً جدّ الجفاء العقوق ، وأبطل التجنى الحقوق ، وقد يحرج الحليم ، ويتغيس الحميم ، وتقطع الرحم ، وتنبذ الذمم ، لا سيما عن مجاذبة ما يمنع الحسد ، باتراً أواصر الإخاء والإجمال ، وتحاسد القرابة داء قديم ، وخلق فى الناس معلوم ، وإنى أيدك الله ، بليت من المظفر أخى بظالم لا يؤمل منه إنصاف ، ومتحمل لاتستنزله ألطاف ، وحاسد لايرجى استرضاؤه ، وموجب لنفسه حقاً لا يوجب مضاؤه ، إذا سألته نصفة أبدا منه أنفه ، وإن سمته عدلا مال إلى الجور ميلا ، وإن خفضت له جناح الذل ، أوطأنى جهر الجفا ، وإن أقبلت عليه بناظر الود ، أول من صفحة الإبداء ، وإن استدنيته شحط ، وإن استرضيته سخط ، وإن حكمته تشطط ، وإن أغضيت له تسلط ، وأنا فى أثناء ذلك كله أحاوله على أخلاقه ، وألبسه على أخلاقه ، وأستمع منه بغير مستمع ، وأرفع منه بغير مرفع ، وعقارب مضرته تدب ، وعواصف معرته تهب ، وأذاه قاصد إلى فى خاصتى ، ومفسد على بطانتى ، لايألو فى مساعى سعياه اجتهاداً ، ولا آلو إلى مسرته تأنياً وانقياداً ، آخذاً بالحجة عليه ، وتقدماً بالجميل إليه ، وطمعت أن تكون نظرة تريه مواقع ظلمه ، وتعرفه جور حكمه ، ولا يزداد إلا اغتراراً ، ولايبدى إلا استكباراً إلى أن سولت له نفسه أموراً كان فيها اضطلاع الإسلام ، وحاول أحوالا تمامها هادية ... ورام معاجلتى بالتى ليس فيها استبقاء ، ولا بعدها بقاء ، وسألنى مع هذا الاجتماع بى ليسوسنى ... الإذعان إلى مطالبه ، والموافقة فى مذاهبه ، فأجبته

رجاء أن تكون المشافهة تستلبه، والملاطفة تلينه وتغريه فأبى إلا ..... وانبساطاً. فلما رأيته عن سوء معتقده غير ...... وعن فساد رأيه غير راجع، وغرنى جماحه، وأعوزنى استصلاحه، ونقلنى عن سجيتى بكره، وكدر صفوى من كل وجه، راجحت فى أمره بين أن أرضى الله عز وجل فى قطيعته بالنظر لعباده، والحماية لبلاده، فما أطمع .... وطأ نواحيها، وأمنع ممن رامه، وأدفع عنه من أراد اهتضامه، وأن أبتهل .... برحم عن نفسى، فرفع الله عن ذلك منزلتها، وبسط عليه مقدرتها، فرأيت النظر فى قطع مضرته أولى، والسعى فى حسم علته ومعرته أحمى، فأنفذت ذلك بعد استخارة الله تعالى فيه، وألزمته البقاء بقصبة منتشون، وللنفس يعلم الله مما حملنى عليه ارتماض وشفاق، ولما يؤثره الرحم من ذلك إزعاج وإقلاق، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلا، ولا جعلنى إلى سواه مخيلا، وكان فيما يأتيه أعق، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده أحق، وقد يستسهل المرء المكاره ما لم يجد عنها مذهباً، ويركب حد السيف إذا لم يجد سواه مركباً، والله يشهد لقد طوى جوانحى مما ساقنى إليه على لواعج مزعجة، وخرق منضجة، وكتابى هذا من لاردة، وقد استقرت بحمد الله على الدعة أسباب قريرها، واتصل بجميل عونه تدبيرها، وتقتضى أبقاك الله وكيد ما بيننا مقاسمتك الحال، وتعرفك المبدى منها والمآل، فإنك الشريك فى الحلو والمر، والقيم فى النفع والضر، وفى خلال هذا أعزك الله ما وردنى ابن فلان خاصتك سلمه الله بكتابك الكريم، المشتمل على أجفل البر، والمقتضى لأجزل الشكر، ووقف به من حقائق الأحوال لديك على كل ما بسط أملى، وأكد جذلى، وعظمت نعم الله ...... وقد صدر أبقاه الله متحملا من صحة ودى، وثبات عهدى، وارتباط عتمدى، .... الأحوال عندى مايطلعك من ذلك كله على الجملة الكافية والحلية الشافية ».

رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية أبا عبد الله بن الحداد يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب وكتب بها من لاره

(منقولة عن مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى لوحة ٢٦ — ٢٩)

سلام عليك ذا الروى المروى الموقوف قريضه على حللة بجانة ، أرش اليمن ، بزهيد الثمن ، كأن ما فى الأرض إنسان الامن غسّان ، أو من آل ذى حسان . وإن كان القوم أقنوك ، وعن العالم أغنوك ، على حسب المذكور ، فما هذا الإعمال للكور ، وترك الوكور . وقل ما تأخذ الشعرة F .26B فى الرحيل إلا عن الربع المحيل ، ولو أن القوم خلطوك بالآل ، لما أحوجك إلى الخبط فى الآل . مه مه ، من أحوجك إلى ركوب المهمة وثقف ، وودك لانقف ، على من اضطرك إلى الايغال ، وباعك بيع المسامح بك لا المغال ، وعوضك من الأندية ، بجوب الأودية ، ومن المآلف بقطع المتالف ، وحملك على مخالفة الحصان ، ومحالفة الحصان ، ووكلك بمسح الأرض ، ذات الطول والعرض ، فإذا يممت تبالة ، تدباله ، وصرت ضغثا على إبالة ، تتعلل باليمين ، ضنا بالعلق الثمين . أأحسبك أزريت ، وبهذا الجيل البجيل ازدريت ، وما دريت ، أنهم الصهب الشهب ، ليسوا بعرب ، ذوى أينق جرب ، أساورة أكاسرة ، مجد نجد بهم ، لا رعاة شويهات ولا بهم ، شغلوا بالماذى والمرّان عن رعى البعران ، وبجلب العز ، عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع المروع ، حماة السروح ، نماة الصروح ، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة الخرصان ، لكنهم خطبة بالخرصان .

ما ضرهم أن شهدوا مجادا أو كافحوا يوم الوغى الأنداد
أن لايكون لونهم سوادا

أرومة رومية ، وجرثومة أصفرية .

نمتهم ذوو الأحساب والمجد والعلى　　من الصهب لاراعو غضاً وأفان

من القوم الملس الأدم ، لم تُعرق فيهم الأقباط ، ولا الأنباط ، حسب حرىّ ، ونسب سرىّ ، أمكم لأمنا كانت أمة ، إن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة ، ولا تهايل ، فى التكايل ، فماسسنا قط قرودا ، ولا حكنا برودا ، ولا لكنا عرودا ، فلا تهاجر ، بنى هاجَر ، أنتم أرقاؤنا وعبدتنا ، وعتقاؤنا وحفدتنا ؛ منّناً عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربق الرق ، وألحقناكم بالأحرار ؛ فغمطتم F.27A النعمة ، فصفعناكم صفعا ، يشارك سفعا ، اضطركم إلى سكنى الحجاز ، والجأكم إلى ذات المجاز ، رُزُن ، رُصُن .

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم　　بعد الممات جَمال الكُتْب والسير

إذا قامت الحرب على ساق ، وأخذت فى اتساق ؛ وقرعت الظنابيب ؛ وأشرعت الأنابيب ، وقلصت الشفاه ، وفغر الهدان فاه ؛ وولى قفاه ألفيتهم ذمرة الناس ، عند احمرار الباس ، الطعن بالأسل ، أحلى عندهم من العسل .

مستسلمين إلى الحتوف كأنما　　بين الحتوف وبينهم أرحام

من أمنياتهم ، حلول منياتهم ، لهم على القدمة اليدان ، على التنائى والتدان .

مين الألى غير زجر الخيل ما عرفوا　　إذ تعرف العُرب زجر الشّاء والعكر

بُصُرٌ صُبُر ، تزدان بهم المحافل والجحافل ، قيول على خيول ، كأنها فيول ، كواكب المواكب ، نجوم الرجوم ، من العجم ، ضراغمة الأجم ، بتوغاب ، منتفون من كل عاب ، لم تلدهم صواحب الرايات ، بل تبججت عليهم سارة الجمال ، ربة الآيات ، شُمخ ، بُذخ ، بررة أقيال ، جررة أذيال . بخ بخ ، أحلتهم سيوفهم سِطة الأرضين ، فما قنعوا بذلك ولا رضين ، حتى دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من المجد الذروة والغارب .

بضرب يزيل الهام عن سكناته　　وطعن كتشهاق العفا همّ بالنهق

شرهوا برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ، وبركوب السروج ؛ عن

الكلب والفرّوج ، وبالنفير عن النقير ، وبالجنائب عن الحبائب ، وبالحب عن الحب ، وبالسليل عن الشليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الخمر والزمر ، وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان ، طياتهم خطياتهم ، وغلاتهم آلاتهم وحصونهم ، حصنهم أقيال ، آباؤهم من F. 27B بين الأنام أقتال :

أولئك قومى إن بنوا شيّدوا البنى   وإن حاربوا جدّوا وان عقدوا سدّوا

وُضُحٌ رُجح ، لا حفزة عكر ، ولا قفزة أكر ، ملوك جلة ، لا محرقوا جلة ، ندس ، غنوا بالإستبرق والسندس ، عن البيت المقيظ المشتى ، المجموع من النعيجات الست . بسل لا حراس مسل ، ولا غراس فسل ، مُلّك لقاح ، ليس منهم فى ورد ولا صدر شرّاب درّ اللقاح ، بل شرابهم النبيذ ، وطعامهم الحنيذ ، لا زهيد الهبيد فى البيد ، ولا مكون الوكون ، ولا منهم من احتشا ، بمذموم الكُشا ، ولا فى سائر الاحفاش ، من وليد وناش ، من اغتذى بالأحناش ، فلا يقعقع لهم بالشّنان ، ولا يوعوع لهم بالشنآن ، فكف أيها الشان ، فلهم عظيم الشان ، واليد الطولى إذ تخلصوكم من أكف الحبشان ، صنيع منبع ، ومنة لا يشوبها منة ، فيالها منحة ، لكنها أعقبت محنة ، إذ صادفت كفرة ، لاشكرة ؛ إيهاً إذ تأبطتم تيهاً ، معشر البداة العداة . اعتقدتم غِلاً ، فاستثرتم صلا . أما علمتم ان الدولة النوشروانية ، والمملكة الأزدشيرية ، بقروا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الجيرة بعد عظيم الخبرة ، قالا ذللا ، تتخيرون البنات عند البيات مهورات لا ممهورات ، فبرم من ذلك غسّانكم ونُعمانكم ، وكان برمه سببا لدرء أمانكم ، فأصبح بعد جر الذيول ، مدوساً بأخفاف الفيول ؛ والكرام بنو الأصفر ، الأطهر الأظهر ، عطفتهم عليكم الرحم الإبراهيمية ، والعمومة الإسماعيلية ، فسمحوا لكم من الشام بأقصى مكان ، بعد ما كان ، من سيل العرم ما كان ، يؤدى نعمانكم وغسانكم لقروم الأعاجم ، الإتاوة على الجماجم .

هذى المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعـد أبوالا

F. 28A مهلا بنى الأماء ، عن الغمز والإيماء ، فنحن عُرق غُرق ، فى الأنساب الصميمة ، والأحساب العميمة ، فمن يهولنا أو يروعنا ،

وقد رسخت فى المجد أصولنا وفروعنا ، ومن يطولنا ، وكل الورى قد شمله فضلنا وطولنا :

شرفٌ ينطح النجوم بروقيـــــه   وعــزٌّ يقلقل الأجيالا

حلُم ، علُم ، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية ، كحملة الاسترلوميقى ، والموسيقى ، والعلَمة ، بالارتماطيقى ، والجومطريقى ، والقومة بالألوطيقى والبوطيقى ، ما شئت من تدقيق ، وتحقيق ، حبسوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية ، لاعلى وصف الناقة الفدنيّة ، فعلهم ليس بالسفساف ، كفعل نائله وإساف ، أصغر بشأنكم ، إذ بزق خمر ، باع الكعبة أبو غبشانكم ، وإذ أبو رغالكم قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستيصالكم .

أزيدك أم كفاك وذاك أنى   رأيتك فى انتحالك كنتَ أحمق

فلا فخر معشر العربان الغربان ، بالفديم ، المفرّى للأديم ، لاكن الفخر يابن عمنا ، الذى بالبركة عمّنا ، الإبراهيمى النسب ، الإسماعيلى الحسب ، الذى انتشلنا الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية ، أما نحن فمن أهل التثليث وعبادة الصلبان ، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان ، ولا غرو أن كان منكم حبره وسبره ، فى الرغام يلفى تبره ، والمسك بعض دم الغزال .

لله مما قد برا صفوة   وصفوة الخلق بنو هاشم
وصفوه الصفوة من بينهم   محمد النــور أبو القاسم

بهذا النبى الأمى أفاخر من تفخّر ، وأكابر من تقدم وتأخر ، الشريف السلفين ، والكريم الطرفين ، الملتى بالرسالة ، والمنتى للأداء F. 28B والدلالة ، أصلى عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك أصلى على واصلى جناحه ، سيوفه ورماحه ، أصحابه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام .

يابن الأعارب ما علينا باس   لم أحك إلا ما حكاه الناس

هذا :

ولم أشتم لكم عرضا ولاكن   حدَوت بحيث يُستمع الحداء

ثم أجمع بشاعر غسّان ، لاساسان فى هذا العيد بالوعيد ، وأحر فى فى هذا الفصل بعدم الوصل . لقد غمّ آخرك ، لكن بالرغم أخرّك إذ أضربت عن مديح، علقنا الربيح ، معز الدولة، شهمنا الرئيس ومهمنا النفيس قبَيل الأمم ، وسيل الأمم ، معنى المعانى ، ومغنى المغانى ، ذى الرياسة الساسانية ، والنفاسة النفسانية ، فاذهب ياغثّ المذهب ، وابتغ فى الأرض نفقا ، أو فى السماء مرتقى ، فهده أليّة ، جلبت عليك بليّة ، أو حكّك من البسيط المديد ، ما تستجيريه من بطشنا الشديد ، إذ نحن معشر الموالى ، لا نوالى ، إلا من هو لعظيمتنا موالى ، وحذار حذار ان تقرع سن الندم ، ولات حين مندم ، قبل أن تجمع ذنوبك على ذنوبك ، وكُربك فى كَرَبك ، فمن أبصر أقصر ، وما حرّف ، من صديقه خرّف .

فلا تتبشع ممضّ العتـــا ب يلقاك يوما بلقياه لاق
فإن الدواء حميد انفعال وإن كان مُرًّا كريه المذاق

يامعتقل علم الشعر ، والمستقل بقلم النظم والنثر :

قد استحييت منك فلا تكلنى إلى شىء سوى عذر جميل
وقد أنفذت ما حقّ عليه قبيح الهجو أو شتم الرسول
وذاك على انفرادك قوت يوم إذا أنفقت إنفاق البخيل
وكيف وأنت علوىّ السجايا وليس إلى اقتصادك من سبيل
وقد يُقوى الفصيح فلا تقابل ضعيف البر إلا بالقبول
وإن الوزن وهو أصح وزن يقام صَغَاه بالحرف العليل
فإن يك ما بعثت به قليلا فلى حال أقل من القليل

نجزته من كلام المعرى

والسلام عليك ما سبح الفَلَك وسبّح المَلَك ، ورحمة الله وبركاته .

دول الطـــوائف

جدول تاريخي مفصل

دولة بنى جهور فى قرطبة

أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ٤٢٢ – ٤٣٥ هـ : ١٠٣١ – ١٠٤٤ م

ابو الوليد محمد جهور ٤٣٥ – ٤٥٧ هـ : ١٠٤٤ – ١٠٦٤ م

عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٥٧ – ٤٦٣ هـ : ١٠٦٤ – ١٠٧٠ م

المعتمد بن عباد يستولى على قرطبة سنة ٤٦٣ هـ

دولة بنى عباد فى إشبيلية

القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ٤١٤ – ٤٣٣ هـ : ١٠٢٣ – ١٠٤٢ م

عباد بن محمد المعتضد ٤٣٣ – ٤٦١ هـ ١٠٤٢ – ١٠٦٩ م

محمد بن عباد المعتمد ٤٦١ – ٤٨٤ هـ ١٠٦٩ – ١٠٩١ م

إشبيلية تسقط فى أيدى المرابطين

دولة بنى الأفطس فى بطليوس

عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور ٤١٣ – ٤٣٧ هـ : ١٠٢٢ – ١٠٤٥ م

محمد بن عبد الله المظفر ٤٣٧ – ٤٦١ هـ : ١٠٤٥ – ١٠٦٨ م

يحيي بن محمد المنصور ٤٦١ – ٤٦٤ هـ : ١٠٦٨ – ١٠٧٢ م

عمر بن محمد المتوكل ٤٦٤ – ٤٨٨ هـ : ١٠٧٢ – ١٠٩٤ م

بطليوس تسقط فى أيدى المرابطين

دولة بنى يحيي فى لبلة

أبو العباس أحمد بن يحيي ٤١٤ – ٤٣٤ هـ : ١٠٢٣ – ١٠٤٢ م

محمد بن يحيي عز الدولة ٤٣٤ – ٤٤٣ هـ : ١٠٤٢ – ١٠٥١ م

فتح بن خلف ناصر الدولة ٤٤٣ – ٤٤٥ هـ : ١٠٥١ – ١٠٥٣ م

لبلة تسقط فى يد المعتضد بن عباد

دولة بنى مُزين فى باجة وشلب

الحاجب عيسى محمد ٠٠٠ – ٤٣٢ هـ : ٠٠٠ – ١٠٤١ م

محمد بن عيسى عميد الدولة ٤٣٢ – ٤٤٠ هـ : ١٠٤١ – ١٠٤٨ م

عيسى بن مُزين المظفر ٤٤٠ — ٤٤٥ هـ : ١٠٤٨ — ١٠٥٣ م
محمد بن عيسى الناصر ٤٤٥ — ٤٥٠ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٥٨ م
عيسى بن محمد المظفر ٤٥٠ — ٤٥٥ هـ : ١٠٥٨ — ١٠٦٣ م

شلب تسقط فى يد المعتضد بن عباد

دولة بنى البكرى فى ولبه وجزيرة شلطيش

عبد العزيز البكرى عز الدولة ٤٠٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠١٢ — ١٠٥١ م

ولبة وشلطيش تسقطان فى يد المعتضد

دولة بنى هارون فى شنتمرية الغرب

سعيد بن هارون ٤١٧ — ٤٣٣ هـ : ١٠٢٦ — ١٠٤١ م
محمد بن سعيد المعتصم ٤٣٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥١ م

شنتمرية الغرب تسقط فى يد المعتضد

دولة بنى ذى النون فى طليطلة

إسماعيل بن ذى النون الظافر ٤٢٧ — ٤٣٥ هـ : ١٠٣٦ — ١٠٤٣ م
يحيى بن إسماعيل المأمون ٤٣٥ — ٤٦٧ هـ : ١٠٤٣ — ١٠٧٥ م
يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر ٤٦٧ — ٤٧٨ هـ : ١٠٧٥ — ١٠٨٥ م

طليطلة تسقط فى يد ألفونسو السادس

دولة بنى مناد فى غرناطة

زاوى بن زيرى ٤٠٣ — ٤١٠ هـ : ١٠١٣ — ١٠١٩ م
حبوس بن ماكسن ٤١١ — ٤٢٨ هـ : ١٠٢٠ — ١٠٣٧ م
باديس بن حبوس المظفر ٤٢٨ — ٤٦٥ هـ : ١٠٣٧ — ١٠٧٣ م
عبد الله بن بلقين ٤٦٥ — ٤٨٣ هـ : ١٠٧٣ — ١٠٩٠ م

المرابطون يستولون على غرناطة

دولة بنى برزال فى قرمونة

محمد بن عبد الله بن برزال ٤٠٤ — ٤٣٤ هـ : ١٠١٣ — ١٠٤٢ م
عزيز بن محمد المستظهر ٤٣٤ — ٤٥٩ هـ : ١٠٤٢ — ١٠٦٧ م

قرمونة تسقط فى يد ابن عباد

دولة بنى دمّر فى مورور

نوح بن أبى تزيرى الدمرى ٤٠٣ — ٤٣٣ هـ : ١٠١٣ — ١٠٤١ م

محمد بن نوح عز الدولة ٤٣٣ — ٤٤٥ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥٣ م
مناد بن محمد عماد الدولة ٤٤٥ — ٤٥٨ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٦٦ م

مورور تسقط فى يد ابن عباد

دولة بنى خزرون فى أركش

محمد بن خزرون عماد الدولة ٤٠٢ — ٤٢٠ هـ : ١٠١١ — ١٠٢٩ م
عبدون بن محمد بن خزرون ٤٢٠ — ٤٤٥ هـ : ١٠٢٩ — ١٠٥٣ م
محمد بن محمد بن خزرون القائم ٤٤٥ — ٤٦١ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٦٨ م

أركش تسقط فى يد ابن عباد

دولة بنى يفرن فى رندة

هلال بن أبى قرة اليفرنى ٤٠٦ — ٤٤٥ هـ : ١٠١٥ — ١٠٥٣ م
باديس بن هلال ٤٤٥ — ٤٤٩ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٥٧ م
أبو نصر فتوح بن هلال ٤٤٩ — ٤٥٧ هـ : ١٠٥٧ — ١٠٦٥ م

رندة تسقط فى يد ابن عباد

مملكة ألمرية

١ — خيران العامرى ٤٠٥ — ٤١٩ هـ : ١٠١٤ — ١٠٢٨ م
زهير العامرى ٤١٩ — ٤٢٩ هـ : ١٠٢٨ — ١٠٣٨ م
عبد العزيز المنصور ٤٢٩ — ٤٣٣ هـ : ١٠٣٨ — ١٠٤١ م
٢ — معن بن صمادح ٤٣٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥١ م
محمد بن معن المعتصم ٤٤٣ — ٤٨٤ هـ : ١٠٥١ — ١٠٩١ م
أحمد بن محمد معز الدولة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على ألمرية

مملكة مرسية

١ — خيران العامرى ٤٠٣ — ٤١٩ هـ : ١٠١٢ — ١٠٢٨ م
زهير العامرى ٤١٩ — ٤٢٩ هـ : ١٠٢٨ — ١٠٣٨ م
أبو بكر بن طاهر ٤٢٩ — ٤٥٥ هـ : ١٠٣٨ — ١٠٦٣ م
أبو عبد الرحمن بن طاهر ٤٥٥ — ٤٧١ هـ : ١٠٦٣ — ١٠٧٨ م

(حكم بنو طاهر باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية وولده عبد الملك)
المعتمد بن عباد يستولى على مرسية

٢ — ابن عمار ٤٧١ — ٤٧٣ هـ : ١٠٧٨ — ١٠٨١ م

ابن رشيق ٤٧٣ — ٤٨٤ هـ : ١٠٨١ — ١٠٩١ هـ .

المرابطون يستولون على مرسية

مملكة دانية والجزائر

١ — مجاهد العامرى الموفق ٤٠٠ — ٤٣٦ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٤٤ م

على بن مجاهد إقبال الدولة ٤٣٦ — ٤٦٨ هـ : ١٠٤٤ — ١٠٧٦ م

٢ — المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ٤٦٨ — ٤٧٤ هـ : ١٠٧٦ — ١٠٨١

المنذر بن هود ٤٧٤ — ٤٨٣ هـ : ١٠٨١ — ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على دانيــة

مملكة بلنســية

الفتيان مظفر ومبارك ٤٠٠ — ٤٠٨ هـ : ١٠٠٩ — ١٠١٧ م

لبيب العامرى ٤٠٨ — ٤١١ هـ : ١٠١٧ — ١٠٢١ م

عبد العزيز المنصور ٤١١ — ٤٥٢ هـ : ١٠٢١ — ١٠٦١ م

عبد الملك بن عبد العزيز ٤٥٢ — ٤٥٧ هـ : ١٠٦١ — ١٠٦٥ م

المأمون بن ذى النون يستولى على بلنسية

نائبه أبو بكر بن عبد العزيز ٤٥٧ — ٤٧٨ هـ : ١٠٦٥ — ١٠٨٥ م

عثمان بن أبى بكر ٤٧٨ — ٠٠٠ هـ : ١٠٨٥ — ٠٠٠ م

القادر بن ذى النون ٤٧٨ — ٤٨٥ هـ : ١٠٨٥ — ١٠٩٢ م

القاضى ابن جحّاف ٤٨٥ — ٤٨٧ هـ : ١٠٩٢ — ١٠٩٤ م

السيد إلكمبيادور والقشتاليون ٤٨٧ — ٤٩٥ هـ : ١٠٩٣ — ١١٠٢ م

المرابطون يستولون على بلنسية

إمارة شنتمرية الشرق

هذيل بن عبد الملك بن رَزين ٤٠٣ — ٤٣٦ هـ : ١٠١٢ — ١٠٤٥ م

عبد الملك بن هذيل ٤٣٦ — ٤٩٦ هـ : ١٠٤٦ — ١١٠٣ م

يحيى حسام الدولة ٤٩٦ — ٤٩٧ هـ : ١١٠٣ — ١١٠٤ م

المرابطون يستولون على شنتمرية الشرق

إمارة ألبونت

عبد الله بن قاسم ٤٠٠ — ٤٣١ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٣٩ م

محمد بن عبد الله يمن الدولة ٤٣١ — ٤٣٤ هـ : ١٠٣٩ — ١٠٤٢ م
أحمد بن محمد عز الدولة ٤٣٤ — ٤٤٠ هـ : ١٠٤٢ — ١٠٤٨ م
عبد الله بن محمد جناح الدولة ٤٤٠ — ٤٩٥ هـ : ١٠٤٨—١١٠٢ م

المرابطون يستولون على ألبرنت

مملكة سرقسطة

١ — المنذر بن يحيي التجيبى ٤٠٨ — ٤١٤ هـ : ١٠١٧ — ١٠٢٣ م
يحيي بن المنذر المظفر ٤١٤ — ٤٢٠ هـ : ١٠٢٣ — ١٠٢٩ م
المنذر بن يحيي معز الدولة ٤٢٠ — ٤٣٠ هـ : ١٠٢٩ — ١٠٣٩ م
٢ — سليمان بن هود المستعين ٤٣١ — ٤٣٨ هـ : ١٠٣٩ — ١٠٤٦ م
أحمد بن سليمان المقتدر ٤٣٨ — ٤٧٤ هـ : ١٠٤٦ — ١٠٨١ م
يوسف بن أحمد المؤتمن ٤٧٤ — ٤٧٨ هـ : ١٠٨١ — ١٠٨٥ م
أحمد بن يوسف المستعين ٤٧٨ — ٥٠٣ هـ : ١٠٨٥ — ١١١٠ م
عبد الملك بن أحمد عماد الدولة ٥٠٣ — ٠٠٠ هـ : ١١١٠ — ٠٠٠ م

المرابطون يستولون على سرقسطة

ثبت المراجـــع

— ١ —

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر (بولاق) .
تاريخ ابن الأثير (الطبعه الأهلية ١٣٠٣ هـ) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .
نهاية الأرب للنويرى . (القسم التاريخى ، ومعظمه لا يزال مخطوطا) .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (الطبعة الأهلية ١٣٠٢هـ)
البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى (الجزء الثانى المنشور بعناية العلامة دوزى (١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (باريس ١٩٣٠) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى (المجلدات الثلاثة المنشورة بعناية كلية الآداب بجامعة القاهرة وما نشر منه فى موسوعة دوزى عن بنى عباد .Hist. Abbad ، والقسم المخطوط المنوه عنه فيما بعد .
كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية، والقاهرة سنة١٩٥٥)
التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعى (ضمن المكتبة الأندلسية) .
بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس للضبى (ضمن المكتبة الأندلسية والقاهرة ١٩٥٥) .
الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى (القسم المنشور بعناية العلامة دوزى ليدن ١٨٤٧) . والأصل الكامل المخطوط المنوه عنه فيما بعد .
(وطبعة القاهرة الصادرة بتحقيق الدكتور حسين مؤنس (١٩٦٤) فى مجلدين
جذوة المقتبس لأبى عبد الله الحميدى (القاهرة) .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة١٣٣٢هـ) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبى زرع الفاسى المنشور بعناية المستشرق كارل تورنبرج (أبسالة١٨٤٣) .
الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية (طبع تونس) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى المنشور بعناية الدكتور شوقى ضيف (القاهرة ١٩٥٣ و ١٩٥٥) .
كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (القاهرة ١٩٥٥) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٣ هـ) .
نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى (الرباط ١٩٣٤) .
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمدعبدالله عنان (الطبعة الثانية ١٩٥٨) .
جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .
طوق الحمامة لابن حزم (طبع دمشق ١٣٤٩ هـ) .
رسالة نقط العروس لابن حزم (المنشورة بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة فى عدد ديسمبر ١٩٥١) .
الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى (القاهرة ١٩٤٨) .
المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى ، والمنشور بعناية المستشرق البارون دى سلان (الطبعة الثانية) .
سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى (القاهرة ١٩٣٥) .
معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة ١٩٠٦) .
كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب لأبى العباس أحمد بن يحيى الونشريشى (طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ) .
رسالة ابن عبدون فى الحسبة (المنشورة بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال طبع معهد الآثار الفرنسى بالقاهرة) .
كتاب الفلاحة لابن بصّال المنشور بعناية المستشرق مياس بييكروسا والأستاذ محمد عزيمان (تطوان سنة ١٩٥٥) .

مصادر مخطوطة

ابن حيان : السفر الثانى من كتاب « المقتبس فى تاريخ أهل الأندلس » . قطعة مخطوطة ، محفوظة فى خزانة جامع القرويين بفاس .

أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف فى خزانة القرويين بفاس .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، القسم الثالث ، النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة أكادمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، الجزء الكبير المخطوط المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٧٣ الغزيرى .

الحلة السيراء لابن الأبار ، النسخة الكاملة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٥٤ الغزيرى .

إعتاب الكتاب لابن الأبار ، النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٧٣١ الغزيرى .

المجموعة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٤٨٨ الغزيرى ، وبها عدة رسائل مرابطية هامة .

المجموعة المخطوطة المسماة « رسائل تاريخية وأدبية » المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٥٣٨ الغزيرى .

تحفة العروس لأبى عبد الله التيجانى الأندلسى المالكى ، نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة الإسكوريال رقم ٥٩٩ الغزيرى .

— ٢ —

R. Dozy : Scriptorum Arabum loci de Abbaditis (Historia Abbadidarum) (Leiden 1848—1852, 3 vol.).

„ „ : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge (Leiden 3 ème Ed.).

„ „ : Le Cid d'après de nouveaux documents.

„ „ : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquète des Almoravides (Leiden 1932).

R.A. Nykl : Hispano-Arabic Poetry and its relations with the old Provençal Troubadours (Baltimore 1946).

Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid, 1955).

Padre Enrique Florez : Espana Sagrada (Madrid, 1797-1886).

Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Madrid, 1861).

Estudios de Erudición Oriental. Homenaje a F. Codera.
F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides en Espana (Zaragoza, 1899).
Prieto y Vives : Los Reyes de Taifas (Madrid, 1926).
R. Menendez Pidal : La Espana del Cid (Madrid, 1947).
„ „ „ : Origenes del Espanol.
M. Caspar Rimero : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza, 1905).
A. Piles Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901).
Is. de las Cagigas : Los Mozarabes (Madrid, 1949).
J. Ribera y Tarrago : Disertaciones y Opusculos (Madrid, 1928).
A. Asin Palacios : Abenhazm de Córdoba y su historia de las ideas religiosas.
A. Campaner y Fuentes : Bosequejo Historico de la Dominacion Islamita en las Islas Baleares (Palma, 1868).
A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana Musulmana (Cuarta Ed).
„ „ „ Influencia de la Civilizacion Arabe (Madrid 1931).
M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1868).
Al-Andalus : Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada.
J. Aschbach : Geschichte Spaniens zur Zeit der Herrschaft der Almoraviden und Almohaden (Frankfurt am Main 1833).
(وترجمه العربية محمد عبد الله عنان)
Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

فهرست الشعر والشعراء

صفحة

الحسن بن رشيق : مما يزهدنى فى أرض أندلس ١٥

ابن زيدون أبو الوليد

لولا بنو جهور ما أشرقت بهم ٢٦

لقد سرنى أن النعى موكل ٥٧

ابو بكر بن اللبانة

من بنى المنذر بن ماء السماء ٣٣

ملك يروعك فى حلى ريعـــانه ٢١٠

نسيت الا غداة النهر كونهم ٣٥٦

القاضي ابن عباد : ولابد يوما أن أسود على الورى ٣٩

المعتضد بن عباد

حميت ذمار المجـد بالبيض والسمر ٥٧

لقد حصـلت يارندة ٥٧

المعتمد بن عباد

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر ٦٠

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر ١٣٢

ان يسلب القوم العـــدا ٣٥٥

أنباء أسرك قد طبق آفاقا ٣٥٩

غريب بأرض المغربين أسير ٣٥٩

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ٣٥٩

بكيت الى سرب القطـا اذ مررن ٣٦٠

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما ٣٦٠

قبر الغريب سقاك الرائح الغـادى ٣٦١

ابو بكر بن عمار

ألا حى بالغرب حيا جلالا ٦٨

سجاياك ان عافيت أندى وأسـمح ٦٩

بشر بلنسية وكانت جنة ١٨٢و١٨٣

عمر بن الافطس (المتوكل) : انهض أبا طالب الينا ٨٨

رثاء مدينة طليطلة : لثكلك كيف تبتسـم الثغور ١١٨

ابو اسحاق الالبيرى : الا قل لصنهاجة أجمعين ١٣٥و١٣٦

ابن دراج القسطلى

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران ١٦٢

أنورك أم أوقدت بالليـل نارك ٢١٩

بشراك من طول الترحل والسرى ٢٦٨

ابن الحداد الوادى آشي : لعلك بالوادى المقدس شاطىء ١٦٩

المعتصم بن صمادح

وتحت الفلائل معنى غريب ١٧٠

ترفق بدمعك لا تفنه ١٧٢

تمتعت بالنعماء حتى مللتها ١٧٢

ابو جعفر البتي : أترضى عن الدنيا فقد تتشوف ١٨٢

ابو عبد الرحمن بن طاهر : أيها الأخيف مهلا ١٨٦

ابو اسحاق بن خفاجة : عاثت بساحتك العدا يادار ٢٤٦

ابو عيسى بن لبون : نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها ٢٥٧

عبد الملك بن رزين

انا ملك تجمع فى خمس ٢٥٨

يا رب ليل أطال الليل مدته ٢٥٩

اترى الزمان يسرنا بتلاق ٢٥٩

عبد الله بن محمد بن قاسم

خلعت عن الملك لكننى ٢٦٢

أما لكل نبيه فى العلا حيل ٢٦٢

المقتدر بن هود ، ابو جعفر

قصر السرور ومجلس الذهب ٢٨٣

لست لدى خالقى وجيها ٢٨٣

السميسر

صانع أذفونش والنصارى ٣٤٠

ابو بحر بن عبد الصمد : ملك الملوك أسامع فانادى ٣٦٢

ابن الخطيب ، لسان الدين : قد زرت قبرك عن طوع بأغمات . ٣٦٣

ابن عبدون (ابو محمد عبد المجيد) : الدهر يفجع بعد العين بالأثر . ٣٦٩

ابو محمد بن عبد العزيز البطليوسى

هلم الى روضك يا زهير ٤٢٨

ابو بكر بن عبد العزيز البطليموسى

يا أخى قم تر النسيم عليلا ٤٢٨

عبادة بن القزاز

بدرتم شمس ضحا ٤٢٩

ابو الوليد الباجي

اذا كنت أعلم علما يقينا ٤٣٣

فهرست الموضوعات

صفحة

مقـدمة ٣

تصـديـر ٧

تمهـيد : نذر الإنحلال والتفكك ١١

الكتاب الأول
قرطبـة
ودول الطوائف فى الأندلس الغربية والوسطى

الفصل الأول : دولة بنى جهور فى قرطبة ٢٠

الفصل الثانى : بنو عباد ومملكة إشبيلية — القسم الأول ٣١

إمارات غرب الأندلس ٤٠

الإمارات البربرية ٤٤

الفصل الثالث : بنو عباد ومملكة إشبيلية — القسم الثانى ٥٩

الفصل الرابع : بنو الأفطس ومملكة بطليوس ٨١

الفصل الخامس : مملكة بنى ذى النون فى طليطلة ٩٤

الكتاب الثـانى
الدول البربرية فى جنوبى الأندلس

الفصل الأول : دولة بنى مناد البربرية فى غرناطة ومالقة ١٢٠

الفصل الثانى : الإمارات البربرية الأخرى فى جنوبى الأندلس ... ١٤٧

الكتاب الثالث
دول الفتيان الصقالبة وخلفائهم
فى شرق الأندلس

الفصل الأول : مملكة ألمرية ١٥٨

الفصل الثانى : مملكة مرسية ١٧٤

الفصل الثالث : مملكة دانية والجزائر ١٨٧

صفحة

الكتاب الرابع

دول الطوائف فى منطقة بلنسية

الفصل الأول : مملكة بلنسية

١ — عهد الصقالبة وبنى عامر وبنى ذى النون ... ٢١٦

الفصل الثانى : مملكة بلنسية

٢ — السيد إلكمبيادور وعهد السيادة القشتالية ... ٢٣١

الفصل الثالث : إمارة شنتمرية الشرق ٢٥٣

الفصل الرابع : إمارة ألبونت ٢٦٠

الكتاب الخامس

دول الطوائف فى الثغر الأعلى

الفصل الأول : مملكة سرقسطة حتى نهاية عصر المقتدر بن هود ... ٢٦٤

الفصل الثانى : مملكة سرقسطة منذ عصر المؤتمن حتى سقوطها فى أيدى المرابطين ٢٨٤

الكتاب السادس

موقعة الزلاّقة والفتح المرابطى

الفصل الأول : نشأة المرابطين وقيام الدولة المرابطية بالمغرب ... ٢٩٨

الفصل الثانى : موقعة الزلاّقة ٣٢٠

الفصل الثالث : الفتح المرابطى — القسم الأول ٣٣٣

الفصل الرابع : الفتح المرابطى — القسم الثانى ٣٤٩

الكتاب السابع

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال القرن الحادى عشر الميلادى

الفصل الأول : المملكة الإسبانية الكبرى فى عهد سانشو الكبير وولده فرناندو الأول ٣٧٦

صفحة

الفصل الثانى : إسبانيا النصرانية عقب وفاة فرناندو الأول .. ..
عصر ألفونسو السادس وبداية عهـد الإسترداد ٣٨٨
الفصل الثالث : النصارى المعاهدون ٤٠٩

خواص عصر الطوائف
السياسية والاجتماعية والحضارية ٤١٨

وثائق وملحقات

١ — رسالة كتبها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى المعز بن باديس يصف فيها فتح بلاد الغرب وجوازه للأندلس للجهاد بها. ٤٤٦
٢ — بعض فصول الكتاب الذى بعث به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدوة عقب موقعة الزلاّقة ٤٥١
٣ — رسالة المقتدر بن هود إلى ابن عباد يعرفه بأمر أخيه صاحب لاردة ٤٥٣
٤ — رسالة أبي عامر بن غرسية فى تفضيل العجم على العرب ... ٤٥٥
دول الطوائف : جدول تاريخى مفصل ٤٦٠
ثبت المراجع ٤٦٥
فهرست الشعر والشعراء ٤٦٩

فهرست الخرائط

١ — دول الطوائف والممالك الإسبانية النصرانية بعد انهيار الخلافة ... ٢٧
٢ — دول الطوائف والممالك الإسبانية النصرانية عقب سقوط طليطلة ... ١١٧
٣ — موقعة الزلاّقة ٣٢٧
٤ — الدولة المرابطية الكبرى عقب افتتاح الأندلس ٣٦٧

فهرست الكتب والرسائل

الإحاطة فى إخبار غرناطة ، لابن الخطيب ؛ ٢٥٢
الإحكام لأصول الأحكام ، لابن حزم ؛ ٤٢٠
الإستكمال للمؤتمن بن هود ؛ ٢٨٦ ، ٤٣٦
إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، لا بن حزم ؛ ٤٣٢
أعلام نبوة نبينا محمد ، لابى عبيد البكرى ؛ ٤٣٠
أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ؛ ٣٦٣
البطشة الكبرى ، لابن حيان ؛ ٢٩
بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، لابى عمر بن عبد البر ؛ ٥٧ ، ٤٣٤
البيان المغرب ، لابن عذارى المراكشى ؛ ٢٥١ ، ٢٧٠ ، ٣٤٧
البيان الواضح فى الملم الفادح ، لا بن علقمة ؛ ٢٤٣ ، ٢٥١
تاريخ ألفونسو العالم ؛ ٢٥٢ ، ٤٣٤
تاريخ رهبان سيلوس ؛ ٣٩٠ ، ٣٩٥
جداول الزرقالى الفلكية ؛ ٤٣٥
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ؛ ٧٥ ، ٧٨ ، ٩٢ ، ٣٤٥
ديوان ابن دراج القسطلى ؛ ٤٣١
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام الشنترينى ؛ ٥٦ ، ٧١ ، ١٠٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٣٩ ، ٢٩٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠
رسالة ابن زيدون فى هجاء ابن عبدوس ؛ ٢٤٦
رسالة القضاء والحسبة لابن عبدون ؛ ٤١٣ ، ٤٤٠
روض القرطاس لا بن أبى زرع الفاسى ؛ ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٥٣
الروض المعطار لعبد المنعم الحميرى ؛ ٢٧٧
زهر البستان ونزهة الاذهان ، للطغنرى ، ٤٤٢
السجيع فى علوم الأوائل الرياضية ، ليوسف ابن نغزالة ؛ ١٣٣
سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى ؛ ٢٩٤
سلك الجواهر من نوادر وترسيل ابن طاهر ، لابن بسام ؛ ١٧٨
طبقات الامم ، لا بن سعيد ؛ ١٠٦ ، ٤٣٥
طوق الحمامة ، لابن حزم ؛ ٤٣١
العبدونية ، قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس ؛ ٤٢٨
غريب القرآن ، لا بى يحيى بن صمادح ؛ ١٦٥
الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، لا بن حزم ؛ ٤٣٢ ، ٤٣٤
قلائد العقيان ، للفتح بن خاقان ؛ ١٤١ ، ٤٤٠
كتاب فى الإجماع ومسائله ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
كتاب التبيان للامير عبدالله بن بلقين ؛ ١٤٦ ، ٣٤٢
كتاب التلخيص لوجوه التخليص ، لابن حزم ؛ ٤٢٠
كتاب جوامع السيرة ، لا بن حزم ؛ ٤٣٢
كتاب السماء ، لا بن سيدة ؛ ٤٣٤
كتاب الفلاحة ، لابن بصال ، ٤٤٢
كتاب فى مراتب العلوم ، لا بن حزم ؛ ٤٣٢
كتاب المحكم لا بن سيدة ؛ ١٩٨ ، ٤٣٤
كتاب المظفرى ، للمظفر بن الأفطس ؛ ٨٧ ، ٤٢٩
اللآلىء فى شرح أمالى القالى ، لابى عبيد البكرى ؛ ٤٣٠
المآثر العامرية ، لابن حيان ؛ ٤٣٨
المتين ، لابن حيان ، ٤٣٨
المسالك والممالك ، لأبى عبيد البكرى ؛ ١٧٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٤٣٠
المسهب للحجارى ؛ ٢٨٢
مطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان ؛ ١٠٤
معجم ما استعجم ، لأبى عبيد البكرى ؛ ٤٣٠ ، ٤٣١
المعيار المعرب والجامع المغرب ، عن فتاوى أهل افريقية والمغرب ، للونشريشى ؛ ٣٤٨
نظم السلوك فى مواعظ الملوك فى أخبار الدولة العبادية ، لأبى بكر بن اللبانة ؛ ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٤٢٧
نفاضة الجراب ، لا بن الخطيب ؛ ٣٦٣
نقط العروس ، لابن حزم ؛ ٤٣٢ ، ٤٣٨
يتيمة الدهر للثعالبى ؛ ٤٣١ ، ٤٤٠

فهرست القبائل والطوائف والدول

أ — ب

الإباضية ؛ ١٥٤
الادارسة ؛ ٣٠٣ ، ٣٧٩
الأرجونيون ؛ ٣٢٤ ، ٢٧٩
الأزد ؛ ٢٧٠
إزداجة ، قبيلة ؛ ١٢٣
الإسبان ؛ ٢٨٣ ، ٢٩٤ ، ٤٠٢
الألمان ؛ ١٨٨
آل برنجير ؛ ٢٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
آل بوريل ؛ ٤٠٧
آل مديتشي ؛ ٢٣
إمارة ألبونت ؛ ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٦٨
إمارة برشلونة ؛ ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٢
إمارة رندة ؛ ٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٥
إمارة شذونة ؛ ١٤٨ ، ١٥٥
إمارة شلب ؛ ٤٣
إمارة شنتمرية الشرق؛ ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٣٦٨
إمارة قرمونة ؛ ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢
إمارة قرطبة ؛ ١٧ ، ٩٥ ، ١٤٨ ، ١٥٦
إمارة قطلونية ؛ ٤٠٨
إمارة مورور ؛ ١٤٨
الأندلسيون ؛ ١٤٠ ، ١٤٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨
الإيطاليون ؛ ١٨٨
البابوية ؛ ١٩٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٢
البجلية ، طائفة ؛ ٣٠٥
البرانس ، قبيلة ؛ ٢١ ، ٢٥٣ ، ٢٩٩
البربر؛ ١٢ — ١٤ ، ١٩ ، ٢١ — ٢٣ ، ٣٢
٣٤ — ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ —
٤٧ ، ٦١ — ٦٣ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ،
١٢٠ — ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ —
١٣٢ ، ١٣٩ — ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،
١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ،
١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ،
٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٧١ ،
٣٨٢ ، ٤٠٧ ، ٤١٠
برغواطة ، قبيلة ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
٣٠٨
البشكنس ؛ ٧٣ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠
بنو الأفطس ؛ ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٨٢ ،
١٠١ ، ١٥٠ ، ٣٦٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠
بنو أمية ؛ ١١ — ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٧ ،
١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ ،
٣٨١
بنو برزال ؛ ٣٦ ، ٤٧ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ،
١٣٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩
بنو بيطر ؛ ٢٩٠
بنو تجيب ؛ أنظر بنو هاشم
بنو جهور ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٩ ، ٥٦ ،
١٠٣ ، ٤٢٦
بنو حماد ؛ ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٣٦٦
بنو حمود ؛ ١٣ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ،
٣٢ — ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ١٢٣ ،
١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،
١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٦٥ ، ٣١٢ ، ٣٨٩
بنو خزرون ؛ ١٥٢ ، ١٥٥ ، ٣٠٤
بنو خطاب ؛ ١٩٧
بنو دمر ؛ ٤٦ ، ١٢٣ ، ١٥٢ ، ١٥٤
بنو ذو النون ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
٢٢٨ ، ٣٤٧ ، ٤٣٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢
بنو رزين ؛ ١٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩
بنو زيرى ؛ أنظر بنو مناد
بنو صمادح ؛ ١٦٤ ، ١٧٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ،

بنو طاهر ؛ ١٧٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢٤٢
بنو الطويل ؛ ٤١٢
بنو عامر ؛ ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٠
بنو عباد ؛ ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٦٠ — ٦٢ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٢ — ٨٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٢٥ ، ٢٩٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٤١
بنو العباس ؛ ٥١
بنو قاسم ؛ ٢٦٠ ، ٢٦٢
بنو القبطرنة ؛ ٧١ ، ٨٩ ، ٤٢٨
بنو قسى ؛ ٢٦٥ ، ٤١٢
بنو مرين ؛ ٣١٠
بنو مزين ؛ ٤٤
بنو مسلمة ؛ أنظر بنو الأفطس
بنو معنصر ؛ ٣١١
بنو مناد ؛ ٢٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ٤١١ ، ٤٣٠
بنو هاشم (التجيبيون) ؛ ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ — ٢٧١ ، ٢٩٣ ، ٤١٢
بنو هود ؛ ٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٤٠٨ ، ٤١٢
بنو وانودين ؛ ٣٠٤
بنو يرنيان ؛ ٤٦ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦
بنو يفرن ؛ ٤٦ ، ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣١١
البيزيون ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢١٢
تجيب ، قبيلة ؛ ٨٢ ، ١٦٥

ج — ز

جدميوه ، قبيلة ؛ ٣٠٥
جزولة ، قبيلة ؛ ٣٠٨ ، ٣١١
الجلالقة ؛ ٧٣ ، ١٨٨ ، ٣٩٢
الجماعة ، حكومة ؛ ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٩٧ ، ١٦٣ ، ٢٤١ ، ٤٠٩
الجمهوريات الإيطالية ؛ ١٩٣ ، ٤٤٣
الجنويون ؛ ١٩٣
حمير ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣١٣
الخلافة ؛ ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ٨٢ ، ١٢٣ ، ١٨٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٦ ، ٣٨١ ، ٤٣٠
الخلافة الأموية، والدولة ؛ ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٩٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٨٩ ، ٢٦٠ ، ٢٩٥ ، ٣٨٢ ، ٤١٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٨
الخلافة العباسية ؛ ٣١٤
الخلافة الفاطمية ؛ ٢٠٣
خلافة قرطبة ؛ أنظر الخلافة الأموية
الدعوة الفاطمية ؛ ١٢٢
دول (وملوك) الطوائف ؛ ١٤ — ١٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٨—٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٠ — ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ — ٢٢٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ — ٢٦٦ ، ٢٦٩ — ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ — ٢٩٦ ، ٢٩٩

٣١٤ – ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ – ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ – ٣٨٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ – ٤٠٠ ، ٤٠٩ – ٤١٥ ، ٤١٨ – ٤٢٥ ، ٤٢٨ – ٤٣١ ، ٤٣٥ – ٤٤٣

دولة بنى الأفطس : ١٢١

دولة بنى برزال ؛ ١٥١

دولة بنى دمر ؛ ١٥٤ ، ١٥٥

دولة بنى ذى النون ؛ ١٢١ ، ١٣٩

دولة بنى رزين ؛ ٢٥٩

دولة بنى مرين ؛ ٣١٠

دولة بنى مزين ؛ ٤٤

دولة بنى مناد ؛ ١٦ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨

دولة بنى يفرن ؛ ١٢٣

الدولة البيزنطية ؛ ١٩١

الدولة الجهورية ؛ ٢٥ ، ٢٩ ، ١٠٣ ، ١٦٠

الدولة الحمودية ؛ ١٤ ، ١٦ ، ٢١ ، ٤٥ ، ١٢١

الدولة العامرية ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٣٢ ، ١٢١ – ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٦٦ ، ٤٠٧

الدولة اللمتونية ؛ ٣٠٨

الدولة المرابطية ؛ ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣

الروم ؛ ١٤٤ ، ١٩٥

الرومان ؛ ٢٩٩

زناتة ، قبيلة ؛ ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٣٠٤ – ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١

زواغة ، قبيلة ؛ ٣١١

س – ك

السرادنة ؛ ١٩٥

الشيعة ؛ ١٤٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦

شفشاوة ، قبيلة ؛ ٣٠٥

صدينة ، قبيلة ؛ ٣١١

الصقالبة (والفتيان) ؛ ١٢ ، ١٣ ، ١٢٩ ، ١٥٨ – ١٦٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٧٤ ، ٤٠٩ ، ٤١١

صنهاجة ، قبيلة ؛ ١٢١ – ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ – ١٤٣ ، ١٤٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ – ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٤١١

العبيديون (الفاطميون) ؛ ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٤٩

العجم ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٨

العرب ؛ ١٢ ، ٦٢ ، ١٤٤ ، ١٩١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٩٥ ، ٣٠٥ ، ٣٥٣

العصبية العربية ؛ ١٢ ، ١٤

عصر الإحياء ؛ ٢٣ ، ٤٤٣

غمارة ، قبائل ؛ ٣١٢

الفتيان العامريون ؛ ١٣ ، ٣٨ ، ١٠١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٥٩ – ١٦٤ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ – ٢٢٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٤١٠ ، ٤٣١

الفرس ؛ ٥١

الفرنج ؛ ١٩١ ، ٢٠٤ ، ٢٧٢

الفرنسيون ؛ ٣٩٨

القبائل البربرية ؛ ٤٥ ، ١٢١ ، ١٥٢

القشتاليون ؛ ٧٢ ، ٧٣ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ – ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٨٤ ، ٣٢٤ – ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ – ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤١٥

القرطبيون ؛ ٢٠ ، ١٥٩

القطلان ؛ ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠

القوط ؛ ٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٩٦
كدالة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣
الكرسي الرسولي ؛ ٢٧٤، ٤٠٢
الكنيسة الإسبانية ؛ ٣٩٧ ، ٤٠٢

ل — ى

لخم ، قبيلة ؛ ٣٢ ، ٦٢
اللبارد ؛ ١٨٨ ، ١٩١
الليونيون ؛ ٣٩٠ ، ٣٩٢
لماية ، قبيلة ؛ ٣١١
لمتونة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٧٢
لمطة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
لواتة ، قبيلة ؛ ٣١١
مداسة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
المدجنون ؛ ٤١٥
مديونة ، قبيلة ؛ ٣١١
المرابطون ؛ ١٦ ، ٧٧—٧٩ ، ٩١ ، ١١٦ ، ١٤٥ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٤ — ١٨٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ — ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ — ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٥ — ٣١٨ ، ٣٢١ — ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ — ٣٣٥ ، ٣٣٩ — ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ — ٣٥٣ ، ٣٥٥—٣٥٧ ، ٣٦٥—٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩
مسراتة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
المستعربون ؛ أنظر النصارى المعاهدون
المسلمون ؛ ٧٣ ، ٨٥ — ٨٧ ، ٩٠ — ٩٢ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١٩٢ — ١٩٤ ، ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ — ٢٣٧ ، ٢٤٤ — ٢٤٧ ، ٢٧٤ — ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ — ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٧٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ — ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ — ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ — ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠
مسوفة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩
المصامدة ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٧٢
مغراوة ، قبيلة ؛ ١٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١
مغيلة ، قبيلة ؛ ٣١١
الملثمون ؛ ٢٩٩
ملوك الطوائف ؛ أنظر دول الطوائف
الممالك الإسبانية النصرانية ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٤٣
الممالك البربرية ؛ ٦٢ ، ١٤٧ — ١٥٠
مملكة أراجون ؛ ٢٨٩ ، ٣٧٨ ، ٤٠٦
مملكة أشتوريش ؛ ٣٧٨
مملكة إشبيلية ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٧ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٢٥٥ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩
مملكة المرية ؛ ١٣٠ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٢٢١ ، ٣٦٦
مملكة برشلونة ؛ ٢١٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٥ ، ٣٧٨
مملكة بطليوس ؛ ٤١ ، ٤٨ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٣١٥ ، ٣٦٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٤٠٠
مملكة بلنسية ؛ ١٦٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦١ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٨٦ ، ٤٠٨
مملكة بني هود ؛ أنظر مملكة سرقسطة
مملكة جليقية ؛ ٤٠٤

مملكة دانية ؛ ١٨٨ ، ١٩٨ — ٢٠٣ ، ٢٠٩ ،
٢٠٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٨١ ، ٤١١
مملكة سرقسطة ؛ ٩٥ ، ١٣١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ،
٢٣٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ — ٢٨٢ ، ٢٨٨ ،
٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ،
٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢
مملكة طليطلة ؛ ٤٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
٨١ ، ٨٧ ، ٨٩ — ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١١ ،
١١٤ ، ١٥٦ ، ١٧٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
٢٧١ ، ٣١٥ ، ٣٤٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ،
٣٩١ ، ٣٩٥
مملكة غانة ؛ ٣٠٥
مملكة غرناطة ؛ ١٦ ، ٦١ — ٦٣ ، ١٤٢ ،
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٦١
مملكة الفرنج ؛ ٤٠٧
مملكة قشتالة ؛ ١٦ ، ١١٥ ، ١٨٨ ، ٣٧٧ ،
٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧
المملكة القوطية ؛ ١١٦
مملكة ليون ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١
مملكة مالى ؛ ٣٠٢
مملكة مرسية (وإمارة) ؛ ١٧٨
مملكة نافار (نبره) ؛ ٢٧٩ ، ٣٨٩ ، ٤٠٦
الموالى ؛ ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٥٤
الموحدون ؛ ١٦ ، ٤٢ ، ٣٣٢

المولدون ؛ ١٢ ، ٢٠٧ ، ٢٦٥ ، ٤١٢
النافاريون ؛ ٣٨٠ ، ٣٨١
النصارى ؛ ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ،
٩٩ ، ١٠٠ ، ١١١ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ،
٢٤٥ — ٢٤٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ،
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ،
٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣١٨ ، ٣٢١ —
٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ — ٣٣٥ ،
٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ ،
٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ،
٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،
٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ — ٤١٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢
النصارى المعاهدون ؛ ٧٥ ، ١١٢ ، ٢٠٣ ،
٢٤٤ ، ٤٠٩ — ٤١٥
نفيس قبيلة ؛ ٣٠٥
النورمان ؛ ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢٧٤ — ٢٧٨ ،
٣٩٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٧
هوارة ، قبيلة ؛ ٢٥٣
وتريكة ، قبيلة ، ٢٩٩
وردة ، قبيلة ، ٣٠٥
اليهود ، ٧٥ ، ١٣٣ — ١٣٥ : ١٣٧ ،
٣١٠ ، ٣٢٣ ، ٣٨٧ ، ٤٠٤ ، ٤١١
٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠

فهرست البلدان والأماكن

— أ —

أبدة ، ٢٢ ، ٣٤٩
آبلة ، ٤٢
أنابوركا ، موقعة ، ٣٨٠ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥
أذكون ، ٢٥٨
أراجون ، ١٠٨ ، ١١١ ، ٢٤٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٢
أرجونة ، ٢٢
أرشدونة ، ١٤٥
أرتلة ، ٤٠٧
أركش ، ١٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦
أزمور ، ٣٠٦
إسبانيا المسلمة ، ١١٠ ، ١٣٠ ، ٢٣٤ ، ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٧١ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٨
إسبانيا النصرانية، ١١ ، ١٦ ، ١١٦ ، ١٦١ ، ١٨٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٧٥ ، ٣١٤ ، ٣٣٠ — ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤١٣ ، ٤١٩ ، ٤٤٣
إستجة ، ١٤ ، ٢١ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٨ — ١٥١ ، ١٥٥ ، ٣٧١
آسفى ، ٣٠٦
الإسكندرية ، ٢٠٢ ، ٢٩٥
الاسكوريال ، ٢٠٦
أشبونة ، ٢٤ ، ٣٦ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٤٣٤
اشبيلية ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٢ — ٣٧ ، ٣٩ — ٤١ ، ٤٣ — ٤٩ ، ٥٥ — ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ — ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ — ٤٤٢
أشتوريش ، ٣٢٢ ، ٣٨٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤
أشونة ، ٣٨ ، ١٤٩ ، ٣١٤
أغمات ، ١٤٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ — ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧ — ٣٥٩ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ، ٤٢٧
أفراغة ، ٢٦٥
إفريقية ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٤١٥ ، ٤٢٩
إقليش (حصن وموقعة) ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٩٢ ، ٣٤٦ — ٣٤٨ ، ٣٦٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
ألبونت ، ٢٠ ، ١٩٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ — ٢٦٢
إلبيرة (وولاية) ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٩
ألش ، ١٧٨
ألفنت ، ١٢٨ ، ١٦٣
ألمرية ، ١٤ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٧٩ ، ١٠٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٨ — ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ — ١٧٣ ، ١٧٥ — ١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٨٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٦٦ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ — ٤٣١ ، ٤٤٢

المهدية ؛ ٤٢٧

أليدو ؛ أنظر حصن لييط

أنتقيرة ؛ ١٤٥

الأندلس ؛ ١١ – ١٦ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ – ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٧ – ٨٠ ، ٩٠ – ٩٥ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ – ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٤ – ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ – ٣٣٥ ، ٣٣٧ – ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ – ٣٦٥ ، ٣٧١ – ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٩ – ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٣

أندوجر ؛ ٢٢

أودفست ؛ ٣٠٥

أوريولة ؛ ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٩٠

أوسيدا ؛ ٣٨٣

أوكانيا ؛ ٣٤٧

إيطاليا ؛ ١٩٩ ، ٢٧٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٤٤٣

ب – ث

باب إشبيلية ؛ ٤٧

باب إلبيرة ؛ ١٣٧

باب شيزورا ؛ ٢٧٨

باجة (وكورة) ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٥٠

بازو ؛ ٨١ ، ٨٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤

ببشتر ؛ ٣٨

بجاية ؛ ١٧٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٩

بربشتر ؛ ٢٦٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ – ٢٧٩ ، ٤٠٦ ، ٤١٢

البرتغال ؛ ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٤٠٤

برجة ؛ ١٦٨ ، ٤٢٩

برجونية ؛ ٣٣١

برشلونة ؛ ٦٥ ، ١١١ ، ١٨٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٨ ، ٤٠٧

برغش ؛ ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤

برناط ؛ ٣٠٦

البرنيه ؛ أنظر جبال البرنيه

بروفانس ؛ ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢١١

بستان الملك ؛ ١١١

بسطة ؛ ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥

البشرات ؛ ٤١٤

بسكونية ؛ أنظر نافار – نبره

بطرنة ، موقعة ؛ ١٠٢ ، ١٧٨ ، ٢٢٤

بطليوس ؛ ٢٤ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٥٠ ، ٢٩٠ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٦٩ – ٣٧٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧

بغداد ؛ ٥٤ ، ٣١٤

بلاد جلميوه ؛ ٣٠٥

بلاد جزولة ؛ ٣٠٥

بلاد الزاب ؛ ١٤٨ ، ٣١٩

بلاد السودان ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤

بلاد السوس ؛ ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٤٢

بلاد غمارة ؛ ٣١١
بلاد فازاز ؛ ٣٠٨ ، ٣١١
بلاد القبلة ؛ ٣٠٨
بلاد المصامدة ؛ ٣٠٥ ، ٣١٠
بلاط الشهداء ؛ ٢٦٠ ، ٣٣٠
بلا نادا ؛ ٣٨٩
بلتيرة ؛ ٢٩١
بلمة ؛ ٣٥١
بلنسية ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ — ١١٥ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٦ — ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١٨ — ٢٢١ ، ٢٢٣ — ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ — ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ — ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ — ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٦٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢
بله نوبه ؛ ٢٤٢
بنبلونة ؛ ٤٠٦
بواتو ؛ ٣٣١
بياسة ؛ ٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ٣٤٩
بيرة ؛ ٥٨
بيزة ؛ ٥٨ ، ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، ٤٠٠
تادلا ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩
تارودنت ؛ ٣٠٥
تاكرونا ؛ ١٥٢
تامارون ، موقعة ؛ ٣٧٨
تامسنا ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٧
تدمير (وولاية) ؛ ٧١ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٦٨
تدمير الشام ؛ ١٧٤
ترجالة ؛ ٩٥
تطيلة ؛ ٩٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٣١
تلمسان ؛ ٣١٣
تنبكتو ؛ ٣٠٢
تورو ؛ ٣٨٩ ، ٣٩٢
تولوشة ؛ ٣٣١
تونس ؛ ١٥٤ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٤٢٧
الثغر الأعلى ؛ ١٧ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ — ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٤١٢
الثغر الأوسط ؛ ١٧ ، ٩٤ ، ٢٥٣
الثغر القوطى (الاسبانى) ؛ ٤٠٧

ج — ز

جامع المرية ؛ ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٨
جامع بلنسية ؛ ٢١٨
جامع طليطلة ؛ ١٠٥ ، ١١٣ ، ٣٩٧
جامع غرناطة ؛ ١٤٠
جامع قرطبة ؛ ٣٣ ، ٤٣١
جامع الكتبيين ؛ ٣١٠
جامع وشقة ؛ ٢٨٩
جبال الأطلس ؛ ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣
جبال البرنيه ؛ ٢٧٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٧٨ ، ٣٠٦ ، ٤٠٧ ،
جبال البونت ؛ ٢٣٨
جبال بنى رزين ؛ ٢٥٣
جبال درن ؛ ٣١٠ ، ٣٧٢
جبالة (كبالة) ؛ ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٨
جبل الشارات ؛ ٢١ ، ٧٣ ، ٨١
جبل شلير ؛ ١٢٤
جبل طارق ، مضيق ؛ ٧٩ ، ٢١١
جبل العيون ؛ ٤١
جبل منديز ، ٢٤٧

جرادوس ، موقعة ؛ ٢٨٠ ، ٢٨٥
الجزائر الشرقية ؛ ٢٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ – ٢١٣ ، ٢٢٢
الجزيرة الخضراء ؛ ١٤ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٧ – ٤٩ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ١٥٦ ، ٣١٨ – ٣٢٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣
الجزيرة (جزيرة شقر) ؛ ٢٤٧
جزيرة شلطيش ؛ ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٣ ، ٤٣٠
جزيرة فورمنتيرا ؛ ١٨٩ ، ٢١١
جزيرة منورقة ؛ ١٨٩
جزيرة ميورقة ؛ ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢١٠ – ٢١٣ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣
جزيرة يابسة ؛ ١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١١ ، ٢١٣
جلبياريس ؛ ٣٨٩
جليقية ؛ ١١٢ ، ١٤٤ ، ٣٢٢ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٣
جنجالة ؛ ٩٧
جنوه ؛ ٢٣ ، ١٩٢ ، ٢٤٠ ، ٤٠٠
جويانسا ؛ ٣٨٧
جيان (وولاية) ؛ ٢٢ ، ٦٣ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤
حصن أركش ؛ ٣٦١
حصن أشتر ؛ ١٢٥
حصن إقليش ؛ أنظر إقليش
حصن البلاط ؛ ٣٤٩
حصن المدور ؛ ٢٨ ، ٧٣ ، ١٥١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥١
حصن برغش ؛ ٣٩٠
حصن بلج ؛ ٦٥ ، ١٨١
حصن روطة (وقلعة) ؛ ٢٦٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
حصن الزهراء ؛ ٤٩
حصن سرية ؛ ١٠٨
حصن شقورة ؛ ٦٦ ، ١٨٤
حصن غرماج ؛ ٢٨٠
حصن فتورية ؛ ١٠٨
حصن قبرة ؛ ٦٣
حصن قناليش ؛ ١٠٨
حصن فونقة ؛ ١١٥
حصن لونا ؛ ٣٩٤
حصن لبيط ؛ ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ٢٣٩ ، ٢٨٩ ، ٣٢١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٦٥ ، ٣٩٩
حصن مونتشون ؛ ٢٨٥
حصن مورور ؛ ١٥٥
حصن وادي‌آش ؛ ١٦٧
حصن وبذه ؛ ١٠٨
الحمراء (حمراء غرناطة) ؛ ١٣٩
حمص ؛ ٣٣ ، ٣٦٣
الخندق ، موقعة ؛ ١٢
دار السرور ؛ ٢٨٣
دانية ؛ ٢٤ ، ٦٦ ، ١١٤ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٨٧ – ١٩٠ ، ١٩٢ – ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٦٦ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢
درعة ؛ ٣٠٤
دروقة ؛ ٢٦٥
ديرأونيا ؛ ٣٩٢
دير سان بيدرو دي كاردينا ؛ ٢٤٩
دير ساهاجون ؛ ٣٤٧ ، ٣٩٠ ، ٤٠٢
دير سيلوس ؛ ٣٩١
دير لورقان ؛ ٣٨٥ ، ٤١٣
رباجورسا ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٨
ربض قرطبة ؛ ٢٨
الرصافة (بلنسية) ؛ ٢٢٨ ، ٢٤٢

ركانة ؛ ٢٣٨
رندة ؛ ١٤ ، ٤٥ – ٤٧ ، ٦٢ ، ١٢١ ،
١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ،
١٥٣ ، ١٥٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢
رومة ؛ ٣٧٩
ريه ، كورة ؛ ١٧ ، ٤٦ ، ١٥٢
ريوخا ؛ ٢٤٢
الزلاقة ، موقعة (وسهل) ؛ ٨٠ ، ١٧١ ،
١٧٢ ، ١٨٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ،
٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨٧ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،
٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ –
٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٩٨ ،
٤٠١ ، ٤٠٨
الزهراء ، مدينة ؛ ٤٩ ، ١٥٩

س – غ

سبتة ؛ ٧٧ ، ١٣١ ، ١٦٠ ، ٢٤٦ ، ٣١٢ ،
٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٤٢ ،
٣٤٣ ، ٣٧١
سجلماسة ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩
سردانية ، جزيرة ؛ ١٩٠ – ١٩٥ ، ١٩٩ ،
٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
سرقسطة ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٦٦ ، ٩٨ ،
١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ،
١٨٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ –
٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ،
٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ – ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،
٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ – ٢٨٨ ،
٢٩٠ – ٢٩٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ،
٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،
٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ،
٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢
سرقوسة ؛ ٤٢٧
سرية ؛ ٩٣
سلا ؛ ٣٠٤
سمورة ؛ ١٠٢ ، ٢٣٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
السهلة ؛ ١٢١ ، ٢٣٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
سوبرابى ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
السودان ؛ أنظر بلاد السودان
شاطبة ؛ ١٠١ ، ١٢٨ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٩٧ ،
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
٢٤٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣٦٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٤
الشام ؛ ٣٣
شبه الجزيرة الإسبانية ؛ ١٤ ، ١٦ ، ٧١ ،
١١٥ ، ١٧١ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧–٣٣٩ ،
٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ،
٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٣٦
شذونة ؛ ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٧٣ ،
١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،
١٥٥ ، ٣٠٦
شرطانية ؛ ٤٠٧
الشرق الإسلامى ؛ ٢٠٧
شرق الأندلس ؛ ١٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ –
١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ،
١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ،
٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ – ٢٢٩ ،
٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ –
٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠ ،
٣٣٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٩٩ ،
٤٠٠ ، ٤١١
شقورة ؛ ٦٤ ، ٦٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٩ ،
٢٩٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٦٦
شلب (وولاية) ؛ ٤٤ ، ٦٠ ، ٦٤
شنبوس ؛ ٦٤
شنت برية ؛ ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٢ ،
١٠٧ ، ١١٤ ، ٢٢٤
شنت ياقب ؛ ٣٨٤
شنترة ؛ ٨١ ، ٣٦٨
شنترين ؛ ٨١ ، ٨٦ ، ٣١٤ ، ٣٦٨ ،
٣٨٣ ، ٣٩٢ ، ٤٠٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩

شنتمرية الشرق ؛ ٩٥ ، ١١٤ ، ١٢١ ،
٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ،
٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ — ٢٦٢
شنتمرية الغرب ؛ ٤٣
شوذر ؛ ١٩٧ ، ٢٢٢
صقلية ؛ ١٩٣ ، ٤٢٧
الصمادحية ، بستان وقصر ؛ ١٦٨ ، ١٦٩
طرطوشة ؛ ١٥٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ،
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ،
٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ،
٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣١
طركونة ؛ ٢١٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦
طريف ؛ ٧٤ ، ٣١٦ ، ٣٣٩
طشانة ؛ ٣٣
طلبيرة ؛ ٩٥ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ٢٧١
طلمنكة ؛ ٣٨٣
طليطلة ؛ ١٧ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
٨٥ ، ٩٠ — ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ —
١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ — ١١٦ ،
١٢١ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ،
١٧٠ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨ ،
٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ،
٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٣١٥ —
٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ،
٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥ ،
٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ،
٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ،
٤١٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٢
طنجة ؛ ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٥٧ ، ٤٢٧
العدوة (عدوة المغرب) ؛ ٧٤ ، ٧٧ ، ١٩٤ ،
٢٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ،
٣٥٠ ، ٣٦٦
الغرب (غربي الأندلس) ؛ ١٧ ، ٢٤ ، ٣٢ ،
٣٣ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٨١ ،
١٥٢ ، ١٦١ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ٣٦٨ ،
٣٦٩ ، ٤٠٠ ، ٤٣٣
الغرب الإسلامي ؛ ٣١٤
غرناطة (وولاية) ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٢ ،
٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦١ ، ٦٣ ،
٧٠ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٤ —
١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
١٣٧ — ١٤٣ ، ١٤٧ — ١٤٩ ، ١٥٦ ،
١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ،
١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ،
٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ،
٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ — ٣٤٣ ،
٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٤١٤ ، ٤٣٠

ف — ق — ك

فارو ؛ ٤٣
فاس ؛ ٧٧ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،
٣١٦ ، ٣٧٣
فحص البلوط ؛ ٨٢
فحص الرينسول ؛ ٤١٤
فحص غرناطة ؛ ٣٤٠
الفرنتيرة ؛ ١٧ ، ٤٨ ، ٧١ ، ١٤٧ ،
١٥٦ ، ٣٣٩
فرنسا ؛ ٢١١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٤٠٧
فلورنس ؛ ٢٣
فيانا ، موقعة ؛ ٣٨٩ ، ٤٠٥
قبر المعتمد بن عباد ؛ ٣٦٣
قرطبة ؛ ١١ — ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ،
٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ —
٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٢ ،
٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٣ ،
٨٢ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٢١ — ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٨ ،
١٥١ ، ١٥٨ — ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ،
١٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ،

٢١٩ — ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩١ ، ٣٢١ ، ٣٤٣ — ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩—٤١١ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢

قرقشونة ؛ ٤٠٧

قرمونة ؛ ١٤ ، ٣٥ ، ٣٦ — ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٢ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٤٨ — ١٥١ ، ١٥٦ ، ٣٧١

قسطلة ؛ ٤٣٠

قسطلونة ؛ ١٠١ ، ٢٦٠

قسطنطينية ؛ ٢٧٧

قشتالة ؛ ٤٨ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٨٤ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤١٢

قصبة ألمرية ؛ ١٦١ ، ١٦٨

قصبة بربشتر ؛ ٢٧٥ ، ٢٧٦

قصبة بطليوس ؛ ٨٢ ، ٣٦٩

قصبة شلبة ؛ ٢٢٥

قصبة غرناطة ؛ ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٩

قصبة مالقة ؛ ١٣١ ، ١٣٩

قصبة منتشون ؛ ٢٨١

قصبة المنكب ؛ ٣٤٠

قصر إشبيلية ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٧ ، ٣٥٤ — ٣٥٦

قصر الجعفرية ؛ ٢٦٩ ، ٢٨٣

قصر الزاهي ؛ ٥٥

قصر طليطلة ؛ ١١٣ ، ١١٥

قصر قرطبة ؛ ٣٧ ، ١٦٠

القصر المبارك ؛ ٥٥ ، ٦٩

قصر المدينة ؛ ٢١٢

قصر المكرم ؛ ١٠٤

قطلونية ؛ ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦

قلشانة ؛ ١٥٥

القلعة (المغرب) ؛ ١٧٣ ، ٣٦٦

قلعة أغمات ؛ ٣٥٧ ، ٣٦٠

قلعة أيوب ؛ ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢

قلعة تافالا ؛ ٣٧٩

قلعة جابر ؛ ٣٩

القلعة الحمراء ؛ ٦٣ ، ١٣٩

قلعة حمير ؛ ٢١٠

قلعة رباح ؛ ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ٣٤٩

قلعة فازاز ؛ ٣١١

قلعة قونقة ؛ ٩٦ ، ١٠٢

قلعة المنار ؛ ٢٨٥

قلعة النهر ؛ ٩٩ ، ٢٧١ ، ٣٨٣

قلمرية ؛ ٥٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٨٤ — ٣٨٦ ، ٤١٣

قلهرة (وقلعة) ؛ ٩٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٥

قنطرة القنطرة ؛ ٣٩٠

قورية ؛ ٩١ ، ٩٥ ، ١١٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٦

قونقة ؛ ٧١ ، ٩٥ — ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٦٠ ، ٣٤٧ ، ٤٠٠

القيروان ؛ ١٢٥ ، ٣٠١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩

كالا موشا ؛ ٢٧٥

كاليارى ؛ ٩١ ، ١٩٢

كتندة ؛ ١٧٨

الكدية ؛ ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢

الكرازة ، موقعة ؛ ٤٠٦

كريفلة ؛ ٣٠٧

كنتبريا ؛ ٣٧٦

الكنيسة الاسبانية ؛ ٣٩٦ ، ٣٩٧

كنيسة سان إيسدورو ؛ ٣٨٤

كوارت ؛ ٢٤٧

كوليرا ؛ ٢٤٨
كونسويجرا ؛ ٢٤٧ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢

ل — ى

لاردة ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠
لاميجو ؛ ٨٥ ، ٣٨٣
لانجدوك ؛ ٤٠٧
لبلة ؛ ٢٩ ، ٤٠ — ٤٣ ، ٧٣ ، ٨٤ ؛ ٤٣٣
لقنت ؛ ١٨٧
لوبية ؛ ٢٩٩
لوجرنيو ؛ ٢٤٠
لواتة ، مدينة ؛ ٣٠٨
لورقة ؛ ٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٣٩٩
لوزيتانيا ؛ ٣٨٢
لوف ؛ ١٩٢
ليجوريا ؛ ٢١١
ليون (القطر والمدينة) ؛ ٧٣ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ٢٢٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٦ — ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤
ماردة ؛ ٨١ ، ٨٢ ، ١١١ ، ٢٠٤
ماسة ؛ ٣٠٥
مالقة ؛ ١٤ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٣٧ — ٣٩ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦
مجريط ؛ ٣٩٥
مجلس الذهب ؛ ٢٨٣
المدور ؛ ٢٢ ، ٩٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩
مدينة سالم ؛ ٩٥ ، ١٠٠ ، ٢٤٩ ، ٣٨٣
مراكش ؛ ٢٩٢ ، ٣١٠ — ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
مربلة ؛ ١٤٧
المرج (مرج غرناطة) ؛ ٦٣
مرسية ؛ ١٩ ، ٦٤ — ٦٦ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٤ — ١٨١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٩٠ ، ٣٣٤ — ٣٣٧ ، ٣٦٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤٣٤
مرشانة ؛ ٤٧
مسلاتة ؛ ٢٤٧
المسيلة ؛ ١٤٨ ، ١٤٩
المشرق ؛ ١٢٧ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ، ٣١٠ ، ٣٣٠ ، ٣٦٤ ، ٤٠٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢
مصر ؛ ١٢١ ، ٢٠٢ ، ٢٩٤ ، ٣٣٨
المعدن ؛ ٧١ ، ٩٥
المغرب ؛ ١٢٠ — ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٧٢ ، ٢١٢ ، ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ — ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ — ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ — ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ — ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٤٠٠ ، ٤٢٧
المغرب الأوسط ؛ ١٤٩ ، ٣١٣
مكة ؛ ٤٣٣
مكناسة ؛ ٨٢ ، ٣٠٨ ، ٣٥٧
منت ليشم ؛ ٤٣٣
منذير ؛ ٤٠٦
المنكب ؛ ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٤٤
المنية ، بطليطلة ؛ ١١٢
مورة ؛ ٩٥
مورور ؛ ١٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦
موريتانيا ؛ ٢٩٩
موريلا ؛ ٢٨٦
مولة ؛ ١٧٨ ، ١٨١
مونتشون ؛ ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٤٠٦
ميرتلة ؛ ٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣

ميورقة (مدينة) ؛ ٢٠٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣
ناجرة ؛ ٣٨١
نافار (نبرة) ؛ ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٢
نهر إبره (الإيبرو) ؛ ٢٥٣ ، ٢٦٥، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٩ ، ٤٠٦
نهر أراد ؛ ٢٩
النهر الأحمر ؛ ٤٢
نهر أوديل ؛ ٤٣
نهر يسيرجا ؛ ٣٨٩
نهر التاجه ؛ ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ١١٢ — ١١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠
نهر تورمس ؛ ٣٨٢
نهر جريرو ؛ ٣٢٢
نهر خالون ؛ ٢٥٣ ، ٢٩٣
نهر دويرة ؛ ٨٥ ، ٨٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩
نهر سجرى ؛ ٢٦٥
نهر شقورة ؛ ١٧٤ ، ١٧٩
نهر شنيل ؛ ١٢٤ ، ١٤٠
نهر طوريا ؛ ٢٣٨ ، ٢٦٠
نهر كريون ؛ ٣٩٠
نهر منبو (منديجو) ؛ ٨٧ ، ٣٨٦
نهر النيجر ؛ ٣٠٢
نهر النيل ؛ ٣٠٢
نهر الوادى الكبير ؛ ١٤ ، ٢١ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ١٤٧ ، ١٤٨، ٣٤٥، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦
نهر وادى لكه ؛ ١٥٢ ، ١٥٤
نهر وادى يانه ؛ ٧١ ، ٨٤ ، ٣٢٢
نورماندیا ؛ ٢٧٤ ، ٣٣١
وادى آش ؛ ١٢٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ٤١٤
وادى الحجارة ؛ ١١٤ ، ٢٧١ ، ٣٨٣
وادى سبو ؛ ٣٣٥
وادى منى ؛ ٣١٢
وبذة ؛ ٩٥ ، ٩٦ ، ٣٤٧
وجدة ؛ ٣١٣
وشقة ؛ ٩٩ ، ١٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٣١ ، ٤٠٦
وابة ؛ ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٣٠
وهران ؛ ٣١٦
يابرة ؛ ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩
يومين ؛ ٣٣ ، ٦٨

فهرست الأعلام

— أ —

ابراهيم بن اسحاق اللمتونى ؛ ٣٥١
إبراهيم بن يحيى الكدالى ؛ ٣٠٠
ابن أبي جوش حاكم وادى آش ؛ ١٤٤
ابن أبي حصاد ؛ ٤٩
ابن أبي زرع الفاسى ؛ ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠
ابن أبي زمنين ؛ ١٢٥
ابن أرقم رأس ؛ ١٠٦
ابن الأبار القضاعى ؛ ٦٠ ، ٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٤٣٠
ابن الأثير ؛ ٣٦٤
ابن التاكرونى ؛ ٢١٩ ، ٢٢١
ابن التيانى ، أبو غالب ؛ ١٩٩
ابن الحاج ، أبو عبد الله ؛ ٢٩٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧١
ابن الحداد الوادى آشى ؛ ١٦٩ ، ٢٠٤ ، ٤٢٩
ابن الحضرمى ؛ ٨٩
ابن الخطيب، لسان الدين ؛ ١٥ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٥٢ ، ٢٧٠ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٦٢ — ٣٦٤ ، ٤٢٨
ابن السقاء ، إبراهيم ؛ ٢٦ ، ١٠٣
ابن الشهيد ؛ ١٦٩
ابن الطويل ، حاكم بربشتر ؛ ٢٧٦
ابن الفرج ؛ ٢٢٧ ، ٢٤١
ابن القزاز (محمد بن عبادة) ؛ ١٦٨ ، ١٦٩ ؛ ٤٢٩
ابن القطان ؛ ٣٦ ، ٥٤ ، ٥٦
ابن اللبانة ، أبو بكر بن عيسى الدانى ؛ ٧١ ، ٢٦٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٤٢٧
ابن المرجرى الاشبيلى ؛ ٤١١
ابن باجة ، أبو بكر بن الصائغ ؛ ٢٩٤ ؛ ٤٣٧
ابن بدرون ؛ ١٠٥
ابن بسام ؛ ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧١ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩
ابن بصال الطليطلى، أبو عبد الله ؛ ١٠٦ ، ٤٤٢
ابن بطوطة ؛ ٣٠٢
ابن تفرتاش ، أمير البحر ؛ ٢١٢
ابن جابر ؛ ١٠٤ ، ١٠٦
ابن جحاف ، أبو أحمد جعفر ؛ ١٨٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢
ابن جهور ، أبو الحزم (جهور بن محمد) ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٨
ابن جهور ، أبو الوليد (محمد بن جهور) ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤١ — ٤٣ ، ٦١ ، ٨٣ — ٨٥ ، ١٢٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٦
ابن حزم ، الوزير ؛ ١٢٩ ، ٤٣١
ابن حزم ، أبو محمد ؛ ٣٨ ، ٢٠٧ ، ٢٩٤ ، ٤٢٠ — ٤٢٣ ، ٤٣١ - ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨
ابن حمديس ، عبد الجبار بن أبي أبكر ؛ ٤٢٧
ابن حيان ؛ ١٥ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٢ — ٥٦ ، ٥٨ ، ٨٢ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٤٢١ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩

ابن خلدون ؛ ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢٧٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦
ابن خلكان ؛ ٣٥٠
ابن دراج القسطلى ؛ ١٦٢ ، ٢١٩ ، ٢٦٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣١
ابن رزين ، هذيل بن عبد الملك ؛ ٢٣٧ ، ٢٥٣ — ٢٥٥ ؛ ٤٤١
ابن رزين ، عبد الملك بن هذيل ؛ ٢٥٥ — ٢٥٩ ، ٢٦١
ابن رشد الحفيد ، أبو الوليد ؛ ٢٩٤
ابن رشيق ، عبد الرحمن ؛ ٦٥ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٣٩٩
ابن رويش (محمدبن مروان بن عبدالعزيز) ؛ ٢٢٣
ابن زيدون ، أبو الوليد ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ — ٤٢٧
ابن زيدون ، أبوبكر ؛ ٥٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٧
ابن سعيد الرياضى ؛ ١٠٦
ابن سعيد بن الفرج ؛ ٩٨ ، ١٠٧
ابن سيده ؛ ١٩٨ ؛ ٣٣ ؛ ٤٣٤
ابن شاليب ؛ ٧٣ ، ٣١٦
ابن شبيب ؛ ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩
ابن طالوت ؛ ٢١٩ ، ٢٢١
ابن طيفور ؛ ٣٦ ، ٤٤
ابن عائشة ، داود ؛ ٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ ، ٣٦٨
ابن عائشة ، محمد ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٤٠٠
ابن عباس ، الكاتب ؛ ٢٢١
ابن عبد البر ، أبو عمر ؛ ١٩٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤
ابن عبد البر ، أبو محمد ؛ ٥٠ ، ٥٧ ، ٤٣٤
ابن عبد العزيز ؛ ٢٢١
ابن عبد الملك المراكشى ؛ ١٧٨
ابن عبدون ، أبو محمد عبد الحميد ؛ ٧١ ، ٨٩ ، ٣٦٩ ، ٤١٣ ، ٤٢٨ ، ٤٤٠
ابن عديس ؛ ٢٤٤
ابن عذارى ، المؤرخ ؛ ٢٩٠ ، ٣٤٠ ، ٣٧١
ابن عكاشة ، حريز ؛ ١٠٤
ابن عكاشة ، حكم ؛ ٦١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٣٩٤
ابن علقمة ؛ ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢
ابن عمار ، أبو بكر ؛ ٦٠ ، ٦٣ — ٧١ ، ٧٣ ، ١٠٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٩ — ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٣٤٥ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٤٦
ابن عيسى ، قاضى بربشتر ؛ ٢٧٦
ابن لبون الطليطلى ؛ ٩٨
ابن لونكو ؛ ٤٤٢
ابن مبارك ؛ ٦٦ ، ١٨٤
ابن مثنى ؛ ٢٢٣
ابن مرتين ، محمد ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ١٠٣ ، ٤١١
ابن مروس ، أبو العباس ؛ ٢٦٨
ابن مسرة الطليطلى ؛ ٩٧
ابن مشعل ؛ ٧٤
ابن معمر اللغوى ؛ ١٩٨
ابن مقانا ، أبو اسحاق ؛ ٤١٧
ابن مهلب ؛ ٢١٩
ابن واجب ؛ ٢٦٨
ابن وافد ؛ ٤٤٢
ابن يحيى ، صاحب لبلة ؛ ٢٩ ، ٤٣ ، ٨٤
ابن يعقوب ؛ ٤٧ ، ١٥٣
ابن يعيش ؛ ٩٧
ابن نغزالة ، إسماعيل ؛ ١٣٣ ، ١٤٠
ابن نغزالة ، يوسف ؛ ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٣ — ١٣٨ ، ١٦٧
أبو إسحاق الإلبيرى ؛ ١٣٥
أبو إسحاق بن خفاجة ؛ ٢٤٦
أبو الأصبغ بن أرقم ؛ ١٦٨ ، ٢٠٣
أبو الحسن بن عبدالعزيز البطليوسى ؛ ٨٩ ، ٤٢٨
أبو الحسن بن اليسع ؛ ١٨٤
أبو الحسن الحصرى ؛ ٤٢٧
أبو الربيع سليمان ؛ ٢١٢
أبو العباس ، كاتب باريس ؛ ١٢٧
أبو العباس العذرى ؛ ٤٣٠
أبو الفضل بن حسداى السرقسطى ؛ ٢٨٠ ، ٢٩٥

أبو القاسم القرطبي ؛ ٤٣٧
أبو القاسم بن عباد ؛ أنظر محمد بن إسماعيل
أبو المطرف التجيبي ؛ ٢٧٠
أبو المطرف ابن الدباغ ؛ ٢٨٣ ، ٢٩٥
أبو المغيرة بن حزم ؛ ٢٦٩
أبو الوليد الباجي ؛ ٩١ ، ١١١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٤٣٣
أبو الوليد الوقشي ؛ ٢٤٣
أبو بحر بن عبد الصمد ؛ ٣٦٢
أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى ؛ ٢٩٤
أبو بكر بن القصيرة ؛ ٧٧
أبو بكر بن الحديدى ؛ ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٧
أبو بكر بن طاهر (أحمد بن اسحاق) ؛ ٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ٢٢٢
أبو بكر بن عبد العزيز ؛ ٦٨ ، ١٠٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٢٥
أبو بكر بن عبد العزيز (ابن رويش) ؛ ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٨٦
أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى ؛ ٨٩ ، ٤٢٨
أبو بكر بن عمر اللمتونى ؛ ٣٠٥ — ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣١٣ ، ٣٧٣
أبو بكر بن قاسم الشلبى ؛ ٧١
أبو بكر بن يوسف بن تاشفين ؛ ٣٢٩
أبو بكر الرميمى ؛ ١٦٣
أبو بكر الطرطوشي ؛ ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٣٨ ، ٤٣٧
أبو بكر بن المعتمد بن عباد (المعتد) ؛ ٣٥٢ ، ٣٥٦
أبو تزيرى الدمرى ؛ ١٥٤
أبو جعفر البتى ؛ ١٨٢ ، ٢٤٦
أبو جعفر القليعى ؛ ٣١٧
أبو خروب ، أمير البحر ؛ ١٩٠ ، ١٩٢
أبو حفص بن عبد الله بن أبى غفير ؛ ٣٠٧
أبو زكريا بن واسنو ؛ ٣٤٣ ، ٣٦٦
أبو طالب بن غانم ؛ ٨٨
أبو عامر بن أزرق ؛ ٢٦٨
أبو عامر بن خطاب ؛ ١٧٦
أبو عامر بن عبدوس ؛ ٤٢٦
أبو عامر بن غرسية ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٦ — ٢٠٨ ، ٤٢٩
أبو عامر بن غند شلب ؛ ٤١٢
أبو عبد الرحمن بن طاهر ؛ ٦٤ ، ٦٥ ، ١٧٧ — ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٩ ، ٤٣٤
أبو عبد الله بن أبى الخصال ؛ ٢٠٦
أبو عبد الله البزليانى ؛ ٥٨ ، ٤٣٦
أبو عبد الله الحميدى ؛ ٥٦ ، ٤٣٩
أبو عبد الله الزبيدى ؛ ٣٤ ، ٤٠
أبو عبد الله الشيعى ؛ ٣٠٥
أبو عبد الله المعيطى ؛ ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤
أبو عبيد البكرى ؛ ١٦٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤
أبو عمران الفاسى ؛ ٣٠١
أبو عمر بن خطاب ؛ ١٧٦ : ١٩٥
أبو عمر بن القلاس ؛ ٢٩٥
أبو عمرو بن سعيد الدانى ؛ ١٩٨
أبو عمرو الباجى ؛ ١٢٩
أبو عيسى بن لبون ؛ ٢٣٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
أبو غفير محمد بن معاذ ؛ ٣٠٦
أبو محمد المزدلى ؛ ٢٤٨ ، ٢٩٠
أبو محمد بن عبد العزيز البطليوسى ؛ ٨٩ ، ٤٢٨
أبو منصور الثعالبى ؛ ٤٣١ ، ٤٣٩
أبو ناصر المرابطى ؛ ٢٤١
أبو نصر بن أبى نور ؛ ٤٧ ، ١٤٠ ، ١٥٣
أبو نصر فتح بن خلف ؛ ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧
أبو نور بن أبى قرة اليفرنى ؛ ٤٥ ، ٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ — ١٥٥
أبو يحيى بن صمادح ؛ ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٦٥
أبو يحيى بن مسعدة ؛ ٢٠٦
أبو يوسف المرينى ، السلطان ؛ ٧٩
الآثر بن بطين اللمتونى ؛ ٣٠٠
أحمد بن الدودين البلنسى ؛ ٢٠٤
أحمد بن رشيق ، أبو العباس ؛ ١٩
أحمد بن صمادح ، معز الدولة ؛ ١٧٣

أحمد بن عباس ؛ ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦٢ — ١٦٤ ، ٢٢٢ ، ٤٣٦ ؛ ٤٣٧
أحمد بن عبد الملك بن هود (سيف الدولة) ؛ ٢٩٣
أحمد بن محمد بن حجاج ؛ ٤٤٢
أحمد بن محمد بن قاسم (عز الدولة) ؛ ٢٦١
أحمد بن يحيى اليحصبي ؛ ٤٠
إدريس المتأيد بالله ؛ ٣٩ ، ٦١ ، ٨٣ ، ١٣٠ ، ١٥٢
إدريس بن يحيى السامي ؛ ١٣١ ، ١٤٠
إدريس بن يحيى العالي ؛ ٣٨ ، ١٣١
أرمزندة ؛ ٤٠٥
آرياس كونثالث ؛ ٣٩٢
الإسترداد ؛ ١١٦ ، ٤١٣
إسحاق بن عبد الله البرزالي ؛ ٨٤
إسحاق بن محمد البرزالي ؛ ١٥١
إسكندر الثاني ، البابا ؛ ٢٧٤
الإسلام ؛ ٦٢ ، ٩١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٦٥ ، ٤١١
إسماعيل بن عباد ، القاضي ؛ ٢٤ ، ٣٢ — ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٦١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٤٠
إسماعيل بن ذى النون (الظافر) ؛ ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ٢٥٤ ، ٢٦٩
إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٣٠ ، ١٥٠
إسماعيل بن المعتضد بن عباد ؛ ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٤ ، ١٣٥
إسيدورو ، القديس ؛ ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٠٢
آسين بلا ثيوس ؛ ٤٣٢
أصبغ بن السمح ؛ ٤٣٥
إعتماد الرميكية ؛ ٦٤ ، ٦٦ — ٦٨ ، ١٨٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ — ٣٦٣
الأغلب ، حاكم ميورقة ؛ ١٩٧ ، ٢٠٢
أفلح الصقلبي ؛ ١٥٩ ، ١٧٥
الأفضل شاهنشاه ؛ ٢٩٤
الإقطاع ؛ ٤٠٢ ، ٤٠٣
ألبارهانيس ؛ ١١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥١
إلبيرة ابنة سانشو غرسيه ؛ ٣٧٧
إلبيرة ابنة فرناندو ؛ ٣٨٩ ، ٣٩٢
ألفونسو الأول الأرجوني ؛ ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٤
ألفونسو الخامس ؛ ١٠٢ ، ٢٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣
ألفونسو السادس ؛ ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٠٨ — ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ — ٢٢٩ ، ٢٣٦ — ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ — ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ — ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ — ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ — ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣
ألفونسو بن فرناندو ، ملك ليون ؛ ٢٣٣
ألفونسو العالم ؛ ٢٥٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥
ألفونسو ريمونديس ؛ ٢٩٣ ، ٤٠٤
ألفونسو المحارب (ابن ردمير) ؛ ٢٩١ — ٢٩٣
أمارى ، المستشرق ؛ ١٨٨ ، ١٩٣
أم الكرام بنت المعتصم ؛ ١٧٠ ، ٤٢٩
أودو أمير برجونية ؛ ٣٣١
أوراكا ، ابنة فرناندو ؛ ١٠٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ — ٣٩٤
أوراكا ابنة ألفونسو السادس ؛ ٤٠٤ ، ٤٠٦
أوربان الثاني ؛ ٤٠٢

ب — ث

البابوية ؛ ١٩٢
باديس بن حبوس ؛ ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦١ — ٦٣ ، ٨٣ ، ١٢٦ — ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ — ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٣٤١
باديس بن المنصور ؛ ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥

باديس بن أبي نور اليفرني ؛ ٤٦ ، ١٥٣
البحتري ، الشاعر ؛ ٤٢٥
برنجير ، الكونت ؛ ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٤٠٨
برتولا ؛ ٣٩١
برمودو الثاني ؛ ٣٧٧
برمودو الثالث ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠
برنار ، الأسقف ؛ ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢
بشير الفتى ؛ ١٠٨
بطي بن إسماعيل ؛ ٣٤٤ ، ٣٤٩
بقي بن مخلد؛ ٢٠٧
بلج بن بشر القشيري ؛ ٣٣
بلقين بن باديس ، سيف الدولة ؛ ٦٣ ، ١٣٤
بلقين بن حبوس ؛ ١٢٧ ، ١٦٣
بلقين بن زيري بن مناد ؛ ١٢١ ، ٣٠٦
بلقين بن ماكسن ؛ ١٢٩ ، ١٦٣
بندكت ، القديس ؛ ٣٨٧
بندكتوس الثاني ، البابا ؛ ١٩٢
بيدال ، منديث ؛ ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٨٥، ٣٢٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤١٣ ، ٤٣٤
بيدرو الأول ملك أراجون ؛ ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٤٠٦
تميم بن الآثر ؛ ٣٠٠
تميم بن بلقين ؛ ٦٣ ، ٧٧ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩
تميم بن يوسف ، أبو الطاهر ؛ ٢٩٢ ، ٣٧٢ ، ٤٠١ ، ٤١٤
تيبولوس ، الشاعر اللاتيني ؛ ٤٢٥
التيجاني ، أبو عبد الله ؛ ٣٥٨
تيولوثان بن تيكلا ن الصنهاجي ؛ ٣٠٠
ثابت بن محمد الجرجاني ، أبوالفتوح ؛ ١٢٧، ١٣٠ ، ١٣١

ج — ز

جابر بن المعتضد؛ ٦٢ ، ١٣٢
جبر الدولة الحاجب ؛ أنظر ابن رزين ، عبد الملك
جرور الحبشي ؛ ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
جعفر بن إبراهيم (ابن الحاج اللورق) ؛ ٢٧٠
جعفر بن شرف ؛ ١٦٨ ، ٤٢٩
جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ؛ ١٤٨ ، ١٤٩
جلالي بن زاوي ؛ ١٢٦
جود النصرانية أم مجاهد ؛ ١٩٣ ، ١٩٥
جولدسيهر ، المستشرق ؛ ٢٠٧ ، ٢٠٨
جوهر الصقلي ؛ ١٢١
جهور بن عبد الملك البختي ؛ ٢١
جيوم دي مونري ؛ ٢٧٤
الحاج بن محقور ؛ ٩٨
الحاجب المنصور ، أنظر المنصور بن أبي عامر
حباسة بن ماكسن ؛ ١٢٢ ، ٢٣
حبوس بن ماكسن ؛ ١٢٢ ، ١٢٥ — ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٦٣
الحجاري ، صاحب المسهب ؛ ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٣٥٨
الحروب الصليبية ؛ ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٤٠٢
حسن بن مجاهد (سعد الدولة) ؛ ١٩٥ ، ٢٠٠، ٢٠١
الحصري الضرير ؛ ٣٥٧
الحكم المستنصر ؛ ١١ ، ٨١ ، ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٤٩
الحكم بن هشام ؛ ٢١ ، ٤٠٧
خلف الحصري ؛ ٣٧ ، ٣٨
خلف بن حيان ؛ ٤٣٨
خلف بن عباس القرطبي ؛ ٤٣٧
خلف بن فرج ، السميسر ؛ ١٦٩ ، ٣٤٠
خلف بن نجاح ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ١٠٣
خمينا ، زوجة السيد ؛ ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٤٠٠
خوستا ، القديسة ؛ ٤٨ ، ٣٨٤
خيران العامري ؛ ٦٤ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٥٨ — ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٩ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٤٣١
خيرة الصقلبي ؛ ٢١٨
دقلديانوس ؛ ٣٨٤
دوزى ، رينهارت ؛ ١٩٩ ، ٢٥١ ، ٣٦٤
دون ديجو ، ابن السيد ؛ ٢٤٧
ذو النون بن سليمان ؛ ٩٥
رامون برنجير ، الكونت ؛ ٦٥ ، ١٨٠ ، ٢٣٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٣٧٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
رامون برنجير ، الثالث؛ ٢١١، ٢١٢، ٤٠٨
رامون بوريل ؛ ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٤٠٧
راميرو ، الإنفانت (نافار) ؛ ٢٨٥
راميرو الأول ، ملك أراجون ؛ ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٠٥
راميرو بن سانشو الكبير ؛ ٣٧٨
راندة ، حاكم قلمرية ؛ ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٨٤
رزين البرنسي ؛ ٢٥٣
الرشيد بن المعتمد ؛ ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٨٠
رشيد الدولة بن صمادح ؛ ١٧٠ ، ٤٢٩
رفيع الدولة بن صمادح ؛ ٧١ ، ١٧٠ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠
رميك ، مولى اعتماد ؛ ٦٧ ، ٣٦٣
ردريجو دى بيبار ؛ أنظر السيد إلكمبيادور
رهبان سيلوس ؛ ٣٩١ ، ٣٩٥
الريكونكستا (الإسترداد)؛ ١١٦ ، ٣٩٨، ٤١٣
ريمون البرجوني ، الكونت ؛ ٣٧٠ ، ٤٠٤
ريتان ؛ ٢٥١
زاوى بن زيرى ؛ ١٢٢ — ١٢٦ ، ١٩٦ ، ٢٦٦
زائدة الأندلسية ؛ ٧٣ ، ١١٠ ، ٢٩٢ ، ٣٤٥ — ٣٤٨ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
زبيدة ، السلطانة ؛ ٢٤١
الزرقالى القرطبي ؛ ٤٣٥
زهير العامرى ؛ ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦١— ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٥ — ١٧٧ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧
زيرى بن عطية ؛ ١٥٤ ، ٣٠٤
زيرى بن مناد ؛ ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤٩
زينب بنت إسحاق النفزاوية ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٢

س — ط

سان جيل ، الكونت دى ؛ ٣٣١
سانشا ، الملكة ؛ ٣٨٥ ، ٣٨٩
سابور الفارسي ؛ ٨١ ، ٨٢
سانشو ، الإنفانت (ابن زائدة) ؛ ٢٩٢ ، ٣٤٥ — ٣٤٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
سانشو ملك أراجون ؛ ٣٨٩
سانشو ملك نافار ؛ ٢٨٠ ، ٢٨٩
سانشو ملك جليقية ؛ ٤٨، ٧٢
سانشو الكبير ؛ ٨٥ ، ٢٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩
سانشو راميرز ؛ ١٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
سانشو غرسية (قشتالة) ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢
سانشو غرسية (نافار) ؛ ٣٨١
سانشو ابن فرناندو ؛ ٤٨ ، ٧٢ ، ١٠٢ ، ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣٨٩ — ٣٩٤
سراج الدولة بن على بن مجاهد ؛ ٢٠٩
سسندو دافيدس (ششنند) ؛ ٥٨ ، ٨٦ ، ١١٢ ، ١١٤، ١٤٣، ٢٢٦ ، ٣٨٥ ، ٣٩٧
سعيد بن أحمد الطليطلي ؛ ٤٣٥
سعيد بن خيرة ؛ ٨٧
سعيد بن هارون ؛ ٤٣
سكوت البرغواطي ؛ ٧٧ ، ٣١٢
سليمان بن الحكم ، المستعين ؛ ١٣ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ٩٦ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٥٤ ، ٣٨٢

سليمان بن مشكيان ؛ ٢٠٢
سليمان بن هود ، سعد الدولة ؛ ٢٩٠ ، ٢٩٣
سماجة ، الوزير ؛ ١٤٢ ، ١٤٤
سيجورد ، ملك النرويج ؛ ٢١١
السيد الكمبيادور ؛ ٧٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٣٢ — ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ — ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥ ، ٣٣٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣
سير بن أبي بكر اللمتونى ؛ ٣٠٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ — ٣٥٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ — ٣٧٠
سير بن يوسف بن تاشفين ؛ ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٩٨
شارلكان ، الإمبراطور ؛ ٢٤٩ ، ٤٠٧
الشدة العظمى ؛ ٢٠٢
الصاحب بن عباد ؛ ١٧٨
صالح بن طريف البرناطى ؛ ٣٠٦
صمادح بن صمادح ، أبو عتيبة ؛ ١٦٥ ، ١٦٦
صمادح بن عبد الرحمن ؛ ١٦٤
طارق بن زياد ؛ ٢٥٣
الطغنرى ، محمد بن مالك ؛ ٤٤٢

ع — غ

عباد بن المعتمد ، سراج الدولة ؛ ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤
عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ ٣٩
العباس بن المتوكل بن الأفطس ؛ ٣٦٩
عبد الجبار بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٦٠ ، ٣٦١
عبد الجليل بن وهبون ؛ ٤٢٧
عبد الرحمن الداخل ؛ ١١ ، ١٣ ، ٢١ ، ٣٠٠
عبد الرحمن الغافقى ؛ ٢٦٠
عبد الرحمن المرتضى ؛ ١٣ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٩٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧
عبد الرحمن الناصر ؛ ١١ ، ١٢ ، ٢١ ، ٥١ ، ١٢٢ ، ١٩٦ ، ٣٣٠ ، ٣٨٢
عبد الرحمن بن أسبط ؛ ٧٩ ، ٣١٨
عبد الرحمن بن جهور ؛ ٢٦ ، ٢٩
عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٢١ ، ١٧٤
عبد الرحمن بن المنصور ؛ ٢١ ، ١٢٢ ، ١٥٨— ١٦٠ ، ١٨٨
عبد الرحمن بن ذى النون ؛ ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠
عبد الرحمن بن عبد الله المهاجر ؛ ١٦٤
عبد الرحمن بن متيوه ؛ ٩٧
عبد الرحمن بن مطرف التجيبى ؛ ٢٦٦
عبد الرحمن بن يسار ؛ ٢١٦
عبد العزيز البكرى ، أبو زيد ؛ ٢٤ ، ٤٣ ،
عبد العزيز بن أفلح ؛ ٢١٨
عبد العزيز بن سابور ؛ ٢٣ ، ٨٢ ، ٨٣
عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ؛ ٢٤ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ — ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ — ٢٢٣ ، ٢٦٧
عبد الله ، حاكم ميورقة ؛ ١٩٧
عبد الله المرتضى ، حاكم ميورقة ؛ ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
عبد الله بن الناصر ؛ ٥١
عبد الله بن بلقين ؛ ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١١١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤١ — ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٣٣ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ — ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩
عبد الله بن حكيم ؛ ٢٦٩
عبد الله بن سابور ؛ ٢٤
عبد الله بن سلام ؛ ٤٧ ، ٤٨ ، ٨٤
عبد الله بن قاسم الفهرى ؛ ٢٣٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١
عبد الله بن محمد ، الأمير ؛ ١٢ ، ٢١ ، ٢٦٥
عبد الله بن محمد الأوسى ؛ ٢٠٦
عبد الله بن محمد ، جناح الدولة ؛ ٢٦١ ، ٢٦٢
عبد الله بن مريم ؛ ٣٤ ، ٤٠
عبد الله بن مسلمة ، أنظر المنصور بن الأفطس

عبد الله بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٢٠
عبد الله بن المنصور ؛ ٥١ ، ٢٦٦
عبد الله بن ميمون ؛ ٢١٢
عبد الله بن ياسين الجزولى ؛ ٣٠١ — ٣٠٨ ، ٣١٣
عبد الملك بن السراج ؛ ٢٠٧
عبد الملك بن مروان ؛ ٢١
عبد الملك بن المنصور ؛ ١٢٢ ، ٤٣١
عبد الملك بن جهور ، أنظر ابن جهور ، أبو الوليد
عبد الملك بن سابور ؛ ٨٢ ، ٨٣
عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر ، المظفر ؛ ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠١، ٢٢٣ — ٢٢٥
عبد الملك بن قطن ؛ ٢٦٠
عبد الملك بن متيوه ؛ ٩٧
عبد الملك بن المستعين ، عماد الدولة ؛ ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
عبد الملك بن هذيل ، أنظر ابن رزين
عبد المنعم بن عبد الله التروجى ؛ ٢٠٦
عبد الواحد المراكشى ؛ ١٧١ ، ٢٠٩
عبدون بن خزرون ؛ ٤٥ ، ٥٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥
عبد شمس بن وائل ؛ ٢٩٩
عبيد الله الخراز ؛ ٨٥
عبيد الله بن أدهم ؛ ٣١٧
عثمان بن أبى بكر بن عبد العزيز ؛ ١٨٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
عزيز بن محمد البرزالى ، المستظهر ؛ ٤٧ ، ١٥١
عطاف بن نعيم ؛ ٣٣
على بن حمود ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٩٦ ، ٢٦٦
على بن عبد الله البجلى ؛ ٣٠٥
على بن مجاهد ، إقبال الدولة ؛ ٥٦ ، ١٣٨ ، ١٦٨ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ — ٢٠٤ ، ٢٠٨ — ٢١٠ ، ٢٨١ ، ٤١١ ، ٤٣٤
على بن يوسف بن تاشفين ؛ ٢١٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣١٠ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ ، ٤٠١ ، ٤١٤
عمر بن سليمان المسوفى ؛ ٣٠٩
عمر بن عبد العزيز ؛ ١٥
عنبر الفتى ؛ ١٥٩
عيسى بن أبى الأنصارى ؛ ٣٠٦
عيسى بن محمد ؛ ٤٤
عيسى بن مزين ، المظفر ؛ ٤٤
غرسية أردونس ؛ ٢٨٨ ، ٢٨٩
غرسية ملك نافار ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٣٨٠ ، ٤٠٥
غرسية ملك جليقية ؛ ١٠٢ ، ٣٩٤
غرسية خيمنس ؛ ٣٣٤
غرسية سانشيز ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
غرسية فرناندز ؛ ٣٧٧
غرسية دى قبره ؛ ٤٠١
غزوة برشلونة ؛ ١٧٦
غرسية بن فرناندو ؛ ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٢
غلبرت ، الأسقف ؛ ٢٠٣
الغزالى ، أبو حامد ؛ ٣٣٨

ف — ق — ك

فاطمة بنت ... ير بن يحيى ؛ ٣١٢
فائق الخادم ؛ ٨١
الفتح بن المعتمد (المأمون) ؛ ١٨١، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٨ ، ٣٥٦
الفتح بن خاقان ؛ ٨٨ ، ١٠٤ ، ١٤١ ؛ ٢٥٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦، ٤٣٧، ٤٤٠
فتح بن خلف اليحصبى ؛ ٤٢
الفتح بن موسى بن ذى النون ؛ ٩٦
الفضل بن المتوكل بن الأفطس ؛ ١١١ ، ٣٦٩

فتوح بن أبي نور اليفرني ؛ ٤٦
فرنان كونثالث ، ٣٧٧
فرناندو الأول ؛ ٤٨ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٨٥ — ٨٧ ، ٩٨ — ١٠٢ ، ١١٢ ، ١٧٧ ، ٢٢٣ — ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ — ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤٠٥
فرناندو أنسوريز ؛ ٣٩٠
فرويلا الثاني ؛ ٢٣٣
القادر بن يحيى بن ذى النون ؛ ٧١ ، ٩٠ ، ١٠٦ — ١٠٩ ، ١١٢ — ١١٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٧ — ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٣٣٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤١٣
القاسم بن حمود المستعلى ؛ ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٢ ، ١٣١ ، ١٨٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
القاسم بن محمد بن خزرون ؛ ١٥٥ ، ١٥٦
كارل مارتل ؛ ٣٣٠
كباب بن تميت ؛ ١٤٥
كوديرا ، المستشرق ؛ ٣٣٠
الكورتيس ؛ ٤٠٣ ، ٤٠٤
كونزالز بن سانشو ؛ ٣٧٨
كونستانس ، الملكة ؛ ٣٣١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤

ل — م

لافونتي ، المؤرخ ؛ ٣٧٩
لب بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢
لبيب العامرى ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣
لذريق الكنبيطور ؛ أنظر السيد الكمبيادور
لقوط بن يوسف المغراوى ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦
ماريانا ، المؤرخ ؛ ١١٣
ماكسن بن باديس ؛ ١٣٨ ، ١٤٢
ماكسن بن زيرى بن مناد ؛ ١٢٢
ماكسن بن ماكسن ؛ ١٢٢
المأمون بن ذى النون ، يحيى ؛ ٢٨ — ٣٠ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٧ — ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ — ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ — ٣٩٥ ،
المأمون البطائحى ؛ ٢٩٥
مالك بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦
مالك بن جابر بن لبيد ؛ ١٧٤
مالوتو ، قائد السرادنة ؛ ١٩١
مبارك العامرى ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٦٧ ، ٣٧٣ ، ٤٣١
مبشر بن سليمان ، ناصر الدولة ؛ ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤٢٧
المتنبى ، أبو الطيب ؛ ٨٧ ، ٤٢٥ ، ٤٣١
المتوكل بن الأفطس ، عمر ؛ ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٧١ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٨ — ٣٧١ ، ٣٨٤ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤
مجاهد العامرى ؛ ٢٤ ، ٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٨٨ — ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٤١١ ، ٤٣١ ، ٤٣٤
المجوسية ؛ ٣٠٠
محمد ، النبى العربى ؛ ٩١ ، ٢٠٨
محمد بن الأحمر ، الفقيه ؛ ٧٩
محمد بن إدريس المستعلى ؛ ١٣١
محمد بن إدريس المهدى ؛ ٣٨ ، ١٣١
محمد بن إسماعيل بن عباد ، أبو القاسم ؛ ٣٢ — ٣٩ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٢ — ٨٤ ، ٩٧ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٣٨٥
محمد بن الأفطس ؛ ٨٢ ، ٨٣

محمد بن تاشفين ؛ ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٦٨
محمد بن تميم الكدالي ؛ ٢٠٩
محمد بن تيفاوت اللمتوني ؛ ٣٠٠
محمد بن جهور بن عبد الله ؛ ٢١
محمد بن خزرون ؛ ٤٦ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦
محمد بن خلف الصدفي ، أنظر ابن علقمة
محمد بن سعيد بن هارون ؛ ٤٣
محمد بن سليمان ؛ ٣٧ ، ٥٢
محمد بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢
محمد بن عبد الرحمن ، الأمير ؛ ٩٥ ، ٩٦
محمد بن عبد الرحمن التجيبي ، الأنقر ؛ ٢٦٥
محمد بن عبد الله البرزالي ؛ ٣٦ ، ٤٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٣٠ ، ١٤٨ — ١٥١
محمد بن عبد الله بن قاسم ، يمن الدولة ؛ ٢٦١
محمد بن عبد الملك بن المنصور ؛ ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
محمد بن عيسى ، عميد الدولة ؛ ٤٤
محمد بن عيسى بن مزين ، الناصر ؛ ٤٤
محمد بن القاسم بن حمود ؛ ٣٨
محمد بن معاذ بن اليسع ؛ ٣٠٦
محمد بن نوح الدمري ؛ ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ١٥٣ ، ١٥٥
محمد بن هشام المهدي ؛ ١٣ ، ٥٢ ، ١٢٣ ، ١٥٨ — ١٦٠ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٣٨٢ ، ٤٠٧
محمد بن هشام التجيبي ؛ ٢٦٥
محمد بن يحيى اليحصبي ، عز الدولة ؛ ٤١ — ٤٣
محمد بن يوسف التميمي ؛ ٧١
مخلوف بن ملول ؛ ١٣٢
مدرك التلكاني ؛ ٣٠٩
مروان بن جهور بن عبد الملك ؛ ٢١
المستظهر بالله ، الأموي ؛ ١٣ ، ٤٣١
المستظهر بالله العباسي ؛ ٣١٤
المستعين بالله بن هود ، سليمان بن محمد ؛ ٩٨ — ١٠٠ ، ١٠٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ — ٢٧٢
المستعين بن هود الأصغر ، أحمد ؛ ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ — ٢٩٠ ، ٣٢٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨
المستعين بن المؤتمن بن هود ؛ ٢٩٤
المستكفي بالله ، الأموي ؛ ١٣
المستنصر بالله الفاطمي ؛ ٢٠٢
مسعود بن وانودين ؛ ٣٠٤
مسكن بن حبوس ؛ ١٣٨
المسيح ؛ ٢٨٢
مطرف بن إسماعيل بن ذي النون ؛ ٩٦
مظفر العامري ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٤٣١
المظفر بن الأفطس ، محمد بن عبد الله ؛ ٢٩ ، ٤٢ ، ٨٤ — ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤
المظفر بن هود ، يوسف ؛ ٢٣٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
المعتد بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٥٦
المعتصم بن صمادح ، أبو يحيى ؛ ٤٨ ، ٧١ ، ٧٨ ، ١٦٧ — ١٧٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٦٦ ، ٣٩٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠
المعتضد بن عباد ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٠ — ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٤ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ — ١٥٦ ، ٢٠٠ ، ٣٨٣ — ٣٨٥ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٦
المعتضد بالله العباسي ؛ ٥٣ ، ٥٤
المعتمد بن عباد ؛ ٢٨ — ٣٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ — ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ — ٧٩ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،

١٤٥ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ — ٣٤٨ ، ٣٥٠ — ٣٥٣ ، ٣٥٥ — ٣٦٠ ، ٣٦٣ — ٣٦٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٢٤ — ٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤١

المعرى ، أبو العلاء ؛ ٨٧

المعز لدين الله الفاطمى ؛ ١٢١

المعز بن ابن إسحق البرزالى ؛ ٨٤

المعز بن باديس ؛ ٣١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

المعز بن يوسف بن تاشفين ؛ ٣١٥ ، ٣١٦

معز الدولة بن صمادح ؛ ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ٣٢١ ،

معن بن صمادح ، أبو الاحوص ؛ ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٢٢

معنصر المغراوى ؛ ٣١١

مقاتل العامرى ؛ ٢٧٣

المقتدر بن هود ؛ ٦٦ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ، ٢٠٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦

المقرى ، شهاب الدين ؛ ٣٦٤

مناد بن محمد بن نوح ، عماد الدولة ؛ ٤٦ ، ١٥٥

المنذر بن محمد ، الأمير ؛ ٢١

المقرى شهاب الدين ؛ ٣٦٤

مناد بن محمد بن نوح ، عماد الدولة ؛ ٤٦ ، ١٥٥

المنذر بن محمد ، الأمير ؛ ٢١

المنذر بن هود ؛ ٢٣٤ — ٢٣٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ — ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٧٩ ، ٤٣١

المنذر بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢

منذر بن يحيى التجيبى ؛ ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢١٨ — ٢٢٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ — ٢٦٨ ؛ ٢٧١ ، ٢٧٣

المنذر بن يحيى ، معز الدولة ؛ ٢٦٨ ، ٢٦٩

المنصور بن أبى عامر ؛ ١١ ، ١٢ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٦٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٤٠٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٨

المنصور بن الأفطس ، عبد الله بن مسلمة ؛ ٨٢ — ٨٤ ، ٣٨٥

المنصور بن الأفطس ، ولد عمر المتوكل ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٦٩

المنصور بن بلكين ؛ ١٢١

منديث كونثالث ، الكونت ؛ ٣٧٧

المؤتمن بن هود ؛ ٦٦ ، ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٨٤ — ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٤٣٦

موجيتوس (موسيتو) اسم مجاهد ؛ ١٩٤

موسى بن ذى النون ؛ ٩٥

موسى بن نصير ؛ ١٩١

مؤمل ، مولى باديس ؛ ٣٤١

ن — ى

الناية ، وزير باديس ؛ ١٣٤ ، ١٣٩

نبيل العامرى ؛ ١٥٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤

النصرانية ؛ ١١٥ ، ١٩٥ ، ٢٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤١٣ ، ٤٢٢

النعمان بن المنذر ؛ ٣٣

نكل ، الأستاذ ؛ ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧

نوح بن تزيرى الدمرى ؛ ١٥٤

هذيل الصقلبى ؛ ١٢٩

هذيل بن عبد الملك ؛ أنظر ابن رزين

هشام بن ذى النون ؛ ١٠٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥

هشام بن عبد الرحمن ؛ ٢١

هشام المعتد بالله ؛ ١٣ ، ٢٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

هشام المؤيد بالله ؛ ١٣ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦

هشام الوقشى ؛ ٤٣٥

واجاج بن زلوا اللمطى ؛ ٣٠١

واضح الفتى العامرى ؛ ٩٦ ، ١٥٩ ، ٢٢٠ ، ٣٠٦ ، ٣٨٢ ، ٤٠٧

وانور بن أبى بكر اللمتونى ؛ ٢١٣

ولادة بنت المستكفى ؛ ٢٥ ، ٧١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧

الونشريشى ، أحمد بن يحيى ؛ ٣٤٨

يحيى التجيبى الكبير ؛ ٢٦٩

يحيى بن إبراهيم الجدالى ؛ ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٣

يحيى بن الأفطس ، المنصور ؛ ٨٧ ، ٨٨

يحيى بن المنذر التجيبى ، المظفر ؛ ٢٦٨ ، ٢٧٠

يحيى بن سكوت ؛ ٣١٢ ، ٣٦٦

يحيى بن عبد الرحمن التجيبى ؛ ٢٦٦

يحيى بن عبد الملك بن رزين ؛ ٢٥٩

يحيى بن على بن حمود ، المعتلى ؛ ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ — ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٨٣ ، ١٢٥

يحيى بن على بن خلدون الأندلسى ؛ ١٤٨

يحيى بن عمر بن تلاكاكين ؛ ٣٠٢ — ٣٠٥

يحيى بن المنذر بن هود ؛ ٤٣١

يدير بن حباسة بن ماكسن ؛ ١٢٧

يدو بن يعلى ؛ ١٥٢

يزيد الراضى ؛ ٦٦ ، ٧٩ ، ٣١٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦

يعلى العامرى ؛ ٢٧٣

يوسف بن بخت بن أبى عبده ؛ ٢١

يوسف بن تاشفين ؛ ٧٤ ، ٧٧ — ٨٠ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ — ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ — ٣٤٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ — ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٩٨ — ٤٠١ ، ٤٢٨

يوسف بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢

يوسف بن محمد البلوى ؛ ٢٠٧ ، ٣١٩

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٦٩/٥٢٩٤

دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الرابع

نهاية الأندلس

وتاريخ العرب المتنصرين

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولى : 977-505-082-4

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة[1]

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٩٤٩، وصدرت طبعته الثانية فى سنة ١٩٥٨ ، مدعمة بكثير من المراجع والوثائق التى أتيح لى أن أجمعها خلال رحلاتى وبحوثى العديدة فى اسبانيا والمغرب وغيرهما .

وقد قمت حتى اليوم باثنتى عشرة رحلة دراسية فى شبه الجزيرة الإسبانية ، وزرت سائر المدن الأندلسية القديمة فى اسبانيا والبرتغال ، وعنيت بدراسة سائر ما بها من الآثار والأطلال والنقوش الأندلسية ، كما زرت سائر المدن الإسبانية النصرانية التى لها علاقة بتاريخ الأندلس ، فى قشتالة ، وناڤار ، وليون وجليقية ؛ ووقفت خلال هذا التجوال الشامل فى أنحاء شبه الجزيرة ، على كثير من خواصها وطبائعها الجغرافية والإقليمية ، وكثير من تقاليدها وخواصها الاجتماعية والأدبية ، وقد كان لذلك كله ، أعمق الأثر فى نفسى ، وفى إمدادى بكثير من الآراء والفكر الجديدة ، المتعلقة بتاريخ الأندلس والأمة الاندلسية .

وهناك حقيقة سبق أن نوهت بها فى مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وهى أن المصادر الإسلامية بالنسبة لهذه المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية قليلة ضنينة . أجل لقد انتهت إلينا عن تاريخ مملكة غرناطة وأحوالها طائفة من المراجع القيمة ، فى مقدمتها كتب الوزير ابن الخطيب ، وماكتبه عنها ابن خلدون حتى حوادث عصره ؛ وكذلك انتهت إلينا طائفة حسنة أخرى ، عن تاريخ مملكة بنى مرين ، قرينة مملكة غرناطة، وعضدها الأيمن فى الجهاد . ولكن هذه المراجع الإسلامية تقف بنا عند أواخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، ولا نكاد نظفر بعد ذلك ، خلال القرن التاسع الهجرى ، وهو بالنسبة لمملكة غرناطة ، عصر الانحلال والسقوط النهائى ، بأية مراجع إسلامية ذات شأن ،

---

(١) هذه هى مقدمة الطبعة الثانية مع تعديلات يسيرة .

وليس لدينا من تراث الرواية الإسلامية عن تلك المرحلة القاتمة ، من تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس ، سوى رواية صاحب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر» عن سقوط غرناطة ، وما نقله إلينا المقرى من شذور قليلة متفرقة ، فى نفح الطيب ، وفى أزهار الرياض ، عن تلك المرحلة الأخيرة من حياة غرناطة .

أما عن مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وهم بقايا الأمة المغلوبة ، فلسنا نظفر من الرواية الإسلامية إلا بأقوال وشذور يسيرة ، معظمها أيضاً مما نقل إلينا المقرى فى كتابيه السابقين . ولهذا كان جل اعتمادنا فى استعراض هذه المرحلة الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية ، على المصادر الغربية ، والإسبانية بنوع خاص ، ومنها بعض المصادر المعاصرة ، التى تروى لنا تفاصيل المأساة عن مشاهدة فعلية ؛ وإذا كانت المصادر الإسبانية ، يفيض معظمها بالمؤثرات القومية والدينية ، فإنه لما يشهد للبحث الغربى بالاعتدال والروية ، وروح الإنصاف ، ما يبديه فى مواطن كثيرة ، من تقدير مؤثر لعبقرية الأمة المغلوبة وحضارتها ، وروعة كفاحها للذود عن حياتها وكرامتها وتراثها ، وما يبديه بالأخص من عطف على محنتها وآلامها ، ومن استنكار لخطط السياسة الإسبانية ، وأساليب محاكم التحقيق فى العمل على إبادتها . ويكفى أن ننقل فى هذا الموطن تلك العبارة الموجزة القوية ، التى يجمل فيها الدكتور « لى » ، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع ، مأساة العرب المتنصرين ، إذ يقول فى مقدمة كتابه : « إن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التى اتحدت لتنحدر بإسبانيا فى خلال قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس ، إلى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى » .

* * *

ومن ثم فقد وطنت النفس على ألا أدخر وسعاً ، فى تقصى المصادر والوثائق المتعلقة بهذه المرحلة الغامضة القاتمة ، من تاريخ الأمة الأندلسية — مرحلة الإنحلال والفناء — والسعى وراءها أينما وجدت ، سواء منها العربية أو القشتالية ؛ وأعتقد أننى بذلت فى هذا السبيل جهد المستطاع ، ووفقت إلى نتائج ذات شأن ، سواء بالنسبة لتاريخ مملكة غرناطة ، أو تاريخ الموريسكيين . ففى خلال الرحلات العديدة التى قمت بها حتى اليوم فى شبه الجزيرة الإسبانية ، لم أترك موطناً من

مواطن البحث والدرس ، أومستودعاً من مستودعات المصادر والوثائق المخطوطة أوالمطبوعة إلا قصدته ، ونهلت منه ؛ وقد أنفقت أوقاتاً عديدة فى البحث فى المجموعات العربية المخطوطة ، التى تحتفظ بها مكتبة مدريد الوطنية ، وأكاديمية التاريخ ، والإسكوريال ، وغرناطة ، وأنفقت كذلك أوقاتاً أوفى فى البحث والتنقيب وراء الوثائق المخطوطة ، الأندلسية ، والمغربية ، والمدجنية ، والمستعربية العربية ، والوثائق المخطوطة القشتالية ، وذلك سواء فى دار المحفوظات التاريخية بمدريد ، أو الإسكوريال ، أو دار المحفوظات العامة فى شنت منكش Simancas ، أو محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة ، أو محفوظات مملكة بلنسية ، أو بلدية غرناطة ، وكتدرائية سرقسطة ، وبلدية بنبلونة ، وغيرها من المجموعات المحلية الخاصة ، وقد ظفرت من وراء ذلك كله بمجموعة زاخرة من الوثائق التى تلقى أعظم ضوء ، على هذه المرحلة المشجية من تاريخ الأمة الأندلسية ، ومنها وثائق عديدة لم تر الضياء من قبل ، وهى تمدنا بكثير من الحقائق والتفاصيل .

وقد ألفيت بغيتى بنوع خاص ، فى دار المحفوظات الإسبانية العامة ، فى شنت منكش (سيمانقا) ؛ وشنت منكش هى قاعة أندلسية قديمة تحيط بها محلة صغيرة ، وتقع جنوب غربى مدينة بلد الوليد Valladolid ، على قيد عشرة كيلومترات منها ، وقد اتخذت منذ القرن السادس عشر دارا للمحفوظات الملكية الإسبانية ، وهى ما تزال إلى يومنا مستودع هذه المحفوظات الشهيرة ، التى تضم مجموعات عديدة زاخرة من أهم وأنفس الوثائق التاريخية والسياسية والقضائية ، ومنها عدد من الوثائق الأندلسية والمغربية النادرة . وقد اطلعت فيها على عدد كبير من الوثائق الأندلسية والقشتالية المتعلقة بتاريخ مملكة غرناطة ، ومجموعة كبيرة من المراسيم الملكية الصادرة إلى العرب المتنصرين ، ومن وثائق ديوان التحقيق المتعلقة بهم وبمحاكماتهم ، وحصلت على صور فوتوغرافية لهذه الوثائق ، التى استقينا من محتوياتها خلال هذا الكتاب ، كثيراً من الحقائق والتفاصيل ، ونشرنا لوحات من بعضها .

كما أوردت كثيراً من محتويات الوثائق المدجنية والمستعربية ، التى استطعت الحصول عليها من مختلف المجموعات الإسبانية التى سبق ذكرها ، وهى تلقى ضوءاً كبيراً على حياة المدجنين وأحوالهم فى العصور المتأخرة ، التى انقطعت فيها كل

صلاتهم بماضيهم القديم ، وبدينهم ولغتهم ، وأمتهم الأصيلة .

وبالرغم من أن مجموعة الإسكوريال الأندلسية ، لا تحتوى فيما يتعلق بتاريخ مملكة غرناطة ، عدا كتب ابن الخطيب ، على كثير من الآثار ، ولم يكن بها من قبل عن المرحلة الأخيرة سوى نسخة مخطوطة من كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » الذى عنى بنشره المستشرق ميللر ، ثم فقد بعد نشره ، فإنى وقفت خلال بحوثى بها على طائفة من النصوص الهامة ، وردت فى بعض الرسائل المغمورة ، مثل رسالة « أسنى المتاجر » عن هجرة المدجنين ، ورسالة ابن خاتمة عن الوباء الكبير . وقد ألفيت بالطبع فى كتب ابن الخطيب — ومنها بالإسكوريال عدة — مادة نفيسة ، وانتفعت بها فى كثير من المواطن . بيد أنى لم أجد مع الأسف هنالك شيئاً يتعلق بالموريسكيين أو العرب المتنصرين .

ووقفت خلال بحوثى بمكتبة الڤاتيكان الرسولية برومة ، على مؤلف مخطوط هام لرحالة ومؤرخ مصرى ، هو عبد الباسط بن خليل الحنفى ، عنوانه « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » وقد وردت به فقرات كثيرة عن حوادث غرناطة الأخيرة ، وقد شهدها الرحالة المذكور ، أو وقف عليها خلال زيارته لغرناطة أيام السلطان أبى الحسن . وعثرت هنالك فوق ذلك على وثيقة فقهية هامة بها نصائح وتوجيهات دينية للعرب المتنصرين ، وقد نشرت برمتها فى موضعها من الكتاب .

كما وقفت خلال بحوثى بالمغرب على بعض النصوص المفيدة ، ومنها رواية مخطوطة ضافية عن أحوال العرب المتنصرين وموقف السياسة الإسبانية منهم ، كتبها موريسكى هاجر وعاد إلى الإسلام فى أواخر العهد الموريسكى .

وقد كان لما تضمنته هذه الوثائق العديدة ، وما تلقيه من أضواء هامة على كثير من الحوادث والتطورات ، المتعلقة بالمرحلة الأخيرة من تاريخ مملكة غرناطة وتاريخ العرب المتنصرين ، وحياتهم فى ظل الإستعباد الإسبانى المرهق ، المدنى والدينى ، نحو مائة عام — كان لذلك كله أثره العميق فى تصحيح كثير من النصوص والروايات المتواترة ، وفى إخراج قصة سقوط الأندلس ، وقصة العرب المتنصرين واستشهادهم المؤثر ، فى ثوبها التاريخى الحق ، المدعم بالأدلة والنصوص التى لا شك فيها .

ورأيت إلى جانب هذه الوثائق التاريخية ، أن أتقصى المصادر القشتالية الكلاسيكية ، ومنها بعض الروايات المعاصرة للمأساة أو القريبة منها ، ولم أشأ أن أترك آراء المؤرخين القشتاليين وأحكامهم جانباً ، بالرغم مما يشوب هذه الآراء والأحكام فى كثير من الأحيان من التحامل . وقد انتفعت بثمار مراجعة دقيقة شاملة لأهم المصادر القشتالية ، ونخص فيما يتعلق بالرواية التاريخية بالذكر ثلاثة منها هى : رواية هرناندو دى بايثا المعاصرة عن أحداث الأعوام الأخيرة لمملكة غرناطة ؛ ورواية لويس دل مارمول المستفيضة عن سقوط غرناطة ، وثورة العرب المتنصرين وقد كتب روايته بعد سقوط غرناطة بنحو ثمانين عاماً ، وشهد ثورة العرب المتنصرين منذ بدايتها إلى نهايتها ؛ وتاريخ غرناطة للمؤرخ الغرناطى لافونتى ألقنطرة ، وقد كتب فى القرن الماضى ، وهو زاخر بالمعلومات والتفاصيل القيمة ؛ ورجعت فيما يتعلق بالعرب المتنصرين ونفيهم ، إلى عدة من أكابر المفكرين والمؤرخين الإسبان الذين يعتد بآرائهم فى هذا الميدان ، وفى مقدمتهم موديستو لافونتى ، وخانير ، وبيكاتوستى ، ومننديث إى پلايو ، ونقلت من تعليقاتهم على مأساة النفى ونتائجها فقرات طويلة ، تعرض آراءهم وأحكامهم بوضوح ، وحرصت على نقل آراء المؤيدين والمعارضين على السواء .

وقد عنيت عناية خاصة بالتجوال فى مملكة غرناطة القديمة ، فزرت سائر مدنها : غرناطة ، وألمرية ، والمنكب ، وبسطة ، ووادى آش ، ومالقة ، وبلش ، ولوشة ، والحامة ، ورندة ، وأركش ، والجزيرة ، وطريف ، وجبل طارق ، كما زرت كثيراً من بلدانها وقراها ، وزرت مدينة غرناطة ذاتها عشر مرات ، وشهدت فى بسائطها ونجودها وأحيائها ، كثيراً من الأماكن التى كانت مسرحاً لكثير من الحوادث والوقائع الشهيرة ، وتجولت فى مرجها الشهير ، وعلى ضفاف نهرها التقديم شنيل ، وصعدت إلى جبال سيرا نفادا ذات الآكام الناصعة ، وشهدت بمدينة الحمراء — وهى التى ما زال قصرها المنيف ، وأبهاؤها الرائعة ، عنواناً لمجد غرناطة الإسلامية وحضارتها العظيمة — سائر الأماكن التى اختتمت فيها المأساة الأندلسية ، والتى تذكرها الرواية فى كثير من المناسبات المشجية .

وشغلت مدى أعوام ، بدراسة هذه المجموعة الزاخرة من الوثائق والمصادر ، وإعداد هذه الطبعة الجديدة من « نهاية الأندلس » ، أو بعبارة أخرى بكتابة

الكتاب من جديد ، بعد أن اجتمعت لدى سائر هذه العناصر الحية . ولقد كان لهذا التجوال المستفيض فى مواطن الحوادث ، وهذه المشاهدات العديدة ، للديار والربوع ، أعمق الأثر فى نفسى ، وفى ذهنى ، وفى تكييف قلمى ، حتى لقد كنت أشعر ، حين تدوين الحوادث ، وأمام مخيلتى تلك الأماكن والمشاهد ، أنى كأنما قد عشت فى تلك الأيام ، وفى تلك الربوع ، وبين أولئك الناس أبطال المأساة ، الذين أتتبع سيرهم ومصايرهم .

ولهذا كله ، وعلى ضوء كل ما تقدم من الوثائق والنصوص ، العربية والقشتالية ، التى اجتمعت لى منها أغزر مادة ، يمكن أن تجتمع لباحث فى هذا الميدان ، أرجو أن أكون قد وفقت لأن أضع اليوم بين يدى القارئ ، أوفى وأوثق رواية كتبت عن نهاية الأندلس ، وعن مأساة العرب المتنصرين .

وانى لأنتهز هذه الفرصة لأقدم جزيل الشكر إلى الآباء المحترمين القائمين على إدارة مكتبة الإسكوريال لما لقيت من جميل عونهم وعنايتهم خلال زياراتى العديدة لهذه المكتبة الجليلة . وإنى ما زلت أذكر بالأخص بعميق العرفان ما قدمه إلى صديقى المرحوم الأب الجليل نمسيو موراتا أمين مكتبة الإسكوريال السابق ، من معاونات قيمة ، كما أقدم وافر شكرى لمديرى وأمناء دور المحفوظات فى سيمانقا ومدريد وبرشلونة وبلنسية وغرناطة ، ومدير وأمناء مكتبة مدريد الوطنية ، لما لقيت من معاوناتهم القيمة خلال بحوثى بها مدى أعوام طويلة . وأود أخيراً أن أعرب عن وافر امتنانى وعرفانى ، لإخوانى القائمين على معهدنا المصرى بمدريد ، لما أسدوا إلى فى مختلف المناسبات من معاونات قيمة ، كان لها أكبر الأثر فى تسهيل مهمتى .

صفر سنة ١٣٧٨
الموافق أغسطس سنة ١٩٥٨

محمد عبد الله عنان

تصـــــدير

صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب فى سنة ١٩٥٨ ، أعنى منذ نحو سبعة أعوام . والآن ، وقد أنجزت كتابة مرحلة التاريخ الأندلسى ،التى تسبق مرحلة الإنهيار والسقوط ، وهى تاريخ « عصر المرابطين والموحدين » وتمت بذلك سلسلة تاريخ الأندلس ، منذ الفتح حتى إخراج بقايا الأمة الأندلسية نهائياً من الأراضى الإسبانية ، فانى أقدم هذه الطبعة الثالثة من « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » .

وقد كان فى مقدمة ما عنينا به فى هذه الطبعة الجديدة ، هوأن نراجع فصول الكتاب الأولى ، المتعلقة بسقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، ونهوض محمد ابن يوسف بن الأحمر ، ونشوء مملكة غرناطة ، وأن نصل وأن ننسق بين هذه الفصول ، وبين ماورد عن نفس الموضوعات فى القسم الثانى من كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » ، وهو« عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى » . وقد اقتضى هذا التنسيق بعض التكرار فى سرد هذه الحوادث ، وهو تكرار يقصد به قبل كل شىء ، المحافظة على استقلال هذا القسم الأخير من تاريخ الأندلس ، بيد أننا توخينا الإيجاز فى استعراض هذه الحوادث ، تمهيداً لموضوعنا الأساسى ، وهو نشوء مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، وتاريخها خلال حياتها الطويلة ، هذا بينما تناولنا مرحلة انحلال الأندلس الكبرى وسقوط قواعدها ، فى كثير من الإسهاب والإفاضة فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » وهو الذى يسبق مباشرة كتاب « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، وهو الحلقة الختامية فى هذه السلسلة الكبرى من تاريخ « دولة الإسلام فى الأندلس » .

وقد أتيح لنا فى نفس الوقت ، أن نقوم بكثير من التعديلات والإضافات الجديدة ، التى استطعنا أن نفيد الكثير منها ، خلال بحوثنا فى الأعوام الأخيرة

فى مدريد وفى المغرب . وبالرغم من أن هذه التعديلات والإضافات ، ليست كثيرة ، فإنها مع ذلك تضفى على الكتاب قيما وفوائد جديدة .

وإنا لنرجو أن تتوج هذه الطبعة الجديدة من « نهاية الأندلس » ذلك المجهود الطويل المضنى الذى بذلناه مدى خمسة وعشرين عاماً فى كتابة هذه القصة المشجية — تاريخ الأمة الأندلسية — منذ بدايتها حتى نهايتها .

ربيع الأول سنة ١٣٨٦
الموافق يوليه سنة ١٩٦٦

محمد عبد الله عنان

صفحتان من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » لابن الخطيب ، من ترجمته لنفسه . مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى .

الصفحتان الأوليان من رسالة « أسنى المتاجر فيمن غلب النصارى على وطنه ولم يهاجر » وهي توجد ضمن مجموعة مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٧٥٨ الغزيري

تاريخ مملكة غرناطة

٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ : ١٢٣٨ ـ ١٤٩٢ م

الكتاب الأول

مملكة غرناطة

منذ قيامها حتى ولاية السلطان أبى الحسن

٦٣٥ - ٨٦٨ هـ : ١٢٣٨ - ١٤٦٣ م

الفصل الأول

الأندلس الغـــاربة

دول الطوائف . المرابطون والموحدون . سياسة الإسترداد النصرانية . سقوط القواعد الأندلسية في يد النصارى . موجة الاسترداد الغامرة في القرن السابع . شعور أهل الأندلس بمصيرهم . مدينة غرناطة . صفتها أيام الدولة الاسلامية . ما بقى من خططها ومعالمها الأندلسية .

— ١ —

يقدم إلينا تاريخ الأندلس فى مراحله الأولى ، صفحات باهرات من ضروب المجد الحربى والسياسى ، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان . ولكنه يقدم إلينا فى مراحله الأخيرة ، صفحات مشجية مؤثرة من تقلب الحدود ، وتعاقب المحن ، والانحدار البطىء المؤلم ، إلى معترك الهزيمة ، والذلة والسقوط .

ولا تمثل قصة الأندلس ، سوى الحقيقة التاريخية الخالدة . وليس مجرى التاريخ سوى تعاقب الأجيال والأمم ، وتبدل الحضارات والدول . ولكن الصراع الطويل المضطرم ، الذى خاضته الأمة الإسلامية فى الأندلس ، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم ، يبدو فضلا عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة ، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر ، قلما يقدمها إلينا تاريخ أمة من الأمم ، التى اشتهرت بالذود عن حياتها وحرياتها .

وقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة ، فى سلسلة من المعارك والمحن الطاحنة ، التى تقلبت فيها الأمة الأندلسية ، منذ انهار صرح الخلافة الأموية فى الأندلس ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة ، على أنقاض دولة عظيمة شامخة . وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التى كانت تسطع بمجتمعاتها وحضارتها الزاهرة ، خلال حلك العصور الوسطى ، يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية فى الأندلس ، ويحدث أعمق صدى فى جنبات الدول الإسلامية فى الشرق والغرب ، وينتزع من وحى النثر والنظم أروع المراثى . وكانت الأمة الأندلسية ، كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة ، فى يد عدوتها القديمة المتربصة بها — إسبانيا النصرانية — ألفت عزاءها فى قواعدها الأخرى ،

وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية ، إستبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم ، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها ، تؤلف مملكة إسلامية صغيرة ، ولكن أبية ساطعة ، استطاعت عبقرية بناتها النصريين ، أن تسير بها خلال العاصفة أكثر من مائتى عام .

والحقيقة أن مصير الأندلس ، كان يهتز فى يد القدر ، مذ فشلت ريح دول الطوائف ، وغلب عليها الخلاف والتفرق ، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية ، تفسح لعدوها الخطر مجال التفوق عليها ، والضرب والتفريق بينها . وقد استطاع بعض ذوى النظر الثاقب من رجالات الأندلس ، حتى فى ذلك العصر ، الذى كان الإسلام يسيطر فيه على معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية ، أن يستشفوا ما وراء هذا التفرق من الخطر الداهم . فنرى ابن حيان مؤرخ الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، يقول لنا بعد أن يصف حوادث سقوط بربشتر ، من أعمال الثغر الأعلى (أراجون) ، فى يد النصارى (النورمان) فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) وما اقترن بسقوطها من القتل والسبى وشنيع الاعتداء: « وقد استوفينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة يوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها ، بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولاشك عند أولى الألباب ، أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ما عهدنا فى القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك مالحق الذى قبله ، فمثل دهرنا هذا — لا قدس — بهيم الشبه ، ما أن يباهى بعرجه ، فضلا عن نزوح خيره ، قد غربل ضمائرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا فى سبيل الرشد بأتقياء ، ولا على معالى الغى بأقوياء . نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل على فرط جهلهم ، اغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجح عراص دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفا ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاة عن بثهم »[١] ، ولم يكن هذا التنديد من

(١) نقلنا هذه الفقرة من تعليقات ابن حيان على نكبة بربشتر ، عن الذخيرة لابن بسام ، القسم الثالث المخطوط المحفوظ بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (لوحات ٣٤ — ٣٦) . ونقل المقرى بعض هذه التعليقات فى نفح الطيب (مصر) ج ٢ ص ٥٧٦ .

جانب المؤرخ الأندلسى الكبير ، بتواكل أهل الأندلس ، وتخاذلهم عن نصرة دينهم وإخوانهم ، إلا معبراً عن حقيقة راسخة مؤلمة ، ظهرت بأروع مظاهرها ، فى عصر الطوائف. بل لقد لاح مدى لحظة ، حينما سقطت طليطلة أول قاعدة إسلامية كبيرة ، فى يد اسبانيا النصرانية فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، أن الأندلس أضحت على وشك الفناء ، وأن دول الطوائف المنهوكة الممزقة ، سوف تسقط تباعاً فى يد عدوها القوى ، وأن دولة الإسلام فى اسبانيا سوف تطوى وتختتم حياتها المجيدة فى شبه الجزيرة . وقد ساد الفزع والتوجس يومئذ جنبات الأندلس كلها ، حتى قال شاعرهم حينما سقطت طليطلة :

يا أهل أندلس شدوا رحالكم　　فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى　　سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه　　كيف الحياة مع الحيات فى سفط

ولكن الدرس كان عميق الأثر ، فجنح زعماء الطوائف إلى الرشاد ، وجمعت المحنة منهم الكلمة ، وارتدوا إلى ما وراء البحر ، يلتمسون الغوث إلى « المرابطين » إخوانهم فى الدين . وكان المرابطون يومئذ فى عنفوان دولتهم ، وأميرهم يوسف ابن تاشفين يبسط سلطانه القوى على أمم المغرب ، من المحيط غرباً حتى تونس شرقاً . فاستجاب المرابطون إلى صريخ الطوائف ، وعبروا البحر إلى الأندلس فى قوات ضخمة ، والتقت الجيوش الإسلامية المتحدة بقيادة يوسف بن تاشفين ، بالجيوش النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو السادس زعيم اسبانيا النصرانية ، فى سهول الزلاّقة فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) فأحرز المسلمون نصراً عظيماً حاسماً . وكانت موقعة الزلاّقة من أيام الأندلس المشهورة ، وانتعشت دول الطوائف ، وقويت نفوس الأمة الأندلسية ، وبدأت الأندلس حياة جديدة . ولكن سرعان ما انقلب المرابطون على إخوانهم وحلفائهم ، واجتذبتهم نعماء الأندلس وثرواتها ، فحطموا دول الطوائف ، وبسطوا حكمهم على الأندلس زهاء نصف قرن . ولما سقطت دولتهم فى المغرب ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، جاشت مختلف القواعد الأندلسية بالثورة على المرابطين ، وعبر الموحدون البحر إلى اسبانيا ، واستولوا تباعا على القواعد الأندلسية الكبرى وبسطوا على الأندلس حكمهم زهاء قرن آخر . وفى ظل الموحدين أحرزت الجيوش الإسلامية كما أحرزت فى الزلاّقة أيام المرابطين ، نصرها الحاسم على اسبانيا

النصرانية ، بقيادة الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، وذلك فى موقعة الأرك الشهيرة (٥٩٣ هـ — ١١٩٥ م)[١] . ولكنها ما لبثت أن لقيت هزيمتها الحاسمة ، بعد ذلك بقليل على يد اسبانيا النصرانية ، فى عهد الخليفة محمد الناصر ولد المنصور فى موقعة العقاب المشئومة التى فنى فيها معظم الجيوش الموحدية والأندلسية (٦٠٩هـ — ١٢١٢ م)[٢] . وكانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولاسبانيا المسلمة ، فعاد شبح الفناء يلوح للأندلس قوياً منذراً ، وسرى هذا التوجس إلى كتاب العصر وشعرائه ، وظهر واضحاً فى رسائلهم وقصائدهم . ومن ذلك ما قاله أبو اسحق ابراهيم بن الدباغ الإشبيلى معلقاً على موقعة العقاب :

وقائلة أراك تطيل تفكراً ... كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر فى عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقاب

فما فى أرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب[٣]

وفى خلال ذلك كانت الأندلس تضطرم بأشنع ضروب الخلاف والفتن ، والقواعد والثغور يتناوبها الزعماء والمتغلبون ، واسبانيا النصرانية تنزل بالأندلس ضرباتها المتوالية ، وتستولى تباعاً على القواعد والثغور .

والحقيقة أن الجهد المضطرم الذى بذلته اسبانيا النصرانية يومئذ ، لانتزاع القواعد الأندلسية لم يكن سوى الذروة فى مرحلة طال أمدها ، من حركة الفتح والاسترداد النصرانية La Reconquista . وقد بدأ هذا الاسترداد من جانب اسبانيا النصرانية لأراضيها المفتوحة منذ عصر مبكر جداً ، أعنى مذ قامت المملكة النصرانية الشمالية عقب الفتح الإسلامى بقليل فى حمى الجبال الشمالية ، واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت منذ منتصف القرن الثامن الميلادى أن تدفع حدودها تباعاً نحو الجنوب . وكانت أولى القواعد الإسلامية التى سقطت هى « لُك » فى أقصى الشمال الغربى لشبه الجزيرة ، وأسترقة فى شمال نهر دويرة ، وسمورة وشلمنقة وشقوبية وآبلة فى الناحية الأخرى من دويرة . ولم تتأثر الأندلس المسلمة

---

(١) وتعرف فى الاسبانية بموقعة **Alarcos** . وتراجع تفاصيلها فى كتابى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٢٠٠ — ٢١٤ .

(٢) وتعرف فى الاسبانية بموقعة **Las Navas de Tolosa** . وتراجع تفاصيلها فى الكتاب السالف الذكر القسم الثانى ص ٢٩٣ — ٣٢٢ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

كثيراً بفقد هذه القواعد الأولى لنأيها وقربها من المملكة النصرانية . ولكن الأندلس شعرت بالخطر الحقيقى منذ استطاع النصارى عبور نهر التاجُه متوسط شبه الجزيرة فى غزوات قوية ، واستيلائهم بعد ذلك على طليطلة ثالثة القواعد الاندلسية الكبرى بعد قرطبة وإشبيلية . ووضع نصر الزلاّقة ، وقيام سلطان المرابطين فى شبه الجزيرة ، حداً موقتاً لتقدم النصارى فى وسط شبه الجزيرة وشرقيها . ولكن موجة جديدة من الغزو النصرانى اجتاحت شمال شرقى الأندلس منذ بداية القرن السادس الهجرى ، فسقطت سرقسطة فى يد النصارى (٥١٢ هـ — ١١١٨ م) ، وكانت تطيلة حصنها الأمامى قد سقطت قبل ذلك بعام ، ثم تلتها بقية قواعد الثغر الأعلى ، لاردة وإفراغة ومكناسة وطرطوشة (٥٤٣هـ — ٥٤٤هـ) (١١٤٨ — ١١٤٩م) : وفى تلك الآونة ذاتها بدأ سقوط القواعد الإسلامية فى غربى شبه الجزيرة أعنى فى البرتغال ، فسقطت أشبونة وشنترة وشنترين فى يد النصارى فى سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) ، وسقطت باجة بعد ذلك بقليل فى سنة ١١٦١ م (٥٥٦ هـ) ، ثم تلتها يابرة فى سنة ١١٦٥ م (٥٦١ هـ)

ولما توطد سلطان الموحدين بالأندلس فى أواخر القرن السادس الهجرى ، توقفت حركة الإسترداد النصرانى مدى حين ، ثم عادت تضطرم قوية بعد إحراز اسبانيا النصرانية لفوزها الحاسم على الموحدين فى موقعة العقاب (٦٠٩هـ) . ومنذ أوائل القرن السابع الهجرى تجتاح اسبانيا المسلمة موجة عاتية من الغزو النصرانى وتسقط قواعد الأندلس التالدة شرقاً وغرباً فى يد النصارى . وهكذا سقطت جزيرة ميورقة (٦٢٧هـ — ١٢٢٩ م) ، وبياسة (٦٢٣هـ — ١٢٢٦ م) وأبّدة (٦٣٠هـ —١٢٣٣م) ثم قرطبة (٦٣٣هـ — ١٢٣٦م) وإستجة والمدور (٦٣٣هـ — ١٢٣٦م) وبلنسية (٦٣٦ هـ — ١٢٣٨م) ودانية ولقنت (٦٤١ هـ — ١٢٤٤ م) وأوريولة وقرطاجنة (٦٤٣ هـ — ١٢٤٥ م) وشاطبة (٦٤٤ هـ — ١٢٤٦ م) ومرسية (٦٤٠ هـ — ١٢٤٣ م) وجيان (٦٤٣ هـ — ١٢٤٦ م) ، ثم إشبيلية (٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م) . واجتاحت غرب الأندلس فى الوقت نفسه موجة مماثلة من الغزو النصرانى ، فسقطت بطليوس (٦٢٧ هـ — ١٢٣٠ م) وماردة (٦٢٨ هـ — ١٢٣١ م) وشلب (٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م) وشنتمرية الغرب (٦٤٧ هـ — ١٢٤٩ م) ولبلة وولبة (٦٥٥ هـ — ١٢٥٧ م) . ثم سقطت قادس فى سنة ١٢٦١ م ، وتلتها شريش فى سنة ١٢٦٤ م . وهكذا لم يأت منتصف القرن

السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها ، قد سقطت فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الإسلامية بالأندلس ، سوى بضع ولايات صغيرة فى طرف اسبانيا الجنوبى .

وأخذت الأندلس عندئذ ، تواجه شبح الفناء مرة أخرى ، وطافت بالأمة الأندلسية التى احتشدت يومئذ فى الجنوب فى بسيطها الضيق ، ريح من التوجس والفزع ، وعاد النذير يهيب بالمسلمين ، أن يغادروا ذلك الوطن الخطر ، الذى يتخاطف العدو أشلاءه الدامية ، وسرى إلى الأمة الأندلسية شعور عميق بمصيرها المحتوم .

ولكن شاء القدر أن يرجىء هذا المصير بضعة أجيال أخرى ، وشاء أن يسبغ على الدولة الإسلامية بالأندلس . حياة جديدة فى ظل مملكة غرناطة ، التى استطاعت أن تبرز من غمر الفوضى ضئيلة فى البداية ، وأن توطد دعائم قوتها شيئاً فشيئاً ، وأن تذود عن الإسلام ودولته الباقية بنجاح ، أكثر من قرنين . وكان من حسن طالع هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، أن شغلت عدوتها القوية اسبانيا النصرانية مدى حين ، بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، فلم توفق إلى تحقيق غايتها الكبرى ، وهى القضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ، وعلى الأمة الأندلسية بصورة نهائية ، إلا بعد أن تهيأت لذلك جميع الظروف والأسباب . ولم يكن ذلك قبل مائتين وخمسين عاماً ، عاشتها مملكة غرناطة الصغيرة أبية كريمة ، ترفع لواء الإسلام عالياً فى تلك الربوع ، التى افتتحها الإسلام قبل ذلك بعدة قرون ، وأنشأ بها المسلمون حضارتهم العظيمة التى حفلت بأرقى نظم للحياة المادية والأدبية ، وأرفع ضروب العلوم والفنون التى عرفت فى العصور الوسطى .

— ٢ —

كانت غرناطة وقت افتتاح الأندلس ، مدينة صغيرة من أعمال ولاية « إلبيرة » تقع على مقربة من مدينة إلبيرة قاعدة الولاية ، من الناحية الجنوبية[١] ، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط ، بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس ، فى موقعة شَريش فى رمضان سنة ٩٢ هـ . (يوليه سنة ٧١١م) . ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس ، ودب الخلاف بين القبائل ، عقب موقعة بلاط الشهداء (٧٣٢م)

---

(١) إلبيرة وبالاسبانية **Elvira** هى مدينة رومانية قديمة كانت تسمى أيام الرومان **Iliboris** وكانت عاصمة للولاية التى تسمى بهذا الاسم ، وكانت أيام الفتح الإسلامى مدينة كبيرة عامرة .

واشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية ، والعرب والبربر من ناحية أخرى ، رأى أمير الأندلس أبوالخطار حسام بن ضرار الكلبي ، أن يعمل على تهدئة الفتنة بتمزيق عصبة الشاميين ، ففرقهم فى أنحاء الأندلس ، وأنزل جند الشام بكورة إلبيرة ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند فلسطين بشذونه والجزيرة ، وجند الأردن بريُّه ، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية إلبيرة ، وغدوا بمضى الزمن كثرة فيها . واستمرت مدينة إلبيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها فى ظل الدولة الأموية ، حتى أواخر القرن الرابع حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقبت الفتن ، وعاث البربر فى النواحى ، وخربت مدينة إلبيرة شيئاً فشيئاً ، حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها ، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها . ومن ذلك الحين يختفى اسم إلبيرة كقاعدة من قواعد الأندلس ، ويذكر مكانها اسم غرناطة . والواقع أن إلبيرة وغرناطة تعتبران فى معظم الأحيان ولاسيما فى المراحل الأولى لتاريخ الأندلس ، إسمين لمكان واحد ، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما(١) .

وغَرناطة أو إغرناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط ، وقد اختلفت آراء الباحثين فى أصل هذه التسمية ، فيرى البعض أنه مشتق من الكلمة الرومانية Granata أى الرمانة ، وأنها سميت كذلك لجمالها ، ولكثرة حدائق الرمان التى تحيط بها(٢) ، ويرى البعض الآخر أن التسمية ترجع إلى أصل قوطى أو أنها ترجع إلى أصل بربرى مشتق من اسم إحدى القبائل(٣) . والواقع أن غرناطة تتمتع بموقع فائق فى الحسن ، فهى تقع فى واد عميق يمتد من المنحدر

---

(١) كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ، لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٩٩-١٠٥

(٢) المستشرق سيبولد فى **Ency. de l'Islame : Grenade** ؛ وكذلك فى معجم ياقوت حيث يقول إن معنى غرناطة « الرمانة » بلسان عجم الأندلس سمى البلد كذلك لحسنه (راجع معجم ياقوت تحت كلمة غرناطة) . وقيل إنها سميت كذلك لانها أنشئت على البقعة التى زرع فيها الرمان لأول مرة عند نقله من إفريقية اليها ، وقيل أيضاً إنها سميت كذلك لأنها بموقعها وانقسامها على التلين تشبه بمنازلها الكثيفة الرمانة المشقوقة . راجع كتاب : **(Prescott : Ferdinand and Isabella, p. 190, Note)**

(٣) هذا ما يراه المستشرق الإسبانى سيمونيت ، إذ يقول إن المرجح أن الاسم قوطى الأصل ، وأنه مركب من كلمة « ناطة » وهو اسم قرية قديمة كانت تقع على مقربة من إلبيرة و « غار » وهو المقطع الذى أضافه المسلمون إليها فصارت « غرناطة » . أو أن البربر سموها كذلك عند نزولهم بها وهو اسم أحد قبائلهم راجع : **(Simonet : Descripción del Reino de Granada (Granada 1872) p. 40 & 41)** وراجع كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٩٩ الهامش .

الشمالى الغربى لجبال سيرّا نفادا ، وتظللها الآكام العالية من الشرق والجنوب ، ويحدها من الجنوب نهر شَنِيل فرع الوادى الكبير(١) ، وهو ينبع من جبال سيرّا نفادا ، ويخترقها فرعه المسمى نهر حدرُّه أو هدره El-Darro ، ويلتقى به عند جنوبى المدينة . وقد كان شنيل وفرعه حدره أيام المسلمين يفيض بالماء ، ولاسيما فى الصيف حين تذوب الثلوج ، وكانت ضفافهما خضراء يانعة تغص بالحدائق الغناء . أما اليوم فقد جف مجرى شنيل ، وقلما يجرى فيه الماء سوى القليل أيام الشتاء . وأما فرعه حدرُّه فيخترق المدينة من الشرق عند سفح التل الذى تقع عليه « الحمراء » ويتصل بشنيل عند القنطرة الأندلسية القديمة . وهو يكاد يختفى اليوم ولم يبق من مجراه سوى الجزء الصغير المجاور لتل الحمراء . وأما جزؤه الذى كان يخترق وسط المدينة فقد غطى اليوم بشارعها الرئيسى الأوسط المسمى « شارع الملكين الكاثوليكيين » ، وامتداده فى الميدان الكبير حتى قنطرة شنيل .

وتشرف غرناطة من الجنوب الغربى ، على بسيط شاسع أخضر وافر الخصب ، هو المرج أو الفحص الشهير La Vega(٢) الذى يمتد غرباً حتى مدينة لَوْشة ، ومن الجنوب الشرقى على جبال سيرّا نفادا Sierra Nevada (جبل شُلير أو جبل الثلج)(٣) التى تغطى آكامها الثلوج الناصعة .

وكانت غرناطة أيام الدولة الإسلامية ، جنة من جنات الدنيا ، تغص بالغياض والبساتين اليانعة ، التى كانت لوفرة خصبها وروعة نضرتها ، تعرف « بالجنات » ، فيقال للمزرعة أو البستان « جنة كذا » أو جنة فلان ، مثل جنة الحرف ، وجنة العرض ، وجنة الحفرة ، ومدرج نجد ، ومدرج السبيكة ، وجنة ابن عمران وجنة العريف وغيرها . وقد ذكر ابن الخطيب أن هذه الجنات الغرناطية الشهيرة كانت تبلغ فى عصره زهاء المائة ، كما ذكر لنا أن منطقة غرناطة ، كانت تضم زهاء ثلاثمائة قرية عامرة ، منها ما كان يبلغ سكانه الألوف ومنها ما كان يملكه

---

(١) شنيل هو بالاسبانية Xenil أو Genil ، ويسمى أيضاً عند الأندلسيين بنهر سنجيل مشتقاً من اسمه اللاتينى Singilis .

(٢) وهى كلمة إسبانية معناها المرج . ولعلها مشتقة من كلمة « فحص » العربية .

(٣) يطلق الجغرافيون الأندلسيون اسم شلير أو جبل الثلج على جبال « سيرا نفادا » . فأما « شلير » فهو محرف عن اللاتينية Solarius ومعناها جبل الشمس ، وذلك لأن الشمس تسلط أشعتها الساطعة على تلك الجبال فينعكس ضوؤها على الثلوج الناصعة التى تغطيها . وأما تسميتها بجبل الثلج ، فهى ترجمة عربية مطابقة لاسمها القشتالى Sierra Nevada .

مالك واحد أوملاك قلائل . هذا عدا الأملاك السلطانية والحصون[١] . وبذلك نستطيع أن نقدر أن مدينة غرناطة ، كانت تضم أيام أن كانت عاصمة للدولة الإسلامية ، أكثر من نصف مليون من الأنفس . وأما خارج المدينة فيصفه ابن الخطيب فى قوله :

« ويحف بسور المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى ، البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة ، فيصير سورها خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة ، تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء خضرايه ، فليس تعرى جنباته من الكروم والجنات جهة » . وأما المرج الشهير أو الفحص La Vega فقد كان بسيطاً رائع الخضرة يشبهونه بغوطة دمشق ، وتخترقه الجداول والأنهار ، ويغص بالقرى والجنات ، ويهرع إليه الرواد فى ليالى الربيع والصيف فيغدو مسرح الأسمار والأنس .

وكانت المدينة ذاتها نموذجاً بديعاً للعمارة الإسلامية ، تغص بالصروح والأبنية الفخمة ، وتتخللها الميادين والطرقات الفسيحة. وكانت مدينة الحمراء أو دار الملك أروع ما فيها ، تطل على أحيائها « فى سمت من القبلة ، تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية والمعاقل المنيعة ، والقصور الرفيعة ، تغشى العيون ، وتبهر العقول »[٢] .

وقد أشاد بذكر محاسن غرناطة وفضائلها كتاب الأندلس وشعراؤها ؛ وانتهت إلينا من منظومهم ومنثورهم فيها تراث حافل ، ينم بالرغم مما يحمله أحياناً من طابع المبالغة ، عما كانت تثيره غرناطة فى نفوسهم من عميق الإعجاب والحب . وقد أورد لنا ابن الخطيب فى « الإحاطة » والمقرى فى « نفح الطيب » ، و « أزهار الرياض » كثيراً من هذه القصائد والرسائل ، وإليك بعض نماذج منها :

قال ابن الخطيب :

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٢٢ و١٢٣ . ويقدم لنا ابن الخطيب بياناً وافياً عن القرى الغرناطية . (راجع ص ١٣١ – ١٣٨ والهوامش حيث تبين مواقع هذه القرى وأسماؤها الاسبانية الحالية) .

(٢) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ١٢١ . واللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب أيضاً ص ١٣ و١٤ .

وقال أبو الحجاج يوسف بن سعيد :

أغرناطة العلياء بالله خبرى ... أللهائم الباكى إليك طريق
وما شاقنى إلا نضارة منظر ... وبهجة واد للعيون تروق
تأمل إذا أملت «حوز مؤمل »[1] ... ومد من الحمراء عليك شقيق
وأعلامه نجد والسبيكة قد علت ... وللشفق الأعلى تلوح بروق
وقد سل شَنِيل فرندا مهندا ... يضىء فوق درٍّ ذُرًّ فيه عقيق

وقال آخر :

غرناطة ما لها نظير ... ما مصر ما الشام ما العراق
ما هى إلا العروس تجلى ... والأرض من جملة الصداق

أما اليوم فقد غدت غرناطة مدينة متواضعة لا يزيد سكانها على مائة وثلاثين ألفاً . وهى عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بنفس الإسم . وبالرغم من أنها قد فقدت بهاءها السالف ، فإنها ما زالت تتشح بطابع خاص من التحفظ والنبل المؤثر . وقد اختفت معظم خططها الإسلامية ، وقامت على أنقاضها مدينة أوربية حديثة . بيد أن غرناطة ما زالت مع ذلك تحتفظ ببقية من صروحها ومعالمها الأندلسية . وتجتمع هذه البقية بالأخص فى قسمها الشرقى حيث تربض أبراج « الحمراء » فوق هضبتها العالية ، وأعظم آثارها الإسلامية الباقية هو بلا ريب قصر الحمراء الملكى الذى ما زال يحتفظ بكثير من روعته القديمة ، وقصر « جنة العريف » El Generalife الواقع فى شرقه على مسافة قليلة ، وقد كان مصيفاً لملوك غرناطة ، وبقية ضئيلة من « قصر شنيل » Alcázar Genil[2] ، وهى تقع فى ضاحية أرملة (أرمليا) على مقربة من شنيل ، و« الخان » Alhóndiga ، وهو ذو عقد عربى رائع ، ويقع على مقربة من دار البريد القديمة . أما المسجد الجامع وبقية المساجد الأخرى فقد هدمت جميعاً وقامت على أنقاضها الكنائس . وأما ما بقى من خططها الإسلامية ، فهو ظاهر بالأخص فى « حى البيازين » Albaicin الواقع فى شمالها

---

(١) هو اسم مكان بغرناطة الاسلامية كان يشتهر بنضرته ورياضه ، ويحتل مكانه اليوم الحى الغرناطى المسمى Campo del Príncipe (راجع الإحاطة ج ١ ص ٤٤٩ والهامش) .

(٢) هو القصر الذى يعرف فى تاريخ غرناطة بقصر السيد ، وقد أنشىء فى عصر الموحدين ، أنشأه السيد أبو إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن والى غرناطة ، وذلك فى سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) وعرف عندئذ بقصر السيد . وكان أيام الدولة النصرية يستعمل قصرا للضيافة الملكية (راجع كتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٣٣١) .

الغربى ، والميدان الكبير الذى ما زال يحمل اسمه القديم « رحبة باب الرملة » Plaza de Bibrambla ، وإلى جواره القيسرية القديمة Alcaicaría . هذا فضلا عما يبدو فى كثير من دروبها الضيقة الصاعدة ، ومنازلها العديدة ذات الطراز الأندلسى ، من الملامح الأندلسية الواضحة .

كذلك بقيت قطعة كبيرة من أسوار غرناطة الإسلامية ، وبضعة من أبوابها القديمة مثل باب البنود وباب إلبيرة وباب البيازين وباب فحص اللوز ، وباب الشريعة وهو مدخل الحمراء الرئيسى . هذا وما زالت « قنطرة شنيل » ، قائمة على النهر عند التقائه بفرعه « حدرُه » ، وتحمل اسمها الإسلامى القديم Puente del Genil .

وتوجد فى متحف غرناطة الأثرى طائفة كبيرة من اللوحات والنقوش والتحف الأندلسية .

ولغرناطة منزلة خاصة فى نفوس الإسبان وفى التاريخ الإسبانى . فهى إلى كونها خاتمة الفتوح المظفرة التى توجت حروب الإسترداد الإسبانية La Reconquista تعتبر بتاريخها المؤثر أنبل المدن الأندلسية ، ويعتبر سقوطها فى أيدى الإسبان فاتحة عصر اسبانيا الذهبى . ومن ثم فقد اتخذت مثوى أبدياً لفاتحيها الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيلا ، حيث يرقدان فى كنيستها العظمى التى أقيمت فوق موقع المسجد الجامع . ونالت غرناطة حظوة خاصة لدى ملوك اسبانيا المتوالين فحبوها بمختلف المنشآت وضروب الإصلاح والتجميل ؛ وحرص الإسبان على أن تبقى عاصمة الأندلس القديمة كما كانت مركز العلوم فى جنوبى اسبانيا ، فأنشئت جامعة غرناطة الشهيرة فى سنة ١٥٣١م ، فى عصر الإمبراطور شرلكان ، وهى اليوم من أهم وأقدم الجامعات الإسبانية ، ويوجد ضمن معاهدها الخاصة ، معهد لدراسة عصر الملكين الكاثوليكيين فاتحى غرناطة ، ومدرسة للدراسات العربية . وفى غرناطة معاهد علمية وثقافية عديدة أخرى ، وعدة متاحف فنية أثرية .

الفصل الثاني

نشـــأة مملكة غرناطة

وقيام الدولة النصرية

غرناطة منذ عهد الفتنة حتى عهد الموحدين . اضمحلال دولة الموحدين بالأندلس والمغرب . النزاع حول عرش الخلافة الموحدية . قيام العادل ثم المأمون . ظهور ابن هود وثورته على الموحدين . استيلاؤه على مرسية . دعوته للخلافة العباسية . انهيار الدولة الموحدية . الحرب بين ابن هود وبين النصارى . هزيمة ابن هود . زحف النصارى على قرطبة . استغاثتها بابن هود . ابن هود يؤثر السير إلى بلنسية . حصار قرطبة وسقوطها فى يد النصارى . وفاة ابن هود . غزو ملك أراجون لبلنسية واستيلاؤه عليها . استيلاء القشتاليين على مرسية . أحوال جنوبى الأندلس . ظهور محمد بن الأحمر . طاعة القواعد الجنوبية له . دعوته لصاحب إفريقية . تحالفه مع الباجى وغدره به . دخول جيان ومالقة وشريش فى طاعته . الثورة فى غرناطة . دعوتها لابن الأحمر واستيلاؤه عليها . استيلاؤه على المرية . بنوأشقيلولة أصهار ابن الأحمر . قيام مملكة غرناطة . افتراق كلمة الأندلس . خضوع القواعد الشرقية للنصارى. غزو ابن الأحمر لمرتش . غزو فرناندو الثالث لأراضى ابن الأحمر وحصاره لغرناطة . خضوع ابن الأحمر لفرناندو وتعهده بأداء الجزية . سقوط القواعد الغربية فى يد النصارى . تأهب فرناندو لافتتاح إشبيلية . استيلاؤه على قرمونة . حصار إشبيلية . معاونة ابن الأحمر للنصارى . قصيدة ابن سهل فى استصراخ أهل العدوة . سقوط إشبيلية فى يد النصارى. سقوط باقى القواعد الغربية . ابن الأحمر ودقة موقفه . اتجاهه إلى عون بنى مرين . الحرب بينه وبين النصارى. سقوط إستجة . هزيمة ابن الأحمر. صدى صريخ الأندلس فى المغرب . نزول ابن الأحمر عن شريش والقلعة وغيرهما . صدى سقوط القواعد الأندلسية . مرثية أبى الطيب الرندى . ثورة بنى أشقيلولة بمالقة . غزو النصارى للجزيرة الخضراء . صفات ابن الأحمر وخلاله . كيف يصورها النقد الحديث . وفاة ابن الأحمر .

لبثت غرناطة فى ظل الدولة الأموية ، قاعدة متواضعة من قواعد الأندلس الجنوبية ، وهى تحتل مكان إلبيرة شيئاً فشيئاً ، حتى كانت أيام الفتنة عقب انهيار الدولة الأموية فى أواخر القرن الرابع ، فأخذت القواعد الجنوبية تغدو ، بعد تخريب قرطبة ، ونأى القواعد والثغور الشرقية والشمالية ، مركز التجاذب والتنافس بين زعماء الفتنة . ووقعت غرناطة يومئذ فى نصيب البربر ، واستولى عليها زعيم صنهاجة زاوى بن زيرى واتخذها دار ملكه ، وقامت فى قرطبة دولة بنى حمود الإدريسية. واستمرت الحرب والفتنة مدى حين ، سجالا بين المتغلبين من فلول بنى أمية وبنى عامر ، وفتيانهم ومواليهم ، وبين زعماء البربر . ولما ظهر المرتضى ، وهو من عقب

بنى أمية ، ودعا لنفسه بالخلافة ، سار فى عصبة الأمويين والموالى إلى غرناطة ، لانتزاعها واتخاذها دار ملكه ، فرده عنها صاحبها زاوى الصنهاجى فى موقعة دموية (٤٠٨ هـ) . واستقر زاوى فى حكم غرناطة وأعمالها بضعة أعوام ، ثم غادرها إلى دار قومه فى تونس ، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن ، فحكمها حتى توفى فى سنة ٤٢٩هـ . وخلفه فى ولايتها ولده باديس وتلقب بالمظفر ، واستولى على مالقة من يد الأدارسة (بنى حمُّود) ، واتسع ملكه ، ولبث طول حكمه الذى استطال حتى سنة ٤٦٧ هـ ، فى قتال مستمر مع بنى عباد أمراء إشبيلية ، أعظم وأقوى ملوك الطوائف يومئذ . ولما توفى باديس المظفر ، خلفه فى حكم غرناطة وأعمالها ، حفيده عبد الله بن بُلُكِّين بن باديس ، واستمر فى حكمها إلى أن عبر المرابطون البحر إلى الأندلس فى سنة ٤٨٣هـ ، بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين ، واستولوا عندئذ على غرناطة ، كما استولوا على قواعد الأندلس الأخرى ، وانتهت بذلك دول الطوائف ، التى قامت على أنقاض الخلافة الأموية ، وعاشت زهاء ستين عاماً .

واستمر المرابطون فى حكم الأندلس وقواعدها ، زهاء ستين عاماً أخرى ؛ وتعاقب فى حكم غرناطة عدة من أمراء اللمتونيين(١) وسادتهم ، من قرابة يوسف بن تاشفين . فلما انهارت دولتهم فى المغرب ، جاز الموحدون المتغلبون على دولتهم إلى الأندلس فى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) ، وأخذوا يستولون تباعاً على القواعد والثغور ، فاستولوا أولا على قواعد الغرب ، شلب وميرتلة وباجة ، ثم استولوا على إشبيلية فى أواخر سنة ٥٤١ هـ ، فقرطبة فى سنة ٥٤٣ هـ ، واعتصم المرابطون بغرناطة بضعة أعوام أخرى ، ثم اضطروا أخيراً إلى تسليمها إلى الموحدين وذلك فى سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) .

ولبثت غرناطة كباقى القواعد الأندلسية فى أيدى الموحدين ، يتناوب حكمها الأمراء والسادة من بنى عبد المؤمن وقرابته ، حتى كانت ثورة أبى عبد الله محمد ابن يوسف بن هود سليل بنى هود أمراء سرقسطة السابقين ، على الموحدين ، وانتزاعه معظم قواعد الأندلس من أيديهم .

وذلك أنه لما توفى أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله خليفة الموحدين ، فى سنة ٦٢٠ هـ دون عقب ، أقام الموحدون مكانه السيد أبا محمد عبد الواحد

(١) لمتونة هو اسم القبيلة التى ينتمى إليها المرابطون ، ولذا يسمون أحياناً باللمتونيين .

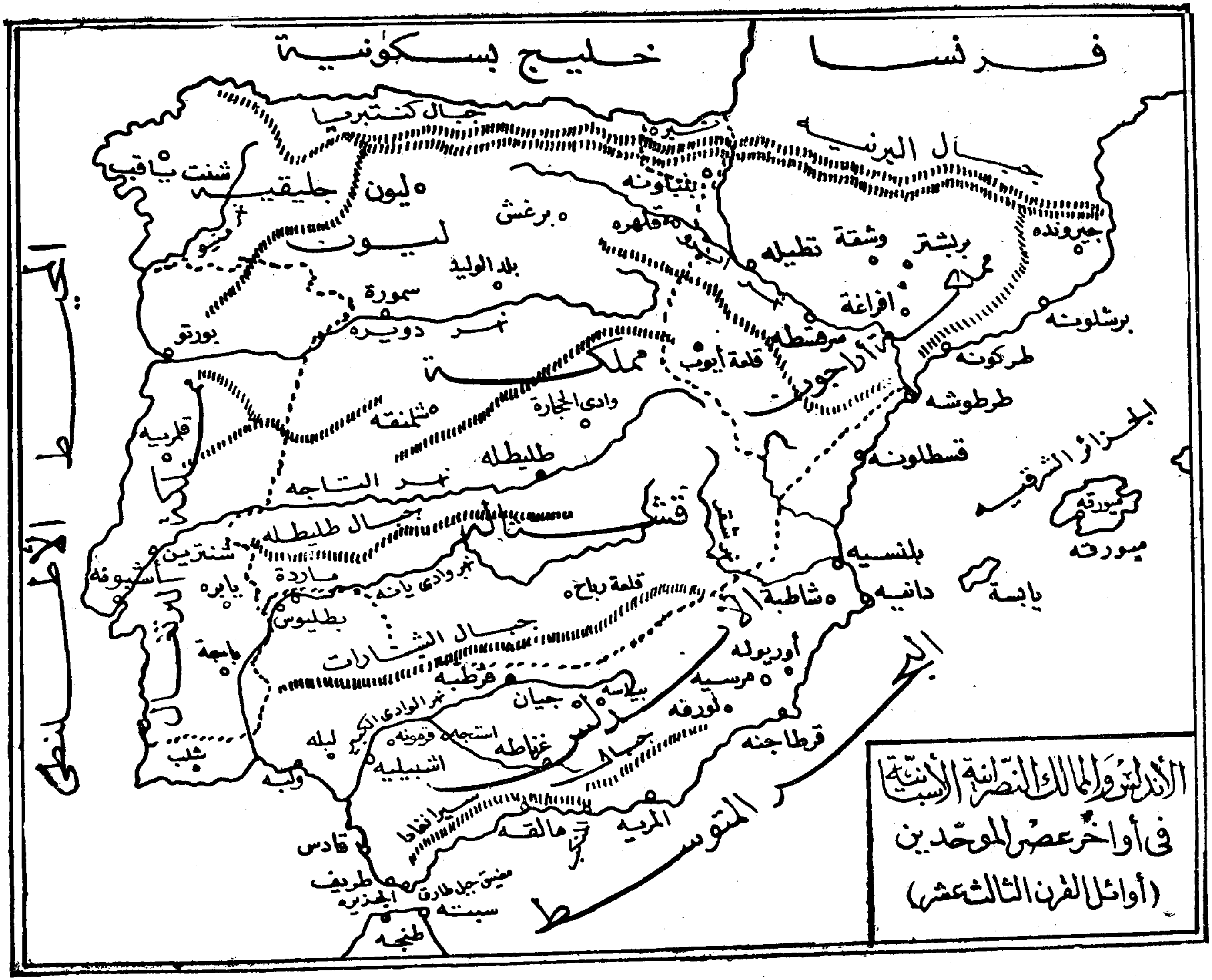

الأندلس والممالك النصرانية الأسبانية
في أواخر عصر الموحدين
(أوائل القرن الثالث عشر)

ابن يوسف بن عبد المؤمن ، الملقب بالمخلوع ، ولكن الأمور لم تهدأ بذلك ولم تستقر ، إذ ظهر بالأندلس ، مدع جديد للخلافة ، هو السيد أبو محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور ، والى مرسية ، وأعلن نفسه خليفة للموحدين باسم العادل ، وذلك فى شهر صفر سنة ٦٢١ هـ . وأيدته فى دعوته معظم القواعد الكبرى ، وكان ولاة قرطبة وغرناطة ومالقة ، وإشبيلية ، يومئذ من أخوته ، أولاد المنصور. ثم سار العادل إلى إشبيلية ، وهنالك وصلته بيعات أهل مراكش وبلاد المغرب . وقام أشياخ الموحدين بمراكش بخلع الخليفة أبى محمد عبد الواحد ، ثم دبروا قتله غيلة (شعبان ٦٢١ هـ) وعندئذ قرر العادل العبور إلى المغرب ، وترك أخاه السيد أبا العلاء إدريس بن المنصور والياً لإشبيلية ، وهى يومئذ قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس .

وعبر العادل البحر إلى المغرب فى أواخر سنة ٦٢٢ هـ . وتربع على كرسى الخلافة . وكانت أحوال الدولة الموحدية قد ساءت يومئذ ومزقتها الأهواء والفتن ، وتضعضع سلطانها فى معظم انحاء المغرب والأندلس . ولم يمض قليل على قيام العادل فى الخلافة حتى خرج عليه بالأندلس ، أخوه أبو العلاء إدريس والى إشبيلية ، ودعا لنفسه ، وتسمى بالمأمون ، وكان من أصداء هذه الحركة الجديدة فى مراكش أن قام الموحدون بقتل العادل ، ولكنهم لم يعلنوا بيعة المأمون ، بل أقاموا مكانه فى الخلافة ولد أخيه ، يحيى بن الناصر (شوال ٦٢٤ هـ) ولما علم المأمون بذلك ، استشاط سخطاً ، وقصد إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وطلب إليه العون على انتزاع العرش من ابن أخيه ، وقدم إليه عدداً من الحصون الأندلسية الهامة ، ودفع إليه مبلغاً طائلا من المال ، وتعهد بأن يمنح النصارى فى مراكش امتيازات عديدة ، وأن يسمح لهم ببناء كنيسة لهم ، وفى نظير ذلك أمده ملك قشتالة بفرقة من جنوده ليستعين بها على مقاتلة خصمه . وعبر المأمون إلى المغرب فى حشوده من العرب والموحدين والقشتاليين ، وذلك فى أواخر سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) ، وقصد تواً إلى مراكش . وخرج الخليفة يحيى بن الناصر للقائه فى قواته . ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها يحيى ، وفر ناجياً بنفسه ، ودخل المأمون مراكش ، وتربع على كرسى الخلافة .

وكان المأمون ، أميراً وافر الهمة والعزم ؛ يجيش بمشاريع وأطماع عظيمة . فقضى الأعوام القلائل التالية فى العمل على توطيد سلطانه بالمغرب ، واستبد بالحكم

واستعمل الشدة والعنف ، فى قمع كل نزعة إلى الخروج ، وقضى بمرسومه الشهير ،على رسوم المهدى ابن تومرت وتعاليمه ونظام حكومته ، باعتبارها نظماً رجعية ، لا تتفق مع روح الدين الصحيح ، وفتك بخصومه والناكثين لبيعته من الموحدين وغيرهم . فسرت روح السخط إلى معظم القبائل ، وأخذ الزعماء المتوثبون يرقبون الفرص . ثم مرض المأمون وتوفى فجأة ، وهو فى إبان سلطانه ومشاريعه ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م) ، فخلفه ولده الفتى أبو محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد .

وبينما كان المغرب يضطرم بعوامل الثورة والانتقاض على هذا النحو ، وكرسى الخلافة الموحدية يهتز إزاء أطماع الخوارج والمتوثبين ، كان سلطان الموحدين بالأندلس يهتز فى الوقت نفسه ، ويتداعى بسرعة ، وينهار حكمهم تباعا . فنى تلك الآونة ، ظهر زعيم أندلسى جديد ، ينتمى إلى بيت عريق فى الزعامة والملوكية ، هو محمد بن يوسف بن هود الجذامى ، وهو سليل بنى هود ملوك سرقسطة القدماء ، وكان يومئذ فتى متواضعاً من أهل مرسية من طوائف الجند . ظهر يدعو إلى دعوة جديدة ، تمثل فيها روح الأندلس الحقيقية ، وهى وجوب العمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين والنصارى معا . وكان تحالف المأمون مع ملك قشتالة ، وتنازله له عن الحصون الأندلسية ، وتعهده بأن يمنح النصارى فى أراضيه امتيازات خاصة ، وذلك مقابل عونه له بالجند على محاربة خصومه : كان ذلك يسبغ على دعوة ابن هود قوة خاصة ، ويدفع الأندلسيين إلى الانضواء تحت لوائه . وظهر ابن هود لأول مرة فى أحواز مرسية فى سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) ، فى الوقت الذى أخذ فيه سلطان الموحدين يضطرب ويتصدع فى الثغور والنواحى ، ثم أغار على مرسية فى عصبته القليلة ، واستطاع أن ينتزعها من يد حاكمها الموحدى السيد أبى العباس . وأخذ نجمه يتألق من ذلك الحين ، فأعلن أنه يعتزم تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى معاً ، والعمل على إحياء الشريعة وسننها ، ودعا للخلافة العباسية ، وكاتب الخليفة المستنصر العباسى ببغداد ، فبعث إليه بالخلع والمراسيم ، وتلقب بالمتوكل على الله . ولم يمض سوى قليل حتى دخلت فى طاعته عدة من قواعد الأندلس ، ومنها جيان وقرطبة وماردة وبطليوس . ثم استطاع أن ينتزع غرناطة

قصبة الأندلس الجنوبية ، من المأمون وذلك فى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م)(١).

وفى العام التالى (٦٢٩ هـ) توفى المأمون خليفة الموحدين حسبما تقدم ، وهو فى طريقه إلى مراكش ، ليعمل على إنقاذ عرشه من المتغلبين عليه . وبينما كان سلطان الموحدين بالأندلس يدنو سراعاً من نهايته ، كانت دولتهم بالمغرب تدخل فى دور الانحلال وتجوز مراحلها الأخيرة . وبالرغم من أنه لاح مدى لحظة ، فى ظل الخليفة أبى الحسن على السعيد (٦٤٠ — ٦٤٦ هـ) ، الذى خلف الرشيد، أن الدولة الموحدية سوف تنهض من كبوتها، وتسترد قوتها، وتصمد أمام هجمات بنى مَرين المتوالية ، فإن مصرع السعيد الفجائى فى الحرب ضد أمير تلمسان ، قضى على هذه البارقة . ثم جاء الخليفة المرتضى بالله (٦٤٦ — ٦٦٥هـ) ، فمضت الخلافة الموحدية فى ظله سراعاً إلى المنحدر ، ثم اختتمت حياتها ، بعد ذلك بقليل فى فاتحة سنة ٦٦٨ هـ (سبتمبر ١٢٦٩ م) ، على يد آخر خلفائها الواثق أبى دبوس ، لتقوم على أنقاضها دولة بنى مرين الفتية الشامخة .

وقد خاض ابن هود ، قبل أن تستقر دعوته، مع الموحدين والنصارى معارك متوالية . فأما عن صراعه مع الموحدين ، فقد بذل الخليفة المأمون قبل عبوره إلى المغرب محاولة لإخماد حركة ابن هود فى المشرق ، فلم يفلح (٦٢٦هـ) ،وكان من أثر هذا الفشل ، أن تمكنت دعوة ابن هود ، وقامت إشبيلية عاصمة الأندلس الموحدية بالدخول فى طاعته . على أن ابن هود لم يحرز مثل ذلك التوفيق فى محاربة النصارى . ذلك أن ألفونسو التاسع ملك ليون ، رأى أن ينتهز فرصة اضطراب الأحوال فى الأندلس ، وانهيار سلطان الموحدين فى شبه الجزيرة ، فخرج فى قواته إلى منطقة الغرب الأندلسية ، وزحف على مدينة ماردة ، وضرب حولها الحصار . ولما علم ابن هود بذلك ، سار فى بعض قواته نحو الغرب لينقذ المدينة المحصورة ، واشتبك مع الليونيين فى معركة هزم فيها ، واستولى الليونيون على ماردة ، ثم احتلوا بعد ذلك بقليل مدينة بطليوس ، وذلك فى أواسط سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠ م) . وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة، وهو ولد ألفونسو التاسع ملك ليون ، يرقب الفرصة فى نفس الوقت ، لينتزع ما يمكن انتزاعه من أراضى الأندلس المتاخمة لقشتالة . فسير قواته لمقاتلة ابن هود ، وقد كان يبدو فى نظره

(١) تحدثنا عن ظهور ابن هود تفصيلا فى كتابنا (عصر المرابطين والموحدين) القسم الثانى ص ٣٨٩ — ٣٩٣ .

ومئذ زعيم الأندلس الحقيقى . وكان ابن هود قد استطاع فى تلك الآونة ، أن يبسط سلطانه على الولايات والشواطىء الجنوبية ، فيما بين الجزيرة الخضراء والمرية ، وفيما بين قرطبة وغرناطة ، وكان يرى فى مقاتلة النصارى عاملا لتدعيم دعوته وسلطانه . فسار للقائهم والتقى الجيشان فى فحص شريش على ضفاف نهر وادى لكه ، ولكن ابن هود هزم للمرة الثانية بالرغم من تفوقه فى العدد (أواخر ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م) ، وسار فرناندو بعد ذلك لاجتياح أبدة ، فسقطت فى يده بعد حصار قصير (٦٣١ هـ — ١٢٣٤ م) .

على أن سقوط قرطبة كان أعظم ضربة نزلت يومئذ بالأندلس . وكان ابن هود عقب هزيمته فى شريش ، قد جمع قواته ، وسار لقتال خصمه ومنافسه الجديد محمد بن الأحمر فى أحواز غرناطة ، وألفى النصارى من جانبهم الفرصة سانحة للزحف على قرطبة . وكانت عاصمة الخلافة القديمة ، بالرغم من دخولها فى طاعة ابن هود ، تعانى من حالة مؤلمة من الاضطراب والفوضى ، ولم يكن لها حاكم أو زعيم يجمع الكلمة أو يتزعم حركة الدفاع ضد النصارى . وكان القشتاليون فى الحصون القريبة ، يشعرون بضعف العاصمة التالدة ، وإمكان مهاجمتها ، فاجتمعت بعض قوى الفرسان القشتالية المرابطة فى حصون الحدود ، وسارت نحو قرطبة ، وهاجمت قسمها الشرقى المسمى « بالشرقية » ، واقتحمته ليلا ، وعلى غرة من أهله ، واستطاعوا الاستيلاء على بعض أبراجه ، ولكنهم رأوا أن الاستيلاء على المدينة ذاتها ليس بالأمر السهل ، ولابد لتحقيقه من قوات ضخمة . وعلم فرناندو الثالث ، وهو فى طريقه إلى ليون بما تم من استيلاء قواته على بعض أبراج المدينة ، وبما تبين من ضعف وسائل الدفاع عنها ، فارتد اليها مسرعاً تلاحقه قواته من سائر الأنحاء ، وضرب الحصار حول المدينة ، وبادر أهل قرطبة بالتأهب للدفاع عن مدينتهم ، وأرسلوا إلى ابن هود أميرهم الشرعى ، يطلبون الغوث والإنجاد . وقدر ابن هود خطورة الموقف ، واعتزم فى الحال أن يسير إلى إنجاد المدينة المحصورة ، فسار فى قواته نحو قرطبة ، ونزل فى إستجة على مقربة منها ، ولكنه لبث جامداً لا يحاول الاشتباك مع النصارى . وفى بعض الروايات أن ابن هود رأى جيش القشتاليين يفوقه فى الأهبة والكثرة ، فنكل عن الاشتباك معه . وفى البعض الآخر ، أن ابن هود ، وصله وهو على مقربة قرطبة صريخ أبى جميل

زيان زعيم بلنسية لمعاونته ضد خايمى(١) ملك أراجون ، الذى اشتد فى مناوأته وإرهاقه ؛ ولاح له أن السير إلى بلنسية التى كان يطمح إلى امتلاكها أيسر وأجدى ، فترك قرطبة لمصيرها ، مؤملا أن يصمد أهلها للدفاع عنها ، أو يستطيع إنقاذها فيما بعد . ولبث النصارى على حصار قرطبة بضعة أشهر ، ودافع القرطبيون عن مدينتهم وعن دينهم وحرياتهم ، أعنف دفاع وأروعه ، ولكنهم اضطروا فى النهاية ، وبعد أن أرهقهم الحصار ، وفقدوا كل أمل فى الغوث والإنقاذ ، إلى التسليم . ودخل القشتاليون قرطبة فى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ (٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م) ، وفى الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة(٢) . وقد كان هذا شعارهم كلما دخلوا قاعدة أندلسية ، وذلك إيذاناً بظفر النصرانية على الإسلام . وكان لسقوط العاصمة الخلافية التالدة ، أعظم وقع فى الأندلس وفى سائر جنبات العالم الإسلامى ، وكان ضربة مميتة أخرى صوبتها اسبانيا النصرانية ، إلى قلب الأندلس المفككة المنهوكة القوى(٣) .

ولم يلبث ابن هود أن توفى بعد ذلك بقليل فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧م) . وكانت وفاته فى ثغر ألمرية ، فى ظروف غامضة . وكان قد سار إليها معتزماً أن ينقل بعض قواته فى البحر لإنجاد أمير بلنسية ، فقيل إن وزيره ونائبه فى ألمرية أبا عبد الله محمد بن عبد الله الرميمى استضافه فى قصره ، ودبر قتله غيلة ، وزعم فى اليوم التالى أنه توفى مصروعاً . وكان الرميمى قد قام بدعوته فى ألمرية ووفد عليه فى مرسية ، فقدر ابن هود عونه ، وولاه وزارته وعينه حاكماً لألمرية ، ثم تغير

---

(١) خايمى **Jaime** وهو الرسم الإسبانى لاسم يعقوب .

(٢) وما زال جامع قرطبة العظيم قائماً إلى يومنا بأروقته وعقوده وأعمدته الإسلامية كاملا كما كان أيام المسلمين . بيد أنه حول إلى كنيسة قرطبة الجامعة ، وأقيمت الهياكل فى سائر جوانبه تحت عقوده القديمة ، وأقيم فى وسطه مصلى كبير على شكل صليب **Crucéro** ؛ وقد أزيلت قبابه ونقوشه الإسلامية . ولم يبق محتفظاً بنقوشه القديمة سوى محاريبه الثلاثة . وما زال هذا الأثر الأندلسى العظيم إلى جانب تسميته بكتدرائية قرطبة يحمل اسمه الإسلامى القديم « المسجد الجامع » **La Mezquita Aljama** . راجع كتاب الآثار الأندلسية الباقية (الطبعة الثانية ص ٢٠ — ٣٣) .

(٣) راجع فى سقوط قرطبة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٨٣ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ حيث يشير إليه إشارة عابرة مع تحريف فى التاريخ ، إذ يذكر أن سقوطها كان فى سنة ٦٣٦ هـ . وراجع التكملة لابن الأبار (القاهرة) ص ٢٠٢ . وقد تحدثنا عن سقوط قرطبة تفصيلا فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى (ص ٤١٨ — ٤٢٥) .

عليه فيما يقال من أجل جارية نصرانية رائعة الحسن، كان يودعها لديه وقد أغراها الرميمى واستأثر بها ، فسار إلى ألمرية لمعاقبته ، وخشى الرميمى العاقبة فدبر مصرعه، ولجأ إلى الجريمة احتفاظاً بسلطانه . وكان مصرع ابن هود على هذا النحو فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ (٢١ يناير ١١٣٨ م)[١] .

وهكذا توفى ابن هود وهو فى ذروة سلطانه ومشاريعه ، ولم تطل وثبته التى بثت إلى الأندلس مدى لحظة قصيرة أملا خلباً ، سوى بضعة أعوام ، فانهارت بوفاته دولته التى لم يتح لها كثير من أسباب الاستقرار والتوطد[٢] .

وكان المتوكل بن هود أميراً شجاعاً ، كريم الصفات ، يضطرم إخلاصاً وغيرة للقضية التى نصب نفسه للاضطلاع بها ، ولكنه لم يكن بصفاته وموارده كفوءًا لتلك المهمة العظيمة ، وكانت تعتور جهوده نفس المثالب القديمة التى كانت تصدع دائماً من جهود الزعماء الأندلسيين ، والتى تتلخص فى مصانعة النصارى ، ومداراتهم ، ومساومتهم على حساب المصالح القومية .

وعلى أثر وفاة ابن هود وانهيار دولته ، بادر خايمى ملك أراجون بانتهاز الفرصة السانحة فغزا ولاية بلنسية . وكان قد استولى قبل ذلك بأعوام قلائل على الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فى سنة ٦٢٧—٦٣٢ هـ (١٢٣٠—١٢٣٥م) . وكانت بلنسية ، فى الوقت الذى اضطرم فيه شرقى الأندلس بثورة ابن هود ، ما تزال فى أيدى الموحدين ، ويحكمها واليها السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن يوسف بن عبد المؤمن . ولما استولى ابن هود على مرسية، خرج السيد أبو زيد فى قواته لمحاربته ، ولكنه ارتد مهزوما إلى بلنسية . فكان لذلك وقع عميق فى بلنسية ذاتها ، ونهض الشعب البلنسى ليحطم نير الموحدين ، وشعر السيد أبو زيد بحرج الموقف ، ونهض فى نفس الوقت زعيم من آل مردنيش ، زعماء بلنسية السابقين ، هو الأمير أبو جميل زيان بن مردنيش ، يحاول انتزاع السلطة ، والتف حوله الشعب البلنسى ، وعندئذ بادر السيد أبو زيد ، وغادر بلنسية فى أهله وأمواله والتجأ إلى أحد الحصون القريبة ، ولكنه لما رأى تفاقم الموقف ، اعتزم أمره

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ و٥٨٣ ؛ والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣٥ و٢٣٦ .

(٢) راجع فى ثورة ابن هود ووفاته ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ – ١٧٠ ؛ والإحاطة ج ٢ ص ٩٠ – ٩٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ – ٥٨٣ .

وسار ملتجئاً إلى خايمى الأول ملك أراجون (٦٢٦ هـ) ، وعقد معه معاهدة تعهد فيها بأن يعطيه جزءاً من الحصون والأراضى الإسلامية التى يستردها أو يفتتحها ، ثم زاد على ذلك ، بأن اعتنق النصرانية ، وانضم بكليته إلى أعداء أمته ودينه ، وأخذ يسير مع حلفائه النصارى فى غزواتهم المتوالية لأراضى بلنسية . وأخذ الملك خايمى يستولى تباعا على حصون بلنسية الأمامية ، ثم هزم البلنسيين ، بقيادة أميرهم زيان ، هزيمة شديدة فى موقعة أنيشة (ذى الحجة ٦٣٤ — أغسطس ١٢٣٧) . ولم تمض على ذلك أشهر قلائل ، حتى سار خايمى فى قواته صوب بلنسية وضرب حولها الحصار (رمضان ٦٣٥ هـ) ، وأخذ يضربها بالآلات المخربة . ودافع البلنسيون عن مدينتهم أشد دفاع ، وبعث الأمير أبو جميل كاتبه الفقيه الشاعر المؤرخ ، ابن الأبار القضاعى بصريخه سفيراً إلى الأمير أبى زكريا الحفصى عاهل إفريقية ، وألقى ابن الأبار بين يديه قصيدته السينية الرائعة التى نشير إليها فيما بعد ، وبعث الأمير أبو زكريا عدة من السفن محملة بالعتاد والأموال إنجادا للمدينة المحصورة ولكنها لم تستطع اختراق الحصار ، واضطر البلنسيون آخر الأمر إلى التسليم بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع ، وسقطت بلنسية فى أيدى الأرجونيين ، وذلك فى اليوم السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٦٣٦ هـ (٩ أكتوبر سنة ١٢٣٨ م)(١) ، وانهارت بذلك سائر خطط الدفاع عن شرقى الأندلس . وأتبع خايمى فتح بلنسية بالاستيلاء على شاطبة ودانية ولقنت وأوريولة وقرطاجنة ، وذلك فى سنة ٦٤١ — ٦٤٤ هـ . وأما ولاية مرسية فقد استولى عليها فى البداية الأمير أبو جميل زيان ، عقب فقده لبلنسية ، ولكن الزعماء المحليين آثروا الانضواء تحت حماية ملك قشتالة ، فتقدموا إليه يلتمسون مهادنته ومحالفته على الوضع المأثور ، وهو أن يسمح لهم باستبقاء مدنهم فى طاعته وتحت حمايته ، فأجابهم فرناندو ملك قشتالة إلى ملتمسهم ، وبعث إليهم ولده ألفونسو . ودخل النصارى مرسية صلحاً سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٣ م) . وبذلك سقطت ولاية بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس كله فى أيدى النصارى فى أعوام قلائل فقط ، وكانت نفس المأساة تتكرر فى ذلك الوقت نفسه ، بصورها وأوضاعها المحزنة ، فى غربى الأندلس حسبما نفصل بعد(٢) .

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ . والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٩٠

(٢) تناولنا حصار بلنسية وافتتاحها ، وسقوط باقى قواعد الشرق تفصيلا فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٤٣٧ — ٤٦٤ .

— ٢ —

وفى تلك الآونة العصيبة ، التى أخذت فيها قواعد الأندلس العظيمة : قرطبة ، وبلنسية ومرسية وإشبيلية ، تسقط تباعاً فى يد النصارى ، والتى أخذت الأندلس تواجه فيها شبح الفناء من جديد كما واجهته أيام الطوائف ، كانت عناصر الفتنة والفوضى تتمخض عن قيام مملكة إسلامية جديدة فى جنوبى الأندلس هى مملكة غرناطة . وقيام هذه المملكة فى الطرف الجنوبى للدولة الإسلامية القديمة ، يرجع إلى عوامل جغرافية وتاريخية واضحة . ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التى تقع فيما وراء نهر الوادى الكبير آخر الحواجز الطبيعية ، بين اسبانيا النصرانية وبين الأندلس المسلمة ، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها ، وكانت فى الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر ، إلى عُدوة المغرب وشمال إفريقية حيث تقوم دول إسلامية شقيقة ، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم ، أن تستمد الغوث والعون من إخوانها فى الدين . وقد كان لها فى ذلك منذ أيام الطوائف أسوة ، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد فى تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعى ، حينما دهم العدو بلنسية فى سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) ، وكان الصريخ موجهاً من أميرها أبى جميل زيان ، إلى أبى زكريا الحفصى ملك إفريقية (تونس) ، وهو الذى ردده الشاعر فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها : (١)

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل عز النصر منك ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العابثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

---

(١) تراجع هذه القصيدة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ وما بعدها ؛ وفى أزهار الرياض ج ٣ ص ٢٠٧ وما بعدها ، وهى من غرر القصائد الأندلسية السياسية .

وفى قول الشاعر يتمثل هذا المغزى التاريخى . الذى لبث أحقاباً يربط بين الأندلس وبين الدول الإسلامية الشقيقة فى عدوة المغرب ، وقدكان يتمثل واضحاً كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية ، ولاح لهاشبح الفناء فى جزيرتها المنقطعة قوياً رهيباً .

وقد قامت مملكة غرناطة ، التى شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية دهراً طويلا آخر ، فى ظروف متواضعة . وذلك أنه لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس ، وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل كما قدمنا ، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعاً ، ينتزع بعضها ابن هود وثوار النواحى ، والبعض الآخر ينتزعه النصارى ، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بنى نصر ، وهم فى الأصل سادة حصن أرجونة[1] من أعمال ولاية جيّان . وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجى . ويُرجع بنو نصر نسبتهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد أكابر الصحابة ، فهم بذلك من أعرق البطون العربية . وقد أشار إلى هذه النسبة بعض مؤرخى الأندلس ومنهم الرازى[2]. وكان لبنى نصر وجاهة وعصبية.

وولد محمد بن يوسف فى أرجونة سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨م) ونشأ فى مهاد الفضيلة والتقشف جندياً وافر الجرأة والعزم ، يتزعم قومه ، ويقودهم إلى مواطن النضال ، وكان بالرغم من تقشفه وتواضعه يجيش بأطماع كبيرة ، وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولى العزم والإقدام كثيراً من فرص الظهور والمغامرة ، فلما تفاقمت الفتنة ، واضطربت الشئون فى الثغور والنواحى ، وكثرت غزوات النصارى لقواعد الأندلس ، وظهر ابن هود على الموحدين فى الثغور الشرقية ، لاحت لمحمد ابن يوسف فرصة العمل . وكان هذا الزعيم المتواضع الموهوب معاً ، يبدو لكثير من الزعماء وذوى الرأى ، معقد الآمال فى إنقاذ ما بقى من تراث الأندلس ، فالتفت حوله الصحب والأنصار ، أولا فى أرجونة موطن أسرته وعصبته ، وفى الجهات المجاورة لها . وبينما كان ابن هود يعمل لتوطيد سلطانه فى شرقى الأندلس وجنوبها ، كان محمد بن يوسف يعمل من جانبه فى الأنحاء الوسطى ، ولم يلبث

---

(١) ومكانه اليوم بلدة أرجونه **Arjona** وهى بلدة صغيرة تقع شمال غربى مدينة جيان ، وجنوبى بلدة أندوجر .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ ؛ والإحاطة ج ١ ص ١٥٨ وج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٦٧ .

أن أطاعته جيّان وبسطة ووادى آش وما حولها من البلاد والحصون ، وبسط حكمه على تلك الأنحاء بالرغم من معارضة ابن هود . ثم اتجه ببصره إلى القواعد والثغور الجنوبية باعتبارها أقرب ميدان للعمل ، وأبعد الأماكن عن متناول العدو ، ورأى فى الوقت نفسه ، أن يستظل بدعوة أحد الأمراء المسلمين الظاهرين ، فدعا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية (تونس) وتلقى منه بعض العون . وقيل أيضاً إنه حذا حذو ابن هود فى الدعاء للخليفة المستنصر بالله العباسى ؛ ونادت قرمونة وقرطبة وإشبيلية بطاعته لمدى قصير وذلك فى أواسط سنة ٦٢٩ ﻫ ، ثم عادلت قرطبة وإشبيلية عنه إلى طاعة ابن هود . ولما اضطرمت الثورة فى إشبيلية ، واستطاع زعيمها القاضى أبو مروان الباجى أن يبسط حكمه عليها ، وأن يخرج منها عامل ابن هود ، بادر محمد بن يوسف إلى محالفته على معارضة ابن هود ومقاتلته ، وهزماه سوياً فى بعض المواقع . ولكن محمداً غدر بعد ذلك بالباجى ليخلو له الجو ودس عليه من قتله . ولم يمض قليل على ذلك حتى أطاعته شَريش ومالقة ، وكثير من القواعد والحصون القريبة (سنة ٦٣٠ﻫ) . أما إشبيلية وقواعد غربى الأندلس فقد احتفظت باستقلالها فى ظل بعض الزعماء المحليين . وهرع إلى لوائه كثير من المسلمين الذين غادروا المدن التى وقعت فى يد النصارى ، واستطاع أن يحشد جيشاً كبيراً من الفرسان والرجالة ، يؤازره فى تنفيذ خططه ومشاريعه(١)

ولما قويت دعوة ابن هود ، وامتد سلطانه نحو الغرب والجنوب ، واستولى على غرناطة وأقره الخليفة العباسى على دعوته ، رأى محمد بن يوسف (ابن الأحمر) مصانعته والانضواء تحت لوائه ، فانحاز إليه وجاهر بطاعته (٦٣١ﻫ) ولكن ابن هود ما لبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥ ﻫ وانهارت دولته كما قدمنا . وعندئذ بادر محمد بن يوسف إلى العمل ، لاجتناء تراثه فى الأنحاء الوسطى . وكان ابن هود قد ولى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلى ، وكان خصما لابن الأحمر يأمر بسبه على المنابر ، وكان ظلوماً جائراً ، فلما اشتدت وطأته على أهل غرناطة ، ثار عليه جماعة من أشرافها بزعامة ابن خالد ، واقتحموا القصبة والقصر فى عصبتهم ، وقتلوا عتبة وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر ، وبعثوا إليه يستدعونه ؛ فسار ابن الأحمر إلى غرناطة ودخلها عند مغيب الشمس فى يوم من أواخر رمضان

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، واللمحة البدرية فى الدولة النصرية لابن الخطيب ص ٣١ .

سنة ٦٣٥ هـ (أبريل سنة ١٢٣٨ م) ، وهو يرتدى ثياباً خشنة وحلة مرقعة ، ونزل بجامع القصبة وأم الناس لصلاة المغرب ، ثم خرج من المسجد إلى قصر باديس ، والشموع بين يديه ، ونزل فيه مع خاصته ، وبذا غدت غرناطة حاضرته ومقر حكمه ، وكان ذلك لأشهر قلائل فقط من وفاة ابن هود[1] . وما كاد ابن الأحمر يستقر فى حاضرته الجديدة ، حتى عول على افتتاح ألمرية وسحق ابن الرميمى وزير ابن هود وقاتله ، فسار إليها فى بعض قواته وحاصرها مدة ، فلما اشتد عليها الحصار غادرها الرميمى من جهة البحر بأهله وماله فى سفينة خاصة ، وسار إلى تونس مستظلا بحماية أميرها أبى زكريا الحفصى ، وملك ابن الأحمر ألمرية وامتد بذلك سلطانه إلى سائر الشواطىء الجنوبية .

وكان من أعظم أعوان محمد بن يوسف فى تلك المعركة التى انتهت بتحقيق رياسته ، أصهاره بنو أشقيلولة وهم أسرة قوية نابهة من المولدين . وكان كبيرهم أبو الحسن بن أشقيلولة من رجالات الأندلس وزعمائها وقت الفتنة ، وكان من خصوم ابن هود ومن المقاومين لحركته ، فانحاز إلى محمد بن يوسف منذ الساعة الأولى ، وعاونه على مقاومة خصومه ، وتوثقت أواصر الزعيمين بالمصاهرة ، إذ تزوج أبو الحسن أخت محمد بن يوسف وتزوج ولده أبو محمد عبدالله بن أشقيلولة من ابنته . ولما استقام الأمر لابن الأحمر ، ندب صهره أبا الحسن لحكم وادى آش ، وندب أبا محمد لحكم مالقة . ولما توفى أبو الحسن خلفه فى حكم وادي آش ولده أبو إسحق . وتمكن نفوذ بنى أشقيلولة فى الرياسة وكانوا عضداً لابن الأحمر ، ولكن أطماعهم كانت تتجاوز حكم المدن ، وكان ابن الأحمر فى أواخر عهده يستريب بهم ويخشى بأسهم ، وقد ظهرت أعراض انتقاضهم غير بعيد[2] .

ويرى المستشرق الإسبانى دى لاس كاخيجاس ، أن قيام مملكة غرناطة فى ظل بنى نصر ، يبدو لغزاً حقيقياً . ذلك أنها ولدت فى ظروف غير ملائمة ، بل ضعيفة ذابلة ؛ ونشأ ابن الأحمر ، لا كابن هود أو ابن مردنيش ؛ وكلاهما ينتمى إلى أسرة حكمت ولاياتها منذ أيام الموحدين ، ولكن وحيداً فى بلده أرجونة

---

(١) اللمحة البدرية ص ٣٥ ؛ وراجع الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، وهو لمؤلف مجهول (طبع الجزائر سنة ١٩٢٠) ص ٦٠ ، وفيه أن دخول ابن الأحمر مدينة غرناطة كان فى آخر رمضان سنة ٦٣٦ هـ . ولكن معظم الروايات على أن دخوله كان فى ٦٣٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٧ هـ .

كحدث غير عادى ، بل ودون رسوخ محلى . وقد كانت قوته الحقيقية ، فضلا عن جرأة حركته ، تتركز فى أسرته الخاصة ، وفى جمع من الأصدقاء والحلفاء مثل بنى أشقيلولة المولدين .

ثم يبدى دهشته من أن مملكة غرناطة بالرغم من تكوينها من هضاب وبسائط يغلب عليها القفر أكثر مما يغلب الخصب ، وامتداد رقعتها من جيّان شمالا إلى الجزيرة جنوباً ، وبالرغم من أن الجند النصارى كانوا فى أحيان كثيرة يخترقونها بسهولة حتى مرج غرناطة ، فإن هذه العوامل كلها لم تكن شيئاً إزاء الحوادث المستقبلة . ولم يمنع تردد مؤسسها وتقلبه ، ولا ظروفها الجغرافية والاقتصادية السيئة ، من تقدمها وازدهارها ، ومن بقائها مدى قرنين ونصف سليمة موطدة ، وهى خلال هذا المدى الطويل تستأثر بأطماع النصارى الفتحية . ثم يقول : « حقاً إن ذلك كله لغريب ، بل إنه لينبو عن الإيضاح »(١) .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة ، من غمر الفوضى التى سادت الأندلس ، على أثر انهيار سلطان الموحدين ، ولكنها كانت فى حاجة إلى الاستقرار والتوطد ، وكان محمد بن يوسف يواجه فى سبيل هذه المهمة كثيراً من الصعاب ، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية شيعاً ، وانتثرت إلى حكومات ومناطق عديدة ، وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسى ولاسيما فى الجنوب . ولم يك ثمة ما يمنع من التفاف الأمة الأندلسية كلها حول لواء هذا الزعيم المنقذ ، ولكن روح التفرق والتنافس كانت متأصلة فى نفوس المتغلبين والطامعين ، وكان أصاغر الزعماء والحكام يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى ، والاحتفاظ فى ظله بمدنهم وقواعدهم ، على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه . وحدث ذلك بنوع خاص فى مرسية وشرق الأندلس حسبما أشرنا من قبل ، حيث ارتضى والى مرسية محمد بن على بن هود وحكام لقنت وأوريولة وقرطاجنة وجنجالة وغيرها ، أن يعقدوا الصلح مع ملك قشتالة على أن يعترفوا بطاعته ويؤدوا له الجزية ، وأن يبقوا متمتعين فى ظله بحكم مدنهم ومواردهم . وعلى أثر ذلك سلمت مرسية ودخلها ألفونسو ولد فرناندو الثالث ملك قشتالة فى احتفال فخم (شوال ٦٤٠ هـ — أبريل ١٢٤٣ م) . وهكذا كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية فى تلك الآونة العصيبة ، يذهب إلى حد التضحية

(١) Isidro de la Cagicas : Los Mudéjares (Madrid 1948) P. 425 & 426.

بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات ، وكانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها ، تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة ، وكان فرناندو الثالث يرى فى ابن الأحمر بعد اختفاء ابن هود ، زعيم الأندلس الحقيقى والخصم الذى يجب تحطيمه . وكان ابن الأحمر من جانبه يقدر خطورة المهمة التى ألقاها القدر على عاتقه ، وكان يضطرم عزماً وإقداما لمحاربة النصارى ، واستخلاص تراث الوطن من أيديهم ، فما كاد يستقر فى غرناطة حتى نشط إلى محاربة النصارى وكانوا قد عاثوا فى أحواز جيان وخربوها ، وسار إلى قلعة مرتش(1) فى قوة كبيرة ، وضرب حولها الحصار (٦٣٦ هـ) ، ولكن النصارى قدموا لإنجادها بسرعة ، واضطر ابن الأحمر إلى رفع الحصار ، ثم اشتبك فى معركة حامية مع النصارى ، وكان يقودهم ردريجو ألونسو وهو أخ غير شرعى لفرناندو الثالث ، وهزمهم هزيمة شديدة ، قتل فيها قائد مرتش ، وعدة من أكابر الفرسان وأحبار قلعة رباح . على أن مثل هذه المعارك المحلية لم تكن حاسمة فى سير الحوادث . وكان فرناندو الثالث يرقب نهوض هذه القوة الأندلسية الجديدة بعين التوجس ويتأهب لمقارعتها ، فما كاد ينتهى من إخضاع الثغور الشرقية والاستيلاء على مرسية ، حتى عمد إلى مهاجمة ابن الأحمر ، وكان يتوق إلى الانتقام لموقعة مرتش ، وبعث لقتاله جيشاً قوياً بقيادة ولده ألفونسو . وعاث النصارى فى منطقة جيان واستولوا على حصن أرجونة موطن بنى نصر ، وعدة حصون وأماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ، ثم حاصروا غرناطة نفسها (٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م) ، ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسائر فادحة . وفى العام التالى زحف النصارى على جيان وحاصروها ، حتى كادت تسقط فى أيديهم . فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى وعبث المقاومة ، آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته ، فسار إلى لقائه فى معسكره ، وقدم إليه طاعته ، ويرى بعض الباحثين أن قدوم ابن الأحمر على هذا النحو إلى فرناندو ، إنما كان تنفيذاً لاتفاق سابق ، تم فيه التفاهم على تحديد مملكة غرناطة(2) . وعلى أى حال فقد تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفى طاعته ، وأن يؤدى له جزية سنوية ، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب (دوبلاس) ، وأن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه ، فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك ،

---

(١) مرتش ، وبالاسبانية **Martos** ، بلدة حصينة تقع على مقربة من جنوب غربى مدينة جيان .

(٢) **Prieto y Vives : De como debió nacer el Reino de Granada p. 14.**

وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابى (الكورتيس) ، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش[١]. وسلم ابن الأحمر إلى فرناندو جيّان وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر[٢] رهينة بحسن طاعته ، ونزل له عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها[٣]. وفى مقابل هذا الثمن الفادح عقد ملك قشتالة السلم مع ابن الأحمر لمدة عشرين سنة ، وأقره على ما بقى بيده من القواعد والحصون (٦٤٣ هـ — ١٢٤٥ م)[٤] . وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان مدى حين ، وقبل ابن الأحمر أن يضحى استقلاله السياسى وهيبته الأدبية احتفاظاً بأراضيه ، وتطلعاً إلى ظروف أفضل يستطيع فيها النضال والصمود .

وفى تلك الفترة العصيبة ، كانت الفتنة تمزق ما بقى من أوصال الأندلس ، ويهرع الزعماء المسلمون الأصاغر ، إلى مصانعة ملك قشتالة والانضواء تحت لوائه ، وكانت اسبانيا النصرانية قد انتهت من الاستيلاء على الولايات الشرقية كلها ، ولم يبق عليها سوى التهام الولايات الغربية . ولم يكن مثل ابن الأحمر وهو أعظم زعماء الأندلس يومئذ ، مشجعاً على غير هذا المسلك المؤلم . ففى سنة ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) نزل القاضى ابن محفوظ وهو من زعماء الغرب لملك قشتالة عن مدينة طبيرة ، والعلى ، وشلب ، والخزانة ، ومرشوشة ، وبطرنا ، والحرة[٥] . وكان فرناندو الثالث يتأهب فى تلك الآونة ذاتها ، لافتتاح إشبيلية أعظم القواعد الأندلسية . وكان قد استطاع قبل ذلك بأشهر أن يستولى على مدينة قرمونة حصن إشبيلية الأمامى ، وذلك بمعاونة محمد بن الأحمر ، وفقاً للتحالف المعقود بينهما ، ثم عمد

---

(١) Crônica General (Ed. Pidal) Vol. I. p. 74

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٣٦٧ ، والذخيرة السنية ص ٧٢ . وجيان وبالاسبانية **Jáen** من قواعد الأندلس القديمة وتقع جنوب شرقى قرطبة ، وشمال غرناطة . وأرجونة سبق التعريف بها . وبركونة **Porcuna** تقع جنوبى غربى أرجونة ؛ والحجار **Higuera** تقع جنوب بركونة وكلتاهما من أعمال مدينة جيان ، وبيغ أو بيغو **Priego** وتقع جنوب شرقى قرطبة .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ، والفرنتيرة **La Frontera** هى المنطقة الساحلية الواقعة غربى الجزيرة الخضراء والممتدة من ثغر قادس جنوباً حتى طرف الغار .

(٤) الذخيرة السنية ص ٧٣ ؛ واللمحة البدرية ص ٣٦ ، والإحاطة ج ٢ ص ٦٥ .

(٥) الذخيرة السنية ص ٧٦ . وتقع هذه الأماكن كلها فى ولاية «الغرب» **Algarve** فى جنوبى البرتغال ، ويحدد موقعها طبيرة **Tavira** وهى تقع على المحيط على مقربة من الحدود الإسبانية ؛ وشلب **Silves** وهى تقع فى أقصى جنوب البرتغال الغربى على مقربة من المحيط .

بعد ذلك إلى افتتاح باقى الحصون القريبة من إشبيلية . واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله ، أن يقنع معظم أصحابها بتسليمها لملك قشتالة ، مقابل تعهده بأن يحقن دماء المسلمين ، وأن يمنحهم شروطاً سخية . ولم تأت أواسط سنة ١٢٤٧ م (٦٤٥هـ) حتى كان ملك قشتالة ، قد استولى على جميع الحصون الأمامية لإشبيلية ، وانتسف سائر البسائط والضياع القريبة منها .

وبدأ النصارى حصارهم لإشبيلية فى أغسطس سنة ١٢٤٧م (جمادى الأولى سنة ٦٤٥هـ) . وحشد فرناندو حول المدينة المحصورة قوات عظيمة حشدت فى سائر أنحاء قشتالة ، وتسابق الأمراء والأشراف والأحبار النصارى ، فى الاشتراك فى هذه الحملة الصليبية الخطيرة ، ورابط أسطول قشتالى قوى فى نهر الوادى الكبير إحكاماً لمحاصرة المدينة من جهة البحر ، واضطر ابن الأحمر أن يقدم وفقاً لتعهده قوة من الفرسان للمعاونة فى حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها . وهكذا أرغم هذا الزعيم المسلم على أن يشرب الكأس المرة إلى الثمالة ، فى محالفة أعداء وطنه ودينه . وتقول بعض الروايات الإسلامية ، إن ابن الأحمر كان يرمى بمعاونة النصارى على هذا النحو ، إلى الانتقام من أهل إشبيلية لخذلهم إياه ونكولهم عن طاعته[1]. وصمم أهل إشبيلية على الدفاع عن مدينتهم جهد الاستطاعة ، ولكن الموقف داخل المدينة كان غامضاً ومضطرباً . ذلك أن إشبيلية ، مذ خلعت طاعة الموحدين ، عند اضطراب أمرهم ، وانهيار سلطانهم ، كباقى القواعد الأندلسية ، لم تقم بها زعامة موحدة ، ولا تحدثنا الرواية الإسلامية عن أولئك الزعماء الذين ألقى القدر إليهم مهمة الدفاع عن إشبيلية فى تلك الآونة العصيبة ، ولكنا نعرف بعض الأسماء من الرواية النصرانية المعاصرة ، ومن بعض إشارات عابرة فى الرواية الإسلامية ، فهى تذكر لنا قائد الفحص شقّاف ، والرئيس ابن شعيب ، ويحيى ابن خلدون ، ومسعود بن خيار . وكان القائد شقاف ، فى الواقع ، هو الزعيم الحقيقى الذى يتولى أمر الدفاع ، وعليه تعقد الآمال . وطال الحصار حول إشبيلية وأخذ يشتد يوماً بعد يوم ، وكانت المدينة المحصورة تتاقى من وقت إلى آخر من عُدوة المغرب ، بعض المؤن عن طريق الوادى الكبير . ولما تفاقمت أهوال الحصار وضع شاعر إشبيلية يومئذ إبراهيم بن سهل الإشبيلى الإسرائيلى ، قصيدة مؤثرة يستصرخ فيها أهل العدوة ، ويستحثهم على المبادرة إلى نصرة إخوانهم فى الدين وفيها يقول :

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

وِرداً فمضمون نجاح المصـــدر   هى عزة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمر   يبدونكم بين القنـــا والضُّمَّر
خلوا الديار لدار عز واركبوا   عبر العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل فى السرى   ترووا بماء الحوض غير مكدر
يا معشر العرب الذين توارثوا   شيم الحمية كابراً عن أكـبر
إن الإله قد اشترى أرواحكم   بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم   ولكم تمهـد فى قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنـــه فلتـدعموا   ذاك البناء بكل لدن أسمر(١)

وطال حصار إشبيلية زهاء ثمانية عشر شهراً ، وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد فى الدفاع عن حاضرتهم ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئاً أمام عزم النصارى وتصميمهم . وأخيراً اضطر الإشبيليون إلى قبول مصيرهم المحتوم ، وارتضوا تسليم المدينة ، على أن يؤمن المسلمون فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يمهلوا شهراً لتسوية شئونهم وإخلاء دورهم والتأهب للرحيل ، ووضع ملك قشتالة الترتيبات اللازمة لنقل أهل المدينة بالبر والبحر إلى الجهات التى يقصدونها . وفى ٢٣ ديسمبر سنة ١٢٤٨ م (أوائل رمضان سنة ٦٤٦ هـ) دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية فى موكب فخم ، وذلك بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون ، وحكمها الموحدون زهاء قرن . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وأزيلت منها معالم الإسلام بسرعة ، وتفرق معظم أهلها المسلمين فى الحواضر الإسلامية الباقية ، ولا سيما غرناطة . وكان سقوط إشبيلية إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية الواقعة فيما بينها وبين مصب الوادى الكبير وفى المناطق المجاورة . وهكذا استولى للنصارى تباعاً على شريش وشذونة وقادس وشلوقة وغليانة وروضة أوروطة وأركش وثغر شنتمرية(٢)، وغيرها من قواعد الوادى

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى الذخيرة السنية ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) شريش وبالإسبانية **Jerez** تقع على مقربة من مصب نهر وادى لكه شمال ثغر قادس ، وشذونة **Medina Sidonia** تقع جنوب شرق قادس وسط أرض الفرنتيرة ، وقد اشتهرت بالموقعة التى حدثت على مقربة منها بين طارق فاتح الأندلس والقوط وانتهت بفتح اسبانيا ، وقادس **Cadiz**، تقع جنوب شريش على المحيط الأطلنطى ، وشلوقة وهى الآن مدينة **San Lucar** ، وتقع شمالى شريش على المحيط ، وروضة هى **Ruta** أو **Roda** ، وتقع على مقربة من شلوقة على المحيط ، وأركش **Arcos** =

وحصونه ؛ وسلم ابن محفوظ فى الوقت نفسه للنصارى حصن اللقوة ووادى أنة وشنتل والحصين وشلطيش ، على أن يستبقى حكم لبلة وأحوازها(١) . وعاون ابن الأحمر النصارى فى الاستيلاء على ثغر قادس . وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضى الإسلامية الواقعة غربى ولاية الأندلس ، وأخذت رقعة الدولة الإسلامية تنكمش بسرعة مروعة(٢) .

وكان موقف ابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً ، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه ، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادى والأدبى ، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية ، وقد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام فى الأندلس، يهرعون إلى احتذاء مثاله . وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة ، وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر فى تاريخ الأندلس منذ الطوائف ، حيث نرى كثيراً من الأمراء المسلمين يظاهرون النصارى على إخوانهم فى الدين ، احتفاظاً بالملك والسلطان . ولكن ابن الأحمر كان يقبل هذا الوضع المؤلم إنقاذاً لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد ، وتنفيذاً لأمنية كبيرة بعيدة المدى . ذلك أنه كان يطمح إلى جمع كافة الأندلس تحت لوائه . وإدماج ما تبقى من تراثها وأراضيها فى مملكة موحدة ، تكون مُلكاً له ولعقبه . ولم تكن تحدوه رغبة فى توسع يجعله إلى الأبد أسيراً لحلفائه النصارى ، مثلما كان يفعل أسلافه زعماء الطوائف . بل كانت تحدوه قبل كل شىء رغبة فى الاستقلال ، والتوطد داخل حدود إمارته المتواضعة . وقد لبث يعمل على تحقيق هذه الغاية فى ولاية غرناطة والولايات المجاورة ، وهو يصانع النصارى ويتجنب الاشتباك معهم ، ويشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق ، وقلبه يتفطر حزناً وأسى .

= تقع شمال شرقى شريش وسط المثلث الإسبانى ، وشنتمرية هى ثغر شنتمرية الغرب **Sta Maria de Algarve** وتقع جنوبى البرتغال على المحيط ، ومكانها اليوم مدينة فارو البرتغالية .

(١) الذخيرة السنية ص ٨٥ . وتقع هذه الأماكن فى ولاية الغرب على مقربة من مدينة أونية (ولبة **Huelva** الحديثة) شرقى نهر أوديل .

(٢) راجع حوادث حصار إشبيلية وسقوطها فى البيان المغرب القسم الثالث ص ٣٨١ و٣٨٢ وابن خلدون ج ٤ ص ١٩٠ ، والذخيرة السنية ص ٧١ — ٧٦ . ومن المراجع القشتالية بالأخص **Crónica General (Ed. Pidal) Vol. I, No. 1080 - 1125** : ، وقد أفردنا لسقوط إشبيلية ، فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » فصلا كبيراً ، ويراجع فى القسم الثانى منه ص ٤٦٦ — ٤٨٨ .

على أن ابن الأحمر لم يكن يعتزم المضى فى ذلك المسلك المؤلم المهين إلى النهاية ، فقد كانت نفسه الوثابة تحدثه من وقت إلى آخر ، بأن يحطم هذه الأغلال الشائنة التى صفدته بها محالفة النصارى ، وكان كلما آنس ازدياد قوته ورسوخ سلطانه صلبت قناته وذكا عزمه ، وكان يتجه ببصره إلى ما وراء البحر ، إلى إخوانه فى الدين فى عدوة المغرب ، وكان جرياً على السياسة الأندلسية المأثورة يرى فى ملوك العدوة ، عضداً له قيمته فى مغالبة النصارى ، وكانت حوادث المغرب تتمخض فى ذلك الحين بالذات عن قيام دولة جديدة قوية هى دولة بنى مرين . ومع أن الكفاح بين دولة الموحدين المحتضرة وبين دولة بنى مرين الناشئة[1] ، كان يحول دون إنجاد الأندلس بصورة فعالة ، فإن كتائب المجاهدين من بنى مرين والمتطوعة من أهل المغرب ، لم تلبث أن هرعت إلى غوث الأندلس . وعبر القائد أبو معرف محمد بن إدريس بن عبد الحق المرينى وأخوه الفارس عامر ، البحر فى نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان بنى مرين . وكانت حوادث الأندلس المؤسية تحدث وقعها العميق فى المغرب ، وكانت رسائل الأندلس تترى إلى أمراء المغرب وأكابرهم بالصريخ مما تكابده من عدوان النصارى واستطالتهم ، والاستنصار بأهل العدوة إخوانهم فى الدين ، وكان علماء المغرب وخطباؤه وشعراؤه يبثون دعوة الغوث والإنجاد ، ومن ذلك قصيدة مؤثرة وضعها أبو الحكم مالك بن المُرَحَّل ، وقرئت فى جامع القرويين بفاس فى يوم جمعة من أيام سنة ٦٦٢ هـ ، وبكى الناس تأثراً لسماعها ومما جاء فيها :

استنصر الدين بكم فاستقدموا   فإنكم إن تسلموه يسلم
لاذت بكم أندلس ناشرة   برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها إنه   لا يرحم الرحمن من لا يرحم
ماهى إلا قطعة من أرضكم   وأهلها منكم وأنتم منهم[2]

وكان لاهتمام المغرب بإنجاد الأندلس صداه . وكان ابن الأحمر قد بدأ فى الوقت نفسه يشعر بمقدرته على مواجهة النصارى والخروج على طاعتهم ، وحماية مملكته الفتية من عدوانهم . ولما فاتحه النصارى بالعدوان وغزوا أراضيه فى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، استطاع بمعاونة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين

(١) سنعود إلى التحدث عن قيام دولة بنى مرين فى موضع آخر .
(٢) راجع الذخيرة السنية ص ١٠٨ — ١١٢ حيث يورد القصيدة بأكملها .

وفدوا من وراء البحر ، أن يهزمهم وأن يردهم عن أراضيه ، وبذلك ظهرت الأندلس على عدوها فى ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين . ولما عبرت الكتائب المرينية بعد ذلك بقليل (٦٦٢هـ) ، استطاع قائدهم الفارس عامر ابن إدريس أن ينتزع مدينة شريش من يد النصارى ، ولكن لمدى قصير فقط[1].

وقد كانت هذه بارقة أمل متواضعة . ولكن الحوادث ما لبثت أن تجهمت للأندلس مرة أخرى . ذلك أن ملك قشتالة (ألفونسو العاشر) خشى هذه البادرة على خططه وغزواته ، وخشى بالأخص أن تتضاعف الأمداد من وراء البحر فيشتد ساعد أمير غرناطة ، ومن ثم فقد عول أن يضاعف أهبته وضغطه على القواعد الأندلسية الباقية . فى أواخر سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م) نزل ابن يونس صاحب مدينة إستجة عنها إلى النصارى[2] ، ودخلها دون خيل قائد القشتاليين ، فأخرج أهلها المسلمين منها ، وقتل وسبى كثيراً منهم وذلك بالرغم من تسليمها بالأمان . وفى العام التالى (٦٦٣هـ) ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة فى العمل على افتتاح ما بقى من القواعد الأندلسية ، وسرى الخوف إلى نواحى الأندلس ، وعادت الرسائل تترى على أمراء المغرب وزعمائه ، بالمبادرة إلى إمداد الأندلس ، وإغاثتها قبل أن يفوت الوقت ، خصوصاً وقد بدأ عدوان النصارى يحدث أثره ، وبدأت هزائم قوات ابن الأحمر فى ذلك الوقت على يد دون نونيودى لارا (دوننه) صهر ملك قشتالة وقائده الأكبر (٦٦٣ هـ — ١٢٦٤ م) . وكتب الفقيه أبو القاسم العزفى صاحب سبتة رسالة طويلة إلى قبائل المغرب ، يستنصرهم فيها ويحثهم على الجهاد فى سبيل الأندلس ، وفيها يقول : « ولاتخلدوا بركون إلى سكون ، والدين يدعوكم لنصره ، وصارخ الإسلام قد أسمع أهل عصره ، والصليب قد أوعب فى حشده ، فالبدار البدار ، بإرهاب الحد وأعمال الجهاد فى نيل الحد.. »[3]. وتكرر مثل هذا الصريخ إلى سائر أمراء إفريقية ، وأعلن ابن الأحمر بيعته للملك المستنصر بالله الحفصى صاحب تونس ، فبعث إليه المستنصر

---

(١) الذخيرة السنية ص ١١٢ .

(٢) سبق أن أشرنا إلى سقوط إستجة فى يد النصارى سنة ١٢٣٧ م ، أعنى قبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً (ص ٢٠) . والظاهر أنها بقيت خلال هذه المدة بيد حكامها المسلمين تحت حماية ملك قشتالة على نسق كثير من المدن الأندلسية الأخرى ، التى لبثت حيناً بيد حكامها المسلمين بعد تسليمها صلحاً للنصارى .

(٣) راجع هذه الرسالة فى الذخيرة السنية ص ١١٣ — ١٢٢ .

هدية ومالا لمعاونته[1] . ولكن هذه المساعى لم تسفر عن نتيجة سريعة ناجعة ، وبقيت الأندلس أعواماً أخرى تواجه عدوها القوى بمفردها وتتوجس من سوء المصير .

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم ، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة فى مهادنة ملك قشتالة ومصادقته ، فنزل له فى أواخر سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) عن عدد كبير من البلاد والحصون ، منها شَريش والمدينة والقلعة وغيرها . وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر يومئذ من البلاد والحصون المسورة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع ، ومعظمها فى غرب الأندلس[2] ، وبذا عقد السلم بين الفريقين مرة أخرى[3] .

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها التالدة فى نحو ثلاثين عاماً فقط (٦٢٧ — ٦٥٥ هـ) فى وابل مروع من الأحداث والمحن ، واستحال الوطن الأندلسى الذى كان قبل قرن فقط ، يشغل نحو نصف الجزيرة الإسبانية ، إلى رقعة متواضعة هى مملكة غرناطة . وقد أثارت هذه المحن التى توالت على الأندلس ، فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندى ، مرثيته الشهيرة ، التى مازالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيراً فى النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ، ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة لإنجاد الأندلس وغوثها ، وإليك بعض ما جاء . هذه المرثية الشهيرة التى خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شىء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سرَّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغـة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان

* * *

[1] الذخيرة السنية ص ١٢٥ .

[2] راجع الذخيرة السنية ص ١٢٧ . وقد سبق أن أشرنا إلى تنازل ابن الأحمر لملك قشتالة عن أرض الفرنتيرة ، وفيها تقع شريش وقادس وغيرهما ، ولكن هذا التنازل كان اسميا ، واضطر النصارى إلى افتتاح هذه المدن بصورة فعلية . وكان سقوط شريش وقادس فى يد ألفونسو العاشر سنة ١٢٦٢ م . والظاهر أن المقصود هنا مصادقة ابن الأحمر على استيلاء النصارى على هذه القواعد .

[3] يضع ابن الخطيب تاريخ عقد ابن الأحمر الصلح مع النصارى للمرة الثانية فى سنة ٦٦٢هـ .

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرّات وأحزان
وللحوادث سلوان يهونها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسيةً ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيّان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فيّاض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتّى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتّى المنابر ترثى وهى عيدان

* * *

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان(١)

* * *

وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة الباقية من حكمه ، فى توطيد مملكته وإصلاح

(١) راجع هذه المرثية البليغة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و ٥٩٥ ، وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ — ٥٠ . وقد التبس الأمر على المقرى فى تعيين العصر الذى قيلت فيه هذه القصيدة والذى عاش فيه ناظمها صالح بن شريف فوصفه بأنه خاتمة أدباء الأندلس (أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧) . وذكر فى نفح الطيب أن أبياتاً أخرى أضيفت إليها تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرهما ليست من نظم صاحبها لأنه توفى قبل سقوطها (أى غرناطة) مما يدل على اعتقاد المقرى بأن أبا الطيب عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة (أواخر القرن التاسع الهجرى) . بيد أنه واضح من سياق القصيدة . وذكر القواعد الأندلسية التى تبكيها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وإشبيلية ، وهى التى سقطت كلها فى يد النصارى بين سنة ٦٣٥ هـ و ٦٥٠ هـ ، أن الشاعر قد عاش فى هذا العصر . ومن جهة أخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية صراحة أنها نظمت حينما نزل ابن الأحمر للنصارى سنة ٦٦٥ هـ عن عدد كبير من القواعد الأندلسية . وقد توفى أبو الطيب الرندى بعد هذه الأحداث بنحو عشرين عاماً فى سنة ٦٨٤ هـ . وسنعود إلى ترجمته فى الكتاب الرابع .

شئونها ؛ وكان مذ شعر باستقرار الأمور فى مملكته ، قد اختار لولاية عهده ولده الأمير أبا سعيد فرج بن محمد بن يوسف ، ولكن هذا الأمير توفى فى سنة ٦٥٢هـ ، فاختار مكانه لولاية العهد ولده محمداً أكبر أولاده من بعده . وهكذا أسبغ ابن الأحمر على رياسة بنى نصر صفة الملوكية الوراثية(١) . ولم تقع فى تلك الفترة حوادث ذات شأن ، فقد لزم النصارى السكينة حيناً . ولكن ظهرت عندئذ أعراض الانتقاض على بنى أشقيلولة أصهار ابن الأحمر ومعاونيه ؛ وكان ابن الأحمر قد زوج فى سنة ٦٦٤ هـ إحدى بناته لابن عمه الرئيس أبى سعيد بن اسماعيل بن يوسف ووعده بولاية مالقة ، فنمى ذلك إلى واليها أبى محمد بن أشقيلولة ، وهو أيضاً زوج ابنته ، فغضب لذلك وأعلن العصيان والاستقلال بحكم المدينة ، فسار ابن الأحمر لقتاله تعاونه قوة من حلفائه النصارى ، وحاصروا مالقة ثلاثة أشهر ، ولكنهم ارتدوا عنها خائبين (٦٦٥ هـ — ١٢٦٦ م) . وعاد ابن الأحمر فسار إلى مالقة مرة أخرى فى سنة ٦٦٨ هـ ، ولكنه لم ينل منها مأرباً (٢) .

وفى تلك الآونة عاد النصارى إلى التحرك والتحرش بالمملكة الإسلامية ، وسار ملك قشتالة ألفونسو العاشر إلى الجزيرة الخضراء فعاث فيها ، وعاد ابن الأحمر يتوجس شراً من نيات النصارى ، فبعث إلى أمير المسلمين السلطان أبى يوسف المرينى ملك المغرب يطلب منه الغوث والإنجاد ، ونصرة إخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويخبره بما بدا من عدوان النصارى ونيتهم فى القضاء على ما بقى من ديار الأندلس ، ولكن ابن الأحمر لم يعش ليرى نتيجة هذه الدعوة ، إذ توفى بعد ذلك بقليل .

وكان محمد بن الأحمر يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والإقدام ، وشغف الجهاد ، والمقدرة على التنظيم ، إلى جم التواضع والبساطة . ويقدم لنا ابن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية عنه هذه الصورة المؤثرة : «كان هذا الرجل آية من آيات الله فى السذاجة والسلامة والجمهورية ، جندياً ثغرياً ، شهماً ، أيِّداً ، عظيم التجلد ، رافضاً للدعة والراحة ، مؤثراً للتقشف والاجتزاء باليسير ، متبلغاً بالقليل ، بعيداً عن التصنع ، جافى السلاح ، شديد العزم ، مرهوب الإقدام ،

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٦٥ ، واللمحة البدرية ص ٣٦ ، والذخيرة السنية ص ٨٨ .
(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٥ و١٢٩ .

عظيم التشمير ، محتقراً للعظيمة ، مصطعناً لأهل بيته ، فضاً فى طلب حظه ، حامياً لقرابته وأقرانه وجيرانه ، مباشراً للحروب بنفسه ، تتغالى الحكايات فى سلاحه وزينة ديابوزه ، يخصف النعل ،ويلبس الخشن ، ويؤثر البداوة ، ويستشعر الجد فى أموره »(١) .

وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد . وهو الذى ابتنى حصن الحمراء الشهير ، وجعله دار الملك ، وجلب له الماء ، وسكنه بأهله وولده . وأما تسميته بابن الأحمر فقد اختلفت فى شأنها الرواية . ويقال إن هذه التسمية ترجع إلى نضارة وجهه واحمرار شعره ؛ ويرى البعض أنها أسبغت عليه لإنشائه حصن الحمراء ؛ ولكن سوف نرى عند الكلام على تاريخ الحمراء ، أن هذا الاسم أقدم من الدولة النصرية ببضعة قرون ، وأنه لا صلة بين هذا الإسم الذى أطلق على الحصن والقصور الملكية ، التى أنشأها محمد بن يوسف وبنوه من بعده ، وبين تلقيبهم ببنى الأحمر ، كما أنه ليس ثمة بين القبائل العربية أية قبيلة تحمل هذا اللقب ، ويمكن أن ينسب إليها بيت غرناطة الملكى(٢). وكان ابن الأحمر يباشر الأمور بنفسه ، ويدقق فى جمع الأموال والجبايات حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح . وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين فى الأسبوع ، يستمع فيها إلى الظلامات وذوى الحاجات ، ويستقبل الوفود ، وينشده الشعراء . وكان يجرى فى تصريف شئون الملك على قاعدة الشورى ، فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ومن إليهم من ذوى الرأى ، للاسترشاد برأيهم ، ونصحهم(٣). وكان فى مقدمة وزرائه أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد زعيم جيّان ، وهو الذى مكنه من التغلب عليها ، والقائد أبو عبد الله محمد بن محمد الرميمى ولد صاحب المرية السابق . وكان بين كتابه المحدث الشهير أبو الحسن على بن محمد بن سعيد اليحصبى اللوشى . وكان من شعرائه أبو الطيب الرندى

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ٢ ص ٦١ .

(٢) راجع مقدمة أطلس« الحمراء »Alhambra الذى وضعه Owen Jones & Jules Goury وكتبها المستشرق جاينجوس (London 1842) ض ٥ الهامش . وتسمى الدولة النصرية على الأغلب بدولة بنى الأحمر ، ويؤثر ابن خلدون تسميتها بذلك الاسم (ج ٤ ص ١٧٠ وما بعدها) .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ؛ واللمحة البدرية ص ٣١ .

صاحب المرثية الشهيرة ، وهو الذى سبقت الإشارة إليه . وكان أثيراً لديه ، وقد نظم فى مدحه بعض غرر قصائده .

وإليك كيف يصور النقد الغربى الحديث خلال منشىء مملكة غرناطة وظروف مملكته : «كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال العصور المضطربة ، فى الدفاع عن الإسلام ومجد المسلمين ، وكان جريئاً بعيد الغور ، ولكن مكره لم يكن راجعاً إلى طبيعة خبيثة وضيعة ،ولكن إلى خلق خصومه الذين كان مرغماً على مقارعتهم . ففى العصور الوسطى كان قانون الأمم وعقد المعاهدات ، ومجاملات الفروسية وشروط السلم الشريف ، تفهم بطريقة ناقصة ، وكثيراً ما تنتهك بعمد ، وكانت معظم نقائص هذا الأمير العظيم، ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة ، وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير ، أقدم عليها لإحراز ملكه وتوطيد سلطانه ، وكان تقدم الغزو المستمر يرهق مملكته ، ولكنها كانت تغدو أقوى ويغدو الدفاع عنها أيسر ، كلما انكمشت حدودها . وكان القشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة ، هرعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة ، فتزيد سكانها كثرة على كثرة ، يحملون معهم ثروات عظيمة ، وصفات هى أثمن من الثروة لدولة منحلة : النشاط والاقتصاد ، والمقدرة على هضم الظروف الجديدة ، وذكرى المظالم السابقة ، وآلام المطاردة المحزنة ، وأمل الانتصاف ، وشعور لا يقهر ببغض النصرانية . وكان الاندماج السياسى لهذه الجماعات المنفية المضطهدة ، فى حماية الجبال التى تظلل ملاذها الأخير ، هو الذى عاون فى حفظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبل ومحنتها الغامرة »(١).

وتوفى محمد بن الأحمر فى التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ (ديسمبر ١٢٧٢ م) على أثر سقطة من جواده ، حين عوده من معركة رد فيها جمعاً من الخوارج الذين حاولوا الزحف على الحمراء فى منتصف جمادى الثانية من العام المذكور ، فحمل جريحاً إلى القصر وتوفى بعد ذلك بأسبوعين ، وقد قارب الثمانين من عمره ، ودفن بالمقبرة العتيقة بأرض السبيكة(٢) . وكانت مملكة

---

(١) Scott : The Moorish Empire in Europe, V. II p. 433-34

(٢) الإحاطة ج ٢ ص ٦٦ . وقد كان اسم السبيكة يطلق على البسيط الذى يقع جنوب شرقى الحمراء .

غرناطة قد توطدت دعائمها نوعاً ، واستقر بها ملك بنى نصر الفتىّ على أسس ثابتة . وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر فى مملكة غرناطة فى بداية أمرها زعماء خوارج ينازعون بنى نصر زعامتهم . ولذا لم نشهد فى هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وإن كان تاريخ الدولة النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية عديدة . وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، استطاعت غير بعيد ، أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد ، أن تسهر على تراث الإسلام فى الأندلس ، زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى .

الفصل الثالث

طوائف الأمـــة الأندلسية

فى عصر الانحلال

مملكة غرناطة وحدودها . عناصر سكانها . المدجنون . تاريخهم وحياتهم فى ظل الممالك النصرانية . وثائق هامة تلقى ضوءاً على أحوالهم . الأحكام الشرعية فى شأنهم . اضطهادهم على يد الكنيسة . نشاطهم وتفوقهم . النصارى المعاهدون وأحوالهم فى ظل الحكومة الإسلامية . تعصبهم وخياناتهم . هجرة الأندلسيين من تلف القواعد إلى غرناطة . عناصر الأمة الأندلسية . المولدون . اليهود . الشعب الغرناطى . صفاته وخلاله .

كانت مملكة غرناطة عند قيامها فى أواسط القرن السابع الهجرى تشمل القسم الجنوبى من الأندلس القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر الوادى الكبير إلى الجنوب ، حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، ويحدها من الشمال ولايات جيّان وقرطبة وإشبيلية ، ومن الشرق ولاية مرسية وشاطئ البحر المتوسط الممتد منها إلى الجنوب ، ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنتيرة . وكانت تشتمل عندئذ على ثلاث ولايات كبيرة ، وهى ولاية غرناطة الواقعة فى الوسط ، والممتدة جنوباً حتى البحر ، وأهم مدنها العاصمة غرناطة ، ووادى آش وبسطة وأشكر وحصن اللوز ولوشة والحامة وأرحبة والمنكب وشلوبانية . وولاية ألمريّة وهى تمتد من ولاية مرسية حتى البحر ، وأهم مدنها ثغر ألمرية وبيرة والمنصورة وبرشانة وبرجة ودلاية وأندَرَش . وولاية مالقة ، وهى تقع على البحر غربى غرناطة ، وأهم مدنها ثغر مالقة ، وبلِّش مالقة وطرُّش وقمارش وآرشدونة وأنتقيرة ورندة ومربلة . ويلحق بها منطقة جبل طارق والجزيره الخضراء وطريف .

وتخترق مملكة غرناطة من الوسط جبال سيرّا نڤادا (جبل شلير) الشاهقة ، وهضاب البشرّات الوعرة وبسائطها الخضراء ، كما تخترقها عدة أنهار منها شَنيل فرع الوادى الكبير ونهر أندرش الصغير ، وفى الشرق نهر المنصورة . وكانت خواصها الطبيعية التى تجمع بين مزيج مدهش من المروج والوديان الخصبة ، والجبال والهضاب الوعرة ، تمدها بثروات زراعية ومعدنية حسنة ، ينميها

ويضاعفها الشعب الأندلسى الموهوب، بذكائه ونشاطه وبراعته المأثورة . وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة ، تستمد من مواردها الطبيعية ، أسباب القوة والمنعة والرخاء .

وقد رأينا فيما تقدم أن كورة إلبيرة ، وهى التى غدت فيما بعد كورة غرناطة ، كانت منذ الفتح منزل قبائل الشام ، وقد لبثت أعقاب هذه البطون مدى عصور كثيرة فى تلك الولاية . ولما اضطرمت الفتن بالأندلس عقب انهيار الدولة الأموية ، تقاطر البربر من الضفة الأخرى من البحر على قواعد غرناطة ، ثم غدت مدينة غرناطة مدى حين إمارة بربرية ، وأصبح البربر عنصراً بارزاً فى سكان هذه المقاطعة . وكانت الثغور الجنوبية بطبيعة الحال ، منزل البربر كلما عبروا إلى الأندلس ، وخصوصاً أيام المرابطين والموحدين . وكانت طوائف كبيرة من الغزاة ، تتخلف فى هاتيك الوديان النضرة وتستقر فيها ، يجذبهم خصبها ونعماؤها. ولما أخذت قواعد الأندلس الشرقية والوسطى تسقط تباعاً فى أيدى النصارى ، كان يهرع إلى القواعد والثغور الجنوبية كثير من الأسر المسلمة الكريمة ، التى آثرت الهجرة إلى أرض الإسلام ، على التدجُّن والبقاء تحت سلطان النصارى . على أنه بقيت فى القواعد والثغور التى استولى عليها النصارى جموع كبيرة من المسلمين ، الذين حملتهم ظروف الأسرة ودواعى العيش على البقاء فى الوطن القديم، تحت حكم الإسبان سادتهم الجدد . وأولئك هم المدجَّنون[1] (أو بالإسبانية Mudéjares) أو أهل الدجن . وقد شاع استعمال هذا اللفظ بالأندلس منذ أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) أو بعبارة أخرى منذ كثرة استيلاء النصارى ، على أراضى المسلمين ، وكثر عدد الرعايا المسلمين الذين تضمهم اسبانيا النصرانية فى هذه الفترة بالذات سقطت معظم قواعد الأندلس فى أيدى النصارى ، وسقطت منها فى الشرق ، بلنسية وشاطبة ودانية ، ولقنت ، وأوريولة ، ثم مرسية ، وسقطت فى الوسط قرطبة وجيان ، وسقطت فى الغرب ماردة وبطليوس وإشبيلية وقرمونة ولبلة وغيرها — سقطت هذه القواعد الأندلسية التالدة كلها فى أيدى النصارى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، وبقيت من أهلها المسلمين طوائف كبيرة تحت حكم الإسبان ، وهى التى غدت مجتمع المدجنين . وكان أكثر

(١) من دجن وتدجن أى أقام ، ومصدره الدجن والتدجن ومنه دواجن البيوت وهى طيور وحيوانات أليفة مقيمة .

المدجنين احتشاداً فى شرقى الأندلس فى منطقتى بلنسية ومرسية . ولهذا المجتمع الإسلامى الإسبانى تاريخ طويل مؤثر . فقد لبث المدجنون عصراً ، يتمتعون فى ظل ملوك قشتالة وأراجون ، بنوع من الطمأنينة والرخاء والأمن ، فكان يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم ومساجدهم ومدارسهم ، وكان لهم فى العصور الأولى قضاة منهم يحكمون فى سائر المنازعات التى تقع فيما بينهم وفقاً للشريعة الإسلامية ؛ أما المنازعات التى تقع بين مسلم ونصرانى ، فكان ينظرها أحياناً قاض نصرانى أو تنظرها محكمة مختلطة من قضاة من المذهبين. وكان من امتيازاتهم ، أن لا يدفعوا من الضرائب غير ماكانوا يؤدونه من قبل لملوكهم ، ثم ترك هذا الامتياز بمضى الزمن ، وأصدر الفونسو العاشر فى سنة ١٢٥٤ م لسكان إشبيلية ، امتيازاً يخولهم حق شراء الأراضى من المسلمين فى منطقتهم ، مما يدل على أنه قد سمح للمسلمين بالاحتفاظ بأراضيهم ، وكان لهم حق البيع والشراء فى العقارات. فلما تطورت الحوادث ، وغلبت النزعة الرجعية فى أواخر القرن الثالث عشر ، صدر قانون يحرم على المسلمين واليهود شراء الأراضى من النصارى ، ولكن ترك هذا القانون فيما بعد . وكان يسمح للمدجنين أيضاً بحمل السلاح ، ويلزمون بتأدية الخدمة العسكرية ، ويعتبر الإعفاء منها امتيازاً خاصاً . ثم أعفى المدجنون بعد ذلك من الخدمة العسكرية نظير جزية سنوية يؤدونها، وكان انضمامهم إلى الجيوش النصرانية يقع فى حدود نسبتهم العددية . ولما توالى استيلاء الإسبان على القواعد والثغور الأندلسية ، كان يخصص للمدجنين فى كل مدينة مفتوحة حى خاص لإقامتهم ، يفصل بينه وبين أحياء النصارى سور ضخم ، وكان هذا هو شأن اليهود أيضاً حيث كانوا يلزمون بالإقامة فى حى خاص بهم(١).

وتوجد فى كتدرائية سرقسطة مجموعة من وثائق عربية تلقى ضوءاً على تاريخ المدجنين وأحوالهم فى مملكة أراجون منذ القرن العاشر الميلادى إلى القرن الخامس عشر. وهى عبارة عن طائفة من عقود البيع والشراء والوديعة وغيرها التى عقدت بين أفراد من المدجنين وبين المدجنين والنصارى ، وفيها وثائق محررة فى تواريخ متأخرة فى سنة ١٤٨٢ ، وسنة ١٤٩٦ . ويستفاد من تلاوتها أن المدجنين فى مملكة أراجون ، كانوا إلى هذا العصر المتأخر ، حتى بعد سقوط غرناطة فى يد الإسبان ،

Dr. H. Ch. Lea : History of the Inquisition in Spain, V. I. p. 62-64. (١)

يحتفظون بدينهم الإسلامى ، وأنه كانت ما تزال ثمة بعض مساجد قائمة فى بعض أنحاء ولاية سرقسطة .

(١) ومن ذلك وثيقة مؤرخة فى شهر ربيع الأول سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦م) تبدأ بالبسملة والصلاة على النبى ، وهى عقد شراء ، يشترى بمقتضاه « أحمد المران » من « محمد بن سلمة البرتيالى » جميع ما له من أملاك وديار ببطرة قرية ابتورة ... بثمن مبلغه وعدته تسعون دنيراً قناشر من القناشر الجارية بسرقسطة... وذلك كله على سنة المسلمين فى طيبات بيوعاتهم ومرجع أدركهم وارتضاء ذلك البيعة المذكورة الشنيور من القرية المذكورة القسيس الأجل دون برتُلماوو شنت جيل عن إذن الأقسة من الكنيسة المذكورة ، شهد على إشهاد المتبايعان المذكوران من أشهداه ، وسمع منهما ، وعرفهم ، والجميع بحالة الصحة والجواز فى شهر ربيع الأول من سنة أربعة وأربعين وستمائة » .

(٢) ووثيقة مؤرخة فى ٩ أغسطس سنة ١٤٨٤، ورد فيها ما يأتى :

« الحمد لله وحده ، أشهد على نفسه الكريم فرج الطليطلى الساكن بموضع قلعة التراب شهداء هذا الكتاب قولا بالحق وانقياداً إليه، أن عليه وفى ذمته وماله من المكرمان برول وكبتلة من شنت مرى لميور والسبداد ذاسرغوس وديعة محضة وأمان موئتمن وذلك خمسون قفزاً قمح طيباً نقباً من مكايل مدينة سرقسطة... » .

وكتب هذه الوثيقة : « محمد بن محمد الأزقة فقيه وخادم مسجد قلعة التراب »

(٣) ووثيقة مؤرخة فى شهر فبراير عام احدى وتسعمائة (١٤٩٦م) تبدأ أيضاً بالبسملة والصلاة على النبى . وهى عبارة عن إقرار كل من « موسى الحسن وابن عبد الله محمد بن فرج المحه الساكنون فى بلدة الحمام بأنهم يحبسون وديعة قمح » لمن يدعى « أبو باكر ابن أبو باكر ، من أهل قاعة التراب » .

وكاتب الوثيقة هو : « ابراهيم البساتى البنى هليجى خديم جامع البلد المذكور »[1] .

وعثرنا فى متحف بلدية بنبلونة على وثيقة عربية وحيدة مؤرخة فى « التاسع من شهر أبريل عام احدى وثمانمائة » (١٣٩٨ م) وهى عبارة عن إشهاد بالدين

---

(١) قام بدراسة هذه الوثائق المستشرق الإسبانى R. Garcia di Linares فى بحث عنوانه **Escrituras Arabes pertenecientes al Archivo de Nuestra Senora del Pilar de Zaragoza** ومنشور فى كتاب **Homenaje a Francisco Codera (Zaragoza 1904) p. 171-197**

بسم الله الرحمن الرحيم

وثيقة مدجنية **Mudéjar** محفوظة بمتحف بلدية بنبلونة وهى عبارة عن إشهاد بالدين ومؤرخة فى سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م)

مستهلة بالبسملة والصلاة على النبي ومحررة أمام « القاضى الأروع الأورع أبى الحسن على القريشى » . وقد جاء فيها ما يأتى :

« أشهدوا على أنفسهم أبو الحجاج يوسف الحضرمى ومحمد بن محمد بن جعفر الزهرى ، ويوسف بن زيد ، وأحمد بن المكحل، ويوسف شداد بن دجنبر مسلمان ساكنان فى ربض المسلمين ببلدة برجة حاضرون بغايبون كل واحد منهم عنه وعن الكل، بأنهم دانوا الاشتراك الشابلى إسرايل ساكن بلدة المذكورة أولمن ظهر هذا العقد عنده ثلثماية واثنين وثلثين فلريناش ذهباً قالب أرغون من سكة طيبة موزونة ... الخ » وفى ذيلها عدة من أسماء الشهود المسلمين .

وفيما أوردناه من نص هذه الوثيقة ، ما يدل على أنه كانت توجد فى تلك المنطقة النائية من شمال اسبانيا ، فى بلاد نافار ، أقليات مسلمة لها أحياء خاصة حيث وجدت ، وتتمتع بالتعامل بلغتها القومية أمام قاضيها الخاص، وذلك فى هذا العصر المتأخر ، فى أواخر القرن الرابع عشر ، أعنى بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على استيلاء النصارى على سائر القواعد الإسلامية فى تلك الأنحاء .

وكانت مسألة التدجن هذه وبقاء المسلمين فى الأرض التى يفتتحها النصارى تثير كثيراً من المسائل الفقهية ، وكان بعض الفقهاء يرمى أولئك المدجنين بالمروق عن الإسلام لبقائهم تحت حكم النصارى . وقد عثرت خلال بحوثى فى مكتبة الإسكوريال على رسالة مخطوطة تتناول هذه المسألة ، وهى عبارة عن فتوى طلبها أحد الفقهاء عن حكم الشرع فيمن آثر من المسلمين الأندلسيين الهجرة من دار الإسلام إلى الأراضى المفتوحة ليعيش تحت حكم النصارى ، والمقصود بهؤلاء بنوع خاص أولئك الذين هاجروا من القواعد الأندلسية المفتوحة إلى بلاد المغرب ، ثم لم يجدوا بها ما أملوا من رخاء ويسر فى العيش ، وترتب على ذلك أنهم ندموا على هجرتهم ، وتمنوا العودة إلى ديارهم القديمة تحت حكم ملك قشتالة ، وتتضمن الرسالة الأسئلة الآتية :

« ما حكم من تمادى من المسلمين فى ذلك ؟ وما حكم من عاد منهم إلى دار الكفر بعد حصوله فى دار الإسلام ؟ وهل يجب وعظ هؤلاء أو يعرض عنهم ويترك كل واحد منهم لما اختاره ؟ وهل من شرط الهجرة أن لا يهاجر أحد إلا إلى دنيا مضمونة يصيبها عاجلا عند وصوله ، جارية على وفق غرضه حيث حل من نواحى الإسلام ، أو ليس ذلك بشرط بل تجب عليهم الهجرة من دار الكفر إلى دار

الإسلام، إلى حلو أو مر أو وسع أوضيق أوعسر أو يسر بالنسبة لأحوال الدنيا ، وإنما القصد بها سلامة الدين والأهل والولد ، والخروج من حكم الملة الكافرة إلى حكم الملة المسلمة ، إلا ما شاء الله من حلو أو مر أوضيق عيش أو سعة ونحو ذلك من أحوال الدنيا .

وقد رد الفقيه المسئول ، وهو أحمد بن يحيي التلمسانى الونشريشى عن هذه المسائل بما خلاصته :

١ — ان الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل . وهو يؤيد قوله بطائفة من الأحاديث النبوية .

٢ — ولا يُسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية على معاقلهم وبلادهم ، ولا يتصور العجز عنها بكل وجه وحال ، لا الوطن ولا المال ، فإن ذلك كله ملغى فى نظر الشرع . وأما المستطيع بأى وجه كان وبأى حيلة تمكنت ، فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام . والظالمون أنفسهم إنما هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها حسبما تضمنه قوله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ... » . والمعاقب عليه إنما هو من مات مصراً على هذه الإقامة.

٣ — وتحريم هذه الإقامة تحريم مقطوع به من الدين ، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق ... ومن جوّز هذه الإقامة واستخف أمرها ، واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ، ومفارق لجماعة المسلمين ، ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم ، ومنبوذ بالإجماع الذى لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله . قال زعيم الفقهاء القاضى أبو الوليد بن رشد رحمه الله فى أول «كتاب التجارة ، إلى أرض الحرب » ، من مقدماته : فرض الهجرة غير ساقط بل الهجرة باقية لازمة إلى يوم القيامة ، وأجاب بإجماع المسلمين على من أسلم بدار الحرب أن لا يقيم بها حيث تجرى عليه أحكام المشركين ، وأن يهجره ويلحق بدار المسلمين حيث تجرى عليه أحكامهم .

٤ — ثم لما نبعت هذه الموالاة النصرانية فى المائة الخامسة وما بعدها من تاريخ الهجرة وقت استيلاء ملاعين النصارى دمرهم الله على جزيرة صقلية وبعض كور الأندلس ، سئل فيها بعض الفقهاء ، واستفهموا عن الأحكام الفقهية المتعلقة بمرتكبها ، فأجاب بأن أحكامهم جارية مع أحكام من أسلم ولم يهاجر ، وألحقوا

هؤلاء المسئول عنهم والسكوت عن حكمهم بهم ، وسووا بين الطائفتين فى الأحكام الفقهية المتعلقة بأموالهم وأولادهم ولم يروا فيها فرقاً بين الفريقين»(١).

على أن هذه الاعتبارات الدينية لم تحل دون بقاء طوائف كبيرة من المسلمين فى الأراضى التى يقتطعها النصارى تباعاً من الوطن الأندلسى . وكانت الإعتبارات الدنيوية ، وظروف الأسرة ، ودواعى العيش ، تغلب على كل الاعتبارات الأخرى. وكان تسامح النصارى فى البداية، وتركهم رعاياهم المسلمين ، يتمتعون بتطبيق شريعتهم وأحكام دينهم فيما بينهم حسبما تقدم ، يخفف عن أولئك المدجَّنين مرارة الانسلاخ عن مجتمعهم القديم ، والانتماء إلى المجتمع النصرانى . وهكذا لبث المدجنون عصراً ، يتمتعون فى ظل الحكم الإسبانى بامتيازات كثيرة ، ويعيشون فى نوع من الأمن والدعة، بعيداً عن عصف الأهواء السياسية والقومية العنيفة . ولكن هذه الحال أخذت فى التبدل منذ اتسع نطاق الفتوحات النصرانية فى أراضى الأندلس ، وزاد بذلك عدد المدجنين فى مختلف المناطق المفتوحة . وكانت الكنيسة تبغض هذه الطوائف الإسلامية ، القائمة فى قلب المجتمع النصرانى ، وتنقم على المدجنين هذه الدعة وهذا التسامح ، وترى فى احتفاظهم بدينهم ولغتهم نوعاً من التحدى المذموم ، وتأخذ على ملوك قشتالة وأراجون تسامحهم فى معاملتهم ، وتسعى جاهدة لتحريضهم على اتباع سياسة الإنتقام والعنف ، إزاء أولئك الرعايا المسلمين . ومنذ أوائل القرن الثالث عشر ، تتوالى أوامر البابوية وقراراتها ضد المدجنين ، والحض على استرقاقهم أوتنصيرهم، ومن ذلك ما أمر به البابا إنوسان الرابع فى سنة ١٢٤٨م ، ملك أراجون خايمى الأول من وجوب استرقاق المسلمين فى الجزائر الشرقية . ولكن خايمى لم يأبه لذلك الأمر . ولما فتح ثغر بلنسية فى سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) ، سمح للمسلمين أن يبقوا فيها كمدجنين . وكان ملوك قشتالة وأراجون يعارضون هذه السياسة العنيفة، لبواعث وأسباب تتعلق بمصالحهم القومية ورخاء بلادهم . ذلك لأن المدجنين كانوا بين رعاياهم، أفضل العناصر وأنشطها ،

---

(١) عنوان هذه الرسالة المخطوطة هو : «كتاب أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر » ، وهى تقع فى عشر لوحات مزدوجة وتوجد ضمن مجموعة مخطوطة لا عنوان لها ، وتحفظ بمكتبة دير الإسكوريال برقم ١٧٥٨ الغزيرى ، وفى نهاية هذه المجموعة أنها كتبت سنة ٨٩٦هـ (١٤٩٠م) . وقد قام بتحقيقها ونشرها أخيرا الدكتور حسين مؤنس ، وذلك فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (المجلد الخامس ص ١٢٩ — ١٩١) .

وأكثرها دأبا ومثابرة ، وأوفرها تأدية للضرائب ، وكانوا ساعد النبلاء الأيمن فى زراعة أراضيهم واستغلالها . وكانوا يستأثرون بالتفوق فى العلوم والفنون والمهن . وكانوا أبرع الأطباء والمهندسين والبنائين . وكان لهم الفضل الأول ، فى إدخال محاصيل عديدة فى اسبانيا النصرانية ، مثل القصب والقطن والأرز والحرير والتين والبرتقال واللوز وغيرها ، وما زالت مشاريع الرى التى أنشأوها ، ولاسيما فى مناطق اسبانيا الشرقية والشمالية الشرقية تشهد بعبقريتهم فى هذا المضمار . وهم الذين وضعوا أسس الصناعة الإسبانية ، وكانوا أساتذة الصناعات الدقيقة ، وكانت صناعاتهم ولاسيما المنسوجات القطنية والحريرية ، والفخار والخزف والجلود ، نماذج بارعة تحذو حذوها الصناعة الأوربية ، فلم يك ثمة أشهر من خزف مالقة ، ولا أقمشة مرسية ، ولا حرير ألمرية وغرناطة ، ولا أسلحة طليطلة ، ولا منتجات قرطبة الجلدية . وكانت بلنسية التى تضم كتلة كبيرة من المدجنين ، تعتبر من أغنى ثغور أوربا بما تنتجه من السكر والنبيذ وغيرهما من المنتجات العديدة . وكان المدجّنون مثال النشاط والدأب ، يزاولون التجارة بنجاح وشرف ، وكانوا أفضل التجار وأوفرهم أمانة ونزاهة ، ولم يكن بينهم متسولون إذ كانوا يعولون فقراءهم . وكانوا مثلا للنظام والسكينة ، يحسمون منازعاتهم بأنفسهم . وعلى الجملة فقد كانوا يؤلفون أصلح عنصر بين السكان الذين يمكن أن تحتويهم أى البلاد(١) .

ويلخص لنا المؤرخ الإسبانى خانير أحوال المدجّنين فى عصور التسامح والتزمت معاً على النحو الآتى :

« كان ثمة معاهدات من كل ضرب ، تحترم بإخلاص فى سائر نقطها الجوهرية وتعتبر أساساً للحقوق والتعهدات المدنية للأندلسيين المدجنين ، وتختلف بعضها عن بعض ، سواء فى قشتالة أو أراجون ، وفقاً لتباين النقط التى تتعلق بالامتيازات المختلفة . فهنا مثلا تطبق بنوع من التوسع ، أو بروح يقل أو يكثر من الحرية أو التزمت ، وذلك وفقاً لما نصت عليه اتفاقات تُطيلة أو طرطوشة ، وقوانين قيجاطة أو عسقلونة ، أو قلعة أيوب أو طليطلة ، أو امتيازات بلنسية أو قرطبة أو إشبيلية ، أو امتيازات القرى أو المزايا التى منحت للأحياء أو الضياع التى

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain, V. II. p. 66, 67 ;
Dr, Lea : The Moriscos of Spain p. 57.

يسكنها كلها المسلمون . ومن أمثال التوسع والتسامح التى يقدمها إلينا التاريخ ، وهو واحد من عدة كثيرة ، الإمتياز الذى منحه خايمى الفاتح إلى مسلمى « وادى أوشو » ، بأن يسكنوا فيه ، وأن يقيلهم من الجرائم التى ارتكبت فيه ، والعقوبات التى وقعت بسببها ، ومن الديون التى عليهم لليهود ، وأن يستمروا فى تطبيق شريعتهم ، وأن يعلموا القرآن جهراً لأولادهم ، وأن يقوموا جهراً بسائر شعائرهم الإسلامية ، وأن يتعاملوا فى كل شىء داخل المنطقة كلها ، ويدفعوا الضرائب المعتادة ، باستثناء السنة الأولى حيث يعفون منها ، وأخيراً بأن يحكموا فى قضاياهم الخاصة ، وأن يقوموا بإدارة إيراد المساجد ، وتعيين القضاة والعلماء وفقاً لتقاليدهم القديمة ، ثم ولا يسمح لنصرانى أومتنصر أن يقيم بينهم دون إذن خاص منهم ، وأن يحصلوا على عهد بتأمين أنفسهم وأموالهم ، سواء بالنسبة لهم أوبالنسبة لأعقابهم ، وهم يتعهدون من جانبهم بأن يؤدوا العشور ، وأن يتعاونوا مع الدولة ومع باقى الرعايا من جيرانهم ، وألا يقتربوا مطلقاً من الأماكن التى توجد بها الحرب ، وألا يساعدوا أعداء ملوك أراجون .

بيد أنه كان ثمة طوائف أخرى من المدجنين أقل حظاً ، فى بعض القرى التى أخضعت لبعض الفروض ؛ ذلك أنه بالرغم من منحهم حرية التعبد ، وضمان أملاكهم ، فإنه نص مع ذلك على ألا يتخذوا الرقيق أو الخدم من النصارى ، وألا يأكلوا أو يستحموا مع النصارى ، وألا يقوموا بعلاجهم حال المرض ، وألا يدفنوهم فى مدافنهم ؛ كذلك حرم عليهم أن يقوموا علناً بشعائر دينهم ، وألا يتخذوا مسائل الدين المسيحى موضعاً للمناقشة . ويلاحظ ، أنه خلال هذه القيود العادلة التى كانت تقتضيها كرامتنا ، فى عصر كانت الحروب الدينية تلهب فيه حماسة الكافة ، أن حالة المدجّنين كانت أفضل بكثير من حالة اليهود . وأن المدجنين قد استحقوا الثقة فى عهودهم . وقد كان المدجنون واليهود كلاهما يعاونون الدولة بدفع العشور من مواردهم ، وكان هذا مما يرضى العرش ، أو السادة ، أو الأحبار الذين يتبعونهم .

ونحن متى تدبرنا ذلك التنوع الذى يقدمه لنا التشريع النصرانى للجنس المغلوب خلال عصر الإسترداد ، يجب ألا نعتقد أننا نستطيع أن نكتشف نظاماً سياسياً معيناً ، يقصد إلى استغراق السكان المسلمين مباشرة ، سواء بالقوة أوبالمصانعة ، ويفضى تدريجياً إلى الوحدة ، التى حققت فى النهاية فى المملكة ، وكان واجباً أن

تحققها الأمة الإسبانية فى الدين كما تحققت فى شكل الحكومة . والواقع أنه إذا لم يكن ثمة نظام معين — كان من المستحيل تحقيقه أيام الاسترداد — فإنا نجد مع ذلك من خلال التعامل السلمى بين النصارى والمدجنين ، والحرية المطلقة فى التعبد ، ميولا واضحة للتوفيق قدر الإمكان بين الأجناس دون قوة ودون عنف . وهكذا فإنه مع ترك المساجد للمسلمين ، كان الظافرون يخصصون أحدها فقط ، وهو المسجد الجامع للعبادة النصرانية ، كما حدث فى جيّان وقرطبة وإشبيلية . ولنفس هذه الغاية أنشأ الفونسو العالم فى سنة ١٢٤٥م فى إشبيلية دراسات لاتينية وعربية ، وأمر أن تُرفع بعض الضرائب عن الأشخاص الذين ينتظمون فى دراستها . ويكفى للتدليل على روح التسامح التى كانت سائدة بين الأمتين أن نذكر التحية التى أداها ملك غرناطة المسلم لذكرى وفاة سان فرناندو ، حيث أرسل فى سنة ١٢٦٠ م ، إلى الاحتفالات الدينية التى أقيمت بهذه المناسبة فى كتدرائية إشبيلية ، طائفة من الفرسان من حاشيته ، ومائة من المسلمين ، حملوا فى أيديهم مع كثيرين آخرين شموعاً بيضاء . وفى خلال حرب غرناطة ، أيام الملكين الكاثوليكيين ، وهو عصر عظيم فى تاريخنا ، كانت فيه القسوة تمتزج بالبطولة ، سقطت أماكن كثيرة فى أيدى النصارى ، بفضل ما أبداه هذان الملكان من الكياسة والحكمة السياسية ، وما منحاه من ضروب الرحمة ، والمنح الاخرى إلى المغلوبين ، الذين فتحوا أبوابهم طوعاً ، فى حين أنهم لو قاوموا حتى النهاية ، لفرض الأسر على السكان ، وبيعوا كالرقيق ، ولم يمنحوا عهداً ما »(١) .

وقد لبث ملوك قشتالة عصوراً يحرصون على الانتفاع بنشاط المدجنين وحمايتهم . ونستطيع أن نقول على ضوء الوثائق التى سبقت الإشارة إليها إنه كانت ثمة طوائف كبيرة منهم حتى القرن الخامس عشر ، تعيش فى أنحاء كثيرة من اسبانيا النصرانية محتفظة بدينها ولغتها وتقاليدها(٢) . وكانت البابوية تسير على خطتها ، من التحريض

---

(١) Florecio Janer : Condición Social de los Moriscos de Espana (Madrid 1857) p. 13 & 14..

(٢) نشر المستشرق ديرنبور صورة وثيقة عربية إسبانية مؤرخة فى سنة ١٣١٢ م بعنوان : Une Charte Hispano-Arabe de l'année 1312 : ، وقد عقدت بين جماعة من المدجنين المقيمين بناڤار وبين رئيس مستشفى يوهان دى أورشليم النصرانى . وفيها تبين حقوق كل طرف وواجباته . ومما رتب فيها على المدجنين « أن تعطوا للاشبطال Hospital المذكور الثلث من كل ما تجمعوا من طعام ومن عنب ومن زيتون ومن فول ، ومن كل نوع من كل ماتجمعوا من كل فاكهة . وهذا =

عليهم والمطالبة بتجريدهم من دينهم ، والعمل على تنصيرهم بطريق الاضطهاد والعنف ، وتردد الكنيسة الإسبانية من جانبها هذا التحريض . ولكن هذه السياسة الباغية لم تحدث أثرها إلا ببطىء ، ولم يتسع نطاقها إلا فى أواخر القرن الخامس عشر عندما أشرفت الدولة الإسلامية فى غرناطة على نهايتها . وكان قيام مملكة غرناطة فى ذاته ، عنصراً من عناصر تكييف السياسة الإسبانية إزاء المدجنين . ذلك أن ملوك اسبانيا فوق ماكان يحدوهم من رغبة المحافظة على مصالحهم وسكينة بلادهم بإيثار الرفق فى معاملة المدجنين ، كانوا أيضاً يخشون سياسة الانتقام من النصارى المقيمين فى غرناطة ، وفيما وراء البحر فى بلاد المغرب ، بل وفى الممالك الإسلامية الأخرى مثل مصر وتركيا . على أن العوامل الاجتماعية والمحلية كانت من جهة أخرى تحدث أثرها فى مجتمع المدجنين. ذلك أنه بالرغم من جميع الفوارق التى كانت تفصل بينهم وبين النصارى ، فقد جنح الكثير منهم إلى التشبه بجيرانهم ، وانتهوا بمضى الزمن وأثر الاختلاط والتزاوج إلى فقد دينهم ولغتهم، ومميزاتهم الجنسية والقومية ، والاندماج شيئاً فشيئاً فى المجتمع الذى يعيشون فيه ؛ وهكذا أصبحوا بالتدريج قشتاليين ونصارى ، وأضحى علماؤهم يكتبون كتب الدين والشريعة بالقشتالية

= كله أن يعملوه فى عهد وميثاق وصدق . وكل مسلم أن يحبس دارونار فى أسران المذكور أن يقدم لقائد أسران الذى يكون على الاشبطال المذكور ربع من قمح ، النصافة من قمح والنصافة من شعير فى شهر أغشت من كل عام طول الأبد ، وكل دار أن يعطى للاشبطال المذكور أربعة مرافق من تين فى كل عام ، وكل عامر مسلم ومسلمين فى الموضع المذكور أى يعملوا كل نفقة أن يحتاج فى الموضع المذكور .. »

ثم تقول الوثيقة :

« أن يطبخوا المسلمين المذكورة خبزهم فى فرن الإشبطال المذكور عن دايم الدهر ، وأن يعطوا من ستة عشر خبزة واحدة ، ولا يقطعوا أشجار ، ولا يقلعوا كرمان دون أمر قائد أسران ..

« يكون جميع خصماتكم لحكمه (أى القمندور) وإن كان تريدوا تعملوا عند حكمه ارتفاع (استئناف) أن تعملوا أمام كل قاضى أن يكون مسلم من تطيلة كما هو سنتكم وشرعتكم ، وأن تكونوا أجسامكم وأموالكم ملتزمة للاشبطال المذكور ، وذلك بشرط أن لا يكون لأحد منكم أن يخرج من الموضع المذكور ، وكل واحد منكم لا يبيع ولا يرهن ميراث الاشبطال لنصرانى أو يهودى .

ونص فى نهاية الوثيقة أنها ختمت بخاتم دون بطره غرميس ملك نبره (نافار) ، وأرخت فى الثامن عشر من فبراير سنة أحد عشر وسبعمائة هجرية وهى توافق سنة ١٣١١ م . ووقعها من المدجنين سبعة منهم موسى الليلى المجتى والمراتب بن وليد وعيسى بن موسى ولب يا رس دريس . ووضعت أصولها الإسبانية فوق كل عبارة عربية .

ويبدو من مضمون هذه الوثيقة العربية الإسبانية ومن ركاكتها أن المدجنين فى هذه المنطقة من نافار كانوا اقل احتفاظاً بلغتهم وامتيازاتهم وأنهم كانوا قد بدأوا يومئذ يفقدون كيانهم الاجتماعى وامتيازاتهم القديمة .

للرجوع إليها . وقام أيضاً بين المدجنين أدب قشتالى ، استمر عصوراً حتى بعد إخراج العرب المتنصرين من اسبانيا[١] . على أن المدجنين لبثوا بالرغم من هذا الاندماج الاجتماعى تطبعهم مسحة خاصة تباعد بينهم وبين المجتمع النصرانى القديم[٢].

كان نظائر هؤلاء الأندلسيين المدجنين ، جمهرة من النصارى الإسبان يعيشون فى القواعد والثغور الإسلامية ، ويعرفون بالنصارى المعاهدين أو المستعربين (وبالإسبانية Mozárabes) . وقد لبثوا عصوراً يتمتعون فى ظل الحكم الإسلامى بضروب الرعاية والتسامح . وكانت الحكومات الأندلسية ، حتى فى أزهى عصورها ، تحافظ على سياسة التسامح التى اتبعت إزاءهم منذ الفتح ، وتعاملهم بالرفق ، وتحترم شعائرهم الدينية وتقاليدهم القومية ، وتجانب أية محاولة لإرغامهم على اعتناق الإسلام . وكان من ضروب هذه الرعاية ، أن أنشىء فى ظل حكومة قرطبة منذ عهد الحكم بن هشام ، ديوان خاص للنظر فى شئون أهل الذمة (النصارى واليهود) ، يتولاه كبير من الأحبار النصارى يطلق عليه « قومس أهل الذمة » . وهكذا استطاعوا دائماً أن يحتفظوا بدينهم ولغتهم ، ومميزاتهم القومية والاجتماعية. وكانت حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى ، أفضل بكثير مما كانت عليه أيام القوط ، وكثيراً ما كان يعهد إليهم بمناصب القيادة والوزارة ، أو ينتظمون فى البلاط والحرس الملكى . ومع ذلك فقد كانت منهم دائماً طوائف متعصبة تسىء استعمال هذا التسامح ، وتحاول بمختلف الوسائل أن تكيد للإسلام ودولته ومن ذلك ماحدث فى عهد عبد الرحمن بن الحكم (أواسط القرن التاسع الميلادى) من الحوادث الدموية التى أثارها تعصب النصارى[٣]. وهكذا فإن النصارى المعاهدين ، لم يشعروا دائماً بالولاء والإخلاص للدولة الإسلامية . التى يعيشون فى ظلها ، والتى توليهم كثيراً من رعايتها ورفقها ، وكانوا دائماً يتربصون بها ، وينتهزون الفرص لمناوأتها والكيد لها ، ويستعدون عليها الوطن القديم ، كلما اضطربت شئونها . وعصفت بها عواصف الثورة والحرب الأهلية . وكانت أعظم

---

(١) المقصود هنا أدب الألخميادو **Aljamiado** وهو عبارة عن كتابة اللغة القشتالية المحرفة بحروف عربية مشكلة . وكان العرب المتنصرون يضطرون إلى كتابة كتبهم الدينية بهذه اللغة بعد أن حرمت عليهم لغتهم العربية ، وسنعود إلى التحدث عن ذلك فيما بعد .

(٢) **Dr. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 65**

(٣) راجع كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » (الطبعة الثالثة) العصر الأول ص ٢٦٤ — ٢٧٠ .

خيانة ارتكبوها من هذا النوع ، فى أواخر أيام المرابطين ، حينما دعوا ألفونسو الأول ملك أراجون الملقب بالمحارب عقب استيلائه على سرقسطة ، إلى أن يسير إلى غزو الأندلس ، بعد ما لاح من انحلال سلطان المرابطين فيها ، واستجاب ملك أراجون لتحريضهم ، وسار مخترقاً الأندلس بجيوشه ، والنصارى المعاهدون فى كل قاعدة ينهضون إلى معاونته بوسائلهم ، وذلك فى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥م) ، حتى انتهى إلى فحص غرناطة وحاصرها حيناً ، ثم غادرها إلى الجنوب ، ونشب القتال بينه وبين المرابطين فهزمهم . ولبث حيناً يعيث فى تلك الأنحاء ، والنصارى المعاهدون يهرعون إلى شد أزره ، ويمدونه بالأقوات والمؤن . ثم عاد ثانية إلى اختراق الأندلس إلى أراجون ، وقد انضم إلى جيشه آلاف من النصارى المعاهدين. ولفتت هذه الغزوة أنظار المسلمين إلى خطر بقاء أولئك المعاهدين فى الثغور والقواعد الأندلسية ، فانقلبت الحكومة الإسلامية إلى مطاردتهم ، وأفتى القاضى أبو الوليد ابن رشد الجد بإدانتهم فى نقض العهد والخروج على الذمة ، ووجوب تغريبهم وإجلائهم عن الأندلس ، وأخذ أمير المرابطين على بن يوسف بهذه الفتوى ، وغربت ألوف من النصارى المعاهدين إلى إفريقية ، وفرقوا هنالك فى أماكن مختلفة ، وهلك الكثير منهم بسبب الطقس وتغير وسائل التغذية ، وضم السلطان كثيراً منهم إلى حرسه الخاص ، وكانت هذه المحنة سبباً فى تمزيق عصبتهم وإضعاف شوكتهم (١).

وقد كان مجتمع المستعربين أو النصارى المعاهدين ، حتى فى القواعد الأندلسية التى سقطت فى يد اسبانيا النصرانية ، وبسط عليها النصارى حكمهم ، يتأثر بمجتمع المدجنين ، وبأحواله وتقاليده ، حتى أنهم كانوا يتخذون اللغة العربية لغة التعامل ، ولغة التخاطب أحياناً ، إلى جانب لسانهم القومى . وقد قمنا بدراسة مجموعة من الوثائق العربية المحفوظة بدار المحفوظات التاريخية بمدريد ، والمنقولة اليها من دير سان كليمنتى بطليطلة ، وهى مجموعة ضخمة ، كلها عقود تعامل من بيع وشراء وهبة وإيجار ووصية وغيرها ، ومعظمها مكتوب فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وبعضها فى القرن الثانى عشر . وهى محررة على الأغلب بين المستعربين وأحياناً بينهم وبين المدجنين ، بأسلوب عربى لا بأس به ، وكلها تستهل بالبسملة مقرونة أحياناً بعبارة « وبه نستعين » أو « الحمد لله وحده » ، وعلى كثير منها شهود مسلمون

---

(١) راجع الإحاطة ج ١ ص ١١٥ و ١٢٠ ؛ والحلل الموشية ص ٧٠ و ٨١ : ؛ . وراجع كتاب « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » القسم الأول — ص ١٠٨ — ١١٢ .

مدجنون إلى جانب الشهود النصارى ، ومما يلفت النظر أن أسماء المستعربين النصرانية قد عربت فيها تعريباً حسناً ، وإليك ملخص لبعض ما جاء فيها :

(١) من ذلك وثيقة مؤرخة فى « شهر دجنبر من عام سبعة وثمانين ومائة وألف من تاريخ الصفر » (١١٨٧ م) وبمقتضاها « باعت الراهبة دونة بويابيه وأختها كرشتينة بنتى تمام الرطلى ومرتين ودمنغة إبنى بشتة بنت تمام الرطلى ومرية ولوقاذة بنتى دمنغة بنت تمام الرطلى من دون ردريق مينوس ومن زوجته دونه سسيلية نصف الضيعة المعلومة لتمام الرطلى بقرية دليش مالمزنوفه من عمل طليطلة حرسها الله وذلك سهم ونصف والحنان كله الذى فيه البير إذ تبقت عواضه البيوت المعلومة لتمام المذكور بالقرية المذكورة .. بثمن عدته عشرون مثقالا ونصف ذهباً مرابطية دفع المبتاعان بجميع الثمن إلى البائعين وقبضوه منهما ... » وعلى الوثيقة أسماء شهود مدجنين مثل دمنغة بن عبد العزيز ، واشتامن بن حسان ، وشهود من النصارى .

(٢) ووثيقة مؤرخة فى شهر « أغشت من سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر » (١١٧٣ م) بمقتضاها « اشترى الوزير دون ميقايال بيطس أعزه الله من بهلول وأخيه بيطرة ابنى مرتين بن بهلول رحمه الله جميع الدار الكبيرة ، والقرال المتصل بها من جهة الغرب والقبلاريسة المتصلة بها أيضاً من جهة القبلة حدود جميع ذلك كله فى الشرق الطريق السالك وإليه يشرع الباب ، وفى الغرب دار ابن طورينه المسلم أمين الفخارين ، وفى القبلة دار بيطرة البنا بن بهلول ، وفى الجوف دار تبقت بيد البائعين ، ودار سلمة بن حسان ... بثمن عدته ثمانون مثقال ذهباً مرابطية... » وتحمل الوثيقة أسماء عدة شهود مسلمين مثل عبد الله ابن داود ، وعامر بن تمام ، وعلى بن عياش .

(٣) ووثيقة مؤرخة فى « العشر الأخر من شهر أكتوبر سنة خمس وأربعين ومائتين وألف للصفر » بمقتضاها « اشترى الوزير دون شانجه شقورة الفرايلى أدام الله عزته من دون خوان دمنغة بن الصباغ ومن زوجته دونة مرية بنت تيان بيطر من جميع الكرم الكبير الذى لهما بحومة خندق عقرون من أحواز مدينة طليطلة حرسها الله ، وحده فى الشرق كرم لورثة دون أندراش البرجمانس وفى الغرب مخدع سالك من نهر تاجه إلى الحقل وفى القبلة أرض بنصل لدون فرنندة بن بوارى عبد الملك وفى الجوف كرم كان للوزير المتشرف أبى عمر بن جوفار

ومنزل الآن للقاضى دون يليان اڤمانس ... والثمن مبلغه وعدته ستون مثقالا ذهباً من الذهب الأذفونشى الضرب دفع المبتاع المذكور جميع الثمن للبايعين المذكورين وقبضاه منه ... وخلص بذلك للمبتاع المذكور ملك جميع المبيع الموصوف... الخ» وعلى الوثيقة شهود مسلمون ونصارى .

ونحن نكتفى بإيراد ما تقدم من هذه الوثائق . وهذه العقود تدلى بكثير من من الحقائق التاريخية ، فمنها يستدل أولا على أنه كانت توجد بطليطلة حتى أواخر القرن الثالث عشر ، أقلية مسلمة هامة من المدجنين. ونحن نعرف أن طليطلة سقطت فى أيدى النصارى منذ سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . ومنها نعرف الكثير عن خطط طليطلة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، ومنسوب أثمان العقارات ، ونوع العملة المستعملة فى التعامل ، وفيها ما يدل بوضوح على توثق أواصر المودة والتفاهم بين المدجنين والنصارى(١) .

على أن الكثرة الغالبة من المسلمين فى القواعد الأندلسية الذاهبة ، كانت تؤثر الالتجاء إلى أرض الإسلام والتشبث بلواء الدولة الإسلامية . وهكذا أخذت مملكة غرناطة ، تموج منذ أواسط القرن السابع الهجرى بسيول الوافدين عليها ، من بلنسية ومرسية وقرطبة وإشبيلية وجيان وبياسة وغيرها ، وهكذا غدت المملكة الصغيرة تضيق بسكانها المسلمين ، بعد أن احتشدت بقايا الأمة الأندلسية المتداعية فى تلك المنطقة الضيقة . ومن المرجح أن مملكة غرناطة كانت تضم فى عصورها الأخيرة ، زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس ، وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس ، وقد كانت هذه الهجرة الغامرة من مختلف القواعد الأندلسية فى الشرق والغرب ، إلى ذلك الوطن الأندلسى الجديد ، تضفى على التكوين العنصرى لسكان مملكة غرناطة طابعاً خاصاً . وبالرغم من أن العناصر الأساسية التى تتكون منها الأمة الأندلسية ، وهى العرب والبربر والمولدون — وهم أعقاب الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح — لبثت على كر العصور

---

(١) تحفظ هذه الوثائق فى قسم **Archivos Historicos** الملحق بالمكتبة الوطنية بمدريد . وقد نشر معظم وثائق هذه المجموعة المستشرق الإسبانى الكبير كونثالث بالنثيا **Gonzalez Palencia** مقرونة بترجمته الإسبانية فى أربعة مجلدات كبيرة تحت عنوان **Los Mozárabes de Toledo en los Siglos XII y XIII (Madrid 1926-1930)** ونشرت مقتطفات منها فى **P.Boigues : Escrituras Mozárabes Toledanas**

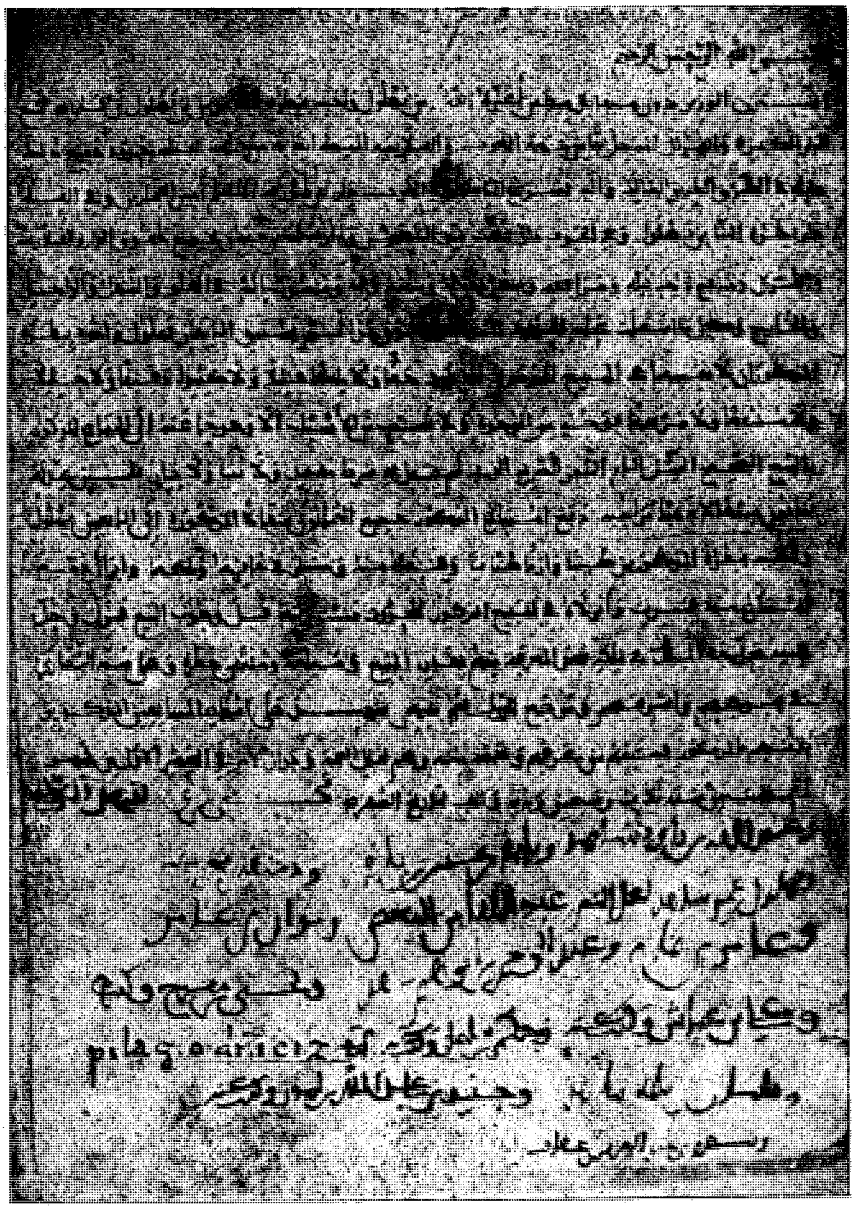
بسم الله الرحمن الرحيم

وثيقة مستعربية **Mozárabe** من مجموعة ديرسا ن كلميمنتى بطليطلة ، وهى عبارة عن عقد شراء مؤرخ فى شهر « أغشت » سنة ١١٧٣م ، وقدوقع عليها شهود مسلمون مدجنون إلى جانب المتعاقدين النصارى

دون تغيير ، فانه يلاحظ أن الجموع الوافدة على المملكة الإسلامية الجديدة ، كانت تضم كثيراً من العناصر التى صقلتها حضارة أرقى ، ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الأمة الأندلسية الجديدة ، كانت تمثل أطيب وأثمن ما بقى من القيم العنصرية والحضارية للأندلس القديمة .

وكان المولدون يمثلون فى المجتمع الأندلسى الجديد مثولا قوياً . وكان أولئك المولدون قد نموا بمضى الزمن حتى غدوا عنصراً هاماً بين سكان الأمة الأندلسية . وكان العرب والبربر ينظرون إليهم بشىء من الريب . وكانوا بالرغم من تمتعهم فى ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة بنفس الحقوق التى يتمتع بها باقى المسلمين ، ينزعون إلى الثورة فى أحيان كثيرة ، وقد كان لهم شأن يذكر ، فى إضرام بعض الثورات الخطيرة التى اضطرمت ضد حكومة قرطبة، مثل ثورة الربض ، وثورة طليطلة أيام الحكم بن هشام ، وثورة بنى قسى فى الثغر الأعلى ، وقد كان جدهم الكونت قسى قوطياً نصرانياً . وكان المولدون أعوان ابن حفصون أعظم وأخطر ثوار الأندلس ، وهو الذى استطاع بموازرتهم وموازرة النصارى المعاهدين ، أن ينشىء مدى حين مملكة مستقلة فى منطقة رندة (أواخر القرن التاسع الميلادى) . وكان ابن حفصون مولداً يرجع إلى أصل نصرانى . على أن المولدين كان لهم موقف آخر ضد الغزاة القادمين من إفريقية . فقد وقفوا إلى جانب مواطنيهم الأندلسيين ضد المرابطين ثم الموحدين ، وكان عماد الثورة ضد المرابطين فى غربى الأندلس زعيم من المولدين هو الفقيه المتصوف أحمد بن قسى شيخ المريدين ، وكان زعيم الثورة ضد الموحدين فى شرقى الاندلس زعيم من المولدين هو محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية . وكان يتحدث القشتالية ويلبس الملابس الإفرنجية ، ويحشد فى جيشه كثيراً من الضباط والجند النصارى[١]. ولم يكن للعاطفة الدينية فى تلك العصور وفى تلك الظروف دائماً كبير أثر ، بل كانت تغلب فى معظم الأحيان عواطف القومية والمصلحة الخاصة . ويبدو ذلك بنوع خاص فى سياسة زعيم مثل ابن مردنيش كانت سياسته تقوم على مصادقة النصارى ، والاستعانة بهم على تنفيذ خططه[٢] . كذلك كان يمثل بين سكان غرناطة أقلية يهودية قوية ، معظمهم من طائفة « السفرديم » القديمة أو اليهود الإسبان . وكان لليهود فى ظل معظم

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ .

(٢) Dr. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 50

الحكومات الإسلامية نفوذ يذكر . وكان منهم أعلام فى العلوم والآداب مثل الرئيس موسى بن ميمون القرطبي ، الذى غادر الأندلس إلى المشرق فى أواسط القرن السادس الهجرى ، فراراً من اضطهاد الموحدين ، وكان لهم مثل هذا النفوذ فى مملكة غرناطة ، ومنهم معظم أطباء البلاط والخاصة .

وكانت العروبة تغلب على السكان المدنيين فى مملكة غرناطة ، ولاسيما بعد أن نزح اليها على أثر سقوط القواعد الأندلسية فى أيدى النصارى ، كثير من سادة البطون العربية القديمة . ويذكر لنا ابن الخطيب عشرات من الأنساب العربية العريقة التى كان ينتمى اليها أهل غرناطة . بيد أنها كانت عروبة من نوع خاص ، صقلتها الأمة الأندلسية ، وأضفت عليها طابعها وألوانها الخاصة . ويصف ابن الخطيب الغرناطيين بوسامة الوجوه ، واعتدال القدود ، وسواد الشعر ، ونضرة اللون ، وإناقة الملبس ، وحسن الطاعة والإباء ، يتحدثون بعربية فصيحة تغلب عليها الإمالة . ويصف نساءهم بالجمال والرشاقة والسحر ، ونبل الخلال ، ولكنه ينعى عليهن المبالغة فى التفنن فى الزينة والتبهرج فى عصره . أما الجند فكانت فيهم كثرة ظاهرة من البربر ، ولا سيما من قبائل زنانة ومغراوة وبنى مرين . ويرجع ذلك إلى أن طوائف البربر التى تخلفت منذ عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، كان أغلبها من الجند ؛ وقد بقيت على عهدها تؤثر الجندية على الزراعة والمهن والفنون المدنية(١) .

وهكذا كان الشعب الأندلسى حين آذنت شمسيه بالمغيب ، كما كان يوم مجده ، يتكون من هذا المزيج العربى الإفريقى الإسبانى الذى أطلق عليه الغربيون عبارة « عرب الأندلس » أو « مسلمى الأندلس »(٢) .

وكانت الأمة الأندلسية تتمتع حتى فى عصورها الأخيرة بحضارة زاهرة ، كانت مثار التقدير والإعجاب فى سائر الأمم الأوربية ، وكان يحج إلى معاهدها العلمية كثير من الطلاب من مختلف أنحاء أوربا .

وكان الشعب الغرناطى من أهل السنة يدين بمذهب مالك ، وهو المذهب الذى غلب على الأمة الأندلسية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ، أعنى منذ عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولم تتأثر غرناطة فى نزعتها المذهبية ولا تقاليدها الدينية السمحة ، بما توالى عليها من سيادة المرابطين والموحدين حيناً من الدهر .

---

(١) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٤٠ — ١٤٥ ؛ واللمحة البدرية ، ص ٢٧ و ٢٨ .

(٢) وهى بالإسبانية **Los Moros** ، وبالإنجليزية **The Moors** ، وبالفرنسية **Les Maures**

الفصل الرابع

طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية

المعركة الخالدة بين الأندلس واسبانيا النصرانية . تضاؤل قوة الأندلس . قيام مملكة غرناطة . مرحلة جديدة فى الصراع. طبيعة هذا الصراع . العوامل القومية والدينية. نزعة الجهاد عند المسلمين . النزعة الصليبية عند النصارى . قيام الجماعات الدينية المحاربة فى اسبانيا . ضعف العامل الدينى فى بداية النضال . السيد الكمبيادور . المرتزقة النصارى فى الجيوش الإسلامية . التجاء الأمراء النصارى إلى حماية الملوك المسلمين . زواج الأمراء المسلمين بنساء من النصارى . ابن مردنيش . التحالف بين المسلمين والنصارى . التعاون بينهما أيام السلم. الفروسة وعلائق المودة . طبيعة حرب الإسترداد . صبغتها الدينية فى مراحلها الأخيرة.

يبدأ بقيام مملكة غرناطة فوق أنقاض الدولة الإسلامية الكبرى فى اسبانيا ، طور جديد من أطوار الصراع الخالد بين الأندلس واسبانيا النصرانية ، أو بعبارة أخرى طور جديد فيما يمكن أن نسميه فى تلك المرحلة المتأخرة من تاريخ الأندلس حرب الإسترداد القومية .

وقد بدأت اسبانيا النصرانية حرب الاسترداد القومية **La Reconquista** منذ منتصف القرن الخامس الهجرى، أعنى حينما انهارت الدولة الإسلامية القوية ، وانتثرت إلى عدة دويلات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف . وبلغت الأندلس أيام الطوائف من التفرق والضعف مبلغاً عظيما ، حتى لاح لاسبانيا النصرانية أن عهد الدولة الإسلامية أوشك على الزوال ، وأن الفرصة قد سنحت لتضرب ضربتها الحاسمة . وكانت مملكة قشتالة تتزعم اسبانيا النصرانية ، وتقودها فى ميدان الصراع مع المسلمين ، وكان ملكها أيام الطوائف ألفونسو السادس ، يعمل بذكاء لاستغلال منافسة الدول الإسلامية وتفرق كلمتها ، ويغلب أميراً على أمير ، حتى انتهى بالاستيلاء على مدينة طليطلة من يد صاحبها يحيى بن ذى النون ، وذلك فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو سنة ١٠٨٥ م) . وكانت طليطلة أول قاعدة إسلامية عظيمة تسقط فى يد اسبانيا النصرانية . ويعتبر بعض الباحثين سقوطها ختام مرحلة التفوق السياسى الذى احتفظت به الدولة الإسلامية فى شبه الجزيرة منذ الفتح ، وبدأ مرحلة التفوق السياسى لإسبانيا النصرانية[١] وعلى أى حال فقد كان سقوط

(١) Isidro de las Cagigas : Los Mudéjares, p. 45

ظليطلة نذيراً خطيراً للأمة الأندلسية ، يذكرها بقوة العدو المتربص بها ، ويحذرها عاقبة التنابذ والتفرق ، فاجتمعت كلمة أمراء الطوائف يومئذ على الاستعانة بإخوانهم فيما وراء البحر ، فى عدوة المغرب . وكان المرابطون يومئذ قد بسطوا سلطانهم على سائر بلاد المغرب ، وبدت دولتهم قوية شامخة ، فاستجاب زعيمهم يوسف بن تاشفين إلى صريخ الأندلس، وعبر البحر بقواته إلى الأندلس . وكانت هزيمة اسبانيا النصرانية على يد جيوش المغرب والأندلس فى موقعة الزلاّقة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦م) فاتحة حياة جديدة للأمة الأندلسية . وبالرغم من أن المرابطين استولوا على الأندلس بعد ذلك بأعوام قلائل وبسطوا حكمهم عليها ، فقد استمد الإسلام فى اسبانيا من قوتهم قوة جديدة ، وعاد الصراع الخالد بين الدولة الإسلامية وبين اسبانيا النصرانية ، يضطرم فى نوع من تكافؤ القوى . ولما اضمحل سلطان المرابطين فى الأندلس بعد ذلك بنحو ستين عاماً ، وخلفهم الموحدون فى ملك المغرب والأندلس ، لبثت الدولة الإسلامية حقبة أخرى فى شبه الجزيرة عزيزة قوية الجانب نوعاً ، وإن كانت قد فقدت فى تلك الفترة بعض قواعدها التالدة ، مثل سَرقُسطة التى سقطت فى يد النصارى سنة ٥١٢ (١١١٨ م) وبقية قواعد الثغر الأعلى التى سقطت بعد ذلك بفترة قصيرة . وأحرز الإسلام للمرة الثانية على النصرانية نصراً حاسماً فى موقعة الأرك الشهيرة ، التى انتصرت فيها جيوش يعقوب المنصور خليفة الموحدين على جيوش ألفونسو الثامن ملك قشتالة (٥٩٣هـ — ١١٩٥م) ، وانكمشت اسبانيا النصرانية مدى حين ، ولكنها عادت فاجتمعت كلمتها تحت لواء ألفونسو الثامن ، وسارت الجيوش النصرانية المتحدة إلى لقاء المسلمين بقيادة خليفة الموحدين محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وأصيب المسلمون فى موقعة العقاب بهزيمة فادحة (٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م) وأخذ سلطان الموحدين فى الأندلس يتداعى من ذلك الحين ، وبدأ مصير الأندلس يهتز فى يد القدر ، وبدت اسبانيا النصرانية يومئذ فى أوج سلطانها وقوتها . ولم تمض فترة وجيزة أخرى حتى بدأت قواعد الأندلس العظيمة ، تسقط تباعاً فى يد النصارى : قرطبة (٦٣٣هـ) فبلنسية (٦٣٦ هـ) فمرسية (٦٤١هـ) فشاطبة ودانية (٦٤٤ هـ) فإشبيلية (٦٤٦ هـ) . وهكذا سقطت عدة من قواعد الأندلس التالدة ومنها عاصمة الخلافة القديمة فى يد اسبانيا النصرانية فى مدى عشرة أعوام فقط ، ولقيت الأندلس أعظم محنها فى تلك الفترة العصيبة ، ولاح لاسبانيا

النصرانية ان حرب الإسترداد القومية لن تلبث حتى تتوج فى أعوام قلائل أخرى ، بالقضاء على ما بقى من تراث الإسلام فى الأندلس .

ولكن شاء القدر أن تتمخض هذه المحنة ، التى غمرت الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عن قيام مملكة إسلامية جديدة هى مملكة غرناطة ، تتمتع بالرغم من صغرها بكثير من عناصر الفتوة والحيوية . وفى الوقت الذى خيل فيه لاسبانيا النصرانية أنها أضحت على وشك الإجهاز على المملكة الإسلامية ، كانت بذور صراع مرير طويل الأمد تنمو وتتوطد ، وإذا بالنهاية المرجوة تستحيل إلى بداية جديدة . ولقد استطالت هذه المرحلة الأخيرة من حرب الاسترداد زهاء مائتين وخمسين عاماً ، صمدت فيها المملكة الإسلامية لهجمات اسبانيا النصرانية المستمرة ، وعملت على استغلال كل فرصة للمطاولة والمقاومة ، وأبدت فى النضال على صغر رقعتها وضآلة مواردها ، بسالة عجيبة . وكانت كلما شعرت بالخطر الداهم يكاد ينقض عليها ويودى بحياتها ، استغاثت بجارتها المسلمة من وراء البحر ، أو عصفت باسبانيا النصرانية ريح الخلاف والتفرق فشغلتها عن إرهاق المملكة الإسلامية حيناً ، حتى شاء القدر بعد طول النضال أن تنتهى هذه المعركة القاسية الطويلة إلى نهايتها المحتومة ، وأن تنهار المملكة الإسلامية الصغيرة أمام ضغط القوة القاهرة ، وأن تختتم حياتها المجيدة أبية كريمة .

وهنا يجدر بنا أن نحاول أن نلقى شيئاً من الضياء ، على طبيعة هذا النضال ، الذى استمر قروناً بين الأمة الأندلسية وبين اسبانيا النصرانية ، وإلى أى حد كانت تحدوه العوامل القومية أو الدينية .

كانت العوامل القومية والدينية ، تمتزج بأدوار هذا النضال فى معظم أطواره ، وكانت تشتد حيناً وتخبو حيناً تبعاً لتطور الحوادث . ولما افتتح العرب اسبانيا ، وسيطرت الدولة الإسلامية على معظم أنحائها ، قامت المملكة الإسبانية النصرانية الناشئة فى قاصية الشمال ، ترقب الفرص للتوطد والتوسع . بيد أنها لم تجرؤ على تحدى المملكة الإسلامية والنزول إلى ميدان النضال قبل أواخر القرن التاسع ، ففى ذلك الحين اضطرمت الأندلس بالفتن والثورات الداخلية ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثوار والنواحى . وكانت غزوات النصارى للأراضى الإسلامية يومئذ غزوات عيث يغلب عليها حب الانتقام والغنم . ولم يكن يطبعها شىء من تلك الروح الدينية العميقة ، التى جمعت أوربا النصرانية تحت لواء كارل مارتل

لمحاربة العرب على ضفاف اللوار ، والتى حفزت شارلمان فيما بعد إلى عبور جبال البرنيه وغزو الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل . غير أنه لما اشتد ساعد الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر (أوائل القرن العاشر الميلادى) وظهرت المملكة الإسلامية فى أوج قوتها وظفرها ، ونفذت الجيوش الإسلامية غير مرة إلى أعماق المملكة النصرانية ، وشعر النصارى بالخطر الداهم على كيانهم ، أخذت العوامل الدينية والقومية تستيقظ من سباتها ، واتحدت المملكتان النصرانيتان ليون وناڤار (نبرّة) على مقاومة الخطر الإسلامى . وكانت المعارك التى نشبت فى تلك الفترة فى عهد أردونيو الثانى وولده راميرو بين المسلمين والنصارى ، تحدوها من الجانبين ، فوق نزعتها القومية ، نزعة دينية واضحة ؛ فكانت غزوات المسلمين تحمل طابع الجهاد ، ويهرع أهل الثغور إلى مرافقة الجيش لمقاتلة النصارى ، وكان يرافق الجند النصارى إلى القتال جموع غفيرة من الأحبار ورجال الدين ، يسقطون إلى جانب الفرسان فى ساحة الوغى . وكانت هذه الصبغة القومية الدينية تبدو كلما اشتد الخطر من الجنوب على اسبانيا النصرانية . ففى أواخر القرن العاشر فى عهد الحاجب المنصور ، حينما اشتدت وطأة الأندلس على اسبانيا النصرانية ، وغزا المسلمون أقصى وأمنع معاقلها الشمالية ، اتحدت الممالك النصرانية الثلاثة ليون وقشتالة وناڤار ضد المسلمين فى جبهة دفاعية موحدة ؛ وبدت كذلك موحدة الرأى والقوى ، حينما عبرت جموع البربر إلى الأندلس تحت لواء المرابطين ، لتنقذ الأندلس من خطر الفناء الذى كان يهددها ، من جراء تفرق ملوك الطوائف . وكانت موقعة الزلاّقة تحمل فى نظر المسلمين طابع الجهاد فى سبيل الله ، وتطبعها فى نظر النصارى صبغة صليبية واضحة ، ولم يكن نصر الزلاّقة نصراً للأندلس على خصيمتها اسبانيا فقط ، ولكنه كان نصر الإسلام على النصرانية أيضاً . وكذا كان نصر الموحدين فى موقعة الأرك ، ثم هزيمتهم بعد ذلك فى موقعة العقاب ، يحمل كلاهما من الجانبين هذا الطابع الدينى العميق . ويجب أن نذكر أن الحروب الصليبية ، قد بدأت فى المشرق بعد موقعة الزلاّقة بقليل ، واستمرت تضطرم بين المسلمين والنصارى فى مصر والشأم زهاء قرنين ، وبلغت ذروتها أيام الملك الناصر صلاح الدين معاصر الخليفة يعقوب المنصور الظافر فى معركة الأرك . ولم يك ثمة شك فى أن النزعة الصليبية التى دفعت بجحافل الغرب إلى الشرق الإسلامى ، كانت تحدث صداها قوياً فى اسبانيا النصرانية وفى الغرب الإسلامى.

وفى الوقت الذى كانت جيوش الصليبيين تحاول فيه أن تغزو مصر حصن الإسلام فى المشرق ، فى أوائل القرن السابع الهجرى ، كانت قواعد الأندلس الكبيرة تسقط فى أيدى النصارى ، وكانت اسبانيا النصرانية تبدو يومئذ إزاء الأندلس ، موحدة الرأى والقوى ، كما كانت الجيوش الأوربية الصليبية تسير إلى المشرق متحدة لتحقيق الغرض المشترك .

وقد ظهر صدى النزعة الصليبية فى اسبانيا فى شكل آخر ، هو قيام الجماعات الدينية المحاربة . ونحن نعرف أن جماعات الفرسان الدينية قامت فى المشرق فى ظل الصليبيين ، واشتهر منهم بالأخص جماعة فرسان المعبد أو « الداوية » كما تسميهم الرواية العربية ، وفرسان القديس يوحنا أو الأسبتارية . وكانت هذه الجماعات الدينية المحاربة ، تشد أزر الأمراء النصارى وتؤدى للصليبيين أثناء الحرب والسلم خدمات جليلة . وكما أن قيامها فى المشرق كان أثراً من آثار المعارك الصليبية ، فكذلك كان قيامها فى اسبانيا أثراً من آثار النضال بين اسبانيا النصرانية وبين اسبانيا المسلمة . ذلك أن بعض الفرسان والرهبان الورعين المتحمسين ، كان يحزنهم تفرق الملوك النصارى وتخاذلهم أحياناً فى مقاتلة المسلمين ، وكانوا يرون أنه لابد من قيام جماعات غيورة مخلصة من الفرسان ، تنذر نفسها للدفاع عن الدين وعن الأراضى النصرانية . وكانت قدوتهم فى ذلك جماعات المسلمين من أهل الثغور والمرابطة ، فقد كانت هذه الجماعات المجاهدة التى ترابط عند حدود الأراضى الإسلامية ، تبدى فى محاربة النصارى بسالة منقطعة النظير ، وتؤدى للجيوش الإسلامية أجل الخدمات . فلما أنشئت جماعة فرسان المعبد (الداوية) فى بيت المقدس سنة ١١١٩ م عقب قيام المملكة اللاتينية بقليل ، كان لقيامها صدى عظيم فى اسبانيا ، ولم تمض أعوام قلائل حتى قامت أول جمعية محاربة دينية فى أراجون فى عهد ألفونسو المحارب ، فى صورة فرع لجماعة فرسان المعبد ، وأبدى ألفونسو فى تأييدها حماسة ، وانتظم فى سلكها الكونت ريمون برنجار أمير برشلونة ، وأقطعت عدة حصون وأراض شاسعة على حدود أراجون ، كما احتلت عدداً من الحصون فى قشتالة ، ونمت بسرعة وأخذت تضطلع من ذلك الحين بدور هام فى سائر المواقع التى تنشب بين النصارى والمسلمين .

وقامت فى قشتالة بعد ذلك بقليل أعظم الجمعيات الدينية المحاربة ، فى أواخر

عصر القيصر ألفونسو ريمونديس أو ألفونسو السابع[١] ملك قشتالة ، قامت حول سنة ١١٥٠ م جمعية فرسان دينية قوية فى بعض أديار منطقة شلمنقة ؛ وسميت بجمعية القديس يوليان ، ثم سميت بعد ذلك بجمعية فرسان القنطرة . وفى سنة ١١٥٨م قامت جمعية دينية محاربة أخرى ، ربما كانت أشهر وأقوى جماعات الفرسان التى ظهرت فى اسبانيا فى هذا العصر ، وهى جمعية « فرسان قلعة رباح » ، ونشأت لأول أمرها على يد بعض الرهبان الورعين المتحمسين الذين عملوا على حشد الجند النصارى للتطوع للدفاع عن تلك القلعة الحصينة ضد المسلمين ، واتخذت قلعة رباح مركزاً لها[٢] . وقامت أيضاً فى البرتغال عدة فروع لفرسان المعبد (الداوية) وفرسان القديس يوحنا (الأسبتارية) . وظهرت هذه الجمعيات الدينية المحاربة ولاسيما فرسان القنطرة وفرسان قلعة رباح فى كثير من المعارك ، التى نشبت فى تلك العصور بين المسلمين والنصارى ، وكان تدخلهم فى كثير من الأحيان من عوامل النصر والإنقاذ للجيوش النصرانية ، بيد أنهم بالرغم من صفتهم الدينية والصليبية كانت تحدوهم بواعث وأطماع دنيوية ، وكان ظمأ الكسب واجتناء المغانم روحهم المسيرة ، وكانوا يسيطرون على قلاع كثيرة وأراض واسعة ، ويعيشون فى بذخ وترف ، بما يحصلون عليه من الإقطاعات والهبات والنذور الوفيرة ، وكان تدخلهم فى شئون السياسة والعرش يشتد أحياناً ، ويفضى إلى أحداث وتطورات خطيرة .

كانت اسبانيا النصرانية حينما بدأت حرب الإسترداد الحقيقية **La Reconquista** فى أواسط القرن الثالث عشر ، عقب سقوط القواعد الأندلسية الكبيرة ، تجيش إلى جانب نزعتها القومية بهذه النزعة الصليبية الواضحة . على أنه يمكن القول أن ظهور هذه النزعة القومية والدينية العميقة فى حروب اسبانيا النصرانية مع المسلمين ، لم يكن ملحوظاً بصورة واضحة ، حينما كان التفوق فى القوة لإسبانيا المسلمة أيام الدولة الأموية ، وحينما كان ثمة نوع من توازن القوى السياسية والعسكرية بين الأندلس واسبانيا النصرانية أيام المرابطين والموحدين وتدل حوادث التاريخ الأندلسى حتى أواخر القرن الثانى عشر على أن التعصب

---

(١) **Alfonso Raimundez** وتعرفه الرواية الإسلامية باسم أدفنش بن رمند أو السليطين

(٢) تناولنا قيام الجماعات الدينية النصرانية ، ونشأة جمعية فرسان قلعة رباح تفصيلا فى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الأول ص ٥١٨ — ٥٢٠ .

القومى أو الدينى لم يكن دائماً ظاهرة بارزة ، فى حروب المسلمين والنصارى. فقد كان الفريقان المتحاربان على وجه العموم يحترم بعضهم بعضاً ، وكان التعصب الدينى قاصراً على جماعات الفقهاء من ناحية ، وعلى القساوسة والأحبار من جهة أخرى ؛ ويوصف المسلمون فى الأناشيد الإسبانية القديمة بأنهم خصوم شرفاء ، ولا يجيش النصارى نحوهم ببغض أكثر مما كان يجيش به المسلمون أنفسهم ، بعضهم نحو بعض فى الحروب الأهلية التى كانت تنشب فيما بينهم(١) . يقول العلامة دوزى : « إن الفاوس الإسبانى فى العصور الوسطى لم يكن يحارب من أجل دينه أو وطنه ، بل كان مثل « السيِّد » يحارب لكسب عيشه ، سواء فى ظل أمير مسلم أو أمير نصرانى . ولقد كان « السيد » نفسه أقرب إلى روح المسلم منه إلى الكاثوليكى »(٢). وفى حياة السيد الكمبيادور (الكنبيطور)(٣) نفسه أوضح مثل لاتجاهات الفروسة الإسبانية فى تلك العصور ، فقد نشأ السيد وظهر فى كنف أمير مسلم ، وتقلب فى خدمة الأمراء المسلمين والنصارى على السواء ، بل لقد خدم الأمراء المسلمين أكثر مما خدم الأمراء النصارى ، ولو لم يمت وهو فى خدمة الجانب النصرانى لما حفلت به الأساطير الإسبانية ، ورفعته إلى مرتبة البطل القومى(٤). وفى أحيان كثيرة نرى المرتزقة من الفرسان والجند النصارى يعملون فى الجيوش الإسلامية . وفى مواطن عديدة من تاريخ اسبانيا النصرانية ، نرى الملوك والأمراء النصارى خلال الحروب الأهلية يلوذون بحماية الأمراء المسلمين . فقد لجأ سانشو ملك ليون إلى حماية عبد الرحمن الناصر حينما استأثر أخوه أردونيو بالملك دونه ، ولجأ ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى حماية المأمون بن ذى النون

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; V. I..p. 51.

(٢) Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge ; V. II. p. 203 & 283.

(٣) وبالإسبانية El Cid Campeador ؛ ومعناها « السيد الباسل جدا » .

(٤) يختلف تقدير التفكير الغربى للسيد الكبيادوز ومنزلته من البطولة ، فيرى دوزى فى كتابه (Le Cid) أنه ليس سوى جندى مغامر يجمع فى شخصه من رذائل عصره أكثر مما يجمع من فضائله ويجاريه فى هذا الرأى معاصره العلامة الفرنسى رينان ، ويقول « إنه لم يفقد بطل بخروجه من حيز الاسطورة إلى حيز التاريخ كما فقد السيد » . ولكن العلامة الإسبانى المعاصر الأستاذ منندث بيدال يخالف هذا الرأى ، ويبالغ فى تقديره للسيد ، ويقول « إن الشعر والتاريخ يتفقان فى شأنه ، وأنه بالعكس لا يوجد بطل ملاحم أكثر لمعاناً فى ظل التاريخ » . R.M.Pidal : La Espana del Cid ; Vol. II.p. 594

أمير طليطلة ، حينما تغلب عليه أخوه سانشو الثاني وعاش في بلاطه حتى توفى أخوه ؛ فلما ارتقى عرش قشتالة كان أعظم مشاريعه أن ينتزع طليطلة من يد القادر بن ذى النون ولد المحسن إليه . وفى سنة ٩٩٠ م قدّم برمودو (برمند) الثانى أخته زوجة لحاكم طليطلة المسلم . ولم يكن زواج الأمراء المسلمين من الأميرات والعقائل النصارى أمراً نادراً . وربما كان تاريخ بلنسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر أسطع مثل لهذا الامتزاج والتفاهم بين الفريقين المتحاربين ، ففيه يكثر التحالف بين المسلمين والنصارى ولاسيما أيام « السيد » وبعدها . وقد كان أمير بلنسية فى أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ينتمى حسبما قدمنا إلى أسرة من المولدين أعنى من أصل نصرانى ، وكان يرتدى الثياب القشتالية ، ويعتمد فى جيشه على الضباط والجند النصارى . ولم يحجم أمراء المرابطين فى الأندلس حينما انهارت دولتهم فى المغرب ، وبدأ الموحدون فى انتزاع الأندلس من أيديهم ، عن الإستعانة بألفونسو ريمونديس ملك قشتالة وحليفه غرسية ملك ناڤار على محاربة الموحدين . وهذا ما فعله بالأخص الأمير يحي بن غانية آخر زعماء المرابطين بالأندلس حينما استعان بالقيصر ألفونسو السابع على الاحتفاظ برياسته لقرطبة . وهذا ما فعله أيضاً الخليفة الموحدى أبو العلاء المأمون حينما اتفق مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، على معاونته بفرقة من الفرسان النصارى يستعين بها على استرداد العرش من خصومه . ولم ينقطع هذا التعاون بين المسلمين والنصارى حتى بعد أن بدأت مرحلة الإسترداد الأخيرة ؛ فقد كان مؤسس مملكة غرناطة محمد بن الأحمر فى بداية أمره ، ينضوى حسبما رأينا تحت حماية ملك قشتالة ، ويتعهد بمعاونته فى حروبه ضد خصومه من المسلمين والنصارى . ونجد من الجانب الآخر أمراء النصارى ، يلوذون من وقت إلى آخر بحماية المسلمين حتى فى ذلك العصر الذى تضاءلت فيه المملكة الإسلامية ، فنرى الإنفانت فيليب حينما ثار على أخيه الملك ألفونسو العاشر ، يلتجىء مع جماعة من النبلاء إلى حماية السلطان أبى يوسف المنصور المرينى ملك المغرب ، ويستقرون ضيوفاً فى بلاط غرناطة ، حتى انتهى ملك قشتالة إلى مصالحتهم واسترضائهم (١٢٧٠ م) . وفى سنة ١٢٨٢ م اضطر ألفونسو العاشر نفسه حينما ثار عليه ولده سانشو وانتزع منه العرش ، إلى الاستعانة بالسلطان أبى يوسف ، وأرسل إليه تاجه مقابل ما ينفقه على معاونته ، فاستجاب إليه وأمده بالمال والجند . وفى سنة ١٣٣٢ م ثار حاكم

« الفرنتيرة » النصراني ضد مليكه ألفونسو الحادى عشر ، وتحالف مع سلطان غرناطة وعاون بذلك في رد النصارى عن جبل طارق ، وكانوا على وشك الاستيلاء عليه . ولما نشبت الثورة ضد ولده پيدرو القاسي (دون بطره) ونزع عن عرشه ، ونشبت بينه وبين خصومه موقعة مونتيل الفاصلة سنة ١٣٦٧ م ، كان إلى جانبه فرقة من الفرسان المسلمين ، أمده بها حليفه الغني بالله ملك غرناطة(١) . وهكذا كان التعاون السياسي والحربي يجرى بين الفريقين من آونة إلى أخرى ، حتى في تلك العصور التي مال فيها نجم الأندلس إلى الأفول ، ولم تكن تحول دون عقده عوامل القومية أو الدين ؛ وكانت العلائق التجارية أيام السلم تجرى بانتظام ، وتنظم بمعاهدات ودية بين الفريقين ، ومن ذلك معاهدة الصداقة والتحالف التي عقدها محمد بن يوسف ملك غرناطة مع مرتين ملك أراجون لتنظيم العلائق والمبادلات الحرة ، وتنظيم التحالف السياسي بين المملكتين (سنة ١٤٠٥ م)(٢) .

هذا ويجب ألا ننسى ، ماكان هنالك من علائق المودة والتفاهم بين جماعات الفرسان من الفريقين ، وقد كانت الفروسية الإسبانية في العصور الوسطى تقتبس كثيراً من تقاليد الفروسية الإسلامية وخلالها الرفيعة ، وتنظر إليها بعين التقدير والاحترام . وكانت مباريات الفروسية تجمع بين أنبل الفرسان من الجانبين ، وكثيراً ماكانت تعقد في العاصمة الإسلامية في جو من العطف والحماسة ، ويهرع إلى شهودها ألوف من المسلمين والنصارى ؛ وكانت هذه الاجتماعات المثالية البهجة التي تجمع بين العنصرين الخصيمين ، أبعد ما يكون عن الاعتبارات القومية والدينية ، وقد كانت غرناطة التي اشتهرت بفروستها النبيلة البارعة ، مسرحاً لكثير من هذه المباريات الشهيرة .

تلك هي الصورة المتباينة ، التي تقدمها إلينا معركة السلطان والقوة ، ومعركة الحياة والموت ، والحرية والاستعباد ، بين الأندلس واسبانيا النصرانية . ذلك أن بواعث الدين والقومية ، لم تكن دائماً كل شيء ، في هذا الصراع المضطرم الطويل الأمد . ومع ذلك فقد كانت النزعة الدينية أو الصليبية ، تبدو كلما لاح شبح الخطر الداهم على كيان أحد الفريقين ، أو كلما اتخذ النضال بين الفريقين صبغة حاسمة . ولما شعرت اسبانيا النصرانية أنها أضحت بعد الاستيلاء على القواعد

---

(١) سوف نعود إلى تفصيل هذه الحوادث في مواضعها بعد .

(٢) Dr. Lea: History of the Inquisition ; V. I. p. 52-55

الأندلسية الكبيرة ، وتضاؤل المملكة الإسلامية ، فى مركز التفوق والغلبة ، لم يكن ثمة ما يدعو لأن تتخذ حرب الإسترداد التى تلت بعد ذلك ، بين اسبانيا النصرانية وبين مملكة غرناطة ، ألوانا دينية أو قومية عميقة . ذلك أن معركة السلطان قد بت فيها نهائيا بظفر اسبانيا النصرانية، وأضحى القضاء على الأندلس مسألة وقت فقط . وكانت اسبانيا النصرانية كلما حاولت أن تتعجل تحقيق هذه الغاية القومية الخطيرة ، عاقتها المنازعات والثورات الداخلية ، أو ردها تدخل الدولة الإسلامية القوية فيما وراء البحر . على أنه ماكاد يبدو تفكك المملكة الإسلامية قويا واضحاً ، وماكادت حرب الإسترداد تدخل فى طورها الأخير ، حتى بدت النزعة القومية والدينية واضحة قوية ، فى جهود اسبانيا النصرانية للقضاء على مملكة غرناطة . ولما اتحدت اسبانيا النصرانية نهائيا ، وتم اندماجها فى مملكة موحدة بزواج فرناندو ملك أراجون وإيسابيلا ملكة قشتالة ، اتخذت حروب غرناطة الأخيرة لوناً صليبياً عميقاً ، يذكيها ويزيد فى ضرامها حماسة هذه الملكة الورعة المتعصبة ، ومن حولها الأحبار المتعصبون ، وأسبغ على فرناندو لقب « الكاثوليكى » وعلى إيسابيلا لقب « الكاثوليكية » ، وكان أول عمل قام به الجند القشتاليون حينما دخلوا غرناطة فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ ، أن رفعوا الصليب فوق أبراج الحمراء ، ورفعوا إلى جانب علم قشتالة علم القديس ياقب ، وأقام الرهبان القدّاس داخل قصر الحمراء ، ودفنت الملكة إيسابيلا وزوجها الملك فرناندو فى كتدرائية غرناطة التى أقيمت فوق أنقاض المسجد الجامع ، تنويهاً بظفرهما على الإسلام . وكانت سياسة اسبانيا النصرانية إزاء الأمة الأندلسية المغلوبة ، منذ إكراهها على التنصير فى عصر فرناندو حتى مأساة النفى النهائى فى عصر فيليب الثالث ، تقوم على بواعث دينية وصليبية محضة ، يصوغها ويمليها أحبار الكنيسة ، ويدعمها ديوان التحقيق بقضائه الكنسى المروع ووسائله الدموية ؛ وعلى الجملة فقد كانت جهود اسبانيا النصرانية فى القضاء على الأمة الأندلسية ، تمثل منذ بدايتها إلى نهايتها مأساة من أروع وأشنع مآسي التعصب الدينى والقومى التى عرفها التاريخ .

وتلك المأساة التى استطالت منذ قيام مملكة غرناطة زهاء مائتين وخمسين عاماً هى التى نستعرض حوادثها وظروفها فيما يلى من فصول هذا الكتاب .

الفصل الخامس

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى قيام مملكة غرناطة

انقسام اسبانيا النصرانية فى القرن الحادى عشر . تنافس الإمارات النصرانية . القضاء على مملكة ناڤار وعودها . اتحاد قطلونية وأراجون . الممالك النصرانية خلال القرن الثانى عشر . تنافسها وتنابذها. اجتماع كلمتها فى الصراع ضد المسلمين . قشتالة وأراجون . القيصر الفونسو ريمونديس . تحالف قشتالة وأراجون ضد ناڤار . اختفاؤها كمملكة مستقلة . فرناندو الثالث ملك قشتالة . اندماج مملكة ليون فى قشتالة . غزو فرناندو الثالث للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على أبدة وقرطبة ومرسية . غزوه لأراضى ابن الأحمر . استيلاؤه على إشبيلية . وفاته وتلقيبه بالمقدس . مملكة أراجون . ملكها خايمى . غزوه للجزائر الشرقية . استيلاؤه على ميورقة . حصاره لبلنسية وسقوطها . استيلاؤه على دانية . وفاته وتلقيبه بالفاتح.

— ١ —

لما انهارت الدولة الإسلامية الكبرى بالأندلس ، فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وانتثرت إلى عدة دول وإمارات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف ، كانت اسبانيا النصرانية تجوز حالة مماثلة من تعدد الإمارات والدول ، وإن لم تبلغ ما بلغته اسبانيا المسلمة من الإنقسام والتفرق . والحقيقة أن اسبانيا النصرانية كانت قد اتحدت فى أوائل القرن الحادى عشر تحت سلطان ملك قوى ، هو سانشو الثالث الملقب بسانشو الكبير (شانجُه) ملك ناڤار (نبرّة أو بلاد البشكنس) ، وكانت المملكة النصرانية تمتد يومئذ ، من جبال البرنيه شرقاً إلى شانت ياقب غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا إلى نهر دويرة جنوباً . فلما توفى سانشو فى سنة ١٠٣٥ م ، قسمت مملكته الكبيرة بين أولاده الأربعة ، فاختص ولده فرناندو بقشتالة وغرسية بناڤار ؛ وحكم راميرو رقعة ضيقة تمتد جنوباً بشرق باسم مملكة أراجون ، فكان هذا مولد هذه المملكة النصرانية التى نمت بسرعة ولعبت فيما بعد أعظم دور فى تاريخ النضال بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية . وحكم ولده الرابع كونثالو ولاية سوبرابى فى أواسط البرنيه . وأما مملكة ليون وجلّيقية فى الغرب فكان يحكمها صهره برمودو الثالث . وكانت تقوم ثمة فى الشرق على

شاطىء البحر إمارة قطلونية المستقلة ويحكمها آل برنجير[١] . وهكذا انقسمت المملكة النصرانية إلى عدة وحدات متنافسة . وكان من حسن طالع المسلمين أن يقع هذا الإنقسام ، فى الوقت الذى انهارت فيه الدولة الإسلامية الكبرى ، وتقاسمت أشلاءها دول الطوائف الضعيفة ، وبذا قام مدى حين نوع من التوازن بين القوتين المتداعيتين. على أنه بينما استمرت الأندلس فريسة الإضطراب والتفرق، إذا باسبانيا النصرانية تسير بخطوات متعاقبة فى سبيل الإتحاد والتوطد . ومع أن هذه الخطوات لم تكن دائما ثابتة الأثر ، فإنها كانت تعمل بمضى الزمن على توحيد قوى الممالك النصرانية لمواجهة العدو المشترك أعنى اسبانيا المسلمة . وكانت قشتالة تعمل باستمرار لضم مملكة ليون اليها ، وقد نجحت غير مرة فى تحقيق مشروعها بالعنف لمدى قصير . وكانت أراجون تتوق إلى ضم إمارة قطلونية التى كانت تحجبها عن البحر ، وكانت المملكتان تعملان معاً للقضاء على مملكة نافار الصغيرة ، وقد ائتمرتا بالفعل على اقتسامها بالعنف ، فاستولت قشتالة على القسم المحاذى لنهر إيبرو ، واستولت أراجون على القسم الواقع على جبال البرنيه ، وبذلك اختفت مملكة نافار مدى حين (١٠٧٦م) . ولكن هذه المملكة الصغيرة الباسلة عادت فاستردت استقلالها بعد ذلك بنحو ستين عاماً . وذلك أنه حينما توفى ألفونسو المحارب ملك أراجون وتولى الملك مكانه أخوه الراهب راميرو سنة ١١٣٤ م ، رفع النافاريون على العرش أميراً من سلالة ملوكهم القدماء هو غرسية راميرس ، وانفصلت نافار بذلك عن أراجون وقشتالة ، واستأنفت حياتها المستقلة حقبة أخرى. ولكن أراجون وقطلونية أتيح لهما أن يتحدا غير بعيد فى مملكة موحدة ، وذلك أن ريمون برنجير أمير قطلونية تزوج بترونلا ابنة راميرو ملك أراجون ، ولما توفى راميرو دون عقب تولى ريمون برنجير أيضاً ملك أراجون واتحدت المملكتان تحت تاج واحد ، وقامت مملكة أراجون الكبيرة من ذلك الحين (١١٣٧م)[٢]

كانت الممالك الإسبانية النصرانية خلال القرن الثانى عشر خمساً ، هى قشتالة

---

(١) سبق أن فصلنا تاريخ إمارة قطلونية وحكامها من آل برنجير ، فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » — القسم الأول — ص ٤٩٩ — ٥٠٢ .

(١) ذكرنا تفاصيل اتحاد قطلونية وأراجون فى « عصر المرابطين والموحدين » — القسم الأول ص ٤٩٨ و٥١٠ .

وليون وأراجون ونافار والبرتغال ، وكانت البرتغال قبل ذلك ولاية من ولايات جليقية أو إمارة تخضع لها ، ولم تفز باستقلالها إلا فى منتصف القرن الثانى عشر ، فى عهد أول ملوكها المستقلين ألفونسو هنريكيز[1] . وكانت هذه الممالك النصرانية الخمس دائمة الخلاف والتنافس ، هذا فضلا عما كان يعانيه كل منها من الثورات والحروب الداخلية حول وراثة العرش . بيد أن هذه الممالك المتنافسة ، كانت تجتمع دائماً تحت علم واحد هو علم النضال ضد اسبانيا المسلمة ، فنرى جيوشها تجتمع متحدة فى موقعة الزلاّقة للقاء الجيوش الإسلامية المتحدة(٤٧٩هـ —١٠٨٦م) . وبالرغم من أن جيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن ، لقيت بمفردها جيوش الموحدين بقيادة يعقوب المنصور فى موقعة الأرك الشهيرة (٥٩٣هـ — ١١٩٥م) ، وهى التى ظفر الموحدون فيها بالنصر الباهر ، فإنه لم تمض خمسة عشر عاما أخرى ، حتى عادت اسبانيا النصرانية تشعر كلها بشعور واحد ، هو شعور الخطر المشترك إزاء العدو المشترك . ومن ثم فإنه لما نشبت موقعة العقاب (٦٠٩هـ — ١٢١٢ م) وهى ثالثة المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا منذ الزلاقة ، اجتمعت جيوش الممالك الاسبانية النصرانية كلها — قشتالة وأراجون ونافار — فى قواتهم ، ومعهم أمداد كبيرة من ليون ومن البرتغال ، للقاء الجيوش الموحدية بقيادة محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وفيها أصيب المسلمون بهزيمة مروعة ، كانت بدء الإنحلال العام فى قوى الموحدين وقوى الأندلس . وهكذا كانت اسبانيا النصرانية تبدو إزاء اسبانيا المسلمة ، كلما جدّ الخطر ، موحدة الرأى والقوى . على أن الممالك النصرانية كانت تشعر فوق ذلك ، أن هذا التقسيم الجغرافى المتعدد يفت فى قواها ، ولا يلائم مصالحها القومية . وكانت قشتالة وجارتها الشرقية أراجون ، هما أقوى الممالك النصرانية وأكبرهما رقعة ، وكانت كلتاهما تطمح إلى التوسع وضم ما يليها من أراضى الممالك الصغرى ، فكانت أراجون تطمح بعد انضمام قطلونية إليها ، إلى انتزاع ولايات نافار المجاورة لها ، وكانت قشتالة تطمح إلى ضم قرينتها وجارتها القديمة ليون ، وإلى انتزاع ما بقى من ولايات نافار المجاورة لها ، وهى ولايات البشكنس؛ وكانت إمارة البرتغال

---

(٢) تحدثنا تفصيلا عن قيام مملكة البرتغال وملكها ألفونسو هنريكيز فى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الأول — ص ٥٢١ — ٥٢٨ . ويعرف الفونسو هنريكيز فى الرواية العربية ، بابن الرنق أو ابن الرنك تحريفاً لهنريكيز أو إنريكى الإسبانية .

الصغيرة الناشئة تدافع عن كيانها واستقلالها بصعوبة ، خلال هذه الأطماع المضطرمة ، وقد استطاع ملك قشتالة القوى ألفونسو ريموند يس (١١١٧ — ١١٥٧ م) الذى تلقب بالقيصر ، أن يبسط على اسبانيا النصرانية فى أواخر حكمه حماية عامة ، على أنه لم يحكم بالفعل سوى قشتالة وليون وجليّقية .

وفى أواخر القرن الثانى عشر ، عادت الحرب الأهلية تعصف بالممالك النصرانية ، وتضطرم بين نافار وبين قشتالة وأراجون . ونراها تضطرم عقب موقعة الأرك ، بين قشتالة وبين نافار وليون المتحالفين على قتالها . وكانت نافار المملكة الصغيرة الباسلة تدافع عن استقلالها إزاء أطماع جيرانها الأقوياء دفاعاً متواصلا ، ولاسيما فى عهد ملكها سانشو السابع آخر ملوكها الأقوياء ، وكان سانشو ينظر إلى تحالف جارتيه قشتالة وأراجون بعين الجزع ، ويستشعر منه الخطر الداهم على ملكه واستقلال أمته ، ولم يكتف بالتحالف مع ليون وهى المملكة الصغيرة الأخرى التى تخشى على استقلالها من أطماع قشتالة ، بل حاول أن يستمد عون سلطان خليفة الموحدين الظافر يعقوب المنصور ، وأن يعقد معه محالفة دفاعية ، وسار فى بطانته إلى إشبيلية يحاول لقاءه ، ولكن الخليفة المنصور كان قد توفى فى ذلك الحين. ولما عاد سانشو ألفى جاريه القويين پيدرو الأول ملك أراجون وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد انقضا فى غيابه على نافار يحاولان اقتسامها ؛ وبالرغم مما أبداه النافاريون من الدفاع الباسل فقد استطاع ألفونسو أن ينتزع ولايات بسكونية وأن يضمها إلى مملكته (سنة ١٢٠٠ م) ، واستطاع پيدرو أن ينتزع بعض الأراضى المجاورة لأراجون ، ولم يبق من مملكة نافار القديمة سوى جزئها الشمالى . ولم تمض فترة قصيرة أخرى حتى ذهب هذا الجزء إلى حوزة حكام فرنسا الجنوبيين بطريق المصاهرة والوراثة (١٢٣٤ م) . وبذلك اختفت هذه المملكة الصغيرة الباسلة من بين ممالك اسبانيا النصرانية .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اختفت مملكة ليون القديمة ، جارة قشتالة من الغرب . وذلك أنه لما توفى ألفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة فى سنة ١٢١٤م ، خلفه ولده الطفل هنرى ، وكانت كبرى بناته الأميرة برنجريا قد تزوجت بألفونسو التاسع ملك ليون ، ثم طلقت منه بعد أن رزقت بعدة أولاد أكبرهم فرناندو . وثار فى قشتالة مدى حين نزاع على وصاية الملك الطفل هنرى ، ثم توفى قبل أن يبلغ رشده قتيلا فى حادث. وكان ألفونسو النبيل قد قرر فى وصيته أنه إذا انقرض

عقبه من الذكور ، فإن العرش يؤول عندئذ إلى ابنته الكبرى برنجيريا ثم إلى أعقابها الشرعيين ، وهكذا قدر لفرناندو ولد برنجيريا من ألفونسو التاسع ملك ليون ، أن يرقى عرش قشتالة باسم فرناندو الثالث ، وهو الذى غدا فيما بعد من أعظم ملوك قشتالة . ولما توفى أبوه ألفونسو التاسع ملك ليون وجليقية فى سنة ١٢٣٠م ، خلفه أيضاً فى ملك ليون باعتباره وارث العرش الشرعى ، وبذلك اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد ، واختفت مملكة ليون وجليقية القديمة من عداد الممالك الإسبانية النصرانية ، وأضحت قشتالة بهذا الاتحاد أقوى الممالك الإسبانية ، وأوسعها رقعة وأغناها موارد ، واستطاع فرناندو الثالث بفضله أن يحرز التفوق على المسلمين ، وأن يفتتح قواعد الأندلس العظيمة قرطبة وجيان وإشبيلية ، وهى التى عجز عن افتتاحها جميع أسلافه من الملوك النصارى .

وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ثلاثا فقط ، هى قشتالة وأراجون والبرتغال ؛ وبينما قنعت البرتغال بالعمل على توطيد استقلالها وافتتاح الأراضى الإسلامية الواقعة فى جنوبها ، وهى التى تعرف بولاية الغرب ، إذا بقشتالة وأراجون تعملان معا للمضى فى تحقيق الغاية القومية والدينية الكبرى ، التى تعمل لها اسبانيا النصرانية منذ قرون ، وهى القضاء على الدولة الإسلامية بالأندلس واستخلاص تراث الوطن القديم .

— ٢ —

فى الوقت الذى انهارت فيه دولة الموحدين بالأندلس ، على أثر انهيارها فى المغرب ، وملك ابن هود مرسية وشرقى الأندلس ، وغلب ابن الأحمر على بعض القواعد الجنوبية والوسطى ، مثل وادى آش وبسطة وجيان ، وغلب بعض الزعماء على إشبيلية وقواعد ولاية الغرب ، وأخذ هؤلاء الزعماء المسلمون يتربص بعضهم ببعض ويحاول كل منهم أن ينتزع ما فى يد الآخر من القواعد والحصون ، شعرت مملكة قشتالة المتحدة القوية بأن الفرصة قد سنحت لتسديد ضربتها المميتة إلى الأندلس وبادر ملكها فرناندو الثالث بغزو الأراضى الإسلامية . وكانت معظم القواعد والحصون المتاخمة لقشتالة دون دفاع يذكر ، فافتتح عدداً من الحصون واستولى على مدينة أُبَّدة فى سنة ١٢٣٢م (٦٣١هـ) . وفى أوائل سنة ١٢٣٣ م سار فرناندو لغزو قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وكانت أثناء الحرب الأهلية قد انضوت تحت لواء ابن هود ونادت بطاعته ، وهاجم القشتاليون قصبتها الشرقية بشدة ، وضربوا

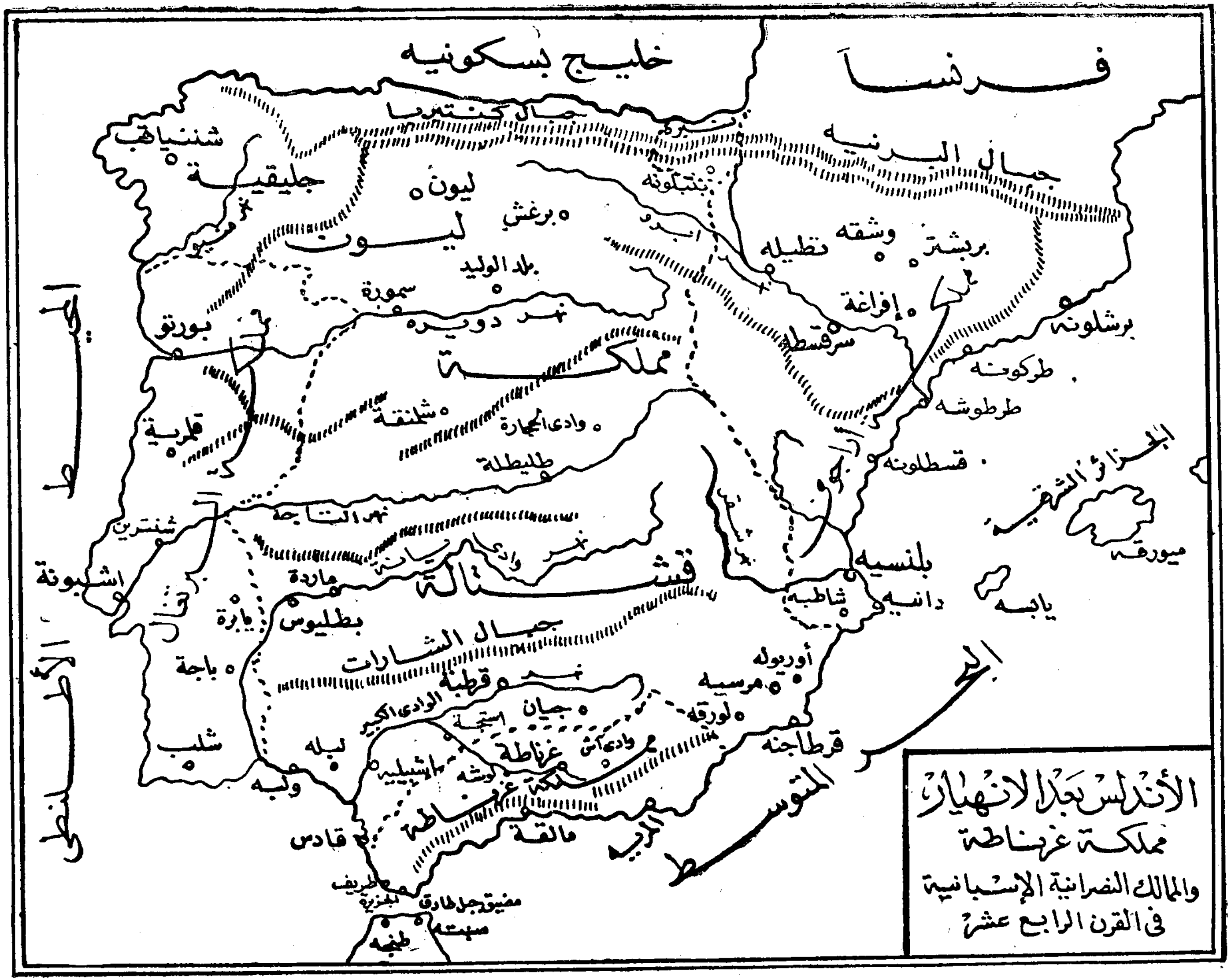

الأندلس بعد الانهيار
مملكة غرناطة
والممالك النصرانية الإسبانية
في القرن الرابع عشر

حولها الحصار ، وكان ابن هود يضع خططه يومئذ لغزو بلنسية وقد وصله عندئذ صريخ أميرها زيان حينما هاجمه خايمى ملك أراجون، فلم يشأ إنجاد المدينة المحصورة بالرغم من مسيره إليها ، خصوصاً وقد علم أن النصارى هاجموها بقوات كبيرة ، فترك قرطبة لمصيرها ، ودافع أهل قرطبة عن مدينتهم أعظم دفاع ، واشتبكوا مع النصارى خارج المدينة وفى داخلها فى عدة معارك دموية شديدة ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئاً ، وسقطت عاصمة الأندلس القديمة ، ودخلها القشتاليون فى ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م (٢٣ شوال سنة ٦٣٣هـ) ورفعوا الصليب فى الحال فوق مسجدها الجامع تنويها بظفر النصرانية ، وكان سقوط قرطبة نذيراً بما انتهت إليه الأندلس من بالغ الضعف والفوضى .

ولما اشتدت الحرب الأهلية بين المسلمين فى شرقى الأندلس ، بعث فرناندو الثالث ولده ألفونسو إلى مرسية ، واستولى عليها صلحا فى سنة ١٢٤٣ م (٦٤٠ هـ) . ثم التفت إلى إمارة غرناطة الناشئة التى أخذت تنمو ويشتد ساعدها فى ظل ابن الأحمر فانتزع منها حصن أرجونة وعدة حصون أخرى ، ووصلت قواته إلى أحواز غرناطة ، ثم أرسل جيشه لمحاصرة جيَّان فى العام التالى (سنة ١٢٤٥م) ، وشعر ابن الأحمر أنه عاجز عن صد هذا السيل الجارف ، فاضطر إلى عقد الصلح والانضواء تحت حماية ملك قشتالة حسبما فصلنا من قبل ، وبلغ فرناندو الثالث بذلك ذروة القوة والسلطان ، وأضحت الأندلس الجنوبية كلها تحت حمايته ورهن مشيئته .

وأخذ فرناندو فى الوقت نفسه يتأهب لافتتاح إشبيلية أعظم قواعد الأندلس . وفى سنة ١٢٤٧ م (٦٤٤ هـ) بث قواته فى أحواز إشبيلية فاستولت على معظم الحصون القريبة منها ، وسير فرناندو فى الوقت نفسه أسطولا فى مياه الوادى الكبير لكى يحول دون وصول الأمداد والمؤن إلى المدينة من ناحية البحر ؛ وكان يتولى الدفاع عن إشبيلية نفر من الزعماء البواسل . وأبدى المسلمون إصراراً وجلداً فى الدفاع عن مدينتهم ، ولكن النصارى أحكموا حصارها ، واستمر الحصار طول الشتاء ، ثم حشد فرناندو فى العام التالى حولها قوات جديدة ، وسارع إلى نجدته كثير من المتطوعة النصارى من أراجون والبرتغال ومنهم كثير من الأحبار والرهبان ، واضطر ابن الأحمر صاحب غرناطة إلى معاونة حليفه وحاميه فرناندو ببعض قواته ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل . وفى النهاية اضطرت الحاضرة

الإسلامية الكبيرة إلى التسليم ، ودخلها النصارى فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٢٤٨ م (أوائل رمضان سنة ٦٤٦هـ) ، وفى الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة جرياً على سنتهم ، وبذلك وقعت معظم القواعد الإسلامية الكبرى فى يد النصارى ، ولاح شبح الفناء للأندلس واضحا منذراً .

وتوفى فرناندو الثالث فى مايو سنة ١٢٥٢ م ، بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاما ، ودفن فى إشبيلية آخر فتوحه ، وقد غدت منذ افتتاحها عاصمة لقشتالة مكان طليطلة ؛ وقد أسبغت عليه فيما بعد صفة القداسة ، فسمى بسان فرناندو (القديس فرناندو) وذلك تنويها بما تم على يديه من ظفر عظيم للنصرانية .

* * *

وأما مملكة أراجون فقد تخلفت حينا عن قرينتها قشتالة فى مناهضة المسلمين ، وكان ملكها بيدرو الثانى ، الذى خلف أباه ألفونسو على العرش فى سنة ١١٩٦ م ، أميراً وافر الشجاعة والفروسة ، ولكنه شغل بتنظيم شئون مملكته الداخلية ومقاومة سلطان الأشراف ، ثم حج إلى رومة ليتلقى تاجه من يد البابا . ولما عاد إلى أراجون شغل حينا بمحاربة الألبيين وغيرهم من الملاحدة فى جنوب فرنسا ، وتوفى قتيلا فى إحدى المعارك (سنة ١٢٢٤ م) . فخلفه ولده خايمى (يعقوب) طفلا بالرغم من معارضة عميه سانشو وفرناندو ، وثارت من جراء ذلك فى أراجون حرب أهلية استمرت عدة أعوام ، ولكنها انتهت بفوز خايمى وحزبه على الثوار ، فعاد إلى الجلوس على العرش دون منازع وذلك فى سنة ١٢٢٧ م .

وما كاد خايمى[1] يستقر فى عرشه ، حتى اعتزم أن ينزل ميدان الحرب ضد المسلمين ، وأن يحاول الفوز بنصيبه من الأراضى الأندلسية ، فبدأ بغزو الجزائر الشرقية (جزائر البليار) القريبة من شواطىء أراجون ، وسير اليها فى سنة ١٢٢٩م (٦٢٦ هـ) حملة بحرية قوية . وكانت ميورقة وباقى الجزائر الشرقية يومئذ تابعة لإمارة بلنسية التى يسيطر عليها الأمير أبو جميل زيان بن مدافع بن مردنيش ، ويحكمها من قبله أبو يحيى بن يحيى أومحمد بن على بن موسى وفق رواية أخرى ، فنزل النصارى إلى الجزيرة ، ولكنهم لقوا داخلها مقاومة عنيفة ، ودافع المسلمون

---

(١) خايمى وبالإسبانية **Jaime** ، تكتب أحياناً فى الرواية العربية « چايمس » (ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٥٤٨ و٥٥٩ و٥٧٢ ، واللمحة البدرية ص ٨٣ و١٠٧) . ورأيناها فى كثير من الوثائق العربية المحفوظة بمحفوظات أراجون تكتب هكذا : دون جيمى ، دون جقمى، دون جاقمة .

عن جزيرتهم بمنتهى الشدة والبسالة ، ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى التسليم (صفر سنة ٦٢٧هـ) . ومع ذلك فقد استمرت المقاومة فى شُعَب الجزيرة بعد ذلك حينا ، واضطر خايمى أن يعود إليها مرتين حتى أتم إخضاعها فى سنة ١٢٣٣ م ؛ وسلمت منورقة وهى ثانية الجزائر للنصارى بعد ذلك ببضع سنين(١) .

وماكاد ملك أراجون يستولى على جزيرة ميورقة حتى وجه عنايته إلى فتح بلنسية ، وسار إلى غزوها فى جيش ضخم فى سنة ١٢٣٨م ، (رمضان سنة ٦٣٥هـ) واستطاع أن ينتزع الحصون الواقعة حولها تباعا . وكانت بلنسية قد سادها الاضطراب والفوضى من جراء الحرب الأهلية ، ومع ذلك فقد تأهبت بقيادة أميرها أبى جميل زيان لمقاومة النصارى ، وطوق النصارى المدينة من البر والبحر ، وبعث الأمير أبو جميل وزيره وكاتبه ابن الأبّار القضاعى إلى أمير إفريقية (تونس) أبى زكريا الحفصى يستغيث به ، وألقى ابن الأبار بين يديه قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وبادر الأمير أبو زكريا بإغاثة بلنسية : وبعث إليهم بعض الأمداد والمؤن فى عدة سفن ، ولكنها لم توفق إلى الاتصال بالمدينة المحصورة ؛ واستمر الحصار أشهراً واشتد الكرب بالمسلمين ، وضاعف النصارى هجماتهم حتى اضطرت المدينة المحصورة فى النهاية إلى التسليم بشرط أن يؤمّن أهلها فى النفس والمال ، وأن يغادرها من شاء منهم ؛ وكان سقوط بلنسية فى يد النصارى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٣٨ م (١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ) .

وعلى أثر سقوط بلنسية تابع خايمى غزواته لباقى الأراضى الإسلامية المجاورة لها ، واستولى على دانية ولقنت فى سنة ١٢٤٤ م (٦٤١ هـ) . ثم استولى على شاطبة وأوريولة فى سنة ١٢٤٦ م (آخر سنة ٦٤٤ هـ) . وقرر خايمى أن يجلى جميع السكان المسلمين عن الأراضى التى تم افتتاحها ، فهرعت منهم جموع غفيرة إلى مملكة غرناطة حتى ضاقت بسكانها ، وهاجر الكثير منهم إلى إفريقية ،

---

(١) تناولنا فتح الأرجونيين للجزائر الشرقية تفصيلا فى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٤٠٢ — ٤٠٩ .

وأخذت القواعد والثغور الإسلامية القديمة تتحول تباعا إلى مدن نصرانية ، وأخذت الكثرة المسلمة تتحول بسرعة إلى أقلية من المدجنين ، تعيش فى ظل الحكم الإسبانى فى ذلة وخضوع .

وعنى خايمى بعد ذلك بإصلاح الشئون الداخلية ، وتمت فى عهده عدة إصلاحات تشريعية خطيرة . ووضع مشروعا لتقسيم المملكة بعد وفاته بين أولاده الأربعة ، ولكنه لم يتحقق لوفاة أكبر أولاده ألفونسو ، ولما أثاره من اضطراب فى أنحاء المملكة . وتوفى خايمى بعد حكم طويل حافل فى سنة ١٢٧٤ م ، وقد أسبغت عليه فتوحاته فى الأراضى الإسلامية لقب « الفاتح » .

الفصل السادس

مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر

وعصر الجهاد المشترك بين بنى الأحمر وبنى مرين

ولاية محمد الفقيه . تربص النصارى بالأندلس . بنو مرين ومبدأ أمرهم . القتال بينهم وبين الموحدين . ولاية أبي يحيى المريني . ولاية أبي يوسف يعقوب . انهيار دولة الموحدين . استغاثة الأندلس ببنى مرين . استجابة السلطان أبي يوسف لصريخ الأندلس . إرساله حملة إلى الأندلس ثم عبوره إليها . موقف بنى أشقيلولة . غزو أبي يوسف لبسائط الفرنتيرة . موقعة إستجة وغزوات أبي يوسف . عوده إلى المغرب . توجس ابن الأحمر وعتابه لأبي يوسف . عبور أبي يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية . توغله فى أراضى النصارى . اللقاء بينه وبين ابن الأحمر . استيلاء ابن الأحمر على مالقة . تفاهمه مع ملك قشتالة . انتصار المغاربة فى البحر . زحفهم على مربلة . القتال بينهم وبين ابن الأحمر . توجس أبي يوسف من العواقب . عود التفاهم بينه وبين ابن الأحمر . أثر غرناطة وبنى مرين فى شئون قشتالة . ألفونسو العالم ملك قشتالة . ثورة ولده سانشو عليه . التجاؤه إلى السلطان أبي يوسف المنصور . عبور المنصور لنصرته وغزوه لأراضى قشتالة . تفاهم ابن الأحمر مع سانشو . عود التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور . توجس ابن الأحمر من المغاربة . عبور المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة . غزواته فى أرض النصارى . سانشو ملك قشتالة يذعن للصلح . خطة مشيخة الغزاة . وفاة المنصور وولاية ولده أبي يعقوب . خروج أبي الحسن بن أشقيلولة فى وادى آش . استرداد ابن الأحمر لوادى آش . إغارة ملك قشتالة على أراضى الأندلس . سير الجيوش المغربية إلى الأندلس . هزيمة المغاربة فى البحر . عبور السلطان أبي يعقوب إلى الأندلس . غزوه لأراضى النصارى . توجس ابن الأحمر من نيات أبي يعقوب وتفاهمه مع ملك قشتالة . انتزاع سانشو لطريف من المغاربة . نكثه لعهوده لابن الأحمر . سعيه للتفاهم مع أبي يعقوب وعبوره إلى المغرب . معاهدة تحالف بين غرناطة وأراجون . وفاة ابن الأحمر وخلاله . ولاية محمد الملقب بالمخلوع . غلبة وزيره ابن الحكيم عليه . اضطراب العلائق بين محمد والسلطان أبي يعقوب . استيلاء محمد على سبتة . مصرع أبي يعقوب . زحف عثمان بن أبي العلاء على المغرب . ولاية السلطان أبي ثابت لعرش المغرب . مسيره إلى الشمال ووفاته . ولاية السلطان أبي الربيع . هزيمة الأندلسيين ومقتل عثمان . الثورة فى غرناطة . اضطراب الأحوال فى عهد نصر . غزو القشتاليين لأرض الأندلس . مشروع فرناندو لغزو جبل طارق . حصار المرية وهزيمة النصارى . سقوط جبل طارق . الصلح بين ملك غرناطة وبنى مرين . مصانعة نصر لملك قشتالة . تعهده بأداء الجزية . الثورة فى غرناطة . هزيمة نصر وعزله .

لما توفى محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة، خلفه فى الملك ولده وولى عهده أبو عبدالله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه . وكان مولده بغرناطة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) . وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة النصرية ،

ووضع ألقاب خدمتها ، ونظم دواوينها وجبايتها ، وخلع عليها بذلك صفتها الملوكية الزاهية . وكان يتمتع بكثير من الخلال الحسنة، من قوة العزم ، وبعد الهمة وسعة الأفق ، والبراعة السياسية . وكان عالماً أديبا يقرض الشعر ، ويؤثر مجالس العلماء ، والأدباء[١]. ولأول عهده نشط ملك قشتالة ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أوالحكيم إلى محاربة المسلمين ، وكان مثل أبيه فرناندو الثالث ، يرى أن دولة الإسلام بالأندلس قد دنت نهايتها ، ويتربص الفرصة بالمملكة الإسلامية الفتية ، ويحاول أن يعمل كأبيه للقضاء عليها قبل استفحال أمرها . ولم يكن ملك غرناطة بغافل عن الخطر الذى يتهدده من مشاريع قشتالة . وكان محمد بن الأحمر قد أوصى ولده بالحرص على محالفة بنى مَرين ، ملوك العُدوة والاستنجاد بهم كلما لاح شبح الخطر الداهم[٢]. وكان بنو مَرين وهم الذين استولوا على ملك الموحدين بعد ذهاب دولتهم ، يومئذ فى عنفوان قوتهم ، وكانت مملكتهم الفتية ، تشغل فى نظر الأندلس ونظر اسبانيا النصرانية، نفس الفراغ الذى تركه ذهاب دولة المرابطين ثم دولة الموحدين ، وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه الدولة الجديدة فى ميدان السياسة والحرب نحو الجزيرة الإسبانية ، نفس الدور الذى أدته المملكتان المغربيتان الذاهبتان .

وبنو مَرين بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية الشهيرة ، التى ينتمى إليها عدة من القبائل التى لعبت أدواراً بارزة فى تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ومغيلة ومديونة وجراوة وعبد الواد وغيرهم . ومع ذلك فإن بنى مرين يرجعون نسبتهم إلى العرب المضرية ، وذلك بالانتساب إلى بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار . وجدهم الأعلى جرماط بن مرين بن ورتاجى بن ماخوخ[٣] . وكانت القبائل المرينية فى بداية أمرها من العشائر البدوية المتنقلة ، تجول فى صحارى المغرب الأوسط وهضابه وتسير نحو المغرب الأقصى أيام الصيف . وفى فاتحة القرن السابع الهجرى ، نشبت الحرب بينهم وبين بنى عبد الواد ، فتوغلوا فى هضاب المغرب ، ونزلوا بوادى ملوية الواقع بين المغرب والصحراء وأقاموا هنالك حينا . وكانت قوى الموحدين قد تضعضعت منذ موقعة العقاب (٦٠٩ هـ)[٤] ، وسرت إلى دولتهم عوامل

---

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٦٥ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٦٣ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٠ و١١ و١٦ .

(٤) الذخيرة السنية ص ٥٢ و٥٣ ؛ والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص٣و٥ .

التفكك والانحلال. ولما توفى ملكهم الناصر ، وهو المهزوم فى موقعة العقاب ، سنة ٦١٠ هـ ، ولى بعده ولده يوسف المستنصر ، وكان فتى حدثاً ضعيف الهمة والخلال ، فانكب على لهوه وساءت أمور المملكة وسرت إليها الفوضى . ففى تلك الآونة التى بدأ فيها ملك الموحدين يهتز فى يد القدر ، نفذ بنو مرين إلى المغرب ، وتوغلوا فى جنباته ، واشتبكوا مع الموحدين لأول مرة فى سنة ٦١٣ هـ ، إذ حاول الملك المستنصر أن يقضى عليهم ، فأرسل جيوشه لقتالهم ولكنها هزمت ، ووصل بنو مرين إلى أحواز فاس ؛ وكان أمير بنى مرين يومئذ أبو محمد عبد الحق بن خالد ابن محيو ، ولكنه قتل فى بعض المواقع فى سنة ٦١٤هـ ، فخلفه فى الإمارة ولده أبو سعيد عثمان ، واستمر يقود قومه فى ميدان النضال ضد الموحدين(١) .

وفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) سير الرشيد خليفة الموحدين جيشاً لقتال بنى مرين فهزم الموحدون هزيمة شديدة ، واستولى المرينيون على معسكرهم . وتوفى الرشيد فى العام التالى . فخلفه فى الملك أخوه أبو الحسن السعيد ، واعتزم أن يضاعف الجهد للقضاء على بنى مرين ، فسير لقتالهم فى سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤ م) جيشاً ضخماً ونشبت بين الموحدين وبين بنى مرين موقعة هائلة ، هزم فيها بنو مرين وقتل أميرهم أبو معرّف محمد بن عبد الحق ، وكانت ضربة شديدة هدت من عزائمهم مدى حين .

وتولى إمارة بنى مرين بعد مقتل أبى معرف ، أخوه أبو بكر بن عبد الحق الملقب بأبى يحيى . وفى عهد اشتد ساعد بنى مرين واستولوا على مكناسة (٦٤٣هـ) ثم زحفوا على فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد (٦٤٨هـ — ١٢٥٠م) . وكان سقوط فاس حاضرة المغرب القديمة ، أعظم ضربة أصابت دولة الموحدين ، وكان نذير الإنهيار النهائى . ثم استولوا على سجلماسة ودرعة (٦٥٥هـ) . ولما توفى أبو يحيى سنة ٦٥٦هـ ، تولى أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من بعده رياسة بنى مرين وجعل مدينة فاس حاضرة ملكه . وفى سنة ٦٥٧ هـ نشبت الحرب بين بنى مرين وبين الأمير يَغْمُراسن بن زيان ملك المغرب الأوسط وزعيم بنى عبد الواد ، فهزم يغمراسن وارتد إلى تلمسان . وفى العام التالى (٦٥٨هـ) هاجم النصارى (الإسبان) فى سفنهم ثغر سلا فجأة ، وقتلوا وسبوا كثيراً من أهله ، فبادر أبو يوسف بإنجاده ، وحاصر النصارى بضعة أسابيع حتى جلوا عنه .

ثم كانت الموقعة الحاسمة بين الموحدين وبنى مرين ، فى أواخر سنة ٦٦٧ هـ

---

(١) الذخيرة السنية ، ص ٩٣ و ٩٤ .

(١٢٦٩ م) سار الواثق بالله المعروف بأبى دبوس خليفة الموحدين من مراكش لقتال بنى مرين ، والتقى الجمعان فى وادى غفو بين فاس ومراكش ، فهزم الموحدون بعد معركة شديدة ، وقتل منهم عدد جم فى مقدمتهم الواثق ، واستولى أبو يوسف على معسكرهم ومؤنهم وخزائنهم ، ثم سار إلى مراكش فدخلها فى التاسع من المحرم سنة ٦٦٨ هـ ، وتسمى بأمير المسلمين ، وبذلك انتهت دولة الموحدين فى المغرب ، كما انتهت فى الأندلس ، بعد أن عاشت زهاء قرن وثلث قرن ، وقامت مكانها دولة بنى مرين تسيطر على أنحاء المغرب الأقصى كله ، وتستقبل عهداً جديداً من القوة والسلطان(١) .

إلى تلك الدولة الجديدة الفتية ، كانت تتجه أنظار الأندلس كلما لاح لها شبح الخطر الداهم . وقد شاء القدر أن تلعب دولة بنى مرين وريثة المرابطين والموحدين ، فى حوادث الأندلس الداخلية والخارجية أعظم دور . ولم تفت مؤسس مملكة غرناطة أهمية التحالف مع بنى مرين والاستنصار بهم ، فبعث قبيل وفاته بقليل حسبما رأينا إلى السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب إليه غوث الأندلس وإنجادها . وكان السلطان أبو يوسف حينما وصله صريخ ابن الأحمر فى سنة ٦٧٠ هـ يسير إلى غزو تلمسان ، فلما وقف من الرسل على حال الأندلس وما يهددها من الأخطار ، جمع أشياخ القبائل ، واتفق الجميع على وجوب إنجاد الأندلس والجهاد فى سبيل الله ، وأرسل السلطان إلى الأمير يَغْمُراسن صاحب تلمسان يعرض عليه عقد الصلح ، لكى يتمكن من العبور إلى الأندلس ، فأبى واقتتل الفريقان على مقربة من وَجْدة ، فى شهر رجب سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧٢م) فهزم يغمراسن وفرجريحا(٢) ، وعاد أبو يوسف مظفراً إلى المغرب ، وهو يعتزم استجابة دعوة الأندلس وإنجادها .

على أنه مضى أكثر من عامين ، قبل أن تسنح له الفرصة المرجوة . فلما تولى محمد الفقيه ، أرسل عقب ولايته بقليل وفداً من أكابر الأندلس إلى ملك

---

(١) راجع فى أصل بنى مرين ونشأتهم ، الذخيرة السنية ص ١٠ و١٦ و٩٤ و٩٩ و١٢٣ و١٢٤ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٣ و١٤ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٦٦ — ١٨٠ . هذا وقد عثرنا فى مكتبة مدريد الوطنية على قطعة صغيرة من مخطوطة عنوانها « ذكر الياقوتة الحلية فى الذرية السعيدية المرينية المباركة العبدالحقية » وهى فى أربعة عشرة صفحة تتناول نشأة بنى مرين وسيرتهم حتى بداية السلطان أبى يوسف ، ولا يخرج ما ورد فيها عما قدمنا خلاصته .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٤٨ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٦ .

المغرب يحمل إليه رسالة استغاثة مؤثرة ، فشرحوا له حال الأندلس من الضعف ونقص الأهبة ، وتكالب العدو القوى عليها ، واستصرخوه للغوث والجهاد ومما جاء فى رسالة ابن الأحمر إلى أبى يوسف بعد الديباجة :

مرين جنود الله أكبر عصبة فهم فى بنى أعصارهم كالمواسم
مشــــنفة أسماعهم لمــــدائح مسورة إيمــــانهم بالصوارم

« تطول علينا بمعلوم حدك ومشهود جدك ، قد جعلك الله رحمة تحيى عيشها بجيوشك السريعة ، وخلفك سُلَّما إلى الخير وذريعة ، فقد تطاول العدو النصرانى على الإسلام ، واهتضم جناحه كل الإهتضام ، وقد استخلص قواعدها ، ومزق بلدانها ، وقتل رجالها وسبى ذراريها ونساءها ، وغنم أموالها . وقد جاء بإبراقه وإرعاده ، وعدده وإيعاده ، وطلب منا أن نسلم له ما بقى بأيدينا من المنابر والصوامع والمحاريب والجوامع ، ليقيم بها الصلبان ، ويثبت بها الأقسة والرهبان . وقد وطأ الله لك ملكا عظيما شكرك الله على جهادك فى سبيله ، وقيامك بحقه ، وإجهادك فى نصر دينه وتكميله ، ولديك من نية الخير ، فابعث باعث بعثك إلى نصر مناره ، واقتباس نوره ، وعندك من جنود الله من يشترى الجنات بنفسه . فإن شئت الدنيا فالأندلس قطوفها دانية ، وجناتها عالية ، وإن أردت الآخرة بها جهاد لا يفتر ، وهذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واحتمال معروفكم ، ونحن نستعين بالله العظيم وبملائكته المسومين ، ثم بكم على الكافرين »(١) .

ثم تتابعت رسل ابن الأحمر وبنى أشقيلولة إلى السلطان أبى يوسف ، ينوهون بالخطر الداهم الذى يهدد الأندلس ، ويلتمسون إليه المبادرة بالإسعاف والإمداد ، فاستجاب السلطان أخيراً لدعوتهم ، وكتب إلى ابن الأحمر يطمئنه ، ويعرب عن عزمه على الجواز إلى الأندلس فى فاتحة سنة أربع وسبعين ، ومما جاء فى رسالته :

« وإنا لنرجو أن نصلكم بنفوس صلح جهرها وسرها ، ونسقى بماء الثلج واليقين غرها ، ونقدم عليكم بما يبسط نفوسكم ويسرها ، ويطلع لها الفرح من المكاره ويذهب عسرها ، فلتطب نفوسكم برحمة الله وعونه ، ولتفرحوا بفضل الله وصونه ، ونحن قادمون عليكم فى إثر هذا إنشاء الله ، ووعدنا بوفاء يعين الله على أعدائه »(٢) .

---

(١) راجع هذه الرسالة بأكملها فى الذخيرة السنية ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٢) راجع نص رسالة السلطان أبى يوسف بأكمله فى الذخيرة السنية ص ١٦٢ و١٦٣ .

وهكذا اعتزم السلطان أبو يوسف أن يؤدى رسالة المغرب التاريخية فى إنجاد الأندلس ونصرتها ،وكان بنومرين فى عنفوان دولتهم يجيشون بنزعة الجهاد الفتية . وخرج السلطان من فاس فى رمضان سنة ٦٧٣هـ برسم الجهاد فى الأندلس ، وأرسل للمرة الثانية إلى الأمير يَغْمُراسن صاحب تلمسان ، يعرض الصلح توحيداً للكلمة وتعضيداً للجهاد . فقبل يغمراسن وتم الصلح . وبادر السلطان فجهز ولده أبا زيان[1] فى خمسة آلاف مقاتل ، فعبر البحر من قصر المجاز (قصر مصمودة) إلى الأندلس ، ونزل بثغر طريف فى شهر ذى الحجة سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥ م) ، ونفذ إلى أرض النصارى حتى شَرِيش ، وعاث فيها وعاد مثقلا بالسبي والغنائم ، وقدَّم إليه ابن هشام وزير ابن الأحمر ثغر الجزيرة فنزل فيه ، وجاز ابن هشام إلى العدوة فلقى السلطان أبا يوسف فى معسكره على مقربة من طنجة . وكان السلطان قد استكمل أهبته ، فعبر من قصر المجاز إلى الأندلس فى صفر سنة ٦٧٤هـ (يوليه ١٢٧٥ م) ، فى جيش كثيف من البربر ، داعيا إلى الجهاد على سنة أسلافه المرابطين والموحدين . وكان أبو يوسف قد اشترط على ابن الأحمر حينما استنجد به ، أن ينزل له عن بعض الثغور والقواعد الساحلية ، لتنزل بها جنوده فى الذهاب والإياب . فنزل له عن رندة وطريف والجزيرة ، ونزل أبو يوسف بجيشه فى طريف ، وهرع ابن الأحمر وبنو أشقيلولة إلى لقائه ، واهتزت الأندلس كلها لعبور ملك المغرب . ولكن ابن الأحمر ما لبث أن غادره مغضبا لما رأى من تدخله فى شئون الأندلس بصورة مريبة . ذلك أن بنى أشقيلولة أصهار بنى الأحمر ، وفى مقدمتهم محمد بن أشقيلولة زعيم الأسرة وزوج أخت محمد بن الأحمر ، وأخوه أبو الحسن زوج ابنته ، كانوا يجيشون نحو عرش غرناطة بأطماع خفية . وكان أبو محمد ممتنعاً بمالقة مغاضبا لملك غرناطة حسبما قدمنا . فلما عبر أبو يوسف إلى الأندلس ، سار إليه وانضوى تحت لوائه ، ولم يفلح أبو يوسف فى التوفيق بين ابن الأحمر وبين أصهاره ، وخشى ابن الأحمر عاقبة هذا التحالف بين أصهاره وبين أبى يوسف ، فارتد إلى غرناطة حذرا متوجسا .

ونفذ السلطان أبو يوسف بجيشه إلى بسائط الفرنتيرة[2] وكانت فى يد النصارى

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٦٤ ، ولكن ابن خلدون يقول إن السلطان بعث الجند مع ولده منديل (ج ٧ ص ١١٩) ومنديل حفيد السلطان أبى يوسف .

(٢) الفرنتيره **La Frontera** هى السهل الواقع فى غربى مثلث إسبانيا الجنوبى (الجزيرة) ويمتد من قادس جنوباً حتى طرف الغار .

وعاث فيها . ثم توغل غازيا ينتسف الضياع والمروج ويسبي السكان ، حتى وصل إلى حصن المقورة وأبدة على مقربة من شرقي قرطبة . وعندئذ عول القشتاليون على لقائه دفاعا عن أراضيهم . وخرج القشتاليون في جيش ضخم ، تقدره الرواية الإسلامية بنحو تسعين ألف مقاتل (١) ، وعلى رأسهم قائدهم الأشهر صهر ملك قشتالة الدون نونيو دى‌لارا ، الذى تسميه الرواية الإسلامية « دونونه أودننه أوذنونه » . وكان أبو يوسف قد ارتد عندئذ بجيشه إلى ظاهر إستجة ، ومعه حشد عظيم من الغنائم والأسرى ، فأغلقت المدينة أبوابها ، واستعدت للقتال ، ووضع أبو يوسف الغنائم فى ناحية تحت إمرة حرس خاص حتى لا تعيق حركاته ، وعقد لولده أبى يعقوب على مقدمته ، وخطب جنده وحثهم على الجهاد والموت فى سبيل الله . ثم تقدم لملاقاة النصارى ، ومعه بعض قوات الأندلس برياسة بنى أشقيلولة . ووقع اللقاء بين المسلمين والنصارى ، على مقربة من إستجة جنوب غربى قرطبة ، فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ (٩ سبتمبر ١٢٧٥ م) ، فنشبت بين الفريقين معركة سريعة هائلة ، هزم النصارى على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل قائدهم الدون نونيو دى لارا وعدة كبيرة منهم (٢) . وكان نصراً عظيما أعاد إلى الأذهان ، ذكريات موقعة الزلاّقة وموقعة الأرك ، وكان أول نصر باهر يحرزه المسلمون على النصارى ، منذ موقعة العقاب ، ومنذ انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس ، وسقوط قواعدها العظيمة . وتبالغ الرواية الإسلامية فى تقدير خسائر النصارى ، فتقول إنه قتل منهم فى الموقعة ثمانية عشر ألفاً ، جمعت رؤوسهم وأذّن عليها المؤذن لصلاة العصر ، هذا فى حين أنه وفقاً لقولها أيضاً ، لم يقتل من المسلمين سوى أربعة وعشرين رجلا (٣) .

وبعث السلطان أبو يوسف برأس دون نونيو إلى ابن الأحمر ، فقيل إنه بعثها بدوره إلى ملك قشتالة مضمخة بالطيب ، مصانعة له وتوددا إليه . وكتب أبو يوسف إلى العُدوة رسالة يشرح فيها حوادث الموقعة ، وما انتهت إليه من نصر باهر ، فقرئت على المنابر ، وكتب رسالة مماثلة إلى ابن الأحمر ، فرد عليه بالشكر والدعاء . ورفع

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٦٩ و ١٧٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ ؛ واللمحة البدرية ص ٤٤ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٥٧٣ ؛ والذخيرة السنية ص ١٧٠ — ١٧٢ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٧٣ .

ابن أشقيلولة إلى أمير المسلمين أبى يوسف ، قصيدة يهنئه فيها بالنصر جاء فيها :

هبت بنصركم الرياح الأربع وسرت بسعدكم النجوم الطلع
وأتت لنصركم الملائك سيفا حتى أضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنـا أن الأمور إلى مرادك ترجع
وأمدك الرحمن بالفتح الذى ملأ البسيطة نوره المتشعشع

ولبثت أبو يوسف بالجزيرة الخضراء بضعة أسبيع ، قسمت فيها الغنائم واستراحت الجند . ثم خرج للمرة الثانية فى جمادى الأولى سنة ٦٧٤ هـ ، وتوغل غازيا فى أراضى قشتالة حتى وصل إلى أحواز إشبيلية ؛ فأغلقت المدينة أبوابها . وعاث أبو يوسف فى تلك الأنحاء ، ثم سار إلى شَرِيش فضرب حولها الحصار ، فخرج إليه زعماء المدينة ورهبانها وطلبوا إليه الأمان والصلح ، فأجابهم إلى طلبهم وعاد إلى قواعده مثقلا بالغنائم والسبى . وقضى بضعة أسابيع أخرى بالجزيرة الخضراء ، ثم عبر البحر إلى المغرب فى أواخر شهر رجب ٦٧٤ هـ ، بعد أن قضى بالأندلس زهاء خمسة أشهر .

على أن هذا النصر الباهر ، الذى أحرزه السلطان أبو يوسف المرينى على النصارى ، لم يحدث أثره المنشود فى بلاط الأندلس . ذلك أن محمد بن الأحمر ، جنح إلى الارتياب فى نيات ملك المغرب ، وخصوصاً مذ أسبغ السلطان حمايته على بنى أشقيلولة ، وغيرهم من الخوارج على ملك غرناطة ، ومثلت بذهنه مأساة الطوائف وغدر المرابطين بهم (١) . وبعث ابن الأحمر إلى السلطان قبيل مغادرته الجزيرة ، يعاتبه على تصرفه فى حقه بقصائد مؤثرة يستعطفه فيها ويستنصره ، والسلطان يجيبه عنها بقصائد مثلها . ومن ذلك قصيدة من نظم أبى عمران بن المرابط كاتب ابن الأحمر هذا مطلعها :

هل من معينى فى الهوى أو منجدى من متهم فى الأرض أو من منجد
هذا الهوى داع فهل من مسعف بإجابة وإنابة أو مسـعد

ومنها فى الاستغاثة :

أفلا تذوب قلوبكم إخواننـا مما دهانا من ردًى أو من ردى
أفلا تراعون الأذمة بيننـا من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم فى إخوانكم وسيوفكم للثـار لم تتقلد

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٨ و ٣٦٧ .

يا حسرتى لحمية الإســـلام قد خمدت وكانت من قبل ذا تتوقد
أبنى مرين أنتم جيرانـنـا وأحق من فى صرخة بهم ابتدى
أبنى مرين والقبائل كلهـــا فى المغرب الأدنى لنا والأبعد
كتب الجهاد عليكم فتبادروا منه إلى القرض الأحق الأوكد
أنتم جيوش الله ملء فضـــائه تأسون للدين الغريب المفرد(١)

وفى أوائل سنة ٦٧٦ هـ توفى أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة ، فعبر ولده محمد إلى المغرب ونزل عنها للسلطان ، فبعث إليها السلطان حاكما من قبله ، فزاد ذلك فى توجس ابن الأحمر ، وأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الدانى فى بعض قواته إلى مالقة ، ليحاول الاستيلاء عليها ، فلم يوفق . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى عبر السلطان أبو يوسف المنصور البحر إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ، ونزل بمالقة فاحتفل به أهلها ، ثم توغل بجيشه فى أرض النصارى يعيث فيها ، ومعه بنو أشقيلولة فى جندهم ، حتى أحواز إشبيلية . واجتنب القشتاليون لقاءه . ثم دعا ابن الأحمر إلى لقائه ، فوافاه عند قرطبة والريب يملأ نفسه ، وتبادل الملكان عبارات العتاب والتعاطف ، ولكن ابن الأحمر لم تطمئن نفسه ، وعاد السلطان إلى المغرب دون أن تصفو القلوب .

وزاد توجس ابن الأحمر لحوادث مالقة وانحيازها إلى السلطان ، وجال بخاطره أن التفاهم مع ملك قشتالة خير وأبقى . وفى أواخر سنة ٦٧٧ هـ استطاع ابن الأحمر أن يستولى أخيراً على مالقة ، وذلك بإغراء صاحبها بالنزول عنها ، والاستعاضة بالمنكّب وشلوبانية(٢). ثم سعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة والتحالف معه ، على منع السلطان المنصور من العبور إلى الأندلس . ونزلت القوات القشتالية بالفعل فى الجزيرة . وكاتب ابن الأحمر أيضاً الأمير يَغْمُراسن ملك المغرب الأوسط ، وخصم السلطان المنصور ، يسأله العون والتحالف. وعلم المنصور بذلك فأراد العبور توا إلى

---

(١) نقل إلينا ابن خلدون هذه القصيدة بأكلها (ج ٧ ص ١٩٨ — ٢٠٠) وفيها كثير من المعانى التى وردت فى مرثية أبى البقاء الرندى ، كما أشار إلى ردود السلطان أبى يوسف إشارة عابرة (ص ٢٠٠) .

(٢) المنكب ، وبالإسبانية **Almunecar** ، وشلوبانية وبالإسبانية **Salobrena** ، ثغران صغيران من ثغور مملكة غرناطة القديمة ، يقع كلاهما جنوبى غرناطة على البحر الأبيض المتوسط وتفصلهما عن بعضهما مسافة صغيرة .

الأندلس ، ولكن عاقته حوادث المغرب حينا . وفى أوائل سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) بعث ولده الأمير أبا يعقوب إلى الأندلس فى أسطول ضخم ، ونشبت بينه وبين أسطول النصارى المرابط شرقى المضيق معركة هائلة ، هزم النصارى على أثرها واستولى المسلمون على سفنهم ، ونزلوا بالجزيرة ، فغادرها النصارى فى الحال .

وأراد الأمير أبو يعقوب أن يتبع نصره ، بعقد الصلح مع ملك قشتالة والتحالف معه على قتال ابن الأحمر ومهاجمة غرناطة ، فأنكر عليه أبوه السلطان ذلك ، ثم زحف جند المغرب على ثغر مربلّة ، وهو من أملاك ابن الأحمر تريد الاستيلاء عليه ، فامتنع عليهم . وانتهز القشتاليون تلك الفرصة ، فزحفوا على غرناطة ومعهم بنو أشقيلولة ، فلقيهم ابن الأحمر وردهم على أعقابهم (٦٧٩هـ) . بيد أنه بالرغم من هذا النصر المؤقت أخذ يشعر بدقة موقفه ، وخطورة القوى التى يواجهها ، سواء من جانب القشتاليين ، أو من جانب الجيوش المغربية ، التى استدعيت فى الأصل لتكون له سنداً وغوثاً ، فانقلبت إلى مناوأته وقتاله . ومن جهة أخرى فقد كان السلطان المنصور يخشى عاقبة هذا التصرف على مصير المسلمين ؛ وعلى ذلك فقد بعث إلى ابن الأحمر فى وجوب عقد المودة والتفاهم ، فلقى لديه مثل رغبته ، وبادر السلطان إلى عقد أواصر الصلح والتحالف بين المسلمين ، على أن ينزل ابن الأحمر عن مالقة للسلطان المنصور ، لتكون له قاعدة للعبور والغزو . وصفا جو العلائق على أثر ذلك بين ابن الأحمر وبنى مرين ، وشغل السلطان المنصور حينا بمحاربة الخوارج عليه .

* * *

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى عادت شئون الأندلس تستغرق اهتمام المنصور ؛ وكانت شئون الأندلس قد غدت فى الواقع عنصراً بارزا فى سياسة بنى مرين ، وكانت مملكة غرناطة حتى فى ذلك الوقت الذى انكمشت فيه الدولة الإسلامية فى الأندلس ، تلعب دورها فى شئون اسبانيا النصرانية كلما اضطربت فيها الحوادث . ولما سطع نجم الدولة المرينية فيما وراء البحر ، اتجه إليها اهتمام النصارى ، وكانت كلما وقعت فى قشتالة حرب أهلية ، لجأ هذا الفريق أوذاك إلى مؤازرة غرناطة أو بنى مرين ، على غرار ما كان يحدث فى الماضى . ومن ذلك ماحدث فى سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠ م) من خروج الإنفانت فيليب على أخيه ألفونسو العاشر مع جماعة من النبلاء ، والتجائهم إلى السلطان المنصور فى طلب العون واستجابته

لدعوتهم ، واتخاذهم غرناطة قاعدة لجهودهم. وكادت تنشب من جراء ذلك حرب بين المسلمين والنصارى ، لولا تدخل ڤيولا ملكة قشتالة ، واسترضائها للخوارج بمختلف المنح . ولابد لنا أن نذكر هنا أن ألفونسو العاشر ملك قشتالة هذا ، هو ألفونسو العالم أوالحكيم El Sabio ، وكانت له صلات وثيقة بعلماء الأندلس ، ومنهم تلقى الكثير وتأثر بمناهجهم فى التفكير والدرس . وقد وضع ألفونسو جداوله الفلكية الشهيرة المسماة بالجداول « الألفونسية » ،على يد جماعة من العلماء المسلمين واليهود

الملك ألفونسو العالم

والنصارى ، كما وضع تاريخاً عنوانه Crónica Gene al de España «تاريخ اسبانيا العام » وقد اعتمد فيه على مصادر عربية كثيرة. ومع أنه لا يخلو من كثير من الأساطير والروايات المغرقة ، فإنه يعتبر من أهم مصادر التاريخ الإسبانى فى العصور الوسطى. وكان ألفونسو العاشر يحب جيرانه المسلمين ، ويقدر علمهم ورفيع ثقافتهم ، وكان هذا من أسباب السخط عليه فى مملكته . وكان من جراء اشتغاله بالعلوم والآداب ، فى عصر لا تنهض الممالك فيه إلا بالحرب والسياسة ، أن اضطربت شئون المملكة .

وفى سنة ١٢٨٢م (أوائل ٦٨١ هـ) ثار عليه ولده سانشو وآزره معظم النبلاء ، واستطاع أن ينتزع العرش لنفسه . فاتجه أبوه الملك المخلوع إلى السلطان أبى يوسف المنصور ، وأرسل إليه بالمغرب وفدا من الأحبار يستمد منه الغوث والعون ضد ولده . فاستجاب السلطان لصريخه ، وعبر البحر فى قواته إلى الأندلس فى ربيع الثانى سنة ٦٨١هـ ، وهرع ألفونسو إلى لقائه بمحلته بالجزيرة على مقربة من رندة ، مستجيراً به ، ملتمساً لنصرته ، وقدم إليه تاجه رهنا لمعونته . فأمده السلطان بمائة ألف من الذهب ، ليستعين بها على حشد الجند . قال ابن خلدون ، وقد رأى هذا التاج ببلاط بنى مرين أيام أن كان فى خدمتهم : « وبقى بيدهم فخراً للأعقاب لهذا العهد »[1]. وغزا أبو يوسف أراضى قشتالة وحاصر قرطبة ، ثم زحف على طليطلة ، وعاث فى نواحيها ، ووصل فى زحفه إلى حصن مجريط[2] . وتحاشى ابن الأحمر فى البداية لقاء السلطان لفتور العلائق بينهما ، ولتوجسه من محالفته لألفونسو ، ورأى من جانبه أن يتفاهم مع سانشو ملك قشتالة الجديد ، وزحف على المنكّب وهى من الثغور التى تحتلها قوات المغرب ، فغضب السلطان وارتد لقتاله . وكادت تنشب بين الملكين المسلمين فتنة مستطيرة ، لولا أن خشى ابن الأحمر العاقبة ، وعاد إلى التفاهم مع المنصور ، وصفا الجو بينهما نوعا . وعاث المنصور فى أراضى قشتالة مرة أخرى ، وغص جيشه بالسبى والغنائم ، ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولى على الجزيرة حاكما من قبله .

واستمرت الحرب الأهلية أثناء ذلك فى قشتالة بين الإبن والأب ، ولبث هذا النضال الدموى زهاء عامين ، حتى توفى ألفونسو العاشر طريداً مهزوما فى سنة ١٢٨٤ م (٦٨٣ هـ) ، فكان لوفاته وقع عميق فى غرناطة والمغرب ، وأرسل كل من الملكين المسلمين عزاءه فى الملك العالم المنكود إلى بلاط قشتالة . وكان موقف المملكتين الإسلاميتين غريباً إزاء حوادث قشتالة ، إذ كان ملك المغرب يؤازر الملك المخلوع ، وكان ملك غرناطة بالرغم من عطفه على ألفونسو العاشر ، يؤازر ولده الخارج عليه . والحقيقة أن ابن الأحمر كان يشهد تقاطر الجيوش البربرية إلى

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٠٥ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٥٧٢ ؛ واللمحة البدرية ص٤٣ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦١ .

(٢) كانت محلة مجريط الإسلامية الحصينة تشغل موقعاً يقع بجوار موقع العاصمة الإسبانية الحديثة مدريد .

الجزيرة الخضراء بعين الجزع ، ويتوجس شراً من وجودهم بها ، وقد كانوا يحتلون معاقلها وثغورها ، ويظاهرون الخوارج عليه فى مالقة والمنكب وغيرهما من القواعد الجنوبية ، وكان يتوقع أسوأ العواقب من تدخل ملك المغرب فى شئون الأندلس على هذا النحو ، وكان مثل المرابطين ومأساة الطوائف عبرة خالدة . تساوره دائماً ، وتذكى جزعه . على أن موت ألفونسو العاشر ، وانتهاء الحرب الأهلية فى قشتالة ، خفف من هذا التوتر بين المملكتين . وكان ابن الأحمر يذكر فى الوقت نفسه ، غدر ملك قشتالة ، وخطر النصارى على مملكته ، فيجنح بعد التأمل إلى إيثار التفاهم مع ملك المسلمين .

وفى صفر سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) عبر السلطان المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة ، وزحف على أراضى النصارى ، وغزا مدينة شَريش ؛ وسار ولده أبو يعقوب إلى أحواز إشبيلية فعاث فيها . ثم زحف المنصور على قرمونة والوادى الكبير ، وخرب جنده بسائط إشبيلية ولبلة وإستجة والفرنتيره . وسر ابن الأحمر لاجتياح أراضى قشتالة على هذا النحو ، وبعث الى السلطان مددا من غرناطة ، وجاءت الأساطيل المغربية ، فطاردت أساطيل العدو فى مياه المضيق واحتلته . ورأى سانشو ملك قشتالة تفاقم الأمر وعقم المقاومة ، فجنح إلى طلب السلم ، وبعث إلى السلطان وفداً من الأحبار يطلب الصلح ، ويفوض السلطان فى اشتراط ما يراه ، فاستجاب السلطان لرغبتهم ، واشترط عليهم مسالمة المسلمين كافة ، وأن يمتنع النصارى عن كل اعتداء على الأندلس ، وعلى أراضى المسلمين ومرافقهم ، وأن ترفع الضريبة عن التجار المسلمين بدار الحرب (بلاد الأعداء) ، وأن تنبذ قشتالة سياسة الدس بين الأمراء المسلمين ، فقبل النصارى جميع الشروط المطلوبة ، وتعهدوا بتنفيذها . وقدم سانشو بنفسه إلى معسكر السلطان ، فاستقبله المنصور بحفاوة ، وقدم إليه طائفة من الهدايا ، وتعهد سانشو بتحقيق شروط الصلح كاملة . وسأله السلطان أن يرسل إليه قدراً من الكتب العربية ، التى استولى عليها النصارى من القواعد الأندلسية ، فأرسل إليه « ثلاثة عشر حملا » منها ، وأرسلها السلطان إلى فاس ، فكانت نواة المكتبة السلطانية . واتخذ المنصور أهباته الأخيرة نحو شئون الأندلس ، وندب ابنه الأمير أبا زيان للنظر على الثغور الأندلسية ، وأوصاه بألا يتدخل فى شئون ابن الأحمر . وكان من آثار التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور ، أن أفسح ابن الأحمر لقرابة السلطان من بنى مرين النازحين إلى الأندلس مجال

السلطان والنفوذ فى بلاطه . وكان عدة من هؤلاء من خاصة الفرسان ومشاهير الغزاة ، فأسند ابن الأحمر إليهم رياسة الجند فى منصب عرف فى الخطط الغرناطية « بمشيخة الغزاة » ، ويحتله بالأخص رئيس من بنى العلاء المرينيين يسمى « شيخ الغزاة » ، وتولى بنو العلاء قيادة الجيوش الأندلسية عصراً ، وكانت لهم فى ميدان الحرب والجهاد مواقف مشكورة[١] .

ولابد لنا أن نذكر كلمة عن أصل مشيخة الغزاة هذه ، التى لبثت عصراً أهم المناصب العسكرية فى مملكة غرناطة ، ولبثت فى الوقت نفسه دهراً وقفاً على القادة من بنى مرين . وذلك أنه لما اتجه بنو الأحمر إلى الاستنجاد بإخوانهم فيما وراء البحر ، ملوك بنى مرين ، جريا على سنة الأندلس القديمة منذ عهد المرابطين ، استجاب لندائهم عاهل بنى مرين السلطان أبو يوسف بن عبد الحق ، وعبرت إلى الأندلس النجدات المرينية الأولى بقيادة أبى معرف محمد بن إدريس بن عبد الحق وأخيه عامر ، وهما من خاصة قرابة السلطان ، وانتزعت مدينة شريش من النصارى ، وذلك حسبما تقدم ذكره . وكان السلطان أبو يوسف يخشى من انتقاض فريق من القرابة وأبناء العمومة ، تجديداً للخصومة القديمة بين فرعى بنى مرين الملكيين ، وهما بنو عسكر وبنو حمامة ، فلم يجد خيراً من إرسال من يخشى بأسهم من هؤلاء إلى الأندلس باسم الجهاد ، وكان ابن الأحمر يستقبلهم بترحاب ومودة ، فاجتمع لديه عدة من أولاد بنى عبد الحق ؛ وكان ابن الأحمر يعقد لهم على قيادة الغزاة المجاهدين من زناتة ، وبنى مرين . وكان أول من عقد له القيادة منهم ، موسى ابن رحّو ، ثم عقد لأخيه عبد الحق ، ثم لغيرهما من القرابة[٢] وكان أول من استعملهم لقيادة الغزاة على هذا النحو السلطان محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه .

ثم توالى عبور هؤلاء القادة إلى الأندلس . وكان معظمهم من قرابة السلطان والخارجين عليه . وكان فى مقدمة من نزح إلى شبه الجزيرة ، أبو العلاء ورحّو ابنا عبدالحق ، وأولاد أبى يحيى بن عبدالحق وأولاد عثمان بن عبد الحق . واستقروا ، جميعاً بالأندلس فى كنف سلطان غرناطة ، وكانوا يرجعون فى رياستهم إلى كبيرهم عبد الله بن أبى العلاء . وعقد له ابن الأحمر محمد الفقيه على جند زناتة إلى أن هلك فى إحدى الغزوات ضد النصارى وذلك فى سنة ٦٩٣هـ ؛ ثم عقد ابن الأحمر ،

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٣٩ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٦٧ و ٣٦٨ .

السلطان أبو عبد الله المخلوع ، القيادة لأخيه عثمان بن أبى العلاء على حامية مالقة وغربيها ، وكانت لنظر الرئيس أبى سعيد فرج بن إسماعيل . فلبث فى منصبه إلى أن وقع الخلاف بين سلطان غرناطة وسلطان المغرب أبى يوسف المرينى ، وقام عثمان بن أبى العلاء فى ذلك بدور كبير ، سوف نأتى على تفاصيله فى موضعه (١) .

وقفل السلطان المنصور راجعاً إلى الجزيرة ليستجم ثم يعود إلى المغرب ، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى أدركه المرض ، وتوفى بالجزيرة فى المحرم سنة ٦٨٥ هـ (مارس سنة ١٢٨٥م) ، بعد حياة حافلة بصنوف الجهاد المستمر ، سواء بالمغرب أو الأندلس .

وكان السلطان أبو يوسف المنصور من أعظم ملوك المغرب قاطبة ، وكان يعيد بشغفه بالجهاد ، ووفرة جيوشه وأهبته الحربية ، ذكرى أسلافه العظام ، من أمثال يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن ، ويعقوب المنصور . وقد وصفه مؤرخ معاصر فيما يلى : « أبيض اللون ، تام القد ، معتدل الجسم ، حسن الوجه ، واسع المنكبين ، كامل اللحية ، معتدلها ، أشيب ، كأن لحيته من بياضها قطعة ثلج ، سمح الوجه ، كريم اللقاء ، شديد الصفح ، كثير العفو ، حليما ، متواضعا شفيعاً كريماً ، سمحاً ، جواداً ، مظفراً ، منصور الراية » (٢) .

* * *

فخلفه على عرش المغرب ولده الأمير أبو يعقوب ، وكان مثل أبيه معنياً بشئون الأندلس خبيراً بها . واستمرت علائق بلاط غرناطة وبنى مرين أعواماً أخرى على حالها من المودة والصفاء ، وزادت توطداً حينما قبل سلطان المغرب ، أن ينزل لابن الأحمر طوعاً عن وادى آش . وذلك أن محمداً الفقيه كان قد عين صهره أبا إسحاق ابن أبى الحسن بن أشقيلولة حاكماً على قُمارش ووادى آش ، فلما توفى أبو إسحاق سنة ٦٨٢ هـ استرد ابن الأحمر قمارش ، وخرج عليه أبو الحسن والد أبى إسحاق فى وادى آش ، وتحالف أولا مع قشتالة ، فلما عقد السلم بين المسلمين والنصارى ، أعلن أبو الحسن انضواءه تحت لواء ملك المغرب ، وأغضى ابن الأحمر حيناً عن تصرفه . فلما اتصلت وشائج المودة من جديد ، بينه وبين السلطان أبى يعقوب ، سأله التنازل عن وادى آش ، فأجابه إلى سؤله ، ورحل عنها الثائر أبو الحسن إلى المغرب

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٧٠ – ٣٧٢ .

(٢) نقلنا هذا الوصف من المخطوط المعنون : « الياقوتة الحلية » الذى سبقت الإشارة إليه .

ملتجئاً إلى بلاط فاس . وبذا استطاع ابن الأحمر أن يبسط سلطانه على الأندلس كلها[1] .

وفى أوائل سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) أغار سانشو ملك قشتالة على الثغور الأندلسية ناكثاً لعهده ، فأرسل السلطان أبو يعقوب إلى قائده على الثغور أن يغزو شريش وأرض النصارى ، فزحف عليها وعاث فيها . وأعلن أبو يعقوب الجهاد ، وتقاطرت بعوث المجاهدين إلى الأندلس ، فبعث سانشو أسطوله إلى مياه المضيق ليحول دون وصول الأمداد ، فبعث السلطان أسطوله لمهاجمة السفن القشتالية ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية هزم فيها المسلمون (أغسطس سنة ١٢٩١ م) . ولكن هذه الهزيمة لم تثن ملك المغرب عن عزمه ، فبعث أسطولا آخر لمقاتلة النصارى ، وانسحب النصارى هذه المرة . وعبر السلطان أبويعقوب إلى الأندلس فى قواته فى رمضان سنة ٦٩٠ هـ ، واقتحم أرض النصارى ، وغزا شَريش ووصل فى زحفه حتى أحواز إشبيلية وعاث فيها ، ثم عاد إلى الجزيرة ، وارتد عائداً إلى المغرب فى أوائل سنة ٦٩١ هـ .

وتوجس ملك قشتالة من مشاريع سلطان المغرب ، فسعى إلى محالفة ابن الأحمر وحذره من نيات المغاربة ، واستيلائهم على الثغور الأندلسية ، ولاسيما ثغر طريف مدخل الجزيرة ، وتفاهم الملكان على انتزاع هذا الثغر من المغاربة ، واشترط ابن الأحمر أن تسلم إليه طريف عقب انتزاعها . وسير سانشو أسطوله إلى مياه المضيق ليحاصر طريف من ناحية البحر ، وليحول دون وصول الأمداد إليها . وعسكر ابن الأحمر فى قواته بمالقة على مقربة منها ، يعاون النصارى بالأمداد والمؤن ، وصمدت حامية طريف أربعة أشهر ، ولكنها اضطرت فى النهاية إلى التسليم للنصارى (سبتمبر سنة ١٢٩٢م) . وهنا طالب ابن الأحمر سانشو بتسليمها فأبى وأعرض عنه ، مع أنه نزل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة ؛ فأدرك ملك غرناطة عندئذ خطأه فى الركون إلى وعود ملك قشتالة ، وفى مغاضبة ملك المغرب حليفه الطبيعى ، وسنده المخلص فى رد عدوان النصارى .

وعاد ابن الأحمر يخطب ود بنى مرين مرة أخرى ، وأوفد ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل ووزيره أبا سلطان عزيز الدانى على رأس وفد من كبراء الأندلس ، إلى السلطان أبى يعقوب فى طلب المودة ، وتجديد العهد ، والاعتذار عن مسلكه فى شأن طريف ، فأكرم السلطان وفادتهم ، وأجابهم إلى طلب الصلح .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٢ و ٢١٣ .

ولما عاد الوفد الى غرناطة، سُر ابن الأحمر من كرم السلطان ونبل مسلكه، واعتزم الرحلة للقائه بنفسه، وتأكيد المودة والاعتذار؛ فعبر البحر إلى العدوة فى أواخر سنة ٦٩٢هـ (١٢٩٢م) ومعه طائفة من الهدايا الفخمة، ونزل بطنجة حيث استقبله بعض أبناء السلطان، ثم جاء السلطان بنفسه إلى طنجة، وتلقاه بمنتهى الإكرام والحفاوة، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة وأراضى الغربية، وعدة من الحصون كانت من قبل فى طاعة ملك المغرب. وعاد ابن الأحمر مغتبطاً بنجاح مهمته؛ وأرسل السلطان معه حملة لغزو طريف بقيادة وزيره عمر بن السعود، فحاصرتها حيناً ولكنها لم تظفر بافتتاحها[1].

وكان لمحمد الفقيه، بالرغم من سمته العلمية، وقائع طيبة فى ميدان الجهاد ضد النصاري. ففى المحرم سنة ٦٩٥ هـ (أواخر ١٢٩٥ م) على أثر وفاة سانشو ملك قشتالة؛ زحف جيشه على أراضى قشتالة، وغزا منطقة جيّان، ونازل مدينة قيجاطة[1] واستولى عليها، وعلى عدة من الحصون التابعة لها، وأسكن بها المسلمين. وفى صيف سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م)، غزا أراضى قشتالة مرة أخرى، وزحف على مدينة القبذاق الواقعة جنوب غربى جيان، ودخل قصبتها وتملكها، وأسكن بها المسلمين[2].

واستمر محمد بن محمد بن الأحمر أومحمد الفقيه فى حكم غرناطة أعواماً أخرى، وهو ثابت العهد مقيم على صداقة بنى مرين. ومما هو جدير بالذكر أنه قبيل وفاته بقليل عقد معاهدة صلح وتحالف مع ملك أراجون خايمى الثانى ضد قشتالة، وذلك تجديداً وتعديلا لمعاهدة صلح سابقة عقدت بينهما فى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٩ م). وقد نص فى هذه المعاهدة الجديدة على عقد «صلح ثابت وصحبة صادقة» وأن يلتزم كل من الفريقين عدم الإضرار بالآخر على يد أحد من رعاياه، وأن تكون أراجون معادية لأعداء غرناطة سواء من المسلمين أو قشتالة، وأن يفتح بلد كل من الفريقين لمن يقصده من تجار البلد الآخر مؤمنين فى أنفسهم وأموالهم، وأخيراً يتعهد ملك غرناطة بمعاونة أراجون ضد ملك قشتالة، وألا يعقد معه صلحاً إلا

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٧.

(٢) مدينة قيجاطة هى بالإسبانية **Quesada** وتقع شمال شرقى مدينة جيان، وجنوب شرقى مدينة أبدة. والقبذاق هى بالإسبانية **Alcaudete**.

(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٥٦٩.

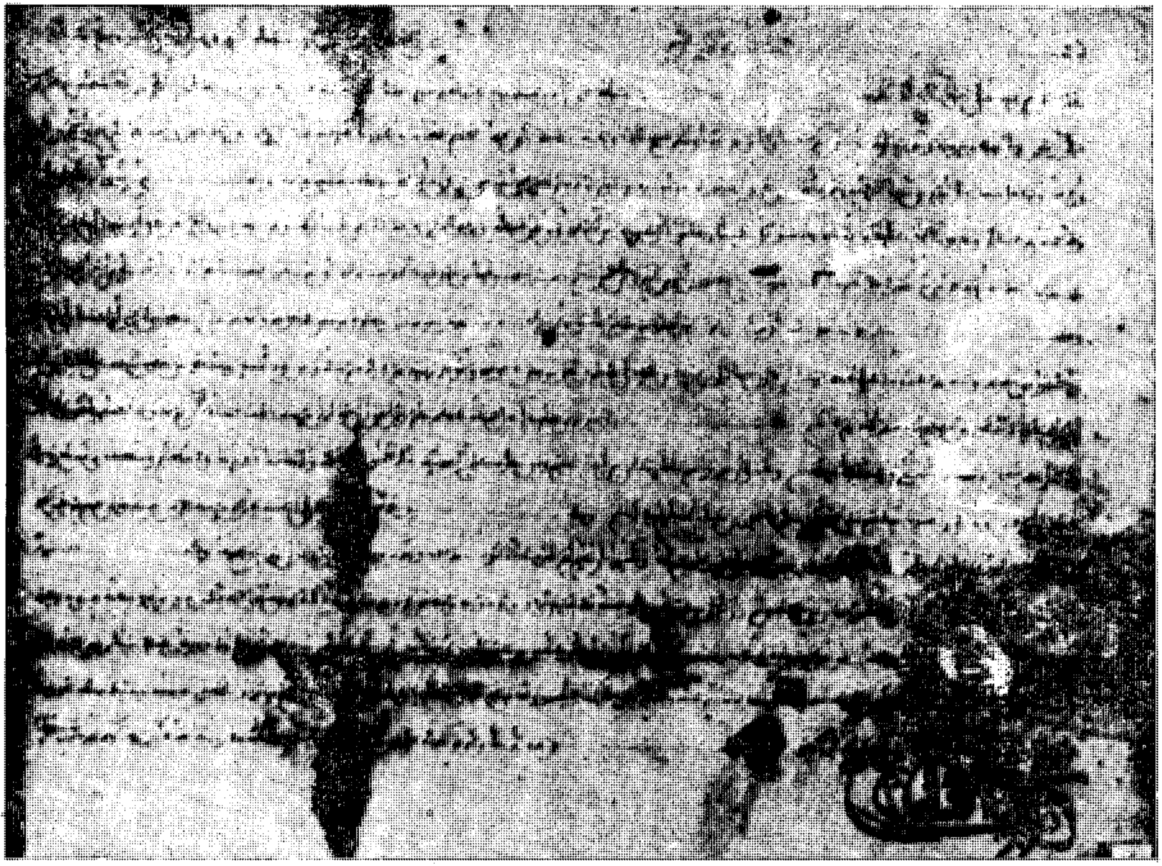

صورة وثيقة التحالف والصلح المعقودة بين محمد بن الأحمر (محمد الثانى) ملك غرناطة وخايمى الثانى ملك أراجون فى ربيع الثانى سنة ٧٠١ هـ (ديسمبر ١٣٠١ م) ومحفوظة بدار محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٤٨ .

بموافقة حليفه ، ويتعهد ملك أراجون لسلطان غرناطة بمثل ما تقدم ، كما يتعهد السلطان بمعاونة حليفه بفرسان من عنده فى أرض مرسية إذا احتاج إلى هذا العون ، وألا يعترض سلطان غرناطة على ما يأخذه ملك أراجون من أراضى قشتالة ، إلا المواضع التى كانت لغرناطة ، فهذه ترد إليها . وقد وقعت هذه المعاهدة فى آخر ربيع الثانى سنة ٧٠١ هـ (٣١ ديسمبر سنة ١٣٠١ م)(١) ؛ ولم يمض على عقدها بضعة أشهر حتى توفى السلطان فى شعبان سنة ٧٠١ هـ (مايو سنة ١٣٠٢م) بعد أن حكم أكثر من ثلاثين عاماً ، وقد زاد ملك بنى الأحمر فى عهده توطداً واستقراراً ، بالرغم مما توالى فيه من الأحداث والخطوب . وكان وزيره فى أواخر عهده الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمى وهو من مشايخ رندة ، وكان من قبل من كتابه فى ديوان الإنشاء ، وكان رجلا وافر العزم قوى الشكيمة ، ولقب بذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة ، وكان لحزمه وقوة نفسه أكبر أثر فى استقرار الأمور فى هذا العهد(٢) .

— ٢ —

وخلف محمداً الفقيه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ، وكان ضريراً ، وكان ذا نباهة وعزم ، عالماً شاعراً يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويصغى إليهم ويجزل صلاتهم ، محباً للإصلاح والإنشاء . وكان بين منشآته المسجد الأعظم بالحمراء ، فهو الذى أمر ببنائه على أبدع طراز ، وزوده بالعمد والنقوش والثريات الفخمة ؛ ولكنه لم يحسن تدبير شئون الملك والسياسة ، وغلب عليه كاتبه ووزيره ووزير أبيه من قبل أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمى ، فاستبد بالأمر دونه وحجر عليه ، فاضطربت الأمور ، وأخذت عوامل الانتفاض تجتمع وتبدو فى الأفق .

وفى عهده القصير ، اضطربت علائق مملكة غرناطة وبنى مرين مرة أخرى . والواقع أنه حاول فى بداية عهده ، أن يعمل على إحكام المودة بينه وبين بنى مرين ،

(١) حصلنا على صور فتوغرافية لأصل هذه الوثيقة وسائر الوثائق الأخرى التى تتضمن معاهدات أو مراسلات تبودلت بين ملوك غرناطة وملوك أراجون من دار المحفوظات ببرشلونة المسماة «محفوظات التاج الأرجونى » **Archivo de la Corana de Aragón** ، وتحفظ هذه الوثيقة بها برقم ١٤٨ . ومن جهة أخرى فقد نشر نصها فى مجموعة الوثائق الدبلوماسية التى أصدرها : **R. O. de Linares** و **Alarcôn** بعنوان : **Los Documentos Arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragón (No. 3)**

(٢) يترجم له ابن الخطيب بإفاضة فى الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٨ وما بعدها (طبعة قديمة) .

فأرسل وزير أبيه أبا سلطان عزيز الدانى ووزيره ابن الحكيم إلى سلطان المغرب ، ليجددا عهد المودة والصداقة ، فوفدا عليه وهو بمعسكره محاصراً لتلمسان ، فأكرم وفادتهما وطلب إليهما إمداده ببعض جند الأندلس الخبراء فى منازلة الحصون ، فأرسلت إليه قوة منهم أدت مهمتها أحسن أداء . ولاح أن أواصر المودة أضحت أشد ما يكون توثقاً بين الفريقين ، ولكن ابن الأحمر عرض له فجأة أن يعدل عن محالفة سلطان المغرب ، وأن يعود إلى محالفة ملك قشتالة ، فغضب السلطان أبو يعقوب لذلك، ورد جند الأندلس (٧٠٣هـ) . وبدأ ابن الأحمر أعمال العدوان، بأن أوعز إلى عمه وصهره الرئيس أبى سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة ، أن يحرض أهل سبتة فى الضفة الأخرى من البحر ، على خلع طاعة السلطان ، واستعد ابن الأحمر فى الوقت نفسه لمحاربة السلطان ، إذا عنّ له أن يعبر إلى الأندلس ، وجهز الرئيس أبو سعيد حملة بحرية فى مياه مالقة بحجة مدافعة النصارى ، ثم سيرها فجأة إلى سبتة ، وذلك فى شوال سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٦ م) . وكانت الحملة بقيادة عثمان بن أبى العلاء المرينى . فاستولت على سبتة ، وجاء الرئيس أبو سعيد فاستبد بأمرها ، وأعلن انضواءها تحت لواء ابن الأحمر ، وقبض على ابن العزفى حاكمها من قبل السلطان وآله ، وأرسل إلى غرناطة . ووقف السلطان أبو يعقوب على هذه الحوادث وهو تحت أسوار تلمسان ، فوجد لذلك الغدر ، وبعث حملة بقيادة ولده أبى سالم إلى سبتة فحاصرها حيناً ، ولكنه أخفق فى الاستيلاء عليها وارتد أدراجه ، وخرج فى إثره عثمان بن أبى العلاء فى جند الأندلس ، وعاث فى أحواز سبتة وما جاورها (سنة ٧٠٦ هـ) .

وكان لتطور الحوادث على هذا النحو أسوأ وقع فى نفس السلطان أبى يعقوب ؛ فاعتزم أن يسير بنفسه إلى استرداد سبتة ، ولكن حدث بينما كان يجد فى الأهبة أن اغتاله كبير الخصيان ، فى مؤامرة دبرها الخصيان للتخلص منه خوفاً من أن يبطش بهم ، فتوفى قتيلا فى ذى القعدة سنة ٧٠٦ هـ (أبريل سنة ١٣٠٧ م) ؛ ونشبت عقب مصرع السلطان حرب أهلية حول العرش بين ولديه أبى ثابت وأبى سالم ، هزم فيها أبو سالم وقتل ، واستقر أبو ثابت على العرش .

وفى ذلك الحين كان عثمان بن أبى العلاء المرينى ، يتوغل بجنده فى شمال المغرب ، وكان هذا الجندى الجرىء يتجه بأطماعه نحو عرش المغرب ، ويعتمد فى تحقيق مشروعه على أنه سليل بنى مرين . ولما توغل بجنده جنوبا ، دعا لنفسه بالملك

واستولى على بعض الحصون ، وأيدته بعض القبائل ، وهزم عساكر السلطان أبى يعقوب حينما تصدت لوقفه وانتهز فرصة مصرع السلطان ونشوب الحرب الأهلية بين ولديه ، فزاد إقداما وتوغلا واستفحل أمره ، ولاح الخطر يهدد ملك بنى مرين .

وما كاد السلطان أبو ثابت يستقر فى عرش أبيه ، حتى اعتزم أمره للقضاء على تلك الحركة الخطيرة ، واسترداد سبتة ، فسار إلى الشمال على رأس جيش ضخم فى شهر ذى الحجة سنة ٧٠٧ هـ ؛ ولما شعر عثمان بن أبى العلاء بوفرة قوته وأهبته ، بادر بالفرار مع جنده خشية لقائه ، وزحف السلطان على الحصون الخارجة عليه فأثخن فيها واستولى عليها ، ثم سار إلى طنجة ؛ وامتنع عثمان بن أبى العلاء بقواته فى سبتة ، فسار إليها السلطان وضرب حولها الحصار الصارم ، وأمر ببناء بلدة تيطاوين (تطوان) لنزول عسكره ، ولكنه مرض أثناء ذلك وتوفى فى صفر سنة ٧٠٨ هـ (يوليه سنة ١٣٠٨ م)(١) .

فخلفه فى الملك أخوه السلطان سليمان أبو الربيع ، وارتد بالجيش إلى فاس تاركا سبتة لمصيرها . فخرج فى أثره عثمان بن أبى العلاء فى قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها عثمان ، وقتل من الأندلسيين عدد جم ؛ وخشى عثمان العاقبة فعاد مع آله إلى الأندلس ولحق بغرناطة ، وتابع السلطان أبو الربيع سيره إلى فاس واستقام له الأمر .

ولم تمض على ذلك أشهر قلائل حتى وقعت بالأندلس حوادث هامة . ذلك أن عوامل الإنتقاض التى لبثت بضعة أعوام تعمل عملها فى ظل محمد المخلوع ، تمخضت فى النهاية عن نشوب الثورة . وكان مدبرها ومثير ضرامها أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه ، ومن ورائه رهط من أكابر الدولة ، سئموا نظام الطغيان الذى فرضه محمد المخلوع ووزيره ابن الحكيم . واضطرمت الثورة فى يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ (أوائل سنة ١٣٠٩م) . ووثب الخوارج بالوزير ابن الحكيم فقتلوه ، واعتقلوا السلطان محمداً ، وأرغموه على التنازل عن العرش . وتربع أخوه نصر مكانه فى الملك ، ونفى السلطان المخلوع إلى حصن المنكّب ، حيث قضى خمسة أعوام فى أصفاد الأسر ، ثم أعيد بعد ذلك مريضاً إلى غرناطة حيث توفى فى سنة ٧١٣هـ(٢) .

ووقف سلطان المغرب على حوادث الأندلس ؛ وبلغه أن أهل سبتة قد سئموا

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٧ .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ٥٥٢ — ٥٦٤ ، واللمحة البدرية ص ٤٨ — ٥٤ .

نير الأندلسيين ، فبعث إليها حملة بقيادة تاشفين بن يعقوب ، فلما وصلت إليها ثار أهل البلد ، وطردوا منها جند ابن الأحمر وعماله ، ودخلتها فى الحال جند المغرب واستولوا عليها ، وذلك فى شهر صفر سنة ٧٠٩ هـ (يوليه ١٣٠٩م) . واغتبط السلطان لانتهاء هذه المغامرة التى شغلت بنى مرين بضعة أعوام .

وكان سلطان غرناطة الجديد يوم جلوسه فتى فى الثالثة والعشرين من عمره ، وكان ولوعاً بالأبهة والمظاهر الملوكية . وكان فى الوقت نفسه أديباً عالماً بارعاً فى الرياضة والفلك ، وقد وضع جداول فلكية قيمة . ولكنه لم يحسن السيرة ، ولم يوفق فى تدبير الأمور . وسرعان ما سخط عليه الشعب كما سخط على أخيه من قبل . فاضطربت الأحوال ، وتوالت الأزمات ، وكانت حوادث سبتة نذيراً بتفاقم التوتر بين بلاط غرناطة وبلاط فاس . ومن جهة أخرى فقد ساءت العلائق بين غرناطة وقشتالة ، وانتهز القشتاليون كعادتهم فرصة اضطراب الأحوال فى غرناطة ، فغزوا أرض المسلمين فى أوائل سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ، ووضع فرناندو الرابع ملك قشتالة مشروعا جريئاً للاستيلاء على جبل طارق . وكانت الأمداد المغربية قد انقطعت منذ استولى النصارى على طريف ، وشغل بنو مرين بالحوادث ، والثورات الداخلية ، وساءت علائقهم ببنى الأحمر . ورأى فرناندو الرابع أن الفرصة سانحة ليضرب ضربته المفاجئة ، فغزا الجزيرة الخضراء ، وبعث أسطوله لحصار جبل طارق من البحر ، وأوعز فى الوقت نفسه إلى خايمى ملك أراجون أن يحاصر ثغر ألمرية لكى يشغل قوات الأندلس فاستجاب لتحريضه ، وذلك بالرغم من معاهدة التحالف والصداقة التى كانت تربطه بسلطان غرناطة . وبدأ حصار ألمرية وجبل طارق فى وقت واحد فى أوائل سنة ٧٠٩ هـ ، وبذل النصارى للاستيلاء على ألمرية جهوداً فادحة ، ونصبوا على أسوارها الآلات الضخمة ، وحفروا فى أسفل السور نفقاً واسعاً لدخولها ؛ فلقيهم المسلمون تحت الأرض وردوهم بخسارة فادحة ؛ ونشبت على مقربة من ألمرية معركة بين جند الأندلس بقيادة عثمان بن أبى العلاء وجند أراجون ، فهزم النصارى واضطروا إلى رفع الحصار ، ونجت ألمرية من خطر السقوط[1] . ولكن ثغر جبل طارق كان أسوأ طالعا . فقد شدد النصارى حوله الحصار من البر والبحر ، وبالرغم من هزيمتهم أمام المسلمين على مقربة من جبل طارق ، فقد لبثوا على حصاره بضعة أشهر حتى

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٤٠ ؛ واللمحة البدرية ص ٦٢ .

أضنى الحصار المسلمين وأرغموا على التسليم . وسقط الثغر المنيع فى يد النصارى فى أواخر سنة ٧٠٩ هـ (مارس سنة ١٣١٠ م) فكان لسقوطه وقع عميق فى الأندلس والمغرب معا ؛ فقد كان باب الأندلس من الجنوب ، وكان صلة الوصل المباشر بين المملكتين الإسلاميتين .

وأدرك ابن الأحمر على أثر هذه النكبة ، فداحة الخطأ الذى ارتكبه بمجافاة بنى مرين ، فبادر بإرسال رسله إلى السلطان أبى الربيع يبدى أسفه على ما سلف ، ويسأله الصفح والصلح ؛ فأجابه السلطان إلى طلبه ، ونزل ابن الأحمر للسلطان عن الجزيرة ورندة وحصونها ترضية له وترغيباً فى الجهاد ، واقترن بأخت السلطان توثيقاً لوشائج المودة ، وأرسل السلطان إليه المدد والأموال ، وعادت علائق التفاهم والتحالف بين غرناطة وفاس إلى سابق عهدها .

على أن هذا التحسن فى علائق المملكتين الإسلاميتين ، لم يثن النصارى عن مشاريعهم تجاه غرناطة . ذلك أن الجيوش المغربية لم تعد تعبر إلى الجزيرة بكثرة . وكانت أحوال المغرب تعوق بنى مرين عن استئناف الجهاد فى الأندلس على نطاق واسع ، وكانت أحوال غرناطة من جهة أخرى تشجع النصارى على التحرش بها والإغارة على أراضيها . ولما رأى السلطان نصر تفاقم الأمور واشتداد بأس النصارى ، لم ير وسيلة لاجتناب الخطر الذى يهدده سوى مصانعة فرناندو الرابع ملك قشتالة والتعهد له بأداء الجزية . وكان ذلك مما زاد فى سوء سيرته وفى سخط الشعب عليه . ولم تلبث أعراض الثورة أن ظهرت فى الجنوب حيث أعلن الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل النصري صاحب مالقة وابن عم أبى السلطان ، الخروج والعصيان . ورشح الخوارج للملك مكان نصر ، أبا الوليد اسماعيل وهو حفيد لإسماعيل أخى محمد بن الأحمر رأس الأسرة النصرية . ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أبو سعيد وشيعته التغلب على ألمرية وبلّش وغيرهما من القواعد الجنوبية . وفى أوائل سنة ٧١٢ هـ (١٣١٣ م) سار فى قواته إلى غرناطة ، وهرع السلطان نصر إلى لقائه فكانت الهزيمة على نصر ، فلجأ إلى غرناطة ؛ ولكنه لم يلبث أن أذعن واضطر إلى التنازل عن العرش ، وسار بأهله إلى وادى آش ، وتولى حكمها حتى توفى سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م)(١) .

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٣٩٣ و ٣٩٤ ؛ واللمحة البدرية ص ٥٧ — ٦٣ .

الفصل السابع

مملكة غرناطة فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى

وذروة الصراع بين بنى مرين واسبانيا النصرانية

ولاية السلطان أبى الوليد اسماعيل . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل أمرائهم . سوء الأحوال فى قشتالة . تجديد الصلح بين غرناطة وأراجون . غزوات المسلمين فى أراضى النصارى . مقتل السلطان إسماعيل وخلاله . ولاية ولده أبى عبد الله محمد . بطشه بوزيره ابن المحروق . الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة . الحاجب أبو النعيم رضوان . استنجاد ملك غرناطة بملك المغرب . أبو الحسن يرسل الأمداد مع ولده . غزو الأندلسيين للجزيرة الخضراء . حصارهم لجبل طارق واسترداده من النصارى . المؤامرة على السلطان ومصرعه . السلطان أبو الحجاج يوسف . نكبته لبنى العلاء . الحاجب رضوان وخلاله . استئثاره بالسلطة . نفيه وعوده إلى الوزارة . الوزير ابن الجياب . بداية ظهور ابن الخطيب . تحرش القشتاليين بالمسلمين . قدوم الأمداد من المغرب . هزيمة المغاربة ومقتل قائدهم . عبور السلطان أبى الحسن إلى الأندلس . موقعة سالادو وهزيمة المسلمين . سقوط طريف والجزيرة الخضراء فى يد النصارى . مسير السلطان أبى الحسن للمرة الثانية . هزيمته فى البر والبحر. تبادل المكاتبة والسفارة بين أبى الحسن وسلطان مصر . تجديد الصلح مع أراجون . الوباء الكبير . عود القشتاليين إلى الغزو . حصارهم لجبل طارق . تفشى الوباء بين النصارى ومصرع ملك قشتالة . نجاة جبل طارق . أقوال ابن الخطيب . وصف ابن بطوطة لحوادث الأندلس وأحوالها . مصرع السلطان أبى الحجاج يوسف. وصف ابن الخطيب للحادث . خلال يوسف . استعراض للعلائق بين بنى الأحمر وبنى مرين .

جلس السلطان أبو الوليد اسماعيل على عرش غرناطة فى شوال سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤م)، وامتاز عصره بتوطد الملك، واستقرار الأمور، واحياء عهد الجهاد . وفى أوائل عهده غزا القشتاليون كعادتهم بسائط غرناطة واستولوا على عدة من القواعد والحصون ، وهزموا المسلمين هزيمة شديدة فى وادى فرتونة (٧١٦ هـ) . ولما رأى القشتاليون نجاح غزوتهم اعتزموا منازلة الجزيرة الخضراء والاستيلاء عليها ليحولوا دون وصول الأمداد إلى المسلمين من عدوة المغرب . ولكن السلطان إسماعيل بادر إلى تحصينها وجهز الأساطيل لحمايتها من البحر ، فعدل القشتاليون عن مشروعهم ، وعولوا على مهاجمة الحاضرة الإسلامية ذاتها . وبادر ابن الأحمر بطلب الغوث والإمداد من السلطان أبى سعيد سلطان المغرب ، فنكل عن معاونته ،

وطالب بتسليم عثمان بن أبى العلاء لما كان منه فى حق بنى مرين ، فأبى ابن الأحمر خشية العواقب ؛ وزحف القشتاليون على غرناطة بجيش ضخم ، يقوده الدون پيدرو (دون بطره) والدون خوان الوصيان على ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، ومعهما عدة من الأمراء القشتاليين ، وفرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزى ، فبادر المسلمون إلى لقائهم فى هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة . وكان الجيش الغرناطى لا يجاوز ستة أو سبعة آلاف جندى منهم نحو ألف وخمسمائة فارس ، ولكنهم صفوة المقاتلة المسلمين ، وكان قائده شيخ الغزاة أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ، جنديا جريئاً وافر العزم والبسالة ، فلم ترعه كثرة الجيش المهاجم ، وعول فى الحال على لقائه فى معركة حاسمة . وفى ٢٠ من ربيع الثانى سنة ٧١٨ هـ (مايو سنة ١٣١٨ م) التقى فرسان الأندلس بطلائع النصارى وردوهم بخسارة فادحة . ثم زحف أبو سعيد فى نخبة من جنده ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، كانت الدائرة فيها على القشتاليين ، فمزقوا شر ممزق ، وقتل منهم عدد جم ، بينهم دون پيدرو ودون خوان ، ورهط كبير من الأمراء والنبلاء والأحبار ، وغرق منهم عند الفرار فى نهر شنيل عدة كبيرة ، وأسر منهم بضعة آلاف ، واستمر القتال والأسر فيهم ثلاثة أيام . وخرج أهل غرناطة فرحين مستبشرين ، يجمعون الأسلاب والأسرى ، وظفر المسلمون بغنائم عظيمة ، منها مقادير كبيرة من الذهب والفضة . وكان على العموم نصراً مشهوداً أعاد ذكرى الجهاد المجيد . وكان معظم الفضل فى إحرازه يرجع إلى الجند المغاربة وإلى شيوخهم بنى العلاء الذين تزعموا الجيوش الأندلسية ، وتولوا قيادتها فى تلك الفترة حسبما أسلفنا . ويعلل ابن خلدون ظهور القادة والجند المغاربة فى ميدان الجهاد بقرب عهدهم بالتقشف والبداوة . ووضع المسلمون جثة الدون پيدرو فى تابوت من ذهب على سور الحمراء تنويهاً بالنصر ، وتخليداً لذكرى الموقعة(١) .

والواقع أن مملكة قشتالة كانت فى أوائل القرن الرابع عشر فى حالة سيئة ، وقد نفدت مواردها من الرجال والأموال ، بسبب الحروب والثورات المتواصلة ، والمرض والقحط ؛ وكان إسراف البلاط وبذخ الخلائل ، واختلاس الموظفين ، ومطالب رجال الدين ، وجشع الأشراف ، تستنفد الأموال العامة ؛ وكانت

(١) راجع فى تفاصيل هذه الموقعة الشهيرة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٢ ، وج ٧ ص ٢٥٠ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٣٩٧ ؛ والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٢١٠ .

صورة معاهدة الصلح التى عقدت بين السلطان أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ملك غرناطة ، وخايمى الثانى ملك أراجون فى ربيع الثانى سنة ٧٢١ هـ (مايو ١٣٢١ م) وهى محفوظة بدار محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٥١ .

الإدارة المالية فى يد اليهود ورجال الكنيسة وكلاهما يناوئ الآخر، ويعمل على إحباط مساعيه؛ وكانت الوصايات المتعاقبة، وما تعمد إليه من اغتصاب الأموال، وسوء استعمال السلطة، وفساد القضاء، وتطاول الحلائل الملكية، وسحق الحقوق العامة والخاصة، وتفشى الجريمة، تثير غضب الشعب وسخطه؛ وكان اللون الصليبي للحروب الإسبانية فى ذلك العصر يوطد نفوذ جماعات الفرسان الدينية العديدة، وهى التى كانت فى الواقع توجه مصاير الحرب والسياسة، بيد أنها كانت تخفى تحت ستار الدين رذائل كثيرة من الفجور والجشع والارتشاء وغيرها[١].

وفى سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) جدد السلطان إسماعيل معاهدة الصلح مع ملك أراجون خايمى الثانى وذلك تحقيقاً لرغبته؛ ونص فى المعاهدة الجديدة على أن يعقد بين الفريقين صلح ثابت لمدة خمسة أعوام، تؤمن خلالها أرض المسلمين بالأندلس وأرض أراجون تأميناً تاماً براً وبحراً، وأن تباح التجارة لرعايا كل من الفريقين فى أرض الآخر، وأن يتعهد كل من الملكين بمعاداة من يعادى الآخر، وأن لا يأوى له عدواً أو يحميه، وأن تكون سفن كل فريق وشواطئه ومراسيه آمنة، وأن يسرح كل فريق من يؤسر فى البحر من رعايا الفريق الآخر. وتضمنت المعاهدة أيضاً نصاً خاصاً بتعهد ملك أراجون بألا يمنع خروج المدجنين من أراضيه إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم، وهو نص يلفت النظر، إذ كان المدجنون فى هذا العصر يؤلفون أقليات كبيرة فى بلنسية ومرسية وشاطبة وغيرها من القواعد الشرقية، وكان ملوك أراجون يحرصون على بقائهم وعدم هجرتهم لأسباب اقتصادية وعمرانية[٢].

وعلى أثر موقعة إلبيرة تعاقبت غزوات المسلمين فى أراضى النصارى وعادت الدولة الإسلامية الفتية تجوز عهداً من القوة بعد أن لاح أنها شارفت طور الفناء. ففى سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) زحف السلطان إسماعيل على مدينة بيّاسة الحصينة وحاصرها بشدة، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى سلمت. وفى رجب من العام التالى (٧٢٥ هـ) سار اسماعيل إلى مرتش واستولى عليها عنوة، وكانت أعظم غزواته، وامتلأت أبدى المسلمين بالسبي والغنائم. ثم عاد السلطان إلى غرناطة مكللا بغار النصر. بيد أنه لم تمض على عوده

(١) راجع: Scott : ibid ; V. II. p. 476-78
(٢) Archivo de la Corona de Aragón, No. 151

ثلاثة أيام حتى قتل بباب قصره غيلة ، وكان قاتله ابن عمه محمد بن إسماعيل صاحب الجزيرة ، وقد حقد عليه لأنه انتزع منه جارية رائعة الحسن ، ظفر بها فى موقعة مرتش ، وبعث بها إلى حريمه بالقصر . ولما عاتبه محمد رده بجفاء وأنذره بمغادرة البلاط ، فتربص به وطعنه بخنجره وهو بين وزرائه وحشده ، فحمل جريحاً حيث توفى على الأثر ، وكان مصرعه فى السادس والعشرين من رجب سنة ٧٢٥ هـ (يونيه سنة ١٣٢٥ م) .

وكان السلطان إسماعيل يتمتع بخلال باهرة ، وكان يشتد فى إخماد البدع وإقامة الحدود . وفى عهده حرمت المسكرات وطورد الفساد الأخلاقى ، وحرم جلوس الفتيات فى ولائم الرجال ، وعومل اليهود بشىء من الشدة ، وألزموا أن يتخذوا لهم شعاراً خاصاً بهم ، هو عبارة عن العمائم الصفراء(١) .

فخلفه ولده أبو عبد الله محمد وهو فتى يافع لم يجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكانت أمه نصرانية تدعى علوة ، وأخذ له البيعة وزير أبيه أبو الحسن بن مسعود ، وقام بكفالته بضعة أشهر حتى توفى ، ثم خلفه فى الوزارة وكيل أبيه محمد بن أحمد ابن المحروق ، فاستبد بالأمور واستأثر بكل سلطة ؛ فحقد عليه السلطان الفتى وكان رغم حداثته مقداماً قوى النفس ، ولم يلبث أن بطش بوزيره المتغلب عليه ، فقتل بأمره فى المحرم سنة ٧٢٩ هـ .

وكان من أوائل أعماله تجديد معاهدة الصداقة مع أراجون ، وكان ملكها خايمى الثانى قد أوفد إليه سفيره يطلب إليه تجديد معاهدة الصلح والصداقة التى عقدت بينه وبين أبيه ، وانقضى أجلها المحدد بانقضاء أعوامها الخمسة ، فوافق السلطان على تجديدها بسائر نصوصها وشروطها ، ووقعت المعاهدة الجديدة فى جمادى الثانية سنة ٧٢٦ هـ (مايو سنة ١٣٢٦ م)(٢) .

ولأول عهده نشب الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة المغاربة ، وعلى رأسهم عثمان بن أبى العلاء ، وامتنعوا ببعض الثغور الجنوبية ولاسيما ألمرية ، وانضم إليهم عم السلطان ، محمد بن فرج بن إسماعيل ، فقاموا بدعوته ، ونشبت بين الفريقين عدة مواقع محلية ، كان النصر فيها سجالا بينهما . وانتهز القشتاليون كعادتهم تلك

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٣٩٥ – ٤٠١ ؛ واللمحة البدرية ص ٧١ – ٧٤ .

(٢) Archivo de la Corona de Aragón, No. 148

الفرصة، فأثخنوا فى الأراضى الإسلامية، واستولوا على ثغر بيره وعدة من الحصون[1]. ولما تفاقم عيث النصارى آثر السلطان التفاهم مع الخوارج عليه ، وعقدت بينهما الهدنة على أن يستقروا بوادى آش باسمه وتحت طاعته . وتولى تدبير الأمور بعد مقتل ابن المحروق ، الحاجب أبو النعيم رضوان النصرى ، فهدأت الفتنة واستقرت الأمور نوعاً . ولكن ابن الأحمر كان يتوجس شراً من اضطراب الأحوال فى مملكته ومن تربص النصارى بها، ورأى أن يتجه بصريخه إلى بنى مرين مرة أخرى، وكانت العلائق يومئذ على صفائها بين غرناطة وفاس . وكان بنو مرين حينما شغلوا بشئونهم الداخلية قد تركوا الجزيرة وحصونها لابن الأحمر (سنة ٧١٢ هـ) ، فلما اشتدت وطأة النصارى على غرناطة، عاد ابن الأحمر فنزل عن الجزيرة إلى ملك المغرب السلطان أبى سعيد (سنة ٧٢٩هـ)، لتكون رهينة ومنزلا للأمداد المرجوة من وراء البحر ؛ ولكن النصارى استولوا على معظم حصونها ، وأضحى طريق الجواز ولاسيما بعد ضياع جبل طارق عسيراً محفوفاً بالمخاطر . وعبر ابن الأحمر البحر فى أواخر سنة ٧٣٢ هـ إلى عدوة المغرب ، وقصد إلى فاس مستنجداً بملك المغرب ، السلطان أبى الحسن على بن عثمان بن أبى يعقوب المرينى ، فاستقبله السلطان بمنتهى الحفاوة ، وشرح له ابن الأحمر ما انتهت إليه شئون الأندلس ، وما ترتب على سقوط جبل طارق من قطع صلة الوصل بين المملكتين ، ورجاه الغوث والعون .

والواقع أن استيلاء النصارى على جبل طارق فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) كان أعظم نكبة منيت بها الأندلس منذ سقوط قواعدها الكبرى . وقد شعرت حكومة غرناطة بفداحة النكبة، وازداد منذ وقوعها توجسها من المستقبل . ولقد أتيح لنا أن نزور هذه الصخرة الهائلة ، وأن نشهد مبلغ روعتها ومنعتها . وكان المسلمون قد جددوا تحصيناتها فى منتصف القرن السادس الهجرى حينما عبر إليها خليفة الموحدين عبد المؤمن بن على (٥٥٥هـ)، وأسماها جبل الفتح ، وأمر بتجديد حصنها الذى ما يزال قائماً حتى اليوم فوق الصخرة من ناحيتها الشمالية . وكان سلطان غرناطة يتوق إلى استرداد هذا المعقل المنيع درع مملكته من الجنوب . وكان السلطان أبو الحسن مشغوفاً بالجهاد واستئناف ما تصرم من أسبابه . وكان فوق اضطرامه بعاطفة الجهاد ، يرى خطر اسبانيا النصرانية يلوح داهماً ليس على الأندلس فقط ،

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٤ . وبيره Vera بلدة حصينة تقع فى شمال شرقى ولاية المرية على مقربة من البحر .

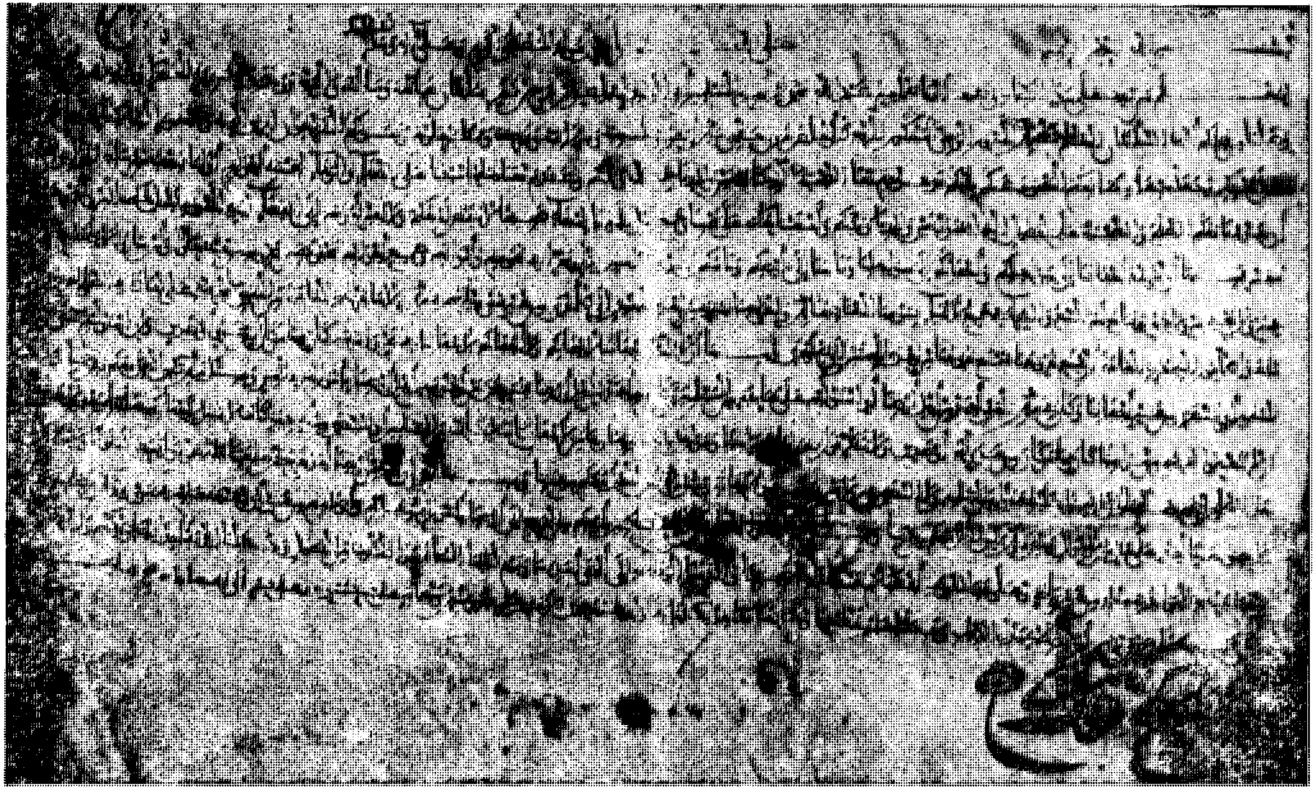

صورة وثيقة عقدت بين السلطان أبي عبد الله محمد بن إسماعيل وخايمى الثانى ملك أراجون بتجديد معاهدة الصلح التى عقدت بين والده وخايمى فى سنة ٧٢١ هـ ، مؤرخة فى جمادى الثانية سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٩ م) ومحفوظة بدار محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٥٤ .

بل وعلى المغرب أيضاً . ذلك لأن الأندلس أخذت تبدو من ذلك الحين جناح المغرب ، وخطه الدفاعى الأول من الشمال ، ولابد من تأمين هذا الخط والسهر على سلامته ، وذلك بدعم قوة الأندلس وتأييدها ، ورد خطر النصارى عنها . ومن ثم فقد استجاب أبو الحسن لدعوة ابن الأحمر وبعث معه الأمداد بقيادة ولده أبى مالك ، لمنازلة جبل طارق وافتتاحها ، وتلاحقت فى أثرهم السفن تحمل المدد والعُدد والمؤن . وحشد ابن الأحمر قواته ، وزحف على الجزيرة واستولى عليها . وطوق المسلمون جبل طارق من البر والبحر ، ورابط أسطول المغرب فى مياه المضيق ليحول دون وصول الأمداد إلى النصارى ، وهرع ملك قشتالة (ألفونسو الحادى عشر) فى قوة من الفرسان لإنجاد الحامية المحصورة ، فبادر ابن الأحمر إلى مهاجمة النصارى ، وهزمهم أمام جبل طارق تجاه البرزخ الإسبانى . وكان أكبر الفضل فى إحراز هذا النصر راجعاً إلى همة الحاجب رضوان النصرى وإقدامه وبراعته . ثم شدد المسلمون الحصار على الثغر ، وقطعوا كل صلاته من البر والبحر ، فلم تمض بضعة أسابيع حتى ساءت حال الحامية النصرانية ، واضطرت إلى التسليم قبل مقدم الجيش القشتالى . وبذلك استعاد المسلمون الثغر المنيع فى أواخر سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣ م) بعد أن لبث فى حوزة النصارى أربعة وعشرين عاماً ، وكان أكبر الفضل فى استرداده راجعاً إلى معاونة السلطان أبى الحسن فى البر والبحر . ولما رابط المسلمون والنصارى فى الميدان وجهاً لوجه ، ورأى ملك قشتالة أنه لا أمل فى كسب معركة انتهت فعلا بظفر المسلمين ، آثر الصلح ، وانتهى الأمر بعقد الهدنة بين الملكين(1). واعتزم السلطان محمد بن اسماعيل (ابن الأحمر) العودة بجنده إلى غرناطة ، ولكنه ماكاد يغادر جبل طارق فى اليوم التالى عائداً إلى عاصمة ملكه ، حتى اغتاله فى الطريق جماعة من المتآمرين بتحريض بنى أبى العلاء (ذى الحجة سنة ٧٣٣هـ) . وكان أولئك القواد المغاربة وعلى رأسهم شيخهم عثمان ابن أبى العلاء قد استفحل أمرهم فى الدولة ، وأخذوا ينازعون السلطان فى أمر تصرفاته ، ولما توفى شيخ الغزاة عثمان ابن أبى العلاء فى سنة ٧٢٩ هـ عين مكانه فى المشيخة ولده أبو ثابت عامر ، فاستمر يمارس سلطان أبيه ونفوذه ، وتدخله فى شئون الدولة ، وكان يؤازره إخوته إدريس ، ومنصور ، وسلطان . وبدأ ابن الأحمر

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٠ — ٥٥٢ ؛ واللمحة البدرية ص ٧٧ — ٨٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٢٥٥ .

يتبرم بتدخلهم واستبدادهم ، وكان حينما عبر السلطان أبو الحسن قد خاطبه فى شأنهم وفى سبيل الخلاص منهم، واستراب بنو العلاء منه وتوجسوا شراً، فأتمروا به للتخلص منه قبل أن يبطش بهم ، ولحق به المتآمرون حين عوده واغتالوه طعناً بالرماح، وتركت جثته فى العراء حيناً حتى نقلت بعد ذلك إلى مالقة ودفنت بها(١).

— ٢ —

وولى العرش من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف بن أبى الوليد إسماعيل ، وهو فتى فى السادسة عشرة . وكان من أعظم ملوك بنى نصر وأبعدهم همة وأرفعهم خلالا . وكان عالماً شاعراً يحمى الآداب والفنون ، وهو الذى أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآته وأروعها . وماكاد يتبوأ العرش حتى عنى بتتبع بنى أبى العلاء قتلة أخيه ، وتجريدهم من وظائفهم وتمزيق عصبتهم والقبض على شيوخهم ، وكان ذلك فى الوقت نفسه تحقيقاً لرغبة السلطان أبى الحسن . ثم نفاهم فى السفن إلى تونس ، وانتهت بذلك رياستهم بالأندلس ، بعد أن طالت زهاء نصف قرن . ولما نزلوا على سلطان تونس أبى يحيى الحفصى ، طالب السلطان أبو الحسن بتسليمهم فأرسلهم إليه أبو يحيى ولكن مع طلب الشفاعة فيهم ، فعفا عنهم أبو الحسن ، وأكرم مثواهم مدى حين ، ولكنه عاد فقبض عليهم بتهمة التآمر عليه ، وأودعهم ظلام السجن(٢) .

وعهد السلطان أبو الحجاج بمشيخة الغزاة ، بعد سحق بنى أبى العلاء على النحو المتقدم ، إلى زعيم آخر من قرابة بنى مرين هو يحيى بن عمر بن رحّو ، فاضطلع بها على خير وجه ، ولبث مضطلعاً بها طول عصر أبى الحجاج .

وقام بتدبير الأمور للسلطان أبى الحجاج وزير أخيه الحاجب أبو النعيم رضوان ، وكان هذا الوزير القوى الذى لعب فى تاريخ غرناطة دوراً ذا شأن ، من أصل نصرانى قشتالى أوقطلونى ، وسبى طفلا فى بعض المواقع ، فأخذ إلى الدار السلطانية ، ونشأ فى بلاط السلطان أبى الوليد إسماعيل(٣). وظهرت نجابته وصفاته الممتازة ، فعهد إليه بتربية ولده أبى عبد الله محمد . ولما تولى محمد الملك بعد أبيه تولى وزارته الحاجب رضوان، فأظهر فى تدبير الشئون كفاية ممتازة ، وقاد بعض

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٣ و٢٦٤ و٣٧٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .

(٣) الإحاطة ج ١ ص ٥١٥ .

الغزوات الناجحة إلى أرض النصارى ، فغزا فى سنة ٧٣٢ هـ أراضى قشتالة شرقاً حتى لورقة ومرسية وعاث فيها ، وفى العام التالى غزا مدينة باغة واستولى عليها(١). ولما تولى الملك السلطان يوسف وقع الإجماع على اختياره للوزارة ، واستقرت الأمور فى عهده وساد الأمن والرخاء . وينوه ابن الخطيب — وهو معاصر الحاجب وصديقه — بصفاته ومواهبه ويسميه « حسنة الدولة النصرية ، وفخر مواليها » ويصفه فيما يلى : « وكان أصيل الرأى رصين العقل ، كثير التجمل ، عظيم الصبر ، قليل الخوف فى العهات ، ثابت القدم فى الأزمات ، ميمون النقيبة ، عزيز النفس عالى الهمة ، بادى الحشمة ، آية فى العفة ، مثلا فى النزاهة » . وكان من أعظم مآثره إنشاء مدرسة (جامعة) غرناطة الشهيرة . فأقام لها صرحا فخما ، ووقف عليها أوقافا جايلة وغدت غير بعيد من أعظم مناهل العلم فى الأندلس والمغرب(٢) ، وأمر ببناء السور الأعظم حول ربض البيازين ، وأنشأ عدداً كبيراً من الأبراج الدفاعية ، وأصلح كثيراً من الحصون الداخلية ؛ ولكنه كسائر المتغلبين على السلطان ، استبد بالأمر واستأثر بكل سلطة . فلما شعر الساطان يوسف باشتداد وطأته ، وكثرت السعايات فى حقه ، نكبه وأمر باعتقاله ونفيه إلى المرية ، وذلك فى رجب سنة ٧٤٠هـ . ولكنه اضطر إلى أن يعيده إلى الوزارة بعد ذلك ببضعة أشهر ، حينما شعر بالفراغ الذى أحدثه تنحيه عن تدبير الشئون ، فاستمر فى منصبه حتى نهاية عهده(٣).

وكان من بين وزراء السلطان يوسف ، الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبو الحسن على بن الجياب ؛ وقد تقلب فى ديوان الإنشاء حتى ظفر برياسته . وكان من زملائه وأعوانه فى ديوان الإنشاء عبدالله بن الخطيب والد لسان الدين . ولما توفى عبد الله خلفه فى خدمة القصر ولده لسان الدين ، وغدا أميناً لابن الجياب . فلما توفى ابن الجياب سنة ٧٤٩هـ فى الوباء الكبير خلفه فى الوزارة ، وبزغ نجم مجده من ذلك الحين .

وفى عهد السلطان يوسف كثرت غزوات النصارى لأراضى المسلمين ، وكان ألفونسو الحادى عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة . ولما شعر يوسف

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٨ و٥٤٩ .

(٢) كانت مدرسة غرناطة تقوم إزاء المسجد الجامع وراء القيسرية . وقد أقيمت كتدرائية غرناطة مكان المسجد الجامع ، ولبثت المدرسة قائمة حتى القرن الثامن عشر ، ثم هدمت وأقيم مكانها بناء آخر ، ولم يبق منها إلا بعض أبهائها القديمة . ونقلت معظم زخارفها ونقوشها إلى متحف غرناطة .

(٣) راجع الإحاطة ج ١ ص ٥١٨ وما بعدها .

باشتداد وطأة القشتاليين ، وضعف وسائله فى الدفاع ، أرسل يستنجد بالسلطان أبى الحسن على بن عثمان ملك المغرب ، فأرسل الأمداد للمرة الثانية إلى الأندلس مع ولده الأمير أبى مالك ، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد . وتوجست اسبانيا النصرانية من مقدم الجيوش المغربية شراً ، واعتزمت أن تواجه الغزاة فى قواها المتحدة ، فسار أسطول مشترك من سفن قشتالة وأراجون والبرتغال ، إلى مياه جبل طارق ، بقيادة الدون چوفرى تنوريو لمنع الأمداد عن جيوش المغرب ، وبارك البابا الحملة ، وسارت قوى اسبانيا المتحدة للقاء المسلمين . وكان أبو مالك فى تلك الأثناء قد زحف إلى أراضى النصارى ، واجتاح سهل بجانة[1] وحصل على غنائم لا تحصى ؛ وهنا فاجأه الإسبان قبل أن يستطيع الارتداد إلى أراضى المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية هزم فيها المسلمون هزيمة شديدة وقتل أبومالك ، وكان ذلك فى أواسط سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ م) .

وعندئذ عول السلطان أبو الحسن على العبور بنفسه إلى الأندلس ، ليثأر لتلك الهزيمة المؤلمة ، فجهز الجيوش والأساطيل الضخمة ، وبلغ أسطول المغرب يومئذ مائة وأربعين سفينة منها عدد كبير من السفن الحربية ، وجاز السلطان البحر إلى الأندلس فى أوائل المحرم سنة ٧٤١ هـ (يوليه سنة ١٣٤٠م) ونزل بسهل طريف ولحق به السلطان يوسف فى قوات الأندلس . وكانت الجيوش الإسبانية قد نفذت يومئذ إلى أعماق مملكة غرناطة ، ووصلت إلى بسائط الجزيرة الخضراء ، ورابط الأسطول النصرانى فى مياه المضيق بين المغرب والأندلس ، لمنع قدوم الأمداد والمؤن ، وضرب النصارى الحصار حول ثغر طريف وتغلبوا على حاميته ، ومضت أشهر قبل أن يقع اللقاء الحاسم بين الفريقين ؛ فشحت الأقوات بين المسلمين ، ووهنت قواهم . وكان الجيش الإسلامى يرابط عندئذ فى السهل الواقع شمال غربى طريف على مقربة من نهر « سالادو » الصغير الذى يصب فى المحيط الأطلنطى عند بلدة كونيل التى تبعد قليلا عن رأس طرف الغار . وفى يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) نشبت بين الفريقين معركة عامة على ضفاف نهر سالادو ، وتولى السلطان أبو الحسن قيادة جيشه بنفسه ، وتولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ، ويقال إن الأندلسيين كانت لديهم فى تلك الموقعة آلات تشبه المدافع ، وهى الآلات التى تطورت فيما بعد وكانت تسمى « بالأنفاط » .

---

(١) وهو بالإسبانية **Pechina**

وتقدم ألفونسو الحادى عشر بجيشه لمهاجمة المغاربة، فصمد فى البداية بقوة، واشتبك فرسان الأندلس مع جيش البرتغال . ولكن حدث عندئذ أن تسللت حامية طريف النصرانية من الجنوب وانقضت على مؤخرة الجيش الإسلامى ، فدب الخلل إلى صفوفه ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وقتل من المسلمين عدد جم ، وسقط معسكر سلطان المغرب الخاص فى يد النصارى وفيه حريمه وحشمه وبعض أولاده ، فذبحوا جميعاً على الأثر بوحشية مروعة ، وانتثرت قوات المسلمين وبددت ؛ وفر السلطان أبو الحسن، واستطاع أن يعبر إلى المغرب مع فلوله ؛ وارتد السلطان يوسف إلى غرناطة ، وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة « العقاب »(١) وكان لها أعمق وقع فى المغرب والأندلس(٢).

وانتهز ملك قشتالة فرصة ظفره وضعف المسلمين، فغزا قلعة بنى سعيد أو قلعة يحصب من أحواز غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير (٧٤٢ هـ)(٣). وكان ملك المغرب فى أثناء ذلك يضطرم ظمأ للانتقام ، ويحشد قواته من جديد . ولما كملت أهبته أرسل أساطيله إلى مياه المضيق ، وسار بالجيش إلى سبتة ، وبادر ملك قشتالة من جانبه بإرسال أسطوله للقاء المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة بحرية هزم فيها المسلمون ومزق أسطولهم (٧٤٣ هـ — ١٣٤٢م) . وحاصر النصارى ثغر الجزيرة الخضراء، وسار السلطان يوسف فى جيشه لإنجاد الثغر المحصور، وكان جيشه مجهزاً بالآلات القاذفة الجديدة التى تشبه المدافع ، ولكنه لم يفلح واضطر المسلمون إلى التسليم ، وبذلك أضحى الثغران الجنوبيان المشرفان على مضيق

---

(١) هى الموقعة التى نشبت بين الموحدين والنصارى فى الأندلس على مقربة من أبدة فى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وفيها هزم الموحدون هزيمة شديدة . وتسمى موقعة العقاب وبالإسبانية Las Navas de Tolosa وقد سبقت الإشارة إليها .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦١ و٢٦٢ ؛ والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٦٥ و٦٦ ، واللمحة البدرية ص ٩٢ و٩٣ . ويوجد فى متحف كتدرائية مدينة طليطلة علمان كبيران من أعلام السلطان أبى الحسن كانا ضمن غنائم النصارى فى هذه الموقعة ، وقد نقشت عليهما آيات قرآنية وأدعية واسم السلطان أبى الحسن .

(٣) قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد هى بلدة حصينة تقع شمال غرناطة ، وجنوب غربى جيان . وسميت قلعة بنى سعيد لأنها كانت منزل أسرة بنى سعيد الكتاب والمؤرخين أصحاب كتاب « المغرب » . ومكانها اليوم بلدة Alcalá la Real (القلعة الملكية) الإسبانية .

جبل طارق وهما الجزيرة وطريف فى أيدى النصارى ، ولم يبق فى يد المسلمين سوى جبل طارق تؤدى مهمة الوصل بين المغرب والأندلس .

وكانت هذه الأحداث الخطيرة التى وقعت بالأندلس بين النصارى والسلطان أبى الحسن ، موضوعاً لمكاتبات سياسية ، بين بلاط مراكش وبلاط القاهرة . وكان ثمة بين ملوك مصر والمغرب منذ قيام دولة بنى مرين سفارات ومكاتبات ودية متصلة . ففى سنة ٧٣٩ هـ أرسل السلطان أبو الحسن إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون ملك مصر والشأم ، سفارة من بعض أكابر دولته ، وبرفقتهم والدة أخت السلطان الأميرة الحرة تريد الحج ، ومعهم هدية فخمة من عتاق الخيل ونفيس المتاع و الحلى قدرت بأكثر من مائة ألف دينار ، ومصحف كتبه السلطان بيده ، وزين بماء الذهب ووضع فى إطار فخم من الأبنوس والصندل ، ليودع فى الحرم الشريف ، فاستقبلهم الملك الناصر بالقاهرة أعظم استقبال وجهزهم بكل ما يلزم ، وأرسل إلى ملك المغرب هدية جليلة(١). ثم عاد السلطان أبو الحسن ، فكتب على أثر هزائمه أمام النصارى فى البر والبحر ، إلى سلطان مصر الملك الصالح بن الملك الناصر بن قلاوون ، كتاباً ينوه بما كان بينه وبين والد السلطان من رسائل الود ، ويبسط له ما وقع من استغاثة أهل الأندلس به وإعداده الأساطيل لقتال النصارى ، ثم مفاجأة النصارى لسفنه فى البحر بأساطيل قوية ، وزحفهم على الجزيرة الخضراء ومحاولة إنجادها عبثاً ، ومعاونته لصاحب الأندلس بالمال والرجال ، واستطالة الحرب ونفاد الأقوات ، واضطراره إلى عقد الصلح مع النصارى على تسليم الجزيرة ، وما فتحه الله من أخذ جبل طارق قبل ذلك ، وأنه ما زال يتأهب للجهاد بعد عوده . وقد كتب هذا الكتاب فى صفر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) .

ورد ملك مصر على كتاب ملك المغرب ، فى رمضان سنة ٧٤٥هـ ، بكتاب رقيق يبدى فيه أسفه على سقوط الجزيرة الخضراء ، ويعزيه عن فقد أسطوله وما نزل به من هزائم ، ويقول إن الحرب سجال ، وإن فى سلامته الكفاية ، وإن الله قد يمن عليه بالظفر مرة أخرى ، ويبدى اغتباطه لاستيلاء السلطان على ثغر جبل طارق(٢) .

---

(١) المقريزى فى السلوك فى دول الملوك ج ٢ (٢) ص ٤٤٧ و ٤٤٨ ؛ ويصف المقريزى الأميرة الحرة بابنة السلطان ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .

(٢) لم ينقل إلينا القلقشندى فى صبح الأعشى نص هذين الكتابين . ولكن نقلهما إلينا المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٩ — ٥٤٦ .

ولم يخل عصر السلطان أبى الحجاج يوسف من عقد العلائق الدبلوماسية مع الدول النصرانية . وكان عقدها بالأخص مع مملكة أراجون التى كانت أقرب إلى مسالمة مملكة غرناطة من زميلتها مملكة قشتالة . فى سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٥م) أرسل السلطان سفيره القائد أبا الحسن بن كُماشه إلى ألفونسو الرابع ملك أراجون ليطلب تجديد معاهدة الصلح المعقودة بين المملكتين ، فأجابه إلى ذلك وجددت المعاهدة .

وفى أواخر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٥ م) عقد السلطان يوسف مع بيدرو الرابع ملك أراجون ، معاهدة صلح ومهادنة جديدة ، فى البر والبحر ، لمدة عشرة أعوام على يد سفيره القائد المذكور ، وطلب إلى السلطان أبى الحسن المرينى ، ملك المغرب ، أن يوافق على هذا الصلح فوافق عليه ، وأبرمه من جانبه ، بنفس الشروط ولنفس المدة التى يسرى فيها ، وذلك حسبما يدل عليه عهد الموافقة الذى أصدره بتاريخ صفر سنة ٧٤٦ هـ (يونيه ١٣٤٥ م)(١) .

وهنا طافت بالأندلس واسبانيا تلك النكبة المروعة التى عصفت بالمشرق والمغرب معا ، ونعنى بذلك الوباء الكبير الذى اجتاح سائر الأمم الإسلامية وحوض البحر الأبيض المتوسط فى سنة ٧٤٩هـ — ٧٥٠ هـ (١٣٤٨ م) . وكان بدء ظهوره على ما يرجح فى إيطاليا فى ربيع هذا العام . وحمل من الأندلس كثيراً من سكانها ، وفى مقدمتهم عدة من رجالها البارزين من الكبراء والعلماء . وقد وصف لنا الوزير ابن الخطيب تلك المحنة التى كان معاصراً لها وشاهد عيان لروعها وفتكها فى رسالة عنوانها : « مُقنعة السائل عن المرض الهائل » ، وكذلك وصف لنا عصف الوباء بثغر ألمرية شاعر ألمرية الكبير ابن خاتمة فى رسالة عنوانها « تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد »(٢) .

ولبث ملك قشتالة أعواماً أخرى على خطته من إرهاق المملكة الإسلامية والعيث فيها ، والمسلمون يدافعون جهد استطاعتهم ، وأمراء المغرب مشغولون عن نجدتهم بما أصابهم من هزائم متوالية ، وما شجر بينهم من خلاف . وفى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م) غزا النصارى سهول الجزيرة الخضراء مرة أخرى ، وكان ملك قشتالة يرمى بهذه الغزوة إلى غاية هامة هى الاستيلاء على جبل طارق . وكان هذا

---

(١) Archivo de la Corona de Aragón No. 52; Alarcón y Santón : Documentos Arabes Diplomáticos, Nos. 41, 56, & 96

(٢) توجد هاتان الرسالتان ضمن مجموعة خطية تحفظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٧٨٥ وقد نشرت رسالة ابن الخطيب مع ترجمتها الألمانية فى مجلة أكاديمية العلوم البافارية (سنة ١٨٦٣) .

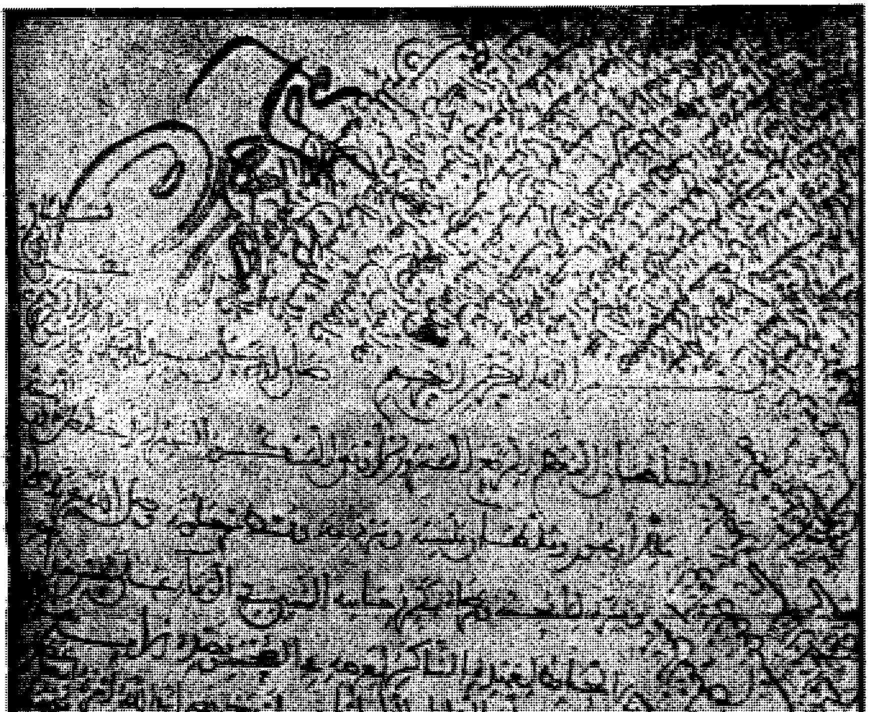

صورة رسالة من السلطان يوسف أبي الحجاج إلى دون المنشة (ألفونسو) ملك أراجون بشكره فيها على حسن لقائه لسفيره ، ويقرر تجديد الصلح المعقود بينهما ، مؤرخة فى ذى الحجة سنة ٧٣٥ هـ (يوليه ١٣٣٥ م) ، ومحفوظة بمحفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٣٨ .

الثغر ما يزال منذ عصور أمنع ثغور المسلمين وأشدها مراسا . فلما رأى النصارى استحالة أخذه عنوة ، ضربوا حوله الحصار الصارم ، وكانت تدافع عنه حامية مغربية قوية ، ورابط ملك غرناطة بجيشه فى مؤخرة النصارى ؛ واستمر حصار جبل طارق زهاء عام كامل والمسلمون صامدون كالصخرة التى يدافعون عنها ، وقد عيل صبر الغزاة ودب الوهن إلى نفوسهم . ثم فشا الوباء فى الجيش النصرانى وهلك ملك قشتالة فى مقدمة من هلك من جنده ، فكان ذلك نذيراً بخلاص الثغر المنيع والمدافعين عنه ، واضطر النصارى إلى رفع الحصار (٧٥١هـ — ١٣٥٠م) . وأنقذ المسلمون بذلك من كارثة فادحة ، وأبدى المسلمون بهذه المناسبة ضروبا مؤثرة من تسامح الفروسة ، فتركوا موكب الملك المتوفى ، يخترق طريقه إلى إشبيلية دون تعرض ، وارتدى كثير من أكابرهم شارة الحداد مجاملة وتكريما ، وخلف ألفونسو على العرش فى الحال ولده پيدرو (بطره) الملقب بالقاسى(١) .

ووصف ابن الخطيب كاتب الأندلس وشاعرها ، وقد كان يومئذ من كتاب السلطان يوسف ، هذه الأحداث الخطيرة فى رسالة بعث بها السلطان إلى ملك المغرب ، وفيها يشير إلى مهاجمة العدو لجبل طارق وطمعه فى الاستيلاء على الأندلس ويقول : « وانتهز الفرصة بانقطاع الأسباب وانبهام الأبواب ، والأمور التى لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب ، وتكالب التثليث على التوحيد ، وساءت الظنون فى هذا القطر الوحيد ، المنقطع بين الأمة الكافرة ، والبحور الزاخرة والمرام البعيد » ثم يصف كيف تداركت رحمة الله الأندلس بعد ذلك فهزم العدو ولم يبلغ مراما(٢) .

وكان لحصار جبل طارق ، ومصرع ملك قشتالة تحت أسواره ، صدى عميق فى المغرب وفى أنحاء العالم الإسلامى . ويشير الرحالة الأشهر ابن بطوطة الطنجى الذى زار الأندلس بعد ذلك بقليل فى رحلته إلى تلك الحوادث ، وإلى ما كان يتصوره ملك قشتالة ، من أنه أضحى على وشك الاستيلاء على ما بقى من بلاد الأندلس ، فأخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء ، وقد كان من أشد الناس خوفاً منه ، ثم يصف لنا أهمية جبل طارق الدفاعية وما بذله السلطان أبو الحسن عقب استرداده من جهود فادحة لتحصينه ، وتجديد أسواره وحصونه ، وإنشائه لدار الصناعة ، وما قام به ولده السلطان أبو عنان بعد ذلك من تجديد تحصيناته ، وشحنه

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) راجع هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٠ و ٥٧١ .

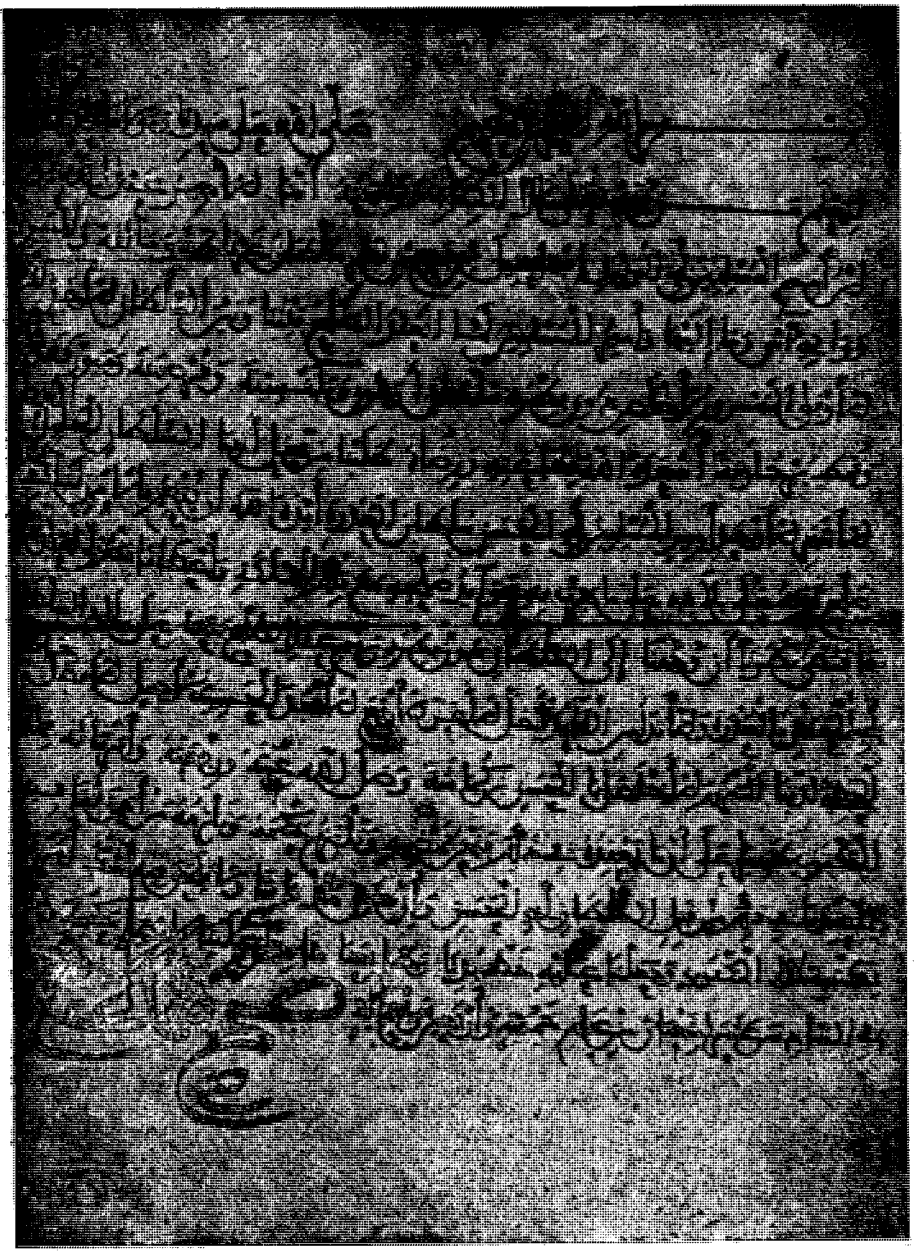

صورة وثيقة اعتماد صادرة من السلطان يوسف أبي الحجاج إلى وزيره القائد ابن كماشة الذى أرسله سفيراً إلى پيدرو الرابع (دون بطره) ملك أراجون ليقوم بعقد الصلح بينه وبين السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب مؤرخة فى شعبان سنة ٧٤٥ هـ (ديسمبر ١٣٤٤م) ومحفوظة بمحفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٥ .

بالعدد والأقوات . ويصف لنا ابن بطوطة بعد ذلك ثغور الأندلس وقواعدها الأخرى التى طاف بها يومئذ ، مثل رندة ومربلة ومالقة وبلش ، وماشاهده فيها من الخيرات والصناعات الفريدة ، ولاسيما صناعة الخزف بمالقة ، ثم يعرج على غرناطة وينعتها بعروس الأندلس ، ويصف لنا رياضها وبساتينها الغراء ، ويشير إلى مذكيها فى عهد دخوله إياها ، وهو السلطان أبوالحجاج يوسف ، ولم يوفق يومئذ إلى لقائه لمرض ألمّ به .

وتدلى أوصاف ابن بطوطة بأن الأندلس كانت يومئذ ، بالرغم من توالى غارات النصارى عليها وعيثهم فى ربوعها ، بلاداً زاهرة نضرة ، تزخر بالخيرات والنعم ، وتموج بالملايين من سكانها النشطين الأذكياء ، وصناعاتها الممتازة ، وتحتشد فيها جمهرة كبيرة من العلماء والفقهاء والكتاب والشعراء مما يدل على أنها كانت فى هذا العصر تجوز أيضاً نهضة أدبية زاهرة(١) . ولا غرو فقد كان هذا العصر هو الذى سطع فيه نجم ابن الخطيب أعظم كتاب الأندلس وشعرائها فى المائة الثامنة ، وبلغ فيه الشعر والترسل يومئذ ذروة الروعة والبهاء .

واستمر أبو الحجاج يوسف فى الحكم بضعة أعوام أخرى ، ساد فيها السلام والأمن ، ولكنه ما لبث أن قتل غيلة أثناء صلاته بالمسجد الأعظم فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥هـ (أكتوبر سنة ١٣٥٤م) ، قتله مخبول لم يفصح عن بواعثه وأغراضه ، فمزق وأحرق بالنار على الأثر(٢) . وكان مقتله وهو فى السابعة والثلاثين فى عنفوان فتوته ومجده . ويصف لنا ابن الخطيب ، وقد كان من شهود هذا المنظر المؤسى ، مقتل السلطان ، فى قوله من رسالة بعث بها إلى السلطان أبى عنان ملك المغرب « ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب ، وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب ، إلا شقى قيضه الله تعالى لسعادته ، غير معروف ولا منسوب ، وخبيث لم يكن بمعتبر ولامحسوب ، تخلل الصفوف المعقودة ، وتجاوز الأبواب المسدودة ، وخاض الجموع المحشودة ، لا تدل العين عليه شارة ولا بزة ، ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزة ، وإنما هو خبيث ممرور وكلب عقور ، وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور ، فلما طعنه وأثبته وأعلق به شرك الحين ، فما أفلته حتى قبض عليه من الخلصان الأولياء ، من خبر ضميره وأحكم تقريره ، فلم يجب عند الاستفهام

(١) راجع رحلة ابن بطوطة (مصر) ج ٢ ص ١٨٣ — ١٨٨ .
(٢) اللمحة البدرية ص ٩٧.

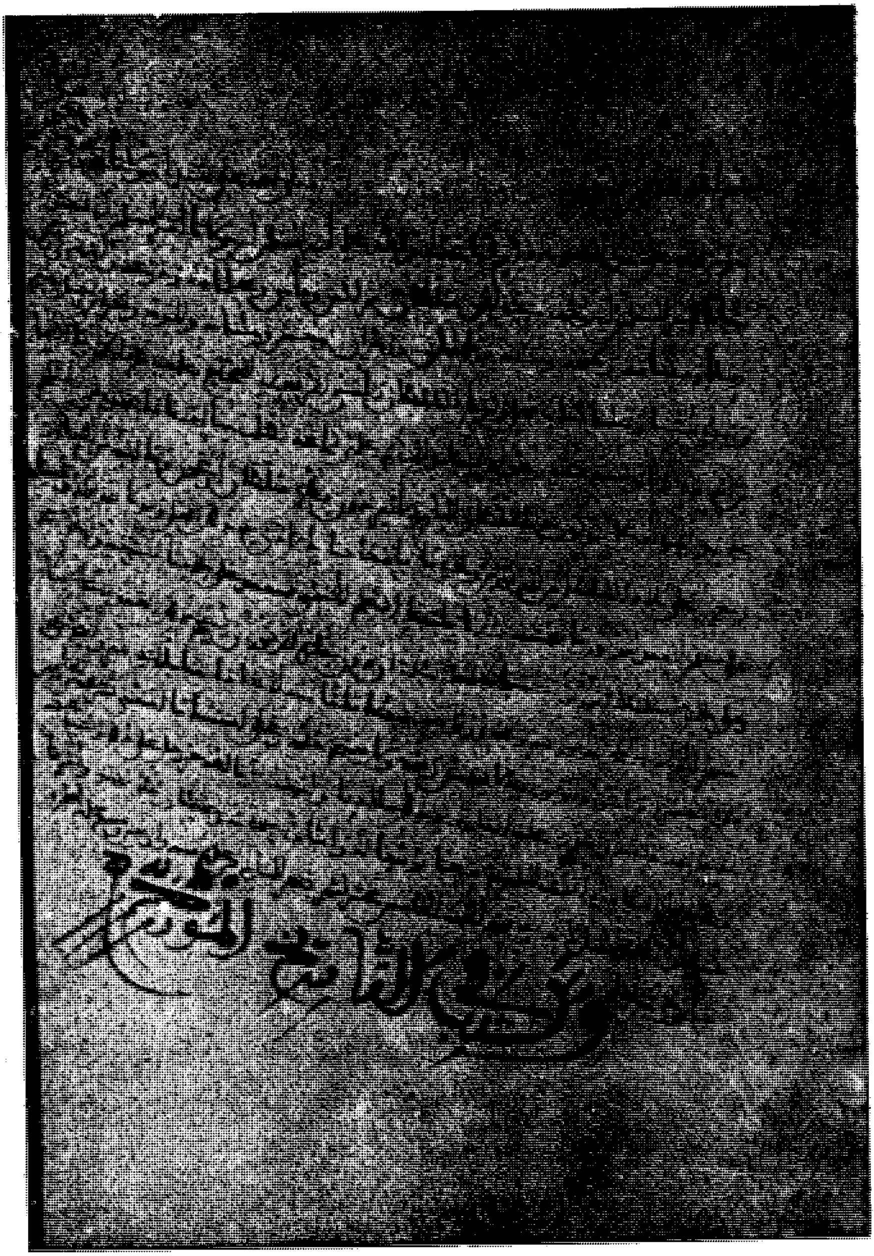

صورة وثيقة صادرة من السلطان أبي الحسن المرينى ملك المغرب بالموافقة على الصلح الذى عقده باسمه سلطان غرناطة يوسف أبو الحجاج مع پيدرو الرابع (دون بطره) ملك أراجون مؤرخة فى صفر سنة ٧٤٦ هـ (يونيه ١٣٤٥ م) ومحفوظة بمحفوظات التاج الأرجونى برقم ٥٢ .

جواباً يعتمل ولا عثر على شيء عنه ينقل ، لطفاً من الله أفاد براءة الذمم ، وتعاورته للحين أيدي التمزيق . وأتبع شلوه بالتحريق »(١). ودفن السلطان الشهيد في مقبرة الحمراء إلى جانب آبائه مبكياً عليه من شعبه بدموع غزيرة . وكان السلطان يوسف في الواقع أعظم ملوك غرناطة همة وعزماً ، وأبدعهم خلالا ، وكان فوق فروسته ونجدته عالماً أديباً ، شغوفاً بالعمارة وإقامة الصروح الباذخة ، وهو الذى شيد البرج الأعظم بقصر الحمراء ، وأنشأ به أفخم أجنحته وأبدعها ، وهو الذى أسبغ على هذا الصرح العظيم بمنشآته وزخارفه ، بهاءه وروعته التي ما زال يحتفظ بلمحة منها . وفي عصره زهت العلوم والآداب ، وذاعت شهرة العلماء المسلمين ، ولا سيما في الفلك والكيمياء .

وهكذا لبث بلاط غرناطة حقبة يقف من دولة بني مرين مواقف متناقضة ، ويتردد بين سياسة التحالف والقطيعة ، وبين الثقة والتوجس ؛ وليس من شك في أن بني مرين كانوا عضداً قيما لمملكة غرناطة الناشئة ، وقد أدوا لها في ميدان الجهاد وفي مقاتلة النصارى خدمات جليلة ، وبذلوا في ذلك السبيل تضحيات جمة ، وأعادوا بانتصارهم على النصارى في غير موقعة حاسمة ، ذكريات الزلاّقة والأرك ؛ ولولا غوث بني مرين ، واشتغال مملكة قشتالة بحوادثها الداخلية غير مرة ، لما اشتد ساعد بني الأحمر ، وسطعت دولتهم خلال هذه الفترة المليئة بالحوادث الجسام ، واستطالت أيام الإسلام بالأندلس زهاء مائة عام أخرى . وقد كان من سوء الطالع ألا يدرك بلاط غرناطة خطر الخلاف ، مع الحليف الطبيعي الذى رتبه القدر فيما وراء البحر ، لإنجاد الأندلس عند الخطر الداهم ، وأن يجنح من آن لآخر إلى مخاصمة هذا الحليف ومحاربته ، كما حدث حينما استولى ابن الأحمر على سبتة . كذلك لم تخل سياسة بني مرين إزاء مملكة غرناطة أحياناً ، من الالتواء وبث الشكوك في نفوس أمراء بني نصر ، بما كانت تجنح إليه من مداخلة الخوارج عليهم . وهكذا كانت قوى الإسلام تبدد في معارك أهلية ، وقد كان حرياً أن تتضافر على مغالبة العدو المشترك . على أن الدولة المرينية ذاتها ، تدخل منذ وفاة السلطان أبي الحسن في سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١ م) في دور انحلالها ، وتنحدر إلى غمر الحرب الأهلية ، وتشغل بشئونها الداخلية ، وتفقد غرناطة بذلك ، العضد

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦٥ .

الوحيد ، الذى كانت تدخره وقت الشدائد . وقد استمرت العلائق بين غرناطة وبنى مرين عصراً آخر ، ولكنها غدت غير بعيد علائق بلاط ، تغلب عليها دسائس القصور ، وانقطعت الجيوش المغربية عن العبور إلى الأندلس لمقاتلة النصارى ، كما كانت تفعل أيام أبى يوسف وأبى يعقوب وأبى الحسن ، ولم تعبر بعد ذلك سوى مرة واحدة لمعاونة الخوارج فى جبل طارق ضد ملك غرناطة حسبما يجىء ؛ وتركت غرناطة من ذلك الحين إلى مصيرها داخل الجزيرة الإسبانية ، تغالب قوى النصرانية بمفردها ، وقدر استطاعتها ، وكان ملاذها الأخير فى اختلاف كلمة النصارى ، وانشغالهم بذلك الخلاف عن محاربتها .

الفصل الثامن

الأندلس بين المدّ والجزر

ولاية محمد الغنى بالله . وزيره ابن الخطيب . سفارته إلى السلطان أبي عنان . ثورة حاكم جبل طارق المرينى . الثورة فى غرناطة . مقتل الحاجب رضوان . عزل الغنى بالله وفراره . ولاية أخيه اسماعيل . جواز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب . ترحيب ملك المغرب بهما . قصيدة ابن الخطيب . ابن الخطيب وابن خلدون . مصرع سلطان المغرب وتغلب الوزير عمر على الدولة . الثورة فى غرناطة ومقتل السلطان اسماعيل . عبور الغنى بالله وابن الخطيب إلى الأندلس . استرداد الغنى بالله العرش . زيارة ابن خلدون للأندلس وسفارته إلى بلاط قشتالة . الحرب الأهلية فى قشتالة . موقعة نجارا . موقعة مونتيل . مصرع بيدرو ملك قشتالة وولاية أخيه الكونت هنرى . رواية ابن الخطيب عن هذه الحوادث . وزارة ابن الخطيب الثانية . استئثاره بالسلطة وجنوحه إلى الاستبداد . تقلص نفوذه وفراره إلى المغرب . اتهامه بالزندقة ومقتله . بعد نظره السياسى . شعوره بمصير الأندلس . جهود الغنى بالله الإنشائية . توطد الصداقة بينه وبين بلاط مصر . معاهدة صداقة بينه وبين أراجون . سيادة السلام والأمن فى عصره . غزواته فى أرض النصارى . وفاته وولاية يوسف الثانى . وزيره خالد . عقد السلم بين الأندلس وقشتالة. ثورة محمد ولد يوسف . وفاة يوسف وولاية ولده محمد . اعتقاله لأخيه يوسف . الوزير ابن زمرك ومصرعه . الحرب بين المسلمين والنصارى . استنجاد الأندلس بملوك المغرب . غزو النصارى لأحواز رندة . غزو المسلمين لأراضى قشتالة . الهدنة بين الفريقين . وفاة محمد . تنظيم العلائق الدولية بين غرناطة وأراجون . ولاية يوسف الثالث . نقض القشتاليين للهدنة . زحفهم على أراضى غرناطة. سقوط أنتقيرة وهزيمة المسلمين . تجديد الهدنة . ثورة جبل طارق وإخمادها . السلم بين المسلمين والنصارى. حفلات الفروسية الأندلسية . وفاة السلطان يوسف وولاية ولده محمد الأيسر . صرامته وتكبره . الوزير يوسف بن سراج . بنو سراج وأصلهم . تعاقب الفتن فى غرناطة . غزوات النصارى . نشوب الثورة وسقوط الأيسر . ولاية محمد الزغير . خلاله وصفاته . مطاردته لبنى سراج . التجاؤهم إلى بلاط قشتالة . السعى لإعادة الأيسر . زحفه على غرناطة ودخوله الحمراء . مصرع الزغير وولاية الأيسر الثانية. الحرب بين الأيسر والنصارى . الفتن والدسائس حول غرناطة . قيام يوسف بن المول بمعاونة النصارى. عهده بالخضوع لملك قشتالة . تغلبه على الأيسر وانتزاعه العرش . وفاته وولاية الأيسر الثالثة. الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لجبل طارق وهزيمتهم . تطور الحوادث فى غرناطة . ثورة محمد الأحنف وولايته . الأمير ابن إسماعيل وسعيه لانتزاع العرش . تدخل النصارى ودسائسهم. الحرب الأهلية فى غرناطة . هزيمة الأحنف وولاية ابن اسماعيل . تضارب الرواية فى شأن ولاية العرش . خلال ابن اسماعيل وصفاته . الخلاف بينه وبين قشتالة . غزو القشتاليين لغرناطة . سقوط جبل طارق . انحلال دولة بنى مرين وقيام دولة بنى وطاس . قصور المغرب عن إنجاد الأندلس . خضوع سلطان غرناطة لقشتالة . الصراع بين العرش والأسر الكبيرة . تفكك المملكة الإسلامية . ولاية السلطان سعد . الخلاف بينه وبين ولده أبى الحسن . رواية رحالة مصرى عن هذه الحوادث . فتح الترك لقسطنطينية وصداه فى اسبانيا . إحياء النزعة الصليبية .

لم تمض ساعات قلائل على مصرع السلطان يوسف أبي الحجاج فى صبيحة يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ ، حتى خلفه فى الملك ولده محمد الملقب بالغنى بالله؛ وكان حدثاً يافعاً، فاستأثر بشئون الدولة حاجبه ومولى أبيه من قبل أبو النعيم رضوان. وكانت غرناطة بعد ما توالى عليها من الخطوب والأزمات فى أواخر عهد أبيه يوسف ، قد تنفست الصعداء نوعاً منذ وفاة ملك قشتالة . وكان من بين كتابه ثم وزرائه لسان الدين بن الخطيب ، مؤرخ الدولة النصرية وأعظم كتاب الأندلس وشعرائها يومئذ . وكان هذا المفكر البارع ، أحد رجلين عظيمين شغلا يومئذ فى الغرب الإسلامى ، مركز الصدارة فى التفكير والكتابة ، هما ابن خلدون وابن الخطيب. وكان مولد ابن الخطيب فى لَوْشة(١) من أعمال غرناطة فى سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣م) ، ودرس اللغة والأدب والطب والفلسفة ، وبرز فى النثر والنظم(٢)، وخدم الدولة منذ حداثته ، فتولى ديوان الكتابة للسلطان أبي الحجاج ، ثم انتقل إلى خدمة ولده محمد ، فلم يلبث أن نال ثقته ورقاه إلى مرتبة الوزارة ، وأوفده بعد ولايته بقليل على رأس وفد من كبراء الأندلس سفيراً من قبله ، إلى ملك المغرب السلطان أبي عنان المرينى (أواخر سنة ٧٥٥ هـ) يستنصره على مغالبة طاغية قشتالة ، وليؤكد بينهما عهد الصداقة والمودة ، جرياً على سنة أسلافه من ملوك بني الأحمر ، فاستقبله السلطان بحفاوة ، وأنشد بين يديه قصيدة هذا مطلعها :

خليفة الله ساعدَ القدرُ   عُلاك ما لاح فى الدجى قمرُ
ودافعتْ عنك كفُّ قدرته   ما ليس يستطيع دفْعَه البشرُ

فتأثر السلطان لقصيدته، ووعد بإجابة سائر مطالبه؛ وهكذا أدى ابن الخطيب سفارته بنجاح ، وكان له فيما تلا من حوادث الأندلس أعظم نصيب(٣) .

وفى أواخر سنة ٧٥٦ هـ (أواخر سنة ١٣٥٥ م) ، حاول حاكم جبل طارق المرينى عيسى بن الحسن بن أبي منديل أن يثير ضرام الثورة ، وكانت محاولة خطيرة ربما أفسحت للنصارى ثغرة يضربون منها الأندلس وجحافل المغرب، ولكن أهل جبل طارق نكلوا عن مؤازرة الثائر، وأخمدت ثورته فى المهد ، وقبض

---

(١) لوشة وبالإسبانية **Loja** تقع على مسافة خمسة وخمسين كيلومتراً من غربى غرناطة ، وهى اليوم بلدة متواضعة ، وقد كانت أيام الدولة الإسلامية بلدة زاهرة .

(٢) سنعود إلى ترجمة ابن الخطيب واستعراض حياته الأدبية بإفاضة فى الكتاب الرابع .

(٣) راجع الإحاطة (المقدمة ص ٣٧) ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٧٣ .

عليه وعلى ولده . وأرسلا مصفدين إلى المغرب فقضى بإعدامهما ؛ وأرسل السلطان أبو عنان إلى جبل طارق ولده أبا بكر السعيد ومعه قوة من الفرسان ، لحماية الثغر وتجديد تحصيناته(١) .

وفى أوائل عهد السلطان محمد ، شغلت قشتالة بحروبها الداخلية ، فأمنت غرناطة شر العدوان مدى حين . ولكن الحوادث الداخلية كانت تؤذن بتطورات جديدة . ففى رمضان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) نشبت فى غرناطة ثورة فقد فيها الغنى بالله ملكه . وكان أخوه إسماعيل المعتقل فى بعض أبراج الحمراء ، تؤازره جماعة من الزعماء ، وفى مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله، وتدعو له سرًّا ، وتترقب الفرص للوثوب بمحمد ؛ وكانت أمه المقيمة بالقصر تؤيد مشاريعه بالسعى والبذل الوفير ، وكان السلطان محمد قد تحول بولده إلى سكنى قصر جنة العريف الواقع شمال شرقى الحمراء ، فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك ، وهاجموا حصن الحمراء (٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ) ، ونفذوا إلى قصر الحاجب رضوان وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا بإسماعيل أخى الساطان ملكاً مكانه . وشعر محمد بعقم المدافعة ، ففر إلى وادى آش . وحاول ابن الخطيب مصانعة السلطان الجديد ، فاستبقاه فى الوزارة لمدى قصير . ثم ارتاب فى نياته وأمر باعتقاله ومصادرة أمواله، وكذلك أمر السلطان الجديد بعزل شيخ الغزاة يحيى بن عمر ابن رحّو من منصبه والقبض عليه ، وعين مكانه فى مشيخة الغزاة ، إدريس ابن عثمان بن أبى العلاء ، وكان وقت نكبة أسرته ، قد فر إلى أراجون واحتمى بملكها ، فاستدعاه السلطان الجديد ، وأسند إليه منصب أسرته القديم .

وكانت تربط السلطان المخلوع علائق مودة وصداقة بملك المغرب ، السلطان أبى سالم ولد السلطان أبى الحسن . وكان أبوسالم قد لجأ إليه حينما تغاب عليه أخوه السلطان أبوعنان ونفاه إلى الأندلس فأكرم محمد مثواه . ولما وقعت الفتنة وخلع محمد ، رعى له أبوسالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل إلى غرناطة سفيراً يسعى لدى حكومتها ، فى إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فنجح السفير فى مهمته ، وعاد إلى المغرب ومعه محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة ٧٦١ هـ) . واستقبلهما أبو سالم فى فاس أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة ، يدعوه فيها لنصرة

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ج ١٨٤ .

سلطانه وغوثه ، هذا مطلعها :

سـلا هل لديها من مخـبرة ذكرُ ... وهل أعشب الوادى ونمّ به الزهر
وهل باكَرَ الوسمى داراً على اللوى ... عفت آيها إلا التوهّمُ والذكر
بلادى التى عاطيتُ مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربى جناحى وكره ... فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

ومنها :

قصدناك يا خير الملوك على النـوى ... لتنصفنا مما جنى عبـدك الدهر
وأنت الذى تُدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيالمرين جاءه العـز والنصر

فكان لإنشاده أعظم وقع فى النفوس ، وتأثر السلطان لدعوته وندائه أيما تأثر (١) . ولبث السلطان المخلوع فى بلاط فاس حيناً ، وتوثقت بينه وبين المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة المرينية ، روابط المحبة والصداقة ، وعقدت أيضاً بين المؤرخ وبين قرينه ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثقت فيما بعد . وكان كلا المفكرين العظيمين يقدر مواهب صاحبه ويحله أسمى مقام ، وكان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة . وكان محمد ابن الأحمر يؤمل أن يسترد ملكه المنزوع بمعاونة پيدرو الثانى (بطره) ملك قشتالة تنفيذاً للاتفاق الذى عقد بينهما ، ولكنه لم يفعل شيئاً لتحقيق هذا الأمل . والواقع أن ملك قشتالة كان مشغولا بشئون مملكته وما يسودها من اضطراب ، فآثر أن يعتمد السلم مع سلطان غرناطة الجديد . وفى أثناء ذلك حدث انقلاب لقى فيه السلطان أبو سالم مصرعه ، واستبد بالدولة الوزير عمر بن عبد الله ، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه على استرداد ملكه ، فاستجاب إليه الوزير ، وما زال محمد يدبر أمره بمعاونته ، حتى تهيأت الفرصة بوقوع الثورة فى غرناطة ، ومقتل منافسه السلطان إسماعيل ، على يد المتغلب عليه الرئيس أبى سعيد ؛ فجاز إلى الأندلس ونزل بمالقة ، ثم سار إلى رندة ، وكانت عندئذ من أملاك بنى مرين ، وقد نزل له عنها الوزير عمر بن عبد الله ، وسار منها فى صحبه وعصبته إلى غرناطة فاستولى عليها ، وفر الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة ، واسترد محمد ملكه (جمادى الآخرة

(١) الإحاطة ، المقدمة ص ٣٨ — ٤٣ ؛ واللمحة البدرية ص ١٠٨ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٩٤ و١٩٥ .

سنة٧٦٣هـ — ١٣٦١م) وما لبث أن لحق به وزيره ابن الخطيب استجابة لدعوته ، وعاد إلى سابق مكانته ونفوذه . وكان فى مقدمة ما فعله الغنى بالله أن قبض على إدريس بن أبى العلاء وقرابته من الغزاة ، وأودعوا السجن ، ومحا خطة مشيخة الغزاة من بنى مرين ، وأسندها لابنه وولى عهده الأمير يوسف ، فلبث مضطلعا بها زهاء ثلاثة أعوام . وكان على بن بدر الدين بن موسى بن رحُو ، مقدما على الغزاة فى منطقة وادى آش ، وكان حينما فقد الغنى بالله ملكه ، قد صحبه فى منفاه . ولما عاد إلى الأندلس ، عاد معه . فلما فكر الغنى بالله فى إحياء مشيخة الغزاة ، وبحث عمن يسندها إليه ، وقع اختياره على على بن بدر الدين هذا ، فعينه فيها (٧٦٧ هـ) ، ولكنه ما لبث أن توفى بعد عام فقط من تقلده إياها ، فعندئذ قرر الغنى بالله أن يمحو هذه الخطة نهائياً من خطط مملكته ، وصار أمر الغزاة والمجاهدين إلى السلطان مباشرة ، وعنى بشئونهم بنفسه ، وخص القرابة المضطلعين بها بعطفه وتكرمته . وانتهت بذلك رياسة بنى مرين لهذه الخطة الهامة من خطط مملكة غرناطة بعد أن اضطلعوا بها زهاء قرن(١) .

ووفد المؤرخ ابن خلدون بعد ذلك بقليل على غرناطة ، فاحتفى به السلطان وأكرم مثواه ، وأرسله سفيراً عنه إلى بيدرو ملك قشتالة ليوثق أواصر الصداقة بينهما (٧٦٥ هـ — ١٣٦٣ م) ؛ فقصد ابن خلدون إلى بلاط إشبيلية ومعه هدية فخمة ، وأدى سفارته ببراعة ، وحظى بعطف ملك قشتالة وإعجابه . وهو يعرض لنا حوادث هذه السفارة فى « التعريف » بتفصيل شائق ، ويقول لنا إنه عاين آثار أسرته بإشبيلية ، وقد كانت منزل بنى خلدون أيام الدولة الإسلامية ، وفيها سطع نجمهم حيناً ، وإن ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ، وعرفه به وبمكانته طبيب يهودى فى بلاطه يدعى إبراهيم بن زرزر ، وكان قد تعرف به فى مجالس السلطان أبى عنان من قبل ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ أن يبقى فى خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته ليرد إليه تراث أسرته بإشبيلية ، ولكنه أبى . ولما اعتزم ابن خلدون العودة بعد أن أتم مهمته ، وهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين » فأهداهما إلى السلطان . وسر السلطان لنجاحه وأقطعه قرية إلبيرة بمرج غرناطة ، وعاش فى بلاط السلطان فترة أخرى ، معززاً مكرما(٢) .

---

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٧٧ — ٣٧٩ .

(٢) راجع تفاصيل هذه السفارة فى ابن خلدون ، فى « التعريف » أو ترجمته لحياته فى —

ولم يمض قليل على ذلك حتى شغلت قشتالة مدى حين بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، وتمتعت غرناطة خلال ذلك بهدنة قصيرة ؛ وكان پيدرو ملك قشتالة (دون بطره) الملقب بالقاسى ، الذى خلف أباه ألفونسو الحادى عشر فى سنة ١٣٥٠م قد غلا فى استبداده وقسوته ، حتى أنه لم يحجم عن قتل زوجته الملكة بلانش دى بوربون أخت ملكة فرنسا بالسم ، ليتزوج من خليلته ، فسخط عليه الأمراء والأشراف لما نالهم من عسفه ؛ وخرج عليه أخوه غير الشرعى الكونت هنرى دى تراستمارا ، ولد إلينورا دى كزمان، وفر إلى فرنسا ، وتحالف مع ملكها شارل الخامس، على أن يجمع له جيشاً من المرتزقة يقوده إلى قشتالة ؛ وأشرف على تنفيذ المشروع الدوق دى جسكلان زعيم الفروسية الفرنسية يومئذ . وقاد هنرى جيشه إلى قشتالة (١٣٦٦م) ، فلم يقو پيدرو على مقاومته لاشتداد السخط عليه ، وتخلى الشعب عنه ، وفر إلى ولاية جوين الفرنسية فيما وراء البرنيه ، واستغاث بالأمير إدوارد ولى عهد انجلترا ، وقد كان يحكم هذه الأنحاء المحتلة من فرنسا باسم أبيه ، فاستجاب الأمير الإنجليزى لدعوته ، وسار معه إلى قشتالة فى قواته ، واستطاع الكونت هنرى بمعاونة شعبه ، ومعاونة ملك أراجون ، أن يحشد جيشاً عظيما . والتقى الفريقان فى « نجارا » فى الثالث من ابريل سنة ١٣٦٧ ، فهزم الكونت هنرى بالرغم من وفرة جموعه ، وقتل عدد كبير من جيشه ، واسترد پيدرو عرشه . ولكنه لم يف بوعده إلى الأمير الإنجليزى ، ولم يؤد إليه الجزية المشترطة ، فسخط عليه وارتد بقواته إلى الشمال . وعندئذ عادت الثورة إلى الاضطرام فى قشتاله ، ووثب الشعب ببيدرو مرة أخرى ، وعاد أخوه الكونت هنرى فغزا قشتالة فى أنصاره ، ونشبت بين الفريقين فى « مونتيل » موقعة أخرى هزم فيها پيدرو وقتل ، وجلس أخوه مكانه على العرش (سنة ١٣٦٨ م)[1] . وكان بين قوات الملك القتيل فرقة من حلفائه المسلمين ، تعاونه وتذود عنه .

وقد كان وراء هذه الحرب الأهلية ، فيما يبدو خطة نصرانية موضوعة للقضاء على المملكة الإسلامية بالأندلس . ولدينا ما يلقى الضياء على ذلك فى رسالة الوزير ابن الخطيب ، بعث بها فى تلك الآونة ، على لسان سلطانه الغنى بالله ، إلى سلطان

= كتاب العبر ج٧ ص ٤١٢ ، والتعريف (طبعة لجنة التأليف والترجمة) ص٨٤ و٨٥ ؛ والإحاطة ج ٢ ص ١٥ (طبعة قديمة) .

(١) David Hume : History of England (1848) V. II p. 202-205

تلمسان الأمير أبى حمّو عبد الرحمن بن موسى ، فنى هذه الرسالة التى وردت على بلاط تلمسان فى شهر رمضان سنة ٧٦٧ هـ (يونيه سنة ١٣٦٦م) ، والتى وجهها بلاط غرناطة بطلب المعاونة والإنجاد ، يقول لنا ابن الخطيب ، إن كبير دين النصرانية (يريد البابا) ، لما أعيته الحيلة فى جمع كلمة النصرانية فى قشتالة ، حرك من النصارى جموعاً عظيمة لتعين القند (الكونت) على أخيه ، فإذا انتصر واستقل بالملك، تحالف النصارى الإسبان جميعاً ضد المسلمين ؛ وقسم البابا تراث المملكة الإسلامية (الأندلس) بين قشتالة وأراجون ، فتختص منها أراجون بما يلى الشاطىء الشرقى الجنوبى حتى ألمرية، وتختص قشتالة بالباقى ، وتجتمع الأساطيل النصرانية فتحتل الساحل الجنوبى ، وتقطع ما بين المغرب والأندلس ، ويقوم النصارى بالعيث فى أراضى المسلمين ، وإتلاف سائر الغلات والأقوات. ويتوجه بلاط غرناطة بعد شرح هذه الخطة إلى أمير تلمسان بطلب الغوث والإنجاد . وقد استجاب أبو حمو إلى هذا النداء ، وبعث إلى الأندلس بالأموال ، والسفن المشحونة بالخيل والسلاح والأقوات . واستوجبت هذه الأريحية توجيه رسالة أخرى من سلطان غرناطة إلى الأمير أبى حمو معرباً فيها عن خالص الشكر والعرفان(١)

تلك هى الخطة التى يقول لنا ابن الخطيب فى رسالته ، إنها وضعت عندئذ للقضاء على مملكة غرناطة . ولكنها خطة لم يكن لها أى حظ من التنفيذ ، وكانت مملكة غرناطة دائماً يقظة على أهبة الذود والدفاع .

وقد فصل لنا ابن الخطيب حوادث الحرب الأهلية فى قشتالة فى تلك الفترة ، وقد كان معاصراً لها وقريباً من مسرحها . وروايته تدل على حسن اطلاعه، ودقة فهمه لسير الحوادث ، فهو يقول لنا مثلا بعد أن أشار إلى ثورة الكونت هنرى على أخيه واستيلائه على العرش :

« ولما توسد له الأمر تحرك لاستئصال شأفة المخلوع ، فأجلى عن غليسية فى البحر ، واستقر وراء دروب قشتالة ، وانتبذ عن الخطة القشتالية ،ولجأ إلى ابن صاحب الأنتكيرة (انجلترا) وهو المعروف ببرقسين ، وبين أرضه وبين قشتالة ثمانية أيام ، فقبله ولد السلطان المذكور بأول ما تلقاه من تلك الأرض ، وسفر

(١) وردت رسالة ابن الخطيب فى كتاب « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » تأليف الوزير يحيى بن خلدون (طبع الجزائر ١٩١٠) ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧٤ ، ووردت به الرسالة الثانية ، وهى أيضا من إنشاء ابن الخطيب ، فى ص ١٧٤ — ١٨١ .

بينه وبين أبيه ، فأنكر الأب استئذانه إياه والمراجعة فى نصره ، حمية له وامتعاضاً منه . وحال هذه الأمة غريبة فى الحماية الممزوجة بالوفاء، والرقة والاستهانة بالنفوس فى سبيل الحمية ، عادة العرب الأول ، وأخبارهم فى القتال غريبة ... وبعد انقضاء سبعة عشر يوما ، كان رجوعه ورجوع الرئيس المذكور معه ، مصاحباً بأمراء كثيرين من أخدانه ، وبعد أن تسلموا ما لا كثيراً ... وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس أبريل العجمى بموافقة شعبان من عام ثمانية وستين (ابريل ١٣٦٧ م) . وكان هذا الجمع الإفرنجى آتين من الأرض الكبيرة (فرنسا) وكان على مقدم القوم الدك (الدوق) أخو البرنس (Prince of Wales) ، وكان فى مقدمة القند (الكونت) المستأثر بملك قشتالة أخوه شانجه (سانشو)... الخ » . ثم يحدثنا بعد ذلك عن هزيمة « القند » وفراره إلى فرنسا ، واستمرار الفتنة بينهم إلى وقت كتابة روايته[١]

تولى ابن الخطيب وزارة الغنى بالله للمرة الثانية ، وهو متمتع بأقصى مراتب العطف والثقة ، واستأثر فى البلاط وفى الدولة بكل نفوذ وسلطة ، وقضى على نفوذ منافسه الوحيد فى السطة وهو شيخ الغزاة عثمان بن يحيى ، وما زال بالسلطان حتى نكبه ، فخلا له الجو وتبوأ ذروة القوة والسلطان . وكان من معاونيه فى الوزارة تلميذه الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله بن زَمْرَك، وقد تولى كتابة السر فى كنفه وتحت رعايته . والظاهر أن اجتماع السلطان والنفوذ فى يد ابن الخطيب على هذا النحو كان سبباً فى انحرافه عن جادة الاعتدال والروية ، فجنح إلى الاستبداد واتباع الهوى، وبث حوله معتركا من البغضاء والخصومة، وكثرت فى حقه السعاية والوشاية ، واتهمه خصومه بالإلحاد والزندقة ، لما ورد فى بعض كتاباته . وشعر ابن الخطيب فى النهاية أن السعاية قد بدأت تحدث أثرها ، وأن عطف مليكه قد فتر ، وخشى العاقبة على نفسه ، فعول على مغادرة الأندلس ، وسار إلى الثغور الغربية فى نفر من خاصته بحجة تفقدها ، فلما وصل إلى جبل طارق عبر البحر فجأة إلى سبتة (٧٧٣ھ) بتفاهم سابق بينه وبين ملك المغرب السلطان عبد العزيز المرينى ، وكانت تربطه به مودة وثيقة . وهكذا غادر ابن الخطيب الوطن والأهل والسلطان ، بعد أن تربع فى الوزارة للمرة الثانية زهاء عشرة أعوام . وخلفه فى الوزارة تلميذه ابن زَمْرك ، وكان قد انقلب عليه فى أواخر أيامه ، وغدا من خصومه ومن أشدهم سعياً إلى نكبته .

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٢٤ — ٢٦ .

وقضى ابن الخطيب فى منفاه زهاء ثلاثة أعوام، واستقر فى فاس معززاً مكرماً ، ولكن السلطان عبد العزيز ما لبث أن توفى ، وساءت الأمور فى عهد ولده الطفل الملك السعيد، ووقع انقلاب انتهى بجلوس السلطان أحمد بن أبى سالم على العرش، وهو صديق الغنى بالله وحليفه . وكان بلاط غرناطة وخصوم ابن الخطيب فى الأندلس يجدّون فى ملاحقته ومطاردته، فسعوا عندئذ لدى بلاط فاس فى القبض عليه واتهامه بالزندقة ، وكلل مسعاهم آخر الأمر بالنجاح ، واعتقل ابن الخطيب وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله تنفيذاً لحكم الدين ، ودس عليه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد ، فقتلوه فى سجنه ، وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ (أواخر ١٣٧٤م) . وهكذا ذهب الكاتب والشاعر الكبير ضحية الغدر السياسى والتعصب الشائن(١) .

وكان ابن الخطيب سياسياً بعيد النظر ، وكان يرى فى حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب ، من نهاية محتومة لهذا الوطن الذى مزقته الأهواء وأضنته الفتنة ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى غوثه ونصرته ، وله فى ذلك رسائل ونداءات عديدة مؤثرة تفيض قوة وبلاغة ، فى الحث على اليقظة ، والذود عن الدين والوطن ، والنذير بما يهددهم ويهدد دينهم ووطنهم ، من خطر المحو والفناء ، إذا تقاعسوا أو تخاذلوا وافترقت كلمتهم(٢) .

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذى ينتظر الأندلس ، ما وجهه فى وصيته إلى أولاده من النصح ، بعدم الإسراف فى اقتنا العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم ما لا بهذا الوطن القلق المهاد الذىء لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع فى العقار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه أن يتغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال

---

(١) تناولنا هذه الحوادث بالتفصيل عند كلامنا عن حياة ابن الخطيب فى الكتاب الرابع . وراجع ابن خلدون ج ٧ ص ٣٤٠ و٣٤١ . هذا وقد دون ابن الخطيب ماشهده فى منفاه فى المغرب لأول مرة من الحوادث فى كتاب سماه « نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب » . ومنه نسخة مخطوطة فى مكتبة الإسكوريال تحفظ برقم ١٧٥٥ الغزيرى .

(٢) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض كثيراً من هذه الرسائل . وراجع الإحاطة ج ٢ ص ٣١ – ٣٩ .

أمام النواب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى فالإجمال فى الطلب أولى»[١] .

وسلك الغنى بالله فى حكمه مسلك القوة والحزم ، واشتهر بصرامته وعدله ، وعنى بمشاريع الإنشاء والعمران ، فأمر ببناء المارستان الأعظم (المستشفى) فى غرناطة ، وأنفق عليه أموالا عظيمة ، وعنى بتحصين الثغور وعمل على بث روح الجهاد والحمية فى النفوس ، للدفاع عن الدين والوطن ، وكان داعيته فى ذلك وسفيره إلى جمهور الأمة ، وزيره القوى البليغ ابن الخطيب ، فعمل على إذكاء الشعور ببراعة ، واستمرت رسائله وخطبه المؤثرة فى ذلك تترى أينما كان ، بالأندلس أو المغرب ، حتى نهاية حياته .

وفى أواخر سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) نظم بعض الزعماء الخوارج مؤامرة لخلع السلطان وإقامة بعض قرابته مكانه . وهاجم الخوارج قلعة الحمراء فمزقهم الجند وقبض على زعيمهم ، وزاد فشل المؤامرة مركز السلطان توطدا .

وفى عصر الغنى بالله توثقت أواصر الصداقة والمودة بين بلاط غرناطة وبلاط القاهرة ، واتصلت بينهما السفارة والمكاتبة . ومما وقفنا عليه من ذلك رسالة بعث بها « أمير المسلمين » بالأندلس محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله ، إلى سلطان مصر الأشرف شعبان ، وهى من إنشاء وزيره ابن الخطيب . وفيها يعرب سلطان غرناطة عن اغتباطه بتلقى رسالة سلطان مصر ، ويشيد بموقف غرناطة كمركز للجهاد ، وتعرضها الدائم لمهاجمة العدو ، ويتقدم إلى السلطان الأشرف بالتهنئة على ما أحرزت جنوده من نصر حاسم على الفرنج ، فى موقعة الإسكندرية فى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م)[٢] ، وأنه مما يزيد فى غبطتهم أن هذا الحادث لابد أن يذكى شعور الإشفاق والعطف على الأندلس ، التى يدهمها الأعداء بشرهم من البر والبحر بلا انقطاع[٣] .

وفيما يختص بالعلائق الدبلوماسية ، فقد عقد الغنى بالله بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن صديقه أبى فارس عبد العزيز سلطان المغرب ، مع پيدرو الرابع

---

(١) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وصية ابن الخطيب كاملة ، وهى من أبدع الوصايا الأبوية السياسية (بولاق ج ٤ ص٨١٧ وما بعدها) ؛ وكذلك فى أزهار الرياض ج ١ ص٣٢ ومابعدها .

(٢) هاجمت حملة من الفرنج بقيادة لوسنيان ملك قبرص ثغر الإسكندرية فى صفر سنة ٧٦٧هـ ، واحتل الفرنج الإسكندرية أياماً ، ولكنهم هزموا وطردوا بعد معارك شديدة .

(٣) يراجع نص هذه الرسالة بأكمله فى صبح الأعشى ج ٨ ص ١٠٧ — ١١٥ ، وهى نموذج بارز من أسلوب ابن الخطيب السياسى .

ملك أراجون معاهده صلح وصداقة لمدة ثلاثة أعوام من تاريخ عقدها وهو شهر رجب سنة ٧٦٨ ﻫ (مارس ١٣٦٧ م) ، وفيها يتعهد كل من الفريقين بأن يمتنع رعاياه عن الإضرار بالفريق الآخر فى البر والبحر فى السر أو الجهر ، وأن يكون لرعايا كل فريق حق التجول والمتاجرة بأرض الفريق الآخر ، والمرور فى البر والبحر ، دون اعتراض أو مغارم غير عادية ، وأن تطلق أراجون حرية الهجرة للمدجنين ، وأن يمتنع كل فريق عن معاونة أعداء الفريق الآخر(١) .

واستطال حكم الغنى بالله حتى سنة ٧٩٣ ﻫ (١٣٩١ م) وساد الأمن والسلام فى عصره ، وشغلت قشتالة عن محاربة المسلمين بحوادثها الداخلية وحروبها الأهلية ، وغلب التهادن فى تلك الفترة بين غرناطة وقشتالة ، واستطاعت السياسة الغرناطية أن تنتهز فرصة الحوادث الداخلية فى المملكة النصرانية ، وأن تمد يد التحالف والحماية غير مرة للملك قشتالة المخلوع پيدرو القاسى ، إذكاء للحرب الأهلية بين النصارى .

ولم يخل عصر الغنى بالله من مواطن الجهاد واستئناف الصراع مع القشتاليين . وكانت القوات القشتالية ، قد تسربت من أطراف ولاية إشبيلية الجنوبية ، إلى أحواز رندة الشرقية ، واحتلت فيها موقعين حصينين من أراضى المسلمين هما برغة وجيرة(٢) ، واستطاعت بذلك أن تقطع الطريق بين رندة ومالقة ، ففى شعبان سنة ٧٦٧ﻫ (١٣٦٦م) ، زحف المسلمون على هذين المعقلين من الشمال والجنوب واحتلوهما بعد قتال شديد . وفى الوقت نفسه استؤنفت حركة الغزو لأراضى النصارى ، ففى شعبان سنة ٧٦٨ ﻫ (١٣٦٧م) ، زحف الغنى بالله فى قواته على أراضى ولاية إشبيلية ، وغزا مدينة أطريرة الواقعة جنوب شرقى إشبيلية ، وافتتح حصن أشر من معاقلها ، واستولى على كثير من الغنائم والسبى ، وعاث فى أحواز إشبيلية ذاتها ، وهى يومئذ عاصمة قشتالة . وفى أواخر هذا العام سار الغنى بالله فى قوة كبيرة إلى مدينة جيّان ، وحاصرها بشدة ، واقتحمها بعد معارك شديدة ، واستولى المسلمون على سائر ما فيها من الأموال والسلاح والنعم ، وأسروا جموعاً كثيرة ، ولكنهم لم يحتلوها ، لصعوبة الدفاع عنها ، وتعذر الاحتفاظ بها ، وهى

---

(١) Archivo de la Corona de Aragôn, No. 152

(٢) برغة هى Burgo الحديثة ، وهى تقع على مقربة من شرقى رندة ، وجيرة Guera ، وتقع فى جنوب شرقى رندة .

واقعة فى قلب أراضى العدو. وكان ذلك فى أواخر شهر المحرم سنة ٧٦٩هـ (سبتمبر ١٣٦٧م). ثم اقتحم الغزاة فى طريقهم مدينة باغة، الواقعة على مقربة من جنوب غربى جيان، ونهبوها ودمروها. وفى شهر ربيع الأول من هذا العام، زحف الغنى بالله على مدينة أبّدة، شمال شرقى جيان، وافتتحها عنوة، ودمر صروحها وكنائسها، وأسوارها، وتركها خرابا بلقعا، وعاد إلى غرناطة مكللا بغار الظفر[١].

وفى أواخر سنة ٧٦٩ هـ، سار الغنى بالله جنوبا إلى الجزيرة الخضراء، وحاصرها، وأرغم النصارى على إخلائها بعد قتال مرير، وبذا عاد الثغر القديم فترة أخرى إلى أيدى المسلمين. ثم رأى المسلمون أن يهدموا حصونها وصروحها ومعالمها، حتى لا تعود سليمة إلى أيدى النصارى، فهدمت وغدت قاعاً صفصفاً.

وفى ربيع سنة ٧٧١هـ (١٣٧٠م) زحف المسلمون ثانية على أحواز إشبيلية، وحاصروا مدينة قرمونة الحصينة، مدى حين، واقتحموا مُرْشانة الواقعة فى جنوب شرقى فرمونة. وهكذا ظهرت المملكة الإسلامية فى تلك الفترة بمظهر من القوة لم تعرفه منذ بعيد، وكان عصر الغنى بالله عصراً ذهبياً مليئاً بالسؤدد والرخاء والدعة، لم تشهده الأمة الأندلسية منذ عصور.

— ٢ —

ولما توفى الغنى بالله سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) خلفه ولده يوسف أبو الحجاج (يوسف الثانى)، وقام بأمر دولته خالد مولى أبيه، فاستبد بالأمر وقتل إخوة يوسف الثلاثة سعداً ومحمداً ونصراً فى محبسهم؛ ثم سخط يوسف على وزيره وقتله، لما نمى إليه من أنه يحاول اغتياله بالسم بالتفاهم مع طبيبه يحيى بن الصائغ اليهودى، وزج الطبيب إلى السجن ثم قتل بعد ذلك[٢]. واستأثر يوسف بالسلطة، وكتب إلى ملك قشتالة فى طلب المهادنة والسلم، وأطلق سراح عدد من الفرسان النصارى الذين أسروا فى بعض المعارك السابقة، وأرسلهم مكرمين إلى بلاط إشبيلية، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته وعقد السلم بين المملكتين.

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٥٤ – ٥٨؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٣٢؛ وقد وصف ابن الخطيب هاتين الغزوتين، وكان من مرافقى الحملة، فى رسالتين بعث بهما عن لسان سلطانه إلى السلطان عبدالعزيز المرينى ملك المغرب، وقد وردتا فى كتابه «ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب» مخطوط بالإسكوريال (رقم ١٨٢٥ الغزيرى) – اللوحات ٣٧ – ٤٤.

(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٢.

وحاول محمد ولد السلطان يوسف الثورة ضد أبيه ، إذكان يؤثر أخاه الأكبر يوسف بمحبته وثقته ، وقد اختاره لولاية عهده ، وزحف بالفعل فى أنصاره على الحمراء ، ولكن المحاولة فشلت ، وتفرق الثوار حين برز إليهم سفير المغرب وقد كان وقتئذ بالقصر ، وأنبهم على مسلكهم ، وأنصحهم بالتزام الهدوء والاتحاد ضد النصارى(١) .

وقام المسلمون فى عهد يوسف بالإغارة على أراضى النصارى فى أحواز مرسية ولورقة ، وعاث الفرسان النصارى من جانبهم فى فحص غرناطة (المرج) La Vega فردهم المسلمون وأوقعوا بهم هزيمة شديدة . ثم عاد الفريقان إلى التهادن والسلم .

وتوفى السلطان يوسف فى أوائل سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٤ م) بعد حكم قصير لم يدم سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر . وقيل إنه توفى مسموما على أثر مكيدة دبرها سلطان المغرب أبو العباس المرينى لإهلاكه ، وذلك بأن أرسل إليه هدايا بينها معطف جميل منقوع فى السم ، فلبسه يوسف ومسه أثناء ركوبه وهو عرقان ، فسرى إليه السم وتوفى ، وهى رواية تحمل طابع الخيال المغرق(٢) .

وخلف يوسف ولده محمد بعد أن دبر أمره مع الزعماء ورجال الدولة لإقصاء أخيه الأكبر يوسف عن العرش ، ثم قبض على أخيه يوسف وزجه إلى قلعة شلوبانية الحصينة على مقربة من ثغر المنكّب ، وشدد فى الحجر عليه حتى يأمن منازعته إياه على الملك . وكان محمد وافر العنف والجرأة بعيد الأطماع ، بيد أنه كان فى الوقت نفسه أميراً موهوباً ، رفيع الخلال ، فياض العزم والشجاعة . ولأول ولايته استدعى الوزير أبا عبد الله بن زَمْرك لحجابته . وكان هذا الوزير الطاغية قد حلف أستاذه ابن الخطيب فى وزارة الغنى بالله مدى أعوام طويلة ، فلما اشتد عيثه واستبداده نكبه الغنى بالله ونفاه من الحضرة ؛ ولم يمكث فى الوزارة هذه المرة سوى أشهر قلائل أساء فيها السيرة وكثر خصومه ، وفى أواخر سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) دهمه جماعة من المتآمرين بمنزله وقتلوه وآله(٣) .

وسعى السلطان محمد إلى تجديد صلات المودة والتهادن بين غرناطة وقشتالة ،

---

(١) Condé : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana; V. III. p. 169

(٣) Condé : ibid; V. III. p. 171 ؛ وراجع الاستقصاء حيث يردد هذه الرواية نقلا عن مصدر إسبانى آخر ، ج ٢ ص ١٤٢ .

(٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٩٠ ، وقد عرضنا إلى حياة الوزير ابن زمرك وآثاره الأدبية تفصيلا فى الكتاب الخامس .

وعقدت الهدنة فعلا بين الفريقين . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى أغار القشتاليون على بسائط غرناطة وعاثوا فيها ، فحشد محمد قواته وغزا ولاية الغرب[١] وخربها ، واستولى على حصن أيامونتى[٢] ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى . وانتقم النصارى بالعود إلى غزو أراضى غرناطة . وكان هنرى الثالث ملك قشتالة تحدوه نحو مملكة غرناطة أطماع عظيمة ، وكان يجد فى الأهبة للحرب ويجهز الجيوش والأساطيل ؛ وكان محمد من جانبه يتأهب للدفاع ، ويراسل ملوك العدوة لإنجاده ؛ وبعث ملك تونس وأمير تلمسان بالفعل إلى المسلمين نجدة من الوحدات البحرية ، ولكنها هزمت ومزقت تجاه جبل طارق . ثم عقد بين الفريقين اتفاق هدنة وتحكيم لتقدير الأضرار لمدة عامين (٦ أكتوبر سنة ١٤٠٦ م)[٣] . ولكن هنرى الثالث توفى بعد ذلك بقليل (أواخر سنة ١٤٠٦ م) وخلفه على عرش قشتالة ولده خوان (يوحنا) طفلا تحت وصاية أمه وعمه فرناندو . ولم يحترم الوصى الجديد أحكام الهدنة المعقودة ، بل عمد إلى تنفيذ مشاريع قشتالة بمنتهى القوة والعزم ، فسار إلى غزو أراضى المسلمين ، واستولى على حصن الصخرة على مقربة من رندة ، واقتحم حصن باغة[٤] ، وعاث فى تلك الأنحاء واسترد حصن أيامونتى من المسلمين . وبادر محمد من جانبه بغزو أراضى قشتالة من ناحية الشرق وعاث فى ولاية جيان ، فاضطر فرناندو أن يسير إلى الشرق لإنجاد النصارى ، واستمرت المعارك بين الفريقين حينا ، ثم انتهت بعقد الهدنة بينهما لمدة ثمانية أشهر (أوائل سنة ١٤٠٨م) . ولما عاد محمد إلى غرناطة اشتد به المرض ولم يلبث أن توفى وذلك فى سنة ٨١١هـ (١٤٠٨م) .

على أنه فى الوقت الذى كانت الحرب تضطرم فيه بين غرناطة وقشتالة على هذا النحو بلا انقطاع ، كانت غرناطة ترتبط بمملكة أراجون منافسة قشتالة وخصيمتها أحياناً ، بصلات المودة والصداقة . ففى ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ الموافق سبتمبر سنة ١٤٠٥م ، عقدت بين السلطان محمد وبين مرتين ملك أراجون وولده مرتين ملك صقلية ، معاهدة صداقة وتحالف ، توضح لنا نصوصها الدقيقة الشاملة

---

(١) غرب الأندلس وهى بالإفرنجية **A'garve** محرفة عن كلمة الغرب .

(٢) أيامونتى **Ayamonte** مدينة صغيرة تقع على المحيط الأطلنطى ، وهى بلد الحدود بين إسبانيا والبرتغال .

(٣) **Archivo General de Simancas : P.R. 11-1** ، ولدينا صورة فتوغرافية من نصها القشتالى وفى ذيلها توقيع بالعربية لمندوب سلطان غرناطة .

(٤) وهى بالإسبانية **Priego** .

مجمل المسائل التى كانت فى هذا العصر ، تشغل المسلمين والنصارى فى شبه الجزيرة الإسبانية ؟

وتنص هذه المعاهدة على أن يعقد بين الدولتين « صلح ثابت » لمدة خمسة أعوام من تاريخ عقدها ، وأنه يحق لرعايا كل من الفريقين أن يتردد على أراضى الفريق الآخر ، آمنين فى أنفسهم وأموالهم للتجارة والبيع والشراء ، وأنه متى احتاج ملك أراجون أو ملك صقلية إلى معاونة على أعدائهما ، فإن سلطان غرناطة ينجدهما بأربعمائة أو خمسمائة فارس على أن يتكفلا هما بنفقاتهم ، وذلك بشرط أن لا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة غرناطة ، وأن يعامل الملكان سلطان غرناطة بالمثل فيقوما بإعانته بأربعة أوخمسة سفن مشحونة بالرجال والسلاح ، على أن يتكفل هو بنفقاتها ، وعلى ألا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة أراجون ، وألا يساعد أحد من الفريقين الثوار الذين يخرجون على الفريق الآخر بأى نوع من أنواع المساعدة .

ونصت فيما يتعلق بالمسائل البحرية ، على أنه يسمح لسفن كل من الفريقين أن ترسو فى موانىء الفريق الآخر ، وأن تزاول البيع والشراء آمنة ، وأن تتلقى سائر أوجه الإعانة المشروعة ، وألا تتعرض سفينة تابعة لأحد الفريقين للسفن الراسية فى موانىء الآخر ، وأن يسمح للسفن التى تصاب بعطب من جراء العواصف أو غيرها ، وتكون تابعة لأحد الفريقين ، أن تصلح فى موانىء الآخر ، وتعان على ذلك ، وأنه إذا استولى عدو على سفينة تابعة لأحد الفريقين ، وقصدت مياه الطرف الآخر ، فإنه لا يسمح لها بأن تبيع شيئاً من حمولتها فيه ، وكذلك يكون الحكم فيما يتعلق بالأشخاص أو السلع المأخوذة من أحد الطرفين .

ونصت فيما يتعلق بتسريح الرعايا ، على أنه إذا انتزع أحد الطرفين من عدوه مدينة أو موضعاً ما ، وكان فيه أحد من رعايا الطرف الآخر ، فإنه يسرح فى الحال مؤمناً فى نفسه وماله ، ويكون الحكم كذلك فيما يتعلق بالسفن التى يستولى عليها أحد الطرفين من عدوه ؛ وأنه إذا كان لدى أحد الطرفين أسرى من رعايا الطرف الآخر ، فإنه يفك أسرهم لقاء دفع مائة دينار ذهبا عن الشخص الواحد ، فإذا كان الأسير ملكاً لأحد من رعايا أى الطرفين ، فإنه يسمح بافتكاك أسره نظير دفع الثمن الذى اشترى به ، ويلتزم كل من الفريقين بألا يخفى أو يغيب أحداً من الأسرى ؛ وأنه إذا دخل مجاورون تابعون لأحد الطرفين فى أرض الآخر واحتملوا منها أسرى أو بضائع ، فإنها تطلب ممن تستقر لديه ، ويأمر قائد الموضع الذى

به الأسرى والبضائع بردها لمن أخذت منهم ، وبالبحث عن الفاعلين ومعاقبتهم[١]

ولما توفى محمد خلفه فى الملك أخوه يوسف (الثالث) ، وكان سجينا طوال حكمه بقلعة شلوبانية كما قدمنا . ودخل يوسف غرناطة فى حفل فخم ، واستقبله الشعب بحماسة . وكان يتمتع بخلال حسنة ، ويعلق عليه الشعب آمالا كبيرة . وكان أول ما عنى به أن سعى إلى تجديد الهدنة مع قشتالة ، فاستجاب بلاط قشتالة إلى دعوته فى البداية وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عامين . ولكنه لما سعى بعد مضى العامين إلى تجديدها أبى القشتاليون ، وطلبوا إليه الخضوع لقشتالة إذا شاء استمرار السلم ، وأنذروه بإعلان الحرب ، فرفض وأخذ فى الأهبة للقتال . وكان ملك قشتالة يومئذ خوان الثانى تحت وصاية أمه وعمه فرناندو ؛ فما كادت تنتهى الهدنة حتى زحف النصارى على أرض غرناطة بقيادة فرناندو الوصى ، وضربوا الحصار حول مدينة أنتقيرة فى شمال غربى مالقة، فهرع يوسف إلى لقاء الغزاة ، وحاولت حامية أنتقيرة أن تحطم الحصار ، وأنزلت بالمحاصرين خسائر فادحة ، ثم نشبت بين المسلمين والنصارى معركة كبيرة بجوار أنتقيرة ، وبذل المسلمون لإنقاذ المدينة المحصورة جهوداً رائعة ، ولكنهم هزموا أخيراً واضطرت المدينة الباسلة إلى التسليم ، فدخلها النصارى (سنة ١٤١٢م) وأسبغ على فاتحها فرناندو من ذلك الحين لقب « صاحب أنتقيرة » . وعاث النصارى بعد ذلك فى أراضى المسلمين . وأخيراً رأى السلطان يوسف أن يسعى إلى عقد الهدنة مع قشتالة حقنا لدماء المسلمين ، واجتنابا لاستمرار هذه المعارك المخربة ، فارتضى بلاط قشتالة وعقد السلم بين الفريقين ، على أن يطلق ملك غرناطة سراح بضع مئات من الأسرى النصارى دون فدية .

وفى عهد يوسف ثار أهل جبل طارق ، ودعوا ملك المغرب أبا سعيد المرينى إلى احتلال الثغر ، لاعتقادهم أنه أقدر على حمايتهم من غارات النصارى ، فبعث إليهم أبو سعيد أخاه عبد الله فى الجند تخلصاً منه ، ولكن ابن الأحمر ماكاد يقف على هذه المؤامرة حتى أرسل المدد إلى حاكم جبل طارق ، واستطاع الغرناطيون أن يهزموا المغاربة فى موقعة حاسمة ، وأسر زعيمهم عبد الله ، فأكرم ابن الأحمر وفادته ، ثم رده إلى المغرب ، وزوده بالمال وبعض الجند ليناهض أخاه ،

---

(١) Archivo de la Corona de Aragón; No. 173

فهرعت القبائل لتأييده ، واستطاع أن ينتزع الملك لنفسه من أخيه(١) .

ولما عقدت الهدنة بين مملكتى قشتالة وغرناطة ، أخذت أواصر السلم تتوثق بينهما ، وسادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام المتبادل ؛ ولم تشهد غرناطة من قبل عهداً كعهد يوسف ساد فيه الوئام بين الأمتين الخصيمتين. وكانت غرناطة يومئذ تغص بالفرسان والأشراف النصارى ، تجتذبهم خلال أميرها وبهاء بلاطها وفروسيتها . وكانت حفلات المبارزات الرائعة تعقد بين الفرسان المسلمين والنصارى فى أعظم ساحات المدينة ، وتجرى طبقاً لأرفع رسوم الفروسية الإسلامية ، ويشهدها أجمل وأشرف العقائل المسلمات سافرات ، وتبدو غرناطة فى تلك الأيام المشهودة فى أروع الحلل وأبدع الزينات(٢). وكانت الأمة الأندلسية تتمتع يومئذ فى ظل ملكها الرشيد العادل بنعم الرخاء والسكينة والأمن ، ولكنها كانت تنحدر فى نفس الوقت فى ظل هذا السلم الحلب والترف الناعم ، إلى نوع من الانحلال الخطر الذى يعصف بمنعتها وأهباتها الدفاعية .

وتوفى السلطان يوسف فى سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) بعد حكم دام نحو تسعة أعوام ، وكان أميراً راجح العقل ، بارع السياسة ، عظيم الفروسية والنجدة ، محباً لشعبه ، فكان حكمه القصير صفحة زاهية فى تاريخ مملكة غرناطة .

— ٣ —

وتوالى على عرش غرناطة بعد السلطان يوسف عدة من الأمراء الضعاف ، أولهم ولده أبو عبدالله محمد الملقب بالأيسر. وكان أميراً صارما سيئ الخلال ، متعاليا على أهل دولته ، بعيداً عن الاتصال بشعبه ، لا يكاد يبدو فى أية مناسبة عامة ، وكان وزيره يوسف بن سراج واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبراء دولته . وكان هذا الوزير النابه ، وهو يومئذ زعيم أعظم وأشرف بيوت غرناطة ، يعمل ببراعته ورقة خلاله ، لتلطيف حدة السخط العام على مليكه . بيد أنه كان يحاول أمراً صعبا . ولابد لنا أن نقول كلمة فى التعريف ببنى سراج ، وهم الدين يقترن اسمهم منذ الآن بحوادث مملكة غرناطة ، والذين غدت سيرتهم فيما بعد مستوى خصبا للقصص المغرق . فهم بنو سراج من أعرق الأسر الأندلسية العربية ، ويرجع أصلهم حسبما يشير

---

(١) السلاوى فى الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) Condé: ibid; V. III. p. 197 & 198 . وكذلك Lafuente Alcantra: Historia de Granada (1906) V. III. p. 46

المقرى إلى مَذْحج وطىء من البطون العربية العريقة ، التى وفد بنوها إلى الأندلس منذ الفتح ، وكان منزلهم بقرطبة وقبلى مرسية ، بيد أنهم لم يظهروا على مسرح الحوادث فى تاريخ الأندلس إلا فى مرحلته الأخيرة أعنى فى تاريخ غرناطة ، وقد كانوا بغرناطة من أعظم سادتها ، وكانوا أندادا للعرش والسلاطين(١). ومنذ عهد السلطان الأيسر نرى بنى سراج فى طليعة القادة والزعماء ، الذين يأخذون فى سير الحوادث بأعظم نصيب . وقد كان حكم السلطان الأيسر ، بداية سلسلة من الاضطرابات والقلاقل المتعاقبة . وفى عهده ساءت الأحوال ، واشتد سخط الشعب ولم تجد محاولات الوزير ابن سراج لتهدئة الأمور . وقامت ثورات متعاقبة ، ففقد فيها الأيسر عرشه ثم استرده غير مرة ، وكان بلاط قشتالة يشجع هذه الإنقلابات ويؤازرها ، وكان الزعماء الثائرون يتطلعون دائماً إلى عون قشتالة ووحيها . وسنرى فيما يلى كيف كانت دسائس قشتالة ومؤامراتها حول عرش غرناطة فى تلك الفترة ، من أعظم العوامل فى انحلال المملكة الإسلامية والتعجيل بسقوطها .

وفى خلال حكم الأيسر المضطرب ، كان النصارى يتربصون الفرص لغزو مملكة غرناطة ، فزحفوا عليها فى سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨م) وتوغلوا فى أرجائها ، وعاثوا فى بسائط وادى آش ، فزادت الأمور فى غرناطة اضطرابا ، وازداد الشعب على الأيسر سخطاً ، لأنه فوق غطرسته وتعاليه ، لم يفلح فى رد العدو عن أرض الوطن ؛ وسرعان ما انفجر بركان الثورة وزحف الثوار على الحمراء ، ونادوا بولاية الأمير محمد بن محمد بن يوسف الثالث ، وهو ابن أخى الأيسر . وفى رواية أنه ولده ، ومحمد هذا هو الملقب « بالزغير » . وفر الأيسر فى أهله ونفر من خاصته ، وركب البحر إلى تونس مستظلا بحماية سلطانها أبى فارس الحفصى .

وجلس محمد « الزغير » أو أبو عبدالله الصغير ، حسبما يسمى فى بعض الوثائق الرسمية(٢)

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨ حيث يشير إلى أصل بنى سراج إشارة عابرة . وقد ذكر البعض أن بنى سراج ينتمون إلى يوسف السراج ، وأن السراج هذا هو وزير السلطان الأيسر . ولكن إشارة المقرى الصريحة إلى الاسم والمنبت تنفى هذا التحريف فى الاسم . ويشغل بنو سراج فى الأساطير الإسبانية التى كتبت عقب سقوط غرناطة فراغاً كبيراً ، مما يدل على ما كان لهم فى غرناطة من عظيم الشأن . وسنعود إلى ذكر هذه القصص والأساطير فيما بعد . وراجع المستشرق سيبولد فى **Encyc. de l'Islam.** تحت كلمة **Abencerrages**

(٢) راجع كتاب « وثائق عربية غرناطية » للمستشرق الغرناطى لويس سيكودى لوثينا ، وقد وردت فى الوثيقة رقم ١٩ (ص ٤٠) إشارة إلى « دنانير من ضرب السلطان أبى عبد الله =

على عرش غرناطة . وكان أميراً بارع الخلال ، وافر الفروسية ، يعشق الآداب والفنون ، وكان يحاول اكتساب محبة الشعب ، بفيض من الحفلات ومباريات الفروسة ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد الدسائس والفتن المستمرة . وكان بنو سراج ألد خصومه وأشدهم مراسا ، فمال عليهم وطاردهم وعول على سحقهم ، واستئصال نفوذهم القوى المتغلغل فى أنحاء المملكة ؛ وغادر يوسف بن سراج غرناطة مع عدد كبير من السادة والفرسان من أفراد أسرته، تفاديا لانتقام «الزغير» وبطشه ، وسار أولا إلى ولاية مرسية ثم سار إلى إشبيلية ملتجئاً إلى حماية ملك قشتالة خوان الثانى ، فرحب بهم وأكرم وفادتهم . واتفق يوسف بن سراج مع ملك قشتالة على العمل لرد السلطان الأيسر إلى العرش . واستدعى الأيسر من تونس فلبى الدعوة ، وزوده السلطان أبو فارس بفرقة من الفرسان، وهدايا ثمينة للملك قشتالة، ونزل الأيسر فى عصبته فى ثغر ألمرية، حيث استقبله الشعب بحفاوة، ونودى به ملكا . ونمى الخبر إلى الزغير ، فأرسل بعض قواته لمقاتلة الأيسر والقبض عليه ، ولكن معظم جنده انضموا إلى الأيسر ؛ وسار الأيسر بعد ذلك إلى وادى آش حيث يحتشد أنصاره ، ثم زحف على غرناطة فى قوة كبيرة ؛ ورأى محمد الزغير أنصاره ينفضون من حوله تباعا ، بيد أنه امتنع فى عصبته القليلة بقلعة الحمراء، معتزما الدفاع عن ملكه . ودخل الأيسر غرناطة، واستقبل بحماسة وأعان ملكاً ، وحاصر الحمراء بشدة فسلمها إليه أنصار الزغير ،وفى رواية أن الأيسر قبض على الزغير وقطع رأسه ، وقبض على أولاده وأهله ، وفى رواية أخرى أنه قبض عليه ، واعتقله هو وأخاه الأمير أبا الحسن على بن يوسف فى قلعة شلوبانية الحصينة وهى سجن الدولة الرسمى فى عهد بنى نصر . وهكذا انتهت مغامرة الزغير على هذا النحو المؤسى بعد أن حكم عامين وبضعة أشهر (سنة ١٤٣٠ م)[1] .

ونظم السلطان الأيسر الأمور ، وأعاد يوسف بن سراج إلى الوزارة ،

= الصغير» . والواقع أن «زغير» هى النطق العامى الأندلسى لكلمة «صغير» : **Dozy : Supp. aux Dict. Arabes Vol. I. p. 595** وذكر كوندى أن الزغير **Zaquir** معناها السكير : **Coudé : ibid. V. III. p. 182**

(١) **Lafuente Alcantra : ibid.; V. III. p. 121 & 122 ; Condé ; ibid.; V. III. p. 184 & 185** ورجع أيضاً مقال الاستاذ سيكودى لوثينا المعنون **Las Campanas de Castilla contra Granda en el ano 1431** المنشور فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (المجلد الرابع) ص ٨٠ .

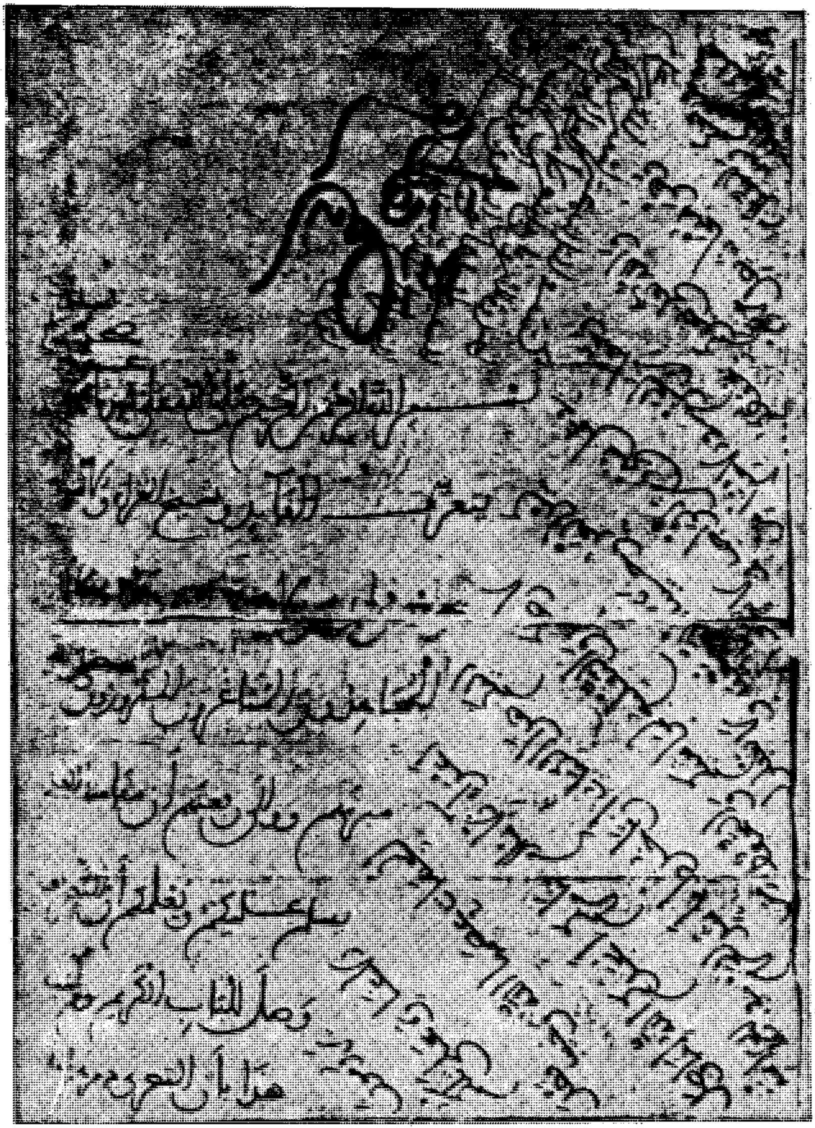

صورة رسالة وجهها السلطان أبو عبد الله الأيسر إلى قادة وأشياخ حصن قمارش بوجوب اليقظة والحرص على الدفاع عنه مؤرخه فى شعبان سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م)، وأوردها المستشرق ريميرو فى رسالته **Documentos Arabes de la Corte Nazari**، منقولة من مجموعة هرناندو دى ثافرا **H. de Zafra**

وأرسل إلى ملك قشتالة خوان الثانى فى تجديد الهدنة ، فبعث إليه سفيره كونثالث دى لونا واشترط لتجديدها أن يؤدى الأيسر ما أنفقه بلاط قشتالة فى سبيل استرداد عرشه ، وأن يؤدى فوق ذلك جزية سنوية ضخمة اعترافاً منه بطاعة قشتالة، وأن يفرج عن سائر الأسرى النصارى الموجودين ببلاده، فرفض الأيسر وهدد ملك قشتالة بالحرب. وبعث خوان الثانى كذلك سفراءه ومعهم هدايا نفيسة إلى أبى فارس الحفصى سلطان تونس ، والى سلطان فاس عبد الحق بن عثمان المرينى يرجو كلا منهما أن يبتعد عن التدخل فى شئون غرناطة ، فوعد كلاهما بتحقيق رغبته . وما كادت تنتهى الفتنة الداخلية التى كانت يومئذ ناشئة فى قشتالة، حتى أغار القشتاليون فى قواتهم من قرطبة وجيان وإستجه على أراضى المسلمين، وقصدوا إلى احواز رندة ، فهرع الأيسر إلى لقائهم ، واستطاع أن يردهم فى البداية ، ولكن ملك قشتالة قدم بعدئذ بنفسه فى قوات كبيرة ، وزحف على حصن اللوز وأرشدونة ، وعاث فى تلك المنطقة ،ثم عاد إلى قرطبة ومعه كثير من السبى والغنائم (١٤٣١ م) .

وفى أثناء ذلك عاد الأيسر إلى غرناطة ، متوجسا من سير الحوادث فيها : وكانت الفتن الداخلية قد عادت تنذر بانقلابات جديدة ، وغدا عرش غرناطة مرة أخرى يضطرب فى يد القدر ؛ وانقسمت المملكة الإسلامية شيعاً وأحزابا متنافسة متخاصمة ، وألفى النصارى فرصتهم السانحة لإذكاء الفتنة ، وبسط سيادتهم على مملكة يسودها الضعف والتفرق . وكان خصوم الأيسر قد التفوا حول أمير ينتمى إلى بيت الملك عن طريق أمه، هو أبو الحجاج يوسف بن المول . وكانت أمه ابنة للسلطان محمد بن يوسف بن الغنى بالله، وأبوه ابن المول من وزراء الدولة النصرية : ودبرت مؤامرة جديدة لخلع الأيسر. وكان يوسف أميراً قويا، وافر الثراء والهيبة، وكان ملك قشتالة ، خوان الثانى ، يعسكر يومئذ بجيشه على مقربة من غرناطة ، يتتبع سير الحوادث ، ويرقب الفرص . فقصد إليه يوسف ، وطلب إليه العون على انتزاع العرش لنفسه ، وتعهد بأن يحكم باسمه وتحت طاعته ، فلبى ملك قشتالة دعوته ، وعقد معه يوسف وثيقة بالخضوع ، يقرر فيها أنه من أتباع ملك قشتالة وخدامه ، وأنه إذا حصل على الملك ، فإنه يتعهد بتحرير جميع الأسرى النصارى، وبأن يدفع الملك قشتالة جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار من الذهب، وأن يعاونه بألف وخمسمائة فارس لمحاربة أعدائه سواء أكانوا نصارى أومسلمين ،

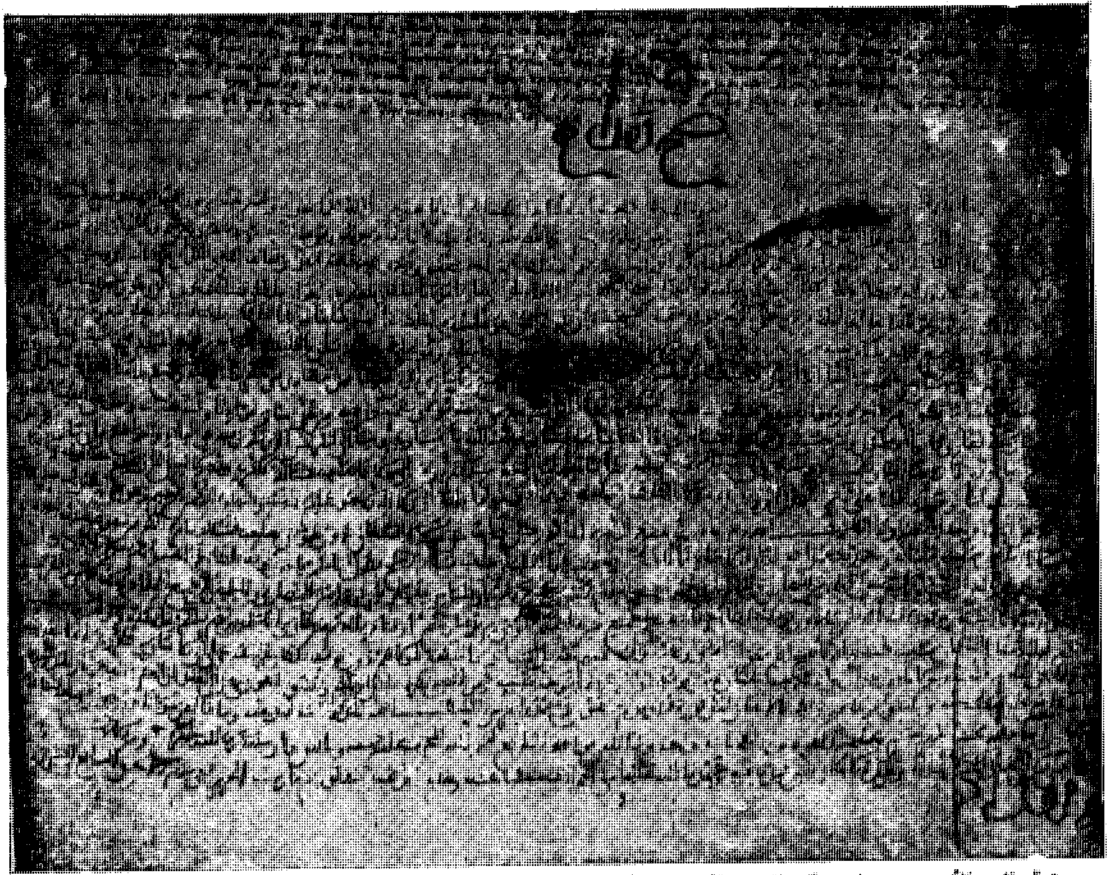

صورة للجانب الأيسر من معاهدة التحالف والخضوع التي عقدت بين يوسف بن المول (يوسف الرابع) وخوان الثانى ملك قشتالة ، وفوقه بضعة أسطر من النص القشتالى للمعاهدة . وهى مؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٨٣٥ هـ (يناير ١٤٣٢ م) ومحفوظة بدار المحفوظات العامة Archivo General de Simancas برقم P, R. 11-124

وأن يحضر جلسات مجلس الكورتس (مجلس النواب القشتالى) بنفسه إن كان منعقداً جنوب طليطلة أو بإنابة أحد من أبنائه أو ذوى قرابته إن كان منعقداً داخل قشتالة . وتعهد ملك قشتالة من جانبه بأن يعقد الصلح مع يوسف طوال أيام حكمه وأيام أبنائه ، وبأن يعاونه على محاربة أعدائه من المسلمين والنصارى ، وألا يحمى من يلتجىء اليه من أعدائه . ووقع مشروع هذه المعاهدة بين الفريقين فى السابع من المحرم سنة ٨٣٥ ﻫ (١٦ سبتمبر سنة ١٤٣١ م) ونفذت على الأثر ، إذ أرسل ملك قشتالة ، جنده فغزت مرج غرناطة ، وسار الأيسر على رأس قواته والتقى بالنصارى فى بسائط إلبيرة ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، ارتد الأيسر على أثرها منهزماً إلى غرناطة . أما يوسف فقد استطاع بمؤازرة النصارى أن يستولى على عدة قواعد اعترفت بطاعته، مثل رندة ولوشة وحصن اللوزوغيرها . وأعلن ملك قشتالة انحيازه إلى يوسف ونودى به ملكا ، وسار يوسف بعد ذلك فى قواته إلى غرناطة فلقيته جنود الأيسر بقيادة الوزير ابن سراج فهزم ابن سراج وقتل ، ودخلت جنود يوسف العاصمة، ونادت بطاعته معظم الجهات، وانفض الأشراف من حول الأيسر بعد أن رأوا خسران قضيته ، فاعتزم الأيسر أمره وحمل أمواله وغادر غرناطة فى أسرته ونفر من خاصته، وقصد إلى مالقة التى بقيت على طاعته، ودخل يوسف بن المول الحمراء ظافراً وتربع على العرش ، وذلك فى أول يناير سنة ١٤٣٢ م .

وكان أول ما فعله يوسف أن جدد لملك قشتالة عهد الخضوع ، فوقعه باعتباره سلطان غرناطة فى ٢٢ جمادى الأولى من نفس العام (٢٧ يناير سنة ١٤٣٢ م)[1]. بيد أن حكمه لم يطل إذ كان شيخاً مريضاً ، فتوفى بعد ستة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً سوى اعترافه بطاعة ملك قشتالة ، وهو ما كانت تسعى إليه قشتالة دائما مذ قامت مملكة غرناطة .

ومن المدهش أن نجد تماثلا غريبا بين نصوص المعاهدة التى عقدها محمد ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة بالخضوع لفرناندو الثالث، وبين عهد الخضوع الذى وقعه يوسف بن المول ، والذى قطعت به قشتالة أكبر خطوة فى سبيل تحقيق

(١) Archivo General de Simancas; P.R. 11-129 . وقدحصلنا على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة بنسختيها العربية والقشتالية ، ونشرنا النصين فى بحث ظهر فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (المجلد الثانى — ١٩٥٤) .

أمنيتها القديمة . والواقع أن هذا العهد المؤلم كان أشنع ما انتهت إليه الخلافات الداخلية والحروب الأهلية فى مملكة غرناطة فى تلك الفترة الدقيقة من حياتها .

وعلى أثر وفاة السلطان يوسف ، اتفقت الأحزاب كلها على رد الأمر للسلطان الأيسر ، فجلس على العرش للمرة الثالثة ، وبادر بالسعى إلى عقد السلم مع ملك قشتالة ، فعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عام ، ولكن القشتاليين ما لبثوا بالرغم من عقدها أن أغاروا على أراضى غرناطة الشرقية ، فردهم المسلمون بقيادة الوزير ابن عبد البر زعيم بنى سراج ، ثم هزموهم ثانية عند مدينة أرشدونة ، وقتل وأسر منهم عدد كبير (٨٣٨ هـ — ١٤٣٤ م) .

وفى العام التالى سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين ، فى أحواز غرناطة ووادى آش ، وهزمهم غير مرة ، ثم عاد النصارى فأغاروا على بسطة ووادى آش ، واحتلوا بعض الحصون والقرى المجاورة ، وزحفت قوة كبيرة من النصارى بقيادة حاكم لبلة ، على ثغر جبل طارق ، ولكن أهل الثغر باغتوا النصارى وهزموهم ، وقتل قائدهم وكثير منهم (٨٤٠ هـ — ١٤٣٦ م) . ثم نشبت بعد ذلك بين المسلمين والنصارى موقعة أخرى على مقربة من كازورلا ، أصيب الفريقان فيها بخسائر فادحة ، وانتهت بنصر المسلمين ، ولكن قائدهم الفارس ابن سراج وهو ولد الوزير السابق ، سقط قتيلا فى الموقعة ، فحزنت غرناطة لفقده ، وقد كان يخلب الشعب الغرناطى بظرفه وبارع فروسته[١] .

وهكذا استمر الصراع بضعة أعوام سجالا بين المسلمين والنصارى . ولما رأى النصارى كثرة خسائرهم وعقم محاولاتهم ، لجأوا إلى السكينة حينا . وأرسل السلطان الأيسر فى أواخر عهده إلى مصر سفارة يرجو فيها سلطان مصر الإنجاد والغوث لما رآه من اشتداد وطأة النصارى على أراضى مملكته . وقد انتهت إلينا رواية مخطوطة مبتورة عن قصة هذه السفارة[٢] ، كما أشارت إليها التواريخ المصرية . وهذه أول مرة تتجه فيها مملكة غرناطة إلى الاستنجاد بمصر ، وقد كانت حتى ذلك الحين تتجه دائماً إلى ملوك العدوة . وقد رأينا كيف لبث بنو مرين عصراً ملاذ

---

(١) Lafuente Alca[illegible] : ibid ; V. III. p. 147-150

(٢) عثر بهذه الأوراق المخطوطة صديق الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى بعض مخطوطات مكتبة مدريد الوطنية ؛ ونشر نصها ضمن بحث عنوانه « سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى » وذلك بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة (المجلد السادس عشر . الجزء الأول ص ٩٥ — ١٢١) .

غرناطة ، وساعدها الأيمن حين الخطر الداهم . ولكن الدولة المرينية ، كانت قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ، وخبت قواها التى انسابت مرارا إلى شبه الجزيرة ، ومن ثم فقد وجه سلطان غرناطة صريخه إلى مصر . وتضع الروايات المصرية تاريخ هذه السفارة فى رجب سنة ٨٤٤هـ ، وهو يوافق شهر ديسمبر سنة ١٤٤٠ م . ولكنها تضطرب فى ذكر اسم سلطان غرناطة ، فيسميه المقريزى « الغالب بالله عبد الله بن محمد بن أبى الجيوش نصر » ، ويسميه السخاوى « عبدالله ابن محمد بن نصر »(١) . وفى رأينا أن المرجح أن هذه السفارة صدرت عن السلطان أبى عبد الله محمد بن يوسف أى السلطان الأيسر ، لأنه حكم حتى أوائل سنة ١٤٤١م . وهناك احتمال بأن يكون مرسلها هو خلفه الثائر عليه السلطان محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله وهو المعروف بالأحنف حسبما نذكر بعد ، ولعل خبر هذا الانقلاب لم يكن قد وصل إلى مصر حين وصل السفراء الغرناطيون إلى القاهرة ، وقد كان وصولهم إليها فى نفس التاريخ الذى وقع فيه هذا الانقلاب بغرناطة ، وهو مما يرجح كون السلطان الأيسر هو مرسل هذه السفارة .

وعلى أى حال فقد وصل السفراء الغرناطيون وعددهم أربعة ، كما يستفاد من الرواية المخطوطة المشار إليها ، فى شهر رجب سنة ٨٤٤هـ ، وقدموا كتاب سلطانهم إلى سلطان مصر ، الظاهر چقمق ، وفيه يطلب الإنجاد من مصر . وقد رد سلطان مصر بأنه سوف يبعث إلى « ابن عثمان » أعنى إلى سلطان قسطنطينية ، بأن ينجد الأندلس ، ولما أكد السفراء الغرناطيون أنهم يتوجهون بصريخهم إلى مصر ، اعتذر السلطان بأن بعد الشقة يحول دون إرسال الجند إلى الأندلس ، فطلب السفراء عندئذ أن تساهم مصر فى المعونة بالمال والعدة ، فوعدهم السلطان بذلك .

وقدم السفراء الغرناطيون إلى السلطان هدية أندلسية من الفخار المالقى والأنجبار الغرناطى ، ومن ثياب الخز الأندلسية ، فاستحسنها السلطان ، وفرقها بين مماليكه وحشمه وأهله . ولسنا نعرف شيئاً عن نتيجة هذه السفارة ولا عن موعد عودة السفراء الأندلسيين إلى غرناطة ، لأن الرواية المخطوطة تنتهى بوصف رحلة هؤلاء السفراء إلى الحجاز مع ركب الحاج لقضاء الفريضة ، وتقف عند وصف كاتبها للبقاع المقدسة ، بيد أننا نرجح أنها لم تسفر عن أية نتائج عملية .

---

(١) الأول فى كتاب « السلوك فى دول الملوك » . والثانى فى كتاب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » .

ولكن حوادث غرناطة كانت عندئذ تنذر بتطورات جديدة مزعجة . ذلك أن السلطان الأيسر بالرغم من حسن بلائه ضد النصارى لم يحسن السيرة فى الداخل، ولم ينجح فى اجتذاب شعبه ، وكان فريق من خصومه من السادة الفرسان يلوذ بحماية ملك قشتالة ، وعلى رأسهم الأمير يوسف بن أحمد حفيد السلطان يوسف الثانى ، وابن عم الأيسر ، وهو المعروف فى التواريخ القشتالية « بابن إسماعيل » وذلك لأن نسبه ينتهى إلى السلطان أبى الوليد إسماعيل الذى تولى العرش سنة ٧١٢هـ . وكان ثمة فريق آخر من الزعماء الناقمين فى ألمرية يناصر الأمير محمداً بن نصر بن محمد الغنى بالله وهو المعروف بالأحنف. وكان الأحنف قد نجح فى دخول غرناطة سراً مع نفر كبير من أنصاره ، وأخذ يعمل على إذكاء الفتنة . فلما آنس سنوح الفرصة ، ثار فى عصبته واستولى على الحمراء والحصون المجاور لها ، وقبض على الأيسر وآله وزجهم إلى السجن ، ونادى بنفسه ملكا ، وذلك فى أوائل سنة ١٤٤١ أو أوائل سنة ١٤٤٢ م ، حسبما تدل على ذلك وثيقة عربية ، هى عبارة عن خطاب موجه منه إلى ملك قشتالة فى شهر ذى القعدة سنة ٨٤٦ هـ (مارس ١٤٤٣ م). يشير فيه إلى بعض المشاكل القائمة بين البلدين ، ويطالب بإطلاق سراح سفيره المعتقل فى قشتالة(١) .

ولكن الفتنة لم تهدأ ولم تستقر الأمور . وكان يعارض ولاية الأحنف فريق قوى من الزعماء والشعب ، ويتزعم هذا الفريق المعارض الوزير ابن عبد البر زعيم بنى سراج . وكان يقيم فى حصن مونتى فريو فى شمال غربى غرناطة ، ويؤيد ولاية الأمير يوسف (ابن إسماعيل) المقيم فى بلاط قشتالة . ولم يمض قليل حتى سار هذا الأمير من إشبيلية إلى غرناطة ومعه سرية من الفرسان النصارى أمده بها ملك قشتالة . والظاهر أن ابن إسماعيل استطاع التغلب عندئذ على الأحنف ، واحتل الحمراء ، وحكم مدى أشهر قلائل . ولكن الأحنف عاد فتغلب عليه واسترد عرشه (أوائل سنة ١٤٤٦ م) . ورد السلطان الأحنف من جانبه بأن غزا أراضى قشتالة وهاجم قلعة بنى موريل وقلعة ابن سلامة ، وقتل من فيهما من النصارى (١٤٤٦م) وسير فى الوقت نفسه جزءاً من قواته لمقاتلة خصمه ابن إسماعيل ، وانتهز الأحنف فرصة الخلاف القائم يومئذ بين أراجون وقشتالة ، فأرسل إلى ملك أراجون يعرض

---

(١) نشر نص هذا الخطاب مع صورته الفتوغرافية فى كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر (المنشور بعناية معهد فرانكو بتطوان) ص ٧٦ — ٧٨ .

محالفته ضد قشتالة ، ونفذ هذا الحلف بأن غزا الأحنف أرض النصارى من ناحية أراضى مرسية ، والتقى بالقشتاليين قرب جنجالة وهزمهم هزيمة شديدة (١٤٥٠م) ثم عادت قواته تكرر الإغارة والعيث فى أرض النصارى وتشغل قواتهم . وكان ابن إسماعيل يقيم أثناء ذلك فى حصن مونتى فريو ، وقد أقرت بطاعته بعض البلاد والحصون المجاورة . وهكذا اتسع نطاق النضال ، وعصفت الحرب الأهلية من جهة ، وغزوات النصارى من جهة أخرى بقوى غرناطة . وكان السلطان الأحنف بالرغم من عزمه وقوة نفسه ، يثير غضب الشعب بطغيانه وقسوته وعنفه ، وكانت معظم الأسر الكبيرة تعمل لإسقاطه ، لما لقيت من بطشه وعدوانه ، وهكذا تهيأ الجو لانقلاب جديد . وهنا يحيق الغموض بولاية العرش الغرناطى ويختلف القول فى شأنها . والرواية الإسلامية مقلة فى هذا الشأن ، ولم يصلنا منها عن حوادث هذه الفترة المضطربة من تاريخ غرناطة سوى القليل ، ومن ثم فإن جل اعتمادنا هنا على الروايات القشتالية . وفى بعض هذه الروايات أن ملك قشتالة عاد بعد أن سوى خلافه مع أراجون إلى التدخل فى شئون غرناطة ، فزود ابن إسماعيل ببعض قواته ، وسار الأحنف لقتال منافسه ، ونشبت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة معركة شديدة ، انتهت بهزيمة الأحنف وفراره ؛ ودخل ابن إسماعيل غرناطة ، وجلس على العرش ، وكان ذلك فى سنة ١٤٥٤م . وفى بعض الروايات الأخرى أن السلطان الأحنف استمر فى الحكم حتى سنة ١٤٥٨ م . ثم خلفه فى الحكم الأمير سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثانى ، واستمر فى الحكم أربعة أعوام . ثم عزل فى سنة ١٤٦٢ م ، وأعيد السلطان يوسف الخامس (ابن إسماعيل) ، وحكم حتى أواخر سنة ١٤٦٣م[١].

وكان السلطان ابن إسماعيل أميراً عاقلا حازما عادلا ، محبا للإصلاح والأعمال الإنشائية ، فعكف على ضبط الأمور وتوطيد الأمن ، وإقامة الأبنية وتحصين القواعد والثغور . وكان فارسا بارعا يشترك بنفسه أحيانا فى مباريات الفروسة . ولأول عهده أرسل إلى ملك قشتالة خوان الثانى يؤكد طاعته ، وساد السلم لفترة قصيرة بين المسلمين والنصارى . ولكن خوان الثانى توفى بعد أشهر قلائل ، وخلفه ولده هنرى الرابع ، وأبى ابن اسماعيل أن يعترف بحماية ملك قشتالة

---

(١) Condé : ibid; V. III. p. 201 & 202 : وراجع أيضاً Seco de Lucena : Una Rectificaciôn a la Historia de los ultimos Nasries (Al-Andalus Vol. XVII, Fasc. 1)

الجديد ، محاولا بذلك أن يكتسب الشعب إلى جانبه ، وأن يوطد مركزه ؛ وسير بعض قواته فى نفس الوقت فأغارت على الأراضى القشتالية ، وأصر ملك قشتالة من جانبه على وجوب خضوع ملك غرناطة وطاعته ، واعتزم أن يتابع الضغط على المملكة الإسلامية الصغيرة دون هوادة ، فسار إلى أراضى غرناطة فى جيش ضخم وعاث فيها ، وانتسف المروج والضياع ، وقتل وسبى من أهلها جموعا كبيرة ، ولقيه المسلمون فى قوات صغيرة أنزلت بجيشه خسائر كبيرة . وعاد القشتاليون فى العام التالى إلى عيثهم فى أراضى المسلمين ، وغزا المسلمون من جانبهم منطقة جيّان وأوقعوا هنالك بالنصارى ، واستمرت هذه المعارك مدى حين سجالا بين الفريقين . وكان النصارى قد استولوا فى تلك الفترة المضطربة من حياة المملكة الإسلامية ، على عدة من القواعد والثغور الإسلامية ، بعضها اختيارا بتنازل سلاطين غرناطة والبعض الآخر بالفتح . وكانت أعظم ضربة أصابت مملكة غرناطة فى عهد السلطان ابن إسماعيل ، سقوط ثغر جبل طارق فى يد النصارى . ففى سنة ١٤٦٢ م (٨٦٧ هـ) سارت إليه قوة من القشتاليين بقيادة الدوق مدينا سيدونيا ، واستولت عليه بطريق المفاجأة . وكان سقوط هذا الثغر المنيع فى يد النصارى ، أول خطوة ناجعة فى سبيل قطع علائق مملكة غرناطة بعدوة المغرب ؛ والحول دون قدوم الأمداد إليها من وراء البحر .

على أن خطر الفورات الإسلامية القوية فيما وراء البحر ، كان قد خبا منذ بعيد ، وأخذت دولة بنى مرين القوية تجوز مرحلة الإنحلال والسقوط ، وكان آخر ملوكهم السلطان عبد الحق ، قد خلف أباه السلطان أبا سعيد المرينى فى سنة ٨٢٣هـ (١٤١٥م) . وفى عصره ساد الاضطراب والتفكك فى أنحاء المملكة ، واستبد وزيره يحيى بن يحيى الوطّاسى بالدولة . وكان بنو وطّاس ينتمون إلى بطن من بطون بنى مرين ، وينافسونهم فى طلب الرياسة والملك ، فلما اشتدت وطأتهم على السلطان عبد الحق ، بطش بهم وقتل معظم رؤسائهم ، وفى مقدمتهم وزيره يحيى ، ونجا البعض منهم وتفرقوا فى مختلف الأنحاء . وأسلم عبد الحق زمام دولته إلى اليهود فبغوا وعاثوا فى الدولة ؛ وغضب الشعب على مليكه ، واضطرمت الثورة ، وعزل عبد الحق وقتل (٨٦٩هـ — ١٤٦٤م) ؛ وانتهت بمصرعه دولة بنى مرين بعد أن عاشت زهاء مائتى عام ؛ واستولى على تراث بنى مرين وملكهم ، بنو وطّاس خصومهم القدماء ، واستطاع زعيمهم محمد الشيخ أن يستولى على فاس فى سنة

٨٧٦ هـ (١٤٧١ م)(١) وبذا قامت بالمغرب دولة فتية جديدة ، بيد أنها لم تكن من المنعة والقوة بحيث تستطيع الإقدام على عبور البحر إلى الأندلس ، فى سبيل الجهاد والنجدة ، أسوة بما كانت تعمله دولة بنى مرين القوية الشامخة .

وهكذا كانت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أضحت فريدة ، فى مواجهة عدوها القوى ، دون حليف ولا ناصر. ولم ير سلطان غرناطة بعد أن أضناه النضال ، بداً من قبول ما فرضه عليه ملك قشتالة من الاعتراف بسلطانه ، وتأدية الجزية اغتناماً للمهادنة والسلم . وكانت مملكة غرناطة تجوز فى هذه الآونة العصيبة ذاتها مرحلة من الاضطراب الداخلى ، وكان من أهم أسباب هذا الاضطراب الخطر ، اضطرام المنافسة بين العرش وبين الأسر النبيلة القوية ، مثل بنى سراج وبنى أضحى وبنى الثغرى وغيرهم(٢) ، واضطرام المنافسة فيما بين هذه الأسر القوية ذاتها ، وغلبة نفوذ النساء فى البلاط . وكان من أثر ذلك أن حدثت فى سنة ١٤٦٢ م فتنة خطيرة من جراء محاولة السلطان ابن إسماعيل أن يقضى على نفوذ بنى سراج أقوى هذه الأسر وأعرقها . وهكذا كانت نذر التفكك تعمل عملها المشئوم(٣) . ومع أن غرناطة تمتعت بمزايا الهدنة الخادعة التى عقدتها مع قشتالة لمدى قصير ، فقد كان من الواضح أن المملكة الإسلامية كانت تنحدر سراعاً إلى مصيرها الخطر ، وتواجه شبح الإنحلال الأخير .

---

(١) راجع الإستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٦٠ .

(٢) بنو أضحى أو بنو ضحى من سادة غرناطة ، وقد ذكرهم ابن الخطيب فى الإحاطة مع من ذكر من الأسر الغرناطية ، ولكنا لم نعثر فى الرواية الإسلامية على أية إشارة تلقى ضوءاً على أصل بنى الثغرى وهم الذين يسمون فى الرواية النصرانية (Zegris) . ويقول المستشرق الإسبانى جاينجوس مترجم نفح الطيب إن التسمية الفرنجية هى تحريف لكلمة الثغريين وهم الذين نزحوا من أراجون أو الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة) إلى غرناطة بعد سقوطه فى يد النصارى **(Mohammedan Dynastics in Spain; V.II. p. 541 & Alhambra; Intr. p. 15 Note)**. وقد كانت كلمة الثغرى فيما يبدو صفة أو لقبا لكثير من الأسر النازحة من الثغر الأعلى (أراجون) إلى مختلف أنحاء الأندلس ولا سيما منذ القرن السادس الهجرى . ولهذا نجد عدداً من الزعماء يحمل هذا اللقب (راجع الحلة السيراء لابن الأبار ص ٢١٧ و ٢١٨) . على أن هذا التعليل لا يكشف لنا لقب هذه الأسرة الغرناطية الحقيقى وإنما ينصرف إلى الصفة والشهرة . وهنالك ما يدل على أن آل الثغرى كانوا من البربر ومن قبيلة غمارة ؛ وقد كانت لهم كما سنرى مواقف مشهودة فى حرب غرناطة الأخيرة .

(٣) يرى المستشرق جاينجوس أن منافسات بنى سراج وبنى الثغرى ، كانت من أهم أسباب التعجيل بسقوط غرناطة **Gayangos; ibid; V. I. p. 315**

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع انقلاب جديد فى ولاية العرش الغرناطى . ذلك أن الأمير سعداً عاد فهاجم الحمراء مع أنصاره وانتزع العرش لنفسه (١٤٦٣م) وفر ابن إسماعيل وخصوم السلطان الجديد . وهنا تلقى الرواية الإسلامية بعض الضوء على ماتلا من الحوادث فى غرناطة ، وهذه الرواية هى رواية مؤرخ ورحالة مصرى زار المغرب والأندلس فى هذه الفترة ، هو عبد الباسط بن خليل الحنفى ، دونها فى مؤلفه المسمى «كتاب الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم»[١] ؛ وهو يحدثنا عن بعض أخبار الأندلس التى سمعها أثناء زيارته للمغرب ثم بعد ذلك أثناء زيارته لغرناطة (سنة ٨٧٠ هـ) ، ويروى لنا ما وقف عليه من الحوادث فى سنى ٨٦٧ — ٨٧٠ هـ ؛ ثم يستطرد فيما بعد فيروى لنا ما سمعه من أخبار الأندلس حتى سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) .

ويقول لنا الرحالة المصرى إن سلطان الأندلس فى سنة ٨٦٧هـ (١٤٦٢— ١٤٦٣ م) كان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر ، وإنه ماكاد يجلس على العرش حتى ثار عليه ولده أبو الحسن بتحريض بنى سراج وأخرجه عن غرناطة وامتلكها ؛ فسار سعد إلى مالقة ،وحكم أبو الحسن مكانه . وفى العام التالى أعنى سنة ٨٦٨هـ ، لما اشتد ضغط النصارى على الأندلس ، عاد أبو الحسن فعقد الصلح مع أبيه ، وأطلق سراحه ، واختار سعد الإقامة فى ألمرية فلم يعترض ولده ، ولم يلبث أن توفى فى أواخر هذا العام ، وعندئذ خلص العرش لأبى الحسن .

ولكن حدثت بعد ذلك منازعات حول ولاية العرش بين أبى الحسن ، وأخيه أبى الحجاج يوسف ، ولم ينته هذا النزاع إلا بوفاة يوسف بعد ذلك بقليل .

ويذكر لنا الرحالة أنه قابل السلطان أبا الحسن بحمراء غرناطة فى أواخر جمادى الأولى سنة ٨٧٠ هـ (يناير سنة ١٤٦٦ م)[٢] .

(١) تحفظ نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بمكتبة الڤاتيكان الرسولية برقمى **728 & 729 Borg.** ، وهى فى مجلدين ، الأول يقع فى ٢٥٩ ورقة كبيرة ، والثانى فى ٦٦ ورقة . وترد أخبار الأندلس مبعثرة فى حوليات المجلدين المتوالية .

(٢) نقل العلامة المستشرق الأستاذ **G. della Vida** ما ورد فى كتاب عبد الباسط عن أخبار الأندلس ، ونشره مجتمعاً فى مقال عنوانه : **Il Regno de Granata nel 1463-66 nei recordi di un viagiattero egiziano** وذلك بمجلة الاندلس **(Al-Andalus Vol. I-1933-Fasc. II)**

وهذه النبذ القليلة التى يقدمها إلينا الرحالة المصرى ، تلقى ضوءاً حسناً على حوادث مملكة غرناطة فى تلك الفترة الدقيقة من حياتها .

* * *

وفى ذلك الحين بالذات استولى محمد الفاتح عاهل الترك العثمانيين على قسطنطينية (سنة ١٤٥٣ م) وانهار هذا الصرح المنيع ، الذى كان يحمى أوربا النصرانية من جهة الشرق ، من غزوات الإسلام ، وانساب تيار الفتح العثمانى إلى جنوب شرقى أوربا ، يكتسح فى طريقه كل مقاومة ، وروعت أوربا النصرانية لهذا الخطر الجديد الذى يهدد حريتها وسلامها ، وأخذت النزعة الصليبية تضطرم من جديد بقوة مضاعفة . وتردد هذا الصدى فى اسبانيا النصرانية ، حيث كانت مملكة غرناطة ما تزال بالرغم من صغرها وضعفها ، تمثل صولة الإسلام القديمة فى اسبانيا وقد تغدو فى الغرب نواة لهذا الخطر الإسلامى الداهم ، الذى بدت طلائعه فى الشرق على يد الغزاة الترك ، ومن ثم فقد كان طبيعياً أن تجيش اسبانيا النصرانية بفورة صليبية جديدة ، وأن يذكى هذا الخطر الجديد ، اهتمامها بالقضاء على مملكة غرناطة . وبالرغم مما كانت تجوزه مملكة غرناطة يومئذ من فتن داخلية ، وما كان يفت فى قواها من عوامل الإنحلال السياسى والاجتماعى ، فقد كانت تعتبر دائماً فى نظر اسبانيا النصرانية عدواً داخلياً له خطره . وكان أشد ما تخشاه اسبانيا النصرانية أن تغدو غرناطة قاعدة لفورة جديدة من الغزو الإسلامى تنساب من وراء البحر ، كما حدث فى الحقبة الأخيرة غير مرة . والحقيقة أن حياة هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، قد استطالت أكثر مما كانت تقدره اسبانيا النصرانية . وكانت مملكة قشتالة فى تلك الآونة بالذات تشغل بمنازعاتها الداخلية ، ومضى زهاء ربع قرن آخر قبل أن تتحد اسبانيا النصرانية فى مملكة قوية موحدة . وقد كانت خلال الأحداث التى توالت عليها فى تلك الفترة ، تجيش دائماً بنزعتها الصليبية المأثورة . فلما تحققت الوحدة واستقرت الأحوال واجتمعت الموارد ، أخذت فرصة القضاء الأخير على المملكة الإسلامية الصغيرة ، تبدو لخصيمتها القوية اسبانيا النصرانية ، فى الأفق قوية سانحة .

الفصل التاسع

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ قيام مملكة غرناطة حتى اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون

ألفونسو العاشر ملك قشتالة . مشاريعه نحو مملكة غرناطة . الحرب الأهلية فى قشتالة . ولاية سانشو الباسل . الخلاف بينه وبين النبلاء . عقد الهدنة بين غرناطة وقشتالة . ولاية فرناندو الرابع ووصاية أمه . اضطراب الأحوال فى قشتالة . توطد مركز فرناندو . غزو القشتاليين لأراضى الأندلس . استيلاؤهم على جبل طارق . ولاية ألفونسو الحادى عشر والوصاية عليه . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل زعمائهم . طغيان ألفونسو وعيثه . عبور سلطان المغرب إلى الأندلس . هزيمة المسلمين . غزو القشتاليين للجزيرة الخضراء . حصار جبل طارق وفشل النصارى . ولاية بيدرو القاسى . طغيانه وعنفه . الحرب الأهلية فى قشتالة . انتصار الكونت هنرى وارتقاؤه العرش . ازدهار قشتالة فى عهده . ولاية خوان الأول . الخلاف بينه وبين البرتغاليين . مصرعه وولاية ولده هنرى الثالث . توطد السلام والأمن فى عهده . ولاية خوان الثانى والوصاية عليه . ضعفه ولهوه . فرناندو الوصى يدعى لولاية عرش أراجون . الصراع بين خوان والأشراف . التهادن بين قشتالة وغرناطة . ولاية هنرى الرابع . اضطراب الأحوال فى عصره . استيلاء القشتاليين على جبل طارق . بيدرو الثالث ملك أراجون . النزاع حول عرش نابل . افتتاحه لصقلية . ألفونسو الثالث . ضغط النبلاء عليه . خايمى الثانى . الاستقرار فى عهده . ألفونسو الرابع . طغيان النبلاء وامتيازاتهم . بيدرو الرابع . الحرب الأهلية بين العرش والنبلاء . استيلاء بيدرو على الجزائر الشرقية . استرداده لصقلية . ولاية خوان الأول . ولاية مرتين الأول . الصداقة بين أراجون وغرناطة . وفاة مرتين وجلوس فرناندو صاحب أنتقيرة على العرش . حكمه المطلق . ولده ألفونسو الخامس . افتتاحه لمملكة نابل . أخوه خوان يحكم أراجون . ازدهار مملكة نابل . ولاية خوان الثانى لعرش أراجون . الحرب الأهلية فى أراجون . الحرب بين أراجون وفرنسا . وفاته وولاية ولده فرناندو . عود إلى تاريخ قشتالة . النزاع حول العرش بعد وفاة هنرى الرابع . أخته الأميرة إيسابيلا . قصة زواجها من فرناندو الأرجونى . معارضة أخيها هنرى . موافقتها على هذا الزواج . شروط الزواج وعقده . إعلان ولاية إيسابيلا عقب وفاة أخيها . خوانا ابنة الملك هنرى . مشروع زواجها من ملك البرتغال . غزو ملك البرتغال لقشتالة . ارتداده وفشل مشروعه . ارتقاء فرناندو عرش أراجون . اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون . اسبانيا النصرانية الموحدة . فرناندو الكاثوليكى وصفاته وخلاله . إيسابيلا الكاثوليكية وصفاتها وخلالها . انحلال مملكة غرناطة . عزم فرناندو وايسابيلا على القضاء عليها .

١ ـــ قشتالة

لما توفى فرناندو الثالث ملك قشتالة فى شهر مايو سنة ١٢٥٢م، خلفه فى الملك ولده ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabío لشغفه بالعلوم والآداب

حسبما أشرنا من قبل . وشغل ألفونسو بالشئون والإصلاحات الداخلية ، ولاسيما الإصلاحات التشريعية . وكان المجتمع الإسبانى فى هذا العصر يشعر بحاجة شديدة إلى تشريعات تتفق مع تطوراته ، وتقضى على ماكان يعتوره من شذوذ فى تكوينه ، وتحد من طغيان الأشراف والسادة ، وتلطف من حدة التنافس والبغضاء بين الطوائف. وقد رأينا أن خايمى الفاتح ملك أراجون كان فى الوقت نفسه يضطلع فى مملكته بمثل هذا الدور الإصلاحى الهام . وكان ألفونسو تحدوه أطماع إمبراطورية ضخمة ، إذ كان يطمح إلى تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وذلك بسبب انحداره من أم ألمانية من آل هوهنشتاوفن هى ابنة الإمبراطور فيليب ، وقد أنفق فى سبيل هذا المشروع الخيالى أموالا طائلة ، واضطر لحاجته إلى المال أن يصدر نقداً زائفاً، وأن يتخذ إجراءات ، كان لها أسوأ الأثر فى سير الأحوال الاقتصادية .

وكان ألفونسو بالرغم من اشتغاله بالشئون الداخلية ، يجرى على خطة أسلافه فى متابعة غزو الأراضى الإسلامية . وفى أوائل عهده استطاع أن ينتزع مدينة قادس من سكانها المسلمين ، بمعاونة حليفه ابن الأحمر صاحب غرناطة . بيد أن أمير غرناطة محمداً الفقيه ، لما شعر بعد ذلك بما يدبره ملك قشتالة من خطط للقضاء على المملكة الإسلامية ، عبر البحر إلى المغرب يطلب الغوث والعون ، من السلطان أبى يوسف يعقوب المنصور . وقد رأينا فيما تقدم كيف استجاب المنصور إلى صريخ الأندلس ، وعبر البحر إلى اسبانيا غير مرة وأثخن فى جيوش قشتالة .

وفى أواخر عهد ألفونسو العاشر ساءت الأحوال فى قشتالة ، وثار الأشراف على العرش ، لمحاولته أن يقضى على سلطانهم وامتيازاتهم . ثم خرج على ألفونسو ولده سانشو مناديا بحقه فى العرش ، وكونه أولى من ولد أخيه المتوفى المرشح لولاية العهد . واضطرمت فى قشتالة حرب أهلية خسر فيها ألفونسو عرشه ، والتجأ إلى السلطان أبى يوسف فأمده بالمال والجند حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . واستمرت الحرب الأهلية بين ألفونسو وولده سانشو ، حتى توفى ألفونسو فى سنة ١٢٨٤م فى إشبيلية ، منبوذاً مهزوما ، وبذلك انتهت الحرب الأهلية فى قشتالة .

واستمر ولده سانشو الملقب بالباسل El Bravo على عرش قشتالة مدى حين بلا منازع ، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع النبلاء الذين آزروه ضد أبيه من قبل ، ومع إخوته الأصاغر ، وكذلك مع أبناء أخيه الأكبر فرناندو الذى توفى قبل وفاة أبيه ، وثارت حول عرش قشتالة من جديد منازعات واضطرابات لانهاية

لها . وعمد سانشو إلى الدس والغيلة للتخلص من خصومه ، وأبدى فى مطاردتهم قسوة متناهية . وفى تلك الفترة التى اضطربت فيها شئون قشتالة ، آثر سانشو أن يستجيب إلى عقد السلم مع مملكة غرناطة ، وكان ابن الأحمر من جانبه يتوق إلى عقد مثل هذه الهدنة مع قشتالة ، لما كان يساوره من جزع من جراء تدخل سلطان المغرب أبى يوسف المنصور فى شئون الأندلس ، بصورة خشى معها على سلطانه حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، وعلى ذلك تمتعت غرناطة ببضعة أعوام من السكينة والسلام .

ولما توفى سانشو فى سنة ١٢٩٦ م ، خلفه ولده فرناندو الرابع طفلا فى السادسة من عمره ، وتولت الوصاية عليه أمه ماريا دى مولينا ، وبالرغم مما أبدته أمه من الشجاعة فى الذود عن العرش وعن الملك الطفل ، ومن براعة فى تصريف الشئون ، فقد كان عهده عهد اضطراب وفوضى ، وعاد النبلاء والمتنافسون فى طلب العرش إلى تدبير الثورات المتعاقبة ، واضطر الملك الطفل وأمه إلى الفرار من إشبيلية ، والالتجاء إلى حماية أهل آبلة الذين آزروه واستقبلوه بترحاب وحماسة . ولما بلغ فرناندو أشده ، استطاع أن يعود إلى عرشه بمؤازرة أصدقائه وأنصاره ، ولكنه أبدى قصوراً وعجزاً فى تسيير الشئون . كما أبدى عقوقاً ونكراناً لأمه ، التى كفلته وحمته فى طفولته . وفى عهد فرناندو ساءت العلائق بين قشتالة ومملكة غرناطة ، وعاد النصارى إلى غزو أراضى المسلمين. وكان من أعظم الحوادث فى هذا العهد ، استيلاء القشتاليين على ثغر جبل طارق ، وذلك فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) .

ولما توفى فرناندو خلفه على العرش ولده الطفل ألفونسو (الحادى عشر) ، ولما يبلغ الحول من عمره ، وتولى الوصاية عليه الدون پيدرو والدون خوان وهما زعيما النبلاء . وبالرغم مما كان يسود قشتالة يومئذ من ضروب الاضطراب والفوضى ، فقد اعتزم رهط الأمراء والنبلاء المضى فى غزو الأراضى الإسلامية ، وعاث الجند القشتاليون فى بسائط غرناطة ، واستولوا على عدة من الحصون ، وهزموا المسلمين فى موقعة شديدة (١٣١٧م) . وكان ذلك فى بداية عصر السلطان أبى الوليد إسماعيل . وبعد ذلك بعامين زحف الجند القشتاليون ، بقيادة الدون پيدرو والدون خوان الوصيين وعدد كبير من الأمراء ، على العاصمة الأندلسية ذاتها ، والتقى المسلمون والنصارى على مقربة من غرناطة ، وكانت موقعة هائلة كتب فيها النصر للمسلمين وقتل الدون پيدرو والدون خوان ومعظم الأمراء القشتاليين (١٣١٩م) .

وانتهز المسلمون هذه الفرصة ، فقاموا بعدة غزوات ناجحة فى أراضى قشتالة ، واستولوا على بعض القواعد والحصون حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وفى خلال ذلك تفاقمت الأمور فى قشتالة واشتد النزاع بين النبلاء ، واستمرت هذه الحال طوال عهد الوصاية .

ولما بلغ الملك الطفل أشده ، وتولى أمور الملك بنفسه ، أخذت تتكشف صفاته المثيرة شيئاً فشيئاً . وبالرغم مما أبداه من مقدرة فى ضبط المملكة وتسيير الشئون ، وما قام به من الإصلاحات الإدارية والقضائية ، لتوطيد النظم التى يقوم عليها المجتمع القشتالى ، فقد كان يلجأ إلى أشد أساليب العنف والقمع ، وكان القتل وسيلته المثلى لحماية العرش وصون الدولة ، وقد زهق على يديه كثير من الأمراء والنبلاء والزعماء ، دون إجراءات ودون محاكمة ، حتى لقب من أجل ذلك « بالمنتقم » . وكان البلاط القشتالى فى عهده مرتعا للفجور والإثم . وكانت الملكة الشرعية الأميرة ماريا البرتغالية تعيش منبوذة فى عزلة مطبقة ، وتسيطر على القصر والدولة خليلة الملك إليونورا دى كزمان ، وقد رزق منها ألفونسو بعدة أبناء غير شرعيين . وهكذا كانت قشتالة تجوز يومئذ عهداً من الإرهاب ، والانحلال السياسى والاجتماعى .

ومع ذلك فقد كان ألفونسو الحادى عشر ملكا قوى البأس والعزم . وكان يضطرم نحو المملكة الإسلامية بمشاريع خطرة . وكانت غرناطة شعوراً منها بالخطر الذى يحدق بها . قد استغاثت بجارتها القوية وراء البحر مرة أخرى ، وبعث السلطان أبو الحسن المرينى جيوشه لنجدة الأندلس ، واجتمعت جيوش الممالك النصرانية ، قشتالة وأراجون للقاء الجيوش المغربية وهزمتها فى موقعة دموية فى سنة ١٣٣٩ م ؛ فاعتزم السلطان أبو الحسن أن يثأر لنفسه من تلك الهزيمة ، وجاز البحر بنفسه إلى الأندلس فى أسطول وجيش عظيمين ، واجتمعت الجيوش النصرانية بقيادة ألفونسو الحادى عشر ، والتقت بجيوش الأندلس والمغرب على ضفاف نهر سالادو فى الجزيرة الخضراء ، ونشبت بين الفريقين موقعة حاسمة هزم فيها المسلمون شر هزيمة وسقط معسكر سلطان المغرب ومخيمه فى يد النصارى حسبما فصلنا فى موضعه ، وكان ذلك فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ م (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) ، واستولى النصارى على طريف والجزيرة الخضراء .

واستمرت غزوات النصارى لأراضى غرناطة بضعة أعوام أخرى . وفى سنة

١٣٤٩ م زحف القشتاليون على سهول الجزيرة الخضراء . وكان ثغر جبل طارق الذى استولى عليه النصارى مدى حين قد عاد إلى المسلمين ،واعتزم ملك قشتالة أن يحاول استرداده ، فضرب حوله الحصار الصارم، واستمر الحصار زهاء عام، والمسلمون داخل الصخرة صامدين ، وملك غرناطة يرابط بجيشه من وراء النصارى . ثم فشا الوباء فى جيش النصارى ، وهلك منه عدد جم ، وكان ملك قشتالة فى مقدمة الضحايا ، فاضطر النصارى إلى رفع الحصار ، وأنقذ جبل طارق بما يشبه المعجزة (سنة ١٣٥٠ م) .

وهكذا توفى ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة فى إبان قوته ومجده ، ولما يبلغ الثامنة والثلاثين من عمره ، فخلفه ولده پيدرو الثانى الملقب بالقاسى الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بدون بطره » .وپيدرو شهير فى الرواية الإسلامية أولا لأنه هو الملك الذى أوفد إليه المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون سفيراً من قبل ملك غرناطة ، ووصف لنا فى التعريف سفارته لديه وإقامته فى قشتالة(١). وثانيا لأنه معاصر للوزير ابن الخطيب مؤرخ غرناطة، وقد تناول أخباره فى تاريخه بتفصيل ووضوح .

ولجأ پيدور الثانى إلى نفس الأساليب الدموية التى لجأ إليها أبوه فى توطيد سلطانه ، فأسرف فى قتل خصومه ، وبسط على قشتالة حكم إرهاب مروع ، وقيل إنه لجأ إلى قتل زوجه الشرعية بلانش دى بوربون بالسم ليتزوج من خليلته، وعهد بإدارة حكومته إلى رهط من اليهود ارتيابا منه فى أبناء وطنه، وأنشأ له حرساً من المدجنين . ونشب الخلاف بينه وبين إخوته غير الشرعيين أبناء إلينورا دى كزمان ، ولاسيما كبيرهم الكونت هنرى دى تراستمارا . وانحاز الأشراف إليهم، واضطرمت قشتالة مدى أعوام بثورات داخلية ، ثم استحالت إلى حرب أهلية ضروس، واستطاع الكونت هنرى أن يحصل على معاونة ملك فرنسا، وأن ينتزع لنفسه عرش قشتالة ، وفر پيدرو واستغاث بالأمير أدوارد ولى عهد انجلترا المعروف بالأمير الأسود ، فأمده بجنده واستطاع أن يسترد عرشه مدى حين . ولكن أخاه الكونت هنرى عاد إلى محاربته فهزم وقتل فى موقعة مونتيل فى سنة ١٣٦٨ م . وقد عرضنا إلى هذه الحوادث بالتفصيل فى حديثنا عن عصر السلطان محمد الغنى بالله . وقد كانت تربطه ببيدرو الثانى معاهدة صداقة وتحالف، وكانت

---

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .

غرناطة إلى جانبه فى محنته ، وكان لهذه الحوادث صدى خاص فى الرواية الإسلامية عرض إليه ابن الخطيب فى كتابه « الإحاطة » على نحو ما قدمنا .

وعلى أثر موقعة مونتيل استقر الكونت هنرى دى تراستمارا مكان أخيه على العرش(١٣٦٨م) ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك قشتالة . وفى عهده استتب الهدوء والنظام فى قشتالة ، وأقبل الأشراف على تأييده ، وكان للمدن التى آزرته فى جهوده لنيل العرش امتيازات خاصة ، وكذلك ازدهر البرلمان القشتالى (الكورتيس) واشتد ساعده ، ولكنه لم يوفق إلى الحد من طغيان العرش . وأبدى الكونت هنرى فى تسيير الشئون الداخلية مقدرة ، وأصاب نجاحا يذكر ، واستطاع فى ميدان الشئون الخارجية أن يرغم البرتغال على عقد الصلح ، وأن يهزم حملة بحرية فى مياه لاروشل. وكان حكمه على العموم فترة رخاء وأمن . وفى عهده انتهزت مملكة غرناطة فرصة اشتغال قشتالة بشئونها الداخلية فنظمت قواها ، وأغارت غير مرة على أراضى قشتالة فى غزوات ناجحة ، حسبما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

ولما توفى الكونت هنرى فى سنة ١٣٧٩ م ، خلفه على العرش ولده خوان (يوحنا) الأول . وكان الأمير چون أوف جونت ولد إدوارد الثالث ملك انجلترا قد تزوج كبرى بنات بيدرو الثانى ، وأخذ يطالب باسمها بعرش قشتالة ، وكادت تضطرم من أجل ذلك حرب أهلية جديدة ، ولكن خوان الأول استطاع أن يجتنب هذا الخطر بالتفاهم مع الأمير چون ، والاتفاق معه على أن يقترن ولده بالأميرة كونستانس كبرى بنات الأمير الإنجليزى ، وتم بذلك الزواج اتحاد فرعى ألفونسو الحادى عشر ، وزوال خطر الحرب الأهلية المترتب على خصومتهما حول العرش ؛ وحاول خوان الأول من جهة أخرى أن يطالب بعرش البرتغال عقب وفاة ملكها فرناندو سنة ١٣٨٣م باسم زوجه الأميرة بياتريس ، وهى الإبنة الوحيدة للملك المتوفى ، وثارت من جراء ذلك بين قشتالة والبرتغال حرب هزم فيها القشتاليون فى موقعة « الجبرونا » فى سنة ١٣٨٥م ، واضطر ملك قشتالة أن ينزل عن دعواه .

وتوفى خوان الأول قتيلا على أثر سقوطه عن جواده (أكتوبر سنة ١٣٩٠م) فخلفه على عرش قشتالة ولده هنرى (إنريكى) الثالث حدثا . وكان سقيما عليلا ، ولم يطل أمد حكمه حينما بلغ الرشد سوى أعوام قلائل . بيد أنه استطاع فى حكمه القصير أن يوطد النظام والأمن داخل مملكته ، وأن يقضى على شغب الأشراف ،

وأن يسترد منهم كل الإقطاعات التى انتزعوها من العرش إبان طفولته . وفى عهده نشبت الحرب حيناً بين المسلمين والنصارى ، وانتهت بعقد الهدنة بين الفريقين ، ثم توفى شابا فى أواخر سنة ١٤٠٦ م .

فخلفه ولده خوان الثانى طفلا فى نحو الثانية من عمره ، ووضع تحت وصاية أمه الملكة كونستانس الإنجليزية ، وعمه الأمير فرناندو الذى يعرف بفرناندو صاحب أنتقيرة ، نظراً لاستيلائه على هذه القاعدة من المسلمين فى سنة ١٤١٢م .

وطال حكم خوان الثانى زهاء نصف قرن، وكان أميراً ضعيف الرأى والعزم سيئ الخلال ، يعشق اللهو وينفق أوقاته فى حفلات الصيد والفروسة وقرض الشعر ، وكان عمه الوصى فرناندو فى الأعوام الأولى من طفولته ، يقبض على زمام الأمور بحزم وبصيرة . بيد أنه دعى منذ سنة ١٤١٢ م إلى تبوىء عرش أراجون بقرار من الكورتيس ، فترك قشتالة لمصيرها . وما كاد خوان الثانى يبلغ أشده ، حتى بدأ النضال بينه وبين الأشراف من أجل السلطة وفرض الضرائب ، وشغلت قشتالة مدى حين بأمر هذا النضال . وفوض الملك شئون الدولة إلى وزيره وصفيه ألبارو دى لونا ، فاستأثر بكل سلطة ، واستطاع أن يوطد نفوذ العرش ، وأن يحقق النظام والأمن . فلما اقترن خوان بزوجه الثانية إيسابيلا البرتغالية ، عملت على تحريره من نفوذ وزيره القوى ، وما زالت به حتى أسقطه وأقصاه . ويقال إن هذا التصرف الغادر نغص عليه حياته فى أعوامه الأخيرة . وتوفى خوان الثانى فى يوليه سنة ١٤٥٤ م فى بلد الوليد ، وقد رزق من زواجه الثانى بابنته إيسابيلا وهى التى تبوأت العرش فيما بعد ، وعرفت بايسابيلا الكاثوليكية ، وكان لها أعظم شأن فى تاريخ اسبانيا النصرانية .

وفى معظم عصره ساد نوع من السلام والتهادن بين غرناطة وقشتالة ، وكانت حفلات الفروسية الأندلسية الشهيرة تجمع بين الأشراف والسادة من الفريقين ، فى جو من التعاطف والمودة . ولكن غرناطة ما لبثت أن شغلت بثوراتها الداخلية التى تعاقبت حول العرش فى عصر السلطان الأيسر وخلفائه . وكان بلاط قشتالة يلعب عندئذ دوره المأثور ، فى إذكاء عوامل الخلاف بين المتنافسين من أمراء غرناطة ، وتغليب البعض على البعض الآخر ، والتمهيد بذلك لإضعاف مملكة غرناطة والقضاء عليها .

وخلف خوان الثانى ولده هنرى (إنريكى) الرابع ، وكان كأبيه أميرا ضعيفاً

منحل الخلال ، حتى أنه لقب « بالعاجز » . وكان عصره عصر ركود وفوضى ؛ ومع ذلك فإن قشتالة لم تقعد فى عهده عن المضى فى غزو الأراضى الإسلامية ، وإرهاق مملكة غرناطة ، التى اضطربت شئونها وسادتها الخلافات الداخلية ، واضطر ملك غرناطة السلطان ابن إسماعيل أن يتعهد بتأدية الجزية لقشتالة . وكان من أعظم الحوادث فى عصر هنرى الرابع استيلاء القشتاليين نهائيا على ثغر جبل طارق (١٤٦٢م) حسبما ذكرنا فى موضعه . وتوفى الملك هنرى فى سنة ١٤٧٤م . وعلى أثر وفاته عارض النبلاء فى جلوس ابنته الوحيدة خوانا على العرش لما يحيط بنسبتها إليه من الريب . وهنا تقدمت أخته الأميرة إيسابيلا مطالبة بعرش قشتالة . وكانت قد تزوجت فى سنة ١٤٦٩ م من ابن عمها الأمير فرناندو الأرجونى ، وذلك بالرغم من معارضة أخيها الملك هنرى ، وكان لهذا الزواج أثر بعيد المدى فى سير التاريخ الإسبانى حسبما نفصل بعد .

٢ — أراجون

لما توفى خايمى الأول أوخايمى الفاتح ملك أراجون فى سنة ١٢٧٤ م ، خلفه على العرش ولده بيدرو الثالث . وتبدأ منذ عهد هذا الملك صفحة جديدة فى تاريخ أراجون ، حيث يمتد سلطان العرش الأرجونى واسبانيا النصرانية فيما وراء البحر ، إلى صقلية وجنوبى إيطاليا (مملكة نابل) . وذلك أن بيدرو الثالث تزوج الأميرة كونستانس إبنة مانفرد دوق بنفونتوم وصاحب مملكة نابل وصقلية باعتباره سليل بيت هوهنشتاوفن الإمبراطورى . وكان البابا يريد التخلص من سلطان أولئك الأمراء الألمان ، فدعا شارل دانجو ولد ملك فرنسا إلى اعتلاء عرش نابل ، فاستجاب شارل إلى الدعوة وغزا نابل وقتل صاحبها مانفرد . وهنا تقدم بيدرو الثالث مطالبا بعرش نابل باسم زوجه ، ونشب بين الحزب الأرجونى وبين حزب شارل دانجو نزاع طويل الأمد . وفى النهاية استطاع بيدرو أن يغزو صقلية وأن ينتزعها من يد الفرنسيين ؛ وأسبغ عليه هذا الفتح لقب « الأكبر » . ولما حاول الفرنسيون غزو قطلونية تأييداً لشارل دانجو ، ردهم بيدرو وأخفقت المحاولة . وكان افتتاح صقلية أول خطوة فى بسط السيادة الإسبانية على جنوبى إيطاليا فيما بعد . ولما توفى بيدرو الثالث فى سنة ١٢٨٥ م ، كانت سيادة أراجون تمتد فضلا عن صقلية إلى بعض أنحاء بروفانس فى جنوبى فرنسا .

وخلفه على العرش ولده ألفونسو الثالث، وكان ضعيفاً سيئ الخلال ، ولم يطل أمد حكمه سوى بضعة أعوام . وفى عهده اشتدت وطأة النبلاء وكثرت مطالبهم ، وعجز ألفونسو عن مقاومتهم ، وكان تخاذل العرش أمام طغيان الأشراف على هذا النحو ، سبباً فى اضطراب الأمور فى مملكة أراجون .

وتوفى ألفونسو الثالث سنة ١٢٩١ م دون عقب لأنه لم يتزوج ، فخلفه على عرش أراجون أخوه الأصغر خايمى الثانى . وكان يتولى عرش صقلية منذ وفاة أبيه فى سنة ١٢٨٥ م حتى وفاة أخيه الأكبر . ورأى خايمى أن يوفق بين أراجون وبين مملكة نابل، فتزوج من بلانكا ابنة شارل دانجو، وساد السلم حينا بين أراجون وفرنسا . واستطال حكم خايمى حتى سنة ١٣٢٧م ، وكان عهده اصلاح واستقرار . ثم خلفه فى الملك ولده ألفونسو الرابع ، فحكم زهاء تسعة أعوام ، وكان أميراً ضعيفاً . وفى عهده زاد طغيان النبلاء ولاسيما فى أراجون وبلنسية، واشتد إرهاقهم للعرش حتى انتهوا بإرغام الفونسو على إصدار المرسوم المعروف بمرسوم الإتحاد ، وفيه يعترف العرش لهم بأنه لا تجوز معاقبتهم فيما يتعلق بالنفس أو المال إلا بحكم القانون ، وأن يكون لهم حق اختيار القاضى الأكبر الذى يصدر أحكامه مستقلا عن مصادقة العرش، وأن يقوموا بالدفاع المسلح عن أنفسهم حيثما شعروا بما يهددهم . وكان فى صدور هذا المرسوم افتئات لم يسبق له مثيل على سلطات العرش .

وكان بيدرو الرابع الذى خلف أباه ألفونسو على العرش سنة ١٣٣٦ م ، أميراً قوياً وافر العزم . وكان يتوق إلى كبح جماح أولئك النبلاء الذين طال طغيانهم ، وإلغاء ذلك المرسوم الذى أرغم أبوه على إصداره . ولكن النبلاء تمسكوا بموقفهم ، وتأهبوا للدفاع عن امتيازاتهم ، واضطرمت أراجون بحرب أهلية بين العرش والنبلاء انتهت بفوز بيدرو الرابع على النبلاء الخوارج فى موقعة آبلة سنة ١٣٤٨م . وأمعن بيدرو بعد ذلك فى مطاردة خصومه وقتلهم ، وأرغم النبلاء على التنازل عن مرسوم الإتحاد ، وقام بنفسه بتمزيقه أمام مجلس النواب فى سرقسطة ، وبلغ من تلهفه على تمزيقه أن جرح يده بخنجره ، وصاح عندئذ بأن الدم الملكى حقيق بأن يجرى فى سبيل إبطال مثل هذه الوثيقة ، وعرف من جراء ذلك « بصاحب الخنجر » . على أن بيدرو كان حكيما فى ظفره، فقد ترك للنبلاء الحق فى أن يحاكموا بمقتضى القانون ، وأن تكفل حمايتهم من الأحكام التعسفية ، وأكد احترامه لاستقلال القضاء، وترك للمدن حق الإعراب عن رأيها . وفى العام التالى (١٣٤٩م)

استطاع پيدرو الرابع أن ينتزع الجزائر الشرقية (البليار) من ابن عمه خايمى الثالث ، بعد أن هزم وقتل فى موقعة دموية ، وأعيدت الجزائر الشرقية إلى مملكة أراجون مرة أخرى ، وكان خايمى الفاتح قد تركها بمقتضى وصيته لخايمى أحد أولاده ، وقامت بها مملكة مستقلة مدى حين . ونشبت الخصومة بعد ذلك بين پيدرو ملك أراجون ، وپيدرو القاسى ملك قشتالة ، وانحاز ملك أراجون إلى الكونت هنرى دى تراستمارا المطالب بعرش قشتالة ، واستمر يعاونه بالمال والجند ، حتى انتهى أخيراً بالتغلب على أخيه پيدرو القاسى ، والجلوس على عرش قشتالة سنة ١٣٦٩ م حسبما فصلنا من قبل . وظفر پيدرو كذلك باسترداد صقلية فى سنة ١٣٧٧ م ، ولكنه منح حكمها لابنه مرتين ، وزوج پيدرو ابنته إلينور لخوان الأول ملك قشتالة ، فكان ذلك فيما بعد سبباً فى انتقال عرش أراجون إلى بيت قشتالة الملكى حينما انقرض عقبه من الذكور .

وتوفى پيدرو الرابع سنة ١٣٨٧م ، وأراجون أوفر ما تكون قوة ، واستقرارا فخلفه ولده خوان (يوحنا) الأول . وكان أميراً ضعيف الخلال والعزم ، يعشق الأدب والشعر وتضجره مهام الملك ، ولم يطل أمد حكمه سوى بضعة أعوام ، إذ توفى فى حادث سقوطه عن جواده سنة ١٣٩٥ م .

فخلفه أخوه الأصغر مرتين الأول . وكان حكمه عهد هدوء واستقرار . ومنح عرش صقلية لولده مرتين . وفى عهده سادت علائق المودة والصداقة بين أراجون وغرناطة ، وعقدت بين المملكتين معاهدة صداقة وتحالف (سنة ١٤٠٥م) . ولما توفى مرتين فى سنة ١٤١٠ م دون عقب ، ثارت حول وراثة عرش أراجون مشكلة دقيقة ، وتولى مجلس الكورتيس (البرلمان) حكم البلاد ، واستمر مدى عامين فى مباحثات ومناقشات مستمرة حول مسألة العرش ، وفى النهاية أصدر قراره باختيار الأمير فرناندو القشتالى ولد خوان الأول ملك قشتالة ، والمعروف بفرناندو صاحب أنتقيرة ، للجلوس على عرش أراجون ، وذلك باعتباره ولد الملكة إلينور ابنة پيدرو الرابع ملك أراجون وأخت الملك مرتين ، فلبى فرناندو الدعوة وتخلى عن وصايته لابن أخيه خوان الثانى ملك قشتالة ، وجلس على عرش أراجون سنة ١٤١٢ م ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك أراجون .

ولم يطل أمد حكم الملك فرناندو سوى أربعة أعوام ، وكان أميراً قوى الخلال ذا مقدرة وفطنة فى تصريف الشئون ، ولكنه كان يضطرم بروح السلطان

المطلق التى ألفها فى قشتالة ، ويتبرم بالحدود والقيود التى وضعها الدستور الأرجونى للحد من سلطان العرش . والواقع أن الحريات الدستورية كانت فى أراجون ، أرسخ وأكثر نضوجا منها فى قشتالة ، وكان ذلك يرجع إلى طبيعة الشعب الأرجونى ، وشدة مراسه ، وتعلقه بمبادئ الحرية ، وهى صفات لم تكن تروق فى تلك العصور للملوكية رجعية ، تحرص على سلطانها المطلق .

ولما توفى فرناندو الأول فى سنة ١٤١٦ م ، خلفه على عرش أراجون ، ولده ألفونسو الخامس المعروف بألفونسو « الشهم » **El Magnánimo** ؛ على أن ألفونسو الخامس لا يكاد يمثل فى تاريخ أراجون ، وإنما يمثل بالأخص فى تاريخ إيطاليا ومملكة نابل . وقد ورث ألفونسو عرش صقلية مع عرش أراجون ، واستطاع بعد حوادث وخطوب جمة أن يفتتح مملكة نابل وأن يجلس على عرشها (١٤٤٢ م) . واستقر ألفونسو فى نابل ، وترك حكم أراجون والأراضى التابعة لها لأخيه خوان (يوحنا) ، يحكمها باسمه ومن قبله . وبسط ألفونسو على نابل وصقلية حكمه الفخم ، وسطع بلاطه بين القصور الإيطالية ، وكان نصيراً للعلوم والآداب والفنون ، يأخذ فى تعضيدها بقسط وافر ، شأن معاصريه من الأمراء والبابوات الذين ساهموا فى بعث النهضة ، وسطعوا فى عصر الإحياء (الرينصانص) . ولما توفى فى سنة ١٤٥٨ م ، دون عقب شرعى ، ترك مملكة نابل لولده غير الشرعى فرناندو ، وجلس أخوه خوان على عرش أراجون باسم خوان الثانى .

وكان خوان الثانى أميراً وافر العزم والمقدرة ، ولكنه كان فى الوقت نفسه طاغية خطر الأهواء والأساليب . وشغل خوان عن شئون أراجون الداخلية ، بكفاحه فى سبيل الحصول على عرش ناڤارا ، باعتباره زوجا ووريثا لملكتها بلانش ، وكذلك شغلته ثورة ولده الأمير كارلوس المعروف بأمير ڤيانا مدى حين ، وكان ينافس أباه فى الحصول على عرش ناڤارا ، ويرى أنه أحق منه بميراث أمه . وحاول خوان بتحريض زوجه الثانية جنه هنريكيز أن يحرم ولده من نيابة العرش ، فثار إلى جانبه فريق من الشعب الأرجونى ، ونشبت بين الأب والإبن عدة وقائع انتهت بوفاة الإبن فى سنة ١٤٦١ م . وقيل إنه توفى مسموماً بيد زوج أبيه . وكذلك ثار الشعب القطلونى معلناً استقلاله . وشغل خوان بضعة أعوام حتى استطاع أن يخمد هذه الثورة الخطيرة (١٤٧٢ م) . وكذلك نشبت الحرب بين أراجون وفرنسا ، من أجل ولاية روسيّون الفرنسية ، وهزم خوان غير مرة . على أن

أعظم مهمة شغلت خوان فى أواخر عهده ، هى السعى إلى تزويج ولده فرناندو من زوجه الثانية ، بالأميرة (إيسابيل) القشتالية[١] ، وقد كلل سعيه بالنجاح فى تحقيق هذا المشروع الخطير الذى كان إيذاناً باتحاد أراجون وقشتالة فى مملكة اسبانية موحدة .

واستطال حكم خوان الثانى حتى سنة ١٤٧٩ م ، وقد بلغ الثمانين من عمره وكف بصره ، فترك العرش لولده فرناندو ، الذى قدر له أن يضطلع مع زوجه إيسابيلا ، بأعظم دور فى العمل لإنشاء اسبانيا الكبرى .

٣ — اسبانيا النصرانية المتحدة

لما توفى هنرى الرابع ملك قشتالة فى سنة ١٤٧٤م ، ثارت حول وراثة العرش مشكلة دقيقة . ذلك أن الملك هنرى لم يترك سوى ابنة طفلة هى خوانا (چنه) . وكانت مع ذلك يشك فى نسبتها إليه ، وتنسب أبوتها إلى صديقه وصفيه الدوق بلتران دى لاكويڤا ، ومن ثم كان اسمها الذائع خوانا بلترانيخا . وكان يناصرها فريق صغير من النبلاء . بيد أن الأميرة إيسابيلا أخت الملك هنرى ، كانت بالعكس تتمتع بعطف الشعب القشتالى ، ويناصر وراثتها للعرش فريق كبير من النبلاء ، وكان أخوها الملك هنرى قد اعترف بحقها فى العرش ، وأيدها الكورتيس (مجلس النواب) فى ذلك ، عقب وفاة أخيها ألفونسو فى سنة ١٤٦٨ م ، ومن ثم فقد كان حقها فى وراثة العرش أمراً واضحاً .

وكانت الملكة إيسابيلا قد تزوجت قبل وفاة أخيها ببضعة أعوام ، بابن عمها الأمير فرناندو الأرجونى ولد الملك خوان الثانى . ولهذا الزواج الذى مهد لتوحيد اسبانيا النصرانية قصة طريفة . فقد كانت الأميرة إيسابيلا مذ كبرت مطمح الأنظار لما يؤهلها لعرش قشتالة من الاحتمالات القوية . وكان خوان الثانى ملك أراجون يتوق إلى خطبتها لابنه فرناندو لما يربط أسرتى قشتالة وأراجون من أواصر القربى الوثيقة ، ويقرب سبل الإتحاد بين الفريقين . وكان فرناندو أول المتقدمين لخطبة الأميرة ، ولكن أخاها الملك هنرى لم يكن راضياً عن ترشيحه ؛ وكان ينافسه فى خطبتها عدة من الأمراء والنبلاء منهم كبير فرسان قلعة رباح ، وقد وافق أخوها

---

(١) هى فى التواريخ القشتالية « دونيا إيسابيل » اى السيدة إيسابيل **Dona Isabel** ، أو **Ysabel** . ولكنا نؤثر تسميتها بإيسابيلا تمشياً مع التواريخ الغربية .

الملكة إيسابيلا الكاثوليكية
عن الصورة المحفوظة بمتحف سان تلمو بإشبيلية

الملك هنرى على زواجه منها ، ولكنه توفى قبل إتمامه ؛ وكذلك خطبها ألفونسو ملك البرتغال وأمراء آخرون ، ولكن إيسابيلا رغبت عنهم جميعا ، وآثرت بعد إمعان النظر أن تستجيب إلى دعوة ابن عمها فرناندو الأرجونى ، لنفس البواعث التى دعت إلى تقدمه إليها ، ولأنه يجمع بينهما من الجد بيت ملكى واحد . ووُضعت شروط الزواج بين الفريقين سراً نظراً لمعارضة الملك هنرى ، وفيها يتعهد فرناندو بأن يحترم قوانين قشتالة وتقاليدها ، وأن يجعل مقر إقامته فيها ، وألا يغادرها دون إذن إيسابيلا ، وألا يجرى أى قرارات أو تعيينات فى المملكة دون إذنها ، وتعهد بالأخص بأن يتابع الحرب ضد المسلمين . وفى أكتوبر سنة ١٤٦٩ عقد الزواج فى مدينة بلد الوليد Valladolid ، حيث كانت تقيم الأميرة ، فى حفل خاص لم يشهده سوى قليل من الأصدقاء ، وأخطرت الأميرة أخاها بعقد الزواج ، بكتاب تشرح فيه البواعث التى حدت بها إلى إتمامه . وهكذا حققت أمنية ملك أراجون ، وأثبتت الحوادث التالية بعد نظره ، وخطورة مشروعه .

وأعلنت إيسابيلا عقب وفاة أخيها ملكة لقشتالة وليون ، فى شقوبية[1] حيث كانت تقيم ، وذلك فى ديسمبر سنة ١٤٧٤م ، وحذت مدن أخرى حذو شقوبية ، ولكن الأمر لم يكن هيناً ، ذلك أنه كان ثمة فريق من النبلاء يناصر الأميرة خوانا ابنة الملك المتوفى ، وكان زوجها فرناندو يطمح فوق ذلك إلى انتزاع العرش لنفسه ، باعتباره آخر عقب من الذكور لبيت قشتالة الملكى ؛ ولكن إيسابيلا تمسكت بحقها ، وانتهى الأمر بينهما بالاتفاق على مزاولة الملك المشترك ، تعتبر فيه إيسابيلا ملكة أصلية لقشتالة ، لها الرأى الأول فى الجليل من الشئون ، ويجرى القضاء وتسك العملة باسميهما . وكان خصوم إيسابيلا فى ذلك الحين وعلى رأسهم مطران طليطلة ، قد تفاهموا مع ملك البرتغال ألفونسو الخامس ، على تأييد سعيهم فى تنصيب خوانا ملكة وهى ابنة أخته ، وعلى الاقتران بها . وفى مايو سنة ١٤٧٥ غزا ملك البرتغال قشتالة بقواته ، واخترق هضابها الشمالية حتى مدينة سمورة ، وبادر فرناندو وإيسابيلا بالسير فى قواتهما إلى لقائه ، واشتبك الفريقان على مقربة من تورو بجوار سمورة ، فارتد القشتاليون فى البداية ، ولكن ألفونسو لم يبادر إلى الاستفادة من تفوقه ، وطال الصراع بين الفريقين بضعة أشهر ، وفى النهاية رجحت كفة القشتاليين ، واضطر ملك البرتغال أن يرتد أدراجه (فبراير سنة ١٤٧٦ م) .

---

(١) هى بالإسبانية Segovia .

الملك فرناندو الخامس (الكاثوليكى)
عن الصورة المحفوظة بمتحف سان تلمو بإشبيلية

وهكذا انتصر فرناندو وإيسابيلا على خصومهما ، واستقرا معا على عرش قشتالة بلا منازع . وفى سنة ١٤٧٩ ارتقى فرناندو عرش أراجون على أثر وفاة أبيه خوان الثانى ، وبذلك اتحدت المملكتان الإسبانيتان فى ظل عرش واحد ، بعد أن فرقت بينهما المنافسات والخطوب أحقاباً ، واجتمعت كلمة اسبانيا النصرانية بعد أن طال افتراقها ؛ وبدأت اسبانيا فى ظل فرناندو وإيسابيلا ، أو فى ظل الملكين الكاثوليكيين حسبما لقبا بعد ، عصراً من القوة والعظمة والسؤدد ، لم تشهده فى تاريخها من قبل ، وهو بحق فاتحة عصرها الذهبى .

وكان فرناندو الخامس أو فرناندو الكاثوليكى من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية وأوفرهم عزماً وهمة ؛ وكان يتمتع بمقدرة فائقة ، سواء فى الإدارة أو فى ميادين الحرب والسياسة . بيد أن هذا الجانب الحسن من خلاله ، كانت تغشاه صفات سيئة ، فقد كان فرناندو أميراً لا وازع له ، يجنح فى سياسته إلى الغدر ، ومجانبة الوفاء ، وكان رجل الفرصة السانحة ، يلتمس إلى تحقيق أطماعه العظيمة أى الوسائل ، مهما كانت تجانب المبادئ الأخلاقية المقررة ، أو مقتضيات الفروسة والوفاء . وسوف نرى كيف تتجلى هذه الخلال البغيضة فى تصرفاته وأساليبه فى معاملة الأمة الأندلسية المغلوبة .

وكانت زوجه الملكة إيسابيلا تتمتع أيضاً بكثير من الذكاء والعزم . وكانت تثير برقتها وتواضعها واحتشامها ، حب الشعب القشتالى وإعجابه . بيد أنها كانت تجيش بنزعة دينية عميقة ، تذهب أحياناً مذهب التعصب المضطرم ، وكانت تقع تحت تأثير الأحبار المتعصبين ، وتنزل عند تحريضهم وتوجيههم ؛ وكان مشروع غزو مملكة غرناطة والقضاء على الأمة الأندلسية ، يذكى فى نفس هذه الملكة الورعة التى تنعت أيضاً « بالكاثوليكية » ، أشنع ضروب التعصب ، ويحملها على مؤازرة ديوان التحقيق الإسبانى(١) ، وإقرار كل ما جنح إلى ارتكابه باسم الدين ، من الأعمال والجرائم المثيرة .

وفى الوقت الذى جلس فيه فرناندو وإيسابيلا على عرش اسبانيا القوية الموحدة ، كانت مملكة غرناطة تدخل بعد سلسلة طويلة من الحروب الأهلية فى مرحلة النزع الأخيرة . وكان يجلس على عرشها وقتئذ السلطان على أبو الحسن ، ولد السلطان

---

(١) نريد هنا بديوان التحقيق **Inquisición (Inquisition)** المحاكم المعروفة خطأ باسم « محاكم التفتيش » .

سعد المستعين بالله . وكانت مملكتا قشتالة وأراجون قد شغلتا مدى حين بطائفة من الإضطرابات والحروب الداخلية ، المتعلقة بوراثة العرش وغيرها ، مما سبق أن فصلناه فى مواضعه ، فلم تسعفهما الفرص للاستمرار فى محاربة المسلمين . ولكن عهد الفتنة والخصومات الداخلية انتهى بجلوس فرناندو وإيسابيلا على عرش المملكة الإسبانية المتحدة . وكان شهر الحرب على مملكة غرناطة ، من أهم الأغراض القومية المشتركة التى تعاهد الملكان على الاضطلاع بها ، ومن ثم فإنه ما كادت تستقر شئون قشتالة الداخلية ، حتى أخذ الملكان « الكاثوليكيان » يستعدان لمحاربة المسلمين بكل ما أوتيا من قوة وعزم .

وهنا نقف فى سرد تاريخ اسبانيا النصرانية ، لنعود إلى استئناف حديثنا عن مملكة غرناطة والمأساة الأندلسية .

الكتاب الثاني

نهاية

دولة الإسلام في الأندلس

٨٦٨ - ٨٩٧ هـ : ١٤٦٣ - ١٤٩٢ م

الفصل الأول

الأندلس على شفا المنحدر

انحلال مملكة غرناطة . ابن الخطيب وشعوره بمصير الأندلس . تشاؤم ابن خلدون . مملكة غرناطة وعون بنى مرين . تربص اسبانيا النصرانية . ولاية السلطان أبى الحسن . أسرة بنيغش . استرداده لبعض الحصون . خروج أخيه أبى عبد الله الزغل عليه . عقد الصلح بينهما . اتحاد اسبانيا النصرانية . العلائق بين غرناطة وقشتالة . فرناندو يطالب بالجزية . أبو الحسن يغزو أرض النصارى . استيلاؤه على قلعة الصخرة . طغيانه وانحرافه . زوجه عائشة الحرة والخلاف حول اسمها . اقترانه بثريا النصرانية . الزواج المختلط وأثره فى انحلال المجتمع الأندلسى . التنافس بين الملكة الشرعية وثريا . اعتقال الأميرة عائشة وولديها . انقسام الزعماء والقادة . استئثار ثريا بالسلطة . سعيها لسحق أبى عبد الله ولد عائشة . فرار الأميرة عائشة وولديها . ظهور دعوتهم فى وادى آش . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لمدينة الحامة واستيلاؤهم عليها . فشل أبى الحسن فى إنقاذها . مهاجمة فرناندو لمدينة لوشة . إنجادها وهزيمة النصارى . الثورة فى غرناطة . فرار أبى الحسن إلى مالقة . جلوس ولده أبى عبد الله على العرش . مسير النصارى إلى مالقة . هزيمتهم الفادحة . خروج أبى عبد الله إلى الغزو . هزيمة المسلمين عند حصن اللسانة. أسر النصارى لأبى عبد الله واقتياده إلى قرطبة . الاضطراب فى غرناطة . نزول أبى الحسن عن العرش لأخيه أبى عبد الله الزغل . السعى إلى افتداء أبى عبدالله . خطة ملكى قشتالة فى استغلاله . معاهدة سرية بين الملكين وأبى عبد الله . تسريح أبى عبد الله والخلاف حوله . ضعف أبى عبد الله . زحف النصارى على رندة واستيلاؤهم عليها . هزيمتهم أمام حصن موكلين . الحرب الأهلية فى غرناطة . ظهور أبى عبد الله فى المنطقة الشرقية . دعوته إلى الصلح مع النصارى . مهاجمة النصارى للوشه واستيلاؤهم عليها . ما يقال عن اشتراك أبى عبد الله فى الدفاع عنها . سقوط الحصون الإسلامية فى يد النصارى. الأنفاط التى استعملت فى حرب عبد الله وعمه الزغل . إمداد فرناندو لأبى عبد الله . مسير فرناندو إلى بلش مالقة . إسراع الزغل إلى إنجادها . سقوطها فى يد النصارى . تأييد غرناطة لأبى عبد الله . ارتداد الزغل إلى وادى آش . انقسام مملكة غرناطة .

— ١ —

وهكذا كانت شمس الأندلس تؤذن بالغروب ، وكانت تغرب فى الواقع بخطى وئيدة ، ولكن مؤكدة .

ولم يك ثمة شك فى أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، التى يسودها الخلاف والتفرق ، وتعصف بوحدتها ومنعتها الحروب الداخلية ، كانت تنتحر ببطئ ، وأن هذه الأمة الأندلسية ، التى أخذت تنكمش فى مدنها وثغورها القليلة ، كانت

تنظر إلى المستقبل بعين التوجس والجزع ، وأن هذه الحياة الباهرة الساطعة التى كانت تحياها بين آن وآخر ، كلما تربع على العرش أمير قوى رفيع الخلال ، لم تكن إلا سويعات النعماء الأخيرة ، فى حياة أمه عظيمة تالدة . وقد كان هذا الشعور يخالج رجالات الأندلس منذ بعيد ، حتى قبل أن تتفاقم الأمور ، وتغدو مملكة غرناطة ألعوبة فى يد بلاط قشتالة ، وكانوا يستشفون من وراء ذلك خطر الفناء المحقق ، وكان ابن الخطيب وزير الأندلس ومفكرها الكبير ، أشدهم شعوراً بذلك الخطر الداهم ، وقد استشعر به قبل وقوعه بأكثر من قرن ، فعكف يهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويستنفرهم إلى الجهاد . ومما يخاطبهم به قوله : « أيها الناس رحمكم الله ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو قصمه الله ساحتهم ، ورام الكفر خذله الله استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعه إليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه . الجهاد الجهاد ، فقد تعين ، الجار الجار ، قد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله فى الإسلام ، الله الله فى أمة محمد عليه السلام ، الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله ، فقد استغاث الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله عند الشدائد . جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميع العوائد ... أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ... »(١) .

ويشير ابن الخطيب فى إحدى رسائله إلى السلطان أبى سالم المرينى ملك المغرب إلى ما تعانيه الأندلس من المحن والأخطار ، وينوه باتحاد الملوك النصارى على محاربتها والقضاء عليها فى قوله : « فاعلموا أننا فى هذه الأيام ندافع من العدو تياراً ، ونكابر بحراً زخاراً ، ونتوقع إلا أن وقى الله تعالى خطوباً كبارا ، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصاراً ، ونلجأ إليه اضطراراً ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر ، استعداداً به واستظهاراً »(٢) .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١١ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٤ ؛ وابن الخطيب يتوجه هنا بندائه إلى أهل العدوة وملوكهم من بنى مرين .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧١ .

ثم يقول فى رسالة أخرى ، مشيراً إلى ما يهدد الأندلس من جراء ذلك من خطر الفناء المحقق : « وقد قرّت يا مولاى عين العبد بما رأت فى هذا الوطن المراكشى ، من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم ، وعددكم ، زادكم الله من فضله . ولاشك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه »(١) .

وإلى جانب رسائله المنثورة ، كان ابن الخطيب ، يوجه إلى المسلمين بالمغرب قصائد مؤثره فى الاستنفار للجهاد وإغاثة الأندلس ، وإليك نموذج من هذه القصائد :

إخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا ... فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفا
وإذ بلغ الماء الزبا فتداركوا ... فقد بسط الدين الحنيف لكم كفّا
تحكم فى سكان أندلس العدا ... فلهفاً على الإسلام ما بينهم لهفا
وقد مزجت أفواهها بدمائها ... فإن ظمئت لا ريّ إلا الردى صرفا
أنوماً وإغفاءً على سنة الكرى ... وما نام طرف فى حماها ولا أغفا
أحاط بنا الأعداء من كل جانب ... فلا وزرا عنهم وحدا ولا لهفا
ثغور غدت مثل الثغور ضواحكا ... أقام عليها الكفر يرشفها رشفا

ومنها :

وسيلتنا الإسلام وهو أخوة ... من الملأ الأعلى تقربنا زلفا
أخوفاً وقد لذنا بجاه من ارتضى ... وذلاًّ وقد عذنا بعز من استعفا
فهل ناصر مستبصر فى يقينه ... يخير من استعدا ويكفى من استكفا
ومنتجز فينا من الله وعده ... فلا نكث فى وعد الإله ولا خلفا
وهل بائع فينا من الله نفسه ... فلا مشتر أولى من الله أو أوفى
أفى الله شك بعد ما وضح الهدى ... وكيف لضوء الصبح فى الأفق أن يخفا
وكيف يعيث الكفر فينا ودوننا ... قبائل منكم تعجز الحصر والوصفا
غيوث نوال كلما سئلوا الندى ... ليوث نزال كلما حضروا الزحفا
فقوموا برسم الحق فينا فقد عفا ... وهبوا لنصر الدين فينا فقد أشفا(٢)

ويبدى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، تشاؤمه وتوجسه ، من مصير

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣١ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٦ .

(٢) نقلنا هذه القصيدة من ديوان ابن الخطيب المخطوط المحفوظ بمكتبة جامع القرويين بفاس المسمى « الصيب والجهام ، والماضى والكهام » .

الأندلس فى أكثر من موطن ، وهو الخبير بتقلبات الدول ومصايرها ، وكان قد زار غرناطة وأقام بها مدى حين ، ودرس أحوالها وشئونها(١) .

وقد رأينا فيما تقدم كيف كانت مملكة غرناطة ، جرياً منها على السياسة الأندلسية المأثورة منذ أيام المرابطين والموحدين ، تتجه كلما لاح لها شبح الخطر الداهم من عدوها القوى ، ببصرها إلى جارتها المسلمة القوية فيما وراء البحر ، أعنى دولة بنى مرين . وكانت صولة الإسلام فى الضفة الأخرى من البحر ، تروع اسبانيا النصرانية ، وترد عدوانها عن الأندلس بين آونة وأخرى . ولكن صريخ بنى الأحمر إلى ملوك العدوة ، لم يكن دائماً بعيداً عن التوجس والريب ، ولم يستجب بنو مرين دائماً إلى صريخ الأندلس المحتضرة ، وكانت لهم أحياناً مطامع ومشاريع فى الأندلس وقواعدها الجنوبية ، تزهد فى غوثهم ونصرتهم . وكانت اسبانيا النصرانية كلما آنست تصرم العلائق بين الدولتين الشقيقتين ، انقضت على الأندلس فاقتطعت منها أرضاً جديدة . ولما أشرفت دولة بنى مرين على الانهيار ، وشغلت عُدْوة المغرب بالفتن الداخلية ، خبا أمل الأمة الأندلسية ، فى تلقى الغوث والإمداد من تلك الناحية ، واضطرت مملكة غرناطة أن تعتمد فى الذود عن حياتها ، على قواها ومواردها المحدودة ، وعلى ما يمكن أن تفيده من تطور الحوادث فى اسبانيا النصرانية . ولم تأت فاتحة النصف الأخير من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، حتى غدت غرناطة وقد انتزعت معظم أطرافها من الغرب والجنوب ، وأحاطت بها قوى النصرانية من كل صوب ، تدبر عدتها الأخيرة للقضاء عليها .

— ٢ —

لما توفى السلطان سعد بن محمد بن يوسف النصرى فى أواخر سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٣ م) كان ولده الأكبر على أبو الحسن الملقب بالغالب بالله(٢) متربعاً على عرش غرناطة قبل ذلك بأكثر من عام ، وكان أبو الحسن يومئذ فتى فى نحو الثلاثين من عمره ، لأنه ولد قبل سنة ٨٤٠ هـ ، حسبما يحدثنا الرحالة المصرى الذى سبقت الإشارة إليه(٣) . بيد أنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه ، وعلى رأسهم أخواه يوسف أبو الحجاج والسيد أبو عبد الله محمد

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٨ ، وج ٧ ص ٣٧٩ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٧ .

(٣) راجع ما نقله الأستاذ دللاثيدا فى مجلة (Al-Andalus V.I. 1933 Fasc. -II).

المعروف « بالزغل » ، وقد توفى يوسف قبل بعيد، وبقى « الزغل » ليخوض حياة حافلة بالأحداث والمحن . وكان أبو الحسن أميراً وافر الشجاعة والعزم ، يعشق الحرب والجهاد ، وكانت له أيام أبيه غزوات موفقة فى أرض النصارى . وما كاد يستقر فى عرشه ، حتى أبدى همة فائقة فى تحصين المملكة ، وتنظيم شئونها ، وبث فيها روحاً جديدة من القوة والطمأنينة ، واستطاع أن يسترد عدة من الحصون والقواعد التى استولى عليها النصارى . وتولى وزارته ، وزير أبيه من قبل ، القائد أبو القاسم بن رضوان بنّيغش[١] . وكان هذا الوزير ، مثل سلفه الحاجب رضوان النصرى ، سليل أسرة نصرانية ، وأسر جده فى بعض المعارك ، وربى فى كنف الدار السلطانية ، وتبوأت أسرته بين الأسر الغرناطية مكانة رفيعة ، واشتركت فى كثير من حوادث غرناطة السياسية ، وتولت الوزارة .

وفى أوائل حكمه خرج عليه أخوه أبو عبد الله « الزغل »[٢] وكان يومئذ والياً لمالقة ، وكان يضارعه فى الشجاعة والجرأة وحب النضال . ولجأ الزغل إلى عون ملك قشتالة هنرى الرابع يستنصره على أخيه ، ولقيه فى محلته فى ظاهر أرشدونة ، سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) فوعده بالعون والتأييد . وبادر السلطان أبو الحسن من جانبه بالإغارة على أراضى قشتالة (١٤٧٠ م) . ثم عاد فى العام التالى فغزاها مرة أخرى ، وانتزع من النصارى بعض المواقع التى استولوا عليها . وشغل أبو الحسن فى الأعوام الثلاثة التالية بمحاربة أخيه أبى عبدالله الزغل ، الثائر عليه . وكان النضال سجالا بينهما . وشغل أبو الحسن بذلك عن غزو أرض النصارى . وشغل القشتاليون أنفسهم بما نشب بينهم من الخلاف الداخلى ، وذلك حتى وفاة ملكهم هنرى الرابع فى سنة ١٤٧٤م .

وفى تلك الأثناء خرجت مالقة عن طاعة أبى الحسن ، حيث ثار بها القائد محمد الفرسوطى ، وانضم إليه كثير من القواد والأجناد ، فسار أبو الحسن إلى مالقة وحاصرها غير مرة ، ولكنه لم يفلح فى إخماد الثورة ، واستدعى القواد الثائرون أخاه أبا عبد الله محمد بن سعد (الزغل) ، وكان يومئذ بقشتالة ، وأعلنوه ملكاً عليهم ، وانقسمت المملكة بذلك إلى شطرين متخاصمين[٣] .

---

(١) تشغل أسرة بنيغش – وهو تحريف لاسمها الإسبانى **Los Venegas** – فى التواريخ القشتالية حيزاً ملحوظاً . وقد عاد بعض أفرادها إلى النصرانية عقب سقوط غرناطة ، وأحرزت أسرتهم فيما بعد مكانة كبيرة بين الأرستقراطية الإسبانية ، ونبغ فيها عدد من القادة ورجال الدين .

(٢) الزغل وزغل أعنى الشجاع أو الباسل والمصدر « زغلة » . وسنرى فيما بعد كيف ينطبق هذا المعنى على سيرة الزغل وصفاته أتم الانطباق . راجع دوزى **Supp. aux Dict. arabes. V. II. p. 594**

(٣) كتاب مرآة المحاسن لمؤلفه العربى الفاسى (طبع فاس ١٣٢٤ هـ) ص ١٤٢ .

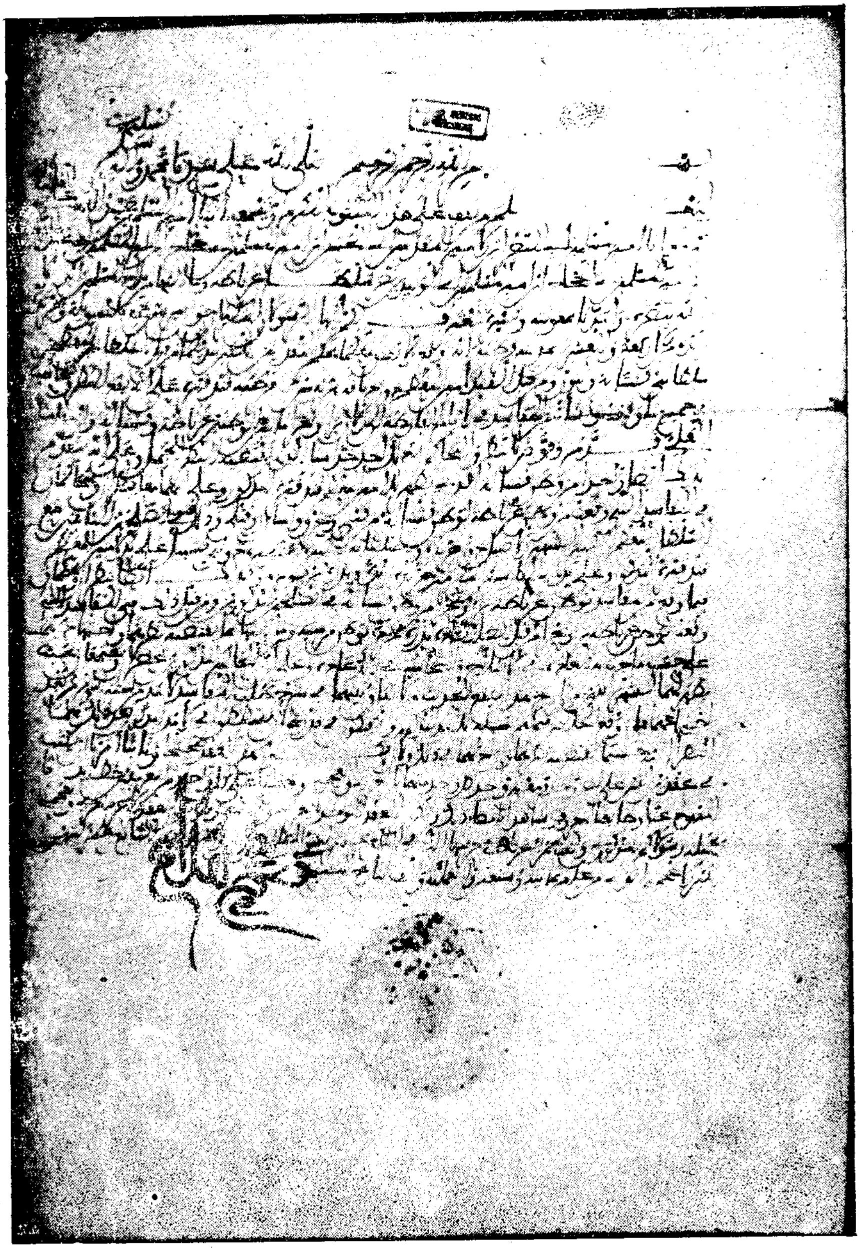

صورة مرسوم صادر من سلطان غرناطة علي الغالب بالله (أبي الحسن) إلى رسول الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيلا يقرر فيه قبول التحكيم فيما وقع من أعمال العدوان المتبادلة بين غرناطة وقشتالة ، مؤرخ في ١٢ شوال سنة ٨٨٢ هـ (١٩ يناير ١٤٧٨ م) ، ومختوم بخاتمه الملكي ، ومحفوظ بدار المحفوظات العامة **(Archivo general de Simancas, No. P. R. II.4)**

ولما تفاقم النزاع بين أبى الحسن وأخيه أبى عبد الله ، ولم يحسم بينهما السيف ووضحت لهما العواقب الخطيرة التى يمكن أن تترتب على هذه الحرب الأهلية ، جنح الفريقان إلى الروية وآثرا الصلح والتهادن ، فعقدت الهدنة بين الأخوين ، على أن تحترم الحالة القائمة ، فيبقى أبوعبد الله الزغل على استقلاله بمالقة وأحوازها ، ويستقر أبو الحسن فى عرش غرناطة وما إليها ، وعقدت فى نفس الوقت هدنة مؤقتة بين المسلمين والنصارى .

وفى هذه الآونة التى أخذت فيها عوامل التفرق تمزق أوصال المملكة الإسلامية الصغيرة ، كانت اسبانيا النصرانية تخطو خطوتها الأخيرة نحو الاتحاد النهائى ، وذلك باقتران فرناندو ولد خوان الثانى ملك أراجون بإيسابيلا أخت هنرى الرابع ملك قشتالة ، ثم إعلانهما ملكين لقشتالة فى سنة ١٤٧٩ ، وتبوىء فرناندو بعد ذلك عرش أراجون حسبما فصلنا . وهكذا اتحدت المملكتان الإسبانيتان القديمتان بعد أحقاب طويلة من الخلاف والحروب الأهلية ، وأصبحت اسبانيا النصرانية قوة عظيمة موحدة ، وكان تفرقها من قبل يتيح للأندلس فترات من السلام والأمن ، ولكن الأندلس وقد صارت إلى ما صارت إليه من الانحلال والضعف ، أضحت تواجه أعظم قوة واجهتها فى تاريخها .

وحاول السلطان أبو الحسن أن يجدد الهدنة مع القشتاليين ، ليتفرغ لأعمال التحصين والإنشاء ، وكان يلوح فى البداية أن العلائق بين الفريقين تسير نحو التفاهم والسلم . وهناك ما يدل فى الواقع على أنه كان يقوم يومئذ بين مملكة غرناطة ، وبين قشتالة ، صلح ثابت حسبما يؤيد ذلك اتفاق عقداه يومئذ على إجراء التحكيم فيما وقع من كل منهما على أراضى الآخر من ضروب العدوان التى ترتب عليها القتل والأسر والحرق ، سواء فى البر أو البحر . وقد انتهت إلينا وثيقة تحتوى النصين العربى والقشتالى لهذا الاتفاق الذى عقد بين السلطان أبى الحسن وبين فرناندو وإيسابيلا ملكى قشتالة وأراجون ، وهى مؤرخة فى شوال سنة ٨٨٢ هـ (يناير سنة ١٤٧٨ م)(١) . وعلى هذا فقد أرسل السلطان أبو الحسن فى أوائل سنة ٨٨٣هـ (١٤٧٨م) إلى ملك قشتالة يطلب تجديد الهدنة القائمة بينهما . وكان فرناندو وإيسابيلا يقيمان يومئذ فى إشبيلية ، فوافقا على ما طلبه أبو الحسن ، ولكن

---

(١) **Archivo general de Simancas ; P. R. 11-4** ، وفيها يوصف فرناندو وإيسابيلا بما يأتى : « السلطان المعظم الكبير الشهير الأصيل دون هرندة ، والسلطانة الكبيرة الشهيرة دونيى قشبيل » .

بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتهما ، وأن تؤدى إلى قشتالة نفس الجزية من المال والأسرى التى كان يؤديها السلاطين السالفون . وأرسلا بالفعل سفيراً إلى السلطان أبى الحسن ، يطالبه بعهد الطاعة وتأدية الجزية ، فرفض أبو الحسن طلب الملكين النصرانيين بإباء ، وأنذر السفير القشتالى بأنه ليس لديه سوى الحرب والكفاح . ولم يمض سوى قليل حتى أغار القشتاليون على حصن بللنقة (ڤيلا لونجا) واستولوا عليه ، وعاثوا فى أحواز رندة ، ورد أبو الحسن على ذلك بإعلان الحرب على قشتالة ، وزحف تواً على بلدة « الصخرة Zahara » وهى قاعدة حصينة تقع على حدود الأندلس الغربية فى شمال غربى مدينة رندة ، وكان قد انتزعها القشتاليون منذ عهد قريب ، فباغتها أبو الحسن ، واستولى عليها عنوة ، وقتل حاميتها ، وسبى سكانها (ديسمبر سنة ١٤٨١ م) . وبالرغم مما أحرزه أبو الحسن من الظفر فى تلك المعركة الأولى ، وبالرغم مما بثه هذا الظفر فى طوائف الشعب من الغبطة والحماسة ، فقد اعتبر بعض العقلاء تصرفه اعتداء لا مبرر له ، وتوجسوا شراً من عواقبه ، وتقول الرواية القشتالية إن فقيهاً زاهداً شيخاً عرف بنبوءاته ، كان بين الوفود التى ذهبت غداة هذا الانتصار إلى قصر الحمراء ، وأنه صاح فى وجه السلطان قائلا : « ويل لنا . لقد دنت ساعتك يا غرناطة ، ولسوف تسقط أنقاض الصخرة فوق رؤوسنا ، وقد حلت نهاية دولة الإسلام بالاندلس »(١) ، على أن هذا الظفر المؤقت كان له أعظم الأثر فى إحياء قوى الشعب المعنوية ، ولاح لإسبانيا النصرانية يومئذ أن الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة من القوة . ولكن هذا البعث الخلب لم يطل أمده . ذلك لأن أبا الحسن لم يلبث أن ركن إلى الدعة ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه ، وبذر حوله بذور السخط والغضب ، بما ارتكبه فى حق الأكابر والقادة من صنوف العسف والشدة ، وما أساء إلى شئون الدولة والرعية ، وما أثقل به كاهلهم من صنوف المغارم ، وما أغرق فيه من ضروب اللهو والعبث ، وكان وزيره أبو القاسم بنّيغش يجاريه فى أهوائه وعسفه ، ويتظاهر أمام الشعب بغير ذلك . وهكذا عادت عوامل الفساد والانحلال والتفرق الخالدة ، تعمل عملها الهادم ، وتحدث آثارها الخطرة(٢) .

* * *

(١) Lafuente Alcantra: ibid; V.III.p.202-205 وكذلك Condé: ibid; V.III.p.210&211

(٢) راجع كتاب «أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر» (ص٣) ، وهو الرواية الإسلامية =

وكان السلطان أبو الحسن قد اقترن بابنة عمه السلطان الأيسر[1]. ولا تفصح الرواية الإسلامية لنا عن اسم تلك الأميرة ، التى تمثل فى تاريخ المأساة الأندلسية مثولا قوياً ، والتى تحيط الرواية شخصيتها بكثير من الأخبار والسير المشجية . فلم يذكره صاحب أخبار العصر ، ولم يذكره المقرى الذى نقل روايته ، ولم تذكره الروايات القشتالية المعاصرة . ولكن مؤرخاً قشتالياً ، كتب روايته بعد ذلك بنحو قرن ، يذكر لنا أن اسمها عائشة . بل وأكثر من ذلك فهو ينقل إلينا صورة رسمية للمعاهدة السرية ، التى أصدرها الملكان الكاثوليكيان عند تسليم غرناطة ، لأبى عبد الله ولد السلطان أبى الحسن ، والتى نتحدث عنها بعد ، وفيها يذكر صراحة اسم « الملكة عائشة والدته » أى والدة أبى عبد الله[2]. وقد جرت سائر التواريخ اللاحقة بعد ذلك ، على تسميتها بهذا الاسم ، ولكن بعض البحوث الحديثة تحاول على ضوء بعض الوثائق الغرناطية أن تقرر لنا أن تسمية هذه السلطانة باسم عائشة ،

= الوحيدة التى انتهت إلينا عن حوادث سقوط غرناطة وما تلاها من تنصير المسلمين . وسيكون منذ الآن مرجعنا فى كثير من حوادث هذه الفترة . ويقع هذا الكتاب فى ست وخمسين صفحة فقط ، وقد وضعه مؤلف مجهول لم يذكر اسمه ، ولكنه يذكر فى نهايته أنه كتبه فى جمادى الآخرة سنة ٩٤٧ هـ أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين عاماً ، فروايته معاصرة تقريباً . ويدل وصفه للحوادث على أنه شهدها فتى بل وفى روايته ما يدل على أنه اشترك فى بعض الوقائع الحربية التى وقعت قبل سقوط غرناطة بين المسلمين والنصارى وأنه كان من أنجاد الفرسان (ص ١٧ طبعة ميللر) . ولابد أيضاً أنه تلقى كثيراً من تفاصيل الحوادث ، من أفواه الشيخة الذين شاهدوها . ويبدو أيضاً أن المؤلف من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مسلمين فى سرائرهم ، وأنه خشى أن يبوح باسمه لأنه يندب حظ الإسلام ، ويندد بغدر النصارى وفظائعهم . وقد نشر المستشرق الألمانى م . ى . ميلر هذا الكتاب عن النسخة الخطية الوحيدة التى كانت محفوظة بالإسكوريال وضاعت فيما بعد (جوتنجن سنة ١٨٦٣) مقرونة بترجمة ألمانية تحت عنوان « أيام غرناطة الأخيرة » **Die letzten Zeiten von Granada**. ثم نشر معهد فرانكو بتطوان (بعناية الأستاذ ألفريد البستانى) طبعة جديدة من هذا الكتاب عن مخطوطة أخرى بها بعض زيادات عن نزوح الأندلسيين من الأندلس بعد التنصير بعنوان : « نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر » وقرنت هذه الطبعة بترجمة اسبانية بقلم المستشرق الأب كارلوس كيروس (العرايش سنة ١٩٤٠) .

(١) أخبار العصر : ميللر ص ٦ — وطبعة تطوان ص ٥ .

(٢) هو المؤرخ **Luis del Marmol Carvajal** فى كتابه عن ثورة الموريسكيين المسمى : **Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada (Lib. I; Capit. XII & XIX)**

هى تسمية خاطئة ، وأن اسمها الحقيقى هو فاطمة ، وأنها لم تكن ابنة السلطان الأيسر وإنما كانت ابنة للسلطان الأحنف(١) .

بيد أننا وقد درسنا نصوص هذه الوثائق الجديدة ، لا نراها قاطعة فى تقرير اسم السلطانة المذكورة ، ولا نرى من جهة أخرى ، سبباً يحملنا على الشك فى رواية صاحب أخبار العصر ، وهى أنها كانت ابنه للسلطان الأيسر . وصاحب هذه الرواية مسلم معاصر ، كانت لديه سائر وسائل التحقيق والتثبت . وكذلك فإن المؤرخ القشتالى الذى يسميها بعائشة ، قد عاش قريباً من ذلك العصر ، واتصل بشيوخ الموريسكيين أو الأندلسيين المتنصرين بغرناطة ، ومن المرجح المعقول أن يكون هؤلاء على علم بحقيقة إسم هذه السلطانة ، التى عاصرها آباؤهم وكانت والدة لآخر ملوكهم . وهذا كله إلى الوثيقة التى يورد لنا هذا المؤرخ نصها ، وفيها القول القطع بأن والدة أبى عبد الله كانت تسمى عائشة .

ومن ثم فإننا على ضوء ما تقدم ، نميل إلى الاعتقاد بأن اسم عائشة هو الاسم الحقيقى ، لزوجة السلطان أبى الحسن ووالدة أبى عبد الله .

وتحتل شخصية عائشة الحرة فى حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة . وليس ثمة فى تاريخ تلك الفترة الأخيرة من المأساة الأندلسية شخصية تثير من الإعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجن، قدر ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة، التى تذكرنا خلالها البديعة ، ومواقفها الباهرة ، وشجاعتها المثلى إبان الخطوب المدلهمة ، بما نقرأه فى أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف .

---

(١) نشر صديقى المستشرق الغرناطى الأستاذ **Seco de Lucena** فى مجلة الأندلس بحثاً عنوانه «السلطانة والدة أبى عبدالله» **La Sultana Madre de Boabdil (Al - Andalus Vol XII, Fasc. II -1947)** أورد فيه نص وثيقتين عربيتين ، الأولى عقد بيع ملكى مؤرخ فى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) . والثانية أيضاً عقد بيع مؤرخ فى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، ومنهما تتضح الوقائع الآتية : أن السلطان محمد الأحنف كان له فضلا عن ابنته الكبرى أم الفتح ، ابنتان أخريان من زوجة أخرى هما عائشة وفاطمة، وأن إحداهن وهى فاطمة تزوجت من سلطان ، وأن قرية الصخيرة التى ورثتها أم الفتح ، انتقلت بعد ذلك إلى أختها السلطانة فاطمة ، وان هذه الأخيرة عاصرت تسليم غرناطة ، وأنه فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٤٩٢ أعنى بعد سقوط غرناطة باعت السيدة فاطمة المذكورة ، وتوصف فى الوثيقة المشار اليها «بالسيدة الحرة» قرية الصخيرة المذكورة إلى فارس نصرانى ، بمبلغ ألفى وخمسمائة ريال من الفضة ، وحرر العقد بالنيابة عنها وكيل شئونها المسمى القائد محمد بن مقاتل .

ويرى الأستاذ دى لوسينا أن هذا النص قاطع ، فى أن السلطانة والدة أبى عبد الله، كانت تسمى « فاطمة » وليس عائشة ، وأنها وفقاً لنسبها المدون بالنص كانت ابنة للسلطان الأحنف .

والواقع أن حياة السلطانة « الحرة » ، تبدو لنا خلال الحوادث والخطوب ، كأنها صفحة من القصص المشجى ، أكثر مما تبدو كصفحة من التاريخ الحق ، وهذا اللون القصصى لا يرجع فقط إلى كونها أميرة أو امرأة ، تشترك فى تدبير الملك ، وتدبير الشئون والحوادث ، ولكن يرجع بالأخص إلى شخصيتها القوية ، وإلى سمو روحها ورفيع مثلها ، وإلى جنانها الجرىء يواجه كل خطر ، ويسمو فوق كل خطب ومصاب . والرواية القشتالية ذاتها — وهى تسميها عائشة حسبما قدمنا — لا تضن عليها بالتنويه والتقدير ، وهى التى تسبغ على شخصيتها وحياتها كثيراً من هذا اللون القصصى المشجى .

كانت عائشة « الحرة » ملكة غرناطة فى ظل ملك يحتضر ، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض . وقد رزقت من زوجها السلطان أبى الحسن بولدين هما : أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف . وكانت روح العزم والتفاؤل ، التى سرت فى بداية هذا العهد إلى غرناطة ، تذكى بقية من الأمل فى إنقاذ هذا الملك التالد . وكانت عائشة ترى من الطبيعى أن يؤول الملك إلى ولدها ، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع . ذلك أن السلطان أبا الحسن ركن فى أواخر أيامه إلى حياة الدعة ، واسترسل فى أهوائه وملاذه ، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن ، تعرفها الرواية الإسلامية باسم « ثريا » الرومية ، وتقول الرواية الإسبانية إن ثريا هذه واسمها النصرانى إيسابيلا ، وتعرفها الرواية أيضاً باسم « زريدة » ، كانت ابنة عظيم من عظماء اسبانيا وهو القائد « سانشوخميس دى سوليس » وأنها أخذت أسيرة فى بعض المعارك ، وهى صبية فتية ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح ، فهام بها السلطان أبو الحسن ، ولم يلبث أن تزوجها ، واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة ، التى عرفت عندئذ « بالحرة » تميزاً لها من الجارية الرومية ، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها(١) . ويقول لنا المؤرخ المعاصر هرناندو دى بايثا ، إن السلطان أبا الحسن

---

(١) راجع **Irving : Conquest of Granada** حيث يورد أقوال الرواية الإسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع) . ويقول كوندى إن ثريا كانت ابنة حاكم مرتش النصرانى **(Condé; ibid, V III.p. 242)** . ولكن الرواية العربيةتكتفى بالقول بأن ثريا كانت جارية رومية (المقرى فى نفح الطيب ج٢ ص ٦٠٨ ، وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر طبعة ميللر ص ٦) ويتفق برسكوت مع الرواية العربية فيقول إن ثريا كانت جارية يونانية ، أى رومية . راجع **History of Ferdinand and Isabella, p. 219**

كان يقيم يومئذ مع زوجه الفتية الحسناء فى جناح الحمراء الكبير أو قصر قمارش ، وذلك بينما كانت تقيم الحرة وأولادها فى جناح بهو السباع (١) .

ولم يكن اقتران الأمير بفتاة نصرانية بدعة ، ولكنه تقليد قديم فى قصور الأندلس . وقد ولد بعض خلفاء الأندلس وأمرائها العظام من أمهات من النصارى ، مثل عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد ، وكذلك ولد بعض الأمراء من بنى نصر ملوك غرناطة من أمهات من النصارى مثل السلطان محمد بن اسماعيل النصرى (٢) . ولم يكن الزواج المختلط نادراً فى المجتمع الأندلسى الرفيع ، ولاسيما منذ أيام الطوائف ، وكان كثير من الأكابر والأشراف يتزوجون بفتيات من النصارى سواء كن من السبايا أم من الأحرار . ولم يكن العكس نادراً أيضاً . فمنذ توالى سقوط القواعد والثغور الأندلسية فى أيدى النصارى ، كثر الزواج بين المدجنين وبين النصارى ، وفقد المدجنون بمضى الزمن دينهم ولغتهم ، واندمجوا فى المجتمع النصرانى . ونرى بين زعماء شرق الأندلس بعض أمراء يرجعون إلى أصل نصرانى ، مثل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك بلنسية ومرسية ، وقد كان يتكلم القشتالية ، ويلبس الثياب القشتالية ، ويتقلد السلاح القشتالى ، وكان معظم ضباطه وجنده من النصارى ، وكان الإسبان يعرفونه بالملك « دون لوبى » (٣) .

ولم يكن ثمة ريب فى خطورة الآثار الاجتماعية ، التى يحدثها مثل هذا الامتزاج الوثيق ، وقد كانت فيما بعد من أهم العوامل التى أدت إلى انحلال المجتمع الإسلامى ، وانحلال عصبية الدولة الإسلامية . كذلك لم يكن ثمة ريب فى أن هذه الآثار الهدامة ، كانت أعمق وقعاً وأشد خطراً وقت الإنحلال العام .

وكان السلطان أبو الحسن قد شاخ يومئذ وأثقلته السنون ، وغدا أداة سهلة فى يد زوجه الفتية الحسناء . وكانت ثريا فضلا عن حسنها الرائع ، فتاة كثيرة الدهاء والأطماع ، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية فى قصر غرناطة ، واستئثارها بالسلطان والنفوذ فى هذه الظروف العصيبة ، التى تجوزها المملكة الإسلامية ،

(١) كتب هرناندو دى باينا **Hernando de Baeza** هذه الرواية المعاصرة بعنوان **Las Cosas de Granada** « شئون غرناطة » ، ونشرها المستشرق ميللر مع كتاب أخبار العصر (ص ٦٥) .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٦ .

(٣) راجع الإحاطة ج ٢ ص ٨٢ ؛ وكتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٣٦٦ وكذلك **A. P. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 516,** و **Dozy : Recherches (1881) V. I. p. 365**

عاملا جديداً فى إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة . وكانت ثريا فى الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ . ذلك أنها أنجبت من الأمير أبى الحسن كخصيمتها عائشة ولدين ، هما سعد ونصر ، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما . وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة ، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق فى الملك ، وكان أكبرهما أبو عبد الله محمد ولى العهد المرشح للعرش ، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك ، على عقب الجارية النصرانية . ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همتها ، فما زالت بأبى الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها ، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية ، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالها ، وزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش ، أمنع أبراج الحمراء ، وشدد فى الحجر عليهم ، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة .

فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم ، وكان نذير الاضطراب والخلاف فى المجتمع الغرناطى . وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين ، فريق يؤيد الأميرة الشرعية وولديها ، وفريق يؤيد السلطان وحظيته . واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين ، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد ، واشتد السخط على أبى الحسن وحظيته التى أضحت سيدة غرناطة الحقيقية ، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ . وذهبت ثريا فى طغيانها إلى أبعد حد ، فحرضت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبى عبد الله عثرة آمالها .

وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة ، فلم تستسلم إلى قدرها الجائر ، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها ، وفى مقدمتهم بنو سراج أقوى أسر غرناطة ، وأخذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة ؛ ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبنى سراج هذا الموقف قط . ويقال إنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم فى إحدى أبهاء الحمراء . ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبى الحسن قررت أن تبادر بالعمل ، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة . وفى ليلة من ليالى جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) استطاعت الأميرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين . والرواية

الإسلامية تشير إلى فرار الأميرين فقط دون أمهما[١] . ولكن الرواية القشتالية تحدثنا عن فرارها مع ولديها . وتقدم إلينا عن هذا الفرار صوراً شائقة ، فتقول إن بعض الخدم المخلصين ، كان ينتظر مع الجياد على مقربة من الحمراء على ضفة النهر (نهر حدرُّه) مما يلى برج قمارش ، وإن الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق فى جوف الليل[٢] ، وانها هبطت بعد أن أدلت ولديها ، ثم اختفى الجميع تحت جنح الظلام .

وهكذا استطاعت هذه الأميرة الباسلة أن تفر من معتقلها فى إقدام وجرأة يخلقان بأبطال الرجال ، واختفى الفارون حيناً حتى قويت دعوتهم وانضم إليهم كثير من أهل غرناطة ، وكان اسم عائشة ورفيع خلالها ، وقصة فرارها الجرىء ، تثير أيما عطف وإعجاب . وظهر ولدها الأمير الفتى أبو عبد الله محمد فى وادى آش حيث مجمع عصبته وأنصاره ، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها بعيداً عن غرناطة ، يدافع النصارى عن أسوار لوشة ، وكانت الحوادث تسير بسرعة موذنة باضطرام عاصفة جديدة .

— ٣ —

وكان ملك قشتالة يرقب الحوادث فى مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام . فلما اضطرمت نار الحرب الأهلية بين المسلمين ، ولاحت الفرصة للغزو سانحة ، قرر بدء الحرب ضد غرناطة . وكان يضطرم سخطاً لاستيلاء المسلمين على قلعة الصخرة بالرغم من قيام الهدنة ، وعجزه عن استرداد هذه القاعدة الهامة ، فسير حملة قوية إلى الأندلس سارت منحرفة من جهة الغرب . ورأى القواد القشتاليون أن يبدأوا بمهاجمة ألحامَّة (الحمة) التى فى قلب الأندلس جنوب غربى غرناطة ، وذلك لما بلغهم من ضعف وسائل الدفاع عنها ، ولأن الاستيلاء عليها يمكنهم من تهديد غرناطة ومالقة معاً . وكانت ألحامة مدينة غنية ، ولها شهرة قديمة بحماماتها الشهيرة التى كانت مجتمع ملوك غرناطة وأمرائها . ونجحت الخطة واستطاع النصارى مفاجأة ألحامة والاستيلاء على قلعتها تحت جنح الظلام ، ثم استولوا على المدينة بالرغم من مقاومة أهلها الباسلة ، وأمعنوا فى المسلمين قتلا وأسراً وسبياً (المحرم سنة ٨٨٧ —

(١) أخبار العصر ص ١٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٩ .

(٢) L. del Marmol: ibid; I. Cap. XII. وقد كتب روايته بعد هذه الحوادث بنحو قرن حسبما قدمنا .

فبرايرسنة ١٤٨٢) . وهرع السلطان أبوالحسن فى قواته لإنقاذ الحامة واسترداداها وحاصرها بشدة، ولكنه لم يستطع اقتحامها ،ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرتها حينما علم أن ملك قشتالة يتقدم لإنجادها فى جيش قوى ضخم[1] . ولم تمض أشهر قلائل حتى زحف ملك قشتالة على مدينة لَوْشة[2] الواقعة على نهر شنيل فى شمال غربى ألحامة وعلى مقربة منها وحاصرها ، ودافعت عنها حاميتها أروع دفاع بقيادة قائدها الأمير الشيخ ، على العطار ، وكان رغم شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان غرناطة فى ذلك العصر[3]. وسار أبو الحسن فى قواته مسرعاً لإنجاد لوشة وانتهى الأمر بأن رُد النصارى بخسارة فادحة فى الرجال والعدد (جمادى الأولى ٨٨٧ — يوليه ١٤٨٢) . وكان مما استولى عليه المسلمون من النصارى ، بعض « الأنفاط» التى تستعمل لحصار المدن ، والتى سنتحدث عنها فيما بعد[4] .

وماكاد أبوالحسن يعود إلى عاصمة ملكه حتى تجهم الجو من حوله . وكانت سياسته الداخلية قد أثارت حوله كثيراً من السخط ، بالرغم مما أحرز من نجاح ، وسرعان ما نشبت الثورة فى غرناطة ، وغلبت دعوة الأمير الفتى أبىعبد الله ، ولم يستطع أبوالحسن وصحبه مواجهة العاصفة ؛ ففر الملك الشيخ إلى مالقة، وكان بها أخوه الأمير أبوعبد الله محمد بن سعد ، المعروف « بالزغل » أى الشجاع الباسل ، يدفع عنها جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها . وجلس أبوعبد الله محمد[5] مكان أبيه على عرش غرناطة (أواخر سنة ٨٨٧هـ) . وأطاعته غرناطة ووادى آش ، وأعمالها . وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه ، وكان أبو عبد الله يومئذ فتى فى نحو الخامسة والعشرين[6] .

* * *

(١) أخبار العصر ص ٦ و ٩ ؛ وكذلك : **Prescott: ibid ; p. 206-210**

(٢) هى بالإسبانية **Loja** وهى بلد الوزير ابن الخطيب .

(٣) تنوه الرواية القشتالية ببطولة هذا القائد المسلم وتعرفه باسم **"Aliatar"**. راجع رواية **Hernando de Baeza**، السالفةالذكر ، المنشورة بعناية المستشرق ميللر ضمن كتاب أخبار العصر (ص ٧٨)

(٤) أخبار العصر ص ١١ .

(٥) يعرف السلطان أبو عبد الله فى الرواية القشتالية والإفرنجية بوجه عام باسم **Boabdil** محرفاً عن « أبى عبد الله » . وتورد الوثائق القشتالية الرسمية المتعلقة بسقوط غرناطة اسمه على النحو الآتى : **Muley Baaudili-Baudili- Beaudili** ويورد مارمول اسمه مصححاً **Abi Abdili, Abi Abdala, Abdilehi :**

(٦) يشير المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل فى روايته التى سبقت الإشارة اليها إلى هذا =

وكان فرناندو الخامس عقب هزيمته أمام لَوْشه ، قد سير جنده إلى مالقة لافتتاحها . وكانت مالقة أعظم الثغور الباقية بيد المسلمين . وكان النصارى يتوقون للاستيلاء عليها لإتمام تطويق الأندلس من الجنوب ، ولكن المسلمين كانوا على أتم أهبة للدفاع عن هذا الثغر المنيع . واشتبك المسلمون والنصارى فى عدة مواقع دموية فى الهضاب الواقعة فيما بين مالقة وبَلّش (Velez) ، فهزم النصارى فى كل مكان وردوا بخسائر فادحة ، وخرج الأمير محمد بن سعد « الزغل » فى قواته من مالقة ولقى النصارى على مقربة منها ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة ، وقتل وأسر منهم عدة آلاف بينهم كثير من الزعماء والأكابر (صفر ٨٨٨ — مارس ١٤٨٣)(١) . وتعرف هذه الموقعة «بالشرقية» لوقوعها فى المنطقة المسماة بذلك فى شرقى مالقة . وكان منظم هذا الدفاع الباهر كله الأمير أبو عبد الله « الزغل » . وكان لانتصار المسلمين أعظم وقع فى جنبات الأندلس ؛ فانتعشت الآمال وسرت الحماسة فى كل مكان ، وهبت على غرناطة ريح جديدة من الاستبشار والنصر

واعتزم ملك غرناطة الفتى أبو عبد الله محمد ، أن يحذو حذو عمه الباسل فى الجهاد والغزو ، وأن ينتهز فرصة اضطراب النصارى عقب الهزيمة ، فخرج فى قواته فى شهر ربيع الأول سنة ٨٨٨ (ابريل سنة ١٤٨٣) متجهاً نحو قرطبة ، شمال غربى غرناطة ، واجتاح فى طريقه عدداً من الحصون والضياع ، وهزم النصارى فى عدة معارك محلية . ثم ارتد مثقلا بالغنائم فى طريق العودة ، فأدركه النصارى فى ظاهر قلعة اللّسانة (Lucena)(٢) وكان يزمع حصارها . ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف نهر شنيل ، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم ،وكان بين الأسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه(٣) ، عرفه الجند النصارى بين الأسرى أو عرّفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه ، فأخذوه إلى قائدهم الكونت دى كابرا (قبره) فاستقبله بجفاوة وأدب ، وأنزله بإحدى

= الانقلاب ؛ ويندد بسلوك سلاطين غرناطة فى الوثوب بعضهم على بعض بقوله : « وهو غالب عادتهم بتلك البلاد مع الآباء والأولاد بل والأجداد » : (Al - Andalus ; Vol. I. 1933 ; Fasc. 2)

(١) أخبار العصر ص ١٣ .

(٢) هى بلدة صغيرة حصينة تقع اليوم فى نطاق ولاية قرطبة ، جنوب شرقى مدينة قرطبة .

(٣) أخبار العصر ص ١٤ . ويشير عبد الباسط بن خليل المصرى فى حولياته إلى هذه الموقعة ويصفها ، « بالكائنة العظمى ، والداهية الطما » .

الحصون الغربية تحت حراسة قوية . وأخطر فى الحال ملكى قشتالة بالنبأ السعيد ، فأمر فرناندو أن يؤتى بالأسير الملكى إلى قرطبة ، وأن يستقبل استقبال الأمراء ؛ فأخذ أبو عبد الله وأصحابه إلى قرطبة فى حرس قوى ، واحتشد أهل قرطبة لرؤية موكب الملك المسلم ، وكان أبوعبد الله يرتدى ثوباً من القطيفة السوداء ، ويمتطى حصاناً أسود عليه سرج ثمين ، وكان وجهه يشع كآبة ، وأخذ الملك الأسير أولا إلى دار الأسقف المواجه للمسجد الجامع ، ثم أخذ بعد ذلك إلى أحد القلاع الحصينة ، وعومل هناك بإكرام وحفاوة ، وأقام فى أسره مكتئباً ينتظر يوم الخلاص .

وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم ، وقد مزقتهم الهزيمة وفتت فى عزائمهم ، فارتاعت العاصمة لهذه النكبة واضطرب الشعب ، وساد الوجوم قصر الحمراء ، وسرى الحزن الأسى إلى حرم الأمير وقرابته ، ولم يحتفظ فيها بهدوئه وسكينته سوى أمه الأميرة عائشة . واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبى الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش مكان ولده الأسير . ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الإعياء والمرض وفقد بصره ، ولم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلا ، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبى عبد الله « الزغل » حاكم مالقة ، وارتد إلى المنكَّب فأقام بها حيناً حتى توفى (٨٩٠هـ — ١٤٨٥م) . وجلس « الزغل » على العرش يدبر شئون المملكة ، وينظم الدفاع عن أطرافها .

أما السلطان أبوعبد الله محمد فلبث يرسف فى أسره عند النصارى . وأدرك ملكا قشتالة فى الحال ما للأمير الأسير من الأهمية ، وأخذا يدبران أفضل الوسائل للاستعانة به فى تحقيق مآربهما فى مملكة غرناطة ، وبعد إمعان البحث والتدبير رؤى أن يفرج عن الملك الأسير لقاء أفضل الشروط التى يمكن الحصول عليها ، لأن هذا الإفراج من شأنه أن يزيد فى اضطرام الحرب الأهلية بين المسلمين ، وأن يعاون بذلك فى إضعاف قواهم والتمهيد لسحقهم . وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش جهده لافتداء ولده ، لا بباعث الحب له والشفقة عليه ، ولكن لكى يحصل فى يده ويأمن شره ومنافسته ، وعرض على فرناندو نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة ، وأن يطلق عدداً من أكابر النصارى المأسورين عنده ، فأبى فرناندو وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين . وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهوداً آخر لإنقاذ ولدها بمؤازرة الحزب الذى يناصره ، وأرسلت إلى ملك قشتالة ، سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة ، ليفاوض فى الإفراج عن الأسير

مقابل الشروط التي يرضاها : وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة سرية تتلخص نصوصها فيما يلي :

أن يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو وزوجه الملكة إيسابيلا ، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها إثنا عشر ألف دوبلا من الذهب ، وأن يفرج في الحال عن أربعمائة ، من أسرى النصارى الموجودين في غرناطة ، يختارهم ملكهم ، ثم يطلق بعد ذلك في كل عام ، سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام ، وأن يقدم أبوعبد الله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر ضماناً بحسن وفائه . وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما ، بالإفراج عن أبي عبد الله فوراً ، وألا يكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الإسلامية ، وأن يعاونوه في افتتاح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة ، وهذه المدن متى تم فتحها ، تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة ، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين ، من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير (١) .

وتختلف الرواية في تاريخ الإفراج عن أبي عبد الله ، فتقول بعض الروايات المعاصرة ، إنه أفرج عنه لأشهر قلائل من أسره ، في أوائل سبتمبر سنة ١٤٨٣ ، ولكن هناك رواية أخرى ، تقول بأن أبا عبد الله استمر في الأسر أكثر من عامين ، وأنه لم يفرج عنه إلا في أواخر سنة ١٤٨٥ أو أوائل سنة ١٤٨٦ (٢) ، وهذه رواية يؤيدها صاحب أخبار العصر ، إذ يقول لنا إن العدو أطلق سراح أبي عبد الله في أواخر سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ، عقب انتصار المسلمين على النصارى في موقعة موكلين (٣) ، هذا فضلا عن أنه يذكر لنا أن أبا عبد الله ، قد أسر مرة أخرى في موقعة لوشة حسبما يجيء ، وأنه لم يفرج عنه إلا في أواخر سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) (٤) .

وعلى أي حال فقد أفرج عن أبي عبد الله ، بعد أن أخذ عليه ملكا قشتالة سائر العهود والمواثيق ، التي تكفل تحقيق سياستهما في القضاء على مملكة غرناطة ، وبعد أن أتى بالرهائن المشترط تسليمهم . وسار أبوعبد الله وصحبه الذين قدموا

---

(١) أورد العلامة المستشرق **M. Gaspar y Remiro** في كتابه **Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada** خلاصة وافية لنصوص هذه المعاهدة السرية بالاستناد إلى المؤرخين القشتاليين المعاصرين (ص ٢١ و ٢٢) .

(٢) **Gaspar y Remiro ; ibid ; p. 27**

(٣) أخبار العصر ص ١٨ . (٤) أخبار العصر ص ٢١ و ٢٢ .

لمرافقته ، ومعه سَرِيّة من الجند القشتاليين ، إلى بعض الحصون الشرقية النائية ، التى قامت بدعوته(١) .

ولم يك ثمة شك فى أن عقد هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة فى سبيل القضاء على مملكة غرناطة . وقد وضع فرناندو برنامجه المحكم لكى يستغل أسر ملك غرناطة ، ويستعين به على تنفيذ برنامجه المدمر . وكان أبو عبد الله أميراً ضعيف العزم والإرادة قليل الحزم والخبرة ، ولم يكن يتمتع بشىء من تلك الخلال الباهرة التى امتاز بها أسلافه وأجداده العظام من بنى الأحمر . وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأى الأثمان والوسائل . وقد ألفى ملك قشتالة القوى فى ذلك الأمير الضعيف الطموح ، أداة صالحة يوجهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه فى غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى . وسير ملك قشتالة فى نفس الوقت قواته فى أنحاء مملكة غرناطة ، لكى تنتزع أثناء الاضطراب العام ، كل ما يمكن انتزاعه من القواعد والحصون الإسلامية . وزحف القشتاليون على منطقة الغربية (غربى ولاية مالقة) فى أوائل سنة ٨٩٠ هـ ، واستولوا على حصن قرطبة ، وحصن ذكوين وعدة حصون أخرى تقع شمال غربى مالقة ، فى منتصف الطريق بينها وبين رندة ، وبذلك عزلت مدينة رندة ، وأصبح الطريق ممهداً للاستيلاء عليها . وعلى أثر ذلك زحف القشتاليون على رندة وهى معقل الأندلس فى قاصية الغرب وهاجموها ، وضربوها بالأنفاط حتى هدمت أسوارها ، وكانت حاميتها بقيادة حامد الثغرى زعيم قبيلة غمارة ، ولم يستطع أهل رندة أن يثبتوا طويلا لعدم استعدادها للدفاع ، ولبعدهم عن العاصمة ، ويأسهم من تلقى الأمداد السريعة ، فطلبوا الأمان ، وغادروا المدينة بأمتعتهم ؛ واستولى القشتاليون على رندة فى جمادى الأولى سنة ٨٩٠هـ (ابريل سنة ١٤٨٥م) . ثم استولوا بعد ذلك على سائر الأماكن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة . وكان سقوط هذه المدينة الأندلسية التالدة ضربة شديدة للمسلمين ، وبسقوطها انهارت كل وسيلة للدفاع عن منطقة الغربية ، وأصبح القشتاليون بذلك يهددون ثغر مالقة من الغرب(٢) .

وحاول القشتاليون بعد ذلك مهاجمة حصن مُكلين الواقع شمال غربى غرناطة ، وكان به الأمير أبو عبد الله الزغل فى قوة من الغرناطيين ليصلح أسواره ويتم تحصينه

---

(١) أخبار العصر ص ١٨ .

(٢) أخبار العصر ص ١٥ .

أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة (وآخر ملوك الأندلس) عن الصورة المحفوظة بمتحف **Casa de los Tiros.** (دار الرماية) بغرناطة . والمظنون أنها الصورة التى رسمت له أثناء إقامته أسيراً فى قرطبة يدل على ذلك السلسلة الرمزية التى طوق بها عنقه .

ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وكان القشتاليون بقيادة الكونت دى قبره الظافر فى موقعة اللسَّانة ، وكادت الدائرة تدور فى البداية على المسلمين ، ولكنهم بذلوا جهد المستميت بقيادة أميرهم الباسل ، وانتهت المعركة بأن رد النصارى بخسائر فادحة فى الرجال والعُدد (شعبان سنة ٨٩٠هـ — يوليه ١٤٨٥م) ، وعاد الأمير وجنده إلى غرناطة فرحين مستبشرين[١] .

ولكن كان من سوء الطالع ، أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى نشبت فى غرناطة حرب أهلية جديدة . وكان الملكان الكاثوليكيان قد أطلقا سراح أبى عبدالله فى تلك الآونة بالذات ، بعد أن وقع معاهدة الخضوع والطاعة حسبما تقدم . والواقع أن الحرب الأهلية ، كانت تضطرم فى الأندلس خلال أسر أبى عبد الله ، وكان الزغل ، بعد أن تربع على عرش غرناطة ، يحاول استخلاص الأندلس كلها لنفسه . وكان الأمير يوسف أبو الحجاج شقيق أبى عبد الله ، قد استقر فى ألمرية يحاول منازعة عمه الزغل . فسار الزغل إلى ألمرية ، وثار بها أنصاره ، وغلبوا على خصومهم ، وفتحوا له أبواب المدينة ، وقتل يوسف أثناء ذلك . ويقال إن قتله كان بوحى من أبيه أبى الحسن أوعمه الزغل . وما كاد الزغل يعود إلى غرناطة ، حتى اضطرمت الفتنة من جديد . وكان أبو عبد الله حينما أطلق سراحه ، قد سار إلى بعض الحصون الشرقية ، فقامت بدعوته ، ثم سار إلى منطقة بَلِّش[٢] فى شرقى بسطة ، وأعلن نفسه ملكاً ، وأخذ يبث دعوته ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكى قشتالة ، وأنه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم ، وأنه يطبق فى سائر الأنحاء التى تدخل فى طاعته .

وكان من الواضح أن اضطرام الفتنة فى غرناطة ، فى هذا الوقت بالذات ، لم يكن بعيداً عن وحى أبى عبد الله وحزبه ، وقام أهل ربض البيّازين ، وهو حى غرناطة الشعبى ، الواقع فى شمالها الشرقى تجاه مدينة الحمراء ، بدعوة أبى عبدالله . وكان أهل البيّازين دائماً ، عنصراً من عناصر الإضطراب والشغب ، وكان لهم دائماً ضلع بارز فى كل ثورة وفتنة[٣] ، وشغل ملك غرناطة أبو عبد الله الزغل ، بإخماد

---

(١) أخبار العصر ص ١٧ .

(٢) المقصود هنا بمنطقة بلش بلدتا بلج أو بالاسبانية « بلش الحسناء » Vélez Rubio و « بلش البيضاء » Vélez Blanco ، وكلتاهما تقع على مقربة من الأخرى فى شمال شرق مدينة بسطة .

(٣) أخبار العصر ص ١٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١١ ؛ وكذلك Gaspar y Remiro ; ibid ; p. 23, 24 & 30 . ويسمى ربض البيازين بالإسبانية Albaicin ، وهو ما يزال قائماً فى موقعه القديم ، ومحتفظاً بكثير من معالمه القديمة .

هذه الفتنة الجديدة ، عن مقاتلة النصارى . وبذلك تحقق الغرض الذى يرمى إليه ملكا قشتالة . وكان ذلك فى أوائل سنة ٨٩١هـ (أوائل ١٤٨٦م) . واشتدت الفتنة ، ونصب الزغل على البيازين المجانيق والأنفاط ، ودافع أهل البيازين عن أنفسهم دفاعاً شديداً ، وكان أبو عبد الله خلال ذلك يبعث رسله إليهم ، ويعدهم بمقدمه . وطالت هذه الفتنة أكثر من شهرين ، ثم بدأت المفاوضة بين أبى عبد الله وبين عمه الزغل (ملك غرناطة) فى عقد الصلح ، وارتضى أبو عبد الله أن ينزل عن دعواه فى العرش ، وأن يدخل فى طاعة عمه[١] . وفى رواية أخرى أنهما اتفقا على تقسيم المملكة إلى قسمين ، فيختص الزغل بحكم غرناطة ومالقة والمرية وبلش مالقة والمنكب ، ويختص أبوعبد الله بحكم الأنحاء الشرقية[٢] .

وعلى أى حال فقد انتهز ملك قشتالة ، فرصة هذه الفتنة ، للزحف على مدينة لوشة . وهنا تتفق الروايات الإسلامية والقشتالية ، على أن أبا عبد الله ، حينما علم بتهديد النصارى للوشة ، سار إليها وتحصن بها ، مع نخبة من أنجادالفرسان . وهاجم النصارى مدينة لوشة للمرة الثانية ، وشددوا الحصار عليها ، وسلطوا على أسوارها الأنفاط والعدد ، وأبدى المسلمون بسالة فائقة ، فى الدفاع عن مدينتهم . وتقول الرواية القشتالية إن أبا عبد الله بذل فى هذا الدفاع مجهوداً عظيما ، وإنه جرح أثناء ذلك[٣] . ولكنا لم نعثر على ما يؤيد ذلك فى الرواية الإسلامية . ويكتفى صاحب « أخبار العصر » بالقول بأن أبا عبد الله كان فى لوشة وقت حصارها[٤] ويزيد المقرى على ذلك بأن أهل غرناطة أذاعوا بأن أبا عبد الله ما جاء إلى لوشة إلا ليسلمها لملك قشتالة ، ويجعلها فداء له[٥] .

وعلى أى حال فإن بسالة المسلمين ، فى الدفاع عن لوشة ، لم تغن شيئاً أمام القوة القاهرة ، وفتك الأنفاط والعدد الثقيلة ، فاضطروا إلى التسليم ، وذلك بالشروط الآتية :

---

(١) أخبار العصر ص ١٩ .

(٢) Gaspar y Remiro: ibid, p. 24

(٣) Gaspar y Remiro : ibid, p. 32 ; Irving : Conquest of Granada Ch. XXXIV ; Lafuente Alcantra : ibid, V. II. p. 280

(٤) أخبار العصر ص ١٩ .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١١ .

أن يؤمن أهل لوشة الذين يرغبون مغادرتها فى أنفسهم ، وفيما يستطيعون حمله من أموالهم ، وأن يسمح لمن شاء منهم ، أن يعيش فى قشتالة أو أراجون أو بلنسية بذلك[1] ، وأن تسلم المدينة إلى ملك قشتالة مع سائر الأسرى النصارى . ودخل القشتاليون لوشة ، فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ (مايو سنة ١٤٨٦) ، وسار معظم أهلها إلى غرناطة ، بأمتعتهم وخيلهم وسلاحهم .

وأما فيما يتعلق بأبى عبد الله ، فتقول لنا الرواية القشتالية ، إن موقفه فى الدفاع عن لوشة ، اعتبر منافياً لتعهداته للملكين الكاثوليكيين ، ونكراناً لحسن الصنيعة ، ومع ذلك فقد ارتضيا الصفح عنه ، وأن يسمح له بالاحتفاظ بلقب ملك غرناطة ، وأن يمنح لقب « صاحب وادى آش » إذا استطاع أن يستولى عليها ؛ وإذا أراد أن يلتجىء إلى قتشالة ، فإنه يسمح له أن يعيش هنالك آمناً على نفسه ، وإن شاء العبور إلى المغرب ، أمده ملك قشتالة بوسائل الانتقال[2] . على أننا نرى على ضوء الرواية الإسلامية ، أن موقف أبى عبد الله من حوادث لوشة ، كان موقفاً مريبا . والواقع أنه كان يبذل جل جهده للدعوة إلى قضيته ، وإلى مقاومة عمه ونزعه عن العرش . وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه . ولم يكن خافياً أنه يستظل بمظاهرة النصارى وتأييدهم ، وأنه غدا آلة فى يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه .

ولما غادر ملك قشتالة مدينة لوشة أخذ معه أبى عبد الله إما أسيراً ، حسبما يقول صاحب أخبار العصر ، أو أنه سار معه ليستمد عونه فى تنفيذ خطته للاستيلاء على عرش غرناطة ، وهى خطة يؤيدها ملك قشتالة ويشجعها ، لأنها تخدم أغراضه ومطامعه فى القضاء على تلك المملكة الصغيرة التى مزقتها الحرب الأهلية .

ولم يغفل فرناندو تلك الفرصة الذهبية لانتزاع ما يمكن انتزاعه من أراضى مملكة غرناطة . فبينما الحرب الأهلية تضطرم فى العاصمة وحولها ، إذ سار النصارى إلى حصن إليورة الواقع شمال غربى غرناطة وحاصروه وضربوه « بالأنفاط » حتى اضطروا أهله إلى التسليم والخروج عنه ؛ ثم ساروا إلى حصن مكلين الواقع شمال شرقى إليورة وهاجموه ونشبت بينهم وبين المدافعين عنه معركة عنيفة انتهت

---

(١) ان اختيار أراجون وبلنسية بالذات لإيواء المسلمين المهاجرين من القواعد المفتوحة ، يرجع إلى أنه كان يوجد عندئذ فى أراجون وفى بلنسية بالأخص مجتمع كبير من المدجنين ، أو المسلمين القدماء الذين بقوا تحت حكم الاسبان .

(٢) **Gaspar y Reminro: ibid, p. 32**

يتحطيم أسواره بفعل « الأنفاط » واستيلائهم عليه ، وخروج أهله عنه إلى غرناطة[١]
ثم استولى النصارى بعد ذلك على حصن قلنبيرة الواقع شرقي مكلين بالأمان[٢] ،
إذ رأى أهله ما نزل بغيرهم ففضلوا التسليم دون قتال ، واستولوا بعده على سلسلة
أخرى من القلاع والحصون التى تحمى مشارف غرناطة ، وأصلحوها وشحنوها
بالرجال والمؤن ، لتؤدى دورها فيما بعد من التضييق على العاصمة وتهديدها[٣] .

وهنا نقف قليلا لنتساءل عن حقيقة هذه « الأنفاط » التى توالى ذكرها
فى سير هذه المعارك ، التى اضطرمت بالأخص فى لوشة وفى رندة وفى الحصون
المجاورة ، والتى كانت فيما يبدو عمدة النصارى فى التفوق على المسلمين ، فى تحطيم
هذه الحصون القوية . ولقد أشارت الرواية الإسلامية عن سقوط غرناطة ، وهى
رواية صاحب « أخبار العصر » وهى التى كتبها بعد وقوع هذه الأحداث بنحو
نصف قرن فقط وكان شاهداً لها ومشتركاً فيها ، إلى تلك « الأنفاط » فى عدة
مواضع ثم وصفها لنا فيما يأتى :

« وكان له (أى لملك قشتالة) أنفاط يرمى بها صخور من نار ، فتصعد فى الهواء ،
وتنزل على الموضع ، وهى تشتعل ناراً ، فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه ، فكان
تلك من جملة ماكان يخذل فى أهل المواضع التى كان ينزل بها »[٤] .

ونحن نعرف أن مسلمى المشرق كانوا منذ أيام الحروب الصليبية ، يحذقون
استعمال الرمى بالنار والأنفاط ، وأن هذه الناركانت ترمى من آلات قاذفة تعرف
بالحراقات ، على حصون العدو ومعسكراته وسفنه فى البحر فتفتك بها . وقد لعبت
هذه النار دوراً هاماً فى الحروب الصليبية ، وألفت فيها مصر سلاحاً منيعاً لرد عدوان
الصليبيين وتمزيق حملاتهم . والظاهر أن هذا السلاح الذى استأثر به المسلمون مدى
حين فى المشرق ، قد عرفه مسلمو إفريقية والأندلس منذ منتصف القرن السابع
الهجرى ، واستعملوه فى محاربة أعدائهم نصارى اسبانيا . ففى حصار لبلة (٦٥٥هـ —
١٢٥٧م) استعمل الموحدون من فوق الأسوار لدفع جيوش ألفونسو العاشر ملك

---

(١) ما تزال أنقاض هذا الحصن قائمة فى مكانها . وقد زرناه وشاهدنا أثر الأنفاط فى هدم بعض أبراجه وأسواره .

(٢) حصن إليوره أو بلدة إليوره هى بالإسبانية **Illora** ؛ وموكلين أو مكلين هى بالإسبانية **Moclin** ؛ وقلنبيرة هى **Colomera** ، وهى اليوم من بلاد منطقة غرناطة الشمالية الغربية .

(٣) أخبار العصر ص ٢٢ .

(٤) أخبار العصر ص ٢٢ .

قشتالة ، آلات تقذف حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوى كالرعد[١] . وقد كان استعمال هذه النار أو الأنفاط الفتاكة يتطور بلا ريب مع العصور . ومنذ منتصف القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) نرى مسلمى الأندلس يستعملون لمقاتلة النصارى آلات تقذف اللهب والحجارة ، ويصحبها دوى مخيف[٢] . وظهرت براعة الأندلسيين فى استعمال هذه الآلات فى عدة مواقع . ففى حصار بياسة فى سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) فى عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل ، أطلق المسلمون على المدينة الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع ، واستعملت مثل هذه الآلات فى موقعة وادى لكه (ريو سليتو) سنة ١٣٤٠م (٧٤٠هـ) ، وفى الدفاع عن الجزيرة سنة ١٣٤٢ م (٧٤٢ هـ) وذلك فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف . والظاهر من وصف هذه الآلات أنها كانت نوعاً من المدافع الساذجة التى تحشى بالحديد والحجارة وبعض المواد الملتهبة ، التى كانت فيما مضى عماد الحراقات أو الأنفاط الشرقية . وليس بعيداً أن يكون مسلمو الأندلس قد وقفوا فى هذا العصر أيضاً إلى العثور على سر البارود ، قبل أن يقف على سره القس الألمانى برتولد شفارتز فى منتصف القرن الرابع عشر[٣]. ومن المرجح أن النصارى الإسبان قد نقلوا سر الأنفاط عن مسلمى الأندلس ، وحذقوا فى استعمالها مع الزمن . ولما غلب الضعف على مملكة غرناطة تضاءلت أهباتها الدفاعية ، ونقصت مواردها من السلاح والذخيرة ، خصوصاً بعد أن فقدت معظم قواعدها الصناعية . بيد أنه من المحقق أن المسلمين كانوا يستعملون الأنفاط أيضاً فى محاربة أعدائهم وإن يك ذلك بنسبة صغيرة تتفق مع ضآلة مواردهم . أما القشتاليون فقد كانت لديهم « الأنفاط » بكثرة ، وكانت السلاح المفضل فى مهاجمة القواعد والحصون الإسلامية . وهنالك أيضا مايدل على أن هذه الانفاط التى كان يستعملها القشتاليون لم تكن سوى المدفع فى صورته البدائية ، فالرواية الغريبة تحدثنا عن اهتمام ملك قشتالة بصنع « المدافع » لمحاربة المسلمين ، وتقول لنا إن هذه المدافع كانت

---

(١) راجع كتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٤٩٧ .

(٢) راجع كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » الطبعة الرابعة ص ١٢٨ و١٢٩ .

(٣) ولدينا رواية موريسكية هى رواية ابن غانم الموريسكى الأندلسى مؤلف كتاب « العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع » الذى سوف يأتى ذكره فى موضعه : وهو يقول لنا إن اختراع البارود وقع فى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) ، ومن الواضح أن هذا التاريخ المتأخر لا يتفق مع ما قدمناه من شواهد وحوادث تاريخية تدل على أن البارود قد اخترع قبل ذلك بنحو نصف قرن .

تصنع فى مدينة وشقه ، وإن كميات عظيمة من القنابل الخاصة بها كانت تصنع فى « جبال قسنطينة »(١). وتحدثنا الرواية الإسلامية المعاصرة عن « البارود » وتقول لنا إن النصارى حينما نشبت الثورة فى ربض البيازين ، أمدوا فريقاً من الثوار « بالرجال والأنفاط والبارود »(٢) إذكاء منهم للفتنة بين المسلمين . وهكذا نرى أن الأنفاط التى تنوه الرواية الإسلامية بفتكها بحصون المسلمين وصفوفهم فى معارك غرناطة ، إنما هى المدافع بذاتها ، وأن تفوق القشتاليين فى استعمال هذا السلاح ، كان له أعظم الأثر فى التعجيل بإخضاع مملكة غرناطة والقضاء عليها .

* * *

ولنعد إلى قصة الحرب الأهلية فى غرناطة . فقد ثار أهل البيازين كما قدمنا بتحريض من دعاة أبى عبد الله وأمه الأميرة عائشة ، والتف معظم الشعب الغرناطى حول أميره أبى عبد الله الزغل ، واستمرت المعارك سجالا بين الفريقين مدى أشهر . وفى أثناء ذلك استولى النصارى على لوشة وعلى كثير من الحصون الشمالية الغربية . وسار أبو عبد الله بعد سقوط لوشة مع ملك قشتالة ، ولم يمض سوى قليل حتى عاد إلى الأنحاء الشرقية ، إلى منطقة بلش ، وأخذ يدبر خططه . وفى أوائل شوال سنة ٨٩١ هـ (سبتمبر ١٤٨٦) غادر أبو عبد الله محمد الأنحاء الشرقية ، وظهر فجأة فى ربض البيازين ، واجتمع حوله أنصاره من الثوار ، وأذاع أنه عقد الصلح مع النصارى ، وأمده فرناندو حليفه بالرجال والعدد والذخائر والمؤن ومنها الأنفاط(٣)، فزادت الفتنة اضطراماً . وشدد أبو عبد الله الزغل الضغط على أهل البيازين ، وبينما هو على وشك تمزيقهم وإبادتهم ، إذ بلغه أن ملك قشتالة قد سير قواته إلى مدينة بلش مالقة Vélez Málaga ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٨٩٢ هـ (مارس ١٤٨٧)(٤). وكان طبيعياً أن ينتهز فرناندو الخامس فرصة اشتغال المسلمين بفتنتهم القاضية . وكانت بَلّش حصن مالقة ، وسقوطها يعرض مالقة لأشد الأخطار . وأدرك مولاى الزغل فى الحال أهمية بلش فهرع إليها فى بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبى عبد الله وأهل البيازين . ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته ، واستبسال أهل

---

(١) Sierra Constantina راجع : Prescott ; ibid; p. 223

(٢) راجع أخبار العصر ص ٢٤ .

(٣) Gaspar y Remiro : ibid ; p. 42

(٤) أخبار العصر ص ٢٢ — ٢٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٢ .

بلش فى الدفاع عن مدينتهم لم تغن شيئاً ، وسقطت بلش مالقة فى يد النصارى فى جمادى الأولى سنة ٨٩٢ (أبريل سنة ١٤٨٧) وعاد الزغل بجنده ميمماً صوب غرناطة . ولكنه علم أثناء مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبى عبدالله ، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه (٥ جمادى الأولى — ٢٨ أبريل) . وكان أهل غرناطة يحبون الزغل، ويقدرون بطولته ووطنيته، واستبساله فى مقاومة النصارى، ولكنهم تحولوا عنه إلى تأييد أبى عبد الله لمحالفته للنصارى ، وأملهم بذلك فى اتقاء عدوانهم على أرباضهم وقراهم ، وصون أنفسهم ومصالحهم . وهكذا أيقن الزغل عبث المحاولة ، وارتد بصحبه إلى وادى آش، وامتنع فيها بقواته، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر : غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبى الحسن ، ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه الأمير محمد بن سعد (أبوعبد الله الزغل) . وتحقق بذلك ما كان يبتغيه ملك قشتالة ، من تمزيق البقية من دولة الإسلام بالأندلس ، تمهيداً للقضاء عليها .

الفصل الثاني

بداية النهـــاية

أبو عبد الله محمد يرقى العرش للمرة الثانية . تمزق المملكة الإسلامية . خطط ملك قشتالة للقضاء عليها . زحف النصارى على مالقة وحصارها . سعى الزغل إلى إنقاذها . استغاثته بملوك الإسلام . بسالة المسلمين فى الدفاع عنها . شدة الحصار وأهواله . تسليمها للنصارى . نكث فرناندو بوعوده . استغاثة الأندلس بمصر . تتبع مصر لحوادث الأندلس . صدى محنة الأندلس فى الشرق . رواية عن خطة مصر وتركيا لإنقاذ الأندلس . سفارة الأندلس إلى مصر . رواية ابن إياس عنها . مصر تلجأ إلى الوسائل الدبلوماسية . سفارة مصر إلى البابا وملك نابل وملكى اسبانيا . رد فرناندو وسفارته إلى ملك مصر . أثر سقوط مالقة . استيلاء النصارى على الأنحاد الشرقية . عهد فرناندو لأهل أشكر . حصار المنكب . تسليمها وعهد النصارى لأهلها . زحف فرناندوعلى مدينة بسطة . بسالة المسلمين فى الدفاع عنها . حصارها وتسليمها . عهد النصارى ليحيى النيار زعيم بسطة وألمرية . الشروط التى منحت له . تسليم ألمرية وشروط التسليم . يأس مولاى الزغل وخضوعه لفرناندو . دخول النصارى وادى آش . نزول الزغل عن حقوقه . الشروط التى منحت له . جوازه إلى المغرب . رواية عن سلوك الزغل .

تبوأ أبوعبد الله محمد بن السلطان على أبى الحسن عرش غرناطة للمرة الثانية ، عقب عودة من الأسر بنحو عام ، ولكنه لم يكن يحكم تلك المرة سوى مملكة صغيرة ، وكان المفروض فوق ذلك أنه يحكمها باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وكانت الخطوب والفتن التى توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى بضع مدن وقواعد متناثرة ، مختلفة الرأى والكلمة ، ينضوى بعضها تحت لوائه وتشمل الأنحاء الشمالية الغربية ، وينضوى البعض الآخر تحت لواء عمه محمد ابن سعد (الزغل) ، وتشمل الأنحاء الشرقية والجنوبية . وكان واضحاً أن مصير المملكة الإسلامية أصبح يهتز فى يد القدر ، بعد أن نفذت جيوش النصرانية إلى قلبها ، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية ، مثل الحامة ورندة ولوشة وبلش مالقة وغيرها . وكان ملك قشتالة يحرص على المضى فى تحقيق خططه لسحق البقية الباقية من دولة الإسلام فى الأندلس قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة ، فيبعث إليها روحاً جديدة من العزم والمقاومة . وكان من الطبيعى أن يؤثر البدء بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التى يسيطر عليها مولاى الزغل ، لأن الزغل

لم يكن يدين بطاعته ، وكان يبدى فى مقاومته عزماً لا يلين ولا يخبو ، ولأنه من جهة أخرى كان يرتبط بأمير غرناطة بصلح يمتد إلى عامين ، وقد أراد أن يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء ، وأخيراً لأنه كان يريد أن يعزل غرناطة وأن يطوقها من كل صوب ، قبل أن يسدد إليها الضربة الأخيرة .

وقد رأينا كيف سقطت قاعدة بَلّش حصن مالقة من الشرق فى يد النصارى ، بعد دفاع عنيف ، فى جمادى الأولى سنة ٨٩٢هـ (مايو ١٤٨٧م) . وعلى أثر سقوطها غادرها معظم أهلها ، وتفرقوا فى أنحاء الأندلس الأخرى الباقية بيد المسلمين ، وجاز كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واستولى النصارى على جميع الحصون والقرى المجاورة ومنها حصن قمارش وحصن مونتميور ، واستطاعو بذلك أن يشرفوا على مالقة من كل صوب . وكانت مالقة ما تزال أمنع ثغور الأندلس ، وقد أضحت بعد سقوط جبل طارق عقد صلتها الأخيرة بعدوة المغرب ، وكان فرناندو يحرص على أن يقطع كل وسيلة ناجعة لقدوم الأمداد من إفريقية وقت الصراع الأخير . وكان الاستيلاء على مالقة يحقق هذه الغاية . ومن ثم فإنه ما كاد النصارى يظفرون بالاستيلاء على بلش والحصون المجاورة ، حتى زحفوا على مالقة وطوقوها من البر والبحر بقوات كثيفة ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٨٩٢هـ (يونيه ١٤٨٧م) وامتنع المسلمون داخل مدينتهم ، وكانت تموج بالمدافعين وعلى رأسهم نخبة مختارة من أكابر الفرسان ، ومعهم بعض الأنفاط والعدد الثقيلة . وكانت مالقة تدين بالطاعة للأمير محمد بن سعد (الزغل) صاحب وادى آش ، ولكنه لم يستطيع أن يسير إلى إنجادها بقواته خوفاً من غدر ابن أخيه أمير غرناطة ، فترك مالقة إلى مصيرها وهو يذوب تحسراً وأسى . ولكنه فكر فى وسيلة أخيرة لعلها تجدى فى إنقاذ الأندلس من خطر الفناء الداهم ، هى أن يستغيث بملوك الإسلام لآخر مرة ، فأرسل رسلا إلى أمراء إفريقية وإلى سلطان مصر الأشرف قايتباى . ولم يكن من المنتظر إزاء بعد المسافة أن تصبر مالقة على ضغط النصارى حتى يأتيها المدد المنشود . وكان يتولى الدفاع عن الثغر المحصور جند غمارة وزعيمهم حامد الثغرى . وأبدى المسلمون فى الدفاع عن ثغرهم أروع ضروب البسالة والجلد ، وحاولوا غير مرة تحطيم الحصار المضروب عليهم ، وفتكوا بالنصارى فى بضع مواقع محلية ، ومع ذلك فقد ثابر النصارى على ضغطهم وتشديد نطاقهم ، حتى قطعت كل علاقة للمدينة المحصورة مع الخارج ، ومنعت عنها سائر الأمداد والأقوات ، وعانى المسلمون

داخل مدينتهم أهوال الحصار المروع ، واستنفدوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الأقوات ، وأكلوا الجلود وأوراق الشجر ، وفتك بهم الجوع والإعياء والمرض ، ومات كثيرون من أنجاد فرسانهم ، ولم يجدوا فى النهاية لهم ملاذاً سوى التسليم على أن يؤمنوا فى أنفسهم وأموالهم . وهكذا سقطت مالقة بعد دفاع مجيد استطال ثلاثة أشهر فى أيدى النصارى ، وذلك فى أواخر شعبان سنة ٨٩٢ هـ (أغسطس ١٤٨٧م) . ولم يحافظ فرناندو على ما بذله لأهلها من عهود لتأمين النفس والمال ، وأصدر قراراً ملكياً باعتبار أهلها المسلمين رقيقاً يجب عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم ، ويفرض على كل مسلم أو مسلمة مهما كان السن والظروف ، الأحرار منهم والعبيد الذين فى خدمتهم ، فدية للنفس والمتاع ، قدرها ثلاثون دوبلا من الذهب الوازن اثنين وعشرين قيراطاً ، أوما يوازى هذا القدر من الذهب والفضة واللآلى والحلى والحرير ؛ وأنه يسمح لمن أدوا هذه الفدية ، إذا شاءوا ، بالعبور إلى المغرب وتقدم السفن لنقلهم ، وأنه لا يسمح للمسلمين ذكوراً أو أناثاً بالعيش أو الإقامة فى مملكة غرناطة ، ولكن يسمح لهم أن يعيشوا أحراراً آمنين فى أية ناحية من نواحى قشتالة ، وأنه لا يتمتع بهذه المنح بنوالثغرى وزوجاتهم وأولادهم ، وبعض أفراد أشار إليهم القرار(١). ودخل النصارى المدينة دخول الفاتحين ، وعاثوا فيها وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال والمتاع ، وفر من استطاع من المسلمين إلى غرناطة أو وادى آش أو جاز إلى العدوة . وكان هذا التصرف نموذجاً لما يضمره ملك النصارى نحو معاملة المسلمين المغلوبين ، ولما تنطوى عليه سياسته من نكث للوعود والعهود . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة فى وصف محنة أهل مالقة « وكان مصابهم مصاباً عظيما تحزن له القلوب وتذهل له النفوس ، وتبكى لمصابهم العيون »(٢).

— ٢ —

ولنعد الآن إلى قصة السفارات التى أوفدها أبوعبد الله الزغل إلى ملوك إفريقيه ومصر وقسطنطينية يستغيث بهم ، ويلتمس نصرتهم . والتجاء الأندلس إلى ملوك العدوة فى طلب الغوث والنجدة أمر طبيعى وتقليد أندلسى قديم ، أشرنا إليه مراراً فيما تقدم . ولكن دول المغرب كانت يومئذ يسودها الضعف والتفرق ، ولم يكن

---

(١) هذا ما ورد ضمن وثيقة محفوظة بدار المحفوظات الإسبانية العامة **Achivo General de Simaneas; P. R. 11-5**

(٢) أخبار العصر ص ٢٧ و٢٨ .

فى استطاعتها أن تهرع إلى انجاد الأندلس ، كما فعلت فى الماضى غير مرة . ولم يلب نداء مولاى الزغل سوى شراذم ضئيلة من المجاهدين المتطوعين ، جازت البحر إلى الأندلس ، واشتركت فى نضالها الأخير .

وأما استغاثة الأندلس بمصر فلم تقع إلا فى عهد متأخر ، وذلك حينما ضعف أمر بنى مرين ملوك العدوة الأقوياء ، وانقطعوا عن العبور إلى الأندلس ، وشغلوا بأمر الدفاع عن أنفسهم . وقد ذكرنا فيما تقدم قصة السفارة الأندلسية التى بعث بها السلطان أبو عبد الله الأيسر إلى سلطان مصر الظاهر چقمق فى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) ، وكيف أنها لم تسفر عن أية نتائج عملية . على أنه لم يكن ثمة ريب فى أن الحوادث الأندلسية المفجعة ، كانت قد ذاعت يومئذ فى أنحاء العالم الإسلامى ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة . وكان صداها يتردد فى بلاط القاهرة وغيره من قصور المشرق ، وكان أمراء الأندلس وزعماؤها منذ لاح لهم شبح الخطر الداهم ، يتجهون بأبصارهم إلى دول المغرب والمشرق معاً ، وكانت كتبهم ونداءاتهم فى تلك الآونة العصيبة تترى على فاس والقاهرة وقسطنطينية . وفى صحف العصر ما يدل على أن مصر كانت بنوع خاص ، تتبع حوادث الاندلس باهتمام وجزع ، فإن ابن إياس مؤرخ مصر فى ذلك العصر لم يفته أن يدون فى حولياته هذه الحوادث تباعاً ، فنراه يقول فى حوادث ذى الحجة سنة ٨٨٦هـ (١٤٨١م)، ما يأتى : « وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد بن أبى الحسن على بن سعد ابن الأحمر قد ثار على أبيه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من أبيه ، وجرت بينهما أموريطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين ، وملكها الفرنج والأمر لله فى ذلك » . وفى حوادث رجب سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) . « وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن » . وفى حوادث جمادى الآخرة سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) « إن صاحب غرناطة (أبا عبد الله) توجه إلى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة ، وان الفتن هناك قائمة والأمر لله »[1]. وهكذا كانت حوادث الأندلس تتردد رغم بعد المسافة وصعوبة المواصلة فى مصر ، ويدونها مؤرخ مصر المعاصر ، وإن كان فى إيرادها تنقصه الدقة والوضوح .

وكانت مصر ترتبط يومئذ مع ثغور الأندلس ولاسيما مالقة وألمرية بعلائق

---

(١) راجع ابن إياس : تاريخ مصر (بولاق) ج ٢ ص ٢١٦ و ٢٣٠ و ٢٣٧ .

تجارية وثيقة . وكان لمصر هيبتها التالدة بين الدول النصرانية منذ الحروب الصليبية وبالأخص لأنها تحكم البقاع النصرانية المقدسة ، وبين رعاياها ملايين من النصارى . ولم يكن غريباً فى تلك الآونة أن تفكر الأندلس إبان محنتها القاسية مرة أخرى ، فى الإستغاثة بمصر بعد أن رأت قصور الدول المغربية عن إنجادها . وكان من الطبيعى أن تهتم دول الإسلام من أقصاها إلى أقصاها بمصير الأمة الأندلسية ، وأن تفكر فى التماس السبيل إلى غوثها إن استطاعت إلى ذلك سبيلا . ولا تشير المصادر الإسلامية إلى فكرة أو سياسة معينة ، وضعتها أو اعتزمتها الدول الإسلامية لتحقيق هذه الغاية ، ولكنها تشير فقط إلى سفارة أندلسية وفدت على بلاط مصر . على أن المصادر الغربية تشير بالعكس إلى أن خطة كهذه قد وضعت ونظمت . وخلاصة ما تقوله فى ذلك هو أن المشرق كله اهتز لحوادث الأندلس ، وسقوط قواعدها السريع فى يد النصارى ، وأن بايزيد الثانى سلطان الترك والأشرف قايتباى سلطان مصر ، تهادنا موقتاً بالرغم مما كان بينهما من خصومات مضطرمة وحروب دموية ، وعقدا محالفة لإنجاد الأندلس وإنقاذ دولة الإسلام فيها ، ووضعا لذلك خطة مشتركة خلاصتها أن يرسل بايزيد الثانى أسطولا قوياً لغزو جزيرة صقلية التى كانت يومئذ من أملاك اسبانيا ، ليشغل بذلك اهتمام فرناندو وإيسابيلا ، وأن تبعث سريات كبيرة من الجند من مصر وإفريقية ، تجوز البحر إلى الأندلس ، لتنجد جيوشها وقواعدها(١) . ومن الصعب أن نعتقد بأن مثل هذه الخطة الموحدة ، يمكن أن يتفق عليها بين مصر وقسطنطينية فى مثل الظروف التى كانت تجوزها علائق البلدين يومئذ ؛ فقد كانت علائق جفاء وقطيعة ، وكان الترك يتربصون بمصر ويطمحون إلى غزوها ، وكانت مصر تخشى العدوان ويسودها التوجس والحذر ، وكان انفصام العلائق بين تركيا ومصر على هذا النحو أبعد من أن يسمح بعقد مثل هذا التحالف بينهما . وكل ما يمكن قوله فى هذا الشأن هو أن فكرة إنجاد الأندلس كانت تلقى فى بلاط القاهرة وقسطنطينية نفس العطف ، وإن لم يتفاهما فى ذلك على خطة موحدة .

وعلى أى حال فمن المحقق الذى لاريب فيه أن مصر قد تلقت استغاثة الأندلس ، ووضعت خطة دبلوماسية خاصة لإسعافها وإنجادها . وقد وصلت سفارة الأندلس إلى مصر فى أواخر سنة ٨٩٢ هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧م) . ويصف ابن إياس هذه

(١) راجع : Irving : Conquest of Granada p. 172

السفارة فيما يأتى : « وفى ذى القعدة (سنة ٨٩٢هـ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج ، فإنهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو فى المحاصرة معهم . فلما سمع السلطان ذلك ، اقتضى رأيه أن يبعث إلى القسوس الذين بالقمامة التى بالقدس بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس من أعيانهم ، إلى ملك الفرنج صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب إشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم ، وإلا يشوش السلطان على أهل القمامة ، ويقبض على أعيانهم ، ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول إلى القمامه ويهدمها ، فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل ، كما أشار السلطان ، فلم يفد ذلك شيئاً وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد »[1] . وفى رواية ابن إياس شيء من اللبس . ذلك أن حصار النصارى الأخير لغرناطة ، لم يبدأ إلا فى مارس سنة ١٤٩١ الموافق جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ ، فالأمر لم يكن متعلقاً إذاً بإنقاذ غرناطة . وكانت جيوش فرناندو وإيسابيلا منذ بداية سنة ٨٩٢ هـ تتدفق حسبما رأينا على أراضى مولاى الزغل لكى تنتزع منه الثغور الجنوبية . وقد استولت على بَلّش مالقة فى جمادى الأولى من هذا العام (مايو ١٤٨٧) ، ثم زحفت توا على مالقة ، وضربت حولها الحصار فى جمادى الثانية (يونيه سنة ١٤٨٧ م) . وقد وصل صريخ الأندلس إلى مصر فى أواخر سنة ٨٩٢ هـ ، وذلك بعد أن سقطت مالقة فى يد النصارى بنحو ثلاثة أشهر . وإذاً فمن الواضح أن هذا الصريخ كان متعلقاً بإنقاذ مالقة ، وأنه كان صادراً من مولاى الزغل بطل الأندلس والمدافع عنها يومئذ ، والمشفق عليها من السقوط ، ولم يصدر من صاحب غرناطة وهو ابن أخيه أبوعبد الله محمد ، وقد كان يومئذ يعيش آمناً فى ظل الهدنة الغادرة التى عقدها مع النصارى .

ولم يكن من الميسور على مصر أن تلبى نداء الأندلس بطريقة فعالة ، فترسل إليها الأمداد أو المساعدات المادية على ما بينهما من بعد الشقة ، وعلى ما كان يشغل مصر يومئذ من الحوادث الداخلية ، وتوجسها من عدوان الترك على حدودها الشمالية . ولكن مصر حاولت مع ذلك أن تعاون الأندلس بطريق الدبلوماسية ، والضغط السياسى . وسلك بلاط القاهرة فى ذلك خطة تدل بذكائه وحزمه ، وتدل بالأخص بوقوفه على مجرى الشئون الخارجية ، وتطور العلائق الدبلوماسية فى هذا العصر .

(١) تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٤٦ .

ذلك أن سلطان مصر الملك الأشرف ، أجاب عن سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية . واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصارى ، أحدهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وعهد إليهما بكتب إلى البابا وهو يومئذ إنوصان الثامن ، وإلى ملك نابل (نابولى) فرناندو الأول ، وإلى فرناندو وإيسابيلا ملكى قشتالة وأراجون . وفى هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين فى مملكة غرناطة ، وعلى توالى الإعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم ، وسفك دمائهم ، فى حين أن رعاياه النصارى فى مصر وبيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات ، والحمايات ، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم . ولهذا فهو يطلب إلى ملكى قشتالة وأراجون الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضى المسلمين ، وعدم التعرض لهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلى البابا وملك نابل أن يتدخلا لدى ملكى قشتالة وأراجون ، لردهما عن إيذاء المسلمين والبطش بهم ، هذا وإلا فان ملك مصر سوف يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار فى بيت المقدس ، ويمنع دخول النصارى كافة إلى الأراضى المقدسة ، بل ويهدم قبر المسيح ذاته وكل الأديار والمعابد والآثار النصرانية المقدسة(١) .

وغادر القس أنطونيو ميلان وزميله الديار المصرية ، لتأدية سفارة مصر إلى ملوك النصرانية . ولسنا نعرف موعد هذا الرحيل بالضبط ، ولكن السفيرين وصلا إلى اسبانيا فى خريف سنة ١٤٨٩ م ، أعنى لنحو عام ونصف من وصول صريخ الأندلس إلى القاهرة . وكانت مالقة قد سقطت فى يد النصارى منذ عامين واستولوا على طائفة أخرى من الحصون والقواعد ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى بسطة حسبما يجىء ، وضرب فرناندو حولها الحصار . وهنالك أمام أسوار بسطة وفد القس أنطونيو ميلان وزميله إلى معسكر النصارى فى أواخر سنة ١٤٨٩ م ، فاستقبلهما فرناندو بحفاوة وترحاب ، واستلم كتاب السلطان ، واستمع إلى رسالتهما بعناية . وكان السفيران قد عرجا فى طريقهما على رومة ونابل أولا ، وقدما كتب السلطان إلى البابا

---

(١) ابن إياس فى تاريخ مصر ج ٣ ص ٢٤٦ و **Prescott: Ferdinand and Isabella p.272** و **Irving: ibid. p. 227** . وظاهر أن فى رواية ابن إياس عن تأليف سفارة مصر بعض النقص ، ولكن ملخصه لمحتويات الكتب السلطانية فى منتهى الدقة .

إنوصان الثامن والى ملك نابل ، فكتب البابا إلى فرناندو وإيسابيلا يسألهما عما يجيب به على مطالب السلطان ووعيده ، وكتب ملك نابل (فرناندو الأول) إليهما يستفهم عن سير الحرب الأندلسية ، ويلومهما على اضطهاد المسلمين ، وينصح بالكف عنه حتى لا يتعرض نصارى المشرق إلى قصاص السلطان . ويرجع تدخل ملك نابل على هذا النحو ، إلى خلاف بينه وبين ملك أراجون على حقوق عرش نابل ، وإلى تخوفه من أن يرتد فرناندو إلى محاربته متى تم ظفره بفتح الأندلس . ثم زار القسان أيضاً مدينة جيان حيث كانت الملكة إيسابيلا ، وأبلغاها موضوع سفارتهما ولقيا منها نفس الحفاوة والترحاب(١) .

ولم ير فرناندو وإيسابيلا فى مطالب السلطان ووعيده ما يحملهما على تغيير خطتهما ، فى الوقت الذى أخذت فيه قواعد الأندلس الباقية تسقط تباعاً فى أيديهما واقترب فيه أجل الظفر النهائى ؛ ولكنهما رأيا مع ذلك إجابة السلطان ، فكتبا إليه فى أدب ومجاملة ، « أنهما لا يفرقان فى المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد فى يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة فى ظل حكمهما راضين مخلصين ، فانهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية » ، وبذا ارتد القسان إلى المشرق يحملان جواب الملكين إلى السلطان ، ومعهما طائفة من التحف والهدايا .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة ، ولكنا نرجح أنها وصلت إلى بلاط القاهرة ، وإن كنا لا نلمس لها أثراً فى حوادث هذا العصر . وليس فى تصرفات حكومة مصر يومئذ ما يدل على أن السلطان نفذ وعيده ، باتخاذ إجراءات معينة ضد النصارى أو ضد الآثار النصرانية المقدسة . والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثانى ، وصد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية . وكان الاضطراب من جهة أخرى يسود شئون مصر الداخلية ، ومن ثم فإنه يبدو أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس قد وقفت عند هذا الحد . ولم تتعد قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال الظروف والمؤثرات الدينية . وهكذا فشلت هذه المحاولة الدبلوماسية الفطنة التى بذلتها مصر ، وتركت الأندلس إلى قضائها المحتوم .

— ٣ —

وكان سقوط مالقة أمنع الثغور الأندلسية فى يد النصارى ضربة أليمة للمملكة

---

(١) Irving : ibid ; p. 258 ; Prescott : ibid ; p.278

الإسلامية الممزقة ، يحرمها من كثير من ضروب الإمداد والغوث التى كانت تأتيها من وراء البحر ، وكان واضحاً أن ملك قشتالة كان يرمى إلى قطع هذه الأمداد بكل الوسائل . ولم يكن باقياً بعد ضياع جبل طارق ومالقة ، بيد المسلمين من الثغور سوى ألمرية والمنكب ، وإليهما كانت تفد جموع المتطوعة والمجاهدين ، بالرغم من بعدهما عن شواطئ العدوة ، وكان لابد من الاستيلاء عليهما ، قبل أن تقطع كل صلة للأندلس نهائياً بعدوة المغرب وشمال إفريقية . وقضى فرناندو قبل تنفيذ هذه الخطة زهاء عام ، بعمل على تطهير منطقة مالقة ، والاستيلاء على ما بقى من الحصون الشرقية والغربية ، حتى استولى عليها جميعاً ولم يبق منها بيد المسلمين شىء .

وفى ربيع سنة ١٤٨٨م (٨٩٣هـ) زحف فرناندو على أطراف مملكة غرناطة الشرقية ، وكانت لبعدها عن العاصمة ، أقل استعداداً للدفاع ، وانتهت هذه الحملة باستيلاء النصارى على بيرة ، والبلشين وأشكر (١) وغيرها من القواعد الشمالية الشرقية ، وذلك بالرغم من كون أهلها كانوا داخلين فى الصلح المعقود مع أبى عبد الله ، وكان على ملك قشتالة لو أنه أوفى بعهوده ، أن يتركهم حتى ينتهى أمد الصلح المذكور (٢) . وقد عثرنا على نص العهد الذى أصدره الملكان الكاثوليكيان لأهل أشكر ، وهو نموذج للعهود التى صدرت لباقى البلاد المفتوحة فى هذه المنطقة ، وفيه يتعهد الملكان ، بقبول أهل أشكر بين رعاياهما وتحت حمايتهما ، وأن لا يؤخذ شىء من أمتعتهم أو يصيبهم أى مكروه ، وألا يدفعوا من الضرائب إلا ما كانوا يؤدونه لملوكهم المسلمين ، وألا يرغموا على محاربة إخوانهم مسلمى غرناطة ، وأن يسمح لهم باستبقاء زعمائهم وفقهائهم ، وعوائدهم وشريعتهم ، وأنه يحق لهم الإقامة فى أى جزء من أراضى مملكة قشتالة ، كما يحق لهم العبور إلى المغرب أحراراً ودون أى قيد ، وأن يعامل السكان جميعاً ذكوراً أو أناثاً ، بالرفق والكرامة وألا يغصبهم أحد فى دورهم ، أو يسىء إليهم أو يتلف شيئاً من أمتعتهم أو محاصيلهم ، وألا يعاشر نصرانى مسلمة ، أو مسلم نصرانية ، ومن فعل ذلك يعاقب بالموت وتصادر أملاكه ، وأن يدفع الكراء العادل لمن يطلب منهم للعمل فى بناء حصن

---

(١) بيرة وبالإسبانية **Vera** تقع شمال شرق ألمرية على مقربة من البحر المتوسط ، والبلشان هما بلج أو « بلش الحسناء » **Velez Rubio** ، و « بلش البيضاء » **Velez Blanco** ، وهما تقعان شمالى شرق مدينة بسطة **Baza** ، وأشكر وهى بالإسبانية **Huescar** تقع شمال غربى البلشين .

(٢) **Gaspar y Remiro: ibid; p. 43**

المدينة[1] . وسنرى فيما يلى من الحوادث أن الملكين الكاثوليكيين ، يغدقان أمثال هذه العهود لسائر البلاد المفتوحة ، ولكن دون أية نية صادقة فى الوفاء بها .

وفى الوقت الذى اقتربت فيه القوات القشتالية ، من مدينة بسطة ، أمنع قاعدة فى ولايات غرناطة الشرقية ، لتضرب حولها الحصار ، سار فرناندو فى بعض قواته إلى ثغر المنكّب[2] ، الواقع فى منتصف المسافة بين مالقة والمرية ، وحاصره ، وكان يدافع عنه القائد محمد بن الحاج . ومع أنه لم يك ثمة شك فى النتيجة المحتومة ، فقد دافع المسلمون عن ثغرهم ، واعتصموا به نحو ثلاثة أشهر ، وكبدوا القشتاليين بعض الخسائر . ثم وقعت المفاوضة فى التسليم ، وأصدر الملكان الكاثوليكيان للقائد ابن الحاج ومعاونه الفقيه أبى عبد الله الزليخى ، عهداً خلاصته ، أنه إذا سلم القصبة وكل حصونها فى ظرف تسعة أيام ، فإنه يقبل هو وولده وصحبه وقرباه ، كما يقبل الوزراء والقواد والفقهاء وسائر أهل المنكب بين رعايا قشتالة ، وأنهم يتركون آمنين فى ديارهم وأنفسهم وأموالهم ، ويحتكمون إلى شريعتهم ، وتترك لهم مساجدهم وصوامعهم ، ولا يؤخذ منهم خيلهم أوسلاحهم إلا طاقات البارود ، وأنه إذا تم التسليم فى الموعد المذكور ، فإنه تقدم إلى القائد المذكور هبة قدرها ثلاثة آلاف دوبلا قشتاليا ، وأنه إذا شاء العبور إلى المغرب مع ولده وأسرته ، فإنه تقدم إليه سفينة حسنة للجواز فيها مع سائر متاعه دون كراء أو مغرم ، وأنه لا تمس أملاك الأهالى ، ولهم بيعها أوقبض ريعها إذا عبروا إلى المغرب ، وهكذا سلم ثغر المنكب إلى القشتاليين ، فى شهر ديسمبر سنة ١٤٨٩ (المحرم سنة ٨٩٥هـ). ولم يبق للمسلمين من الثغور سوى المرية ، التى طوقها العدو فى نفس الوقت بقواته ، وأصبحت تحت رحمته وشيكة التسليم .

ولما تم قطع علائق الأندلس على هذا النحو مع عدوة المغرب وشمال إفريقية ، بدأ فرناندو فى تنفيذ خطته النهائية للقضاء على ما بقى فى الداخل من المملكة الإسلامية وكانت مملكة غرناطة قد انقسمت كما رأينا إلى شطرين ، الأنحاء الشرقية وتشمل وادى آش وأعمالها ويحكمها الأمير محمد بن سعد أبو عبد الله الزغل ، والأنحاء الغربية

---

(١) تحفظ هذه الوثيقة ببلدية « أشكر » **Archivo del Ayuntamiento de Huescar** ، وقد نقلناها عن مجموعة : **Documentos Inéditos para la Historia de Espana Vol. III, p. 170-173**

(٢) وهى بالإسبانية **Almunecar**

وتشمل مدينة غرناطة وأعمالها ، ويحكمها الأمير أبو عبد الله محمد بن على . فقرر فرناندو أن يبدأ بإتمام الاستيلاء على الأنحاء الشرقية ، وأن يقضى أولا على سلطان أبي عبد الله الزغل لما كان يخشاه من عزمه وشديد بأسه ، فما كاد ينتهى من إخضاع ثغر المنكب وتطويق ثغر ألمرية حتى قرر تضييق الخناق على مدينة بسطة ، وكانت قواته تطوقها حسبما تقدم ، وكانت الملكة إيسابيلا مع حاشيتها فى جيان على مقربة من الجيش الفاتح ؛ وكانت بسطة أهم القواعد الشرقية التى يسيطر عليها مولاى الزغل بعد وادى آش مقر حكمه ؛ ولم يستطع الزغل أن يغادر معقله فى وادى آش للدفاع عن بسطة ، خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبو عبد الله فى غيبته ، فأرسل إليها حامية مختارة من أنجاد الفرسان بقيادة صهره الأمير يحيى النيار الذى تعرفه التواريخ القشتالية « بسيدى يحيى » . وحاول القشتاليون الإطباق على بسطة ومحاصرتها فردهم المسلمون عن أسوارها غير مرة، ونشبت بين الفريقين خارج الأسوار عدة معارك حامية منى فيها النصارى بخسائر فادحة؛ ومع أن النصارى بدأوا هجومهم على بسطة فى شهر رجب سنة ٨٩٤هـ (يونيه سنة ١٤٨٩ م) فإنهم لم يستطيعوا تطويقها ومحاصرتها بصورة فعلية إلا بعد ذلك بثلاثة أشهر ، وهنا امتنع المسلمون داخل المدينة بعد أن أثخنوا فى عدوهم غير مرة ، واستنفدوا أقواتهم المدخرة . وضيق النصارى الحصار على بسطة مدى ثلاثة أشهر أخرى ، حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، وقلت الأقوات واشتد الكرب ، ولما رأى المسلمون أنه لم يبق فى الدفاع ثمة أمل ، وقد نفدت المؤن ، وفتك الجوع والمرض بالعامة ، اعتزموا مفاوضة القشتاليين فى التسليم ؛ وبالرغم مما أبداه زعيمهم يحيى النيار فى البداية من براعة فى تنظيم الدفاع عن بسطة وألمرية ، وبالرغم مما أبداه من بسالة فى المعارك التى نشبت مع القشتاليين ، فإنه رأى فى النهاية أن يترك هذا الصراع اليائس، وأن يفوز من المعركة بأحسن ما يستطاع لنفسه وذويه . وقد حصلنا على نص الوثيقة التى عقدها القائد يحيى مع مندوب الملك فرناندو ، الدون جوتيرى دى كارديناس، وهى تعرض لنا بمحتوياتها المثيرة، صورة من ذلك الدرك المؤلم الذى يدفع اليأس إليه أولئك القادة الذين يغدون بعد حياة حافلة بالإخلاص والبسالة، تحت إغراء العدو وهباته ، خونة مارقين مرتدين .

وقد حررت هذه الوثيقة فى المعسكر الملكى قرب مدينة ألمرية فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٤٨٩ ، وفيها يؤكد فرناندو للقائد يحيى النيار زعيم بسطة وألمرية ، بأنه

سوف يستقبله تحت حمايته هو وولده وأبناء عمه ، وينزلهم فى داره ، ويعاملهم بما يليق بهم معاملة أشراف مملكته ، ويدافع عنهم وعن أملاكهم وأتباعهم ، ثم يقول ملك قشتالة مخاطباً يحيى :

وأنه إذا صحت عزيمتكم حقاً على اعتناق النصرانية ، وعلى أن تخدمنى وتعاوننى برجالك ، فإنى سوف أكتم ذلك طول مدة الفتح ، حتى لا يتقول عليك رجالك ، ولهذا فإنك تستقبل التعميد المقدس سراً فى غرفتى ، حتى لا يعرفه المسلمون إلا بعد تسليم وادى آش .

« وأن الكروم والقرى والحصون التى تؤول إليك بالميراث عن والدك أمير المرية ، أهبها لك لتملكها وتتصرف فيها كما تشاء ، وعهدى لك بذلك أنا والملكة زوجى .

« وأنه لن تدفع أنت وابنك وأبناء عمك وأعقابك وحشمك ، أى مغرم أو جزية فى سائر مملكتى إلى الأبد .

« وأنه تشريفاً لشخصك يسمح لك بأن يصحبك عشرون فارساً مسلحون بكل ما يرغبون ، وأن تتجول بهم حيث شئت فى أنحاء مملكتى ، ويتمتع ولدك بمثل ذلك .

« وأنه إذا تنازل صهرك ملك وادى آش عن نصف الملاحات التى أهبها إليه ، فإنى أهبك دخلا قدره خمسمائة وخمسون ألف مراقيدى فى ملاحات دلاية ، وفضلا عن ذلك ، فإنه إذا تم تسليم وادى آش فى الموعد المتفق عليه ، فإنى مكافأة لك على جهودك فى خدمتى لدى ملك وادى آش وغيره من القادة ، أهبك عشرة آلاف ريال ، وأقدم لك سائر البراءات اللازمة بما تقدم»[1] .

وتعهد الملكان الكاثوليكيان فى نفس الوقت لأهل بسطة ، بإقرار ما طلبوا من الشروط ، وفى مقدمتها أن يؤمنوا فى النفس والمال ، وأن يحتفظوا بدينهم وشريعتهم وعوائدهم . وهكذا سلمت بسطة ، ودخلها النصارى فى العاشر من محرم سنة ٨٩٥هـ (أوائل ديسمبر سنة ١٤٨٩م) وغادرها معظم أهلها إلى وادى آش ، حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وهرعت جميع الحصون والمحلات القريبة إلى التسليم والدخول فى طاعة ملك النصارى ، وسلمت ألمرية بعد ذلك بقليل فى فبراير سنة ١٤٩٠ م (ربيع الأول سنة ٨٩٥ هـ) ، ومنحت للتسليم شروطاً خلاصتها

---

(١) Archivo General de Simancas; P.R. 11-11

أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم ، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب ، وألا يولى عليهم يهودى ، وألا يدخل نصرانى فى « الجماعة » ، وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم ، الدين الذى يريدون عند البلوغ ، وغير ذلك من المنح المغرية الخادعة التى بذلت لسائر البلاد المفتوحة . وهكذا بسط فرناندو سلطانه على قواعد الأندلس الشرقية كلها من البحر إلى الشمال ، ولم يبق خارجاً عن طاعته ، سوى مدينة وادى آش مقر مولاى الزغل .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك ، حتى أثمرت خيانة يحيى النيار ثمرتها ، لدى صهره أبى عبد الله الزغل ، فسارع بدوره إلى الانضواء تحت لواء ملك النصارى ، وكان الزغل منذ التجأ إلى وادى آش ، يرقب سير الحوادث بجزع ، ويرى قواعد الأندلس تسقط بالتعاقب ، ودون أن ينجدها منجد ، ويرى أمل الإنقاذ يخبو تباعاً . فلما سقطت بسطة آخر القواعد التى يسيطر عليها ، واتجه النصارى نحو وادى آش معقله الوحيد الباقى ، ورأى بالرغم من شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل ، وأن جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب ، اعتزم أمره ، وسار إلى معسكر ملك النصارى يعرض عليه طاعته ، والانضواء تحت لوائه ، فأجابه فرناندو إلى مطالبه ، وبايعه الزغل وسائر قادته بالخضوع والطاعة ؛ ودخل النصارى مدينة وادى آش فى أوائل صفر سنة ٨٩٥هـ (٣٠ ديسمبر سنة ١٤٨٩) .

وعقد الزغل مع ملكى قشتالة معاهدة سرية على نمط المعاهدة التى عقدها صهره يحيى ، ونص فيها على طائفة من المنح والإمتيازات ، خلاصتها أن يستقر الزغل سيداً فى مدينة أنْدَرَش وما إليها ، وأن يكون له ألفا تابع من بنى وطنه ، وأن يمنح معاشا سنويا كبيراً ، وأن يمنح دخل نصف ملاحات بلدة الملاحة ، وأن يرسل فى استحضار أبنائه الأمراء من غرناطة نظراً لخصومته مع ملكها ، وأن تكون جميع أملاكه وأملاك ذويه فى غرناطة حرة من كل حق ومغرم ، وأن تكون هذه العهود ملزمة لملكى قشتالة ولعقبهما من بعدهما ، وأخيراً أن يوافق البابا على هذه العهود[1] . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى شعر مولاى الزغل أنه يستحيل عليه الاستمرار فى ذلك الوضع المهين ، فنزل لفرناندو عن حقوقه وامتيازاته لقاء مبلغ ضخم ، وجاز البحر إلى المغرب ، ونزل فى وهران أولا ثم انتقل إلى

---

(١) Archivo General de Simancas, P. R. 11-12 . وراجع ايضاً : Gaspar y Remiro : ibid ; p. 48 .

تلمسان ، واستقر يقضى بها بقية حياته فى غمر من الحسرات والندم ، ولبث عقبه هنالك عصوراً يعرفون ببنى سلطان الأندلس؛ وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الإسلام بالأندلس قد غدت قضاء محتوماً(١) .

وقد نقل إلينا صاحب أخبار العصر رواية مفادها أن تسليم مولاى الزغل لملك قشتالة كانت نوعاً من الخيانة المقصودة ، وأنه تنازل هو وقواده عن البلاد التى كانت تحت أيديهم طوعاً مقابل قبض ثمنها ، وذلك لكى ينتقم الزغل من ولد أخيه الأمير أبى عبد الله محمد بن على صاحب غرناطة ، فتصبح بعد خضوع سائر أنحاء الأندلس وحيدة تحت رحمة النصارى ، وترغم على التسليم إليهم ، وينتهى بذلك إمارة أميرها وحكمه(٢) ، وهى رواية لا تتفق فى نظرنا مع ما أثر عن مولاى الزغل من ضروب العزم والبسالة والشهامة والغيرة الإسلامية ، التى رأيناها ماثلة خلال هذه الحوادث المؤسية ، وإنما استسلم الزغل وخضع ، وحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، نزولا على حكم ظروف قاهرة لم ير إلى مغالبتها سبيلا .

---

(١) أخبار العصر ص ٣١ ؛ ونفح الطيب ج٢ ص ٦١٣ و ٦١٤ . وراجع Prescott: ibid; p.285

(٢) أخبار العصر ص ٣٢ .

الفصل الثالث

الصراع الأخـــير

تجديد الصلح بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبد الله . مطالبة الملكين بتسليم غرناطة . ثورة أبى عبد الله . الحماسة فى غرناطة . غزو فرناندو لبسائط غرناطة . رد المسلمين للنصارى . خروج أبى عبد الله للغزو . المعارك بين المسلمين والنصارى . محاولة أبى عبد الله استرداد المنكب . حوادث وادى آش . فرناندو يعلن الأمان . هجرة المسلمين من القواعد الذاهبة . تأهب فرناندو لافتتاح غرناطة . زحفه عليها . عيث النصارى فى المروج . محاصرة النصارى لغرناطة . فرناندو ينشىء أمامها مدينة شنتفى . موقف غرناطة وأحوالها . بسالتها فى الدفاع . موسى بن أبى الغسان فارس غرناطة . يثير حماسة الشعب . يقود الفرسان ويزعج النصارى . تنظيم الدفاع داخل المدينة . اشتداد الحصار وانقطاع الأمداد . تقرير حاكم المدينة . تصميم موسى على الدفاع . فرناندو يزحف على المدينة . خروج المسلمين للقائه. هزيمة المسلمين وارتدادهم . أهوال الحصار . اجتماع السلطان والقادة . تقرير التسليم . اعتراض موسى . ندب الوزير أبى القاسم عبدالملك للمفاضة . رواية عن التسليم . وثيقة تؤيد هذه الرواية . موقف أبى عبدالله والقادة . مفاوضات التسليم . شروط التسليم وضماناته . معاهدة سرية بضمان حقوق أبى عبد الله وتقرير مصيره . حلف الملكين باحترام الشروط . توقيع وثيقة التسليم . ارتياب موسى ونذيره . إذعان أبى عبد الله والجماعة . أقوال موسى ونبوءته . مغادرته لغرناطة . مصيره الغامض . الحزن واليأس فى غرناطة . التعجيل بإجراءات التسليم . إرسال الرهائن إلى فرناندو . دخول القشتاليين غرناطة . يرفعون الصليب فوق الحمراء . رواية عربية معاصرة عن دخول فرناندو غرناطة . أهبة أبى عبد الله لمغادرة عاصمة ملكه . المناظر المؤسية والركب الباكى . قصيدة شوقى فى وصفها . اللقاء بين أبى عبد الله وفرناندو . «زفرة العربى الأخيرة» . رثاء الأندلس .

لم يبق على ملكى قشتالة وأراجون ، فرناندو وإيسابيلا ، بعد أن دانت لهما سائر الثغور والقواعد الأندلسية الجنوبية والشرقية ، لإتمام خطتهما فى القضاء على دولة الإسلام بالأندلس ، سوى الاستيلاء على غرناطة آخر القواعد الباقية بيد المسلمين ؛ ولم تكن غرناطة يومئذ مملكة أو دولة ، بل كانت رمزاً فقط للمملكة الإسلامية الذاهبة ، وكانت واسطة عقد تصرمت سائر حباته ، وكانت كالمصباح المرتجف يخبو ضوؤه سراعاً ، فلم يكن يقتضى إطفاؤه سوى الضربة الأخيرة .

وقد رأى فرناندو وإيسابيلا أن الوقت قد حان لتسديد هذه الضربة ؛ عقب استسلام مولاى الزغل وسقوط وادى آش وبسطة وألمرية . ونحن نعرف أنه على أثر سقوط مدينة لَوْشة فى يد النصارى فى شهر مايو سنة ١٤٨٦ ، وحصول

أبى عبد الله فى أيدى الملكين الكاثوليكيين للمرة الثانية ، عقد أبو عبد الله معهما معاهدة صلح جديدة لمدة عامين ، تطبق فى غرناطة والبلاد التى تدخل فى طاعة أبى عبد الله . وفى ظل هذا الصلح المسموم دخل أبو عبد الله غرناطة ، واسترد العرش ومن ورائه تأييد فرناندو وعونه . ومن الواضح أن فرناندو قد اقتضى فى نصوص هذا الصلح ، ثمن هذا التأييد والعون . والظاهر أن هذا الصلح قد تجدد لمدة عامين آخرين ، حسبما تدل على ذلك وثيقة صادرة عن أبى عبد الله نفسه فى المحرم سنة ٨٩٥ هـ (ديسمبر سنة ١٤٨٩) ، وهى عبارة عن خطاب موجه منه إلى قادة وأشياخ بلدة أجيجر ، وفيه ينوه أبو عبد الله بهذا « الصلح السعيد » المعقود لعامين ، ويدعو إلى الدخول فيه ، وينعى على معارضيه مواقفهم ، التى انتهت بسقوط بسطة « التى أفجعت المسلمين وفلت غرب الدين »[١] .

وبالرغم من أننا لا نعرف نصوص هذا الصلح مفصلة ، فإن بعض الروايات القشتالية تذكر لنا أن أبا عبد الله ، قد تعهد فى هذا الصلح ، بأن يسلم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكيين ، متى تم تسليم بسطة وألمرية ووادى آش[٢] . وعلى أى حال ففى فاتحة سنة ١٤٩٠م (أوائل صفر ٨٩٥هـ) أرسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبى عبد الله ، سفارة على يد فارسين ، هما كونثالو فرنانديث قائد حصن إليورة ، ومرتين ألاركون قائد حصن موكلين ، ليخاطباه فى موضوع التسليم[٣] . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة ، إن ملك قشتالة لم يطلب تسليم غرناطة ذاتها ، ولكنه اكتفى بأن طلب إلى أبى عبد الله تسليم مدينة الحمراء أو قصور الحمراء مقر الملك والحكم ، وأن يبقى مقيما فى غرناطة ، فى طاعته وتحت حمايته ، أسوة بما فعلته سائر نواحى الأندلس[٤] ، أو أن يقطعه أية مدينة أخرى من مدن الأندلس يختار الإقامة فيها ، وأن يمدة بمال جزيل[٥] .

---

(١) نشر هذه الوثيقة الأستاذ جسبار ريميرو فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه **Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada** وقد استخرجها مع وثائق أخرى صادرة عن أبى عبد الله من مجموعة فرناندو دى ثافرا سكرتير الملكين الكاثوليكيين .

(٢) **Prescott : Ferdinand and Isabella, p. 284**

(٣) راجع رواية **Hernando de Baeza** القشتالية المنشورة بعناية المستشرق ميلر ضمن أخبار العصر (ص ٩٢) .

(٤) أخبار العصر ص ٣٣ .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

فماذا كان جواب أبي عبد الله ؟ لقد كان فى سابق مواقفه ، وممالأته لملك قشتالة ، ومحالفته إياه ودخوله فى طاعته، وما يدين له به من تغلبه على عمه ومنافسه الزغل ، وجلوسه على العرش ، ما يحمل الملكين الكاثوليكيين ، على توقع استسلامه وخضوعه . ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان . ولدينا وثيقة توضح لنا موقف أبي عبد الله فى هذه المناسبة ، هى عبارة عن خطاب صادر منه إلى الملكين الكاثوليكيين ، يشير فيه إلى قدوم « القائد غنضال والقائد مرتين » بكتبهما إليه ، وأنه يرسل إليهما خديمه ، القائد أبا القاسم المليح ، ليحدثهما فى هذا الموضوع . وبالرغم من اللهجة المهذبة ، المقرونة بعبارات الخضوع والطاعة ، التى اختتمت بها الرسالة ، فقد كان جواب أبي عبد الله للملكين الكاثوليكيين ، رفضا لما طلباه . وتاريخ هذه الرسالة هو ٢٩ صفر سنة ٨٩٥ هـ (٢٢ يناير سنة ١٤٩٠)[١] . والظاهر أن رسول أبي عبد الله لم ينجح فى مهمته ، وعاد إلى مليكه يخبره بإصرار الملكين الكاثوليكيين على طلبهما . وهنا تقول الرواية القشتالية ، إن أبا عبد الله اشتدت دهشته ، لإصرار الملكين الكاثوليكيين ، واعتزم أن يشهر عليهما الحرب ، لولا أن نصحه بعض الأكابر بالروية والتريث . وعلى ذلك فقد أرسل أبو عبدالله وزيره يوسف بن كُماشه ، ومعه تاجر كبير من سراة غرناطة ، له علائق طيبة مع النصارى ، يدعى ابراهيم القيسى ، إلى الملكين الكاثوليكيين فى إشبيلية ، لإقناعهما بالعدول عن مطلبهما ، ولكنهما عادا خائبين . وعلى ذلك فقد استؤنفت الحرب بين المسلمين والنصارى[٢] .

وهنا نقف قليلا لنتأمل هذا الموقف الجديد ، من جانب أبي عبد الله . أجل كانت الخطوب والمحن التى جازتها الأندلس فى هذه الأعوام المليئة بالحوادث ، قد جعلت من أبي عبد الله رجلا آخر ، وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعاً ، ويستشف من ورائها القدر المحتوم ، وكان قد تخلص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوى ، ولكنه فقد فى الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه فى الدفاع والمقاومة ؛ وكانت سائر قواعد الأندلس الأخرى قد غدت نهائياً من أملاك مملكة قشتالة ، وعين لها حكام من النصارى ، وتدجن من بقى من أهلها أو غدوا مدجنين Mudéjares يدينون بطاعة ملك النصارى .

---

(١) نشرت هذه الرسالة ضمن المجموعة التى نشرها الأستاذ جسبار ريمير و فى كتابه السالف الذكر .

(٢) راجع رواية Hernando de Baeza المنشورة فى أخبار العصر (ص ٩٣) .

وذاعت بها الدعوة النصرانية ، وارتد كثير من المسلمين حرصاً على أوطانهم ومصالحهم أو اتقاء الريب والمطاردة ، ولكن كثيراً منهم ممن أشفقوا على أنفسهم ودينهم ، جازوا البحر إلى المغرب ، وهرعت جموع غفيرة أخرى منهم إلى غرناطة معقل الإسلام الوحيد الباقى ، حتى غدت الحاضرة تموج بسكانها الجدد ، وحتى أصبحت تضم بين أسوارها وأرباضها أكثر من أربعمائة ألف نفس . وكانت موجة عامة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف ، التى أوذيت فى الأوطان والأنفس والولد والمال ، دون أن تجنى ذنباً أو جريرة ، وكانت فكرة التسليم للعدو الباغى أو مهادنته ، تلقى استنكاراً عاماً . ولم يكن أبو عبد الله يجهل هذا الاتجاه العام ، فلما وفد إليه سفيرا ملكى قشتالة فى طلب التسليم ، ثارت نفسه لهذا الغدر والتجنى ، وأدرك وربما لأول مرة ، فداحة الخطأ الذى ارتكبه فى محالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بنى وطنه ودينه ؛ ولما أصر فرناندو على تجنيه جمع أبو عبد الله الكبراء والقادة فأجمعوا على رفض ما طلبه الملكان النصرانيان ، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم (١) ، وأبلغ أبو عبد الله ملك قشتالة بأنه لم يعد له القول والفصل فى هذا الأمر ، وأن الشعب الغرناطى يأبى كل تسليم أو مهادنة ، ويصمم على المقاومة والدفاع (٢) .

هكذا كان جواب أبى عبد الله لملكى قشتالة ، وهكذا حمل الأمير الضعيف بعزم شعبه ، من الاستكانة والمهادنة إلى التحدى والمقاومة . وهنا يبدو لنا أبو عبد الله شخصية أخرى تنزع عنها صفات الخور والاستسلام والخضوع الذى يدنو إلى الخيانة ، لتتشح بثوب من العزة والكرامة ، والحمية الدينية والوطنية . أجل دوت غرناطة بصيحة الحرب والجهاد ، وخرجت سريات من الجند المسلمين ، لتعيث فى الأراضى النصرانية القريبة . وفى ربيع سنة ١٤٩٠ (٨٩٥ هـ) خرج ملك قشتالة فى قواته وهو يضطرم سخطاً ، وزحف على بسائط غرناطة فعاث فيها ، وانتسف الزروع واستاق الماشية ، وخرب الضياع والقرى ، ووصل فى عيثه وتخريبه حتى أسوار الحاضرة ذاتها ، وبرز المسلمون لقتاله وعلى رأسهم أميرهم أبو عبد الله ، ووقعت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة ، عدة ملاحم دموية ارتحل النصارى على أثرها ، ولم يستطيعوا الدنو من المدينة (رجب ٨٩٥ هـ — يوليه ١٤٩٠ م) .

---

(١) أخبار العصر ص ٣٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

(٢) Prescott : ibid ; p. 290

صورة خطاب مرسل من السلطان أبى عبد الله محمد إلى قائد وأشياخ بلدة أجيجر يدعوهم فيه إلى طاعته والدخول فى الصلح الذى عقده مع الملك فرناندو الكاثوليكى ، مؤرخ فى المحرم سنة ٨٩٥ هـ (ديسمبر ١٤٨٩ م) ، ومحفوظة بمحفوظات بلدية غرناطة .

وعمد فرناندو حين العودة إلى تحصين بعض الحصون القريبة من غرناطة ، مثل برج الملاحة وبرج رومة وغيرهما ، وشحنها بالرجال والعدد استعداداً للمعارك القادمة .

وعلى أثر ارتحال القشتاليين ، خرج أبو عبد الله فى قواته يحاول استرداد بعض الحصون والمراكز القريبة ، فاستولى على قرية البذول عنوة ، ثم استولى على غيرها من القرى ، ودبت فى المسلمين فى تلك الأنحاء روح جديدة ، وثار أهل البشرّات (البشرّة) وما حولها على حكامهم النصارى ، وثار أهل وادى آش فى الوقت نفسه واضطرموا لما رأوه من وثبة أبى عبد الله وعزمه بنزعة جديدة إلى المقاومة ، وبعثوا إليه يطلبون عونه . وسار أبو عبد الله فى قواته يريد حصن أندَرَش[١] لما علمه من ثورة المسلمين هنالك ، وكان عمه الأمير محمد بن سعد (الزغل) لايزال به ، فلما سمع بمقدمه خرج مع صحبه إلى ألمرية ، وبقى بها إلى أن جاز البحر إلى المغرب قدمنا ، واستولى أبوعبد الله على أندرش وغيرها من المحلات والحصون القريبة منها[٢] ، ورتب بها حاميات من المسلمين للدفاع عنها (شعبان ٨٩٥ هـ) .

واستمرت هذه المعارك المحلية مدى حين سجالا بين المسلمين والنصارى ، فاسترد النصارى حصن أندرش لأسابيع قليلة من فقده ، وغادره الفرسان المسلمون إذ كانوا قلة لم تستطع للعدو دفعاً . وفى شهر رمضان سنة ٨٩٥هـ (أغسطس ١٤٩٠) خرج أبو عبد الله فى قواته إلى قرية همدان القريبة[٣] ، فافتتحها واخترق المسلمون أبراجها الكثيفة ، وكانوا يخشون أن تمتنع عليهم لحصانتها ، واغتنموا منها مقادير وفيرة من الذخائر والأطعمة ، وأسروا من حاميتها نحو مائتين ، وعاد المسلمون إلى غرناطة فرحين ظافرين ، وغمرت الحاضرة المسلمة موجة من البشر والتفاؤل وفى أواخر رمضان خرج أبوعبد الله فى قواته يريد افتتاح ثغر المنكّب ، وإعادة الصلة بين الأندلس وشواطىء المغرب ، وهى صلة يعلق عليها المسلمون أهمية خاصة ، ويعتبرونها من أبواب الغوث والإنقاذ ، واستولى أبو عبد الله فى طريقه على حصن شلوبانية[٤] الواقع شرقى المنكب بعد قتال عنيف ؛ وعلم النصارى بمحاولة

---

(١) تقع أندرش **Andarax** جنوب شرقى غرناطة على مقربة من البحر الأبيض المتوسط .

(٢) أخبار العصر ص ٣٦ و ٣٧ .

(٣) تقع قرية همدان **Alhendin** ، جنوب غربى غرناطة على قيد بضعة كيلومترات منها . وتراجع مواقع هذه الأماكن جميعا فى خريطة مملكة غرناطة المفصلة التى أثبتت فى أول الكتاب .

(٤) وبالإسبانية **Salobrena** ، وقد سبق التعريف بها .

أبى عبد الله ، فهرعت حاميات بلّش ومالقة إلى المنكب لإنجادها . ورأى أبوعبدالله أنه لايستطيع مهاجمتها ، وترامت إليه الأنباء بأن ملك قشتالة قد عاد بجنده إلى مرج غرناطة يعيث فيه فساداً وتخريباً ، فارتد أدراجه . وكان فرناندو قد هاله ما حدث من الاضطراب والتصدع فى المناطق المفتوحة ،فاعتزم السير من قرطبة بجيشه إلى تلك الأنحاء . والواقع أن بوادر الانتقاض والثورة كانت قد اشتدت فى وادى آش وما حولها من الضياع والقرى ، وأخذ ظفر المسلمين فى تلك المعارك المحلية يذكى عزم الثوار ويشجعهم ؛ وخشى النصارى عواقب هذه الحركة، فضاعفوا قوى الحاميات فى تلك الأنحاء ، واحتالوا على أهل وادى آش فأخرجوا معظمهم من المدينة إلى السهول المجاورة(١) .واستجاب أبو عبد الله إلى نداء أهل وادى آش وعاونهم بالرجال والدواب على نقل أمتعتهم وأموالهم ، وعلى الرحيل بالأهل والولد إلى غرناطة ، ونقل من تلك القرى والضياع مقادير وافرة من الحبوب والأطعمة وغيرها . وماكادت جموع المسلمين ترتد راجعة إلى غرناطة، حتى ظهر فرناندو بجيشه أمام وادى آش ، ورأى أن يأخذ الأمر باللين والرفق، فأذاع الأمان لمن عاد إلى وطنه ، وأذن لمن شاء بالرحيل ، وغادر المسلمون وادى آش وأعمالها . وحدث مثل ذلك فى ألمرية وبسطة ، فترك المسلمون بيوتهم وأوطانهم حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وسارت منهم جموع غفيرة إلى غرناطة ، وجازت جموع أخرى البحر إلى المغرب ، وأقفرت تلك الأنحاء من معظم سكانها المسلمين، وبعث إليها ملك قشتالة بجموع من النصارى لتعميرها، وانتهز أبو عبد الله فرصة هذا الاضطراب ، فاستولى على حصن أندَرَش للمرة الثانية ، واستولى على عدد آخر من الحصون الهامة(٢) .

وهنا أيقن ملك قشتالة أنه لابد لاستتباب الأمور فى المناطق الإسلامية المفتوحة ، من الاستيلاء على غرناطة ، التى مازالت تثير بمثلها وصلابتها روح الثورة فى تلك الأوطان المغلوبة على أمرها ، فقضى الشتاء كله (سنة ١٤٩٠) فى الاستعداد والأهبة . وفى أوائل سنة ١٤٩١ خرج فرناندو فى قواته معتزماً أن يقاتل الحاضرة الإسلامية حتى ترغم على التسليم . ويقدر بعض المؤرخين هذا

---

(١) Lafuente Alcantara: ibid; V. III. p. 53

(٢) أخبار العصر ص ٣٨ – ٤٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ . وراجع أيضاً : Prescott: ibid; p. 290 & 291 ، ويوجد فرق يسير فى التفاصيل بين الروايتين الإسلامية والنصرانية .

الجيش الذى أعد لافتتاح غرناطة بخمسين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة ، ويقدره البعض الآخر بثمانين ألفاً[١] ، وزود فرناندو جيشه بالمدافع والعدد الضخمة ، والذخائر والأقوات الوفيرة . وأشرف ملك قشتالة بجيشه على فحص غرناطة La Vega الواقع جنوب غربى الحاضرة الإسلامية ، فى اليوم الثالث والعشرين من ابريل سنة ١٤٩١ م (١٢ جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ) وعسكر على ضفاف نهر شنّيل ، على قيد فرسخين من غرناطة ، فى ظاهر قرية تسمى «عتقة». وأرسل فى الحال بعض جنده إلى حقول البشرّات القريبة التى تمد غرناطة بالمؤن فأتلفوا زروعها ، وهدموا قراها ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وأسراً ، وحولوا المرج الأخضر إلى بسيط من القفر الموحش ، وقطعوا بذلك عن غرناطة مورداً من أهم مواردها[٢] .

وضرب فرناندو حول الحاضرة الإسلامية الحصار الصارم ، وصمم على متابعته حتى تفتح أو تستسلم ، وقرر تأكيداً لهذا العزم أن ينشىء لجيشه فى المكان الذى عسكر فيه ، مدينة مسورة تقيه برد الشتاء إذا ما حل ، وتم بناء هذه المدينة الجديدة فى ثلاثة أشهر ، وأسمتها الملكة إيسابيلا (سانتا فيه) Santa Fé وبالعربية (شنتفى) أو الإيمان المقدس ، وذلك تنويهاً بالمغزى الدينى لهذه الحرب الصليبية ، وما زالت هذه المدينة التاريخية تقوم حتى اليوم ، فى المكان الذى أنشئت فيه على قيد مسافة قريبة من جنوب غربى غرناطة . ويصفها المؤرخ الإسبانى بأنها « المدينة الإسبانية الوحيدة التى لم تطأها قط قدم مسلم »[٣] .

— ٢ —

وهكذا بدأ الفصل الأخير فى الصراع بين النصرانية والإسلام فى اسبانيا ؛ ولم يك ثمة شك فى نتيجة هذا الصراع ، الذى أعدت له اسبانيا النصرانية عدتها الحاسمة ، ومهدت له جميع الوسائل والسبل . بلد إسلامى وحيد هو البقية الباقية من دولة عظيمة تالدة ، يحيط به العدو كالموج الزاخر من كل ناحية ، مزوداً بالعُدد والمؤن الموفورة ، وقد قطعت كل موارده وصلاته مع الخارج . كان هذا موقف غرناطة آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس فى صيف سنة ١٤٩١م . على

---

(١) Prescott : ibid ; p. 291

(٢) أخبار العصر ص ٤٤ و Prescott : ibid ; p. 294

(٣) Prescott : ibid ; p. 295

أن غرناطة لم تكن مع ذلك غنما سهلا ، فقد كانت منيعة بموقعها وظروفها ، تحميها من الشرق آكام جبل شُلير (سيرّا نفادا) الشامخة ، وتحميها من الجنوب أعنى من الجانب المواجه للمعسكر النصرانى ، أسوار وأبراج فى منتهى الكثافة والمناعة . وكانت غرناطة تموج يومئذ بالوافدين إليها من مختلف القواعد الإسلامية الذاهبة ، وتضم بين أسوارها من السكان أكثر من أربعمائة ألف نفس ، ومع أن هذا العدد الضخم من الأنفس كان عبئاً ثقيلا على مواردها المحدودة ، فقد كان من بينهم على الأقل زهاء عشرين ألفاً من الصفوة المختارة من الفروسة الأندلسية ، التى ألفت ملاذها الأخير فى العاصمة المحصورة . ومن جهة أخرى فقد كانت الحاضرة الإسلامية منذ بعيد تلمح شبح الخطر الداهم يتربص بها دائماً ، وكانت تعيش فى أهبة دائمة لمواجهته ، وتجمع ما استطاعت من الأقوات والمؤن . فلما دهمها الحصار كانت على أهبة تامة لدفاع طويل الأمد .

كانت غرناطة تستشعر قدرها المحتوم ، ولكنها لم ترد أن تستسلم إلى هذا القدر القاهر ، قبل أن تستنفد فى اجتنابه كل وسيلة بشرية ، ومن ثم كان دفاعها من أمجد ما عُرف فى تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة ، ولم يكن هذا الدفاع قاصراً على تحمل ويلات الحصار مدى أشهر ، بل كان يتعداه إلى ضروب رائعة من الإقدام والبسالة ، فقد خرج المسلمون خلال الحصار ، لقتال العدو المحاصر مراراً عديدة ، يهاجمونه ويثخنون فى محلاته ، ويفسدون عليه خططه وتدابيره . وتشير الرواية الإسلامية كما تشير الرواية النصرانية إلى هذه المعارك الأخيرة التى وقعت فى بسائط غرناطة بين المسلمين والنصارى[1] . وتنوه الرواية النصرانية بما كان يبديه الفرسان المسلمون من الشجاعة والإقدام والبراعة ، أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسة الأندلسية ، التى لبثت قروناً زهرة الفروسية فى العصور الوسطى .

وكان روح الفروسة المسلمة فى تلك الآونة العصيبة فارس رفيع المنبت والخلال ، وافر العزم والبراعة ، هو موسى بن أبى الغسان[2] وهو سليل إحدى

---

(١) أخبار العصر ص ٤٥ ؛ وكذلك Irving : ibid; p. 293 & foll.

(٢) لم نعثر فى المصادر العربية التى بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله ؛ ومرجعنا فى ذلك هو المؤرخ الإسبانى كوندى (Condé : ibid;V. III. p. 254) ، ويقول كوندى إنه نقل روايته عن مصادر عربية ؛ ولكنه كعادته لم يذكر لنا هذه المصادر . وأشار الوزير محمد بن عبدالوهاب الغسانى فى رحلته إلى من يدعى « موسى أخى السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة » (رحلة الوزير =

الأسر العريقة التى تتصل ببيت الملك ، وأحد هذه الأصول العربية القديمة التى عرفت بروائع فروسيتها ، وعميق بغضها للنصارى ، والتى كانت ترى الموت خيراً ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهاداً للكفر . ولم يكن بين أنجاد غرناطة يومئذ من هو أبرع من موسى فى الطعان والفروسية ، وكان منذ تبوأ أبوعبد الله محمد عرش غرناطة ، ينقم منه استكانته وخضوعه لملك النصارى ، ويعمل بكل ما وسع لإذكاء روح الحماسة والجهاد ، وتنظيم الفروسة الغرناطية وتدريبها ، وقيادة السرايا إلى أراضى العدو ، ومفاجأة حصونه وحامياته فى الأنحاء المجاورة . ولما بعث فرناندو الخامس إلى أبى عبد الله يطلب تسليم الحمراء ، كان موسى من أشد المعارضين فى إجابة هذا المطلب المهين ، وكان لعزمه وحماسته أكبر أثر فى تطور الموقف ، وحمل الأمير والشعب على اعتزام الجهاد ، والدفاع إلى آخر رمق ، وكان قوله المأثور يومئذ : « ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية . أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة ، فى المكان الذى أموت مدافعاً عنه ، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين » .

وهكذا دوت غرناطة بصيحة الحرب . ولما أشرف ملك قشتالة بجموعه على مرج غرناطة ، كان موسى معبود الجند والشعب ، وكان زعيم الفروسة المسلمة يقودها كلما سنحت الفرصة إلى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة فتثخن فيها ، وكانت عوداته الظافرة تثير فى الشعب أيما حماسة ، وكان فرناندو يرسل جنده لإتلاف المزارع والحقول المجاورة ، فكان موسى ينظم السرايا لإزعاج قواته ، وقطع مواصلاته وانتزاع مؤنه ، ولكن جيوش النصارى ما لبثت أن ملأت فحص شنيل (La Vega) وطوقت غرناطة ، وشددت فى حصارها ، واضطر المسلمون إلى الامتناع بمدينتهم صابرين جلدين . وقسم الدفاع عن المدينة بين

— المنشورة بعناية معهد فرانكو ص ١٣) . ولكن الرواية الإسلامية المعاصرة لاتذكر لنا أن السلطان أبا الحسن كان له أخ يسمى بهذا الاسم . وعلى أى حال فإن قصة موسى تشغل حيزاً كبيراً فى الروايات الإسبانية التى كتبت عن فتح غرناطة . ومن أشهرها رواية القس أنطونيو أجابيدا **Antonio Agapida** ، المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال ، وهى التى اتخذها واشنطون إيرفنج أساسا لكتابه **Conquest of Granada** . وقد وردت خلال هذه الرواية كثير من الأقوال والروايات المشجية المتعلقة بحوادث سقوط غرناطة . ونحن ننقل هنا أقوال الرواية القشتالية عن موسى وفروسيته لا على أنها محققة من الناحية التاريخية ، ولكن لأنها تقدم لنا صوراً رائعة لدفاع المسلمين عن دينهم ووطنهم وآخر قواعدهم .

زعماء الجيش والأسر ، فتولى موسى قيادة الفرسان يعاونه نعيم بن رضوان ومحمد ابن زائدة . وتولى آل الثغرى حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون . ولم تكن المعارك الحريئة التى كان يخوضها المسلمون خارج الأسوار من آن لآخر ، سوى عنوان أخير لفروسيتهم وبسالتهم ولكنها لم تكن لتغنى شيئاً ، أمام ضغط العدو وتفوقه وتصميمه .

ذلك أن ملك قشتالة لم يترك وسيلة لإحكام الحصار وإرهاق المدينة المحصورة ، وإرغامها على التسليم ؛ فقطع جميع علائقها مع الخارج سواء من البر أو البحر ، ورابطت السفن الإسبانية فى مضيق جبل طارق ، وعلى مقربة من الثغور الجنوبية ، لتحول دون وصول أية أمداد من إفريقية . والواقع أنه لم يكن ثمة أمام الغرناطيين أى أمل فى الغوث والإنقاذ من هذه الناحية . ذلك أن معظم ثغور المغرب الشمالية والغربية ، ومنها سبتة وطنجة ، كانت قد سقطت فى أيدى البرتغاليين ، وكانت دولة بنى وطّاس التى قامت يومئذ فى المغرب الأقصى ما تزال ضعيفة فى بدايتها ، وكانت أبعد عن التفكير فى القيام بأى عمل حربى خطير ضد النصارى . هذا إلى أن إمارات المغرب الواقعة فى الضفة الأخرى ، كانت كلها فى حالة ضعف وتفكك وكانت تخشى بأس قوة اسبانيا البحرية وتسعى إلى كسب صداقتها وحمايتها . وعلى ذلك فقد كان حصار غرناطة محكماً من البر والبحر ، ولم يبق أمامها سوى طريق البشرّات الجنوبية من ناحية جبل شُلير (سيرّا نڤادا) تجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة(١) . ولبثت المدينة المحصورة تعانى مصائب الحصار صابرة جلدة ، حتى دخل الشتاء ، وغصت هذه الوهاد والشعب بالثلوج ، واشتد الجوع والبلاء بالمحصورين . عندئذ تقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك ذات يوم إلى مجلس الحكم ، وقرر أن المؤن الباقية لا تكفى إلا لأمد قصير ، وأن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامة ، وأن الاستمرار فى الدفاع عبث لا يجدى(٢) . ولكن موسى ابن أبى الغسان اعترض كعادته بشدة ، وقرر أن الدفاع ممكن وواجب ، وبث بادرة جديدة من الحماسة فى الرؤساء والقادة . فاستسلم السلطان أبو عبد الله محمد الى تلك الروح ، وسلم إلى القادة أمر الدفاع ، وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان ؛ وكان فى مقدمة مساعديه فارسان من أنجاد العصر هما نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة .

---

(١) أخبار العصر ص ٤٦ .

(٢) **Lafuente Alcantara: ibid; V. III. p. 67**

ثم أمر بفتح الأبواب ، وأعد فرسانه أمامها ليل نهار ، فاذا اقتربت سرية من النصارى دهمها الفرسان المسلمون ، وأثخنوا فيها ، ومزقت على هذا النحو صفوف من النصارى . وكان موسى يقول لفرسانه « لم يبق لنا سوى الأرض التى نقف عليها فإذا فقدناها فقدنا الإسم والوطن » .

وأخيراً رأى ملك قشتالة أن يزحف بقواته على أسوار المدينة ، فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم أبو عبد الله وموسى ، ونشبت بين الفريقين فى فحص غرناطة عدة معارك دموية ، وكان الفرسان المسلمون وعلى رأسهم موسى روح المعركة وقوامها ، وكان أبو عبد الله يقود الحرس الملكى ، وكان القتال رائعاً خضب فيه كل شبر من الأرض بدماء الفريقين ، ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعافا لا يعتمد عليهم فزقوا بسرعة ، وتبعهم فرسان الحرس الملكى إلى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبو عبد الله ، وعبثاً حاول موسى أن يجمع شمل الجند ، وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ما هو مقدس لديهم ، وألفى نفسه وحيداً فى الميدان مع فرسانه المخلصين ، وقد تضاءل عددهم وأثخن الباقون منهم جراحاً ؛ فاضطر عندئذ أن يرتد إلى المدينة وهو يرتجف غضباً ويأساً .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة وامتنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين ، يرون شبح النهاية المحتومة ماثلا ، فلم تبق سوى أيام أو أسابيع قلائل ، حتى يصبح سقوط الوطن العزيز فى يد العدو أمراً واقعاً ، وحتى تصبح أنفسهم وأموالهم وحرياتهم ودينهم رهناً فى يد القدر . وكان قد مضى على حصار غرناطة منذ بدأ الربيع حتى دخول الشتاء زهاء سبعة أشهر ، والمسلمون يغالبون أهوال الحصار ، وتتفاقم محنتهم شيئاً فشيئاً . فلما جاءت خاتمة المعارك مبددة لكل أمل فى الإنقاذ ، واشتد فتك الجوع والحرمان والمرض ، ودب اليأس إلى قلوب الناس جميعاً ، لم يبق مناص من إعادة النظر فى الموقف . فدعا أبو عبد الله مجلساً من كبار الجند والفقهاء والأعيان ، فاجتمعوا فى بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، واليأس باد فى وجوههم ، وشرح لهم أبو القاسم عبد الملك كيف وصل الخطب إلى ذروته ، فهلكت أنجاد الفرسان ، وخبت قوى الدفاع ، ونضبت الأقوات والمؤن ، واشتد البلاء بالناس ، وغاض كل أمل فى تلقى الأمداد من عدوة المغرب . وصرح «الجماعة» بأن الشعب لا يقوى بعد على تحمل ويلات الدفاع ، وأنه لم يبق سوى التسليم أو الموت

واتفق الجميع على وجوب التسليم[١] . ولم يرتفع بالاعتراض سوى صوت واحد هو صوت موسى بن أبى الغسان ، فقد حاول كعادته أن يبث بكلماته الملتهبة قبساً أخيراً من الحماسة ؛ وكان مما قال : « لم تنضب كل مواردنا بعد ، فما زال لنا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات : ذلك هو يأسنا ، فلنعمل على إثارة الشعب ، ولنضع السلاح فى يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لى أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها » .

على أن كلماته لم تؤثر فى هذه المرة ، فقد كان يخاطب رجالا نضب الأمل فى قلوبهم ، وغاضت كل حماسة ، ووصلوا إلى حالة من اليأس لا تنجع فيها البطولة ، ولا يحسب للأبطال حساب ، بل يعلو نصح الشيوخ ويغلب . وهكذا حدث فإن السلطان أبا عبد الله فوض الأمر للجماعة ، واتفق الجماعة من خاصة وعامة على مفاوضة ملك قشتالة فى التسليم ، واختير الوزير القائد أبو القاسم عبد الملك للقيام بتلك المهمة ؛ وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٤٩١ (أواخر سنة ٨٩٦ هـ) .

وهنا يسدل الستار على تلك المناظر الرائعة المؤثرة ، التى تقدمها الرواية لنا عن بسالة المسلمين فى الدفاع عن مدينتهم ، وعلى ذلك الموقف الباهر الذى اتخذه أبو عبد الله مدى حين ، واتشح فيه بثوب البطل المدافع عن ملكه وأمته ودينه ، وتبرز لنا طائفة من الحقائق المؤلمة التى تصم أولئك الزعماء والقادة ، الذين جنحوا فى النهاية إلى المساومة بحقوق أمتهم ، واستغلالها لمآربهم الخاصة .

يقول لنا صاحب أخبار العصر ، إن كثيراً من الناس زعموا أن أمير غرناطة ووزيره وقواده كان قد تقدم الكلام بينهم وبين ملك قشتالة سراً فى تسليم غرناطة ، ولم يجرأوا على المجاهرة بعزمهم خشية انتقاض الشعب ، وأنهم لبثوا حينا يلاطفون الشعب ويملقونه ، حتى ألفوا السبيل ممهداً للعمل برضاء الشعب وموافقته ، ويستشهد أصحاب هذه الرواية بما حدث من انقطاع المعارك بين المسلمين والنصارى حيناً قبل بدء المفاوضة فى التسليم . وتزيد الرواية على ذلك بأن القواد المسلمين الذين اضطلعوا بهذه المفاوضة تلقوا تحفاً وأموالا جزيلة من ملك قشتالة[٢] .

وقد كنا نميل فى البداية إلى الارتياب فى صحة هذه الرواية ونأبى أن نعتقد

---

(١) أخبار العصر ص ٤٨ و ٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

(٢) أخبار العصر ص ٤٨ ، و ٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

فى صحة هذه الوقائع المشينة المنسوبة إلى زعماء غرناطة ، وهم الذين تشيد الرواية النصرانية ذاتها بحماستهم وشجاعتهم وبسالتهم ، فى الذود عن وطنهم ومدينتهم . بيد أننا وقفنا بعد ذلك على ما يؤيد صحة الرواية الإسلامية ودقتها فيما تشير إليه من حقائق مؤلمة . ذلك أنه فى نفس الوقت الذى اتجه فيه رأى الجماعة إلى المفاوضة فى التسليم ، كانت تبذل فى الخفاء مساع أخرى لتحقيق ما يمكن تحقيقه من الضمانات والمغانم الخاصة لأبى عبد الله وأفراد أسرته ووزرائه ، وكان الملكان الكاثوليكيان يرميان إلى استخلاص غرناطة بأى ثمن غير الحرب ، ولايدخران وسعاً فى بذل أية تضحية أومنحة لإغراء الزعماء والقادة لتذليل هذه المهمة . وهكذا كللت هذه المساعى الخفية بالنجاح ، وفى نفس الوقت الذى عقدت فيه معاهدة التسليم ، عقدت معاهدة سرية أخرى يمنح فيها أبوعبد الله وأفراد أسرته ووزراؤه منحاً خاصة بين ضياع وأموال نقدية وحقوق مالية وغيرها . وقد أبقيت هذه المعاهدة فى طى الكتمان ، ولم يقف عليها سوى نفر من الخاصة . وهذا هو ما يشير إليه صاحب أخبار العصر .

وهنالك فوق ذلك ما يدل على أن أبا عبد الله وكثيراً من الوزراء والقادة ، قد حاولوا مذ تجهمت الحوادث ، وبدأ حصار غرناطة ، التصرف فى أملاكهم ، وباع أبو عبد الله عن يد وكيله القائد أبى القاسم بن سودة حديقته المعروفة بجنة عصام ، خارج غرناطة ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٨٩٦ هـ (أوائل أبريل ١٤٩١ م) . وباع بعض وزراء وفرسان آخرين أملاكهم فى نفس هذه المنطقة ، وفى نفس هذا التاريخ ، وباع الوزير عبد الله بن أبى الفرج قرية يملكها فى ضاحية المدينة ، فى أواخر المحرم سنة ٨٩٧ هـ (أواخر نوفمبر ١٤٩١ م)(١) .

على أنه يبدو من التعسف والمبالغة مع تقرير هذه الحقائق المؤلمة ، أن نلجأ إلى اتهام أبى عبد الله ووزرائه بالخيانة المقصودة ؛ ففى غمار المحنة الطاحنة التى كان يعانيها الشعب والقادة ، وإزاء الظروف القاهرة التى لم يكن من حكمها محيص ، وفى اللحظة التى انقطع فيها كل أمل فى الغوث والإنقاذ ، لم يك ثمة سبيل سوى الموت أو مفاوضة العدو الظافر . وقد اختار زعماء غرناطة هذا السبيل الأخير ، ولو أنهم

---

(١) راجع كتاب « وثائق عربية غرناطية » الذى سبقت الإشارة إليه ، الوثيقة رقم ٦٥ (ص ١١١) ، والوثيقة رقم ٧٣ (ص ١٢١) . والوثائق رقم ٧٤ و٧٥ و٧٦ ، و٧٧ (ص ١٢٢ — ١٢٥) .

اختاروا الموت تحت أنقاض مدينتهم دفاعاً عنها لأحرزوا لذكراهم الخلود وإعجاب التاريخ ، ولكن يبدو أنه لم يكن ثمة من موقف الشعب الغرناطي ويأسه وتبرمه بما أصابه من ويلات الحصار ، ما يشجع على المضى فى دفاع لا يجدى .

وتلقى الرواية القشتالية ذاتها ضوءاً على الظروف التى حملت أبا عبد الله ووزراءه على السعى إلى مفاوضة ملك قشتالة ، فيقول لنا مارمول الذى كتب روايته بعد ذلك بنحو سبعين عاماً ما يأتى :

« ولما رأى الزغيبى (أبو عبد الله) أن مدينة غرناطة لا تستطيع دفاعاً ، ولا تأمل الغوث والإمداد ، ونزولا على رغبة السواد الأعظم من الشعب ، الذى لم يعد يصبر على هذا الأمر الفادح ، أرسل يطلب الهدنة من الملكين الكاثوليكيين لكى يستطيع خلالها أن يتفاهم على شروط الصلح التى يمكن التسليم بمقتضاها »(١).

ويقول لافونتى ألقنطرة : «اشتدت وطأة الجوع على المحصورين ، وأصبحت الجماهير الصاخبة تجوب أنحاء المدينة تنذر الأغنياء بالويل ، وتبعث الرجفة إلى أبى عبد الله وأعوانه . وإزاء هذا التهديد دعا الأمير مجلسا من الزعماء والقادة ، وطلب إليهم البحث فيما يمكن عمله لتجنب الأخطار التى تهدد المدينة فى الداخل والخارج . وقال الشيوخ والفقهاء إنه لم يبق سبيل سوى التسليم أو الموت ، وأشار أهل الرأى بأن يقوم أبو القاسم بإذن من أبى عبد الله بمفاوضة النصارى »(٢).

والخلاصة أنه لا مجال هنا للتحدث عن الخيانة فى وصف ذلك الموقف المريب الذى وقفه أبو عبد الله ووزراؤه ، وحاولوا أن يحققوا لأنفسهم فيه مغانم خاصة ؛ ولكنا نستطيع أن نتحدث عن الأثرة والخور والضعف الإنسانى ، والتعلق بأسباب السلامة ، وانتهاز الفرص .

— ٣ —

سار القائد أبو القاسم عبد الملك ، مندوب أبى عبد الله إلى معسكر الملكين الكاثوليكيين ليؤدى مهمته الأليمة . وقد اضطلع هذا القائد ، فضلا عن المفاوضة فى تسليم غرناطة ، بالمفاوضة فى سائر الاتفاقات اللاحقة التى عقدت بين أبى عبد الله ، وبين ملكى قشتالة ، ونرى اسمه مذكوراً فى معظم الوثائق القشتالية الغرناطية التى أبرمت فى هذه الفترة ، باعتباره دائماً مندوب أبى عبد الله المفوض.

---

(١) Luis del Marmol: ibid ; Lib. I., Cap. XIX

(٢) Lafuente Alcantara: ibid ; V. III, p. 97

ولم نعثر على تفاصيل تختص بشخصية هذا الوزير أونشأته ، ولكن الذى يبدو لنا من مواقفه وتصرفاته أنه كان سياسياً عملياً يؤمن إيماناً قوياً بسياسة التسليم والخضوع للنصارى ، وانتهازيا يرى انتهاز الفرص بأى الأثمان[١] . واستقبل فرناندو مندوب ملك غرناطة بحفاوة . وندب لمفاوضته أمينه فرناندو دى ثافرا ، وقائده جونزالڤو دى كُردبا ، وكان خبيراً بالشئون الإسلامية ، عارفاً باللغة العربية ، وجرت المفاوضات بين الفريقين بمنتهى التكتم ، أحياناً فى غرناطة وأحياناً فى قرية جرليانة[٢] القريبة الواقعة جنوب شرقى سانتافيه . ويبدو من الخطابات التى تبودلت بين أبى عبدالله وبين الملكين الكاثوليكيين فى تلك الفترة الدقيقة من حياة الأمة الأندلسية ، أن حديث المفاوضة قد بدأ بين الفريقين فى أوائل سبتمبر سنة ١٤٩١ ، وأن القائد أبا القاسم بن عبد الملك كان يعاونه فى المفاوضة الوزير يوسف بن كُماشه ، وقد كان مثله من خاصة أبى عبد الله ومن أنصار سياسة التسليم ، وأن أبا عبد الله طلب فى خطاب أرسله إلى الملكين الكاثوليكيين أن تكون المفاوضات سرية حتى تتحقق غايتها المرجوة ، وذلك خشية من انتقاض الشعب الغرناطى ونزعاته ؛ هذا إلى أن الوزيرين الغرناطيين كتبا إلى الملكين الكاثوليكيين خطاباً يؤكدان فيه إخلاصهما وولاءهما ، واستعدادهما لخدمتهما حتى تتحقق رغباتهما كاملة ، وفى ذلك كله ما يلقى ضوءاً واضحاً على الموقف المريب الذى وقفه أبو عبد الله ووزراؤه من مسألة التسليم[٣] .

واستمرت المفاوضات بضعة أسابيع ، وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدة للتسليم وافق عليها الملكان ، ووقعت فى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٤٩١ (٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ) .

وقد تضمنت هذه الوثيقة الشهيرة ، التى قررت مصير آخر القواعد الأندلسية ومصير الأمة الأندلسية ، شروطاً عديدة بلغت ستة وخمسين مادة . وقد لخصت

---

(١) يذكر اسم أبى القاسم عبد الملك فى الوثائق القشتالية محرفاً : أبو القاسم عبد المليح أوأبو القاسم المليخ ، وهو الأكثر شيوعاً : **Bulcacin Bulcasem el Muléh** . ومن الغريب أن هذا التحريف غلب فيما بعد على كتابة اسمه بالعربية ، فنراه يكتب فى بعض الوثائق أبوالقاسم المليخ .

(٢) هى اليوم قرية **Churiana** ، وهى من ضواحى غرناطة .

(٣) تحفظ الصور القشتالية لهذه الخطابات ضمن مجموعة فرناندو دى ثافرا ببلدية غرناطة ، وقد نشرها العلامة **Garrido Atienza** فى مجموعة الوثائق الخاصة بتسليم غرناطة المسماة :

Las Capitulaciónes para la Entrega de Granada (Granada 1910) p. 200 - 217

لنا الرواية الإسلامية معظم محتوياتها مع شيء من التحريف(١) ولكنا ننقل الآن ولأول مرة ، إلى العربية ، محتويات هذه المعاهدة عن نصوصها القشتالية الرسمية فى توسع وإفاضة . وإليك مضمون هذه المحتويات

أن يتعهد ملك غرناطة ، والقادة ، والفقهاء والوزراء والعلماء ، وكافة الناس ، سواء فى غرناطة والبيّازين وأرباضهما ، بأن يسلموا طواعية واختياراً ، وذلك فى ظرف ستين يوماً تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة ، قلاع الحمراء والحصن ، وأبوابها وأبراجها ، وأبواب غرناطة والبيازين ، إلى الملكين الكاثوليكيين ، أو إلى من يندبانه من رجالهما ، على ألا يسمح لنصرانى أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين ، حتى لا يكشف أحوال المسلمين ، وأن يعاقب من يفعل ذلك. وضماناً لسلامة هذا التسليم ، يقدم الملك المذكور مولاى أبو عبد الله والقادة المذكورون ، إلى جلالتيهما ، قبل تسلم الحمراء بيوم واحد ، خمسمائة شخص صحبة الوزير ابن كماشه ، من أبناء وإخوة زعماء غرناطة والبيازين ، ليكونوا رهائن فى يديهما لمدة عشرة أيام ، تُصلح خلالها الحمراء . وفى نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً . وأن يقبل جلالتهما ، ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء ، وسكان غرناطة والبشرّات وغيرهما من الأراضى ، رعايا وأتباعا تحت حمايتهما ورعايتهما (١) .

وأنه حينما يرسل جلالتهما رجالها لتسلم الحمراء المذكورة ، فعليهم أن يدخلوا من باب العشار ومن باب نجدة ، ومن طريق الحقول الخارجية ، وألا يسيروا إليها من داخل المدينة ، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم (٢) .

وأنه متى تم تسليم الحمراء والحصن ، يرد إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ولده المأخوذ رهينة لديهما ، وكذلك يرد سائر الرهائن المسلمين الذين معه ، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية (٣) .

ويتعهد جلالتهما ، وخلفاؤهما إلى الأبد ، بأن يترك الملك المذكور أبو عبد الله والقادة ، والوزراء ، والعلماء ، والفقهاء ، والفرسان ، وسائر الشعب ، تحت حكم شريعهم ، وألا يؤمروا بترك شيء من مساجدهم وصوامعهم ، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هى ، وأن يقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم ، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم (٤) .

---

(١) أخبار العصر ص ٤٨ و ٥٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ و ٦١٦ .

وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الآن أوفيما بعد ، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة فإنها تسلم (٥) .

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما ، الذين يريدون العبور إلى المغرب ، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وأنه يحق للملكين شراءها بمالها الخاص (٦) .

وأنه يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب ، أو يذهبوا أحراراً إلى أية ناحية أخرى ، حاملين أمتعتهم وسلعهم ، وحليهم من الذهب والفضة وغيرها. ويلتزم الملكان بأن يجهزا فى بحر ستين يوماً من تاريخه ، عشر سفن فى موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب . وأن يقدما خلال الأعوام الثلاثة التالية السفن ، لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه ، ولا يقتضى منهم خلال هذه المدة أى أجر أو مغرم ، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك ، نظير دفع مبلغ « دوبل » واحد عن كل شخص ، وأنه يحق لمن لم يتمكن من بيع أملاكه ، أن يوكل لإدارتها ، وأن يقتضى ريعها حيثما كان (٧) .

وألا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم ، الآن أو فيما بعد ، على تقلد شارة خاصة بهم (٨) .

وأن ينزل الملكان ، للملك أبى عبد الله المذكور ، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه ، عن سائر الحقوق التى يجب عليهم أداؤها عن دورهم ومواشيهم (٩) .

وأنه يجب على الملك أبى عبد الله ، وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وأراضيها ، أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أية فدية ، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم (١٠) .

وأنه لا يسمح لنصرانى ، أن يدخل مكاناً لعبادة المسلمين دون ترخيص ، ويعاقب من يفعل ذلك (١٢) .

وألا يولى على المسلمين مباشر يهودى ، أو يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم (١٣) .

وأن يعامل الملك أبو عبد الله المذكور ، وسائر السكان المسلمين ، برفق وكرامة ، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم ، وأن يؤدى للفقهاء حقوقهم المأثورة وفقاً للقواعد المرعية (١٤) .

وأنه إذا قام نزاع بين المسلمين ، فصل فيه وفقاً لأحكام شريعتهم ، وتولاه قضاتهم (١٥) .

وألا يكلفوا بإيواء ضيف أو تؤخذ منهم ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشية أوغيرها دون إرادتهم (١٦) .

وأنه إذا دخل نصرانى منزل مسلم قهراً عنه ، عوقب على فعله (١٧) .

وأنه فيما يتعلق بشئون الميراث ، يحتفظ المسلمون بنظمهم ، ويحتكمون إلى فقهائهم وفقاً لسنن المسلمين (١٨) .

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبشرات وغيرهما الداخلين فى هذا العهد ، الذين يعلنون الولاء لجلالتهما ، فى ظرف ثلاثين يوماً من التسليم ، أن يتمتعوا بالإعفاءات الممنوحة ، مدى السنوات الثلاث (١٩) .

وأن يبقى دخل الجوامع والهيئات الدينية أوأية أشياء أخرى مرصودة على الخير ، وكذا دخل المدارس ، متروكاً لنظر الفقهاء ، وألا يتدخل جلالتهما بأية صورة ، فى شأن هذه الصدقات أو يأمران بأخذها فى أى وقت (٢٠) .

وأنه لا يؤخذ أى مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر ، فلا يؤخذ والد بذنب ولده أو ولد بذنب والده ، أو أخ بذنب أخ ، أو ولد عم بذنب ولد عم ، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم (٢١) .

وأنه إذا كان مسلم أسيراً ، وفر إلى مدينة غرناطة أوالبيازين أو أرباضهما أوغيرهما ، فإنه يعتبر حراً ، ولا يسمح لأحد بمطاردته إلا إن كان من العبيد أو من الجزائر (٢٤) .

وألا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون لملوكهم المسلمين (٢٥)

وأنه يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرهما ، ممن عبروا إلى المغرب ، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية ، وأن يتمتعوا بكل ما يحتويه هذا الاتفاق (٢٦) .

كما يحق لمن عبر منهم إلى المغرب ، ولم ترضه الإقامة هنالك ، أن يعود خلال الأعوام الثلاثة ، وأن يتمتع بكل ما فى هذا الاتفاق (٢٨) .

وأنه يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيها ، أن يتعاملوا فى سلعهم آمنين ، عابرين إلى المغرب وعائدين ، كما يحق لهم دخول سائر النواحى التابعة لجلالتهما ، وألا يدفعوا من الضرائب سوى التى يدفعها النصارى (٢٩) .

وأنه إذا كان أحد من النصارى — ذكراً أو أنثى — اعتنق الإسلام ، فلا يحق لإنسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة ، ومن فعل ذلك يعاقب (٣٠) .

وأنه إذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية واعتنقت الإسلام ، فلا ترغم على العودة إلى النصرانية ، بل تسأل فى ذلك أمام المسلمين والنصارى ، وألا يرغم أولاد « الروميات » ذكوراً أو إناثاً ، على اعتناق النصرانية (٣١) .

وأنه لا يرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية (٣٢) .

وأنه إذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر اعتناق النصرانية بدافع الحب ، فلا يقبل ذلك منها ، حتى تسئل وتوعظ وفقاً للقانون ؛ وإذا كانت قد استولت خلسة على حلى أو غيرها من دار أهلها أو أى شىء آخر ، فإنها ترد لصاحبها ، وتتخذ الإجراءات ضد المسئول (٣٣) .

وألا يطلب الملكان ، أو يسمحا بأن يُطلب إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ، أوخدمه أو أحد من أهل غرناطة أو البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرهما ، من الداخلة فى هذا العهد ، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين ، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أوغيرها ، أو من الأشياء الموروثة ، ولايحق لأحد يعلم بشىء من ذلك أن يطالب به (٣٤).

وألا يُطلب إلى أى مسلم ، يكون قد هدد أوجرح أوقتل أسيراً أو أسيرة نصرانية ، ليس أو ليست فى حوزته ، رده أو ردها الآن أوفيما بعد (٣٥).

وألا يدفع عن الأملاك والأراضى السلطانية ، بعد انتهاء السنوات الثلاث الحرة ، من الضرائب إلا وفقاً لقيمتها ، وعلى مثل الأراضى العادية (٣٦) .

وأن يطبق ذلك أيضاً على أملاك الفرسان والقادة المسلمين ، فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية (٣٧) .

وأن يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما ، والأراضى التابعة لها ، بما فى هذا العهد من الامتيازات ، وأن يسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر ، تبدأ من يوم ١٨ ديسمبر (٣٨) .

وأن يكون الحكام والقواد والقضاة ، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضى التابعة لهما ، ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى ، ويحافظون على الإمتيازات الممنوحة ، فإذا أخل أحدهم بالواجب ، عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق (٣٩) .

وأنه لا يحق للملكين أو لأعقابهما إلى الأبد ، أن يسألوا الملك المذكور أبى عبد الله ، أوأحداً من المسلمين المذكورين بأية صورة ، عن أى شىء يكونوا

قد عملوه ، حتى حلول يوم تسليم الحمراء المذكورة ، وهى فترة الستين يوماً المنصوص عليها(٤٠) .

وأنه لا يُولى عليهم أحد من الفرسان أو القادة أو الخدم ، الذين كانوا تابعين لملك وادى آش[١] (٤١).

وأنه إذا وقع نزاع بين نصرانى أو نصرانية ومسلم أو مسلمة ، فإنه ينظر أمام قاضى نصرانى وآخر مسلم ، حتى لا يتظلم أحد مما يقضى به (٤٢) .

وأن يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين ذكوراً وإناثاً ، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما ، إفراجاً حراً دون أية نفقة من فدية أو غيرها ، وأن يكون الإفراج عمن كان من هؤلاء الأسرى بالأندلس فى ظرف خمسة الأشهر التالية ، وأما الأسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية . وبعد يومين من تسليم الأسرى النصارى لجلالتيهما يفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين ، منهم مائة من الرهائن ومائة أخرى (٤٤) .

وأنه إذا دخلت أية محلة من نواحى البشرات فى طاعة جلالتيهما ، فإنها يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصارى ذكوراً وإناثاً ، فى ظرف خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام ، وذلك دون أية نفقة (٤٦) .

وأن تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الآن فى مملكة غرناطة ، لكى تسافر فى أمان ، على ألا تكون حاملة أى أسير نصرانى ، وألا يحدث لها أحد ضرراً أو إتلافاً ، وألا يؤخذ منها شىء ، ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى من النصارى ، ويحق لجلالتيهما إرسال من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض (٤٧) .

وألا يُدعى أو يؤخذ أحد من المسلمين للحرب رغم إرادته ، وإذا شاء جلالتاهما استدعاء الفرسان ، الذين لهم خيول وسلاح ، للعمل فى نواحى الأندلس فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة (٤٨) .

وأنه يجب على كل من عليه دين أو تعهد ، أن يؤديه لصاحب الحق ؛ ولا يحق لهم التحرر من هذه الحقوق (٥٢) .

وأن يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون لمحاكم المسلمين ، مسلمين ، الآن وإلى الأبد (٥٣) .

---

(١) المقصود هنا هو مولاى الزغل .

وأن يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين ، أيضاً مسلمين ، وألا يتولاها نصرانى الآن وفى أى وقت (٥٤) .

وأن يقوم الملكان فى اليوم الذى تسلم إليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب كما تقدم ، بإصدار مراسيم الإمتيازات ، للملك أبى عبد الله وللمدينة المذكورة ، ممهورة بتوقيعهما ، ومختومة بخاتمهما الرصاص ذى الأهداب الحريرية ، وأن يصدق عليها ولدهما الأمير ، والكردينال المحترم دسبينا ، ورؤساء الهيئات الدينية ، والعظماء والدوقات والمركيزون والكونتات والرؤساء ، حتى تكون ثابتة وصحيحة الآن ، وفى كل وقت (٥٦ ثافرا) (٤٣ سيمانقا) .

وقد ذيلت المعاهدة ، بنبذة خلاصتها ، أن ملكى قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكى ، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص ، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما ، وعليها تاريخ تحريرها وهو يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ (١)

ثم ذيلت بعد ذلك ، وبتاريخ لاحق هو يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٤٩٢ ، أعنى بعد تسليم غرناطة بعام ، بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير ، وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد ، وألا يعمل ضده شىء ، أو ينقض منه شىء ، الآن وإلى الأبد ، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكى بأن يحافظا ، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بندا بندا إلى الأبد ، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين ، وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء (٢) .

* * *

وفى نفس اليوم الذى وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة ، وهو يوم ٢٥ نوفمبر

---

(١) رجعنا فى ترجمة وتلخيص نصوص معاهدة التسليم إلى الوثيقتين الرسميتين اللتين تضمنتا نصوص هذه المعاهدة ، وهما أولا ، الوثيقة المحفوظة بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا **Archivo general de Simancas** ، وتحمل رقم **P.R. 11-207** ضمن مجموعة **(Capitulaciônes con Moros y Caballeros de Castilla)**. وهى تملأ إحدى عشرة لوحة كبيرة ومحررة بالقشتالية القديمة ولدينا منها صورة فتوغرافية . وثانيا ، الوثيقة المعروفة بوثيقة فرناندو دى ثافرا ، أمين الملكين الكاثوليكيين وتحفظ بمجموعة دى ثافرا ببلدية غرناطة ، وقد نشرت ضمن مجموعة وثائق تسليم غرناطة :
Las Capitulaciones para la Entrega de Granada, por Miguel Garrido Atienzā (Granada 1910) p. 269 - 295

(٢) راجع مجموعة وثائق تسليم غرناطة السالفة الذكر (ص ٢٨٩ و ٢٩٠) .

سنة ١٤٩١م ، وفى نفس المكان الذى وقعت فيه ، وهو المعسكر الملكى بمرج غرناطة ، أبرمت معاهدة أخرى أوملحق سرى للمعاهدة الأولى ، يتضمن الحقوق والإمتيازات والمنح ، التى تعطى للسلطان أبى عبد الله ، ولأفراد أسرته وحاشيته ، وذلك متى نفذ تعهداته التى تضمنتها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء ، وحصونها .

وتتلخص هذه الحقوق والامتيازات والمنح فيما يأتى :

أن يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبى عبد الله ولأولاده وأحفاده وورثته إلى الأبد ، حق الملكية الأبدية ، فيما يملكانه من محلات وضياع فى بلاد برجة ، ودلاية ومرشانة ، ولوشار ، وأندرش ، وأجيجر ، وأرجبة ، وبضعة بلاد أخرى مجاورة ، وكل ما يخصها من الضرائب وحقوق الريع ، وما بها من الدور والأماكن والقلاع والأبراج ، لتكون كلها له ولأولاده وأعقابه وورثته بحق الملكية الأبدية ، يتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها ، وأن يتولى القضاء فى النواحى المذكورة باعتباره سيدها ، وباعتباره فى الوقت نفسه تابعاً وخاضعاً لجلالتيهما ، وله حق بيع الأعيان المذكورة ورهنها ، وأن يفعل بها ما يشاء ومتى شاء ، وأنه متى أراد بيعها ، فإنه يعرض ذلك أولا على جلالتيهما فإذا لم يريدا شراءها ، فله أن يبيعها لمن شاء .

وأن يحتفظ جلالتهما بقلعة أدرة ، وسائر القلاع الواقعة على الشاطىء .

وأن يعطى جلالتهما إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ، هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالى من الذهب (كاستيليانو) ، يبعثان بها إليه ، عقب تسليم الحمراء ، وقلاع غرناطة الأخرى التى يجب تسليمها ، وذلك فى الموعد المحدد .

وأن يهب جلالتهما للملك المذكور ، كل الأراضى والرّحى والحدائق ، والمزارع التى كان يملكها أيام أبيه السلطان أبى الحسن ، سواء فى غرناطة أوفى البشرات ، لتكون ملكاً له ولأولاده ولعقبه وورثته ، ملكية أبدية ، وله أن يبيعها أو يرهنها وأن يتصرف فيها كيفما شاء .

وأن يهب جلالتهما أيضاً ، إلى الملكات والدته وإخواته وزوجته ، وإلى زوجة أبى الحسن ، كل الحدائق والمزارع والأراضى والطواحين والحمامات ، التى يملكنها فى غرناطة والبشرات ، تكون ملكاً لهن ولأعقابهن إلى الأبد ، ولهن بيعها ورهنها والتمتع بها وفقاً لما تقدم .

وأن تكون سائر الأراضى الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات، وزوجة مولاى أبى الحسن، معفاة من الضرائب والحقوق الآن وإلى الأبد.

وألا يطلب جلالتهما أو أعقابهما إلى ملك غرناطة أو حشمه أوخدمه رد ما أخذوه فى أيامهم سواء من النصارى أو المسلمين من الأموال والأراضى.

وأنه إذا شاء الملك المذكور أبو عبد الله، والملكات المذكورات، وزوجة مولاى أبى الحسن وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم، وقوادهم وخدمهم وأهل دارهم، وفرسانهم وغيرهم، صغاراً وكباراً، العبور إلى المغرب، فإن جلالتهما يجهزان الآن أو فى أى وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين، متى شاءوا، تحملهم وكل أمتعتهم وماشيتهم وسلاحهم، وذلك دون أية أجر أو نفقة.

وأنه إذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابه، والملكات المذكورات، وزوجة مولاى أبى الحسن. والقواد والحشم والخدم، وقت عبورهم إلى المغرب، من بيع أملاكهم المشار إليها، فإن لهم أن يوكلوا من شاءوا لقبض ريعها، وإرساله حيث شاءوا دون أى قيد أو مغرم.

وأنه يحق للملك المذكور متى شاء، أن يرسل من يرى، من خدمه أو قادته إلى المغرب بسلع أوغيرها من إيراداته، وذلك دون قيد أومغرم.

وأنه يحق للملك المذكور، متى خرج من غرناطة، أن يسكن أو يقيم متى شاء، فى الأراضى التى أقطعت له، وأن يخرج هو وخدمه وقواده وعلماؤه وقضاته وفرسانه، الذين يريدون الخروج معه، بخيلهم وماشيتهم متقلدين أسلحتهم، وكذلك نساؤهم وخدمهم، وألا يؤخذ منهم شيء سوى المدافع، وألا يفرض عليهم الآن أو فى أى وقت، وضع علامة خاصة فى ثيابهم أو بأية صورة، وأن يتمتعوا بسائر الإمتيازات المقررة فى عهد تسليم غرناطة.

وأنه فى اليوم الذى يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها، يصدر جلالتهما المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة، موقعة ومختومة، ومصدق عليها من ابنهما الأمير والكردينال وسائر العظماء[1].

* * *

تلك هى الشروط التى وضعت لتسليم آخر القواعد الأندلسية، وتلك هى

---

(١) تحفظ النسخة القشتالية لهذه المعاهدة السرية التى عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبدالله بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا **Archivo general de Simancas** وتحمل رقم **P.R. Leg. II. Fol. 206** وقد حصلنا منها على صورة فتوغرافية.

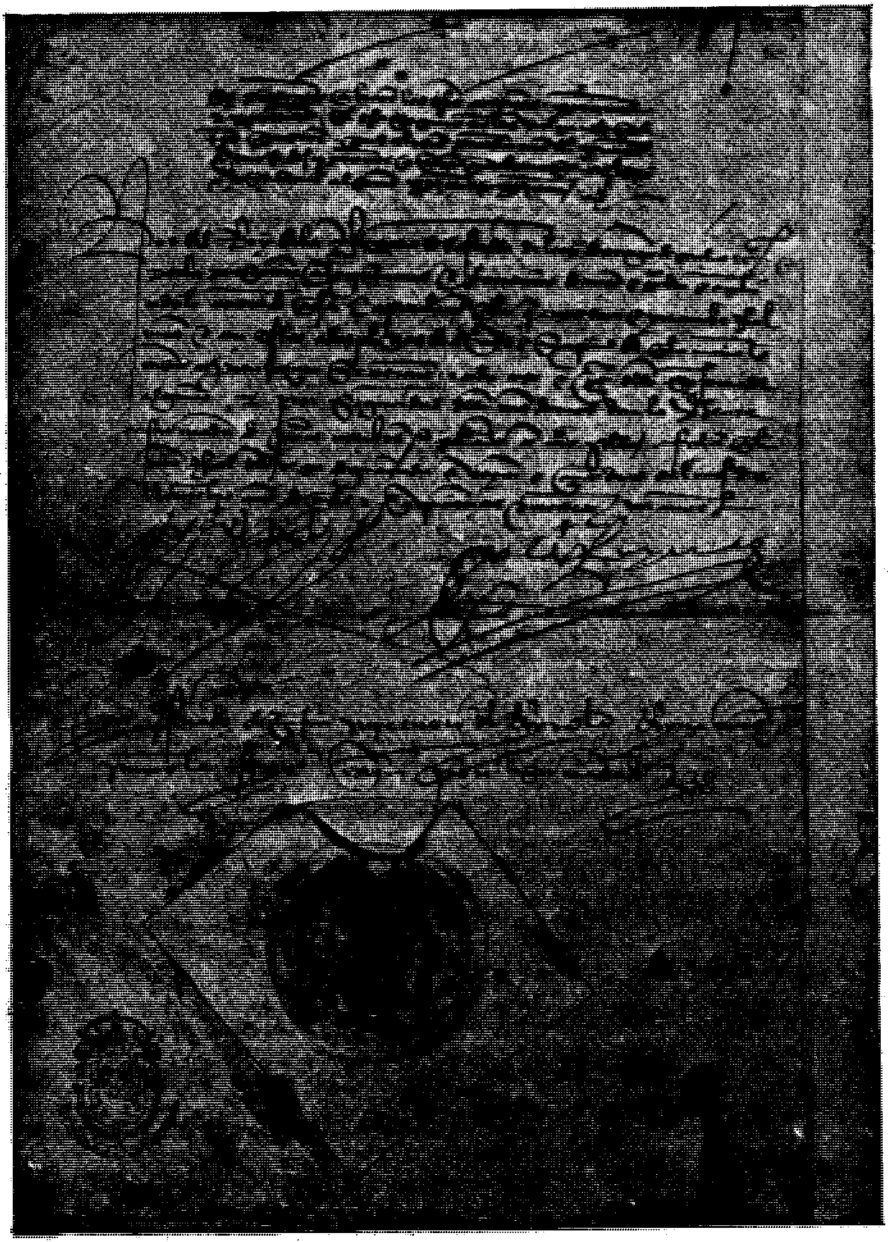

الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم التى أصدرها الملكيان الكاثوليكيان لأبى عبد الله وأهل غرناطة ، مؤرخة فى ٢٥ نوفبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم ٨٩٧ هـ) ، وعليها توقيعا فرناندو وإيسابيلا ، وتوقيع سكرتيرهما فرناندو دى ثافرا ، وختم مملكة قشتالة . والأصل محفوظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا ويحمل رقم P. R. 11 - 207

الإمتيازات والمنح التى منحت لآخر ملوك الأندلس . فأما فيما يتعلق بغرناطة ومصاير الأمة المغلوبة ، فقد كانت هذه الشروط المسهبة ، والتى اشتملت على سائر الضمانات المتعلقة بتأمين النفس والمال ، وسائر الحقوق المادية ، وصون الدين والشعائر ، والكرامة الشخصية ، أفضل ما يمكن الحصول عليه فى مثل هذه المحنة ، لو أخلص العدو الظافر فى عهوده . ولكن هذه العهود لم تكن فى الواقع ، حسبما أيدت الحوادث فيما بعد ، سوى ستار الغدر والخيانة ، وقد نقضت هذه الشروط الخلابة كلها لأعوام قلائل من تسليم غرناطة ، ولم يتردد المؤرخ الغربى نفسه فى أن يصفها « بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسبانى فيما تلا من العصور »[1] . وقد بذل فرناندو ما بذل من عهود وضمانات وامتيازات لأهل غرناطة ، بعد ما لقيت جيوشه من الصعاب ، وما منيت به من الخسائر الفادحة ، أمام أسوار مالقة وبسطة ، ولأنه كان يعلم أن الحاضرة الأندلسية الأخيرة ، تموج بعشرات الألوف من المدافعين ، وأنه يقتضى لأخذها عنوة بذل جهود مضنية ، وتحمل تضحيات عظيمة ؛ وقد لجأ فرناندو ، إلى جانب إرهاق غرناطة بالحصار الصارم ، إلى البذل والرشوة لإغراء الزعماء والقادة ، وعلى رأسهم أبو عبد الله ، وذلك لكى يصل إلى تحقيق غايته المنشودة بطريق سلمية مأمونة ، وجاءت نصوص المعاهدة السرية مؤيدة لما أشارت إليه الرواية الإسلامية المعاصرة ، من ريب وشكوك تحيط بموقف أبى عبد الله ووزرائه وقادته .

وعاد أبو القاسم عبد الملك والوزير ابن كماشة يحملان شروط التسليم ، وصحبهما فرناندو دى ثافرا أمين ملك قشتالة ومبعوثه ، وأدخل سراً إلى قصر الحمراء ، وجمع أبو عبد الله الفقهاء وأكابر الجماعة فى بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، وبعد مناقشات طويلة عاصفة ، تمت الموافقة على المعاهدة ، وحملها دى ثافرا ممهورة بتوقيع أبى عبد الله إلى معسكر ملك قشتالة .

وقد انتهت إلينا عن هذه الجلسة الحاسمة فى تاريخ الأمة الأندلسية ، وعن موقف فارس غرناطة موسى بن أبى الغسان ، رواية قشتالية مؤثرة ، قد تصطبغ بلون الأسطورة ، ومع ذلك فإنها تنم عن روح الانتقاض والسخط ، التى كانت تضطرم بها بعض النفوس الأبية الكريمة التى كانت ترى الموت خيراً من التسليم لأعداء الوطن والدين .

---

(١) Prescott : ibid ; p. 296

تقول الرواية المذكورة ، إنه حينما اجتمع الزعماء فى بهو الحمراء الكبير ، ليوقعوا عهد التسليم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب ، وعلى أمتهم بالفناء والمحو ، عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل . ولكن موسى لبث وحده صامتاً عابساً وقال : « أتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء ، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ؛ ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة . ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعاً عن حرياتنا وانتقاماً لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ؛ ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا الله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها »(١) .

ثم صمت موسى ، وساد المجلس سكون الموت ، وسرح أبو عبد الله البصر حوله ، فإذا اليأس مائل فى تلك الوجوه التى أضناها الألم ، وإذا كل عزم قد غاض فى تلك القلوب الكسيرة الدامية . عندئذ صاح « الله أكبر لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله . تالله لقد كتب علىّ أن أكون شقياً ، وأن يذهب الملك على يدى » . وصاحت الجماعة على أثره « الله أكبر ولا راد لقضاء الله » ، وكرروا جميعاً أنها إرادة الله ولتكن ، وأنه لا مفر من قضائه ولا مهرب ، وأن شروط ملك النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى أن اعتراضه عبث لا يجدى وأن الجماعة قد أخذت فعلا فى توقيع صك التسليم ، نهض مغضباً وصاح : « لا تخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم . إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ؛ وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشى ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق . هذا ما سوف نعانى من مصائب وعسف ، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة ، التى تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا فوالله لن أراه » . ثم غادر المجلس واخترق بهو الأسود (كورة السباع) عابساً حزيناً ، وجاز إلى أبهاء الحمراء الخارجية ، دون أن يرمق أحداً أو يفوه بكلمة ، ثم ذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه ، واقتعد غارب جواده المحبوب ، واخترق

(١) Condé ; ibid : V. III. p. 256 & 257

شوارع غرناطة ، حتى غادرها من باب إلبيرة ، ولم يره إنسان أو يسمع به بعد ذلك قط .

هذا ما تقوله الرواية القشتالية عن نهاية موسى بن أبى الغسان(١) . ولكن مؤرخاً اسبانياً قديماً هو القس أنطونيو أجاپيدا يحاول أن يلقى ضياء على مصيره ، فيقول إن سَرية من الفرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر ، التقت فى ذلك المساء بعينه ، على ضفة نهر « شنيل » بفارس مسلم قد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه ، وكان مغلقاً خوذته شاهراً رمحه . وكان جواده غارقاً مثله فى رداء من الصلب. فلما رأوه مقبلا عليهم طلبوا إليه أن يقف وأن يعرف بنفسه ، فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب إلى وسطهم وطعن أحدهم برمحه وانتزعه عن سرجه فألقاه إلى الأرض ، ثم انقض على الباقين يثخن فيهم طعاناً ، وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح ، ولم يرد إلا أن يقتل وأن يسيل الدم ، وكأنه إنما يقاتل للانتقام فقط ، وكأنما يتوق إلى أن يقتل دون أن يعيش لينعم بظفره . وهكذا لبث يبطش بالفرسان النصارى حتى أفنى معظمهم ، غير أنه أصيب فى النهاية بجرح خطر ، ثم سقط جواده من تحته بطعنة أخرى ، فسقط إلى الأرض ، ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره ، وأخذ يناضل عن نفسه . فلما رأى أن قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيراً فى يد خصومه ، ارتد إلى ما ورائه بوثبة أخيرة ، وألقى بنفسه إلى مياه النهر ، فابتلعته لفوره ، ودفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق .

يقول الراوية المذكور ، إن هذا الفارس الملثم هو موسى بن أبى الغسان ، وإن بعض العرب المتنصرين فى المعسكر الإسبانى ، عرفوا جواده المقتول ، وهى رواية لا بأس بها ، غير أن الحقيقة لم تعرف قط(٢) .

— ٤ —

وما كادت أنباء الموافقة على عهد التسليم تذاع حتى عم الحزن ربوع غرناطة ، وتسربت فى الوقت نفسه بعض أنباء غامضة عن المعاهدة السرية ، وعما حققه أبو عبد الله ووزراؤه لأنفسهم من المغانم الخاصة ، وسرى الهمس بين العامة ، واضطرم سواد الشعب يأساً وسخطاً على قادته ، ولا سيما أبى عبد الله الذى اعتبر

---

(١) هذه هى رواية كونلى فيما نقل عن مصادر عربية غير معروفة Condé; Ibid. V. III. p. 257

(٢) راجع هذه الرواية فى : Irving: Conquest of Granada; Ch. 97

مصدر كل مصائبه ومحنه ، وتعالى النداء بوجوب الدفاع عن المدينة حتى آخر نسمة . وحدثت حركة انتقاض ، خشي أبو عبد الله والقادة ، أن تقضى على خططهم وتدابيرهم ، ولكنها انهارت قبل أن تنتظم ، وأضحى كل يفكر فى مصيره .

واستقبل المسلمون عهود ملك قشتالة فى تردد وتوجس ، والشك يساورهم فى إخلاص أعدائهم ، وإزاء ذلك أعلن الملكان الكاثوليكيان ، فى يوم ٢٩ نوفمبر مع قسم رسمى بالله ، أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية فى العمل فى أراضيهم أو حيث شاءوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب . ولكن الإيمان والعهود لم تكن حسبما تقدم ، عند ملكى قشتالة ، سوى ذريعة الخيانة والغدر ، ووسيلة لتحقيق المآرب بطريق الخديعة الشائنة . وقد كانت هذه أبرز صفات فرناندو الكاثوليكى ، فهو لم يتردد قط فى أن يعمل لتحقيق غاياته بأى الوسائل ، أو أن يقطع أى عهد أو يقدم أى تأكيد ، دون أن ينوى قط الوفاء بما تعهد .

ولكن الشعب الغرناطى استمر فى وجومه وتوجسه ويأسه ، ولم تهدأ الخواطر المضطرمة ، وكان أبو عبد الله والقادة يخشون تفاقم الأحوال ، وإفلات الأمر من أيديهم ، فاعتزموا العمل على التعجيل بالتسليم ، حرصاً على سلامة المدينة وسلامة الزعماء ، وألا ينتظروا مرور الستين يوماً التى نصت عليها المعاهدة . وفى يوم ٢٠ ديسمبر أرسل أبو عبد الله وزيره يوسف بن كماشه إلى فرناندو مع خمسمائة من الرهائن من الوجوه والأعيان ، تنفيذاً لنص المعاهدة ، وليعرب له عن حسن نية مليكه واستعداده ، كما حمل إليه هدية تتألف من سيف ملوكى وجوادين عربيين مسرجين بعدد ثمينه . واتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢م (الثانى من ربيع الأول ٨٩٧هـ) أى لتسع وثلاثين يوماً فقط من توقيع عهد التسليم[١] .

---

(١) تخلط معظم الروايات الإسلامية بين تاريخ توقيع المسلمين عهد تسليم غرناطة ، وبين تاريخ استيلاء النصارى الفعلى عليها . وهى تضع هذا التاريخ فى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) (أخبار العصر ص ٥٠ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٥). والواقع أن عهد التسليم وقع كما رأينا فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ) وهو يعتبر تاريخ سقوط غرناطة الرسمى فى يد النصارى ، وذلك بعد تخلى المسلمين عن الدفاع عنها ؛ ولم نجد بين الروايات الإسلامية سوى رواية واحدة هى رواية الوادى آشى تتفق مع الرواية النصرانية فى هذا التفريق فهو يقول إن استيلاء النصارى على غرناطة وقع فى المحرم سنة ٨٩٧ هـ ، وهو تاريخ توقيع عهد التسليم (راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٦١) .

وقد وصلت إلينا روايات عديدة عن حوادث هذا اليوم المؤسى ومناظره — يوم احتلال القشتاليين لمدينة غرناطة ، آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس — ، والرواية الغالبة التى يتفق عليها معظم المؤرخين الإسبان تقدم إلينا التفاصيل الآتية عن حوادث هذا اليوم المشهود .

فى صباح هذا اليوم ، كان المعسكر النصرانى فى شنتفى يموج بالضجيج والابتهاج . وكانت الأوامر قد صدرت ، والأهبة قد اتخذت لاحتلال المدينة . وكان قد اتفق بين أبى عبد الله والملك فرناندو أن تطلق من الحمراء ثلاثة مدافع تكون إيذاناً بالاستعداد للتسليم . ولم يشأ فرناندو أن يسير إلى الحاضرة الإسلامية بنفسه ، قبل التحقق من خضوعها التام ، واستتباب الأمن والسلامة فيها . فأرسل إليها قوة من ثلاثة آلاف جندى وسرية من الفرسان، وعلى رأسها الكردينال پيدرو دى مندوسا مطران اسبانيا الأكبر . وكان من المتفق عليه أيضاً بين فرناندو وأبى عبد الله ألا يخترق الجيش النصرانى شوارع المدينة ، بل يسير تواً إلى قصبة الحمراء ، حتى لا يقع حادث أو شغب . ومن ثم فقد اخترق الجند القشتاليون الفحص إلى ضاحية أرميليا Armilla (أرملة) الواقعة جنوبى غرناطة ، ثم عبروا نهر شنيل ، واتجهوا تواً إلى قصر الحمراء من ناحية التل المسمى « تل الرّحى » Questa de los Molinos ، الواقع غربى المدينة وجنوبى غربى الحمراء .

وسار الملك فرناندو فى الوقت نفسه فى قوة أخرى ، ورابط على ضفة شنيل ، ومن حوله أكابر الفرسان والخاصة فى ثيابهم الزاهية ، حتى يمهد الكردينال الطريق لمقدم الركب الملكى . وانتظرت الملكة إيسابيلا فى سرية أخرى من الفرسان فى أرميليا ، على قيد مسافة قريبة .

ووصل الجند القشتاليون إلى مدينة غرناطة من هذه الطريق المنحرفة نحو الظهر ، وكانت أبواب الحمراء قد فتحت وأخليت أبهاؤها استعداداً للساعة الحاسمة .

وهنا تختلف الرواية . فيقال إن الذى استقبل الكردينال مندوسا وصحبه هو الوزير ابن كماشه ، الذى ندب للقيام بتلك المهمة المؤلمة ، وسلم الحرس المسلمون السلاح والأبراج . وكان يسود المدينة كلها ، ويسود القصبة والقصر ، وما إليه ، سكون الموت .

وفى رواية أخرى أن أبا عبد الله قد شهد بنفسه تسليم الحمراء ، وأنه حينما تقدم القشتاليون من تل الرّحى صاعدين نحو الحمراء ، تقدم أبو عبد الله من

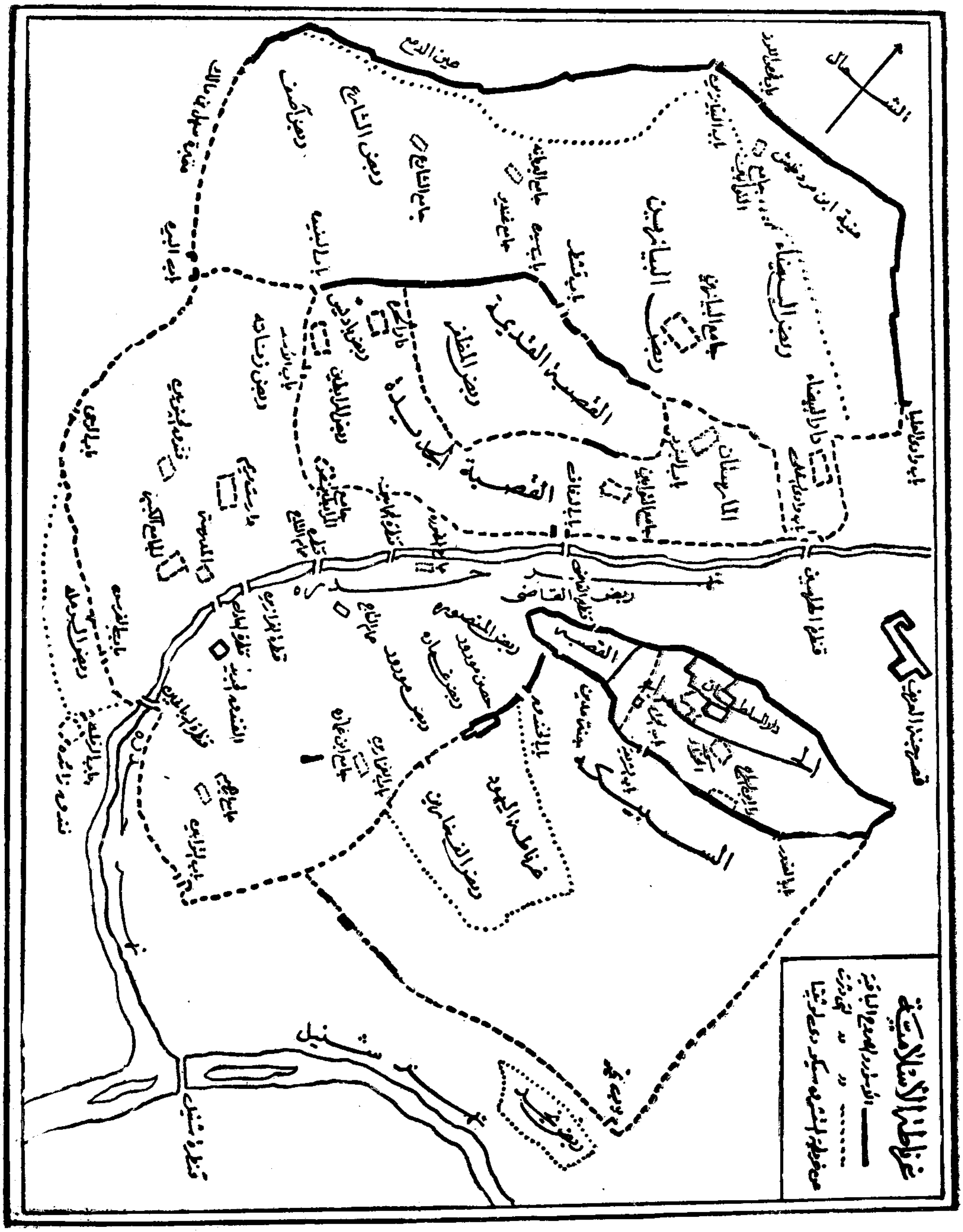
غرناطة الإسلامية
الأسوار والصروح الباقية
عن خريطة المستشرق سيكو دى لوثينا
الشمال
قصر جنة العريف
ربض البيضاء
ربض البيازين
جامع البيازين
دار البيضاء
المارستان
القصبة القديمة
القصبة الجديدة
ربض المظفر
ربض الشارع
ربض آصف
ربض زناته
غرناطة اليهود
ربض الفخارين
السبيكة
القصبة
دار السلطان
ربض المنصور
حصن مورور
ربض غمارة
ربض مورور
جامع ابن غمارة
الفندق الجديد
المدرسة
الجامع الكبير
ربض الرملة
باب البيره
باب البنيه
باب الرخا
مقبرة سهل بن مالك
قنطرة شنيل
نهر شنيل
نهر حدرة

باب الطباق السبع راجلا ، يتبعه خمسون من فرسانه وحشمه . فلما عرف الكردينال أبا عبد الله ، ترجل عن جواده ، وتقدم إلى لقائه ، وحياه باحترام وحفاوة ، ثم ابتعد الرجلان قليلا ، وتحدثا برهة على انفراد . ثم قال أبو عبد الله بصوت مسموع :(١)

«هيا يا سيدى ، فى هذه الساعة الطيبة ، وتسلم هذه القصور — قصورى — باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها ، لفضائلهما ، وزلات المسلمين » .

فوجه الكردينال إلى أبى عبد الله بعض عبارات المواساة ، ودعاه لأن يقيم فى خيمته فى المعسكر الملكى طيلة الوقت الذى يمكثه فى شنتفى ، فقبل أبو عبد الله شاكراً . ثم سار فى فرسانه وحشمه للقاء الملك الكاثوليكى .

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشه ، الذى ندبه أبو عبد الله للقيام بهذه المهمة . وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر الإسلامى المنيف ، حتى رفعوا فوق برجه الأعلى ، وهو المسمى برج الحراسة Torre de la Vela صليباً فضياً كبيراً ، هو الذى كان يحمله الملك فرناندو خلال حرب غرناطة ، كما رفعوا إلى جانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب ، وأعلن المنادى من فوق البرج بصوت جهورى ثلاثا أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين ، وأطلقت المدافع تدوى فى الفضاء . ثم انطلقت فرقة الرهبان الملكية ترتل صلاة « الحمد لله » Te Deum laudamus ، على أنغام الموسيقى . وهكذا كان كل ما هنالك يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب التى شهرتها اسبانيا النصرانية على الأمة الأندلسية ، وعلى الإسلام فى اسبانيا .

وفى أثناء ذلك كان أبو عبد الله ، فى طريقه إلى لقاء الملك الكاثوليكى . وكان فرناندو يرابط كما قدمنا على ضفة نهر شنيل ، على مقربة من المسجد ، الذى حول فيما بعد إلى كنيسة « سان سبستيان » . وهنالك لقى أبو عبد الله عدوه الظافر ، وسلمه مفاتيح الحمراء . وسوف نصف منظر هذا اللقاء المؤثر فيما بعد .

وكذلك قدم أبو عبد الله خاتمه الذهبى ، الذى كان يوقع به على الأوامر الرسمية ، إلى الكونت دى تندليا الذى عين محافظاً للمدينة .

وسار فى صحبه بعد ذلك فى طريق شنتفى ، يتبعه أهله ، أمه وزوجته وإخواته ، وكان موكباً مؤسياً . وعرج فى طريقه على محلة الملكة إيسابيلا فى أرمليا . فاستقبلته

---

(١) المفروض أن أبا عبد الله كان يتحدث بالقشتالية ، وهى لغة كان يجيد التكلم بها .

وأسرته برقة ومجاملة ، وحاولت تخفيف آلامه ، وسلمته ولده الصغير الذى كان ضمن رهائن التسليم .

وهنا تعود الرواية فتختلف اختلافاً بيناً. فيقول البعض إن الملكين الكاثوليكيين دخلا قصر الحمراء فى نفس اليوم. وينفى البعض الآخر ذلك ، ومنهم صاحب « أخبار العصر » ، ويقول إنهما لم يدخلاه إلا بعد ذلك ببضعة أيام .

تقول الرواية الأولى ، إن الملكة إيسابيلا ، سارت على أثر استقبالها لأبى عبد الله ، وانضمت بصحبها إلى الملك فرناندو ، ثم سار الإثنان إلى الحمراء ، بينما انتشر القشتاليون فى الساحة المجاورة . ودخل الملكان من « باب الشريعة » ، حيث استقبلهما الكردينال مندوسا والوزير ابن كماشه ، وأعطى مفاتيح الحمراء إلى الدون ديجو دى مندوسا الذى عين حاكما للمدينة . وبعد أن تجول الملكان قليلا فى القصر ، وشهدا جماله وروعته ، عادا إلى شنتفى . وبقى الكونت دى تندليا فى الحمراء مع حامية قوية من خمسمائة جندى .

ثم عاد الملكان فزارا الحمراء زيارتهما الرسمية فى يوم ٦ يناير ، وسارا فى موكب فخم من الأمراء والكبراء وأشراف العقائل ، ودخلا غرناطة من باب إلبيرة ، ثم جازا إلى الحمراء من طريق مرتفع غمارة ، ودخلا قصر الحمراء وجلسا فى بهو قمارش أو المشور(١) حيث كان يجلس الملوك المسلمون فى نفس المكان على عرشهم ، على عرش أعده الكونت دى تندليا ، وهنالك أقبل أشراف قشتالة للتهنئة ، وكذلك بعض الفرسان المسلمين ، الذين أتوا ليقدموا شعائر التحية والتجلة لسادتهم الجدد .

وفى خلال ذلك كان الملكان الكاثوليكيان ، قد أفرجا عن رهائن المسلمين الخمسمائة ، وفى مقدمتها ولد أبى عبد الله ، وأفرج المسلمون من جانبهم عن الأسرى النصارى ، وعددهم نحو سبعمائة أسير رجالا ونساء . وتعهد القشتاليون من جانبهم ، أن يطلقوا سراح الأسرى المسلمين فى سائر مملكة قشتالة ، فى ظرف خمسة أشهر بالنسبة للأسرى الموجودين بالأندلس ، وثمانية أشهر بالنسبة للأسرى الموجودين فى بقية أراضى قشتالة .

تلك خلاصة الرواية القشتالية عن تسليم غرناطة ومدينة الحمراء للملكين الكاثوليكيين . بيد أن هنالك رواية أخرى لشاهد عيان ، كتبها فارس فرنسى كان يقاتل فى صفوف الجيش القشتالى ، وشهد بنفسه حفلات التسليم ، ونشرت

---

(١) وهو المسمى أيضاً بهو السفراء ، وسوف نعود إلى وصفه عند الكلام على قصر الحمراء .

روايته فى القرن السادس عشر ضمن مؤلف عنوانه La Mar de las Historias « بحر التواريخ » . وهذه خلاصتها :

أن الذى أوفده الملكان الكاثوليكيان لاستلام الحمراء فى يوم ٢ يناير ، هو الأستاذ الأعظم رئيس جمعية شنت ياقب ، جوتيرى دى كارديناس ، وليس الكاردينال مندوسا حسبما تروى التواريخ القشتالية . وأنه تسلم القصر والأبراج وأخرج منها الحرس المسلمين ، ووضع بها الحرس النصارى ، وأنه رفع الصليب الكبير فوق برج الحراسة ثلاث مرات ، والمسلمون من أسفل يصعدون الزفرات ويذرفون الدموع ، ثم لوح بعد ذلك بعلم شنت ياقب ثلاث مرات ، ونُصب إلى جانب الصليب ، وصاح المنادى بعد ذلك : القديس يعقوب ثلاثاً . قشتالة ثلاثاً .غرناطة لسيدنا الدون فرناندو ودونيا إيسابيل ثلاثاً .

وأن الملك فرناندو لما رأى الصليب ، وهو فى جنده من أسفل ، ترجل وجثا على ركبتيه ، وجثا الجند جميعاً شكراً لله . ثم أطلقت المدافع ابتهاجاً .

وفى اليوم التالى الثالث من يناير ، سار الكردينال مندوسا والكونت دى تندليا ، الذى عين محافظاً للحمراء ، إلى قصبة الحمراء فى نحو ألف فارس وألفى راجل ، وسلم إليه الأستاذ الأعظم مفاتيح القصر والحصن .

وفى اليوم الثامن من يناير ، سار الملكان الكاثوليكيان إلى غرناطة ، فى موكب حافل من الأمراء والأكابر والأحبار والأشراف ، وتسلم الملكان مدينة الحمراء بصفة رسمية . وأقيم القداس فى الجامع الأعظم ، وحول الجامع منذ ذلك اليوم إلى كتدرائية غرناطة .

وفى ذلك اليوم أقيمت مأدبة عظيمة فى قصر الحمراء ، ومدت الموائد الحافلة فى أبهاء القصر العظيمة ، وجلس إليها الملكان والأمراء والعظماء ، وكانت مأدبة رائعة .

ويستخلص من هذه الرواية ، التى يؤيدها مؤرخون آخرون ، أن أبا عبد الله لم يستقبل الملكين الكاثوليكيين ولا مندوبيهما وقت التسليم ، ولم تقع بينه وبين الكردينال ولا بين الملكين ، الأحاديث التى سبقت الإشارة إليها .

وإلى جانب ذلك يرى بعض النقدة المحدثين ، أن أبا عبد الله حينما خرج للقاء الملكين الكاثوليكيين ، قد فعل ذلك وهو فى صحبه وحشمه فقط دون أهله ، وأنه خرج يومئذ من داره الملكية الخاصة بحى البيازين ، ولم يخرج من قصر الحمراء ، وأنه كان يعيش فى هذه الدار مع أهله وولده مذ عاد من الأسر ،

حتى أعلن الخلاف والحرب على الملكين الكاثوليكيين[1] ، وأنه كان يشعر وهو فى هذه الدار ، أنه بين أنصاره ومؤيديه ، وأخيراً أنه كان قد أمر بإخلاء قصر الحمراء ، وندب من يقوم بمهمة التسليم فى اليوم الثانى من يناير . وفى هذا اليوم خرج فى نفر من صحبه ، ليقدم إلى الملكين الكاثوليكيين شعائر التحية والخضوع ، ثم عاد إلى داره فبقى بها أياماً ، حتى سويت مسألة مصيره مع الملكين الكاثوليكيين

على أنه يبدو لنا من تتبع حوادث حصار غرناطة ، وما تلاه من مفاوضات على التسليم ، أن الرواية الراجحة فى هذا الشأن ، هو أن أبا عبدالله ، حتى مع افتراض أنه لم يشهد رسوم التسليم ، ولم يقم بها بنفسه ، كان يقيم بقصر الحمراء ، يحيط به وزراؤه وقواده طيلة هذه الأحداث الخطيرة ، أو على الأقل مذ بدأت مفاوضات التسليم بينه وبين الملكين الكاثوليكيين ، ومذ أبرمت بينهما معاهدة التسليم ، حتى يوم الحسم النهائى الذى تم فيه ذلك التسليم ، وأنه خرج فى ذلك اليوم المشهود من الحمراء للقاء عدوه الظافر . ومن المعقول أن تكون الحمراء قد أخليت قبل ذلك استعداداً لتسليمها لسادتها الجدد ، وذلك حسبما يشير إليه صاحب «أخبار العصر»[2] .

هذا وتلقى الرواية الإسلامية المعاصرة ضوءاً على دخول ملك قشتالة مدينة غرناطة ، وتصفه على النحو الآتى :

« فلما كان اليوم الثانى لربيع الأول عام سبعة وتسعين وثمانمائة (٢ يناير سنة ١٤٩٢) أقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد ، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام هو ببقية الجيوش خارج البلد ، لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد حين وقع الإتفاق على ماذكر ، رهوناً من أهل البلد ليطمئن بذلك ، فأعطوه خمسمائة رجل منهم ، وأقعدهم بمحلته . فلما اطمأن من أهل البلد ، ولم ير منهم غدراً ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير وبقى هو خارج البلد ، وأشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة ، وترك فيها قائداً من قواده ، وانصرف راجعاً إلى محلته .. ثم إن ملك الروم

(١) راجع فى روايات تسليم غرناطة : Lafuente Alcantara (y citaciónes); ibid, V·III p. 72 & 73; Mamol: Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos del Reino de Granada, Lib. I. Cap. XX ; Gaspar y Remiro : Entrada de los Reyes Católicos en Granada al Tiempo de su Rendición. (Revista del Centro de Estudios historicos de Granada y su Reino - Ano I., Num. I, p. 7 - 24)

(٢) أخبار العصر ص ٥٠ .

سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ، ومؤمنين فى أموالهم وأنفسهم مكرمين . وأقبل فى جيوشه حين اطمأن ، فدخل مدينة الحمراء فى بعض خواصه ، وبقى الجند خارج البلد ، وبقى يتنزه فى الحمراء فى القصور والمنارة المشيدة إلى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار إلى محلته . فمن غد أخذ فى بناء الحمراء وتشييدها ، وتحصينها وإصلاح شأنها ، وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد إلى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحلته ، فلم يزل كذلك إلى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ، ودار فيه فى نفر من قومه وحشمه ... »[1] .

* * *

وهكذا اختتمت المأساة الأندلسية ، واستولى القشتاليون على غرناطة آخر الحواضر الإسلامية فى اسبانيا ، وخفق علم النصرانية ظافراً فوق صرح الإسلام المغلوب ، وانتهت بذلك دولة الإسلام بالأندلس ، وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة المؤثرة من تاريخ الإسلام ، وقضى على الحضارة الأندلسية الباهرة ، وآدابها وعلومها وفنونها ، وكل ذلك التراث الشامخ ، بالفناء والمحو .

شهد المسلمون احتلال العدو الظافر لحاضرتهم ودار ملكهم ، وموطن آبائهم وأجدادهم ، وقلوبهم تتفطر حزناً وأسى . على أن هذه المناظر المحزنة ، كانت تحجب مأساة أليمة أخرى ؛ تلك هى مأساة الملك التعس أبى عبد الله آخر ملوك بنى الأحمر وآخر ملوك الإسلام بالأندلس .

فقد تقرر مصيره ، وبينت حقوقه وامتيازاته وفقاً للمعاهدة السرية التى عقدت بينه وبين الملكين الكاثوليكيين . وقد نصت المعاهدة المذكورة على أن يقطع أبو عبد الله طائفة من الأراضى والضياع فى برجة ودلاية وأندرش وأجيجر وأرجبة ولوشار وبضعة بلاد أخرى من أعمال منطقة البشرات ، وهذه البلاد يقع بعضها فى جنوب غربى ولاية ألمرية ، والبعض الآخر قبالتها فى جنوب شرقى ولاية غرناطة ، وأن يحكم أبو عبد الله فى هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، ويتمتع بدخلها وسائر غلاتها وحقوقها . وقد حددت إقامته ، أو اختار هو الإقامة فى إحداها وهى بلدة أندرّش الواقعة على النهر الأخضر شمالى ثغر أدرة الصغير .

ولما اقترب اليوم المروع — يوم التسليم — قام أبو عبد الله باتخاذ أهبته للرحيل مع أهله وحشمه وخاصته . وفى صباح اليوم الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ ، فى الوقت

---

(١) أخبار العصر ص ٥٠ و ٥١ .

للذى اقترب فيه النصارى من أسوار غرناطة ، كان أبو عبد الله قد غادر قصره وموطن عزه ومجد آبائه إلى الأبد ، فى مناظر تثير الأسى والشجن .

وهنالك روايتان ، فهل خرج أبو عبد الله عندئذ لآخر مرة من الحمراء مع أهله وحشمه وأمتعته ؟ أم هل خرج بمفرده فى صحبه من الحمراء للقاء الملكين الكاثوليكيين ، ثم لحق به بعد ذلك ركب أهله وأمتعته ؟ وهل سار توّاً إلى طريق البشرّات حيث تعين محل إقامته ، أم عرج على المعسكر القشتالى الملكى فى شنتفى فلبث فيه مع أهله أياماً ، ثم سار بعد ذلك إلى البشرات ؟

أما الرواية الأولى ، وهى أكثر الروايات ذيوعاً لدى المؤرخين القشتاليين ، فتجرى على النحو الآتى :

فى فجر اليوم الثانى من يناير ، وهو اليوم الذى حدد لتسليم الحمراء ، كان رنين البكاء يتردد فى غرف قصر الحمراء وأبهائه ، وكانت الحاشية منهمكة فى حزم أمتعة الملك المخلوع وآله ، وقد ساد الوجوم كل محيا ، واحتبست الزفرات فى الصدور . وماكادت تباشير الصبح تبدو ، حتى غادر القصر ، ركب قاتم موئثر هو ركب الملك المنفى ، يحمل أمواله وأمتعته ، ومن ورائه أهله وصحبه القلائل ، وحوله كوكبة من الفرسان المخلصين . وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطى صهوة جوادها ، يشع الحزن من محياها الوقور ، وكان باقى السيدات من آله وحشمه ، يرسلن الزفرات العميقة والدموع السخينة . واخترق الركب غرناطة فى صمت البكور وستره ؛ وحين بلغ الباب الذى سيغادر منه المدينة إلى الأبد، ضج الحراس بالبكاء لرؤية ذلك المنظر المؤلم؛ ثم اتجه الركب صوب نهر شنيل فى طريق البشرات .

وليس أبلغ فى وصف هذه المناظر المؤسية من قول شوقى طيب الله ثراه:[1]

مشت الحادثات فى غرف الحم	راء مشى النعش فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت	سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنها	واستراحت من احتراس وعس
ومغارة على الليالى وضاء	لم تجد للعشى تكرار مس

* * *

آخر العهد بالجزيرة كانت	بعد عرك من الزمان وضرس
فتراها تقول راية جيش	باد بالأمس بين أسر وحس

(١) من قصيدته السينية الأندلسية الشهيرة ، التى ينحو فيها نحو البحترى فى سينيته .

ومفاتيحهـــا مقـــاليد ملك باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم فى كتائب صم عن حفاظ كموكب الدفن خرس
ركبـــوا بالبحـــار نعشـــا وكانت تحت آبائهم هى العرش أمس

* * *

وأما أبو عبد الله ، فقد اتجه إلى وجهة أخرى ليتجرع كأسه المرة إلى الثمالة ، وكان قد تقرر اللقاء فى صباح ذلك اليوم بينه وبين ملك قشتالة ، فخرج من باب مدينة الحمراء المسمى باب الطباق السبع Siete Suelos ، فى طريقه إلى لقاء عدوه الظافر ، وسيده الجديد ، فى نفر من الفرسان والخاصة . فاستقبله فرناندو بترحاب وحفاوة فى محلته على ضفة نهر شنيل . وتصف لنا الرواية القشتالية هذا المنظر المؤثر فتقول إن أبا عبد الله حين لمح فرناندو هم بترك جواده ، ولكن فرناندو بادر بمنعه وعانقه بعطف ومودة ، فقبل أبو عبد الله ذراعه اليمنى إيماءة الخضوع . ثم قدم إليه مفتاحى البابين الرئيسيين للحمراء قائلا : « إنهما مفتاحى هذه الجنة ، وهما الأثر الأخير لدولة المسلمين فى اسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا . وهكذا قضى الله ، فكن فى ظفرك رحيما عادلا » . وتضيف الرواية القشتالية إلى ذلك أن فرناندو تناول المفتاحين قائلا : « لا تشك فى وعودنا ، ولا تعوزنك الثقة خلال المحنة ، وسوف تعوض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك »[1]. بيد أن مؤرخاً قشتالياً عاش قريباً من ذلك العصر ، يقدم إلينا رواية أخرى ربما كانت أقرب إلى الصحة والمعقول ، وهى أن مفاتيح الحمراء قدمها القائد ابن كماشه مأمور التسليم إلى الملك فرناندو حينما وصل إلى الباب الرئيسى ، وأن فرناندو ناولها بدوره إلى قائده لوبث دى مندوسا (كونت تندليا) الذى عينه حاكماً عسكرياً لغرناطة[2]. وسار أبو عبد الله بعد ذلك بصحبة فرناندو ، إلى حيث كانت الملكة إيسابيلا فى ضاحية أرمليا ، فقدم إليها تحياته وطاعته . ثم ارتد إلى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته . وهنا تقول الرواية القشتالية إن أبا عبد الله

---

(١) تردد معظم التواريخ القشتالية اللاحقة وصف هذا المنظر الذى يصطبغ بلون الأسطورة . وقد خلدته ريشة المصور الإسبانى فى أكثر من لوحة شهيرة تعرض فى المتاحف الإسبانية ، وحفرته يد الفنان فى داخل كنيسة طليطلة العظمى . راجع فى ذلك: **L. Alcantara : ibid ; V. III p. 73**

(٢) **Luis del Marmol : Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada, Lib. I, Cap. XX**

أشرف أثناء مسيره فى شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة ، فوقف يسرح بصره لآخر مرة فى هاتيك الربوع العزيزة التى ترعرع فيها ، وشهدت مواطن عزه وسلطانه ، فانهمر فى الحال دمعه ، وأجهش بالبكاء . فصاحت به أمه عائشة ؛ « أجل فابتك كالنساء ، ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » . وتعرف الرواية الإسبانية تلك الأكمة التى كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن باسم شعرى مؤثر هو « زفرة العربى الأخيرة » El ultímo Suspiro del Moro ، وما تزال قائمة معروفة حتى اليوم ، يعينها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول .

ثم تقول الرواية أيضاً إن باب الحمراء الذى خرج منه أبو عبد الله لآخر مرة ، وهو باب الطباق السبع قد سد عقب خروجه برجاء منه إلى ملك قشتالة ، وبنى مكانه ، حتى لا يجوزه من بعده إنسان(١). وما زالت الرواية تعين لنا مكان هذا الباب بين الأطلال الدارسة . وهو يقع فى طرف الهضبة فى الجنوب الشرقى منها على مقربة من« برج الماء » . وقد رأيناه ، وقد سد فراغه حقيقة بالبناء .

وأما الرواية الأخرى ، وهى الأقل ذيوعاً ، فخلاصتها أن أبا عبد الله خرج من الحمراء فى صبيحة يوم التسليم بمفرده وفى نفر من صحبه إلى لقاء الملكين الكاثوليكيين وخرج بعد ذلك ركب أهله وأمتعته من الدار الملكية بحى البيازين ليلتقى به بعد انتهاء مهمته ، وأنه لم يسر بعد ذلك توا إلى البشرّات ، بل سار بأهله وأمتعته إلى المعسكر القشتالى فى شنتفى ، فقضى به أياماً ، حتى سويت المسائل المتعلقة بمصيره ، ثم سار الجميع بعد ذلك إلى أندرش التى اختارها أبو عبد الله مستقراً ومقاما .

* * *

وقد كان لمحنة الأندلس المؤلمة ونهايتها المحزنة ، وقع عميق فى جنبات العالم الإسلامى ، ولا سيما فى أمم المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر. غير أن هذه المحنة الغامرة لم تثر وحى الشعر ، كما أثاره من قبل سقوط الثغور والقواعد الأندلسية ، أيام أن كان للدولة الإسلامية بقية من القوة والأمل . ذلك أن دولة الشعر الأندلسى كانت قد انهارت منذ بعيد ، وتحطمت الأقلام ، وعقدت المحنة الغامرة كل لسان . ومع ذلك فقد صدرت فى رثاء الأندلس نفثات قوية مؤثرة تهز أوتار القلوب ، معظمها من الضفة الأخرى من البحر من شعراء المغرب .

ومن أشهر المراثى التى نظمت فى رثاء الأندلس عقب المحنة بقليل ، رثاء طويل

---

(١) Marmol:ibid; Lib. I ; Cap. XX ; L. Alcantara; ibid ;V. III. p. 80.

مؤثر لشاعر أندلسي مجهول، يبدو أنه عاصر حوادث المحنة من بدايتها حتى نهايتها. وإليك مقتطفات من تلك المرثية المشجية التى رتبت وفقاً للوقائع والتواريخ :

أحقاً خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها
فيا ساكنى تلك الديار كريمة ... سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
أحقاً أخلائى القضاء أبادكم ... ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يفادى وفرقة ... لدى عرصات الحشر يأتى سفيرها

* * *

فواحسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وواأسفا كم من صوامع أوحشت ... وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا أسفرت يسبى العقول سفورها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها(١)
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة ... ترد لو انضمت عليها قبورها
لها روعة من وقعة البين دائم ... أساها وعين لا يكف هديرها
وكم من صغير فى حجر أمه ... فأكبادها حراء لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه ... وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها

* * *

لأندلس ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فأحياؤها تبدى الأسى وجمادها ... يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحاً وقتلا حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها ... وبدل الويل المبين سرورها

(١) يكرر الشاعر فى هذه الأبيات نفس المعانى التى وردت فى مرثية أبى الطيب الرندى الشهيرة.

وقد كانت الغربية الجنن التى ... تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلّش قطعت رجلهـا بيمينهـا ... ومن سريان الداء بان قطورها
وضحت على تلك الثنيات حجرها ... فأقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جئت المنكّب فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعـالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلا حيث الصفات كأنهـا ... من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محـل قرار الملك غرناطة التى ... هى الحضرة العليا زهتها زهورها
ترى الأسى أعلامها وهى خُشّع ... ومنـبرها مسـتعبر وسريرها
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها ... وزائرها فى مأتم ومزورها
وبَسْطة ذات البسط ما شعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شـعورها
وما أنس لا أنس المريّة إنهـا ... قتيلة أوجال أزيل عـذارها
منازل آبائى الكرام ومنشئ ... وأولى أوطان غذانى خيرها(١)

ثم يشير الشاعر بعد هذا الترتيب التاريخى لسقوط قواعد الأندلس ، إلى محاولة الإسبان تنصير المسلمين لأول مرة ، وما ترتب على ذلك من قيام الثورة فى بعض الجهات :

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج هبت دبورها
علامات أخذ ما لنا قبل بهـا ... جنايات أخذ قـد جناها مثيرها
فلا تنمحى إلا بمحو أصولها ... ولا تتجلى حتى تخط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقـة ... وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منـار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها
إلا واسـتعدوا للجهـاد عزائماً ... يلوح على ليل الوغى مسـتنيرها
بأنفس صـدق موقنات بأنهـا ... إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السـلام عرائساً ... على الله فى ذاك النعيم مهورها(٢)

---

(١) يبدو من هذا البيت أن الشاعر كان من أهل المرية ونشأ بها .

(٢) نشر هذه المرثية وهى فى أكثر من مائة بيت أحد أدباء الجزائر ، مقرونة بترجمة فرنسية تحت عنوان : **Une Elégie andalouse sur la guerre de Grenade** وذكر الناشر وهو صويلح محمد ، أنه نقلها عن مخطوط محفوظ بمكتبة الجزائر ومؤرخ فى شعبان سنة ٨٩٧ هـ (يونيه سنة ١٤٩٢ م) أعنى بعد سقوط غرناطة ببضعة أشهر . والظاهر أنه حينما وضعت هذه القصيدة كان الإسبان قد بدأوا محاولتهم الأولى لتنصير المسلمين .

هذا وقد صدرت عن أدباء المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر ، طائفة كبيرة من المراثى البليغة ، فى نعى الأندلس والإشادة بفضائلها ، وفداحة الخطب فيها . وكان شعراء المغرب لقربهم من مسرح الحوادث ، ووقوفهم على كثير من الأخبار والسير المفجعة عن إخوانهم بالأندلس ، أشد من غيرهم تأثراً بالمحنة ، وأكثرهم إفاضة فى ندب ويلاتها[1] .

---

(١) نقل إلينا المقرى فى أزهار الرياض بعض هذه المراثى المغربية ، ومن ذلك قصيدة أبى العباس أحمد بن محمد الصنهاجى المشهور بالدقون (ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها) .

الفصل الرابع

ختام المأساة

وقع محنة الأندلس فى العالم الإسلامى . سفارة فرناندو إلى بلاط مصر . موضوع هذه السفارة حسبما دونها بيترو مارتيرى . صدى المأساة فى المغرب . مسير أبى عبد الله إلى أندرش وحياته فيها. خطة الملكين الكاثوليكيين لإبعاده عن الأندلس . الاتفاق على بيع حقوقه وجوازه إلى المغرب . نص قبول أبى عبد الله . جوازه إلى فاس والتجاؤه إلى ملكها . دفاع أبى عبد الله المسمى بالروض العاطر الأنفاس . الوزير المقيلى كاتب هذا الدفاع . بعض ما ورد فى الدفاع من المنظوم . بعض ما ورد فيه من المنثور . اعتذار أبى عبد الله ودفعه لتهمة التفريط والخيانة . استعراض لموقفه وتصرفاته . معترك الفتنة الذى أودى بمملكة غرناطة . تبعة أبى عبد الله . حياته بمدينة فاس . وفاته وعقبه . حمراء غرناطة . تاريخها وأوصافها . ما بقى من أبنيتها وأبهائها . تشويه الإسبان لجمالها الأثرى . روعتها وتراثها القصصى . تغدو مسرحاً لحوادث غرناطة . ما يدور حولها من الأساطير . الأساطير الغرامية . أصل هذه الأساطير ومغزاها . قصيدة شوقى فى رثاء الحمراء .

لم يكن سقوط غرناطة فى يد النصارى حادثاً فجائياً ، بل كان بالعكس نتيجة طبيعية ، لما تقدمه من الحوادث الاندلسية ، وكان خاتمة محتومة لاستشهاد طويل الأمد . ومع ذلك فقد كان لسقوط غرناطة أوبعبارة أخرى لانتهاء دولة الإسلام فى الأندلس ، وقع عميق فى الضفة الأخرى من البحر ، فى أمم المغرب التى لبثت عصوراً ترتبط بالأندلس بأوثق الروابط ، وفى سائر أنحاء العالم الإسلامى .

وكان للحادث أيضاً وقعه العميق فى سائر الأمم النصرانية ؛ فقد ابتهجت له أيما ابتهاج ، واعتبرته من بعض الوجوه عوضاً لسقوط قسطنطينية فى قبضة الإسلام قبل ذلك بأربعين عاماً . وخلدت ذكرى الحادث فى رومة بإقامة قداس أعظم ، واستمر ابتهاج الشعب أياماً . ورحبت سائر قصور أوربا بالنبأ ، وأقامت لإحيائه الحفلات الدينية والمدنية ، منوهة بفضل فرناندو وإيسابيلا فى تحقيق هذه الأمنية العظيمة(١) .

وقد كانت الأندلس تثير منذ البداية جزع الأمم الإسلامية وعطفها . ولكن الأمم الإسلامية لم تستطع أن تبذل أى مجهود عملى لإنقاذ الأندلس من قدرها المحتوم ،

---

(١) Prescott : Ferd. & Isabella p. 299 والهامش .

ولم يتحقق من جهة أخرى ماكانت ترجوه مصر بتدخلها السياسى لدى ملوك النصرانية من أثر ملطف فى سير الحوادث الأندلسية . وقد كانت مصر بالرغم من بعدها تتبع أحوال الأندلس باهتمام خاص، لم ينتقص منه سوى اضطراب شئونها الداخلية فى ذلك الحين . ولما استولى النصارى على غرناطة ، وحققت بذلك أمنية اسبانيا التاريخية كاملة شاملة، لم ينس ملك قشتالة ما جاء فى سفارة سلطان مصر من وعيد بأن ينكل برعاياه النصارى ، ولم يقنع بالخطاب الذى وجهه إليه على يد سفيريه الراهبين . فلما استقرت الأمور وخضعت سائر الأراضى الإسلامية ، رأى فرناندو أن يسعى إلى إقناع سلطان مصر ، بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية والرفق فى ظل الحكم الجديد ، فأوفد إلى بلاط القاهرة سفارة جديدة . وكان سفيره إلى السلطان هو پيترو مارتيرى دى أنجلريا ، وهو حبر نابه ، وكاتب ومؤرخ كبير ، وكان من مستشارى الملك . ندبه فرناندو لهذه السفارة فى أغسطس سنة١٥٠١ ، وزوده بالكتب والوثائق اللازمة . ووصل مارتيرى إلى الإسكندرية بعد رحلة بحرية شاقة عن طريق إيطاليا واليونان فى أواخر شهر ديسمبر ، ثم وصل إلى القاهرة فى آخر يناير ، وكان سلطان مصر فى ذلك الحين الملك الأشرف جان بلاط ، فاستقبل سفير الملكين الكاثوليكيين عقب وصوله برفق ورعاية ، ولكن نقلت إليه على أثر ذلك أقاويل كثيرة من بعض الأشراف والمغاربة والأندلسيين المنفيين ، الذين استنكروا مسلكه وتكريمه لسفير ملك استولى على أراضى المسلمين فى الأندلس ، وهو الآن يسومهم الخسف والعذاب . فبعث إلى السفير يرجوه الانصراف من حيث أتى خوفاً من سوء العواقب ، ولكن مارتيرى بعث إلى السلطان يشرح له خطورة الأمر ، ويصف عظمة مليكيه ، وروعة سلطانهما الباذخ الذى يمتد حتى أواسط البحر الأبيض المتوسط ، وكونهما يستطيعان الانتقام والإضرار بمن يسىء إليهما . فعاد السلطان واستقبله فى مقابلة سرية خاصة استمرت من الصباح إلى الظهر . وكان ذاك فى السادس من فبراير سنة ١٥٠٢ (شعبان سنة٩٠٧ هـ) ، وألقى مارتيرى بين يديه خطاباً ضافياً فند فيه ما ينسب لمليكه من الاستيلاء ظلماً على غرناطة ، واضطهاده للمسلمين ، وقهرهم على التنصير ؛ وبين مارتيرى حق سيده فى الفتح ، وكونه يحكم مئات الألوف من الرعايا المسلمين الذين يعيشون فى بلنسية وأراجون ، وهم جميعاً يتمتعون بشعائرهم أحراراً ، واستطاع بكياسته وبراعته ، أن يقنع السلطان بصدق رسالته ، وحسن نيات مليكيه ، وقدم إلى

السلطان شهادات من حكام الثغور المغربية ، تفيد بأن المسلمين المهاجرين إلى المغرب يصلون إلى الشواطىء مع نسائهم وأولادهم فى أمن وسلام ، ويلقون من مندوبى الملكين كل رفق ورعاية[١] ، واستطاع فوق ذلك بذلاقته أن يقنع السلطان بأن يجيب مطالبه فى إعفاء نصارى بيت المقدس من طائفة من المغارم والفروض .

ويصف لنا مارتيرى قصر السلطان بأنه يقوم على ربوة ، على نمط قصر الڤاتيكان فى رومة ، وقصر الحمراء فى غرناطة ؛ ويصف السلطان بأنه رجل فى نحو الخمسين من عمره ، ذو لحية كعادة أهل البلاد ، ولكن صغيرة نحيلة ، وهو مهيب الطلعة ذو وجه عبل أسمر ، وهيئة حوشية نوعاً ، وعينين صغيرتين غائرتين ؛ وحركاته ثقيلة ، وقوامه فوق المتوسط حسبما يبدو من جلسته ، وهو يرتدى ثوباً لا يختلف كثيراً عما يسميه أهل غرناطة « بالجبة ».

ويورد مارتيرى أثناء وصف حوادث سفارته نبذة طويلة عن تاريخ مصر الإسلامية ، ووصفاً ضافياً للقاهرة والنيل والأهرام ، ووصفه قوى شائق[٢] .

وهكذا كان الصدى الأليم الذى أثارته حوادث الأندلس فى الأمم الإسلامية يخبو شيئاً فشيئاً . ولم تمض أعوام قلائل حتى أسدل عليها فى المشرق حجاب من النسيان ولكن ذكرى الأندلس وحوادثها ، لبثت حية قوية فى عدوة المغرب عصوراً أخرى . ذلك أن المأساة الأندلسية لم تنته بسقوط غرناطة ، بل كان عليها أن تجوز ثمة فصولا مفجعة أخرى ، قبل أن تصل إلى نهايتها . وكانت هذه الفواجع أول ما تلقى صداها العميق فى الضفة الأخرى من البحر ، حيث كانت العدوة دائماً ملاذ الضحايا الأخير .

— ٢ —

ولنبدأ الحديث عن مصير الملك المنكود أبى عبد الله محمد بن على آخر ملوك الأندلس ، فقد غادر غرناطة ، ساعة استيلاء النصارى عليها ، وسار مع آله وصحبه وحشمه إلى منطقة البشرّات ، واستقر هنالك فى بلدة أنْدَرَش ، وهى إحدى

---

(١) **Marmol : ibid ; Lib. I. Cap. XXVI**

(٢) بيترو مارتيرى دى أنجلريا **Pietro Martiri de Angleria** إيطالى النشأة ، ولد سنة ١٤٥٥ وتوفى سنة ١٥٢٥ . وكان حبراً وكاتباً كبيراً . شهد حرب غرناطة الأخيرة إلى جانب فرناندو . وكتب عن سفارته إلى مصر باللاتينية كتاباً خاصاً عنوانه **Legatio Babylonico** ؛ وقد ترجم إلى الإسبانية بعنوان **Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto** (سفارة من الملكين الكاثوليكيين إلى مصر) وقد نقلنا منه ملخص هذه السفارة حسبما تقدم. وللمارتيرى مؤلفات أخرى فى تاريخ اسبانيا فى ذلك العصر .

البلاد التى أقطعت له فى تلك المنطقة ، ليقيم فيها فى ظل ملك قشتالة وتحت حمايته ، وصحبه إلى وطنه الجديد ، كثير من الفرسان والسادة والفقهاء ، وفى مقدمتهم وزيراه يوسف بن كماشه ، وأبو القاسم عبد الملك (المليخ) ، وكانا ألصق الناس به ، وأقربهم إلى ثقته . وكانت أسرة السلطان المنفى تتألف من والدته السلطانة عائشة ، وأخته عائشة ، وزوجه مريم (أو مريمة) وولده الصغير[1] . أما أخوه الأصغر يوسف فكان قد قتل فى ألمرية أيام الفتنة بتحريض أبيه السلطان أبى الحسن حسبما قدمنا .

وكان أبو عبد الله عندئذ ، فتى فى نحو الثلاثين من عمره . وبالرغم من أننا لا نعرف بالضبط تاريخ مولده ، فإن صديقه المؤرخ القشتالى هرناندو دى بايثا ، يقول لنا إنه كان فى نحو العشرين ، يوم استطاع الفرار من سجن أبيه السلطان أبى الحسن فى سنة ١٤٨٢ (٨٨٧ هـ) ، وبذلك يكون سنه وقت تسليم غرناطة نحو الثلاثين[2] .

وقد تركت لنا الرواية القشتالية المعاصرة أيضاً ، وصفاً لشخص أبى عبدالله ، خلاصته أنه كان ممشوق القد، حسن الطلعة ، شاحب اللون ، له عينان سوداوان نجلاوان ، ولحية قوية[3] .

وعاش أبو عبد الله وآله وصحبه ، فى تلك المملكة الصغيرة الذليلة حيناً ،

---

(١) تشير بعض الوثائق المعقودة بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبد الله إلى « إخواته » مما يدل على أنه كانت له أكثر من أخت . والمرجح أن عائشة كانت كبراهن .

(٢) راجع رواية **Hernando de Baeza** القشتالية المنشورة ضمن كتاب أخبار العصر ص٦٣.

(٣) **Lafuente Alcantara: ibid, V. III. p. 74** . هذا وقد انتهت إلينا عن أبى عبد الله صورتان اسبانيتان ، كانت تحفظ إحداهما من قبل ، بمتحف قصر جنة العريف قبل إلغائه ، وفيها يبدو أبوعبد الله بوجه وسيم ولون جميل وشعر كثيف أصفر ولحية مفروقة . ويرتدى ثوباً أصفر ، يظلله حرير أسود ، وعلى رأسه قلنسوة عالية . وقد نقلت هذه الصورة فيما بعد إلى إيطاليا ، وأضحت ملكاً لبعض الأسر الخاصة . والصورة الثانية تحفظ اليوم بمتحف غرناطة المسمى **Casa de los Tiros** والمعروف أنها رسمت لأبى عبد الله حينما كان فى أسر الملكين الكاثوليكيين ، عقب موقعة اللسانة ، وهى عبارة عن لوحة صغيرة الحجم ، وفيها يبدو أبوعبد الله فتى فى عنفوانه ، بوجه عريض وأنف منسق ، وعينين خضراوين ، ونظرات حادة ، تغشاها الكآبة ، وشعر كستنى غزير ، ولحية صغيرة مفروقة . وقد رسمت حول عنقه حلقة رمزية لوقوعه فى الأسر . وقد شهدنا هذه الصورة ، أثناء وجودنا بغرناطة ، ونقلنا عنها صورة فتوغرافية هى التى نشرناها من قبل (فى ص ٢٠٧) .

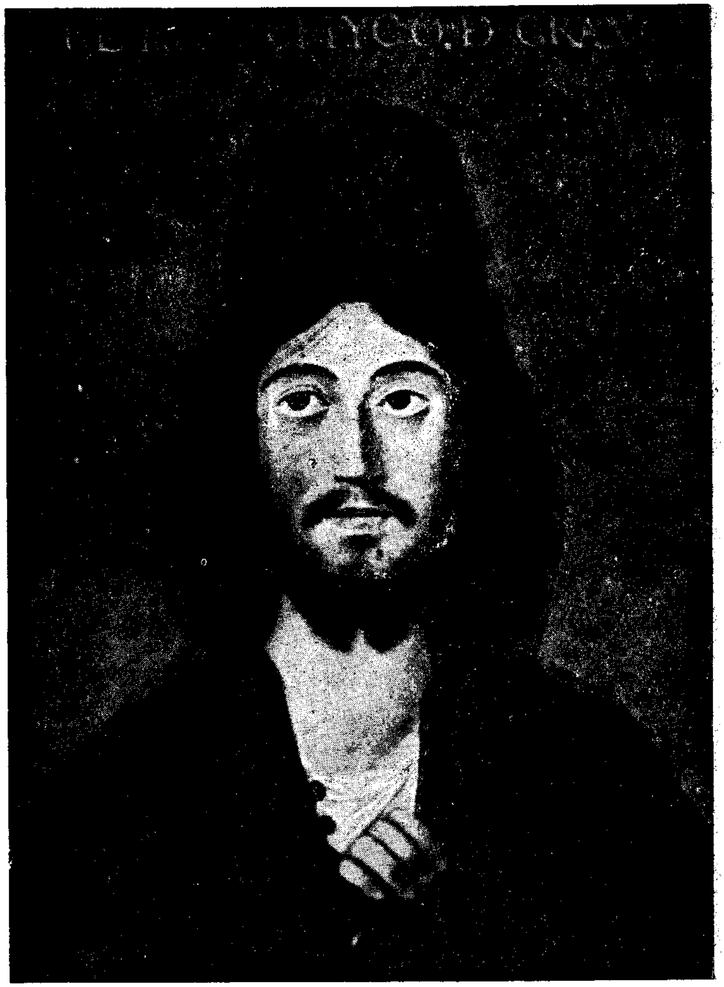

أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
عن الصورة التي كانت محفوظة من قبل بمتحف جنة العريف بغرناطة .

وأنشأ له فى أندرش بلاطاً صغيراً . وتقول لنا الرواية القشتالية ، إنه كان يعيش هنالك فى ترف ورغد ، وإنه كان يعشق الصيد ويقضى فيه كثيراً من أوقاته ، ويجوب أطراف مملكته الصغيرة فوق جواده[١] .

وكان فرناندو وإيسابيلا ، بالرغم من انتصارهما الشامل ، وقضائهما الأخير على المملكة الأندلسية ، قد لبثا يتوجسان فى أعماق نفسيهما ، من بقاء السلطان المخلوع فى الأراضى الإسبانية ، ويخشيان أن يكون مثار القلاقل والفتن ، ويتوقان إلى إبعاده وحاشيته عنها ، مبالغة فى الحيطة ، واتقاء لكل خطر ، وكان يفرضان على أبى عبد الله رقابة صارمة ، ويتلقيان أدق التقارير والأنباء ، عن حركاته وسكناته ، وكانت عينهما الساهرة على رقابته ، الوزيران الماكران يوسف بن كماشه وأبوالقاسم عبد الملك[٢] . ولم يمض على إقامة أبى عبد الله فى أندرش زهاء عام ، حتى بدأ الملكان الكاثوليكيان يسعيان سرًّا ، فى تحقيق غايتهما الأخيرة ، وكان سبيلهما إلى ذلك أيضاً ابن كماشه وأبا القاسم . ففى مارس سنة ١٤٩٣ وقعت مفاوضات جديدة بين الوزيرين ، وبين فرناندو دى ثافرا أمين الملكين الكاثوليكيين ، فى شأن مغادرة أبى عبد الله الأراضى الإسبانية ، والعبور إلى المغرب . ويقال إن أبا عبد الله لم يأذن لوزيريه فى إجراء هذه المفاوضات ، ولم يعلم بأمرها حتى تمخضت عن مشروع جديد ، يقرر فيه أبو عبد الله بتنازله عن جميع حقوقه وأملاكه ، نظير ثمن معين ، ويتعهد بالعبور إلى المغرب . ويقال إن الملك المنكود ، حينما عرض عليه ابن كماشة هذا الاتفاق ، ثار لعقده ، وكاد يبطش بوزيره ، ولكنه عاد فاستمع إلى شرح الوزير ونصحه ، بأن البقاء فى أرض العدو ، وفى ظل العبودية والهوان ، لم يبق له محل ، وأنه ليس مكفول السلامة والطمأنينة ، وأن العبور إلى أرض الإسلام خير وأبقى . هذا ولعل أبوعبد الله نفسه قد أدرك ، كما أدرك عمه مولاى الزغل من قبل ، أن تلك الحياة الذليلة التى فرضت عليه ، لا تخلق به ولا تجمل ، وأنه يستحيل عليه البقاء فى هذا الوضع المؤلم ، كتابع لملك قشتالة . وعلى أى حال فقد اقتنع أبو عبد الله ، بوجهة نظر وزيره . ولكنه أرسل أمينه ومدير شئونه أبا القاسم عبد الملك (المليخ) ، ليسعى إلى تعديل الاتفاق لمصلحته . وبعد مفاوضات جديدة ، وضع الاتفاق النهائى ، الذى قبله السلطان

---

(١) Lafuente Alcantara: ibid; V. III. p. 80

(٢) Lafuente Alcantara : ibid, V. III. p. 81

المخلوع . وخلاصته أنه يتعهد بالعبور إلى المغرب ، فى موعد أقصاه نهاية شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣ ، وأنه يتنازل عن سائر ضياعه ، فى أندرش ولوشار وبرشينا وغيرها ، وكذلك عن أملاكه الأخرى بغرناطة ، بالبيع للملكين الكاثوليكيين ، وذلك نظير ثمن إجمالى قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشتالى (كاستليانو) من الذهب الحر ، أوالدوقات المضروبة ، من الذهب الخالص . كما يتنازل أبوعبد الله عن اختصاصه المدنى والجنائى . ويحمل إليه المال قبل رحيله بثمانية أيام ، ويقدم إليه الملكان عربتين لحمل متاعه ، وسفناً ينتقل عليها مع صحبه ، إلى المغرب ، ويتضمن الاتفاق نصوصاً أخرى ببيع الأميرات لأملاكهن ، إلى الملكين الكاثوليكيين ، وكذلك ببيع الوزير ابن كماشه والوزير أبى القاسم كل لأملاكه ، نظير مقادير من المال ، وبنفس الشروط .

تلك خلاصة الإتفاق الأخير ، الذى عقد بين الملكين الكاثوليكيين ، وبين آخر ملوك الأندلس ، للتنازل عن سائر حقوقه وحقوق آله وصحبه ، ومغادرته لأرض الوطن القديم ، بصورة نهائية . ويحمل هذا الاتفاق ، تاريخ ١٥ ابريل سنة ١٤٩٣ ، وتملأ نسخته القشتالية عشر صفحات كبيرة . وهو يمتاز دون سائر الوثائق القشتالية الأخرى ، التى تتعلق بهذه الفترة ، بأنه يحمل فى ذيله موافقة أبى عبد الله بالعربية ممهورة بتوقيعه وخاتمه ، وإلى القارئ نص هذه الموافقة ، التى تدلى ألفاظها ومعانيها بكثير من العبر المؤلمة: (١)

« الحمد لله إلى السلطان والسلطانة أضيافى ، أنا الأمير محمد بن على بن نصر خديمكم ، وصلتنى من مقامكم العلى ، العقيد وفيها جميع الفصول ، الذى عقدها عنى وبكم التقديم ، من خديمى القائد أبو القاسم المليخ ، ووصلت بخط يدكم الكريمة عليها ، وبطابعكم العزيز ، كيف هيت مذكورة بهذا الذى هى تصلكم . وإنى نوفى ونحلف أنى رضيت بها ، بكلام الوفا مثل خديم جيد . وترى هذا خط يدى وطابعى أرقيته عليها ، لتظهر صحة قولى . ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعون وثمانمائة . أنا كاتبه محمد بن على بن نصر

(١) حصلنا على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة ، وهى تحفظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا **Archivo general de Simancas** برقم **P. R. 11 - 3** ، وتعرض الصفحة الأخيرة ، التى تضمنت خط أبى عبد الله ، فى قاعة المعرض بدار المحفوظات ، كما تعرض صورة مكبرة من موافقة أبى عبد الله ، بمتحف مدريد الحربى مقرونة بترجمة قشتالية .

رضيت وقبلت جميع ما فى هذا المكتوب الثابت ، وتقبل بيدى ، إلى أضيافى السلطان والسلطانة مدّ لى هنا كما » .

وهكذا اعتزم أبو عبد الله أمره ، وعول فى النهاية على مغادرة الوطن المغلوب وتوفيت زوجته أثناء ذلك ، فلم يحل الرزء دون مضيه ، فى اتخاذ أهبة الرحيل . وفى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣ ، غادر أبو عبد الله الوطن القديم ، فى غمر من الحسرات والأسى ، وجاز البحر إلى المغرب ، بأسرته وأمواله وحشمه ، من ثغر أدرة الصغيرة الواقع جنوبى برجة ، فى سفينة كبيرة أعدت لجوازه ، وعبر فى نفس الوقت من ثغر المنكب ؛ عدد كبير من الوزراء والقادة والأكابر ، من صحبه ممن آثروا الرحيل ، وبلغ جميع الذين عبروا مع الملك المخلوع ألفاً ومائة وثلاثين شخصاً (١) .

ونزل أبو عبد الله أولا فى مليلة ثم قصد إلى فاس واستقر بها(٢). وتقدم إلى ملكها السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ ، زعيم بنى وَطّاس(٣) الذين خلفوا بنى مرين فى الملك، مستجيراً به، مستظلا بلوائه ورعايته، معتذراً عما أصاب الإسلام فى الأندلس على يده ، متبرئا مما نسب إليه من إثم وتفريط فى حق الوطن والدين .

وهذا الدفاع الشهير الذى يقدمه إلينا أبو عبد الله عن موقفه وتصرفه ، هو قطعة رائعة من الفصاحة السياسية والبيان الساحر ، وهو يدل فى روحه وقوته وروعته ، على فداحة التبعة التى شعر آخر ملوك الأندلس أنه يحملها أمام الله والتاريخ ، وأمام الأمم الإسلامية والأجيال القادمة كلها ، وعلى أن هذا الأمير المنكود لم يرد أن ينحدر إلى غمر النسيان والعدم ، محكوماً عليه دون أن يبسط للتاريخ قضيته ، فيصدر حكمه فيها على ضوء أقواله ودفاعه .

وقد كتب هذا الدفاع الشهير ، الفريد فى التاريخ الإسلامى، على لسان أبى عبد الله

---

(١) **Lafuente Alcantara: ibid, V. III. p. 81** . ويقول صاحب أخبار العصر إن الذين رحلوا مع أبى عبد الله بلغوا نحو سبعمائة فقط (طبعة تطوان ص ٤٧) .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٧ و ٧١ .

(٣) هم بطن من بطون بنى مرين . وقد ظهروا فى بداية أمرهم بتولى الوزارة ، ونشأت بينهم وبين بنى مرين فيما بعد خصومة ومنافسة . وقام كبيرهم ومؤسس دولتهم أبو عبد الله محمد الشيخ بن زكريا أولا فى ثغر آصيلا ، واستفحل أمره ثم زحف على فاس واستولى عليها فى سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧٢ م) ثم غلب على سائر الجهات والقبائل المحيطة بها، وقامت فوق أنقاض ملك بنى مرين دولة مغربية جديدة .

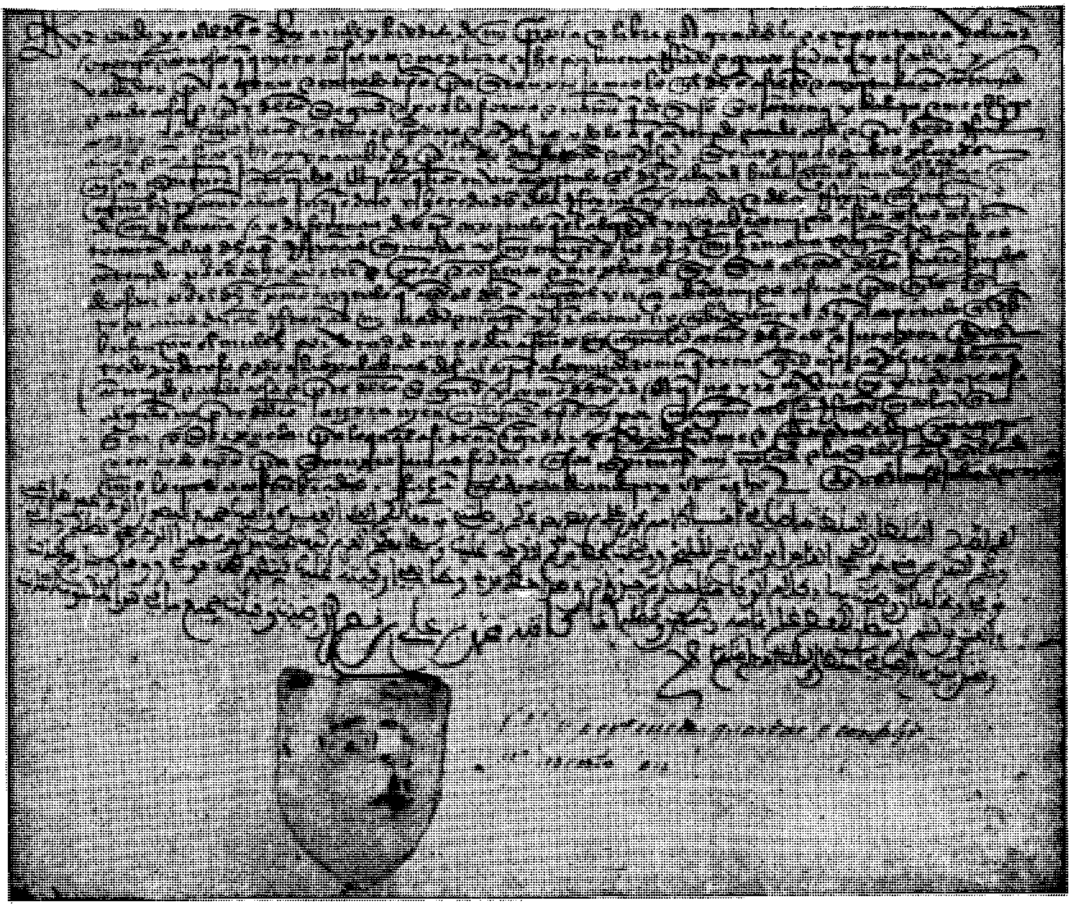

ذيل المعاهدة النهائية التى عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبد الله بتاريخ ١٥ ابريل سنة ١٤٩٣ وفيها يتعهد ببيع أملاكه ومغادرة اسبانيا نهائياً . وقد ذيل عليها أبوعبد الله بخطه بالقبول ، وبصمها بخاتمه وذلك بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨ هـ (٧ أغسطس سنة ١٤٩٣) . والأصل محفوظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا برقم P.R. 11-3

وزيره وكاتبه ، محمد بن عبد الله العربي العقيلي ، فى رسالة مستفيضة قوية مؤثرة ، موجهة إلى ملك فاس ، وجعل لها عنواناً شعرياً مشجياً هو : « الروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » . وقد كان العقيلي من أعلام البلاغة فى هذا العصر .

ولما عول أبو عبد الله على الرحيل إلى المغرب جاز العقيلي البحر مع أميره ، وجازت قبل سقوطه غرناطة وبعده إلى المغرب جمهرة كبيرة من أقطاب العلم والأدب ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى[1]. وللعقيلي آثار فى النظم والنثر ، تبدو لروعتها كأنها نفثات أخيرة ، لآداب الأندلس المحتضرة ، وكان دفاع أبي عبد الله من أبدعها وأروعها .

ونقل إلينا المقرى مؤرخ الأندلس هذا الدفاع الشهير بنصه فى مؤلفه الجامع « نفح الطيب » ، وكذلك فى كتابه « أزهار الرياض »[2]. وقد قدم له كاتبه بعد الديباجة بقصيدة رائعة جاء فى مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا وأنت نعم الجار لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً ... وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
وهى الليالى وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد فى الأجم
كنا ملوكاً لنا فى أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صُيُبٌ ... يُرمى بأفجع حتف من بهن رُمى
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا ... وأى ملك بظل الملك لم ينم
يبكى عليه الذى كان يعرفه ... بأدمع مزجت أمواهها بدم

ومنها فى التوسل والاعتذار وهو لب موضوعها :

وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت ... فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
وابسط لنا الخلق المرجو باسطه ... واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم ... نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم
فما أطقنا دفاعاً للقضاء وما ... ارادت انفسنا ما حل من نقم

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ — ٦٢٨ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٧٢ — ١٠٢ .

ولا ركوباً بإزعاج لسابحة   فى زاخر بأكنف الموج ملتطم
والمرء مالم يعنه الله أضيع من   طفل تشكى بفقد الأم فى اليتم
وكل ماكان غير الله يحرسه   فإن محروسه لحم على وضم

* * *

ولا تعاتب على أشياء قد قدرت   وخط مسطورها فى اللوح بالقلم
وعدّ عما مضى إذ لا ارتجاع له   وعُد أحرارنا فى حُملة الخدم
إيه حنانيك يابن الأكرمين على   ضيف ألم بفاس غير محتشم
فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت   بنا إليها خطا الوخادة الرسم
رحماك يا راحماً ينمى إلى رُحما   فى النفس والأهل والأتباع والحشم
فكم مواقف صدق فى الجهاد لنا   والخيل عالكة الأشداق للجم
والسيف يخضب بالمحمرّ من علق   ما ابيضّ من سبل واسود من لمم
ولا ترى صدر عضب غير منقصف   ولا ترى متن لدن غير منحطم
حتى دهينا بدهيا لا اقتدار بها   سوى على الصون للأطفال والحرم

* * *

تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا   ولا طوت صحة منها على سقم
لكن طلبنا من الأمر الذى طلبت   ولاتنا قبلنا فى الأعصر الدهم
فخاننا عنده الجدُّ الخئون ومن   تقعد به نكبات الدهر لم يقم
فاسود ما اخضر من عيش دهته عِدا   بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخذِم
وشتت البين شملا كان منتظماً   والبين أقطع للموصول من جلَم
فرب مبنى شديد قد أناخ به   ركب البلا فقرته أدمع الدِّيَم
قمنا لديه أصيلانا نسائله   أعيا جوابا وما بالربع من أرم
وما ظننا بأن نبقى إلى زمن   نرى به غرر الأحباب كالحُمم
لكن رضاً بالقضا الجارى وإن طويت   منا الضلوع على برح من الألم
لبيك يا من دعانا نحو حضرته   دعاء ابراهيمَ الحجاج للحرم
وأعط الأمن الذى رصت قواعده   على أساس وفاء غير منهدم
خليفة الله وافاك العبيد فكن   فى كل فضل وطَوْل عند ظنهم
وبين أسلافنا ما قد علمت به   من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم
وأنت منهم كأصل مطلع غصنا   أو كالشراك الذى قد قدّ من أدم

وقد خطوت خطاهم فى مآثرهم فلم يُذمُّوا إذن فيها ولم تُذم

وهى طويلة فى أكثر من مائة بيت ، وفيها يعطف الشاعر بعد ذلك على مديح ملوك فاس ، وجهادهم فى الأندلس ، والإشادة بعلائقهم القديمة مع بنى الأحمر ملوك غرناطة ، ومما يقول فى ذلك :

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم من عصمة الله ما يربى على العِصم
بأس تطير شرار منه محرقة لكل مدَّرع بالحزم محتزم
هم بطائفة التثليث قد فتكوا كمثل ما يفتك السرحان بالغنم
وإن يلثِّمهم يوم الوغى رهج أنسوْك ما ذكروه عن ذوى اللُّثُم
تضىء آراؤهم فى كل معضلة إضاءة السُّرج فى داج من الظلم
هذا ولو من حياء ذاب محتشم لذاب منهم حياءً كل محتشم
طابت مدائحهم إذ طابت انفسهم فاشتقت النسمات اسما من النَّسم

وفى مديح السلطان القائم أبى عبد الله الوطاسى قوله :

أنسى الخلائف فى حلم وفى شرف وفى سخاء وفى علم وفى فهم
فجاز معتمداً منهم ومعتضداً وامتاز عن قائم منهم ومعتصم
وناصر الدين فى الإقبال فاق وفى محبة العلم أزرى بابنه الحكم
أفعال أعدائه معتلة أبداً متى يرم جزمها بالحذف تنجزم

ويلى هذه القصيدة الطويلة دفاع أبى عبد الله المنثور ، فى أسلوب يفيض قوة وبياناً ، وفيه يشير أبو عبد الله إلى حوادث الأندلس ، ويعتذر عن محنته ، ويعترف بخطئه فى عبارات مؤثرة ، ويقول بعد الديباجة موجهاً خطابه إلى سلطان فاس:

« هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم ، وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم . وماذا الذى يقول من وجهه خجل ، وفؤاده وجل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل . بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربى ، واجترائى عليه أكثر ، واجترامى إليه أكبر : اللهم لا برىء فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، لكنى مستقيل مستنيل ، مستعتب مستغفر ، وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » .

« على أنى لا أنكر عيوبى ، فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى فأنا جبل الذنوب ، إلى الله أشكر عُجرى وبُجرى وسقطاتى وغلطاتى ... » .

بيد أنه يدفع عن نفسه تهم التفريط والزيغ والخيانة ويقول:

« فمثلى كان يفعل أمثالها ، ويحمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها ، عياذاً بالله من خسران الدين ، وإيثار الجاحدين والمعتدين ، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . وايم الله لو علمت شعرة فى فودى تميل إلى تلك الجهة لقلعتها ، بل لقطفت ما تحت عمامتى من هامتى وقطعتها . غير أن الرعاع فى كل وقت وأوان ، للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ... وأكثر ما تسمعه الكذب ، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله إليه منجذب ، ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار ، ورمينا بما لا يرمى به الكفار ، فضلا عن الفجار ، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ، ما لكم منه حفظ الجبار ... أكثر المكثرون ، وجهد فى تعثيرنا المتعثرون ، ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا فى سلك الملاحدة . أكفراً أيضاً كفراً ، غفراً اللهم غفراً . وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا ، فطاردنا فى سبيله عُداة كانوا لنا غائظين ، فانفتق علينا فتق لم يمكنا له رتق ، وما كنا للغيب حافظين » .

ثم يقول أبو عبد الله ، لئن كان قد نزل به القضاء فثلّ عرشه ، ونُكس لواؤه ، ومُلِك مثواه ، فهو مِثْل من سواه فى ذلك . ولئن كان مروعاً مصير غرناطة ومصير ملكها وأنجادها ، فإنها لم تنفرد بين قواعد الإسلام بذلك المصير المحزن . ألم يقتحم التتار بغداد ، عروس الإسلام ومثوى الخلافة ، ومهد العلوم ، ويستبيحوا ذمارها وحُرَمها ، ويسحقوا الخلافة وكل معالمها ورسومها ؟ وماذا كانت تستطيع غرناطة إزاء قدر محتوم ، وقضاء لا مرد له ؟ « والقضاء لا يرد ولا يصد ، ولا يغالب ولا يطالب ، والدائرات تدور ، ولابد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيع لا مطاع ، وليس يطاع إلا المستطاع ، وللخالق القدير جلت قدرته ، فى خليقته علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع » .

ثم يعطف إلى التجائه إلى ساحة السلطان بقوله : « وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً ، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً ، ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجناب ، المتفتح حين سدت الأبواب ، ولم نلبس غير لباس نعمائكم ، حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب . وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان ، ووجه الله تعالى يبقى ، وكل من عليها فان » .

ويشير أبو عبد الله إلى رفضه لما عرضه عليه ملك اسبانيا ، من الإقامة فى كنفه

وتحت حمايته فيقول : « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه ، المؤكد فيه خطه بإيمانه ، ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصُّفر ، ولا سوغ لنا الإيمان ، الإقامة بين ، ظهرانى الكفر ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة ، وأمنّا من المطالب المشاغب ، حمة شر لنا لاسعة » .

ثم يشير إلى أنه تلقى كذلك دعوات كريمة من المشرق للذهاب والإقامة ، ولكنه آثر الجواز إلى المغرب ، دار آبائه من قبل ، وملاذهم دائماً عند النوائب ، ولم يرتض سوى الانضواء إلا لذلك الجناب ، أعنى سلاطين المغرب ، الذين أوصى آباؤه وأجداده بالانضواء إليهم ، وقت الخطر الداهم .

ويختم أبو عبد الله دفاعه برثاء مؤثر لملكه ومصيره فيقول : « ثم عزاء حسناً وصبراً جميلا ، عن أرض أورثها من شاء من عباده ، معقباً لهم ومديلا ، سادلا عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولا ، « سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » ، فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيراً ، كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ، ولم نستطع عن مورده صدوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

ويعود أبو عبد الله بعد هذا الدفاع المستفيض المؤثر ، إلى الإشادة بخلال سلاطين فاس ومآثرهم ، ويقرر أنه يضع نفسه تحت حماية السلطان ورعايته منتظماً فى سلك أوليائه ، متشرفاً بخدمة عليائه » ، ليقضى بقية عمره فى كنفه مصوناً من المخاطر والضيم .

* * *

تلك خلاصة الدفاع الشهير الذى تركته آخر ملوك الأندلس للخلف من بعده. وهو دفاع حار مؤثر يذكرنا بتلك الإعتذارات الشهيرة (أبولوچيا) ، التى لجأ إليها الأقدمون فى ظروف مختلفة ، لتبرير بعض المواقف والآراء . وفيه يقف أبو عبد الله موقف المذنب البرىء معاً ، فهو لا يتنصل من جميع الأخطاء ، ولكنه يتنصل من تبعة ما حدث ، ويصور نفسه قبل كل شيء ضحية القدر ، ويدفع عن نفسه بالأخص تهمة التفريط والخيانة والزيغ . فإلى أى حد تتفق هذه الصورة مع الحقيقة ، ومع منطق الحوادث والظروف التى وقعت فيها المأساة ؟ لقد تبوأ أبو عبد الله عرش غرناطة لأول مرة وهو فتى فى الحادية والعشرين ، ثم عاد إلى تبوئه بعد ذلك بعدة أعوام ، وكان جلوسه فى كل مرة نتيجة حرب أهلية مخربة

طاحنة . وقد نشأ هذا الأمير الضعيف فى بلاط منحل ، يضطرم بصنوف الدس والخصومة ، ولم تهيئه تربيته وصفاته للاضطلاع بمهام الملك الخطيرة ، ولاسيما فى مثل تلك الظروف الدقيقة ، التى كانت تجوزها مملكة محتضرة . أجل كانت الأندلس تسير إلى قدرها المحتوم ، قبل المأساة ببعيد ، ولم يك ثمة شك فى مصير غرناطة ، بعد أن سقطت جميع القواعد الأندلسية الأخرى فى يد العدو القوى الظافر ؛ ولكن ليس من شك أيضاً فى أن الأواخر من ملوك غرناطة ، يحملون كثيراً من التبعة ، فى التعجيل بوقوع المأساة . فنحن نراهم يجنحون إلى الدعة والخمول ، ويتركون شئون الدفاع عن المملكة ، ويجنحون إلى حروب أهلية يمزق فيها بعضهم بعضاً ، والعدو من ورائهم متربص ومتوثب يرقب الفرص . وقد كان هذا شأن مملكة غرناطة وشأن بنى الأحمر ، ولاسيما منذ أوائل القرن التاسع الهجرى أو أوائل القرن الرابع عشر الميلادى . ومنذ عهد الأمير على أبى الحسن ، تبلغ الحرب الأهلية ذروتها الخطرة ، ويغدو مصير المملكة الإسلامية رهين رحمة القدر ، وقد شاء القدر أن يكون السلطان أبوالحسن ، وأخوه الأمير محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وولده أبو عبد الله محمد أبطال المأساة الأخيرة ، حملتهم نفس الأطماع والأهواء الخطرة ، فانحدروا إلى معترك الحرب الأهلية ، وشغلتهم الحرب الأهلية طول الوقت عن أن يقدروا حقائق الموقف ، وأن يستشعروا الخطر الداهم ، وأن يستجمعوا قواهم المشتركة لمواجهة العدو المشترك ، وانحدر أبوعبد الله إلى أخطر ما فى هذه المعركة المميتة من وسائل الإغراء والتفوق ، فجنح إلى محالفة العدو الخالد ، ولم يحجم عن أن يستعدى ملك النصارى على أبيه وعمه ، كى ينتزع الملك لنفسه ، فلما ظفر بعرش غرناطة بمؤازرة ملك قشتالة ، لم يكن سوى صنيعته وأسير وحيه . وكان عمه الزغل قد بسط سلطانه على الأنحاء الشرقية والجنوبية ، فلم يحجم عن مهاجمته فى نفس الوقت الذى هاجمه فيه ملك النصارى لينتزع منه ما تحت يده ، وكان الزغل فى الوقع بطل المعركة الأخيرة ، وقد أبدى فى مقاومة العدو بسالة رائعة خلدتها سير العصر ؛ ولم يشعر أبوعبد الله بفداحة خطئه ، إلا حينما تحول إليه حليفه الغادر ملك قشتالة بجيشه الضخم ، ليحاصر غرناطة ويضربها الضربة الأخيرة ، وكانت قوى غرناطة ومواردها قد بددت فى حروب أهلية عقيمة ، فلم يغن دفاعها شيئاً أمام القوة القاهرة والقدر المحتوم ، فكانت النكبة ، وكانت الخاتمة المؤسية .

ولم يكن موقف أبى عبد الله خلال تلك اللحظات الحاسمة فى مصيره ومصير أمته ، سوى موقف الأمير الضعيف المتخاذل ، الذى يسعى إلى سلامة نفسه وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ذلك التراث العريض الذى أصبح وشيك الزوال ، وهو موقف لم يكن بلا شك مشرفاً ، ولا متفقاً مع مقتضيات البسالة والتضحية والشهامة .

أليس لنا بعد ذلك أن نحكم على آخر ملوك الأندلس ؟ إن أبا عبد الله يحمل أمام الله والتاريخ تبعة لا ريب فيها . بيد أنه من الحق أيضاً أن نقول إنها ليست تبعة الخيانة المقصودة أو الجريمة العمد ، بل هى تبعة « التفريط » ، والتخاذل ، والخطأ ، وعدم التبصر فى العواقب .

على أن أبا عبد الله ، مع ما يستحقه من لوم التاريخ وإدانته على النحو المتقدم ، يستحق فى نظرنا تقديراً خاصاً ، لما وفق إليه من الاحتفاظ بدينه ودين آبائه وأجداده . والواقع أن فداحة المحنة التى نزلت به ، وظروف الإغراء التى كانت تحيط به ، والتى حملت بعض أكابر الزعماء والقادة المسلمين على التنصر ، حسبما نوضح بعد ، وسعى الملكين الكاثوليكيين المتعصبين إلى تنصير من يمكن تنصيره من الزعماء المسلمين بكل الوسائل : هذه الظروف كلها كانت خليقة بأن تحمل أبى عبد الله على الاستجابة إلى دواعى التحريض والإغراء فتزل قدمه إلى الدرك السحيق الذى انحدر إليه بعض قادته ووزرائه ، ولكنه استطاع أن يخرج من هذه الغمار معتصماً بدينه المتين ، وهو ما يشير إليه بحرارة فى دفاعه المتقدم .

* * *

استقر أبو عبد الله بعد جوازه إلى فاس فى ظل بنى وَطَّاس ، وشيد بها قصوراً على طراز الأندلس ، رآها وتجول فيها المقرى مؤرخ الأندلس بعد ذلك بنحو قرن وربع (١٠٢٧ هـ — ١٦١٨ م)(١) . ويروى أنه لما نزل أبو عبد الله وصحبه مدينة فاس ، أصابت الناس بها شدة عظيمة من الجوع والغلاء والوباء ، حتى غادرها كثير من أهلها ، ورجع بعض الأندلسيين إلى بلادهم ، وتقاعس كثير منهم عن الجواز إلى المغرب خوف الشدة والفاقة(٢) . وعاش الملك المخلوع فى منفاه طويلا يجرع كأسه المرة حتى الثمالة ، ويتقلب فى غمر الحسرات والذكريات المفجعة ، ويشهد خلال هذه الفترة المؤلمة ، جهود السياسة الإسبانية فى سحق

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .
(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٨ .

الإسلام بالأندلس ، وسحق مدنيته وكل رسومه وآثاره ، ويشهد يد الفناء والمحو ، تعمل لاستئصال هذا الشعب الأندلسي النبيل التالد ، من الأرض التي لبث يرعاها ثمانية قرون ، وينثر في أرجائها فيض عبقريته .

وتختلف الرواية في تاريخ وفاة أبي عبد الله اختلافاً بيناً . فيقول لنا المقرى في « نفح الطيب » ، إنه توفى بفاس سنة أربعين وتسعمائة (١٥٣٤ م) وإنه « دفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة »(١) . ثم يعود في « أزهار الرياض » فيقول إنه توفى بفاس في سنة أربعة وعشرين وتسعمائة (١٥١٨ م)(٢) . وتذكر لنا الرواية القشتالية القريبة من ذلك العصر أن أبا عبد الله توفى قتيلا في موقعة أبي عقبة الشهيرة التي نشبت بين السلطان أحمد أبي العباس الوطاسي حفيد أبي عبد الله محمد الوطاسي ، وبين خصومه السعديين الأشراف الخوارج عليه ، واشترك فيها أبو عبدالله محارباً إلى جانب أصدقائه وحماته الوطاسيين . وقد حدثت هذه الموقعة في سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦م) وهزم فيها بنو وطاس هزيمة شديدة(٣) ، فاذا صحت هذه الرواية(٤) ، فإن أبا عبد الله يكون قد توفى في نحو الخامسة والسبعين من عمره . بيد أننا نرجح رواية المقرى الأولى ، وهي أن أبا عبد الله توفى بقصره في فاس سنة ٩٤٠ هـ . أما روايته الثانية ، وهي أنه توفى في سنة ٩٢٤ هـ ، فالمرجح أنها تحريف رقمي للأولى . وترك أبوعبد الله ولدين هما أحمد ويوسف ، واستمر عقبه متصلا معروفاً بفاس مدى أحقاب ، ولكنهم انحدروا قبل بعيد إلى هاوية البؤس والفاقة . ويذكر لنا المقرى أنه رآهم وتتبع أخبارهم حتى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٨م) ، وأنهم كانوا معدمين يعيشون من أموال الصدقات (٥) .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ ؛ ويتابع السلاوى المقرى في روايته (الإستقصاء ج ٢ ص ١٦٨) .

(٢) أزهار الرياض ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣) الإستقصاء ج ٢ ص ١٧٧ .

(٤) هذه هي رواية **Luis del Marmol** في كتابه **Rebeliôn y Castigo de los Moriscos:** **Lib. I. Cap. XXI** ، ويعلق هذا المؤرخ على هذه الرواية قائلا : « ومن سخرية القدر أن يموت هذا الملك دفاعا عن مملكة أخرى ، بينما هو لم يجرؤ أن يموت دفاعا عن مملكته » . وينقل هذه الرواية عنه كثير من المؤرخين الإسبان والبرتغاليين . راجع **Lafuente Alacantara; ibid;V. III. p. 84** . وينقل صاحب الإستقصاء هذه الرواية عن مؤرخ برتغالي (ج ٢ ص ١٦٨) . وينقلها واشنطن ايرفنج في الملحق الخاص بأبي عبد الله في آخر كتابه : **Conquest of Granada**

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

ولم نعثر على تاريخ وفاة الأميرة الباسلة عائشة الحرة والدة أبى عبد الله ، ولابد أنها توفيت قبله بمدة طويلة .

ويعرف أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بأبى عبد الله، الغالب بالله وهى شعار سائر ملوك غرناطة ، ويعرف فى الرواية الإسبانية ، بمحمد الحادى عشر ، وبالملك الصغير El Rey Chico ، تمييزاً له من عمه أبى عبد الله الزغل ، ويلقب أيضاً بالزغيبي ومعناها المنكود أوعاثر الجد، تنويهاً بأحداث حياته المؤسية . وبما أصاب الإسلام على يديه من الخطوب والمحن[1].

— ٣ —

ولابد لنا قبل أن نختتم الكلام على تلك الصفحة المؤسية من تاريخ الأندلس ، أن نتحدث عن ذلك الصرح الخالد الذى مازال رمزاً حياً لتلك المأساة المفجعة، التى اختتمت بين جدرانه الصامتة ، واقترنت باسمه إلى الأبد ، ونعنى بذلك حمراء غرناطة ، ذلك الصرح الذى يمثل فى تاريخ الأندلس عصراً بأسره ، وحضارة بأسرها ، والذى ما يزال يثير بجلاله وروعته ، كثيراً من المواقف والذكريات الخالدة .

لبثت حمراء غرناطة زهاء قرنين عنواناً لمجد الإسلام ودولته ، وملاذاً ساطعاً للحضارة الأندلسية ، التى كانت أنوارها الباهرة تشع فى أرجاء أوربا ، خلال حلك العصور الوسطى ، فلما أشرفت الدولة الإسلامية على الفناء ، غدت حمراء غرناطة قبرها الأخير ، وطوت بين جدرانها صفحتها المجيدة . ومازالت الحمراء وساحاتها الشاسعة ، وأبهاؤها الفخمة ، وأبراجها الشامخة ، منذ أكثر من أربعة قرون عنواناً للمجد الذاهب ، وشاهداً صامتاً لجليل الحوادث والذكريات .

وتاريخ الحمراء هو تاريخ الصروح والهياكل العظيمة ، التى تتبوأ مقامها الراسخ فى تاريخ الدول التى شادتها ، والعصور التى شهدتها ، فهو جزء لا ينفصل من تاريخ الأندلس ، كما أن قصر الفاتيكان جزء لا ينفصل من تاريخ البابوية . وما تاريخ الحمراء وسير بناتها وسادتها ، إلا تاريخ مملكة غرناطة ، وما الحمراء ذاتها ، وما تعرضه من روعة فى الصنع والإنشاء ، وما تحوى من بدائع الفن والزخرف ، إلا صفحة جامعة من تاريخ الحضارة الأندلسية ، فالسائح المتأمل فى جنبات هذا

---

(١) الزغيبى مصغر « زغبى » ، ومعناها فى لغة أهل غرناطة : المنكود أو التعيس . ومعناها وفقاً لمارمول « التعس الصغير » « الرجل المسكين » Le petit Malheureux : Le pauvre Homme (راجع دوزى . Supp. aux Dict. arabes p. 594) .

الصرح الخالد ، لا يسعه إلا أن يرتد بذهنه إلى الماضى البعيد ، فيذكر قصة أمة مجيدة ، كانت سيدة هذه الأرض والمهاد ، وحضارة زاهرة كانت تفيض على هذه الأرض والمهاد ، عظمة ونعماء ونوراً .

وللحمراء تاريخ قديم يرجع إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أيام الدولة الإسلامية الكبرى . وقد كانت يومئذ قلعة متواضعة . وتتحدث الرواية الأندلسية المعاصرة عن قلعة بنيت على ضفة نهر حدرُّه El Darro اليسرى ، تسمى قلعة الحمراء ، وتذكرها بالأخص أيام الحروب الأهلية التى اضطرمت فى منطقة غرناطة ، بين المولدين والبطون العربية ، ومما قاله شاعر من شعراء ذلك العصر هو عبد الله العبلى ، فى الإشارة إلى فتن غرناطة وإلى قلعة الحمراء :

منازلهم منهم قفـار بلاقـع تجارى السَّفا فيها الرياحُ الزعازع
وفى القلعة الحمراء تبديد جمعهم وفيهـا عليهم تستدير الوقائع
كما جدَّلت آباءهم فى خلائها أسنتها والمرهفـاتُ القواطع

ولما تولى باديس بن حبُّوس زعيم البربر حكم غرناطة ، واتخذها قاعدة لملكه فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، أنشأ سوراً ضخماً حول التل الذى تقع عليه القلعة المذكورة ، وأنشأ فى داخله قصبة (قلعة) اتخذها مقاماً له ، ومركزاً لحكومته ، وسميت بالقلعة الحمراء ، تجديداً لاسمها القديم . ثم زيد فى القلعة ، واتسع نطاقها بمضى الزمن ، وغدت حصن غرناطة وقصبتها أو بعبارة أخرى معقلها الرئيسى .

ولما غلب محمد بن الأحمر على غرناطة فى سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨م) ، أنشأ فوق هذا الموقع القديم ، وداخل الأسوار ، حصنه أو قصره الذى أطلق عليه اسم الحمراء ، وجلب له الماء من نهر حدرُّه ، واتخذه قاعدة للملك ، وأنشأ فيه عدة أبراج منيعة منها البرج الكبير المسمى برج الحراسة Torre de la Vela ، والبرج المقابل له ، وأنشأ له سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة . والظاهر أنه بنى مسكنه فى الجنوب الغربى من الحصن ، أعنى فى نفس المكان الذى يقوم عليه قصر الإمبراطور شرلكان .

ومن المرجح أن اسم الحمراء يرجع إلى قيام قصر ابن الأحمر فوق أطلال قلعة الحمراء القديمة ، وليس إلى تسميته باسمه . وقد ذكر البعض أن إطلاق اسم الحمراء على صرح غرناطة الملكى يرجع إلى احمرار أبراجه الشاهقة ، أو إلى لون الآجر الأحمر الذى بنيت به الأسوار الخارجية . وقيل أيضاً إن التسمية ترجع إلى لون المشاعل الحمراء التى كان يجرى البناء ليلا على ضوئها . ولكنا نؤثر الأخذ

بالتعليل الأول فهو أقوى وأرجح . وما زالت ثمة بجوار قصر الحمراء أطلال القلعة القديمة تحمل إلى اليوم اسم « قلعة الأبراج الحمراء » Castillo de Torres bermejas وهو ما يؤيد صحة هذا التعليل لاسم « الحمراء »[1] .

واستمر فى البناء من بعد محمد بن الأحمر ، ولده محمد الفقيه الملقب بالغالب بالله ، فأنشأ الحصن والقصر الملكى فى أواخر القرن السابع الهجرى ، وأنشأ حفيده محمد إلى جانب القصر فى الجنوب الشرقى منه ، مسجداً بديعاً افتن فى ترقيشه وزخرفته[2] فى المكان الذى تحتله اليوم كنيسة سانتا ماريا ، التى بنيت فى القرن السابع عشر ؛ ولم يبق اليوم من آثار مسجد الحمراء سوى مصباح برونزى فخم محفوظ بمتحف مدريد الوطنى .

وقد بنيت معظم أجنحة الحمراء الملكية فى القرن الرابع عشر فى عهد السلطان أبى الوليد إسماعيل ، وولده يوسف أبى الحجاج ، وابنه محمد الغنى بالله . ولسنا نعرف شيئاً محققاً عن المهندسين أو الفنانين الذين قاموا على إنشائها . وتدين الحمراء بفخامتها الرائعة إلى السلطان يوسف أبى الحجاج ، الملك الشاعر والفنان الموهوب ، فقد زاد فى القصر زيادة كبيرة ، وأكمل بهو قمارش الضخم ، والبرج الشاهق الذى يعلوه ، وأسبغ عليه روائع الفن والزخرف ، وأنشأ العقد الشاهق الذى يكون مدخل القصر الرئيسى ، وهو المسمى « باب الشريعة » وهو يحمل فوق عقده ، اسمه وتاريخ إنشائه (٧٤٩ هـ — ١٣٤٨م) . وكان اسم الحمراء يطلق على هذه المجموعة الملكية الفخمة كلها .

وتقع أبنية الحمراء فوق هضبة مرتفعة يبلغ طولها ٧٣٦ متراً وعرضها نحو مائتى متر ، وتشغل نحو خمسة وثلاثين فداناً . ويحيط بالحمراء سور ضخم يتخلله ثلاثة عشر برجاً ، بقى منها إلى اليوم عدة ، منها برج قمارش وهو أعظمها ، وبرج السلاح ، وبرج المتزين ، وبرج العقائل ، وبرج الأسيرة وغيرها[3] . ويجرى

---

(١) راجع المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ج ٢ ص١٢٥ ، ومقدمة المستشرق جاينجوس لأطلس « الحمراء » Alhambra الذى تقدمت الإشارة إليه ، ص ٥ الهامش وص ٧ و ٨ . وراجع أيضاً المستشرق سيبولد فى Ency. de l'Islam تحت كلمة Alhambra

(١) اللمحة البدرية ص ٥٠ . وراجع الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٥٥٤ و٥٥٥ .

(٣) وهى بالإسبانية على التوالى 'Torre de Comares' 'T. de las Armas' 'T. del Peinador' 'T. de las Damas' T. de la Cautiva وفيما عدا برج قمارش ، فإن هذه الأسماء كلها من تسمية الإسبان .

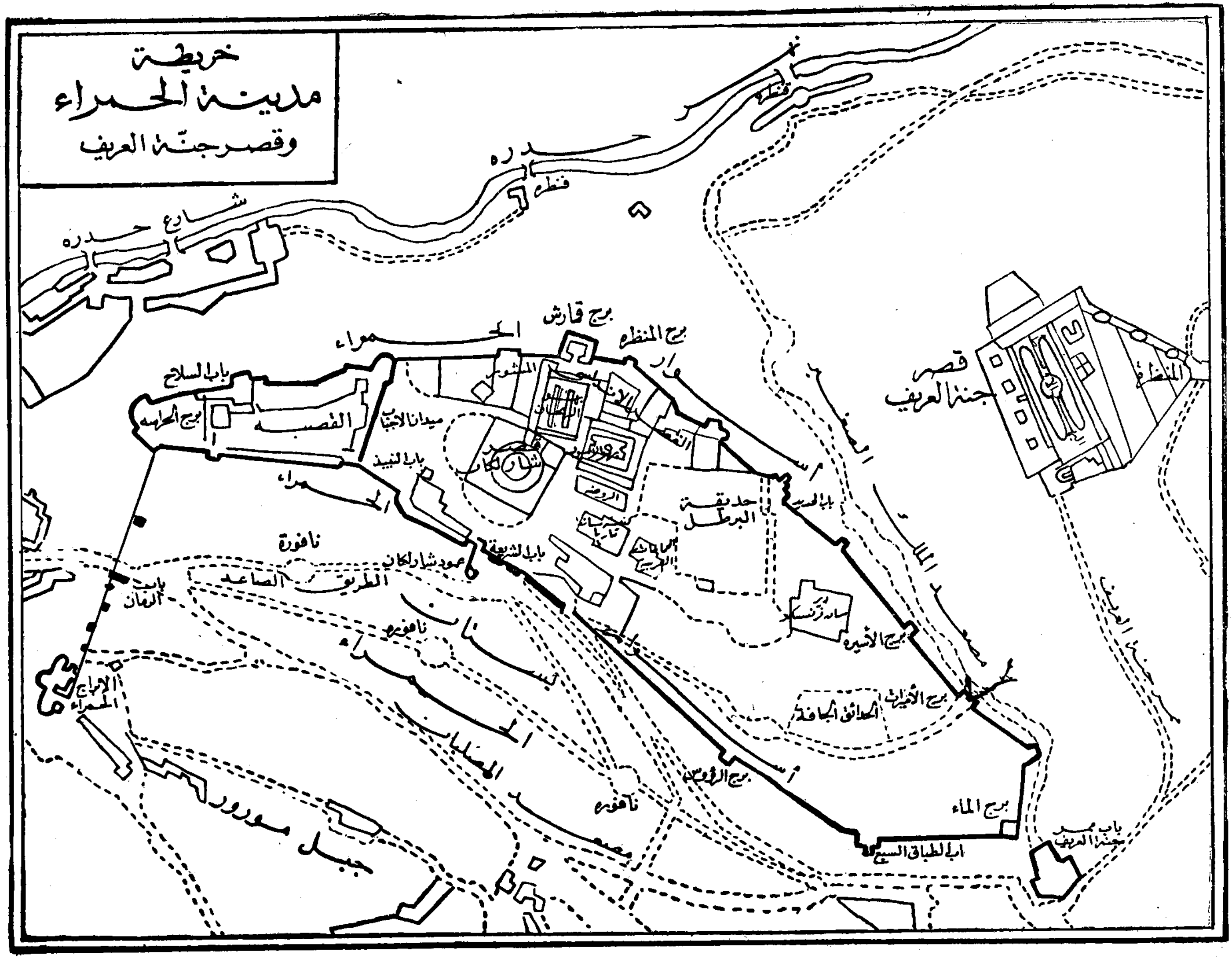
خريطة
مدينة الحمراء
وقصر جنة العريف
شارع حدره
حدره
قنطرة
برج قارش
برج المنظر
الحمراء
باب السلاح
برج الحراسه
القصبة
ميدان الاجباب
باب النبيذ
حديقة البرطل
باب الشريعة
عمود شارلكان
نافورة
الطريق الصاعد
باب الرمان
نافوره
الابراج الحمراء
جبل مورور
برج الأسيره
برج الأميرات
الحدائق الجافة
برج الرؤوس
برج الماء
باب الطباق السبع
قصر جنة العريف
باب جنة العريف

نهر حدرُه فى الوادى الواقع فى غربها، وقد جف اليوم مجراه وغطى معظمه. وموقع الحمراء ذو جمال طبيعى نادر، فهى تشرف من الشمال والغرب إشرافاً شاملا على المدينة وعلى فحص غرناطة La Vega، وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سيرّا نفادا (جبل شُلير). ولم يبق اليوم من قلعة الحمراء التى كانت تشغل منحدر الهضبة فى الشمال الغربى، سوى أسوارها الخارجية وأبراجها. وأما القصر الملكى فقد بقيت معظم أجزائه. ويعتبر قصر الحمراء من أبدع الآثار الإسلامية التى أبقت عليها حوادث الزمن، وليس له مثيل فى الحسن والروعة من حيث عمده الرخامية الرائعة، وعقوده، وسقوفه ذات الزخرف البديع؛ ويغمره الضوء والهواء بوفرة، ويبدو فى مجموعه فى منتهى الظرف والإناقة. ويقع إلى جنوب الهضبة وشرقها بستان عظيم من صنع الإسبان، تتخلله طرق حديثة صاعدة، وقد كان مكانه أيام المسلمين الساحة المعروفة بالسبيكة، وهو يغص أيام الربيع والصيف بالبلابل، ويتخلله خرير الماء المتدفق عن عدد كبير من الجداول والنوافير، وكان يجاور الحمراء أيام المسلمين حدائق منزرعة بأشجار البرتقال والورود والريحان. ويُدخل إلى هضبة الحمراء من بابها الرئيسى المسمى «باب الرمان» Puerta de Granadas وهو من صنع الإسبان، وقد بنى أيام الإمبراطور شرلكان، وهو عبارة عن عقد حجرى ضخم، نصبت فى أعلاه ثلاث رمانات صخرية على هيئة مثلث. ثم تسير فى طريق صاعدة حتى «باب الشريعة» وهو مدخل الحمراء، وهو عقد ضخم يبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً.

ويفضى باب الشريعة إلى مجاز معقود، ثم إلى درب صغير صاعد، ينتهى إلى ميدان أطلق عليه الإسبان اسم «ميدان الأجباب» Plaza de los Aljibis ومنه ترى لأول مرة مجموعة الصروح والأماكن الأثرية التى تضمها قصبة الحمراء.

فإلى يمينك ترى القصر الذى أنشأه الإمبراطور شرلكان جنوبى قصر الحمراء، وعلى موقع بعض أجزائه، وإلى يسارك ترى الساحة التى يطلق عليها اسم القصبة أو الحصن، وفى نهايتها البرج الضخم المسمى «برج الحراسة» Torre de la Vela وهو يشرف عالياً على مرج غرناطة كله، وهذا البرج هو الذى اختاره الإسبان عند دخولهم غرناطة لرفع الصليب، وما يزال هذا الصليب الذى وضع يوم دخول الإسبان قائماً فى مكانه، وهو صليب خشبى كبير وضع فى الزاوية الشمالية الغربية.

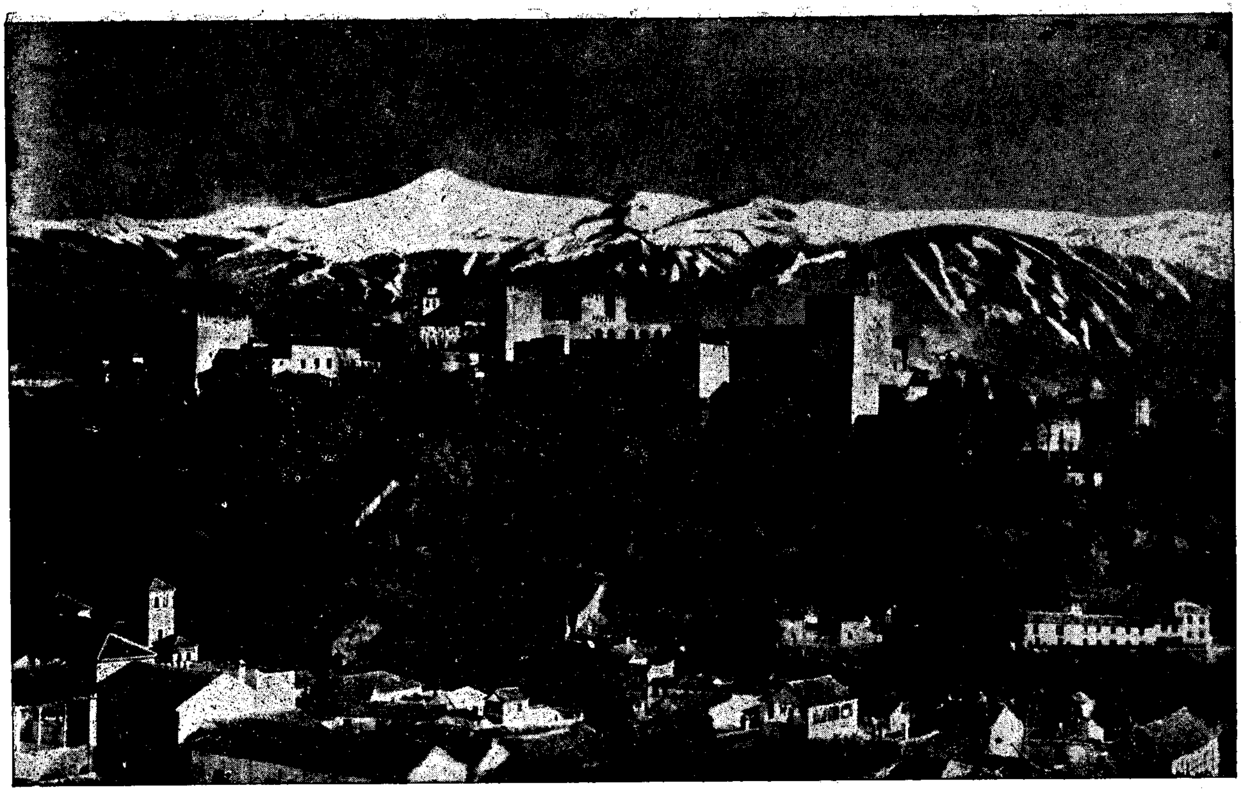

غرناطة : منظر عام لمدينة الحمراء وقد ظهرت من ورائها جبال سيرا نفادا مجللة بالثلوج .

وأمامك ترى جانباً من قصر الحمراء ، وهو الذى يسميه الإسبان « القصر العربى » Palacio Arabe .

ويمكن أن نقسم أبنية قصر الحمراء إلى مجموعتين أو جناحين كبيرين ، الأول قصر قمارش ، الذى يضم البهو المسمى بهذا الإسم وبرجه الشاهق ، وقد كان هذا الجناح هو المقام الرسمى لملوك غرناطة ، وسمى بقصر قمارش نسبة إلى البهو الفخم الذى يقع تحت برج قمارش ، والذى كان يعقد فيه السلطان مجالسه الرسمية ، وكان به مجلس العرش .

والثانى قصر السباع ، وهو الذى يتوسطه بهو الأسود أو بهو السباع ونافورته الشهيرة .

١ — قصر قمارش

والجناح الأول هو أول ما يرى الزائر ، تتقدمه الساحة المعروفة « بفناء البركة » Patio de Al-Berca ، أو فناء الريحان ، وهى عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان .

ويفضى فناء الريحان من ناحيته الشمالية ، إلى بهو صغير به قبلة زينت بنقوش بديعة ، ويفضى هذا البهو الصغير بدوره إلى أعظم وأفخم أبهاء الحمراء ، وهو بهو قمارش ، أو بهو السفراء Salón de Embajadores كما يسميه الإسبان .

وبهو قمارش ، هو عبارة عن بهو مستطيل ، طوله ثمانية عشر متراً وعرضه أحد عشر ، تعلوه قبة خشبية شاهقة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً ، وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت جدرانها على نفس الطراز ، وفى هذا البهو كان يعقد مجلس العرش ، ولهذا سمى أيضاً بالمشور . ويعلو بهو قمارش ، البرج المسمى بهذا الاسم وهو برج شاهق فى مثل مساحته .

وقد بدأ بإنشاء بهو قمارش ، السلطان أبو الوليد إسماعيل ، فى أوائل القرن الثامن للهجرة (أوائل الرابع عشر الميلادى) وأكمله ولده السلطان يوسف أبو الحجاج . وأروع ما فيه زخارف قبته التى احتفظت بنقوشها الأصلية ؛ أما نقوش الجدران ، فإنها مع جمالها ليست إلا تجديداً مقلداً لنقوشها القديمة ، قام به الفنانون الإسبان . وقد وردت فيها العبارة الآتية مكررة « عز لمولانا السلطان أبى الحجاج » ، وتخللها فى سائر جوانبها شعار بنى نصر المشهور ، وهو « ولا غالب إلا الله » .

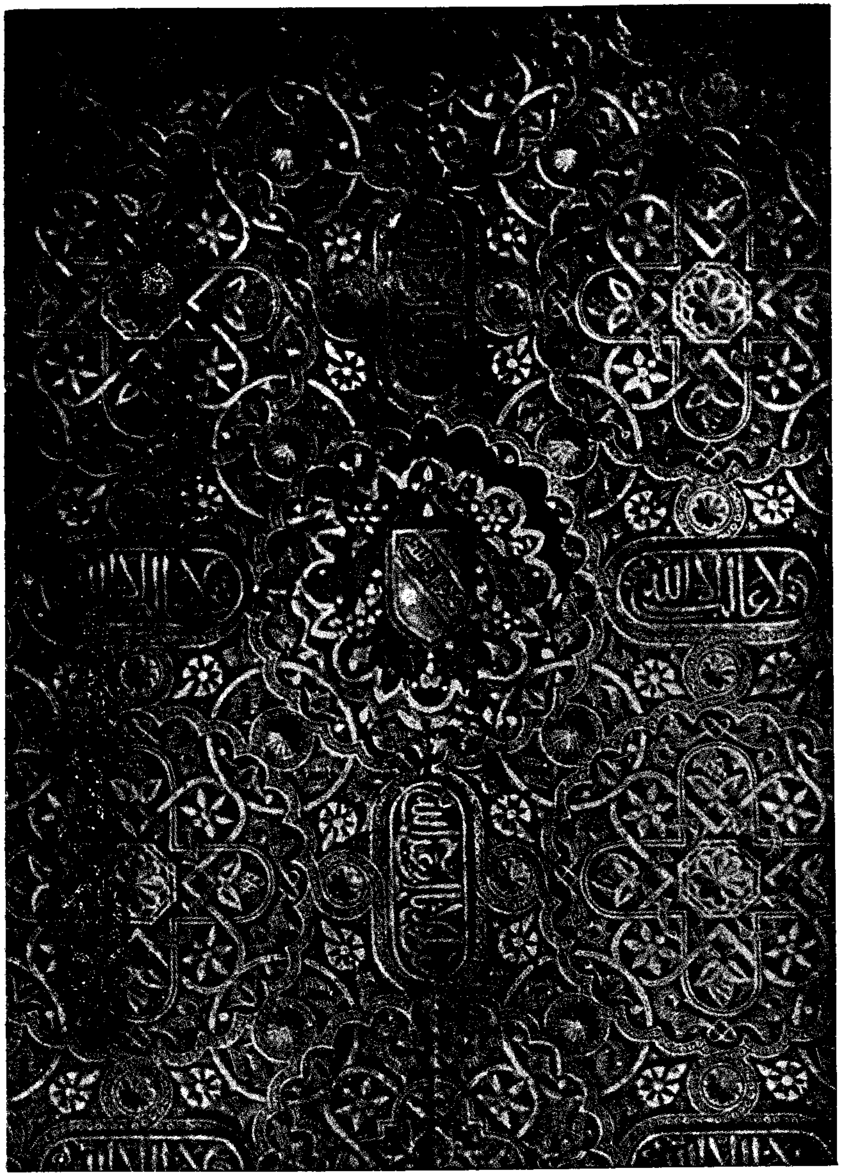

الحمراء : من زخارف بهو السفراء (بهو قمارش) .

ويفضى بهو البركة من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلى يعرف بفناء السرو ، وقد زرعت فيه بالفعل بعض أشجار السرو . وليس لهذا الفناء أهمية أثرية تذكر ، وهو من صنع الإسبان ، وإلى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية .

وتقع شرقى فناء البركة ، قاعة الأختين Sala de las dos Hermanas ، وقد سميت بهذا الاسم لأن أرضها تحتوى على قطعتين متساويتين من الرخام ، فريدتين فى ضخامة الحجم .

٢ — قصر السباع

وتفضى قاعة الأختين من بابها الجنوبى ، إلى أجمل وأشهر أجنحة الحمراء ، ونعنى بهو السباع ، أو بهو الأسود وما إليه .

ويعتبر فناء السباع أو كورة السباع Patio de los Leones ، أجمل وأرشق أبهاء الحمراء . وقد قام بإنشائه السلطان محمد الغنى بالله ، الذى حكم من سنة ١٣٥٤ — ١٣٩١م ، وما زال اسمه ماثلا فى مواضع كثيرة من هذا الجناح .

وهو عبارة عن فناء مستطيل مكشوف ، طوله خمسة وثلاثون متراً ، وعرضه عشرون ، تحيط به من الجوانب الأربع مشرفيات أو أروقة ذات عقود ، تحملها مائة وأربعة وعشرون عموداً من الرخام الأبيض ، صغيرة الحجم ، متناهية فى الجمال والرشاقة ، وعليها أربع قباب مضلعة ، تقع كل واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل .

وفى وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافورة ماء ، يحمل حوضها المرمرى المستدير الضخم ، اثنا عشر أسداً على شكل دائرة ، وقد نقشت فوق دائرة هذا الحوض اثنى عشر بيتا من قصيدة ابن زمرك الشهيرة فى وصف الحمراء ، أمام كل أسد بيت منها ، وهذا مطلعها :

تبارك من أعطى الإمام محمدا ··· مغانىَ زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدايع ··· أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا

وفى منتصف الناحية الجنوبية من بهو السباع ، يوجد مدخل قاعة بنى سراج Sala de los Abencerrajes ، وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة ، التى لعبت دوراً كبيراً فى حوادث غرناطة الأخيرة . وهى عبارة عن مستطيل طوله اثنا عشر متراً وعرضه ثمانية ، وفوقه قبة عالية مضلعة ، وفى وسطه حوض نافورة مرمرى

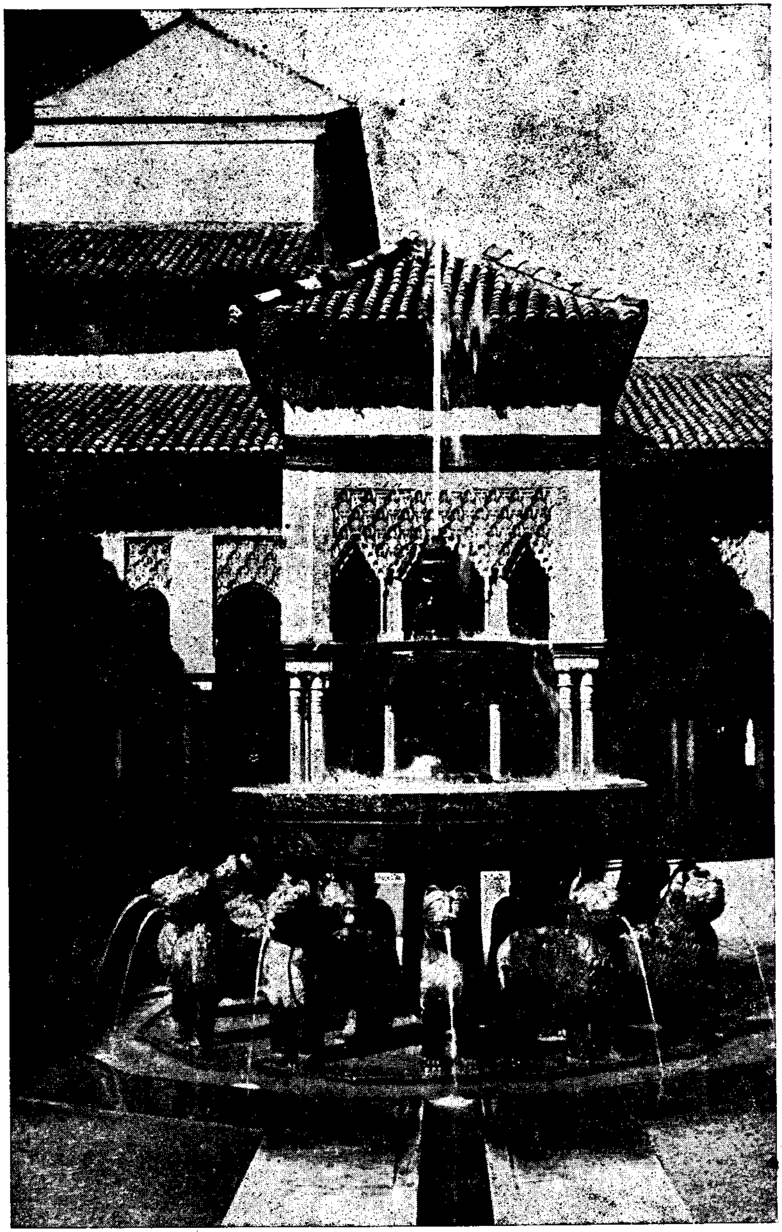

نافورة الأسود ومن ورائها الشرفة الوسطى لبهو الأسود .

مستدير ، وفى قاعه بقع داكنة ثابتة، تزعم الأسطورة أنها آثار من دماء بنى سراج ، الذين دبر لهم السلطان كميناً ، واستدرجهم إلى الحمراء ، ودبر مقتلهم فى هذه القاعة واحداً بعد الآخر .

وفى الناحية الشرقية لفناء الأسود، يوجد مدخل القاعة التى تسمى قاعة الملوك Sala de los Reyes أو قاعة العدل ، وبها ثلاث عقود أو حنايا ، رسمت فى سقف الحنية الوسطى منها، صور عشرة فرسان مسلمين، يلبسون العمائم ويجلسون على وسائد ، وهيئاتهم تشع بالوقار والعزة ، ويقول بعض الباحثين إن هذه هى صور ملوك غرناطة العشرة ، الذين سبقوا أبى عبد الله فى تولى العرش .

وفى شمال فناء الأسود يقع البهو المسمى «منظرة اللندراخا» Mirador de Lindar. ja.

ويوجد بين قاعة الأختين وبين منظرة اللندراخا ، باب يفضى إلى ساحة مستطيلة لم تكن من أبنية الحمراء الأصلية ،ولكنها أنشئت أيام الإمبراطور شرلكان . ويتصل بهذه الساحة رواق ضيق يفضى إلى متزين الملكة Peinador de la Reina، وهو عبارة عن بهو صغير منخفض، وقد أنشىء فى القرن السادس عشر ، ورسمت على جدرانه صور وزخارف نصرانية من طراز عصر الأحياء .

تلك هى محتويات قصر الحمراء ؛ ولا يتسع المقام هنا لننقل إلى القارئ ، ما نقش على جدرانه ، وما فى قبابه من النقوش والقصائد العديدة . ولكن الذى يلفت النظر بنوع خاص ، أن شعار بنى نصر وهو« ولاغالب إلا الله » ، قد نقش فى كل ركن من أركانه، وكل ناحية من نواحيه. وتكرار هذا الشعار على هذا النحو يبعث إلى النفوس شعور النبوءة والنذير ، ويذكرها بالمأساة الخالدة ، التى توالت حوادثها بين هذه الجدران الصامتة ، التى يكاد الأسى يرتسم على زخارفها العربية ونقوشها الإسلامية(١) .

وهناك على مقربة من قصر الحمراء ، يقع أثر أندلسى آخر هو قصر جنة العريف El Generalife ، وهو يقوم على ربوة مستقلة عالية ، تقع فى ركن منعزل فى شمال شرقى الهضبة ، ويشرف من ربوته العالية على صروح قصبة الحمراء ، وتبدو من ورائه آكام جبال سيرّا نفادا الشامخة (جبل الثلج) . وهو عبارة عن صرح صغير أنيق المنظر ، قد اختلطت أوضاعه العربية السفلى ، بما أنشأه الملوك

---

(١) يجد القارئ وصفاً ضافياً لقصر الحمراء ومنشآته ، ونقوشه ، فى كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » . الطبعة الثانية ص ١٨٤ — ٢١٤ .

الإسبان فوقها من أبنية دخيلة ، وتجوز إليه من مدخل بسيط متواضع ، يفضى إلى ساحة فسيحة ، قد أقيم على جانبها رواقان ضيقان طويلان ، وفى وسطها بركة ماء ، وقد غرست حولها الرياحين والزهور الساحرة .

وقد كان قصر جنة العريف فيما يبدو مصيفاً أو متنزهاً لسلاطين غرناطة ، يؤمونه للاستجمام والراحة ، والاستمتاع بجمال موقعه ، وروعة المناظر الطبيعية التى تحيط به .

* * *

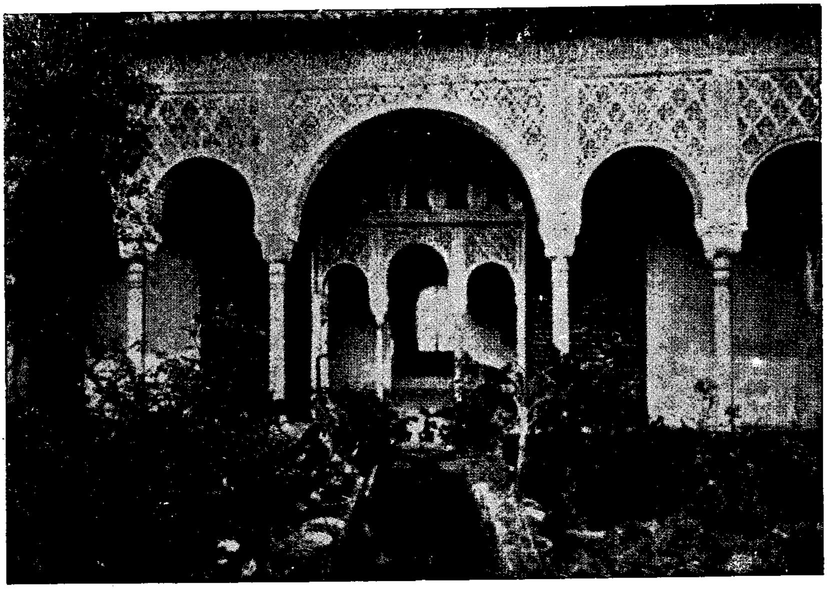

واجهة قصر جنة العريف

ولم ينج هذا الأثر الإسلامى العظيم ، عنوان الحضارة الأندلسية الباهرة ، من يد العدوان والتشويه المنظم . فقد كان مثل بناته المغلوبين ضحية للسياسة الإسبانية الغاشمة ، وقد عمل الإسبان منذ سقوط غرناطة على محو جمال الحمراء الرائع بأعمال تخريب وتشويه متتالية ، فمسخوا الزخارف والنقوش أومحوها ، ونقلوا الأثاث والرياش أو أتلفوه ، وبنى الإمبراطور شرلكان فى سنة ١٥٢٦ إلى جانب الحمراء فى الجنوب الغربى منها قصراً جديداً ، وهدم معظم القصر الشتوى القديم ليفسح مكاناً للقصر الجديد . وعمل فيليب الخامس (١٧٠٠ — ٤٦) على مسخ طراز الغرف العربى ، واستبداله بالطراز الإيطالى ؛ وأتم تشويه القصر بإقامة حواجز

سدت المنافذ والطرق بين مختلف الأجنحة . وعلى الجملة فقد تركت الحكومات الإسبانية المتعاقبة هذا الأثر الإسلامى العظيم فى زوايا الإهمال ، وأسلمته إلى يد العفاء والتخريب ، ولم تعن بإصلاحه وترميمه فى العصور الأولى إلا مرة واحدة ، فى أواسط القرن السادس عشر . وفى سنة ١٥٩٠ وقع بالحمراء حريق تسبب عن انفجار مصنع بارود مجاور ، فأصابها بأضرار كبيرة . ومنذ القرن السابع عشر تغلب مظاهر الخراب على الحمراء ، ويسودها النسيان والوحشة . وفى سنة ١٨٠٢ — أيام الغزو النابليونى — نسف الفرنسيون بعض أبراجها ولم ينج القصر إلا بأعجوبة . وفى أواسط القرن التاسع عشر ، أفاقت الحكومة الإسبانية من سباتها الطويل ، وعنيت بإصلاح الحمراء وترميمها ، واستمر الترميم والإصلاح فيها زهاء نصف قرن ، وتبدو الحمراء اليوم فى ثوبها المجدد ، وقد جددت الزخارف والنقوش القديمة فى معظم الأبهاء ، وفقاً لأوضاعها ونصوصها القديمة ، ولكن تتخللها أخطاء المطابقة والنقل فى مواطن كثيرة .

ولكن الحمراء مازالت بالرغم من كل ما أصابها من ضروب التشويه والإهمال ، تعتبر أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، كما تعتبر أكمل نموذج للفن الأندلسى فى تطوره النهائى ، بعد تحرره من أثر الفن البيزنطى . وهى اليوم علم على غرناطة تشتهر بها عاصمة الأندلس القديمة فى سائر الآفاق ، ويهرع إليها الرواد من كل صوب ليصعدوا إلى هضبة الحمراء ، ويقضون لحظات فى تأمل صرحها الرائع (١) .

* * *

وقد لبثت الحمراء بأبراجها المنيعة ، وأجنحتها الملوكية البديعة ، زهاء قرنين مقاماً فخماً لملوك غرناطة ، وحصناً أميناً يعتصمون به وقت الخطر والأزمات العامة ، حتى شهدت فى النهاية ذهاب ملكهم ، كما شهدت من قبل عظمتهم وسلطانهم .

وإلى جانب الحوادث التاريخية التى كانت الحمراء مسرحها ، والتى فصلناها فى مواضعها ، تتبوأ القصة والأسطورة فى تاريخ الحمراء مكاناً كبيراً ، وتقدم للقصصى مادة شائقة مؤثرة . ويرجع معظم هذا القصص إلى الفترة الأخيرة من حياة مملكة غرناطة ، وإلى حوادث مصرعها النهائى ، وقد كانت الحمراء كما رأينا مسرح كثير من حوادث المأساة ، وكانت بالأخص مسرح فصلها الختامى .

---

(١) هذا وقد رجعنا فى كتابة هذا الفصل أيضاً إلى كتاب **Alhambra** المنشور بعناية السنيور **M. Gomez - Moreno** فى سلسلة **El Arte en Espana** .

أجل إن للحمراء إلى جانب تاريخها الحافل ، تراثها من القصص والأساطير ، وهو تراث يمتزج أحياناً بالتاريخ الحق ، ويجنح أحياناً إلى الأسطورة الشائقة . بيد أنه يثير الشجن دائما ، وينفث الإعجاب والسحر . ذلك أنه مستمد من الحوادث والذكريات العظيمة ، التى ترتبط بتاريخ غرناطة ، ومن الروايات المؤثرة التى ذاعت عن مصرعها ، وعن بسالة فروسها ، حين المعركة الحاسمة ، وعن خلال مجتمعها ، ومخاوفه وهواجسه وآماله . وإذا كان المؤرخ لا يجد فى هذا التراث دائماً ، مادة وثيقة يستطيع الوقوف بها ، فإنه يجد على الأقل صوراً مؤثرة مما تسبغه الروايات المعاصرة ، على تلك الحوادث العظيمة ، من ألوان الروع والشجن والأسى .

وفى هذه الحوادث المشجية يغلب التاريخ على الرواية والقصة . ولكن توجد إلى جانب ذلك طائفة من الأساطير الشائقة ، التى أحاطت بها الرواية الإسبانية قصة الحمراء ، وقصة أبهائها وأبراجها . وأول ما يروى فى ذلك أن منشئ قصر الحمراء السلطان محمد الغالب بالله (ابن الأحمر) (٦٧١–٧٠١ هـ) كان ساحراً ، وأنه استعان بالسحر والشياطين فى إنشاء الحصن والقصر ، ومن ثم استطاعت الجدران والأبراج المنيعة أن تغالب فعل الحوادث والعواصف والزلازل حتى يومنا ، دون أن تتصدع أو تنهار . والسر فى ذلك يرجع إلى الطلاسم والتعاويذ السحرية التى تحمى البناء من كل شر . وتقول الأسطورة إن الحمراء لن تنهدم أو تسقط إلا حين يميل اللسان المثبت فى أسفل البرج الخارجى ، ويصل إلى موضع القفل ، فعندئذ تنهار الحمراء دفعة واحدة ، وتنكشف جميع الكنوز التى أودعها المسلمون فى أعماقها .

وعلى ذكر هذه الكنوز تقول الأسطورة إن المسلمين عندما سقطت غرناطة فى أيدى النصارى ، كانوا يعتقدون أن سقوطها حادث موقت ، وأن دولة المسلمين فى الأندلس لن تلبث أن تعود قوية عزيزة ، وأن بعدهم عن أوطانهم لن يطول ، ولذلك عمدوا إلى إخفاء ذخائرهم وحليهم وأموالهم فى أعماق الحمراء ، فى جوانب متعددة منها ، وأنهم لجأوا فى حفظها وحمايتها إلى السحر ، فرصدوا لحفظها الطلاسم والأسماء . وقد يبدو حراسها أحياناً فى صور مردة أو وحوش ، أو فرسان مسلمين مدججين بالسلاح ، يسهرون عليها أبد الدهر جامدين لا يغمض لهم طرف . وليس فى الحمراء برج أو بهو أو قاعة ، إلا اقترن ذكرها بقصة هذه الكنوز الخفية ؛ وكانت الأسطورة تضطرم من عصر إلى آخر ، ولاسيما فى جنوبى اسبانيا ،

كلما كشفت المباحث الأثرية فى أنحاء الحمراء أو حولها ، عن بعض النقود والتحف الإسلامية .

وتقدم إلينا الرواية بعض الأساطير المروعة عن « بهو السباع » والبهو الذى يقابله وهو المسمى بهو بنى سراج . فأما بهو السباع فتزعم الرواية أنه كان مسرحاً دموياً لمصرع بعض أبناء السلطان أبى الحسن . وأما بهو بنى سراج فتقول الرواية إنه كان مسرحاً لمصرع بنى سراج أعرق الأسر الغرناطية وأوفرها جاهاً وفروسة ، وكانت فى أواخر عهد السلطان أبى الحسن قد انتظمت إلى جانب خصومه ، وأمعنت فى مناوأته ، فقرر إهلاكهم(١) . وقيل إن عميدهم محمد بن سراج ، وهو من أكابر الفرسان والسادة ، هام بحب أميرة من البيت المالك ، فوجد عليه السلطان وقرر سحق الأسرة كلها ، ودبر كميناً لإهلاكهم ، فدعا أكابرهم ذات مساء إلى حفل أقامه ، وأدخلوا واحداً بعد واحد بترتيب معين ، من باب البهو المذكور ، وكلما دخل أحدهم بادره القتلة ونحروه على حافة الحوض الرخامى الواقع وسطها ، حتى أعدموا جميعاً ، وفقدت الأسرة كل أنجادها . وسمى المكان من ذلك الحين « بهو بنى سراج » . وما زالت ثمة بقع داكنة فى قاع الحوض الذى سالت فيه دماء القتلى تقول الرواية إنها بقع من دمائهم ، وانها لن تمحى قط ، وتزيد الأسطورة على ذلك أنه ما زالت تسمع فى ذلك البهو فى بعض الليالى أنات خافتة ، وقعقعة سلاح ، وأنه حدث أكثر من مرة أى رأى حراس الحمراء فى جوف الليل ، بعض الجند المسلمين ، وقد لمعت أثوابهم الزاهية وأسلحتهم البراقة ، يقطعون البهو جيئة وذهاباً(٢) .

وهناك طائفة كبيرة من الأساطير الغرامية ، تروى عن الملوك والسادة الذين

---

(١) راجع رواية هرناندو دى بايثا المنشورة ضمن « أخبار العصر » ص ٦٦ .

(٢) يلاحظ أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن هذه المأساة بشىء . ولكن الرواية والأغانى الإسبانية تكثر الحديث عنها . ويشير الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير ملك المغرب إلى ملك اسبانيا فى أواخر القرن السابع عشر إلى تلك الأسطورة فى رحلته نقلا عن التواريخ لإسبانية (راجع رحلة الوزير فى افتكاك الأسير ص ٢٤) . وقد كانت حوادث هذه المأساة المزعومة وما اقترن بها من الأساطير مستقى خصباً لكتاب القصص . وقد وضع الكاتب الفرنسى شاتوبريان عن بنى سراج قصة عنوانها مغامرات آخر بنى سراج (**Aventures du dernier Abencérrages**) يحدثنا فيها عن فتى أندلسى هو آخر سليل لبنى سراج ، وكانت الأسرة قد نزحت إلى تونس عقب سقوط غرناطة ، وعاشت هناك فى فقر وضعة ، فاعتزم الفتى أن يحج إلى غرناطه موطن آبائه القديم ، وهنالك هام حباً بفتاة اسبانية رائعة الحسن ، وهامت بحبه ، ولكن اختلاف الدين حال دون زواجهما ، فارتد الفتى المسلم إلى الصحراء وانقطع أثره ، وعاشت حبيبته فى عزلة محتفظة بحبه وذكراه .

سكنوا الحمراء، وعن أبهائها الفخمة وأبراجها القائمة. ويقال إن كثيراً من الأميرات والغيد الحسان الذين استحقوا اللعنة الملكية زجوا إلى أقبيتها أو أبراجها السحيقة وأعدموا فى ظلماتها. ومن ذلك ماتزعمه الأسطورة من أن سلطاناً مستبداً من سلاطين غرناطة سجن بناته الثلاث فى أحد أبراج الحمراء، ولم يك يسمح لهن إلا بالتريض ليلا فى بعض التلال المجاورة بحيث لا يراهن إنسان قط، وأن أولئك الأميرات الثلاث ما زلن يظهرن فى بعض الليالى المقمرة فى هاتيك التلال، يمتطين جيادهن الفخمة، وتسطع حليهن النفيسة تحت أشعة القمر، فإذا حاول إنسان أن يخاطبهن أو يزعجهن، اختفين فى الحال تحت جنح الظلام.

وقد ذاعت هذه الأساطير عن الحمراء وعن ملوكها، ودونت عقب سقوط غرناطة، فى بعض التواريخ والقصص المغرق. ومن ذلك كتاب ظهر فى أواخر القرن السادس عشر عنوانه «حروب غرناطة الأهلية» **Guerras civiles de Granada** وزعم مؤلفه، وهو اسبانى من أهل مرسية يدعى خينس بيرث دى إيتا **Gines Perez de Hita** أنه نقله عن مؤلف لكاتب أندلسى يدعى ابن أمين، وهو مزيج من بعض الوقائع التاريخية المحرفة، وكثير من القصص الخرافية، ويدور معظمه حول حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية، وأحوال بلاطها وما يقع فيه من مكائد ودسائس سياسية وغرامية، ومنافسات بنى سراج وبنى الثغرى وغيرهم من أنجاد غرناطة. وقد ذاع هذا المؤلف فى اسبانيا ولاسيما فى ريف الأندلس، وترجم إلى لغات عديدة. بيد أنه يبدو من سياقه أنه لا يمكن أن يكون ترجمة لرواية عربية، وكل ما هنالك أنه مزيج من بعض الأساطير النصرانية والشعبية، التى ذاعت فى ذلك العصر عن حوادث غرناطة، وأذكاها خيال الأحبار، والفرسان، وأذكتها بالأخص عوامل دينية وسياسية خاصة.

هذا بعض ما يروى من قصص الحمراء وأساطيرها. وإذا كان المؤرخ لا يستطيع أن يقف بهذا التراث المغرق من القصص والأساطير، فإنه يستطيع على الأقل أن يستخرج منه مغزى بليغاً، وهو مغزى ينم فى كثير من الأحيان عما كان للأندلس المسلمة فى اسبانيا وفى الغرب، من عظيم الهيبة والشأن، وما كان لذكريات غرناطة وحمرائها من بالغ الروع والسحر والإجلال(١).

* * *

(١) جمع الكاتب الأمريكى واشنطون إيرفنج **W. Irving** طائفة من الأساطير والقصص التى تتعلق بالحمراء وكنوزها وملوكها فى كتابه : **Tales of the Alhambra**

ورحم الله شوقى إذ يقول فى سينيته الأندلسية الشهيرة فى رثاء الحمراء :

لا ترى غير وافدين على التـــا ... ريخ ساعين فى خشوع ونكس
نقلوا الطرف فى نضارة آس ... من نقوش وفى عصارة ورس
وقبــاب من لازورد وتبر ... كالربى الشم بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت للمعـــانى ... ولألفاظهـــا بأزين لبس
وترى مجلس السباع خــلاء ... مقفر القاع من ظباء وخُنس
لا « الثريا » ولا جوارى الثريا ... ينزلن فيـــه أقمار إنس
مرمر قامت الأسـود عليـه ... كلة الظفر لينات المجس
تنثر المــاء فى الحياض جمانا ... يتنزى على ترائب ملس
آخر العهـد بالجزيرة كانت ... بعد عرك من الزمان وضرس
يا دياراً نزلت كالخلد ظـــلا ... وجنًى دانيـاً وسلسال أنس
لا تحس العيون فوق رباهـا ... غير حور حُو المراشف لعس
كسيت أفرخى بظلك ريشـا ... وربا فى رباك واشتد غرسى
هم بنو مصر لا الجميل لديهم ... بمضـاع ولا الصنيع بمنسى
من لسان على ثنـائك وقف ... وجنان على ولائك حبس
حسبهم هـذه الطلول عظات ... من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتك التفات إلى المـــا ... ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

مأساة الموريسكيّين

أو العرب المتنصِّرين

٨٩٧ ـ ١٠١٨ هـ : ١٤٩٢ ـ ١٦٠٩ م

الكتاب الثالث

مراحل الاضطهاد والتنصير

الفصل الأول

بدء التحول فى حياة المغلوب

نقص الروايات العربية عن المأساة الأندلسية . علة هذا النقص . اهتمام الرواية الإسبانية بالإفاضة فيها . هجرة الأندلسيين إلى المغرب . إنشاؤهم لمدينة تطوان . بداية عصر الإستعباد . السياسة الإسبانية ومصير المسلمين . أقوال الرواية القشتالية . اتجاه ملكى اسبانيا إلى النكث . تعليق النقد الحديث . بدء الاضطهاد . تحوير المعاهدة . خمنيس يحاول تنصير المسلمين . بعض من تنصر من أكابرهم . إحراق الكتب العربية . تعليق النقد الحديث على هذا العمل . الروايات الإسلامية عن مأساة التنصير . صدى المحنة فى مصر . نفى المسلمين من البرتغال . أمة الموريسكيين أو العرب المتنصرين . قرار مجلس الدولة . الثورة فى بعض النواحى . التنصير المغصوب . نشاط فرناندو وإيسابيلا . إستغاثة المسلمين بملك مصر . سفارة فرناندو إليه . الثورة فى ثليا لونجا وهزيمة الإسبان . جنوح فرناندو إلى اللين . أقوال الرواية الإسلامية عن هذه الحوادث . حشد المسلمين والمتنصرين فى أحياء خاصة . تحريم إحراز السلاح عليهم . حظر هجرتهم إلى غرناطة . تحريم بيع الأملاك .

لم يكن ظفر اسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة ، وسحق دولة الإسلام فى الأندلس ، سوى بداية النهاية فى مصير الأمة الأندلسية ؛ ولم يكن فقد السيادة القومية ، وفقد الإستقلال والحرية ، والذلة السياسية ، والاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وهى المحن التى تنزل عادة بالأمم المغلوبة ، سوى لمحة يسيرة مما كتب على الأمة الأندلسية أن تعانيه على يد اسبانيا النصرانية . أجل كان مصير مسلمى الأندلس بعد فقد دولتهم وزوال مملكتهم ، من أروع ما عرفت الأمم الكريمة المغلوبة ، وكان مأساة من أبلغ مآسى التاريخ .

تلك هى مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، ومن الأسف أن الرواية الإسلامية لم تخص تاريخ الأمة الأندلسية بعد سقوط غرناطة بكثير من عنايتها ، ولم ينته إلينا عن تلك المأساة سوى رسائل وشذور يسيرة ، بل لم ينته إلينا سوى القليل عن مراحل التاريخ الأندلسى الأخيرة قبل سقوط غرناطة ، ولاتوجد لدينا عن تلك المرحلة سوى رواية إسلامية واحدة هى كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » الذى سبقت الإشارة اليه غير مرة ، والذى كتبه فى سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٠ م) أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة ، كاتب مجهول كان فيما يبدو

من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها، وأرغموا على التنصر، ولكنهم بقوا مع ذلك مسلمين فى روحهم وسريرتهم . وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ماكتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة . ولم تصل إلينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة ، سوى رسائل وشذور وقصائد نقلها إلينا المقرى مؤرخ الأندلس فى مؤلفه « أزهار الرياض » ، ومعظمها مما كتبه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بقليل .

ونستطيع أن نرجع هذا النقص فى الرواية الإسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أنه فى عصور الإنحلال والسقوط تخمد الحركات الأدبية والفكرية ، وتقل العناية بالتدوين التاريخى، كما تقل فى جميع نواحى التفكير والأدب ، وأن نظام الطغيان المطبق والاضطهاد المروع ، الذى فرض على العرب المتنصرين، كان كفيلا بإخماد كل صوت وتحطيم كل قلم . والثانى وهو مانرجحه ، هو فقد معظم الكتب والوثائق العربية التى وضعت فى هذا الوقت، والتى استطاع المقرى أن ينقل إلينا شذوراً منها ، مما يدل على أن بعضها كان موجوداً حتى عصره أعنى فى القرن السابع عشر . ومن الغريب أن صاحب « أخبار العصر » لم يقدم إلينا عن مأساة العرب المتنصرين سوى نبذة يسيرة ، مع أنه عاصر معظم حوادثها ، وشهدها على الأغلب. ولسنا نجد مانفسر به هذا الصمت من جانب الرواية الإسلامية الوحيدة، التى انتهت إلينا عن سقوط غرناطة، وما تلاه من الحوادث والخطوب، إلا نظام الإرهاب الشامل ، الذى سحق كل متنفس للشعب المغلوب .

على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية ، تشغل بالعكس فى تاريخ اسبانيا القومى حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن وربع ، وتخصه الرواية الإسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الإسبانية تتأثر دائماً بالعوامل القومية والديلية إلى أبعد حد ، وتنظر دائماً إلى ذلك الإستشهاد المفجع ، الذى فرضته اسبانيا على العرب المتنصرين ، وإلى تلك الأعمال المروعة التى كانت ترتكبها محاكم التحقيق(١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية ، التى اتخذت لتشريد العرب المتنصرين وإبادتهم ، بعين الكبرياء والرضى ، وترى فيها دائماً نوعاً من الإنقاذ القومى ، وتطهيراً للدين والوطن من آثار الإسلام الأخيرة . وهى تحيط هذه المرحلة من تاريخ اسبانيا ، بكثير من القصص والأساطير الحماسية ، التى تشيد بظفر اسبانيا

---

(١) هى المعروفة خطأ « بمحاكم التفتيش » **Inquisition, Inquisición** ، وسنعود إلى الكلام عليها .

النصرانية ، وبما أسبغته العناية الإلهية على خطتها وسياستها ، فى إبادة تراث الإسلام والعرب المتنصرين ، وفى القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الإسلامية المجيدة ، التى ازدهرت فى اسبانيا زهاء ثمانية قرون ، وعلى حضارتها وآدابها ، وكل ذلك التراث العظيم الباهر .

على أن الرواية الإسبانية بالرغم من تأثرها العميق بالعوامل القومية والدينية ، تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير فى أسلوب مؤثر . وقد لا تضن فى بعض المواطن والمواقف بعطفها ، وأحياناً بإعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة ، التى لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها ، وعن تراثها القومى والروحى .

— ٢ —

لبثت السياسة الإسبانية بعد سقوط غرناطة ، وبعد أن حققت اسبانيا النصرانية بالقضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ، أعظم أمانيها القومية ، مدى حين تلتزم جانب الروية والاعتدال .

ولما غادر فرناندو وإيسابيلا غرناطة بعد دخولها ، أوصيا حاكمها الجديد الكونت تندليا (المركيز دى مونتخار فيما بعد) بالرفق فى معاملة الرعايا الجدد ، والعمل على التقريب بين العناصر . وكان من أثر ذلك فى البداية أن رغب الكثيرون فى البقاء ، واشتروا الرباع العظيمة من الراحلين بأبخس الأثمان[١] . وهناك من جهة أخرى ما يدل على أنه ماكاد يتم تسليم غرناطة حتى بدأ أعيان المسلمين فى بيع أملاكهم وضياعهم إلى القادة والأشراف القشتاليين الذين قدموا للتوطن فى المدينة المفتوحة ، فمثلا باع القائد أبو عبد الله محمد الينشتى إلى القائد القشتالى أندريس قلدرون حديقته ومنزله بباب الفخارين ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٨٩٧ هـ (مارس ١٤٩٢م) ؛ وباعت فاطمة بنت أبى القاسم الأبار إلى نفس القائد القشتالى حديقتها الكائنة بربض باب الفخارين ، وذلك فى نفس التاريخ ، وباع عدة آخرون من المسلمين أملاكهم فى مرج غرناطة وفى عين الدمع ، إلى بعض أعيان القشتاليين ، وذلك فى نفس السنة (١٤٩٢م)[٢] . واتخذت الأهبة من جهة أخرى لنقل المسلمين الراغبين فى الهجرة إلى المغرب ، وهاجر كثير من أشراف غرناطة ، وفى مقدمتهم

---

(١) أزهار الرياض ، ج ١ ص ٦٧ .

(٢) راجع : « وثائق عربية غرناطية » الوثائق رقم ١٨١ (ص ١٣٠) ، ورقم ١٨٤ (ص ١٣٤) ورقم ٨٥ (ص ١٣٥) .

بنوسراج وغيرهم من أنجاد غرناطة القدماء ، وأقفرت مناطق بأسرها من أعيان المسلمين ، ولاسيما منطقة البشرات . وكان تدفق سيل المهاجرين دليلا على أن الشعب المغلوب ، لم يكن واثقاً فى ولاء سادته الجدد ، وأنه كان ينظر إلى المستقبل بعين التوجس والريب .

ويفصل لنا صاحب أخبار العصر بعض حركات الهجرة التى وقعت على أثر سقوط غرناطة ، فيقول لنا إن من بقى من المسلمين فى مالقة عبروا البحر إلى باديس وعبر أهل المرية إلى تلمسان ، وعبر أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة ، وعبر أهل رندة وبسطة وحصن موجر وقرية قردوش وحصن مرتيل إلى تطوان وأحوازها ، وعبر أهل لوشة وقرية الفخار وبعض أهل غرناطة ومرشانة وأهل البشرّة إلى أراضى قبيلة غمارة ، وعبر أهل بيرة وبرجة وأندرش إلى ما بين طنجة وتطوان ، وعبر أهل بلِّش إلى سلا ، وخرج كثير من أهل غرناطة إلى بجاية ووهران وقابس وصفاقص وسوسة ، وخرج أهل مدينة طريف إلى آسفى وأزمور(١) .

وقد كان ممن هاجر من غرناطة إلى العدوة عقب سقوطها بقليل جماعة من أهلها برياسة زعيم جندى هو أبو الحسن على المنظرى (أو المندرى) وكان من أكابر جند الجيش الغرناطى ، فنزلوا فى موقع قرية مرتيل (أومرتين) الواقع على البحر على مقربة من تطوان ، وكانت يومئذ خربة مهجورة ، فاستأذن الأندلسيون سلطان فاس ، محمداً الشيخ الوطّاسى ، فى تعميرها وسكناها ، فأذن لهم ، فأقاموا فوق موقعها القديم محلة حصينة بها مسجد وقصبة ، وكان ذلك فى سنة ٨٩٨ هـ (أواخر سنة ١٤٩٢م) . وفى رواية أخرى أن الأندلسيين الذين عمروا تطوان لأول مرة ، وفدوا إلى العدوة قبل سقوط غرناطة ببضعة أعوام فى سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) ، وأنهم كانوا نحو ستين أوثمانين . ثم جاء من بعدهم عقب سقوط غرناطة قوم آخرون ، قاموا بتوسيعها وتحصينها ، وعلى أى حال فإن المرجح أن هجرة المنظرى وقومه كانت عقب سقوط غرناطة ، وأن هذا الفوج من المهاجرين الأندلسيين هو الذى يجب أن يحسب حسابه فى تعمير تطوان وتحصينها . ومن ذلك الحين تغدو تطوان ملاذا لكثير من الأسر الأندلسية التى أرغمت على التنصير ، ثم آثرت الهجرة إلى دار الإسلام فراراً من اضطهاد الإسبان ومحاكم التحقيق ، وعادت إلى دينها القديم ، وما تزال بها أعقابهم إلى اليوم(٢) .

---

(١) أخبار العصر (طبعة العرايش) ص ٤٨ .

(٢) راجع الإستقصاء للسلاوى (ج ٢ ص ١٦٢) ، ومختصر تاريخ تطوان للسيد محمد داود =

وهكذا أبدى فرناندو وإيسابيلا فى الأعوام الأولى رفقاً وليناً فى معاملة المسلمين ، ولاح مدى حين أن اسبانيا النصرانية تنوى أن تحافظ على العهود التى قطعت ، وعاش المسلمون بضعة أعوام فى نوع من السكينة والاطمئنان .

ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشى دائماً ذلك الشعب الذكى النابه ، وكانت الكنيسة تجيش دائماً بنزعتها الصليبية القديمة ، وتضطرم رغبة فى القضاء على البقية الباقية من الأمة الإسلامية فى اسبانيا ؛ وكانت مملكة غرناطة القديمة ما تزال تضم كتلة مسلمة كبيرة ، تربطها بثغور المغرب صلات وثيقة ، هذا عدا ماكان من جموع المدجّنين فى منطقة بلنسية ، وفى منطقة سرقسطة وغيرها من بلاد أراجون ، وكان كثير من أولئك المدجنين ، إلى ما بعد سقوط غرناطة بأعوام عديدة ، يحتفظون بدينهم الإسلامى . وكان وجود هذه الكتلة المسلمة فى قلب اسبانيا النصرانية ، شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية .

والظاهر أن السياسة الإسبانية ، لبثت مدى حين مترددة فى انتهاج المسلك الذى تسلكه إزاء المسلمين ، وقد كانوا من أهم عوامل النشاط والرخاء والعرفان فى اسبانيا ، وكانت براعتهم قدوة فى الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وخلالهم قدوة فى النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق ، وكانوا على الجملة من أفضل

= (ص ١٤ — ١٧) . وقد أتيح لى أن أزور تطوان غير مرة ، وأن أتجول فى ربوعها القديمة ، وهى اليوم تكون القسم الشرقى والشمالى من مدينة تطوان الحديثة ، وما تزال بها بقايا المسجد والقصبة المنسوبين لأبى الحسن المنظرى . وقد علمت من صديقى العلامة السيد محمد داود مؤرخ تطوان ، أنه ما يزال يوجد بها إلى اليوم كثير من أعقاب الأسر الموريسكية القديمة ، ما تزال تحمل أسماءها الموريسكية معربة لا تبغى بها بديلا لأنها عنوان الأرومة الأندلسية . وإليك طائفة من هذه الأسماء نوردها كما تثبت بالعربية ، ونورد مقابلها الإسبانى :

ملينة (**Molina**) . أولاد مرتين (**Martin**) . مدينة (**Medina**) . مراريش (**Morales**) . الطريس(**Las Torres**) . صالص (**Salas**) . برميخو (**Bermejo**) . مرشينة (**Marchina**) . قسطيلية (**Castillo**) . بايص (**Paez**) . الركينة (**Requina**) . لوقش (**Lucas**) . راغون (**Aragon**) .

وفى معظم مدن المغرب الأخرى مثل الرباط وسلا والدار البيضاء ومراكش وفاس وغيرها ، يوجد أعقاب كثير من الأسر الموريسكية . يحملون حتى اليوم ألقابهم الموريسكية القديمة معربة . وقد أورد لنا صاحب كتاب « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » جملة كبيرة منها ، مثل أسر بركاش . وبلافريج . ونكيطو . وملاط . ودنية . والرندة . وملين . ومرينو . واشكلانط . وبلانيو . وإبيرو . ولباريس . وكريسبو . وكيلطو . ومربيش . ورودياس . وبلامينو . وباينة . وبونو . والقسطالى . وفرتون . وقديره . وفلوريش . وغيرها (الكتاب المذكور ص ٢١٥) .

العناصر الذين يمكن أن تضمهم دولة متمدنة[1] . ولكن الكنيسة كانت تضطرم حماسة فى سبيل تحقيق مثلها ، ولم تكن السياسة الإسبانية فى تلك الفترة من تاريخ اسبانيا سوى أداة لينة فى يد الكنيسة ، التى بلغت عندئذ ذروة قوتها ونفوذها .

ويصف لنا مؤرخ اسبانى عاش قريباً من ذلك العصر ، نيات الكنيسة نحو المسلمين فى قوله : « إنه منذ استولى فرناندو على غرناطة ، كان الأحبار يطلبون إليه بإلحاح ، أن يعمل على سحق طائفة محمد من اسبانيا ، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء ، إما التنصير ، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب ؛ وأنه ليس فى ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم ، بل فيه إنقاذ لأرواحهم ، وحفظ لسلام المملكة ، لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون فى صفاء وسلام مع النصارى ، أو يحافظون على ولائهم للملوك ، ما بقوا على الإسلام ، وهو يحثهم على مقت النصارى أعداء دينهم »[2] .

ولم نكن هذه السياسة فى الواقع بعيدة عما يخالج ملكى اسبانيا ، فرناندو الخامس وزوجه الملكة المتعصبة إيسابيلا الكاثوليكية ، من شعور نحو المسلمين ، ولم تكن العهود التى قطعت للمسلمين بتأمينهم فى أنفسهم وأموالهم ، واحترام دينهم وشعائرهم ، لتحول دون تحقيق أغراض السياسة القومية . ذلك أن فرناندو لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلا لتحقيق مآربه ، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع ، ولكنه لم يعتبر نفسه قط ملزماً بعهود يقطعها متى أصبحت تعارض سياسته وغاياته .

ويعلق النقد الغربى الحديث على ذلك بقوله : « ولو نفذت هذه العهود (العهود التى قطعت لمسلمى غرناطة) بولاء ، لتغير مستقبل اسبانيا كل التغيير ، ولجمع الامتزاج الرفيق بين الأجناس ، ولغاض الإسلام مع الزمن ، ولتفوقت المملكة الإسبانية فى فنون الحرب والسلم ، وتوطدت قوتها ورخاؤها . ولكن ذلك كان غريباً على روح العصر الذى انقضى ، وأفضى التعصب والجشع إلى المطاردة والظلم ، وأنزلت الكبرياء القشتالية بالمغلوبين ذلة مروعة ، فاتسعت الهوة بين الأجناس على كر الزمن ، حتى استعصى الموقف ، وأدى إلى علاج كان من جرائه أن تحطم رخاء اسبانيا »[3] .

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 7

(٢) Luis del Marmol : Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada ; Lib. I Cap. XXII

(٣) Dr. Lea : The Moriscos, p. 22

وأخذت سياسة الإرهاق تجرف فى طريقها كل شىء ، ونشط ديوان التحقيق ، (Inquisition) أوالديوان المقدس ، يدعمه وحى الكنيسة وتأييد العرش ، إلى مزاولة قضائه المدمر . وكانت مهمة هذه المحاكم الكنسية المروعة أن تعمل على حماية الدين (الكثلكة) ، ومطاردة الكفر والزيغ بكل ما وسعت ، وكان جل ضحاياها فى البداية من اليهود والمسلمين ، ثم الموريسكيين أوالعرب المتنصرين . وسنعرض فى فصل خاص إلى تاريخ هذه المحاكم وإجراءاتها ووسائلها ، التى تنافى كل عدالة وكل قضاء متمدن .

وهكذا فإنه لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة ، حتى بدت نيات السياسة الإسبانية واضحة نحو المسلمين ، وكانت الكنيسة تحاول خلال ذلك أن تعمل لتحقيق غايتها أعنى تنصير المسلمين بالوعظ والإقناع ، ومختلف وسائل التأثير المادية ، ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر ، فجنحت الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة ، وأذعنت السياسة الإسبانية لوحى الكنيسة ، ولم تذكر ما قطعت من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائرهم . وكان روح هذه السياسة العنيفة حبران كبيران ، هما الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، ورأس الكنيسة الإسبانية ، والدون ديجو ديسا « المحقق العام » لديوان التحقيق[1] .

وحاولت السياسة الإسبانية من جانبها أن تسبغ على هذه التصرفات ثوب الحق والعدالة ، فأخذت فى تحوير العهود والنصوص التى تضمنتها معاهدة التسليم ، وتعديلها وتفسيرها بطريق التعسف والتحكم ، ثم خرقها نصاً فنصاً ، واستلاب الحقوق والضمانات الممنوحة تباعاً ، فأغلقت المساجد ، وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم ، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم[2] . وأدرك المسلمون ما ترمى إليه السياسة الكنسية من محو دينهم ولغتهم وشخصيتهم ، ودوت فى آذانهم تلك الكلمة الخالدة والنبوءة الصادقة ، التى ألقاها إليهم فارس غرناطة يوم اعتزموا التسليم للعدو :

« أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم ، وأن يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ما له من حسن الطالع ؟ لشد ما تخطئون . إنهم جميعاً ظمئون إلى دمنا ، والموت خير ما تلقون منهم ، إن ما ينتظركم شر الإهانات ، والانتهاك والرق ؛

(١) كان المحقق العام **General Inquisitor** وهو قاضى قضاة الديوان ، يمثل يومئذ أعظم السلطات الدينية والقضائية فى اسبانيا .

(٢) أخبار العصر ص ٥٤ .

ينتظركم نهب منازلكم ، واغتصاب نسائكم وبناتكم ، وتدنيس مساجدكم ، تنتظركم المحارق الملتهبة ، لتجعل منكم حطاماً هشيما » .

وكان فرناندو يخشى فى البداية عواقب التسرع فى تنفيذ هذه السياسة ، لأن الأمن لم يكن قد توطد بعد فى المناطق المفتوحة ، ولأن المسلمين لم ينزع سلاحهم تماماً ، وقد يؤدى الضغط إلى الثورة ، فتعود الحرب كما كانت. ولكنه انتهى إلى الخضوع لرأى الكنيسة، واستدعى الكردينال خمنيس إلى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين ، فوفد عليها فى شهر يوليه سنة ١٤٩٩ (٩٠٥هـ) ، ودعا أسقفها الدون تالافيرا إلى اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وأمر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية ، وأغدق عليهم التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التنصير ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة ، واستعمل الوعد والوعيد والبذل والإرغام ، فى تنصير بعض أعيان المسلمين .

وكان قد اعتنق النصرانية قبيل سقوط غرناطة وبعدها ، جماعة من الأمراء والوزراء، وفى مقدمتهم الأميران سعد ونصر ، ولدا السلطان أبى الحسن من زوجه النصرانية اليزابيث دى سوليس المعروفة باسم ثريا ، فقد تنصرا ومنحا ضياعاً فى أرجبة ، وتسمى أحدهما باسم « الدوق فرناندو دى جرانادا » (أى صاحب غرناطة) ، وخدم قائداً فى الجيش القشتالى ، واشتهر بغيرته فى خدمة العرش ، وتسمى الثانى باسم « دون خوان دى جرانادا »[1] . وتنصر سيدى يحيى النيار قائد ألمرية وابن عم مولاى الزغل ، عقب تسليمه لألمرية، وتسمى باسم « الدون پيدرو دى جرانادا » وتنصرت زوجه السيدة مريم ابنة الوزير بنيغش ، وتنصر ابنه على ، باسم « الدون ألونسو دى جرانادا ڤنيجاس » ، وتزوج من دونيا خوانا دى مندوثا وصيفة الملكة . وتنصر الوزير أبو القاسم بن رضوان بنيغش ، ومعظم أفراد أسرته ، وعادت أسرته تحمل لقبها القشتالى القديم Los Venegas ، واشتهرت فى تاريخ اسبانيا الحديث ، وأنجبت كثيراً من أكابر القادة والأحبار. ونصر آل الثغرى الذين اشتهروا فى الدفاع عن مالقة وغرناطة قسرا، وسمى عميدهم باسم « جونثالڤو فرنانديث ثجرى» ، وتنصر الوزير يوسف بن كماشه وانتظم فى سلك الرهبان . وهكذا اجتاحت موجة التنصير كثيراً من الأكابر والعامة معاً .

وتمركزت حركة التنصير فى غرناطة بالأخص فى حى البيازين ، حيث حول

---

(١) Hernando de Baeza: ibid, p. 65

مسجده فى الحال إلى كينسة سميت باسم « سان سلبادور »(1). واحتج بعض أكابر المسلمين على هذه الأعمال ، ولكن ذهب احتجاجهم وتمسكهم بالعهود المقطوعة سدى. وثار أهل البيازين وتحصنوا بحيهم، ونددوا بخرق العهود ، فبذل الكردينال خمنيس وحاكم المدينة ، جهوداً فادحة لإقناعهم بالهدوء والسكينة ، وبذلا لهم من التأكيدات والضمانات الكلامية ما شاءوا (2) .

ولم يقف الكردينال خمنيس عند تنظيم هذه الحركة الإرهابية ، التى انتهت بتوقيع التنصير المغصوب ، على عشرات الألوف من المسلمين ، ولكنه قرنها بارتكاب عمل بربرى شائن ، هو أنه أمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية من أهالى غرناطة وأرباضها ، ونظمت أكداساً هائلة فى ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف ، وآلاف من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت النيران فيها جميعاً ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم ، حملت إلى الجامعة التى أنشأها فى مدينة ألكالا دى هنارس(3) ، وذهبت ضحية هذا الإجراء الهمجى عشرات ألوف من الكتب العربية ، هى خلاصة ما بقى من تراث التفكير الإسلامى فى الأندلس(4) .

ولسنا نحن فقط الذين نصف عمل خمنيس بالبربرية والهمجية ، بل قالها ويقولها مفكرو الغرب أنفسهم ، فمثلا يشير العلامة الإيطالى الأب سكياپرللى Schiaparelli فى مقدمة إحدى كتبه إلى « التعصب الكاثوليكى ، وثورات خمنيس

---

(1) ما تزال كنيسة « سان سلبادور » **San Salvador** ، تقوم حتى اليوم على موقع مسجد البيازين القدم ، وما تزال توجد فى مؤخرتها بعض عقود المسجد القديمة .

(2) **Luis del Marmol : ibid, I. Cap. XXIII**

(3) **Alcalâ de Henares** ، وتسمى فى الرواية العربية بقلعة عبد السلام أوقلعة النهر لوقوعها على نهر هنارس ، أحد أفرع نهر التاجه ، وهى تقع فى جنوب غربى وادى الحجارة فى منتصف المسافة بينها وبين مدريد .

(4) يختلف المؤرخون الإسبان فى تقدير عدد الكتب العربية التى ذهبت ضحية هذا الإجراء ، فيقدرها دى روبلس **E, de Robles** ، الذى كتب بعد ذلك بقرن كتاباً عن حياة الكردينال خمنيس، **Compenido de la Vida y Hazanas del Cardinal Ximenez** ، بمليون وخمسة آلاف كتاب. ويقدرها برمندث دى بدرانا **B. de Pedraza** الذى كتب بعده بقليل ، بمائة وخمسة وعشرين ألفاً فى كتابه **Historia Eclesiastica de Granada** ، ويقدرها البعض الآخر بخمسة آلاف فقط ، ويقدرها كوندى بثمانين ألفاً ، وربما كان تقديره أقرب إلى المعقول . راجع **Prescott : Ferd. and Isabella .p 451-53 & notes.**

الكردينال خمنيس دى سيسنيروس

البربرية ، التى ترتب عليها حرق المصاحف والكتب الإسلامية الأخرى لمسلمى غرناطة ، وذلك لكى يتوسل بذلك إلى تنصيرهم » .

ويقول المؤرخ الأمريكى وليم پرسكوت : « إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجى جاهل ، وإنما حبر مثقف ، وقد وقع لا فى ظلام العصور الوسطى ، ولكن فى فجر القرن السادس عشر ، وفى قلب أمة مستنيرة ، تدين إلى أعظم حد بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها »(١) .

ثم يشير إلى ما ترتب على هذا العمل بقوله : « لقد غدت الآداب العربية نادرة فى مكتبات نفس البلد الذى نشأت فيه ، وإن الدراسات العربية التى كانت من قبل زاهرة فى اسبانيا ، حتى فى العصور الأقل لمعاناً ، انهارت لأنها عدمت غذاء يؤدها ؛ وهكذا كانت النتائج المحزنة للمطاردة الأدبية ، التى يراها البعض أشد تقويضاً من تلك التى توجه إلى الحياة ذاتها » .

على أن هذا العمل الذى يثير غضب النقد الغربى الحديث وزرايته ، يجد مع ذلك بين العلماء الإسبان من يبرره بل ويمجده . وقد تولى المستشرق سيمونيت الدفاع عن الكردينال خمنيس ، الذى يصفه بأنه أحد أمجاد الكنيسة الإسبانية ، فى رسالة عنوانها : « الكردينال خمنيس دى سيسنيروس والمخطوطات العربية الغرناطية »(٢) يقول فيها ، إن ما قام به الكردينال من حرق الكتب أمر لا غبار عليه ، إذ هو إعدام للشئ الضار ، وهو بالعكس أمر محمود ، كما تعدم عناصر العدوى وقت الوباء ، وإن الملكين الكاثوليكيين قد أمرا عقب تنصير المسلمين أن تؤخذ منهم كتب الشريعة والدين ، لكى تحرق فى سائر مملكة غرناطة ، وألا يبقى لديهم سوى الكتب التى لا علاقة لها بالدين الذى نبذوه ، وإن تأجيل تنفيذ هذا الأمر حتى عهد الملكة خوانا ، كان تسامحاً وتساهلا ، وقد استشارت الملكة مجلسها ، وأصدرت بتاريخ ٢٠ يونيه سنة ١٥١١ أمراً ملكياً ، تلزم فيه جميع السكان الذين تنصروا حديثاً ، سواء فى غرناطة أوغيرها من نواحى مملكة غرناطة ، أن يسلموا سائر الكتب العربية التى لديهم سواء فى الدين أوالشريعة أوكتب الطب والفلسفة والتاريخ أو غيرها إلى قاضى الجهة ، وذلك فى ظرف خمسين يوماً من تاريخ هذا الأمر ،

---

(١) W. Prescott : ibid, p. 453 & 454

(٢) F. Javier Simonet : El Cardinal Ximenez de Cisneros y los Manuscritos Arabigo - Granadinos

لكى يفحصها القضاة ، وتؤخذ منها كتب الدين والسنة ، ويرخص القضاة بعد ذلك بحيازة غيرها .

ويدافع سيمونيت عن تصرف الكردينال خمنيس بحماسة ، ويقول إن إحراقه للكتب ، يمكن أن يقارن بما وقع من أعمال مماثلة خلال الثورات الحديثة ، منذ البروتستانتية الإنجليزية والألمانية إلى الثورة الفرنسية ، وأنه خلال هذه الثورات ، قد أحرق أو أتلف كثير من الآثار الأدبية والفنية فى كثير من البلاد الأوربية ، وأنه لا يمكن مقارنة عمل خمنيس، بما وقع من إحراق مكتبة الإسكندرية (المزعوم) ، بأمر الخليفة عمر ، وأن معظم الكتب العربية قد أخرج من اسبانيا مع الهجرة ، ومع من هاجروا من المسلمين من القواعد الأندلسية المختلفة ، وأخيراً أن كثيراً منها قد جمع أيام الملك فيليب الثانى وأودع بقصر الإسكوريال[١] .

ذلك هو ملخص رسالة المستشرق سيمونيت فى الدفاع عن تصرف الكردينال خمنيس ، وهو دفاع يبدو ركيكاً مصطنعاً إزاء أحكام النقد الغربى المستنير ، وتطبعه نزعة تحيز وتعصب واضحة ، تبدو فى كل ما كتبه هذا العلامة الإسبانى عن الأمة الأندلسية ، وهو لا يمكن مهما أسبغ عليه من المقارنات ، أن يزيل أثر هذه الوصمة المشينة من حياة خمنيس ، أو من التاريخ الإسبانى .

ولنعد إلى حديث تنصير المسلمين ، فنقول إن ما حدث فى غرناطة ، حدث فى باقى البلاد والنواحى الأخرى ، فنصر أهل البشرّات والمرية وبسطة ووادى آش فى العام التالى ، أعنى فى سنة ١٥٠٠ ، وعم التنصير سائر أنحاء مملكة غرناطة . على أن هذه الحركة التى نظمت لتنصير بقية الأمة الأندلسية والتى لم تدخر فيها أساليب الوعود والوعيد والإغراء والإكراه ، لم تقع دون قلائل واضطرابات عديدة حسبما نفصل بعد .

وكان الإغراء بالتنصير يتخذ أحياناً ، شكل هبات ومنح جماعية لبلدة أو منطقة بأسرها ، كما حدث بالنسبة لأهل وادى ألكرين (الإقليم) ولانخرون والبشرّات ، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان مرسوماً (فى ٣٠ يوليه سنة ١٥٠٠) بإبراء سائر أهالى النواحى المذكورة ، الذين تنصروا أو يتنصرون ، من جميع الحقوق والتعهدات المفروضة على الموريسكيين لصالح العرش ، ورفعها عن منازلهم وأراضيهم وسائر أملاكهم المنقولة والثابتة ، وهبتهما لهم ، وإلغاء ضريبة الرأس

---

(١) Simonet : ibid, p. 3, 8-10, 17, 18, 20 - 27 & 31

المفروضة عليهم لمدة ست سنوات ، وإقالتهم من الغرامة التى فرضت عليهم من جراء ثورتهم ، وقدرها خمسون ألف دوقية ، هذا إلى منح وإبراءات أخرى تضمنها المرسوم المشار إليه[1] .

وصدر كذلك مرسوم مماثل من الملكين الكاثوليكيين فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٥٠٠ ، إلى « المسلمين » القاطنين بحيهم Moreria بمدينة بسطة ، بإقالة الذين تنصروا منهم أو يتنصرون ، من جميع الفروض والمغارم التى فرضت على الموريسكيين ، وتحريرهم منها سواء بالنسبة لأنفسهم أو منازلهم وأموالهم الثابتة والمنقولة من يوم التنصير ، وألا يدخل أحد منازلهم ضد إرادتهم ، ومن فعل عوقب بغرامة فادحة ، وأن يعفوا من سائر الذنوب التى ارتكبت ضد خدمة العرش ، وأن تحترم جميع العقود والمحررات التى كتبت بالعربية ، وصادق عليها فقهاؤهم وقضاتهم ، وأن يعامل المتنصرون منهم كسائر النصارى الآخرين فى بسطة ، ولهم أن ينتقلوا وأن يعيشوا فى أى مكان آخر من أراضى مملكة قشتالة ، دون قيد أو عائق ، إلى غير ذلك من المنح والامتيازات[2] .

وصدر أخيراً مرسوم بالعفو عن جميع سكان « حى المسلمين » Moreria بغرناطة والقرى الملحقة بها ، بالنسبة لجميع الذنوب والأخطاء ، التى ارتكبت حتى يوم تنصيرهم ، وألا يتخذ فى شأنها أى إجراء ، سواء ضد أشخاصهم أو أملاكهم[3] .

ولم تقدم الرواية الإسلامية المعاصرة إلينا كثيراً من التفاصيل عن هذه الحوادث والتطورات ، ولكنها تكتفى بأن تجمل مأساة تنصير المسلمين فى هذه الكلمات المؤثرة :

« ثم بعد ذلك دعاهم (أى ملك قشتالة) إلى التنصير ، وأكرههم عليه وذلك فى سنة أربع وتسعمائة ، فدخلوا فى دينهم كرهاً ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » إلا من يقولها فى قلبه ، وفى خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الأذان ، وفى مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل ناراً ، ودموعهم تسيل سيلا غزيراً ، وينظرون إلى

---

(١) يحفظ هذا المرسوم بدار المحفوظات الإسبانية العامة **Archivo general de Simancas** برقم **P. R 11 - 98** ، وقد حصلنا منه على صورة فتوغرافية .

(٢) **Archivo general de Simancas : P. R. 11 - 107**

(٣) **Arch. gen. Leg. 28 ; Fol. 22**

أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ، ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيالها من فجيعة ما أمرها ، ومصيبة ما أعظمها ، وطامة ما أكبرها » . ثم يختتم بقوله : « وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدراً مقدورا »(١) .

ونقل إلينا المقرى نبذة من رسالة أخرى ، يشير كاتبها إلى تنصير مسلمى الأندلس فيما يلى :

« وتعرفنا من غير طريق ، وعلى لسان غير فريق ، أن قطر الأندلس طرق أهله خطب لم يجد فى سالف الدهر. وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضى فى الظاهر الكفر ، ولم يقبل منهم الأسر. وكان الابتداء فى ذلك من أهل غرناطة ، وخصوصاً أهل واسطتها لقلة الناس ، وكونهم من الرعية الدهماء ، مع عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس ، وعلم النصارى بأن من بقى بها من المسلمين إنما هم أسارى فى أيديهم ، وعيال عليهم ، وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل ، وعتوا فيهم بالخروج والجلاء ، فلم يبق من المسلمين طائل ، ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده ، ونشر بمحض الغدر بنوده .... الخ »(٢) .

وجاء فى رواية أخرى هذا الوصف لمأساة التنصير : « إن طاغية قشتالة وأرغون صدم غرناطة صدمة ، وأكره على الكفر من بقى بها من الأمة ، بعد أن هيض جناحهم ، وركدت رياحهم ، وجعل بعد جنده الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال ، والطاغية يزدهى فى الكفر ويختال ، ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه ، وتطمس معالمه ورسومه ؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه ، لكان كل مسلم يندبه ويبكيه ، فقد عبث البلاء برسومه ، وعفى على أقماره ونجومه ، ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام ، وتوعد بالنكال والمهالك العظام ، ومن كان يعذب فى الله بأنواع العذاب ، ويدخل به من الشدة فى باب ويخرج من باب ، لأنساكم مصرعه ، وساءكم مقطعه ، وسيوف النصارى

(١) أخبار العصر ص ٥٤ و٥٥ و٥٦ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١

إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة ، وأفواه الذاهلين محلولة ، وهم يقولون : ليس لأحد بالتنصر إن يمطل ، ولا يلبث حيناً ولا يمهل ، وهم يكابدون تلك الأهوال ، يطلبون لطف الله على كل حال » .

وقد تردد صدى هذه المحنة التى نزلت بمسلمى الأندلس بسرعة سائر فى جنبات العالم الإسلامى ، فنرى ابن إياس مؤرخ مصر ، وهو راوية معاصر ، يدون فى حوادث صفر سنة ٩٠٦ هـ (أغسطس سنة ١٥٠٠ م) أعنى عقب محنة التنصير بأشهر قلائل ما يأتى : « وفيه جاءت الأخبار من المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف بالمسلمين ، وقالوا من دخل ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه ، فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ، ثم ثار عليهم المسلمون ثانياً وانتصفوا عليهم بعض شىء ، واستمر الحرب ثائراً بينهم ، والأمر لله تعالى فى ذلك »(١) .

أما المسلمون الذين بقوا فى مملكة البرتغال ، فقد كان مصيرهم فيما يبدو أفضل من مصير إخوانهم مسلمى الأندلس . فقد قضى العرش البرتغالى بإخراجهم من أراضى المملكة فى سنة ١٤٩٦م ، والسماح لهم بالعبور إلى المغرب أو إلى حيث شاءوا ، ونظراً لما لقوه من صعاب فى اختراق الأراضى الإسبانية ، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان ، تحقيقاً لرغبة ملك البرتغال ، مرسوماً (فى ابريل سنة ١٤٩٧) يصرح فيه للمسلمين البرتغاليين ونسائهم وأولادهم وخدمهم ، أن يخترقوا أراضى مملكة قشتالة ، وأن يذهبوا بأموالهم وأمتعتهم إلى البلاد الأخرى ، وأن يبقوا فى أراضى قشتالة الوقت الذى يرغبون ثم يغادرونها بأموالهم متى شاءوا ، وفقط لا يسمح لهم بحمل الذهب والفضة إلى الخارج ، ويؤمنون فى أنفسهم وأموالهم ضد كل اعتداء ولا يؤخذ منهم شىء بلا حق(٢) .

* * *

تلك هى المأساة التى استحالت فيها بقية الأمة الأندلسية بالتنصير المفروض ، إلى طائفة جديدة ، عرفت من ذلك التاريخ بالموريسكيين Moriscos ، أو المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين(٣) . وقد فرض التنصير على المسلمين فرضاً ، ولم تحجم

---

(١) ابن إياس (بولاق) ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) **Arch. gen. de Simancas, P.R. Leg. 28 Fol. 3**

(٣) **Moriscos** هى تصغير كلمة **Moros** ، ومعناها المسلمون أو العرب الأصاغر ، رمزاً إلى ما انتهت إليه الأمة الأندلسية من السقوط والانحلال .

السلطات الكنسية والمدنية ، عن اتخاذ أشد وسائل العنف . ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف دون تذمر ودون مقاومة ، وسرت إليهم أعراض الثورة ولاسيما فى المناطق الجبلية ، حيث كان ما يزال ثمة قبس من الحماسة الدينية . وكانت السياسة الإسبانية تلتمس الوسيلة للتخلص نهائياً من العهود المقطوعة ، فألفت فى التذمر والمقاومة سندها ، وقرر مجلس الدولة بأن المسلمين أصبحوا خطراً على الدين والدولة ، ولاسيما بعد ما تبين من جنوحهم إلى الثورة ، ومحاولتهم الاتصال بإخوانهم فى المغرب ومصر وقسطنطينية ، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية ، ونفى المخالفين منهم من الأراضى الإسبانية . وهكذا حاول مجلس الدولة أن يسبغ صفة الحق والعدالة على التنصير المغصوب ، وعلى كل ما يتخذ لتحقيقه من إجراءات العسف والإرهاق .

وقع هذا القرار على المسلمين وقع الصاعقة ، وسرعان ماسرت إليهم الحمية القديمة ، فاعلنوا الثورة فى معظم نواحى غرناطة ، وفى ربض البيّازين وفى البشرّات واشتد الهياج بالأخص فى بلفيق ، وفى أندرش حيث نسف حاكم البلدة مسجدها بالبارود ، وفى نيخار وجوبخار وغيرها ، واعتزم المسلمون الموت فى سبيل دينهم وحريتهم ، ولكنهم كانوا عزلا ، وكانت جنود النصرانية صارمة شديدة الوطأة فمزقتهم بلا رأفة ؛ وكثر بينهم القتل ، وسبيت نساؤهم ، وقضى بالموت على مناطق بأسرها ، ما عدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة ، فقد حولوا إلى نصارى . وحمل التعلق بالوطن وخوف الفاقة وهموم الأسرة ، كثيراً منهم على الإذعان والتسليم ، فقبلوا التنصير المغصوب ملاذاً للنجاة ؛ ولجأت الحكومة بعد إخماد الهياج فى غرناطة والبيازين إلى أساليب الرفق ، فبعثت بالعمال والقسس فى مختلف الأنحاء ، ولم يدخر هؤلاء وسعاً فى اجتذاب المسلمين بالوعيد والوعود ، وهكذا ذاع التنصر فى سائر مملكة غرناطة القديمة(١) .

وفى الوقت نفسه اضطر المسلمون المدجّنون فى آبلة وسمورة ، وبلاد أخرى فى جلّيقية ، إلى اعتناق النصرانية ، وكانوا حتى ذلك الوقت يحتفظون بدينهم القديم .

ونشط فرناندو إلى إخماد الهياج حيث يقع . وفى الوقت الذى غدا فيه التنصير أمراً محتوماً ، وأضحى فرناندو يعتبر نفسه فى حل من عهوده المقطوعة للمسلمين ، تقدم إليه ديسا المحقق العام بوجوب إنشاء ديوان للتحقيق فى غرناطة ، لكى يعاون على

(١) Marmol : ibid, l. Cap. XXVII ، وكذلك Prescott : ibid ; p. 462

مطاردة الزيغ بوسائله الفعالة . فألفت لجنة ملكية للتحقيق فى حوادث غرناطة ، وقبض على كثير من المسلمين بتهمة التحريض ، وهرع آلاف أخر منهم إلى اعتناق النصرانية خيفة السجن والمطاردة . وعارض فرناندو وإيسابيلا فى إنشاء ديوان التحقيق فى غرناطة ذاتها ، واقترحا أن تحال شئونها إلى اختصاص ديوان التحقيق فى قرطبة ، وألا يقدم المسلمون أو الموريسكيون إلى الديوان إلا لتهم خطيرة ؛ ولكن الكنيسة لم تقنع باتخاذ الإجراءات الجزئية ، ومضت تعمل لغايتها الشاملة . وكان فرناندو من جهة أخرى لا يزال يتوجس من المسلمين شراً ، ويرى فى منطق الكنيسة قوة ، وهو أن احتفاظ المسلمين بدينهم يقوى الروابط بينهم وبين إخوانهم فى إفريقية ، وأن اسبانيا ما تزال تضم بين جوانحها عدواً يخشى بأسه ، وأن فى تنصير المسلمين أو إخراجهم من اسبانيا ، سلام اسبانيا ونقاء دينها .

وكانت الكلمة للكنيسة دائماً ، ففى ٢٠ يوليه سنة ١٥٠١ أصدر فرناندو وإيسابيلا أمراً ملكياً خلاصته « أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة » فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، فإذا كان بها بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم ، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم ، أو بأولئك الذين نصروا لئلا يفسدوا إيمانهم ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال .

وحاول المسلمون فى يأسهم أن يلجأوا إلى معاونة سلطان مصر ، فأرسلوا إليه كتبهم يصفون إكراههم على التنصر ، ويطلبون إليه أن ينذر ملك اسبانيا بأنه سوف ينكل بالنصارى المقيمين فى مملكته ، إذا لم يكف عنهم ، فنزل سلطان مصر عند هذه الرغبة ، وأرسل إلى فرناندو يخطره بما تقدم ؛ وانتهز فرناندو هذه الفرصة فأوفد إلى بلاط القاهرة (سنة ١٥٠١) سفارته التى تحدثنا عنها فيما تقدم والتى كان سفيره فيها بيترو مارتيرى الحبر الكاتب والمؤرخ . فأدى مارتيرى سفارته ببراعة ، واستطاع أن يقنع السلطان بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئنه على مصيرهم[١] .

وهكذا خبت آمال المسلمين تباعاً ، ولم تصمد الثورة إلا فى المنطقة الجبلية الواقعة بين آكام ڤليا لونجا وسيرّا ڤرمليا (الجبال الحمراء) بجوار رندة ، حيث احتشدت بعض البطون المغربية ، وحيث استطاع الثوار أن يقتحموا شعب الجبال ، وأن يفتكوا بعمال الحكومة وجندها . وسير فرناندو إلى تلك المنطقة حملة قوية تحت

(١) راجع : Prescott : ibid ; p. 287 ؛ وكذلك Dr. Lea : The Moriscos, p. 36

إمرة قائده الشهير ألونسو دى آجيلار دوق قرطبة ، ونفذ الجند الإسبان إلى شعب ثليا لونجا ، ووقعت الواقعة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، فهزم النصارى هزيمة فادحة وقتل منهم عدد جم ، وكان قائدهم آجيلار وعدة آخرون من السادة الأكابر ، فى مقدمة القتلى (مارس سنة ١٥٠١) .

فكان لهذه النكبة التى نزلت بالجنود الإسبان وقوادهم ، أعمق وقع فى البلاط الإسبانى . وهرع فرناندو إلى غرناطة ، ورأى بالرغم مما كان يحدوه من عوامل السخط والانتقام ، أن يجنح إلى اللين والمسالمة ، فأعلن العفو عن الثوار بشرط أن يعتنقوا النصرانية فى ظرف ثلاثة أشهر ، أويغادروا اسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فآثر معظمهم النفى والجواز إلى إفريقية ، وهاجرت منهم جموع كبيرة إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها ، وقدمت الحكومة الإسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة لرحيلهم[١] ، إذ كانوا أشد العناصر مراساً وأكثرها نزوعاً إلى الثورة . واستقر الباقون وهم الكثرة الغالبة من المسلمين فى البلاد خاضعين مستسلمين ، وقد وصفهم دى بدراثا ، وهو مؤرخ من أحبار الكنيسة عاش قريباً من ذلك العصر بقوله : إنهم شعب ذو مبادئ أخلاقية متينة ، أشراف فى معاملاتهم وتعاقدهم ، ليس بينهم عاطل ، وكلهم عامل ، يعطفون أشد العطف على فقرائهم[٢] .

ولم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إلى هذه الصفحة الأخيرة من جهاد المسلمين الباسل فى سبيل دينهم ، فقد نقل إلينا المقرى عنها ما يأتى :

« وبالجملة فإنهم (أى أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم عن التنصر ، واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرها ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبياً ، إلا ما كان من جبل بلنقة (أى ثليا لونجا) ، فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصير من المسلمين ، يعبد الله خفية ويصلى ، فشدد عليهم النصارى فى البحث ، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من

(١) Prescott : ibid ; p. 467

(٢) P. Longàs (Cit. B. de Pedraza : Hist. Eclesiastica) : Vida Religiosa de los Moriscos (p. LII).

حمل السكين الصغيرة ، فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مراراً ، ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً»(١) .

ومضت السياسة الإسبانية فى اضطهادها المسلمين والموريسكيين بمختلف الفروض والوسائل . وكان من الإجراءات الشاذة التى اتخذت فى هذا السبيل ، تشريع أصدره فرناندو بإلزام المسلمين والموريسكيين فى المدن ، بالسكنى فى أحياء خاصة بهم ، على نحو ماكان متبعاً نحو اليهود فى العصور الوسطى ونفذ هذا التشريع فى غرناطة عقب حركة التنصير الشامل ، وأفرد بها للمسلمين والمتنصرين حيان ، أحدهما يضم نحو خمسمائة منزل وهو الحى الصغير وهو داخل المدينة ، والثانى يضم نحو خمسة آلاف منزل ، ويشمل ضاحية البيازين . وكانت الأحياء التى يشغلها المسلمون أو المتنصرون فى المدن الأندلسية تسمى « موريريا » Moreria أو أحياء الموريسكيين ، على نحو ماكانت أحياء اليهود الخاصة تسمى « الجيتو » Ghetto . وكانت تفصل بينها وبين أحياء النصارى أسوار كبيرة ، وكان عدد المسلمين الذين بقوا فى غرناطة يبلغ فى ذلك الحين نحو أربعين ألفاً (٢) .

وصدر فى نفس الوقت فى سبتمبر سنة ١٥٠١ ، قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح علناً أو سراً ، وينص على معاقبة المخالفين لأول مرة بالحبس والمصادرة ، ثم بالموت بعد ذلك ، وهو قانون تكرر صدوره بعد ذلك غير مرة ، فى ظروف وعصور مختلفة ، وكان يطبق بصرامة بالأخص كلما حدث من الموريسكيين هياج أو مقاومة مسلحة تخشى عواقبها .

وكانت السياسة الإسبانية تخشى احتشاد الموريسكيين وتجمعاتهم فى مملكة غرناطة ، ولهذا صدر فى فبراير سنة ١٥١٥ مرسوم ملكى أعلن فى طليطلة ، وفيه يحرم بتاتاً على المسلمين المتنصرين حديثاً ، والمدجنين من أى جهة من مملكة قشتالة ،

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٦ و ٦١٧ . وراجع أخبار العصر ص ٥٥ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos; p. 31, 151 & 152 . ويبدو هذا الالتزام بسكنى المسلمين فى أحياء خاصة فى غرناطة وغيرها من المدن الأندلسية القديمة فى كثير من المراسيم الملكية التى صدرت منذ سنة ١٥٠٠ . مثال ذلك المرسوم الصادر بالإعفاء لأهل بسطة ، والذى أشرنا إليه من قبل Arch. gen. P.R. 11 — 107 ، والمرسوم الصادر بالعفو عن سكان « حى المسلمين » Moreria فى غرناطة الذى سبقت الإشارة إليه أيضاً (ص ٣٢٠) .

أن يخترقوا أراضى مملكة غرناطة ، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة . ونص هذا المرسوم أيضاً بأنه يحرم بتاتاً على المتنصرين حديثاً فى مملكة غرناطة أو فى أية جهة أخرى من المملكة ، أن يبيعوا أملاكهم لأى شخص دون ترخيص سابق ، ومن فعل عوقب بالموت والمصادرة ، وذلك لأنه تبين كما ورد فى المرسوم ، أن كثيراً من المسلمين المتنصرين يبيعون أملاكهم ، ويحصلون على أثمانها ، ثم يعبرون إلى المغرب ، وهنالك يعودون إلى الإسلام (١) .

(١) Archivo general de Simancas, P.R. Legajo 8, Fol. 120.

الفصل الثاني

ديوان التحقيق الإسبانى

ومهمته فى إبادة الأمة الأندلسية

أصل الفكرة فى محاكم التحقيق الأولى . إجراءاتها وعقوباتها . التوسع فى اختصاصاتها . قيام محاكم التحقيق فى أراجون . النزعة الصليبية فى اسبانيا . مطاردة اليهود المتنصرين . محاولة البابوية إقامة الديوان فى قشتالة . معارضة فرناندو وإيسابيلا . مساعى الأحبار والقس تركيمادا . موافقة فرناندو وإيسابيلا . صدور المرسوم البابوى بإنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة . قيام ديوان التحقيق الإسبانى . بداية نشاطه فى إشبيلية . اتساع نطاق أعماله . إنشاء المجلس الأعلى أو السوبريما . المحقق العام . جهود تركيمادا فى تنظيم الديوان . إجراءات ديوان التحقيق . التبليغ وطرقه وآثاره . الأحبار المقررون . القبض على المتهم . سجون الديوان . المحاكمة وإجراءاتها . الإحالة على التعذيب . أحكام التعذيب . تعليق الدون لورنتى . أنواع التعذيب واجراءاته . الأستجواب . الدفاع والمرافعات . الأحكام. تنفيذ العقوبة . حكم الإعدام . الأوتو دافى . محاكمة الغائبين والمتوفين .أثر الأحكام . بطش الديوان وحصانة المحققين . موقف العرش . خمنيس وجهوده فى إصلاح الديوان . شارل الخامس وموقفه من الديوان . بدء مطاردة المدجنين والموريسكيين . مهمة محاكم التحقيق . فكرة القضاء على الأمة الأندلسية . ديوان التحقيق يضطلع بهذه المهمة . اضطهاد الموريسكيين وريب الكنيسة فى إخلاصهم . تحرجهم من دينهم الجديد . أقوال الرواية القشتالية . وثيقة عربية تؤيد تمسكهم سراً بدينهم القديم ، وتحايلهم على نبذ شعائر النصرانية . السياسة الإسبانية نحو الموريسكيين . إجراءات القمع . ذرائع الإتهام . الشبهات الخطرة . الموريسكيون فى غرناطة وبلنسية . استغاثة الموريسكيين بالسلطان با يزيد الثانى . وثيقة عربية عن أحوالهم وآلامهم .

قام ديوان التحقيق (La Inquisición) فى مطاردة الموريسكيين بأعظم دور ، وترك فى مأساتهم أعمق الأثر ، ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نتحدث عن تاريخ هذه المحاكم الشهيرة ، ونظمها وأعمالها الرهيبة .

ويرجع قيام محاكم التحقيق إلى فكرة الرقابة القديمة على العقيدة ، والتحقق من سلامتها ونقائها . وقد ظهرت فكرة التحقيق فى أمر العقائد فى الكنيسة الرومانية فى عصر مبكر جداً ، وبدئ بتطبيقها منذ أوائل القرن الثالث عشر ، فكان البابا يعهد إلى الأساقفة وإلى الآباء الدومنيكيين ، فى تعقب المارقين والكفرة ومعاقبتهم . وطبق هذا النظام منذ البداية فى إيطاليا وألمانيا وفرنسا . وكان مندوبو البابوية

يتجولون فى مختلف الأنحاء، لتقصى أخبار الكفرة والقبض عليهم ومعاقبتهم، وكانت تعقد لذلك مجالس كنسية موقتة كانت هى النواة الأولى لمحاكم التحقيق، تعمل حيث يوجد الكفرة والملاحدة، ثم تحل متى تمت مهمة مطاردتهم والقضاء عليهم.

ثم أنشئت بعد ذلك مراكز ثابتة لمحاكم التحقيق، أقيم معظمها فى أديار الآباء الدومنيكيين والفرنسيسكانيين. ولم تك ثمة فى هذه العصور سجون خاصة أو مراكز خاصة لمحاكم التحقيق، وإنما كان يتخذ من أى مكان صالح مركزاً أوسجناً. وكان الأساقفة يتولون رياسة هذه المحاكم، ولهم سلطة مطلقة. وكانت التحقيقات والمرافعات تجرى بطريقة سرية، وتصدر الأحكام على المتهمين نهائية غير قابلة للطعن. وكان يسمح للنساء والصبية والعبيد بالشهادة ضد المتهم وليس له، ويؤخذ الإعتراف من المتهم بالخديعة والتعذيب. وكان التعذيب يعتبر طبقاً للقوانين الكنسية وسيلة غير مشروعة للاعتراف، ولكن البابوية لم تجد بأساً من إقرار هذه الوسيلة. وكانت السجون التى يستعملها ديوان التحقيق مظلمة رهيبة، يموت فيها الكثيرون من المرض والآلام النفسية. وكان السجناء يصفدون عادة بالأغلال الثقيلة. وكانت العقوبات الرئيسية هى السجن المؤبد والإعدام والمصادرة. وكانت السلطات الدينية والبابوية تحصل على أوفر نصيب من الأموال المصادرة، وتحصل السلطات المدنية أيضاً على نصيبها منها. وألفى ديوان التحقيق ميداناً خصباً لنشاطه فى مطاردة الألبيين(١) وغيرهم من الملاحدة الذين ظهروا منذ أوائل القرن الثالث عشر فى جنوب فرنسا. وفى عهد لويس التاسع ملك فرنسا وضع أول قانون ينظم إجراءات هذه المحاكم الكنسية الجديدة.

وكان ديوان التحقيق فى تلك العصور يصدر أيضاً أحكامه ضد الكتب المحرمة، ويأمر بإحراقها، ومن ذلك أحكام صدرت بإحراق التلمود وبعض كتب أرسطو وغيرها من كتب الفلسفة فى العهد القديم.

ثم اتسع اختصاص محاكم التحقيق بمضى الزمن، فلم تبق مهمتها قاصرة على مطاردة الكفر، والزيغ فى العقيدة، بل تعدته إلى مطاردة السحر والسحرة والعرافة والعرافين، وشبه هؤلاء بالكفرة. وجاء بعد ذلك دور اليهود، فاتهموا بسب النصرانية وأخذت عليهم مزاولة الربا، وتتبعهم ديوان التحقيق بالمطاردة والعقاب. على أن الديوان لم ينس دائماً أن مهمته الأصلية تنحصر فى مطاردة الكفر والزيغ، والمحافظة على سلامة العقيدة الكاثوليكية ونقائها.

---

(١) نسبة إلى «ألبى» وهى مدينة بجنوبى فرنسا، وكانت من أهم مراكز هذه الطائفة الملحدة.

— ٢ —

تلك هى الظروف التى قامت فيها محاكم التحقيق الأولى ، فى مختلف أنحاء أوربا ، فى إيطاليا وألمانيا وفرنسا . ويرجع قيام ديوان التحقيق الإسبانى إلى نفس البواعث الدينية ، ولكنه نشأ مع ذلك نشأة مستقلة ، وأحاطت بقيامه ظروف خاصة .

وقد أنشئت محاكم التحقيق فى مملكة أراجون منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ووضعت لها فى سنة ١٢٤٢م إجراءات جديدة ، كان لها فيما بعد أكبر الأثر فى صوغ نظم ديوان التحقيق الإسبانى. وعرف هذا الديوان الأرجونى بالديوان القديم وعكف حيناً على مطاردة طوائف الألبيين ، وإخماد دعوتهم فى أراجون، ولم يلبث أن غدا سلطانه ، وغدت وسائله وإجراءاته مثار الرهبة والروع .

على أن هذه لم تكن سوى بداية محدودة المدى لنشاط ديوان التحقيق الإسبانى . ذلك أن ظروف اسبانيا النصرانية فى ذلك العصر ، واضطرام الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا المسلمة ، ورجحان كفتها فى ميدان الحرب والسياسة ، كانت كلها تذكى النزعة الصليبية ، التى كانت تجيش بها اسبانيا دائماً . وكانت الأمة الأندلسية قد استحالت منذ القرن الرابع عشر ، إلى طوائف كبيرة من المدجنين فى مهاد عزها القديم ، فى قشتالة وأراجون، ولم تبق منها سوى بقية أخيرة تحتشد فى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى كان مصيرها المحتوم يلوح قوياً فى الأفق . وكان تفوق اسبانيا النصرانية ونصرها المضطرد ، يذكى عوامل التعصب الدينى الذى تبثه الكنيسة وترعاه ، وتتخذه اسبانيا الظافرة يومئذ شعارها المفضل فى ميدان السياسة . وكانت موجة من التعصب تضطرم فى هذا الوقت بالذات ، حول طوائف المتنصرين من اليهود (Conversos) ؛ وكان أولئك المحدثون فى النصرانية ، قد سما شأنهم ووصل كثير منهم إلى المناصب الكنسية الكبيرة ، وإلى مجلس الملك ، وتبوأوا بأموالهم ونفوذهم مكانة قوية فى الدولة والمجتمع ، وكان أحبار الكنيسة ينظرون إليهم بعين الريب، ويعتبرونهم شراً من اليهود الخلص أنفسهم، ويتهمونهم بالإلحاد والزيغ ، ومزاولة شعائرهم القديمة سراً . ولما تفاقم الإتهام من حولهم صدر فى سنة ١٤٦٥م فى عهد الملك هنرى الرابع ملك قشتالة ، أمر ملكى إلى الأساقفة ، بالاستقصاء والبحث فى دوائرهم ، وتتبع هذا اللون من المروق والزيغ ومعاقبة المارقين ، وتلا ذلك موجة من الاضطهاد اتخذت صورة المحاكمات الدينية ،

وأحرق عدد من أولئك المتنصرين . ولكن قشتالة التي شغلت يومئذ بمشاكلها الداخلية ، لم تعن بأمر المتنصرين ولم تزعجهم . وهنا تدخل البابا سكستوس الرابع ، وحاول أن يدخل نظام التحقيق فى قشتالة ، فأرسل إليها مبعوثاً بابوياً مزوداً بكل السلطات ، للتحقيق والقبض على المارقين ومعاقبتهم . ولكن فرناندو وإيسابيلا وقفا فى وجه هذه المحاولة حرصاً على سلطانهما ، وحداً من سلطة الكنيسة ، وأغضت إيسابيلا مدى حين عن تحريض الأحبار ، على مطاردة الكبراء المنتمين إلى أصل يهودى إذ كانت تثق بهم وبصادق نياتهم وغيرتهم فى خدمة الدولة والعرش .

على أن هذه المقاومة لم تلبث طويلا . ذلك أن كل الظروف كانت تمهد لظفر السياسة الكنسية ، فلم تلبث أن غلبت مساعى الأحبار ، وقبل الملكان إنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة ، ليضطلع بمثل المهام الخطيرة التى يضطلع بها فى أراجون . وهنا يقال إن الفضل فى إقناع الملكة إيسابيلا بتحقيق هذه الفكرة يرجع إلى القس توماس دى تُركمادا رئيس دير الآباء الدومنيكان فى سانتا كروث بشقوبية ، وقد كان معترف الملكة وله عليها نفوذ قوى ، فقيل إنه استطاع أن يحصل منها قبل اعتلائها العرش ، على وعد بأنها متى ظفرت بالملك ، فإنها تكرس حياتها لسحق الكفر وحماية الكثلكة ، وأنه كان أكثر العاملين على إقناعها بالموافقة على إنشاء ديوان التحقيق . وفى سنة ١٤٧٨ أرسل فرناندو وإيسابيلا سفيرهما إلى البابا ، للحصول على المرسوم البابوى ، وصدر المرسوم بالفعل فى نوفمبر من هذا العام بالتصريح بإنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة ، وتعيين المحققين « لمطاردة الكفر ومحاكمة المارقين » ، واتخذت الخطوة الحاسمة لتنفيذ المرسوم فى سبتمبر سنة ١٤٨٠ ، حيث ندب المحققون الثلاثة الأول ، وأنشئت محكمة التحقيق الأولى فى إشبيلية . وهكذا بدأ ديوان التحقيق الإسبانى نشاطه المروع فى قشتالة .

— ٣ —

وبدأ الديوان أعماله فى إشبيلية بإصدار قرارات يحث فيها كل شخص أن يساعد الديوان ، فى البحث عن الملحدين والكفرة ، وكل من فى عقيدتهم زيغ ، وفى جمع الأدلة على إدانتهم ، وفى التبليغ عنهم بأية وسيلة ، وانقضت العاصفة بالأخص على اليهود المتنصرين ، وكانت منهم طائفة كبيرة فى إشبيلية ، فلم يمض عام حتى بلغت ضحاياهم ألوفاً أحرق منهم عدد كبير ، وعوقب الكثيرون بالسجن والغرامات الفادحة ، والمصادرة والتجريد من الحقوق المدنية .

وحاول كثير من المتنصرين النجاة بالفرار إلى ضياع الأشراف ، فصدر أمر ملكى بتسليم الهاربين إلى محكمة التحقيق ، وهدد الأشراف بفقد وظائفهم والنفى من الكنيسة ، إذا تخلوا عن تنفيذ الأمر . وحاول بعض أكابر المتنصرين فى الوقت نفسه تدبير مؤامرة ، لمقاومة محكمة التحقيق والفتك بأعضائها ، ولكن المؤامرة اكتشفت وقبض على كثير منهم ، وقضى بإعدام البعض حرقاً ، وبذا سحقت كل مقاومة لنشاط الديوان الجديد .

واتسع نشاط الديوان بسرعة ، واستصدر الملكان من البابا مرسوماً بتعيين سبعة من « المحققين » الجدد (فبراير سنة ١٤٨٢) ، وأنشئت على أثر ذلك محاكم التحقيق فى قرطبة وجيان وشقوبية وطليطلة وبلد الوليد ، وشمل نشاط الديوان سائر أنحاء المملكة الإسبانية (قشتالة وأراجون) .

وكان فرناندو وإيسابيلا يرميان إلى أن تسبغ الصفة القومية على ديوان التحقيق ، وأن يكون سلطانه مستمداً من العرش ، أكثر مما هو مستمد من البابوية . ولتحقيق هذه الغاية رؤى أن ينظم الديوان على أسس جديدة . وكان الديوان قد غدا فى الواقع أداة هامة مرهوبة الجانب ، ولابد لهذه الأداة من سلطة عليا تقوم بالتوجيه والإرشاد. ومن ثم فقد صدر المرسوم البابوى فى سنة ١٤٨٣ بإنشاء مجلس أعلى لديوان التحقيق (Suprema) له اختصاص مطلق فى كل مايتعلق بشئون الدين ، ويتألف من أربعة أعضاء منهم الرئيس ، وأطلق على منصب الرئيس منصب « المحقق العام » -Inquisitor General ، وصدر المرسوم البابوى فى أكتوبر سنة ١٤٨٣ بتعيين القس توماس دى تركيمادا معترف الملكين ، فى هذا المنصب الخطير ، وخول فى الوقت نفسه سلطة مطلقة فى وضع دستور جديد للديوان المقدس .

وكان تركيمادا حبراً شديد التعصب ، وافر البأس والعزم ، فبذل فى تنظيم الديوان وتوطيد سلطانه جهوداً عظيمة ، وبث إليه روحاً من الصرامة . وكان جل غايته أن يجعل من ديوان التحقيق الإسبانى ، أداة قومية تعمل وفقاً لحاجات اسبانيا ، وقد وفق فى تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد . وبدئ بوضع دستور الديوان الجديد فى سنة ١٤٨٥ ، على يد جمعية من المحققين العامين عقدت فى إشبيلية ، ووضعت طائفة من القرارات واللوائح ، ثم عقدت بعد ذلك جمعية أخرى فى بلد الوليد سنة ١٤٨٨ ووضعت عدة لوائح جديدة ، وعقدت جمعية ثالثة فى آبلة سنة ١٤٩٨ . وتولى المجلس الأعلى (السوبريما) بعد ذلك صياغة اللوائح وتنقيحها . وكان هذا

التنظيم عظيم الأثر فى تطور ديوان التحقيق الإسبانى . ذلك أنه غدا من ذلك الحين محكمة قومية مستقلة ، وغدا سلطة يخافها أعظم العظماء فى اسبانيا ، ويرتجف لذكرها الفرد العادى ، وأضحى نشاطها الرهيب ، وقضاؤها المدمر ، عنصراً بارزاً فى التاريخ الإسبانى ، يقوم بدوره الفعال فى دفع اسبانيا إلى شفا المنحدر ، الذى لبثت تتردى فى غمره زهاء ثلاثة قرون .

ولبث تُركيمادا فى منصب المحقق العام حتى توفى فى سنة ١٤٩٨ . وفى عهده اشتد نشاط محاكم التحقيق واتسعت أعمالها ، وكان هذا القس المتعصب بالرغم من تقشفه ، يعتبر بعد العرش أعظم سلطة فى اسبانيا ، ويعيش فى قصور باذخة ، وله حرس كبير من الفرسان والمشاة . وكان من جراء شدته وعسفه أن ندب البابا سنة ١٤٩٤ إلى جانبه خمسة من المحققين العامين ، يتمتع كل منهم بنفس سلطته . ولما توفى خلفه فى منصب المحقق العام ديجو ديسا أسقف جيان ، واستمر فى منصبه حتى سنة ١٥٠٧ م .

— ٤ —

ونقدم الآن عرضاً موجزاً لإجراءات ديوان التحقيق . وسنرى أنها بأصولها وتفاصيلها ، أبعد ما يكون عن مبادئ المنطق والعدالة ، وأشد ما يكون عسفاً وقسوة وهمجية .

تبدأ قضايا الديوان أومحاكماته الفرعية ، بالتبليغ أوما يقوممقامه ، كورود عبارة فى قضية منظورة تلقى شبهة على أحد ما . ولافرق بين أن يكون التبليغ من شخص معين أويكون غفلا . ففى الحالة الأولى يدعى المبلغ ويذكر أقواله وشهوده ، وتعتبر أقوال المبلغ وشهوده « تحقيقاً تمهيدياً » . كذلك يمكن التبليغ بواسطة « الإعتراف » الذى يتلقاه القسس ، ولهم أن يبلغوا عما يقعون عليه من حالات الإشتباه فى العقائد ، ولا توضح لهم الوقائع التى يُسئلون عنها بل يسئلون بصفة عامة ، عما إذا كانوا قد رأوا أو سمعوا شيئاً يناقض الدين الكاثوليكى أوحقوق الديوان . ويقوم الديوان فى الوقت نفسه بإجراء التحريات السرية المحلية عن المبلغ ضده . ثم تعرض نتيجة التحقيق التمهيدى على « الأحبار المقررين » ليقرروا ما إذا كانت الوقائع والأقوال المنسوبة إلى المبلغ ضده تجعله مرتكباً لجريمة الكفر أوتلقى عليه فقط شبهة ارتكابها . وقرارهم يحدد الطريقة التى تتبع فى سير القضية . ويقسم المقررون يمين الكتمان أيضاً ، وكان معظم أولئك المقررين من القسس الجهلاء المتعصبين ، ومن ثم فقد كانت

أخلاقهم وآراؤهم ، بل ذممهم وشرفهم مثاراً للريب ، وكان رأيهم الإدانة دائماً إلا فى أحوال نادرة .

وعلى أثر صدور هذا التقرير ، يصدر النائب أمره بالقبض على المبلغ ضده وزجه إلى سجن الديوان السرى . وكانت سجون الديوان المخصصة لاعتقال المتهمين بالكفر أو الزيغ ، وهى المعروفة بالسجون السرية ، غاية فى الشناعة والروعة ، تتصل مباشرة بغرف التحقيق والعذاب ، عميقة مظلمة رطبة تغص بالحشرات والجرذان . ويصفد المتهمون بالأغلال(١) . ويقول لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الإسبانى إن أفظع ما فى أمر هذه السجون هو أن من يزج إليها ، يسقط فى الحال فى نظر الرأى العام ، وتلحقه وصمة لا تلحقه من أى سجن آخر مدنى أو دينى ، وفيها يسقط فى غمار حزن لا يوصف وعزلة عميقة دائمة ، ولا يعرف إلى أى مدى وصلت قضيته ، ولا ينعم بتعزية مدافع عنه . غير أن لورنتى ينفى تصفيد المتهمين بالأغلال الثقيلة فى أرجلهم وأيديهم وأعناقهم ، ويقول إن هذا الإجراء لم يكن يتبع إلا فى أحوال نادرة(٢) . ويقول الدكتور لى : « كان القبض الذى يجريه ديوان التحقيق فى ذاته عقوبة خطيرة . ذلك أن أملاك السجين كلها تصادر وتصفى على الفور ، وتقطع جميع علائقه بالعالم حتى تنتهى محاكمته . وتستغرق المحاكمة عادة من عام إلى ثلاثة ، لا يعرف السجين أو أسرته خلالها شيئاً عن مصيره ، وتدفع نفقات سجنه من ثمن أملاكه المصفاة ، وكثيراً ما تستغرقه المحاكمة »(٣) .

ولا يخطر المتهم بالتهم المنسوبة إليه ، ولكنه يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات فى ثلاثة أيام متوالية ، تعرف بجلسات الرأى أو الإنذار ، وفيها يطلب إليه أن يقرر الحقيقة ، ويوعد بالرأفة إذا قرر وفق ما ينسب إليه ، وينذر بالشدة والنكال إذا كذب أو أنكر ، لأن « الديوان المقدس » لا يقبض على أحد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته ، وهى طريقة غادرة محيرة . فإذا اعترف المتهم بما ينسب إليه ولو كان بريئاً ، اختصرت الإجراءات وقضى عليه بعقوبة أخف ، ولكنه إذا اعترف بأنه كافر مطبق ، فإنه

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition of Spain, V.I. Chap. IV

(٢) D on S.A.Llorente : Historia Critica de la Inquisicion de Espana(1815-1817)
وهو مؤلف نقدى ضخم ويمتاز بكون مؤلفه اسبانى ، وهو حبر خدم ديوان التحقيق أعواماً طويلة . وكان فى أواخر حياته يشغل فيه منصب السكرتير العام .

(٣) Dr. Lea : The Moriscos of Spain

لا ينجو من عقوبة الموت ، مهما كانت الوعود التى بذلت له بالرأفة والعفو .

فإذا أبى المتهم الاعتراف بعد الجلسات الثلاث ، وضع النائب له قرار الإتهام طبقاً لما ورد فى التحقيق من الوقائع ، وذلك مهما كانت الأدلة المقدمة من الركاكة والضعف . بيد أن أفظع ما يحتويه القرار هو إحالة المتهم على التعذيب ، وغالباً ما يطلب النائب هذه الإحالة ، وذلك بالرغم من اعتراف المتهم بما ينسب إليه ، لأنه يفترض دائماً أنه أخفى أو كذب فى اعترافه . وتصدر المحكمة قرار التعذيب مجتمعة بهيئة غرفة مشورة . وكان قرار التعذيب فى العصور الأولى يصدر عقب الاشتباه والقبض فوراً . وقد استعمل التعذيب فى محاكم التحقيق للحصول على الإعتراف ، منذ منتصف القرن الثالث عشر . وكان التعذيب فى قشتالة إجراء يسوغه القضاء العادى ، وكان يعتبر وسيلة مشروعة لنيل الإعتراف ، فلم يكن غريباً أن يدمجه ديوان التحقيق فى دستوره . وقد نوه كثير من المؤرخين بروعة الإجراءات والوسائل التى كانت تلجأ إليها محاكم التحقيق فى توقيع العذاب . ويعلق عليها دون لورنتى بقوله : « لست أقف لأصف ضروب التعذيب التى كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين ، فقد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين ، ولكنى أصرح أن أحداً منهم لا يمكن أن يتهم بالمبالغة فيما روى . ولقد تلوت كثيراً من القضايا ، فارتجفت لها اشمئزازاً وروعاً ، ولم أر فى « المحققين » الذين التجأوا إلى تلك الوسيلة إلا رجالا بلغ جمودهم حد الوحشية »(١) . بيد أن مؤرخا حديثاً لديوان التحقيق هو الدكتور لى يرى فى هذه الأقوال مبالغة ، ويقول لنا إن ديوان التحقيق لم يكن فى إجراءاته الخاصة بالتعذيب ، أكثر قسوة أو إرهاقا من القضاء العادى ، وأن ديوان التحقيق الرومانى ، كان فى إجراءاته أشد قسوة وفظاعة من الديوان الإسبانى(٢) .

وكانت معظم أنواع التعذيب المعروفة فى العصور الوسطى ، تستعمل فى محاكم التحقيق ، ومنها تعذيب الماء ، وهو عبارة عن توثيق المتهم فوق أداة تشبه السلم وربط ساقيه وذراعيه إليها ، مع خفض رأسه إلى أسفل ، ثم توضع فى فمه من زلعة جرعات كبيرة ، وهو يكاد يختنق ، وقد يصل ما يتجرعه إلى عدة لترات . وتعذيب « الجاروكا » وهو عبارة عن ربط يدى المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ، ورفعه وخفضه معلقاً ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه ؛

---

(١) Llorente : ibid.

(٢) Dr. Lea: The History of the Inquisition ; V. III. Ch. VII.

وتعذيب الأسياخ المحمية للقدم ، والقوالب المحمية للبطن والعجز ، وسحق العظام بآلات ضاغطة ، وتمزيق الأرجل ، وفسخ الفك ، وغيرها من الوسائل البربرية المثيرة .

ولم يك ثمة حدود مرسومة لروعة التعذيب وآلامه . ولما كان التعذيب يعتبر خطراً لا تؤمن عواقبه ، نظراً لاختلاف المتهمين فى قوة البنية والاحتمال المادى والعقلى ، فإنه لم يك ثمة قواعد معينة تتبع فى إجراء التعذيب ، بل كان الأمر يترك لتقدير القضاة وحكمهم وضمائرهم(١) . ولا يحضر التعذيب سوى الجلاد والأحبار المحققون ، والطبيب إذا اقتضى الأمر ، ولا يخطر المتهم بأسباب إحالته على التعذيب ، ولا يسئل ليقرر وقائع معينة ، بل يعذب ليقرر ما شاء ، ويمكن الطعن فى القرار بطريق الاستئناف أمام المجلس الأعلى (السوپريما) إلا فى أحوال استثنائية . ولكن الطعن لا يقبل ولا ينظر ، حينما كان القانون صريحاً فى وجوب إجراء التعذيب . وقد يأمر الطبيب بوقف التعذيب إذا رأى حياة المتهم فى خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه ، فإذا اعترف المتهم واعتبر القضاة اعترافه صحيحاً ، بمعنى أنه يتضمن عنصر التوبة ، كف عن تعذيبه ، وإذا استطاع المتهم احتمال العذاب وأصر على الإنكار ، لم يفده ذلك شيئاً ، لأن القضاة يتخذون غالباً من الوقائع المنسوبة للمتهم أدلة على الإدانة ، ويحكم عليه طبقاً لهذا الاعتبار . ويجب أن يؤيد المعترف ما قاله وقت التعذيب ، باعتراف حر يقرره فى اليوم التالى ، وذلك حتى يؤكد صحة الإعتراف ، فإذا أنكر أو غير شيئاً أعيد إلى التعذيب .

وبعد انتهاء التعذيب يحمل المتهم ممزقاً دامياً إلى قاعة الجلسة ، ليجيب عن التهم التى توجه إليه لأول مرة ، ويسئل عند تلاوة كل تهمة عن جوابه عنها مباشرة ، ثم يسئل عن دفاعه . وكان مبدأ الدفاع أمراً مقرراً من الوجهة النظرية ، فإن كان له دفاع ، اختارت المحكمة له محامياً من المقيدين فى سجل الديوان للدفاع عنه ، وقد يسمح للمتهم باختيار محام من الخارج فى بعض الأحوال الاستثنائية ، ويقسم المحامى اليمين بأن يؤدى مهمته بأمانة ، وألا يعرقل الإجراءات بسوء نية ، وأن يتخلى عن موكله إذا تبين له فى أية مرحلة من مراحل الدعوى ، أن الحق ليس فى جانبه . على أن الدفاع لم يكن فى الغالب سوى ضرب من السخرية ، ولم يكن عملا مأمون العاقبة ، ولم يكن يسمح للمحامى أن يطلع على أوراق القضية الأصلية ، أو يتصل بالمتهم

---

(١) Dr. Lea : Ibid; V. III ; p. 22

على انفراد ، بل تقدم إليه خلاصة التحقيق مرفقة بقرار الإحالة وقرار الإتهام . وكان المحامى الذى يبدى فى تأدية مهمته غيرة خاصة ، يخاطر بأن يقع تحت سخط الديوان .

وبعد المرافعة واستجواب المتهم ، تحالُ القضية على الأحبار المقررين ليبدوا فيها رأيهم من جديد . وكانت هذه خطوة حاسمة فى الواقع ، لأنها تمهيد إلى الحكم النهائى . ويصدر الأحبار المقررون قرارهم ، وقلما كان يختلف عن القرار الأول . فإذا كان الحكم بالإدانة ، كان للمتهم فرصة الاستئناف أمام المجلس الأعلى (السوپريما) . بيد أنها كانت على الأغلب فرصة عقيمة ، إذ قلما كان المجلس الأعلى ينقض حكماً من الأحكام . وكان للمتهم أيضاً أن يلتمس العفو من الكرسى الرسولى . وكانت الخزانة البابوية تغنم من هذه الإلتماسات أموالا طائلة ، فكانت فرصة لا يستفيد منها سوى ذوى الغنى الطائل .

وقلما كان يصدر حكم البراءة أو « الإقالة » ، إذ أن أقل شك فى براءة المتهم براءة مطلقة ، كان يوجب اعتباره مذنباً من النوع الخفيف de Levi ، وعندئذ تصدر عليه عقوبات تتناسب مع ذنبه ، ويقضى عليه أن يتطهر من كل شبهة للكفر وفقاً لإجراءات معينة . وإذا قضى بالبراءة وهو ما يندر وقوعه ، أطلق سراح المتهم ، وأعطيت له شهادة بطهارته من الذنوب ، وهى كل ما يعوض به ، عما أصابه فى شخصه وفى شرفه وماله ، من ضروب الأذى والألم .

وأما إذا قضى بالإدانة ، فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلا عند التنفيذ ، وهو أجراء من أشنع الإجراءات الجنائية التى عرفت ، فيؤخذ المتهم من السجن دون أن يدرى مصيره الحقيقى ، ويجوز رسوم الإيمان « الأوتودافى » Auto-da-fé وهى الرسوم الدينية التى تسبق التنفيذ ، وخلاصتها أن يلبس الثوب المقدس ، ويوضع فى عنقه حبل وفى يده شمعة ، ويؤخذ إلى الكنيسة ليجوز رسوم التوبة ، ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ ، وهنالك يتلى عليه الحكم لأول مرة . وقد يكون الحكم فى حالة التهم الخطيرة بالسجن المؤبد والمصادرة ، أو بالإعدام حرقاً فى حالة « الكفر الصريح » ، وقد يكون فى حالة الذنوب الخفيفة ، بالسجن لمدة محدودة أو بالغرامة ، وهو ما يسمى حكم « التوفيق » . وكانت أحكام الإعدام ، هى الغالبة فى عصور الديوان الأولى فى قضايا الكفر . وكان التنفيذ يقع فى ساحات المدن الكبيرة ، وفى احتفال رسمى يشهده الأحبار والكبراء بأثوابهم الرسمية ، وقد يشهده الملك . وكان يقع على الأغلب جملة ،

فينفذ حكم الحرق فى عدد من المحكوم عليهم ، قد يبلغ العشرات أحياناً ، وينتظم الضحايا فى موكب (الأوتودافى) Auuto-da-fé التى اشتهرت فى اسبانيا منذ القرن الخامس عشر ، والتى كانت بالرغم من مناظرها الرهيبة من الحفلات العامة ، التى تهرع لشهودها جموع الشعب . ومما يذكر فى ذلك ، أن فرناندو الكاثوليكى كان من عشاق هذه المواكب الرهيبة ، وكان يسره أن يشهد حفلات الإحراق ، وكان يمتدح الأحبار المحققين كلما نظمت حفلة منها(١) .

وكان قضاء محاكم التحقيق بطيئاً ، يبث اليأس فى النفوس ، وكان الأمر يترك لهوى القضاة فى تحديد مواعيد دعوة المتهم ، والسير بإجراءات الدعوى ، وكانت الإجراءات والمرافعات تستغرق وقتاً طويلا ، وقد تستغرق الأعوام أحياناً ، وقد يموت المتهم فى سجنه قبل أن يصدر الحكم فى قضيته .

وكان دستور ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين . وتصدر الأحكام فى حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء ، فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق ، أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم ، لتحرق فى موكب «الأوتودافى» ، وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده ، فيقضى بحرمانهم من تولى الوظائف العامة ، وامتهان بعض المهن الخاصة ، وبذا يؤخذ الأبرياء بذنب المحكوم عليه(٢) .

— ٥ —

هذا استعراض موجز لإجراءات تلك المحاكم الكنسية الشهيرة ، التى سودت بقضائها المروع صحف التاريخ الإسبانى زهاء ثلاثة قرون .

وقد بث ديوان التحقيق منذ قيامه بقضائه وأساليبه ، حوله جواً من الرهبة والروع . ولما ذاع بطشه وعسفه ، عمد كثير من النصارى المحدثين من يهود ومسلمين إلى الفرار ، حتى اضطرت الحكومة إلى أن تصدر فى سنة ١٥٠٢ ، قراراً يحرم على ربان أية سفينة وأى تاجر ، أن ينقل معه نصرانياً محدثاً دون ترخيص خاص ، وقبض بهذه الصورة على كثيرين من النصارى المحدثين ، فى مختلف الثغور الإسبانية ، وأحيلوا إلى محاكم التحقيق .

---

(١) **Dr. Lea : Ibid ; V.I.**

(٢) رجعت فى معظم ما ورد عن دستور ديوان التحقيق وإجراءاته ، إلى كتابى « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » الفصل الأول ص ٢٤ — ٣٢ .

وكان أعضاء محاكم التحقيق يتمتعون بحصانة خارقة ، وسلطان مطلق تنحنى أمامه أية سلطة ، وتحمى أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة . وكان من جراء هذه السلطة المطلقة ، وهذا التحلل من كل مسئولية ، أن ذاع فى هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة ، والقبض على الأبرياء دون حرج ، بل كثيراً ماوجد بين المحققين رجال من طراز إجرامى ، لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملء جيوبهم ، وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد ، لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته ، وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد ، هذا بينما يموت أصحاب هذه الأموال الطائلة فى السجن جوعاً(١).

وكان يبلغ من عسف الديوان أحياناً أن يبسط حكم الإرهاب فى بعض المناطق ، وهذا ماحدث فى قرطبة على يد المحقق العام لوسيرو ، الذى يعتبر من أشد المحققين قسوة وإجراماً . ففى عهده ذاعت جرائم النهب واغتصاب البنات والزوجات ، وتعالت الصيحة بالشكوى من هذا العدوان الفظيع ، الذى يجرى باسم الديوان المقدس ، وفى ظله ، والذى يصم اسم الديوان والحكومة ، واستغاث كبراء قرطبة بالملك ، وجرت فى الموضوع تحقيقات طويلة انتهت بالقبض على المحقق العام وعزله(٢) .

وكان العرش يعلم بأمر هذه الآثام المثيرة ، التى تصم سمعة الديوان والمحققين ، ولايستطيع دفعاً لها ، لما بلغه الديوان من السلطان الذى لايناهضه سلطان آخر ، ولأن العرش كان يرى فيه فى الوقت نفسه ، أصلح أداة لتنفيذ سياسته فى إبادة الموريسكيين . وفى الوصية التى تركها فرناندو الكاثوليكى عند وفاته فى يناير سنة ١٥١٦ ، لحفيده شارل الخامس (كارلوس كنتو أوشرلكان) ، ما يلقى ضياء على هذه الحقائق ، ففيها يحث على حماية الكثلكة والكنيسة ، واختيار المحققين ذوى الضمائر الذين يخشون الله ، لكى يعملوا فى عدل وحزم ، لخدمة الله وتوطيد الدين الكاثوليكى ، كما يجب أن يضطرموا حماسة لسحق طائفة محمد(٣) .

ولما توفى فرناندو ، كان المحقق العام هو الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، الذى أبدى من الحماسة فى مطاردة المسلمين وتنصيرهم ، ما سبقت الإشارة إليه ، وقد حاول خمنيس أن يطهر قضاء الديوان وسمعته ، فعزل كثيراً من المحققين الذين

---

(١) Dr. Lea : ibid ; V.I. p. 190-192

(٢) Dr. Lea : ibid ; V.I. p 210

(٣) Dr. Lea : ibid ; cit. Mariana; V.I. p. 215

لا يُرغب فيهم ، ولكنه لم يعش طويلا ليتم برنامجه فى الإصلاح ، فعادت المساوئ القديمة أشد ماكانت ، وسار الديوان فى قضائه المدمر وأساليبه المثيرة ، لا يلوى على شىء . ولما جلس شارل الخامس على العرش كتب إليه مجلس قشتالة يقول : إن سلام المملكة وتوطيد سلطانه ، يتوقفان على تأييده لديوان التحقيق . ولم ير شارل بعد فترة من التردد ، إلا أن ينزل عند هذا النصح ، وأن يفسح الطريق لسلطان الديوان القاهر ، وذهبت كل الجهود للحد من عسف الديوان وعيثه سدى ، وتوطد سلطان الديوان بقشتالة مدى قرون ثلاثة ، كانت فى الواقع أخطر ما فى حياة الشعب الإسبانى[١]

— ٦ —

وقد رأينا كيف أنشئ ديوان التحقيق الإسبانى فى الأصل ، لمطاردة الكفر وحماية الكثلكة من شبه المروق والزيغ ، وكان إنشاؤه فى قشتالة قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وكان اليهود الذين تمتعوا عصوراً بالحرية والأمن ، فى ظل الحكم الإسلامى ، أول ضحايا سياسية الإرهاق والمحو التى رسمتها اسبانيا الجديدة . ذلك أنه ماكادت تسقط غرناطة فى أيدى الملكين الكاثوليكيين وماكاد اليهود ينتقلون إلى الحكم الجديد ، حتى شهرت عليهم السياسة الإسبانية حربها الصليبية ، وأصدر الملكان قرارهما الشهير فى ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ ، وهو يقضى بأن يغادر سائر اليهود — الذين لم يتنصروا — من أى سن وظرف ، أراضى مملكة قشتالة فى ظرف أربعة أشهر من تاريخ القرار ، وألا يعودوا إليها قط ، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة ، ويجب ألا يقوم أحد من سكان مملكة قشتالة على حماية أو إيواء أى يهودى أو يهودية سراً أو جهراً متى انتهى هذا الأجل ، ولليهود أن يبيعوا أملاكهم خلال هذه المدة ، وأن يتصرفوا فيها وفق مشيئتهم[٢] . فأذعن كثير من اليهود للتنصير إشفاقاً على الوطن والمال ، وهلك كثير منهم فى سجون الديوان المقدس ومحارقه ، أو شردوا فى مختلف الأقطار بعد التجريد والحرمان . بل لم ينج المتنصرون منهم ، من المطاردة والإرهاق لأقل الشبه حسبما قدمنا . ولقيت طوائف المدجنين من بقايا الأمة الأندلسية ، وهى التى بقيت فى بعض مدن قشتالة وأراجون فى ظل الحكم النصرانى ، نفس المصير المحزن . وبدأ ديوان التحقيق نشاطه فى قشتالة منذ

---

(١) Dr. Lea : ibid; V. I. p. 250

(٢) Archivo general de Simancas : P. R. Legajo 28 ; Fol. 6

سنة ١٤٨٠ ، قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وأقيمت محارقه الأولى فى إشبيلية عاصمة المملكة . فلما سقطت غرناطة ، وطويت بسقوطها صفحة الدولة الإسلامية فى الأندلس ، ووقع ملايين المسلمين فى قبضة اسبانيا النصرانية ، ولما أكره المسلمون على التنصير ، واستحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طوائف الموريسكيين ، ألفى ديوان التحقيق فى هذا المجتمع النصرانى المحدث أخصب ميدان لنشاطه ، وغدت محاكم التحقيق يد الكنيسة القوية فى تحقيق غاياتها البعيدة. ذلك أن هذه المحاكم الشهيرة كانت تضطلع بمهمة مزدوجة دينية وسياسية معاً ، فكانت تعمل باسم الدين لتحقيق أغراض السياسة ، وكان للسياسة الإسبانية بعد ظفرها النهائى بإخضاع الأمة الأندلسية أمنية أخطر وأبعد مدى ، هى القضاء على بقايا هذه الأمة المسلمة ، وسحق دينها وكل خواصها الجنسية والاجتماعية ، وإدماجها فى المجتمع النصرانى . ولم تشأ السياسة الإسبانية ، أن تترك تحقيق هذه الغاية لفعل الزمن والتطور التاريخى ، بل رأت نزولا على وحى الكنيسة وتوجيهها المباشر ، أن تعجل بإجراءات التنصير والقمع ، وأن تذهب فى ذلك إلى حدود من الإسراف والغلو ، هى التى أسبغت على مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين صبغتها المفجعة ، كما أسبغت على السياسة الإسبانية المعاصرة وصمة عار ، لم يمحها إلى اليوم كر الأجيال والعصور .

وقد اضطلع ديوان التحقيق الإسبانى بأعظم قسط من هذه الإجراءات الهمجية التى أريد بها تنفيذ حكم الإعدام فى أمة بأسرها ، وأخضعت غرناطة لقضاء ديوان التحقيق منذ سنة ١٤٩٩ ، أعنى منذ أكره المسلمون على التنصير ، ولكنها جُعلت من اختصاص محكمة التحقيق فى قرطبة ، وهكذا بدأ الديوان المقدس أعماله فى غرناطة ، بحماسة يذكيها احتشاد الضحايا من حوله . ولم تغفل الرواية الإسلامية أن تشير إلى محارق ديوان التحقيق ، أو إحراق المسلمين بتهمة المروق أو الزيغ ، ولم يجد المسلمون الذين آثروا البقاء فى الوطن القديم ، وأكرهوا على التنصير واعتناق الدين الجديد ، ملاذاً أو عاصماً من الإضطهاد والمطاردة . ذلك أن الموريسكيين أو العرب المتنصرين لبثوا دائماً موضع البغض والريب ، وأبت اسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها ، أن تضمهم إلى حظيرتها ، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد ، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم ، وترى فيهم دائماً منافقين مارقين . وهكذا كانت السياسة الإسبانية ، كما كانت الكنيسة الإسبانية ، أبعد من أن تقنع بتنصير المسلمين الظاهرى ، وإنما كانت

ترمى إلى إبادتهم ، ومحو آثارهم ودينهم وحضارتهم ، وكل ذكرياتهم .

والواقع أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تنصرهم ، نزولا على حكم القوة والإرهاب ، مخلصين فى سرائرهم لدينهم القديم ، ولم تستطع الكنيسة بالرغم من جهودها الفادحة أن تحملهم على الولاء لدين قاسوا فى سبيل اعتناقه ضروباً مروعة من الآلام النفسية والاضطهاد المضنى ، وإليك ما يقوله فى ذلك مؤرخ إسبانى كتب قريباً من ذلك العصر ، وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً فى غرناطة :

« كانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد ، فإذا ذهبوا إلى القداس أيام الآحاد ، فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام ، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف . وفى يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة فى منازلهم المغلقة ، وفى أيام الآحاد يحتجبون ويعملون . وإذا عُمد أطفالهم ، عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار ، ويسمون أولادهم بأسماء عربية ، وفى حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقى البركة ، تنزع ثيابها النصرانية وترتدى الثياب العربية ، ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية »(١) .

وقد انتهت إلينا وثيقة عربية هامة تلقى ضوءاً كبيراً على أحوال الموريسكيين فى ظل التنصير ، وتعلقهم بدينهم القديم ، وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ، ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التى يمكن أن تبرر مسلكهم ، وتشفع لهم لدى ربهم ، مما يرغمون على اتباعه من الشعائر النصرانية .

وهذه الوثيقة هى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى جماعة العرب المتنصرين ممن يسميهم « الغرباء » يقدم إليهم بعض النصائح التى يعاون اتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام خفية ، وبطريق التورية والتستر . وتاريخ هذه الرسالة هو غرة رجب سنة ٩١٠ هـ ، (٢٨ نوفمبر سنة ١٥٠٤) . وإليك نص هذه الوثيقة :

« الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما . إخواننا القابضين على دينهم ، كالقابض على الجمر ، من أجزل الله ثوابهم ، فيما لقوا فى ذاته ، وصبروا النفوس والأولاد فى مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله، من مجاورة نبيه فى الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف الصالح ،

---

(١) Marmol: ibid ; II. Cap. 1

فى تحمل المشاق ، وإن بلغت النفوس إلى التراق ، نسأل الله أن يلطف بنا ، وأن يعيننا وإياكم على مراعات حقه ، بحسن إيمان وصدق ، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً . بعد السلام عليكم ، من كاتبه إليكم ، من عبيد الله أصغر عبيده ، وأحوجهم إلى عفوه ، ومزيده ، عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوى ثم الوهرانى ، كان الله للجميع بلطفه وستره ، سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء ، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار ، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم (F. 2) من الأبرار ، وموكداً عليكم فى ملازمة دين الإسلام آمرين به من بلغ من أولادكم . إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس ، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحى بين الموتى ؛ فاعلموا أن الأصنام خشب منجور ، وحجر جلمود لا يضر ولاينفع ، وأن المُلك ملك الله ما اتخذ الله من ولد ، وماكان معه من إله . فاعبدوه ، واصطبروا لعبادته ، فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولوكأنها هدية لفقيركم أو رياء ؛ لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم ، والغسل من الجنابة ولو عوماً فى البحور ، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار ، وتسقط فى الحكم طهارة الماء ؛ وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدى للحيطان ، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء (F. 3-1) والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدى والوجه إلى تراب طاهر أوحجر أو شجر مما يتيمم به ، فاقصدوا بالإيماء ، نقله ابن ناجى فى شرح الرسالة لقوله عليه السلام : فأتوا منه ما استطعتم . وإن أكرهوكم فى وقت صلاة إلى السجود للأصنام أوحضور صلاتهم فأحرموا بالنية ، وانووا صلاتكم المشروعة ، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ، ومقصودكم الله ، وإن كان لغير القبلة تسقط فى حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام ؛ وإن أجبروكم على شرب خمر ، فاشربوه لا بنية استعماله ، وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ، ومعتقدين تحريمه ، وكذا إن أكرهوكم على محرم ، وإن زوجوكم بناتهم ، فجائز لكونهم أهل الكتاب ، وإن أكرهوكم (F. 3-2) على إنكاح بناتكم منهم ، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه ، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ، ولو وجدتم قوة لغيرتموه . وكذا إن أكرهوكم على رباً أوحرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ، ثم ليس عليكم إلا رءوس أموالكم ، وتتصدقون بالباقى ، إن تبتم لله تعالى . وإن أكرهوكم على كلمة الكفر ، فإن أمكنكم التورية والإلغاز

فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئنى القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَّد ، فاشتموا مُمَّداً، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه . وإن قالوا عيسى ابن الله ، فقولوها إن أكرهوكم ، وانووا إسقاط مضاف أى عبد اللاه مريم معبود بحق. وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله فقولوها إكراهاً، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزم أن يسكنه أو يحل به ؛ وإن قالوا قولوا مريم زوجة له فانووا بالضمير ابن عمها الذى تزوجها فى بنى إسرائيل ثم فارقها قبل البناء . قاله السهيلى فى تفسير المبهم من الرجال فى القرآن . أو زوجها الله منه بقضائه وقدره . وإن قالوا عيسى توفى بالصلب ، فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو ، ومايعسر عليكم فابعثوا (F. 4. I) فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به، وأنا أسأل الله أن يديل الكره للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة ، بل بصدمة الترك الكرام . ونحن نشهد لكم بين يدى الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به . ولابد من جوابكم . والسلام عليكم جميعاً . بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسع مائة ، عرف الله خيره » .

« يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى »[١] .

ومن ثم فقد لبث الموريكسيون ، شغلا شاغلا للكنيسة وللسياسة الإسبانية ، فهم عنصر بغيض فى المجتمع الإسبانى ، وهم خطر على الدولة وعلى الوطن ، وهم بالرغم من ردتهم مازالوا خونة مارقين ، وما زالوا أعداء للدين فى سريرتهم. وكان يذكى هذا البغض والتحامل ضد الموريسكيين كل تذمر من جانبهم . فلما دفعهم اليأس إلى الثورة فى مفاوز البشرّات ، ولما آنست السياسة الإسبانية أن هذه البقية الممزقة من الأمة الأندلسية القديمة ، ما زالت تجيش برمق من الحياة والكرامة ،

---

(١) عثرت على هذه الوثيقة خلال بحوثى فى مكتبة الڤاتيكان الرسولية برومة . وهى تقع ضمن مجموعة خطية من المخطوطات البورجوانية (Borgiani) . وقد وصف هذا المخطوط فى فهرس مكتبة الفاتيكان (فهرس دللاڤيدا) بأنه « المقدمة القرطبية » . وفى صفحة عنوانه بأنه «كتاب نزهة المستمعين». وتشغل هذه الوثيقة فى المخطوط المشار إليه أربع صفحات (١٣٦ – ١٣٩) ومن جهة أخرى فقد عثرت بنص هذه الوثيقة مثبتا فى إحدى خطوطات الألخميادو المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة ساڤدرا) . وتوجد ترجمتها القشتالية فى كتاب :

P. Longas : La Vida Religiosa de los Moriscos (P. 305-307)

رأت أن تضاعف إجراءات القمع والمطاردة، ضد هذا الشعب المهيض الأعزل ، حتى لا ينبض بالحياة مرة أخرى .

وكانت ثورة البشرات نذير فورة جديدة، من هجرة الموريسكيين إلى ماوراء البحر ، فجازت منهم إلى إفريقية جموع عظيمة كما قدمنا ، ولكن الكثرة الغالبة منهم بقيت فى الوطن القديم، هدفاً للاضطهاد المنظم، والقمع الذريع المدنى والدينى، فإلى جانب الأوامر الملكية بمنع الهجرة ، وحظر التصرف فى الأملاك أوحمل السلاح وغيرها من القوانين المقيدة للحقوق والحريات ، كان ديوان التحقيق من جانبه ، يشدد الوطأة على الموريسكيين ، ويرقب كل حركاتهم وسكناتهم ، ويغمرهم بشكوكه وريبه ، ويتخذ من أقل الأمور والمصادفات ذرائع لاتهامهم بالكفر والزيغ ، ومعاقبتهم بأشد العقوبات وأبلغها . وقد نقل إلينا الدون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الإسبانى ، وثيقة من أغرب الوثائق القضائية، تضمنت طائفة من القواعد والأصول التى رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المتنصرين ، فى تهمة الكفر والمروق ، وإليك ما ورد فى تلك الوثيقة الغريبة :

« يعتبر الموريسكى أو العربى المتنصر قد عاد إلى الإسلام ، إذا امتدح دين محمد ، أوقال إن يسوع المسيح ليس إلهاً ، وليس إلا رسولا ، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه ، ويجب على كل نصرانى أن يبلغ عن ذلك ، ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أوسمع ، بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية ، ومنها أن يأكل اللحم فى يوم الجمعة ، وهو يعتقد أن ذلك مباح ، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدى ثياباً أنظف من ثيابه العادية ، أو يستقبل المشرق قائلا بسم الله ، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها ، أويرفض أكل تلك التى لم تذبح ، أو ذبحتها امرأة ، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية ، أو يعرب عن رغبته فى اتباع هذه العادة ، أويقول إنه يجب ألا يعتقد إلا فى الله وفى رسوله محمد ، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) ، أويمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، أو يقوم بالوضوء والصلاة ، بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن، أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية ، أوينشد الأغانى العربية ، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية ، أو أن يستعمل النساء الخضاب فى أيديهن أوشعورهن ، أويتبع

قواعد محمد الخمس ، أويملس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد ، أويغسل الموتى ويكفنهم فى أثواب جديدة ، أو يدفنهم فى أرض بكر ، أو يغطى قبورهم بالأغصان الخضراء ، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتاً إياه بالنبى ورسول الله ، أويقول إن الكعبة أول معابد الله ، أويقول إنه لم ينصر إيماناً بالدين المقدس ، أو إن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين ... الخ »[1] .

كانت هذه الشبه وأمثالها ، تتخذ ذريعة للتنكيل بالموريسكيين ، بالرغم من تنصرهم وانتمائهم إلى دين سادتهم الجدد . ومن الطبيعى أن يكون موقف المسلمين الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أدق وأخطر ، وكانت قد بقيت منهم جماعات كبيرة فى غرناطة وبلنسية وغيرها ، يعيشون فى غمرة من الجزع الدائم ، وكانت محارق ديوان التحقيق تلتهم الكثير من هؤلاء وهؤلاء ، لأقل الشبه والوشايات . ولقد كان الإسراف فى مطاردة المسلمين والموريسكيين ، نذير السخط فالثورة ، ولكن الثورة أخمدت ، ولم تعدل السياسة الإسبانية عن مسلكها ، وضاعفت محاكم التحقيق إجراءات القمع والتنكيل . وقد انتهت إلينا عن تلك الفترة الدقيقة من تاريخ الموريسكيين وثيقة عربية ذات أهمية خاصة ، كتبها فيما يظهر أندلسى متنصر (موريسكى) إلى بايزيد الثانى سلطان الترك العثمانيين ، يستغيث به ويستصرخه ، لنصرة إخوانه العرب المتنصرين ، ويصف له فى شعر ركيك ولكن قوى التعبير ، ما تنزله اسبانيا النصرانية برعاياها الجدد ، وما يصيب المتنصرين من عسف ديوان التحقيق ، وروائع مطاردته وعقوباته . وإليك بعض ما ورد فى تلك القصيدة المؤثرة ، فى وصف أنواع الاضطهاد والعسف ، التى نزلت بالعرب المتنصرين ، وذلك بعد ديباجة نثرية قصيرة ، وديباجة شعرية طويلة فى تحية السلطان بايزيد :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم	بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرّنا بهـا	ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة
وكل كتاب كان فى أمر ديننا	فى النـار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيهـا كتاباً لمسلم	ولا مصحفاً يخـلى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله	فى النار يلقوه على كل حالة

(١) Don Antonio Llorente : Historia Critica de la Iquisición de Espana وأيضاً Dr. Lea : The Moriscos ; p. 130-131

ومن لم يجئْ منا لموضع كفرهم   يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله   ويجعله فى السجن فى سوء حالة
وفى رمضان يفسدون صيامنا   بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا   ولا نذكرنه فى رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه   فأدركتهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم   بضرب وتغريم وسجن وذلة
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت   بغير رضا منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمد   بدين كلاب الروم شر البرية
وآهاً على تلك الصوامع علقت   نواقيسهم بها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها   لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعبادة الصليب معاقلا   وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى نفتدى   ولا مسلمين نُطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا   إليه لجادت بالدموع الغزيرة
فياولنا يا بؤس ما قد أصابنا   من الضر والبلوى وثوب المذلة(١)

وهذه الأبيات تنم بالرغم من ركاكتها عن دقة مدهشة، فى تتبع أعمال السياسة الإسبانية، لمطاردة العرب المتنصرين، وفى وصف إجراءات محاكم التحقيق وعقوباتها. والظاهر أن صاحبها كان من الكبراء المتصلين بالشئون العامة. والمرجح أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان بايزيد الثانى، عقب ثورة البشرات وما تلاها من إجراءات القمع المشددة ضد العرب المتنصرين، وذلك حوالى سنة ١٥٠٥، وقد توفى السلطان بايزيد الثانى سنة ١٥١٢، فلابد أن تكون الرسالة قد وجهت إليه قبل ذلك. ونحن نعرف أنها لم تكن أول رسالة من نوعها، وجهها مسلمو الأندلس والعرب المتنصرون إلى قصور قسطنطينية ومصر والمغرب، فقد أشرنا فيما تقدم إلى سفارة السلطان أبى عبد الله الأيسر إلى سلطان مصر الملك الظاهر چقمق يستمد عونه، ثم إلى سفارة مولاى الزغل سلطان غرناطة إلى بلاط مصر وبلاط قسطنطينية، يستغيث بهما ويستصرخهما لإنجاده، وإلى ما قام به بلاط مصر من توجيه سفارته إلى فرناندو الخامس، يحذره من المضى فى إرهاق المسلمين، وينذره باضطهاد النصارى الذين

(١) أورد لنا المقرى فى أزهار الرياض تلك القصيدة بأكلها، وهى طويلة فى نحو مائة بيت (ج ١ ص ١٠٩ – ١١٥).

يعيشون فى المملكة المصرية ، وما كان من تكرار نذيره إلى ملك اسبانيا ، حينما اشتدت وطأة التنصير على مسلمى الأندلس ؛ ولكن تدخل مصر وقسطنطينية على هذا النحو لم يغن شيئا ، وهذا ما يشير إليه صاحب القصيدة المذكورة فى قوله مخاطباً السلطان بايزيد :

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم ... فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة ... علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت إرسال مصر إليهم ... وما نالهم غدر وهتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا ... رضينا بدين الكفر من غير قهرة
لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم ... علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا ... نقول كما قالوه من غير نية

وقد كانت السياسة الإسبانية تتخذ من هذه الرسائل ، التى يوجهها العرب المتنصرون إلى إخوانهم المسلمين فيما وراء البحر ، كلما تفاقمت آلامهم ومحنتهم ، ذريعة للاشتداد فى مطاردتهم ، واعتبارهم خطراً على سلامة الدولة ، لأنهم يأتمرون بها مع ملوك الدول الإسلامية أعداء اسبانيا النصرانية .

الفصل الثالث

ذروة الاضطهاد وثورة الموريسكيين

نظرة اسبانيا إلى الموريسكيين . وفاة فرناندو الكاثوليكى وخلاله . سياسة الرفق فى عهد شارل الخامس . عود الاضطهاد . قرار المحكمة الملكية فى ظلامة المسلمين . تعليق المؤرخ كوندى. ثورة المسلمين فى سرقسطة و بلنسية . تنصير المسلمين فى أراجون . القوانين و القرارات المرهقة . مساعى الموريسكيين فى بلنسية وغرناطة . مراسم جديدة ضد الموريسكيين . تحريم الهجرة إلى الثغور . قرار بالعفو عن الموريسكيين فى مدينة دلكامبو. التردد بين الشدة والرفق فى عهد شارل الخامس . ولده فيليب الثانى . التنصر يعم الموريسكيين . تحريض الكنيسة لفيليب الثانى . تحريم السلاح على الموريسكيين . تحريم استعمال اللغة العربية والثياب والتقاليد العربية . إعلان القانون فى غرناطة . سخط الموريسكيين . فشل السعى إلى التخفيف . اضطراب الخواطر فى غرناطة . العزم على الثورة . خطة ابن فرج لإضرامها. قصيدة عربية فى وصف آلام الموريسكيين . استغاثتهم بأمراء المغرب . نذير الانفجار. محاولة ابن فرج لإثارة غرناطة . ارتداده إلى الهضاب الجنوبية . انتشار الثورة . فتك الموريسكيين بالنصارى . فرناندو دى ڤالور أومحمد بن أمية سلطان الموريسكيين . الفتك بالنصارى فى منطقة البشرات . أهبة الإسبان لقمع الثورة . مسير المركيز منديخار لمقاتلة الموريسكيين . اتساع نطاق الثورة . هزيمة الموريسكيين وفرارمحمد بن أمية . معركة دامية أخرى. الفتك بالموريسكيين فى غرناطة . عود محمد بن أمية. استغاثته بأمراء المغرب وسلطان الترك . تشريد الموريسكيين فىالبيازين . مصرع محمد بن أمية . ابن عبورأومولا عبدالله يخلفه فى الرياسة . غارات الموريسكيين على أحواز غرناطة . تعيين دون خوان قائداً عاماً لغرناطة . مسيره إلى مقاتلة الثوار. المعارك الطاحنة بين الفريقين . الحكومة الإسبانية تجنح إلى اللين . محاولات الإسبان لعقد الصلح . المفاوضات بين الفريقين . خطاب لابن عبو . تصميم مولاى عبد الله على القتال. اجتياح الإسبان للمناطق الثائرة . مرسوم بنفى الموريسكيين إلى الداخل. الحوادث الدموية . قوانين جديدة مرهقة . مصرع مولاى عبد الله . انهيار الثورة الموريسكية .

لبث الموريسكيون فى عهد فرناندو الخامس (الكاثوليكى) زهاء عشرين عاماً ، يتراوحون بين الرجاء واليأس ، ويرزحون تحت غمر المطاردة المنظمة . وكان هذا الشعب المهيض الذى أدخل قسراً فى حظيرة النصرانية ، والذى أنكرته مع ذلك اسبانيا سيدته الجديدة ، وأنكرته الكنيسة التى عملت على تنصيره ، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة ، وأن يتقبل مصيره المنكود بإباء وجلد . ولكن اسبانيا النصرانية ، لبثت ترى فى هذه البقية الباقية من الأمة الأندلسية ، عدوها القديم الخالد ، وتتصور أن هذا المجتمع المهيض الأعزل ، الذى أحكمت أغلالها فى عنقه ،

ما يزال مصدر خطر دائم على سلامتها وطمأنينتها ، ومن ثم كان هذا الإمعان فى مطاردته وإرهاقه ، بمختلف الفروض والقيود والمغارم ، وفى انتهاك عواطفه وحرماته ، وفى تعذيبه وتشريده ، وكان يلوح أن ليس لهذا الإستشهاد الطويل المؤثر من آخر سوى الفناء ذاته .

توفى فرناندو الكاثوليكى فى ٢٣ يناير سنة ١٥١٦ ، بعد أن عانت بقية الأمة الأندلسية من غدره وعسفه ما عانت ؛ وكانت زوجه الملكة إيسابيلا قد سبقته إلى القبر ، قبل ذلك بأحد عشر عاماً ، فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٥٠٤ ، ودفنت تحقيقاً لرغبتها فى غرناطة ، فى دير سان فرنسيسكو القائم فوق هضبة الحمراء ، ودفن فرناندو إلى جانب زوجه بالحمراء ، تحقيقاً لوصيته ، ثم نقل رفاتهما فيما بعد إلى كنيسة غرناطة العظمى ، التى أقيمت فوق موقع مسجد غرناطة الجامع ، فى عهد حفيدهما الإمبراطور شارلكان ، وأقيم لهما فيها ضريح رخامى فخم ، ما يزال حتى اليوم فى مقدمة مزارات غرناطة النصرانية . وفى دفن فاتحى غرناطة الإسلامية فى حرم جامع غرناطة القديم ، مغزى خاص ينطوى على تنويه ظاهر بظفر اسبانيا ، وظفر النصرانية على الإسلام .

وقد كان الغدر والرياء ، أبرز صفات هذا الملك العظيم المظفر ، الذى أتيح له القضاء على دولة الإسلام بالأندلس . وقد نوه بهذه الصفة الذميمة أكابر المؤرخين المعاصرين واللاحقين ، ومنهم المؤرخون القشتاليون أنفسهم(١). ويقول معاصره الفيلسوف السياسى مكياڤيللى فى حقه : « إن فرناندو الأرجونى غزا غرناطة فى بداية حكمه ، وكان هذا المشروع دعامة سلطانه. وقد استطاع بمال الكنيسة والشعب أن يمد جيوشه ، وأن يضع بهذه الحرب أسس البراعة العسكرية التى امتاز بها بعد ذلك ، وقد كان دائماً يستعمل الدين ذريعة ليقوم بمشاريع أعظم ، وقد كرس نفسه بقسوة تسترها التقوى لإخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم ، وبمثل هذه الذريعة غزا إفريقية ، ثم هبط إلى إيطاليا ، ثم هاجم فرنسا... »(٢) .

---

(١) فمثلا يقول المؤرخ ثوريتا Zurita ، وهو من أكابر المؤرخين الإسبان فى القرن السادس عشر فى وصفة : « وكان مشهوراً لا بين الأجانب فقط ، ولكن بين مواطنيه أيضاً ، بأنه لا يحافظ على الصدق ، ولا يرعى عهداً قطعه ، وأنه كان يفضل دائماً تحقيق صالحه الخاص ، على كل ما هو عدل وحق » . راجع : **Prescott, cit. Zurita (Anales) ; ibid ; p. 697 (note)**

(٢) **Machiavelli : The Prince (Everyman), p. 177 & 178.**

وكانت سياسة فرناناندو الكاثوليكى مثال الغدر المثير فى جميع ما اتخذه نحو معاملة المسلمين عقب تسليم غرناطة ، وما تلاه من حوادث تنصيرهم قسراً ، ثم اضطهادهم ، ومطاردتهم بأقسى الوسائل ، وأشدها إيلاماً لمشاعرهم وأرواحهم .

فلما توفى فرناندو ، وخلفه حفيده شارل أوكارلوس الخامس (الإمبراطور شارلكان) بعد فترة قصيرة من وصاية الكردينال خمنيس على العرش ، تنفس الموريسكيون الصعداء ، وهبت عليهم ريح جديدة من الأمل ، ورجوا أن يكون العهد الجديد خيراً من سابقه . وأبدى الملك الجديد فى الواقع شيئاً من اللين والتسامح ،

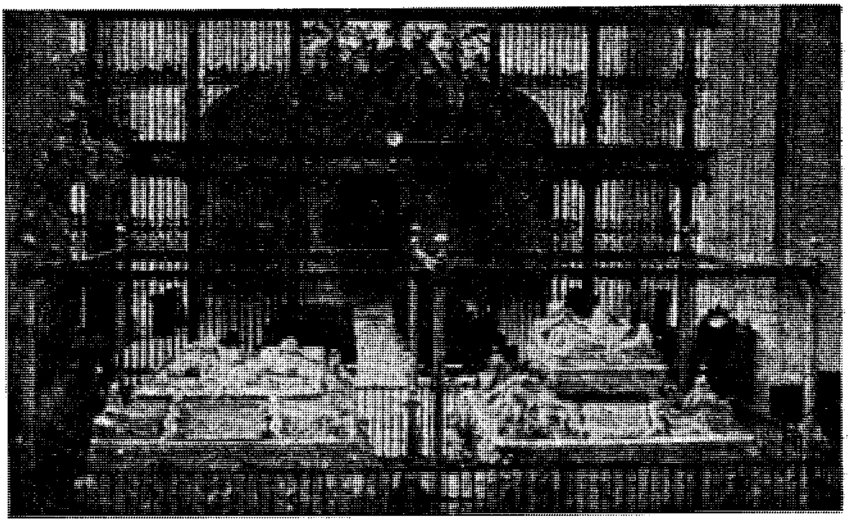

ضريح فرناندو وإيسابيلا بكنيسة غرناطة العظمى

نحو المسلمين والموريسكيين ، وجنحت محاكم التحقيق إلى نوع من الاعتدال فى مطاردتهم ، وكفت عن التعرض لهم فى أراجون بسعى النبلاء والسادة ، الذين يعمل المسلمون فى ضياعهم . ولكن هذه السياسة المعتدلة لم تدم سوى بضعة أعوام ، وعادت العناصر الرجعية فى البلاط وفى الكنيسة ، فغلبت كلمتها ، وصدر مرسوم جديد فى ١٢ مارس سنة ١٥٢٤ يحتم تنصير كل مسلم بقى على دينه ، وإخراج كل من أبى النصرانية من اسبانيا ، وأن يعاقب كل مسلم أبى التنصير أو الخروج فى المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة ، وأن تحول جميع المساجد الباقية إلى كنائس .

عندئذ استغاث المسلمون بالإمبراطور ، والتمسوا عدله وحمايته ، على يد وفد

منهم يعثوه إلى مدريد ، ليشرح للمليك ظلاماتهم وآلامهم (سنة ١٥٢٦) . فندب الإمبراطور محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق ، برياسة المحقق العام لتنظر فى ظلامة المسلمين ، ولتقرر بالأخص ما إذا كان التنصير الذى وقع على المسلمين بالإكراه ، يعتبر صحيحاً ملزماً ، بمعنى أنه يحتم عقاب المخالف بالموت ، أم يطبق القرار الجديد عليهم كمسلمين . وقد أصدرت المحكمة قرارها بعد مناقشات طويلة ، بأن التنصير الذى وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة ، لأنهم سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه ، فكانوا بذلك أحراراً فى قبوله . ويعلق المؤرخ الغربى النصرانى على ذلك القرار بقوله : « وهكذا اعتبر التنصير الذى فرضه القوى على الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشئاً لصفة لا يمكن لإرادة معارضة أن تزيلها »[1] . وعلى أثر ذلك صدر أمر ملكى بأن يرغم سائر المسلمين الذين نصروا كرهاً ، على البقاء فى اسبانيا ، باعتبارهم نصارى ، وأن ينصر كل أولادهم ، فإذا ارتدوا عن النصرانية ، قضى عليهم بالموت والمصادرة ، وقضى الأمر فى الوقت نفسه ، بأن تحول جميع المساجد الباقية فى الحال إلى كنائس .

فكان لهذه القرارات لدى المسلمين أسوأ وقع ، وما لبثت الثورة أن نشبت فى معظم الأنحاء التى يقطنها المسلمون ، فى أحواز سرقسطة وفى منطقة بلنسية وغيرها ، وأخمدت هذه الثورات المحلية الضئيلة تباعاً . ولكن بلنسية كان لها شأن آخر . ذلك أنها كانت تضم حشداً كبيراً من المسلمين ، يبلغ زهاء سبعة وعشرين ألف أسرة[2] ، وكان وقوعها على البحر يمهد للمسلمين سبل الإتصال بإخوانهم فى المغرب ، ومن ثم فقد كانت دائماً فى طليعة المناطق الثائرة ، وكانت الحكومة الإسبانية تنظر إليها باهتمام خاص ؛ فلما فرض التنصير العام أبدى المسلمون فى بلنسية مقاومة عنيفة ، ولجأت جموع كبيرة منهم إلى ضاحية (بنى وزير) **Benaguacil** ، واضطرت الحكومة أن تجرد عليهم قوة كبيرة مزودة بالمدافع ؛ وأرغم المسلمون فى النهاية على التسليم والخضوع ، وأرسل إليهم الإمبراطور إعلان الأمان على أن ينصروا ، وعدلت عقوبة الرق إلى الغرامة[3] .

---

(١) راجع تاريخ **De Marlés** الذى وضعه بالاقتباس من تاريخ كوندى : **Hist. de la Domination des Arabes en Espagne ; V. III. p. 389**

(٢) **Llorente ; ibid.**

(٣) **Dr. Lea : The Moriscos ; p. 91 & 92**

وفى باقى ولايات أراجون ، أشفق السادة والنبلاء على مصالحهم وضياعهم من الخراب ، إذا اضطهد المسلمون ومزقوا كما حدث فى بلنسية ، فأوضحوا للإمبراطور خطأ هذه السياسة ، وأكدوا له أن المسلمين فى أراجون جماعة هادئة عاملة ذلولة ، لم ترتكب جرماً قط ، ولم تبدر منهم خطيئة دينية أو سياسية ، ومعظمهم زراع فى أراضى الملك والسادة ، ومنهم صناع مهرة ، فإخراجهم من أراجون خسارة

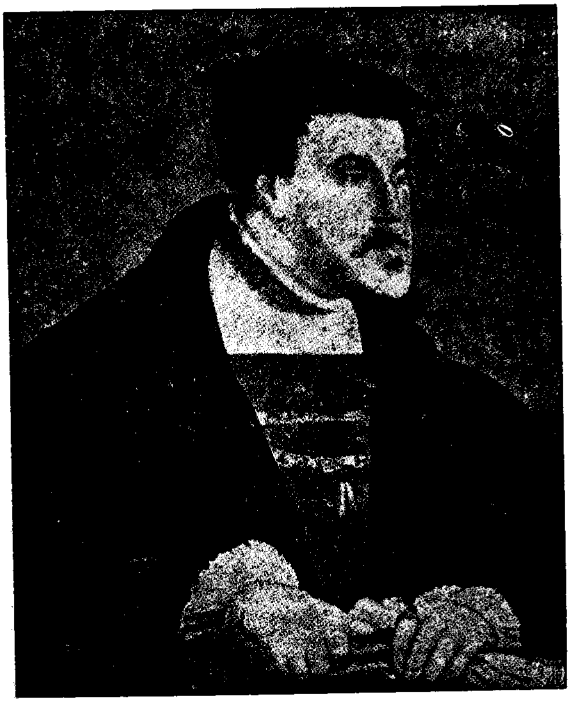

شارل الخامس (الإمبراطور شارلكان)

فادحة ، ولا داعى لإرغامهم على التنصير ، لأن ذلك لا يعنى إخلاصهم للدين الجديد ، ومن الخير أن يتركوا فى سلام ؛ ولكن مساعى السادة فى هذا السبيل ذهبت عبثاً ، وأصر الإمبراطور على أن يطبق التشريع الجديد على جميع مسلمى أراجون ، وأصدر أوامره إلى ديوان التحقيق أن يقوم بتلك المهمة ، فأذعن المسلمون إلى التنصير راغمين ، وتم بذلك تنصيرهم جميعاً (سنة ١٥٢٦) .

وتوالت الأوامر والقوانين المرهقة ، فصدر قانون يحظر على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة والحلى والأحجار الكريمة ، وحتم على كل مسلم بقى على

دينه أن يحمل شارة زرقاء فى قبعته ، وحظر عليهم حمل السلاح إطلاقاً ، وإلا عوقب المخالفون بالجلد ، وأمروا بأن يسجدوا فى الشوارع متى مر كبير الأحبار . وفى بلنسية صدر قرار بأن يغادر المسلمون الأراضى الإسبانية من طريق الشمال ، وحظر على السادة أن يبقوهم فى ضياعهم ، وإلا عوقبوا بالغرامة الفادحة . فعاد المسلمون فى بلنسية إلى الثورة ، وقاوموا جند الحكومة حيناً ، ولكن الثورة ما لبثت أن أخمدت ، وتقدم المسلمون خاضعين على يد وفد منهم مثل فى البلاط ، يعرضون الدخول فى النصرانية ، على أن تحقق لهم بعض المطالب والظروف المخففة ، فلا يمتد إليهم قضاء ديوان التحقيق مدى أربعين عاماً ، لا فى أنفسهم ولا فى أموالهم ، وأن يحتفظوا خلال هذه المدة بلغتهم وملابسهم القومية ، وبعض حقوقهم فى الزواج والميراث طبقاً لتقاليدهم ، وأن ينفق على من كان منهم من الفقهاء من دخل الأراضى التى وقفها المسلمون لأغراض البر ، ويرصد الباقى لإنشاء الكنائس الجديدة ، وأن يسمح لهم بحمل السلاح وتخفيض الضرائب[1] . ولكن مجلس الدولة رأى أن يطبق عليهم سائر الأوامر ، التى طبقت على الموريسكيين فى غرناطة وغيرها ، وأن يسمح لهم بالاحتفاظ بلغتهم وأزيائهم مدى عشرة أعوام فقط ، وأن يمنحوا بعض الإمتيازات فيما يتعلق بالزواج ودفع الضرائب . وكانت هذه المنح أفضل ما يمكن نيله فى هذه الظروف ، فأقبل المسلمون فى منطقة بلنسية على التنصير أفواجاً ، عدا أقلية صغيرة آثرت المضى فى المقاومة ، ومزقتها جند الإمبراطور بعد قليل ، وألفت محاكم التحقيق غير بعيد ، فى مجتمع الموريسكيين فى بلنسية ، ميداناً خصباً لنشاطها .

وحذا الموريسكيون فى غرناطة حذو إخوانهم فى بلنسية ، فسعوا لدى البلاط فى تخفيف الأوامر والقوانين المرهقة التى فرضت عليهم ، وانتهزوا فرصة زيارة الإمبراطور لغرناطة (سنة ١٥٢٦) فقدموا إليه على يد ثلاثة من أكابرهم ، هم الدون فرناندو بنجاس والدون ميشيل داراجون وديجو لويز بنشارا ، وهم من سلالة أمراء غرناطة الذين نصروا منذ الفتح ، مذكرة يشرحون فيها ظلاماتهم ، وما يعانونه من آلام المطاردة والإرهاق المستمر ، ولاسيما من أعمال القسس والقضاء الدينى ؛ فندب الإمبراطور لجنة محلية للتحقيق فى أمر الموريسكيين فى سائر أنحاء غرناطة ، ثم عرضت نتائج بحثها على مجلس دينى قرر ما يأتى : أن يترك الموريسكيون استعمال لغتهم العربية وثيابهم القومية ، وأن يتركوا استعمال الحمامات ،

(١) P. Longás : Vida Religiosa de los Moriscos, p. XLII

وأن تفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات وأيام الجمع والسبت ، وألا يقيموا رسوم المسلمين أيام الحفلات ، وألا يتسموا بأسماء عربية . ولكن تنفيذ هذه القرارات أرجئ بأمر الإمبراطور ؛ ثم أعيد إصدارها ، ثم أرجئ تنفيذها مرة أخرى .

وصدرت عدة أوامر ملكية بالعفو عن الموريسكيين فيما تقدم من الذنوب ، فإذا عادوا طبقت عليهم أشد القوانين والفروض ، فأذعن الموريسكيون لكل ما فرض عليهم ، ولكنهم افتدوا من الإمبراطور بمبلغ طائل من المال ، حق ارتداء ملابسهم القومية ، وحق الإعفاء من المطاردة إذا اتهموا بالردة(١) .

وكان الإمبراطور شارلكان حينما أصدر قراره بتنصير المسلمين ، قد وعد بتحقيق المساواة بينهم وبين النصارى فى الحقوق والواجبات ، ولكن هذه المساواة لم تحقق قط ، وشعر العرب المتنصرون منذ الساعة الأولى ، أنهم مازالوا موضع الريب والإضطهاد ، وفرضت عليهم فروض وضرائب كثيرة لا يخضع لها النصارى ، وكانت وطأة الحياة تثقل عليهم شيئاً فشيئاً ، وتترى ضدهم السعايات والإتهامات ، وقد غدوا فى الواقع أشبه بالرقيق منهم بالرعايا الأحرار . ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة ، وفشت فيهم هذه الرغبة ، صدر قرار فى سنة ١٥٤١ ؛ يحرم عليهم تغيير مساكنهم ، كما حرم عليهم النزوح إلى بلنسية ، التى كانت دائماً طريقهم المفضل إلى ركوب البحر ، ثم صدر قرار بتحريم الهجرة من أى الثغور إلا بترخيص ملكى نظير رسم فادح . وكانت السياسة الإسبانية تخشى دائماً اتصال الموريسكيين بمسلمى المغرب ، وكان ديوان التحقيق يسهر على حركة الهجرة ويعمل على قمعها بمنتهى الشدة ، ومع ذلك فقد كانت الأنباء تأتى من سفراء اسبانيا فى البندقية وغيرها من الثغور الإيطالية ، بأن كثيراً من الموريسكيين الفارين ، يمرون بها فى طريقهم إلى إفريقية والشرق الإسلامى(٢) .

وخلال هذا الاضطهاد الغامر ، كانت السياسة الإسبانية فى بعض الأحيان ، تجنح إلى شىء من الرفق ، فنرى الإمبراطور فى سنة ١٥٤٣ يبلغ « المحققين العامين » بأنه تحقيقاً لرغبة مطران طليطلة والمحقق العام ، قد أصدر أمره بالعفو عن المسلمين المتنصرين من أهل « مدينة دلكامبو » و « أريڤالو » فيما ارتكبوه من ذنوب الكفر والمروق ، وأنه يكتفى بأن يطلب إليهم الإعتراف بذنوبهم أمام الديوان

(١) P. Longas: ibid; p. XLIII و Dr. Lea : The Moriscos; p. 214 & 215

(٢) Dr. Lea ibid ; p. 187 & 189

(ديوان التحقيق) ، ثم ترد إليهم أملاكهم الثابتة والمنقولة التى أخذت منهم إلى الأحياء منهم ، ويسمح لهم بتزويج أبنائهم وبناتهم من النصارى الخلص ، ولا تصادر المهور التى دفعوها للخزينة بسبب الذنوب التى ارتكبوها ، بل تبقى هذه المهور للأولاد الذين يولدون من هذا الزواج ، وأن يتمتع بهذا الإمتياز النصرانيات الخلص اللاتى يتزوجن من الموريسكيين ، بالنسبة للأملاك التى يقدمها الأزواج الموريسكيون برسم الزواج أو الميراث[1] .

وهكذا لبثت السياسة الإسبانية أيام الإمبراطور شارلكان (١٥١٦—١٥٥٥) إزاء الموريسكيين ، تتردد بين الإقدام والإحجام ، واللين والشدة . بيد أنها كانت على وجه العموم أقل عسفاً وأكثر اعتدالا ، منها أيام فرناندو وإيسابيلا . وفى عهده نال الموريسكيون كثيراً من ضروب الإعفاء والتسامح الرفيقة نوعاً ، ولكنهم لبثوا فى جميع الأحوال موضع القطيعة والريب ، عرضة للإرهاق والمطاردة ، ولبثت محاكم التحقيق تجد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضل .

— ٢ —

على أن هذه السياسة المعتدلة نوعاً ، لم يتح لها الاستمرار فى عهد ولده وخلفه فيليب الثانى (١٥٥٥ — ١٥٩٨) . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغاضت منهم كل مظاهر الإسلام والعروبة ؛ ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد ، كان لا يزال يجثم فى قراره هذه النفوس الأبية الكليمة ، ولم تنجح اسبانيا النصرانية بسياستها البربرية فى اكتساب شيئ من ولائها المغصوب . وكان الموريسكيون يحتشدون جماعات كبيرة وصغيرة فى غرناطة وفى بسائطها ، وفى منطقة البشرات الجبلية ، تتوسطها الحاميات الإسبانية والكنائس ، لتسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمائرهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية واجتماعية وثيقة بثغور المغرب ، وهو ما كانت ترقبه السلطات الإسبانية دائماً بكثير من الحذر والريب .

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القديمة ، ما زالت تربط هذا الشعب الذى زادته المحن والخطوب اتحاداً ، وتعلقاً بتراثه القومى والروحى ؛ وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق ، الذى لم تنجح تعاليمها فى النفاذ إلى أعماق نفسه ، بكثير من البغضاء والحقد . فلما تولى فيليب الثانى ألفت فرصتها فى إذكاء عوامل الاضطهاد

---

(١) Arch. gen. de Simancas; P.R. Leg. 28, Fol. 49

والتعصب ، التى خبت نوعاً فى عهد أبيه شارل الخامس . وكان هذا الملك المتعصب حبراً فى قرارة نفسه ، يخضع لوحى الأحبار والكنيسة ، ويرى فى الموريسكيين ما تصوره الكنيسة والسياسة الرجعية ، عنصراً بغيضاً خطراً دخيلا على المجتمع الإسبانى ، فلم تمض أعوام قلائل على تبوئه الملك ، حتى ظهرت بوادر التعصب والتحريض ضد الموريسكيين ، فى طائفة من القوانين والفروض المرهقة .

وكانت مسألة السلاح فى مقدمة المسائل ، التى كانت موضع الاهتمام والتشدد ، وقد عنيت السياسة الإسبانية منذ البداية بتجريد الموريسكيين من السلاح ، واتخذت أيام فرناند و إجراءات لينة نوعاً ، فكان يسمح بحمل أنواع معينة من السلاح المنزلى كالسكين وغيرها ، وذلك بترخيص ورسوم معينة . ولكن الحكومة خشيت بعد ذلك عواقب هذا التسامح ، فأخذت تشدد فى الترخيص ، وجرد المسلمون فى بلنسية من سلاحهم جملة ، وقيل لهم حينما أذعنوا للتنصير ، أنهم سيعاملون كالنصارى فى سائر الحقوق والواجبات ويرد لهم سلاحهم ، ولكن الحكومة لم تف بعهدها . وفى سنة ١٥٤٥ صدر قرار بمنع حمل السلاح كافة ، ولكنه نفذ بشىء من اللين . وفى سنة ١٥٦٣ ، فى عهد فيليب الثانى ، صدر قانون جديد بحرم حمل السلاح على الموريسكيين ، إلا بترخيص من الحاكم العام ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فأثار صدوره سخط الموريسكيين ، وكان السلاح ضرورياً للدفاع عن أنفسهم فى محلاتهم المنعزلة النائية ،

بيد أن قانون تحريم السلاح ، لم يكن سوى مقدمة لقانون أقسى وأشد إيلاماً ، هو القانون الخاص بتحريم استعمال اللغة العربية ، وارتداء الثياب العربية ، على الموريسكيين . وقد لبثت اللغة والتقاليد العربية فى الواقع للموريسكيين ، أوثق الروابط بماضيهم وتراثهم ، وكانت عماد قوتهم المعنوية ، ومن ثم كانت عناية السياسة الإسبانية ، بالعمل على محوها بطريق التشريع الصارم ، والقضاء بذلك على آخر الروابط التى تربط الموريسكيين ، بماضيهم وتراثهم القومى . وقد فكر بعض أحبار الكنيسة أن يتعلم القسس الذين يقومون بحركة التنصير اللغة العربية ، لكى يستطيعوا إقناع الموريسكيين بلغتهم ، والنفاذ إلى أعماق نفوسهم ، ولكن فيليب الثانى لم يوافق على هذا الرأى ، وآثر أن تعلم القشتالية لأبناء الموريسكيين منذ طفولتهم ؛ وكانت السياسة الإسبانية قد حاولت تنفيذ مشروعها منذ عهد الإمبراطور شارلكان ، فصدر فى سنة ١٥٢٦ قانون يحرم على الموريسكيين التخاطب باللغة العربية ، وارتداء الثياب العربية ، واستعمال الحمامات ، وإقامة الحفلات على الطريقة الإسلامية ، ولكنه لم ينفذ بشدة ،

والتمس الموريسكيون فى بلنسية وغرناطة وقف تنفيذه أربعين عاماً، يحتفظون خلالها بلغتهم وثيابهم القومية ، وقرنوا ملتمسهم بمطالب أخرى تتعلق بتطبيق شريعتهم وتقاليدهم ، وتخفيف الضرائب عن كاهلهم ، وبالرغم من أن مطالبهم لم تجب يومئذ كلها ، فإن قانون تحريم اللغة والثياب القومية ، أرجىء تنفيذه مرة بعد أخرى ، وأجيز للموريسكيين استعمال اللغة والثياب القومية ، نظير ضريبة معينة ، واستمر هذا المنح سارياً حتى عهد فيليب الثانى ، وكان يجمع من هذه الضريبة مبلغ طائل . ولكن فيليب الثانى كان ملكاً شديد التعصب ، كثير التأثر بنفوذ الأحبار ، وكانت الكنيسة ترى أن بقاء اللغة العربية من أشد العوامل لمنع تغلغل النصرانية فى نفوس الوريسكيين ، وأنه لابد من القضاء على ذلك الحاجز الصخرى الذى تتحطم عليه جهود الكنيسة ؛ وكانت قد مضت فوق ذلك أربعون عاماً مذ صدر قانون التحريم فى عهد الإمبراطور شارلكان ، ولم يبق للموريسكيين بذلك حجة ولا ملتمس ، وانتهت الكنيسة كالعادة بإقناع الملك بصواب رأيها ، فلم يلبث أن استجاب لتحريضها ، وأمر فى مايو سنة ١٥٦٦ بأن يجدد القانون القديم بتحريم اللغة والثياب العربية ، وهكذا حاول بطريق التشريع أن يسدد الضربة الأخيرة للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية ، فأصدر هذا القانون الهمجى الذى لم يسمع بصدور مثله فى تاريخ المجتمعات المتمدنة .

ويقضى هذا القانون بأن يمنح الموريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية ، ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ العربية أو يتخاطب بها ، سواء بصفة عامة أو بصفة خاصة ، وكل معاملات أو عقود تجرى بالعربية تكون باطلة ولا يعتد بها لدى القضاء أو غيره . ويجب أن تسلم الكتب العربية ، من أية مادة فى ظرف ثلاثين يوماً إلى رئيس المجلس الملكى فى غرناطة ، لتفحص وتقرأ، ثم يرد غير الممنوع منها إلى أصحابها لتحفظ لديهم مدى الأعوام الثلاثة فقط . وأما الثياب فيمنع أن يصنع منها أى جديد مما كان يستعمل أيام المسلمين ، ولايصنع منها إلا ماكان مطابقاً لأزياء النصارى ، وحتى لايتلف منها ماكان من زى المسلمين فإنه يسمح بارتداء الثياب الحريرية منها لمدة عام ، والصوفية لمدة عامين ، ثم لا يسمح باستعمالها بعد ذلك . ويحظر التحجب على النساء الموريسكيات وعليهن أن يكشفن وجوههن ، وأن يرتدين عند الخروج المعاطف والقبعات على نحو ما تفعل النساء الموريسكيات فى أراجون . ويحظر فى الحفلات إجراء أية رسوم

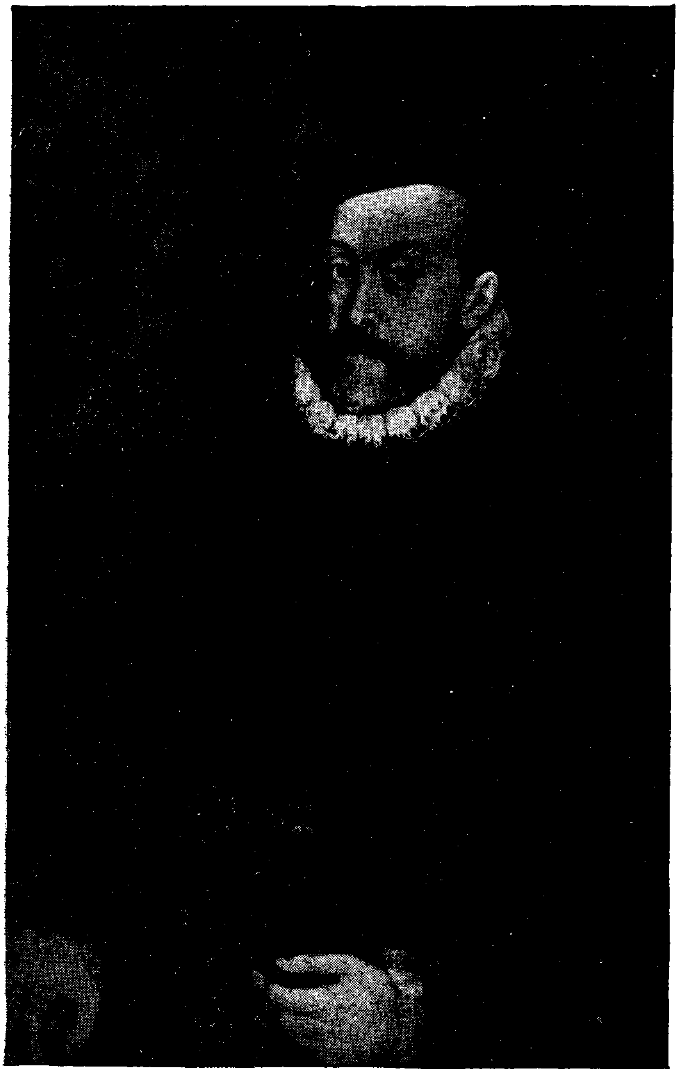

الملك فيليب الثانى
عن صورة « سانشيث كويليو » المحفوظة بمتحف « البرادو » بمدريد .

إسلامية ، ويجب أن يجرى كل ما فيها طبقاً لعرف الكنيسة وعرف النصارى ، ويجب أن تفتح المنازل أثناء الاحتفال ، وكذلك أيام الجمعة وأيام الأعياد، ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والرسوم المحرمة . ويحرم إنشاد الأغانى القومية ، ولا يشهر الزمر (الرقص العربى) أو ليالى الطرب بالآلات ، أو غيرها من العوائد الموريسكية ، ويحرم الخضاب بالحناء . ولا يسمح بالاستحمام فى الحمامات ، ويجب أن تهدم سائر الحمامات العامة والخاصة . ويحرم استعمال الأسماء والألقاب العربية ، ومن يحملها يجب عليه أن يبادر بتركها . ويجب أخيراً على الموريسكيين الذين يستخدمون العبيد السود أن يقدموا رخصهم باستخدامهم للنظر فيما إذا كان حرياً بأن يسمح لهم باستبقائهم[1].

هذه هى نصوص ذلك القانون الهمجى الذى أريد به تسديد الضربة القاتلة لبقايا الأمة الأندلسية ، وذلك بتجريدها من مقوماتها القومية الأخيرة . وقد فرضت على المخالف عقوبات فادحة ، تختلف من السجن إلى النفى والإعدام ؛ وكان إحراز الكتب والأوراق العربية ولاسيما القرآن ، يعتبر فى نظر السلطات من أقوى الأدلة على الردة ، ويعرض المتهم لأقسى أنواع العذاب والعقاب .

أعلن هذا القانون المروع فى غرناطة فى يوم أول يناير سنة ١٥٦٧ ، وهو اليوم الذى سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً تحتفل به فى كل عام ، وأمر ديسا رئيس المجلس الملكى بإذاعته فى غرناطة ، وسائر أنحاء مملكتها القديمة ، وتولى إذاعته موكب من القضاة شق المدينة ، ومن حوله الطبل والزمر ، وعلق فى ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة ، وفى سائر ميادينها الأخرى ، وفى ربض البيازين ، فوقع لدى الموريسكيين وقع الصاعقة ، وفاضت قلوبهم الكسيرة سخطاً وأسى ويأساً ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فحطمت الحمامات تباعاً . واجتمع زعماء الموريسكيين وتباحثوا فيما يجب عمله إزاء هذه المحنة الجديدة ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لإلغاء هذا القانون أوعلى الأقل لتخفيف وطأته ، ورفعوا احتجاجهم أولا إلى الرئيس ديسا، عن يد رئيس جماعتهم مولاى فرنسيسكو نونيز ، فخاطب الرئيس ديسا ، وبين له ما فى القانون من شدة وتناقض وخرق للعهود ، وطلب إرجاء تنفيذه . ثم قرروا التظلم للعرش . وحمل رسالتهم

---

(١) نقلنا نصوص هذا القانون عن مارمول ، وقد عاصر صدوره . انظر : Marmol: ibid; Lib. II. Cap. VI . وراجع أيضاً : P. Longas: ibid; p. XLV.XLVI :

إلى فيليب الثانى ، وإلى وزيره الطاغية الكردينال اسبينوسا ، سيد اسبانى نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس ، وكان يعطف على هذا الشعب المنكود ، ويرى خطر السياسة التى اتبعت لإبادته ، وسار معه إلى مدريد اثنان من أكابرهم هما خوان هرناندث من أعيان غرناطة ، وهرناندو الحبقى من أعيان وادى آش ، والتمس الوفد إلى الملك إرجاء تنفيذ القانون كما حدث أيام أبيه ، وبعث الدون هنريكس بمذكرة إلى جميع أعضاء مجلس الملك يبين فيها ما يترتب على تنفيذ القانون من حرج واضطراب ، ولكن مساعيه كلها ذهبت عبثاً ، وأجاب الكردينال اسبينوسا ، بأن جلالته مصمم على تنفيذ القانون ، وأنه أصبح أمراً واقعاً . وكذا عرض المركيز دى موندنجار حاكم غرناطة على الملك اعتراض الموريسكيين ، وأوضح له خطورة الموقف ، وأن اليأس قد يدفعهم إلى الثورة ، وأن الترك ، أصبحوا فى شواطىء المغرب على مقربة من اسبانيا ، وأن الموريسكيين شعب عدو لا يدين بالولاء ، فلم تفد هذه الاعتراضات شيئاً ، وقيل إن الموريسكيين شعب جبان ، ولا سلاح لديه ولا حصون . وهكذا حملت سياسة العنف والتعصب فى طريقها كل شىء ، ونفذت الأحكام الجديدة فى المواعيد التى حددت لها ، ولم تبد السلطات فى تنفيذها أى رفق أو مهادنة(١) .

ولم يحظ بلمحة من الرفق سوى الموريسكيين فى بلنسية ، وكان زعيمهم وكبير أشرافهم كوزمى بن عامر من المقربين إلى البلاط ، فسعى للتخفيف عنهم ، وكللت مساعيه بالنجاح فى بعض النواحى ، وهو أن يعامل الموريسكيون بالرفق فى حالة الإتهام بالردة ، ولا تنزع أملاكهم بتهمة المروق ، وذلك على أن يدفعوا إتاوة سنوية قدرها ألفان وخمسمائة مثقال لديوان التحقيق(٢) .

وأما فى غرناطة فقد بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، فتهامسوا على المقاومة والثورة ، والذود عن أنفسهم إزاء هذا العسف المضنى ، أو الموت قبل أن تنطفىء فى قلوبهم وضمائرهم ، آخر جذوة من الكرامة والعزة ، وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضى المجيد والتراث العزيز ، وكانت نفوسهم ماتزال تضطرم ببقية من شغف النضال والدفاع عن النفس ، وكانوا يرون فى المناطق الجبلية القريبة ملاذاً للثورة ،

---

(١) Prescott : Philip II of Spain; V. III. p. 12-29; Marmol: ibid; II. Cap. IX & XIII وكذلك Dr. Lea : The Moriscos p. 150, 151 & 230.240

(٢) Dr. Lea : ibid; p. 126

ويؤملون أن يصلوا بالمقاومة إلى إلغاء هذا القانون الهمجى أو تخفيفه .

وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين واسبانيا النصرانية . ومن الأسف أننا لم تتلق عن هذه المرحلة المؤسية والأخيرة من تاريخ الأمة الأندلسية ، شيئاً من الروايات العربية ، وهى تقف كما رأينا عند محنة التنصير الأولى عقب سقوط غرناطة ، فلابد لنا هنا من أن نرجع إلى الرواية النصرانية دون سواها .

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فعولوا على الثورة ، مؤثرين الموت على ذلك الإستشهاد المعنوى الهائل . ونبتت فكرة الثورة أولا فى غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة منهم تحتشد فى ضاحية « البيازين » . وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكى يدعى فرج بن فرج ؛ وكان فرج صباغاً بمهنته ، ولكنه حسبما تصفه الرواية القشتالية ، كان رجلا جريئاً وافر العزم والحماسة ، يضطرم بغضاً للنصارى ، ويتوق إلى الانتقام الذريع منهم ؛ ولاغرو فقد كان ينتسب إلى بنى سراج ، وهم كما رأينا من أشراف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الإسلامية . وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشرّات ، وثيق الصلة بمواطنيه ، فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم ، تزحف سراً إلى غرناطة ، وتجوز إليها من ضاحية البيازين ، ثم تفاجىء حامية الحمراء وتسحقها ، وتستولى على المدينة ، وحددوا للتنفيذ « يوم الخميس المقدس » من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ ، إذ يشغل النصارى يومئذ باحتفالاتهم وصلواتهم . ولكن أنباء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية ، فاتخذت التحوطات لدرئه ، وعززت حامية غرناطة وحاميات الثغور ، واضطر الموريسكيون إزاء هذه الأهبة ، أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى .

ووضع أديب من زعماء الثورة يدعى باسمه المسلم محمد بن محمد بن داود ، قصيدة ملتهبة يصف فيها آلام بنى وطنه ، ويستمد فيها الغوث والعون من الله ونبيه ، فضبطت معه فى ثغر أدرة ، وأرسلت إلى البلاط مع ترجمتها القشتالية ، وإليك ملخص ما ورد فى هذه القصيدة التى تعتبر كأنها صرخة ألم أخيرة لشعب شهيد :

تفتتح القصيدة بحمد الله والثناء عليه والتنويه بقدرته ، وخضوع جميع الناس والأشياء لحكمه ، ثم يقول أن استمعوا إلى قصة الأندلس المحزنة ، وهى تلك الأمة العظيمة ، التى غدت اليوم ضعيفة مهيضة ، يحيط بها الكفرة من كل صوب ، وأضحى أبناؤها كالأغنام الذين لا راعى لهم .

وفى كل يوم نسام سوء العذاب ، ولا حيلة لنا سوى المصانعة ، حتّى ينقذنا الموت مما هو شر وأدهى .

وقد حكّموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمام ، وفى كل يوم يبحثون عن ضلالات وأكاذيب وخدع وانتقامات جديدة .

ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية وعبادة الصور ، وهى مسخ للواحد القهار ، ولا يجرؤ أحد على التذمر أو الكلام . وإذا ما قرع الناقوس ألقى القس عظته بصوت أجش ، وفيها يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير ، ثم تنحنى الجماعة أمام الأوثان دون حياء ولا خجل ...

ومن عَبَد الله بلغته قضى عليه بالهلاك ، ومن ضبط ألقى إلى السجن وعذب ليل نهار حتّى يرضخ لباطلهم .

ثم يصف وسائل إرهاقهم والتضييق عليهم ، من التسجيل والتفتيش وغيرها ، وما يفرض عليهم من الضرائب الفادحة ، وكيف تؤدى عن الحى والميت ، والكبير والصغير والغنى والفقير ، وكيف يرهقهم القضاة الظلمة ، ولا يفلت من ظلمهم كائن ، وكيف يلقى بهم فى السجن ، ويرغمون على التنصير بالاعتقال والتعذيب ، وكيف تهشم أوصال الفرائس ، ثم تحمل إلى الميدان لتحرق أمام الجمع الحاشد .

وكيف تكدس المظالم على رؤوسهم تكديساً ، ويسومهم الخسف أصاغر النصارى ، وكل منهم يفتن فى ضروب الإضطهاد .

ثم يقول : ولقد علقوا يوم العيد (عيد سقوط غرناطة) ، فى ميدان باب البنود ، قانوناً جديداً ، وأخذوا يدهمون الناس فى نومهم ، ويفتحون كل باب ، يزمعون تجريدنا من ثيابنا وقديم عاداتنا ، ويمزقون الثياب ويحطمون الحمامات .

ونحن إذ نيأس من عدل الإنسان نستغيث بالنبى ، معتمدين على ثواب الآخرة ، وقد حثنا شيوخنا على الصلاة والصوم ، وأن نقصد وجه الله ، فهو الذى يرحمنا فى نهاية الأمر »(١) .

وضبط فى نفس الوقت مع ابن داود خطاب موجه من أحد زعماء البيازين إلى رؤساء المغرب وإخوانهم فى الدين . وكان هذا الكتاب واحداً من كتب عديدة وجهت خفية ، إلى أمراء الثغور فى المغرب ، يطلبون إليهم الغوث والعون ، فحمل

---

(١) أورد مارمول ترجمة قشتالية كاملة لهذه القصيدة ومنها لخصنا ماتقدم . راجع :
Marmol: ibid; III. Cap. IX

الكتاب إلى حاكم غرناطة، وفيه يناشد كاتبه إخوانه بالمغرب، ويستحلفهم الغوث بحق روابط الدين والدم، ويصف ماقرره النصارى « من إرغامهم على ترك اللغة، وتركها فقد للشريعة، وكشف الوجوه الحيية المحتشمة، وفتح الأبواب، وما أنزل بهم من محن السجن والأسر ونهب الأملاك » ويطلب إليهم أن يبلغوا استغاثتهم إلى سلطان المشرق، قاهر أعدائه، ثم يقول : « لقد غمرتنا الهموم وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة. إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل، ولقد كتبنا إليكم فى ليال تفيض بالعذاب والدمع، وفى قلوبنا قبس من الأمل، إذا كانت ثمة بقية من الأمل فى أعماق الروح المعذب»(١)؛ ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية، فلم يلب داعى الغوث سوى جماعة من المتطوعين، الذين نفذوا سراً إلى إخوانهم فى البشرّات، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين، الذين كانوا حرباً عواناً على الثغور والسفن الإسبانية فى ذلك العصر.

واستمر الموريسكيون على عزمهم وأهبتهم، وأرسلت خطابات عديدة من ابن فرج وزملائه إلى مختلف الأنحاء يدعون فيها إخوانهم إلى التأهب وإخطار سائر إخوانهم. وفى شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ وقع حادث كان نذير الانفجار، إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الإسبانيين فى طريقهم إلى غرناطة، ووثبت جماعة منهم فى نفس الوقت بشرذمة من الجند، كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق، ومثلت بهم جميعاً. وفى الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه، ونفذ إلى المدينة ليلا، وحاول تحريض مواطنيه فى « البيازين » على نصرته، ولكنهم أبوا أن يشتركوا فى مثل هذه المغامرة الجنونية. ولقد كان موقفهم حرجاً فى الواقع، لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية، وهم أعيان الطائفة ولهم فى غرناطة مصالح عظيمة، يخشون عليها من انتقام الإسبان. بيد أنهم كانوا يؤيدون الثورة : يؤيدونها برعايتهم ونصحهم ومالهم ؛ فارتد ابن فرج على أعقابه واجتاز شعب جبل شلير (سيرّا نفادا) إلى الهضاب الجنوبية، فيما بين بلّش والمرية. فلم تمض بضعة أيام، حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية فى أنحاء البشرات، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج، ووثب الموريسكيون بالنصارى القاطنين فيما بينهم، ففتكوا بهم ومزقوهم شر تمزيق.

---

(١) أورد مارمول أيضاً ترجمة قشتالية كاملة لهذا الخطاب. راجع ; **Marmol : ibid III. Cap .IX**

— ٣ —

اندلع لهيب الثورة فى أنحاء الأندلس، ودوت بصيحة الحرب القديمة ، وأعلن الموريكسيون استقلالهم ، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت . وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله ، ويكون رمز ملكهم القديم، فوقع اختيارهم على فتى من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دى كردوبا وڤالور[1] . وكان هذا الإسم النصرانى القشتالى ، يحجب نسبة عربية إسلامية رفيعة . ذلك أن فرناندو دى ڤالور كان ينتمى فى الواقع إلى بنى أمية ، وكان سليل الملوك والخلفاء ، الذى سطعت فى ظلهم الدولة الإسلامية فى الإندلس، زهاء ثلاثة قرون . وكان فتى فى العشرين تنوه الرواية القشتالية المعاصرة بوسامته ونبل طلعته ، وكان قبل انتظامه فى سلك الثوار مستشاراً ببلدية غرناطة، ذا مال ووجاهة . وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التى انتدب لها ، وكان يضطرم حماسة وجرأة وإقداماً . فنى الحال غادر غرناطة سراً إلى الجبال ، ولجأ إلى شيعته آل ڤالور فى قرية برذنار Beznar ، فهرعت إليه الوفود ، والجموع من كل ناحية ، واحتفل الموريسكيون بتتويجه فى التاسع والعشرين من ديسمبر (سنة ١٥٦٨) فى احتفال بسيط مؤثر ، فرشت فيه على الأرض أعلام إسلامية ذات أهلة ، فصلى عليها الأمير متجهاً صوب مكة ، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزاً بالخضوع والطاعة ؛ وأقسم الأمير أن يموت فى سبيل دينه وأمته ، وتسمى باسم ملوكى عربى هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة، واختار عمه المسمى فرناندو الزغوير (الصغير) ، واسمه المسلم ابن جوهر قائداً عاماً لجيشه، وقدكان صاحب الفضل الأكبر فى اختياره للرياسة ، وانتخب ابن فرج كبيراً للوزراء ، ثم بعثه على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرّات ، ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس ؛ واتخذ مقامه فى أعماق الجبال فى مواقع منبعة ، وبعث رسله فى جميع الأنحاء ، يدعون الموريسكين إلى خلع طاعة النصارى والعود إلى دينهم القديم[2] .

ووقعت نقمة الموريسكين بادئ ذى بدء ، على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم فى أنحاء البشرات، ولاسيما القسس وعمال الحكومة، وكان هؤلاء يقيمون فى محلات متفرقة سادة قساة، يعاملون الموريسكين بمنتهى الصرامة والزراية، وكان

---

(١) كردوبا أى قرطبة ، وڤالور قرية غرناطية تقع على مقربة من أجيجر .

(٢) Marmol : ibid ; IV, Cap. VII

القسس بالأخص سبب بلائهم ومصائبهم ، ومن ثم فقدكانوا ضحايا الثورة الأولى . وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى فى تلك الأنحاء ومزقوهم تمزيقاً ، وقتلوا القسس وعمال الحكومة ، ومثلوا بهم أشنع تمثيل ؛ وكانت حسبما تقول الروايات القشتالية مذبحة عامة ، لم ينج منها حتى النساء والأطفال والشيوخ . وذاعت أنباء المذبحة الهائلة فى غرناطة ، فوجم لها الموريسكيون والنصارى معاً ، وكل يخشى عواقبها الوخيمة ؛ وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش النصارى بهم انتقاماً لمواطنيهم ؛ وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة ، فتسقط المدينة فى أيديهم ، وعندئذ يحل بهم النكال الرائع . بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن أمية ، فتقول إنه لم يحرض على هذه المذابح ، ولم يوافق عليها ، بل لقد ثارلها وحاول أن يحول دون وقوعها ، وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة ، فنزل راضياً واندمج فى صفوف المجاهدين . وهنا يختفى ذكره ولايبدو على مسرح الحوادث بعد[1] .

— ٤ —

وكانت غرناطة فى أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً ، وكان حاكمها المركيز دى منديخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى . بيد أنه لم يكن يقدر مدى الإنفجار الحقيقى ، فغصت غرناطة بالجند ، ووضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة ، رغم احتجاجاتهم وتوكيدهم بأن لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم ؛ وخرج منديخار من غرناطة بقواته فى ٢ يناير سنة ١٥٦٩ ، تاركاً حكم المدينة لابنه الكونت تندليا ، وعبر جبل شلير (سيرّا نفادا) ، وسار توّاً إلى أعماق البشرات حيث يحتشد جيش الثوار . وكانت الثورة الموريسكية فى تلك الأثناء قد عمت أنحاء البشرات الشرقية والجنوبية ، واضطرمت فى أجيجر وبرجة وأدرة وأندرش ودلاية ولوشار ومرشانة وشلوبانية وغيرها من البلاد والقرى . واستطاع الموريسكيون أن يتغلبوا بسهولة على معظم الحاميات الإسبانية المتفرقة فى تلك الأنحاء ، بل لقد سرت الثورة إلى أطراف مملكة غرناطة القديمة ، حيث اندلع لهيبها فى وادى المنصورة فى قراه ودساكره ، ولم يتخلف عن الاشتراك فى الثورة سوى رندة ومربلة ومالقة ، وكانت بها حاميات اسبانية قوية ، ونشبت الثورة

---

(١) Prescott:PhilipII;V.III.Ch. II. وكذلك ؛ Dr. Lea:The Moriscos p.237

فى معظم أنحاء ألمرية ، وهكذا عمت الثورة الموريسكية معظم أنحاء الأندلس ، واشتد الأمر بنوع خاص فى بسطة ووادى آش وألمرية(١) .

وكان محمد بن أمية متحصناً بقواته فى آكام بوكيرا الوعرة ، وكان الموريسكيون رغم نقص مواردهم وسلاحهم ، قد حذقوا حرب الجبال ومفاجآتها ، فما كاد الإسبان يقتربون حتى انقضوا عليهم ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، ارتد الموريكسيون على أثرها إلى سهول بطرنة ، وتخلف كثيرون منهم ولاسيما النساء ، ففتك الإسبان بهم فتكاً ذريعاً ، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو ، وأن يخلدوا إلى السكينة ، وبعث إليهم بعض المسالمين من مواطنيهم . وكتب الدون ألونسو ڤنيجاس (بنيغش) سليل الأسرة الغرناطية القديمة إلى ابن أمية يعاتبه ، وأنه قد جانب العقل والحزم فى القيام بهذه الحركة التى تعرضه وتعرض أمته للهلاك ، ونصحه بالتوبة والتماس العفو . وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم ، وتبودلت بالفعل المكاتبة بينه وبين المركيز دى منديخار فى أمر التسليم ، ولكن المتطرفين من أنصاره ولاسيما المتطوعين المغاربة ، رفضوا الصلح ، فاستؤنفت المعارك ، ورجحت كفة الإسبان ، وهزم الموريسكيون مرة أخرى ، وأعلن المركيز دى منديخار أن الأسرى الموريسكيين يعتبرون رقيقاً ، وفرّ محمد بن أمية ، وأسرت أمه وزوجه وأخواته . وأصيب الإسبان بهزيمة شديدة فى آكام « جواخاريس » وقتل منهم مائة وخمسون جندياً مع ضباطهم ، ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد ، وقتل الإسبان من تخلف منهم أشنع قتل ، وكان ممن تخلف منهم زعيم باسل يدعى « الزمار » أسره الإسبان مع ابنته الصغيرة ، وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذبوه عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً ، ثم مزقت أشلاؤه . وهكذا كانت أساليب الإسبان ومحاكم التحقيق إزاء العرب المتنصرين .

واختفى محمد بن أمية مدى حين فى منزل قريبه « ابن عبو » ، وكان من أنجاد الزعماء أيضاً ، وطارده الإسبان دون أن يظفروا به . على أن هذه الهزائم لم تنل من عزم الموريسكيين ، فقد احتشدوا فى شرقى البشرات فى جموع عظيمة ، وأخذوا يهددون ألمرية ، فسار إليهم المركيز « لوس ڤيليس » على رأس جيش آخر ، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ومزق الموريسكيون ، وفتك الإسبان كعادتهم بالأسرى ، وقتلوا النساء والأطفال قتلاذريعاً .

---

(١) Marmol: ibid; IV; Cap. XXXVI

ووقعت فى نفس الوقت فى غرناطة مذبحة مروعة أخرى ، فقد كان فى سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان الموريسكيين ، اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة ، فأذاع الإسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لإنقاذ السجناء ، بمؤازرة مواطنيهم فى البيازين ، وعلى ذلك صدر الأمر بإعدام السجناء ، فانقض الجند عليهم وذبحوهم فى مناظر مروعة من السفك الأثيم .

وكان لهذه الحوادث الأخيرة أثر فى إذكاء الثورة ، وكان نذيراً جديداً للموريسكيين بأن الموت فى ساحة الحرب خير مصير يلقون ، فسرى إليهم لهب الثورة بأشد من قبل ، وطافت بهم صيحة الإنتقام ، فانقضوا على الحاميات الإسبانية المبعثرة فى أنحاء البشرّات ومزقوها تمزيقاً ، وهزموا قوة إسبانية تصدت لقتالهم ، واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل ، وعاد محمد بن أمية ثانية إلى تبوىء عرشه الخطر ، والتف حوله الموريسكيون أضعاف ما كانوا ، وبعث أخاه عبدالله إلى قسطنطينية بطلب العون من سلطانها ،وأرسل فى نفس الوقت إلى أمير الجزائر وإلى سلطان مراكش الشريفى يطلب الإنجاد والغوث ؛ ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة الموريسكيين بالرغم من تكرارها منذ سقوط غرناطة ، وأرسل أمير الجزائر مشجعاً ومعتذراً عن عدم إمكان إرسال السفن ، ووعد سلطان مراكش بالمساعدة والغوث ،ولكن هذا الصريخ المتكرر من جانب الموريسكيين لم ينتج أثره المنشود ، ولم يلبه غير إخوانهم المجاهدين فى إفريقية ، فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة ، أن تجوز إلى الشواطئ الإسبانية ، ومنهم فرقة من الترك المرتزقة ، وأن تهرع إلى نصرة المنكوبين .

وهكذا عاد النضال إلى أشده ، وخشى الإسبان من احتشاد الموريسكيين فى البيازين ضاحية غرناطة ، فصدر قرار بتشريدهم فى بعض الأنحاء الشمالية . وكانت مأساة جديدة مزقت فيها هذه الأسر التعسة ، وفرق فيها بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات ، فى مناظر مؤثرة تذيب القلب ، وسار المركيز لوس ڤيليس فى نفس الوقت إلى مقاتلة الموريسكيين ، فى سهول المنصورة على مقربة من أراضى مرسية ، ونشبت بينه وبينهم وقائع غير حاسمة ، ولم يستطع متابعة القتال لنقص فى الأهبة والمؤن ؛ وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة ، كانتا سبباً فى اضطراب الخطط المشتركة . واتهم منديخار بالعطف على الموريسكيين فاستدعى إلى مدريد ، وأقيل من القيادة ، واتخذت مدريد خطوتها الجديدة الحاسمة فى هذا الصراع الذى لا رحمة فيه ولا هوادة .

بينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم فى هضاب الأندلس وسهولها وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع فى المعسكر الموريسكى حادث خطر ، هو مصرع محمد بن أمية . وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة ، وكانت عوامل الخلاف والحسد ، تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة . وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه ورقيق شمائله كثيراً من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه ، الحقد فى نفوس نفر من ضباطه . وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله فتقول ، إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجو الجوازيل (الوزير) له عشيقة حسناء تسمى زهرة ، فانتزعها محمد منه قسراً ، فحقد عليه وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ، فزور على لسانه خطاباً إلى القائد العام « ابن عبو » يحرضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكان ثمة منهم فرقة فى المعسكر الموريسكى ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقر ابن أمية وقتلوه ، بالرغم من احتجاجه وتوكيد براءته ، واستقبل الجند الحادث بالسكون . وفى الحال اختار الزعماء ملكاً جديداً هو ابن عبو ، واسمه الموريسكى ديجو لوپيث ، وهو ابن عم الملك القتيل ، فتسمى بمولاى عبد الله محمد ، وأعلن ملكاً على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثر الذى وصفناه . وكان مولاى عبد الله أكثر فطنة وروية وتدبراً ، فحمل الجميع على احترامه ، واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش ، واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشاً مدرباً قوامه زهاء عشرة آلاف ، بين مجاهد ومرتزق ومغامر .

وفى أواخر أكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاى عبد الله بجيشه صوب « أرجبة » وهى مفتاح غرناطة ، واستولى عليها بعد حصار قصير ، فذاعت شهرته وهرع الموريسكيون فى شرق البشرات إلى إعلان طاعته ، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة ، وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة **La Vega**، وقد كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى ؛ وكان فيليب الثانى حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية ، وعجز القادة المحليين عن قمعها ، قد عين أخاه الدون خوان قائداً عاماً لولاية غرناطة ؛ ولما رأى الدون خوان اشتداد ساعد الموريسكيين اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه ، فخرج فى أواخر ديسمبر على رأس جيشه ، وسار صوب وادى آش ، وحاصر بلدة « جليرا » وهى من أمنع مواقع الموريسكيين ، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكى ، منهم فرقة

تركية ، فهاجمها الإسبان عدة مرات وصوبوا إليها نار المدافع بشدة ، فسقطت فى أيديهم بعد مواقع هائلة ، أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل عدد من الأكابر الإسبان وضباطهم ، ودخلها الإسبان دخول الضوارى المفترسة ، وقتلوا كل من فيها ولم يفروا النساء والأطفال ، وكانت مذبحة رائعة (فبراير سنة ١٥٧٠) ، وتوغل الدون خوان بعد ذلك فى شعب الجبال حتى سيرون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى «الحبقى» تبلغ بضعة آلاف ، ففاجأت الإسبان فى سيرون ومزقت بعض سراياهم ، وأوقعت الرعب والخلل فى صفوفهم ، وقتل منهم عدد كبير ، ولم يستطع الدون خوان أن يعيد النظام إلا بصعوبة ؛ فجمع شتات جيشه ، وطارد الموريسكيين ، واستمر فى سيره جنوباً حتى وصل إلى أندرش فى مايو سنة ١٥٧٠ .

وهنا رأت الحكومة الإسبانية أن تجنح إلى شىء من اللين ، خشية عواقب هذا النضال الرائع ، فبعث الدون خوان رسله إلى الزعيم « الحبقى » يفاتحه فى أمر الصلح ، وصدر أمر ملكى بالوعد بالعفو عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم فى ظرف عشرين يوماً من إعلانه ، ولهم أن يقدموا ظلاماتهم ، فتبحث بعناية ، وكل من رفض الخضوع ، ما عدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضى عليه بالموت . فلم يصغ إلى النداء أحد . ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً أن اسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام ، وأنها غير أهل للوفاء ، فعاد الدون خوان إلى استئناف المطاردة والقتال ، وانقض الإسبان على الموريكسيين محاربين ومسالمين ، يمعنون فيهم قتلا وأسراً ، وسارت قوة بقيادة دون سيزا إلى شمال البشرّات ، واشتبكت مع قوات مولاى عبد الله فى معارك غير حاسمة ، وسارت مفاوضات الصلح فى نفس الوقت عن طريق الحبقى ؛ وكان مولاى عبد الله قد رأى تجهم الموقف ، ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعاً ، والقوة الغاشمة تجتاح فى طريقها كل شىء ، فمال إلى الصلح والمسالمة ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من براثن القوة القاهرة .

وتقدم للوساطة بين الثوار وبين الدون خوان كبير من أهل وادى آش يدعى الدون هرناندو دى براداس ، وكانت له صلات طيبة مع زعماء الموريسكيين قبل الثورة . وقد انتهت إلينا فى ذلك وثيقة مؤثرة هى عبارة عن خطاب كتبه مولاى عبد الله إلى دون هرناندو هذا يعرض استعداده للصلح والمفاوضة ، وفيه تبدو لغة الموريسكيين العربية فى دور احتضارها ، ويبدو أسلوب اللهجة الغرناطية التى انتهى الموريسكيون

دون خـــوان

إلى التحدث والكتابة بها بعد نحو ثمانين عاماً من الكبت والمطاردة . وإليك ما ورد فى هذا الخطاب الذى ربما كان آخر وثيقة عربية عثر بها البحث الحديث :

١ الحمد لله وحدهو قبل الكلم

٢ اسلم الكرمو على من اكرمهو الكرمو سيديا وحبيبى وعز اسر عنديا دن هرنندو ونى نعلم حرمتكم ين

٣ اكن انت تقول يجى عنديا يجى عند أخكم وحببك وتجى مطمن وكل ميجكم فليا

٤ وذمتى وكن انت تريد تترطل فذى المبرك مين سُلح كل متعمل تعملو معى ونى

٥ نعمل معك كل مـتريد بحق وبل غدر وذهـرلى مين الحبقى ين اشمكـين يعمل

٦ معلمن وتطلعنى على حق وذ هر لى ين اشم طلب طلب يرحو وينسو ويسحبو وبعد رعى

٧ ودين انى نعرف حرمتك بهذا شى وحرمتك اعمل الذى يذهر لكم وعمل متيسُلح بنترر

٨ وبين وعسى يقذيا الله خير بينين وتكن حرمتكم اسبَبْ فدا شى وعملن فعدلكم يل اش

٩ كن معى من يكتب لى يل كينكن كتبت لكم أكثر وسلموا عليكم ورحمتو الله وبركتو الله

١٠ كتيب الكتب يوم الثليث فشهر وليو فعم ..

ملاى عبد الله(١)

وكتب الدون ألونسو دى ڤنيجاس (بنيغش) أيضاً إلى مولاى عبد الله يحثه على المسالمة ، والتنكب عن هذا الطريق الخطر ، ورد عليه عبدالله يلقى المسئولية على أولى الأمر ، وعلى ما أحدثوه من بدع جعلت الحياة مستحيلة على الشعب الموريسكى(٢) . وجرت المفاوضات بين الزعيم الحبقى قائد قوات الثورة ، وبين

---

(١) نشر هذا الخطاب وصورته الفتوغرافية التى ننقلها هنا العلامة المستشرق M. Alarcón فى مجموعة بالإسبانية عنوانها: Misceláneo de Estudios y Textos Arabes (Madrid 1915) ; p. 691: وقد وجد هذا الخطاب فى مجموعة المخطوطات الشرقية للمركيز بنيافلور Pena Flor ، وتحفظ نسخته العربية فيها برقم ٢٤٦ ، وتحفظ ترجمته القشتالية برقم ٢٤٥ . وقد أورد مارمول ترجمته القشتالية فى الكتاب التاسع الفصل التاسع .

(٢) Marmol : ibid; VIII. Cap. XXVII

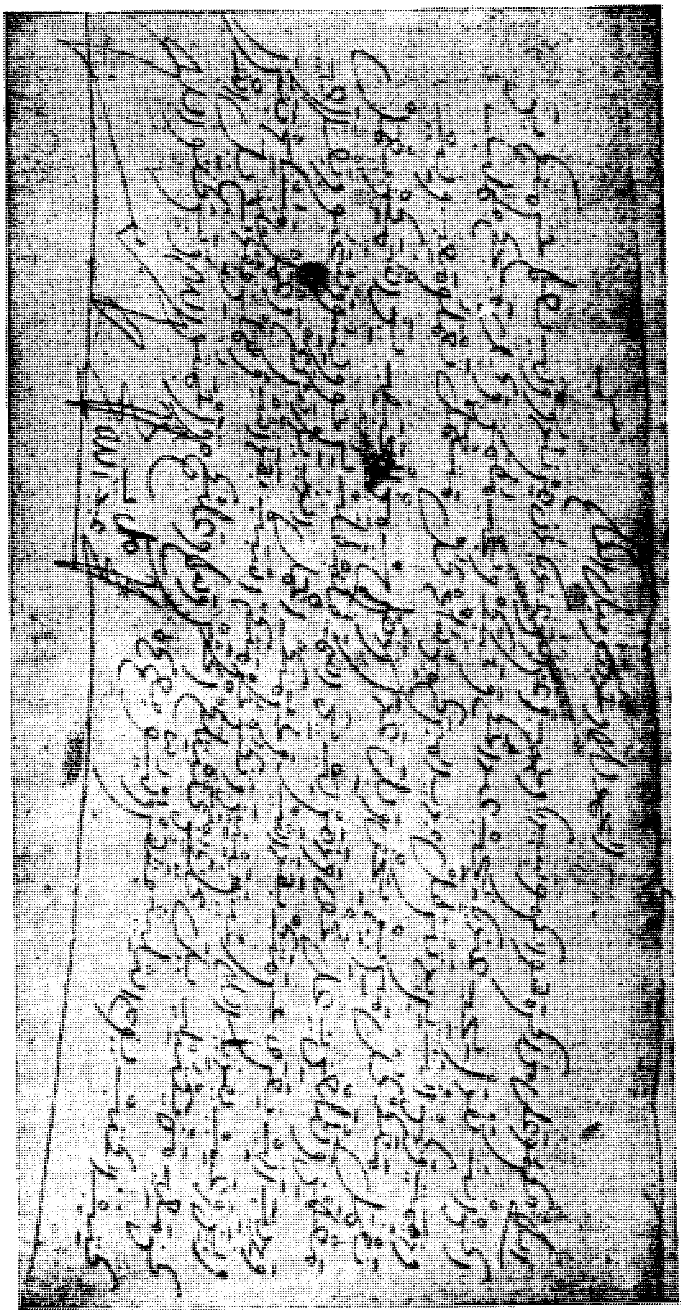

صورة خطاب مولاي عبد الله إلى دون هرناندو دي براداس مكتوب بخطه وعليه توقيعه .

الدون هرناندو دى براداس ، واتفق فى النهاية على أن يتقدم الحبقى إلى الدون خوان بإعلان خضوعه ، وطلب العفو لمواطنيه ، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين ، وتكفل الحكومة الإسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت مقامهم . وفى ذات مساء سار الحبقى فى سرية من فرسانه إلى معسكر الدون خوان فى أندرش ، وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود .

ولكن هذا الصلح لم يرض بالأخص مولاى عبد الله وباقى الزعماء ، لأنهم لمحوا فيه نية اسبانيا النصرانية فى نفيهم ونزعهم عن أوطانهم ، ففيم كانت الثورة إذاً وفيم كان النضال ؟ لقد ثار الموريسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم ، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز ، الذى نشأوا فى ظلاله الفيحاء ، والذى يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم ؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجحف ، وارتاب مولاى عبد الله فى موقف الحبقى ، إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه ، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو ، فاستقدمه لمعسكره بالحيلة وهنالك أعدم سراً .

ووقف الدون خوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث ، وبعث رسوله إلى مولاى عبد الله ، فأعلن إليه أنه يترك الموريسكيين أحراراً فى تصرفاتهم . بيد أنه يأبى الخضوع ما بقى فيه رمق ينبض ، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه ، على أن يحصل على مُلْك اسبانيا بأسره . والظاهر أن مولاى عبد الله كانت قد وصلته أمداد من المغرب شدت أزره وقوت أمله ، وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة ، وأرسل مولاى عبدالله أخاه الغالب ليقود الثوار فى تلك الانحاء ، وثارت الحكومة الإسبانية لهذا التحدى ، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت ، فسار الدون خوان فى قواته إلى وادى آش ، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دون ركيصانص إلى شمال البشرّات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة ، واجتاح الإسبان فى طريقهم كل شىء ، وأمعنوا فى التقتيل والتخريب ، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن تقف فى وجه هذا السيل فمزقت تباعاً ، وهدم الإسبان الضياع والقرى والمعاقل ، وأتلفت الأحراش والحقول ، حتى لا يبقى للثائرين مثوى أو مصدر للقوت ، وأخذت الثورة تنهار بسرعة ، وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم فى إفريقية ، ولم يبق أمام الإسبان سوى مولاى عبد الله وجيشه الصغير . بيد أن مولاى عبد الله لبث معتصما بأعماق الجبال ، يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠، أصدر فيليب الثانى قراراً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد، ومصادرة أملاكهم العقارية ، وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها . ويقضى هذا القرار بأن الموريسكيين فى غرناطة والفحص ووادى لكرين (الإقليم) وجبال بونتوفير حتى مالقة، وجبال رندة ومربلة، يؤخذون إلى ولاية قرطبة ، ومن هنالك يفرقون فى أراضى ولايتى إسترامادورة وجليقية . والموريكسيون فى وادى آش وبسطة ووادى المنصورة يؤخذون إلى جنجالة والبسيط ثم يفرقون فى أراضى قلعة رباح ومونتيل . والموريسكيون فى ألمرية يؤخذون إلى ولاية إشبيلية. ونفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والتحوط، وجمع الموريسكيون المسالمون من غرناطة وبسطة ووادى آش وغيرها، وسيقوا إلى الكنائس أكداساً ، يحيط بهم الجند فى كل مكان ، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة ، وشتتوا على النحو المتقدم فى مختلف أنحاء قشتالة وليون (١) .

ووقعت أثناء تنفيذ هذا القرار مناظر دموية ، حيث جنح رجال الحكومة فى بعض الأنحاء ولاسيما فى رندة، إلى نهب المنفيين والفتك بالنساء والأطفال . ولما سمع الموريسكيون المعتصمون بالجبال هذه الأنباء انحدروا إلى السهل، وقتلوا كثيراً من الجند المثقلين بالغنائم . وكان مصير المنفيين مؤلماً ، إذ هلك الكثير منهم من المشاق والمرض ، وعانى الذين سلموا منهم مرارة غربة جديدة مؤلمة ، ونص على وجوب وضعهم تحت الرقابة الدائمة ، وتسجيلهم وتسجيل مساكنهم فى سجلات خاصة ، وعين لهم حيث وجدوا مشرفاً خاصاً يتولى شئونهم، وحرم عليهم أن يغيروا مساكنهم إلا بتصريح ملكى، وحرم عليهم بتاتاً أن يسافروا إلى غرناطة ، وفرضت على المخالفين عقوبات شديدة تصل إلى الموت؛ وهكذا شرد الموريسكيون فى مملكة غرناطة أفظع تشريد ، وانهار بذلك مجتمعهم القوى المتماسك فى الوطن القديم (٢) .

ولم يبق إلا أن يسحق مولاى عبد الله وجيشه الصغير ، وكان هذا الأمير المنكود يرى قواه وموارده تذوب بسرعة ، وقد انهار كل أمل فى النصر أو السلم الشريف ، بيد أنه لبث مختفياً فى أعماق جبال البشرات بين آكام برشول وترڤليس مع شرذمة من جنده المخلصين . وفى مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر مخبئه للإسبان، فأوفدوا رسلهم إلى معسكره فى بعض المغائر ، وهنالك استطاعوا

---

(١) Marmol : ibid; X . Cap. VI.

(٢) Dr. Lea: The Moriscos p. 256, 258 & 265

إغراء ضابط مغربى من خاصته يدعى جونثالفو « الشنيش » . وكان الشنيش يحقد عليه لأنه منعه من الفرار إلى المغرب ؛ وأغدق الإسبان له المنح والوعود ، وقطعوا له عهداً بالعفو الشامل ، وضمان النفس والمال ، وأن ترد إليه زوجته وابنته الأسيرتان ، إذا استطاع أن يسلمهم مولاى عبد الله حياً أو ميتاً . وكان الإغراء قوياً مثيراً ، فدبر الضابط الخائن خطته لاغتيال سيده ، وفى ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه ، فقاوم مولاى عبد الله ما استطاع ، ولكنه سقط أخيراً مثخناً بجراحه ، فألقى الخونة جثته من فوق الصخور لكى يراها الجميع ، ثم حملها الإسبان إلى غرناطة ، وهناك استقبلوها فى حفل ضخم ، ورتبوا موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل ، وعليها ثياب كاملة كأنما هى إنسان حى ، ومن ورائها أفواج كثيرة من الموريسكيين الذين سلموا عقب مصرع زعيمهم ، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الإعدام ، فقطع رأسها ثم جرت فى شوارع غرناطة مبالغة فى التمثيل والنكال ، ومزقت أربعاً ، وأحرقت بعد ذلك فى الميدان الكبير ، ووضع الرأس فى قفص من الحديد ، رفع فوق سارية فى ضاحية المدينة تجاه جبال البشرات(١) .

* * *

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت ، وخبت آخر جذوة من العزم والنضال ، فى صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد ، وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة ، على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت روح من الرهبة والاستكانة المطلقة ، على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، فى ظل العبودية الشاملة والإرهاق المطلق ، حقبة أخرى .

---

(١) Marmol : ibid; X. Cap. VIII

الكتاب الرابع

نهاية النّهاية

الفصل الأول

توجس السياسة الإسبانية

وعصر الغارات البحرية الإسلامية

الموريسكيون قوة أدبية واجتماعية . بعض ما قيل فى وصفهم . تعلقهم بتراثهم الروحى . يكتبون كتبهم بالألخميادو . نشاط ديوان التحقيق فى مطاردتهم . قضية موريسكية شهيرة . عدد الموريسكيين . ما يقوله عنهم سفير البندقية. أقوال ثرفانتس . براعتهم الاقتصادية . تخوف السياسة الإسبانية من وجودهم. صلات الموريسكيين بمسلمى إفريقية والترك . دسائس ومؤامرات مزعومة . غارات البحارة المجاهدين على الشواطىء الإسبانية . البحر المتوسط مسرح القراصنة منذ العصور الوسطى . ظهور المغامرين المسلمين فى هذه المياه . ظهور البحارة الترك والموريسكيين . النزعة الانتقامية فى هذه الغارات . تحوط اسبانيا ضد الغارات . غارات المجاهدين المغاربة . معاونة الموريسكيين للبحارة المغيرين . ظهور أوروج وخير الدين . استيلاء خير الدين على الجزائر والثغور المغربية . غاراته المتوالية على الشواطىء الإسبانية . توالى صريخ الموريسكيين . تحطيم سلطان البحارة الترك لمشاريع اسبانيا فى المغرب . استنصار أمراء المغرب باسبانيا . غارات طرغود خلف خير الدين . غارات البحارة التونسيين . انزعاج اسبانيا ولوم الموريسكيين. اتساع نطاق الغارات فى البحر المتوسط . انتشار تجارة الرقيق . حوادث المغرب الأقصى . فرار الأمير الشيخ إلى اسبانيا واستغاثته بفيليب الثانى . الموريسكيون يحرضون مولاى زيدان على غزو اسبانيا . استيلاء الإسبان على ثغر العرائش . مقتل الشيخ وانتهاء مغامراته . الكفاح بين مولاى زيدان واسبانيا .

كان انهيار الثورة الموريسكية وسحق الموريسكيين ، خاتمة عهد من الكفاح المرير بين شعب مهيض أعزل ، يحاول أن يحتفظ بشخصيته وكرامته وحقه فى الحياة ، وبين القوة الغاشمة ، التى تريد أن تسحق فى بقية الأمة المغلوبة ، كل أثر للحياة الحرة الكريمة . ولكن الثورة الموريسكية كانت من جهة أخرى ، نذيراً عميق الأثر للسياسة الإسبانية . ذلك أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تجريدهم من كل مظاهر القوة المادية ، قوة أدبية واجتماعية يخشى بأسها .وكان هذا الشعب المستكين الأعزل ما يزال رغم ضعفه وذلته ، يملأ جنبات الجزيرة بفنونه ونشاطه المنتج ، ويحتل مكانة بارزة فى الشئون الاقتصادية . وكانت الكنيسة ماتزال تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض ، على مجتمع لم تطمئن لولائه وصدق إيمانه . وقد وصف المطران جريرو الموريسكيين فى سنة ١٥٦٥ بقوله: «إنهم خضعوا للتنصير ،

ولكنهم لبثوا كفرة فى سرائرهم، وهم يذهبون إلى القداس تفادياً للعقاب، ويعملون خفية فى أيام الأعياد، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد، ويستحمون حتى فى ديسمبر، ويقيمون الصلاة خفية، ويقدمون أولادهم للتنصير خضوعاً للقانون، ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير، ويجرون ختان أولادهم، ويطلقون عليهم أسماء عربية، وتذهب عرائسهم إلى الكنيسة فى ثياب أوربية، فإذا عدن إلى المنزل استبدلنها بثياب عربية، واحتفل بالزواج طبقاً للرسوم العربية»(١)

والظاهر أن هذه الأقوال تنطوى على كثير من الصدق. ذلك أن الأمة الموريسكية المهيضة، بقيت بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والإرهاق، متعلقة بتراثها الروحى القديم. وبالرغم مما فرض على الموريسكيين من نبذ دينهم ولغتهم، فقد لبث الكثير منهم مسلمين فى سرائرهم، يزاولون شعائرهم القديمة خفية، ويكتبون أحكام الإسلام والأدعية والمدائح النبوية بالقشتالية الأصلية، أو بالقشتالية المكتوبة بأحرف عربية، وهى التى تعرف بالألخميادو Aljamiado أى «الأعجمية» وهو ما نعود إلى التحدث عنه بعد. وقد انتهى إلينا الكثير من الكتب الدينية والأدعية والمدائح الإسلامية الموريسكية مكتوبة «بالألخميادو» وكثير منها يدور حول سيرة النبى العربى، وشرح تعاليم القرآن والسنة، يتخللها كثير من الخرافات والأساطير المقدسة(٢). بيد أنها تدلى بما كانت تجيش به هذه النفوس المعذبة من إخلاص راسخ لدينها القديم، وأن التبست عليهم أصوله وشعائره بمضى الزمن.

وقد لبث ديوان التحقيق على نشاطه ضد الموريسكيين طوال القرن السادس عشر، ولم يفتر هذا النشاط حتى أواخر هذا القرن، مما يدل على أن آثار الإسلام الراسخة بقيت بالرغم من كر الأعوام وتوالى المحن، دفينة فى قلب الشعب المضطهد، تنضح آثارها من آن لآخر. يدل على ذلك ما تسجله محفوظات الديوان، من أن قضايا الموريسكيين أمام محاكم التحقيق، بلغت فى سنة ١٥٩١، ٢٩١ قضية، وبلغت فى العام التالى ١١٧ قضية، وظهر فى حفلة «الأوتو دافى» Auto da-fé التى أقيمت فى ٥ سبتمبر سنة ١٦٠٤ ثمانية وستون موريسكياً، نفذت فيهم الأحكام،

---

(١) Marmol: ibid,II.Cap.I وكذلك : Dr. Lea : The Moriscos; p. 213 & 214

(٢) وضع القس الإسبانى Pedro Longás عن حياة الموريسكيين الدينية كتابه الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة Vida Religiosa de los Moriscos (Mardrid 1914)، وفيه يورد كثيراً من رسومهم وعوائدهم الدينية، وكثيراً من الآيات والمدائح النبوية بالقشتالية.

وظهر فى حفلة ٧ يناير سنة ١٦٠٧ ثلاثة وثلاثون موريسكياً ، واستعمل التعذيب فى محاكمتهم خمس عشرة مرة ، وكان الإتهام يوجه أحياناً إلى الموريسكيين جملة ، على أثر بعض الحملات الفجائية على المحلات الموريسكية ؛ فقد حدث مثلا فى سنتى ١٥٨٩ و ١٥٩٠ ، أن سجلت فى قرية مسلاتا لموريسكية بالقرب من بلنسية مائة قضية ، وسجلت فى قرية كارليت مائتان ، واتهم أربعون أسرة بصوم شهر رمضان .

والواقع أنه كان من الصعب ، على من بقيت فى نفوسهم جذوة أخيرة من دين الآباء ، ولم يخمدها تعاقب جيلين أو ثلاثة من النصرانية المفروضة ، أن يكونوا دائماً بمنجاة من الإتهام ، ولهذا كان الشعب الموريسكى بأسره أينما وجد ، عرضة للاتهام بالحق وبالباطل . وإذا كانت ثمة فترات يهدأ فيها نشاط محاكم التحقيق ، فذلك يرجع بالأخص إلى استعمال الرشوة مع المأمورين ، أو الحصول على براءات الحصانة بالمال . وتوضح لنا قضية بنى عامر زعماء الموريسكيين فى بلنسية هذه الحقيقة أتم وضوح .

كانت أسرة بنى عامر من أعرق الأسر المسلمة القديمة ، التى أكرهت على التنصير ، وكان زعماؤها إخوة ثلاثة ، هم : دون كوزمى ودون خوان ودون هرناندو بنى عامر ، ومنزل الأسرة فى بنجوازيل (بنى وزير) ضاحية بلنسية . وكان الثلاثة من ذوى المكانة والنفوذ ، يسمح لهم بحمل السلاح وامتيازات أخرى ، محرمة على الموريسكيين . ففى مايو سنة ١٥٦٧ صدر قرار محكمة التحقيق باتهامهم ، وتقرر القبض عليهم ، ولكن بعد أن وافقت المحكمة العليا (سوپريما) نظراً لخطر مكانتهم ، فاختفى الإخوة الثلاثة حيناً ؛ ولكن الدون كوزمى قدم نفسه للسلطات فى يناير سنة ١٥٦٨ ، وقرر فى التحقيق أنه يعتقد أنه نصر طفلا ، ومع ذلك فإنه لا يعتبر نفسه نصرانياً بل مسلماً ، وأنه جرى خلال حياته على مراعاة الشعائر الإسلامية ، ولم يذهب إلى المعترف إلا خضوعاً للأوامر ، على أنه يبغى أن يكون فى المستقبل نصرانياً ، وأن يؤدى ما يطلبه المحققون إليه ، ولم يقدم دون كوزمى خلال محاكمته أى دفاع ، ولكنه أفرج عنه فى ١٥ يوليه بضمان قدره ألفى دوقة ، على أن يبقى فى بلنسية ولا يبرحها ؛ ومع ذلك فقد سافر دون كوزمى إلى مدريد ، وحصل على عفو عنه وعن أخويه من الملك والمحكمة العليا ، نظير فداء قدره سبعة آلاف دوقة ، واستطاع فوق ذلك بنفوذه القوى ، أن يحصل للموريسكيين فى بلنسية على قرار التوفيق الصادر فى سنة ١٥٧١ حسبما قدمنا .

وفى سنة ١٥٧٧ جددت التهم القديمة ضد بنى عامر ، وقبض على كوزمى وأخيه خوان ، وحوكم كوزمى وشرح للمحكمة عقيدته الدينية ، وهى مزيج من الإسلام والنصرانية ، وعقدت الجلسات الأولى ، ولكن القضية أوقفت قبل أن يصل التحقيق إلى مرحلة التعذيب ، مما يدل على أن بنى عامر استطاعوا بالرغم من سوء حالتهم المالية يومئذ ، أن يحصلوا على براءتهم وإطلاق سراحهم بدفع مبلغ آخر من المال[1] .

وهكذا نرى أن الموريسكيين استطاعوا بالرغم من العسف المنظم ، الذى فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، أن يحتفظوا فى قرارة نفوسهم الكليمة ، ببقية راسخة من تراثهم الروحى القديم .

هذا من ناحية الدين والعقيدة ؛ وأما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان الموريسكيون يكونون مجتمعاً متماسكاً متضامناً ، قوياً بنشاطه ودأبه وذكائه ، وقد بلغ عددهم فى أواخر القرن السادس عشر وفقاً لتقدير سفير البندقية زهاء ستمائة ألف نفس ، وقدر البعض الآخر عددهم يومئذ بأربعمائة ألف نفس ، وهو عدد ضخم بالنسبة لمجموع سكان اسبانيا فى ذلك الحين ، وهو لم يتعد الثمانية ملايين . ووصفهم سفير البندقية فى سنة ١٥٩٥ ، أى بعد قرن من سقوط غرناطة ، بأنهم شعب ينمو باضطراد فى العدد والثروة ، وأنهم لا يذهبون إلى الحرب ، ولكن يكرسون نشاطهم للتجارة واجتناء الربح . وذكر الكاتب الإسبانى الكبير ثرڤانتيس[2] فى بعض رسائله أن الموريسكيين يتكاثرون وكلهم يتزوج ، ولا يدخلون أولادهم قط فى سلك الكهنوت أو الجيش ، ويقتصدون فى الإنفاق ويكتنزون المال ، فهم الآن أغنى الطوائف فى اسبانيا . وأما عن الناحية الاقتصادية فقد قيل إن الموريسكيين كانوا يحتكرون تجارة الأغذية ، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، ومنهم تجار البقالة والماشية ، ومنهم القصابون والخبازون وأصحاب الفنادق وغيرهم ، وهم لا يشترون العقارات احتفاظاً بحرية استعمال أموالهم ، وقد كان ذلك من أسباب غناهم وقوتهم الإقتصادية[3] .

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition ; V. III. p. 362 - 365

(٢) مجيل ثرفانتس دى ساڤدرا (١٥٤٧ — ١٦١٦) من أعظم كتاب اسبانيا وشعرائها ، وهو مؤلف قصة الفروسية الشهيرة « دون كيخوتى دى لامانشا » .

(٣) Dr. Lea : The Moriscos p. 204 & 210

كانت اسبانيا النصرانية إذاً، أبعد من أن تطمئن إلى مجتمع العرب المتنصرين ، فقد كانوا فى نظر الكنيسة أبدا كفرة مارقين ، وكانت الدولة من جالبها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع الدخيل ومطاردته ، فهى تخشى أن يعود إلى الثورة ، وهى تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمى إفريقية ومع سلطان الترك ، وهى مازالت تحلم بتطهير اسبانيا من الآثار الأخيرة للشعب الفاتح ، والقضاء إلى الأبد على تلك الصفحة من تاريخ اسبانيا .

* * *

والواقع أن صلات الموريسكيين مع أعداء اسبانيا، لبثت شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية . وقد كانت الممالك والإمارات المغربية فى الضفة الأخرى من البحر ، على استعداد دائماً لأن تصغى إلى هذا الشعب المنكود ، سليل إخوانهم الأمجاد فى الدين ، وأن تعاونه كلما سنحت الفرص . وكان سلاطين الترك يتلقون من الموريسكيين صريخ الغوث من آن لآخر ، وكانت المنافسة بين الترك واسبانيا يومئذ على أشدها ، فى مياه البحر المتوسط ، وكانت طوائف الموريسكيين تعيش على مقربة من الثغور الشرقية والجنوبية . وأكثر من ذلك أن السياسة الإسبانية كانت تخشى دسائس فرنسا خصيمتها القوية يومئذ ، وتخشى تفاهمها المحتمل مع الموريسكيين . وكانت هذه الظروف كلها تحمل اسبانيا النصرانية ، على أن تعتبر الموريسكيين خطراً قومياً يجب التحوط منه ، والعمل على درئه بكل الوسائل .

وتسوق الرواية الإسبانية إلينا دلائل هذا الخطر فى حوادث كثيرة . ففى سنة ١٥٧٣ وقفت السلطات الإسبانية على أنباء مفادها أن أمراء تلمسان والجزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة « المرسى الكبير » فى مياه بلنسية، يعاونهم الموريسكيون فيها بالثورة ، ولذا بادرت السلطات بنزع السلاح من الموريسكيين فى بلنسية ، وقيل بعد ذلك إن هذه الحملة المغربية كانت ستقترن بغزوة فرنسية لأراجون ، ينظمها حاكم بيارن الفرنسى ، وأن سلطان الترك وسلطان الجزائر كلاهما يؤيد المشروع ، وأن أساطيل الغزو كانت تزمع النزول فى مياه برشلونة وفى دانية، وفيما بين مرسية وبلنسية ، وأن الفضل فى فشل هذا المشروع كله يرجع إلى حزم الدون خوان ونزع سلاح الموريسكيين . ومما يدل على أن اسبانيا لبثت حيناً على توجسها من فرنسا ودسائسها لدى الموريسكيين ، ما تسوقه الرواية الإسبانية من أن هنرى الرابع ملك فرنسا ، كانت له فى ذلك مشاريع خطرة ، ترمى إلى غزو اسبانيا من

ناحية بلنسية ، حيث يوجد حشد كبير من الموريسكيين ، وأن زعماء الموريسكيين وعدوا بإضرام نار الثورة ، وتقديم عدد كبير من الجند ، ولم يطلبوا سوى السلاح ، وكان من المنتظر أن تقوم الثورة الموريسكية فى سنة ١٦٠٥ ، ولكن المؤامرة اكتشفت فى الوقت المناسب ، وانهار مشروع الغزو . وهذه الروايات العديدة التى جمعها « ديوان التحقيق » الإسبانى على يد أعوانه وجواسيسه ، تنقصها الأدلة التاريخية الحقة(١) .

على أن الخطر الحقيقى ، كان يتمثل فى غارات المجاهدين من خوارج البحر المسلمين ، على الثغور والشواطىء الإسبانية . وتملأ سير هذه الغارات فراغاً كبيراً فى الرواية الإسبانية ، وتسبغ عليها الرواية صفة الإنتقام للأندلس الشهيدة . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، واستمرت دهراً بعد إخراج العرب المتنصرين من اسبانيا . ويشير المقرى مؤرخ الأندلس إلى مغزى هذه الغارات البحرية بعد إخراج الموريسكيين ، فيقول إنهم انتظموا فى جيش سلطان المغرب ، وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن(٢) .

ويجب أن نذكر أن مياه البحر المتوسط شرقه وغربه ، كانت خلال العصور الوسطى ، دائماً مسرحاً سهلا للأساطيل الإسلامية . فمنذ أيام الأغالبة والفاطميين ، ومنذ خلافة قرطبة ثم المرابطين والموحدين ، كانت الأساطيل الإسلامية تجوس أواسط هذا البحر وغربيه ، وكانت الدول الإسلامية الأندلسية والمغربية ، ترتبط مع الدول النصرانية الواقعة فى شمال هذا البحر ، مثل البندقية وجنوة وبيزة ، بمعاهدات ومبادلات تجارية هامة ،وكان التسامح يسود يومئذ علائق المسلمين والنصارى ، وتغلب المصالح التجارية والمعاملات المنظمة ، على النزعات الدينية والمذهبية .

وقد كانت المغامرات البحرية الحرة وأعمال «القرصنة» ، توجد فى هذه العصور دائماً ، إلى جانب نشاط الأساطيل الرسمية . وكان البحر المتوسط منذ أقدم العصور مسرحاً لهذه المغامرات ، وكان معظم خوارج البحر (القراصنة) يومئذ من النصارى ، من الأمم التى غزت البحر فى عصور متقدمة ، مثل اليونان وأهل سردانية وجنوة ومالطة . وفى أيام الصليبيين ازدهرت المغامرات فى البحر المتوسط ،

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos; p. 281 - 284 & 286 - 288

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ . وقد أنجز المقرى كتابه سنة ١٦٣٠ .

واستمر النصارى عصوراً زعماء هذه المهنة. ولم تكن ثمة تحريات منظمة تقوم بمطاردة أولئك الخوارج. وكانت المغانم الوفيرة من الإتجار فى الرقيق، والبضائع المهربة، وافتداء الرقيق، تذكى عزمهم، وتدفع إليهم بسيل من المغامرين من سائر الأمم، ولما ظهرت الأساطيل الكبرى منذ القرن الرابع عشر، ضعف أمر أولئك المغامرين. ولم تكن هذه المياه خلوا من نشاط المغامرين المسلمين، ولكنهم لم يظهروا فى هذا الميدان إلا منذ القرن الخامس عشر، حينما ضعف أمر الأندلس والدول المغربية وسادتها الفوضى، واضطربت العلائق البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية. وكانت الشواطىء المغربية تقدم إليهم المراسى الصالحة. ولما اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الترك على قسطنطينية، زاد نشاط المغامرين المسلمين فى البحر. وكان سقوط غرناطة واضطهاد الإسبان للمسلمين، ايذاناً بتطور هذه المغامرات البحرية، ونزول الأندلسيين والموريسكيين المنفيين إلى ميدانها واتخاذها مدى حين صورة الجهاد والإنتقام القومى والدينى، لما نزل بالأمة الأندلسية الشهيدة من ضروب العسف والإرهاق(1).

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية، عقب استيلاء الإسبان على غرناطة، وأكراههم للمسلمين على التنصير. فى ذلك الحين غادر الأندلس آلاف من الأندلسيين المجاهدين، أنفوا العيش فى الوطن القديم، فى مهاد الذلة والاضطهاد، تحت نير الإسبان، وعبروا البحر إلى عدوة المغرب، وقلوبهم تفيض حقداً ويأساً، واستقروا فى بعض القواعد الساحلية، مثل وهران والجزائر وبجاية، ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد فى سبيل الله، والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم، وظلموا أمتهم، وانتهكوا حرمة دينهم. وكان البحر يهيىء لهم هذه الفرصة، التى لم تهيؤها لهم الحرب البرية. وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة، وثغورها ومراسيها وخلجانها الكثيرة، التى تحميها وتحجبها الصخور العالية، أصلح ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين والقراصنة المغيرين. وكانت الجزائر وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والإقلاع، وكانت هذه الغارات البحرية تعتمد بالأخص على عنصر المفاجأة، وتنجح فى معظم الأحيان فى تحقيق غاياتها.

ويصف بيترومارتيرى هذه الغارات بإسهاب ويقول إن فرناندو الخامس أمر فى سنة ١٥٠٧، للتحوط ضد هذه الغارات بإخلاء الشاطىء الجنوبى، من جبل طارق

---

(1) Lane - Poole : The Barbary Corsairs p. 26 & 27

إلى ألمرية ، لمدى فرسخين إلى الداخل . ثم صدرت مراسم متعددة تحظر على الموريسكيين السفر على أبعاد معينة من الشواطىء ، ولكن هذا التحوط لم يغن شيئاً واستمرت الغارات على حالها . وكان اللوم يلقى فى ذلك منذ البداية على الموريسكيين ولاسيما أهل بلنسية . وكان الموريسكيون كلما اشتدت عليهم وطأة الاضطهاد والمطاردة ، اتجهوا إلى إخوانهم فى المغرب ، يستصرخونهم للتدخل والانتقام . وكان المجاهدون المغاربة ، يغيرون فى سفنهم على الشواطىء الإسبانية ، ويخطفون النصارى الإسبان ، ويجعلونهم رقيقاً يباع فى أسواق المغرب ، وكان الموريسكيون يزودون الحملات المغيرة بالمعلومات الوثيقة ، عن أحوال الشواطىء ومواضع الضعف فيها ويمدونها بالأقوات والمؤن . وكانت هذه الحملات تجهز فى أحيان كثيرة لنقل الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وقد استطاعت خلال القرن السادس عشر ، أن تنقل منهم إلى الشواطىء الإفريقية جماعات كبيرة .

وقد ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر فى الميدان ، عنصر جديد أذكى موجة الغارات البحرية فى هذه المياه . ذلك أن البحارة الترك ، وعلى رأسهم الأخوان الشهيران أوروج (عروج) وخير الدين[1] ، اندفعوا من شرقى البحر المتوسط إلى غربيه ، فى طلب المغامرة والكسب . وفى سنة ١٥١٧ سار أوروج فى قوة برية وبعض السفن إلى الجزائر واستولى عليها . ولما قتل فى العام التالى فى معركة نشبت بينه وبين الإسبان ، استولى أخوه خير الدين على الجزائر ، ثم استولى على معظم الثغور المغربية الساحلية ، وعينه السلطان سليم حاكماً على هذه الأنحاء ، وأمده بالسفن والجند . وتألق نجم خير الدين من ذلك الحين ، وأضحى اسمه يقرن بذكر أعظم أمراء البحر فى هذا العصر . وكان من معاونيه نخبة من أمهر الربابنة الترك ، مثل طرغود الذى خلفه فى الرياسة فيما بعد ، وصالح ريس ، وسنان اليهودى ، وإيدين ريس وغيرهم من المغامرين ، الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة . وبسط أولئك البحارة الترك سلطانهم على معظم جنبات البحر المتوسط ، واشتهروا بغاراتهم على الشواطىء الإيطالية والإسبانية ، والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من

---

(١) ويعرف كلاهما فى الرواية الأوربية « بارباروسا » أو ذو اللحية الحمراء . وقد انتهى إلينا عن مغامرات هذين الأخوين الشهيرين وغاراتهما البحرية كتاب بالعربية منقول عن أصل تركى ، نشر فى الجزائر سنة ١٩٣٤ بعنوان « غزوات عروج وخير الدين » . والظاهر أنه من تأليف راوية معاصر أو قريب من العصر .

المغاربة والموريسكيين . وبدأ خير الدين غاراته فى المياه الإسبانية بمهاجمة الشواطىء الشرقية ، وقطع خلال هذه الغارة ثلاثة أشهر عاث فيها فى البقاع الساحلية ، وجمع فى سفنه كثيراً من الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وأسر كثيراً من الإسبان . وعرج أثناء عوده على جزيرة منورقة . وكان من أهم الغارات التى نظمها خير الدين على الشواطىء الإسبانية غارة وقعت فى سنة ١٥٢٩ ؛ وذلك أن جماعة من الموريسكيين فى بلنسية فاوضوه لكى ينقلهم خلسة إلى عدوة المغرب ، فأرسل عدة سفن بقيادة نائبيه إيدين ريس ، وصالح ريس ، إلى المياه الإسبانية ، ورست السفن المغيرة ليلاً عند أوليڤا الواقعة شمال غربى دانية أمام مصب نهر « ألتيا » ، ونزلت منها إلى البر قوة استطاعت أن تجمع من الأنحاء المجاورة نحو ستمائة من الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وهنا فاجأت السفن المغيرة عدة من السفن الإسبانية الكبيرة ، وطاردتها حتى مياه الجزائر الشرقية (البليار) . ولكن سفن « القراصنة » انقلبت فجأة من الدفاع إلى الهجوم ، وانقضت على السفن الإسبانية وأغرقت بعضها ، وأسرت البعض الآخر ، وسارت سالمة إلى الجزائر تحمل الموريسكيين الفارين ، وعدداً من أكابر الإسبان أخذوا أسرى ، ومعها عدة من السفن الإسبانية الفخمة . وكان صريخ الموريسكيين يتوالى إلى خير الدين وحلفائه من أمراء المغرب ولاسيما أيام الثورات المحلية التى تشتد فيها وطأة الإسبان على الأمة المغلوبة ، ومن ثم فقد توالت بعوث خير الدين وغاراته على الشواطىء الإسبانية ، وتتابعت الفرص لدى الموريسكيين ، للفرار والهجرة رفق السفن المغيرة ، حتى بلغ ما نقلته سفن خير الدين منهم إلى شواطىء المغرب نحو سبعين ألفا[(١)] .

وكان سلطان خير الدين وزملائه البحارة الترك فى المياه المغربية عاملا فى تحطيم كثير من مشاريع اسبانيا البحرية فى المغرب . وكان الإسبان قد استولوا على ثغر وهران منذ سنة ١٥٠٥ ، واحتلوا مياه تونس سنة ١٥٣٥ ، بانضواء أميرها الحفصى المعزول تحت لوائهم ، وكان كثير من أمراء الثغور والقواعد المغربية الذين يهدد الترك سلطانهم يتجهون بأبصارهم إلى الإسبان للاحتفاظ برياستهم . ولدينا

---

(١) راجع كتاب الأستاذ لاين پول **The Barbary Corsairs** فى الفصول الأول والثانى والثالث ، حيثما يورد كثيراً من التفاصيل الشائقة ، عن هذه الغارات البحرية ، وعن مغامرات أوروج وخير الدين . وراجع كتاب « غزوات عروج وخير الدين » الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٩ و ٤٨ و ٨١ و ٨٢ .

أمير البحر خير الدين

عن صورة بلاثكيث المحفوظة بمتحف البرادو بمدريد ، وهى صورة رائعة بالحجم الطبيعى ، وفيها يبدو خير الدين مرتدياً ثوباً طويلا أحمر ، وعباءة بيضاء ، وقلنسوة صغيرة حمراء ، وله شارب طويل أشهب .

صور من عدة وثائق موجهة من هؤلاء الأمراء إلى الإمبراطور شرلكان ؛ يستنصرون به ، ويقطعون العهد على أنفسهم بطاعته ، والانضواء تحت حمايته ، وهى تدلى بموضوعها وأسلوبها بما انتهت إليه الجبهة الإسلامية فى المغرب فى هذا العهد من التخاذل والتفرق المؤلم(١) .

وفى سنة ١٥٥٩ قام أمير البحر التركى طرغود ، الذى خلف خير الدين فى الرياسة ، بغارة كبيرة على الشواطىء الإسبانية ، واستطاع أن يحمل معه ألفى وخمسمائة موريسكى ؛ وفى سنة ١٥٧٠ ، استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع الموريسكيين فى بالمرا . وفى سنة ١٥٨٤ سار أسطول من الجزائر إلى ثغر بلنسية وحمل ألفين وثلاثمائة . وفى العام التالى استطاعت السفن المغيرة أن تحمل جميع سكان مدينة كالوسا . وبلغت الغارات البحرية التى وقعت على الشواطىء الإسبانية بين سنتى ١٥٢٨ و١٥٨٤ ثلاثاً وثلاثين . هذا عدا الغارات المحلية التى كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الموريسكيين المهاجرين . وقد وصف لنا الكاتب الإسبانى الكبير ثرڤانتيس هذه الغارات البحرية المروعة فى صور مثيرة شائقة ، ولا غرو فقد كان هو أيضاً من ضحاياها ، إذ أسر فى الغارات التى وقعت سنة ١٥٧٥ ، وحمل أسيراً إلى الجزائر ، ولبث يرسف فى أسره بضعة أعوام حتى تم افتداؤه فى سنة ١٥٨٠(٢) .

وكان ممن عملوا فى الجهاد فى البحر فى ذلك الحين ضد الإسبان بعض أكابر الزعماء الموريسكيين المنفيين الذين غدوا من أثر الاضطهاد من ألد أعداء اسبانيا مثل الريس بلانكيو Blanquillo ، والريس أحمد أبو على من أشونية ، ومراد الكبير جواديانو من مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية) وغيرهم . وقد أبلى هؤلاء

---

(١) حصلنا على مجموعة من هذه الوثائق من دار المحفوظات الإسبانية العامة **Arch. gen. de Simancas** ومنها وثيقة هى عبارة عن اتفاق معقود بين أبى عبد الله محمد الحسن سلطان تونس والإمبراطور شرلكان بتاريخ ١٢ صفر سنة ٩٤٢ هـ (١٣ أغسطس سنة ١٥٣٥) يتعهد فيه السلطان بتسليم مدينة بونه للإمبراطور شرلكان بشروط معينة ويحمل توقيعهما . وخطاب كتبه السلطان المذكور إلى الإمبراطور بتاريخ ذى الحجة سنة ٩٤٢ (١٥٣٥) يحدثه فيه عن شئون قصبة بونة . وخطاب من أبى عبد الله المتوكل أمير تلمسان إلى السلطانة الإنبرطريس (الإمبراطورة) دونيا إيزابيل (زوجة الإمبراطور شرلكان) مؤرخ فى سنة ٩٣٩ هـ (١٥٣٢) ، وخطاب من أبى عبد الله محمد بن القاضى صاحب حصن كوكو بالمغرب الأوسط إلى الإمبراطور مؤرخ سنة ٩٤٩ هـ (١٥٤٢ م) يستحثه فيه لقتال الترك وإراحة الناس منهم ... الخ .

(٢) **Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; V. III. p. 363**

الزعماء الموريسكيون فى البحر خير بلاء ، وكانوا خير مرشد لإحكام الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية ، ومضاعفة عصفها وعيثها .

ووقعت فى سنة ١٦٠٢ غارة كبيرة ، قام بها بحار مغامر يدعى مراد الريس على مدينة لورقة الواقعة غرب قرطاجنة على مقربة من الشاطىء ، وحمل عدداً من الأسرى ؛ وكثرت الغارات فى الأعوام التالية على الشاطىء الجنوبى ، وظهر فيما بعد أن منظمها بحار إنجليزى مغامر ، يحشد فى سفنه نواتية من المغاربة ، وكان يعيث فى الشواطىء الأندلسية ويقتنص الأسرى النصارى ، ويبيعهم عبيداً فى أسواق المغرب .

وكانت ثغور تونس فى ذلك الوقت نفسه ، فى أيام حاكمها عثمان داى (سنة ١٠٠٧ — ١٠١٩هـ ١٥٩٨ — ١٦١٠ م) ، ملاذاً لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، كانت تتكرر غاراتهم على الشواطىء الإسبانية بلا انقطاع . وكان من أشهر أولئك البحارة المغامرين يومئذ ، عمر محمد باى الذى اشتهر بجرأته وبراعته ، وقد قام بعدة غارات جريئة على شواطىء اسبانيا الجنوبية ، وكان فى كل مرة يعود مثقلا بالغنائم والسبى[١] .

وهكذا لبثت الغارات البحرية عصراً ، تزعج الحكومة الإسبانية ، وقد زاد عددها واشتد عيثها ، بالأخص منذ منتصف القرن السادس عشر ؛ وكان هذا غريباً فى الواقع ، إذ كانت اسبانيا يومئذ سيدة البحار ، وكانت أساطيلها الضخمة ، تجوب مياه الأطلنطيق حتى بحر الشمال وجزائر الهند الغربية ، وتسيطر على مياه البحر المتوسط الغربية . بيد أنها لم تستطع أن تقمع هذه الغارات الصغيرة المفاجئة ، التى كانت يقوم بها على الأغلب جماعات مجاهدة ، من القراصنة المغاربة ، فى سفن صغيرة ، تدفعهم روح من المغامرة والاستبسال ، وكان اللوم يلقى فى ذلك دائماً على الموريسكيين ، ولاسيما سكان الثغور منهم ، فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيرة بالمعلومات ، ويزودونها بالمؤن والعون ، ويعينون لها موضع الرسو والإقلاع ، وقد كانت تأتى على الأغلب لمعاونتهم على الفرار إلى ثغور المغرب ، وقد كان الموريكسيون بالرغم من اضطهادهم ، والتشدد فى مراقبتهم ، على اتصال دائم بمسلمى إفريقية وأمراء المغرب جميعاً .

لبثت هذه الغارات البحرية عصراً شغلا شاغلا للحكومة الإسبانية لا تجد سبيلا إلى قمعها أو التخلص من آثارها . وكان اقترانها خلال القرن السادس عشر بنضال

---

(١) كتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ١٩٢ .

الموريسكيين ، عنصراً بارزاً فى تنظيمها وتوجيهها ، وكانت فكرة الانتقام للأمة الشهيدة ، تجثم فى معظم الأحيان وراء هذه الغارات المخربة . ولما تم نفى الموريسكيين من الأراضى الإسبانية حسبما نفصل بعد ، زادت هذه الفكرة وضوحاً واشتدت وطأة الغارات ، بما انتظم فى صفوف المجاهدين من المنفيين ، وغدت سلا بالأخص بمرفئها البديع ، الذى تحميه الخلجان المحجوبة مركزاً لأولئك المجاهدين ، ومنها توجه أقوى الحملات المغيرة على الشواطىء الإسبانية(١) .

ولبث البحارة الترك عصراً ، يتزعمون هذه الغارات البحرية ، وجل اعتمادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والموريسكيين ؛ ثم أخذت هذه الغارات تفقد مغزاها القديم بمضى الزمن ، وتنقلب إلى حملات ناهبة ، تنظم على الشواطىء الإيطالية كما تنظم على الشواطىء الإسبانية ، وترمى قبل كل شىء إلى تغذية أسواق المغرب والشرق الأدنى ، بأسراب الرقيق . وكان يشترك مع البحارة الترك والمغاربة مغامرون من الإفرنج من سائر الأمم . وألفى الباشوات أو الدايات الترك ، الذين بسطوا حكمهم منذ أواخر القرن السادس عشر على طرابلس وتونس والجزائر ، فى هذه الحملات الناهبة ، فرصة سانحة للغنم ، فكانوا يمدون الرؤساء والزعماء بصنوف العون ، عند الحط والإقلاع فى ثغورهم ، وكان الرؤساء من جانبهم ، يقدمون إلى خزينة الباشا أو الداى عشر الغنائم . واسترق بهذه الطريقة عشرات الألوف من النصارى ، واستمرت هذه الغارات بعد ذلك زمناً طويلا(٢) .

وحدثت فى تلك الآونة التى اشتدت فيها الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية ، فى أوائل عهد فيليب الثالث ، فى عدوة المغرب أحداث أخرى ، زادت فى توجس السياسة الإسبانية ، من مساعى الموريسكيين فى استعداء مسلمى إفريقية . وذلك أنه على أثر وفاة السلطان أحمد المنصور ملك المغرب فى سنة ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م) اضطرمت الحرب الأهلية بين أبنائه الثلاثة ، أبى عبد الله المأمون المعروف بالشيخ ، وكان ولى عهده الذى اختاره للملك من بعده ،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) استمرت غارات القراصنة فى البحر المتوسط طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت بعض الدول الأوربية تعمل على تشجيعها لمضايقة البعض الآخر ، والإضرار بتجارتها . ومنذ القرن السابع عشر تعمل انجلترا وهولندة وفرنسا على مقاومة هذه الحملات البحرية الجريئة والقضاء عليها ، وذلك بمهاجمة الشواطىء المغربية وتدمير ثغورها ، ولا سيما تونس والجزائر . على أنها لم تنقطع نهائياً إلا بعد أن غزت فرنسا الجزائر واستولت عليها فى سنة ١٨٣٠ .

وأبى فارس الملقب بالواثق بالله ، ومولاى زيدان . وكان أعيان فاس وعلماؤها ، قد بايعوا عقب وفاة المنصور ، لولده زيدان ، وبايع أهل مراكش لولده أبى فارس ولكن معركة نشبت بين زيدان وأخيه الشيخ ، انتهت بهزيمة زيدان ، واستيلاء الشيخ على فاس . ثم نشبت بعد ذلك بين الأبناء الثلاثة سلسلة من المعارك الأهلية المتوالية ، كانت سجالا بينهم ، وهزم خلالها مولاى زيدان غير مرة ، ودخل العاصمة مراكش غير مرة . واستمرت هذه الحرب الأهلية ، بضع سنوات (١٠١٢ — ١٠١٦ هـ) ، وانتهت آخر الأمر ، بانتصار مولاى زيدان واستيلائه على الملك ، ومقتل أخيه أبى فارس ، وفرار الشيخ فى أهله وولده . ولكن الشيخ لم يستكن للهزيمة ، بل فكر فى الاستنصار بالإسبان ، فعبر البحر مع أسرته وأمه الخيزران إلى اسبانيا ، واستغاث بملكها فيليب الثالث ، وتعهد بأن يقدم ثغر العرائش إلى اسبانيا نظير معاونته على استرداد عرشه . وكان ذلك فى أوائل سنة ١٦٠٨ (١٠١٧ هـ)[١] . وهنا أرسل الموريسكيون فى بلنسية ، رسلهم إلى مولاى زيدان ، يوضحون له سهولة غزو اسبانيا ومحاربتها ، وأنهم على استعداد لأن يقدموا له مائتى ألف مقاتل ، متى أقدم على الغزو واحتلال أحد الثغور الإسبانية الهامة ؛ ولكن السلطان زيدان لم يحفل بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يحارب خارج بلاده[٢] . واستجاب فيليب الثالث لدعوة الشيخ ، وأرسل معه بعض قواته وسفنه إلى شاطىء المغرب ، فنزل الشيخ وحلفاؤه الإسبان أولا فى حجر باديس ، غربى مليلة وذلك فى رمضان سنة ١٠١٩ هـ (أوائل سنة ١٦١٠م) ، ثم انتقل فى صحبه إلى قصر عبد الكريم (القصر الكبير) ، وبعث سرية من رجاله ، فقامت بإخلاء العرائش من أهلها المسلمين قسرا ، وبعد مقاومة عنيفة ، وسلمتها إلى الإسبان ، تحقيقاً لتعهد الشيخ . وحاول الشيخ أن يعتذر عن تصرفه بأن الإسبان ، احتجزوا أهله وولده ، وأنه فعل ذلك فى سبيل افتدائهم ، واستصدر فتوى بشرعية تصرفه من بعض العلماء . ولكن ذلك لم يغنه شيئاً ، واشتد السخط عليه ، وانفض عنه كثير من أنصاره . ثم سار الشيخ فى قواته إلى تطاون (تيطوان) ، وأخذ يعيث فسادا فى تلك المنطقة ، وما زال فى

---

(١) كتاب نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى لأبى عبد الله اليفرنى (طبع فاس) ص ١٦٢ — ١٦٧ ، وراجع الإستقصاء ج ٣ ص ١٠٢ .

(٢) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 289-290

مغامراته حتى تصدى له بعض زعماء غمارة وقتلوه على مقربة من تطاون ، وذلك فى رجب سنة ١٠٢٢ هـ (١٦١٣ م) ، وانتهى بذلك أمره ، وتوطد بذلك مركز مولاى زيدان ، وتمكن عرشه ، وإن كان قد لبث بعد ذلك حيناً فى مقارعة الخوارج عليه من أبناء الشيخ وغيرهم(١) . واستمر السلطان زيدان حتى وفاته فى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧ م) أعنى بعد نفى الموريسكيين بنحو تسعة عشر عاماً ، فى كفاح دائم مع اسبانيا . وحدث خلال هذا الكفاح ذات مرة فى سنة ١٦١٢ م ، أن غنمت السفن الإسبانية فى مياه المغرب على شاطىء الأطلنطى فيما بين آسفى وأغادير ، مركباً لمولاى زيدان شحنت بالتحف ، وبها ثلاث آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة(٢) ، وكان مولاى زيدان قد غادر مراكش تحت ضغط الحوادث ، وركب البحر ماتجئاً إلى الجنوب وحمل معه مكتبته الثمينة وتحفه ، فانتهبها الإسبان على هذا النحو ، وحملت هذه الكتب إلى اسبانيا ، وضمت فيما بعد إلى مجموعة الكتب الأندلسية بقصر الإسكوريال .

---

(١) نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ص ١٦٨ و١٦٩ . وراجع الاستقصاء ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) الإستقصاء ج ٣ ص ١٣٠ .

الفصل الثانى

مأســـاة النـــفى

قضية الموريسكيين مشكلة قومية لإسبانيا . استحالة العرب المتنصرين إلى شعب جديد . تشعب الآراء حول التخلص منهم . ولاية فيليب الثالث . مشروع دوق دى ليرما للقضاء على الموريسكيين . تقرير المطران ربيرا ومقترحاته . مجلس الدولة يبحث مشروع نفى الموريسكيين . مقترحات اللجنة الملكية . قرار مجلس الدولة . الإستعداد للتنفيذ . صدور مرسوم النفى النهائى . ما يحتويه المرسوم من الأحكام . موقف الموريسكيين . تظلم المدجنين . بدء التنفيذ فى بلنسية . الرحيل إلى وهران وتلمسان. المنفيون من لقنت . مقاومة الموريسكيين فى بعض الأنحاء . إعلان قرار النفى فى قشتالة . إحصاءات عن المنفيين . إعلان قرار النفى فى غرناطة . إعلانه فى باقى الجهات . تفرق المنفيين فى مختلف الثغور . الإعتداء على المنفيين . عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا . رواية موريسكية عن أحوال الموريسكيين وظروف النفى . رواية المقرى عن مأساة النفى . روايات عربية أخرى . آثار الموريسكيين الأخيرة فى اسبانيا .

تلك هى البواعث والظروف التى حملت اسبانيا النصرانية ، على التوجس من العرب المتنصرين ، واعتبارهم خطراً قومياً يجب العمل على درئه والتخلص منه . وكان هذا التوجس يزيد على كر الأعوام ، وتذكيه الحوادث المتوالية : ثورات الموريسكيين ولاسيما ثورة غرناطة الكبرى ، وغارات القراصنة على الشواطىء الإسبانية ، وصلات الموريسكيين الدائمة بمسلمى إفريقية وبلاط قسطنطينية ؛ وسواء أكان هذا الخطر حقيقياً يهدد سلامة اسبانيا ، أم كان للتحامل والبغض أثر فى تصويره ، فقد غدت قضية العرب المتنصرين ، غير بعيد فى نظر السياسة الإسبانية ، مشكلة قومية خطيرة يجب التذرع لمعالجتها بأشد الوسائل وأنجعها .

وكانت السياسة الإسبانية ، تعتزم منذ أواخر عهد فيليب الثانى ، أن تتخذ خطوتها الحاسمة ، فى شأن الموريسكيين . وكان هذا الملك المتعصب يعتزم نفى الموريسكيين بعد الذى عانته اسبانيا فى قمع ثورتهم ، ووضع بالفعل فى سنة ١٥٨٢ مشروعاً لنفيهم ، ولكن مشاغل السياسة الخارجية حالت دون تحقيق مشروعه . وكان قد مضى يومئذ زهاء قرن على سقوط غرناطة ، واستحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، لا تكاد تربطه بالماضى المجيد سوى ذكريات

غامضة . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والإرهاق ، نصارى يشهدون القداس فى الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل ، وأبت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها ، أن تضمهم إلى حظيرتها القومية . وكانت ما تزال ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية وغرناطة ، وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة ، وكانوا مايزالون رغم العسف والإرهاق ، والاضطهاد والتشريد والذلة ، قوة أدبية واجتماعية خطيرة ، وعنصراً بارزاً فى إنتاج اسبانيا القومى ، ولاسيما فى الصناعات والفنون . ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشاهم بالرغم من ضعفهم وخضوعهم ، بعد أن فشلت بوسائلها الهمجية البغيضة فى كسب محبتهم وولائهم . وكان ديوان التحقيق من جهة أخرى ، ومن ورائه الأحبار والكنيسة ، يعتبرهم بالرغم من تنصرهم ، أبدا وصمة فى نقاء النصرانية ، ويتصور الإسلام دائماً يجرى كالدم فى عروقهم .

وقد تضاربت آراء الساسة والأحبار الإسبان ، فى شأن الخطوة الحاسمة التى يجب اتخاذها ، للقضاء على خطر الموريسكيين . ورأى بعض أكابر الأحبار أن خطر الموريسكيين لا يزول إلا بالقضاء على الموريسكيين أنفسهم . وكان مما اقترحه المطران ربيرا أن يقضى عليهم بالرق ، وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل فى السفن ومناجم الهند ، حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة ، وذهب البعض الآخر إلى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة ، أو قتل البالغين منهم ، واسترقاق الباقين وبيعهم عبيداً ، وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثانى أن يجمع الموريكسيون ، ويحملوا على السفن ثم يغرقوا فى عرض البحر[1] . واستمرت السياسة الإسبانية حينا تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية ، حتى توفى فيليب الثانى (سنة ١٥٩٨) وخلفه ولده فيليب الثالث . وكان هذا الملك الفتى ، ضعيف الرأى والإرادة ، يتأثر كأبيه بنفوذ الأحبار ، ويخضع لوحى وزيره وصفيه الدوق دى ليرما . وكان الدوق من أشد أنصار فكرة القضاء على الموريسكيين ، وقد أشار بها منذ سنة ١٥٩٩ ، ووضع لتنفيذها مشروعاً ، خلاصته أن الموريسكيين إنما هم عرب ، ويجب أن يعدم الشبان والكهول منهم ، ما بين الخامسة عشرة والستين ، أو أن يسترقوا ويرسلوا للعمل فى السفن ، وتنزع أملاكهم . أما الرجال والنساء الذين جاوزوا الستين ،

(١) Dr. Lea : The Moriscos, p. 296-299

فينفوا إلى المغرب ، وأما الأطفال فيؤخذوا ويربوا فى المعاهد الدينية ، وهو مشروع أقره مجلس الدولة ، وأخذ يعمل سراً لحشد القوى اللازمة لحصر عدد الموريسكيين فى اسبانيا .

وفى سنة ١٦٠١ قدم المطران ربيرا إلى الملك ، تقريراً يقول فيه إن الدين هو دعامة المملكة الإسبانية ، « وإن الموريسكيين لا يعترفون ، ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ، ولا يأكلون لحم الخنزير ، ولا يشربون النبيذ ، ولايعملون شيئاً من الأمور التى يعملها النصارى » ثم يوضح الأسباب التى تدعو إلى عدم الثقة فى ولائهم بقوله : « إن هذا المروق العام لا يرجع إلى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع إلى العزم الراسخ فى أن يبقوا مسلمين ، كما كان آباؤهم وأجدادهم ، ويعرف المحققون العامون أن الموريسكيين بعد أن يعتقلوا عامين وثلاثة وتشرح لهم العقيدة فى كل مناسبة ، يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها . والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة ، لأنهم لا يريدون معرفتها ، ولأنهم لا يريدون أن يعملوا شيئاً يجعلهم يبدون نصارى »(١) ، ثم يقول المطران فى تقرير آخر ، إن الموريسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل ، وإن كل وسيلة للرفق بهم قد فشلت ، وإن اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها ، إلى أخطار كثيرة ، وتتكبد فى رقابتهم ، والسهر على حركاتهم ، وإخماد ثوراتهم ، كثيراً من الرجال والمال . ثم يقترح أن تؤلف محكمة سرية من الأحبار ، تقضى بردة الموريسكيين وخيانتهم ، ثم تحكم علناً بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، وأنه لا ضير على الملك فى ذلك ولا حرج . ولكن مشروع المطران لم ينفذ ، لأن مجلس الدولة كان يرى أن يسير فى تحقيق غايته سراً ، وألا تصطبغ إجراءاته فى ذلك بالصبغة الدينية .

ومضت بضعة أعوام أخرى ، والفكرة تبحث وتختمر وتتوطد ، حتى كانت حوادث المغرب فى أواخر سنة ١٦٠٧ ، وما نسب للموريسكيين من صلة بمولاى زيدان ومشاريعه لغزو اسبانيا ، وعزمهم على الثورة . عندئذ بادر مجلس الدولة بالاجتماع فى أواخر يناير سنة ١٦٠٨ ، واستعرضت جميع الآراء والمشاريع السابقة ، وبحثت جميع الاقتراحات ؛ وكرر المطران ربيرا اقتراحه بوجوب نفى الموريسكيين إلى المغرب ، وقال بأن النفى أرفق ما يمكن عمله ، وأيد رأيه معظم الأعضاء الآخرين وذكروا أن نفى الموريسكيين أصبح ضرورة لا مفر منها ، لأنهم يتكاثرون بسرعة ،

---

(١) P. Longás : Vida Religiosa de los Moriscos ; p. LXVIII

بينما يتناقص عدد النصارى القدماء . وبحثت تفاصيل المشروع ووسائله، وما يجب اتخاذه من التحوطات لضمان تنفيذه ، خصوصاً وقد بدأت أنباء المشروع تتسرب إلى الموريسكيين ، وظهرت بينهم أعراض الهياج فى سرقسطة وبلنسية . وكانت الخطوة التالية أن عُهد بدرس المشكل كله ، إلى لجنة خاصة على رأسها الدوق دى ليرما ، ووضعت هذه اللجنة أسس المشروع التمهيدية بعد كبير جدل ؛ وخلاصتها أن يمنح الموريسكيون شهراً لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا إلى حيث شاءوا ، فمن جاز منهم إلى إفريقية منح السفر الأمين، ومن جاز إلى أرض نصرانية أوصى به خيراً ، ومن تخلف عن الرحيل بعد انقضاء هذه المدة ، عوقب بالموت والمصادرة ؛ ولم يعترض أحد على هذه الأسس فى ذاتها ، على أن هذه الأسس الرفيقة نوعاً لم يؤخذ بها .

وفى يناير سنة ١٦٠٩ بحث مجلس الدولة المسألة لآخر مرة ، وقدم تقريراً ينصح فيه بوجوب نفى الموريسكيين ، لأسباب دينية وسياسية فصلها ، وأهمها تعرض اسبانيا يومئذ لخطر الغزو من مراكش وغيرها ، وقيام الأدلة على أن الموريسكيين جميعاً خونة مارقون، يستحقون الموت والرق، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق بهم، وتكتفى بنفيهم من أراضيها . وتقرر أن ينفذ المشروع كله فى خريف هذا العام ، وأرسلت الأوامر إلى حكام صقلية ونابولى وميلان، بإعداد جميع السفن الممكنة لنقل الموريسكيين ، وجميع القوات اللازمة لحراستهم، واجتمعت منذ أوائل الصيف فى مياه ميورقة ، عشرات من السفن المطلوبة ، وسارت أهبة التنفيذ بسرعة ونشاط .

وهكذا انتهت السياسة الإسبانية بعد فترة من التردد، إلى اتخاذ خطوتها الحاسمة فى القضاء على البقية الباقية من الموريسكيين ، وتحقيق أمنيتها القديمة ، فى « تطهير » اسبانيا نهائياً من آثار الإسلام وآثار العرب ، ومحو تلك الصفحة الأخيرة لشعب عظيم تالد .

— ٢ —

وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ أعلن قرار (مرسوم) النفى النهائى للموريسكيين أو العرب المتنصرين ، فساد بينهم الروع والاضطراب ، وإليك نصوص هذا القرار الشهير فى صحف المآسى والاستشهاد :

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين ، واتصالهم بأعداء اسبانيا ، وإخفاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم ، وضمان ولائهم ، وما استقر عليه رأى الملك من نفيهم جميعاً إلى بلاد البربر (المغرب) . وبناء على ذلك فإنه يجب على جميع

الموريسكيين من الجنسين ، أن يرحلوا مع أولادهم، فى ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى إلى الثغور التى يعينها لهم مأمورو الحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ؛ وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم إلى بلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة بإطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن، وأنه يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الأيام الثلاثة فى أماكنهم رهن إشارة المأمورين، ومن وجد متجولا بعد ذلك يكون عرضة للنهب والمحاكمة ، أو الإعدام فى حالة المقاومة . وقد منح الملك السادة كل الأملاك العقارية والأمتعة الشخصية التى لم تحمل ، فإذا عمد أحد إلى إخفاء الأمتعة أو دفنها ، أو أضرم النار فى المنازل أو المحاصيل ، عوقب جميع سكان الناحية بالموت . ونص القرار على استبقاء ستة فى المائة فقط من الموريسكيين للانتفاع بهم فى صون المنازل ، والعناية بمعامل السكر ، ومحصول الأرز ، وتنظيم الرى ، وإرشاد السكان الجدد ، وهؤلاء يختارهم السادة ، من بين الأسر الأكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية . أما الأطفال فإذا كانوا دون الرابعة ، فإنه يسمح لهم بالبقاء إذا شاءوا (كذا) ورضى آباؤهم أو أولياؤهم ، وإذا كانوا دون السادسة ، سمح لهم بالبقاء إذا كانوا من أبناء النصارى القدماء ، (أعنى من غير العرب المتنصرين) ، وسمح كذلك بالبقاء لأمهم الموريسكية ؛ فإذا كان الأب موريسكياً والأم نصرانية أصيلة ، نفى الأب وبقى الأولاد الذين دون السادسة مع أمهم . كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصارى مدى عامين ، ولم يختلطوا « بالجماعة » إذا زكاهم القسس . وحظر القرار إخفاء الهاربين أو حمايتهم . ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة لمدة ستة أعوام . كذلك حظر على الجنود والنصارى القدماء ، أن يتعرضوا للموريسكيين أو يهينوهم بالقول أو الفعل ، وهدد المخالفون بالعقاب الصارم . وأخيراً نص على السماح لعشرة من الموريسكيين بالعودة عقب كل نقلة ، لكى يشرحوا لإخوانهم كيف تم النقل إلى المغرب على أحسن حال .

وقع قرار النفى على الموريسكيين وقع الصاعقة ، وسادهم الوجوم والذهول . وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى ، ونهكت قواهم ، ونضبت مواردهم. وكانت الحكومة الإسبانية قد اتخذت عدتها للطوارىء ، وحشدت قواتها فى جميع الأنحاء الموريسكية ، واجتمع زعماء الموريسكيين وفقهاؤهم فى بلنسية ، وقرروا أنه لا أمل فى المقاومة وأنه لا مناص من الخضوع ، واستقر الرأى على أن يرحلوا جميعاً ، وألا

يبقى منهم أحد ، حتى ولا نسبة الستة فى المائة التى سمح ببقائها ، وأن من بقى منهم اعتبر مرتداً مارقاً . ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية ، وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة فى المناطق الجبلية للمقاومة ، وعاثت فى الأنحاء المجاورة ، ولكنها كانت فورة المحتضر ، فأخمدت حركاتهم بسرعة وقتل منهم عدد جم .

وتظلم كثير من المدجنين من قرار النفى ، وقالوا إنهم اعتنقوا النصرانية طوعاً قبل التنصير الإجبارى ، وغدوا نصارى واسبانيين قبل كل شىء ، فصدر الأمر إلى الأساقفة ببحث ظلاماتهم ، وأن يسمح بالبقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والإخلاص(١) .

أما الكثرة الساحقة من الموريسكيين فقد هرعت إلى اتخاذ أهبة الرحيل ، وأخذوا فى بيع ما تيسر بيعه من المتاع ، وتدفقت السلع على الأسواق ، من الماشية والحبوب والسكر والعسل والملابس والأثاث وغيرها ، لتباع بأبخس الأثمان . وبدئ بتنفيذ قرار النفى فى الجهات التى نشر فيها أولا ، وهى أعمال بلنسية منذ أوائل أكتوبر (سنة ١٦٠٩) . وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة ، وقدرت بثمانية وعشرين ألف نفس ، حملوا إلى ثغر وهران فى الضفة الأخرى من البحر ، وقد كان يومئذ بيد الإسبان ، ثم نقلوا إلى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، وهناك استظلوا بحماية السلطان ؛ وعاد البعض منهم إلى اسبانيا ليروى عن رحيل الراحلين ، وكيف وصلوا فى أمن وسلام . ومع ذلك فقد آثر معظم المهاجرين السفر بأجر ، على سفن غير التى عينتها الحكومة ، لنقل المهاجرين وإطعامهم دون أجر ؛ واضطرت الحكومة تلقاء ذلك ، أن تستدعى عدداً كبيراً من السفن الحرة ، إلى مياه بلنسية ؛ ورحل بهذه الطريقة من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألفا ، معظمهم من الموسرين والمتوسطين ؛ ورحل المنفيون من ثغر لقنت على عزف الموسيقى ونشيد الأغانى ، وهم يشكرون الله على العود إلى أرض الآباء والأجداد ؛ ولما سئل فقيه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، أجاب بأنهم كثيراً ماسعوا إلى شراء قارب أو سرقته ، للفرار إلى المغرب ، مستهدفين لكثير من المخاطر ، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الأمين مجاناً ، لاننتهزها للعود إلى أرض الأجداد ، حيث نستظل بحماية سلطاننا ، سلطان الترك ، وهنالك نعيش أحراراً مسلمين لا عبيداً كما كنا ؟

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; Vol. III. p. 399

الملك فيليب الثالث

عن صورة بلاثكيث المحفوظة بمتحف البرادو بمدريد ، وفيها يبدو أحمر الشعر واللحية والشارب ، فوق جواد أشهب

وكانت الجنود تحرس المنفيين فى معظم الأحوال، حماية لهم من جشع النصارى الإسبان الذين انتظموا فى عصابات لمهاجمة المنفيين ونهبهم وقتلهم أحياناً. وفضلا عن ذلك فإن تنفيذ قرار النفى لم يجر دائماً فى يسر وسهولة، فقد رأينا أن كثيراً من الموريسكيين فى المناطق الجبلية أبوا الخضوع للأوامر لعدم ثقتهم فى ولاء الحكومة، وفضلوا المقاومة حتى الموت، واحتشدوا بالأخص فى « وادى أجوار » حيث اجتمع منهم زهاء خمسة عشر ألفاً، وفى مويلا دى كورتيس حيث اجتمع نحو تسعة آلاف فبادرت قوات الحكومة بمحاصرة وادى أجوار وفتكت بالموريسكيين العزل، وقتلت منهم بضعة آلاف، ومات كثير منهم من الجوع والبرد. وأخيراً سلم من بقى منهم وحملوا قسراً إلى ميناء السفر، وسبى الجند منهم كثيراً من النساء والأطفال، باعوهم رقيقاً، ولم يصل منهم إلى شواطىء المغرب سوى القليل، وفى مويلا دى كورتيس لم يبق منهم عند الإبحار سوى ثلاثة آلاف؛ ولبثت فلولهم تقاوم مستميتة، وتبث الاضطراب نحو عام حتى قضى عليها(١).

وصدر قرار النفى فى قشتالة فى ١٥ سبتمبر سنة ١٦٠٩. ولكن أجل تنفيذه حتى ينفذ أولا فى بلنسية، ولم ينفذ بالفعل إلا فى أواخر ديسمبر، ومنح الموريسكيون فيه شهراً للسفر بنفس الشروط التى تضمنها قرار النفى فى الأندلس؛ وسافر منهم فى اتجاه الشمال إلى حدود فرنسا نحو أربعة آلاف عائلة، وسافر إلى قرطاجنة نحو عشرة آلاف بحجة السفر إلى الأراضى النصرانية، وذلك لكى يحتفظوا بأولادهم الصغار، ولكن تسرب الكثير منهم إلى الثغور المغربية.

وبلغ عدد المنفيين فى الثلاثة أشهر الأولى زهاء مائة وخمسين ألفاً، وسافر منهم ألوف كثيرة من الأغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة، وقصدت جموع كثيرة من الموريسكيين فى أراجون قدرت بنحو خمسة وعشرين ألفاً، إلى ولاية ناڤار الفرنسية، ودخل فرنسا من قشتالة نحو سبعة عشر ألفاً، وسمح لهم هنرى الرابع ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الجارون، بشرط بقائهم على دين الكثلكة، وأن تهيىء السفن لمن أراد السفر منهم إلى شواطىء المغرب.

أما فى غرناطة وأنحاء الأندلس، فقد أعلن قرار النفى فى ١٢ يناير سنة ١٦١٠ بعد أن عدلت بعض أحكامه، وفيه تمنح الموريسكيون للرحيل ثلاثين يوماً، ويباح لهم أن يبيعوا سائر أملاكهم المنقولة وأخذ ثمنها، على أن يقتنى به عروض أو بضائع

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition ; Vol. III. p. 397 & 398

اسبانية ، ولايسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقد أو الذهب أو الحلى ، إلا ما يكفى نفقات الرحلة بالبر والبحر. وأما الأملاك العقارية فتصادر لجهة العرش . وقد استقبل الموريسكيون فى الأندلس قرار النفى بالاستبشار والرضى ، ويقدر من نزح منهم إلى المغرب ، سواء على سفن الحكومة أوالسفن الحرة ، بنحو مائة ألف نفس ، وقد نزح معظمهم إلى مراكش .

ثم توالى إعلان قرار النفى ، فى جميع الجهات التى تضم مجتمعات موريسكية ، فى سائر أنحاء المملكة الإسبانية . فى قطلونية وأراجون فى مايو سنة ١٦١٠ ، ثم فى إشبيلية وإسترمادوره ، ثم فى مرسية وغيرها . وتأخر تنفيذه فى مرسية نحو أربعة أعوام حتى يناير سنة ١٦١٤ ، وخرج من مرسية زهاء خمسة عشر ألفاً ، واتجهت جموع كثيرة من الشمال إلى الثغور الجنوبية .

واتجهت بعض الجماعات منهم إلى الثغور الإيطالية مباشرة ، أو عن طريق فرنسا ، ومنها أبحرت إلى مصر والشأم وقسطنطينية(١) . وبلغ السلطان أحمد سلطان الترك ، ما أصاب الكثير منهم فى أرض فرنسا من الاعتداء والنهب ، فأرسل إلى ملكتها (وهى يومئذ مارى دى مديتشى الوصية على ولدها لويس الثالث عشر) يحتج على هذا الإيذاء ، ويطلب حماية المنفيين(٢) . وكان بين هؤلاء الذين اتجهوا نحو المشرق ، بعض طوائف اليهود الأندلسيين ، ولاسيما طائفة « الحسديم » التى ما زالت تقيم حتى اليوم فى قسطنطينية ، ويقيم بعضها فى مصر .

ونفذ قرار النفى فى كل مكان بصرامة ووحشية ،واستمرت السفن شهوراً بل أعواماً تحمل أكداساً من تلك الكتلة البشرية المعذبة ، فتلقى بها هنا ، وهنالك ، فى مختلف الثغور الإفريقية ، فى غمر من المناظر المروعة المفجعة .

وقد رويت روايات كثيرة محزنة عن مصير بعض جماعات المنفيين ، فإن الذين نزلوا منهم فى وهران ليسيروا منها إلى داخل البلاد المغربية ، اعتدت عليهم بعض العصابات الناهبة ، لما كان معروفاً من أنهم يحملون أموالا وحلياً نفيسة ، وسبى كثير من نسائهم . وقد كان منهم فى الواقع كثير من الأغنياء والأشراف القدماء ، ولاسيما من أهل إشبيلية ، وكتب الكونت أجيلار حاكم وهران ، أن كثيرين منهم بقوا فى وهران ، خوفاً من اعتداء الأعراب ، وقيل إن ثلثى القادمين إلى وهران

(١) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .
(٢) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 364

أوأكثر من ذلك ، هلكوا من المرض أو نتيجة الاعتداء ، ومن ثم فإن كثيرين منهم عادوا إلى اسبانيا ، والتمسوا إلى السلطات أن يبقوا نصارى وأن يكونوا عبيداً . وقد ألفى هؤلاء بعض الأسر التى قبلت استرقاقهم ، واعترض على ذلك رجال الدين ، وصدرت الأوامر برفض نزولهم إلى الشواطىء الإسبانية ؛ ولكن كثيرين تسربوا إلى أنحاء بلنسية وغيرها ، وبقوا فى اسبانيا رغم جميع الجهود التى بذلت لإخراجهم(١) .

وقد اختلف المؤرخون أيما اختلاف ، فى تقدير عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا تطبيقاً لقرار النفى ، ويقول نافاريتى وهو من أعظم مؤرخى اسبانيا ، إنه قد نفى من اسبانيا فى مختلف العصور ، نحو مليونين من اليهود ، وثلاثة ملايين من الموريسكيين . ويقدر آخرون المنفيين من الموريسكيين بأربعمائة ألف أوتسعمائة ألف ، ويقدرهم دون لورنتى مؤرخ «ديوان التحقيق» بمليون ، ويقدرهم المستشرق فون هامار بثلاثمائة ألف وعشرة آلاف . وفى الرواية العربية الموريسكية التى نثبتها فيما بعد ، يقدر عدد المنفيين الموريسكيين بستمائة ألف ، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن عدد من نفى من الموريسكيين لا يمكن أن يتجاوز هذا القدر ، وقد كان مجموعهم فى أواخر القرن السادس عشر لا يتجاوز ستمائة ألف حسبما قدمنا . ويقدر من هلك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء مأساة النفى بنحو مائة ألف نفس(٢) .

وقد عاد معظم الموريسكيين ، الذين نفوا إلى إفريقية والمشرق ، إلى الإسلام دين الآباء والأجداد ، ولم تخمد مائة عام من التنصير المغصوب ، والإرهاق المستمر جذوة الإسلام فى نفوسهم ، وقد لبث على كر العصور متغلغلا فى أعماق سرائرهم .

وبذلك ينتهى الفصل الأخير من مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وتطوى إلى الأبد صفحة شعب ، من أنبل وأمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أزهر الحضارات .

— ٣ —

وتقدم إلينا الرواية الغربية ، تفاصيل ضافية عن مأساة الموريسكيين ، منذ بدايتها إلى نهايتها ، وتخصها بكثير من التعليق والنقد . ولكن الرواية الإسلامية مقلة فى هذا الموطن ، شأنها فى تاريخ الأندلس منذ سقوط غرناطة ، فهى لا تعنى بتتبع

(١) Lea : The Moriscos ; p. 363 & 364 . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) راجع : Lea : The Moriscos ; p. 259

مصير العرب المتنصرين ، كما تعنى الرواية الغربية ، ولا تقدم إلينا عن مأساة النفى سوى بعض الشذور والإشارات الموجزة .

وأهم وأوفى ما وقفنا عليه من ذلك ، رواية معاصرة عن أحوال الموريسكيين ، ومساعيهم السرية للمحافظة على دينهم ، وظروف نفيهم ، كتبها موريسكى عاش فى جيان وغيرها من قواعد الأندلس الجنوبية فى أواخر عهد الموريسكيين ، ثم هاجر إلى تونس قبيل النفى بقليل ، وكتب فيما بعد بالعربية كتابا عنوانه : « الأنوار النبوية فى آباء خير البرية » ، يتحدث فى نهايته فى فصل خاص عن الموريسكيين المهاجرين ، وشرف نسبهم ، وينوه بحسن إيمانهم وتمسكهم بالإسلام دين آبائهم وأجدادهم ، ووردت خلال هذا الفصل حقائق تاريخية هامة ، عن النفى وأسبابه وملابساته . وقد رأينا أن ننقله فيما يلى :(١)

« قد كثر الإنكار علينا معشر أشراف الأندلس من كثير من إخواننا فى الله بهذه الديار الإفريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله تعالى ، بقولهم من أبن لهم هذا الشرف ، وقد كانوا ببلاد الكفار ، دمرهم الله ، ولهم مئون من السنين كذا وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الإسلام وقد اختلطوا مع النصارى ، أبعدهم الله تعالى ، إلى غير ذلك من الكلام الذى لا نطيل به ولا أذكره هنا صونا لعرضهم وحيى فيهم .

« مع أنى صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالإسلام وأهله بجاه النبى المختار فقد أطلعنى الله تعالى على دين الإسلام بواسطة والدى رحمة الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل ، مع أنى كنت إذ ذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ، ثم أرجع إلى بيتى فيعلمنى والدى دين الإسلام ، فكنت أتعلم فيهما معاً ، وسنى حين حملت إلى مكتبهم أربعة أعوام . فأخذ والدى لوحاً من عود الجوز كأنى أنظر الآن اليها مملسا ، فكتب لى فيه حروف الهجاء وهو يسألنى حرفاً حرفاً

(١) مؤلف هذا الكتاب هو حسبما ورد فى نسخته المخطوطة ، محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسينى الجعفرى الأندلسى ، المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ (١٦٥٢ م) ، أعنى بعد نفى الموريسكيين باثنتين وأربعين عاما . وتوجد هذه النسخة الوحيدة منه بخزانة الرباط بالمكتبة الكتانية رقم 1238 ، ومذكور فى نهاية الكتاب ، أنه قد تم تحريره بحضرة تونس سادس شعبان سنة ١٠٤٤ هـ (١٦٤٤ م) . ويشغل الفصل الخاص بأحوال الموريسكيين فيه من ص ٣١٩ إلى ص ٣٣٦ . وقد نقل هذا الفصل الشاعر المغربى محمد بوجندار مع بعض التصرف فى كتابه المسمى « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » (الرباط ١٣٤٥ هـ) ص ٢٠٠ — ٢١٤ .

عن حروف النصارى تدريباً وتقريباً ، فإذا سميت له حرفاً أعجمياً كتب لى حرفاً عربياً ، فيقول حينئذ هكذا حروفنا ، حتى أستوفى لى جميع حروف الهجاء فى كرتين ؛ فلما فرغ من الكرة الأولى ، أوصانى أن أكتم ذلك حتى عن والدتى وعمى وأخى ، وجميع قرابتنا ، وأمرنى أن لا أخبر أحداً من الخلق . وشدد على الوصية ، وصار يرسل والدتى التى تسئلنى ما الذى يعلمك والدك فأقول لها لا شئ . وكذا كان يفعل عمى وأنا أنكر أشد الإنكار . ثم أروح إلى مكتب النصارى وآتى إلى الدار فيعلمنى والدى إلى أن مضت مدة .

« وقد كان والدى رحمه الله ، يلقننى حينئذ ماكنت أقوله حين رؤيتى للأصنام ... فلما تحقق والدى أنى أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب فضلا عن الأجانب ، أمرنى أن أتكلم بإفشائه لوالدتى وعمى ، وبعض أصحابه الأصدقاء فقط ، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون فى أمر الدين ، وأنا أسمع . فلما رأى حزمى مع صغر سنى ، فرح كثيراً غاية ، وعرفنى بأصدقائه وأحبائه وإخوانه فى دين الإسلام ، فاجتمعت بهم واحدا واحدا ، وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار ، من جيان ، مدينة ابن مالك ، إلى غرناطة ، وإلى قرطبة وإشبيلية ، وطليطلة ، وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، أعادها الله تعالى للإسلام ، فتلخص لى من معرفتهم أنى ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدثونى بأمور غرناطة وماكان بها فى الإسلام حينئذ ، فباجتماعى بهم حصل لى خير كثير ، وقد قرأوا كلهم على شيخ من مشايخ غرناطة ، أعادها الله للإسلام ، يقال له الفقيه اللوطورى رحمه الله تعالى ونفعنا به ، فإنه كان رجلا صالحاً ، ولياً لله ، فاضلا زاهداً ، ورعاً ، عارفاً سالكاً ، ذا مناقب ظاهرة مشهورة ، وكرامات طاهرة مأثورة ، قد قرأ القرآن الكريم فى مكتب الإسلام بغرناطة ، قبل استيلاء أعداء الدين عليها ، وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلا حسب الإمكان . ثم بعد مدة يسيرة ، انتزعت غرناطة من أيدى المسلمين أجدادنا ، وقد أذن العدو فى ركوب البحر والخروج منها لمن أراده ، وبيع ماعنده ، وإتيانه لهذه الديار الإسلامية وذلك فى مدة ثلاثة أعوام ، ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها ، وإلزامات كتبها عدو الدين على أهل الإسلام . فلما تحركوا لذلك أجدادنا ، وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ، ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز إلى هذه الديار التونسية ، والحضرة الخضراء بغتة من جاز إليها حينئذ ، ودخلوا فى زقاق

الأندلس المعروف الآن بهذا الاسم ، وذلك سنة اثنين وتسعمائة ، وكذا للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدو العزم فيهم لذلك ، نقض العهد ، فردهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ، ومنعهم قهراً عن الخروج واللحوق بإخوانهم ، وقرابتهم بديار الإسلام ، وقد كان العدو يظهر شيئاً ، ويفعل بهم شيئاً آخر ، مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً ملوك الإسلام ، كملك فاس ومصر حينئذ ، فلم يقع من أحدهما إلا بعض مراسلات ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

« ثم بقى العدو يحتال بالكفر عليهم غصباً ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الإسلامى ، والجماعات ، والحمامات ، والمعاملات الإسلامية ، شيئاً فشيئاً ، مع شدة امتناعهم والقيام عليه مرار ، وقتالهم إياه ، إلى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق من علمه ، فبقينا بين أظهرهم ، وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه إمارة الإسلام ، ويعذبه بأنواع العذاب ، فكم أحرقوا ، وكم عذبوا ، وكم نفوا من بلادهم ، وضيعوا من مسلم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه ، وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك سنة ثلاثة عشرة وألف ، فخرج منا بعض للمغرب ، وبعض للمشرق خفية ، مظهراً دين الكفار أبعدهم الله ، فخرج بعض أحبابنا وإخواننا وهو الفقيه الأجل محمد أبو العباس أحمد الحنفى ، المعروف بعبد العزيز القرشى ، ومعه أحد أخواله ، إلى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد بن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم ، فأخبراه بما حل بإخواننا بالأندلس من الشدة بفرانسة وغيرها ، فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله ، بإعلام السلطان نصره الله ، يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالأندلس وخدام آل عثمان ، ويوجههم إليه فى سفن من عنده مع ما يحتاجون إليه . فلما قرىء الأمر السلطانى فى ديوان الفرنسيس ، فسمعه من كان عنده مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فيليبو الثالث ، فأرسل لسيده ، يخبره بالواقع ، وأن السلطان أحمد آل عثمان ، أرسل أمره إلى فرانسة ، وأمر صاحبها أن يخرج من كان عنده من الأندلس ، فقبل كلامه ، وأمر بإخراج المسلمين ، وأذن لمن جاء من الأندلس بأن لا بأس عليهم ، وأن يركبوا عنده فى سواحله مراكبه ، ويبلغهم إلى حيث شاءوا من بلاد المسلمين . فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب إسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد ، وأمر حينئذ فجمع أكابر

القسيسين والرهبان والبطارقة ، وطلب منهم الرأى ، وما يكون عليه العمل فى شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة ، فبدا الشأن فى أهل بلنسية ، فأخذوا الرأى ، وأجمعوا كلهم على إخراج المسلمين كافة من مملكته ، وأعطاهم السفن ، وكتب أوامر وشروطاً فى شأنهم ، وفى كيفية إخراجهم ، وشدد على عماله بالوصية ، والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها ، وترجمتها ، من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله، فى أوامره، التى كتبها فى شأن إخواننا الأندلس حين إخراجهم من الجزيرة الخضراء ، لتكون على بصيرة من أمرهم ، وتعلم بعض الأسباب التى أخرجوا لأجلها على التحقيق ، لا كما يزعم بعض الحاسدين، وليؤيد ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحمد آل عثمان، وتكمل الفايدة ، ولئلا يساء الظن بنا معشر الأندلس

« قال الملك الكافر ، أبعده الله تعالى وزلزله آمين : لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لإخراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية ، فى مملكتها التى تعيش عيشاً رغداً صالحاً ، والتجربة أظهرت لنا عياناً ، أن الأندلس الذين هم متولدون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى ، بقيامهم علينا ، وقتلهم أكابر مملكتنا ، والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم، وقطعهم لحومهم ، وتمزيقهم أعضاءهم ، وتعذيبهم إياهم بأنواع العذاب ، الذى لم يسمع فيما تقدم مثله ، مع عدم توبتهم فيما فعلوه ، وعدم رجوعهم رجوعاً صالحاً من قلوبهم ، لدين النصرانية ، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ، ورأينا عيانا أن كثيراً منهم قد أحرقوا بالنار ، لاستمرارهم على دين المسلمين ، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية ، واستنجادهم كذلك عون السلطان العثمانى ، لينصرهم علينا، وظهر لى أن بينهم وبينه مراسلات إسلامية ، ومعاملات دينية ، وقد تيقنت ذلك من إخبارات صادقة وصلت إلى . ومع هذا أن أحداً منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يدبرونه فى هذه المدة بينهم ، وفيما سبق من السنين ، بل كتموه بينهم ؛ علمت بذلك أن كلهم قد اتفقوا على رأى واحد ، ودين واحد ، ونيتهم واحدة ؛ وظهر لى أيضاً ، ولأرباب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر واستشرت ، مع أن من ابقائهم بيننا ينشأ عنه فساد كبير ، وهول شديد بسلطنتنا ، وأن بإخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشىء من إبقائهم بمملكتى ، أردت إخراجهم من سلطنتنا جملة ، ليزول بذلك الكدر الواقع ، والمتوقع للنصارى

الذين هم رعيتنا ، طائعين لأوامرنا وديننا ، ورميتهم إلى بلاد المسلمين أمثالهم ، لكونهم مسلمين. انتهى المراد بأكثر لفظه ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودققها.

« فانظر رحمك الله ، كيف شهد عدو الدين، الملك الكافر ، بأنهم مسلمون ، واعترف أنه لم يقدر على إزالة دينهم من قلوبهم ، وأنهم متمسكون كلهم به ؛ مع أنه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرؤيته فيهم لوائح المسلمين وإماراتهم ، فأى علامة أكبر من صبرهم على النار لدين الحق ، ومن استنجادهم ملك دين الإسلام المؤيد لحماية الدين ، أمير المسلمين السلطان أحمد آل عثمان نصرهم الله تعالى ، فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التى قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدى أبو الغيث القشاش نفعنا الله به دنيا وأخرى فى بعض مكاتبه التى كان يكاتبهم بها ، فقال لى وسلم على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار فإنه لا يحبكم إلا مؤمن ولا يبغضكم إلا منافق .

« فخرجوا كلهم سنة تسعة عشر وألف . ووجد فى دفاتر السلطان الكافر ، أبعده الله تعالى ، أن جملة من أخرج من أهل الأندلس كافة ، نيف وستمائة ألف نسمة ، كبيراً وصغيراً . فكانت هذه الواقعة ، منقبة عظيمة ، وفضيلة عجيبة ، لجماعتنا الأندلس زادهم الله شرفاً بمنه . وأمر أيضاً بإخراج من كان مسجوناً فى كافة مملكته ، وكل من كان أمر بإحراقه فأخرجه، وعفا عنه، وزوده وأرسله إلى بلاد الإسلام سالماً . ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ، ومحال عادة ، فسبحان رب السموات ورب الأرض الذى إذا أراد أمراً قال له كن فيكون . فيالها من أعجوبة ما أعظمها، ومن فضيلة ما أشرفها، ومن كرامة ما أجملها، ومن نعمة ما أكبرها ، فما سمع من أول الدنيا إلى آخرها مثل هذه الواقعة » .

* * *

وقد صدر قرار النفى كما قدمنا فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ ، وهو يوافق جمادى الثانية سنة ١٠١٨ هـ . ولكن الرواية الإسلامية تضع تاريخ القرار أحياناً فى سنة ١٠١٦ هـ أو ١٠١٧ هـ ، وهو تحريف واضح . وأقرب إلى الصحة ، ما ذكره ابن عبد الرفيع فى روايته المتقدمة وهو سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) .

قال المقرى مؤرخ الأندلس ، وقد كان معاصراً للمأساة : « إلى أن كان إخراج النصارى إياهم (أى العرب المتنصرين) بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشرة وألف فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس

فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى فى الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المضرة . وأما الذين خرجوا بنواحى تونس ، فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرا جراراً وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد فى البحر ، ماهو مشهور الآن . وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الآن بهذه الحال . ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى ، وإلى مصر والشأم وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت »[1] .

وقال ابن دينار التونسى ، وقد كتب بعد المأساة بنحو سبعين عاماً ، فى أخبار سنة ١٠١٧ هـ : « وفى هذه السنة والتى تليها ، جاءت الأندلس من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب إسبانية ، وكانوا خلقاً كثيراً ، فأوسع لهم عثمان داى فى البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا ، فاشتروا الهناشير وبنوا فيها ، واتسعوا فى البلاد ، فعمرت بهم ، واستوطنوا فى عدة أماكن ، وعمروا نحو عشرين بلداً ، وصارت لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرقات ، وصاروا يعتبرون من أهل البلاد »[2] .

وقال صاحب « الخلاصة النقية » ، وهو من الكتاب المتأخرين : « وفى سنة ست عشرة وألف ، قدمت الأمم الجالية من جزيرة الأندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داى كنفه ، وأباح لهم بناء القرى فى مملكته ، فبنوا نحو العشرين قرية ، واغتبط بهم أهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم »[3] .

وهذه النصوص الموجزة ، هى كل ما تقدم إلينا الرواية الإسلامية عن نفى العرب المتنصرين ، وقد لبثت رواية المقرى عن المأساة ، مصدراً لكل ماكتبه الكتاب المتأخرون[4] . وربما كان هذا النقص راجعاً إلى أنه لم يعن أحد من كتاب المغرب المعاصرين ، باستيفاء التفاصيل الضافية المؤثرة عن المأساة ، أولعله قد ضاع ماكتبه المعاصرون عنها فيما ضاع ، مما كتب عن المراحل الأخيرة لتاريخ الأندلس

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس (تونس) ص ١٩٣ .

(٣) الخلاصة النقية (تونس) ص ٩١ .

(٤) راجع الإستقصا ج ٣ ص ١٠١ ، حيث تنقل هذه النصوص .

والعرب المتنصرين ، ولم تصلنا منه على يد المقرى سوى لمحات يسيرة .

وهكذا بذلت اسبانيا كل ما وسعت لإخراج البقية الباقية ، من فلول الأمة الأندلسية ، ولم تدخر وسيلة بشرية للقضاء على آثار الموريسكيين إلا اتخذتها . ومع ذلك فإن آثار الموريسكيين لم تنقطع بعد النفى بصورة نهائية . فقد رأينا أن كثيرين من المنفيين قد عادوا إلى اسبانيا ، فراراً مما لقوا فى رحيلهم من ضروب الإعتداء المفزع ، وأسلموا أنفسهم رقيقاً يقتنى . كذلك كانت ثمة جماعات من الأسرى المسلمين ، من مغاربة وغيرهم ، ممن يؤخذون فى المعارك البحرية مع المغيرين ، يباعون رقيقاً فى اسبانيا ، ويفرض عليهم التنصير . ومع أنه صدر قرار بحظر وجودهم فى العاصمة الإسبانية ، فإنه كان من الصعب إخراجهم من المملكة ، نظراً لما ترتب لأصحابهم عليهم من الحقوق ، وكان البعض منهم يفلح فى ابتياع حريته ، ويعيد حياة الموريسكيين سراً ، وأخيراً توجست الحكومة الإسبانية من وجودهم ، فصدر فى سنة ١٧١٢ قرار بنفيهم ، خلال المدد التى يحددها القضاة المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم إلى إفريقية .

وقد كان من المستحيل بعد ذلك كله ، أن يبقى فى البلاد أحد من الموريسكيين أو سلالتهم ، وقد كانت ذكراهم أو أشباحهم ، تثير حولها أيما توجس وتعصب . وكان من المتعذر أن يفلت أحد منهم من بطش ديوان التحقيق ، وكان الديوان المقدس أبدا على أهبته لضبط أية قضية ضد موريسكى مختف أوعبد متنصر ، لكن هذه القضايا كانت نادرة مما يدل على انقراض هذا العنصر بمضى الزمن . بيد أن أسرى المعارك البحرية الذين كانوا يكرهون على التنصير ، كان بعضهم ينبذ النصرانية خفية ، وكن معظم معظم هؤلاء من الموريسكيين الذين عادوا إلى الإسلام ، وخرجوا إلى الجهاد فى البحر ، وكان ديوان التحقيق طوال القرن السابع عشر يجد بينهم فرائس من آن لآخر . وعلى الجملة فإن آثار الموريسكيين والإسلام لم تعف نهائياً من اسبانيا ، وقد لبث كثير من الأسر والأفراد الموريسكيين ، الذين اندمجوا فى المجتمع الإسبانى ، على صلاتهم الخفية بالماضى البعيد ، وقد ضبطت خلال القرن الثامن عشر أمام محاكم التحقيق بعض قضايا الموريسكيين ، كانوا يجرون شعائر الإسلام خفية ، وضبط فى سنة ١٧٦٩ مسجد صغير فى قرطاجنة ، أنشأه المتنصرون المحدثون ، مما يدل على أنه كانت ما تزال ثمة آثار ضئيلة للموريسكيين والإسلام .

ولا تقدم إلينا محفوظات ديوان التحقيق منذ أواخر القرن الثامن عشر ، أى ذكر للموريسكيين ، أوالإسلام والمسلمين ، مما يدل على أن الآثار الأخيرة لمأساة الموريسكيين قد غاضت ، وأسبل عليها الزمن عفاءه إلى الأبد[١] .

على أن يقال أخيراً إنه ما زالت ثمة إلى اليوم ، فى بلنسية وفى غرناطة ومقاطعة لا منشا ، جماعات من الإسبان تغلب عليها تقاليد الموريسكيين فى اللباس والعادات ، ويجهلون الطقوس النصرانية الخالصة[٢] .

والحقيقة أنه يصعب على الباحث أن يعتقد أن اسبانيا النصرانية ، قد استطاعت حقاً بكل ما لجأت إليه من الوسائل المغرقة ، أن تقضى نهائياً على آثار الأمة العربية فإن تاريخ الحضارة يدلنا على أنه من المستحيل ، أن تجتث آثار السلالات البشرية ، خصوصاً متى لبثت آماداً متخلفة متداخلة ، وعلى أن حضارة أمة من الأمم إنما هى خلاصة لتفاعل الأجيال المتعاقبة ، وفى وسع مؤرخ الحضارة أن يلمس فى تكوين المجتمع الإسبانى الحاضر ، ولاسيما فى الجنوب فى ولايات الأندلس القديمة ، وفى خصائصه وتقاليده ، وفى حياته الاجتماعية ،وفى حضارته على العموم ، كثيراً من الخلال والظواهر ، التى ترجع فى روحها إلى تراث العرب والحضارة الإسلامية .[٣]

---

(١) Les : The Moriscos p. 391 & 392

(٢) Lea : ibid ; p. 365

(٣) استطعت خلال رحلاتى الأندلسية المتوالية أن أتبين هذه الظاهرة ، وأن أشعر بها شعوراً قوياً ، ولا سيما فى غرناطة ، وقد تناولت مظاهرها المادية والأدبية فى فصل خاص فى كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » الطبعة الثانية ص ٤٣٦ — ٤٤٤ .

الفصل الثالث

تأملات وتعليقات عن آثار المأساة

مأساة الموريسكيين وعلاقتها بانحطاط اسبانيا . آثار نفى الموريسكيين المخربة . ركود الزراعة وخراب الضياع الكبيرة . تأثر محاكم التحقيق . ذيوع العملة الزائفة . تقرير مجلس الدولة عن الاضطراب الاقتصادى . تعليقات الدكتور لى . خطأ السياسة الإسبانية . آراء التفكير الإسبانى . تأييد الأحبار لسياسة الإبادة . حملة دون لورنتى عليها . رأى الكردينال ريشليو . آراء المؤرخين الإسبان . مأساة النفى بين التأييد والإنكار . آراء لافونتى وخانير وبكاتوستى ومننديث إى بلايو . تعليقات النقد الحديث . أقوال الدكتور لى . أقوال العلامة سكوت . أقوال مننديث بيدال . أقوال المستشرق كوندى . تعليق المستشرق لاين بول .

تلك هى قصة الموريسكيين أو العرب المتنصرين : قصة مؤسية تفيض بألوان الإستشهاد المحزن ، ولكن تفيض فى نفس الوقت بصحف من الإباء والبسالة والجلد ، تخلق بأعظم وأنبل الشعوب . وقد لبثت السياسة البربرية التى اتبعتها اسبانيا النصرانية ، واتبعها ديوان التحقيق الإسبانى ، إزاء العرب المتنصرين على كر العصور ، مثار الإنكار والسخط ، يدمغها المفكرون الغربيون ، والإسبان أنفسهم ، حتى يومنا بأقسى النعوت والأحكام .

ويرى النقد الحديث ، أن العمل على إبادة الموريسكيين ، كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا ورخائها ؛ ولم تنهض اسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة ، بل انحدرت منذ نفى الموريسكيين ، من أوج عظمتها التى سطعت فى عصر شارلكان وفيليب الثانى ، إلى غمرة التدهور والإنحلال التى ما زالت تلازمها حتى عصرنا .

بل ترجع عوامل هذا الإنحلال ، إلى ما قبل مأساة الموريسكيين ببعيد ، أو بعبارة أخرى إلى السياسة التى اتبعتها اسبانيا النصرانية ، نحو الأمة الأندلسية ، منذ بداية عصر الغلبة والفتح ، فى أوائل القرن الثالث عشر . فقد كانت القواعد والولايات الإسلامية الزاهرة ، تسقط تباعاً فى يد اسبانيا النصرانية ، ولكنها كانت تفقد فى نفس الوقت أهميتها العمرانية والاقتصادية ، إذ كانت العناصر الإسلامية الذكية النشيطة من السكان ، تغادرها إلى القواعد الإسلامية الباقية ، فراراً من عسف

النصارى ، وتغادرها حاملة أموالها وفنونها وصنائعها ، تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الاقتصادى . واستمر سيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين ، حتى سقطت غرناطة ، واحتشدت البقية الباقية من الأمة الأندلسية فى المنطقة الجنوبية ، فى بعض القواعد الأندلسية القديمة ، مثل بلنسية ومرسية ، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده ، جموع غفيرة من المسلمين إلى إفريقية ، واستحالت الأمة الأندلسية غير بعيد ، إلى شعب مهيض ممزق هو شعب الموريسكيين أوالعرب المتنصرين . ومع ذلك فقد لبثت هذه الأقلية الأندلسية المضطهدة ، عاملا خطيراً فى اقتصاد اسبانيا القومى ، وفى ازدهار زراعتها وتجارتها وفنونها وصناعاتها . وكان الموريسكيون يحملون الكثير من تراث الأمة المغلوبة ، وإلى نشاطهم ودأبهم ، يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التى يملكها السادة الإقطاعيون . فلما اشتد بهم الإضطهاد والعسف ، وأخذت يد الإبادة تعمل لتمزيق طوائفهم ، وسحق نشاطهم وقتل مواهبهم ، ولما اتخذت اسبانيا النصرانية أخيراً خطوتها الحاسمة بإخراجهم ، كانت الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها ، فانحط الإنتاج الزراعى الذى برع الموريسكيون فيه ، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدى الماهرة ، وكسدت التجارة التى كان الموريسكيون من أنشط عناصرها ، وركدت ريح الصناعة ، وعفت كثير من الصناعات التالدة التى كانوا أساتذتها ، وغاضت الفنون الرفيعة التى استأثروا بها منذ أيام الدولة الإسلامية . وأحدثت هذه العوامل بمضى الزمن نتائجها المخربة ، فتناقص عدد السكان ، وانكمشت المدن الكبيرة ، وذوى عمرانها ، وتضاءلت موارد الخزينة العامة ، وشلت جهود الإصلاح والتقدم ، ولم يمض على إخراج الموريسكيين زهاء قرن ، حتى أصبح سكان المملكة الإسبانية كلها ستة ملايين ، وكان سكان قشتالة وحدها أيام سقوط غرناطة سبعة ملايين ، وفقدت معظم المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة أربعة أخماس سكانها ، وعم الفقر والخراب مئات المناطق والمدن ، وخيم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال .

وإذا كان النقد الحديث ، ينوه بخطورة السياسة التى اتبعتها اسبانيا ، فى إبادة الأمة الأندلسية ونفى الموريسكيين ، كعامل قوى الأثر فيما أصاب اسبانيا من أسباب الدمار والبؤس والانحطاط ، التى لم تبرأ منها حتى عصرنا ، فإنه يعتمد فى هذا الرأى على طائفة من النتائج المادية والأدبية ، التى ترتبت على « النفى » ، وحرمان اسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية ، التى كانت تتمتع بها الأمة الأندلسية .

وقد ظهرت هذه الآثار المخربة ، بالأخص فى محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور إيراد الضياع الكبيرة ، وإيراد الكنائس والأديار ، دليلا على ما أصاب قوة اسبانيا المنتجة ، الزراعية والصناعية ، بسبب نفى طائفة كبيرة ، من أنشط طوائف السكان وأغزرهم إنتاجاً . وكان من الحقائق المعروفة أن السكان الإسبان ، كانوا يبغضون الأعمال الزراعية والفنية ، ويعتبرونها أمراً شائناً ، وأن الإسبانى لا يربى أولاده لمزاولة العمل الشريف ، وأن أولئك الذين لا يجدون عملا فى الجيش أو الحكومة ، يلتحقون بالكنيسة . ويبدى المؤرخ الإسبانى الكبير نابارّيتى أسفه لوجود أربعة آلاف مدرسة فى عصره (أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر) ، يتعلم فيها أبناء الفلاحين ، بينما تهجر الحقول ، ولأن أولئك الذين لا يجدون منهم عملا فى الكنيسة لنقص تعليمهم ، يحترفون التسول أو التشرد أو السرقة . وقد كتب سفراء البندقية منذ القرن السادس عشر إلى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق ، ويصفون الإسبان بأنهم زراع وعمال كسالى ، يحتقرون العمل اليدوى ، حتى أن ما يمكن عمله في البلاد الأخرى فى شهر ، يعمله الإسبان فى أربعة أشهر (١) .

ويردد الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير سلطان المغرب مولاى اسماعيل إلى اسبانيا ، وقد زارها فى سنة ١٦٩١ ، أعنى بعد النفى بثمانين عاماً ، عن الإسبان مثل هذا الرأى إذ يقول فى رحلته :

« وبحصول هذه البلاد الهندية (يقصد أمريكا) ومنفعتها وكثرة الأموال التى تجلب منها ، صار هذا الجنس الإسبنيولى اليوم أكثر النصارى مالا ، وأقواهم مدخولا ، إلا أن الترف والحضارة غلبت عليهم ، فقلما تجد أحداً من هذا الجنس يتاجر أو يسافر للبلدان بقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والإنجليز والفرنسيس والجنويين وأمثالهم ، وكذلك الحرفة التى يتداولها السقطة والرعاع وأراذل القوم يتأبى عنها هذا الجنس ، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الأجناس المسيحيين » (٢) .

وقد كان النبلاء والأحبار ، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون فى تعهد أراضيهم وفلاحتها ، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم ، فلما وقع النفى

---

(١) Lea : The Moriscos ; p. 379 - 381

(٢) رحلة الوزير الغسانى المسماة « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » (العرائش ١٩٤٠) ص ٤٤ و ٤٥ .

جمد النشاط الزراعى ، وخلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى ، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان ، ولاسيما فى منطقة بلنسية ، واضطر النبلاء إلى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنيه وقطلونية ؛ ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ فى غلات الضياع الكبيرة ، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الأراضى التى نزعت ، وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها ، وحاق بهم الضيق حتى اضطر العرش إلى منح كثيرين منهم نفقات سنوية من خاصة أمواله ، هذا فضلا عما أصاب طوائف السكان الأخرى ، التى كانت تتصل بالموريكسيين فى المعاملات والتبادل ، من العسر والضيق .

وكما انحط دخل الكنائس والأديار ، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيراً من دخله ، مما كان يصيبه من مصادرة أموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة ، واضطرت الحكومة أن تعول كثيراً من محاكم التحقيق ، التى أوشكت على الإفلاس ، من جراء اختفاء الجماعة التى كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء أموالها . وقد بيعت أملاك الموريسكيين وأراضيهم بمبالغ كبيرة ، ولكن العرش استولى عليها ، ووزع معظمها على أصفيائه من الوزراء والنبلاء والأحبار ، ولم ينل ديوان التحقيق سوى جزء يسير منها .

ويقدمون مثلا لما أصاب اسبانيا من الخراب من جراء « النفى » ، هو مثل مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية)[١] عاصمة لامنشا ، فقد أسس هذه المدينة ألفونسو العالم فى القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطاً حرة مغرية ، شجعت كثيراً من اليهود والمسلمين على النزوح إليها . وفى سنة ١٢٩٠م كان دافعو الضرائب فيها من اليهود (٨٨٢٨) ، فلما أخرج اليهود منها فى سنة ١٤٩٢ ، حل محلهم الموريسكيون من غرناطة ، ولما أخرج منها هؤلاء مع المدجنين القدماء ، خربت المدينة وعفا رخاؤها وانحطت زراعتها ، وخربت صناعة النسيج التى أنشأها الموريسكيون فيها ، وهبط عدد سكانها فى سنة ١٦٢١ إلى ٥٠٦٠ نفساً ونحو ألف أسرة فقط ، فى حين أنها كانت تضم من السكان قبل « النفى » اثنتى عشرة ألف أسرة[٢] .

وكان مما ترتب على نفى الموريسكيين أيضاً ، ذيوع العملة الفضية الزائفة ، وقد تركوا وراءهم منها مقادير عظيمة ، وكانت لهم بصنعها براعة خاصة . وأحدث

---

(١) Ciudad Real

(٢) Lea : The Moriscos ; p. 372 - 384

ذيوع النقد الزائف اضطراباً شديداً فى المعاملات، وحاولت الحكومة جمعه، والمعاقبة على ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الإعدام ، ولكنها لم تفلح فى استئصال الشر ، واستمرت هذه الحركة أعواماً طويلة ، وعمد الإسبان بدورهم إلى التزييف ، وعوقب كثير منهم أمام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية ، وعانى التجار والمتعاملون كثيراً من الضرر والإرهاق .

ولم تمض أعوام قلائل على نفى الموريسكيين ، حتى ظهرت هذه الآثار المخربة كلها فى حياة المجتمع الإسبانى بصورة مزعجة، وهال العرش والحكومة ما أصاب الأمة من ضروب البؤس والخراب ، وطلب رئيس الحكومة الدوق دى لرما فى سنة ١٦١٨ ، إلى مجلس الدولة ، أن ينظر فى هذا الأمر ، ويعمل على تحقيقه ومعالجته؛ وقدم مجلس الدولة تقريره بعدعام، وأشير فيه إلى خراب المدن والقرى ، ولكنه لم يشر إلى نفى الموريسكيين ، وإلى تكاثر عدد رجال الدين وتزييف العملة، وبغض الشعب للعمل الشريف ، بل حاول أن يرجع الشر إلى فداحة الضرائب ، وإلى الترف الذى تعيش فيه الطبقات الممتازة ، وإسراف الملك فى الإغداق على أصفيائه ؛ وكذلك اهتم مجلس النواب (الكورتيس) بالأمر وقدم عنه تقريراً إلى الملك . ومع أن التقارير الحكومية التى وضعت عن هذه المحنة ، لم تشر إلى نفى الموريسكيين كعامل أساسى فيما أصاب اسبانيا من الخراب والفقر ، فقد كان فى القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة . ففى سنة ١٦٢٢ أصدر الملك فيليب الرابع ، قراراً بخفض الضرائب فى بلنسية يشير فيه إلى هجرة السكان ، وإلى ماخسرته المدينة من ضروب الدخل، التى كانت تجبى على ما يستهلكه الموريسكيون، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم .

على أن جهود العرش والحكومة ، لم تجد شيئاً فى تخفيف هذه الضائقة ، التى طافت بالمجتمع الإسبانى ، وشملت سائر الطبقات سواء فى الإنتاج أوالاستهلاك . ومضى وقت طويل قبل أن تستقر الأحوال نوعاً ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التى أصابتها .

يقول الدكتور لى : « إنه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون ، فى القيام بقسط عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية فى البلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ ، دون أن يبث ذلك الخراب الواسع ، ويثير معتركا من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة » .

ثم ينعى على السياسة الإسبانية تخبطها وقصر نظرها فيقول : « وإنه لمن خواص السياسة الإسبانية فى ذلك العصر ، أنه لم يفكر أحد فى هذه الشئون ، ولم يحتط لها أحد فى المباحثات الطويلة ، التى جرت فى قضية الموريسكيين . وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التى ينفذ بها النفى ، وماذا يسمح به للمنفيين ، وماذا يكون مصير الأطفال . ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ، واحتقر رخاء الفرد ، وهو ما يوضح فشل السياسة الإسبانية »[1] .

تلك هى النتائج المادية الواضحة ، الإقتصادية والاجتماعية ، التى جنتها اسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبيتة لإبادة الأمة الأندلسية . فقد لبثت اسبانيا زهاء قرن ، تعمل بأقسى وسائل الإرهاق والمطاردة ، على استصفاء ما بقى من فلول الأمة الأندلسية ، فى الأرض التى بسطت عليها زهاء ثمانية قرون ، ظلال الرخاء والأمن ، وضوء العلم والعرفان ، ولم تطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول ، إلى شراذم معذبة مهيضة ، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها ، أن تبقى عليها ، وعلى ما تبقى لها من مواهب وقوى منتجة ، ورأت فى سبيل أسطورة من التعصب والجهالة ، أن تقضى عليها بالتشريد والنفى النهائى ، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مليون من أفضل العناصر العاملة . وكان من سوء طالع اسبانيا أن جاء نفى الموريسكيين ، فى وقت أخذت فيه عظمة اسبانيا ورخاؤها ، ينحدران سراعاً إلى الحضيض ، وجنح المجتمع الإسبانى إلى حياة الدعة والخمول ، وأخذ سكانها فى التدهور ، فجاء نفى الموريسكيين ضربة جديدة لحيوية اسبانيا ، التى أخذت فى التفكك والذبول ، وتركت وراءها جرحاً عميقاً لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة . ومن ثم فإنه من الواضح أن يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفى الموريكسيين ، ويعتبره عاملا بعيد المدى فيما أصاب اسبانيا الحديثة ، من ضروب التفكك والإنحلال .

على أن التفكير الإسبانى يختلف فى قبول هذا الرأى وتقدير مداه ؛ ويهاجمه وينكره بالأخص رجال الدين ، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخربة ، وأكبر العاملين على تنفيذها . وقد استقبل رجال الدين نفى الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى ، واعتبروه ذروة النصر الدينى ؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا وهو من مؤرخى القرن الماضى ، فى كتابه الذى نشره دفاعاً عن هذا الإجراء :

---

(1) Lea : The Moriscos ; p. 387

« بأن عصر اسبانيا الذهبى بدأ بذهاب الموريسكيين ، وان اسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية ، وأنقذت من مشاغلها الداخلية ، وأن النفى كان أعظم حادث بعد بعث المسيح ، واعتناق اسبانيا للنصرانية »[١]. ويقول حبر آخر : « لقد زعم الموريسكيون أن رخاء اسبانيا قد ذهب مذ أكرهوا على التنصير ، ولكن الرخاء قد عم بنفيهم ، وازدهرت التجارة ، وساد الأمن فى الداخل والخارج »[٢]. ويقول الحبر بثنتى دى لافونتى فى تاريخه الدينى ، إنه من السخرية أن يقال إن نفى الموريسكيين كان سبباً فى انحطاط اسبانيا ، فإن أمة قد تفقد مائة وخمسين ألفاً فى وباء أو حرب أهلية . ثم يتساءل فى تهكم لماذا ينحى على فيليب الثالث بمثل هذا اللوم ؟ على أنه يعترف مع ذلك بأن النفى كان سبباً فى تدهور دخل الأشراف والكنائس[٣].

ويرى آخرون من الأحبار أن اسبانيا قد دفعت بالنفى ثمناً باهظاً ، ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون إن وفرة الرخاء تذهب بالفضائل ، وإنه لا بأس من التقشف مع الإيمان ، وإن الفقراء استطاعوا بعد إجلاء الموريكسيين أن يجدوا أعمالا[٤].

ولكن حبراً ومؤرخاً اسبانيا كبيراً ، هو دون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق ، يحدثنا عن وسائل الديوان ونفى الموريسكيين فى قوله : « كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة ، تذكى روع الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية ، وكانوا بدلا من التعلق بالنصرانية ، وهو ما كانت تؤدى إليه معاملتهم بشىء من الإنسانية - يزدادون مقتاً لدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة ، وكان هذا سبب الإضطرابات التى أدت فى سنة ١٦٠٩ إلى نفى هذا الشعب ، وعدده يبلغ المليون يومئذ ، وهى خسارة فادحة لاسبانيا تضاف إلى خسائرها الفادحة ، ففى مائة وتسع وثلاثين سنة انتزع ديوان التحقيق من اسبانيا ثلاثة ملايين ، ما بين يهود ومسلمين وموريسكيين »[٥].

ويقول الكردينال ريشليو الفرنسى ، وهو من أعظم أحبار الكنيسة فى مذكراته وكان معاصراً للمأساة : « إنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة ووحشية » .

* * *

(١) Bleda : Defensio fidei in Causa Neophglorum aive Morischorum in Hispania

(٢) Lea : The Moriscos ; p. 366

(٣) Lea : ibid, p. 394 & 396

(٤) Lea : ibid, p. 367

(٥) Llorente : Historia Critica de la Inquisición de Espana (1815-1817)

هذا عن الأحبار . وأما عن آراء البحث الإسبانى الحديث ، فإنها تختلف فى تقدير آثار نفى الموريسكيين اختلافاً بيناً، بيد أنها تميل على الأغلب إلى الاعتراف بفداحة الآثار المخربة التى أصابت اسبانيا من جرائه ، وإلى اعتباره عاملا قوياً فى تدهور اسبانيا وانحلالها. بيد أنها مع ذلك تحاول الاعتذار عن النفى، ويرى البعض أنه كان إجراء طبيعياً ، وضرورة لا محيص منها ، وينكر البعض الآخر أنه كان كارثة أو أنه ترتبت عليه آثار مخربة . وقد رأينا أن نورد هنا طائفة من آراء عدة من أكابر المؤرخين والمفكرين الإسبان المحدثين ، وأن نوردها بدقة وإفاضة تسمحان بفهم الروح الإسبانية، إزاء هذا الحدث التاريخى الخطير ، وتقديرها على حقيقتها .

يقول دانفيلا إى كوليادو :

« وهكذا تحقق نفى الموريسكيين الإسبان ، بغض النظر عن كونهم شبانا أو شيوخاً ، صالحين ، أو عقماء ، مذنبين أو أبرياء . وكانت مسألة الوحدة السياسية تحمل فى ثنيتها ضرورة الوحدة الدينية ؛ وضع خطتها الملكان الكاثوليكيان، وحاول تحقيقها الإمبراطور كارلوس الخامس (شارلكان) وفيليب الثانى ، ولكنهما ارتدا خشية من عواقبها . أما فيليب الثالث، فكان يزاول سلطانه عن يد أصفيائه ، ولذا ألفى سلطة العرش الدينية والسياسية ، أيسر وأهون . وكانت الحرب الدينية تضطرم ضد الجنس الأندلسى ، وقد ألفت عواطف الروح الرقيقة نفسها، وجهاً لوجه أمام المسألة السياسية . ودخلت الإنسانية والدين فى صراع وخرج الدين ظافراً وفقدت اسبانيا أنشط أبنائها ، وانتزع الأبناء من حجور أمهاتهم وحنان آبائهم ، ولم يلق الموريسكى أية رأفة أو رحمة . ولكن الوحدة الدينية بدت ساطعة رائعة فى سماء اسبانيا ، واغتبطت الأمة إذ أضحت واحدة فى جميع مشاعرها العظيمة .

«كان الموريسكيون شديدى المراس . وكان الوطن ينشد وحدة معنوية ، تغدو متممة للوحدة السياسية، التى تحققت باندماج سائر العروش فى شبه الجزيرة ، وكان عنصر تناقض قوى ، كالذى تمثله طائفة الموريسكيين ، لا يكون فقط عقبة شديدة يصعب تذليلها ، ولكنه كان استحالة مطلقة ، تحول دون تحقيق الغاية ، التى تتجه إليها الحركة العامة للفكر القومى . وكانت الصعوبة كلها تجثم فى الدين. ولم تكن اللغة التى تبدو خاصة قومية أخرى ، تكون يومئذ أو فى أى وقت عقبة تمثل هذه الخطورة ، ففى شمال اسبانيا ، وفى شرقها ، توجد اللهجات المختلفة ، من الجليقية والقطلونية والميورقية والبلنسية وغيرها . وكذلك يوجد مثل هذا

التباين فى النظم القضائية ، والثياب والعادات الخاصة بكل منطقة ، ولكن ذلك لم يكن عقبة كأداء فى سبيل وحدة الدين ، والروح القومى ، ولم يخلق مثل المعضلة الدائمة ، التى خلقها الدين بالنسبة للموريسكيين ، والتى جعلتهم فى حالة دائمة من التربص والتوجس . إن ما بذله كارلوس الخامس وفيليب الثانى ، لإخضاع الموريسكيين للنصرانية ، مما لا يمكن وصفه ، ولكن جهودهم كلها ذهبت عبثاً . ذلك أنه بعد ثلاثة قرون من الخضوع ، لبث الموريكسيون فى عصر فيليب الثالث ، يضطرمون بنفس الروح المتمردة ، التى كانت لأسلافهم الذين أخضعوا بالسيف ، وقد ارتضوا حالتهم كمحنة موقتة عابرة ، ولم ينبذوا الأمل قط ، ولم يتركوا قط الوسائل التى يعتقدون أنها تمكنهم ذات يوم من الأخذ بالثأر ، واسترداد استقلالهم وسيادتهم » .

ثم يقول : « وإنها لخرافة أن يقال إن الموريسكيين كانوا عنصراً مفيداً فى إنتاج اسبانيا ، ولو أنهم كذلك لحملوا الرخاء إلى بلاد المغرب حيث ذهبوا »(١).

ويقول المؤرخ الكبير مودستو لافونتى ، وسنرى أنه يذهب فى الصراحة وتقدير الحقائق المنزهة إلى أبعد حد :

« وعلى أى حال فإن مراسيم فيليب الثالث الشهيرة ضد الموريسكيين ، قد جردت اسبانيا — وقد كانت يومئذ جد مقفرة من السكان بسبب الإدارة السيئة والحروب المستمرة — من طائفة كبيرة من السكان ، أو بعبارة أخرى من السكان الزراعيين والتجاريين والصناعيين ، من السكان المنتجين ، أولئك الذين يساهمون بأكبر قسط فى الضرائب . وكان أقل ما فى ذلك تسرب الملايين من الدوقيات ، التى حملتها الطائفة المنفية معها ، فى الوقت التى كانت فيه المملكة تعانى من قلة النقد ، فكان نقص الذهب الفجائى على هذا النحو أشد وطأة عليها . وكذلك وقع ضرر أفدح بذيوع النقد الزائف أو المنقوص ، الذى روجه المنفيون بسوء قصد قبل رحيلهم . وأسوأ ما فى ذلك كله ، هو أنه فقد برحيلهم العنصر العامل الذكى المتمرس فى الفنون النافعة . وهم قد بدأوا بالزراعة ، وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان لهم فى إنتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعاً مناسباً ،

---

(١) M. Danvila y Collado : La Expulsiôn de los Moriscos Espanoles. (Madrid 1889) p. 320-22

كان له أثره في الإنتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة ؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهى صناعات برع الموريسكيون فيها أيما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية ، وهى حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها ، ومن ثم فقد احتكرها الموريكسيون واختصوا بها . وقد عانى كل شىء من نقص فى السواعد وفى البراعة ، وهو نقص جعلت المفاجأة من المستحيل تداركه ، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظاً بطيئاً صعبا .

« ويقول نفس المؤرخ البلنسى الذى شهد النفى ، وكتب عقب إتمامه ، إنه ترتب على ذلك أن بلنسية ، وهى حديقة اسبانيا الغناء ، استحالت إلى قفر جاف موحش . وحدث هنالك كما حدث فى قشتالة ، وفى باقى البلاد ، أن بدا شبح الجوع الداهم ؛ وبالرغم من أنه قد جىء بسكان جدد إلى الأماكن التى هجرها الموريسكيون ، لكى يتدربوا على العمل فى الحقول والمصانع والمعامل ، إلى جانب أولئك القلائل الذين ارتضوا البقاء (وهو اعتراف مخجل بلاريب) . على أن مثل هذا التمرن لم يؤت نتائجه السريعة ، والتدرب والدأب ليسا من الفضائل التى ترتجل ، ولم يكن من السهل أن يعوض مثل هذا الجنس من البشر ، وهو الذى استطاع بعبقريته ، ومركزه الخاص فى البلاد ، ووفرة براعته ، وجلده ، أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة ، واستغلالها لسائر مبتكراته . وهكذا حل مكان ضجيج القرى ، الصمت الموحش فى الأماكن المهجورة ، وبدلا من السيل المستمر من العمال والصناع فى الطرق ، حل خطر لقاء الأشرار الذين يذرعونها ، ويجثمون فى أطلال القرى المهجورة . وإذا كان ثمة بعض السادة الإقطاعيين قد غنموا من تراث المنفيين ، فقد كان عدد الذين خسروا أعظم بكثير ، وبلغ الأمر بالبعض أن طلبوا نفقات للطعام . أما الذين غنموا ، فقد كانوا بلاشك هم الدوق دى ليرما وأسرته وقد استولوا على نصيب مما تحصل من بيع منازل الموريسكيين .

« ومن ثم فقد اعتبر نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية ، بالنسبة إلى اسبانيا أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره . وإنه ليمكن أن نغض الطرف عن المبالغة التى دفعت بأحد الساسة الأجانب ، وهو الكردينال ريشليو ، أن يسميه « أعرق إجراء فى الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ فى أى عصر سابق » والحق أن الصدع الذى أصاب ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول إنه لم يبرأ حتى عصرنا .

« فأما من الناحية الدينية ، فقد كان هذا الإجراء ، ثمرة الأفكار التى سادت فى اسبانيا قبل ذلك بقرون ، وثمرة البغض التقليدى المتأصل ، الذى يكنه الشعب لغالبيه وأعدائه الألداء القدماء . وليس مما يمكن إنكاره ، أنه كان مؤيداً لفكرة الوحدة الدينية ، التى دأب على العمل لتحقيقها وإكمالها الملوك الإسبان والشعب الإسبانى . بيد أنا لانعتقد أنه كان من البراعة (ما عدا اعتباره صراعاً مقرراً هو من خصائص العصور الوسطى) أن نصل إلى الوحدة الدينية بطريق إفناء أولئك الذين يعتنقون عقائد أخرى . وقد كانت البراعة أن نعمل على اجتذاب المخالفين المعاندين ، بالتعاليم والإقناع ، والحزم ، والرفق ، وتفوق الحضارة .

وأما كونه إجراء سياسياً ، قصد به إلى تحقيق سلامة الدولة وسلامها ، فقد كان ممكناً أن نبرر اتخاذه لوكانت المؤامرات حقيقية وخطيرة ، وكانت الخطط شنيعة ، وكانت الوسائل قوية ، والخطر داهماً ، وذلك كما افترض الوزير المقرب ، والأسقف ربيرا والنصحاء الآخرون . أجل لم يك ثمة شك فى أنه كانت هنالك مكاتبات وعلائق ومشاريع معادية لإسبانيا ، بين بعض الموريسكيين البلنسيين وبين المغاربة والترك ، بل بينهم وبين بعض الفرنسيين . بيد أننا لم نقتنع بأن هذه الخطط كانت من الجسامة والخطر بمثل ماكان يصورها أنصار النفى ، ولم نقتنع بأن النصارى المحدثين فى بلنسية كان لهم من القوة ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شأن ، كما أنه لم يكن ثمة ما يثير المخاوف من جانب الموريسكيين فى أراجون وفى مرسية ، مثلما زعمت الوفود التى أتت من هذين الإقليمين ، وكذلك لم يكن الموريسكيون فى قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرون عليه . وعلى أى حال فإنه متى ذكرنا ، أننا بعد مضى أكثر من قرن على قهر الموريسكيين وإخضاعهم لقوانين المملكة ، وتفريقهم ومزجهم بالإسبان والنصارى ، لم نوفق إلى تأليفهم فى العادات والعقائد ، أو أن ندمج بقية الأمة المغلوبة فى الكتلة الكبرى للأمة الغالبة ، ولم نوفق إلى جعلهم نصارى واسبانيين ، ثم لجأنا بلا ضرورة إلى وسيلة إفناء جيل برمته ، متى ذكرنا ذلك فإنا لا نستطيع أن ننظر بعطف إلى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه ، ولا إلى حزمهم أوسياستهم »(١) .

ويقول فلورثيو خانير ، وهو يحذر حذو لافونتى فى تقديره وتعليله ، وينقل بعض أقواله :

---

(١) Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Madrid 1862) T. VIII, p. 211-214

« ومع ذلك ، فإنه لمصلحة الدين ، والسلام الداخلى ، وسلامة الدولة ، قد وقع الإغضاء عن المزايا التى كان يسبغها الموريكسيون على الصناعة والتجارة والزراعة ، بل وعلى ثروة الأمة الإسبانية كلها ، وذلك حينما أخرج بواسطة مراسيم فيليب الثالث ، آلاف من الصناع الموريسكيين ، يحملون معهم بذور الحضارة والحرث . وقد قال كامبومانس الشهير : « إن بدء تدهور صناعاتنا يرجع إلى سنة ١٦٠٩ ، حينما بدئ بنفى الموريسكيين . فمن ذلك الحين ، تبدأ مع خراب المصانع صيحات الأمة المتوالية ؛ وعبثاً يحاول ساستنا أن ينسبوا بؤس القرن السابع عشر ، إلى أسباب أخرى ، فهى وإن كانت جزئية ، لا يمكن أن تضارع ضربة بهذه المفاجأة ، وهى ضربة لم تستطع الأمة حتى اليوم أن تنهض من عثارها » . ولقد أحدثت مزاولة العرب للمهن الفنية فى الإسبان أثرين سيئين ، الأول أنهم اعتبروا هذه المهن من الأمور الشائنة ، والثانى أنهم لم يتعلموا شيئاً منها حتى لا يتشبهوا بأولئك الذين يزاولونها . وهم قد بدأوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان للموريسكيين فى إنتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعاً مناسباً ، كان له أثره فى الإنتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة الخصبة ؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهى صناعات برع فيها الموريكسيون أيما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية وهى حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرون مزاولتها ؛ ومن ثم فقد كان الموريسكيون يحتكرونها ، وقد وقع من جراء ذلك نقص فى الأيدى وفى المهارة كان من المستحيل ملؤه فى الحال ، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظاً بطيئاً صعباً . وقد بلغ النقص فى الأنفس ، وفقاً للدراسات التى قمنا بها لنتائج الحادث ، على الأقل نحو مليون . ثم يأتى بعد ذلك نقص العملة الذهبية ، بسبب الكميات الكبيرة التى حملوها معهم من الدوقيات ، وأخيراً يأتى ذيوع النقد الزائف أو ناقص الوزن ، وهو الذى ملئوا به المملكة قبل نزوحهم منها ، على أن الضرر الفادح الذى لم يعوض لسنين بعيدة ، هو بلا ريب ما أصاب الزراعة والصناعة والتجارة .

« ومن ثم فى وسعنا أن نقول عن بلادنا بحق ، إن بلاد العرب السعيدة ، قد استحالت إلى بلاد العرب القفراء ، وعن بلنسية بوجه خاص ، إن حديقة اسبانيا الغناء قد استحالت إلى صحراء جافة مشوهة . وقد حل شبح الجوع بالاختصار

فى كل مكان ، وحل مكان المرح الصاخب للقرى العامرة ، الصمت الموحش فى الأمكنة المهجورة ؛ وبدلا من أن ترى أمامك العمال والصناع ، فإنك تغامر بأن تقابل قطاع الطرق يملؤونها ويجثمون فى أطلال القرى المهجورة . ولئن كان ثمة فريق من السادة الملاك الذين أفادوا من تراث المنفيين ، فقد كان ثمة عدد أكبر بكثير ممن خسروا ، وانتهى بعضهم إلى الموقف المؤلم ، بأن يلتمسوا من الحكومة نفقة لإطعامهم ، ولم يك بينهم أحد قط ممن غنم كما غنم الدوق دى لبرما وأسرته ، وقد استولوا على جزء من أثمان بيع منازل الموريسكيين ، بلغ نحو خمسة ملايين ونصف ريال .

« وإذاً فقد كان نفى الموريسكيين من الناحية الإقتصادية ، يعتبر بالنسبة إلى اسبانيا ، أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره . وإنه يمكن أن نتسامح فى المبالغة التى يصفه بها سياسى أجنبى هو الكردينال ريشليو ، حيث يصفه بأنه « أعرق إجراء فى الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ فى أى عصر سابق » . والحق أن الصدع الذى منيت به ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول إنه لم يبرأ حتى يومنا »(١). بيد أن خانير مع ذلك يقول إن النفى كان ضرورة دينية وسياسية، وإن الوحدة الدينية ، تغدو اليوم أسطع جوهرة للأمة الإسبانية .

ويعلق المؤرخ الإجتماعى بكاتوستى ، فى الفصل الذى عقده عن « بؤس اسبانيا العام » فى كتابه عن « عظمة اسبانيا وانحلالها » على نفى الموريسكيين بما يأتى :

«كان نفى الموريسكيين من أفدح المصائب التى نزلت باسبانيا . أجل لقد وجد أيام الملكين الكاثوليكيين بعض المتعصبين الذين كانوا يقترحون هذا النفى ويعملون له . ولكنهم وجدوا عقبة كأداة فى معارضة الملكة إيسابيلا . وفى سنة ١٥٢٩ ، بذل أسقف إشبيلية ، جهوداً مضاعفة فى هذا السبيل ، وكذا طوال حكم فيليب الثانى ، كان هذا الموضوع يثار من وقت إلى آخر . ولكن أمكن فقط فى عصر فيليب الثالث المحزن ، أن يرتكب هذا الخطأ الفادح .

« والمسئولية الكبرى التى تقع على عاتق هذا الملك ، وعلى نصحائه وأسلافه ، تتلخص فى أنهم لم يحموا مصالح الموريسكيين المادية ، فيمهدوا لتلك الطائفة العاملة ، سبل الحياة المستقرة الهادئة ؛ ولم يكن لهم من القوة أو الكياسة أو الحزم ما يمكنهم

(1) D. Florecio Janer : Condición Social de los Moriscos de Espana (Madrid 1875) p. 100 & 101

من إخضاع هذه الطائفة المتمردة ، التى عاشت فى اسبانيا فى أوقات ، كانت فيها الأحقاد فى أوج اضطرامها بين الغالبين والمغلوبين ؟

« ولقد أثار الإسراف فى فرض الضرائب وبخس الأعمال ، والاضطهاد الدينى ، ومساوئ ديوان التحقيق ، هذه الأرواح التى قابلت حكومة ضعيفة التدبير ، حتى أنه أضحى من المحتوم أن يتخذ هذا الإجراء الشاذ المتطرف .

« إن المؤرخين والساسة الذين دافعوا عن نفى الموريسكيين ، بعضهم للدفاع عن أخطاء هذه المدرسة ، وبعضهم لكى يشيد بالعمل الرائع ، إنما يدافعون عن أمور سيئة ، أو يرغبون فى أن يضعوا السياسة والسلطة فوق رأس الأمة ، وهم فى تبرير مثل هذا الإجراء ، لم يراعوا إلا ضرورة الساعة . وإذا فرضنا جدلا ضرورته السياسية باسم السلام والسكينة العامة ، وهى التى اتخذت لتبرير كثير من الأخطاء ، بل وكثير من الجرائم ، فإنا لانستطيع أن ننسى أن هذا الموقف المحزن ، قد خلقته أخطاء السلطة التى واجهت تلك المشكلة القاسية ، ورأت أن تقصى الموريسكيين عن اسبانيا ، لأنها شعرت أنها عاجزة عن إخماد ثوراتهم المستمرة .

إن فقد هذه السواعد فى الأعمال الزراعية ، وفى كثير من الفنون والأعمال ، والازدراء الذى كان الإسبان يضمرونه لهذه الطائفة ولنشاطها ، والسرعة التى وقعت بها هذه الخسارة ، وعدم تحوط الحكومة ، التى لم تحاول بأية وسيلة أن تعوض عن نشاطها ، وزيادة الضرائب وغيرها من المغارم ، التى أضحى عبؤها يقع فقط على عاتق الشعب الإسبانى ، لكى يعوض ذلك ماخسرته الدولة مماكان يؤديه الموريكسيون : هذه ربما كانت الأسباب السريعة للبؤس العام .

ولقد قام بعض المؤرخين ببحوث مدهشة لتقدير عدد المنفيين ، ونحن لا نجاريهم فى ذلك ، إذ يبدو لنا العدد أمراً لا أهمية له . وسواء أكان المنفيون كثرة أوقلة ، فقد كانوا هم الوحيدون الذين يعملون ، وقد أحدث خروجهم من المملكة اضطراباً خطيراً .

بمثل هذه العوامل ، وصل البؤس الداخلى فى المملكة إلى حد لا يمكن تصوره ، ولا تمكن مقارنته ، هذا بينما كان البلاط يغرق فى الحفلات الشائقة ، وينسب لفيليب الثالث ما كان يمكن صدوره من فيليب الثانى أو كارلوس الخامس »[1] .

---

(١) D. Felipe Picatosti : Estudios sobre la Grandeza y Decadencia de Espana. (Madrid 1887). p. 101 & 102

ويرى العلامة مننديث إى بلايو ، وهو من أعظم المفكرين، والنقدة الإسبان المحدثين ، أن نفى الموريسكيين كان نتيجة محتومة لسير التاريخ ، ويشرح رأيه فى كتابه عن « الخوارج الإسبان » على النحو الآتى :

« ولنقل الآن رأينا فى مسألة النفى بكل وضوح وإخلاص ، وذلك بالرغم من أنه يستطيع أن يتكهن به من تتبع القصة السابقة، بروية وبلا تحيز ، ولن أتردد فى الجهر به ، وإن كان من المؤسف أن يكون ثمة ما أخر إبداءه . فهل كان من الممكن أن يقوم الدين الإسلامى بيننا فى القرن السادس عشر؟ من الواضح أن لا ، بل ولا يمكن أن يكون ذلك الآن فى أى جزء من أوربا . فكيف يستسيغ وجوده فى تركيا أولئك الإنسانيون الأجانب الذين يصفوننا بالبربرية لأننا قمنا بإجراء النفى ؟ وإنهم لأسوأ مائة مرة من المسلمين الخلص ، مهما كان دينهم عائق لكل تمدن، أولئك النصارى المنافقون ، والمرتدون والمارقون، الذين لم يحسن إخضاعهم وأولئك الإسبان الأوغاد ، الأعداء الداخليون ، خميرة كل غزو أجنبى ، الجنس الذى لا يقبل الاندماج ، كما أثبتت ذلك التجارب المحزنة مدى قرن ونصف . فهل يعتبر ذلك تبريراً لأولئك الذين مزقوا عهود غرناطة، أو لأولئك الثوار الذين أضرموا الهياج فى بلنسية ونصروا الموريسكيين بصورة منافية للدين ؟ كلا على الإطلاق . بيد أنه وقد سارت الأمور منذ البداية على هذا النحو ، فإنه لم يكن من الممكن أن تكون ثمة نتيجة أخرى ، فقد كانت الأحقاد والشكوك المتبادلة ، تضطرم باستمرار بين النصارى القدامى والمحدثين ، وقد لطخت بقاع البشرات بالدماء غير مرة ، وفقد الأمل فى تحقيق التنصير بالوسائل السلمية ، وذلك بالرغم من تسامح ديوان التحقيق ، والغيرة الطيبة التى أبداها رجال مثل تلافيرا ، وڤيلانيفا ، وربيرا ، وإذاً فلم يك ثمة محيص من النفى . وأكرر أن فيليب الثانى قد أخطأ فى كونه لم ينفذه فى الوقت المناسب. وإنه لمن الحق أن نعتقد أن الصراع من أجل البقاء والمعارك ، والمذابح بين الأجناس ، تنتهى بصورة أخرى غير النفى أو الفناء . ذلك أن الجنس الأدنى ينهار دائماً ، ويفوز بالنصر مبدأ القومية الأقوى .

وأما إن النفى كان حدثاً مقوضاً ، فهذا ما لا ننكره ، فإنه من المقرر أنه فى العالم يمتزج الخير والشر دائماً . وخسارة مليون بأسره من الناس ، لم تكن هى السبب الأساسى فى إقفار بلادنا من السكان، وإن كان لها أثر فى ذلك . وبعد فإن ذلك يجب ألا يعد إلا كإحدى قطرات الماء فى جانب نفى اليهود ، واستعمار أمريكا ،

والحروب الخارجية فى مائة مكان معاً ، وعدد الجند النظاميين الضخم ، وهى أسباب نوه بها كلها بإيجاز اقتصاديونا القدامى ، ومنهم من لم يتردد كالحبر فرناندث نابارىتى فى نقد نفى الموريسكيين بعد وقوعه بأعوام قليلة . وما كانت بل وليست الأجزاء المقفرة من السكان فى اسبانيا ، هى التى تركها العرب ، كما أنها ليست أسوأها زراعة ، وهو مايدل على أن الخسارة التى لحقت بالزراعة ، من جراء نفى كبار الزراع المسلمين ، لم تكن عميقة أو باقية الأثر ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، لو أننا وقفنا فقط عند عويل أولئك الذين تأملوا الحقول المجدبة غداة تنفيذ أوامر النفى . ونحن أبعد من أن نعتقد مع الشاعر الساذج الشيوعى نوعاً جسبار دى أجيلار ، أنه لم يخسر بالنفى سوى السادة الذين فقدوا أتباعهم المسلمين ، وأن الكثرة من الناس قد غنمت ، وغدا :

الأغنياء فقراء ، والفقراء أغنياء
والصغار كباراً ، والكبار صغاراً

ذلك أن مثل هذه النظريات ، وان أملاها الإخلاص والحماسة الشعبية ، اللذان يضطرم بهما الشاعر ، ليست إلا من أسخف وأضل ضروب الاقتصاد السياسى . ذلك أن مملكة بلنسية كلها كان لزاماً أن تخسر ، وقد خسرت برحيل مثل هذا العدد الجم من عمال مهرة هادئين مثابرين ، وقد كانوا حسبما يصفهم السكرتير فرنسيسكو إدياكيث « يكفون وحدهم لإحداث الخصب والرخاء فى سائر الأرض ، لبراعتهم فى الزراعة ، وقناعتهم فى الطعام » . هذا بينما يصف هذا السكرتير النصارى القدماء بقوله « إنهم قليلو الخبرة فى الزراعة » . على أنه من المحقق أنهم تعلموا ، وأن بلنسية قد عمرت فيما بعد ، وأن سائر الطرق الزراعية ونظم الرى البديعة ، التى ربما كان من الخطأ أن تنسب إلى العرب وحدهم ، قد أحييت فى هذه المناطق حتى أيامنا .

وإذا كان تدهور الزراعة مما لا ينكر ، ولعله مبالغ فيه ، فإن تأثر الصناعة كان أقل . ذلك لأن الصناعة كانت قبل ذلك بنصف قرن قد أصيبت باضمحلال واضح ، وكذلك لأن الصناعات الرئيسية ، إذا استثنينا الورق والحرير ، لم تكن فى أيدى الموريسكيين ، وقد كانوا دائماً عمالا أكثر منهم صناعاً . فإذا قيل مثلا إن المناسج التى بلغ عددها من قبل فى إشبيلية ستة عشر ألفاً ، لم يبق منها فى عهد فيليب الخامس سوى ثلاثمائة ، ونسب ذلك كله إلى واقعة النفى ، فإن أصحاب هذا

القول ينسون أنه لم يكن فى إشبيلية أحد من الموريسكيين ، وأن هذه المصانع كانت قد تركت قبل النفى بخمسين عاماً ، كأنما آثر أجدادنا أن يحققوا الثراء بالحرب فى إيطاليا وبلاد الفلاندر ، وبغزو أمريكا ، وكأنهم كانوا ينظرون باحتقار سخيف مؤسف للفنون والأعمال الصناعية . إن اكتشاف العالم الجديد ، والثروات التى كانت تتدفق من هنالك ، فتثير الجشع ، وتذكى أطماعاً يسهل تحقيقها : ذلك هو السبب الحقيقى الذى أسكت مناسجنا وأمحل زراعتنا ، وجعل منا أول طائفة من المغامرين المحظوظين ، ثم بعد ذلك شعباً من الأشراف المتسولين ، وإنه لمن المضحك أن ننسب إلى سبب واحد ، ربما كان أقل الأسباب ، ماكان نتيجة لأخطاء اقتصادية يعسر علينا أن نتبين علاقتها بالتعصب الدينى .

والخلاصة أنه متى تدبرنا المزايا والمضار ، فإننا ننظر إلى إجراء النفى العظيم ، بنفس الحماسة التى امتدحه بها لوبى دى ڤيجا وثرڤانتس ، وكل اسبانيا فى القرن السابع عشر ، باعتباره ظفراً لوحدة الجنس ووحدة الدين واللغة ، والتقاليد . أما الأضرار المادية فقد شفاها الزمن ، وقد استحال ماكان صحراء بلقع قاتمة ، إلى مهاد خصبة وحدائق غناء . وأما الذى لا يشفى ، وأما الذى يترك دائماً الأحقاد الدموية الأبدية ، فهى جرائم تشبه جرائم الوندال . ولما هدأت آثار النفى ، أضحى النفى ليس فقط إجراء محموداً ، بل كذلك إجراء ضرورياً . لم يكن ميسوراً أن تحل العقدة ، فكان لابد من قطعها ،ومثل هذه النتائج تقترن دائماً بالانقلابات المفروضة »(١) .

ويعلق العلامة الدكتور لى ، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع على آراء المفكرين والمؤرخين الإسبان بقوله : « إذا كان نفى الموريسكيين كما يقول مننديث إى بلايو ، نتيجة محتومة لقانون تاريخى ، وإذا كان قد غدا ضرورة فى عهد فيليب الثالث ، فقد كانت ضرورة مصطنعة ، خلقها تعصب القرن السادس عشر ، وإذا كان وجود المدجنين ، منذ أيام ملوك ليون وقشتالة وأراجون فى الأراضى الإسبانية ، من الأمور المأمونة ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه زعماء اسبانيا النصرانية يشغلون بحروب أهلية مضطرمة ، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية ، وإذا كان فى وسع الملوك النصارى فى هذه العصور

---

(١) M. Menendez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Espanoles p. 339 - 843

المضطربة ، أن يركنوا إلى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب ، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم ، فإن الضرورة السياسية للوحدة الدينية ، بعد أن غدت اسبانيا دولة قوية موحدة ، وغدا المسلمون طوائف ممزقة ، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال المغرق الذى يخلقه التعصب . وقد كان هذا التعصب ، نتيجة لتعاليم الكنيسة المستمرة ، وهى التعاليم التى اعتنقتها اسبانيا مذ غدت قوة عالمية . وما أن انحدرت اسبانيا إلى طريق التعصب ، حتى دفعه توقد المزاج الإسبانى إلى نهايته المحتومة باكمال لا نظير له . ولما قضت غطرسة الكردينال خمنيس العنيفة ، على ثقة المسلمين فى عدالة اسبانيا وشرفها ، اتخذت الخطوة المحتومة فى طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة ... ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء فى الداخل ، حملوا بكل وسيلة على بغض دين فرض عليهم بالقوة ، وتبلورت مثله فى الظلم والاضطهاد وفظائع ديوان التحقيق ، وكان من المستحيل فى ظل المؤثرات الدينية ، التى غلبت على السياسة الإسبانية ، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح ، وبهما فقط يمكن العمل على إرضائهم ، وتحقيق رخائهم ، وبث محبة النصرانية فى قلوبهم . وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف ، تزيده سوءاً حتى غدوا إغراء دائماً لاتصال كل عدو من الخارج ، ومثاراً دائماً لجزع السياسة الإسبانية . فلما اضمحلت قوة اسبانيا ، وفقد حكامها الثقة بالنفس ، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم ، بالنفى والإبعاد . وقلما يقدم لنا التاريخ مثلا ، كوفئت فيه السيئة بأمثالها ، وطمت كوارثه ، كذلك الذى ترتب على جهود الكردينال خمنيس بما يطبعها من تعصب مضطرم » .

ثم يقول : « على أنه مهما كان من فداحة الضربة ، فقد كان الميسور تداركها بسرعة لو أن اسبانيا كانت تملك الحيوية القوية ، التى مكنت أمماً أخرى من أن تنهض من كوارث أشد . إن انحلال اسبانيا لا يرجع فقط إلى خسارتها لجزء من السكان ، بنفى اليهود والعرب المتنصرين ، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه الخسارة ؛ ولكن الخطب يرجع إلى أن اليهود والعرب المتنصرين كانوا من الناحية الإقتصادية أقيم عنصر بين سكانها ، وكان نشاطهم معيناً لحياة الآخرين ، وبينما كانت أمم أوربا الأخرى تنهض وتسير إلى الأمام فى مضمار التقدم ، كانت اسبانيا وشعارها أن تضحى كل شىء فى سبيل الوحدة الدينية ، تنحدر سراعاً إلى غمر البؤس والشقاء ، وتغدو جنة للأحبار والقساوسة ، وعمال ديوان التحقيق ، تخمد

فيها كل نزعة إلى الرقى العقلى ، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجى ، ويشل فيها كل جهد يبذل فى سبيل التقدم المادى . وقد كان من العبث أن تنهمر ثروات العالم الجديد، إلى أيدى شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أى شعب آخر، وإلى أرض كانت مواردها عظيمة ، مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم فى طليعة الأمم الأوربية ازدهاراً . ومهما كانت قيمة الخدمات التى أدتها إيسابيلا الكاثوليكية والكردينال خمنيس ، فإن السيئ فى عملهما يفوق الحسن ، لأنهما علما الأمة أن الوحدة الدينية هى أول غاية يجب تحقيقها ، وقد ضحت فى سبيل هذه الغاية برخائها المادى ورقيها العقلى »(١) .

وأخيراً يجمل الدكتور لى خلاصة بحثه المستفيض فى مأساة الموريسكيين فى هذه العبارة الموجزة القوية ؛ « إن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التى اتحدت لتنحدر باسبانيا فى زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس إلى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى »(٢) .

ويقول العلامة سكوت : « لقد كانت نتائج هذه الجريمة التى ارتكبت ضد الحضارة ، سواء البعيد منها والمباشر ، ضربة لاسبانيا . فقد عصفت بموارد عيشها، ودفع بها القحط إلى الخراب ، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث إلى كثير من الأسر النبيلة ، التى أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحارى، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شاسعة ، كان يغمرها الخصب الأخضر ، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراع والصناع ، وحل الجزاء المروع عقب مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى ، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالأمة التى ارتكبت فظائعها ، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الأخير»(٣).

ويمكن أن نلخص رأى النقد الإسبانى المعاصر فيما سمعته من العلامة الأستاذ مننديث بيدال ، أعظم المؤرخين والنقدة الإسبان فى عصرنا ، فقد حدثته وأنا بمدريد عن قضية الموريسكيين ونفيهم ، فأدلى إلى بالآراء الآتية :

« لا ريب أن اسبانيا قد منيت من جراء نفى الموريسكيين بخسارة مادية لأنها

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 395 - 397 & 399 - 401

(٢) Lea : The Moriscos, p V.

(٣) Scott : The Moorish Empire in Europe ; V. III. p. 328

خسرت بإخراجهم شعباً مجداً عاملا بارعاً فى الزراعة والصناعة ، ولكن الواقع أن حركة الإنقلاب البروتستانتى حملت اسبانيا على أن تتبع من جانبها سياسة كاثوليكية شديدة ، وكان من جراء ذلك أن اشتدت فى معاملة الموريسكيين ، ويمكن أن نصف هذه السياسة بأنها كانت عنيفة مغرقة .

ولم يكن نفى الموريسكيين خطوة موفقة ، وكان أيضاً من آثار الحركة الرجعية الكاثوليكية . وماكان ملك قوى مثل فيليب الثانى ليقدم على اتخاذ مثل هذه الخطوة ، ولكن ولده فيليب الثالث كان ملكاً ضعيفاً يعوزه الذكاء والحصافة . وقد غلبت السياسة الدينية والكنسية فى هذه المسألة . ويبدو خطأ هذه السياسة بالأخص من الناحية العنصرية ، فإن العلامة ريبرا يعتقد مثلا أن الموريسكيين كان نصفهم على الأقل من الإسبان الخلص الذين اعتنقوا الإسلام فى عهود مختلفة ، ثم أرغموا على التنصير بعد سقوط غرناطة وصاروا موريسكيين .

ويسلم الأستاذ پيدال بأن نفى الموريسكيين كان من عوامل انحلال اسبانيا ، ولكنه يرى من المبالغة أن يقال إنه السبب الرئيسى لهذا الانحلال . ثم يقول : « الواقع أن هذه مسألة معقدة ، وأعتقد أن من أهم أسباب انحلال اسبانيا ، عنف السياسة الكنسية المناهضة لحركة الإصلاح الدينى — البروتستانتية — وهو عنف لم يقع مثله فى أى بلد أوربى آخر بل انفردت به اسبانيا والكنيسة الإسبانية » .

ويبدى دى ماريليس الذى اتخذ مؤلف كوندى أساساً لكتابه عن « تاريخ دولة المسلمين فى اسبانيا والبرتغال » حماسة فى تقدير تراث الأمة الأندلسية وما أصاب اسبانيامن جراء القضاء عليها ، ويعلق فى خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين فى تلك العبارات الشعرية المؤثرة :

« وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكى المستنير ، الذى أحيي بهمته وجده تلك الأراضى ، التى أسلمتها كبرياء القوط الخاملة إلى الجدب ، فدر عليها الرخاء والفيض ، واحتفر لها عديد القنوات ، ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته الفياضة فى السعود والشدائد معاً ، عرش الخلفاء بسياج من البأس ، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس ، فى مدنه صرحاً خالداً من الأنوار ، التى كان ضوؤها المنبعث ينير أوربا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ، والذىكان روحه الشهم يطبع كل أعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنبل ، ويسبغ عليه فى نظر الخلف ، لوناً غامضاً من العظمة الخارقة ، ودهاناً سحرياً

من البطولة ، يذكرنا بعصور هومير السحرية ، ويقدم لنا فيهم أنصاف آلهة اليونان ، ولكن شيئاً لا يدوم فى هذا العالم . فإن هذا الشعب قاهر القوط ، الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون ، إلى أقصى الأجيال ، قد ذهب ذهاب الأشباح ، وعبثاً يسائل اليوم السائح الفريد ، قفار الأندلس المحزنة ، التى كان يعمرها من قبل شعب غنى منعم . ظهر العرب فجأة فى اسبانيا ، كالقبس الذى يشق عباب الهواء بضوئه ، وينشر لهبه فى جنبات الأفق ، ثم يغيض سريعاً فى عالم العدم ، ظهروا فى اسبانيا فملأوها فجأة بنشاطهم وثمار براعتهم ، وأظلها كوكب من المجد شملها من البرنيه إلى صخرة طارق ، ومن المحيط إلى شواطىء برشلونة . ولكن هوى يضطرم إلى الحرية والاستقلال ، وخلقاً متقلباً يميل إلى الخفة والمرح ، ونسيان الفضائل القديمة ، وميل نكد إلى التمرد والثورة ، يثيره دائماً خيال ملتهب ، وشهوات وأطماع عنيفة ، ونزعة إلى التغلب وغيرها ، من عوامل الاضمحلال ، قد عملت شيئاً فشيئاً ، على هدم ذلك الصرح العتيد ، الذى شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد بن الأحمر ، وأفضت بالعرب إلى خلافات داخلية ، فلت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء .

خرج ملايين العرب من اسبانيا ، حاملين أموالهم وفنونهم ، ثروات الدولة ، فماذا أنشأ الإسبان مكانهم ؟ لا نستطيع أن نجيب بشىء ، الا أن حزناً خالداً يغمر هذه الأرض ، التى كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبائع . أن ثمة بعض الآثار المشوهة ما زالت تقوم فى هذه البقاع الموحشة ، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الأطلال الدارسة : الشرف والمجد العربى المغلوب ، والانحلال والبؤس للإسبانى الظافر » (١) .

ويقول الأستاذ لاين پول فى مقدمة كتابه عن « العرب فى اسبانيا » : « لبثت اسبانيا فى يد المسلمين ثمانية قرون ، وضوء حضارتها الزاهرة يبهر أوربا ، وازدهرت بقاعها الخصبة بمجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير ، فلم يبق ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد ، سوى الأسماء والأسماء فقط — وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون ، دون سائر الأمم الأوربية ، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم

---

(١) De Marlès : Histoire de la Domination des Arabes et des Maures en Espagne et Portugal (redigé sur l'Histoire de M. Joseph Condé). V. III. p 404 - 406

الرياضية والفلكية والنباتية ، والتاريخ والفلسفة والتشريع ، إلا فى اسبانيا المسلمة ، فكل ما يدعو إلى عظمة أمة وسعادتها ، وكل ما يؤدى إلى رقى باهر وحضارة سامية ، فاز به مسلمو اسبانيا .

ثم ذوت عظمة اسبانيا بسقوط غرناطة . وقد سطعت لمدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية، فوق الأرض التى كان ينعشها بحرارته . ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وإيسابيلا ، وشارل الخامس ، وفيليب الثانى ، وكلومبوس وكورتيس وبيثارو ، لتموت بموتها دولة عظيمة . ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة ديوان التحقيق وسادت اسبانيا بعد ذلك ظلمة خالكة ؛ فأصبح لا يعرف الأطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور ... وقضى على فنون إشبيلية وطليطلة وألمرية وعفت صناعاتها ، وسحقت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الإسلام ، وخربت المدائن الكبيرة ، وذوت نضرة الوديان الخصبة ، فحل البؤساء والدهماء واللصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان : ذلك مبلغ انحطاط اسبانيا بعد إقصائها للعرب ، وهكذا يبدو البون شاسعاً بين أدوار تاريخها »[1].

(١) Lane-Poole : The Moors in Spain

الكتاب الخامس

نظم الحكم

والحياة الاجتماعية والفكريّة في مملكة غرناطة

الفصل الأول

نظم الحكم فى مملكة غرناطة

وخواصها الإجتماعية

مكانة الحضارة الأندلسية . ذويها عقب انهيار الخلافة . انتعاشها أيام الطوائف . ركودها أيام المرابطين وانتعاشها أيام الموحدين . بنو زهر . ابن ميمون وابن رشد . الإضطهاد الفكرى أيام الموحدين . الآداب والفنون فى هذا العهد . مملكة غرناطة وخواصها الطبيعية . دولة بنى الأحمر أو الدولة النصرية . شعارها الحكم المطلق . الوزراء الطغاة . أخطار هذا النظام . حمية الشعب الغرناطى . مناصب الحكم الرئيسية . الوزارة . خواصها ومهامها . قيادة الجيوش . الجيش والأسطول . قاضى الجماعة أو قاضى القضاة . الحسبة . صاحب الشرطة . إقليم غرناطة ومواردها . تقدم الرى والزراعة . غرس الحدائق . بسائط غرناطة . الصناعات الأندلسية . التجارة الخارجية . الموارد السلطانية . الضرائب . تكوين الأمة الأندلسية . أحوال المجتمع الأندلسى . الفروسة الأندلسية .

تعرض لنا الحضارة الأندلسية ، صفحة من أجمل وأروع صحف الحضارة الإسلامية ، والحضارة الإنسانية ، بصفة عامة . وقد نشأت حضارة الإسلام فى الأندلس فى بيئة وظروف خاصة ، واكتسبت بفعل المؤثرات التاريخية والإقليمية والاجتماعية ، لونها الخاص ومميزاتها الخاصة .

وتحتل قصة الحضارة الأندلسية ، فى تاريخ الحضارات الأوربية مكانة رفيعة ، وتملأ فراغاً كبيراً . ولكنها لم تنل مع الأسف مكانها من الرعاية والدرس فى المصادر الإسلامية ، ولم تكتب حتى اليوم كتابة شافية . وأغلب ما كتب عنها فى مصادرنا ، شذور ونبذ متفرقة غير متناسقة ، وتراجم لأعلام التفكير والأدب لم يعن فيها بدراسة الجوانب الهامة . وإنه لمن الإسراف أن نقول ، إننا نستطيع أن نستعرض هذه القصة الباهرة المتعددة النواحى ، فى فصل أو فصول ، من سفر يخصص لكتابة تاريخ المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية . على أننا سوف نحاول مع ذلك أن نستعرض صور الحضارة الأندلسية فى ظل مملكة غرناطة ، استكمالا لموضوعنا ، وأن نلقى بذلك شيئاً من الضياء على النظم والأحوال ، التى عاشت فى ظلها الأمة الأندلسية فى مراحلها الأخيرة ، وما انتهت إليه فى ميدان التفكير والآداب والفنون .

وكما أن مصادرنا الإسلامية فى هذا القسم من تاريخ الأندلس قليلة ضنينة، فهى كذلك بالنسبة لصور الحضارة الأندلسية ، وقد هلكت معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذا العصر ، كما رأينا على يد الإسبان ، ولم يسعفنا فى ذلك سوى بعض الآثار القليلة الباقية ، التى نجت من المحنة ، ولاسيما آثار ابن الخطيب ، وما نقله إلينا المقرى عن آثار ووثائق ضاعت ، وكان له فضل إيصالها إلينا .

* * *

وإذا كان تاريخ الأندلس السياسى ، يقدم إلينا صوره المتباينة، من الإضطرام والركود ، والقوة والضعف ، فكذا شأن الحضارة الأندلسية . فقد وصلت فى ظل الخلافة الأموية فى عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر ، حينما وصلت الدولة الإسلامية إلى أوج سلطانها السياسى ، إلى ذروة القوة والبهاء ، وإن لم تصل يومئذ إلى ذروة نضجها الفكرى . ولما انهارت الخلافة الأموية ، واضمحلت النظم السياسية والاجتماعية ، وسادت الثورة والفوضى أرجاء الأندلس، وهلكت معظم الآثار العمرانية والفكرية فى غمر الفتنة ، ذوت الحضارة الأندلسية مدى حين ، حتى قامت دول الطوائف فوق أنقاض الدولة الأموية ، واستطاعت بالرغم من صغرها ، وتنافسها وتطاحنها فى ميدان الحرب، أن تعيد لمحة من بهاء الدولة الإسلامية ، وسطعت آيات الحضارة الأندلسية فى قصورها ومنشآتها ، وفى مجتمعاتها ، وأينعت فى ظلها دولة التفكير والأدب ، وعرفت الأندلس فى هذه الحقبة المضطربة من تاريخها ، طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها ، مثل الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) وابن حيان أعظم مؤرخى الأندلس ، وقد توفى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، وتلميذه الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) . ومن الأدباء والشعراء ، ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢هـ (١٠٦٩ م) ، وابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) وعشرات آخرين من الكتاب والشعراء ، يقدمهم إلينا الفتح بن خاقان فى مؤلفه « قلائد العقيان » . بل لقد كان ملوك الطوائف أنفسهم فى طليعة العلماء والأدباء والشعراء، مثل الأمير العالم عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ، والشاعرين الكبيرين ، المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية[1] . ولكن

---

(١) توفى ابن الأفطس قتيلا بيد المرابطين سنة ٤٨٨ هـ ؛ وتوفى ابن عباد فى الأسر بالمغرب فى شوال سنة ٤٨٨ هـ ؛ وتوفى المعتصم بن صمادح فى سنة ٤٨٤ هـ .

سرعان ما انكمشت هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ، عقب مصرع دول الطوائف ، واستيلاء المرابطين على الأندلس فى سنة ٤٨٤ هـ (١٩٠١ م) . وكان أولئك البربر الصحراويون قوماً غلاظاً ، يؤثرون مهاد الجندية والخشونة ، وتغلب عليهم الأفكار الرجعية العتيقة ، لم تأخذهم مظاهر الحضارة الأندلسية المصقولة ، ولم تكن — إذا استثنينا العلوم الدينية — تهزهم أصداء الشعر والآداب الرفيعة ، اللهم إلا ماكان من حشدهم لبعض أكابر الكتاب الأندلسيين فى البلاط المرابطى ، ليكونوا ترجمانا للدولة . وحتى العلوم الدينية كانت تدرس فى ظلهم فى إطار خاص يغلب فيه علم الفروع على الأصول ، ومن ثم فقد طوردت فى ظلهم — فضلا عن الكتب الفلسفية والعلمية — كتب الأصول المشرقية ، وفى مقدمتها كتب الغزالى . وترتب على ذلك أن ركدت فى ظلهم دولة التفكير والأدب وذوى بهاء الحضارة الأندلسية . أجل ، سطعت فى ظل دولتهم القصيرة الأمد ، فى ميدان التفكير الأندلسى ، جمهرة من الشخصيات اللامعة من حفاظ وكتاب وشعراء ، وعلماء ، مثل الحافظ ابن الحد الفهرى المتوفى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١م) ، وأبو عبد الله بن أبى الحصال المتوفى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م) ، وأبو بكر الصيرفى المتوفى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) . وأبو بكر الطرطوشى الفيلسوف السياسى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، صاحب كتاب « سراج الملوك » ، والفتح ابن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، وابن بسام الشنتريني صاحب « الذخيرة » المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧م) ، وابن قزمان أمير الزجل الأندلسى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) ، ومن العلماء أبو القاسم خلف بن عباس القرطبى الطبيب الأشهر المتوفى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٢م) ، وابن باجة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) — وهو المعروف باللاتينية باسم Avempace . ولكن ظهور هؤلاء وأضرابهم فى هذه الفترة ، لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية والأدبية فى ظل دول الطوائف[1] .

وفى ظل دولة الموحدين ، التى خلفت دولة المرابطين فى حكم الأندلس ، انتعشت الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى . وقد نشأ الموحدون كالمرابطين فى مهاد الخشونة والتقشف ، ولكنهم كانوا أوسع أفقاً ، وأكثر قبولا لثمار التمدن .

---

(١) تناولنا سير الحركة الفكرية الأندلسية خلال العهد المرابطى بتفصيل واف فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » (القسم الأول) ص ٤٣٨ — ٤٧٤ .

وكان لدولتهم بالأخص صبغة علمية دينية ، إذ كان مؤسسها المهدى ابن تومرت ، من أئمة التفكير الدينى . وأبدى خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث ، وكانت قد صفدت فى عهد المرابطين ، وأفرج عن كتب الغزالى وغيره من مفكرى المشرق ، وكانت قد طوردت ومنعت فى أيامهم بالمغرب والأندلس . وفى تلك الفترة بالذات أعنى فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، بلغ التفكير الأندلسى ذروة النضج ، وتفجرت ينابيع النبوغ ، وظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب . وكان فى طليعة أقطاب العلم فى هذا العصر ، بنو زهر الإشبيليون ، وعميدهم الوزير والطبيب الأشهر أبو العلاء زهر ابن عبد الملك بن زهر ، ثم ولده أبو مروان عبد الملك بن زهر المتوفى سنة ٥٥٧ هـ (١١٦١ م) ، وهو المعروف باللاتينية باسم Avenzoar . ويعتبر ابن زهر أعظم طبيب ومشخص فى العصور الوسطى بعد أبى بكر الرازى ، ويعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس ، ويعتبر كتابه « التيسير » من أعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى ، وكان لمؤلفاته التى ترجمت كغيرها إلى اللاتينية فى عصر مبكر ، أثر عظيم فى سير البحوث الطبية فى أوربا ، وخلفه فى مهنته ولده الطبيب الأشهر أبو بكر بن زهر ، وحظى لدى حكومة الموحدين ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) . وظهر إلى جانب هؤلاء عدة من أقطاب الفلاسفة ، مثل أبى بكر ابن طفيل الوادى آشى ، المتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) ، وهو صاحب رسالة حى بن يقظان الشهيرة ، والإمام الفيلسوف أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبى ، المتوفى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٨م) . والرئيس موسى بن ميمون اليهودى القرطبى ، المتوفى سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) .

وفى حياة ابن ميمون وابن رشد بالأخص ، ما يمثل لنا طرفاً من سياسة الموحدين تجاه التفكير ، وترددها بين التسامح والاضطهاد . فقد كان ابن ميمون من أعظم الأطباء والفلاسفة فى عصره ، ولكنه اضطهد ليهوديته خلال الإضطهاد العام ، الذى لقيه اليهود فى ظل عبد المؤمن خليفة الموحدين ، فغادر الأندلس إلى المشرق ، ونزل بمصر وخدم ببلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وندب للتدريس بالقاهرة . وقد كان ابن رشد بلا ريب أعظم فلاسفة الإسلام ومفكريه فى ذلك العصر ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) واتصل منذ فتوته بأبى يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن ، المشرف على شئون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله

أعلام المفكرين والعلماء؛ وبرع ابن رشد فى الفقه والطب والفلسفة ، وتولى قضاء إشبيلية فى سنة ٥٦٥ هـ ، ثم ولى قضاء قرطبة ، واستمر زهاء خمسة وعشرين عاماً ، يتقلب فى مناصب القضاء والإدارة ، فى ظل حكومة الموحدين بالأندلس والمغرب ، وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص للخليفة أبى يعقوب يوسف ، ثم لولده الخليفة يعقوب المنصور بعد وفاته . واتهمه بعض خصومه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، فأمر الخليفة المنصور بنفيه إلى بلدة اليسّانة على مقربة من غرناطة ، وفرضت عليه رقابة شديدة ، ثم عفا عنه واسترد مكانته فى أواخر حياته ، واستدعى ثانية إلى مراكش ، وهنالك توفى بعد قليل فى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨م) . وأعظم آثار ابن رشد هو شروحه لفلسفة أرسطو ، فى المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وكانت مفتاح الدراسات الأرسططالية فى العصور الوسطى . وقد كان يغمرها الغموض والحلك ، قبل أن يتصدى ابن رشد لشرحها . وغدت شروح ابن رشد فى الوقت نفسه أساساً لكثير من المباحث الفلسفية ، التى ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربى . بل يرى مؤرخو الفلسفة ، أن الفلسفة الجدلية الأوربية استمدت من العرب والفلسفة العربية ، أكثر مما استمدت من قسطنطينية التى كانت مستودعاً لتراث الفلسفة اليونانية . وكتب ابن رشد فى الطب مؤلفه « الكليات » وهو من أهم الآثار الطبية فى العصور الوسطى ، وقد ترجم إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية منذ القرن الثالث عشر . ولابن رشد طائفة كثيرة أخرى من الرسائل والبحوث الفلسفية والكلامية .

وكانت الفلسفة على الأغلب علماً خطراً فى ظل حكومة الموحدين ، وقد رأيت ماكان من اضطهاد ابن رشد ونفيه بسبب آرائه الفلسفية ، وقد كان من ضحايا هذا الإضطهاد ، فى هذا العصر ، مفكر أندلسى آخر هو ابن حبيب الإشبيلى ، الذى اتهم بالزندقة بسبب آرائه الفلسفية ، أيام المأمون بن المنصور ، وقتل لهذا السبب(١) . وهكذا كانت الفلسفة أيام الموحدين قرينة الإلحاد والزندقة ، وكانت خطراً يجتنبه كثير من مفكرى العصر .

وظهر فى تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، جمهرة من أقطاب الرواية والأدب ، مثل أبى القاسم خلف بن بشكوال القرطبى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، (١١٨٣ م) ، وهو مؤلف كتاب الصلة الذى ذيل به على كتاب علماء الأندلس

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .

لابن الفرضى[1] وابن بدرون الإشبيلى المتوفى فى فاتحة القرن السابع ، وهو شارح قصيدة ابن عبدون الشهيرة فى رثاء بنى الأفطس ، وابن الصابونى الصدفى الإشبيلى الشاعر ، المتوفى فى سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) ، وقد قال ابن الأبار فى حقه « ذهبت الآداب بذهابه ، وختمت الأندلس شعراءها » .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ، يومئذ مجمع العلوم والمعارف الرفيعة فى تلك العصور ، وكانت مقصد الطلاب من كل فج ، وكانت مزودة بالمكتبات التى تضم أنفس الكتب والمصنفات ، فى مختلف العلوم والفنون[2]

وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون ، وأقيمت فى عهدهم فى معظم قواعد الأندلس ، طائفة من المساجد والصروح العظيمة ، التى تمتاز بجمالها الفنى . وكان يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن ، من أشدهم شغفاً بالمنشآت الفخمة ، ومن آثاره الشهيرة بالأندلس مسجد إشبيلية الجامع ومنارته العظيمة التى بقيت إلى اليوم وحولها الإسبان إلى برج الأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى التى بنيت مكان الجامع ، وهى من أروع الآثار الأندلسية الباقية ، ويطلق عليها الإسبان اسم « لاخيرالدا » La Giralda

وكذلك تقدمت الزراعة والصناعة والتجارة فى عهد الموحدين ، وازدهرت الزراعة بنوع خاص ، وارتقت أساليبها الفنية ، وتنوعت المحاصيل وانتشرت زراعة الفاكهة ، فى أحواز بلنسية وإشبيلية ، وتقدمت الصناعات الحربية والمدنية ، ولاسيما صناعة الأقمشة الممتازة ، والصناعات الجلدية ، وصناعة الورق وغيرها . وازدهرت التجارة وعم الرخاء . وكانت ثغور الأندلس مثل بلنسية ودانية وإشبيلية وألمرية ومالقة ، من أعظم مراكز التجارة الخارجية فى هذا العصر .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى ، واجتاحت الثورة معظم القواعد والثغور الأندلسية ، ونهض المتغلبون يتنافسون فى اجتناب أسلاب الدولة الذاهبة ، شعرت اسبانيا النصرانية بدنو الفرصة السانحة ، لاقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أطراف الأندلس الممزقة .

---

(١) وقد نشر ضمن المكتبة الأندلسية فى مجلدين طبع مدريد فى سنة ١٨٨٣ .

(٢) تناولنا سير الحركة الفكرية الأندلسية فى عصر الموحدين بتفصيل واف فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » (القسم الثانى) ص ٦٤٤ — ٧٢٦ .

وبدأت قواعد الأندلس التالدة ، تسقط تباعاً فى يد النصارى . وشغلت الأندلس بمحنتها الغامرة ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ، ومدافعة المغيرين عليها بكل ما وسعت ، فانكمشت فنون السلم ، وتضاءلت دولة التفكير والأدب ، وإن كانت المحنة قد أذكت لوعة الشعر ، وبعثت إلينا بطائفة جمة من أروع المراثى ، التى ما زالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعتها .

— ٢ —

وانجلت الفتن الداخلية ، وانجلى الصراع بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية التالدة ، مثل قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وجيان وغيرها ، فى أيدى النصارى ، وانكمشت رقعة الأندلس تباعاً ، وانحصرت فى الركن الجنوبى الغربى للمملكة الإسلامية القديمة ، فى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى برزت من غمر الفوضى ، واستقرت فى رقعتها المتواضعة ، بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وهرعت إليها معظم الأسر الأندلسية القديمة ، التى أبت التدجن والبقاء فى ظل حكم النصارى ؛ ولم يمض سوى قليل ، حتى غدت مستودع تراث الأندلس القومى والسياسى ، ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى .

وكانت مملكة غرناطة ، بالرغم من صغرها وانكماش رقعتها ، تضم ثروات عظيمة من الموارد الطبيعية ، فإلى جانب وديانها الخصبة النضرة التى تغص بالبسائط الخضراء والجنات الفيحاء ، والتى تجود بها الحبوب والكروم والزيتون والفواكه وغيرها ، توجد الجبال الوعرة تخترقها من كل صوب ، وبها الكثير من الثروات المعدنية ، ومن بينها الذهب والفضة والرصاص والحديد [1] . وتفيض الأنهار والنهيرات العديدة على بسائطها الماء الغزير . وكانت ثغورها وهى ثغور الأندلس الجنوبية ، ولاسيما مالقة وألمرية ، من أغنى الثغور الإسبانية وأزخرها بالحركة التجارية ، وكانت ولاية غرناطة وحدها تضم من البلاد والقرى العامرة نيفاً ومائة بلدة وقرية ذكرها لنا ابن الخطيب ، وقد دثر الكثير منها اليوم [2] . أما غرناطة عاصمة المملكة ، فقد غدت عقب سقوط القواعد الأندلسية الأخرى فى يد النصارى ، أعظم القواعد الأندلسية الباقية ، وأغناها وأكثرها ازدحاماً بالسكان . وكانت بحمرائها المطلة عليها من ربوتها المنيعة ، وشوارعها الزاخرة ، وميادينها الفسيحة ، وقصورها

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) الإحاطة ، ج ١ ص ١٣٣ — ١٣٨ .

البديعة ، وحدائقها ومتنزهاتها اليانعة ، من أجمل مدن العصور الوسطى . وكانت غاية فى الحصانة ، سواء بموقعها الطبيعى ، أو بأسوارها الكثيفة ، التى يتخللها ألف وثلاثمائة برج منيع ، وكانت تضم فى أيامها الزاهرة من السكان مع أرباضها وضواحيها زهاء نصف مليون من الأنفس ، وذلك بما تقاطر عليها من سيل المهاجرين من المدن الأندلسية الأخرى. وكان بوسع العاصمة وقت الحرب ، أن تعبىء وحدها زهاء خمسين ألف مقاتل ، وكانت أبهاء قصر الحمراء تتسع وحدها لأربعين ألف رجل(١) .

وقد رأينا كيف نشأت مملكة غرناطة ، على يد رجل ذى عبقرية هادئة ، ولكن واسعة الأفق ، هو محمد بن الأحمر ، زعيم بنى نصر ، وكيف استمر أعقابه يتوارثون عرش غرناطة أكثر من قرنين ، حتى سقطت فى أيدى النصارى. وتسمى دولتهم بالدولة النصرية أودولة بنى الأحمر ، وقد تسمى زعيمهم ومؤسس دولتهم بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى كان يتسم به ملوك العدوة (المغرب) فى تلك العصور ، وغلب هذا اللقب على سلاطين غرناطة حتى نهاية دولتهم ، وكان يقرن فى أحيان كثيرة بلقب « الغالب بالله » .

وكان ملوك بنى نصر ، كسائر ملوك العصور الوسطى ، يدينون بمبدأ الحكم المطلق ، ولايرون له بديلا . على أنه فى وقت الخطر العام والأحداث الخطيرة ، كان السلطان يستعين برأى الزعماء والقادة ذوى العصبية والتوجيه . وكان السلطان يستأثر بكل سلطة حقيقية ، ويباشر مهام الأمور بنفسه ، إلا فى فترات قليلة يستأثر بالسلطة فيها وزير قوى ، كما حدث فى عهد السلطان أبى عبد الله محمد الملقب بالمخلوع (٧٠١ — ٧٠٨ هـ) ، حيث استأثر بالحكم وزيره أبوعبد الله ابن الحكيم اللخمى . وعهد السلطان أبى عبد الله محمد بن اسماعيل (٧٢٥ — ٧٣٣ هـ) ، حيث استبد بالحكم دونه وزيره ابن المحروق ، وعهد أخيه السلطان أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ — ٧٥٥ هـ) حيث استبد بالحكم الحاجب أبو النعيم رضوان ، ثم فى عهد السلطان الغنى بالله (٧٥٥ — ٧٩٣هـ) حيث استبد بالحكم حيناً وزيره ابن الخطيب . وكان نظام الطغيان الذى يفرضه الوزير المتغلب ، ينتهى فى كل مرة بانقلاب عنيف ، ويستعيد السلطان سلطته الحقيقية ، فى غمرة من الحوادث الدموية .

وكان هذا النظام المطلق الذى يسود حكومة غرناطة، يؤدى إلى نشوب الثورة

(١) Prescott : (Cit, Zurita) : Ferdinand and Isabella ; p. 189

فى أحيان كثيرة ، ويذكى من عواملها فى الوقت نفسه ، تطاحن الأحزاب فى البلاط والجيش . وكان هذا النظام يتطور أحياناً فى ظل الملوك الضعاف إلى نوع من الإقطاع ، ويستأثر بعض الزعماء الأقوياء والأسر ذات العصبية ، بحكم المدن والثغور وكان الشعب الغرناطى سريع التقلب والغضب ، يأخذ فى الثورات والإنقلابات السياسية بأعظم قسط .

وكانت مناصب الحكم الرئيسية فى حكومة غرناطة ، تنحصر فى الوزارة وقيادة الجيوش والقضاء . فأما الوزارة فكانت تسند غالباً إلى أحد الأعلام من رجال القلم ، وبين وزراء الدولة النصرية ثبت حافل من هؤلاء ، مثل ابن الحكيم اللخمى ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك ، وكلهم من أقطاب الكتابة والشعر . وكانت مهام الوزارة تتلخص فى أن يتلقى الوزير أوامر السلطان ، ويعمل على تنفيذها ، ويقوم بتوزيع مختلف الأعمال على أرباب المناصب ، ويعنى بتحرير المكاتبات السلطانية ، وصياغة المراسيم ، وكان أكابر الكتاب من الوزراء يجدون فى هذه المهمة بالذات مجالا لعرض براعتهم النثرية والتحريرية . ولدينا فى مختلف الرسائل التى تركها لنا ابن الخطيب أروع نماذج للرسائل السلطانية التى تمتاز بأسلوبها العالى ، وبيانها القوى[1] ، وكان الوزير فى بعض الأحيان يقوم بقيادة الجيش ، ويسير على رأسه للغزو ، كما حدث أيام الحاجب رضوان ، وأحياناً يتولى الوزير مهام السلطنة فى غياب السلطان ، كما حدث أيام ابن الخطيب ، حيث كان ينوب عن السلطان حين تغيبه فى الغزو . وقد أسبغ على ابن الخطيب أيام وزارته لقب « ذى الوزارتين » ، وهو لقب لم يحمله فى ظل الدولة النصرية سواه وابن الحكيم الرندى وزير السلطان محمد المخلوع ، ويترتب عليه أن يتمتع الوزير بمقام الرياسة العليا ويغدو فى مرتبة « الحاجب » ، ويتناول ضعف مخصصاته . ولم يحمل من وزراء الدولة النصرية لقب الحاجب سوى الحاجب رضوان ، وزير السلطان يوسف أبى الحجاج .

وكان الوزير يستعين بطائفة من « الكتاب » لتنفيذ مختلف المهام . وللسلطان كاتب سر أو أمين خاص . وكثيراً ما يرتقى « الكاتب » إلى منصب الوزير . والخلاصة أن الوزير كان رأس السلطة التنفيذية الحقيقية ، وهو الذى يشرف سواء

---

(١) وقد أورد ابن الخطيب عدداً كبيراً منها فى كتابه ، « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » وهو ما يزال مخطوطاً .

بطريقة مباشرة أو بتوجيه سلطانه القوى ، على تصريف شئون المملكة ، وتوجيه سياستها الداخلية والخارجية .

وأما قيادة الجيوش ، فكانت أهم المناصب فى دولة تواجه إغارة العدو على أراضيها باستمرار . وكان يختص بهذا المنصب الخطير ، منذ أواخر القرن السابع الهجرى أسرة بنى العلاء ، أحد بطون بنى مرين ملوك العدوة ، وكان توليهم لقيادة الجيوش الأندلسية ، نتيجة للتحالف التى توثقت أواصره بين بنى الأحمر وبنى مرين عصراً[١]. وقد اشتهر أولئك القواد المغاربة بالبراعة والشجاعة ، وكانت لهم فى ميادين الحرب والجهاد مواقف مشهورة . وكان المتولى لمنصب القيادة العامة يلقب بشيخ الغزاة ، وكانت الجنود المغربية عنصراً بارزاً فى الجيش الأندلسى ، وقد تخلفت بالأندلس منذ أيام المرابطين والموحدين جموع كثيرة من البربر[٢]. وكانوا لبداوتهم وخشونتهم يؤثرون الحياة العسكرية على الحياة المدنية ، وقد زاد عددهم بالأخص أيام عبور الجيوش المرينية إلى الأندلس . وبالرغم مما أداه القواد والجند المغاربة لمملكة غرناطة ، من الخدمات الجليلة فى ميدان الحرب ، فقد كانوا أحياناً خطراً على النظام والعرش ، وكان لبنى العلاء شيوخ الغزاة أطماع سياسية ، ظهرت خطورتها فى بعض الثورات والإنقلابات العنيفة .

وقد كانت قوة غرناطة العسكرية ، فى الواقع عماد حياتها ، التى استطالت أكثر من قرنين ، وذلك بالرغم من القوى الجرارة المعادية ، التى لبثت باستمرار ترهقها ، وتستنفد مواردها . وكان الجيش الأندلسى ، فضلا عما كان يزخر به من العناصر المجاهدة الباسلة ، من البربر وجند البشرات وغيرها ، من المناطق الجبلية ، يتمتع بكثير من المزايا البارزة ، فكان يضم فرقاً من أبرع الرماة ، وكان بالأخص يتفوق بفرق الفرسان ، التى اشتهرت فى تلك العصور ببراعتها التى لا تبارى . وإلى جانب ذلك كانت الطبيعة تحبو غرناطة برعايتها ، وتساعدها التلال المرتفعة والمفاوز الوعرة ، التى تتخللها فى كل ناحية ، على شدة المقاومة ، وإتقان حرب العصابات التى ترهق الجيوش المنظمة . وكانت القواعد الأندلسية ، من جراء الحروب المتواصلة ، قد حولت جميعها إلى قلاع منيعة ، وشيدت الحصون القوية فى كل مكان يصلح للمقاومة . وكان للحاجب رضوان النصرى وزير السلطان يوسف أبى الحجاج ثم ولده الغنى بالله ، فى ذلك مجهود بارز ، حيث أنشأ سور غرناطة الكبير المحيط

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٢) راجع ص ٧٣ من هذا الكتاب .

بربض البيازين، وشيد سلسلة من الأبراج المنيعة أربت على أربعين، تمتد من شرق المملكة إلى غربها[١] . وأهم من ذلك كله أن مسلمى الأندلس ، كانوا قد وقفوا فيما يبدو على سر البارود[٢] ، واستعملوه منذ منتصف القرن الرابع عشر ، حسبما فصلنا فى موضع سابق[٣] . وكان لذلك كله أثر واضح فى تمكين مملكة غرناطة الصغيرة ، من الوقوف فى وجه عدوها القوى بنجاح ، طيلة هذه العصور .

وكان للقوى البحرية أيضاً شأنها ، فى كفاح الأندلس من أجل حياتها ، وكانت مملكة غرناطة تسيطر من ثغورها الشهيرة : جبل طارق والجزيرة وطريف ومالقة، على مدخل البحر الأبيض المتوسط، وكانت أهم مهام الأسطول، بعد حماية الشواطىء والثغور، تأمين الصلة المباشرة بين مملكة غرناطة، وبين إخوانها المسلمين فيما وراء البحر فى المغرب الأقصى، وقد استطاعت الأساطيل الأندلسية والمغربية ، أن تحتفظ بسيادتها فى هذه المياه عصوراً ، وكان انهيار قوة غرناطة البحرية ، وسقوط ثغورها فى يد النصارى ، نذير السقوط النهائى .

وكان أرفع المناصب القضائية ، منصب قاضى الجماعة ، وهو ما يقابل فى الأندلس ، منصب قاضى القضاة فى مصر الإسلامية . وقاضى الجماعة هو أيضاً قاضى الحضرة أو قاضى غرناطة ، والغالب أن يجمع فى نفس الوقت بين منصبه ومنصب خطيب الحمراء ، أو خطيب الجامع الأعظم[٤]، وهو أيضاً من المناصب الدينية الرفيعة . وكان القضاء يجرى فى مملكة غرناطة ، على مذهب الإمام مالك ، وهو مذهب الأندلس المفضل منذ أواخر القرن الثانى الهجرى. وكان يجرى تعيين قاضى الجماعة « بظهير » أى مرسوم ملكى . وكانت كلمة « الظهير » هى الغالبة فى مملكة غرناطة للتعبير عن المراسيم والقوانين السلطانية، وهى ما زالت تستعمل حتى اليوم فى المغرب الأقصى، حيث يوصف المرسوم بأنه « ظهير ملكى » . وكان لكل مدينة قاضيها وخطيبها ، ولايشغل مناصب القضاء سوى أكابر العلماء والفقهاء .

ويتبع القضاء وظيفة الحسبة وهى أيضاً وظيفة دينية، تقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويختص صاحبها بمطاردة المنكرات ، والتعزير والتأديب على

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٥١٧ .

(٢) Prescott : Ferdinand and Isabella p. 193-194

(٣) راجع ص ٢١٢ من هذا الكتاب .

(٤) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٧٠ و ٧٤ و ١٩٧ .

قدرها ، والعمل على احترام الأحكام الشرعية ، وقمع الغش والاختلاس فى المعاملات ، وأمور المعيشة والمكاييل والموازين ، وله أيضاً أن يحمل الناس على أداء المصالح العامة ، مثل تمهيد الطرقات والإضاءة بالليل وغير ذلك .

وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى متوالى الشرطة ، وكان يسمى أيام الدولة الأموية صاحب الشرطة ، ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية ، وكان ينتخب عادة من كبار القواد أو الخاصة ، ويتمتع بسلطات قضائية وإدارية واسعة . ثم سمى بعد ذلك بصاحب المدينة وصاحب الليل . وكان يعتبر فى منصبه تابعاً للوزارة ، مسئولا أمامها ، وكان جل اختصاصه أن يتولى حفظ النظام والأمن ، ومطاردة المجرمين وأهل الفساد ، وتنفيذ العقوبات الجنائية ، من الحد والتعزير وغيرهما فيمن وجب عليه ذلك ، وهو الذى يتولى الإتهام والتحقيق وتوقيع العقوبة ، دون تدخل القاضى ، ويعاونه فى مهمته جماعات من الحراس ، تجوب أنحاء المدينة ليلا ، وتشرف على حراسة الطرق والأمكنة وتعقب الجناة(1) .

— ٣ —

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كانت تتمتع به مملكة غرناطة ، بالرغم من انكماش رقعتها من الموارد والثروات الطبيعية الوفيرة . وكانت الزراعة منذ أيام الدولة الأندلسية الكبرى ، من أعظم موارد الأندلس ، وكانت وديان اسبانيا الخصبة ، التى تتخللها عدة من الأنهار العظيمة ، وتربتها البديعة ، وأقليمها المتقلب بين الحرارة والبرودة ، تفسح أعظم مجال لشعب عامل ذكى . وكان مسلمو الأندلس من أنبغ الشعوب ، فى فلاحة الأرض وتربية الماشية وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الرى ، ومعرفة أحوال الجو ، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم مضرب الأمثال فى الجودة والنماء ؛ وقد نقل العرب من المشرق وشمال إفريقية إلى اسبانيا كثيراً من الأشجار والمحاصيل ، كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل ، وكانت بسائط شبه الجزيرة الإسبانية فى أيامهم رياضاً نضرة ، وكانت غياض القمح وغابات الزيتون ، وحدائق البرتقال والتوت والكروم ، من أبدع ما ترى العين فى وديان الأندلس ومروجها النضرة . وأما نبوغ مسلمى الأندلس فى تنظيم وسائل الرى والصرف ، واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية ، فما زالت تشهد به آثارهم الباقية إلى الآن ، فى وديان الأندلس ، من القناطر والجداول الدارسة .

(1) ابن خلدون : المقدمة ج ١ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٠١ .

وقد أقيمت أيام الدولة الأموية عدة من القناطر الشهيرة، وحفرت ترع ومصارف لا حصر لها، فى مختلف أنحاء اسبانيا، وكلها مما يشهد لصانعها بالمهارة والتفوق. وقد شاهدت أثناء تجوالى فى اسبانيا بعض المناطق التى ما زالت تقوم فى زراعتها على مشاريع الرى الأندلسية القديمة مثل منطقة لاردة وأحوازها ومنطقة بلنسية وأحوازها ومرسية وأحوازها. وكان لأهل الأندلس شهرة خاصة فى غرس الحدائق وتنسيقها، وقد كانت حدائق الرصافة والزهراء والزاهرة، بدائع تشهد لهم بوفرة البراعة وحسن الذوق، وكانت روعتها مستقى خصباً لخيال الشعراء والكتاب، وما زالت هذه البراعة حتى اليوم علماً على جمال الحدائق الأندلسية. وقد اتخذت فنون الزراعة على يد الأندلسيين طابعاً علمياً، وألفت فيها الكتب القيمة. وقد انتهى إلينا من آثارهم فى ذلك كتاب «الفلاحة» لابن بصال الطليطلى (القرن الحادى عشر الميلادى)، وكتاب «الفلاحة» أيضاً لتلميذه أبى زكريا ابن العوام الإشبيلى (أواخر القرن الثانى عشر)، ومؤلف ثالث فى «الفلاحة» أيضاً للطغنرى الغرناطى[1]. وفى هذه الكتب كلها ما يدل على مبلغ ما وصل إليه مسلمو الأندلس من معرفة بخواص التربة، واستخراج كنوز الأرض، وطرق الرى والصرف، وأحوال الطقس وغيرها.

وكانت مملكة غرناطة بالرغم مما يتخللها من الجبال والهضاب الوعرة، تضم كثيراً من الوديان والبسائط الخصبة، وكانت ضفاف شنيل سلسلة من البسائط الخضراء، تتخللها مئات الترع والقنوات؛ وكان المرج الشهير، الواقع غربى غرناطة La Vega، وهو الذى لبث أكثر من قرنين مسرحاً للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى، بحقوله وحدائقه النضرة، كأنه قطعة من الجنان، أودعها المسلمون كل براعتهم. وكانت المحاصيل المختلفة تتعاقب طول العام، وتنتج البلاد كل ما يكفيها من الأطعمة والمؤن. وكانت مزارع الكروم الأندلسية الشهيرة، تغطى مساحات واسعة فى غرناطة ومالقة وشريش.

وكذلك ضرب مسلمو الأندلس فى الصناعة بأوفر سهم. وكانت اسبانيا المسلمة أيام قوتها، أعظم الأمم الصناعية فى أوربا؛ وكانت ثرواتها المعدنية، من الحديد والرصاص والزئبق والذهب والفضة وغيرها، تمدها بأسباب التفوق فى هذا الميدان.

---

(١) نشر كتاب «الفلاحة» لابن بصال بعناية معهد مولاى الحسن بتطوان سنة ١٩٥٥، وتوجد نسخة مخطوطة من كتاب «الفلاحة» لابن العوام بمكتبة دير الإسكوريال. وكذلك توجد نسخة من كتاب الطغنرى.

وقد اشتهرت الأندلس بنوع خاص ، بصناعة الأسلحة الجيدة ، تنتجها بوفرة وتصدرها إلى أمم أوربا وإفريقية . وكذا اشتهرت بصناعة الصوف والحرير ، والأقمشة الملونة الممتازة ، وصناعة الجلود الدقيقة التي برع فيها أهل قرطبة بنوع خاص . وطبق مسلمو الأندلس تفوقهم فى الكيمياء فى ميدان الصناعة ، فبرعوا فى صنع الأدوية والعقاقير ، واستخراج العطور من الأزهار ، وتركيب الأصباغ المختلفة ، ولاسيما اللون الذهبي ، وغيره من الألوان الزاهية . وقد استطاعت مملكة غرناطة ، أن تستبقى كثيراً من الصناعات الأندلسية القديمة ، فاستمرت غرناطة مركزاً عظيما لصناعة الأسلحة والذخائر ، وكان تفوقها فى هذه الصناعة من أسباب قوتها ، وتمكنها طويلا من مدافعة أعدائها . وكذلك استمرت صناعة الحرير على تقدمها وازدهارها ، ولاسيما فى مالقة وألمرية ، وكانت يومئذ من أعظم موارد الأندلس . وقد نقلت المدن الإيطالية ، التى اشتهرت بصناعة الحرير فى العصور الوسطى ، عن الأندلسيين معظم فنونهم وطرائقهم فى هذه الصناعة المربحة ، وكانت مدينة فيرنتزا (فلورنس) تستورد كميات كبيرة من الحرير الخام من غرناطة ، حتى أواخر القرن الخامس عشر(١) . ولبثت صناعة الأوانى الخزفية الجميلة ، مزدهرة حتى العصر الأخير ، وما زالت بقايا هذه الصناعة الأندلسية القديمة قائمة حتى اليوم فى بعض المدن الإسبانية ولاسيما فى إشبيلية ومالقة ، وما زالت المتاحف الإسبانية تغص بكثير من الأوانى الخزفية الأندلسية والموريسكية البديعة الصنع والزخرف . وكذلك لبثت صناعة الجلود الفاخرة الملونة ، حتى نفى الموريسكيين ، وقد نقلت بعد نفيهم على يدهم إلى أوربا . واشتهرت الأندلس أيضاً بصناعة الورق ، وأنشئت لها المصانع العظيمة ولاسيما فى طليطلة وشاطبة ، ونقلها الإسبان عن المسلمين ، ثم انتقلت إلى أوربا عن طريق فرنسا ، وذاعت فيها منذ القرن الثالث عشر . وقد اكتشف الغزيرى ، عدة مخطوطات بمكتبة الإسكوريال ، ترجع إلى القرن الحادى عشر ، كتبت على ورق مصنوع من القطن ، وأخرى ترجع إلى القرن الثانى عشر ، كتبت على ورق مصنوع من الكتان ، وكان لهذه الصناعة مكانتها فى مملكة غرناطة .

أما التجارة فقد بلغت شأواً بعيداً فى الأندلس ، وذلك لحسن موقعها وكثرة ثغورها ، وتوسطها بين أوربا وإفريقية ، وانتظام صلاتها البحرية ، مع سائر ثغور

---

(١) Prescott : Ferdinand Isabella : p. 191

البحر المتوسط . وكانت علائقها التجارية تمتد حتى قسطنطينية ، وثغور الشأم والإسكندرية ، وترسو سفنها التجارية فى الثغور الإيطالية ، ولاسيما جنوة ورومة والبندقية . وكانت ثغورها تزخر بمختلف الواردات ، من بلاد أوربا وإفريقية والمشرق . وازدهرت الحركة التجارية فى غرناطة ولاسيما التجارة الخارجية ، وكان للجنويين وغيرهم ، من الأمم ذات الصلات الإقتصادية الوثيقة بالأندلس ، منشآت تجارية فى غرناطة . وعقدت غرناطة مع جمهورية جنوة ومع مملكة أراجون معاهدات تجارية عديدة أشرنا إلى بعضها فيما تقدم. وكانت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر من أعظم المراكز التجارية فى جنوب أوربا ، حتى لقد وصفها بعض المؤرخين المعاصرين بأنها « مدينة جميع الأمم » . ويقول مؤرخ إسبانى « إن شهرة سكانها فى الأمانة والثقة ، بلغت إلى حد أن كلمتهم المجردة ، كان يعتمد عليها ، أكثر مما يعتمد على عقد مكتوب بيننا »(١) .

وكان الرخاء يسود مملكة غرناطة طوال أيامها ، وقلما كانت تصدع منه الثورات الطارئة أو الحروب المتواصلة . وكانت موارد الخزينة أو الموارد السلطانية كثيرة منوعة ، تتكون من ضريبة الأراضى المزرعة ، وتبلغ فى المتوسط نحو سبع قيمة المحصول ، والأموال المرسومة على السفن الواردة والصادرة ، ودخل دار السكة ، ودخل بيت المال ، من زكاة وصدقات وميراث من لاوارث له ، وأخماس الغنائم التى كانت تحصل من العدو ، ومختلف الضرائب التجارية والمهنية . وكانت للعرش فوق ذلك أملاك ومزارع عظيمة فى فحص غرناطة (المرج) تعرف بالمستخلص . وكانت الضرائب فى مملكة غرناطة على وجه العموم . أكثر مما كانت عليه فى الدول الإسلامية السابقة . وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى استمرار الصراع بلا انقطاع بينها وبين النصارى . وقدر دخل مملكة غرناطة فى تلك العصور ، بنحو مليون ومائتى ألف دوقة(٢) ، وهى قيمة لا يستهان بها فى ذلك العصر ؛ وكان يتولى الإشراف على شئون الدخل والخرج وأعمال الجباية موظف كبير يسمى « صاحب الأشغال » ، وكانت ثمة طوائف كبيرة من الشعب الغرناطى تتمتع بالثراء ، ويقتنى الكثيرون الحلى والجواهر النفيسة ولاسيما أبناء الطبقات العليا . وكانت غرناطة

---

(١) Prescott : ibid ; p. 190

(٢) الدوقة هى عملة ذهبية كانت ذائعة فى أوربا فى العصور الوسطى وتبلغ قيمتها نحو نصف جنيه من عملتنا الحديثة .

تتمتع فوق ذلك بنقد سليم ثابت[١] ، تخرجه دار السكة الملكية التى اشتهرت بأمانتها ودقتها ، ولايتطرق إليه شىء من ذلك الزغل الذى كان فى أحيان كثيرة يؤدى إلى الانهيار المالى .

— ٤ —

وقد أشرنا فى بداية هذا الكتاب ، إلى تكوين الأمة الأندلسية فى مراحلها الأخيرة فى ظل مملكة غرناطة ، وإلى خصائصها العنصرية . والحقيقة أن المجتمع الأندلسى بمختلف عناصره الأصيلة والدخيلة ، كان قد استحال بمضى الزمن ، وتعاقب الحوادث والدول ، والمؤثرات الإجتماعية والإقليمية ، إلى أمة عربية إسلامية ذات طابع مستقل ومميزات خاصة ، تدعمها طائفة من الخلال البديعة ، وتصقلها حضارة رفيعة زاهرة . ثم قامت مملكة غرناطة التى اجتمعت فيها بقية الأمة الأندلسية لتعرض لنا خلال حياتها الطويلة ، المراحل الأخيرة لعظمة الأمة الأندلسية ، وخضارتها .

وقد وصف لنا ابن الخطيب فى « الإحاطة » ، أحوال المجتمع الأندلسى ، وخواصه الجنسية والعقلية والاجتماعية ، فى هذا العصر ، الذى مالت فيه شمس الأندلس إلى الأفول . فذكر لنا أن الشعب الأندلسى ، كان يتمتع بصفات أخلاقية طيبة ، وأن صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة ، وألوانهم بيضاء ، وشعورهم سوداء ، وقدودهم متوسسطة ، وألسنتهم عربية فصيحة ، تغلب عليها الإمالة ، وأنسابهم عربية ، وفيهم كثير من البربر والمهاجرين[٢] .

وكان نساؤهم يتميزن بالجمال والسحر ، واعتدال السمن ، ونعومة الجسم ، ورشاقة الحركة ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، ولكن يندر الطول فيهن . وقد بلغن فى التفنن فى الزينة شأواً بعيداً ، يسرفن فى الأصباغ والعطور ، والتزين بنفيس الحلى .

وكان اللباس الغالب بين الأندلسيين شتاء ، الملف[٣] المصبوغ على اختلاف أصنافه وألوانه ؛ ويرتدون فى الصيف ، الكتان والحرير والقطن والأردية الإفريقية ، والمقاطع التونسية ، والمآزر المشقوقة « فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع ، كأنهم الأزهار المفتحة ، فى البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة »[٤] .

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ ، واللمحة البدرية ص ٢٩ .
(٢) الإحاطة ج ١ ص ١٤٠ .
(٣) نسيج من الصوف .
(٤) الإحاطة ج ١ ص ١٤١ .

ومما يجدر ذكره ، أن العمامة كانت يومئذ قد اختفت تقريباً كلباس رأس بين الشعب الأندلسى ، ولم يكن يلبسها سوى العلماء والقضاة[1]. وقد حلت القلانس منذ عهد بعيد مكان العمائم . وكان أهل شرق الأندلس أسبق من غيرهم فى نبذ العمامة ، وذاعت القلانس بينهم منذ أوائل القرن السابع ،حتى كان أمراؤهم وشيوخهم وقضاتهم يلبسون القلانس ، وكان كثير من أمراء المسلمين مثل ابن مردنيش وغيره يرتدون الثياب القشتالية[2]. ولم يلبس ملوك بنى الأحمر العمامة ، بل فضلوا القلنسوة (كاب) واتخذوها لباساً حتى آخر دولتهم . وكان بمتحف جنة العريف بغرناطة قبل إلغائه ، صورة يقال إنها لأبى عبد الله آخر ملوك الأندلس ، وهى تصوره بقلنسوة عالية[3] . وأما القضاة فقد احتفظوا بالعمامة كلباس رسمى . وتوجد فى سقف قاعة الملوك أوقاعة العدل بقصر الحمراء ،صورة تمثل مجلس القضاة وهم بالعمائم والبرانس ، وهى الصورة التى يعتقد البعض أنها تمثل ملوك غرناطة .

وكان الأمراء والأكابر ، وفريق كبير من أبناء الطبقات الميسورة ، يؤثرون ارتداء الثياب الإفرنجية ، اقتداء بجيرانهم النصارى ، ولاسيما فى عصور الأندلس الأخيرة . وأما ثياب الجندى الأندلسى فقد كانت فى العصور المتأخرة مشابهة لثياب الجند النصارى ، وكذلك عدتهم وسلاحهم ونظامهم فى الصفوف ، ثم عدلوا فى عصر ابن الخطيب عن هذا الزى ، إلى الجواشن المختصرة والبيضات المذهبة ،والسروج العربية . وكانت الجنود البربرية من جانبها ، تحافظ على زيها المغربى[4] .

وكان أهل الأندلس مضرب الأمثال فى النظافة ، يبالغون فى العناية بنظافة أبدانهم وثيابهم ، ويكثرون من الاستحمام . وقد كانت هذه العادات فيما بعد ، حينما أكره المسلمون على التنصير ،من الشبه التى تثيرها ضدهم محاكم التحقيق ، للتدليل على تشبثهم بالإسلام ، وارتدادهم عن النصرانية .

وكان المجتمع الغرناطى يعيش فى رخاء وسعة ، تكثر لديه الأقوات فى الشتاء والصيف ، ولاسيما الفاكهة من العنب والتين والزبيب والتفاح والقسطل والجوز واللوز وغيرها ، ويدخرها الناس يابسة على كر الفصول ، ومتى حل الصيف ، هرع الناس إلى الفحوص (المروج) أعنى الضواحى ،للتمتع بجمال البسائط النضرة، ونسيمها العليل[5] .

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ . (٢) راجع ص ٨١ و٩٩ من هذا الكتاب .
(٣) نشرنا هذه الصورة فى ص ٢٧٥ . (٤) الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ .
(٥) راجع ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ و ١٤٤ ، واللمحة البدرية ص٢٧ — ٢٩.

وكان احتفالهم بالأعياد أنيقاً ، ولكن فى حدود الإعتدال والاقتصاد . وكان الشعب الغرناطى يعشق مباهج الحياة والحفلات العامة ، وكانت الحياة لديه كأنها سلسلة من الأعياد المتواصلة . وكان الغناء ذائعاً ، ويكثر فى المنتديات والمقاهى العامة ، حيث يجتمع الشباب بكثرة ؛ ولم تنس غرناطة مرحها حتى فى أيام محنتها ، ولم تغلبها الكآبة إلا حينما أصبح العدو على الأبواب يهدد حياتها(١) .

وقد استمرت الفروسة الأندلسية فى مملكة غرناطة على ازدهارها ، ولبثت عصوراً تجذب الأنظار باكتمالها وروعتها ورقة شمائلها . وفضلا عن كونها كانت عماد الدفاع القومى ، حسبما أشرنا من قبل ، فقد كانت مظاهرها وحفلاتها من أمتع المباهج العامة ، فى ميدان كان التسامح المؤثر يسود فيه علائق المسلمين والنصارى ، بالرغم مما كان يدور بين الفريقين من صراع مستمر . وقد اشتهر ملوك غرناطة ، فضلا عن الجود ، بميلهم نحو الحرية والتسامح ، فكان الأمراء المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ، وكانوا يتلاقون أيام السلم وفى المفاوضات أنداداً كراماً . ومن أشهر مظاهر هذا التواصل ماحدث فى ربيع سنة ١٤٦٣ ، حيث سار هنرى الرابع ملك قشتالة إلى أراضى غرناطة ، وزار ملكها ابن اسماعيل ، والتقى الملكان فى مكان بقرب الفحص La Vega ، ضربت فيه خيمة ملكية أمام أبواب العاصمة ، ولما انتهت الزيارة وتبادل الفريقان الهدايا ، رافقت ملك النصارى كوكبة من الفرسان المسلمين ، وشيعته حتى الحدود . وكذلك كان الفرسان المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ، وكثيراً ما كان الفرسان النصارى يقصدون إلى غرناطة ، لقضاء مصالحهم وتسوية منازعاتهم ، وكذا كان كثير من الأسر القشتالية النبيلة ، يلجأ إلى حماية ملك المسلمين كلما شعرت بالإضطهاد والحيف ، وكان فى مقدمة هؤلاء آل ڤيلا وآل كاسترو ؛ وكانت مباريات الفروسة وحفلاتها تتوالى فى غرناطة ، وفيها يبدى الفرسان المسلمون ضروباً رائعة من البراعة والرشاقة . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات الشهيرة اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات فى الحسن والإناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من الحفلات العامة سافرات ، ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحراً ، وكن يتمتعن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية(٢) ،

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ ، واللمحة البدرية ص ٢٨ ؛ وكذلك فى Prescott: Ferd.&Isabella,p. 192

(٢) Prescott : Ferdinand & Isabella, p. 192

الفصل الثانى

الحركة الفكرية فى مراحلها الأولى

الحركة الفكرية الأندلسية فى أوائل القرن السابع . الشعر والأدب . ابن حريق . ابن مرج الكحل. ابن الجيان المرسى . ابن الأبار القضاعى . أبو الطيب الرندى . أقطاب اللغة . الفقه وعلوم الدين . المؤرخون . العلوم . أبو بكر بن زهر . ابن البيطار المالقى . بنو الأحمر حماة العلوم والآداب . محمد الفقيه وولده المخلوع . السلطان أبو الحجاج . الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل . الوزراء الكتاب والشعراء . ازدهار الشعر والأدب . ركود الحركة العلمية . ابن الحكم الرندى . حياته وشعره. ابن خميس التلمسانى . أبو الجيان الغرناطى . الرئيس ابن الجياب . ابن جابر الضرير . أقطاب اللغة . علماء الفقه والدين . التصوف . المؤرخون والرحل . العلوم .

أتينا فى الفصل السابق ، على لمحة من سير الحركة الفكرية ، فى ظل الدولة الإسلامية بالأندلس ، حتى بداية القرن السابع الهجرى ، أعنى إلى ما قبل قيام مملكة غرناطة بقليل . ونريد الآن أن نتحدث عن سير العلوم والآداب والفنون ، فى ظل مملكة غرناطة ذاتها . وسنحاول أن نتوسع فى هذا الحديث قدر الاستطاعة ، وإن كانت المصادر العربية ، ضنينة فى ذلك حسبما أشرنا ، أولا لهلاك معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذه المرحلة من تاريخ الأندلس ، وثانياً لأن كثيراً من المفكرين والكتاب المتأخرين ، الذين رأوا الوطن الأندلسى مشرفاً على السقوط فى يد العدو ، بادروا بالهجرة إلى المغرب والبلاد الإسلامية الأخرى ، وأقفرت الأندلس بذلك من مفكريها وأدبائها .

بيد أنه يجدر بنا قبل ذلك ، أن نعنى بالفترة العصيبة المضطربة التى جازتها الأندلس ، فى أواخر أيام الموحدين قبيل قيام مملكة غرناطة . وقد شهدت الأندلس فى هذه الفترة ، أعنى فى أوائل القرن السابع الهجرى ، سلسلة من الأحداث الحسام. ذلك أن سلطان الموحدين أخذ ينهار سراعا ، واضطرمت ثورة ابن هود فى الولايات الشرقية ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى ، تسقط تباعاً فى يد النصارى ، واستطاع ابن الأحمر فى الوقت نفسه ، أن ينشىء مملكة غرناطة فى جنوبى الأندلس . وكان من جراء الفوضى السياسية التى غمرت الأندلس يومئذ ، أن تصدعت الحركة

الأدبية ، وانتثر شملها ، وفقدت وسيلة الاستقرار والتجمع ، وشغل الأدباء والمفكرون يومئذ بالمحنة وآثارها . وغادر الأندلس فى تلك الفترة ، كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل فى جو أكثر استقراراً وطمأنينة ، مثل الشيخ محيي الدين ابن عربى المرسى قطب التصوف الشهير ، وابن البيطار المالقى ، وابن الأبار القضاعى ، وابن حمدون الحميرى النحوى ، وابن سعيد الأندلسى ، وكثيرون غيرهم ، ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب.

وهكذا طلعت أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) على الأندلس ، بأحداثها وفتنها المتوالية ، والحركة الفكرية فى ربوعها حائرة غير مستقرة ، يتبدى ضوؤها باهتاً ، فى ظل دول وإمارات تتصدع أركانها تباعاً . ومع ذلك فقد ظل تراث الأندلس الفكرى فى هذه الفترة متواصلا ، يمتاز على اضطرابه بكثير من نواحى القوة والنضج ، التى امتاز بها فى ظل دولة الموحدين ، وقت أن كانت فى عنفوانها .

وسوف نستعرض فيما يلى أعلام التفكير والأدب فى تلك الفترة المضطربة ، التى مهدت حوادثها لقيام مملكة غرناطة ، فهى ليست فى الواقع سوى حلقة اتصال ، بين العصر الذى اختتمته الأندلس الكبرى ، وبين العصر الذى بدأت فيه حياتها الجديدة[1] .

الشعر والأدب

وكانت الحركة الأدبية يومئذ ما تزال فى عنفوانها . وكانت دولة النثر والنظم تحتل مكانتها الرفيعة ، بل لقد بعثت الأحداث والمحن ، التى توالت على الأندلس يومئذ ، إلى الشعر بكثير من أسباب الإنفعال والقوة . فامتلأت الأندلس يومئذ بالشعر المؤسى ، والمراثى القوية المؤثرة ، التى نقل المقرى إلينا كثيراً منها ، فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض .

وكان من أعلام الشعر فى تلك الفترة ، على بن محمد بن أحمد بن حريق الشاعر البلنسى المتوفى فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧ م) ؛ كان شاعراً مجيداً كثير النظم ، ذاع

---

(١) عرضنا فى هذا الفصل بإيجاز إلى عدد من العلماء والكتاب والشعراء الذين تناولناهم فى خاتمة كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » فى القسم الذى خصصناه للحركة الفكرية الأندلسية (القسم الثانى ص ٦٤٤ — ٧٢٦) حسبما أشرنا إليه من قبل . وقد كان هذا التكرار العرضى ضرورة للمحافظة على السياق ، وللتمهيد لما سيرد من بعده خلال العصر الغرناطى .

شعره فى الأندلس ، وكتب فوق ذلك عدة كتب فى الأدب[1] .

ومنهم ابن مرج الكحل ، وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن على ، أصله من جزيرة شُقر ، وكان من شعراء عصره . وبرع بنوع خاص فى الغزل والشعر الوصفى المبتكر ، وعاش حيناً فى غرناطة ، وذاع صيته فى سائر نواحى الأندلس ، وتوفى سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) . ومن شعره يصف عشة ،بنهر لفنداق الذى يمر بلوشة :

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر ... بين الفرات وبين شط الكوثر
ولتغتبقها قهـوة ذهبيـــــة ... من راحتى أحوى المراشف أحور
والروض بين مفضض ومذهّب ... والزهــــر بين مدرهم ومـدنّر
والنهر مرقـوم الأباطح والربـا ... بمصـندل من زهره ومعصفر
وكأنه وكأن خضرة شـــــطه ... سيف يسيل على بســـاط أخضر
وكأن ذاك الحبــاب فـرنده ... مهما طفا فى صفحه كالجوهر[2]

ومنهم عزيز بن عبد الملك القيسى ؛ كان من أعيان مرسية واشترك فى حوادثها السياسية ، واستطاع أن يظفر بإمارتها لمدى قصير ،وتوفى سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠ م) قتيلا ، فى معركة نشبت بينه وبين خصومه ، وكان شاعر مجيداً ، ومن قوله عندما حلت به المحنة :

نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا ... فأعقبنى نصحى بدار هوان[3]

ومنهم على بن ابراهيم بن على المعروف بابن الفخار ، أصله من شريش وكان من أعلام الكتابة والنظم وتولى القضاء حيناً، وتوفى سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م)[4]

ومنهم إبراهيم بن سهل الإشبيلى . وقد كان يهودياً ثم أسلم ، وبرع فى الشعر ولاسيا فى التوشيح ، ومن أبدع شعره قصيدة طويلة نظمها فى مدح النبى . وقد توفى غريقاً فى النهر ، وهو شاب فى عنفوانه ، وذلك سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١م). ومن شعره قوله :

مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى ... أدارى بها همى إذا الليل عسعسا

---

(١) ابن الأبار فى تكملة الصلة (رقم ١٨٩٥) ، وصلة الصلة لأبى جعفر ابن الزبير ص١٢٩

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦ و٢٧ و٢٨ .

(٣) راجع صلة الصلة ص ١٦٥ ، وابن الأبار فى التكملة رقم ١٩٥٢ .

(٤) راجع صلة الصلة ص ١٣٥ ، والتكملة رقم ١٩٠٧ .

أتانى حديث الوصل زوراً على النوى أعيد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذى جاء زائراً أصبت الأمانى خذ قلوباً وأنفسا

ومن موشحاته :

ليل الهوى يقظان والحب ترب السهر
والصبر لى خوان والنوم من عينى برى(١)

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الحيان المرسى ، صديق ابن هود وكاتبه . وكان عالماً بالحديث والرواية ، بارعاً فى النثر والنظم . تولى الوزارة حيناً لابن هود ، وهو الذى كتب عن لسانه وصيته الشهيرة لأخيه . ولما استولى النصارى على مرسية سنة ٦٤١ هـ ، غادرها إلى أوريولة ، ثم نزح إلى المغرب ، واستقر بمدينة بجاية ، وتوفى هنالك سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) . وكان ابن الحيان صغير القد ، حتى ليخاله الناظر إليه طفلا ، ومن شعره قصيدته الدالية المشهورة التى مطلعها :

ياحادى الركب قف بالله ياحادى وارحم صبابة ذى نأى وإبعاد(٢)

ومنهم الفقيه والكاتب الشاعر المؤرخ ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى ، المعروف بابن الأبار . ولد سنة ٥٩٥ هـ وبرز فى الفقه واللغة ، وبرع فى النثر والنظم ، وتولى الكتابة للأمير أبى جميل زيان أمير بلنسية ، حفيد ابن مردنيش . ولما حاصر النصارى بلنسية سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) واشتد الخطب بالمسلمين ، أرسل أميرها زيان كاتبه ابن الأبار ، سفيراً إلى أبى زكريا الحفصى أمير تونس ، يستغيث به ويستنصره على العدو. وألقى ابن الأبار بهذه المناسبة بين يدى أبى زكريا قصيدته السينية الشهيرة ، يردد فيها صريخ الأندلس ، ويصف آلامها ومحنها ، وهذا مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل عز النصر منك ملتمسا

وهى من غرر القصائد التى ذاعت بالأندلس أيام المحنة . ولما سقطت بلنسية بعد ذلك بقليل فى يد النصارى ، نزح ابن الأبار فى أهله إلى تونس ، وعاش هنالك حيناً فى كنف أميرها المستنصر الحفصى . ولكنه تغير عليه بعد ذلك ونكبه ، ثم أمر

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤٣٢ وما بعدها ، حيث ينقل وصية ابن هود لأخيه ، وص ٤٤٠ وما بعدها حيث يذكر طائفة من نظم ابن الحيان .

بقتله متأثراً بتحريض خصومه ، وأحرقت كتبه فى موضع قتله ، وذلك فى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) . ولابن الأبار كثير من الشعر الجيد . ومن قوله فى الغزل :

لم تدر ما خلدت عيناك فى خلدى ... من الغرام ولاما كابدت كبدى
أفديك من رائد رام الدنو فلم ... يسطعه من فرق فى القلب متقد
خاف العيون فوافانى على عجل ... معطلا جيده إلا من الجيد

ومنه يصف نهراً :

ونهر كما ذابت سبائك فضة ... حكى بمجانيه العطاف الأراقم
إذا الشفق استولى عليه احمراره ... تراءى قضيباً مثل دامى الصوارم

وكتب ابن الأبار فى الأدب والتاريخ . ومن آثاره تكملة كتاب الصلة لابن بشكوال ، ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضاً كتاب الحلة السيراء ، ترجم فيها لطائفة مختارة من أعيان الأندلس من أمراء ووزراء وكتاب وشعراء ، وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ عصره[1] . وله مؤلفات أخرى مثل كتاب تحفة القادم ، وفيه يقدم طائفة مختارة من نظم شعراء الأندلس الذين سبقت وفاتهم مولده ، وبعض الطارئين عليها من الغرباء ؛ وإيماض البرق ؛ وكتاب الإعتاب ، أو إعتاب الكتاب ، ويشتمل على تراجم طائفة من كتاب الأندلس وبعض الكتاب المشارقة ، وغيرها ، وهى آثار وصل معظمها إلينا[2] .

ومنهم أبو الطيب صالح بن شريف الرندى . وكان أديباً شاعراً جزلا . بيد أننا لا نعرف كثيراً عن حياته ، ولا نعرف إلا أنه كانت من أهل رندة كما يدل على ذلك لقبه ؛ وقد ولد بها فى سنة ٦٠١ هـ ، وتوفى سنة ٦٨٤ هـ . ويصفه ابن عبدالملك فى « التكملة » أنه « خاتمة أدباء الأندلس » . وكان بارعاً فى النثر والنظم معاً .

---

(١) نشر كتاب التكملة فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ، ونشر كتاب الحلة السيراء بعناية المستشرق دوزى (ليدن سنة ١٨٥١) ، ولكن مع إغفال بعض التراجم . وتوجد منه نسخة خطية كاملة بمكتبة الإسكوريال (رقم ١٦٥٤ الغزيرى) . وقد قام بتحقيقها ونشرها الدكتور حسين مؤنس فى مجلدين (القاهرة ١٩٦٤) .

(٢) راجع فى ترجمة ابن الأبار ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨—٥٨٠ ؛ وراجع فى محنته ومقتله ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى (تونس ١٢٨٩ هـ) ص ٢٧ . ويضع الزركشى تاريخ وفاته فى سنة ٦٥٨ هـ . هذا وتوجد نسخة خطية من كتاب تحفة القادم بمكتبة الإسكوريال تحمل (رقم ٣٥٦ الغزيرى) ، كما توجد بها نسخة من كتاب إعتاب الكتاب وهى تحمل (رقم ١٧٣١ الغزيرى) .

وله مقامات بديعة فى أغراض شتى . وكان كثير الوفود على غرناطة والتردد على بلاطها . وقد عاش الرندى فى عصر الفتنة الكبرى التى اضطرمت بها الأندلس فى أواسط القرن السابع الهجرى ، والتى تمخضت عن قيام مملكة غرناطة وسقوط معظم القواعد الأندلسية الكبرى فى يد النصارى ، وقال فى المحنة مرثيته الشهيرة التى أتينا على ذكرها فى موضعها ، والتى خلدت ذكره إلى يومنا . وقد وهم المقرى فاعتقد أنه قد عاش فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، أو عصر سقوط الأندلس النهائى(١) . ومن شعره فى الغزل والتصوف :

سلم على الحى بذات العرار … وحى من أجل الحبيب الديار
وخل من لام على حبهم … فما على العشاق فى الذل عار
ولا تقصر فى اغتنام المنى … فما ليالى الأنس إلا قصار
وإنما العيش لمن رامه … نفس تدارى وكؤوس تدار
وروحه الراح وريحانه … فى طيبه بالوصل أو بالعقار(٢)
لا صبر للشىء على ضده … والخمر والهم كماء ونار

وكان الرندى من خاصة المقربين إلى السلطان محمد بن الأحمر ، وكان يطرب لشعره ، ومن أشهر قصائده فى مدح السلطان قصيدته التى مطلعها :

سرى والحب أمر لايرام … وقد أغرى به الشئون والغرام

وكتب الرندى برسم السلطان كتاباً فى التاريخ سماه « روض الأنس ونزهة النفس » . ونثره لا يقل روعة عن شعره(٣) .

* * *

وظهر فى تلك الفترة أيضاً جماعة من أقطاب اللغة ، مثل على بن محمد بن خروف الإشبيلى المتوفى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) ، وقد طاف بقواعد الأندلس والمغرب ، وذاع صيته ، ووضع شرحاً لكتاب سيبويه(٤) ؛ وعمر بن محمد الأزدى الإشبيلى

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥

(٢) تراجع القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ و ٤٩٦ .

(٣) نقلنا ملخص ترجمة صالح بن شريف عن مخطوط « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » المحفوظ بالإسكوريال . واطلعنا فى المغرب على نسخة مخطوطة من تاريخه المذكور ، وهو مجلد كبير فى تاريخ الإسلام والخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية .

(٤) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ١٢٢ .

المعروف بالشلوبين ، وكان إماماً فى العربية ، وبرع فى النحو والفقه ، وتوفى سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م)[١] .

وظهر جماعة فى الفقه وعلوم الدين ، مثل على ابن أحمد بن محمد الغسانى ، من أهل وادى آش ، وقد ألف فى شرح « الموطأ » كتاباً ضخماً سماه « نهج السالك للتفقه فى مذهب مالك » ، ووضع شرحاً لكتاب مسلم ، وتوفى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢)[٢] ؛ وعمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدى الرندى المحدث ، المتوفى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨م)[٣] ، وقرينه ومواطنه المحدث المؤرخ عيسى بن سليمان الرعينى الرندى ، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م)[٤] .

ونبغ فى تلك الفترة بالذات ، أعظم متصوفة الأندلس الشيخ محي الدين أبو بكر الطائى المعروف بابن عربى ، وقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ونزح إلى المشرق فى شبابه ، وحج وطاف بمعظم قواعده ، وبقى به حتى توفى سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) ، وله ثبت حافل من المصنفات الجليلة ، منها كتاب فصوص الحكم ، والفتوحات المكية ، والتدبيرات الإلهية ، وعشرات غيرها ، ذكرها صاحب فوات الوفيات ، وله شعر جيد[٥] .

ونستطيع أن نذكر من المؤرخين فى تلك الفترة ، إلى جانب ابن الأبار القضاعى ، الذى سبقت ترجمته ، على بن موسى بن سعيد الأندلسى ، المعروف بابن سعيد المغربى ، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، تعاقب منها قبله خمسة فى مدى قرن ، على تصنيف مؤلف ضخم فى فضائل مدن الأندلس والمغرب والمشرق ، يضم كتابين كبيرين هما : كتاب « المشرق فى حلى المشرق » « والمغرب فى حلى المغرب » وأتمه على بن موسى آخر من نبغ من هذه الأسرة . وقد ولد فى غرناطة سنة ٦١٠ هـ وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤ م) ، وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق ، ومؤلفه الكبير أثر أدبى وتاريخى وجغرافى

---

(١) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ٧١ .

(٢) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ١٢١ .

(٣) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ٧١ .

(٤) « « « « ص ٥١ .

(٥) راجع فى ترجمة ابن عربى ، فوات الوفيات ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

جليل بارع الأسلوب(١) . وله كتب أخرى ذكر منها صاحب فوات الوفيات ، المرقص والمطرب ، وملوك الشعر . وله شعر رقيق .

العـــلوم

وكان للعلوم أيضاً مجالها بالأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وربما كانت هذه آخر مرحلة ازدهر فيها العلم الأندلسى ،واستطاع أن يحتفظ بقبس من تقاليده القديمة الراسخة .

وكان ممن ظهر فى تلك الحقبة ، أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الجليانى ، الطبيب والشاعر الأديب ، أصله من جليانة من أعمال غرناطة ، ونبغ فى الطب فى ظل الموحدين ، ثم رحل إلى المشرق ، وطاف بمصر والشأم ، ونظم كثيراً فى الإلهيات والرياضيات وآداب النفس(٢) .

ومنهم أبو بكر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلى ، سليل أسرة بنى زهر الشهيرة ، التى نبغ منها فى الطب والكيمياء والصيدلة ، أبو العلاء بن زهر ، ثم ولده عبدالملك حسبما سبقت الإشارة إليه ، ثم ابنه أبو بكر هذا ، وقد برع كأبيه وجده فى الطب والكيمياء ، وكان من أعظم أطباء الأندلس فى أواخر القرن السادس الهجرى .

ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموى المعروف بابن الرومية الإشبيلى العلامة الطبيب والنباتى ، وقد اشتهر بالأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وكان إماماً فى الحديث وحجة فى علم النبات لا يبارى . ولد بإشبيلية سنة ٥٦١ هـ وتوفى بها سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) . وله مؤلفات نفيسة فى النبات والطب . منها شرح حشائش دياسقوريدس، وأدوية جالينوس ، والرحلة النباتية، والمستدركة ، وله كتاب فى الأدوية المفردة على نمط الكتب التى ألفها بنو زهر فى هذا الموضوع(٣) .

وكان من أعظم علماء الأندلس فى هذا العصر ، ابن البيطار المالقى العالم

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ . وقد انتهت إلينا من هذا الأثر الضخم نسخة مشوهة ناقصة ، وهى محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢، تاريخ . وقد نشر أخيراً كتاب « المغرب فى حلى المغرب » فى جزأين محققاً بعناية الدكتور شوقى ضيف وصادراً عن دار المعارف بالقاهرة (١٩٥٣– ١٩٥٥) .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٦ ، وقد أورد المقرى شيئاً من شعره .

(٣) ترجم له ابن الخطيب فى الإحاطة (ج ١ ص ٢١٥ وما بعدها) . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ .

النباتى والطبيب المشهور ، وهو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد بمالقة فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ودرس على أبى العباس النباتى ، ثم غادر الأندلس فى شبابه ، وطاف بأنحاء المغرب ، وقدم إلى مصر أيام الملك الكامل ، فدخل طبيباً فى خدمته ، ثم خدم ابنه الملك الصالح من بعده ، وعنى بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشأم وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وألف فى ذلك كتابين ؛ «كتاب الجامع فى الأدوية المفردة » تناول فيه الأدوية النباتية المعروفة فى عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، وكتاب « المغنى فى الأدوية المفردة » ، وهو مرتب على مداواة الأعضاء ، وله أيضا كتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » . ودرس عليه ابن أبى أصيبعة العالم المشهور ، وصاحب معجم تراجم الأطباء ، وقد أشاد ببراعته وغزارة علمه ، ودقة فهمه لكتب الأقدمين . وتوفى ابن البيطار بدمشق سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)[١] .

وظهر فى هذا العصر علماء آخرون فى الرياضيات والفلك ، وكان منهم مطرّف الإشبيلى ، وقد برع فى الفلك ، واشتغل بالتصنيف فيه ، وكان ينسب إلى الزندقة بسبب اعتكافه فى هذا الشأن ، فكان يخفى تصانيفه ونتائج بحوثه عن أهل عصره[٢] .

— ٢ —

وهكذا كانت الحركة الفكرية بالأندلس فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، تحاول رغم اضطرابها أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها . فلما نهضت مملكة غرناطة من غمر الفوضى ، وبدأت الأندلس حياتها الجديدة فى ظل هذه المملكة الفتية الجديدة ، أخذت الحركة الفكرية فى الاستقرار ، وآنست جواً من الهدوء والطمأنينة . وكان ملوك غرناطة جرياً على سنن ملوك الأندلس السالفين ، من حماة العلوم والآداب ، وكان بلاط غرناطة يسطع بتقاليده الأدبية الزاهرة ، كما سطعت من قبل قصور ملوك الطوائف ، وكان أمراء بنى الأحمر أنفسهم فى طليعة العلماء والأدباء . واشتهر عميدهم ومؤسس دولتهم محمد بن الأحمر ، بحمايته للعلم والأدب ، وكانت له أيام خاصة يستقبل فيها الشعراء وينشدونه قصائدهم[٣] ،

---

(١) راجع فوات الوفيات ج ١ صح ٢٠٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .
(٣) اللمحة البدرية ص ٣١ .

وكان من خاصة شعرائه الأثيرين لديه صالح بن شريف الرندى حسبما قدمنا . وكان ابنه محمد الفقيه عالماً ضليعاً ، يعشق مجالس العلم ويؤثر العلماء بعطفه ، ويقرض الشعر(١) ، وكذا كان ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ، عالماً شاعراً ينظم الشعر المستظرف ، وقد أوردلنا ابن الخطيب قصيدة من شعره يقول فيها :

واعـــدنى وعداً وقـد أخلفـا   أقل شىء فى الملاح الوفا
وحال عن عهـدى ولم يرعه   ما ضره لو أنه أنصـــفا
ما بالهـــا لم تتعطف عـــلى   صب لهـــا ما زال مستعطفـــا
يستطلع الأنباء من نحـــوها   ويرقب البرق إذا ما هفـــا(٢)

وبلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها ، فى مملكة غرناطة ، فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف بن اسماعيل النصرى (٧٣٣ — ٧٥٥ هـ) ، وولده السلطان محمد الغنى بالله (٧٥٥ — ٧٩٣ هـ) . وكان السلطان أبو الحجاج نفسه ، عالماً أديباً يشغف بالفنون . واشتهر الأمير أبو الوليد اسماعيل بن السلطان يوسف الثانى بأدبه وبارع نثره ، وهو صاحب كتاب « نثير الجمان فيمن ضمنى وإياهم الزمان » الذى يترجم فيه لأعلام عصره فى الشعر والأدب(٣) .

وكان من بين وزراء الدولة النصرية وكتابها ، كثير من أعلام الشعر والأدب . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ابن الحكيم الرندى ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وابن زمرك ، والشريف العقيلى خاتمة أدباء الأندلس ووزرائها ، وهم جميعاً من أقطاب الحركة الأدبية فى مملكة غرناطة ، ومن أعلام وزرائها وسادتها ، وسنعود إلى التحدث عنهم فيما بعد .

ومما تجدر ملاحظته ، أن الحركة الفكرية الأندلسية فى ذلك العصر ، تكاد تنحصر فى النواحى الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر ، وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقليه أصابها الركود ، وقلما نجد فى هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو العلوم الرياضية ، أوغيرها من العلوم المحضة ، التى ازدهرت من قبل بالأندلس ، ونبغ فيها ثبت حافل من أكابر

---

(١) اللمحة البدرية ص ٣٨ .

(٢) راجع هذه القصيدة فى اللمحة البدرية ص ٤٩ ، وراجع الإحاطة ج ١ ص ٥٥٣ و ٥٥٤ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٠٤ ، وراجع أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٦ . وتوجد نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية .

العلماء والفلاسفة ، هذا بينما احتفظت الآداب فى مملكة غرناطة بروائها وازدهارها ، حتى اللحظة الأخيرة من حياتها .

وقد تقلبت الحركة الفكرية الأندلسية فى المائتين وخمسين عاماً التى عاشتها مملكة غرناطة ، فى أطوار ثلاثة : طور الفتوة ، وطور النضج ، وطور الإنحلال الأخير . وسوف نحاول أن نستعرض هذه الأطوار الثلاثة تباعاً ، ذاكرين أقطاب التفكير والأدب فى كل مرحلة منها .

— ٣ —

ويبدأ الطور الأول باستقرار مملكة غرناطة وتوطدها ، فى أواخر القرن السابع الهجرى وأوائل القرن الثامن .

وقد حفلت هذه الفترة التى بزغت فيها شمس الأندلس من جديد ، بجمهرة من الشعراء والأدباء والعلماء ، وازدهر الأدب ، واستعاد الشعر بنوع خاص ، كثيراً من روعته ورُوائه القديم .

وكان فى طليعة شعراء هذه الفترة ، الكاتب البليغ والأديب البارع ، الوزير ابن الحكيم . وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن يحيى اللخمى الرندى وأصلهم من بيوتات إشبيلية ، وكان جد والده يحيى طبيباً عرف بالحكيم ، وأسبغ لقبه على الأسرة . ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس أيام الطوائف ، انتقلت الأسرة إلى رندة ، وولد ابن الحكيم برندة سنة ٦٦٠ ﻫ ، ووفد على غرناطة فتى ، أيام السلطان أبى عبد الله محمد المعروف بالفقيه ، فولاه كتابته فى ديوان الإنشاء . ثم تقلد بعد وفاته الوزارة لولده السلطان أبى عبد الله محمد المخلوع ، إلى جانب وزيره أبى سلطان عزيز الدانى . فلما توفى أبو سلطان ، انفرد ابن الحكيم بالوزارة ، ولقب بذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة . واستبد بالحكم حيناً حتى نشبت الثورة فى غرناطة ضد السلطان أبى عبد الله المخلوع وحكومته الطاغية ، وقتل فيها ابن الحكيم يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ ﻫ (١٣٠٨ م) حسبما أسلفنا فى موضعه . وكان ابن الحكيم شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً وخطيباً ذلقاً ، وقد وصفه ابن الخطيب فى الإحاطة بقوله : « كان علماً فى الفضيلة والسراوة ومكارم الأخلاق ، كريم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، عالى الهمة ، كاتباً بليغاً ، أديباً ، شاعراً » ، وفى كتاب « عائد الصلة » بقوله : « كان فريد دهره سماحة وبشاشة ولوذعية وانطباعاً ، رقيق الحاشية ،

نافذ العزمة ، مهتزاً للمديح ، طلقاً للآمال ، كهفاً للغريب »(١) وزار ابن الحكيم المشرق ، وحج ودرس وتلقى عن مشايخه . ومن شعر ابن الحكيم قوله :

ما أحسن العقل وآثاره	لو لازم الإنسان إيثاره
يصون بالعقل الفتى نفسه	كما يصون الحر أسراره
لاسيما إن كان فى غربة	يحتاج أن يعرف مقداره

ومن قوله فى الغزل :

هل إلى رد عشيات الوصال	سبب أم ذاك من ضرب المحال
وليال ما تبقى بعدها	غير أشواقى إلى تلك الليال
إذ مجال الوصل فيها مسرحى	ونعيمى آمر فيها ووال
ولحالات التراضى جولة	مزجت بين قبول واقتبال
وغزال قد بدا لى وجهه	فرأيت البدر فى حال الكمال
ما أمال التيه من أعطافه	لم يكن إلا على خصل اعتدال
خص بالحسن فما أنت ترى	بعده للناس حظاً فى الجمال

وقوله :

ألا واصل مواصلة العقار	ودع عنك التخلق بالوقار
وقم واخلع عذارك فى غزال	يحق لمثله خلع العذار
قضيب مائس من فوق دعص	تعمم بالدجى فوق النهار
ولاح بخده ألف ولام	فصار معرفا بين الدرارى(٢)

وكان ولده أبو بكر محمد بن الحكيم أيضاً من أعلام الأدب والشعر فى تلك الفترة ، وقد تولى مثله الوزارة فيما بعد ، وكان من أساتذة ابن الخطيب ، وقد ألف فى الأدب كتاباً سماه « بالموارد المستعذبة »(٣) .

ومن أكابر الشعراء فى تلك الفترة أبو عبد الله محمد بن خميس التلمسانى ، أصله من تلمسان كما يدل عليه اسمه . ووفد على غرناطة واتصل بالوزير ابن الحكيم ومدحه ، ونزل بألمرية سنة ٧٠٦ هـ واتصل بحاكمها القائد أبى الحسن بن كماشة ،

---

(١) راجع الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) راجع فى ترجمة ابن الحكيم وشعره : الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٨ — ٣٠٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٧ — ٩ ، وج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٧١ .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٣ .

ومدحه فأجزل صلته ، ووصفه ابن خاتمة بأنه من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، وقد جمع شعره فى ديوان سمى « الدر النفيس فى شعر ابن خميس » . وكانت وفاته قتيلا بغرناطة يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ، ويمتاز شعره بالجودة والروعة ، ومن نظمه قوله :

نظرت إليك بمثل عينى جؤذر ... وتبسمت عن مثل سمطى جوهر
عن ناصع كالدر أو كالبرق أو ... كالطلح أو كالاقحوان مؤشر
تجرى عليه من لماها نطفة ... بل خمرة لكنها لم تعصر
لو لم يكن خمراً سلافاً ريقها ... تزرى وتلعب بالنهى لم تخطر

وقوله :

عجباً لها أيذوق طعم وصالها ... من ليس يأمل أن يمر ببالها
وأنا الفقير إلى تعلة ساعة ... منها وتمنعنى زكاة جمالها
كم ذا وعن عينى الكرى متأنف ... يبدو ويخفى فى خفى مطالها
يسمو لها بدر الدجى متضائلا ... كتضاؤل الحسناء فى أسمالها

ومنه :

أتت ولكن بعد طول غياب ... وفرط لحاج ضاع فيه شبابى
وما زلت والعليا تعنى غريمها ... أعلل نفسى دائماً بمثاب
وهيهات من بعد الشباب وشرخه ... يلذ طعامى أو يسوغ شرابى
خدعت بهذا العيش قبل بلائه ... كما يخدع الصادى يلمع سراب

ومنه قوله فى الحنين إلى بلده تلمسان قصيدة من أبدع قصائده هذا مطلعها :

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو ... منى النفس لادار السلام ولا الكرخ
ودارى بها الأولى التى حيل دونها ... مثار الأسى لو أمكن الحنق اللبخ
وعهدى بها والعمر فى عنفوانه ... ومنه شبابى لا أجين ولا مطخ(١)

ومنهم أبو حيان الغرناطى ، محمد بن يوسف بن على ، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ وطاف بالمشرق ، وتوفى بمصر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) ، وكان فوق تضلعه فى الحديث والتفسير بارعاً فى اللغة والأدب ، إماماً فى النثر ، ونظم

---

(١) راجع فى أخبار ابن خميس شعره : نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ — ١٩٤ ؛ وأزهار الرياض ج ٣ ص ٣٠٣ .

الموشحات ، وقد ترك مؤلفات كثيرة في التفسير واللغة والأدب ، وله شعر كثير ومن نظمه قوله فى موشحته :

إن كان ليل داج . وخاننا الإصباح . فنورها الوهاج . يغنى عن المصباح
سلافة تبدو كالكوكب الأزهر
مزاجها شهد وعرفها عنبر
ياحبذا الورد منها وإن سكر(١)

وكان الرئيس أبو الحسن على بن الجياب ، وزير السلطان يوسف أبى الحجاج وكاتبه ، فى طليعة أقطاب النثر والنظم فى تلك الفترة ؛ ولد بغرناطة سنة ٦٧٣هـ ، وبرع فى الشعر والأدب ، وتقلب فى مناصب الكتابة حتى غدا رئيساً لديوان الإنشاء ، وكان من معاونيه فى الكتابة لسان الدين بن الخطيب وقد ورث منصبه عقب وفاته . وتوفى ابن الجياب ضمن ضحايا الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) . ومن شعره قوله :

لله عصر الشباب عصرا فتح للخير كل باب
حفظت ما شئت فيه حفظا كنت أراه بلا ذهاب
حتى إذا ما المشيب وافى نَدٍّ ولكن بلا إياب

ومنه فى الوعظ :

يا أيها الممسك البخيل إلهك المنفق الكفيل
أنفق وثق بالإله ترع فإن إحسانه جزيل(٢)

ومن شعراء ذلك العصر أبوعبد الله محمد بن جابر الأندلسى الهوارى الضرير ، وقد رحل إلى المشرق ، ومدح بعض أمرائه ، وقصد إلى سلطان ماردين فأجزل صلته ، وقد أشار ابن بطوطة الرحالة إلى ذلك عند ذكره فى رحلته لسلطان ماردين(٣) ؛ ولابن جابر موشحات كثيرة ومدائح جيدة فى الصحابة وآل البيت ، ومن شعره فى الغزل قوله :

شغفت بها حيناً من الدهر لم يكن سوى سكب دمعى فى محبتها كسبى
وما أصل هذا كله غير نظرة إلى مقلة منها أصغت لها قلبى

(١) راجع ترجمته وشيئاً من شعره فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٥ .
(٢) راجع ترجمة ابن الجياب وشعره : نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٣ — ٢٢٩ .
(٣) نفح الطيب ٤ ص ٣٩٣ ؛ ورحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٥٠ .

ومنـــه :

تجنت فجن فى الهوى كل عاقل   رآها وأحـوال المحب جنـون
وما وعدت إلا غلت فى مطالها   كذلك وعـد الغانيات يكون

ومنه فى الحكم :

مهـلا فما شـيم الوفا منقادة   لمن ابتغى من نيلها أوطارا
رتب المعـالى لا تنال بحيـلة   يوماً ولو جهـد الفتى أوطارا

وقال يتشوق إلى حمراء غرناطة :

دامت على الحمراء حمر مدامعى   والقلب فيما بين ذلك ذائب
طال المـدى بى عنهم ولربمـا   قد عاد من بعد الإطالة غائب

* * *

وظهر من أقطاب اللغة فى تلك الفترة عدة ، منهم أبو بكر محمد بن إدريس الفرانى القضاعى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) . وقد كتب فى علم العروض كتاب « الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض » ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال[١] .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الحافظ النحوى شيخ ابن الخطيب الأب ، وقد ولد بجيان سنة ٦٢٦هـ وتوفى سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) . قال ابن الخطيب فى حقه : « انتهت إليه رياسة العربية بالأندلس » ؛ وكان عالماً بالقرآن والحديث ، مجيداً للنثر والنظم ، ولى القضاء بغرناطة ، واتصل بسلطانها الأمير أبى عبد الله محمد بن محمد بن الأحمر فأكرم مثواه ، وقد صنف كتباً عدة فى مختلف الفنون ، ومن آثاره المنشورة كتاب « صلة الصلة » الذى ألفه ذيلا على كتاب الصلة لابن بشكوال[٢] .

ومنهم أبو الحسن على بن يحيى الفزارى المالقى المعروف بابن البرزى المتوفى سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩ م) ، وكان بارعاً فى اللغة ، وله شعر يصفه ابن الخطيب بالضعف والهزال .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن على الفخار البيرى ، كان شيخ النحاة بالأندلس فى عصره ؛ درس عليه الكثيرون ومنهم ابن الخطيب وابن زمرك ، وقد وصفه

(١) المستشرق بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى **Geschichte der Arabischen Litteratur** **1943 .B . II. p. 259.**

(٢) راجع فى ترجمة ابن الزبير ، كتاب « صلة الصلة » المنشور بعناية الأستاذ ايفى بروفنسال فى المقدمة ص : و — ج . وكذلك الإحاطة ج ١ ص ١٩٥ — ٢٠٠ .

ابن الخطيب فى الإحاطة « بالإمام المجمع على إمامته فى العربيه ، المفتوح عليه من الله فيها حفظاً واطلاعاً ، واضطلاعا ، ونقلا وتوجيها بما لا مطمع فيه لسواه » ، وكانت وفاته بغرناطة سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م)(١) .

* * *

ونبغ من علماء الدين والفقه فى تلك الفترة ، القاسم بن عبد الله بن الشط الأنصارى الإشبيلى ، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م) وله كتاب « البرنامج» عن قضاة الأندلس (٢). وأبو القاسم بن جزى الكلبى (محمد بن أحمد بن محمد) وهو من أهل غرناطة ، وأصل سلفه من ولبة بولاية الغرب ، كان فقيها حافظا مشاركا فى فنون كثيرة ، ولاسيما اللغة والفقه ، والقراءات والأدب . اشتغل بالتدريس بغرناطة ، وتولى منصب الخطابة بالجامع الأعظم ، وله عدة مؤلفات منها كتاب « التسهيل لعلوم التنزيل » و« الأنوار السنية فى الألفاظ السنية » و« القوانين الفقهية فى تلخيص مذهب المالكية » وكتاب« تقريب الوصول إلى علم الأصول » وغيرها ، وله فهرسة اشتملت على طائفة كبيرة من علماء المشرق والمغرب ، ولد بغرناطة سنة ٦٩٣ هـ وتوفى قتيلا فى موقعة طريف سنة ٧٤١هـ(٣) .

وازدهر التصوف فى هذا العصر ، وكان من أقطابه يومئذ أبو الحسن على ابن فرحون القرشى القرطبى ، المتوفى سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) ؛ وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى الأنصارى المرسى ، وقد ولد فى سنة ٦٨٧ هـ وتوفى بغرناطة سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠م) ، وله كتاب« زهرة الأكمام » فى قصة يوسف ؛ وأبو عبد الله محمد بن محمد الأنصارى المالقى المولود سنة ٦٤٩ هـ ، والمتوفى سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) ، وله كتاب « بغية السالك فى أشرف المسالك » فى مراتب الصوفية وطرائق المريدين(٤) .

وظهر من المؤرخين ، محمد بن يحيى بن أبى بكر بن سعيد الأنصارى المالكى . وقد ولد سـنة ٦٧٤ هـ ، وتولى الخطابة والقضاء بغرناطة ، وتوفى قتيلا فى

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٢ و١٩٦ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٣) نفح الطيب (عن الإحاطة) ج ٣ ص ٢٧١ ، وبروكلمان المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) فى موقعة طريف . ومن آثاره كتاب « التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان بن عفان »(١) .

ومن الرحل والرواة ، أبو البقاء خالد بن عيسى البلوى ، وقد رحل إلى إفريقية والمشرق بين سنتى ٧٤٦ و٧٤٠ هـ ، وكتب عن رحلته كتاب « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » وانتفع فى مؤلفاته بما كتبه ابن جبير عن المشرق(٢) .

* * *

وأما العلوم فلم تزدهر مثل إزدهارها فى الماضى ، ولم تشغل فى الحركة الفكرية سوى مجال محدود . وكان من أشهر علماء ذلك العصر أبوزكريا يحي بن هذيل حكيم غرناطة وفياسوفها المتوفى سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٣ م) ، وقد برع فى الطب والفلسفة والعلوم والرياضة ، وكان من شيوخ ابن الخطيب(٣) وقد وصفه ابن الخطيب فى الإحاطة بأنه « درة بين الناس معطلة ، وخزانة على كل فائدة مقفلة » ونوه بروعة محاضراته وأدبه . وله شعر جمع فى ديوان سمى « بالسلمانيات » . وقد نقل إلينا المقرى طائفة من نظمه(٤) . ونستطيع أن نضع فى العلماء المعاصرين أيضاً شيخ ابن الخطيب أبا عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبى ، وكان من أكابر الأئمة فى الفقه ، واختصر عدة من أمهات الكتب مثل كتاب « بهجة المجالس » لابن عبد البر . وكتب كتباً فى الهندسة والفلاحة(٥) .

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٠ ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ، وتوجد من كتابه نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ . وص ٢٥٨ .

(٤) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٥٨ — ٢٦٣ .

(٥) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٣٠٢ .

الفصل الثالث

عهـــد النضج والازدهار

تقدم الحركة الفكرية . ابن سلبطور الشاعر . أبو القاسم الحسينى . ابن خاتمة . ابن الخطيب . نشأته وحياته . سفارته إلى المغرب وقصيدته للسلطان . وصفه لحياته فى الوزارة . سقوطه وجوازه إلى المغرب . احتفاء السلطان به وإنشاده فى حضرته . ابن الخطيب وابن خلدون . ما قاله الأمير ابن الأحمر فى تقدير ابن الخطيب . تهنئته للسلطان . عوده إلى الأندلس وإلى تولى الوزارة . وصفه لجهوده يومئذ . ما ينسب إليه من طغيان . فقده لحظوته وجوازه إلى المغرب . كيد خصومه له . اتهامه بالزندقة . تطور الحوادث فى المغرب . تفاهم بلاط غرناطة مع سلطان المغرب على الإيقاع به . الوزير ابن زمرك يلاحقه فى فاس . اتهامه ومصرعه . مؤلفاته وآثاره . أثره فى تطور الحركة الأدبية . ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب . نشأته وحياته . مكانته الأدبية . نماذج من شعره وموشحاته . الموازنة بينه وبين ابن الخطيب. بقية الشعراء والأدباء فى تلك الفترة . الفقهاء . المؤرخون .

شهدت الحركة الفكرية الأندلسية فى مملكة غرناطة ، مرحلة النضج فى أواسط القرن الثامن الهجرى وأواخره ، وشهدت فى النصف الأخير من هذا القرن ، ذروة قوتها وازدهارها .ولا غرو فهذه الفترة هى التى سطع فيها ابن الخطيب ، أعظم مفكرى الأندلس ، وأعظم كتابها وشعرائها فى ذلك العصر . وامتازت هذه الفترة ، بروعة إنتاجها الأدبى فى النثر والنظم ، وربما كان للأحداث والفتن الداخلية الخطيرة التى جازتها الأندلس يومئذ ، أكبر أثر فى تغذية هذه الحركة الممتازة ،وإمدادها بمختلف الإنفعالات القوية ، التى طبعت إنتاجها .

وقد بدأت هذه الحركة فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف بن اسماعيل، أعظم سلاطين بنى نصر (٧٣٣ — ٧٥٥ ﻫ) وأشدهم حماسة فى تعضيد الآداب والفنون ، واستمرت من بعده طوال القرن الثامن الهجرى ، وحفلت بعدد كبير من الأدباء والشعراء الممتازين . وقد استعرضنا الكثير منهم فيما تقدم حتى منتصف القرن الثامن ، وسنمضى هنا فى استعراض بقية هذا الثبت الحافل حتى أواخر هذا القرن .

كان من أكابر الشعراء فى بداية هذه الفترة ، ابن سلبطور شاعر المرية ،وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمى ، والظاهر أنه قد يرجع إلى أصل من أصول المولدين الإسبان ،.كما يدلى بذلك اسمه سلبطور Salvador ؛

وقد نشأ بالمرية ، وبرع فى الأدب ، وتدرب منذ فتوته على ركوب البحر وقيادة السفن ، وناب فى قيادة الأسطول عن خاله القائد أبى على الرنداحى أحد أبناء أسرة الرنداحى ، التى اشتهرت عصراً بقيادتها للأساطيل الأندلسية وأساطيل سبتة . واشتهر ابن سلبطور برائق نظمه . وفى أواخر حياته انحرف عن جادة الصواب ، وانكب على ملاذه وشهواته ، وأضاع كل ثروته ، حتى ساءت حالته ، وانحدر إلى هاوية الفقر والبؤس ، فعبر البحر إلى العدوة ، وتوفى بمراكش سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) . ومن شعره يمتدح السلطان حين حل بالمرية :

أثغرك أم سمط من الدر ينظم ... وريقك أم مسك من الراح تختم
ووجهك أم باد من الصبح نير ... وفرعك أم داج من الليل مظلم
أعلل منك الوجد والليل ملتق ... وهل ينفع التعليل والخطب مؤلم
وأقنع من طيف الخيال بزورة ... لو ان جفونى بالمنـام تنعم[(١)]

ومنهم أبوعبد الله محمد بن جُزى ، الكاتب الشاعر ، ولد بغرناطة سنة ٧٢١ هـ ، وانتظم منذ فتوته بين كتاب السلطان أبى الحجاج يوسف ، وحظى لديه ومدحه بطائفة من القصائد الرنانة ، ثم غضب عليه ونكبه ، فغادر الأندلس إلى العدوة ، ودخل فى خدمة السلطان أبى عنان المرينى ومدحه ؛ وكان بارعاً فى النثر والنظم ؛ ذكره ابن الأحمر فى « نثير الجمان » وأشاد بمقدرته ، ووصفه بأنه أعظم شاعر فى عصره . وكانت وفاته بمراكش سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م)[(٢)] . وهو الذى أنشأ رحلة ابن بطوطة من مذكرات صاحبها حسبما ينوه بذلك فى خاتمة الكتاب[(٣)] .

ومنهم قاضى الجماعة ، أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسينى ، ولد سنة ٦٩٧ هـ ، وتوفى بغرناطة سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٨ م) ، ولى رياسة القضاء ، وكان فوق تضلعه فى الحديث والفقه ، شاعراً مجيداً ، وكتب فى العروض والأدب ، وجمع شعره فى ديوان أسماه « جهد المقل »[(٤)] .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى ؛ ولد بالمرية

---

(١) نفح الطيب (عن الإحاطة) ج ٣ ص ٤٥٠ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٨٤ وما بعدها ، وأزهار الرياض ج ٢ ص ١٨٩ ، ومابعدها وفيه يورد بعض شعره .
(٣) أزهار الرياض ج ٢ ص ١٩٥ ، ورحلة ابن بطوطة (مصر) ج ٢ ص ٢٠٧
(٤) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٧ .

سنة ٧٢٤ هـ . وتوفى سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٩م) . وكان أديباً كبيراً وشاعراً مبرزاً . وقد خصه ابن الخطيب فى الإحاطة بترجمة قوية(١)، ووصفه بأنه « صدر يشار إليه، متفنن، مشارك، قوى الإدراك، سديد النظر، قوى الذهن، جيد القريحة » . ووصفه فى كتابه « التاج المحلى » بقوله : « ناظم درر الألفاظ ، ومقلد جواهر الكلام ، نحور الرواة ولبات الحفاظ » .

وكتب ابن خاتمة عن مسقط رأسه ألمرية ، كتاباً أسماه « مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية » ، وكتب عن الوباء الكبير الذى عصف بالأندلس سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) رسالة عنوانها ؛ « تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد » يصف فيها عصف الوباء وسيره بمدينة ألمرية(٢) . وله ديوان شعر محفوظ بمكتبة الإسكوريال . ومن شعره قوله من قصيدة طويلة :

من لم يشاهد موقفاً لفراق ... لم يدر كيف توله العشـــاق
إن كنت لم تره فسائل من رأى ... يخـــبرك عن ولهى وعن أشـواق
من حر أنفـاس وخفق جوانح ... وصدوع أكباد وفيض مآق
دهى الفؤاد فلا اللسان بناطق ... عند الوداع ولا بلفظ فـراق

وقوله من قصيدة أخرى :

لولا حيائى من عيون النرجس ... للثمت خد الورد بين السندس
ورشفت من ثغر الأقاحة ريقها ... وضممت أعطاف الغصون الميس
شـتان بين مظاهر ومخـــاتل ... وعف الحجا ومطهر ومدنس
ومجمجم بالعـــذل باكرنى به ... والطير أفصح مسعد بتأنس(٣)

وقوله :

هو الدهر لا يبقى على عائذ به ... فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه
فمن لم يصب فى نفسه فمصابه ... بفوت أمانيـه وفقد حبائبـــه

وكتب ابن خاتمة إلى صديقه ابن الخطيب ، حينما أزمع الرحلة عن الأندلس، رسالة مؤثرة يخاطبه فيها بقوله : « إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها،

---

(١) تراجع هذه الترجمة فى الإحاطة ج ١ ص ٢٤٧ – ٢٦٧ .

(٢) توجد من هذه الرسالة نسخة مخطوطة ضمن مجموعة تحفظ بمكتبة الإسكوريال (رقم ١٧٨٥ الغزيرى) .

(٣) تراجع هاتان القصيدتان فى الإحاطة ج ١ ص ٢٥٢ – ٢٥٤ و ٢٥٥ – ٢٥٧ .

وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على المعلوم والمخصوص ؛ ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها » . وقد رد عليه ابن الخطيب برسالة مؤثرة كذلك تفيض بلاغة وبياناً[1] .

— ٢ —

نعرض بعد ذلك ، إلى ألمع فترة فى الحركة الفكرية ، فى ظل مملكة غرناطة ، وهى الحركة التى كان قطبها ومحورها ، أعظم مفكرى الأندلس ، وأعظم شعرائها وكتابها ، فى القرن الثامن الهجرى ، ونعنى لسان الدين بن الخطيب .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى نشأة ابن الخطيب ، واستعرضنا طرفاً من حياته السياسية ، ونريد هنا أن نبسط القول فى حياته الفكرية والأدبية .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ؛ ولد فى لوشة من أعمال غرناطة ، فى بيت من أكرم بيوت الأندلس فى شهر رجب سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ، ثم انتقل بيتهم من لوشة إلى غرناطة . وخدم أبوه عبد الله فى القصر والخاص فى عهد السلطان يوسف أبى الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة . ودرس الطب والفلسفة والشريعة والأدب ، وبرز فى النثر والنظم منذ حداثته ، ولما توفى أبوه فى سنة ٧٤١ هـ قتيلا فى موقعة طريف حل مكانه فى خدمة القصر ، وهو فتى فى عنفوانه ، وتولى أمانة السر للوزير أبى الحسن بن الجياب ، وزير السلطان يوسف. ولما توفى ابن الجياب فى الوباء الكبير سنة ٧٤٩هـ ، خلفه فى الوزارة والكتابة ، إلى جانب كبير الوزراء الحاجب أبى النعيم رضوان ، وندبه السلطان لبعض السفارات والمهام السياسية . ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف (٧٥٥ هـ) ، وخلفه ولده محمد الغنى بالله ، استمر الحاجب رضوان فى الاضطلاع برياسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب إلى جانبه فى منصبه ، وندب للوصاية على الأمراء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولايته (أواخر سنة ٧٥٥ هـ) سفيراً إلى السلطان أبى عنان المرينى سلطان المغرب ، على رأس وفد من وزراء

---

(١) راجع الإحاطة حيث يورد رسالة ابن خاتمة ورد ابن الخطيب عليها ج ١ ص٢٦١–٢٦٧ وكذلك أزهار الرياض ج ١ ص ٢٦٥ – ٢٧٠ . وراجع عن ابن خاتمة نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ و٤١١ ما بعدها ؛ وكذلك بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

الأندلس ، يستنصره ويستغيث به على مقاومة طاغية قشتالة ، وأنشد ابن الخطيب بين يدى السلطان قصيدة يقول فيها :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك فى النائبات بدر دجى لنا وفى المحل كفك المطر
والناس طرا بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن فى غير علياك ما له وطر

فاهتز السلطان لقصيدته ، ووعدهم بإجابة ملتمسهم وتحقيق رغباتهم(١) .

ثم وقعت الثورة فى غرناطة فى شهر رمضان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) ، وقتل الحاجب رضوان ، وأقصى الغنى بالله عن الملك ، وفر إلى وادى آش ، وخلفه على العرش أخوه اسماعيل ، وولى ابن الخطيب الوزارة للملك الجديد حيناً ، ولكن سرعان ما غضب عليه ، وأمر باعتقاله ومصادرة أمواله . ويصف لنا ابن الخطيب فى ترجمته لنفسه ، فى نهاية كتاب الإحاطة ، هذه المراحل الأولى من حياته فى قوله : « فقلدنى السلطان سره (يريد أبا الحجاج) ولما يستكمل الشباب ، واستعملنى فى السفارة إلى الملوك ، واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صون حضرته وبيت ماله ، وسجوف حرمه . ومعقل امتناعه . ولما هلك السلطان ، ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى ، إلى أن كانت الكائنة ، فاقتدى فى أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته ، على القبض على ، فكان ذلك » .

وتدخل السلطان أبو سالم ملك المغرب ، فى شأن السلطان المخلوع الغنى بالله ، وكانت تربطه به مودة وصداقة ، مذ كان أيام محنته يلوذ بحمايته بغرناطة ، وأرسل إلى ملك غرناطة الجديد سفيراً يطلب إجازة الغنى بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فأجابه السلطان اسماعيل إلى مطلبه ، وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب ووصلا إلى فاس فى أوائل شهر المحرم سنة ٧٦١ هـ ، واستقبلهما السلطان أبو سالم بترحاب ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدته المشهورة ، التى يدعوه فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها :

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٥٣ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٣ .

سلا هل لديها من مخبرة ذكر — وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمىُّ داراً على اللوى — عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى — بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوِّى الذى ربى جناحي وكره — فها أنا ذا ما لى جناح ولا وكر

ومنهـا :

قصدناك يا خير الملوك على النوى — لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها — وقد رابنا منها التعسف والكبر
وعُذنا بذاك المجد فانصرم الردى — ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر يرهب موجه — ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

ومنهـا :

وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى — وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا — بيالمرين جاءه العـز والنصر
وخـذ يا إمام الحق بالحق ثأره — ففى ضمن ما تأتى به العز والأجر (١)

وكان لإنشاد ابن الخطيب فى السامعين أعظم وقع . ويقول لنا ابن خلدون، وقد كان من شهود ذلك الحفل ، إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى . وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظيمين ، اللذين تجمع بينهما مشابهات عدة . فقد كان كلاهما أستاذ عصره فى التفكير والكتابة ، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز فى حوادث عصره ، وفى توجيه شئونه ؛ وكان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب ، نفس المركز الذى يشغله ابن الخطيب بالأندلس ، وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة ، التى يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس . وتوثقت بين المفكرين العظيمين مدى حين ، أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلطانها الغنى بالله . وكان كل منهما يقدر صاحبه ويجل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والإجلال ، فيقول لنا ابن خلدون مثلا فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » . ثم ينوه بعد ذلك

(١) تراجع هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ٣ ص ٤٥ — ٤٧ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ١٩٦ — ٢٠٠ .

بروعة رسائله السلطانية ، وبراعته فى الإدارة والحكم[١] .

ويصف لنا الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر ، معاصر ابن الخطيب ، خلاله ومواهبه « فى كتابه نثير الجمان » فى تلك العبارات الرنانة :

« هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه فى الكتب ، ولا يمنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية » . ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته فى الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويجمل[٢] .

وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب ، واستقر بسلا ، وتوالت مدائحه للسلطان أبى سالم ، ومنها قصيدة طويلة يهنئ فيها السلطان بفتح تلمسان (٧٦١هـ) هذا مطلعها :

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى ... وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان
فأطلعتها تفتر عن شنب المنى ... وتسفر عن وجه من السعد حيانى
كما ابتسم النوار عن أدمع الحيا ... وجف بخد الورد عارض نيسان
كما صفقت ريح الشمال شمولها ... فبان ارتياح السكر فى غصن البان[٣]

وبعث إلى السلطان فى الوقت نفسه من سلا ، برسالة بليغة يهنئه فيها بذلك الفتح الكبير[٤] .

أنفق ابن الخطيب ومليكه فى المتنى زهاء عامين ونصف ، حتى مهدت حوادث الأندلس لسقوط المغتصب ، واستطاع الغنى بالله بمعاونة الوزير عمر المتغلب على المغرب ، أن يسترد ملكه ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) ، ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة ؛ ولكنه لم ينعم تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافسه فى السلطة شيخ الغزاة عثمان بن يحيى ، الذى قربه السلطان وأولاده عطفه ، لماقام به

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٤ ، حيث ينقل تلك الفقرات . وتوجد من كتاب « نثير الجمان » نسخة خطية وحيدة بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ١٨٦٣ آداب .

(٣) وردت هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٦ — ١٩ ؛ وفى بعض أجزائها ينحو ابن الخطيب نحو أبى البقاء فى مرثيته الأندلسية .

(٤) وردت هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٩ و ٢٠ .

من معاونته فى استرداد ملكه . ونشبت بين الرجلين منافسة شديدة ، وما زال ابن الخطيب يحرض السلطان ويحذره من نفوذ عثمان وآله ، ويذكره بسابق غدرهم ، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم (رمضان سنة ٧٦٤ هـ) ، وبذا خلا له الجو ، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان .

ويصف لنا ابن الخطيب ، جهوده وعمله فى الوزارة يومئذ فى قوله : « ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه الخطة ، بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية ، والأمن ، وروم الثغور ، وتثمير الجباية ، وإنصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنابر ، ضماناً من السلطان ، بترياق سم الثورة ، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ... »(١) .

غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى ، على أن ابن الخطيب جنح عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته :

« وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بنيه بندمائه وأهل حكومته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتفننوا فى السعاية فيه »(٢) .

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى فى الوزرة وهو يستأثر بكل ساطة ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحسد . وكان السلطان يعرض فى البداية عن الإصغاء لأعدائه والوشاة به ، ولكنه بدأ فى النهاية يتأثر بسعايتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغير عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس ، واستأذن السلطان فى تفقد الثغور الغربية ، وسار إليها فى نفر من خاصته ومعه ولده على ، وما كاد يصل إلى جبل الفتح (جبل طارق) ، حتى عبر البحر إلى سبتة (٧٧٢ هـ) ، وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبد العزيز المرينى ، ملك المغرب ، وكان يقيم يومئذ فى تلمسان عقب افتتاحه لها ، فقصد إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة ، وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى فى استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأتى بها معززة مكرمة ،

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٤١ .　　(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٥ .

وتبوأ ابن الخطيب فى بلاط ملك المغرب أسمى مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة ، بنجاته على هذا النحو ، فعولوا على ملاحقته وسحق هيبته ، فاتهموه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، والطعن فى النبى ، والقول بالحلول ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين ، واستندوا فى ذلك إلى بعض أقوال وردت فى رسائله ومقالاته أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه فى الوزارة أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه الدعاية ، وتولى صوغ الإتهام القاضى أبو الحسن على بن عبد الله النباهى عدو ابن الخطيب الألد ، وأفتى بوجوب حرق كتبه التى تتناول العقائد والأخلاق ، فأحرقت فى غرناطة بمحضر من الفقهاء والمدرسين والعلماء « لما تضمنته من المقالات التى أوجبت ذلك عندهم وحققته لديهم » (سنة ٧٧٣ هـ)(١) . ووجه أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة ، ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن فى حق النبى ، ويقول : « فإنه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة ، يكبر فى النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل ، من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم » . ثم يعدد مثالبه فى الحكم قائلا : « فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدول ، ما صدر من العبث ، فى الإبشار والأموال ، وهتك الأعراض وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل والغدر ، فى غالب الأحوال ، للشريف والمشروف والخادم والمخدوم »(٢) . وسجل القاضى أبو الحسن تهمة الزندقة على ابن الخطيب ، وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضى رسله إلى السلطان عبد العزيز ، يطالب بتنفيذ حكم الشرع فى الوزير الملحد وهو الإعدام ، فأنف السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس ، وقال لهم : « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه » وردهم خائبين ، وزاد فى إكرام ابن الخطيب ورعايته(٣) .

---

(١) كتاب المرقبة العليا ، أو تاريخ قضاة الأندلس لأبى الحسن النباهى المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروڤنسال ص ٢٠٢ .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٦٩ .

(٣) راجع ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨ .

ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل (٧٧٤ هـ) ، وخلفه ولده السعيد طفلا على العرش ، غادر بلاطُ المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة ، ونزل بفاس ، واقتنى الضياع والدورر ، واستمر على مكانته فى الدولة . ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن تمخضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت فى شمال المغرب ، على يد بعض الزعماء من بنى مرين . وعضدت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبى سالم . وحاول الوزير ابن غازى مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فأذعن الوزير ، وخلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) .

وكان ابن الخطيب قد لجأ فى أثناء ذلك إلى البلد الجديد (ضاحية فاس) ، وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر (الغنى بالله) وزعماء الفتنة ، بشأن ابن الخطيب ومصيره ؛ فلما وقع الانقلاب بادر السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود ، وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب ، جهداً فى تشديد النكير عليه وتدبير مصرعه . وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق ، لما نمى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على غزو الأندلس . وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله بن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحمد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى ، استدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته ، ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه ، وأخصها تهمة الزندقة ، استناداً إلى ما ورد فى بعض رسائله ، وعزر ابن الخطيب وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخذت جثته فى الغد وأضرمت فيها النار ، ثم دفنت خارج فاس على مقربة من باب المحروق ؛ وما زال قبره المتواضع قائماً هنالك فى مكانه حتى يومنا(١) .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ، ضحية الجهالة والتعصب والأحقاد

---

(١) كتبت ترجمة مستفيضة لحياة ابن الخطيب ، والحوادث السياسية التى تقلب فيها ، صدرت بها كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، الذى عنيت بتحقيقه ، وصدر منه الجزء الأول بالقاهرة فى سنة ١٩٥٦ (ص ٣٠ – ٨٢) .

السياسية الوضيعة ؛ وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون عنه أبياتاً من الشعر ، كان يرددها وهو فى سجنه ، ويرثى بها نفسه توقعاً لمصيره المحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صُموت
وأنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاما وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا غربن فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له فقل يفرح اليوم من لا يموت(١)

* * *

ومن الصعب علينا أن نلم بمجهود ابن الخطيب الفكرى والأدبى فى هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسياً ومؤرخاً ، وقد ترك لنا تراثاً ضخماً منوعاً ، من مؤلفات عديدة ، أدبية وتاريخية وطبية ، وطائفة كبيرة من غرر القصائد والموشحات ، ورسائل أدبية وسياسية لا تحصى ؛ ومن أشهر رسائله بنوع خاص رسائله السلطانية ، التى كان يكتبها عن حوادث عصره برسم ملوك المغرب ، وتلك التى كان يوجهها إلى أهل الأندلس من وقت إلى آخر ، يحثهم فيها على الجهاد ، والذود عن وطن يتربص به العدو ، ويعتزم القضاء عليه ، وهى رسائل تدلى بما كان لابن الخطيب من فكر ثاقب وبصيرة نافذة ، هذا فضلا عما تمتاز به من روعة البيان والأسلوب .

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الإحاطة فى أخبار غرناطة وهو أشهر آثاره التاريخية والأدبية . التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى . ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، وهو يضم طائفة من أشهر رسائله السلطانية . اللمحة البدرية فى الدولة النصرية . رقم الحلل فى نظم الدول ، وهو تاريخ شعرى لدول الإسلام والأندلس . نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب ، وفيه يصف أحواله وأخباره أثناء إقامته منفياً بالمغرب . كناسة الدكان بعد انتقال السكان . معيار الاختيار فى ذكر المشاهد والديار . السحر والشعر ، وهو من مختاراته الشعرية . ويوجد من هذه الآثار كلها نسخ مخطوطة بمكتبة دير الإسكوريال .

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ ، و٣٥٢ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٢٣١ .

والكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة . وأعمال الأعلام ، وكلاهما يوجد بمكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريد .

ومن مؤلفاته الطبية : عمل من طب لمن حب ، وهو كتاب فى وصف الأمراض والعلاج ألفه للسلطان أبى سالم المرينى (ومنه نسخة خطية بخزانة القرويين وأخرى بمكتبة مدريد الوطنية) . والرجز فى عمل الترياق . رسالة تكوين الجنين. الوصول لحفظ الصحة فى الفصول . مُقنعة السائل فى المرض الهائل ، وفيه يصف أعراض الوباء الكبير فى سنة ٧٤٩ هـ (ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال) .

ومن مؤلفاته السياسية : رسالة فى السياسة . كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة، (وهما أيضاً بالإسكوريال) وقد نقلهما المقرى فى نفح الطيب[١].

وله ديوان شعر عنوانه : « الصيب والجهام ،والماضى والكهام » توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة جامع القرويين بفاس .

ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية التى وردت فى مختلف مؤلفاته ، وقد نقل إلينا المقرى منها العدد الجم، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ماكان يتبادله معه من رسائل خاصة[٢] .

ويفرد المقرى فى كتابه نفح الطيب مجلدين كاملين (هما الثالث والرابع) لابن الخطيب وأخباره ،وشعره ونثره، وشيوخه وتلاميذه ؛ وقد نقل إلينا فيهما، من مختلف كتبه ورسائله ، فصولا وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا وصيته لأولاده ، وهى من أبدع ماكتب[٣] .

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية ، ومن أشهر نظمه الموشحة الذائعة الصيت التى مطلعها :

جادكَ الغيث إذا الغيث هَمَى　　　يا زمان الوصـــل بالأندلس
لم يكن وصـــلك إلا حلمـــاً　　　فى الكرى أو خُلسة المختلس

(١) يراجع الثبت الكامل لمؤلفات ابن الخطيب وأمكنة وجودها ، وما نشر منها وما لم ينشر ، فى مقدمة كتاب الإحاطة الذى سبقت الإشارة إليه (ج ١ ص ٦٨ — ٧٨) .

(٢) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ ، وكذلك التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (القاهرة ١٩٥١) . وقد أورد لنا المقرى فى أزهار الرياض ثبتاً لآثار ابن الخطيب (ج ١ ص ١٨٩ و١٩٠) .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١٩ — ٤٢٦ .

إذ يقود الدهر أشتات المنى ينقل الخطو على ما يترسم
زمراً بين فرادى وثنـا مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلّل الروض سنا فثغور الزهر منه تبسم (١)

— ٣ —

كان ابن الخطيب قطب الشعر والنثر فى عصره ، وكان محور الحركة الفكرية الأندلسية كلها ، فى أواسط القرن الثامن الهجرى ، تجتمع إليه وتلتف حوله ؛ وقد أتينا على ذكر بعض أكابر الشعراء من معاصريه ، المتقدمين عنه ، مثل ابن الجياب وابن سلبطور وابن خاتمة . وسنأتى هنا على ذكر أقطاب الشعر والأدب من معاصريه المتأخرين عنه . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن عبقرية ابن الخطيب الأدبية ، قد طبعت هذه المرحلة كلها ، من تاريخ الحركة الفكرية الأندلسية ، بطابعها القوى ، وبعثت إليها كثيراً من أسباب القوة والروعة ، حتى ليسوغ لنا أن نقول إن مدرسة ابن الخطيب الأدبية ، امتدت منذ عصره إلى أواخر القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع الهجرى .

بل يلوح لنا أن الأثر القوى الذى بثته هذه المدرسة الأدبية الباهرة ، لم يقتصر على مملكة غرناطة ، بل تعدى حدود الأندلس المسلمة إلى قواعد الأندلس الذاهبة ، التى دخلت فى حوزة النصارى وتدجن أهلها ، فبدا بها شعاع ضئيل من النبوغ الأدبى القديم ، وظهر فيها بعض الشعراء الموهوبين ، بالرغم من مضى أكثر من قرن على خضوعها لحكم اسبانيا النصرانية . فمثلا نجد بين كتاب بلنسية وشعرائها يومئذ ، الفقيه أبا جعفر بن عبد الملك العذرى ، ومما كتبه لابن الخطيب فى بعض الشئون :

إنى بمجدك لم أزل مستيقناً أن لا يهدم بالتغير ما بنى
إذ أنت أعظم ماجد يعزى لـه صنع وأكرم من عفا عمن جنى

وكتب له أيضاً :

إن كان دهر قد أساء وجـارا فذمام مجدك لا يضيع جارا
فلأنت أعظم ملجأ ينجى إذا ما الدهر أنجد موعداً وأغارا (٢)

(١) راجع هذه الموشحة بأكملها فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها .
(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤٢٦ .

وكان الوزير ابن زَمرك ، تلميذ ابن الخطيب وخلفه فى الوزارة ، أعظم شخصية تزعمت من بعده الحركة الأدبية بالأندلس . وهو محمد بن يوسف بن محمد الصريحى الشهير بأبى عبد الله بن زمرك ، أصله من شرقى الأندلس ، ونزحت أسرته إلى غرناطة . واستقرت بربض البيازين حى غرناطة الشمالى . وبه ولد أبو عبدالله سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) ودرس دراسة حسنة فى غرناطة وفاس ، وخدم حيناً فى بلاط السلطان أبى سالم المرينى . ولما نفى السلطان الغنى بالله إلى المغرب ، اتصل به ابن زمرك وانقطع إليه . ثم عاد حين استرد ملكه ، فولاه كتابة السر وغمره بعطفه . وظهر ابن زمرك يومئذ ببارع أدبه ، وروعة نظمه ونثره ؛ وينوه ابن الخطيب فى الإحاطة بذكائه وخلاله ، وتفوقه فى الدرس والأدب ، ويصفه بالعبارات الآتية : « شعلة من شعل الذكاء ، تكاد تحتدم جوانبه ، كثير الرقة ، فكه ، غزل ، مع حياء وحشمة ... ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ، ظاهر النبل ، بعيد مدى الإدراك » ثم يصف شعره بأنه « مترام إلى هدف الإجادة ، كلف بالمعانى البديعة ، والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة » .

وعمل ابن زَمرك فى كتابة السر فى كنف ابن الخطيب وتحت رعايته . ولكنه كان ضالعاً مع خصومه ، فلما انقضت العاصفة على ابن الخطيب وأصابته المحنة ، كان ابن زمرك فى طليعة أعدائه الساعين إلى هلاكه . وقد خلفه فى الوزارة عقب فراره ، وهو الذى تولى مهمة السعى لدى بلاط فاس فى محاكمته وإعدامه حسبما أسلفنا .

واستمر ابن زمرك على حظوته ونفوذه أعواماً طويلة ، ولكنه كان لطغيانه وغطرسته وحدة لسانه ، يثير حوله كثيراً من البغض والخصومة . وفى أواخر عهد الغنى بالله فقد حظوته ونفوذه ، واعتقل ونفى خارج غرناطة ؛ ولكنه عاد بعد وفاته إلى الحضرة . وفى بداية عهد السلطان محمد بن يوسف الثانى ، أعيد إلى الوزارة ، فأساء السيرة ، واشتد عيثه وطغيانه ، وكثر خصومه . وفى ذات ليلة من أواخر سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥م) دهمه فى منزله جماعة من المتآمرين ، فقتلوه وولديه وخدمه شر قتلة . وينوه المقرى بما فى ذلك من عبر الدهر ، إذ كان ابن زمرك هو الساعى إلى مقتل أستاذه ابن الخطيب ، فكان أن دارت عليه الدائرة ، وقتل مثله ولكن بصورة أقسى وأشنع (١) .

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ — ٢٩٠ ، وينقل إلينا المقرى ترجمة ابن زمرك عن كتاب معاصره الأمير اسماعيل بن الأحمر ، وينقل إلينا فى أزهار الرياض كثيراً من موشحاته (ج٢ص١٧٧

ولابن زَمرك شعر كثير جيد نقل إلينا المقرى منه قصائد وموشحات عديدة ، فمن شعره قوله يمتدح سلطان الأندلس الغنى بالله فى سنة ٧٦٥ هـ :

لعل الصبا إن صافحت روض نعمان ... تؤدى أمان القلب عن ظبية البان
وماذا على الأرواح وهى طليقة ... لو احتملت أنفاسها حاجة العانى
وما حال من يستودع الريح سره ... وبطانها وهى النوم بكتمان
وكالطيف أستقريه فى سنة الكرى ... وهل تنقع الأحلام غلة ظمآن
إمام أعاد الملك بعد ذهابه ... إعادة لا تأبى الحسام ولا وانى
فغادر أطلال الضلال دوارسا ... وجدد للإسلام أرفع بنيان
وشيدها والمجد يشهد دولة ... محافلها تزاهى بيمن وإيمان

ومن قوله من قصيدة طويلة يصف فيها دار الملك (الحمراء) :

فكم فيه للأبصار من متنزه ... تجد به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ... ولم تك فى أفق السماء جواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا ... به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللت بحليها ... من الوشى تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى فى ذرة ترفعت ... على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها ... تظل عمود الصبح إذ بات باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة ... فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
بل المرمر المجلو قد شف نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
به البحر دفاع العباب تخاله ... إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ما جلت أيد الصبا متن صفحة ... أرتنا دروعاً أكسبتنا الأباديا

ومن قوله يشيد بأعمال الأميرين سعد ونصر ، ولدى السلطان ، فى ميدان الجهاد :

يا آل نصر أنتم سُرج الهدى ... فى كل خطب قد تجهم مظلم
الفاتحون لكل صعب مقفل ... والفارجون لكل خطب مبهم
والباسمون إذا الكماة عوابس ... والمقدمون على السواد الأعظم
أبناء أنصار النبى وحزبه ... وذوى السوابق والجوار الأعظم

ومن قوله فى الغزل :

= وما بعدها) . وقد أورد المستشرق بروكلمان (ج٢ص٢٢٩) تاريخ مقتله فى سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣م) ولكن رواية ابن الأحمر هى الأرجح .

قيادى قد تملكه الغرام ووجدى لا يطاق ولا يرام
ودمعى دونه صوب الغوادى وشجوى فوق ما يشكو الحمام
إذا ما الوجد لم يبرح فؤادى على الدنيا وساكنها السلام

ولابن زمرك موشحات كثيرة رائعة ، ومنها موشحته الشهيرة فى الإشادة بغرناطة ومحاسنها إذ يقول :

نسيم غرناطة عليل لكنه يبرئ العليل
وروضها زهره بليل ورشفه ينقع الغليل
سقى بنجد ربا المصلى مباكراً روضه الغمام سقى بنجد ربا المصلى
تبسم الزهر فى الكمام والروض بالحسن قد تجلى وجرد النهر عن حسام
ودوحها ظله ظليل يحسن فى ربعه المقبل
والبرق والجو مستطيل يلعب بالصارم الصقيل
عقيلة تاجها السبيكة تطل بالمركب المنيف كأنها فوقه مليكة
كرسيها جنة العريف تطلع من عسجد سبيكة شموسها كلما تطيف
أبدعك الخالق الجميل يا منظراً كله جميل
قلبى إلى حسنه يميل وقلبنا قد صبا جميل(١)

ونكتفى بما تقدم فى الاقتباس من شعر الوزير ابن زمرك . ويلوح لنا أنه قد يتفوق فى شاعريته على أستاذه ابن الخطيب ، وأن إنتاجه الشعرى ولاسيما فى الموشحات قد يتفوق على إنتاج أستاذه ، على أنه لا ريب أنه يقصر عن مجاراة ابن الخطيب ، فى كثير من نواحى التفكير والإنتاج الأخرى .

* * *

وظهر من أعلام تلك المدرسة الزاهرة ، إلى جانب ابن الخطيب وابن زمرك ، عدة آخرون من الشعراء والكتاب ، منهم أبو سعيد فرج بن لب ؛ ولد سنة ٧٠١ هـ وتوفى سنة ٧٨٢ هـ (١٣٨٠ م) ، وكان من أشهر أساتذة المدرسة النصرية (جامعة غرناطة) ، وقد ولى خطابة الجامع الأعظم حيناً ، وكان فوق تضلعه فى الفقه شاعراً مجيداً ، وقد ترك لنا مجموعة من الفتاوى المشهورة ، وطائفة من الشعر الجيد ، ومن نظمه قوله :

---

(١) راجع ترجمة ابن زمرك وهى التى نقلها المقرى عن ابن الأحمر ، فى نفح الطيب ج ٤ ص ٨٧ وما بعدها ؛ وقد نقل إلينا المقرى كثيراً من قصائده وشعره (ج ٤ ص ٢٩٦ — ٣٥٤) .

خذوا للهوى من قلبي اليوم ما أبقى … فما زال قلبي كله للهوى رقا
دعوا القلب فى لظى الوجد ناره … فنار الهوى الكبرى وقلبي هو الأشقى
سلوا اليوم أهل الوجد ماذا به لقوا … فكل الذى يلقون بعض الذى ألقى
فإن كان عبد يسأل العتق سيداً … فلا تبغي من مالكى فى الهوى عتقا(١)

ومنهم القاضى أبو محمد بن عطية بن يحيي المحاربى كاتب الإنشاء ، وكان بارعاً فى النظم والنثر وخطيباً مفوهاً ؛ أصله من وادى آش وبها ولد سنة ٧٠٩ هـ ، وتولى القضاء بها . ووفد على غرناطة سنة ٧٥٦هـ ودرس على ابن الخطيب وغيره من أكابر الشيوخ ، وتولى الكتابة السلطانية حيناً . ومن شعره قوله :

ألا أيها الليل البطىء الكواكب … متى ينجلى صبح بليل المآرب
وحتى متى أرعى النجوم مراقباً … فمن طالع منها على إثر غارب
أحدث نفسى أن أرى الركب سائراً … وذنبى يقصينى بأقصى المغارب
فلا فزت من نيل الأمانى بطائل … ولا قمت فى حق الحبيب بواجب(٢)

ومنهم الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل بن يوسف بن محمد بن الأمير الرئيس أبى سعيد فرج أمير مالقة المعروف بالأمير ابن الأحمر ، وقد سبقت الإشارة إليه . وكان أديباً ضليعاً ، وقد تناول فى كتابه « نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان »(٣) ، أكابر الكتاب والشعراء فى القرن الثامن الهجرى ، وأفاض بنوع خاص فى ذكر ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك ، ونقل عنه المقرى فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض ، معظم ماكتب عن أدباء عصره ، ونقل عنه بالأخص كثيراً مما كتبه عن ابن زمرك حسبما بينا فى موضعه ، وللأمير ابن الأحمر كتاب آخر عنوانه « نثير الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان » يحتوى على اثنى عشر بابا ، يتحدث فيها عن شعر ملوك بنى الأحمر ، وشعر ملوك بنى حفص ، وبنى مرين ، وبنى عبد الواد ، وعن شعر وزراء الأندلس وقضاتها وكتابها ، وكتاب وقضاة المغرب فى عصره(٤) . ولع الأمير ابن الأحمر

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٧ و ٢٦٨ .
(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٢ — ٣٦٥ .
(٣) وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ٧٩١٣ أدب .
(٤) وتوجد منه نسخة وحيدة مخطوطة بدار الكتب المصرية ناقصة الأول وتحفظ برقم ١٨٦٣ آداب اللغة العربية .

فى أواخر القرن الثامن ، وتوفى سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م)[١] .

ومنهم أبو عبد الله الشريشى تلميذ ابن الخطيب ومساعده (أمينه) ،وكان مؤدباً لأبناء السلطان ، وهو الذى تولى نقل كتاب الإحاطة لابن الخطيب من مسوداته ، بتكليف منه لاشتغاله بشئون الوزارة ، فجاء فى ستة مجلدات ، وكان الشريشى فى الوقت نفسه من علماء القرآن والسنة[٢] .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب هذه الجمهرة الممتازة من الشعراء والأدباء ، عدة من الفقهاء والمؤرخين ، منهم ابن فرحون برهان الدين ابراهيم بن على اليعمرى الأندلسى المتوفى سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) ، وكان فقيهاً ومؤرخاً ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب « الديباج المذهب فى معرفة علماء أعيان المذهب » ، وهو تراجم طبقات المالكية . وقد طبع مراراً بالمغرب ومصر ، وكتاب « طبقات علماء العرب » ومنه نسخة بالإسكوريال[٣] .

ومنهم أبو الحسن على بن عبد الله بن محمد الجذامى المالقى النباهى ، ولد بمالقة سنة ٧١٣ هـ ودرس على أشياخها . ثم وفد على غرناطة ، وتولى القضاء ، ثم عين كاتباً بالديوان . وانتهى إلى ولاية قضاء الجماعة بغرناطة .ونشبت بينه وبين ابن الخطيب خصومة شديدة ، وتبادلا الطعن والهجاء اللاذع فى عدة رسائل ومقالات ، ولما نكب ابن الخطيب وغادر الأندلس ، كان النباهى فى مقدمة متهميه بالكفر والزندقة والساعين إلى هلاكه حسبما قدمنا . وتوفى فى أواخر القرن الثامن . ومن آثاره الباقية كتاب يسمى « بالإكليل فى تفضيل التخيل » وهو كتاب أدبى وضعه مؤلفه على لسان نخلة وكرمة . ويعرف أحياناً « بنزهة البصائر » وهو العنوان الذى تحمله نسخته الخطية الموجودة بمكتبة الإسكوريال . وقد وردت به نبذة حسنة عن تاريخ الدولة النصرية حتى عصر المؤلف[٤] . وكتاب « المرقبة العليا فيمن يستحق

---

(١) وللأمير ابن الأحمر أيضاً كتاب فى تاريخ بنى مرين عنوانه « النفحة النسرينية واللمحة المرينية » وهو كتاب صغير الحجم ومنه نسخة مخطوطة بالإسكوريال (رقم ١٧٦٩ الغزيرى) .

(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٧٥٧ .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٩٨ و٢٩٩ ؛ وبروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٤) تحفظ هذه النسخة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٥٣ الغزيرى . وهى قديمة وتحمل تاريخاً لقراءتها هو سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) . وتوجد منه نسخة خطية أخرى بخزانة الرباط .

القضاء والفتيا » وهو تاريخ لقضاء الأندلس[١] .

ومنهم الفقيه أبو القاسم بن سلمون الكنانى الغرناطى قاضى الجماعة بغرناطة المتوفى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، ومن آثاره كتاب « العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم من الوثائق والأحكام[٢] ؛ وأبو عبد الله محمد بن على بن إسحق الرندى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ (١٣٨٩ م) ، وكان من أقطاب التصوف ، وقد كتب كتاب « الرسائل الكبرى » و « غاية المواهب العلية بشرح الحكم العطائية »[٣] .

وأما فى ميدان العلوم فلم نعثر على ما يدل على ازدهارها فى تلك الفترة ؛ على أننا نستطيع أن نذكر أن ابن الخطيب كان إلى جانب أدبه الممتاز ، عالماً بالطب والفلسفة ، وكان من تلاميذه الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا ، وشرحه عليها من أقيم الشروح[٤] .

---

(١) وقد قام على نشره الأستاذ ليڤى بروفنسال ، ونشره بعنوان « تاريخ قضاة الأندلس » . (القاهرة سنة ١٩٤٨) . وراجع فى ترجمة النباهى الكتاب المشار إليه (المقدمة) ، وأزهار الرياض ج ٢ ص ٥ — ٧ . وراجع بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) راجع نفح الطيب ٤ ص ٧٥٦ .

الفصل الرابع

العصر الأخير والآثار الباقية

ركود الحركة الفكرية . الشعراء الذين ظهروا فى هذا العصر . القاضى أبو بكر بن عاصم. ولده أبو يحيى . بعض الكتاب والأدباء . الشريف العقيلي وزير أبى عبد الله . ماحدث بعد سقوط غرناطة . القضاء على اللغة العربية . الألخميادو لغة الموريسكيين السرية . كتاب الألخميادو . الأدب الموريسكى وخصائصه . نماذج من تراث الألخميادو . الشهاب الحجرى وابن غانم . محاولة اسبانيا القضاء على تراث الأندلس . إيداع الكتب العربية الباقية بقصر الإسكوريال . المجموعة العربية فى الإسكوريال . حجبها عن أعين الباحثين . معجم الغزيرى. انتفاع البحث الحديث بالآثار الأندلسية . الفن فى الأندلس . تطوره منذ القرن الرابع الهجرى . ازدهاره أيام الناصر وابنه المستنصر. تقدمه أيام الطوائف . ركوده أيام المرابطين والموحدين . الفن فى مملكة غرناطة . الموسيقى الأندلسية . الآثار الأندلسية الباقية .

بدأت مملكة غرناطة منذ أوائل القرن التاسع الهجرى تستقبل عصرها الأخير ، وأخذ الاستقرار ، والسلم النسبي الذى تمتعت به حيناً فى أواخر القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع ، يتصرم شيئاً فشيئاً ، وأخذت من ذلك الحين تواجه طائفة من الثورات والانقلابات الداخلية المتوالية ، وتواجه فى الوقت نفسه طوالع الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا النصرانية ، التى أخذت منذ منتصف القرن التاسع (القرن الخامس عشر الميلادى) توثق أواصر اتحادها ، وتستجمع قواها لإنزال ضربتها الأخيرة بعدوتها القديمة التالدة اسبانيا المسلمة .

وماكانت الحركة الفكرية لتزدهر فى مثل هذا الأفق الكدر ، ولذا نجد فى هذا العصر فراغاً ملحوظاً فى ميادين التفكير والأدب فى الأندلس المحتضرة ، ولا نعثر إلا بقلة من المفكرين والأدباء الذين ظهروا فى تلك الفترة متفرقين متباعدين .

وكان ممن ظهر فى ميدان التفكير والأدب فى تلك الفترة على بن عاصم شاعر السلطان يوسف الثانى وقد جمع له مجموعة شعرية فى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م)[١].
والقاضى أبو بكر محمد بن عاصم القيسى الغرناطى ، وقد كان أعظم شخصية

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

ظهرت فى هذا الميدان فى مملكة غرناطة فى أوائل القرن التاسع الهجرى. ولد بغرناطة سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٨ م) وتوفى بها سنة ٨٣٩ هـ (١٤٢٦ م) ، وبرع فى النحو والمنطق والبيان والفقه ، وتولى الوزارة للسلطان يوسف الثانى سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م) ثم ولى قضاء الجماعة بغرناطة ، وبرز فى النثر والنظم ، ووضع عدة قصائد وأراجيز ، تناول فيها بعض مسائل من علم الأصول ، والقراءات والفرائض والنحو وغيرها . وله كتاب « تحفة الأحكام فى نقط العقود والأحكام » . وهو مختصر فى الفقه ، وقد طبع بمصر وترجم إلى الفرنسية . وله أيضاً كتاب « حدائق الأزهار فى مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر » كتبه للسلطان يوسف . ويعرف بابن الخطيب الثانى لبراعته وجودة نثره ونظمه[١].

وكذلك برع ولده العلامة الفقيه أبو يحيى بن عاصم فى النثر والنظم ، وتولى كأبيه منصب الكتابة والوزارة ، وكتب شرحاً على كتاب أبيه « تحفة الأحكام » وكتب رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة فى عصره ، وما دهاها من آثار التفرق والفتنة ، ووصف فيها أساليب السياسة الإسبانية ، فى الكيد والتفريق بين المسلمين ، أسماها « جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله وقضى » . ونقل إلينا منها المقرى فى أزهار الرياض نبذاً عديدة تشهد بمقدرة صاحبها ، وعميق تفكيره ورائق أسلوبه[٢] .

وأبو الحسن سلام بن عبد الله الباهلى الإشبيلى ، وقد كتب سنة ٨٣٩ (١٤٢٥م) كتاب « الذخائر والأعلاق فى أدب النفوس ومكارم الأخلاق »[٣] .

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجرى ، تضمحل الحركة الفكرية فى مملكة غرناطة شيئاً فشيئاً . ولاغرو فقد كانت غرناطة تخوض فى تلك الفترة بالذات ، مرحلة الصراع الأخير ، وكانت الحرب الأهلية تمزق أوصالها ، وخطر الفناء الداهم يبدو لها قوياً فى الأفق .

بيد أن شعاعاً أخيراً كان يبدو فى تلك الظلمات المدلهمة . فنرى فى أواخر

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٨ و ٩ ؛ وبروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤

(٢) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٠ وما بعدها ، وص ١٦٧ ومابعدها . وتوجد من هذه الرسالة نسخة خطية بالخزانة الملكية بالرباط .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ . وقد طبع الكتاب المشار إليه بالقاهرة سنة ١٩٢٨ .

القرن التاسع ، فى الوقت الذى كانت غرناطة تسلم فيه أنفاسها الأخيرة ، عدة من المفكرين والأدباء الذين يستحقون الذكر والتنويه .

وكان من هؤلاء القاضى أبو عبد الله محمد بن على بن محمد بن القاسم الأصبحى المعروف بابن الأزرق المتوفى سنة ٨٩٥ هـ (١٤٩٠ م) ، أصله من وادى آش ، وتولى قضاء الجماعة بغرناطة . وكان بارعاً فى النثر والنظم والتاريخ . ومن آثاره كتاب فى السياسة الملكية عنوانه : « الإبريز المسبوك فى كيفية أدب الملوك » (سنة ٨٣٨ هـ) . وكتاب « بدائع السلك فى طبائع الملك » لخص فيه كثيراً من آراء ابن خلدون فى مسائل الرياسة والملك وعلق عليها ، وأتى فى موضوعها بزيادات جديدة ، وقسمه إلى أربعة كتب ، الأول فى حقيقة الملك والخلافة وسائر أنواع الرياسة ، والكتاب الثانى فى أركان الملك وقواعد مبناه ضرورة وكمالا ، والثالث فيما يطالب به السلطان تيسيراً لأركان الملك وتأسيساً لقواعده ، والرابع فى عوائق الملك وعوارضه[1]. وله أيضاً كتاب « روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام » . ولما ساءت الأحوال فى غرناطة وأشرفت على السقوط ، عبر البحر إلى تلمسان ، ثم ارتحل إلى المشرق ، ونزل بالقاهرة فى عصر السلطان الأشرف قايتباى ، واتصل به ، وحاول أن يستحث همته لتسيير جيش إلى الأندلس لاسترداد غرناطة[2] ؛ ومن شعره المؤثر حين نزل النصارى بمرج غرناطة :

مشوق بخيمات الأحبة مولع	تذكره نجد وتغريه لعلع
مواضعكم يا لائمين على الهوى	فلم يبق للسلوان فى القلب موضع
ومن لى بقلب تلتظى فيه زفرة	ومن لى بجفن تنهمى منه أدمع
رويدك فارقب للطائف موقعاً	وخل الذى من شره يتوقع
وصبراً فإن الصبر خير تميمة	ويا فوز من قد كان للصبر يرجع
وبت واثقاً باللطف من خير راحم	فألطافه من لمحة العين أسرع[3]

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٧١ ، وج ٣ ص ٣١٨ و٣١٩ . وقد طبع كتاب الإبريز المسبوك بالجزائر . وتوجد من كتاب « بدائع السلك » نسختان خطيتان فى خزانة الرباط (المكتبة الجلاوية) ، إحداها قديمة كتبت فى سنة ٩٩٨ هـ ، والأخرى حديثة .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٩ — ٥١ .

(٣) أزهار الرياض ج ٣ ص ٣١٨ ، و٣١٩ .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الحداد الشهير بالوادى آشى ، وهو أيضاً من أهل وادى آش ، وكان أديباً بارعاً وله تعليقات كثيرة على أدباء عصره ، وقد غادر غرناطة قبيل سقوطها بقليل ونزل بتلمسان[1] .

وأبو الحسن على بن محمد القرشى البسطى ، وقد ولد فى بسطة ودرس فى غرناطة وتلمسان وتونس ، ورحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج ، ثم استقر بعد عوده فى غرناطة . ولما اشتد ضغط النصارى على غرناطة عبر البحر إلى تلمسان ، وعاش هناك حيناً حتى توفى سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) . وقد برع البسطى فى الرياضيات ووضع كتباً فى الحساب والجبر[2] .

وأبو الحسن على بن قاسم بن محمد التجيبى الزقاق وقد درس فى غرناطة وفاس وتولى الخطابة فى غرناطة . ولما سقطت غرناطة فى يد النصارى ، عبر البحر إلى المغرب ، وتوفى سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) . ومن آثاره كتاب « المنهج المنتخب إلى أصول المذهب » فى الفقه المالكى[3] .

ومن أواخر الشعراء الذين ظهروا فى هذه الفترة ، فترة الانهيار الأخيرة ، شاعر من نوع خاص ، هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسى . وقد ترك لنا ديوانا ، يضم قصائد عديدة تشير إلى بعض أحداث العصر مثل سقوط جبل طارق وحصار مالقة وسقوط أرشدونة وبلش وغيرهما من قواعد مملكة غرناطة ؛ ويستدل من بعض إشاراته إلى أنه قضى ردحا من الزمن فى أسر القشتاليين ؛ وهو يعترف لنا فى مقدمة ديوانه بأنه شعره « منحط من الدرجة المتوسطة » ، ولكنه مع ذلك مغتبط بنظمه وإنشاده . والظاهر أن عبد الكريم القيسى قد عاش حتى سقوط غرناطة أوقبله بقليل ، إذ يضم ديوانه قصيدة فى رثاء ابن الأزرق ، وهو قد توفى فى سنة ٨٩٥هـ ، والديوان فى جملته يلقى أضواء كثيرة على أحداث الصراع الأخير الذى انتهى بسقوط غرناطة ، وتشير قصائده إلى كثير من شخصيات العصر من قادة ، وكتاب ، وقضاة وغيرهم[4] .

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٥ و ٧١ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) توجد نسخة مخطوطة من هذا الديوان بخزانة الرباط رقم ١٩٨ق (مخطوطات الأوقاف) ، وهو يقع فى ١٥٣ صفحة من القطع المتوسط .

ومن نظم عبد الكريم المذكور قوله :

خليلي ما مثلي يقوم ذليلا ويحمل من ضيم الزمان ثقيلا
ويرضى بعيش يدال ببسطة يحدد من خطب الهموم جليلا
فلا تعذل فى رحيلي عنكما فإنى لما أنعى عزمت رحيلا

وقوله حينما اتصل به خبر سقوط جبل طارق فى يد الاسبان :

أوارى أوارى القلب مع شدة اللفح فتبكه عين دمعها داهم السفح
وأخفى الذى ألقى من الحزن والأسى وظاهر حالى الدهر يؤذن بالصفح
وأبدى من التقطب للفتح حالة تسوء صديقى فى مساء وفى صبح

على أن أعظم شخصية ظهرت فى تلك الفترة القاتمة فى ميدان التفكير والأدب هى شخصية الوزير والكاتب الشاعر أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى المعروف بالشريف العقيلى ، وزير أبى عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس وكاتبه . وكان فوق تضلعه فى الفقه ، إمام عصره فى النثر والنظم ، وقد وصفه الوادى آشى بأنه « شاعر العصر ، مالك زمامى النظم والنثر » وبأنه « إمام هذه الصناعة ، وفارس حلبة القرطاس والبراعة ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة » . ووصفه أيضاً بحق بأنه خاتمة أدباء الأندلس .

ومن شعره يمدح السلطان أبا عبد الله حينما ولاه منصب الكتابة قوله :

أوجه سعدى انحط عنه اللثام أم بدر أفقى فض عنه الغمام
كأنما أقبس نور البهام ن وجه مولانا الإمام الهمام
ابن أبى الحسن الأسرى الذى قد كان للأملاك مسك الختام
ضرغام قد أنجب شهباً له فى صدق بأس ومضاء اعتزام
دام له النصر الذى جاءه والسيف من طلى أعاديه دام

ومنه قوله حينما نزل النصارى بمرج غرناطة :

بالطبل فى كل يوم وبالنفير نراع
وليس من بعد هذا وذاك إلا القراع
يارب خيرك يرجو من هيض منه الذراع
لا تسلبنى صبرا منه لقلبى ادراع

التى كتبها على لسان السلطان أبى عبد الله إلى سلطان المغرب ، وعنوانها « الروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس »(١) . ومهد لها بعد الديباجة بقصيدته الرائعة التى مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ‏ ‏ رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ‏ ‏ جار الزمان عليه جور منتقم

وقد سبق أن أتينا على ذكر هذه الرسالة المؤثرة الفريدة ، فى موضعها ، وأوردنا طرفاً من قصيدة العقيلى ، ومن أقواله التى يخاطب بها السلطان أبو عبد الله سلطان فاس مستجيراً به ، ملتجئاً إلى حمايته ، معتذراً إليه عما بدر منه .

وعبر البحر إلى المغرب قبيل سقوط غرناطة وبعده جمهرة من العلماء والأدباء ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى(٢) . وقد آثروا مغادرة الوطن القديم على التعرض لفقد الحرية ، وامتهان الدين والكرامة القومية ، ومذلة العبودية ، فى ظل حكم يضطرم نحو الأمة المغلوبة بغضاً وتعصباً .

— ٢ —

وكان سقوط غرناطة فى يد اسبانيا النصرانية فى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، نذيراً بانهيار صرح الأمة الأندلسية القومى والاجتماعى ، وتبدد تراثها الفكرى والأدبى ؛ وكانت اسبانيا النصرانية ترمى قبل كل شىء ، إلى القضاء على خواص الأمة المغلوبة الدينية والفكرية ، وعلى سائر الروابط الأدبية التى تربطها بماضيها المجيد ؛ وقد نجحت السياسة الإسبانية ، يدعمها طغيان الكنيسة وعسف ديوان التحقيق ، فى تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد ؛ فلم يمض على سقوط غرناطة نحو خمسين عاماً ، حتى استحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، يستبدل بدينه القديم — الإسلام — بالنصرانية المفروضة ، ويتكلم القشتالية ، وتغيض البقية الباقية من خصائصه القديمة ، شيئاً فشيئاً ، تحت ضغط التشريعات والإجراءات التعسفية المرهقة .

وكانت الأمة الأندلسية خلال هذا الإستشهاد المحزن ، الذى فرض عليها ، تحاول بكل وسيلة أن تستبقى ماوسعت ، من تراثها الفكرى والروحى القديم ، فكان الموريكسيون بالرغم من دخولهم فى النصرانية ، يتعلقون سراً بدينهم القديم ، وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية ، وديوان التحقيق من ورائهم يطاردهم

(١) نشر المقرى هذه الرسالة بأكلها فى نفح الطيب ج ١ ص ٦١٧ — ٦٢٨ ؛ وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٧٢ — ١٠٢ .

(٢) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

بمنتهى القسوة حسبما فصلنا فى موضعه . وكانوا يحافظون جهدهم على لغتهم العربية . ولكن السياسة الإسبانية المرهقة ، فطنت منذ الساعة الأولى إلى أهمية اللغة فى تدعيم الروح القومية ، فعولت على سحق العربية وكل آثارها ، وصدر منذ أيام الإمبراطور شارلكان فى سنة ١٥٢٦ ، أول قانون لتحريم التخاطب بالعربية على الموريسكيين ، ولكنه لم يطبق بشدة . وكانت العربية ما تزال حتى ذلك الوقت لغة لأدب يحتضر ، وكانت ما تزال لغة التعاقد والتعامل ، لا فى أنحاء مملكة غرناطة القديمة وحدها ، ولكن أيضاً فى مجتمعات المدجنين القاصية فى أراجون حسبما تدل عليه وثائق عثرنا عليها[1] . وكان يوجد ثمة بين الموريسكيين من ينظم بها الشعر . وقد أشرنا فيما تقدم إلى القصيدة التى أرسلها الموريكسيون إلى السلطان بايزيد الثانى يلتمسون فيها النجدة والغوث ، وهى قصيدة تنم بالرغم من ركاكتها عن روح شعرية مؤثرة . واستمر الموريسكيون عصراً آخر يوجهون رسائلهم العربية إلى مسلمى المغرب . وكانت السياسة الإسبانية تضيق ذرعاً بالعربية ، وتزداد منها توجساً . فعادت فى عهد فيليب الثانى لتتخذ خطوتها الحاسمة فى القضاء عليها . وصدر فى سنة ١٥٦٦ قانون جديد صارم يحرم على الموريسكيين التخاطب بالعربية أو التعامل بها على نحو ما فصلنا ، وطبق القانون بمنتهى الشدة . وكانت العربية قد أخذت تغيض شيئاً فشيئاً فى غمر العسف والاضطهاد ، فجاء القانون الجديد ضربة قاضية لمظاهرها الباقية . وفى هذا الوقت بالذات نشهد نفثات العربية الأخيرة لدى الموريسكيين فى بعض قصائدهم السرية الثورية . وفى لغة الخطاب الذى نشرناه فيما تقدم لمولاى عبد الله آخر زعماء الثورة الموريسكية ما يوضح لنا مدى الانحلال الذى انتهت إليه اللغة العربية فى ذلك العصر .

ولم تمض فترة قصيرة على تطبيق القانون الجديد بتحريم العربية نهائياً ، وفرض القشتالية كلغة للتخاطب والتعامل على الموريسكيين ، حتى اختفت المظاهر والآثار الأخيرة للعربية . ومع ذلك فقد وجد الموريسكيون فى القشتالية ذاتها متنفس تفكيرهم وأدبهم القديم ، فكانوا يكتبون القشتالية سراً بأحرف عربية ، وأسفر ذلك بمضى

---

[1] ومن ذلك وثيقة زواج بالعربية مؤرخة يوم الأحد ١٧ يوليه الموافق ١٠ رمضان سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) بين « الشب الكريم محمد خشان وبين المقدم القاضى ابراهم ذاعمر فى الثيبة الكريمة فاطمة بنت على سانته من ربض مسلمى من مدينة قلعة أيوب » ، وهى بخط عربى ردىء (مكتبة مدريد الوطنية مجموعة الألخميادو رقم 4968 وثيقة نمرة ٩) .

الزمن عن خلق لغة جديدة اشتقت أصلا من القشتالية لغتهم المفروضة ، واختلطت بها ألفاظ عربية وأعجمية مختلفة من اللهجات المعاصرة والقديمة ، ولاسيا اللغة الرومانية . وكانت هذه اللغة الرومانية Lengua Romanica لغة المستعربين أيام الدولة الإسلامية ، وكانت معروفة ذائعة فى قرطبة وغيرها من الحواضر الأندلسية التى تقيم بها طوائف كبيرة من النصارى المستعربين ، وكان يتكلم بها بعض أكابر الصقالبة فى البلاط ، ويعرفها بعض العلماء المسلمين. وكان المسلمون الأندلسيون يستعملون أحياناً بعض عبارات من هذه اللغة الرومانية ، ولاسيا فى الكتابات العلمية ، ويسمونها فى كتبهم « باللطينية » ،(أعنى اللاتينية) ، وقد تسرب منها بمضى الزمن كثير من الألفاظ فى الزجل الأندلسى ، ولاسيا زجل ابن قزمان . وفى مملكة غرناطة ، كانت اللغة العربية الشعبية ، يتسرب إليها كثير من الألفاظ الرومانية والقشتالية(١) ، وهذه هى التى تسربت بالأخص فيما بعد إلى لغة الموريسكيين السرية ، التى لجأوا إلى ابتكارها حينما حرمت عليهم لغتهم الأصلية ، واحتفظوا لها بالأحرف العربية .

وتعرف هذه اللغة التى اتخذها الموريكسيون بالأخص متنفساً لدينهم القديم « بالألخميادو» Aljamiado ، وهو تحريف اسبانى لكلمة « الأعجمية » ، وقد لبثت زهاء قرنين سراً مطموراً حتى ظفر بعض العلماء الإسبان بمجموعة من مخطوطاتها فى أوائل القرن الماضى ، وعندئذ ظهرت عنها المعلومات الأولى . ويقول العلامة مننديث إى پلايو فى تعريفها ، بأنها هى اللغة الرومانية القشتالية Romana Castelaa تكتب بأحرف عربية . ويقول المستشرق ساقدرا فى تعليل قيامها « إن الطابع الدينى الذى كان يفصل بين الموريسكيين وباقى الإسبان يطغى على إنتاجهم الأدبى ، وكأنما هو قرين طبيعى للمنتجات العربية ، فهم لكى يحتفظوا بجذوة حية من العقيدة المحمدية ، كتب العلماء والفقهاء ،كتباً « عما يجب أن يعتقده وأن يحفظه كل مسلم حسن الإيمان » عن صفات الله ، وعن بعض المسائل الفقهية ، وفقاً لمذهب مالك ، وكتبوا عن التاريخ المقدس ، والقصص الدينى ، وتعبير الرؤيا وغير ذلك »(٢) .

(١) R. Menéndez Pidal : Orígines del Espanol p. 418, 429 & 431

(٢) E. Saavedra : Discurso leido ante la Real Academia Espanola (Madrid 1878)

وهكذا كتب الموريكسيون القرآن سراً باللغة العربية ، مقروناً بشروح وتراجم ألخميادية ، وكتبوا سيرة الرسول والمدائح النبوية ، وقصص الأنبياء ، وبعض كتب الفقه والحديث بالألخميادو — وهو رسم لغتهم العزيزة — ، مع كتابة البسملة والآيات القرآنية دائماً خلال هذه النصوص السرية باللغة العربية ، ويلاحظ أن معظم كتب الألخميادو المذكورة تكتب بالشكل الكامل ، حتى يمكن قراءتها بطريقة صحيحة .

واستعمل الموريسكيون الألخميادو فى أدبهم ، وفى التعبير عن أفكارهم ومُثلهم فى النثر والنظم . ومن أشهر شعرائهم محمد ربدان Rabadán أو الراعى وقد كان حياً فى أوائل القرن السابع عشر ، وأصله من روطة خالون من أراجون . وله نظم كثير ، وقصائد قصصية ، وأخرى دينية . ومن آثاره فى القصص الدينى كتاب عن « هول يوم الحساب » و« قصة النبى منذ بدء الخليقة » وأغنيات دينية ، وأسماء الله الحسنى ، وكلها بالنظم . وشعره يمتاز بالجزالة والسهولة . ومن شعراء الموريسكيين أيضاً ابراهيم دى بلفاد ، وخوان ألفونسو ، ومنهم الشاعر محمد الخرطوشى ، وقد كان من أهل بيانة ، ومنهم أخيراً شاعر موريسكى مجهول ، عاش فى تونس فى أوائل القرن السابع عشر بعد النفى ، واشتهر بنقده لمسرحيات « لوبى دى ڤيجا » شاعر اسبانيا الأكبر .

ومن أشهر كتاب الألخميادو الكاتب الفقيــه المسمى « فتى أبرالو » El Mancebo de Avéralo ، وهو مؤلف لكتب فى التفسير ، وتلخيص السنة ؛ وقد طاف بمعظم أنحاء اسبانيا ، وشهد مصائب قومه ووصفها ، وتلقى العلوم الإسلامية القديمة عن عالمتين بارعتين فى الشريعة هما « مسلمة أبده » La Mora de Ubéda ، و« مسلمة آبلة » La Mora de Avila ، وألف كذلك فى القصص الدينى .

وعنى الموريسكيون بنوع خاص بكتابة القصص وترجمته ، ومن آثارهم المعروفة فى ذلك كتاب « حديث القصر الذهبى » Alhadiz de Alcázar del Oro وكتاب الحروب ، و« حديث على والأربعين جارية » ، بيد أن أعظم كتبهم القصصية الحماسية هو كتاب « قصة الإسكندر ذى القرنين » ، والتنويه ببطولة الإسكندر يرجع إلى شخصيته ، ولأنه ذكر فى القرآن ، وأنه بعث لكى يحارب ملوك الأرض ويحطم الأصنام ويقتل عبادها .

ومن أشهر كتب الموريسكيين الألخميادية ، كتب المدائح النبوية والأدعية ،

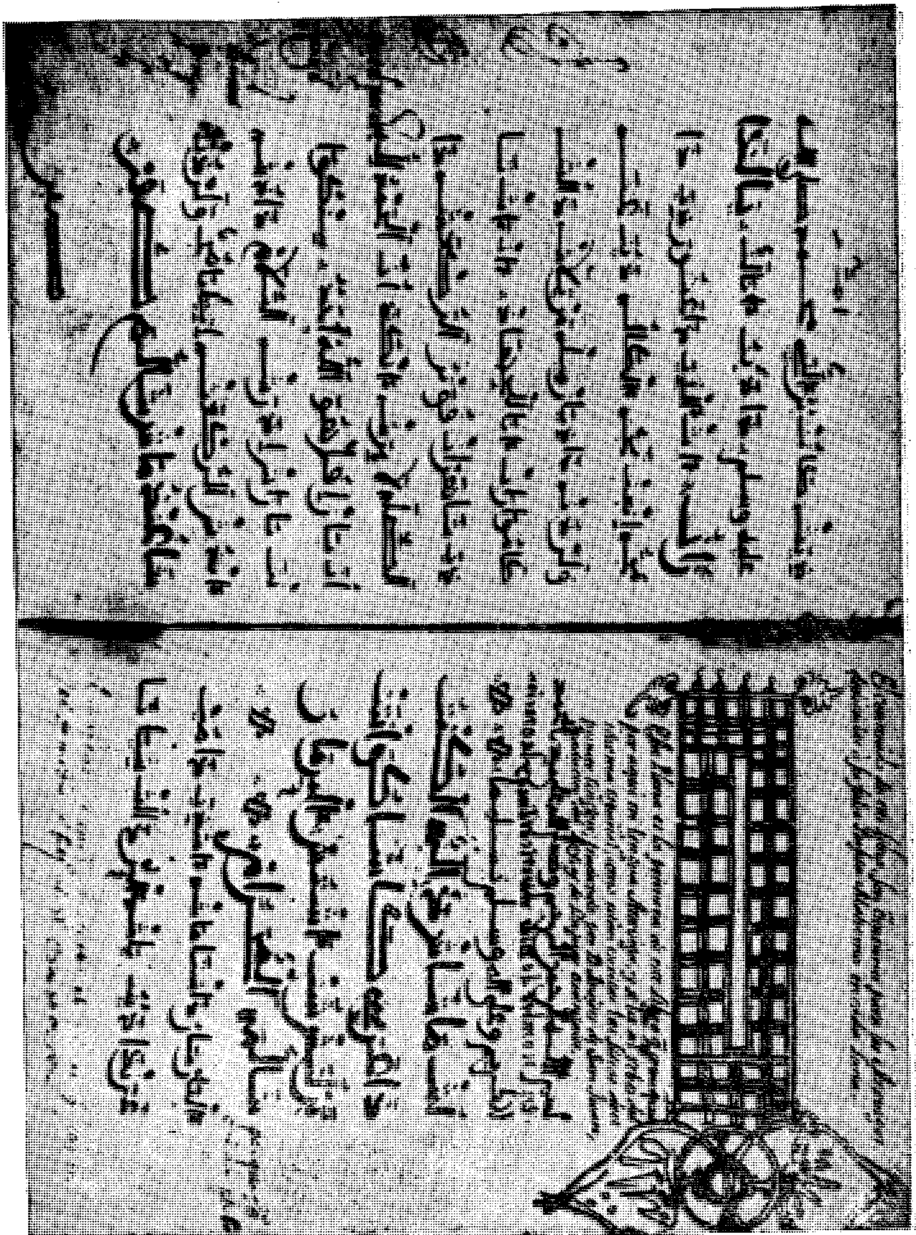

الصفحتان الأوليان من كتاب في « الأدعية النبوية » مكتوب بالألخميادو ، وفي نهايته بالعربية الركيكة أنه كتب سنة ٩٩٧ هـ (١٥٧٩ م) ، ومخطوط بمكتبة مدريد الوطنية رقم ٥٣٠٦ .

والواقع أن كتابة المدائح النبوية باللغة القشتالية ترجع إلى عصر مبكر ، وقد كتبها المدجنون بهذه اللغة منذ القرن الثالث عشر ، وانتشرت بعد ذلك بين طوائف المدجنين فى مختلف مدن قشتالة وأراجون . ثم كتبها الموريسكيون بالألخميادو أو القشتالية العربية .

والظاهرة الواضحة فى الأدب الموريسكى ، هو أن كتاب الألخميادو كانوا يفكرون ويكتبون بالروح العربية ، وإن كان تعبيرهم عن ذلك يجرى بالقشتالية ، وأنهم كانوا يتأثرون فى الأسلوب بلهجات مقاطعاتهم المختلفة ، أكثر من تأثرهم بقواعد اللغة .

ويرى النقدة أن نثر كتاب الألخميادو أفضل من نظمهم ، وأنه نثر مطبوع خال من التكلف ، ومن الملحوظ فيه بنوع خاص تسرب الألفاظ العربية الصحيحة إليه من آن لآخر ، والأدب الموريسكى لا يتجه إلى مراعاة الرونق والتنميق ، ولكنه يرمى قبل كل شىء إلى تصوير التاريخ والتقاليد القومية فى إطار دينى . وبالرغم مما يغلب عليه من الضعف والركاكة بصفة عامة ، فإنه يصل أحياناً إلى مرتبة الطلاوة ، بل يصل أحياناً إلى مرتبة البلاغة . وأفضل مثل لذلك شعر ربدان(١) .

كما يرى البعض ، أنه وإن لم تكن للأدب الموريسكى ثروة من الجمال أو قيمة أدبية ذات شأن ، فإن له قيمة تاريخية واجتماعية هامة ، فى الكشف عن التقاليد والعادات ، وأنه قد ترك أثره فى اللغة الإسبانية ، وفى الشعر الإسبانى ، وفى الأفكار الدينية وغيرها .

بل وقد نوه غير واحد من الكتاب الإسبان ، بما كان عليه الأدب الموريسكى بالرغم من ضعفه وضآلة شأنه ، من شاعرية ، وشعور بالجمال ، وخيال ممتع ، وذوق سليم . ويعلق الدون برونات على اختفاء الموريسكيين واختفاء أدبهم بعبارات شعرية يقول فيها : « إن السياسة الإسبانية لم تكتف بنفى الموريسكيين ، وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائننا ، ولم يقتصر الأمر على انتصار التعصب ، وبربرية ديوان التحقيق ، بل تعداه إلى اختفاء الشعر ، وشعور الجمال الموريسكى ، والأدب السليم الذى رفع سمعة تاريخنا » .

---

(١) راجع : Menéndez y Pelayo : Historia de Ios Heterodoxes Espanoles ، p. 345 - 349 وكذلك E.Saavedra : ibid. وراجع الموسوعة الإسبانية العامة تحت كلمة Aljamia

صفحتان من كتاب فى التفسير مكتوب بالألحميادو ومحفوظ بمكتبة مدريد الوطنية برقم ٥٢٥٢

ثم يقول : « إنه اختفى بطرد الموريسكيين ، الأدب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ، ومصدر الوحى الذى كانوا يمثلونه . وقد غاض باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والإلهام والحماسة ، التى كانت من خواصهم ، وحل محلها الظلام فى الأفق الأدبى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر »(١) .

وقد اطلعنا خلال إقامتنا بمدريد على كثير من الكتب والوثائق الألخميادية ولاسيما فى المكتبة الوطنية التى تحتفظ منها بطائفة كبيرة ، ومنها كتب صلوات وأدعية وفقه ، ومعظمها يفتتح بالبسملة والصلاة على النبى ، وقد لفت نظرنا بالأخص مخطوط منها ، وهو كتاب فى الصلاة والأدعية ، تدل عبارته الاختتامية على أن اللغة العربية كانت ما تزال بالرغم من تحريمها ومطاردتها ، تدرس وتكتب سراً حتى أواخر القرن السادس عشر ، وإليك نص العبارة المذكورة :

« أفرغ للعبد من الله تعالى المعترف بذنبه الراجى غفران ذنبه ، على بن محمد بن محمد شكار من بلاد مزماذيانى اليوم الآخر من جمادى الثانى يوما أربعة ولعشرين من شهر ماروس من يوم من ثلث منه عام ثمانية وتسعين تسع مائة من الحجرة النبى صلى الله عليه وسلم . ولعددا من المسيح منه عام وتسع وثمانين ألف وخمسمائة آمين آمين يارب العالمين . تمت بحمد الله وحسن عونه وكان الفراغة ثم صلاة العصر »(٢) .

واطلعنا كذلك على عدة من كتب الأدب الموريسكى ، ومنها قطعة مخطوطة من كتاب يوسم بأنه « قصيدة يوسف » ، وهو كتاب شعرى عن حياة يوسف لمؤلف مجهول(٣) .

وهناك أيضاً طائفة من الكتب الدينية ، ومنها كتب فى السيرة النبوية والتفسير والحديث والصلوات ، وعدد كبير من الوثائق الموريسكية المختلفة ، وكثير منها يفتتح بالبسملة ويتخللها ، اسم الله والصلاة على رسوله .

---

(١) D. Pascual Boronat : Los Moriscos Espanoles y su Expulsión. p. 384, 386, & 389

(٢) يحفظ هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد برقم 5306 بفهرس المخطوطات العربية .

(٣) يحفظ هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية برقم R. 247 . وتوجد من هذا الأثر الموريسكى أيضاً قطعة مخطوطة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمجموعة جاينجوس ، وقد وضع العلامة المؤرخ الأستاذ منديث بيدال عن هذا المؤلف كتاباً نقدياً نشر فيه النص الألخميادى مقروناً بتخريج اسبانى بعنوان : La Poema de Yuçuf (Granada 1952) .

على أن هذه الآثار الدينية التي حاول الموريسكيون أن يدونوا فيها تعاليم الإسلام وسيرة النبي ، تحتوى فى أحيان كثيرة على بعض التعاليم النصرانية ، تمتزج بتعاليم الإسلام ، وتعرض فيها المثل الإسلامية أحياناً فى صور المثل النصرانية ، وقد يصور النبي العربي من بعض النواحي فى صور المسيح . ويرجع هذا المزيج الغريب إلى ظروف العصر ، وإلى ضغط المطاردة الدينية التي لبث الموريسكيون تحت روعها ، وإلى رهبة محاكم التحقيق التي استمرت فى عسفها ومطارداتها الدموية . بيد أن الآثار الدينية التي خلفها الموريسكيون تنم فى معظمها عن بغضهم للنصرانية ومثلها وتقاليدها ، مما يدل على أن تسرب التعاليم النصرانية إلى كتبهم لم يكن سوى نتيجة لظروف العصر التي باعدت قسراً بينهم وبين تعاليم دينهم الحقيقية .

وقد وجدت فى أواخر القرن السادس عشر بدير ساكرومونتى القريب من غرناطة ، ألواح من الرصاص عليها كتابات دينية باللاتينية والعربية ، تتحدث عن حياة المسيح والرسل ومريم ، وعن الإسلام وبعض قواعده ، وتمزج فيها التعاليم الإسلامية بالتعاليم المسيحية . وقد رأى بعض الباحثين أن هذه الألواح كتبها الموريسكيون ، وفيها يحاول علماؤهم أن يجدوا حلا وسطاً للتوفيق بين الدينين ، وأن يصنعوا مزيجاً معقولا من العقيدتين . وقد حملت هذه الألواح فيما بعد إلى رومة ، وترجم قسمها اللاتيني ، ثم حكم بأنها أوهام وخرافات وضعت لمسخ الدين المسيحي وهدمه(١) .

هذا ، ويوجد ثمة بعض الكتاب الموريسكيين ، الذين استطاعوا أن يغادروا اسبانيا فى أواخر العهد الموريسكي ، قبيل النفى بقليل ، وأن يكتبوا بالعربية لغة آبائهم وأجدادهم ، بعض الآثار التي انتهت إلينا ، ولدينا من هؤلاء مثلان بارزان ، الأول ، هو باسمه الأندلسي ، محمد بن عبد الرفيع الحسيني الأندلسي الذى سبقت الإشارة إليه ، وقد هاجر قبل النفى إلى تونس ، وترك لنا بالعربية كتابه « الأنوار النبوية فى آباء خير البرية » ، وهو الذى اقتبسنا منه ، ماكتبه فى خاتمته عن أحوال إخوانه الموريسكيين ، وعن البواعث التي حملت اسبانيا على نفيهم(٢) .

---

(١) Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Espanoles.p.354

(٢) وتوجد منه نسخة خطية بخزانة الرباط (المكتبة الكتانية رقم 1238) ، ومذكور فى نهايته أنه تم تحريره بتونس فى سادس شعبان سنة ١٠٤٤ هـ

والثانى هو حسبما يسمى نفسه باسمه الأندلسى ، أحمد بن القاسم بن أحمد الفقيه قاسم بن الشيخ الحجرى ، ويعرف بالشهاب الحجرى ، وكذلك بآفوقاى ، وهو موريسكى من أحواز غرناطة ، استطاع أن يغادر الأندلس فى سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٩٨ م) ، أعنى قبل النفى بثلاثة عشر عاما . ويروى لنا الشهاب ، قصة فراره من اسبانيا فى خاتمة كتابه « العز والمنافع » الذى نتحدث عنه فيما بعد ، على النحو الآتى :

« وأقول اعلم أن أول ما تكلمت به ببلاد الأندلس ، كان بالعربية ، وكانت النصارى دمرهم الله ، تحكم فى من يجدوه يقرأ العربية ، فتعلمت القراءة الأعجمية للأخذ والاعطى ، ثم ألهمنى الله سبحانه أن أخرج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين لما تحققت أن الكفار ، كانوا فى الثغور يبحثون عن كل من يرد عليهم لعلهم يجدونه أندلسيا مخفيا ليحكموا فيه لأنهم كانوا منعوهم من الثغور ليلا يهربوا إلى بلاد المسلمين ، فجلست سنين ، نتعلم الكلام والأخذ فى كتبهم ليحسبوا أنى منهم إذ أمشى إلى بلادهم للخروج منها لبلاد الإسلام . ولما أن جئت إلى البلاد التى هى على حاشية البحر ، حيث هو الحرس الشديد ، وجلست بينهم فلم يشكوا فى بما رأوا منى من الكلام والحال والكتابة ، وجئت من بينهم إلى بلاد المسلمين ، وبهذه النية تعلمت وبلغت فى كتبهم . ولكل امرئ ما نوى . ثم رأيت أن بسبب التعليم انه كان بنية القرب من الله ببلاد المسلمين ، فتح لى بذلك العلم المنهى عنه ببيان الملوك المسدودة عن كثير من الناس » .

وقد اتصل الشهاب الحجرى ، عقب وصوله إلى المغرب ، بالسلطان أحمد المنصور ، ملك المغرب يومئذ ، واشتغل مترجماً للبلاط ، فى عهد المنصور وولده السلطان مولاى زيدان المتوفى سنة ١٠٣٧هـ (١٦٢٧ م) ، إذ كان يجيد الإسبانية إلى جانب العربية . واستعمله السلطان فوق ذلك للسفارة عنه فى بعض البلاد الأوربية ، ورحل الشهاب فى أواخر حياته إلى المشرق ، وأدى فريضة الحج . ولما عاد ، نزل بتونس ، وقربه أميرها الداى مراد يومئذ . وهنالك توثقت أواصر الصداقة بينه وبين زميل موريسكى مهاجر يسمى باسمه الأندلسى الرئيس ابراهيم ابن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسى . وكان الرئيس ابراهيم هذا فيما يبدو من زعماء الجند ، وقد ألف بالإسبانية (الأعجمية) كتابا فى فن الجهاد بالمدافع . فقام الشهاب الحجرى بترجمته إلى العربية ، وسماه « كتاب العز والرفعة

والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع » ، ووصف نفسه فى صفحة العنوان بأنه « ترجمان سلاطين مراكش » . وقد انتهى هذا الكتاب الفريد إلينا ، وهو يحتوى على خمسين بابا فى وصف البارود ، والآلات الحربية القاذفة ، وتركيب المدافع واختلافها ، ووصف أدواتها ، وطرق تعميرها ، والرمى بها إلى غير ذلك . ويتخلل ذلك رسوم توضيحية لمختلف أجزاء المدفع(١) .

ويشير الشهاب فى كتابه المذكور إلى المقرى مؤرخ الأندلس ، وإلى كتابه الجامع « نفح الطيب » فى قوله : « وقد صح من كتب التواريخ التى جمعها العلامة الشيخ أحمد المقرى فى كتابه بمصر فى الكتاب الجامع للتواريخ على بلاد الأندلس أعادها الله إلى الإسلام » ، وقد عاش الرجلان فى نفس العصر . والظاهر أن الشهاب الحجرى قد لقى المقرى بمصر خلال مروره بها فى طريقه إلى الحج ، أو خلال العود منه ، وذلك فى نحو سنة ١٠٤٠هـ (١٦٣١م) قبيل وفاة المقرى بقليل .

وقد كتب الشهاب الحجرى فوق ذلك كتابا آخر عنوانه « رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب » . والأحباب هنا فيما يبدو هم إخوانه المسلمون فيما وراء البحر فى عدوة المغرب ، ولكن هذه « الرحلة » لم تصلنا مع الأسف ، ولم يصل إلينا منها سوى شذور يسيرة جداً ، نقلها بعض الكتاب المغاربة المتأخرين ، وأكبر الظن أن رحلة الشهاب المفقودة كانت تحتوى على معلومات هامة ونفيسة عن أحوال مواطنيه العرب المتنصرين ، ولعل البحث يظفر بها يوما ما .

ومما يلفت النظر من أقوال الشهاب عن أحوال اسبانيا يومئذ ، ما نقله إلينا صاحب كتاب « نزهة الحادى » من الرحلة المذكورة ، قول الشهاب « إن جزيرة الأندلس ، استردادها من أيدى الكفار سهل ، واسترجاعها منهم قريب . ولما دخلت فى أيام المنصور مراكش ، وجدت عنده من الخيل نحوا من ستة وعشرين ألفاً ، فلو تحركت هذه لفتحتها ، ولاستولى عليها فى الحين »(٢) .

---

(١) توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة الرباط تحفظ برقم ج 87 ، وتقع فى ٢٦١ صفحة كبيرة ، ومذكور فى صفحة العنوان أنه من تأليف الرئيس ابراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا ، كتبه بالأعجمية ، وترجمه له بالعربية ترجمان سلاطين مراكش ، أحمد بن قاسم بن أحمد الحجرى الأندلسى » . وتوجد منه كذلك نسخة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ٩٧ فروسية . ونسخة أخرى بدار الكتب رقم ٧١ فنون حربية .

(٢) كتاب نزهة الحادى ص ٩٩ .

وأخيراً ، فقد وضع الشهاب أيضاً عقب عوده من الحج ، كتابا عنوانه «ناصر الدين على القوم الكافرين» يؤيد فيه رسالة الإسلام ، ويفند معتقدات النصارى

— ٣ —

وقد أبدت السياسة الإسبانية اهتماماً خاصاً بالقضاء على تراث الأندلس الفكرى ، وبدأت بارتكاب فعلتها الشائنة فى سنة ١٤٩٩ م أعنى لأعوام قلائل من سقوط غرناطة ، فجمعت الكتب العربية ، وأحرقت بأمر الكردينال خمنيس حسبما فصلنا من قبل ، ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية صغيرة من الكتب العربية ، جمعت فيما بعد من مختلف الأنحاء ، وأودعت أيام فيليب الثانى فى قصر الإسكوريال على مقربة من مدريد ، وحجبت عن كل باحث ومتطلع . وفى أوائل القرن السابع عشر ، وقع حادث كان سبباً فى مضاعفة المجموعة العربية الإسبانية . ذلك أن السفن الإسبانية استطاعت أن تأسر مركباً مغربية لمولاى زيدان ملك المغرب ، كانت مشحونة بالكتب ومختلف التحف ، وبها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغيرها . وتضع الرواية الإسبانية تاريخ هذا الحادث فى سنة ١٦١٢ فى عصر فيليب الثالث ، وذلك حينما اشتد اضطراب العلائق بين اسبانيا والمملكة المغربية[1] . وقد حملت هذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية إلى اسبانيا ، وأودعت قصر الإسكوريال ، إلى جانب بقية التراث الأندلسى التى كانت مودعة فيه منذ أيام فيليب الثانى . وكانت مجموعة مولاى زيدان المغربية تحتوى على عدد كبير من الكتب الأندلسية التى كثر استنساخها ، واقتناؤها بالمغرب ، بعد سقوط غرناطة .

ولبثت هذه المجموعة من المخطوطات العربية الأندلسية مودعة بمكتبة الإسكوريال الملكية حتى أواسط القرن السابع عشر ، وكانت تبلغ يومئذ عدة آلاف ، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها بإسبانيا . ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس . ففى سنة ١٦٧١ شبت النار فى الإسكوريال ، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى ألفين ، هى التى ما زالت تثوى حتى اليوم فى أقبية مكتبة الإسكوريال التى يشرف عليها الآباء الأوغسطينيون . وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص على إخفاء الآثار العربية عن كل قارئ

(١) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ج ٣ ص ١٢٨ ؛ وراجع ص ٣٩٢ من هذا الكتاب .

وباحث ، كأنما كانت تخشى أن تتسرب روح التفكير الإسلامى إلى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذا الروح كل وسيلة ممكنة . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم ، تحملهم نزعة الدين والجنس ، يعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المصادر النفيسة ، التى تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها فى العصور الوسطى ، ويكتفون فى كتابة هذه المرحلة الطويلة الباهرة من تاريخ بلادهم ، بالرجوع إلى المصادر الإسبانية التى تفيض بالتحامل والتعصب وغمر الخرافات . ولم تفق الحكومة الإسبانية من جمودها ، ولم تفكر فى تنظيم تراث الأندلس الفكرى والتعريف به ، قبل أواسط القرن الثامن عشر ، فعندئذ انتدبت عالماً شرقياً يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، هو ميخائيل الغزيرى اللبنانى ، الذى يعرف فى الغرب باسم كازيرى Casiri ، وعهدت إليه بدرس الآثار العربية ، ووضع فهرس جامع لها . وكان الغزيرى بنشأته وثقافته الشرقية رجل المهمة ، فلبى دعوة الحكومة الإسبانية ، وعين فى سنة ١٧٤٩ مديراً لمكتبة الإسكوريال ، وأنفق هنالك بضعة أعوام يدرس المخطوطات العربية ويحققها ، ثم بدأ يوضع فهرسه الجامع الذى عهد إليه بوضعه . وفى سنة ١٧٦٠ صدر الجزء الأول من هذا الفهرس باللاتينية بعنوان Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis «المكتبة العربية الإسبانية فى الإسكوريال» ؛ وصدره الغزيرى بمقدمة طويلة تحدث فيها عن قيمة هذه المخطوطات العربية وأهميتها ، وقسم هذه الآثار إلى عدة فنون ، وبدأ بكتب اللغة وعلومها ، ثم الشعر وأبوابه ، ثم الفلسفة وما يتعلق بها ، ثم الأخلاق فالطب والتاريخ الطبيعى ، فالرياضة والهندسة والفلك ، فالفقه وعلوم الدين والقرآن ، وهى تشمل أكبر مجموعة . ثم الآثار النصرانية . وتبلغ محتويات هذا الجزء الأول من الفهرس ١٦٢٨ مجلداً . وفى ١٧٧٠ ظهر الجزء الثانى من الفهرس ، محتوياً على كتب الجغرافيا والتاريخ ومنتهياً برقم ١٨٥١ ، وهو جملة ما أثبته الغزيرى فى فهرسه .

وكان أهم ما اتجهت إليه الأنظار بعد ظهور معجم الغزيرى ، هو التنقيب فى مجموعة الإسكوريال عن الروايات العربية المتعلقة بتاريخ اسبانيا المسلمة ، وسياسة الحكومات الإسلامية ، وخواص المجتمع الإسلامى ، فعنى طائفة من الباحثين الإسبان فى أواخر القرن الثامن عشر ومنهم أندريس وماسدى ، يبحث تاريخ العلوم والآداب العربية ، فأخرج أندريس كتابه عن « أصول الأدب » ، وأخرج

ماسدى مؤلفه عن « تاريخ اسبانيا والحضارة الإسبانية »(١). ثم جاء العلامة كوندى فوضع لأول مرة تاريخاً لاسبانيا المسلمة(٢)، يعتمد فيه على الروايات العربية، وظهر هذا المؤلف بين سنتى ١٨١٠ و١٨١٢. وبالرغم من أن مؤلف كوندى يحتوى على كثير من الأخطاء التاريخية، فقد كان أول مجهود غربى من نوعه يعرض للغرب قضية العرب فى اسبانيا من الناحية العربية، وفيه يقف الغرب لأول مرة على وجهات النظر الأندلسية، وخواص النظم والسياسة الإسلامية. ويبدى كوندى فى كثير من المواطن حماسة فى الدفاع عن العرب، والإشادة بخلالهم ومواقفهم وحضاراتهم، ويصدر فى بعض المواطن، أشد الأحكام على أمته وسياسة مواطنيه.

وأخذت المصادر العربية الأندلسية، تمثل من ذلك الحين فى كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس. وكان العلامة المستشرق الهولندى رينهارت دوزى أعظم باحث غربى، توفر على دراسة التاريخ الأندلسى، ودراسة مصادره العربية والغربية، وكتابه القيم « تاريخ المسلمين فى اسبانيا حتى فتح المرابطين »(٣)، من أنفس ماكتب فى هذا الباب، وذلك بالرغم مما يبدو فيه من أن لآخر من تعليقات يطبعها التحامل. وتوالت بعد ذلك جهود الباحثين الغربيين فى دراسة تاريخ اسبانيا المسلمة وكتابته. وصدرت بعد كتاب دوزى خلال القرن الماضى فى هذ الموضوع، عدة كتب قيمة، إسبانية وإنجليزية وفرنسية وغيرها، يمتاز الكثير منها بدقة البحث وروح الإنصاف.

وقام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبورفى أواخر القرن الماضى بدراسة جديدة للمجموعة الأندلسية بالإسكوريال، ووضع لها فهرساً جديداً بالفرنسية عنوانه:
« المخطوطات العربية فى الإسكوريال» Les Manuscrits Arabes de l'Escurial
نحا فيه نحو الغزيرى فى ترتيبه وترقيمه، وعثر على نحو مائة مخطوط أخرى لم يثبتها الغزيرى فى معجمه. بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الجديد سوى جزئين يشتملان على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة والأخلاق والسياسة. وأصدر الأستاذ ليڤى بروڤنسال بعد وفاة ديرنبور جزءاً ثالثاً من هذا الفهرس مشتملا على

---

(١) Historia critica de Espana y la Cultura espanola

(٢) Historia de la Dominación de los Arabes en Espana

(٣) Histoire des Musulmans d'Espagne juspaqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides

كتب الدين والجغرافيا والتاريخ . ومازال هذا الفهرس الجديد لمجموعة الإسكوريال الأندلسية ، ينقصه استعراض كتب الطب والتاريخ الطبيعى والرياضة والفقه ، كما ينقصه ذكر الكتب التى غابت عن الغزيرى وعددها نحو مائة كتاب .

وقد كان التنقيب فى تراث الآثار الأندلسية ، والتعريف بها على هذا النحو ، فتحاً عظيما فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الحضارة الإسلامية . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ، لا يعرف من هذا التاريخ سوى ما تعرضه الرواية الإسبانية من شذور مشوهة مغرضة ، وكانت مئات من الحقائق تغمرها حجب التعصب والتحامل ، فجاءت وثائق الإسكوريال تبدد هذه الحجب ، وتقدم الأدلة الساطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ، ومبلغ ماوصلت اليه من الإزدهار والتقدم .

ومما هو جدير بالذكر أن ملوك المغرب بذلوا أكثر من محاولة لاسترداد الكتب العربية من اسبانيا ، وكان يحدوهم فى ذلك شعور بأن هذا التراث الفكرى للأمة الأندلسية الشهيدة إنما هو تراثهم المشترك ، وأن المغرب هو الوارث الطبيعى لهذا التراث ، خصوصا وقد كان بين محتوياته مكتبة مولاى زيدان التى انتهبت فى عرض البحر حسبما قدمنا . ففى سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩١ م) بعث مولاى اسماعيل عاهل المغرب العظيم ، وزيره الكاتب محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفيراً إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا ، وكان من مهمته إلى جانب السعى فى تحرير الأسرى المغاربة ، أن يسعى فى استرداد الكتب العربية ، وقد نجح السفير فى تحقيق الشطر الأول من مهمته ، ولكنه لم ينجح فى تحقيق الشطر الثانى . وفى سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) أرسل مولاى محمد بن عبد الله سلطان المغرب ، كاتبه أحمد بن مهدى الغزّال ، سفيراً إلى كارلوس الثالث ملك اسبانيا ليضطلع بنفس المهمة المزدوجة ، أعنى العمل على تحرير الأسرى المغاربة ، واسترداد الكتب العربية ، ولكنه لم يحرز فى مهمته بشأن الكتب نجاحا يذكر ، وإن كان قد استطاع أن يحصل من الإسبان على قدر من الكتب العربية ليس بينها شىء من محتويات الإسكوريال[1] .

---

(١) ترك لنا كل من هذين السفيرين كتابا عن مهمته : فكتب الوزير محمد بن عبدالوهاب كتابه المسمى « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » (تطوان ١٩٣٩) . وكتب الثانى أحمد الغزال كتابه « نتيجة الإجتهاد فى المهادنة والجهاد » (تطوان ١٩٤١) .

— ٤ —

بقى أن نتحدث عن الفن فى الأندلس، وسيكون حديثنا عن ذلك عاماً . ذلك أن الفن فى مملكة غرناطة آخر دول الإسلام بالأندلس ، لم يكن سوى المرحلة الأخيرة لسير الفن الأندلسى .

وقد نشأ الفن الإسلامى فى البداية نشأة متواضعة . ونريد بالفن هنا معناه الدقيق الخالص. فالتصوير والنحت والنقش والزخرفة والموسيقى والغناء وما إليها، مما ينعت فى عصرنا بالفنون الجميلة ، يقع تحت هذا المعنى . بيد أن هنالك معنى أوسع للفن فقد يشمل فنون الهندسة والعمارة وما إليها، ولابأس من أن نعامله بهذا المعنى الأعم فى الوقت نفسه . وهذه النشأة المتواضعة للفن الإسلامى ترجع بالأخص إلى عوامل دينية . فقد نشأ الإسلام خصيم الوثنية ، يضطرم بغضاً لمظاهرها ورسومها ، وقد كان النحت والتصوير والنقوش الرمزية ، وقت ظهور الإسلام من مظاهر الوثنية ورسومها البارزة ، فكان الإسلام يخاصمها ويطاردها . ولم يشأ الإسلام أن يفسح صدره لهذه المظاهر والرسوم كما فعلت النصرانية، حيث اعتنقتها وشملتها برعايتها ، وازدانت بها كنائسها وهياكلها العظيمة منذ القرن الأول للميلاد . ثم غدت فيها بعد مثاراً للخلاف الطائفى ، واعتبرت رمزاً لعبادة الصور ، وثارت حولها تلك المناقشات والخصومات البيزنطية الشهيرة . بيد أن هذه الخصومة التى شهرها الإسلام فى عصره الأول على التماثيل والصور ، رموز الوثنية ومظاهرها ، لم تلبث أن خفت وطأتها منذ القرن الثانى للهجرة ، حينما قامت الإمبراطورية الإسلامية ، وأنشئت فى أرجائها الصروح الإسلامية العظيمة ، وبدت الخلافة فى عظمتها الدنيوية ، وأخذت بقسطها من الترف والبهاء والبذخ . عندئذ عنى الخلفاء بالفنون وازدانت قصورهم ومعاهدهم وحدائقهم ، بمظاهر الفن الرفيع ، واعتمد على الاقتباس بادئ بدء من تراث الفنون الفارسية واليونانية والرومانية ، والبيزنطية بنوع خاص ، واقتبس عرب الأندلس أيضاً من تراث الفن القوطى . ولم يمض بعيد حتى امتزج الاقتباس بالابتكار ، وبدا الفن الإسلامى فى مظاهره المستقلة . وبلغ منذ القرن الثالث للهجرة ، سواء فى بغداد أو قرطبة مستوى رفيعاً من الروعة والبهاء . وبرع المسلمون فى صنع الزخارف والنقوش والرسوم والصور الدقيقة ، وانتهوا فى الموسيقى إلى ذروة الافتنان والبراعة ، وازدهر الفن الإسلامى فى المشرق والمغرب أيما ازدهار .

وبلغ الفن الإسلامى فى الأندلس أوج ازدهاره فى القرن الرابع الهجرى. ويجب أن نلاحظ أن مسلمى الأندلس كانوا أسبق الأمم الإسلامية إلى صنع التماثيل والصور وقد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث، بالتماثيل والصور والنقوش، التى تمثل الحيوان والنبات والطير . أما التماثيل والصور البشرية ، فكانت تلقى نوعاً من التحريم العام . وفى عصر عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) خطا الفن الأندلسى خطوة أخرى ، فصنعت التماثيل والصور البشرية ، وزينت بها القصور والمعاهد الخلافية ، وكما أن عصر الناصر كان أعظم عصور الدولة الإسلامية فى الأندلس ، فكذلك كان أعظم عصور الفن الأندلسى .

وقد كان قصر قرطبة الكبير حتى عهد الناصر ، موضع العناية والرعاية من جميع أمراء بنى أمية، وكان مجمع البهاء والرواء والفن . ولكن الناصر آثر أن ينشئ له ضاحية ملوكية جديدة ، تكون آية فى الفخامة والبهاء ، فأنشأ مدينة الزهراء وقصورها ومعاهدها الباهرة ، وأفاض عليها من ألوان البذخ والبهاء، وبدائع الفن والزخرف ، آيات رائعات . وكانت نقوش الزهراء ورسومها وتماثيلها ، أبدع ما أخرج الفن الإسلامى فى الأندلس . ولا يتسع المقام للإفاضة فى وصف عظمة الزهراء ، وروائعها الفنية ، فنحيل القارئ إلى ما أورده صاحب نفح الطيب فى هذا الشأن من مختلف الروايات والفصول(١) . ولكنا نخص بالذكر هنا مثلين رائعين من آيات الفن الباهر ، التى زينت بها قصور الزهراء ، فمن ذلك أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صنع الملوك الأوائل ، مطلى بالذهب ، وعيناه جوهرتان لهما ضوء ساطع ، قد أقيم على بحيرة قصر الناعورة، يجوز الماء إلى مؤخره من قناة تحمل إليه الماء العذب ، من جبل قرطبة على حنايا معقودة ، فيدفع الماء إلى البحيرة فى منظر رائع(٢) . ومن ذلك الحوض البديع الذى جلبه الناصر لاستحمامه ، وأقيم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة : أسد إلى جانبه غزال ثم تمساح ، يقابلها ثعبان وعقاب وفيل ، وفى الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، كلها من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، وتخرج الماء من أفواهها(٣) .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ و٢٤٦ و٢٦٤ – ٢٦٦ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص١٤٤ ؛ وراجع **Murphy : Mohamedan Empire in Spain. p. 167-174**

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .   (٣) نفح الطيب ج ١ ص٢٦٤ .

وهنا أيضاً أعنى فى عصر الناصر ، نرى لأول مرة فيما يظهر ، تماثيل الإنسان وصوره تمثل فى الفن الأندلسى ، إلى جانب تماثيل الحيوان وصوره . فيروى أن الناصر أمر أن تنقش صورة جاريته وحظيته « الزهراء » على باب قصر الزهراء ، وهذه الجارية فيما يروى هى التى حملته على بناء الزهراء وتسميتها باسمها[1] . وزينت أبهاء الزهراء بتماثيل وصور بشرية[2] . فكانت ظاهرة فنية جديدة .

يقول العلامة الأثرى الإسبانى الأستاذ مورينو مشيراً إلى عصر عبدالرحمن الناصر :

« جاء هذا الملك ، وقد دخل الشرق الإسلامى فى دور الانحطاط ، ودخل العهد البيزنطى بالعكس فى أسطع مراحله ، وعمل الخليفة الإسبانى ، وهو حليف القيصر اليونانى على إحياء الحضارة ، فعادت بفضله تزدهر فى جانبى البحر المتوسط ، وتولت قرطبة بقوتها الروحية زعامة العالم ، ووصلت اسبانيا المسلمة فى عهد الناصر إلى ذروة التماسك والتناسق الاجتماعى والرخاء ؛ وآل ذلك إلى ولده الحكم ، فاستعمله فى أعمال الحضارة ، وهكذا تحقق قيام بلاط جديد فى الزهراء الرائعة التى بدأت أطلالها الآن تبدو للعيان ، وبعد ذلك زيد المسجد الجامع ، وأسبغت عليه آيات الفخامة والروعة .

على أن الفن القرطبى يصل إلى ذروته فى طراز العقود المتشابكة المتقاطعة فى تشكيلات هندسية ، وهو مايخدم نفس الأغراض التى تقوم بها العقود القوطية ، متقدمة عليها قرنين ، وخاضعة لمبدأ أساسى زخرفى ، ومنسقة مع طرازها القرطبى »[3] .

وبلغ الفن الأندلسى فى عصر الناصر وابنه الحكم المستنصر ، ذروة القوة والبهاء ، ومازالت اسبانيا النصرانية تحتفظ ببعض تحف فنية نادرة من تراث ذلك العصر ، نذكر منها وعل الزهراء الشهير ، وهو تمثال وعل من البرونز زين جسمه بالنقوش والزخارف العربية البديعة ، وتاج عمود من المرمر به زخارف دقيقة مدهشة ، وقد نقش عليه اسم الحكم المستنصر بالله واسم حاجبه ، وقد وجد كلاهما فى حفائر مدينة الزهراء ، وكلاهما يحفظ اليوم بمتحف قرطبة ، ومنها صندوق من العاج البديع نقشت عليه صور فرسان وأشخاص ووعول آية فى الدقة ، وذكر عليه اسم

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ و Murphy : ibid, p.292

(٣) M. Gomez Morena : "La Civilización arabe y sus Monumentos en España" Art. en "Arquitectura" (Nov. 1919)

صاحبه وهو عبد الملك بن أبى عامر ولد الحاجب المنصور ، وتاريخ صنعه وهو سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ، ويحفظ اليوم بمتحف كنيسة بنبلولة العظمى ، ويوجد فى مدينة جيرونة صندوق بديع الصنع من أيام الحكم الثانى ، وفى كتدرائية مدينة سمورة صندوق آخر يرجع إلى نفس العصر . ويوجد من تحف العهد الغرناطى كثير من النقوش والزخارف المرمرية التى تحفظ اليوم بمتحف غرناطة ؛ وفى متحف مدريد الوطنى مصباح برونزى رائع الصنع أصله من مصابيح مسجد الحمراء ؛ وتوجد فى متحف الحمراء جرة كبيرة من القيشانى الملون زينت بزخارف مذهبة رائعة ، وهى من مخلفات قصر الحمراء . هذا إلى طائفة كبيرة أخرى من التحف البرونزية والمعدنية والخزفية ، والبسط والأنسجة الأندلسية والموريسكية ، مبعثرة فى مختلف المتاحف الإسبانية . وقد أتيح لنا أن نشاهد معظم هذه التحف الفريدة ، وأن نتأمل روائعها[١] .

هذا وقد برع الأندلسيون فى الصناعات الفنية الدقيقة ، مثل صناعة الحلى الفائقة والتحف العاجية والجلدية ، ونافسوا فيها صناعة بيزنطية . وما زالت بعض المدن الأندلسية القديمة مثل قرطبة وطليطلة وغرناطة تحتفظ حتى اليوم فى بعض صناعاتها الدقيقة ، ببقية من هذه البراعة الفنية الأندلسية . فما زالت طليطلة تشتهر حتى يومنا بصناعة الأسلحة المزخرفة ، وتشتهر قرطبة بصناعة الجلود الدقيقة المزخرفة . وكانت غرناطة بالأخص تتفوق فى صنع الأقمشة الحريرية المذهبة ، والبسط الأنيقة ، والتحف البرونزية والزجاجية والأسلحة ، وكانت أنسجتها المطرزة بالذهب تخلب ألباب الشعوب الأوربية . وهى مازالت حتى اليوم تتفوق فى أصناف من الدانتلا الرائعة . وهذه الصناعات اليدوية الدقيقة مازالت متأثرة بجمال الزخرف الإسلامى أعظم تأثير . وكانت القصور والمعاهد العامة ، والمساجد الجامعة بالأندلس فى تلك العصور ، معرضاً لأبدع ما تمخض عنه الفن الرفيع يومئذ من صنوف الزخارف والرسوم والتحف الفنية . ومن ذلك أنه كان بجامع قرطبة تنور من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وقد زين بصور ونقوش رائعة ، يعجز عن وصفها القلم[٢] . وقد امتازت المدرسة المحافظة بالتفوق فى نوع جديد

---

(١) نشرنا أوصاف هذه التحف الأثرية الأندلسية وصورها فى كتابنا الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال — الطبعة الثانية . ص (٣٧ و٤٣ و١٨١ و٣٢٠ و٣٣٧ و ٣٥٥)

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٤٥ .

من الزخارف ، يقوم على رسوم الشجر والأوراق والأغصان والأشكال المماثلة المبتكرة ، دون الصور التى تمثل الإنسان والحيوان ؛ ذلك لأنها كانت تقوم على احترام التقاليد الدينية القديمة ، واشتهرت هذه المدرسة فى العصور الوسطى ، وكان لهــا أثر عميق فى تطور الفن الأوربى ، وما زالت تعرف بالنماذج العربية (الأرابسك)(١) .

وسطع الفن الأندلسى أيام الطوائف مدى حين ، ونثر ملوك الطوائف ولاسيما بنو عباد فى إشبيلية ، وبنو ذى النون فى طليطلة ، حولهم آيات من البذخ والترف والبهاء ، وأغدقوا على قصورهم ومعاهدهم بدائع الفن وروائعه ، مما أفاض فى وصفه المؤرخون والكتاب والشعراء . وكان بنو عباد فى إشبيلية أعظم حماة للفنون والآداب . وكان قصر المأمون بن ذى النون ملك طليطلة آية رائعة من آيات الفن والبهاء ، وكان روشنه الشهير الذى بنى وسط بحيرة القصر ، من الزجاج الملون المزين بالنقوش الذهبية ، مستقى خصباً لخيال الشعراء ، وكانت حافة البحيرة مزدانة بصفوف من تماثيل الأسود التى تقذف الماء من أفواهها ، وهى لا تزال تقذف الماء ولاتفتر ، وتنظم لآلىء الحباب بعد ما نثر(٢) . وأنشأ المقتدر بالله أبو جعفر أحمد بن هود أمير سرقسطة فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى قصره الرائع المسمى « بقصر السرور » ، وكان أروع ما فيه بهوه العظيم الذى زينت جدراته بالنقوش والتحف الذهبية البديعة والذى كان يسمى لذلك « بمجلس الذهب » . ولما سقطت سرقسطة فى يد النصارى شوهت معالم هذا القصر وأدخلت عليه تعلايلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وبدائعه العربية . ومازال يقوم على موقعه السابق الصرح الذى يسمى اليوم بقصر الجعفرية Palacio Aljarafia .
وقد اشتهر المقتدر بن هود ، فى التاريخ وفى الشعر ، بقصره الفخم ومجلسه الرائع ، ذى النقوش والتحف الذهبية البديعة وهو القائل فى وصفه(٣) :

قصر السرور ومجلس الذهب　　بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يحز ملكى خلافــــكما　　لكان لدى كفاية الأرب

---

(١) Murphy: ibid, p. 291-Aschbach: Geschichte der Omajaden in Spanien; B. II. p. 352.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٧ و٢٨٢ ؛ وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ١٩٤و١٩٥ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٠ . وراجع كتابى « دول الطوائف » ص ٢٧٢ .

ولم يكن هذا الهوى الفنى قاصراً على الأمراء والكبراء ، فقد روى لنا المقرى أنه كان ببعض حمامات إشبيلية تمثال بديع الصنع ، قال فيه الشاعر :

ودمية مرمر تزهو بجيد تناهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن تتيمنا بألحاظ مراض

وفى عهد المرابطين والموحدين خبت دولة الفن الإسلامى فى الأندلس نوعاً ، ذلك لأن أولئك الغزاة البربر ، الذين كانوا يضطرمون بروح دينية محافظة ، لم يقدروا الفنون والآداب على نحو ماكانت أيام الخلفاء الأندلسيين . ومع ذلك ، فقد كان لدى الموحدين ، بالرغم من طابعهم الدينى المحافظ ، طموح فنى ، ظهر أثره أولا فى إقامة المنشآت الدفاعية العظيمة ، ثم ظهر فى إقامة المساجد والقصور ، سواء فى المغرب أو الأندلس . وقد كان قصر إشبيلية ، الذى أنشأه أبو يعقوب يوسف وجامع إشبيلية الأعظم ، ومنارته العظيمة التى أنشأها ولده الخليفة المنصور ، والتى مازالت قائمة إلى اليوم بعد أن حولت إلى برج لأجراس كنيسة إشبيلية العظمى ، التى أقيمت فوق موقع المسجد الجامع : كانت هذه المنشآت العظيمة عنواناً لعظمة الفنون والزخارف الإسلامية فى عصر الموحدين .

وازدهرت الفنون والآداب كرة أخرى فى مملكة غرناطة . وكان بنو الأحمر حماة كرماء للفنون . ونلاحظ أن الفن الأندلسى بلغ فى هذا العصر ذروة التحرر والافتنان أيضاً ، وتوسع الفنانون المسلمون فى تصميم المناظر والرسوم . ولم يقتصر الأمر على الصور والرسوم والتماثيل المفردة ، بل تعداه إلى المناظر المصورة ، وإلى المجموعات المنحوتة . وقد كانت مملكة غرناطة على صغر رقعتها ، وضعفها من الوجهتين العسكرية والسياسية ، تحدث من الناحية الحضارية والفنية فى قشتالة ، جارتها الكبيرة القوية ، أثرها العميق . يقول الأستاذ مورينو : « إنه منذ عهد سان فرناندو إلى عهد هنرى الرابع ، كان الكثير من عناصر حضارة قشتالة ، وهندستها المدنية ، وفنونها الزخرفية الدينية ، وكل ضروب الإناقة والمتعة فى الحياة — كانت كلها قائمة على الاقتباس من الأندلس »[1] . وما زالت حمراء غرناطة ، وما زالت أبهاؤها ومجالسها الرائعة ، تنبئ عما انتهت إليه آخر دول الإسلام فى الأندلس من البذخ والبهاء ، وعما بلغه الفن الأندلسى فى هذه المرحلة

(١) M. Gomez-Moreno : Arquitectura (Nov. 1919)

الأخيرة من حياة الإسلام فى اسبانيا ، من الدقة والافتنان . وسوف يبقى قصر الحمراء ، وما يحتويه من النقوش والزخارف والصور الفريدة ، رمزاً خالداً للعمارة الإسلامية ، ولروعة الفن الإسلامى فى الأندلس .

وقد كان لفنون العمارة الأندلسية فى مختلف عصورها أعمق الآثار داخل شبه الجزيرة الإسبانية ،فكانت القصور الملكية فى الممالك الإسبانية النصرانية ، نماذج من القصور الملكية الأندلسية ؛ وتطورت فيها مظاهر الحصون الرومانية القديمة ، وظهرت عليها مسحة أندلسية . وكان هذا التأثير أشد وأعمق فى حياة النبلاء القشتاليين ، وفى طراز مساكنهم المدنية ، فقد حل مكان المنزل المحزن الموحش ، المكون من غرف قليلة الضوء قليلة التهوية ، المنزل الذى تغمره أشعة الشمس ، والذى تطل الأروقة الداخلية على فنائه ، وفيه الماء الجارى ، وفى داخل جدرانه الأربعة تتذوق الحياة كاملة ، وتبدو عليه البسمة . وقد أسبغت هذه المنازل على اسبانيا طابعها الخاص(١). وما زال طراز المنازل الأندلسية قائماً واضحاً فى مدن أندلسية قديمة مثل إشبيلية وغرناطة وشريش ، وهذا الطراز من المنازل تفضله الأرستقراطية بنوع خاص . بل لقد كان أثر الفن المعمارى الأندلسى قوياً فى الكنائس ذاتها ؛ ففى كثير من الكنائس الإسبانية والبرتغالية الأثرية ترى خطة المسجد ظاهرة فى عقودها وأروقتها . وقد أقيمت أبراج كثير من الكنائس الشهيرة على نمط المنارة الإسلامية ، واتخذت منارة الخيرالدا الشهيرة بإشبيلية نموذجاً لكثير من الأبراج فى كنائس اسبانيا الجنوبية . بل لقد تسرب تأثير الفن الإسلامى إلى الهياكل ذاتها ، فنرى مثلا مصلى دير « الهوبلجاس » أو الدير الملكى فى مدينة برغش ، وقد صنعت على الطراز الإسلامى ، وعليها قبة عربية مقرنصة الزخارف . ولما تضاءلت رقعة اسبانيا المسلمة ، وسقطت معظم القواعد الأندلسية فى يد الإسبان ، لبث المدجنون عصوراً ينقلون الفنون الإسلامية إلى صروح اسبانيا النصرانية . وكانت غرناطة ترسل العرفاء إلى قشتالة ليقوموا بإصلاح الصروح الإسلامية القديمة فى المدن الأندلسية القديمة التى استولت عليها قشتالة .

نعرض بعد ذلك لناحية أخرى من الفن الإسلامى فى الأندلس هى الموسيقى . وقد كان للموسيقى بين فنون الحضارة الإسلامية أيما شأن ، وكان ازدهارها بالأخص فى بغداد وقرطبة ، حيث بلغت حضارة الإسلام ذروة العظمة والنضج .

---

(١) M. Gomez-Moreno : Arquitectura (Nov. 1919)

وكان ازدهارها فى عصر مبكر جداً منذ أواخر القرن الثانى للهجرة ، فى ظل الدولة العباسية الفتية . وكان أول من كتب عن الموسيقى من المسلمين ، الكندى والفارابى ، وقد ترجمت كتبهما إلى اللاتينية منذ القرن الحادى عشر الميلادى . ويبدو أثر الموسيقى الشرقية واضحاً فى الكتابات الموسيقية اللاتينية ؛ وفضلا عن الكتابة ، فقد كانت الطرائق والمعارف الموسيقية المشرقية تنقل إلى الغرب عن طريق السماع والاتصال الشخصى ؛ وينطبق ذلك بنوع خاص على اسبانيا المسلمة ، حيث ازدهرت الموسيقى ، وتنوعت طرائقها منذ القرن التاسع الميلادى . وكانت الأندلس قد تلقت منذ أوائل هذا القرن قبساً من النهضة الموسيقية المشرقية ، فنزح زرياب الموسيقى غلام الموصليين(١) أساطين الموسيقى والغناء لهذا العهد ، إلى الأندلس فى عصر عبد الرحمن بن عبد الحكم (أوائل القرن الثالث) ، فاستقبله بنفسه وبالغ فى إكرامه ، وأغدق عليه العطف والبذل . وكان زرياب موسيقياً عظيما ومغنياً ساحراً ، فذاع فنه فى الأندلس والمغرب ، وأنشأ بالأندلس مدرسة موسيقية وغنائية باهرة ، استطال نشاطها وأثرها حتى عصر الطوائف ، وازدهرت أيام الطوائف فى إشبيلية فى ظل بنى عباد بنوع خاص (٢) . وسطع فى مملكة غرناطة قبس من هذه النهضة ، وظهر أثر الموسيقى الأندلسية فى تطور الموسيقى والغناء ، فى قشتالة وغيرها من أنحاء اسبانيا فى عصر مبكر ، ثم انتقل هذا الأثر إلى أوربا ، واشتهرت الموسيقى الأندلسية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، وكان لها أثرها فى تطور الموسيقى الغربية . ويقول لنا الأستاذ موريمو إن الأغانى الأصلية للموسيقى الحديثة ، كانت اقتباساً أندلسياً ، وانها كانت فى الأصل تكتب بلغة « الرومانش » اللاتينية التى كانت تغلب فى اللهجة الشعبية الأندلسية ، ومع أنه لم يبق لنا حتى اليوم شىء من هذا الشعر الرومانشى ، فإن آثاره تكثر فى أزجال شاعر قرطبى هو « ابن قزمان »(٣). وبرع المسلمون فى العزف على كثير من الآلات الموسيقية المعروفة حتى اليوم ، واخترعوا الكثير منها ولاسيما « القيثارة » التى كانوا يعتبرونها أجمل الآلات الموسيقية . وكان للموسيقى الأندلسية أثر كبير فى تطور الموسيقى الإسبانية القديمة ، وما يزال كثير من الأوضاع

---

(١) ابراهيم الموصلى وولده إسحاق وولده حماد .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٥٧ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها .

(٣) **M.Gomez-Moreno : Arquitectura (Nov: 1919)**

والتقاليد الموسيقية الأندلسية ، تمثل مثولا قوياً فى فنون الموسيقى والرقص والغناء الإسبانية الحديثة[1] .

وقد كانت الأمة الأندلسية أمة مرهفة الشعور والحس ، تعشق الفن الجميل ، وتحب الحياة الناعمة المترفة ، وتجنح إلى المرح والطرب . وقد وصف لنا ابن الخطيب لمحة من هذا الترف ، الذى كان عنواناً لحياة الأمة الأندلسية فى عصورها الأخيرة ، وذكر لنا كيف كان الشعب يعشق الغناء والموسيقى ، وكيف كانت غرناطة تموج بالمقاهى الغنائية التى يؤمها الشعب من سائر الطبقات[2] . وقد اشتهر الرقص الأندلسى بجماله وافتنانه فى مجتمعات العصور الوسطى ، وما زال شعب غرناطة المرح الطروب مقبلا خلال كفاحه الطويل ، على حياته المترفة الناعمة ، حتى أصبح العدو على الأبواب .

وللأندلسيين آثار قيمة فى الموسيقى العلمية والعملية . وفى مكتبة الإسكوريال مخطوط عربى نفيس للفيلسوف أبى نصر الفارابى عن الموسيقى وعناصرها ومبادئها وأوضاعها وأنغامها ، وكذلك عن الآلات الموسيقية المختلفة وأشكالها وتراكيبها[3] . وهو دليل على ما بلغه المسلمون فى هذا الفن من الرسوخ والابتكار .

وقد يرى بعض الباحثين الغربيين أن الأندلسيين تلقوا معظم تراثهم الفنى ، عن الفن النصرانى . وفى هذا الرأى مبالغة ، فقد اقتبس الأندلسيون من فنون القوط والفرنج والبيزنطيين والبنادقة ، ولكنهم كانوا مبتكرين أيضاً ، وكانوا منشئين لفن إسلامى محض ، بما أسبغوه عليه من ألوان الإفتنان الرائع التى اختصوا بها ، وتميز بها تراثهم الفنى مدى الأحقاب .

— ٥ —

هذا . وقد غاضت اليوم من الأندلس كل مظاهرها القديمة ، وأصبحت سائر القواعد الأندلسية القديمة اليوم ، مدناً اسبانية نصرانية ، وقد اختفت معظم الصروح والآثار الأندلسية ، ولم تبق منها اليوم سوى بقية صغيرة ، متناثرة هنا وهناك ؛ وإذا تركنا جامع قرطبة (وهو اليوم كنيسة قرطبة العظمى) ، وحمراء

---

(١) Murphy : ibid ; p. 296 ، وهذا ما يستطيع أن يلاحظه كل من زار اسبانيا وشهد حفلاتها الموسيقية والغنائية .

(٢) راجع الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ و١٤٣ .

(٣) وعنوانه « اسطقسات علم الموسيقى » (معجم الغزيرى ج ١ ص ٣٤٧) .

غرناطة ، ومنار إشبيلية (وهو اليوم برج الأجراس لكنيستها العظمى) ، إذا تركنا هذه الصروح الأندلسية العظيمة الباقية جانباً ، كان معظم الصروح والآثار الأندلسية التي قدر لها أن تنجو من أحداث الزمن ، يتمثل في بضعة أنواع معينة من المنشآت الأثرية يمكن حصرها فيما يلي :

أولا — القصبات الأندلسية ، والقصبة هي القلعة وملحقاتها ، وكانت تبنى عادة فوق أعلى ربوة تشرف على المدينة ، وتستعمل للسيطرة عليها والدفاع عنها ، كما تستعمل مقراً للأمير أو الحاكم ، ويلحق بها عادة قصر ومسجد . والقصبة هي أكثر الآثار الأندلسية ذيوعاً ، ولا تكاد تخلو قاعدة أندلسية قديمة حتى اليوم من القصبة أو بعض أطلالها ؛ وتوجد أشهر القصبات الأندلسية اليوم في مالقة وألمرية وجبل طارق وشاطبة وبطليوس وماردة باسبانيا ، وشلب وأشبونة وشنترة وشنترين بالبرتغال .

ثانياً — القصور ، وهي الكلمة التي حرف الإسبان مفردها إلى كلمة Alcázar أي القصر . وتوجد في طليطلة وإشبيلية وغرناطة ، وإطلاق هذه الكلمة الإسبانية على صرح من الصروح الأثرية ، يفيد في الحال أنه يرجع إلى أصل أندلسي أو أنه أنشئ على أنقاض قصر أندلسي ، كما هو الشأن في قصر إشبيلية Alcázar de Sevilla .

ثالثا — القناطر الأندلسية ، وتوجد منها نماذج في طليطلة ، وقرطبة ، ورندة ، وغرناطة .

كذلك يوجد كثير من بقايا الأسوار والأبواب والحمامات الأندلسية القديمة ، والأطلال التي تركت إلى جانب بعض الكنائس ، التي أقيمت فوق أنقاض المساجد القديمة ، من منارات حولت إلى أبراج للأجراس ، ومن عقود أو أسوار أو مشارف دارسة . كما يوجد عدد عديد من الذخائر والتحف واللوحات الأندلسية المبعثرة هنا وهنالك ، في بعض الكنائس والمتاحف الإسبانية ، وهذا كله إلى ما خلفه الفن الأندلسي من أثر خالد ، في طراز كثير من الصروح الإسبانية التاريخية ، من كنائس وقصور وأبواب وعقود ، وفي زخارفها ونقوشها ، وما خلفه فن المدجنين الذي اشتق من الفن الأندلسي ، من الآثار الظاهرة ، في طراز كثير من الصروح التي أنشئت في مختلف المدن الإسبانية ، منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر وذلك حسبما أشرنا من قبل .

على أن هذه البقية الباقية من الآثار الأندلسية تمثل بالرغم من قلتها ، العصور والأطوار المختلفة للفن الأندلسى ، ومنها نستطيع أن نقف على خصائص كل عصر وأطواره . وليس هنا مقام التحدث عن هذه الآثار ، فقد أفردنا لذلك مؤلفاً خاصاً ، تناولنا الحديث فيه عن الآثار الأندلسية الباقية فى سائر قواعد الأندلس القديمة(١) ، ولكنا نود أن نسجل هذه الحقيقة ، التى يشعر بها السائح المتجول ، كما يشعر بها العالم الباحث ، وهى أن هذه الآثار والأطلال الصامتة ، كلها تشهد بما كان لهذا الشعب الأندلسى الذكى النبيل ، من قدم راسخ فى ميدان العلوم والفنون ، وكلها تبدو بما يتجلى فيها من روعة أثرية ، ومن براعة علمية وفنية ، عنواناً لحضارة عظيمة .

(١) هو كتاب « الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » (القاهرة سنة ١٩٥٦ و١٩٦١) .

ثبت المراجع

— ١ —

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (القاهرة وبولاق) .
أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى (القاهرة) .
تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر (بولاق) .
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٥١) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (القسم الثالث مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (ج ١ و ٢ القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (ج ١ القاهرة سنة ١٩٥٦) .
اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب (القاهرة ١٣٤٧ هـ) .
الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية (تونس ١٣٣٧ هـ) .
أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر المنشور بعناية المستشرق ميللر (جوتنجن سنة ١٨٦٣) .
(نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر) المنشور بعناية معهد فرانكو — (العرائش سنة ١٩٤٠) .
تاريخ قضاة الأندلس لأبى الحسن النباهى المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (القاهرة ١٩٤٨) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٤ هـ) .
صلة الصلة لأبى جعفر بن الزبير المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال
تكملة الصلة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) .
الحلة السيراء لابن الأبار المنشور بعناية العلامة دوزى (ليدن سنة ١٨٥١) .
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٨) .

الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول (الجزائر سنة ١٩٢٠) .
نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى لأبى عبد الله محمد اليفرنى (طبع فاس) .
بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد للوزير يحيى بن خلدون المنشور بعناية الأستاذ الفرد بل (طبع الجزائر سنة ١٩٠٣ و ١٩١٠) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى للسلاوى (القاهرة) .
المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن دينار (تونس) .
الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية لأبى عبد الله الباجى المسعودى (تونس) .
مختصر تاريخ تطوان للسيد محمد داود .
مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لأبى عبد الله محمد أبوجندار (الرباط ١٣٤٥ هـ) .
رحلة الوزير فى افتكاك الأسير للوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى (العرائش ١٩٤٠) .
غزوات عروج وخير الدين (الجزائر سنة ١٩٣٤) .
وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى للأستاذ سيكودى لوثينا (المنشور بعناية المعهد المصرى بمدريد ١٩٦١) .
السلوك فى دول الملوك للمقريزى (لجنة التأليف والترجمة القاهرة) .
صبح الأعشى للقلقشندى (القاهرة) .
الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى (القاهرة) .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (بولاق) .
تاريخ ابن إياس المسمى بدائع الزهور (بولاق) .
الروض المعطار لأبى عبدالله الحميرى المنشور بعناية الأستاذ ل. بروفنسال (القاهرة) .
معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة) .
رحلة ابن بطوطة (القاهرة) .

مصادر مخطوطة

ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لابن الخطيب (الإسكوريال ١٨٣٥ الغزيرى) ؛ وكناسة الدكان (رقم ١٧١٢) ؛ ونفاضة الجراب (رقم ١٧٥٥) وغيرها من آثاره المخطوطة بالإسكوريال .

ديوان ابن الخطيب المسمى « الصبب والجهام والماضى والكهام » (خزانة جامع القرويين بفاس) .

أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر (الإسكوريال رقم ١٧٥٨ الغزيرى).

التكملة لابن عبد الملك المراكشى (الإسكوريال رقم ١٦٨٢ والرباط) .

الإكليل فى تفضيل النخيل (أو نزهة البصائر) لأبى الحسن النباهى (الإسكوريال رقم ١٦٥٣ الغزيرى) .

الياقوتة الحلية فى الذرية السعيدية المرينية المباركة العبدالحقية (مكتبة مدريد الوطنية) .

النفحة النسرينية واللمحة المرينية ، للأمير إسماعيل بن الأحمر (الإسكوريال ١٧٦٩ الغزيرى) .

الأنوار النبوية فى آباء خير البرية لمحمد بن عبد الرفيع الأندلسى الموريسكى المحفوظ بخزانة الرباط (المكتبة الكتانية) برقم 1238

كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع للرئيس ابن غانم الأندلسى الموريسكى ، وترجمة الشهاب الحجرى الموريسكى ومحفوظ بخزانة الرباط برقم ج 87 .

الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم لعبد الباسط بن خليل الحنفى المصرى (مكتبة الفاتيكان رقم ٧٢٨ و ٧٢٩ .Borg) .

نثير الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان للأمير اسماعيل بن الأحمر (دار الكتب المصرية رقم ١٨٦٣ آداب اللغة العربية) .

- ٢ -

R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête
» des Almoravides (Lévy-Provençal 1932).

» : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge.

» : Supplément aux Dictionnaires Arabes.

Lévy-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xème Siècle.

De Marlès : Histoire de la Domination des Arabes et des Maures en Espagne et Portugal (redigé sur l'Histoire de M. Joseph Condé).

P. Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain.

(وهو ترجمه القسم التاريخي من كتاب نفح الطيب مع تعليقات وهوامش)

W. Prescott : History of Ferdinand and Isabella the Catholic (London, Sonnenschein).

» : History of the Reign of Philip the Second (London 1855).

Scott : The Moorish Empire in Europe.

H. Ch. Lea : History of the Inquisition in Spain.

» » : History of the Moriscos of Spain; their Conversion and Expulsion (London 1901).

Owen Jones & Jules Goury : The Alhambra (London 1844).

W. Irving : A Chronicle of the Conquest of Granada (Everyman's).

Murphy : Mohamedan Empire in Spain.

Lane-Poole : The Barbary Corsairs.

» » : The Moors in Spain.

C. Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur.

M. Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

F.J. Simonet : Descripción del Reino de Granada (Granada 1872).

» » : El Cardinal Ximénez de Cisneros y los Manuscritos : Arábigo-Granadinos.

Isidro de las Cagigas : Los Mudéjares (Madrid 1940).

Prieto y Vives : De como debió nacer el Reino de Granada.

R. y. de Linares : Escrituras Arabes pertenecientes al Archivo de Nuestra Senora del Pilar de Zaragoza (en Homenaje a F. Codera, Zaragoza 1904).

A. G. Palencia : Los Mozárabes de Toledo en los Siglos XII 8 XIII (Madrid 1926-1930).

A.G. Palencia : Moros y Cristianos en España Medieval (Madrid 1945)
P. Boigues : Apuntes sobre las Escrituras Mozárabes Toledanas.
Alarcón y Santón y R. G. de Linares : Los Documentos Arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragón.
J. Condé : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana.
Lafuente Alcántara : Historia de Granada (Granada 1904).
Luis del Marmol Carvajal : Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada.
Hernando de Baeza : Las Cosas de Granada (ed. por M. Müller, Göttingen 1863).
M. Gaspar y Remiro : Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada.
» » » » : Entrada de los Reyes Católicos en Granada al Tiempo de su Rendición (Revista de Centro de Estudios Hist. de Granada).
Documentos Inéditos para la Historia de Espana.
M. Garrido Atienza : Las Capitulaciónes para la Entrega de Granada (Granada 1910).
P. Martiri de Angleria : Legatio Babylonico (Una Embajada de los Reyes Católicos a Egipto).
M. Gomez-Moreno : El Arte en Espana.
A. Llorente : Historia Critica de la Inquisición de España (Madrid 1817)
M. Alarcón : Misceláneo de Estudios y Textos Arabes(Madrid 1915)
M. Danvila y Collado : La Expulsión de los Moriscos Españoles (Madrid 1889)
Florecio Janer : Condición Social de los Moriscos de Espana (Madrid 1857).
Modesto Lafuente : Historia General de España (Madrid 1882).
D. Felipe Picatosti : Estudios sobre la Grandeza y Decadencia de Espana (Madrid 1887).
M. Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Españoles.
D. Pascual Boronat : Los Moriscos Espanoles y su Expulsión.
R. Menéndez Pidal : Origines del Español.
F. Saavedra : Discurso leido ante la Real Academia Espanola (Madrid 1878).
Al-Andalus (Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada).

فهرست الموضوعات

٥٢٤

صفحة

مقـــدمة ٣

تاريخ مملكة غرناطة

الـكتاب الأول

مملكة غـــرناطة

منذ قيامها حتى عصر السلطان أبى الحسن

الفصل الأول : الأندلس الغاربة ١٦

الفصل الثانى : نشأة مملكة غرناطة وقيام الدولة النصرية ٢٧

الفصل الثالث : طوائف الأمة الأندلسية فى عصر الإنحلال ٥٥

الفصل الرابع : طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية ... ٧٤

الفصل الخامس : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى قيام مملكة غرناطة ٨٤

الفصل السادس : مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر وعصر الجهاد المشترك بين بنى الأحمر وبنى مرين ٩٤

الفصل السابع : مملكة غرناطة فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى وذروة الصراع بين بنى مرين واسبانيا النصرانية ... ١١٧

الفصل الثامن : الأندلس بين المد والجزر ١٣٨

الفصل التاسع : تاريخ اسبانيا النصرانية منـذ قيام مملكة غرناطة حتى اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون ١٦٩

الـكتاب الثـانى

نهاية دولة الإسلام فى الأندلس

الفصل الأول : الأندلس على شفا المنحدر ١٨٨

الفصل الثانى : بداية النهاية ٢١٥

صفحة
الفصل الثالث : الصراع الأخير ٢٢٩
الفصل الرابع : ختام المأساة ٢٧١

مأســاة الموريسكيين

أو العرب المتنصرين

الـكتاب الثالث

مراحل الإضطهاد والتنصير

الفصل الأول : بدء التحول فى حياة المغلوب ٣٠٨
الفصل الثانى : ديوان التحقيق الإسبانى ومهمته فى إبادة الأمة الأندلسية ٣٢٨
الفصل الثالث : ذروة الإضطهاد وثورة الموريسكيين ٣٤٩

الـكتاب الرابع

نهـاية النهـاية

الفصل الأول : توجس السياسة الإسبانية وعصر الغارات البحرية الإسلامية ٣٧٨
الفصل الثانى : مأساة النفى ٣٩٣
الفصل الثالث : تأملات وتعليقات عن آثار المأساة ٤١١

الـكتاب الخامس

نظم الحكم والحياة الإجتماعية والفكرية فى مملكة غرناطة

الفصل الأول : نظم الحكم فى مملكة غرناطة وخواصها الإجتماعية ... ٤٣٤
الفصل الثانى : الحركة الفكرية فى مراحلها الأولى ٤٥٢
الفصل الثالث : عهد النضج والأزدهار... ... ... ٤٦٩
الفصل الرابع : العصر الأخير والآثار الباقية ٤٨٨
ثبت المراجع ٥١٩

فهرست الخرائط والصور والوثائق

صفحة

١ ــ خريطة مملكة غرناطة وعدوة المغرب ... ... صدر الكتاب
٢ ــ « الاندلس والممالك الاسبانية فى أواخر عصر الموحدين ... ٢٩
٣ ــ « الأندلس بعد الانهيار ٨٩
٤ ــ « غرناطة الإسلامية ٢٥٩
٥ ــ « مدينة الحمراء وقصر جنة العريف ٢٩١

الصـــور

١ ــ ألفونسو العالم ١٠٤
٢ ــ إيسابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة ١٨١
٣ ــ فرناندو الكاثوليكى ملك أراجون ١٨٣
٤ ــ أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة وآخر ملوك الاندلس ٢٠٧
٥ ــ أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس ــ صورة أخرى ٢٧٥
٦ ــ منظر عام لمدينة الحمراء ٢٩٣
٧ ــ من زخارف بهو السفراء ٢٩٥
٨ ــ نافورة الأسود والشرفة الوسطى لفناء الأسود ٢٩٧
٩ ــ واجهة قصر جنة العريف ٢٩٩
١٠ ــ الكردينال خمنيس دى سيسنيروس ٣١٧
١١ ــ ضريح فرناندو وإيسابيلا بكنيسة غرناطة ٣٥١
١٢ ــ الإمبراطور شارلكان ٣٥٣
١٣ ــ الملك فيليب الثانى ٣٥٩
١٤ ــ دون خوان ٣٧١
١٥ ــ أمير البحر خير الدين ٣٨٧
١٦ ــ الملك فيليب الثالث ٣٩٩

الوثائق

١ ــ وثيقة مدجنية مؤرخة فى سنة ٨٠١هـ (١٣٩٨م) ومحفوظة ببلدية بنبلونة ٥٩
٢ ــ وثيقة مستعربية من مجموعة دير سان كليمنتى بطليطلة مؤرخة فى سنة ١١٧٣م ٧١

صحفة

٣ – معاهدة التحالف المعقودة بين محمد بن الأحمر وملك أراجون فى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) ١١١

٤ – معاهدة الصلح المعقودة بين السلطان أبى الوليد اسماعيل وملك أراجون فى سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) ١١٩

٥ – وثيقة بتجديد معاهدة الصلح السابقة معقودة بين السلطان محمد ابن اسماعيل وملك أراجون فى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) ١٢٣

٦ – رسالة مرسلة من السلطان يوسف أبى الحجاج إلى دون ألفونسو ملك أراجون فى سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) ١٣١

٧ – وثيقة اعتماد صادرة من السلطان أبى الحجاج إلى وزيره القائد ابن كماشة سفيره إلى بيدرو الرابع ملك أراجون ومؤرخة سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م) ١٣٣

٨ – وثيقة صادرة من السلطان أبى الحسن المرينى باعتماد الصلح المعقود بين سلطان غرناطة وملك أراجون مؤرخة فى سنة ٧٤٦ هـ (١٣٤٥ م) ١٣٥

٩ – رسالة موجهة من السلطان الأيسر إلى قادة حصن قمارش مؤرخة فى سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) ١٥٧

١٠ – صورة جانب من معاهدة التحالف والخضوع المعقودة بين يوسف ابن المول وخوان الثانى ملك قشتالة فى سنة ٨٣٥ هـ (١٤٣٢ م) ١٥٩

١١ – مرسوم صادر من السلطان أبى الحسن إلى رسول الملكين الكاثوليكيين بقبول التحكيم ومؤرخ فى سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٨ م) ١٩٣

١٢ – خطاب مرسل من السلطان أبى عبد الله محمد إلى قائد وأشياخ أجيجر يدعوهم إلى طاعته مؤرخ فى سنة ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م) ٢٣٣

١٣ – الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم التى أصدرها الملكان الكاثوليكيان لأبى عبدالله وأهل غرناطة وعليها توقيعا فرناندو وإيسابيلا (١٤٩١م) ٢٥٣

١٤ – ذيل المعاهدة النهائية التى عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبد الله وفيها يتعهد بمغادرة الأندلس ، وعليها توقيعه وخاتمه (١٤٩٣م) ٢٧٩

١٥ – صورة خطاب مولاى عبد الله إلى دون هرناندو دى براداس مكتوب بخطه ومذيل بتوقيعه ٣٧٣

١٦ – الصفحتان الأوليان من كتاب فى الأدعية النبوية محرر بالألخميادو ٤٩٧

١٧ – صفحتان من كتاب فى التفسير محرر بالألخميادو ٤٩٩

فهرست البلدان والأماكن

— ا —

أبدة ؛ ٢٠،٣٣،٨٨،١٠٠،١٤٩،٤٩٦
الأبراج الحمراء ؛ ٢٩٠
آبلة ؛ ١٩،١٧١،١٧٧،٣٢٣،٣٣٢
أبو عقبة ، موقعة ؛ ٢٨٧
أجيجر ؛ ٢٣٠،٢٥١،٢٦٤،٣٦٦
أدرة ؛ ٢٥١،٢٦٤،٢٧٨،٣٦٢،٣٦٦
أراجون ؛ ٣٤، ٣٦، ٥٧، ٦٢، ٦٣، ٦٨،
٧٨،٨٤-٩١،١١٠،١٢٠،١٢١،١٢٧،١٤٠
١٤٤،١٤٨،١٦٣،١٧٢،١٧٩،١٨٠،١٨٤
١٨٥،١٩٤،٢١٠،٢٢١،٢٢٩،٢٧٢،٣١٢
٣٣٠-٣٣٢،٣٤٠،٣٥١،٣٥٣،٣٥٨،٣٨٢
٤٠٠،٤٠١،٤٢١،٤٩٤،٤٩٦،٤٩٨
أرجبة ، ٥٥،٢٥١،٢٦٤، ٣١٥،٣٦٩
أرشدونة ؛ ٥٥،١٥٨،١٦١،١٩٢،٤٩١
الأرك ، موقعة ؛ ١٩،٧٥،٧٧،٨٦،٨٧،
١٠٠،١٣٦
أركش ؛ ٤٥
أرمليا ؛ ٢٥،٢٥٨،٢٦٠،٢٦٦
أريقالو ؛ ٣٥٥
أزمور ؛ ٣١١
إسبانيا المسلمة ؛ ١٩،٢٠،٧٨،٧٩،٨٤-٨٦
٣٣٠،٤٣٢،٤٤٠،٤٤٦،٤٨٨،٥٠٥،٥٠٧
٥١٠،٥١٤،٥١٥
اسبانيا ، اسبانيا النصرانية ؛ ١٦،١٨-٢١،٣٤
٣٧،٤٣،٦٣،٦٥،٦٧،٦٨،٧٤-٨٠، ٨٢ -
٨٨،٩٥،١٢٢،١٢٣ ،١٢٧،١٣٠،١٦٨ ،
١٧٠،١٧٥،١٧٦،١٨٠،١٨٤،١٨٥،١٩١
١٩٤،١٩٥،٢١٩،٢٢١،٢٣٦،٢٣٩،٢٦٠
٢٦٤،٢٦٦،٢٧٢،٣٠٣،٣٠٣، ٣٠٨-٣١٠
٣١٢ ، ٣١٣، ٣١٩، ٣٢٤، ٣٣٠، ٣٣٣،
٣٤٠،٣٤١،٣٤٦،٣٤٨-٣٥٢،٣٥٥ ،٣٥٦،
٣٦٠ - ٣٦٢، ٣٧٠، ٣٧٤ ، ٣٨١-٣٨٣ ،
٣٨٦ ، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٢-٣٩٩ ،٤٠٢،
٤٠٩،٤١٩-٤٢١،٤٢٣،٤٢٤،٤٢٦-٤٣٢،
٤٣٩،٤٤٠،٤٤٥،٤٨١،٤٨٨،٤٩٣،٥٠٢،
٥٠٧،٥١٠،٥١٤،٥١٥
إستجة ؛ ٢٠،٣٣،٤٨،١٠٠،١٠٦،١٥٨
استرامادوره ؛ ٣٧٥،٤٠١
أسترقة ؛ ١٩
آسفي ؛ ٣١١،٣٩٢
الاسكندرية ؛ ٢٧٢،٤٤٨،٤٩٦
الاسكندرية ، موقعة ؛ ١٤٧
آسيا الصغرى ؛ ٤٦٠
أشبونة ؛ ٢٠،٥١٧
إشبيلية ، وولاية ؛ ٢٠،٢٢،٢٨،٣٠،٣٢،
٣٧،٣٩،٤٣-٤٥، ٥٠،٥٥-٥٧،٦٣، ٦٥،
٧٠،٧٥،٨٧،٨٨،٩٠،٩١،١٠١، ١٠٢ ،
١٠٦ ، ١٠٩، ١٣٢،١٤٢، ١٤٨، ١٤٩ ،
١٦٣، ١٧٠، ١٧١، ١٩٤، ٢٢٠، ٢٣١ ،
٣٣١ ،٣٣٢، ٣٤١، ٣٧٥، ٤٠١، ٤٠٤ ،
٤١٢، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ،٤٣٥ ،٤٣٨ - ٤٤٠ ،
٤٤٧،٤٥٩،٤٦٢،٥١٢-٥١٥،٥١٧
أشكر ؛ ٥٥،٢٢٣
أشونة ؛ ٣٨٨
أطريرة ؛ ١٤٨
أغادير ؛ ٣٩٢
إفراغة ؛ ٢٠
إفريقية ؛ ٣٦،٣٧،٣٩،٦٨،٧٢،٢١١ ،
٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٣٩، ٣٢٥، ٣٤٥ ،
٣٥٠ ، ٣٥٥، ٣٦٨، ٣٧٤، ٣٨٩، ٣٩٠ ،
٣٩٦،٤٠٢،٤١٢،٤٤٧،٤٤٨
البسيط ؛ ٣٧٥
إلبيرة ؛ ٢١،٢٢،٢٧،٥٦،١١٨،١٤٢،
١٦٠
إلبيرة ، موقعة ؛ ١٢٠
ألحامة ؛ ٥٥٢،٢٠١،٢٠٢،٢١٥
الحرم الشريف ؛ ١٢٩
الخبرونا ، موقعة ؛ ١٧٤
الصخرة ؛ ١٥١،١٩٥،٢٠١
العرائش ؛ ٣٩١
العقاب ، موقعة ؛ ١٩، ٢٠، ٧٥، ٧٧ ،
٨٦،٩٥،٩٦،١٢٨
الغرب ، ولاية ؛ ٢٠،٢٨،٣٦،٣٩،٤٣،

٤٩، ٧٢، ٨٨، ١٥١، ٤٦٧
الغرب الإسلامى ؛ ٧٧، ١٣٩
القبذاق ؛ ١١٠
ألكالا دى هنارس ؛ ٣١٦
اللسانة ، وموقعة ؛ ٢٠٣، ٢٠٨
المانيا ، ٣٢٨، ٣٣٠
ألمدور ؛ ٢٠
ألمرية ، وولاية ؛ ٣٣، ٣٥، ٤٠، ٥٢، ٦٣،
١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٦، ١٣٠، ١٤٤، ١٥٦
١٦٣، ١٦٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٤
-٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٦٤، ٢٦٩
٢٧٤ ، ٣١١ ، ٣١٥، ٣١٩، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ،
٣٧٥، ٣٨٥، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٧
٤٦٣، ٤٧٠، ٤٧١، ٥١٧
الملاحة ؛ ٢٢٧
المنصورة ؛ ٥٥، ٣٦٨
المنكب ؛ ٥٥، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٥٠،
٢٠٤، ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٥
٢٦٩، ٢٧٨
أمريكا ؛ ٤٢٥، ٤٢٧
أنتقيرة ؛ ٥٥، ١٤٣
أندرش ؛ ٥٥، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٥١ ،
٢٦٤، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦، ٢٧٧، ٣١١ ،
٣٢٣، ٣٢٥، ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٧٤
أندلس ؛ ١٦ - ٢٢، ٢٨، ٣٠-٣٥، ٣٧، ٣٨،
٤٠ - ٤٣، ٤٦-٤٩، ٥١، ٥٤-٥٦، ٦١، ٦٢،
٦٨ ، ٧٢-٧٩، ٨١-٨٦، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٥،
٩٧ - ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥-١٠٩، ١١٣،
١١٤، ١١٦، ١٢٠ ، ١٢٢، ١٢٤-١٣٠ ،
١٣٢ ، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١ -
١٤٧ ، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠ ،
١٨٨ ، ١٩٠، ١٩١ ، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٩ ،
٢٠١ ، ٢٠٣، ٢٠٦ ، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٦ -
٢٢١ ، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١،
٢٣٤ ، ٢٣٦، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦١،
٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠-٢٧٣، ٢٧٨، ٢٨٠،
٢٨٢ ، ٢٨٥-٢٨٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٦
٣٢١ ، ٣٢٢، ٣٥٠، ٣٦٢ ، ٣٦٥، ٣٦٧ -
٣٦٩ ، ٣٨٣، ٣٨٤، ٤٠٠-٤٠٨، ٤٣١ ،
٤٣٤ - ٤٤٠، ٤٤٣ - ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ،
٤٥٢ - ٤٦٢، ٤٦٩-٤٧١، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٧٨
٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٣ ،
٥٠٢، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١١، ٥١٣، ٥١٥، ٥١٦
أنيشة ، موقعة ؛ ٣٦
أوربا ؛ ٦٣ ، ٧٦، ٢٨٧، ٤٢٥، ٤٢٨ ،
٤٤٧، ٤٤٨، ٥١٥
أوريولة ؛ ٢٠، ٣٦، ٤١، ٥٦، ٩٢
أوليڤا ؛ ٣٨٦
الأهرام ؛ ٢٧٣
إيطاليا ؛ ١٣٠ ، ١٧٩، ٢٧٢، ٣٢٨، ٣٣٠،
٣٥٠، ٤٢٧

ب — ث

باب البنود ؛ ٢٦ ، ٣٦٠، ٣٦٣
باب البيازين ؛ ٢٦
باب إلبيرة ؛ ٢٦ ، ٢٦١
باب الرمان ؛ ٢٩٢
باب الرملة ، ميدان ؛ ٢٦، ٣١٦
باب الشريعة ؛ ٢٦، ٢٦١، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٢
باب الطباق السبع ؛ ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٧
باب العشار ؛ ٢٤٥
باب فحص اللوز ؛ ٢٦
باب الفخارين ؛ ٣١٠
الباب المحروق : ٤٧٨
باب نجدة ؛ ٢٤٥
باجة ؛ ٢٠، ٢٨
باديس ؛ ٣١١، ٣٩١
باغة ؛ ١٢٦، ١٤٩، ١٥١
بالميرا ؛ ٣٨٨
بجاية ؛ ١٢٧، ٣١١، ٣٢٥، ٣٨٤، ٤٥٥
البذول ؛ ٢٣٤، ٢٦٣
بربشتر ؛ ١٧
البرتغال ؛ ٢٠، ٤٣، ٤٦، ٧٩، ٨٥، ٨٨
٩٠، ١٢٧، ١٧٤، ٥١٧
برج الأسيرة ؛ ٢٩٠
برج الحراسة ؛ ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٨٩، ٢٩٢
برج رومة ؛ ٢٣٤
برج السلاح ؛ ٢٩٠
برج العقائل : ٢٩٠
برج قمارش ؛ ٢٠٠، ٢٠١
برج الماء ؛ ٢٦٧
برج المتزين ؛ ٢٩٠

برج الملاحة ؛ ٢٣٤
برجة؛ ٥٥، ٢٥١، ٢٦٤، ٢٧٨، ٣١١، ٣٦٦
برذنار ؛ ٣٦٥
برشانة ؛ ٥٥
برشلونة ؛ ٧٨ ، ٣٨٢ ، ٤٣١
برشينا ؛ ٢٧٧
برغة ؛ ١٤٨
برغش ؛ ٥١٤
بركونة ؛ ٤٣
بروڤانس ؛ ١٧٦
بسطة ؛ ٣٩، ٥٠، ٥٥، ٨٨، ٢٠٨، ٢٢١ ، ٢٢٤-٢٢٧ ، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٥١، ٣١١، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٦، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧٥، ٤٩١
البشرات ؛ ٥٥، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧-٢٤٩، ٢٥١ ، ٢٦٤-٢٦٧، ٢٧٣، ٣١١، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٤-٣٧٠ ، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤٢٥، ٤٤٣
بطرنا ؛ ٤٣، ٣٦٧
بطليوس ؛ ٢٠، ٣١، ٣٢، ٥٦، ٤٣٥، ٥١٧
بغداد ؛ ٣١، ٢٨٣، ٥١٥
بلاد البشكنس ؛ انظر ناڤار (نبرة)
بلاط الشهداء ؛ ٢١
البلد الجديد ؛ ٤٧٨
بلد الوليد ؛ ١٧٥، ١٨٢، ٣٢٢
بلدية بنبلونة ؛ ٥٨، ٥٩
البلشان ؛ ٢٢٣
بلش الحسناء (بلج) ؛ ٢٠٨، ٢٢٣
بلش البيضاء ؛ ٢٠٨، ٢٢٣
بلش مالقة ؛ ٥٥، ١١٦، ١٣٤، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٣٥، ٣١١ ، ٣٦٤، ٤٩١
بلغراد ؛ ٤٠٥
بلفيق ؛ ٣٢٣
بللنقة ؛ ١٩٥
بلنسية، وولاية؛ ٢٠، ٣٤، ٣٥-٣٧، ٥٠، ٥٦، ٥٧، ٦٢ ، ٦٣، ٧٠، ٧٥، ٨١، ٩٠-٩٢، ١٢٠، ١٧٧ ، ١٩٩، ٢١٠، ٢٧٢، ٣١٢، ٣٤٦، ٣٥٢ - ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٨٠، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٤ ، ٣٩٦-٣٩٨، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٥٥، ٤٨١
بنبلونة ؛ ٥٨
البندقية ؛ ٣٥٥، ٣٨٣، ٤٤٨
بني وزير ؛ ٣٥٢، ٣٨٠
بوكيرا ؛ ٣٦٧
بهو السباع ؛ انظر فناء السباع .
بهو قمارش (بهو السفراء) ؛ ٢٤٠، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦١، ٢٩٠، ٢٩٤
البيازين ، ربض ؛ ٢٥، ١٢٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٣، ٢٤٥-٢٤٩ ، ٢٦٢، ٢٦٧، ٣١٥ ، ٣١٦، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٦٠، ٣٦٢-٣٦٥ ، ٣٦٨، ٤٤٤، ٤٨٢
بيارن ؛ ٣٨٢
بياسة ؛ ٢٠، ٧٠، ١٢٠، ٢١٢
بيانة ؛ ٤٩٦
بيت المقدس ؛ ٧٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٧٣
بيرة ؛ ٥٥، ١٢٢، ٢٢٣، ٣١١
بيزه ؛ ٣٨٣
بيغ ؛ ٤٣
تركيا ؛ ٦٦، ٢١٩، ٤٢٥
تطوان (تطاون) ؛ ١١٤، ٣١١ ، ٣٩١ ، ٣٩٢، ٤٠٥، ٤٠٨
تطيلة ؛ ٢٠، ٦٣
تل الرحى ؛ ٢٥٨
تل الحمراء ؛ ٢٣
تلمسان ؛ ٣٢ ، ٩٦، ٩٧ ، ١١٣، ١٤٤ ، ٢٢٨، ٣١١، ٣٨٢، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤٠٨ ، ٤٦٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٩٠، ٤٩١
تورو ؛ ١٨٢
تونس ؛ ١٨، ٢٨، ٤٠، ٤٨، ١٢٥، ١٥٥، ١٥٦، ٣٢٥ ، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٥٥، ٤٩١، ٤٩٦ ، ٥٠١، ٥٠٢
الثغر الأعلى ؛ ٢٠، ٧٥، ١٦٦
ثيوداد ريال ؛ ٣٨٨، ٤١٤

ج — ح

جامع إشبيلية ؛ ٤٥، ٤٣٩، ٥١٣
جامع الحمراء ؛ ١١٢
جامع القرويين ؛ ٤٧
جامع القصبة ؛ ٤٠

جامع غرناطة ؛ ٢٤، ٢٦، ٣٦، ٣٥٠، ٤١٧، ٤٨٤
جامع قرطبة ؛ ٣٤، ٩٠، ٩١، ٥١٠، ٥١١، ٥١٦
جامعة غرناطة ؛ ٢٦
جبال البرنيه ؛ ٧٧، ٨٤، ٨٥، ١٤٣، ٤١٤، ٤٣١
جبال بونتو ؛ ٣٧٥
جبال رندة ؛ ٣٧٥
جبال قسنطينة ؛ ٢١٣
جبل شلير ؛ انظر سيرا نفادا .
جبل طارق ؛ ٥٥، ٨٢، ١١٥، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٥، ١٥١، ١٥٣، ١٦١، ١٦٥، ١٧١، ١٧٣، ١٧٦، ٢١٦، ٢٢٣، ٣٨٤، ٤٣١، ٤٤٤، ٤٧٦، ٤٩١، ٥١٧
الجزائر ؛ ٣٦٨، ٣٨٢، ٣٨٤-٣٨٦، ٤٠٥، ٤٠٨
الجزائر الشرقية ؛ ٣٥، ٦٢، ٩١، ١٧٨، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٩٠، ٤١٤
الجزيرة ، الجزيرة الخضراء ؛ ٢٢، ٣٣، ٤١، ٤٣، ٥١، ٥٥، ٩٩، ١٠١-١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٥، ١١٧، ١٢٢-١٢٤، ١٢٧، ١٢٨-١٣٠، ١٤٩، ١٧٢، ١٧٣، ٣١١، ٤٤٤
جزيرة شقر ؛ ٤٥٤
جزيرة صقلية ؛ ٦١، ١٥٢، ١٧٦، ١٧٨، ٢١٩، ٣٩٦
جزيرة منورقة : ٩٢، ٣٨٦
جزيرة ميورقة ؛ ٢٠، ٩١، ٩٢
جليانة ؛ ٤٥٩
جليرا ؛ ٣٦٩
جليقية ؛ ٨٦، ٨٧، ٣٢٣، ٣٧٥
جنة العريف ، قصر ؛ ٢٣، ٢٤، ١٤٠، ٢٩٨، ٢٩٩
جنة عصام ؛ ٢٤٢
جنجالة ؛ ٤١، ١٦٤، ٣٧٥
چنوه ؛ ٣٨٣، ٤٤٨
جواخاريس ؛ ٣٦٧
جيان ، وولاية ؛ ٢٠، ٣١، ٣٨، ٣٩، ٤١-٤٣، ٥٠، ٥٥، ٥٦، ٦٥، ٧٠، ٨٨، ٩٠، ١١٠، ١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٥٨، ١٦٥، ٢٢٢، ٢٢٥، ٣٣٢، ٤٠٤
الجيتو (حى اليهود) ؛ ٣٢٦
جيرة ؛ ١٤٨
جيرونة ؛ ٥١١
الحجاز ؛ ١٦٢
الحمراء ، مدينة ، قصر ، حصن ؛ ٢٣، ٢٤-٢٦، ٥٢، ٥٣، ٨٣، ١١٨، ١٢٥، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٧، ١٩٥، ١٩٨-٢٠١، ٢٠٨، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٩-٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦٠-٢٦٧، ٢٧٣، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٨-٣٠١، ٣٠٣، ٣٥٠، ٣٦٢، ٤٤١، ٤٥٠، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٦
حصن أرجونة ؛ ٣٨، ٤٢، ٤٣، ٩٠
حصن إليورة ؛ ٢١٠، ٢٣٠
حصن أيامونتى ؛ ١٥١
حصن ذكوين ؛ ٢٠٦
حصن قرطبة ؛ ٢٠٦
حصن قلنبيرة ؛ ٢١١
حصن قمارش ؛ ٢١٦
حصن المقورة ؛ ٤٦
حصن اللوز ؛ ٥٥، ٥٨، ١٦٠
حصن مجريط : ١٠٥
حصن مرتيل ؛ ٣١١
حصن المعودة ؛ ١٠٠
حصن المنكب ؛ ١١٤
حصن موجر ؛ ٣١١
حصن موكلين ؛ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١١، ٢٣٠
حصن مونتميور ؛ ٢١٦
حمص ؛ ٥٠ ، وانظر إشبيلية .
حوزموئل ؛ ٢٥
الخان ؛ ٢٥
الخزانة ؛ ٤٣
الخيرالدا (منار إشبيلية) : ٤٣٩، ٥١٤، ٥١٧

د — ز

الدار البيضاء ؛ ٣١٢
دانية ؛ ٢٠، ٣٦، ٥٦، ٧٥، ٩٢، ٣٨٢، ٣٨٦، ٤٣٩

درعة ؛ ٩٦
دلاية ؛ ٥٥، ٢٢٦، ٢٥١، ٢٦٤، ٣٦٦
دمشق ؛ ٤٥٨، ٤٦٠
دير الآباء الدومنيكان ؛ ٣٣١
دير سان فرنسيسكو ؛ ٣٥٠
ديرساكرومونتي ؛ ٥٠١
دير سان كلمنتي : ٦٨، ٧١
ديرالقديس فرنسيس ؛ ٢٢١
الدير الملكي ببرغش ؛ ٥١٤
رأس طرف الغار ؛ ١٢٧
الرباط ؛ ٣١٢
الرصافة ؛ ٤٤٦
رندة ؛ ٥٥، ٩٩، ١٠٥، ١١٢، ١١٦، ١٣٤، ١٤١ ، ١٤٨، ١٥١ ، ١٥٨، ١٦٠، ١٩٤ ، ٢٠٦، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٣١١، ٣٢٤، ٣٦٦ ، ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤٥٦، ٥١٧
ريه ؛ ٢٢
روسيون ؛ ١٧٩
روطة ؛ ٤٥، ٤٩٦
رومة ؛ ٩١، ٢٢١، ٢٧١، ٢٧٣، ٤٤٨، ٥٠١
الزاهرة ؛ ٤٤٦
الزلاقة ، موقعة ؛ ١٨، ٢٠، ٧٥، ٧٧، ٨٦، ١٠٠، ١٣٦
الزهراء ؛ ٤٤٦، ٥٠٩، ٥١٠

س — غ

سبتة ؛ ٤٧، ١١٣، ١١٤، ١٢٨، ١٤٥، ٢٣٩
السبيكة ؛ ٢٣، ٢٤، ٥٣، ٢٩٢
سجلماسة ؛ ٩٦
سردانية ؛ ٣٨٣
سرقسطة ؛ ٢٠، ٢٨، ٣١، ٥٨، ٦٨، ٧٥ ، ١٧٧، ٣١٢، ٣٥٢، ٣٩٧، ٥١٢
سلا ؛ ٩٦، ٣١١، ٣١٢، ٣٨٣، ٣٩٠، ٤٠٨، ٤٧٤، ٤٧٥
سمورة ؛ ١٩، ١٨٢
سوسة ؛ ٣١١
سيرا ڤرملبا ؛ ٣٢٤
سيرا نفادا ؛ ٢٣، ٥٥، ٢٣٣، ٢٩٢، ٢٩٨، ٣٦٤، ٣٦٦
سيرون ؛ ٣٧٠
شاطبة ؛ ٢٠ ، ٣٦ ، ٥٠، ٥٦، ٧٥، ٩٢ ، ١٢٠، ٤٤٧، ٥١٧
الشام ؛ ٧٧، ١٢٩، ٤٠١، ٤٠٨، ٤٤٧، ٤٥٩، ٤٦٠
شانت ياقب ؛ ٨٤، ٢٦٢
شذونة ؛ ٢٢، ٤٥
الشرق الإسلامي ؛ ٣٥٥، ٥١٠
الشرقية ، موقعة ؛ ٢٠٣
شرق الأندلس ؛ ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٤١، ٥٧، ٧٢، ٢٢٦، ٤٥٠، ٤٨٢
شريش ، وموقعة ؛ ٢٠، ٢١، ٣٩، ٤٥ ، ٤٧، ٤٩ ، ٩٩، ١٠١، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩ ، ٤٤٦، ٤٥٤، ٥١٤
شقوبية ؛ ١٨٢، ٣٣١، ٣٣٢
شقورة ؛ ١٩
شلطيش ؛ ٤٦
شلمنقة ؛ ١٩، ٧٩
شلوقة ؛ ٤٥
شلب ؛ ٢٠، ٢٨، ٤٣، ٥١٧
شلوبانية، وقلعة ؛ ٥٥، ١٠٢، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٦، ٢٣٤، ٣٦٦
شنترة ؛ ٢٠، ٥١٧
شنترين ؛ ٢٠، ٥١٧
شنتفى ؛ ٢٣٦، ٢٤٤، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧
شنتمرية الغرب ؛ ٢٠، ٤٥
صفاقس ؛ ٣١١
صقلية ؛ انظر جزيرة صقلية
طبيرة ؛ ٤٣
طرابلس ؛ ٣٢٥ ، ٣٩٠
طرش ؛ ٥٥
طرطوشة ؛ ٢٠، ٦٣
طريف ؛ ٥٥، ٩٩، ١٠٩، ١١٠، ١١٥ ، ١٢٧، ١٢٩، ٣١١، ٤٤٤
طريف ، موقعة ؛ ١٢٧، ١٢٨، ١٧٢، ٤٦٨، ٤٧٢
طليطلة ؛ ١٨، ٢٠، ٦٣، ٧٠، ٧٤، ٧٥، ٨١، ٩١، ١٠٥، ١٦٠ ، ٣٣٢، ٤٠٤، ٤١٢، ٤٣٢، ٤٤٧، ٥١١، ٥١٢، ٥١٧
طنجة ؛ ٩٩، ١١٠، ١١٤، ٢٣٩، ٣١١
عتقة ؛ ٢٣٦
عدوة المغرب ؛ انظر المغرب .

العرائش ؛ ٣٩١
عسقلونة ؛ ٦٣
عين الدمع ؛ ٣١٠
غرناطة، وولاية ؛ ١٧، ٢١-٢٨، ٣٠-٣٢، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٥٠، ٥٣، ٥٥-٥٧، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٨٢، ٨٣، ٩٤، ٩٩، ١٠٣-١٠٦، ١١٠، ١١٢-١١٦، ١١٨، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧-١٤٣، ١٤٧-١٥٦، ١٥٨، ١٦٠-١٦٨، ١٧١-١٧٥، ١٧٨، ١٩١، ١٩٤-١٩٦، ١٩٧، ٢٠٠-٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤-٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٦-٢٦٧، ٢٧١-٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٠-٢٨٥، ٢٨٩، ٢٩٦، ٢٩٩-٣٠٣، ٣٠٨-٣٢٤، ٣٢٦، ٣٤٠-٣٤٢، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦٠-٣٦٩، ٣٧٤-٣٧٦، ٣٨١، ٣٨٤، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤١٠، ٤١٢، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٣٢، ٤٣٨-٤٤٠، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٧، ٤٨٢، ٤٨٥-٤٩١، ٤٩٣، ٥٠١-٥٠٤، ٥١١، ٥١٤، ٥١٦، ٥١٧
غليانة ؛ ٤٥
الغوطة ؛ ٢٤

ف ـ ك

فارو ؛ ٤٦
فاس ؛ ٤٧، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١١٤، ١١٦، ١٢٢، ١٤٦، ١٦٥، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣١٢، ٣٢٥، ٣٩١، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٧٨، ٤٨٢، ٤٩١
الفرنتيرة ؛ ٤٣، ٤٩، ٥٥، ٨٢، ٩٩، ١٠٦
فرنسا ؛ ١٤٣، ١٤٥، ١٧٧، ١٧٩، ٣٢٨-٣٣٠، ٣٥٠، ٣٨٢، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٤٧
الفحص = فحص غرناطة ؛ انظر المرج .
فحص شريش ؛ ٣٣
الفخار ؛ ٣١١
ڤليالونجا ؛ ٣٢٤، ٣٢٥
فناء البركة ؛ ٢٩٤، ٢٩٦
فناء السباع ؛ ١٩٩، ٢٥٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٤
فناء السرور ؛ ٢٩٦
فيرنتزا (فلورنس) ؛ ٤٤٧
قابس ؛ ٣١١
قادس ؛ ٢٠، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٥٥، ١٧٠
قاعة الأختين ؛ ٢٩٦، ٢٩٨
قاعة الملوك ؛ ٢٩٨، ٤٥٠
قاعة بنى سراج ؛ ٢٩٦، ٣٠٢
القاهرة ؛ ١٢٩، ١٤٧، ١٦٢، ٢١٨، ٢٢١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٢٤، ٤٩٠
القبذاق ؛ ١١٠
قردوش ؛ ٣١١
قرطاجنة ؛ ٣٦، ٤١، ٣٨٩، ٤٠٠، ٤٠٩
قرطبة ؛ ٢٠، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٥٠، ٥٦، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٧٠، ٧٥، ٨١، ٨٨، ٩٠، ١٠٠، ١٠٥، ١٥٥، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٣٥، ٣٢٤، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٧٥، ٤٠٤، ٤١٢، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٧، ٤٩٥، ٥١٠، ٥١١، ٥١٥، ٥١٧
قرمونة ؛ ٣٩، ٤٣، ٥٦، ١٠٦، ١٤٩
قسطنطينية ؛ ١٦٨، ٢١٧-٢١٩، ٣٢٣، ٤٧ ٣٤٨، ٣٦٨، ٣٨٤، ٤٠١، ٤٠٨، ٤٣٨، ٤٤٨
قشتالة ؛ ٣٠، ٣٢، ٤٤، ٥٧، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٥ - ٨٨، ٩١، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١١٢، ١١٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٤٤، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٦، ١٧٠-١٨٠، ١٨٢، ١٨٤-١٨٦، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢١٠، ٢١٧، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٨٤، ٣٣٠ - ٣٣٢، ٣٤٠، ٤٠٠، ٤١٢، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٩٨، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥
قصبة الحمراء ؛ ٢٣٥، ٢٩٢
قصر الإسكوريال ؛ ٣٢٩، ٣٩٢، ٥٠٤
قصر إشبيلية ؛ ٥١٣، ٥١٧
قصر الجعفرية (قصر السرور) ؛ ٥١٢
قصر الحمراء ؛ انظر الحمراء
قصر الزهراء ؛ ٥١٠
قصر السباع ؛ ٢٩٤
قصر الڤاتيكان ؛ ٢٧٣، ٢٨٨
قصر الناعورة ؛ ٥٠٩
قصر باديس ؛ ٤٠
قصر شارلكان ؛ ٢٨٩

قصر شنيل ، قصر السيد ؛ ٢٥
قصر عبد الكريم (القصر الكبير) ؛ ٣٩١
قصر قرطبة ؛ ٥٠٩
قصر قمارش ؛ ١٩٩، ٢٩٤
قصر مصمودة ؛ ٩٩
قطلونية ؛ ٨٦، ١٧٦، ٤٠١، ٤١٤
قلعة ابن سلامة ؛ ١٦٣
قلعة الحمراء ؛ ١٥٦
قلعة أيوب ؛ ٦٣
قلعة بنى سعيد ؛ ١٢٨
قلعة بنى موريل ؛ ١٦٣
قلعة جابر ؛ ٤٣
قلعة رباح ؛ ٤٢، ٧٩، ٣٧٥
قمارش ؛ ٥٥، ١٠٨
القمامة ؛ ٢٢٠، ٢٢١
قنطرة شنيل ؛ ٢٣، ٢٦
قيجاطة ؛ ١١٠
كازورلا ؛ ١٦١
كالوسا ؛ ٣٨٨
كتدرائية إشبيلية ؛ ٦٥، ٤٣٨، ٥١٣
كتدرائية بنبلونة ؛ ٥١١
كتدرائية سرقسطة ؛ ٥٧
كتدرائية سمورة ؛ ٥١١
كتدرائية غرناطة ؛ ٨٣، ٢٦٢، ٣٥٠
الكعبة ؛ ٣٤٦
كنيسة سانتاماريا ؛ ٢٩٠
كنيسة سان سالبادور ؛ ٣١٦
كنيسة سان سبستيان ؛ ٢٦٠
كنيسة طليطلة العظمى ؛ ٢٦٦

ل — ى

لاردة ؛ ٤٤٦
لامنشا ؛ ٤١٠ ، ٤١٤
لبلة ؛ ٢٠، ٤٦، ٥٦، ١٠٦
لقنت ؛ ٢٠، ٣٦، ٤١، ٥٦، ٣٩٨
لك ؛ ١٩
اللسانة (اليسانة) ؛ ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٤٣٨
لورقة ؛ ١٢٦ ، ١٥٠، ٣٨٩
لوشار ؛ ٢٥١، ٢٦٤، ٢٧٧، ٣٦٦
لوشة ؛ ٣٣، ٥٥ ، ١٦٠، ٢٠١ - ٢٠٣ ، ٢٠٥، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٢٩ ، ٣١١، ٤٥٤، ٤٧٢
ليون ؛ ٣٢، ٣٣، ٧٧، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ١٨٢، ٣٧٥
ماردة ؛ ٢٠، ٣٢، ٥٦، ٥١٧
ماردين : ٤٦٥
مالطة ؛ ٣٨٣
مالقة ، وولاية ؛ ٢٨، ٣٠، ٣٩، ٤٠، ٥١ ، ٥٥، ٦٣ ، ٩٩، ١٠٢ ، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٦ - ٢١٨ ، ٢٢٠ - ٢٢٤ ، ٢٥٤ ، ٣١١ ، ٣١٥، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٨٦، ٤٩١، ٥١٧
المارستان الأعظم ؛ ١٤٧
متحف الحمراء ؛ ٥١١
متحف جنة العريف ؛ ٤٥٠
متحف غرناطة ؛ ٢٦، ٥١١
متحف قرطبة ؛ ٥١٠
متحف مدريد الوطنى ؛ ٢٩٠، ٥١١
متزين الملكة ؛ ٢٩٨
مدرسة غرناطة النصرية ؛ ١٢٦ ، ٤٨٤
مدريد ؛ ٣٦١، ٤٨٠، ٥٠٠، ٥٠٤
مدينه دلكامبو ؛ ٣٥٥
مراكش ؛ ٣٠، ٣٢ ، ٩٦، ٢١٨، ٣١٢، ٣٩١، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٠٥، ٤٣٨، ٤٧٠، ٥٠٣
مربلة ؛ ٥٥، ١٠٣، ١٣٤، ٣٦٦، ٣٧٥
مرتش ، وموقعة ؛ ٤٢، ١١٨، ١٢١
مرتفع غمارة ؛ ٢٦١
مرتيل ، قرية ؛ ٣١١
المرج = مرج غرناطة ؛ ٢٤، ٤١، ٦٨، ١٤٢، ١٥٠، ١٦٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥١ ، ٣١٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٩٠، ٤٩٢
مرسية ، وولاية ؛ ٣٠، ٣١، ٣٤-٣٧، ٤١، ٤٢، ٥٠، ٥٥-٥٧، ٦٣، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٨، ٩٠ ، ١١٢، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٥٠، ١٥٥، ١٦٤ ، ١٩٩ ، ٣٦٨ ، ٣٨٢ ، ٣٩٤، ٤٠١، ٤١٢ ، ٤٢١، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٨
المرسى الكبير ؛ ٣٨٢
مرشانة ؛ ١٤٩، ٢٥١، ٣١١، ٣٦٦
مسجد الحمراء ؛ ٢٩٠، ٥١١
مسلاتة ؛ ٣٨٠

المشرق ؛ ١٣٠، ٢١١، ٢١٨، ٢١٩، ٢٧٣، ٢٨٤، ٤٠١، ٤٠٥، ٤٢٧، ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٥٣، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٩٠، ٤٩١، ٥٠٢، ٥٠٨
مصر ؛ ٦٦، ٧٧، ٧٨، ١٢٩، ١٦١، ٢١١، ٢١٨ - ٢٢٢، ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٤٧، ٣٤٨، ٤٠١، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦٤، ٤٨٦، ٥٠٣
المغرب ؛ ١٨، ٣٠-٣٢، ٣٧، ٣٨، ٤٤، ٤٦، ٦٠، ٦٦، ٧٥، ٨١، ٩٢، ٩٥-٩٧، ٩٩-١٠٣، ١٠٥، ١٠٨ - ١١٠، ١١٣، ١١٦، ١١٧، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦-١٣٢، ١٤٠، ١٥٣، ١٦٥-١٦٧، ١٧٠، ١٧٢، ١٨٩ - ١٩١، ٢١٠، ٢١٦ - ٢١٨، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٧، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٦-٢٨٠، ٢٨٤، ٢٨٦، ٣٠٩ - ٣١٣، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٨٤-٣٨٦، ٣٨٩-٣٩٢، ٣٩٥، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٩، ٤٢٧، ٤٤٣، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٧٠، ٤٧٣ - ٤٧٨، ٤٨٢، ٤٨٦، ٤٩١ - ٤٩٣، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥١٣، ٥١٥
المغرب الأقصى ؛ ٩٥، ٩٧، ٢٣٩، ٤٤٤
المغرب الأوسط ؛ ٩٥
مقبرة الحمراء ؛ ١٣٦
مكتبة أكاديمية التاريخ ، ١٧، ٥١٩
مكتبة الإسكندرية ؛ ٣١٩
مكتبة الإسكوريال ؛ ٦٠، ١٣٠، ١٩٦، ٤٤٧، ٤٨٠، ٤٨٦، ٥٠٤، ٥٠٧، ٥١٦
مكتبة الڤاتيكان ؛ ١٦٧، ٣٤٤
مكتبة مدريد الوطنية ؛ ٥٠٠
مكناسة ؛ ٢٠، ٩٦
مكة ؛ ٣٦٥
مليلة ؛ ٢٧٨
منظرة اللندراخا ؛ ٢٩٨
موريريا (حي الموريسكيين) ؛ ٣٢٦
مونتيل ، موقعة ؛ ٨٢، ١٤٣، ١٧٣، ١٧٤، ٣٧٥
مونتى فريو ؛ ١٦٣، ١٦٤
ميرتلة ؛ ٢٨

نابل ، ومملكة ؛ ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٩٦
ناڤار (نبرة) ؛ ٦٠، ٧٧، ٨٦، ٨٧، ١٧٩
نافورة السباع ؛ ٢٩٦
نهر ألتيا ؛ ٣٨٦
نهر أندرش ؛ ٥٥
نهر أوديل ؛ ٤٦
نهر إيبرو ؛ ٨٥
نهر التاجه ؛ ٢٠
نهر دويرة ؛ ١٩، ٨٤
نهر حدره ؛ ٢٣، ٢٠١، ٢٨٩، ٢٩٢.
نهر سالادو ؛ ١٢٧، ١٧٢
نهر شنيل ؛ ٢٣ ، ٢٥، ٥٥، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٣٦، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٥، ٢٦٦ ، ٤٤٦
نهر اللوار ؛ ٧٧
نهر المنصورة ؛ ٥٥
نهر النيل ؛ ٢٧٣
نهر وادى أنة ؛ ٤٦
نهر الوادى الكبير ؛ ٣٧، ٤٤، ٥٥، ٩٠، ١٠٦، ٤٣٢، ٤٤٠
همدان ؛ ٢٣٤
وادى أجوار ؛ ٤٠٠
وادى آش ؛ ٣٩، ٥٥، ٨٨، ١٠٨، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٤٠، ١٤٢، ١٥٦، ١٦٠، ٢٠١ ، ٢٠٢، ٢١٤، ٢١٦ ، ٢١٧، ٢٢٤-٢٢٧ ، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٩، ٣١٩ ، ٣٦١، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤٥٨، ٤٧٣ ، ٤٨٥، ٤٩١
وادى غفو ؛ ٩٧
وادى لكرين ؛ ٣١٩، ٣٧٥
وادى لكه ، وموقعة ؛ ٢١٢، ٣٣٠
وادى ملوية ؛ ٩٥
وادى المنصورة ؛ ٣٦٦، ٣٧٥
وجدة ؛ ٩٧
وشقة ؛ ٢١٢
وهران ؛ ٢٢٧، ٣١١، ٣٢٥، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٩٨، ٤٠١
ولبة ؛ ٢٠، ٤٦، ٤٦٧
يابرة ؛ ٢٠

فهرست القبائل والطوائف والدول

الأسبتارية ؛ ٧٨، ٧٩
الأغالبة ؛ ٣٨٣
الألبيون ؛ ٩١، ٣٢٩، ٣٣٠
الامبراطورية الرومانية المقدسة ؛ ١٧٠
الأمة الأندلسية ؛ ١٦، ١٨، ٢١، ٣٨، ٤١، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٦، ٨٣، ١٥٤، ١٦٦، ١٨٤، ١٨٨، ٢١٩، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٦٠، ٣٠٢، ٣٠٩، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٣٠، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٨٤، ٣٩٣، ٤١١، ٤١٢، ٤١٦، ٤٣٠، ٤٣٤، ٤٤٩، ٤٩٣
آل البيت ؛ ٤٦٥
آل هوهنشتاوفن ؛ ١٧٠، ١٧٦
البابوية؛ ٦٢، ٦٥، ٢٨٨، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٢
البربر ؛ ٢٣، ٢٧، ٥٦، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٧، ٤٤٣
البروتستانتية ؛ ٣١٩، ٤٣٠
بنو أبي العلاء ؛ ١٠٧، ١١٨، ١٢٤، ١٢٥، ٤٤٣
بنو اسرائيل ؛ انظر اليهود.
بنو أشقيلولة ؛ ٤٠، ٤١، ٥١، ٩٨، ٩٩-١٠٣
بنو أضحى ؛ ١٦٦
بنو الأحمر ؛ انظر بنو نصر.
بنو الأفطس ؛ ٤٣٩
بنو الثغرى؛ ١٦٦، ٢١٧، ٢٣٩، ٣٠٣، ٣١٥
بنو أمية ؛ ٢٧، ٢٨، ٥٠٩
بنو حفص ؛ ٤٨٥
بنو حمود ؛ ٢٧، ٢٨
بنو خلدون ؛ ١٤٢
بنو ذو النون ؛ ٥١٢
بنو زهر ؛ ٤٣٧، ٤٥٩
بنوسراج ؛ ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ٢٠٠، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١١، ٣٦٣
بنو عامر ؛ ٢٧
بنو عامر الموريسكيون ؛ ٣٨٠، ٣٨٣
بنو عباد ؛ ٢٨، ٥١٢، ٥١٥
بنو عبد الواد ؛ ٩٥، ٤٨٥
بنو عبد المؤمن ؛ ٢٨
بنو قسى ؛ ٧٢
بنو مرين ، ودولة ؛ ٣٢، ٤٧، ٧٣، ٩٥-٩٩، ١٠٣، ١٠٥-١١٦، ١١٨، ١٢٢، ١٢٩، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦، ١٩١، ٢١٨، ٢٧٨، ٤٤٣، ٤٧٨، ٤٨٥
بنو نصر ؛ ١٧، ٢٥، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٩٤، ١٠٧، ١١٥، ١٢٥، ١٣٦، ١٣٩، ١٥٦، ١٥٨، ١٩١، ١٩٩، ٢٠٦، ٢٦٤، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٤٤١-٤٤٣، ٤٥٠، ٤٦٩، ٤٨٥، ٤٨٦
بنو وطاس، ودولة ؛ ١٦٥، ٢٣٩، ٢٧٨، ٢٨٦
التتار ؛ ٢٨٣
الترك العثمانيون ؛ ١٦٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٣٤٦، ٣٦١، ٣٦٨، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٦، ٤٢١
الخلافة الأموية، والدولة؛ ١٦، ٢٢، ٢٧، ٥٦، ٧٩، ٤٣٥، ٤٤٦
الخلافة العباسية ، والدولة ؛ ٣١، ٥١٥
خلافة قرطبة ؛ ٣٨٣
الخلافة الموحدية ؛ ٣٠-٣٢، ٤٧، ٤٨، ٨٨، ٩٥-٩٧، ٤٣٦، ٤٥٧
الدولة النصرية ؛ انظر بنو نصر
الرومان ؛ ٢٢
زناتة ، قبيلة ؛ ٧٣، ٩٥، ١٠٧
الصقالبة ؛ ٤٩٥
الصليبيون ؛ ٧٨، ٣٨٣
صنهاجة ، قبيلة ؛ ٢٧
الصحابة ؛ ٣٨، ٤٦٥
الطوائف ، ملوك ، ودولة ؛ ١٦-١٨، ٢٨، ٣٧، ٤٦، ٥٤، ٧٤، ٧٧، ٨٤، ٨٥، ١٠١، ١٠٦، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٥٦، ٤٦٠، ٤٦٢، ٥١٢، ٥١٥
العرب ؛ ٢٢، ٧٠، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ٩٥، ٣٩٦، ٤١٠، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٥، ٥٠٦

العرب المتنصرون ؛ انظر الموريسكيون .

غمارة ، قبيلة ؛ ٢٠٦، ٣١١

الفاطميون ؛ ٣٨٣

فرسان المعبد (الداوية) ؛ ٧٨، ٧٩

فرسان القنطرة (القديس يوليان) ؛ ٧٩

فرسان قلعة رباح ؛ ٧٩

الفرنج ؛ ١٤٧، ٢٢٠، ٣٢٢

قريش ؛ ٣٩٤

القشتاليون ؛ ٣٠، ٣٣، ٤٦-٤٩، ٥٣، ٨٨، ٩٠، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢١، ١٢٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٣، ١٦١، ١٦٤، ١٦٥، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٦-٢٠٨، ٢١٠-٢١٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٥٨، ٢٦٤، ٣١٤، ٤٩١

القوط ؛ ٢١، ٢٢، ٤٧، ٤٣١

المدجنون ؛ ٥٦، ٥٧، ٦٠، ٦٢-٦٨، ٧٠، ٩٣، ١٢٠، ١٤٨، ١٧٣، ١٩٩، ٢٣١، ٢٤٧، ٣١٢، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٤٠، ٤٩٤، ٤٩٨، ٥١٤، ٥١٧

المرابطون ؛ ١٨، ٢٠، ٢٨، ٥٦، ٦٨، ٧٢-٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨١، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٦، ١٠٧، ١٩١، ٣٨٣، ٤٢٧، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٣، ٥١٣

مضر ؛ ٣٩٤

مغراوة ، قبيلة ؛ ٧٣، ٩٥

مملكة أراجون ؛ ٨٥، ٩١، ١٣٠، ١٥١، ١٥٢، ١٧٨، ٣٣٠، ٤١٨

مملكة البرتغال ؛ ٣٢٢

مملكة غرناطة ؛ ٢١، ٣٧، ٣٨، ٤٠-٤٢، ٤٥، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٦٦، ٧٠، ٧٤، ٨١، ٨٣، ٩٤، ١٠٧، ١١٢، ١٢٧، ١٣٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٠، ١٦١، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧١، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٥، ١٨٩، ١٩١، ١٩٥، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٣٠٠، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٤٠، ٣٤١، ٤٤٠-٤٤٩، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٧، ٤٦٠-٤٦٢، ٤٦٩، ٤٧٢، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٤، ٤٩٥، ٥١٣، ٥١٥

مملكة قشتالة ؛ ٧٤، ١١٨، ١٣٠، ١٣٦، ١٥٤، ١٦٨، ٢٢٣، ٢٦١، ٣٢٠، ٣٢٢

المملكة اللاتينية ؛ ٧٨

مملكة ليون ؛ ٨٥، ٨٧، ٨٨

الموحدون ؛ ١٨-٢٠، ٢٥، ٢٨-٣٢، ٣٥، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٥٦، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨١، ٨٦، ٩٥-٩٩، ١٩١، ٢١١، ٣٨٣، ٤٢٧، ٤٣٧-٤٣٩، ٤٤٣، ٤٥٩، ٥١٣

الموريسكيون ؛ ٦٧، ١٩٧، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٤١-٣٥١، ٣٥٣-٣٦٢، ٣٦٤-٣٧٠، ٣٧٤-٤٠٣، ٤٠٩-٤٣٠، ٤٤٧، ٤٩٣-٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٣

المولدون ؛ ٧٠، ٧٢، ٢٨٩

النصارى المعاهدون ؛ ٦٦-٦٩، ٧٢، ٤٩٥

النورمان ؛ ١٧

الوندال ؛ ٤٢٧

اليهود ؛ ٥٧، ٦٤، ١٢٠، ١٢١، ١٦٥، ١٧٣، ٢٤٧، ٣١٤، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٦٣، ٤٠١، ٤٠٢، ٤١٤، ٤١٧، ٤٢٨، ٤٣٧

فهرست الأعـــلام

ـ ا ـ

ابراهيم بن زرور ؛ ١٤٢
ابراهيم بن سهل الإشبيلى ؛ ٤٤، ٤٥٤
ابراهيم بن يحيى الأنصارى ؛ ٤٦٧
ابراهيم القيسى ؛ ٢٣١
ابراهيم دى بلفاد ؛ ٤٩٦
ابن أبى أصيبعة ؛ ٤٦٠
ابن أبى الخصال ؛ ٤٣٦
ابن الأبار القضاعى ؛ ٣٦، ٣٧، ٩٢، ٤٣٩، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٨
ابن الأحمر ، محمد بن يوسف ؛ ٣٨، ٣٩-٤٤، ٤٦-٥٣، ٨١، ٨٢، ٨٨، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ١٦٠، ١٧٠، ٢٨٩، ٢٩٠، ٤٣١، ٤٤١، ٤٥٢، ٤٥٧، ٤٦٠
ابن الأزرق ، الأصبحى ؛ ٤٩٠، ٤٩١
ابن اسماعيل ، السلطان ؛ ١٦٤-١٦٧، ١٧٦، ٤٥١
ابن أشقيلولة ، أبو اسحاق؛ ٤٠، ١٠٨
ابن أشقيلولة ، أبوالحسن ؛ ٤٠، ٩٩، ١٠٨
ابن أشقيلولة، أبو محمد ؛ ٥١، ١٠٤
ابن البرزى ، على بن يحيى ؛ ٤٦٦
ابن البيطار المالقى ؛ ٤٥٣، ٤٥٩، ٤٦٠
بن الجد الفهرى ؛ ٤٣٦
ابن الجياب ، أبو الحسن على ؛ ١٢٦، ٤٤٢، ٤٦١، ٤٦٥، ٤٧٢، ٤٨١
ابن الجيان المرسى ؛ ٤٥٥
ابن الحكيم الرندى ؛ ١١٢، ١١٣، ١١٤، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٦١-٤٦٤
ابن الحكيم ، أبو بكر؛ ٤٦٣
ابن الخطيب ، عبد الله ؛ ١٢٦، ٤٦٦، ٤٧٢
ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ٢٣، ٢٤، ٤٩، ٥١، ٧٣، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٩، ١٥٠، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٩، ١٩٠، ٤٣٥، ٤٤٠-٤٤٢، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٦١-٤٦٣، ٤٦٥ - ٤٨٧، ٤٨٩، ٥١٦
ابن الدباغ ، أبو اسحق ؛ ١٩
ابن الرومية ، أبو العباس ؛ ٤٥٩، ٤٦٠
ابن الزبير ، أبو جعفر ؛ ٤٦٦
ابن الشط الأنصارى ؛ ٤٦٧
ابن الصابونى ؛ ٤٣٩
ابن العزفى ؛ ١١٣
ابن العوام ، أبو زكريا ؛ ٤٤٦
ابن الفخار ؛ ٤٥٤
ابن الفرضى ؛ ٤٣٩
ابن المحروق ؛ ١٢١، ١٢٢ ، ٤٤١
ابن المهنا ؛ ٤٨٧
ابن إياس ؛ ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٣٢٢
ابن باجة ؛ ٤٣٦
ابن بدرون ؛ ٤٣٩
ابن بسام ؛ ١٧ ، ٤٣٦
ابن بشكوال ؛ ٤٣٨، ٤٥٦، ٤٦٦
ابن بصال ؛ ٤٤٦
ابن بطوطة ؛ ١٣٢، ١٣٤، ٤٦٥، ٤٧٠
ابن تومرت ، المهدى ؛ ٣١، ٤٣٧
ابن جابر الضرير ؛ ٤٦٥
ابن جبير ؛ ٤٦٨
ابن جزى ، أبو عبد الله ؛ ٤٧٠
ابن جزى ، أبو القاسم ؛ ٤٦٧
ابن حبيب الإشبيلى ؛ ٤٣٨
ابن حريق ؛ ٤٥٣
ابن حزم ؛ ٤٣٥
ابن حفصون ؛ ٧١
ابن حمدون الحميرى ؛ ٤٥٣
ابن حيان ؛ ١٧، ٤٣٥
ابن خاتمة ، أبو جعفر؛ ١٣٠، ٤٦٤، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٨١
ابن خالد ؛ ٣٩
ابن خروف الإشبيلى ؛ ٤٥٧
ابن خلدون ؛ ١٠٥، ١١٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٧٣، ١٩٠، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٧٩، ٤٩٠
ابن خميس التلمسانى ؛ ٤٦٣

ابن دينار ؛ ٤٠٨
ابن رشد ، الجد ؛ ٦٨،٦١
ابن رشد ، الحفيد ؛ ٤٣٨،٤٣٧
ابن زمرك ، أبو عبد الله ؛ ١٤٥، ١٥٠، ٢٩٦، ٤٤٢، ٤٦١، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٢-٤٨٥
ابن زهر ، أبو بكر ؛ ٤٥٩،٤٣٥
ابن زهر ، أبو العلاء ؛ ٤٥٩،٤٣٧
ابن زهر ، عبد الملك ؛ ٤٥٩،٤٣٧
ابن زيدون ؛ ٤٣٥
ابن سراج ، الوزير ؛ ١٦١
ابن سعيد الأندلسى ؛ ٤٥٨،٤٥٣
ابن سلبطور ؛ ٤٨١،٤٦٩
ابن شعيب ، الرئيس ؛ ٤٤
ابن صناديد ، عبد الملك بن يوسف ؛ ٥٢
ابن طفيل ، أبو بكر ؛ ٤٣٧
ابن عبد البر ، الوزير ؛ ١٦٣،١٦١
ابن عبد البر ؛ ٤٦٨
ابن عبد الرفيع الأندلسى ؛ ٤٠٣، ٤٠٧، ٥٠١
ابن عبد الملك المراكشى ؛ ٤٥٦
ابن عبدون ؛ ٤٣٩،٤٣٥
ابن عبو ؛ انظر مولاى عبد الله .
ابن عربى ، محيى الدين ؛ ٤٥٨،٤٥٣
ابن غازى ، الوزير ؛ ٤٧٨
ابن غانم الأندلسى ؛ ٥٠١
ابن فرج الموريسكى ؛ ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٦
ابن فرحون القرشى ؛ ٤٦٧
ابن فرحون ، برهان الدين ؛ ٤٨٦
ابن كماشة ، أبو الحسن ؛ ٤٦٣،١٣٠
ابن كماشة ، يوسف ؛ ٢٠٤، ٢٣١، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٣١٥
ابن قزمان ؛ ٤٩٥،٤٣٦
ابن ليون التجيبى ؛ ٤٦٨
ابن مرج الكحل ؛ ٤٥٤
ابن محفوظ ؛ ٤٦،٤٣
ابن مردنيش ، محمد بن سعد ؛ ٤٠، ٧٢، ٨١، ١٩٩، ٤٥٠، ٤٥٥
ابن ميمون ؛ ٤٣٧،٧٣
ابن هشام ، الوزير ؛ ٩٩
ابن هود ، المتوكل ؛ ٢٨، ٣١-٣٥، ٣٨، ٤٠، ٨٨، ٩٠، ٤٥٢، ٤٥٥
ابن هود ، محمد بن على ؛ ٤١
ابن هود ، المقتدر ؛ ٥١٢
ابن يونس ؛ ٤٨
أبو ابراهيم ، اسحاق بن يوسف ، السيد ؛ ٢٥
أبو الحسن بن مسعود ؛ ١٢١
أبو الحسن البسطى ؛ ٤٩١
أبو الحسن السعيد الموحدى ؛ ٩٦،٣٢
أبو الحسن الفزارى ؛ ٤٦٦
أبو الحسن المرينى ، السلطان ؛ ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٧٢
أبو الحسن المنظرى ؛ ٣١١
أبو الحسن النباهى ؛ ٤٨٦،٤٧٧
أبو الحسن النصرى ، السلطان ؛ ١٦٧، ١٨٤، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤-١٩٨، ٢٠٠-٢٠٤، ٢٠٨، ٢١٨، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٧٤، ٣٠٢، ٣١٥
أبو الخطار الكلبى ؛ ٢٢
أبو الربيع المرينى ؛ ١١٦،١١٤
أبو الطيب الرندى (صالح بن شريف) ؛ ٤٩، ٥٠، ٥٢، ١٠٢، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٦١
أبو العباس ، السيد ؛ ٣١
أبو العباس المرينى ؛ ١٥٠
أبو العلاء إدريس الموحدى ؛ ٣٠
أبو القاسم بن سلمون ؛ ٤٨٧
أبو القاسم بن سوده ؛ ٢٤٢
أبو القاسم الحسينى ؛ ٤٧٠
أبو القاسم بنيغش ؛ ١٩٣، ١٩٥، ٣١٥
أبو القاسم العزفى ؛ ٤٨
أبو القاسم القرطبى (خلف بن عباس) ؛ ٤٣٦
أبو القاسم المليح (عبدالملك) ؛ ٢٣١، ٢٣٩-٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧
أبو بكر الرازى ؛ ٤٣٧
أبو بكر السعيد ؛ ١٤٠
أبو بكر الطرطوشى ؛ ٤٣٦
أبو بكر بن عاصم ؛ ٤٨٩،٤٨٨
أبو بكر بن عبد الحق (أبويحيى) ؛ ٩٦
أبو بكر بن غازى ؛ ٤٧٨
أبو ثابت المرينى ؛ ١١٤،١١٣
أبو ثابت عامر ، شيخ الغزاة ؛ ١٢٤
أبو جعفر بن عبد الملك العذرى ؛ ٤٨١
أبو حمو ؛ انظر عبد الرحمن بن موسى .
أبو حيان الغرناطى ؛ ٤٦٤

أبو ديوس ، الواثق بالله ؛ ٩٧،٣٢
أبو زكريا الحفصى ؛ ٣٦ ، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٥٥،٩٢
أبو زيان المرينى ؛ ٩٩، ١٠٦
أبو زيد عبد الرحمن ، السيد ؛ ٣٥
أبو سالم المرينى ؛ ١١٣، ١٤٠، ١٤١، ١٨٩، ٤٨٢،٤٧٥،٤٧٣
أبو سعيد ، الرئيس؛ ٥١، ١٤١
أبو سعيد عثمان المرينى ؛ ٩٦، ١١٧، ١٢٢، ١٦٥،١٥٣
أبو سعيد فرج بن محمد بن يوسف ؛ ٥١
أبو عبد الله الرميمى ؛ ٣٤، ٣٥، ٤٠
أبو عبد الله الزليخى ؛ ٢٢٤
أبو عبد الله الشريشى ؛ ٤٨٥
أبو عبد الله الشيخ ؛ ٣٩٠
أبو عبد الله العقيلى ؛ ٢٨٠، ٤٦١، ٤٩٢، ٤٩٣
أبو عبد الله الوادى آشى ؛ ٤٩١، ٤٩٢
أبو عبد الله الوطاسى ؛ ٢٧٨
أبو عبد الله الينشتى ؛ ٣١٠
أبو عبد الله محمد ، السلطان ؛١٩٦ ـ ١٩٨، ٢٠٠ ـ ٢١٠، ٢١٣-٢١٥، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٣٠-٢٣٥، ٢٣٨-٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٠-٢٦٧، ٢٧٣-٢٨٨، ٢٩٨، ٤٥٠، ٤٩٢،٤٩٣
أبو عبد الله محمد ، سلطان تونس ؛٣٨٨
أبو عبد الله الوطاسى ؛ ٢٧٨، ٢٨٢، ٣١١
أبو على الرنداحى ؛ ٤٧٠
أبوعمر بن المرابط ؛ ١٠١
أبو عنان المرينى ؛١٣٢، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ٤٧٢،٤٧٠
أبو فارس الحفصى ؛ ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨
أبو الحارس الواثق بالله ؛ ٣٩١
أبو مالك المرينى ؛ ١٢٤، ١٢٧
أبو محمد بن عطيه المحاربى ؛ ٤٨٥
أبو محمد عبد الواحد الموحدى ؛ ٢٨، ٣٠
أبومروان الباجى ؛ ٣٩
بو معرف ، محمد بن عبد الحق ؛ ٤٧، ٩٦
أبو يحيى الحفصى ؛ ١٢٥
أبو يحيى بن عاصم ؛ ٤٨٩
أبو يحيى بن يحيى ؛ ٩١
أبو يعقوب بن المنصور ؛١٠٠، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١٣٧
أبو يعقوب يوسف الموحدى ؛ ٤٣٧، ٤٣٨، ٥١٣
أبو يوسف المنصور المرينى ، ٤٧، ٥١، ٨١، ٩٦-١٠٣، ١٠٥-١٠٧، ١٣٧، ١٧٠، ١٧١
أجيلار الكونت دى ؛ ٤٠١
أحمد المنصور ؛ ٣٩٠، ٣٩١، ٥٠٢، ٥٠٣
أحمد بن أبى سالم ؛ ١٤٦، ٤٧٨
أحمد أبو على الموريسكى ؛٣٨٨
أحمد العثمانى ، السلطان ؛٤٠١، ٤٠٥، ٤٠٦
أحمد بن أبو جمعة المغراوى ؛٣٤٣
أحمد بن قسى ؛ ٧٢
أحمد بن مهدى الغزال ؛ ٥٠٧
أحمد بن يحيى الونشريشى ؛ ٦١
أحمد الوطاسى ؛ ٢٨٧
الأحنف السلطان ؛ ١٦٢-١٦٤، ١٩٧
ادريس ، المأمون الموحدى ؛ ٣٠ ـ ٣٢، ٨١، ٤٣٨
إدريس بن أبى العلا ؛ ١٤٠، ١٤٢
ادوارد ، ولى عهد انجلترا ؛ ١٤٣، ١٧٣
ادوارد الثالث ؛ ١٧٤
أردونيو الثانى ؛ ٧٧، ٨٠
أرسطو ؛ ٣٢٩، ٤٣٨
إسبينوسا ، الكردينال ؛ ٣٦١
الإسترداد ، حروب؛ ١٩، ٢٠، ٢٦، ٦٥، ٧٦، ٧٩، ٨٣
الإسلام؛ ٢١، ٣٤، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٦٠، ٦٧، ٧٠، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨٣، ٨٦، ٩٨، ١٣٦، ١٦٨، ١٨١، ١٩٨، ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٦٣، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٣، ٣٤٥، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٩٦، ٤٣٢، ٥٠١، ٥٠٨، ٥١٣
إسماعيل ، أبو الوليد السلطان ؛ ١١٦-١٢١، ١٢٥، ١٧١، ٢١٢، ٢٩٠، ٢٩٤
إسماعيل ، مولاى؛٤١٣، ٥٠٧
إسماعيل ، بن السلطان يوسف ؛١٤٠، ١٤١، ٤٦١، ٤٧٣
إسماعيل بن الأحمر الكاتب؛ ٤٧٠، ٤٧٥، ٤٨٥

الأشرف جان بلاط ؛ ٢٧٢
الأشرف شعبان ؛ ١٤٧
الأشرف قايتباى ؛ ٢١٦، ٢١٩، ٢٢١، ٤٩٠
الاخميادو ؛ ٦٧، ٣٧٩، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٨
الإنفانت فيليب ؛ ٨١، ١٠٣
الأيسر، السلطان ؛ ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠-١٦٣، ١٧٥، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٨، ٣٤٧
السعيد بن عبد العزيز المرينى ؛ ١٤٦، ٤٧٨
السيد الكمبيادور ؛ ٨٠، ٨١
الفارو دى لونا ؛ ١٧٥
ألفونسو المحارب ؛ ٦٨، ٧٨، ٨٥
ألفونسو الثالث الأرجونى ؛ ٩١، ١٧٧
ألفونسو الرابع الأرجونى ؛ ١٣٠، ١٧٧
ألفونسو الخامس ؛ ١٧٩
ألفونسو السادس ؛ ١٨، ٧٤، ٨٠
ألفونسو الثامن ؛ ٧٥، ٨٦، ٨٧
ألفونسو التاسع ؛ ٣٢، ٨٧، ٨٨
ألفونسو العاشر، الحكيم ؛ ٣٦، ٤١، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٧، ٦٥، ٨١، ٩٠، ٩٥، ١٠٣-١٠٦، ١٦٩، ١٧٠-١٧٢، ٢١١، ٤١٤
ألفونسو الحادى عشر ؛ ٨٢، ١١٨، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٢، ١٤٣، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤
ألفونسو ريمونديس (السابع) ؛ ٧٩، ٨١، ٨٧
ألفونسو هنريكيز ؛ ٨٦
ألفونسو الخامس، ملك البرتغال ؛ ١٨٢
الكامل، الملك ؛ ٦٠
ألونسو دى أجيلار ؛ ٣٢٥
ألونسو دى فنيجاس ؛ ٣٦١، ٣٧٢
إلينورا دى كزمان ؛ ١٤٣، ١٧٢، ١٧٣
أندريس ؛ ٥٠٥
أنطونيو أجابيدا ؛ ٢٣٨، ١٥٦
أنطونيو ميلان، القس ؛ ٢٢١
إنوسان الرابع ؛ ٦٢
إنوسان الثامن ؛ ٢٢١، ٢٢٢
الأوتوداف ؛ ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٧٩
أوروج، أمير البحر ؛ ٣٨٥
إيدين ريس ؛ ٣٨٥، ٣٨٦
إيرفنج، وشنطون ؛ ٢٣٨، ٢٨٧، ٢٨٨
إيسابيلا الكاثوليكية ؛ ٢٦، ٨٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٤، ٢٠٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٦، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٤، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٥٠، ٣٥٦، ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٣٢
إيسابيلا البرتغالية ؛ ١٧٥
ايسابيلا دى سوليس ؛ انظر ثريا الرومية.

ب — خ

باديس بن حبوس ؛ ٢٨، ٢٨٤
البارود ؛ ٢١٢، ٢١٣
بايزيد الثانى ؛ ٢١٩، ٢٢٢، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٤٩٤
بتروونلا الارجونية ؛ ٨٥
بشنتى دى لافونتى ؛ ٤١٧
برسكوت، وليم ؛ ٣١٨
برمودو الثانى ؛ ٨١
برمودو الثالث ؛ ٨٤
برنجاريا، ابنة ألفونسو النبيل ؛ ٨٨
برونات، دون ؛ ٤٩٨
بكاتوستى ؛ ٤٢٣
بلانش دى بوربون ؛ ١٤٣، ١٧٣، ١٧٩
بلانكيو الموريسكى، الريس ؛ ٣٨٨
بلتران دى لا كويفا ؛ ١٨٠
بليدا، القس ؛ ٤١٦
بياتريس، الأميرة ؛ ١٧٤
بيترو مارتيرى ؛ ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٢٤، ٣٨٤
بيثارو ؛ ٤٣٢
بيدال، منندیث ؛ ٨٠، ٤٣٠، ٤٢٩، ٤٩٥
بيدرو الأول ملك أراجون ؛ ٨٧
بيدرو الثانى ملك أراجون ؛ ٩١
بيدرو الثانى ملك قشتالة (دون بطره) ؛ ٩١، ١٤١، ١٧٤
بيدرو الثالث (القاسى) ؛ ٨٢، ١٣٢، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٨، ١٧٣، ١٧٨
بيدرو الثالث ملك أراجون ؛ ١٧٦
بيدرو الرابع ملك أرجون ؛ ١٣٠، ١٤٧، ١٧٧، ١٧٨
تاشفين بن يعقوب ؛ ١١٤
تالاڤيرا ؛ ٣١٥، ٤٢٥
تركيمادا، توماس دى ؛ ٣٣١-٣٣٣
تنديا، كونت ؛ ٢٦٠-٢٦٢، ٢٦٦، ٣١٠، ٣٦١، ٣٦٦، ٣٦٧

ڤرڤانتس ؛ ٣٨١، ٣٨٨، ٤٢٧
ثريا الرومية ؛ ١٩٨-٢٠٠، ٣٠٤، ٣٠٥
ثوريتا ؛ ٣٥٠
جاينجوس ، المستشرق ؛ ٥٢، ١٦٦، ٢٩٠
جرماط بن مرين ؛ ٩٥
جريرو ، المطران ؛ ٣٧٨
جسبار دى أجيلار ؛ ٤٢٦
جنه هنريكيز ؛ ١٧٩
حوتيرى دى كارديناس؛ ٢٢٥، ٢٦٢
جوفرى تنوريو ؛ ١٢٧
جومث مورينو ؛ ٣٠٠، ٥٠٩، ٥١٣، ٥١٥
جونزالفو دى كوردبا ؛ ٢٤٤
الحاجب المنصور ؛ ٦٩، ٧٧، ٤٨٩
حامد الثغرى ؛ ٢٠٦
الحبق ؛ ٣٦١، ٣٧٠، ٣٧٢-٣٧٤
حبوس بن ماكسن ؛ ٢٨
الحرة ، الأميرة ؛ ١٢٩
الحروب الصليبية ؛ ٧٧، ٢١١، ٢١٨
الحكم بن هشام ؛ ٦٧، ٧٢
الحكم المستنصر ؛ ٤٣٥، ٥١٠، ٥١١
الحميدى ؛ ٤٣٥
خالد الوزير ؛ ١٤٩
خالد بن عيسى البلوى ؛ ٤٦٨
خانير ، فلورثيو ؛ ٦٣، ٤٢١، ٤٢٣
خايمى الأول (الفاتح) ؛ ٣٤-٣٦، ٦٢، ٦٤، ٩٠، ٩١-٩٣، ١٧٠، ١٧٦، ١٧٨
خايمى الثانى ؛ ١١٠، ١١٥، ١٢٠، ١٢١، ١٧٧
خزانة جامع القرويين ؛ ٤٨٠
خمنيس ، الكردينال ؛ ٣١٤-٣١٩، ٣٣٩، ٣٥١، ٤٢٨، ٤٢٩، ٥٠٤
خايمى الثالث صاحب ميورقة ؛ ١٧٨
خوان ، دون ، أخو فيليب الثانى ؛ ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٨٢
خوان الأول ملك قشتالة ؛ ١٧٤، ١٧٨
خوان الثانى ملك قشتالة؛ ١٥١، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٤، ١٧٥
خوان الأول الأرجونى ؛ ١٧٨
خوان الثانى الأرجونى ؛١٧٨-١٨٠، ١٨٤
خوان بن عامر ؛ ٣٨٠، ٣٨١
خوان ألفونسو ؛ ٤٩٦
خوانا ، الملكة ؛ ٣١٨
خوانا بلترنيخا ؛ ١٨٠، ١٨٢
خوانا دى مندوثا ؛ ٣١٥
خير الدين ، أمير البحر ؛ ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٨
الخيزران ، أم الشيخ المأمون ؛ ٣٩١
خنيث بيرث دى إيتا ؛ ٣٠٣
خيل ، دون ؛ ٤٨

د — ز

دانڤيلا إى كوليادو ؛ ٤١٨
دون بطره غرسيس ؛ ٦٦
دوزى ، رينهارت ؛ ٨٠، ٥٠٦
دونيا إيزابيل ، الإمبراطورة ؛ ٣٨٨
دى جسكلان ؛ ١٤٣
ديرنبور ، المستشرق ؛ ٦٥ ، ٥٠٦
ديسا المحقق العام ؛ ٣١٤، ٣٢٣، ٣٦٠
دسبينا ، الكردينال ؛ ٢٥٠
دى ليرما ، دوق ؛ ٣٩٤، ٣٩٦، ٤١٥، ٤٢٠، ٤٢٣
ديوان التحقيق ، ومحاكم ؛ ٨٣، ١٨٤، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٤، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٨-٣٤١، ٣٤٥-٣٤٧، ٣٥١-٣٥٦، ٣٦١، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٣، ٣٩٤، ٤٠٩-٤١١، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٣٢، ٤٥٠، ٤٩٣، ٤٩٨، ٥٠١
دىلاس كاخيجاس ، المستشرق ؛ ٤٠
دى مارليس ؛ ٤٣٠
ديسفوريدس ؛ ٤٥٩
الرازى ، المؤرخ ؛ ٣٨
راميرو ، ملك ليون ؛ ٧٧
راميرو الراهب ملك أراجون ؛ ٨٥
ريبرا ، المطران ؛ ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٢١، ٤٢٥، ٤٢٥، ٤٣٠
ردريجو ألونسو ؛ ٤٢
الرشيد الموحدى ؛ ٣١، ٣٢، ٩٦
رضوان النصرى ؛ ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٩، ١٤٠، ١٩٢، ٤٢١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٧٢
ركيصانص ، دون ؛ ٣٧٤
ريشليو ، الكردينال ؛ ٤١٧، ٤٢٠، ٤٢٣
ريمون برنجار ؛ ٧٨، ٨٥
رينان ؛ ٨٠
زاوى بن زيرى الصنهاجى ؛ ٢٧، ٢٨

زرياب ؛ ٥١٥
الزغل ، أبو عبد الله محمد بن سعد ؛ ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٣-٢٢٠، ٢٢٤-٢٣١، ٢٣٤، ٢٧٦، ٢٨٥، ٢٨٨، ٣١٥، ٣٤٧
الزمار ؛ ٣٦٧
زيان بن مردنيش ، أبو جميل ؛ ٣٣، ٣٥-٣٧، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٤٥٥
زيدان ؛ مولاى ؛ ٣٩١، ٢٩٢، ٣٩٥، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٧

س — ظ

ساڤدرا ، المستشرق ؛ ٤٩٥
سانشو ، ملك ليون ؛ ٨٠، ٨١
سانشو الكبير ، ملك ناڤار ؛ ٨٤
سانشو ، ملك قشتالة (الباسل) ؛ ٨١، ٨٧، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١٧٠، ١٧١
سان فرناندو ؛ انظر فرناندو الثالث .
السخاوى ، شمس الدين ؛ ١٦٢
سعد بن عبادة ؛ ٣٨
سعد بن محمد بن يوسف (المستعين) ؛ ١٦٤، ١٦٧، ١٨٥، ١٩١
سعد بن أبى الحسن ؛ ٢٠٠، ٣١٥
سكستوس الرابع ، البابا ؛ ٣٣١
سكوت ؛ ٤٢٩
سكيابريللى ، المستشرق ؛ ٣١٦
سلام بن عبد الله الباهلى ؛ ٤٨٩
سليم ، السلطان ؛ ٣٨٥
سليمان بن داود ؛ ١٤٦، ٤٧٨
سنان اليهودى ؛ ٣٨٥
السويريما ؛ ٣٣٢، ٣٣٦، ٣٣٧
سيبولد ، المستشرق ؛ ٢٢، ١٥٥
سيكودى لوثينا ؛ ١٩٧
سيمونيت ، المستشرق ؛ ٢٢، ٣١٨، ٣١٩
شاتوبريان ؛ ٣٠٢
شارل الخامس ، ملك فرنسا ؛ ١٤٣
شارل دانجو ؛ ١٧٦
شارلكان ، الامبراطور ؛ ٢٦، ٢٩٣، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٥٠، ٣٥١-٣٥٨، ٣٨٨، ٤١١، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٩، ٤٣٢، ٤٩٤
شارلمان ؛ ٧٧
شڤارتز ، برتولد ؛ ٢١٢
شقاف ، قائد الفحص ؛ ٤٤
الشهاب الحجرى (أفوقاى) ؛ ٥٠٢-٥٠٤
شوق ، أحمد ؛ ٢٦٥، ٣٠٤
الشيخ المأمون ؛ ٣٩٠-٣٩٢
الصالح بن الكامل ، الملك ؛ ٤٦٠
الصالح بن الناصر قلاوون ؛ ١٢٩
صالح ريس ؛ ٣٨٥، ٣٨٦
صالح بن شريف ؛ انظر أبو الطيب الرندى
صلاح الدين ، السلطان ؛ ٧٧، ٤٣٧
طارق بن زياد ؛ ٢١، ٤٣١
طرغود ؛ ٣٨٥، ٣٨٨
الطغرى ؛ ٤٤٦
الظاهر چقمق ، السلطان ؛ ١٦٢، ٢١٨، ٣٤٧

ع — غ

العادل الموحدى ؛ ٣٠
عامر بن إدريس ؛ ٤٧، ٤٨، ١٠٧
عائشة الحرة ؛ ١٩٦-٢٠١، ٢٠٤، ٢١٣ ، ٢٩٥، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٨٨
عبد الباسط بن خليل المصرى ؛ ١٦٧
عبد الحق بن خالد بن محيو ؛ ٩٦
عبد الحق بن عثمان المرينى ؛ ١٥٨، ١٦٥
عبد الرحمن بن عبد الحكم ؛ ٦٧، ٥١٥
عبد الرحمن الداخل ؛ ٧٧
عبد الرحمن الناصر ؛ ٧٧، ٨٠، ١٩٩، ٤٣١، ٤٣٥، ٥٠٩، ٥١٠
عبد الرحمن بن موسى ، أبو حمو ؛ ١٤٤
عبد العزيز المرينى ؛ ١٤٥، ١٤٦، ٤٧٧، ٤٧٨
عبد الكريم القيسى ؛ ٤٩١
عبد الله بن أبى العلاء ؛ ١٠٧
عبد الله بن أشقيلولة ؛ ٤٠
عبد الله بن بلكين ؛ ٢٨
عبد الله العبلى ؛ ٢٨٩
عبد الله المرينى ؛ ١٥٣
عبد الله ، مولاى ، (ابن عبو) ؛ ٣٦٩-٣٧٢، ٣٧٤-٣٧٦، ٤٩٤
عبد الملك المنصور ؛ ٥١١
عبد المؤمن بن على ؛ ١٠٨، ١٢٢، ٤٣٧
عتبة بن يحيى المغيلى ؛ ٣٩
عثمان بن أبى العلاء ؛ ١٠٨، ١١٣، ١١٢، ١٢٤

عثمان داى ؛ ٣٨٩، ٤٠٨
عثمان بن يحيى : ١٤٥، ٤٧٥، ٤٧٦
عزيز الدانى ؛ ١٠٢، ١٠٩، ١١٣-١١٥، ١١٨، ٤٦٢
عزيز بن عبد الملك القيسى ؛ ٤٥٤
عصر الإحياء الأوربى ؛ ١٧٩، ٢٩٨، ٤٣٨
على بن أحمد الغسانى ؛ ٤٥٨
على بن بدر الدين بن رحو ؛ ١٤٢
على بن سعيد اليحصبى ؛ ٥٢
على بن عاصم ؛ ٤٨٨
على بن قاسم الزقاق ؛ ٤٩١
على بن يوسف بن تاشفين ؛ ٦٨
على العطار ؛ ٢٠٢
عمر ، الخليفة ؛ ٣١٩
عمر بن الأفطس ، المتوكل ؛ ٤٣٥
عمر بن السعود ؛ ١١٠
عمر بن عبد الله ؛ ١٤١، ٤٧٥
عمر بن عبد المجيد الأزدى ؛ ٤٥٨
عمر بن محمد الأزدى (الشلوبين) ؛ ٤٥٧
عمر محمد باى ؛ ٣٨٩
عيسى ، المسيح ؛ ٣٤٤، ٣٤٥، ٤٧١، ٥٠١
عيسى بن الحسن بن منديل ؛ ١٣٩
عيسى بن سليمان الرعينى ، ٤٥٨
غرسية ملك نافار ؛ ٨١
غرسية راميرس ؛ ٨٥
الغزالى ؛ ٤٣٦، ٤٣٧
الغزيرى ، ميخائيل ؛ ٤٤٧، ٥٠٥، ٥٠٦
الغنى بالله محمد ، السلطان ؛ ٨٢، ١٣٩-١٤٣، ١٤٥-١٥٠، ١٧٣، ٢٩٠، ٢٩٦، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٦١، ٤٧٢-٤٧٥، ٤٧٨، ٤٨٢، ٤٨٣

ف — ك

الفارابى ؛ ٥١٥، ٥١٦
الفتح بن خاقان ؛ ٤٣٥، ٤٣٦
فرج بن اسماعيل ؛ ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٦
فرج بن لب ؛ ٤٨٤
فرناندو الأول الأرجونى ؛ ١٧٩
فرناندو الثالث ؛ ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٤٢-٤٥، ٨١، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٥، ١٦٠، ١٦٩
فرناندو الرابع ؛ ١١٥، ١٧١
فرناندو الوصى (صاحب أنتقيرة) ؛ ١٥١ ، ١٥٣، ١٧٥، ١٧٨
فرناندو البرتغالى ، ١٧٤
فرناندو ملك نابل ؛ ١٧٩، ٢٢١
فرناندو الخامس (الكاثوليكى) ؛ ٢٦، ٨٣، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٣-٢٠٦، ٢١٠، ٢١٣، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠-٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠-٢٦٢، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٦، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٥، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٣١، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٧-٣٥١، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٨٤
فرناندو وإيسابيلا (الملكان الكاثوليكيان) ؛ ٢٦، ٦٥، ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٠ ، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٢-٢٥١، ٢٥٧-٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٤-٢٧٧، ٢٨٦، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٣٢، ٣٤٠، ٤١٨، ٤٢٣
فرناندو الزغوير ؛ ٣٦٥
فرناندو دى ثافرا ؛ ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٧٦
فرناندودى ڤالور ؛ انظر محمد بن أمية
فون هامار ؛ ٤٠٢
فيليب الثانى ؛ ٣١٩، ٣٥٦-٣٦٠، ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٩٤، ٤١١، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٩٤، ٥٠٤
فيليب الثالث ؛ ٨٣، ٣٩٠، ٣٩١، ٤٠٥ ، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٢-٤٢٤، ٤٣٠، ٥٠٤
فيليب الرابع ؛ ٤١٥
فيليب الخامس ؛ ٢٩٩، ٤٢٦
القادر بن ذى النون ؛ ٨١
قبره ، الكونت دى ؛ ٢٠٣، ٢٠٨
قسى ، الكونت ؛ ٧٢
القلقشندى ؛ ١٢٩
قومس أهل الذمة ؛ ٦٧
كارل مارتل ؛ ٧٦
كارلوس الثانى ؛ ٤٢٩، ٥٠٧
كارلوس الثالث ؛ ٥٠٧
كارلوس الخامس ؛ انظر شارلكان
كارلوس ، أمير ڤيانا ؛ ١٧٩
كامبومانس ؛ ٤٢٢
كورتيس ، هرناندو ؛ ٤٣٢
كلومبوس ، كريستوف ؛ ٤٣٢
الكندى ؛ ٥١٥
الكورتيس ؛ ٤٣ ، ١٦٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥

١٧٨، ١٨٠، ٤١٥
كوزمى بن عامر ؛ ٣٦١، ٣٨٠، ٣٨٧
كونثالث دى لونا ؛ ١٥٨
كوندى، يوسف ؛ ١٥٦، ٢٣٧، ٤٣٠، ٥٠٦
كونستانس ، الملكة ؛ ١٧٤، ١٧٥

ل — ى

لافونتى ألقنطرة ؛ ٢٤٣
لافونتى ، موديستو ؛ ٤١٩، ٤٢١
لاين بول ؛ ٤٣١
لوبى دى ڤيجا ؛ ٤٢٧، ٤٩٨
لورنتى ، أنتونيو؛ ٣٣٤، ٣٣٥، ٤٠٢، ٤١٧
لوس ڤيلبس ؛ ٣٦٧، ٣٦٨
لوسيرو ، المحقق العام ؛ ٣٣٩
لويس التاسع ؛ ٣٢٩
لويس الثالث عشر ؛ ٤٠١
لى ، هنرى تشارلس ؛ ٣٣٣، ٣٣٥، ٤٢٧، ٤٢٩
ليڤى بروڤنسال ؛ ٥٠٦
مارمول ، لويس دل ؛ ٢٤٣، ٣٦٤
مارى دى مديتشى ؛ ٤٠١
ماريا البرتغالية ؛ ١٧٢
ماريا دى مولينا ؛ ١٧١
ماسدى ؛ ٥٠٦
مالك ، الإمام ؛ ٧٣، ٤٤٤، ٤٩٥
مالك بن المرحل ؛ ٤٧
المأمون بن ذى النون ؛ ٨٠، ٥١٢
مانفردوق بنڤونتم ؛ ١٧٦
محاكم التحقيق ؛ أنظر ديوان التحقيق .
محمد بن أحمد الشريف ؛ ٤٧٠
محمد بن ادريس ؛ ١٠٧
محمد بن اسماعيل (السلطان) ؛ ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ٤٤١
محمد بن اسماعيل ، صاحب الجزيرة ؛ ١٢١
محمد بن أشقيلولة ؛ ٩٩، ١٠٢
محمد بن أمية الموريسكى ؛ ٣٦٥، ٣٦٧-٣٦٩
محمد بن داود الموريسكى ؛ ٣٦٢، ٣٦٣
محمد بن زائدة ؛ ٢٣٩
محمد بن سراج ، ٣٠٢
محمد بن عاصم القيسى ؛ ٤٨٨
محمد بن عبد الله ، مولاى؛ ٥٠٧
محمد بن عبد المنعم الجليانى ؛ ٤٥٩
محمد بن عبد الوهاب الغسانى ؛ ٢٣٧، ٣٠٢، ٥٠٧
محمد بن على الفخار البيرى ؛ ٤٦٦
محمد بن على بن موسى ؛ ٩١
محمد بن محمد الأنصارى ؛ ٤٦٧
محمد بن محمد الرميمى ؛ ٥٢
محمد بن محمد بن محمد بن يوسف (المخلوع) ؛ ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٦ ، ٢٩٠ ، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٦٢
محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) ؛ ٥١، ٩٤، ٩٨ ، ٩٩، ١٠١-١٠٣ ، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ٣٠٠، ٤٦٢، ٤٦٦
محمد بن يوسف ؛ انظر ابن الأحمر
محمد بن يوسف بن الغنى بالله ؛ ١٥٠، ١٥٨، ٤٨٢
محمد بن الحاج ؛ ٢٢٤
محمد الخرطوشى ؛ ٤٩٦
محمد ربدان الموريسكى ؛ ٤٩٦، ٤٩٨
محمد الزغير ؛ ١٥٥، ١٥٦
محمد الشيخ الوطاسى ؛ ١٦٥، ٢٨٧
محمد الفاتح ؛ ١٦٨
محمد الفرسوطى ، القائد ؛ ١٩٢
محمد الناصر الموحدى ؛ ١٩، ٧٥، ٩٦
مدينا سيدونيا ، دوق ؛ ١٦٥
مراد الريس ؛ ٣٨٩
مراد باشا ؛ ٤٠٥
مراد ، الداى ؛ ٥٠١
مراد جواديانو ؛ ٣٨٨
المرتضى بالله الموحدى ؛ ٣٢
المرتضى ، الخليفة الأموى ؛ ٢٧
مرتين ملك أراجون ؛ ٨٢، ١٥١، ١٧٨
مرتين ملك صقلية ؛ ١٥١، ١٧٨
مريم ، مريمة ؛ ٢٧٤
مريم بنت بنيغش ؛ ٣١٥
المستنصر الحفصى ؛ ٤٨، ٥٥
المستنصر العباسى ؛ ٣١
المستنصر الموحدى ؛ ٢٨
مسعود بن خيار ؛ ٤٤
مشيخة الغزاة ؛ ١٠٧، ١٤٥، ٤٤٣
مطرف الاشبيلى ؛ ٤٦٠

المعتمد بن عباد ؛ ٤٣٥
المعتصم بن صمادح ؛ ٤٣٥
المقرى ، شهاب الدين ؛ ١٢٩،١٥٥،١٩٦، ٢٠٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦،٢٨٧،٣٠٩،٣٢١ ، ٣٢٥-٤٠٧،٤٥٣،٤٨٠،٤٨٢،٤٨٣،٤٨٩، ٥٠٣
المقريزى ؛ ١٢٩
مكياڤيللى ؛ ٣٥٠
الملكان الكاثوليكيان ؛ انظر فرناندو وايسابيلا
مندوسا ، الكردينال ؛ ٢٥٨، ٢٦٠-٢٦٢
متنديث إى بلايو ؛ ٤٢٥، ٤٢٧
موسى بن أبى الغسان ؛ ٢٣٧-٢٤١، ٢٥٤- ٢٥٦، ٣١٤
موسى بن رحو ؛ ١٠٧
مونديخار ، المركيز ؛ ٣٦٦، ٣٦٧
نابارّيتى ، المؤرخ ؛ ٤٠٢، ٤٢٦
الناصر بن قلاوون ؛ ١٢٩
النبى العربى ؛ ٣١٣، ٣٣٩، ٣٤٦، ٣٧٩، ٥٠١
نصر بن أبى الحسن ؛ ٢٠٠
نصر بن محمد الغنى بالله ؛ ٤٨٣
نصر بن محمد ، أبو الجيوش ؛ ١١٤، ١١٦
النصرانية ؛ ٥٣، ٧٧، ١٤٤، ٢٣٦، ٢٧٢ ، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٤٩، ٣٩٤، ٣٩٧، ٤١٧، ٥٠١، ٥٠٨
نعيم بن رضوان ؛ ٢٣٩
نونيودى لارا ؛ ٤٨، ١٠٠
الوباء الكبير ؛ ١٢٦، ١٣٠، ٤٦٥، ٤٧١، ٤٧٢
هرناندو دى بايثا ؛ ١٩٨، ٢٧٤، ٣٠٢
هرناندو دى براداس ؛ ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٤
هشام بن عبد الرحمن ؛ ٧٣
هشام المؤيد ؛ ١٩٩
هنرى الثالث ملك قشتالة ؛ ١٥١
هنرى الرابع ملك قشتالة ؛ ٨٧، ١٦٤، ١٧٤، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٢، ١٩٢ ، ١٩٤، ٣٣٠، ٤٥١، ٥١٣
هنرى الرابع ملك فرنسا ؛ ٣٨٢، ٤٠٠
هنرى دى ترستمارا ؛ ١٤٣، ١٤٤، ١٧٤، ١٧٨
هومير ؛ ٤٣٠
يحيى بن خلدون ؛ ٤٤
يحيى بن ذى النون ؛ ٧٤
يحيى بن الصائغ ؛ ٤٩
يحيى بن محمد بن رحو ؛ ١٢٥، ١٤٠
يحيى بن غانية ؛ ٨١
يحيى بن الناصر الموحدى ؛ ٣٠
يحيى بن هذيل ؛ ٤٦٨
يحيى النيار (سيدى يحيى) ؛ ٢٢٥، ٢٢٧ ، ٣١٥
يحيى بن يحيى الوطاسى ؛ ١٦٥
يعقوب المنصور ؛ ١٩، ٧٥، ٧٧، ٨٦، ١٠٨، ٤٣٨، ٥١٣
يغمراسن بن زيان ؛ ٩٦، ٩٩، ١٠٢
يوسف السراج ؛ ١٥٥
يوسف بن تاشفين ؛ ١٨، ١٠٨
يوسف أبو الحجاج ؛ ١٢٥، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٩، ٢١٢، ٢٩٠، ٢٩٤ ، ٤٤١-٤٤٣، ٤٦٥، ٤٧٢، ٤٧٣
يوسف الثانى ؛ ١٤٢، ١٤٩، ١٥٠، ٤٨٩
يوسف الثالث ؛ ١٥٣، ١٦١
يوسف بن أبى الحسن ، ٢٠٠، ٢٠٨، ٢٧٤
يوسف بن المول ؛ ١٥٨، ١٦٠
يوسف بن سراج ؛ ١٥٤، ١٥٦
يوسف بن سعد ؛ ١٦٧، ١٩١، ١٩٨
يوسف بن سعيد ، أبو الحجاج ؛ ٢٥
يوسف بن يوسف الثانى ؛ ١٥٠، ١٥٤